

شَرْحُ رِضَا الصَّالِحِينَ

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ

لِلْإِمَامِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ شَرَفِ النَّوَوِيِّ

الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦٧٦ هـ

شَرْحُهُ وَأَفْلَاهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِمِيِّ

عُضْوِ مَجْلَسِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ وَأَسَاذِ فِكْرَةِ الشَّرِيعَةِ بِالْقَصِيدِ

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَشَرَحَ غَرِيبَهُ

أَبُو عَبْدِ الرَّازِقِ الْبَكْرِيُّ مُحَمَّدُ عَادِلُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْلطِيفِ خَلْفٌ

بِإِشْرَافِ

أ. د. عَبْدِ الْحَمِيدِ مَذْكُورٍ

أَسَاذُ فِكْرَةِ دَارِ الْعُلُومِ جَامِعَةِ الْقَادِةِ

دَارُ السَّلَامِ

الطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

حاشية على إتحاف العقول في معرفة أعلام الفقهاء

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للسائر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

القاهرة - جمهورية مصر العربية

الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موارز لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران
عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشرييني - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢)

المكتب : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢)

المكتب : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع
مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢)

بريدياً : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت
على جائزة أفضل ناشر للتراث ثلاثة
أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،
٢٠٠١م هي عضو الجائزة ترويجاً لمقد
ثالث مضي في صناعة النشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

الحمد لله رب العالمين : ...

وبعد : فهذا شرح لكتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، لمحبي الدين أبي زكريا يحيى ابن شرف النووي (٦٣١ هـ - ٦٧٦ هـ) .

والنوي إمام من أئمة العلم والهدى عند المسلمين ، وقد وصفه واصفوه بأنه « شيخ الإسلام ، وأستاذ المتأخرين ، وحجة الله على اللاحقين ، والداعي إلى سبيل السالفين » .

* وقد كان شديد الاجتهاد في طلب العلم ، يسهر به ليله ، ويشغل به نهاره ، ويقدمه على كل مطلوب ، إلا أن يكون طاعة لله تعالى . ومما يدل على ذلك : أنه كان يقرأ في كل يوم اثني عشر درساً في علوم مختلفة ، منها درسان في الوسيط للغزالي ، ودرس في المذهب ، ودرس في الجمع بين الصحيحين ، ودرس في صحيح مسلم ، ودرس في اللمع لابن جني ، ودرس في إصلاح المنطق لابن السكيت ، ودرس في التصريف ، ودرس في أصول الفقه ، ودرس في أسماء الرجال ، ودرس في أصول الدين ، وكان يعلق على جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة ، وضبط لغة . وبارك الله له في وقته حتى اتسع لهذه الدروس والعلوم جميعاً .

* ولم يقتصر همه على طلب العلم بل إنه كان مع هذا التبخر في العلم ، وسعة المعرفة بالحديث والفقه واللغة ، وغير ذلك من العلوم « رأساً في الزهد ، وقُدوة في الورع ، عديم المثل في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قانعاً باليسير ، راضياً عن الله تعالى ، والله راضٍ عنه . مقتصدًا - إلى الغاية - في ملبسه ومطعمه وأثاثه . تعلوه سكينه وهيبه » .

* وهكذا جمع بين العلم والعمل ، والعبادة والمجاهدة ، ورزقه الله الإخلاص والتقوى ، فأثمر له ذلك فقهاً وفهماً ونوراً ، وكتب الله له محبة وقبولاً ، فأحبه الخلق ، ووثقوا بعلمه ودينه ، وأقبلوا على كتبه التي صنفها وألفها : قراءة ودرساً ، وتلخيصاً وشرحاً ، وكان من فضل الله عليه أن كثيراً منها قد سارت به الركبان ، وأتخذ أصلاً في بابيه ومقدمًا في ميدانه ، ومن ذلك ، كتابه : « المجموع » في فقه الشافعية ، « المنهاج » في شرح صحيح مسلم ، « والأذكار » في أعمال اليوم والليلة ، وسائر أنواع العبادات ، « والتقريب » في الحديث ، « والتبيان في آداب حملة القرآن » ، « والأربعون حديثاً النووية » إلى آخر ما فتح الله به عليه . ومن عجيب أمره أن يتسع عمره لكل هذا العلم ولم يعيش إلا خمساً وأربعين سنة وبضعة أشهر ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحجّة : ٤] .

* وكان من هذه الكتب العظيمة التي كثر انتفاع الناس بها ، ورجوعهم إليها ، كتابه : « رياض الصالحين » .

وهو كتاب جمع الخير من أطرافه ، ففيه : آداب ، وأخلاق ، وتربية ، وتهذيب ، وحث على الطاعة وتحبيب فيها ، ونهي عن المعاصي وتحذير منها . وهو يسوق قارئه إلى الخير سوقاً رقيقاً ، مستضيئاً فيما جمعه فيه بنور القرآن والسنة اللذين يقوم عليهما كتابه ، وهو ينبض في كل أبوابه بهذا الإخلاص الذي بدأ به كتابه ، وهو مقرون بصدق اليقين ، وطهارة النية ، وحسن الإقبال على الله ، ودوام التوجه إليه ، وكمال التوكل عليه .

وتكشف مقدمة الكتاب عن رغبته الصادقة في دلالة الخلق على السنة ، ودعوتهم إلى الهدى ، طلباً للمثوبة وعظيم الأجر من الله تعالى ، وكان يرى أن ذلك من التعاون على البر والتقوى ، وكان يستحضر - في هذا المقام قول الرسول ﷺ : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » وقوله : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » .

* وقد أوضح منهجه لتحقيق هذه الغاية فقال : « فرأيت أن أجمع مختصراً من الأحاديث الصحيحة ، مشتملاً على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة ، ومحصلاً لأدابه الباطنة والظاهرة ، جامعاً للترغيب والترهيب ، وسائر أنواع الآداب من أحاديث الزهد ورياضات النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وطهارات القلوب وعلاجها وصيانة الجوارح وإزالة اعوجاجها ، وغير ذلك من مقاصد العارفين » .

وقد انتقى هذه الأحاديث بعناية بالغة لأداء هذه المهمة الجليلة في الدعوة إلى الله تعالى ، واختارها من كتب السنة الصحيحة ، وفي ذلك يقول : « وألتزم فيه ألا أذكر إلا حديثاً صحيحاً من الواضحات ، مضافاً إلى الكتب الصحيحة المشهورات ، وأصدّر الأبواب من القرآن العزيز بآيات كريمات ، وأوشح ما يحتاج إلى ضبط أو شرح معنى خفي بنفائس من التنبيهات » .

وقد جعل الله لهذا الكتاب قبولاً عظيماً وانتشاراً كبيراً ، وهو من الكتب التي يحرص المسلمون على اقتنائها والانتفاع بها لسهولة عرضه ، وقرب مأخذه ، واعتدال حجته ، وشمول أحاديثه لأهم ما يحتاج إليه المسلم في أمر دينه وأمر دنياه ، ثم يضاف إلى ذلك بركة الإخلاص الساري في عروق الكتاب ، ثم تلك المحبة الإلهية التي جعلها الله لصاحبه في قلوب عباد ، مصداقاً لحديث الرسول ﷺ ، الذي يقول فيه : « إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل : إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » .

* ومن أجل ذلك تسابق الناس إلى طباعة الكتاب وتحقيقه وشرحه واختصاره : وكان كل مهتم بالكتاب يبذل جهده في خدمته ، تيسيراً للإفادة منه ، وسعيًا لنوال شيء من فوائد هذا الكتاب المبارك .

ومن هذه الجهود هذا الشرح الذي بين يديك أيها القارئ الكريم ، وهو للشيخ العالم : محمد بن صالح بن عثيمين .

ترجمة الشارح :

وهو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين الوهبي التميمي ،

المولود في رمضان (١٣٤٧ هـ) . بمدينة « عنيزة » إحدى مدن القصيم بالمملكة العربية السعودية .
نشأ رحمته الله محباً للعلم ، وتلقاه على يد نخبة من كبار العلماء الذين حفظ على أيديهم القرآن الكريم في مراحل نشأته الأولى ثم واصل دراسته حتى تخرج من جامعة الإمام محمد بن سعود .
عمل رحمته الله في مجال التدريس والخطابة في العديد من المدارس والمعاهد ، كما عمل أستاذاً في كلية الشريعة وأصول الدين في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم منذ عام (١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ) حتى توفي رحمته الله .

كما قام بالتدريس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج وشهر رمضان والعطل الصيفية .

كما كان له رحمته الله الكثير من المشاركات في المؤتمرات والندوات العلمية والدينية ، كما كان عضواً في العديد من المجالس العلمية ، وكذلك هيئة كبار العلماء .

وحصل الشيخ رحمته الله على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة (١٤١٤ هـ) .
وقد ترك الشيخ ابن عثيمين رحمته الله لنا ثروة لا تقدر بثمن من الأعمال ؛ حيث خلف رحمته الله أكثر من (٩٠) كتاباً ما بين رسالة ومجلدات ، هذا إضافة إلى اللقاءات العامة كاللقاء الأسبوعي الذي كان يعقده في منزله ، واللقاء الشهري الذي كان يعقده في مسجده ، واللقاءات الموسمية التي كان يجدها خارج مدينته ، والتي تمخض عنها هذا السفر الطيب الذي بين أيدينا ، والذي ألقاه فضيلته كمحاضرات متتابعة شرح فيها الكتاب شرحاً وافياً مستفيضاً يفهمه القاصي والداني ، والعالم والذي يريد العلم ، والمثقف والعادي ، وقد جاء هذا العمل ليكون مسك الختام للشيخ رحمته الله الذي لقي ربه في شوال سنة (١٤٢١ هـ) في مدينة جدة وصُلِّي عليه في المسجد الحرام . رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام خير الجزاء .

عملنا في تحقيق هذا الكتاب متناً وشرحاً :

- أولاً : قمنا بتخريج جميع آيات الكتاب حيث ذكرنا اسم السورة ورقم الآية .
ثانياً : قمنا بشرح كلمات الآيات التي تحتاج إلى شرح أو التي يصعب على القارئ فهم معناها موضحين المعنى المجازي للكلمة ، وذلك عند إرادة معنى آخر غير المعنى الأصلي لها .
ثالثاً : قمنا بترقيم أحاديث الكتاب ترقيماً مسلسلاً ، مع تشكيل متن الكتاب تشكيلاً كاملاً .
رابعاً : قمنا بتخريج جميع أحاديث الكتاب ؛ وقد راعينا في ذلك ذكر المصدر الذي ذكره الإمام النووي أولاً ، ثم إضافة مصدر أو اثنين من صحاح كتب الحديث التي لم يذكرها الإمام النووي ، وقد قمنا بذكر رقم الحديث واسم الكتاب الموجود فيه . كما قمنا بتخريج جميع الأحاديث التي استشهد

بها الشارح رَحِمَهُ اللهُ وكذلك الآثار والأقوال .

خامساً : قمنا بشرح الكلمات الصعبة الغريبة في الأحاديث ، كما قمنا ببيان الألفاظ التي تحتاج إلى بيان - قدر الإمكان - سواء أكان ذلك من المصطلحات الشرعية أو اللغوية ، والتي يحتاج إليها القارئ ؛ وذلك حتى نسهل عليه الأمر ، وحتى يفهم مضمون الحديث بشكل سهل ، كما قمنا بضبط النص ، ووضع علامات الترقيم .

سادساً : اعتمدنا في شرحنا لألفاظ الحديث على أمهات الكتب الخاصة بغريب الحديث مثل : شرح غريب الحديث لابن الأثير ، وشرح الكتب الصحاح مثل : فتح الباري ، وصحيح مسلم بشرح النووي ، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ، ودليل الفالحين وغيرها .. هذا إضافة إلى المعاجم العربية مثل : لسان العرب ، والمصباح المنير ، والقاموس المحيط ، والمعجم الوسيط .

وقد حرصنا في شرحنا للألفاظ على ذكر ما قل ودل حتى لا نصيب القارئ الكريم بالملل أو الضيق . سابعاً : قمنا بالإشارة إلى آراء المذاهب الفقهية في بعض المسائل التي كانت موضع اختلاف بين الفقهاء ، بياناً للمذاهب الأخرى ، إضافة إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل الذي كان الشارح رَحِمَهُ اللهُ يفتي به . هذا إضافة إلى توثيق المسائل الفقهية من مراجعها الأصلية مع ذكر الجزء والصفحة والطبعة .

ثامناً : قمنا بتنظيم الكتاب تنظيمًا علميًا يتوافق مع كونه كتابًا مقروءًا وليس مادة مسموعة ؛ حيث كان الشارح رَحِمَهُ اللهُ يقوم بشرح الأحاديث في دروس متعاقبة ، فكان من الممكن أن يشرح جزءًا من الحديث وينتهي اللقاء ، ثم يكمل الحديث في الجلسة التالية ، فيبدأ في شرح الحديث من أوله مرة أخرى ، وهذا من الممكن أن يصلح في المادة المسموعة ؛ لذا فقد أثرنا أن يكون الكلام متصلًا دون تكرار ، ومع ذلك فقد أشرنا إلى هذا في الهامش مع إضافة الجزء المحذوف في الهامش ، وذلك للتوضيح فقط .

تاسعاً : قمنا - أيضًا - بإضافة وتكملة الأحاديث التي لم يتناولها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ولم يشرحها ، فأدرجناها في مواضعها وعلقنا عليها - قدر الإمكان - مع تخريجها وشرح غريبها والإشارة في الهامش إلى أن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لم يتناولها . وذلك بهدف جعل الكتاب نسخة كاملة شاملة لجميع أحاديث كتاب رياض الصالحين .

عاشراً : وقد قمنا بإعداد فهرس علمي للآيات القرآنية رتبناها حسب ترتيب سور القرآن الكريم وآياته ، كما قمنا بإعداد فهرسة لأحاديث الكتاب رتبناها حسب الترتيب المعجمي (الألف بائي) ؛ وذلك بهدف التسهيل على القارئ للوصول إلى كل حديث بطريقة سهلة ميسرة .

والله نسأل أن ينفع بهذا العمل القيم إنه نعم المولى ونعم المعين .. والحمد لله رب العالمين .

* * *

أ.د. عبد الحميد عبد المنعم مذكور

أحمد عبد الرزاق البكري محمد عاود محمد محمد عبد اللطيف خلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الإمام النووي

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ، مُكَوِّرِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ ، تَذَكِّرُهُ لَأُولِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ، وَتَبْصِرُهُ لَذَوِي الْأَلْبَابِ وَالْاِعْتِبَارِ ، الَّذِي أَيْقَظَ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ اضْطَفَّاهُ فَزَهَّدَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَشَغَلَهُمْ بِمُزَاقَبَتِهِ وَإِدَامَةِ الْأَفْكَارِ ، وَمُلازِمَةِ الْاِتِّعَاضِ وَالْاِذْكَارِ ^(١) ، وَوَقَّعَهُمْ لِلدَّأْبِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالتَّأَهُبِ لِدَارِ الْقَرَارِ ، وَالْحَذَرِ مِمَّا يُسْخِطُهُ وَيُوجِبُ دَارَ الْبُورِ ، وَالْمَحَافَظَةَ عَلَى ذَلِكَ مَعَ تَغَايِرِ الْأَحْوَالِ وَالْأَطْوَارِ .

أَحْمَدُهُ أَتْلَعَ حَمْدَ وَأَزْكَاهُ ، وَأَشْمَلَهُ وَأَنَمَاهُ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْبَرُّ الْكَرِيمُ ، الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَحَبِيبُهُ وَخَلِيلُهُ ، الْهَادِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَالِدَاعِي إِلَى دِينِ قَوِيمٍ . صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ ، وَآلِ كُلِّ ، وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ، ٥٧] وهذا تصريح بأنهم خلُقوا للعبادة ، فَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْاِعْتِنَاءُ بِمَا خُلِقُوا لَهُ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ حُطُوطِ الدُّنْيَا بِالرَّهَادَةِ ؛ فَإِنَّهَا دَارُ نَقَادٍ لَا مَحَلَّ لِإِخْلَادٍ ، وَمَرْكَبٌ غُيُورٌ لَا مَنَزَلَ حُبُورٍ ، وَمَشْرِعٌ انْفِصَامٌ لَا مَوَظْنَ دَوَامٍ . فَلِهَذَا كَانَ الْاِيقَاطُ مِنْ أَهْلِهَا هُمُ الْعُبَادُ ، وَأَغْغَلَ النَّاسَ فِيهَا هُمُ الرُّهَادُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ سَّمَاءٍ فَاتَّخِذَتْ يَوْدَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَغْثَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلْنَا إِلَيْهَا أَوْ هَرَاكًا فَجَعَلْنَاهَا حَبِيدًا كَانَ لَمْ تَنْفَكْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ [يونس : ٢٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة ، ولقد أحسن القائل :

| | |
|-----------------------------------|---|
| إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطِنَا | طَلَّغُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا |
| نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا | أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنًا |
| جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا | صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفْنًا |

فإذا كان حالها ما وصفته ، وحالتها وما خُلِقَتْ لَهُ مَا قَدَّمْتُهُ ؛ فَحَقُّ عَلَى الْمُكَلَّفِ أَنْ يَذْهَبَ بِنَفْسِهِ مَذْهَبَ الْأَخْيَارِ ، وَيَسْلُكَ مَسْلَكَ أُولِي النَّهْيِ وَالْأَبْصَارِ ، وَيَتَأَهُبَ لِمَا أَسْرَتْ إِلَيْهِ ، وَيَهْتَمَّ بِمَا نَبَّهَتْ عَلَيْهِ ،

وَأَصُوبُ طَرِيقٍ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَأَوْشَدُ مَا يَسْلُكُهُ مِنَ الْمَسَالِكِ : التَّأْدُّبُ بِمَا صَحَّ عَنْ نَبِيِّنَا سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَأَكْرَمِ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ . صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَازُونَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [المائدة : ٢] وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » (١) وَأَنَّهُ قَالَ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ ؛ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ » (٢) وَأَنَّهُ قَالَ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى ؛ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ؛ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا » (٣) وَأَنَّهُ قَالَ لِعَلِيِّ ؓ : « فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » (٤) .

فَرَأَيْتُ أَنْ أَجْمَعَ مُخْتَصَرًا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مُشْتَمِلًا عَلَى مَا يَكُونُ طَرِيقًا لِمُصَاحِبِهِ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَمُخْتَصَرًا لِآذَانِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، جَامِعًا لِلتَّوْغِيغِ وَالتَّوْهِيغِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ آذَانِ السَّالِكِينَ : مِنْ أَحَادِيثِ الزُّهْدِ ، وَرِيَاضَاتِ الثُّقُوفِ ، وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ ، وَطَهَارَاتِ الْقُلُوبِ وَعِلَاجِهَا ، وَصِيَانَةِ الْجَوَارِحِ وَإِزَالَةِ اغْوِجَاجِهَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعَارِفِينَ .

وَأَلْتَزِمُ فِيهِ أَلَا أَذْكَرُ إِلَّا حَدِيثًا صَحِيحًا مِنَ الْوَاضِحَاتِ ، مُضَافًا إِلَى الْكُتُبِ الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُورَاتِ ، وَأَصْدَرَ الْأَبْوَابَ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ بآيَاتِ كَرِيمَاتِ ، وَأَوْشَحَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ضَبْطٍ ، أَوْ شَرْحٍ مَعْنَى خَفِيٍّ بِتَفَاسِيْرِ مِنَ التَّنْبِيْهِاتِ . وَإِذَا قُلْتُ فِي آخِرِ حَدِيثٍ : مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، فَمَعْنَاهُ : رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

وَأُزْجِوْا إِنْ تَمَّ هَذَا الْكِتَابُ أَنْ يَكُونَ سَائِقًا لِلْمُعْتَمِدِ بِهِ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، حَاجِرًا لَهُ عَنْ أَنْوَاعِ الْقَبَائِحِ وَالْمُهْلِكَاتِ ، وَأَنَا سَائِلٌ أَخَا انْتَفَعْ بِشَيْءٍ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لِي ، وَلِوَالِدَيْ ، وَمَشَايِخِي ، وَسَائِرِ أَهْبَائِنَا ، وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ ، وَعَلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ اعْتِمَادِي ، وَإِلَيْهِ تَقْوِيضِي وَاسْتِئْذَانِي ، وَحُسْنِي اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٤/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (١٣٣) والإمام أحمد في مسنده (١٢٠/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في العلم (١٦) . والترمذي في سننه (٢٦٧٤) .

(٤) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الجهاد (٢٩٤٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٣٤) . « وحرر النعم » أي :

الإبل الحمر ، وهي أنفس أموال العرب ، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء وإنه ليس هناك أعظم منه .

١ - باب الإخلاص وإحضار النية

في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْشِرُوْا بِعَلْمِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٢٩] .

الشرح

قال المؤلف « باب الإخلاص ... » : « النية » محلها القلب ، ولا محل لها في اللسان في جميع الأعمال . ولهذا كان من نطق بالنية عند إرادة الصلاة أو الصوم أو الحج أو الوضوء أو غير ذلك من الأعمال كان مبتدعاً قائلاً في دين الله ما ليس منه ؛ لأن النبي ﷺ كان يتوضأ ويصلي ويتصدق ويصوم ويحج . ولم يكن ينطق بالنية ، وذلك لأن النية محلها القلب ، والله ﷻ يعلم ما في القلب ولا يخفي عليه شيء كما قال الله تعالى في الآية التي ساقها المؤلف ﴿ قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْشِرُوْا بِعَلْمِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٢٩] .

ويجب على الإنسان أن يُخلص النية لله في جميع عباداته ، وألا ينوي بعبادته إلا وجه الله والدَّار الآخرة ، وهذا هو الذي أمر الله به في قوله : ﴿ وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] أي مخلصين له العمل .

وينبغي أن يستحضر النية في جميع العبادات ، فينوي مثلاً الوضوء وأنه توضأ لله ، وأنه توضأ امتثالاً لأمر الله . فهذه ثلاثة أشياء :

١ - نية العبادة . ٢ - نية أن تكون لله . ٣ - نية أنه قام بها امتثالاً لأمر الله .

هذا أكمل شيء في النية كذلك في الصلاة وفي كل العبادات .

وذكر المؤلف عدة آيات كلها تدل على أن النية محلها القلب ، وأن الله سبحانه عالِمُ بنية العبد . ربما يعمل عملاً يظهر أمام الناس أنه عمل صالح وهو عمل فاسد أفسدته النية ؛ لأن الله يعلم ما في القلب ، وما يجازي الإنسان يوم القيامة إلا على ما في قلبه ، لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجَائِهِ لَقَادِرٌ ۖ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۖ فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ٨ ، ١٠] .

أي يوم تُختبر السرائر - البواطن - كقوله : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات : ٩ ، ١٠] .

ففي الآخرة يكون الثواب والعقاب والاعتبار بما في القلب ، أما في الدنيا : فالعبرة بما ظهر ، فيعامل الناس بظواهر أحوالهم ، ولكن هذه الظواهر !! إن وافقت ما في البواطن صلح ظاهره وباطنه وسريته وعلايته ، وإن خالفت وصار القلب منطوياً على نية فاسدة فما أعظم خسارته ، يعمل ويتعبد ولا

حَظُّ لَه فِي الْعَمَلِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ قَالَ : أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ » (١) ، فَاللَّهُ اللَّهُ ، أَيُّهَا الْإِخْوَةُ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ .

واعلم أن الشيطان قد يأتيك عند إرادة عمل الخير فيقول إنك إنما تعمل هذا رياءً !! فيُحِيطُ هَمَّتَكَ وَيُثَبِّطُهَا وَلَكِنْ لَا تَلْتَفِتْ إِلَى هَذَا وَلَا تُطِغْ بِهِ أَعْمَلْ ؛ لِأَنَّكَ لَوْ شُغِلْتَ : هَلْ أَنتَ الْآنَ تَعْمَلُ هَذَا رِیَاءً وَسَمِعْتَ ؟ قُلْتَ : لَا !! إِذِنْ فَهَذَا الْوَسْوَاسُ الَّذِي أَدْخَلَهُ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِكَ لَا تَلْتَفِتْ لَهُ .

١ - وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلٍ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزَى بْنِ رِيَّاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْظٍ بْنِ زَرَّاحِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤْيٍ بْنِ غَالِبِ الْقُرَشِيِّ الْعَدَوِيِّ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَكِبُهَا ؛ فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » (٢) مُتَّفَقٌ عَلَى صَحِّهِ . رَوَاهُ إِمَامَا الْحَدِيثَيْنِ : أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْغُبَيْرَةِ بْنِ بَرْدِزْبَةِ الْجُعْفِيِّ الْبُخَارِيُّ ، وَأَبُو الْحُسَيْنِ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ بْنِ مُسْلِمٍ الْقَشِيرِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي صَحِيحَيْهِمَا اللَّذَيْنِ هُمَا أَصَحُّ الْكُتُبِ الْمَصْنُفَةِ .

الشرح

لما كان هذا الباب في الإخلاص لله ، وأنه ينبغي أن تكون النية المخلصة لله في كل قول وفي كل فعل وعلى كل حال ، وذكر المؤلف من الآيات ما يتعلق بهذا المعنى ، ذكر ﷺ من الأحاديث ما يتعلق به أيضًا ، وصدر هذا بحديث عمر بن الخطاب الذي قال فيه : سمعت الرسول ﷺ يقول : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » هاتان الجملتان اختلف العلماء - رحمهم الله - فيهما ، فقال بعض العلماء : إنهما جملتان بمعنى واحد ، وأن الجملة الثانية تأكيد للجملة الأولى ، ولكن هذا ليس بصحيح ؛ وذلك لأن الأصل في الكلام أن يكون تأسيسًا لا تأكيدًا . ثم إنهما عند التأمل يتبين أن بينهما فرقًا عظيمًا . فالأولى سَبَبٌ ، والثانية نَتِيجَةٌ .

الأولى سبب : يُبَيِّنُ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَا يَدُ فِيهِ مِنْ نِيَّةٍ . كل عمل يعملهُ الإنسان وهو عاقل مختار فلا بد فيه من نية ، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعمل عملًا إلا بنية .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١) - واللفظ له - وفيه (لدنيا يصيبها) ، ومسلم في الإمارة (١٥٥) .

حتى قال بعض العلماء : (لو كُلَّفنا الله عملاً بلا نية لكان من تكليف ما لا يُطاق !) . وهذا صحيح ، كيف تعمل وأنت عاقل في عقلك وأنت مختار غير مُكره عملاً بلا نية ؟ هذا مستحيل لأن العمل ناتج عن إرادة وقدرة ، والإرادة هي النية ، إذًا فالجملة الأولى معناها : أنه ما من عامل إلا وله نية . ولكن النيات تختلف اختلافًا عظيمًا وتباين تباينًا بعيدًا كما بين السماء والأرض ، من الناس من نيته في القمة في أعلى شيء ، ومن الناس من نيته في القمامة في أخس شيء وأدنى شيء . حتى إنك لترى الرجلين يعملان عملاً واحدًا يتفقان في ابتدائه وانتهائه وفي أثرائه ، وفي الحركات والشركات ، والأقوال والأفعال ، وبينهما كما بين السماء والأرض ، كل ذلك باختلاف النية . إذًا الأساس أنه : ما من عمل بلا نية .

نتيجة قوله : « وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى » إن نويت الله والدار الآخرة في أعمالك الشرعية حصل لك ذلك ، وإن نويت الدنيا فقد تحصل وقد لا تحصل .

قال الله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨] ما قال عجلنا له ما يُريد !! بل قال ما نشاء - أي لا ما يشاء هو - لمن نريد لا لِكُلِّ إنسان فقيد المُعَجَّل والمُعَجَّل له . إذًا مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْطَى ما يُريد من الدنيا ، ومنهم من يُعْطَى شيئًا منه ، ومنهم من لا يعطى شيئًا أبدًا . هذا معنى قوله : ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨] ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] لابد أن يجني هذا العمل الذي أراد به وجهه الله والدار الآخرة .

وقوله : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ... إلخ » هذه ميزان لكل عمل ، لكنه ميزان الباطن . وقوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » (١) ، (٢) ، ميزان للأعمال الظاهرة .

ولهذا قال أهل العلم : (هذان الحديثان يجمعان الدين كله) .

ثم ضرب النبي ﷺ مثلاً يطبق هذا الحديث عليه ، قال : « فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَكَيَّحُهَا ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » . « الهجرة » : أن ينتقل الإنسان من دار الكفر إلى دار الإسلام . مثل أن يكون في أمريكا - وأمريكا دار كفر - فيسلم ولا يتمكن من إظهار دينه هناك ، فينتقل منها إلى البلاد الإسلامية . هذه هي الهجرة ، إذا هاجر الناس ، فهم يختلفون في الهجرة ، منهم من يهاجر وَيَدْعُ بلده إلى الله ورسوله ، يعني إلى شريعة الله التي شرعها الله على لسان رسوله ﷺ ، هذا هو الذي ينال الخير ، وينال مقصوده ولهذا قال : « فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ » أي فقد أدرك ما نوى .

(١) ردّ : أي مردود عليه . لسان العرب (١٦٢١) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم ٢٠) ومسلم في الأقضية (١٨) .

الثاني : هاجر لدنيا يُصيّها ، مثلاً : رجل يحب جمع المال ، فسمع أن في بلاد الإسلام مرتعاً خصباً لاكتساب الأموال ، فهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فقط ، لا يقصد أن يستقيم على دينه ولا يهتم لدينه ، إنما همه المال .

ثالثاً : رَجُلٌ هاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام يُريد امرأة يتزوجها ، قيل له لا تزوجك إلا في بلاد الإسلام ، ولا تسافر بها إلى بلاد الكفر ، فهاجر من بلده إلى بلاد الإسلام من أجل المرأة . فمريد الدنيا ومريد المرأة لم يهاجرا إلى الله ورسوله ، ولهذا قال الرسول ﷺ « فهجرتي إلى ما هاجر إليه » ، وهنا قال « إلى ما هاجر إليه » ولم يقل : « فهجرتي إلى دُنْيا يُصيّها أو امرأة يُنكِحها » فلماذا ؟ قيل : لطلول الكلام ، فإذا قيل : فهجرتي إلى دنيا يصيّها أو امرأة ينكحها ، طال الكلام . وقيل : بل لم يُنصّ عليهما احتقاراً وإعراضاً عن ذكرهما ؛ لأنها نية فاسدة مُنْحَطَّة . وعلى كل حال فإن هذا الذي نوى بهجرتي الدُّنْيا أو المرأة لا شك أن نيته سافلة مُنْحَطَّة هابطة بخلاف الأوّل الذي هاجر إلى الله ورُسُوله ﷺ .

أقسام الهجرة :

الهجرة تكون للعمل ، وتكون للعامل ، وتكون للمكان .

القسم الأول : هجرة المكان : كأن ينتقل الإنسان من مكان تكثر فيه المعاصي ويكثر فيه الفسوق وربما يكون بلد كفر إلى بلد لا يوجد فيه ذلك ، وأعظمه الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ، وقد ذكر أهل العلم أنه تجب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يُظهر دينه . وأما إذا كان قادراً على إظهار دينه ولا يُعارض إذا أقام شعائر الإسلام ؛ فإن الهجرة لا تجب عليه ولكنها تستحب ، وبناءً على ذلك يكونُ السُّفر إلى بلد الكفر أعظم من البقاء فيه ، فإذا كان بلد الكفر الذي كان وطن الإنسان إذا لم يستطيع إقامة دينه فيه وَجِبَ عليه مغادرته والهجرة منه .

فكذلك إذا كان الإنسان من أهل الإسلام ومن بلاد المسلمين ؛ فإنه لا يجوز له أن يُسافر إلى بلد الكفر لما في ذلك من الخطر على دينه وعلى أخلاقه ولما في ذلك من إضاعة ماله ولما في ذلك من تقوية اقتصاد الكفار ونحن مأمورون بأن نغيظ الكفار بكل ما نستطيع كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَطْعَمُونَ مِن مِّمَّا يَفِيضُ الْكُفَّارُ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

فالكافر أيّاً كان ، سواء كان من النصارى ، أو من اليهود ، أو من الملحدين ، وسواء تسمى بالإسلام أم لم يتسم بالإسلام ، الكافر عدو لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين جميعاً ، مهما تلبس بما يتلبس به ؛ فإنه عدو !!

فلا يجوز للإنسان أن يُسافر إلى بلد الكفر إلا بشروط ثلاثة :

الشرط الأول : أن يَكُونَ عِنْدَهُ عِلْمٌ يدفعُ به الشُّبهات ؛ لأن الكفار يُوردون على المسلمين شُبُهًا في دينهم ، وفي رُسُولهم ، وفي كتابهم ، وفي أخلاقهم ، في كل شيء يُوردون الشُّبهة ليبقى الإنسان

شَاكًا متذبذبًا ، ومن المعلوم أن الإنسان إذا شكَّ في الأمور التي يجب فيها اليقين ؛ فإنه لم يقم بالواجب ، فالإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورأسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، يجب أن يكون يقينًا ، فإن شكَّ الإنسان في شيء من ذلك فهو كافر .

فالكفار يُذخِلون على المسلمين الشُّكَّ حتى أنَّ بعض زعمائهم صرَّح قائلًا : « لا تحاولوا أن تخرجوا المسلم من دينه إلى دين النَّصارى ، ولكن يكفي أن تُشكِّكوه في دينه ؛ لأنكم إذا شكَّكموه في دينه سلَّبتُموه الدِّين ، وهذا كافٍ » .

أنتم أخرجوه من هذه الخطيرة التي فيها العزة والغلبة والكرامة ويكفي ، أما أن تحاولوا أن تدخلوه في دين النَّصارى المبني على الضُّلال والشفافة فهذا لا يمكن ؛ لأنَّ النَّصارى ضالون كما جاء في الحديث عن الرسول ﷺ (١) وإن كان فدين المسيح دينٌ حقٌّ لكنه دينُ الحقِّ في وقته قبل أن يُنسخ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ .

الشُّرْط الثاني : أن يكون عنده دينٌ يَخِيَمُه من الشُّهوات ؛ لأنَّ الإنسان الذي ليس عنده دين إذا ذهب إلى بلاد الكفر انغمس ؛ لأنه يجد زهرة الدُّنيا هناك ، من خمر وزنى ولواط وغير ذلك .

الشُّرْط الثالث : أن يكون محتاجًا إلى ذلك مثل أن يكون مريضًا يحتاج إلى السُّفر إلى بلاد الكفر للاستشفاء ، أو يكون محتاجًا إلى علم لا يوجد في بلاد الإسلام تَخْصُص فيه فيذهب إلى هناك أو يكون الإنسان محتاجًا إلى تجارة ، يذهب ويتجر ويرجع . المهم أن يكون هناك حاجة ، ولهذا أرى أن الذين يُسافرون إلى بلد الكفر من أجل السَّيَاحَةِ فقط أرى أنهم آثمون ، وأن كل قرش يَصْرِفونه لهذا السُّفر فإنه حرام عليهم وإضاعَةٌ لمالهم ، وسَيَحْاسِبُون عنه يوم القيامة حين لا يجدون مكانًا يتفَسَّحون فيه أو يتنزهون فيه . حين لا يجدون إلا أعمالهم ؛ لأن هؤلاء يُضَيِّعون أوقاتهم ، ويُتْلِفون أموالهم ، ويُفسدون أخلاقهم ، وكذلك ربما يكون معهم عوائلهم ، ومن عجب أن هؤلاء يذهبون إلى بلاد الكفر التي لا يُسمع فيها صوت مؤذن ولا ذِكْرُ ذَاكِر وإنما يُسمع فيها أبواق اليهود ونواقيس النَّصارى ثم يقون فيها مدة هم وأهلهم وبنوهم وبناتهم فيحصل في هذا شرٌّ كثير نسأل الله العافية والسلامة .

وهذا من البلاء الذي يَحُلُّ الله به النَّكبات ، والنَّكبات التي تأتيها والتي نحن الآن نعيشها كلها بسبب الذُّنُوب والمعاصي ، كما قال الله : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْرِفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾

[الشورى : ٣٠] .

نحن غافلون في بلادنا ، كأن ربنا غافل عنا ، كأنه لا يعلم ، كأنه لا يُبلي للظَّالِم حتى إذا أخذه لم يُفلته . والنَّاس يُعَصِّرُونَ في هذه الحوادث ولكن قلوبهم قاسية والعياذ بالله ! وقد قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ ﴾ [المؤمنون : ٧٦] .

أخذهم العذاب ونزل بهم ومع ذلك ما استكانوا إلى الله ، وما تضرَّعوا إليه بالدُّعاء ، وما خافوا من

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة (٢٩٥٣) وقال : هذا حديث حسنٌ غريب لا نعرفه إلا من حديث سيمالك بن حرب .

سَطَوْتُهُ ، لَكِنْ قَسَتْ الْقُلُوبُ - نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ - وَمَاتَتْ حَتَّى أَصْبَحَتْ الْحَوَادِثُ الْمَصِيرِيَّةَ تَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ وَكَأَنَّهَا مَاءٌ بَارِدٌ - نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ وَقَسْوَتِهِ - وَإِلَّا لَوْ كَانَ النَّاسُ فِي عَقْلِ وَصَحْوَةٍ وَفِي قُلُوبِهِ حَيَاةٌ مَا سَارُوا عَلَى هَذَا الْوَضْعِ الَّذِي عَلَيْهِ نَحْنُ الْآنَ ، مَعَ أَنَّا فِي وَضْعٍ نَعْتَبِرُ أَنَّنَا فِي حَالِ حَرْبٍ مَدْمَرَةٍ مُهْلِكَةٍ ، حَرْبِ غَازَاتِ الْأَعْصَابِ وَالْجُنُودِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمَعَ هَذَا لَا تَجِدُ أَحَدًا حَرَّكَ سَاكِنًا ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .

إِنَّ أَنَاسًا فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْعَصِيْبَةِ ذَهَبُوا بِأَهْلِيهِمْ يَتَنَزَّهُونَ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ وَفِي بِلَادِ الْفِسْقِ وَفِي بِلَادِ الْمَجْنُونِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ !

أَقُولُ مَرَّةً ثَانِيَةً : إِنَّ الْهَجْرَةَ مِنْ بِلَدِ الْكُفْرِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقِيمَ الْإِنْسَانَ فِيهِ دِينَهُ وَاجِبَةٌ . وَالسَّفَرُ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ لِلدَّعْوَةِ يَجُوزُ إِذَا كَانَ لَهُ أَثَرٌ وَتَأْثِيرٌ هُنَاكَ فَإِنَّهُ جَائِزٌ ؛ لِأَنَّهُ سَفَرٌ لِمَصْلَحَةٍ ، وَبِلَادُ الْكُفْرِ كَثِيرٌ مِنْ عَوَامِهِمْ قَدْ غَمِيَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامُ لَا يَذَرُونَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ شَيْئًا بَلْ قَدْ ضَلُّوا وَقِيلَ لَهُمْ إِنْ الْإِسْلَامُ دِينٌ وَخَشْيَةٌ وَهَمَجِيَّةٌ وَرِعَافٌ ، وَلَا سِيَمَا إِذَا سَمِعَ الْغَرْبَ هَذِهِ الْحَوَادِثُ الَّتِي جَرَتْ عَلَى يَدِ أَنَاسٍ يَقُولُونَ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ ، سَيَقُولُونَ أَيْنَ الْإِسْلَامُ ؟! هَذِهِ وَخَشْيَةٌ !! فَيَنْفِرُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْعَالِهِمْ ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا أَجْمَعِينَ .

الْقِسْمُ الثَّانِي : هَجْرَةُ الْعَمَلِ ، وَهِيَ أَنْ يَهْجُرَ الْإِنْسَانُ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » (١) فَاهْجُرْ كُلَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ سِوَاءَ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِحَقُوقِ اللَّهِ أَوْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِحَقُوقِ عِبَادِ اللَّهِ فَتَهْجُرُ السَّبَّ وَالشَّتْمَ وَالْقَتْلَ وَالْغَشَّ وَأَكْلَ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَغُفُوقَ الْوَالِدَيْنِ وَقَطِيعَةَ الْأَرْحَامِ وَكُلَّ شَيْءٍ حَرَّمَ اللَّهُ تَهْجُرُهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ نَفْسَكَ دَعَتْكَ إِلَى هَذَا وَأَلَحَّتْ عَلَيْكَ فَذَكَرْهَا أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ ذَلِكَ حَتَّى تَهْجُرَهُ وَتَبْعِدَ عَنْهُ .

الْقِسْمُ الثَّالِثُ : هَجْرَةُ الْعَامِلِ ، فَالْعَامِلُ قَدْ تَجِبَ هِجْرَتُهُ أحيانًا ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : مِثْلُ الرَّجُلِ الْمُجَاهِرِ بِالْمَعْصِيَةِ الَّذِي لَا يُيَالِي بِهَا فَإِنَّهُ يُشْرَعُ هَجْرُهُ إِذَا كَانَ فِي هِجْرِهِ فَائِدَةٌ وَمَصْلَحَةٌ . وَالْمَصْلَحَةُ وَالْفَائِدَةُ أَنَّهُ إِذَا هُجِرَ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ وَرَجَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ .

وَمِثَالُ ذَلِكَ : رَجُلٌ مَعْرُوفٌ بِالْغَشِّ بِالْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ فِيهِجْرُهُ النَّاسَ ، فَإِذَا هَجَرُوهُ تَابَ مِنْ هَذَا وَرَجَعَ وَنَدِمَ ، وَرَجُلٌ ثَانٍ يَتَعَامَلُ بِالرُّبَا فِيهِجْرُهُ النَّاسَ وَلَا يُسْلِمُونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْلِمُونَهُ ، فَإِذَا عَرَفَ هَذَا خَجَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَعَادَ إِلَى صَوَابِهِ .

أَمَّا إِذَا كَانَ الْهَجْرُ لَا يَفِيدُ وَلَا يَنْفَعُ وَهُوَ مِنْ أَجْلِ مَغْصِيَةٍ لَا مِنْ أَجْلِ كُفْرٍ ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ الْمُتَزِدَّ يُهْجَرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ - أَفَادَ أَمْ لَمْ يَفِدْ - لَكِنْ صَاحِبُ الْمَعْصِيَةِ الَّتِي دُونَ الْكُفْرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي هِجْرِهِ مَصْلَحَةٌ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ هِجْرُهُ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ : « لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، يَلْتَقِيَانِ فَيُغْرِضُ هَذَا ، وَيُغْرِضُ هَذَا ؛ وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » (٢) .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٤) - واللفظ له - ومسلم في الإيمان (٦٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٧) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥) واللفظ له .

ومن المعلوم أن المعاصي التي دون الكفر عند أهل السنة والجماعة لا تُخرج من الإيمان . فيبقى النظر هل الهجر يُفقد أم لا ، فإن أفاد ؛ فإنه يُهجر ، ودليل ذلك قصه كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع رضي الله عنه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فهجرهم النبي ﷺ ، وأمر المسلمين بهجرهم لكنهم انتفعوا في ذلك انتفاعاً عظيماً ، ولجؤوا إلى الله وضأقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضأقت عليهم أنفسهم وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فتابوا وتاب الله عليهم ^(١) .

هذه أنواع الهجرة : هجرة المكان ، وهجرة العمل ، وهجرة الغامل .

* * *

٢ - وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَغْزُو جَيْشُ الْكَعْبَةِ فَإِذَا كَانُوا يَبِيدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخَسَفُ بِأُولِهِمْ وَآخِرِهِمْ » . قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يُخَسَفُ بِأُولِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَشْوَقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ ؟! قَالَ : « يُخَسَفُ بِأُولِهِمْ وَآخِرِهِمْ ، ثُمَّ يُعْتَوْنَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ » ^(٢) . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ .

الشرح

قوله : « يغزو جيش الكعبة » الكعبة المشرفة حماها الله وأنقذها من كل شر . هذه الكعبة هي بيت الله بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ، وكانا يرفعان القواعد من البيت ويقولان : ﴿ رَبَّنَا قَبِّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] . هذا البيت أراد أبرهة أن يخرسه أن يغزوه من اليمن فغزاه بجيش عظيم في مقدمه فيل عظيم يُريد أن يهدم به الكعبة بيت الله ، فلما قرب من الكعبة ووصل إلى مكان يقال له : الْمُغَمَّسُ حَزَنَ الْفِيلَ ، وأبى أن يتقدم فجعلوا ينهرونه ليتقدم إلى الكعبة فأبى ، فإذا صرفوه نحو اليمن هروا وأسرع ، ولهذا قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - في غزوة الحديبية لما أن ناقته حرنت وأبت أن تمشي فقال الصحابة : خلأت القصواء خلأت القصواء - يعني حرنت وبركت من غير علة - قال الرسول ﷺ : « واللَّهِ مَا خَلَّاتِ الْقَصْوَاءَ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخَلْقٍ ! » النبي - عليه الصلاة والسلام - يُدافع عن بهيمة ، لأن الظلم لا ينبغي ولو على البهائم .

« مَا خَلَّاتِ الْقَصْوَاءَ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخَلْقٍ - أي عادة - بَلْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ » ، وحابِسُ الْفِيلِ : هو الرُّبُّ ﷻ ، والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ عَلَيْهَا ^(٣) .

المهم أن الكعبة غُزيت من قبل اليمن في جيش عظيم يقوده هذا الفيل العظيم ليهدم الكعبة فلما وصلوا إلى المغمس أبى الفيل أن يمشي وحزن ، فانتهروه ولكن لا فائدة فبقوا هناك وانحبسوا ، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، والأبابيل : الجماعات الكثيرة من الطيور ، وكل طير يحمل حجراً قد أمسكه

(١) انظر في قصتهم في سورة التوبة الآية (١١٨) وانظر البخاري في تفسير القرآن (٤٦٧٧) ، ومسلم في التوبة (٥٥) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٨) - واللفظ له - ومسلم في الفتن (٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١) وفيه « إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا » .

برجله ثم يرسله على الواحد منهم حتى يضربه مع هامته حتى يخرج إلى دبره : ﴿ جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ^(١) ﴾ [النمل : ٥] كأنهم زرع أكلته البهائم ، واندكوا في الأرض ، وفي هذا يقول أمية بن الصلت :

حبس الفيل بالمُعَمَّس ^(٢) حتى صار يخبو كأنه مَغْفُور

فحمى الله ﷺ بيته من كيد هذا الملك الظالم الذي جاء لكي يهدم بيت الله وقد قال الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ^(٣) بِطُلُوحٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] في آخر الزمان يغزو قوم الكعبة ، جيش عظيم . وقوله : « حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ » أي بأرض واسعة ، خسف الله بأولهم وآخرهم . خسفت بهم الأرض وساخوا فيها هم وأسواقهم وكل من معهم . وفي هذا دليل على أنهم جيش عظيم ؛ لأنَّ معهم أسواقهم للبيع والشراء وغير ذلك .

فيخسف الله بأولهم وآخرهم . لما قال الرسول ﷺ هذا وَرَدَ عَلَى خَاطِرِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَوَالٌ : « كَيْفَ يُخَسَفُ بِأُولِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ ؟ » أسواقهم : الذين جاءوا للبيع والشراء ليس لهم قصد سيء في غزو الكعبة . وفيهم أناس ليسوا منهم تَبِعُوهُمْ من غير أن يعلموا بخطتهم فقال الرسول ﷺ : « يُخَسَفُ بِأُولِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يُعْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِمْ » كل له ما نوى . هذا فرد من أفراد قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » . وفي هذا الحديث عبرة : أنَّ من شارك أهل الباطل وأهل البغي والعداوة ؛ فإنه يكون معهم في العقوبة الصالح والطالح ^(٤) ، العقوبة إذا وقعت تعم ولا تترك أحداً ثم يوم القيامة يعتنون على نياتهم . يقول الله ﷻ : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُفْسِدَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٢٥] . والشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ : « ثُمَّ يُعْتُونَ عَلَى نِيَّتِهِمْ » فهو كقوله : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » .

* * *

٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتَنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » ^(٥) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَمَعْنَاهُ : لَا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ .

-
- (١) كعصف مأكول : أي كتين أكلته الدواب ورائته . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٨٢٥) .
 (٢) المعَمَّس : اسم المفعول من غمست الشيء في الماء إذا غيسته فيه : موضع قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال وقره يرجم لأنه كان دليل صاحب الفيل فمات هناك . معجم البلدان (١٦١/٥) .
 (٣) ومن يرد فيه بإلحاد : أي ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد والاستقامة ، فيشمل سائر الآثام ؛ لما فيه من الميل عن الحق إلى الباطل . صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٤٢٧ .
 (٤) الطالح هو : الفاسد انظر المعجم الوسيط ص (٥٨١) .
 (٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣) ومسلم في الإمارة (٨٦) واستنفرتم : أي طلب منكم الخروج للجهاد .

الشرح

في هذا الحديث نفى رسول الله ﷺ الهجرة بعد الفتح فقال : « لا هجرة » وهذا النفي ليس على عمومه ، يعني أن الهجرة لم تبطل بالفتح ؛ فإنه : « لا تَنْقُطُ الهجرة حَتَّى تَنْقُطَ التَّوْبَةُ ، وَلَا تَنْقُطَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » ^(١) كما جاء ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ ، لكن المراد بالنفي هنا نفى الهجرة من مكة كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لِأَنَّ مكة بعد الفتح صارت بلاد إسلام ، ولن تعود بعد ذلك بلاد كفر ، ولذلك نفى النبي ﷺ أن تكون هجرة بعد الفتح .

وكانت مكة تحت سيطرة المشركين وأخرجوا منها رسول الله ﷺ ، فهاجر بإذن ربِّه إلى المدينة وبعد ثمان سنوات رجع النبي ﷺ إلى مكة فاتحاً مظفراً منصوراً صلوات الله وسلامه عليه .

فصارت البلد بدل كونها بلد كفر صارت بلد إيمان وبلد إسلام ، ولم يكن منها هجرة بعد ذلك . وفي هذا : دليل على أن مكة لن تعود لتكون بلاد كفر بل ستبقى بلاد إسلام إلى أن تقوم الساعة أو إلى أن يَشَاءَ الله . ثم قال : « وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيَّةٌ » أي الأمر بعد هذا جهاد ، أي يخرج أهل مكة من مكة إلى الجهاد . و « الْبَيَّةُ » أي الثَّيَّةُ الصَّالِحَةُ للجهاد في سبيل الله وذلك بأن ينوي الإنسان بجهاده ، أن تكون كلمة الله هي العليا .

ثم قال - عليه الصَّلاة والسلام - : « وَإِذَا اسْتَنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » يعني : إذا استنفركم ولِّي أمركم للجهاد في سبيل الله فانفروا وجوباً ، وحينئذ يكون الجهاد فرض عين . فلا يتخلف أحدٌ إلّا من عذره الله ، لقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ ﴾ ^(٢) إلّا تَنَفَّرُوا بِعِزِّكُمْ عِزًّا أَبَاسًا وَتَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴿ [التوبة : ٣٨ ، ٣٩] وهذا أحد المواضع التي يكون فيها الجهاد فَرَضٌ عين .

والموضع الثاني : إذا حصر بلد العدو ، أي جاء العدو حتى وصل إلى البلد ؛ وحصر البلد صار الجهاد فَرَضٌ عين ، ووجب على كل أحد أن يقاتل حتى على النساء والشيوخ القادرين في هذه الحال ؛ لأن هذا قتال دفاع . وفرق بين قتال الدفاع وقتال الطلب . فيجب في هذه الحال أن ينفر الناس كلهم للدفاع عن بلدهم .

الحالة الثالثة : إذا حضر الصِّف ، والتقى الصِّفَّان ، صف الكفار وصف المسلمين ، صار الجهاد حينئذ فَرَضٌ عين ، ولا يجوز لأحد أن ينصرف كما قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلَوتُهُمُ الْأَدْبَارَ ۖ ﴾ ^(٣) وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْهُمْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ^(٤)

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٤٧٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٩٩/٤) .

(٢) إلا متحرفاً لقتال : أي إلا أن يكون في توليه منعطفاً عن موقفه إلى موقف آخر أصحح للقتال فيه . أو إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء . أو خادعاً للعدو بالفرة ، مريداً الكزة والحرب خدعة . أو متحيزاً إلى فئة : أو إلّا أن يكون في توليه منحازاً إلى جماعة أخرى من الجيش ومنضماً إليها للتعاون معها على القتال . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٢٣٦) .

فَقَدْ بَكَءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَنُهُ جَهَنَّمُ وَيَقْسُ الْمَصِيرُ ﴿ [الأنفال: ١٥، ١٦] .

وقد جعل النبي ﷺ الثَّوْلِيَّ يَوْمَ الزَّحْفِ مِنَ السَّبْعِ الْمَوْبِقَاتِ (١) !

الموضع الرابع : إذا احتيج إلى الإنسان بأن يكون السلاح لا يعرفه إلا فَوْزٌ من الأفراد ، وكان الناس يحتاجون إلى هذا الرجل لاستعمال هذا السلاح الجديد مثلاً - فإنه يتعين عليه أن يُجاهد وإن لم يستغفره الإمام ؛ وذلك لأنه محتاج إليه .

ففي هذه المواطن الأربعة ، يكون الجهاد فرض عين . وما سوى ذلك فإنه يكون فرض كفاية . قال أهل العلم : ويجب على المسلمين أن يكون منهم جهاد في العام مرة واحدة ، يجاهد أعداء الله لتكون كلمة الله هي العليا ، لا لأجل أن يدافعوا عن الوطن لأنه وطن ؛ لأن الدِّفاع عن الوطن من حيث هو وطن يكون من المؤمنين والكافر ، حتى الكفار يُدافعون عن أوطانهم لكن المسلم يدافع عن دين الله ، فيدافع عن وطنه لا لأنه وطنه مثلاً ، ولكن لأنه بلد إسلامي فيدافع عنه حماية للإسلام . ولهذا يجب علينا في مثل هذه الظروف التي نعيشها اليوم ؛ يجب علينا أن نذكر جميع العامة بأن الدعوة إلى تحرير الوطن وما أشبه ذلك دعوة غير مناسبة ، وأنه يجب أن يُعبَأَ الناس تبعاً دينية ، ويُقال : إننا ندافع عن ديننا قبل كل شيء ؛ لأن بلدنا بلد دين وإسلام يحتاج إلى حماية ودفاع ، فلا بد أن ندافع عنه بهذه التِّيَّة . أمَّا الدِّفاع بنية الوطنية أو بنية القومية فهذا يكون من المؤمنين والكافر ، ولا ينفع صاحبه يوم القيامة ، وإذا قتل وهو يدافع بهذه النية فليس بِشَهِيد ؛ لأن الرسول ﷺ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ لِرَأْيِ مَكَانِهِ - أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِيُكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٢) . انتبه إلى هذا القيد !!

إذا كنت تُقاتل لوطنك فأنت والكافر سواء ، لكن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ممثلة في بلدك لأن بلدك بلد إسلام . ففي هذه الحال ربما يكون القتال قتالاً في سبيل الله .

وثبت عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ - أَيُّ يُجْرَحُ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرُوحُهُ يَتَعَبُ (٣) دَمًا لَلْوُ لَوُ الدَّمِ ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ » (٤) . فانظر كيف اشترط النبي ﷺ للشهادة أن يكون الإنسان يُقاتل في سبيل الله . فيجب على طلبة العلم أن يبينوا هذا ، والله الموفق .

* * *

(١) انظر في ذلك البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ، ومسلم في الإيمان (١٤٥) والمواقف : أي المهلكات .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٠) ، ومسلم في الإمارة (١٥٠) .

(٣) وجرحه يتعب دماً ، أي يجري .

(٤) أخرجه نحوه البخاري في الذبائح (٥٥٣٣) ، ومسلم في الإمارة (١٠٥) ، وأحمد في مسنده ، (٢٤٢/٢) ،

(٣٨٤/٢) .

٤ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ ؛ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ » وفي رواية : « إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

ورواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قَالَ : رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ أَقْوَامًا خَلَفْنَا بِالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا ؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » ^(١) .

الشرح

قوله : « في غزاة » أي في غزوة .

فمعنى الحديث : أن الإنسان إذا نوى العمل الصالح ولكنه حبسه عنه حابس فإنه يكتب له الأجر أجر ما نوى . أما إذا كان يعمل في حال عدم العذر ، أي : لما كان قادرًا كان يعمل ثم عجز عنه فيما بعد فإنه يكتب له أجر العمل كاملاً ، لأن النبي ﷺ قال : « إذا مرض العبد أو سافر كُتِبَ لَهُ ما كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا » ^(٢) .

فالمتمني للخير ، الحريص عليه إن كان من عَادَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُهُ ولكنه حبسه عنه حابس ؛ كتب له أجره كاملاً .

فمثلاً : إذا كان الإنسان من عَادَتِهِ أَنْ يُصَلِّيَ مع الجماعة في المسجد ولكنه حبسه حابس كنوم أو مرض أو ما أشبهه فإنه يُكْتَبَ له أَجْرُ الْمُصَلِّي مع الجماعة تماماً من غير نقص .

وكذلك إذا كان من عَادَتِهِ أَنْ يُصَلِّيَ تَطَوُّعًا ؛ ولكنه منعه مِنْهُ مَنَاعٌ ، ولم يتمكن مِنْهُ فإنه يُكْتَبَ له أجره كاملاً . وغيره من الأمثلة الكثيرة .

أما إذا كان ليس من عَادَتِهِ أَنْ يَفْعَلَهُ فإنه يُكْتَبَ له أَجْرُ النِّيَّةِ فقط دون أجر العلم .

ودليله : أن فقراء الصحابة رضي الله عنهم قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ سَبَقْنَا أَهْلَ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ وَالتَّعْيِمِ الْمُقِيمِ - يعني إن أهل الأموال سبقوهم بالصدقة والعق - فقال النبي ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ أَذْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُذْرِكْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَ مَا عَمِلْتُمْ » فقال : « تُسَبِّحُونَ وتُكَبِّرُونَ وتُحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ » فَفَعَلُوا فَعَلِمَ الْأَغْنِيَاءُ بِذَلِكَ فَفَعَلُوا مِثْلًا فَعَلُوا !!

فجاء الفقراء إلى الرسول ﷺ وقالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ .

فقال النبي ﷺ : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » ^(٣) واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

لم يقل لهم : إنكم قد أدركتم أجر عملهم ؛ لكن لا شك أن لهم أجر نية العمل .

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٥٩) ، والبخاري في المغازي (٤٤٢٣) والجهد والسير (٢٨٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهد والسير (٢٩٩٦) . وفيه « صحيحاً مقبلاً » ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤١٠/٤) بلفظه .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٤٢) و بلفظ قريب من هذا ، والبخاري في الأذان (٨٤٣) .

ولهذا ذكر النبي - عليه الصلاة والسلام - فيمن آتاه الله مالا فجعل ينفقه في سبيل الخير وكان رجل فقير يقول : لو أن لي مال فلان لعملت فيه عمل فلان ، قال النبي ﷺ : « فَهُوَ بَيْنَيْتِهِ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ » (١) . أي سواء في أجر النية أما العمل : فإنه لا يُكْتَبُ له أجره إلا إن كان من عادته أن يعمل .

● وفي هذا الحديث : إشارة إلى أن من خرج في سبيل الله في الغزو والجهاد ، فإن له أجر ممشاه ، ولهذا قال النبي ﷺ : « مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا ، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ » .

وبدل لهذا قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْعِدًا يَعِطُهُ الْكَافَرُونَ وَلَا يَتْلُونَ مِنَ الْعَدُوِّ نَبِيلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَلَاحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ يَخْرِجُهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ ، ١٢١] .

ونظير هذا : أن الرجل إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة فإنه لا يخطو خطوة إلا رفع الله له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة . وهذا من فضل الله ﷻ أن تكون وسائل العمل فيها هذا الأجر الذي بينه الرسول ﷺ ، والله الموفق اهـ .

٥ - وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ مَعْنَى بْنِ يَزِيدَ بْنِ الْأَخْنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ وَأَبُوهُ وَجَدَهُ صَحَابِيُّونَ - قَالَ : كَانَ أَبِي يَزِيدَ أَخْرَجَ ذَنَابِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ ، فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا فَأَتَيْتُهَا بِهَا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا إِثَّاكَ أَرَدْتُ ، فَخَاصَمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ ، وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ » (٢) رواه البخاري .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة معن بن يزيد وأبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن أباه يزيد أخرج دراهم عند رجل في المسجد ليتصدق بها على الفقراء فجاء ابنه معن فأخذها ، ربما يكون ذلك الرجل الذي وكل فيها لم يعلم أنه ابن يزيد . ويحتمل أنه أعطاه لأنه من المستحقين .

فبلغ ذلك أباه يزيد فقال : « مَا إِثَّاكَ أَرَدْتُ - أي ما أردت أن أتصدق بهذه الدراهم عليك - فذهب إلى رسول الله ﷺ فقال : « لَكَ يَا يَزِيدُ مَا نَوَيْتَ ، وَلَكَ يَا مَعْنُ مَا أَخَذْتَ » .

فقوله - عليه الصلاة والسلام - : « لَكَ يَا يَزِيدُ مَا نَوَيْتَ » يدل على أن الأعمال بالنيات وأن الإنسان إذا نوى الخير حصل له وإن كان يزيد لم ينو أن يأخذ هذه الدراهم ابنه لكنه أخذها وابنه من المستحقين فصارت له ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لَكَ يَا مَعْنُ مَا أَخَذْتَ » .

ففي هذا الحديث : دليل كما ساقه المؤلف من أجله على أن الأعمال بالنيات وأن الإنسان يُكْتَبُ له

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٠/٤) ، وابن ماجه في السنن (٤٢٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٢) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٤٧٠/٣) .

أجر ما نوى وإن وقع الأمر على خلاف ما نوى ، وهذه القاعدة لها فروع كثيرة :
 منها : ما ذكره العلماء - رحمهم الله - : أن الرجل لو أعطى زكاته شخصاً يظن أنه من أهل
 الزكاة فتبين أنه غني وليس من أهل الزكاة ، فإن زكاته تجزئ وتكون مقبولة تبرأ بها ذمته ؛ لأنه نوى
 أن يعطيها من هو أهل لها ، فإذا نوى فله نيته .

ومنها : أن الإنسان لو وقف شيئاً ، كمثل أن يوقف بيتاً صغيراً فقال : وقفتُ بيتي الفلاني وأشار
 إلى الكبير لكنه خلاف ما نواه بقلبه ، فإنه على ما نوى وليس على ما سبق به لسانه .

ومنها : لو أن إنساناً جاهلاً لا يعرف الفرق بين العمرة والحج ، فحج مع الناس فقال : لبيك حجاً
 وهو يريد عمرة يتمتع بها إلى الحج فإن له ما نوى ، ما دام أن قصده يقيم العمرة لكن قال : لبيك
 حجاً مع الناس فله ما نوى ، ولا يضر سبق لسانه بشيء .

ومنها أيضاً : لو قال الإنسان لزوجته : أنت طالق وأراد أنت طالق من قيد ، لا من نكاح فله ما
 نوى ، ولا تطلق بذلك زوجته .

المهم أن هذا الحديث له فوائد كثيرة وفروع منتشرة في أبواب الفقه .

ومن فوائده : أنه يجوز للإنسان أن يتصدق على ابنه وهو كذلك ، يعني أنه يجوز !

والدليل على هذا ما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما قال لزوجته ، وقد أرادت أن
 تتصدق ، قال لها : زوجك وكذلك أحق من تصدقت عليه .

وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد أمر بالصدقة وحث عليها ، فأرادت زينب زوجة عبد الله
 بن مسعود أن تتصدق بشيء من ماله فقال لها زوجها ما قال لأنه كان فقيراً رضي الله عنه فقالت : لا !! حتى أسأل
 النبي صلى الله عليه وسلم . فسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « صدق عبد الله ، زوجك وكذلك أحق من تصدقت به عليهم » .
 ومن فوائد الحديث : أنه يجوز أن يعطي الإنسان ولده من الزكاة بشرط أن لا يكون في ذلك
 إسقاط لواجب عليه .

يعني مثلاً : لو كان الإنسان عنده زكاة ، وأراد أن يعطيها ابنه من أجل أن لا يطالبه بالتفقة ، فهذا
 لا يجوز ؛ لأنه أراد بالإعطاء أن يسقط واجب نفقته .

أما لو أعطاه ليقضي ديناً عليه مثل : أن يكون على الابن حادث ويعطيه أبوه من الزكاة ما يسد به
 هذه الغرامة فإن ذلك لا بأس به وتجزئه من الزكاة ؛ لأن ولده أقرب الناس إليه وهو الآن لم يقصد بهذا
 إسقاط واجب عليه ، إنما قصد بذلك إبراء ذمة ولده لا الإنفاق عليه . والله الموفق اهـ .

* * *

٦ - وعن أبي إسحاق سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكِ بْنِ أَهْيَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ
 مُرَّةِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ الْقُرَشِيِّ الزُّهْرِيِّ رضي الله عنه أَخْبَدَ الْعَشْرَةَ الْمَشْهُودَ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ رضي الله عنه قَالَ : « جاعني

رسول الله ﷺ يَعودُنِي عَامَ حُجَّةِ الْوُدَّاعِ مِنْ وَجَعِ اشْتَدَّ بِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى ، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي لِي ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلْثِي مَالِي ؟ قَالَ : « لا » ، قُلْتُ : فَالشَّطْرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « لا » قُلْتُ : فَالثُّلُثُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ - أَوْ كَبِيرٌ - إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَزْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ » . قَالَ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُخَلِّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي ؟ قَالَ : « إِنَّكَ لَنْ تُخَلِّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرَفْعَةً ، وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخَلِّفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ . اللَّهُمَّ أَمِضْ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ ، وَلَا تُزِدْهُمْ عَلَى أَغْقَابِهِمْ ، لَكِنَّ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ » يَزِيئِي لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ مَاتَ بَمَكَّةَ ^(١) . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : أن النبي ﷺ جاءه يعوده في مرض أَلَمَ به وذلك في مكة ، ولكن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فتركوا بلدهم لله ﷻ ، وكان من عادة النبي ﷺ أنه يُعوِّدُ المَرَضَى من أصحابه . كما أنه يزور من يزور منهم ؛ لأنه ﷺ كان أحسن الناس خلقًا وألينهم بأصحابه ، وأشدهم تحببًا إليهم . وسلامته عليه - كان من أحسن الناس خلقًا وألينهم بأصحابه ، وأشدهم تحببًا إليهم . فجاءه يعوده فقال يا رسول الله : « إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى » أي : أصابه الوجع العظيم الكبير .

« وَأَنَا ذُو مَالٍ كَثِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ » أي : أن عنده مالًا كبيرًا .

« وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي لِي » أي : ليس له ورثة بالفرض إلا هذه البنت .

« أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلْثِي مَالِي » أي : اثنين من ثلاثة !

قال : « لا » قُلْتُ : « الشَّطْرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ » أي : بالنصف .

قال : « لا » . قُلْتُ : « فَالثُّلُثُ » . قال : « الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ » .

قوله : « أَفَأَتَصَدَّقُ » أي : أعطيه صدقة فمِنَعِ النبي ﷺ من ذلك ؛ لأنَّ سعدًا في تلك الحال كان

مريضًا مرضًا يخشى منه الموت ؛ فلذلك منعه الرسول ﷺ أن يتصدق بأكثر من الثلث .

لأن المريض مرض الموت المخوف لا يجوز أن يتصدق بأكثر من الثلث ؛ لأنَّ ماله قد تعلَّق به حقُّ

الغير وهم الورثة . أما من كان صحيحًا ليس فيه مرض أو فيه مرض يسير لا يُخشى منه الموت فله أن

يتصدق بما شاء بالثلث أو بالنصف أو بالثلثين أو بماله كله لا حرج عليه .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٥) والوصايا (٢٧٤٢) ، ومسلم في الوصية (٥) ، وأحمد في مسنده (١٧٦/١)

وكلهم بلفظ قريب من هذا .

لكن لا ينبغي أن يتصدق بماله كله إلا إن كان عنده شيء يعرف أنه سوف يستغني به عن عباد الله . المهم أن الرسول ﷺ منعه أن يتصدق بأكثر من الثلث .

وقال : « الثلث والثلث كثير أو كبير » وفي هذا دليل على أنه إذا نقص عن الثلث فهو أحسن وأكمل ولهذا قال ابن عباس ؓ : « لو أن الناس غَضُوا من الثلث إلى الربع » ؛ لأن النبي ﷺ قال : « الثلث والثلث كثير » (١) .

وقال أبو بكر ؓ : « أَرْضَى ما رَضِيَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ » (٢) يعني : الخمس ، فأوصى بالخمس ﷺ . وبهذا نعرف أن عمل الناس اليوم وكونهم يُوصون بالثلث خلاف الأولى وإن كان هو جائزاً لكن الأفضل أن يكون أدنى من الثلث إما الربع أو الخمس .

قال فقهاؤنا - رحمهم الله - : والأفضل أن يُوصى بالخمس لا يزيد عليه ؛ اقتداءً بأبي بكر الصديق ؓ . ثم قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » .

أي كونك تبقي المال ولا تتصدق به حتى إذا مت وورثه الورثة صاروا أغنياء به ، هذا خيرٌ من أن تذرهم عالة لا تترك لهم شيئاً « يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » أي : يسألون الناس بأكْفُهُم : أعطونا . وفي هذا : دليل على أن الميت إذا خَلَفَ مَالاً للورثة فإن ذلك خيرٌ له .

لا يظن الإنسان أنه إذا خلف المال وَوَرِثَ منه قهراً عليه أنه لا أجر له في ذلك ! لا بل له أجر ، حتى إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال : « خيرٌ من أن تذرهم عالة .. إلخ » لأنك إذا تركت المال للورثة انتفعوا به وهم أقارب ، وإن تصدقت به انتفع به الأبعد .

والصدقة على القريب أفضل من الصدقة على البعيد ؛ لأن الصدقة على القريب صدقة وصلة .

* * *

وقوله : « يا رسول الله أخلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي ؟ » فقال : « إِنَّكَ لَنْ تَخْلَفَ » بل قال قبل ذلك : « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ » تنفق نفقة : أي مَالاً إِمَّا مِنَ الدَّرَاهِمِ أَوْ الدَّنَانِيرِ أَوْ الثِّيَابِ أَوْ الْفَرَسِ أَوْ طَعَامًا أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهِ . الشاهد من هذا قوله : « تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ » أي : تقصد به وجه الله ﷻ ، بدخولك الجنة ورؤيته ﷻ فيها . لأن أهل الجنة - جعلني الله وإياكم منهم - يرون الله سبحانه وتعالى وينظرون إليه عَيْنًا بأبصارهم كما يرون الشمس صَحْوًا ليس دُونَهَا سَحَابٌ وكما يرون القمر ليلة البدر . يعني أنهم يرون ذلك حقًا .

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٣) فيه لوغض وليس فيه « من الثلث » ، ومسلم في الوصية (١٠) وفيه « فإن » .

(٢) ذكره عبد الرزاق في المصنف (٦٦/٩) (١٦٣٦٣) بنفس اللفظ ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧٠/٦) .

فقال : « إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجْرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِيْ امْرَأَتِكَ » أي : حتى اللقمة التي تطعمها امرأتك تَؤَجِّرُ عليها إذا قصدت بها وجه الله ، مع أن الإنفاق على الزوجة أمر واجب ، لو لم تنفق لقاتل أنفق أو طلق ، ومع هذا إذا أنفقت على زوجتك تُريد به وجه الله أجرك الله على ذلك .

وكذلك إذا أنفقت على أولادك ، إذا أنفقت على أمك على أهلك ، بل إذا أنفقت على نفسك تبتغي بذلك وَجْهَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُكَ عَلَى هَذَا .

ثم قال ﷺ : « أَخْلَفْتُ بَعْدَ أَصْحَابِي » يعني أَخْلَفْتُ بعد أصحابي ، أي : هل أتأخر بعد أصحابي فأموت بمكة . فبيّن النبي ﷺ أَنَّهُ لَنْ يُخْلَفَ فقال : « إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ » ويصح له أَنَّهُ لو خُلِفَ ثم عملَ عملاً يبتغي به وجه الله لازداد به عند الله درجة ورفعة .

يعني : لو فرض أنك خُلِفْتَ ولم تتمكن من الخروج من مكة وعملت عملاً يبتغي به وجه الله فإن الله سبحانه يزيدك به رِفْعَةً وَدَرَجَةً ، رفعة في المقام والمرتبة ودرجة في المكان . فيرفعك الله ﷻ فِي جَنَّاتِ النعيم درجات . حتى لو عملت بمكة وأنت قد هاجرت منها .

ثم قال النبي ﷺ : « وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخْلَفَ » أَنْ تُخْلَفَ : هنا غير أن تُخْلَفَ الأولى .

لعلك أن تُخْلَفَ : أي أن تعمر في الدنيا وهذا هو الذي وقع فإن سعد بن أبي وقاص عُمِّرَ زماناً طويلاً . حتى إنه ﷺ كما ذكر العلماء خُلِفَ سبعة عشر ذكراً واثنتي عشرة بنتاً . وكان في الأول ما عنده إلا بنت واحدة ، ولكن بقي وعُمِّرَ ورُزِقَ أولاداً .

وقوله : « حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ » وهذا الذي حصل ، فإن سعداً ﷺ خُلِفَ وصار له أثر كبير في الفتوحات الإسلامية ، وفتح فتوحات عظيمة كبيرة ، فانتفع به أقوام وهم المسلمون وَضُرَّ به آخرون وهم الكفار . ثم قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ » سأل الله أن يمضي لأصحابه هجرتهم وذلك بأمرين :

الأمر الأول : ثباتهم على الإيمان ، لأنه إذا ثبت الإنسان على الإيمان ثبت على الهجرة .

والأمر الثاني : ألا يرجع أحد منهم إلى مكة بعد أن خرج منها مهاجراً إلى الله ورسوله .

لأنك إذا خرجت من البلد مهاجراً إلى الله ورسوله فهو كالمال الذي تصدق به ، لا يمكن أن ترجع فيه . وهكذا كل شيء تركه الإنسان لله لا يرجع فيه .

ومن ذلك : ما وُفِّقَ فيه كثير من الناس من إخراج التليفزيون من بيوتهم ؛ توبة إلى الله وابتعاداً عنه وعُتْمًا فِيهِ مِنَ الشُّرُورِ . فهؤلاء قالوا : هل يمكن أن نعيده الآن إلى البيت ؟

نقول : لا ، بعد أن أخرجتموه لله لا تعيده لأن الإنسان إذا ترك شيئاً لله وهجر شيئاً لله ، فلا يعود فيه . ولهذا سأل الرسول - عليه الصلاة والسلام - رَبِّهِ أَنْ يَمْضِيَ لِأَصْحَابِهِ هِجْرَتَهُمْ .

وقوله : « وَلَا تَزِدْهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ » أي : لا تجعلهم ينتكسون عن الإيمان فيرتدون على أعقابهم ، لأن الكفر تأخر والإيمان تقدّم وهذا على عكس ما يقوله الملحدون اليوم حيث يَصِفُونَ الإسلام بالرجعية ، ويقولون إن التّقدّمية أن ينسلخ الإنسان من الإسلام وأن يكون علمانيًا لا يفرق بين الإيمان والكفر ، والعياذ بالله . ولا بين الفسوق والطاعة ، فالإيمان هو التّقدّم في الحقيقة .

المتقدمون : هم المؤمنون ، والتّقدّم يكون بالإيمان . والرّدة تكون نكوصًا على العقبين كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - هنا : « وَلَا تَزِدْهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ » .

وفي هذا الحديث فوائد عظيمة كثيرة :

منها : أن مِنْ هَذِي الرّسول ﷺ عيادة المرضى لأنه عاد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وفي عيادة المَرَضَى فوائد للعائد وفوائد للمعوّد :

أما العائد : فإنه يؤدي حق أخيه المسلم ؛ لأن من حق أخيك المسلم أن تعوده إذا مرض .

ومنها : أن الإنسان إذا عاد المريض فإنّه لا يزال في مَحْرَقَةِ الجنة ، يعني يجني ثمار الجنة حتى يعود .

ومنها : أن في ذلك تذكيرًا للعائد بنعمة الله عليه بالصّحة ؛ لأنّه إذا رأى هذا المريض ورأى ما هو فيه من المرض ثم رجع إلى نفسه رأى ما فيها من الصّحة والعافية عرف قدر نعمة الله عليه بهذه العافية لأن الشيء إنما يعرف بضدّه .

ومنها : أن فيها جُلْبًا للمحبة والمودة فإن الإنسان إذا عاد المريض صارت هذه العيادة في قلب المريض دائمًا على قلبه يتذكّرها ، وكلما ذكرها أحبّ الذي يُعوّده وهذا يظهر كثيرًا فيما إذا برأ المريض وَحُصِلَتْ منه مُلَاقَاة لك تجده يتشكّر منك وتجد أن قلبه ينشرح بهذا الشيء .

أما المعوّد : فإن له فيها فائدة أيضًا ؛ لأنّها تُؤنّسه وتشرح صدره ويزول عنه ما فيه من الهم والغم ومن المرض وربما يكون العائد موقفًا يذكره بالخير والتوبة والوصية إذا كان يريد أن يُوصي بشيء عليه من الدّيون وغيرها فيكون في ذلك فائدة للمعوّد .

ولهذا قال العلماء : ينبغي لمن عاد المريض أن يُنْفَس له في أجله : أي يفرحه يقول : ما شاء الله أنت اليوم في خير وما أشبهه ، ليس لازماً أن يقول له أنت طيب مثلاً ؛ لأنه قد يكون اليوم أشدّ مرضًا من أمس لكن يقول : أنت اليوم في خير ؛ لأن المؤمن كل أمره خير إن أصابه ضراء فهو في خير وإن أصابه سراء فهو في خير .

والأجل محتوم إن كان هذا المرض أجله مات ، وإن كان بقي له شيء من الدنيا بقي . وينبغي أيضًا أن يذكره التوبة ؛ لكن لا يقول له ذلك بصفة مباشرة لأنه ربما ينزعج ، ويقول في نفسه لو أن مرضي غير خطير ما ذكرني بالتوبة .

لكن يبدأ بذكر الآيات والأحاديث التي فيها الثناء على الثّائبين ما يتذكر به المريض ، وينبغي كذلك أن يذكره الوصية ، لا يقول له : أوص فإن أجلك قريب . لو قال هكذا انزعج . بل مثلاً

يذكره بقصص واردة عليه .

قال أهل العلم : وينبغي أيضًا إذا رأى منه تشوقًا إلى أن يقرأ عليه فليقرأ عليه ، ينفث عليه بما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام .

مثل قوله : « اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا » ^(١) ومثل قوله : « رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، كَمَا رَحِمْتُكَ فِي السَّمَاءِ ، فَاجْعَلْ رَحِمَتَكَ فِي الْأَرْضِ ، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ اغْفِرْ لَنَا خَوْبَنَا وَخَطَايَانَا ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحِمَتِكَ ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ ، فَيَبْرَأَ » ^(٢) أو يقرأ عليه بسورة الفاتحة لأن سورة الفاتحة رقية يقرأ بها على المرضى وعلى الذين لدغتهم العقرب أو الحية وما أشبه ذلك ^(٣) .

المهم أنه إذا رأى من المريض أنه يحب أن يقرأ عليه فليقرأ عليه . لئلا يلجئه إلى طلب القراءة ، لأن النبي ﷺ قال : « رَأَيْتُ مَعَ أَمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ » وقال : « هُمُ الَّذِينَ لَا يَشْتَرِقُونَ وَلَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَطْطِيرُونَ وَعَلَى رُبُّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ » ^(٤) . فقلوه : « لَا يَشْتَرِقُونَ » أي : لا يطلبون أحدًا يقرأ عليهم . كذلك أيضًا إذا رأيت أن المريض يحب أن تُطِيلَ المقام عنده فأطل المقام ، فأنت على خير وعلى أجر .

أطل المقام عنده وأدخل عليه الشرور ، ربما يكون في دخول الشرور على قلبه سبب لشفائه ؛ لأن سرور المريض وانسراح صدره من أكبر أسباب الشفاء . فأطل الجلوس عنده حتى تعرف أنه قد ملَّ . أما إذا رأيت أن المريض متكلف ولا يحب أنك تبقى ، أو يحب أن تذهب عنه لكي يبقى مع أهله ويأنس بهم فلا تتأخر ، اسأل عن حاله ثم انصرف .

ففي حديث سعد بن أبي وقاص مشروعية عيادة المريض .

ومن فوائده : حسن خلق النبي ﷺ . ولا شك أن النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا لأن الله قال : ﴿ تَوَّابًا وَأَلْقَاهُ وَمَا يَسْطَرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِمُعْتَدٍ لِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خَلْقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم : ١ - ٤] فأعظم الناس خلقًا وأحسن الناس خلقًا رسول الله ﷺ ولهذا كان يُعَوِّدُ أصحابه ويُرَوِّعُهُمْ وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ، حتى إنه يمر بالصبيان الصغار فيسلم عليهم ، صلوات الله وسلامه عليه .

ومنها : أنه ينبغي للإنسان مشاورة أهل العلم ؛ لأن سعد بن أبي وقاص رضيه الله عنه استشار النبي ﷺ حينما أراد أن يتصرف بشيء من ماله فقال : يا رسول الله : « إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي أَفَأَتَصَدَّقُ بِثَلَاثِي مَالِي ؟ قَالَ : لَا .. الْحَدِيثُ » .

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٠) ، ومسلم بنحوه في السلام (٤٦ - ٤٩) ، وأبو داود في سننه (٣٨٩٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٩٢) وليس فيه « أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ » .

(٣) انظر في ذلك صحيح البخاري في الطب (٥٧٤٩) ، ومسلم في السلام (٦٥) .

(٤) أخرجه بنحوه البخاري في الطب (٥٧٥٢) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٦/٤ ، ٤٤١) .

ففيه استشارة أهل العلم والرأي ، وكل إنسان بحسبه ، فمثلاً إذا كُنْتُ تُريد أن أقدم على شيء من أمور الدين فشاور أهل العلم ؛ لأنهم أعلم بأمور الدين من غيرهم ، إذا أردت أن تشتري بيتاً فشاور أصحاب المكاتب العقارية ، إذا أردت أن تشتري سيارة فاستشر المهندسين في ميكانيكية السيارات وهكذا . ولهذا يقال : « ما خَاب من استخار ولا ندم من استشار » ^(١) .

والإنسان بلا شك لا ينبغي له أن يكمل نفسه . من ادَّعى الكمال لنفسه فهو الناقص ، بل لابد أن يراجع خصوصاً في الأمور الهامة التي تتعلق بمسائل الأمة فإن الإنسان قد يحمله الحماس والعاطفة على فعل شيء هو في نفسه حق ولا بأس به لكن التحدث عنه قد يكون غير طيب إما في الزمان أو في المكان أو في الحال .

ولهذا ترك النبي ﷺ بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفاً من الفتنة فقال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم ولجعلت لها بابين ، باباً يدخل منه الناس وباباً يخرجون منه » ^(٢) .

من أجل أن يتمكن الناس من دخول بيت الله ﷻ ، لكن ترك ذلك خوف الفتنة مع كونه مصلحة ! بل أعظم من ذلك ؛ إن الله نهى أن نشب آلهة المشركين مع أن آلهة المشركين جدية بأن تُسب وتُعاب ويُفَرَّ منها لكن لما كان سبها يؤدي إلى سب الرب العظيم المنزه عن كل عيب ونقص ، قال الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فالمهم أنه ينبغي أن نعلم أن الشيء قد يكون حسناً في حد ذاته وفي موضوعه ، لكن لا يكون حسناً ولا يكون من الحكمة ولا من العقل ولا من التصحح ولا من الأمانة أن يذكر في وقت من الأوقات ، أو في مكان من الأماكن ، أو في حال من الأحوال وإن كان هو في نفسه حقاً وصدقاً وحقيقة واقعة . ومن ثم كان ينبغي للإنسان أن يستشير ذوي العلم والرأي والتصحح في الأمر ، قبل أن يقدم عليه حتى يكون لديه برهان ؛ لأن الله قال لأشرف خلقه - عليه الصلاة والسلام - وأسدِّهم رأياً وأبلغهم نصيحاً محمد ﷺ قال : ﴿ قَاعَتْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

هذا وهو رسول الله ﷺ أسدَّ الناس رأياً وأرجحهم عقلاً وأبلغهم نصيحاً .

الإنسان ربما تأخذه العاطفة فيندفع ويقول : هذا لله أنا سأفعله ، سأصعد بالحق سأقول : سوف لا تأخذني في الله لومة لائم ، وما أشبه ذلك من الكلام ؛ ثم تكون العاقبة وخيمة ، ثم إن

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٠/٢) وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٧٨/٢) (٢٤٢/٢) (٦/١) وقال : موضوع رواه الطبراني في الصغير عن عبد القدوس بن عبد السلام بن عبد القدوس : ثنا أبي عن جدي عبد القدوس بن حبيب عن الحسن بن أنس مرفوعاً . لم يروه عن الحسن إلا عبد القدوس تفرد به ولده عنه . عبد القدوس الجد كذاب وابنه اتهمه ابن حبان بالوضع .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٢٦) ، ومسلم في الحج (١٣٣٣) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٠/٦) .

الغالب أن الذي يحكم العاطفة ويتبع العاطفة ، ولا ينظر للعواقب ولا للتائج ، ولا يقارن بين الأمور الغالب أنه يحصل على يديه من المفسد ما لا يعلمه إلا الله ﷻ مع أن نيته طيبة وقصده حسن ، لكن لم يحسن أن يتصرف ؛ لأن هناك فرقاً بين حسن النية وحسن التصرف ، قد يكون الإنسان حسن النية لكنه سيء التصرف ، وقد يكون سيئ النية ، والغالب أن سيئ النية سيئ التصرف ، لكن مع ذلك قد يُحسن التصرف لينال غرضه السيئ .

فالإنسان يُحمد على حسن نيته ، لكن قد لا يحمد على سوء فعله إلا أنه إذا علم منه أنه معروف بالتصح والإرشاد ، فإنه يعذر بشيء تصرفه ويُلمس له العذر ولا ينبغي أيضاً أن يتخذ من فعله هذا الذي لم يكن موافقاً للحكمة ، بل لا يجوز أن يتخذ منه ، قدح في هذا المتصرف ، وأن يحمل ما لا يتحملة ، لكن يعذر ويين له ويُصح ويُرشد ، ويقال : يا أخي هذا كلامك أو فعلك حسن طيب وصواب في نفسه : لكنه غير صواب في محله أو في زمانه أو في مكانه .

المهم : أن في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يستشير من هو أكمل منه رأياً ، وأكثر منه علماً .

وفيه من الفوائد : أنه ينبغي للمستشير أن يذكر الأمر على ما هو عليه حقيقة لا يُلَوِّذُ بيميناً وشمالاً بل يذكر الأمر حقاً على ما هو عليه حتى يتبين للمستشار حقيقة الأمر ويبيّن مشورته على هذه الحقيقة ولهذا قال سعد : « إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة » .

فقوله : « إني ذو مال » بيان لسبب العطية التي يريد أن يعطيها ولا يرثني إلا ابنة لي بيان لانتفاء المانع ، يعني لا مانع من أن أوصي كثيراً لانتفاء الوارث .

والمستشار عليه أن يتقي الله ﷻ فيما أشار فيه ، وأن لا تأخذه العاطفة في مراعاة المستشير ؛ لأن بعض الناس إذا استشاره الشخص ورأى أنه يميل إلى أحد الأمرين أو الرأيين ذهب يُشير عليه به .

ويقول : أنا أحب أن أوافق الذي يرى أنه يناسبه وهذا خطأ عظيم بل خيانة ، الواجب إذا استشارك أن تقول له ما ترى أنه حق وأنه نافع سواء أرضاه أم لم يرضه ، وأنت إذا فعلت هذا كنت ناصحاً وأثبت ما عليك ثم إن أخذ به ، ورأى أنه صواب فذاك وإن لم يأخذ به فقد برئت ذمتك . مع أنك ربما تستنتج شيئاً خطأ ، قد تستنتج أنه يريد كذا وهو لا يريد ف تكون خسراً من وجهين : من جهة الفهم الشيء ، ومن جهة القصد الشيء .

وفي قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - « لا » دليل على أنه لا حرج أن يستعمل الإنسان كلمة « لا » وليس فيها شيء . فالنبي - عليه الصلاة والسلام - استعمل كلمة « لا » وأصحابه رضي الله عنهم استعملوا معه كلمة « لا » .

فجابر رضي الله عنه لما أعيا جملة ولحقه النبي - عليه الصلاة والسلام - كيف لحقه وهو هزيل ؟ هل الجمل قدام الناس ؟ لا ! لكن من عادة الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأنه راعي أمته أنه يمشي في الآخر

لا يمشي قدامهم بل يمشي وراءهم ؛ لأجل أنه إذا احتاج أحدٌ إلى شيء يساعده - عليه الصلاة والسلام - انظر إلى التواضع وحسن الرعاية .

لحق جابرًا وكان جملة قد أعيًا لا يمشي فضربه النبي ﷺ ودعا له وقال : « يَغْنِيهِ بِرُؤْيَايَ » قال جابر : لا (١) . قال : « لا » للرسول - عليه الصلاة والسلام - ولم ينكر عليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - . فلا مانع من كلمة « لا » فإنها ليست سوء أدب وخلق ، كثير من الناس الآن يأنف أن يقول : « لا » يقول : سلامتك ، هذا طيب أن تدعو له بالسلامة لكن إذا قلت : « لا » ، فـ « لا » عيب عليك . ومن فوائد الحديث : أنه لا يجوز للمريض مرضًا مخوفًا أن يُعطي أكثر من الثلث إلا إذا أجازته الورثة لأن الورثة تعلق حقهم بالمال لما مَرَضَ الرجل لقول النبي ﷺ : « الثلث والثلث كثير » . وفيه : دليل على أنه ينبغي أن يكون عطاؤه أقل من الثلث كما قال ابن عباس ؓ : « لو أن الناس غَضُّوا من الثلث إلى الربع ؛ لأن النبي ﷺ قال : « الثلث والثلث كثير » (٢) .

* * *

ومنها : أنه لا يجوز للإنسان إذا كان مريضًا مرضًا يُخشى منه الموت أن يتبرع بأكثر من الثلث من ماله ، لا صدقة ولا مشاركة في بناء مساجد ولا هبة ولا غير ذلك ، لا يزيد على الثلث ؛ لأن النبي ﷺ منع سعدًا من أن يتصدق بأكثر من الثلث .

والوصية كالعطية فلا يجوز أن يُوصي الإنسان بشيء من ماله بعد موته زائدًا على الثلث . والأفضل في الوصية أن تكون بالخمس لأثر أبي بكر المتقدم آنفًا .

ومنها : إذا كان مال الإنسان قليلًا وكان ورثته فقراء فالأفضل أن لا يُوصي بشيء لا قليل ولا كثير لقوله - عليه الصلاة والسلام - : « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ غَالَةً » خلافا لما يظنه بعض العوام أنه لا بد من الوصية هذا خطأ ، الإنسان الذي ماله قليل وورثته فقراء ليس عندهم مال لا ينبغي له أن يُوصي ، الأفضل أن لا يُوصي .

ويظن بعض العامة أنه إذا لم يُوص فإنه لا أجر له وليس كذلك بل إذا ترك المال لورثته فهو مأجور في هذا ، وإن كان الورثة يرثونه قهراً ، لكن إذا كان مسترشداً بهدي النبي ﷺ لقوله : « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ غَالَةً » فإن أجره بذلك أفضل من أن يتصدق عنه بشيء من ماله .

ومنها : خوف الصحابة المهاجرين من مكة أن يموتوا فيها ، لأن سعدًا ؓ قال : « أَخْلَفَ بَعْدَ أَصْحَابِي ؟ » وهذه الجملة استفهامية والمعنى « أَخْلَفَ ؟ » وهذا استفهام توقعي مفروض يعني أنه لا

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧/٨) ، ومسلم في المساقاة (١٠٩ ، ١١١) - واللفظ له - والبيهقي في سننه (٣٣٧/٥) . والوقية لغة في الأوقية ، وهي جزء من اثني عشر جزءًا من الرطل المصري . انظر المعجم الوسيط (٣٤/١) وقال في لسان العرب (١٧١/١) : زنة سبعة مثاقيل وقيل : زنة أربعين درهماً .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٣) وفيه : « لَوْغَضُ » وليس فيه « من الثلث » ، ومسلم في الوصية (١٠) وفيه « فَإِنْ » .

يحب أن يتخلف فيموت في مكة وقد خرج منها مهاجراً إلى الله ورسوله .
ومنها : ظهور معجزة لرسول الله ﷺ وهو أن الرسول ﷺ قال له : « إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ وَسَوْفَ تُخَلَّفَ حَتَّى يُضَرَّ بِكَ أَقْوَامٌ وَيَنْتَفِعَ بِكَ آخَرُونَ » فَإِنَّ الْأَمْرَ وَقَعَ كَمَا تَوَقَّعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَإِنْ سَعِدَا عُمَرَ إِلَى خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ .

وهذه من آيات النبي ﷺ أن يخبر عن أمر مستقبل فيقع كما أخبر به . ولكن هذا ليس خيراً محضاً ولكن توقع لقوله : « لَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ » فلم يجزم ولكن كان الأمر كما توقعه النبي ﷺ .

ومنها : أنه ما من إنسان يعمل عملاً يتغني به وجه الله إلا ازداد به رفعة ودرجة حتى وإن كان في مكان لا يحل له البقاء فيه ، لأن العمل شيء والبقاء شيء آخر .

ولهذا كان القول الراجح من أقوال أهل العلم أن الإنسان إذا صلى في أرض مغضوبة فإن صلاته صحيحة ؛ لأن النهي ليس عن الصلاة بل النهي عن الغضب .

فالنهي مُنصَّبٌ على شيء غير الصلاة فتكون صلاته صحيحة في هذا المكان المغضوب لكنه آثم ببقائه في هذا المكان المغضوب . نعم لو وَرَدَ عن الرسول ﷺ أنه قال : لا تُصَلِّ في أرض مغضوبة . لقننا إذا صليت في الأرض المغضوبة فصلاتك باطلة كما نقول : إنك إن صليت في المقبرة فصلاتك باطلة ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبِرَةَ وَالْحِمَامَ » ^(١) هذا غير صلاة الجنائز ؛ لأنها تجوز حتى في المقبرة .

ومنها : أن الإنسان إذا أنفق نفقة يتغني بها وجه الله فإنه يُثَابَ عليها ، حتى النفقات على أهله وعلى زوجته بل وعلى نفسه إذا ابتغى بها وجه الله أثابه الله عليها .

وفيه : إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يستحضر نية التقرب إلى الله في كل ما ينفق حتى يكون له في ذلك أجر .

وقوله : « اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَغْقَابِهِمْ » سأل النبي ﷺ ربّه أن يمضي لأصحابه هجرتهم وذلك بشتاتهم على الإيمان وبقائهم في الأوطان التي هاجروا إليها من مكة ولهذا قال : « وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَغْقَابِهِمْ » الرُّدُّ عَلَى الْعَقْبِ يعني الكفر بعد الإسلام - والعياذ بالله - كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَزِدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] . وقوله : « لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ .. » يقوله النبي - عليه الصلاة والسلام - .

سعد بن خولة ؓ من المهاجرين الذي هاجروا من مكة ولكن الله قدر أن يموت فيها فمات فيها

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٢) ، والترمذي في سننه (٣١٧) .

فرثى له النبي - عليه الصلاة والسلام - أي توجع له أن مات بمكة وقد كانوا يكرهون للمهاجر أن يموت في الأرض التي هاجر منها .

هذا ما تيسر من الكلام على هذا الحديث ، والمؤلف - رحمه الله تعالى - ذكره في باب النية لأن النبي ﷺ قال لسعد : « إنك لن تعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازدادت به درجة ورفعة » وقال له : « إنك لن تُنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها » فأشار في هذا الحديث إلى الإخلاص في كون الإنسان يتبني بعمله وبإفناق ماله وجه الله حتى ينال على ذلك الأجر وزيادة الدرجات والرفعة عند الله ﷻ والله الموفق .

٧ - وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر ^(١) إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

وقوله : « ولكن ينظر إلى قلوبكم » وفي لفظ : « قلوبكم وأعمالكم » . هذا الحديث يدل على ما يدل عليه قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فإن الله ﷻ لا ينظر إلى العباد ؛ إلى أجسامهم - هل هي كبيرة أو صغيرة أو صحيحة أو سقيمة ؟ ولا ينظر إلى الصور هل هي جميلة أو ذميمة ؟ .

كل هذا ليس بشيء عند الله ، وكذلك لا ينظر إلى الأنساب هل هي رفيعة أو ذميمة ، ولا ينظر إلى الأموال ولا ينظر إلى شيء من هذا أبداً .

ليس بين الله وبين خلقه صلة إلا بالتقوى ، فمن كان لله أتقى كان من الله أقرب وكان عند الله أكرم ، إذا لا تفخر بمالك ولا بجمالك ولا بيدنك ولا بأولادك ولا بقصورك ولا بسياراتك ولا بشيء من هذه الدنيا أبداً . إنما إذا وفقك الله للتقوى فهذا من فضل الله عليك فاحمد الله عليه . واعلم أن الأعمال بالنيات ، والقلوب هي التي عليها المدار .

كم من إنسان ظاهر عمله أنه صحيح وجيد وصالح لكن لما بُني على خراب صار خراباً .

النية هي الأصل ، تجد رجلين يُصليان في صف واحد مقتديين بإمام واحد يكون بين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب ، لأن القلب مختلف أحدهما قلبه غافل بل ، ربما يكون مُرائياً في صلاته - والعياذ بالله - يُريد بها الدنيا . والآخر قلبه حاضر يريد بصلاته وجه الله وأتباع سنة رسول الله ﷺ .

(١) معنى النظر هنا المجازة والحاسية .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٣) ، وأحمد في مسنده (٢٨٥/٢) .

فبينهما فَرْقٌ عظيم ، فالعلم على ما في القلب ، وعلى ما في القلب يكون الجزاء يوم القيامة كما قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجِيهِ لَقَادِرٌ ﴾ [يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ] ﴿ الطارق : ٨ ، ٩ ﴾ أي : تختبر السرائر لا الظواهر . في الدنيا الحكم بين الناس على الظاهر لقول النبي ﷺ : « فأقضي له على نحو ما أسمع » (١) لكن في الآخرة العلم على ما في السرائر ، نسأل الله أن يطهر سرائرنا وإياكم .

فإذا كانت السرية جيدة صحيحة فأبشر بالخير وإن كانت الأخرى فقدت الخير كله وقال الله ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ فِي الْقُبُورِ ﴾ [وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ] ﴿ العاديات : ٩ ، ١٠ ﴾ فالعلم على ما في القلب . وإذا كان الله في كتابه وكان رسوله ﷺ في سنته يؤكدان على إصلاح النية فالواجب على الإنسان أن يصلح نيته ، يصلح قلبه ، ينظر ما في قلبه من الشك فيزيله إلى اليقين : كيف ذلك ؟ يكون ذلك بنظره إلى الآيات قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] وقال : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمَنْ يُؤْمِنُ ﴾ [وفي خلقكم وما بينكم من دلائل مايتقوم بوقنون] ﴿ [الجمانية : ٤] فأنت انظر في آيات الله .

إذا ألقى الشيطان في قلبك الشك فانظر في آيات الله . انظر إلى هذا الكون من يُدبره ؟ انظر كيف تتغير الأحوال ، كيف يداول الله الأيام بين الناس حتى تعلم أن لهذا الكون مديراً حكيمًا ﷻ ! . الشُّكُّ : طهر قلبك منه ، كيف أظهر نفسي منه ؟ أظهر قلبي بأن أقول لنفسي : إن الناس لا ينفعونني إن عصيت الله ، ولا ينقذوني من العقاب ، وإن أطعت الله لم يجلبوا إليَّ الثواب . فالذي يجلب الثواب ويدفع العقاب هو الله ، إذا كان الأمر كذلك فلماذا تشرك بالله ﷻ ، لماذا تنوي بعبادتك أن تقرب إلى الخلق ؟! ولهذا من تقرب إلى الخلق بما يتقرب به إلى الله ابتعد الله عنه وابتعد عنه الخلق .

يعني لا يزيده تقربه إلى الخلق بما يقربه إلى الله إلا بُعِدًا من الله ومن الخلق ؛ لأن الله إذا رضي عنك أرضى عنك الناس وإذا سخط عليك أسخط عليك الناس نعوذ بالله من سخطه ومن عقابه . المهم يا أخي : عالج القلب دائمًا ، كن دائمًا في غسيل للقلب حتى يطهر كما قال الله ﷻ : ﴿ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤١] ، فتطهير القلب أمر مهم جدًا ، أسأل الله أن يطهر قلبي وقلوبكم ، وأن يجعلنا له مخلصين ورسوله متبعين .

٨ - وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتِلَ شِجَاعَةً ، وَيُقَاتِلَ حِمِيَةً ، وَيُقَاتِلَ رِيَاءً ، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

(١) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٦٧) ، ومسلم في الأفضية (٤) ، بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٠/٦) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٨) ، ومسلم في الإمامة (١٥٠) واللفظ له . والحمية الأنفة والغيرة على العشيرة .

الشرح

وفي لفظٍ للحديث : « ويُقاتل ليرى مكانه أي ذلك في سبيل الله ؟ » قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

وقوله : « من قاتل لتكون » : في هذا إخلاص النية لله ﷻ ، وهذا الذي ساق المؤلف الحديث من أجله . فقد سئل الرسول ﷺ : عن الذي يقاتل على أحد الوجوه الثلاثة : شجاعة ، وحمية ، وليرى مكانه . أما الذي يقاتل شجاعة : فمعناه أنه رجل شجاع يحب القتال ؛ لأن الرجل الشجاع متّصف بالشجاعة ، والشجاعة لا بد لها من ميدان تظهر فيه فتجد الشجاع يحب أن الله يُيسّر له قتالاً ليقاتل ويظهر شجاعة . فهو يقاتل لأنه شجاع يحب القتال .

الثاني : يقاتل حمية : حمية على قومية ، حمية على قبيلة ، حمية على وطن ، حمية لأي عصبية كانت . الثالث : يقاتل ليرى مكانه : أي ليراه الناس ويعرفوا أنه شجاع ، فعدل النبي ﷺ عن ذلك ، وقال كلمة موجزة ميزاناً للقتال فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِتُكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . وعدل النبي - عليه الصلاة والسلام - عن ذكر هذه الثلاثة ليكون أعم وأشمل ؛ لأن الرجل ربما يقاتل من أجل الاستيلاء على الأوطان والبلدان ، يُقاتل من أجل أن يحصل على امرأة ينسبها من هؤلاء القوم . المهم أن التيات ما لها حدٌ لكن هذا الميزان الذي ذكره النبي - عليه الصلاة والسلام - ميزان تامٌ عدل ومن هنا نعلم أنه يجب أن تُعدل اللهجة التي يتفوه بها اليوم كثير من الناس .

اللهجة لهجتان :

لهجة قوم يقاتلون للقومية ، القومية العربية والقتال للقومية العربية قتال جاهلي ، مَنْ قُتِلَ فِيهِ فَلَيْسَ شَهِيدًا ، فقد الدنيا وخسر الآخرة ؛ لأن ذلك ليس في سبيل الله . ولذلك على الرغم من قوة الدعاية للقومية العربية لم نستفد منها شيئاً !!

اليهود استولوا على بلادنا ، نحن تفككتنا ، دخل في ميزان هذه القومية قوم كفار من النصارى وغير النصارى وخرج منها قوم مسلمون من غير العرب فخسرنا ملايين العالم من أجل هذه القومية ، ودخل فيها قوم لا خير فيهم ، قوم إذا دخلوا في شيء كُتب عليه الخذلان والخسارة . واللهجة الثانية : قوم يقاتلون للوطن ، ونحن إذا قاتلنا من أجل الوطن لم يكن هناك فرق بيننا وبين الكافر ؛ لأنه أيضًا يقاتل من أجل وطنه .

والذي يقاتل من أجل الدفاع عن الوطن فقط ليس بشهيد . ولكن الواجب علينا - ونحن مسلمون وفي بلد إسلامي - ولله الحمد - ونسأل الله أن يثبتنا على ذلك ، الواجب أن نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا . انتبه للفرق : نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا ، فنحمي الإسلام الذي في بلادنا سواء كان في أقصى الشرق والغرب . فيجب أن نُصحح هذه النقطة ، فيقال : نحن نقاتل من أجل الإسلام في

وطننا أو من أجل وطننا لأنه إسلامي ندافع عن الإسلام الذي فيه .
 أما مجرد الوطنية فإنها نيّة باطلة لا تُفيد الإسلام شيئاً ، ولا فرق بين الإنسان الذي يقول أنه مسلم والإنسان الذي يقول أنه كافر إذا كان القتال من أجل الوطن لأنه وطن .
 وما يذكر من أنَّ « حُبُّ الوطن من الإيمان » وأن ذلك حديثٌ عن رسول الله ﷺ كذب .
 حُبُّ الوطن إن كان إسلامياً فهذا تحبه لأنه إسلامي . ولا فرق بين وطنك الذي هو مسقط رأسك أو الوطن البعيد عن بلاد المسلمين كلها وطن إسلامي يجب أن نحبيه .
 على كل حال يجب أن نعلم أن النية الصحيحة هي أن نُقاتل من أجل الإسلام في بلدنا أو من أجل وطننا لأنه إسلامي لا لمجرد الوطنية .

أما قتال الدفاع أي : لو أن أحداً صَالَ عليك في بيتك يريد أخذ مالك أو يريد أن يتتهك عرض أهلك مثلاً فإنك تقاتله كما أمرك بذلك النبي - عليه الصلوة والسلام - .

فقد سُئل عن الرجل يأتيه الإنسان [يريد أخذ ماله ؟] ^(١) قال : « فلا تُعطه مالك » . قال : « أُرأيت إن قاتلني ؟ » قال : « قاتله » . قال : « أُرأيت إن قتلني ؟ » قال : « فأنت شهيدٌ » . قال : « أُرأيت إن قَتَلْتُهُ ؟ » قال : « هو في النَّار !! » ^(٢) لأنه معتد ظالم حتى وإن كان مسلماً ، إذا جاءك المسلم يريد أن يقاتلك من أجل أن يخرجك من بلدك أو من بيتك فقاتله إن قتلته فهو في النَّار وإن قتلك فأنت شهيد .
 لا تقل كيف أقتل مسلماً ؟ هو المعتدي ، ولو كُتِفنا أيدينا أمام المعتدين الظالمين الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ولا ديناً ، لكان المعتدون لهم السلطة ولأفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ؛ ولذلك نقول : هذه المسألة ليست من باب قتال الطلب .

قتال الطلب : معلوم إنني لا أذهب أقاتل مسلماً أطلبه ، ولكن أدفع عن مالي ونفسي وأهلي ولو كان مؤمناً مع أنه لا يمكن أبداً أن يكون شخص معه إيمان يقدم على مسلم يقاتله ليستولي على أهله وماله أبداً .

ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « سِيَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقَتْلُهُ كُفْرٌ » ^(٣) لا إيمان لإنسان يقاتل المسلمين إطلاقاً ، فإذا كان الرجل فاقداً الإيمان أو ناقص الإيمان فيجب أن نقاتله دفاعاً عن النفس وجوباً لأن النبي ﷺ قال : « قَاتِلْهُ » وقال إن قَتَلْتُهُ : « فَهُوَ فِي النَّارِ » وقال وإن قَتَلْتَ : « فأنت شهيد » .
 الحاصل أن هناك قتالين : قتالاً للطلب أذهب أنا أقاتل الناس مثلاً في بلادهم هذا لا يجوز إلا في شروط معينة .

مثلاً : قال العلماء إذا ترك أهل قرية الأذان وهو ليس من أركان الإسلام وجب على ولي الأمر أن

(١) ما بين المعكوفتين مصحح من نص الحديث ، وكان في نص المؤلف ﷺ : « ويقول له : أعطني مالك » .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٥) ، والبيهقي (٢٦٦/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨) ، ومسلم في الإيمان (١١٦) ، والترمذي في سننه (١٩٨٣ ، ٢٦٣٥) .

يقاتلهم حتى يؤذنوا ؛ لأنهم تركوا شعيرة من شعائر الإسلام .

وإذا تركوا صلاة العيد ، وقالوا لا نُصَلِّيها لا في بيوتنا ولا في الصُّحراء يجب أن نقاتلهم ، حتى لو فرض أن قوماً حاججونا وقالوا : هل الأذان من أركان الإسلام ؟ قلنا : لا ولكنه من شعائر الإسلام فنقاتلكم حتى تؤذنوا . إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين وجب علينا أن نصلح بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى وجب أن نقاتلها حتى تفيء إلى أمر الله مع أنها مؤمنة ، ولكن هناك فرق بين قتال الدِّفاع و قتال الطُّلب ، أمَّا الطُّلب ما نطلب إلا من أباح الشارع قتاله وأمَّا الدِّفاع فلا بد أن يدافع .

والحاصل : أنه لا بد من تصحيح النية ، ونرجو منكم أن تنبهوا على هذه المسألة لأننا نرى في الجرائد والصحف الوطن ! الوطن ! الوطن ! وليس فيها ذكر للإسلام وهذا نقصٌ عظيم يجب أن توجه الأمة إلى النهج والمسلك الصحيح ، ونسأل الله لنا ولكم التوفيق لما يحب ويرضى .

* * *

٩ - وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ نَفَعَ بْنِ الْحَارِثِ التَّقْفِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » أي : يريد كل واحد منهما أن يقتل الآخر فسلَّ عليه السيف وكذلك لو أشهر عليه السلاح كالبنديقية أو غيرها مما يقتل كحجر ونحوه !

فذكرُ السيف هنا على سبيل التمثيل وليس على سبيل اليقين بل إذا التقى المسلمان بأي وسيلة يكون بها القتل فقتل أحدهما الآخر ؛ فالقاتل والمقتول في النار والعياذ بالله !! فقال أبو بكره للنبي صلى الله عليه وسلم : هذا القاتل ؟ يعني أن كونه في النار واضح لأنه قتل نفساً مؤمنة متعمداً والذي يقتل نفساً مؤمنة متعمداً بغير حق فإنه في نار جهنم .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] فأبو بكره رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « هذا القاتل » وهذه الجملة هي ما يُعرف في باب المناظرة بالتسليم يعني سلمنا أن القاتل في النار فما بال المقتول كيف يكون في النار ؟!

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه » فهو حريص على قتل صاحبه ولهذا نجا بآلة القتل ليقته ، ولكن تفوق عليه الآخر فقتله فيكون هذا - والعياذ بالله - بنيت القتل وعمله السبب الموصل للقتل يكون كأنه قاتل ولهذا قال : لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

ففي هذا الحديث : دليل على أن الأعمال بالنيات وأن هذا لما نوى قتل صاحبه صار كأنه فاعل

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١) واللفظ له ، ومسلم في الفتن وأشرط الساعة (١٥) .

ذلك أي كأنه قاتل وبهذا نعرف الفرق بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » ^(١) . وقوله فَيَمَنُ أَتَى لِيَأْخُذَ مَالَكَ إِنْ قَتَلْتَهُ : « فَهُوَ فِي النَّارِ » وَإِنْ قَتَلْتَكَ : « فَأَنْتَ شَهِيدٌ » . وذلك لأن الإنسان الذي يُدافع عن ماله وأهله ونفسه وعرضه وإنما دافع رجلاً معتدياً صائلاً لا يندفع إلا بالقتل ، فهنا إذا قُتِلَ الصَّائِلُ كان في النَّارِ وَإِنْ قُتِلَ الدَّافِعُ كان شهيداً في الجنة فهذا هو الفرق بينهما . فبهذا عُلِمَ أن من قتل أخاه مريدًا لقتله فإنه في النار ومن قتل أخوه وهو يُريد قتل أخيه لكن عجز فالمقتول أيضاً في النار .

وفي هذا الحديث : دليل على عظم القتل وأنه من أسباب دخول النار والعياذ بالله . وفيه : دليل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يوردون على الرسول ﷺ الشبهة فيجيب عنها . ولهذا لا نجد شيئاً من الكتاب والسنة فيه شبهة حقيقية إلا وقد وجد حلها . إما أن يكون حلها بنفس الكتاب والسنة من غير إيراد سؤال وإما أن يكون بإيراد سؤال يجاب عنه . ومن ذلك أن الرسول ﷺ لما أخبر بأن الدجال يمكث في الأرض أربعين يوماً اليوم الأول كسنة والثاني كشهر والثالث كالأسبوع وبقية الأيام كأيامنا سأله الصحابة هذا اليوم الذي (كسنة) هل تكفيها فيه صلاة يوم واحد ؟ قال : « لا . ولكن اقدروا لَهُ قَدْرَهُ » ^(٢) ففي هذا أبين دليل على أنه لا يوجد - والله الحمد - في الكتاب والسنة شيء مشبه لا حل له لكن الذي يوجد قصور في الأفهام تعجز عن معرفة الحل أو تقصير في الطلب والتأمل والتفتيش فيشبهه عليه الأمر . أما في الواقع فليس في الكتاب والسنة شيء مُشْتَبِهٌ إِلَّا وجد حلّه في الكتاب أو السنة إما ابتداءً وإما جواباً عن سؤال يقع من الصحابة والله الموفق .

١٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ بَضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ؛ وَذَلِكَ أَنْ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ التَّوَضُّعَ ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ ، لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ ؛ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ثَبِّ عَلَيْهِ ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ » ^(٣) متفقٌ عليه ، وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ . وَقَوْلُهُ ﷺ : « يَنْهَزُهُ » هُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَالْهَاءِ وَالزَّيِّ : أَي يُخْرِجُهُ وَيُنْهَضُهُ .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٤٢١) وقال : حسن صحيح ، و أبو داود في سننه (٤٧٧٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (٢٩٣٧) ، والترمذي في سننه (٢٢٤٠) بلفظه .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٧) بلفظ « صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه ... » =

الشرح

معنى الحديث : أنه إذا صلى الإنسان في المسجد مع الجماعة كانت هذه الصلاة أفضل من الصلاة في بيته أو في سوقه سبعا وعشرين مرة لأن الصلاة مع الجماعة قيام بما أوجب الله من صلاة الجماعة . فإن القول الراجح من أقوال أهل العلم : أن صلاة الجماعة فرض عين وأنه يجب على الإنسان أن يصلي مع الجماعة في المسجد لأحاديث وردت في ذلك ولما أشار إليه الله سبحانه وتعالى في كتابه حيث قال : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتَقِمَ عَلَيْكَ مِنْهُمْ مَعَكَ ﴾ [النساء: ١٠٢] . فأوجب الله الجماعة في حال الخوف فإذا أوجيها في حال الخوف ففي حال الأمن من باب أولى وأخرى .

ثم ذكر السبب في ذلك : بأن الرجل إذا توضأ في بيته فأشبع الوضوء ثم خرج من بيته إلى المسجد لا ينهزه - أو لا يخرج - إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع الله له بها درجة وخط عنه بها خطيئة ، سواء أقرب مكانه من المسجد أم بعد ، كل خطوة يحصل به فائدتان : الفائدة الأولى : أن الله يرفعه بها درجة .

والفائدة الثانية : أن الله يحط عنه بها خطيئة وهذا فضل عظيم .

وقوله : « فإنه في صلاة ما انتظر الصلاة » وهذه أيضا نعمة عظيمة لو بقيت منتظرا للصلاة مدة طويلة وأنت جالس لا تصلي بعد أن صليت تحية المسجد وما شاء الله فإنه يحسب لك أجر الصلاة « لا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » .

وهناك أيضا شيء رابع : أن الملائكة تصلي عليه ما دام في مجلسه الذي صلى فيه تقول : « اللهم صل عليه ، اللهم اغفر له اللهم ارحمه ، اللهم ثب عليه » وهذا أيضا فضل عظيم لمن حضر بهذه النية وبهذه الأفعال .

والشاهد من هذا الحديث قوله : « ثم خرج من بيته إلى المسجد لا يخرج إلا الصلاة » فإنه يدل على اعتبار النية في حصول هذا الأجر العظيم .

أما لو خرج من بيته لا يريد الصلاة فإنه لا يكتب له هذا الأجر مثل أن يخرج من بيته إلى دكانه لما أذن ذهب يصلي فإنه لا يحصل على هذا الأجر لأن الأجر إنما يحصل لمن خرج من البيت لا يخرج إلا الصلاة .

لكن ربما يكتب له الأجر من حين أن ينطلق من دكانه أو من مكان يبعه وشرائه إلى أن يصل إلى المسجد ما دام انطلق من هذا المكان وهو على طهارة . والله الموفق .

١١ - وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : « إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ : فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ » كتابته للحسنات والسيئات تشمل معنيين :
 المعنى الأول : كتابة ذلك في اللوح المحفوظ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [سورة القمر، الآية : ٤٩] وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴾ ^(٢) [سورة القمر، الآية : ٥٣] فالله ﷻ كتب السيئات والحسنات في اللوح المحفوظ .
 والمعنى الثاني : كتابته إِيَّاهُمَا إِذَا عَمِلَهَا الْعَبْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْتُبُهَا حَسَبَ مَا تَقْضِيهِ حَكْمَتُهُ وَحَسَبَ مَا يَقْضِيهِ عَدْلُهُ وَفَضْلُهُ .

فهاتان كتابتان :

كتابة سابقة : لا يعلمها إِلَّا اللَّهُ ﷻ فكل واحد منا لا يعلم ماذا كتب الله له من خير أو شر حتى يقع ذلك الشيء .

وكتابة لاحقة : إِذَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ الْعَمَلَ كُتِبَ لَهُ حَسَبَ مَا تَقْضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ وَالْفَضْلُ : « ثُمَّ يَبَيِّنُ ذَلِكَ » أَي : ثُمَّ يَبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ كَيْفَ يُكْتُبُ فَبَيْنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ حَسَنَةً كَامِلَةً .

مثاله : رجل هم أن يتوضأ ليقراً القرآن ، ثم لم يفعل ذلك وعدل عنه فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة .
 هم أن يتصدق وعين المال الذي يريد أن يتصدق به ثم أمسك ولم يتصدق فيكتب له بذلك حسنة كاملة . هم أن يُصلي ركعتين فأمسك ولم يُصلِّ فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة .

فإن قال قائل : كيف يكتب له حسنة وهو لم يفعلها ؟

فالجواب على ذلك : أن يُقال : إن فضل الله واسع ، هذا الهَمُّ الذي حدث منه يعتبر حسنة لأن القلب همام إما بخير أو بشر ، فإذا هم بالخير فهذه حسنة تُكْتُبُ له فإن عملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩١) ، ومسلم في الإيمان (٢٠٧) ، وأحمد في مسنده (٣١٠/١) .

(٢) أي وكل صغير وكبير من الأمور والأعمال . ومنها الذنوب : مسطور عندنا ومحصى على صاحبه . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٦٨٦) .

وهذا التفاوت مبني على الإخلاص والمتابعة فكلما كان الإنسان في عبادته أخلص لله كان أجره أكثر وكلما كان الإنسان أتبع في عبادته للرسول ﷺ كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر .

أما السيئة فقال : « وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة » كرجل هم أن يسرق ولكن ذكر الله ﷻ فأدركه خوف الله فترك السرقة ، فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة لأنه ترك فعل المعصية لله فأثيب على ذلك كما جاء ذلك مفسراً في لفظ آخر : « لأنه تركها من جراي » ^(١) أي من أجلي .
فإن عمل السيئة كتبت سيئة واحدة فقط لا تزيد لقوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام، الآية : ١٦٠] .

وهذا الحديث فيه : دليل على اعتبار النية وأن النية قد توصل صاحبها إلى الخير .

وسبق لنا أن الإنسان إذا نوى الشر وعمل العمل الذي يوصل إلى الشر ولكنه عجز عنه فإنه يكتب عليه إثم الفاعل كما سبق فيمن التقي بسيفيهما من المسلمين : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « لأنه كان خريصاً على قتل صاحبه » ^(٢) والله الموفق .

* * *

١٢ - وعن أبي عبيد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « انْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمْ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ ، فَاخْدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ . فَقَالُوا : إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ . قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا . فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا فَلَمْ أُرِخْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ فَكْرَهْتُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا ، فَلَبِثْتُ - وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ - أَنْتَظِرُ اسْتِيقَازَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصَّبِيئَةُ يَتَضَاغُونَ عِنْدَ قَدَمِي - فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غُبُوقَهُمَا . اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرَّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ ، فَاَنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ . قَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمَّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ » وفي رواية : « كُنْتُ أَحْبَبَهَا كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ ، فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فَاِمْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السِّنِينَ ، فَجَاءَنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةً دِينَارَ عَلَى أَنْ تُحَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَقَعَلَتْ ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا » وفي رواية : « فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا ، قَالَتْ : اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُفْضِ الْحَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ، فَاِنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطِيتُهَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١) - واللفظ له - ومسلم في الفتن وأشرط الساعة (١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١) ، ومسلم في الفتن (١٥) .

فَأَفْرَجَ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا . وَقَالَ الثَّالِثُ : اللَّهُمَّ اسْتَأْجِرْتُ أَجْرَاءَ وَأَعْطَيْتَهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ . وَذَهَبَ ، فَتَمَرَّتْ أَجْرُهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأُمُوالُ ، فَجَآءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ أَذِلِّي أَجْرِي ، فَقُلْتُ : كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ : مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ . فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي ! فَقُلْتُ : لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَأْفَقَهُ فَلَمْ يَتْرِكْ مِنْهُ شَيْئًا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَأَفْرَجَ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْسُحُونَ ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « انطلق ثلاثة نفر » أي : ثلاثة رجال . « فأواهم المبيت فدخلوا في غار » يعني ليبيتوا فيه ، والغار : هو ما يكون في الجبل مما يدخله الناس يبيتون فيه أو يتظللون فيه عن الشمس وما أشبه ذلك . فهم دخلوا حين أواهم المبيت إلى هذا الغار فتدخرجت عليهم صخرة من الجبل حتى سَدَّتْ عليهم باب الغار ، ولم يستطيعوا أن يزحزحوها لأنها صخرة كبيرة . فرأوا أن يتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم .

فذكر أحدهم برّه التام بوالديه ، وذكر الثاني عِفَّتَهُ التامة ، وذكر الثالث وَرَعَهُ ونُصَحَهُ . أمّا الأول : يقول : إنّه كان له أبوان شيخان كبيران « وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً » الأهل مثل الزوجة والأولاد والمال مثل الأرقاء وشبهه . وكان له غنم فكان يشرح فيها ثم يرجع في آخر النهار ويحلب الغنم ويعطي أبويه الشيخين الكبيرين ، ثم يعطي بقية أهله وماله : يقول : « فنأى به طلب الشجر ذات يوم » أي أبعد بي طلب الشجر الذي يرعاه ؛ فرجع فوجد أبويه قد ناما ، فنظر هل يسقي أهله وماله قبل أبويه أو ينتظر حتى يستيقظ الأبوان ، فرجع الثاني : يعني أنّه بقي فأمسك الإناء بيده حتى برق الفجر ، أي حتى طلع الفجر وهو ينتظر أبويه فلما استيقظا وشربا اللبن أشقى أهله وماله . قال : « اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرَجَ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ » والمعنى : إِنْ كُنْتُ مَخْلَصًا فِي عَمَلِي هَذَا ، فَعَلْتُهُ مِنْ أَجْلِكَ ، فَفَرَجَ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ .

وفي هذا : دليلٌ على الإخلاص لله ﷻ في العمل : وأن الإخلاص عليه مدار كبير في قبول العمل ، فتقبل الله منه هذه الوسيلة وانفرجت الصخرة لكن انفراجاً لا يستطيعون الخروج منه .

الثاني : توسل إلى الله ﷻ بالعِفَّة التامة ؛ وذلك أنه كان له ابنة عمّ وكان يحبها حبّاً شديداً كأشد ما يحب الرجال النساء « فأرادها عن نفسها » أي بالزنى ليزني بها ، ولكنها لم توافق وأبَتْ فألتم بها سنة من السنين ، أي أصابها فقر وحاجة فاضطرت إلى أن تجود بنفسها في الزنى من أجل الضرورة - وهذا لا يجوز - ولكن هذا الذي حصل فجاءت إليه فأعطاه مائة وعشرين ديناراً أي مائة وعشرين

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٢) بلفظ « انطلق ثلاثة رهط .. » ، ومسلم في الذكر والدعاء (١٠٠) .

جنيهاً من أجل أن تتمكن من نفسها .

ففعلت من أجل الحاجة والضرورة ، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته على أنه يُريد أن يفعل بها قالت له هذه الكلمة العجيبة العظيمة : « اتق الله ولا تنقض الخاتم إلا بحقه » .

فخوفته بالله ﷻ وأشارت إليه . إلا أنه إن أراد هذا بالحق فلا مانع عندها لكن كونه يفرض الخاتم بغير حق ، هي لا تريده ، ترى أن هذا من المعاصي ولهذا قالت له : اتق الله ، فلما قالت له هذه الكلمة التي خرجت من أعماق قلبها دخلت في أعماق قلبه ، وقام عنها وهي أحب الناس إليه ، يعني ما زالت رغبته عنها ولا كرهها بل حبها باقي في قلبه ، لكن أدركه خوف الله ﷻ فقام عنها وترك لها الذهب الذي أعطاهما مائة وعشرين ديناراً ، ثم قال : « اللهم إن كنت فعلت هذا لأجلك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة إلا أنهم لا يستطيعون الخروج » وهذا من آيات الله ؛ لأن الله على كل شيء قدير ، لو شاء الله تعالى لانفرجت عنهم لأول مرة ، ولكنه ﷻ أراد أن يبقى هذه الصخرة حتى يتم لكل واحد منهم ما أراد أن يتوصل به من صالح الأعمال .

* * *

أما الثالث : فتوصل إلى الله ﷻ بالأمانة والإصلاح والإخلاص في العمل فإنه يذكر أنه استأجر أجراً ، على عمل من الأعمال فأعطاهم أجورهم إلا رجلاً واحداً ترك أجره فلم يأخذه . فقام هذا المستأجر فثمّر المال فصار يتكسب به بالبيع والشراء وغير ذلك حتى نما وصار منه إبل وبقر وغنم ورقيق وأموال عظيمة .

فجاءه بعد حين فقال له : يا عبد الله ، أعطني أجري . فقال له : كل ما ترى فهو لك من الإبل والبقر والغنم والريق : فقال : لا تستهزئ بي ، الأجرة التي لي عندك قليلة كيف لي كل ما أرى من الإبل والبقر والغنم والريق ؛ لا تستهزئ بي . « فقلت : هو لك فأخذه واستاقه كله ولم يترك له شيئاً » . « اللهم إن كنت فعلت ذلك من أجلك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة وانفتح الباب فخرجوا يمشون » لأنهم توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم التي فعلوها إخلاصاً لله ﷻ .

ففي هذا الحديث من الفوائد والعبر : فضيلة بر الوالدين وأنه من الأعمال الصالحة التي يفرج بها الكربات ويزيل بها الظلمات .

وفيه : فضيلة العفة عن الزنى وأن الإنسان إذا عف عن الزنى مع قدرته عليه فإن ذلك من أفضل الأعمال وقد ثبت عن النبي ﷺ أن هذا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ » (١) .

فهذا الرجل مكنته هذه المرأة التي يحبها من نفسها فقام خوفاً من الله ﷻ فحصل عنده كمال

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ، ومسلم في الزكاة (٩١) .

الِيفَةُ فيرجى أن يكون بمن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله :
وفي هذا الحديث : دليل على فضل الأمانة ، وإصلاح العمل للغير فإن هذا الرجل بإمكانه لما جاءه
الأجير أن يعطيه أجره ويبقى هذا المال له ، ولكن لأمانته وثقتِهِ وإخلاصه لأخيه ونُصحه له أعطاه كل
ما أثمر أجره .

ومن فوائد هذا الحديث : بيان قدرة الله ﷻ ، حيث إنه تعالى أزال عنهم الصخرة بإذنه ، لم تأت
سيارة تزليها ، ولم يأت رجال يزحزونها ، وإنما هو أمر الله ﷻ !
أمر الله هذه الصخرة أن تنحدر فتطبق عليهم ثم أمرها أن تنفر عنهم والله سبحانه على كل
شيء قدير .

وفيه من العبر : أن الله سميع الدعاء فإنه سَمِعَ دُعاء هؤلاء واستجاب لهم .
وفيه من العبر : أن الإخلاص من أسباب تفريج الكربات لأن كل واحد منهم يقول : « اللهم إن
كُنْتُ فَعَلْتُ ذلك من أجلك فافرج عَنَّا ما نحن فيه » .
أما الرِّياء - والعياذ بالله - والذي لا يعمل الأعمال إلا رياءً وسمعةً حتى يُمدح عند الناس فإن هذا
كالزبد يذهب جفاءً لا ينتفع منه صاحبه ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإخلاص له .
الإخلاص هو كل شيء : لا تجعل نصيباً من عبادتك لأحد ، اجعلها كلها لله ﷻ حتى تكون
مقبولة عند الله ؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله أنه قال : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك
مَنْ عَمِلَ عَمَلًا شَرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ » (١) والله الموفق .

* * *

٢ - بَابُ التَّوْبَةِ

قال العلماء : التوبة واجبة من كُلِّ ذَنْبٍ ، فإن كانت المَعْصِيَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَتَعَلَّقُ
بِحَقِّ آدَمِي ؛ فَلَهَا ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ :
أَحَدُهَا : أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ .
وَالثَّانِي : أَنْ يَدْمَ عَلَى فِعْلِهَا .
وَالثَّالِثُ : أَنْ يَغْزَمَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا : فَإِنْ فَقَدَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ لَمْ تَصَحَّ تَوْبَتُهُ :

وإن كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ تَتَعَلَّقُ بِآدَمِي فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ : هَذِهِ الثَّلَاثَةُ ، وَأَنْ يَرَى مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا ؛ فَإِنْ
كَانَتْ مَالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَهُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ حَدًّا قَذْفَ وَنَحْوَهُ مَكَّنَتْهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ ، وَإِنْ كَانَتْ غِيبةً

استحلّه منها . ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحّت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقي عليه الباقي . وقد تظاهرت دلائل الكتاب ، والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة :

قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور، الآية : ٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَسْتَفْهَرُوا فَكَفِّرُوا ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ [سورة هود، الآية : ٣] : وقال تعالى : ﴿ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ^(١) ﴾ [سورة التحريم، الآية : ٨] .

الشرح

التوبة لغة : من تاب يتوب إذا رجع ، وشرعاً : الرجوع من معصية الله تعالى إلى طاعته . وأعظمها وأوجبها التوبة من الكفر إلى الإيمان . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [سورة الأنفال، الآية : ٣٨] ثم يليها التوبة من كبائر الذنوب : ثم المرتبة الثالثة التوبة من صغائر الذنوب .

والواجب على المرء ، أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل ذنب .

وللتوبة شروط ثلاثة كما قال المؤلف رحمته الله ولكنها بالتبع تبلغ خمسة :

الشرط الأول : الإخلاص لله ، بأن يكون قصد الإنسان بتوبته وجه الله تعالى وأن يتوب الله عليه ، ويتجاوز عما فعل من المعصية : لا يقصد بذلك مراعاة الناس والتقرب إليهم ، ولا يقصد بذلك دفع الأذية من السلطان وولي الأمر . وإنما يقصد بذلك وجه الله والدار الآخرة أن يعفو الله عن ذنوبه .

الشرط الثاني : الندم على ما فعل من المعصية ؛ لأن شعور الإنسان بالندم هو الذي يدل على أنه صادق في التوبة ، يعني بمعنى أن يتحسر على ما سبق منه ، وينكسر من أجله ولا يرى أنه في حل منه حتى يتوب منه إلى الله .

الشرط الثالث : أن يقلع عن الذنب الذي هو فيه وهذا من أهم شروطه . والإقلاع عن الذنب إن كان الذنب ترك واجب فالإقلاع عنه بفعله مثل أن يكون شخص لا يؤركي فأراد أن يتوب إلى الله فلا بد من أن يخرج الزكاة التي مضت ولم يؤدها .

إذا كان الإنسان مقصراً في بر الوالدين فإنه يجب عليه أن يقوم بيهما . وإذا كان مقصراً في صلة الرحم فإنه يجب عليه أن يصل الرحم .

وإن كانت المعصية بفعل محرم فالواجب أن يقلع عنه فوراً ، ولا يبقى فيه ولا لحظة . وإذا كان مثلاً

(١) توبة نصوحاً : بالغة في النصح وهي أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعذر إلى الله تعالى ثم لا يعود إليه ، أو توبة ترفو خروقه في دينه وتزئم خلله . من نصح الثوب : أي خالسه ، أو توبة خالصة من قولهم غسل ناصح إذا خلص من الشمع . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٧٣٣) .

من آكلي الربا فالواجب أن يتخلص من الربا بتركه والبعد عنه وإخراج ما اكتسبه عن طريق الربا .
إذا كانت المعصية بالغش والكذب على الناس وخيانة الأمانة ، فالواجب أن يُقلع عن ذلك ، وإذا
كان اكتسب مالا من هذا الطريق المحرم فالواجب عليه أن يَرُدَّه إلى صاحبه أو يستحله منه .

إذا كانت غيبة فالواجب أن يقلع عن غيبة الناس والتكلم في أعراضهم ، أما أنه يقول إنه تائب إلى
الله وهو مصرّ على ترك الواجب أو مصرّ على فعل المحرم ، فإن هذه التوبة غير مقبولة . بل إن هذه
التوبة كالاستهزاء بالله ﷻ ، كيف تتوب إلى الله ﷻ وأنت مُصرّ على معصيته ؟!

لو أنك تُعامل بشراً من الناس ، تقول : أنا تُبْتُ إليك وأنا نادم لا أعود ثم في نيتك وقلبك أنك
ستعود وُعِدْتَ فإن هذه سخرية بالرجل فكيف بالله رب العالمين ؟!

فالإنسان التائب حقيقة هو الذي يُقلع عن الذنب ، ومن الغريب أن بعض الناس تجلس إليه ، وتجده
يتأوه من وجود الربا وهو في نفسه يُرايى والعياذ بالله !!

أو يتأوه من الغيبة وأكل لحوم الناس وهو من أكثر الناس غيبة نسأل الله العافية !!

أو يتأوه من الكذب وضياع الأمانة عند الناس ، وهو من أكذب الناس وأضيعهم للأمانة !!
على كل حال الإنسان لابد أن يقلع عن الذنب الذي تاب منه ، فإن لم يقلع فتوبته مردودة
ولانفعه عند الله ﷻ .

* * *

والإقلاع عن الذنب إما أن يكون إقلاعا عن ذنب يتعلّق بحق الله ﷻ فهذا يكفي أن تتوب بينك
وبين ربك ولا ينبغي بل قد نقول : لا يجوز أن تحدث الناس بما صَنَعْتَ من المحرم أو ترك الواجب ؛
لأن هذا بينك وبين الله فإذا كان الله قد مَنَّ عليك بالستر ، وسترك عن العباد فلا تحدث أحداً بما
صَنَعْتَ إذا تُبْتُ إلى الله .

وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « كُلُّ أُمْتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ » ^(١) .
ومن المجاهرة ، كما جاء في الحديث : « أن يفعل الذنب ثم يُصْبِح يحدث به الناس يَقُول : فعلت
كذا وكذا .. » ^(٢) .

إلا أن بعض العلماء قال : إذا فعل الإنسان ذنباً فيه حد فإنه لا بأس أن يذهب إلى الإمام الذي يقيم
الحدود مثل الأمير ويقول إنه فعل الذنب الفلاني ويريد أن يُطهره منه و ذلك فالأفضل أن يستر على
نفسه .

يعني يباح له أن يذهب إلى ولي الأمر إذا فعل معصية فيها حد كالزنى مثلاً فيقول إنه فعل كذا
وكذا يطلب إقامة الحد عليه لأن الحد كفارة للذنب .

أما المعاصي الأخرى فاسترها على نفسك كما سترها الله وكذلك الزنى وشبهه استره على نفسك - بالنسبة لغير ولي الأمر - لا تفضح نفسك .

ما دمت أنك تبت فيما بينك وبين الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات . أما إذا كان الذنب بينك وبين الخلق [أولاً] فإن كان مალًا فلا بد أن تؤديه إلى صاحبه ولا تقبل التوبة إلا بأدائه . مثل أن تكون سرقت مالًا من شخص وتبت من هذا فلا بد أن توصل المسروق إلى المسروق منه .

جحدت حقًا لشخص كأن يكون في ذمتك دين لإنسان وأنكرته ، ثم تبت فلا بد أن تذهب إلى صاحب الدين الذي أنكرته عليه وتقرّ عنده وتعترف حتى يأخذ حقه . فإن كان قد مات فإنك تعطيه ورثته فإن لم تعرفه أو غاب عنك هذا الرجل ولم تعرف له مكانًا فتصدق به عنه تخلصًا منه والله ﷻ يعلمه ويؤديه إليه .

[ثانيًا] أما إذا كانت المعصية التي فعلتها مع البشر ضربًا ومأشبهه ، فاذهب إليه ومكنه من أن يضربك مثلما ضربته إن كان على الظهر فعلى الظهر وإن كان على الرأس فعلى الرأس أو في أي مكان ضربته فليقتص منك لقول الله سبحانه : ﴿ وَحَرِّزُوا سِتْرَةَ سِتْنَةٍ مِّنْهَا ﴾ [سورة الشورى، الآية : ٤٠] . ولقوله : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [سورة البقرة، الآية : ١٩٤] .

[ثالثًا] وإن كان بقول أي : أذية بالقول ، مثل أن تكون قد سببت بين الناس ووبخته وعيّرته فلا بد أن تذهب إليه وتستحل منه بما تتفقان عليه . حتى لو قال لا أسمع لك إلا بكذا وكذا من الدراهم فأعطه . [رابعًا] : أن يكون الحق غيبة ، يعني أنك تكلمت به في غيبته وقدحت فيه عند الناس وهو غائب . فهذه اختلف فيها العلماء فمنهم من قال : لا بد أن تذهب إليه تقول له : يا فلان إني تكلمت فيك عند الناس ، فأرجوك أن تسمح عني وتحلّني .

وقال بعض العلماء : لا تذهب إليه بل فيه تفصيل ! إن كان قد علم بهذه الغيبة فلا بد أن تذهب إليه وتستحله . وإن لم يكن علم فلا تذهب إليه واستغفر له وتحدث بمحاسنه في المجالس التي كنت تغتابه فيها فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وهذا القول أصح وهو أن الغيبة إذا كان صاحبها لا يعلم بأنك اغتبتة فإنه يكفي أن تذكره بمحاسنه في المجالس التي اغتبتة فيها وأن تستغفر له تقول : « اللهم اغفر له » كما جاء في الحديث : « كَفَّارَةٌ مَنْ اغْتَابَتْهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ » ^(١) . فلا بد في التوبة من أن تصل الحقوق إلى أهلها .

أما الشرط الرابع : فهو العزم على أن لا تعود في المستقبل إلى هذا العمل . فإن كنت تنوي أن

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٤٥/٢) من طرق معظمها ضعيف وقال « وبمجموع هذا يبعد الحكم عليه بالوضع وإن كان أصح من حديث أبي هريرة رفعه من كانت عنده مظلمة لأخيه فليستحله منها » .

تعود إليه عندما تسمح لك الفرصة فإن التوبة لا تصح مثل : رجل كان - والعياذ بالله - يستعين بالمال على معصية الله . يشتري به المسكرات ، يذهب إلى البلدان من أجل الزنى - والعياذ بالله - والشكر !! فأصيب بفقر وقال : اللهم إني تبت إليك ، وهو كاذب ، هو في نيته أنه إذا عادت الأمور إلى مجاريها الأولى فعل فعله الأول .

فهذه توبة عاجز ، ثبتت أم لم تثبت لست بقادر على فعل المعصية ؛ لأنه يوجد بعض الناس يُصاب بفقر فيقول : تركت الذنوب ، لكن يُحدث قلبه أنه لو عاد إليه ما افتقده ، لعاد إلى المعصية مرة ثانية فهذه توبة غير مقبولة .

* * *

الشرط الخامس : أن تكون في زمن تُقبل فيه التوبة فإن تاب في زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة . وذلك على نوعين :

النوع الأول : باعتبار كل إنسان بحسبه .

والنوع الثاني : باعتبار العموم .

أما الأول : فلا بد أن تكون التوبة قبل حلول الأجل يعني الموت ، فإن كانت بعد حلول الأجل فإنها لا تنفع التائب لقول الله سبحانه : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنَ ﴾ [سورة النساء، الآية : ١٨] هؤلاء ليس لهم توبة .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ إِلَيْهِ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

فالإنسان إذا عاين الموت وحضره الأجل فهذا يعني أنه أيس من الحياة فتكون توبته في غير محلها ! بعد أن يئس من الحياة وعرف أنه لا بقاء له يذهب فيتوب ! هذه توبة اضطرار فلا تنفعه ولا تُقبل منه لابد أن تكون التوبة سابقة .

النوع الثاني : وهو العموم فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أخبر بأن « الهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » ^(١) .

فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تنفع أحدًا توبة . قال الله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَعْيَانِ رِبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [سورة الأنعام، الآية : ١٥٨] وهذا البعض هو طلوع الشمس من مغربها كما فسر ذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - .

إذا فلا بد أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان . ثم

(١) انظر الحديث في مسند الإمام أحمد في مسنده (٩٩/٤) ، وأبو داود في السنن (٢٤٧٩) .

اختلف العلماء - رحمهم الله - هل تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره أو لا ؟
في هذا ثلاثة أقوال لأهل العلم !

١ - منهم من قال : إنها تصح التوبة من الذنب وإن كان مصيرًا على ذنب آخر ، فتقبل توبته من هذا الذنب ويبقى الإثم عليه في الذنب الآخر بكل حال .

٢ - ومنهم من قال : لا تقبل التوبة من الذنب مع الإصرار على ذنب آخر .

٣ - ومنهم من فصل فقال : إن كان الذنب الذي أصر عليه من جنس الذنب الذي تاب منه فإنها لا تُقبل ، وإن لا قُبِلَتْ !

مثال ذلك : رجل تاب من الربا ولكنه يَزْنِي والعياذ بالله أو يشرب الخمر ولنقل أنه يشرب الخمر ، تاب من الربا ولكنه مُصِرٌّ على شرب الخمر .

فهنا من العلماء من قال : إن توبته من الربا لا تقبل كيف يكون تائبًا إلى الله وهو مُصِرٌّ على معصيته ؟ !
وقال بعض العلماء : بل تقبل لأن الربا شيء وشرب الخمر شيء آخر وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف رحمته وقال إنها تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره عند أهل الحق . فهذا فيه الخلاف أما إذا كان من الجنس مثل أن يكون الإنسان والعياذ بالله مُبْتَلًى بالزنى ومبتلى بالاطلاع على النساء والنظر إليهن بشهوة وما أشبه ذلك فهل تقبل توبته من الزنى وهو مُصِرٌّ على النظر إلى النساء لشهوة ؟ أو بالعكس ؟ هذا فيه - أيضًا - خلاف فمنهم من يقول : تصح ومنهم من يقول لا تصح التوبة .

ولكن الصحيح في هذه المسألة أن التوبة تصح من كل ذنب مع الإصرار على غيره لكن لا يُعطى الإنسان اسم التائب على سبيل الإطلاق ولا يستحق المدح الذي يمدح به التائبون ؛ لأن هذا لم يَتَّبِ توبة تامة بل توبة ناقصة .

تاب من هذا الذنب فارتفع عنه إثمهُ ، لكنه لا يستحق أن يُوصف بالتوبة على سبيل الإطلاق . فهذا هو القول الذي تطمئن إليه النفس أنه لا يعطى الوصف على سبيل الإطلاق ولا يحرم من التوبة التي تابها من هذا الذنب .

* * *

سبق أن المؤلف رحمته قال : إن النصوص من الكتاب والسنة تظاهرت وتضافرت على وجوب التوبة من جميع المعاصي ، وصدق رحمته فإن الآيات كثيرة في الحث على التوبة ، وبيان فضلها ، وأجرها ، وكذلك الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد بين الله في كتابه أنه سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين ؛ التوابون الذين يكثرون التوبة إلى الله صلى الله عليه وسلم كلما أذنبوا ذنبًا تابوا إلى الله .

ذكر المؤلف من الآيات قول الله تعالى : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[النور: ٣١] هذه الجملة ختم الله بها آيتي وجوب غض البصر .

وهي قوله : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [١] وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ﴿ إلى قوله : ﴿ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ وَيُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [النور: ٣٠ ، ٣١] .

ففي هذه الآية : دليل على وجوب التوبة من عدم غض البصر وحفظ الفرج ؛ لأن غض البصر قصره وعدم إطلاقه ، ولأن ترك غض البصر وحفظ الفرج كل ذلك من أسباب الهلاك وأسباب الشقاء وأسباب البلاء وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » (١) و « إن أول فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ » (٢) .

ولهذا كان أعداؤنا أعداء الإسلام ، بل أعداء الله ورسوله من اليهود والنصارى والمشركين والشيوعيين وأشباههم وأذئابهم وأتباعهم ، كل هؤلاء يحرصون غاية الحرص على أن يفتنوا المسلمين بالنساء ، يَدْعُونَ إِلَى التَّبَرُّجِ ، يَدْعُونَ إِلَى اخْتِلَاطِ الْمَرْأَةِ بِالرَّجُلِ ، يَدْعُونَ إِلَى التَّفْسِخِ فِي الْأَخْلَاقِ ، يَدْعُونَ إِلَى ذَلِكَ بِالنِّسْتَهْمِ وَأَقْلَامِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . لأنهم يعلمون أن الفتنة العظيمة التي ينسى بها الإنسان ربه ودينه إنما تكون في النساء .

النساء اللاتي يفتن أصحاب العقول كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِخْدَاكُنَّ » (٣) . هل تريد شيئاً أئين من هذا . أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ ! فما بالك بالمهين الذي ليس عنده حَزْمٌ وَلَا عَزْمٌ وَلَا دِينَ وَلَا رُجُولَةٌ يكون أشد وأشد والعياذ بالله .

لكن الرجل الحازم تذهب النساء عقله نسأل الله العافية ، وهذا هو الواقع لذلك قال الله عقب الأمر بغض البصر بقوله : ﴿ وَيُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [النور: ٣١] فيجب علينا أن نتواصى بالتوبة ، وَأَنْ يَتَّقُوا بَعْضُنَا بَعْضًا هَلِ الْإِنْسَانُ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ بَقِيَ مَصْرًا عَلَيْهِ ؟! لَأَنَّهُ وَجْهَ الْخَطَابِ لِلْجَمِيعِ : ﴿ وَيُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [النور: ٣١] وفي قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴾ دليل على أن التوبة من أسباب الفلاح ، والفلاح كما قال أهل العلم بالتفسير وباللغة : أنها كلمة جامعة يَحْصُلُ بِهَا الْمَطْلُوبُ وَيَزُولُ بِهَا الْمَرْهُوبُ .

وكل إنسان يَطْلُبُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، حتى الكافر يريد الخير . لكن من الناس من يُوَفِّقُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُوَفِّقُ .

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٩٨) ، والإمام أحمد (٢٠٠/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٩٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٢/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الحيض (٣٠٤) (٧٩) .

الكافر يُريد الخير لكنّه يريد خير الدنيا لأنه رجل بهيمي هو شرُّ الدواب عند الله : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: ٥٥] شر من كل دابة تدب على الأرض .. الكافر ، ومع ذلك يُريد الخير والرفاهية والتَّعَمُّمُ بهذه الدنيا لكنها - أي الدنيا - جنته ، والآخرة - والعياذ بالله - عذابه وناره المهمُّ أن كل إنسان يُريد الفلاح لكن حسب الهمة . من أسباب الفلاح : التوبة إلى الله ﷻ كما في الآية . والله الموفق .

* * *

١٣ - وعن أبي هريرة ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « واللّٰه إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » ^(١) رواه البخاري .

١٤ - وعن الأغر بن يسار المزني ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها النّاس تُوبُوا إلى الله واستغفروهُ ؛ فإنّي أتوب في اليوم مائة مرّة » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

تقدم الكلام على ما ذكره المؤلف ﷺ من وجوب التوبة وشروطها وما ساقه من الآيات الدالة على وجوبها : وهذان الحديثان ذكرهما المؤلف ﷺ ليستدل على ذلك بالسنة .

لأنه كلما تضافرت الأدلة على شيء قوي وصار أوكد وصار أوجب ، فذكر حديث أبي هريرة ؓ ، عن النبي ﷺ أنه أقسم بأنّه يستغفر الله ويتوب إليه أكثر من سبعين مرة .

هذا وهو الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر . وفي حديث الأغر بن يسار المزني أنه ﷺ قال : « يا أيها الناس تُوبُوا إلى الله واستغفروهُ فإنّي أتوب إلى الله في اليوم مائة مرّة » .

ففي هذين الحديثين : دليل على وجوب التوبة لأن النبي ﷺ أمر بها فقال : « يا أيها النّاس تُوبُوا إلى الله » فإذا تاب الإنسان إلى ربه ، حصل بذلك فائدتين :

الفائدة الأولى : امتثال أمر الله ورسوله ؛ وفي امتثال أمر الله ورسوله كل خير : فعلى امتثال أمر الله ورسوله تدور السعادة في الدنيا والآخرة .

والفائدة الثانية : الاقتداء برسول الله ﷺ ، حيث كان ﷺ يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة يعني يقول : أتوب إلى الله ، أتوب إلى الله .. إلخ .

والتوبة لا بد فيها من صدق بحيث إذا تاب الإنسان إلى الله أقْلَعَ عن الذنب . أما الإنسان الذي يتوب بلسانه ، وقلبه منطوي على فعل المعصية ، أو على ترك الواجب ، أو يتوب إلى الله بلسانه ،

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤٢) وليس فيه « واستغفروه » ، وأحمد بنحوه في مسنده (٢٦١/٤) .

وجوارحه مُصيرة على فعل المعصية فإن توبته لا تنفعه بل إنها أشبه ما تكون بالاستهزاء بالله ﷻ !
كيف تقول : أتوب إلى الله من معصية وأنت مُصِرٌّ عليها أو تقول : أتوب إلى الله من معصية
وأنت عازم على فعلها ؟

الإنسان لو عامل بشراً مثله بهذه المعاملة لقال : هذا يسخر بي ويستهزئ بي !! كيف يتنصل من
أمرٍ عندي وهو متلبس به ما هذا إلا هزؤ ولعب فكيف برب العالمين ؟!

إن من الناس من يقول إنه تائب من الربا ولكنه - والعياذ بالله - مُصِرٌّ عليه !! يُمارس الربا صريحاً
ويعارس الربا مخادعة وقد مر بنا - كثيراً - أن الذي يمارس الربا بالمخادعة أعظم إثماً وجُرماً من الذي
يعارس الربا بالصراحة . لأن الذي يمارس الربا بالمخادعة جَنَى على نفسه مرتين :

أولاً : الوقوع في الربا ، وثانياً : مخادعة الله ﷻ وكأن الله لا يعلم . وهذا يوجد كثيراً في الناس
اليوم الذين يتعاملون في الربا صريحاً أمرهم واضح لكن من الناس من يتعامل في الربا خيانة ومخادعة .
تجد عنده أموالاً لها سنوات عديدة في الدكان فيأتي الغني بشخص فقير يقوده للمذبحة والعياذ بالله !!
فيأتي إلى صاحب الدكان الذي عنده هذه البضاعة ويبيعها على الفقير بالدين بيعاً صُورياً . وكل
يعلم أنه ليس بيعاً حقيقياً لأن هذا المشتري المدين لا يقبله ولا ينظر إليه ولا يهمه بل لو كان أكياساً من
الرمل ويبتع عليه على أنها أرز أو سكر أخذها .

يهمه أن يقضي حاجة فيبيعها عليه مثلاً بعشرة آلاف لمدة سنة وينصرف بدون أن ينقلها من مكانها ثم
يبيعها هذا المدين على صاحب الدكان بتسعة آلاف مثلاً فيؤكل هذا الفقير من وجهين : من جهة هذا الذي
دُثِّبَ ، ومن جهة صاحب الدكان ويقولون : إن هذا صحيح . بل يسمونه التصحيح يقول قائلهم : أصحح
عليك ، أو أصحح لك كذا وكذا ؟ . سبحان الله هل هذا تصحيح ؟ هذا تلطيخ بالذنوب والعياذ بالله !!
ولهذا يجب علينا - إذا كنا صادقين مع الله ﷻ في التوبة - أن نطلع عن الذنوب والمعاصي
إقلاعاً حقيقياً ونكرها ونندم على فعلها حتى تكون التوبة توبة نصوحاً .

وفي هذين الحديثين : دليل على أن نبينا محمداً ﷺ أشد الناس عبادة لله وهو كذلك .

فإنه أحشانا لله ، وأتقانا لله ، وأعلمنا بالله صلوات الله وسلامه عليه .

وفيه : دليل على أنه عليه الصلاة والسلام مُعَلِّم الخير بلسانه وفعاله .

فكان يستغفر الله ويأمر الناس بالاستغفار حتى يتأسوا به امتثالاً للأمر واتباعاً للفعل .

وهذا من كمال نُصْحِهِ صلوات الله وسلامه عليه لأمتة . فينبغي لنا نحن - أيضاً - أن نتأسى به ،
إذا أمرنا الناس بأمر أن نكون أول من يمثل هذا الأمر .

وإذا نهيناهم عن شيء أن نكون أول من ينتهي عنه ؛ لأن هذه هي حقيقة الداعي إلى الله بل هذه
حقيقة الدعوة إلى الله ﷻ أن تفعل ما تأمر به وتترك ما تنهى عنه ، كما كان الرسول ﷺ يأمرنا

بالتوبة وهو عليه الصلاة والسلام يتوب أكثر منا ، نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم وأن يهدينا وإياكم صراطاً مستقيماً . والله الموفق .

* * *

١٥ - وعن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري خادِم رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ » متفق عليه وفي رواية لمسلم : « اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، وَقَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ يَخْطُمُهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » (١) .

الشرح

قوله ﷺ : « خادم النبي ﷺ » وكان ﷺ حين قدم النبي ﷺ المدينة أتت به أمه إلى رسول الله ﷺ وقالت له هذا أنس بن مالك يخدمك ، فقبل النبي ﷺ ذلك وصار أنس من خدام النبي ﷺ . ذكر أنس ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي سَقَطَ عَنْ رَاحِلَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَضَلَّهَا » وذكر القصة ...

رجل كان بأرض فلاة ، ليس حوله أحد لا ماء ولا طعام ولا أناس : ضلَّ بَعِيرَهُ : أي ضاع فجعل يطلبه فلم يجده فذهب إلى شجرة ونام تحتها ينتظر الموت ! قد أيس من بَعِيرِهِ وأيس من حياته ؛ لأن طعامه وشربه على بَعِيرِهِ والبَعِيرُ قد ضاع . فبينما هو كذلك إذا بناقته عنده قد تعلق خطامها بالشجرة التي هو نائم تحتها . فبأي شيء تُقَدَّرُونَ هذا الفرح ؟!

هذا الفرح لا يمكن أن يتصوره أحد إلا من وقع في مثل هذه الحال !! لأنه فرح عظيم ، فرح بالحياة بعد الموت !

ولهذا أخذ بالخطام فقال : « اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ » !! « أراد أن يُثْنِي عَلَى اللَّهِ فيقول : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ لَكِنْ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ أَخْطَأَ فَقَلَّبَ الْقِصَّةَ .

ففي هذا الحديث : دليل على فرح الله ﷻ بالتوبة من عبده إذا تاب إليه وأنه يحب ذلك ﷻ محبة عظيمة ولكن لا لأجل حاجته إلى أعمالنا وتوبتنا فالله غني عنا ولكن لمحبتة سبحانه للكرم فإنه يحب أن يعفو وأن يغفر أحب إليه من أن ينتقم ويؤاخذ . ولهذا يفرح بتوبة الإنسان .

(١) أخرج الرواية الأولى البخاري في الدعوات (٦٣٠٩) بلفظها ، ومسلم بنحوها في التوبة (٨) ، الرواية الثانية رواها مسلم في التوبة (٧) .

ففي هذا الحديث : حث على التوبة ؛ لأن الله يحبها وهي من مصلحة العبد .
وفيه : إثبات الفرح لله ﷻ ، فهو ﷻ يفرح ويغضب ويكره ويحب لكن هذه الصفات ليست كصفاتها ؛ لأن الله يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] بل هو فرح يليق بعظمته وجلاله ولا يشبهه فرح المخلوقين ولا يشبه فرح المخلوقين .
وفيه : دليل على أن الإنسان إذا أخطأ في قول من الأقوال ولو كان كفراً سبق لسانه إليه ، فإنه لا يؤاخذ به ! فهذا الرجل قال كلمة كفر ؛ لأن قول الإنسان لربه : « أنت عبدي وأنا ربك » . هذا كفر لا شك فيه .
لكن لما صدر هذا عن خطأ من شدة الفرح صار غير مؤاخذ به ، وكذلك غيرها من الكلمات لو سبب أحداً على وجه الخطأ بدون قصد ، أو طلق زوجته على وجه الخطأ دون قصد ، أو أعتق عبده على وجه الخطأ بدون قصد ، فكل هذا لا يترتب عليه شيء لأن الإنسان لم يقصده فهو كاللغو في اليمين وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْشِ وَالْأَنفُسِ فِي آيَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] بخلاف المستهزئ فإنه يكفر إذا قال كلمة الكفر لقول الله سبحانه : ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوشُ وَلَكَلَّهٖ قُلُوبُنَا وَإِنَّكُمْ لَسَاحِرُونَ ﴾ لا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٥-٦٦] .
فالمستهزئ قصد الكلام وقصد معناه لكن على سبيل السخرية والهزء فلذلك كان كافراً بخلاف الإنسان الذي لم يقصد فإنه لا يعتبر قوله شيئاً . وهذا من رحمة الله ﷻ والله الموفق .

١٦ - وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يتسبط يده بالليل ليثوب مسيء النهار ، ويتسبط يده بالنهار ليثوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) رواه مسلم .

١٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » (٢) رواه مسلم .

١٨ - وعن أبي عبيد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغ » (٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة التي ذكرها المؤلف رضي الله عنه كلها تتعلق بالتوبة .
أما حديث أبي موسى : فقد قال الرسول ﷺ : « إن الله يتسبط يده بالليل ليثوب مسيء النهار .. الحديث » .

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٣١) ، وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (الذكر والدعاء) (٤٣) ، وأحمد بنحوه في مسنده (٤٩٥/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٣٧) ، وأحمد في مسنده (١٣٢/٢) .

وهذا من كرمه ﷺ أنه يقبل التوبة حتى وإن تأخرت . فإذا أذنب الإنسان ذنباً في النهار فإن الله تعالى يقبل توبته ولو تاب في الليل . وكذلك إذا أذنب في الليل وتاب في النهار فإن الله يقبل توبته بل إن الله ييسر يده حتى يتلقى هذه التوبة التي تصدر من عبده المؤمن .

وفي هذا الحديث : دليل على محبة الله ﷻ للتوبة وقد سبق في الحديث السابق في قصة الرجل الذي أضل راحلته حتى وجدها : أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب إليه أشد فرحاً من هذا براحلته . وفيه : إثبات اليد لله ﷻ في حديث أبي موسى وهو كذلك بل له يدان - جلّ وعلا - كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَلَيُنْزِلُنَّ عَلَيْكَ آيَاتُكَ مِنْ رَبِّكَ وَمَا تَدْرِي مَا يَدَاؤُكَ بَلْ يَدَاؤُكَ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] وهذه اليد التي أثبتها الله لنفسه بل اليدين يجب علينا أن نؤمن بهما وأنهما ثابتتان لله . ولكن لا يجوز أن نتوهم أنها مثل أيدينا لأن الله يقول في كتابه :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] وهكذا كل ما مر بك من صفات الله فاثبتها لله ﷻ لكن بدون أن تمثلها بصفات المخلوقين . لأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ﷻ . وفي هذا الحديث : أن الله ﷻ يقبل توبة العبد وإن تأخرت لكن المبادرة بالتوبة هي الواجب لأن الإنسان لا يدري قد يفجأه الموت فيموت قبل أن يتوب . فالواجب المبادرة لكن مع ذلك لو تأخرت تاب الله على العبد .

وفي هذا الحديث : أن الشمس إذا طلعت من مغربها ، انتهى قبول التوبة . ولكن قد يسأل السائل ويقول : هل الشمس تطلع من مغربها ؟ المعروف أن الشمس تطلع من المشرق .

فنقول : نعم هذا هو المعروف والمطرود منذ خلق الله الشمس إلى يومنا هذا . لكن في آخر الزمان يأمر الله الشمس أن ترجع من حيث جاءت فتعكس الدورة !

تدور بالعكس تطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا كلهم حتى الكفار اليهود والنصارى والبوذيين والشيوعيون وغيرهم كلهم يؤمنون . ولكن الذي لم يؤمن قبل أن تطلع الشمس من مغربها لا ينفعه إيمانه . كل يتوب أيضاً ، لكن الذي لم يُتَّب قبل أن تطلع الشمس من مغربها لا تقبل توبته ؛ لأن هذه آية يشهدها كل أحد وإذا جاءت الآيات المنذرة لم تنفع التوبة ولم ينفع الإيمان !

أما حديث أبي هريرة ؓ : في أن الله ﷻ يقبل التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها فهو كحديث أبي موسى .

وأما حديث ابن عمر : « إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغزغر » . أي : ما لم تصل الروح الحلقوم ، فإذا وصلت الروح الحلقوم فلا توبة وقد بينت النصوص الأخرى أنه إذا حضر الموت فلا توبة لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ ﴾ [النساء : ١٨] . فعليك يا أخي المسلم أن تبادر بالتوبة إلى الله من الذنوب وأن تقلع عما كنت متلبساً به من

المعاصي وأن تقوم بما فرطت به من الواجبات وتسأل الله قبول توبتك والله الموفق .

١٩ - وَعَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ : أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عِشَالٍ رضي الله عنه أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْحُقَيْنِ فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكَ يَا زُرُّ ؟ فَقُلْتُ : ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ ، فَقَالَ : إِنْ الْمَلَائِكَةُ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رَضِيَ بِمَا يَطْلُبُ ، فَقُلْتُ : إِنَّهُ قَدْ حَكَ فِي صَدْرِي الْمَسْحَ عَلَى الْحُقَيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ ، وَكُنْتُ امْرَأَةً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ : هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا - أَوْ مُسَافِرِينَ - أَنْ لَا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ . فَقُلْتُ : هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهَوَى شَيْئًا ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَغْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَريٌّ : يَا مُحَمَّدُ ، فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ : « هَاؤُم » فَقُلْتُ لَهُ : وَيَحَكَ اغْضَضُ مِنْ صَوْتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هَذَا ! فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَغْضَضُ . قَالَ الْأَغْرَابِيُّ : الْمَرْءُ يُجِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقُ بِهِمْ ؟ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنَ الْمَغْرِبِ مَسِيرَةَ عَرُوضِهِ - أَوْ يَسِيرِ الرَّايِكِ فِي عَرُوضِهِ - أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا . قَالَ شَفِيئَانِ أَحَدُ الرَّوَاةِ : قَبِلَ الشَّامَ ، خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ . ^(١) رواه الترمذي وغيره وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذا الحديث من أحاديث التوبة التي ساقها المؤلف رحمته الله في بيان متى تنقطع التوبة . لكنه يشتمل على فوائد :

منها : أن زر بن حبيش أتى إلى صفوان بن عيشال رضي الله عنه من أجل العلم ، فقال له صفوان بن عيشال : « إِنْ الْمَلَائِكَةُ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رَضِيَ بِمَا يَطْلُبُ » .

وهذه فائدة عظيمة تدل على فضيلة العلم وطلب العلم والمراد به : العلم الشرعي ، أي علم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما علم الدنيا فللدنيا ، لكن طلب العلم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي فيه الثناء والمدح والحث عليه في القرآن ، السنة . وهو نوع من الجهاد في سبيل الله ، لأن هذا الدين قام بأمرين : قام بالعلم والبيان ، وبالسلاح والسنان .

حتى إن بعض العلماء قال : (إن طلب العلم أفضل من الجهاد في سبيل الله بالسلاح) لأن حفظ الشريعة إنما يكون بالعلم ، والجهاد بالسلاح مبني على العلم ، لا يَسِيرُ المجاهد ولا يُقاتل ولا يحجم ولا

يقسم الغنيمة ولا يحكم بالأسرى إلا عن طريق العلم ، فالعلم هو كل شيء .

ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ يَرْجِعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْإِيمَانَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ووضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب واحتراماً له وتعظيماً له ولا يرد على هذا أن يقول القائل : أنا لا أحس بذلك ! لأنه إذا صح الخبر عن الرسول ﷺ فإنه كالمشاهد عياناً .

أرأيت قوله ﷺ : « ينزلُ ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا حينَ يبقى ثلثُ الليل الآخر يقولُ : مَنْ يَدْعُونِي ؟ فَأَسْتَجِيبُ لَهُ . وَمَنْ يَسْأَلُنِي ؟ فَأُعْطِيهِ . وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي ؟ فَأَغْفِرُ لَهُ » (١) .

نحن لا نسمع هذا الكلام من الله ﷻ لكن لما صُحَّ عن نبينا ﷺ صار كأنا نשמعه ، ولذلك يجب علينا أن نؤمن بما قال الرسول ﷺ وبما صح عنه مما يذكر في أمور الغيب وأن نكون متيقنين لها كما نشاهدها بأعيننا ونسمعها بأذاننا .

ثم ذكر زر بن حبیش لصفوان بن عسال أنه حك في صدره المسح على الخفين بعد البول أو الغائط . يعني أن الله تعالى ذكر في القرآن قوله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] فيقول إنه حك في صدري أي : صار عندي توقف وشك في المسح على الخفين بعد البول أو الغائط هل هذا جائز أو لا ؟

فبين له صفوان بن عسال ﷺ أن ذلك جائز لأن النبي ﷺ أمرهم إذا كانوا سفراً أو مسافرين أن لا ينزعوا خفافهم إلا من جنابة ولكن من غائط وبول ونوم ، فدلَّ هذا على جواز المسح على الخفين بل إن المسح على الخفين أفضل إذا كان الإنسان لابساً لهما : وقد ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ أنه كان مع الرسول ﷺ في سفر فتوضأ النبي ﷺ فأهوى المغيرة لينزع خفيه فقال : « دَعُهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ فَمَسَحَ عَلَيْهِمَا » (٢) .

ففي هذا : دليلٌ واضح على أنَّ الإنسان الذي عليه جوارب أو عليه خفان أن الأفضل أن يمسح عليهما ولا يغسل رجليه .

ومنها : أنه ينبغي إذا أشكل عليه شيء أن يسأل ويبحث عن من هو أعلم بهذا الشيء ، حتى لا يبقى في قلبه حرج مما سمع ؛ لأن بعض الناس يسمع الشيء من الأحكام الشرعية ويكون في نفسه حرج ويبقى متشككاً متردداً لا يسأل أحداً يزيل عنه هذه الشبهة وهذا خطأ ، بل الإنسان ينبغي له أن يسأل حتى يصل إلى أمر مطمئن إليه ولا يبقى عنده قلق .

فهذا زر بن حبیش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل صفوان بن عسال ﷺ عن المسح على الخفين وهل عنده شيء عن

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٠٦) ، مسلم في الطهارة (٧٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٥١/٤) .

رسول الله ﷺ في ذلك فقال نعم ! كان يأمرنا .. الحديث .

فهذا الحديث فيه ثبوت المسح على الخفين وقد تواترت الأحاديث عن الرسول ﷺ في ذلك وأخذ بهذا أهل السنة حتى إن بعض أهل العلم الذين صنفوا في كتب العقائد ذكروا المسح على الخفين في كتاب العقائد وذلك لأن الرافضة خالفوا في ذلك فلم يثبتوا المسح على الخفين وأنكروه . والعجب أن ممن روى المسح على الخفين علي بن أبي طالب عليه السلام .

ومع ذلك هم ينكرونه ولا يقولون به فكان المسح على الخفين من شعار أهل السنة ومن الأمور المتواترة عندهم التي ليس عندهم فيها شك عن رسول الله ﷺ .

قال الإمام أحمد : « ليس في قلبي من المسح شك » أو قال : « شيء فيه أربعون حديثاً عن النبي ﷺ وأصحابه » . ولكن لا بد من شروط لجواز المسح على الخفين :

الشرط الأول : أن يضعهما على طهارة ؛ لأن النبي ﷺ قال للمغيرة بن شعبة عليه السلام حينما أراد أن ينزع خفي النبي ﷺ قال : « دَعُوهما فَإني أدخلتهما طاهرتين فمسح عليهما » .

ولا فرق بين أن تكون هذه الطهارة قد غُسل فيها الرجل أو مسح فيها على خف سابق .
فمثلاً : لو توضأ وضوءاً كاملاً وغسل رجليه ثم لبس الجوارب أو الخفين فهنا لبسهما على طهارة .
كذلك لو كان قد لبس جوارب من قبل ومسح عليهما ، ثم احتاج إلى زيادة جورب ولبسه على الجورب الأول الذي مسحه وهو على طهارة فإنه يمسح على الثاني ، لكن يكون ابتداء المدة من المسح على الأول لا من المسح على الثاني ، هذا هو القول الصحيح إنه إذا لبس خفّاً على خفٍّ ممسوح فإنه يمسح على الأعلى لكن يني على مدة المسح على الأول .

ولابد - أيضاً - أن تكون الطهارة بالماء فلو لبسهما على طهارة تيمم ، فإنه لا يمسح عليهما مثل رجل مسافر ليس معه ماء فتيمم ولبس الخفين على طهارة تيمم ، ثم بعد ذلك وجد الماء وأراد أن يتوضأ ففي هذه الحال : لا بد أن يخلع الخفين ويغسل قدميه عند الوضوء ، ولا يجوز المسح عليهما في هذه الحال لأنه لم يلبسهما على طهارة غسل فيها الرجل ، فإن التيمم يتعلق ببعضين فقط وهما : الوجه والكفان .

الشرط الثاني : أن يكون المسح عليهما في الحدث الأصغر ولهذا قال صفوان بن عسال : « إلا من جنابة لكن من غائط وبول ونوم » فإذا صار على الإنسان جنابة فإنه لا يجزئ أن يمسح على الجوربين أو الخفين بل لا بد من نزعهما وغسل القدمين ؛ وذلك لأن الطهارة الكبرى ليس فيها مسح إلا للضرورة في الجبيرة ولهذا لا يمسح فيها الرأس .

لا بد من غسل الرأس مع أنه في الحدث الأصغر يمسح ، لكن الجنابة طهارتها تؤكد وحدثها أكبر فلا بد من الغسل ولا يمسح فيها على الخف لهذا الحديث ولأن المعنى والقياس يقتضيان ذلك .

الشرط الثالث : أن يكون المسح في المدة التي حددها النبي ﷺ وهي يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام بلياليها للمسافر .

كما صَحَّ ذلك أيضًا من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام في صحيح مسلم قال : « جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهنَّ للمسافر ، ويومًا وليلةً للمقيم » ^(١) أي : في المسح على الخفين . فإذا انتهت المدة فلا مسح ، لا بد أن يخلع الجورين أو الخفين ثم يغسل القدمين ولكن إذا انتهت المدة وأنت على طهارة فاستمر على طهارتك ، لا تنتقض الطهارة ، ولكن إذا أردت أن تتوضأ بعد انتهاء المدة فلا بد من غسل القدمين .

* * *

ثم إن زر بن حبیش سأل صفوان بن عسال : هل سمع النبي ﷺ يقول في الهوى شيئًا ؟ الهوى : المحبة والميل ، فقال : نعم ، ثم ذكر قصة الأعرابي الذي كان جهوري الصوت ، فجاء ينادي يا محمد بصوت مرتفع .

ف قيل له : ويحك تُنادي رسول الله ﷺ بصوت مرتفع والله ﻋَظِيمٌ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] .

ولكن الأعراب لا يعرفون الآداب كثيرًا ؛ لأنهم بعيدون عن المدن وبعيدون عن العلم . فأجابه النبي ﷺ بصوت مرتفع كما سأل الأعرابي ، لأن رسول الله ﷺ أكمل الناس هديًا ، يُعطي كل إنسان بقدر ما يتحملة عقله .

فخاطبه بمثل ما خاطب به النبي ﷺ . قال له الأعرابي : « المرء يحب القوم ولما يلحق بهم » يعني : يحب القوم ولكن عمله دون عملهم لا يُساويهم في العمل . مع من يكون أيكون معهم أو لا ؟ . فقال النبي ﷺ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . الحمد لله !! نعمة عظيمة وقد روى أنس بن مالك هذه القطعة من الحديث في أن الرسول ﷺ قال لرجل يحب الله ورسوله : « إنك مع من أحببت » قال أنس : فَأَنَا أَحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَزْجُو أَن أَكُونَ مَعَهُمْ » . وهكذا أيضًا نحن نُشهدُ الله ﻋَظِيمٌ على محبة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين وأصحابه وأئمة الهدى من بعدهم ونسأل الله أن يجعلنا معهم .

هذه بشرى للإنسان أنه إذا أحبَّ قومًا صار معهم وإن قصر به عمله . يكون معهم في الجنة ويجمعه الله معهم في الحشر ويشربون من حوض الرسول ﷺ جميعًا ..

وواجب المسلم أن يكره الكفار ، وأن يعلم أنهم أعداء له مهما أبدوا من الصداقة والمودة والمحبة فإنهم لن يتقربوا إليك إلا لمصلحة أنفسهم ومضرتك . أما أن يتقربوا إليك لمصلحتك فهذا شيء بعيد . إن كان يمكن أن نجتمع بين الماء والنار فيمكن أن نجتمع بين محبة الكفار لنا وعداوتهم لنا .

لأن الله تعالى سخطهم أعداء قال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوَّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المنحنة : ١]
وقال ﷺ : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] .

كل كافر فإن الله عدو له ، وكل كافر عدو لنا ، وكل كافر فإنه لا يُضمر لنا إلا الشر . ولهذا يجب عليك أن تكره من قلبك كل كافر مهما كان جنسه ، ومهما كان تقربه إليك فاعلم أنه عدوك . قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوَّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المنحنة : ١] إذا تأخذ من هذه قاعدة أصلها النبي عليه الصلاة والسلام ألا وهي : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » فعليك يا أخي أن تشد قلبك على محبة الله ورسوله وخلفائه الراشدين وأصحابه الكرام وأئمة الهدى من بعدهم لتكون معهم . نسأل الله أن يحقق لنا ذلك بمَنِّهِ وَكَرَمِهِ والله الموفق .

* * *

٢٠ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ نَبِيَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَوُجِدَ عَلَى رَاهِبٍ ، فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَقَتَلَهُ فَكَفَّلَ بِهِ مِائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَوُجِدَ عَلَى رَجُلٍ غَالِمٍ فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ بِهَا أَنْاسًا يَعْْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ ، وَلَا تَوَجَّعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ : فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ : بَجَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمَ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ - أَيِ حَكَمًا - فَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيُّهُمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبِضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ « متفق عليه .

وفي رواية في الصحيح : « فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ ، فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا » وفي رواية في الصحيح : « فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي ، وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي ، وَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا ، فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ فَغَفِرَ لَهُ » . وفي رواية : « فَنَأَى بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا » (١) .

الشرح

نقل المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال : « كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا » ثم إنه ندم وسأل عن أَعْلَمِ أَهْلِ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠) بلفظ « كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ ... » ، ومسلم في التوبة (٤٦) .
معنى راهب : عابد من بني إسرائيل ، و « نَصَفَ » أي بلغ نصفها ، و « أَذْنَى : أَقْرَب ، وَنَأَى : أَي نَهَض .

الأرض يسأله - هل له من توبة ؟ فذُلَّ على رَجُلٍ ، فإذا هو راهب : يعني عابدًا ولكن لا عِلْمَ عنده . فلما سأله قال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة ؟

فاستعظم الراهب هذا الذنب وقال : ليس لك توبة ! فغضب الرجل وانزعج وقتل الراهب فأتم به مائة نفس ، ثم إنه سأل عن أعلم أهل الأرض فذُلَّ على رَجُلٍ عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ! ومن الذي يَحُولُ بينه وبين التوبة . باب التوبة مفتوح ، ولكن اذهب إلى القرية الفلانية فإن فيها قومًا يعبدون الله ، والأرض التي كان فيها كأنها - والله أعلم - دار كفر ، فأمره هذا العالم أن يهاجر بدينه إلى هذه القرية التي يُعْبُدُ فيها الله ﷻ . فخرج تائبًا نادمًا مهاجرًا بدينه إلى الأرض التي فيها القوم الذين يعبدون الله ﷻ . وفي منتصف الطريق أتاه الموت فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب لأن الكافر - والعياذ بالله - تقبض رُوحه ملائكة العذاب والمؤمن تقبض رُوحه ملائكة الرحمة . فاخصموا !! ملائكة العذاب تقول : إنه لَمْ يعمل خيرًا قط : أي بعد توبته مَا عمل خيرًا . وملائكة الرحمة تقول : إنه تاب وجاء نادمًا تائبًا . فحصل بينهما خصومة فبعث الله إليهم ملكًا ليحكم بينهم !

فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أقرب فهو له : أي فهو من أهلها . إن كانت أرض الكفر أقرب إليه فملائكة العذاب تقبض رُوحه وإن كان إلى بلد الإيمان أقرب فملائكة الرحمة تقبض رُوحه . ففاسوا مَا بينهما فإذا البلد التي اتجه إليها وهي بلد الإيمان أقرب من البلد التي هاجر منها بنحو شبر - مسافة قرية - فقبطته ملائكة الرحمة .

ففي هذا دليل على فوائد كثيرة :

منها : أن القاتل له توبة ودليل ذلك في كتاب الله . قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] يعني ما دون الشُّرْكِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهُ إِذَا شَاءَ . وهذا الذي عليه جمهور أهل العلم .

وذكر عن عبد الله بن عباس ؓ : أن القاتل ليس له توبة لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] . ولكن ما ذهب إليه الجمهور هو الحق ، وما روي عن ابن عباس فإنه يمكن أن يُحْمَلَ على أنه ليس له توبة بالنسبة للمقتول وذلك لأن القاتل إذا قتل تعلق فيه ثلاثة حقوق :

الحق الأول : لله ، والثاني : للمقتول ، والثالث : لأولياء المقتول .

أما حق الله : فلا شك أن الله يغفره بالتوبة لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (١) [الزمر : ٥٣] .

(١) ﴿ اتَّخَذُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ : أي الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام . ﴿ لَا تَقْطَعُوا ﴾ : لا تياسوا من مغفرة الله ورحمته .

ولقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

وأما حق المقتول : فإن توبة القاتل لا تنفعه ولا تؤديه ؛ حقه لأنه مات ولا يمكن الوصول إلى استحلاله أو التبرؤ من دمه فهذا هو الذي يبقى مطالبًا به القاتل - ولو تاب - وإذا كان يوم القيامة فالله يفصل بينهم .

وأما حق أولياء المقتول : فإنها لا تصح توبة القاتل حتى يسلم نفسه إلى أولياء المقتول ويقر بالقتل ويقول : أنا القاتل ، وأنا بين أيديكم إن شئتم اقتلوني وإن شئتم خذوا الدية وإن شئتم اسمحوا .

* * *

٢١ - وعن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب بن مالك من بني حنظلة - قال : سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أنني قد تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحد تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير فريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعة ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقفنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها . وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، واستقبل عدداً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان - قال كعب : قل رجل يريد أن يتعيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحى من الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أضغر ، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أعدو لي أتجهز معه ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم ينزل يمتدادي بي حتى استمر بالناس الجُد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم عدت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم ينزل يمتدادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهمت أن أرحل فأذركهم ، فباليستي فعلت ، ثم لم يقدّر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يخرنني أنني لا أرى لي أسوة ، إلا رجلاً معموصاً عليه في الثفاق ، أو رجلاً بمن عذر الله تعالى من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتوك : « ما فعل كعب بن

مَالِكُ ؟ » فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْذَاةُ ، وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ . فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه : بِئْسَ مَا قُلْتَ ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَبَيَّنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبِيضًا يَزُولُ بِهِ الشَّرَابُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُنْ أَبَا حَيْثَمَةَ » ، فَإِذَا هُوَ أَبُو حَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَنِي ، فَطَفَفْتُ أَتَذْكُرُ الْكُذِبَ وَأَقُولُ : بِمِ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ عَذَابًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا قِيلَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا رَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَزَكَّعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيُخْلِفُونَ لَهُ ، وَكَانُوا بَضْعًا وَتَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ عِلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَّلَ سَرَاتِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى جِئْتُ . فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ : « تَعَالَى » ، فَجِئْتُ أُمَشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لِي : « مَا خَلَقَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتِغْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذَبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ يُسَخِّطُكَ عَلَيَّ ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عِقَابِي اللَّهِ ﷻ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ .

قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمَ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ » وَسَارَ رَجُلًا مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي ، فَقَالُوا لِي : وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ ؛ فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبِكَ اسْتَغْفَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَكَ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْتُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَكْذَبْتُ نَفْسِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيتُ هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالُوا : نَعَمْ لَقِيتُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلُ مَا قُلْتَ ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعُمَرِيُّ ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ . قَالَ : فَذَكَّرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بِذُرِّمَا فِيهِمَا أَسْوَةٌ . قَالَ : فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَّرُوهُمَا لِي . وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا أَتِيهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، قَالَ : فَاجْتَبَيْنَا النَّاسَ - أَوْ قَالَ : تَغَيَّرُوا لَنَا - حَتَّى تَنْكَرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً . فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَنَّا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَتَكَيَّانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدُهُمْ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَكَ شَفَتَيْهِ بَرْدَ السَّلَامِ أَمْ لَا ؟ ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ وَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ ، وَإِذَا التَّقْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي

وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعَلَّمَنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ﷺ ؟ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ فَتَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ فَتَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَقَاضَتْ عَيْنَايَ ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِي مِنْ نَبْطِ أَهْلِ الشَّامِ بِمَنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ، وَكُنْتُ كَاتِبًا . فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارَ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقُّ بِنَا نُؤَاسِكَ ، فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتَهَا : وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّوَرُّ فَسَجَرْتُهَا ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أُرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلَبْتُ الْوَحْيَ ؛ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ امْرَأَتَكَ ، فَقُلْتُ : أَطْلُقُهَا ، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ قَالَ : لَا ، بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرُبْنَهَا ، وَأَرْسِلْ إِلَى صَاحِبَتِي بِمِثْلِ ذَلِكَ فَقُلْتُ لَا مَرَاتِي : الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟ قَالَ : « لَا ، وَلَكِنْ لَا يَقْرُبَنَّكَ » . فَقَالَتْ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا يَهْ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَتَّبِعِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا . فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي : لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ ، فَقَدْ أَذِنَ لَامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ ؟ فَقُلْتُ : لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُذَرِّبُنِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ ! فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى عَنْ كَلَامِنَا .

ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ ، فَخَرَزْتُ سَاجِدًا ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ . فَأَذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ ﷻ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُشِيرُونَنَا ، فَذَهَبَ قَبِلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِثَاءَ بِيْشَارَتِهِ ، وَاللَّهِ مَا أَثْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ، وَاسْتَعْرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ أَنَا وَم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونَنِي بِالثَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي : لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُهْزِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي ، وَاللَّهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، (فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لَطْلَحَةً) . قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَتَرَقُّ وَجْهَهُ مِنَ الشُّرُورِ : « أَبْشِرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرُّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدْتُكَ أُمُّكَ » ، فَقُلْتُ : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ قَالَ : « لَا ، بَلْ مِنَ اللَّهِ ﷻ » ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَبَارَ وَجْهَهُ حَتَّى كَانَتْ وَجْهَهُ قِطْعَةً قَمَرٍ ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ

أَتَخْلَعُ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَا لَكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » ، فَقُلْتُ : إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ . وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَجْأَنِي بِالصَّدَقِ ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أَحْدِثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تَعَالَى ، وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مِنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا بَقِيَ ، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهْوَءٌ رَجِيمٌ ﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴿ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(١) [التوبة : ١١٧ ، ١١٩] قَالَ كَعْبٌ : وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبُهُ ، فَأَهْلَكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَحْلِلُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضَا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَيْتَ اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْفَاقِرِ الْفَاسِقِينَ ﴿ [التوبة : ٩٥ ، ٩٦] .

قَالَ كَعْبٌ : كُنَّا خُلَفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَلَفُوا لَهُ ، فَتَابَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بِذَلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرْنَا بِمَا خُلَفْنَا تَخَلُّفًا عَنِ الْغَزْوِ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِزْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ خَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(٢) . وَفِي رَوَايَةٍ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ » وَفِي رَوَايَةٍ : « وَكَانَ لَا يَقْدُمُ مِنْ

(١) قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ أي لقد تجاوز الله عنه ، أو أدام توبته عليه ، وهي بالنسبة للنبي ﷺ لتشريف مكانته وإعلاء رتبته لا عن ذنب صدر منه لعصمته عن الذنوب ، قوله ﴿ سَاعَةِ الْمُسْرَةِ ﴾ أي وقت غزوة تبوك قوله ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي بما اتسعت ، قوله ﴿ خَلَفُوا ﴾ أي تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨) ومسلم واللفظ له في التوبة (٥٣) .

قوله « ليلة العقبة » هي الليلة التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار فيها على الإسلام وأن يؤوه وينصروه ، قوله « ووافقنا على الإسلام » تبايعنا عليه وتعاهدنا ، قوله : « إن كانت بدر أذكر » أي أشهر عند الناس بالفضيلة ، قوله : « وَرَى » كنى وأوهم بغيرها ، قوله : « مَفَارًا » بركة طويلة قليلة الماء ، قوله : « فَجَلَى » كشف وبين ، قوله : « لِيَتَأْبَهُوا أَهْبَةَ غَزْوِهِمْ » أي ليستعدوا بما يحتاجون إليه ، قوله : « فَأُخْبِرَهُمْ بِوَجْهِهِمْ » أي بمقصدهم ، قوله : « فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ » أي أميل ، قوله : « فَتَارَطَ الْغَزْوُ » أي تقدم وأسرع ، قوله : « طَفَقَتْ » شرعت ، قوله : « مَغْمُوضًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ » أي مُثْبِتًا بِهِ ، قوله : « حَبَسَهُ بَرْدَاهُ » أي لباسه ، قوله : « وَالنَّظَرُ فِي عَطْفِهِ » أي جانيبه ؛ وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ، قوله : « مَبِيضًا » لابس البياض ، قوله : « يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ » أي يتحرك ، والسراب هو ما يظهر للإنسان في الهواجر ، قوله : « لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ » أي عابوه واحتقروه ، قوله : « أَتَوَجَّهَ قَافِلًا » أي راجعًا ، قوله : « بَنِي » أشد الحزن ، قوله : « أَظْلُ قَادِمًا » أقبل وألقى عليه ظله ، قوله : « زَاغَ » أي زال ، قوله : « ظَهَرَ » راحلتك من الإبل ، قوله : « أُعْطِيَتْ =

سَفَرٍ إِلَّا نَهَارًا فِي الصُّحَى ، فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ .
 ٢٢ - وَعَنْ أَبِي نُجَيْدٍ - بَضَمُ الثُّونِ وَفَتْحُ الْجِيمِ - عِمْرَانُ بْنُ الْحَصَنِ الْخَزَاعِي رضي الله عنه أَنَّ امْرَأَةً مِنْ
 جُهَيْنَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزَّانِي ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمَّهُ عَلَيَّ ،
 فَدَعَا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ بِهَا فَقَالَ : « أَحْسِنِ إِلَيْهَا ، فَإِذَا وَضَعْتَ فَأْتِنِي » فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ ،
 فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا . فَقَالَ لَهُ عَمْرُ : تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ
 وَقَدْ زَنَتْ ؟ قَالَ : « لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ يَبْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ ، وَهَلْ وَجَدْتُ
 أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ ﷻ ؟ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن امرأة
 جاءت إلى النبي ﷺ « وهي حبلى من الزنا » يعني : حاملاً ، كانت قد زنت رضي الله عنها .
 « فقالت يا رسول الله إني قد أصبت حدًّا فأقمه علي » أي : أصبت شيئاً يوجب الحد فأقمه علي .
 فدعا النبي ﷺ وليها وأمره أن يحسن إليها فإذا وضعت فليأتي بها إلى رسول الله ﷺ .
 فلما وضعت أتى بها وليها إلى النبي ﷺ ، « فأمر بها فشدت عليها ثيابها » أي : لفت ثيابها
 وربطت لثلاً تنكشف ، « ثم أمر بها فرجمت » أي : بالحجارة - وهي ليست كبيرة ولا صغيرة -
 حتى ماتت ثم صلى عليها النبي ﷺ .
 ودعا لها دعاء الميت فقال له عمر : « تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت » أي : والزنى من كبائر
 الذنوب .

« فقال لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم » يعني : توبة واسعة لو
 قسمت على سبعين كلهم مذنّب لوسعتهم ونفعتهم .
 « وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ﷻ » أي : هل وجدت أفضل من هذه الحال ؛
 امرأة جاءت فجادت بنفسها يعني سلمت نفسها من أجل التقرب إلى الله ﷻ والخلوص من إثم

= جدلاً أي فصاحة وقوة في الكلام ، قوله : « تجد علي فيه » تغضب ، قوله : « تنكرت » تغيرت ، قوله : « فاستكانا »
 أي خضعا ، قوله : « أشب القوم وأجلدهم » أي أصغروهم سناً وأقواهم ، قوله : « جفوة » إعراض . قوله : « حتى
 تسورت » صعدت على سور بستانه ، قوله : « أنشدك » أسالك ، قوله : « نبطي » فلاح ، قوله : « مضبغة » يضيع فيها
 الحق ، قوله : « نواسك » وفي بعض النسخ نواسيك ، أي نشاركك ، قوله : « فيتممت » قصدت ، قوله : « فسجرتها »
 أي أحرقتها ، قوله : « استلبث الوحي » أي أبطأ ، قوله : « أوفى على سلع » أي صعد وارتفع ، وبلغ اسم جبل بالمدينة
 معروف ، قوله « فأذن الناس » أي أعلمهم ، قوله : « أتأثم » أي أقصد ، قوله : « فوجاً فوجاً » الفوج الجماعة ، قوله :
 « أن أنخلع من مالي » أي أخرج منه وأصدق به ، قوله : « أبلاه الله » أنعم عليه .

(١) أخرجه مسلم باختلاف يسير في اللفظ في الحدود (٢٤) ، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٠) .

الزنى . ما هناك أفضل من هذا ؟ ! ففي هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة :

منها : أن الزاني إذا زنى وهو محصن « يعني قد تزوج » فإنه يجب أن يرحم وجوباً وقد كان هذا في كتاب الله ﷻ آية ، قرأها المسلمون وحفظوها ووعوها ونفذوها .

رحم النبي ﷺ ورحم الخلفاء من بعده ولكن الله بحكمته نسخها من القرآن لفظاً وأبقى حكمها في هذه الأمة . فإذا زنى المحصن « وهو الذي قد تزوج » فإنه يرحم حتى يموت . يوقف في مكان واسع ويجتمع الناس ويأخذون من الحصى يرمونه به حتى يموت .

وهذه من حكمة الله ﷻ ، أي : أنه لم يأمر الشرع بأن يذبح بالسيف وينتهي أمره ، بل يرحم بهذه الحجارة حتى يتعذب ويذوق ألم العذاب في مقابل ما وجده من لذة الحرام ؛ لأن هذا الزاني تلذذ جميع جسده بالحرام فكان من الحكمة أن ينال هذا الجسد من العذاب بقدر ما نال من اللذة . ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : إنه لا يجوز أن يرحم بالحجارة الكبيرة لأن الحجارة الكبيرة تجهز عليه ويموت سريعاً فيستريح ، ولا بالصغيرة جداً لأن هذه تؤذيه وتطيل موته . ولكن بحصى متوسط حتى يذوق الألم ثم يموت .

فإذا قال قائل أليس قد قال النبي ﷺ : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » (١) والقتلة بالسيف أريح للمرجوم من الرجم بالحجارة ؟

قلنا : بلى قد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام ، لكن إحسان القتلة يكون بموافقتها للشرع . فالرجم إحسان لأنه موافق للشرع ولذلك لو أن رجلاً جانيًا جنى على شخص فقتله عمدًا وغرر به قبل أن يقتله فإننا نغرر بهذا الجاني إذا أردنا قتله قبل أن نقتله .

مثلاً لو أن رجلاً جانيًا قتل شخصاً فقطع يديه ثم رجليه ثم لسانه ثم رأسه ؛ فإننا لا نقتل الجاني بالسيف !! بل نقطع يديه ثم رجليه ثم لسانه ثم نقطع رأسه مثلما فعل ، ويعتبر هذا إحساناً في القتلة لأن إحسان القتلة أن يكون موافقاً للشرع على أي وجه كان .

وفي هذا الحديث : دليل على جواز إقرار الإنسان على نفسه بالزنى من أجل تطهيره بالحد لا من أجل فضحه نفسه . فالإنسان الذي يتحدث عن نفسه أنه زنى عند الإمام أو نائبه من أجل إقامة الحد عليه هذا لا يلام ولا يؤثم . وأما الإنسان الذي يخبر عن نفسه أنه زنى يخبر بذلك عامة الناس فهذا فاضح نفسه وهو من غير المعافين ؛ لأن الرسول ﷺ يقول : « كل أمتي معافى إلا المجاهرين قالوا من المجاهرون » ؟ قال : « الذي يفعل الذنب ثم يستر الله عليه ثم يصبح يتحدث به » (٢) .

هناك قسم ثالث : فاسق مارد ماجن !! يتحدث بالزنى افتخاراً والعياذ بالله ! يقول إنه سافر إلى البلد الفلاني وإلى البلد الفلاني وفجر وفعل وزنى بعدة نساء وما أشبه ذلك يفتخر بهذا .

(١) أخرجه مسلم باختلاف يسير في الذبائح (٥٧) ، والدارمي في سننه (٨٢/٢) ، والبيهقي في سننه (٩٠ ، ٦٠/٨) .

(٢) هذا الحديث بمعناه ، وقد أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩) ، ومسلم في الزهد (٥٢) .

هذا يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل ؛ لأن الذي يفتخر بالزنى مقتضى حاله أنه استحل الزنى والعياذ بالله ، ومن استحل الزنى فهو كافراً !

ويوجد بعض الناس الفسقة يفعل ذلك . الذين أصيب المسلمون بالمصائب من أجلهم ومن أجل أفعالهم . يوجد من يتبجح بهذا الأمر ، إذا سافر إلى بلد معروف بالفسق والمجون مثل (بانكوك) وغيرها من البلاد الخبيثة التي كلها زنى ولواط وخمر وغير ذلك رجع إلى أصحابه يتبجح بما فعل . هذا كما قلت يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل ؛ لأن من استحل الزنى أو غيره من المحرمات الظاهرة المجمع عليها فإنه يكفر . إذا قال قائل : هل الأفضل للإنسان إذا زنى أن يذهب إلى القاضي ليقر عنده فيقام عليه الحد أو الأفضل أن يستتر نفسه ؟

فيه تفصيل : قد يكون الإنسان تاب توبة نصوحاً وندم وعرف من نفسه أنه لن يعود فهذا الأفضل أن لا يذهب ولا يخبر عن نفسه ، بل يجعل الأمر سرّاً بينه وبين الله ومن تاب تاب الله عليه . وأما من خاف أن لا تكون توبته نصوحاً وخاف أن يعود ويرجع إلى الذنب مرة أخرى فهذا الأفضل في حقه أن يذهب إلى ولي الأمر - القاضي أو غيره - ليقر عنده فيقام عليه الحد .

٢٣ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » ^(١) متفق عليه .

٢٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَضْحَكُ اللَّهُ ﷻ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْلِمَ فَيَسْتَشْهَدُ » ^(٢) متفقٌ عليه .

الشرح

هذان الحديثان في بيان التوبة وأن من تاب تاب الله عليه مهما عظم ذنبه ، لأن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

فالحديث الأول : عن ابن عباس ومعناه : أن ابن آدم لن يشيع من المال ولو كان له وادٍ واحد « أحب » أي : طلب أن يكون له واديان ولا يملأ جوفه إلا التراب وذلك إذا مات ودُفِنَ وترك الدنيا

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٣٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٨) بلفظ « لو أن لابن آدم مِلاً وادٍ مالا ... » وأحمد في مسنده (٣٧٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري بدون لفظ : « فيسلم » في الجهاد والسير (٢٨٢٦) ، ومسلم في الإمارة (١٢٨) ، والنسائي في السنن (١٣٩/٦) ، وأحمد في مسنده (٤٦٤/٢) .

وما فيها حيثئذ يقتنع ، لأنها فاتته ولكن مع ذلك حث الرسول ﷺ على التوبة ؛ لأن الغالب أن الذي يكون عنده طمع في المال أنه لا يحترز من الأشياء المحرمة من الكسب المحرم .

ولكن دواء ذلك بالتوبة إلى الله ﷻ ولذلك قال : « ويتوب الله على من تاب » فمن تاب من سيئاته ولو كانت هذه السيئات مما يتعلق بالمال فإن الله يتوب عليه .

أما الحديث الثاني : فهو عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : « يضحك الله إلى رجلين . . الحديث » . وسبب ضحك الله أنه كان بينهما تمام العداوة في الدنيا حتى إن أحدهما قتل الآخر فقلب الله هذه العداوة التي في قلب كل واحد منهما وأزال ما في نفوسهما من الغل ؛ لأن أهل الجنة يطهرون من الغل والحمد كما قال الله في وصفهم : ﴿ إِخْرَجْنَا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلِيلِينَ ﴾ وقال قبلها : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْرَجْنَا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلِيلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] . فهذا وجه العجب من هذين الرجلين ، ففيه دليل : على أن الكافر إذا تاب من كفره ولو كان قد قتل أحدا من المسلمين فإن الله تعالى يتوب عليه لأن الإسلام يهدم ما قبله .

٣ - بَابُ الصَّبْرِ

قال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [محمد : ٣١] والآيات في الأمر بالصبر وبيان فضله كثيرة معروفة .

الشرح

الصبر لغة : الحبس . وشرعاً : حبس النفس على ثلاثة أمور : الأول : طاعة الله ، الثاني : عن محارم الله ، الثالث : على أقدار الله المؤلمة . هذه أنواع الصبر التي ذكرها أهل العلم .

الأمر الأول : أن يصبر الإنسان على طاعة الله لأن الطاعة ثقيلة على النفس تصعب على الإنسان وكذلك ربما تكون ثقيلة على البدن بحيث يكون مع الإنسان شيء من العجز والتعب وكذلك أيضا يكون فيها مشقة من الناحية المالية كمسألة الزكاة ومسألة الحج .

المهم أن الطاعات فيها شيء من المشقة على النفس والبدن فحتاج إلى صبر وإلى معاناة قال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] . الأمر الثاني : الصبر عن محارم الله بحيث يكف الإنسان نفسه عما حرم الله عليه . لأن النفس

الأمانة بالسوء تدعو إلى السوء فيصبر الإنسان نفسه . مثل الكذب والغش في المعاملات وأكل المال بالباطل بالربا أو غيره والزنى وشرب الخمر والسرقة وما أشبه ذلك من المعاصي الكثيرة .

فيحبس الإنسان نفسه عنها حتى لا يفعلها وهذا يحتاج أيضًا إلى معاناة ويحتاج إلى كف النفس والهوى .

أما الأمر الثالث : فهو الصبر على أقدار الله المؤلة لأن أقدار الله ﷻ على الإنسان ملائمة ومؤلة .

الملائمة : تحتاج إلى الشكر ، والشكر من الطاعات فالصبر عليه من النوع الأول .

ومؤلة : بحيث لا تلائم الإنسان ، فيبتلى الإنسان في بدنه ، يبتلى في ماله يفقده ، يبتلى في أهله ، ويبتلى في مجتمعه ، المهم أن أنواع البلياء كثيرة ، تحتاج إلى صبر ومعاناة . فيصبر الإنسان نفسه عما يحرم عليه من إظهار الجزع باللسان أو بالقلب أو بالجوارح ؛ لأن الإنسان عند حلول المصيبة له أربع حالات : الحال الأولى : أن يتسخط . والحال الثانية : أن يصبر . والحال الثالثة : أن يرضى . والحال الرابعة : أن يشكر . هذه أربع حالات تكون للإنسان عندما يصاب بالمصيبة .

أما الحال الأولى : أن يتسخط إما بقلبه أو بلسانه أو بجوارحه . التسخط بالقلب أن يكون في قلبه شيء على ربه من السخط والشره على الله - والعياذ بالله - وما أشبهه ، ويشعر وكأن الله قد ظلمه بهذه المصيبة . - وأما باللسان فأن يدعو بالويل والثبور : يا ويلاه .. يا ثوراه ، وأن يسب الدهر فيؤدي الله ﷻ وما أشبهه .

- التسخط بالجوارح مثل أن يلطم خده أو يصفع رأسه أو ينتف شعره أو يشق ثوبه وما أشبه هذا . هذا حال السخط حال الهلعين الذين حرموا من الثواب ولم ينجوا من المصيبة بل الذين اكتسبوا الإثم . فصار عندهم مصيبتان مصيبة في الدين بالسخط ومصيبة في الدنيا لما أتاهم مما يؤلمهم . أما الحال الثانية : فالصبر على المصيبة بأن يحبس نفسه ، هو يكره المصيبة ولا يحبها ولا يحب أن وقعت لكن يصبر نفسه لا يتحدث باللسان بما يسخط الله ولا يفعل بجوارحه ما يغضب الله ولا يكون في قلبه على الله شيء أبدًا . صابر لكنه كاره لها .

والحال الثالثة : الرضى بأن يكون الإنسان منشرحًا صدره بهذه المصيبة ويرضى بها رضاء تامًا وكأنه لم يصب بها .

والحال الرابعة : الشكر فيشكر الله عليها وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا رأى ما يكره قال : الحمد لله على كل حال . فيشكر الله من أجل أن الله يُرتب له من الثواب على هذه المصيبة أكثر مما أصابه . ولهذا يُذكر عن بعض العابدين أنها أصيبت في أصبعها فحمدت الله على ذلك ، فقالوا لها : كيف تحمدين الله والأصبع قد أصابه ما أصابه قالت إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها . والله الموفق .

* * *

قال رحمه الله تعالى في الحث على الصبر والثناء على فاعليه : وقول الله سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴿٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فأمر الله المؤمنين بمقتضى إيمانهم وبشرف إيمانهم بهذه الأوامر الثلاثة بل أربعة!! اصبروا ، وصابروا ، وربطوا ، واتقوا الله .

فالصبر عن المعصية ، والمصابرة على الطاعة ، والمرابطة كثرة الخير وتتابع الخير ، والتقوى تعم ذلك كله . فاصبروا عن محارم الله : لا تفعلوها ، تجنبوها ، ولا تقربوها .

ومن المعلوم : أن الصَّبْرَ عن المعصية لا يكون إلا حيث دعت إليه النفس ، أما الإنسان الذي لم تطرأ على باله المعصية فلا يقال إنه صبر عنها ولكن إذا دعتك نفسك إلى المعصية فاصبر واحبس النفس .

وأما المصابرة فهي على الطَّاعة لأن الطَّاعة فيها أمران :

الأمر الأول : فعل يتكلف به الإنسان ويلزم نفسه به .

والأمر الثاني : ثقل على النفس لأن فعل الطَّاعة كترك المعصية ثقيلة على النفوس الأماراة بالسوء .

فلهذا كان الصبر على الطَّاعة أفضل من الصَّبْر على المعصية لهذا قال الله تعالى : ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ كأن أحدًا يُصابِر كما يُصابِر الإنسان عدوه في القتال والجهاد .

وأما المرابطة : فهي كثرة الخير والاستمرار عليه ولهذا جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال : « إشبِاعُ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط » (١) لأن فيه استمرارًا في الطَّاعة وكثرة لفعلها .

وأما التَّقوى : فإنها تشمل ذلك كله ، لأن التَّقوى اتخاذ ما بقي من عقاب الله وهذا يكون بفعل الأوامر واجتناب النواهي .

وعلى هذا فعطفها على ما سبق من باب عطف العام على الخاص ثم بين الله تعالى أن القيام بهذه الأوامر الأربعة سبب للفلاح فقال : ﴿ لَكُمْ تَقْلُحُونَ ﴾ .

والفلاح كلمة جامعة تدور على شيئين : على حُصول المطلوب وعلى النجاة من الموهوب . فمن اتقى الله ﷻ حصل له مطلوبه ونجا من مرهوبه . وأما الآية الثانية فقال ﷻ : وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّوْبَتِ وَيَبْرُؤِ الصَّبْرِ ﴾ [البقرة: ١٥٥] ، هذه الآية فيها قَسَمٌ من الله ﷻ أن يختبر العباد بهذه الأمور . فقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أي : لنختبرنكم . ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾ لا الخوف كله بل بشيء منه ؛ لأن الخوف كله مهلك ومدمر . لكن بشيء منه . ﴿ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾ هو قَعْدُ الأمن وهو أعظم من الجوع . ولهذا قدَّمه الله عليه ، لأن الإنسان الجائع ربما يتعلل ويذهب يطلب ولو كان لجأ شجر .

لكن الخائف - والعياذ بالله - لا يستقر لا في بيته ، ولا في سوقه . وأخوف ما نخاف منه ذنوبنا ؛ لأن الذنوب سبب لكل الويلات ، وسبب للمخاطر والمخاوف والعقوبات الدينية والدنيوية !! و ﴿ وَالْجُوعِ ﴾ أي : يُتلى بالجوع . والجوع يحمل معنيين :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠١/٢ ، ٣٠٣) وابن ماجه في سننه (٤٢٧) باختلاف يسير .

المعنى الأول : أن يحدث الله سبحانه في العباد وباءً ، هو وباء الجوع بحيث يأكل الإنسان ولا يشبع وهذا يمر على الناس وقد مرَّ بهذه البلاد سنة معروفة عند العامة تسمى سنة الجوع . يأكل الإنسان الشيء الكثير ولكنه لا يشبع - والعياذ بالله - أبداً .

يحدث أن الإنسان يأكل من التمر محفراً كاملاً في آنية واحد ولا يشبع - والعياذ بالله - . ويأكل الخبز الكثير ولا يشبع لمرض فيه .

المعنى الثاني : الجذب والسنين المححلة التي لا يدر فيها ضرع ، ولا ينمو فيها زرع ، هذا من الجوع . وقوله ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴾ يعني : نقص الاقتصاد بحيث تُصاب الأمة بقلّة المادة والفقر ويتأخر اقتصادها وترهق حكومتها بالديون التي تأتي نتيجة لأسباب يقدرها الله ﷻ ابتلاءً وامتحاناً .

وقوله ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ أي : الموت بحيث يحلُّ في الناس أوبئة تهلكهم وتقضي عليهم . وهذا أيضاً يحدث كثيراً ولقد حدثنا أنه حدث في هذه البلاد - أي البلاد النجدية - حدث فيها وباء عظيم تسمى سنته عند العامة سنة الرحمة !! إذا دخل الوباء في البيت لم يبق منهم أحد إلا دُفِن والعياذ بالله . يدخل في البيت فيه عشرة أنفس أو أكثر فيصاب هذا بعرض ومن غداً الثاني والثالث والرابع حتى يموتوا عن آخرهم . وحدثنا أنه قدم في هذا المسجد - مسجد الجامع الكبير بعنيزة - وكان الناس بالأول في قرية صغيرة ما فيها ناس كثير كما هو الحال اليوم .

يقدم أحياناً في فَرَض الصَّلَاة الواحد سبع إلى ثمان جنائز نعوذ بالله من الأوبئة .

وقوله : ﴿ وَاللَّعْنَتِ ﴾ أي : أن لا يكون هناك جوع ولكن تنقص الثمرات ، تنزع بركتها في الزروع والنخيل وفي الأشجار الأخرى ، والله ﷻ يتلى العباد بهذه الأمور ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون . فيقابل الناس هذه المصائب بدرجات متنوعة بالتسخط ، بالصبر ، وبالرضى ، بالشكر كما قلناه فيما سبق والله الموفق . قوله ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] يوفى الصابرون أي : يُعطى الصابرون ، أجرهم : ثوابهم . وقوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لأن الأعمال الصالحة مضاعفة ؛ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . أما الصبر فإن مضاعفته تأتي بغير حساب من عند الله ﷻ وهذا يدل على أن أجره عظيم وأن الإنسان لا يمكن أن يتصور هذا الأجر ؛ لأنه لم يقابل بعدد بل هو أمر معلوم عند الله ﷻ ولا حساب فيه ، لا يقال : - مثلاً - الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف بل يقال : إنه يوفى أجره بغير حساب . وفي هذه الآية من الترغيب في الصبر ما هو ظاهر . وقوله : ﴿ وَلَكِنْ صَبْرٌ وَعَفْرٌ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] أي : أن الذي يصبر على أذى الناس ، ويحتملهم ويغفر لهم سيئاتهم ؛ التي يُسيئون بها إليه فإن ذلك من عزم الأمور أي : من مغزوماتها وشدائدها التي تحتاج إلى مقابلة ومُصَابرة . ولا سيما إذا كان الأذى الذي ينال الإنسان بسبب جهاده في الله ﷻ وبسبب طاعته لأن أذية الناس لك لها أسباب متعددة متنوعة . فإذا كان سببها طاعة الله ﷻ والجهاد في سبيله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن الإنسان يثاب على ذلك من وجهين :

الأول : من الأذية التي تَحْصُلُ له .

الثاني : صبره على هذه الطاعة التي أُذِيَ في الله من أجلها .

وفي هذه الآية حثٌّ على صبر الإنسان على أذية الناس ومغفرة لهم ما أسأوا له فيه . ولكن ينبغي أن يعلم أن المغفرة لمن أساء إليك ليست محمودة على الإطلاق فإن الله قيّد هذا بأن يكون العفو مقرونًا بالإصلاح فقال ﷺ : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] . أما إذا لم يكن في العفو والمغفرة إصلاح فلا تعف ولا تغفر .

مثاله : لو كان الذي أساء إليك شخصًا معروفًا بالشر والفساد ، وأنت لو عفوت عنه لكان في ذلك زيادة في شره . ففي هذه الحال الأفضل أن لا تعفو عنه بل تأخذ بحقك من أجل الإصلاح . أما إذا كان الشخص إذا عفوت عنه لم يترتب على العفو عنه مفسدة ، فإن العفو أفضل وأحسن لأن الله يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] وإذا كان أجرك على الله كان خيرًا لك من أن يكون ذلك بمعاوضة تأخذ من أعمال صاحبك الصالحة .

وقوله : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] أمر الله ﷻ أن نستعين على الأمور بالصبر عليها ؛ لأن الإنسان إذا صبر وانتظر الفرج من الله سهلت عليه الأمور . فأنت إذا أصبت بشيء يحتاج إلى صبر فاصبر وتحمل « واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » .

وأما الصلاة فإنها تعين على الأمور الدينية والدنيوية حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر عنه : « أنه إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » .

وبين الله في كتابه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فإذا استعان الإنسان بالصلاة على أموره يشر الله له ذلك لأن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه ، فيقف الإنسان فيها بين يدي الله ويتناجيه ويدعوه ويتقرب إليه بأنواع القربات التي تكون في هذه الصلاة فكانت سبيلًا للمعونة .

* * *

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ يعني بذلك : المعية الخاصة لأن معية الله سبحانه تنقسم إلى قسمين : ١ - معية عامة شاملة لكل أحد : وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] وفي قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَذَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة : ٧] .

وهذه المعية العامة شاملة لجميع الخلق فَمَا مِنْ مخلوق إلا والله معه يغلمه ويحيط به سلطانًا وقدرًا وسمعًا وبصرًا وغير ذلك .

٢ - أما المعية الخاصة : فهي المعية التي تقتضي النصير والتأييد وهذه خاصة بالرسول وأتباعهم ليست لكل أحد ، ف ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ والله مع الصابرين وما أشبه ذلك

من الآيات الدالة على هذه المعية الخاصة .

ولكن هاتين المعيتين كلتيهما لا تدلان على أن الله سبحانه مع الناس في أمكنتهم ، بل هو مع الناس وهو فوق سماواته على عرشه ولا مانع من ذلك ؛ لأن الشيء يكون فوق وهو معك والعرب يقولون : ما زلنا نسير والقمر معنا . وكل يعلم أن القمر في السماء ، ويقولون : ما زلنا نسير وسهيل معنا - وهو نجم معروف - وهو في السماء . فما بالك بالخالق ﷻ هو فوق كل شيء استوى على عرشه ومع ذلك هو محيط بكل شيء مع كل أحد . مهما انفردت فإن الله تعالى محيط بك علماً وقُدرة وسلطاناً وسمَفاً وبصراً وغير ذلك .

وفي قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ دليل على أنه مُعان من قبل الله ، وأن الله يُعين الصابر ويؤيده ويكلؤه حتى يتم له الصبر على ما يحبه الله ﷻ .

ثم ذكر ﷻ آخر آية ساقها وهي قوله : ﴿ وَاتَّبَلُوا لَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] لتبلونكم : لنختبرنكم ، فالابتلاء بمعنى الاختبار .

يعني أن الله اختبر العباد في فرض الجهاد عليهم ليعلم من يصبر ومن لا يصبر ولهذا قال الله في آية أخرى : ﴿ وَلَوْ مَنَّ اللَّهُ لَأَمَصَرَهُمْ وَلَٰكِنْ لَّيَبْلُوا بِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُعِيلَ أَعْلَمُ ۖ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۚ وَيَهْدِيَهُمْ لِنَفْثَةٍ عَرَفَهَا ثُمَّ ﴾ [محمد : ٤-٦] .

وقوله : ﴿ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ قد يتوهم بعض من قَصُر علمه أن الله سبحانه لا يعلم الشيء حتى يقع وهذا غير صحيح فالله يعلم الأشياء قبل وقوعها كما قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

ومن ادعى أن الله لا يعلم بالشيء إلا بعد وقوعه فإنه مكذب لهذه الآية وأمثالها من الآيات الدالة على أن الله تعالى قد علم الأشياء قبل أن تقع !

لكن العلم الذي في هذه الآية ﴿ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ هو العلم الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب . لأن علم الله بالشيء قبل أن يكون لا يترتب عليه شيء من جهة فعل العبد لأن العبد لم يُثَلَّ به حتى يتبين الأمر . فإذا اختبر به العبد حينئذ يتبين أنه استحق الثواب أو العقاب فيكون المراد بقوله : ﴿ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ أي : علماً يترتب عليه الجزاء .

وقال بعض أهل العلم : المراد بقوله : ﴿ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ أي : علم ظهور ، يعني حتى يظهر الشيء لأن علم الله بالشيء قبل أن يكون ، علم بأنه سيكون ، وعلمه بعد كونه علم بأنه كان ، وفرق بين العِلْمين !! ويظهر الفرق فيما لو قال لك شخص : سوف أفعل كذا غداً فالآن حصل عندك علم بما أخبر به ولكن إذا فعله غداً صار عندك علم آخر أي : علم بأن الشيء الذي حدثك أنه سيفعله قد فعله فعلاً . فهذان وجهان في تفسير قوله : ﴿ حَتَّى تَعْلَمَ ﴾ .

وقوله : ﴿ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ المجاهد : هو الذي بذل جهده لإعلاء كلمة الله فيشمل المجاهد بعلمه والمجاهد بالسلاح كلاهما مجاهد في سبيل الله .

فالمجاهد بعلمه يتعلم العلم ويُعلِّمه ويُشرِّه بين الناس ويجعل هذا وسيلةً لتحكيم شريعة الله ، هذا مجاهد . والذي يحمل السلاح لمقاتلة الأعداء ، هو أيضًا مجاهد في سبيل الله إذا كان المقصود في الجهادين أن تكون كلمة الله هي العليا .

وقوله : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ أي : الذين يصبرون على ما كلفوا فيه من الجهاد ويحملونه ويقومون به .
وقوله : ﴿ وَبَلَّوْا أَعْبَارَكُمْ ﴾ أي : نختبرها وتبين لنا وتظهر لنا ظهورًا يترتب عليه الثواب والعقاب .
لما ذكر الله هذا الابتلاء قال : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يبلغه هذا الخطاب .

يعني : بَشِّرْ يا محمد - أَوْبَشِّرْ يا من يَتَلَفُّه هذا الكلام - الصابرين ، الذين يصبرون على هذه البلوى فلا يقابلونها بالتسخط وإنما يقابلونها بالصبر .

وأكمل من ذلك أن يُقابِلوها بالرضى ، وأكمل من ذلك أن يقابلوها بالشكر كما مر علينا في مراتب التحمل في أقدار الله المؤلمة .

قوله : ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إذا أصابهم مصيبة اعترفوا لله ﷻ بعموم ملكه ، وأنهم ملك لله تعالى ، ولله أن يفعل في ملكه ما شاء ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لإحدى بناته قال : « فان لله ما أخذ وله ما أبقي » ^(١) ، فأنت ملك لربك ﷻ يفعل بك ما يشاء حسب ما تقتضيه حكمته - تبارك وتعالى - . ثم قال : ﴿ وَلَبَّأْ إِيَّاكَ رَجُوعًا ﴾ يعترفون بأنهم لابد أن يرجعوا إلى الله فيجازيهم . إن تسخطوا جازأهم على سخطهم وإن صبروا كما هو شأن هؤلاء القوم فإن الله يجازيهم على صبرهم على هذه المصائب فيبتلي ﷻ بالبلاء ويشيب الصابر عليه .

قال الله ﷻ : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أولئك يعني الصابرين ، والصلوات جمع صلاة وهي ثناء الله عليهم في الملاء الأعلى عند الملائكة .

وقوله : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ الذين هداهم الله ﷻ عند حلول المصائب فلم يتسخطوا ولكن صبروا على ما أصابهم . وفي هذه الآية دليل على أن صلاة الله ﷻ ليست هي رحمة بل هي أخص وأكمل وأفضل ، ومن فسرها من العلماء بأن الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الدعاء ومن الآدميين الاستغفار ، إن هذا لا وجه له بل الصلاة غير الرحمة لأن الله عطف الرحمة على الصلوات والعطف يقتضي المغايرة ؛ ولأن العلماء مجمعون على أنك يجوز لك أن تقول لأي شخص من المؤمنين : اللَّهُمَّ ارحم فلانًا . واختلفوا هل يجوز أن يُصلى عليه أو لا يجوز على أقوال ثلاثة :
- فمنهم من أجازها مطلقًا ، ومنهم من منَعها مطلقًا ، ومنهم من أجازها إذا كانت تبعًا .

والصحيح : أنها تجوز إذا كانت تبعًا كما في قوله : « اللَّهُمَّ صل على محمد وعلى آل محمد » أو لم تكن تبعًا ولكن لها سبب كما قال الله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) باختلاف يسير في بعض ألفاظه .

[التوبة: ١٠٣] فإذا كان لها سبب ولم تتخذ شعاراً فإنه لا بأس به . فلا بأس أن تقول : اللهم صل على فلان ، فلو جاءك رجل ، قال لك : خذ زكاتي وفرقها على الفقراء فلك أن تقول : صلى الله عليك! تدعو له بأن الله يصلي عليه كما أمر الله نبيه ﷺ بذلك .

* * *

٢٥ - وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْحَارِثِ بْنِ عَاصِمٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَشُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ . كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو ، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا ، أَوْ مُوبِقُهَا » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

سبق لنا الكلام على الآيات التي ساقها المؤلف رحمته الله في الصبر وثوابه والحث عليه . ثم شرع رحمته الله في بيان الأحاديث الواردة في ذلك .

فذكر حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « شُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ » الحديث إلى قوله « وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ » فينبغي أن يبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن الصبر ضياء يعني : أنه يضيء للإنسان . يضيء له عندما تحتلك الظلمات وتشتد الكربات فإذا صبر فإن هذا الصبر يكون له ضياء يهديه إلى الحق . ولهذا ذكر الله تعالى أنه من جملة الأشياء التي يُستعان بها فهو ضياء للإنسان في قلبه وضياء له في طريقه ومنهاجه وعمله لأنه كلما سار إلى الله تعالى على طريق الصبر فإن الله تعالى يزيده هدى وضياء في قلبه ويصيره . أما بقية الحديث فقال عليه الصلاة والسلام « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » . « الطُّهُورُ » : يعني بذلك طهارة الإنسان . « شطر الإيمان » : نصف الإيمان . وذلك لأن الإيمان تخلية وتخليه . يعني : تبرؤاً من الشرك والفسوق ، تبرؤاً من المشركين والفساق بحسب ما معهم من الفسق فهو تخل . وهذا هو الطهور أن يتطهر الإنسان طهارة جسدية ومعنوية من كل ما فيه أذى . فلهذا جعله الرسول عليه الصلاة والسلام شطر الإيمان . قوله : « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ » ذكر ابن علان ما مختصره : أي هذه الجملة بخصوصها لأنها أفضل صيغ الحمد ولذا بُدئ بها الكتاب العزيز ، والحمد لله هو الثناء على الله بالجميل الاختياري والإذعان له والرضا بقضائه . والميزان : المراد منه حقيقته : أي ما توزن به الأعمال ؛ إما بأن تجسّم الأعمال أو توزن صحائفها ، فتطيش بالسيئة وتثقل بالحسنة .

وهذه الكلمة كان لها هذا الثواب العظيم بحيث تملأ كفة الميزان مع سعتها ؛ لأن معاني الباقيات الصالحات في ضمنها ؛ لأن الثناء تارة يكون بإثبات الكمال ، وتارة بنفي النقص ، وتارة بالاعتراف بالعجز ، وتارة بالتفرد بأعلى المراتب . والألف واللام في الحمد لاستغراق جنس المدح : والحمد مما

(١) أخرجه مسلم واللفظ له في الطهارة (١) وأحمد في مسنده (٣٤٢/٥) .

علمناه وجهلناه ، وإنما يستحق الإلهية من اتصف بذلك ، فاندرج الجميع تحت « الحمد لله » .
 وقوله : « وسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ - أو قال تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » شك من الراوي ، والمعنى لا يختلف . أي أن « سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » وذلك لأن هاتين الكلمتين مُشْتَمِلَتَانِ عَلَى تَنْزِيهِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ فِي قَوْلِهِ : « سُبْحَانَ اللَّهِ » وعلى وصف الله بكل كمال في قوله : « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ » . فقد جمعت هاتان الكلمتان بين التَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَةِ كما يقولون .
 فالتسبيح : تنزيه الله عما لا يليق به في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه . فإله مُنْزَهٌ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ . لا تجد في أسمائه اسماً يشتمل على نقص أو على عيب ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف : ١٨٠] : ولا تجد في صفاته صفة تشتمل على عيب أو نقص ولهذا قال الله : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ بعد قوله : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ [التحل : ٦٠] . فالله ﷻ له الوصف الأكمل الأعلى من جميع الوجوه . وله الكمال المنزه عن كل عيب في أفعاله كما قال الله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِنَعْبُدَ ﴾ [الشع : ٢٨] فليس في خلق الله لُوبٌ وَلَهْوٌ وإنما هو خلق مبنى على الحكمة .

كذلك أحكامه لا تجد فيها عيباً ولا نقصاً كما قال الله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ مِنْ كُلِّ الْمَلَكِينَ ﴾ [التين : ٨] وقال ﷻ : ﴿ أَتَحْكُمُ الْقُبُورَ يَبْنَؤُنَّ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا يَقُومُ يُوقِظُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] والله ﷻ يُحْمَدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أصابه ما يُسْرُّ به قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمَّ الصَّالِحَاتُ » وإذا أصابه سوى ذلك قال : « الحمد لله على كُلِّ خَالٍ » ^(١) ثم إن ها هنا كلمة شاعت أخيراً عند كثير من الناس وهي قولهم : « الحمد لله الذي لا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهِهِ سِوَاهُ » . هذا حمد ناقص !!

لأن قولك على مَكْرُوهِهِ سِوَاهُ تعبير يدل على قِلَّةِ الصبر أو على الأقل على عدم كمال الصبر ، وأنك كاره لهذا الشيء ولا ينبغي للإنسان أن يُعبر هذا التعبير ، بل ينبغي له أن يُعبر بما كان الرسول ﷺ يُعبر به فيقول الحمد لله على كل حال أو يقول الحمد لله الذي لا يُحْمَدُ على كل حال سِوَاهُ . أما التعبير الأول فإنه تعبير واضح على مُضَادَّةِ مَا أَصَابَهُ مِنَ اللَّهِ ﷻ وأنه كاره له . وأنا لا أقول إن الإنسان لا يَكْرَهُ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ بِطَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكْرَهُ ذَلِكَ لَكِنْ لَا تُغْلِنُ هَذَا بِلْسَانِكَ فِي مَقَامِ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ بَلْ عِبْرَ كَمَا عِبَرَ النَّبِيُّ ﷺ .

قوله ﷺ : « وَالصَّلَاةُ نُورٌ » : فالصلاة : نور للعبد في قلبه ، وفي وجهه ، وفي قبره ، وفي حشره . ولهذا تجد أكثر الناس نوراً في الوجوه أكثرهم صلاة وأحشعهم فيها لله ﷻ . وكذلك تكون نوراً للإنسان في قلبه تفتح عليه باب المعرفة لله ﷻ ، وباب المعرفة في أحكام الله وأفعاله وأسمائه وصفاته

(١) أخرجه ابن ماجه واللفظ له في الأدب (٣٨٠٣) والحاكم في المستدرک (٤٩٩/١) .

وهي نور في قبر الإنسان ؛ لأن الصَّلَاة عُمُودُ الإسلام إذا قام العمود قام البناء وإذا لم يُقَمْ العمود فلا بناء . كذلك نُورٌ في حشره يوم القيامة . كما أخبر بذلك الرسول ﷺ « أَنْ مِنْ خَافِظٍ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَنَجَاةٌ وَبُرْهَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ لَهُ نُورًا وَلَا بُرْهَانًا وَلَا نَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحُشِرَ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ وَأَيُّ بْنُ خَلْفٍ » (١) .

فهي نُورٌ للإنسان في جميع أحواله وهذا يقتضي أن يحافظ الإنسان عليها وأن يحرص عليها وأن يكثر منها حتى يكثر نوره وعلمه وإيمانه .

وأما الصبر : فقال : « إنه ضياء » . أي : فيه نور لكن نور مع حرارة كما قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيكًا وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] . فالضوء لا بد فيه من حرارة وهكذا الصبر لا بد فيه من حرارة وتعب لأن فيه مشقة كبيرة ولهذا كان أجره بغير حساب . فالفرق بين الثور في الصَّلَاة والضياء في الصبر ، أن الضياء في الصبر مضحوب بحرارة لما في ذلك من الثَّعب القليلي والبدني في بعض الأحيان : وقوله : « الصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ » الصَّدَقَةُ : بذل المال تقريبًا لله ﷻ . للأهل والفقراء والمصالح العامة مثل بناء المساجد وغيرها هذا برهان . بُرْهَانٌ على إيمان العبد وذلك لأن المال محبوب إلى النفوس والنفوس شحيحة به فإذا بذله الإنسان لله فإن الإنسان لا يبذل ما يحب إلا لما هو أحب إليه منه . ولهذا تجد أكثر الناس إيمانًا بالله ﷻ وبالإخلاف تجدهم أكثرهم صدقة . ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام « والقرآن حجة لك أو عليك » ؛ لأن القرآن هو حبل الله المتين وهو حجة الله على خلقه فإما أن يكون لك ، وذلك فيما إذا توصلت به إلى الله وقمت بواجب هذا القرآن العظيم من التصديق بالأخبار ، وامتنال الأوامر ، واجتناب النواهي ، وتعظيم هذا القرآن الكريم واحترامه . ففي هذه الحال يكون حجة لك . أما إن كان الأمر بالعكس أَهَنْتَ الْقُرْآنَ وَهَجَرْتَهُ لَفْظًا وَمَعْنَى وَعَمَلًا ولم تُقَمْ بواجبه فإنه يكون عليك شاهدًا يوم القيامة . ولم يذكر الرسول ﷺ مرتبة بين هاتين المرتبتين ! . يعني لم يذكر أن القرآن لا لك ولا عليك لأنه لا بد أن يكون إما لك وإما عليك على كل حال . فنسأل الله أن يجعله لنا ولكم حجةً نهتدي به في الدنيا والآخرة إنه جواد كريم .

* * *

قوله : « كل الناس يُغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُتَعَقِّهَا أَوْ مُؤَبِّقُهَا » . أي : كل الناس يبدأ يومه من الغدوة بالعمل وهذا شيء مُشَاهِد . فإن الله تعالى جعل الليل سكنًا وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] فهذا النوم الذي يكون في الليل هو وفاة صغرى تهدأ فيه الأعصاب . ويستريح : فيه البدن ويستجد نشاطه للعمل المقبل ويستريح من العمل الماضي . فإذا كان الصباح وهو الغدوة شار الناس ، واتجهوا كُلُّ لعمله . فمنهم من يتجه إلى الخير ، وهم المسلمون ومنهم من يتجه إلى الشر ، وهم الكفار والعياذ بالله .

المسلم أول ما يغدو يتوضأ وَيَتَطَهَّرُ « والظهور شطر الإيمان » - كما في هذا الحديث - ثم يذهب فيصلي فيبدأ يومه بعبادة الله ﷻ بل يفتحه بالتوحيد لأنه يُشرع للإنسان إذا استيقظ من نومه أن يذكر الله ﷻ وأن يقرأ عشر آيات من سورة آل عمران وهي قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ أَلْبِلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴾ إلى آخر السورة . [آل عمران : ١٩٠ - ٢٠٠] . هذا المسلم .

هذا الذي يغدو في الحقيقة بائع نفسه لكن هل باعها بيعاً يعتقها فيه ؟! نعم ! المسلم باعها بيعاً يغتقها فيه ولهذا قال : فبائع نفسه فمعتقها هذا قسم . أو موبقها أي : بائع نفسه فموبقها .

الكافر يغدو إلى العمل الذي فيه الهلاك لأن معنى ، « أوبقها » أي : أهلكها . وذلك أن الكافر يبدأ يومه بمعصية الله ، حتى لو بدأ بالأكل والشرب فإن أكله وشربه يُعاقب عليه يوم القيامة . كل لقمة يرفعها الكافر إلى فمه فإنه يُعاقب عليها ، وكل شربة يتلعلعها من الماء فإنه يُعاقب عليها ، وكل لباس يلبسه فإنه يُعاقب عليه .

والدليل على هذا : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ للذين آمنوا لا غيرهم . ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] يعني ليس عليهم من شوائبها يوم القيامة . فمفهوم الآية الكريمة أنها لغير المؤمنين حرام ، وأنها ليست خالصة لهم يوم القيامة وأنهم سيُعاقبون عليها . وقال الله في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل والآية التي سقتها الآن في سورة الأعراف وهي مكية .

قال في المائدة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا ﴾ [المائدة : ٩٣] فمفهوم الآية الكريمة أن على غير المؤمنين جناح فيما طعموه . فالكافر من حين ما يُصبح - والعياذ بالله - وهو بائع نفسه فيما يهلكها . أما المؤمن فبائع نفسه فيما يُغتقها ويُنجيها من النار . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم .

في آخر هذا الحديث : بين الرسول عليه الصلاة والسلام أن الناس ينقسمون إلى قسمين : قسم يكون القرآن حجة لهم كما قال : « والقرآن حُجَّةٌ لَكَ » . وقسم يكون القرآن حجة عليهم كما قال : « أو عليك » . وقسم يعتقون أنفسهم بأعمالهم الصالحة . وقسم يهلكونها بأعمالهم السيئة والله الموفق .

٢٦ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ بْنِ سِنَانٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ، حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلُّ شَيْءٍ بِيَدِهِ : « مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَذْخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ . وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » ^(١) متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في الزكاة (١٤٦٩) ومسلم في الزكاة (١٢٤) والنسائي في السنن (٩٥/٥) .

الشرح

قوله « إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ .. » إلى قوله « حَتَّى نَقْدَ مَا عِنْدَهُ » . كان من خلقه الكريم أنه لا يُسأل شيئاً يجده إلا أعطاه ، وما عهد عنه أنه ﷺ منع سائلاً بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، ويعيش في بيته عيش الفقراء وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع ، فهو عليه الصلاة والسلام أكرم الناس وأشجع الناس . فلما نقد ما في يده أخبرهم أنه : « ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم » أي : لا يمكن أن يدخر خيراً عنهم ؛ فيمنعهم ولكن ليس عنده شيء . ثم حث الرسول عليه الصلاة والسلام على الاستعفاف والاستغناء والصبر فقال : « وَمَنْ يَسْتَعِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ » . هذه ثلاثة أمور :

أولاً : « من يستعفف يعفه الله » ، فمن يستعفف عما حرم الله عليه من النساء يُعفه الله ﷻ . والإنسان الذي يتبع نفسه هواها فيما يتعلق بالعِفَّة فإنه يهلك - والعياذ بالله - : لأنه إذا أتبع نفسه هواها وصار يتبع النساء فإنه يهلك . تزني العين ، وتزني الأذن ، وتزني اليد ، وتزني الرجل ، ثم يزني الفرج ، وهو الفاحشة والعياذ بالله .

فإذا استعفف الإنسان عن هذا الحرم أعفه الله ﷻ وحماه وحمل أهله أيضاً .

ثانياً : « من يستغنى يغنيه الله » أي : من يستغنى بما عند الله عما في أيدي الناس يُغنيه الله ﷻ . وأما من يسأل الناس ، ويحتاج لما عندهم ، فإنه سيبقى قلبه فقيراً - والعياذ بالله - ولا يستغني . والغنى غنى القلب ، فإذا استغنى الإنسان بما عند الله عما في أيدي الناس أغناه الله عن الناس وجعله عزيز النفس بعيداً عن السؤال .

ثالثاً : « من يتصبر يُصبره الله » أي يعطه الله الصبر .

فإذا حَبِثت نفسك عما حرم الله عليك وصبرت على ما عندك من الحاجة والفقر ولم تلح على الناس بالسؤال فإن الله تعالى يُصبرك ويُعينك على الصبر . وهذا هو الشاهد من الحديث لأنه في باب الصبر . ثم قال الرسول ﷺ : « وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » . أي : ما من الله على أحد بعطاء من رزق أو غيره خيراً وأوسع من الصبر لأن الإنسان إذا كان صبوراً تحمل كل شيء . إن أصابته الضراء صبر ، وإن عرض له الشيطان بفعل المحرم صبر ، وإن خذله الشيطان عن ما أمر الله . فإذا كان الإنسان قد من الله عليه بالصبر فهذا خير ما يُعطاه الإنسان وأوسع ما يُعطاه ولذلك تجد الإنسان الصبور لو أُوذِيَ من قبل الناس لو سمع منهم ما يكره لو حصل منهم اعتداءً عليه تجده هادئ البال . لا يتصلب ولا يغضب لأنه صابر على ما ابتلاه الله به فلذلك تجد قلبه دائماً مطمئناً ونفسه مستريحة .

ولهذا قال الرسول ﷺ : « مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » والله الموفق .

٢٧ - وَعَنْ أَبِي يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سَيَّانٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

« صهيب » هو الرُّومِي .

وقوله : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ » أي : إن الرسول عليه الصلاة والسلام أظهر العجب على وجه الاستحسان « لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ » أي : لشأنه . فإن شأنه كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . ثم فَصَّلَ الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الأمر الخير فقال : « إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » هذه حال المؤمن ، وكل إنسان فإنه في قضاء الله وقدره بين أمرين : إما سَرَّاءٌ وإما ضَرَّاءٌ ، والناس في هذه الإصابة ينقسمون إلى قسمين :

مؤمنٌ وغير مؤمن ، فالمؤمن على كُلِّ حال ما قَدَّرَ الله له فهو خير له إن أصابته الضراء صبر على أقدار الله وانتظر الفرج من الله واحتسب الأجر على الله فكان خيرًا له فنال بهذا أجر الصابرين . وإن أصابته سَرَّاءٌ من نعمة دينية كالعلم والعمل الصالح ونعمة دنيوية كالمال والبنين والأهل شَكَرَ الله وذلك بالقيام بطاعة الله ﻋَظِمْ . لأن الشكر ليس مجرد قول الإنسان : أشكر الله ؛ بل هو القيام بطاعة الله ﻋَظِمْ . فيشكر الله فيكون خيرًا له ، ويكون عليه نعمتان : نعمة الدين ونعمة الدنيا . نعمة الدنيا بالسراء ، ونعمة الدين بالشكر ، هذه حال المؤمن . وأما الكافر فهو على شر - والعياذ بالله - ، إن أصابته الضراء لم يصبر بل يضجر ودعا بالويل والثبور وسب الدهر وسب الزَّمن بل وسبَّ الله ﻋَظِمْ .

وإن أصابته سَرَّاءٌ لم يشكر الله فكانت هذه السراء عقابًا عليه في الآخرة ؛ لأن الكافر لا يأكل أكلة ولا يشرب شربة إلا كان عليه فيها إثم ، وإن كان ليس فيها إثم بالنسبة للمؤمن لكن على الكافر إثم كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ مَنْ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] هي للذين آمنوا خالصة وهي خالصة لهم يوم القيامة أما الذين لا يؤمنون فَلَيْسَتْ لهم ، ويأكلونها حرامًا عليهم ويُعَاقَبُونَ عليها يوم القيامة . فالكافر شر ، سواء أصابته الضراء أم السراء بخلاف المؤمن فإنه على خير . وفي هذا الحديث الحثُّ على الإيمان وأن المؤمن دائمًا في خير ونعمة . وفيه الحثُّ على الصبر على الضراء وأن ذلك من إحصال المؤمنين . فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابرًا مُحْتَسِبًا تنتظر الفرج من الله ﻋَظِمْ وتَحْتَسِبُ الأجر على الله فذلك عنوان الإيمان . وإن رأيت بالعكس فلم نفسك وعدل مسيرك وثب إلى الله .

وفي هذا الحديث : الحثُّ على الشكر عند السراء لأنه إذا شكر الإنسان ربَّه على نعمة فهذا من

(١) أخرجه مسلم بدون كلمة « له » بعد (كله) في الزهد والرقائق (٦٤) وأحمد في مسنده (٢٤/٥) .

توفيق الله له وهو من أسباب زيادة النعم كما قال الله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] وإذا وفق الله العبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثانية ، فإذا وفق فهي نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة وهكذا لأن الشكر قل من يقوم به فإذا من الله عليك وأعانك عليه فهذه نعمة . ولهذا قال بعضهم :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً لِلَّهِ نِعْمَةٌ عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بِلَوْغِ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمُرُ

وصدق ﷺ فإن الله إذا وفقك للشكر فهذه نعمة تحتاج إلى شكر جديد فإن شكرت فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثانٍ وهلم جرا . ولكننا في الحقيقة في غفلة من هذا نسأل الله أن يوقظ قلوبنا وقلوبكم ويصلح أعمالنا وأعمالكم إنه جواد كريم .

٢٨ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَرْبُ فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : يَا أَبَتَاهُ . فَقَالَ : « لَيْسَ عَلَيَّ أَيْلِكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ » فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ : يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ ، يَا أَبَتَاهُ جَهَنَّمَ الْفِرْدَوْسُ مَا أَوَاهُ ، يَا أَبَتَاهُ إِلَى جَبْرِيلَ نَتَّعَاهُ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الثَّرَابَ ؟ ^(١) رواه البخاري .

الشرح

قوله : « جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَرْبُ » أي : من شدة ما يُصِيبُهُ ، جعل يُغْشَى عليه من الكرب ، لأنه يُشَدُّ عليه الوعك والمرض كان يوعك كما يوعك الرجلان من الناس .

والحكمة في هذا من أجل أن يقال ﷺ أعلى درجات الصبر . فإن الصبر منزلة عالية لا يُنال إلا بامتحان واختبار من الله ﷻ ؛ لأنه لا صبر إلا على مكروه . فإذا لم يُصب الإنسان بشيء يكره فكيف يعرف صبره ولهذا قال الله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِدِينَ ﴾ [محمد : ٣١] فكان الرسول ﷺ يُوعك كما يوعك الرجلان من الناس . فجعل يتغشاه الكرب فتقول فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « وَكَرْبُ أَبَتَاهُ » تتوَجَّع له من كربه لأنها امرأة ، والمرأة لا تطيق الصبر .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لَا كَرْبَ عَلَيَّ أَيْلِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ » ^(٢) لأنه لما انتقل من الدنيا انتقل إلى الرفيق الأعلى كما كان ﷺ وهو يغشاه الموت يقول : « اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » ^(٣) وينظر إلى سقف البيت . توفي الرسول عليه الصلاة والسلام فجعلت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَدْبُهُ لكنه نَذَبَ خفيف

(١) أخرجه البخاري بدون كلمة « الكرب » في المغازي (٤٤٦٢) . قوله : « ثقل » أي أشد عليه المرض .

(٢) أخرجه ابن ماجه واللفظ له في الجنائز (١٦٢٩) .

(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٤) ، ومسلم في السلام (٤٦) ، وأحمد في مسنده (٤٨/٦) ، وابن مالك في الموطأ في الجنائز (٤٦) وكلها بألفاظ مختلفة .

لا يدلُّ على التسخُّط من قضاء الله وقدره . فجعلت تقول : « يا أبتاه إلى جبريلَ نَنْعَاهُ » الثَّعْبِي هو الإخبار بموت الميت وقالت : إننا ننعاه إلى جبريل لأنه هو الذي كان يأتيه بالوحي صباحاً ومساءً . فإذا قُتِلَ الرسول عليه الصلاة والسلام قُتِلَ نَزول جبريل إلى الأرض بالوحي ، لأنه انقطع بموت الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقولها : « أَجَابَ رَبِّي دَعَاةً » لأن الله هو الذي بيده ملكوت كل شيء ، آجال الخلق بيده ، تصريف الخلق بيده ، كل شيء إلى الله . إلى الله المنتهى وإليه الرجعى .

فأجاب داعي الله وهو أنه ﷺ إذا توفي صار كغيره من المؤمنين يُصْعَدُ بِرُوحِهِ حتى توقف بين يدي الله ﷻ فوق السماء السابعة . وقولها : « جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ » ﷺ لأنه أعلى الخلق منزلة في الجنة كما قال الرسول ﷺ « اسْأَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ وَلَا تَكُونُ إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ » . ولا شك أن الرسول ﷺ مأواه جنة الفردوس ، وجنة الفردوس هي أعلى درجات الجنة . وسقفها الذي فوقها عرش الرب ﷻ . والرسول عليه الصلاة والسلام في أعلى درجة منها .

ثم لما حُمِلَ وَدُفِنَ قالت رضي الله عنها : « أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تُحْتَوَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ ؟ » يعني من شِدَّةِ وَجْدِهَا عَلَيْهِ وَحُزْنِهَا وَمَعْرِفَتِهَا بِأَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ قَدْ مَلَأُوا قُلُوبَهُمْ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

والجواب : أنها طابت لأن هذا ما أراد الله ﷻ وهو شرع الله ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُفْقَدُ بِكُلِّ الْأَرْضِ لَقَدَاهُ الصَّحَابَةُ ﷺ . لكن الله سبحانه هو الذي له الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وكما قال الله في كتابه : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلِأَنْتُمْ مَنَئِنٌ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿ [الزمر : ٣٠-٣١] . في هذا الحديث : بيان أن رسول الله ﷺ كغيره من البشر يَمُوتُ ، وَيَجُوعُ ، وَيَعْطَشُ ، وَيَبْزُدُ ، وَيَخْتَرُ . وجميع الأمور البشرية تعتري النبي ﷺ . كما قال ﷺ : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْتُمْ كَمَا تَتَشَوَّنَ » (١) . وفيه : رد على هؤلاء القوم الذين يُشْرِكُونَ بِالرَّسُولِ ﷺ .

يَدْعُوْنَ الرَّسُولَ وَيَسْتَعِينُونَ بِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَلْ إِنْ بَعْضُهُمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - لَا يَسْأَلُ اللَّهَ وَيَسْأَلُ الرَّسُولَ . كَانَ الَّذِي يَجِيبُ هُوَ الرَّسُولُ ، وَلَقَدْ ضَلُّوا فِي دِينِهِمْ وَسَفَّهُوا فِي عَقُولِهِمْ . فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَكَيْفَ يَمْلِكُ لغيره .

قال الله أمراً نبيه : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ بل هو عبد من عباد الله ولهذا قال : ﴿ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

وقال الله سبحانه له أيضاً : ﴿ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ أي : هذه وظيفتي ﴿ مِنْ اللَّهِ وَرِسَالَتِي ﴾ [الحج : ٢١-٢٣] ولما أنزل الله قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دَعَا قَرَابَتَهُ وَجَعَلَ يُنَادِي إِلَى أَنْ قَالَ : « يَا فَاطِمَةُ بَشْتُ مُحَمَّدٍ »

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠١) ومسلم في المساجد (٩٠) وأحمد في مسنده (٣٧٩/١) بدون كلمة « مثلكم » .

سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» (١) إِلَى هَذَا الْحَدِّ .. ابْنَتُهُ الَّتِي هِيَ بِضْعَةُ مِائَةٍ وَالتِّي يَرِيئُهُ مَا زَاتَهَا !! فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ سَوَاهَا مِنْ بَابِ أُولَى . فَفِيهِ بَيَانٌ ضَلَالِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ الرَّسُولَ ﷺ ، تَجْدَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ عِنْدَ الدَّعَاءِ يَتَّجِهُونَ إِلَى الْقَبْرِ وَيَضْمُدُونَ أَمَامَ الْقَبْرِ كَضُمُودِهِمْ أَمَامَ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ أَشَدَّ .

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ : دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِالنَّدْبِ الْيَسِيرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُؤَذَّنًا بِالتَّسْخِطِ عَلَى اللَّهِ ﷻ ، لِأَنَّ فَاطِمَةَ نَدَبَتْ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَكِنَّهُ نَذَّبَ يَسِيرًا وَلَيْسَ يُثْمَرُ عَنْ اعْتِرَاضٍ عَلَى قَدَرِ اللَّهِ ﷻ . وَفِيهِ : دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَقِيَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَوْلَادِهِ بَعْدَهُ إِلَّا فَاطِمَةُ ، كُلُّ أَوْلَادِهِ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ مَاتُوا فِي حَيَاتِهِ .

بَقِيَتْ فَاطِمَةُ وَلَيْسَ لَهَا مِيرَاثٌ وَلَا أَزْوَاجَةٌ وَلَا عَمَةُ الْعَبَّاسِ وَلَا أَحَدٌ مِنْ عَصْبَتِهِ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُورَثُونَ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ » (٢) . وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ ﷻ ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ وَرَثُوا لَقَالَ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ هَؤُلَاءِ جَاؤُوا بِالرَّسَالَةِ يَطْلُبُونَ مُلْكًا يُورَثُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ مَنَعَ ذَلِكَ . فَالْأَنْبِيَاءُ لَا يُورَثُونَ بَلْ مَا يَتْرَكُونَهُ صَدَقَةٌ يَصْرِفُ لِلْمُسْتَحِقِّينَ لَهُ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

* * *

٢٩ - وَعَنْ أَبِي زَيْدٍ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ بِنِ خَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجِئَهُ وَابْنِ جِئَهُ ، ﷺ قَالَ : أُرْسِلْتُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ ابْنِي قَدْ اخْتَضِرَ فَاشْهَدْنَا ، فَأُرْسَلُ يُقْرَأُ السَّلَامُ وَيَقُولُ : « إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى ، فَلْتَضَبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » فَأُرْسِلْتُ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لِأَيَّتِنَهَا . فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَأَتَيْتُ بَنَ كَعْبٍ ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَرَجُلًا ﷺ ، فَرَفَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيَّ ، فَأَقْعَدَهُ فِي حَجَرِهِ وَنَفْسُهُ تُقْعِقُ ، فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ ، فَقَالَ سَعْدُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا ؟ فَقَالَ : « هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ » وَفِي رِوَايَةٍ : « فِي قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَلَئِنَّمَا يَزُوحُمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءُ » (٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَمَعْنَى « تُقْعِقُ » : تَحْتَرِكُ وَتَضْطَرِبُ .

الشرح

أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ بِنِ خَارِثَةَ ، وَزَيْدُ بْنُ خَارِثَةَ كَانَ مَوْلَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ عَبْدًا فَأَهْدَتْهُ إِلَيْهِ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَأَعْتَقَهُ فَصَارَ مَوْلَى لَهُ وَكَانَ يُقَلَّبُ بِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيَّ حَبِيبِهِ وَابْنِهِ حُبِّ فَأَسَامَةَ

(١) أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ بِاخْتِلَافٍ فِي اللَّفْظِ فِي الرَّقَائِقِ (٢٧٢٨) .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي فَضَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ (٣٧١٢) وَمُسْلِمٌ فِي الْجِهَادِ (٤٩) بِاخْتِلَافٍ فِي اللَّفْظِ .

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَوَايَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا فِي الْجَنَائِزِ (١٢٨٤) وَمُسْلِمٌ فِي الْجَنَائِزِ (١١) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٠٤/٥) قَوْلُهُ « احْتَضَرَ » أَيَّ اشْرَفَ عَلَى الْوَفَاةِ .

حبه وابن حبه ﷺ . ذكر أن إحدى بنات الرسول ﷺ أرسلت إليه رسولاً تقول له إن ابنها قد احتضر أي حضره الموت . وأنها تطلب من الرسول ﷺ أن يحضر ، فبلغ الرسول ﷺ رسول الله ﷺ فقال له : « مَوْهَا فَلْتَضْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى » أمر الرسول ﷺ بهذا!

قوله : « فَلْتَضْبِرْ » أي : فلتحسب نفسها عن السخط وتحمل المصيبة .

وقوله : « وَلْتَحْتَسِبْ » أي : تحتسب الأجر على الله بصبرها لأن من الناس من يضرب ولا يحتسب . يضرب على المصيبة ولا يتضجر ، لكنه ما يؤمل أجرها على الله فيفوته بذلك خير كثير لكن إذا صبر واحتسب الأجر على الله فهذا هو الاحتساب . قوله : « فَإِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ » هذه الجملة عظيمة ! إذا كان الشيء كله لله إن أخذ منك شيئاً فهو ملكه وإن أعطاك شيئاً فهو ملكه فكيف تسخط إذا أخذ منك ما يملكه هو ؟ عليك إذا أخذ الله منك شيئاً محبواً لك أن تقول : هذا لله ، له أن يأخذ ماشاء وله أن يعطي ماشاء . ولهذا يُسَنُّ للإنسان إذا أصيب بمصيبة أن يقول : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » يعني : نحن ملك لله يفعل بنا ما يشاء كذلك ما نُحِبُّه إذا أخذه من بين أيدينا فهو له ﷻ ، حتى الذي يعطيك أنت لا تملكه هو لله تعالى ، ولهذا لا يمكن أن تتصرف فيما أعطاك الله إلا على الوجه الذي أذن لك فيه ، وهذا دليل على أن ملكنا لما يعطينا الله ، ملك قاصر ، ما نتصرف فيه تصرفاً مطلقاً .

لو أراد الإنسان أن يتصرف في ماله تصرفاً مطلقاً على وجه لم يأذن به الشرع قلنا له : أمسيك لا يمكن ؛ لأن المال مال الله كما قال سبحانه : ﴿ وَآتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي مَاتَكُمْ ﴾ [النور: ٣٣] فلا تتصرف فيه إلا على الوجه الذي أذن لك فيه .

ولهذا قال : « وَلِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ » فإذا كان لله ما أخذ فكيف نجزع وكيف نتسخط أن يأخذ المالك ما ملك هذا خلاف المعقول والمنقول ! .

قال : « وكل شيء عنده بأجل مُّسَمًّى » فكل شيء عنده بمقدار كما قال الله في القرآن الكريم : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨] بمقدار في زمانه ومكانه وذاته وصفاته وكل ما يتعلق به فهو عند الله مقدر . وأجل مُّسمى أي : معين ، فإذا أيقنت بهذا اقتنعت وهذه الجملة الأخيرة تعني : أن الإنسان لا يمكن أن يغير المكتوب المؤجل ، لا بتقديم ولا بتأخير . كما قال الله : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْذِرُونَ ﴾ [يونس: ٤٩] . فإذا كان الشيء مُقَدَّرًا لا يتقدم ولا يتأخر فلا فائدة من الجزع والتسخط ، لأنه وإن جزعت أو تسخطت لن تغير شيئاً من المقدور . ثم إن الرسول ﷺ أبلغ البنت ما أمره أن يبلغه إياها ولكنها أرسلت إليه تطلب أن يحضر فقام - عليه الصلاة والسلام - هو وجماعة من أصحابه ، فوصل إليها فرفع إليه الصبي ونفسه تتفقع أي تضطرب تضعد وتنزل فبكى الرسول عليه الصلاة والسلام ودمعت عيناه ، فقال سعد بن عباد - وكان معه وهو سيد

الخروج - : ما هذا ؟ ظن أن الرسول ﷺ بكى جزعاً فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « هَذِهِ رَحْمَةٌ » . أي بكيت رحمة بالصبي لا جزعاً بالمقدور . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ » ففي هذا دليل على جواز البكاء رَحْمَةً بالمُصَاب . إذا رأيت مُصَاباً في عقله أو بدنه فبكيت رحمة به فهذا دليل على أن الله تعالى جعل في قلبك رحمة وإذا جعل الله في قلب الإنسان رحمة كان من الرحماء الذين يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﷻ : نسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته .

ففي هذا الحديث : دليل على وجوب الصبر لأن الرسول ﷺ قال : « مُرَهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » . وفيه دليل على أن هذه الصيغة من العزاء أَفْضَلُ صِيغَةً . أَفْضَلُ من قول بعض الناس : « أَغْظَمَ اللَّهُ أَجْرَكَ ، وَأَحْسَنَ عَزَاكَ وَغَفَرَ لِمَيْتِكَ » هذه صيغة اختارها بعض العلماء لكن الصيغة التي اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام أَفْضَلُ ؛ لأنَّ المُصَاب إذا سمعها اقتنع أكثر . والتعزية في الحقيقة ليست تهينة كما ظننها بعض العوام ! يحتفل بها ويوضع لها الكراسي وتوقد لها الشموع ويحضر لها القراء والأطعمة!! لا . التعزية تسلية وتقوية للمُصَاب أن يصبر .

ولهذا لو أنَّ أحدًا لم يُصَبِّبْ بالمصيبة كما لو مات له ابن عم ولم يهتم به فإنه لا يعزى ، ولهذا قال العلماء : « تُسَنُّ تَعْزِيَةُ الْمُصَابِ » ولم يقولوا : تسن تعزية القريب ، لأن القريب ربما لا يصاب بموت قريبه ، والبعيد يصاب لقوة صداقة بينهما مثلاً .

أما الآن - مع الأسف - انقلبت الموازين وصارت التعزية للقريب حتى وإن فرح وضرب الطبول لموت قريبه فإنه يعزى . ربما يكون بعض الناس فقيراً وبينه وبين ابن عمه مشاكل كثيرة ومات ابن عمه وله ملايين الدراهم هل يفرح إذا مات ابن عمه في هذه الحال أو يُصَاب ؟ غالباً يفرح ، ويقول : الحمد لله الذي فكّني من مشاكله وورّثني ماله ! هذا لا يُعْزَى ، هذا يُهْتَأُّ لو أردنا أن نقول شيئاً . والله الموفق .

٣٠ - وَعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ ، وَكَانَ لَهُ سَاجِرٌ ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ الشَّجَرَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ - إِذَا سَلَكَ - رَاهِبٌ ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاجِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ : إِذَا خَشِيتَ السَّاجِرَ فَقُلْ : حَبْسَنِي أَهْلِي ، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ : حَبْسَنِي السَّاجِرُ .

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاجِرَ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبَ أَفْضَلُ ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاجِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمِضِيَ النَّاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ . فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيُّ بَنِي أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإِنَّكَ سَتَبْتَائِي ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَلَا تَدُلُّ عَلَيَّ ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُرَى الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ . فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ

عَمِي ، فَأَتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةً فَقَالَ : مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَى ، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ تَعَالَى دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ ، فَأَمَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى فَشَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ ؟ قَالَ : رَبِّي . قَالَ : أَوْلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَيُّ بُنْيٍّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَى ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ : ازْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَتَى ، فَدَعَا بِالنَّشَارِ فَوَضَعَ النَّشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شَقَاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ : ازْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى ، فَوَضَعَ النَّشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقَاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ : ازْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فُعِلَ بِأَصْحَابِكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ وَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْدِفُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَاثْكَفَاتُ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَعَرَقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فُعِلَ بِأَصْحَابِكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ . قَالَ : مَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جَذَعٍ ، ثُمَّ اخُذَ سَهْمًا مِنْ كِتَانَتِي ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلَّ : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ ارْزَمْنِي ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي . فَجَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جَذَعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِتَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فَمَاتَ . فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ . قَدْ آمَنَ النَّاسُ . فَأَمَرَ بِالْأَخْذُودِ بِأَفْوَاهِ السَّكَكِ فَحُدَّتْ وَأُضْهِمَ فِيهَا الثَّيْرَانِ وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَزْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا - أَوْ قِيلَ لَهُ : اقْتَحِم - فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا ، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ : يَا أُمَّةَ اضْبِرِّي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ ^(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ . « ذِرْوَةُ الْجَبَلِ » : أَعْلَاهُ ، وَهِيَ بِكَسْرِ الدَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَضَمِّهَا وَ « الْقُرْقُورُ » بِضَمِّ الْقَافَيْنِ : نَوْعٌ مِنَ الشُّفْنِ وَ « الصَّعِيدُ » هُنَا : الْأَرْضُ الْبَارِزَةُ وَ « الْأَخْذُودُ » : الشُّقُوفُ فِي الْأَرْضِ كَالثَّهْرِ الصَّغِيرِ ، وَ « أَضْرَمَ » ، أَوْقَدَ ، وَ « وَائْكَفَاتُ » أَيُّ : انْقَلَبَتْ ، وَ « تَقَاعَسَتْ » : تَوَقَّفَتْ وَجَبَّحَتْ .

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٧٣) وأحمد في مسنده (١٧/٦) .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الصبر فيه قصة عجيبة : وهي أنَّ رجلاً من الملوك فيمن سبق كان عنده ساحر هذا السّاحر اتخذهُ الملك بطانة من أجل أن يستخدمه في مصالحه ولو على حساب الدّين لأن هذا الملك لا يهتم إلا بما فيه مصلحته وهو ملك مُشتَبَد قد عبَد الناس لنفسه كما سيأتي في آخر الحديث .

هذا السّاحر لما كَبُر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً علّمهُ السحر . واختار الغلام لأنّ الغلام أَقْبَلُ للتعليم ولأن التعليم للغلام الشّاب هو الذي يبقى ولا ينسى ولهذا كان التّعليم في الصّغر خيراً بكثير من التّعلم في الكبر وفي كل خير . لكن التّعلم في الصّغر فيه فائدتان عظيمتان بل أكثر :

القائدة الأولى : أن الشّاب في الغالب أسرع حفظاً من الكبير ؛ لأن الشّاب فارغ البال ليست عنده مشاكل توجب انشغاله .

القائدة الثانية : أن ما يحفظه الشّاب يبقى وما يحفظه الكبير ينسى ولهذا كان من الحكمة الشّائعة بين الناس : « إن العلم في الصّغر كالنقش في الحجر » لا يزول .

وفيه فائدة ثالثة : وهي أن الشّاب إذا تُقِف العلم من أول الأمر صار العلم كالسّجية له والطّبيعة له وصار كأنّه غريزة قد شُب عليه فَيَشِب عليه .

فهذا السّاحر سَاحِرٌ كبير قد تَقَدَّمَتْ به السن وجَرَّب الحياة وعرف الأشياء . فطلب من الملك أن يختار له شاباً غلاماً يُعلّمهُ السّحر ، فبعث إليه غلاماً ، فعلمه ما علّمهُ ، ولكن الله تعالى قد أراد بهذا الغلام خيراً ، مرّ هذا الغلام يوماً من الأيام براهب ، فسمِع مِنْهُ فأعجبه كلامهُ ، لأنّ هذا الراهب - يعني العابد - عابد لله ﷻ ، لا يتكلم إلا بالخير ، وقد يكون راهباً عالماً لكن تغلب عليه العبادة فسمي بما يغلب عليه من الرّهبانية .

المهم : أنه أعجبه وصار إذا خرج هذا الغلام من أهله جلس عند الراهب فتأخر على السّاحر . فجعل السّاحر يضربه ، لماذا تتأخر ؟ فشكا الغلام إلى الراهب ما يجده من السّاحر من الضرب إذا تأخر . فلَقَّنه الراهب أمراً يتخلص به ، قال : إذا ذهبت إلى السّاحر وخشيت أن يعاقبك فقل : إن أهلي يحسّوني ، أي : تأخّر عند أهله ، وإذا أتيت عند أهلك فقل : إنّ السّاحر يحسّني ، حتى تنجو من هذا ومن هذا .

وكأن الراهب - والله أعلم - أمره بذلك مع أنه كذب لعلهُ رأى أن المصلحة في هذا تزوُّو على مَفْسَدَةِ الكذب مع أنه يمكن أن يتأول!!

ففعل فصار الغلام يأتي إلى الراهب ويسمّع منه ثم يذهب إلى السّاحر فإذا أراد أن يُعاقبه على

تأخّره قال : إن أهلي أَخْرُونِي . وإذا رجع إلى أهله وتأخر عند الرَّاهِب قال : إن السَّاحِر حبسني . فمر ذات يوم بدابة عظيمة ولم يعين في الحديث ما هذه الدَّابة ، قد حبست الناس عن التجاوز ، فلا يستطيعون أن يتجاوزوها فأراد هذا الغلام أن يَحْتَبِر ؛ هل الراهب خير له أم السَّاحِر ؟ فأخذ حجراً ودعا الله سبحانه وتعالى : إن كان أمر الراهب خيراً أن يقتل هذا الحجر هذه الدَّابة ، فرمى بالحجر فقتل الدابة فمضى الناس .

فعرّف الغلام أنَّ أمر الراهب خير من أمر السَّاحِر وهذا أمر لا شك فيه ؛ لأن السَّاحِر إمّا مُعتد ظالم . وإما كافر مُشرك ، فإن كان يستعين على سحره بالشَّياطين يتقرَّب إليهم ويَعْبُدُهم ويدعوهم وَيَسْتَعِثُّ بهم فهو كافر مُشرك ، وإن كان لا يفعل هذا لكن يَتَقَدِّدِي على الناس بأذوية فيها سحر فهذا ظالم معتد . أمّا الرَّاهِب فإن كان يعبد الله على بصيرة فهو مهتد ، وإن كان عنده شيء من الجهل والضَّلال فنيته طيبة وإن كان عمله سيئاً .

المهم : أن هذا الغلام أخبر الراهب بما جرى فقال له الراهب : أنت اليوم خير مني ، وذلك لأن الغلام دَعَا الله فاستجاب الله له .

وهذا من نعمة الله على العَبْد أنَّ الإنسان إذا شك في الأمر ثم طلب من الله آيةً تبين له شأن هذا الأمر فبيّنه الله له فإن هذا من نعمة الله عليه .

وَمِنْ ثَمَّ شُرعت الاستخارة ، للإنسان إذا هَمَّ بالأمر وأشكل عليه هل في إقدامه خير أم في إحجامه خير ؟ فإنه يَسْتَخِير الله وإذا استخار الله بصدق وإيمان فإن الله يعطيه على ما يستدل به على أن الخير في الإقدام أو الإحجام . إمّا بشيء يلقيه في قلبه يَنْشُرُ صدره لهذا أو لهذا وإمّا برؤيا يراها في المنام ، وإما بمشورة أحد من الناس وإمّا بغيره .

المهم : أن هذا الغلام كان من كراماته أَنَّهُ يُرَى الأَكْمه والأبرص ، يعني أنه يدعو لهم فيبرؤون ، وهذا من كرامات الله له .

وليس كقصّة عيسى ابن مريم يسبح صاحب العاهة فيبرأ ، بل هذا يدعو الله فيستجيب الله دعاءه ، فيبرأ بدعائه الأَكْمه والأبرص .

وقد أخبر الرَّاهِب الغلام أَنَّهُ سَيَبْتَلى ، يعني : سيكون له محنة واختبار وطلب منه أن لا يخبر به إن هو ابتلي بشيء .

وكان هذا الغلام - والله أعلم - مُسْتَجَاب الدَّعوة إذا دعا الله قَبْلَ منه .

وكان للملك جليس أعمى - لا ينصر - فأتى بهدايا كثيرة لهذا الغلام حين سمع عنه ما سمع وقال : لك ما ها هنا أجمع - أي : كله - إن أنت شَفَيْتَنِي ، فقال : إِنَّمَا يَشْفِيكَ الله .

انظر إلى الإيمان ، لم يَعْتَزْ بِنَفْسِهِ وادَّعى أَنَّهُ هو الذي يَشْفِي المَرْضَى ، بل قال : إِنَّمَا يَشْفِيكَ الله عَزَّ وَجَلَّ .

يُشَبِّه هذا من بعض الوجوه مَا جَرَى لَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - حِينَما جِيءَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ مَصْرُوعٍ قَدْ صَرَعه الْجَنِي فَقَرَأَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ فَجَعَلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ يَضْرِبُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ ضَرْبًا شَدِيدًا حَتَّى إِنَّ يَدَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ أَوْجَعَتْهُ مِنَ الضَّرْبِ . فَتَكَلَّمَ الْجَنِي الَّذِي فِي الرَّجُلِ وَقَالَ لَهُ : أَخْرَجَ كَرَامَةً لِلشَّيْخِ !!

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : لَا تَخْرُجْ كَرَامَةً لِي وَلَكِنْ أَخْرَجْ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ .

لَا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فَضْلٌ بَلِ الْفَضْلُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا . فَخَرَجَ الْجَنِي وَعِنْدَهَا اسْتِيقَظَ الرَّجُلُ فَقَالَ : مَا الَّذِي جَاءَ بِي إِلَى حَضْرَةِ الشَّيْخِ ؟ لِأَنَّهُ حِينَما صَرَغَ يُمْكِنُ أَنَّهُ كَانَ فِي بَيْتِهِ أَوْ سَوْقِهِ . فَقَالُوا : سَبَحَانَ اللَّهِ أَلَمْ تَحْسَ بِالضَّرْبِ الَّذِي كَانَ يَضْرِبُكَ ، قَالَ : مَا أَحْسَسْتُ بِهِ وَلَا أَوْجَعَنِي ! فَأَخْبَرُوهُ فَبَرَأَ الرَّجُلُ . الشَّاهِدُ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانَ لَا يَنْسِبُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ وَإِنَّمَا يَنْسِبُونَهَا إِلَى مُوَلِّيهَا ﷺ وَهُوَ اللَّهُ . وَقَالَ لَهُ : « إِنْ أَنْتَ آمَنْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ لَكَ » فَأَمَّنَ الرَّجُلُ فَدَعَا الْغُلَامَ رَبَّهُ أَنْ يَشْفِيَهُ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَصْبَحَ مُبْصِرًا .

فَجَاءَ هَذَا الْجَلِيسُ إِلَى الْمَلِكِ وَجَلَسَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَادَةِ وَأَتَى بِالْغُلَامِ وَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ وَعَذَّبَهُ تَعْدِيتًا شَدِيدًا قَالَ : مَنْ الَّذِي عَلَّمَكَ هَذَا الشَّيْءَ ؟ وَكَانَ الرَّاهِبُ قَدْ قَالَ لَهُ : إِنَّكَ سَتَبْتَلى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَخْبِرْ عَنِّي وَلَكِنْ لَعَلَّه عَجَزَ عَنِ الصَّبْرِ فَأَخْبِرَ عَنِ الرَّاهِبِ .

وَكَانَ هَذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - قَدْ عَذَّبَ هَذَا الْجَلِيسَ الْأَعْمَى الَّذِي آمَنَ بِدَعْوَةِ هَذَا الْغُلَامِ عَذْبَةً تَعْدِيتًا شَدِيدًا حَيْثُ قَالَ : آمَنْتُ بِاللَّهِ .

قَالَ : أَوْلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ .

لَمَّا دُلُّوا عَلَى الرَّاهِبِ ، جِيءَ بِالرَّاهِبِ - وَالرَّاهِبُ عَابِدٌ يَعْبُدُ اللَّهَ - فَدُعِيَ إِلَى أَنْ يَقُولَ هَذَا الْمَلِكُ هُوَ رَبُّهُ وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ دِينِهِ .

فَأَتُوا بِالْمَنْشَارِ فَنَشَرُوهُ مِنْ مَفْرَقِ رَأْسِهِ - نِصْفَ الْجِسْمِ - فَبَدَّوْا بِالرَّأْسِ ثُمَّ الرِّقَّةَ ثُمَّ الظَّهْرَ حَتَّى انْقَسَمَ قَسَمَيْنِ - شَقَيْنِ شِقْ هُنَا وَشِقْ هُنَا - وَلَكِنَّهُ لَمْ يُثْنِ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ . أَمْرٌ أَنْ يَرْجِعَ وَرَضِي أَنْ يُقْتَلَ هَذِهِ الْقِتْلَةُ وَلَا يَرْجِعَ عَنْ دِينِهِ ، مَا شَاءَ اللَّهُ !! ثُمَّ جِيءَ بِالرَّجُلِ الْأَعْمَى الَّذِي كَانَ جَلِيسًا عِنْدَ الْمَلِكِ وَأَمَّنَ وَكَفَرَ بِالْمَلِكِ فَدُعِيَ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ دِينِهِ فَأَتَى فَفَعَلَ بِهِ كَمَا فَعَلَ بِالرَّاهِبِ ، وَلَمْ يَزِدْهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصْبِرَ وَأَنْ يَحْتَسِبَ .

وَلَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْقَتْلِ أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَلَا تَضُرَّهُ إِذَا كَانَ مَكْرَهًا ؟

هَذَا فِيهِ تَفْصِيلٌ : إِنْ كَانَتِ الْمَسْأَلَةُ تَتَعَلَّقُ بِهِ نَفْسُهُ فَلَهُ الْخِيَارُ إِنْ شَاءَ قَالَ كَلِمَةَ الْكُفْرِ دَفْعًا لِلْإِكْرَاهِ مَعَ طَمَأنِينَةِ الْقَلْبِ بِالْإِيمَانِ . وَإِنْ شَاءَ أَصْرًا وَأَتَى وَلَوْ قَتَلَ ، هَذَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَائِدًا إِلَى الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ .

أما إذا كان الأمرُ يتعلق بالدين بمعنى أنه لو كفر ولو ظاهراً أمام الناس لكفر الناس فإنه لا يجوز له أن يقول كلمة الكفر ، بل يجب أن يصبر ولو قتل ، كالجهاد في سبيل الله . المجاهد يقاتل ولو قتل ؛ لأنه يريد أن تكون كلمة الله هي العليا فإذا كان إماماً للناس وأجبر على أن يقول كلمة الكفر فإنه لا يجوز أن يقول كلمة الكفر لا سيما في زمن الفتنة ، بل عليه أن يصبر ولو قُتِل .

ومثل ذلك ما وقع للإمام أحمد بن حنبل رحمته الله حين امتحن المحنة العظيمة المشهورة على أن يقول إن القرآن مخلوق وليس كلام الله ، فأثنى فأوذى وعزر حتى إنه يجبر بالبلغة بالأسواق - إمام أهل السنة - يُجر بالبلغة بالأسواق ويضرب بالسوط حتى يغشى عليه ، ولكنه كلما أفاق قال : القرآن كلام ربي غير مخلوق .

وإنما لم يجز لنفسه أن يقول كلمة الكفر مع الإكراه ؛ لأن الناس ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد ؟ فلو قال : القرآن مخلوق ، لصار كل الناس يقولون القرآن مخلوق وفسد الدين .

ولكنه رحمته الله جعل نفسه فداءً للدين ومع هذا صبر واحتسب وكانت العاقبة له ولله الحمد . مات الخليفة ومات الخليفة الثاني الذي تغده ، وأثنى الله بخليفة صالح أكرم الإمام أحمد إكراماً عظيماً فما مات الإمام أحمد حتى أقر الله عينه بأن يقول الحق غالباً مُرتفع الصوت ويقول الناس الحق معه . وتُخذل أعداؤه ولله الحمد وهذا دليل على أن العاقبة للصّابرين وهو كذلك والله الموفق .

* * *

فأثنى الغلام أن يرجع عن دينه فدفعه الملك إلى نفر من أصحابه أي جماعة من الناس وقال لهم : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا - جبل معروف عندهم شاهق رفيع - وقال لهم : إذا بلغوا ذروته ^(١) فأطرحوه يعني : على الأرض ، ليقع من رأس الجبل فيموت بعد أن تعرّضوا عليه أن يرجع عن دينه فإن رجع وإلا فاطرحوه .

فلما بلغوا به قمة الجبل فطلبوا منه أن يرجع عن دينه فأثنى ؛ لأن الإيمان قد وقر في قلبه ولا يمكن أن يتحول أو يتزعزع ، فلما همّوا أن يطرحوه قال : « اللّهُمَّ اكفنيهم بما شئت » .

دعوة مضطر مؤمن : « اللّهُمَّ اكفنيهم بما شئت » أي : بالذي تشاء ولم يُعين . فرجف الله بهم الجبل فسقطوا وهلكوا وجاء الغلام إلى الملك فقال : ما الذي جاء بك ؟ أين أصحابك ؟ فقال : قد كفانيهم الله ﷻ ثم دَفَعَهُ إلى جماعة آخرين وأمرهم أن يركبوا البحر في قرقور - أي سفينة - فإذا بلغوا لجة البحر عرضوا عليه أن يرجع عن دينه فإن لم يفعل رَمَوْهُ في البحر .

فلما تواسطوا من البحر عَرَضُوا عليه أن يرجع عن دينه وهو الإيمان بالله ﷻ فقال : لا ! فقال : « اللّهُمَّ اكفنيهم بما شئت » فانقلبت السفينة وغرقوا وأنجاه لله ثم جاء إلى الملك فقال له : أين

أصحابك ؟ فأخبره بالخبر ثم قال له : إنك لَمُتَ قَاتِلِي حتى تفعل ما أمرك به قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، كل أهل البلد ، ثم تَصْلِبُنِي على جذع ثم تأخذ سهمًا من كنانتي فتضعه في كبد القوس ثم ترميني به وتقول : بسم الله رب الغلام ، فإنك إن فعلت ذلك قتلتنني . فجمع الملك الناس في صعيد واحد وصلب الغلام وأخذ سهمًا من كنانته فوضعها في كبد القوس ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام ثم رماه فأصابه السهم في صدغه فوضع يده عليه ومات فأصبح الناس يقولون : آمنا برب الغلام وآمنوا بالله وكفروا بالملك .

وهذا هو الذي كان يُريده هذا الغلام .

ففي هذه القطعة من الحديث دليل على مسائل :

أولاً : على قوّة إيمان هذا الغلام وأنه لم يتزحزح عن إيمانه ولم يتحوّل .

ثانيًا : فيه آية من آيات الله حيث أكرمه الله ﷻ بقبول دعوته فزلزل الجبل بالقوم الذين يُريدون أن يطرحوه من رأس الجبل حتى سقطوا .

ثالثًا : أن الله ﷻ يُجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، فإذا دعا الإنسان ربّه في حال ضرورة موقفًا أن الله يجيبه فإن الله تعالى يجيبه ، حتى الكفار إذا دعوا الله في حال الضرورة أجابهم الله مع أنه يعلم أنهم سيرجعون إلى الكفر . إذا غشيهـم موج كالظلل في البحر دعوا الله مُخلصين له الدين فإذا نجّاهم أشركوا ، فينجيهم ؛ لأنهم صدقوا في الرجوع إلى الله عند دعائهم وهو سبحانه يجيب المضطر ولو كان كافرًا .

رابعًا : أن الإنسان يجوز أن يغرر بنفسه في مصلحة عامة للمسلمين فإن هذا الغلام دلّ الملك على أمر يقتله به ويهلك به نفسه وهو أن يأخذ سهمًا من كنانته .. إلخ .

قال شيخ الإسلام : « لأنّ هذا جهاد في سبيل الله ، أمّت أمة وهو لم يفتقد شيئًا ؛ لأنّه مات وسيموت آجلًا أو عاجلاً » .

فأما ما يفعله بعض الناس من الانتحار بحيث يحمل آلات متفجرة ويتقدّم بها إلى الكفار ثم يفجرها إذا كان بينهم ، فإن هذا من قتل النفس والعياذ بالله .

ومن قتل نفسه فهو خالد مخلد في نار جهنم أبداً الآبدن كما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام (١) .

لأن هذا قتل نفسه لا في مصلحة الإسلام لأنه إذا قتل نفسه وقتل عشرة أو مائة أو مائتين ، لم ينتفع الإسلام بذلك فلم يُشلم الناس ، بخلاف قصة الغلام . وهذا ربما يتعنت العدو أكثر ويوغر صدره هذا العمل حتى يفتك بالمسلمين أشدّ الفتك .

(١) انظر صحيح البخاري في الطب (٥٧٧٨) ومسلم في الإيمان (١٧٥) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٤/٢) .

كما يوجد في صُنع اليهود مع أهل فلسطين ، فإن أهل فلسطين إذا مات الواحد منهم بهذه المتفجرات وقتل ستة أو سبعة ، أخذوا من جراء ذلك ستين نفراً أو أكثر فلم يحصل في ذلك نفع للمسلمين ولا انتفاع للذين فُجرت المتفجرات في صفوفهم .

ولهذا نرى أنَّ ما يفعله بعض الناس من هذا الانتحار نرى أنه قتل للنفس بغير حق وأنه مُوجب لدخول النَّار والعياذ بالله ، وأن صاحبه ليس بشهيد . لكن إذا فعل الإنسان هذا متأولاً ظاناً أنه جائز فإننا نرجو أن يَسْلَمَ من الإثم ، وأمّا أن تكتب له الشَّهادة فلا : لأنه لم يسلك طريق الشهادة . ومن اجتهد وأخطأ فَلَهُ أَجْر .

٣١ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ فَقَالَ : « أَتَقِي اللَّهَ وَاضْبِرِي » فَقَالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّي ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي ! وَلَمْ تَعْرِفْهُ ، فَقِيلَ لَهَا : إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَائِينَ ، فَقَالَتْ : لَمْ أَعْرِفْكَ ، فَقَالَ : « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى » ^(١) متفقٌ عليه . وفي رواية لمُسْلِمٍ : « تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا » .

الشرح

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ بامرأة وهي عند قبر صبي لها قد مات وكانت تحبه حباً شديداً فلم تملك نفسها أن تخرج إلى قبره لتبكي عنده . فلما رآها الرسول ﷺ أمرها بتقوى الله والصبر . قال لها : « أَتَقِي اللَّهَ وَاضْبِرِي . فَقَالَتْ لَهُ : إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي » إليك عني : أي : أبعد عني . وهذا يدلُّ على أن المصيبة قد بلغت منها مبلغاً عظيماً ، فانصرف النبي ﷺ عنها . ثم قيل لها : إن هذا رسول الله ﷺ فندمت وجاءت إلى رسول الله ﷺ إلى بابه وليس على الباب بوابون أي : ليس عنده أحد يمنع الناس من الدخول عليه . فأخبرته وقالت : إنني لم أعرفك فقال النبي ﷺ : « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى » .

الصَّبْرُ الذي يُثَاب عليه الإنسان هو أن يَصْبِرَ أَوَّلَ ما تصيبه المصيبة ، هذا هو الصبر .

أمّا الصَّبْرُ بعد ذلك فإن هذا ربما يكون تَسْلِيّاً كما تَتَسَلَّى البهائم فالصَّبْرُ حقيقة أن الإنسان إذا صُدم أول ما يُصدم يَصْبِرُ وَيَحْتَسِبُ وَيَحْسُنُ أن يقول : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا » .

ففي هذا الحديث عِدَّةُ فوائد :

أولاً : حُسْنُ خُلُقِ الرسول عليه الصَّلَاة والسلام ودَعْوَتُهُ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى الْخَيْرِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى هَذِهِ الْمَرْأَةَ تَبْكِي عِنْدَ الْقَبْرِ أَمَرَهَا بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ .

(١) أخرجه البخاري في الجنايز (١٢٨٣) ومسلم في الجنايز (١٥) وأحمد في مسنده (١٤٣/١٣) .

ولما قالت : « إِيْلِكَ عَنِّي » لم ينتقم لنفسه ولم يضربها ولم يقيمها بالقوة ؛ لأنه عرف أنه أصابها من الحزن ما لا تستطيع أن تملك نفسها ولهذا خرجت من بيتها لتبكي على هذا القبر .

فإن قال قائل : أليست زيارة القبور حراماً على النساء ؟ قلنا : بلى هي حرامٌ على النساء بل هي من كبائر الذنوب !! لأن الرسول عليه الصلاة والسلام : « لَعَنَ زَاوِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسَّرَجَ » (١) . لكن هذه لم تخرج للزيارة وإنما خرجت لما في قلبها من لوعة فراق هذا الصبي والحزن الشديد . لم تملك نفسها أن تأتي ولهذا عذرها النبي عليه الصلاة والسلام ولم يقيمها بالقوة ولم يجبرها أن تزجج إلى بيتها .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان يُغَدَّر بالجهل سواء أكانَ جَهْلًا بالحكم الشرعي أم جَهْلًا بالحال ، فإن هذه المرأة قالت للرسول ﷺ : إِيْلِكَ عَنِّي وقد أمرها بالخير والثقوى والصبر . ولكنها لم تعرف أنه رسول الله ﷺ فلماذا غَنَزَها الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومنها : أنه لا ينبغي للإنسان المسفول عن حوائج المسلمين أن يجعل على بيته بواباً يمنع الناس إذا كان الناس يحتاجون إليه . إلا إذا كان الإنسان يخشى من كثرة الناس وإرهاق الناس ، وإشغال الناس عن شيء يمكن أن يتداركوا شغلهم في وقت آخر فلماذا لا بأس به .

وما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر كما في الحديث (٢) ، وإلا من أجل أن الإنسان يتصرف في بيته في إدخال من شاء ومنع من شاء .

ومن فوائده : أن الصبر الذي يُحمد فاعله ، الصبر عند الصدمة الأولى ، يصبر الإنسان ويحتسب ويعلم أن لله ما أخذ وله ما أعطى وأن كل شيء عنده بأجل مسمى .

ومنها : أن البكاء عند القبر ينافي الصبر ولهذا قال لها الرسول ﷺ : « أَتَقِي اللَّهَ وَاضْبِرِي » . ويوجد من الناس من يُبْتَلَى ، فإذا مات له ميت صار يتردد على قبره ويبكي عنده .

وهذا يُنافي الصبر بل نقول : إن شئت أن تنفع الميت فادْعُ اللَّهَ وأنت في بيتك ، ولا حاجة أن تتردد على القبر ؛ لأنه يجعل الإنسان يتخيل هذا الميت دائماً في ذهنه ولا يغيب عنه وحينئذ لا ينسى المصيبة أبداً ، مع أن الأفضل للإنسان أن يَتَلَهَّى وأن يَنْسَى المصيبة بقدر ما يَسْتَطِيع . والله الموفق .

* * *

٣٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَا لِعِبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّتَهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ اخْتَسَبَتْهُ إِلَّا الْجَنَّةَ » (٣) رواه البخاري .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢٠) وحسنه ، والإمام أحمد في مسنده (٢٢٩/١ ، ٢٨٧) وابن ماجه في سننه (١٥٧٤) .

(٢) انظر البخاري في الاستئذان (٦٢٤١) ومسلم في الأدب (٤١) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٤) والدارمي في سننه (٢٧/٢) .

الشرح

هذا الحديث يرويه النبي ﷺ عن الله ويسمي العلماء - رحمهم الله - هذا القسم من الحديث الحديث القدسي لأن الرسول ﷺ رواه عن الله ﷻ .

والصّفي : مَنْ يَصْطَفِيهِ الإنسان ويختاره من ولد ، وأخ ، أو عم ، أو أب ، أو أم ، أو صديق المهم أن ما يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنّه ذو صلة منه قوية . إذا أَخَذَهُ اللهُ ﷻ ثم احتسبه الإنسان فليس له جزاء إلا الجنة .

ففي هذا : دليل على فضيلة الصّبر على قبض الصّفي من الدنيا ، وأن الله ﷻ يُجازي الإنسان إذا احتسب ، يُجازيه الجنة .

وفيه : دليل على فضل الله ﷻ وكرمه على عباده فإن المُلْك مُلكه ، والأمر أمره . وأنت وصفيك كلاهما لله ﷻ ، ومع ذلك إذا قبض الله صفي الإنسان واحتسب ، فإن له هذا الجزاء العظيم .

وفي هذا الحديث أيضًا من الفوائد : الإشارة إلى أفعال الله من قوله : « إذا قَبَضْتَ صَفِيهِ » ولا شك أن الله سبحانه فعّال لما يُريد ، ولكن يجب علينا أن نعلم أن فعل الله كله خير لا يُنسب الشر إلى الله أبدًا ، والشر إذا وقع فإنما يَقَعُ في المفعولات ولا يقع في الفعل .

فمثلاً إذا قدر الله على الإنسان ما يكره فلا شك أن ما يكره الإنسان بالنسبة إليه شر ، لكن الشر في هذا المقدر لا في تقدير الله ، لأن الله لا يَقْدِرُهُ إلا لحكمة عظيمة إما للمُقَدَّر عليه وإما لعامة الخلق . أحياناً تكون الحكمة خاصة في المقدر عليه وأحياناً في الخلق على سبيل العموم .

المقدر عليه إذا قدر الله عليه شراً وَصَبَرَ واحتسب نال بذلك خيراً ، إذا قدر الله عليه شراً ورجع إلى ربه بسبب هذا الأمر ؛ لأن الإنسان إذا كان في نعمة دائماً قد يَنْسَى شكر المُنْعِم ﷻ ولا يلتفت إلى الله فإذا أصيب بالضرء تذكر ورجع إلى ربه سبحانه وتعالى ويكون في ذلك فائدة عظيمة له . أمّا بالنسبة للآخرين فإن هذا المقدر على الشخص إذا ضربه قد ينتفع به الآخرون .

ولنضرب لذلك مثلاً برجل عنده بيت من الطين فأرسل الله مطراً غزيراً دائماً ، فإن صاحب هذا البيت يتضرر لكن المصلحة العامة للناس مصلحة ينتفعون بها .

صار هذا شراً على شخص وخيراً للآخرين ومع ذلك فكأنه شراً لهذا الشخص أمرٌ نسبي إذ أنّه شرٌّ من وجه لكنّه خير له من وجه آخر .

فيتعظ به ويعلم أنّ الملجأ هو الله ﷻ لا ملجأ إلا إليه فيستفيد من هذا فائدة أكبر مما حصل له من المضرة .

المهم أن المؤلف ذكر هذا الحديث في باب الصّبر ؛ لأنّ فيه فائدة عظيمة فيما إذا صبر الإنسان على قبض صفيه أنّه ليس له جزاء إلا الجنة . والله الموفق .

٣٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونَ ، فَأَخْبَرَهَا : « أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَنْفَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونَ فَيَمُوتُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُخْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ » (١) رواه البخاري .

٣٤ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ : إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِخَبِيئَتِهِ فَصَبَرَ عَوِضْتُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ » (٢) يُرِيدُ عَيْنِيهِ ، رواه البخاري .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله من الأحاديث الواردة في الصبر حديث عائشة وحديث أنس ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

أما حديث عائشة فَإِنَّ الرسول ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ الطَّاعُونَ رَجَسُ أَي : عَذَابُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .

وَالطَّاعُونَ : قِيلَ : إِنَّهُ وَبَاءٌ مُعْتَنٍ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ كُلُّ وَبَاءٍ عَامٍ يَحِلُّ بِالْأَرْضِ فَيَصِيبُ أَهْلَهَا وَيَمُوتُ النَّاسُ مِنْهُ .

وَسَوَاءٌ كَانَ مُعْتَنًا أَمْ كَانَ وَبَاءً عَامًا مِثْلَ الْكَوْلِيرَا وَغَيْرِهَا ، فَإِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رَجَسُ ، عَذَابٌ أَرْسَلَهُ اللَّهُ ﷻ وَلَكِنَّهُ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا نَزَلَ بِأَرْضِهِ وَبَقِيَ فِيهَا صَابِرًا مُخْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَكْتُبُ لَهُ مِثْلَ أَجْرِ الشَّهِيدِ .

ولهذا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » (٣) .

إِذَا وَقَعَ الطَّاعُونَ فِي أَرْضٍ فَإِنَّا لَا نَقْدُمُ عَلَيْهِا ، لِأَنَّ الْإِقْدَامَ عَلَيْهَا إِقْدَامٌ بِالْإِقْدَامِ إِلَى التَّهْلُكَةِ . وَلَكِنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ فَإِنَّا لَا نَخْرُجُ مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ ؛ لِأَنَّكَ مَهْمَا فَرَرْتَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِذَا نَزَلَ بِالْأَرْضِ فَإِنَّ هَذَا الْفِرَارَ لَنْ يُغْنِيَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .

وَإِذَا ذَكَرَ الْقِصَّةَ الَّتِي قَصَّهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ خَذَرَ الْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ : مَوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ لِيبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا مَقَرَّ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ .

خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ - قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : إِنَّهُ نَزَلَ فِي الْأَرْضِ وَبَاءٌ فَخَرَجُوا مِنْهَا فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ : مَوْتُوا . فَمَاتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا مَقَرَّ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ .

فَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ الصَّبْرِ وَالْإِحْتِسَابِ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَبَرَ نَفْسُهُ فِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الطَّب (٥٧٣٤) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٦٤/٢) .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْمَرْضَى (٥٦٥٣) . (٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الطَّب (٥٧٣٠) .

الأرض التي نزل فيها الطاعون ثم مات به كتب الله له مثل أجر الشهيد .

وذلك أنَّ الإنسان إذا نزل الطاعون في أرضه فإن الحياة غالبية عند الإنسان ، سوف يَهْرَبُ يخاف من الطَّاعون ، فإذا صَبَرَ وبقي واحتسب الأجر وعلم أنَّه لا يُصيبه إلا ما كتب الله له ثم مات به فإنه يُكتب له مثل أجر الشهيد وهذا من نعمة الله ﷻ .

أما حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : ففيه أنَّ الرسول ﷺ قال عن ربه تبارك وتعالى : إِنَّهُ مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَقْبِضُ اللَّهَ حَبِيبَتَيْهِ - يَعْنِي عَيْنَيْهِ - فَيَعْمَى ثُمَّ يَصْبِرُ إِلَّا عَوَّضَهُ اللَّهُ بِهِمَا الْجَنَّةَ . لِأَنَّ الْعَيْنَ مُحِبَّةٌ لِلْإِنْسَانِ ، فَإِذَا أَخَذَهُمَا اللَّهُ ﷻ وصبر الإنسان واحتسب فإن الله يعوضه بهما الجنة .

والجنة تساوي كل الدنيا بل قد قال النبي ﷺ : «لَوْ ضَعَّ سَوِّطُ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (١) أي مقدار متر . لأن ما في الآخرة باقٍ لا يفنى ولا يزول والدُّنيا كلها فانية زائلة فلهذا كانت هذه المساحة القليلة من الجنة خيراً من الدنيا وما فيها .

واعلم أنَّ الله ﷻ إذا قَبِضَ مِنَ الْإِنْسَانِ حَاسَةً مِنْ حَوَاسِهِ فَإِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ اللَّهَ يُعَوِّضُهُ فِي الْحَوَاسِ الْآخَرَى مَا يُخَفِّفُ عَلَيْهِ أَلَمْ فَقَدْ هَذِهِ الْحَاسَةُ الَّتِي فَقَدَهَا ، فَالْأَعْمَى يُبْنِ اللَّهُ عَلَيْهِ بِقُوَّةِ الْإِحْسَاسِ وَالْإِدْرَاقِ حَتَّى أَنْ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا كَانَ أَعْمَى تَجَدَّ فِي السُّوقِ يَمْشِي وَكَأَنَّهُ مُبْصِرٌ يَحْسُ بِالْمُعْطَفَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ وَيَحْسُ بِالْمُنْحَدِرَاتِ وَبِالْمُرْتَفَعَاتِ حَتَّى أَنْ بَعْضُهُمْ يَتَّفِقُ مَعَ صَاحِبِ السَّيَّارَةِ - سَيَّارَةِ الْأَجْرَةِ - يَرْكَبُ مَعَهُ مِنْ أَقْصَى الْبَلَدِ إِلَى بَيْتِهِ وَهُوَ يَقُولُ لَصَاحِبِ السَّيَّارَةِ : تَيَّامَن تَيَّاسِرَ حَتَّى يَوْفِقَهُ عِنْدَ بَابِهِ ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ السَّيَّارَةِ لَا يَعْرِفُ الْبَيْتَ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

* * *

٣٥ - وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ فَقُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : هَذِهِ الْمَرْأَةُ السُّودَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ : إِنِّي أَضْرَعُ ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ ، فَادْعُ اللَّهَ تَعَالَى لِي قَالَ : « إِنْ شِئْتَ صَبَرْتِ وَلَكَ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعَافِيكَ » فَقَالَتْ : أَصْبِرُ ، فَقَالَتْ : إِنِّي أَتَكَشَّفُ ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ ، فَدَعَا لَهَا (٢) . متفق عليه .

الشرح

قوله : « أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » يعرض عليه !

وذلك لأن أهل الجنة ينقسمون إلى قسمين : قسم نشهد لهم بالجنة بأوصافهم وقسم نشهد لهم بالجنة بأعْيَانِهِمْ .

١ - أما الذين نشهد لهم بالجنة بأوصافهم فكل مؤمن ، كل مُتَّقٍ فإننا نشهد له أنه من أهل الجنة .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٣/٣) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٤) .

كما قال الله ﷻ في الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْآلِیَةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [البقرة : ٨٠، ٧] فكل مؤمن متقي يعمل الصالحات فإننا نشهد أنه من أهل الجنة .

ولكن لا نقول : هو فلان وفلان لأننا لا ندري ما يختتم له ولا ندري هل باطنه كظاهره فلذلك لا نشهد له بعينه .

نقول مثلاً : إذا مات رجل مشهود له بالخير قلنا نرجو أن يكون من أهل الجنة لكن ما نشهد أنه من أهل الجنة .

٢ - قسم آخر نشهد له بعينه وهم الذين شهد لهم النبي ﷺ بأنهم في الجنة : مثل العشرة المبشرين بالجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسعيد بن زيد وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة عامر بن الجراح والوزير بن العوام .

ومثل ثابت بن قيس بن شماس ومثل سعد بن معاذ ؓ ومثل عبدالله بن سلام ومثل بلال بن رباح وغيرهم ممن عيَّهم الرسول عليه الصلاة والسلام .

هؤلاء نشهد لهم بأعيانهم نقول : نشهد بأن أبا بكر في الجنة ، ونشهد بأن عمر في الجنة وهكذا . من ذلك هذه المرأة التي قال ابن عباس لتلميذه عطاء بن أبي رباح « ألا أريك امرأة من أهل الجنة قلت : بلى ! قال : هذه المرأة السوداء » .

امرأة سوداء لا قيمة لها في المجتمع ، كانت تُضْرَع وتتكشف فأخبرت الرسول عليه الصلاة والسلام وسألته أن يدعو الله لها فقال لها : إن شئت دعوتُ الله لك وإن شئت صبرت ولك الجنة ؟ . قالت : أصبر ، وإن كانت تتألم وتتأذى من الصُّرْع ، لكنها صبرت من أجل أن تكون من أهل الجنة . ولكنها قالت : يا رسول الله إني أتكشَّف فادع الله أن لا أتكشَّف . فدعا الله أن لا تتكشف فصارت تُضْرَع ولا تَتَكشَّف .

والصُّرْع - نعوذ بالله منه - نوعان :

١ - صرْعٌ بسبب تشنج الأعصاب : وهذا مرض عضوي يمكن أن يُعالج من قِبَل الأطباء الماديين بإعطاء العقاقير التي تُسكِّنه أو تُزيله بالمرَّة .

٢ - وقسم آخر بسبب الشياطين والجن : يتسلَّط الجنُّ على الإنسي فيصرعه ويدخل فيه ، ويضرب به على الأرض ويغمى عليه من شدَّة الصُّرْع ولا يحس .

ويتلبَّس الشيطان أو الجنى بنفس الإنسان ويبدأ يتكلم على لسانه ، الذي يسمع الكلام يقول : إن الذي يتكلم الإنسي ولكِنَّه الجنى ولهذا تجد في بعض كلامه الاختلاف ، لا يكون ككلامه وهو مُستيقظ لأنه يتغير بسبب نطق الجنى .

هذا النوع من الصَّرع نسأل الله أن يُعيننا وإياكم منه ومن غيره من الآفات : هذا النوع علاجه بالقراءة من أهل العلم والخير .

أحياناً يُخاطبهم الجني ويتكلم معهم ويُبين السبب الذي جعله يضرع هذا الإنسي . وأحياناً لا يتكلم وقد ثبت هذا !! أعني صَرَخَ الجني للإنسي بالقرآن والسنة والواقع .

ففي القرآن : قال الله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وهذا دليل على أن الشيطان يتخطب الإنسان من المس وهو الصرع . وفي السنة : روى الإمام أحمد في مسنده : « أَنَّ الرَسُولَ ﷺ كَانَ فِي سَفَرٍ مِنْ أَشْفَارِهِ فَمَرَّ بِامْرَأَةٍ مَعَهَا صَبِيٌّ يُضْرَعُ فَأَتَتْ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَخَاطَبَ الْجَنِّي وَتَكَلَّمَ مَعَهُ وَخَرَجَ الْجَنِّي فَأَعْطَتْ أُمَ الصَّبِيِّ الرَسُولَ ﷺ هَدِيَّةً عَلَى ذَلِكَ » (١) .

وكان أهل العلم أيضاً يخاطبون الجني في المَصْرُوع ويتكلمون معه ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ !

ذكر ابن القيم وهو تلميذه : أنه جيء إليه برجل مَصْرُوع فجعل يقرأ عليه ويُخاطبه ويقول لها اتقي الله اخْرُجي - لأنها امرأة - فتقول له : إني أريد هذا الرجل وأحبه فقال لها شيخ الإسلام : لكنته لا يحبك اخْرُجي ، قالت : إني أريد أن أحج به قال : هو لا يريد أن تحجي به ؛ اخْرُجي فأبت فجعل يقرأ عليها ويضرب الرجل ضرباً عظيماً حتى أن يد شيخ الإسلام أوجعته من شدة الضرب .

فقالت الجنينة أنا أخرج كرامة للشيخ قال : لا تخرجي كرامة لي اخْرُجي طاعة لله ورسوله فما زال بها حتى خرجت . لما خرجت استيقظ الرجل فقال : ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ ؟ قالوا سبحان الله ! أما أَحْسَسْتِ بالضرب الذي كان يضربك أشد ما يكون ؟ قال ما أَحْسَسْتُ بالضرب ولا أَحْسَسْتُ بشيء ، والأمثلة على هذا كثيرة . هذا النوع من الصرع له علاج يدفعه وله علاج يَرْفَعُهُ . فهو نوعان :

١ - أما دفعه : فبأن يحرص الإنسان على الأوراد الشرعية الصباحية والمسائية . وهي معروفة في كتب أهل العلم منها : آية الكرسي ، فإن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يُقْرِئُهُ شَيْطَانٌ حتى يصبح .

ومنها : سورة الإخلاص والفلق والناس ، ومنها : أحاديث وردت عن الرسول عليه الصلاة والسلام فليحرص الإنسان عليها صباحاً ومساءً فإن ذلك من أسباب دفع أذية الجن .

٢ - وأما الرفع : فهو إذا وقع بالإنسان فإنه يقرأ عليه آيات من القرآن فيها تخويف وتذكير واستعاذة بالله ﷻ حتى يخرج .

(١) انظر مسند الإمام أحمد في مسنده (١٧٠/٤) .

الشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ لهذه المرأة : « إِنَّ شَتَّتَ صَبْرَتِ وَلِكِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَتْ : أَصْبِرْ » ففيه دليل على فضيلة الصبر وأنه سبب لدخول الجنة والله الموفق .

٣٦ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَتِي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، ضَرْبَهُ قَوْمُهُ فَأَذَمُّوهَ وَهُوَ يَمْسُحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، يَقُولُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

هذا الحديث يحكي الرسول ﷺ فيه شيئاً مما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والأنبياء كلهم الله بالرسالة ، لأنهم أهل لها كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهم أهل لها في التحمل والتبليغ والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ذلك .

وكان الرسل عليهم الصلاة والسلام يؤذون بالقول وبالفعل وربما بلغ الأمر إلى قتلهم . وقد بين الله ذلك في كتابه حيث قال لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ امْتَطَلَتْ أَنْ تَبْذِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ يَأْتِيَةٌ ﴾ أي : إن استطعت أن تفعل ذلك فافعل ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ﴾ ولكن لحكمة اقتضت أن يكذبوك حتى يتبين الحق من الباطل بعد المصارعة والمجادلة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤ ، ٣٥] .

حكى نبينا ﷺ عن نبي من الأنبياء : أن قومه ضربوه ولم يضربوه إلا حيث كذبوه حتى أذموا وجهه فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . هذا غاية ما يكون من الصبر ؛ لأن الإنسان لو ضرب على شيء من الدنيا لاستشاط غضباً ، وانتقم من ضربه ، وهذا يدعو إلى الله ، ولا يتخذ على دعوته أجراً ، مع هذا يضربونه حتى يدموا وجهه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

وهذا الذي حدثنا به الرسول ﷺ لم يُحدثنا به عبثاً أو لأجل أن يقطع الوقت علينا بالحديث وإنما حدثنا بذلك من أجل أن نتخذ به عبرة نسير عليها كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١] العبرة من هذا أن نصبر على ما تؤذى به من قول أو فعل في سبيل الدعوة إلى الله ، وأن نقول مُتمثلين :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِضْبَعٌ دَمِيَّتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧) ومسلم في الجهاد والسير (١٠٥) .

وأن نصبر على ما يُصيبنا مما نسمعه أو يُنقل إلينا مما يُقال فينا بسبب الدعوة إلى الله .

وأن نرى أن هذا رِفْعَةٌ لدرجاتنا وتكفير لسيئاتنا فعسى أن يكون في دعوتنا خلل من نقص في الإخلاص أو من كيفية الدعوة وطريقها فيكون هذا الأذى الذي نسمع يكون كفارة لما وقع منا ؛ لأن الإنسان مهما عمل فهو ناقص لا يمكن أن يكمل عمله أبداً إلا أن يشاء الله فإذا أصيب وأُذِيَ في سبيل الدعوة إلى الله فإن هذا من باب تكميل دعوته ورفعة درجته فليصبر وليتخسب ولا ينكص على عقبيه ، لا يقول : لست بمُلَزَم ، أنا أصابني الأذى ، أنا تعبت ؛ بل الواجب الصبر ، الدنيا ليست طويلة! أيام ثم تزول ، فاصبر حتى يأتي الله بأمره .

وفي قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : « كأنني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخكي لنا » فيه دليل على أن المحدث أو المخبر يخبر بما يؤيد ضبطه للخبر والحديث . وهو أمر شائع عند جميع الناس يقول : كأنني أنظر إلى فلان وهو يقول كذا وكذا أي : إني ضبطت القصة .

فإذا استعمل الإنسان مثل هذا الأسلوب لتثبيت ما يحدث به فله في ذلك أسوة من السلف الصالح رضي الله عنه ، والله الموفق .

* * *

٣٧ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا عَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَهُ يُشَاكُهَا ؛ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » ^(١) متفق عليه .

و « الوَصَبُ » : المرَضُ .

٣٨ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : « دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوعَكُ وَغَمًا شَدِيدًا قَالَ : « أَجَلُ إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ » قُلْتُ : ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ ؟ قَالَ : « أَجَلُ ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى ، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ ، وَحُطَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقُهَا » ^(٢) متفق عليه .

و « الوَعَكُ » مَعْتُ الحُمَّى ، وَقِيلَ : الحُمَّى .

الشرح

في حديث أبي سعيد وأبي هريرة وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين فيها دليل على أن الإنسان يُكفّر عنه بما يُصِيبه من الهم والنصب والغم وغير ذلك ، وهذا من نعمة الله صلى الله عليه وسلم يَبْتَلِي صلى الله عليه وسلم عبده بالمصائب وتكون تكفيراً لسيئاته وخطأ لذنوبه .

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٢) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٨) ، ومسلم في البر والصلة (٤٥) ، وليس فيهما « وحطت عنه ذنوبه » .

والإنسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يبقى مَسْرُورًا دائمًا ، بل هو يوم يُسَرُّ ، ويوم يحزن ، ويوم يأتيه شيء ويوم لا يأتيه ، فهو مصاب بمصائب في نفسه ، ومصائب في بدنه ، ومصائب في مجتمعه ، ومصائب في أهله ، ولا تحصى المصائب التي تُصيب الإنسان ، ولكن المؤمن أَمْرُهُ كُلُّهُ خير ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له .

فإذا أصبت بالمصيبة فلا تظن أن هذا الهم الذي يأتيك أو هذا الألم الذي يأتيك ولو كان شَوْكَةً لا تظن أنه يذهب سُدىً ، بل ستَعُوضُ عنه خيرًا مِنْهُ ، سَتَحُطُّ عَنْكَ الذُّنُوبُ كما تحط الشجرة ورقها وهذا من نعمة الله .

وإذا زاد الإنسان على ذلك الصبر الاحتساب أي : احتساب الأجر كان له مع هذا أجر .
فالمصائب تكون على وجهين :

١ - تارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله فيكون فيها فائدتان :
تكفير الذنوب ، وزيادة الحسنات .

٢ - وتارة يغفل عن هذا فيَضِيقُ صَدْرُهُ ، ويغفل عن نية الاحتساب والأجر على الله فيكون في ذلك تكفير لسيئاته ، إذا هو رابح على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه .

فإما أن يَرِبحَ تكفير السيئات وحطَّ الذُّنُوبُ بدون أن يحصل له أجر لأنه لم يَنُوشِ شيئًا ولم يَصْبِرْ ولم يحتسب الأجر . وإما أن يَرِبحَ شيئين كما تقدم .

ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة فليتذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة .
وهذا من نعمة الله ﷻ ومجوده وكرمه حيث يتلى المؤمن ثم يُثَبِّه على هذه البلوى أو يُكَفِّرَ عنه سيئاته . فالحمد لله رب العالمين .

* * *

٣٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِيبْ مِنْهُ » (١)
رواه البخاري .

وَضَبَطُوا « يُصِيبُ » بِفَتْحِ الصَّادِ وَكَسْرِهَا .

٤٠ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَمُنَّ بَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمَوْتُ لَصَرِّ أَصَابِهِ ، فَإِنْ كَانَ لِأَبَدٍ فَاعْلَأْ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي » (٢)
متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧١) ، واللفظ له ومسلم في الذكر والدعاء (١٠) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - حديثين عن أبي هريرة وأنس بن مالك رضي الله عنهما في ثواب الصبر والاحتساب وأن الإنسان يجب عليه أن يصبر وأن يتحمل .

أما حديث أبي هريرة فإن الرسول ﷺ قال : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ » و (يصب) قرأت على وجهين بفتح الصاد (يُصَب) وكسرها (يُصِب) وكلاهما صحيح .

أما « يُصِب مِنْهُ » فالمعنى أن الله يُقَدِّرُ عليه المصائب حتى يَبْتَلِيَهُ بها أيصبر أم يضجر . وأما « يُصَب مِنْهُ » فهي أعم أي : يُصاب من الله ومن غيره .

ولكن هذا الحديث المطلق مُقَيَّدُ بأحاديث أخرى تدل على أن المراد : مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا فيصبر ويَحْتَسِبُ ، فيصيب الله منه حتى يتلوه . أما إذا لم يصبر فإنه قد يُصاب الإنسان بيلايا كثيرة وليس فيها خير ولم يُردِ الله به خيرًا .

فالكفار : يُصابون بمصائب كثيرة ومع هذا ييقون على كفرهم حتى يموتوا عليه وهؤلاء بلا شك لم يرد الله بهم خيرًا .

لكن المراد من يصبر على هذه المصائب ، فإن ذلك من الخير له ؛ لأنه سبق أن المصائب يكفر بها الذنوب ويُحِطُ بها الخطايا ، ومن المعلوم أن تكفير الذنوب والسَّيِّئَاتِ وخط الخطايا لا شك أنه خير للإنسان ؛ لأن المصائب غاية ما فيها أنها مصائب دنيوية تزول بالأيام كلما مضت الأيام خففت عليك المصيبة لكن عذاب الآخرة باقٍ والعياذ بالله ! فإذا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْكَ بهذه المصائب صار ذلك خيرًا لك .

أما الحديث الثاني : فهو أن الرسول ﷺ نهى عن أن يتمنى الإنسان الموت لِضَرِّ نَزَلَ بِهِ . وذلك أن الإنسان ربما يَنْزِلُ بِهِ ضَرٌّ يَعْجزُ عن التحمل وَيَتَغَبَّ فيتمنى الموت . يقول يا رب : أَمِتْنِي سواء قال ذلك بلسانه أو بقلبه . فنهى النبي ﷺ عن ذلك ، لأنه قد يكون خيرًا له هذا الضر .

ولكن إذا أَصِبتْ بِضَرٍّ قَلَّ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى الصَّبْرِ عَلَيْهِ ، حتى يعينك الله فَتَصْبِرَ ويكون ذلك لك خيرًا .

أما أن تَتَمَنَّى الموت فأنت لا تدري ربما يكون الموت شرًا عليك لا يَحْصُلُ به راحة ، فليس كُلِّ مَوْتٍ رَاحَةً كما قال الشاعر :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

الإنسان ربما يموت إلى عُقُوبَةٍ وَعَذَابٍ قَبْرِ ، وإذا بقي في الدنيا ربما يَسْتَعْتِبُ ويتوب ويرجع إلى الله فيكون خيرًا له .

المهم : أنه إذا نزل بك ضر فلا تمن الموت ، وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام نهى أن يتمنى الإنسان الموت للضر الذي نزل به ، فكيف بمن يقتل نفسه إذا نزل به الضر ؟!

كما يوجد من بعض الحمقى الذين إذا نزلت بهم المضائق خَنَقُوا أَنْفُسَهُمْ أو نَحَرُوا أو أَكَلُوا سُخًّا وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، فَإِنْ هَؤُلَاءِ ارْتَحَلُوا مِنْ عَذَابٍ إِلَى أَشَدِّ مِنْهُ ، فلم يستريحوا انتقلوا من عذاب إلى أشد . لأن الذي يقتل نفسه يُعَذَّبُ بما قَتَلَ به نفسه في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا كما جاء ذلك عن الرسول ﷺ (١) .
إن قتل نفسه بحديدة - خَنْجَرَ أو سكين أو مسمار أو غيره - فإنه يوم القيامة في جهنم يطعن نفسه بهذه الحديدة التي قتل بها نفسه .

وإن قتل نفسه بِسُخٍّ فإنه يتحسَّاه في نار جهنم ، إن قتل نفسه بالتردي من جبل فإنه يُنْصَبُ له جبل في جهنم يتردى منه أبد الآبدين وهلم جرا !

فأقول إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام نهى أن يَتَمَنَّى الإنسان الموت لِضُرِّ نَزَلَ به فإن أعظم من ذلك أن يقتل الإنسان نفسه ويبادر الله بنفسه ، نسأل الله العافية .

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لما نهى عن شيء كان من عادته إذا كان له بديل من المباح أن يذكر بديله من المباح اقتداءً بالرب ﷻ قال الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤] فلما نهى الله عن كلمة (راعينا) يَبَيِّنُ لَنَا الكلمة المباحة قال : ﴿ وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ .
ولما جيء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بِتَمَرٍ جَيِّدٍ اسْتَشْكَرَهُ وقال : « أَكَلْ تَمْرٌ خَيْرٌ هَكَذَا ؟ » قالوا : لا ولكننا نشترى الصَّاعَ من هذا بالصَّاعين والصَّاعين بالثلاثة قال : « لا تفعل لكن بيع التمر - يعني الرديء - بالدراهم ثم ابتِغَ بالدراهم جَنِييًا » (٢) أي : اشتر الجَنِيْب وهو من أعلى أنواع التمر ، فلما مَنَعَهُ يَبَيِّنُ له الِوَجْهَ المباح .

هنا قال : لا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الموت لِضُرِّ نَزَلَ به فإن كان لا بدَّ فاعلًا فليَقُلْ : « اللَّهُمَّ أُخَيِّنِي مَا كَانَتْ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتُ الوفاة خَيْرًا لِي » ..

فتح لك الباب ، لكنه بابٌ سَلِيمٌ لأنَّ تَمَنِّي الموت يَدُلُّ على ضَجَرِ الإنسان وَعَدَمِ صَبْرِهِ على قضاء الله لكن هذا الدُّعَاءُ يَكُلُّ الإنسان فيه أمره إلى الله ؛ لأنَّ الإنسان لا يعلم الغيب فيكل الأمر إلى عالمه ﷻ .

وتَمَنِّي الموت اسْتِغْجَالٌ مِنَ الإنسان بأن يَقْطَعَ الله حياته وربما يَحْرِمَهُ من خير كثير ، ربما يحرمه من التَّوْبَةِ وزيادة الأعمال الصَّالحة ، ولهذا جاء في الحديث : « مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ أَرْزَادًا ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ اسْتَغْتَبَ » (٣) أي : استعجب من ذنبه وطلب العتبه وهي المعذرة . فإن قال قائل كيف يقول : اللَّهُمَّ أُخَيِّنِي مَا كَانَتْ ! الحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٧٨) ، ومسلم في الإيمان (١٧٥) ، وأحمد (٢٥٤/٢) ، والترمذي في سننه (٢٠٤٤) .
(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٠١ ، ٢٢٠٢) ، ومسلم في المساقاة (٩٥) ، والحيث : نوع جيد من أنواع التمر .
(٣) أخرجه الترمذي بنحوه في جامعه (٢٤٠٣) ، وقال : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه ، ويحيى بن عبيد الله (راوي الحديث عن أبي هريرة) قد تكلم فيه شعبة ، وهو يحيى بن عبيد الله بن موهب مدني .

مَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي ؟

نقول نعم : لأن الله سبحانه يعلم ما سيكون ، أمّا الإنسان فلا يعلم كما قال الله : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [المل: ٦٥] ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤] فأنت لا تدري قد تكون الحياة خيرًا لك وقد تكون الوفاة خيرًا لك . ولهذا ينبغي للإنسان إذا دعا لشخص بطول العمر أن يُقَيِّدَ هذا فيقول : أطال الله بقاءك على طاعته ، حتى يكون في طول بقائه خير . فإن قال قائل : إنه قد جاء تمنى الموت من مريم ابنة عمران حيث قالت : ﴿ يَلْتَقِنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣] فكيف وقعت فيما فيه النهي ؟ فالجواب عن ذلك أن نقول : أولاً : يجب أن نعلم أن شرع من قبلنا إذا ورد شرعنا بخلافه فليس بِحُجَّةٍ ، لأنَّ شرعنا نسخ كل ما سبقه من الأديان .

ثانياً : أن مريم لم تمن الموت لكنها تمتت الموت قبل هذه الفئنة ولو بقيت ألف سنة ، ولم تمن استعجال الموت . المهم أن تموت بلا فئنة ومثله قول يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] ليس معناه سؤال الله أن يتوفاه بل هو يسأل أن يتوفاه الله على الإسلام ، وهذا لا بأس به كأن نقول : اللهم توفني على الإسلام وعلى الإيمان وعلى التوحيد والإخلاص أو توفني وأنت راضٍ عني وما أشبه ذلك .

فيجب معرفة الفرق بين شخص يتمنى الموت من ضيق نزل به وبين شخص يتمنى الموت على صفة معينة يرضاها الله ﷻ !.

فالأول : هو الذي نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

والثاني : جائز . وإنما نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن تمنى الموت لِضُرِّ نَزْلِهِ ؛ لأن من تمنى الموت لِضُرِّ نَزْلِهِ به ليس عنده صَبْرٌ والواجب أَنْ يَضُرَّ الإنسان على الضر وأن يَخْتَسِبَ الأجر من الله ﷻ ، فإن الضر الذي يُصيبك من همٍّ أو غَمٍّ أو مَرَضٍ أو أي شيء مُكْفَرٍ لِسَيِّئَاتِكَ ، فإن احتسبت الأجر كان رفعةً لدرجاتك وهذا الذي ينال الإنسان من الأذى والمرض وغيره لا يَدُومُ ولا بد أن ينتهي ، فإذا انتهى وأنت تكسب حسنات باحتساب الأجر على الله ﷻ وَيُكَفِّرُ عَنْكَ من سيئاتك بسببه صار خيرًا لك كما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ . إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ . وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١) .

فالمؤمن على كل حال هو في خير في ضراء أو في سراء .

* * *

٤١ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ خُبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ ﷺ قَالَ : شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ (٢) بُودَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، فَقُلْنَا : أَلَا تَشْتَهَرُ لَنَا ؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا ؟ فَقَالَ : « قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ

(٢) متوسد بردة : جعلها تحت رأسه كالوسادة .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) .

الرَّجُلُ فَيُخَفِّرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيَجْعَلُ فِيهَا ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهُ لَيَسْمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاَكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» ^(١) رواه البخاري . وفي رواية : « وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً » .

الشرح

حديث أبي عبد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه يحكي ما وجده المسلمون من الأذية من كفار قريش في مكة فجاءوا يشكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم « وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة » فيبين النبي عليه الصلاة والسلام أن من كان قبلنا ابتلي في دينه أعظم مما ابتلي به هؤلاء ! .

يُخَفِّرُ لَهُ حُفْرَةٌ ثُمَّ يُلْقَى فِيهَا ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمُنْشَارِ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ وَيَشَقُّ ، وَأَيْضًا يُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ جِلْدِهِ وَعَظْمِهِ ، وَهَذَا تَعْزِيرٌ عَظِيمٌ وَأَذِيَّةٌ عَظِيمَةٌ .

ثم أقسم عليه الصلاة والسلام أن الله سبحانه سيعم هذا الأمر يعني سيتم ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من دعوة الإسلام ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون أي فاصبروا وانتظروا الفرج من الله فإن الله سيتم هذا الأمر . وقد صار الأمر كما أقسم عليه الصلاة والسلام .

ففي هذا الحديث : آية من آيات الله حيث وقع الأمر مطابقاً لما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام . وآية من آيات النبي عليه الصلاة والسلام حيث صدقه الله بما أخبر به وهذه شهادة له من الله بالرسالة كما قال الله : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦] .

وفيه أيضاً : دليل على وجوب الصبر على أذية أعداء المسلمين . وإذا صبر الإنسان ظفراً!! فالواجب على الإنسان أن يُقَابِلَ مَا يَحْصُلُ مِنْ أَذِيَةِ الْكُفَّارِ بِالصَّبْرِ وَالْإِحْتِسَابِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ ، وَلَا يَظُنُّ الْأَمْرَ يَنْتَهِي بِسُرْعَةٍ وَيَنْتَهِي بِسَهُولَةٍ .

قد يتلى الله تعالى المؤمنين بالكفار يؤذونهم وربما يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء . اليهود من بني إسرائيل قتلوا الأنبياء الذين هم أعظم من الدعاة وأعظم من المسلمين ، فليصبر ولينتظر الفرج ولا يمل ولا يضجر بل يبقى راسياً كالصخرة والعاقبة للمتقين والله تعالى مع الصابرين . فإذا صبر وثابر ، وسلك الطرق توصل إلى المقصود ولكن بدون فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة بطريق منظمة ؛ لأن أعداء المسلمين من المنافقين والكفار يمشون على خطى ثابتة منظمة ويحصلون مقصودهم .

(١) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٤٣) ، وأحمد في مسنده (١١١/٥ ، ٣٩٥/٦) ، وأبو داود في سننه (٢٦٤٩) .

أما السَّطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يُثُوروا ويستنفروا فإنه قد يفوتهم شيء كثير وربما حصل منهم زلَّةٌ تفسد كُلَّ ما بنوا إن كانوا قد بنوا شيئاً .

لكن المؤمن يَصْبِر ويتشد ويعمل يتوَّده ويوطن نفسه ويخطط تخطيطاً منظماً يقضي به على أعداء الله من المنافقين والكفار ويفوت عليهم الفرص ؛ لأنهم يتربصون الدوائر بأهل الخير ، يُريدون أن يثيروهم حتى إن حصل من بعضهم ما يحصل حيثئذ استعلوا عليهم وقالوا : هذا الذي نريد وحصل بذلك شر كبير .

فالرسول عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه : اصبروا ، فالمؤمن فيمن قبلكم - وأنتم أحق بالصبر منه - كان يعمل به هذا العمل ويصبر فأنتم يا أمة محمد أمة الصبر والإحسان فاصبروا حتى يأتي الله بأمره والعاقبة للمتقين .

فأنت أيها الإنسان .. لا تسكت عن الشر ، ولكن اعمل بنظام وتخطيط وبحسن تصرف وانتظر الفرج من الله ، ولا تمل فالدرب طويلٌ لاسيما إذا كنت في أول الفتنة ، فإن القائمين بها سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلى قمة ما يريدون فاقطع عليهم السبيل وكن أطول منهم نفساً وأشد منهم مكرًا فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين والله الموفق .

* * *

٤٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما كان يوم حنين أثر رسول الله ﷺ ناساً في القِسْمَةِ ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القِسْمَةِ . فقال رجلٌ : والله إن هذه قِسْمَةٌ ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجهُ الله ، فقلتُ : والله لأخبرن رسول الله ﷺ ، فأتيته فأخبرته بما قال ، فتغير وجهه حتى كان كالصُروف . ثم قال : « فَمَنْ يَغْدِلُ إذا لم يَغْدِلِ الله وَرَسُولُهُ ؟ » ثم قال : « يَوْحُمُ الله مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ » فقلتُ : لا جرم لا أرفعُ إليه بعدها حديثاً ^(١) . متفق عليه .
وقوله « كالصُروف » هو بكسر الصاد المهملة : وهو صِبْغٌ أحمر .

الشرح

قوله : « لما كان يوم حنين » وهي غزوة الطائف التي كانت بعد فتح مكة ، غزاهم الرسول ﷺ وغنم منهم غنائم كثيرة جداً من إبل وغنم ودراهم ودنانير . ثم إن الرسول ﷺ نزل بالجعرانة وهي محل عند منتهى الحرم من جهة الطائف .

نزل بها وصار يقسم الغنائم ، وقسم في المؤلفة قلوبهم - أي في زعماء القبائل - يؤلفهم على الإسلام ، وأعطاهم عطاءً كثيراً حتى كان يُعطى الواحد منهم مائة من الإبل .

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠) ومسلم في الزكاة (١٤٠) واللفظ له .

فقال رجل من القوم : « واللّه إن هذه قِسمة ما عُذِلَ فيها وما أريد فيها وجهُ الله » نعوذ بالله!! يقول هذا القول في قسمة قسمها رسول الله ﷺ لكن حُب الدنيا والشيطان يوقع الإنسان في الهلكة .

هذه الكلمة كلمة كفر ، أن ينسب الله ورسوله إلى عدم العدل وإلى أن النبي لم يرد بها وجه الله . ولا شك أن النبي ﷺ أراد بها وجه الله ، أراد أن يؤلف كبار القبائل والعشائر من أجل أن يتقوى الإسلام ، لأن أسياد القوم إذا ألفوا الإسلام وقوي إيمانهم بذلك حصل منهم خير كثير وتبعهم على ذلك قبائل وعشائر ، واعتز الإسلام بهذا . ولكن الجهل - والعياذ بالله - يوقع صاحبه في الهلكة . عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سمع هذه الكلمة تقال في رسول الله ﷺ أخبره بها ، ورفعها إليه . أخبره بأن هذا الرجل يقول كذا وكذا فتغير وجه الرسول ﷺ حتى كان كالصرف - أي كالذهب - من صفته وتغيره .

ثم قال : « فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله » وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام إذا كانت قسمة الله ليست عدلاً وقسمة رسوله ليست عدلاً فمن يعدل إذا ! ثم قال : « يرحم الله موسى لقد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصَبِرَ » .

والشاهد هذه الكلمة : وهي أن الأنبياء يُؤذَن ويضربون ، فهذا نبينا ﷺ قيل له هذا الكلام بعد ثمانين سنين من هجرته . يعني ليس في أول الدعوة ، بل بعدما مكن الله له وبعدهما عُرِفَ صدقه وبعدهما أظهر الله آيات الرسول في الآفاق وفي أنفسهم ، مع ذلك يقال : هذه القِسمة لم يُعَدِلَ فيها ولم يُرد بها وجه الله ! .

فإذا كان هذا قول رجل في صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام للنبي ﷺ فلا تستغرب أن يقول الناس في عالم من العلماء : إن هذا العالم فيه كذا وفيه كذا ويصفونه بالغيوب ؛ لأن الشيطان هو الذي يُوَزَّ (١) هؤلاء على أن يقدحوا في العلماء .

لأنهم إذا قدحوا في العلماء وسقطت أقوالهم عند الناس ما بقي للناس أحد يقوِّدهم بكتاب الله . بل تقودهم الشياطين وحزب الشيطان ولذلك كانت غيبة العلماء أعظم بكثير من غيبة غير العلماء ؛ لأن غيبة غير العلماء غيبة شخصية إن ضرت فإنها لا تضر إلا الذي اغتاب والذي قيلت فيه الغيبة ، لكن غيبة العلماء تضر الإسلام كله ؛ لأن العلماء حملة لواء الإسلام فإذا سقطت الثقة بأقوالهم ، سقط لواء الإسلام ، وسار في هذا ضرر على الأمة الإسلامية .

فإذا كانت لحوم الناس بالغيبة لحوم ميتة فإن لحوم العلماء لحوم ميتة مَشْمُومة لما فيها من الضرر العظيم . فأقول : لا تستغرب إذا سمعت أحداً يَسُب العلماء! وهذا رسول الله ﷺ قيل فيه ما قيل ،

(١) يُوَزَّ : الأثر التهيج والإغراء .

فاصبر ، واحتسب الأجر من الله ﷻ واعلم أن العاقبة للتقوى . ما دام الإنسان في تقوى وعلى نور من الله ﷻ فإن العاقبة له .

كذلك يوجد بعض الناس يكون له صديق أو قريب يخطئ مرة واحدة فيصفه بالعيب والسب والشتم في خطيئة واحدة . على هذا الذي وصف بالعيب أن يصبر ، وأن يعلم أن الأنبياء قد سبوا وأوذوا وكذبوا وقيل : إنهم مجانين وإنهم شعراء وإنهم كهنة وإنهم سحرة ﴿ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا ﴾ [الأنعام: ٢٤] هكذا يقول الله ﷻ .

ففي هذا الحديث : دليل على أن للإمام أن يُعطي من يرى في عطيته المصلحة ولو أكثر من غيره ، إذا كان في هذا مصلحة للإسلام ! ليست مصلحة شخصية يُحايي من يُحب ويمنع من لا يحب ، لا ! إذا رأى في هذا مصلحة للإسلام وزاد في العطاء ، فإن هذا إليه وهو مسؤول أمام الله ولا يحل لأحد أن يعترض عليه ، فإن اعترض عليه فقد ظلم نفسه .

وفيه : أن الرسول عليه الصلاة والسلام يعتبر بمن مضى من الرسل ، ولهذا قال : « لقد أودى موسى بأكثر من هذا فصبر » لأن الله يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] ويقول : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْبَدُ ﴾ [الأنعام: ٩٠] فأمر الله نبيه أن يقتدي بهدي الأنبياء قبله .

وهكذا ينبغي لنا نحن أن نفتدي بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الصبر على الأذى وأن نحسب الأجر على الله وأن نعلم أن هذا زيادة في درجاتنا مع الاحتساب وتكفير لسيئاتنا والله الموفق .

* * *

٤٣ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّىٰ يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) .

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَىٰ ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ » (٢) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

الشرح

الأمر كلها بيد الله ﷻ وإرادته ؛ لأن الله يقول عن نفسه : ﴿ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [مرد: ١٠٧] ويقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨] فكل الأمور بيد الله .

والإنسان لا يخلو من خطأ ومَعْصية وتقصير في الواجب ؛ فإذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا : إما بجاله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل به .

المهم أن تعجل له العقوبة ، لأن العقوبات تكفر السيئات فإذا تعجلت العقوبة ، وكفر الله بها عن

العبد فإنه يُؤافي الله وليس عليه ذنب قد طهرته المصائب والبلايا ، حتى إنه ليشدد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه ، حتى يخرج من الدنيا نقيًا من الذنوب ، وهذه نعمة ؛ لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

لكن إذا أراد الله بعبد الشر ، أمهل له واستدرجه وأدّرّ عليه النعم ، ودفع عنه الثّمّ حتى يطر ؛ ويفرح فرحًا مدمومًا بما أنعم الله به عليه .

وحينئذٍ يلاقي ربه وهو مغمّمور بسيئاته فيُعاقب بها في الآخرة نسأل الله العافية . فإذا رأيت شخصًا يئازر الله بالعضيان وقد وقاه الله البلاء وأدرّ عليه النعم فاعلم أن الله إنما أراد به شرًا ، لأن الله أخرّ عنه العقوبة حتى يُؤافي بها يوم القيامة .

ثم ذكر في هذا الحديث : « إن عَظَمَ الجَزَاءَ من عِظَمِ البَلَاءِ » يعني أنه كلما عظم البلاء عظم الجزاء . فالبلاء السهل له أجر يسير ، والبلاء الشديد له أجر كبير ؛ لأن الله ﷻ ذو فضل على الناس . إذا ابتلاهم بالشدائد أعطاهم عليها من الأجر الكبير وإذا هانت المصائب هان الأجر .
« وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط » .

وهذه بُشْرَى المؤمن إذا ابتلي بالمصيبة فلا يظن أن الله سبحانه يَغْضُبه بل قد يكون هذا من علامة محبة الله للعبد يتليه سبحانه بالمصائب ، فإذا رضي الإنسان وصبر واحتسب فله الرضى ، وإن سخط فله السخط .

وفي هذا حث على أن الإنسان يصبر على المصائب حتى يكتب له الرضى من الله ﷻ والله الموفق .

* * *

٤٤ - وعن أنس رضي الله عنه قال : كَانَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ ﷺ يَشْتَكِي ، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ ، فَقَبَضَ الصَّبِيَّ ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ قَالَ : مَا فَعَلَ ابْنِي ؟ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ وَهِيَ أُمُّ الصَّبِيِّ : هُوَ أَشْكُرُ مَا كَانَ ، فَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ الْعِشَاءَ فَتَعَشَّى ، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَتْ : وَارْؤَا الصَّبِيَّ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : « أَعْرِشْتُمُ اللَّيْلَةَ (١) ؟ » قال : نَعَمْ ، قال : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهَا » فَوَلَدَتْ غُلَامًا ، فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ : احْمِلْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ ، وَبَعَثَ مَعَهُ بِتَمَرَاتٍ ، فَقَالَ : « أَمَعَهُ شَيْءٌ ؟ » قال : نَعَمْ ، تَمَرَاتٍ ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَصَضَّعَهَا ، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فِي فِي الصَّبِيِّ ، ثُمَّ حَنَّكَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ . متفق عليه (٢) .

وفي رواية للبخاري قال ابن عيينة : فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : فَرَأَيْتُ تِسْعَةَ أَوْلَادٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ يَغْنِي مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُوَلُودِ (٣) .

(١) أغرس الرجل : دخل بامرأته عند بناءه بها وأراد به هنا : الوطء فسماه إعراسًا ؛ لأنه من توابع الإعراس . لسان العرب ص ٢٨٧٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الحقيقة (٥٤٧٠) ، ومسلم في الآداب (٢٣) واللفظ له .

(٣) انظر صحيح البخاري في الجائز (١٣٠١) .

وفي رواية لمسلم : مات ابن لآبي طلحة من أم سليم ، فقالت لأهلها : لا تحذثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه ، فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك ، فوقع بها ، فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت : يا أبا طلحة ، أرايت لو أن قوما أعازوا غاريتهم أهل بيت فطلبوا غاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، فقالت : فاحتسب ابنك . قال : فعضب ، ثم قال : تركتني حتى إذا تلطخت ثم أخبرتني بابني ؟ فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله في ليلتكما » قال : فحملت ، قال : وكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروفا ، فدنوا من المدينة ، فضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ . قال : يقول أبو طلحة : إنك لتعلم يا رب أنه يعجبني أن أخرج مع رسول الله ﷺ إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتسبت بما ترى ، تقول أم سليم : يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد ، فانطلقنا ، وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاما . فقالت لي أمي : يا أنس لا يؤضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ ، فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ ^(١) . وذكر تمام الحديث .

الشرح

حديث أنس بن مالك عن أبي طلحة أنه كان له ابن يشتكي يعني مريضا ، وأبو طلحة كان زوج أم أنس بن مالك ﷺ . وكان هذا الصبي يشتكي فخرج أبو طلحة لبعض حاجاته فقبض الصبي . يعني مات .

فلما رجع سأل أمه عنه فقال كيف ابني قالت : « هو أسكن ما يكون » وصدقت في قولها هو أسكن ما يكون ؛ لأنه مات ولا شكون أعظم من الموت .

وأبو طلحة ﷺ فهم أنه أسكن ما يكون من المرض وأنه في عافية ، فقدّم له العشاء فتعشى على أن ابنه بريء وطيب ثم أصاب منها يعني : جامعها ، فلما انتهى قالت له : « وازوا الصبي » أي : ادفنوا الصبي ، فإنه قد مات .

فلما أصبح أبو طلحة ﷺ ووازي الصبي ، وعلم بذلك الرسول ﷺ .

فسأل : « هل أعرستم الليلة ؟ » . قال : نعم فدعا لهما بالبركة « اللهم بارك لهما في ليلتهما » فولدت غلاما سمّاه عبدالله وكان لهذا الولد تسعة أولاد كلهم يقرؤون القرآن ببركة دعاء الرسول ﷺ .

ففي هذا الحديث : دليل على قوة صبر أم سليم رضي الله عنها وأن ابنها الذي مات بلغ بها الحال إلى أن تقول لزوجها هذا القول وتواري هذه التورية وقدمت له العشاء ونال منها ثم قالت ادفنوا الولد .

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٧) .

وفي هذا دليل على جواز التورية يعني : أن يتكلم الإنسان بكلام تخالف نيته ما في ظاهر هذا الكلام . فله ظاهر هو المتبادر إلى ذهن المخاطب وله معنى آخر مَرْجوح لكن هو المراد في نية المتكلم فيظهر خلاف ما يريد .

وهذا جائز ولكنه لا ينبغي إلا للحاجة إذا احتاج الإنسان إليه لمصلحة أو دفع مضرة فليوار ، وأما مع عدم الحاجة فلا ينبغي أن يُؤارى ؛ لأنه إذا وارى وظهر الأمر على خلاف ما يظنه المخاطب نَسَبَ هذا الموارى إلى الكذب وأساء الظن به لكن إذا دعت الحاجة فلا بأس .

ومن التورية المفيدة التي يحتاج إليها الإنسان : لو أن شخصاً ظالماً يأخذ أموال الناس بغير حق ، وأودع إنسان عندك مالا قال : هذا مالي عندك وديعة أخشى أن يطلع عليه هذا الظالم فيأخذه . فجاء الظالم إليك وسألك هل عندك مال لفلان فقلت : والله ما له عندي شيء .

المُخَاطَبُ يَظُنُّ أن هذا نفي وأن المعنى ما عندي له شيء لكن أنت تنوي بـ (ما) الذي ، أي : الذي عندي له شيء ، فيكون هذا الكلام مُثَبِّتاً لا مُنْفِئاً ، هذا من التورية المباحة بل المطلوبة إذا دعت الحاجة إليها .

وفي هذا الحديث : أن الرسول ﷺ لما جاء أنس بن مالك بأخيه من أمه - ابن أبي طلحة - جاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام ومعه تمرات فأخذه النبي ﷺ ومضغ التمرات ثم جعلها في فم الصبي أي أدخلها في فمه وحنكه أي أدخل أصبعه ودأره في حنكه وذلك تَبَرُّكاً بِرِيقِ الرسول - عليه الصلاة والسلام - ليكون أول ما يصل إلى بطن هذا الصبي ريق الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وكان الصحابة يفعلون هذا إذا ولد لهم أولاد بنين وبنات جاؤوا بهم إلى رسول الله ﷺ وجاؤوا بالتمرّات معهم من أجل أن يحنكه .

وهذا التحنيك هل هو لبركة ريق النبي ﷺ أو من أجل أن يصل التمر إلى معدة الصبي قبل كل شيء ؟ إن قلنا بالأول صار التحنيك من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يَحْنُكُ أحد صبيّاً ؛ لأنه لا أحد يُتَبَرَّكُ بِرِيقِهِ وعرقه إلا رسول الله ﷺ .

وإن قلنا بالثاني إنه من أجل التمرات ، يكون هو أول ما يصل إلى معدة الصبي ؛ لأنه يكون لها بمنزلة الدباغ فإننا نقول كل مولود يحنك .

وفي هذا الحديث : آية من آيات الله ﷻ حيث دعا لهذا الصبي فبارك الله فيه وفي عقبه ، وكان له كما ذكرنا تسعة من الولد كلهم يَقْرَءُونَ القرآن ببركة دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام .

وفيه : أنه يستحب التسمية بعبدالله فإن التسمية بهذا ويبعد الرحمن أفضل ما يكون . قال النبي ﷺ : « إن أحب أسمائكم إلى الله ، عبد الله وعبد الرحمن » ^(١) .

(١) أخرجه مسلم في الآداب (٢) واللفظ له ، والترمذي (٢٨٣٤) ، والبيهقي في سننه (٣٠٦/٩) .

وأما ما يروى أن « خير الأسماء ما مُحَمَّدٌ وَعَبْدٌ » ^(١) فلا أصل له ، وليس حديثاً عن رسول الله ﷺ الحديث الصحيح : « أحب الأسماء إلى الله ؛ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعَبْدُ اللَّهِ ، وأصدقها حَارِثُ وَهَمَامٌ » ^(٢) لأنها مُطَابِقَةٌ لِلْوَاقِعِ . كل واحد من بني آدم فهو حارث : يعمل ، وكل واحد من بني آدم فهو هَمَامٌ : يهم وينوي ويقصد وله إرادة .

قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِنَّ رَبَّكَ كَذَّاءٌ فَتُلْقِيهِ ﴾ [الإنشاق : ٦] كل إنسان يعمل . ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار لأبنائه وبناته أحسن الأسماء ؛ لينال بذلك الأجر وليكون محسناً لأبنائه وبناته .

أما أن يأتي بأسماء غريبة على المجتمع ، فإن هذا قد يوجب مضايقات نفسية للأبناء والبنات في المستقبل ، ويكون كل هم ينال الولد من هذا الاسم فعليك إثمه ووباله ؛ لأنك أنت المتسبب لمضايقته بهذا الاسم الغريب الذي يشار إليه ويقال : انظر إلى هذا الاسم انظر إلى هذا الاسم !! . ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار أحسن الأسماء .

ويحرم أن يسمي الإنسان أسماء من خصائص أسماء الكفار مثل : جورج وما أشبه ذلك من الأسماء التي يتلقب بها الكفار ؛ لأن هذا من باب التشبه بهم ، وقد قال النبي ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » ^(٣) . ويجب علينا نحن المسلمين أن نكره الكفار كرهاً عظيماً ، وأن نعاديهم ، وأن نعلم أنهم أعداء لنا مهما تزينوا لنا وتقربوا لنا فهم أعداؤنا حقاً وأعداء الله ﷻ وأعداء الملائكة وأعداء الأنبياء وأعداء الصالحين ، فهم أعداء ولو تلبسوا بالصدقة أو زعموا أنهم أصدقاء ، فإنهم والله هم الأعداء ، فيجب أن نعاديهم ولا فرق بين الكفار الذين لهم شأن وقيمة في العالم أو الكفار الذين ليس لهم شأن !

حتى الخدم والخدامات يجب أن نكره أن يكون في بلدنا خادم أو خادمة من غير المسلمين . لا سيما وأن نبينا محمداً ﷺ يقول : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » ^(٤) ويقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً » ^(٥) . ويقول في مرض موته ، في آخر حياته وهر يودع الأمة « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » ^(٦) .

(١) كشف الخفاء للعجلوني (٤٦٨/١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٥/٤) ، وأبو داود في سننه (٤٩٥٠) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٠/٢) ، وأبو داود في سننه (٤٠٣١) .

(٤) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٦٨) ، ومسلم في الوصية (٢) بلفظ « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » وذكره الهندي في الكنز (١١٠/٥) بلفظه .

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد (٦٣) ، والترمذي (١٦٠٧) ، وأبو داود في سننه (٣٠٣٠ ، ٣٠٣١) .

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٥٣) ، وفي الجزية (٣١٦٨) ، ومسلم في الوصية (٢٠) .

وبعض الناس الآن يخير بين عامل مسلم وعامل كافر فيختار الكافر ، نسأل الله العافية .
قلوب زائغة ضالة ، ليست إلى الحق مائلة .

يزين لهم الشيطان أعمالهم يقولون كذبًا وزورًا وبهتانًا : إن الكافر أخلص في عمله من المسلم !
أعوذ بالله ! يقولون : إن الكافر لا يصلي بل يستغل وقته في العمل في وقت الصلاة ، ولا يطلب
الذهاب إلى العمرة أو الحج ولا يصوم ، هو دائمًا في عمل . ولا يهمهم هذا الشيء مع أن خالق
الأرض والسموات يقول : ﴿ وَلَمَّا مَوْئِنُ خَيْرٍ مِّنْ مَّشْرِكٍ وَلَوْ أَعَجَبَكُمْ أَوْتَيْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْعِلْمَ وَالْغَنَى وَالْجَنَّةَ وَالنَّجْمَ وَالْشَّجَرَ الْمُنِيرَ ﴾ [البقرة: ٢٢١] فيجب عليكم أيها الإخوة يا من استمعتم إلى قولنا هذا أن
تناصحوا إخوانكم الذين اغتروا وزين لهم الشيطان جلب الكفار إلى بلادنا خدمًا وعمالًا وما أشبه
ذلك ، يجب أن يعلموا أن في ذلك إغانة كبيرة للكفار على المسلمين ؛ لأن هؤلاء الكفار يؤدون
ضرائب لحكوماتهم لتقويتها على المسلمين .

والشواهد على هذا كثيرة فالواجب علينا أن نتجنب الكفار بقدر ما نستطيع ، فلا نسمى بأسمائهم
ولا نوادهم ولا نحترمهم ولا نبذوهم بالسلام ولا نفسح لهم الطريق ؛ لأن الرسول ﷺ يقول : « لا
تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه » (١) .

أين نحن من هذه التعليمات ؟! أين نحن من كلام الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ؟ لماذا
لا نحذر إذا كثر فينا الخبث من الهلاك ؟ استيقظ النبي عليه الصلاة والسلام ذات ليلة محمراً وجهه
فقال : « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب » إنذار وتحذير ، ويل للعرب : حملة لواء الإسلام
من شر قد اقترب ؛ « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وقال بأصبعه الإبهام والسبابة » ،
قالت زينب : يا رسول الله أنهلك وفيما الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » (٢) .

الخبث العملي والخبث البشري !

إذا كثر الخبث في أعمالنا فنحن عرضة للهلاك !

إذا كثر البشر النجس في بلادنا فنحن عرضة للهلاك والواقع شاهد بهذا نسأل الله أن يحمي بلادنا
من أعدائنا الظاهرين والباطنين وأن يكبت المنافقين والكفار ويجعل كيدهم في نحورهم إنه جواد كريم .
قوله : « رأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت ثم طلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ،
فقلت : فاحتسب ابنك » .

يعني : أن الأولاد عندنا عارية وهم ملك لله ﷻ متى شاء أخذهم ، فضربت له هذا المثل من أجل
أن يقتنع ويحتسب الأجر على الله ﷻ .

(١) أخرجه الإمام مسلم في السلام (١٣) ، والترمذي (١٦٠٢ ، ٢٧٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦) ، واللفظ له ومسلم في الفتن (٢٠١) .

وهذا يدل على ذكائها عليها السلام وعلى أنها امرأة عاقلة صابرة محتسبة وإلا فإن الأم كالأب ينالها من الحزن على ولدها مثل ما ينال الأب وربما تكون أشد حزنًا لضعفها وعدم صبرها .

وفي هذا الحديث : بركة دعاء النبي عليه السلام حيث إنه كان له تسعة من الولد كلهم يقرؤون القرآن . وفيه : كرامة لأبي طلحة عليه السلام لأن أبا طلحة كان قد خرج مع النبي عليه السلام في سفر وكانت معه أم سليم بعد أن حملت ، فلما رجع النبي عليه السلام من السفر أتاه المخاض أي جاءها الطلق قبل أن يصلوا إلى المدينة وكان الرسول عليه السلام « لا يحب أن يطرق أهله طروقًا » أي لا يحب أن يدخل عليهم ليلاً دون أن يخبرهم بالقدوم ، فدعا أبو طلحة عليه السلام ربه وقال : اللهم إنك تعلم أنني أحب أن لا يخرج النبي عليه السلام مخرجًا إلا وأنا معه ولا يرجع مرجعًا إلا وأنا معه وقد أصابني ما ترى - ينجي ربه عليه السلام - تقول أم سليم : « فما وجدت الذي كنت وجدته من قبل » يعني هان عليها الطلق ولا كأنها تطلق .

قالت أم سليم لزوجها أبي طلحة : انطلق ، فانطلق ، ودخل المدينة مع رسول الله عليه السلام . ولما وصلوا إلى المدينة وضعت ، ففي هذا كرامة لأبي طلحة عليه السلام حيث خفف الله الطلق على امرأته بدعائه ثم لما وضعت قالت أم سليم لابنها أنس بن مالك وهو أخو هذا الحمل الذي ولد من أمه . قالت : احتمله إلى رسول الله عليه السلام أي اذهب به ، كما هي عادة أهل المدينة إذا ولد لهم ولد ؟ يأتون به إلى رسول الله عليه السلام ومعهم تمر فيأخذ الرسول عليه السلام التمرة فيمضغها بفمه ثم يحنك بها الصبي لأن في ذلك فائدتين :

الأولى : بركة ريق النبي عليه السلام وكان الصحابة عليهم السلام يتبركون بريق النبي عليه السلام وبعرقه ، حتى إنه من عادتهم أنه إذا كان في الصباح وصلوا الفجر أتوا بآنية فيها ماء فغمس الرسول عليه السلام يديه في الماء ، وعرك يديه في الماء ، فيأتي الصبيان بهذا الماء ، ثم ينطلقون به إلى أهلهم يتبركون بأثر النبي عليه السلام ^(١) . وكان الصحابة إذا توضأ النبي عليه الصلاة والسلام كادوا يقتتلون على وضوئه أي فضل الماء يتبركون به وكذلك من عرقه وشعره ^(٢) .

حتى كان عند أم سلمة - إحدى زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام وإحدى أمهات المؤمنين - عندها جلجل من فضة أي مثل (الطابوق) فيه شعرات من شعرات النبي عليه السلام يستشفون بها أي يأتون بشعرتين أو ثلاث فيضعونها في الماء ثم يحركونها من أجل أن يتبركوا بهذا الماء ، لكن هذا خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام .

الفائدة الثانية : من التمر الذي كان يحنكه الصبيان أن التمر فيه خير وبركة وفيه فائدة للمعدة فإذا كان أول ما يصيب الطفل مما يصل إلى معدته من التمر كان ذلك خيرًا للمعدة .

فحنكه الرسول عليه الصلاة والسلام ودعا له بالبركة والشاهد من هذا الحديث أن أم سليم قالت

(١) انظر صحيح مسلم في الفضائل (٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥) ، والإمام أحمد في مسنده (١١٢/٣) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الفضائل (٧٤ ، ٧٥) ، والإمام أحمد في مسنده (١٣٧/٣) .

لأبي طلحة : احتسب ابنك : أي اصبر على ما أصابك من فقدته واحتسب الأجر على الله والله الموفق .

* * *

٤٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » ^(١) متفق عليه .

« وَالصُّرْعَةُ » بَضْمُ الصَّادِ وَفَتْحُ الرَّاءِ ، وَأَصْلُهُ عِنْدَ الْعَرَبِ مَنْ يَضْرَعُ النَّاسَ كَثِيرًا .

٤٦ - وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صَرَدٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرَجُلَانِ يَمْتَنِبَانِ ، وَأَحَدُهُمَا قَدْ احْمَرَّتْ وَجْهُهُ ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ » . فَقَالُوا لَهُ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ^(٢) متفق عليه .

هذان الحديثان اللذان ذكرهما المؤلف في الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم ، فيستشيط غضبًا ويحتمي جسده وتتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويتكلم بكلام لا يعقله أحيانًا ويتصرف تصرفًا لا يعقله أيضًا .

ولهذا جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « أوصني قال : لا تغضب قال : أوصني قال : لا تغضب قال : لا تغضب قال : لا تغضب » .

وبين النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة هذا الذي ذكره المؤلف ﷺ أن الشديد ليس بالصرعة فقال : « ليس الشديد بالصرعة » أي : ليس القوي في الصرعة الذي يكثر صرع الناس فيطرحهم ويغلبهم .

هذا يقال عنه عند الناس : إنه شديد وقوي ، لكن النبي ﷺ يقول : ليس هذا هو الشديد حقيقة « إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » أي : القوي حقيقة هو الذي يصرع نفسه إذا صارته وغضب ملكها ، وتحكم فيها ، لأن هذه هي القوة الحقيقية .

قوة داخلية معنوية يتغلب بها الإنسان على الشيطان ؛ لأن الشيطان هو الذي يلقي الجمرة في قلبك من أجل أن تغضب .

ففي هذا الحديث : الحث على أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب وأن لا يسترسل فيه لأنه يندم بعده . كثيرًا ما يغضب الإنسان فيطلق امرأته وربما تكون هذه الطلقة آخر تطلقة .

كثيرًا ما يغضب الإنسان فيتلف ماله إما بالحرق أو بالتكسير . كثيرًا ما يغضب على ابنه حتى يضربه وربما مات بضربه ، وكذلك يغضب على زوجته - مثلاً - فيضربها ضربًا مبرحًا وما أشبه ذلك من الأشياء الكثيرة التي تحدث للإنسان وقت الغضب ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان ؛ لأن الغضب يمنع القاضي من تصور المسألة ، ثم من تطبيق الحكم الشرعي عليها فيهلك ويحكم

بين الناس بغير الحق . وكذلك ذكر المؤلف رحمته حديثاً لسليمان بن صرد رضي الله عنه في رجلين استبأ عند الرسول ﷺ فغضب أحدهما حتى انتفخت أوداجه وأحمرَّ وجهه فقال النبي ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » أعوذ بالله أي : أعتصم به . « من الشيطان الرجيم » : لأنَّ ما أصابه من الشيطان ، وعلى هذا فنقول المشروع للإنسان إذا غضب أن يحبس نفسه وأن يصبر وأن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأن يتوضأ فإن الوضوء يطفئ الغضب .

وإن كان قائماً فليقعد وإن كان قاعداً فليضطجع وإن خاف خرج من المكان الذي هو فيه حتى لا ينفذ غضبه فيندم بعد ذلك والله الموفق .

* * *

٤٧ - وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ ؛ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ » ^(١) رواه أبو داود ، والتِّرْمِذِيُّ وقال : حديثٌ حسن .

٤٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أَوْصِنِي ، قَالَ : « لَا تَغْضَبْ » فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قَالَ : « لَا تَغْضَبْ » ^(٢) رواه البخاري .

٤٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يُلْقَى اللَّهُ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » ^(٣) رواه التِّرْمِذِيُّ وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ

الشرح

هذه الأحاديث في باب الصبر تدل على فضيلة الصبر .

أما الحديث الأول : حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ... » الحديث .

الغيظ : هو الغضب الشديد ، والإنسان الغاضب هو الذي يتصور نفسه أنه قادر على أن ينفذ لأن من لا يستطيع لا يغضب لكنه يحزن ، ولهذا يوصف الله بالغضب ولا يوصف بالحزن ؛ لأن الحزن نقص والغضب في محله كمال فإذا اغتاظ الإنسان من شخص وهو قادر على أن يفتك به ولكنه ترك ذلك ابتغاء وجه الله وصبر على ما حصل له من أسباب الغيظ فله هذا الثواب العظيم أنه يُدعى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ويخير من أي الحور شاء .

وأما الحديث الثاني : حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أوصني قال : لا

(١) أخرجه أبو داود واللفظ له في الأدب (٤٧٧٧) ، والتِّرْمِذِيُّ في البر والصلة (٢٠٢١) ، وأحمد في مسنده (٤٤٠/٣) . قوله : « من كظم غيظاً » أي تجرعه واحتمل سببه وصبر عليه .

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له في الأدب (٦١١٦) ، والإمام أحمد في مسنده (١٧٥/٢) ، والبيهقي في سننه (١٠٥/١٠) .

(٣) أخرجه التِّرْمِذِيُّ واللفظ له في الزهد (٢٣٩٩) .

تغضب ، فردد مرارًا فقال : لا تغضب فقد سبق الكلام عليه .

والحديث الثالث : دليل على أن الإنسان إذا صبر واحتسب الأجر عند الله كفر الله عنه سيئاته ، إذا أصيب الإنسان ببلاء في نفسه أو ولده أو ماله ثم صبر على ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يزال يتلى بهذا حتى لا يكون عليه خطيئة ، ففيه دليل على أن المصائب في النفس والولد والمال تكون كفارة للإنسان ، حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة ولكن هذا إذا صبر .
أما إذا تسخط فإن من تسخط فله السخط والله الموفق .

٥٠ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فَتَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ ، وَكَانَ مِنَ الثَّقَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ رضي الله عنه وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسٍ عُمَرُ رضي الله عنه وَمُشَاوَرَتَهُ كَهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا ، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لَابْنِ أَخِيهِ : يَا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ ، فَاسْتَأْذَنَ ، فَأَذَنَ لَهُ عُمَرُ . فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ ، فَقَضَبَ عُمَرُ رضي الله عنه حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم : ﴿ خُذِ أَلْمَنَ وَأَمْرٌ بِالْعَرَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٩٨] وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ^(١) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف في سياق ذكر أحاديث الصبر حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمير المؤمنين الخليفة الثاني ، وأبو بكر هو الأول . وكان قد اشتهر بالعدل بين الرعية وبالتواضع بالحق حتى أن المرأة ربما تذكره بالآية في كتاب الله فيقف عندها ولا يتجاوزها فقد قدم عليه عيينة بن حصن وكان من كبار قومه فقال له : « هي يا ابن الخطاب » هذه كلمة استنكار وتلؤن : وقال له : إنك لا تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل .

انظر إلى هذا الرجل يتكلم على هذا الخليفة المشهور بالعدل بهذا الكلام مع أن عمر كما قال ابن عباس رضي الله عنه : « كان جلساؤه القراء » القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم جلساؤه سواء كانوا شيوخًا أو كهولًا أو شبَّابًا يشاورهم ويدينهم وهكذا ينبغي لكل أمير أو خليفة أن يكون جلساؤه الصالحين ، لأنه إن قِضَ له جلساء غير صالحين هلك وأهلك الأمة . وإن يسر الله له جلساء صالحين نفع الله به الأمة ، فالواجب على ولي الأمر أن يختار من الجلساء أهل العلم والإيمان وكان الصحابة رضي الله عنهم القراء منهم هم أهل العلم ، لأنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل .

(١) أخرجه البخاري باختلاف في اللفظ في الاعتصام (٧٢٨٦) قوله : « فوالله ما تعطينا الجزل » أي ما تعطينا الشيء الكثير أو العطاء الكثير .

لما قال هذا الرجل هذا الكلام لعمر ، غضب ﷺ غضباً حتى كاد أن يهّم به أي : يضربه أو يبطش به . ولكن ابن أخي عيينة بن حصن الحرّ بن قيس قال له : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين .

فوقف عندها عمر ولم يتجاوزها ؛ لأنه كان وقافاً عند كتاب الله ﷻ وأرضاه . فوقف ، ما ضرب الرجل وما بطش به لأجل الآية التي تليت عليه . وانظر الى أدب الصحابة ﷺ عند كتاب الله لا يتجاوزون . إذا قيل لهم : هذا قول الله . وَقَفُوا مَهْمَا كَانَ ، فقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ أي : خذ ما عفا من الناس وما تيسر ولا تطلب حَقَّكُ كُلَّهُ لَأَنَّهُ لَا يَحْصِلُ لَكَ . وقوله : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أي : وأمر بما عرفه الشرع وعرفه الناس ، ولا تأمر بمنكر ولا بغير العرف ، لأن الأمور ثلاثة أقسام :
١ - منكر يجب النهي عنه .
٢ - وعُزْفٌ يؤمر به .

٣ - وما ليس بهذا ولا بهذا فإنه يسكت عنه . ولكن على سبيل النصيحة لا يقول قولاً إلا فيه الخير لقول النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (١) .
وأما قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فالمعنى : أن من جهل عليك وتطاول عليك فأعرض عنه ، لا سيما إذا كان إعراضك ليس ذُلاًّ وخُتُوْعاً . مثل عمر بن الخطاب ؛ إعراضه ليس ذُلاًّ وخُتُوْعاً فهو قادر على أن يبطش بالرجل ، لكن امثل هذا الأمر وأعرض عن الجاهلين . والجهل له معنيان : أحدهما : عدم العلم بالشئ .

والثاني : السّفه والتطاول ومنه قول الشاعر جاهلي .

أَلَا لَا يَجْهَلُن أَحَدَ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

أي لا يسفه علينا أحد ويتطاول علينا فنكون أشد منه ، لكن هذا شعر جاهلي !! أما الأدب الإسلامي فإن الله يقول : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

سبحان الله !! إنسان بينك وبينه عداوة أساء إليك ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا دفعت بالتي هي أحسن - فوراً - يأتيك الثواب والجزاء وقوله : ﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي قريب صديق في غاية ما يكون من الصداقة والقرب الذي يقوله مَنْ ؟ ... هو الله ﷻ مُقَلَّبُ الْقُلُوبِ ، ما من قلب من قلوب بني آدم إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن ﷻ يُصَرِّفُهُ كيف يشاء . فهذا الذي كان عدواً لك ودافعت بالتي هي أحسن فإنه ينقلب بدن العداوة صداقة .

فالحاصل : أن هذه الآية الكريمة . ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ... ﴾ الآية [الأعراف : ١٩٩] لما تليت على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وقف ولم يبطش بالرجل ولم يأخذه على جهله .

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) وهذا جزء من الحديث ، ومسلم في الإيمان (٧٥ ، ٧٦) ، والترمذي في السنن (١٩٦٧) .

فينبغي لنا إذا حصلت هذه الأمور كالغضب والغيط أن نتذكر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أجل أن نسير على هديه ، من أجل أن لا نضل فإن من تمسك بهدي الله فإن الله يقول : ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقُّ ﴾ [طه : ١٢٣] والله الموفق .

* * *

٥١ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّهَا سَتَكُونُ بَغْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا » قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : « تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ » (١) متفق عليه . « وَالْأَثَرَةُ » الانفراد بالشئ عَمَّنْ لَهُ فِيهِ حَقٌّ .

٥٢ - وَعَنْ أَبِي يَحْيَى أَسِيدِ بْنِ حَضِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا ؟ فَقَالَ : « إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَغْدِي أَثَرَةً ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ » (٢) متفق عليه .

« وَأَسِيدٌ » بِضَمِّ الهمزة . « وَحَضِيرٌ » : بِحَاءٍ مُهْمَلَةٍ مَضْمُومَةٍ وَضَادٍ مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

هذان الحديثان : حديث ابن مسعود وحديث أسيد بن حضير ذكرهما المؤلف في باب الصبر لأنهما يدلان على ذلك .

أما حديث عبد الله بن مسعود : فأخبر ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إِنَّهَا سَتَكُونُ بَغْدِي أَثَرَةٌ » والأثره يعني الاستئثار بالشئ عَمَّنْ لَهُ فِيهِ حَقٌّ . يريد بذلك ﷺ أنه يستولي على المسلمين ولاة يستأثرون بأموال المسلمين يصرفونها كما شاؤوا ويمنعون المسلمين حقهم فيها . وهذه أثره وظلم من الولاة أن يستأثروا بالأموال التي للمسلمين فيها الحق ويستأثروا بها لأنفسهم عن المسلمين ولكن قالوا : « .. فما تأمرنا ؟ .. » . قال : « تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ » يعني : لا يمنعكم استئثارهم بالمال عليكم أن تمنعوا ما يجب عليكم نحوهم من السمع والطاعة وعدم الإثارة وعدم التشويش عليهم . بل اصبروا واسمعوا وأطيعوا ولا تنازعوهم الأمر الذي أعطاهم الله « وتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ » أي : اسألوا الحق الذي لكم من الله . أي اسألوا الله أن يهديهم حتى يُوَدُّوْكُمْ الحق الذي عليهم لكم وهذا من حكمة النبي ﷺ ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام علم أن النفوس شحيحة وأنها لن تصبر على من يستأثر عليهم بحقوقهم ولكنه عليه الصلاة والسلام أرشد إلى أمر قد يكون فيه الخير . وذلك بأن نؤدي ما يجب علينا نحوهم من السمع والطاعة وعدم منازعة الأمر وغير ذلك ندعو الله لهم بأن يعطونا حقنا ، كان في هذا خير من جهتين . وفيه : دليل على نبوة الرسول ﷺ لأنه أخبر بأمر وقع فإن الخلفاء والأمراء منذ عهد بعيد كانوا

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٢) ، ومسلم واللفظ له في الإمامة (٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري بدون كلمة : « إنكم » في مناقب الأنصار (٣٧٩٢) ، ومسلم في الإمامة (٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١١١/٣) .

يستأثرون بالمال فنجدهم يأكلون إسرأفاً ، ويشربون إسرأفاً ، ويلبسون إسرأفاً ، ويسكنون إسرأفاً ، ويركبون إسرأفاً . وقد استأثروا بآمال الناس لمصالح أنفسهم الخاصة . ولكن هذا لا يعني أن ننزع يداً من طاعة أو أن نتأبذهم بل نسأل الله الذي لنا ونقوم بالحق الذي علينا .

وفيه : استعمال الحكمة في الأمور التي قد تقتضي الإثارة فإنه لا شك أن استئثار الولاة بالمال دون الرعية يوجب أن تثور الرعية وتطالب بحقوقها ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر بالصبر على هذا وأن نقوم بما يجب علينا وأن نسأل الله الذي لنا .

وحديث أسيد بن حضير : مثل حديث عبدالله بن مسعود ، أخبر النبي ﷺ : « إِنَّهَا سَتَكُونُ أَثَرَةٌ » ولكنه قال : « اضربوا حتى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ » . يعني أنكم إذا صبرتم فإن من جزاء الله لكم على صبركم أن يُسقيكم من حوضه ؛ حوض النبي ﷺ ، اللَّهُمَّ اجعلنا جميعاً ممن يَرِدُهُ ويشرب منه . هذا الحوض الذي يكون في يوم القيامة في مكان وزمان أحوَج ما يكون الناس إليه ، لأنه في ذلك المكان والزمان في يوم الآخرة يحصل علي الناس من الهَمِّ والعَمِّ والكرب والعرق والحَرِّ ما يجعلهم في أشدَّ الضَّرورة إلى الماء ، فيردون حوض الرسول ﷺ ، حوض عظيم طوله شهر وعرضه شهر ، يصب عليه ميزابان من الكوثر وهو نهر في الجنة أُعْطِيَهُ النبي ﷺ .

فيصبان عليه ماءً أشدَّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من رائحة المسك وفيه أواني كنجوم السماء في اللَمَعان والحسن والكثرة ، من شَرِبَ منه شَرْبَةً وَاحِدَةً لم يظمأ بعدها أبداً اللَّهُمَّ اجعلنا ممن يشرب منه . فأرشده النبي عليه الصَّلَاة والسلام إلى أن يصبروا على ما سَيَرُونَهُ من الأثرة فإن صبرهم على ظلم الولاة من أسباب الورود على الحوض والشرب منه .

إذاً في هذين الحديثين : حث على الصبر على استئثار ولاة الأمور في حقوق الرعية ولكن يجب أن نَعْلَم أن الناس كما يكونون يُؤَلَّى عليهم .

إذا أسأوا فيما بينهم وبين الله فإن الله يُسلط عليهم ولا تهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] . فإذا صلحت الرعية يَسِّرَ الله لهم ولاةً صالحين وإذا كانوا بالعكس كان الأمر بالعكس .

- ويذكر أن رجلاً من الخوارج جاء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال : له يا علي ما بال الناس انتقدوا عليك ولم ينتقدوا على أبي بكر وعمر ؟ فقال له : إن رجال أبي بكر وعمر كُنْتُ أنا وأمثالي ، أما رجالي فكُنْتُ أنت وأمثالك !! معناه : أنك أنت ما فيك خير فصار سبباً في تسلط الناس وتفرقهم على علي بن أبي طالب وخروجهم عليه حتى قتلوه رضي الله عنه .

- ويذكر أن أحد ملوك بني أمية سَمِعَ مقالة الناس فيه فجمع أشراف الناس ووجهاءهم وكَلَّمهم - وأظنه عبد الملك بن مروان - وقال لهم : أيها الناس أتريدون أن نكون لكم مثل أبي بكر وعمر ؟ قالوا نعم ! قال إذا كنتم تريدون ذلك فكونوا لنا مثل رجال أبي بكر وعمر !! فالله ﷻ حَكِيمٌ

يُؤَلِّي عَلَى النَّاسِ مَنْ يَكُونُ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ، إِنْ أَسَاءُوا فَإِنَّهُ يُنْشَأُ إِلَيْهِمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا أُخْسِنَ إِلَيْهِمْ .
ولكن مع ذلك لا شك أنَّ صلاح الراعي هو الأصل وأنه إذا صَلَحَ الراعي صَلَحَت الرعية ، لأنَّه له
سلطة يستطيع أن يُعَدِّلَ مَنْ مَالَ ، وأنَّ يُؤَدِّبَ مَنْ عَالَ وجارَ والله الموفق .

* * *

٥٣ - وَعَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا
الْعَدُوَّ ، انْتَهَرَ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ
الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » . ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ
مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، وَمُعْجِرِي السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ
فَانْتَظَرَ حَتَّى زَالَتِ الشَّمْسُ ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُقْبَلَ الْبُرُودَةُ وَيَكْثُرَ الظِّلُّ وَيَنْشَطَ النَّاسُ ، فَانْتَظَرَ حَتَّى
إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا . وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ النَّاسَ خُطْبًا دَائِمَةً ثَابِتَةً كَخُطْبَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .
وْخُطْبًا عَارِضَةً إِذَا دَعَتِ الْحَاجَّةُ إِلَيْهَا قَامَ فَخَطَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَهَذِهِ كَثِيرَةٌ جَدًّا ، فَقَالَ فِي
جُمْلَةٍ مَا قَالَ : « لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ » . أَي : لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَمَنَّى لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَيَقُولَ اللَّهُمَّ
أَلْقِنِي عَدُوِّي ! « وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ » قُل : اللَّهُمَّ عَافِنِي !

« فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ » وَابْتَلَيْتُمْ بِذَلِكَ « فَاصْبِرُوا » ، هَذَا هُوَ الشَّاهِدُ مِنَ الْحَدِيثِ أَيِ اصْبِرُوا عَلَى
مُقَاتَلَتِهِمْ وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ وَقَاتِلُوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا .

« وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » نَسَأَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ! فَالْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ الَّتِي
يَحْمِلُهَا الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَإِنَّ الْمُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِذَا قُتِلَ صَارَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ وَكَاسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ يَسْتَشِيرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ
أَلَّا يَضِيعَ أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧١] .

والشهيد إذا قتل في سبيل الله فإنه لا يحس بالطعنة أو بالضربة كأنها ليست بشيء ما يحس إلا أن
روحه تخرج من الدنيا إلى نعيم دائم أبداً . ولهذا قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ
السُّيُوفِ » . وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم أَنَسُ بْنُ النُّضْرٍ قَالَ : « إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ » . انْظُرْ كَيْفَ
فَتَحَ اللَّهُ مِشَامَهُ حَتَّى شَمَّ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ ، فَقُتِلَ شَهِيدًا رضي الله عنه ، وَلهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :
« وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » . ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُعْجِرِي
السَّحَابِ وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ » وَهَذَا دَعَاءٌ يَنْبَغِي لِلْمُجَاهِدِ أَنْ يَدْعُو بِهِ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ .

فهنا توسل الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيات الشرعية والآيات الكونية . توسل بإنزال الكتاب وهو القرآن الكريم أو يشمل كل كتاب ويكون المراد به الجنس أي : منزل الكتب على محمد وعلى غيره . « ومُجْرِي السحاب » هذه آية كونية ، فالسحاب المُسَخَّر بين السماء والأرض لا يُجره إلا الله ﷻ . لو اجتمعت الأمم كلها بآلاتها ومعداتِها على أن تجري هذا السحاب أو أن تصرف وجهه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وإنما يجريه من إذا أراد شيئاً قال : له كن فيكون . « وهَا زِمَ الْأَحْزَابِ » فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ وحده هو الذي يهزم الأحزاب .

ومنه : أن الله هَزَمَ الأحزاب في غزوة الأحزاب ، والتي قد تَجَمَّع فيها أكثر من عشرة آلاف مُقاتل حول المدينة ليقاتلوا الرسول عليه الصلاة والسلام . ولكن الله تعالى هزمهم وَرَدَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم يتألوا خيراً ، فأرسل عليهم ريحاً وجنوداً زلزلت بهم وكفأت قلوبهم وأسقطت خيامهم وصار لا يستقر لهم قرار . ريح شديدة باردة شرقية حتى ما بقوا وانصرفوا .

قال الله ﷻ : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فالله ﷻ هو هَا زِمَ الأحزاب ، ليست قوة الإنسان التي تهزم بل القوة سبب قد تنفع وقد لا تنفع . ونحن مأمورون بفعل السبب المباح ، لكن هازم الأحزاب حقيقة هو الله ﷻ .

ففي هذا الحديث عدة فوائد :

منها : أن لا يتمنى الإنسان لقاء العدو ، وهذا غير تَمَنِّي الشهادة ! تَمَنِّي الشهادة جائز ولا مَنَهِي عنه بل قد يكون مأموراً به ، أما تَمَنِّي لقاء العدو ، فلا تتمنه لأنه نُهْي عن ذلك .

ومنها : أن يسأل الإنسان الله العافية لأن العافية والسلامة لا يعدلها شيء ، فلا تتمن الحروب ولا المقاتلة واسأل الله العافية والنصر لدينه ولكن إذا لقيت العدو ، فاصبر .

ومنها : أن الإنسان إذا لقي العدو فإن الواجب عليه أن يصبر قال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . [الأأنفال: ٤٥، ٤٦] .

ومنها : أنه ينبغي لأمر الجيش أو السرية أن يَرفِقَ بهم وأن لا يتبدأ القتال إلا في الوقت المناسب . سواء كان مناسباً من الناحية اليومية أو من الناحية الفصلية ، فمثلاً في أيام الصَّيف لا ينبغي أن يتحرى القتال فيه لأن فيه مَشَقَّة . وفي أيام البرد الشَّدِيد لا يتحر ذلك أيضاً لأن في ذلك مَشَقَّة ، لكن اذا أمكن أن يكون بين بين بأن يكون في الخريف فهذا أحسن ما يكون .

ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن يدعو بهذا الدعاء «اللَّهُم مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِي السَّحَابِ وَهَازِمِ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ » .

ومنها : الدعاء على الأعداء بالهزيمة لأنهم أعداؤك وأعداء الله فإن الكافر ليس عدواً لك وَخَذَكَ بل هو عدو لك ولربك ولأنبيائه وللملائكته ولرؤسله ولكل مؤمن ، والله الموفق .

٤ - باب الصدق

قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] وقال تعالى : ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ قُلُوا صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : ٢١] .

الشرح

الصدق : معناه مطابقة الخبر الواقع ، هذا في الأصل . ويكون في الإخبار فإذا أخبرت بشيء وكان خبرك مطابقاً للواقع قيل إنه صدق مثل أن تقول عن هذا اليوم : اليوم يوم الأحد فهذا خبر صدق ، وإذا قلت : اليوم يوم الاثنين فهذا خبر كذب . فالخبر إن وافق الواقع فصدق وإلا فكذب . وكما يكون الصدق في الأقوال فهو في الأفعال وهو أن يكون الإنسان باطنه موافقاً لظاهره بحيث إذا عمل عملاً يكون موافقاً لما في قلبه . فالمرآئي مثلاً ليس بصادقٍ لأنه يُظهر للناس بأنه من العابدين وليس كذلك . والمشرك مع الله ليس بصادقٍ لأنه يظهر بأنه مُوحد وليس كذلك . والمنافق ليس بصادقٍ لأنه يظهر الإيمان وليس بمؤمن . والمتدع ليس بصادقٍ لأنه يُظهرُ الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام وليس بمُتبع . المهم أن الصدق مُطابقة الخبر للواقع وهو من سمات المؤمنين وعكسه الكذب وهو من سمات المنافقين . ثم ذكر آيات في ذلك . فقال : وقول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] . هذه الآية نزلت بعد ذكر قصة الثلاثة الذين خُلِفوا عن غزوة تبوك ومنهم كعب بن مالك الذي سنذكر حديثه إن شاء الله .

* * *

كان هؤلاء الثلاثة حين رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك ، وكانوا قد تخلفوا عنها بلا عذر وأخبروا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنهم لا عذر لهم فخلفهم أي : تركهم .

فمعنى : ﴿ وَعَلِ التَّلَافُتِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ أي : تركوا فلم يُبَيِّتْ في شأنهم لأن المنافقين لما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك جاؤوا إليه يعتذرون إليه ويحلفون بالله إنهم مَعْدُورُونَ وفيهم أنزل الله هذه الآية ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ يُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَجَّهَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٩٥، ٩٦] أمّا هؤلاء الثلاثة فصدقوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخبروه بأنهم ليس لهم عذر . فأرجأهم الرسول عليه الصلاة والسلام خمسين ليلة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم أنزل الله توبته عليهم .

ثم قال بعد ذلك ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] فأمر الله تعالى المؤمنين بأن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين لا مع الكاذبين .

وقال الله تعالى ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] هذه في جملة الآية الطويلة التي ذكرها الله

في سورة الأحزاب وهي ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَلِجَزَاءٍ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فذكر الله الصادقين والصادقات في مقام الثناء وفيما لهم من الأجر العظيم .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي : لو عاملوا الله بالصدق لكان خيرا لهم ولكن عاملوا الله بالكذب فنافقوا وأظهروا خلاف ما في قلوبهم وعاملوا النبي ﷺ بالكذب فأظهروا أنهم متبعون له وهم مخالفون له . فلو صدقوا الله بقلوبهم وأعمالهم وأقوالهم لَكَانَ خَيْرًا لهم ولكنهم كذبوا الله فكان شرا لهم .

وقال الله : ﴿ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٢٤] . فدل ذلك على أن الصدق أمره عظيم وأنه محل للجزاء من الله تعالى . إذن علينا أن نصدق وعلينا أن نكون صادقين وعلينا أن نكون صرحاء وعلينا أن لا نخفي الأمر عن غيرنا مدهانة أو مراء .

كثير من الناس إذا حدث عن شيء فَعَلَهُ ، وكان لا يُدرى فعله أم لا .. ؟ فإنه يكذب ويقول : ما فَعَلْتُ !

لماذا ؟ أتستحي من الخلق وتبارز الخالق بالكذب ؟ ! قُلْ الصدق ولا يَهْمُكَ أحد وأنت إذا عَوَدْتَ نفسك الصدق فإنك في المستقبل سَوفَ تصلح خالك أما إذا أخبرت بالكذب وسوف تكتن عن الناس وتكذب عليهم فإنك سوف تستمر في غيِّك ولكن إذا صدقت فإنك تُعَدِّلُ مسيرك ومنهاجك . فعليك بالصدق فيما لك وفيما عليك حتى تكون مع الصادقين الذين أمرك الله أن تكون معهم . أما حديث كعب بن مالك : فهو في قصة تَخَلَّفَ عن غزوة تبوك وكانت غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة . غزا النبي ﷺ الروم وهم على دين النصارى حين بلغه أنهم يجمعون له فغزاهم النبي عليه الصلاة والسلام وقام بتبوك عشرين ليلة ، ولكنه لم يَزْ كيدا ولم يَزْ عُدْوًا فرجع . وكانت هذه الغزوة في أيام الحر حين طابت الثمار والرطب وصار المنافقون يُفضّلون الدنيا على الآخرة فتخلف المنافقون عن هذه الغزوة ولجؤوا إلى الظل والرطب والتمر وبعدت عليهم الشقة والعياذ بالله .

أما المؤمنون الخُلص فإنهم خرجوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولم يثن عزمهم بُعد الشقة ولا طيب الثمار . إلا أن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تخلف عن غزوة تبوك بلا عُذر وهو من المؤمنين الخُلص ولهذا قال : « أَنَّهُ مَا تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطْ » - فهو من المجاهدين في سبيل الله - .

« إلا في غزوة بدر » ، فقد تخلف فيها كعب وغيره لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج من المدينة لا يريد القتال ولذلك لم يخرج معه إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا لأنهم كانوا يريدون أن يأخذوا عيرا لقريش : أي حَمْلَة قدمت من الشام تُريد مكة وتُمرّ قرب المدينة . فَخَرَجَ النبي - عليه الصلاة والسلام - من أجل أن يستقبل هذه العير ويأخذها وذلك لأن أهل مكة أخرجوا النبي ﷺ وأصحابه من ديارهم

وأموالهم . فلهذا كانت أموالهم غنيمة للنبي عليه الصلاة والسلام ويحل له أن يخرج ليأخذها وليس في ذلك عدوان من النبي ﷺ وأصحابه بل هذا أخذ لبعض حقهم . المهم أن الرسول خرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ليس معهم إلا سبعون بعيراً وفَرَسَان فقط ؛ وليس معهم غُدة والعَدَد قليل ولكن الله جمع بينهم وبين عدوهم على غير معياد لينفذ ما أراد ﷻ .

فسمع أبو سفيان وهو قائد العير أن النبي ﷺ خرج إليه ليأخذ العير؛ فعَدَلَ عن سيره إلى الساحل وأرسل إلى قريش صارخاً يستنجدهم - أي يستغيثهم - ويقول : أنقذوا العير . فاجتمعت قريش وخَرَجَ كبارؤها وزُعَمَاؤها وشُرَفَاؤها فيما بين تسعمائة إلى ألف رجل . خرجوا كما قال الله عنهم ، خرجوا بطرا ورتاء الناس وَيُضْطَوْنَ عن سبيل الله .

ولما كانوا في أثناء الطريق وعلموا أن العير نَجَتْ تراجعوا فيما بينهم وقالوا : العير نجت فما لنا وللقتال؟! فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدرًا فنقيم فيها ثلاثًا نحر الجزور ونسقي الخمر ونطعم الطعام وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابونا أبدًا .

هكذا قالوا ، بَطَرًا واستكبارًا وفخرًا ولكن الحمد لله صارت العرب تتحدث بهم وبالهزيمة التكرار التي لم يَذِقِ العرب مثلها . لما التقوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وكان ذلك في رمضان في السنة الثانية من الهجرة في اليوم السابع عشر منه . التقوا فأوحى الله ﷻ إلى الملائكة : ﴿ أَيُّ مَعَكُمْ فَتَنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢] . انظروا في الآية تثبيت للمؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ، فما أقرب النَّصْر في هذه الحال؟! فَتَبَّتِ الله المؤمنين ثباتًا عظيمًا وأنزَلَ في قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ . قال الله سبحانه : ﴿ فَأَضْرِبُوا قُورَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كَلًّا بَنَانِ ﴾ [الأنفال: ١٢] أي : كل مفصل ، فالأمر مُبَشِّرٌ لكم . فجعل المسلمون - ولله الحمد - يجلدون فيهم ، فقتلوا سبعين رجلاً وأسروا سبعين رجلاً . والذين قتلوا ليسوا من أطرافهم ، الذين قتلوا كلهم من صناديدهم وكبرائهم . وأخذ منهم أربعة وعشرين رجلاً يُسْحَبُونَ سَحَبًا وألقوا في قلب من قلب بدر . سُحِبُوا جثثًا هامدة ، ووقف عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام وقال لهم : « يا فلان ابن فلان - يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا » . فقالوا يا رسول الله كيف تُكَلِّمُ أَنَاثًا قد جِيئُوا ؟ قال : « والله ما أنتم بأشنع لما أقول منهم ولكنهم لا يُجِيبُونَ » (١) : لأنهم مَوْتَى وهذه - ولله الحمد - نعمة علينا أن نشكر الله عليها كلما ذكرناها . نَصَرَ الله نبيه وسمى الله هذا اليوم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . هذا اليوم فرق الله فيه بين الحق والباطل تفريقًا عظيمًا وانظر إلى قدرة الله ﷻ في هذا اليوم انتصر ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً على نحو ألف رجل ، أكمل منهم عدة وأقوى ، وهؤلاء ليس معهم إلا عدد قليل من الإبل والخيول ! لكن نصر الله ﷻ إذا نزل لقوم لم يقم أمامهم أحد وإلى هذا أشار الله بقوله ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

(١) هذا الحديث مروي باختلاف في بعض ألفاظه . وقد أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٧٦) ، ومسلم في الجنة (٧٦) ، وأحمد في مسنده (٢٧/١) .

بِئَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذَلَّةٌ ﴿١﴾ ليس عندكم شيء ﴿٢﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] . ولما كان المسلمون حين فتحوا مكة وخرجوا باثني عشر ألفاً وأمامهم هوازن وثقيف فأعجب المسلمون بكثرتهم وقالوا : لن تغلب اليوم عن قلة فغلبهم ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل .

غلبوا اثني عشر ألف رجل بقيادة النبي ﷺ لماذا ؟ لأنهم أعجبوا بكثرتهم قالوا : لن تغلب اليوم عن قلة . فأراهم الله ﷻ أن كثرتهم لن تنفعهم . قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] . المهم أن كعب بن مالك ﷺ لم يشهد بدرًا لكن تخلف عنها لأن النبي ﷺ لم يخرج لقتال ، إنما خرج للغير ولكن الله جمع بينه وبين غدوه على غير ميعاد . أتدرون ماذا حصل لأهل بدر ؟ اطلع الله عليهم وقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . كل معصية تقع منهم فإنها مغفورة ، لأن الثمن مقدم . فهذه الغزوة صارت سببًا لكل خير ، حتى أن حاطب بن أبي بلتعة ﷺ لما حصل منه ما حصل في كتابه لأهل مكة عندما أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يغزوهم غزوة الفتح كتب هو ﷺ إلى أهل مكة يخبرهم ولكن الله اطلع نبيه على ذلك . أرسل حاطب بن أبي بلتعة الكتاب مع امرأة ، فأخبر النبي ﷺ بذلك عن طريق الوحي . فأرسل علي بن أبي طالب وواحدًا معه حتى لحقوها في روضة تسمى «روضة خاخ» ، فأمسكوها وقالوا لها أين الكتاب ؟ فقالت ما معي كتاب ، فقالوا لها : والله ما كذبنا ولا كذبتنا أين الكتاب ، لتخرجته أو لننزع ثيابك ! ؟ فلما رأت الجد أخرجه فإذا هو من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش فأخذوه . والحمد لله أنه لم يصل إلى قريش فصار بهذا نعمة من الله على المسلمين وعلى حاطب لأن الذي أراد ما حصل . فلما ردوا الكتاب إلى النبي ﷺ قال له : يَا حَاطِبُ كَيْفَ فَعَلْتَ كَذَا ؟ فاعتذر فقال عمر : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ فَإِنَّهُ قَدْ نَافَقَ ؟

قال له النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ - أَوْ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ - فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ^(١) وكان حاطب من أهل بدر ﷺ . فالمهم أن هذه الغزوة تخلف عنها كعب ، لكنها ليست غزاة في أول الأمر إلا في ثاني الحال وكانت غزاة مباركة ولله الحمد ، ثم ذكر بيعته النبي ﷺ ليلة العقبة في منى ، حيث بايعوا النبي ﷺ على الإسلام وقال : إنه لا يحب أن يكون له بدلها بدر . أي هي أحب إليه من غزوة بدر لأنها بيعة عظيمة . لكن يقول : كانت بدر أذكُر في الناس منها أي أكثر ذكرًا ؛ لأنها غزوة اشتهرت بخلاف البيعة .

على كل حال كأنه يُسلي نفسه بأنه إن فاتته بدر فقد حصلت له بيعة العقبة فرضي الله عن كعب وعن جميع الصحابة .

يقول ﷺ : « إِنِّي لَمْ أَكُنْ قَطْ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ » أي غزوة

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٨٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) ، وأحمد في مسنده (٨٠/١) بألفاظ مختلفة .

تبوك - كان قوي البدن ميسور الحال حتى إنه كان عنده راحلتان في تلك الغزوة وما جمع راحلتين في غزوة قبلها أبداً . وقد استعد وتجهّز ، وكان من عادة النبي ﷺ أنه إذا أراد غزوة - ورّى بغيرها - أي أظهر خلاف ما يريد وهذا من حكمته وحنكته في الحرب ، لأنه لو أظهر وجهه تبين ذلك لعدوه فرما يستعد له أكثر وربما يذهب عن مكانه الذي قصده النبي ﷺ فيه . فكان مثلاً : إذا أراد أن يخرج إلى الجنوب ورى وكأنه يريد أن يخرج إلى الشمال ، أو أراد أن يخرج إلى الشرق ورى وكأنه يريد أن يخرج إلى الغرب حتى لا يطلع العدو على أسرارهِ . إلا في غزوة تبوك فإنه قد بين أمرها ووضحها وجلاها لأصحابه وذلك لأمر :

أولاً : لأنها كانت في شدة الحر حين طابت الثمار والثفوس مجبولة على التّركون إلى الكسل وإلى الرخاء .
ثانياً : أن المدى بعيد من المدينة إلى تبوك ، ففيها مفاوز ورمال وعطش وشمس .

ثالثاً : أن العدو كبير وهم الروم اجتمعوا في عدد هائل حسب ما بلغ النبي ﷺ ، فلذلك أوضح أمر الغزوة وأخبر أنه خارج إلى تبوك إلى عدو كثير وإلى مكان بعيد حتى يتأهب الناس ، فخرج المسلمون مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف إلا من خذله الله بالتفاق ، وثلاثة رجال فقط هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ؓ ؛ هؤلاء من المؤمنين الخالص لكن تخلفوا لأمر أَرَادَهُ اللهُ ﷻ . أما غيرهم ممن تخلف فإنهم متافقون منغمسون في التفاق ، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام بأصحابه وهم كثير إلى جهة تبوك حتى نزل بها هناك ولكن الله لم يجمع بينه وبين عدوه بل بقي عشرين يوماً في ذلك المكان ثم انصرف على غير حرب .

يقول كعب بن مالك : « إن الرسول ﷺ تجهّز هو والمسلمون وخرجوا من المدينة » . أما هو ؓ فتأخر وجعل يغدو كل صباح يرحل راحلته ويقول : ألحق بهم . ولكنّه لا يفعل شيئاً . ثم يفعل كل يوم حتى تَمَادَى به الأمر ولم يدرك . وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا لم يُبادر بالعمل الصالح فإنه حَرِيٌّ أَنْ يُحْرَمَ إِيَّاهُ كما قال الله سبحانه : ﴿ وَتَقَلِّبْ آفَاتَهُمْ وَأَبْصِرْهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] . فالإنسان إذا علم الحق ولم يقبل عليه ولم يعمل به أول مرة ، فإن ذلك قد يَقُوتُهُ ويحرم إِيَّاهُ والعياذ بالله ، كما أن الإنسان إذا لم يصبر أول مرة فإنه يحرم أجراها لقول النبي عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى » (١) .

فعليك يا أخي أن تبادر بالأعمال الصالحة ولا تتأخر فتتأخر بك الأيام ثم تعجز وتكسل ويغلب عليك الشيطان والهوى فتأخر . هو ؓ كل يوم يقول : أخرج . ولكن تَمَادَى به الأمر ولم يخرج . يقول : فكان يَجِزُّ في نفسي أنه إذا خرج إلى سوق المدينة وإذا المدينة ليس فيها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا السابقين من المهاجرين والأنصار إلا رجل مغموس في التفاق والعياذ بالله - قد غمسه نفاقه فلم يخرج ، أو رَجُلٌ معذور عذره الله ﷻ فكان يَتَبَّعُ على نفسه كيف لا يبقى في المدينة إلا هؤلاء

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في الجنايز (١٢٨٣) ، ومسلم في الجنايز (١٥) ، وأحمد في مسنده (١٣٠/٣) .

وأقعد معهم . ورسول الله ﷺ لم يذكره ولم يسأل عنه حتى وَصَلَ إلى تبوك . فبينما هو جالس وأصحابه في تبوك سأل عنه ، قال رسول الله : « أين كعب بن مالك ؟ » فتكلم فيه رجل من بني سلمة وغمره ولكن دافع عنه معاذ بن جبل ؓ فسكت النبي ﷺ ولم يجب بشيء لا على الذي غمره ولا على الذي ردَّ عنه . فبينما هو كذلك إذ رأى رجلاً مبيضاً يابضاً يزول به السراب من بعيد . فقال النبي ﷺ : « كُنْ أبا خيثمة الأنصاري » فكان أبا خيثمة ، وهذا من فراسة النبي عليه الصلاة والسلام أو من قوة نظره . ولا شك أنه من أقوى الرجال نظراً وسَمْعاً ونطقاً وفي كل شيء . وأُعطي قوة ثلاثين رجلاً بالنسبة للنساء .

أبو خيثمة هذا هو الذي تصدق بصاع عندما حث النبي ﷺ على الصدقة ، فتصدق الناس كل بحسب حاله . فكان الرجل إذا جاء بالصدقة الكثيرة قال المنافقون : هذا وراء ما أكثر الصدقة ابتغاء وجه الله . وإذا جاء الرجل الفقير بالصدقة اليسيرة قالوا : إن الله غني عن صاع هذا .

انظر - والعياذ بالله - يَلْمُزُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ أي : إذا تصدقوا بما يستطيعون قالوا إن الله غني عن صاعك ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩] .

وهكذا المنافق شر على المسلمين ، فإن رأى أهل الخير لزمهم وإن رأى المقصرين لزمهم وهو أخبث عباد الله فهو في الدرك الأسفل من النار . المنافقون في زمننا هذا إذا رأوا أهل الخير وأهل الدعوة وأهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا : هؤلاء مترمّتون ، وهؤلاء متشدّدون ، وهؤلاء أصوليون ، وهؤلاء رجعيون ، وما أشبهه من الكلام .

فكل هذا مَوْرُوثٌ عن المنافقين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا . لا تقولوا : ليس عندنا مُنَافِقُونَ! بل عندنا منافقون ولهم علامات كثيرة !!

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه « مدارج السالكين » في الجزء الأول صفات كثيرة من صفات المنافقين كلها مبنية في كتاب الله ﷻ . فإذا رأيت رجلاً يَلْمِزُ المؤمنين من هنا ومن هنا فاعلم أنه مُنافِقٌ والعياذ بالله . فاستفدنا فائدتين عظيمتين :

الفائدة الأولى : أن الإنسان لا يَنْفِغِي له أن يتأخر عن فعل الخير ، بل لا بد أن يتقدم ولا يتهاون أو يتكاسل . وأذكر حديثاً قاله النبي عليه الصلاة والسلام في الذين يتقدمون إلى المسجد ولكن لا يتقدمون إلى الصف الأول بل يكونون في مؤخره . قال : « لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ ، حَتَّى يُؤَخَّرَهُمُ اللَّهُ » ^(١) . إذا عَوَّدَ الإنسان نفسه على التأخر ، أخره الله ﷻ فبادر بالأعمال الصالحة من حين أن يأتي طلبها من عند الله ﷻ .

الفائدة الثانية : أن المنافقين يلمزون المؤمنين كما سبق . وأبو خيثمة هو الذي تصدق بصاع فقال المنافقون : إن الله غني عن صاع هذا الرجل ولكنهم منافقون لا يؤمنون .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٠) ، وابن ماجه في سننه (٩٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣٤/٣) .

ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام : « أن الرجل يتصدق بعدل تمرة - أي بما يعادل تمرة - فيأخذها الله ﷻ فيريها له كما يري أحدكم قَلْوَه - أي مُهره : الحصان الصغير - حتى تكون مِثْلُ الجبلِ » ^(١) .
بل قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ يَشِقُّ ثَمَرَةٌ » ^(٢) . أي : نصف تمرة .
بل قال الله ﷻ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة : ٧، ٨] والله لا يُضِيع أجر المحسنين .

يقول ﷺ : « إنه لما بلغه أن النبي ﷺ رجع قافلاً من الغزو بدأ يفكر ويشاور ماذا يقول لرسول الله ﷺ إذا رجع » . يريد أن يتحدث بحديث وإن كان كذباً من أجل أن يعذره النبي ﷺ فيه ويجعل يُشاور ذوي الرأي من أهله ماذا يقول ، ولكن يقول ﷺ : فلما بَلَغَ النبي عليه الصلاة والسلام المدينة ، ذهب عنه كل ما جمعه من الباطل وعزم على أن يُبَيِّنَ الحق ، فقدم النبي ﷺ المدينة ودخل المسجد وكان من عادته وسنته أنه إذا قدم بلده فأول ما يفعل أن يصلي في المسجد - عليه الصلاة والسلام - . وهكذا أمر جابرًا ﷺ كما سأذكره إن شاء الله . فدخل المسجد وصَلَّى وجَلَسَ للناس فجاءه المخلفون الذين تخلفوا من غير عُذر من المنافقين وجعلوا يحلفون له إنهم معذرون فيبايعهم ويستغفر لهم ولكن ذلك لا يفيدهم والعياذ بالله ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] فيقول : أما أنا فعزمت أن أصدق النبي - عليه الصلاة والسلام - . فدخلت المسجد فسلمت عليه فتبسم تبسم الغضب - أي الذي غير راض عني - ثم قال : « تعال » فدنوت منه ، فلما دنوتُ منه قال لي : « ما خلفك ؟ » فقال ﷺ : يا رسول الله إني لم أتخلف لعذر وما جمعت راحلتين قبل غزوتي هذه وإني لو جلست عند أحد من ملوك الدنيا لخرجت منه بعذر فلقد أوتيت جدلاً ؛ أي : لو أنني جلست عند شخص من الملوك لعرفت كيف أتخلص منه لأن الله قد أعطاني جدلاً . ولكني لا أحدثك اليوم حديثاً ترضى به عني فيوشك أن يسخط الله عليّ في ذلك .

انظر إلى الإيمان ! فأخبر النبي ﷺ بالصدق فأجله . وفي هذا فوائد :

أولاً : أَنَّ اللَّهَ ﷻ قد يَمُنُّ على العبد فيعصمه من المعصية إذا علم من قلبه حُسن النية .
فإن كعباً لما هَمَّ أن يُزَوِّرَ على الرسول - عليه الصلاة والسلام - جلى الله ذلك عن قلبه وأزاله عن قلبه ، وعزم على أن يصدق النبي - عليه الصلاة والسلام - .
ثانياً : أن الإنسان إذا قَدِمَ بلده ، أن يَتَعَمَدَ إلى المسجد قبل أن يدخل إلى بيته فيصلّي فيه ركعتين ، لأن هذه سُنَّةُ الرسول عليه الصلاة والسلام القولية والفعلية .
أما الفعلية : فكما في حديث كعب بن مالك .

وأما القولية : فإن جابر بن عبد الله ﷺ حين باع على النبي ﷺ بَحْمَلَه في أثناء الطريق واستثنى

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٦٦٢) ، وأحمد في مسنده (٢٦٨/٢) بألفاظ مختلفة .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٧) ، ومسلم في الزكاة (٦٨) .

أن يركبه إلى المدينة وأعطاه النبي ﷺ شرطه فقدم جابر المدينة وقد قدم النبي ﷺ قبله فجاء إلى رسول الله فأمره أن يدخل المسجد ويصلي ركعتين . وما أظن أحداً من الناس اليوم إلا قليلاً يستعمل هذه السنة ، وهذا الجَهْلُ النَّاسُ بهذا وإلا فَهَذَا سَهْلٌ والحمد لله . وسواءً صليت في مَسْجِدِكَ الذي كنت تصلي فيه القريب من بيتك أو صليت في أدنى مَسْجِدٍ من مَسَاجِدِ الْبَلَدِ الذي أنت فيه .
ثالثاً : أن كعب بن مالك رَجُلٌ قَوِي الْحُجَّةِ فَصِيحٌ وَلَكِنْ لَتَقَوَاهُ وَخَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ اِمْتَنَعَ أَنْ يَكْذِبَ وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْحَقِّ .

رابعاً : أن الإنسان المَغْضَبُ قد يَتَبَسَّمُ ، فإذا قال قائل : كيف أعرف أن هذا تَبَسُّمٌ رَضَى أو تَبَسُّمٌ سَخَطٌ ؟ قلنا : إن هذا يعرف بالقرائن ، كَتَلَوْنَ الْوَجْهَ وَتَغَيَّرَهُ .
فالإنسان يعرف أن هذا الرجل تَبَسَّمَ رَضًا بِمَا صَنَعَ أَوْ سَخَطًا عَلَيْهِ .

خامساً : أنه يجوز للإنسان أن يُسَلِّمَ قَائِمًا عَلَى الْقَاعِدِ لِأَن كَعْبًا سَلِمَ وَهُوَ قَائِمٌ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « تَعَالَى » .

سادساً : أن الكلام عن قُورٍ أُبْلِغَ مِنَ الْكَلَامِ عَنْ بُعْدِ فَإِنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ الرُّسُولَ ﷺ أَنْ يَكْلِمَ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَلَوْ كَانَ بَعِيدًا عَنْهُ لَكِنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يَذْنُوبَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ هَذَا أُبْلِغَ فِي الْأَخْذِ وَالرَّدِّ وَالْمُعَاتَبَةِ ، فَلِهَذَا قَالَ لَهُ الرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « اذْنُ » .

سابعاً : ومنها كمال يقين كعب بن مالك ؓ حيث إنه قال : إنني أستطيع أن أخرج بعذرٍ من الرسول ، ولكن لا يمكن أن أخرج منه بعذرٍ يعذرني فيه اليوم ثم يغضب الله عليّ فيه غداً .
ثامناً : إن الله يعلم الشر وأخفى ، فإن كعباً خاف أن يسمع الله محاورته للرسول عليه الصلاة والسلام فينزل الله فيه قرآناً ، كما أنزل في قصة المرأة المجادلة التي جاءت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تشكو زوجها حين ظاهر منها فأنزل الله فيها آية من القرآن ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] .

يقول كعب إنه أتى إلى الرسول ﷺ وصدقه القول وأخبره أنه لا عذر له لا في بدنه ولا في مثاله بل إنه لم يجمع راحلتين في غزوة قبل هذه . فقال النبي ﷺ : « أَمَا هَذَا فَقَدْ صَدَّقَ » - وَيَكْفِي لَهُ فَخْرًا أَنْ وَصَفَهُ الرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالصُّدُقِ - فَاذْهَبْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ مَا شَاءَ فَذَهَبَ الرَّجُلُ مُسْتَسْلِمًا لِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . فَلَحِيقَةُ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ وَجَعَلُوا يَزِينُونَ لَهُ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ إِقْرَارِهِ وَقَالُوا لَهُ : إِنَّكَ لَمْ تَذْنِبْ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ؛ يَعْنِي : مَا تَخَلَّفْتَ بِهِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَكْفِيكَ أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِذَا اسْتَغْفَرَ لَكَ الرُّسُولُ ﷺ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ . فَارْجِعْ كَذَّبَ نَفْسَكَ قُل : إِنِّي مَعْذُورٌ حَتَّى يَسْتَغْفَرَ لَكَ الرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَمُنَ اسْتَغْفَرَ لَهُمْ مَنْ جَاوَزُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ فَهُمْ أَنْ يَفْعَلَ ﷻ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَنْقَذَهُ وَكُتِبَ لَهُ هَذِهِ الْمُتَّقَبَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تُثَلَّى فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ . . فَسَأَلْ قَوْمَهُ : هَلْ أَحَدٌ صَنَعَ مِثْلًا صَنَعْتُ ؟

قالوا : نعم هلال بن أمية ومُرارة بن الربيع قالا مثلما قلت وقيل لهما مثلما قيل لك . يقول : « فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرًا لي فيهما أسوة » . أحيانًا يُقْبِضُ اللَّهُ للإنسان ما يجعله يَدْعُ الشر اقتداءً بغيره وتأسيًا به . فهو ﷺ لما ذُكِرَ له هذان الرجلان وهما من خيار عباد الله من الذين شهدوا بدرًا . فقال : « لي فيهما أسوة فَغَضِيْتُ » أي : لم يرجع إلى النبي عليه الصلاة والسلام . فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام الناس أن يهجرهم فلا يُكَلِّمُوهم . فهجرهم المسلمون ولكنهم بعد ذلك صاروا يمشون وكأنهم بلا عقول قد ذهلوا ، وتنكرت لهم الأرض فما هي بالأرض التي كانوا يَغْرِفُونَهَا ؛ لأنهم يَمْشُونَ إن سَلِمُوا لا يُرَدُّ عليهم السَّلام وإن قابلهم أحد لم يبدأهم بالسَّلام ، وحتى النبي عليه الصلاة والسلام أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقًا لا يُسَلِّمُ عليهم السَّلام العادي . يقول كعب : كنت أحضر وأسلم على النبي فلا أدري أحرك شفتيه برُدِّ السَّلام أم لا ؟ .

هذا هو النبي عليه الصلاة والسلام ، وما ظَنُّكَ برجل يُهْجَرُ في هذا المجتمع الإسلامي الذي هو خير القرون حتى تضيق عليه الأرض ، وفعلًا ضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه وبقوا على هذه الحال مدة خمسين يومًا أي : شهرًا كاملاً وعشرين يومًا . والناس قد هجروهم فلا يُسَلِّمون عليهم ولا يردون السَّلام إذا سلموا ، وكأنهم في الناس إِبِلٌ جرب لا يُقَرِّبهم أحد . فضاقت عليهم الأمور وصعبت عليهم الأحوال وفروا إلى الله ﷻ ولكن مع ذلك لم يكن كعب بن مالك يَدْعُ الصَّلَاةَ مع الجماعة . فكان يحضر ويسلم على النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن في آخر الأمور ربما يتخلف عن الصلوات لما يجد في نفسه من الضيق والحرج ؛ لأنه يخجل أن يأتي إلى قوم يصلي معهم وهم لا يكلمونه أبدًا لا بكلمة طيبة ولا بكلمة تأنيب . فضاقت عليهم الأرض وبقوا على هذه الحالة خمسين ليلة تامة ولما تَمَّتْ لهم أربعون ليلة أُرْسِلَ إليهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يَغْتَرِلُوا نِسَاءَهُمْ . إلى هذا الحد ! . وما ظَنُّكَ بكعب بن مالك وهو شاب يُنْزَلُ عن امرأته .. أمرٌ عظيم .

ولكن مع ذلك لما جاءهم رسول الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : « إن النبي ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تعتزل امرأتك » . قال : أطلقها أم لا ؟

لأنه لو قال له : أطلقها . أطلقها بكل سهولة طاعةً لله ورسوله ، فقال له رسول الرسول : إنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام يَأْمُرُكَ أَنْ تعتزل أهلك ، وبقي على ظاهر اللفظ .

حتى الصحابي الذي أُرْسِلَ ما حَرَّفَ النَّصَّ لا مَعْنَى ولا لَفْظًا قال هكذا قال : ولا أدري . وهذا من أدب الصحابة ﷺ ، ما قال أَظُنُّ أنه يُريد أن تُطَلَّقَها ولا أَظُنُّ أنه يريد أن لا تُطَلَّقَها ! ما قال شيئًا بل قال : إن النبي ﷺ قال هذا . فقال كعب لزوجته : الحقي بأهلك ، فلحقت بأهلها وسيأتي . يقول ﷺ : « فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَنَّا فِي بَيْتِهِمَا يَكِيَان » لأنهما لا يستطيعان أن يمشيا في الأسواق والناس قد هجروهم لا يلتفت إليهم أحد ، فعجزوا عن تحمُّل هذه الحال فبقيا في بيوتهما يكيان . يقول : « وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشْبَ الْقَوْمِ وَأَجْلَدُهُمْ » أَشْبَهُهُمْ : أقواهم وأجْلَدُهُمْ : أصبرهم . لأنه أصغر

منهم سينا فكان يشهد الجماعة مع المسلمين ويطوف بأسواق المدينة لا يكلمه أحد .

يقول : « وكنت آتي المسجد فأصلي وأسلم على النبي ﷺ وهو جالس للناس بعد الصلاة فأقول : « هل حرك شفتيه بَرْدُ السَّلام أم لا » . أي : ما يرد عليه ردًّا يُشْمَعُ ، هذا مع أن النبي ﷺ أحسن الناس خُلُقًا ولكن امتثالًا لما أوحى الله إليه أن يهجر هؤلاء القوم هَجْرَهُمْ .

ويقول : كنت أصلي وأسارق النبي ﷺ النَّظَرُ أي : انظر إليه أحيانًا وأنا أصلي فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ وإذا التفَّتُ إليه أغرَضَ عني . كل هذا من شِدَّةِ الهجر . يقول : « فبينما أنا أمشي ذات يوم في أسواق المدينة وطال عليَّ جفوة الناس تَسَوَّرْتُ حَائِطًا لَأَيِّ قَتَادَةِ ﷺ » أي : دخله من فوق الجدار من دون الباب ، وكأنَّ الباب مُعْلَقٌ والعلم عند الله .

يقول : « فسَلَّمْتُ عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السَّلام » وهو ابن عمه وأحب الناس إليه ومع ذلك لم يرد عليه السَّلام . مع أن الرجل كان معجفًا من الناس مَثْبُودًا لا يُكَلِّم ولا يُسَلِّم عليه ولا يُرَدُّ عليه السَّلام ومع ذلك لم يَغْطِف عليه ابن عمه أبو قتادة .

كل هذا طاعة لله ورُسُوله ؛ لأن الصحابة ﷺ لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يُحَابُونَ أَحَدًا في دين الله ولو كان من أَحَبِّ الناس إليهم فقلت له : أنشدك الله هل تعلم أنني أحب الله ورسوله ؟ فلم يرد عليه . فقلت : أنشدك الله هل تعلم أنني أحب الله ورسوله ؟ فلم يرد عليه . مرتين يُتَاشَدُه ، وأبو قتادة يدري أنَّ كعب بن مالك يحب الله ورسوله . فلما رد عليه الثالثة وقال : أنشدك الله هل تعلم أنني أحب الله ورسوله ؟ فقال : الله ورسوله أعلم .

لم يُكَلِّمهُ ، فلم يقل : نعم ! ولا قال : لا . قال كلمة لا تعد خطايا . يقول ففاضت عيناها (أي بكى) أنَّ رَجُلًا - ابن عمه - أحبَّ الناس إليه لا يُكَلِّمهُ مع هذه المناشدة العظيمة . مع أنها مسألة تعبدية ، لأنَّ قوله أنشدك الله هل تعلم أنني أحب الله ورسوله ؟ شهادة ومع ذلك لم يشهد له مع أنه يعلم أنه يُحِبُّ الله ورسوله . وتسور البستان : أي خرج إلى الشوق ، فبينما هو يمشي إذا برجل نَبْطِي من أنباط الشام - والنبطي الذي ليس بعربي ولا بعجمي وسموا بذلك ؛ لأنهم كانوا يخرجون في البراري يستنبطون الماء - يقول : من يدلُّني على كعب بن مالك ! أهل الشر ينتهزون الفُرَصَ ! فعندما قال : من يدلني على كعب ابن مالك ؟ قلت : أنا هو ، فأعطاني الورقة ، وكنت كاتبًا لأنَّ الكُتَّاب في ذلك العهد قليلون جدًّا .

يقول : « فقرأت الكتاب فإذا فيه : أمَّا بعد فقد بلغنا أن صاحبك جفاك - أي الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا الملك ملك غسان كافرًا - وإنَّك لست بدار هوان ولا مَضِيعة - أي لا تبقى في الدار في دُل وضياع وهوان ففعال إلينا - الحق بنا نؤاسيك » أي : تعال إلينا نؤاسك بأموالنا وربما نؤاسك بملكنا . ولكن الرجل رَجُلٌ مؤمن بالله ورسوله ومحِبُّ لله ورسوله ، قال : وهذه من البلاء أي الامتحان وصدق ﷺ ، رجل معفو لا يُكَلِّمُ مهجور منبوذ حتى من أقرب الناس إليه ، لو كان في قلبه ضعف إيمان لاتهز الفرصة بدعوة هذا الملك وذهب إليه . ثم ذهب إلى الثَّوَر فسَجَرَه فيه : أي أوقدَها . وإنما أوقدها في

التَّوَرُّ ولم يجعلها معه لثلاً تُوسوس له نفسه بعد ذلك أَنْ يَذْهَبَ إِلَى هذا الملك . فَأَتْلَفَهَا لَكِي يَأْسَ مِنْهَا وَلَا يُحَاوِلُ أَنْ يجعلها حجة يذهب بها إِلَى هذا الملك . ثم بقي على ذلك مُدَّة ، ففي هذه القطعة من الحديث : دليل على جواز التخلُّف عن الجماعة إذا كان الإنسان مهجوراً منبذاً وعجزت نفسه أَنْ تتحمل هذا كما فعل صاحبها كعب . لأنَّه لا شك أَنَّهُ من الضيق والخرج أَنْ يَأْتِيَ الإنسان إِلَى المسجد مع الجماعة لَا يسلم عليه وَلَا يُرَدُّ سلامه وَمَهْجُورٌ وَمَتَّبُودٌ ، هذا تَضْيِيقٌ به نفسه ذَرْعاً ، وهذا عذر كما قاله العلماء . ومن فوائده : شدة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ ودليل ذلك ما جَرَى لأبي قتادة مع كعب . ومن فوائده : أَنَّهُ يجب التَّحرُّز من أصحاب الشر وأهل الشر الذين ينتهزون الضَّعف في الإنسان والفُرْص في إضاعته وهَلَاكه فَإِنْ هذا الملك انتَهز الفرصة في كعب يدعوه إِلَى الضلال لعلَّه يرجع عن دينه إِلَى دين هذا الملك بسبب حال كعب .

ومن فوائده : قُوَّة كعب بن مالك في دين الله وَأَنَّهُ من المؤمنين الخُلص وليس ممن قال الله فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ١٠] من الناس من يقول : آمنا بالله . ولكن إيمانه ضعيف ، إذا أُوذِيَ في الله ارتدَّ - والعياذُ بالله - وفسق وترك الطاعة . كعب بن مالك أُوذِيَ في الله إِيذَاءً أَيْمًا إِيذَاءً لكنه صَبَرَ واحتسب وانتظر الفرج ؛ ففرج الله له تفريجاً لم يكن لأحد غيره وصاحبيه ، أنزل الله فيهم - ثناء عليهم - آيات تُتلى إِلَى يوم القيامة . نحن نقرأ قَصَّتْهُمْ فِي الْقُرْآنِ فِي صَلَاتِنَا! هذا فضل عظيم .

ومن فوائد الحديث : أَنَّهُ ينبغي للإنسان إذا رأى فِتْنَةً أَوْ خَوْفَ فِتْنَةٍ أَنْ يَتْلَفَ هذا الذي يكون سَبَباً لِفِتْنَتِهِ . فَإِنْ كَعْبًا لِمَا خَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ تَمِيلَ - فيما بعد - إِلَى هذا الملك ويتخذ هذه الورقة وَثِيقَةً حَرَقَهَا ﷺ . ومنه أَيْضًا : ما جَرَى لسليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَام حينما عُرِضَتْ عَلَيْهِ الخيل الصَّافِنَات الجياد في وقت العصر فغفل فيما عُرِضَ عَلَيْهِ عن الصلاة حتى غابت الشمس ، فلما غابت الشمس وهو لم يصل العصر دعا بها فجعل يَضْرِبُ أعناقها وسُوقَهَا انتقاماً من نفسه لنفسه .

لأنَّه انتقم من نفسه التي لَهَتْ بهذه الصَّافِنَات الجياد عن ذكر الله ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿ [ص : ٣٢، ٣٣] فإلهم أَنْك إِذَا رَأَيْتَ شَيْئًا مِنْ مَالِكَ يَصُدُّكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَأَبْعِدْهُ عَنْكَ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ تَكُونُ حَتَّى لَا يَكُونَ ، سَبَباً لِلْإِهْلَاكِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . فَإِنْ الذي يُلْهِمِي عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ خَسَارَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المناقرن : ٩] .

* * *

يقول ﷺ : « فلما تمت لنا أربعون ليلة » أي شهر وعشرة أيام . وكان الوحي قد استلبت - أي لم ينزل كل هذه المدة - وهذا من حكمة الله ﷻ في الأمور الكبيرة العظيمة يَسْتَلْبِثُ الوحي كما في هذه القصة وكما في قصة الإفك حين انقطع الوحي عن رسول الله ﷺ .

وهذا لحكمة الله ﷻ حتى يَشْؤف الناس إلى الوحي ويتشوقوا إليه ؛ ماذا سينزل رب العالمين ﷻ ؟ .
 بقي الوحي أربعين ليلة ما نزل فلما تمت أربعون ليلة أرسل الرسول ﷺ إلى كعب وصاحبيه أن
 يعتزلوا نساءهم وقد سبق . وجاءت زوجة هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بأنه في حاجة
 إليها لِتُخدمه لأنه ليس له خادم ، فأذن لها النبي ﷺ بشرط أن لا يقربها ، فقالت : إنه ليس له في هذا
 الأمر من شيء يعني أنه ليس له شهوة في النساء ، وإنه ما زال ييكى ﷻ منذ أمر النبي ﷺ بهجرهم
 إلى يومه هذا . لأنه ما يدري ماذا تكون النهاية ؟

يقول ﷻ : « فلما مَضَى عشر ليال بعد هذا ، وكنت ذات يوم أصلي الصبح على سطح بيت من
 يوثنا » لأنه كما مر كانوا ﷻ قد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم .
 يقول : « فسمعت صَارخًا يقول وهو على سلح - وهو جبل معروف في المدينة - وصاح بأعلى صوته
 يقول : يا كعب بن مالك أبشر » . يقول : فعلمت أن الله قد أنزل في فَرْجِي ، وركب فارس من المسجد
 يؤم بيت كعب بن مالك يُبشره . وذهب مشرون إلى هلال بن أمية ومرارة بن الربيع يَشْرُونهما بتوبة الله
 عليهما . انظر إلى فرح المسلمين بعضهم مع بعض ، كل يَشْعِي ويركض من جهة . يقول : فجاء الصارخ
 وجاء صاحب الفرس فكانت البُشرى للصارخ لأن الصوت أسرع من الفرس ، يقول : فأعطيته ثوبي الإزار
 والرداء ، وليس يملك غيرهما لكن استعار من أهله أو جيرانه ثوبين فلبسهما وأعطى ثوبيه هذا الذي بَشْره .
 أعطاه كُلُّ ما يملك ، لكنها - والله - بَشْرى عظيمة أن ينزل الله توبتهم ويُمْنُ عليهم بالتوبة .

ثم نزل مُتَوَجِّهاً إلى رسول الله ﷺ في المسجد وإذا رسول الله ﷺ - جزاه الله عن أمته خيراً -
 قد بَشَّرَ الناس بعد صلاة الصبح بأن الله أنزل توبته على هؤلاء الثلاثة . لأنه يُحب من أصحابه وأمه
 إلى أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله .

يقول : « فذهبت أتاُمُّ الرسول فجعل الناس يلاقونني أفواجا » أي : جماعات يهتفون بتوبة الله عليه .
 هؤلاء القوم يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ، فلم يَخْشِدوهم على ما أنعم الله به عليهم من
 إنزال القرآن العظيم بتوبتهم بل جعلوا يُهتفونهم حتى دخل المسجد . وفي هذا فوائد :
 أولاً : شِدَّة هجر النبي عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الثلاثة حتى إنه أمرهم أن يعتزلوا نساءهم
 والتفريق بين الرجل وامرأته أمرٌ عظيم .

ثانياً : وفيه أن قول الرجل لامرأته : الحقى بأهلك ليس بطلاق ؛ لأن كعباً فرق بين قوله : الحقى
 بأهلك وبين الطلاق ، فإذا قال الرجل لامرأته : الحقى بأهلك ولم ينو الطلاق فليس بطلاق . أما إذا
 نوى الطلاق فإن النبي ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .. » الحديث . فإذا
 نوى بهذه الكلمة وأمثالها الطلاق فله ما نوى .

ثالثاً : شدة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ لأنه ﷻ ما تردّد ولا قال لعليّ أراجع الرسول عليه
 الصلاة والسلام . أو قال للرسول الذي أرسله النبي ﷺ : ارجع إليه لعله يَشْمَح ، بل وافق بكل شيء .

رابعًا : أَنَّ النبي ﷺ كان رحيماً بأُمَّته فإنه بعد أن أمر باعتزال النساء لهم ، رَخَّصَ لَهْلَالِ بْنِ أُمِيَّةٍ لأنه يحتاج لخدمة امرأته .

خامسًا : جواز حكاية الحال عند الاستفتاء أو الشهادة أو ما أشبه ذلك ، وإن كان المحكي عنه قد لا يحب أن يطلع عليه الناس ؛ لأنَّ امرأة هلال بن أمية ذكرت من خالِه أنه ليس له حاجة إلى شيء من النساء .

سادسًا : أن الإنسان إذا حصلَ له مثل هذه الحال وهجره الناس وصار يتأذى من مُشاهدتهم ولا يتحمل فإنه له أن يتخلَّف عن صلاة الجماعة ، وإنَّ هذا عذر ، لأنه لو جاء إلى المسجد في هذه الحال سوف يكون مُتَشَوِّشًا غير مطمئن في صلاته ، ولهذا صَلَّى كعب بن مالك صلاة الفجر على ظهر بيت من بيوته وسبق لنا ذكر هذه الفائدة .

سابعًا : جِزْءُ الصحابة على التَّسَابُقِ إِلَى الْبُشْرَى لِأَنَّ الْبُشْرَى فِيهَا إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُسْلِمِ . وإدخال السرور على المسلم بما يقرب إلى الله ﷻ لأنه إحسان والله سبحانه يحب المحسنين ولا يُضِيعُ أجرهم . فلذلك ينبغي لك إذا رأيت من أخيك شيئًا يَشْرُهُ كأن يكون خبرًا سارًا أو رؤيا سارة أو ما أشبه ذلك أن تُبَشِّرَهُ بذلك لأنك تُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَيْهِ .

ثامنًا : أنه ينبغي مكافأة من بَشَّرَكَ بهدية تكون مناسبة للحال لأنَّ كعب بن مالك أعطى الذي بَشَّرَهُ ثَوْبِيَّةً وهذا نظير ما صنع به الخبر عن عبد الله بن عباس ؓ وكان يأمر النَّاسَ إِذَا حُجُّوا أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ، وكان عمر بن الخطاب ؓ ينهى عن التُّعَةِ لِأَنَّهُ يَحِبُّ أَنْ يَعْتَمِرَ النَّاسُ فِي وَقْتٍ وَأَنْ يَحْجُوا فِي وَقْتٍ حَتَّى يَكُونَ الْبَيْتُ دَائِمًا مَعْمُورًا بِالزُّوَّارِ ، فعل هذا اجتهدًا منه ﷺ وهو من الاجتهاد المغفور وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام أولى .

المهم : أن رجلًا استفتى عبد الله بن عباس في هذه المسألة فأمره أن يتمتَّع وأن يُحْرَمَ بِالْعِمْرَةِ وَيُحِلَّ مِنْهَا . فرأى هذا الرجل في المنام شخصًا يقول له : حَجَّ مَبْرُورٌ وَعِمْرَةٌ مُتَقَبِّلَةٌ ، فأخبر بذلك عبد الله بن عباس الذي أفناه ، ففرح بذلك ابن عباس وأمره أن يَتَّقَى حَتَّى يَعْطِيَهُ مِنْ عَطَائِهِ - أي : يُعْطِيَهُ هَدِيَّةً عَلَى مَا بَشَّرَهُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ مَا أَفْنَاهُ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ .

والمهم أن من بَشَّرَكَ بشيء فأقل الأحوال أن تدعوله بالبخشارة أو تهدي له ما تيسر وكل إنسان بقدر حاله .

* * *

يقول ﷺ : « حَتَّى دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ وَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَحَوْلَهُ أَصْحَابُهُ فَقَامَ » - إِلَى كَعْبٍ - « طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ؓ » فَصَافَحَهُ وَهَنَاهُ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ .

يقول : وَاللَّهُ مَا قَامَ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ غَيْرَ طَلْحَةَ فَكَانَ لَا يَتَسَاهَا لَهُ حَيْثُ قَامَ وَلَا قَاهُ وَصَافَحَهُ وَهَنَاهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِذَا وَجْهُهُ تَبَرَّقَ أَتَارِيهِ ، لِأَنَّهُ ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَرَّهُ أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَخْبَرُوا بِالصُّدُقِ عَنْ إِيْمَانٍ ، وَحَصَلَ عَلَيْهِمْ مَا جَرَى مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ مِنْ هَجْرِ النَّاسِ لَهُمْ خَمْسِينَ يَوْمًا ، حَتَّى نَسَاهُمْ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ أَمَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ

يعتزلوهن . ثم قال له النبي ﷺ : « أنبئ بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » . وصدق النبي ﷺ ، لأنّ الله أنزل توبته وتوبة صاحبيه في قرآن يتلى تكلم به ربّ العالمين ﷻ وأنزله على محمد ﷺ محفوظاً بواسطة جبريل ومحموطاً إلى يوم القيامة . ولا يوجد أحد سوى الأنبياء أو من ذكرهم الله في القرآن حفظت قصته كما حفظت قصة كعب ابن مالك وصاحبيه . بقيت هذه القصة تتلى في كتاب الله في المحارب وعلي المنابر وفي كل مكان ومن قرأ هذه القصة فله بكل حرف عشر حسنات . « فقلت : أئمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله ﷻ » لأنه إذا كان من عند الله كان أشرف وأفضل وأعظم . فقال كعب : « إن من توبيتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله » . أي يتخلّى عنه ويجعله صدقة إلى الله ورسوله شأنه وتدييره . فقال النبي ﷺ : « أمسيك عليك بعض مالك فهو خير لك » . فأمسكه ﷺ . ففي هذه القطعة من الحديث فوائد :

أولاً : فيها دليل على أن من السنة إذا أتى الإنسان ما يسره أن يهنا به ويشر به سواء كان خير دين أو خير دنيا . ولهذا بشرت الملائكة إبراهيم ﷺ بسلام حليم وبغلام عليم . الغلام الحليم : إسماعيل ، والغلام العليم : إسحاق .

ثانياً : إنّه لا بأس بالقيام إلى الرجل لمصافحته وتهنئته بما يسره . والقيام إلى الرجل لا بأس به قد جاءت به السنة وكذلك القيام للرجل وأنت باقي في مكانك لا تتحرك إليه فهذا أيضاً لا بأس به إذا اعتاده الناس ، لأنه لم يرد النهي عنه ؛ وإنما النهي والتحذير من الذي يقام له لا من القائم ، فإن من يقام له قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام : « من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار » (١) . قال أهل العلم والقيام ثلاثة أقسام :

الأول : قيام إلى الرجل . الثاني : قيام للرجل . والثالث : قيام على الرجل .

فالقيام إلى الرجل : لا بأس به وقد جاءت به السنة أمراً وإقراراً وفعلًا .

أما الأول : فإن النبي ﷺ لما أقبل سعد بن معاذ ﷺ عند تحكيمه في بني قريظة قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « قوموا إلى سيّدكم » (٢) وكان سعد بن معاذ ﷺ قد أصيب في غزوة الأحزاب في أكحله - وهو عرق في اليد إذا انفجر مات الإنسان - فدعا الله أن لا يمينه حتى يقرّ عينه في بني قريظة ، وكانوا حلفاء للأوس ، وخانوا عهد النبي - عليه الصلاة والسلام - وصاروا مع الأحزاب على رسول الله ﷺ . فلما طعن سعد قال : اللهم لاثمتني حتى تقرّ عيني في بني قريظة ، وكان من علو منزلته عند رسول الله ﷺ أن أمر النبي ﷺ أن يضرب له خباء في المسجد - أي خيمة صغيرة - لأجل أن يعود من قريب ، فكان يعود من قريب .

ولما حصلت غزوة بني قريظة ورؤوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ، أمر النبي ﷺ أن يحضر سعد

(١) أخرجه الطبراني واللفظ له في المعجم الكبير (٣٥٢/١٩) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٤٠/٨) .

(٢) أخرجه مسلم واللفظ له في الجهاد (٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢٣/٣) .

إلى بني قريظة فجاء راكباً على حِمَار ، لأنه قد أنهكه الجرح . فلما أقبل قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ » فقاموا فَأَنْزَلُوهُ فَقَالَ الرَّسُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَهُ : « إِنَّ الْيَهُودَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ حَكَمُوكَ » . فقال ﷺ حُكْمِي نَافِذٌ فِيهِمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! وَأَقْرَأُوا بِهِ وَقَالُوا : نَعَمْ حُكْمُكَ نَافِذٌ . قَالَ : وَفِيمَنْ هَا هُنَا - يُشِيرُ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالصَّحَابَةُ - قَالُوا : نَعَمْ . فَقَالَ : أَخْكُمْ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مَقَاتِلَتُهُمْ وَتُشْبَى ذَرِيَّتُهُمْ وَنِسَاءُهُمْ وَتَغْنَمَ أَمْوَالُهُمْ . حُكْمٌ صَارِمٌ !! قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ - الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : « حَكَمْتُ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَمَوَاتِهِ » . فَتَقَدَّ النَّبِيُّ ﷺ حَكَمَهُ وَقَتَلَ مِنْهُمْ سَبْعِمِائَةَ رَجُلٍ وَسَبَى نِسَاءَهُمْ وَذَرِيَّتَهُمْ وَغَنِمَ أَمْوَالَهُمْ . الشَّاهِدُ قَوْلُهُ : « قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ » هَذَا فِعْلٌ أَمْرٌ وَلَمَّا دَخَلَ كَعْبُ الْمَسْجِدِ قَامَ إِلَيْهِ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ وَالنَّبِيُّ ﷺ يُشَاهِدُ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ .

وَلَمَّا قَدِمَ وَفُتِدُ ثَقِيفٍ إِلَى الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِالْجِعْرَانَةِ قَبْلَ الْغَزْوَةِ قَامَ لَهُمْ - أَوْ قَامَ إِلَيْهِمْ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

الثاني : القيام للرجل : وهذا لا بأس به لاسيما إذا اعتاد الناس ذلك وصار الداخر إذا لم تُقَمْ له يعد ذلك امتنهماً له فإن ذلك لا بأس به ، وإن كان الأولى تركه كما في السنة ، لكن إذا اعتاده فلا خرج فيه . الثالث : القيام عليه : كأن يكون جالساً ويقوم واحد على رأسه تعظيماً له فهذا منهي عنه .

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ ، يُعْظَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » . حتى إنَّه في الصَّلَاةِ إذا صار الإمام لا يستطيع القيام وصلى جالساً فإن المأمومين يُصَلُّونَ مُجْلُوسًا وَلَوْ كَانُوا يُقْدِرُونَ عَلَى الْقِيَامِ لَمَّا يَشْبَهُوا الْأَعَاجِمَ الَّذِينَ يَقُومُونَ عَلَى مَلُوكِهِمْ .

فالقيام على الرجل منهي عنه - اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ لِذَلِكَ - ، كَأَنْ يَخَافُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَتَعَدَّى عَلَيْهِ أَحَدٌ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ الْقَائِمُ ، وَكَذَلِكَ إِذَا قَامَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ إِكْرَامًا لَهُ فِي حَالٍ يَقْصِدُ فِيهِ إِكْرَامَهُ وَإِهَانَةَ الْقَدْوِ ، مِثْلُ مَا حَصَلَ مِنَ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صَلْحِ الْحَدِيدِيَّةِ حِينَمَا كَانَتْ قَرِيشُ تُرَايِلُ النَّبِيَّ ﷺ لِلْمُفَاوَضَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ .

كان المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واقفاً على رأس رسول الله ﷺ وبِيدِهِ السَّيْفِ تعظيماً لرسول الله ﷺ وإِهَانَةً لِلرُّشَلِ الْكَفَّارِ الَّذِينَ يَأْتُونَ لِلْمُفَاوَضَةِ .

وفي هذا : دليل على أَنَّهُ ينبغي لنا - نحن المسلمين - أَنْ نَغِيظَ الْكَفَّارَ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ لِأَنَّ هَكَذَا أَمَرْنَا ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ ﴾ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَطْشُونَ مَوْجِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ [التوبة : ٢٥] . وَمِنَ الْمَوْسُفِ أَنْ مَنْ مِنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِمُ السُّرُورُ وَالْفَرَحُ وَرَبَّمَا يَشَارِكُهُمْ فِي أَعْيَادِهِمْ - وَالْعِيَادِ بِاللَّهِ - الْكُفْرِيَّةِ الَّتِي لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ ، بَلْ يَسْخَطُ عَلَيْهَا وَالَّتِي يَخْشَى أَنْ يَنْزِلَ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِهَذِهِ الْأَعْيَادِ . يَوْجِدُ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا قَدْرَ

للدِّين عنده كما قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة .

أدخل عليهم ما يحزنهم ويُغيظهم ويدخل عليهم أشد ما يكون من الضيق ، هكذا أمرنا لأنهم أعداء لله ولدينه وللملائكة والتبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

المهم : أن المغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ ويده السيف تعظيماً له حتى أنه في أثناء تلك المراسلة فعل الصحابة شيئاً لا يفعلونه في العادة .

كان - عليه الصلاة والسلام - إذا تنزع تلقوا نُخَامَتَهُ بأيديهم ثم يمسحون بها وجوههم وصدورهم ، مع أنهم ما كانوا يفعلون هذا لكن لأجل إذا ذهب رسول الكفار إلى الكفار بين لهم حال الصحابة مع نبيهم عليه الصلاة والسلام .

ولذلك لما رجع الرسول إلى قريش قال : والله لقد دخلت على الملوك وكشروا وقيصر والنجاشي فلم أر أحداً يُعْظِمُهُ أصحابه مثلما يعظم أصحاب محمد ﷺ ، وأرضاهم وجزاهم الله عنا خيراً .
المهم أن القيام على الرجل إذا كان المقصود به حفظ الرجل أو كان المقصود به إغاظة العدو فإن هذا لا بأس به .

ثالثاً : أن من أنعم الله عليه بنعمة فإن من الشنة أن يتصدق بشيء من ماله فإن النبي ﷺ أقر كعب ابن مالك على أن يتصدق بشيء من ماله توبة إلى الله ﷻ لما حصل له من هذا الأمر العظيم الذي كان فخراً له إلى يوم القيامة .
ذكر كعب بن مالك أن من توبته : أن لا يحدث بحديث كذب بعد إذ نجاه الله تعالى بالصدق ، وما زال كذلك ما حدث بحديث كذب أبداً بعد أن تاب الله عليه ، فكان ﷺ مضرب المثل في الصدق حتى إن الله أنزل فيه وفي صاحبيه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] أنزل الله تعالى الآيات في بيان ميثه عليهم بالثوبة من قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٧] ففي هذه الآية أكد الله توبته على النبي والمهاجرين والأنصار ، أكدها بقوله ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

فأما النبي فهو محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .
وأما المهاجرون فهم الذين هاجروا من بلادهم من مكة إلى المدينة هاجروا إلى الله ورسوله فجمعوا في ذلك بين الهجرة ومفارقة الوطن ومفارقة الديار وبين نُصْرَةِ النبي ﷺ . لأنهم إنما هاجروا إلى الله ورسوله .
أما الأنصار فهم الذين تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أهل المدينة ﷺ الذين آووا النبي ﷺ ونصروه وَمَنْعُوهُ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . وقدم الله المهاجرين لأنهم أفضل من الأنصار لجمعهم بين الهجرة والنصرة . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] . وذلك في الخروج معه إلى غزوة تبوك إلى بلاد بعيدة والناس في أشد ما يكونون في الحر ، والناس في أطيب ما يكونون لو بقوا في ديارهم لأن الوقت وقت قيظ والوقت وقت طيب الثمار وحسن الظلال ، ولكنهم ﷺ خرجوا في هذه السَّاعَةِ الْحَرِجَةِ في ساعة الغشيرة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٧] . فإن بعضهم

كاد يتخلف بدون عذر فيزيغ قلبه ولكن الله ﷻ من عليهم بالاستقامة حتى خرجوا مع النبي ﷺ . وقوله : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٧] أكد ذلك مرة أخرى ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهْؤُفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] شملهم بالرفقة والرحمة والرفقة أرق من الرحمة ، لأنها رحمة ألطف وأعظم من الرحمة العامة . ثم قال : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] . والثلاثة هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية وخلفوا أي خلف البث في أمرهم وليس المراد تخلّفوا عن الغزوة ، بل خلفهم الرسول عليه الصلاة والسلام لكي ينظر في أمرهم ماذا يكون حكم الله تعالى فيهم ؟ وقوله : ﴿حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨] صافت عليهم الأرض مع سعتها ، والرحب - الشعة . حتى قال كعب بن مالك : «لقد تنكرت لي الأرض حتى قلت لا أدري هل أنا في المدينة أو غيرها» من شدة الضيق عليهم . ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨] نفس الإنسان صافت عليه فهي لا تتحمل أن تبقى ، ولكنهم صبروا حتى فرّج الله عنهم .

وقوله : ﴿وَعَلَوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] . الظن هنا بمعنى اليقين ، أي أيقنوا أن لا ملجأ من الله . أي : أنه لا أحد ينفعهم ولا ملجأ من الله إلا إلى الله ، فالله بيده كل شيء ﷻ . وقوله : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُظْهِرُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] . تاب عليهم لينالوا مراتب التوبة التي لا ينالها إلا أحباب الله كما قال الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] . أمّا أولئك الذين اعتذروا من المنافقين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام واستغفروا لهم ، ووكّل سرائرهم إلى الله فإن الله أنزل فيهم شر ما أنزل في بشر .

فقال : ﴿سَيَلْفُوتُونَ بِاللهِ لَعْنَكُمْ إِذَا أَنتَقَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعْنُهُمْ عَنَّهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥] - فلا تلومونهم ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ [التوبة: ٩٥] ، أعوذ بالله .. رجس ، الخمر رجس ، القدر الذي يخرج من دُبر الإنسان رجس روث الحمير رجس ، هؤلاء مثلهم ﴿وَمَا وَهَنُ جَهَنَّمَ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥] . بئس المأوى - والعياذ بالله - إنهم ينتقلون من الدنيا إلى جهنم نسأل الله العافية ، نارٌ حامية تطلع على الأفئدة ، مؤصدة عليهم في عمد مُمدّدة . ﴿يَخْلُقُونَ لَكُمُ لِرَضْوَا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٦] لأنكم لا تعلمون سرائرهم ولا يبدو لكم إلا الظواهر ﴿فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَلَنْ يَرْضَى عَنْهُمُ اللَّهُ وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦] إذا رضي الناس عنك كلهم والله لم يرض عنك فإنه لا ينفعك .

إذا رضي الله عنك أرضى عنك الناس وأمال قلوبهم إليك كما جاء في الحديث : «إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا نَادَى جِبْرِيلَ يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أَحْبَبْتُ فَلَانَا فَأَجِبْهُ - يُعَيِّنُ اللَّهُ الرَّجُلَ لَهُ - فيحبّه جبريل ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلانا فأجيبوه فيحبّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض» ^(١) فيكون مقبولا لدى أهل الأرض .

كما قال الله ﷻ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٥) ، ومسلم في البر والصلة (١٥٧) ، وأحمد في مسنده (٤١٣/٢) وهذه الروايات باختلاف في اللفظ .

لكن إذا التمس الإنسان رضى الناس بسخط الله فالأمر بالعكس يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس . ولهذا لما تولى معاوية رضي الله عنه الخلافة كتب له عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ التَّمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ وَمَنْ التَّمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ » ^(١) وما أكثر الذين يطلبون رضى الناس بسخط الخالق سبحانه .

هؤلاء في سخط الله ولو رضى عنهم الناس ، فلا ينفعهم رضى الناس قال الله هنا : ﴿ فَإِنْ تَرَوْهَُا عَنْهُمْ فَلْيَنْتَهِ عَنْ رِضَايَ عَنِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] حتى لو رضى عنهم النبي أشرف الخلق ما نفعهم لأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين . وفي هذه الآية تحذير من الفسق وهو ارتكاب المعاصي التي أعظمها الكفر وكل فسق فإنه يُنْقِصُ من رضى الله عن الإنسان بحسبه ، لأن الحكم المعلق بالوصف يزداد بزيادته وينقص بنقصانه ويقوى بقوته ويضعف بضعفه .

الفسق سبب عدم رضى الله ، وهو أنواع كثيرة ومراتب عظيمة . مثل : عقوق الوالدين من الفسوق وقطعية الرحم من الفسوق ، وغش الناس من الفسوق ، والغدر بالعهد من الفسوق ، والكذب من الفسوق فكل معصية من الفسوق .

لكن صغائر الذنوب تكفرها حسنات الأعمال إذا أصلح الإنسان الحسنات كما قال الله : ﴿ أَقْبِرْ الصَّلَاةَ لِلذَّلُولِ الْشَّيْءَ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَفَرَمَانَ الْفَجْرِ إِنَّ فَرَمَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] وقال : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الْشَّرَّاتِ ﴾ [هود : ١١٤] . أما الكبائر فلا ينفع فيها إلا التوبة . على كل الفسق من أسباب انتفاء رضى الله عن العبد والطاعة من أسباب الرضا . فعليك يا أخي التزام طاعة الله إن كنت تريد رضاه وإن كنت تريد رضى الناس فأرض الله . ذكر صلى الله عليه وسلم أنه خرج من المدينة ، في يوم الخميس وكان يحب أن يخرج فيه ، ولكن ذلك ليس بدائم ، أحياناً يخرج يوم السبت كما خرج في آخر سفرة سافر فيها في حجة الوداع وربما يخرج في أيام آخر لكن غالب ما يخرج فيه هو يوم الخميس . وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد إلى المدينة ضحى وأنه دخل المسجد فصلى فيه ركعتين وكان هذا من سنته صلى الله عليه وسلم أنه إذا قدم بلده لم يبدأ بشيء قبل المسجد وقد تقدم . وهاتان الركعتان تشمل كل الوقت حتى أوقات النهي لأنها صلاة سببية فليس عنها نهى في أي وقت وجد سببها حل فعلها .

وأما الأحاديث :

٥٤ - فالأول : عن ابن مشغود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا » ^(٢) متفق عليه .

(١) أخرجه الترمذي باختلاف في اللفظ في الزهد (٢٤١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٠٣) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٤/١ ، ٤٣٢) .

الشرح

قوله : « عليكم بالصدق » ... أي : الزموا الصدق والصدق مطابقة الخبر للواقع . وقد سبق في حديث كعب وصاحبيه ما يدل على فضيلة الصدق وحسن عاقبته وأن الصادق هو الذي له العاقبة والكاذب هو الذي يكون عمله هباءً . ولهذا يُذكر أن بعض العامة قال : إن الكذب ينجي فقال له أخوه : الصُّدُقُ أَجْنَى وَأَجْنَى . وهذا صحيح . واعلم أن الخبر يكون باللسان ويكون بالأركان .

أما باللسان : فهو القول ، وأما بالأركان : فهو الفعل ، ولكن يكون الكذب بالفعل !! إذا فعل الإنسان خلاف ما يُطَّعن بهذا قد كذب بفعله ، فالمتناقض مثلاً : كاذب لأنه يظهر للناس أنه مؤمن يُصَلِّيُ مع الناس ويصوم مع الناس ويتصدق ولكنه بخيل . وربما يحج ، فمن رأى أفعاله حكم عليه بالصُّلَاح ، ولكن هذه الأفعال لا تنبئ عما في الباطن فهي كذب .

ولهذا نقول : الصدق يكون باللسان وبالأركان . فمتى طابق الخبر الواقع فهو صدق وهذا باللسان ، ومتى طابقت أعمال الجوارح ما في القلب فهي صدق وهذا صدق بالأقوال . ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام عندما أمر بالصدق بيَّن عاقبته فقال : « إن الصُّدُقَ يَهْدِي إلى البر وإن البر يَهْدِي إلى الجنة » . البر كثرة الخير ومنه من أسماء الله البر أي : كثير الخير والإحسان ﷻ .

والبر من نتائج الصُّدُق وقوله : « وإن البر يَهْدِي إلى الجنة » فصاحب البر - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم - يَهْدِيه يَهْدِي إلى الجنة والجنة غاية كل مطلب . ولهذا يؤمر الإنسان أن يسأل الله الجنة ويستعِذ به من النار ﴿ فَمَنْ ذُخِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . وقوله ﷺ : « إن الرجل ليُصدَّق حتى يُكْتَبَ عند الله صديقاً » وفي رواية : « ولا يزال الرجل يُصدَّق ويتحرى الصدق حتى يُكْتَبَ عند الله صديقاً » . الصديق في المرتبة الثانية من الخلق من الذين أنعم الله عليهم كما قال الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] فالرجل الذي يتحرى الصدق يكتب عند الله صديقاً ومعلوم أن الصديقية درجة عظيمة لا ينالها إلا أفذاذ من الناس .

وتكون في الرجال وتكون في النساء ، قال الله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] . وأفضل الصديقين على الإطلاق أصدقهم ، وهو أبو بكر الصديق ﷺ . عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة الذي استجاب للنبي ﷺ حين دُعا إلى الإسلام ولم يحصل عنده أي تردد وأي توقف بمجرد ما دُعا الرسول إلى الإسلام أسلم . وصدق النبي ﷺ حين كذبه قومه ، وصدق حين تحدث عن الإسراء والمعراج وكذبه الناس وقالوا كيف تذهب يا محمد من مكة إلى بيت المقدس وترجع في ليلة واحدة ؟ ثم يقول : إنك صعدت إلى السماء هذا لا يمكن ! . ثم ذهبوا إلى أبي بكر وقالوا له : أما تسمع ما يقول صاحبك قال : ماذا قال ؟ قالوا : إنه قال كذا وكذا قال : « إن كان قد قال ذلك فقد صدق » ، فمنذ ذلك اليوم سمي الصديق ﷺ . وأما الكذب فإنه قال :

« وإياكم والكذب » : « إياكم » للتحذير أي احذروا الكذب ، وهو الإخبار بما يخالف الواقع سواء كان بالقول أو بالفعل . فإذا قال قائل : ما اليوم ؟ فقلت : اليوم يوم الخميس ، أو يوم الثلاثاء فكذب لأنه لا يطابق الواقع ؛ لأن اليوم كان الأربعاء . والمنافق كاذب لأن ظاهره يدل على أنه مسلم وهو كافر فهو كاذب بفعله . وقوله : « وإن الكذب يهدي إلى الفجور » الفجور : الخروج عن طاعة الله لأن الإنسان يفسق ويتعدى طوره ويخرج عن طاعة الله إلى معصيته وأعظم الفجور الكفر . فإن الكفرة فجرة كما قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴾ [عبس : ٤٢] وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ۖ وَمَا أَزْدَكَ مَا سِجِّينَ ۖ كِتَابَ مَرْهُومٍ ۖ وَقُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ ۖ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ۖ ﴾ [المطففين : ٧ - ١١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي حِمِيمٍ ۖ ﴾ [الانفطار : ١٤] . فالكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار . وقوله : « وإن الرجل ليكذب » وفي لفظ : « لا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابا » والكذب من الأمور المحرمة ، بل قال بعض العلماء : إنه من كبائر الذنوب لأن الرسول ﷺ توعد به بأنه يُكتب عند الله كذابا . ومن أعظم الكذب : ما يفعله الناس اليوم يأتي بالمقالة كاذبا لكن من أجل أن يضحك الناس . وقد جاء في الحديث الوعيد على هذا ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ويل لمن حدث فكذب ليضحك به القوم ويل له ثم ويل له » ^(١) وهذا وعيد على أمر سهل عند كثير من الناس . فالكذب كله حرام ، وكله يهدي إلى الفجور ، ولا يُستثنى منه شيء .

ورد في الحديث أنه يستثنى من ذلك ثلاثة أشياء ؛ في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث المرأة زوجها وحديثه إياها . ولكن بعض أهل العلم قال : إن المراد بالكذب في هذا الحديث التورية وليس الكذب الصريح . وقال : التورية قد تُسمى كذبا كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . ثنتين فيهن في ذات الله تعالى : قوله : « إني سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وواحدة في شأن سارة .. » ^(٢) الحديث وهو لم يكذب ، وإنما ورى تورية هو فيها صادق . وسواء كان هذا أو هذا فإن الكذب لا يجوز إلا في هذه الثلاث على رأي كثير من أهل العلم .

وأشد شيء في الكذب أن يكذب ويحلف ليأكل أموال الناس بالباطل ، مثل أن يدعى عليه بحق ثابت فينكر ويقول : والله مآلك علي حق ، أو يدعى ما ليس له فيقول : لي عندك كذا وكذا وهو كاذب ، فهذا إذا حلف على دعواه وكذب فإن ذلك هو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم تغمسه في النار - والعياذ بالله - .

وثبت عن النبي ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ يَقْطَعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهُ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ » ^(٣) فالحاصل أن الكذب حرام ولا يجوز للإنسان أن يكذب مطلقا إلا

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣١٥) ، وأحمد في مسنده (٦ ، ٣/٥) ، وهذا التخریج مع اختلا في اللفظ .

(٢) أخرجه البخاري واللفظ في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٧) ، ومسلم في الفضائل (١٥٤) .

(٣) أخرجه البخاري بدون عبارة (هو فيها فاجر) في-الإيمان (٦٦٧٦) ، ومسلم في الإيمان (١٧٦) .

على المسائل الثلاث على الخلاف السابق .

* * *

٥٥ - الثاني : عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام قَالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « دَخَّ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ ، فَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَالْكَذِبَ رِيَّةٌ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديثٌ صحيحٌ .

قَوْلُهُ : « يَرِيكَ » هُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا ، وَمَعْنَاهُ : اِثْرُكَ مَا تَشْكُ فِي حِلِّهِ ، وَاعْدِلْ إِلَى مَا لَا تَشْكُ فِيهِ .

الشرح

قوله : « دَخَّ » أي اترك « مَا يَرِيكَ » بفتح الياء أي تشك فيه ولا تطمئن إليه « إِلَى مَا لَا يَرِيكَ » أي : إلى الشيء الذي لا ريب فيه .

وهذا الحديث من أحاديث الأربعين النووية وهو حديث جامع مهم وهو باب عظيم من أبواب الورع والاحتياط .

وقد سلك أهل العلم - رحمهم الله - في أبواب الفقه هذا المسلك وهو الأخذ بجانب الاحتياط وذكروا لذلك أشياء كثيرة .

منها : إنسان أصاب ثوبه نجاسة ، ولا يدري هل هي في مقدم الثوب أو في مؤخره ؟ إن غسل المقدم صار عنده رية لاحتمال أن تكون في مؤخر الثوب ، وإن غسل المؤخر صار عنده رية لاحتمال أن تكون في مقدم الثوب ! فما هو الاحتياط ؟ الاحتياط أن يغسل مقدمه ومؤخره حتى تزول ريته ويطمئن . ومنها لو شك الإنسان في صلاته هل صلى ركعتين أو ثلاث ركعات ولم يترجح عنده شيء فهنا إن أخذ بركعتين صار عنده رية فلعله نقص . وإن أخذ بالثلاث صار عنده رية فلعله لم ينقص لكن يبقى قلقاً . فهنا يعمل بما لا رية فيه فيعمل بالأقل فإذا شك هل هي ثلاث أو أربع فليجعلها ثلاثاً وهكذا . فهذا الحديث أصل من أصول الفقه أن الشيء الذي تشك فيه اتركه إلى شيء لا شك فيه .

ثم إن فيه تربية نفسية وهي أن الإنسان يكون في طُمَأْنِينَةٍ ليس في قلق ، لأن كثيراً من الناس إذا أخذ ما يشك فيه يكون عنده قلق إذا كان حي القلب . فإذا قطع الشك باليقين زال عنه ذلك . قال النبي ﷺ : « فَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ » وهذا وجه الشاهد من هذا الحديث لهذا الباب .

فالصدق طُمَأْنِينَةٌ لا يندم صاحبه أبداً ولا يقول : ليتني وليت ؛ لأن الصدق مَنجاة والصادقون يُنجيهم الله بصدقهم وتجد الصادق دائماً مطمئناً ؛ لأنه لا يتأسف على شيء حصل أو يَحْصُلُ في المستقبل لأنه قد صدق ، « وَمَنْ صَدَقَ نَجَا » .

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٠/١) .

أما الكذب : فبين النبي عليه الصلاة والسلام أنه ربية ، ولهذا تجد أول من يرتاب في الكاذب نفسه ، فيرتاب هل يصدقه الناس أو لا يُصدقونه . ولهذا تجد الكاذب إذا أخبرك بالخبر قام يحلف بالله أنه صادق لئلا يرتاب في خبره مع أنه محل ربية .

تجد المنافقين مثلاً يحلفون بالله ما قالوا ، ولكنهم في ربية قال الله : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَزَّ يَنْتَلُوا ﴾ [التوبة : ٧٤] . فالكذب لا شك أنه ربية وقلق للإنسان ويرتاب الإنسان هل عليم الناس بكذبه أم لم يعلموا ؟ ، فلا يزال في شك واضطراب .

إذا نأخذ من هذا الحديث أنه يجب على الإنسان أن يدع الكذب إلى الصدق لأن الكذب ربية والصدق طمأنينة وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « دَعِ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ » والله الموفق .

* * *

٥٦ - الثَّالِثُ : عَنْ أَبِي سَفْيَانَ صَخْرِيِّ حَرْبٍ رضي الله عنه فِي حَدِيثِهِ الطُّوِيلِ فِي قِصَّةِ هِرْقَلٍ ، قَالَ هِرْقَلُ : فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - قَالَ أَبُو سَفْيَانَ : قُلْتُ : يَقُولُ : « اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرْنَا بِالصَّلَاةِ ، وَالصَّدَقِ ، وَالْعَقَافِ ، وَالصَّلَةِ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي سفيان بن حرب ، وكان أبو سفيان مُشركاً لم يُسلم إلا متأخراً وفيما بين صلح الحديبية وفتح مكة . وصلح الحديبية كان في السنة السادسة من الهجرة وفتح مكة كان في السنة الثامنة من الهجرة .

قدم أبو سفيان ومعه جماعة من قريش إلى هرقل في الشام ، وهرقل كان ملك النصارى في ذلك الوقت ، وكان قد قرأ في التوراة والإنجيل وعرف الكتب السابقة ، وكان ملكاً ذكياً ، فلما سمع بهم أي : بأبي سفيان ومن معه وهم قادمون من الحجاز دغا بهم ، وجعل يسألهم عن حال النبي ﷺ وعن نسبه وعن أصحابه وعن توقيهم له . وعن وفاته رضي الله عنه وكلما ذكر شيئاً أخبروه عرف أنه النبي الذي أخبرت به الكتب السابقة ، ولكنه - والعياذ بالله - شح بملكه فلم يسلم للحكمة التي أرادها الله ﷻ .

لكن سأل أبا سفيان عما كان يأمرهم به رضي الله عنه فأخبر بأنه يأمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، فلا يعبدوا غير الله لا ملكاً ولا رسولاً ولا شجراً ولا حجراً ولا شمساً ولا قمراً ولا غير ذلك ، فالعبادة لله وحده وهذا الذي جاء به الرسول ﷺ قد جاءت به الرسل كلهم قال الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، أي : اعبدوا الله واجتنبوا الشرك . هذه دعوة الرسل فجاء النبي ﷺ بما جاءت به الأنبياء من قبله . ويقول : « اتْرَكُوا مَا كَانَ

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في بدء الوحي (٧) ، ومسلم في الجهاد (٧٤) .

عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ » انظر كيف الصدع بالحق! كل ما كان عليه آبَاؤُهم من عبادة الأصنام أمرهم النبي ﷺ بتركه . وأما ما كان عليه آبَاؤُهم من الأخلاق الفاضلة فإنه لم يأمرهم بتركها كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَالُوا فَتَحْنَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مِلَّةَ آبَائِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فقال سبحانه مكذبا لهم : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨] . فالخلاص أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر أمته الذين باشر دعوتهم أن يدعوا ما كان عليه آبَاؤُهم من الإشراك بالله .

وقوله : « وَكَانَ يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ » الصلاة صلة بين العبد وبين ربه وهي أكد أركان الإسلام بعد الشهادتين وبها يتميز المؤمن من الكافر ، فهي العهد التي بيننا وبين المشركين والكافرين كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » ^(١) ، أي : كفر كفرا مُخْرَجًا عن الملة . لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ » ، فهذا حد فاصل بين المؤمنين وبين الكافرين . ولقد أبعد النجعة من قال من العلماء أن المراد بالكفر هنا الكفر الأصغر كالذي في قوله ﷺ : « ائْتَيْنِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمَا كُفْرٌ » ^(٢) لأنه من تدبر الحديث علم أن هذا تأويل خاطئ وأن الصواب المتعين أن المراد بالكفر هنا : الكفر الأكبر المخرج عن الملة ؛ لأن الفاصل بين الإيمان والكفر لا بد أن يميز أحدهما الآخر ، وإلا لما صَحَّ أن يكون فاصلا .

الحدود التي بين أرضين إحدهما لزيد والأخرى لعمرو فإن هذه الحدود فاصلة لا تدخل أرض أحدهما في الأخرى ، وكذلك الصَّلَاةُ حَدٌّ فاصل من كان خارجا منها فليس داخلًا فيما وراءها . إذا الصلاة من بين سائر الأعمال إذا تركها الإنسان فهو كافر ، لو ترك الإنسان صيام رمضان وصار يأكل ويشرب بالتهار ولا يبالي لم نقل إنه كافر . لكن لو ترك الصَّلَاةَ قلنا إنه كافر ، ولو ترك الزكاة وصار لا يزكي لم نقل : إنه كافر ، لكن لو ترك الصَّلَاةَ قلنا إنه كافر . ولو لم يخرج مع قدرته على الحج لم نقل : إنه كافر ، لكن لو ترك الصَّلَاةَ قلنا : إنه كافر . قال عبدالله بن شقيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من المشهورين ومن التابعين : « كَانَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ لَا يَزَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكَهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ » . إذا الصلاة التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأمر بها إذا تركها الإنسان فهو كما لو ترك التوحيد أي : يكون كافرا مشركا والعياذ بالله . وإلى هذا يشير حديث جابر الذي رواه مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : « بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » ^(٣) .

وقوله : « وَكَانَ يَأْمُرُنَا بِالصَّدَقِ » وهذا هو الشاهد من الحديث وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَكْفُرْ بِاللَّيْلِ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] .

والصدق قسمان : صدق مع الله ، وصدق مع عباد الله . وضد الصدق الكذب ، وهو الإخبار بخلاف الواقع ، وهو من أخلاق المنافقين ، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « آيَةُ الْمُنَافِقِ

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢١) ، وابن ماجه في الإقامة (١٠٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣٤٦/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١) ، والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٤) ، وأحمد في مسنده (٣٨٩/٣) واللفظ له .

ثَلَاثٌ : وَذَكَرَ مِنْهَا : إِذَا حَدَّثَ كَذَبٌ ^(١) وَبَعْضُ النَّاسِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - مُبْتَلَىٰ بِهَذَا الْمَرَضِ ، فَلَا يَسْتَأْنَسُ وَلَا يَنْشَرُ صَدْرُهُ إِلَّا بِالْكَذِبِ .

إِنْ حَدَّثَكَ بِحَدِيثٍ إِذَا هُوَ كَاذِبٌ ، إِنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ جَعَلَ يَفْتَعِلُ الْأَفَاعِيلَ لِيَضْحَكَ بِهَا النَّاسُ . وَقَوْلُهُ : « الْعَفَافُ » أَيُ : الْعِفَّةُ وَالْعِفَّةُ نَوْعَانِ : عِفَّةٌ عَنْ شَهْوَةِ الْفَرْجِ وَعِفَّةٌ عَنْ شَهْوَةِ الْبَطْنِ . أَمَّا الْعِفَّةُ الْأُولَى : فَهِيَ أَنْ يَتَعَدَّ الْإِنْسَانُ عَمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِ مِنَ الزَّوْنِ وَوَسَائِلِهِ وَذَرَائِعِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] . وَأَوْجَبَ عَلَى الزَّانِي أَنْ يُجْلِدَ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَيُطْرَدَ عَنِ الْبَلَدِ سَنَةً كَامِلَةً إِنْ كَانَ لَمْ يَتَزَوَّجْ مِنْ قَبْلِ ، أَمَّا إِذَا كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ وَجَامَعَ زَوْجَتَهُ وَزَوْنِي بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُزَجَّمُ رَجْمًا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ ، كُلُّ هَذَا رَدْعًا لِلنَّاسِ عَنْ أَنْ يَقَعُوا فِي هَذِهِ الْفَاحِشَةِ ، لِأَنَّهَا تُفْسِدُ الْأَخْلَاقَ وَالْأَدْيَانَ وَالْأَنْسَابَ وَتَوْجِدُ أَفْرَاضًا عَظِيمَةً ظَهَرَتْ آثَارُهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ لَمَّا كَثُرَتْ فَاحِشَةُ الزَّوْنِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . وَمَنْعَ اللَّهِ كُلَّ مَا يُوصِلُ إِلَيْهِ وَيَكُونُ ذَرِيعَةً لَهُ فَمَنْعَ الْمَرْأَةَ أَنْ تَخْرُجَ مَتَبَرِّجَةً فَقَالَ : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ، فَأَفْضَلُ مَكَانٍ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَبْقَى فِي بَيْتِهَا وَلَا تَخْرُجَ إِلَّا إِذَا دَعَتْ الْحَاجَةَ أَوْ الضَّرُورَةَ إِلَى ذَلِكَ ، فَلَتَخْرُجَ كَمَا أَخْبَرَهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثِقَلَةً ^(٢) أَيُ : غَيْرَ مُتَطَيِّبَةٍ وَلَا مَتَبَرِّجَةٍ . كَذَلِكَ أَمْرٌ بِاحْتِجَابِ الْمَرْأَةِ إِذَا خَرَجَتْ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ لَيْسَ مِنْ مُحَارِمِهَا وَالْحِجَابِ الشَّرْعِيِّ هُوَ أَنْ تُغَطِّيَ الْمَرْأَةُ جَمِيعَ مَا يَكُونُ النَّظَرُ إِلَيْهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْفَاحِشَةِ وَأَهْمُهُ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ الْوَجْهَ يَجِبُ حُجُّبُهُ عَنِ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ حُجُّبُ الرَّأْسِ وَحُجُّبُ الذَّرَاعِ وَحُجُّبُ الْقَدَمِ ، وَلَا عِبْرَةَ بِقَوْلٍ مِنْ يَقُولُ : إِنَّهُ يَجُوزُ كَشْفُ الْوَجْهِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ هَذَا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّنَاقُضِ .

كَيْفَ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَكْشِفَ وَجْهَهَا وَيَجِبَ عَلَيْهَا عِنْدَ هَذَا الْقَائِلِ أَنْ تَشْتَرِ قَدَمَيْهَا ! أَيُّهُمَا أَعْظَمُ فِتْنَةً وَأَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الزَّوْنِ أَنْ تَكْشِفَ الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا أَوْ قَدَمَيْهَا ؟ كُلُّ إِنْسَانٍ عَاقِلٍ يَفْهَمُ مَا يَقُولُ ؛ يَقُولُ : إِنْ الْأَقْرَبُ إِلَى الزَّوْنِ وَالْفِتْنَةِ أَنْ تَكْشِفَ عَنْ وَجْهَهَا . وَمِنْهَا أَنْ لَا تَخْرُجَ الْمَرْأَةُ مُتَطَيِّبَةً ، فَإِنْ خَرَجَتْ مُتَطَيِّبَةً فَقَدْ أَتَتْ بِوَسِيلَةِ الْفِتْنَةِ مِنْهَا وَبِهَا ، فَيَفْتِنُ النَّاسَ بِهَا وَهِيَ تَفْتِنُ أَيْضًا حَيْثُ تَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَهِيَ مُتَطَيِّبَةٌ نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ . وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يُمْكِنَ أَهْلُهُ مِنْ ذَلِكَ أَبَدًا وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَفَقَّهَهُمْ سِوَاهُ كَانَتْ الزَّوْجَةُ أَوْ الْبِنْتُ أَوْ الْأَخْتُ أَوْ الْأُمُّ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ .

أَمَّا النَّوعُ الثَّانِي : مِنَ الْعَفَافِ فَهُوَ الْعَفَافُ عَنْ شَهْوَةِ الْبَطْنِ أَيُ : عَنْ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَانَهُ مِنْ التَّعَنُّبِ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ، أَيُ : مِنَ التَّعَفُّفِ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ ، بِحَيْثُ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ أَحَدًا شَيْئًا ؛ لِأَنَّ السُّؤَالَ مَذَلَّةٌ وَالسَّائِلُ يَدُهُ دُنْيَا سَفْلَى وَالْمَعْطَى يَدُهُ عُظْيًا فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَسْأَلَ أَحَدًا ، أَيُ : إِلَّا مَا لَا يَدُ مِنْهُ كَمَا لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ مُضْطَرًّا أَوْ مُحْتَاجًا حَاجَةً

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .

(٢) هذا الحديث بمعناه وقد أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٦٥) وأحمد في مسنده (٤٣٨/٢) .

شبه ضرورة فحينئذ لا بأس أن يسأل . أما بدون حاجة ملحة أو ضرورة فإن السؤال محرم ، وقد وردت أحاديث في التحذير منه حتى أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن السائل يأتي يوم القيامة وما في وجهه مُزْعَةٌ لَحْمٍ قد ظهر منه العظم أمام الناس في هذا المقام العظيم المشهود . ثم إن الصحابة رضي الله عنهم تابعوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يسألوا الناس شيئاً حتى يكون سوطٌ أحدهم ينشق من على راحلته ولا يقول لأحد ناولني السوط ، بل ينزل ويأخذ السوط .

والإنسان الذي أكرمه الله بالغنى والتعفف لا يعرف قدر السؤال إلا إذا ذل أمام المخلوق . كيف تتمد يدك إلى مخلوق وتقول له أعطني وأنت مثله ؟! « وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ » (١) .

وقوله : « الصَّلَاةُ » هذا هو الأمر الخامس . والصلة أن تصل ما أمر الله به أن يوصل من الأقارب الأذنى فالأدنى وأغلاهم الوالدان ، فإن صلة الوالدين بر وصلة ، والأقارب لهم من الصلة بقدر ما لهم من القرب ، فأخوك أوكد صلة من عمك وعمك أشد صلة من عم أبيك وعلى هذا فقس . والصلة جاءت في الكتاب والسنة غير مُقَيَّدة ، وكل ما جاء في الكتاب والسنة غير مقيد ، فإنه يحمل على العرف ، فما جرى العرف على أنه صلة فهو صلة . وهذا يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان والأماكن .

مثلاً : إذا كان قريبك مُسْتَعْنِياً عنك وصحیح البدن وتسمع عنه أنه لا يحتاج إلى شيء ، فهذا صلته لو تحددت بشهر أو شهر ونصف وما أشبه ذلك فإن هذه صلة بعرفنا . وذلك لأن الناس - والحمد لله - قد استغنى بعضهم عن بعض وكل واحد منهم لا يشره على الآخر ، لكن لو كان هذا الرجل قريباً جداً كالأب والأم والأخ والعم فإنه يحتاج إلى صلة أكثر ، وكذلك لو كان فقيراً فإنه يحتاج إلى صلة أكثر ، وكذلك لو مرض فإنه يحتاج إلى صلة أكثر وهكذا .

المهم : أن الصلة عندما جاءت في القرآن غير مُقَيَّدة فإنه يتبع في ذلك العرف ويختلف هذا باختلاف الأمور التي ذكرنا . وقد وردت النصوص الكثيرة في الترغيب في وصلها والترهيب من قطعها .

٥٧ - الرَّابِعُ : عَنْ أَبِي ثَابِتٍ ، وَقِيلَ : أَبِي سَعِيدٍ ، وَقِيلَ : أَبِي الْوَلِيدِ ، سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ، وَهُوَ بَدْرِي رضي الله عنه ، قَالَ : « مَنْ سَأَلَ اللَّهَ ، تَعَالَى ، الشَّهَادَةَ بِصِدْقِ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ » (٢) رواه مسلم .

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٩٣/١) .

(٢) أخرجه مسلم واللفظ له في الإمارة (١٥٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٤٤/٥) ، والترمذي في فضائل

الجهاد (١٦٥٣) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٧) .

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف رحمته الله في باب الصدق والشاهد منه قوله : « مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ » : والشهادة مرتبة عليا بعد الصديقية كما قال الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] .

منها : الشهادة بأحكام الله عليه السلام على عباد الله وهذه شهادة العلماء التي قال الله فيها : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

والشهادة أنواع كثيرة :

وقد ذهب كثير من العلماء في تفسير قوله : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ إلى أنهم العلماء ولا شك أن العلماء شُهَدَاء ، فَيَشْهَدُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَيَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَّةِ بِأَنَّهَا بَلَّغَتْ شَرِيعَةَ اللَّهِ ، وَيَشْهَدُونَ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ، وَهَذَا وَاجِبٌ وَهَذَا مُسْتَحَبٌ ، وَهَذَا مَكْرُوهٌ . وَلَا يَعْرِفُ هَذَا إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ ، لِذَلِكَ كَانُوا شُهَدَاءَ . وَمِنَ الشُّهَدَاءِ أَيْضًا : مَنْ يُصَابُ بِالطَّعْنِ وَالْبُطْنِ وَالْحَرْقِ وَالْغُرْقِ وَمَا أَشْبَهُهُمْ . وَمِنَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَمِنَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ دُونَ أَمْوَالِهِمْ وَدُونَ أَنْفُسِهِمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَمَا سَأَلَهُ رَجُلٌ وَقَالَ : أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ جَاءَنِي شَخْصٌ يَطْلُبُ مَالِي - أَيْ عِنْدَهُ - قَالَ : لَا تَعْطِهِ ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ : قَاتِلْهُ ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتَهُ ؟ قَالَ : هُوَ فِي النَّارِ - لِأَنَّهُ مَعْتَدٍ ظَالِمٌ - قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : إِنْ قَتَلْتَكَ فَأَنْتَ شَهِيدٌ ^(١) .

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وَأَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » ^(٢) .

وَمِنَ الشُّهَدَاءِ أَيْضًا : مَنْ قُتِلُوا ظُلْمًا ، كَأَن يَعْتَدِي عَلَيْهِ إِنْسَانٌ فَيَقْتُلُهُ غِيْلَةً - ظُلْمًا - فَهَذَا أَيْضًا شَهِيدٌ . وَلَكِنْ أَعْلَى الشُّهَدَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ^(٣) فَيَحْيِي بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(٤) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ - ١٧١] ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، فَمَا قَاتَلُوا لِحُظُوظِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا قَاتَلُوا لِأَمْوَالِهِمْ وَإِنَّمَا قَاتَلُوا لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ شُعِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَيِّمَةً وَيُقَاتِلُ لِيرَى مَكَانَهُ أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ قَالَ : « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٥) .

هذا مِيزَانٌ عَدْلٌ وَضَعَهُ النَّبِيُّ عليه السلام يَزَنُ الْإِنْسَانُ بِهِ عَمَلَهُ .

(١) أخرجه أحمد باختلاف في اللفظ في مسنده (٤٢٣/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٨٠) ، ومسلم في الإيمان (٢١٦) ، وأحمد في مسنده (٧٩/١) .

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له في الجهاد والسير (٢٨١٠) ، ومسلم في الإمارة (١٤٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧) .

فمن قاتل لهذه الكلمة فهو في سبيل الله ، إن قُتِلَ فأنت شهيد ، وإن غَنِمْتَ فأنت سعيد ، كما قال الله سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ إما الشهادة وإما الظفر والنصر ﴿ وَنَحْنُ نَكْرَهُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيِّدِيَّا ﴾ [التوبة : ٥٢] ، أي إما أن الله يعذبكم ويقينا شرّكم كما فعل الله تعالى بالأحزاب الذين تجمعوا على المدينة يُريدون قتال الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأرسل الله عليهم ريحا وجنودا وألقى في قلوبهم الرعب .

وقوله : ﴿ أَوْ بِأَيِّدِيَّا ﴾ كما حصل في بدر ، فإن الله عذب المشركين بأيدي الرسول ﷺ وأصحابه . فإذا سأل الإنسان ربّه وقال : اللهم إني أمألك الشهادة في سبيلك - ولا تكون الشهادة إلا بالقتال لتكون كلمة الله هي العليا - فإن الله تعالى إذا علِمَ منه صدق القول والنية أنزله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه .

بقي علينا الذي يُقاتل دفاعا عن بلده هل هو في سبيل الله أو لا ؟ نقول : إن كنت تُقاتل عن بلدك لأنها بلد إسلامي فتريد أن تحميها من أجل أنها بلد إسلامي فهذا في سبيل الله ، لأنك قاتلت لتكون كلمة الله هي العليا .

أما إذا قاتلت لأجل أنها وطن فقط فهذا ليس في سبيل الله ، لأن الميزان الذي وضعه النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطبق عليه وقد تقدم الكلام على هذه المسألة والله الموفق .

٥٨ - الخامس : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَرَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لِقَوْمِهِ : لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعُ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَّبِعَنِي بِهَا وَلَمْ يَنْ يَنْهَا ، وَلَا أَخَذَ بَنَى يَتُونَ لَمْ يَزِفْ سَقُوقَهَا ، وَلَا أَخَذَ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خِلْفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلَادَهَا ، فَعَزَا فَدَنَّا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِينَا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ : إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ ، اللَّهُمَّ اخْبِسْهَا عَلَيْنَا ، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ ، فَجَاءَتْ - يَعْنِي النَّارُ - لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا ، فَقَالَ : إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا ، فَلْيَتَابِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ ، فَلَزَقَتْ يَدَ رَجُلٍ بِيَدِهِ فَقَالَ : فِيكُمْ الْغُلُولُ ، فَلْيَتَابِعْنِي قَبِيلَتُكَ ، فَلَزَقَتْ يَدَ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ فَقَالَ : فِيكُمْ الْغُلُولُ . فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ ، فَوَضَعَهَا فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا ، فَلَمْ تَحِلْ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ قَبْلَنَا ، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ لَمَّا رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجَزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا » ^(١) متفق عليه . « الْخِلْفَاتُ » بفتح الخاء المعجمة وكسر اللام : جُمُوعُ خِلْفَةٍ ، وَهِيَ الثَّاقَةُ الْحَامِلُ .

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في فرض الخمس (٣١٢٤) ، ومسلم في الجهاد (٣٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣١٨/٢) والبيهقي في سننه (٢٩٠/٦) . قوله : « بُضْعُ » البُضْعُ يطلق على الفرج والنكاح والجماع ، قوله : « أَنْ يَنْ يَنْهَا » أي يدخل بها ، قوله : « اشترى غنما » أي حوامل بدليل ما بعده ، قوله : « إنك مأمورة » أي مسخرة بأمر الله ، قوله : « فجاءت » يعني النار : تلك كانت عادة الأنبياء في الغنائم فكانوا يجمعونها فتجيء نار من السماء فتأكلها فإن أكلتها دل ذلك على عدم الغلول فيها وإن لم تأكلها علم أن فيها غلولا .

الشرح

هذا الحديث الذي نقله المؤلف فيه آيات عظيمة ، فإن النبي ﷺ حدث عن نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه غزا قوماً أمر بجهادهم لكنه ﷺ منع كل إنسان عقْد على امرأة ولم يدخل بها ، وكل إنسان بنى بيتاً ولم يرفع سقفه ، وكل إنسان اشترى غنماً خلفاتٍ وهو ينتظر أولادها . وذلك لأن هؤلاء يكونون مشغولين بما أهمهم ، فالرجل المتزوج مشغول بزوجه التي لم يدخل بها ، فهو في شوقٍ إليها ، وكذلك الرجل الذي رفع بيتاً ولم يرفع سقفه هو أيضاً مشغول بهذا البيت الذي يريد أن يسكنه هو وأهله ، وكذلك صاحب الخلفات والغنم مشغول بها ينتظر أولادها .

والجهاد ينبغي أن يكون الإنسان فيه متفرغاً ليس له همٌّ إلا الجهاد ، ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ [الشرح : ٧] ، أي : إذا فرغت من شئون الدنيا بحيث لا تشغل بها فانصب للعبادة .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان » (١) .

فدلُّ على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد طاعة أن يفرغ قلبه وبدنه لها حتى يأتيها وهو مُشتاق إليها وحتى يؤديها على مهل وطمأنينة وانشرح صدر .

ثم إنه غزا . فنزل بالقوم بعد صلاة العصر ، وقد أقبل الليل وخاف إن أظلم الليل أن لا يكون هناك انتصار فجعل يخاطب الشمس يقول : أنت مأمورة وأنا مأمور ، لكن أمر الشمس أمر كوني وأما أمره فأمر شرعي . فهو مأمور بالجهاد والشمس مأمورة أن تسير حيث أمرها الله ﷻ ، قال الله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] منذ خلقها الله ﷻ وهي سائرة حيث أمرت لا تتقدم ولا تتأخر . ولا تنزل ولا ترتفع .

قال : « اللهم فاحبسها عنا » فحبس الله الشمس ولم تغب في وقتها حتى غزا هذا النبي وغنم غنائم كثيرة ولما غنم الغنائم وكانت الغنائم في الأمم السابقة لا تحلُّ للغزاة ، بل حل الغنائم من خصائص هذه الأمة ولله الحمد .

أما الأمم السابقة فكانوا يجمعون الغنائم فتنزل عليها نارٌ من السماء فتحرقها ، فجمعت الغنائم فلم تنزل النار وتأكلها فقال : فيكم الغلول . ثم أمر من كل قبيلة أن يتقدم واحد يبايعه على أنه لا غلول فلما بايعوه على أنه لا غلول لزقت يد أحد منهم بيد النبي عليه السلام . فلما لزقت : قال فيكم الغلول - أي القبيلة هذه - ثم أمر بأن يبايعه كل واحد على حدة من هذه القبيلة ، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة منهم فقال : فيكم الغلول فجاءوا به . والغلول هو السرقة من الغنيمة بأن تخفي شيئاً منها . فإذا هم قد أخفوا مثل رأس الثور من الذهب فلما جيء به ووضع مع الغنائم أكلتها النار ، وهذه من آيات الله ﷻ . ففي هذا الحديث دليل على فوائد عديدة :

منها : أن الجهاد مشروع في الأمم السابقة كما هو مشروع في هذه الأمة ، وقد دلُّ على هذا كتاب الله في قوله : ﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ [آل عمران : ١٤٦] ، وكذلك قصة طالوت وجالوت وداود عليه الصلاة والسلام في سورة

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٦٧) ، والبيهقي في السنن (٧٣/٣) ، والهندي في كنز العمال (٢٠٠٦١) .

البقرة ، الآيات : [٢٤٦ - ٢٥٢] .

وفيها : دليل على عظمة الله ﷻ ، وأنه هو مُدَبِّر الكون وأنه سبحانه وتعالى يُجري الأمور على غير طَبَائِعِهَا إِمَّا بِتَأْيِيدِ الرُّسُولِ وَإِمَّا بِدَفْعِ شَرِّ عَنْهُ وَإِلَّا لِمَصْلَحَةٍ فِي الْإِسْلَامِ .

المهم أن آيات الأنبياء فيها تأييد لهم بأي وجه كانت . وذلك لأن الشمس حسب طبيعتها التي خلقها الله عليها تجري دائماً ولا تقف ولا تتقدم ولا تتأخر إلا بأمر الله ، لكن الله هنا أمرها أن تنحسب فَطَالَ وقت ما بين صلاة العصر إلى المغرب حتى فَتَحَ الله على يد النبي .

وفيها : رد على أهل الطَّبِيعَةِ الذين يَقُولُونَ إن الأفلاك لا تَتَغَيَّرُ ؟! سبحانه الله من الذي خَلَقَ الأفلاك ؟ الله ﷻ ، فالذي خلقها قَادِرٌ على تغييرها ، لكن هم يَزَوْنَ أن هذه الأفلاك تجري بحسب الطَّبِيعَةِ ولا أحد يتصرف فيها - والعياذ بالله - لأنهم يُنْكِرُونَ الخالق .

وقد دَلَّتْ الأدِلَّةُ من الكتاب والسنة على أن الأفلاك تَتَغَيَّرُ بأمر الله ، فهذا النبي دعا الله ووقفَت الشمس . ومحمد رسول الله ﷺ طلب منه المشركون آية تدل على صِدْقِهِ فَأشار ﷺ إلى القمر فانشَقَّ شِقَّتَيْنِ وَهُم يُشَاهِدُونَهُ ، شقة على الصفا وشقة على الروة . وفي هذا يقول الله ﷻ : ﴿ أَفَرَبِّ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةِ أَفَرَبِّ السَّاعَةِ ۝ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِزٌّ ﴾ [القمر : ١ ، ٢] .

قالوا : هذا محمد سحرنا والقمر لم ينشق ، بل أفسد نظرنا وغيوينا ، لأن الكافر والعاذ بالله الذي حقت عليه كلمة الله لا يؤمن كما قال الله : ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقَلِّبُهَا كيف يشاء ، ويصرفها كيف يشاء ، فالذي حقت عليه كلمة العذاب لا يؤمن أبداً ولو حُثَّتْ بكل آية ولهذا طلبوا من الرسول آية وأزاهم هذه الآية العجيبة التي لا يقدر أحد عليها ، وقالوا : ﴿ سِحْرٌ مُسْتَعِزٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعِزٌّ ﴾ [القمر : ٢ ، ٣] .

وفيها : بيان نعمة الله على هذه الأمة حيث أحل لها المغام التي تغنمها من الكفار كانت خِزَامًا على من سبقنا ؛ لأن هذه الغنائم فيها خير كثير على الأمة الإسلامية تُسَاعِدُهَا على الجهاد وتعينها عليه .

فهم يَعْتَمُونَ من الكفار أموالاً يقاتلونهم بها مرة أخرى ، وهذا من فضل الله كما قال النبي ﷺ : «أَعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي وَذَكَرَ أَنَّهُ أُحِلَّتْ لَهُ الْعَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلَهُ» (١) .

وفي الحديث من آيات الله : أن الذين غلوا لَرَقَّتْ أيديهم بأيدي النبي وهذا خلاف العادة ، ولكن الله على كل شيء قدير ؛ لأنَّ العادة إذا صافحت اليد يدًا أخرى أنها تنطلق . ومنها : أن الأنبياء لا يعلمون الغيب وهو واضح إلا ما أطلعَهُمْ عليه ، أما هم فلا يعلمون الغيب . وشواهد هذا كثيرة فيما جرى لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام حيث يَخْفَى عليه أشياء كثيرة ، كما قال الله ﷻ : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَالَمِ الْخَبِيرُ ﴾ [التحریم : ٣] ، أما هو فلا يعلم الغيب .

وأصحابه يكونون معه يخفون عليه ، فكان معه ذات يوم أبو هريرة فأنخَسَ^(١) وَكَانَ عَلَيْهِ جَنَابَةٌ ، فقال له عندما رَجَعَ مِنْ غُشْلِ الْجَنَابَةِ : أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ إِذَا فَالرَّسُولَ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ يَعْلَمُ الْغَيْبَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ ﴾ [الحج: ٢٦ ، ٢٧] .

ومنها : دليل على قدرة الله من جهة أن هذه الثَّار لا يدرى من أين جاءت ؟ بل تنزل من السماء ، لا هي من أشجار الأرض ولا من حطَب الأرض ، بل من السماء يأمرها الله فتَنَزَّل فتأكل هذه الغنِمة التي جُمِعت والله الموفق .

٥٩ - السادس : عن أبي خالد حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَيَسَّابُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِثَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا »^(٢) متفق عليه .

الشرح

« الْبَيْعَانِ » : البائع والمشتري ، وأطلق عليهما اسم البيع من باب التَّغْلِيْب كما يقال : القمران للشمس والقمر والعمران لأبي بكر وعمر . وقوله : « بِالْخِيَارِ » أي : كل منهما يختار ما يريد « مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا » أي : ما دام في مكان العقد لم يتفرقا فإنهما بالخيار . ومثاله : رجل باع على آخر سيارة بعشرة آلاف فما داما في مكان العقد ولم يتفرقا فهما بالخيار إن شاء البائع فَسَخَ البيع ، وإن شاء المشتري فسَخَ البيع ، وذلك من نعمة الله ﷻ وتوسيعه على العباد ؛ لأن الإنسان إذا كانت السَّلْعَة عند غيره صارت غالية في نفسه يحب أن يَحْصُلَ عليها بكل وسيلة ، فإذا حَصُلَتْ له فرجما تَزُول رغبته عنها ، لأنه أدركها فجعل الشَّارِع له الخيار لأجل أن يَتَزَوَّى ويتزود بالتَّائِي والتَّنْظَر . فما دام الرَّجُلَان لم يتفرقا فهما بالخيار وإن طال الوقت لعموم قوله : « مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا » وفي حديث ابن عمر « أَوْ يَخْتِيرُ أَحَدُهُمَا الْآخَرُ » أي : يقول أحدهما للآخر الخيار لك وحدك ، فحينئذ يكون الخيار له وحده ، والثَّانِي لا خيار له . أو يقولان جميعا : لا خيار بيننا . فالصور أربع : ١ - إما أن يثبت الخيار لهما وذلك عند البيع المطلق الذي ليس فيه شرط .

٢ - وإما أن يتبايعا على أن لا يكون الخيار لواحد منهما وحينئذ يلزم البيع لمجرد العقد ولا خيار لأحد .

٣ - وإما أن يتبايعا أن الخيار للبائع وَحْدَهُ دون المشتري وهنا يكون الخيار للبائع والمشتري لا خيار له .

٤ - وإما أن يتبايعا على أن الخيار للمشتري والبائع لا خيار له وحينئذ يكون الخيار للمشتري وليس للبائع خيار . وذلك لأن الخيار حق للبائع والمشتري ، فإذا رَضِيََا بِإِسْقَاطِهِ أَوْ رَضِيَ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ فالحق لهما لا يَغْدُوهُمَا ، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ إِلَّا

(١) خنس : تأخر ويقال خنس الطريق عنهم أي جازوه وخلفوه وراءهم . المعجم الوسيط (٢٦٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٠) ، ومسلم في البيوع (٤٧) ، والترمذي في البيوع (١٢٤٦) ، وأبو داود في البيوع (٣٤٥٩) . قوله : « محقت » ذهب بركته ، وهي زيادته ونماؤه فتلف ولم يحصل منه إلا على مجرد التعب .

شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا ^(١) . وقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا » لم يبين التفريق ولكن المراد التفريق بالبدن ، فإن تفرقا بطل الخيار ولزم البيع ، قال النبي ﷺ : « فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا » وهذا هو الشاهد من الحديث في الباب ، لأن الباب باب الصدق . قوله : « فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا » إن صدقا فيما يصفان السلعة به من الصفات المرغوبة ، وبيننا فيما يصفان به السلعة من الصفات المكروهة ، فمثلاً : لو باع عليه هذه السيارة وقال : هذه السيارة جديدة موديلها كذا ونظيفة ويمدجها بما ليس فيها نقول : هذا كذب فيما قال ، وإذا باعها السيارة وفيها عيب ولم يخبره بالعيب نقول : هذا كتم ولم يبين والبركة في الصدق والبيان ، فالفرق بين الصدق والبيان أن الصدق فيما يكون مرغوباً من الصفات ، والبيان فيما يكون مكروهاً من الصفات ، فكتمان العيب هذا ضد البيان ووصفه السلعة بما ليس فيها هذا ضد الصدق .

ومثال آخر : باع عليه شاة وفيها مرض غير يبين لكنه كتمه ، نقول : هذا لم يبين . وإذا وصفها بما ليس فيها من الصفات المطلوبة فهذا قد كذب ولم يصدق . ومنه ما يفعله بعض الناس الآن - نسأل الله العافية - يجعل الطيب من المال فوق والرديء أسفل ، فهذا لم يبين ولم يصدق . لم يبين لأنه ما يبين الثمر المعيب ولم يصدق ، لأنه أظهر الثمر بمظهر طيب وليس كذلك .

* * *

٥ - باب المراقبة

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾ [الشعراء : ٢١٨ ، ٢١٩] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران : ٦] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

لما ذكر المؤلف ﷺ باب الصدق وذكر الآيات والأحاديث الواردة في ذلك أعقب هذا باب المراقبة . والمراقبة لها وجهان :

الوجه الأول : أن تُراقب الله ﷻ .

والوجه الثاني : أن الله تعالى رقيب عليك كما قال الله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] . أما مراقبتك لله أن تعلم أن الله تعالى يعلم كل ما تقوم به من أقوال وأفعال واعتقادات . كما قال الله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَزِيِّزِ الرَّحِيمِ ۖ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾ [الشعراء : ٢١٧ - ٢١٩] ، يراك حين

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام (١٣٥٢) بلفظ حرم حلالاً وأحل حراماً .

السَّاجِدِينَ ﴿٥٠﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥١﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٥] شيء نكرة في سياق النفي في قوله : ﴿ لَا يَخْفَى ﴾ فتعم كل شيء ؛ فكل شيء لا يخفى على الله في الأرض ولا في السماء ، وقد فصل الله هذا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ (١) لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا يَبْسُ وَلَا يَكْنُ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام : ٥٩] .

قال العلماء : إذا كانت الأوراق الساقطة يعلمها فكيف بالأوراق النامية التي ينبتا ويخلقها فهو بها أعلم ﷻ .

أما قوله : ﴿ وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ نكرة في سياق النفي في قوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ ﴾ فهي نكرة في سياق النفي المؤكد بمن . إذاً يشمل كل ورقة صغيرة كانت أو كبيرة .

ولنفرض أن حبة صغيرة في ظلمات الأرض ، وظلمات الأرض خمسة أنواع !

لنفرض أن حبة صغيرة مُنْعِمَسَةٌ في طين البحر ، فهي في خمس ظلمات :

الظلمة الأولى : ظلمة الطين المنعمسة فيه . الثانية : ظلمة الماء في البحر .

الثالثة : ظلمة الليل . الرابعة : ظلمة السحاب المتراكم (٢) .

الخامسة : ظلمة المطر النازل .

خمس ظلمات فوق هذه الحبة الصغيرة والله ﷻ يعلمها .

وقوله : ﴿ وَلَا يَبْسُ وَلَا يَكْنُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، مكتوب مبين ظاهر معلوم عند رب العالمين ﷻ . إذاً من كان هذا سعة علمه ؛ فعلى المؤمن أن يُراقب الله ﷻ ، وأن يخشاه في السر كما يخشاه في العلانية ، بل الموقف الذي يجعل خشية الله في السر أعظم وأقوى من خشيته في العلانية ؛ لأن خشية الله في السر أقوى في الإخلاص ؛ لأنه ليس عندك أحد ؛ لأن خشية الله في العلانية ربما توقع في قلبك الرياء ومראה الناس .

فاحرص يا أخي المسلم ، على مراقبة الله ﷻ وأن تقوم بطاعته امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيهِ ، ونسأل الله العون على ذلك ؛ لأن الله إذا لم يُعَنَّا ، فإننا مَحْذُولُونَ (٣) كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

فإذا وَفَّقَ العبد للهداية والاستعانة في إطار الشريعة ؛ فهذا هو الذي أنعم الله عليه .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥٠﴾ [الفاتحة : ٥] ، لا بد أن تكون العبادة في نفس هذا الصِّراط المستقيم وإلا كانت ضرراً على العبد . فهذه ثلاثة أمور ، هي منهج الذين أنعم الله عليهم .

(١) قوله تعالى ذكره : ﴿ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ أي عنده علم جميع المعلومات ما غاب عنا وما لم يغب .

(٢) السحاب المتراكم : هو السحاب المجتمع بعضه فوق بعض .

(٣) مَحْذُولُونَ : أي تَخْلَى اللهُ عَنْ عَوْنِنَا وَنَصْرَتِنَا .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] الضمير ﴿ وَهُوَ ﴾ يعود على الله ، أي الله سبحانه مع عباده أينما كانوا في برٍّ ، أو بحرٍ أو جوٍّ أو في ظلمة أو في ضياء . وفي أي حال هو معكم أينما كنتم .

وهذا يدل على كمال إحاطته ﷻ بنا علماً وقُدرةً وسلطاناً وتَديراً وغير ذلك .

ولا يعني أنه ﷻ معنا في نفس المكان الذي نحن فيه ؛ لأنَّ الله فوق كل شيء كما قال الله : ﴿ أَلَرَأَيْتُمْ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، وقال : ﴿ مَا أَيْنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك : ١٦] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على أنه فوق كل شيء ، لكنه ﷻ ليس كمثله شيء في جميع نُعوتِهِ وَصِفَاتِهِ ، هو عَلِيٌّ في دنوه ، قَرِيبٌ في علوه ، جَلٌّ وَعَلَا كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ولكن يجب أن نعلم أنه ليس في الأرض ؛ لأننا لو توهمنا هذا لكان فيه إبطال لعلو الله سبحانه وتعالى . وأيضاً فإنَّ الله سبحانه لا يَسَعُهُ شيء من مخلوقاته : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . الكرسي مُحِيطٌ بالسموات والأرض كلها ، والكرسي هو موضع قدمي الرحمن ﷻ ، والعرش أعظم وأعظم كما جاء في الحديث : « إن السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كَحَلَقَةِ الْبَيْتِ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ » (١) .

حلقة كحلقة المغفر صَغِيرَةُ الْبَيْتِ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، أي مكان مُتَسَعٍ ، نسبة هذه الحلقة إلى الأرض الفلاة لَيْسَ بشيء .

قال : « وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الْحَلَقَةِ » . فما بالك بالخالق جل وعلا ! الخالق لا يمكن أن يكون في الأرض ؛ لأنه سبحانه أعظم من أن يُحِيطَ به شيء من مخلوقاته . واعلم أن المعية التي أَضَافَهَا اللهُ إِلَى نَفْسِهِ تنقسم بحسب السياق والقَرَائِنِ . فتارة : يكون مُقْتَضَاها الإحاطة بالخلق علماً وقُدرةً وسلطاناً وتَديراً وغير ذلك مثل هذه الآية : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، ومثل قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى (٢) ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيَهُمْ وَلَا حَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] .

وتارة : يكون المراد بها التهديد والإنذار كما في قوله : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ (٣) مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء : ١٠٨] ، فإن

(١) ذكره : الطبري في تفسيره (١٦/٣) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٣٠٤/١) ، والبيهقي في الأسماء والصفات

(٤٠٥ ، ٤٠٤/١) « والفلاة » هي الأرض الواسعة المقفرة (مادة فلو ٧٢٨/٢ المعجم الوسيط) .

(٢) قوله : ﴿ نَجْوَى ﴾ أي : تناجى وهو مساوئهم بالحديث بحيث لا يسمعه غيرهم .

(٣) قوله : ﴿ يَبَيِّنُونَ ﴾ أي : يدبرون .

هذا تهديد وإنذار لهم أن يبيتوا ما لا يَرْضَى من القول يكتُمونه عن الناس يَظُنُّونَ أن الله لا يعلم والله سبحانه عليهم بكل شيء .

وتارة : يُرَادُّ بها النصر والتأييد والتثبيت وَمَا أَشْبَهَ مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] ، ومثل قوله : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَكَانَ يَرْكَزُ أَهْلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] ، والآيات في هذا كثيرة .

وهذا القسم الثالث من أقسام المعية تارة : يُضَافُ إلى المخلوق بالوصف ، وتارة : يُضَافُ إلى المخلوق بالعين .
فقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] . هذا مضاف إلى المخلوق بالوصف ، فأَيُّ إنسان يكون كذلك فالله معه .

وتارة : يكون مضافاً إلى المخلوق بعين الشخص مثل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] هذا مضاف إلى الشخص بعينه .

هذه معية للرسول - عليه الصلاة والسلام - وأَيُّ بكر ﷺ وهما في الغار ، لما قال أبو بكر للرسول : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قَدَمَيْهِ لأُبْصِرْنَا ؛ لأن قريشاً كانت تطلب الرسول ﷺ بكل جد !
مَا مِنْ جَبَلٍ إِلَّا صَعِدَتْ عَلَيْهِ ، وَمَا مِنْ وَادٍ إِلَّا هَبَطَتْ فِيهِ ، وَمَا مِنْ فَلَاةٍ إِلَّا بَحِثَتْ وَجَعَلَتْ لِمَنْ يَأْتِي بِالرَّسُولِ وَأَيُّ بَكْرٍ مَائِثًا بَعِيرٍ ، مَائَةٌ لِلرَّسُولِ وَمَائَةٌ لِأَيُّ بَكْرٍ . ونقب الناس وهُم يَطْلُبُونَهُمَا ، ولكن الله معهما . حتى وَقَفُوا عَلَى الْغَارِ ، يقول أبو بكر : لَوْ نَظَرْتُ أَحَدَهُمَا إِلَى قَدَمَيْهِ لأُبْصِرْنَا فيقول له الرسول : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَمَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟ » (١) .

والله ظننا أن لا يغلبهما أحد ولا يقدر عليهما أحد . وفعلًا هذا الذي حَصَلَ . مَا رَأَوْهُمَا مع عدم المانع ، ما كان عَشْرٌ - كما يقولون - ولا حمامة وقعت على الغار ، لا شجرة نَبَتَتْ على فم الغار ، ما كَانَ إِلَّا عناية الله ﷻ ، لِأَنَّ اللَّهَ مَعَهُمَا .

وكما في قوله سبحانه لموسى وهارون لما أمر الله موسى وأرسله إلى فرعون هو وهارون : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرُطَ ^(٢) عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ۚ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ۚ ﴾ [طه: ٤٥ ، ٤٦] .
الله أكبر : ﴿ إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ۚ ﴾ إذا كان الله مَعَهُمَا هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَضْرِبَهُمَا فرعون وجنوده ؟
لا يمكن ! هذه معية خاصة مقيدة بالعين : ﴿ إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ۚ ﴾ إلخ ... المهم أنه يجب علينا أن نؤمن بأن الله مع الخلق ، لكنه فوق عرشه ولا يُسَامِيهِ أحد في صِفَاتِهِ ولا يُدَانِيهِ أحد في صفاته ، ولا يمكن أن تُورَدَ على ذِهْنِكَ أو على غيرك كيف يكون الله معنا وهو في السماء ؟

(١) انظر في ذلك البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١) ، وأحمد في مسنده (٤/١) .

(٢) قوله : ﴿ يَقْرُطُ ﴾ أي : يعاجل بالعقوبة ولا يصبر على إتمام الدعوة وإظهار المعجزة .

نقول : **اللَّهُ ﻻ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ** مع أن العلو والمعية لا منافاة بينهما حتى في المخلوق .
فلو سألنا سَائِلٌ : أين موضع القمر ؟

ج : قلنا : في السماء ، كما قال الله : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ [نوح : ١٦] .
وإذا قال : أين موضع النجم ؟

ج : قلنا : في السماء ، واللغة العربية يقول المتكلمون فيها : ما زلنا نسير والقمر معنا ، وما زلنا نسير والنجم معنا ! مع أن القمر في السماء والنجم في السماء لكن هو معنا ؛ لأنه ما غاب عنا . فالله معنا وهو على عَرْشِهِ سبحانه فوق جميع الخلق .

ما الذي تقتضيه هذه الآية بالنسبة للأمر المسلكي المنهجي ؟

ج - تقتضي هذه الآية بأنك إذا أمنت بأن الله معك ؛ فإنك تتقيّه وتراقبه ؛ لأنه لا يخفى عليه **ﷻ** حالك مهما كنت ، لو كنت في بيت مظلم وما فيه أحد ولا حولك أحد فإن الله تعالى معك . لكن ليس في نفس المكان لكنه محيط بك **ﷻ** لا يخفى عليه شيء من أمرك . فتراقب الله ، وتخاف الله ، وتقوم بطاعته ، وترتك مناهيه ، والله الموفق .

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلَاحِرْصَادٌ ﴾ [الفجر : ١٤] ، وهذه الآية ختم الله بها ما ذكره من عقوبة عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِإِصْرِهِ ﴾ [إرم ذات العماد : ١] **﴿ أَلَمْ يَلْدِكُمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ﴾** [الفجر : ٩-١٤] **﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾** [الفجر : ٩-١٤] **﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلَاحِرْصَادٌ ﴾** ^(١) **﴿ فَبَيْنَ ﷻ أَنَّهُ بِالْمِرْصَادِ لِكُلِّ طَاغِيَةٍ وَأَنْ كُلِّ طَاغِيَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَفْصِمُ ظَهْرَهُ وَيَبِيدُهُ وَلَا يَبْقَى لَهُ بَاقِيَةٌ .**

فعاد إرم ذات العماد ، أي ذات البيوت العظيمة المبنية على العمد القوية أعطاهم الله قوة شديدة فاستكبروا في الأرض ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟! إلى هذا الحد ، فقال الله **ﷻ** : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [نمل : ١٥] **﴿ فَبَيْنَ ﷻ أَنَّهُ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَاسْتَدَلَّ لَذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » ؛ لأنه من المعلوم بالعقل علماً ضرورياً أن الخالق أقوى من المخلوق ، فالذي خلقهم هو أشد منهم قوة : ﴿ وَكَانُوا يَنْتَظِرُونَ ﴾ [نمل : ١٥] ، فأصابهم الله **ﷻ** بالقحط الشديد وأمسكت السماء ماءها فجعلوا يَشْتَشِقُونَ ، أي ينتظرون أن الله يغيثهم ، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ، في صباح يوم من الأيام أقبلت الريح ، ريح عظيمة تحمل من الرمال والأترية ما صار كأنه سحاب مرموم .**

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ ﴾ **﴿ حِكْمَةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ ، لَمْ تَأْتِهِمُ الرِّيحُ هَكَذَا ، بَلْ جَاءَتْهُمْ وَهُمْ يُؤْمَلُونَ أَنَّهَُا غَيْثٌ لِيَكُونَ وَقْعُهَا أَشَدَّ . فَكَوْنُ الْعَذَابِ يَأْتِي فِي حَالٍ يَسْتَأْمِلُ**

(١) وقوله : ﴿ جَاءُوا الصَّخَرَ ﴾ أي : قطعوا صخر الجبال قوله : ﴿ فَصَبَّ ﴾ أي : أنزل قوله : ﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي : ضرب كثيرة من العذاب قوله : ﴿ لَإِلَاحِرْصَادٌ ﴾ هو يراقبك ويجازيك على فعلك .

فيها الإنسان كشف الضرر يكون أعظم وأعظم .

مثل ما لو منيت شخصاً بدراهم ثم سحبتها منه صار أشد وأعظم : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطِيرٌ ^(١) بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٤] ، لأنهم كانوا يتحدثون نبئهم إن كان عندك عذاب فأت به إن كنت صادقاً .

﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٢) تُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا سَنَكُتُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ، والعياذ بالله !! هاجت عليهم سبع ليال وثمانية أيام ؛ لأنها بدأت من الصباح وانتهت بالغروب ، فصارت سبع ليال وثمانية أيام حُسومًا مُتَابَعَةً قاطعة لِدَابِرِهِمْ تحسمهم حشماً حتى أنها تحمل الواحد منهم إلى عنان السماء ، ثم ترمي به ، فصَارُوا كأنهم أعجاز نخل خاوية ، أي مثل أصول النخل الخاوية ملتوين على ظهورهم - والعياذ بالله - كهية السجود ؛ لأنهم يريدون أن يتخلصوا من هذه الريح بعد أن تحملهم وتضرب بهم الأرض ، ولكن لم ينفعهم هذا . قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلِهِمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْبَرُ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ^(٣) ﴾ [فصلت: ١٦] ، والعياذ بالله .

أما ثمود الذين جابوا الصخر بالواد : هم أيضاً نفس الشيء عندهم عتو وطغيان وتحذ لنبيهم حتى قالوا له : ﴿ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُومًا قَبْلَ هَذَا ﴾ [هود: ٦٢] ، أي كنا نزعجك ونظنك عاقلاً ، أما الآن فأنت متفيه ؛ لأنه ما من رسول أُرسل إلا قال له قومه ساحر أو مجنون كما قال الله : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴾ [الذاريات: ٥٢] .

فأنظرهم ثلاثة أيام : ﴿ فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥] فلما تمت الثلاثة والعياذ بالله ارتجفت بهم الأرض ، وصيح بهم فأصْبَحُوا كهشيم المحتظر ، أي : مثل سعف النخل إذا طالت عليه المدة صار كأنه هشيم محترق من الشمس والهواء ، صاروا كهشيم المحتظر وماتوا عن آخرهم . أما فرعون : وما أدراك ما فرعون فهو ذلك الرجل الجبار المتكبر الذي طغى وأنكر الله وتعالى وقال لموسى ما رب العالمين ؟! وقال لقومه ما لكم من إله غيري !!

نعوذ بالله ، وقال لهامان وزيره : ﴿ آتَيْنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ^(١) أَسْتَبِيبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ^(٢) ﴾ يقول تهكمًا - والعياذ بالله - ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر: ٣٦ ، ٣٧] .

وكذب في قوله : وإني لأظنه كاذباً ؛ لأنه يعلم أنه صادق كما قال الله تعالى في مناظرته مع موسى قال له موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ، التاء للخطاب فهي مفتوحة ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُ ﴾ يا فرعون ﴿ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُشْبُورًا ^(٣) ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ، ما قال ما

(١) قوله ﴿ عَارِضٌ ﴾ أي : يرى في بعض آفاق السماء عشيّاً ثم يصبح من الغد قد استوى وحبا بعضه إلى بعض .
(٢) قوله ﴿ صَرْصَرًا ﴾ أي : شديدة السموم قوله : ﴿ أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ أي : مشؤمة قوله : ﴿ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ أي : عذاب الذل والهوان .

(٣) قوله ﴿ صَرْحًا ﴾ أي : قصراً . أو بناءً عالياً ظاهراً قوله : ﴿ أَلَّا تَسْبَحُ ﴾ أي : أي الأبواب والطرق الموصلة إلى إله موسى .
(٤) قوله ﴿ مُشْبُورًا ﴾ أي : مهلكاً ، أو مصروعاً عن الخير .

علمت ، بل سكت في مقام التحدي والمناظرة ذلك يدل على الانقطاع وعدم الجواب .

وقال الله عنه وعن وقومه : ﴿ وَحَمِدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .

فرعون وجنوده يعلمون أن موسى صادق ، لكنهم مُشتَكِّرونَ بجاحِدُون . ماذا حصل لهم ؟

حصل لهم هزائم أعظمها الهزيمة التي حَصَلَت للسحرة . جمع جميع السحرة في بلاده باتفاق مع موسى - عليه الصلاة والسلام - وموسى هو الذي عيّن الموعد أمام فرعون مع أن موسى أمام فرعون يعتبر ضعيفاً لولا أن الله نَصَرَهُ وأَيَّدَهُ .

قال لهم موسى : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] . يوم الزينة يوم العيد ؛ لأن الناس يتزينون فيه ويلبسون الزينة . وقوله : ﴿ وَأَنْ يُخَشِّرَ ﴾ يجمع ﴿ النَّاسَ ضُحًى ﴾ لا في الليل في الخفاء .

جمع فرعون جميع من عنده من السحرة من عظمائهم وكبرائهم واجتمعوا بموسى - عليه الصلاة والسلام - وألقوا حبالهم وعصيهم في الأرض فصارت الأرض كلها ثعابين - حيات - تمشي أرهبت الناس كلهم ، حتى موسى أَوْجَفَ في نَفْسِهِ خِيفَةً فأَيَّدَهُ الله وقال له : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِزُ ﴾ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ ﴿ [طه : ٦٨ ، ٦٩] . ألقى ما في يمينه وهي العصا فإذا هي تلقف ما يأفكون ، كل الحبال والعصي ، أكلتها هذه العصا ، سبحانه الله العظيم ، وأنت تعجب : أين ذهبت العصا ؟ ليست كبيرة حتى تأكل هذه الدنيا ، لكن الله ﷻ على كل شيء قدير ، التهمت الحبال والعصي وكان السحرة أغلَمَ الناس بالسحر بلاشك ؛ يعرفون أن الذي حصل لموسى وعصاه ليس بسحر ، وأنه آية من آيات الله ﷻ ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَاجِينَ ﴾ . وانظر إلى كلمة ﴿ فَأَلْقَى ﴾ كأن هذا السجود جاء اندفاعاً بلا شعور ، ما قال سجدوا ! ألقوا ساجدين .

كأنهم من شدة ما رأوا اندفعوا من غير شعور ولا اختيار حتى سجدوا مؤمنين بالله ورسوله .

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ [الشعراء : ٤٧ ، ٤٨] توعدهم فرعون واتهمهم وهو الذي جاء بهم ، قال : ﴿ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١] علمهم السحر وأنت الذي أتيت بهم ! سبحانه الله ، لكن المكابرة تجعل المرء يتكلم بلا عقل .

قال : ﴿ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ﴾ أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى . ﴿ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَنَّ أَتْنَا شَدَّ عَذَابًا وَابَقِينَ ﴾ [طه : ٧١] ما الذي قالوا له ؟ ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ ﴾ [طه : ٧٢] ما يمكن أن تقدمك على ما رأينا من البيّنات ! أنت كذاب لست برب ، الرب رب موسى وهارون . ﴿ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ (١) فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴿ [طه : ٧٢] . انظر إلى الإيمان إذا دخل القلوب ! رخصت عليهم الدنيا كلها ﴿ فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ أي : افعَلْ ما تريد إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إذا قضيت علينا أن نفارق الدنيا ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ [طه : ٧٣] ، لأنه قد أكرههم لكي يأتوا ويقابلوا موسى ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ٧٣] . اللهم اجعلنا من المؤمنين الموقنين ! الإيمان إذا دخل القلب ، واليقين إذا دخل القلب لا يفتنه شيء ، وإلا فإن السحرة لجنود فرعون ،

(١) قوله ﴿ فَطَرَنَا ﴾ أي : أبدعنا وأوجدنا .

كانوا في أول النهار سخرة كفرة ، وفي آخر النهار مؤمنين بَرَزَ ، يتحدثون فرعون لما دخل في قلبهم من الإيمان ، هذه هزيمة نكراء لفرعون ، لكن مع ذلك ما زال في طغيانه .

وفي النهاية : جمع الناس على أنه سيقضي على موسى . فخرج موسى في قومه هرباً منه مُتَجَهّاً بأمر الله إلى البحر الأحمر ويسمى « بَحْرُ الْقَلْزَمِ » متجهاً إليه مشرقاً ، تَكُونُ مصر خَلْفَهُ غرباً .

لما وصل إلى البحر وإذا فرعون بجنوده العظيمة وجحافله ^(١) القوية خلفهم والبحر أمامهم . ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَنَنظُرُكَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، البحر أماناً وفرعون وجنوده خلفنا ، أين نفر ؟ ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

هكذا يقين الرسل - عليهم الصلاة والسلام - في المقامات الحرجة الصعبة تجد عندهم من اليقين . ما يجعل الأمر العسير بل الذي يظن أنه متعذر أمراً يسيراً سهلاً .

فأوحى إليه : أن اضرب بعصاك البحر الأحمر . فضرب البحر بقصاة ضربة واحدة فانفلق البحر اثني عشرة طريقاً ، لأن بني إسرائيل كانوا اثني عشرة قبيلة (سبطاً) والسبط بمعنى القبيلة عند العرب .

لا إله إلا الله .. هذا البحر صار اثني عشرة طريقاً ، وكم بقي من مدة لكي ييبس ؟

بلحظة ييس ﴿ فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] .

فعبّر موسى بقومه في أمن وأمان ، الماء بين هذه الطرق مثل الجبال كأنه جبل واقف وأنتم تعلمون أن الماء جوهر سيّال ^(٢) لكنه بأمر الله صار واقفاً كالجبال . حتى إن بعض العلماء قال : إن الله سبحانه وتعالى جعل في كل طود من هذه المياه فروجاً حتى ينظر بنو إسرائيل بعضهم إلى بعض لئلا يظنوا أن أصحابهم قد غرقوا وهلكوا .

فلما انتهى موسى وقومه خارجين دخل فرعون وقومه ، فلما تكاملوا أمر الله البحر أن يعود على حاله فانظَبَقَ عليهم . وكان بنو إسرائيل من شدة خوفهم من فرعون وقع في نفوسهم أن فرعون لم يغرق ، فأظهر الله جسدهم فرعون على سطح الماء قال : ﴿ قَالَتِمْ تَنْجِيكَ يَدْيُكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ [يونس : ٩٢] حتى يشاهدوه بأعينهم واطمأنوا أن الرجل قد هلك .

فتأمل يا أخي هؤلاء الأمم الثلاثة الذين هم في غاية الطغيان كيف أخذهم الله ﷻ وكان لهم بالمِرْصَادِ ؟ وكيف أهلكوا بمثل ما يفتخرون به . قوم عاد قالوا ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فأهلكوا بالريح وهي أصلاً لطيفة وسهلة . قوم صالح أهلكوا بالرجفة والصيحة ، فرعون أهلك بالماء والغرق ، وكان يفتخر بالماء يقول لقومه : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ٥ أَرَأَيْتَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴿ - يعني موسى - ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ ٥ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَلَّةٍ مَعَهُ

(١) جحافله : أي جيوشه العظيمة الكثيرة الضخمة (المعجم الوسيط ١١٣/١ مادة جحفَل) .

(٢) جوهر سيال : أي الجوهر الذي يكون في حالة وسط بين الصلابة والغازية (المعجم الوسيط ٤٨٦/١ مادة سيل) .

الْمَلَكُ مَقْتَرَيْنِ^(١) ﴿ [الرعرع: ٥١-٥٣] فَأَغْرَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمَاءِ ، فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] .

وقوله^(٢) عن الله ﷻ يقول عن نفسه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] ﴿ يَعْلَمُ ﴾ يعني الله ﷻ ، و ﴿ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ : خيانتها . فالخائنة مصدر كالعاقبة ، وما أشبهها . ويجوز أن تكون اسم فاعل على أنها مِنْ : خَانَ يَخُونُ . فيكون من باب إضافة الصفة إلى موصوفها . على كل حال هذه مسألة نحوية ما تهم هنا ، المهم أن للأعين خيانة ، وذلك أن الإنسان ينظر إلى الشيء ولا تظن أنه ينظر إليه نظراً محرماً ولكن الله ﷻ يعلم أنه ينظر نظراً محرماً .

كذلك ينظر إلى الشخص نظر كراهية ، والشخص المنظور لا يدري أن هذا نظر كراهية ، ولكن الله يعلم أنه ينظر نظر كراهية ، كذلك ينظر الشخص إلى شيء محرم ولا يدري الإنسان الذي يرى هذا الناظر ، لا يدري أنه ينظر إلى الشيء نظر إنكار أو نظر رضا ، ولكن الله سبحانه هو الذي علم ذلك ؛ فهو ﷻ يعلم خائنة الأعين .

ويعلم أيضاً ما تخفي الصدور أي القلوب ؛ لأن القلوب في الصدور والقلوب هي التي يكون بها العقل ويكون بها الفهم ويكون بها التدبير كما قال الله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦] . وقال : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] . سبحانه الله ! كأن هذه الآية تنزل على حال الناس اليوم ، بل حال الناس في القديم ، يعني هل العقل في الدماغ أو العقل في القلب ؟

ج - هذه مسألة أشكلت على كثير من النظار الذين ينظرون إلى الأمور نظرة مادية لا يرجعون فيها إلى قول الله وقول رسوله ﷺ .

والأ فالحقيقة أن الأمر فيها واضح ، أن العقل في القلب ، وأن القلب في الصدر ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦] ، وقال : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج ، الآية : ٤٦] ، ولم يقل القلوب التي في الأذمغة .

فلأمر فيه واضح جداً : إن العقل يكون في القلب ويؤيد هذا قول النبي ﷺ : « أَلَا وَإِنْ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَّحَتْ صَلَّحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ »^(٣) . فما بالك بأمر شهد به كتاب الله والله هو الخالق العالم بكل شيء ، وشهدت به سنة الرسول ﷺ ؟! . إن الواجب علينا إزاء ذلك أن نطرح كل قول يُخَالِفُ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأن نجعله

(١) قوله تعالى : ﴿ مَقْتَرَيْنِ ﴾ أي مقرونين به يصدقونه . (٢) أي قول الإمام النووي رحمه الله .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢) ، ومسلم في المساقاة (١٠٧) ، وابن ماجه في السنن (٣٩٨٤) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٥٤/٢) . والمضغة هي : قطعة اللحم بقدر ما يمضغ .

تحت أقدامنا وأن لا نَزْفَع به رأسًا . إذا : القلب هو محل العقل ، ولا شك ، ولكن الدماغ محل التصور ، ثم إذا تصورناها وجَّهَها بعث بها إلى القلب ، ثم القلب يأمر أو ينهى . فكأنَّ الدِّماغ (سكرتير) يجهز الأشياء ثم يدفعها إلى القلب ، ثم القلب يأمر أو ينهى ، وهذا ليس بغريب ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الدَّارِيَاتُ : ٢١] وفي هذا الجسم أشياء غريبة تحار فيها العقول .

وأيضًا قلنا هذا لأن النَّبي - عليه الصَّلَاة والسلام - قال : «إِذَا صَلَّحْتَ صَلَاحَ الْجَسَدِ» فلولاً أن الأمر للقلب ما كان إذا صَلَّحَ صَلَاحَ الْجَسَدِ ، وإذا فَسَدَ فَسَدَ الْجَسَدِ كُلُّهُ .

إذا : فالقلوب هي محل العقل والتدبير للشخص ولكن لا شك أن لها اتِّصَالًا بالدماغ ، ولهذا إذا اختل الدِّماغ فسد التَّفكير وفسد العقل !

فهذا مُرْتَبِطٌ بهذا ، لكن العقل المدبر في القلب والقلب في الصدر ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

ثم ذكر المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث عمر بن الخطاب هذا الحديث العظيم الذي قال فيه النبي ﷺ في آخره : «أَتَدْرُونَ مِنَ السَّائِلِ ؟» قالوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال : «فَإِنَّ جَبْرِيلَ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» إذا دِينًا في هذا الحديث ؛ لأنه مشتمل على كل الدِّين على الإسلام والإيمان والإحسان .

قال المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

٦٠ - وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ ، فَالْأَوَّلُ : عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : «يَتِمَّا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ الشَّعْرِ ، وَلَا يَعْرِفُهُ مَنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْتَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتُحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» . قَالَ : صَدَقْتَ . فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ! قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ . قَالَ : «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ . قَالَ : «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ . قَالَ : «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا . قَالَ : «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» . ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ : «يَا عَمْرُو أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ ؟» قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : «فَإِنَّ جَبْرِيلَ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ» ^(١) رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) ، وأبو داود في السنن (٤٦٩٥) ، وأحمد في مسنده (٥١/١) ، والبيهقي في السنن (٢٤٢/٤ ، ٣٢٥) .

ومعنى : « تِلْدُ الْأُمَّةُ رَجَّتْهَا » أي : سَيِّدَتْهَا ، ومعناه أَنْ تَكْثُرَ السَّرَارِي حَتَّى تَلْدُ الْأُمَّةُ الشَّرِيَّةَ بِنْتًا لِسَيِّدِهَا ، وَبُنْتُ السَّيِّدِ فِي مَعْنَى السَّيِّدِ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ . وَ « الْعَالَّةُ » الْفُقَرَاءُ . وَقَوْلُهُ « مَلِيًّا » أي : زَمَنًا طَوِيلًا ، وَكَانَ ذَلِكَ ثَلَاثًا .

الشرح

قوله : « بَيْنَمَا » هذه ظرف تدل على المفاجأة ولهذا تأتي بعدها إذ المفيدة المفاجأة ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون عند النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يغيب عن أصحابه أو أهله . - إما في البيت : في شؤون بيته - صلوات الله وسلامه عليه - ، يَخْلُبُ الشاة ، وَيُرْقِعُ الثوب ، ويخفف النعل (١) .

- وإما مع أصحابه في المسجد ، وإما ذاهبًا إلى عيادة مريض أو زيارة قريب ، أو غير ذلك من الأمور التي لا يمضي منها لحظة إلا وهو في طاعة الله - عليه الصلاة والسلام . قد حفظ الوقت ، ليس مثلنا نُضَيِّعُ الْأَوْقَاتَ . وَالْغَرِيبُ أَنْ أَغْلَى شَيْءٌ عِنْدَ الْإِنْسَانِ هُوَ الْوَقْتُ وَهُوَ أَرْخَصُ شَيْءٍ قَالَ اللَّهُ : ﴿ حَقِّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠] حتى لا يضيع عليّ الوقت . ما يقول لعلي أتمتع في المال ، أو أتمتع بالزوجة ، أو أتمتع في المركوب ، أو أتمتع في القصور ، بل يقول لعلي أعمل صالحًا فيما تركت .

مضى عليّ الوقت وما استقدت منه ، هو أغلى شيء ، لكن هو أَرْخَصُ شَيْءٍ عِنْدَنَا الْآنَ نَمْضِي أَوْقَاتًا كَثِيرَةً بغير فائدة ؛ بل نَمْضِي أَوْقَاتًا كَثِيرَةً فِيمَا يَضُرُّ ، وَلَسْتُ أَتَحَدَّثُ عَنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، بَلْ عَنْ عُمومِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ - مع الأسف الشديد - إنهم في سهو ولهو وغفلة ، لَيْسُوا بِجَادِّينَ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ . أَكْثَرُهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَفِي تَرْفٍ يَنْظُرُونَ مَا يَتَرَفُّ بِهِ أَبْدَانُهُمْ ، فَإِنْ أَتَلَفُوا أَدْيَانَهُمْ : فَالرَّسُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانَ دَائِمًا فِي الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ أَوْ الْعَامَةِ .

فبينما الصحابة عندهم جلوس إذ طلع عليهم رجل « شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدِ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنْ أَحَدٍ » وهذا غريب ! ليس مُسَافِرًا حَتَّى نَقُولَ : إِنَّهُ غَرِيبٌ عَنِ الْبَلَدِ وَلَا يَعْرِفُ فَنَقُولُ : إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ . فَتَعْجَبُوا مِنْهُ ، ثُمَّ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي جَاءَ نَظِيفًا شَدِيدَ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدِ سَوَادِ الشَّعْرِ ، أَي : شَابٌ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، لِأَنَّ الْمَسَافِرَ - لَا سِيَّمَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ - يَكُونُ أَشْعَثَ أَغْبَرًا لَنَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى الْإِبِلِ ، أَوْ عَلَى الْأَقْدَامِ وَالْأَرْضُ غَيْرُ مُسْتَفْلَتَةٍ كُلُّهَا غَبَارٌ ، لَكِنْ هَذَا لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنْ أَحَدٍ ، فَهُوَ غَرِيبٌ لَيْسَ بِغَرِيبٍ .

حتى جاء وجلس إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - وهذا الرجل هو جبريل - عليه الصلاة والسلام - أحد الملائكة العظام ، بل هو أفضل الملائكة فيما نعلم لشرف عمله ؛ لأنه يقوم بحمل الوحي من الله إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ فهو ملك عظيم رآه النبي صلى الله عليه وسلم على صورته التي

خُلِقَ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً فِي الْأَرْضِ ، وَمَرَّةً فِي السَّمَاءِ .

- مَرَّةً فِي الْأَرْضِ فِي غَارِ حِرَاءَ رَأَاهُ وَلَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ ^(١) ! كُلُّ الْأَفْقِ أَمَامَ الرَّسُولِ لَا يَرَى السَّمَاءَ مِنْ فَوْقِ لَأَنَّ هَذَا الْمَلِكَ ، قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ . سَبَّحَانَ اللَّهِ !! لَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي الْمَلَائِكَةِ : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ ﴾ [فاطر: ١] . لَهُمْ أَجْنَحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا طَيْرَانًا سَرِيعًا .

- وَالْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ ﴿ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّ ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم: ٤-٩] . هَذَا فِي الْأَرْضِ ، ذَنَا جَبْرِيلَ مِنْ فَوْقِ فَتَدَلَّى أَيَّ : قَرَبَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ الرَّسُولِ مَا أَوْحَاهُ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ الَّذِي حَمَلَهُ إِيَّاهُ . أَمَّا الثَّانِيَةُ : فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] ، فَهَذَا جَبْرِيلُ لَكِنِ اللَّهُ جَعَلَ لِلْمَلَائِكَةِ قُدْرَةً عَلَى أَنْ يَتَشَكَّلُوا بِغَيْرِ أَشْكَالِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ ؛ فَهَا هُوَ قَدْ جَاءَ فِي صُورَةِ هَذَا الرَّجُلِ . قَوْلُهُ : « حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ » أَيَّ أَسْنَدَ رُكْبَةَ جَبْرِيلَ إِلَى رُكْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ : « وَوَضَعَ كَفِيهِ عَلَى فَخْذِهِ » .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَضَعَ كَفِيهِ عَلَى فَخْذِي نَفْسَهُ لَا عَلَى فَخْذِي النَّبِيِّ ﷺ ، وَذَلِكَ مِنْ كِمَالِ الْأَدَبِ فِي جَلْسَةِ الْمُتَعَلِّمِ أَمَامَ الْمُعَلِّمِ ، بِأَنْ يَجْلِسَ بِأَدَبٍ وَاسْتِعْدَادٍ لِمَا يَسْمَعُ مِمَّا يُقَالُ مِنَ الْحَدِيثِ . جَلَسَ هَذِهِ الْجَلْسَةَ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي . صَنَعَ أَهْلُ الْبَادِيَةِ الْأَعْرَابُ ؛ لِأَنَّ الْأَعْرَابَ إِذَا جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ . أَمَّا الَّذِينَ سَمِعُوا أَدَبَ اللَّهِ ﷻ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ فِي كِتَابِهِ : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣] . وَهَذَا يَشْمَلُ دُعَاءَهُ عِنْدَ النَّدَاءِ بِاسْمِهِ ، وَيَشْمَلُ دُعَاءَهُ إِذَا أَمَرَ أَوْ نَهَى فَلَا نَجْعَلُ أَمْرَهُ كَأَمْرِ النَّاسِ إِنْ شِئْنَا امْتَلَنَّا ، وَإِنْ شِئْنَا تَرَكْنَاهُ وَلَا نَجْعَلُ نَهْيَهُ كَنَهْيِ النَّاسِ ، إِنْ شِئْنَا تَرَكْنَاهُ ، وَإِنْ شِئْنَا فَعَلْنَاهُ .

كَذَلِكَ إِذَا دَعَوْنَاهُ لَا نَدْعُوهُ كَدُعَاءِ بَعْضِنَا بَعْضًا فنقول : يَا فُلَانُ يَا فُلَانًا مِثْلَمَا تَنَادِي صَاحِبُكَ ، وَإِنَّمَا نقول : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَكِنِ الْأَعْرَابُ لِبَعْدِهِمْ عَنِ الْعِلْمِ وَجَهْلِ أَكْثَرِهِمْ يُنَادُونَهُ بِاسْمِهِ فيقولون : يَا مُحَمَّدُ . قَالَ : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ - أَيَّ مَا هُوَ الْإِسْلَامُ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » .

هَذَا الرُّكْنُ الْأَوَّلُ : تَشْهَدُ بِلِسَانِكَ تُطَقِّأُ وَبِقَلْبِكَ إِقْرَأْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - يَعْنِي : لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ ﷻ . وَالْوَلُوهِيَةُ اللَّهُ فَرَعَ عَنْ رُبُوبِيَّتِهِ ؛ لِأَنَّ مِنْ تَأَلَّهِ لِلَّهِ فَقَدْ أَقْرَبَ بِالرُّبُوبِيَّةِ ؛ إِذْ إِنْ الْمَعْبُودَ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ كَامِلُ الصِّفَاتِ ، وَلِهَذَا تَجِدُ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ عَنْدهم نَقْصٌ عَظِيمٌ فِي الْعِبَادَةِ ، لِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ لَا شَيْءَ ؛ فَالرَّبُّ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ كَامِلُ الصِّفَاتِ حَتَّى يَعْبُدَ بِمَقْتَضَى هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أَيَّ : تَعْبُدُوا لَهُ

(١) انظر في ذلك البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٢ ، ٣٢٣٤ ، ٣٢٣٥) ، والترمذي في السنن (٣٢٧٤) ، وأحمد في مسنده (٤٠١/١) ، والأفقي هو ما بين السماء والأرض (لسان العرب مادة أفقي) .

وتوسّلوا بأسمائه إلى مطلوبكم . فالدعاء هنا يشمل دُعاء المسألة ودُعاء العبادة .

المهم أنه قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله » ، فلا إله من الخلق ؛ لا ملكٌ مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا شمس ولا قمر ، ولا شجر ولا حجر ، ولا ير ولا بحر ، ولا ولي ولا صديق ولا شهيد ، لا إله إلا الله وحده . وهذه الكلمة أرسل الله بها جميع الرسل ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] أي : ابتعدوا عن الشرك .

هذه الكلمة إذا حققها الإنسان وقالها من قلبه ملتزمًا بما تقتضيه من الإيمان والعمل الصالح ؛ فإنه يدخل الجنة بها .

قال النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(١) جعلنا الله وإياكم منهم . وقوله : « وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » أي تشهد أن محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي الغربي رسول الله ولم يذكر من سواه من الرسل ؛ لأنه نسخ جميع الأديان . كل الأديان باطلة ببعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فدين اليهود باطل ، ودين النصارى باطل غير مقبول عند الله لقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

يتبعون في عباداتهم التي ابتدعوها تعبًا عظيمًا ، وينصبون ^(٢) نصبًا عظيمًا ، وكل هذا هباء ^(٣) لا ينفعهم بشيء . وقوله : ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فلو ربحوا في الدنيا ما ربحوا في الآخرة ؛ لأن أديانهم باطلة ؛ فالذين يدعون الآن من النصارى أنهم ينتسبون إلى عيسى ابن مريم هم كاذبون والمسيح بريء منهم ولو جاء المسيح لقاتلهم . وسينزل في آخر الزمان ولا يقبل إلا الإسلام . فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضُغ الجزية فلا يقبلها من أحد ، لا يقبل إلا الإسلام ^(٤) .

وقوله : « وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » إلى مَنْ ؟

ج - إلى الخلق كافة كما قال الله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] للعالمين كلهم .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْتِي بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [أعراف : ١٥٨] ، فهو رسول إلى جميع الخلق . وقد أقسم ﷺ : « أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٣٢٣/٥) ، والحاكم في المستدرک (٣٥١/١) .

(٢) ينصبون أي : يتبعون .

(٣) الهباء هو : التراب الذي تطيره الرياح ويلزق بالأشياء ، أو ينبث في الهواء فلا يبدو إلا في ضوء الشمس (المعجم الوسيط ١٠١٠/٢) ..

(٤) انظر البخاري في المظالم (٢٤٧٦) ، ومسلم في الإيمان (٢٤٢ ، ٣٤٣) ، أحمد في مسنده (٤٨٢/٢٥) ،

والطبراني في الكبير (١٨٦/١) ، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٥٧/٣) .

بِهِ أَخَذَ يَهُودِي وَلَا نَصْرَانِي ثُمَّ لَا يُؤْمَنُ بِمَا جَاءَ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝ (١) .

ولذلك نحن نؤمن ونعتقد بأن جميع النصارى واليهود وغيرهم من الكفرة كلهم من أصحاب النار؛ لأن هذا شهادة النبي - عليه الصلاة والسلام - والجنة حرام عليهم لأنهم كفره أعداء الله ولرسوله . أعداء إبراهيم ونوح ومحمد وموسى وعيسى وجميع الرسل ليسوا على شيء .

وقوله : « أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » مع قوله : « وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ » هذان جمعا شرطي العبادة وهما الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ ؛ لأنه من قال : لا إله إلا الله أخلص لله ، ومن شهد أن محمداً رسول الله اتبع رسول الله ولم يتبع سواه .

ولهذا عُذُّ هذان ركناً واحداً من أركان الإسلام ؛ لأنهما يعودان إلى شيء واحد وهو تصحيح العبادات ؛ لأن العبادات لا تصح إلا بمقتضى هاتين الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، التي يكون بها الإخلاص ، وأن محمداً رسول الله ، التي يكون بها الاتباع .

وقوله : « وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ » فإنه يجب أن تشهد بلسانك مقراً بقلبك أن محمداً رسول الله أرسله الله إلى العالمين جميعاً رحمة بالعالمين كما قال الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وأن تؤمن بأنه خاتم النبيين كما قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] فلا نبي بعده ، ومن ادعى النبوة بعده فهو كافر كاذب ، ومن صدقه فهو كافر .

ويُلْزَمُ من هذه الشهادة أن تتبعه في شريعته وفي سنته ، وأن لا تبتدع في دينه ما ليس منه ، ولهذا نقول : إن أصحاب البدع الذين يتدعون في شريعة الرسول ﷺ ما ليس منها إنهم لم يُحققوا شهادة : أن محمداً رسول الله ! حتى وإن قالوا إننا نحبه ونُعظمه ؛ فإنهم لو أحبوه تمام الحبة وعظموه تمام التعظيم ما تقدموا بين يديه ، ولا أدخلوا في شريعته ما ليس منها .

فالبدعة مضمونها حقيقة القدح برسول الله ﷺ كأنما يقول هذا المبتدع إن الرسول ﷺ لم يكمل الدين ولا الشريعة ؛ لأن هناك ديناً وشريعة ما جاء بها !

ثم في البدعة محذور آخر وهو عظيم جداً وهو أنه يتضمن تكذيب قول الله : ﴿ أَلَيْسَ لَكُم دِينُكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] ؛ لأن الله إذا كان أكمل الدين ، فمعناه أنه لا دين بعد ما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهؤلاء المبتدعون شرعوا في دين الله ما ليس منه من تشبيحات وتَهْلِيلَاتٍ وحركات وغير ذلك ، فهم في الحقيقة مكذبون لمضمون قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لَكُم دِينُكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] . وكذلك قادحون برسول الله ﷺ متهمون بإثابه بأنه لم يكمل الشريعة للبشر وحاشاه من ذلك .

ومن تمام شهادة أن محمداً رسول الله أن تُصدق فيما أخبر به ، فكل ما صح عنه وجب عليك أن تصدق به ، وأن لا تعارض هذا بعقلك وتقديراتك وتصوراتك ؛ لأنك لو لم تؤمن إلا بما صدق به

عقلك لم تكن مؤمنًا حقيقة ، بل مُتَّبِعًا لِهَوَاكَ لا آخِذًا بهداك .

الإنسان الذي يؤمن بالرسول - عليه الصلاة والسلام - حقًا يقول فيما صح عنه من الأخبار :
سَمِعْنَا وَآمَنَّا وَصَدَقْنَا .

أما أن يقول كيف يكون كذا ، كيف يكون كذا ؛ فهذا غير مؤمن حقيقة ، ولذلك يُخْشَى على أولئك القوم الذين يَحْكُمُونَ عقولهم فيما أخبر به الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأنهم إن كانوا لا يقبلون إلا بما شهدت به عُقُولُهُمْ - وَعُقُولُهُمْ لا شك أنها قاصرة - فإنهم لم يؤمنوا حقًا برسول الله ﷺ ولم يشهدوا أنه رسول الله ﷺ على وجه الحقيقة .

عندهم من ضعف هذه الشهادة بمقدار ما عندهم من التشكك فيما أخبر به .

كذلك من تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله أن لا تَغْلُوا فيه فَتَنْزِلُهُ بِمَنْزِلَةِ أَكْبَرِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ التي أنزله الله إياها مثل أولئك الذين يعتقدون أن الرسول ﷺ يكشف الضر حتى أنهم عند قبره يسألون النبي ﷺ مباشرة أن يكشف الضر عنهم وأن يجلب النفع لهم . هذا غُلُوٌّ في الرسول وشرك بالله ﷻ !! لا يقدر على ذلك أحد إلا الله ﷻ . والنبي ﷺ بعد موته لا يملك لِنَفْسِهِ شيئًا أبدًا .

حتى الصُّحَابَةُ لما أَصَابَهُمُ الْفَخْطُ في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه واشتَقُوا في مسجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما جاءوا إلى القبر يسألون الرسول أو يقولون : ادْعُوا الله لنا أو اشفع لنا عند الله حتى ينزل الغيث !

قام عمر يدعو الله : « اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَشْقِينَا ، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِينَا » ثم أمر العباس أن يقوم ويدعو الله بإنزال الغيث (١) . لماذا ؟

ج : لأن النبي ﷺ مَيِّتٌ لا عَمَلَ لَهُ بعد موته ، هو الذي قال : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِلَّا مَنْ صَدَقَ بَجَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٌ يَنْتَفِعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ » (٢) .

فالنبي ﷺ بنفسه لا يملك شيئًا ، لا يملك أن يدعو لك وهو في قبره أبدًا . فمن أنزله فوق منزلته التي أنزله الله فإنه لَمْ يَحْقُقْ شهادة أن محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ! بل شهد أن محمدًا رب مع الله - نعوذ بالله ، لأن معنى كونه رسولاً أنه عَبْدٌ لا يعبد وَرَسُولٌ لا يكذب ، نحن في صلاتنا كل يوم نقول : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ » ؛ فهو عبد كغيره من العباد مَرْبُوبٌ والله هو الْمُقْبُودُ وهو الرب .

إذا نقول لهؤلاء الذين نجدهم يغفلون برسول الله ﷺ وينزلونه فوق منزلته التي أنزله الله ، نقول لهم : إنكم لم تحققوا ، لا شهادة أن لا إله إلا الله ، ولا شهادة أن محمدًا رسول الله ، فالهم أن هاتين الشهادتين عليهما كل الإسلام ؛ لذلك لو أراد الإنسان أن يتكلم على ما يتعلق بهما مَنْطُوقًا ومفهومًا ومضمونًا وإشارة لاستغرق أيامًا ، ولكن نحن أشرنا إشارة إلى ما يتعلق بهما ، ونسأل الله أن يجعلنا

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٧٦) بلفظه ، ومسلم في الوصية (١٤) بلفظ : إذا مات الإنسان .

وإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَحْقُقُهُمَا عَقِيدَةٌ وَقَوْلًا وَفِعْلًا ١

الركن الثاني : إقام الصلاة :

الصلاة سميت صلاة لأنها صلة بين العبد وبين الله ؛ فإنَّ الإنسان إذا قام يصلي فإنه يتأجج ربه ويحاوره يأخذ معه ويرد كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن الله سبحانه قال : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، فإذا قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : حِمْدُنِي عَبْدِي ، فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ قال : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، فإذا قال : ﴿ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال : مُجَدَّنِي عَبْدِي ، فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هذا بيني وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ . فإذا قال : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الآية) [الفاتحة ١-٧] قال الله : هذا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » (١) . فتأمل : أَخَذُ وإِعْطَاء ، وَمُخَاوَرَةٌ ، وَمُتَاجَاةٌ بين الإنسان وبين ربه ، ومع ذلك فالكثير منا في هذه المُتَاجَاة معرض بقلبه تجده يتجول يمينا وشمالا مع أنه يُتَاجِج من يعلم ما في الصُّدُور ﷻ . وهذا من جهلنا وغفلتنا .

فالواجب علينا - ونسأل الله أن يُعِينَنَا عليه - أن تكون قُلُوبُنَا حاضرة في حال الصَّلَاة حتى تبرأ ذمَّتُنَا وحتى ننتفع بها ؛ لأنَّ الفوائد المترتبة على الصَّلَاة إنما تكون على صلاة كاملة . ولهذا كلنا يقرأ قول الله ﷻ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِإِسْمِ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [التكوير : ٤٥] ، ومع ذلك يأتي الإنسان ويُصلي فلا يجد في قلبه إنكارا لمنكر ، أو عرفا لمعروف زائدا عما دخل في الصلاة . يعني : لا يتحرك القلب ولا يَسْتَفِيدُ ؛ لأنَّ الصَّلَاةَ ناقصة ، هذه الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين . وقد فرضها الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ بدون واسطة من الله إلى رسول الله ، وفرضها عليه في أعلى مكان وصله بَشَرٌ وفَرَضَهَا عليه في أشرف ليلة كانت لرسول الله ﷺ وهي ليلة المعراج وفَرَضَهَا عليه خمسين صلاة في اليوم واللييلة .

وهذه أربعة أمور :

- أولاً : لم يكن فَرَضُهَا كَفَرَضِ الصَّيَامِ والحج ، بل هو من الله مُبَاشَرَةً إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - .
- ثانياً : من ناحية المكان : فهو في أفضل مكان وصل إليه البشر ، فلم تُفَرَضْ على النَّبِيِّ وهو في الأرض .
- ثالثاً : من ناحية الزَّمان : في أشرف ليلة كانت لرسول الله ﷺ وهي ليلة المعراج .
- رابعاً : في الكمية : لم تُفَرَضْ صلاة واحدة ، بل خمسين صلاة مما يُدُلُّ على محبة الله لها ، وأنه يحب من عبده أن يكون دائماً مشغولاً بها .

ولكن الله جعل لكل شيء سبباً لما نزل الرسول - عليه الصلاة والسلام - مُسَلِّماً لأمر الله قانعا بفريضة الله ، ومر بموسى ، وسأله موسى ماذا فرض الله على أمتك ؟ قال : « خمسين صلاة في اليوم واللييلة » .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٩٥) ، والترمذي في السنن (٢٩٥٣) ، والبيهقي في السنن (٣٧/٢) ، جميعهم باختلاف يسير في اللفظ .

قال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، إنني جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، اذهب إلى ربك واسأله أن يخفف عن أمتك ! . فذهب إلى الله وجعل يتردد بين موسى وبين الله حتى جعلها الله خمستا ^(١) لكن الله بمنه وكرمه - وله الحمد والفضل - قال : هي خمس بالفعل وخمسون في الميزان . وليس هذا من قبيل الحسنة بعشر أمثالها ، بل من قبيل الفعل الواحد يجرى عن خمسين فعلاً ؛ فالخمس صلوات هذه عن خمسين صلاة . فكأنما صلينا خمسين صلاة كل صلاة الحسنة بعشر أمثالها ، لأنه لو كان هذا من باب مضاعفة الحسنات لم يكن هناك فرق بين الصلوات وغيرها ، لكن هذه خاصة ، وهذا يدل على عظم هذه الصلوات ، ولهذا فرضها الله على عباده في اليوم والليلة خمس مرات لا بد منها . لا بد أن تكون مع الله خمس مرّات في اليوم تنأجيه .

لو أن أحداً من الناس حصل له مقابلة بينه وبين الملك خمس مرّات باليوم لغد ذلك من مناقبه ولفرح بذلك .

أنت تنأجي ملك الملوك في اليوم خمس مرات على الأقل ، فلماذا لا تفرح بهذا ؟ احمّد الله على هذه النعمة ، وأقم الصلاة .

وقول النبي ﷺ : « وَتَقِيَمُ الصَّلَاةَ » يعني تأتي بها قومية سائلة بشروطها وأزكانها وواجباتها . فمن أهم شروطها : الوقت : لقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾

[النساء : ١٠٣] .

وإذا كانت الصلوات خمساً فأوقاتها خمسة أو ثلاثة! خمسة لغير أهل الأعذار ، وثلاثة لأهل الأعذار الذين يجوز لهم الجمع ، فالظهر والعصر يكون وقتاً واحداً إذا جاز الجمع ، والمغرب والعشاء يكون وقتاً واحداً إذا جاز الجمع . والفجر وقت واحد ، ولهذا فصلها الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ إِذَا الْسَّيْحُ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] ، ولم يقل لدلوك الشمس ^(٢) إلى طلوع الشمس بل قال : ﴿ إِنْكَ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ وغسق الليل يكون عند منتصفه ؛ لأن أشد ما يكون ظلمة في الليل منتصف الليل ؛ لأن منتصف الليل هو أبعد ما تكون الشمس عن النقطة التي فيها هذا المنتصف ، ولهذا كان القول الرّاجح أن الأوقات خمسة كما يلي :

١ - الفجر : من طلوع الفجر الثاني - وهو البياض المعترض في الأفق - إلى أن تطلع الشمس . وهنا أثبتة فأقول : إن التقويم تقويم أم القرى فيه تقديم خمس دقائق في أذان الفجر على مدار السنة ، فالذي يصلي أول ما يؤذن يعتبر أنه صلى قبل الوقت ، وهذا شيء اختبرناه في الحساب الفلكي واختبرناه أيضاً في الرؤية ؛ فلذلك لا يعتمد هذا بالنسبة لأذان الفجر ؛ لأنه مقدّم وهذه مسألة خطيرة جداً .

(١) انظر حديث فرض الصلاة في : البخاري في مناقب الأخيار (٣٨٨٧) بلفظه ، ومسلم في الإيمان (١٦٣) . وقوله : « جرّئتُ الناس » أي : تعرفت عليهم ، وقوله : « عالجت بني إسرائيل » أي داويتهم وحاولت هدايتهم .

(٢) دلوك الشمس : أي بعد زوالها وهو ميلها عن وسط السماء لجهة الغرب .

لو تكبر للإحرام فقط قبل أن يدخل الوقت ما صَحَّت صلاتك فريضة . وقد حدثني أناس كثيرون ممن يعيشون في البر وليس حولهم أنوار أنهم لا يشاهدون الفجر إلا بعد هذا التقويم بثلاث ساعة ، أي : عشرون دقيقة أو ربع ساعة أحياناً ، لكن التقاويم الأخرى الفلكية التي بالحساب يَتَنبَّأُ بها هذا التقويم خمس دقائق . على كل حال : وقت صلاة الفجر من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس .

٢ - والظهر : من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله ، لكن بعد أن تخصم ظل الزوال ، لأن الشمس خصوصاً في أيام الشتاء يكون لها ظل نحو الشمال ، هذا ليس بعبرة ، بل العبرة أنك تنظر إلى الظل ما دام ينقص فالشمس لم تزل ، فإذا بدأ يزيد أذنى زيادة ، فإن الشمس قد زالت .

اجعل علامة على ابتداء زيادة الظل فإذا صار ظل الشيء كطوله ؛ خرج وقت الظهر ودخل وقت العصر .

٣ - ووقت العصر : إلى أن تَصْفُر الشمس والضرورة إلى غروبها .

٤ - ووقت المغرب : من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر ، وهو يختلف ، أحياناً يكون بين الغروب وبين مغيب الشفق ساعة وربع ، وأحياناً يكون ساعة واثنتان وثلاثون دقيقة ، ولذلك وقت العشاء عند الناس الآن لا بأس به ، واحدة ونصف لا يضر (١,٣٠) غروبي ، لو تأخر عن دخول الوقت ما بهم .

٥ - ووقت العشاء : من خروج وقت المغرب إلى منتصف الليل . المعنى : أنك تقدر ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر ثم تنصفه . فالنصف هو منتهى صلاة العشاء . ويترتب على هذا فائدة عظيمة : لو طهرت المرأة في الثلث الأخير من الليل فليس عليها صلاة عشاء ولا المغرب ؛ لأنها طهرت بعد الوقت .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال : « وَقْتُ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ » ^(١) . وليس عن رسول الله ﷺ حديث يدل على أن وقت العشاء يمتد إلى طلوع الفجر أبداً . ولهذا القول الراجح إلى نصف الليل والآية الكريمة تدل على هذا ؛ لأنه فصل الفجر عن الأوقات الأربعة ﴿ أَقْرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّمْسِ ﴾ أي : زوالها : ﴿ إِلَى غَسَقِ أَيْلٍ ﴾ - جمع الله بينها لأنها ليس بينها فاصل ، أما الفجر فقال : ﴿ وَقَرَأَ الْفَجْرَ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] فالفجر لا تتصل بصلاة لا قبلها ولا بعدها ؛ لأن بينها وبين الظهر نصف النهار الأول وبينها وبين صلاة العشاء نصف الليل الآخر ، والله الموفق .

اعلم أن الصلاة قبل دخول الوقت لا تُقْبَلُ حتى لو كَبَّرَ تكبيرة الإحرام ، ثم دخل الوقت بعد التكبيرة مباشرة ؛ فإنها لا تقبل على أنها فريضة ؛ لأن الشيء الموقت بوقت لا يصح قبل وقته ، كما لو أراد الإنسان أن يَصُومَ قبل رمضان ولو بيوم واحد ؛ فإنه لا يجزئه عن رمضان . كذلك الصلاة ، لكن إن كان جاهلاً لا يَدْرِي ؛ صارت نافلة ، ووجب عليه إعادتها فريضة . أما إذا صلاها بعد الوقت فلا يَخْلُو مِنْ حَالَيْنِ :

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة فيها (١٧٢) ، والبيهقي في السنن (١٦٧/١) ، وأبو عوانة في مسنده (٣٥٠/١) .

أ - إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَغْضُورًا بِجَهْلٍ ، أَوْ نِسْيَانٍ ، أَوْ نَوْمٍ ، فَهَذَا تُقْبَلُ مِنْهُ .

- الجهل : مثل أن لا يعرف أن الوقت قد دخل وقد خرج ، فهذا لا شيء عليه متى غَلِمَ فإنه يُصَلِّي الصَّلَاةَ وتُقْبَلُ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مَعْذُورٌ .

- والنسيان : مثل أن يكون الإنسان اشتغل بشغل عظيم شغله وألهاه حتى خرج الوقت ؛ فإن هذا يُصَلِّيها ولو بعد خروج الوقت ، والتوم كذلك ، فلو أن شخصاً نام على أنه سيقوم عند الأذان ، ولكن صار نومه ثقیلاً فلم يَسْمَعْ الأذان ولا المنبه الذي وَضَعَهُ عند رأسه حتى خرج الوقت ؛ فإنه يصلي إذا استيقظ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ ، أَوْ نَسِيَهَا ، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، لَا كُفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ » ^(١) .

ب - فأما الحالة الثانية : فأن يُؤَخَّرَ الصَّلَاةُ عَنْ وَقْتِهَا عَمْدًا مِنْ غَيْرِ عَذْرِ ، فاتفق العلماء على أنه آثم وعاص لله ورسوله . وقال بعض العلماء : إنه يكفر بذلك كُفْرًا مخرجًا عن المِلَّةِ - نسأل الله العافية ! ولكن الصحيح : أنه لا يَكْفُرُ وهذا قول الجمهور ، ولكن اختلفوا فيما لو صلاها في هذه الحال ، أي بعد أن أخرجها عن وقتها عمدًا بلا عذر ثم صلى ، فمنهم من قال إنها تُقْبَلُ - أي صلاته - لأنه عاد إلى رشده وصوابه ، ولأنه إذا كان الناسي تقبل منه الصلاة بعد الوقت فالتعمد كذلك .

لكن القول الصحيح الذي تُؤَيِّدُهُ الأدلة : أنها لا تُقْبَلُ مِنْهُ إِذَا أَخْرَجَهَا عَنْ وَقْتِهَا ، وَلَوْ صَلَّى أَلْفَ مَرَّةٍ ذَلِكَ لقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » ^(٢) ، يعني مردود غير مقبول عند الله . وإذا كان مردودًا فلن يُقْبَلُ ، وهذا الذي أخرج الصلاة عمدًا عن وقتها إذا صلاها فقد صلاها على غير أمر الله ورسوله .

وأما المَعْذُورُ : فهو معذور ، ولهذا أمره الشارع أن يُصَلِّيها إِذَا زَالَ عُذْرُهُ ، أما من ليس بمعذور فإنه لو بقي يصلي كل دهره فإنها لا تقبل منه هذه الصلاة التي أخرجها عن وقتها بلا عذر ، فعليه أن يتوب إلى الله ويستقيم ويكثر من العمل الصالح والاستغفار « وَمَنْ تَلَبَّ تَلَبَّ اللَّهُ عَلَيْهِ » .

الشَّرْطُ الثَّانِي : الطَّهَارَةُ :

وَمِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ : الطَّهَارَةُ ؛ فَإِنَّهُ لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بغير طهور . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ » ^(٣) . فلا بد أن يقوم الإنسان بالطهارة على الوجه الذي أمر به ؛ فإن أحدث حَدَثًا أصغر مثل : البول والغائط والريح والنوم وأكل لحم الإبل ؛ فإنه يتوضأ .

وفروض الوضوء كما يلي :

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٧) ، ومسلم في المساجد (٣١٤) كلاهما بلفظ : « مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا » ، والألباني في إرواء الغليل (٢٩١/١ ، ٢٩٤) بألفاظ قريبة منه .

(٢) أخرجه مسلم في الأفضية (١٨) ، والبخاري في الاعتصام باب (٢٠) ، وأحمد في مسنده (١٨٠/٦) . ومعنى « ليس عليه أمرنا » أي ليس عليه إجماع الأمة .

(٣) أخرجه البخاري في الحيل (٦٥٤) ، وأبو داود في السنن (٦٠) ، وأحمد في مسنده (٣١٨/٢) ومعنى « أحدث » أي : أخرج شيئاً من السيلين .

غسل الوجه ، واليدين إلى المرفقين ، ومسح الرأس ، وغسل الرجلين إلى الكعبين . كما أمر الله بذلك في قوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] .

ومن الرأس : الأذنان ، ومن الوجه : المضمضة والاستنشاق في الفم والأنف ، فلا بد في الوضوء من غسل هذه الأعضاء الأربعة ، غسل في ثلاثة ، ومسح في واحد .

وأما الاستنجاء : أو الاستجمار : فهو إزالة نجاسة لا علاقة له بالوضوء ، فلو أن الإنسان بال أو تقوط واستنجى ثم ذهب لشغله ، ثم دخل الوقت ؛ فإنه يتوضأ بتطهيره الأعضاء الأربعة ، ولا حاجة إلى أن يستنجي ، لأن الاستنجاء إزالة نجاسة متى أزيلت فإنه لا يُعاد الغسل مرة ثانية إلا إذا رجعت مرة ثانية . والصحيح : أنه لو نسي أن يستجمر استجماراً شرعياً ثم توضأ ، فإن وضوءه صحيح ؛ لأنه كما قلت : ليس هناك علاقة بين الاستنجاء وبين الوضوء .

أما إذا كان مُخِدِّثاً حَدَثًا أَكْبَرَ مِثْلَ الْجَنَابَةِ ؛ فعليه أن يَغْتَسِلَ ، فيعمم جميع بدنه بالماء لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة : ٦] ، ومن ذلك : المضمضة والاستنشاق ؛ لأنهما داخِلان في الوجه ، فيجب تطهيرهما كما يجب تطهير الجبهة والحد واللحية .

والغسل الواجب الذي يكفي : أن تعم جميع بدنك بالماء سواء بدأت بالرأس ، أو بالصدر ، أو بالظهر ، أو بأفضل البدن ، أو انغمست في بركة وخرجت منها بيئة الغسل .

والوضوء في الغسل سُتَّةٌ وليس بواجب ، ويُسنُّ قبل أن يغتسل . وإذا اغتسل فلا حاجة إليه مرة ثانية ؛ لأنه لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه توضأ بعد اغتساله .

فإذا لم يجد الماء ، أو كان مريضاً يَخْشَى من استخدام الماء ، أو كان برد شديد وليس عنده ما يُسَخِّن به الماء فإنه يَتِيمِم لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْقَائِلِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ [المائدة : ٦] .

فبين الله حال السفر والمرض أنه يَتِيمِم فيهما إذا لم يجد الماء في السفر .

أما خوف البرد : فذليله قصة عمرو بن العاص رضي الله عنه : أن النبي ﷺ بعثه في سرية فأجنب فتيمة وصلَّى بأصحابه إماماً . فلما رجعوا إلى النبي ﷺ قال له : « أَصْلَبْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ ؟ » قال نعم ! يا رسول الله : ذكرت قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] وخفت البرد فَتَيَمَّمْتُ صَعِيدًا طَيِّبًا فَصَلَّيْتُ . فأقره النبي ﷺ على ذلك ولم يأمره بالإعادة ^(١) . لأن من خاف الضرر كمن فيه الضرر ، لكن بشرط أن يكون الخوف غالبًا أو قاطعًا ، أمَّا مُجَرَّد الوهم فهذا ليس بشيء . واعلم أن طهارة التيمم تقوم مقام طهارة الماء ولا تنتقض إلا بما تنتقض به طهارة الماء أو يزوال الغدر المبيح للتيمم .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣٤) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٤) ، والبيهقي في السنن (٢٢٥/١) .

فمن تيمم لعدم وجود الماء ثم وجده فإنه لا بد أن يتطهر بالماء ، لأن الله تعالى إنما جعل التراب طهارة إذا غُيِمَ الماء . وفي الحديث الذي أخرجه أهل السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ » - أو قال : « طَهُورُ الْمُسْلِمِ » - « وإن لم يجد الماء عَشْرَ سِنِينَ ، فإن وَجَدَهُ ، فليَتَّقِ اللَّهَ وَلِيَمْسِهِ بِشَرَّتِهِ » (١) .

وفي صحيح البخاري في حديث عمران بن حصين الطَّوِيلِ في قصة الرجل الذي اعتزل فلم يصل مع النبي ﷺ فسأله فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَنَا ؟ » ، قال : « أَصَابَتْني جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ ، فَقَالَ : « عَلَيْكَ الصَّعِيدُ ؛ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ » : ثم حَضَرَ الماء فَأَعْطَى النبي ﷺ هذا الرجل مَاءً ، وَقَالَ : « أَفْرِغْهُ عَلَى نَفْسِكَ » (٢) « أي : اغتسل به فدل هذا على أنه إذا وَجَدَ الماءَ بَطُلَ التيمم ، وهذه ولله الحمد قاعدة حتى عند العامة يقولون : « إِذَا حَضَرَ الماءَ بَطُلَ التيمم » (٣) .

أما إذا لم يحضر الماء ولم يُزَلَّ العُدْرُ : فإنه يقوم مقام طهارة الماء ولا يبطل بخروج الوقت ، فلو تيمم الإنسان وهو مُسَافِرٌ ولا ماء عنده لصلاة الظهر مثلاً ، وبقي لم يُخْدِثْ إلى العشاء ؛ فإنه لا يُلْزَمُهُ إعادة التيمم ؛ لأن التيمم لا يبطل بخروج الوقت ؛ لأنه طهارة شرعية كما قال الله في القرآن الكريم : ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، فبين الله أن طهارة التيمم طهارة ، وقال الرسول ﷺ : « جَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا » بفتح الطاء أي : أنها تطهر : « فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ » (٤) . وفي حديث آخر « فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ » (٥) . يعني : فليطهر وليصل .

هذا من الأشياء المهمة في إقامة الصلاة : المحافظة على الطهارة .

واعلم أن من المحافظة على الطهارة : إزالة النجاسة من ثوبك وبدنك ومُصْلَاكَ الذي تصلي عليه . فلا بد من الطهارة في هذه المواضع الثلاث : البدن ، والثوب ، والمصلى .

١ - ودليل هذا : أن النبي ﷺ أمر النساء اللاتي يُصَلِّينَ في ثيابهن وهن يحضن بهذه الثياب أن تُزِيلَ المرأةُ الدم الذي أصابها من ثوبها ، تحكه بظفرها ثم تقرصه بأصبعيها الإبهام والسَّبابَةَ ثم تغسله (٦) . ولما صلى ذات يوم بأصحابه وعليه نعاله خَلَعَ نعليه فخلع الناس نعالهم ، فلما سلم سألهم لماذا خلعوا نعالهم ؟ قالوا : رأيناك خلعت نعليك فخلعنا نعالنا ، قال : « إِنْ جَبُرِيلُ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣٢) والبيهقي في السنن (٧/١ ، ٨) والدارقطني في السنن (١٨٦/١) .

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٤) أحمد في مسنده (٤٣٤/٤) ، والبيهقي في السنن (٢١٨/١) .

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٩٠/١) ، وقال : لا أعلمه حديثاً ، وإن كان معناه صحيحاً في الجملة .

(٤) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (١٤٨/٥) ، والدارمي في

السنن (٢٢٤/٢) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/٥) .

(٦) ذكر ذلك البخاري في الحيض (٣٠٧) ومسلم في الطهارة (١١٠) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٦) ، والبيهقي

في السنن (٤٠٢/٢) .

فيهما قَدْرًا ^(١) . فدل هذا على أنه لا بد من اجتناب النجاسة في الملبوس .

٢ - أما المكان : فإن دليله ؛ أن أعرابيا جاء قبال في طائفة من المسجد - أي : في طرف منه ! لكنه أعرابي - والأعراب الغالب عليهم الجهل - فصاح به الناس وزجروه ، ولكن الرسول ﷺ بحكمته نهاهم وقال : « اتركوه » فلما قضى بولَه دعاه النبي ﷺ وقال له : « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَذَى أَوْ الْقَذَرِ ؛ إِنَّمَا هِيَ لِلصَّلَاةِ ، وَالتَّسْبِيحِ ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ » ^(٢) أو كما قال ﷺ ، فقال الأعرابي : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا . لأن الصحابة زجروه ، وأما النبي ﷺ فكلَّمه بلطف فظن أن الرحمة ضيقة لا تتسع للجميع . ويذكر أن الرسول قال له : « لَقَدْ تَحَجَّرَتْ وَاسْعًا » ، وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُصَبَّ على البول دُثُوبٌ من ماء مثل الدلو لِتُطَهَّرَ الْأَرْضُ ^(٣) .

٣ - وأما طهارة البدن : فقد ثبت في الصَّحِيحَيْنِ من حديث عبدالله بن عباس : أن الرسول ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ : إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ : أَمَا أَخَذَهُمَا : فكان لا يَسْتَبْرِئُ من البول ، وأما الآخرُ : فكان يَمْشِي بالنَمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ ^(٤) والعياذ بالله .

فدل هذا : على أنه لا بد من التَّنَزُّهِ مِنَ الْبَوْلِ ، وهكذا بقية النجاسات ، ولكن لو فرض أن الإنسان في البر وتنجس ثوبه وليس معه مَا يَغْسِلُهُ بِهِ فَهَلْ يَتِيمِمُ مِنْ أَجْلِ صَلَاتِهِ فِي هَذَا الثَّوْبِ ؟

ج - لا يتيمم وكذلك لو أصاب بدنه نجاسة ، رجله أو يده أو ساقه أو ذراعه نجاسة وليس عنده ما يغسله ؛ فإنه لا يتيمم ، لأن التيمم إنما هو بطهارة الحدث فقط . أما النجاسة فلا يتيمم لها ، لأن النجاسة عين قَدْرَةٍ تطهيرها بإزالتها إن أمكن فذاك ، وإن لم يمكن تبقى حتى يمكن إزالتها ، والله أعلم .

أحكام المسح على الخفين والجبيرة :

سبق أن للوضوء أربعة أركان : اثنان يغسلان وواحد يُمَسِّحُ وواحد يغسل ويمسح ! .

- أما الوجه : فلا يمكن أن يمسح إلا إذا كان هناك جبيرة ، أي : لزقة على جرح وَمَا أَشْبَهَهُ .

فلو أن إنسانًا غطى وجهه بشيء من سموم شمس أو غيره ، فإنه لا يمسح عليه ، بل يُزِيلُ الْغَطَاءَ وَيَغْسِلُ الْوَجْهَ . إلا إذا كان هناك ضرورة ؛ فإنه يَمْسَحُ مَا غَطَى بِهِ وَجْهَهُ عَلَى سَبِيلِ الْبَدَلِ مِنَ الْغَسْلِ .

- وأما اليدان : فكذلك لا تمسحان ، بل لا بد من غسلها إلا إذا كان هناك ضرورة ؛ مثل أن يكون

فيهما حساسية يضرها الماء وجعل عليهما لفافة ، أو لبس قفازين من أجل أن لا يأتيهما الماء ، فلا بأس أن يمسح مسح جبيرة للضرورة .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٦٥٠) وأحمد في المسند (٩٢/٣) ، والبيهقي في السنن (٤٠٣/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٠٠) .

(٣) هذه الرواية ذكرها البخاري في الأدب (٦٠١٠) وأحمد في مسنده (٢٨٣/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (٢١٦) ومسلم في الطهارة (٢٩٢) والترمذي في السنن (٧٠) وابن ماجه في

السنن (٣٤٧) .

- وأما الرأس : فيمسح وطهارته أخف من غيره ، ولهذا لو كانت المرأة على رأسها حِثَاءً مُلَبَّدٍ عَلَيْهِ أو لبس المحرم رأسه في حال إحرامه كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فإنه يمسح هذا الملبد ولا حاجة إلى أن يزيله .

- أمَّا الرجلان : فتغسلان وتمسحان ولهذا جاء القرآن الكريم على وجهين في قراءة قوله تعالى : ﴿ وَأَرْجُلُكُمْ ﴾ بالفتح والكسر . أما قراءة الكسر ﴿ أَرْجُلُكُمْ ﴾ فهي عطفًا على قوله : ﴿ وَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، أي : وامسحوا بأرجلكم . وأما النصب ﴿ وَأَرْجُلُكُمْ ﴾ فهي عطفًا على قوله تعالى : ﴿ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] أي : واغسلوا أرجلكم .

ولكن متى تُمسح الرجل ؟

ج - تمسح الرجل إذا لبس عليها الإنسان جوارب أو خفين .

الجوارب : ما كان من القطن أو الصوف أو نحوه .

والخفان : ما كان من الجلد أو شبهه ؛ فإنه يمسح عليهما لكن بشروط أربعة :

الأول : الطهارة : أي طهارة الخفين أو الجوربين ، فلو كانا من جلد نجس فإنه لا يصح المسح عليهما ؛ لأن النجس خبيث لا يتطهر مهما مسحته وغسلته .

أما إذا كانتا متنجستين : فمن المعلوم أن الإنسان لا يصلي فيهما فلا يمسح عليهما .

الثاني : أن يلبسهما على طهارة بالماء ، فإن لبسهما على تيمم فإنه لا يمسح عليهما . فلو أن شخصًا مُسَافِرًا لبس الجوارب على طهارة تيمم ثم قدم البلد ؛ فإنه لا يمسح عليهما ؛ لأنه لبسهما على طهارة تيمم ، وطهارة التيمم إنما تتعلق بالوجه والكفين لا علاقة لها بالرجلين .

وعلى هذا يكون الشرط مأخوذًا من قول النبي ﷺ للمغيرة بن شعبة : « إني أدخلتهما طاهرتين » ^(١) .

الثالث : أن يكونا في الحدث الأصغر : أي : في الوضوء ، أما الغسل فلا تمسح فيه الخفان ولا الجوارب ، بل لا بد من خلعهما وغسل الرجلين . لو كان على الإنسان جَنَابَةٌ فإنه لا يمكن أن يمسح على خفيه .

الرابع : أن يكون في المدة المحددة شرعًا : وهي يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام للمسافر .

ولكن متى تَبْتَدِئُ ؟

ج : تبتدئ من أول مرة مسح بعد الحدث ، أما ما قبل المسح الأول فلا يحسب من المدة . فلو فُرضَ أَنَّ شخصًا لبسهما على طهارة في صباح اليوم الثلاثاء وبقي إلى أن صلى العشاء في طهارته ثم نام في ليلة الأربعاء ولما قام لصلاة الفجر مسح ، فيوم الثلاثاء : لا يُحسب عليه ؛ لأنه قبل المسح ، بل يحسب عليه من فجر يوم الأربعاء ؛ لأن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : « جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ، ويومًا وليلة للمقيم » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٠٦) ومسلم في الطهارة (٧٩) وأحمد في مسنده (٢٥١/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٨٥) .

وقال صفوان بن عسال : « أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَمْسَحَ خِيفَاتَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهِمْ إِذَا كُنَّا سَفَرًا »^(١) . فالعبرة بالمسح لا باللبس ، ولا بالحدث بعد اللبس . فيتم المقيم يوماً وليلة أي : (٢٤) ساعة ، ويتم المُسافر ثلاثة أيام بلياليهن أي : (٧٢) ساعة . فإن مسح الإنسان وهو مقيم وسافر قبل أن تتم المدة ؛ فإنه يتم مسح مُسافر ثلاثة أيام ؛ مثلاً : لو لبس اليوم لصلاة الفجر ومسح لصلاة الظهر ، ثم سافر بعد الظهر ؛ فإنه يتم ثلاثة أيام ، ولو كان بالعكس مسح وهو مُسافر ثم أقام ، فإنه يتم مسح مُقيم ؛ لأن العبرة بالنهاية لا بالبداية .

وهذا الذي رجع إليه الإمام أحمد رحمته الله وكان بالأول يقول : إن الإنسان إذا مسح مقيماً ثم سافر ؛ أتم مسح مقيم ، ولكنه رجع عن هذه الرواية وقال : إنه يتم مسح مُسافر^(٢) . ولا تستغرب أن العالم يرجع عن قوله ؛ لأن الحق يجب أن يتبع فمضى تبين للإنسان الحق وجب عليه اتباعه . فالإمام أحمد رحمته الله أحياناً يُروى عنه في المسألة الواحدة أربعة أقوال أو خمسة إلى سبعة أقوال في مسألة واحدة . وهو رجل واحد ، أحياناً يصرح بأنه رجع وأحياناً لا يصرح .

إن صرح بأنه رجع عن قوله الأول ؛ فإنه لا يجوز أن ينسب إليه القول الأول الذي رجع عنه إلا مقيداً فيقال : قال به أولاً ثم رجع ، أما إذا لم يصرح بالرجوع ؛ فإنه يجب أن يُحسب القولان له . والإمام أحمد تكثر الرواية عنه ؛ لأنه أثري يأخذ بالآثار والذي يأخذ بالآثار ليس تأتية الآثار دفعة واحدة حتى يُحيط بها مرة واحدة ويستقِر على قول منها ، لكن الآثار تتجدد ، يُنقل له حديث اليوم وينقل له حديث في اليوم الثاني وهكذا .

واعلم أن الإنسان إذا تمت المدة وهو على طهارة ؛ فإنه لا تنتقض طهارته لكن لو انتقضت فلا بد من خلع الخفين وغسل القدمين ، لكن بمجرد تمام المدة لا ينقض الوضوء . كذلك إذا خلعهما بعد المسح وهو على طهارة ، فإنها لا تنتقض طهارته ، بل يبقى على طهارته ، فإذا أراد أن يتوضأ فلا بد من أن يغسل قدميه بعد أن نزع .

والقاعدة في هذا أنه متى نزع المسح ؛ فإنه لا يعاد ليمسح ، بل لابد من غسل الرجل ثم إعادته إذا أراد الوضوء .

الشرط الثالث : استقبال القبلة :

فاستقبال القبلة شرط من شروط الصلاة لا تصح الصلاة إلا به ؛ لأن الله تعالى أمر وكرر الأمر به في أول الجزء الثاني من القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٥٠] ، أي : جهته .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٩٦) والنسائي في السنن (١٢٧) وابن ماجه في السنن (٤٧٨) .

(٢) انظر المغني لابن قدامة مع الشرح الكبير (٣٢٧/١ - ٣٢٨) .

وكان النبي ﷺ أول ما قَدِمَ المدينة كان يصلي إلى بيت المقدس فيجعل الكعبة خلف ظهره والشام قبل وجهه ، ولكنه بعد ذلك تَرَقَّبَ أن الله ﷻ يشرع له خلاف ذلك فجعل يقلب وجهه في السماء ينتظر متى ينزل عليه جبريل بالوحي في استقبال بيت الله الحرام ^(١) ، كما قال الله تعالى : ﴿ قَدْ رَأَى نَفْلَهُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا نَظَرَ تَوَلَّى وُجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، فأقره الله أن يستقبل المسجد الحرام ، أي : جهته . إلا أنه يُسْتَنَى من ذلك ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : إذا كان عاجزاً كمريض وجهه إلى غير القبلة ولا يستطيع أن يتوجه إلى القبلة فإن استقبال القبلة يسقط عنه في هذه الحال لقوله : ﴿ فَأَنقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التين : ١٦] . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .
وقول النبي ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ^(٢) .

المسألة الثانية : إذا كان في شدة الخوف كإنسان هارب من عدو ، أو هارب من سبع ، أو هارب من نار ، أو هارب من وادٍ يفرقه ! المهم أنه في شدة خوف ؛ فهنا يُصَلِّي حيث كان وجهه وذليله قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) [البقرة : ٢٣٩] ، فإن قوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ عام يشمل أي خوف . وقوله : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٩] على أن أي ذكر تركه الإنسان من أجل الخوف فلا حرج عليه فيه ، ومن ذلك استقبال القبلة .

ويدل عليه : ما سبق من الآيتين الكريميتين والحديث النبوي في أن الوجوب معلق بالاستطاعة .
المسألة الثالثة : في التأفلة في السفر سواء كان على طائرة ، أو على سيارة ، أو على بعير ؛ فإنه يصلي حيث كان وجهه في صلاة النفل مثل : الوتر ، وصلاة الليل ، والضُّحَى ، وما أشبه ذلك . والمسافر ينبغي له أن يتنفل بجميع التوافل كالمقيم سواءً إلا في الرواتب كراتبة الظهر والمغرب والعشاء ، فالشنة تركها .

إذا أراد أن يتنفل وهو مُسافر ؛ فليتنفل حيث كان وجهه ؛ لأن ذلك هو الثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ ^(٤) . فهذه ثلاث مسائل لا يجب فيها استقبال القبلة ! .

أما الجاهل فيجب عليه أن يستقبل القبلة ، لكن إذا اجتهد وتحرى ثم تبين له الخطأ بعد الاجتهاد ؛ فإنه لا إعادة عليه ولا نقول إنه يسقط عنه الاستقبال ؛ بل يجب عليه الاستقبال ، ويتحرى بقدر استطاعته ، فإذا تحرى بقدر استطاعته ثم تبين له الخطأ ؛ فإنه لا يعيد صلاته ، ودليل ذلك : أن

(١) انظر البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) ، والدار

قطني في السنن (٢٨١/٢) . (٣) قوله ﴿ فَرِجَالًا ﴾ أي سائرين على أرجلكم .

(٤) انظر البخاري في تقصير الصلاة (١٠٩٤) ومسلم في صلاة المسافرين (٣٢) .

الصحابة الذين لم يعلموا بتحويل القبلة إلى الكعبة ، كانوا يصلون ذات يوم صلاة الفجر في مسجد قباء فجاءهم رجل فقال : إن النبي ﷺ أنزل عليه قرآن وأمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فاستداروا ، بعد أن كانت الكعبة وراءهم جعلوها أمامهم ، فاستداروا واستمروا على صلاتهم ^(١) . وهذا في عهد النبي ﷺ ولم يكن إنكاراً له فيكون ذلك مشروعاً ، يعني أن الإنسان إذا أخطأ في القبلة جاهلاً ؛ فإنه ليس عليه إعادة ، ولكن إذا تبين له ولو في أثناء الصلاة ؛ وجب عليه أن يستقيم إلى القبلة ، فهذا استقبال القبلة شرط من شروط الصلاة لا تصح الصلاة إلا به إلا في المواضع الثلاثة ، وإلا إذا أخطأ الإنسان بعد الاجتهاد والتخري .

وهنا مسألة : يجب على من نزل على شخص ضيقاً وأراد أن يتنفل أن يسأل عن القبلة ، فإذا أخبره اتجه إليها ؛ لأن بعض الناس تأخذ العزة بالإثم ، ويمتنع الحياء وهو في غير محله عن السؤال عن القبلة . فبعض الناس يستحي من السؤال حتى لا يقول الناس لا يعرف ! لا يضُر ، فليقولوا ما يقولونه ، بل اسأل عن القبلة حتى يخبرك صاحب البيت .

أحياناً بعض الناس تأخذ العزة بالإثم ويتجه بناءً على ظنه إلى جهة ما ، ويتبين له أنها ليست القبلة ، وفي هذه الحال يجب عليه أن يعيد الصلاة ؛ لأنه استند إلى غير مستند شرعي . والمستند إلى غير مستند شرعي لا تقبل عبادته لقول النبي ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ زِد » ^(٢) .

الشرط الرابع : النية :

فإن الصلاة لا تصح إلا بنية لقول النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ... » الحديث .

وقد دلت الآيات الكريمة على اعتبار النية في العبادات مثل قوله تعالى في وصف النبي ﷺ وأصحابه : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، والآيات في هذا كثيرة وقال : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ^(٣) [النساء : ١٠٠] ، فالنية شرط من شروط صحة الصلاة لا تصح الصلاة إلا بها ، وهي في الحقيقة ليست بالأمر الصعب كل إنسان عاقل مختار يفعل فعلاً فإنه قد نواه . فلا تحتاج إلى تعب ولا إلى نطق محلها القلب : « إنما الأعمال بالنيات » ، ولأن النبي ﷺ لم ينطق بالنية ولا أمر أمته بالنطق بها ، ولا فعلها أحد من أصحابه ، فأقره على ذلك ، فالنطق بالنية بدعة ، هذا هو القول الراجح ؛ لأنك كما تشاهد الرسول وأصحابه يصلون ليس فيهم أحد نطق قال : اللهم إني نويت أن أصلي .

وما أظرف قصة ذكرها لي بعض الناس عليه رحمة الله ، قال لي : إن رجلاً في المسجد الحرام

(١) انظر البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٣) بلفظه والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٢) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) قوله ﴿ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : مهاجراً في سبيل الله .

قديمًا أراد أن يصلي فأقيمت الصلاة ، فقال : اللهم إني نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات لله تعالى خلف إمام المسجد الحرام .

لما أراد أن يكبر قال له : اصبر بقي عليك ! قال : ما الباقي ؟ قال له : قل في اليوم الفلاني وفي التاريخ الفلاني من الشهر والسنة حتى لا تضيع هذه الوثيقة . فتعجب الرجل ! والحقيقة أنها محل التعجب ، هل أنت تعلم الله ﷻ بما تريد ؟ الله يعلم ما توسوس به نفسك .

هل تُعلم الله بعدد الركعات والأوقات ؟ لا داعي له هو يعلم هذا ؛ فالتنية محلها القلب .

ولكن كما نعلم أن الصلوات تنقسم إلى أقسام : نفل مطلق ، ونفل معين ، وفريضة .

الفرائض خمس : الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء . إذا جئت إلى المسجد في وقت الفجر ، فماذا تريد ؟ أتريد أن تصلي المغرب ! الفجر ؟ .

وهناك مسألة : إذا جئت وكبرت وغاب عن ذهنك أي صلاة هي ، وهذا يقع كثيرًا إذا جاء بسرعة يخشى أن تفوته الركعة . فهنا لا حاجة ، ووقوع الصلاة في وقتها دليل على أنه إنما أردت هذه الصلاة . ولهذا لو سألك أي واحد هل أردت الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ؟ لقلت : أبدًا ما أردت إلا الفجر . إذا لا حاجة إلى أن أنوي أنها الفجر ، صحيح أنني إن نويتها الفجر أكمل ، لكن أحيانًا يغيب عن الذهن التعيين ، فنقول يعينها الوقت .

إذا الفرائض يكون تعيينها على وجهين :

الوجه الأول : أن يعينها بعينها فيقول بقلبه إنه نَوَى الظهر وهذا واضح .

الوجه الثاني : الوقت فما دمت تصلي الصَّلَاة في هذا الوقت فهي هي الصلاة .

هذا الوجه الثاني إنما يكون في الصلاة المؤداة في وقتها ، أمّا لو فُرِضَ أن على إنسان صلوات مقضية كما لو نام يومًا كاملاً عن الظُّهر والعصر والمغرب ؛ فهذا إذا أراد أن يقضي لابد أن يعينها بعينها ؛ لأنه لا وقت لها .

النوافل المعينة مثل : الوتر ، وركعتي الضُّحى ، والرواتب ؛ فهذه لابد أن تعينها بالاسم .

لكن بالقلب لا باللسان !

فإذا أردت أن تصلي الوتر مثلاً وكبرت ولكن ، ما نويت الوتر وفي أثناء الصلاة نويتها الوتر هذا لا يصح ؛ لأن الوتر نفل معين والنوافل المعينة لابد أن تُعَيَّنَ بعينها .

النوافل المطلقة ما تحتاج إلى نية إلا نية الصَّلَاة .

نية الصلاة لابد منها ، مثل إنسان في الضُّحى توضأ ، وأراد أن يصلي ما شاء الله نقول : يكفي نية الصَّلَاة ؛ وذلك لأنها صلاة غير معيّنة .

إذا أراد الإنسان أن ينتقل في الصلاة من نية إلى نية هل هذا ممكن ؟

ج - ننظر الانتقال من مُعَيَّن إلى مُعَيَّن أو من مطلق إلى معين لا يصح .

مثال المطلق : إنسان قام يصلي صلاة نافلة مطلقة ، وفي أثناء الصلاة ذكر أنه لم يصل راتبة الفجر فنواها لراتبة الفجر .

نقول : لا تصح لراتبة الفجر ؛ لأنه انتقال من مطلق إلى معين ، المعين لابد أن تنويه من أوله ، فراتبة الفجر من التكبير إلى التسليم .

ومثال معين إلى معين : رجل قام يُصَلِّي العصر ، وفي أثناء صلاته ذكر أنه لم يصل الظهر ، أو أنه صلاًها بغير وضوء ، فقال : الآن نويتها للظهر ؛ هنا لا تصح للظهر ؛ لأنه من معين إلى معين ، ولا تصح أيضاً صلاة العصر التي ابتداء ؛ لأنه قطعها بانتقاله إلى الظهر .

أما الانتقال من معين إلى مطلق : فإنه يصح . مثل : إنسان شرع في صلاة الفريضة ، ثم لما شرع ذكر أنه على ميعاد لا يمكنه أن يتأخر فيه ، فنواها نفلاً ؛ فإنها تصح إذا كان الوقت مُتَسَعّاً ولم يفوت الجماعة . هذان شرطان : الشرط الأول : إذا كان الوقت مُتَسَعّاً ، والثاني : إذا لم يفوت الجماعة . فمثلاً إذا كان في صلاة جماعة فلا يمكن أن يُحوّلها إلى نفل مطلق ؛ لأن هذا يشتلزم أن يدع صلاة الجماعة . إذا كان الوقت ضيقاً ؛ فلا يصح أن يحولها إلى نفل مطلق ؛ لأن صلاة الفريضة إذا ضاق وقتها لا يتحمل الوقت سواها ، فصارت الحالات ثلاثاً :

١ - من مطلق إلى معين : لا يصح المعين ويبقى المطلق .

٢ - من مُعَيَّن إلى مُعَيَّن : يبطل الأول ولا ينعقد الثاني .

٣ - من معين إلى مطلق : يصح ويبقى المعين عليه .

نية الإمامة والائتمام :

الجماعة تحتاج إلى إمام ومؤموم وأقلها اثنان : إمام ومؤموم . وكلما كان أكثر فهو أحب إلى الله ، ولابد من نية المؤموم والائتمام ، وهذا شيء متفق عليه ، يعني إذا دخلت في جماعة فلا بد أن تنوي الائتمام بإمامك الذي دخلت معه . ولكن النية لا تحتاج إلى كبير عمل ؛ لأن مَنْ أتى إلى المسجد فإنه نوى أن يأتي ، ومن قال لشخص : صل بي ؛ فإنه قد نوى أن يأتي .

أما الإمام : فقد اختلف العلماء - رحمهم الله - هل يجب أن ينوي أن يكون إماماً أو لا يجب ؟! فقال بعض أهل العلم : لابد أن ينوي أنه الإمام ، وعلى هذا فلو جاء رجلان ووجد رجلًا يصلي ونويا أن يكون الرجل إمامًا لهما فصفا خلفه وهو لا يدرك بهما . فمن قال : إنه لا بد للإمام أن ينوي الإمامة فقال : إن صلاة الرجلين لا تصح ؛ وذلك لأن الإمام لم ينو الإمامة .

ومن قال : إنه لا يشترط قال : إن صلاة هذين الرجلين صحيحة ؛ لأنها اتما به .

فالأول : هو المشهور من مذهب الإمام أحمد . والثاني : هو مذهب الإمام مالك ، واستدل بأن النبي

ﷺ صلى ذات ليلة في رمضان وحده ، فدخل أناس المسجد فصَفُّوا خلفه والنبي ﷺ كان أول ما دَخَلَ الصلاة لم ينو أن يكون إماماً (١) . واستدلوا كذلك بأن ابن عباس ؓ بات عند النبي ﷺ ذات ليلة فلما قام النبي ﷺ يصلي من الليل ، قام يصلي وحده ، فقام ابن عباس فتوضأ ودخل معه الصلاة (٢) . ولكن لا شك أن هذا الثاني ليس فيه دلالة ؛ لأن النبي ﷺ تَوَى الإمامة ، لكن نواها في أثناء الصلاة ، ولا بأس بأن ينويها في أثناء الصلاة .

على كل حال الاحتياط في هذه المسألة أن نقول : إنه إذا جاء رجلان إلى شخص يُصلي فلينبهاه على أنه إمام لهما .
فإن سكت فقد أقرهما ، وإن رفض وأشار بيده أن لا تصليا خلفي فلا يصليا خلفه . هذا هو الأحوط والأولى .

ثانياً : هل يشترط أن تتساوى صلاة الإمام مع صلاة المأموم في جنس المشروعية ؟ بمعنى : هل يصح أن يُصلي الفريضة خلف من يصلي النافلة ، أو أن يُصلي النافلة خلف من يُصلي الفريضة ؟
ج - أمّا الإنسان الذي يصلي نافلة خلف من يُصلي فريضة ؛ فلا بأس بهذا ؛ لأن السنة قد دلت على ذلك ، فإن الرسول ﷺ انفتل من صلاة الفجر ذات يوم في مسجد الخيف بمنى ، فوجد رجُلين لم يُصليا فقال : « ما منعكما أن تصليا في القوم ؟ » قالوا : يا رسول الله صلينا في رحالنا - يحتمل أنهما صليا في رحالهما لظنهما أنهما لا يدركان صلاة الجماعة أو لغير ذلك من الأسباب ، فقال : « إذا صليتما في رحالكما ثم أتيتما جماعة ؛ فصليا فإنها لكما نافلة » (٣) .
« فإنها » الأولى أو الثانية ؟

ج - الثانية ؛ لأن الأولى حصلت بها الفريضة وانتهت وَبَرَّتْ الذمة .
إذن إذا كان المأموم هو الذي يُصلي النافلة والإمام هو الذي يُصلي الفريضة ؛ فلا بأس بذلك كما دلت عليه هذه السنة .

أما العكس إذا كان الإمام يصلي النافلة والمأموم يُصلي الفريضة وأقرب مثال لذلك في أيام رمضان إذا دخل الإنسان وقد فاتته صلاة العشاء ووجد الناس يُصَلُّون صلاة التراويح ، فهل يدخل معهم بنية العشاء أو يصلي الفريضة وحده ثم يصلي التراويح ؟

ج : هذا محل خلاف بين العلماء ، فمنهم من قال : لا يصح أن يصلي الفريضة خلف النافلة ؛ لأن الفريضة أعلى ، ولا يمكن أن تكون صلاة المأموم أعلى من صلاة الإمام .
ومنهم من قال : بل يصح أن يصلي الفريضة خلف النافلة ؛ لأن السنة وردت بذلك ، وهي : أن معاذ

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٦) ومسلم في صلاة المسافرين (١٨١) والنسائي في الدعوات (٢١٨/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٩) والبيهقي في السنن (٣٠٠/٢) ، والطبراني في الصغير (٢١٧/١) .

ابن جبل رحمه الله كان يصلي مع النبي ﷺ صلاة العشاء ، ثم يذهب إلى قومه فيصلي بهم تلك الصلاة ^(١) . فهي له نافلة ولهم فريضة ، ولم ينكر عليه النبي ﷺ ، فإن قال قائل : لعل النبي ﷺ لم يعلم ؟ فالجواب عن ذلك أن نقول : إن كان قد علم فقد تم الاستدلال ؛ لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه قد شكي إلى الرسول في كونه يطول صلاة العشاء ^(٢) ؛ فالظاهر أن الرسول أخبر بكل القضية وبكل القصة . وإذا قدر أن رسول الله ﷺ لم يعلم أن معاذًا يصلي معه ثم يذهب إلى قومه ويصلي بهم ؛ فإن رب الرسول ﷺ قد علم وهو الله جل وعلا لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإذا كان الله قد علم ولم ينزل على نبيه إنكارًا لهذا العمل ، دل ذلك على جوازه ؛ لأن الله لا يقر عباده على شيء غير مشروع لهم إطلاقًا : يتم الاستدلال حينئذ على كل تقدير .

إذن فالصحيح أنه يجوز أن يصلي الإنسان صلاة الفريضة خلف من يصلي صلاة النافلة . والقياس الذي ذكر استدلالاً على المنع قياس في مقابلة النص ، فيكون مطروحاً فاسداً لا يعتبر . إذن إذا أتيت في أيام رمضان والناس يصلون صلاة التراويح ولم تصل العشاء ، فادخل معهم بنية صلاة العشاء . ثم إن كنت قد دخلت في أول ركعة فإذا سلم الإمام ؛ فصل ركعتين لتتم الأربع ، وإن كنت دخلت في الثانية فصل إذا سلم الإمام ثلاث ركعات ؛ لأنك صليت مع الإمام ركعة . وهذا منصوص الإمام أحمد مع أن مذهبه خلاف ذلك ، لكن منصوصه الذي نص عليه شخصياً أن هذا جائز ^(٣) . إذن نلخص الآن :

من صلى فريضة خلف فريضة فجائز .

فريضة خلف نافلة فيها خلاف .

نافلة خلف فريضة جائزة قولاً واحداً .

المسألة الثالثة : في جنس الصلاة ، هل يشترط أن تتفق صلاة الإمام والمأموم في نوع الصلاة ، أي :

ظهر مع ظهر ، وعصر مع عصر أم لا ؟

ج : في هذا أيضاً خلاف ، فمن العلماء من قال : يجب أن تتفق الصلاتان فيصلي الظهر خلف من يصلي الظهر ، ويصلي العصر خلف من يصلي العصر ، ويصلي المغرب خلف من يصلي المغرب ، وهكذا ، لأن النبي ﷺ قال : « إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ » ^(٤) .

ومن العلماء من قال : لا يشترط فيجوز أن يصلي العصر خلف من يصلي الظهر ، أو الظهر خلف من يصلي العصر ، أو العصر خلف من يصلي العشاء ؛ لأن الالتزام في هذه الحال لا يتأثر ، وإذا جاز أن

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩/٢) وعزاه في الطبراني في الكبير .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٤/٥) . (٣) انظر المغني والشرح الكبير (٦٤/٢ - ٦٦) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير الصلاة (١١١٣ ، ١١١٤) ومسلم في الصلاة (٧٧) وأحمد في مسنده (٥١/٦) ،

وأبو داود في السنن (٦٠١) .

يصلي الفريضة خلف الثأفة مع اختلاف الحكم ، فكذلك اختلاف الاسم لا يضر ، وهذا القول أصح .

فإذا قال إنسان : كيف يُصلي الظهر خلف من يُصلي العشاء ؟

ج : حضرت لصلاة العشاء بعد أن أذن ولما أقيمت الصلاة تذكرت أنك صليت الظهر بغير وضوء .

نقول له : ادخل مع الإمام وصل الظهر ، أنت نيتك الظهر والإمام نيته العشاء ولا يضر : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » وأما قول النبي ﷺ : « إنما يجعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه » ، فليس معناه : فلا تختلفوا عليه في النية ؛ لأنه فصل وبين فقال : « فإذا كبر فكبروا ، وإذا سجد فاسجدوا ، وإذا رفع فارفعوا » أي : تابعوه ولا تسبقوه ، وكلام الرسول ﷺ يفسر بعضه بعضاً . هذا البحث يفرع عليه بحث آخر : إذا اتفقت الصلاتان في العدد والهيئة فلا إشكال في هذا مثل ظهر خلف عصر . العدد واحد والهيئة واحدة ، هذا لا إشكال فيه . لكن إذا اختلفت الصلاتان بأن كانت صلاة المأموم ركعتين والإمام أربع وبالعكس ، أو المأموم ثلاث والإمام أربع أو بالعكس . فنقول : إن كانت صلاة المأموم أكثر فلا إشكال مثل : لو صلى العصر خلف من يصلي المغرب ، مثل رجل دخل المسجد يصلي المغرب ولما أقيمت الصلاة ذكر أنه صلى العصر بلا وضوء ، فهنا صار عليه صلاة العصر .

نقول : ادخل مع الإمام بنية صلاة العصر ، وإذا سلم الإمام ؛ فإنك تأتي بواحدة لتتم لك الأربع . هذا لا إشكال فيه .

إذا كانت صلاة الإمام أكثر من صلاة المأموم فهنا نقول : إن دخل المأموم في الركعة الثانية فما بعدها فلا إشكال ، وإن دخل في الركعة الأولى فحينئذ يأتي الإشكال ! ولتمثل : إذا جثت والإمام يصلي العشاء وهذا يقع كثيراً في أيام الجمع . يأتي الإنسان من البيت والمسجد جامع للمصر و ما أشبهه ، فإذا جاء وجدهم يُصلون العشاء .

لكن وجدهم يصلون في الركعتين الأخيرتين نقول : ادخل معهم بنية المغرب ، صل الركعتين وإذا سلم الإمام تأتي بركة ولا إشكال .

وإذا جثت ووجدتهم يُصلون العشاء الآخر لكنهم في الركعة الثانية نقول : ادخل معهم بنية المغرب وسلم مع الإمام ، ولا يضر ؛ لأنك ما زدت ولا نقصت ، هذا أيضاً لا إشكال فيه .

هذا فيه إشكال عند البعض ويقول : إذا دخلت معه في الركعة الثانية ثم جلست في الركعة التي هي للإمام الثانية وهي لك الأولى فتكون جلست في الأولى . التشهد .

نقول : هذا لا يضر ألست إذا دخلت مع الإمام في صلاة الظهر في الركعة الثانية ؛ فالإمام سوف يجلس للتشهد وهي لك الأولى ؟ هذا نفسه ، ولا إشكال .

الإشكال إذا جثت إلى المسجد ووجدتهم يُصلون العشاء وهم في الركعة الأولى ودخلت معهم فيها ، حينئذ ستصلي ثلاثاً مع الإمام والإمام سيقوم للرابعة فماذا تصنع ؟

إن قمت معه زدت ركعة والمغرب ثلاث لا أربع ، وإن جلست تخلفت عن الإمام فماذا تصنع ؟
 نقول : اجلس وإذا كنت تريد أن تجمع فانهِ المَفارقة وقرأ التحيات وسلم ، ثم ادخل مع الإمام فيما بقي من صلاة العشاء ؛ لأنك يمكن أن تدركه . أما إذا كنت لا تنوي الجمع أو يمن لا يحق له الجمع ؛ فإنك في هذه الحال تخير إن شئت فاجلس للشَّهيد وانتظر الإمام حتى يكمل الركعة ويتشهد وتسلم معه ، وإن شئت فانهِ الانفراد وسلم .

وهذا الذي ذكرناه هو القول الراجح وهو اختيار شيخ الإسلام رحمته الله ، ونية الانفراد هنا للضرورة ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يزيد في المغرب على ثلاث ، فالجلوس لضرورة شرعية ولا بأس بهذا ^(١) .
 ومما يدخل في قوله : « وتُقِيم الصلاة » أركان الصلاة ! والأركان هي الأعمال القولية أو الفعلية التي لا تصح الصلاة إلا بها ولا تقوم إلا بها .

فمن ذلك : تكبيرة الإحرام : أن يقول الإنسان عند الدخول في الصلاة : « الله أكبر » لا يمكن أن تنعقد الصلاة إلا بذلك ، فلو نسي الإنسان تكبيرة الإحرام فصلاته غير صحيحة وغير منعقدة إطلاقاً ؛ لأن تكبيرة الإحرام لا تنعقد الصلاة إلا بها قال النبي ﷺ لرجل علمه كيف يصلي ، قال : « إذا قُنتَ إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة فكبر » ^(٢) فلا بد من التكبير وكان النبي ﷺ مداوماً على ذلك .
 ومن ذلك : قراءة الفاتحة : فإنَّ قراءة الفاتحة رُكْنٌ لا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إلا به ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاقْرَأْ مَا يَنْسُرُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [الزلزل : ٢٠] وهذا أمر . وقد بين النبي ﷺ هذا المُنْهَم في قوله : ﴿ مَا يَنْسُرُ ﴾ وأن هذا هو الفاتحة فقال ﷺ : « لا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يقرأ بفاتحة الكتاب » ^(٣) .

وقال : « كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْكِتَابِ أَوْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ » ^(٤) أي : فاسدة غير صحيحة .
 فقراءة الفاتحة رُكْنٌ على كل مُصَلٍّ : الإمام ، والمأموم ، والمنفرد ؛ لأن النصوص الواردة في ذلك عامة لم تستثن شيئاً وإذا لم يستثن الله ورسوله شيئاً فإن الواجب الحكم بالعموم ؛ لأنه لو كان هناك مستثنى لبينه الله ورسوله كما قال الله : ﴿ وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] .
 ولم يرد عن النبي ﷺ حديثٌ صحيحٌ صريحٌ في سقوط الفاتحة عن المأموم لا في السرية ولا في الجهرية ، لكن الفرق بين السرية والجهرية : أن الجهرية : لا تقرأ فيها إلا الفاتحة وتسكت وتسمع لقراءة إمامك .
 أما السرية : فتقرأ الفاتحة وغيرها حتى يركع الإمام ، لكن دلت السنة على أنه يستثنى من ذلك ما

(١) انظر في ذلك : المغني والشرح الكبير (٦٢/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥١) ومسلم في الصلاة (٤٥) وأحمد في مسنده (٤٣٧/٢) ، والنسائي في السنن (٥٩/٣) ، وأسبغ الوضوء ، أي : وف كل عضو حقه في الغسل .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) والترمذي في السنن (٣١١) والنسائي في السنن (١٣٧/٢) .

(٤) أخرجه أحمد (٤٧٨/٢) ، وابن ماجه في السنن (٨٤٠) ، والبيهقي في السنن (١٦٧/٢) .

إذا جاء الإنسان والإمام رَاكِع ؛ فإنه إذا جاء والإمام رَاكِع تسقط عنه قراءة الفاتحة ، دليل ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه أنه دخل والرسول ﷺ رَاكِع في المسجد فأُسْرِعَ وَرَكِعَ قبل أن يَدْخُلَ في الصف ، ثم دَخَلَ في الصف ، فلما سلم النبي ﷺ قال : « أيكم الذي صَنَعَ هَذَا ؟ » قال أبو بكرة : أنا يا رسول الله ! قال : « زادك الله حِرْصًا ولا تُعَدَّ » ^(١) .

لأن النبي ﷺ علم أن الذي دفع أبا بكرة لسرعته والركوع قبل أن يصل إلى الصف هو الحرص على إدراك الركعة . فقال له : زادك الله حِرْصًا ولا تُعَدَّ : أي لا تُعَدَّ لمثل هذا العمل فتركع قبل الدُخُول في الصف وتسرع قال النبي ﷺ : « إذا أتيتُم الصلاة فامشُوا إلى الصلاة وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ » ^(٢) .

ولم يأمره النبي ﷺ بقضاء الركعة التي أُسْرِعَ لإدراكها ، ولو كان لم يدركها لأمره الرسول ﷺ بقضائها ؛ لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يؤخر اليَتَانِ عن وقت الحاجة ؛ لأنه مُبْتَلَغُ والمُبْتَلَغُ يُبْلَغُ متى احتُجِبَ إلى التبليغ ، فإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل له إنك لم تدرك الركعة ، علم أنه قد أدركها وفي هذا الحال تسقط عنه الفاتحة . وهناك تعليل مع الدليل ، وهو أن الفاتحة إنما تجب مع القيام والقيام في هذه الحال قد سقط من أجل مُتَابَعَةِ الإمام ، فإذا سَقَطَ القيام سَقَطَ الذكر الواجب فيه .

فصار الدليل والتعليل يدلان على أن من جاء والإمام رَاكِع فإنه يكبر تكبيرة الإحرام وهو قائم ولا يقرأ ، بل يَرْكَع . لكن إن كبر للركوع مرة ثانية فهو أفضل وإن لم يكبر فلا حرج وتكفيه التكبيرة الأولى . ويجب أن يقرأ الإنسان الفاتحة وهو قائم ، وأما ما يفعله بعض الناس إذا قام الإمام للركعة الثانية مثلاً تجده يجلس ولا يقوم مع الإمام وهو يقرأ الفاتحة فتجده يجلس إلى أن يصل نصف الفاتحة ، ثم يقوم وهو قادر على القيام .

نقول لهذا الرجل : إن قراءتك للفاتحة غير صحيحه ؛ لأن الفاتحة يجب أن تُقرأ في حال القيام وأنت قادر على القيام وقد قرأت بعضها وأنت قاعد فلا تصح هذه القراءة . أما ما زاد على الفاتحة فهو سنة في الركعة الأولى والثانية ، وأما في الركعة الثالثة في المغرب أو في الرابعة في الظهر والعصر والعشاء فليس بشئ ؛ فالسنة الاختصار فيما بعد الركعتين على الفاتحة ، وإن قرأ أحياناً في العصر والظهر شيئاً زائداً على الفاتحة فلا بأس به ، لكن الأصل الاختصار على الفاتحة في الركعتين اللتين بعد التشهد الأول إن كانت رُبَاعِيَّة ، أو الركعة الثالثة إن كانت ثَلَاثِيَّة .

ومن أركان الصلاة : الركوع : وهو الانحناء تعظيماً لله ﷻ لأنك تستحضر أنك واقف بين يدي الله فَتُنَحِّنِي تعظيماً له ﷻ ؛ ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « أما الركُوع فَعَظُمُوا فيه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٥) ، بلفظ : « أيكم ركع دون الصف » وأبو داود في السنن (٦٨٣) دون : أيكم الذي صنع هذا ؟

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٨) ومسلم في المساجد (١٥١) والترمذي في السنن (٣٢٧) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٢) ، وقوله « السكينة » أي التأني في الحركات واجتناب العبث ، وقوله « الوقار » أي في هيئة جميلة وإقبال على الطريق بغير التفات .

الرب (١) ، أي : قولوا سبحان رَبِّيَ الْعَظِيم ؟ لأن الركوع تعظيم بالفعل وقول : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيم » تعظيم بالقول فيجتمع التعظيمان بالإضافة إلى التعظيم الأصلي وهو تعظيم القلب لله . فيجتمع في الركوع ثلاث تعظيمات :

١ - تعظيم القلب . ٢ - تعظيم الجوارح . ٣ - تعظيم اللسان .

والواجب في الركوع الانحناء بحيث يتمكن الإنسان من مَس رُكْبَتَيْهِ بيديه . فالانحناء اليسير لا ينفع ، فلا بد من أن تهصر ظهره حتى تتمكن من مَس ركبتيك بيديك .

وقال بعض العلماء : إن الواجب أن يكون إلى الركوع التام أقرب منه إلى القيام التام والمؤدي مُتَقَارِب . المهم أنه لا بد من هصر الظهر .

ومما ينبغي في الركوع : أن يكون الإنسان مُشْتَوِي الظهر لا مَحْدُودِيًا ، وأن يكون رأسه مُحَاذِيًا لظهره ، وأن يضع يديه على ركبتيه مُفْرَجَتِي الأصابع ، وأن يجافي عضديه عن جنبيه ، ويقول : « سبحان ربي العظيم » يكررها ويقول : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » (٢) ، ويقول : « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ » (٣) .

ومن أركان الصلاة : السجود : قال الله ﷻ : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبَدُوا رَبَّكُمْ ﴾ [الحج : ٧٧] وقال النبي ﷺ : « أَمِزْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمَ : عَلَى الْجَبْهَةِ (وَأَشَارَ يَدَيْهِ إِلَى أَنْفِهِ) وَالْكَفَيْنِ ، وَالرُّكْبَتَيْنِ ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ » (٤) . فالسجود لا بُدَّ منه ؛ لأنه ركن لا تتم الصلاة إلا به .

ويقول في سجوده : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى » وتأمل الحكمة أنك في الركوع تقول : « سبحان رَبِّيَ الْعَظِيم » لأن الهيئة هيئة تعظيم ، وفي السجود تقول : « سبحان ربي الأعلى » لأن الهيئة هيئة نزول .

فالإنسان نزل أعلى ما في جسده وهو الوجه إلى أسفل ما في جسده وهو القدمين ؛ فترى في السجود أن الجبهة والقدمين في مكان واحد وهذا غاية ما يكون من التنزيه ولهذا يقول : « سبحان ربي الأعلى » أي : أنزه ربي الأعلى الذي هو فوق كل شيء عن كل سفل ونزول . أما أنا فم منزل رأسي وأشرف أعضائي إلى محل القدمين ومداسها ، فتقول : « سبحان ربي الأعلى » تكرر ما شاء الله ثلاثاً أو أكثر حسب الحال ، وتقول : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » وتقول : « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ » وتكثر من الدعاء بما شئت من أمور الدِّين ومن أمور الدنيا ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « أَمَا الرُّكُوعُ فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ، وَأَمَا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدَّعَاءِ ، فَقَمِنَ أَنْ

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٠/١) ، والبيهقي في السنن (١٠٩/٢) ، وابن خزيمة في صحيحه (٨٤٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٣) وأبو داود في السنن (٨٧٢) وأحمد في مسنده (٣٥/٦) ، ومعنى قوله (سبوح) أي المبرأ من النقص ، وقوله (قدوس) أي : المطهر من كل ما لا يليق بالخالق .

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٢) ومسلم في الصلاة (٢٣٠) وأحمد في مسنده (٢٨٥/١ ، ٢٩٢) .

يُسْتَجَابَ لَكُمْ» ^(١) ، وقال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » ^(٢) ، فأكثر من الدعاء بما شئت من سؤال الجنة والتعوذ من النار وسؤال علم نافع وعمل صالح وإيمان زايغ وهكذا . وسؤال بيت جميل وامرأة صالحة وولد صالح وسيرة وما شئت من خير الدين والدنيا ؛ لأن الدعاء عبادة ولو في أمور الدنيا قال الله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

وفي هذه الأيام القصصية ينبغي أن نطيل السجود وأن نكثر من الدعاء بأن يأخذ الله على أيدي الظالمين المعتدين ، ونلح ولا نستطيع الإجابة ؛ لأن الله حكيم قد لا يجيب الدعوة بأول مرة أو ثانية أو ثالثة من أجل أن يعرف الناس شدة افتقارهم إلى الله فيزدادوا دعاءً والله ﷻ أحكم الحاكمين ، حكمته بالغة لا نستطيع أن نصل إلى مغرقتها ، ولكن علينا أن نفعل ما أمرنا به من كثرة الدعاء .

ويسجد الإنسان بعد الرفع من الركوع ويسجد على ركبتيه أولاً ثم كفيه ثم جبهته وأنفه . ولا يسجد على اليدين أولاً ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك فقال : « إِذَا سَجَدَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَتْرُكْ بُرُوكَ الْبَعِيرِ » ^(٣) . وبروك البعير يكون على اليدين أولاً كما هو مشاهد ، وإنما نهى الرسول عن ذلك ؛ لأن تشبه بني آدم بالحيوان ولا سيما في الصلاة أمر غير مرغوب فيه . لم يذكر الله تشبيه بني آدم بالحيوان إلا في مقام الذم . استمع إلى قول الله تعالى : ﴿ وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ فَاغْلَبْنَاهُمْ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمَهُ أَهْلَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْهَا فَاَتَّبَعَهُ الْكَلْبُ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ﴾ ^(٤) [الأعراف: ١٧٥-١٧٦] ، وقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَعْيِهِمْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمُ اللَّهُ مَوْجِئَةً يَخْرُجُوا مِنْهَا لَيْسَ فِيهَا ذِكْرٌ لَّيْلَةٍ وَلَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنَ اللَّهِ وَجْدٌ ظَنُّوا أَنَّهَا سَعْيُهُمْ لَهَا كَذَبَ الْفُتُورِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ^(٥) [الجمعة: ١٥] . وقال الرسول ﷺ : « الْعَائِدَةُ فِي هَيْبَةِ كَالْكَلْبِ يَتْبَعُ ثُمَّ يُعَوِّدُ فِي قَيْئِهِ » ^(٦) ، وقال : « الَّذِي يَتَكَلَّمُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَشْفَارًا » ^(٧) .

فأنت ترى أن تشبيه بني آدم بالحيوان لم يكن إلا في مقام الذم ولهذا نهى المصلي أن يترك كما يترك البعير فيقدم يديه ! بل قدم الركبتين إلا إذا كان هناك عُذْر كرجل كبير يشق عليه أن ينزل الركبتين أولاً ، فلا حرج ، أو إنسان مريض أو إنسان في ركبتيه أذى وما أشبه ذلك .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) بلفظه وأحمد في مسنده (٢١٩/١) ، وقوله (فمن) بفتح الميم وكسرها ، أي : حقيق وجدير .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) والنسائي في السنن (٢٢٦/٢) ، وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٨٤٠) والترمذي في السنن (٢٦٩) ، وأحمد في مسنده (٣٨١/٢) .

(٤) قوله ﴿ فَاتَّبَعَهُ ﴾ أي : خرج منها بكفره ، وقوله ﴿ الْفَاوِرِّ ﴾ أي : الضالين ، وقوله ﴿ أَهْلَهُ ﴾ أي : نفسه المائلة إلى الشهوة .

(٥) قوله : « أَشْفَارًا » أي : كتيبا .

(٦) أخرجه مسلم في الهبات (٨) وابن ماجه في السنن (٢٣٨٦) والبيهقي في السنن (١٨٠/٦) .

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٠/١٢) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (١٨٤/٢) .

ولابد أن يكون السجود على الأعضاء السبعة : الجبهة والأنف تبع لها والكفين هذه ثلاثة ، والركبتين هذه خمسة ، وأطراف القدمين هذه سبعة أمرنا أن نشجد عليها كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذي أمرنا ربنا ﷺ فنقول : سمعًا وطاعة ونشجد على الأعضاء السبعة في جميع السجود ، فما دمنا ساجدين فلا يجوز أن نرفع شيئًا من هذه الأعضاء ، بل لا بد أن تبقى هذه الأعضاء ما دُمنا ساجدين .

وفي حال السجود ينبغي للإنسان أن يَضُمَّ قَدَميه بعضهما إلى بعض ولا يفرج .
أما الركبتان : فلم يرد فيهما شيء فبقى على ما هي عليه ، وأما اليدان : فتكون على حذو المنكبين ، أي الكتفين أو تقدمهما قليلًا حتى تسجد بينهما ، فلها صفتان كلتاهما وردتا عن الرسول عليه الصلاة والسلام .
وينبغي أن تُجَافِيَ عَضْدِيكَ عن جنبيك وأن ترفع ظهرك . إلا إذا كنت في الصف وخفت أن يتأذى جارك من مُجَافَاة العُضْدَيْن فلا تُؤْذِ جارك ؛ لأنه ما ينبغي أن تفعل سنة يتأذى بها أخوك المُسَلَّم وتشوش عليه .
وقد رأيت بعض الإخوة الذين يُحِبُّون أن يُطَبِّقُوا السنة يمتدنون في حال السجود امتدادًا طويلاً حتى تكاد تقول أنهم منبطحون ، وهذا لا شك أنه خلاف السنة وهو بدعة . بل السنة أن ترفع ظهرك وأن تعلو فيه . وهذه الصفة كما أنها خلاف السنة ففيها إرهاق عظيم للبدن ؛ لأن التحمل يكون على الجبهة والأنف في هذه الحال وتجد الإنسان يضجر من إطالة السجود ؛ ففيها مخالفة السنة ، وتغذيب البدن فلهذا ينبغي إذا رأيتم أحداً يشجد على هذه الكيفية أن تُرْشِدُوهُ إلى الحق وتقولوا له : هذا ليس بِسُنَّةٍ .
وينبغي في حال السجود أيضاً أن يكون الإنسان خَاشِعًا لله ﷻ مستحضراً علو الله ﷻ ؛ لأنك سوف تقول : سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى أي تنزيهاً له بعلوه ﷻ عن كُلِّ سفل وتُزَوِّلُ ونحن نعتقد بأن الله عالٍ بذاته فوق جميع مخلوقاته كما قال الله : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] ، وإثبات علو الله في القرآن والسنة أكثر من أن يُحْصَرَ .

والإنسان إذا دعا يرفع يديه إلى السماء فوق كل شيء ، وقد ذكر الله أنه اشتوى على عرشه في سبع آيات من القرآن ، والعرش أعلى المخلوقات ، والله فوق العرش جل وعلا .

ومن أركان الصَّلَاة : الطَّمَأْنِينَةُ : أي الاستقرار والشُّكُونُ في أركان الصَّلَاة ؛ يطمئن في القيام ، وفي الركوع ، وفي القيام بعد الركوع ، وفي السجود ، وفي الجلوس بين السجدين ، وفي بقية أركان الصلاة ؛ وذلك لما أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة ؓ : أن رجلاً جَاءَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى ثُمَّ سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ التَّحِيَّاتُ وقال : « اَرْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ » - أي لم تصل صلاة تجزئك - فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَصَلَّى ، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ وَقَالَ : « اَرْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ » فَرَجَعَ وَصَلَّى وَلَكِنَّهُ كَصَلَاتِهِ الْأُولَى ؛ ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ وَقَالَ : « اَرْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ » فقال : والذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَحْسِنُ غَيْرَ هَذَا فَعَلَّمَنِي ^(١) . وهذه هي الفائدة من كون

(١) أخرجه البخاري في الأيمان (٦٦٦٧) ومسلم في الصلاة (٤٥) بلفظه .

النبي ﷺ لم يُعلمه لأول مرة بل رده حتى صلى ثلاث مرات من أجل أن يكون مُشوقاً للعلم مشتاقاً إليه حتى يأتيه العلم ويكون كالطرر النازل على أرض يابسة تقبل الماء ، ولهذا أقسم بأنه لا يحسن غير هذا وطلب من النبي ﷺ أن يعلمه . ومن المعلوم أن النبي ﷺ سيعلمه لكن فرق بين المطلوب والمجلوب إذا كان هو الذي طلب أن يعلم صار أشد تمسكاً وحفظاً لما بلغ إليه وتأمل قسّمه بالذي بعث الرسول ﷺ بالحق . فقال : « وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ » وما قال والله ! لماذا ؟

ج - لأجل أن يكون معترفاً غاية الاعتراف بأن ما يقوله النبي ﷺ حق .

فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ » أي : توضأ وضوءاً كاملاً ، « ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ » أي : قل : الله أكبر وهذه تكبيرة الإحرام « ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسر مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ » وقد بينت السنة أنه لا بد من قراءة الفاتحة « ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا » أي : لا تسرع بل اطمئن واستقر « ثُمَّ ارْزُقْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ قَائِمًا » أي : إذا رفعت من الركوع اطمئن كما كنت في الركوع ، ولهذا من السنة أن يكون الركوع والقيام من الركوع متساويين أو متقاربين « ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا » أي : تطمئن وتستقر . « ثُمَّ ارْزُقْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا » وهذه الجلسة بين السجدين « ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا » هذا هو السجود الثاني « ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا » أي افعل هذه الأركان : القيام ، والركوع ، والرفع منه ، والسجود ، والجلوس بين السجدين ، والسجدة الثانية في جميع الصلاة . الشاهد من هذا قوله : « حَتَّى تَطْمِئِنَّ » ، وقوله فيما قبل : « إِنَّكَ لَمْ تَصَلْ » فدل هذا على أنه من لا يطمئن في صلاته فلا صلاة له . ولا فرق في هذا بين الركوع والقيام بعد الركوع والسجود والجلوس بين السجدين ؛ كلها لا بد أن يطمئن الإنسان فيها .

قال بعض العلماء : إن الطمأنينة أن يشتقر بقدر ما يقول الذكر الواجب في الركن . ففي الركوع بقدر ما تقول : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ » وفي السجود كذلك ، وهكذا .

ولكن الذي يظهر من السنة أن الطمأنينة أمر فوق ذلك ؛ لأن كون الطمأنينة بمقدار أن تقول : سبحان ربي العظيم في الركوع لا يظهر لها أثر ؛ لأن الإنسان إذا قال : الله أكبر سبحان ربي العظيم ثم يرفع أين الطمأنينة ؟

الظاهر أنه لا بد من استقرار بحيث يقال : هذا الرجل مطمئن .

وعجبنا لابن آدم كيف يلعب به الشيطان !! هو واقف بين يدي الله ﷻ يناجي الله ويتقرب إليه بكلامه ، وبالنشأ عليه ، وبالدعاء ، ثم كأنه ملحق في صلاته كأن عدواً لاحق له ، فتراه يهرب من الصلاة .

أنت لو وقفت بين يدي ملك من ملوك الدنيا يُتاجيك ويخاطبك لو بقيت معه ساعتين تكلمه لوجدت ذلك سهلاً . يمكن لو تقف على قدميك ولا تنتقل من ركوع إلى سجود إلى جلوس وتفرح أن هذا الملك يكلمك ، فكيف وأنت تناجي ربك الذي خلقك ورزقك وأمدك وأعدك ؟ تناجيه وتهرب هذا الهروب !؟

لكن الشيطان عدو للإنسان : والعاقل الحازم المؤمن هو الذي يتخذ الشيطان عدوًا كما قال الله : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٣٦] .

فالواجب على الإنسان أن يطمئن في صلاته طمأنينة تظهر عليه في جميع أفعال الصلاة ، وكذلك أقوالها .

مسألة : ما حكم من لم يقيم الصلاة ؟

الجواب عن ذلك أن نقول : أمّا من لم يقمها على وجه الكمال - يعني أنه أدخل ببعض الأشياء المكملة للصلاة - فإن هذا محروم من الأجر الذي يحصل له بإكمال الصلاة ، لكنه ليس بآثم .

مثلاً : لو اقتصر على « سبحان ربي العظيم » في الركوع مع الطمأنينة لكان كافياً ، لكنه محروم من زيادة الأجر في التسبيح .

وأما من لم يقمها أصلاً يعني أنه تركها بالكليّة ؛ فهذا كافر مُرتد عن الإسلام كفراً مخرجاً عن الملة يخرج من عداد المسلمين في الدنيا ، ويكون في عداد الكافرين في الآخرة . أخبر النبي ﷺ أنه يُحْشَرُ مع فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ وَأُيُي بن خَلَف^(١) . هؤلاء رؤوس الكفرة يحشر معهم .

أما في الدنيا : فإنه كافر مرتد يجب على ولي الأمر أن يدعوه للصلاة ، فإن صلى فذاك ، وإن لم يصل قتلته قتل رِدَّةٍ والعياذ بالله ، وإذا قُتِلَ قَتْلَ ردةٍ حُمِلَ في سيارة بعيداً عن البلد وحُفِرَ له حفرة ورمس فيها حتى لا يتأذى الناس برائحته ولا يتأذى أهله وأصحابه بِمُشَاهَدَتِهِ ، إذن فلا حرمة له . لو أبقي على ظهر الأرض هكذا فلا حرمة له ، ولهذا ما نُعْسِلُهُ ولا نُكَفِّتُهُ ولا نصلّي عليه ، ولا نُذْنِيهِ من مساجد المسلمين للصلاة عليه ؛ لأنه كافر مرتد .

فإذا قال قائل : ما هذا الكلام ؟ أهذا جُرَافٌ أم تحامل أم عاطفة ؟

قلنا : لا ! ليس جُرَافاً ولا تحاملاً ولا عاطفة ، ولكننا نقوله بمقتضى دلالة كلام الله وكلام رسوله وكلام أصحاب رسوله .

أما كلام الله : فقد قال الله في سورة التوبة عن المشركين : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا فِي السِّلَاحِ ﴾ [التوبة: ١١] .

وإن لم يكن ؟

ج : فليسوا إخواناً لنا في الدين ، وإذا لم يكونوا كذلك فهم كفرة ؛ لأن كل مؤمن ولو كان غاصياً أكبر مقصية لكنها لا تخرج من الإسلام فهو أخ لنا .

إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين فمن المعلوم أن قتال المسلم كفر ، لكن لا يخرج من الملة ؛ لأن النبي ﷺ قال : « سَبَابُ الْمُشْلِمِ فُشُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ »^(٢) ومع ذلك فإن هذا المُقاتِل لأخيه أخ لنا

(١) انظر أحمد في مسنده (١٦٩/٢) وسنن الدارمي في الرقاق (١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٤٤) ومسلم في الإيمان (١١٦) والترمذي في السنن (٢٦٣٥) وأحمد في

مسنده (٤١١/١) .

وما يخرج من دائرة الإيمان لقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَغُلِبُوا الَّتِي تَبَغَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَمُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [١] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿١﴾ [الحجرات : ٩، ١٠] . إِذَا الطَّائِفَتَانِ الْمُقْتَتِلَتَانِ إِخْوَةٌ لَنَا مَعَ أَنَّهَا مَعْصِيَةٌ عَظِيمَةٌ .

فَإِذَا قَالَ اللَّهُ فِي الْمَشْرِكِينَ : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ فِي الَّذِينَ ﴾ [التوبة : ١١] إِذَا ، إِذَا لَمْ يَقُومُوا بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ فَلْيَسُوا بِإِخْوَةٍ لَنَا .

أما من السنة : فاستمع إلى ما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنَّ الرَسُولَ ﷺ قَالَ : « بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » ^(١) وَالبَيِّنَةُ تَقْتَضِي التَّمْيِيزَ وَالتَّفْرِيقَ وَأَنْ كُلَّ وَاحِدٍ غَيْرِ الْآخَرِ .

« بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » فَإِذَا تَرَكَهَا صَارَ غَيْرَ مُسْلِمٍ ، صَارَ مُشْرِكًا أَوْ كَافِرًا . وما رواه أهل السنن عن بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ رضي الله عنه أَنَّ الرَسُولَ ﷺ قَالَ : « الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » ^(٢) الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفَرِ أَيْ الْأَمْرُ الْفَاصِلُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ صَارَ مِنْهُمْ . وليس منا .

وهذا نص في الموضوع !

أما ما قاله الصحابة : فاستمع إلى ما قاله عبد الله بن شقيق وهو من التابعين المشهورين قَالَ رضي الله عنه : « كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَزُولُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرُ الصَّلَاةِ » ^(٣) .

وقد نقل إجماع الصحابة على كفر تارك الصلاة : إِسْحَاقُ بْنُ رَافِعٍ الْإِمَامُ الْمَشْهُورُ وَبَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَإِذَا قَدَّرَ أَنْ فِيهِمْ مَنْ خَالَفَ فَإِنْ جُمُوهَرُهُمْ أَهْلُ الْفَتْوَى مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ كَافِرٌ .

هذه أدلة من كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة ، وقال عمر بن الخطاب وناهيك به : « لَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ » ^(٤) وَلَا نَافِعَةَ لِلْجَنَسِ تَنْفِي الْكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ . وَالَّذِي لَا حَظَّ لَهُ لَا قَلِيلَ وَلَا كَثِيرَ فِي الْإِسْلَامِ مَا هُوَ إِلَّا كَافِرٌ .

ويترتب على ترك الصلاة أمور دنيوية وأمور أخروية :

الأمور الدنيوية :

أولاً : أَنَّهُ يَدْعَى إِلَى الصَّلَاةِ ؛ فَإِنْ صَلَّى وَلَا قُتِلَ ، وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَى وَلَاةِ الْأُمُورِ ، وَهُمْ إِذَا فَرَطُوا

(١) قوله ﴿ بَغَتْ ﴾ أي تعدت ، وقوله ﴿ تَبَغَى ﴾ أي : تعود إلى رشدنا وقوله ﴿ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي العادلين .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٤) وأحمد في مسنده (٣٨٩/٣) والبيهقي في السنن (٣٦٦/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٦/٥) ، والترمذي في السنن (٢٦٢١) وابن ماجه في السنن (١٠٧٩) والحاكم

في المستدرک (٧/١) . (٤) أخرجه الترمذي والسنن (٢٦٢٢) .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (الطهارة ٥١) .

في هذا فسوف يسألهم الله إذا وقفوا بين يديه ؛ لأن كل مُسلم ارتد عن الإسلام فإنه يدعى إليه فإن رجع وإلا قُتل . قال الرسول ﷺ : « مَنْ بَدَلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ » ^(١) .

ثانياً : لا يُزوّج إذا خطب ، وإن زوّج فالعقد باطل والمرأة لا تحل له أن يطأها وهو يَطَأُ أجنبية والعياذ بالله ؛ لأن العقد غير صحيح لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [المنحة: ١٠] .

ثالثاً : أنه لا ولاية لهُ على أولادِهِ ، ولا على أخواتِهِ ، ولا على أحد من الناس ؛ لأن الكافر لا يمكن أن يكون ولياً على مسلم أبداً ، حتى بنته لا يزوجه .

لوفرضنا واحداً بعد ما تزوج وكبر وصار له بنات صار لا يصلي والعياذ بالله ، فإنه لا يمكن أن يزوج بنته .

ولكن إذا قال قائل : هذا مشكل يوجد أناس عندهم بنات وهم لا يصلون كيف نعمل ؟

ج : نقول في مثل هذه الحال إذا كان لا يمكن التخلص من أن يعقد النكاح للبنات ، فإن الزوج يجعل أخاها يعقد له بالسر حتى تحل له أو عمها مثلاً أو أحدًا من عصباتها الأقرب فالأقرب حسب ترتيب الولاية حتى يتزوج امرأة بعقد صحيح ، أما عقد أيها لها وهو مرتد كافر فلا يصح ولو كان ألف مرة .

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يكفر كفراً مخرجاً عن الملة واستدلوا ببعض النصوص ولكن هذه النصوص لا تخرج عن أحوال خمسة :

١ - إما أنه ليس فيها دلالة أصلاً على هذا مثل قول بعضهم : إن هذا يعارضه قول الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ، ومن جملته تارك الصلاة .

فنقول : إن تارك الصلاة في ظاهر حديث جابر الذي رواه مسلم أنه مُشْرِك وإن كان لا يشهد للصنم لكنه مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ ، وقد قال الله : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ... وَكَيْلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣] .

ثم على فرض أن مفهوم الآية أن ما دون الشرك تحت المشيئة ؛ فإن هذا المفهوم خُصَّ بالأحاديث الدالة على أن تارك الصلاة كافر ، وإذا كان المنطوق وهو أقوى دلالة من المفهوم يخصص عمومهما بما دل على التخصيص فما بالك بالمفهوم ؟

٢ - أو استدلوا بأحاديث مُقَيِّدة بما لا يمكن لمن اتَّصف به أن يدع الصلاة : مثل قول النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ » ^(٢) ، فإن قوله : « يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ » تمنع منعاً باتاً أن يدع الإنسان الصلاة ؛ لأن من قال : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ فلا بد أن يعمل عملاً لما يَتَّبِعِيهِ وهو وَجْهَ اللَّهِ .

وأعظم عمل يَحْصُلُ به رضا الله ﷻ هو الصلاة . فهذا الحديث ليس فيه دليل على أن تارك الصلاة لا يكفر؛ لأنه مُقَيَّدٌ بِقَيْدٍ يَتَّبِعُ معه غاية الامتناع أن يدع الإنسان الصلاة .

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٠٤/٧) ، والترمذي في السنن (١٤٥٨) وأحمد في مسنده (٢٨٢/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٢٥) ومسلم في المساجد (٢٦٣) بلفظه والبيهقي في السنن (١٢٤/١٠) .

٣ - أو مُقَيَّد بحال يعذر فيها من ترك الصَّلَاة مثل حديث حذيفة الذي أخرجه بعض أهل السنن في قوم لا يعرفون من الإسلام إلا قول : « لا إله إلا الله » وهذا في وقت الإسلام والعياذ بالله ^(١) . وصار لا يعلم عن شيء منه إلا قول : لا إله إلا الله فإنها تنجيهم من النار ؛ لأنهم مَعْدُورُونَ بعدم العلم بِفرائض الإسلام ونحن نقول بهذا لو أن قومًا في بادية ، بعيدون عن المدن وبعيدون عن العلم لا يفهمون من الإسلام إلا « لا إله إلا الله » وماتوا على ذلك فليسوا كُفَارًا .

٤ - واستدلوا بأحاديث عامة ، هذه العامة من قواعد أصول الفقه : أن العام يُخصص بالخاص فالأحاديث العامة الدالة على أن من قال : لا إله إلا الله فهو في الجنة ^(٢) ، وما أشبه ذلك . نقول : هذه مقيدة أو مخصوصة بأحاديث كفر تارك الصلاة .

٥ - واستدلوا بأحاديث ضعيفة لا تُقاوم الأحاديث الصحيحة الدالة على كفر تارك الصلاة فضلًا عن أن تعارضها . ثم إن بعضهم لما لم يتيسر له إقامة الدليل على أن تارك الصلاة لا يكفر قال : إنه يحمل قوله ﷺ : « بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » ^(٣) على الكفر الأصغر والشُّرْكِ الأصغر فيكون بمعنى قول ابن عباس ؓ : (كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ) فيقال : ما الذي يوجب لنا أن نحمل الحديث على ذلك ؛ لأن الكفر إذا أُطلق ولم يوجد له معارض فهو الكفر الحقيقي الأكبر . كيف ، وقد قال الرسول عليه الصَّلَاة والسلام : « بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ » فجعل هناك حدًّا فاصلاً « بَيْنَ » والبينية تقتضي أن المتباينين منفصلان بعضهما عن بعض ، وأن المراد بالكفر الكفر الأكبر .

وحينئذ تكون أدلة القول بكفر تارك الصلاة مُوجِبَةً لِمُعَارَضِهَا ، ولا مقاوم لها والواجب على العبد المؤمن إذا دَلَّ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على حكم من الأحكام أن يقول به ؛ لأننا نحن لسنا بِمُشْرَعِينَ ، بل المُشْرَعُ الله ، ما قاله الله وقاله رسوله هو الشَّرْع ، نأخذ به ، ونَحْكُمُ بِمَقْتَضَاهُ ، ونؤمن به ، سواء وافق أهواءنا أم خالفها . لا بد أن نأخذ بما دَلَّ عليه الشرع !!

واعلم أن كل خلاف يقع بين الأمة إذا كان الحامل عليه حسن القصد مع بذل الجهد في التحري ، فإن صاحبه لا يلام عليه ولا يضل ؛ لأنه مجتهد ، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ وَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ ، وَإِنْ اجْتَهَدَ وَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ » ^(٤) . وليس من حق الإنسان أن يقدح في أخيه إذا خالفه في الرأي بمقتضى الدليل عنده .

أما من غَانَدَ وَأَصْرَبَ بعد قيام الحجة عليه فهذا هو الذي يلام .

وذكرنا في الدرس الماضي ما يترتب على ترك الصَّلَاة من أحكام وأنها هي الأحكام المترتبة على

(١) انظر الحديث في سنن ابن ماجه (٤٠٤٩) ومستدرک الحاكم (٤٧٣/٤) .

(٢) انظر أحمد في مسنده (٤١١/٤) الطبراني في الكبير (٥٥/٧) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٢٢/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٤) وأحمد في مسنده (٣٨٩/٣) ، والبيهقي في السنن (٣٦٦/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم في الأقضية (١٥) وأبو داود في السنن (٣٥٧٤) وأحمد في مسنده (٢٠٤/٤) .

الردة تمامًا . ومنها : لو ترك الصلاة في أثناء زواجه انفسخ نكاحه ، ومثاله : رجل تزوج امرأة وهي تصلي وهو يُصَلِّي وبعد ذلك ترك الصلاة ، فإننا نقول : يجب التفريق بينهما وجوبًا . فإذا فَرَّقْنَا بينهما واعتدَّتْ ؛ فإنه لا يمكن أن يرجع إليها ، أما قبل انتهاء العدة ؛ فإنه إذا أسلم ورجع إلى الإسلام وصلى فهي زوجته ، أما إذا انتهت العدة فقد انفصلت منه ولا تحل له إلا بعقد جديد على قول جمهور أهل العلم ؛ وبعضهم يقول : إنها إذا انتهت من العدة ؛ ملكت نفسها ، ولكن لو أسلم وأرادت أن ترجع إليه فلا بأس بدون عقد ، وهذا القول هو الراجح لدلالة السنة عليه ^(١) ، لكن فائدة العدة : أنها قبل العدة إذا أسلم لا خيار لها ، وأما بعد العدة فلها الخيار إذا أسلم .

ولا يحل لأحد عنده شخص يعرف أنه لا يُصَلِّي أن يُعَسِّلَهُ أو يكفنه أو يقدمه للمسلمين يصلون عليه ، لأنه يكون بذلك غاشًا للمسلمين ، فإن الكافر قال الله لَتَبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ وَهُمْ كُفَّارٌ لَكِنَّمْ يَظْهَرُونَ الْإِسْلَامَ قَالَ : ﴿ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ [التوبة : ٨٤] فدل هذا على أن الكفر مانع من الصلاة ومن القيام على القبر بعد الدفن .

وقال الله : ﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] .

ويسأل بعض الناس عن الرجل المتهم بترك الصلاة يقدم للصلاة عليه بعد موته وأنت شاك هل هو يُصَلِّي أو لا ؟

ج : فنقول إذا كان هذا الشك مبنياً على أصل ؛ فإنك إذا أردت أن تدعو له تقول : اللهم إن كان مؤمناً فاغفر له وارحمه ، فتقيده وبهذا تشلّم من شره .

وبهذا التقرير نعرف أنه يجب الحذر التام من التهاون بالصلاة ، وأنه يجب على من رأى شخصاً مُتَهَاوِناً فيها أن ينصحه بعزيمة وجدّ لعل الله أن يهديه على يده فينال بهذا خيراً كثيراً .

وقوله : « إيتاء الزكاة » : إيتاء : بمعنى إعطاء ، وإيتان بمعنى مجيء ، وأتى بمعنى جاء ؛ فإيتاء الزكاة يعني إعطاءها لمن عَيَّنَ الله سبحانه أن يُعْطَا إياها .

والزكاة مأخوذة من الزكاء وهو الطهارة والنماء ؛ لأن المزكي يطهر نفسه من البخل وينمي ماله بالزكاة . قال الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] والزكاة تعريفها : نَصِيبٌ مُقَدَّرٌ شرعاً في مال مخصوص لطائفة مخصوصة .

« نَصِيبٌ مِنْ مَالٍ » وليس كل المال ، بل أموال مُعَيَّنَةٌ بينها الرسول عليه الصلاة والسلام وبعضها مبين في القرآن . وليس كل هذه الأجناس من المال تجب فيه الزكاة ، بل لا بد من شروط .

والزكاة جزء بسيط يؤدي بها الإنسان رُكُناً من أركان الإسلام يطهر بها نفسه من البخل والريذيلة

(١) انظر في ذلك ، سنن أبي داود في الطلاق (٢٢٣٨ ، ٢٢٣٩ ، ٢٢٤٠) .

وَيُطَهَّرُ بِهَا صَفَحَاتُ كِتَابِهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ » ^(١) ، وَأَفْضَلُ الصَّدَقَاتِ الزَّكَاةُ ، فَيُذَرِّهُمُ تَخْرُجُهُ فِي زَكَاتِكَ أَفْضَلُ مِنْ دَرَاهِمٍ تَخْرُجُهُ تَطَوُّعًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : « مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ » ^(٢) وَزَكَاةٍ مِنْ صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ أَفْضَلُ مِنْ زَكَاةٍ مِنْ صَلَاةٍ تَطَوُّعٍ .

فَفِي الزَّكَاةِ : تَكْفِيرُ الْخَطَايَا . وَفِيهَا الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ ؛ لِأَنَّ الْمَرْكَبِيَّ يَحْسِنُ إِلَى الْمُدْفُوعِ إِلَى الزَّكَاةِ فَيَدْخُلُ فِي عِدَادِ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وَفِي الزَّكَاةِ أَيْضًا : تَأْلِيفُ بَيْنِ النَّاسِ ؛ لِأَنَّ الْفُقَرَاءَ إِذَا أُعْطَاهُمُ الْغَنَاءُ مِنَ الزَّكَاةِ ذَهَبَ مَا فِي نَفْسِهِمْ مِنَ الْحِقْدِ عَلَى الْغَنَاءِ . أَمَّا إِذَا مَنَعَهُمُ الْغَنَاءُ وَلَمْ يَتَفَضَّلُوا عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ ، صَارَ فِي نَفْسِهِمْ أَحْقَادٌ عَلَى الْغَنَاءِ . وَفِي الزَّكَاةِ أَيْضًا إِغْنَاءُ لِلْفُقَرَاءِ عَنِ التَّسَلُّطِ ؛ لِأَنَّ الْفَقِيرَ إِذَا قَدَّرَ أَنَّ الْغَنِيَّ لَا يُعْطِيهِ شَيْئًا ؛ فَإِنَّهُ يَخْشَى مِنْهُ أَنْ يَتَسَلَّطَ وَأَنْ يَكْسِرَ الْأَبْوَابَ وَيَنْهَبَ الْأَمْوَالَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي أَنْ يَعْيشَ فَيَأْكُلَ وَيَشْرَبَ ، فَإِذَا كَانَ لَا يُعْطَى شَيْئًا فَإِنَّ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ وَالْغُرْيَ يَدْفَعُونَهُ عَلَى أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَى النَّاسِ بِالسَّرِقَةِ وَالنَّهْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَفِي الزَّكَاةِ أَيْضًا : جَلْبُ لِلْخَيْرَاتِ مِنَ السَّمَاءِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : « مَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ » ^(٣) .

فَإِذَا أَدَّى النَّاسُ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ لَهُمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَحَصَلَ فِي هَذَا نُزُولُ الْمَطَرِ وَنَبَاتُ الْأَرْضِ ، وَشَبَعُ الْمَوَاشِي ، وَسَقَى النَّاسَ بِهَذَا الْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْكَثِيرَةِ .

وَفِي الزَّكَاةِ أَيْضًا : إِعَانَةُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ مِنْ أَصْنَافِ الزَّكَاةِ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وَفِي الزَّكَاةِ : تَحْرِيرُ الْعَبِيدِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ عَبْدًا مَمْلُوكًا مِنَ الزَّكَاةِ فَيُعْتِقَهُ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وَفِي الزَّكَاةِ : أَيْضًا : فَكَ الدُّمِّ مِنَ الدِّيُونِ ، فَكَمُ مِنْ إِنْسَانٍ مِنْ حَمُولَةِ ذَاتِ حَسَبٍ وَجَاهٍ ابْتُلِيَ بِتَرَائِمِ الدِّيُونِ عَلَيْهِ ، فَتَوَدَّى عَنْهُ مِنَ الزَّكَاةِ ، فَيَحْصِلُ فِي هَذَا خَيْرٌ كَثِيرٌ ؛ فَكَأَنَّكَ لَدِمْتَهُ وَرَدَّدْتَ حَقَّ مَنْ لَهُ الْحَقُّ .

وَفِي الزَّكَاةِ : إِعَانَةُ الْمُسَافِرِينَ الَّذِينَ تَقَطَّعَ بِهِمُ السَّبِيلُ فَيَضِيعُ مَالُهُ الَّذِي أَتَى بِهِ مَعَهُ وَلَا يَجِدُ مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ ، فَهَذَا يُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا فِي بَلَدِهِ .

الْمُهْمُ أَنَّ الزَّكَاةَ فِيهَا مَصَالِحُ كَثِيرَةٌ ؛ وَلِهَذَا صَارَتْ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/٥) ، والترمذي في السنن (٢٦١٦) وابن ماجه في السنن (٣٩٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) والبيهقي في السنن (٣٤٦/٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩) والحاكم في المستدرک (٤٥٠/٤) ومعنى (القطر) أي : المطر .

واختلف العلماء فيما لو تَهَاوَنَ الإنسان بها هل يَكْفُرُ كما يَكْفُرُ بالتهاون بالصلاة أو لا ؟

ج : والصحيح أنه لا يَكْفُرُ وَدَلِيلُهُ : ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ ، كلما بَرَدَتْ أُعِيدَتْ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، ثُمَّ يُرَى سَبِيلُهُ : إما إِلَى الْجَنَّةِ ، وإما إِلَى النَّارِ » ^(١) ، فإن هذا الحديث يدل على أنه لا يكفر ؛ لأنه لو كان كافراً بترك الزكاة لم يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى الْجَنَّةِ ، والحديث يقول : « ثُمَّ يُرَى سَبِيلُهُ إما إِلَى الْجَنَّةِ وإما إِلَى النَّارِ » .

وعن الإمام أحمد رضي الله عنه رواية : أنه يَكْفُرُ إِذَا بَخِلَ بِالزَّكَاةِ قَالَ : لأنها رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَإِذَا فَاتَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْتِ سَقَطَ الْبَيْتُ ^(٢) . ولكن الصحيح أنه : لا يَكْفُرُ إِلَّا أَنَّهُ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ، ومنه هذا الوعيد الشديد .

مسألة في الأموال الزكوية : لأن الأموال ليس كلها فيها زكاة ، بل منها ما فيه الزكاة ، ومنها ما لا زكاة فيه ، فالزكاة واجبة في أمور :

أولاً : في الذهب والفضة : على أي حال كانا سواء كانت ثَقُودًا كالدراهم والدنانير ، أو تَبَرًا كالقِطْعِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، أو حُلًيًا يُلْبَسُ وَيُسْتَعَارُ ، أو غير ذلك . المهم أن نفس هذا المعدن وهو الذهب والفضة فيه الزكاة على كل حال ، لكن بشرط أن يبلغ النِّصَابُ لمدة سنة كاملة . والنِّصَابُ مِنَ الذَّهَبِ : ٨٥ جَمِ خَمْسٍ وَثَمَانُونَ جِرَامًا وَالنِّصَابُ مِنَ الْفِضَّةِ ٥٦ سِتٍّ وَخَمْسُونَ رِيَالًا سُعُودِيًّا وَهِيَ ٥٩٥ جَمِ خَمْسٍ مِائَةٍ وَخَمْسٍ وَتَسْعُونَ جِرَامًا .

فمن عنده من الذهب أو الفضة هذا المقدار مَلَكَ النَّصَابُ ، فإذا استمر ذلك إلى تمام السَّنة ففيه الزكاة وإن نقص فلا زكاة فيه . فلو كان عنده ثمانون جِرَامًا فلا زكاة عليه ، أو كان عنده خَمْسُ مِائَةٍ وَتَسْعُونَ جِرَامًا (٥٩٠) مِنَ الْفِضَّةِ فلا زكاة عليه .

واختلف العلماء هل يكمل نِصَابُ الذَّهَبِ بِالْفِضَّةِ أو لا ؟

يعني لو ملك نصف نِصَابٍ مِنَ الذَّهَبِ وَنِصْفَ نِصَابٍ مِنَ الْفِضَّةِ ، فهل يكمل بعضها ببعضه ونقول : إنه ملك نِصَابًا فَتَجِبُ عَلَيْهَا الزَّكَاةُ أو لا ؟

ج : الصحيح أنه لا يكمل الذَّهَبُ مِنَ الْفِضَّةِ وَلَا الْفِضَّةُ مِنَ الذَّهَبِ ، كل واحد مستقل بنفسه كما أنه لا يكمل البر من الشعير أو الشعير من البر ، فكذلك لا يكمل الذهب بالفضة ولا الفضة بالذهب . وَيَلْحَقُ بِذَلِكَ مَا جَرَى مَجْرَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَهِيَ الْعَمَلَةُ النَقْدِيَّةُ مِنْ وَرَقٍ أَوْ نَحَاسٍ أَوْ

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٢٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٦/١) ، والبغوي في شرح السنة (٤٨٠/٥) ، ومعنى (صفحت له صفائح) أي : جعلت كنوزه الذهبية والفضية كأمثال الألواح .

(٢) انظر ذلك في المغني والشرح الكبير (٤٣٤/٢ - ٤٣٦) .

غيره ، فإن هذه فيها الزكاة إذا بلغت نصاباً بأحد النقيدين بالذهب أو بالفضة ، فإن لم تبلغ ، فلا زكاة .
فمثلاً : إذا كان عن الإنسان ثلاثمائة من الريالات الورقية ، لكنها لا تبلغ نصاباً من الفضة فلا زكاة عليه ؛ لأن هذه مربوطة بالفضة .

وأما الجواهر الثمينة من غير الذهب والفضة مثل : اللؤلؤ والمرجان والمعادن الأخرى كالألماظ وشبهه ، فهذه ليس فيها زكاة ، ولو كثر ما عند الإنسان منها إلا ما أعده للتجارة فما أعده للتجارة ففيه الزكاة من أي صنف كان .

الصف الثاني : مما تجب فيه الزكاة بهيمة الأنعام : وهي الإبل والبقر والغنم ؛ ففيها الزكاة لكن بشرط أن تبلغ نصاباً وأقل نصاب في الإبل خمس وأقل نصاب في البقر ثلاثون وأقل نصاب في الغنم أربعون .
وبهيمة ليست كغيرها من الأموال إذا بلغت النصاب فما زاد فبحسابه ، بل هي مرتبة ؛ ففي أربعين من الغنم شاة ، وفي مائة شاة حتى تبلغ مائة وإحدى وعشرين فيكون فيها شاتان .

فالوقص ما بين النصابين ليس فيه زكاة فمن أربعين إلى مائة وعشرين كلها ليس فيها إلا شاة واحدة . ومن مائة وإحدى وعشرين إلى مائتين فيه شاتان . وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه . ثلاثمائة : ثلاث شياه . ثلاثمائة وتسع وتسعين : ثلاث شياه . أربعمائة : أربع شياه . المهم أنها تختلف .
وفي الإبل من أربع وعشرين فأقل ، زكاتها من الغنم على كل خمس شاة ومن الخمس وعشرين فما فوق زكاتها من الإبل ، لكنها بأسنان مختلفة .

وبهيمة الأنعام يشترط لوجوب الزكاة فيها أن تبلغ النصاب وأن تكون سائمة . والسائمة الراعية التي ترعى في البر ولا تغلف إما السنة كلها وإما أكثر السنة . فإذا كان عند الإنسان أربعون شاة تسرح وترعى كل السنة ففيها الزكاة . وإذا كانت تسرح وترعى ثماني أشهر ؛ ففيها الزكاة ، ومثلها سبعة أشهر .
أما إذا كانت تسرح سنة وتغلف سنة فليس فيها زكاة ، وهكذا إن قلت أشهر الشوم .

وإذا كان الإنسان متاجراً في الغنم مثلاً وليس يقيها للتئمية والنسل ؛ فهذا عليه الزكاة ولو لم يكن عنده إلا واحدة إذا بلغت نصاباً في الفضة ؛ لأن عروض التجارة فيها الزكاة بكل حال ونصابها مقدر بنصاب الذهب أو الفضة .

والغالب أن الأرخص للفقراء هو الفضة في زماننا ؛ لأن الذهب غال .

الثالث من الأموال الزكوية : الخارج من الأرض من حبوب وثمار ، مثل : التمر والبر والأرز والشعير وما أشبهها ، وهذا لا بد فيه من بلوغ النصاب وهو ثلاثمائة صاع بصاع النبي ﷺ . ويعرفه الذين يأخذون الزكاة من الفلاحين .

فإذا كان عند الإنسان نخل يُثمر وبلغت ثماره نصاباً وجب عليه الزكاة ، ويجب عليه أن يخرج من متوسط الثمر لا من الطيب فيظلم ، ولا من الرديء فيظلم .

وإذا باع الإنسان ثمره ؛ فإنه يزكي من الثمن ومقدار الزكاة في الخارج من الأرض نصف العشر أو العشر . وإن كان يشرب سيجًا بدون مكائن أو مَوَاتِير فإن فيه العُشْر كاملاً أي واحد من عشرة . فإذا كان عنده مثلاً عشرة آلاف كيلو فالواجب عليه ألف كيلو .

أما إذا كان يستخرج الماء بوسيلة كالمواتير والمكائن وشبهها فإن عليه نصف العشر ؛ ففي عشرة آلاف خمسمائة فقط ؛ وذلك لأن الذي يسقى بمؤنة يغرم فيه الفلاح أكثر من الذي يسقى بلا مؤنة . فكان من حكمة الله ورحمته أن خفف الزكاة على هذا الذي يسقيه بالمؤنة والتعب .

أما الرابع من أصناف الزكاة فهو عروض التجارة : وعروض التجارة : كل ما أعده الإنسان للتجارة من عقارات وأقمشة وأواني وسيارات وغيرها فليس لها شيء معين . ومقدار الزكاة فيه ربع العُشْر كالذهب والفضة أي واحد في الأربعين . وفي المائة اثنان ونصف .

وإذا كان لديك مال وأردت أن تعرف مقدار الزكاة فالمسألة سهلة ؛ اقسم المال على أربعين والخارج بالقسمة هو الزكاة .

فإذا كان عند الإنسان أَرْبَعُونَ ألفاً من الدراهم ؛ فزكاتها ألف درهم ، وفي مائة وعشرين ألف ثلاثة آلاف ريال وهلم جرا .

وسمى عروض التجارة عروضاً ؛ لأنه ليس بثابت ، بل يعرض ويزول فكل شيء يعرض ويزول يُسمى عرضاً كما قال الله : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤] .

والأموال التجارية هكذا عند التجار يشتري الإنسان السلعة لا يريد عينها ، بل يريد ما وراءها من كَسْب ، ولهذا تجده يشتريها في الصباح وتكسبه في آخر النهار فيبيعها .

وكيفية زكاة العروض : أنه إذا جاء وقت الزكاة في مالك تقوّم كل ما عندك من هذه العروض وتخرج ربع عشر قيمتها حتى وإن كنت لم تشتريها إلا أخيراً .

مثال ذلك : إنسان تحل زكاته في شهر رجب واشترى سلعة في شهر ربيع ، فنقول له : إذا جاء شهر رجب فقدر قيمتها بما تساوي وأخرج زكاتها .

فإذا قال : إنها لم تتم عندي سنة ؟ قلنا : لا عبرة في عروض التجارة بالسنة ! عروض التجارة مبنية على القيمة .

والقيمة لها سنة عندك فتقدرها بما تُساوي وقت الوجوب سواء كانت أكثر مما اشتريتها به أم أقل . فإذا قدر أنك اشتريتها بعشرة آلاف ريال (١٠٠٠٠) وكانت عند وجوب الزكاة تساوي ثمانية آلاف ريال (٨٠٠٠) فالزكاة على ثمانية . وإذا اشتريتها بثمانية وكانت تُساوي عند وجوب الزكاة عشرة ؛ فالزكاة على العشرة . وإذا كنت لا تُدري هل تكسب أو لا تكسب ؛ فالمعتبر رأس المال .

إلى من تصرف الزكاة ؟

ج : إنها تصرف إلى الَّذِينَ عَيْنَهُمُ اللَّهُ بِحُكْمِهِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْلُومِينَ عَلَيْهِ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنِّي السَّبِيلُ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي : لابد أن تكون في هذه الأصناف ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

فالفقراء والمساكين : هم الذين لا يجدون كفايتهم وكفاية عوائلهم لمدة سنة .

مثاله : رَجُلٌ موظف وظيفه براتب شهري قدره أربعة آلاف ريال ، لكن عنده عائلة ويصرف ستة آلاف ريال هذا يكون فقيراً ؛ لأنه لا يجد ما يكفيه ؛ فنعطيه أربعة وعشرين ألفاً من الزكاة من أجل أن نكمل نفقته . ورجل آخر راتبه ستة آلاف في الشهر ، لكنه عنده عائلة كبيرة والمؤنة شديدة لا يكفيه إلا اثنا عشر ألفاً ، فنعطيه من الزكاة اثنين وسبعين ألفاً . ولا نُعْطِيهِ أكثر من كفاية سنة لأنه على مدار السنة تأتي زكاة جديدة تُشَدُّ حاجته فلماذا قدرها العلماء بالسنة .

فإذا قال قائل : أيُّهما أشدُّ حاجة الفقير أو المسكين ؟

ج : قال العلماء : إنما يبدأ بالأهم فالأهم ، والله قد بدأ بالفقير ، فيكون الفقير أشدَّ حاجة من المسكين .

الثالث : العاملون عليها : أي الذين ولَّاهُمُ رئيس الدولة أمر الزكاة يأخذونها من أهلها وينفقونها في مُسْتَحَقِّهَا . فيعطيهُمُ رئيس الدولة مقدار أجرتهم ولو كانوا أغنياء ؛ لأنهم يستحقونها بالعمل لا بالحاجة .

فإذا قال ولي الأمر : هؤلاء الواحد منهم إذا عمل بالشهر فراتبه ألف ريال فنعطيهُمُ على ألف ريال من الزكاة . وذلك لأنهم يتصرفون في الزكاة لمصلحة الزكاة فأعْطَوْا منها . لكن إذا أحب ولي الأمر أن يعطيهم من بيت مال المسلمين المال العام ليوفر الزكاة لمستحقيها فلا بأس .

الرابع المؤلفة قلوبهم : وهم الذين يؤلفون على الإسلام يكون رجل آمن حديثاً ويحتاج أن نقوي إيمانه فنعطيه من الزكاة من أجل أن يألف الإسلام ويحب المسلمين وَيَتَّقُوهُ ويعرف أن دين الإسلام دين صلة ودين رابطة .

ومن التآليف أن نعطي شخصاً للتخلص من شره ويزول ما في قلبه من الحقد على المسلمين والعداوة .

واختلف العلماء - هل يُشترط في المؤلفة قلوبهم أن يكون لهم سيادة وشرَّف في قومهم أو لا يشترط ؟

ج : الصَّحِيحُ أَنَّهُ لا يشترط حتى لو أعطيت فرداً من الناس لتؤلفه على الإسلام كفى . أما إذا أعطيت فرداً من الناس من أجل أن تدفع شره فهذا لا يجوز ؛ لأن الواحد من الناس ترفعه إلى ولاة الأمور ويأخذون حَقَّك منه .

الخامس : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ : ذكر العلماء أنها تشمل ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن تَشْتَرِيَ عبداً فتعتقه .

والنوع الثاني : أن تساعد مكاتبا في مكاتبته ، والمكاتب هو العبد الذي اشترى نفسه من سيده .

الثالث : أن تفك بها أسيرًا مثليًا عند الكفار أو عند غيرهم حتى لو اختطف مسلم عند أناس ظلمة ولم يفكوه إلا بفداء من الزكاة فلا بأس .

السادس : قوله : ﴿ وَالْفَرِيرِينَ ﴾ [التوبة : ٦٠] . الغارم : هو الذي يكون في ذمته دين لا يستطيع وفاءه ، أو يكون في ذمته دين لمصلحة عامة وإن كان يستطيع وفاءه ولهذا قال العلماء إن الغرم نوعان : النوع الأول : الغارم لغيره . والثاني : الغارم لنفسه .

الغارم لغيره : هو الذي يقرم مالا لإصلاح ذات البين ، مثل : أن يكون بين قبيلتين نزاع ومشاجرة ومخاصمة ومعاداة ، فيقوم رجل من أهل الخير فيصلح بين القبيلتين على مال يقرم به في ذمته فهنا يكون غارما لكن ليس لنفسه ، بل لمصلحة عامة ، وهي الإصلاح بين هاتين القبيلتين . قال العلماء : فيعطى هذا الرجل ما يوفي به الغرم وإن كان غنيا ؛ لأن هذا ليس لنفسه ، بل لمصلحة الغير .

فلو قدر أن رجلا عنده مائة ألف ريال فأصلح بين قبيلتين بعشرة آلاف ريال يستطيع أن يوفيها من ماله لكن نقول : لا ! لا يلزمه ، بل نُعطيه من الزكاة ما يدفع به هذا الغرم ؛ لأن ذلك لمصلحة الغير ، ولأن هذا يفتح باب الإصلاح للناس ؛ لأننا لو لم نُعِز هذا الرجل ونُعطيه ما غرم لتكاسل الناس عن الإصلاح بين القبائل المتناحرة أو المتعادية .

أما النوع الثاني : فهو الغارم لنفسه : مثل رجل استأجر بيتا بخمسة آلاف ريال وليس عنده ما يدفع به الإجارة . هو نفسه في أكله وشربه ولباسه ليس محتاجا ، لكن يحتاج الى وفاء الدين الذي لزمه بالاستئجار للبيت ؛ فنعطيه هذا الرجل أجرة البيت من الزكاة ؛ لأنه من الغارمين .

كذلك إنسان أصيب بجائحة اجتاحت ماله مثل : الحريق أو الغرق أو ما أشبه ذلك ، وقد لحقه في هذا دين ؛ فنعطيه ما يُسدّد دينه ؛ لأنه غير قادر على الوفاء .

هذا النوع من الغرم يشترط فيه أن يكون الغارم عاجزا عن وفاء الدين ، فإن كان قادرا ، فإنه لا يعطى . ولكن هل يجوز أن يذهب الإنسان لمن له الدين ويقول له : هذا الطلب الذي لك على فلان خذه ويؤويه من الزكاة ؟ .

ج : الجواب : نعم يجوز ، وليس بشرط أن تعطي الغارم ليعطي الدائن ؛ لأن المقصود هو إبراء الذمة ، وهو حاصل سواء أخبرته أم لم تخبره ، وتأمل التعبير في الآية : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٠] . كل هذه الثلاث معطوفة على قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ باللام ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [التوبة : ٦٠] ، ولم يقل وللرقاب ، بل قال : (في) الدالة على الظرفية ؛ يعني أنك إذا صرفت الزكاة في هذه الجهات يجوز وإن لم تعط صاحبها ﴿ وَالْفَرِيرِينَ ﴾ [التوبة : ٦٠] معطوفة على ﴿ فِي الرِّقَابِ ﴾ فيه من مدخول (في) أي : وفي الغارمين .

فإذا قال قائل : هل الأحسن أن أذهب إلى الدائن وأوفيه أو أعطي الغريم لكي يوفي بنفسه ؟

ج - نقول : في هذا تفصيل : إذا كنت تخشى أنك لو أعطيت الغريم لم يُوف ، بل أكل الدراهم وترك

الدين على ما هو عليه ؛ فهنا لا تعطى الغريم ، بل أعطى الدائن . أما إذا كان الغريم صاحب عقل ودين ولا يمكن أن يرضى ببقاء ذمته مشغولة ويغلب على ظني كثيراً أنني إذا أعطيته سوف يذهب فوراً إلى الدائن ويقضي من دينه ؛ فهنا نغطي الغريم ، نقول : خذ هذه الدراهم أوف بها عن نفسك ؛ لأن هذا أستر له وأحسن ، ولكن يجب علينا إذا كنا نوزع الزكاة أن نحذر من حيلة بعض الناس ؛ بعض الناس يقدم لك كشفاً بالدين الذي عليه ، وتوفي ما شاء الله أن توفي ، وبعد سنة يقدم لك نفس الكشف ولا يخصم الذي أوفى عنه ، فانتبه لهذا ؛ لأن بعض الناس صار لا يهمه حلال أم حرام المهم اكتساب المال .

وقد قدم لنا من هذا النوع أشياء ، وذهبتا نسلم الدائن بناءً على الكشف الذي قدم ، فقال الدائن إنه قد أوفى . وهذه مشكلة لكن الإنسان يتحرز ، وهو إذا اتقى الله ما استطاع وتبين فيما بعد أن الذي أخذ الزكاة ليس أهلاً لها ؛ فإن ذمته تبرأ ، وهذه من نعمة الله .

السابع قوله : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : أي الجهاد في سبيل الله وهو القتال لتكون كلمة الله هي العليا ، هكذا حدده النبي ﷺ حينما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ، وَيُقَاتِلُ حِمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ لِيَرَى مَكَانَهُ ، أَيِ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ^(١) ، وهذه كلمة جامعة مانعة وقد تقدم الكلام على هذا .

[تنبيه] يجوز قتل المسلم الظالم وإن كان مسلماً في الحرب ، فإذا قال قاتل : وإن كان مكرهاً ؟ ج : الجواب : أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال : إذا قاتل المسلمون مع التتار فإنهم يُقاتلون وإن كانوا مسلمين ولو كانوا مكرهين . فإن كانوا صَادِقِينَ بأنهم مكرهون ؛ فإن لهم أجر الشهيد ، لأنهم قُتِلُوا ظُلماً من الذي أكرههم ؛ لأن الظلم على الذي أكرههم . وإن كانوا غير صَادِقِينَ ، بل هم مُخْتَارُونَ طَائِعُونَ ؛ فهذا ما أصابهم وهم الذين جرؤوا على أنفسهم وقد قال رحمه الله في تعليل ذلك : إنه لا يعلم المكره من غير المكره ؛ لأن ذلك محله القلب ، فلاختيار والكراهة محلها القلب ، فلا يعلم المكره من غيره ، فيقتل المكره دفاعاً عن الحق وحسابه على الله . نعم ، لو فرض أنه أَمِيرٌ وهو مُسْلِمٌ حقيقة ؛ فإنه لا يجوز قتله ، أما في ميدان القتال ؛ فإنه يقتل .

وقد ذكرها رحمه الله في « الفتاوى » في كتاب الجهاد ج (٢٨) ص (٥٤٤ - ٥٥٣) على كل حال نحن نقول : إن الذي يُقاتل حِفْظاً لِمَالِهِ ، أو حِفْظاً لِبَيْتِهِ ، أو حِفْظاً لِبِلَادِهِ ؛ فإنه لا يخرج عن أمرين إذا كان للبلاد : إن كان يحافظ عليها لأنها بلاد إسلامية لما فيها من الإسلام ؛ فهو في سبيل الله ولا شك ، وإن كان يحافظ عليها لأنها بلده لا يريد أن يضيع كما لا يريد أن يضيع ماله ؛ فهذا إن قتل فهو شهيد ، كما قال الرسول ﷺ : « وَقَاتِلْهُ إِنْ قُتِلَ - أَيِ الْمُقَاتِلِ - فَهُوَ فِي النَّارِ » ^(٢) والعياذ بالله .

وقوله سبحانه : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦٠] يشمل إعطاء الزكاة للمجاهدين أنفسهم وشراء

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٩ ، ١٥٠) والنسائي في السنن (٢٣/٦) ، وأحمد في مسنده (٣٩٧/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٤١٨) والنسائي في السنن (١١٦/٧) ، وأحمد في مسنده (١٩٠/١) .

الأسلحة لهم .

فَشيْرَاءُ الأسلحة من الزكاة جائز من أجل الجهاد في سبيل الله . قال أهل العلم : ومن ذلك : أن يتفرغ شخص لطلب العلم قادر على التكسب لكنه تفرغ من أجل أن يَطْلُبَ العلم ؛ فإنه يُعْطَى من الزكاة مقدار حاجته ؛ لأن طلب العلم جهاد في سبيل الله . أما من تفرغ للعبادة فلا يعطى من الزكاة ، بل يقال : اكتسب وبهذا عرفنا شرف العلم على العبادة . فلو جاءنا رجلان أحدهما دَيِّنَ طيب ويقول : أنا أستطيع أن أتكسب لكن أحب أن أتفرغ للعبادة من الصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن ، فأعطيني من الزكاة واكفوني العمل ! نقول : لا نعطيك بل اكتسب .

وجاء رجل آخر قال : أنا أريد أن أتفرغ لطلب العلم وأنا قادر على التَّكْسِبِ ، لكن إن ذهبت أتكسب لم أطلب العلم ، فأعطيني ما يكفيني لكي أتفرغ لطلب العلم ، قلنا : مَوْحِبًا نُعْطِيكَ ما يكفيك لطلب العلم .

الثَّامِنُ : ﴿ وَآتِ السَّبِيلَ ﴾ : وهو الصنف الثامن من أصناف أهل الزكاة . وابن السبيل هو المسافر الذي انقطع به السفر وتَقَدَّتْ نَفَقَتُهُ فلم يكن معه ما يُوصله إلى بلده ؛ فإنه يُعْطَى من الزكاة ما يُوصله إلى بلده . وليس هذا من باب الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ؛ لأنه غني في بلده لكن قصرت به النفقة في أثناء السَّفَرِ فيُعْطَى ما يُوصله إلى بلده وإن كان غنيًا .

وسُمِّيَ ابن سبيل ؛ لمصاحبه للسفر كما يُقال : ابن الماء في طير الماء الذي يألف الماء فيقع عليه . هؤلاء ثمانية أصناف لا يجوز صَرْفُ الزكاة في غيرهم ، فلا يجوز أن تصرف الزكاة في بناء المساجد ، ولا في إصلاح الطُّرُق ، ولا في بناء المدارس ولا غيرها من طرق الخير ؛ لأن الله ذكر هذه الأصناف بصيغة محصورة فقال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ ... ﴾ [التوبة : ٦٠] ، وإنما تُقيد الحَصْرُ ، وهو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه ، ولو قلنا بجواز صَرْفِ الزكاة في جميع وجوه الخير لفاتت فائدة الحصر ، ولكن بناء المساجد وإصلاح الطُّرُق وبناء المدارس وما أشبهها تفعل عن طرق أخرى ، طرق البر والصدقات والتبرعات .

هذا هو الركن الثالث من أركان الإسلام الذي ذكره النبي ﷺ لجبريل في حديثه الطويل ! .

أما الرابع فقد قال : « وَصَوْمُ رَمَضَانَ » :

ورمضان شهر بين شعبان وشوال ، وسُمِّيَ رمضان بهذا ، قيل : لأنه كان أول تسمية الشهور فصادف أنه كان في شدة الرمضاء والحر فسمي رمضان . وقيل : لأنه تَطَفُّأً به حرارة الذنوب ؛ لأن الذنوب حارة و « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(١) والمهم أن هذا الشهر معلوم للمسلمين ، ذكره الله تعالى باسمه في كتابه فقال : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ولم يذكر الله اسمًا لشهر من الشهور سوى هذا الشهر .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٨) ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) ، والنسائي في السنن (١٥٦/٤) .

وصيام رمضان ركن من أركان الإسلام لا يتم الإسلام إلا به ، ولكنه لا يجب إلا على من تمت فيه الشروط الآتية :

أن يكون مُشْلَمًا ، وأن يكون بالغًا ، وعاقلاً ، قادرًا ، مقيمًا ، سالمًا من الموانع . هذه ستة شروط :

- فإن كان صغيرًا : لم يجب عليه الصوم .

- فإن كان مجنونًا : لم يجب عليه الصوم .

- فإن كان كافرًا : لم يجب عليه الصوم .

- فإن كان عاجزًا : فعلى قسمين :

أ - إن كان عاجزه يُرجى زواله ، كالمرض الطارئ ؛ أفطر ، ثم قضى أيامًا بعدد ما أفطر .

ب - وإن كان عاجزًا لا يُرجى زواله ، كالكبر والأمراض التي لا يُرجى برؤها ؛ فإنه يُطعم عن كل يوم مسكينًا .

- ومقيمًا ضده المُسافر ، فالمسافر ليس عليه صوم ولكنه يقضي من أيام آخر .

- سالمًا من الموانع اخترازًا من الحائض والثفساء ؛ فإنهما لا يجب عليهما الصوم ولا يجوز لهما ولكنهما تقضيان .

صوم رمضان يكون بعدد أيامه إما تسعة وعشرين ، وإما ثلاثين حسب رؤية الهلال ؛ لأن النبي ﷺ قال : « إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا ، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَافْطِرُوا ، فَإِنْ غُمَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمَلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ » (١) عدة شعبان إن كان في أول الشهر ، وعدة رمضان إن كان في آخر الشهر .

الركن الخامس : « حج البيت » :

وهو بيت الله سبحانه أي قصده لأداء المتاسك التي بينها الله سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ . فحج البيت أحد أركان الإسلام ، ومن حج البيت العمرة ؛ فإن النبي ﷺ سهاها حجًا أصغر . ولكن له شروط منها : البلوغ ، والعقل ، والإسلام ، والحُرِّية ، والاستطاعة ، خمسة شروط ! فإذا اُخْتَلَ شَرْطٌ وَاحِدٌ منها فإنه لا يجب . ولكن العجز عن الحج إن كان بالمال فإنه لا يجب عليه لا بنفسه ولا بنائبه .

وإن كان بالبدن إن كان عاجزًا يُرجى زواله انتظر حتى يُعافيه الله وَيَزُولَ المانع ، وإن كان لا يرجى زواله كالكبر ؛ فإنه يلزمه أن ينيب عنه من يأتي بالحج ، لأن امرأة سألت النبي ﷺ قالت : إن أبي أذَرَ كَتِفَهُ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ شَيْخًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ ، أَفَأَحْجُ عَنْهُ ؟ قال : « نعم » (٢) .

فأقرها النبي ﷺ على أنها سمت هذا فريضة مع أنه لا يستطيع لكنه قادر بماله ، فقال لها الرسول

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٧) بلفظ : « فَإِنْ غُمَ عَلَيْكُمْ فَأَقْدِرُوا لَهُ » والنسائي في السنن (١٣٤/٤) ومعنى (غم) أي : لم يظهر .

(٢) أخرجه البخاري في جزاء الصيد (١٨٥٥) ومسلم في الحج (٤٠٧) .

حُجِّي عنه .

هذه خمسة أركان هي أركان الإسلام .

فقال جبريل للنبي ﷺ لما أخبره بذلك قال له : « صَدَقْتَ » قال عمر : « فعجبنا له يسأله ويصدق » لأن الذي يصدق الشخص بقوله يعني أنه عنده علم من ذلك .

السائل إذا أجيب يقول : فهمت لا يقول : صَدَقْتَ ، لكن جبريل عليه الصَّلَاة والسلام عنده علم من هذا ولهذا قال : « صَدَقْتَ » .

وقوله : « أخبرني عن الإيمان » :

والإيمان محلُّه القلب ، والإسلام محلُّه الجوارح ، ولهذا نقول الإسلام عمل ظاهري والإيمان أمر باطني فهو في القلب . فالإيمان : هو اعتقاد الإنسان للشيء اعتقادًا جازمًا به لا يتطرق إليه الشك ولا الاحتمال ، بل يؤمن به كما يؤمن بالشمس في رابعة النهار لا يمتري فيه ؛ فهو إقرار جازم لا يلحقه شك مُوجب للقبول والإذعان .

لقبول ما جاء في شرع الله والإذعان له إذعانًا تامًا . فقال له : « الإيمان أن تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، واليَوْمِ الآخرِ ، وتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خيره وشره » . هذه ستة أركان هي أركان الإيمان : قوله : « أن تؤمن بالله » : أي : تؤمن بأن الله سبحانه موجود حي عليم قادر ، وأنه رب العالمين لا رب سواه ، وأنَّ له المُلْكَ المُطلق وله الحمد المطلق ، وإليه يرجع الأمر كُلُّه ، وأنه سبحانه هو المستحق للعبادة لا يستحقها أحد سواه ﷻ . وأنه هو الذي عليه التكلان ومنه النصر والتوفيق ، وأنه مُتَّصِف بكل صفات الكمال على وجه لا يُمِثَّلُ صِفَات المخلوقين ؛ لأنه ﷻ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

إذا تؤمن بوجود الله ورُبوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته لا بد من هذا .

فمن أنكر وجود الله فهو كافر - والعياذ بالله - مُخلَّد في النار ، ومن تَرَدَّد في ذلك أو شكَّ فهو كافر ؛ لأنَّه لا بد في الإيمان من الجزم بأن الله حي عليم قادر موجود . ومن شك في ربوبيته فإنه كافر . ومن أشرك معه أحدًا في رُبوبيته فهو كافر ، فمن قال : إن الأولياء يُدَبِّرُونَ الكون ولهم تَصَرَّف في الكون فدعاهم واشتتات بهم واشتتَصَر بهم ؛ فإنه كافر والعياذ بالله ؛ لأنه لم يؤمن بالله . ومن صَرَف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فهو كافر ؛ لأنه لم يؤمن بانفراده بالألوهية .

فمن سجد للشمس أو للقمر أو للشجر أو للنهر أو للبحر أو للجبال أو للملك أو لنبي من الأنبياء أو لولي من الأولياء ؛ فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ؛ لأنه أشرك بالله معه غيره .

وكذلك من أنكر على وجه التكذيب شيئًا مما وَصَفَ الله به نفسه ؛ فإنه كافر ؛ لأنه مكذب لله ورسوله .

فإذا أنكر صفة من صفات الله على وجه التكذيب ؛ فهو كافر لتكذيبه لما جاء في الكتاب والسنة .

فإذا قال مثلاً : إن الله لم يستوِ على العرش ، ولا ينزل إلى السماء الدنيا فهو كافر .

وإذا أنكرها على وجه التأويل ؛ فإنه ينظر - هل تأويله سائغ يمكن أن يكون محللاً للاجتهاد أو لا ؟ فإن كان سائغاً ؛ فإنه لا يكفر ، لكنه يفسق لخروجه عن منهج أهل السنة والجماعة .
وأما إذا كان ليس له مسوغ : فإن إنكار التأويل الذي لا مسوغ له كإنكار التكذيب ؛ فيكون أيضاً كافراً والعياذ بالله . هذا الإيمان بالله ﷻ .

وإذا آمنت بالله على هذا الوجه ؛ فإنك سوف تقوم بطاعته ممثلاً أمره مجتنباً نهيه ؛ لأن الذي يؤمن بالله على الوجه الصحيح لا بد أن يقع في قلبه تعظيم الله على الإطلاق ، ولا بد أن يقع في قلبه محبة الله على الإطلاق ، فإذا أحب الله حُباً مطلقاً لا يساويه أي حب وإذا عظم الله تعظيماً لا يساويه أي تعظيم ؛ فإنه بذلك يقوم بأوامر الله وينتهي عما نهى الله عنه . كذلك يجب عليك من جملة الإيمان بالله أن تؤمن بأن الله فوق كل شيء ، على عرشه استوى ، والعرش فوق المخلوقات كلها وهو أعظم المخلوقات التي نعلمها ، لأنه جاء في الأثر : « إن السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحَلَقَةِ أَلْقَيْتَ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ » (١) انتبه !

التي حلقة من حلق المغفر في فلاة من الأرض وانظر نسبة هذه الحلقة بالنسبة للفلاة ماذا تكون ؟
ج : لا شيء ، وفي بقية الأثر : « وإن فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكَرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الْحَلَقَةِ » .
إذا الكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ألقى في فلاة من الأرض . فانظر إلى عظم هذا العرش !
لهذا وَصَفَهُ اللَّهُ بِالْعَظِيمِ كما قال : ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ٢٩] وقال : ﴿ ذُرِّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴾ [البروج : ١٥] فوصفه الله بالمجد والعظمة وكذلك بالكرم .

فهذا العرش استوى الله فوقه فالله فوق العرش ، والعرش فوق جميع المخلوقات ، والكرسي وهو صغير بالنسبة للعرش وسع السماوات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] يجب عليك أن تؤمن بأن الله تعالى فوق كل شيء وأن جميع الأشياء ليست بالنسبة إلى الله شيئاً ، فالله أعظم وأجل من أن يحيط به العقل أو الفكر ، بل حتى البصر إذا رأى الله والله سبحانه يراه المؤمنون في الجنة لا يمكن أن يدركوه أو يحيطوا به كما قال الله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] فشأن الله أعظم شأن وأجل شأن ، فلا بد أن تؤمن بالله ﷻ على هذا الوجه العظيم حتى يوجب لك أن تعبدته حقَّ عبادته . ومن الإيمان بالله : أن تؤمن بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض من قليل وكثير وجليل ودقيق ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣] وكذلك تؤمن بأن الله تعالى على كل شيء قدير ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له : كن . فيكون مهما كان هذا الأمر . وانظر إلى بَعَثَ النَّاسَ وَخَلَقَ النَّاسَ . الناس ملايين لا يحصيهم إلا الله ﷻ وقد قال الله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَجِدَّةٌ ﴾ [لقمان : ٢٨] كل الخلائق خلقهم وبَعَثَهُمْ كنفس واحدة .

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٤٠٤/١ ، ٤٠٥) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٣٠٤/١) .

وقال الله ﷻ في البعث : ﴿ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝ ﴾ ^(١) [التازعات: ١٣، ١٤] .
وترى شيئاً من آيات الله في حياتك اليومية ؛ فإن الإنسان إذا نام فقد توفاه الله كما قال الله :
﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠] لكنها ليست وفاة تامة تفارق فيه الروح الجسد مفارقة تامة ،
لكن مفارقة لها نوع اتصال بالبدن ، ثم يبعث الله النائم من نومه فيحس بأنه قد حي حياة جديدة .
ولكن أثر هذا يظهر قبل أن توجد هذه الأنوار الكهربائية لما كان الناس إذا غشيهم الليل أحسوا
بالظلمة وأحسوا بالوحشة وأحسوا بالسكون ، فإذا انبلج الصبح أحسوا بالأسفار والنور والانشراح
فيجدون لذة لإدبار الليل وإقبال النهار .

أما اليوم : فقد أصبحت الليالي والأيام كأنها في النهار ، فلا نجد اللذة التي كنا نجدها من قبل ، لكن مع
ذلك يحس الإنسان إذا استيقظ من نومه فكأنما استيقظ إلى حياة جديدة ، وهذه من رحمة الله وحكمته .
وكذلك نؤمن بأن الله سميعٌ بصير يسمع كل ما نقول وإن كان خفياً قال الله تبارك وتعالى :
﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ^(٢) [الزخرف: ٨٠] ، وقال الله ﷻ :
﴿ يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَالْخَفَى ﴾ [طه: ٧] ، أي : أخفى من السر وهو ما يُكنه الإنسان في نفسه كما قال الله
تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ قَسَمْتُ لَكَ ﴾ [ق: ١٦] ، أي : ما تحدث به نفسه يعلمه الله
وإن كان لم يظهر للعباد .

وهو ﷻ بصير يُبصر دبيب النمل الأسود على الصخرة السوداء في ظلمة الليل لا يخفى عليه . فإذا
أمنت بعلم الله وقدرته وسمعه وبصره ؛ أوجب لك ذلك أن تراعي ربك ﷻ وأن لا تُسمعه إلا ما
يرضى به ، وأن لا تفعل إلا ما يرضى به ؛ لأنك إن تكلمت سمعك ، وإن فعلت رآك الله فأنت تخشى
ربك ويخاف من ربك أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ، وكذلك تخشى من ربك أن
تُسمعه مالا يرضاه وأن تسكت عما أمرك به . كذلك إذا أمنت بتمام قدرة الله فإنك تسأله كلما تريده
مما لا يكون فيه اعتداء في الدعاء ولا تقل : إن هذا بعيد ولا يمكن ! كل شيء ممكن على قدرة الله ؛
فها هو موسى عليه السلام لما وصل إلى البحر الأحمر هارباً من فرعون وقومه ، أمره الله أن يضرب البحر
بعصاه ففُضِرَتْه فانفلق اثني عشرة طريقاً ، كان الماء بين هذه الطرق كالجبال ، وفي لحظة ييس البحر
وصاروا يمشون عليه كأنما يمشون على صحراء لم يصبها الماء أبداً بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ويذكر أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما كان يفتح بلاد فارس ووصل إلى دجلة - النهر المعروف في
العراق - غيّر الفرس النهر مشرقين وكسروا الجسور وأغرقوا الشفن لئلا يعبر إليهم المسلمون فاستشار
عليه الصحابة ، وفي النهاية قرروا أن يعبروا النهر ، فعبروا النهر يمشون على سطح الماء بخيلهم وإبلهم

(١) قوله ﴿ زَجْرَةٌ ﴾ أي : صيحة ، وقوله ﴿ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي : وجه الأرض والعرب تسميه ساهرة ؛ لأن فيه نوم الحيوان
وسهره ، وقيل : الساهرة أرض الشام .

(٢) قوله ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أي : ما تناجوا به ولم يطلع عليه غيرهم .

ورجلهم لم يمسه سوء (١) !

فمن الذي أمسك هذا البحر حتى صار كالصفاء كالحجر يسير عليه الجند من غير أن يغرقوا؟ إنه هو الله ﷻ الذي على كل شيء قدير .

وكذلك جرى للعلاء بن الحضرمي رحمه الله حينما غزا البحرين واعترض لهم البحر ، دعا الله سبحانه فعبروا على سطح الماء من غير أن يمسه سوء (٢) .

وآيات الله كثيرة ، فكل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به رسوله عليه الصلاة والسلام أو شاهده الناس من خوارق العادات فإن الإيمان به من الإيمان بالله ؛ لأنه إيمان بقدره الله ﷻ .

ومن الإيمان بالله ﷻ أن تعلم أنه يراك ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك : وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الناس تجده يتعبد لله وكأن العبادة أثمر يفعله على سبيل العادة لا يفعلها كأنه يشاهد ربه ﷻ ، وهذا نقص في الإيمان ونقص في العمل .

ومن الإيمان بالله : أن تؤمن بأن الحكم لله العلي الكبير : الحكم الكوني والشرعي كله لله لا حاكم إلا الله ﷻ وبيده كل شيء كما قال الله : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ تَوْفَى الْمُلُوكِ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُخْرِجُهُمْ مِنْ تَشَاءُ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ تَشَاءُ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

فكم من ملك سلب ملكه بين عشيّة وضحاها ، وكم من إنسان عادي صار ملكاً بين عشيّة وضحاها ؛ لأن الأمر بيد الله ! وكم من إنسان عزيز يرى أنه غالب لكل أحد فيكون أذل عباد الله بين عشيّة وضحاها . وكم من إنسان ذليل يكون عزيزاً بين عشيّة وضحاها ؛ لأن الملك والحكم لله ﷻ : وكذلك الحكم الشرعي لله ليس لأحد ، فالله تعالى هو الذي يُخلل ويُخرم ويوجب وليس أحد من الخلق له الفضل في ذلك .

الإيجاب والتحليل والتحریم لله ولهذا نهى الله عباده أن يصفوا شيئاً بالحلال والحرام بدون إذن فقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦-١١٧] فالخلاص أن الإيمان بالله بائنه واسع جداً ولو ذهب الإنسان يتكلم عليه بأياماً كثيرة ولكن الإشارة تُغني عن طويل العبارة .

وقوله ﷻ : « وَمَلَائِكَتُهُ » :

والملائكة : هم عالم غيبي خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور وجعل لهم أعمالاً خاصة كل منهم يعمل بما أمره الله به وقد قال الله في ملائكة النار : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] فهم ليس عندهم استيكرار عن الأمر ولا عجز عنه يفعلون ما أمروا به ويقدرُونَ عليه بخلاف البشر .

(١) انظر القصة في : تاريخ الطبري (٢٠٣/٤) ، والبداية والنهاية (٦٤/٧) .

(٢) راجع القصة في : تاريخ الطبري (٦/٤) .

البشر قد يستكبرون عن الأمر وقد يعجزون عنه ، أما الملائكة : فخلقوا لِيَتَّقُوا أمر الله سواء في العبادات المتعلقة بهم أو في مصالح الخلق .

فمثلاً : جبريل أشرف الملائكة موكلاً بالوحي ينزل به من الله على رُسُلِهِ وأنبِيَاءِهِ ؛ فهو موكَّل بأشرف شيء ينتفع به الخلق والعباد ، وهو ذو قوة أمين مُطَاع بين الملائكة ولهذا كان أشرف الملائكة . كما أن محمداً ﷺ أشرف الرسل قال ﷺ : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ ﴿ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴾ ^(١) [النجم : ٦ ، ٧] يعني علم النبي ﷺ القرآن ، شديد القوى أي ذو القوى الشديدة وهو جبريل .

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ : أي ذو هيئة حسنة ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ : أي كَمُلَ وَعَلَا وهو بالأفق الأعلى . وقال ﷺ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : جبريل ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ ﴿ تُطَاعُ نَمَّ آمِينَ ﴾ [التكوير : ١٩ - ٢١] .

ومن هؤلاء أيضاً : من وكلوا بمصالح الخلق من جهة أخرى في حياة الأرض والنبات مثل ميكائيل : فإن ميكائيل موكَّل بالقطر - أي المطر - والنبات وفيهما حياة الأبدان حياة الناس والبهائم . فالأول جبريل موكَّل بما فيه حياة القلوب وهو الوحي ، وهذا موكل بما فيه حياة الأبدان وهو القطر والنبات .

ومنهم إسرئيل : وهو أحد حملة العرش العظيم ، وهو موكَّل بالنفخ في الصور وهو قرن عظيم دائرة كما بين السماء والأرض . فإذا سمعه الناس سَجَعُوا صَوْتًا لَا عَهْدَ لَهُمْ بِهِ ، صوتاً مزعجاً فيفزعون ثم يصعقون أي : يموتون من شدة هذا الصوت .

ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون تطاير الأزواج من هذا القرن ، ثم تَرْجِعُ كل روح إلى بدنِها الذي تعمره في الدنيا لا تخطئه شعرة بأمر الله ﷻ . فكل هؤلاء الثلاثة موكَّلون بما فيه الحياة ! فجبريل موكَّل بحياة القلوب ، وميكائيل بما فيه من حياة النبات والأرض ، وإسرئيل بما فيه حياة الأبدان .

ولهذا كان النبي ﷺ يُثْنِي على الله بربوبيته لهؤلاء الملائكة الثلاثة في افتتاح صلاة الليل فكان يقول في افتتاح صلاة الليل بدل « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ » ^(٢) يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تُهْدِي مَنْ تُشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ^(٣) . ومنهم من وكل بقبض الأرواح : وهو مَلَكُ الْمَوْتِ وله أعوان يُسَاعِدُونَهُ على ذلك وينزلون بالكفن

(١) قوله ﴿ وَالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴾ أي ظهر بالجهة العليا من السماء فسد الأفق إلى المغرب .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٣) وأبو داود في السنن (٧٧٦) وابن ماجه في السنن (٨٠٦) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠) والترمذي في السنن (٣٤٢٠) وأحمد في مسنده (١٥٦/٦) ، وقوله « فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ » أي موجدِها على غير مثال يحتذى ، وقوله « الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أي السر والعلانية .

والحنوط للروح التي تخرج من الجسد إن كان من أهل الإيمان - جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْهُمْ - فإنهم ينزلون بكفن من الجنة وخُوط من الجنة ، وإن كانوا من أهل النيران نزلوا بحنوط من النار وكفن من النار ، ثم يجلسون عند المحتضر الذي حضر أجله ويخرجون روحه حتى تبلغ الحلقوم ، فإذا بلغت الحلقوم استلَّها ملك الموت ثم أعطاهم إياها فوضعوها في الحنوط والكفن (١) !

الملائكة تكفن وتمخط الروح والبشر يكفنون ويحنطون البدن ! انظر إلى عناية الله بالآدمي !! ملائكة يكفنون روحه وبشر يكفنون بدنه ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١] لا يفرطون في حفظها : ولا يفرطون فيها .

ملك الموت أعطاه الله قدرة على قبض الأرواح في مشارق الأرض ومغاربها يَقْبِضُهَا ولو ماتوا في لحظة واحدة . ولا تستغرب ؛ لأن الملائكة لا يُقَاسُونَ بالبشر ؛ لأن الله أعطاهم قدرة عظيمة أشد من الجن . الجن أقوى من البشر ، والملائكة أقوى من الجن .

انظر !! قصة سليمان حيث قال : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُو۟ا۟ أَيْمِي۟نِ بِعَر۟شِي۟هَا قَب۟لَۥ أَنْ يَأ۟تِيَنِي مَس۟لِي۟نِ ﴾ ﴿ قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ اللَّي۟نِ ﴾ عفريت قوي شديد ﴿ أَنَا۟ مَآلِكُ يَدِۥ قَب۟لَۥ أَنْ تَق۟ومَ مِنۢ مَّقَآيِكُ وَلِي۟نِ عَلَيْهِ لَق۟و۟ى۟ أَمِي۟نُ ﴾ [النمل: ٣٨ ، ٣٩] ، أين مكان العرش ؟

ج : في اليمن ، وسليمان في الشام مسيرة شهر بينهما . وكان سليمان عادة يقوم من مقامه في ساعة معينة ! ف ﴿ قَالَ أَل۟ئِي۟ عِن۟دُكَ عِل۟مٌ مِّنَ الْكِتَآبِ أَنَا۟ مَآلِكُ يَدِۥ قَب۟لَۥ أَنْ يَر۟دَّ إِلَي۟كَ طَر۟فُكَ ﴾ . الثاني أسرع من الأول . أي : مدة بصرِكَ ، ما ترده إلا وقد جاءك ﴿ فَلَمَّا رَآهُ ﴾ حالاً رآه ﴿ مُس۟تَقِرًّا عِن۟دُكَ ﴾ قال العلماء : إن هذا الذي عنده علم من الكتاب دعا الله باسمه الأعظم فحملت الملائكة العرش من اليمن إلى الشام (٢) في هذه اللحظة إذا فالملائكة أقوى من الجن .

فلا تستغرب أن يموت الناس في مشارق الأرض ومغاربها وأن يَقْبِضَ أرواحهم ملك واحد كما قال الله : ﴿ قُلْ يَو۟فِّقُكُم مَّلَكُ الْمَو۟تِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيَّ رَبِّكُم تَرْجَعُونَ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ١١] .

إذا قال الله لهذا الملك اقبض روح كل من مات هل يمكن أن يقول لا ؟ لا يمكن ؛ لأنهم لا يعضون الله ما أمرهم ، ولهذا لما قال الله للقلم : اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة (٣) .

القلم جَمَاد فَهَلْ كَتَبَ أَمْ لَا ؟

ج : كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فالله ﷻ إذا أمر بأمر لا يمكن أن يَقْصِي ، إلا المردة من الجن أو من بني آدم ، أما الملائكة فلا يعضون الله !

(١) انظر في ذلك أحمد في مسنده (٢٨٧/٤ ، ٢٩٦) .

(٢) هذا هو قول مجاهد ، وقتادة وابن زيد انظر تفسير الطبري (١٩٨/١٩) .

(٣) انظر الحديث في الترمذي في التفسير (٦٨) وأحمد في مسنده (٣١٧/٥) .

والمملك الخامس مَالِكُ الْمُكَلِّ بالنار : وهو خَازِنُهَا ، وقد ذكره الله في قوله عن أهل النار : ﴿ وَكَادُوا بِعَذَابِكَ لَيَقْبِضَ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّنِكُوثُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٧] . ما معنى لَيَقْبِضَ علينا ؟
ج : يعني ليمتتنا ويُهْلِكُنَا وَيُرْخِنَا مما نحن فيه ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّنِكُوثُونَ ﴾ .

السادس : خازن الجنة : وَوَزَرَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ أَنَّ اسْمَهُ (رضوان) وهذا وُكِّلَ بالجنة كما أن مَالِكًا وُكِّلَ بالنار .

فمن علمنا اسمه من الملائكة آمنا به باسمه ، ومن لم نعلم باسمه آمنا به على سبيل الإجمال ، آمنا بعمله الذي نعلمه ويوصفه وبكل ما جاء به الكتاب والسنة من أوصاف هؤلاء الملائكة .
نحن قلنا : إن الملائكة عَالَمٌ غيبي فهل يمكن أن يُرَوَّاهُ ؟

ج : الجواب : نعم قد يُرَوَّى إما على صورتهم التي خلقوا عليها ، وإما على صورة من أراد الله أن يكون على صورته ؛ فجبريل رآه النبي ﷺ على صورته في الأرض وفي السماء عند سدره المنتهى (١) كما قال الله ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] أتدرون كيف رآه ؟
ج : رآه وله ستمائة جناح قد سد الأفق أي : مَلَأَ الأفق كله ولا يعلم قدر الأجنحة إلا الله ﷻ ، لكن إذا كان الشيء عاليًا وسد الأفق فهو معناه أنه واسع جدًا .

هذا الذي رآه النبي ﷺ على صورته مرتين أحيانًا يأتيه بصورة إنسان كما في حديث عمر في قصة جبريل ؛ فقد جاءه بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يُرَى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة ، والله على كل شيء قدير قد أعطاهم الله ﷻ ذلك أن يتصوروا بصور البشر إما بالاختيار وإما بالإرادة . الله يأمرهم أن يكونوا على هذه الصورة ، فالله أعلم .

إنما هذه حال الملائكة - عليهم الصلاة والسلام - وتفصيل ما ورد فيهم مذكور في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ ، لكن علينا أن نؤمن بهؤلاء الملائكة وأنهم أقوياء أشداء قال الله لهم في غزوة بدر : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ فَمَتَيْتُوْا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَالَتْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢] ، فكانوا يقاتلون مع الصحابة في بدر فيرى الكافر يسقط مضروبًا بالسيف على رأسه ولا يدرى الذي قتله والذي قتله هم الملائكة ؛ لأن الله قال لهم : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣] فعلى أن نؤمن بهم من علمناه بعينه آمنا به بعينه وإلا فالإجمال وأن نؤمن بمن جاء عنهم من عبادات وأعمال على وفق ما جاء في الكتاب والسنة والإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة ومن أنكرهم أو كذب بهم ، أو قال : إنهم لا وجودَ لهم أو قال : إنهم قوى الخير والشر فقد كفر كفراً مخرجاً عن الملة ؛ لأنه مكذب لله ورسوله وإجماع المسلمين . لقد ضل قوم غاية الضلال حيث أنكروا أن يكون هناك ملائكة - والعياذ بالله ، وقالوا : إن

الملائكة عبارة عن قوى الخير وليس هناك شيء يسمى عالم الملائكة .

وهؤلاء إن قالوا هذا متأولين ، فإن الواجب أن نبين لهم أن هذا تأويل باطل ، بل تحريف ، وإن قالوه غير متأولين ؛ فإنهم كفار لأنهم مكذبون لما جاء به الكتاب والسنة وأجمعت عليه الأمة من وجود الملائكة والله قادر على أن يخلق عالماً كاملاً لا يحس به البشر عن طريق حواسهم المعتادة فيها هم الجن موجودون ولا إشكال في وجودهم ومع ذلك لا تدرّكهم حواسنا الظاهرة كما تدرّك الأشياء الطاهرة والله في خلقه شؤون .

وقوله : « وَكُتِبَ » :

وهو الركن الثالث : والكتب جمع كتاب والمراد به الكتاب الذي أنزله الله على الرسل . فكل رسل له كتاب كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] وقال : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ^(١) [الحديد : ٢٥] .

لكن من الكتب ما لا نعلمه ومنها ما نعلمه ؛ فالتوراة : وهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى معلوم ، والإنجيل : وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى معلوم ، وصحف إبراهيم : مذكورة في القرآن ، وزبور داود : مذكور في القرآن ، وصحف موسى : إن كانت غير التوراة مذكورة في القرآن أيضاً .

فما ذكر الله اسمه في القرآن وجب الإيمان به بغيره واسمه ، وما لم يذكر فإنه يؤمن به إجمالاً . فنؤمن بأن الله أنزل على موسى كتاباً هو التوراة ، وعلى عيسى كتاباً هو الإنجيل ، وعلى داود كتاباً هو الزبور ، وعلى إبراهيم صحفاً هكذا ، ولا يعني ذلك أن ما وجد عند النصارى اليوم هو الذي نزل على عيسى ؛ لأن الأناجيل الموجودة في أيدي النصارى اليوم محرفة ومغيرة ومبدلة ، لعب بها قساوسة النصارى فزادوا فيها ونقصوا وحرفوا ، ولهذا تجدها تنقسم إلى أربعة أقسام أو خمسة ، ومع ذلك فإن الكتاب الذي نزل على عيسى كتاب واحد ، لكن الله إنما تكفل بحفظ الكتاب الكريم الذي نزل على محمد ﷺ ؛ لأنه لا نبي بعده بين للناس ما هو الصحيح ، وما هو المحرف . أما الكتب السابقة : فإنها لم تحل من التحريف ؛ لأنه سيبحث أنبياء يثبتون فيها الحق ويثبتون فيها المحرف ، وهذا هو السر في أن الله تكفل بحفظ القرآن دون غيره من الكتب من أجل أن يعلم الناس حاجتهم إلى الأنبياء إذا وجدوا الكتب محرفة فتأتي الأنبياء وتبين الحق .

فالهم أن تؤمن بأن الكتاب الذي نزل على النبي المعين حق من عند الله لا على أن الكتاب الذي في أيدي أتباعه اليوم هو الكتاب الذي نزل ، بل قطعاً إنه مُحرف ومُغير ومُبدل .

ومن الإيمان بالكتب : أن تؤمن بأن كل خبر جاء فيها فهو حق كما أن كل خبر في القرآن فهو حق ؛ لأن الأخبار التي جاءت في الكتب التي نزلت على الأنبياء من عند الله ، وكل خبر من عند الله فهو حق ، وكذلك تؤمن بأن كل حكم فيها صحيح من عند الله فهو حق ؛ لأن جميع أحكام الله

(١) قوله ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ أي : بالعدل في كل شئونهم .

التي ألزم الله بها عباده كلها حق ، لكن هل هي بقيت إلى الآن غير محرفة ؟ هذا السؤال بيئنا الجواب عنه ، ولكن هل علينا أن نعمل بالأحكام التي جاءت بها الكتب السابقة ؟ .

ج : نقول : أما ما قصه الله علينا من هذه الكتب ؛ فإننا نعمل به ما لم يرد شرعنا بخلافه .

مثاله : قوله تعالى عن التوراة : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ فِصَاصًا فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَكُمْ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] هذه مكتوبة في التوراة ونقلها الله ﷻ في القرآن .

لكن الله ﷻ لم يقصها علينا إلا من أجل أن نعتبر ونعمل بها كما قال الله : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] ، وقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَفْتِدْهُ ﴾ [الأنعام : ٩٠] فما قصه الله علينا وما نقله لنا من الكتب السابقة فهو شرع لنا ؛ لأن الله لم يذكره عبثاً إلا إذا ورد شرعنا بخلافه فيصير ناسخاً لها . كما أن من الآيات الشرعية النازلة في شرعنا ما يكون منشوخاً بآيات أخرى . فكذا ما ذكره الله عن الكتب السابقة نقلاً ؛ فإنه قد ينسخ بهذه الشريعة .

أما ما جاء في كتبهم لهم : فإننا لا نُصدقه ولا نكذبه ، كما أمر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام فيما إذا حدثنا بنو إسرائيل أن لا نُصدقهم ولا نكذبهم ^(١) . لأننا ربما نُصدقهم بالباطل وربما نُكذبهم بحق فنقول : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، ولا نُصدقهم ولا نكذبهم إذا لم يشهد شرعنا بصحته ولا بكذبه . فإن شهد بصحته أو بكذبه عملنا ما تقتضيه هذه الشهادة . ومن ذلك ما تقتضيه هذه الشهادة إلى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كما ذكر عن داود أنه أعجبه امرأة رجل من جنده فأحبها وطلب من الجندي أن يذهب إلى العدو ويقاتل لعله يقتل فيأخذ امرأته من بعده !

وأنه أرسل الجندي فبعث الله إليه جماعة من الملائكة يختصمون إليه فقال أحد الخصمين : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ يَسْأَلْكُمْ وَتَمُونُ تَجَةً وَلِي تَجَةٍ وَجِدَّةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَنِي فِي الْخُطَابِ ۖ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيْنَا عَاجِئٌ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الظَّالِمِ لِيَئِنِّي بِعَصِيَّتِهِ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٣، ٢٤] قالوا : فهذا مثل ضربه الله لداود حيث كان عنده من النساء ما يبلغ تسعاً وتسعين امرأة فحاول أن يأخذ امرأة هذا الجندي ليكمل بها المائة !

فهذه القصة كذب واضح ^(٢) ، لأن داود نبي من الأنبياء ولا يمكن أن يتحيل هذه الحيلة لو أنه غير نبي ما فعل هذا وهو عاقل فكيف وهو نبي ؟! فمثل هذه القصة جاءت عن بني إسرائيل نقول : إنها كذب ؛ لأنها لا تليق بالنبي ، ولا بأي عاقل .

والخلاصة : أن ما جاء في كتبهم ينقسم إلى قسمين رئيسيين :

- (١) انظر الحديث في : البخاري في التوحيد (٧٥٤٢) والبيهقي في السنن (١٦٣/١٠) ، والبخاري في شرح السنة (٢٩٦/١) .
- (٢) مما يؤسف له أن هذه القصة وردت عند بعض المفسرين مثل : الطبري (١٧٥/٢٣) والسيوطي في الدر المنثور (٣٠٣/٥) ، وقد نقلت هذه القصة عن وهب بن منبه ولم يثبت فيها حديث عن النبي ﷺ يجب اتباعه ؛ بل إن مثل هذه القصة لا تصح في حق أي نبي من الأنبياء لأنهم منزّهون عن مثل هذه الأمور ؛ لأنهم الأئمة في الخير والهدى ، والمصطفون الأخيار .

أولاً : ما قصّه الله علينا في القرآن أو قصّه علينا رسول الله ﷺ فهذا مقبول صحيح .

والثاني : ما نقلوه هم ، فهذا لا يخلو من ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن يشهد شرعنا بكذبه فيجب علينا أن نكذبه ونرده .

والثانية : ما شهد شرعنا بصدقه فتصدقه ونقبله لشهادة شرعنا به .

والثالث : ما ليس هذا ولا هذا ؛ فيجب علينا أن نتوقف ؛ لأنهم لا يؤمنون ويحصل في خبرهم الكذب والتغيير والزيادة والتقص .

قوله : « ورسله » هذا هو الركن الرابع :

الرسول هم البشر الذين أرسلهم الله إلى الخلق وجعلهم واسطة بينهم وبين عبادته في تبليغ شرائعه ، وهم بشر خلقوا بين أب وأم وإلا عيسى ابن مريم فإن الله خلقه من أم بلا أب .

أرسلهم الله سبحانه وتعالى رَحْمَةً بِالْعِبَاد وإقامة للحجة عليهم كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجُبَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) [النساء : ١٦٣-١٦٥] .

وهم عدد كثير أولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ وقد صح في الصحيحين وغيرهما في حديث الشفاعة « أن الناس يوم القيامة يأتون إلى نوح فيقولون له : أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض » (٢) .

أما دليل كون النبي عليه الصلاة والسلام آخر الرسل فهو قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « أنا خاتم النبيين » (٣) وعلينا أن نؤمن أن جميع الأنبياء صادقون فيما بلغوا به عن الله وفي رسالتهم .

- علينا أن نؤمن بأسماء من عينت أسماؤهم لنا ومن لم تُعين أسماؤهم لنا ؛ فإننا نؤمن بهم على سبيل الإجمال .

- علينا أن نؤمن أن ما من أمة إلا أرسل الله إليها رسولا لتقوم عليهم الحجة كما قال الله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

وعلينا أن نُصدق بكل ما أخبرت به الرسل إذا صح عنهم من جهة الثقل ونعلم أنه حق .

(١) قوله ﴿ حُجُبَةٌ ﴾ أي : دليل وبرهان (المعجم الوسيط ١/١٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) وأحمد في مسنده (١١٦/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٣٥) ومسلم في الفضائل (٢٢) والترمذي في السنن (٢٢١٩) وأحمد في مسنده (٣٩٨/٢) .

وعلينا أن نتبع خاتمهم محمدًا ﷺ ؛ لأنه هو الذي فرض علينا اتباعه قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] فأمرنا الله باتباعه وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] أمّا ما سواه من الرسل فإننا نتبعهم إذا ورد شرعنا بالأمر باتباعهم مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « أَفْضَلُ الصَّلَاةِ صَلَاةُ أَخِي دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَتَمَّ سُدُسَهُ ، وَأَفْضَلُ الصَّيَامِ صِيَامُ أَخِي دَاوُدَ ؛ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا ، وَيُفْطِرُ يَوْمًا » ^(١) فهذا حكاية لتعبد داود وتهجده في الليل وكذلك صيامه من أجل أن نتبعه فيه .

أما إذا لم يرد شرعنا بالأمر باتباعه فقد اختلف العلماء - رحمهم الله - هل شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بالأمر بخلافه ، أو أنه ليس بشرع لنا حتى يرد شرعنا باتباعه ؟
والصحيح : أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافه ؛ لأنه تعالى لما ذكر الأنبياء والرسل قال لنبيه ﷺ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيَهْدِيهِمْ أَفْتَدِ ﴾ [الأنعام: ٩٠] فأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يقتدي بهدي من سبقه .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] وهذه في آخر سورة يوسف التي قص الله علينا قصة مطولة من أجل أن نعتبر بما فيها .

ولهذا أخذ العلماء - رحمهم الله - من سورة يوسف فوائد كثيرة في أحكام شرعية في القضاء وغيرها ، وأخذوا منها : العمل بالقرائن عند الحكم لقوله تعالى : ﴿ وَشَهِدْ شَاهِدًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ بُقُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فقالوا هذه قرينة ؛ لأنه إذا كان القميص ﴿ قَدْ مِّنْ بُقُلٍ ﴾ فالرجل هو الذي طالبا فقدت قميصه ، وإذا كان ﴿ مِّنْ دُبُرٍ ﴾ من الخلف فهي التي طلبته وجرت قميصه حتى انقذ ؛ فهذه قرينة ثبت بها الحكم ، والعلماء اعتمدوا هذه القرينة وإن كان في السنة ما يدل على الحكم بالقرائن في غير هذه المسألة .
لكن الراجح أن « شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه » .

وللرسل علينا : أن نحبه وأن نعظمهم بما يستحقون وأن نشهد أنهم في الطبقة العليا من طبقات أهل الخير والصلاح كما قال الله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ ^(٢) [النساء: ٦٩] .

أما الركن الخامس فهو : « الإيمان باليوم الآخر » :

واليوم الآخر : هو يوم القيامة وسُمي بذلك ؛ لأنه لا يوم بعده . فالإنسان له مراحل أربع : مرحلة

(١) أخرجه النسائي في السنن (٢٠٩/٤) بلفظه ، والبخاري في التهجد (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩)

(٢) قوله ﴿ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ أي : الذين صدق قولهم عملهم . كلاهما بلفظ : « أحب الصيام » .

في بطن أمه ، ومرحلة في الدنيا ، ومرحلة في البرزخ ، ومرحلة يوم القيامة ، وهي آخر المراحل ولهذا سمي اليوم الآخر ، يسكن فيه الناس إما بالجنة - نشأ الله أن يجعلني وإياكم منهم - وإما في النار والعياذ بالله .

الإيمان باليوم الآخر يدخل فيه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في كتاب العقيدة الواسطية وهو كتاب مختصر في عقيدة أهل السنة والجماعة من أحسن ما كتبه شيخ الإسلام رحمته الله في جمعه ووضوحه وعدم الاستطرادات الكثيرة .

يقول رحمته الله : « يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلوات الله عليه بِمَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ » (١) .

- فمن ذلك : فتنة القبر : إِذَا دُفِنَ الْمَيِّتُ أَتَاهُ مَلَكَانِ يَجْلِسَانِهِ وَيَسْأَلَانِهِ ثَلَاثَةَ أَسْئَلَةٍ يَقُولَانِ : مَنْ رَبُّكَ ، مَا دِينُكَ ، مَنْ نَبِيُّكَ ؟!

فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت - أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم - فيقول المؤمن : ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة !

ويُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَ الْبَصَرِ وَيَأْتِيهِ مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ رَوْحِهَا وَيَشَاهِدُ فِيهَا مَا يَشَاهِدُ مِنَ النِّعَمِ .
وأما المنافق أو الكافر فيقول : هَاهُ هَاهُ (٢) ... لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ؛ لأن الإيمان لم يصل إلى قلبه وإنما هو بلسانه فقط فهو يسمع ولا يدري ما المعنى ولا يفتح عليه في قبره هذه فتنة عظيمة جداً ، ولهذا أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نستعين بالله منها في كل صلاة : « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » (٣) .

- ومن ذلك : أن تؤمن بنعيم القبر وعذاب القبر : نعيم القبر لمن يستحق النعيم من المؤمنين وعذاب القبر لمن يستحق العذاب ، وقد جاء ذلك في القرآن والسنة وأجمع عليه أهل السنة والجماعة .

- ففي كتاب الله يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣١، ٣٢] أي : عند الوفاة .

ويقول الله صلوات الله عليه في آخر سورة الواقعة : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] يقول هذا في ذكر حال المحتضر إذا جاءه الموت . إذا كان من المقربين فله روح وريحان وجنة نعيم في نفس اليوم .

أما عذاب القبر : فاستمع إلى قول الله صلوات الله عليه : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أي :

(١) انظر العقيدة الواسطية (ص : ١٠) .

(٢) انظر نص الحديث في النسائي في الجناز (٨/٤ ، ٩٧) وأحمد في مسنده (٤/٣ ، ١٢٦) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٢٨) والحاكم في المستدرک (٥٣٣/١) ، كلاهما بلفظ « أَعُوذُ بِكَ » .

سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿ وَالْمَلَكُ بَاسِطًا أَيْدِيَهُ ﴾ مَا دَيْنُ أَيْدِيهِمْ لِهَذَا الْمُحْتَضِرِّ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وَكَأَنَّهُمْ شَحِيحُونَ بِأَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُا تُبَشِّرُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - بِالْعَذَابِ فَتَهْرَبُ فِي الْبَدَنِ وَتَتَفَرَّقُ وَيَشْحَ بِهَا الْإِنْسَانُ ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] الْيَوْمَ يَوْمَ مَوْتِهِمْ .

وقال الله ﷻ في آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] . فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ هذا قبل يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] ، ولكن يجب علينا أن نعلم أن هذا النعيم والعذاب أمرٌ غيبي لا نطلع عليه ؛ لأننا لو اطلعنا عليه ما دَفَعْنَا أَمْوَاتَنَا ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يقدم مَيْتَهُ لعذاب يسمعه . يفرح ؛ لأن الكافر أو المنافق إذا عجز عن الإجابة يضرب بمرزبة - قطعة من الحديد مثل المطرقة - فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ! قال النبي ﷺ : « لو سمعها الإنسان لَصَبَقَ » ^(١) .

وقال النبي ﷺ : « لَوْ لَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لِدَعْوَتِ اللَّهِ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ » ^(٢) ، ولكن من نعمة الله أننا لا نعلم به حشًا ، بل نؤمن به غيًّا .

كذلك لو كان عذاب القبر شهادة وحشًا لكان فيه فضيحة ! إذا مررت بقبر إنسان ورأيتَه يعذب ويصيح فيه فضيحة له .

ولو أنه شهادة يحس ؛ لكان هذا قلقًا على أهله وذويه فلا ينامون في الليل وهم يَسْمَعُونَ صاحبهم يصيح ليلاً ونهارًا من العذاب ، لكن من رحمة الله ﷻ أن جعله غيًّا لا يعلم عنه فلا يأت شخص ويقول : إننا لو حضرنا القبر بعد يومين لم نجد أثرًا للعذاب ؟

نقول : لأن هذا أمرٌ غيبي ، على أن الله تعالى قد يطلع على هذا الغيب مَنْ شَاءَ من عباده ؛ فقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ؓ : أن النبي ﷺ مرَّ بِقَبْرَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَقَالَ : « إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَا أَخَذَهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِرُهُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » ^(٣) ، فَأُطْلِعَ اللَّهُ نَبِيَهُ عَلَى هَذَيْنِ الْقَبْرَيْنِ أَنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ . فالحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بفتنة القبر وهي سؤال الملكين عن ربه ودينه ونبيه ، وأن نؤمن بنعيم القبر أو عذابه .

- ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر : أن يؤمن الإنسان بما يكون في نفس اليوم الآخر ، وذلك أنه إذا نفخ في الصور النفخة الثانية قام الناس من قبورهم لله رب العالمين حفاة ليس عليهم نعال ، وغرأة ليس عليهم ثياب ، وغرلاً ليسوا محتونين وبهائمًا ليس معهم مال .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٠) وأحمد في مسنده (٤١/٣ ، ٥٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٣) بلفظه ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٨) بلفظ : « من عذاب القبر » ومعنى قوله « لَوْ لَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا » أي : لا تدفنون موتاكم .

(٣) أخرجه الترمذي (٧٠) والنسائي في السنن (١٠٦/٤) ، وابن ماجه في السنن (٣٤٧) ومعنى قوله « يَسْتَنْزِرُهُ » أي : لا يجعل بينه وبين بوله سترة تحفظه من رشاشته .

كل الناس حتى الأنبياء والرسل يُعْتَبُونَ ، هكذا كما قال الله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] . فكما أن الإنسان يخرج من بطن أمه هكذا غارياً غير مختون ليس معه مال ، فكذلك يخرج من بطن الأرض يوم القيامة على هذه الصفة ، يقومون لرب العالمين الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والكفار والمؤمنون ، كلهم على هذا الوصف خفاة غزاة غُرلاً بُهْمًا ، ولا ينظر بعضهم إلى بعض ؛ لأنه قد دهاهم من الأمر ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض .

رُبما تكون المرأة إلى جنب الرجل ولا ينظران إلى بعض ، كما قال الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَتْ أَلْحَانَةُ يَوْمَ يَكْفُرُ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِهِ ﴾ وَأَمْرُهُ وَأَيُّهُ ﷻ وَمَنْجِيهِ وَبَيْنَهُ ﷻ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ ﷻ [عس : ٣٢-٣٧] . ومن الإيمان باليوم الآخر : أن تؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يسط هذه الأرض ويمدها كما يمد الأديم ، أى الجلد ؛ لأن أرضنا اليوم كرة مستديرة منبسطة بعض الشيء من الجنوب والشمال ، لكنها مستديرة كما يفيدته قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﷻ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُمَتْ ﷻ وَإِنَّا الْآرْضُ مُدَّتْ ﷻ [الانشقاق : ١-٣] معناه أنها لا تمد إلا إذا انشقت السماء وذلك يوم القيامة ، فتبسط الأرض كما يُبسط الجلد المدبوغ ليس فيها أودية ولا أشجار ولا بناء ولا جبال ، يذرها الرب ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ ^(١) ﷻ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﷻ [طه : ١٠٦، ١٠٧] ^(٢) .

يُحْشَرُ الناس عليها على الوصف المذكور آنفًا وتطوى السماوات ، يطويها الرب ﷻ يمينه ، وتدنى الشمس من الخلق حتى تكون فوق رؤوسهم بقدر ميل ^(٣) ، إما مسافة وإما ميل المكحلة ، وأيًا كان فهي قريبة من الرؤوس ، لكننا نؤمن أن من الناس من يَسْلَمُ من حرها وهم الذين يظلمهم الله في ظِلِّهِ يوم لا ظل إلا ظله ومنهم الشيعة الذين ذكرهم الرسول في نسق واحد فقال عليه الصلاة والسلام : « سَبْعَةٌ يُظْلَمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالسَّاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » ^(٤) .

١ - الإمام العادل : هو الذي عَدَلَ في رعيته ولا يَغْدِلُ أقوام وأحب عند الله من أن يحْكُمَ فيهم شريعة الله هذا رأس العدل ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٩٠] فمن حكم شعبه بغير شريعة الله فإنه ما عدل ، بل هو كافر والعياذ بالله ، لأن الله قال : ﴿ وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

فإذا وُضِعَ هذا الحاكم قوانين تخالف الشريعة وهو يعلم أنها تخالف الشريعة ، ولكنه عدل عنها

(١) قوله : « قَاعًا » أي أرضًا لا نبات فيها ولا بناء ، وقوله : « صَفْصَفًا » أي : مستوية ملساء كأن أجزاعها صف واحد من كل جهة .

(٢) قوله : « عِوَجًا ولا أَمْتًا » أي : لا ترى في الأرض مكانًا منخفضًا ولا مكانًا مرتفعًا .

(٣) ذكر ذلك في البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٢) والترمذي في القيامة (٢٤٣٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) واللفظ له وفيه « إمام عدل » ومسلم في الزكاة (٩١) .

وقال : أنا لا أعدل عن القانون ، فإنه كافر ولو صَلَّى ولو تصدق ولو صام ولو حجَّ ولو ذكر الله ولو شهد للرسول بالرسالة ؛ فإنه كافر مخلد في نار جهنم يوم القيامة .

ولا يجوز أن يتولَّى على شعب مُسلم إذا قَدَرَ الشعب على إزاحته عن الحكم . فأهم العدل في الإمام أن يحكم في الناس بشريعة الله ، ومن العدل أن يُسوَّى بين الفقير والغني ، وبين العدو والولي ، وبين القريب والبعيد حتى العدو يسوي بينه وبين الولي في مسألة الحكم حتى إن العلماء - رحمهم الله - قالوا لو دخل على القاضي رجُلان أحدهما كافر والثاني مسلم حرم عليه أن يُميِّز المسلم بشيء !

فيدخلان جميعًا و يجلسان جميعًا ويتحدث القاضي إليهما جميعًا فلا يتحدث لواحد دون الآخر ولا ييسِّر في وجه المسلم ويكشِّر في وجه الكافر! لا !!

الآن هما في مقام الحكم يجب أن يُسوَّى بينهما مع أن الكافر لا شك أنه ليس كالمسلم ﴿ أَتَجْعَلُ الْتَّائِبِينَ كَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلَتِهِمْ يَسُوءُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] ، لكن في باب الحكم الناس سواء .

ومن العدل : أن يقيم الحدود التي فرضها الله ﷻ على كل أحد حتى على أولاده وذُرِّته فإن النبي ﷺ وهو أعدل الأئمة لما شُفِعَ إليه في امرأة من بني مخزوم أمر الرسول ﷺ بقطع يدها فشفع إليه أسامة فيها فقال له : « أتشفع في حد من حُدود الله ؟ » !؟ - أنكر عليه - ثم قام النبي ﷺ فَخَطَبَ الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد .. فإنما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِيمَ اللَّهُ - أَيِ أَخْلَفَ بِاللَّهِ - لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » ^(١) صلى الله عليك يا رسول الله .

فاطمة بنت محمد أشرف النساء ! سيدة نساء أهل الجنة بنت أفضل البشر ، لو سَرَقَتْ لقطع يدها وهو أبوها .

وتأمل « لَقَطَعْتُ يَدَهَا » ولم يقل : لأمرت بقطع يدها ! فظاھر أنه هو الذي يباشر قطعها لو سَرَقَتْ . هذا العدل وبهذا قامت السَّمَاوَات والأَرْض .

ومن عَدْلُ الإمام : أن يُؤلِّي المناصب من هو أَهْلٌ لها في دينه وفي قُوَّته ، فيكون أَمِينًا وقَوِيًّا أَهْلًا لِمَا وُلِّيَ عليه .

وأركان الولاية اثنان : القوة ، والأمانة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴾ [القصاص: ٢٦] ، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ لسليمان : ﴿ أَنَا أَمَانِيكَ بِهٖ ﴾ - أي بعرض بلقيس ﴿ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٩] فمن العدل أن لا يولي أحدًا منصبًا إلا وهو أَهْلٌ له في قوته وفي أمانته فإن فَعَلَ فليس بعادل أي : إن وُلِّيَ من ليس أَهْلًا ويوجد من هو خير منه فليس بعادل . المهم أن النبي ﷺ جعل الإمام العادل من الذين يُظْلِمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وجعله

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥) ومسلم في الحدود (١٨) والنسائي في السنن (٧٣/٨) .

أول هؤلاء السبعة ؛ لأن العدل في الرعية صعب جدًا ، فإذا وفق المرء الذي يُؤليه الله على عباده للعدل نال في هذا خيرًا كثيرًا وانتفعت الأمة في عصره ومن بعده ؛ لأنه قدوة صالحة .

ثانيًا : « شاب نشأ في طاعة الله » : الشاب ما بين الخمس عشرة سنة إلى الثلاثين . ولا شك أن يكون للشباب اتجاهات وأفكار ولا يستقر على شيء ؛ لأنه شاب غض^(١) كل شيء يجذبه ، كل شيء يختطفه . ولهذا أمر الرسول ﷺ في الحرب أن تقتل شيوخ المقاتلين المشركين ويستبقى شبابهم ؛ لأن الشباب إذا عرض عليهم الإسلام ربما يسلمون .

فالشباب لما كان في سن الشباب يكون له أفكار وأهواء واتجاهات فكرية وخلقية وسلوكية صار الذي يمين الله عليه وينشأ في طاعته من الذين يُظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . وطاعة الله هي امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، ولا امتثال للأمر واجتناب للنهي إلا بمعرفة أن هذا أمر وهذا نهى .

إذن لابد من سبق العلم فيكون هذا الشاب طالبًا للعلم ممثلًا للأمر مجتنبًا للنهي .
الثالث : « رَجُلٌ قَلْبُهُ مُغْلَقٌ بِالْمَسَاجِدِ » : أي يحب المساجد . وهل المقصود أماكن السجود ؟ أي أنه يحب كثرة الصلاة أو المقصود المساجد المخصوصة ؟ يحتمل هذا وهذا !
هذا رجل دائمًا قلبه مُغْلَقٌ بِالْمَسَاجِدِ وهو مشغول في أماكن الصلاة ، وفي الصلاة . إذا انتهى من صلاة انتظر الأخرى وهكذا .

وهناك فرق بين قول الإنسان : « اللهم أرخني بالصلاة » ، و « اللهم أرخني من الصلاة » .
أرخني بالصلاة : هذا خير ، أي اجعل الصلاة راحةً لقلبي . وأرخني من الصلاة : أي فُكِّنِي عنها .
الرابع : « رَجُلَانِ تَحَابَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ » أي أحب بعضهما بعضًا لا لشيء سوى الله ﷻ فليس بينهما قرابة ولا صلة مالية ولا صداقة طبيعية ، إنما أحبه في الله ﷻ ؛ لأنه رآه عابدًا لله مُسْتَقِيمًا على شَرَعِهِ فأحبه ..

وإذا كان قريبًا أو صديقًا وما أشبه ذلك ؛ فلا مانع من أن يحبه من وجهين من جهة القرابة والصداقة ومن الجهة الإيمانية .

فهذان تحابا في الله وَصَارَا كالأخوين لما بينهما من الرابطة الشرعية الدينية وهي عبادة الله ﷻ .
اجتمعا عليه في الدنيا وتفرقا عليه أي ، لم يفرق بينهما إلا الموت ، هذان يظلهما الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

ويكونان يوم القيامة على محبتتهما وعلى خلتتهما كما قال الله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] تبقى الصداقة في الدنيا والآخرة .

(١) الغض الطري الحديث من كل شيء .

الخامس : « وَرَجَل دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَتْ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ » : رجل قادر على الجماع دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ليجامعها بالزنا والعياذ بالله ذات مَنْصِبٍ ، أي أنها من حمائل ^(١) معروفة ليست من سقط النساء ، وهي جميلة دعتهُ إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليهما أحد وهو فيه شهوة ويحب النساء ، لكن قال : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ! لم يمنعه من فعل هذا إلا خوف الله ﷻ !

فانظر إلى هذا الرجل ! المقتضى موجود ! لأنه قادر على الجماع والمرأة جميلة وهي ذات منصب والمكان خالٍ . لكن مَنَعَهُ مانع أقوى من هذا المقتضى وهو خوف الله قال : « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ » ما قال : إِنِّي لَا أَشْتَهِي النِّسَاءَ ، وما قال : مَا أَنْتَ جَمِيلَةٌ ، وما قال : أَنْتَ مِنْ أَسَافِلِ النِّسَاءِ وَلَا أَتَنَازِلُ أَنْ أَجَامِعَكَ ، وما قال : إِنْ حَوْلَنَا أَحَدًا . قال : « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ » هذا يَمْنُ يُظِلُّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ .

وانظر إلى يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعُمهُ إِسْمَاعِيلُ ؛ لِأَنَّ جَدَّهُ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ هُوَ أَبُو الْعَرَبِ . عشقته امرأة العزيز ملك مصر وكانت امرأة مَلِكٍ عَلَى حَالٍ مِنَ الْجَمَالِ وَالذَّلَالِ : غَلَقَتْ الْأَبْوَابَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النَّاسِ : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : ٢٣] يعني تدعوه إلى نفسها فكان رجلاً شاكياً وبمقتضى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ هَمَّ بِهَا وَهَمَّتْ بِهِ ، وَلَكِنْ رَأَى بَرَهَانَ رَبِّهِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ خَوْفُ اللَّهِ فَامْتَنَعَ فَهَدَّيْتُهُ بِالسَّجْنِ فَقَالَ : ﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْعَذَلِينَ ﴾ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْعَلِيمُونَ ۞ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُمْ حَتَّى جَاءَهُمْ [يوسف : ٢٣-٣٥] وسجن في ذات الله وامتنع عن الزنا مع قوة أسبابه لكنه رأى برهان ربه فخاف الله .

السادس : « وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تَتَّقُ بِمِينِهِ » : وهذا فيه كمال الإخلاص لا يريد من الناس أن يطلعوا على عمل من أعماله ، بل يريد أن يكون بينه وبين ربه فقط . ولا يريد أن يظهر للناس بمظهر المنة على أحد ، لِأَنَّ الَّذِي يُعْطِي أَمَامَ النَّاسِ تَكُونُ لَهُ مِئَّةٌ عَلَى مَنْ أَعْطَاهُ . فهو يُخْفِي الصَّدَقَةَ حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تَتَّقُ بِمِينِهِ ، أي من شِدَّةِ إِخْفَائِهِ لَوْ أَمْكَنَ أَنْ لَا تَعْلَمَ يَدُهُ الشِّمَالُ مَا أَنْفَقَتْ يَدُهُ الْيَمِينُ لِفَعْلٍ ، فهذا مخلص غاية الإخلاص وهو بعيد عن المن بالصدقة ، يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . ولكن لاحظ أن إخفاء الصدقة أفضل بلا شك إلا أنه ربما يعرض لهذا الأفضل ما يجعله مفضولاً مثل أن يكون في إظهار الصَّدَقَةِ تَشْجِيعٌ لِلنَّاسِ عَلَى الصَّدَقَةِ ؛ فَإِنْ هُنَا قَدْ يَكُونُ إِظْهَارُ الصَّدَقَةِ أَفْضَلَ ، ولهذا امتدح الله ﷻ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ سِرًّا وَعَلَانِيَةً عَلَى حَسَبِ مَا تَنْتَظِرُ الْمَصْلَحَةَ ، فَالْحَالُ لَا تَخْلُو مِنْ ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ السِّرُّ أَنْفَعُ ، أَوْ الْإِظْهَارُ أَنْفَعُ ، فَإِنْ تَسَاوَى الْأَمْرَانِ فَالسِّرُّ أَنْفَعُ .

السابع : « رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ » : ذكر الله بلسانه وبقلبه ليس عنده أحد يُرَائِيهِ بِهِذَا الذِّكْرِ خَالِيًا مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِاللَّهِ ﷻ . فلما ذكر الله بلسانه وبقلبه وتذكر عظمة الرَّبِّ ﷻ ؛ اشتاق إلى الله ففاضت عيناه ، هذا يَمْنُ يُظِلُّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ .

(١) الحمائل : هي العروق التي في الأصل والجلد ، والمقصود بها هنا أنها من أصل عتيق (انظر لسان العرب مادة حمل) . (١٠٠٤/٢)

هذه الأعمال السبعة قد يوفق الإنسان فيحصل على واحد منها أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة هذا ممكن ولا يناقض بعضه بعضًا ؛ فقد يوفق الإنسان فيأخذ كل واحدة من هذه بنصيب كما حدث الرسول ﷺ : « أن للجنة أبوابًا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَانِ » ذكر أربعة .. فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على من دُعي من واحد من هذه الأبواب من ضرورة - أي الذي يُدعى من باب الواحد سهل - فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها ؟ قال : « نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر » ^(١) ، لأنه صَاحِبُ صَلَاةٍ وَصَدَقَةٍ وَجِهَادٍ وَصِيَامٍ فكل مَسَائِلِ الْخَيْرِ قد أخذ منها بنصيب ﷺ وَأَوْضَاهُ وَالْحَقُّنَا بِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

ومن علامات يوم القيامة : أن الشمس تندنو من الخلائق قدر ميل ، وشرحنا حديث السبعة الذين يُظْلِمُهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ .

وهنا مسألة : أَحِبَّ أَنْ أَنبَهَ عَلَيْهَا وَهِيَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَرَادَ بِالظِّلِّ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ، أَنَّهُ ظِلُّ الرَّبِّ ﷻ وَهَذَا ظَنٌّ خَاطِئٌ جَدًّا لَا يَظُنُّهُ إِلَّا رَجُلٌ جَاهِلٌ وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ الظِّلَّ هَذَا يَكُونُ عَنِ الشَّمْسِ فَلَوْ قَدَّرَ أَنَّ الْمَرَادَ ظِلُّ الرَّبِّ ﷻ لَزِمَ مِنْ هَذَا أَنْ تَكُونَ الشَّمْسُ فَوْقَ اللَّهِ لِيَكُونَ حَائِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَهَذَا شَيْءٌ مُسْتَحِيلٌ وَلَا يُمْكِنُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ ثَبَتَ لَهُ الْقُلُوبُ الْمَطْلُوقُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ .

ولكن المراد ظل يخلقه الله في ذلك اليوم يظل من يستحقون أن يظلمهم الله في ظلّه وإِنَّمَا أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَظْلِلَ بِفَعْلٍ مَخْلُوقٍ ! لَا هُنَاكَ بِنَاءٌ وَلَا شَيْءٌ يُوضَعُ عَلَى الرُّؤُوسِ ، إِنَّمَا يَكُونُ الظِّلُّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَلِهَذَا أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ لِإِخْتِصَاصِهِ بِهِ .
ومما يكون في ذلك اليوم : نشر الدواوين أي : صَحَافِ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَتَبَتْ عَلَى الْمَرْءِ فِي حَيَاتِهِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بِكُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ الْيَمِينِ ، وَالْآخَرُ عَنِ الشَّمَالِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ١٠ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَيْدٌ ١١ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ ﴿ ١٢ ﴾ [ق : ١٦ ، ١٧] .

هذان الملكان الكريمان يكتبان كل ما يعمل المرء من قول أو فعل أما ما يحدث به نفسه ؛ فإنه لا يكتب عليه ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنْ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أَمْتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلِّمْ بِهِ » ^(٣) .
لكن القول والفعل يُكْتَبُ عَلَى الْإِنْسَانِ ، كَاتِبُ الْحَسَنَاتِ عَلَى الْيَمِينِ ، وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ عَلَى الشَّمَالِ

(١) ينظر الحديث في : البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) وأحمد في مسنده (٣٨٦/٤) والترمذي في السنن (٣٦٧٤) .

(٢) قوله ﴿ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو العرق الذي في باطن العنق ، قوله ﴿ الْمُتَلَقِّينَ ﴾ أي الملكان الموكلان بكتابة الحسنات والسيئات ، قوله ﴿ قَيْدٌ ﴾ أي أحدهما قاعد عن يمينه والآخر عن يساره .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان والنور (٦٦٦٤) ومسلم في الإيمان (٢٠٢) .

فيكتبان كل ما أمرا بكتابته ، فإذا كان يوم القيامة ألزم كل إنسان هذا الكتاب في عنقه كما قال الله تعالى : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمَّتْهُ طَسْرُهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء: ١٣] ويخرج له هذا الكتاب فيقال : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] فيقرأه له ويتبين كل ما عنده .

هذا الكتاب المنشور من الناس من يأخذه يمينه ومن الناس من يأخذه بشماله وراء ظهره .
أما من يأخذه يمينه - أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم - : فإنه يقول للناس : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ﴾ فيريهم إياه فرحاً ومسروراً بما أنعم الله به عليه .

وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول حزناً وغماً : ﴿ يَلْتَنَنِي لَوْ أَوْتَيْتُ كِتَابَهُ ﴾ [الحاقة: ٢٥] .
وما يجب الإيمان به في ذلك اليوم : أن تؤمن بالحساب ، بأن الله تعالى يحاسب الخلائق كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ لَمْ تَعْلَمُوا بِحِسَابِهِ لَمَنْ حَسِبْكُمْ أَنْ يَخَذِلَكُمْ فِي الْحِسَابِ أَمْ يَخْذِلُ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَحْسَبُ جِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨] فيحاسب الله الخلائق .

لكن حساب المؤمن حساب يسير ليس فيه مناقشة يخلو الله تعالى بعبد المؤمن ويضع عليه سيرته ويقرره بذنوبه يقول : أتذكر كذا ، أتذكر كذا حتى يقول : نعم ويقر بذلك كله فيقول الله ﷻ له : « إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » ^(١) وما أكثر الذنوب التي سترها الله علينا ؟ فإذا كان الإنسان مؤمناً قال الله له : « فإني قد سترتها عليك في الدنيا » إلخ .

أما الكافر والعياذ بالله : فإنه يُفَضَّح ويُخْزَى وينادى على رؤوس الأشهاد : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [مرد: ١٨] .

وما يجب الإيمان به : الحوض المورود لدينا محمد ﷺ ، وهو حوض يضرب عليه ميزابان من الكوثر وهو النهر الذي أعطيه الرسول ﷺ في الجنة ^(٢) كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١] فيصب منه ميزابان على الحوض الذي يكون في غرصات يوم القيامة .

وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بأن « ماء أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب من رائحة المسك ، وأن آنيته كنجوم السماء ، وأن طوله شهر وعرضه شهر ، وأن من شرب منه مرة واحدة ؛ فإنه لا يظمأ بعدها أبداً » ^(٣) .

هذا الحوض يرده المؤمنون من أمة النبي ﷺ - أسأل الله أن يوردي وإياكم إياه - يشربون منه .
وأما من لم يؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام فإنه يطرد عنه ولا يشرب منه .

وهذا الحوض الذي جعله الله للنبي عليه الصلاة والسلام هو أعظم حياض الأنبياء ولكل نبي حوض يرده المؤمنون من أمته ، لكنها لا تنسب إلى حوض الرسول ﷺ ؛ لأن هذه الأمة يمثلون ثلثي

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤١) .

(٢) انظر في ذلك البخاري في الرقاق (٦٥٧٨) والترمذي في السنن (٣٣٦١) وأحمد في مسنده (١٥٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧٩) ومسلم في الفضائل (٣٦) .

أهل الجنة فلا جرم أن يكون خوض الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم الحياض وأكبرها وأوسعها وأعظمها وأشملها .

ومما يجب الإيمان به في ذلك اليوم : الإيمان بالصراط ، وهو جسر منصوب على متن ، وهو أدق من الشعر وأحد من السيف يميز الناس عليه على قدر أعمالهم ، من كان مُسَارِعًا في الخيرات في الدنيا كان سريعًا في المشي على هذا الصراط ، ومن كان مُتَبَاطِفًا ، كان مُتَبَاطِفًا ومن كان قد خَلَطَ عملاً صالحاً وآخر سيئاً ولم يعفُ الله عنه ؛ فإنه رُبما يكرّس في النار والعياذ بالله ^(١) .

يختلف الناس في المشي عليه ؛ فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الإبل ، ومنهم من يمشي ، ومنهم من يَرْحَفُ ، ومنهم من يُلقَى في جهنم ^(٢) .

وهذا الصراط لا يمر عليه إلا المؤمنون فقط ، أمّا الكافرون : فإنهم لا يبرون عليه ؛ وذلك لأنهم يُسْأَلُونَ في عَرَصَاتِ القيامة إلى النار رأساً نسأل الله العافية ، والله أعلم .

فإذا عبروا على الصرّاط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص من بعضهم لبعض وهذا القصاص غير القصاص الذي يكون في عرصات يوم القيامة !

هذا القِصَاص والله أعلم يراد به أن تتخلى القلوب من الأضغان والأحقاد والغل حتى يدخلوا الجنة وهم على أكمل حال ، وذلك أن الإنسان وإن اقتص له ممن اعتدى عليه فلا بد أن يبقى في قلبه شيء من الغل والحقد على الذي اعتدى عليه ، ولكن أهل الجنة لا يدخلون الجنة حتى يقتص لهم اقتصاصاً كاملاً فيدخلونها على أحسن وجه .

فإذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، ولكن لا يُفتح باب الجنة لأحد قبل الرسول ﷺ ^(٣) ، ولهذا يشفع هو بنفسه لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، كما أنه شفع للخلائق أن يُقَضَى بينهم ويشتريحوا من الهول والكرب والغم الذي أصابهم في عرصات القيامة ^(٤) ، وهاتان الشفاعتان خاصتان برسول ﷺ .

فأول من يدخل الجنة من الناس رسول الله ﷺ ، وأول من يدخلها من الأمم أمة النبي ﷺ ^(٥) ، أما أهل النار - والعياذ بالله - فيساقون إلى النار زمراً ، ويدخلونها أمة بعد أمة كلما دَخَلَتْ أمة لَعَنَتْ أختها والعياذ بالله . والثانية تَلْعَنُ الأولى وهكذا ، ويتبرأ بعضهم من بعض نسأل الله العافية ، فإذا أتوا إلى النار وجدوا أبوابها مفتوحة حتى ييغثوا بعذابها والعياذ بالله ؛ فيدخلونها ويُخلدون فيها أبد الآبدين

(١) انظر ذلك في مسلم الإيمان (٣٠٢) والمنذري في الترهيب (٤٢٨/٤) ، وقوله « يكرّس » أي ينقبض الرجل ويجمع بعضه إلى بعض .

(٢) انظر في ذلك : أحمد في مسنده (١٣٧/٤) .

(٣) دليل ذلك : ما ورد عند أحمد في مسنده (١٤٤/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٢/٨) .

(٤) ودليله ما ذكره البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٢ ، ٣٢٧) ، وأحمد في مسنده (٢٨١/١) .

(٥) ودليل ذلك : ما رواه أحمد في مسنده (١٤٤/٣) ، وأبو داود في السنن (٤٦٧٣) والسيوطي في الدر المنثور (٣٧١/٤) .

إلى أبد لا مُنتهى له ، كما قال الله ﷻ في كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۖ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۖ ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩] .
وقال ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلَايًا وَلَا نَصِيرًا ۖ يَوْمَ ثُقِّلَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۖ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحُونَا فَاسْلُكْنَا السَّبِيلَ ۖ ﴾ [البقرة: ٦٤-٦٨] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ۖ ﴾ [الجن: ٢٣] !! فهذه ثلاث آيات من كتاب الله ﷻ كلها فيها التصريح بأن أهل النار خالدون فيها أبدًا ولا قول لأحد بعد كلام الله ﷻ .

كما أن أهل الجنة خالدون فيها أبدًا ! فإن قال قائل : إن الله تعالى قال في سورة هود : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَذُ النَّارُ فِيهِمْ زَفِيرٌ وَشِهيقٌ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧] ففي أهل الجنة قال : ﴿ عَطَاةٌ غَيْرُ مُجْدُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع بل هو دائم . وفي أهل النار قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧] فهل هذا يعني إن أهل النار ينقطع عنهم العذاب ؟ .

ج : نقول : لا ! ولكن لما كان أهل الجنة يتقبلون بنعمة الله يَبْتَغِي الله أن عطاءهم لا ينقطع ، أما أهل النار فلما كانوا يتقبلون بعدل الله قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧] . ولا معقب لحكمه وقد أراد أن يكون أهل النار في النار . هذا الكلام فيما تيسر مما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر .
وقوله : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » هذا الركن السادس :

القدر : هو تقدير الله ﷻ لما يكون إلى يوم القيامة وذلك أن الله سبحانه خلق القلم فقال له : اكتب ! قال : ربي وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقد ذكر الله هذا في كتابه إجمالاً فقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۖ ﴾ [الحج: ٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۖ ﴾ [الحديد: ٢٢] من قبل أن نبرأها ، من قبل أن نخلقها أي : من قبل أن نخلق الأرض ، ومن قبل أن نخلق أنفسكم ومن قبل أن نخلق المصيبة . فإن الله كتب هذا من قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

قال أهل العلم : ولا بد للإيمان بالقدر من أن تؤمن بكل مَرَاتِبِهِ الأربع :

المرتبة الأولى : أن تؤمن بأن الله عليم بكل شيء ، وهذا كثير في الكتاب العظيم ؛ يذكر الله عموم علمه بكل شيء كما قال الله تعالى : ﴿ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ ﴾ [الطلاق: ١٢] ولقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْغُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا نَجْمٌ وَلَا يُبَيِّنُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

المرتبة الثانية : أن تؤمن بأن الله تعالى كتب مقادير كل شيء إلى قيام الساعة كتبه قبل خلق

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . كُلُّ شَيْءٍ كَائِنٌ فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ قَدْ انْتَهَى مِنْهُ جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَ الصَّحْفُ ، فَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ .

فَإِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ لَا تَقِلْ : لَوْ فَعَلْتَ كَذَا مَا أَصَابَنِي ؛ لِأَنَّ هَذَا شَيْءٌ مِنْتَهُ مَكْتُوبٌ لَا بَدَأُ أَنْ يَقَعَ كَمَا كَتَبَ سُبْحَانَهُ فَلَا مَقَرَّ مِنْهُ مَهْمَا عَمِلْتَ ، فَالْأَمْرُ سَيَكُونُ عَلَى مَا وَقَعَ لَا يَتَغَيَّرُ أَبَدًا ؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ كَتَبَ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : أَلَمْ يَكُنْ قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ ؛ فَلْيَصِلْ رَجْمَهُ » ^(١) ؟ . فَالْجَوَابُ : بَلَى قَدْ جَاءَ هَذَا ، وَلَكِنْ الْإِنْسَانُ الَّذِي يُسَيِّطُ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأُ لَهُ فِي أَثَرِهِ مِنْ أَجْلِ الصَّلَاةِ ، قَدْ كَتَبَ ذَلِكَ لَهُ كَتَبَ أَنَّهُ سَيَصِلُ رَجْمُهُ وَأَنَّهُ سَيُسَيِّطُ لَهُ فِي الرِّزْقِ وَأَنَّهُ سَيُنْسَأُ لَهُ فِي الْأَثَرِ لَا بَدَأُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ هَكَذَا ، وَلَكِنْ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ ... » (الْحَدِيثُ) مِنْ أَجْلِ أَنْ تُبَادِرَ وَتُسَارِعَ إِلَى صَلَاةِ الرَّحْمَنِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ يَعْقِبُهَا كِتَابَاتُ آخَرَ !

مِنْهَا : أَنَّ الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا تَمَّ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالْأَرْحَامِ فَيَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ فَيَكْتُبُ ذَلِكَ وَهَذِهِ الْكِتَابَةُ غَيْرُ الْكِتَابَةِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، هَذِهِ كِتَابَةُ فِي مَقْتَبَلِ عَمْرِ الْإِنْسَانِ ، وَلِهَذَا يُسَمِّيهِا الْعُلَمَاءُ : الْكِتَابَةَ الْعَمْرِيَّةَ يَعْنِي نِسْبَةً لِلْعَمْرِ . هَذَا إِذَا تَمَّ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرَ ، أَيْ : مِائَةً وَعِشْرُونَ يَوْمًا ^(٢) ، وَلِهَذَا تَرَى أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا تَمَّ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرَ بَدَأَ يَتَحَرَّكُ ؛ لِأَنَّهُ دَخَلَتْ فِيهِ الرُّوحُ وَقَبْلَ ذَلِكَ هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ .

كَذَلِكَ : هُنَاكَ كِتَابَةُ أُخْرَى تَكُونُ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَهِيَ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ ، فَإِنْ لَيْلَةُ الْقَدَرِ يَكْتُبُ اللَّهُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿ [الدخان : ٣ ، ٤] يَفْرَقُ : أَيْ يَبِينُ وَيَفْضِلُ وَلِهَذَا سَمِيَتْ لَيْلَةُ الْقَدَرِ .

الْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ لِلْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ : أَنَّ تَوْمَنَ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَهُوَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ لَا يَخْرُجُ عَنْ مَشِيئَتِهِ شَيْءٌ . وَلَا يَفْرَقُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَاقِعُ مِمَّا يَخْتَصُّ اللَّهُ بِهِ كِإِنْزَالِ الْمَطَرِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، أَوْ مِمَّا يَعْلَمُهُ الْخَلْقُ كَالصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَمَا أَشْبَهَهَا ، فَكُلُّ هَذَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ . قَالَ اللَّهُ : ﴿ لِمَنْ شَاءَ يَنْكُحْ أَنْ يَسْتَعِيمَ ﴾ وَمَا شَاءَ كَوْنٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ [التكوير : ٢٨ ، ٢٩] . وَقَالَ اللَّهُ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَسَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَسَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَقَعْلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] فَبَيْنَ اللَّهِ لَنَا أَنَّهُ لَا مَشِيئَةَ لَنَا إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَأَنَّ أَفْعَالَنَا وَاقِعَةٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَسَلُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٣] كُلُّ شَيْءٍ ، فَإِنَّهُ وَاقِعٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، فَلَا يَكُونُ فِي مَلِكِهِ مَا لَا يَشَاءُ أَبَدًا ، وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ : « مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ » ^(٣) .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ (٥٩٨٦) وَمُسْلِمٌ فِي الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ وَالْآدَابِ (٢٠) .

(٢) وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ : أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٣٩٧/٣) ، وَمُسْلِمٌ فِي الْقَدَرِ (٤) .

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ السَّنِيِّ فِي عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ (٤٠) وَالسَّيُوطِيُّ فِي الدَّر الْمُنْتَوَرِ (٢٥/٦) ، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي السَّنَنِ (٢١٥/٣)

بَلْفَظٍ : « مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَلَوْ كَرِهَ النَّاسُ » .

وأما المرتبة الرابعة : فهي الإيمان بأن كل شيء مخلوق لله ، لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ لَدُنْهُ فَذَرْهُ ﴾ [الفرقان : ٢] فكل شيء واقع فإنه مخلوق لله ﷻ .

الإنسان مخلوق لله وعمله مخلوق لله ، قال الله عن إبراهيم وهو يُخاطب قومه : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ففعل العبد مخلوق لله لكن المباشر للفعل هو العبد وليس الله ، لكن الله هو الذي خلق هذا الفعل ففعله العبد ، فهو منسوب لله خلقاً ومنسوب إلى العبد كسباً وفعلًا . فكل شيء مما يحدث فإنه مخلوق لله ﷻ ، لكن ما كان من صفات الله فليس مخلوق ، فالقرآن مثلاً أنزله الله على محمد ﷺ لكنه ليس بمخلوق ؛ لأن القرآن كلام الله وكلام الله صفة من صفاته وصفاته سبحانه ليست بمخلوقة .

هذه مراتب أربع للإيمان بالقدر ! يجب أن تؤمن بها كلها وإلا فإنك لم تؤمن بالقدر . وفائدة الإيمان بالقدر عظيمة جداً ؛ لأن الإنسان إذا علم أن الشيء لا بد أن يقع كما أمر الله استراح . فإذا أصيب بضراء صبر وقال : هذا من عند الله ، وإن أصيب بسراء شكر وقال : هذا من عند الله وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « عَجِبْنَا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١) .

لأن المؤمن يؤمن أن كل شيء بقضاء الله فيكون دائماً في سرور ودائماً في انشراح ؛ لأنه يعلم أن ما أصابه فإنه من الله إن كان ضراء صبر وانتظر الفرج من الله ولجأ إلى الله في كشف هذه الضراء ، وإن كان سراء شكر وحمد الله وعلم أن ذلك لم يكن بحوله ولا قوته ، ولكن بفضل من الله ورحمة . وقوله : « خيره وشره » : الخير : ما ينتفع به الإنسان ويلائمه من علم نافع ، ومال واسع طيب ، وصحة وأهل وبنين ، وما أشبه ذلك .

والشر : ضد ذلك من الجهل ، والفقر ، والمرض ، وفقدان الأهل والأولاد ، وما أشبهه . كل هذا من الله ﷻ ، الخير والشر ، فإن الله سبحانه يقدر الخير لحكمة ويقدر الشر لحكمة ، كما قال الله ﷻ : ﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] . فإذا علم الله أن من الخير والحكمة أن يقدر الشر قدره لما يترتب عليه من المصالح العظيمة كقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] . فإذا قال قائل : كيف تجمع بين قول النبي عليه الصلاة والسلام : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » وقوله ﷻ : « الشر ليس إليك » (٢) فنفي أن يكون الشر إليه ؟

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٤) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) ، والنسائي في الافتتاح (١٧) .

ج : فالجواب على هذا أن نقول : إن الشر المحض لا يكون بفعل الله أبدًا .

الشر المحض الذي ليس فيه خير لا حالًا ولا مألًا ، هذا لا يمكن أن يوجد في فعل الله أبدًا ، هذا من وجه ؛ لأنه حتى الشر الذي قدره الله شرًا لا بد أن يكون له عاقبة حميدة ، ويكون شرًا على قوم وخيرًا على آخرين ؛ أرأيت لو أنزل الله المطر مطرًا كثيرًا فأغرق زرع إنسان ، لكنه نفع الأرض وانتفعت به أمة لكان هذا خيرًا بالنسبة لمن انتفع به شرًا بالنسبة لمن تضرر به فهو خير من وجه وشر من وجه .

ثانيًا : حتى الشر الذي يُقدره الله على الإنسان هو خير في الحقيقة ؛ لأنه إذا صبر واحتسب الأجر من الله نال بذلك أجرًا أكثر بأضعاف مضاعفة مما ناله من الشر .

ولهذا ذكر عن بعض العابدات أنها أصيبت في أصبعها أو يدها فانجرححت فصبرت وشكرت الله على هذا وقالت : (إن خلاوة أجرها أنستني مَرَاة صبرها) (١) .

ثم نقول : إن الشر حقيقة ليس في فعل الله نفسه ، بل في مفعولاته . المفعولات هي التي فيها خير وشر أمّا الفعل نفسه فهو خير ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ ﴾ [الفلق : ١، ٢] أي : من شر الذي خلقه الله .

يُذَكِّرُ لهذا أنه لو كان عندك مريض وقيل له : إن من شفائه أن تكويه بالنار فَكَوَيْتُهُ بالنار ، فالتأثر مؤلمة بلا شك ، لكن فِعْلَكَ هذا ليس بشر ، بل هو خير للمريض ؛ لأنك إنما تنتظر عاقبة حميدة بهذا الكي كذلك فِعْلُ الله للأشياء المكروهة والأشياء التي فيها شر هي بالنسبة لفعله وإيجاده خير ؛ لأنه يترتب عليها خير كثير .

فإن قال قائل : كيف تجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] .

ج : فالجواب : أن نقول : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ يعني من فضله هو الذي من عليك بها أولاً وآخرًا ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أي : أنت سببها ، وإلا فالذي قدرها هو الله لكن أنت السبب كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

وخلاصة الكلام : أن كل شيء واقع ، فإنه بقدر الله سواء كان خيرًا أم شرًا . أما الخير : فأمره واضح أنه من الله ، وأما الشر : فإننا نقول : إن الشر ليس في فعل الله ، بل في مفعولاته ، ونقول أيضًا : هذه المفعولات التي فيها الشر قد تكون خيرًا من وجه آخر ، إما للشخص المصاب بها نفسه وإما لغيره . فمثلاً : إذا نزل المطر وأتلف زرع إنسان لكنه نفع الأمة فهنا صار شرًا على شخص لكنه خير كثير بالنسبة للآخرين .

أو نقول : هو شر لك من وجه وخير لك من وجه آخر ؛ لأن هذا الشر إن أصابك لك فيه أجر كثير وربما يكون سببًا لاستقامتك ومعرفتك قدر نعمة الله عليك فتكون العاقبة حميدة .

(١) هذا القول لرابعة العدوية .

قال عمر فيما نقله عن جبريل قال للنبي ﷺ : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ ؟ » قال : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » :

الإحسان : ضد الإساءة ، والمراد بالإحسان هنا إحسان العمل ، فبين النبي عليه الصلاة والسلام أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ؛ يعني مثلاً ؛ تُصَلِّيْ وَكَأَنَّكَ تَرَى اللَّهَ ﷻ ، وَتَزْكِي وَكَأَنَّكَ تَرَاهُ ، وَتُصُومُ وَكَأَنَّكَ تَرَاهُ ، وَتَحُجُّ وَكَأَنَّكَ تَرَاهُ ، وهكذا بقية الأعمال .

وكون الإنسان يعبد الله كأنه يراه فإن ذلك دليل على الإخلاص لله ﷻ ، وعلى إتقان العمل في متابعة الرسول ﷺ ؛ لأن كل مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ فَلَا يَدُ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ مِنْ مَحَبَةِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ مَا يَحْمِلُهُ عَلَى إِتْقَانِ الْعَمَلِ وَإِحْكَامِ الْعَمَلِ .

« فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » أي : فَإِنْ لَمْ تَعْبُدِ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ فَاعْبُدْهُ عَلَى سَبِيلِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْخَوْفِ « فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ومعلوم أن عبادة الله على وجه الطلب أكمل من عبادته على وجه الهرب !
فها هنا مرتبتان :

المرتبة الأولى : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ : وهذه مرتبة الطلب .

والثانية : أَنْ تَعْبُدَهُ كَأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاكَ وهذه مرتبة الهرب ، وكلتا هاتين المرتبتين عظيمتان ، لكن الأولى أكمل وأفضل .

ثم قال جبريل : « أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ » ، أي : عَنِ قِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي يَبْعَثُ فِيهَا النَّاسَ وَيَجَازُونَ فِيهَا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » .

المسؤول عنها : يعني نفسه عليه الصلاة والسلام ، بأعلم من السائل : يعني جبريل ، يعني إذا كنت أنت يا جبريل تجهلها فأنا كذلك أجهلها ، فهذان رسولان كريمان أحدهما رسول ملكي ، والثاني رسول بشري وهما أكمل الرسل . فأكمل الرسل من الملائكة : جبريل ، وأكمل الرسل من البشر محمد ﷺ ، ومع ذلك فكل منهما ينفي أن يكون له علم بالساعة ؛ لأن علم الساعة عند من بيده إقامتها ﷻ وهو تبارك وتعالى كما قال الله في آيات متعددة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ ^(١) [الأعراف : ١٨٧] ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٣] فعلمها عند الله ، فمن ادعى علم الساعة فإنه كاذب ، ومن أين له أن يعلم ورسول الله ﷺ لا يعلم وجبريل لا يعلم وهما أفضل الرسل ؟ ولكن الساعة لها أمارات كما قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد : ١٨] أي : علاماتها .

ولهذا لما أخبر النبي ﷺ جبريل أنه لا يعلم بذلك قال : « فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا » أي : علاماتها الدالة على قربها .

فقال : « أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتُهَا وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعَرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبَنِيَانِ » : الأول :

(١) قوله ﴿ مُرْسَاهَا ﴾ أي : إثباتها واستقرارها ، والمراد : متى قيامها ؟

« أن تلد الأمة ربتها » يعني : أن تكون الأمة المملوكة يتطور بها الحال حتى تكون ربة للمماليك الآخرين وهو كناية عن كثرة الأموال .

وكذلك الثاني : « وأن ترى الحفاة العزاة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » الحفاة : الذين ليس لهم نعال من الفقر ، والعزاة : ليس لهم كسوة من الفقر ، العالة الفقراء ، يتطاولون في البنيان : يعني أنهم لا يلبثون إلا أن يكونوا أغنياء يتطاولون في البنيان حشاً ومعنى .

حشاً : بأن يرفعوا بنيانهم إلى السماء ، ومعنى : بأن يحسنوها ويزينوها ويدخلوا عليها كل ما يكون من مكملاتها ؛ لأن لديهم وفرة من المال .

وكل هذا وقع وهناك أمارات أخرى وعلامات أخرى ذكرها أهل العلم في باب الملاحم والفتن وأشرط الساعة وهي كثيرة ، ثم انطلق جبريل عليه الصلاة والسلام ولبثوا ما شاء الله أن يلبثوا ثم قال النبي ﷺ لعمر : « أتدري من السائل ؟ قال : الله ورسوله أعلم ! » . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وفي هذا الحديث من الفوائد :

إلقاء المسائل على الطلبة ليمتحنهم كما ألقى النبي عليه الصلاة والسلام المسألة على عمر . وفيه : جواز قول الإنسان : الله ورسوله أعلم ولا يلزمه أن يقول : الله ثم رسوله أعلم ؛ لأن علم الشريعة الذي يصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام من علم الله ، فصَحَّ أن يُقال : الله ورسوله أعلم كما قال الله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٥٩] ولم يقل : ثم رسوله ؛ لأن الإتياء هنا إتياء شرعي وإتياء النبي ﷺ الشرعي من إتياء الله .

فالمسائل الشرعية يجوز أن تقول الله ورسوله بدون (ثم) أما المسائل الكونية كالمشيئة وما أشبهها فلا تقال : الله ورسوله ، بل الله ثم رسوله ، ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشتت . قال : « أجعلتني لله ندًا ، بل ما شاء الله وحده » (١) .

وفي هذا دليل على أن السائل إذا سأل عن شيء يعلمه من أجل أن ينتفع الحاضرون ، فإنه يكون معلماً لهم ؛ لأن الذي أجاب النبي عليه الصلاة والسلام وجبريل سائل لم يعلم الناس ، لكن كان سبباً في هذا الجواب الذي انتفع به الناس .

فقال بعض العلماء : إنه ينبغي لطالب العلم إذا جلس مع عالم في مجلس أن يسأل عن مسائل تهتم الحاضرين ، وإن كان يعلم حكمها من أجل أن ينفع الحاضرين ويكون معلماً لهم .

وفي هذا دليل على بركة العلم ، وأن العلم ينتفع به السائل والمجيب كما قال هنا : « يعلمكم دينكم » : وفيه : أن هذا الحديث حديث عظيم يشتمل على الدين كله ولهذا قال : « يعلمكم دينكم » لأنه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤/١) ، والبيهقي في السنن (٢١٧/٣) كلاهما بلفظ : « أجعلتني مع الله » .

مشمتم على أصول العقائد وأصول الأعمال . أصول العقائد ، أركان الإيمان ، وأصول الأعمال : أركان الإسلام الخمسة والله الموفق .

٦١ - الثاني : عَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذا الحديث من أحاديث الأربعين النووية للمؤلف رحمته الله وفيها أن النبي ﷺ أوصى بثلاث وصايا عظيمة : الوصية الأولى : قال : « اتق الله حيثما كنت » وتقوى الله : هي اجتناب المحارم وفعل الأوامر هذه هي التقوى ! أن تفعل ما أمرك الله به إخلاصاً لله واتباعاً لرسول الله ﷺ ، وأن تترك ما نهى الله عنه امتثالاً لنهي الله ﷻ وتزهداً عن محارم الله .

مثاله : تقوم بما أوجب الله عليك في أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين وهي الصلاة ، فتأتي بها كاملة بشروطها وأركانها وواجباتها وتكملها بالمكملات . فمن أحل بشيء من شروط الصلاة أو واجباتها أو أركانها ؛ فإنه لم يتق الله ، بل نقص من تقواه بقدر ما نقص من المأمور . في الزكاة تقوى الله فيها أن تحصى جميع أموالك التي فيها الزكاة وتخرج زكاتها طيبة بها نفسك من غير بخل ولا تقدير ولا تأخير ، فمن لم يفعل فإنه لم يتق الله .

في الصيام تأتي بالصوم كما أمرت مجتنباً فيه اللغو والرفث والصخب والغيبة والنميمة وغير ذلك مما ينقص الصوم ويزيل روح الصوم ومعناه الحقيقي وهو الصوم عما حرم الله ﷻ ! وهكذا بقية الواجبات تقوم بها طاعة لله وامتثالاً لأمره وإخلاصاً له واتباعاً لرسوله ، وكذلك في المنهيات تترك ما نهى الله عنه امتثالاً لنهي الله ﷻ حيث نهاك فانتهي .

الوصية الثانية : « اتبع السبيل الحسنة تمحها » أي : إذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة فإن الحسنات يذهبن السيئات ، ومن الحسنات بعد السيئات : أن تتوب إلى الله من السيئات فإن التوبة من أفضل الحسنات كما قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوْبِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] وقال الله تعالى : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وكذلك الأعمال الصالحة تكفر السيئات كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ » ^(٢) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣/٥ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٣٦) والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤) والترمذي في السنن (٢١٤) وأحمد في مسنده (٤٠٠/٢) .

وقال : « العُمرة إلى العُمرة كفارة لما بينهما » ^(١) فالحسنات يذهبن السيئات .

الوصية الثالثة : « خالِقِ الناس بخلقِ حسنٍ ! »

والوصيتان الأوليان في مُعاملة الخالق والثالثة في مُعاملة الخلق أن تعاملهم بخلق حسن تُحمد عليه ولا تذم فيه وذلك بطلاقة الوجه وصدق القول وحُسن المخاطبة وغير ذلك من الأخلاق الحسنة . وقد جاءت النصوص الكثيرة في فضل الخلق الحسن حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام : « أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا » ^(٢) وأخير أن أولى الناس به ﷺ وأقربهم منه منزلة يوم القيامة أحاسنهم أخلاقًا . فالأخلاق الحسنة مع كونها مُسلكًا حسنًا في المجتمع ويكون صاحبها محبوبًا إلى الناس هي فيها أجر عظيم يناله الإنسان في يوم القيامة .

فاحفظ هذه الوصايا الثلاث من النبي ﷺ والله الموفق .

* * *

٦٢ - الثالث : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كُنْتُ خَلَفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ : أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

وفي رواية غير الترمذي : « احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعْرِفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَغْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » ^(٣) .

الشرح

قوله : « كنت خلف النبي ﷺ » أي راكبًا معه .

قوله : « فقال لي يا غلام .. احفظ الله يحفظك » قال له : يا غلام ؛ لأن ابن عباس رضي الله عنه كان صغيرًا فإن النبي ﷺ تُوفِّي وقد ناهز الاحتلام يعني من الخامسة عشر إلى السادسة عشرة أو أقل . فكان راكبًا خلف الرسول ﷺ فوجه إليه هذا النداء « يا غلام » .

« احفظ الله يحفظك » كلمة جليلة عظيمة ، احفظ الله وذلك بحفظ شرعه ودينه بأن تمتثل لأوامره

(١) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٧٣) ومسلم في الحج (٤٣٧١) والنسائي في السنن (١١٢/٥) وابن ماجه في السنن (٢٨٨٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦١٢) وأبو داود في السنن (٤٦٨٢) وأحمد في مسنده (٤٧٢/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٧/١) والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) والطبراني في الكبير (١٢٣/١١، ١٧٨) .

وَتَجْتَنِبُ نَوَاهِيهِ ، وَكَذَلِكَ بَأْنَ تَتَعَلَّمُ مِنْ دِينِهِ مَا تَقُومُ بِهِ عِبَادَاتِكَ وَمَعَامِلَاتِكَ وَتَدْعُو بِهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ لِأَنَّهُ لَأَن كُلَّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ . اللَّهُ ﷻ نَفْسُهُ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَحَدٍ حَتَّى يَحْفَظَهُ وَلَكِنْ الْمُرَادُ حِفْظُ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَسُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ اللَّهُ يُصْرِكُمْ ﴾ [محمد : ٧] وَلَيْسَ الْمَعْنَى تَنْصُرُونَ ذَاتَ اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْفَرَّتْ مِنْهُمْ ﴾ [محمد : ٤] وَلَا يَعْجِزُونَهُ : ﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٤٤] .
إِذَا : « أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ » جُمْلَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا حَفِظَ دِينَ اللَّهَ حَفِظَهُ اللَّهُ .
وَلَكِنْ حَفِظَهُ فِي مَاذَا ؟

ج : حَفِظَهُ فِي بَدَنِهِ وَحَفِظَهُ فِي مَالِهِ وَأَهْلِهِ وَفِي دِينِهِ ، وَهَذَا أَهَمُّ الْأَشْيَاءِ وَهُوَ أَنْ يُسَلِّمَكَ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا اهْتَدَى زَادَهُ اللَّهُ هُدًى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ قُوَّةًهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] وَكُلَّمَا ضَلَّ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ فَإِنَّهُ يَزِدُّهُ ضَلَالًا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَذْنَبَ صَارَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فَإِنْ تَابَ مُجِيتٌ » ^(١) وَإِنْ أَذْنَبَ ثَانِيَةً انْضَمَّ إِلَيْهَا نَكْتَةٌ ثَانِيَةٌ وَثَلَاثَةٌ وَرَابِعَةٌ حَتَّى يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ .

إِذَا : يَحْفَظُكَ فِي دِينِكَ وَفِي بَدَنِكَ وَمَالِكَ وَأَهْلِكَ .

وَقَوْلُهُ : « أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تَجَاهُكَ » : وَفِي لَفْظٍ أُخَرِ : « تَجِدْهُ أَمَامَكَ » أَحْفَظِ اللَّهَ أَيْضًا بِحِفْظِ شَرِيعَتِهِ بِالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ ، تَجِدْهُ تَجَاهُكَ وَأَمَامَكَ وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ ، يَعْنِي تَجِدْ اللَّهَ أَمَامَكَ يَدُلُّكَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ وَيَدْفَعُ عَنْكَ كُلَّ شَرٍّ وَلَا سِيَمَا إِذَا حَفِظْتَ اللَّهَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَعَانَ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَانَ اللَّهُ حَسْبَهُ وَكَافِيَهُ . وَمَنْ كَانَ اللَّهُ حَسْبَهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ بَعْدَ اللَّهِ . قَالَ اللَّهُ : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] أَيْ وَحَسَبَ مِنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال : ٦٢] فَإِذَا كَانَ اللَّهُ حَسْبَ الْإِنْسَانِ ، أَيْ : كَافِيَهُ فَإِنَّهُ لَنْ يَنَالَهُ سُوءٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : « أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تَجَاهُكَ » أَوْ « تَجِدْهُ أَمَامَكَ » ! ثُمَّ قَالَ لَهُ : « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ » أَيْ لَا تَعْتَمِدْ عَلَى أَحَدٍ مَخْلُوقٍ .
مَثَلًا : إِنْسَانٌ فَقِيرٌ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ يَسْأَلُ اللَّهَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي اللَّهُمَّ هَيِّءْ لِي رِزْقًا ، فَيَأْتِيهِ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .

لَكِنْ لَوْ سَأَلَ النَّاسَ فَرَبَّمَا يَعْطُونَهُ أَوْ يَمْنَعُونَهُ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبَّةَ فَيْحَتِطِبُ ثُمَّ يَبِيعَهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ » ^(٢) .
فَكَذَلِكَ أَنْتَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ قُلْ : « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي » « اللَّهُمَّ أَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ » وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَنْجُو بِهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ .

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي السَّنَنِ (٣٣٣٤) ، وَابْنُ مَاجَةَ فِي السَّنَنِ (٤٢٤٤) ، وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٩٧/٢) .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الزَّكَاةِ (١٤٧١) ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الزَّكَاةِ (٩٣/٥) .

وكذلك أيضًا : « إذا اشتغنت فاشتغن بالله » . الاستعانة بطلب العون فلا تطلب العون من أي إنسان إلا للضرورة القصوى ومع ذلك إذا اضطررت إلى الاستعانة بالخلق فاجعل ذلك وسيلة وسببًا لا ركناً تعتمد عليه ! اجعل الزكن الأصل هو الله ﷻ .

وفي هاتين الجملتين دليل على أنه من نقص التوحيد أن الإنسان يسأل غير الله ، ولهذا تكره المسألة لغير الله ﷻ في قليل أو كثير .

والله سبحانه إذا أراد عونك يسر لك العون سواء كان بأشباب معلومة أو غير معلومة .

قد يعينك الله بسبب غير معلوم لك فيدفع عنك من الشر ما لا طاقة لأحد به وقد يعينك الله على يد أحد من الخلق يسخره لك ويدلكه لك حتى يعينك ، ولكن مع ذلك لا يجوز لك إذا أعانك الله على يد أحد أن تنسى المسبب وهو الله ﷻ ، كما يفعله بعض الجهلة الآن لما استعانت الدولة بالكفار وحصل منهم العون الظاهر البين صار بعض الناس من الجهلة يُقدسون هؤلاء الكفرة وما علموا أنهم أعداء لهم سواء أعانهم أم لا ! هم أعداء لكم إلى يوم القيامة ولا يجوز لأحد أن يواليهم أو يُناصرهم أو يدعو لهم كما سمعنا من بعض العامة الجهال يقول : سوف نُصْخِي لفلان وفلان من الكفرة والعياذ بالله ، ونسمي أبناءنا بأسمائهم - نسأل الله العافية - ندعو لهم . هم لولا أن الله سخرهم وذللهم لكم ما نفعوكم بشيء . النافع الضار هو الله وهو الذي يَسْخَرُهم وِسْخَرُهم لِيُعِينُوكم ويُدَافِعُوا عَنْكُمْ وهو من تسخير الله ﷻ لعباده المؤمنين أن يسخر لهم كفارًا يذودون عنهم كما جاء في الحديث : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » (١) .

فيجب علينا أن لا ننسى فضل الله الذي سخرهم لنا ، ويجب علينا أن ننبه العامة ، إذا سمعنا أحداً يَؤَكِّن إليهم ويقول : هم الذين نصرونا مائة بالمائة وهم الأول والآخر ، فيجب علينا أن نبين لهم أن هذا خلل في التوحيد ، والله أعلم .

وقوله : « وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ » . فينبين النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الجملة أن الأمة لو اجتمعت كلها على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ! فإذا وقع منهم نفع لك فاعلم أنه من الله ؛ لأنه هو الذي كتبه فلم يقل النبي ﷺ لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك . بل قال : « لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ » . فالناس بلا شك ينفع بعضهم بعضاً ويساعد بعضهم بعضاً ، لكن كل هذا مما كتبه الله للإنسان ، فالفضل لله فيه أولاً ﷻ هو الذي سخر لك من ينفعك ويحسن إليك ويُزيل كربتك ، وكذلك بالعكس لو اجتمعوا على أن يَضُرُّوكَ بشيء لم يَضُرُّوكَ إلا بشيء قد كتبه الله عليك .

والإيمان بهذا يَسْتَلْزِمُ أن يكون الإنسان متعلقاً بربه ومتكلماً عليه لا يهتم بأحد ؛ لأنه يعلم أنه لو اجتمع كل الخلق على أن يضرروه بشيء لم يضرروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه . وحيث يعلق رجاءه

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠٦) ، ومسلم في الإيمان (١٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣٠٩/٢) .

بالله وَيَقْتَصِمُ به ولا يهمله الخلق ولو اجتمعوا عليه ، ولهذا نجد الناس في سلف هذه الأمة لما اعتمدوا على الله وتوكلوا عليه لم يَضُرَّهُمْ كيد الكائدين ولا حَسَدُ الحاسدين : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَمْشُلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَتِ الصُّحُفُ » : يعني أن ما كتبه الله فقد انتهى وَرُفِعَ ، والصُّحُفُ جُفَّتْ من المداد ولم يبق مراجعة . فما أصابك لم يكن ليخطئك كما في اللفظ الثاني : « وَمَا أخطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ » .

وفي اللفظ الثاني قال : « وَاعْلَمْ أَنَّ النِّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكُرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » . يعني اعلم علم يقين أن النصر مع الصبر ، فإذا صبرت وفعلت ما أمرك الله به من وسائل النصر فإن الله تعالى ينصرك .

والصبر هنا يشمل الصَّبْرَ على طاعة الله وعن مَقْصِيئِهِ ، وعلى أَقْدَارِهِ المؤلمة ؛ لأن العدو يُصِيبُ الإنسان من كل جهة ، فقد يشعر الإنسان أنه لن يُطِيقَ عدوه فيستحسر ويدع الجهاد .

وقد يشرع في الجهاد ولكن إذا أصابه الأذى استحسر وتوقف ، وقد يستمر ولكنه يُصِيبُهُ الألم من عدوه فهذا أيضًا يجب أن يصبر عليه . قال الله : ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ ^(١) [آل عمران : ١٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي آيَاتِهِ الْقَوَى إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ^(٢) [النساء : ١٠٤] فإذا صبر الإنسان وصابر ورابط فإن الله سبحانه ينصره .

وقوله : « وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكُرْبِ » : كلما اكْتَرَبَتِ الأمور وَضَاقَتْ فإن الفرج قريب ؛ لأنَّ الله ﷻ يقول في كتابه : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] فكلما اشتدت الأمور فانتظر الفرج من الله ﷻ .

وقوله : « وَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » فكل عسر فبعده يسر ، بل إن العسر مخفوف ييسرين ! يُيسِّرُ سَابِق ، وَيُيسِّرُ لَاحِق ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥٠، ٤] وقال ابن عباس ؓ : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ » ^(٣) .

فهذا الحديث الذي أوصى به عبدالله بن عباس ينبغي للإنسان أن يكون على ذكر له دائماً وأن يعتمد على هذه الوصايا النافعة التي أوصى بها النبي ﷺ ابن عمه عبدالله بن عباس ؓ ، والله الموفق .

٦٣ - الرَّابِعُ : عَنْ أَنَسٍ ؓ قَالَ : « إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَذْقُ فِي أَغْنِيَكُمْ مِنَ الشَّعْرِ ، كُنَّا

(١) قوله تعالى : ﴿ فَرْحٌ ﴾ هو : كل ما يجرح الجسد من جراح .

(٢) قوله تعالى : ﴿ تَهِنُوا ﴾ أي : لا تضعفوا ، وقوله تعالى : ﴿ آيَاتِهِ الْقَوَى ﴾ أي طلب الكفار بالقتال .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٢٨/٢) ، والهندي في كنز العمال (٢٩٤٦) .

تَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَوْبِقَاتِ ^(١) رواه البخاري . وقال : « الْمَوْبِقَاتُ » الْمُهْلِكَاتُ .
 ٦٤ - الْحَامِيسُ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى : أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » ^(٢) متفقٌ عَلَيْهِ . وَ « الْغَيْرَةُ » : بَفَتْحِ الْغَيْنِ ، وَأَصْلُهَا الْأَنْفَةُ .

الشرح

أنس بن مالك من المعمرين فبقي بعد النبي ﷺ حوالي تسعين سنة . فتغيرت الأمور في عهده ﷺ واختلفت أحوال الناس وصاروا يتهاونون في بعض الأمور العظيمة في عهد الصحابة ﷺ .

مثل : صلاة الجماعة ؛ فقد كان الصحابة ﷺ لا يتخلف أحد عنها إلا منافق أو مريض معذور . ولكن الناس تهاوؤوا بها ولم يكونوا على ما كَانَ عليه الصحابة في عهد النبي ﷺ . بل إِنَّ الناس في عهدنا صاروا يتهاونون بالصَّلَاةِ نفسها لا بصَلَاةِ الجماعة فقط ، فلا يصلون ، أو يُصَلُّون ويتركون ، أو يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عن وقتها ، كل هذه أعمال يَسِيرَة عند بعض النَّاسِ لكنها في عهد النبي ﷺ والصحابة كانت تعد من الْمَوْبِقَاتِ .

كذلك - أيضًا - الغش في عهد النبي عليه الصلاة والسلام قال : « مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي » ^(٣) . لكن انظر إلى الناس اليوم تجد أن الغش عندهم أهون من كثير من الأشياء ، بل إن بعضهم والعياذ بالله يُعَدُّ الغش من الشطارة في البيع والشراء والعقود ويرى أن هذا من باب الحذق والذكاء - نسأل الله العافية - مع أن النبي ﷺ تَبَرَّأَ مِنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَغْشَى النَّاسَ .

ومن ذلك : الكذب : وهو من الأشياء العظيمة في عهد الصحابة ﷺ فيرونها من الموبقات ، لكنه عند كثير من الناس يُعَدُّه أمرًا هينًا فتجده يكذب ولا يبال بالكذب مع أن النبي ﷺ قال : « لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَخَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا » ^(٤) .

وربما يكذب في أمور أخطر فيجحد ما عليه للناس ، أو يدعي ما ليس له ويحاكمهم عند القاضي ، ويحلف على ذلك فيكون - والعياذ بالله - ممن يلقي الله وهو عليه غضبان ، إلى غير ذلك من المسائل التي يعدها الصحابة من المهلكات ، ولكن الناس اختلفوا فصارت في أعينهم أدق من الشعر وذلك أنه كلما قوي الإيمان عَظُمَتِ الْمُعْصِيَة عند الإنسان ، وكلما ضَعُفَ الْإِيمَانُ خَفَتِ الْمُعْصِيَة في قلب الإنسان ورآها أمرًا هينًا يتهاون ويتكاسل عن الواجب ولا يبالي ؛ لأنه ضعيف الإيمان .

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٢) ، وأحمد في مسنده (١٥٧٢٣/٣) ، والدارمي في الرقاق (٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٢٣) ، ومسلم في التوبة (٣٦) ، والترمذي في الرضاع (١١٦٨) ، وأحمد في مسنده (٣٨٧/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤/١٠٢) ، والبيهقي في السنن (٣٢٠/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/١) .

أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ .

قوله : « مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أي : محارم الله . الغيرة صفة حقيقية ثابتة لله ﷻ ولكنها ليست كغيرتنا ، بل هي أعظم وأجل ، والله سبحانه بحكمته أوجب على العباد أشياء وحرم عليهم أشياء ، وأحل لهم أشياء . فما أوجبه عليهم ؛ فهو خير لهم في دينهم ودنياهم ، وفي حاضرهم ومستقبلهم ، وما حرمه عليهم ؛ فإنه شر لهم في دينهم ودنياهم ، وحاضرهم ومستقبلهم ، فإذا حرم الله على عباده أشياء فإنه ﷻ يغار أن يأتي الإنسان محارمه ، وكيف يأتي الإنسان محارم ربه والله إنما حرمها من أجل مصلحة العبد ، أما الله فلا يضره أن يعصي الإنسان ربه .

لكن يغار كيف يعلم الإنسان أن الله سبحانه حكيم ورحيم ولا يحرم على عباده شيئاً بُخلاً منه عليهم به . ولكن من أجل مصلحتهم ثم يأتي العبد فيتقدم فيعصي الله ﷻ ولا سيما في الزنى فإنه ثَبَتَ عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِي أَمَتُهُ » ^(١) لَأَنَّ الزَّانِيَ فَاحِشَةٌ وَالزَّانِي طَرِيقٌ سَافِلٌ جَدًّا ، وَمَنْ ثُمَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ الزَّانِيَ وَجَمِيعَ وَسَائِلِ الزَّانِي كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] فإذا زنى العبد والعياذ بالله فإن الله يُغَارُ غَيْرَةً أَشَدَّ وَأَعْظَمَ مِنْ غَيْرَتِهِ عَلَى مَا دُونِهِ مِنَ الْمَحَارِمِ .

ومن باب أولى وأشد اللواط ، وهو إتيان الذكر الذكر ، فإن هذا أعظم وأعظم ، ولهذا جعله الله تعالى أشد في الفحش من الزنى فقال لوط لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ [الأعراف : ٨٠] . قال هنا : ﴿ الْفَاحِشَةُ ﴾ وفي الزنى قال : ﴿ فَاحِشَةٌ ﴾ أي فاحشة من الفواحش ، أما اللواط فجعله الفاحشة العظمى نسأل الله العافية .

وكذلك أيضًا السرقة وشرب الخمر وكل المحارم يغار الله منها ، لكن بعض المحارم تكون أشد غيرة من بعض حسب الجرم والمضار التي تترتب على ذلك .

وفي هذا الحديث : إثبات الغيرة لله تعالى وسبيل أهل السنة والجماعة فيه وفي غيره من أحاديث الصفات وآيات الصفات أنهم يشتبونها لله سبحانه على الوجه اللائق به يقولون : إن الله يغار لكن ليست كغيرة المخلوق ، وإن الله يفرح ولكن ليس كفرح المخلوق ، وإن الله له من الصفات الكاملة ما يليق به ، ولا تشبه صفات المخلوقين والله الموفق .

٦٥ - السَّادِسُ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصٌ ، وَأَقْرَعٌ ، وَأَعْمَى أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَمْلِكَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا ، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْ حَسَنٌ ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبَ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَدْرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْإِبْلُ - أَوْ قَالَ الْبَقَرُ - سَكَ الرَّأْيِي -

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٢٠) والبيهقي في السنن (٣٣٨/٣) .

فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشْرَاءَ ، فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا .

فَأَتَى الْأَفْرَعَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدَّرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْبَقَرُ ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا ، وَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا .

فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي فَأُبْصِرَ النَّاسَ ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْعَنَمُ ، فَأُعْطِيَ شَاةَ الْوَلَدَا . فَأَتَتْجَ هَذَانِ وَوَلَدَ هَذَا ، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْعَنَمِ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بَيْنَ الْحَبَالِ فِي سَفَرِي ، فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ ، وَالْمَالَ ، بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ : الْحَقُّوْكَ كَثِيرَةٌ . فَقَالَ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدُرُكَ النَّاسُ ، فَقَبِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ! فَقَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ . وَأَتَى الْأَفْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ مَا قَالَ لِهَذَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هَذَا ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ .

وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بَيْنَ الْحَبَالِ فِي سَفَرِي ، فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ ، شَاةَ أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي ؟ فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي ، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ ، فَوَاللَّهِ مَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمْ ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ ^(١) متفقٌ عليه .

« وَالنَّاقَةُ الْعُشْرَاءُ » بِضَمِّ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الشَّيْنِ وَبِالْمَدِّ : هِيَ الْحَامِلُ . قَوْلُهُ : « أَنْتَجَّ » وَفِي رَوَايَةٍ : « فَتَنَجَّ » مَعْنَاهُ : تَوَلَّى نَتَاجِهَا ، وَالنَّاتِجُ لِلنَّاقَةِ كَالْقَابِلَةِ لِلْمَرْأَةِ . وَقَوْلُهُ « وَلَدَ هَذَا » هُوَ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ : أَيُّ تَوَلَّى وَلَادَتَهَا ، وَهُوَ بِمَعْنَى نَتَجَّ فِي النَّاقَةِ . فَالْمَوْلَدُ ، وَالنَّاتِجُ ، وَالْقَابِلَةُ بِمَعْنَى ، لَكِنْ هَذَا لِلْحَيَوَانِ وَذَلِكَ لِغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُ : « انْقَطَعَتْ بَيْنَ الْحَبَالِ » هُوَ بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَالْبَاءِ الْموحدة : أَيُّ الْأَسْتَبَابِ . وَقَوْلُهُ : « لَا أَجْهَدُكَ » مَعْنَاهُ : لَا أَشُقُّ عَلَيْكَ فِي رَدِّ شَيْءٍ تَأْخُذُهُ أَوْ تَطْلُبُهُ مِنْ مَالِي . وَفِي رَوَايَةِ الْبَخَارِيِّ : « لَا أَحْمَدُكَ » بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَالْمِيمِ ، وَمَعْنَاهُ : لَا أَحْمَدُكَ بِتَوَكُّفِكَ شَيْءٍ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالُوا : لَيْسَ عَلَى طُولِ الْحَيَاةِ نَدَمٌ ، أَيُّ عَلَى فَوَاتِ طُولِهَا .

الشرح

قوله : « ثلاثة من بني إسرائيل » وإسرائيل هو إسحاق بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أخو إسماعيل ، ومن ذرية إسرائيل : موسى وهارون وعيسى ، وجميع بني إسرائيل كلهم من ذرية إسحاق عليه الصلاة والسلام .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤) ومسلم في الزهد والرقائق (١٠) .

وإسماعيل أخو إسحاق ، فهم والعرب أبناء عم ، وقد جاءت أخبار كثيرة عن بني إسرائيل ، وهي ثلاثة أقسام :

الأولى : ما جاء في القرآن . والثاني : ما جاء في صحيح السنة .

والثالث : ما جاء عن أخبارهم وعن علمائهم .

فأما الأول والثاني : فلا شك في أنه حق ولا شك في قبوله مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى آلَمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَنِي مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آيَاتٌ أَنْ يُبَدِّلَ لَنَا مَلَكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] . ومن السنة مثل هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ . وأما ما روي عنهم عن أخبارهم وعلمائهم ؛ فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما شهد الشرع بطلانه : فهذا باطل يجب رده وهذا يقع كثيرًا فيما نقل من الإسرائيليات في تفسير القرآن ، فإنه ينقل في تفسير القرآن كثير من الأخبار الإسرائيلية التي يشهد الشرع بطلانها . والثاني : ما شهد الشرع بصدقه : فهذا يقبل لا لأنه من أخبار بني إسرائيل ، ولكن لأن الشرع شهد بصدقه وأنه حق .

والثالث : ما لم يكن في الشرع تضديقه ولا تكذيبه : فهذا يتوقف فيه لا يُصدقون ولا يُكذبون ؛ لأننا إن صدقناهم فقد يكون باطلاً فيكون قد صدقناهم بباطل ، وإن كذبناهم فقد يكون حقاً فقد كذبناهم بحق ، ولهذا نتوقف فيه ولا حرج من التحديث به فيما ينفع في ترغيب أو ترهيب .

ذكر النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث : أن ثلاثة من بني إسرائيل ابتلاه الله ﷻ بعاثات في أبدانهم أحدهم أبرص ^(١) ، والثاني أقرع ليس على رأسه شعر ، والثالث أعمى لا يبصر فأراد الله سبحانه أن يَتَلَيَّهُمْ وَيَخْتَبِرَهُمْ ، لأن الله سبحانه يتلي العبد بما شاء يَتْلُوهُ هل يصبر أو يضجر إذا كان ابتلاه بضراء ، وهل يشكر أو يقتدر إذا كان قد ابتلاه بسراء .

فبعث الله إليهم ملكاً من الملائكة وأتاهم يسألهم أي شيء أحب إليهم فبدأ بالأبرص فقال : « أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قدرني الناس به » لأن أهم شيء عند الإنسان أن يكون مُعَافًى من العاهات ولا سيما العاهات المكروهة عند الناس . فمسحه الملك فبرأ بإذن الله وزَالَ عَنْهُ الْبَرَص ، وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً .

ثم قال له : « أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل - أو قال - البقر ! » .

والظاهر أنه قال الإبل ؛ لأنه في قصة الأقرع أُعْطِيَ البقر ، فأعطاه ناقة عشراء وقال له : بارك الله لك فيها فذهب عنه الفقر وَذَهَبَ عَنْهُ الْعَيْبُ الْبَدَنِي ، ودعا له الملك بأن يبارك الله له في هذه الناقة . ثم أتى الأقرع وقال : « أي شيء أحب إليك ؟ قال : شَعْرٌ حَسَنٌ ويذهب عني الذي قدرني الناس .

فمسحه فأعطي شعراً حسناً . وقيل له : « أي المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطي بقرَةً حامِلاً ، وقالَ لَهُ : بَارَكَ لَكَ اللَّهُ فِيهَا » .

أما الأعمى فجاءه الملك فقال له : « أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله علي بصري فأبصر به الناس » ، وتأمل قول الأعمى هذا ! . فإنه لم يسأل إلا بصراً يُبصر به الناس فقط ، أما الأبرص والأقرع فإن كل واحد منهما تمنى شيئاً أكبر من الحاجة ؛ لأن الأبرص قال : جلدًا حسناً ولونًا حسناً ، وذلك قال : شعراً حسناً . فليست مجرد جلد أو شعر أو لون ، بل تمنى شيئاً أكبر ، أما هذا فإن عنده زهداً لذا لم يسأل إلا بصراً يُبصر به فقط .

ثم سأله : « أي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم » وهذا من زهده فلم يتمن الإبل ولا البقر ، بل الغنم ونشبة الغنم للبقر والإبل قليلة ، فأعطاه شاة والدًا وقال : بارك لك الله فيها .

فبارك الله للأول في إبله ، وللثاني في بقره ، وللثالث في غنمه ، وصار لكل واحد منهما وادٍ مما أُعطي . ثم إن هذا الملك أتى الأبرص في صورته وهيئته ، صورته البدنية وهيئته الرثة ولباسه لباس الفقير ، وقال له : « إني رجل فقير وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سَفَرِي فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك » . فتوسل إليه بذكر حاله أنه فقير وأنه ابن سبيل - أي مسافر - وأن الحبال - أي الأسباب - التي توصله إلى أهله قد انقطعت به ، وأنه لا بلاغ له إلا بالله ثم به .

وقال له : « أسألك بالذي أعطاك الجلد الحسن والمال ، بعيرًا أتبلغ به في سَفَرِي » .

لكنه قال : الحقوق كثيرة وبخل بذلك مع أن له وادياً من الإبل لكنه قال : الحقوق كثيرة ، وهو فيما يظهر والله أعلم أنه لا يؤدي شيئاً منها ، لأن هذا أحق من يكون ؛ لأنه مسافر وفقير وانقطعت به الحبال ومن أحق ما يكون استحقاقاً للمال . ومع ذلك اعتذر له !

فذكره بما كان عليه من قبل ، فقال له : قد كنت أعرفك ، ألم تكن أبرص يُقدرك الناس ؟ فقيرًا فأعطاك الله المال ، وأعطاك اللون الحسن والجلد الحسن ؟

ولكنه قال والعياذ بالله : « إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ » وأنكر نعمة الله . فقال له الملك : « إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ » أي إن كنت كاذبًا فيما تقول فصيرك الله إلى ما كنت من الفقر والبرص ، والذي يظهر أن الله استجاب دعاء الملك وإن كان دعاءً مشروطاً لكنه كان كاذبًا بلا شك ، فإذا تحقق الشرط تحقق المشروط .

وأتى الأقرع فقال له مثلما قال للأبرص وردَّ عليه مثلما رد عليه الأبرص فقال : « إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ » .

وأتى الأعمى وذكره بنعمة الله عليه : « فقال له : قد كنت أعمى فرد الله علي بصري ، وكنت فقيرًا فأعطاني الله المال » فأقر بنعمة الله عليه « فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ مِنَ الْغَنَمِ ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لَكَ » . أي : لا أمنعك ولا أشق عليك بالمتع بشيء أخذته لك ، انظر

إلى الشكر والاعتراف بالنعمة .

فقال له الملك : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ مَالَكَ ، إِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » .
وهذا يدل على أن القصة كانت مشهورة بين الناس ، ولهذا قال : « سَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » .
فأمسك ماله ، وبقي قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بالبصر ، وأما الآخِرَانِ فَإِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ اللَّهَ رَدَّاهُمَا إِلَى مَا كَانَا
عليه من الفقر والعاهة والعياذ بالله .

وفي هذا دليل : على أن شكر نعمة الله على العبد من أسباب بقاء النعم وزيادةها ، كما قال
تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .
وفي قصتهم آيات من آيات الله ﷻ :

منها : إثبات الملائكة ، والملائكة هم عالم غيبي خلقهم الله ﷻ من نور وجعل لهم قُوَّة في تنفيذ
أمر الله ، وجعل لهم إرادة في طاعة الله ، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ .
ومنها : أن الملائكة قد يكونون على صورة بني آدم ؛ فإن الملك أتى لهؤلاء الثلاثة بصورة إنسان .
ومنها : أنهم يتكيفون بصورة الشخص المعين ، كما جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى في المرة
الثانية بصورة وهيئة .

ومنها : أيضًا أنه يجوز الاختبار للإنسان في أن يأتي الشخص على هيئة معينة ليختبره ؛ فإن هذا الملك
جاء على صورة الإنسان المحتاج المصاب بالعاهة ليرق له هؤلاء الثلاثة مع أن الملك فيما يبدو والعلم
عند الله لا يُصاب في الأصل بالعاهات ولكن الله ﷻ جعلهم يأتون على هذه الصورة من أجل
الاختبار .

ومنها : أن الملك مسح الأقرع والأبرص والأعمى مسحة واحدة فأزال الله عيهم بهذه المسحة ؛ لأن
الله إذا أراد شيئًا قال له : كن . فيكون ، ولو شاء الله لأذهب عنهم العاهة ، ولكن الله جعل هذا سببًا
للابتلاء والامتحان .

ومنها : أن الله قد يبارك للإنسان بالمال حتى ينتج منه الشيء الكثير ؛ فإن هؤلاء نفر الثلاثة صار
لواحد وادٍ من الإبل ، ولثاني وادٍ من البقر ، ولثالث وادٍ من الغنم وهذا من بركة الله ﷻ . وقد دعا
الملك لكل واحد منهم بالبركة .

ومنها : تفاوت بني آدم في شكر نعمة الله ونفع عباد الله ، فإن الأبرص والأقرع وقد أعطاهم الله
المال الأهم والأكبر ، ولكن جحدوا نعمة الله قالا : إنما ورثنا هذا المال كابرًا عن كابر وهم كَذَبًا في
ذلك ؛ فإنهم كانوا فقراء وأعطاهم الله المال . أما الأعمى فقد شكر نعمة الله واعترف لله بالفضل ؛
ولذلك وَفَّقَ وهده الله وقال للملك : « خُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ » .

ومنها أيضًا : إثبات الرضى والسخط لله ﷻ ، وهما من الصفات التي يجب أن نشبهها لرَبَّنَا ﷻ لأنه

وصف نفسه بها . ففي القرآن الكريم : الرضا : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ^(١) [التوبة : ١٠٠] وفي القرآن : ﴿ أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [المائدة : ٨٠] . وفي القرآن الكريم : الغضب : ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء : ٩٣] وهذه الصفات وأمثالها يؤمن بها أهل السنة والجماعة بأنها ثابتة لله على وجه الحقيقة ، لكنها لا تشبه صفات المخلوقين كما أن الله لا يُشبه المخلوقين فكذلك صفاته لا تُشبه صفات المخلوقين .

ومن فوائد هذا الحديث : أن في بني إسرائيل من العجب والآيات ما جعل النبي ﷺ ينقل لنا من أخبارهم حتى نتعظ . ومثل هذا الحديث قصة النفر الثلاثة الذين لجأوا إلى غار فانطبقت عليهم صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار وعجزوا عن زحزحتها وتوسل كل واحد منهم إلى الله بصالح عمله ^(٢) . فالنبي عليه الصلاة والسلام يَقْصُ علينا من أنباء بني إسرائيل ما يكون فيه الموعظة والعبرة ^(٣) ، فعلينا أن نأخذ من هذا الحديث عبرة بأن الإنسان إذا شكر نعمة الله واعترف لله بالفضل وأدى ما يجب عليه في ماله فإن ذلك من أسباب البقاء والبركة في ماله والله الموفق .

* * *

٦٦ - السَّابِعُ : عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » ^(٤) . رواه التِّرْمِذِيُّ وقال : حديثٌ حَسَنٌ . قال التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : مَعْنَى « دَانَ نَفْسَهُ » : حَاسَبَهَا .

الشرح

قوله : « الْكَيْسُ » معناه الرجل الحازم الذي يغتنم الفُرْصَ ويتخذ لنفسه الحيطة حتى لا تفوت عليه الأيام والليالي فيضيع .

وقوله : « مَنْ دَانَ نَفْسَهُ » أي : مَنْ حَاسَبَهَا ونظر ماذا فعل من المأمورات ، وماذا ترك من المنهيات ، هل قام بما أمر به ؟ وهل ترك ما نُهي عنه ؟ إذا رأى من نفسه تفريطاً في الواجب استدركه إذا أمكن استدراكه وقام به أو بدله ، وإذا رأى من نفسه انتهاكاً لحرم أوقع عنه وندم وتاب واستغفر . وقوله : « عَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ » يعني عمل للآخرة ؛ لأن ما بعد الموت فإنه من الآخرة ، وهذا هو الحق والحزم أن الإنسان يعمل لما بعد الموت ؛ لأنه في هذه الدنيا مارٌّ بها مروراً .

(١) قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي قبل أعمالهم وكافأهم عليها ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي : فرحوا بما أعطاهم من أنواع الكرامة والنعيم الدائم .

(٢) انظر قصتهم في : البخاري في الأدب (٢٩٧٤) ، ومسلم في الذكر (١٠٠) ، وأحمد في مسنده (١١٦/٢) .

(٣) ولذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَمِيتٍ عِبْرَةً ﴾ وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف : ٢] .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤/٤) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠) والبيهقي في سننه (٣٦٩/٣) .

والمآل هو ما بعد الموت ، فإذا فرط ومضت عليه الأيام وأضاعها في غير ما ينفعه في الآخرة فليس بكيس . الكيس هو الذي يعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وصار لا يهتم إلا بأمور الدنيا . فيتبع نفسه هواها في التفریط في الأوامر وفعل النواهي ثم يتمنى على الله الأمانى ، فيقول : الله غفور رحيم ، وسوف أتوب إلى الله في المستقبل ، وسوف أصلح من حالى إذا كبرت ، وما أشبهه من الأمانى الكاذبة التي يملها الشيطان عليه ، فربما يدركها وربما لا يدركها .

ففي هذا الحديث : الحث على انتهاز الفرص وعلى أن لا يضيع الإنسان من وقته فرصة إلا فيما يرضي الله ﷻ ، وأن يدع الكسل والتهاون والتعني ؛ فإن التمني لا يفيد شيئاً كما قال الحسن البصري رحمه الله : (ليس الإيمان بالتعني ولا بالتحلي ، ولكن الإيمان ما وقّر في القلب وصدقه الأعمال) (١) .

فعلينا أيها الأخوة أن ننتهز الفرصة في كل ما يقرب إلى الله من فعل الأوامر واجتناب النواهي ، حتى إذا قدمنا على الله كنا على أكمل ما يكون من حال . نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

٦٧ - الثامن : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » (٢) حديث حسن رواه الترمذي وغيره .

٦٨ - التاسع : عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته » (٣) رواه أبو داود وغيره .

الشرح

إسلام المرء : هو استسلامه لله ﷻ ظاهراً وباطناً ؛ فأما باطناً فاستسلام العبد لربه بإصلاح عقيدته ، وإصلاح قلبه ، وذلك بأن يكون مؤمناً بكل ما يجب الإيمان به على ما سبق في حديث جبريل .

وأما الاستسلام ظاهراً : فهو إصلاح عمله الظاهر كأقواله بلسانه وأفعاله بجوارحه . والناس يختلفون في الإسلام اختلافاً ظاهراً كثيراً كما أن الناس يختلفون في أشكالهم وصورهم منهم الطويل ومنهم القصير ومنهم الضخم ومنهم من هم دون ذلك ومنهم القبيح ومنهم الجميل فيختلفون اختلافاً ظاهراً . فكذلك يختلفون في إسلامهم لله ﷻ حتى قال الله في كتابه : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا اللَّهُ الْمُسْتَقِيمُ ﴾ [الحديد : ١٠] .

وإذا كان الناس يختلفون في الإسلام فإن مما يزيد في حسن إسلام المرء أن يدع ما لا يعنيه ولا يهمله لا في دينه ولا في دنياه : فالإنسان المسلم إذا أراد أن يجعل إسلامه حسناً فليدع ما لا يعنيه .

(١) انظر الكامل في الضعفاء لابن عدي (٢٢٩٠/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٨) وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) .

(٣) وأبو داود في النكاح (٢١٤٧) وابن ماجه في النكاح (١٩٨٦) والألباني في إرواء الغليل (٩٨/٧) ، هذا الحديث لك يقيم الشارح رحمه الله بشرحه .

فمثلاً : إذا كان هناك عمل وَتَرَدَّدت - هل تفعل أو لا تفعل ؟ انظر هل هو من الأمور الهامة في دينك ودينك فافعله وإلا فاتركه . السلامة أسلم .

كذلك أيضاً ما تتدخل في أمور الناس إذا كان هذا لا يهكم وهذا خلاف ما يفعله بعض الناس اليوم من حرصه على اطلاعه على أعراض الناس وأحوالهم ويجد اثنين يتكلمان فيحاول أن يتقرب منهما حتى يسمع ما يقولان ويجد شخصاً جاء من جهة من الجهات فتراه يبعث وربما يبادر الشخص نفسه ، ويقول له : من أين جئت ؟ وماذا قال لك فلان ؟ وماذا قلت له ؟ وما أشبهه في أمور لا تعنيه ولا تهمة . فالأمور التي لا تعنيك اتركها ؛ فإن هذا من لحسن إسلامك وهو أيضاً فيه راحة للإنسان ؛ فكون الإنسان لا يهيمه إلا نفسه هذا هو الراحة ، أما الذي يتبع أحوال الناس ؛ فإنه سوف يتعب تعباً عظيماً ويفوت على نفسه خيراً كثيراً مع أنه لا يستفيد شيئاً ؛ فأنت اجعل دأبك دأب نفسك وهمك هم نفسك ، وانظر إلى ما ينفعك فافعله والذي لا ينفعك اتركه ، وليس من حسن إسلامك أن تبحث عن أشياء لا تهكم .

ولو أننا مشينا على هذا وصار الإنسان دأبه دأب نفسه ولا ينظر إلى غيره لحصل خيراً كثيراً . أما بعض الناس تجده مشغولاً بشئون غيره فيما لا فائدة فيه فيضيع أوقاته ويشغل قلبه ويشتت فكره وتضيع عليه مصالح كثيرة .

وتجد الرجل الدؤوب الذي ليس له هم إلا نفسه وما يعنيه تجده ينتج ويشمر ويحصل ويكون في راحة فكرية وقلبية وبدنية .

ولذا يعد هذا الحديث من جوامع كلم النبي ﷺ فإذا أردت شيئاً فعلاً أو تركاً انظر هل يهكم أو لا ؟ إن كان لا يهكم اتركه واسترح منه وإن كان يهكم فاشتغل به بحسبه ، فعلى كل حال كل إنسان عاقل كما جاء في الحديث السابق : « الكَيْسُ من دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لما بعدَ المَوْتِ » . فكل إنسان عاقل يحرص أن يعمل لما بعد الموت ويحاسب نفسه على ، أعمالها والله الموفق .

* * *



التَّقْوَى اسم مأخوذ من الوقاية ، هو أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله ، والذي يقيه من عذاب الله فعل أوامر الله واجتناب نواهيه ، فإن هذا هو الذي يقي من عذاب الله ﷻ .

واعلم أن التقوى أحياناً تقترب بالبر فيقال : بر وتقوى كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] . وتارة تُذكر وحدها فإن قُرِنت بالبر صار البر فعل الأوامر والتقوى ترك النواهي ، وإذا أُفردت صارت شاملة تعم فعل الأوامر واجتناب النواهي وقد ذكر الله في كتابه أن الجنة أُعِدَّت للمتقين فأهل التقوى هم أهل الجنة - جعلنا الله وإياكم منهم - ولذلك يجب على الإنسان أن يتقي الله ﷻ امتثالاً لأمره وطلباً لثوابه والنجاة من عقابه . تم ذكر المؤلف آيات متعددة فقال ﷻ .

قال الله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى . وقال الله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠] والآيات في الأمر بالتقوى كثيرة معلومة ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

قوله : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] فوجه الأمر إلى المؤمنين ؛ لأن المؤمن يحمله إيمانه على تقوى الله .

وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ وحق التقوى مفسرًا بما عقبه المؤلف من قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] بعد هذه الآية .

أي : أن معنى قوله : ﴿ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ أن تتقي الله ما استطعت ؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها . وهذه الآية ليست آية يقصد بها التهاون بتقوى الله ، بل يُقصد بها الحث على التقوى على قدر المستطاع ، أي : لا تدخر وسعًا في تقوى الله ، ولكن الله لا يكلف الإنسان شيئًا لا يستطيعه . ويُستفاد من قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] إن الإنسان إذا لم يستطع أن يقوم بأمر الله على وجه الكمال ؛ فإنه يأتي منه على ما قدر عليه . ومنه قول النبي ﷺ لعمران بن حصين : « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قَعَّاعًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ » ^(١) فرتب الرسول ﷺ الصلاة بحسب الاستطاعة وبأن يُصلي قائمًا فإن لم يستطع قعَّاعًا فإن لم يستطع فعلى جنب .

وهكذا بقية الأوامر ، ومثله الصَّوم إذا لم يستطع الإنسان أن يصوم في رمضان فإنه يؤخره ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] وفي الحج : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَى سَبِيلٍ ﴾ [آل عمران : ٩٧] فإذا لم تستطع الوصول إلى البيت فلا حج عليك . لكن إن كنت قادرًا بمالك دون بدنك وَجَبَ عليك أن تقيم من يحج ويعتمر عنك ^(٢) ، فالحاصل أن التقوى كغيرها منوطة بالاستطاعة فمن لم يستطع شيئًا من أوامر الله فإنه يغدل إلى ما يستطيع . ومن اضطر إلى شيء من محارم الله حلَّ له ما ينتفع به في دفع الضرورة لقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في تقصير الصلاة (١١١٧) ، وأحمد في مسنده (٤٢٦/٤) .

(٢) وهذا هو قول عامة الفقهاء عدا المالكية الذين لا تجوز عندهم النيابة في الحج ، واختلف الفقهاء في ذلك في حج الفريضة وغيره ، فقال جمهور العلماء : إن النيابة تجوز في حج التطوع والفريضة وهو الظاهر من قول الحنفية والصحيح من قول الشافعية ، أما الحنابلة والشافعية في قول آخر ؛ فإنهم قالوا بأن النيابة إنما تجوز في الفرض دون التطوع (انظر بدائع الصنائع ١٢٥/٢٠) المذهب (١٩٩/١) المحلى (٦٢/٧) الكافي (٥١٥/١) فقه الكتاب والسنة (٨٧٣/٢ - ٨٧٨) .

مَا أَضْطَرَّتُمْ إِلَيْهِ ﴿ [الأنعام: ١١٩] حتى إن الرجل لو اضطر إلى أكل لحم الميتة ، أو أكل لحم الخنزير ، أو أكل لحم الحمار ، أو غيره من المحرمات ؛ فإنه يجوز له أن يأكل منه ما تَدْفَعُ مِنْهُ ضرورته .

وقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧١] . فأمر الله بأمرين : بتقوى الله ، وأن يقول الإنسان قولاً سديداً أي صواباً ، وقد سبق الكلام على التقوى . أمّا القول السديد : فهو القول الصواب وهو يشمل كل قول فيه خير سواء كان من ذكر الله ، أو من طلب العلم ، أو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو من الكلام الحسن الذي يستجلب به الإنسان مودة الناس ومحبتهم أو غير ذلك . يجمعه قول النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَليَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيُضْمِتْ » ^(١) وضد ذلك القول غير السديد وهو القول الذي ليس بصواب ، بل خطأ إما في موضوعه ، وإما في محله .

أما في موضوعه : بأن يكون كلاماً فاحشاً يشتمل على السب والشتم والغيبة والنميمة وما أشبهه . أو في محله : أي أن يكون هذا القول في نفسه هو خير لكن كونه يقال في هذا المكان ليس بخير ، لأن لكل مقام مقالاً ففي هذا الموضوع لا يكون قولاً سديداً ، بل خطأ وإن كان ليس حراماً بذاته . فمثلاً : لو فرض أن شخصاً رأى إنساناً على مُنكر ونهاه عن المنكر ، لكن نهاه في حال لا ينبغي أن يقول له فيها شيئاً أو أغلظ له في القول أو ما أشبهه لغد هذا قولاً غير سديد .

فإذا اتقى الإنسان ربه وقال قولاً سديداً حَصَلَ على فائدتين : ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧١] ، فبال تقوى صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب وبالقول السديد صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب ، وعلم من هذه الآية أن من لم يتق الله ويقل قولاً سديداً فإنه حَرِيٌّ بِأَنْ لَا يُصْلِحَ اللَّهُ لَهُ أَعْمَالَهُ وَلَا يَغْفِرَ لَهُ ذَنْبَهُ فففيه الحث على تقوى الله وبيان فوائدها .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] . يتق الله بأن يفعل ما أمر الله به ويترك ما نهى عنه يجعل له مخرجاً من كل ضيق ، فكلما ضاق عليه الشيء وهو مُتَّقِي اللَّهِ ﷻ ، جَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا سِوَا كَانٍ فِي مَعِيشَةٍ أَوْ فِي أَمْوَالٍ أَوْ فِي أَوْلَادٍ أَوْ فِي مَجْتَمَعٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ . إذا كنت مُتَّقِي اللَّهِ فَيَقْ أَنْ اللَّهُ سَيَجْعَلُ لَكَ مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ وَعَتَمَدَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مِنْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ . فَيَكُونُ .

وما أكثر الذين اتقوا الله فجعل لهم مخرجاً : من ذلك قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فنزلت صخرة على باب الغار فَسَدَتْهُ فَأَرَادُوا أَنْ يُرْجِعُوهَا فَعَجَزُوا فَتَوَسَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِصَالِحٍ عَمَلِهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ فَفَرَّجَ اللَّهُ ﷻ عَنْهُمْ زَيْلَتِ الصَّخْرَةُ .

والأمثلة على هذا كثيرة ! وقوله : ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٣] هذا أيضاً فائدة عظيمة أن الله يَرْزُقُكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ .

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في الرقاق (٦٤٧٥) ، ومسلم في الإيمان (٧٤) ، والترمذي في السنن (١٩٦٧) .

فمثلاً : لو فرضنا أن رجلاً يكتسب المال من طريق محرم كطريق الغش أو الربا وما أشبهه ونصح في هذا وتركه لله ؛ فإن الله سيجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولكن لا تتعجل ولا تظن أن الأمر إذا تأخر فلن يكون ولكن قد يتلي الله العبد فيؤخر عنه الثواب ليختبره هل يرجع إلى الذنب أم لا ؟ فمثلاً إذا كنت تتعامل بالربا ووعظك من يعظك من الناس وتركت ذلك ولكنك بقيت شهراً أو شهرين ما وجدت ربها !

فلا تيأس وتقول أين الرزق من حيث لا أحسب !؟ بل انتظر وثق بوعد الله وصدق به وستجده ولا تتعجل ولهذا جاء في الحديث : « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ - أي إذا دعا - ما لم يعجل ، يقول : دَعَوْتُ ثُمَّ دَعَوْتُ ثُمَّ دَعَوْتُ فلم يُسْتَجَبْ لي » .

اصبر وارك ما حرم الله عليك وانتظر الفرج والرزق من حيث لا تحسب .
وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَقْتُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

هذه ثلاث فوائد عظيمة :

الفائدة الأولى : ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ أي يجعل لكم ما تُفَرِّقُونَ به بين الحق والباطل وبين الضار والنافع وهذا يدخل فيه العلم بحيث يفتح الله على الإنسان من العلوم ما لا يفتَحُها لغيره ، فإن التقوى يَحْصُلُ بها زيادة الهدى وزيادة العلم وزيادة الحفظ ولهذا يذكر عن الشافعي رحمته الله أنه قال :

شَكُوتٌ إِلَى وَكَيْعٍ شَوْءٍ حَفَظِي فَأَوْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَقَالَ أَعْلَمُ بِأَنْ الْعِلْمَ نَوْرٌ وَنَوْرُ اللَّهِ لَا يُوْتَاهُ عَاصِي

ولا شك أن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد معرفة وفرقاً بين الحق والباطل والضرار والنافع ، وكذلك يدخل فيه ما يفتح الله على الإنسان من الفهم ؛ لأن التقوى سبب لقوة الفهم ، وقوة الفهم يَحْصُلُ بها زيادة العلم فإنك ترى الرجلين يحفظان آية من كتاب الله يستطيع أحدهما أن يستخرج منها ثلاثة أحكام ويستطيع الآخر أن يستخرج أكثر من هذا بحسب ما آتاه الله من الفهم .

فالتقوى سبب لزيادة الفهم ويدخل في ذلك أيضاً الفراسة أن الله يعطي المتقي فراسة يميز بها ، حتى بين الناس . فبمجرد ما يرى الإنسان يعرف أنه كاذب أو صادق أو برّ أو فاجر حتى أنه ربما يحكم على الشخص وهو لم يُعَاشِرْه ولم يعرف عنه شيئاً بسبب ما أعطاه الله من الفراسة .

ويدخل في ذلك أيضاً : ما يحصل للمتقين من الكرامات التي لا تحصل لغيرهم ومن ذلك : ما حصل لكثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم يخطب على المنبر في المدينة فسمِعوه يقول في أثناء الخطبة : « يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل » فتعجبوا من يخاطب ، وكيف يقول هذا الكلام في أثناء الخطبة ؟ فإذا الله سبحانه وتعالى قد كشف له عن سرية في العراق كان قائدها سارية بن زئيم ، وكان العدو قد حصرهم فكشف الله لعمر عن هذه السرية كأنما يشاهدها رأي عين فقال لقائدها : « يا

سارية الجبل « أي تحصن بالجبل فسمعه سارية وهو القائد وهو في العراق ثم اعتصم بالجبل ^(١) .
هذه من التقوى ، لأن كرامات الأولياء كلها جزاء لهم على تقواهم لله ﷻ . فلهم أن من آثار
التقوى أن الله يجعل للمتقين فرقا يفرق به بين أشياء كثيرة لا تحصل إلا للمتقي .

الفائدة الثانية : ﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [الأُنفال : ٢٩] وتكفير السيئات يكون بالأعمال
الصالحة ، فإن الأعمال الصالحة تكفر الأعمال السيئة كما قال النبي ﷺ : « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ ،
وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ؛ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا مَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرُ » ^(٢) .

وقال الرسول ﷺ : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما » ^(٣) فالكفارة تكون بالأعمال الصالحة
وهذا يعني أن الإنسان إذا اتقى الله سهل له الأعمال الصالحة التي يُكفر الله بها عنه .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بأن يُيسر لكم للاستغفار والتوبة ؛ فإن هذا من نعمة الله على
العبد أن يُيسره للاستغفار والتوبة .

ومن البلاء للعبد : أن يظن أن ما كان عليه من الذنوب ليس بذنب فيصير عليه والعياذ بالله كما
قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] فكثير من الناس لا يقلع عن الذنب لأنه زين له والعياذ بالله فألفقه وصعب
عليه أن ينتشل نفسه منه ، لكن إذا كان متقيا لله ﷻ سهل الله له الإقلاع عن الذنوب حتى يغفر له ،
وربما يغفر الله له بسبب تقواه فتكون تقواه مكفرة لسيئاته .

كما حصل لأهل بدر ﷺ « فَإِنَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ
لَكُمْ » ^(٤) . فتقع الذنوب منهم مغفورة لما حصل لهم فيها ، أي في الغزوة من الأجر العظيم .
وقوله : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأُنفال : ٢٩] أي صاحب الفضل العظيم الذي لا يُعَدُّله شيء
ولا يوازيه شيء ، فإن كان الله موصوفا بهذه الصفة فاطلب الفضل منه سبحانه وتعالى ، وذلك بتقواه
والرجوع إليه والله أعلم .

* * *

٦٩ - وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ فَلِأَوَّلُ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ ؟
قَالَ : « أَتْقَاهُمْ » . فَقَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ ، قَالَ : « فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ
ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ » قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ ، قَالَ : « فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ خِيَارُهُمْ فِي

(١) انظر تلك القصة في : تهذيب الأسماء واللغات (١٠/٢) ، وأسد الغابة (٦٥/٤) ، وتاريخ الخلفاء (ص : ٤٩) ،
وأخبار عمر ص (٣٥٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤ ، ١٥) ، والترمذي في السنن (٢١٤) ، وأحمد في مسنده (٤٠٠/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٧٣) ، ومسلم في الحج (٤٣٧) ، والنسائي في السنن (١١٢/٥) .

(٤) انظر البخاري في المغازي (٣٩٨٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) ، وأحمد في مسنده (٨٠/١) .

الجاهلية خيائهم في الإسلام إذا فقهوا» (١) متفق عليه . و « فقهوا » بضَمِّ الْقَافِ عَلَى الْمَشْهُورِ ، وَحُكِّي كَسْرُهَا ، أَي : عَلِمُوا أَحْكَامَ الشَّرْعِ .

الشرح

قوله : « من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم » أي أكرم الناس أتقاهم لله ﷻ وهذا الجواب مطابق تمامًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُ ﴾ [الحجرات : ١٣] فالله سبحانه لا ينظر إلى الناس من حيث النسب ، ولا من حيث الحسب ، ولا من حيث المال ، ولا من حيث الجمال وإنما ينظر سبحانه إلى الأعمال . فأكرم الناس عنده أتقاهم إليه ، ولهذا يمد أهل التقوى بما يمدهم به من الكرامات الظاهرة أو الباطنة ؛ لأنهم أكرم خلقه عنده ، ففي هذا حثٌّ على تقوى الله ﷻ وأنه كلما كان الإنسان أتقى لله فهو أكرم عنده ، ولكن الصحابة لا يريدون بهذا السؤال الأكرم عند الله !

« قالوا : لسنّا عن هذا نسألك » ثم ذكر لهم أن أكرم الخلق يوسف ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام كان نبيًا من سلالة الأنبياء فكان من أكرم الخلق .

« قالوا : لسنّا عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألوني ؟ » معادن العرب يعني أصولهم وأنسابهم ! « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » يعني أن أكرم الناس من حيث النسب والمعادن والأصول هم الخيار في الجاهلية لكن بشرط إذا فقهوا .

فمثلاً : بنو هاشم من المعروف هم خيار قريش فيكونون هم خيارهم في الإسلام لكن بشرط أن يفقهوا في دين الله وأن يتعلموا من دين الله ، فإن لم يكونوا فقهاء ؛ فإنهم وإن كانوا من خيار العرب معدناً فإنهم ليسوا أكرم الخلق عند الله وليسوا خيار الخلق ؛ ففي هذا دليل على أن الإنسان يشرف بنسبه لكن بشرط أن يكون له فقه في دينه ولا شك أن النسب له أثر ، ولهذا كان بنو هاشم أطيب الناس وأشرفهم نسباً ومن ثم كان منهم النبي ﷺ الذي هو أشرف الخلق ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ٢٤] فلولا أن هذا البطن من بني آدم أشرف البطون ما كان فيه النبي ﷺ فلا يُعِثُّ الرسول ﷺ إلا في أشرف البطون وأعلى الأنساب ، والشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ : إن أكرم الخلق أتقاهم .

فإذا كنت تريد أن تكون كريماً عند الله وذّاً منزلة عنده فعليك بالتقوى فكلما كان الإنسان لله أتقى كان عنده أكرم . أسأل الله أن يجعلني وإياكم من المُتَّقِينَ .

٧٠ - الثاني : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَيْنِي وَإِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٣) ومسلم في الفضائل (١٦٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣١/٢) .

النساء» (١) رواه مسلم

الشرح

هذا الحديث ساقه المؤلف لما فيه من أمر النبي ﷺ بالتقوى بعد أن ذكر حال الدنيا فقال : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَضِرَةٌ » حُلُوهٌ فِي الْمَذَاقِ خَضِرَةٌ فِي الْمَرَأَى ، وَالشَّيْءُ إِذَا كَانَ خَضِرًا حُلُوهًا فَإِنَّ الْعَيْنَ تَطْلُبُهُ أَوَّلًا ثُمَّ تَطْلُبُهُ النَّفْسُ ثَانِيًا ، وَالشَّيْءُ إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِ طَلَبُ الْعَيْنِ وَطَلَبُ النَّفْسِ ؛ فَإِنَّهُ يُوشِكُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ؛ فَالدُّنْيَا حُلُوهٌ فِي مَذَاقِهَا خَضِرَةٌ فِي مَرَاةَا فَيَغْتَرُّ الْإِنْسَانُ بِهَا وَيَنْهَمِكُ فِيهَا وَيَجْعَلُهَا أَكْبَرَ هَمِّهِ ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَبِينُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُنَا فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، هَلْ تَقُومُونَ بِطَاعَتِهِ وَتَنْهَوْنَ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى وَتَقُومُونَ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَلَا تَغْتَرُّوا بِالدُّنْيَا أَوْ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ !؟

ولهذا قال : « فَاتَّقُوا الدُّنْيَا » أَي : قُومُوا بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَاتْرَكُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ وَلَا تَغْرَبْكُمْ حُلَاوَةُ الدُّنْيَا وَنُضْرَتُهَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَغْرِبَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴾ [لقمان : ٣٣] .
ثم قال : « فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ » اتَّقُوا النِّسَاءَ أَي احْذَرُوهُنَّ ، وَهَذَا يَشْمَلُ الْحَذَرَ مِنَ الْمَرَأَةِ فِي كَيْدِهَا مَعَ زَوْجِهَا ، وَيَشْمَلُ أَيْضًا الْحَذَرَ مِنَ النِّسَاءِ وَفَتْنَتِهِنَّ ، وَلِهَذَا قَالَ : « فَإِنْ أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَيْنِي وَإِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ » .

فَافْتَتَّوْا فِي النِّسَاءِ فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَعْدَاءَنَا وَأَعْدَاءَ دِينِنَا أَعْدَاءَ شَرِيعَةِ اللَّهِ ﷺ يُرْكَزُونَ الْيَوْمَ عَلَى مَسْأَلَةِ النِّسَاءِ وَتَبَرُّجِهِنَّ وَاخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ وَمُشَارَكَتِهِنَّ لِلرِّجَالِ فِي الْأَعْمَالِ حَتَّى يَصْبَحَ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ الْحَمِيرُ لَا يَهْمُهُمْ إِلَّا بَطُونُهُمْ وَفُرُوجُهُمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَتَصْبَحُ النِّسَاءُ كَأَنَّهُنَّ دُمَى أَي صُور لَا يَهْتَمُّ النَّاسُ إِلَّا بِشَكْلِ الْمَرَأَةِ .

كَيْفَ يُزَيِّنُونَهَا ؟ وَكَيْفَ يُجَمِّلُونَهَا ؟ وَكَيْفَ يَأْتُونَ لَهَا بِالْمَجْمَلَاتِ وَالْمُحَسَّنَاتِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّعْرِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْجِلْدِ وَتَنْفِ الشَّعْرِ وَالسَّاقِ وَالذَّرَاعِ وَالْوَجْهِ وَكُلِّ شَيْءٍ حَتَّى يَجْعَلُوا أَكْبَرَ هَمِّ النِّسَاءِ أَنْ تَكُونَ الْمَرَأَةُ كَالصُّورَةِ مِنَ الْبِلَاسْتِيكِ . لَا يَهْمُهَا عِبَادَةُ وَلَا يَهْمُهَا أَوْلَادُ .

ثُمَّ إِنْ أَعْدَاءُنَا أَعْدَاءُ دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ وَأَعْدَاءُ الْحَيَاةِ يُرِيدُونَ أَنْ يُفْجِحُوا الْمَرَأَةَ فِي وُظَائِفِ الرِّجَالِ حَتَّى يُضَيِّقُوا عَلَى الرِّجَالِ الْخَنَاقِ وَيَجْعَلُوا الشَّبَابَ يَتَسَكَّعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ لَيْسَ لَهُمْ شُغْلٌ وَيَحْصُلُ مِنْ فِرَاقِهِمْ هَذَا شَرٌّ كَبِيرٌ وَفِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَنَّ الشَّبَابَ وَالْفِرَاقَ وَالْغِنَى مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ كَمَا قِيلَ :

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفِرَاقَ وَالْغِنَى مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَي مَفْسَدَةٌ

فَهُمْ يَقْحَمُونَ النِّسَاءَ الْآنَ بِالْوُظَائِفِ الرَّجَالِيَةِ ، وَيَدْعُونَ الشَّبَابَ لِيُفْسِدَ الشَّبَابَ وَلِيُفْسِدَ النِّسَاءَ .
أَتَدْرُونَ مَاذَا يَحْدُثُ ؟

ج : يَحْدُثُ مَفْسَدَةُ الْإِخْتِلَاطِ ، وَمَفْسَدَةُ الزَّانِ وَالْفَاحِشَةِ ، سِوَاهُ فِي زِنَى الْعَيْنِ ، أَوْ زِنَى اللِّسَانِ ،

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٦٤/٦) والبيهقي في السنن (٣٦٩/٧) .

أو زنى اليد ، أو زنى الفرج ، كل ذلك محتمل إذا كانت المرأة مع الرجل في الوظيفة .
وما أكثر الفساد في البلاد التي يتوظف الرجال فيها مع النساء . ثم إن المرأة إذا وُظِّفَتْ فإنها سَوَفَ تَتَغَيَّرُ عن نَيْتِها وعن زوجها وتصبح الأسرة مُتَفَكِّكة ، ثم إنها إذا وُظِّفَتْ سوف يحتاج البيت إلى خادم ، وحينئذٍ نَسْتَجْلِبُ نساء العالم من كل مكان وعلى كل دين وعلى كل خلق ولو كان الدِّين على غير دين الإسلام ولو كان الخلق خُلُقًا فاسدًا ^(١) .

نستجلب النساء ليكنَّ خَدَمًا في البيوت ونجعل نساءنا تعمل في محل رجالنا فنعطل رجالنا ونشغل نساءنا . وهذا فيه مفسدة عظيمة وهي تفكك الأسرة ؛ لأن الطفل إذا نشأ وليس أمامه إلا الخادم نَسِيَ أمه ونَسِيَ أباه ، وفقد الطفل تَعَلُّقه به ففسدت البيوت وتشتت الأسر ، وحصل في ذلك من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله .

ولا شك أن أعداءنا وأذئاب أعدائنا - لأنه يُوجد فينا أذئاب لهؤلاء الأعداء - درسوا عندهم وتلطفوا بأفكارهم السيئة ولا أقول : إنهم غسلوا أدمغتهم ، بل أقول : إنهم لَوَثُوا أدمغتهم بهذه الأفكار الخبيثة المعارضة لدين الإسلام .

قد يقولون إنه لا يعارض العقيدة ، بل نقول إنه يهدم العقيدة ليس معارضة العقيدة بأن يقول الإنسان بأن الله له شريك أو أن الله ليس موجودًا وما أشبهه فحسب ؛ بل هذه المعاصي تهدم العقيدة هدمًا ؛ لأن الإنسان يبقى ويكون كأنه ثور أو حمار لا يهتم بالعقيدة ولا بالعبادة ، لأنه متعلق بالدنيا وزخارفها وبالنساء وقد جاء في الحديث الصحيح : « مَا تَرَكَتْ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » ^(٢) .

ولهذا يجب علينا نحن - ونحن أمة مشلِّمة - أن نُعارض هذه الأفكار ، وأن نقف ضدها في كل مكان وفي كل مُناسبة علمًا بأنه يوجد عندنا قوم لا كَثَرَهُمُ اللهُ ولا أَنَا لَهُمْ مَقْصُودُهُمْ يريدون هذا الأمر لهذا البلد المسلم المسالم المُحَافِظ ؛ لأنهم يعلمون أن آخر مَعْقِل للمسلمين هو هذه البلاد التي تشمل مُقدسات المسلمين وقبلة المسلمين ليفسدوها حتى تفسد الأمة الإسلامية كلها .

فكل الأمة الإسلامية ينظرون إلى هذه البلاد ماذا تفعل ، فإذا انهدم الحياء والدين في هذه البلاد فَسَلَامٌ عَلَيْهِمْ وَسَلَامٌ عَلَى الدِّينِ وَالْحَيَاءِ .

لهذا أقول يا إخواني : يجب علينا شبابًا وكهولًا وشيوخًا وعلماء ومتعلمين أن نعارض هذه الأفكار وأن نقيم الناس كلهم ضدها حتى لا تسري فينا سَرَيَانُ النَّارِ في الهشيم فتحرقنا ، نسأل الله أن يجعل كيد هؤلاء الذين يُدَبِّرُونَ مثل هذه الأمور في تُحُورِهِمْ ، وأن لا يبلغهم مَنَالُهُمْ ، وأن يَكْبِتَهُمْ بِرِجَالِ صَالِحِينَ حتى تخمد فتنتهم إنه جواد كريم .

(١) هذا هو رأي الشارح .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧ ، ٩٨) والترمذي في السنن (٢٧٨٠) وأحمد في مسنده (٢٠٠/٥) .

٧١ - الثَّالِثُ : عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو الله صلى الله عليه وسلم بهذا الدعاء : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى » .

« الهدى » هنا بمعنى العلم والنبي صلى الله عليه وسلم محتاج إلى العلم كغيره من الناس ، لأنَّ الله سبحانه قال له : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] . وقال الله له : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] . فهو عليه الصلاة والسلام مُحتَاج إلى العلم فيسأل الله الهدى .

والهُدَى إذا ذكر وحده يشمل العلم والتوفيق للحق ، أمَّا إذا قُرِنَ معه ما يدلُّ على التوفيق للحق فإنه يُفَسَّرُ بمعنى العلم ؛ لأنَّ الأصل في اللغة العربية أنَّ العطف يقتضي المغايرة فيكون الهدى له مَعْنَى وَمَا بَعْدَهُ بِمَا يدل على التوفيق له معنى آخر .

وأما قوله : « والتقى » فالمراد بالتقوى : تقوى الله صلى الله عليه وسلم فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه التقى أي : أن يُوفِّقَهُ إلى تقوى الله ؛ لأنَّ الله هو الذي بيده مَقَالِيدُ كل شيء فإذا وُكِّلَ الْعَبْدُ إلى نفسه ضَاعَ ولم يحصل على شيء ، فإذا وَفَّقَهُ اللهُ صلى الله عليه وسلم ورزقه التقى صار مستقيماً على تقوى الله .

وأما قوله : « العَفَافَ » فالمراد به أن يُحَرِّمَ اللهُ عليه بالعفاف والعفة من كل ما حرم الله عليه فيكون عطفه على التقوى من باب عطف الخاص على العام إن خصصنا الْعَفَافَ بِالْعَفَافِ عن شيء مُعَيَّنٍ وإلا فهو من باب عطف المُتَرَادِفِينَ ؛ فالعفاف أن يعف عن كل ما حَرَّمَ اللهُ عليه فيما يتعلق بجميع المحارم التي حَرَّمَها اللهُ صلى الله عليه وسلم . وأما « الْغِنَى » فالمراد به الغنى عما سوى الله أي : الغنى عن الخلق بحيث لا يفتقر الإنسان إلى أحد سوى ربه صلى الله عليه وسلم .

والإنسان إذا وَفَّقَهُ اللهُ ومنَّ عليه بالاستغناء عن الخلق صار عزيز النفس غير ذليل ، لأنَّ الحاجة إلى الخلق ذلٌّ وَمَهَانَةٌ والحاجة إلى الله عِزٌّ وعبادةٌ فهو يسأل عليه الصَّلَاة والسلام الغنى .

فينبغي لنا أن نقتدي بالرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الدعاء وأن نسأل الله الهدى والتقى والعفاف والغنى . وفي هذا دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا وأن الذي يملك ذلك هو الله .

وفيه دليل : على إبطال من تعلقوا بالأولياء والصالحين في جَلْبِ المنافع ودفع المَضَارِّ كما يفعل بعض الجهال الذين يدعون الرسول عليه الصَّلَاة والسلام إذا كانوا عند قبره ، أو يدعون من يزعمونهم أولياء من دون الله ، فإن هؤلاء ضَالُّون في دينهم سُفَهَاء في عقولهم ، لأن هؤلاء المدعويين هم بأنفسهم لا يملكون

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٢) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٢) والترمذي في الدعوات (٣٤٨٩) .

لأنفسهم شيئاً قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : ٥٠] . وقال له : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وقال له : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الحج : ٢٢، ٢٣] . فالإنسان يجب أن يعلم أنَّ البشر مهما أوتوا من الواجهة عند الله ﷻ ومن المنزلة والمربة عند الله ؛ فإنهم ليسوا بمستحقين أن يدعوا من دون الله ، بل إنهم يتبرأون تبرؤاً تاماً ممن يدعونهم من دون الله ﷻ . قال عيسى عليه الصلاة والسلام لما قال له الله : ﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] ليس من حق عيسى ولا غيره أن يقول للناس اتخذوني إلهاً من دون الله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ﴿ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ١١٦، ١١٧] .

فالحاصل : أن ما نسمع عن بعض جهال المسلمين في بعض الأقطار الإسلامية الذين يأتون إلى قبور من يزعمونهم أولياء فيدعون هؤلاء الأولياء ؛ فإن هذا العمل سفه في العقل وضلال في الدين . وهؤلاء لن ينفعوا أحداً أبداً ؛ فهم جثث هامدة ، والله الموفق .

٧٢ - الرابع : عَنْ أَبِي طَرِيفٍ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَنَّفَى لِلَّهِ مِنْهَا فَلْيَتَأْتِ التَّقْوَى » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

اليمين هي الحليف بالله ﷻ أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، ولا يجوز الحلف بغير الله : لا بالنبي ﷺ ولا بجبريل ولا بأي أحد من الخلق ؛ لقول النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ خَالِيفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيُضْمِتْ » ^(٢) . وقال : « مَنْ حَلَفَ بغيرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » ^(٣) .

فمن حلف بغير الله فهو آثم ولا يمين عليه لأنها يمين غير منعقدة لقول النبي ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » ^(٤) .

ولا ينبغي للإنسان أن يُكْثِرَ من اليمين فإن هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] على رأي بعض المفسرين قالوا : واحفظوا أيمانكم ^(٥) : أي لا تكثروا الحلف بالله وإذا حلفت

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (١٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٥٨/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٣٢٥١) ، ومسلم في الأيمان (٣/٣) ، وأحمد في مسنده (٥٢٠/٢) ، والدارمي في السنن (١٨٥/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٢٥١) ، والترمذي في السنن (١٥٣٥) ، وأحمد في مسنده (٨٧/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٢٠) ، ومسلم في الأفضية (١٨) ، وأحمد في مسنده (١٤٦/٦) .

(٥) ذكر هذا الرأي ابن الجوزي ، واستدل بقول كثير عزة :

فينبغي أن تُقيد اليمين بالمشيئة فتقول : « والله إن شاء الله » لتستفيد بذلك فائدتين عظيمتين :
الفائدة الأولى : أن يتيسر لك ما حَلَفْتَ عليه .

والفائدة الثانية : أنك لو حثت فلا كفارة عليك .

واليمين التي توجب الكفارة هي اليمين على شيء مستقبل ، أمّا اليمين على شيء ماضٍ فلا كفارة فيها ، ولكن إن كان الحالف كاذباً فهو آثم ، وإن كان صادقاً فلا شيء عليه . ومثاله لو قال قائل :
والله ما فعلت كذا ؛ فهنا ليس عليه كفارة صدق أو كذب ، لكن إن كان صادقاً أنه لم يفعله فهو
سالم من الإثم ، وإن كان كاذباً أنه قد فعله فهو آثم .

واليمين التي فيها الكفارة : هي اليمين على شيء مُستقبل فإذا حلفت على شيء مستقبل فقلت :
والله لا أفعل كذا فهنا نقول : إن فعلته فعليك الكفارة ، وإن لم تفعله فلا كفارة عليك ، فهذه يمين
منعقدة ، ولكن هل الأفضل أن أفعل ما حلفت على تركه أو الأفضل أن لا أفعل ؟

في هذا الحديث بين النبي عليه الصلاة والسلام أنك إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها أتقى لله
منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو أتقى .

فإذا قال قائل : والله لا أكلم فلاناً وهو مسلم ؛ فإن الأتقى لله أن تكلمه ؛ لأن هجر المسلم حرام .
فكلمه وكفر عن يمينك ولو قلت : والله لا أزور قريبي ، فهنا نقول : زيارة القريب صلة رحم
وصلة الرحم واجبة ، فصل قريك وكفر عن يمينك ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « فرأى
غيرها خيراً منها فليُكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير » وعلى هذا فقس .

الخلاصة : أن نقول : اليمين على شيء ماضٍ لا يبحث فيها عن الكفارة ؛ لأنه ليس فيها الكفارة ،
لكن إما أن يكون الحالف سالماً أو يكون آثماً .

اليمين على المستقبل هي التي فيها الكفارة ، فإذا حلف الإنسان على شيء مستقبل وخالف ما
حَلَفَ عَلَيْهِ ؛ وجبت عليه الكفارة ، إلا أن يقرن يمينه بمشيئة الله فيقول : إن شاء الله ؛ فهذا لا كفارة
عليه ولو خالف . والله الموفق .

* * *

٧٣ - الخامس : عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ
يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ ، وَصَلُّوا حَمْسَكُمْ ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وَأَدُّوا زَكَاةَ
أَمْوَالِكُمْ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَاءَكُمْ ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ » ^(١) رواه الترمذي ، في آخر كتاب الصلاة
وقال : حديث حسن صحيح .

= (انظر زاد المسير ٤١٦/٢) .

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة (٦١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٥١/٥) ، والبخاري في شرح السنة (٢٣/١) .

الشرح

كانت خُطَب الرسول عليه الصَّلَاة والسلام على قسمين : خطب راتبة ، وخطب عارضة .
فأما الراتبة : فهي خطبة في الجُمُع والأعياد ؛ فإنه ﷺ كان يخطب الناس في كل جمعة ، وفي كل عيد ،
واختلف العلماء - رحمهم الله - في خطبة صلاة الكسوف هل هي راتبة أو عارضة ، وسبب اختلافهم أن
الكسوف لم يقع في عهد الرسول ﷺ إلا مرة واحدة ، ولما صلى قام فخطب الناس عليه الصلاة والسلام .
فذهب بعض العلماء إلى - أنها من الخطب الراتبة وقال : إن الأصل أن ما شرَّعه النبي ﷺ فهو ثابت
مستقر ولم يقع الكسوف مرة أخرى ، فترك النبي ﷺ الخطبة حتى نقول : إنها من الخطب العارضة .
وقال بعض العلماء : بل هي من الخطب العارضة التي إن كان لها ما يدعو إليها خطب وإلا فلا ،
ولكن الأقرب أنها من الخطب الراتبة ، وأنه يسن للإنسان إذا صلى صلاة الكسوف أن يقوم فيخطب
الناس ويذكرهم ويخوفهم كما فعل النبي ﷺ .

أما الخطب العارضة : فهي التي يخطبها عند الحاجة إليها مثل خطبته ﷺ حينما اشترط أهل بريدة
وهي جارية اشترتها عائشة رضي الله عنها فاشترط أهلها أن يكون الولاء لهم ولكن عائشة رضي الله عنها لم تقبل
بذلك فأخبرت النبي ﷺ فقال : « خذوها واشترطي لهم الولاء » ثم قام فخطب الناس وأخبرهم أن
الولاء لمن أعتق (١) .

وكذلك خطبته حينما شفع أسامة بن زيد رضي الله عنه في المرأة المخزومية التي كانت تستعير المتاع فتجده
فأمر النبي ﷺ أن تُقَطع يدها ، فأهم قريشاً شأنها ، فطلبوا من يشفع لها إلى رسول الله ﷺ ، فطلبوا
من أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يشفع فشفع ، ولكن النبي ﷺ قال له : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ »
ثم قام : « فخطب الناس وأخبرهم بأن الذي أهلك من كان قبلنا أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف
تركوه ، وإذا سرق فيهم الوضع أقاموا عليه الحد » (٢) .

وفي حجة الوداع خطب النبي ﷺ يوم عرفة وخطب يوم النحر ووعظ الناس وذكرهم ، وهذه
خطبة من الخطب الرواتب التي يُسن لقائد الحجيج أن يخطب الناس كما خطبهم النبي ﷺ .
وكان من جملة ما ذكر في خطبته في حجة الوداع أنه قال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » وهذه
كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ [النساء : ١] فأمر الرسول ﷺ الناس جميعاً أن يتقوا ربهم
الذي خلقهم وأمدهم بنعمه وأعد لهم لقبول رسالاته فأمرهم أن يتقوا الله .

وقوله : « وصلوا خمسكم » أي صلُّوا الصلوات الخمس التي فرضها الله ﷻ على رسوله ﷺ .

وقوله : « وصوموا شهركم » أي شهر رمضان .

(١) أخرجه البخاري في المكاثيب (٢٥٦٥) ، ومسلم في العتق (١٥٠٤) ، وقوله « الولاء » أي :

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥) ، ومسلم في الحدود (١٦٨٨) ، وأبو داود في السنن (٤٣٧٣)

والترمذي في السنن (١٤٣٠) .

ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ [الأنفال: ٢] وَالآيَاتُ فِي فَضْلِ التَّوَكُّلِ كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ .

الشرح

جمع المؤلف بين اليقين والتوكل ؛ لأن التوكل ثمرة من ثمرات اليقين ؛ فاليقين : هو قوة الإيمان والثبات حتى كأن الإنسان يرى بعينه ما أخبر الله به ورسوله من شِدَّةِ يَقِينِهِ ؛ فاليقين هو ثَبَات وإيمان ليس معه شك بوجه من الوجوه ، فيرى الغائب الذي أخبر الله عنه ورسوله كأنه حاضر بين يديه ، وهو أعلى درجات الإيمان !

هذا اليقين يثمر ثمرات جليلة ، منها : التوكل على الله ﷻ ، والتوكل على الله : اعتماد الإنسان على ربه ﷻ في ظاهره وباطنه في جلب المنافع ودفع المضار : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

ففي هاتين المرتبتين : اليقين والتوكل يحصل للإنسان مقصوده في الدنيا والآخرة ، ويستريح ويعيش مطمئنًا سعيدًا ؛ لأنه موقن بكل ما أخبر الله به ورسوله ومتوكل على الله ﷻ .

ثم ذكر المؤلف آيات في هذا الباب منها قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

الأحزاب : طوائف من قبائل متعددة تألبوا على رسول الله ﷺ واجتمعوا على حربه ، وتجمع نحو عشرة آلاف مقاتل من قريش وغيرهم وحاصروا المدينة ليقتضوا على النبي ﷺ ، وحصل في هذه الغزوة أزمة عظيمة على أصحاب الرسول ﷺ ، قال الله تبارك وتعالى في وصفها : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْبَصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ^(١) [الأحزاب : ١٠] الظنون البعيدة ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ^(٢) [الأحزاب : ١١] .

فانقسم الناس في هذه الأزمة العصيبة العظيمة إلى قسمين يَبْتَهِمَا الله ﷻ في هذه الآيات .
القسم الأول : قال الله عنهم : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب : ١٢] المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر ، والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين وعندهم نقص في يقينهم قالوا : ما وعدنا الله ﷻ ورسوله ﷺ إِلَّا غُرُورًا .

قالوا : كيف يقول محمد أنه سيفتح كسرى وقيصر وصنعاء وهو الآن محاصر من هؤلاء الناس ^(٣) .
القسم الثاني : المؤمنون قال الله عنهم : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] . انظر إلى الفرق بين الطائفتين ! هؤلاء لما رأوا الأحزاب ورأوا هذه

(١) قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ أي : زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر وهذا من شدة الرعب .
(٢) قوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ أي : اضطربوا من شدة الفزع .

(٣) انظر مسلم في الفتن (٧٥) والطبري في تفسيره (١٦٠/٢١ ، ١٦١) .

الشدة ؛ علموا أَنَّهُ سيعقبها نصر. وفرج ، وقالوا : هذا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ، فسيكون نصر وستفتح بمالك قيصر وكشوى واليمن ، وهكذا كان والله الحمد .

والشاهد قوله : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] وهذا غاية اليقين أَن يكون الإنسان عند الشدائد وعند الكرب ثابتاً مؤمناً موقناً عكس من كان توكله ويقينه ضعيفاً ؛ فإنه عند المصائب والكرب ربما ينقلب على وجهه ، كما قال الله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ [الحج : ١١] أي على طرف ﴿ فَإِنِ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنِ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْأُمَيْنُ ﴾ [الحج : ١١] . كثير من الناس في عافية ، فهو مطمئن ولكن إذا ابتلي - والعياذ بالله - انقلب على وجهه ؛ فرمى يصِل إلى حد الردة والكفر ويعترض على الله بالقضاء والقدر ويكره تقدير الله ، وبالتالي يكره الله - والعياذ بالله - لأنه كان في الأول لم يصبه أذى ولا فتنة ، ولكنه في الثاني أصابته الفتنة فانقلب على وجهه .

وفي هذه الآيات وأشباهها دليل على أَنه ينبغي للإنسان أَن يخاف ويوجل ويخشى من زيف القلب ويسأل الله دائماً الثبات ؛ فإنه ما من قلب من قلوب بني آدم إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ؛ إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاعه .

فنسأل الله مُقلب القلوب أَن يُثَبِّت قلوبنا على طاعته ، وأن يرزقنا الاستقامة على دينه ، والثبات عليه .
الآية الثانية : قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

هذه الآية نزلت في الصحابة ؓ حيث حَصَلَ عليهم ما حصل في غزوة أحد مما أصابهم من القرح والجروح والشهداء فقيل لهم : إن أبا سفيان كان قد عزم على الكثرة عليكم وجمع لكم الناس فتدبهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى ملاقاته ومقابلته فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح وأصيبوا بهذه النكبة العظيمة فقتل منهم سبعون رجلاً استشهدوا في سبيل الله وحصل للنبي ﷺ ولغيره من صحابته ؓ ما حصل ومع هذا استجابوا لله والرسول (١) .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا آمَنَهُمْ وَأَقْفَوْا أَعْرَ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٣، ١٧٢] يعني أَن أبا سفيان ومن معه من بقي من كبراء قريش جمعوا للرسول ﷺ يريدون استنصاله ولكن يأبى الله إلا أَن يتم نوره . قيل للصحابة : اخشوا هؤلاء ، ولكنهم ازدادوا إيماناً ؛ لأن المؤمن كلما اشتدت به الأزمات ازداد إيماناً بالله ؛ لأنه يؤمن بأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً . لهذا زادهم إيماناً هذا القول وقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] حَسْبُنَا أي : كافينا في مهماتنا وملامتنا ﴿ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ إنه نعم

(١) راجع ذلك في : تفسير الدر المنثور (١٠٢/٢) ، وتفسير الطبري (٢٣٠/٤ - ٢٣٨) ، وزاد المسير (١/٤ - ٥ - ٥٠٦) ، والسيرة النبوية لابن هشام (١٠٢/٣) .

الكافي جل وعلا فإنه نعم المولى ونعم النصير . ولكنه يكون ناصراً لمن انتصر به واستنصر به ؛ فإنه ﷺ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين فإذا اتجه الإنسان إليه في أموره أعانه وساعده وتولاه ، ولكن البلاء من بني آدم حيث يكون الإعراض كثيراً في الإنسان ويعتمد على الأمور المادية دون الأمور المعنوية . قال تعالى : ﴿ فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ وَقَضِىَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِمَا كَانُوا يُعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٧٤] ذهبوا لكنهم لم يجدوا كيلاً وأبو سفيان ومن معه ولوا على أديبارهم ولم يذكروا على الرسول ﷺ . فكتب للصحابه غزوة من غير قتال . قال الله : ﴿ فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ وَقَضِىَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِمَا كَانُوا يُعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٧٤] . ثم قال : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُونَهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] . أي يخوفكم أنتم أوليائه ، أي : يلقي في قلوبكم الخوف من أوليائه ﴿ فَلَا تَخَافُونَهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . فالشيطان يأتي إلى المؤمن يقول : احذر أن تتكلم في فلان ؛ لأنه ربما يشجنك وربما يفعل كذا وكذا فيخوفك ، ولكن المؤمن لا يمكن أن يخاف أولياء الشيطان ؛ لأن الله ﷻ قال : ﴿ فَتَتَلَوْنَا أَوْلِيَاءَهُ الشَّيْطَانِ إِذْ كَيْدُ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] بالنسبة للحق .

فعلى الإنسان أن لا يخاف في الله لومة لائم ، وأن لا يخاف إلا الله . ولكن يجب أن يكون سيره على هدى من الله ﷻ ! فإذا كان سيره على هدى من الله فلا يخاف أحداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ هَلَكَ أَمْرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الفرقان : ٥٨] وهو الله ﷻ . اعتمد عليه في أمورك كلها دقيقتها وجليلها ؛ لأن الله إذا لم ييسر لك الأمر لم ييسر لك ، ومن أسباب تيسيره : أن تتوكل عليه لا سيما إذا دهمت الأمور وكثرت الهموم وازدادت الخطوب ؛ فإنه لا ملجأ لك إلا الله ﷻ ؛ فعليك بالتوكل عليه والاعتماد عليه حتى يكفيك .

وفي قوله : ﴿ الَّذِينَ لَا يَمُوتُونَ ﴾ [الفرقان : ٥٨] دليل على امتناع الموت على الرب ﷻ .

قال الله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَى قَلْبٍ قَلْبٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَيْبٌ ذُو الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] فالله ﷻ لا يموت لكمال حياته فإنه دائماً هو الأول الذي ليس قبله شيء ، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء . ثم إنه ﷻ لا ينام أيضاً لكمال حياته وقواميته قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (١) [البقرة : ٢٥٥] .

أما الإنسان والجن ؛ فإنهم ينامون ويموتون . أما الرب ﷻ : فإنه لا ينام لأنه غني عن النوم ، أما البشر فإنهم محتاجون له ؛ لأن الأبدان تعب وتسأم وتمل ، والنوم راحة عما مضى من التعب وتجديد نشاط عما يستقبل من العمل .

وقال الله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] أي : كافيه . فإذا توكلت على الله كفاك كل شيء ، وإذا توكلت على غير الله وكلك الله عليه ولكنك ، تنخذل ولا تتحقق لك أمورك .

(١) قوله تعالى : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أي : الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم ، والمعطي لهم ما به قوامهم ، وقوله سبحانه : ﴿ سِنَّةٌ ﴾ أي نعاس ؛ وهو الفتر أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك .

وقال الله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ ﴾ [الأنفال: ٢-٤] .

قوله : ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ إذا ذكرت عظمته وجلاله وسلطانه خافت القلوب ووجلّت وتأثر الإنسان حتى إن بعض السلف إذا تليت عليه آيات الخوف يمرض أيامًا حتى يعودده الناس .

أما نحن فقلوبنا قاسية - نسأل الله أن يلينها - فإنه تلى علينا آيات الخوف فلا تتأثر بذلك ولا نتعظ إلا من رحم الله . لكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه وخاف .

كان بعض السلف إذا قيل له : اتق الله ارتعد حتى يسقط ما في يده .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ إذا سمعوا كلام الله ﷻ ازدادوا إيمانًا من وجهين : الوجه الأول : التصديق بما أخبر الله به من أمور الغيب الماضية والمستقبلية .

الوجه الثاني : القبول والإذعان لأحكام الله ، فيمتثلون ما أمر الله به فيزداد بذلك إيمانهم ، وينتهون عما نهى الله عنه تقريبًا إليه وخوفًا منه فيزداد إيمانهم ، فهم إذا تليت عليهم آياته ازدادوا إيمانًا من هذين الوجهين .

وهكذا إذا رأيت من نفسك أنك كلما تلوت القرآن ازدادت إيمانًا فإن هذا من علامات التوفيق . أما إذا كنت تقرأ القرآن ولا تتأثر به ؛ فعليك بمداواة نفسك ، لا أقول تذهب إلى المستشفى لتأخذ جرعة من حبوب أو مياه أو غيرها، ولكن عليك بمداواة القلب ؛ فإن القلب إذا لم يتففع بالقرآن ولم يتعظ به فإنه قلب قاسٍ مريض نسأل الله العافية .

فأنت طيب نفسك لا تذهب إلى الناس . اقرأ القرآن فإن رأيت أنك تتأثر به إيمانًا وتصديقًا وامتنانًا فهنيئًا لك وأنت مؤمن ، وإلا فعليك بالدواء من قبل أن يأتيك موت لا حياة بعده وهو موت القلب . أما موت الجسد فبعده حياة وبعده بعث وجزاء وحساب .

وقوله : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ على ربهم فقط يتوكلون ! أي يفوضون أمورهم كلها إلى مالِكهم ومدبرهم خاصة لا إلى أحد سواه كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله والجملة معطوفة على الصلة : إشارة إلى الاختصاص والحصر وأنهم لا يتوكلون إلا على الله ﷻ ؛ لأن غير الله إذا توكلت عليه فإنما توكلت على شخص مثلك ولا يحرص على منفعتك كما تحرص على منفعة نفسك . ولكن اعتمد على الله ﷻ في أمور دينك ودنياك .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ؛ ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ يأتون بها مستقيمة بواجباتها وشروطها وأركانها ، ويكملونها بمكملاتها ، ومن ذلك : أن يصلوها في أوقاتها ، ومن ذلك : أن يصلوها مع المسلمين في مساجدهم ؛ لأن صلاة الجماعة كان الناس لا يتخلفون عنها إلا منافق أو معذور ! قال ابن مسعود رضي الله عنه : « لَقَدْ رَأَيْتُنَا - يَعْنِي مع الرسول عليه الصلاة والسلام - وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ أَوْ مَرِيضٌ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي

الَصَّف» (١) لا يَنْتَهِيهِمْ عَنِ الْحُضُورِ إِلَى الْمَسَاجِدِ حَتَّى الْمَرَضُ .

أما كثير من الناس اليوم ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فَتَرَاهُمْ يَتَكَاسِلُونَ وَيَتَأَخَّرُونَ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ . ولهذا لو قارنت بين الصَّلَواتِ النَّهَارِيَّةِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ لَرَأَيْتَ فَرْقًا بَيِّنًا لِأَنَّ النَّاسَ يُلْحِقُهُمُ الْكَسَلُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنْ نَوْمٍ وَلَا يَهْتَمُّونَ بِهَا كَثِيرًا .

﴿ وَمِمَّا زَرَعْتَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ : أَيِ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ وَحَسَبِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَفِي الْمَحَلِّ الْمُنَاسِبِ .
﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ حَقًّا : تَوْكِيدٌ لِلْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا أَيِ أَحَقُّ ذَلِكَ حَقًّا . ﴿ لَمْ نَرَجِعْكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴾ نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ :

٧٤ - فَأَلَا أُولُ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « غُرِضْتُ عَلَى الْأُمِّ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ؛ إِذْ رَفَعَ لِي سَوَادَ عَظِيمٍ فَطَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمْنِي ، فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ ، فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا سَوَادَ عَظِيمٍ ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخِرِ ، فَإِذَا سَوَادَ عَظِيمٍ ، فَقِيلَ لِي : هَذِهِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا - وَذَكَرُوا أَشْيَاءً - فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « مَا الَّذِي تَحْضَرُونَ فِيهِ ؟ » فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : « هُمُ الَّذِينَ لَا يَزُقُونَ ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ ، وَلَا يَطْطَرُّونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصِنٍ فَقَالَ : اذْعُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ : « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرٌ فَقَالَ : اذْعُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ » (٢) متفقٌ عليه .

« الرَّهِيْطُ » بِضَمِّ الرَّاءِ : تَضْغِيرُ رَهِيْطٍ ، وَهُمْ دُونَ عَشْرَةِ أَنْفُسٍ . « وَالْأَفْقُ » : النَّاحِيَةُ وَالْجَانِبُ .
« وَعُكَّاشَةُ » بِضَمِّ الْعَيْنِ وَتَشْدِيدِ الْكَافِ وَتَخْفِيفِهَا ، وَالتَّشْدِيدُ أَفْصَحُ .

الشرح

بعد ما ساق الآيات ذكر هذا الحديث العظيم الذي أخبر فيه النبي ﷺ أن الأُم غُرِضَتْ عَلَيْهِ ؛ أَيِ أَرِي الأُم عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَأَنْبِيََاءَهُمْ .

يقول : « فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ » : أَيِ مَعَهُ الرَّهْطُ الْقَلِيلُ الَّذِي مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ .
« وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ » أَيِ أَنَّ الْأَنْبِيََاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٦٥٤) باختلاف في اللفظ ، وأبو داود في الصلاة (٤٦) ، وابن ماجه في المساجد (١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤١) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٤) ، والإمام أحمد بنحوه (٢٧١/١) .

ليسوا كلهم قد أطاعهم قومهم بل بعضهم لم يطعه أحد من قومهم ، وبعضهم أطاعه الرهط وبعضهم أطاعه الرجل والرجلان وانظر أن نوحاً - عليه الصلاة والسلام - مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يذكرهم بالله ويدعوهم إلى الله .

قال الله ﴿ وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] كل هذه المدة ولم يلق منهم قبولاً ولا سَليم من شرهم . قال نوح : ﴿ وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصِيعَةً فِي مَادَانِهِمْ وَاسْتَفْسَحُوا يَتَابِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ ^(١) [نوح: ٧] وكانوا يمرون به ويسخرون منه .

يقول : « رُفِعَ لي سَوَادٌ » : أي بشر كثير فيهم جهمة من كثرتهم « فظننت أنهم أمتي فقيل : هذا موسى وقومه » لأن موسى من أكثر الأنبياء أتباعاً ، بعث في بني إسرائيل وأنزل الله عليه التوراة التي هي أم الكتب الإسرائيلية .

قال : « ثم قيل لي : انظر ! فنظرت إلى الأفق فإذا سَوَادٌ عظيم - وفي لفظ : سد الأفق - فقيل : انظر الأفق الثاني ! فنظرت إليه فإذا سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك » فإن الرسول ﷺ أكثر الأنبياء تابعاً ؛ لأنه منذ بعث إلى يوم القيامة والناس يتبعونه - صلوات الله وسلامه عليه - فكان أكثر الأنبياء تابعاً قد ملأ أتباعه ما بين الأفقين .

« ومعهم سبعمائة ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » : أي مع هذه الأمة سبعون ألفاً يدخلون الجنة لا يحاسبون ولا يعذبون من الموقف إلى الجنة بدون حساب ولا عذاب ! اللهم اجعلنا منهم .

وقد ورد أن مع كل واحد من السبعين الألف سبعين ألفاً أيضاً . إذا ضربنا سبعين ألفاً في سبعين ألفاً ($70.000 \times 70.000 = 4.900.000.000$) هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

« ثم نهض فدخل منزله فحاض الناس في أولئك : قال بعضهم : لعلمهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال آخرون : لعلمهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً - وذكروا أشياء » وكل أتى بما يظن أنه الصواب ، فخرج عليهم النبي ﷺ فسألهم عما يقولون فيه فأخبروه فقال ﷺ : « هم الذين لا يرقون ولا يشترقون ولا يكتنون ولا يتطرون وعلى ربهم يتوكلون » هذا لفظ مسلم وفيه : « لا يرقون » .

والمؤلف رحمه الله قال : إنه متفق عليه ، وكان ينبغي أن يبين أن هذا اللفظ لفظ مسلم فقط دون رواية البخاري وذلك أن قوله : « لا يرقون » كلمة غير صحيحة ولا تصح عن النبي عليه الصلاة والسلام لأن معنى « لا يرقون » : أي لا يقرأون على المرضى وهذا باطل فإن الرسول ﷺ كان يرقى المرضى . وأيضاً القراءة على المرضى إحسان ، فكيف يكون انتفاؤها سبباً لدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فالهم أن هذه اللفظة لفظة شاذة وخطأ لا يجوز اعتمادها والصواب : « هم الذين لا يشترقون » أي : لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليه إذا أصابهم شيء . وقوله : « ولا يكتنون » أي : لا يطلبون من أحد أن يكرههم إذا مرضوا .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْسَحُوا يَتَابِهِمْ ﴾ أي : بالغوا في التغطي بشياهم حتى لا يروه ، فيدعوهم إلى الله .

وقوله : « ولا يَتَطَيَّرُونَ » أي : لا يتشاءمون . « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أي : يعتمدون على الله وحده . فهذه أربع صفات والشاهد قوله : « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فلا يسترقون أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم لأنهم معتمدون على الله ، ولأن الطلب فيه شيء من الذل ، لأنه سؤال الغير !
 وربما تحرجه ولا يريد أن يقرأ ، وربما إذا قرأ عليك لا يبرأ المرض ففتنهم وما أشبه ذلك . وقوله : « ولا يَكْتُمُونَ » : لأن الكي عذاب بالنار لا يلجأ إليه إلا عند الحاجة .

وقوله : « ولا يَتَطَيَّرُونَ » أي : لا يتشاءمون لا بمزني ولا بمسموع ولا بمشوم ولا بمجذوم . وقد كان العرب في الجاهلية يتطيرون فإذا طار الطير وذهب نحو اليسار تشاءموا وإذا رجع تشاءموا ، وإذا تقدم نحو الأمام صار لهم نظر آخر وكذلك نحو اليمين وهكذا .
 والطيرة محرمة لا يجوز لأحد أن يتطير لا بطيور ولا بأيام ولا بشهور ولا بغيرها .

وتطير العرب فيما سبق بشهر شوال إذا تزوج الإنسان فيه ويقولون : إن الإنسان إذا تزوج في شهر شوال لم يوفق . فكانت عائشة رضي الله عنها تقول : سبحان الله ! إن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها في شوال ودخل بها في شوال وكانت أحب نسائه إليه ^(١) ! كيف يقال - إن الذي يتزوج في شوال لا يوفق .

وكانوا يتشاءمون بيوم الأربعاء ! يوم الأربعاء يوم كأيام الأسبوع ليس فيه تشاؤم . وكان بعضهم يتشاءم بالوجه إذا رأى وجهها لا يعجبه حتى إن بعضهم إذا فتح دكانه وكان أول من يأتيه رجل أعور أو أعمى غلق دكانه وقال : اليوم لا رزق فيه .

والتشاؤم كما أنه شرك أصغر فهو حسرة على الإنسان ، فيتألم من كل شيء يراه لكن لو اعتمد على الله وترك هذه الخرافات لسلم ولصار عيشه صافياً سعيداً .

أما قوله : « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فمعناه أنهم يعتمدون على الله في كل شيء لا يعتمدون على غيره لأنه قال في كتابه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] ومن كان الله حسبه فقد كُفِيَ كُلُّ شَيْءٍ .

هذا الحديث العظيم فيه صفات من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب .

فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : يا رسول الله « ادع الله أن يجعلني منهم » .
 ما شاء الله بادر إلى الخير وسبق إليه ، قال : « أنت منهم » ولهذا نحن نشهد الآن بأن عكاشة بن محصن رضي الله عنه يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال : أنت منهم .
 « فقام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ! قال : سبقتك بها عكاشة » فرده النبي عليه الصلاة والسلام لكنه رد لطيف .

(١) انظر الحديث في : مسلم في النكاح (٧٣) ، وأحمد في مسنده (٥٤/٦) ، الدارمي في النكاح (٢٢٠٧) وابن ماجه في النكاح (١٩٩٠) .

لم يقل : لست منهم ، بل قال : سبقك بها عكاشة ، واختلف العلماء - لماذا قال له : سبقك بها عكاشة ؟ فقيل : لأنه كان يعلم بأن هذا الذي قال : ادع الله أن يجعلني منهم قد علم الرسول بأنه منافق والمنافق لا يدخل الجنة فضلاً عن كونه بغير حساب ولا عذاب .

وقال بعض العلماء : بل قال ذلك من أجل أن لا يفتح الباب فيقوم من لا يستحق أن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب .

وعلى كل حال فنحن لا نعلم علماً يقينياً بأن الرسول ﷺ لم يدْعُ الله له إلا لسبب معين ، فالله أعلم . لكننا نستفيد من هذا فائدة وهو الرد الجميل من رسول الله ﷺ ؛ لأن قوله : سبقك بها عكاشة لا يجرحه ولا يحزنه .

وسبحان الله صارت هذه مثلاً إلى يومنا هذا ، كلما طلب الإنسان شيئاً قد سبق به قيل : قد سبقك بها عكاشة .

أورد بعض العلماء إشكالاً على هذا الحديث وقال : إذا اضطر الإنسان إلى القراءة ؛ أي أن يطلب من أحد أن يقرأ عليه مثل أن يصاب بعين أو بسحر أو أصيب بجفن ، هل إذا ذهب يطلب من يقرأ عليه يخرج من استحقاق دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟

فقال بعض العلماء : نعم هذا ظاهر الحديث وليعتمد على الله وليتصبر ويسأل الله العافية .

وقال بعض العلماء : بل إن هذا فيمن استرقى قبل أن يصاب أي بأن قال : اقرأ علي أن لا تصيبني العين ، أو أن لا يصيبني السحر أو الجن أو الحمى ؛ فيكون هذا من باب طلب الرقية لأمر متوقع لا واقع وكذلك الكي .

فإذا قال إنسان : الذين يكونون غيرهم ، هل يجرمون من هذا ؟

ج : لا ! لأن الرسول ﷺ يقول : ولا يكتوون ، أي لا يطلبون من يكوهم ولم يقل : ولا يكونون وهو عليه الصلاة والسلام قد كوى أكحل سعد بن معاذ رضي الله عنه .

سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري أصيب يوم الخندق في أكحله فانفجر الدم ^(١) . والأكحل إذا انفجر دمه قضى على الإنسان . فكواه ﷺ في العرق حتى وقف الدم ، والنبي ﷺ هو أول من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب ^(٢) .

فالذين يكونون محسنون والذين يقرأون على الناس محسنون ولكن الكلام على من يسترقون أي يطلبون من يقرأ عليهم أو يكتوون أي من يطلبون من يكوهم ، والله الموفق .

* * *

(١) انظر القصة في : البخاري في المغازي (٤١٢٢) ، ومسلم في الجهاد (١٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٣) والأكحل هو : عرق في وسط الذراع يكثر فصدته ، فإذا قطع في اليد لم يرق الدم . لسان العرب مادة (كحل) .

(٢) ودليل ذلك ما رواه : أحمد في مسنده (١٤٤/٣) ، والهيثم في مجمع الزوائد (٣٤٩/٧) .

٧٥ - الثَّانِي : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ أَمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَتَيْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي ، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَالْحَيُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ » ^(١) متفقٌ عليه . وهذا لَفْظُ مُشْلِمٍ ، وَاخْتَصَرَهُ الْبُخَارِيُّ .

٧٦ - الثَّالِثُ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيْضًا قَالَ : « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ رواه البخاري .

وفي رواية له عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : « كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(٢) .

الشرح

إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام هما خليان لله ﷻ . قال الله : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] وقال النبي ﷺ « إِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » ^(٣) والخليل معناه الحبيب الذي بلغت محبته الغاية ولا نعلم أن أحداً وُصِفَ بهذا الوصف إلا محمداً ﷺ وإبراهيم فهما الخليان .

وإنك تسمع أحياناً يقول بعض الناس : إبراهيم خليل الله ، ومحمد حبيب الله ، وموسى كليم الله . والذي يقول : إن محمداً حبيب الله . في كلامه نظر ؛ لأن الخُلَّةَ أبلغ من الحبة فإذا قال : محمد حبيب الله ، فهذا فيه نوع نقص من حق الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأن أحباب الله كثيرون ، فالمؤمنون يحبهم الله والمحسنون والمقسطون يحبهم الله والأحباب كثيرون . لكن الخلَّة لا نعلم أنها ثبتت إلا لمحمد وإبراهيم وعلى هذا فنقول : الصواب أن يقال : إبراهيم خليل الله ، ومحمد خليل الله ، وموسى كليم الله .

على أن محمداً قد كلمه الله ﷻ كلاماً بدون واسطة حيث عرج به إلى السماوات السبع . هذه الكلمة : « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » قالها إبراهيم حينما أُلْقِيَ فِي النَّارِ وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأبوا وأصروا على الكفر والشرك . فقام ذات يوم على أصنامهم فكشَّرها وجعلهم مجذاذاً إلا كبيراً لهم فلما رجعوا وجدوا آلهتهم قد كُسرَتْ

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٧) والبخاري في الدعوات (٦٣١٧) الإمام أحمد (٣٠٨ ، ٣٠٢/١) ، والبيهقي في سننه (٥/٣) ، وهذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمته الله .

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٥٦٣) وأحمد في مسنده (٣٢٦/١) ، والحاكم في المستدرک (٢٩٨/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٥٣٢) وابن ماجه في السنن (١٤١) والطبراني في الكبير (٢٣٧/٨) .

فانتقموا والعياذ بالله لأنفسهم ، فقالوا : ماذا نصنع بإبراهيم ؟

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ ﴾ انتصاراً لآلهتهم ﴿ وَأَضْرِبُوا إِلَهُتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَعَلَيْتُمْ ﴾ [الأنبياء : ٦٨] .

فأوقدوا نارا عظيمة جداً ثم رموا إبراهيم في هذه النار . ويقال : إنهم لعظم النار لم يتمكنوا من القرب منها وأنهم رموا إبراهيم فيها بالمتحنيق من بُعد .

فلما رموه قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فما الذي حدث ؟

قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَنْتَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] برداً ضد حر ، وسلاماً ضد هلاكاً ؛ لأن النار حارّة ومحرقة مهلكة فأمر الله هذه النار أن تكون برداً وسلاماً عليه فكانت برداً وسلاماً . والمفسرون بعضهم ينقل عن بني إسرائيل في هذه القصة أن الله لما قال : ﴿ قُلْنَا يَنْتَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] صارت جميع نيران الدنيا برداً !

وهذا ليس بصحيح لأن الله وجه الخطاب إلى نار معينة ﴿ يَنْتَارُ كُوْنِي بَرْدًا ﴾ وعلماء النحو يقولون : أنه إذا جاء التركيب على هذا الوجه صار نكرة مقصودة ؛ أي : لا يشمل كل نار بل هو للنار التي أُلقي فيها إبراهيم فقط وهذا هو الصحيح وبقيّة نيران الدنيا بقيت على ما هي عليه . وقال العلماء أيضاً : ولما قال الله : كوني برداً قرن ذلك بقوله : « كوني سلاماً » لأنه لو اكتفى بقوله : « برداً » لكانت برداً حتى تهلكه ؛ لأن كل شيء يمثل لأمر الله ﴿ يَنْتَارُ ﴾ (١) .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ فماذا قالتا ؟ ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [نصت : ١١] متقادين لأمر الله .

أما الخليل الثاني الذي قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فهو النبي ﷺ وأصحابه حين رجعوا من أحد قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم يريدون أن يأتوا إلى المدينة ويقضوا عليكم فقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

قال الله : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ آلِهِمْ وَفَضَّلَ اللَّهُ فَوْضَلَهُ وَأَلَّفَهُ دُؤْلَهُ وَفَضَّلَ عَظِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٧٤] .

فينبغي لكل إنسان رأى من الناس جمعاً له أو عدواناً عليه أن يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . فإذا قال هكذا كفاه الله شرهم كما كفى إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام فاجعل هذه الكلمة دائماً على بالك إذا رأيت من الناس عدواناً عليك . والله الموفق .

٧٧ - الرَّابِعُ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْعَدَتْهُمْ مِثْلُ أَفْعَدَةِ الطَّيْرِ » (٢)

(١) انظر في ذلك قول ابن عباس وأبي العالية في تفسير الطبري (٥٩/١٧) وزاد المسير (٣٦٧/٥) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه وقد أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٣١/٢) .

رواه مسلم . قيل : مَغْنَاهُ مَتَوَكَّلُونَ ، وَقِيلَ : قُلُوبُهُمْ رَقِيقَةٌ .

٧٨ - الحَاشِيسُ : عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ غَزَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ نَجْدٍ ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَفَلَ مَعَهُمْ ، فَأَذْرَكَهُمْ الْقَائِلَةَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاءِ ، فَتَزَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَنْظِلُونَ بِالشَّجَرِ ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ سَمُرَةٍ ، فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ ، وَنِمَا نَوْمَةً ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُونَا ، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِي فَقَالَ : « إِنْ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِي صَلُّتًا ، قَالَ : مَنْ يَمْتَنِعُكَ مِنِّي ؟ قُلْتُ : اللَّهُ » - ثَلَاثًا وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ . مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وفي رواية : قَالَ جَابِرٌ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَاتِ الرَّوَاقِ ، فَإِذَا آتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَسَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ ، فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ : تَخَافُنِي ؟ قَالَ : « لَا » قَالَ : فَمَنْ يَمْتَنِعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللَّهُ » .

وفي رواية أَبِي بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ فِي صَحِيحِهِ : قَالَ : مَنْ يَمْتَنِعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللَّهُ » قَالَ : فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّيْفَ فَقَالَ : « مَنْ يَمْتَنِعُكَ مِنِّي ؟ » فَقَالَ : كُنْ خَيْرَ آخِذٍ ، فَقَالَ : « تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ » قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي أَعَاهِدُكَ أَنْ لَا أَقَاتِلَكَ وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ . فَخَلَّى سَبِيلَهُ ، فَأَتَى أَصْحَابَهُ فَقَالَ : جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ ^(١) .

قَوْلُهُ : « قَفَلَ » أَي : رَجَعَ . وَ « الْعِضَاءُ » : الشَّجَرُ الَّذِي لَهُ شَوْكٌ ، وَ « السَّمُرَةُ » بِفَتْحِ السِّينِ وَضَمِّ الْمِيمِ : الشَّجَرَةُ مِنَ الطَّلَحِ ، وَهِيَ الْعِظَامُ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاءِ . وَ « اخْتَرَطَ السَّيْفَ » أَي : سَلَّهُ وَهُوَ فِي يَدِهِ . « صَلُّتًا » أَي : مَسْلُولًا ، وَهُوَ يَفْتَحُ الصَّادَ وَضَمَّهَا .

٧٩ - السَّادِسُ : عَنْ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرْجِعُ بَطَانًا » ^(٢) رواه الترمذي ، وقال حديثٌ حسنٌ . مَغْنَاهُ : تَذْهَبُ أَوَّلُ النَّهَارِ خِمَاصًا : أَي : ضَامِرَةً الْبُطُونِ مِنَ الْجُوعِ ، وَتَرْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ بَطَانًا : أَي : مُتَمَلِّقَةً الْبُطُونِ .

الشرح

قوله : « حق توكله » أي توكلًا حقيقياً تعتمدون على الله عَلَيْهِ السَّلَام اعتماداً كاملاً في طلب رزقكم وفي غيره . « لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ » الطَّيْرُ رَزَقَهَا عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَام لأنها طيور ليس لها ما لك فطير في الجو وتغدو إلى أوكارها وتستجلب رزق الله عَلَيْهِ السَّلَام .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشرحه والحديث أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٠) ، وأحمد في مسنده (٣١١/٣) ، والبيهقي في السنن (٣١٩/٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠/١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٤٤) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٤) والألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠) .

« تغدو خماصًا » الغدو : الذهاب في أول النهار . وخماصًا : جائعة كما قال الله : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي تَحَصُّصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] مخمصة : مجاعة .

« تغدو خماصًا » ليس في بطونها شيء لكنها متوكلة على ربها ﷻ . « وتروح بطنًا » تروح أي ترجع في آخر النهار ؛ لأن الرواح هو آخر النهار . « بطنًا » أي ممتلئة البطون من رزق الله ﷻ . ففي هذا دليل على مسائل :

أولاً : أنه ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله حق الاعتماد .

ثانياً : أنه ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها حتى الطير في جو السماء لا يمسه في جو السماء إلا الله ولا يزرقه إلا الله . كل دابة في الأرض من أصغر ما يكون كالذر (١) ، أو أكبر ما يكون كالفيلة وأشباهاها ، فإن على الله رزقها كما قال الله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا ﴾ [مرد : ٢١] ولقد ضل ضلالاً مبيناً من أساء الظن بربه فقال : لا تكثروا الأولاد ، تضيق عليكم الأرزاق !!

كذبوا ورب العرش فإذا أكثروا من الأولاد أكثر الله رزقهم ؛ لأنه ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .

فرزق أولادك وأطفالك على الله ﷻ ، هو الذي يفتح لك أبواب الرزق من أجل أن تتفق عليهم ، لكن أكثر الناس عندهم سوء ظن بالله ، ويعتمدون على الأمور المادية المنظورة ولا ينظرون إلى المدى البعيد وإلى قدرة الله وأنه هو الذي يرزق ولو كثرت الأولاد ، اختير من الأولاد تكثر لك الأرزاق هذا هو الصحيح ؛ وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا توكل على الله حق التوكل فليفعل الأسباب .

وضل من قال : لا أفعل السبب وأنا متوكل . فهذا غير صحيح ؛ المتوكل هو الذي يفعل الأسباب معتمداً على الله ﷻ ولهذا قال : « كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا تذهب لتطلب الرزق ، ليست الطيور في أوكارها ، ولكنها تغدو وتطلب الرزق . فأنت إذا توكلت على الله حق التوكل ؛ فلا بد أن تفعل الأسباب التي شرعها الله لك من طلب الرزق من وجه حلال بالزراعة ، بالتجارة ، بالعمالة بأي شيء من أسباب الرزق . اطلب الرزق معتمداً على الله ييسر الله لك الرزق .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الطيور وغيرها من مخلوقات الله تعرف الله كما قال الله تعالى : ﴿ نَسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَنْ يَنْ شَيْءٌ إِلَّا يَسْجُ بِحُجْمِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

أي ما من شيء إلا يسبح بحمد الله ﴿ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّبَابُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَنْ يَنْ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

(١) الذر : هو صغار النمل ، وقيل : أصغر جزء في عنصر مادة قابل للتفاعلات (المعجم العربي الأساسي ص ٤٨٠ مادة ذر) .

فالطيور تعرف خالقها ﷻ وتطير تطلب الرزق بما جبلها الله عليه من الفطرة التي تهتدي بها إلى مصالحها وتغدو إلى أوكارها في آخر النهار بطونها ملاءى وهكذا دواليك في كل يوم ، والله ﷻ يرزقها وييسر لها الرزق . وانظر إلى حكمة الله كيف تغدو هذه الطيور إلى محلات بعيدة وتهتدي بالرجوع إلى أماكنها لا تخطئها ؛ لأن الله أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والله الموفق .

* * *

٨٠ - السابع : عَنْ أَبِي عُمَارَةَ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا فُلَانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ : اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ خَيْرًا » متفق عليه . وفي رواية في الصحيحين عن البراء قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ وَقُلْ : وَذَكَرْ نَحْوَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « وَاجْعَلْنِ أَحْرَمًا تَقُولُ » (١) .

الشرح

ثم ذكر المؤلف في باب اليقين والتوكل حديث البراء بن عازب رضي الله عنه حيث أوصاه النبي ﷺ أن يقول عند نومه : إذا أوى إلى فراشه أن يقول هذا الذكر الذي يتضمن تفويض الإنسان أمره إلى ربه وأنه معتمد على الله في ظاهره وباطنه مفوض أمره إليه .

وفيه أن النبي ﷺ أمره أن يضطجع على الجنب الأيمن ؛ لأن ذلك هو الأفضل وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصح من النوم على الجنب الأيسر .

وذكر أيضًا بعض أرباب السلوك والاستقامة أنه أقرب في استيقاظ الإنسان ؛ لأن بالنوم على الجنب الأيسر ينأى القلب ولا يستيقظ بسرعة ، بخلاف النوم على الجنب الأيمن ؛ فإنه يبقى القلب متعلقًا ويكون أقل عمقًا في منامه فيستيقظ بسرعة .

وفي هذا الحديث : أن النبي ﷺ أمره أن يجعلهن آخر ما يقول مع أن هناك ذكرًا بل أذكاء عند النوم تقال غير هذا .

مثلاً : التسبيح والتحميد والتكبير ؛ فإنه ينبغي للإنسان إذا نام على فراشه أن يقول : سبحان الله ثلاثاً وثلاثين ، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين ، والله أكبر أربعاً وثلاثين (٢) . هذا من الذكر لكن حديث البراء يدل على أن ما أوصاه الرسول ﷺ به أن يجعلهن آخر ما يقول .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٨) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٦ ، ٥٨) .

(٢) وذلك لما رواه ابن ماجه (٣٨٧٨) ، وأحمد في مسنده (٦/٦) كلاهما دون لفظ « ثلاثاً وثلاثين » .

وقد أعاد البراء بن عازب هذا الحديث على النبي ﷺ ليتقنه فقال : « آمنت بكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت » فرد عليه النبي - عليه الصلاة والسلام - وقال قل : « ونبيك الذي أرسلت » ولا تغفل : « ورسولك الذي أرسلت » . قال أهل العلم : وذلك لأن الرسول يكون من البشر ويكون من الملائكة كما قال الله عن جبريل : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [التكوير : ١٩ ، ٢٠] وأما النبي فلا يكون إلا من البشر .

فإذا قال : ورسولك الذي أرسلت ؛ فإن اللفظ صالح لأن يكون المراد به جبريل . لكن إذا قال : « ونبيك الذي أرسلت » اختص بمحمد ﷺ هذا من وجه .
ومن وجه آخر : أنه إذا قال : ورسولك الذي أرسلت ؛ فإن دلالة هذا اللفظ على النبوة من باب دلالة اللزوم ، وأما إذا قال : نبيك ؛ فإنه يدل على النبوة دلالة مطابقة ، ومعلوم أن دلالة المطابقة أقوى من دلالة اللزوم .
الشاهد من هذا الحديث قوله : « وفوضت أمري إليك » وقوله : « لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك » فإن التوكل تفويض الإنسان أمره إلى ربه ، وأنه لا يلجأ ولا يطلب منجاً من الله إلا إلى الله ﷻ ؛ لأنه إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، فإذا أراد الله بالإنسان شيئاً فلا مرد له إلا الله ﷻ بالرجوع إليه .
فينبغي للإنسان إذا أراد النوم أن ينام على جنبه الأيمن وأن يقول هذا الذكر وأن يجعله آخر ما يقول ، والله الموفق .

* * *

٨١ - الثَّامِنُ : عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؓ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَمْرِ بْنِ كَعْبٍ ابْنِ كَعْبٍ ابْنِ سَعْدٍ ابْنِ تَيْمٍ بْنِ مُرَّةٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبِ الْقُرَشِيِّ النَّبِيِّ ؓ وَهُوَ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ صَحَابَةٌ ؓ قَالَ : نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ وَتَخَنُّ فِي الْغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنَا ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا . فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بَاثِنِينَ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟ » (١) متفق عليه .

الشرح

قوله : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ؟ » أي ما ظنك هل أحد يقدر عليهما أو ينالهما بسوء ؟ وهذه القصة كانت حينما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وذلك لأن رسول الله ﷺ لما جهز بالدعوة ودعا الناس وتبعوه وقام المشركون ضد دعوته وضائقوه وآذوه بالقول ، وبالفعل فأذن الله له بالهجرة من مكة إلى المدينة ، فهاجر عليه الصلاة والسلام على رأس ثلاث عشرة سنة من مبعثه ، هاجر من مكة إلى المدينة ولم يصحبه إلا أبو بكر ؓ والدليل والخادم .

(١) قوله تعالى ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي : ذي مكانة رفيعة ومنزلة عظيمة عند الله .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١) ، وأحمد في مسنده (٤/١) .

ولما سمع المشركون بخروجه من مكة جعلوا لمن جاء به مائتي بعير ولمن جاء بأبي بكر مائة بعير وصار الناس يطلبون الرجلين في الجبال وفي الأودية وفي المغارات وفي كل مكان حتى وقفوا على الغار الذي فيه النبي ﷺ وأبو بكر ، وهو غار ثور الذي اختفيا فيه ثلاث ليالٍ حتى يبرد عنهما الطلب .

فقال أبو بكر : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا ؛ لأننا في الغار تحته فقال ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وفي كتاب الله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] فيكون قد قال ﷺ الأمرين كلاهما . فقلوه : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » هل أحد يقدر عليهما أو غير ذلك ؟ .

ج : والجواب لا أحد يقدر ؛ لأنه لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع ، ولا مذل لمن أعز ولا معز لمن أذل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرَ لَكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

وفي هذه القصة : دليل على كمال توكل النبي ﷺ على ربه وأنه معتمد عليه ومفوض إليه أمره ، وهذا هو الشاهد من وضع هذا الحديث في باب اليقين والتوكل .

وفيه : دليل على أن قصة نسج العنكبوت غير صحيحة ، فما يوجد في بعض التواريخ أن العنكبوت نسجت على باب الغار ، وأنه نبت فيه شجرة ، وأنه كان على غصنها حمامة ، وأن المشركين لما جاءوا إلى الغار قالوا : هذا ليس فيه أحد ، فهذه الحمامة على غصن شجرة على بابه ، وهذه العنكبوت قد عسشت على بابه (١) . كل هذا لا صحة له ، لأن الذي منع المشركين من رؤية النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر ليست أموراً حسية تكون لهما ولغيرهما ، بل هي أمور معنوية وآية من آيات الله ﷻ . حجب الله أبصار المشركين عن رؤية الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبي بكر . والله الموفق .

٨٢ - التاسع : عَنْ أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ ، وَاسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ خَدِيفَةَ ، الْمَخْزُومِيَّةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ : « بِاسْمِ اللَّهِ ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضَلَّ ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزِلَّ ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ » (٢) حديث صحيح رواه أبو داود ، والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحة . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَهَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ .

الشرح

الشَّاهِد من هذا الحديث قوله : « بِاسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ » فَإِنَّ فِي هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ أَنْ يَقُولَ هَذَا الذِّكْرَ الَّذِي مِنْهُ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَالْإِعْتَصَامُ بِهِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فَهُوَ عَرِضَةٌ لِأَنْ يَصِيبَهُ شَيْءٌ أَوْ يَعْتَدِي عَلَيْهِ حَيَوَانٌ مِنْ عَقْرَبٍ أَوْ حَيَّةٍ وَمَا أَشْبَهَهُ فَيَقُولُ : « آمَنْتُ بِاللَّهِ ، اغْتَصَمْتُ بِاللَّهِ ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ » .

(١) انظر مثل هذه الروايات في : مسند أحمد (٣٤٨/١) ، وسبل الهدى والرشاد للصلحي (٣٤٠/٣ - ٣٤٢) ، وغيرهما .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب بلفظه (٥٠٩٤) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٧) ، وأحمد في مسنده (٣١٨/٦) .

وقوله : « اللهم إني أعوذ بك أن أضل » أي أضل في نفسي . « أو أضل » أي يضلني أحد . « أو أزل » من الزل وهو الخطأ . « أو أزل » أي أحد يتوصل لفعل الخطأ . « أو أظلم » أي أظلم غيري . « أو أظلم » يظلمني غيري . « أو أجهل » أسفه . « أو يجهل علي » يسفه علي أحد ويعندي علي أحد . فهذا الذكر ينبغي أن يقول الإنسان إذا خرج من بيته لما فيه من اللجوء إلى الله سبحانه والاعتصام به . والله الموفق .

* * *

٨٣ - العاشر : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ - يَغْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - : بِاسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، يَقَالُ لَهُ : هُدِيََتْ وَكُفِّيَتْ وَوُفِّيَتْ ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ » ^(١) . رواه أبو داود والترمذي ، والنسائي وغيرهم . وقال الترمذي : حديث حسن ، زاد أبو داود : « فيقول : - يَغْنِي الشَّيْطَانُ - لِشَيْطَانٍ آخَرَ : كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِّي وَوُفِّي ؟ » .

٨٤ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ أَخَوَانِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ ، وَالْآخَرُ يَخْتَرِفُ ، فَشَكَاَ الْمُخْتَرِفُ أَخَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « لَعَلَّكَ تُزَوِّقُ بِهِ » ^(٢) رواه الترمذي بإسناد صحيح على شرط مسلم . « يَخْتَرِفُ » : يَكْتَسِبُ وَيَنْسَبُ .

* * *

٨ - باب الاستقامة

قال الله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [مرد: ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا سَتُزِيلُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ۚ أَلَّا تَتَذَكَّرُ ۚ أَلَّا يَحْزَنُوا وَلَا يَحْزَنُوا وَيَأْمُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۚ تَحْنُ أُولَئِكَ كَفُتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۚ نَزَّلًا مِنْ عَفْوَ رَبِّهِمْ ﴾ [نصل: ٣٠-٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٤، ١٣] .

الشرح

الاستقامة هي أن يثبت الإنسان على شريعة الله ﷻ كما أمر الله ويتقدمها الإخلاص لله ﷻ . ثم ذكر المؤلف عدة آيات في هذا فذكر قول الله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [مرد: ١١٢] . الخطاب هنا للنبي ﷺ والخطاب الموجه للرسول ﷺ يكون له ولأمته إلا إذا قام دليل على أنه خاص به ؛ فإنه يختص به . أما إذا لم يكن الدليل خاصاً به ؛ فإنه له ولأمة .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه . والحديث أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٥) والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢) ، قوله : « هديت » أي إلى طريق الحق ، قوله « كفيت » أي هلك ، قوله : « وفيت أي حفظت . »

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٥) ، والحاكم في المستدرک (٩٤/١) .

فما دل الدليل على أنه خاص به قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ ﴾ (١) [الشرح : ١-٣] فإن هذا خاص بالنبي ﷺ .

ومثل قوله : ﴿ وَلَقَدْ مَآيَنَّاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَنَافِي وَالْقُرْمَاتِ الْعَلِيمِ ﴾ [الحجر : ٨٧] هذا أيضا خاص بالرسول ﷺ . وإذا لم يُمْ الدليل على أن الخطاب للخصوصية ؛ فهو له ولأمته وعلى هذه القاعدة يكون قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ ﴾ [هود : ١١٢] عامًا له ولأمته . كل واحد يجب عليه أن يستقيم كما أمر فلا يبدل في دين الله ولا يزيد فيه ولا ينقص ولهذا قال في آية أخرى : ﴿ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَنْجُ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [الشورى : ١٥] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ... ﴾ [فصلت : ٣٠، ٣٢] .

﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ خالقنا ومالكنا ومدبر أمورنا فنحن نخلص له ﴿ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ على ذلك أي على قولهم : ربنا الله فقاموا بشريعة الله . هؤلاء الذين اتصفوا بهذين الوصفين : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ملكًا بعد ملك ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ يعني أن الملائكة تنزل عليهم بأمر الله في كل موطن مخوف ولا سيما عند الموت يقولون لهم : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ لا تخافوا فيما تستقبلون من أموركم ولا تحزنوا على ما مضى من أموركم . ﴿ وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ والبشرى هي الإخبار بما يشر ولا شك أن الإنسان يشره أن يكون من أهل الجنة أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم . ﴿ وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ لأن كل من قال : ربي الله واستقام على دين الله ؛ فإنه من أهل الجنة . يقولون لهم أيضًا : ﴿ تَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ فالملائكة أولياء للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في الحياة الدنيا ، تسددهم وتساعدهم وتعينهم ، وكذلك في الآخرة تلتقاهم الملائكة يوم البعث والحساب ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فيبشرونهم بالخير في مقام الخوف والشدّة . قال الله ﷻ : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ ﴾ وذلك في نعيم الجنة ؛ لأن الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأتغى . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ أي تطلبون ، بل لهم فوق ذلك : ﴿ لَمْ تَأْكُلُوا مِنَّا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] لهم زيادة على ما يدعونه ويطلبونه ويتمنونه .

﴿ تَزِلَّا وَفِي عَفْوَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني أن الجنة نزل لهم وضيافة من غفور رحيم . ﴿ عَفْوَ ﴾ غفر لهم سيئاتهم ، رحيم بهم رفع لهم درجاتهم . هذا جزاء الذين يقولون ربنا الله ثم يستقيمون . وفي هذا دليل على أهمية الاستقامة على دين الله بأن يكون الإنسان ثابتًا لا يزيد ولا ينقص ولا يبدل ولا يغير .

فأما من غلا في دين الله أو جفا عنه ، أو بدّل ؛ فإنه لم يكن مستقيمًا على شريعة الله ﷻ ؛ والاستقامة لا بد لها من الاعتدال في كل شيء حتى يكون الإنسان مستقيمًا .

(١) قوله : ﴿ أَفَقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي : أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض ؛ وهو الصوت الخفي الذي يُسمع من الرجل فوق البعير .

٨٥ - وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو ، وَقِيلَ : أَبِي عَمْرَةَ شَفِيحَانِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ . قَالَ : « قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَغْفِرُ » ^(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

قوله : « قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ » أي : قل لي قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك فيكون فصلًا وخاسمًا ولا يحتاج إلى سؤال أحد فقال له النبي ﷺ : « قل : آمنت بالله ثم استغفر » . فقوله : « قُلْ : آمَنْتُ » ليس المراد بذلك مجرد القول باللسان فإن من الناس من يقول آمنت بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . ولكن المراد بذلك قول القلب واللسان أيضًا .

أي : أن يقوله بلسانه بعد أن يُقِرَّ ذلك في قلبه وتعتقده اعتقادًا جازمًا لاشك فيه ؛ لأنه لا يكفي الإيمان بالقلب ولا الإيمان باللسان لا بد من الإيمان بهما جميعًا .

ولهذا كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول وهو يدعو الناس إلى الإسلام يقول : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » فقال : قولوا : أي بألستكم . كما أنه لا بد من القول بالقلب . وقوله : « آمَنْتُ بِاللَّهِ » يشمل الإيمان بوجود الله ﷻ وبرؤيته وأسمائه وصفاته وأحكامه وأخباره وكل ما يأتي من قبيله ﷻ تؤمن به ، فإذا آمنت بذلك فاستقم على دين الله ولا تحد عنه لا يمينًا ولا شمالًا لا تقصر ولا تزد . فاستقم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وذلك بالإخلاص لله ﷻ والمتابعة لرسوله . استقم على الصلاة وعلى الزكاة والصيام والحج وعلى جميع الشرائع .

وقوله « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ » دليل على أن الاستقامة لا تكون إلا بعد الإيمان ، وأن من شرط الأعمال الصالحة أي من شرط صحتها وقبولها أن تكون مبنية على الإيمان .

فلو أن الإنسان عمل بظاهره على ما ينبغي ولكن باطنه خراب وفي شك واضطراب ، أو في إنكار وتكذيب ؛ فإن ذلك لا ينفعه ، ولهذا اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن من شروط صحة العبادة وقبولها أن يكون الإنسان مؤمنًا بالله ، أي : معترفًا به وبجميع ما جاء من قبيله تبارك وتعالى .

ويُستفاد من هذا الحديث : أنه ينبغي للإنسان إذا قام بعمل أن يشعر أنه قام به لله ، وأنه يقوم به بالله ، وأنه يقوم به في الله ؛ لأنه لا يستقيم على دين الله إلا بعد الإيمان بالله ﷻ ، فيشعر أنه يقوم به لله أي : مُخلصًا ، وبالله مستعينًا ، وفي الله متبعًا لشرعه ، وهذه مُستفادة من قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۚ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ [الفاتحة: ٥، ٦] ﴾ فالأول قيام لله ، والثاني قيام فيه ، أي : في شرعه ، ولهذا نقول : إن المراد بالصراط المستقيم في الآية الكريمة هو شرع الله ﷻ الموصل إليه ، والله الموفق .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٧٦/١) ، وأحمد في مسنده (٣٧١/٥) ، والدارقطني في السنن (٤٥/٣) .

٨٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَارِبُوا ، وَسَدُّوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ » قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ^(١) رواه مسلم .

وَالْمُقَارَبَةُ : الْقَصْدُ الَّذِي لَا غُلُوَّ فِيهِ وَلَا تَقْصِيرَ . وَ « السَّدَادُ » : الْاسْتِقَامَةُ وَالْإِصَابَةُ ، وَ « يَتَغَمَّدَنِي » يُلْبِسُنِي وَيَسْتُرُنِي . .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : مَعْنَى الْاسْتِقَامَةِ : لُزُومُ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالُوا : وَهِيَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَهِيَ نِظَامُ الْأُمُورِ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

الشرح

هذا الحديث يدلُّ على أن الاستقامة على حسب الاستطاعة وهو قول النبي ﷺ : « قَارِبُوا وَسَدُّوا » أي : قاربوا ما أمرتم به واحرصوا على أن تقرّبوا منه بقدر المستطاع .

وقوله « سَدُّوا » أي : سَدُّوا على الإِصَابَةِ أي : احرصوا على أن تكون أعمالكم مُصِيبَةً لِلْحَقِّ بقدر المُسْتَطَاع ، وذلك أن الإنسان مهما بلغ من التقوى ، فإنه لا بد أن يخطئ كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَابُونَ » ^(١) ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « لَوْ لَمْ تَذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ ثُمَّ لَجَأَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » ^(٢) . فالإنسان مأمور أن يُقَارِبَ ويُسَدِّدَ بقدر ما يستطيع .

ثم قال : « وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ » أي لن ينجو من النار بعمله : وذلك لأن العمل لا يبلغ ما يجب لله ﷻ من الشكر وما يجب على عباده من الحقوق ، ولكن يتغمد ﷻ العبد برحمته فيغفر له . فلما قال الرسول هذا قالوا له : وَلَا أَنْتَ ؟ قَالَ : « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ » .

فدلَّ ذلك على أن الإنسان مهما بلغ من المرتبة والولاية فإنه لن ينجو بعمله ، حتى النبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ مَنَّ عَلَيْهِ بِأَنْ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ ، مَا أُنْجَاهَ عَمَلُهُ ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : هُنَاكَ نُصُوصٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَنْجِي مِنَ النَّارِ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِثْلَ قَوْلِهِ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفٍّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] فكيف يجمع بين هذا وبين الحديث الذي مرَّ ؟ .

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ : أَنْ يَقَالَ : يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ الْمُنْفَى دُخُولَ الْإِنْسَانِ الْجَنَّةَ بِالْعَمَلِ فِي الْمَقَابِلَةِ ، أَمَّا الْمُثَبَّتُ فَهُوَ أَنَّ الْعَمَلَ سَبَبٌ وَلَيْسَ عَوْضًا ؛ فَالْعَمَلُ لَا شَكَّ أَنَّهُ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ ، لَكِنْ لَيْسَ هُوَ الْعَوْضُ وَلَيْسَ وَحْدَهُ الَّذِي يَدْخُلُ بِهِ الْإِنْسَانُ الْجَنَّةَ ، وَلَكِنْ فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ هُمَا السَّبَبُ

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٧١) ، وأحمد في مسنده (٤٨٢/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٩) وأحمد في مسنده (١٩٨/٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٩١/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في التوبة (١١) ، وأحمد في مسنده (٣٠٩/٢) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٩٩/٤) .

في دخول الجنة والنجاة من النار .

وفي هذا الحديث من الفوائد : أن الإنسان لا يعجب بعمله مهما كان .

عملك قليل بالنسبة لحق الله عليك .

وفيه : أنه ينبغي على الإنسان أن يذكر الله دائماً ومن السؤال بأن يتغمده الله برحمته .

قل دائماً : « اللهم تغمدني برحمة منك وفضل » لأن عملك في مرضاة الله لا يكون إلا برحمة الله ﷻ .

وفيه دليل على حرص الصحابة ﷺ على العلم ، ولهذا استفصلوا هل هذا العموم شامل له أم لا ؟
فبين لهم ﷺ أنه شامل له .

ومن تدبر أحوال الصحابة وجد أنهم أحرص الناس على العلم ، وأنهم لا يتركون شيئاً يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم إلا ابتدروه والله الموفق .

٩ - باب التفكير في عظيم مخلوقات الله تعالى وفناء الدنيا وأهوال الآخرة

وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ نُفَرِّدُكُمْ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبا: ٤٦] .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا مِّنْهُنَّ ۖ كَيْفَ رُفِعَتْ ۗ وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۗ وَإِلَىٰ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۗ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢١] . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ [محمد: ٨٠] . والآيات في الباب كثيرة .

وَمَنْ الْأَحَادِيثُ الْحَدِيثُ السَّابِقُ : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ » .

الشرح

التفكير : هو أن الإنسان يُعْمِلُ فكره في الأمر حتى يصل فيه إلى نتيجة . قد أمر الله تعالى به وحض عليه في كتابه ؛ لما يتوصل إليه الإنسان به من المطالب العالية والإيمان واليقين . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أي : قل يا محمد للناس جميعاً : ما أعطيكم إلا بواحدة أي ما أقدم لكم موعظة إلا واحدة فقط : إذا قمتم بها أدركتم المطلوب ونجوت من المهروب وهي : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ نُفَرِّدُكُمْ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبا: ٤٦] . مخلصين له فتقومون بطاعة الله ﷻ على الوجه الذي أمرتم به مخلصين له ، ثم بعد ذلك تفكروا فإذا فعلتم ذلك فهذه موعظة وأُيِّ موعظة .

وفي هذه الآية إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان إذا قام لله بعمل أن يتفكر ماذا فعل في هذا العمل :

هل قام به على الوجه المطلوب ؟ وهل قصر ؟ وهل زاد ؟ وماذا حصل له من هذا العمل من طهارة القلب وَزَكَاةِ النَّفْسِ وغير ذلك ؟

لا يكن كالذي يؤدي أعماله الصالحة وكأنها عَادَات يفعلها كل يوم ، بل تُفَكِّر ماذا حصل لك من هذه العبادة ؟ وماذا أثرت على قلبك وعلى استقامتك ؟ .

ولنضرب لهذا مثلاً بالصلاة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] وقال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فلنفكر هل نحن إذا صلينا زِدْنَا طاقة وقوة ونشاطاً في الأعمال الصالحة حتى تكون الصلاة مُعِينَةً لنا . لننظر !! الواقع أن هذا لا يكون إلا نادراً باعتبار الإنسان نفسه ونادراً باعتبار أفراد الناس . يُذكر عن النبي عليه الصلاة والسلام : « أنه كان إذا حزبه أمر فَرَعَ إلى الصلاة » ^(١) أي : إذا أهَمَّهُ وأَعَمَّهُ فَرَعَ إلى الصلاة .

كذلك قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فانظر في صلاتك هل أنت إذا صَلَّيْتَ وجدت في نفسك كراهة للفحشاء والمنكر والمعاصي أو أن الصلاة لا تفيدك في هذا ؟

إذا عرفت هذه الأمور عرفت نتائج الأعمال الصالحة وكنت مُتَعِظاً بما وَعَظَكَ به النبي ﷺ . ومثال آخر في الزكاة : وهي المال الواجب في الأموال الزكوية يصرفه الإنسان في الجهات التي أمر الله بها وقد بين الله فوائدها ، وقد قال الله لرسوله ﷺ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] فإذا أديت الزكاة فانظر - هل طهرتك من الأخلاق الرذيلة والذنوب ، وهل زكت مالك ؟ كثير من الناس يؤدي الزكاة وكأنها عُرْم يُؤْذِيه وهو كَارِه لا يَشْعُر بأنها تطهره ، ولا بأنها تُزَكِّي نفسه . وعلى هذا بقية الأعمال .

فهذه موعظة عظيمة إذا اتَّعَظَ الإنسان بها نَفَعَتْهُ وصلحت أحواله ، نَسَأَلُ الله أن يصلح لنا الأعمال والأحوال .

ثم ذكر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُهُوبِهِمْ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

هذه الآية هي أول الآيات العشر التي كان النبي ﷺ يقرؤها كلما استيقظ من صلاة الليل . فينبغي للإنسان إذا استيقظ من صلاة الليل أن يقرأ من هذه الآية إلى آخر سورة آل عمران العشر الأخيرة . قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من حيث الحجم والكبر والعظمة وغير ذلك مما أودع الله فيهما . في هذا الخلق آيات ؛ ففي النجوم آية من آيات الله ، وفي الشمس آية من آيات الله وكذا القمر ، وكذا الأشجار والبحار والأنهار ، وفي كل ما خلق الله في السماوات والأرض آيات عظيمة تُدَلُّ على

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٧/١) بلفظه ، وأبو داود في السنن (١٣١٩) ، وأحمد في مسنده (٣٨٨/٥) ، بلفظ : « إذا حزبه أمر صلى » .

كمال وحدانيته جل وعلا وعلى كمال قدرته ، وعلى كمال رحمته ، وعلى كمال حكمته .
 وجمع السماوات وأفرد الأرض ؛ لأن السماوات سبع كما ذكرها الله في عدة آيات ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [الطلاق : ١٢] . ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون : ٨٦] .
 أما الأرض فإن الله لم يذكرها في القرآن إلا مفردة ؛ لأن المراد بها الجنس الشامل لجميع الأرضين ، وقد أشار الله في سورة الطلاق إلى أن الأرضين سبع فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] أي : في العدد ليس مثلهن في الخلقة والعظم ، بل السماوات أعظم من الأرض بكثير لكنهن مثل السماوات في العدد وقد جاءت السنة صريحة في ذلك مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام : « مَنْ اقْتَطَعَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلُمًا طُورَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » (١) .

﴿ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴾ يكون من وجوه متعددة :

أولاً : من جهة أن الليل مظلم والنهار مضيء كما قال الله : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مَحْشُورًا ﴾ [الأنعام : ١٠] .
 أَيْلٍ وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : ١٢] .

ثانياً : اختلافهما في الطول والقصر ، أحياناً يطول الليل ، وأحياناً يطول النهار ، وأحياناً يتساويان كما قال تعالى : ﴿ يُوَلِّجُ الْبَحْرَ فِي النَّهَارِ يُدْخِلُ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحج : ٦١] أي : يدخل هذا في هذا مرة فيأخذ منه ، وهذا في هذا مرة فيأخذ منه هذا من اختلافهما .

ثالثاً : اختلافهما في الحر والبرودة تارة يكون بارداً وتارة حاراً .

رابعاً : الخصب والجذب تارة تكون الدنيا جذباً وقحطاً وسنين ، وتارة تكون خصبة وزرعاً .
 خامساً : اختلافهما في الحرب والسلام تارة تكون حزناً ، وتارة تكون سلماً ، وتارة تكون عزاً ، وتارة تكون ذلة كما قال الله : ﴿ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَائُهَا بَيْنَ آتِاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

ومن تأمل اختلاف الليل والنهار وجد فيهما من آيات الله ﷻ ما يبهر العقول .

وقوله : ﴿ لَا يَنْبَغُ لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : علامات واضحات على وحدانية الله وكمال قدرته وعزته وعلمه ورحمته وغير ذلك من آياته .

وقوله : ﴿ لَاؤُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ أي : لأصحاب الألباب : الألباب جمع لب وهو العقل وأولو الألباب أصحاب العقول . وذلك لأن العقل لبّ والإنسان بلا عقل قشور بلا لب فالأصل في الإنسان هو العقل فلهذا سُمِّيَ لبّ .

وأما إنسان بلا عقل فإنه قشور .

لكن ما المراد بالعقل ؟ هل المراد به الذكاء ؟

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ومسلم في المساقاة (١٦١٠) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) ، بلفظ : « فإنه يطوقه » .

ج : لا ، الذكاء شيء والعقل شيء آخر ، رُبُّ ذَكِي نَابِغٌ فِي ذَكَائِهِ لَكِنْ مَجْنُونٌ فِي تَصَرُّفَاتِهِ ، فالعقل : هو ما يَقَعْلُ صاحبه عن سُوءِ تَصَرُّفِ هذا العقل وإن لم يكن ذَكِيًّا ، فإذا مَنَّ اللَّهُ عَلَى الإنسان بالذكاء والعقل تمت عليه النعمة وقد يكون الإنسان ذَكِيًّا وليس بعاقل والعكس .

جميع الكفار وإن كانوا أذكىء فإنهم ليسوا عَقْلَاءَ كما قال الله : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢] .

كل إنسان يتصرف تصرفًا سَيِّئًا فليس بعاقل ، فأولو الألباب هم أولو العقول ، الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض وينظرون في الآيات ويعتبرون بها ويستدلون - بها على من هي آيات له ، هؤلاء هم أصحاب العقول ، وهم أصحاب الألباب ، فاحرص على أن تتفكر في خلق السماوات والأرض مع التدبر والله الموفق .

ثم قال تعالى في وصف أولي الألباب ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَلِيلًا وَقَلِيلًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ أي : يذكرون الله في كل حال .

وَذَكَّرَ اللَّهُ نَوْعَانِ :

نوع مطلق في كل وقت : وهو الذي يشرع للإنسان دائمًا . أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا قَالَ لَهُ : إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ كَثُرَتْ عَلَيَّ وَإِنِّي كَبِيرٌ فَأَوْصِنِي . فَقَالَ : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا يَذْكُرُ اللَّهَ » (١) . وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ (٢) ، فَذَكَّرَ اللَّهُ هُنَا مُطْلَقًا لَا يَتَقَيَّدُ بِعَدَدٍ بَلْ هُوَ إِلَى الْإِنْسَانِ عَلَى حَسَبِ نَشَاطِهِ .

والنوع الثاني : ذكر مُقَيَّدٌ بِعَدَدٍ أَوْ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وهو كثير : منها أذكار الصلوات في الركوع والسجود ، وبعد السلام ، وأذكار الدخول للمنزل والخروج منه ، وأذكار الركوب على الدابة ، وأشياء كثيرة شرعها الله لعباده من أجل أن يكونوا دَائِمًا عَلَى ذِكْرِهِ .

ومنها : أذكار النوم والاستيقاظ ، فاللهم أن الله سَرَعَ لِعِبَادِهِ مِنَ الْأَذْكَارِ مَا يَجْعَلُهُمْ إِذَا حَافَظُوا عَلَيْهَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ .

واعلم أن الذكر أيضًا يكون على وجهين : ذكر تام وهو ما تَوَاطَأَ عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ . وذكر ناقص وهو ما كان بِاللِّسَانِ مَعَ غَفْلَةِ الْقَلْبِ وَأَكْثَرُ النَّاسِ - نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعَامِلَنَا بِعَقْوِهِ - عندهم ذكر الله بِاللِّسَانِ مَعَ غَفْلَةِ الْقَلْبِ فَتَجِدُهُ يَذْكُرُ اللَّهَ وَقَلْبُهُ يَذْهَبُ يَمِينًا وَشِمَالًا بَدَكَانَهُ وَسَيَّارَتَهُ وَفِي بَيْعِهِ وَبِشْرَائِهِ .

لكن هو مأجور على كل حال ، ولكن الذكر التام هو الذي يكون ذكرك لله باللسان وبالقلب .

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٥) ، وأحمد في مسنده (١٨٨/٤) ، والبيهقي في السنن (٣٧١/٣) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٥/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (١١٧) ، والترمذي في السنن (٣٣٨٤) ، وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) .

أحياناً يكون الذكر بالقلب أنفع للإنسان من الذكر المجرد ، إذا تفكر الإنسان في نفسه وقلبه في آيات الله الكونية والشرعية بما يستطيع حصل على خير كثير .

قال : ﴿ رَبَّنَا كُنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطَلًا ﴾ [آل عمران : ١٩١] يتفكرون في خلق السماوات والأرض لماذا خُلِقَتْ ؟ وكيف خلقت ؟ وما شابه ذلك ، ثم يقولون بقلوبهم وألسنتهم : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطَلًا ﴾ أي : لا بد أن يكون لخلق السماوات والأرض غاية محمودة يُحمد الرب عليها ﷻ .

ليس خلق السماوات والأرض باطلاً لوجود الناس يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام ! لا ؛ بل هي مخلوقة لغرض عظيم .

قال الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطَلًا ﴾ فالذين يظنون خلق السماوات والأرض باطلاً هم أصحاب النار ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطَلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] .

فكل من ظن أن الله خلق هذه الخليقة لتوجد وتُفنى فقط بدون أن يكون هناك غاية ومزجج فإنه من الذين كفروا .

الناس لا بد أن يموتوا ، ولا بد أن يحاسبوا ، ولا بد أن يُعْثوا ، ولا بد أن يؤولوا إلى دارين لا ثالث لهما ؛ إما الجنة أو النار ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة ، وأن يُعِيدَنَا مِنَ النَّارِ .

وقوله : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تنزيهاً لك أن تخلق هذه السماوات والأرض باطلاً . ﴿ فَبِمَا كَذَبَ الْفُتُورِ ﴾ فيقولون إلى الله ﷻ بما يشنون عليه من صفات الكمال أن يقيمهم عذاب النار ، والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين : الأمر الأول : أن يَغْفِرَ الله من الذنوب ؛ لأن الذنوب هي سبب دخول النار .

الثاني : أن يَمُنَ الله عليك بالتوبة والإقلاع ؛ لأن الإنسان بشر لا بد أن يعصي ولكن باب التوبة مفتوح قال الله : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] .

مهما عملت من المعاصي إذا رجعت إلى الله وثبتت تاب الله عليك ، ولكن إذا كانت المعصية تتعلق بأدمي فلا بد من الاستبراء بحقه إما بوفائه أو باستحلاله منه ؛ لأنه حق أدمي لا يغفر بخلاف حق الله . مع هذا لو فرض أنك لم تُذْكَرْ صاحبك ولم تعرفه أو لم تتمكن من وفائها ؛ لأنها ذراهم كثيرة وعلم الله من نيتك أنك صادق في توبتك فإن الله يتحمل عنك يوم القيامة ويرضي صاحبك .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَ ﴾ [٧] وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧-٢٠] .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ ﴾ هذا من باب الحث على النظر في هذه الأمور الأربعة ، أمّا الإبل فتأمل كيف خلقها الله على هذا الجسم الكبير المتحمل لحمل الأثقال كما قال تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ

لَمْ تَكُونُوا بِبَلَدِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴿ [النحل: ١٧] .
 هذه الإبل الكبيرة القوية ذلَّلها الله لعباده حتى كان الصبي يقودها إلى ما يريد مع أنها لو عنت ما
 اشتطاع الناس أن يدركوها ، ولهذا كان من المشروع أن يقول الإنسان إذا اشتوى على ظهرها :
 ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُؤْمِرِينَ ﴾ [الزخرف: ١٣] أي مُطِيقين ؛ لأنَّ قرين الإنسان من
 كان على مثله وعلى شاكلته ، أي : لسنا مُطِيقين لها لولا أن سخرها الله ﷻ .

سخرها الله لعباده فمنها ركوبهم ومنا يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب فيتخذون من جلودها
 بيوتًا ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين إلى غير ذلك من الآيات العظيمة التي
 تحملها هذه الإبل .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَلَمْ يَعْلَمْ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ هذه السماء العظيمة رفعها الله ﷻ رفعا عظيما باهرا لا يستطيع
 أن يناله أحد من الخلق حتى الجن على قوتهم يقولون : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلنَّجِّ فَمَنْ يَسْتَنجِعْ
 الْآنَ يَجِدْ لَهُ سِهَابًا رَّصَدًا ﴾ ^(١) [الجن: ١٩] .

ويقول الله ﷻ : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ ^(٢) [الأنبياء: ٣٢] .
 هذه السماوات العظيمة كيف رفعها الله بغير عمد ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾
 [الرعد: ٢] أي : ترونها مرفوعة بغير عمد فاعتبروا بها .

وفي هذه السماوات من آيات الله ﷻ الشيء الكثير فهي رُفعت هذا الرفع العظيم وفيما بينها وبين
 الأرض آيات عظيمة من الأفلاك والنجوم وغيرها .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَجَبَالٍ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ هذه الجبال الصُّم العظيمة الكبيرة لو أن الخلق اجتمعوا كلهم
 بقواهم ما كونوا مثلها .

الآن تجد المعدات الكبيرة إذا ، أَرَادُوا أَنْ يَرِدُوا شَيْئًا لَا يَرُدُّونَ إِلَّا شَيْئًا بَسِيطًا مع المشقة الشديدة .
 هذه الجبال الصُّم يجب أن نتفكر فيها كيف نَصَبَهَا الله ﷻ ؟

نصبها الله ﷻ على حكمة عظيمة ، لأن الله يجعل في هذه الجبال التي نصبها مصالح عظيمة وكبيرة !
 منها أنها رَوَاسِي تَرْسِي الْأَرْضَ وتمسكها عن الاضطراب كما قال الله : ﴿ وَالْفَنِّ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ
 تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [نisan: ١٠] أي : أن تضطرب ، فلولا أن الله رَسَّاهَا بهذه الجبال لكانت مضطربة كالسفينة
 على الماء في شدة الأمواج ولكن الله جعلها بهذه الجبال ساكنة قارة لا تضطرب ولا تميد بأهلها .

هذه الجبال - أيضا - تقي من أهوية ورياح شديدة عاصفة في بعض الأماكن وتقي - أيضا - من
 برودة عظيمة تأتي من ناحية القطب وتقي من حرارة شديدة . وكذلك في سفوحها آية من آيات الله

(١) قوله تعالى : ﴿ سِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي : معداً ومهيئاً له ينقض عليه فيصيبه .

(٢) قوله تعالى : ﴿ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي : مصوناً من الوقوع أو التغير .

﴿لَيْسَ مِنَ النَّبَاتِ وَالْأَوْدِيَةِ وَالْمَعَادِنِ شَيْءٌ عَظِيمٌ كَثِيرٌ﴾ ، فلهذا قال : ﴿وَلَيْلَى لَلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ .
 وقوله : ﴿وَلَيْلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فجعلها الله سطحاً ومسخرها للعباد وجعلها ذلولاً مُذَلَّلَةً بحيث لم تكن تربتها لينّة جداً لا يستقرون عليها ولا صَلْبَةً جداً لا يتنفعون منها ، بل جعلها رخوة مسطحة مَبْشُوطَةً حتى ينتفع الناس على سطحها بما يسر الله لهم من الأسباب النافعة .
 وهذه الأرض المسطحة هي - أيضاً - كروية أي أنها شبه الكرة مُسْتَدِيرَةٌ من كل جانب إلا أنها مفرطة من الناحية الشمالية والجنوبية .

ولذلك لو أن أحداً من الناس رَكِبَ طَائِرَةً متجهاً إلى المغرب على خط مستقيم لكان يخرج إلى المكان الذي أقلعت منه الطائرة ، وهذا يدل على أنها مستديرة ؛ لأن الإنسان يَصِلُ طرفها بطرفها .
 ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿إِذَا الْمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق : ١-٤] وهذا يكون يوم القيامة فقوله : ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يدل على أنها الآن ليست مَمْدُودَةٌ لكنها مَسْطُوحَةٌ ؛ يعني أنها كالسطح ؛ لأنها لكبر حجمها لا يتبين فيها الانحناء الذي يكون في الكرة ، فهذه الأشياء الأربعة يُخَشِنُ الله ﷻ بالنظر فيها بعين البَصَرِ وعين البصيرة حتى نستدل بها على ما تدل عليه من آيات الله من قُدْرَةٍ وَعِلْمٍ وَرَحْمَةٍ وَحِكْمَةٍ وغير ذلك .

وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَبْيُذِرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ ولم يكمل المؤلف الآية ؛ لأن هذا وَرَدَ في عدة آيات من كتاب الله ، ففي عدة آيات يُحَثُّ الله ﷻ عباده إلى أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

ومنها : قوله في سورة القتال : ﴿أَفَلَمْ يَبْيُذِرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ ^(١) [محمد : ١٠] فَأَمَرَ الله بالسير وهو ينقسم إلى قسمين : سير بالقدم ، وسير بالقلب .

١ - أما السير بالقدم : فَأَنْ يَسِيرَ الْإِنْسَانُ فِي الْأَرْضِ عَلَى أَقْدَامِهِ ، أَوْ عَلَى رَاحِلَةٍ مِنْ بَعِيرٍ ، أَوْ سَيَّارَةٍ ، أَوْ طَيَّارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا ، حتى ينظر ماذا حصل للكافرين وماذا كانت حال الكافرين .

٢ - وأما السير بالقلب : فهذا يكون بالتأمل والتفكير فيما نقل من أخبارهم .

وأصح كتاب وأصدق كتاب وأنفع كتاب نقل أخبار الأولين كتاب الله ﷻ كما قال : ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

والقرآن مملوء من أخبار الأولين المكذبين للرسل والمؤيدين للرسل وَيَشْرَأُ الله عَاقِبَةَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ . ولهذا ينبغي للإنسان أَنْ يَقْرَأَ الآيَاتِ التي فيها أخبار من سبق ، وأن يسأل عن معناها ويستفسر حتى يكون على بصيرة من الأمر ، وكذلك - أيضاً - ما جاءت به الشئنة من أخبار الماضين فإنها جاءت

(١) قوله ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي : أهلك ما يختص بهم من النفس والأهل والمال .

بالأحاديث الكثيرة النافعة وهي إذا صَحَّتْ عن النبي ﷺ فإنها أصدق منقول من الأخبار .
ثم بعد ذلك ما نقله المؤرخون ويجب أن يحذر من النقل ؛ لأن غالب كتب التاريخ ليس لها أصل ولا إسناد . وإنما هي أخبار تتناقل بين الناس فيجب الحذر كل الحذر منها وأن يحرص الإنسان على أن يتبعها برفق ، ثم هذه الأخبار الواردة في غير الكتاب والسنة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :
القسم الأول : ما يشهد شرعنا بطلانه ؛ فهذا يجب رده وبيان خطئه وكذبه حتى يكون الناس منه على بصيرة .

القسم الثاني : ما أيده الكتاب والسنة ؛ فهذا يُقبل بشهادة الكتاب والسنة له بالصحة .
القسم الثالث : ما لم يؤيده الكتاب . ولا السنة : فهذا يُتوقف فيه ؛ لأن الأمم السابقة ليس بيننا وبينهم إسناد متصل حتى يمكن أن نعرف صحة ما نقل عنهم . ولكنه ينقل وتكون أخبارًا إسرائيلية ينظر فيها ولكن يتوقف فيها فلا تقبل ولا ترد هذا هو العدل .

ثم أشار المؤلف رحمه الله إلى الحديث السابق وهو قول الرسول ﷺ : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » . والكيس : هو الحازم الفطن المنتبه المنتهز للفرص ، هو الذي يدين نفسه أي : يحاسبها فينظر ماذا أهمل من الواجب ؟ وماذا فعل من المحرم ؟ وماذا فعل من الواجب ؟ وماذا ترك من المحرم ؟ حتى يصلح نفسه .

أما العاجز : فهو الذي يتبع نفسه هواها ، فما هوت نفسه أخذ به ، وما كرهت نفسه لم يأخذ به ، سواء وافق شرع الله أم لا . هذا هو العاجز ، وما أكثر اليوم الذين يُتَّبِعُونَ أَنْفُسَهُمْ هَوَاهَا وَلَا يُتَالُونَ بِمُخَالَفَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَهُمُ الْهَدَايَةَ .

وقوله : « وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » فيقول : سَيَغْفِرُ لِي وَسَوْفَ أَسْتَقِيمُ فيما بعد ، وسوف أقوم بالواجب فيما بعد ، وسوف أترك هذا فيما بعد ، أو يقول : الله يهديني ، وإذا نصحته قال : أسأل الله لي الهداية ، وما أشبهه ؛ هذا عاجز .

والكيس : هو الذي يعمل بحزم وجد ويخاسب نفسه ، ويكون عنده قوة في أمر الله وفي دين الله ؛ حتى يتمكن من ضبط نفسه ، وإلا فإن الله يقول في كتابه عن زوجة العزيز : ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ قَسِيئًا إِنْ أَلْقَسَ لَأَمَّارَةً يَأْتِسُّهُ إِلَّا مَا رَجِمَ بِهِ ﴾ [يوسف : ٢٣] نسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته ويعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

١٠ - باب المبادرة إلى الخيرات

وَحِثْ مَنْ تَوَجَّهَ لَخَيْرٍ عَلَى الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ بِالْجِدِّ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ

قال الله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨] . وقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب المبادرة إلى الخيرات وحث من توجه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردد) وهذا العنوان تضمن أمرين : الأول : المبادرة والمصارعة إلى الخير ، والثاني : أن الإنسان إذا عزم على الأمر وهو خير فليمض فيه ولا يتردد .

أما الأول : فهو المبادرة ، وهي ضد التواني والكسل ، وكم من إنسان توانى وكسل ففاته خير كثير ، ولهذا قال النبي ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، اخْرُضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ » (١) .

فالإنسان ينبغي له أن يسارع في الخيرات ، كلما ذكر له شيء من الخير بادر إليه ، فمن ذلك الصلاة ، والصدقة ، والصوم ، والحج ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، إلى غير ذلك من مسائل الخير ، التي ينبغي المصارعة إليها .

فالإنسان ربما يتوانى في الشيء ولا يقدر عليه بعد ذلك ، إما بموت ، أو مرض ، أو فوات ، أو غير هذا ، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرُضُ الْمَرِيضُ ، وَتَضِلُّ الرَّاحِلَةُ ، وَتَعْرُضُ الْحَاجَّةُ » (٢) .

فقد يعرض له شيء يمنعه من الفعل فسارع إلى الخير ولا تتوانى .

ثم ذكر المؤلف قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ واستبقوها يعني اسبقوا إليها ، وهو أبلغ من سابقوا إلى الخيرات ، فالاستباق معناه أن الإنسان يسبق إلى الخير ، ويكون من أول الناس في الخير ، ومن ذلك المسابقة في الصفوف في الصلاة ؛ فإن النبي ﷺ قال : « خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا ، وَشُرُّهَا آخِرُهَا ، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشُرُّهَا أَوَّلُهَا » (٣) .

ورأى النبي ﷺ أقوامًا في مؤخرة المسجد لم يسبقوا ولم يتقدموا ، فقال : « لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللَّهُ ﷻ » (٤) . فانتهاز الفرصة واسبق إلى الخير .

(١) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في المقدمة (٧٩) وأحمد في مسنده (٣٧٠/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٧٣٣) وأحمد في مسنده (٢١٤/١) ، والحاكم في المستدرک (٤٤٨/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٢) وأبو داود في الصلاة (٦٧٨) والترمذي في الصلاة (٢٢٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٠) وابن ماجه في الصلاة (٩٧٨) وأبو داود في الصلاة (٦٧٩) وأحمد في مسنده (٣٤/٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ۚ ۞ ﴾ [آل عمران : ١٣٣، ١٣٤] قال : سارعوا إلى المغفرة والجنة .

أما المسارعة إلى المغفرة : فإن يسارع الإنسان إلى ما فيه مغفرة الذنوب ، من الاستغفار لله ﷻ ، كقول : أستغفر الله ، أو : اللهم اغفر لي ، أو : اللهم إني أستغفرك ، وما أشبه ذلك ، وكذلك أيضاً الإسراع إلى ما فيه المغفرة مثل : الوضوء ، والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان .

فإن الإنسان إذا توجهاً فأسبغ الوضوء ثم قال : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ؛ فإنه تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ^(١) ، وكذلك إذا توجهاً فإن خطاياها تخرج من أعضاء وضوئه مع آخر قطرة من قطر الماء ^(٢) .

فهذه من أسباب المغفرة ، ومن أسباب المغفرة أيضاً : الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ، رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر ^(٣) ، فليسارع الإنسان إلى أسباب المغفرة .

الثاني : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ، وهذا يكون بفعل المأمورات ، أي أن تسارع للجنة بالعمل لها ، ولا عمل للجنة إلا العمل الصالح ، هذا هو الذي يكون سبباً لدخول الجنة فسارع إليه . ثم بين الله هذه الجنة ، بأن عرضها السماوات والأرض ، وهذا يدل على سعتها وعظمتها ، وأنه لا يقدر قدرها إلا الله ﷻ فسارع إلى هذه الجنة بفعل ما يوصلك إليها من الأعمال الصالحة ثم قال الله ﷻ ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني هُيئت لهم والذي أعدها لهم هو الله ﷻ ، كما جاء في الحديث القدسي : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ^(٤) .

ثم من هم المتقون ؟ قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُثْبَيْنِ وَالْعَفَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَقِيمٌ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤ - ١٣٦] .

هؤلاء هم المتقون : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ يعني يبدلون أموالهم ﴿ فِي السَّرَّاءِ ﴾ يعني في حال الرخاء ، وكثرة المال والسرور والانبساط ، ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ في حال الضيق والانقباض .

(١) دليل ذلك ما أخرجه الترمذي في السنن (٦٠٣) والنسائي في السنن (٩٣/١) وأحمد في مسنده (٢٦٥/٣) ، وابن ماجه في السنن (٤٦٩) .

(٢) يدل على ذلك ما أخرجه مسلم في الطهارة (٣٢) والترمذي في الطهارة (٣٢) وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

(٣) ودليل ذلك ما أخرجه مسلم في الطهارة (١٥ ، ١٦) والترمذي في السنن (٢١٤) وابن ماجه في السنن (٥٩٨) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢ ، ٣) وأحمد في مسنده (٤٦٦/٢) .

ولكن لم يبين الله تعالى هنا مقدار ما ينفقون ، ولكنه بينه في آيات كثيرة ، فقال تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ﴾ [البقرة : ٢١٩] العفو : يعني ما زاد عن حاجاتكم وضروراتكم فأنفقوه ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] فهم ينفقون إنفاقاً ليس فيه إسراف ولا تقتير ، وينفقون أيضاً العفو ، أي ما عفا وزاد عن حاجاتهم وضروراتهم ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ أي الذين إذا اغتاظوا - أي اشتد غضبهم - كظموا غيظهم ، ولم ينفذوه وصبروا على هذا الكظم ، وهذا الكظم من أشد ما يكون على النفس ، كما قال النبي ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ؛ ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » ^(١) الصرعة : يعني الذي يصرع الناس ، أي يغلبهم في المصارعة ، فليس هذا هو الشديد ، ولكن الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب ؛ لأن الإنسان إذا غضب ثارت نفسه ، فانتفخت أوداجه واحمرت عيناه ، وصار يحب أن ينتقم ، فإذا كظم الغيظ وهذا ، فإن ذلك من أسباب دخول الجنة .

واعلم أن الغضب جمرة يلقبها الشيطان في قلب ابن آدم ، إذا أتاه ما يهزه ، ولكن النبي ﷺ أعلمنا بما يطفئ هذه الجمرة ، فمن ذلك : أن يتعوذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم ، فإذا أحس بالغضب وأن الغضب سيغلبه قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ^(٢) ، ومنها : أن يجلس إن كان قائماً ، ويضطجع إن كان قاعداً ^(٣) . يعني يضع نفسه ، وينزلها من الأعلى إلى الأدنى ، فإن كان قائماً جلس ، وإن كان جالساً اضطجع ، ومنها أن يتوضأ بتطهير أعضائه الأربعة ؛ الوجه واليدين والرأس والرجلين ، فإن هذا يطفئ الغضب ^(٤) ، فإذا أحسست بالغضب فاستعمل هذا الذي أرشدك إليه النبي ﷺ حتى يزول عنك ، وإلا فكم من إنسان أدى به غضبه إلى مفارقة أهله ، فما أكثر الذين يقولون : أنا غضبت على زوجتي فطلقتها ثلاثاً ، وربما يغضب ويضرب أولاده ضرباً مبرحاً ، وربما يغضب ويكسر أواني ، أو يشق ثيابه ، أو ما أشبه ذلك مما يثيره الغضب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ مدحهم لأنهم ملكوا أنفسهم عند سورة الغضب ^(٥) .

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ يعني الذين إذا أساء الناس إليهم عفووا عنهم ، فإن من عفا وأصلح فأجره على الله ، وقد أطلق الله العفو هنا ، ولكنه بين في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] أن العفو لا يكون خيراً إلا إذا كان فيه إصلاح ، فإذا أساء إليك شخص معروف بالإساءة والتمرد والطغيان على

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) وأحمد في مسنده (٢٣٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٤١/١٠) .

(٢) ودليل ذلك ما أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٥) ومسلم في البر والصلة (١٠٩ ، ١١٠) وأبو داود في السنن (٤٧٨٠) .

(٣) ويدل على ذلك ما أخرجه أبو داود في الأدب (٤٧٨٢) وأحمد في مسنده (١٥٢/٥) ، وابن حبان في صحيحه (١٩٧٣) .

(٤) ويدل على ذلك ما أخرجه أبو داود في الأدب (٤٧٨٤) وأحمد في مسنده (٢٢٦/٤) ، والطبراني في الكبير (١٦٧/١٧) ، والبيهقي في شرح السنة (١٦١/١٣) .

(٥) سورة الغضب : أي شدته (المعجم العربي الأساسي . مادة سور) .

عباد الله ، فالأفضل ألا تغفوه عنه ، وأن تأخذ بحقك ؛ لأنك إذا عفوت ازداد شره ، أما إذا كان الإنسان الذي أخطأ عليك قليل الخطأ ، قليل العدوان ، لكن أمر حصل على سبيل الندرة ، فهنا الأفضل أن تغفوه ، ومن ذلك حوادث السيارات اليوم التي كثرت ، فإن بعض الناس يتسرع ويعفو عن الجاني الذي حصل منه الحادث ، وهذا ليست بالأحسن ، الأحسن أن تأمل وتنظر : هل هذا السائق متهور ومستهر ، لا يبالي بعباد الله ولا يبالي بالأنظمة ، فهذا لا ترحمه ، خذ بحقك منه كاملاً ، أما إذا كان إنساناً معروفاً بالتأني ، وخشية الله ، والبعد عن أذية الخلق ، والتزام النظام ، ولكن هذا أمر حصل من فوات الحرص ، فاعفو هنا أفضل ؛ لأن الله قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ فلا بد من مراعاة الإصلاح عند العفو .

ثم بعد أن قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنِّتُمْ عَنْهُمَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرِّ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَظِيمِ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤] ومحبة الله ﷻ للعبد هي غاية كل إنسان ؛ كل إنسان مؤمن فإن غايته أن يحبه الله ﷻ ، وهي المقصود لكل مؤمن ، لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ولم يقل : اتبعوني تصدقوا فيما قلتم ، بل عدل عن هذا إلى قوله ﴿ يُحِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ لأن الشأن كل الشأن أن يحبك الله ﷻ ، أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أحبائه .

وأما المحسنون في قوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فالمراد بهم المحسنون في عبادة الله والمحسنون إلى عباد الله .

والمحسنون في عبادة الله ، بين رسول الله ﷺ مرتبتهم في قوله ، حين سأله جبريل عن الإحسان قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(١) يعني أن تعبد الله ﷻ بقلب حاضر كأنك ترى ربك تريد الوصول إليه ، فإن لم تفعل فاعلم أن الله يراك ، فاعبده خوفاً وخشية ، وهذه المرتبة دون المرتبة الأولى ؛ فالمرتبة الأولى : أن تعبد الله طلباً ومحبة وشوقاً . والثانية : أن تعبده هرباً وخوفاً وخشية .

أما الإحسان إلى عباد الله : فإن تعاملهم بما هو أحسن ، في الكلام ، والأفعال ، والبذل ، وكف الأذى وغير ذلك ، حتى في القول ؛ فإنك تعاملهم بالأحسن ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحِوًّا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] يعني إن لم تفعلوا فتردوا بأحسن منها ، فلا أقل من أن تردوها ، ولهذا قال كثير من العلماء : إذا قال المسلم : السلام عليكم ورحمة الله ، قل : السلام عليكم ورحمة الله . هذا أدنى شيء ، فإن زدت : « وبركاته » فهو أفضل ، لأن الله قال بأحسن منها ، فبدأ بالأحسن ^(٢) ، ثم قال : ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ كذلك إذا سلم عليك إنسان بصوت واضح بين ، ترد عليه بصوت واضح بين ، على الأقل ، كثير من الناس أو بعض الناس إذا سلمت عليه رد السلام بأنفه ، حتى إنك تكاد لا تسمعه في رد السلام ، وهذا غلط ؛ لأن هذا خلاف ما سلم عليك به ، يسلم عليك بصوت واضح ثم ترد بأنفك !! هذا خلاف ما أمر الله به .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (٥٩) وأبو داود في السنن (٤٦٩٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) انظر في ذلك : تفسير القرطبي (٢٢٩/٥ ، ٢٣٠) سبل السلام (١٥٦/٤) ، فقه الكتاب والسنة (١٣٧٧/٣ ، ١٣٧٨) .

كذلك الإحسان بالفعل مثل معونة الناس ، ومساعدتهم في أمورهم . كلما ساعدت إنساناً فقد أحسنت إليه ، مساعدة بالمال ، بالصدقة ، بالهدية ، بالهبة وما أشبه ذلك ، هذا من الإحسان . ومن الإحسان أيضاً : أنك إذا رأيت أخاك على ذنب أن تبين له ذلك وتنهيه عنه ؛ لأن هذا من أعظم الإحسان إليه ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قالوا : يا رسول الله ، هذا المظلوم فكيف ننصر الظالم ؟ قال : « أن تمنعه من الظلم » ^(١) فإن منعك إياه من الظلم نصر وإحسان إليه ، والمهم أنه ينبغي لك في معاملة الناس أن تستحضر هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فتحسن إليهم بقدر ما تستطيع .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً ﴾ والفاحشة ما يستفحش من الذنوب ، وهي كبائر الذنوب : مثل الزنا ، وشرب الخمر ، وقتل النفس وما أشبهها ، كل ما يستفحش فهو فاحشة ﴿ أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بما دون الفاحشة من المعاصي الصغار ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ أي ذكروا عظمته وذكروا عقابه ، ثم ذكروا أيضاً رحمته وقبوله للتوبة وثوابها ؛ فهم يذكرون الله من وجهين :

الوجه الأول : من حيث العظمة والعقوبة والسلطان العظيم ، فيوجلون ^(٢) ، ويخجلون ، ويستغفرون .

والثاني : من حيث الرحمة وقبول التوبة ، فيرغبون في التوبة ويستغفرون الله ، ولهذا قال : ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ومن أفضل ما يُستغفر به سيد الاستغفار : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] يعني لا أحد يغفر الذنوب إلا الله ﷻ ، لو أن الأمة كلها من أولها إلى آخرها ، والجنة والملائكة اجتمعوا على أن يغفروا لك ذنباً واحداً ماغفروه ؛ لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله ﷻ . ولكننا نسأل الله المغفرة ، لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، وأما أن يكون بيدنا أن نغفر ، فلا يغفر الذنوب إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَقْلُمُونَ ﴾ [آل عمران : ٣٥] يعني لم يستمروا على معاصيهم وظلمهم وهم يعلمون أنها معاصي وظلم ، وفي هذا دليل على أن الإصرار مع العلم أمره عظيم ، حتى في صغائر الذنوب ، ولهذا ذهب كثير من العلماء ، إلى أن الإنسان إذا أصر ولو على الصغيرة ، صارت الصغيرة كبيرة . ومن ذلك ما يفعله جهلة الناس اليوم من حلق اللحية ، تجدهم يحلقون اللحية ويصرون على ذلك ، ولا يرونها إلا زينة وجمالاً ، والحقيقة أنها شين وأنها قبح ؛ لأن

(١) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢) والترمذي في السنن (٢٢٨٢) وأحمد في مسنده (٩٩/٣) .

(٢) وجل : أي خاف وفرغ (المعجم العربي الأساسي ص ١٢٩٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٢) وأحمد في مسنده (١٢٥/٤) .

كل شيء ينتج عن المعصية فلا خير فيه ، بل هو قبح ، وهؤلاء الذين يصرون على هذه المعصية وإن كانت صغيرة ، أخطأوا ، لأنها بالإصرار تنقلب كبيرة والعياذ بالله ، لأن الإنسان لا ييالي ، تجده كل يوم ، كلما أراد أن يخرج إلى السوق أو إلى عمله يذهب وينظر في المرأة ، إذا وجد شعرة واحدة قد برزت تجده يسارع إلى حلقها وإزالتها ، نسأل الله العافية ، وهذا ولا شك أنه معصية للرسول عليه الصلاة والسلام ، وإن الإنسان ليخشى عليه من هذا الذنب أن يتدرج به الشيطان إلى ذنوب أكبر وأعظم .

قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهم وَجِزَاءٌ مِّنْ تَحْتِهَا أَلْأَنذَرُ خَلِيدٍ فِيهَا وَنَجَّمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٦] اللهم اجعلنا من هؤلاء العاملين واجعل جزاءنا ذلك يارب العالمين .

وأما الأحاديث :

٨٧ - فالأول : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُضْهِجُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُؤْمِسِي كَافِرًا ، وَيُؤْمِسِي مُؤْمِنًا وَيُضْهِجُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بَعْرَضٍ مِّنَ الدُّنْيَا » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال » وبادروا يعني أسرعوا إليها والمراد : الأعمال الصالحة وهي كل عمل يعمل به الإنسان خالصاً لله موافقاً فيه رسول الله ﷺ ، يعني أن العمل الصالح ما بني على أمرين : الإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله ﷺ ، وهذا هو تحقيق شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فالعمل الذي ليس بخالص ليس بصالح ، لو قام الإنسان يصلي ولكنه يرائي الناس بصلاته ؛ فإن عمله لا يقبل حتى لو أتى بشروط الصلاة ، وأركانها ، وواجباتها ، وسننها ، وطمأنينتها ، وأصلح إصلاحاً تاماً في الظاهر ، لكنها لا تقبل منه ؛ لأنها خالطها الشرك ، والذي يشرك بالله معه غيره لا يقبل الله عمله ، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك » يعني إذا أحد شاركني فأنا أغني عن شركه ، « من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » ^(٢) .

كذلك أيضاً : لو أن الإنسان أخلص في عمله ، لكنه أتى ببذعة ما شرعها الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإن عمله لا يقبل حتى لو كان مخلصاً ، حتى لو كان ييكي من الخشوع ؛ فإنه لا ينفعه ذلك ، لأن البذعة وصفها النبي ﷺ بأنها ضلالة ، فقال : « فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » ^(٣) .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨٦) والترمذي في الفتن (٢١٩٥) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٢ ، ٥٢٣) .
 (٢) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦ ، ٦٠) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) وأحمد في مسنده (٤٦٦/٣) .
 (٣) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٧٦) وأبو داود في السنة (٤٦٠٧) وأحمد في مسنده (١٢٦/٤) والطبراني في الكبير (٢٤٨/١٨) .

فقلوه ﷺ : « بادروا بالأعمال » يعني بالأعمال الصالحة ، وهي كل عمل كان خالصاً لله ، صواباً على شريعة الله ، هذا هو العمل الصالح ، ثم قال : « فتنًا كقطع الليل المظلم » أخبر أنه ستوجد فتن كقطع الليل المظلم ، يعني أنها مدلهمة مظلمة لا يرى فيها النور والعياذ بالله ، ولا يدري الإنسان أين يذهب ، يكون حائراً ، ما يدري أين المخرج ، أسأل الله وإياكم أن يعيذنا من الفتن .

والفتن منها ما يكون من الشبهات ، وفتن تكون من الشهوات :

فتن الشبهات : كل فتنة مبنية على الجهل فهي فتنة شبهة ، ومن ذلك : ما حصل من أهل البدع الذين ابتدعوا في عقائدهم ما ليس من شريعة الله ، أو أهل البدع الذين ابتدعوا في أقوالهم وأفعالهم ما ليس من شريعة الله ، فإن الإنسان قد يفتن - والعياذ بالله - فيضل عن الحق بسبب الشبهة .

ومن ذلك أيضاً : ما يحصل في المعاملات من الأمور المشتبهة التي هي واضحة في قلب الموقن ، مشتبهة في قلب الضال - والعياذ بالله - ، تجده يتعامل معاملة تبين أنها محرمة ، لكن لما على قلبه من رين الذنوب - نسأل الله العافية - يشتبه عليه الأمر ، فيزين له سوء عمله ، ويظنه حسناً ، وقد قال الله في هؤلاء : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۚ الَّذِينَ ضَلَّ سَعَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] . فهؤلاء هم الأخسرون - والعياذ بالله . إذن الفتن تكون من الشبهات .

وتكون أيضاً من الشهوات : بمعنى أن الإنسان يعرف أن هذا حرام ، ولكن لأن نفسه تدعوه إليه فلا يبالى ، بل يفعل الحرام ، يعلم أن هذا واجب ، لكن نفسه تدعوه للكسل ؛ فيترك هذا الواجب ، هذه فتنة شهوة ، يعني فتنة لإرادة ، ومن ذلك أيضاً - بل من أعظم ما يكون - : فتنة شهوة الزنا أو اللواط والعياذ بالله ، وهذه من أضر ما يكون على هذه الأمة ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » ^(١) ، وقال : « اتقوا النساء فإنما كانت فتنة بني إسرائيل في النساء » ^(٢) ، ولدينا الآن - وفي مجتمعنا - من يدعوا إلى هذه الرذيلة - والعياذ بالله - بأساليب ملتوية ، يلتوون فيها بأسماء لا تمت إلى ما يقولون بصلة ، لكنها وسيلة إلى ما يريدون ، من تهتك لستر المرأة ، وخروجها من بيتها لتشارك الرجل في أعماله ، ويحصل بذلك الشر والبلاء ، ولكن نسأل الله أن يجعل كيدهم في نحورهم ، وأن يسلب حكامنا عليهم بإبعادهم عن كل ما يكون سبباً للشر والفساد في هذه البلاد ، ونسأل الله ﷻ أن يوفق لحكامنا بطانة صالحة تدلهم على الخير وتحثهم عليه .

إن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء ، وهي أعظم فتنة ، وهناك أناس الآن يحيكون كل حياكة من أجل أن يهدروا كرامة المرأة ، من أجل أن يجعلوها كالصورة ، كالدمى ، مجرد شهوة وزهرة يتمتع بها الفساق والسفلاء من الناس ، ينظرون إلى وجهها كل حين ، وكل ساعة - والعياذ بالله - ، ولكن

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧ ، ٩٨) والترمذي في السنن (٢٧٨٠) وأحمد في مسنده (٢٠٠/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) وابن ماجه في السنن (٤٠٠٠) وأحمد في مسنده (٢٢/٣) ، والبيهقي في السنن (٩١/٧) .

بحول الله أن دعاء المسلمين سوف يحيط بهم ، وسوف يكتبهم ويردهم على أعقابهم خائبين ، وسوف تكون المرأة في كل مكان من بلاد الإسلام محترمة مصونة ، حيث وضعها الله ﷻ .

المهم : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حذرنا من هذه الفتن التي كقطع الليل المظلم ، يصبح الإنسان مؤمناً ويمسي كافراً ، والعياذ بالله . يوم واحد يرتد عن الإسلام ، يخرج من الدين ، يصبح فيه مؤمناً ويمسي كافراً ، - نسأل الله العافية . لماذا ؟ « يبيع دينه بعرض من الدنيا » ولا تظن أن العرض من الدنيا هو المال ، كل متاع الدنيا عرض ، سواء مال أو جاه أو رئاسة ، أو نساء أو غير ذلك ، كل ما في الدنيا من متاع فإنه عرض ، كما قال تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَسَدَ أَهْوٍ مَّكَانَهُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] فما في الدنيا كله عرض .

فهؤلاء الذين يصبحون مؤمنين ويمسون كافراً ، أو يمسون مؤمنين ويصبحون كافراً ، كلهم يبيعون دينهم بعرض من الدنيا ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الفتن . واستعينوا دائماً من الفتن ، وما أعظم ما أمرنا به نبينا - عليه الصلاة والسلام - ، حيث قال : « إذا تشهد أحدكم - يعني التشهد الأخير - « فليستعذ بالله من أربع ، يقول : إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (١) نسأل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

* * *

٨٨ - الثاني : عَنْ أَبِي سِرْوَةَ - بكسر السين المهملة وفتحها - عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ ﷺ قال : صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ ، فَسَلَّمْتُ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ ، فَفَزَعَ النَّاسَ مِنْ سُرْعَتِهِ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ، فَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَجَبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ ، قَالَ : « ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تَبَرُّعِنَا ، فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي ، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ » رواه البخاري .
وفي رواية له : « كُنْتُ خَلَفْتُ فِي الْبَيْتِ تَبَرُّاً مِنَ الصَّدَقَةِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ » (٢) . « التَّبَرُّ : قَطَعَ ذَهَبَ أَوْ فِضَّةً .

الشرح

قال المؤلف ﷺ فيما نقله عن عقبة بن الحارث ﷺ أنه صلى مع النبي ﷺ ذات يوم صلاة العصر ، فقام النبي ﷺ حين انصرف من صلاته مسرعاً يتخطى رقاب الناس إلى بعض حجرات زوجاته ، ثم خرج فرأى الناس قد عجبوا من ذلك ، فبين لهم النبي ﷺ سبب هذا ، وقال : « ذكرت شيئاً من تبر عندنا » ، يعني مما تجب قسمته « فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته » ، ففي هذا الحديث المبادرة إلى فعل الخير ، وألا يتوانى الإنسان عن فعله ، وذلك لأن الإنسان لا يدري متى يفجأه الموت فيفوته الخير ، والإنسان ينبغي أن يكون كَيِّسًا ، يعمل لما بعد الموت ولا يتهاون ، وإذا كان الإنسان في أمور

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٢٨) وأحمد في مسنده (٤٤٧/٢) ، والبيهقي في السنن (١٥٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٥١) .

دنيه يكون مسرعاً ويتنزه الفرص ، فإن الواجب عليه في أمور أخره أن يكون كذلك بل أولى ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۚ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ ﴾ [صَحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَثَمُودَ] ﴿ [الأعلى: ١٦-١٩] وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ ، أسرع الناس مبادرة إلى الخير ، وأنه عليه الصلاة والسلام محتاج إلى العمل كما أن غيره محتاج إلى العمل ، ولهذا لما حدث فقال : « إنه لمن يدخل الجنة أحد بعمله » ، قالوا ولا أنت ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته » (١) هذا وهو النبي عليه الصلاة والسلام .

وفي هذا الحديث : دليل على جواز تخطي الرقاب بعد السلام من الصلاة ، ولا سيما إذا كان الحاجة ، وذلك لأن الناس بعد السلام من الصلاة ليسوا في حاجة إلى أن يبقوا في أماكنهم ، بل لهم الانصراف ، بخلاف تخطي الرقاب قبل الصلاة ، فإن ذلك منهي عنه ، لأنه إيذاء للناس ، ولهذا قطع النبي ﷺ خطبته يوم الجمعة حين رأى رجلاً يتخطى الرقاب ، فقال له : « اجلس فقد آذيت » (٢) .

وفي هذا الحديث : دليل على أن رسول الله ﷺ كغيره من البشر ، يلحقه النسيان ، وأنه ينسى كما ينسى غيره ، وإذا كان ﷺ ينسى ما كان معلوماً عنده من قبل ، فإنه كذلك من باب أولى يجهل ما لم يكن معلوماً عنده من قبل ، كما قال الله له : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ ﴾ [الأنعام: ٥٠] فأمره الله أن يعلن للملأ أنه ليس عنده خزائن الله ، وأنه لا يعلم الغيب ، وأنه ليس بملك ، صلوات الله وسلامه عليه .

وفي هذا قطع السبيل على من يلتجئون إلى الرسول ﷺ في مهماتهم وملماتهم ، ويدعونه ، فإن هؤلاء من أعدائه وليسوا من أوليائه ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لو كان حياً لاستباهبهم فإن تابوا وإلا قتلهم . لأنهم مشركون ، فإن الإنسان لا يجوز أن يدعو غير الله ﷻ ؛ لا ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا ، وهو - عليه الصلاة والسلام - إنما جاء لحماية التوحيد وتحقيق عبادة الله ، فالنبي ﷺ لا يعلم الغيب ، وينسى ما كان قد علم من قبل ، ويحتاج إلى الأكل والشرب واللباس والوقاية من الأعداء ، وقد ظاهر بين درعين في غزوة أحد ، يعني لبس درعين ، خوفاً من السلاح (٣) .

فهو كغيره من البشر ، جميع الأحكام البشرية تلحقه عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال الله له : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ ۚ ﴾ [الكهف: ١١٠] فتأمل وصفه بأنه بشر مثلك ، لو لم يقل مثلكم لكفى ، يعني إذا قال إنما أنا بشر ، علمنا بطريق القياس أنه بشر كالبشر ، لكن قال ﴿ مِثْلُكُمْ ۚ ﴾ ، لا أتميز عليكم بشيء إلا بالوحي ، ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ ۚ ﴾ الآية .

وفي هذا الحديث أيضًا : دليل على شدة الأمانة وعظمها ، وأن الإنسان إذا لم يبادر بأدائها فإنها قد

(١) أخرجه البخاري في المرض (٥٦٧٣) والرقاق (٦٤٦٧) وفيه « فإنه بدلاً من لا إنه » . ومسلم في صفات المنافقين (٧٨) وأحمد في مسنده (٤٤٦٢) ، والبيهقي في السنن (٣٧٧/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١١١٨) وابن ماجه في السنن (١١١٥) والنسائي في السنن (١٠٣/٣) .

(٣) انظر ذلك في الترمذي في الجهاد (١٦٩٢) وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٠) وأحمد في مسنده (٤٤٩/٣) .

تحبسه ، ولهذا قال : « فكرهت أن يحبسني » ، وإذا كان هذا في الأمانة ، فكذلك أيضًا في الدين ؛ يجب على الإنسان أن يبادر بقضاء دينه إذا كان حالاً ، إلا أن يسمح له صاحب الدين فلا بأس أن يؤخر ، أما إذا كان لم يسمح له ؛ فإنه يجب عليه المبادرة لأدائه ، حتى إن العلماء - رحمهم الله - قالوا : إن فريضة الحج تسقط على من عليه الدين حتى يؤديه ، لأن الدين أمره عظيم ^(١) . كان النبي - عليه الصلاة والسلام - قبل أن يفتح الله عليه الفتوح إذا جيء إليه بالرجل سأل : « هل عليه دين ؟ » فإن قالوا : لا ، تقدم وصلى عليه ، وإن قالوا : نعم ، سأل : « هل له وفاء ؟ » فإن قالوا : نعم ، تقدم وصلى ، وإن قالوا : لا ، تأخر ولم يصل ^(٢) . يترك الصلاة على الميت إذا كان عليه في دين . فقدم إليه ذات يوم رجل من الأنصار ليصلي عليه فخطأ خطوات ثم قال : « هل عليه دين ؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله ، ثلاثة دنائير وليس لها وفاء ، فتأخر وقال : « صلوا على صاحبكم » فعرف ذلك في وجوه القوم ، تغيرت وجوههم ، كيف لم يصل عليه النبي عليه الصلاة والسلام ؟! فتقدم أبو قتادة رضي الله عنه ، وقال يا رسول الله : علي دينه ، فتقدم النبي ﷺ فصلى عليه ^(٣) .

ومع الأسف الآن تجد كثيرًا من الناس عليه الدين وهو قادر على الوفاء ، ولكنه يماطل - والعياذ بالله - وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « مطل الغني ظلم » ^(٤) واعلم أن الدين ليس كما يفهمه الناس ؛ هو الذي يأخذ سلعة بثمن أكثر من ثمنها ، الدين كل ما ثبت في الذمة ، فهو دين ، حتى القرض - السلف - حتى إيجار البيت ، حتى أجرة السيارة ، أي شيء ثبت في ذمتك فهو دين عليك أن تبادر بوفائه ما دام حالاً . وفي هذا الحديث أيضًا : دليل على جواز التوكيل في القسم ؛ قسم ما يجب على الإنسان قسمته ، ولهذا قال : « فأمرت بقسمته » فأمر - عليه الصلاة والسلام - أن يقسم ، وهذا التوكيل جائز في كل حق تدخله النيابة من حقوق الله ؛ كالحج مثلاً ، وأداء الزكاة ، وحقوق الآدميين ؛ كالبيع ، والشراء ، والرهن وما أشبهها . وخلاصة هذا الحديث والمهم منه : هو المبادرة إلى فعل الخيرات ، وعدم التهاون في ذلك ، لا تتهاون ، واعلم أنك إذا عودت نفسك على التهاون اعتادت عليه ، وإذا عودتها على الحزم والفعل والمبادرة اعتادت عليه . وأسأل الله تعالى أن يعينني وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

(١) وقد اشترط الأخفاف في الاستطاعة إلى الحج أن يكون الحاج مالكا للزاد والراحلة واشتروا أن يكون هذا فاضلاً عما يحتاج إليه لنفسه ولنفقة عياله الذين تلزمهم نفقتهم ، وأن يكون فاضلاً عن قضاء دينه ؛ لأن قضاء الدين من حوائجه الأصلية ويتعلق به حقوق الآدميين ؛ فهو أكد ، ولذلك منع الزكاة مع تعلق حقوق الفقراء بها وحاجتهم إليها (انظر : المغنى مع الشرح الكبير ١٧٢/٣) .

(٢) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٩) وأحمد في مسنده (٢٩٦/٣) ، والبيهقي في السنن (٧٢/٦) ، والطبراني في الكبير (٣٥/٧) .

(٣) انظر هذا الحديث بنصه في البخاري في الكفالة (٢٢٩٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٠) ومسلم في المساقاة (٣٣) والترمذي في السنن (١٣٠٨) والنسائي في السنن (٣١٧/٧) .

٨٩ - الثالث : عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ : أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيُّنَا أَنَا ؟ قَالَ : « فِي الْجَنَّةِ » فَأَلْقَى تَمْرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ^(١) . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن جابر رضي الله عنه ، وعن أبيه : أن رجلاً قال للنبي ﷺ يوم أحد : يا رسول الله أرايت إن قاتلت حتى قتلت ، قال : « أنت في الجنة » ، فألقى تمرات كانت معه ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه ، ففي هذا الحديث دليل على مبادرة الصحابة رضي الله عنهم إلى الأعمال الصالحة وأنهم لا يتأخرون فيها ، وهذا شأنهم ، ولهذا كانت لهم العزة ، في الدنيا وفي الآخرة .

ونظير هذا أن النبي ﷺ خطب الناس يوم عيد ، ثم نزل فتقدم إلى النساء فخطبهن ، وأمرهن بالصدقة ، فجعلت المرأة منهن تأخذ خرصها وخاتمها ، وتلقيه في ثوب بلال ، يجمعه حتى أعطاه النبي ﷺ ، ولم يتأخرن رضي الله عنهن بالصدقة ، بل تصدقن حتى من حليهن ^(٢) .

وفي حديث جابر من الفوائد : أن من قتل في سبيل الله فإنه في الجنة ، ولكن من هو الذي يقتل في سبيل الله ؟ الذي يقتل في سبيل الله هو الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، لا يقاتل حمية ولا شجاعة ولا رياء ، وإنما يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، أما من قاتل حمية مثل الذين يقاتلون من أجل القومية العربية مثلاً ، فإن هؤلاء ليسوا شهداء ، وذلك لأن القتال من أجل القومية العربية ليس في سبيل الله ؛ لأنه حمية .

وكذلك أيضاً : من يقاتل شجاعة ؛ يعني من تحمله شجاعته على القتال لأنه شجاع ، والغالب أن الإنسان إذا اتصف بصفة يحب أن يقوم بها ، فهذا أيضاً إذا قتل ليس في سبيل الله .

وكذلك أيضاً : من قاتل مراعاة والعياذ بالله ، ليرى مكانه ، وأنه رجل يقاتل الأعداء الكفار ، فإنه ليس في سبيل الله ؛ لأن النبي ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية ، ويقاقل شجاعة ، ويقاقل ليرى مكانه ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ^(٣) .

وفي هذا دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة الأمور ؛ لأن هذا الرجل سأل النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا من عادتهم أنهم لا يفوتون الفرصة حتى يسألون النبي ﷺ ، لأنهم يستفيدون من هذا علماً وعملاً ، فإن العالم بالشرعية قد من الله عليه بالعلم ، ثم إذا عمل به فهذه منة

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٦) ومسلم في الإمامة (١٤٣) وأحمد في مسنده (٣٠٨/٣) ، والبيهقي في سننه (٤٣/٩ ، ٩٩) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في العيدين (٩٦٤) ومسلم في العيدين (٢ ، ١٣) والدارمي في الصلاة (٢١٨) وأحمد في مسنده (٢٢٠/١) .

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٢٦) ومسلم في الإمامة (١٤٩ ، ١٥٠) . والترمذي في السنن (١٦٤٦) وابن ماجه في السنن (٥٧٨٣) .

أخرى ، والصحابة رضي الله عنهم كان هذا شأنهم ، فيسألون النبي ﷺ عن الحكم الشرعي من أجل أن يعملوا به ، بخلاف ما عليه كثير من الناس اليوم ؛ فإنهم يسألون عن الأحكام الشرعية حتى إذا علموا بها تركوها وينذوها وراء ظهورهم ، وكأنهم لا يريدون من العلم إلا مجرد المعرفة النظرية ، وهذا في الحقيقة خسران مبین ؛ لأن من ترك العمل بعد علمه به فإن الجاهل خير منه .

فإذا قال قائل : لو رأينا رجالاً يقاتلون ، ويقولون نحن نقاتل للإسلام . دفاعاً عن الإسلام ، ثم قتل أحد منهم فهل نشهد له بأنه شهيد؟ فالجواب : لا . لا نشهد بأنه شهيد ؛ لأن النبي ﷺ قال : « ما من مكلم يكلم في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجرحه يشغب دماً ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » ^(١) فقلوه : « والله أعلم بمن يكلم في سبيله » يدل على أن الأمر يتعلق بالنية المجهولة لنا ، المعلومة عند الله ، وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم فقال : أيها الناس ، إنكم تقولون فلان شهيد وفلان شهيد ، ولعله أن يكون قد أقرق راحلته ، يعني قد حملها من الغلول ، يعني لا تقولوا هكذا ولكن قولوا : من مات أو قتل في سبيل الله فهو شهيد ^(٢) . فلا تشهد لشخص بعينه أنه شهيد إلا من شهد له النبي ﷺ فإنك تشهد له ، أما من سوى هذا فقل كلاماً عاماً ، قل : من قتل في سبيل الله فهو شهيد ، هذا نرجو أن يكون من الشهداء وما أشبه ذلك من الكلام .

* * *

٩ - الرابع : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم . قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » ^(٣) متفق عليه .
« الحلقوم » : مجزى النفس . و المريء : مجزى الطعام والشراب .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأله رجل فقال : أي الصدقة أفضل ؟ فقال النبي ﷺ : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » هذا الحديث ساقه المؤلف رحمته الله في باب المبادرة إلى فعل الخيرات وعدم التردد في فعلها إذا أقبل عليها . فإن هذا الرجل سأل النبي ﷺ : أي الصدقة أفضل ؟ وهو لا يريد أي الصدقة أفضل في نوعها ، ولا في كميتها ، وإنما يريد ما هو الوقت الذي تكون فيه الصدقة أفضل من غيرها ؟ فقال له : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح » يعني صحيح

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٣٣) بلفظ « ما من مكلم يكلم في الله » وأحمد في مسنده (٣٨٤/٢) بلفظه .

(٢) أخرجه النسائي في النكاح (١١٨/٦) وأحمد في مسنده (٤١/١ ، ٤٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٨) ومسلم في الزكاة (٩٢) وأحمد في مسنده (٢٣١/٢ ، ٤١٥ ، ٤٤٧)

وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٥) والبيهقي في السنن (١٩٠/٤) .

البدن شحيح النفس ؛ لأن الإنسان إذا كان صحيحًا كان شحيحًا بالمال ؛ لأنه يأمل البقاء ، ويخشى الفقر ، أما إذا كان مريضًا ، فإن الدنيا ترخص عنده لا تساوي شيئًا ، فتَهون عليه الصدقة .

قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل البقاء وتخشى الفقر » وفي رواية : « تخشى الفقر وتأمل الغنى » ^(١) ، ولكن الرواية الأولى أحسن ، وقوله : « تأمل البقاء » يعني أنك لكونك صحيحًا تأمل البقاء وطول الحياة ؛ لأن الإنسان الصحيح يستبعد الموت ، وإن كان الموت قد يفجأ الإنسان بخلاف المريض ، فإنه يتقارب الموت .

وقوله : « وتخشى الفقر » يعني لطول حياتك ، فإن الإنسان يخشى الفقر إذا طالبت به الحياة ؛ لأن ما عنده ينفذ ، فهذا أفضل ما يكون ، أن تصدق في حال صحتك وشحك .

« ولا تمهل » أي لا تترك الصدقة ، « حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت : لفلان كذا ولفلان كذا » حتى إذا جاءك الموت وبلغت روحك حلقومك ، وعرفت أنك خارج من الدنيا « قلت : لفلان كذا » يعني صدقة « ولفلان كذا » يعني صدقة ، « وقد كان لفلان » أي قد كان المال لغيرك ، لفلان : يعني للذي يرثك . فإن الإنسان إذا مات انتقل ملكه ولم يبق له شيء من المال .

ففي هذا الحديث : دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يبادر بالصدقة قبل أن يأتيه الموت ، وأنه إذا تصدق في حال حضور الأجل ، كان ذلك أقل فضلًا مما لو تصدق وهو صحيح شحيح .

وفي هذا : دليل على أن الإنسان إذا تكلم في سياق الموت ؛ فإنه يعتبر كلامه إذا لم يذهل ^(٢) ، فإن أذهل حتى صار لا يشعر بما يقول ، فإنه لا عبرة بكلامه ، لقوله : « حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » .

وفيه : دليل على أن الروح تخرج من أسفل البدن تصعد حتى تصل إلى أعلى البدن ، ثم تقبض من هناك ، ولهذا قال ﷺ : « حتى إذا بلغت الحلقوم » وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحَلُقُومَ وَأَنفَسَتْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٨٣، ٨٤] فأول ما يموت من الإنسان أسفله ، تخرج الروح بأن تصعد في البدن إلى أن تصل إلى الحلقوم ، ثم يقبضها ملك الموت ، نسأل الله أن يختم لنا ولكم بالخير والسعادة .

٩١ - الخامس : عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أَخَذَ سِقًا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ : « مَنْ يَأْخُذْ مِنِّي هَذَا ؟ » فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ : أَنَا أَنَا ، قَالَ : « فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ ؟ » فَأَخْجَمَ الْقَوْمُ ، فَقَالَ أَبُو دُجَانَةَ رضي الله عنه : أَنَا أَخْذُهُ بِحَقِّهِ ، فَأَخْذَهُ فَقَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ ^(٣) . رواه مسلم .

اسم أبي دُجَانَةَ : سَمَّاكُ بْنُ خَرْشَةَ . قَوْلُهُ : « أَخْجَمَ الْقَوْمُ » أي تَوَقَّفُوا وَ « فَلَقَ بِهِ » أي شَقَّ

(١) أخرجه النسائي في السنن (٢٣٧/٦) .

(٢) يذهل : أي يغيب من رشده ، وذهل عن الشيء : نسيه وغفل عنه (المعجم العربي الأساسي ص ٤٨٨) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة بلفظه (١٢٨) وأحمد في مسنده (١٢٣/٣) بنحوه .

« هَامَ الْمُشْرِكِينَ » : أي رؤوسَهُمْ .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال : « من يأخذ هذا السيف ؟ » . فبسط القوم أيديهم ، كلهم يقول : أنا ، أنا ، أنا آخذه ، ثم قال ﷺ : « من يأخذه بحقه ؟ » فأحجم القوم ولم يشر أحد منهم ليقول أنا آخذه ، حتى بادر أبو دجانة رضي الله عنه ، فقال : أنا آخذه بحقه ، فأخذه فقلق به هام المشركين .

في هذا الحديث يقول أنس : إن الرسول ﷺ في غزوة أحد ، وغزوة أحد إحدى الغزوات الكبار التي غزاها رسول الله ﷺ بنفسه ، وأحد جبل قرب المدينة ، وكان سبب الغزوة أن قريشاً لما أصيبوا بيدر بقتل زعمائهم وكبرائهم ، أرادوا أن يأخذوا بالثأر من النبي ﷺ ، فجاءوا إلى المدينة يريدون غزو الرسول ﷺ ، فاستشار النبي ﷺ أصحابه حين علم بقدومهم ، فأشار عليه بعضهم بالبقاء في المدينة ، وأنهم إذا دخلوا المدينة أمكن أن يرموهم بالنبل وهم متحصنون في البيوت ، وأشار بعضهم ولا سيما الشباب منهم والذين لم يحضروا غزوة بدر أشاروا أن يخرج إليهم ، فدخل النبي ﷺ بيته وليس لأمته ، يعني لامة الحرب ، ثم خرج ، وأمر بالخروج إليهم في أحد .

فالتقوا في أحد ، وصف النبي ﷺ أصحابه صفاً مرتباً من أحسن ما يكون ، وجعل على الجبل الرماة الذي يحسنون الرمي بالنبل ، وهم خمسون رجلاً ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، وقال لهم : لا تبرحوا مكانكم ، ابقوا في مكانكم سواء كانت لنا أو علينا .

فلما التقى الصفان ، انهزم المشركون وولوا الأديار ، وصار المسلمون يجمعون الغنائم ، فقال الرماة الذين في الجبل : انزلوا تأخذ الغنائم ، ونجمعها . فذكرهم أميرهم بأمر النبي ﷺ لهم أن يبقوا في مكانهم ، سواء كانت للمسلمين أو عليهم ، ولكنهم رضي الله عنهم ظنوا أن الأمر قد انتهى ؛ لأنهم رأوا المشركين ولوا ولم يبق إلا نفر قليل ، فلما رأى فرسان قريش أن الجبل قد خلى من الرماة ، كروا على المسلمين من خلفهم ، ثم اختلطوا بالمسلمين ، فصار ما كان بقدر العزيز الحكيم جل وعلا ، واستشهد من المسلمين سبعون رجلاً ، ومنهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ ، وأسد الله وأسد رسوله .

فلما أصيب المسلمون بهذه المصيبة العظيمة قالوا : أنى هذا ؟ كيف نهزم ، ومعنا رسول الله ﷺ ونحن جند الله ، وأولئك معهم الشياطين وهم جنود الشياطين ؟ فقال الله ﷻ : ﴿ أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قَوْلُ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٦٥] أنتم السبب لأنكم عصيتم ، كما قال الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] يعني حصل ما تكرهون .

فحصل ما حصل لحكم عظيمة ، ذكرها الله ﷻ في سورة آل عمران ، وتكلم عليها الحافظ ابن

القيم ﷺ كلامًا جيدًا لم أر مثله في كتاب « زاد المعاد » ، في بيان الحكم العظيمة من هذه الغزوة ^(١) .
المهم : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أخذ سيفًا فقال لأصحابه : « من يأخذ مني هذا
السيف ؟ » كلهم قال : نأخذه ، رفعوا أيديهم وبسطوها ، يقولون : أنا أنا ، فقال : « فمن يأخذه
بحقه ؟ » ، فأحجم القوم ، ما يعلمون ما حقه ، يخشون أن حقه يكون كبيرًا جدًا لا يستطيعون القيام
به ، ويخشون أيضًا أن يعجزوا عن القيام به ، فيكونون قد أخذوا هذا السيف على العهد من رسول
الله ثم لا يوفون به ، ولكن الله وفق أبا دجاجة رضي الله عنه فقال : أنا آخذه بحقه ، فأخذه بحقه ؛ وهو أن
يضرب به حتى ينكسر ، أخذه بحقه رضي الله عنه وقاتل به ، وقلق به هام المشركين رضي الله عنه .
في هذا : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يبادر بالخير وألا يتأخر ، وأن يستعين الله تعالى ، وهو إذا
استعان الله وأحسن به الظن أعانه الله .

كثير من الناس ربما يستكثر العبادة ، أو يرى أنها عظيمة ، يستعظمها ، فينكص على عقبيه ، ولكن يقال
للإنسان : استعن بالله ، توكل على الله ، وإذا استعنت بالله وتوكلت عليه ودخلت فيما يرضيه رضي الله عنه ،
فأبشر بالخير ، وأن الله تعالى سيعينك كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .
وفي هذا : دليل أيضًا على حسن رعاية النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ؛ لأنه لم يخص بالسيف أحدًا من الناس ،
ولكنه جعل الأمر لعموم الناس ، وهكذا ينبغي للإنسان الذي استرعاه الله رعية ألا يحابي أحدًا ، وألا
يتصرف تصرفًا يُظن أنه محاب فيه ؛ لأنه إذا حابي أحدًا أو تصرف تصرفًا يُظن أنه حابي فيه ، حصل
من القوم فرقة ، وهذا يؤثر على الجماعة ، نعم لو امتاز أحد من الناس بميزة لا توجد في غيره ، ثم
خصه الإنسان بشيء ، ولكنه يبين للجماعة أنه خصه لامتياز به شيء لا يوجد فيهم فهذا لا بأس به .

* * *

٩٢ - السادس : عن الزبير بن عدي قال : أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكرونا إليه ما تلقى من
الحجاج . فقال : « اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بغده شر منه حتى تلقوا ربكم » سمعته
من نبيكم صلى الله عليه وسلم ^(٢) . رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن الزبير بن عدي أنهم أتوا إلى أنس بن مالك رضي الله عنه ، خادم رسول الله
ﷺ ، وكان قد عمّر وبقي إلى حوالي تسعين سنة من الهجرة النبوية ، وكان قد أدرك وقته شيء من
الفتن ، فجاءوا يشكون إليه ما يجدون من الحجاج بن يوسف الثقفي أحد الأمراء لخلفاء بني أمية ،
وكان معروفًا بالظلم وسفك الدماء ، وكان جبارًا عنيدًا والعياذ بالله .

(١) انظر زاد المعاد (٢١٨/٣) وما بعدها .

(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٦٨) وأحمد في مسنده (١٣٢/٣ ، ١٧٧) .

وهو الذي حاصر مكة لقتال عبد الله بن الزبير ، وجعل يرمي الكعبة بالمنجنيق حتى هدمها أو هدم شيئاً منها ، وكان قد آذى الناس ، فجاعوا يشكون إلى أنس بن مالك رضي الله عنه ، فقال لهم أنس : « اصبروا » ، أمرهم بالصبر على جور ولاية الأمور ؛ وذلك لأن ولاية الأمور قد يسلطون على الناس ، بسبب ظلم الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِ الْفَلَّاحِينَ بَعْضًا يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

أنت إذا رأيت ولاية الأمور قد ظلموا الناس في أموالهم ، أو في أبدانهم ، أو حالوا بينهم وبين الدعوة إلى الله ﷻ ، أو ما أشبه ذلك ، ففكر في حال الناس ، تجد أن البلاء أساسه من الناس ، هم الذين انحرفوا فسلط الله عليهم من سلط من ولاية الأمور ، وفي الأثر - وليس بحديث - « كما تكونون يولى عليكم » ^(١) .

ويذكر أن بعض خلفاء بني أمية ، وأظنه عبد الملك بن مروان جمع وجهاء الناس ، لما سمع أن الناس يتكلمون في الولاية ، جمع الوجهاء وقال لهم : أيها الناس ، أتريدون أن نكون لكم كما كان أبو بكر وعمر ؟ قالوا : بلى نريد ذلك ، قال : كونوا كالرجال الذين تولى عليهم أبو بكر وعمر لنكون لكم كأبي بكر وعمر ، يعني أن الناس على دين ملوكهم ، فإذا ظلم ولاية الأمور الناس ؛ فإنه غالباً يكون بسبب أعمال الناس . وجاء رجل من الخوارج إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال : ما بال الناس انتقدوا عليك ولم ينتقدوا على أبي بكر وعمر ، قال : لأن رجال أبي بكر وعمر أنا وأمثالي ، ورجالي أنت وأمثالك ، يعني أن الناس إذا ظلموا سلطت عليهم الولاية .

ولهذا قال أنس : « اصبروا » ، وهذا هو الواجب ، الواجب أن يصبر الإنسان ولكل كربة فرجة ، لا تظن أن الأمور تأتي بكل سهولة ، الشر ربما يأتي بغتة ويأتي هجمة ولكنه لن يدل على الخير أبداً ، ولكن علينا أن نصبر وأن نعالج الأمور بحكمة لا نستسلم ولا تنهور ، نعالج الأمور بحكمة وصبر وتأن ، ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِيدُوا وَصَارُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] إن كنت تريد الفلاح فهذه أسبابه وهذه طرقه ، ﴿ أَصِيدُوا وَصَارُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . ثم قال أنس بن مالك : « فإنه لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشد منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم محمد ﷺ » . يعني أن الرسول ﷺ قال : لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشد منه . شر منه في الدين ، وهذا الشر ليس شراً مطلقاً عائماً ، بل قد يكون شراً في بعض المواضع ، ويكون خيراً في مواضع أخرى وهكذا .

ومع هذا فإن الناس كلما ازدادوا في الرفاهية ، وكلما انفتحوا على الناس ؛ انفتحت عليهم الشرور ، إن الرفاهية هي التي تدمر الإنسان ؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى الرفاهية وتنعيم جسده ؛ غفل عن تنعيم قلبه ، وصار أكبر همه أن ينعم هذا الجسد الذي ماله إلى الديدان والنتن ، وهذا هو البلاء ، وهذا هو الذي ضر الناس اليوم ، لا تكاد تجد أحداً إلا ويقول : ما قَصُرْنَا ؟ ما سيارتنا ؟ ما فرشنا ؟ ما أكلنا ؟ حتى الذين يقرأون العلم ويدرسون العلم ، بعضهم إنما يدرس لينال رتبة أو مرتبة يتوصل بها إلى نعيم

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٤٩٧٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣٧١٧) والألباني في الضعيفة (٣٢٠) .

الدنيا . وكأن الإنسان لم يخلق لأمر عظيم ، والدنيا ونعيمها إنما هي وسيلة فقط .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله ما معناه : ينبغي على الإنسان أن يستعمل المال كما يستعمل الحمار للركوب ، وكما يستعمل بيت الخلاء للغائط .

فهؤلاء هم الذين يعرفون المال ويعرفون قدره ، لا تجعل المال أكبر همك ، اركب المال فإن لم تركب المال ركبك المال ، وصار همك هو الدنيا .

ولهذا نقول : إن الناس كلما انفتحت عليهم الدنيا وصاروا ينظرون إليها ؛ فإنهم يخسرون من الآخرة بقدر ما ربحوا من الدنيا ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « والله ما الفقر أخشى عليكم » ^(١) يعني ما أخاف عليكم الفقر ، فالدنيا ستفتح . « وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم ، فتهلككم كما أهلكتهم » وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، هذا الذي أهلك الناس اليوم ، الذي أهلك الناس اليوم التنافس في الدنيا ، وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم ، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له ، وهذا من الانتكاس نسأل الله العافية .

وفي هذا الحديث : وجوب الصبر على ولاة الأمور وإن ظلموا وجاروا ؛ لأنك سوف تقف معهم موقفاً تكون أنت وإياهم على حد سواء عند ملك الملوك ، سوف تكون خصمهم يوم القيامة إذا ظلموك ، لا تظن أنما يكون في الدنيا من الظلم سيذهب هباءً أبداً ، حق الخلق لا بد أن يؤخذ يوم القيامة ، فأنت سوف تقف معهم بين يدي الله عز وجل ليقضي بينهم بالعدل ، فاصبر وانتظر الفرج ، فيحصل لك بذلك اطمئنان النفس والثبات ، وانتظار الفرج عبادة ، تتعب لله به ، وإذا انتظرت الفرج من الله فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » ^(٢) .

وفي هذا التحذير من سوء الزمان ، وأن الزمان يتغير ويتغير إلى ما هو أشر . وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - ذات يوم لأصحابه : « من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً » ^(٣) وأظن أننا وعشنا في الدنيا قليل بالنسبة لمن سبق ، نرى اختلافاً كثيراً . نرى اختلافاً كثيراً بين سنين مضت وسنين الوقت الحاضر . حدثني من أثق به أن هذا المسجد مسجد الجامع كان لا يؤذن لصلاة الفجر إلا وقد تم الصف الأول ، يأتي الناس إلى المسجد يتجهدون ، أين المتجهدون اليوم إلا ماشاء الله ؟ . قليل !! تغيرت الأحوال ، كنت تجد الواحد منهم كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « كالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » ^(٤) إذا أصبح يقول : اللهم ارزقني . قلبه معلق بالله عز وجل فيرزقه الله ، وأما الآن فأكثر الناس في غفلة عن هذا ، يعتمدون على من سوى الله ، ومن تعلّق شيئاً وُكِّل إليه .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥) في الزهد (٦) وابن ماجه في السنن (٣٩٩٧) والترمذي في السنن

(٢٤٦٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٧/١) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٤٣) وأحمد في مسنده (١٢٦/٤) والبيهقي في السنن (١١٤/١٠) . والترمذي

في العلم (٢٦٧٦) بلفظ « يرى » بدلاً من « فسيرى » .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥٢/١) ، والترمذي في الزهد (٣٣٤٤) .

نعم في الآونة الأخيرة والحمد لله لا شك أن الله ﷻ فتح على الشباب فتحاً أسأل الله تعالى أن يزيدهم من فضله ، فتح عليهم وأقبلوا إلى الله ، فتجد بين سنواتنا هذه الأخيرة ، والسنوات الماضية بالنسبة للشباب فتجد فرقاً عظيماً ، قبل نحو عشرين سنة كنت لا تكاد تجد الشاب بالمسجد ، أما الآن ولله الحمد فأكثر من في المسجد هم الشباب ، وهذه نعمة ولله الحمد ، يرجو الإنسان لها مستقبلاً زاهراً ، وثقوا أن الشعب إذا صلح فسوف تضطر ولاية أموره إلى الصلاح مهما كان ، فنحن نرجوا لإخواننا في غير هذه البلاد الذين من الله عليهم بالصلاح واستقاموا على الحق أن يصلح لهم الولاية ، ونقول : اصبروا فإن ولاتكم سيصلحون رغماً عنهم ، فإذا صلحت الشعوب صلحت الولاية بالاضطرار .

٩٣ - السَّابِع : عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سَبْعًا : هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا ، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ، أَوْ الدُّجَالَ فَشَرَّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةُ فَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرُ ١٩ » (١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

سبق لنا أن النبي - عليه الصلاة والسلام - ذكر في أحاديث متعددة ما يدل على أنه من الحزم أن يبادر الإنسان بالأعمال الصالحة ، وفي هذا الحديث أشار النبي ﷺ إلى أشياء متعددة ينبغي للإنسان أن يبادر بالأعمال حذرًا منها . فقال : « بادروا بالأعمال سبعة » : يعني سبعة أشياء كلها محيطة بالإنسان يخشى أن تصيبه ، منها الفقر . قال : « هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا أو غنى مطغيًا » . الإنسان بين حالين بالنسبة للرزق : تارة يغنيه الله ﷻ ويمده بالمال ، والبنين ، والأهل ، والقصور ، والمراكب ، والجاه ، وغير ذلك من أمور الغنى ، فإذا رأى نفسه في هذه الحال ؛ فإنه يطغى والعياذ بالله ، ويزيد ويتكبر ، ويستكف عن عبادة الله ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿١﴾ أَن زَاهَا أَسَافٌ ﴿٢﴾ [العلق : ٦ ، ٧] وَيَسْنُ اللَّهُ وَقَالَ : ﴿ إِنَّ لَكَ لَأِنَّ رِزْقَ رَحْمَتِكَ الْغَنَى ﴾ [العلق : ٨] يعني مهما بلغت من الاستغناء والعلو فإن مرجعك إلى الله .

ونحن نشاهد أن الغنى يكون سبباً للفساد والعياذ بالله ، تجد الإنسان في حال فقره مخبئاً إلى الله ، منيئاً إليه ، منكسر النفس ، ليس عنده طغيان ، فإذا أمدّه الله بالمال استكبر - والعياذ بالله - وأطغاه غناه .

أو بالعكس : « فقرًا منسيًا » الفقر قلة ذات اليد ، بحيث لا يكون مع الإنسان مال ، الفقر ينسي الإنسان مصالح كثيرة ؛ لأنه يشتغل بطلب الرزق عن أشياء كثيرة تهمة وهذا شيء مشاهد ، ولهذا يخشى على الإنسان من هذين الحالين ؛ إما الغنى المطغى ، أو الفقر المنسي . فإذا من الله على العبد بغنى لا يطغى ، وبفقر لا ينسي ، وكانت حاله وسطاً ، وعبادته مستقيمة ، وأحواله قوية ، فهذه هي سعادة الدنيا .

وليست سعادة الدنيا بكثرة المال ؛ لأنه قد يطغى ، ولهذا تأمل قوله تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ

أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧] ما قال من عمل عملاً صالحاً من ذكر أو أنثى فلنوسعن عليه ولنعطينه المال الكثير ، قال ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ . إما بكثرة المال أو بقله المال ، ويروى في الحديث القدسي : « إن من عبادي من لو أغنيته لأفسده الغنى ، وإن من عبادي من لو أفقرته لأفسده الفقر » ^(١) . وهذا هو الواقع من الناس من يكون الفقر خيراً له ، ومن الناس من يكون الغنى خيراً له ، ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حذر من غنى مُطغٍ وفقير منس .

الثالث : قال : « أو مرضاً مفسداً » المرض يفسد على الإنسان أحواله ، فالإنسان مادام في صحة تجده منشراح الصدر واسع البال ، مستأنساً ، لكنه إذا أصيب بالمرض انكمضت وضائق عليه الأرض وصار همه نفسه ، فتجده بمرضه تفسد عليه أمور كثيرة ، لا يستأنس مع الناس ، ولا ينسبط إلى أهله ؛ لأنه مريض ومتعب في نفسه . فالمرض يفسد على الإنسان أحواله ، والإنسان ليس دائماً يكون في صحة ، فالمرض ينتظره كل لحظة . كم من إنسان أصبح نشيطاً صحيحاً وأمسى ضعيفاً مريضاً ، أو بالعكس أمسى صحيحاً نشيطاً وأصبح مريضاً ضعيفاً . فالإنسان يجب عليه أن يبادر إلى الأعمال الصالحة حذراً من هذه الأمور .

الرابع : « أو هرمًا مفندًا » ، الهرم يعني الكبر ، فالإنسان إذا كبر وطالت به الحياة فإنه كما قال الله ﷻ يردُّ إلى أرذل العمر أي إلى أسوئه وأردئه ، فيلتحق هذا الرجل الذي عهدته من أعقل الرجال ، يرجع حتى يكون مثل الصبيان ، بل هو أردأ من الصبيان ؛ لأن الصبي لم يكن قد عقل ، فلا يدري عن شيء ، لكن هذا قد عقل ، وفهم الأشياء ، ثم رد إلى أرذل العمر ، فيكون هذا أشد عليه . ولذلك نجد أن الذين يردُّون إلى أرذل العمر من كبار السن يؤذون أهلهم أشد من إيذاء الصبيان ؛ لأنهم كانوا قد عقلوا ، وقد استعاذ النبي ﷺ من أن يردُّ إلى أرذل العمر ^(٢) .

نسأل الله أن يعيدنا وإياكم من الرُّدِّ إلى أرذل العمر ؛ لأن الإنسان إذا ردَّ إلى أرذل العمر تعب وأتعب غيره ، حتى إنَّ أخص الناس به يتمنى أن يموت ؛ لأنه آذاه وأتعبه ، وإذا لم يتمنَّ بلسان المقال فربما يتمنى بلسان الحال .

أما الخامس : فالموت المجهز : يعني أن يموت الإنسان ، والموت لا ينذر الإنسان ، قد يموت الإنسان بدون إنذار ، قد يموت على فراشه نائماً ، وقد يموت على كرسيه عاملاً ، وقد يموت في طريقه ماشياً كما هو معروف . إذا مات الإنسان انقطع عمله ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ^(٣) فبادر بالعمل قبل الموت المجهز ، الذي يجهزك ولا يمهلك .

السادس : « أو الدجال فشر غائب ينتظر » الدجال صيغة مبالغة من الدَّجَل وهو الكذب والتمويه ،

(١) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٢/١) .

(٢) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٢٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٧٦) ومسلم في الوصية (١٤) بلفظ : « الإنسان » بدلاً من « ابن آدم » ، وأبو داود في السنن (٢٨٨٠) وأحمد في مسنده (٣٧٢/٢) .

وهو رجل يبعثه الله في آخر الزمان ، يصل إلى دعوى الربوبية ، يدعي أنه رب ، فيمكث في فتنته هذه أربعين يومًا ؛ يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كأسبوع ، وسائر أيامه كالأيام المعتادة ، لكن يعطيه الله ^{عَلَيْكَ} من القدرات ما لم يعط غيره ، حتى إنه يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبث ويأمر الأرض فتجذب ، والسماء فتقحط : تمنع المطر ، ومعه جنة ونار ، لكنها مموهة جنته نار وناره جنة ^(١) .

هذا الرجل أعور العين كأن عينه عبة طافية ، مكتوب بين عينيه « كافر » ^(٢) كاف . فاء . راء . يقرأه كل مؤمن ، الكاتب وغير الكاتب ، ولا يقرؤه المنافق ولا الكافر ولو كان قارئًا كاتبًا ، وهذا من آيات الله . هذا الرجل يرسل الله عليه عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - فينزل من السماء فيقتله كما جاء في بعض الأحاديث يباب لد في فلسطين حتى يقضي عليه ^(٣) .

فالحاصل أن الدجال شر غائب ينتظر ؛ لأن فتنته عظيمة ، ولهذا نحن في صلاتنا في كل صلاة نقول : « أعوذ بالله من عذاب القبر ، ومن فتنه الحيا والممات ، ومن فتنه المسيح الدجال » ^(٤) . خصّصها ؛ لأنها أعظم فتنه تكون في حياة الإنسان .

السابع : « أو الساعة » يعني قيام الساعة الذي فيه الموت العام « والساعة أدهى وأمر » كما قال الله ^{عَلَيْكَ} : ﴿ يَكِلِ السَّاعَةَ مَوْلَاَهُمْ وَأَلْسِنَهُ أَدْنَىٰ وَأَمْرٌ ﴾ [الفر: ٤٦] .

فهذه سبع حذر منها النبي عليه الصلاة والسلام ، وأمرنا أن نبادر بالأعمال هذه السبع ، فبادر يا أخي المسلم بأعمالك الصالحة قبل أن يفوتك الأوان ، أنت الآن في نشاط ، وفي قوة ، وفي قدرة ، لكن قد يأتي عليك زمان لا تستطيع ولا تقدر على العمل الصالح ، فبادر وعود نفسك ، وأنت إذا عودت نفسك العمل الصالح اعتادته وسهل عليها وانقادت له ، وإذا عودت نفسك الكسل والإهمال ، عجزت عن القيام بالعمل الصالح ، نسأل الله أن يعينني وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

٩٤ - الثامن : عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأُعْطِيَنَّ هذه الرّاية رجلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ » قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : مَا أُحْبِيتَ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ ، فَتَسَاوَزْتُ لَهَا رَجَاءً أَنْ أُدْعَى لَهَا ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا ، وَقَالَ : « امْشِ وَلَا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ » فَسَارَ عَلِيٌّ سَبْعًا ، ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ ، فَصَرَخَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، عَلَى مَاذَا أَقَاتِلُ النَّاسَ ؟ قَالَ : « قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ »

(١) انظر عن فتنه الدجال : البخاري في الفتن (٧١٢٢ - ٧١٣٥) ومسلم في الفتن (١٠٤ - ١٠٨) وأحمد في مسنده (٤٣ ، ٣٢/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٣١) .

(٣) وذليل ذلك ما أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٧) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٢٨) ، والنسائي في السنن (٢٦٦/٨) وأحمد في مسنده (٥٢٢/٢) .

إلا بحَقِّها ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » (١) رواه مسلم . « فَتَسَاوَرْتُ » هُوَ بالسَّيْنِ المهملة : أَي وَثَبْتُ مُتَطَلِّعًا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله » ، وفي لفظ : « ويحب الله ورسوله » (٢) يوم خيبر : يعني يوم غزوة خيبر ، وخيبر حصون ومزارع كانت لليهود تبعد عن المدينة نحو مائة ميل نحو الشمال الغربي ، فتحها النبي - عليه الصلاة والسلام - كما هو معروف في السير ، وكان الذين يعملون فيها اليهود ، فصالحهم النبي - عليه الصلاة والسلام - على أن يبقوا فيها مزارعين بالنصف ، لهم نصف الثمرة للمسلمين نصف الثمرة ، وبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ، أجلاهم إلى الشام وإلى أزرعات .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله » الراية : هي ما يسمى عندنا العلم ، يحمله القائد من أجل أن يهتدي به الجيش وراءه وقوله : « رجلاً » نكرة لا يعلم من هو ، قال عمر بن الخطاب : فما تمت الإمارة إلا يومئذ ، رجاء أن يصيبه ما قاله النبي - عليه الصلاة والسلام - فتسورت لها ، وبات الناس تلك الليلة يخوضون ويلوكون ويدوكون كل منهم يرجو أن يعطاها ، فلما أصبحوا دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب ابن عمه ، قالوا : يا رسول الله إنه يشتكي عينيه ، يعني عنده وجع في عينيه ، فدعا به فجاء ، فبصق في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع ، في الحال والله على كل شيء قدير ، ثم أعطاه الراية ، وقال له : « امش ولا تلتفت حتى يفتح الله » .

ففعل ﷺ ، فلما مشى قليلاً وقف ، ولكنه لم يلتفت ؛ لأن النبي ﷺ قال له : لا تلتفت ، فصرخ بأعلى صوته يا رسول الله ، على ماذا أقاتلهم ؟ قال : « قاتلهم حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » هذه الكلمة كلمة عظيمة ، لو وزنت بها السماوات والأرض لرجحت بالسماوات والأرض ، هذه الكلمة يدخل بها الإنسان من الكفر إلى الإسلام ، فهي باب الإسلام : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، « فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » يعني إذا قالوا : نشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ فإنهم لا يقاتلون ، منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، أي بحق لا إله إلا الله ، أي بالحقوق التابعة لها ؛ لأن لا إله إلا الله ليست مجرد لفظ يقولها الإنسان بلسانه ، بل لها شروط ولها أمور لا بد أن تتم .

ولهذا قيل لبعض السلف : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ فقال : نعم ، مفتاح الجنة لا إله إلا الله ، لكن لا بد من عمل ؛ لأن المفتاح يحتاج إلى أسنان ، وقد صدق ﷺ : المفتاح يحتاج إلى أسنان ، لو جئت بمفتاح بدون أسنان ما فتح لك .

إذن قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إلا بحقها » يشمل كل شيء يكفر به الإنسان مع

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٢٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٣/٥) ، والحاكم في المستدرک (٤٣٧/٣) .

قول لا إله إلا الله ، فإن من كفر وإن كان يقول لا إله إلا الله محمداً رسول الله ، ولكنه أتى بمكفر فإن هذه الكلمة لا تنفعه .

ولهذا كان المنافقون يقولون لا إله إلا الله ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، هيئتهم ، وشكلهم كأنهم أكمل المؤمنين إيماناً ، ويأتون للرسول ﷺ يقولون له : ﴿ تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ الكلام مؤكد بثلاث مؤكدات (تشهد) (إن) و (اللام) في ﴿ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ فقال رب العزة والجلال الذي يعلم ما في الصدور : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَفِيقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] أعطاهم شهادة بشهادة ، يشهد إن المنافقين لكاذبون ، وأكد الله ﷻ كذب هؤلاء في قولهم : نشهد أنك لرسول الله بثلاثة مؤكدات ، فليس كل من قال لا إله إلا الله يعصم دمه وماله ؛ لأن النبي ﷺ استثنى فقال : « إلا بحقها » .

ولما منع الزكاة من منعها من العرب بعد وفاة النبي ﷺ ، واستعد أبو بكر ﷺ لقتالهم ، تكلم معه من تكلم من الصحابة ، وقالوا : كيف تقاتلهم وهم يقولون : لا إله إلا الله ؟ قال ﷺ : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، الزكاة حق المال ، وقد قال النبي ﷺ : « إلا بحقها » ^(١) فقاتلهم ﷺ على ذلك وانتصر والله الحمد .

فالخاصل : أنه ليس كل من قال لا إله إلا الله فإنه يمنع دمه وماله ، ولكن لا بد من حق ، ولذلك قال العلماء - رحمهم الله - : لو أن قرية من القرى تركوا الأذان والإقامة ؛ فإنهم لا يكفرون ولكن يقاتلون وتستباح دماؤهم حتي يؤذنوا ويقيموا ، مع أن الأذان والإقامة ليسا من أركان الإسلام ، لكنها من حقوق الإسلام ، قالوا : ولو تركوا صلاة العيد مثلاً ، مع أن صلاة العيد ليست من الفرائض الخمس ، لو تركوا صلاة العيد وجب قتالهم ، يقاتلون بالسيف والرصاص حتى يصلوا العيد ، مع أن صلاة العيد فرض كفاية أو سنة عند بعض العلماء ، أو فرض عين على القول الراجح ، لكن الكلام على أن القتال قد يجوز مع إسلام المقاتلين ليدعوا لشعائر الإسلام الظاهرة ، ولهذا قال هنا : « إلا بحقها » .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه يجوز للإنسان أن يقول : لأفعلن كذا في المستقبل ، وإن لم يقل : إن شاء الله . ولكن يجب أن نعلم الفرق بين شخص يخبر عما في نفسه ، وشخص يخبر أنه سيفعل ، يعني يريد الفعل .

أما الأول : فلا بأس أن يقول سأفعل بدون إن شاء الله ؛ لأنه إنما يخبر عما في نفسه ، وأما الثاني الذي يريد أنه يفعل أي يوقع الفعل فعلاً : فهذا لا يقل إلا مقيداً بالمشيئة قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْیٰ فَعَلْتُ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ ﴾ [الكهف : ٢٣ ، ٢٤] . فهناك فرق بين من يخبر عما في نفسه وبين من يقول إنني سأفعل غداً . غداً ليس إليك ، ربما تموت قبل غد ، وربما تبقى ولكن يكون هناك موانع وصوارف ، وربما تبقى ويصرف الله همته عنه ، كما يقع كثيراً ؛ كثيراً ما يريد الإنسان أن يفعل فعلاً غداً أو في آخر النهار ، ثم يصرف الله همته .

ولهذا قيل لبعض الأعراب - والأعراب سبحانه الله عندهم أحيانًا جواب فطري - : بما عرفت ربك ؟ فأجاب أحدهم قائلًا : الأثر يدل على المسير ، والبصرة تدل على البعير . فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير ؟ - الله أكبر - أعرايي لا يعرف لكنه استدلل بعقله ؛ هذه الأمور العظيمة ألا تدل على خالق يخلقها ويدبرها ؟ بلى والله . وسئل آخر : بما عرفت ربك ؟ قال : بنقض العزائم وصرف الهمم . فكيف هذا ؟ يعزم الإنسان على شيء ثم تنتقض عزيمته بدون أي سبب ظاهر ، إذن من الذي نقضها ؟ الذي نقض العزيمة هو الذي أودعها أولاً ، وهو الله ﷻ وصرف الهمم حيث يهم الإنسان بالشيء ، وربما يبدأ به فعلاً ثم ينصرف .

لذا نقول إن في هذا الحديث دليل على أن الإنسان له أن يقول سأفعل كذا إخبارًا عما في نفسه ، لا جزماً بأن يفعل ؛ لأن المستقبل له الله ، لكن إذا أخبرت عما في نفسك فلا حرج .

١١ - بَابُ الْمَجَاهِدَةِ

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] . وقال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ وَبَيْنَلَّيْنِ يَتَّبِعُكَ ﴾ [الزلزال : ٨] : أي انقطع إليه . وقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزال : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُقِيمُوا لَاتُشْكِرْ مِنْ خَيْرٍ نَحْمَدُهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ لَبْرًا ﴾ [الزلزال : ٢٠] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَاتِلَ اللَّهُ يَوْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب المجاهدة) المجاهدة تعني مجاهدة الإنسان نفسه ومجاهدته غيره . فأما مجاهدة الإنسان نفسه : فإنها من أشق الأشياء ، ولا يتم مجاهدة الغير إلا بمجاهدة النفس أولاً ، ومجاهدة النفس تكون بأن يجاهد الإنسان نفسه على شيئين : على فعل الطاعات ، وعلى ترك المعاصي ؛ لأن فعل الطاعات ثقيل على النفس إلا من خففه الله عليه ، وترك المعاصي كذلك ثقيل على النفس إلا من خففه الله عليه ، فتحتاج النفس إلى مجاهدة لا سيما مع قلة الرغبة في الخير ، فإن الإنسان يعاني من نفسه معاناة شديدة ليحملها على فعل الخير .

ومن أهم ما يكون من هذا : مجاهدة النفس على الإخلاص لله ﷻ في العبادة ، فإن الإخلاص أمره عظيم وشاق جداً ، حتى إن بعض السلف يقول : ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص ، ولهذا كان جزاء المخلصين أن من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ؛ حرمه الله على النار ^(١) .

لكن متى يكون هذا الأمر ؟ إن هذا الأمر شديد جداً ، فالمجاهدة على الإخلاص لله من أشد ما

(١) انظر ذلك فيما أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٢/٢) ، وبنحوه أحمد في مسنده (٤٦٧/٣) .

يكون على النفوس ؛ لأن الإنسان يحب أن يكون مرموقاً عند الناس ، ويحب أن يكون محترماً بين الناس ، ويحب أن يقال إن هذا رجل عابد ، هذا رجل فيه كذا وكذا من خصال الخير ، فيدخل الشيطان على الإنسان من هذا الباب ، ويحمله على مراعاة الناس . وقد قال النبي ﷺ « من رأى راءى الله به ، ومن سَمِعَ سَمِعَ الله به » ^(١) يعني أظهر أمره للناس حتى ينكشف والعياذ بالله .

كذلك أيضًا مما يجاهد الإنسان نفسه عليه فعل الطاعات الشاقة مثل : الصوم ، فإن الصوم من أشق الطاعات على النفوس ؛ لأن فيه ترك المألوف من طعام وشراب ونكاح ، فتجده يكون شاقاً على الناس إلا من يسره الله عليه وخفف عنه . تجد بعض الناس مثلاً إذا دخل رمضان كأنما وضع على ظهره جبل والعياذ بالله ؛ لأنه يستقل الصوم ويرى أنه شاق ، حتى إن بعضهم يجعل حظ يومه النوم ، وحظ ليله السهر في أمر لا خير له فيه ، كل ذلك من أجل مشقة هذه العبادة عليه .

كذلك أيضًا من الأشياء التي تحتاج إلى مجاهدة : مجاهدة الإنسان نفسه على الصلاة مع الجماعة . فكثير من الناس يسهل عليه أن يصلي في بيته ، لكن يشق عليه أن يصلي مع الجماعة في المساجد ، فتجده مع نفسه في جهاد ؛ يقول : أصير أؤدي هذا الشغل ، أو أفعل كذا أو أفعل كذا ، حتى يُسَوِّفَ فتفوته صلاة الجماعة ، وثقل صلاة الجماعة على الإنسان يدل على أن في قلب الإنسان نفاقاً ، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ : « أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً » ^(٢) ، وهذا يحتاج إلى المجاهدة .

أما مجاهدة النفس على ترك المحرم : فما أكثر المحرمات التي يشق على بعض الناس تركها ، فتجد البعض يعتاد على فعل المحرم ويشق عليه تركه ، ولنضرب لهذا مثلين .

المثل الأول : الدخان ، فإن كثيراً من الناس ابتلي بشرب الدخان ، وأول ما خرج الدخان اختلف العلماء فيه ؛ منهم من قال : إنه حلال ، ومنهم من قال : إنه حرام ، ومنهم من قال : إنه مكروه ، ومنهم من أحلّه بالخمير حتى أوجب الحد على شاربه ، ولكن بعد أن مضت الأيام تبين تبيناً لا شك فيه أنه حرام ؛ لأن الأطباء أجمعوا على أنه مضر بالصحة ، وأنه سبب لأمراض مستعصية تؤدي بالإنسان إلى الموت ، ولهذا نجد بعض المدخنين يموت وهو يكلمك ، أو يموت وهو على الفراش ، وإذا حمل أدنى شيء انقطع قلبه ومات ، وهذا يدل على أنه ضار ، والشيء الضار محرم على الإنسان ؛ لأن الله يقول ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] ويشق على بعض المبتلين بهذا الدخان أن يدعه ، مع أنه لو عوّد نفسه على تركه شيئاً فشيئاً وابتعد عن الذين يشربونه ، وصار يكره رائحته لهان عليه الأمر ، لكن المسألة تحتاج إلى عزيمة قوية وإيمان صادق .

المثل الثاني : مما يشق على كثير من الناس وقد ابتلي به الكثير : حلق اللحية ، فإن حلق اللحية محرم لأن الرسول ﷺ قال : « خالفوا المجوس . خالفوا المشركين ، وفروا اللحية ، وأحفوا الشوارب » ^(٣) ،

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٧) بلفظه ، والبخاري في الأحكام (٦٤٩٩) بنحوه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٢/٢) بلفظه . والبخاري في الأذان (٦٥٧) بلفظ « ليس صلاة أثقل على المنافقين » .

(٣) هذا الحديث لم يرد بهذا النص ؛ بل إنه حديثان الأول : « خالفوا المجوس » أخرجه مسلم في الطهارة (٥٥) ، وأحمد في =

وكثير من الناس قد غلبته نفسه فصار يحلق لحيته ، ولا أدري أي شيء يجني من حلق اللحية ؟ لا يجني إلا معاصي تتراكم عليه حتى تضعف إيمانه والعياذ بالله ؛ لأن من مذهب أهل السنة والجماعة : أن المعاصي تنقص الإيمان ، فيكتسب حائق اللحية معاصي تنقص إيمانه ، مع أنه لا يزيد نشاطه ولا صحته ، ولا تندفع عنه بذلك الأمراض ، ولكنه ابتلي بهذا الشيء وصار شاقاً عليه ، فعلى الإنسان أن يجاهد نفسه على فعل الأوامر وعلى ترك النواهي ، حتى يكون من المجاهدين في الله ﷻ ، وقد قال الله تعالى في جزائهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

أما مجاهدة الغير : فإنها تنقسم إلى قسمين ؛ قسم بالعلم والبيان ، وقسم بالسلاح .

أما من مجاهدته بالعلم والبيان : فهو الذي يتسمى بالإسلام وليس من المسلمين ؛ مثل : المنافقين ، وأهل البدع المكفرة ، وما أشبه ذلك ، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح ؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا ، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان ، قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَنِشَاصُ الْمَصِيرِ ﴾ [التوبة : ٧٣] فجهاد الكفار يكون بالسلاح ، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان .

ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يعلم بأن في أصحابه منافقين ، ويعلمهم بأعيانهم ولكنه لا يقتلهم ، واستؤذن في قتلهم فقال : « لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه » ، فكذلك الذين ينطوون تحت لواء الإسلام من أهل البدع لا نقاتلهم بالسلاح ، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان .

ولهذا كان واجباً على شباب الأمة الإسلامية أن يتعلموا العلم على وجه راسخ ثابت ، لا على وجه سطحي كما يوجد في كثير من بيوت العلم ، حيث يتعلمون علماً سطحيّاً لا يرسخ بالذهن ، علماً يقصد به الإنسان أن يحصل على بطاقة أو شهادة فقط ، ولكن العلم الحقيقي هو العلم الذي يرسخ في القلب ، ويكون كالمملكة للإنسان ، حتى إن الإنسان الذي يوفق لهذا النوع من العلم تجده لا يكاد تأتيه مسألة من المسائل إلا عرف كيف يخرجها على الأدلة من الكتاب والسنة والقياس الصحيح ، فلا بد من علم راسخ .

والناس اليوم في عصرنا محتاجون إلى هذا النوع من العلم ؛ لأن البدع بدأ يفشو ظلماً في بلدنا ، هذا بعد أن كانت نزيهة منها ، لكن نظراً لانفتاحنا على الناس وانفتاح الناس علينا ، وذهاب بعضنا إلى بلاد أخرى ، ومجيء آخرين إلى بلادنا ليسوا على عقيدة سليمة ، بدأت البدع تظهر ويفشو ظلماً . وهذه البدع تحتاج إلى نور من العلم يضيء الطريق حتى لا يصيب بلادنا ما أصاب غيرها من البدع المنكرة العظيمة التي قد تصل إلى الكفر - والعياذ بالله ، فلا بد من مجاهدة أهل البدع وأهل النفاق بالعلم والبيان ، وبيان بطلان ما هم عليه بالأدلة المقنعة من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة الهدى من بعدهم .

أما النوع الثاني من جهاد الغير : فهو الجهاد بالسلاح وهذا في جهاد الأعداء الذين يظهرون العداوة للإسلام ويصرحون بذلك ؛ مثل : اليهود والنصارى الذين يُسمون بالمسيحيين - والمسيح منهم بريء عليه الصلاة والسلام - المسيح لو أنه خرج لقاتلهم وهم ينتسبون إليه ، يقول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَأْتِكَ الْقُلُوبُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] فماذا كان جواب عيسى ؟ : ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

فعيسى ابن مريم قال لهم ما أمرهم الله به : اعبدوا الله ربي وربكم ، ولكنهم كانوا يعبدون عيسى ، ويعبدون مريم ، ويعبدون الله ، ويقولون : « إن الله ثالث ثلاثة » ، إذن كيف يصح أن ينتسب هؤلاء إلى عيسى وهو يتبرأ منهم أمام الله ﷻ .

فاليهود والنصارى والمشركون من البوذيين وغيرهم والشيوعيون ، كل هؤلاء أعداء للمسلمين يجب على المسلمين أن يقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هي العليا ، ولكن - مع الأسف - المسلمون اليوم في ضعف شديد ، وفي هوان وذل يقاتل بعضهم بعضاً أكثر مما يقاتلون أعداءهم ، هم فيما بينهم يتقاتلون أكثر مما يتقاتلون مع أعدائهم ، ولهذا سلط الأعداء علينا وصرنا كالكرة في أيديهم يتقاذفونها حيث يشاؤون .

لهذا يجب على المسلمين أن ينتبهوا لهذا الأمر ، وأن يعدوا العدة ولأن الله تعالى قال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] وقال ﷻ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

﴿ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ أي يذلون الجزية لنا ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ فيها قولان للعلماء ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ يعني عن قوة منا عليها ^(١) ، أو ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ يعني عن واحدة من أيديهم ، بحيث يملها هو بنفسه - اليهودي أو النصراني - ولهذا قال العلماء : لو أرسل بها خادمه لم نأخذها حتى يأتي بنفسه ويسلمها للمسؤول من المسلمين . وتصوروا كيف يريد الله منا وكيف يكون الإسلام في هذه العزة ؛ تضرب عليهم الجزية ، ويأتون بها هم بأنفسهم ، ولو كان أكبر واحد منهم يأتي بها حتى يسلمها إلى المسؤول في الدولة الإسلامية عن يد وهو صاغر أيضاً ، لا يأتي بأبهة وبقوم وبحشم ؛ بل يأتي وهو صاغر .

ثم إذا قال قائل : كيف تكون تعاليم الإسلام هكذا ؟ أليست هذه عصبية ؟

قلنا : عصبية لمن ؟ هل المسلمون يريدون عصبية لهم يستطيلون بها على الناس ؟ أبداً فالمسلمون أحسن الناس أخلاقاً ، لكنهم يريدون أن تكون كلمة الخالق الذي خلقهم وخلق هؤلاء هي العليا ، ولا يمكن أن تكون هي العليا حتى يكون المسلمون هم الأعلون ، ولكن متى يكون المسلمون هم

الأعلون ؟ يكونون كذلك إذا تمسكوا بدين الله حقًا ظاهرًا وباطنًا ، وعرفوا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين (١) .

أما أن يذلوا عن دين الله ، ثم يذلوا أمام أعداء الله ، ثم يصيروا أذنانًا لأعداء الله فأين العزة إذن ؟ .. لا يمكن أن تكون بهذا عزة أبدًا .

الإسلام دين حق . دين علو ، قال الله ﷻ : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] أي شيء تريدون بعد ؟ ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ كيف تدعون إلى السلم ؟ كيف تهنون ؟ ولكن نظرًا لتعثرنا في ديننا ، تأخرنا وكنا على العكس من ذلك . كان الناس في عهد السلف الصالح يعيشون المسلم وهو يرى أنه هو المستحق لأرض الله ؛ لأن الله قال في كتابه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فهو يرى أنه صاحب الأرض . أما الآن فبالعكس مع الأسف الشديد ، ولهذا نحن نحث أبناءنا وشبابنا على أن يفقهوا الدين حقيقة ، ويتمسكوا به حقيقة ، وأن يحذروا أعداء الله ﷻ ، وأن يعلموا أنه لا يمكن لعدو الله وعدوهم أن يسعى في مصلحتهم إطلاقًا ، بل لا يسعى إلا لمصلحة نفسه وتدمير المسلمين ومن ورائهم الإسلام . فنسأل الله تعالى أن يعزنا بدينه وأن يعز دينه بنا ، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره ، وأن يهيئ للأمة الإسلامية قادة خير يقودونها لما فيه صلاحها وسعادتها في دينها ودنياها .

* * *

وأما الأحاديث :

٩٥ - فالأول : عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ . وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ كُنْتُ سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيتُهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ » (٢) رواه البخاري . « آذَنْتُهُ » : أَعْلَمْتُهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ « اسْتَعَاذَنِي » رُوي بالنون وبالباء .

الشرح

نقل المؤلف رحمه الله عن أبي هريرة ؓ ، عن النبي ﷺ أنه قال : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ » المعادة هي المباحدة ، وهي ضد الموالاة ، والولي يثنى الله ﷻ في قوله ﴿ آيَاتِ أُولِيَاءِ اللَّهِ لَا حَرْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ [يونس: ٦٢، ٦٣] هؤلاء هم أولياء الله ، ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ : أي حققوا الإيمان في قلوبهم بكل ما يجب الإيمان به ، ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ أي حققوا العمل الصالح بجوارحهم ، فاتقوا جميع المحارم من ترك الواجبات ، أو فعل

(١) وهو قول ابن عباس (انظر تفسير الطبري ١٠/١٤٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) ، والبيهقي في السنن (٣/٣٤٦ ، ١٠/٢١٩) .

المحرمات ، فهم جمعوا بين صلاح الباطن بالإيمان ، وصلاح الظاهر بالتقوى ، هؤلاء هم أولياء الله . وليست ولاية الله ﷻ تأتي بالدعوى ، كما يفعله بعض الدجالين الذين يموهون على العامة بأنهم أولياء الله ، وهم أعداء والعياذ بالله ، فتجد في بعض البلاد الإسلامية أناسا يموهون للعامة ، يقولون نحن أولياء ، ثم يفعل من العبادات الظاهرة ما يموه به على العامة ، وهو من أعداء الله ، لكنه يتخذ من هذه الدعوة وسيلة إلى جمع المال ، وإلى إكرام الناس له ، وإلى تقريبهم إليه وما أشبه ذلك .

وعندنا - والله الحمد - ضابط بينه الله ﷻ ، وتعريف جيد للأولياء ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ هؤلاء هم أولياء الله . فالذي يعادي أولياء الله يقول الله ﷻ « فَقَدْ أَذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ » يعني أعلنت عليه الحرب . فالذي يعادي أولياء الله محارب لله ﷻ ، نسأل الله العافية ، ومن حارب الله فهو مهزوم مخذول لا تقوم له قائمة .

ثم قال ﷻ : « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه » يعني أن الله يقول : « ما تقرب إلي الإنسان بشيء أحب إلي مما افترضته عليه » يعني أن الفرائض أحب إلى الله من النوافل ، فالصلوات الخمس مثلاً أحب إلى الله من قيام الليل ، وأحب إلى الله من النوافل ، وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الاثنين والخميس والأيام الست من شوال وما أشبهها . كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل .

ووجه ذلك : أن الفرائض وكدها الله ﷻ فألزم بها العباد ، وهذا دليل على شدة محبته لها ﷻ ، فلما كان يحبها حباً شديداً ألزم بها العباد ، أما النوافل فالإنسان حر : إن شاء تنفل وزاد خيراً ، وإن شاء لم يتنفل ، لكن الفرائض أحب إلى الله وأؤكد ، والغريب أن الشيطان يأتي الناس فتجدهم في النوافل يحسنونها تماماً ؛ تجده مثلاً في صلاة الليل يخشع ولا يتحرك ، ولا يذهب قلبه يميناً ولا شمالاً ، لكن إذا جاءت الفرائض ؛ فالحركة كثيرة ، والوساوس كثيرة ، والهواجس بعيدة ، وهذا من تزيين الشيطان ، فإذا كنت تزين النافلة فالفريضة أحق بالتزيين ، فأحسن الفريضة لأنها أحب إلى الله ﷻ من النوافل .

« وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » النوافل تقرب إلى الله وهي تكمل الفرائض ، فإذا أكثر الإنسان من النوافل مع قيامه بالفرائض ؛ نال محبة الله ، فيحبه الله ، وإذا أحبه فكما يقول الله ﷻ « كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » يعني أنه يكون مسدداً له في هذه الأعضاء الأربعة ، في السمع : يسدده في سمعه فلا يسمع إلا ما يرضى الله وما فيه الخير والصلاح ، ويعرض عما يغضب الله فلا يستمع إليه ، ويكون ممن إذا سمعوا للغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . كذلك أيضاً بصره : فلا ينظر إلا إلى ما يحب الله النظر إليه ، ولا ينظر إلى المحرم ، ولا ينظر نظراً محرماً ، ويده : فلا يعمل بيده إلا ما يرضي الله ، لأن الله يسدده . وكذلك رجله : فلا يمشي إلا إلى ما يرضي الله فلا يسعى إلا إلى ما فيه الخير وهذا معنى قوله « كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » ، أي أنه تعالى يسدد عبده هذا في سمعه وبصره وبطشه ومشيه .

فإذا كان الله ﷻ مسددًا له في هذه الأشياء ؛ كان موقفًا مغتنمًا لأوقاته متتهزًا لفرصه .

وليس المعنى أن الله يكون نفس السمع ونفس البصر ونفس اليد ونفس الرجل - حاش لله - فهذا محال ، فإن هذه أعضاء وأبعاد لشخص مخلوق لا يمكن أن تكون هي الخالق ، ولأن الله تعالى أثبت في هذا الحديث في قوله : « ولئن سألتني أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيزنه » فأثبت سائلًا ومسؤولًا ، وعائدًا ومعوذًا به ، وهذا غير هذا .

وفي قوله ﷻ في هذا الحديث القدسي : « ولئن سألتني أعطيته » دليل على أن هذا الولي الذي تقرب إلى الله تعالى بالفرائض ثم بالنوافل إذا سأل الله أعطاه فكان مجاب الدعوة ، وهذا الإطلاق يقيد بالأحاديث الأخرى الدالة على أنه يعطي السائل سؤاله ما لم يسأل إثما أو قطيعة رحم ، فإن سأل إثما فإنه لا يجاب ^(١) ، لكن الغالب أن الولي لا يسأل الإثم ، لأن الولي هو المؤمن التقي ، والمؤمن التقي لا يسأل إثما ولا قطيعة رحم .

« ولئن استعاذني لأعيزنه » يعني لئن اعتصم بي ولجأ إليّ من شر كل ذي شر لأعيزنه ، فيحصل له بإعطائه مسؤوله وإعادته مما يتعوذ منه المطلوب ، ويزول عنه المرغوب .

وفي هذا الحديث عدة فوائد :

أولاً : إثبات الولاية لله ﷻ ، وولاية الله تعالى تنقسم إلى قسمين : ولاية عامة وهي السلطة على جميع العباد ، والتصرف فيهم بما أراد . فإن الذي يتولى أمور كل إنسان وتديره وتصريفه هو الله ﷻ ، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ۖ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ ۖ ﴾ [الأنعام : ٦١ ، ٦٢] فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق .

أما الولاية الخاصة : مثل قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

والولاية العامة : تكون بغير سبب من الإنسان ، يتولى الله الإنسان شاء أم أبى وبغير سبب منه . أما الولاية الخاصة : فإنها تكون بسبب من الإنسان ، فهو الذي يتعرض لولاية الله حتى يكون الله وليًا له ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٣] .

ومن فوائد هذا الحديث : فضيلة أولياء الله ، وأن الله ﷻ يعادي من عاداهم ، بل يكون حربًا عليهم ﷻ .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الأعمال الواجبة من صلاة وصدقة وصوم وحج وجهاد وعلم وغير ذلك أفضل من الأعمال المستحبة ؛ لأن الله تعالى قال : « ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه » .

(١) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في الذكر (٩٢) ، وأحمد في مسنده (١٥٤/٤) .

ومن فوائده : إثبات المحبة لله ﷻ ، وأن الله تعالى يحب الأعمال بعضها أكثر من بعض ، كما أنه يحب الأشخاص بعضهم أكثر من بعض ، فالله ﷻ يحب العاملين بطاعته ويحب الطاعة ، وتتفاوت محبته ﷻ على حسب ما تقتضيه حكمته .

ومن فوائده هذا الحديث أيضًا : أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بالنوافل مع القيام بالواجبات ؛ فإنه يكون بذلك معافى في جميع أموره ، لقوله تعالى في هذا الحديث القدسي : « وما يزال عبيد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » إلخ .

وفيه : دليل أيضًا على أن من أراد أن يحبه الله ؛ فالأمر سهل عليه إذا سهله الله عليه ، يقوم بالواجبات ويكثر من التطوع بالعبادات ؛ فبذلك ينال محبة الله وينال ولاية الله .

ومن فوائده هذا الحديث : إثبات عطاء الله ﷻ وإجابة دعوته لوليه ، لقوله : « إن سألتني أعطيت ، ولئن استعاذني لأعيذه » . وأتى به المؤلف في باب المجاهدة ؛ لأن النفس تحتاج إلى جهاد في القيام بالواجبات ثم بفعل المستحبات ، نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

٩٦ - الثاني : عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : « إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شَيْئًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا . وَإِذَا أَتَانِي يَمْسِيهِ أَتَيْتُهُ هَوْلَةً » (١) رواه البخاري .

٩٧ - الثالث : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصُّحَّةُ ، وَالْفَرَاغُ » (٢) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن النبي ﷺ قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ » يعني أن هذين الجنسين من النعم مغبون فيهما كثير من الناس ، أي مغلوب فيهما ، وهما الصحة والفراغ ، وذلك أن الإنسان إذا كان صحيحًا كان قادرًا على ما أمره الله به أن يفعله ، وكان قادرًا على ما نهاه الله عنه أن يتركه ؛ لأنه صحيح البدن ، منشرح الصدر ، مطمئن القلب ، كذلك الفراغ إذا كان عنده ما يؤويه وما يكفيه من مؤنة فهو متفرغ . فإذا كان الإنسان فارغًا

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٥٠٩/٢) كلاهما بلفظه ، ولفظ : « من تقرب » ، المنذري في الترهيب (١٠٤/٤) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٦/١٠) ، (١٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٢) ، وأحمد في مسنده (٣٤٤/١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٠٤) وابن ماجه في الزهد (٤١٧٠) ، والبيهقي في السنن (٣٧٠/٣) .

صحيحاً فإنه يغبن كثيراً في هذا ؛ لأن كثيراً من أوقاتنا تضعيع بلا فائدة ونحن في صحة وعافية وفراغ ومع ذلك تضعيع علينا كثيراً ، ولكننا لا نعرف هذا الغبن في الدنيا ، إنما يعرف الإنسان الغبن إذا حضره أجله ، وإذا كان يوم القيامة ، والدليل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠] وقال ﷺ في سورة المنافقون : ﴿ مَن قَبِلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَكَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۚ ﴾ [المنافقون : ١٠] قال الله ﷻ : ﴿ وَكَانَ يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۚ ﴾ [المنافقون : ١١] .

الواقع أن هذه الأوقات الكثيرة تذهب علينا سدى لا ننتفع منها ، ولا ننتفع أحداً من عباد الله ، ولا نندم على هذا إلا إذا حضر الأجل ؛ يتمنى الإنسان أن يعطى فرصة ولو دقيقة واحدة لأجل أن يستعقب ، ولكن لا يحصل ذلك .

ثم إن الإنسان قد لا تقوته هذه النعمة ، بل قد لا تقوته هاتان النعمتان : الصحة ، والفراغ ، بالموت بل قد تقوته قبل أن يموت ، قد يمرض ويعجز عن القيام بما أوجب الله عليه ، وقد يمرض ويكون ضيق الصدر لا ينشرح صدره ويتعب ، وقد ينشغل بإيجاد النفقة له ولعيله حتى تقوته كثير من الطاعات .

ولهذا ينبغي للإنسان العاقل أن ينتهز فرصة الصحة والفراغ بطاعة الله ﷻ بقدر ما يستطيع ، إن كان قارئاً للقرآن ؛ فليكثر قراءة القرآن ، وإن كان لا يعرف القراءة ؛ يكثر من ذكر الله ﷻ ، وإذا كان لا يمكنه ؛ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، أو ييذل لإخوانه كل ما يستطيع من معونة وإحسان ، فكل هذه خيرات كثيرة تذهب علينا سدى ، فالإنسان العاقل هو الذي ينتهز الفرص ؛ فرصة الصحة ، وفرصة الفراغ .

وفي هذا : دليل على أن نعم الله تتفاوت ، وأن بعضها أكبر من بعض ، وأكبر نعمة ينعم الله تعالى بها على العبد : نعمة الإسلام ، نعمة الإسلام التي أضل الله عنها كثيراً من الناس ، قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة : ٣] ، فإذا وجد الإنسان أن الله قد أنعم عليه بالإسلام وشرح الله صدره له ؛ فإن هذه أكبر النعم .

ثم ثانياً : نعمة العقل فإن الإنسان إذا رأى مبتلى في عقله لا يحسن التصرف ، وربما يسيء إلى نفسه وإلى أهله ، حمَدَ الله على هذه النعمة فإنها نعمة عظيمة .

ثالثاً : نعمة الأمن في الأوطان ؛ فإنها من أكبر النعم ، ونضرب لكم مثلاً بما سبق عن آبائنا وأجدادنا من المخاوف العظيمة في هذه البلاد ، حتى إننا نسمع أنهم كانوا إذا خرج الواحد منهم إلى صلاة الفجر لا يخرج إلا مصطحباً سلاحه ؛ لأنه يخشى أن يعتدي عليه أحد ، فنعمة الأمن لا يشابهها نعمة غير نعمة الإسلام والعقل .

رابعاً : كذلك مما أنعم الله به علينا ولا سيما في هذه البلاد : رغد العيش يأتينا من كل مكان ، فنحن في خير عظيم - ولله الحمد - البيوت مليئة من الأرزاق ، والسماطات ^(١) يجعل فيها من

(١) السماط : هو ما يمد من الموائد لوضع الطعام عليه في المآدب (المعجم العربي الأساسي ص ٦٤١) .

الأرزاق للواحد ما يكفي اثنين أو ثلاثة أو أكثر ، هذه أيضًا من النعم ، فعلينا أن نشكر الله ﷻ على هذه النعم العظيمة ، وأن نقوم بطاعة الله حتى يمن علينا بزيادة النعم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

٩٨ - الرابع : عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ : « أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا ؟ » ^(١) متفقٌ عليه . هذا لفظ البخاري ، ونحوه في الصحيحين من رواية المغيرة بن شعبه .

الشرح

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - ما نقله عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في باب المجاهدة ، وقد سبق لنا أن من جملة المجاهدة مجاهدة الإنسان نفسه ، وحمله إياها على عبادة الله والصبر على ذلك ، ذكر المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لِمَ تَصْنَعُ ذَلِكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فقال : « أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا ؟ » ، فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أعلم الناس بحال النبي ﷺ فيما يصنعه في السر . أي في بيته ، وكذلك نساؤه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ هن أعلم الناس بما يصنعه في بيته .

ولهذا كان كبار الصحابة يعثون إلى نساء النبي ﷺ يسألونهن عما كان يصنع في بيته ، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يقوم من الليل يعني في الصلاة تهجدًا . وقد قال الله تعالى في سورة المزمل ﴿ إِنَّ رَّبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ وَنُلْفٍ يَصْغَمُ وَتَلْثَمُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

فكان يقوم - عليه الصلاة والسلام - أحيانًا أكثر الليل ، وأحيانًا نصف الليل ، وأحيانًا ثلث الليل ؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - يعطي نفسه حقها من الراحة مع القيام التام بعبادة ربه - صلوات الله وسلامه عليه - فكان يقوم أدنى من ثلثي الليل - يعني فوق النصف ودون الثلثين - ونصفه ، وثلثه ، حسب نشاطه - عليه الصلاة والسلام - وكان يقوم حتى تتورم قدماه وتتفطر من طول القيام : أي يتحجر الدم فيها وتنشق .

وقد قام معه شباب من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولكنهم تعبوا . فابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول : صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فقام طويلًا حتى هممت بأمر سوء ، قالوا : بماذا هممت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هممت أن أقعد وأدعه ^(٢) . أي يجلس لعجزه عن أن يصبر كما صبر النبي ﷺ ، وحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام معه ذات ليلة فقرأ النبي ﷺ البقرة والنساء وآل عمران ^(٣) ، الجميع خمسة أجزاء وربيع

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٣٧) ، ومسلم في صفات المنافقين (٨١) وبنحوه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٩) ، وأحمد في مسنده (٢٥١/١) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في التهجد (١١٣٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٤) ، وأحمد في مسنده (٤٥٠/١) .

(٣) انظر الحديث في مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣) .

تقريبًا ، ويقول حذيفة : كلما أتت آية رحمة سأل ، وكلما أتت آية تسبيح سبح ، وكلما أتت آية وعيد تعوذ ، وهو معروف - عليه الصلاة والسلام - أنه يرتل القراءة .

خمس أجزاء وربع مع السؤال عند آيات الرحمة ، والتعوذ عند آيات الوعيد ، والتسبيح عند آيات التسبيح . فماذا يكون القيام ؟ يكون طويلًا ، وهكذا كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقرأ في الليل . وإذا أطال القراءة أطال الركوع والسجود أيضًا ، فكان يطيل القراءة والركوع والسجود .

فإذا كان يقوم - عليه الصلاة والسلام - مثلاً في ليلة من ليالي الشتاء وهي اثنتي عشرة ساعة ، يقوم أدنى من ثلثي الليل : فلنقل : إنه كلية يقوم سبع ساعات تقريبًا وهو يصلي - عليه الصلاة والسلام - في الليل الطويل . تصور ماذا يكون حاله - عليه الصلاة والسلام - ؟ ومع هذا فقد صبر نفسه وجاهد نفسه ، وقال : « أفلا أحب أن كون عبدًا شكورًا » .

وفي هذا دليل على أن الشكر هو القيام بطاعة الله ، وأن الإنسان كلما ازداد في طاعة ربه ﷻ فقد ازداد شكرًا لله ﷻ ، وليس الشكر بأن يقول الإنسان بلسانه أشكر الله ، أحمد الله ، فهذا شكر باللسان ، لكن الكلام هنا على الشكر الفعلي الذي يكون بالفعل بأن يقوم الإنسان بطاعة الله بقدر ما يستطيع . وفي هذا : دليل على أن النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ كل ما تقدم من ذنبه قد غفر الله له ، وكل ما تأخر قد غفر الله له ، وقد خرج من الدنيا - صلوات الله وسلامه عليه - سالمًا من كل ذنب ؛ لأنه مغفور له .

وقد يخص الله أقوامًا فيغفر لهم ذنوبهم بأعمال صالحة قاموا بها مثل أهل بدر . فأهل بدر كانوا ثلاث مائة وبضع عشر رجلًا ، منهم حاطب بن أبي بلتعة ﷻ ، فإن النبي ﷺ قال لعمر في قصة مشهورة : « أما علمت أن الله أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (١) ، وهذا من خصائص أهل بدر أن الله غفر لهم ما يفعلون من الذنوب .

وإلا فإن حاطبًا ﷻ فعل ذنبًا عظيمًا ، وذلك أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما أراد أن يغزو قريشًا حين نقضت العهد الذي بينه وبينهم في صلح الحديبية ، أرسل حاطب ﷻ رسالة خطية إلى أهل مكة يخبرهم أن الرسول ﷺ قادم عليهم ، فأخبر النبي ﷺ بذلك عن طريق الوحي ، فأرسل علي بن أبي طالب ورجلًا معه في إثر المرأة فأدركوها في روضة خاخ - روضة معروفة في طريق مكة - فلما أدركوها أوقفوها وقالوا لها : أخرجي الكتاب : الذي معك لأهل مكة ، قالت : ما معي كتاب . قالوا : لا بد أن تخرجي الكتاب الذي معك ، فإما أن تخرجيه وإما أن نفتشك حتى ما تحت الثياب ، فلما عرفت عزيمتهم أخرجت الكتاب من خفها ، فإذا فيه خطاب : من حاطب ﷻ إلى أهل مكة يخبرهم ، فرجعوا به إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - فاستأذن عمر ﷻ - وكان من أقوى الناس في دين الله - النبي ﷺ أن

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٧٤) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) كلاهما بلفظ « وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا ، قال : « اعملوا » ، وأحمد في مسنده (١٠٩/٢) .

يقتل حاطبًا ، قال : إن الرجل نافق ، كتب بأسرارنا إلى أعدائنا ، قال : « أما علمت أن الله أطلع إلى أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، وكان منهم ﷺ ، وإلا فهذه جريمة كبيرة .

ولهذا يجب على ولي الأمر إذا أدرك جاسوسًا يكتب إلى أعدائنا بأخبارنا أن يقتله ولو كان مسلمًا ، لأنه عاث في الأرض فسادًا ، فقتل الجاسوس ولو كان مسلمًا واجب على ولي الأمر لعظم فساد ، ولكن هذا منع منه مانع وهو أنه كان من أهل بدر ، ولهذا لم يقل النبي - عليه الصلاة والسلام : أما علمت أنه مسلم ؟ بل قال « أما علمت أن الله أطلع على أهل بدر » .

ففي هذا : دليل على أن من خصائص الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا قد يقع كما قلت لبعض الصحابة كأهل بدر ، قال بعض العلماء : واعلم أن من خصائص الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبناءً عليه فكل حديث يأتي بأن من فعل كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإنه حديث ضعيف ، لأن هذا من خصائص الرسول ، أما « غفر له ما تقدم من ذنبه » فهذا كثير ، لكن « ما تأخر » هذا ليس إلا للرسول ﷺ فقط ، وهو من خصائصه ، وهذه قاعدة عامة نافعة لطالب العلم أنه إذا أتاك حديث فيه أن من فعل كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فاعلم أن قوله : ما تأخر ، ضعيف لا يصح ؛ لأن هذا من خصائص محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وفي هذا : دليل أيضًا على فضيلة قيام الليل وطول القيام ، وقد أثنى الله على من يقومون الليل ويطيلون فقال ﷻ : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦] يعني تبتعد عن الفراش ، ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ﴿ خَوْفًا ﴾ أي إذا نظروا إلى ذنوبهم خافوا ﴿ وَطَمَعًا ﴾ أي إذا نظروا إلى فضل الله طمعوا في فضله ، ﴿ وَمِمَّا زَكَّيْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) [السجدة: ١٦، ١٧] أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم .

وتتجافى جنوبهم عن المضاجع ليس بالسهر على التلفزيون ، أو على لعب الورق ، أو على أعراض الناس ، أو ما أشبه ذلك ، ولكنهم يدعون الله ، ويعبدونه ﷻ خوفًا وطمعًا ﴿ وَمِمَّا زَكَّيْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أين هذا الذي أخفي لهم ؟ جاء في الحديث القدسي ما يبين ذلك حيث قال الله ﷻ : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ^(٢) جعلني الله وإياكم من ساكني هذه الجنان إنه جواد كريم .

٩٩ - الخامس : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أخيرًا أَلْبَسَ أَهْلَهُ ، وَجَدَّ ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ » ^(٣) متفق عليه .

(١) قوله ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي مما تسر به قلوبهم .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣ ، ٢) ، وأحمد في مسنده (٤٣٨/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ، ومسلم في الاعتكاف (٧) ، وأبو داود في الصلاة (١٣٧٦) وأحمد في مسنده (٤١/٦) .

والمراد : العَشْرُ الْأَوَاخِرُ من شهر رمضان . « وَالْمُتَزَرُّ » : الإِزَارُ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ اغْتِرَالِ النَّسَاءِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ تَشْمِيرُهُ لِلْعِبَادَةِ . يُقَالُ : شَدَدْتُ لِهَذَا الْأَمْرِ مُتَزَرِي . أَي : تَشَمَّرْتُ ، وَتَفَرَّغْتُ لَهُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها ، في حال رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان : إنه إذا دخل العشر : شد المتزر ، وأحيا ليله ، وجدَّ في العبادة ، وشمر عليه الصلاة والسلام .

وقد سبق في الحديث السابق أنه ﷺ كان يقوم في الليل حتى تنفطر قدماه ، وأنه يقوم من الليل أكثر من النصف أو النصف أو الثلث ، أما في ليالي العشر من رمضان ؛ فإنه كان يقوم الليل كله ، أي يحيي ليله كله - عليه الصلاة والسلام - بالعبادة ، لكن بالفطور بعد غروب الشمس ، والعشاء ، وصلاة العشاء ، والأشياء التي يرى - عليه الصلاة والسلام - أنها قربة إلى الله ﻋَﻠَﻴْهِ ، وليس معناه أن كل الليل في صلاة ، بدليل أن صفيه بنت حبي بن أخطب كانت تأتي إليه - عليه الصلاة والسلام - فيحدثها بعد صلاة العشاء ، ولكن كل ما كان يفعله - عليه الصلاة والسلام - في تلك الليالي فإنه قربة إلى الله ﻋَﻠَﻴْهِ ؛ إما صلاة أو تهيمُّ لصلاة أو غير ذلك . وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ كان يحيي العشر الأواخر من رمضان كلها ، ولكنه لا يحيي ليلة سواها ؛ أي أنه لم يقم ليلة حتى الصباح إلا في العشر الأواخر من رمضان ، وذلك تحريماً لليلة القدر ، وهي ليلة تكون في العشر الأواخر من رمضان ، ولا سيما في السبع الأواخر منه ، فهذه الليلة يقدر الله ﻋَﻠَﻴْهِ فيها ما يكون في تلك السنة ، وهي كما قال الله تعالى : ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: ٣] فكان يحييها « ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه » ^(١) .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله معنى قوله « شد المتزر » فمنهم من قال : إنه كناية عن ترك النساء ؛ لأنه يكون معتكفاً ، والمعتكف لا يباح له النساء ^(٢) ، كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَبْتَغُوا مِنْهُنَّ مَتَاعًا ﴾ وَأَشْرَ عَنْكُمُوهُنَّ فِي الْمَسْكِدِ [البقرة: ١٨٧] ومنهم من قال : بل هو كناية عن الجد والتشمير في العمل ، وكلا الأمرين صحيح ، فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان لا يأتي أهله في العشر الأواخر من رمضان لأنه معتكف ، وكان أيضاً يشد المتزر ويجتهد ويشمر صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا من أنواع المجاهدة ، فالإنسان يجب أن يجاهد نفسه في الأوقات الفاضلة حتى يستوعبها في طاعة الله .

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٦) ، والنسائي في السنن (١٥٧/٤) ، وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) .

(٢) هذا هو ما عليه إجماع الفقهاء ، فقد قالوا أن الجماع يفسد الاعتكاف ، أما ما كان دون الجماع من أسبابه ودواعيه كالقبلة والنظرة والمباشرة فلا جرم أن ذلك منهى عنه ، وإن حصل بذلك إنزال بطل الاعتكاف بغير خلاف وإن لم يحصل إنزال فلا يبطل عند الحنفية لكنه مع ذلك قد أساء ، وهو عندهم كالصوم لا يفسد بدواعي الجماع ما لم يحصل إنزال فإن حصل إنزال ففساد الاعتكاف بما دون الجماع من أسبابه ودواعيه ولو لم يحصل إنزال (انظر : شرح فتح القدير ١٨٨/١ ، بداية المجتهد ٣١٦/١ ، المجموع ٥٢٤/٦ ، فقه الكتاب والسنة ١٠٧٨/١) .

١٠٠ - السادس : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ اخْرُصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَفْجُرْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنْ لَوْ تَفْتَحْ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » ^(١) . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه . عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » « المؤمن القوي » : يعني في إيمانه ، وليس المراد القوي في بدنه ؛ لأن قوة البدن ضرراً على الإنسان إذا استعمل هذه القوة في معصية الله ، فقوة البدن ليست محمودة ولا مذمومة في ذاتها ، إن كان الإنسان استعمل هذه القوة فيما ينفع في الدنيا والآخرة صارت محمودة ، وإن استعان بهذه القوة على معصية الله صارت مذمومة .

لكن القوة في قوله ﷺ : « المؤمن القوي » أي قوي الإيمان ، ولأن كلمة القوي تعود إلى الوصف السابق وهو الإيمان ، كما تقول : الرجل القوي : أي في رجولته ، كذلك المؤمن القوي ؛ يعني في إيمانه ؛ لأن المؤمن القوي في إيمانه تحمله قوة إيمانه على أن يقوم بما أوجب الله عليه ، وعلى أن يزيد من النوافل ما شاء الله ، والضعيف الإيمان يكون إيمانه ضعيفاً لا يحمله على فعل الواجبات وترك المحرمات فيقصر كثيراً .
وقوله : « خير » يعني خير من المؤمن الضعيف ، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - « وفي كل خير » يعني المؤمن القوي والمؤمن الضعيف كل منهما فيه خير ، وإنما قال : « وفي كل خير » لئلا يتوهم أحد من الناس أن المؤمن الضعيف لا خير فيه ، بل المؤمن الضعيف فيه خير ، فهو خير من الكافر لا شك .

وهذا الأسلوب يسميه البلاغيون الاحتراز ، وهو أن يتكلم الإنسان كلاماً يوهم معنى لا يقصده ، فيأتي بجملة تبين أنه يقصد المعنى المعين ، ومثال ذلك في القرآن قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولِيكِ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴾ [الحديد : ١٠] لما كان قوله ﴿ أُولِيكِ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا ﴾ يوهم أن الآخرين ليس لهم حظ من هذا ، قال : ﴿ وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴾ .

ومن ذلك : قوله تعالى ﴿ وَادَّوَدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [فهمتها سليمان] ^(٢) [الأنبياء : ٧٩، ٧٨] لما كان هذا يوهم أن داود عنده نقص ، قال تعالى : ﴿ وَكَلَّا ءَايَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ

(١) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) ، وأحمد في مسنده (٣٧٠ / ٢) ، والبيهقي في السنن (٨٩ / ١٠) .

(٢) قوله ﴿ نَفِثَتْ ﴾ أي تفرقت وانتشرت فيه ليلاً بلا راع فأفسدته .

وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُتَجَهِّدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْفَاعِلِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ ﴿٩٥﴾ [النساء : ٩٥] فهنا قال النبي ﷺ : « وفي كل خير » أي المؤمن القوي والمؤمن الضعيف ، لكن القوي خير وأحب إلى الله ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « احرص على ما ينفعك » هذه وصية من الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى أمته ، وهي وصية جامعة مانعة : « احرص على ما ينفعك » يعني اجتهد في تحصيله ومباشرته ، وضد الذي ينفع الذي فيه ضرر ، وما لا نفع فيه ولا ضرر ، وذلك لأن الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم ينفع الإنسان ، وقسم يضره ، وقسم لا ينفع ولا يضر .

فالإنسان العاقل الذي يقبل وصية النبي ﷺ هو الذي يحرص على ما ينفعه ، وما أكثر الذين يضيعون أوقاتهم اليوم في غير فائدة ، بل في مضرة على أنفسهم وعلى دينهم ، وعلى هذا فيجدر بنا أن نقول لمثل هؤلاء : إنكم لم تعملوا بوصية النبي ﷺ ؛ إما جهلاً منكم ، وإما تهاوؤاً ، لكن المؤمن العاقل الحازم هو الذي يقبل هذه النصيحة ، ويحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه .

وهذا حديث عظيم ينبغي للإنسان أن يجعله نبراساً له في عمله الديني والدنيوي ؛ لأن النبي ﷺ قال : « احرص على ما ينفعك » وهذه الكلمة جامعة عامة ، « على ما ينفعك » أي على كل شيء ينفعك سواء في الدين أو في الدنيا ، فإذا تعارضت منفعة الدين ومنفعة الدنيا ؛ فإنما تقدم منفعة الدين ؛ لأن الدين إذا صلح صلحت الدنيا ، أما الدنيا إذا صلحت مع فساد الدين فإنها تفسد .

فقوله « على ما ينفعك » يشمل منافع الدين والدنيا ، وعند التعارض تقدم منافع الدين على منافع الدنيا . وفي قوله « احرص على ما ينفعك » إشارة على أنه إذا تعارضت منفعتان إحداهما أعلى من الأخرى ، فإنما تقدم المنفعة العليا ؛ لأن المنفعة العليا فيها المنفعة التي دونها وزيادة ، فتدخل في قوله : « احرص على ما ينفعك » .

فإذا اجتمع صلة أخ وصلة عم كلاهما سواء في الحاجة ، وأنت لا يمكنك أن تصل الرجلين جميعاً ، فهنا تقدم صلة الأخ ؛ لأنها أفضل وأنفع ، وكذلك أيضاً بين مسجدين كلاهما في البعد سواء لكن أحدهما أكثر جماعة ؛ فإنما تقدم الأكثر جماعة ؛ لأنه الأفضل ، فقوله : « على ما ينفعك » يشير إلى أنه إذا اجتمعت منفعتان إحداهما أعلى من الأخرى فإنها تقدم الأعلى .

وبالعكس إذا كان الإنسان لا بد أن يرتكب منهياً عنه من أمرين منهي عنهما وكان أحدهما أشد ؛ فإنه يرتكب الأخف ، فالمناهي يقدم الأخف منها ، والأوامر يقدم الأعلى منها .

وقوله - عليه الصلاة والسلام - : « واستعن بالله » ما أروع هذه الكلمة بعد قوله : « احرص على ما ينفعك » لأن الإنسان إذا كان عاقلاً ذكياً ؛ فإنه يتبع المنافع ويأخذ بالأنفع ، وربما تغره نفسه حتى يعتمد على نفسه وينسى الاستعانة بالله ، وهذا يقع لكثير من الناس ، حيث يعجب بنفسه ولا يذكر الله ﷻ ويستعين به ، فإذا رأى من نفسه قوة على الأعمال وحرصاً على النافع وفعلًا له ، أعجب بنفسه ؛ ونسي الاستعانة بالله ، ولهذا قال : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله » أي لا تنس الاستعانة بالله ولو على الشيء اليسير .

وفي الحديث : « ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلها حتى يسأل شعث نعله إذا انقطع » ^(١) يعني حتى الشيء اليسير لا تنس الله ، حتى ولو أردت أن تتوضأ أو تصلي أو تذهب يميناً أو شمالاً أو تضع شيئاً ؛ فاستحضر أنك مستعين بالله ﷻ ، وأنه لولا عون الله ما حصل لك هذا الشيء .

ثم قال : « ولا تعجز » ^(٢) يعني استمر في العمل ولا تعجز وتأخر ، وتقول : إن المدى طويل والشغل كثير ، فما دمت قد صممت في أول الأمر أن هذا هو الأنفع لك واستعنت بالله وشرعت فيه ؛ فلا تعجز . وهذا الحديث في الحقيقة يحتاج إلى مجلدات يتكلم عليه فيها الإنسان ؛ لأن له من الصور والمسائل ما لا يحصى ، منها مثلاً : طالب العلم الذي يشرع في كتاب يرى أنه منقعة وفيه مصلحة له ، ثم بعد أسبوع أو شهر يمل ، وينتقل إلى كتاب آخر ، هذا نقول : استعان بالله وحرص على ما ينفعه ولكنه عجز ، كيف عجز ؟ بكونه لم يستمر ؛ لأن معنى قوله : « لا تعجز » أي لا تترك العمل ، بل ما دمت دخلت فيه على أنه نافع فاستمر فيه ، ولذا تجد هذا الرجل يمضي عليه الوقت ولم يحصل شيئاً ؛ لأنه أحياناً يقرأ في هذا ، وأحياناً في هذا .

حتى في المسألة الجزئية تجد بعض طلبه العلم مثلاً يريد أن يراجع مسألة من المسائل في كتاب ، ثم يتصفح الكتاب يبحث عن هذه المسألة ، فيعرض له أثناء تصفح الكتاب مسألة أخرى يقف عندها ، ثم مسألة ثانية فيقف عندها ، ثم ثالثة فيقف ، ثم يضع الأصل الذي فتح الكتاب من أجله ؛ فيضيع عليه الوقت ، وهذا ما يقع كثيراً في مثل فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وهذا ليس بصحيح بل الصحيح أن تنظر الأصل الذي فتحت الكتاب من أجله .

كذلك أيضاً في تراجم الصحابة في الإصابة مثلاً لابن حجر رحمه الله حين يبحث الطالب عن ترجمة صحابي من الصحابة ، ثم يفتح الكتاب من أجل أن يصل إلى ترجمته ، فعرض له ترجمة صحابي آخر فيقف عندها ويقرأها ، ثم يفتح الكتاب يجد صحابي آخر ، ثم هكذا يضيع عليه الوقت ولا يُحصّل الترجمة التي من أجلها فتح عليها الكتاب ، وهذا فيه ضياع للوقت .

ولهذا كان من هدي الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يبدأ بالأهم الذي تحرك من أجله ، ولذلك لما دعا عتبان بن مالك الرسول ﷺ وقال له : أريد أن تأتي لتصلي في بيتي لأتخذ من المكان الذي صليت فيه مصلى لي ، فخرج النبي - عليه الصلاة والسلام - ومعه نفر من أصحابه ، فلما وصلوا إلى بيت عتبان واستأذنوا ودخلوا ، وإذا عتبان قد صنع لهم طعاماً ، ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يبدأ بالطعام ، بل قال : « أين المكان الذي تريد أن نصلي فيه ؟ » ^(٣) فأراه إياه ، فصلى ثم جلس للطعام ، فهذا دليل على أن الإنسان يبدأ بالأهم ، وبالذي تحرك من أجله من أجل ألا يضيع عمله سدى .

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٦١٢) ، والهندي في كنز العمال (٣١٣٩) ، وابن حجر في فتح الباري (٣٠٠/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٦١٢) تحفة الأحوذى ، والألباني في الضعيفة (١٣٦٢) .

(٣) انظر الحديث في البخاري في الصلاة (٤٢٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٦٣) ، وأحمد في

مسنده (٤٤/٤) ، والدارمي في السنن (١٠/١) .

فقول الرسول ﷺ « لا تعجز » أي لا تكسل وتتأخر في العمل إذا شرعت فيه ، بل استمر لأنك إذا تركت ثم شرعت في عمل آخر ، ثم تركت ثم شرعت ثم تركت ، ماتم لك عمل .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « فإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا » يعني بعد أن تحرص وتبذل الجهد وتستعين بالله وتستمر ، ثم يخرج الأمر على خلاف ما تريد ، فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا ؛ لأن هذا أمر فوق إرادتك ، أنت فعلت الذي تؤمر به ولكن الله ﷻ غالب على أمره ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] ونضرب مثالا لذلك : إذا سافر رجل يريد العمرة ولكنه في أثناء الطريق تعطلت السيارة ، ثم رجع فقال : لو أني أخذت السيارة الأخرى لكان أحسن ولما حصل علي التعطل ، نقول : لا تقل هكذا ؛ لأنك أنت بذلت الجهد ، ولو كان الله ﷻ أراد أن تبلغ العمرة ليسر لك الأمر ، ولكن الله لم يرد ذلك .

فالإنسان إذا بذل ما يستطيع بذله وأخلفت الأمور ؛ فحينئذ يفوض الأمر إلى الله ؛ لأنه فعل ما يقدر عليه ، ولهذا قال : « إن أصابك شيء » يعني بعد بذل الجهد والاستعانة بالله ﷻ فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا .

وجزى الله عنا نبينا خير الجزاء فقد بين لنا الحكمة من ذلك ، حيث قال : « فإن لو تفتح عمل الشيطان » أي تفتح عليك الوسوس والأحزان والندم والهموم ، حتى تقول : لو أني فعلت لكان كذا ، فلا تقل هكذا ، والأمر انتهى ولا يمكن أن يتغير عما وقع ، وهذا أمر مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن تخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وسيكون على هذا الوضع مهما عملت .

ولهذا قال : « ولكن قل : قدر الله » أي هذا قدر الله ؛ أي تقدير الله وقضاؤه ، وما شاء الله ﷻ فعله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَاعَلْ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [مود : ١٠٧] لا أحد يمنعه في ملكه ما يشاء ، ما شاء فعل ﷻ .

ولكن يجب أن نعلم أنه سبحانه وتعالى لا يفعل شيئاً إلا لحكمة خفيت علينا أو ظهرت لنا ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠] فبين أن مشيئته مقرونة بالحكمة والعلم ، وكم من شيء كره الإنسان وقوعه فصار في العاقبة خيراً له ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ولقد جرت حوادث كثيرة تدل على هذه الآية ، من ذلك : قبل عدة سنوات أقلعت طائرة من الرياض متجهة إلى جدة وفيها ركاب كثيرون يزيدون عن ثلاثمائة راكب ، وكان أحد الركاب الذين سجلوا في هذه الطائرة في قاعة الانتظار حتى نام ، وأعلن عن إقلاع الطائرة ، وذهب الركاب وركبوا ، فإذا بالرجل يستيقظ بعد أن أغلق الباب ، فندم ندامة شديدة . كيف فاتته الطائرة ؟ ثم إن الله قدر بحكمته أن تحترق الطائرة وركابها . فسبحان الله كيف نجا هذا الرجل ؟ كره أنه فاتته الطائرة ، ولكن كان ذلك خيراً له .

فأنت إذا بذلت الجهد واستعنت بالله ، وصار الأمر على خلاف ما تريد لا تندم ، ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا ، إذا قلت هذا انفتح عليك من الوسوس والندم والأحزان ما يكدر عليك الصفو ، فقد انتهى الأمر وراح ، وعليك أن تسلم الأمر للجبار ﷻ ، قل : قدر الله وما شاء فعل .

ووالله لو أننا سرنا على هدي هذا الحديث لاسترحنا كثيراً ، لكن تجد الإنسان أولاً : لا يحرص على ما ينفعه ؛ بل تمضي أوقاته ليلاً ونهاراً بدون فائدة ، تضع عليه سدى ، ثانياً : إذا قُدر أنه اجتهد في أمر ينفعه ثم فات الأمر ، ولم يكن على ما توقع ؛ تجده يندم ، ويقول : ليتني ما فعلت كذا ، ولو أنني فعلت كذا لكان كذا ، وهذا ليس بصحيح ؛ فأنت أد ما عليك ثم بعد هذا فوض الأمر لله ﷻ .

فإذا قال قائل : كيف أحتج بالقدر ؟ كيف أقول قدر الله وما شاء فعل ؟ والجواب : أن نقول : نعم هذا احتجاج بالقدر ولكن الاحتجاج بالقدر في موضعه لا بأس به ، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ ائْتِ بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۚ ﴾ [الأنعام: ١٠٦، ١٠٧] فيبين له أن شركهم بمشيئته والاحتجاج بالقدر علي الاستمرار في المعصية هذا حرام لا يجوز ؛ لأن الله قال : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسًا ۚ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] لكن الاحتجاج بالقدر في موضعه هذا لا بأس به ، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - دخل ذات ليلة على علي بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد - عليه الصلاة والسلام - فوجدهما نائمين ، فقال لهما : « ما منعكما أن تقوموا ؟ » يعني تقوموا تتهجدان ، فقال علي : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله لو شاء أن نقوم لقمنا ، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام وهو يضرب على فخذه ويقول : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۚ ﴾ ^(١) [الكهف: ٥٤] .

هذا جدال لكن احتجاج علي بن أبي طالب في محله ، لأن النائم ليس عليه حرج فهو ما ترك القيام وهو مستيقظ قال رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة » ^(٢) ، ولا يُبعد أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أراد أن يختبر علي بن أبي طالب : ماذا يقول في الجواب ؟ وسواء كان ذلك أم لم يكن . فاحتجاج علي بالقدر هنا حجة ، وذلك لأنه أمر ليس باختياره : هل النائم يستطيع أن يستيقظ إذا لم يوقظه الله ؟ .. لا ، إذن هو حجة .

فالاحتجاج بالقدر ممنوع إذا أراد الإنسان أن يستمر على المعصية ليدفع اللوم عن نفسه ، نقول مثلاً : يا فلان صل مع الجماعة ، تقول : والله لو هداني الله للصليت ، فهذا ليس بصحيح ، يُقال لآخر : أقلع عن خلق اللحية ، يقول : لو هداني الله لأقلعت ، وأقلع عن الدخان ، يقول : لو هداني الله لأقلعت ، فهذا ليس بصحيح ؛ لأن هذا يحتج بالقدر ليستمر في المعصية والمخالفة .

لكن إن وقع الإنسان في خطأ وتاب إلى الله ، وأتاب إلى الله ، وندم وقال : إن هذا الشيء مقدر علي ، ولكن استغفر الله وأتوب إليه ، نقول : هذا صحيح ، إن تاب واحتج بالقدر فليس هناك مانع .

* * *

(١) انظر الحديث بنصه فيما أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٤٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٦) ، والنسائي في السنن (٢٠٥/٣) ، وأحمد في مسنده (٢٧٧/١) .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٠١) ، وأحمد في مسنده (١٤٠/١) ، والترمذي في السنن (١٤٢٣) ، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤١) .

١٠١ - السابع : عنه أن رسول الله ﷺ قال : « حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ » (١) متفقٌ عليه . وفي رواية لمسلم : « حُفَّتْ » بدل « حُجِبَتِ » وَهُوَ بِمَعْنَاهُ ، أَي : بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا هَذَا الْحِجَابُ ، فَإِذَا فَعَلَهُ دَخَلَهَا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « حفت النار بالشهوات » - وفي لفظ : « حجبت » - « وحفت الجنة بالمكاره » - وفي لفظ : « حجبت الجنة بالمكارة » - يعني أحيطت بها ، فالنار قد أحيطت بالشهوات ، والجنة قد أحيطت بالمكاره . والشهوات : هي ما تميل إليه النفس من غير تعقل ولا تبصر ولا مراعاة لدين ولا مراعاة لمروءة . فالزنا - والعياذ بالله - شهوة الفرج ، تميل إليها النفس كثيرًا ، فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب ؛ فإنه سيكون سببًا لدخوله النار .

وكذلك شرب الخمر تهواه النفس وتميل إليه ، ولهذا جعل الشارع له عقوبة رادعة بالجلد ، فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب وشرب الخمر أداه ذلك إلى النار والعياذ بالله .

وكذلك حب المال شهوة من شهوات النفس ، فإذا سرق الإنسان بدافع شهوة حب جمع المال ، فلرغبة أن يستولي على المال الذي ترغبه نفسه ، فإذا سرق ؛ فقد هتك هذا الحجاب ، فيصل إلى النار والعياذ بالله .

ومن ذلك : الغش من أجل أن يزيد ثمن السلعة ، هذا تهواه النفس فيفعله الإنسان ، فيهتك الحجاب الذي بينه وبين النار ، فيدخل النار .

الاستطالة على الناس والعلو عليهم والترفع عليهم ، كل إنسان يحب هذا وتهواه النفس ، فإذا فعله الإنسان ؛ فقد هتك الحجاب الذي بينه وبين النار ، فيصل إلى النار والعياذ بالله .

ولكن ما دواء هذه الشهوة التي تميل إليها النفس الأمانة بالسوء ؟ دواؤها ما بعدها قال : « وحفت الجنة بالمكاره » - أو حجبت بالمكاره - يعني أحيطت بما تكره النفوس ؛ لأن الباطل محبوب للنفس الأمانة بالسوء ، والحق مكروه لها ، فإذا تجاوز الإنسان هذا المكروه وأكره نفسه الأمانة بالسوء على فعل الواجبات وعلى ترك المحرمات ، فحينئذ يصل إلى الجنة .

ولهذا تجد الإنسان يستقل الصلوات مثلاً ، ولا سيما في أيام الشتاء وأيام البرد ، ولا سيما إذا كان في الإنسان نوم كثير بعد تعب وجهد ، فتجد الصلاة ثقيلة عليه ، ويكره أن يقوم يصلي ويترك الفراش اللين الدفيء ، ولكن إن هو كسر هذا الحاجب وقام بهذا المكروه وصل إلى الجنة .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٧) ، ومسلم بنحوه في الجنة وصفة نعيمها (١) ، وأحمد في مسنده (٢٦٠/٢) ، والترمذي في السنن (٢٥٥٩) .

وكذلك النفس الأمارة بالسوء تدعو صاحبها إلى الزنا ، والزنا شهوة وتجب النفس الأمارة بالسوء ، لكن إذا عقلها صاحبها وأكرهها على تجنب هذه الشهوة ؛ فهذا كره له ، ولكن هو الذي يوصله إلى الجنة ؛ لأن الجنة حفت بالمكاره .

وأيضاً الجهاد في سبيل الله مكروه إلى النفس ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، فإذا كره الإنسان هذا الحجاب ؛ كان ذلك سبباً لدخول الجنة ، واستمع إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفَعُونَ ﴾ ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَهُمْ لَا يُبَدِّلُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَثَرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧١] فإذا كسر الإنسان هذا المكروه وصل إلى الجنة .

كذلك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر شديد على النفوس شاق عليها ، وكل إنسان يتهاون فيه ، ويكرهه ، يقول : ما عليّ بالناس . أتعب نفسي معهم وأتعبهم معي ؟! ولكنه إذا كسر هذا المكروه وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ؛ فإن هذا سبب لدخول الجنة ، وهلم جرا ، كل الأشياء التي أمر الله بها مكروهه للنفوس ، لكن أكره نفسك عليها حتى تدخل الجنة .

فاجتنب المحرمات مكروه إلى النفوس وشديد عليها ، لا سيما مع قوة الداعي ، فإذا أكرهت نفسك على ترك هذه المحرمات ؛ فهذا من أسباب دخوله الجنة ، فلو أن رجلاً شاباً أعزب في بلاد كفر وحرية ، فيها يفعل الإنسان ما شاء ، وأمامه من النساء الجميلات فتيات شابات وهو شاب أعزب فلا شك أنه سيعاني مشقة عظيمة في ترك الزنا ؛ لأنه متيسر له ، وأسبابه كثيرة ، لكن إذا أكره نفسه على تركها صار هذا سبباً لدخوله الجنة .

واستمع إلى قول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » ^(١) أي يوم القيامة حيث تدنو الشمس الحارة العظيمة ، التي نحس بحرارتها الآن وبيننا وبينها آلاف السنين ، هذه الشمس تدنو يوم القيامة حتى تكون على رؤوس الخلائق بمقدار ميل ، قال بعض العلماء الميل : المكحلة ، والمكحلة صغيرة أصغر من الإصبع ، وقال بعضهم : ميل المسافة ، وأياً كان الميل ، فالشمس قريبة من الرؤوس ، لكن هناك أناس يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يظلهم الله . يظلهم الله : يعني يخلق لهم ما يظلهم يوم لا ظل إلا ظله ، وليس في ذلك اليوم بناء ولا شجر ولا جبال تظلل وليس هناك إلا ظل رب العالمين . هذا الظل يظل الله فيه من شاء من عباد ، ومنهم هؤلاء السبعة الذين ذكرهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - في قوله : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » . إمام عادل : وليس المقصود بالإمام العادل أنه يحكم لأقاربه وغيرهم على حد سواء ، فهذا من

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ، ومسلم في الزكاة (٩١) ، والترمذي في السنن (٢٣٩١) ، وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

معنى العدل ، لكن الإمام العادل الذي يطبق شريعة الله في كل شيء ، في الحكم في الناس ، وفي الحكم بين الناس ، هذا هو الإمام العادل . ولو فرضنا إمام عادل يعدل بين الناس في الحكم لكن لا يطبق فيهم شرع الله فليس بعادل ، العادل الذي يحكم بين الناس وفي الناس بحكم الله ﷻ .

« وشاب نشأ في طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال ، وهذا هو الشاهد ، فالمرأة ذات منصب يعني شريفة ليست دنيئة ، وذات جمال ، والجمال يدعو النفس إلى التطلع إلى المرأة . « فقال : إني أخاف الله » فالرجل شاب وفيه شهوة وأسباب الزنا قائمة ، والموانع معدومة ، ولكن هناك مانع واحد وهو خوف الله ﷻ « فقال : إني أخاف الله » فكان هذا من الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والسادس : « رجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » من شدة إخلاصه ، والسابع : « رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » أي فاضت عيناه شوقاً إلى ربه ﷻ ، وفاضت عيناه خوفاً من ربه ، وكان خالياً ليس عنده أحد ؛ خالي القلب من الدنيا فليس فيه هواجس ، بل خالي إلا من ذكر الله ، فذكر الله في هذه الخلوة القلبية والخلوة المكانية ففاضت عيناه . فكان هذا ممن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والمهم أن النار حجبت بالشهوات ، والجنة حجبت بالمكاريه ، فجاهد نفسك على ما يحب الله وإن كرهت ، واعلم علم إنسان مجرب أنك إذا أكرهت نفسك على طاعة الله ؛ أحبيت الطاعة وألفتها ، وصرت بعد ما كنت تكرهها تأبى نفسك إذا أردت أن تتخلف عنها .

ونحن نجد بعض الناس يكره أن يصلي مع الجماعة ، ويثقل عليه ذلك عندما يبدأ في فعله ، لكن إذا به بعد فترة تكون الصلاة مع الجماعة قرة عينه ، ولو تأمره ألا يصلي لا يطيعك ، فأنت عود نفسك وأكرهها أول الأمر ، وستلين لك فيما بعد وتنقاد . أسأل الله أن يعينني وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

١٠٢ - الثامن : عن أبي عبد الله حذيفة بن اليمان ؓ قال : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ ، فَقُلْتُ يَزْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ ، ثُمَّ مَضَى ، فَقُلْتُ يُصَلِّيْ بِهَا فِي رَكْعَةٍ ، فَمَضَى ، فَقُلْتُ : يَزْكَعُ بِهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ النَّسَاءَ ، فَقَرَأَهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا ، يَقْرَأُ مُتْرَسِلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ » فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ : « سَمِعَ اللَّهُ لَنْ حَمْدَهُ ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ » ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى » فَكَانَ سُجُودَهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ (١) . رواه مسلم

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣) قوله « مترسلاً » أي مرتلاً بتبيين الحروق وأداء حقها .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة - يعني في ليلة من الليالي ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً يصلي معه بعض أصحابه ، فمرة صلى معه حذيفة ، ومرة صلى معه ابن مسعود رضي الله عنه ، ومرة صلى معه ابن عباس رضي الله عنه ، وكان النبي - عليه الصلاة والسلام - يصلي في الليل وحده ؛ لأن صلاة الليل لا تشرع فيها الجماعة إلا في رمضان ، لكن لا بأس أن تقام الجماعة فيها أحياناً كما في هذا الحديث ، يقول : « فافتتح سورة البقرة ، فقلت « يركع عند المائة » فقرأ السورة كاملة ، فظن أنه يركع بها ؛ أي أنه إذا أكمل سورة البقرة ركع ، ولكنه مضى صلى الله عليه وسلم فقرأ سورة النساء كاملة ، فقال حذيفة : يركع بها ، ولكنه مضى فقرأ سورة آل عمران كاملة في ركعة واحدة ، يقرأ مترسلاً غير مستعجل ، إذا مر بآية تسبيح سبح ، وإذا مر بآية سؤال سأل ، وإذا مر بآية تعوذ تعوذ .

فجمع - عليه الصلاة والسلام - بين القراءة وبين الذكر وبين الدعاء وبين التفكير ؛ لأن الذي يسأل عند السؤال ويتعوذ عند التعوذ ويسبح عند التسبيح ، لا شك أنه يتأمل قراءته ويتفكر فيها ، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر ، قراءة وتسبيحاً ودعاءً وتفكيراً ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - في هذا كله لم يركع . فهذه السور الثلاث : البقرة والنساء وآل عمران أكثر من خمسة أجزاء ، فتدبر إذا كان الإنسان يقرأها بترسل ، ويستعيذ عند آية الوعيد ويسأل عند آية الرحمة ، ويسبح عند آية التسبيح . كم تكون المدة ؟ لا شك أنها تكون طويلة ، ولهذا كان - عليه الصلاة والسلام - يقوم حتى تتورم قدماه وتتفطر .

حتى إن ابن مسعود وهو شاب لما صلى معه ليلة من الليالي يقول : أطال النبي صلى الله عليه وسلم القيام حتى هممت بأمر سوء ، قال : بما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه ^(١) ، عجز أن يصبر من طول القيام . ثم إن النبي - عليه الصلاة والسلام - ركع بعد أن أتم السور الثلاث ، فقال : « سبحان ربي العظيم » وأطال الركوع نحواً من قيامه ، ثم رفع من ركوعه وأطال القيام بعد الركوع وقال : « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » حتى كان قيامه نحواً من ركوعه ، ثم سجد صلى الله عليه وسلم فقال : « سبحن ربي الأعلى » وأطال السجود حتى كان سجوده نحواً من قيامه .

وهكذا كان - عليه الصلاة والسلام - يصلي فيجعل الصلاة متناسبة ؛ إذا أطال القيام ، أطال الركوع ، والسجود ، والقيام الذي بعد الركوع ، والجلوس الذي بين السجدين ، وإذا خفف القراءة ؛ خفف الركوع والسجود ، والقيام ؛ من أجل أن تكون الصلاة متناسبة ، وهذا فعله - صلوات الله وسلامه عليه - في الفرض وفي النفل أيضاً ، فكان صلى الله عليه وسلم يجعل صلاته متناسبة . وفي هذا الحديث عدة فوائد :

الفائدة الأولى : وهي التي ساق المؤلف الحديث من أجلها : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل عمل المجاهد الذي يجاهد نفسه على الطاعة ؛ لأنه يعمل هذا العمل الشاق ابتغاء وجه الله ورضوانه ، كما قال الله

تعالى في وصف النبي ﷺ وصحبه : ﴿ تَرَنَّهُمْ تُكَمُّ سَجْدًا يَتَعَوَّنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .
ومنها جواز إقامة الجماعة في صلاة الليل ، لكن هذا ليس دائماً ، إنما يفعل أحياناً في غير رمضان ،
أما في رمضان فإن من السنة أن يقوم الناس في جماعة .

ومنها : أنه ينبغي للإنسان في صلاة الليل إذا مر بآية رحمة أن يقف ويسأل ، مثل لو مر بذكر الجنة
يقف ويقول : اللهم اجعلني من أهلها ، اللهم إني أسألك الجنة ، وإذا مر بآية وعيد يقف يقول : أعوذ
بالله من ذلك ، أعوذ بالله من النار ، وإذا مر بآية تسبيح يعني تعظيم لله ﷻ يقف ويسبح الله
ويعظمه ، هذا في صلاة الليل ، أما في صلاة الفريضة لا بأس أن يفعل هذا ولكنه ليس بسنة ، إن فعله
فإنه لا يُنهي عنه ، وإن ترك فإنه لا يؤمر به ^(١) . بخلاف صلاة الليل ؛ فإن الأفضل أن يفعل ذلك ،
أي يتعوذ عند آية الوعيد ويسأل عند آية الرحمة ويسبح عند آية التسبيح .

ومن فوائد هذا الحديث : جواز تقديم السور بعضها على بعض ؛ فإن النبي ﷺ قدم سورة النساء على
سورة آل عمران ، والترتيب أن سورة آل عمران مقدمة على سورة النساء ، ولكن هذا - والله أعلم - كان
قبل السنة الأخيرة ، فإن السنة الأخيرة كان النبي ﷺ يقدم سورة آل عمران على سورة النساء ، ولهذا
رتبها الصحابة ﷺ على هذا الترتيب ، أي أن آل عمران قبل سورة النساء ، وكان النبي - عليه الصلاة
والسلام - يقرن بين البقرة وآل عمران في مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - : « اقرأوا الزهراوين البقرة
وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيايتان أو فزقان من طير صواف تحاجان عن
صاحبهما يوم القيامة » ^(٢) ، فالهم أن الترتيب في الأخير كان تقديم سورة آل عمران على سورة النساء .

ومن فوائد هذا الحديث : أن رسول الله ﷺ كان يسبح ويكرر التسبيح ؛ لأن حذيفة قال : كان
يقول : « سبحان ربي العظيم » وكان يطيل ، ويقول : « سبحان ربي الأعلى » وذكر أنه يطيل ، ولم يذكر
شيئاً آخر ، فدل هذا على أنك مهما كررت من التسبيح في الركوع والسجود ؛ فإنه سنة ، ولكن مع هذا
كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول في ركوعه وفي سجوده ويكثر من هذا القول : « سبحانك
اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي » ^(٣) وكان يقول أيضاً : « سبح قدوس رب الملائكة والروح » ^(٤) فكل ما
ورد عن النبي ﷺ من ذكر ودعاء فإنه يسن للإنسان أن يقوله في صلاته . نسأل الله تعالى أن يرزقنا
وإياكم اتباع رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً ، وأن يتولانا وإياكم في الدنيا والآخرة إنه جواد كريم .

* * *

(١) ذهب الشافعية والحنابلة في المعتمد في مذهبه إلى جواز الدعاء في الصلاة بغير المأثور ، والمأثور من الدعاء أفضل
أما الحنفية وبعض الحنابلة فقد ذهبوا إلى عدم جواز الدعاء بما ليس بمأثور ، وأنه يفسد الصلاة ؛ لأنه من كلام الآدميين
(انظر المغني ١/٥٤٨ - ٥٤٩ ، مغني المحتاج ١/١٧٦ ، البناية ٢/٢٤٥ ، فقه الكتاب والسنة ١/٥٦٠ - ٥٦١) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٢) ، قوله « فزان » أي جماعتان .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٧) ، ومسلم في الصلاة (٢١٧) ، وأحمد في مسنده (٣٨٨/١) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٢٣) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٢) ، والنسائي في السنن (١٩١/٢) .

١٠٣ - التاسع : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ ! قِيلَ : وَمَا هَمَمْتَ بِهِ ؟ قَالَ : هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدْعَهُ ^(١) . متفقٌ عليه .

١٠٤ - العاشر : عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ : أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ : يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ » ^(٢) متفقٌ عليه

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وكان رضي الله عنه أحد الذين يخدمون رسول الله ﷺ . صاحب وسادته وسواكه رضي الله عنه فصلى مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فقام النبي ﷺ فأطال القيام ، وقد سبق من حديث عائشة : أنه كان ﷺ يقوم حتى تتفطر قدماه ، أو حتى تتورم . تتفطر أحياناً وتتورم أحياناً ، من طول القيام .

وصح من حديث حذيفة : أنه قرأ في ركعة واحدة بثلاث سور من طوال السور ، البقرة ، والنساء ، وآل عمران .

وكذلك ابن مسعود رضي الله عنه صلى معه ذات ليلة فأطال النبي ﷺ القيام فهم بأمر سوء يعني بأمر ليس يسر المرء فعله ، قال : بما هممت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال هممت أن أجلس وأدعه ، يعني أجلس وأدعه قائماً ، لأن ابن مسعود تعب وأعيأ مع أنه شاب ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - لم تعب ؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان أشد الناس عبادة لله ﷻ وأتقاهم لله ، ففي هذا دليل على أنه من السنة أن يقوم الإنسان في الليل ويطيل القيام ، وأنه إذا فعل ذلك فهو مقتد برسول الله ﷺ .

ولكن اعلم أنك إذا أطلت القيام ، فإن السنة أن تطيل الركوع ، والسجود ، والجلوس بين السجدين ، والوقوف بعد الركوع ، فإن من سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه كان يجعل صلاته متناسبة ؛ إذا أطال القيام أطال بقية الأركان ، وإذا خفف القيام خفف بقية الأركان .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ : مَالُهُ ، وَاهْلُهُ ، وَعَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ » صدق النبي ﷺ . الإنسان إذا مات تبعه المشيعون له ، فيتبعه أهله يشيعونه إلى المقبرة ، وما أعجب الحياة الدنيا وأخسها ، وما أدناها ، يتولى دفنك من أنت أحب الناس إليه ؛ يدفنونك ويعدونك عنهم ، ولو أنهم أعطوا أجره على أن تبقى جسداً بينهم ما رضوا ، فأقرب الناس إليك ومن أنت أحب الناس إليهم ، هم الذين يتولون دفنك ؛ يتبعونك ويشيعونك .

« ويتبعه ماله » : أي عبيده وخدمه المماليك له ، وهذا يمثل الرجل الغني الذي له عبيد وخدم مماليك ، يتبعونه ، ويتبعه « عمله » معه فيرجع اثنان ويدعونه وحده ، ولكن يبقى معه عمله ، نسأل الله أن يجعل عملنا وإياكم صالحاً ؛ فيبقى عمله عنده أنيسه في قبره ينفرد به إلى يوم القيامة .

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ، ومسلم في الزهد (٥) .

وفي هذا الحديث : دليل على أن الدنيا - كل زينة الحياة الدنيا ترجع ، ولا تبقى معك في قبرك ، المال ، والبنون ، زينة الحياة الدنيا ترجع ، من الذي يبقى ؟ فقط العمل ، فعليك يا أخي أن تحرص على صاحب الذي يبقى ولا ينصرف مع من ينصرف ، وعليك أن تجتهد حتى يكون عملك عملاً صالحاً يؤنسك في قبرك إذا انفردت به عن الأحباب والأهل والأولاد .

ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة ؛ لأن كثرة العمل توجب مجاهدة النفس ، فإن الإنسان يجاهد نفسه على الأعمال الصالحة التي تبقى بعد موته ، نسأل الله لنا ولكم حسن الخاتمة والعاقبة ، وأن يتولانا بعنايته ورعايته . إنه جواد كريم .

١٠٥ - الحادي عشر : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب المجاهدة فيما نقله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » هذا الحديث يتضمن ترغيباً وترهيباً ، يتضمن ترغيباً في الجملة الأولى وهو قوله كلمة « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » وشراك النعل هو السير الذي يكون على ظهر القدم ، وهو قريب من الإنسان جداً ويضرب به المثل في القرب ، وذلك لأنه قد تكون الكلمة الواحدة ، سبباً في دخول الجنة ؛ فقد يتكلم الإنسان بالكلمة الواحدة من رضوان الله ﻻ يظن أنها تبلغ ما بلغت ، فإذا هي توصله إلى جنة النعيم .

ومع ذلك فإن الحديث أعم من هذا ؛ فإن كثرة الطاعات واجتناب المحرمات من أسباب دخول الجنة وهو يسير على من يسره الله عليه ، فأنت تجد المؤمن الذي شرح الله صدره للإسلام يصلي براحة وطمأنينة وانشراح صدر ومحبة للصلاة ، ويذكر كذلك ، ويصوم كذلك ، ويحج كذلك ، ويفعل الخير كذلك ، فهو يسير عليه سهل قريب منه ، وتجده يتجنب ما حرمه الله عليه من الأقوال والأفعال وهو يسير عليه . وأما - والعياذ بالله - من قد ضاق بالإسلام ذرعاً ، وصار الإسلام ثقیلاً عليه ؛ فإنه يستثقل الطاعات ، ويستثقل اجتناب المحرمات ، ولا تصير الجنة أقرب إليه من شراك نعله .

وكذلك النار ، وهي الجملة الثانية في الحديث وهي التي فيها التحذير ، يقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « والنار مثل ذلك » أي أقرب إلى أحدنا من شراك نعله ، فإن الإنسان ربما يتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً وهي من سخط الله فيهوي بها في النار كذا وكذا من السنين ؛ وهو لا يدري وما أكثر الكلمات التي يتكلم بها الإنسان غير مبال بها ، وغير مهتم بمبدولها ، فترديه في نار جهنم ، نسأل الله العافية .

ألم تروا إلى قصة المنافقين الذين كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك حيث كانوا يتحدثون فيما

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) ، وأحمد في مسنده (٣٧٨/١ ، ٤١٣) ، والبيهقي في السنن (٣٦٨/٣) .

بينهم يقولون : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء ^(١) ؛ يعنون بذلك النبي ﷺ وأصحابه ، يعني أنهم واسعوا البطون من كثرة الأكل ، وليس لهم هم إلا الأكل ، « ولا أكذب ألسنا » يعني : أنهم يتكلمون بالكذب « ولا أجبن عند اللقاء » أي أنهم يخافون لقاء العدو ولا يثبتون ، بل يفرون ويهربون . هكذا يقول المنافقون في الرسول ﷺ وأصحابه .

وإذا تأملت وجدت أن هذا ينطبق على المنافقين تماماً لا على المؤمنين ، فالمنافقون من أشد الناس حرصاً على الحياة ، والمنافقون من أكذب الناس ألسنا ، والمنافقون من أجبن الناس عند اللقاء . فهذا الوصف حقيقته في هؤلاء المنافقين .

ومع ذلك يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة : ٦٥] يعني ما كنا نقصد الكلام ، إنما هو خوض في الكلام ولعب ، فقال الله ﷻ : ﴿ قُلْ ﴾ يعني : قل يا محمد ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بِمَدِّ إِسْمِكُمْ إِنْ سَعَى عَنْ طَافِقِهِ مِنْكُمْ نَحَدَّتْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٥ ، ٦٦] فبين الله ﷻ أن هؤلاء كفروا بعد إيمانهم باستهزائهم بالله وآياته ورسوله ، ولهذا يجب على الإنسان أن يقيد منطقته وأن يحفظ لسانه حتى لا يذل فيهلك ، نسأل الله لنا ولكم الثبات على الحق والسلامة من الإثم .

١٠٦ - الثاني عشر : عن أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ ، ومن أهل الصفّة ﷺ قال : « كُنْتُ أَيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَتَيْهِ بَوْضُوهُ ، وَحَاجَّتِي فَقَالَ : « سَلْنِي » فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ . فَقَالَ : « أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ » قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : « فَأَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقل عن ربيعة بن مالك الأسلمي ، وكان خادماً لرسول الله ﷺ والذين يخدمون النبي ﷺ من الأحرار عدد ، منهم ربيعة بن مالك ، ومنهم ابن مسعود ، ولهم الشرف بخدمة رسول الله ﷺ ، وكان من أهل الصفّة ؛ وأهل الصفّة رجال مهاجرون هاجروا إلى المدينة وليس لهم مأوى ، فوطّئهم النبي - عليه الصلاة والسلام - في صُفّة في المسجد النبوي ، وكانوا أحياناً يلبغون الثمانين ، وأحياناً دون ذلك ، وكان الصحابة ﷺ يأتونهم بالطعام واللبن وغيره مما يتصدقون به عليهم .

فكان ربيعة بن مالك يخدم النبي ﷺ وكان يأتيه بوضوئه وحاجته ، الوضوء بالفتح الماء الذي يتوضأ به ، والوضوء بالضم فعل الوضوء ، وأما الحاجة فلم يبينها ، ولكن المراد كل ما يحتاجه النبي - عليه الصلاة والسلام - يأتي به إليه .

(١) ودليل ذلك ما رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٧) ، ومسلم في الزهد (٤٩ ، ٥٠) ، وأحمد في مسنده (٣٣٤/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٦) .

فقال له ذات يوم : سل ، من أجل أن يكافئه النبي - عليه الصلاة والسلام - على خدمته إياه ؛ لأن النبي ﷺ أكرم الخلق ، وكان يقول : « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه » ^(١) فأراد أن يكافئه ، فقال له : سل ، يعني أسأل ما بدا لك ، وقد يتوقع الإنسان أن هذا الرجل سيسأل مالا ، ولكن همته كانت عالية ، قال : « أسألك مرافقتك في الجنة » كما كنت ، يعني كأنه يقول كما كنت مرافقا لك في الدنيا ، أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : « أو غير ذلك ؟ » يعني أو تسأل غير ذلك مما يمكن أن أقوم به ، قال : « هو ذاك » يعني لا أسأل إلا ذاك ، قال النبي ﷺ : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » . وهذا هو الشاهد أن الرسول ﷺ قال : أعني على نفسك بكثرة السجود ، وكثرة السجود تستلزم كثرة الركوع ، وكثرة الركوع تستلزم كثرة القيام ؛ لأن كل صلاة في كل ركعة منها ركوع وسجودان ، فإذا كثر السجود كثر الركوع وكثر القيام ، وذكر السجود دون غيره ؛ لأن السجود أفضل هيئة للمصلي ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وإن كان المصلي قريبا من الله قائما كان أو راکعا أو ساجدا أو قاعدا ، لكن أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد . وفي هذا دليل على فضل السجود .

واختلف أهل العلم هل الأفضل إطالة القيام أم إطالة الركوع والسجود ؟ فمنهم من قال : الأفضل إطالة القيام ، ومنهم من قال : الأفضل إطالة الركوع والسجود ، والصحيح أن الأفضل أن تكون الصلاة متناسبة ، وإلا فإن القيام بلا شك أطول من الركوع والسجود في حد ذاته ، لكن ينبغي إذا أطال القيام أن يطيل الركوع والسجود ، وإذا قصر القيام أن يقصر الركوع والسجود .

وفي هذا : دليل على أن الصلاة مهما أكثرت منها فهو خير ، إلا أنه يستثنى من ذلك أوقات النهي ، وأوقات النهي هي من طلوع الفجر إلى ارتفاع الشمس مقدار رمح ، وعند قيامها في منتصف النهار حتى تزول ، ومن صلاة العصر إلى الغروب ، فإن هذه الأوقات الثلاثة لا يجوز للإنسان أن يصلي فيها صلاة تطوع ، إلا إذا كان لها سبب ، كتحية المسجد ، وسنة الوضوء وما أشبه ذلك .

وفي الحديث : دليل على جواز استخدام الرجل الحر ، وأن ذلك لا يعد من المسألة المذمومة ، فلو أنك قلت لشخص من الناس ممن يقومون بخدمتك : أعطني كذا . أعطني كذا ، فلا بأس ، وكذلك لو قلت لصاحب المنزل أعطني ماء ، صب لي فنجان قهوة فلا بأس ؛ لأن هذا لا يعد من السؤال المذموم ، بل هذا من تمام الضيافة ، وقد جرت العادة بمثله .

وفيه : دليل أيضا على أن الرسول ﷺ لا يملك أن يدخل أحدا الجنة ، ولهذا لم يضمن لهذا الرجل أن يعطيه مطلوبه ، ولكنه قال له : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » ، فإذا قام بكثرة السجود التي أوصاه بها رسول الله ﷺ ، فإنه حري بأن يكون مرافقا للرسول ﷺ في الجنة .

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٢ ، ٥١٠٩) ، وأحمد في مسنده (٦٨/٢) ، والنسائي في السنن (٣٥٨/١) ، والحاكم في المستدرک (٤١٢/١) .

١٠٧ - الثالث عشر : عن أبي عبد الله - وَيُقَال : أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ - ثَوْبَانٌ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً » ^(١) رواه مسلم .

١٠٨ - الرابع عشر : عن أبي صَفْوَانَ عبد الله بن بُشَيْرٍ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ » ^(٢) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .
« بُشَيْرٌ » : بضم الباء وبالسین المهملة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة السجود » عليك يعني الزم كثرة السجود ، « فإنك لن تسجد لله سجدة ؛ إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » ؛ وهذا كالحديث السابق حديث ربيعة بن مالك الأسلمي ، أنه قال للنبي ﷺ : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » . ففيه دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يكثر من السجود ، وقد سبق لنا أن كثرة السجود تستلزم كثرة الركوع وكثرة القيام والقعود ؛ لأن كل ركعة فيها سجودان وفيها ركوع واحد ، ولا يمكن أن تسجد في الركعة الواحدة ثلاث سجودات أو أربعاً ، إذن كثرة السجود تستلزم كثرة الركوع والقيام والقعود .

ثم بين النبي ﷺ : ماذا يحصل للإنسان من الأجر فيما إذا سجد .. ؟ وهو أنه يحصل له فائدتان عظيمتان : الفائدة الأولى : أن الله يرفعه بها درجة ، يعني منزلة عنده وفي قلوب الناس ، وكذلك في عملك الصالح يرفعك الله به درجة .

والثانية : يحط عنك بها خطيئة ، والإنسان يحصل له الكمال بزوال ما يكره وحصول ما يحب ، فرفع الدرجات مما يحبه الإنسان ، والخطايا مما يكره الإنسان ، فإذا رفع له درجة وحط عنه بها خطيئة ، فقد حصل على مطلوبه ونجا من مرهوبه .

أما حديث عبد الله بن بسر ، قال : إن النبي ﷺ قال : « خير الناس من طال عمره ، وحسن عمله » . وهذا خير الناس لأن الإنسان كلما طال عمره في طاعة الله زاد قرباً إلى الله ، وزاد رفعة في الآخرة ؛ لأن كل عمل يعمل فيما زاد فيه عمره فهو يقربه إلى ربه ﷻ ، فخير الناس من وفق لهذين الأمرين .

أما طول العمر : فإنه من الله وليس للإنسان فيه تصرف ؛ لأن الأعمار بيد الله ﷻ ، وأما حسن العمل : فإن بإمكان الإنسان أن يحسن عمله ؛ لأن الله تعالى جعل له عقلاً وأنزل الكتب وأرسل الرسل ، وبين المحجة وأقام الحجة ، فكل إنسان يستطيع أن يعمل عملاً صالحاً ، على أن الإنسان إذا عمل عملاً

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٥) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٢) ، وأحمد في مسنده (٢٧٦/٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٩) وله شاهد من حديث أبي بكره عند الترمذي أيضاً في جامعه في الزهد

(٢٣٣٠) ، وأحمد في مسنده (٤٠/٥ ، ٤٣) .

صالحاً؛ فإن النبي ﷺ أخبر أن بعض الأعمال الصالحة سبب لطول العمر وذلك مثل صلة الرحم . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من أحب أن ييسط له في رزقه ، ويُنسأ له في أثره ؛ فليصل رحمه » (١) وصلة الرحم من أسباب طول العمر ، فإذا كان خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، فإنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائماً أن يجعله ممن طال عمره وحسن عمله ، من أجل أن يكون من خير الناس . وفي هذا : دليل على أن مجرد طوله العمر ليس خيراً للإنسان إلا إذا حسن عمله ؛ لأنه أحياناً يكون طول العمر شراً للإنسان وضرراً عليه ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَبِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَبِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، فهؤلاء الكفار يملئ الله لهم - أي يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات ، لا لخير لهم ، ولكنه شر لهم - والعياذ بالله ؛ لأنهم سوف يزدادون بذلك إثمًا .

ومن ثم كره بعض العلماء أن يُدعى للإنسان بطول البقاء ، قال : لا تقل ، أطل الله بقاءك إلا مقيداً . قل : أطل الله بقاءك على طاعته ؛ لأن طول البقاء قد يكون شراً للإنسان . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن طال عمره وحسن عمله ، وحسنت خاتمته وعاقبته ، إنه جواد كريم .

* * *

١٠٩ - الخامس عشر : عن أنس رضي الله عنه قال : غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رضي الله عنه عَنِ الْقَتْلِ بِدَرْ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ ، لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرِيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ أَعْتِزْ إِلَيْكَ بِمَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ بِمَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ . فَقَالَ : يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْجَنَّةُ وَرَبُّ النَّضْرِ ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ . قَالَ سَعْدُ : فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ ! قَالَ أَنَسُ : فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَتَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ ، أَوْ رَمِيَةً بِسَهْمٍ ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَمَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَخْتَهُ بَيْنَانِيهِ . قَالَ أَنَسُ : كُنَّا نَرَى أَوْ نَنْظُرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] إِلَى آخِرِهَا (٢) . متفقٌ عليه .

قوله : « لَيَرِيَنَّ اللَّهُ » رُوي بضم الياء وكسر الراء ، أي : لَيُظْهِرَنَّ اللَّهُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ ، وَرُوي بفتحهما ، ومعناه ظاهر ، والله أعلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن عمه أنس بن النضر رضي الله عنه ، أن أنسًا لم يكن مع الرسول ﷺ - يعني أنس بن النضر - في بدر ، وذلك لأن غزوة بدر خرج إليها (١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢١) ، والبيهقي في السنن (٢٧/٧) . (٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠٥) ، ومسلم في الإمارة (١٤٨) قوله « أعتذر إليك بما صنع هؤلاء » أي المسلمين من الفرار ، قوله « من دون أحد » أي من مكان أقرب منه ، قوله « بينانه » أي بأطراف أصابعه .

النبي ﷺ وهو لا يريد القتال ، وإنما يريد غير قريش وليس معه إلا ثلاثمائة وبضع عشر رجلاً ، معهم سبعون بعيراً وفرسان يتعاقبون عليها ، وقد تخلف عنها كثير من الصحابة ؛ لأنها ليست غزوة ، ولم يدع إليها أحد وإنما خرج إليها الخفاف من الناس .

قال أنس بن النضر للنبي - عليه الصلاة والسلام - بين له أن لم يكن معه في أول قتال قاتل فيه المشركين ، وقال : لئن أدركت قتالاً لأرين الله ما أصنع .

فلما كانت أحد ، وهي بعد غزوة بدر بسنة وشهر ، خرج الناس وقاتلوا مع النبي ﷺ ، وصارت الدائرة في أول النهار للمسلمين ، ولكن لما تخلف الرماة عن الموقع الذي جعلهم النبي ﷺ فيه ونزلوا من الجبل ، كثر فرسان المشركين على المسلمين من خلفهم ، واختلقوا بهم ، وانكشف المسلمون ، وصارت الهزيمة ، لما انكشف المسلمون ، تقدم أنس بن النضر ﷺ وقال : « اللهم إني أعترض إليك بما صنع هؤلاء ، يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين » . ثم تقدم ﷺ فاستقبله سعد بن معاذ فسأله إلى أين ؟ قال : يا سعد ، إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، وهذا وجدان حقيقي ليس تخيلاً أو توهمًا ولكن من كرامة الله ، هذا الرجل شم رائحة الجنة قبل أن يستشهد ﷺ من أجل أن يقدم ولا يحجم ، فتقدم فقاتل فقتل ﷺ ، استشهد ووجد فيه بضع وثمانون ؛ ما بين ضربة بسيف أو برمح أو بسهم ، حتى إنه قد تمزق جلده ، فلم يعرفه أحد إلا أخته ، ولم تعرفه إلا بيناته ﷺ .

فكان المسلمون يرون أن الله قد أنزل فيه هذه الآية : ﴿ يَوْمَ الَّذِينَ يَدْعُوا مَا وَعَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْتَظِرُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَيْنَهُمْ مَنْ يَبْتِغِي مَخْرَجًا وَمَنْ يَبْتَغِي الْيُسْرَى وَأُولَئِكَ يَنْفَكُونَ مِنْهُمْ وَالَّذِينَ يَبْتَغِي الْيُسْرَى يُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَوَاءً ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ولا شك أن هذا وأمثاله ﷺ يدخلون دخولاً أولياً في هذه الآية ؛ فإنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، حيث قال أنس : « والله ليرين الله ما أصنع » ففعل ، فصنع صنعا لا يصنعه أحد إلا من من الله عليه بمثله حتى استشهد .

ففي هذا الحديث : دليل شاهد للباب ، وهو مجاهدة الإنسان نفسه على طاعة الله ، فإن أنس بن النضر جاهد نفسه هذا الجهاد العظيم ، حتى تقدم يقاتل أعداء الله بعد أن انكشف المسلمون وصارت الهزيمة حتى قتل شهيداً ﷺ .

١١٠ - السادس عشر : عن أبي مسعود عُقْبَةَ بن عمرو الأنصاري البصري ﷺ قال : لما نزلت آيةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نَحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا . فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا : مُرْءٍ ، وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا : إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعٍ هَذَا ! فَتَزَلَّتْ ﴿ الْذَرِيَّةُ يَلْمُزُونَكَ الْمَطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ الآية [التوبة: ٧٩] ^(١) . متفق عليه .

« ونَحَامِلُ » بضم النون ، وبالحاء المهملة : أي نَحْمِلُ أَحَدُنَا عَلَى ظَهْرِهِ بِالْأَجْرَةِ ، وَتَصَدَّقَ بِهَا .

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٥) ، ومسلم في الزكاة (٧٢) ، قوله « مرء » من المراءاة وهي العمل ليراه الناس فيكتسب الغرض الدنيوي الزائل ، قوله ﴿ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ أي طاقاتهم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - نقلاً عن أبي مسعود بن عمرو رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة : يعني الآية التي فيها الحث على الصدقة ، والصدقة هي أن يتبرع الإنسان بماله للفقراء ابتغاء وجه الله ، وسميت صدقة ؛ لأن بذل المال لله ﷻ دليل على صدق الإيمان بالله ، فإن المال من الأمور المحبوبة للنفس ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ أَمْوَالَكُمْ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ٢٠] جمًا : أي كثيرًا عظيمًا ، وحيث إن المحبوب لا يبذل إلا لمن هو أحب منه ، فإذا بذله الإنسان ابتغاء وجه الله ؛ كان ذلك دليلًا على صدق الإيمان .

فلما نزلت هذه الآية جعل الصحابة رضي الله عنهم يبادرون ويسارعون في بذل الصدقات إلى رسول الله ﷺ ، وهذه هي عادتهم أنهم إذا نزلت الآيات بالأوامر بادروها وامتثلوها ، وإذا نزلت بالنواهي بادروا بتركها ، ولهذا لما نزلت آية الخمر التي فيها تحريم الخمر ، وبلغت قومًا من الأنصار ، وكان الخمر بين أيديهم يشربون قبل أن يُحَرَّمَ ، فمن حين ما سمعوا الخبر أقلعوا عن الخمر ، ثم خرجوا بالأواني يصبونها في الأسواق حتى جرت الأسواق في الخمر .

وهذا هو الواجب على كل مؤمن إذا بلغه عن الله ورسوله شيء أن يبادر بما يجب عليه ؛ من امتثال هذا الأمر أو اجتناب هذا النهي .

وكذلك هنا : فإن الصحابة رضي الله عنهم بدأوا يتحملون الصدقة ، كل واحد يحمل بقدرته من الصدقة إلى رسول الله ﷺ ، فجاء رجل بصدقة كثيرة وجاء رجل بصدقة قليلة ، فكان المنافقون إذا جاء الرجل بالصدقة الكثيرة . قالوا : هذا مراء - والعياذ بالله - ما قصد به وجه الله . وإذا جاء الرجل بالصدقة القليلة قالوا : إن الله غني عنه ، وجاء رجل بصاع فقالوا : إن الله غني عن صاعك هذا . وهؤلاء هم المنافقون ، والمنافقون هم الذين يظهرون خلاف ما يظنون ، ويظهرون الشماتة بالمؤمنين دائماً ، جعلوا أكبر همهم وأعذب مقال لهم ، وألذ مقال على أسماعهم ، أن يسمعوا ويقولوا ما فيه سب المسلمين والمؤمنين والعياذ بالله ؛ لأنهم منافقون ، وهم العدو ، كما قال الله ﷻ .

فهؤلاء صاروا إذا جاء رجل بكثير قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بقليل قالوا : إن الله غني عن صاعك ولا ينفعك ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] ويلمزون : يعني يعيبون ، والمطوعين : هم المتصدقين ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ و ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ هذه معطوفة على قوله ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ يعني ، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم ، فهم يلمزون هؤلاء وهؤلاء ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩] ، فهم سخروا بالمؤمنين فسخر الله منهم والعياذ بالله .

ففي هذا : دليل على حرص الصحابة على استباق الخير ، ومجاهدتهم أنفسهم على ذلك . وفي هذا : دليل أيضاً على أن الله ﷻ يدافع عن المؤمنين ، وانظر كيف أنزل الله آية في كتاب الله مدافعة عن المؤمنين الذين كان هؤلاء المنافقون يلمزونهم .

وفيه : دليل على شدة العداوة من المنافقين للمؤمنين ، وأن المؤمنين لا يسلمون منهم ، إن عملوا كثيرا سيئهم ، وإن عملوا قليلا سيئهم ، ولكن الأمر ليس إليهم ، بل إلى الله ﷻ ، ولهذا سخر الله منهم ، وتوعدهم بالعذاب الأليم في قوله : ﴿ وَكَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

أما حكم المسألة هذه : فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ① وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] . القليل والكثير من الخير سيراه الإنسان ، ويجازى به ، والقليل والكثير من الشر سيراه الإنسان ، ويجازى عليه ، وصح عن النبي ﷺ أن الإنسان إذا تصدق بعدل تمره - أي لا يعادلها - من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله تعالى يأخذها يمينه فيريها كما يري أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل ② .

وقارن بين حبة من التمر وبين الجبل . لا نسبة ، الجبل أعظم بكثير ، فالله ﷻ يجزي الإنسان على ما عمل من خير قل أو كثر ، ولكن احرص على أن تكون نيتك خالصة لله ، لا تريد بذلك جزاء ولا شكورا من غير الله ، واحرص على أن تكون متبعا في ذلك رسول الله ﷺ .

١١١ - السابع عشر : عن سعيد بن عبد العزيز ، عن زبيدة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر جندب بن جنادة ؓ عن النبي ﷺ فيما يزوي عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إنني خربت الظلم على نفسي وجعلته بينكم ومحروما فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم غار إلا من كسوته ، فاستكسبوني أكسبكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلقوا ضروى فتضرووني ، ولن تبلقوا نفعي فتنتفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكُم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه ② . رواه مسلم . وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال : ليس

(١) انظر نص الحديث في البخاري في التوحيد (٧٤٣٠) ، ومسلم في الزكاة (٦٤) ، وأحمد في مسنده (٣٣١/٢) ، والبيهقي في السنن (١٧٧/٤) ، قوله « فلو » قال أهل اللغة : القلو : المهر ، سمي بذلك لأنه قلى عن أمه ، أي فصل وعزل ، وفيه لغتان فصيحتان فلو بفتح الفاء ، وفلو لكسر الفاء .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) قوله « كلكم ضال إلا من هديته » قال المازري : ظاهر هذا أنهم خلقوا على =

لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه في باب المجاهدة ، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى ، يعني أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حدث عن الله أنه قال ... إلى آخره ، وهذا يسمى عند أهل العلم بالحديث القدسي أو الحديث الإلهي ، أما ما كان من حديث النبي صلى الله عليه وآله ، فإنه يسمى بالحديث النبوي .

وهذا الحديث القدسي يقول الله تعالى فيه : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » يقول جل وعلا : « إني حرمت الظلم على نفسي » أي ألا أظلم أحداً لا بزيادة سيئات لم يعملها ، ولا بنقص حسنات عملها ، بل هو سبحانه وتعالى حكم عدل محسن ، فحكمه وثوابه لعباده دائرين بين أمرين ؟ بين فضل وعدل ، فضل لمن عمل الحسنات ، وعدل لمن عمل السيئات ، وليس هناك شيء ثالث وهو الظلم .

أما الحسنات : فإنه سبحانه وتعالى يجازي الحسنة بعشر أمثالها ، من يعمل حسنة مثاب بعشر حسنات ، أما السيئة فبسيئة واحدة فقط ، قال الله تعالى في سورة الأنعام - وهي مكية - : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ، لا يظلمون بنقص ثواب الحسنات ، ولا يظلمون بزيادة جزاء السيئات ، بل ربنا ﷻ يقول ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِن الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] ﴿ ظُلْمًا ﴾ بزيادة في سيئاته ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ بنقص من حسناته .

وفي قوله تعالى : « إني حرمت الظلم على نفسي » دليل على أنه - جل وعلا - يحرم على نفسه ويوجب على نفسه ، فمما أوجب على نفسه الرحمة ، قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] ، ومما حرم على نفسه الظلم ، وذلك لأنه فعال لما يريد يحكم بما يشاء ، فكما أنه يوجب على عباده ويحرم عليها ، يوجب على نفسه ويحرم عليها جل وعلا ؛ لأن له الحكم التام المطلق .

وقوله تعالى : « وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » أي لا يظلم بعضكم بعضاً . والجعل هنا هو الجعل الشرعي ، وذلك لأن الجعل الذي أضافه الله إلى نفسه إما أن يكون كونياً مثل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةً لِّلنَّاسِ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبا: ١٠، ١١] ، وإما أن يكون شرعياً مثل قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣] ﴿ مَا جَعَلَ ﴾ أي ما شرع ، وإلا فقد جعل ذلك كونياً ؛ لأن العرب كانوا يفعلون هذا ، ومثل هذا الحديث « جعلته بينكم محرماً » أي جعلته جعلاً شرعياً لا كونياً ؛ لأن الظلم يقع .

= الضلال إلا من هداه الله تعالى . وفي الحديث المشهور « كل مولود يولد على الفطرة » فقد يكون المراد بالأول وصفهم بما كانوا عليه قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله ، وأنهم لو تركوا وما في طباعة من إثارة الشهوات والراحة وإهمال النظر لضلوا ، قوله « في صعيد واحد » أي أرض واحدة ومقام واحد . قوله « الخيط » أي الإبرة .

وقوله « جعلته بينكم محرماً » الظلم بالنسبة للعباد فيما بينهم يكون في ثلاثة أشياء يبيها رسول الله ﷺ في قوله وهو يخطب الناس في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم ، وأعراضكم ، عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم ، قال : « اللهم فاشهد » (١) . فهذه ثلاثة أشياء : الدماء ، والأموال ، والأعراض .

فالظلم فيما بين البشر حرام في الدماء ، فلا يجوز لأحد أن يعتدي على دم أحد ، لا على دم تفوت به النفس وهو القتل ، ولا على دم يحصل به النقص ، كدم الجروح وكسر العظام وما أشبهها ، كل هذا حرام لا يجوز .

واعلم أن كسر عظم الميت ككسره حيًا ، كما جاء ذلك عن النبي - عليه الصلاة والسلام (٢) - فالمت محترم لا يجوز أن يؤخذ من أعضائه شيء ، ولا أن يكسر من أعضائه شيء ؛ لأنه أمانة وسوف يُبعث بكامله يوم القيامة ، وإذا كان كذلك فلا يجوز أن تأخذ منه شيئاً .

ولهذا نص فقهاء الخنابلة - رحمهم الله - على أنه لا يجوز أن يؤخذ من الميت شيء من أعضائه ، ولو أوصى به ، وذلك لأن الميت محترم ، كما أن الحي محترم (٣) . فإذا أخذنا من الميت عضوًا أو كسرنا منه عظمًا كان ذلك جناية عليه ، وكان اعتداءً عليه ، وكنا آثمين بذلك .

والميت نفسه لا يستطيع أن يتبرع بشيء من أعضائه لأن أعضائه أمانة عنده أمانة لا يحل له أن يفرط فيها ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وفسرها عمرو بن العاص رضي الله عنه بالإيمان إذا كان عليه جنازة وكان في البرد وخاف إن اغتسل أن يتضرر ، جعل عمرو بن العاص هذا داخلًا في الآية ، وذلك حين كان عمرو بن العاص رضي الله عنه في سرية وأجنب وكانت الليلة باردة فقيم وصلى بأصحابه ، فلما رجعوا إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - وبلغه الخبر ، قال لعمرو : « أصليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » يعني لم تغتسل ، قال : يا رسول الله إني ذكرت قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿ [النساء : ٢٩] وخفت البرد فقيمت ، فضحك النبي ﷺ وأقره على فعله (٤) . وعلى استدلاله بالآية ، لم يقل إن الآية لم تدل على هذا .

فإذن كل شيء يضر أبداننا أو يفوت منها شيئًا فإنه لا يحل لنا أن نفعله ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فما حُرِّم علينا أن نتناول الدخان وغيره من الأشياء الضارة ، إلا من أجل حماية البدن ، فالبدن محترم ، فقول الرسول ﷺ : « دماؤكم » يشمل الدم الذي يهلك به الإنسان وهو القتل ، والدم

(١) أخرجه البخاري في العلم (٦٧) ، ومسلم في القسامة (٢٩ ، ٣٠) ، وابن ماجه في السنن (٣٠٥٨) ، والترمذي في السنن (٢١٥٩) ، وأحمد في مسنده (٣٧/٥) .

(٢) ودليل ذلك ما أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٠٧) ، والبيهقي في السنن (٥٨/٤) .

(٣) وقد استدلو على ذلك بما أخرجه ابن ماجه في السنن (١٦١٦) ، وأحمد في مسنده (١٠٥/٦) « كسر عظم الميت ككسره حيًا » (انظر الغني ٥١١/٢ ، والمجموع ٤٨٤/٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٣٤) .

الذي بدون ذلك ، وهو الجرح أو كسر العظم أو ما أشبه ذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ أَمْوَالُكُمْ ﴾ فإن الأموال قد حرم الله ﷻ على بعضنا أن يأخذ من مال أخيه بغير حق بأي نوع من الأنواع ؛ سواء أخذه غصباً بأن يأخذه بالقوة ، أو أخذه سرقةً ، أو اختطافاً ، أو خيانة ، أو غشاً ، أو كذباً . بأي نوع من هذه الأنواع فإنه حرام عليه .

وعلى هذا فالذين يبيعون على الناس بالغش فإن كل مال يدخل عليهم من زيادة في الثمن بسبب الغش فإنه حرام ، فالذين يغشون في البيع أو في الشراء يرتكبون محظورين :

المحظور الأول : العدوان على إخوانهم المسلمين بأخذ أموالهم بغير حق .

والمحظور الثاني : أنهم ينالون تبرؤ النبي ﷺ منهم ، وبئس البضاعة بضاعة يلتحق فيها صاحبها بالبراءة من رسول الله ﷺ . قال النبي ﷺ فيما صح عنه « مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي » ^(١) .

ومن ذلك : ما يفعله بعض الجيران حيث تجده يدخل المراسيم على جاره من أجل أن تزيد أرضه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن من اقتطع من الأرض شبراً بغير حق ؛ فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين ^(٢) يكون يوم القيامة في عنقه طوق من سبع أرضين - والعياذ بالله - يحمله في يوم المحشر ، وهذا من الظلم .

ومن الظلم أيضاً : أن يكون لشخص على شخص دراهم ثم ينكر الذي عليه الحق ، ويقول : ليس لك عندي شيء ، فهذا من أكل المال بالباطل ، حتى لو فرض أنه تحاكم إلى القاضي مع خصمه وغلبه عند القاضي ؛ فإنه لا يغلبه عند الله ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له ، وإنما أقضي بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ؛ فإنما أقطع له جمرة من نار ، فليستقل أو ليستكثر » ^(٣) فلا تظن أنك إن غلبت خصمك عند القاضي وكنت مبطلاً تسلم بهذا في الآخرة . أبداً ؛ لأن القاضي إنما يقضي بنحو ما يسمع ولا يعلم الغيب ، ولكن علام الغيوب - جل وعلا - هو الذي يحاسبك يوم القيامة .

وكذلك أيضاً : من أكل الأموال أن يدعي شخص على آخر ما ليس له ، ويقيم على ذلك البينة بالشهادة الزور ويحكم له بذلك ، فإن هذا من أكل المال بالباطل والأمثلة على ذلك كثيرة ولكنها كلها محرمة إن لم تكن بحق ، ولهذا قال ﷺ : « فلا تظالموا » .

أما الأعراض : فهي أيضاً حرام ، فلا يحل للإنسان أن يقع في عرض أخيه ، فيغتابه في المجالس أو يسيه ، فإن ذلك من كبائر الذنوب . قال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات : ١٢] انظر للترتيب ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ فإذا

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠١) ، والترمذي في السنن (١٣/٥) ، وأحمد في مسنده (٤٩٨/٣) .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ، ومسلم في المساقاة (١٣٧) ، وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ، ومسلم في الأفضية (٤) ، والترمذي في السنن (١٣٣٩) ،

والنسائي في السنن (٢٤٧/٨) .

ظن الإنسان بأخيه شيئاً تجسس عليه ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ فإذا تجسس صار يغتابه ، ولهذا قال في الثالثة : ﴿ وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ الجواب لا . لا يحب بل يكره ، ولهذا قال : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . قال بعض المفسرين : إذا كان يوم القيامة فإنه يؤتى بالرجل الذي اغتابه الشخص يمثل له بصورة إنسان ميت ، ثم يقال له : كل من لحمه ويكره على ذلك ، وهو يكرهه ، لكن يُكره على هذا عقوبة له والعياذ بالله ^(١) .

فالغيبة - وهي انتهاك عرض أخيك - محرمة ، وقد روى أبو داود أن النبي ﷺ مر ليلة عُرِج به يقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، يعني يكرون الوجوه والصدور بهذه الأظفار التي من النحاس ، فقال : « يا جبريل من هؤلاء ؟ » قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم ^(٢) . نعوذ بالله .

ثم إن الإنسان إذا انتهك عرض أخيه فإن أخاه يأخذ في الآخرة من حسناته ، ولهذا يُذكر أن بعض السلف قيل له : إن فلاناً يغتائبك ، فقال : مؤكد ؟ قال : نعم اغتابك ، فصنع هدية له ثم بعث بها إليه ، فاستغرب الرجل كيف يغتابه ويرسل له هدية ، قال : نعم إنك أهديت إلى حسنات والحسنات تبقى ، وأنا أهديت إليك هدية تذهب في الدنيا ، فهذه مكافأة على هديتك لي . انظر فقه السلف ^(٣) .

فالحاصل أن الغيبة حرام ومن كبائر الذنوب ، ولا سيما إذا كانت الغيبة في ولاية الأمور من الأمراء أو العلماء ، فإن غيبة هؤلاء أشد من غيبة سائر الناس ؛ لأن غيبة العلماء تقلل من شأن العلم الذي في صدورهم ، والذي يُعلّمونه الناس ، فلا يقبل الناس ما يُعطونه من العلم وهذا ضرر على الدين ، وغيبة الأمراء تقلل من هبة الناس لهم فيتمردون عليهم ، وإذا تمرد الناس على الأمراء فلا تسأل عن الفوضى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فنسأل الله أن يحميننا وإياكم مما يغضبه إنه جواد كريم .

ثم قال الله تعالى : « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم » ضال : يعني تائهاً . أي لا يعرف الحق ، وضال : يعني غاويًا لا يقبل الحق ، فالناس في الضلال قسمان : قسم تائه : لا يعرف الحق مثل النصارى ؛ فإن النصارى ضالون تائهون لا يعرفون الحق إلا بعد أن بُعث النبي ﷺ ؛ فإنهم عرفوا الحق لكنهم استكبروا عنه ، فلم يكن بينهم وبين اليهود فرق في أنهم علموا الحق ولم يتبعوه .

وقسم غاوي : أي اختار الغي عن الرشd بعد أن علم بالرشd ، وهؤلاء مثل اليهود ، فإن اليهود عرفوا الحق ولكنهم لم يقبلوه ، بل ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [نصلت : ١٧] هداهم الله وبيّن لهم ودلهم لكنهم استحبوا العمى على الهدى ، واستحبوا الغي

(١) تفسير ابن كثير (ص ١٧٥٠) تفسير الآية (١٢) من سورة الحجرات . طبعة دار ابن حزم .

(٢) انظر الحديث في أبي داود في الأدب (٤٨٧٨) .

على الرشد ، فالناس كلهم ضالون إلا من هداه الله .

لكن ما هي هداية القسم الأول وهو الضال الذي لم يعرف الحق ؟ هداية القسم الأول : أن يبين الله لهم الحق ويدلهم عليه ، وهذه الهداية حق على الله . حق على الله أوجبه الله على نفسه ، فكل الخلق قد هداهم الله بهذا المعنى . يعني بمعنى البيان ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَيْنَا لِلْهَدَىٰ ﴾ [البلل : ١٢] وقال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] هدى للناس عموماً . ولكن الهداية الثانية وهي هداية التوفيق لقبول الحق هذه هي التي يختص الله بها من يشاء من عباده ، فالهداية هدايتان : هداية بيان الحق ، وهذه عامة لكل أحد ، وقد أوجبها الله على نفسه ، وبين لعباده الحق من الباطل ، وهداية توفيق لقبول الحق والعمل به ، تصديقاً للخبر وقيماً بالطلب ، وهذه خاصة يختص الله بها من يشاء من عباده . والناس في هذا الباب ينقسمون إلى أقسام :

القسم الأول : من هُدي الهدايتين ، أي عَلمَهُ الله ووفقه للحق وقبوله .

والقسم الثاني : من حُرِمَ الهدايتين ؛ فليس عنده علم ، وليس له عبادة .

والقسم الثالث : من هُدي بالدلالة والإرشاد ولكنه لم يهد هداية التوفيق ، وهذا شر الأقسام والعياذ بالله .

والمهم : أن الله ﷻ يقول : « كلكم ضال » أي كلكم لا يعرف الحق . أو كلكم لا يقبل الحق ، إلا من هديته « فاستهدوني أهدكم » يعني اطلبوا الهداية مني ، فإذا طلبتموها فإنني أجيبكم وأهديكم إلى الحق ، ولهذا جاء الجواب في « استهدوني أهدكم » وكأنه جواب شرط ، يتحقق المشروط عند وجود الشرط ، ودليل هذا أن الفعل مجزئ « استهدوني أهدكم » فمتى طلبت الهداية من الله بصدق وافتقار إليه وإلحاح ، فإن الله يهديك .

ولكن أكثرنا مُغرَضٌ عن هذا ، فأكثرنا قائم بالعبادة لكن على العادة ، وعلى ما يفعل الناس ، لا كأننا مفتقرون إلى الله ﷻ في طلب الهداية ، فالذي يليق بنا أن نسأل الله دائماً الهداية ، والإنسان في كل صلاة يقول : رب اغفر لي وارحمني واهدني ، بل إنه في الصلاة يقول على سبيل الركنية : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ولكن أين القلوب الواعية ؟! إن أكثر المصلين يقرأ هذه الآية وتمر عليه مَرَّ الطيف ، أي مَرَّ الغيم الذي يجري بدون ماء وبدون شيء . ما ينتبه لها .

والذي يليق بنا : أن نتنبه ، وأن نعلم أننا مفتقرون إلى الله ﷻ في الهداية ، سواء الهداية العلمية أو الهداية العملية ؛ أي هداية الإرشاد والدلالة ، أو هداية التوفيق ، فلا بد أن نسأل الله دائماً الهداية .

« فاستهدوني أهدكم » وربما تشمل هذه الهداية الطريق الحسي كما تشمل الطريق المعنوي ، فالهداية للطريق المعنوي هي الهداية إلى دين الله ، والهداية للطريق الحسي كأن تكون في أرضه قد ضللت الطريق وضعت ، فإنك تسأل الله الهداية ، ولهذا قال الله عن موسى ﷺ ﴿ وَلَمَّا نَوَّجَهُ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عِنَّا رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصر : ٢٢] أي السبيل المستوي الموصل للمقصود

بدون تعب ، وقد جُرب هذا ، فإن الإنسان إذا ضاع في البر فإنه يلجأ إلى الله تعالى ويقول : رب اهْدِنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ، أو عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ، وذلك لأننا محتاجون إلى الله في الهدايتين ؛ هداية الطريق الحسي ، كما أننا محتاجون إلى الله في الهداية إلى الطريق المعنوي .

ثم قال ﷺ فيما يرويه عن ربه : « يا عبادي كلِّم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلِّم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم » هاتان الجملتان الخاصتان بالجوع والعري ذكرهما الله ﷻ بعد أن ذكر الهداية ؛ لأن الهداية فيها غذاء القلب في العلم والإيمان ، والجوارح بالعمل الصالح .

وأما الطعام والشراب والكسوة فهي غذاء البدن ؛ لأن البدن لا يستقيم إلا بالطعام ، ولا يستتر إلا بالكسوة ، ولهذا قال : « يا عبادي كلِّم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم » وصدق ربنا ﷻ ؛ كلنا جائع إلا من أطعمه الله ، ولولا أن الله تعالى يسر لنا ما يكون به طعامنا لهلكنا ، يقول الله تعالى - مبيِّناً ذلك في سورة الواقعة - : ﴿ أَقْرَبَيْتُمْ مَا كَحَرْتُمْ ۖ فَأَنْتُمْ زَرْعُوهٗ ۚ أَمْ تَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ، ٦٤] .

والجواب بل أنت يا ربنا الذي زرعتنا ؛ لأن الله يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۚ إِنَّا لَنَحْمِصُوهُ ۖ ثُمَّ تَحْنُ حَرَمُونَهُ ۚ ﴾ [الواقعة : ٦٥ - ٦٧] وتأمل كيف قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه ؛ لأنه إذا ثبت وشاهده الناس تعلقت قلوبهم به ، فإذا جعل حطاماً بعد أن تعلقت به القلوب ؛ صار ذلك أشد نكايه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه .

﴿ أَقْرَبَيْتَهُ أَلْمَاءَ الَّتِي تَشْرَبُونَ ۚ فَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْفُرْنِ ﴾ [الواقعة : ٦٨ ، ٦٩] يعني من السحاب ﴿ تَحْنُ أَنْزَلُونَهُ ۚ ﴾ لأن الماء الذي نشرب من السحاب ، ينزله الله ﷻ على الأرض فيسلكه ينابيع ، يدخله في الأرض ويجري فيما تحت الأرض كالأنهار ، ثم يستخرج بالأدوات التي سخرها الله ﷻ للناس في كل وقت بحسبه ، وهذا من حكمة الله ﷻ أن استودع الماء في بطن الأرض ، ولو بقي على ظهر الأرض لفسد ، وأفسد الهواء وأهلك المواشي ، بل وأهلك آدميين من راحته ونتاجه ، ولكن الله ﷻ بحكمته ورحمته جعل هذه الأرض تشربه وتسلكه ينابيع فيها ، حتى تأتي حاجة الناس إليه فيحفرونه فيصلون إليه .

﴿ أَقْرَبَيْتَهُ أَلْمَاءَ الَّتِي تَشْرَبُونَ ۚ فَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْفُرْنِ أَمْ تَحْنُ أَنْزَلُونَهُ ۚ ﴾ والله هو الذي أنزله ﷻ ، ولو اجتمع الناس كلهم على أن ينزلوا قطرة من السماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولكن الله ﷻ هو الذي ينزله بقدرته ورحمته ، إذن نحن لا نطعم شيئاً من طعام أو مأكل ولا من مشروب إلا بالله ﷻ ، ولهذا قال : « كلِّم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم » .

واستطعام الله ﷻ يكون بالقول وبالفعل ؛ فبالقول : بأن نسأل الله ﷻ أن يطعمنا ، وأن يرزقنا .

وأما بالفعل : فله جهتان :

الجهة الأولى : العمل الصالح ، فإن العمل الصالح سبب لكثرة الأرزاق وسعيتها ، قال الله ﷻ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿ [الأعراف: ٩٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآكُنْتُمْ لَهُمْ جَنَّاتٍ نَّاعِمِينَ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿ [المائدة: ٦٥، ٦٦] ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴿ أي من ثمار الأشجار ، ﴿ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿ أي من الزروع ، فالمهم أن هذا من أسباب إطعام الله .

الجهة الثانية : من جهتي الاستطعام بالفعل : أن نحرق الأرض ، ونحفر الآبار ونستخرج المياه ، ونزرع الحبوب ، ونغرس الأشجار ، وما أشبه ذلك . فالاستطعام إذن يكون بالقول ، ويكون بالفعل . والفعل له جهتان : الجهة الأولى : العمل الصالح ، والجهة الثانية : الأسباب الحسية المادية ، كالحرث وحفر الآبار وما أشبه ذلك .

وقوله جل ذكره : « فاستطعموني أطعمكم » هذا جواب شرط مقدر ، أو جواب الأمر الذي كان في الشرط ، يعني إنك إذا استطعمت الله فإن الله يطعمك ، ولكن استطعام الله ﷻ يحتاج إلى أمر مهم وهو حسن الظن بالله - جل وعلا - أي إن تحسن الظن بربك أنك إذا استطعمته أطعمك ، أما أن تدعو الله وأنت غافل لاه ، أو تفعل الأسباب وأنت معتمد على قوتك لا على ربك ، فإنك قد تكون مخدولاً والعياذ بالله ، ولكن استطعم الله وأخلص له وحده في ذلك .

« يا عبادي كلکم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسکم » « كلکم عار إلا من كسوته » وذلك لأن الإنسان يخرج من بطن أمه ليس عليه ثياب ، بل يخرج مجرداً لا ثياب ، ولا شعر يكسوه ، كما يكون في الحيوان ، وهذا من حكمة الله ﷻ . فمن حكمته تعالى أن جعلنا نخرج بادية أبشارنا ، بادية جلودنا ، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عوراتنا حسناً ، كما أننا محتاجون إلى عمل صالح يستر عوراتنا معنى ؛ لأن التقوى لباس كما قال تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فأنت انظر في نفسك تجد أنك محتاج إلى الكسوة الحسية لأنك عار ، كذلك أيضاً محتاج إلى الكسوة المعنوية - وهي العمل الصالح - حتى لا تكون عارياً ، ولهذا ذكر بعض العابرين للرؤيا أن الإنسان إذا رأى نفسه في المنام عارياً ؛ فإنه يحتاج إلي كثرة الاستغفار ؛ لأن هذا دليل على نقصان تقواه ، فإن التقوى لباس . وعلى كل حال فنحن عراة إلا بكسوة الله ﷻ ، وقد سخر الله لنا من الكسوة ما نكسوه به أبداننا - ولله الحمد - من أصناف اللباس المتنوعة ، لا سيما في البلاد الغنية التي ابتلاها الله ﷻ بالمال ، فإن المال في الحقيقة فتنة يخشى على الأمة منه ، كما قال محمد ﷺ : « واللّه ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » ^(١) فالمال ابتلاء يحتاج إلى صبر على أداء ما يجب فيه ، وإلى شكر على ما يجب له . وعلى كل حال أقول إن الله ﷻ مَنَّ علينا باللباس ، ولولا أن الله يسره لنا ما تيسر ، ولو أنك نظرت

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥) باختلاف يسير في اللفظ ، ومسلم في الزهد (٦) ، والترمذي في السنن

(٢٤٦٢) ، وأحمد في مسنده (١٣٧/٤) .

في الخلق في وقتك الآن وتأملت لوجدت كما سمعنا من يبيتون عراة ، ليس على أبدانهم ما يسترهم ، ربما يسترون السوءة بالأشجار ونحوها ، وليس عليهم ما يسترهم دون ذلك ، فمن الذي سترك ومن عليك ؟ هو الله ، ولهذا قال ﷺ : « يا عبادي كلکم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسکم » . ونقول في قوله : « فاستكسوني أكسکم » كما قلنا في قوله : « استطعموني أطعمکم » يعني أن الاستكساء يكون بالقول ويكون بالفعل .

أما الذي بالقول : فبأن تسأل الله ﷻ أن يكسوك ، وإذا سألت الله أن يكسو بدنك حسًا ، فاسأل الله أن يكسو عورتك المعنوية بالتوفيق إلى طاعته .

وأما الاستكساء بالفعل : فعلى وجهين :

الوجه الأول : بالأعمال الصالحة .

والوجه الثاني : بفعل الأسباب الحسية التي تكون بها الكسوة ؛ من إحداث المعامل ، والمصانع ، وغير ذلك .

وفي الربط بين الطعام والكسوة والهداية مناسبة ؛ لأن الطعام في الحقيقة كسوة البدن باطنًا ؛ لأن الجوع والعطش معناه خلل المعدة من الطعام والشراب ، وهذا تعري لها ، والكسوة ستر البدن ظاهرًا ، والهداية الستر المهم المقصود وهو ستر القلوب والنفوس من عيوب الذنوب .

ثم قال تعالى : « يا عبادي إنکم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفروني أغفر لكم » هذا أيضًا من تمام نعمة الله على العبد ، أنه جل وعلا يعرض عليه أن يستغفر إلى الله ويتوب إليه مع أنه يقول : « إنکم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا » أي جميع الذنوب من الشرك والكفر والكبائر والصغائر كلها يغفرها الله ، ولكن بعد أن يستغفر الإنسان ربه ، ولهذا قال : « فاستغفروني أغفر لكم » أي اطلبوا مني المغفرة حتى أغفر لكم . ولكن طلب المغفرة ليس مجرد أن يقول الإنسان : اللهم اغفر لي ، بل لا بد من توبة صادقة يتوب بها الإنسان إلى الله ﷻ ، والتوبة الصادقة هي التي تجمع خمسة شروط :

الشرط الأول : أن يكون الإنسان مخلصًا فيها لله ﷻ لا يحمله على التوبة مراعاة الناس ، ولا تسميعهم ، ولا أن يتقرب إليهم بشيء ، وإنما يقصد بالتوبة الرجوع إلى الله حقيقة ، والإخلاص شرط في كل عمل ، ومن جملة الأعمال الصالحة : التوبة إلى الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

والشرط الثاني : أن يندم الإنسان على ما وقع منه من الذنب ، يعني أن يحزن ويتأسف ويعرف أنه ارتكب خطأ حتى يندم عليه ، أما أن يكون ارتكاب الخطأ وعدمه عنده على حد سواء ؛ فهذه ليست بتوبة ، بل لا بد من أن يندم بقلبه ندماً يتمنى أنه لم يقع منه هذا الذنب .

والشرط الثالث : أن يقلع عن الذنب ، فلا توبه مع الإصرار على الذنوب ، كما قال تعالى :

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] أما أن يقول إنه تائب من الذنب وهو مصر عليه ، فإنه كاذب مستهزئ بالله ﷻ ، فمثلاً لو قال أتوب إلى الله من الغيبة ، ولكنه كلما جلس مجلساً اغتاب عباد الله ؛ فإنه كاذب في توبته ، ولو قال : أتوب إلى الله من الربا ولكنه مصر عليه ، يبيع بالربا ويشترى بالربا فهو كاذب في توبته ، ولو قال : أتوب إلى الله من استماع الأغاني ولكنه مصرٌ على ذلك فهو كاذب في توبته ، ولو قال : أتوب إلى الله من معصية الرسول ﷺ في إعفاء اللحية وكان يحلقها وهو يقول أتوب إلى الله من حلقها فإنه كاذب ، وهكذا جميع المعاصي إذا كان الإنسان مصرّاً عليها فإن دعواه التوبة كذب ، ولا تقبل توبته .

ومن التخلي عن الذنب والإقلاع عنه : أن يرد المظالم إلى أهلها إذا كانت المعصية في حقوق العباد ، فإن كانت في أخذ مال فليرد المال إلى من أخذه منه ، فإن كان قد مات فليرده إلى ورثته ، فإن تعذر عليه أن يعرف الورثة ، أو نسي الرجل ، أو ذهب الرجل إلى مكان لا يمكن العثور عليه مثل أن يكون أجنبياً فيرجع إلى بلده ولا يدري أين هو ، ففي هذه الحال يخرج ما عليه صدقة ينويها لصاحب المال الذي يطلبه .

وإذا كان الذنب في غيبة وكان المغتاب قد علم أن هذا الرجل قد اغتابه ؛ فلا بد أن يذهب إلى المغتاب ويحلل منه ، وينبغي للمغتاب إذا جاءه أخوه يعتذر إليه أن يقبل وأن يسامح عنه ، فإذا جاء إليك أخوك معتذراً مقرأ بالذنب فاعف عنه واصفح ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] ولكن إذا لم يقبل أن يتسامح عن غيبته إلا بشيء من المال فأعطه المال ، أعطه من المال حتى يقتنع ويحللك .

كذلك إذا كانت المعصية مسائة بينك وبين أحد حتى ضربته مثلاً ، فإن التوبة من ذلك أن تذهب إليه وتستسمح منه ، وتقول : ها أنا أمامك اضربني كما ضربتك ، حتى يصفح عنك ، المهم أن من الإقلاع عن المعصية إذا كانت لآدمي أن تتحلل منه ، سواء كانت مظلمة مال ، أو بدن ، أو عرض .

الشرط الرابع : أن يعزم على ألا يعود في المستقبل ، فإن تاب وأقلع عن الذنب لكن في قلبه أنه إذا حانت الفرصة عاد إلى ذنبه ؛ فإن ذلك لا يقبل منه ، فهذه توبة لاعب ، فلا بد أن يعزم ، فإذا عزم ثم قدر أن نفسه سولت له بعد ذلك وفعل المعصية ؛ فإن ذلك لا ينقص التوبة السابقة ، لكن يحتاج إلى توبه جديدة من الذنب مرة ثانية .

الشرط الخامس : أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه ، فإن فات الأوان لم تنفع التوبة ، ويفوت الأوان : إذا حضر الإنسان الموت . فإذا حضر الموت فلا توبة ولو تاب لم تنفعه ، لقول الله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ اللَّهُ أَتَىٰ﴾ [النساء: ١٨] الآن لا فائدة فيها ، ولهذا لما أغرق فرعون قال : ﴿مَآءُتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقيل له ﴿أَلَتَنْ﴾ يعني أقول هذا الآن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] فات الأوان ، ولهذا يجب على الإنسان أن يبادر بالتوبة ، لأنه لا يدري متى يفجأه الموت ، كم من إنسان مات بغتة ومفاجأة ، فليتب إلى الله قبل أن يفوت الأوان .

وكذلك يفوت أوان التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها ^(١) ، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - أخبر أن الشمس الآن تدور بإذن الله على الأرض ، وإذا غابت سجدت تحت عرش الرحمن ﷻ ، واستأذنت الله فإن أُذِنَ لها استمرت في سيرها ، وإلا قيل أرجعي من حيث جئت فترجع بإذن الله وأمره ، فتطلع على الناس من المغرب فحينئذ يؤمن جميع الناس ^(٢) ، وكل الناس يتوبون ويرجعون إلى الله ، ولكن ذلك لا ينفعهم ، قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ يعني : عند الموت ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ يعني : يوم القيامة للحساب ﴿ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ مَا يَتَّبِعُ رَبُّكَ ﴾ يعني : طلوع الشمس من مغربها ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ مَا يَتَّبِعُ رَبُّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْهَانِهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

هذه خمسة شروط للتوبة لا تقبل إلا بها ، فعليك يا أخي أن تبادر بالتوبة إلى الله والرجوع إليه ما دمت في زمن الإمهال ، قبل أن يفوتك ذلك ، واعلم أنك إذا تبت إلى الله توبة نصوحة فإن الله يتوب عليك ، وربما يرفعك إلى منزلة أعلى من منزلتك ، انظر إلى آدم أهلك حيث نهاه الله عن الأكل من الشجرة فعصى ربه بوسوسة الشيطان له ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ثُمَّ تَبَيَّنَتْ رُبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿ [طه : ١٢١ ، ١٢٢] لما تاب نال الاجتناب . واجتناب الله وصار في منزلة أعلى من قبل أن يعصى ربه ؛ لأن المعصية أحدثت له خجلاً وحياءً من الله ، وإجابة ورجوعاً إليه ، فصارت حاله أعلى حالاً من قبل .

واعلم أن الله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل كان على راحلته وعليها طعامه وشرابه في أرض فلاة ، ما فيها أحد فأضاع الناقة وطلبها فلم يجدها ، فنام تحت شجرة ينتظر الموت ، فإذا بخطام ناقته متعلق بالشجرة ، قد جاء الله بها ، فأخذ بخطامها وقال من شدة الفرح : « اللهم أنت عبدِي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » ^(٣) أراد أن يقول : اللهم أنت ربي وأنا عبدك ، ولكن أخطأ من شدة الفرح ؛ لأن الإنسان إذا اشتد فرحه لا يدري ما يقول ، كما أنه إذا اشتد غضبه لا يدري مايقول ، فالله بتوبة عبده المؤمن أشد فرحاً من فرح هذا بناقته .

وقوله جل ذكره : « يا عبادي إنكم لم تبغوا نفعي فتنبغوني ، ولن تبلغوا ضري فتضروني » يعني أنه تبارك وتعالى غني عن العباد ، لا ينتفع بطاعتهم ولا تضره معصيتهم ؛ فإنه ﷻ قال في كتابه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴾ [الذاريات : ٥٦ - ٥٨] فالله ﷻ لا ينتفع بأحد ولا يتضرر بأحد لأنه غني عن الخلق جل وعلا ، وإنما خلق الخلق لحكمة أرادها تبارك وتعالى ، خلقهم لعبادته ، ثم إنه وعد الطائعين بالثواب ، وتوعد العاصين بالعقاب حكمة منه ؛ لأنه خلق الجنة والنار ، وقال لكل منكما عليّ ملؤها ، فالنار لا بد أن تملأ ، والجنة لا بد أن تملأ ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ

(١) انظر الحديث الدال على ذلك في البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٥) ، ومسلم في التوبة (٣١) ، وأحمد في مسنده (١٦٤/٢ ، ٢٠١) .

(٢) انظر نص الحديث فيما أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٢) .

(٣) انظر الحديث بنصه في البخاري في الدعوات (٦٣٠٩) ، ومسلم في التوبة (٤ ، ٣) ، وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) .

الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [مرد: ١١٩] إذن فالله تعالى لن تنفعه طاعة الطائعين ، ولن تضره معصية العاصين ، ولن يبلغ أحد ضرره مهما كان ، ولهذا قال فيما بعد هذه الجملة : « لو أن أولكم ، وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً » . لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا متقين ، على أتقى قلب رجل واحد ، ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً ؛ لأن الملك ملكه لا للطائعين ولا للعاصين .

كذلك أيضاً يقول - جل وعلا - : « يا عبادي لو أن أولكم ، وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » لو كان الناس كلهم من جن وإنس وأولهم وآخرهم ، لو كانوا كلهم فجاراً وعلى أفجر قلب رجل ، فإن ذلك لا ينقص من ملك الله شيئاً ، قال الله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧] فالله - جل وعلا - لا ينقص ملكه بمعصية العصاة ، ولا يزيد بطاعة الطائعين ، هو ملك الله على كل حال . ففي هذه الجملة الثلاث : دليل على غنى الله ﷻ ، وكمال سلطانه ، وأنه لا يتضرر بأحد ولا ينتفع بأحد ؛ لأنه غني عن كل أحد .

ثم قال تعالى : « يا عبادي لو أن أولكم ، وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » هذه الجملة تدل على سعة ملك الله ﷻ ، وعلى كمال غناه تبارك وتعالى ، لو أن الأولين والآخرين ، والإنس والجن ، قاموا كلهم في صعيد واحد فسألوا الله ما تبلغه نفوسهم ، من أي مسألة وإن عظمت ، فأعطى الله كل إنسان ما سأل ، بل أعطى الله كل سائل ما سأل ؛ فإن ذلك لا ينقص من ملك الله شيئاً ؛ لأن الله جواد ، واجد ، عظيم الغنى ، واسع العطاء ﷻ .

« إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » اغمس الخيط في البحر وانظر ماذا ينقص البحر ؟ إنه لا يُنْقَصُ البحر شيئاً ، ولا يأخذ الخيط من البحر شيئاً يمكن أن ينسب إليه ، وذلك لأنه ﷻ واسع الغني ، جواد ماجد كريم ﷻ :

« يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها » ومعنى « إنما هي أن أعمالكم » : أي الشأن كله أن الإنسان بعمله ، يحصي الله أعماله ، ثم إذا كان يوم القيامة وقاه إياها ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] .

« فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » لأنه هو الذي أخطأ ، وهو الذي منع نفسه الخير ، أما إذا وجد خيراً فليحمد الله ؛ لأن الله هو الذي منّ عليه أولاً وآخرًا ، منّ عليه أولاً بالعمل ، ثم منّ عليه ثانياً بالجزاء الوافر ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِمَّا لَهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] فهذا الحديث حديث عظيم ، تناوله العلماء بالشرح واستنباط الفوائد والأحكام منه ، ومن أفرد له مؤلفاً شيخ الإسلام ابن تيمية ﷻ ، فإنه شرح هذا الحديث في كتاب مستقل ، فعلى الإنسان أن يتدبر هذا الحديث ويتأمله ، ولا سيما الجملة الأخيرة منه ، وهي أن الإنسان

يجزى بعمله ؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا هو وجه وضع المؤلف لهذا الحديث في باب المجاهدة ، أن الإنسان ينبغي له أن يجاهد نفسه وأن يعمل الخير حتى يجد ما عند الله خيراً وأعظم أجراً .

* * *

١٢ - باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرْ فِيهِ مَن تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٧] قال ابن عباس والحَقُّقُونَ . معناه : أو لم نَعْمَرْكُمْ سِتِّينَ سَنَةً ؟ وَيُؤَيِّدُهُ الحديث الذي سنذكره إن شاء الله تعالى ، وقيل : معناه ثمانين سنة . وقيل : أربعين سنة . قاله الحسن والكليبي وَمَشْرُوقٌ ، ونقل عن ابن عباس أيضاً . وتَقَلُّوا : أن أهل المدينة كانوا إذا بلغ أحدُهُم أربعين سنة تَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ . وقيل : هو البلوغ . وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ قال ابن عباس والجمهور : هو النبي ﷺ . وقيل : الشيب . قاله عِكْرَمَةُ ، وابن عُيَيْنَةَ ، وغيرهما . والله أعلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر : اعلم أن المدار على آخر العمر ، كما قال النبي ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يقي بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ؛ فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ؛ فيدخلها » (١) ولهذا كان من الدعاء المأثور : « اللهم اجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه » (٢) وصح عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أن : « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة » (٣) .

فالذي ينبغي للإنسان كلما طال به العمر أن يكثر من الأعمال الصالحة ، كما أنه ينبغي للشباب أيضاً أن يكثر من الأعمال الصالحة ؛ لأن الإنسان لا يدري متى يموت ، قد يموت في شبابه ، وقد يؤخر موته ، لكن لا شك أن من تقدم به السن فهو أقرب إلى الموت من الشاب ؛ لأنه أنهى العمر . ثم ساق المؤلف قول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرْ فِيهِ مَن تَذَكَّرْ ﴾ ﴿ مَّا ﴾ نكره موصوفة أي : أو لم نَعْمَرْكُمْ عمراً يتذكر فيه من تذكر ؟ وهذا العمر اختلف المفسرون فيه ، فقيل : هو ستون سنة ، وقيل : ثمانية عشر سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وقيل : البلوغ ، والآية عامة ، عُمِّرُوا عُمُرًا لَهم فيه فرصة يتذكر فيه من يتذكر ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ؛ فقد يكون الإنسان يتذكر في أقل من ثمانية عشر سنة ، وقد لا يتذكر إلا بعد ذلك ، حسب ما يأتيه من النذر والآيات ، وما يكون حوله من البيئة الصالحة ، أو غير الصالحة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/١) بلفظه ، وبنحو البخاري في القدر (٦٥٩٤) ، ومسلم في القدر (١) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠/١٠) .

(٣) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣/٥) .

المهم : أنه يقال لهم توبينًا : ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرَكُمْ مَا بَدَّكَرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ ﴾ وفي هذا دليل على أنه كلما طال بالإنسان العمر ، كان أولى بالتذكر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ فالصحيح أن المراد بالندير النبي ، وهو اسم جنس يشمل رسول الله ﷺ ، ويشمل الرسل الذين من قبله ، كلهم نُذِر عليهم الصلاة والسلام .

فالواجب على الإنسان أن يحرص في آخر عمره ، على الإكثار من طاعة الله ، ولا سيما ما أوجب الله عليه ، وأن يكثر من الاستغفار والحمد ، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ١-٣] هذه السورة يقال إنها آخر سورة نزلت على النبي ﷺ ، وفيها قصة عجيبة ، حيث كان الأنصار ﷺ يقولون لأُمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لماذا تدني عبد الله بن عباس وهو من الشباب ولا تدني شبابنا ؟ وكان عمر ﷺ ينزل الناس منازلهم في العلم والدين ، كل من كان أعلم وأدين فهو إلى - أمير المؤمنين - عمر أقرب ، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون تقديره حسب ما عند الإنسان من العلم والدين ، القرابة لهم حق ولا شك ، لكن العلم والدين أعظم ما يكون قرابة إلى الإنسان من غيره .

والمهم : أن الأنصار قالوا لأُمير المؤمنين عمر ﷺ : لماذا تدني عبد الله بن عباس ولا تدني شبابنا؟ فقال لهم : أمهلوني ، ثم جمعهم ذات يوم ، وقال لهم : ماذا تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ؟ قالوا يقول إن الله قال للرسول ﷺ : إذا جاء النصر وفتحت مكة ، فسبح بحمد الله واستغفره لأنه كان توابًا ، يعني فسروها بظاهرها ، فقال : ما تقول يا ابن عباس ؟ ، قال : أقول إن هذه السورة نعي رسول الله ﷺ يعني أنها تدل على أن أجله قد اقترب ، ففهم هذا الفهم العجيب ﷺ ، يعني إذا جاء النصر والفتح فقد أديت ما عليك ، اختتم عمرك بالاستغفار والتسبيح بحمد الله ﷻ (١) ، قالت عائشة رضيها كان النبي ﷺ بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة ، كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » (٢) فأكثر منها في الركوع والسجود ، كما كان النبي ﷺ يفعل .

* * *

وَأَمَّا الْأَحَادِيث :

١١٢ - فالأول : عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ آخَرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً » (٣) رواه البخاري .

قال العلماء : معناه : لَمْ يَتْرُكْ لَهُ عَذْرًا إِذْ أَمَّهَلَهُ هَذِهِ الْمُدَّةَ . يُقَالُ : أَعَذَّرَ الرَّجُلُ : إِذَا بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْغُذْرِ .

(١) انظر الحديث بنصه في البخاري تفسير القرآن (٤٩٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٨) ومسلم في الصلاة (٢١٧) وأحمد في مسنده (٣٨٨/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٩) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « أَعَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَمْرِي أُخِرَ أَجَلُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِينَ سَنَةً » والمعنى أن الله ﻻ يُعَذِّرُكَ إِذَا عَمَّرَ الْإِنْسَانَ حَتَّى بَلَغَ سِتِينَ سَنَةً فَقَدْ أَقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةَ وَنَفَى عَنْهُ الْعَذْرَ ، لِأَن سِتِينَ سَنَةً يَبْقِي اللَّهُ الْإِنْسَانَ إِلَيْهَا ؛ يَعْرِفُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا يَعْرِفُ ، وَلَا سِيمَا إِذَا كَانَ نَاشِئًا فِي بِلَدٍ إِسْلَامِيٍّ ، لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا يُوْدِي إِلَى قَطْعِ حُجَّتِهِ إِذَا لَاقَى اللَّهَ ﻻ ؛ لِأَنَّهُ لَا عَذْرَ لَهُ ، فَلَوْ أَنَّهُ مَثَلًا قُصِرَ فِي عُمُرِهِ إِلَى خَمْسَةِ عَشَرَ سَنَةً أَوْ إِلَى عِشْرِينَ سَنَةً ، لَكَانَ قَدْ يَكُونُ لَهُ عَذْرٌ فِي أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّهِلْ وَلَمْ يَتَدَبَّرِ الْآيَاتَ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا أَبْقَاهُ إِلَى سِتِينَ سَنَةً ؛ فَإِنَّهُ لَا عَذْرَ لَهُ ، قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، مَعَ أَنَّ الْحُجَّةَ تَقُومُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حِينَ أَنْ يَبْلُغَ ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي التَّكْلِيفِ وَلَا يَعْذَرُ بِالْجَهْلِ .

فإن الواجب على المرء أن يتعلم من شريعة الله ما يحتاج إليه ، مثلاً إذا أراد أن يتوضأ : لا بد أن يعرف كيف يتوضأ . إذا أراد أن يصلي : لا بد أن يعرف كيف يصلي ، إذا صار عنده مال ، لا بد أن يعرف ما مقدار النصاب ، وما مقدار الواجب ، وما أشبه ذلك . إذا أراد أن يصوم : لا بد أن يعرف كيف يصوم ، وما هي المفطرات ، وإذا أراد أن يحج أو يعتمر : يجب أن يعرف كيف يحج ، وكيف يعتمر ، وما هي مَحْظُورَاتُ الْإِحْرَامِ . إذا كان من الباعة الذين يبيعون ويشترون بالذهب مثلاً : لا بد أن يعرف الربا ، وأقسام الربا ، وما الواجب في بيع الذهب بالذهب ، أو بيع الذهب بالفضة ، وهكذا ، إذا كان ممن يبيع الطعام لا بد أن يعرف كيف يبيع الطعام ، ولا بد أن يعرف ما هو الغش الذي يمكن أن يكون ، وهكذا . والمهم : أن الإنسان إذا بلغ الستين سنة فقد قامت عليه الحجة التامة ، وليس له عذر ، وكل إنسان بحسبه ، كل إنسان يجب عليه أن يتعلم من الشريعة ما يحتاج إليه ؛ في الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيوع والأوقاف وغيرها ، حسب ما يحتاج إليه .

وفي هذا الحديث : دليل على أن الله ﻻ له الحجة على عباده ، وذلك أن الله أعطاهم عقولاً ، وأعطاهم أفهاماً ، وأرسل إليهم رُسُلًا ، وجعل من الرسالات ما هو خالِدٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وهي رسالة النبي ﷺ ؛ فَإِنَّ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةَ مَحْدُودَةٌ ، حَيْثُ إِنْ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَمَحْدُودَةٌ فِي الزَّمَنِ ؛ حَيْثُ إِنْ كُلُّ رَسُولٍ يَأْتِي بِنَسْخٍ مَا قَبْلَهُ ، إِذَا كَانَتِ الْأُمَّةُ الَّتِي أُرْسِلَ إِلَيْهَا الرِّسُولَانِ وَاحِدَةً . أما هذه الأمة : فقد أُرْسِلَ إِلَيْهَا مُحَمَّدًا ﷺ وجعله خاتم الأنبياء ، وجعل آيته العظيمة الباقية هذا القرآن العظيم ، فَإِنَّ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ تَمُوتُ بِمَوْتِهِمْ ، وَلَا تَبْقَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَّا ذِكْرِي ، أما مُحَمَّدٌ ﷺ فَإِنَّ آيَةَ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١] فالكتاب كاف عن كل آية لمن تدبره ، وتعلمه ، وعرف معانيه ، وانتفع بِأَخْبَارِهِ ، وَاَتَعَزَّ بِقَصَصِهِ ، فَإِنَّهُ يَغْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ .

لكن الذي يجعلنا لا نحس بهذه الآيات العظيمة : أننا لا نقرأ القرآن على وجه تدبره ، ونتعظ بما

فيه ، كثير من المسلمين إن لم يكن أكثر المسلمين يتلون الكتاب للتبرك والأجر فقط ، ولكن الذي يجب أن يكون هو أن نقرأ القرآن لتدبره ونتعظ بما فيه ، ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ هذا الأجر ﴿ لِيَذَّبُوا بَيْنَهُ ﴾ هذه هي الثمرة ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] .

* * *

١١٣ - الثاني : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان عمر رضي الله عنه يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ ، فَقَالَ : لِمَ يُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَتْنَاءَ مِثْلِهِ ؟ فقال عمر : إِنَّهُ مَنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ ! فَدَعَانِي ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَنِي مَعَهُمْ ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ ، قال : ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ [النصر: ١] فقال بعضهم : أَمْرُنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نَصَرَنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا . وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا . فقال لي : أَكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَغْلَمَهُ لَهُ قَالَ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وذلك علامة أَجْلِكَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ٣] فقال عمر رضي الله عنه : مَا أَغْلَمَ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ ^(١) . رواه البخاري .

١١٤ - الثالث : عن عائشة رضي الله عنها قالت : مَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا : « سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » ^(٢) متفق عليه . وفي رواية في « الصحيحين » عنها : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ . معنى « يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ » أَي : يَفْعَلُ مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .

وفي رواية لمسلم : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » . قالت عائشة : قلت : يا رسول الله ما هذه الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَاكَ أَخَذْتَهَا تَقُولُهَا ؟ قال : « جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمِّي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا ﴾ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿ إلى آخر السورة » . وفي رواية له : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ : « سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ . أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » . قالت : قلت : يا رسول الله ! أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ؟ فقال : « أَخْبِرْنِي رُبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمِّي فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلٍ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فَتُح مَكَّةَ ،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٠) ، قوله « وجد » أي غضب ، قوله « إنه من حيث علمتم » أي من بيت النبوة ومنبع العلوم ومصدر الآراء السديدة .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٦٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) .

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا﴾ (١) .
 ١١٥ - الرابع : عن أنس رضي الله عنه قال : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَابَعَ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ وَقَاتِهِ ،
 حَتَّى تُؤْفَى أَكْثَرُ مَا كَانَ الْوَحْيُ (٢) . متفق عليه .

١١٦ - الخامس : عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُعْتَقُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ » (٣) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب كان يدخله في أشياء بدر ، وكان من سيرة عمر وهدية ﷺ أنه يشاور الناس ذوي الرأي فيما يشكل عليه ، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] والشورى الشرعية ليست تكوين مجلس للشورى حتى يكون مشاركا في الحكم ، ولكن الشورى الشرعية أن ولي الأمر إذا أشكل عليه أمر من الأمور جمع الناس له من ذوي الرأي والأمانة من أجل أن يستشيرهم في القضية الواقعة ، فكان من هدي عمر رضي الله عنه ومن سنته المشكورة ، وسعيه الحميد أنه يشاور الناس ، يجمعهم ليستشيرهم في الأمور الشرعية والأمور السياسية ، وغير ذلك ، وكان يدخل مع أشياخ بدر أي مع كبار الصحابة رضي الله عنهم عبد الله بن عباس ، وكان صغير السن بالنسبة لهؤلاء ، فوجدوا في أنفسهم : كيف يدخل عبد الله بن عباس رضي الله عنه مع أشياخ القوم ولهم أبناء مثله ولا يدخلهم .

فأراد عمر رضي الله عنه أن يريهم مكانة عبد الله بن عباس رضي الله عنه من العلم والذكاء والفطنة ، فجمعهم ودعاه ، فعرض عليهم هذه السورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [الفتح : ١-٣] فانقسموا إلى قسمين لما سألهم عنها « ما تقولون فيها ؟ » قسم سكت ، وقسم قال : إن الله أمرنا إذا جاءنا النصر والفتح ، أن نستغفر لذنوبنا ، وأن نحمده ونسبح بحمده ، ولكن عمر رضي الله عنه أراد أن يعرف ما مغزى هذه السورة ، ولم يرد أن يعرف معناها التركيبي من حيث الألفاظ والكلمات . فسأل ابن عباس رضي الله عنه قال : ما تقول في هذه السورة ؟ قال : « هو أجل رسول الله ﷺ » يعني علامة قرب أجله ، أعطاه الله إياه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ يعني فتح مكة ، فإن ذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ فقال : « ما أعلم فيها إلا ما علمت » وظهر بذلك فضل عبد الله بن عباس رضي الله عنه . وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يظن لمغزى الآيات الكريمة ، فإن المعنى الظاهر الذي يفهم من الكلمات والتركيبات هذا أمر

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) ، قوله : ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ أي جماعات ، والحديث لم يرق الشارح رحمته الله بشرحه .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨٢) ، ومسلم في التفسير (٢) ، والحديث لم يرق الشارح رحمته الله بشرحه .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٣١/٣ ، ٣٦٦) ، والحديث لم يرق الشارح رحمته الله بشرحه .

قد يكون سهلاً ، لكن مغزى الآيات الذي أراده الله تعالى هو الذي يخفى على كثير من الناس ، ويحتاج إلى فهم يؤتبه الله تعالى من يشاء .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : سبح الله مصحوباً بالحمد ، فالباء هنا للمصاحبة ، وذلك لأنه إذا كان التسبيح مصحوباً بالحمد فإنه به يتحقق الكمال ؛ لأن الكمال لا يتحقق إلا بانتفاء العيوب ، وثبوت صفات الكمال ، فانتفاء العيوب مأخوذ من قوله : سبحانك ، لأن التسبيح معناه التنزيه عن كل نقص وعيب ، وثبوت الكمالات مأخوذ من قوله : وبحمدك ؛ لأن الحمد هو وصف المحمود بالصفات الكاملة ، وليس هو الشاء كما هو مشهور عند كثير من العلماء ، إذ قالوا : الحمد هو الشاء على الله بالجميل ، وبعضهم يقول : بالجميل الاختياري وما أشبه ذلك ، والدليل على ذلك الحديث القدسي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إن الله قال : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » يعني الفاتحة « فإذا قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : حمدني عبدي ، فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ قال : أثني عليّ عبدي » ^(١) ففرق بين الحمد والثناء . والمهم أن الإنسان إذا جمع بين التسبيح والحمد ، فقد جمع بين إثبات الكمال لله ونفي النقائص عنه . أما قوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ فمعناه : اطلب منه المغفرة ، والمغفرة هي التجاوز عن الذنب والستر ، يعني المغفرة تجمع بين ستر الذنب والتجاوز عنه ، وذلك من مدلول اشتقاقها ؛ فإنها مأخوذة من المغفر وهو ما يوضع على الرأس عند الحرب ليقى السهام ، فهو واقٍ وساتر .

وأما قوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ تَوَّابًا ﴾ ففيه أن الله ﷻ موصوف بكثرة التوبة لقوله : ﴿ تَوَّابًا ﴾ ، وهي صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليه . والله ﷻ تواب على عبده توبة سابقة لتوبته ، وتوبة لاحقة لها ، كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِتِثْوِهِمْ ﴾ [التوبة : ١١٨] فالتوبة السابقة : أن يوفق الله العبد للتوبة ، والتوبة اللاحقة : أن يقبل الله منه التوبة إذا تاب إليه :

وللتوبة شروط خمسة :

الأول : الإخلاص لله ﷻ في التوبة . والثاني : الندم على ما حصل منه من الذنب .

والثالث : الإقلاع عنه في الحال . والرابع : العزم على ألا يعود .

والخامس : أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه ، فإن كانت التوبة في الوقت الذي لا تقبل فيه فإنها لا تنفع ، فإذا تاب الإنسان عند حضور أجله لم ينتفع بهذه التوبة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِنِّ ﴾ [النساء : ١٨] الآن لا تنفع التوبة ، ولهذا لم ينتفع فرعون بتوبته حين أدركه الغرق ، قيل له : ﴿ الْإِنِّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١] وما لا تقبل فيه التوبة أيضاً : إذا طلعت الشمس من مغربها ، فإن الناس يؤمنون ولكن : ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاكَ لَوْ كُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] . وينبغي للإنسان أن يكثر من هذا الذكر في الركوع والسجود : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ،

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) ، والترمذي في السنن (٢٩٥٣) .

اللَّهُم اغفر لي ، (١) . فإنه جامع بين الذكر والدعاء ، وكان النبي ﷺ يكثر أن يقوله في ركوعه وسجوده بعد نزول هذه السورة .

١٣ - باب بيان كثرة طرق الخير

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] .
وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧] وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [الجمانية: ١٥] (٢)
والآيات في الباب كثيرة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب بيان كثرة طرق الخير) ، الخير له طرق كثيرة ، وهذا من فضل الله ﷻ على عباده ، من أجل أن تتنوع لهم الفضائل ، والأجور ، والثواب الكثير ، وأصول هذه الطرق ثلاثة : إما جهد بدني ، وإما بذل مالي ، وإما مركب من هذا وهذا ، هذه أصول طرق الخير .
أما الجهد البدني : فهو أعمال البدن ؛ مثل : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، وما أشبه ذلك .
وأما البذل المالي : فمثل : الزكوات ، والصدقات ، والنفقات ، وما أشبه ذلك .
وأما المركب : فمثل : الجهاد في سبيل الله بالسلاح ؛ فإنه يكون بالمال ويكون بالنفس ، ولكن أنواع هذه الأصول كثيرة جدًا ، من أجل أن تتنوع للعباد الطاعات ، حتى لا يملوا لو كان الخير طريقًا واحدًا كمل الناس من ذلك وسعموا ، ولما حصل الابتلاء ، ولكن إذا تنوع كان ذلك أرفق بالناس ، وأشد في الابتلاء .
قال الله تعالى في هذا الباب : ﴿ فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وهذا يدل على أن الخيرات ليست خيرًا واحدًا ، بل طرق كثيرة .
ثم ذكر المؤلف آيات تشير إلى أن الخير له طرق ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧] والآيات في هذا كثيرة ، تدل على أن الخيرات ليست صنفًا واحدًا ، أو فردًا واحدًا ، أو جنسًا واحدًا .

ويدل لما قلنا : أن من الناس من تجده يألف الصلاة فتجده كثير الصلوات ، ومنهم من يألف قراءة

(١) سبق تخريجه .

(٢) قوله : ﴿ من عمل صالحًا ﴾ أي من تقرب إلى الله بأعمال البر والخير ، قوله : ﴿ فلنفسه ﴾ أي أن هذه الأعمال لن تعود إلا على فاعلها فقط .

القرآن فتجده كثيراً يقرأ القرآن ، ومنهم من يألف الذكر والتسبيح والتحميد وما أشبه ذلك ، فتجده يفعل ذلك كثيراً ، ومنهم الكريم الطليق اليد الذي يحب بذل المال فتجده دائماً يتصدق ، ودائماً ينفق على أهله ويوسع عليهم في غير إسراف .

ومنهم من يرغب العلم وطلب العلم الذي هو في وقتنا هذا قد يكون أفضل أعمال البدن « لأن الناس في الوقت الحاضر في عصرنا هذا محتاجون إلى العلم الشرعي » لغلبة الجهل وكثرة المتعاملين ، الذين يدعون أنهم علماء وليس عندهم من العلم إلا بضاعة مزجاة ، فنحن في حاجة إلى طلبة علم يكون عندهم علم راسخ ثابت مبني على الكتاب والسنة ، من أجل أن يردوا هذه الفوضى التي أصبحت منتشرة في القرى والبلدان ، كل إنسان عنده حديث أو حديثان عن رسول الله ﷺ يتصدى للفتيا ، ويتهاون بها ، وكأنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، أو الإمام أحمد محمد بن إدريس الشافعي أو غيرهم من الأئمة ، وهذا ينذر بخطر عظيم إن لم يتدارك الله الأمة بعلماء راسخين ، عندهم علم قوي وحجة قوية .

ولهذا نرى أن طلب العلم اليوم أفضل الأعمال المتعدية للخلق ، أفضل من الصدقة ، وأفضل من الجهاد ، بل هو جهاد في الحقيقة ، لأن الله ﷻ جعله عديلاً للجهاد في سبيل الله ، وليس الجهاد الذي يشوبه ما يشوبه من الشبهات ، ويشك الناس في صدق نية المجاهدين ، لا الجهاد الحقيقي الذي تعلم علم اليقين أن المجاهدين يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا ، فتجدهم مثلاً يطبقون هذا المبدأ في أنفسهم قبل أن يجاهدوا غيرهم ، فالجهاد الحقيقي في سبيل الله الذي يقاتل فيه المقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا يعادله طلب العلم الشرعي ، ودليل ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ يُسَبِّحُونَ كَافَّةً ﴾ يعني ما كان ليذهبوا إلى الجهاد جميعاً ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ يعني وقعدت طائفة ، وإنما قعدوا ﴿ لِّيَسْتَفْتَهُوا فِي الْآيَاتِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] فجعل الله طلب العلم معادلاً للجهاد في سبيل الله ، الجهاد الحق الذي يعلم بقرائن الأحوال وحال المجاهدين أنهم يريدون أن تكون كلمة الله هي العليا .

فالمهم : أن طرق الخير كثيرة ، وأفضلها فيما أرى بعد الفرائض التي فرضها الله هو طلب العلم الشرعي ؛ لأننا اليوم في ضرورة إليه ، لقد سمعنا وجاءنا استفتاء عن شخص يقول : من صلى في مساجد البلد الفلاني فإنها لا تصح صلاته ؛ لأن الذين تبرعوا لهذه المساجد فيهم كذا وكذا ، ومن صلى على حسب الأذان فإنه لا تصح صلاته ؛ لأنه مبني على توقيت وليس على رؤية الشمس ، والرسول ﷺ يقول : « وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله ما لم يحضر العصر » (١) ، أما الآن الأوقات مكتوبة في أوراق والناس يمشون عليها ، هؤلاء كلهم لا تصح صلاتهم ، يعني كل المسلمين على زعمه لا تصح صلاتهم ، ومثل هذه البلبلة .

والمشكلة : أن مثل هذا يقال إنه رجل عنده شيء من العلم ، لكن علم الأوراق الذي يعطى الإنسان فيه

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٧٣) ، والبيهقي في السنن (٣٦٥/١) .

بطاقة تشهد بأنه متخرج من كذا وكذا ، فالحاصل أنه لا بد للأمة الإسلامية من علماء راسخون في العلم ، أما أن تبقى الأمور هكذا فوضى ؛ فإنهم على خطر عظيم ، ولا يستقيم للناس دين ، ولا تطمئن قلوبهم ، ويصير كل واحد تحت شجرة يفتي ، وكل واحد تحت سقف يفتي ، وكل واحد على قمة جبل يفتي ، وهذا ليس بصحيح ، لا بد من علماء عندهم علم راسخ ثابت ، مبني على الكتاب والسنة وعلى العقل والحكمة .

* * *

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا ، وهي غير منحصرة ، فنذكر طرفًا منها :

١١٧ - الأول : عن أبي ذر جندب بن جندب رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله » . قلت : أي الرقاب أفضل ؟ قال : « أنفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا » . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : « تُعِينُ صَانِعًا ، أَوْ تَصْنَعُ لَأُخْرَقَ » . قلت : يا رسول الله ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَقِيضِ الْعَمَلِ ؟ قال : « تَكُفُّ شَرَكُ عَنِ النَّاسِ ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ » ^(١) . متفق عليه .

« الصَّانِعُ » بالصاد المهملة هذا هو المشهور ، وَرَوَى « صَانِعًا » بالمعجمة : أي ذَا صَانِعٍ مِنْ فَقِيرٍ أَوْ عِيَالٍ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ « وَالْأُخْرَقُ » : الَّذِي لَا يُتَقَنَّ مَا يُحَاوَلُ فَيَقْلُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب كثرة طرق الخير ، فيما نقله عن أبي ذر رضي الله عنه ، أنه سأل النبي ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله » ، والصحابة رضي الله عنهم يسألون النبي ﷺ عن أفضل الأعمال من أجل أن يقوموا بها ، وليسوا كمن بعدهم ، فإن من بعدهم ربما يسألون عن أفضل الأعمال ولكن لا يعملون ، أما الصحابة فإنهم يعملون ، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه سأل النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أي ؟ قل : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » . وهذا أيضًا أبو ذر يسأل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال فيبين له النبي ﷺ أن أفضل الأعمال « إيمان بالله ، وجهاد في سبيله » ثم سألته عن الرقاب : أي الرقاب أفضل ؟ والمراد بالرقاب الممالك ، يعني ما هو الأفضل في إعتاق الرقاب ؟ فقال : « أنفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا » وأنفسها عند أهلها : يعني أحبها عند أهلها ، وأكثرها ثمنًا : أي أغلاها ثمنًا ، فيجتمع في هذه الرقبة النفاسة وكثرة الثمن ، ومثل هذا لا يبذله إلا إنسان عنده قوة إيمان . ومثال ذلك : إذا كان عند رجل غبيد ومنهم واحد يحبه ؛ لأنه قائم بأعماله ، ولأنه خفيف النفس ، ونافع لسيده ، وهو كذلك أيضًا أغلى العبيد عنده ثمنًا ، فإذا سأل أيما أفضل أعنت هذا أو ما بعده أو ما دونه ؟ قلنا : أن تعنت هذا ، لأن هذا أنفس الرقاب عندك ، وأغلاها ثمنًا ، وقد قال النبي ﷺ في الرقاب : أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥١٨) ، ومسلم في الإيمان (١٣٦) ، وأحمد في مسنده (٣٣٠/٢ ، ٣٨٨ ، ٥٣١) .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به ، اتباعاً لهذه الآية .

وجاء أبو طلحة رضي الله عنه حين نزلت هذه الآية ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ ﴾ جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أنزل قوله : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ ﴾ وإن أحب مالي إلي يبرحاء ، - ويرحاء بستان نظيف قريب من سجد النبي صلى الله عليه وسلم - كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي إليه ويشرب من ماء فيه طيب عذب ، وهذا يكون غالباً عند صاحبه فقال أبو طلحة : وإن أحب مالي إلي يبرحاء ، وإنني أجعلها صدقة لله ورسوله ، فضعها يا رسول الله حيث شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بخ . بخ . » يعني يتعجب ويقول « مال رابح ، مال رابح » ثم قال : « أرى أن تجعلها في الأقربين » فقسمها أبو طلحة في قرابته ^(١) ، والشاهد أن الصحابة يتبادرون الخيرات .

ثم سأله أبو ذر إن لم يجد ، يعني رقة بهذا المعنى ؛ أنفوسها عند أهلها وأغلاها ثمنًا ، قال : « تعين صانعا ، أو تصنع لأخرق » يعني تصنع لإنسان معروفاً أو تعين أخرق ، ما يعرف ، فتساعده وتعينه ، فهذا أيضاً صدقة ومن الأعمال الصالحة .

قال فإن لم أفعل قال : « تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك » وهذا أدنى ما يكون أن يكف الإنسان شره عن غيره ، فيسلم الناس منه .

* * *

١١٨ - الثاني : عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سَلَامَةٍ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى » ^(٢) رواه مسلم .

« السَّلامُ » بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم : المَفْصِلُ .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن أبي ذر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة » السَّلامى : هي العظام ، أو مفاصل العظام ، يعني أنه يصبح كل يوم على كل واحد من الناس صدقة في كل عضو من أعضائه ، في كل مفصل من مفاصله ، قالوا : والبدن فيه ثلاثمائة وستون مفصلاً ما بين صغير وكبير ، فيصبح على كل إنسان كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة .

ولكن هذه الصدقات ليست صدقات مالية ، بل هي عامة ، كل أبواب الخير صدقة ، كل تهليل صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، كل شيء يقرب إلى الله عز وجل من قول أو فعل فإنه صدقة ، حتى إن النبي

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١) ، ومسلم في الزكاة (٤٢) ، وأحمد في مسنده (١٤١/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨٤) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٨٦) ، والبيهقي في السنن (٤٧/٣) .

ﷺ قال : « إنك إذا أعنت الرجل في دابته وحملته عليها ، أو رفعت له عليها متاعه فهو صدقة » ^(١) . كل شيء صدقة ، قراءة القرآن صدقة ، طلب العلم صدقة ، وحيثما تكثر الصدقات ، ويمكن أن يأتي الإنسان بما عليه من الصدقات وهي ثلاثمائة وستون صدقة .

ثم قال : « ويجزئ من ذلك » يعني عن ذلك « ركعتان يركعهما من الضحى » يعني أنك إذا صليت من الضحى ركعتين أجزأت عن كل الصدقات التي عليك ، وهذا من تيسير الله ﷻ على العباد . وفي هذا الحديث : دليل على أن الصدقة تطلق على ما ليس بمال .

وفيه أيضًا : دليل على أن ركعتي الضحى سنة ، سنة كل يوم ؛ لأنه إذا كان كل يوم عليك صدقة على كل عضو من أعضائك ، وكانت الركعتان تجزئ ، فهذا يقتضي أن صلاة الضحى سنة كل يوم ، من أجل أن تقضي الصدقات التي عليك .

قال أهل العلم : وسنة الضحى يتدئ وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح ، يعني حوالي ربع إلى ثلث ساعة بعد الطلوع ، إلى قبيل الزوال ، أي إلى قبل الزوال بعشر دقائق ^(٢) ، كل هذا وقت لصلاة الضحى ، في أي وقت فيه تصلي ركعتي الضحى ، فإنه يجزئ ، لكن الأفضل أن تكون في آخر الوقت ، لقول النبي ﷺ : « صلاة الأوابين حين ترمض الفصال » ^(٣) ، يعني حين تقوم الفصال من الرمضاء لشدة حرارتها ، ولهذا قال العلماء : إن تأخير ركعتي الضحى إلى آخر الوقت أفضل من تقديمها ، كما كان النبي ﷺ يستحب أن تؤخر صلاة الضحى إلى آخر الوقت إلا مع المشقة ^(٤) . فالحاصل : أن الإنسان قد فتح الله له أبواب طرق الخير كثيرة ، وكل شيء يفعله الإنسان من هذه الطرق ، فإن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

* * *

١١٩ - الثالث عنه قال : قال النبي ﷺ : « عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي ، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا ، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا : الْأَدَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا ، التَّخَاعُ تُكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ » ^(٥) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي ذر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « عرضت على أعمالي أمتي حسنها وسيئها » عرضت عليّ يعني : بلغت عنها ، وبينت لي ، والذي بينها له هو الله ﷻ ؛ لأن الله ﷻ

- (١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٨٩) .
- (٢) انظر المغني (٢١٣١/٢) ، وبدائع الصنائع (٢٩٤/١) ، والمجموع (٣٦ ، ٣٥/٤) .
- (٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤٣) ، وأحمد في مسنده (٣٦٦/٤) ، والبيهقي في السنن (٤٩/٣) .
- (٤) راجع ذلك في المغني (١٣٢/٢) ، والمجموع (٣٦ ، ٣٥/٤) .
- (٥) أخرجه مسلم في المساجد (٥٧) ، وأحمد في مسنده (١٨٠/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٩١/٢) .

هو الذي يحلل ويحرم ويوجب ، فعرض الله ﷻ على نبينا محمد ﷺ المحاسن والمساوي من أعمال الأمة ، فوجد من محاسنها : الأذى يماط عن الطريق ، ويماط : يعني يزال ، والأذى : ما يؤذي المارة ؛ من شوك ، وأعواد ، وأحجار ، وزجاج ، وأرواث ، وغير ذلك . كل ما يؤذي فإماطته من محاسن الأعمال .

وقد بين النبي - عليه الصلاة والسلام - أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، فهو من محاسن الأعمال ، وفيه ثواب الصدقة ، وبين النبي ﷺ : « أن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » ^(١) . فإذا وجدت في الطريق أذى فأمطته فإن هذا من محاسن أعمالك ، وهو صدقة لك ، وهو من خصال الإيمان ، وشعب الإيمان .

وإذا كان هذا من المحاسن ومن الصدقات ، فإن وضع الأذى في طريق المسلمين من مساوي الأعمال ، فهؤلاء الناس الذين يلقون القشور؛ قشور البطيخ أو البرتقال أو الموز أو غيرها في الأسواق في ممرات الناس ، لا شك أنهم إذا آذوا المسلمين فإنهم مأزورون ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحراب : ٥٨] قال العلماء : ولو زلق به حيوان ، أو إنسان فانكسر ، فعلى من وضعه ضمانه ، يضمنه بالدية أو بما دون الدية إذا كان لا يحتمل الدية ، المهم أن هذا من أذية المسلمين ^(٢) .

ومن ذلك أيضًا : ما يفعله بعض الناس من إراقة المياه في الأسواق فتؤذي الناس ، وربما تمر السيارات من عندها ، فتفسد على الإنسان ثيابه ، وربما يكون فيها فساد لا شك للأسفلت ، لأن الأسفلت كلما أتى عليه الماء وتكرر فإنه يذوب ويفسد .

فالهمم أننا مع الأسف الشديد ونحن أمة مسلمة لا نبالي بهذه الأمور وكأنها لا شيء ، يلقي الإنسان الأذى في الأسواق ولا يهتم بذلك ، يكسر الزجاجات في الأسواق ولا يهتم بذلك ، الأعواد يلقيها لا يهتم بذلك ، حجر يضعه لا يهتم بذلك ، إذن يستحب لنا كلما رأينا ما يؤذي أن نزيله عن الطريق ؛ لأن ذلك صدقة ، ومن محاسن الأعمال .

ثم قال : « ووجدت في مساوي أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن » النخاعة يعني : النخامة ، وسميت بذلك ؛ لأنها تخرج من النخاع ، النخامة تكون في المسجد لا تدفن ، لأن المسجد في عهد الرسول ﷺ مفروش بالحصى الصغار ، فالنخامة تدفن في التراب ، أما عندنا الآن فليس هناك تراب ، ولكن إذا وجدت فإنها تحك بالمنديل حتى تذهب ، واعلم أن النخامة في المسجد حرام ، فمن تنخم في المسجد فقد أثم ، لقول النبي ﷺ : « البراق في المسجد خطيئة » ^(٣) فأثبت النبي ﷺ أنها

(١) وذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري في الإيمان (٩) ، ومسلم في الإيمان (٥٨) ، والترمذي في السنن (٢٦١٤) ، وأحمد في مسنده (٤١٤/٢) .

(٢) انظر ذلك في تفسير القرطبي (٢٢٠/١٤) ، والمغني مع الشرح الكبير (٥٨٢/٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤١٥) ، ومسلم في المساجد (٥٥) ، والترمذي في الصلاة (٥٧٢) ، وأحمد في مسنده (٢٣٢٢/٢) .

خطيئة وكفارتها دفنها ، يعني إذا فعلها الإنسان وأراد أن يتوب فليدفعها ، لكن في عهدنا فليحكما بمندبل أو نحوه حتى تزول .

وإذا كان هذا في النخاعة فما بالك بما هو أعظم منها ، مثل ما كان فيما مضى ، حيث يدخل الإنسان المسجد بحذائه ولم يقلبها ويفتش فيها ، ويكون فيها الروث الذي ينزل إلى المسجد فيتلوث به ؟ فأنت اعتبر بالنخامة ما هو مثلها في أذية المسجد ، أو أعظم منها .

ومن ذلك أيضًا : أن بعض الناس تكون معه المناديل الخفيفة ، ثم يتنقع فيها ويرمي بها في أرض المسجد ، هذا أذى ، ولا شك أن النفوس تنفر إذا رأت مثل ذلك ، فكيف إذا كان ذلك في بيت من بيوت الله ، فإذا تنخعت في المندبل فضعه في جييك حتى تخرج فترمي به فيما أعد لذلك ، على ألا تؤذي به أحدًا .

١٢٠ - الرابع عنه : أن ناسًا قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ؛ يَصْلُونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَصَّدُقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، قال : « أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدُقُونَ بِهِ : إِنْ بِكُلِّ تَشْيِخَةٍ صَدَقَّةٌ ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَّةٌ ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَّةٌ ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَّةٌ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَّةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَّةٌ ، وَفِي بَضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَّةٌ » قالوا : يا رسول الله أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ » (١) . رواه مسلم .

« الدُّثُورُ » بالثاء المثناة : الأموال ، واحداها : دُثْرٌ .

١٢١ - الخامس : عنه قال : قال لي النبي ﷺ : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَخَاكَ يَبْجِيهِ طَلِيقٌ » (٢) . رواه مسلم .

١٢٢ - السادس : عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ سَلَامَةٍ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ : تَغْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَائِيهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهِ أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَنَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » متفق عليه .

ورواه مسلم أيضًا من رواية عائشة ؓ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتْرَيْنِ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ ، وَحَمَدَ اللَّهَ ، وَهَلَّلَ اللَّهَ ، وَسَبَّحَ اللَّهَ ، وَاسْتَغْفَرَ

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٥٣) ، وأحمد في مسنده (١٦٧/٥) ، قوله « بضع » أي خرج أو جماع .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) ، قوله « لا تحقرن أي لا تستقل » قوله « بوجه طليق » وفي رواية « طلق » لإسكان اللام وكسرها : أي بوجه ضاحك مستبشر سهل منبسط ، والحديث لم يرق الشارح رحمه الله بشرحه .

اللَّهُ ، وَغَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عِظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ ، عَدَدَ السَّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ ، فَإِنَّهُ يُنْبِئُ يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زُخِرَ نَفْسُهُ عَنِ النَّارِ » (١) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي ذر رضي الله عنه ، أن ناسًا قالوا : « يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور » يعني استأثروا بالأجور وأخذوها عنا ، وأهل الدثور يعني : أهل الأموال « يصلون كما نصلي ، يصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم » يعني فنحن وهم سواء في الصلاة وفي الصيام ، ولكنهم يفضلوننا بالتصدق بفضول أموالهم ، أي بما أعطاهم الله تعالى من فضل المال ، يعني ولا تنصدق .

وهذا كما جاء في الحديث الآخر عن فقراء المهاجرين ، قالوا : « ويعتقون ولا نتعت » (٢) فانظروا إلى الهمم العالية من الصحابة رضي الله عنهم ؛ يغبطون إخوانهم بما أنعم الله عليهم من الأموال التي يتصدقون بها ويعتقون منها ، ليسوا يقولون عندهم فضول أموال ، يركبون بها المراكب الفخمة ، ويسكنون القصور المشيدة ، ويلبثون الثياب الجميلة ، وذلك لأنهم قوم يريدون ما هو خير وأبقى وهو الآخرة ، قال الله ﷻ ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] وقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [الضحى: ٤] . فهم اشتكوا إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - شكوى غبطة ، لا شكوى حسد ، ولا اعتراض على الله ﷻ ، ولكن يطلبون فضلًا يتميزون به عن أغناهم الله فتصدقوا بفضول أموالهم .

فقال النبي ﷺ : « أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ » يعني إذا فانتكم الصدقة بالمال فهناك الصدقة بالأعمال الصالحة « إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليل صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة » وقد سبق الكلام على الأربع الأولى فيما سبق . أما قوله ﷺ : « أمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة » فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أفضل الصدقات ؛ لأن هذا هو الذي فضل الله به هذه الأمة على غيرها ، فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ خَيْرَ أَمْرٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولكن لا بد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شروط :

الشرط الأول : أن يكون الأمر الناهي عالمًا بحكم الشرع ، فإن كان جاهلًا ؛ فإنه لا يجوز أن يتكلم ، لأن الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر يأمر بما يعتقد الناس أنه شرع الله ، وليس له أن يتكلم في شرع الله إلا بما يعلم ؛ لأن الله حرم ذلك بنص القرآن فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] فمن منكرات الأمور : أن يتكلم الإنسان عن الشيء يقول : إنه معروف وهو لا يدرى

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٧) ومسلم في الزكاة (٥٦) ، وقوله « تعين الرجل » أي تساعده على

الركوب ، والحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه . (٢) أخرجه مسلم في المساجد (١٤٢) .

أنه معروف ، أو يقول : إنه منكر وهو لا يدري أنه منكر .

الشرط الثاني : أن يكون عالماً بأن المخاطب قد ترك المأمور أو فعل المحظور ، فإن كان لا يدري ، فإنه لا يجوز له أن يفعل ؛ لأنه حيثئذ يكون قد قفا ما ليس له به علم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

بعض الناس الذين عندهم غيرة وحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يتسرع فينكر من غير أن يعلم الحال التي عليها المخاطب . مثلاً يجد إنساناً معه امرأة في السوق ، فيتكلم في ذلك مع الرجل . لماذا تمشي مع المرأة ؟ وهو لا يدري أنه محرم لها . هذا خطأ عظيم ، إذا كنت في شك ، فاسأله قبل أن تتكلم . أما إذا لم يكن هناك قرائن توجب الشك في هذا الرجل ؛ فلا تتكلم . ما أكثر الناس الذين يصطحبون نساءهم في الأسواق . وانظر إلى حال النبي - عليه الصلاة والسلام - كيف يعامل الناس في هذه المسألة .

دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب ، فجلس فقال له النبي ﷺ « أصليت ؟ » قال : لا . قال : « قم فصل ركعتين وتجاوز فيهما » ^(١) ما قال له : لماذا تقعد ؟ لأن الإنسان إذا دخل المسجد يُنهي أن يجلس قبل أن يصلي ركعتين ، ففي أي وقت تدخل المسجد ، في الصباح ، في المساء ، بعد العصر ، بعد المغرب ، بعد الفجر ، لا تجلس حتى تصلي ركعتين ، فهذا الرجل جاء وجلس ، لكن هناك احتمال أنه صلى قبل أن يجلس ، والنبي ﷺ لم يره ، ولهذا قال له : « أصليت ؟ » قال : لا ، قال : « قم فصل ركعتين وتجاوز فيهما » يعني خفف . فهنا لم يأمره أن يقوم فيصلي حتى سأل ، وهذه هي الحكمة .

الشرط الثالث : أن لا يترتب عن النهي عن المنكر ما هو أنكر منه ، فإن ترتب على ذلك ما هو أنكر منه ؛ فإنه لا يجوز من باب درء أعلى المفسدين بأدناهما . فلو فرض أن شخصاً وجدناه على منكر كأن يشرب الدخان مثلاً ، ولو نهيناه عن شرب الدخان ذهب يشرب الخمر ، فإننا لا ننهاء إذا كنا نعلم أن هذا الرجل سيقدم على ما هو أعظم فإننا لا ننهاء عن شرب الدخان عندئذ . لماذا ؟ لأن شرب الدخان أهون من شرب الخمر ، ودليل هذه المسألة قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَسَبُوا اللَّهَ عَدُوًّا يُبْعَثُ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] فسب آلهة المشركين مصلحة مشروعة ، لكن إذا ترتب عليها سب الله ﷻ ، وهو أهل للثناء والمجد ؛ فإنه يُنهي عنه . ولهذا قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « لعن الله من لعن والديه » ^(٢) وقال ﷺ : « من الكبائر شتم الرجل والديه » . قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » ^(٣) .

فالحاصل : أنه لا بد أن لا يؤدي الإنكار إلى ما هو أنكر من المنكر ؟ درءاً لأعلى المفسدين بأدناهما .

ثم إنه يجب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن ينوي بهذا إصلاح الخلق . لا الانتصار عليهم ؛ لأن من الناس من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لينفذ سلطته ويتنصر لنفسه ، وهذا نقص

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣٠) ، ومسلم في الجمعة (٥٤) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٣٦٣/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٣ ، ٤٤) ، وأحمد في مسنده (١٠٨/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) ، وأحمد في مسنده (١٦٤/٢) ، والترمذي في السنن (١٩٠٢) .

كبير . قد يحصل فيه خير من درء المنكر وفعل المعروف ، ولكنه نقص كبير بالنسبة لهذا الشخص ؛ فأنت إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فأنت بقلبك أنك تريد إصلاح الخلق لا أنك تتسلط عليهم وتنتصر عليهم ، حتى تؤجر ويجعل الله في أمرك ونهيك بركة .

ثم قال النبي ﷺ : « وفي بُضْع أحدكم صدقة » يعني أن الرجل إذا أتى امرأته ، فإن في ذلك صدقة - قالوا : يا رسول الله : أياي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في الحرام ، أكان عليه فيها وزر ؟ » يعني لو زنى ووضع الشهوة في الحرام ، هل يكون عليه وزر ؟ قالوا : نعم ، قال : « فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » والحمد لله . ومعنى ذلك : أن الرجل إذا استغنى بالحلال عن الحرام ، كان له بهذا الاستغناء أجر .

ومن ذلك أيضًا : إذا أكل الإنسان طعامًا ؛ فإنه ينال شهوته بالأكل والشرب ، ومع ذلك لكونه يستغني به عن الحرام ؛ فإنه يكتب له به أجر . ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لسعد بن أبي وقاص : « واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها ، حتى ما تجعل في فم امرأتك » ^(١) مع أن ما يجعله الإنسان في فم امرأته أمر لا بد منه ، إذ أن المرأة تقول : أنفق عليّ أو طلقني ، وتخصمه في ذلك ، تغلبه إذا لم ينفق مع قدرته على الإنفاق ، فلها الحق في أن تفسخ النكاح . ومع ذلك إذا أنفق عليها يبتغي بذلك وجه الله ، فإن الله تعالى يؤجره على ذلك .

وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه تنبيه على ما يسميه الفقهاء قياس العكس : وهو إثبات نقيض حكم الأصل في ضد الأصل لمفارقة العلة ، فهنا العلة في كون الإنسان يؤجر إذا أتى أهله ، هو أنه وضع شهوته في حلال ، نقيض هذه العلة : إذا وضع شهوته في حرام ؛ فإنه يعاقب على ذلك ، وهذا هو ما يسمى عند العلماء بقياس العكس ، لأن القياس أنواع : قياس علة ، وقياس دلالة ، وقياس شبه ، وقياس عكس . والله الموفق .

١٢٣ - السابع : عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ عَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا عَدَا أَوْ رَاحَ » ^(٢) متفق عليه . « التُّزُلُ » : الْقُوْتُ وَالرِّزْقُ وَمَا يُهَيَّأُ لِلصَّيْفِ .

١٢٤ - الثامن : عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِحَارَتِهَا وَلَوْ فَوْسِقَ شَاةٍ » ^(٣) متفق عليه . قال الجوهرى : الْفَوْسِقُ مِنَ الْبَيْعِ : كَالْحَافِرِ مِنَ الدَّائِيَةِ ، قَالَ : وَرُبَّمَا

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٢) ، ومسلم في المساجد (٢٨٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٦٦) ، ومسلم في الزكاة (٩٠) ، وأحمد في مسنده (٢٦٤/٢ ، ٣٠٧ ، ٤٣٢) ، والبيهقي في السنن (١٧٧/٤) ، قوله : « لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِحَارَتِهَا وَلَوْ فَوْسِقَ شَاةٍ » النهي هنا للمعطية المهديّة ، والمعنى : لا تمنع جارة من الصدقة والهبة لجارتها ؛ لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها ، بل تجود بما تيسر لها مهما كان قليلاً ، فهو خير من العدم .

اشْتَعِيرَ فِي الشَّاةِ .

١٢٥ - التاسع : عنه عن النبي ﷺ قال : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةٌ ؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » ^(١) متفقٌ عليه . « الْبِضْعُ » من ثلاثة إلى تسعة ، بكسر الباء وقد تَفْتَحُ . « وَالشُّعْبَةُ » : القطعة .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة التي نقلها المؤلف رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ .
أما الأول : فهو أنه ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح ، أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح »
غدا : بمعنى ذهب غدوة أي ذهب أول النهار ، وذلك مثل أن يذهب إلى المسجد لصلاة الفجر . راح : الرواح يطلق على بعد الزوال ، مثل الذهاب إلى صلاة الظهر أو العصر ، وقد يطلق الرواح على مجرد الذهاب ، كما في قول النبي - عليه الصلاة والسلام - في حديث أبي هريرة : « من اغتسل يوم الجمعة ثم راح في الساعة الأولى إلى آخر الحديث » ^(٢) فإن معنى « راح في الساعة الأولى » : أي ذهب إلى المسجد في الساعة الأولى ، لكن إذا ذكرت الغدوة مع الرواح ، صارت الغدوة أول النهار والرواح آخر النهار .

وظاهر الحديث أن من غدا إلى المسجد أو راح ، سواء غدا للصلاة ، أو لطلب علم ، أو لغير ذلك من مقاصد الخير ؛ أن الله يكتب له في الجنة نزلاً . والنزل : ما يقدم للضيف من طعام ونحوه على وجه الإكرام ، أي أن الله تعالى يعد لهذا الرجل الذي ذهب إلى المسجد صباحاً أو مساءً ، يعد له في الجنة نزلاً إكراماً له .

ففي هذا الحديث إثبات هذا الجزاء العظيم لمن ذهب إلى المسجد أول النهار أو آخره . وفيه بيان فضل الله ﷻ على العبد ، حيث يعطيه على مثل هذه الأعمال اليسيرة هذا الثواب الجزيل .

وأما حديثه الثاني : فهو قول النبي ﷺ : « لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » فالرسول - عليه الصلاة والسلام - في هذا الحديث حثٌ على الهدية للجار ولو شيئاً قليلاً ، قال : « ولو فرسن شاة » الفرسن ما يكون في ظلف الشاة ، وهو شيء بسيط زهيد ، كأن النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو قل » .

وقد جاء عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك » ^(٣) . حتى المرق إذا أعطيته جيرانك هدية ، فإنك تثاب على ذلك . كذلك أيضاً لا تحقرن شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق ، فإن هذا من المعروف . إذا لم تلق أخاك بوجه عبوس مكفهر بل بوجه منطلق منشرح ، فإن هذا من الخير ومن المعروف ؛ لأن أخاك إذا واجهته بهذه المواجهة يدخل عليه السرور

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٩) ، ومسلم في الإيمان (٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٢) ، ومسلم في المساجد (٢٨٥) ، وأحمد في المسند (٥٠٩/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٢) ، والدارمي في السنن (١٠٨/٢) .

ويفرح ، وكل شيء يُدخل السرور على أخيك المسلم فإنه خير وأجر ، وكل شيء تغيب به الكافر فإنه خير وأجر . قال الله تعالى ﴿ وَلَا يَطْغَوْا مَوْطِنًا يَعْصِمُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَذَابٍ نَبِيلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِمْ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

أما الحديث الثالث : فهو قول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » فهذا الحديث بين فيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الإيمان ليس خصلة واحدة أو شعبة واحدة ، ولكنه شعب كثيرة ؛ « بضع وسبعون » يعني من ثلاث وسبعين إلى تسع وسبعين ، « أو بضع وستون شعبة » ولكن أفضلها كلمة واحدة : وهي لا إله إلا الله ، هذه الكلمة لو وزنت بها السموات والأرض لرجحت بها ، لأنها كلمة الإخلاص ، وكلمة التوحيد ، الكلمة التي أسأل الله أن يختم لي ولكم بها ، من كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة . هذه الكلمة هي أفضل شعب الإيمان ، « وأدناها إمطة الأذى عن الطريق » يعني إزالة الأذى عن الطريق ، وهو كل ما يؤذي المارين ، من حجر ، أو شوك ، أو زجاج ، أو خرق أو غير ذلك ، كل ما يؤذي المارين إذا أزلته فإن ذلك من الإيمان . « والحياء شعبة من الإيمان » . وفي حديث آخر : « الحياء من الإيمان » ^(١) . والحياء : حالة نفسية تعترى الإنسان عند فعل ما يُخجل منه ، وهي صفة حميدة كانت خلق النبي - عليه الصلاة والسلام - ، فكان من خلقه - عليه الصلاة والسلام - الحياء ، حتى إنه كان أكثر حياء من العذراء في خجلها ^(٢) عليه الصلاة والسلام ، إلا أنه كان لا يستحي من الحق .

فالحياء صفة محمودة ، لكن الحق لا يُستحي منه ، فإن الله يقول : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] الحق لا يُستحي منه ، ولكن ما سوى الحق ؛ فإن من الأخلاق الحميدة أن تكون حييا . ضد ذلك من لا يستحي ، فلا يبالى بما فعل ، ولا يبالى بما قال . ولهذا جاء في الحديث : « إن مما أدرك الناس من النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ^(٣) .

١٢٦ - العاشر : عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يَنْتَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اسْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبَيْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَ بِهِ ، حَتَّى رَفَعِي فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ فَقَالَ : « فِي كُلِّ كَبِيدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ » متفق عليه .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٩) ، والترمذي في السنن (٢٠٠٩) ، وأحمد في مسنده (٩/٢) .

(٢) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٢) ، ومسلم في الفضائل (٦٧) ، وأحمد في مسنده (٧١/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٢٠) ، وأحمد في مسنده (١٢١/٤) ، والبيهقي في السنن (١٩٢/١٠) .

وفي رواية للبخاري : « فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » وفي رواية لهما : « بَيْنَمَا كَلَبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَتَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ ، فَسَقَتْهُ فَغَفَرَ لَهَا بِهِ » (١) .

« الموق » : الحف . « وَيُطِيفُ » : يدور حول « رَكِيَّةٍ » وهي البئر .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب كثرة طرق الخيرات هذه القصة الغريبة التي رواها أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : أنه بينما رجل يمشي في الطريق مسافراً ، أصابه العطش ، فنزل بئراً فشرب منها ، وانتهى عطشه ، فلما خرج وإذا بكلب يأكل الثرى من العطش ، يعني يأكل الطين المبتل الرطب ، يأكله من العطش ، من أجل أن يمس ما فيه من الماء من شدة عطشه ، فقال الرجل : والله لقد أصاب هذا الكلب من العطش ما أصابني ، أو بلغ بهذا الكلب من العطش ما بلغ بي . ثم نزل البئر وملأ خفه ماء . الحف : ما يلبس على الرجل من جلود ونحوها ، فملأه ماء فأمسكه بفيه ، وجعل يصعد بيديه حتى صعد من البئر ، فسقى الكلب ، فلما سقى الكلب شكر الله له ذلك العمل ، وغفر له ، وأدخله الجنة بسببه . وهذا مصداق قول النبي - عليه الصلاة والسلام - « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » (٢) . عمل يسير شكر الله به عامل هذا العمل ، وغفر له الذنوب ، وأدخله الجنة .

ولما حدث ﷺ الصحابة بهذا الحديث ، وكانوا رضي الله عنهم أشد الناس حرصاً على العلم ، لا من أجل أن يعلموا فقط ، ولكن من أجل أن يعلموا فيعملوا . سألوا النبي - عليه الصلاة والسلام - « قالوا : يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : في كل ذات كبد رطبة أجر » لأن هذا كلب من البهائم ، فكيف يكون لهذا الرجل الذي سقاه هذا الأجر العظيم ؟ فاستغربوا ذلك ولهذا سألوا النبي ﷺ فقال : « في كل ذات كبد رطبة أجر » الكبد الرطبة تحتاج إلى الماء ؛ لأنه لولا الماء ليست وهلك الحيوان . إذا نأخذ من هذا قاعدة ، وهي أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا قص علينا قصة من بني إسرائيل فذلك من أجل أن نعتبر بها وأن نأخذ منها عظة وعبرة ، وهذا كما قال الله ﻋَﻠَﻴْﻜَﻢ : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

وفي رواية أخرى ، ولعلها قصة أخرى : أن امرأة بغايا من بني إسرائيل ، بغايا من البغايا : يعني أنها تمارس الزنا - والعياذ بالله - رأت كلباً يطوف بركيّة ، يعني يدور عليها عطشان ، لكن لا يمكن أن يصل إلى الماء . لأن الركيّة هي بئر ، فتزعت موقها يعني الحف الذي تلبسه واستقت له به من هذا البئر فغفر الله لها ، وهذه هي القصة الثانية .

فدل هذا على أن البهائم فيها أجر . كل بهيمة أحسنت لها بسقي ، أو إطعام ، أو وقاية من حر ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٩) ، ومسلم في السلام (١٥٣) ، وأحمد في مسنده (٥١٧/٢) ، والبيهقي في السنن (١٨٥/٤) .
(٢) سبق تخريجه .

أو وقاية من برد ، سواء كانت لك أو لغيرك من بني آدم ، أو كانت من السوائم ، فإن لك في ذلك أجراً عند الله ﷻ ، هذا وهن بهائم فكيف بالآدميين ؟ إذا أحسنت إلى الآدميين كان أشد وأكثر أجراً . ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من سقى مسلماً على ظمأ ؛ سقاه الله من الرحيق المختوم » ^(١) يعني لو كان ولدك الصغير وقف عند البرادة يقول لك : اسقني ماء وأسقيته وهو ظمآن ، فقد سقيت مسلماً على ظمأ ، فإن الله يسقيك من الرحيق المختوم . أجر كثير ولله الحمد غنائم ، ولكن أين القابل لهذه الغنائم ؟ أين الذي يخلص النية ويحتسب الأجر على الله ﷻ ؟ فأوصيك يا أخي ونفسي أن تحرص دائماً على اغتنام الأعمال بالنية الصالحة حتى تدخر لك عند الله ذخراً يوم القيامة ، فكم من عمل صغير أصبح بالنية كبيراً ! وكم من عمل كبير أصبح بالغفلة صغيراً ! .

* * *

١٢٧ - الحادي عشر : عنه عن النبي ﷺ قال : « لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَأَنَّهُ تَوَذَّى الْمُسْلِمِينَ » . رواه مسلم .

وفي رواية له : « مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنٍ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَأَنْحِثَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ ، فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ » .

وفي رواية لهما : « يَنْتَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَأَخْرَعَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ » ^(٢) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال : « لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق ، كانت تؤذي المسلمين » . وفي الرواية الأخرى : أنه دخل الجنة وغفر الله له بسبب غصن أزاله عن طريق المسلمين وسواء كان هذا الغصن من فوق يؤذيهم من عند رعوسهم ، أو من أسفل يؤذيهم من جهة أرجلهم . المهم أنه غصن شوك يؤذي المسلمين ، فأزاله عن الطريق ، أبعد ونحاه ، فشكر الله له ذلك وأدخله الجنة ، مع أن هذا الغصن إذا أذى المسلمين فلنما يؤذيهم في أبدانهم ، ومع ذلك غفر الله لهذا الرجل وأدخله الجنة . ففيه دليل على فضيلة إزالة الأذى عن الطريق ، وأنه سبب لدخول الجنة .

وفيه أيضاً دليل على أن الجنة موجودة الآن ؛ لأن النبي ﷺ رأى هذا الرجل يتقلب فيها ، وهذا أمر دل عليه الكتاب والسنة ، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة ؛ أن الجنة موجودة الآن ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يعني هيئت . وهذا دليل على أنها موجودة الآن ، كما أن النار أيضاً موجودة الآن ، ولا

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٩) ، وأحمد في مسنده (١٣/٣) كلاهما بلفظ « أيما مؤمن سقى مؤمناً » .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩) .

تفنيان أبداً ، خلقهما الله ﷻ للبقاء لا فناء لهما ، ومن دخلهما لا يفنى أيضاً ، فمن كان من أهل الجنة كان خالداً مخلداً فيها أبد الآبدين . ومن كان من أهل النار دخلها خالداً مخلداً فيها أبد الآبدين . وفي هذا الحديث : دليل على أن من أزال عن المسلمين الأذى ؛ فله هذا الثواب العظيم في أمر حسي ، فكيف بالأمر المعنوي ؟ هناك بعض الناس - والعياذ بالله - أهل شر وبلاء ، وأفكار خبيثة ، وأخلاق سيئة ، يصدون الناس عن دين الله ، وإزالة هؤلاء عن طريق المسلمين أفضل بكثير وأعظم أجراً عند الله . فإذا أزيل أذى هؤلاء ، إذا كانوا أصحاب أفكار خبيثة سيئة إلحادية ، يُردُّ عليها ، وتُبطل أفكارهم .

فإن لم يُجد ذلك شيئاً قطعت أعناقهم ؛ لأن الله يقول في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٣٣] و « أو » هنا يقول بعض العلماء إنها للتنويع ^(١) ، يعني أنهم يُقتلون ويُصلبون وتُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وينفوا من الأرض ، حسب جريمتهم .

وقال بعض أهل العلم : بل « أو » هنا للتخيير ، أي أن ولي الأمر مخير : إن شاء قتلهم وصلبهم ، وإن شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإن شاء نفاهم من الأرض ، حسب ما يرى فيه المصلحة ، وهذا القول قول جيد جداً - أعني أن تكون « أو » هنا للتخيير ^(٢) لأنه ربما يكون هذا الإنسان جرمه ظاهر سهل ، ولكنه على المدى البعيد يكون صعباً ، ويكون مضللاً للأمة .

والواجب على ولاة الأمور أن يزيلوا الأذى عن طريق المسلمين ، أي أن يزيلوا كل داعية إلى شر ، أو إلى إلحاد ، أو إلى مجون ، أو إلى فسوق ، بحيث يُمنع من نشر ما يريد من أي شيء كان من الشر والفساد ، هذا هو الواجب .

ولكن لا شك أن ولاة الأمور الذين ولّاهم الله على المسلمين في بعضهم تقصير ، وفي بعضهم تهاون ، يتهاونوا بالأمر في أوله حتى ينمو ويزداد ، وحيث يعجزون عن صده وكفه . فالواجب أن يقابل الشر من أول أمره بقطع دابره ، حتى لا ينتشر ولا يضل الناس به .

المهم : أن إزالة الأذى عن الطريق ؛ الطريق الحسي طريق الأقدام ، والطريق المعنوي طريق القلوب ، والعمل على إزالة الأذى عن هذا الطريق وهذا الطريق كله مما يقرب إلى الله . وإزالة الأذى عن طريق القلوب والعمل الصالح أعظم أجراً وأشد إلحاحاً من إزالة الأذى عن طريق الأقدام .

* * *

١٢٨ - الثاني عشر : عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ ، فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَا فَقَدْ لَعَا » ^(٣) رواه مسلم .

(١) قال الشافعي : أو في جميع القرآن للتخيير إلا في هذه الآية (انظر : إعراب القرآن ٢/٢٢١) وهو قول أكثر اللغويين .

(٢) وهو قول مالك حيث قال : الإمام مخير في إقامة أي الحدود (انظر : زاد المسير ٢/٣٤٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٧) ، وأحمد في مسنده (١٩/١ ، ٥٧ ، ٦٦) .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ ؛ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَا فَقَدْ لَعَا » . في هذا الحديث دليل على أن الحضور إلى الجمعة بعد أن يحسن الإنسان وضوءه ، ثم يستمع إلى الخطيب وهو يخطب وينصت ؛ فإنه يُغفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة وفضل ثلاثة أيام ، وهذا عمل يسير ليس فيه مشقة على الإنسان ؛ أن يتوضأ ويحضر إلى الجمعة ، وينصت لخطبة الإمام حتى يفرغ .

وقوله في هذا الحديث : « من توضأ » لا يعارض ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « غُسل الجمعة واجب على كل محتلم » ^(١) فإن هذا الحديث الثاني فيه زيادة على الحديث الأول ، فيؤخذ بها . كما أنه أيضًا أصبح منه . فإنه أخرجه الأئمة السبعة ، وهذا لم يخرجوه إلا مسلم ، فيجب أولاً على من أراد حضور الجمعة ، أن يغتسل وجوباً ، فإن لم يفعل كان آثماً ، ولكن الجمعة تصح ؛ لأن هذا الغسل ليس عن جنابة حتى نقول إن الجمعة لا تصح ، بل هو غسل واجب كغيره من الواجبات ، إذا تركه الإنسان أثم ، وإن فعله أثيب .

ويدل على أنه ليس شرطاً لصحة الصلاة وأما هو واجب ؛ أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان دخل ذات يوم وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخطب الناس يوم الجمعة فسأله أمير المؤمنين عمر لماذا تأخر ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن توضأت ثم أتيت ، يعني كأنه شغل ﷺ ولم يتمكن من الحضور مبكراً . قال : ما زدت على أن توضأت ثم أتيت ، فقال عمر وهو على المنبر والناس يسمعون : والوضوء أيضًا ، وقد قال النبي ﷺ « إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل » يعني كيف تقتصر على الوضوء وقد قال النبي ﷺ « إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل » ؟! ^(٢) فأمر من أتى الجمعة بالاغتسال ولكن لم يقل : له اذهب فاغتسل ، لأنه لو ذهب واغتسل ، فرمما تقوته الجمعة التي من أجلها وجب الغسل فيضيع الأصل إلى الفرع .

فالحاصل : أن هذا الحديث الذي ساقه المؤلف وإن كان يدل على عدم وجوب الاغتسال ، لكن هناك أحاديث أخرى تدل على وجوب الاغتسال ^(٣) .

وفي هذا الحديث دليل على فضيلة الاستماع إلى الخطبة والإنصات . الاستماع : أن يرهاها بسمعه ، والإنصات : أن لا يتكلم . هذا هو الفرق بين الاستماع والإنصات . فيستمع الإنسان ويتابع بسمعه كلام الخطيب ولا يتكلم . وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أن من يتكلم يوم الجمعة والإمام

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٥) ، ومسلم في الجمعة (٧) ، وأبو داود في الطهارة (٣٤١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٨) .

(٣) قال أكثر أهل العلم : بأن الغسل يوم الجمعة ليس واجباً ، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية ، وقال به الثوري والأوزاعي وابن النضر ، قال ابن عبد البر : أجمع علماء المسلمين قديماً وحديثاً على أن غسل الجمعة ليس بفرض ، وحكي رواية عن أحمد أنه واجب وروي ذلك عن أبي هريرة ، وبه قال أهل الظاهر (انظر المغني ٣٥١/٢ ، المجموع ٥٤٥/٤ ، المحلى ٧٥/٥ ، بدائع الصنائع ٢٦٩/١ ، بداية المجتهد ١٤٢/١) .

يخطب كمثل الحمار يحمل أسفارًا»^(١). والحمار أبلد الحيوانات ، يحمل أسفارًا يعني : كتبًا . ولكنه لا يتنفع بالكتب إذا حملها ؟ وجه الشبه بينهما : أن هذا الذي حضر لم يتنفع بالخطبة لأنه تكلم ، وقال ﷺ والذي يقول له : أنصت يعني : يسكته ، فقد لغا ، ومعنى لغا أي : فاته أجر الجمعة ، فالمسألة إذن خطيرة . ولهذا قال هنا : « ومن مسّ الحصا فقد لغا » وقد كان في عهد الرسول ﷺ يفرش المسجد بالحصبة وهي الحصى الصغار مثل العدس ، أو أكبر قليلًا ، أو أقل ، يفرش بها بدل الفرش التي نفرشها الآن ، فكان بعض الناس ربما يعبث بالحصا ، يحركها بيده ، أو يمسحها بيده ، أو ما أشبه ذلك ، فقال ﷺ : « من مسّ الحصا فقد لغا » ، لأن مسّ الحصا يلهيه عن الاستماع للخطبة ، ومن لغا فلا جمعة له ، يعني يحرم ثواب الجمعة التي فضلت بها هذه الأمة عن غيرها .

وإذا كان هذا في مس الحصا ، فكذلك أيضًا الذي يعبث بغير مسّ الحصا ، الذي يعبث بتحريك القلم أو الساعة أو المروحة التي يحركها ويلفها دون حاجة ، أو الذي يعبث بالسواك يريد أن يتسوك والإمام يخطب إلا لحاجة ، كأن يجيئه النوم أو النعاس فأخذ يتسوك ليطرد النعاس عنه ، فهذا لا بأس به ؛ لأن من مصلحته استماع الخطبة . وقد سئلنا عن الرجل يكتب ما يستمعه في الخطبة ، لأن بعض الناس ينسى فيقول : أنا كلما مرت علي جملة مفيدة أكتبها ، هل يجوز أم لا ؟ فالظاهر أنه لا يجوز ؛ لأن هذا إذا اشتغل بالكتابة تلهى عما يأتي بعدها ؛ لأن الإنسان ليس له قلبان . فإذا كان يشتغل بالكتابة تلهى عما يقوله الخطيب أثناء كتابته لما سبق ، ولكن الحمد لله الآن قد جعل الله للناس ما يريحهم ، حيث جاءت هذه الأشرطة وهذه المسجلات . فيمكنك أن تحضر المسجل وتسجل الخطبة في راحة ، وتستمع إليها في بيتك أو في سيارتك على أي وضع كنت .

* * *

١٢٩ - الثالث عشر : عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَعَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بَعَيْنُهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَتْ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ؛ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ »^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه في فضائل الوضوء أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَعَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بَعَيْنُهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَتْ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ؛ حَتَّى يَخْرُجَ

(١) أخرجه ذلك أحمد في مسنده (٢٣٠/١) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٥/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣٠٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٨١/١) .

نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ . والوضوء أمر الله به في كتابه في قوله تعالى : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] .

هذا الوضوء يُطَهِّرُ فيه هذه الأعضاء الأربعة ؛ الوجه ، واليدان ، والرأس ، والرجلان ، وهذا التطهير يكون تطهيرًا حسيًّا ، ويكون تطهيرًا معنويًّا . أما كونه تطهيرًا حسيًّا فظاهر ؛ لأن الإنسان يغسل وجهه ، ويديه ورجليه ، ويمسح الرأس ، وكان الرأس بصدد أن يُغسل كما تُغسل بقية الأعضاء ، ولكن الله خفف في الرأس ، لأن الرأس يكون فيه الشعر ، والرأس هو أعلى البدن ، فلو غسل الرأس ولا سيما إذا كان فيه الشعر ، لكان في هذا مشقة على الناس ، ولا سيما في أيام الشتاء ، ولكن من رحمة الله ﷻ أن جعل فرض الرأس المسح فقط ، فإذا توضأ الإنسان لا شك أنه يطهر أعضاء الوضوء تطهيرًا حسيًّا ، وهو يدل على كمال الإسلام ، حيث فرض على معتنقيه أن يطهروا هذه الأعضاء التي هي غالبًا ظاهرة بارزة .

أما الطهارة المعنوية وهي التي ينبغي أن يقصدها المسلم : فهي تطهيره من الذنوب ، فإذا غسل وجهه ؛ خرجت كل خطايا نظر إليها بعينه . وذكر العين - والله أعلم - إنما هو على سبيل التمثيل ، وإلا فالأنف قد يخطئ ، والقدم قد يخطئ ؛ فقد يتكلم الإنسان بكلام حرام ، وقد يشم أشياء ليس له حق أن يشمها ، ولكن ذكر العين ؛ لأن أكثر ما يكون الخطأ في النظر ؛ فلذلك إذا غسل الإنسان وجهه بالوضوء خرجت خطايا عينيه ، فإذا غسل يديه خرجت خطايا يديه ، فإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه ، حتى يكون نقيًّا من الذنوب . ولهذا قال الله تعالى حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ يعني ظاهرًا وباطنًا ، حشًا ومعنى : ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] فينبغي للإنسان إذا توضأ أن يستشعر بهذا المعنى أن وضوئه يكون تكفيرًا لخطيئته ، حتى يكون بهذا الوضوء محتسبًا للأجر على الله ﷻ .

* * *

١٣٠ - الرَّابِعُ عَشَرَ : عنه عن رسول الله ﷺ قال : « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ؛ مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اخْتَلَيْتِ الْكَبَائِرُ » ^(١) رواه مسلم .

١٣١ - الْخَامِسُ عَشَرَ : عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ » قالوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : « إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَلِكَمُ الرِّبَاطُ » ^(٢) رواه مُسْلِمٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الصلوات الخمس ،

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (١٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٤١) ، والترمذي في الطهارة (٥١) ، والبيهقي في السنن (٦٢/٣) ، قوله : « إسباغ الوضوء » قبل فيه أيضًا : هو استيعاب أعضائه بالغسل والمسح مع استيفاء آذانه ومكملاتها ، قوله « على المكاره » أي مع المشقة والألم .

والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر » يعني أن الصلوات الخمس تكفر الخطايا من بين صلاة الفجر إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، ومن العصر إلى المغرب ، ومن المغرب إلى العشاء ، ومن العشاء إلى الفجر . فإذا عمل الإنسان سيئة وأتقن هذه الصلوات الخمس ؛ فإنها تمحو الخطايا ، لكن قال : « إذا اجتنبت الكبائر » يعني إذا اجتنبت كبائر الذنوب .

وكبائر الذنوب هي : كل ذنب رتب عليه الشارع عقوبة خاصة ، فكل ذنب لعن النبي ﷺ فاعله فهو من كبائر الذنوب ، كل شيء فيه حد في الدنيا كالزنا ، أو وعيد في الآخرة كأكل الربا ، أو فيه نفي إيمان مثل : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ^(١) ، أو فيه براءة منه مثل « من غشنا فليس منا » ^(٢) ، أو ما أشبه لك فهو من كبائر الذنوب ..

واختلف العلماء - رحمهم الله - في قوله ﷺ : « إذا اجتنبت الكبائر » : هل معني الحديث أن الصغائر تكفر إذا اجتنبت الكبائر ، إنها لا تكفر إلا بشرطين وهما : الصلوات الخمس ، واجتناب الكبائر ، أو أن معني الحديث أنها كفارة لما بينهما إلا الكبائر لا تكفرها ، وعلى هذا فيكون لتكفير السيئات الصغائر شرط واحد هو إقامة هذه الصلوات الخمس ، أو الجمعة إلى الجمعة ، أو رمضان إلى رمضان ، وهذا هو المتبادر - والله أعلم - أن المعنى : أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها إلا الكبائر فلا تكفرها ، وكذلك الجمعة إلى الجمعة ، وكذلك رمضان إلى رمضان ، وذلك لأن الكبائر لا بد لها من توبة خاصة ، فإذا لم يتب توبة خاصة ؛ فإن الأعمال الصالحة لا تكفرها ، بل لا بد من توبة خاصة .

أما حديث أبي هريرة الثاني : فهو أن النبي - عليه الصلاة والسلام - عرض على أصحابه عرضاً ، يعلم النبي ﷺ ما سيقولون في جوابه ، ولكن هذا من حسن تعليمه - عليه الصلاة والسلام - أنه أحياناً يعرض المسائل عرضاً ، حتى يتبته الإنسان لذلك ، ويعرف ماذا سيلقى إليه . قال : « ألا أدلكم ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » يعرض عليهم هذا العرض ، ومن المعلوم أنهم سيقولون : نعم يا رسول الله أخبرنا ، ولكنه - عليه الصلاة والسلام - اتخذ هذه الصيغة وهذا الأسلوب من أجل أن يتبها إلى ما سيلقى إليهم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، يعني أخبرنا فإننا نود أن نخبرنا بما يرفع به الدرجات ويمحو به الخطايا ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » . هذه ثلاثة أشياء :

أولاً : إسباغ الوضوء على المكاره ، يعني إتمام الوضوء في أيام الشتاء ، لأن أيام الشتاء يكون الماء فيها بارداً . وإتمام الوضوء يعني إسباغه فيحصل بذلك مشقة على النفس ، فإذا أسبغ الإنسان وضوءه مع هذه المشقة ، دل هذا على كمال الإيمان فيرفع الله بذلك درجات العبد ، ويحط عنه خطيئة ، .. هذه واحدة .

ثانياً : كثرة الخطا إلى المساجد ، يعني أن يقصد الإنسان المساجد وذلك في الصلوات الخمس ولو بُعد المسجد ، فإنه كلما بُعد المسجد عن البيت ازدادت حسنات الإنسان ، فإن الإنسان إذا توضأ في

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣) ، ومسلم في الإيمان (٧١) ، والترمذي في السنن (٢٥١٥) ، وأحمد في مسنده (١٧٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤) ، وأحمد في مسنده (٤٩٨/٣) ، والدارمي في السنن (٢٤٨/٢) .

بيته وأسبغ الوضوء ، ثم خرج منه إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة ، لم يخط خطوة واحدة إلا رفع الله له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة .

ثالثاً : انتظار الصلاة بعد الصلاة ، يعني أن الإنسان من شدة شوقه إلى الصلوات ، كلما فرغ من صلاة ، فإذا قلبه متعلق بالصلاة الأخرى ينتظرها ، فإن هذا يدل على إيمانه ومحبه وشوقه لهذه الصلوات العظيمة ، التي قال عنها رسول الله ﷺ : « جعلت قرة عيني في الصلاة » ^(١) . فإذا كان ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فإن هذا مما يرفع الله به الدرجات ، ويكفر به الخطايا والسيئات .

هذان الحديثان ذكرهما المؤلف في باب كثرة طرق الخير ؛ لأن هذه - ولله الحمد - طرق متعددة من الخير؛ الصلوات الخمس ، الجمعة إلى الجمعة ، رمضان إلى رمضان ، كثرة الخطا إلى المساجد ، إسباغ الوضوء على المكاره ، انتظار الصلاة بعد الصلاة .

وقوله ﷺ : « فذلکم الرباط » أصل الرباط : الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها ، وهذا من أعظم الأعمال ، فلذلك شبه به ما ذكر من الأفعال الصالحة والعبادة في هذا الحديث ، أي أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة كالجهاد في سبيل الله . وقيل : إن الرباط ههنا اسم لما يربط به الشيء ، والمعنى : أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفها عنها .

* * *

١٣٢ - السادس عشر : عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى البردين دخل الجنة » ^(٢) متفق عليه . « البردان » الصبح والعصر .

١٣٣ - السابع عشر : عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد أو سافر كُتِبَ له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا » ^(٣) رواه البخاري .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من صلى البردين دخل الجنة » البردان : هما صلاة الفجر وصلاة العصر ، وذلك لأن صلاة الفجر تقع في أبرد ما يكون من الليل ، وصلاة العصر تقع في أبرد ما يكون من النهار بعد الزوال ، من صلاهما دخل الجنة ، يعني أن المحافظة على هاتين الصلاتين وإقامتهما من أسباب دخول الجنة .

وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه نظر إلى القمر ليلة فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل

(١) أخرجه النسائي (٦٢/٧) ، وأحمد في مسنده (٢٨٥/٣) ، والحاكم في المستدرک (١٦٠/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٤) ، ومسلم في المساجد (٢١٥) ، وأحمد في مسنده (٨٠/٤) ، والبيهقي في السنن (٤٦٦/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٦) ، وأحمد في مسنده (٤١٠/٤) ، والبيهقي في السنن (٣٧٤/٣) .

غروبها فافعلوا» ^(١) فقال ﷺ : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر» هذا فيه تشبيه الرؤيا بالرؤيا ، وليس المعنى تشبيه المرئي بالمرئي ؛ لأن الله ليس كمثل شيء ، ولكنكم ترونه رؤية حقيقية مؤكدة كما يرى الإنسان القمر ليلة البدر ، وإلا فإن الله ﷻ ، أجل وأعظم من أن يشابهه شيء من مخلوقاته .

ثم قال النبي ﷺ في آخر هذا الحديث « فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » يعني بالتي قبل طلوع الشمس : الفجر ، والتي قبل غروبها العصر ، فهاتان الصلاتان هما أفضل الصلوات ، وأفضلهما صلاة العصر ؛ لأنها هي الصلاة الوسطى التي قال الله تعالى عنها : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ ^(٢) [البقرة : ٢٣٨] .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة الأحزاب : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » ^(٣) وهذا نص صريح من رسول الله ﷺ أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر . وقوله - عليه الصلاة والسلام - : « من صلى البردين » المراد من صلاهما على الوجه الذي أمر به ، وذلك بأن يأتي بهما في الوقت ، وإذا كان من أصحاب الجماعة كالرجال ، فليأت بهما مع الجماعة ؛ لأن الجماعة واجبة ، ولا يحل لرجل أن يدع صلاة الجماعة في المسجد وهو قادر عليها .

أما حديثه الثاني : فهو أن النبي ﷺ قال : « إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً » يعني أن الإنسان إذا كان من عادته أن يعمل عملاً صالحاً ، ثم مرض فلم يقدر عليه ؛ فإنه يكتب له الأجر كاملاً والحمد لله على نعمه .

إذا كنت مثلاً من عادتك أن تصلي مع الجماعة ، ثم مرضت ولم تستطع أن تصلي مع الجماعة ؛ فكأنك تصلي معهم ، يكتب لك سبعة وعشرون درجة ، ولو سافرت وكان من عادتك وأنت مقيم في البلد أن تصلي نوافل ، وأن تقرأ قرآناً ، وأن تسبح وتهلل وتكبر ، ولكنك لما سافرت انشغلت بالسفر عن هذا ؛ فإنه يكتب لك ما كنت تعمله في البلد مقيماً . مثلاً لو سافرت وصليت وقتك في البر ليس معك أحد ؛ فإنه يكتب لك أجر صلاة الجماعة كاملاً ، إذا كنت في حال الإقامة تصلي مع الجماعة .

وفي هذا تنبيه على أنه ينبغي للعاقل ما دام في حال الصحة والفراغ ، أن يحرص على الأعمال الصالحة ، حتى إذا عجز عنها لمرض أو شغل ؛ كُتبت له كاملة . اغتنم الصحة ، اغتنم الفراغ ، اعمل صالحاً حتى إذا شُغلت عنه بمرض أو غيره ، كُتب لك كاملاً ولله الحمد ، ولهذا قال النبي ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ » ^(٤) . وقال ابن عمر : « وخذ من صحتك

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٤) ، ومسلم في المساجد (٢١١) ، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩) ، والترمذي في السنن (٢٥٥٤) .

(٢) قوله ﴿ قَانِتِينَ ﴾ أي مطيعين لله خاضعين .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣١) ، ومسلم في المساجد (٢٠٢ ، ٢٠٥) ، وأحمد في مسنده (٧٩/١) ، وابن ماجه في السنن (٦٨٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٢) ، والترمذي في السنن (٢٣٠٤) ، وابن ماجه في السنن (٤١٧٠) .

لمرضك ، ومن حياتك لموتك ^(١) هكذا جاء في حديث ابن عمر ، فهو إما من قوله ، وإما من قول النبي - عليه الصلاة والسلام - أن الإنسان ينبغي له في حال الصحة أن يتغتنم الفرصة ، حتى إذا مرض كُتِبَ له عمله في الصحة ، وأن يحرص مادام مقيمًا على كثرة الأعمال الصالحة ، حتى إذا سافر كُتِبَ له ما كان يعمل في الإقامة . نسأل الله أن يخلص لنا ولكم النية ويصلح لنا ولكم العمل .

١٣٤ - الثامن عشر: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ » ^(٢) رواه البخاري ، ورواه مسلم من رواية حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله في باب كثرة طرق الخيرات ، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن النبي ﷺ قال : « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ » المعروف ما يتعارف الناس على حسنه ، أو ما عرف في الشرع حسنه إن كان مما يتعبد به لله ، فهو ما عرف في الشرع حسنه ، وإن كان مما يتعامل به الناس ؛ فهو مما تعارف الناس على حسنه ، وفي هذا الحديث : « كل معروف » يشمل هذا وهذا ، فكل عمل تتعبد به إلى الله فإنه صدقة ، كما ورد في حديث سابق « كلُ تسبيحة صدقة ، وكل تهليل صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، أو أمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة » ^(٣) .

وأما ما يتعارف الناس على حسنه : فهو أيضًا ما يتعلق بالمعاملة بين الناس ، فكل ما تعارف الناس على حسنه فهو معروف ، مثل : الإحسان إلى الخلق بالمال ، أو بالجاه ، أو بغير ذلك من أنواع الإحسان . ومن ذلك : أن تلقى أخاك بوجه طلق لا بوجه عبوس ، وأن تلين له القول ، وأن تدخل عليه السرور ، ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : إن من الخير إذا عاد الإنسان مريضًا ، أن يدخل عليه السرور ويقول : أنت في عافية وإن كان الأمر على خلاف ما قال بأن كان مرضه شديدًا ، يقول ذلك نأويًا أنه في عافية أحسن ممن هو دونه ؛ لأن إدخال السرور على المريض سبب للشفاء . ولهذا تجد أن الإنسان إذا كان مريضًا مرضًا عاديًا صغيرًا ، إذا قال له الإنسان : إن هذا شيء بسيط هين لا يضر ، سرَّ بذلك ونسي المرض ، ونسيان المرض سبب لشفائه ، وكون الإنسان يعلق قلبه بالمرض فذلك سبب لبقاؤه . وأضرِبَ لكم مثلًا لذلك يرجل فيه جرح ، تجد أنه إذا تلهى بحاجة أخرى لا يحسُّ بألم الجرح ، لكن إذا تفرغ ولم يشتغل بشيء ؛ تذكر هذا الجرح وآلمه وربما أحس بأنه سيموت منه .

انظر مثلًا إلى الحمالين الذين يحملون الأشياء على السيارات وينزلونها ، أحيانًا يسقط على قدمه شيء فيجرحه ، ولكنه ما دام يحمل تلك الحمالات التي يحملها على ظهره تجده لا يشعر بالجرح ولا

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢١) ، ومسلم في الزكاة (٥٢) .

(٣) سبق تخريجه .

يحسن بألمه حتى إذا فرغ أحسن به وتألم .

إذن غفلة المريض عن المرض ، وإدخال السرور عليه ، وتأميله بأن الله ﷻ سيسقيه ؛ فهذا خير ينسيه المرض ، وربما كان سبباً للشفاء .

إذن كل معروف صدقة . لو أن أحداً يجلس إلى جنبك ورأته محترًا يتصبب العرق من جبينه ، فروحت عليه بالمروحة ؛ فإنه لك صدقة ، لأنه معروف . لو قابلت الضيوف بالانبساط وتعجيل الضيافة لهم وما أشبه ذلك فهذا صدقة .

انظر إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لما جاءت الملائكة ضيوفاً ماذا صنع ؟ قالوا : سلاماً . قال : سلام . قال العلماء : وقول إبراهيم سلام أبلغ من قول الملائكة سلاماً ؛ لأن قول الملائكة « سلاماً » يعني نسلم سلاماً ، وهو جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث . وقول إبراهيم : « سلام » جملة إسمية تدل على الثبوت والاستمرار فهو أبلغ ^(١) . وماذا صنع عليه الصلاة والسلام ؟ راغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .

﴿ فَرَّغَ ﴾ : قال العلماء : معناه انسرق مسرعاً بخفية ، وهذا من حسن الضيافة . ذهب مسرعاً لئلا يمنعه ، أو يقولوا : انتظر ما نريد شيئاً ﴿ فَرَّغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] وفي الآية الأخرى : ﴿ يَعْجَلُ حَمِيْلٌ ﴾ [هود : ٦٩] حنيد : يعني مشوياً ، ومعلوم أن اللحم المشوي أطعم من اللحم المطبوخ ، لأن طعمه يكون باقياً فيه ، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ ﴾ والعلماء يقولون : إن العجل من أفضل أنواع اللحم ؛ لأن لحمه ليناً ولذيذاً ، ثم قال تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ ما وضعه في مكان بعيد وقال لهم : اذهبوا إلى مكان الطعام ، فهذا ليس من المروءة ، وإنما قربه إليهم .

ثم قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُوْنَ ﴾ ولم يقل لهم : كلوا . و ﴿ أَلَا ﴾ أداة عرض ، يعني عرض عليهم الأكل ولم يأمرهم . ولكن الملائكة ما أكلوا ، لأن الملائكة لا يأكلون ، الملائكة ما لهم أجواف ، ما لهم كروش ولا أمعاء ولا أكباد ، خلقهم الله - من نور - جسداً واحداً جثة واحدة ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يبولون ولا يتغوطون : ﴿ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] دائماً يقولون : سبحان الله ، سبحان الله ، فلم يأكلوا ، لهذا السبب . ﴿ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ لأنهم لم يأكلوا . فمن عادة العرب أن الضيف إذا لم يأكل فقد تأبط شراً . ولهذا فمن عادتنا إلى الآن أنه إذا جاء الضيف ولم يأكل قالوا : مالح ، يعني ذق من طعامنا ، فإذا لم يمالح قالوا : إن هذا الرجل قد نوى بنا شراً ، فيكرههم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - على ذلك وأوجس منهم خيفة ﴿ فَأَلَّا لَا تَخَفْ ﴾ ثم بينوا له الأمر ﴿ فَأَلَّا لَا تَخَفْ وَيَسِّرُوْهُ يَأْكُلِمْ طَيِّبٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] وكان قد كبر وكانت امرأته قد كبرت ﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ ﴾ لما سمعت البشرية ﴿ فِي صَرَفٍ ﴾ أي في صيحة ، ﴿ فَصَكَتَ وَجْهَهَا ﴾ عجباً ، ﴿ وَقَالَتْ مَجْزُوْءٌ عَقِيْمٌ ﴾ ، يعني : ألد وأنا عجوز عقيم ! قالت الملائكة : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ ، الرب ﷻ يفعل ما يشاء ، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون .

ثم قال تعالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات : ٣٠] . وهنا قدم الحكيم على العليم ، وفي آيات

كثيرة يُقدم العليم على الحكيم ، والسبب أن هذه المسألة أي كونها تلد وهي عجوز خرجت عن نظائرها ، مالها نظير إلا نادراً ، فبدأ بالحكيم الدال على الحكمة ، يعني أن الله حكيم أن تلدي وأنت عجوز .
المهم : أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قد ضرب المثل في حسن الضيافة ، وحسن الضيافة من المعروف ، وكل معروف صدقة كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ..

* * *

١٣٥ - التاسع عشر : عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا سُْرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ » رواه مسلم .
وفي رواية له : « فَلَا يَغْرِسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا طَيْرٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وفي رواية له : « لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا ، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ » ^(١) وَرَوَاهُ جَمِيعًا مِنْ رَوَايَةِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَوْلُهُ : « يَزْرَعُهُ » أَي : يَنْقُضُهُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب كثرة طرق الخيرات ما نقله عن جابر بن عبد الله ، أن النبي ﷺ ذكر فيمن غرس غرسًا ، فأكل منه شيء ، من إنسان ، أو حيوان ، أو طير ، أو غير ذلك ، أو نَقَصَ ؛ أي سُرق منه ؛ فإنه له بذلك صدقة . ففي هذا الحديث حثٌّ على الزرع ، وعلى الغرس ، وأن الزرع والغرس فيه الخير الكثير ، فيه مصلحة في الدين ، ومصلحة في الدنيا .

أما مصلحة الدنيا : فما يحصل فيه من إنتاج ، ومصلحة الغرس والزرع ليست كمصلحة الدراهم والنقود ؛ لأن الزرع والغرس ينفع نفس الزارع والغارس ، وينفع البلد كله ، كل الناس يتفنون منه ، يشراء الثمر ، وشراء الحب ، والأكل منه ، ويكون في هذا نموٌّ للمجتمع وتكثير للخيرات ، بخلاف الدراهم التي توضع في الصناديق ولا ينتفع بها أحد .

أما المنافع الدينية : فإنه إن أكل منه طير ؛ عصفور ، أو حمامة ، أو دجاجة ، أو غيرها ولو حبة واحدة ؛ فإنه له صدقة ، سواء شاء ذلك أم لم يشأ ، حتى لو فُرض أن الإنسان حين زرع أو حين غرس لم يكن بياله هذا الأمر ؛ فإنه إذا أكل منه كان له صدقة .

أعجب من ذلك لو سرق منه سارق ، كما لو جاء شخص مثلاً إلى نخل وسرق منه تمراً ؛ فإن له في ذلك أجراً ، مع أنني لو علمت بهذا السارق لشكوته إلى المحكمة ، ومع ذلك فإن الله تعالى يكتب له بهذه السرقة صدقة إلى يوم القيامة .

كذلك أيضاً إذا أكل من هذا الزرع دواب الأرض وهوامها كان لصاحبه صدقة . ففي هذا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٢) ، ومسلم في المساقاة (٧ ، ٨ ، ١٠) .

الحديث : دلالة واضحة على حث النبي - عليه الصلاة والسلام - على الزرع وعلى الغرس ، لما فيه من المصلحة الدينية والمصالح الدنيوية .

وفيه : دليل على كثرة طرق الخير ، وأن ما انتفع به الناس من الخير ، فإن لصاحبه أجراً وله فيه الخير ، سواء نوى أو لم ينو ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] فذكر الله ﷻ أن هذه الأشياء فيها خير سواء نويت أو لم تنو . من أمر بصدقة أو أصلح بين الناس فهو خير ومعروف . نوى أم لم ينو ، فإن نوى بذلك ابتغاء وجه الله . فإن الله يقول : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وفي هذا : دليل على أن المصالح والمنافع إذا انتفع الناس بها ، كانت خيراً لصاحبها وإن لم ينو . فإن نوى زاد خيراً على خير ، وآتاه الله تعالى من فضله أجراً عظيماً . أسأل الله العظيم أن يمنّ علي وعليكم بالإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ إنه جواد كريم .

١٣٦ - العشرُونَ : عَنْهُ قَالَ : أَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَتَّقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لَهُمْ : « إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَتَّقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ ؟ » فَقَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ ، فَقَالَ : « بَنِي سَلَمَةَ دِيَارُكُمْ ، تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ ، دِيَارُكُمْ ، تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ » ^(١) رواه مسلم . وفي رواية : « إِنَّ بِكُلِّ خُطْوَةٍ دَرَجَةٌ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ . وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا بِمَعْنَاهُ مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَ « بَنُو سَلَمَةَ » بكسر اللام : قبيلة معروفة من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَ « أَثَارُهُمْ » خَطَاهُمْ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قال : أراد بنو سلمة أن يقربوا من المسجد ، ينتقلوا من ديارهم ومجالاتهم حتى يكونوا قرب مسجد النبي ﷺ ، من أجل أن يدرکوا الصلوات معه ويتلقوا من علمه ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسألهم ، قال : « إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَتَّقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك . فقال رسول الله ﷺ : « دِيَارُكُمْ تَكْتُبُ أَثَارُكُمْ » قالها مرتين ، ويثن لهم أن لهم بكل خطوة حسنة أو درجة .

ففي هذا الحديث : دليل على أنه إذا مشى الإنسان إلى المسجد ؛ فإنه لا يخطو خطوة إلا رفع له بها درجة ، وقد جاء ذلك مفسراً في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن النبي ﷺ قال : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ ، لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ » ^(٢) فيكتب له شيان ، الأول : أنه يرفع له بها درجة . والثاني : أنه يحط

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨١) ، والبخاري في الأذان (٦٥٥ ، ٦٥٦) ، وأحمد في مسنده (٣٣٢/٣) ،

قوله : « دِيَارُكُمْ » منصوب على الإغراء والتقدير : الزموا دياركم .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٧) بلفظ : « فَإِنْ أَحْدَكُمُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَأَتَى الْمَسْجِدَ » .

بها عنه خطيئة . هذا إذا توضأ في بيته وأسبغ الوضوء سواء كان ذلك قليلاً . يعني سواء كانت الخطوات قليلة أم كثيرة ، فإنه يُكتب له بكل خطوة شيئا : يُرفع بها درجة ، ويحط عنه بها خطيئة .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه إذا نُقل للإنسان شيء عن أحد ، فإنه يثبت قبل أن يحكم بالشيء ، ولهذا سأل النبي ﷺ بني سلمة قبل أن يقول لهم شيئا ، قال : بلغني أنكم تريدون كذا وكذا . قالوا : نعم . فيؤخذ منه ما ذكرت ؛ أنه ينبغي للإنسان إذا نُقل له شيء عن أحد أن يثبت قبل أن يحكم بمقتضى الشيء الذي نُقل له ، حتى يكون إنساناً رزينا ثقيلاً معتبراً ، أما كونه يصدق بكل ما نُقل ؛ فإنه يفوته بذلك الشيء الكثير ، ويحصل له ضرر عظيم بل الإنسان ينبغي عليه أن يثبت . وفي هذا الحديث أيضاً : دليل على كثرة طرق الخيرات ، وأن منها المشي إلى المساجد ، وهو كما سبق مما يرفع الله به الدرجات ، ويحط به الخطايا ، فإن كثرة الخطا إلى المساجد سبب لمغفرة الذنوب ، وتكفير السيئات ، ورفعة الدرجات .

* * *

١٣٧ - الحادي والعشرون : عَنْ أَبِي الْمُنْذِرِ أَنِّي بَنَ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَجُلٌ لَا أَغْلَمُ رَجُلًا أَتْبَعَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ ، وَكَانَ لَا تُحِطُّهُ صَلَاةٌ فَقِيلَ لَهُ - أَوْ قُلْتُ لَهُ - : لَوْ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظُّلُمَاءِ ، وَفِي الرَّمْضَاءِ ؟ فَقَالَ : مَا يَسُرُّنِي أَنْ مَنَزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي تَمَسَّايَ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ » رواه مسلم .

وفي رواية : « إِنَّ لَكَ مَا اخْتَسَبْتَ » (١) . « الرَّمْضَاءُ » : الأرض التي أصابها الحر الشديد .

١٣٨ - الثاني والعشرون : عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَغْلَاهَا مَنِيخَةُ الْعِزِّ ، مَا مِنْ غَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ » (٢) رواه البخاري .

« الْمَنِيخَةُ » : أَنْ يُعْطِيَهُ إِثَابُهَا لِأَنَّ كُلَّ لَبَنَةٍ تُؤْتِي ثَمَرًا وَإِلَيْهِ .

الشرح

هذان الحديثان يتعلقان بما قبلهما قبله من الأحاديث الدالة على كثرة طرق الخير ، وأن طرق الخير كثيرة ، ومنها الذهاب إلى المساجد ، وكذلك الرجوع منها ، إذا احتسب الإنسان ذلك عند الله تعالى ، فهذا الحديث الذي ذكره المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة الرجل الذي كان له بيتٌ بعيد عن المسجد ، وكان

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٧٨) ، قوله « لَا تُحِطُّهُ صَلَاةٌ » أي لَا تَفُوتُهُ .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٣١) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٨٣) ، قوله « الْعِزِّ » واحدة العز والجمع أعز وعزوز وعزاز ، والحديث لم يقم الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشرحه .

يأتي إلى المسجد من بيته من يُعدّ يحسب الأجر على الله ، قادمًا إلى المسجد وراجعًا منه . فقال له بعض الناس : لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء والرمضاء ، يعني في الليل حين الظلام ، في صلاة العشاء وصلاة الفجر ، أو في الرمضاء أي في أيام الحر الشديد ، ولا سيما في الحجاز ، فإن جوها حار . فقال ﷺ : « ما يسرنى أن يتي إلى جنب المسجد » . يعني أنه مسرور بأن بيته بعيد عن المسجد ، يأتي إلى المسجد بخطي ، ويرجع منه بخطي ، وهو لا يسره أن يكون بيته قريبًا من المسجد ؛ لأنه لو كان قريبًا لم تكتب له تلك الخطي ، ويؤمن أنه يحسب أجره على الله ﷻ ، قادمًا إلى المسجد وراجعًا منه . فقال ﷺ : « إن له ما احتسب » .

ففي هذا : دليل على أن كثرة الخطي إلى المساجد من طرق الخير ، وأن الإنسان إذا احتسب الأجر على الله كتب الله له الأجر حال مجيئه إلى المسجد وحال رجوعه منه .

ولا شك أن للنية أثرًا كبيرًا في صحة الأعمال ، وأثرًا كبيرًا في ثوابها ، وكم من شخصين يصليان جميعًا بعضهما إلى جنب بعض ، ومع ذلك يكون بينهما في قدر الثواب مثل ما بين السماء والأرض ، وذلك بصلاح النية وحسن العمل ، فكلما كان الإنسان أصدق إخلاصًا لله وأقوى اتباعًا لرسول الله ﷺ ، كان أكثر أجرًا ، وأعظم مثوبة عند الله ﷻ .

١٣٩ - الثالث والعشرون : عن عدي بن حاتم ﷺ قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقْ تَمْرَةٍ » متفق عليه .

وفي رواية لهما عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيِّئُ كَلِمَةٍ رُبَّمَا لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَوَجُّعَانِ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقْ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » (١) .

الشرح

هذا الحديث في بيان شيء من طرق الخيرات ؛ لأن طرق الخيرات - ولله الحمد - كثيرة ، شرعها الله لعباده ليصلوا بها إلى غاية المقاصد ، فمن ذلك الصدقة ، فإن الصدقة كما صح عن النبي ﷺ : « تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » (٢) يعني كما لو أنك صببت ماء على النار انطفأت ، فكذلك الصدقة تطفئ الخطيئة .

ثم ذكر المؤلف هذا الحديث الذي بين فيه أن الله ﷻ سيكلم كل إنسان على حدة يوم القيامة . قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقِهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] يعني سوف تلاقى ربك ويحاسبك على

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٧) ، ومسلم في الزكاة (٦٧ ، ٦٨) ، قوله : « بشق » أي بنصف ، قوله : « أشأم منه » أي في الجانب الأيسر .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة (٦١٤) ، وابن ماجه في السنن (٤٢٩٠) ، وأحمد في مسنده (٣٩٩/٣) .

هذا الكدح ، أي الكد والتعب الذي عملت ، ولكن ذلك بشري للمؤمنين كما قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُنْفَوْنَ وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] الحمد لله . المؤمن إذا لاقى ربه فإنه على خير .

ولهذا قال النبي ﷺ هنا في الحديث : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه تزوجان » يعني يكلمه الله يوم القيامة بدون مترجم . يكلم الله كل عبد مؤمن ، فيقرره بذنوبه ، يقول له : عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، فإذا أقر بها وظن أنه قد هلك ، قال : « إني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » فكم من ذنوب علينا سترها الله ﷻ لا يعلمها إلا هو ، فإذا كان يوم القيامة أتم علينا النعمة ، بمغفرتها وعدم العقوبة عليها ولله الحمد . ثم قال « فينظر أين منه » يعني عن يمينه « فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه » أي على يساره « فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه » قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فاتقوا النار ولو بشق تمرة » يعني : ولو بنصف تمرة أو أقل .

ففي هذا الحديث : دليل على كلام الله ﷻ ، وأنه ﷻ يتكلم بكلام مسموع مفهوم ، لا يحتاج إلى ترجمة ، يعرفه المخاطب به .

وفيه : دليل على أن الصدقة لو قلت ، فإنها تنجي من النار ، لقوله : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » قال : « فإن لم يجد فبكلمة طيبة » يعني إن لم يجد شق تمرة فليقل النار بكلمة طيبة . والكلمة الطيبة تشمل قراءة القرآن ، فإن أطيب الكلمات القرآن الكريم . وكذلك تشمل التسبيح والتهليل ، وكذلك تشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتشمل تعليم العلم وتعلم العلم ، وتشمل كذلك كل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من القول ، يعني إذا لم تجد شق تمرة ؛ فإنك تتقي النار ولو بكلمة طيبة . فهذا من طرق الخير وبيان كثرتها ويسرها ، فالحمد لله أن شق التمرة تنجي من النار ، وأن الكلمة الطيبة تنجي من النار . نسأل الله أن ينجينا وإياكم من النار .

١٤٠ - الرابع والعشرون : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إن الله ليَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا » وفسر المؤلف ﷻ الأكلة بأنها العَدْوَةُ أو العشوة ، أي الغداء أو العشاء .

ففي هذا دليل على أن رضى الله ﷻ قد يُنال بأدنى سبب ، قد يُنال بهذا السبب اليسير ولله الحمد . يرضى الله عن الإنسان إذا انتهى من الأكل قال : الحمد لله ، وإذا انتهى من الشرب قال : الحمد لله ، ذلك أن للأكل والشرب آداباً فعلية وآداباً قولية .

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩) ، وأحمد في مسنده (١٠٠/٣ ، ١١٧) ، والترمذي في الأطعمة (١٨١٦) .

أما الآداب الفعلية : فإن يأكل باليمين ويشرب باليمين ، ولا يحل له أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، فإن هذا حرام على القول الراجح ، لأن النبي ﷺ نهى أن يأكل الرجل بشماله أو يشرب بشماله ، وأخبر أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ^(١) . وأكل رجل بشماله عنده فقال : كل يمينك ، قال : لا أستطيع فقال : « لا استطعت » فما استطاع الرجل بعد ذلك أن يرفع يده اليمنى إلى فمه ^(٢) . عوقب بهذا والعياذ بالله .

أما الآداب القولية : فإن يسمي عند الأكل ، يقول : باسم الله ، والصحيح أن التسمية عند الأكل أو الشرب واجبة ^(٣) ، وأن الإنسان يأثم إذا لم يسم الله عند أكله أو شربه ، لأنه إذا لم يفعل : يعني لم يسم عند الأكل والشرب ؛ فإن الشيطان يأكل معه ويشرب معه .

ولهذا يجب على الإنسان إذا أراد أن يأكل أن يسمي الله ، وإذا نسي أن يسمي في أول الطعام ثم ذكر في أثناءه فليقل : باسم الله أوله وآخره ، وكذلك إذا نسي أحد أن يسمي فذكر ، لأن النبي ﷺ ذكر عمر بن أبي سلمة وهو ربيبه ابن زوجته أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، حينما تقدم للأكل فأكل ، فقال له النبي ﷺ : « يا غلام سم الله وكل يمينك وكل مما يليك » ^(٤) . وهذا فيه دليل على أن التسمية إذا كانوا جماعة تكون من كل واحد ، فكل واحد يسمي ولا يكفي أن يسمي واحد عن الجميع ، بل كل إنسان يسمي لنفسه . والتسمية : عند الأكل والشرب من الآداب القولية ، وهي واجبة لا يحل لأحد أن يدعها .

أما عند الانتهاء : فمن الآداب : أن يحمد الله على هذه النعمة حيث يسر له هذا الأكل ، مع أنه لا أحد غيره يستطيع أن ييسره ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَمَبِمَ مَا نَحْنُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّنتَزِعِينَ أَمْ نَكُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَكْرَمُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ إِلَّا أَنْزِلْنَاهُ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ فَلَا يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ، ٦٤] ﴿ أَوَمَبِمَ الْآيَاتِ الَّتِي نَنْزِلُوهَا بِالْحَقِّ أَمْ نَكُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَكْرَمُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ إِلَّا أَنْزِلْنَاهُ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ فَلَا يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨ ، ٦٩] لولا أن الله ﷻ نمي هذا الزرع حتى كمل ، وتيسر حتى وصل بين يديك ، لعجزت عنه . وكذلك الماء لولا أن الله يسره فأنزله من المزن وسلكه ينابيع في الأرض حتى استخرجته ؛ لما حصل لك هذا ، ولهذا قال في الزرع : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَتَأْكُلُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٥] وقال في الماء : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَنْجَارًا فَلَوْ لَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٠] فلهذا كان من شكر نعمة الله عليك بهذا الأكل والشرب أن تحمد الله إذا انتهيت من الشرب أو من الأكل ، ويكون هذا سبباً لرضى الله عنك .

وقوله : « الأكلة » فسرهما المؤلف بقوله : الغدوة أو العشوة ، يعني وليست الردة ، ليس كلما أكلت ردة قلت : الحمد لله ، أو كلما أكلت ثمرة قلت الحمد لله ، السنة أن تقول إذا انتهيت نهائياً ، وذكر أن الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يأكل ويحمد على كل ردة ، فقليل له في ذلك فقال : أكل وحمد خير من

(١) انظر ذلك فيما أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٦) ، الترمذي في السنن (١٧٩٩) ، وأحمد في مسنده (٨٠/٢) .
(٢) انظر نص الحديث في مسلم في الأشربة (١٠٧) ، وأحمد في مسنده (٤٦/٤) ، والدارمي في السنن (٩٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٧٧/٧) .

(٣) ويدل على ذلك ما أخرجه الترمذي في السنن (١٨٥٨) ، وابن ماجه في السنن (٣٢٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢٠٨/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦) ، ومسلم في الأشربة (١٠٨) ، وابن ماجه في السنن (٣٢٦٧) .

أكل وسكوت ، ولكن لا شك أن خير الهدي هدي محمد ﷺ ، وأن الإنسان اذا حمد الله في آخر أكله أو آخر شربه كفى ، ولكن إن رأى مصلحة في الحمد - يذكر غيره أو ما أشبه ذلك - فأرجو ألا يكون في هذا بأس ، كما فعله الإمام أحمد رحمه الله .

* * *

١٤١ - الحَامِسُ والعَشْرُونَ : عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ » قَالَ : « أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ » قَالَ : « يَعْمَلُ يَدَيْهِ فَيَتَنَفَّعَ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقَ » . قَالَ : « أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِيعْ ؟ » قَالَ : « يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ » قَالَ : « أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِيعْ ؟ » قَالَ : « يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ » قَالَ : « أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ » قَالَ : « يُنِمُّكَ عَنِ الشَّرِّ ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

نقل المؤلف رحمه الله عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة » ، وقد مر علينا مثل هذا التعبير من رسول الله ﷺ ، بل أعم منه ، حيث قال « على كل سلامى من الناس صدقة » ، كل يوم تطلع فيه الشمس ^(٢) ، والسلامى هي مفاصل العظام ، وهذا يدل على أن لله ﻋَﻠَﻴْكَ علينا صدقة كل يوم ، هذه الصدقة متنوعة ؛ إما أن تكون تسبيحة ، أو تكبيرة ، أو تهليلة ، أو أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، أو أن تعين الملهوف ، المهم أن طرق الخيرات كثيرة . ولكن النفس الأمار بالسوء تثبط الإنسان عن الخير ، وإذا هم بشيء فتحت له باباً غيره ، ثم اذا هم به فتحت له باباً آخر حتى يضيع عليه الوقت ، ويخسر وقته ولا يستفيد منه شيئاً .

ولهذا ينبغي للإنسان أن يبادر ويسارع في الخير ، كلما قُبِحَ له باب من الخير ، فليسارع إليه لقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [المائدة : ٤٨] ولأن الإنسان إذا انفتح له باب الخير أول مرة ثم لم يفعل ؛ فإنه يوشك أن يؤخره الله ﻋَﻠَﻴْكَ ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله » ^(٣) .

فالهم : أنه ينبغي للإنسان العاقل الحازم المؤمن أن ينتهز سبل الخير ، وأن يحرص غاية الحرص على أن يأخذ من كل باب منها بنصيب حتى يكون ممن سارع في الخيرات ، وحتى ينال ثمرات هذه الأعمال الصالحة ، نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذكره وحسن عبادته إنه جواد كريم .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٢) ، ومسلم في الزكاة (٥٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤١١) ، قوله « أَرَأَيْتَ » أي أخبرني ما حكم من لم يجد ما يتصدق به ، قوله : « الملهوف » أي المضطر والمتحسر .

(٢) سبق تخرجه .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٠) ، وابن ماجه في السنن (٩٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣٤/٣) .

١٤ - باب الاقتصاد في الطاعة

قال الله تعالى : ﴿ طه ١ مَّا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه : ١] وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

الشرح

لما ذكر المؤلف رحمته في الباب السابق كثرة طرق الخير ، يثن في هذا الباب أنه ينبغي للإنسان أن يقتصد في الطاعة ، فقال « باب الاقتصاد في الطاعة » والاقتصاد : هو أن يكون الإنسان وسطاً بين الغلو والتفريط ، لأن هذا هو المطلوب من الإنسان في جميع أحواله ؛ أن يكون دائراً في وسط بين الغلو والتفريط ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ^(١) [الفرقان : ٦٧] .

وهكذا الطاعة ينبغي أن تقتصد فيها ، بل يجب عليك أن تقتصد فيها ؛ فلا تكلف نفسك ما لا تطيق ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه خبر الثلاثة الذين قال أحدهم : إني لا أتزوج النساء ، وقال الثاني : أصوم ولا أفطر ، وقال الثالث : أقوم ولا أنام ، خطب - عليه الصلاة والسلام - وقال : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ، إني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » ^(٢) ، فتنبرأ النبي صلى الله عليه وسلم ممن رغب عن سنته ، وكلف نفسه ما لا تطيق .

ثم استشهد المؤلف بقوله تعالى : ﴿ طه ١ مَّا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه : ١] ﴿ طه ٢ هَذَانِ حَرْفَانِ مِنْ حُرُوفِ الْهَجَاءِ ، أَحَدُهُمَا طَاءٌ وَالثَّانِي هَاءٌ ، وَلَيْسَتْ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُهُمْ ، بَلْ هِيَ مِنَ الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ الَّتِي ابْتَدَأَ اللَّهُ بِهَا فِي بَعْضِ السُّورِ الْكَرِيمَةِ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَهِيَ حُرُوفٌ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لَا تَجْعَلُ لِلْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ مَعْنَى ، بَلْ لَا يَكُونُ لَهَا مَعْنَى إِلَّا إِذَا رَكِبَتْ وَكَانَتْ كَلِمَةً . وَلَكِنْ لَهَا مَغْزَى عَظِيمٌ ، هَذَا الْمَغْزَى الْعَظِيمُ هُوَ التَّحْدِي الْظَاهِرُ لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ لِلرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم عَجَزُوا أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ مِثْلَ الْقُرْآنِ ؛ لَا بِسُورَةٍ ، وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ ، وَلَا بِآيَةٍ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَعْجَزَهُمْ لَمْ يَأْتْ بِحُرُوفٍ غَرِيبَةٍ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا بَلْ أَتَى بِالْحُرُوفِ الَّتِي يَرَكِبُونَ مِنْهَا كَلَامَهُمْ .

ولهذا لا تكاد تجد سورة ابتدأت بهذه الحروف إلا وجدت بعدها ذكر القرآن ، في سورة البقرة ﴿ الْقَدْ كُنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَيَّ الْكُتُبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وفي سورة آل عمران ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ ﴾ ، وفي سورة الأعراف ﴿ التَّصْنُوتِ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي مَذْرَبِكَ حَسْرَةً ﴾ ، وفي سورة يونس ﴿ الرَّأْيَ تِلْكَ أَيْتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ، وهكذا نجد بعد كل حروف هجائية في بداية السورة

(١) قوله : ﴿ يَقْتُرُوا ﴾ أي لم يضيّقوا تضيق الشحيح ، قوله ﴿ قَوَامًا ﴾ أي وسطاً .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٦٠/٦) بلفظه ، والبخاري في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم في النكاح (٦) ، والترمذي في السنن (١٢١٤) ، ومعنى « فمن رغب عن سنتي » أي من تركها إعراضاً عنها ، غير معتقد لها على ما هي عليه .

يأتي ذكر القرآن ، وذلك إشارة إلى أن هذا القرآن كان من هذه الحروف التي يتركب منها كلام العرب ومع ذلك أجهز العرب ، هذا هو الصحيح في معنى المراد من هذه الحروف الهجائية .

وقوله ﷻ : ﴿ مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ يعني : ما أنزل الله على النبي ﷺ هذا القرآن لينال الشقاء به ، ولكن لينال السعادة والخير والفلاح في الدنيا والآخرة ، كما قال الله ﷻ في هذه السورة نفسها : ﴿ قَالَ أَهْوَأَ مِنْهَا جِيعًا بِمَعْشُكُمُ لَيْعُسَ عَذُوبًا بِأَلْسِنَتِكُمْ مَتًى هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَابِتٍ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْهَى ﴾ ^(١) [طه : ١٢٣-١٢٧] ﴿ مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ولكن لتسعد في الدنيا والآخرة ، ولهذا لما كانت الأمة الإسلامية أمة القرآن متمسك به وتهتدي بهديه ، صارت لها الكرامة والعزة والرفعة على جميع الأمم ، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها ، ولما تخلفت عن العمل بهذا القرآن تخلف عنها من العزة والنصر والكرامة بقدر ما تخلفت به من العمل بهذا القرآن .

ثم ساق المؤلف آية أخرى وهي قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] يعني : أن الله يريد بنا فيما شرع لنا التيسير ، وهذه الآية نزلت في آيات الصيام حتى لا يظن الظان أنه أنزل على الناس للمشقة والتعب ، فبين الله تعالى أنه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، ولهذا من سافر لم يجب عليه الصوم ، ويقضي من أيام آخر ^(٢) ، ومن مرض لم يجب عليه الصوم ، ويقضي من أيام آخر ^(٣) ، فهذا من التيسير ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ .

ولهذا كان هذا الدين الإسلامي - ولله الحمد - دين السماحة واليسر والخير والسهولة ، أسأل الله أن يرزقني وإياكم التمسك به والوفاء عليه وملاقاة ربنا عليه .

١٤٢ - وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قَالَ : « مَنْ هَذِهِ ؟ » قَالَتْ : هَذِهِ فُلَانَةٌ تَذَكَّرُ مِنْ صَلَاتِهَا قَالَ : « مَهْ ، عَلَيْكُمْ بِمَا تَطِيقُونَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا » وَكَانَ

(١) قوله ﴿ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ أي معيشة ضيقة شديدة ، فلا طمأنينة ولا انشراح لصدره ، فهو في قلق وحيرة وشك .

(٢) هذا هو ما عليه إجماع الفقهاء ولكنهم اختلفوا فيما إذا كان ذلك رخصة أم فرضاً ، فقال الشافعية والحنابلة : أن الإفطار أفضل لأنه عزيمة والصيام رخصة ، وقال الحنفية والمالكية : إن الصوم أفضل فهو عزيمة والإفطار رخصة ، وقال الظاهرية : إن الإفطار في حق المسافر فرض سواء كان ذلك في سفر طاعة أو معصية وإن صام فصومه باطل (انظر المغني ١٥٠/٣ ، وبداية المجتهد ٢٩٦/١ ، الهداية ١٢٦/١ ، مغني المحتاج ٤٣٧/١ ، فقه الكتاب والسنة ١٦٣/١ - ١٦٥ ، المحلى ٢٤٣/٦) .

(٣) ذكر الفقهاء أن للمريض أن يفطر إذا كان الصوم يزيد من مرضه وإن تحمل الصوم وهو مريض كره له ذلك ، وهو ما أجمع عليه أهل العلم من المسلمين وأما مستوى المرض الذي يباح فيه الإفطار ، فللعلماء فيه قولان : الأول : أنه المرض الذي يؤدي إلى المشقة والضرر ، أو الذي يتأخر بسببه الشفاء ، وهذا ما ذهب إليه أكثر أهل العلم ، والثاني : أنه كل ما يطلق عليه اسم المرض سواء كان هيناً أو شديداً ، وهو قول الظاهرية ، ومحمد بن سيرين (انظر المغني ١٤٧/٣ ، الهداية ١٢٦/١ ، مغني المحتاج ٤٣٧/١ ، المحلى ١٨٥/٦ ، بداية المجتهد ٢٩٧/١) .

أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ ^(١) . متفقٌ عليه .

« وَنَمَ » كَلِمَةٌ نَهْيِي وَزَجَر . وَمَعْنَى « لَا يَمَلُ اللَّهُ » أَي : لَا يَقْطَعُ ثَوَابَهُ عَنْكُمْ وَجَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ ، وَيُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ الْمَالِ حَتَّى تَمْلُؤُوا فَتَتْرَكُوا ، فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مَا تُطِيقُونَ الدَّوَامَ عَلَيْهِ لِيَدُومَ ثَوَابُهُ لَكُمْ وَفَضْلُهُ عَلَيْكُمْ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عائشة رضي الله عنها ، في باب الاقتصاد في الطاعة ، أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة ، فقال : « من هذه ؟ » قالت : فلانة ، وذكرت من صلاتها ، يعني أنها تصلي كثيرًا ، فقال النبي ﷺ : « مَهْ » ، و « مه » تعني أمر بالكف ، فهي عند النحويين اسم فعل بمعنى اكف ، وصه : بمعنى اسكت .

والمعنى : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أمر هذه المرأة أن تكف عن عملها الكثير ، الذي قد يشق عليها وتعجز عنه في المستقبل فلا تديمه ، ثم إن النبي - عليه الصلاة والسلام - أمرنا أن نأخذ من العمل بما نطيق ، فقال : « عليكم بالعمل بما تطيقون » يعني : لا تكلفوا أنفسكم وتجهدوها ، فإن الإنسان إذا أجهد نفسه ، وكلف نفسه ، ملت وكلت ، ثم انحسرت وانقطعت .

وذكرت عائشة أن النبي ﷺ كان أحب الدين إليه أدومه ، أي ماداوم عليه صاحبه ، يعني أن العمل وإن قل إذا داومت عليه ، كان ذلك أحسن لك ، لأنك تفعل العمل براحة ، وتتركه وأنت ترغب فيه ، لا تتركه وأنت تمل منه ؛ ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فوالله لا يمل الله حتى تملوا » ، يعني أن الله ﻻ يعطيك من الثواب بقدر عملكم مهما داومتهم ، فإن الله تعالى يثيبكم عليه .

وهذا الملل الذي يفهم من ظاهر الحديث ، أن الله يتصف به ليس كمللنا نحن ؛ لأن مللنا نحن ملل تعب وكسل ، وأما ملل الله ﻻ فإنه صفة يختص به جل وعلا ، والله ﻻ يلحقه تعب ولا يلحقه كسل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] هذه السموات العظيمة والأرض وما بينهما خلقها الله تعالى في ستة أيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، قال ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ ﴾ يعني : ما تعبنا بخلقها في هذه المدة الوجيزة مع عظمتها .

ففي هذا الحديث فوائد منها : أن الإنسان ينبغي له إذا رأى عند أهله أحدًا أن يسأل : من هو ؟ لأنه قد يكون هذا الداخل على الأهل ممن لا يرغب في دخوله ، فإن من النساء من تأتي إلى أهل البيت تحدثهم بأحاديث يأتون بها من الغيبة وغيرها ، وربما تدخل امرأة - بحسن نية أو بغير حسن نية - تسأل عن البيت ، عما يفعل الزوج ، وعما يأتي به في بيته ، وعما يفعل الابن ، ثم إذا ذكر لها ذلك ظلت تذكر ذلك بازدياد وتسخط ، حتى تفسد المرأة على زوجها ، فلذلك ينبغي للإنسان إذا وجد عند أهله أحدًا أن

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٢١) .

يسأل عنهم من هؤلاء ؟ كما سأل النبي - عليه الصلاة والسلام - عائشة عن المرأة التي عندها .
 وفيه أيضًا : أنه ينبغي للإنسان أن لا يجهد نفسه بالطاعة ، وكثرة العمل ؛ فإنه إذا فعل هذا مل ،
 ثم ترك ، وكونه يبقى على العمل ولو قليلاً مستمراً عليه أفضل ، وقد بلغ النبي ﷺ أن عبد الله بن
 عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : لأصوم من النهار ، ولأقوم من الليل ما عشت ، قال ذلك رغبة في الخير ،
 فبلغ ذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال له : « أنت الذي قلت ذلك ؟ » قال : نعم يا رسول
 الله ، قال : « إنك لا تطيق ذلك » ثم أمره أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فقال : إني أطيق أكثر
 من ذلك ، فأمره أن يصوم يوماً ويفطر يومين ، فقال : أطيق أكثر من ذلك ، فقال : « صم يوماً وأفطر
 يوماً » قال : إني أطيق أكثر من ذلك ، قال : لا أكثر من ذلك ، هذا صيام داود . وكبر عبد الله بن
 عمرو وصار يشق عليه أن يصوم يوماً ويترك يوماً ، فقال : ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ ، ثم صار
 يصوم خمسة عشر يوماً سرّاً ، ويفطر خمسة عشر يوماً سرّاً (١) .

ففي هذا دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يعمل العبادة على وجه مقتصد ، لا غلو ولا تفريط ،
 حتى يتمكن من الاستمرار عليها ، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل .

* * *

١٤٣ - وعن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رفق إلى يثوب أزواج النبي ﷺ ، يسألون عن عبادة
 النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا : أين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه
 وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ،
 وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : « أنتم الذين قلتم
 كذا وكذا ! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ؛ لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأزفد ، وأتزوج
 النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٢) . متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عائشة رضي الله عنها في باب الاقتصاد في العبادة : أن
 ثلاثة نفر جاءوا إلى يثوب النبي ﷺ يسألون زوجاته عن عمله الذي يعمل في بيته ، وذلك لأن عمل
 النبي ﷺ إما ظاهر يعرفه الناس كلهم ؛ كالذي يفعله في المسجد ، أو في السوق ، أو في مجتمعاته
 مع أصحابه ، فهذا ظاهر يعرفه غالب الصحابة الذين في المدينة ، وإما أن يكون سرّاً لا يعرفه إلا من في
 بيته ، أو من كانوا من خدمه مثل عبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك وغيرهما .

فجاء هؤلاء نفر الثلاثة إلى يثوب أزواج النبي ﷺ يسألونهم كيف كانت عبادته في السر ، يعني في
 بيته فأخبروا بذلك ، فكانهم تقالوها ؛ لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - كان يصوم ويفطر ، وكان

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٧٦) ، ومسلم في الصيام (١٩١ ، ١٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم في النكاح (٥) .

يقوم ويرقد ، وكان يتزوج النساء - عليه الصلاة والسلام - ويستمتع بهن ، فكأنهم تقولوا هذا العمل ؛ لأن معهم نشاط ﷺ على حب الخير ، ولكن النشاط ليس مقياساً ، المقياس ما جاء به الشرع .. فجاء النبي ﷺ ، فقال : أنتم قلتم كذا وكذا ، قالوا : نعم ، لأن أحدهم قال : أصلي الليل ولا أرقد ، والثاني قال : أصوم النهار أبداً ولا أفطر ، والثالث قال : اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فأقروا على أنفسهم بأنهم قالوا ذلك .

ولا شك أن هذا الذي قالوا خلاف الشرع ؛ لأن هذا فيه إشفاقاً على النفس وإتباعاً لها ؛ يبقى الإنسان لا يرقد أبداً ، كل الدهر يصلي ! هذا لا شك أنه مشق على النفس ومتعب لها ، وأنه داع إلى الملل ، وبالتالي إلى كراهة العبادة ، لأن الإنسان إذا ملَّ الشيء كرهه .

كذلك الذي قال : أصوم أبداً ، يبقى صيفاً وشتاء صائماً ! هذا لا شك أنه مشقة .

والثالث قال : اعتزل النساء ولا أتزوج أبداً ، هذا أيضاً يشق على الإنسان ، لا سيما الشباب يشق عليه أن يدع النكاح ، ثم إن التبتل وعدم النكاح منهي عنه ، قال عثمان بن مظعون : كان النبي ﷺ ينهانا عن التبتل شديداً ، ولو أذن لنا لاختصينا ^(١) .

والمهم : أن هذه العبادة التي أرادها هؤلاء ﷺ كانت شاقة ، وهي خلاف السنة ، ولكن النبي - عليه الصلاة والسلام - سألهم واستقرهم : هل قالوا ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » يعني مَنْ رغب عن طريقتي واتخذ عبادة أشد ، فإنه ليس مني .

ففي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يقتصد في العبادة ، بل ينبغي له أن يقتصد في جميع أموره ؛ لأنه إن قصر فاته خير كثير ، وإن شدد ؛ فإنه سوف يكل ويعجز ويرجع ولهذا ينبغي للإنسان أن يكون في أعماله كلها مقتصداً .

ولهذا جاء في الحديث « إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » ^(٢) والمنبت الذي يمشي ليلاً ونهاراً دائماً ، هذا لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، بل يتعب ظهره ، وبالتالي يتعب ويحسر ويقعد . فالاعتقاد في العبادة من سنن النبي ﷺ ، فلا ينبغي لك أيها العبد أن تشق على نفسك ، وامش في أمورك رويداً رويداً ، وكما سبق في الحديث الذي قبل : « إن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل » فعليك بالراحة ، لا تقصر ولا تزد ، فإن خير الهدى هدي النبي ﷺ ، جعلني الله وإياكم من متبعي هديه الذين يمشون على طريقته وسنته .

* * *

(١) انظر الحديث بنصه في البخاري في النكاح (٥٠٧٤) ، ومسلم في النكاح (٦ - ٨) ، وأحمد في مسنده (١٥٨/٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٩/١) ، وابن حجر في فتح الباري (٢٩٧/١١) ، والألباني في الضعيفة (شرح حديث رقم ٨) .

١٤٤ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قَالَهَا ثَلَاثًا ^(١) رواه مسلم .
« الْمُتَنَطِّعُونَ » : الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُشَدِّدُونَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ التَّشْدِيدِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « هلك المتنطعون . هلك المتنطعون » . هلك المتنطعون ، الهلاك : ضد البقاء ، يعني أنهم تلفوا وخسروا ، والمتنطعون : هم المتشددون في أمورهم الدينية والدنيوية ، ولهذا جاء في الحديث : « لا تشددوا فيشدد الله عليكم » ^(٢) . وانظر إلى قصة بني إسرائيل حين قتلوا قتيلًا فادَّارَوْا فيه وتنازعوا حتى كادت الفتنة أن تسود بينهم ، فقال لهم موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة : ٦٧] يعني وتأخذوا جزءًا منها فتضربوا به القتيل ، فيخبركم من الذي قتله ، فقالوا له : ﴿ أَلَنَجِدُنَا هُزُواً ﴾ لو أنهم استسلموا وسلموا لأمر الله وذبحوا أي بقرة كانت ، لحصل مقصودهم ، لكنهم تعنتوا فهلكوا ، ﴿ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ ثم قالوا ﴿ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ هُنَّ ﴾ ثم قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي وما عملها ، وبعد أن شدد عليهم ذبحوها وماكادوا يفعلون .

كذلك أيضًا من التشديد في العبادة ، أن يشدد الإنسان على نفسه في الصلاة ، أو في الصوم ، أو في غير ذلك مما يشره الله عليه ؛ فإنه إذا شدد على نفسه فيما يسهل الله عليه فهو هالك .

ومن ذلك : ما يفعله بعض المرضى ولا سيما في رمضان حيث يكون الله قد أباح له الفطر وهو مريض ويحتاج إلى الأكل والشرب ، ولكنه يشدد على نفسه فيبقى صائمًا ، فهذا أيضًا نقول : إنه ينطبق عليه الحديث : « هلك المتنطعون » .

ومن ذلك : ما يفعله بعض الطلبة المجتهدين في باب التوحيد ؛ حيث تجدهم إذا مرت بهم آيات صفات الرب ﷻ جعلوا ينقبون عنها ، ويسألون أسئلة ما كلفوا بها ، ولا درج عليها سلف الأمة ؛ من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم ، فتجد الواحد ينقب عن أشياء ليست من الأمور التي كلف بها تنطقًا وتشدقًا ، فنحن نقول لهؤلاء : إن يسعكم ما وسع الصحابة رضي الله عنهم ، فأمسكوا ، وإن لم يسعكم فلا وسع الله عليكم ، وثقوا بأنكم ستقعون في شدة وفي حرج وفي قلق . ومثال ذلك : أن بعض الناس يقول : إن الله ﷻ له أصابع ، كما جاء في الحديث الصحيح : « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » ^(٣) فيأتي هذا المتنطع ، فيبحث كم عدد هذه الأصابع ؟ وهل لها أنامل ؟ وكم أناملها ؟ وما أشبه ذلك .

(١) أخرجه مسلم في العلم (٧) ، والطبراني في الكبير (١٠ / ٢١٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٤) بلفظ : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم » .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (١٧) ، وأحمد في مسنده (١٦٨ / ٢) .

كذلك مثلاً : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى الثلث الآخر » ^(١) ، يقول : كيف ينزل ؟ ولم تلت الليل ؟ وتلت الليل يدور على الأرض كلها ، معنى هذا أنه نازل دائماً ، وما أشبه ذلك من الكلام الذي لا يؤجرون عليه ، ولا يحمدون ، بل هم إلى الإثم أقرب منهم إلى السلامة ، وهم إلى الذم أقرب منهم إلى المدح .

هذه المسائل التي لم يكلف بها الإنسان ، وهي من مسائل الغيب ، ولم يسأل عنها من هو خير منه ، وأحرص منه على معرفة الله بأسمائه وصفاته ، يجب عليه أن يمسك عنها ، وأن يقول : سمعنا وأطعنا وصدقنا ، وآمنا ، أما أن يبحث أشياء دقيقة ما لها فائدة ؛ فإن هذا لاشك أنه من التنطع .

ومن ذلك أيضاً : ما يفعله بعض الطلبة من إدخال الاحتمالات العقلية في الدلائل اللفظية ؛ فتجده يقول : يحتمل كذا ويحتمل كذا ، حتى تضعيف فائدة النص ، وحتى يبقى النص كله مرجوحاً لا يستفاد منه ، فهذا غلط ، والواجب الأخذ بظاهر النصوص وطرح هذه الاحتمالات العقلية ، فإننا لو سلطنا الاحتمالات العقلية على الأدلة اللفظية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ما بقي لنا حديث واحد أو آية واحدة يستدل بها الإنسان ، ولأورد عليها كل شيء ، والأمور العقلية هذه قد تكون وهميات وخيالات من الشيطان ، يلقبها في قلب الإنسان حتى يزعر عقيدته وإيمانه والعياذ بالله .

ومن ذلك أيضاً : ما يفعله بعض المتشددين في الوضوء حيث تجده مثلاً : يتوضأ ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً أو سبعا أو أكثر وهو في عافية من ذلك . يذكر أن ابن عباس ؓ كان يتوضأ ، فإذا وجهه الأرض التي تحته ، ليس فيها إلا نقط من الماء ، من قلة ما يستعمل من الماء ^(٢) ، وبعض الناس تجده يشدد في الماء فيشدد الله عليه ، فإنه إذا استرسل مع هذا الوسواس ما كفاه أربع أو خمس ولا ست ولا أكثر من ذلك ، فيسترسل معه الشيطان حتى يخرج عن طوره .

أيضاً في الاغتسال من الجنابة ، تجد البعض يتعب تعباً عظيماً عند الاغتسال في إدخال الماء في أذنيه ، وفي إدخال الماء في منخرينه ، وكل هذا داخل في قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « هلك المنتقعون . هلك المنتقعون . هلك المنتقعون » فكل من شدد على نفسه في أمر قد وسع الله له فيه ؛ فإنه يدخل في هذا الحديث .

١٤٥ - عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الدِّينَ يَشْرُ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينُ إِلَّا عُلْبَةً ، فَسَدُّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ » رواه البخاري .

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٥) .
(٢) جعل الفقهاء من سنن الوضوء الاعتدال في استعمال الماء وهو ألا يسرف المتوضئ في وضوئه ولا يكثر ، وأما واحد من الاثنين يُعتبر مكرهاً لمجانبته الحق . (انظر بدائع الصنائع ٢٣/١ ، الأم ٢٨/١ ، أسهل المدارك ٣٢/١ ، المحلى ٧٢/٢ ، فقه الكتاب والسنة ١٩٣٨/٤) .

وفي رواية له : « سَدُّوْا وَقَارِبُوْا وَاغْدُوْا وَزُرُوْخُوا ، وَشَيْءٌ مِّنَ الدُّلْجَةِ الْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلَّغُوا » (١) .
 قوله : « الدِّينُ » هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ . وَزُرُوْى مَنْصُوبًا ، وَزُرُوْى : « لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ » . وقوله ﷺ : « إِنْ غَلَبَهُ » : أَي : غَلَبَهُ الدِّينَ وَعَجَزَ ذَلِكَ الْمُشَادُّ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ لِكَثْرَةِ طُرُقِهِ .
 « وَالْعَدْوَةُ » سَبُّ أَوَّلِ النَّهَارِ . « وَالزُّوْحَةُ » : آخِرُ النَّهَارِ . « وَالدُّلْجَةُ » : آخِرُ اللَّيْلِ وَهَذَا اسْتِعَارَةٌ وَتَمْثِيلٌ ، وَمَعْنَاهُ : اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ بِالْأَعْمَالِ فِي وَقْتِ نَشَاطِكُمْ ، وَفَرَاغِ قُلُوبِكُمْ بِحَيْثُ تَسْتَلْذِنُونَ الْعِبَادَةَ وَلَا تَشَأُمُونَ وَتَبْلُغُونَ مَقْصُودَكُمْ كَمَا أَنَّ الْمَسَافِرَ الْحَادِقَ يَسِيرُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ وَيَسْتَرِيحُ هُوَ وَدَابَّتُهُ فِي غَيْرِهَا ، فَيَصِلُ الْمَقْصُودُ بِغَيْرِ تَعَبٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله في باب القصد في العبادة حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الدِّينَ يُشْرُ » يعني أَنَّ الدِّينَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَالَّذِي يَدِينُ بِهِ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ وَيَتَعَبَّدُونَ لَهُ بِهِ يَسِرُ ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] وَقَالَ تَعَالَى حِينَ ذَكَرَ أَمْرَهُ بِالْوُضُوءِ وَالْغَسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ وَالتَّيْمِمِ - عِنْدَ الْعَدَمِ أَوْ الْمَرَضِ - قَالَ : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة : ٦] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] . فَالْنَّصُوصُ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ يَسِرُ ، وَهُوَ كَذَلِكَ .
 وَلَوْ تَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي الْعِبَادَاتِ الْيَوْمِيَّةِ لَوَجَدَ الصَّلَاةَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ مَيَّسِرَةٍ مُوزَعَةٍ فِي أَوْقَاتٍ ، يَتَقَدَّمُهَا الطَّهَرُ ؛ طَهَرُ لِلْيَدَيْنِ وَطَهَرُ لِلْقَلْبِ ، فَيَتَوَضَّأُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ، وَيَقُولُ : « أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ » (٢) .
 فَيَطْهَرُ بَدَنُهُ أَوَّلًا ثُمَّ يَطْهَرُ قَلْبُهُ بِالتَّوْحِيدِ ثَانِيًا ، ثُمَّ يَصَلِّي . وَلَوْ تَفَكَّرْتَ أَيْضًا فِي الزَّكَاةِ ، وَهِيَ الرُّكْنُ الثَّلَاثُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ ، تَجَدُّ أَنَّهَا سَهْلَةٌ ، فَأَنْتَ لَا تَجِبُ إِلَّا فِي الْأَمْوَالِ النَّامِيَةِ ، أَوْ مَا فِي حِكْمِهَا ، وَلَا تَجِبُ فِي كُلِّ مَالٍ ، بَلْ فِي الْأَمْوَالِ النَّامِيَةِ الَّتِي تَنْمُو وَتَزِيدُ كَالْتِّجَارَةِ ، أَوْ مَا فِي حِكْمِهَا كَالذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ وَإِنْ كَانَ لَا يَزِيدُ ، أَمَّا مَا يَسْتَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ فِي بَيْتِهِ ، وَفِي مَرْكُوبِهِ ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : « لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عِبْدِهِ وَلَا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ » (٣) جَمِيعُ أَوَانِي الْبَيْتِ وَفَرَشُ الْبَيْتِ وَالسَّيَارَاتِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَسْتَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ لِحَاصَةِ نَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ زَكَاةٌ .

ثم الزكاة الواجبة يسيرة جدًا ؛ فهي ربع العشر ، يعني واحدًا من أربعين ، وهذا أيضًا يسير ، ثم إذا

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٩) ، قوله « فسددوا » أي الزموا السداد ، وهو التوسط من غير إفراط ولا تفريط ، قوله « القصد » منصوب على الإغراء ، والمقصود : الزموا التوسط من غير إفراط ولا تفريط .

(٢) أخرجه الترمذي في الطهارة (٥٥) ، وأحمد في مسنده (٢٦٥/٣ ، ١٤٥/٤ ، ١٤٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٣) ، ومسلم في الزكاة (٨ ، ٩) ، والنسائي في السنن (٣٥/٥) ، وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .

أديت الزكاة فإنها لن تنقص مالك ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ما نقصت صدقة من مال » ^(١) ، بل تجعل فيه البركة وتنميهِ وتزكيهِ وتطهره .

وانظر إلى الصوم فهو أيضًا يسير ، فليس كل السنة ولا نصف السنة ولا ربع السنة ، بل شهر واحد من اثني عشر شهرًا ، وفوق ذلك فهو ميسر ، إذا مرضت فأفطر ، إذا سافرت فأفطر ، إذا كنت لا تستطيع الصوم في كل دهرك فأطعم عن كل يوم مسكينًا .

والحج أيضًا ميسر ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ومن لم يستطع إن كان غنيًا بماله أناب من يحج عنه ، وإن كان غير غني بماله ولا بدنه سقط عنه الحج . والحاصل أن الدين يسر ؛ يسر في أصل التشريع ، ويسر فيما إذا طرأ ما يوجب الحاجة إلى التيسير ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لعمران بن حصين : « صل قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » ^(٢) فالدين يسر .

ثم قال النبي ﷺ : « ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » يعني لن يطلب أحد التشدد في الدين إلا غلب وهزم ، وكُلُّ ومَلَّ وتعَب ، ثم استحسر فترك ، هذا معنى قوله : « لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » يعني أنك إذا شددت الدين وطلبت الشدة ، فسوف يغلبك الدين ، وسوف تهلك ، كما قال النبي ﷺ في الحديث السابق ، « هلك المنتطعون » .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا » ، سدد : أفلح الشيء على وجه السداد والإصابة ، فإن لم يتيسر فقارب ، ولهذا قال : « وقاربوا » والواو هنا بمعنى « أو » ، يعني سددوا إن أمكن وإن لم يمكن فالمقاربة ، « وأبشروا » يعني أبشروا أنكم إذا سددتم وأصبتم ، أو قاربتم ، فأبشروا بالثواب الجزيل والخير والمعونة من الله ﷻ ، وهذا يستعمله النبي - عليه الصلاة والسلام - كثيرًا حيث يشر أصحابه بما يسرهم ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص على إدخال السرور على إخوانه ما استطاع بالبشارة والبشاشة وغير ذلك .

ومن ذلك : أن النبي - عليه الصلاة والسلام - لما حدث أصحابه بأن الله تعالى يقول يوم القيامة : « يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج من ذريتك بعث النار » أو قال « بعثًا إلى النار ، قال : يارب ما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون من بني آدم كلهم من أهل النار ، وواحد في الجنة » ، عظم ذلك على الصحابة وقالوا : يارسول الله أين ذلك الواحد ؟ قال : « أبشروا فإنكم في أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرته أجوج ومأجوج » ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، شطر أهل الجنة » حتى كبر الصحابة فرحًا بذلك ^(٣) ، فهنا قال النبي ﷺ : « أبشروا » .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) ، والترمذي في السنن (٢٠٢٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧) ، وأبو داود في الصلاة (٩٥٢) ، والترمذي في الصلاة (٣٧٢) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨) .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يستعمل البشري لإخوانه ما استطاع ولكن أحياناً يكون الإنذار خيراً للأخ المسلم ، فقد يكون أخوك المسلم في جانب تفريط في واجب ، أو انتهاك لحرم فيكون من المصلحة أن تنذره وتخوفه ، فالإنسان ينبغي له أن يستعمل الحكمة ، ولكن يغلب جانب البشري ، فلو جاءك رجل مثلاً وقال : إنه أسرف على نفسه ، وفعل معاصي كبيرة ، وسأل هل له من توبة ؟ فينبغي لك أن تقول : نعم أبشر ، إذا تبت تاب الله عليك ، فتدخل عليه السرور ، وتدخل عليه الأمل حتى لا ييأس من رحمة الله ﷻ .

الحاصل : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حثهم أن : « سدّدوا وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشيء من الدلجة » ، « والقصد القصد تبلغوا » . ومعناه استعينوا في أطراف النهار ؛ أوله وآخره وشيء من الليل . « والقصد القصد تبلغوا » : هذا يحتمل أن الرسول ﷺ أراد أن يضرب مثلاً للسفر المعنوي بالسفر الحسي ، فإن الإنسان المسافر حثّاً ينبغي له أن يكون سيره في أول النهار وفي آخر النهار وفي شيء من الليل ؛ لأن ذلك هو الوقت المريح للراحة والمسافر ، ويحتمل أنه أراد بذلك : أن أول النهار وآخره محلّ التسييح ، كما قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ مَأْمُوءًا أَدَّكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ [الأحراب : ٤١] » وكذلك الليل محلّ القيام .

على كل حال إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أمرنا ألا نجعل أوقاتنا كلها دأباً في العبادة ؛ لأن ذلك سيؤدي إلى الملل والاستحسار والتعب والترك في النهاية .

١٤٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارَتَيْنِ فَقَالَ : « مَا هَذَا الْحَبْلُ ؟ » قَالُوا : هَذَا حَبْلٌ لِرِزْنَبَ ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « حُلُّوهُ ، لِيَصِلَ أَخَذُكُمْ نَشَاطُهُ ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقله أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه دخل المسجد - يعني المسجد النبوي - فإذا حبل مربوط بين ساريتين ، أي : بين عمودين ، فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : هذا حبل لريزنبة تربطه فإذا تعبت من الصلاة تعلقته به من أجل أن تنشط ، فقال النبي ﷺ : « حلّوه ، أي أخلّوه وأزيلوه ، ثم قال : « لِيَصِلَ أَخَذُكُمْ نَشَاطُهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ » .

ففي هذا : دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يتعمق وأن يتنطع في العبادة ، وأن يكلف نفسه ما لا يطيق ، وأن يصلي مادام نشيطاً ، فإذا تعب فليرقد ولينم ؛ لأنه إذا صلى مع التعب تشوش فكره وسئم ومل وربما كره العبادة ، وربما ذهب ليدعو لنفسه فإذا به يدعو عليها ، فلو سجد وأصابه النعاس ربما أراد أن يقول رب اغفر لي ، قال : رب لا تغفر لي ؛ لأنه نائم ، فلهذا أمر النبي - عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢١٩) ، وأحمد في مسنده (٢٥٦/٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٧١) .

والسلام - بحل هذا الحبل ، وأمرنا أن يصلي الإنسان نشاطه ، فإذا تعب فليرقد .

وهذا وإن ورد في الصلاة فإنه يشمل جميع الأعمال ، فلا تكلف نفسك ما لا تطيق ، بل عامل نفسك بالرفق واللين ، ولا تتعجل في الأمور ، فالأمر ربما تتأخر لحكمة يريد الله ﷻ ، ولا تقل : إني أريد أن أتعب نفسي ، بل انتظر وأعط نفسك حقها ثم بعد ذلك يحصل لك المقصود .

ومن ذلك أيضًا : ما يفعله بعض الطلبة حيث يطالع في دروسه وهو نعسان ، فيتعب نفسه ولا يحصل شيئًا ، لأن الذي يراجع وهو نعسان لا يستفيد ، وإن ظن أنه يستفيد فإنه لا شيء ، ولهذا ينبغي على الإنسان إذا أصابه النعاس وهو يراجع كتبًا - سواء كتبًا منهجية أو غير ذلك - ينبغي له أن يغلق الكتاب ، وأن ينام ويستريح .

وهذا يعم جميع الأوقات حتى ولو بعد صلاة الفجر أو بعد صلاة العصر طالما أراد أن يرقد ويستريح فلا حرج ، فكلما أتاك النوم فقم ، وكلما صرت نشيطًا فاعمل ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ وَلِلَّهِ رِيكٌ فَارْعَبْ ﴿ (١) [الشرح: ٨، ٧] كل الأمور اجعلها بالتيسير إلا ما فرض الله عليك ، فلا بد أن يكون في الوقت المحدد له . وأما الأمور التطوعية ؛ فالأمر فيها واسع ، فلا تتعب نفسك في شيء .

١٤٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ ، فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسْبُ نَفْسَهُ » (٢) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقله عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ » . النعاس هو فترة في الحواس يكون نتيجة غلبة النوم ، فلا يستطيع الإنسان معه أن يتحكم في حواسه ، ولذلك أرشد النبي ﷺ من غلب عليه النعاس وهو يصلي أن يتصرف من صلاته ، ولا يصلي وهو ناعس ، ثم علل ذلك بقوله : « فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسْبُ نَفْسَهُ » بدل أن يقول : اللهم اغفر لي ذنبي أو ما أذنبت ، يذهب يسب نفسه بهذا الذنب الذي أراد أن يستغفر الله منه ، وكذلك ربما أراد أن يسأل الله الجنة فيسأله النار ، وربما أراد أن يسأل الهداية فيسأل ربه الضلالة وهكذا ، ولهذا أمره النبي ﷺ أن يرقد . ومن حكم ذلك : أن الإنسان لنفسه عليه حق ، فإذا أجبر نفسه على فعل العبادة مع المشقة فإنه يكون قد ظلم نفسه ، فأنت يا أخي لا تفرط فتقصر ولا تفرط فتزيد .

(١) قوله : ﴿ فَانصَبْ ﴾ أي اجتهد في العبادة ، إذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى ، والنصب هو التعب ، وقوله ﴿ فَارْعَبْ ﴾ أي : اجعل ضراعتك ورغبتك إلى ربك .

(٢) أخرجه مسلم في الوضوء (٢١٢) ، ومسلم في الصلاة (٢٢٢) ، وأحمد في مسنده (٢٠٢/٦) .

١٤٨ - وعن أبي عبد الله جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : « كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات ، فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً » ^(١) رواه مسلم .
قوله « قصداً » : أي بين الطول والقصر .

الشرح

أما حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه ، فقد قال : « إنه صلى مع النبي ﷺ ، والظاهر أنه يريد الجمعة ، « فكانت صلاته قصداً ، وخطبته قصداً » والقصد : معناه التوسط ، الذي ليس فيه تخفيف مخل ولا تثقيل ممل ، وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه » ^(٢) أي علامة على فقهه ودليل عليه ، والذي يؤخذ من هذين الحديثين أنه لا ينبغي للإنسان أن يحمل نفسه ويشق عليها في العبادة ، وإنما يأخذ ما يطيق .

* * *

١٤٩ - وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال : « آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً ، فقال له : كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَ : مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ ، فَأَكَلَ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءُ يَقُومُ ، فَقَالَ لَهُ : نَمْ ، فَتَنَّمَ ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ ، فَقَالَ لَهُ : نَمْ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ : قُمْ الْآنَ : فَصَلَّيَا جَمِيعاً ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ : إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ . « صَدَقَ سَلْمَانُ » ^(٣) رواه البخاري .

١٥٠ - وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : أخبرني النبي ﷺ أنني أقول : وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ ، وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عَشْتُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ ؟ » فَقُلْتُ لَهُ : قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ ، وَنَمْ وَتُمْ ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ؛ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ » قُلْتُ : فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ : « فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ » ، قُلْتُ : فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ : « هُوَ أَفْضَلُ » قُلْتُ : فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ » وَلَآنَ أَكُونُ قَبْلُكَ الثَّلَاثَةَ الْأَيَّامِ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي .

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٨) ، وأحمد في مسنده (٢٦٣/٤) ، والبيهقي في السنن (٢٠٨/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٨) .

وفي رواية : « أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ ؟ » قلت : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَلَا تَفْعَلْ : صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَتَمْ وَقُمْ ؛ فَإِنَّ لِحَسْبِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِعَيْنَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لَزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لَزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ » فَشَدَّدْتُ فَشَدَّدَ عَلَيَّ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً ، قَالَ : « صُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ » قلت : وَمَا كَانَ صِيَامَ دَاوُدَ ؟ قَالَ : « يَصُفُّ الدَّهْرَ » فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ : يَا لَيْتَنِي قَبْلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وفي رواية : « أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ ، وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ ؟ » فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ ، قَالَ : « فَصُمْ صَوْمَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ عَبْدَ النَّاسِ ، وَأَفْرَأَ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ » قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « فَافْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرِينَ » قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « فَافْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ » قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « فَافْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ » فَشَدَّدْتُ فَشَدَّدَ عَلَيَّ ، وَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ غُمٌّ » قَالَ : فَصِرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ ، فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قَبْلْتُ رُخْصَةَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ .

وفي رواية : « وَإِنَّ لِرَوْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا » وفي رواية : « لَا صَامَ مَنْ صَامَ الْأَبَدَ » ثلاثاً . وفي رواية : « أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ ، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ : كَانَ يَتَامُ نَصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَتَامُ شُدُسَهُ ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى » .

وفي رواية قَالَ : أَنْتَ كَحَنِي أَبِي امْرَأَةٍ ذَاتِ حَسَبٍ ، وَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ - أَي : امْرَأَةً وَلَدَهُ - فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَغْلِهَا ، فَتَقُولُ لَهُ : نِعَمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا وَلَمْ يُفْتَشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ . فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ . فَقَالَ : « الْقَنِي بِهِ » فَلَقِيَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ : « كَيْفَ تَصُومُ ؟ » قُلْتُ : كُلَّ يَوْمٍ ، قَالَ : « وَكَيْفَ تَحْتِمُ ؟ » قُلْتُ : كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَذَكَرَ نَحْوَ مَا سَبَقَ ، وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى بَعْضِ أَهْلِهِ الشَّبْعَ الَّذِي يَقْرَأُهُ ، يَغْرِضُهُ مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَحَفَ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْقَرَى أَفْطَرَ أَيَّامًا وَأَخْصَى وَصَامَ مِثْلَهُنَّ كَرَاهِيَةً أَنْ يَزُوكَ شَيْئًا فَارَقَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ (١) .

كُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ صَحِيحَةٌ مُعْظَمُهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَقَلِيلٌ مِنْهَا فِي أَحَدِهِمَا .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بنحوه والحديث أخرجه البخاري في الصوم (١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، ١٩٧٩) ومسلم في الصيام (١٨١) ، قوله : « لزورك » أي لضيافتك ، قوله : « إذا لاقى » أي إذا لاقى العدو ، قوله : « كَنَّتَهُ » الكنة : امرأة ابن الرجل وامرأة أخيه وهي هنا امرأة ولده ، قوله : « رجل لم يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا » كناية عن المضاجعة ، قوله : « ولم يكشف لنا كنفا » أي سترًا وذلك تعبير منها عن امتناعه عن جماعها .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما رواه عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله : أن النبي ﷺ أخى بين سلمان وأبي الدرداء ؓ جميعاً ، أخى بينهما : أي عقد بينهما عقد أخوة ، وذلك أن المهاجرين حين قدموا المدينة أخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، فكان المهاجرون في هذا العقد للأنصار بمنزلة الأخوة ، حتى إنهم كانوا يتوارثون بهذا حتى أنزل الله ﷻ : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأفقال : ٧٥] .

فجاء سلمان ذات يوم ، ودخل على دار أخيه أبي الدرداء ؓ ، فوجد امرأته أم الدرداء ، يعني : ليست عليها ثياب المرأة ذات الزوج ، بل عليها ثياب ليست جميلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : إن أخاك أبا الدرداء ليس له شيء من الدنيا ، يعني : أنه معرض عن الدنيا وعن الأهل وعن الأكل وعن كل شيء . ثم إن أبا الدرداء لما جاء صنع لسلمان طعاماً ، فقدمه إليه وقال : كل فإني صائم ، فقال له : كل وأفطر ولا تصم ، لأنه علم من حاله - بواسطة كلام زوجته - أنه يصوم دائماً ، وأنه معرض عن الدنيا وعن الأكل وغيره ، فأكل ، ثم نام ، فقام ليصلي فقال له سلمان : نم ، فنام ، ثم قام ليصلي ، فقال : نم ، ولما كان في آخر الليل قام سلمان ؓ وصليا جميعاً .

وقوله : « صلياً جميعاً » : ظاهره أنهما صلياً جماعة ، ويحتمل أنهما صلياً جميعاً في الزمن وكل يصلي وحده ، وهذه المسألة وأعني الصلاة جماعة في صلاة الليل جائزة ، لكن لا تفعل دائماً ولكن تفعل أحياناً ، فقد صلى النبي ﷺ صلاة الليل جماعة مع ابن عباس ؓ (١) ، ومع حذيفة بن اليمان (٢) ، ومع عبد الله بن مسعود (٣) ، ولكن العلماء يقولون إن هذا يفعل أحياناً ولا دائماً . ثم قال له سلمان : « إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، وإن لربك عليك حقاً . فأعط كل ذي حق حقه » . وهذا القول الذي قاله سلمان هو القول الذي قاله النبي - عليه الصلاة والسلام - لعبد الله بن عمرو بن العاص ؓ ؛ ففي هذا دليل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يكلف نفسه بالصيام والقيام ، وإنما يصلي ويقوم على وجه يحصل به الخير ، ويزول به التعب والمشقة والعناء .

* * *

١٥١ - وعن أبي ربيعٍ حَنْظَلَةَ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَسَدِيِّ الْكَاتِبِ أَخَذَ كُتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لَقِيتُ أَبُو بَكْرٍ ؓ فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قُلْتُ : نَافَقٌ حَنْظَلَةُ ! قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ ؟! قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّبِيغَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ؓ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ،

(١) انظر ذلك فيما أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٠) .

(٢) ودليل ذلك ما أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٦) .

(٣) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٥) .

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقُلْتُ : نَافِقٌ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ الْعَيْنَ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لَوْ تَذَوُّمُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً » ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(١) ، رواه مسلم .

قَوْلُهُ : « رُبْعِي » بِكَشْرِ الرَّاءِ . « وَالْأَسْيَدِي » بَضَمِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِ السَّيْنِ وَبَعْدَهَا يَاءٌ مَكْشُورَةٌ مُشَدَّدَةٌ ، وَقَوْلُهُ : « عَافَسْنَا » هُوَ بِالْعَيْنِ وَالسَّيْنِ الْمُهْمَلَتَيْنِ ، أَيُّ : عَاجَلْنَا وَلَا عَبْتْنَا . « وَالضَّيْعَاتُ » : الْمَعَالِشُ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن حنظلة الكاتب أحد كتاب الوحي لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أنه قال : « لقيني أبو بكر ﷺ فقلت : نافع حنظلة » يعني نفسه ، ومعنى نافع : يعني صار من المنافقين ، قال ذلك ظناً منه ﷺ أن ما فعله نفاق ، فقال أبو بكر : « وكذلك كنا إذا كنا عند النبي ﷺ يذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا رأي عين » يعني : كأننا نرى الجنة والنار رأي عين من قوة اليقين ، حيث يخبرهم بذلك ﷺ ، وما أخبر به النبي ﷺ كالمشاهد بل قد يكون أعظم ؛ لأنه خير من أصدق الخلق - صلوات الله وسلامه عليه - وأعلم الخلق بالله . « فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات » يعني لهونا معهم ونسينا ما كنا عليه عند النبي ﷺ ، فقال أبو بكر عن نفسه أنه يصيبه كذلك ، ثم ذهب إلى النبي ﷺ ، فلما وصلا إليه قال حنظلة : « نافع حنظلة يا رسول الله ، قال : وما ذاك ؟ » فأخبره بأنهم إذا كانوا عند النبي ﷺ فحدثهم عن الجنة والنار ، أخذهم من اليقين كأنهم يرونها رأي العين ، ولكن إذا خرجوا عافسوا الأهل والأولاد والضيعات وتلهوا بهم نسوا كثيراً . فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « والذي نفسي بيده ! لو تكونون على ما تكونون عليه عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم » أي : من شدة اليقين تصافحكم إكراماً لكم وتثبيتاً لكم ؛ لأنه كلما زاد يقين العبد ، فإن الله ﷻ يثبت ويقويه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآمَنَهُمْ فَقُوهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] « ولكن يا حنظلة ساعة وساعة . ساعة وساعة . ساعة وساعة » يعني ساعة للرب ﷻ وساعة مع الأهل والأولاد ، وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها ، ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم .

وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها ؛ أن الله ﷻ له حق فيعطى حَقُّهُ ﷻ ، وكذلك للنفس حق فتعطى حَقُّهَا ، وللأهل حق فيعطون حقوقهم ، وللزوار والضيوف حق فيعطون حقوقهم ، حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة ، ويتعبد لله ﷻ براحة ؛ لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه وشدد عليها مل وتعب ، وأضاع حقوقاً كثيرة .

(١) أخرجه مسلم في التوبة (١٢) ، والترمذي في القيامة (٢٥١٤) .

وهذا كما يكون في العبادة وفي حقوق النفس والأهل والضيف يكون كذلك أيضًا في العلوم ، فإذا طلب الإنسان العلم ورأى في نفسه مللاً في مراجعة كتاب ما ، فلينتقل إلى كتاب آخر ، وإذا رأى من نفسه مللاً من دراسة فن معين ؛ فإنه ينتقل إلى دراسة فن آخر ، وهكذا يريح نفسه ، ويحصل علمًا كثيرًا . أما إذا أكره نفسه على الشيء ؛ حصل له من الملل والتعب ما يجعله يسأم وينصرف ، إلا ما شاء الله ؛ فإن بعض الناس يكره نفسه على المراجعة والمطالعة والبحث مع التعب ، ثم يأخذ على ذلك ويكون هذا أمرًا دائمًا له ، ويكون ديدنًا له ، حتى إنه إذا فقد هذا الشيء ضاق صدره ، والله يوتي فضله من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

* * *

١٥٢ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : يَتِمُّ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا : أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ وَلَا يَقْعُدَ ، وَلَا يَسْتَنْظِلَ وَلَا يَتَكَلَّمَ ، وَيَصُومُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ ، وَلْيَسْتَنْظِلْ ، وَلْيَقْعُدْ ، وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في باب الاقتصاد في العبادة هذا الحديث الذي نذر فيه رجل - يقال له : أبو إسرائيل - أن يقوم في الشمس ولا يقعد ، وأن يصمت ولا يتكلم وأن يصوم ، وكان النبي ﷺ يخطب فرأى هذا الرجل قائمًا في الشمس ، فسأل عنه فأخبر عن قصته ، فقال النبي ﷺ : مروه فليقعد وليستظل ، وليتكلم ، وليتم صومه .

وهذا النذر كان قد تضمن أشياء محبوبة إلى الله ﷻ وأشياء غير محبوبة ، أما المحبوبة إلى الله : فهي الصوم ؛ لأن الصوم عبادة ، والنبي ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » ^(٢) ، وأما وقوفه قائمًا في الشمس من غير أن يستظل ، وكونه لا يتكلم فهذا غير محبوب إلى الله ﷻ ، فلهذا أمر النبي ﷺ هذا الرجل أن يترك ما نذر . وليعلم أن النذر أصله مكروه ، بل قال بعض العلماء إنه محرم ، وإنه لا يجوز للإنسان أن ينذر ^(٣) ، لأن الإنسان إذا نذر كلف نفسه ما لم يكلفه الله ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر ، وقال : « إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل » ^(٤) ، ولكن إذا قدر أن الإنسان نذر فالنذر أقسام : قسم حكمه حكم اليمين ، وقسم آخر نذر معصية ، وقسم ثالث نذر طاعة .

أما الذي حكمه حكم اليمين : فهو الذي قصد الإنسان به تأكيد الشيء ؛ نفياً أو إثباتاً ، أو تصديقاً ، أو تأكيداً ، ومثاله : إذا قيل للرجل أخبرتنا بكذا وكذا ولكنك لم تصدق ، فقال : إن كنت كاذباً فله

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٤) ، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٠) .

(٣) سبق الحديث عن رأي الفقهاء في هذا الموضوع فليرجع إليه .

(٤) سبق تخريجه .

عليّ نذر أن أصوم سنة ، فلا شك أن غرضه من ذلك أن يؤكد قوله ليصدقه الناس ، هذا حكمه حكم اليمين ؛ لأنه قصد بذلك تأكيد ما قال ، وكذلك أيضًا إذا قصد الحث مثل أن يقول : إن لم أفعل كذا فله عليّ نذر أن أصوم سنة ، فهذا أيضًا قصد الحث وأن يفعل ما ذكر ، حكمه حكم اليمين أيضًا ، ودليل هذا قول النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ^(١) ، وهذا نوى اليمين فله ما نوى . أما القسم الثاني : فهو المحرم ، فالحرم إذا نذره الإنسان يحرم عليه الوفاء به ، مثل أن يقول : لله عليه نذر أن يشرب الخمر ، فهذا نذر محرم فلا يحل له أن يشرب الخمر ، ولكن عليه كفارة يمين على القول الراجح ، وإن كان بعض العلماء قال : إنه لا شيء عليه ؛ لأنه نذر غير منعقد ^(٢) ، ولكن الصحيح أنه نذر منعقد ، ولكن لا يجوز الوفاء به ^(٣) . ومثل ذلك أن تقوم المرأة لله عليها نذر أن تصوم أيام حيضها فهذا حرام ، ولا يجوز أن تصوم أيام الحيض ، وعليها كفارة يمين .

أما القسم الثالث : فهو نذر الطاعة ، أن ينذر الإنسان نذر طاعة ، مثل أن يقول : لله عليّ نذر أن أصوم الأيام البيض ؛ وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، فليزمه أن يوفي بنذره ، لقول النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » أو يقول : لله عليّ نذر أن أصلي ركعتين في الضحى ؛ فليزمه أن يوفي بنذره لأنه طاعة ، وقد قال النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » . فإن اشتمل نذره على طاعة وغير طاعة ، وجب أن يوفي بالطاعة ، أما غير الطاعة فلا يوف ، ويكفر كفارة يمين ، مثل قصة هذا الرجل حيث نذر أن يقوم في الشمس وألا يستظل ، وألا يتكلم وأن يصوم ، فأمره النبي ﷺ أن يصوم لأنه طاعة ، ولكنه قال في القيام وعدم الاستظلال وعدم الكلام : « مروه فليستظل ، وليقعد ، وليتكلم » وكثير من الناس اليوم إذا استبعد الأمر أو أشفق عليه ينذر ؛ فمثلاً : إذا مرض له إنسان قال : لله عليّ نذر إن شفى الله مريضى لأفعلن كذا وكذا ، فهذا منهى عنه ، إما نهى كراهة أو نهى تحريم ، أسأل الله العافية لمريضك بدون نذر ، لكن لو فرضنا أنه نذر إن شفى الله مريضه أن يفعل كذا وكذا فشفاه الله ، وجب عليه أن يوفي بالنذر .

* * *

١٥ - باب المحافظة على الأعمال

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٦] . وقال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانَةٌ اتَّبَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ

(١) سبق تخريجه .

(٢) وهذا هو قول الحنفية (انظر بدائع الصنائع ١٨/٣ ، ١٩) .

(٣) وهذا الذي عليه جمهور الشافعية والمالكية والحنابلة . (انظر الأم ٧٣/٧ ، المغني ٧١٢/٨ ، والمودنة ٢٩/٢) .

رَضَوْنَ اللَّهَ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابَتِهَا ﴿ [الحديد: ٢٧] وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ ﴾ [النحل: ٩٢] وقال الله تعالى: ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْتِيكَ الْيَقِينُ ﴾ ^(١) [الحجر: ٩٩] .
وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ: فَمِنْهَا حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ . وَقَدْ سَبَقَ فِي الْبَابِ قَبْلَهُ .

الشرح

قال المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (باب المحافظة على الأعمال) يعني: الأعمال الصالحة . لما ذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باب الاقتصاد في الطاعة ، وأن الإنسان ينبغي له أن يكون متمشيًا على هدي النبي ﷺ أعقبه بهذا الباب الذي فيه المحافظة على الطاعة ، وذلك أن كثيرًا من الناس ربما يكون نشيطًا مقبلًا على الخير فيجتهد ، ولكنه بعد ذلك يفتر ثم يتقاعس ويتهاون .

وهذا يجري كثيرًا للشباب ؛ لأن الشاب يكون عنده اندفاع قوي أو تأخر شديد ؛ إذ أن غالب تصرفات الشباب إنما تكون مبنية على العاطفة دون العقل ، فتجد الواحد منهم يندفع ويشد في العبادة ، ثم يعجز أو يتكاسل فيتأخر ، ولهذا ينبغي للإنسان كما نبه المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون مقتصدًا في الطاعة غير منجرف ، وأن يكون محافظًا عليها ؛ لأن المحافظة على الطاعة دليل على الرغبة فيها ، وأحب العمل إلى الله أدامه وإن قل ^(٢) ، فإن حافظ الإنسان على عبادته واستمر عليها كان هذا دليلًا على محبته وعلى رغبته في الخير .

وقد ذكر المؤلف عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ ﴾ [النحل: ٩٢] امرأة تغزل فغزلت غزلًا جيدًا قويًا متينًا ثم بعد ذلك ذهبت تنقضه أنكاثًا حتى لا يبقى منه شيء ، كذلك بعض الناس يشتد في العبادة ويزيد ثم بعد ذلك ينقضها فيدعها .

وكذلك ذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن بني إسرائيل قول الله ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَةَ أَتَدْعَوْهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آتِيَةُ رَضَوْنَ اللَّهَ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابَتِهَا ﴾ [الحديد: ٧] أي: ما استمروا عليها ولا رعوها ، ولكنهم أهملوها ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَلَمَّا عَلَيْهِمُ الْآثِمَةُ آثَمُوا فَحَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦] يعني: طال عليهم الأمد - أي الزمن - بالأعمال فحست قلوبهم وتركوها الأعمال والعياذ بالله . فالهم أن الإنسان ينبغي له أن يحافظ على العمل ، وألا يتكاسل وألا يدعه ، حتى يستمر على ما هو عليه .

(١) قوله: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ أي ألم يحن ، قوله: ﴿ فَتَنَحَّ ﴾ أي تلى ، قوله: ﴿ كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ هم اليهود والنصارى ، قوله: ﴿ الْآثِمَةُ ﴾ أي ألزمه ، قوله: ﴿ فَحَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي لم تلتن لذكر الله ، قوله: ﴿ وَقَفِينَا ﴾ أي أتبعنا ، قوله: ﴿ رَأْفَةً ﴾ أي الرقة الشديدة في القلوب ، قوله: ﴿ وَرَهَابِيَةَ أَتَدْعَوْهَا ﴾ هي رفضهم النساء واتخاذهم الصوامع أماكن لإقامتهم ، قوله: ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا ﴾ أي ما أمرناهم بذلك ، قوله: ﴿ آتِيَةُ رَضَوْنَ اللَّهَ ﴾ أي امتثالًا لأمره واجتئابًا لنواهيهِ ، قوله: ﴿ نَقَضَتْ ﴾ أي أفسدت ، قوله: ﴿ أَنْكَبَتْ ﴾ أي: أنقاضًا ، وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث ، قوله: ﴿ الْيَقِينُ ﴾ أي: الموت .
(٢) وذلك لما رواه مسلم في الصيام (١٧٧) ، وأحمد في مسنده (١٩٩/٦) .

وإذا كان هذا في العبادة ؛ فهو أيضًا في أمور العادة ، فينبغي ألا يكون للإنسان كل ساعة وجهة ، وكل ساعة له فكر ، بل يستمر ويقى على ما هو عليه ما لم يتبين الخطأ ، فإن تبين الخطأ فلا يقر الإنسان نفسه على خطأ ، لكن ما دام الأمر لم يتبين فيه الخطأ ؛ فإن بقاءه على ما هو عليه أحسن ، وأدل على ثباته ؛ وعلى أنه رجل لا يخطو خطوة إلا عرف أين يضع قدمه وأين ينزع قدمه .

وبعض الناس لا يهتم بأمور العادة ، فتجد كل يوم له فكرة ، وكل يوم له نظر ، هذا يفوت عليه الوقت ولا تستقر نفسه على شيء ، ولهذا يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه قال : من بورك له في شيء فليلزمه ^(١) . كلمة عظيمة ، يعني إذا بورك لك في أي شيء كائنًا ما يكون فالزمه ولا تخرج عنه مرة هنا ومرة هنا ، فيضيع عليك الوقت ولا تبني شيئًا ، نسأل الله أن يثبتنا وإياكم على الحق ، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره .

* * *

١٥٣ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ مِنَ اللَّيْلِ ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ : كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر » يعني فكأنما صلاه في ليلته .

هذا فيه دليل على أن الإنسان ينبغي له إذا كان يعتاد شيئًا من العبادة أن يحافظ عليها ، ولو بعد ذهاب وقتها .

والحزب : هو الجزء من الشيء ، ومنه أحزاب القرآن ، ومنه أيضًا الأحزاب من الناس ، يعني الطوائف منهم ، فإذا كان الإنسان لديه عادة يصلّيها في الليل ولكنه نام عنها ، أو عن شيء منها فقضاه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ؛ فكأنما صلاه في ليلته ، ولكن إذا كان يوتر في الليل ؛ فإنه إذا قضاه في النهار لا يوتر ولكنه يشفع الوتر ، أي يزيده ركعة فإذا كان من عادته أن يوتر بثلاث ركعات فليقض أربعًا ، وإذا كان من عادته أن يوتر بخمس فليقض ستًا ، وإذا كان من عادته أن يوتر بسبع فليقض ثمانًا وهكذا .

ودليل ذلك : حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان إذا غلبه نوم أو وجع من الليل صلى من

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٣١٥/٢ ، ٣٢٩) ، والقاري في الأسرار المرفوعة (٣٣٧) ، وعزاه إلى ابن ماجه عن أنس ، ولم أعثر عليه فهذا ابن ماجه في السنن .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤٣) ، والترمذي في الصلاة (٥٨١) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٣) والبيهقي في السنن (٤٨٤/٢ ، ٤٨٥) .

النهار ثنتي عشرة ركعة ^(١) . وفيه تقييد النبي ﷺ القضاء فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، وحيث هناك أحاديث تدل على أن صلاة الفجر لا صلاة بعدها حتى تطلع الشمس ، ولا بعد طلوع الشمس حتى ترتفع قيد رمح فيقيد عموم هذا الحديث ، الذي ذكره المؤلف بخصوص الحديث الذي ذكرناه ، وأن القضاء يكون من بعد ارتفاع الشمس قيد رمح ، وقد يقال بأنه لا يقيد ؛ لأن القضاء متى ذكره الإنسان قضاء لعموم قول النبي ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها ، لا كفارة له إلا ذلك » ^(٢) .

ويؤخذ من الحديث الذي ذكره المؤلف أنه ينبغي للإنسان المداومة على فعل الخير ، وألا يدع ما نسيه إذا كان يمكن قضاؤه ، أما ما لا يمكن قضاؤه ؛ فإنه إذا نسيه سقط ، مثل سنة دخول المسجد التي تسمى تحية المسجد إذا دخل الإنسان المسجد ونسي وجلس وطالت المدة ؛ فإنه لا يقضيها ، لأن هذه الصلاة سنة مقيدة بسبب ، فإذا تأخرت عنه سقطت سنتها ، وهكذا كل ما قيد بسبب فإنه إذا زال سببه لا يقضى إلا أن يكون واجباً من الواجبات ؛ كالصلاة المفروضة ، وأما ما قيد بوقت ؛ فإنه يقضى إذا فات ؛ كالسنن الرواتب إذا نسي الإنسان صلاتها حتى خرج الوقت فإنه يقضيها بعد الوقت ، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ . وكذلك لو فات الإنسان صيام ثلاثة الأيام من الشهر - الأيام البيض - فإنه يقضيها بعد ذلك ، وإن كان صيامها واسعاً فتجوز في أول الشهر وفي وسطه وفي آخره ، لكن الأفضل في أيام البيض ، الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

* * *

١٥٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ » ^(٣) متفق عليه .

١٥٥ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتِي عَشْرَةَ رَكْعَةً ^(٤) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : « يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ ، كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ » ساق المؤلف هذا الحديث في باب الاستقامة على الطاعة ودوامها وأن الإنسان لا يقطعها .

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩) ، وأحمد في مسنده (١٠٩/٦) ، والبخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٧) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣١٥) كلاهما بلفظ « من نسي صلاة » ، والترمذي في الصلاة (١٧٨) ، وأحمد في مسنده (٢٤٣/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٢) ، ومسلم في الصيام (١٨٥) .
(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤٠) ، والبيهقي في السنن (٤٨٥/٢) .

وقد أوصى النبي - عليه الصلاة والسلام - عبد الله بن عمرو ألا يكون مثل فلان ، ويحتمل هذا الإبهام أن يكون من النبي - عليه الصلاة والسلام - ، وأن النبي - عليه الصلاة والسلام - أحب ألا يذكر اسم الرجل ، ويحتمل أنه من عبد الله بن عمرو أبهمه لئلا يطلع عليه الرواة ، ويحتمل أنه من الراوي بعد عبد الله بن عمرو . وأيًا كان ففيه دليل على أن المهم من الأمور والقضايا هو القضية نفسها ، دون ذكر الأشخاص ، ولهذا كان من هدي النبي ﷺ أنه إذا أراد أن ينهى عن شيء فإنه لا يذكر الأشخاص ، وإنما يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » ^(١) وما أشبه ذلك .

وترك اسم الشخص فيه فائدتان عظيمتان ، الفائدة الأولى : الستر على هذا الشخص ، والثانية : أن هذا الشخص ربما تتغير حاله فلا يستحق الحكم الذي يحكم عليه في الوقت الحاضر ؛ لأن القلوب بيد الله ، فمثلاً هب أنني رأيت رجلاً على فسق فإذا ذكرت اسمه فقلت لشخص : لا تكن مثل فلان يسرق أو يزني أو يشرب الخمر ، فربما تتغير حال هذا الرجل ويستقيم ويعبد الله فلا يستحق الحكم الذي ذكرته من قبل ، فلهذا كان الإبهام في هذه الأمور أولى وأحسن ، لما فيه من الستر ؛ ولما فيه من الاحتياط إذا تغيرت حال الشخص .

وفي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « كان يقوم من الليل فترك قيام الليل » التحذير من كون الإنسان يعمل العمل الصالح ثم يدعه ، فإن هذا قد ينبئ عن رغبة عن الخير ، وكراهة له ، وهذا خطر عظيم ، وإن كان الإنسان قد يترك الشيء لعذر ، فإذا تركه لعذر فإن كان مما يمكن قضاؤه قضاءه ، وإن كان مما لا يمكن قضاؤه فإن الله تعالى يعفو عنه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً ^(٢) ، وكذلك إذا تركه لعذر فإنه يقضيه .

ففي حديث عائشة الذي ساقه المؤلف أن النبي ﷺ كان إذا ترك صلاة الليل من وجع أو غيره ، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ، لأنه ﷺ يوتر بإحدى عشرة ركعة ، فإذا قضى الليل ولم يوتر لنوم أو لشيء ؛ فإنه يقضي هذه الصلاة ، لكن لما فات وقت الوتر صار المشروع أن يجعله شفعاً ، وبناء على ذلك فمن كان يوتر بثلاث ونام على وتره فليصل في النهار أربعاً ، وإذا كان يوتر بخمس فليصل ستاً ، وإن كان يوتر بسبع فليصل ثمانياً ، وإن كان يوتر بتسع فليصل عشراً ، وإن كان يوتر بإحدى عشرة ركعة فليصل اثنتي عشرة ركعة ، كما كان النبي ﷺ يفعله .

وفي هذا : دليل على أن العبادة المؤقتة إذا فاتت عن وقتها لعذر فإنها تقضى ، أما العبادة المربوطة بسبب ؛ فإنه إذا زال سببها لا تقضى ، ومن ذلك : سنة الوضوء مثلاً ؛ إذا توضأ الإنسان ؛ فإن من السنة أن يصلي ركعتين ، فإذا نسي ولم يذكر إلا بعد مدة طويلة سقطت عنه ، وكذلك إذا دخل المسجد وجلس ناسياً ، ولم يذكر إلا بعد مدة طويلة ؛ فإن تحية المسجد تسقط عنه ؛ لأن المقرون بسبب لا بد أن يكون موائماً للسبب ، فإن فصل بينهما سقط .

(١) ومن أمثلة ذلك ما أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٦) والأذان (٧٥٠) والاعتصام (٧٣٠١) ، ومسلم في

العتق (٨) ، والنكاح (٥) ، والحدود (٢١) .

(٢) سبق تخريجه .

١٦ - باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِن نَّزَعْتُمْ فِي مَوَاقِدِهِمْ قُودَهُ إِِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] ، قال العلماء : مغناه إلى الكتاب والسنة . وقال تعالى : ﴿ مَن يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ مَّائِةِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ ^(١) [الأحزاب : ٣٤] والآيات في الباب كثيرة .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها) والسنة : يراد بها سنة الرسول ﷺ ، وهي طريقته التي كان عليها في عباداته وأخلاقه ومعاملاته ، فهي أقواله ﷺ وأفعاله وإقراراته . هذه هي السنة . ويطلق الفقهاء السنة على العمل الذي يترجح فعله على تركه ، وهو الذي يثاب على فعله ، ولا يعاقب على تركه . ولا شك أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق . الهدى : هو العلم النافع . ودين الحق : هو العمل الصالح . فلا بد من علم ، ولا بد من عمل ، ولا يمكن أن يحافظ الإنسان على سنة الرسول ﷺ إلا بعد أن يعلمها ، وعليه فيكون الأمر بالمحافظة على السنة أمراً بالعلم وطلب العلم . وطلب العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام : فرض عين ، وفرض كفاية ، وسنة . أما فرض العين : فهو علم ما تتوقف العبادة عليه . يعني العلم الذي لا يسع المسلم جهله ، مثل : العلم بالوضوء ، بالصلاة ، بالزكاة ، بالصيام ، بالحج وما أشبه ذلك . فالذي لا يسع المسلم جهله إن تعلمه يكون فرض عين . ولهذا مثلاً نوجب على هذا الشخص أن يتعلم أحكام الزكاة ؛ لأنه ذو مال ، ولا نوجب على الآخر أن يتعلم أحكام الزكاة ؛ لأنه ليس ذا مال . كذلك الحج : نوجب على هذا أن يتعلم أحكام الحج ؛ لأنه سوف يحج ، ولا نوجب على الآخر أن يتعلمها ؛ لأنه ليس بحاجة . أما فرض الكفاية : فهو العلم الذي تحفظ به الشريعة ، يعني هو العلم الذي لو ترك لضاعت

(١) قوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ﴾ أي ما أعطاكم من الفيء وغيره ، قوله ﴿ وَمَا يَطِئُونَ عَنِ الْحَقِّ ﴾ أي لا يأتاكم بما يقول من عند نفسه . قوله ﴿ يُحِبُّكُمُ اللَّهُ ﴾ أي يبيحكم على هذا الحب الذي أحببتموه . قوله ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ أي اقتداء به . قوله ﴿ يَرْجُوا اللَّهَ ﴾ أي يخافه . قوله ﴿ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أي يوم القيامة . قوله ﴿ نَنْزَعْتُمْ ﴾ أي نختلص . قوله ﴿ قُودَهُ ﴾ أي لدعو . قوله ﴿ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريق الإسلام . قوله ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أي محنة أو مصيبة في الدنيا . قوله ﴿ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي السنة .

الشريعة ، فهذا فرض كفاية ، إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي ، فإذا قُدِّرَ أن واحداً في البلد قد قام بالواجب في هذا الأمر وتعلم ، وصار يفتي ويدرس ، ويعلم الناس في هذه الحال ؛ صار طلب العلم في حق غيره سنة ، وهو القسم الثالث .

إذن طالب العلم يدور أجره بين أجر السنة ، وأجر فرض الكفاية ، وأجر فرض العين . والمهم أنه لا يمكن أن نحافظ على السنة وآدابها إلا بعد معرفة السنة وآدابها .

ثم ذكر المؤلف آيات من كتاب الله ﷻ ، منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، هذه الآية يسميها بعض العلماء آية المحنة ، أي آية الامتحان ؛ لأن الله تعالى امتحن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله ، قالوا : نحن نحب الله ، دعوة يسيرة ، لكن على المدعي البينة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ فمن ادعى محبة الله ، ولا يتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فليس صادقًا . بل هو كاذب ، فعلامة محبة الله ﷻ ، أن تتبع رسوله ﷺ .

واعلم أنه بقدر تخلفك عن متابعة الرسول ﷺ يكون نقص محبتك لله ، وما نتيجة متابعة الرسول ﷺ ؟ جاء ذلك في الآية نفسها ﴿ يُحِبُّكُمْ اللَّهُ ﴾ وهذه الثمرة أن الله يحبك ، لا أن تدعي محبة الله . فإذا أحبك الله ، فإنه لن يحبك إلا إذا أتيت ما يحب ، فليس الشأن أن يقول الشخص : أنا أحب الله ، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون الله ﷻ يحبه . نسأل الله ﷻ أن نكون من أحبائه . وهذا هو الشأن .

وإذا أحب الله الشخص ، يسر الله له أمور دينه ودنياه ، ورد في الحديث : « إن الله إذا أحبَّ شخصًا نادى جبريل : إني أحب فلانًا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماوات : إن الله يحب فلانًا فأحبه ، فيحبه أهل السماوات ، ثم يُوضع له القبول في الأرض » (١) فيحبه أهل الأرض ، ويقبلونه ، ويكون إمامًا لهم ، إذا محبة الله هي الغاية ، ولكنها غاية لمن كان متبعًا للرسول ﷺ ، غاية لمن كان يحب الرسول ﷺ .

وذكر المؤلف قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ١٧] وهذه الآية في سياق قسمة الفيء ، يعني المال الذي يؤخذ من الكفار . يقول الله ﷻ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ ﴾ يعني ما أعطاكم من المال فخذوه ولا تردوه ، ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أي لا تأخذوه . ولهذا بعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - عمر بن الخطاب ﷺ على الصدقة في سنة من السنوات ، فلما رجع أعطاه ، فقال : يا رسول الله ، تصدَّق به على من هو أفقر مني ، فقال النبي ﷺ : « ما جاءك من هذا المال ، وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ ، وما لا فلا تتبعه نفسك » (٢) فما أعطانا الرسول ﷺ فإننا نأخذه ، وما نهانا عنه فإننا لا نأخذه .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٥) ، ومسلم في البر والصلة (١٥٧) ، وأحمد في مسنده (٤١٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٤) ، ومسلم في الزكاة (١١٠) ، والنسائي في السنن (١٠٤/٥) ، وأحمد في مسنده (١٧/١) .

وهذه الآية وإن كانت في سياق قسمة الفيء ، فإنها كذلك بالنسبة للأحكام الشرعية ، فما أحله النبي ﷺ لنا فإننا نقبله ونعمل به على أنه حلال ، وما نهانا عنه فإننا ننتهي عنه ، ونتركه ولا نتعرض له ، فهي وإن كانت في سياق الفيء فهي عامة تشمل هذا وهذا .

ثم ذكر أيضًا قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ يعني بالأسوة : القدوة . والحسنة : ضد السيئة ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - هو أسوتنا وقدوتنا ، ولنا فيه أسوة حسنة ، وكل شيء نتأسى فيه برسول الله ﷺ فإنه خير وحسن . ويشمل قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ معنيين :

المعنى الأول : وهو أن كل ما يفعله فهو حسن ، فالتأسي به حسن .

الثاني : إننا مأمورون بأن نتأسى به أسوة حسنة ، لا نزيد على ما شرع ولا نقص عنه ، لأن الزيادة أو النقص ضد الحسن ، ولكننا مأمورون بأن نتأسى به .

وأخذ العلماء من هذه الآية : أن أفعال النبي ﷺ حُجَّة يُحتج بها ويقتدي بها فيها ، إلا ما قام الدليل على أنه خاص به ، فما قام الدليل على أنه خاص به فهو مختص به ، مثل قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَاتَيْتُ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ إلى أن قال ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ، فما كان من خصائصه فهو من خصائصه .

ومن ذلك أيضًا : الوصال في الصوم ، أي أن يسرد الإنسان صوم يومين بلا فطر ، فإن النبي ﷺ نهى عنه . قالوا يا رسول الله ، إنك تواصل ، يعني فكيف تنهانا ؟ فقال : «لست كهيتكم ، إني أطعم وأسقى» ^(١) وفي لفظ : «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» ^(٢) يعني يطعمه الله ويسقيه بما يده به من ذكره وتعلق قلبه به حتى ينسى الأكل والشرب ولا يحس بألم الجوع . ونحن نعلم الآن أن الرجل لو شغل بأمر من أمور الدنيا نسي الأكل والشرب ، حتى أن الشعراء يمثلون بهذا بقولهم لها .

أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

يعني أن أحاديثها بك إذا قامت تتحدث ؛ ألهها ذلك عن الشراب وعن الزاد ؛ فالتبني - عليه الصلاة والسلام - من قوة تعلقه بربه ، إذا قام من الليل يتعبد ، فإن الله تعالى يعطيه قوة ، بما يحصل له من الذكر ، تكفيه عن الأكل والشرب . أما نحن فلسنا كهيتته ، ولهذا منع الوصال ، وبين أنه من خصائصه ﷺ .

وقال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] .

(١) أخرجه - بلفظه - مسلم في الصيام (٥٥) ، والدارمي في السنن (٨/٢) ، وأحمد في مسنده (١٠٢/٢) .

(٢) أخرجه بلفظه أحمد في مسنده (٢٨١/٢) ، والدارمي في السنن (٨/٢) .

الإسلام شيئاً ، وهم أيضاً في عصر قد تختلف العصور عنه ، وفي أمة قد تختلف عنها الأمم الأخرى .
 لكن - مع الأسف - فإن بعض الذين استعمرهم الكفار من البلاد الإسلامية ، أخذوا هذه القوانين ، وصاروا يطبقونها على الشعب الإسلامي ، غير مباليين امتعاض الشعب منها ، وغير مباليين بمخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله ، وهم يزعمون أنهم آمنوا بالله ورسوله ، كيف ذلك ؟ وهم يريدون أن يتخاكموا إلى الطاغوت و قد أمروا أن يكفروا به ، أمروا أمراً من الله أن يكفروا بالطاغوت ، ومع ذلك يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت ، ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَفْوَلاً بَعِيداً ﴾ [النساء : ٦٠] يريد الشيطان أن يضلهم عن دين الله ضلالاً بعيداً ليس قريباً ؛ لأن من حكم غير شريعة الله قد ضل أعظم الضلال ، وأبعد الضلال .
 قال الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى أَرْسُولٍ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾ [النساء : ٦١] أي إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وهو القرآن ، وإلى الرسول ، وعند ذلك رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ، ولم يقل : رأيتم ، لأجل أن يبين أن هؤلاء منافقون . فأظهر في موضع الإضمار ، وهذه فائدة . ولأجل أن يشمل هؤلاء وغيرهم من المنافقين ؛ فإن المنافق - والعياذ بالله - إذا دُعي إلى الله ورسوله أعرض وصد .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٢] . يعني كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة ، وكشفت عوراتهم واطلع عليها ، ثم جاءوك يحلفون بالله وهم كاذبون : ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ يعني ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الشريعة وبين القوانين الوضعية ، ولا يمكن أن يكون هناك توفيق بين حكم الله وحكم الطاغوت أبداً ، حكم الطاغوت لو فرض أنه وافق حكم الله لكان حكماً لله لا للطاغوت ، ولهذا ليس في القوانين الوضعية من المسائل النافعة ؛ فإنها قد سبق إليها الشرع الإسلامي ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء : ٦٣] ، يعني هؤلاء هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، وإن أظهرها للناس أنهم يؤمنون بالله ، وأنهم يريدون الإحسان والتوفيق بين الأحكام الشرعية والأحكام القانونية ، هؤلاء هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، وماذا أرادوا لأمتهم ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ، وهذا الأمر بالإعراض عنهم تهديداً لهم ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ أي قل لهم قولاً بليغاً يصل إلى أنفسهم ليتعظوا به .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٦٤] . يعني ما أرسلنا الرسل لتقرأ أقوالهم ويتركون ، بل ما أرسلت الرسل إلا ليطاعوا ، وإلا فلا فائدة من إرسالهم ؛ فالرسالة معناها ومقتضاها أن الرسول يُطاع : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] يعني لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بما أضمره في نفوسهم من الباطل ، جاءوك فاستغفروا الله : يعني طلبوا من الله المغفرة ، واستغفرت لهم أنت ، لوجدوا الله تواباً رحيماً ، ولكنهم - والعياذ بالله - بقوا على نفاقهم ، وعلى عنادهم .

وهذه الآية استدلت بها دعاة القبور ؛ الذين يدعون القبور ويستغفرونها ، حيث قالوا : لأن الله قال لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ فأنت إذا أذنت ، فاذهب إلى قبر النبي - عليه الصلاة والسلام - ، واستغفر الله ليستغفر لك الرسول . ولكن هؤلاء ضلوا ضللاً بعيداً ؛ لأن الآية صريحة قال : ﴿ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ولم يقل : إذا ظلموا أنفسهم جاءوك . فهي تتحدث عن شيء مضى وانقضى ، يقول : لو أنهم إذا ظلموا أنفسهم بما أحدثوا ، ثم جاءوك في حياتك ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله تواباً رحيمًا . أما بعد موت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؛ فإنه لا يمكن أن يستغفر الرسول ﷺ لأحد ؛ لأنه انقطع عمله كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ^(١) . فعمل النبي ﷺ نفسه بعد موته لا يمكن ، لكنه ﷺ يكتب له أجر كل ما عملته الأمة ، كل ما عملنا من خير وعمل صالح من فرائض ونوافل ، فإنه يكتب أجره للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، لأنه هو الذي علمنا ، فهذا داخل في قوله : « وعلم ينتفع به » .

الحاصل : أنه لا دلالة في هذه الآية على ما زعمه هؤلاء الداعون لقبر النبي عليه الصلاة والسلام . ثم ذكر المؤلف رحمه الله قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ هذه الآية ذكرها الله ﷻ عقب قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه الآية فيها إقسام من الله ﷻ ببروبيته لمحمد ﷺ ، الدالة على عنايته به ﷺ عناية خاصة ؛ وذلك لأن الربوبية هنا ربوبية خاصة . والله ﷻ على خلقه ربوبيتان : ربوبية عامة لكل أحد ، مثل قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ١] ، وربوبية خاصة لمن اختصه من عباده مثل هذه الآية : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ . وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة آل فرعون : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ [الأعراف : ١٢١ ، ١٢٢] ف ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عامة ، و ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ خاصة .

والربوبية الخاصة تقتضي عناية خاصة من الله ﷻ ، فأقسم الله - سبحانه بحمده - بربوبيته لعبده محمد ﷺ قسماً مؤكداً بلا في قوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾ و « لا » هذه يراد بها التوكيد ، ولو قال : فوربك لا يؤمنون لثم الكلام ، ولكنه أتى بلا للتوكيد ، كقوله تعالى : ﴿ لَا أَقِيمُ بَيْرَ الْقَيْنَةِ ﴾ [القیامة : ١] ليس المراد النفي أن الله لا يقسم بيوم القيامة ، بل المراد التوكيد فهي هنا للتوكيد والتنبية . ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يجعلونك حكماً فيما حصل بينهم من النزاع ؛ لأن معنى ﴿ شَجَرَ ﴾ أي حصل من النزاع ، وحتى يجعلونك أنت الحكم فيما حصل بينهم من النزاع ، في أمور الدين ، وفي أمور الدنيا .

ففي أمور الدين : لو تنازع رجلان في حكم مسألة شرعية فقال أحدهما : هي حرام ، وقال الثاني : هي حلال ؛ فالتحاكم إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؛ فلا يؤمن أحد منهما أي من المتشاجرين إلا إذا حكم رسول الله ﷺ . ولو تنازع الناس في أمر دنيوي بينهم ، كما حصل بين الزبير بن العوام ؓ وجاره الأنصاري ، حين تحاكما إلى رسول الله ﷺ في ماء الوادي ، فحكم بينهما ؛ فهذا تحاكم في أمور الدين والدنيا ، المهم أنه لا يؤمن أحد حتى يكون تحاكمه في أمور الدين والدنيا إلى رسول الله ﷺ .

ثم إن الإيمان المادي هنا ، إن كان الإنسان لا يرضى بحكم الرسول ﷺ مطلقاً فهو نفي للإيمان من أصله ؛ لأن من لا يرضى بحكم الرسول ﷺ مطلقاً كافر - والعياذ بالله - ، خارج عن الإسلام ، وإن كان عدم الرضا بالحكم في مسألة خاصة ، وعصى فيها ؛ فإنها إن لم تكن مكفرة فإنه لا يكفر ، وقوله ﷻ : ﴿ حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ ﴾ . لو قال قائل : كيف يكون تحكيم الرسول ﷺ بعد موته ؟ فالجواب : أن نقول : يكون تحكيمه بعد موته بتحكيم سنته ﷺ ، انتبه فهذه واحدة : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

الشيء الثاني : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ﴾ يعني أن الإنسان قد يحكم الكتاب والسنة ، ولكن يكون في قلبه حرج ، يعني ما يطمئن أو ما يرضى إلا رغماً عنه ، فلا بد من أن لا يجد الإنسان في نفسه حرجاً مما قضى الله ورسوله .

الشيء الثالث : ﴿ وَاسْلَمُوا سَلِيمًا ﴾ أي ينقادوا انقياداً تاماً ، ليس فيه تأخر ولا تهقر ، فهذه شروط ثلاثة لا يتم الإيمان إلا بها .

أولاً : تحكيم الرسول ﷺ . والثاني : ألا يجد الإنسان حرجاً مما قضى به .

والثالث : أن يسلم تسليمًا تاماً بالغاً .

وبناء على هذا نقول : إن الذين يحكمون القوانين الآن ، ويتركون وراءهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما هم بمؤمنين ، ليسوا بمؤمنين ، لقول الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ولقوله : ﴿ وَمَنْ لَّهْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وهؤلاء المحكمون للقوانين لا يحكمونها في قضية معينة خالفوا فيها الكتاب والسنة ، لهوى أو لظلم ، ولكنهم استبدلوا الدين بهذه القوانين ، جعلوا هذا القانون محلّ محلّ شريعة الله ، وهذا كفر حتى لو صلبوا وصاموا وتصدقوا وحجوا ؛ فهم كفار ما داموا عدلوا عن حكم الله - وهم يعلمون بحكم الله - إلى هذه القوانين المخالفة له . ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾ فلا تستغرب إذا قلنا : إن من استبدل شريعة الله بغيرها من القوانين فإنه يكفر ولو صام وصلى ؛ لأن الكفر يبيح الكتاب كفر بالكتاب كله ، فالشرع لا يتبع ، إما أن تؤمن به جميعاً ، وإما أن تكفر به جميعاً ، وإذا آمنت ببعض وكفرت ببعض ؛ فأنت كافر بالجميع ؛ لأن حالك تقول : إنك لا تؤمن بما يخالف هواك . وأما ما خالف هواك فلا تؤمن به . هذا هو الكفر . فأنت بذلك اتبعت الهوى ، واتخذت هواك إلهاً من دون الله .

فالحاصل : أن المسألة خطيرة جداً ، من أخطر ما يكون بالنسبة لحكام المسلمين اليوم ؛ فإنهم قد وضعوا قوانين تخالف الشريعة وهم يعرفون الشريعة ، ولكن وضعوها - والعياذ بالله - تبعاً لأعداء الله من الكفرة الذين سئوا هذه القوانين ومشى الناس عليها ، والعجب أنه لقصور علم هؤلاء وضعف دينهم ، أنهم يعلمون أن واضع القانون هو فلان ابن فلان من الكفار ، في عصر قد اختلفت العصور عنه من مئات السنين ، ثم هو في مكان يختلف عن مكان الأمة الإسلامية ، ثم هو في شعب يختلف عن الأمة الإسلامية ، ومع ذلك يفرضون هذه القوانين على الأمة الإسلامية ولا يرجعون إلى كتاب الله ولا إلى سنة رسول الله ﷺ ، فأين الإسلام؟ وأين الإيمان؟ وأين التصديق برسالة محمد ﷺ وأنه رسول للناس كافة؟ وأين التصديق بعموم رسالته وأنها عامة في كل شيء؟ .

كثير من الجهلة يظنون أن الشريعة خاصة بالعبادة التي بينك وبين الله ﷻ فقط ، أو في الأحوال الشخصية من نكاح وميراث وما يشبه ذلك ، وهم أخطؤوا في هذا الظن ، الشريعة عامة في كل شيء ، وإذا شئت أن يتبين لك هذا ، فاسأل ما هي أطول آية في كتاب الله؟ سيقال لك : إن أطول آية هي : آية الدين : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ ... ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، كلها في المعاملات ، فكيف نقول : إن الشرع الإسلامي خاص بالعبادة أو بالأحوال الشخصية . هذا جهل وضلال ، إن كان عن عمد ؛ فهو ضلال واستكبار ، وإن كان عن جهل ؛ فهو قصور ويجب أن يتعلم الإنسان ويعرف .

المهم : أن الإنسان لا يمكن أن يؤمن إلا بثلاثة شروط : الأول : تحكيم النبي ﷺ ، والثاني : ألا يجد في صدره حرجاً ولا يضيق صدره بما قضى النبي - عليه الصلاة والسلام - ، والثالث : يسلم تسليمًا ، وينقاد انقيادًا تامًا . فهذه الشروط الثلاثة يكون مؤمنًا ، وإن لم تتم فإما أن يخرج من الإيمان مطلقًا وإما أن يكون ناقص الإيمان . والله الموفق .

* * *

وقال الله تعالى : ﴿ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [سورة النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشْتَلِي فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب : ٣٤] والآيات في الباب كثيرة .

الشرح

ثم نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - في سياق الآيات في باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها قوله تعالى : ﴿ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ من يطع الرسول محمدًا ﷺ فقد أطاع الله . والطاعة : موافقة الأمر ، سواء كان ذلك في فعل المأمور أو ترك المحذور ، فإذا قيل طاعة ومعصية ؛ فالطاعة لفعل المأمور ، والمعصية لفعل المحذور .

أما إذا قيل طاعة على سبيل الإطلاق ؛ فإنها تشمل الأوامر والنواهي ، يعني أن امتثال الأوامر طاعة ،

واجتناب النواهي طاعة ، فالذي يطيع النبي ﷺ في أمره ونهيه ، أي إذا أمره امتثل وإذا نهاه اجتنب ؛ فإنه يكون مطيعاً لله ﷻ ، هذا منطوق الآية ومفهومها ، أن من يعص الرسول فقد عصى الله .

وفي هذه الآية : دليل على أن ما ثبت في السنة ؛ فإنه كالذي ثبت في القرآن ، أي أنه من شريعة الله ويجب التمسك به ، ولا يجوز لأحد أن يفرق بين الكتاب والسنة ، ولقد أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - محذراً حينما قال : « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمر من عندي فيقول : لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » ^(١) يعني إنه يحذر من أنه ربما يأتي زمان على الناس يقولون : لا تتبع إلا ما في القرآن ، أما ما في السنة فلا نأخذ به .

وهذا أمر قد وقع بالفعل ، فوجد من الملاحدة من يقول : لا نقبل السنة ، لا نقبل إلا القرآن ، والحقيقة أنهم كذبة ، فإنهم لم يقبلوا لا السنة ولا القرآن ؛ لأن القرآن يدل على وجوب اتباع السنة ، وإن ما جاء في السنة كالذي جاء في القرآن ، لكن هم يوهون على العامة ويقولون : إن السنة ما دامت ليست قرآناً يتلى ويتواتر بين المسلمين ، فإن ما فيها قابل للشك ، وقابل للنسيان ، وقابل للوهم وما أشبه ذلك .

ثم ذكر المؤلف قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] ، هذا تحذير من الله ﷻ للذين يخالفون عن أمر الرسول ﷺ ، يعني يرغبون عن أمره فيخالفونه ، ولهذا لم يقل يخالفون أمره . وإنما قال : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي يرغبون عنه فيخالفونه ، حذرهم من أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ، قال الإمام أحمد : أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيف فيهلك - والعياذ بالله - أي أنه إذا رد شيئاً من كلام الرسول - عليه الصلاة والسلام - فرمى بقلبه شيء من الزيف فيهلك . يهلك ليس هلاكاً بدنياً ، بل هلاكاً دينياً . والهلاك الديني أشد من الهلاك البدني . الهلاك البدني مآل كل حي ، طالبت به الحياة أم قصرت ، لكن الهلاك الديني خسارة في الدنيا والآخرة - والعياذ بالله - . وقوله : ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني أنهم يُعاقبون قبل أن تحل بهم الفتنة ، نسأل الله العافية ، ففي هذا ، دليل على وجوب قبول أمر النبي ﷺ ، وأن الذي يخالف عنه مهدد بهذه العقوبة ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما ذكره من الآيات التي صدر بها باب المحافظة على اتباع السنة وآدابها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ والخطاب هنا للنبي ﷺ أخبره الله ﷻ أنه يهدي إلى صراط مستقيم يعني يدل إليه ويبينه للناس والصراط المستقيم بينه الله في قوله : ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ ﴾ يعني الصراط الذي نصبه الله تعالى لعباده ، وهو شريعته ، وأضافه الله إلى نفسه ؛ لأنه هو الذي نصبه ، ولأنه يوصل إليه ، كما أنه أضافه في سورة الفاتحة إلى الذين أنعم الله عليهم ؛ لأنهم هم الذين يسلكونه .

(١) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٥) ، والترمذي في العلم (٢٢٦٣) ، وابن ماجه في المقدمة (١٣) ، والحاكم في المستدرک (١٠٨/١) .

فالنبي - عليه الصلاة والسلام - يهدي الناس إلى الصراط ، ويدلهم عليه ، ويهديهم إليه ويرغبهم في سلوكه ، ويحذرهم من مخالفته ، وهكذا من خلفه من أمته من العلماء الربانيين ؛ فإنهم يدعون إلى الصراط المستقيم ، صراط الله ، فإذا قال قائل : ما الجمع بين هذه الآية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ٥٦] ؟ فإن هذه الآية نزلت حين اغتم النبي ﷺ لعمه أبي طالب ، وكان عمه أبو طالب مشركاً ، ولكنه كان يدافع عنه ، ويرفع منزلته ، ويذب عنه ، ويقول فيه المدائح والقصائد العظيمة ، لكن حُرِّم خير الإسلام - والعياذ بالله - ومات على الكفر فلما حضرته الوفاة ، كان عنده النبي ﷺ ورجلان من قريش ، فكان النبي ﷺ يقول له : « يا عم قل لا إله إلا الله ؛ كلمة أحاج لك بها عند الله » فإذا هم أن يقولها قال له الرجلان من قريش أترغب عن ملة عبد المطلب ، يعني ملة الشرك ، والعياذ بالله ، فكان آخر ما قال : إنه على ملة عبد المطلب ^(١) ، ومات كافراً .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنه شفع فيه عند الله فأصبح في ضحضاح من نار ، وعييه نعلان من نار ، يغلي منهما دماغه » ^(٢) . نعلان في أسفل بدنه يغلي منهما دماغه ، فما بالك بما هو دون الدماغ - والعياذ بالله - قال النبي ﷺ : « نعم هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » ^(٣) . يعني لولا شفاعتي فيه ، لأنه ذب عن دين الإسلام ، وحمى النبي ﷺ ، لكان في الدرك الأسفل من النار . فهنا يقول : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وفي الآية التي ذكرها المؤلف يقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال أهل العلم : والجمع بينهما أن الآية التي فيها إثبات الهداية يراد بها هداية الدلالة ، يعني أنك تدل الخلق ، وليس كل من دل على الصراط اهتدى ، وأما الهداية التي نفى الله عن رسوله - عليه الصلاة والسلام - حيث قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فهي هداية التوفيق ، لا أحد يستطيع أن يوفق أحداً للحق ، ولو كان أباه ، أو ابنه ، أو عمه ، أو أمه ، أو خاله ، أو جدته أبداً ، ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ . ولكن علينا أن ندعو عباد الله إلى دين الله ، وأن نرغبهم فيه ، وأن نبينه لهم ، ثم إن اهتدوا فلنا ولهم ، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم . قال الله تعالى : ﴿ طَسَّرَ لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْكِتَابَ الْإِيمَانِ ﴾ [الشعراء : ١-٣] يعني لعلك تهلك نفسك بالهم والغم ، إذا لم تكونوا مؤمنين ، فلا تفعل ، إن الهداية بيد الله ، بل أد ما عليك وقد برئت ذمتك .

ثم ختم المؤلف الآيات بقول الله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشَأَنَّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٤] ، الخطاب لزوجات النبي ﷺ الطاهرات المطهرات الطيبات ، هؤلاء

(١) انظر الحديث بنصه في البخاري في الجنائز (١٣٦٠) ، ومسلم في الإيمان (٣٩) والرجلان هما : أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في الرقاق (٦٥٦٤) ، ومسلم في الإيمان (٣٦٠) ، وأحمد في مسنده (٢٠٦/١) وقوله : « ضحضاح » هو مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٨) ، ومسلم في الإيمان (٣٥٧) وقوله « الدرك » قال أهل اللغة : في الدرك لغتان فصيحتان مشهورتان . فتح الرء وإسكانها . أما معناه فقال أهل اللغة والمعاني وجماهير المفسرين : الدرك الأسفل قعر جهنم ، وأقصى أسفلها قالوا : ولجهنم أدراك فكل طبقة من أطباقها تسمى دركاً .

النسوة هن أظهر زوجات علي وجه الأرض منذ خلق آدم . وقد حاول المنافقون أن يندسوا فراش رسول الله ﷺ ، وذلك في قصة الإفك التي نسجوا خيوطها ورموا بها الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها ، حيث اتهموها بما هي بريئة منه ، فأنزل الله في براءتها عشر آيات في كتابه تتلى إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَتَلَاءٌ مِّنْ بَيْنِهِمْ لَمَّا هَمَّ بِذَلِكَ تَقَالُبُ الْأُفُفُ فِي الْأَفْئِدَةِ يَلْجَأُونَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۚ ﴾ [النور: ١١] ، ففساء النبي - عليه الصلاة والسلام - يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة ما يتلى ، يتلوه النبي - عليه الصلاة والسلام - وهن أيضاً يتلونه ، فيقول ﷺ : اذكرن هذا ، اذكرن ما يتلى في البيوت ، والترنم بالسنة ، وقمن بما يجب ؛ لأن الذي يتلى في بيته الكتاب والحكمة ، لا شك أنه قد حصل على خير كثير ، وعلم غزير ، وإنه مسؤول عن هذا العلم ، فكل من آتاه الله علماً وحكمة ، فإنه مسؤول عنه أكثر ممن جهل ، نسأل الله أن يوفقنا وإياكم إلى العلم والحكمة . إنه جواد كريم .

* * *

١٥٦ - فالأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ : إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ (١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « دَعُونِي - أو ذروني - ما تركتكم » قاله النبي - عليه الصلاة والسلام - لأن بعض الصحابة من حرصهم على العلم ومعرفة السنة ، كانوا يسألون النبي ﷺ عن أشياء قد لا تكون حراماً فَتَحْرَمُ من أجل مسألتهم ، أو قد لا تكون واجبة ، فتجب من أجل مسألتهم ، فلهذا أمرهم النبي ﷺ أن يدعوه ، أن يتركوا ما تركه ما دام لم يأمرهم ولم ينهاهم ، فليحمدوا الله على العافية .

ثم علل ذلك بقوله : « فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » يعني أن الذين من قبلنا أكثروا المسائل على الأنبياء ، فَشُدَّ عَلَيْهِمْ كَمَا شَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ اخْتَلَفُوا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ أَيْضًا ، فليتهم لما سألوا فأجيبوا قاموا بما يلزمهم ، ولكنهم اختلفوا على الأنبياء .

والاختلاف على الأنبياء يعني مخالفتهم ، وهنا مثال جاء به القرآن مصداقاً لقول النبي ﷺ هذا ، اختلف بنو إسرائيل في قتل قُتِلَ بينهم ، فادعت كل قبيلة أن الأخرى هي التي قتلتها ، واداروا فيها ، وتنازعوا فيها ، ورفعوا الأمر إلى نبيهم موسى - عليه الصلاة والسلام - فقال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة: ٦٧] ، أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، ويأخذوا عضواً من أعضائها ، ويضربوا به القتل الذي قتل ، فإذا فعلوا ذلك فسيخبرهم عن قاتله الذي قتله . فقالوا له : ﴿ أَلَنَتَّخِذُ هَضُورًا ﴾ [البقرة: ٦٧] .

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ، ومسلم في الحج (٤١٢) ، وأحمد في مسنده (٣١٣/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٨٨/١) ، وفي رواية مسلم وأحمد والبيهقي « ذروني » .

المعنى : أتضحك علينا ؟ وما صلة البقرة برجل قتل ؟ وكيف يحيا القتل بعد موته ؟ وهذا من جيروت بني إسرائيل وعنادهم ، ورجوعهم إلى العقول دون النصوص ، هؤلاء رجعوا إلى عقولهم الوهمية دون النص ، ولو أخذوا بالنص لسلموا من هذا ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٧] لأن الذي يسخر بالناس جاهل معتد عليهم ، والجاهل هنا بمعنى العدوان ، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . فلما رأوا أنه صادق ، وهو صادق - عليه الصلاة والسلام - ﴿ قَالُوا آذِمْ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ ﴾ [البقرة : ٦٨] لو أنهم أخذوا أي بقرة من السوق وذبحوها لحصل المقصود ، لكن تعتوا ، وتشددوا فشدد الله عليهم ﴿ قَالُوا آذِمْ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ ﴾ [البقرة : ٦٨] ﴿ لَا فَارِضٌ ﴾ يعني لا طاعن في السن كبيرة ﴿ وَلَا يَكْرُ ﴾ يعني : صغيرة ، ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة : ٦٨] أمرهم أن يفعلوا ، وهذا تأكيد للأمر السابق ﴿ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة : ٦٧] .

لكنهم أبوا ، ﴿ قَالُوا آذِمْ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْهَأْ ﴾ [البقرة : ٦٩] عرفنا سنّها فأخبرنا ما هو لونها ، ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٩] شدد عليهم مرة ثانية ، لو ذبحوا أي بقرة ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ لكفى ، لكن تشددوا فشدد عليهم من يجد بقرة على هذه الصفة ؟ صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، لونها جميل صافٍ يَبْنَ . ومع ذلك ما امتثلوا : ﴿ قَالُوا آذِمْ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ ﴾ [البقرة : ٧٠] يعني ما عملها ؟ ﴿ إِنْ الْبَقَرُ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْقَرْيَةَ مَسْلَمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ [البقرة : ٧٠ ، ٧١] ليس فيها عيب ﴿ قَالُوا أَتَقْنِ جَنَّتْ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة : ٧١] أعوذ بالله من الضلال ، وتحكم بالعقول على النصوص هذا قد جاء بالحق من قبل ، لكن أهواءهم وعقولهم أنكرت ذلك . ﴿ قَالُوا أَتَقْنِ جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١] يعني ما قاربوا أن يفعلوا ، ولكن بالإلحاح والمساءلات فعلوا . ثم أخذوا جزءاً منها . فضربوا به القتل فأحياه الله ، ثم قال : الذي قتلني فلان . وانتهت المشكلة . المهم أن كثرة السؤال للأنبياء قد تسبب شدة الأمر على الأمة .

ومن ذلك : ما وقع للنبي - عليه الصلاة والسلام - في قصة الأقرع بن حابس . الأقرع بن حابس من بني تميم . قال النبي ﷺ : « إِنْ اللَّهُ قَدْ فَضَرَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا » فَوَضَّ الْحَجَّ مَرَّةً وَمَادَامَ لَمْ يَطْلُبْ مِنَّا أَنْ نَكْرُرَ فِيكَفِي مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ : أَفِي كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَهَذَا السُّؤَالُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ . قَالَ : « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِيتُ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ ، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ : كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » (١) .

هذا أيضًا من التشديد ، ففي عهد النبي ﷺ لا ينبغي أن يُسأل عن شيء مسكوت عنه ، ولهذا قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » . أما في عهدنا وبعد انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ فاسأل ، اسأل عن كل شيء تحتاج إليه ؛ لأن الأمر

(١) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) ، والنسائي في السنن (١١٠ / ٥) ، وأحمد في مسنده (٥٠٨ / ٢) .

مستقر الآن وليس هناك زيادة ولا نقص ، لكن في عهد التشريع يمكن أن يزداد ويمكن أن يُنقص ، وبعض العوام يفهم من قوله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] ، وقوله ﷺ : « ذروني ما تركتكم ... » يفهم من ذلك فهمًا خاطئًا . فتجده يفعل الحرام ، ويترك الواجب ولا يسأل ويستدل بهذه الأدلة وتلك النصوص ويزين له الشيطان ذلك والعياذ بالله .

فالواجب على الإنسان أن يتفقه في دين الله . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين » (١) .

ثم قال ﷺ : « وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » فعمم في النهي وخص في الأمر .

أما في النهي فقال : « ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » . أي شيء ينهاها عنه الرسول - عليه الصلاة والسلام - فإننا نتجنبه ، وذلك لأن المنهي عنه متروك ، فالنهي أمر بالترك ، والترك ليس فيه مشقة . كل إنسان يستطيع أن يترك وليس عليه مشقة ولا ضرر ، فما نهاها عنه فإننا نتجنبه ، إلا أن هذا مقيد بالضرورة ، فإذا اضطر الإنسان إلى شيء محرم ، وكان لا يجد سواه ، وتندفع به ضرورته ، فإنه حلال ، لقول الله تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١١٩] ، ولقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] .

فيكون قول الرسول ﷺ : « ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » يكون مقيدًا بحال الضرورة ، يعني أنه إذا وجدت ضرورة إلى شيء محرم صار هذا المحرم حلالًا بشرطين :

الشرط الأول : أن لا تندفع ضرورته بسواه .

والشرط الثاني : أن يكون مزيلًا للضرورة .

وبهذين القيدتين نعرف أنه لا ضرورة إلى دواء محرم ، يعني لو كان هناك دواء ولكنه حرام ؛ فإنه لا ضرورة إليه .

فلو قال قائل : أنا أريد أن أشرب دماءً استشفني به ، كما يدعي بعض الناس أنه إذا شرب من دم الذئب شفي من بعض الأمراض ، نقول : هذا لا يجوز .

أولاً : لكون الإنسان ربما يُشفى من غير هذا المحرم ؛ إما من الله ، وإما بدعاء ، وإما بقراءة ، وإما بدواء آخر مباح .

وثانياً : أنه ليس يقينًا إذا تداوى بالدواء يشفى ، فما أكثر الذين يتداوون ولا يُشفون ، بخلاف من كان جائعًا وليس عنده إلا ميتة ، أو لحم خنزير ، أو لحم حمار ؛ فإنه يجوز أن يؤكل في هذه الحالة ، لأننا نعلم أن ضرورته تندفع بذلك ، بخلاف الدواء .

وأما قوله - عليه الصلاة والسلام - : « وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . فهذا يوافق قول الله ﷻ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] يعني إذا أمرنا بأمر ؛ فإننا نأتي منه ما استطعنا ، وما لا نستطيعه يسقط عنا ، مثلاً أمرنا بأن نصلي الفرض قياماً ، فإذا لم نستطع صليتنا جالساً ، وإذا لم نستطع صليتنا على جنب ، كما قال ﷺ لعمران بن حصين : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » (١) .

وتأمل قوله : « إذا أمرتكم بأمر ، فأتوا منه ما استطعتم » بخلاف النهي ؛ لأن الأمر فعل وإيجاب ، قد يكون شاقاً على النفس ولا يستطيع الإنسان أن يقوم به . فلهذا قيده بقوله : « فأتوا منه ما استطعتم » ، ومع ذلك فإن هذا الأمر مقيد بقيد آخر ، وهو أن لا يوجد مانع يمنع ، فإذا وُجد مانع يمنع ، فهذا يدخل في قوله : « فأتوا منه ما استطعتم » . ولهذا قال العلماء : (لا واجب مع عجز ، ولا محرم مع الضرورة) . والشاهد من هذا الحديث قول النبي ﷺ : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » فإن هذا يدخل في المحافظة على السنة وآدابها .

وأما ما سكت عنه النبي ﷺ ، فهو عفو ، المسكوت عنه معفو عنه ، وهذا من رحمة الله . فالأشياء إما مأمور بها ، أو منهي عنها ، أو مسكوت عنها ، فما سكت عنه الله ورسوله ؛ فإنه عفو لا يلزمنا فعله ولا تركه ، والله الموفق .

* * *

١٥٧ - الثاني : عن أبي نجیح العزباض بن سارية ؓ قال : « وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ » فقلنا : يا رسول الله كأنها مَوْعِظَةٌ مُودَعٌ فَأَوْصِنَا . قَالَ : « أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأْمُرْ عَلَيْكُمْ بِعَنْدٍ ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِشُتْنِي وَشُتْنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِذَا كُنتُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ بَذْعَةٍ ضَلَالَةٌ » (٢) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

« النَّوَاجِذُ » بالذال المعجمة : الأثائب ، وقيل : الأضراس .

١٥٨ - الثالث : عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قَالَ : « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَتَى » . قِيلَ : وَمَنْ يَأْتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَتَى » (٣) رواه البخاري .

١٥٩ - الرابع : عن أبي مسلم ، وقيل : أبي إياس سلمة بن عمرو بن الأكوخ ؓ أن رجلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ : « كُلْ يَمِينِكَ » قَالَ : لَا أَسْتَطِيعُ . قَالَ : « لَا اسْتَطَعْتَ » مَا مَنَعَهُ

(١) أخرجه البخاري في تفصير الصلاة (١١١٧) ، وأبو داود في الصلاة (٩٥٢) ، والترمذي في الصلاة (٣٧٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) ، وأحمد في مسنده (١٢٦/٤) ، (١٢٧) ، والبيهقي في السنن (١١٤/١٠) .
(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٠) . والحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه .

إلا الكثير ، فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ ^(١) . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله في باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها ، عن العرباض ابن سارية رضي الله عنه قال : « وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، وَذُرِفَتْ مِنْهَا الْعْيُونَ » . وهذا من دأبه ﷺ أنه كان يعظ الناس أحياناً على وجه راتب ، كما في يوم الجمعة ، خطب يوم الجمعة ، وخطب العيدين . وأحياناً على وجه عارض ، إذا وُجد سبب يقتضي الموعظة ، قام - عليه الصلاة والسلام - فوعظ الناس ؛ ومن ذلك : موعظته ﷺ بعد صلاة الكسوف ؛ فإنه خطب ووعظ موعظة عظيمة بليغة ، من أحب أن يرجع إليها فعليه بكتاب زاد المعاد لابن القيم رحمته الله .

أما هنا فيقول : « وَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، وَذُرِفَتْ مِنْهَا الْعْيُونَ » . « وَجَلَّتْ » : يعني خافت . وذرفت العيون من البكاء ، فأثرت فيهم تأثيراً بالغا ، حتى قالوا : « يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا » لأن المودع إذا أراد المغادرة ، فإنه يعظ من خلفه بالمواعظ البليغة التي تكون ذكرى لهم فلا ينسونها ، ولهذا تجدد الإنسان إذا وعظ عند فراق لسفر أو غيره ، فإن الموعظة تمكث في قلب الموعوظ ، وتبقى ، لهذا قالوا : كأنها موعظة مودع فأوصنا .

فقال ﷺ : « أوصيكم بتقوى الله » وهذه الوصية هي التي أوصى بها الله ﻋَزَّ وَجَلَّ عباده ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء : ١٣١] ، والتقوى كلمة جامعة من أجمع الكلمات الشرعية ، ومعناها : اتخاذ وقاية من عذاب الله ، أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله ، ولا يكون هذا إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، ولا يكون فعل الأوامر واجتناب النواهي إلا بعلم الأوامر والنواهي . إذا فلا بد من علم ، ولا بد من عمل ، فإذا اجتمع للإنسان العلم والعمل ؛ نال بذلك خشية الله ، وحصلت له التقوى . فتقوى الله إذا : أن يتخذ الإنسان وقاية من عذابه ، بفعل أوامره ، واجتناب نواهي ، ولا وصول إلى ذلك إلا بالعلم . وليس المراد بالعلم أن يكون الإنسان بحراً . لا . المراد به : العلم بما يتعين عليه من أوامر الله . والناس يختلفون في ذلك : فمثلاً من عنده مال يجب أن يعلم أحكام الزكاة ، ومن قدر على الحج ؛ وجب عليه أن يعلم أحكام الحج ، وغيرهم لا يجب عليهم ، فالعلوم الشرعية فرض كفاية إلا ما تعين على العبد فعله ، فإن علمه يكون فرض عين .

قال ﷺ : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد حبشي » . السمع والطاعة يعني لولي الأمر ، وإن تأمر عليكم عبد حبشي ، سواء كانت إمرته عامة ، كالرئيس الأعلى في الدولة ، أو خاصة كأمر بلدة ، أو أمير قبيلة وما أشبه ذلك ، وقد أخطأ من ظن أن قوله : « وإن تأمر عليكم عبد حبشي » أن المراد بهم الأمراء الذين دون الولي الأعظم الذي يسميه الفقهاء الإمام الأعظم ؛ لأن الإمارة في الشرع تشمل الإمارة العظمى ، وهي الإمامة وما دونها كإمارة البلدان ،

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٥/٤) ، والحديث لم يقيم الشارح رحمته الله بشرحه .

والمقاطعات والقبائل وما أشبه ذلك . ودليل هذا أن المسلمين منذ تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا يسمون الخليفة : أمير المؤمنين ، فيجعلونه أميرًا . وهذا لا شك فيه ، ثم يسمى أيضًا إمامًا ؛ لأنه السلطان الأعظم ، ويسمى سلطانًا . لكن الذي عليه الصحابة أنهم يسمونه أمير المؤمنين .

وقوله : « وإن تأمر عليكم عبد حبشي » يعني حتى ولو لم يكن من العرب ، لو كان من الحبشة وتولى وجعل الله له السلطة ؛ فإن الواجب السمع والطاعة له ، لأنه صار أميرًا . ولو قلنا بعدم السمع والطاعة له ، لأصبح الناس فوضى ، كل يعتدي على الآخر ، وكل يضيع حقوق الآخرين . وقوله : « السمع والطاعة » هذا الإطلاق مقيد ، مقيد بما قيده به النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إنما الطاعة في المعروف » ^(١) ثلاث مرات ، يعني فيما يقره الشرع ، وأما ما ينكره الشرع ، فلا طاعة لأحد فيه ، حتى لو كان الأب أو الأم أو الأمير العام أو الخاص ، فإنه لا طاعة له . فمثلًا لو أمر ولي الأمر بأن لا يصلي الجنود ، قلنا : لا سمع ولا طاعة ؛ لأن الصلاة فريضة ، فرضها الله على العباد وعليك أنت أيضًا ، أنت أول من يصلي ، وأنت أول من تفرض عليه الصلاة ، فلا سمع ولا طاعة . لو أمرهم بشيء محرم ، كحلق اللحى مثلاً . قلنا : لا سمع ولا طاعة ، نحن لا نطيعك ، نحن نطيع النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال : « أعفوا اللحى ، وحفوا الشوارب » ^(٢) .

وهكذا كل ما أمر به ولي الأمر ، إذا كان معصية لله ؛ فإنه لا سمع له ولا طاعة ، يجب أن يُعصى علنًا ولا يهتم به ؛ لأن مَنْ عصى الله وأمر العباد بمعصية الله ، فإنه لا حق له في السمع والطاعة . لكن يجب أن يُطاع في غير هذا . يعني ليس معنى ذلك أنه إذا أمر بمعصية تسقط طاعته مطلقًا . لا . إنما تسقط طاعته في هذا الأمر المعين الذي هو معصية لله . أما ما سوى ذلك ؛ فإنه تجب طاعته ، وقد ظن بعض الناس أنها لا تجب طاعة ولي الأمر إلا فيما أمر الله به ، وهذا خطأ ؛ لأن ما أمر الله به فإنه يجب علينا أن ننفذه ونفعله ، سواء أمرنا به ولي الأمر أم لا .

فالأحوال ثلاثة : إما أن يكون ما أمر به ولي الأمر مأمورًا به شرعًا ، كما لو أمر بالصلاة مع الجماعة مثلاً ؛ فهذا يجب امتثاله لأمر الله ورسوله ولأمر ولي الأمر .

وإما أن يأمر ولي الأمر بمعصية الله ، من ترك واجب أو فعل محرم ، فهذا لا طاعة له ولا سمع . وإما أن يأمر الناس بما ليس فيه أمر شرعي ولا معصية شرعية ، فهذا تجب طاعته فيه ؛ لأن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] فطاعة ولي الأمر من غير معصية طاعة لله ولرسوله . والله الموفق .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « فإنه من يعيش منكم ، فسيرى اختلافًا كثيرًا » يعني أن من سيعيش منكم ويُمَدُّ له في عمره ، فسيرى اختلافًا كثيرًا ؛ اختلافًا كثيرًا في الولاية ، واختلافًا كثيرًا في الرأي ، واختلافًا كثيرًا

(١) أخرجه البخاري في أخبار الآحاد (٧٢٥٧) ، ومسلم في الإمامة (٣٩ ، ٤٠) ، وأحمد في مسنده (١٢٤/١) .
(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٩٢) ، ومسلم في الطهارة (٥٤) كلاهما بلفظ : « أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى » ، وأحمد في مسنده (٥٢/٢) بلفظه .

في العمل ، واختلافاً كثيراً في حال الناس عموماً ، وفي حال بعض الأفراد خصوصاً ، وهذا الذي وقع ؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم لم ينقضوا حتى حصلت الفتن العظيمة ، منها : مقتل عثمان رضي الله عنه ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقبلهما مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وغير ذلك من الفتن المعروفة في كتب التاريخ . والذي يجب علينا نحن إزاء هذه الفتن ، أن نتمسك عما شجر بين الصحابة ، وألا نخوض فيه ، وألا نتكلم فيه ؛ لأنه كما قال عمر بن العزيز رضي الله عنه : هذه دماء طهر الله سيوفنا منها ، فيجب أن نظهر ألسنتنا منها . وصدق رضي الله عنه فما فائدة أن ننش عما جرى بين علي بن أبي طالب وعائشة رضي الله عنها ، أو بين علي ومعاوية من الحروب التي مضت وانقضت ، ذكر هذه الحروب وتذكرها لا يزيدنا إلا ضللاً ؛ لأننا في هذه الحال نحقد على بعض الصحابة ، ونغلو في بعض ، كما فعلت الرافضة حين غلو في آل البيت ، فزعموا أنهم يوالون آل البيت ، وإن آل البيت لبراء من غلوهم . وأول من تبرأ من غلوهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ فإن السبئية أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو أول من سن الرفض في هذه الأمة ، وكان يهودياً أظهر الإسلام ليفسد الإسلام ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وهو العالم الذي سبر حال القوم وعرفها ، قال : إن عبد الله بن سبأ يهودي دخل في الإسلام ليفسده ، كما دخل بولس في دين النصرى ليفسده ، هذا الرجل أعني عبد الله بن سبأ عليه من الله ما تولاها تظاهر بأنه يحب آل البيت ، ويدافع عنهم ، ويدافع عن علي بن أبي طالب ، حتى أنه قام بين يدي علي بن أبي طالب يقول له : أنت الله حقاً ، قاتله الله ، لكن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمر بالأخذود يعني بالحفر فحُفرت ، ثم مُلئت حطباتاً ، ثم دعا بأتباع هذا الرجل فأوقد فيهم النار ، أحرقهم بالنار ؛ لأن ذنبهم عظيم والعياذ بالله ، ويُقال : إن عبد الله بن سبأ أفلت منه وهرب إلى مصر . والله أعلم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما حينما بلغه الخبر : إن علي بن أبي طالب أصاب في قتلهم ، لقول النبي صلى الله عليه وآله : « من بدل دينه فاقلّوه » وهؤلاء بدلوا دينهم ولكنه أخطأ في إحراقهم بالنار ، لأن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لا تعذبوا بعذاب الله » (١) فبلغ ذلك علي بن أبي طالب فقال : ويح ابن عباس إنه لبخّاث عن الهنات يعني عن العيب كأنه رضي الله عنه استصوب ما قال عبد الله بن عباس .

المهم أنني أقول : إن من مذهب أهل السنة والجماعة أن نسكت عما شجر بين الصحابة فلا نتكلم فيه ، نعرض بقلوبنا وألسنتنا عما جرى بينهم ، ونقول كلهم مجتهدون ، المصيب منهم له أجران ، والمخطئ منهم له أجر واحد ، و ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَظَرُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْبُولُونَ ﴾ لو قرأ إنسان التاريخ حول هذه الأمور لوجد العجب العجائب ، وجد من ينتصر لبني أمية ويقدم في علي بن أبي طالب وآل النبي ، ووجد من يغلو في علي بن أبي طالب وآل النبي ويقدم قدحاً عظيماً في بني أمية ؛ لأن التاريخ يخضع للسياسة .

لذا يجب علينا نحن فيما يتعلق بالتاريخ ألا نتعجل في الحكم ؛ لأن التاريخ يكون فيه كذب ،

(١) انظر الحديث في البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٢) ، والترمذي في الحدود (١٤٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢٢٠ ، ٢١٧/١) .

أقول هذا ؛ لأنه قد جرى نقاش بين طالبين من طلبة العلم في صلاة التراويح ، أحدهما يقول : السنة أن تكون ثلاثاً وعشرين ركعة . والثاني يقول : السنة أن تكون ثلاث عشرة ركعة ، أو إحدى عشرة ركعة . فقال الأول للثاني : هذه سنة الخليفة عمر بن الخطاب أنها ثلاثا وعشرين ، وقد أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين . يريد أن يعارض بهذا سنة الرسول ﷺ ، فقال الآخر : سنة النبي ﷺ مقدمة ، هذا إن صح عن عمر أنها ثلاث وعشرون ، مع أن الذي صح عن عمر بأصح إسناد رواه مالك في الموطأ أنه أمر تميم الداري وأبي بن كعب أن يقوموا للناس بإحدى عشر ركعة ^(١) ، لا بثلاث وعشرين هذا الذي صح عنه ﷺ ^(٢) . على كل حال لا يمكن أن نعارض سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - بسنة أحد من الناس ، لا الخلفاء ولا غيرهم ، وما خالف سنة الرسول ﷺ من أقوال الخلفاء ، فإنه يُعْتَذَر عنه ولا يُحْتَجُّ به ، ولا يُجْعَل حجة على سنة الرسول ﷺ .

المهم : أن سنة الخلفاء تأتي بعد سنة الرسول ﷺ . قال ابن عباس ؓ : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر !! هذا وهما أبو بكر وعمر ، فكيف بمن عارض قول الرسول ﷺ بقول مَنْ دون أبي بكر وعمر بمراحل ؟ .

يوجد بعض الناس إذا قيل له : هذه هي السنة قال : لكن قال العالم الفلاني كذا وكذا ، من المقلدين المتعصبين . لكن من احتج بقول عالم وهو لا يدري عن السنة فهذا لا بأس به ، لأن التقليد لمن لا يعلم بنفسه جائز ولا بأس به .

ثم قال النبي ﷺ : « تمسكوا بها » أي تمسكوا بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ، و « عضوا عليها بالنواجذ » ، والنواجذ أقصى الأضراس ، وهو كناية عن شدة التمسك ، فإذا تمسك الإنسان يديه بالشيء وعضَّ عليه بأقصى أسنانه ، فإنه يكون ذلك أشد تمسكاً مما لو أمسكه بيد واحدة ، أو يدين بدون عض ، فهذا يدل على أن النبي ﷺ أمرنا أن نتمسك أشد التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده عليه الصلاة والسلام .

ثم قال النبي ﷺ بعد أن أمر باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وحث على التمسك بها ، والعض عليها بالنواجذ قال : « وإياكم ومحدثات الأمور » . إياكم ومحدثات الأمور ، يعني أحذركم من محدثات الأمور ، أي من الأمور المحدثثة ، وهذه الإضافة من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ، والأمور المحدثثة يعني بها صلوات الله وسلامه عليه : المحدثات في دين الله . وذلك لأن الأصل فيما يدين به الإنسان ربه ، ويتقرب به إليه ، الأصل فيه المنع والتحريم ، حتى يقوم دليل على

(١) أخرجه مالك في الموطأ الصلاة في رمضان (٤) .

(٢) ذهب كثير من العلماء أن عدد التراويح عشرون ركعة بعشر تسليمات غير البوتر ، وذلك خمس ترويعات ، والترويعات أربع ركعات بتسليمتين ، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة ، وقال به الثوري وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن عدد ركعات التراويح ثمان ركعات يعقبها ثلاث ركعات للبوتر . (انظر مالك في الموطأ : الصلاة في رمضان (٣ - ٦) وبدائع الصنائع (٤٢٧/٢) المجموع (٣٨/٤ ، ٣٩) الهداية (٤٢٧/١) وفقه الكتاب والسنة (٣٠٦٤ ، ٣٠٦٣/٥) .

أنه مشروع . ولهذا أنكر الله ﷻ على من يحللون ويحرمون بأهوائهم فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦] . وأنكر على من شرع في دينه ما لم يأذن به فقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١] ، وقال : ﴿ قُلْ مَا اللَّهُ أَوْذَنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩] .

أما الأمور العادية وأمور الدنيا : فهذه لا يُنكر على محدثاتها إلا إذا كان قد نُصَّ على تحريمه ، أو كان داخلاً في قاعدة عامة تدل على التحريم ، فمثلاً السيارات والدبابات وما أشبهها ، لا نقول إن هذه محدثة لم توجد في عهد الرسول ﷺ ، فلا يجوز استعمالها ؛ لأن هذه من الأمور الدنيوية ، الثياب وأنواعها ، لا نقول : لا تلبس إلا ما كان يلبسه الصحابة ، البس ما شئت مما أحل الله لك ؛ لأن الأصل الحل ، إلا ما نص الشرع على تحريمه ، كتحريم الحرير والذهب على الرجال ، وتحريم ما فيه الصورة وما أشبه ذلك .

فقوله - صلوات الله وسلامه عليه - : « إياكم ومحدثات الأمور » يعني في دين الله ، وفيما يتعبد به الإنسان لربه ، ثم قال : « فإن كل بدعة ضلالة » يعني أن كل بدعة في دين الله فهي ضلالة ، وإن ظن صاحبها أنها خير ، وأنها هدى ؛ فإنها ضلالة لا تزيد من الله إلا بُعداً .

وقوله - صلوات الله وسلامه عليه - : « كل بدعة ضلالة » يشمل ما كان مبتدعاً في أصله ، وما كان مبتدعاً في وصفه . فمثلاً لو أن أحداً أراد أن يذكر الله بأذكار معينة بصفقتها أو عددها ، بدون سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، فإننا ننكر عليه ولا ننكر أصل الذكر ، ولكن ننكر ترتيبه على صفة معينة بدون دليل ، فإن قال قائل : ما تقولون في قول عمر رضي الله عنه حين أمر أبي بن كعب وقيماً الداري أن يقوموا بالناس في رمضان في تراويحهم ، وأن يجتمع الناس على إمام واحد بعد أن كانوا أوزاعاً ، فخرج ذات ليلة والناس خلف إمامهم فقال : نعمت البدعة هذه (١) ، فأنتى عليها ووصفها بأنها بدعة ، والرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول : « كل بدعة ضلالة » ؟ .

قلنا : إن هذه البدعة ليست بدعة مبتدأة ، لكنها بدعة نسبية ، وذلك لأن النبي ﷺ صلى بأصحابه ثلاث ليال أو أربع ليال في رمضان ، يقوم بهم ، ثم تخلف في الثالثة أو الرابعة ، وقال : « إني خشيت أن تفرض عليكم » (٢) فصار الاجتماع على إمام واحد في قيام رمضان سنة سنّها النبي ﷺ ، ولكن تركها خوفاً من أن تفرض علينا . ثم بقيت الحال على ما هي عليه ، يصلي الرجلان والثلاثة والواحد على حدة في خلافة أبي بكر وفي أول خلافة عمر ، ثم جمع الناس على إمام واحد ، فصار هذا الجمع بدعة بالنسبة لتركه في آخر حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفي عهد أبي بكر ، وفي أول خلافة عمر ، فهذه بدعة نسبية وإن شئت فقل : إنها بدعة إضافية ، يعني بالنسبة لترك الناس لها هذه المدة آخر حياة الرسول ﷺ ، وخلافة أبي بكر وأول خلافة عمر . ثم إنه بعد ذلك

(١) انظر الحديث في البخاري في صلاة التراويح (٢٠١٠) ، والبيهقي في السنن (٤٩٣/٢) ، ومالك في الموطأ الصلاة في رمضان (٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صلاة التراويح (٢٠١٢) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٧) .

استأنف هذه الصلاة ، وإلا فلا شك أن قول الرسول ﷺ : « كل بدعة ضلالة » عام ، وهو صادر من أفصح الخلق وأنصح الخلق - عليه الصلاة والسلام - وهو كلام واضح ، كل بدعة مهما استحسناها مبتدعها ، فإنها ضلالة والله الموفق .

* * *

١٦٠ - الحَامِيسُ : عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه : قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَتَسُوْنُ صُفُوْفُكُمْ أَوْ لَيَخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجُوْهِكُمْ » متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلم : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَوِّي صُفُوْفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ ، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ ، ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا ، فَقَامَ حَتَّى كَادَ أَنْ يُكَبِّرَ ، فَرَأَى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ فَقَالَ : « عِبَادَ اللَّهِ لَتَسُوْنُ صُفُوْفُكُمْ أَوْ لَيَخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجُوْهِكُمْ » ^(١) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لتسون صفوفكم ، أو ليخالفن الله بين وجوهكم » .

الجملة الأولى : مؤكدة بثلاثة مؤكدات ؛ بالقسم المقدر ، واللام « لتسون » و نون التوكيد ، « أو ليخالفن الله بين وجوهكم » يعني إن لم تسو الصفوف ، خالف الله بين وجوهكم ، وهذه الجملة أيضًا مؤكدة بثلاثة مؤكدات : بالقسم ، واللام ، والنون .

واختلف العلماء - رحمهم الله - في معنى ، مخالفة الوجه . فقال بعضهم : إن المعنى أن الله يخالف بين وجوههم مخالفةً حسية ، بحيث يلوي الرقبة ، حتى يكون وجه هذا مخالف لوجه هذا ، والله على كل شيء قدير ، فهو ﷻ قلب بعض بني آدم قردة ، قال لهم : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ فكانوا قردة ، فهو قادر على أن يلوي رقبة إنسان حتى يكون وجهه من عند ظهره ، وهذه عقوبة حسية .

وقال بعض العلماء : بل المراد بالمخالفة المخالفة المعنوية ، يعني مخالفة القلوب ؛ لأن القلب له اتجاه ، فإذا اتفقت القلوب على وجهة واحدة حصل في هذا الخير الكثير ، وإذا اختلفت تفرقت الأمة . فالمراد بالمخالفة مخالفة القلوب ، وهذا التفسير أصح ؛ لأنه قد ورد في بعض الألفاظ : « أو ليخالفن الله بين قلوبكم » .

وعلى هذا فيكون المراد بقوله : « أَوْ لَيَخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجُوْهِكُمْ » أي بين وجهات نظركم ، وذلك باختلاف القلوب ، وعلى كل حال ففي هذا : دليل علي وجوب تسوية الصفوف ، وأنه يجب على المأمومين أن تسو صفوفهم ، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك ، فقد عرضوا أنفسهم لعقوبة الله والعياذ بالله .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧١٧) ، ومسلم في الصلاة (١٢٨) ، وأبو داود في الصلاة (٦٦٣) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٧) ، وأحمد في مسنده (٢٧١/٤ ، ٢٧٢) ، قوله « كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ » القِدَاح : خشب السهام ، والمقصود المبالغة في تسويتها حتى إنها لشدة استوائها واعتدالها يمكن أن يقوم بها السهام ، قوله « قد عقلنا عنه » أي فهمنا ما يقول .

وهذا القول : أعني وجوب تسوية الصف هو الصحيح ، والواجب على الأئمة أن ينظروا في الصف ، فإذا وجدوا فيه اعوجاجاً أو تقدماً أو تأخراً ، نهوا على ذلك ، وكان النبي ﷺ أحياناً يمشي على الصفوف يسويها بيده الكريمة - عليه الصلاة والسلام - من أول الصف لآخره ^(١) ، ولما كثر الناس في زمن الخلفاء ، أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يسوي الصفوف إذا أقيمت الصلاة ، فإذا جاء وقال إنها قد استوت كبر للصلاة ، وكذلك فعل عثمان رضي الله عنه ، كان قد وكل رجلاً يسوي صفوف الناس ، فإذا جاء وقال قد استوت كبر . وهذا يدل على اعتناء النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بتسوية الصف .

ولكن مع الأسف الآن تجد المأمومين لا يبالون بالتسوية ، يتقدم إنسان ويتأخر إنسان ولا يبالي ، وربما يكون مستويًا مع أخيه في أول الركعة ، ثم عند السجود يحصل من الاندفاع تقدم أو تأخر ، ولا يساوون الصف في الركعة الثانية ، بل يبقون على ما هم عليه ، وهذا خطأ ، فاللهم أنه يجب تسوية الصف .

فإذا قال قائل : إذا كان هناك إمام ومأموم فقط ، فهل يتقدم الإمام قليلاً أو يساوي المأموم ؟ الجواب أنه يساوي المأموم ؛ لأنه إذا كان إمام ومأموم ، فالصف واحد لا يمكن أن يكون الإمام خلف المأموم وحده بل هم صف واحد والصف الواحد يسوي فيه ، خلافاً لما قاله بعض أهل العلم إنه يتقدم الإمام قليلاً لأن هذا لا دليل عليه ، بل الدليل على خلافه ، وهو أن يتوَّى بين الإمام والمأموم إذا كانا اثنين ^(٢) .

ثم قال في رواية : كان النبي ﷺ يسوي صفوفنا كأنما يسوي بها القداح ^(٣) ، والقداح : هي ريش السهم ، وكانوا يسوونها تماماً ، بحيث لا يتقدم شيء على شيء مثل مشط البندق ، يكون مستويًا ، فكان يسوي الصفوف كأنما يسوي بها القداح ، حتى إذا رأى أننا قد عقلنا عنه يعني فهمنا وعرفنا أن التسوية لا بد منها ، خرج ذات يوم فرأى رجلاً بادياً صدره ، فقال : « عباد الله ، لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم » فدل هذا على سبب قول الرسول ﷺ : « لتسون صفوفكم » لأن سببه أنه رأى رجلاً بادياً صدره فقط يعني ظاهر صدره قليلاً من على الصف ، فدل ذلك على أن من هدى النبي ﷺ ، أنه يتفقد الصف ، وأنه يتوعد من يتقدم على الصف بهذا الوعيد : « لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم » .

فعلينا أن نبين هذه المسألة لأئمة المساجد وكذلك للمأمومين حتى يتنبهوا لهذا الأمر الخطير ويعتنوا بشأن تسوية الصف .

* * *

١٦١ - السَّادِسُ : عن أبي موسى رضي الله عنه قال : اخْتَرَقَ نَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا حُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَأْنِهِمْ قَالَ : « إِنْ هَذِهِ النَّارُ عُدُّوْكُمْ ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَاطْفِقُوهَا عَنْكُمْ » ^(٤) متفق عليه .

(١) انظر في ذلك ما أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) ، وابن ماجه في السنن (٩٧٦) ، والدارمي في السنن (٢٩٠/١) ، والبيهقي في السنن (٩٧/٣) .

(٢) راجع ذلك في بداية المجتهد (١٥٠/١) ، وشرح فتح القدير (٣٥٧/١) ، والمجموع (٢٩٨/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٨) ، وأحمد في مسنده (٢٧٢/٤) ، وأبو داود في الصلاة (٦٦٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٤) ، ومسلم في الأشربة (١٠١) .

الشرح

ذكر المؤلف في باب الحث على اتباع السنة وآدابها هذا الحديث الذي وقع في عهد النبي ﷺ ، أن قوماً احترق عليهم بيتهم في الليل ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « إن هذه النار عدو لكم ، فإذا نتم فأتفئوها عنكم » .

هذه النار التي خلقها الله ﷻ وأنشأ شجرتها ، امتن الله بها على عباده فقال ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَتَارَ أَلْنِي تُورُونَ ﴾ [٧١] ، ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ [الواقعة : ٧١ ، ٧٢] . والجواب : بل أنت يا ربنا الذي أنشأتها : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَمَتْنَاهُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الواقعة : ٧٣] ، تذكرة يتذكر الإنسان بها جهنم ، فإن هذه النار جزء من ستين جزءاً من نار جهنم ^(١) ، كل نار الدنيا الشديدة الحرارة والخفيفة ، كلها جزء من ستين جزءاً من نار جهنم ، أعاذني الله وإياكم منها .

وجعلها الله تذكرة حتى إن بعض السلف كان إذا هم بمعصية ذهب إلى النار ووضع أصبعه عليها يعني يقول لنفسه : اذكري هذه الحرارة حتى لا تتجرأ نفسك على المعصية التي هي سبب لدخول النار . نسأل الله العافية .

ومع هذا يقول تعالى : ﴿ وَنَمَتْنَاهُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني جعلناها متاعاً للمسافرين وغيرهم من المحتاجين إليها ، يتمتعون بها ، ويستدفئون بها في الشتاء ، ويسخنون بها مياههم ، ويطبخون عليها أطعمتهم ، ففيها فوائد ومنافع ، ولكن قد تكون مضرة كما قال النبي ﷺ في هذا الحديث : « إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ » فهي عدو إذا لم يحسن الإنسان ضبطها وقيدها ، وصارت عدو إذا فرط فيها أو تعدى ، فرط فيها بأن لم يعد ما تكون سبباً لاشتعاله ، أو تعدى فيها بأن أوقدها حول ما يشتعل سريعاً ، كالبنزين والغاز ، وما أشبه ذلك فإنها تكون عدو للإنسان .

وفي هذا : دليل على أن الإنسان ينبغي أن يتخذ الاحتياط في الأمور التي يخشى شرها ، ولهذا أمر الإنسان عند النوم أن يطفئ النار ولا يقول هذه سهلة أنا آمن من ذلك ، ربما يظن هذا الظن ولكن يحدث ما لا يخطر على باله .

ومن ذلك أيضاً : صمامات الغاز التي حدثت في عصرنا الحاضر ، فصمامات الغاز ، يجب على الإنسان أن يتفقدتها ، لئلا يكون فيها شيء من التسريب فتملأ الجو من الغاز ، فإذا أشعل النار احترق المكان كله .

ومن ذلك أيضاً : أفياش الكهرباء ، ينبغي على الإنسان أن يكون حريصاً منها ومتفقداً لها ، وأن يكون الذي يركبها شخصاً عارفاً مهندساً حتى لا تتركب على وجه الخطأ فيحصل بذلك الاحتراق ، إما احتراقاً كلياً للبيت كله أو لجزء منه . المهم أن الإنسان يجب عليه الاحتراز من كل ما يخشى ضرره . وإذا كان هذا في نار الدنيا ، فكذلك يجب أن يحترس مما يكون سبباً لعذاب النار في الآخرة ، من

(١) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) ، والترمذي في السنن (٢٥٨٩) ، وأحمد في مسنده .

أسباب المعاصي ، ووسائلها ، وذرائعها ، ولهذا قال أهل العلم - رحمهم الله - : إن الوسائل لها أحكام المقاصد ، وإن الذرائع يجب أن تسد إذا كانت ذريعة إلى محرم ، خشية من الوقوع في الهلاك .

١٦٢ - السابغ : عَنهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةً ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَتَفَعَّ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا . وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَزِفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » ^(١) متفق عليه .

« فَقَّه » بضم القاف على المشهور ، وقيل : بكسرها ، أي : صارَ قَفيها .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي موسى الأشعري ؓ في هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ قال : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ : كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا » الغيث : يعني المطر ، فكانت هذه الأرض ثلاثة أقسام : قسم رياض : قبلت الماء ، وأنبت العشب الكثير والزرع ، فانتفع الناس بها . وقسم آخر قيعان : أمسكت الماء وانتفع الناس به ، فاستقوا منه ورووا منه . والقسم الثالث أرض سبخة : ابتلعت الماء ولم تنبت الكَلَأَ .

فهكذا الناس بالنسبة لما بعث الله به النبي ﷺ من العلم والهدى ، منهم من فقه في دين الله ، فعلم وعلم ، وانتفع الناس بعلمه ، وانتفع هو بعلمه ، وهذا كمثل الأرض التي أنبت العشب والكلأ فأكل الناس منها ، وأكلت منها مواشيه .

والقسم الثاني : في قوم حملوا الهدى ، ولكن لم يفقهوا في هذا الهدى شيئاً ، بمعنى أنهم كانوا رَوَاةً للعلم والحديث ، لكن ليس عندهم فقه ، فهؤلاء مثلهم مثل الأرض التي حفظت الماء ، واستقى الناس منه ، وشربوا منه ، لكن الأرض نفسها لم تنبت شيئاً ؛ لأن هؤلاء يروون أحاديث وينقلونها ، ولكن ليس عندهم فيها فقه وفهم .

والقسم الثالث : من لم يرفع بما جاء به النبي ﷺ من العلم والهدى رأساً ، وأعرض عنه ، ولم يبال به ، فهذا لم ينتفع بما جاء به النبي - عليه الصلاة والسلام - ولم ينفع غيره ، فمثله كمثل الأرض التي ابتلعت الماء ولم تنبت شيئاً .

وفي هذا الحديث : دليل على أن من فقه في دين الله ، وعلم من سنة رسول الله ﷺ ما يعلم فإنه خير

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) ، ومسلم في الفضائل (١٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) ، قوله « طائفة » أي قطعة ، قوله « أجادب » جمع أجذب وهي الأرض التي لا تنبت ، قوله « قيعان » جمع قاع وهي الأرض التي لا نبات فيها . وقيل : المستوية ، قوله « لم يرفع بذلك رأساً » كناية عن عدم الانتفاع بعلمه وعلم غيره وعدم العمل به .

الأقسام ؛ لأنه علم وفقه ليتنفع وينفع الناس ، ويليهِ من علم ولكن لم يفقه ، يعني روى الحديث وحمله لكن لم يفقه منه شيئاً ، وإنما هو راويه فقط ، هذا يأتي في المرتبة الثانية في الفضل بالنسبة لأهل العلم والإيمان . والقسم الثالث لا خير فيه ، رجل أصابه ما أصابه من العلم والهدى الذي جاء به النبي - عليه الصلاة والسلام - ولكنه لم يرفع به رأساً ، ولم ينتفع به ، ولم يعلمه الناس ، فكان - والعياذ بالله - كمثل الأرض السبخة التي ابتلعت الماء ولم تثبت شيئاً للناس ، ولم يبق الماء على سطحها حتى ينتفع الناس به .

وفي هذا الحديث : دليل على حسن تعليم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وذلك بضرب الأمثال ، لأن ضرب الأمثال الحسية يقرب المعاني العقلية ، أي ما يدرك بالعقل يقربه ما يدرك بالحس ، وهذا مشاهد فإن كثيراً من الناس لا يفهم فإذا ضربت له مثلاً محسوساً فهم وانتفع ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [النكبوت: ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨] فضرب الأمثال من أحسن طرق التعليم ووسائله .

* * *

١٦٣ - الثامن : عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذْبُحُهُنَّ عَنْهَا وَأَنَا أَخَذْتُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَأَنْتُمْ تَقْلُتُونَ مِنْ يَدَيَّ » ^(١) رواه مسلم .

« الْجَنَادِبُ » : نَحْوُ الْجَرَادِ وَالْفَرَاشِ ، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ الَّذِي يَقَعُ فِي النَّارِ . « وَالْحُجَزُ » : جَمْعُ حُجَزَةٍ ، وَهِيَ مَقِيدُ الْإِزَارِ وَالسَّرَاوِيلِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن جابر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا » أراد النبي - عليه الصلاة والسلام - بهذا المثل أن يبين حاله مع أمته - عليه الصلاة والسلام - وذكر أن هذه الحال كحال رجل في بركة ، أوقد ناراً ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها . الجنادب : نوع من الجراد ، أما الفرش فمعروف . « يقعن فيها » لأن هذه هي عادة الفرش والجنادب والحشرات الصغيرة ، إذا أوقد إنسان ناراً في البر ؛ فإنها تأوي إلى هذا الضوء . قال : « وأنا أخذ بحجزكم » يعني لأمنعكم من الوقوع فيها ، ولكنكم تفلتون من يدي .

ففي هذا : دليل على حرص النبي ﷺ على حماية أمته من النار ، وأنه يأخذ بحجزها ويشدها حتى لا تقع في هذه النار ، ولكننا نقلت من ذلك ونأبئ إلا الورود - نسأل الله أن يعاملنا بعفوه .

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (١٩) ، وأحمد في مسنده (٣٩٢/٣) ، قوله « تفلتون » روي بوجهين « تَقْلُتُونَ » والآخرة « تَقْلُتُونَ » وكلا الوجهين صحيح ، والمعنى : أنه ﷺ يشبه تساقط المخالفين والجاهلين في نار الآخرة بسبب المعاصي والشهوات ، وحرصهم على الوقوع منها - مع منعهم إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم - بتساقط الفرش في نار الدنيا لهوله وضعف تمييزه ، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ، ساع في ذلك لجهله .

فالإنسان ينبغي له أن ينقاد لسنة النبي ﷺ ، وأن يكون لها طوعاً ؛ لأن الرسول ﷺ إنما يدل على الخير واتقاء الشر ، كالذي يأخذ بحجزة غيره ، يأخذ بها حتى لا يقع في النار ؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كما وصفه الله في كتابه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] صلوات الله وسلامه عليه .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه ينبغي للإنسان بل يجب أن يتبع سنة الرسول ﷺ في كل ما أمر به ، وفي كل ما نهى عنه ، وفي كل ما فعله ، وفي كل ما تركه يلتزم بذلك ، ويعتقد أنه الإمام المتبوع . لكن من المعلوم أن من الشريعة ما هو واجب يأثم الإنسان بتركه ، وما هو محرم يأثم بفعله ، ومنها ما هو مستحب إن فعله فهو خير وأجر ، وإن تركه فلا إثم عليه . وكذلك من الشريعة ما هو مكروه كراهة تنزيه ، إن تركه الإنسان فهو خير له ، وإن فعله فلا حرج عليه ، لكن المهم أن تلتزم بالسنة عموماً ، وأن تعتقد أن إمامك ومتبوعك هو محمد ﷺ وأنه ليس هناك سبيل إلى النجاة إلا باتباعه ، والسير في طريقه ، والتمسك بهديه .

ومن فوائد هذا الحديث : بيان عظم حق النبي ﷺ على أمته ، وأنه كان لا يألو جهداً في منعها وصدّها عن كل ما يضرها في دينها ودنياها .

وبناءً على ذلك ، فإذا رأيت نهى النبي ﷺ عن شيء ، فاعلم أن فعله شرٌّ ولا تقل هل هو للكرهية أم هو للتحريم ، اترك ما نهى عنه سواء كان للكرهية أو للتحريم ، ولا تعرض نفسك للمساءلة ؛ لأن الأصل في نهى الرسول ﷺ أنه للتحريم ، إلا إذا قام دليل على أنه للكرهية التنزيهية .

وكذلك إذا أمر بشيء فلا تقل هذا واجب أو غير واجب ، افعل ما أمر به فهو خير لك ، إن كان واجباً فقد أبرأت ذمتك ، وحصلت على الأجر ، وإن كان مستحباً فقد حصلت على الأجر ، وكنت متبعاً تمام الاتباع للرسول ﷺ ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم اتباعه ظاهراً وباطناً .

١٦٤ - التاسع : عنه أن رسول الله ﷺ ، أَمَرَ بِلَغْيِ الْأَصَابِعِ وَالصُّحُفَةِ وَقَالَ : « إِنَّكُمْ لَا تَذُرُونَ فِي أَيِّهَا الْبَرَكَةُ » رواه مسلم .

وفي رواية له : « إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ ، فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيَمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى ، وَلْيَأْكُلْهَا ، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ ، وَلَا يَمْسَحَ يَدَهُ بِالْمُتْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَذَرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ » . وفي رواية له : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللَّقْمَةُ فَلْيَمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى فَلْيَأْكُلْهَا ، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ » (١) .

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥) ، قوله « الصفحة » هي الوعاء ، قوله « فليط » أي فلينجبه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ في آداب من آداب الأكل ، منها : أن الإنسان إذا فرغ من أكله فإنه يلعق الصفحة ويلعق أصابعه ، يعني يلحسها حتى لا يبقى فيها أثر الطعام ، فإنكم لا تدرّون في أيّ طعامكم البركة ، فهذان أدبان :

الأول : لعق الصفحة ، والثاني : لعق الأصابع ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - لا يأمر أمته بشيء إلا وفيه الخير والبركة . ولهذا قال الأطباء : إنّ في لعق الأصابع من بعد الطعام فائدة وهو تيسير الهضم ؛ لأن الأنامل هذه فيها مادة تفرزها عند اللعق بعد الطعام تيسر الهضم ، ونحن نقول هذا من باب معرفة حكمة الشرع فيما يأمر به ، وإلا فالأصل أننا نلعقها امتثالاً لأمر النبي ﷺ ، وكثير من الناس لا يفهمون هذه السنة ، تجده ينتهي من الطعام وحافته التي حوله كلها طعام ، تجده أيضاً يذهب ويغسل دون أن يلعق أصابعه ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - نهى أن يسمح الإنسان يديه بالمتنديل حتى يلعق وينظفها من الطعام ثم بعد ذلك يسمح بالمتنديل ، ثم بعد ذلك يغسلها إذا شاء .

كذلك أيضاً من آداب الأكل : أن الإنسان إذا سقطت لقمته على الأرض فإنه لا يدعها ؛ لأن الشيطان يحضر للإنسان في جميع شؤون ، كلّ شؤونك : من أكل ، وشرب ، وجماع ، أي شيء يحضره الشيطان ، فإذا لم تسم الله عند الأكل شاركك في الأكل ، وصار يأكل معك ، ولهذا تنزع البركة من الطعام إذا لم يسم عليه ، وإذا سميت الله على الطعام ، ثم سقطت اللقمة ، يعني طاحت من يدك ؛ فإن الشيطان يأخذها ، ولكن لا يأخذها ونحن ننظر ؛ لأن هذا شيء غيبي لا نشاهده ، ولكننا علمناه بخبر الصادق المصدوق - عليه الصلاة والسلام - يأخذها الشيطان فيأكلها ، وإن بقيت أمامنا حسناً ، لكنه يأكلها غيباً ، هذه من الأمور الغيبية التي يجب أن نصدق بها . ولكن رسول الله ﷺ دلنا على الخير فقال : « فليأخذها وليمط ما بها من أذى ، وليأكلها ، ولا يدعها للشيطان » خذها وأمط ما بها من أذى من تراب أو عيدان أو غير ذلك ثم كلها ولا تدعها للشيطان . والإنسان إذا فعل هذا امتثالاً لأمر النبي ﷺ وتواضعاً لله ﻋَظَّمَ وحرماناً للشيطان من أكلها ، حصل على هذه الفوائد الثلاثة : الامتثال لأمر النبي ﷺ ، والتواضع ، وحرمان الشيطان من أكلها . هذه فوائد ثلاث ومع ذلك فإن أكثر الناس إذا سقطت اللقمة على السفرة أو على سماط نظيف تركها وهذا خلاف السنة .

وفي هذا الحديث من الفوائد : أنه لا ينبغي للإنسان أن يأكل طعاماً فيه أذى ؛ لأن نفسك عندك أمانة ، لا تأكل شيئاً فيه أذى ، من عيدان أو شوك أو ما أشبه ذلك وعليه فإننا نذكر الذين يأكلون السمك أن يحتاطوا لأنفسهم ؛ لأن السمك لها عظام دقيقة مثل الإبر ، إذا لم يحترز الإنسان منها ، فربما تدخل إلى بطنه وتجرح معدته أو أمعاءه وهو لا يشعر .

* * *

١٦٥ - العاشر : عن ابن عباس رضي الله عنه : قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس

إِنَّكُمْ مَخْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حِفَاةَ غُرَاةٍ غُرْلًا ﴿١٠٤﴾ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ تُعِيدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٤، ١٠٥] أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَا وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ، فَأَقُولُ : يَا رَبُّ أَصْحَابِي ، فَيَقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَخَذْتُوا بِغَدَاكَ ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ يَزِدْ لِمَكِيدِهِ ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨] فَيَقَالُ لِي : إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مَرْتَدِّينَ عَلَى أَغْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ ^(١) . متفق عليه .

« غُرْلًا » أي : عَيْرٌ مَخْتُورِينَ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً : وكان من عادة النبي ﷺ ، بل من هدي النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه كان يخطب أصحابه الخطب الراتية والخطب العارضة .

أما الخطب الراتية : فمثل خطبة الجمعة ، خطبة العيد ، خطبة الاستسقاء ، خطبة الكسوف . هذه خطب راتية ، كلُّها وُجد سببها خطب - عليه الصلاة والسلام - في الجمعة يخطب خطبتين قبل الصلاة ، وفي العيد خطبة واحدة بعد الصلاة ، وكذلك في الاستسقاء ، وفي الكسوف خطبة واحدة بعد الصلاة .

أما الخطب العارضة : فإنها تكون إذا وُجد سبب عارض فيقوم النبي - عليه الصلاة والسلام - خطيباً يخطب الناس .

فمن ذلك : أن رجلاً بعثه النبي - عليه الصلاة والسلام - على الصدقة ، يعني عاملاً على الصدقة يأخذها من أهلها ، فرجع إلى المدينة ومعه إبل فقال : هذه لكم ، وهذه أهديت إلي . فخطب النبي - عليه الصلاة والسلام - وقال : « ما بال أحدكم نستعمله على العمل ، فيرجع ويقول : هذا لكم وهذا أهدي لي ، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا ؟ » ^(٢) .

وصدق النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه لم يُهد لهذا العامل الذي هو تابع للدولة إلا من أجل أنه عامل ، لو كانوا يريدون أن يهدوا إليه لشخصه ، لأهدوا إليه في بيت أبيه وأمه .

ومن هذا الحديث : نعرف عظيم قبح الرشوة ، وأنها من عظام الأمور التي أدت إلى أن يقوم النبي - عليه الصلاة والسلام - خطيباً يخطب في الناس ، ويحذرهم من هذا العمل ؛ لأنه إذا فشا في قوم الرشوة هلكوا ، وصار كل واحد منهم لا يقول الحق ، ولا يحكم بالحق ، ولا يقوم بالعدل إلا إذا رُشِيَ والعياذ بالله . والرشوة ملعون أخذها ، وملعون معطيها ^(٣) ، إلا إذا كان الآخذ يمنع حق الناس

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٨) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٦٧) .

(٢) انظر ذلك فيما أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٤) ، ومسلم في الإمارة (٢٦) كلاهما بلفظ : « ما بال عامل أبعته فيقول » .

(٣) ويدل لذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/٢) ، والحاكم في المستدرک (١٠٣/٤) .

إلا برشوة ، فحيثئذ تكون اللعنة على هذا الآخذ لا على المعطي ، لأن المعطي إنما يريد أن يستخلص حقه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بدفع الرشوة ، فهو معذور ^(١) . كما يوجد - والعياذ بالله - الآن في بعض المسؤولين في الدول الإسلامية من لا يمكن أن يقضي مصالح الناس إلا بهذه الرشوة - والعياذ بالله - فيكون آكلًا للمال بالباطل ، معرضًا نفسه للعن . نسأل الله العافية . والواجب على من ولاه الله عملًا ، أن يقوم به بالعدل ، وأن يقوم بالواجب فيه بحسب المستطاع .

ومن ذلك أيضًا : أن بريرة - وهي أمة لجماعة من الأنصار - كاتبها أهلها على تسع أواق من الفضة ، فجاءت إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تستعينها - تطلب منها العون - لتقضي كتابتها ، فقالت : إن شاء أهلك أن أعدّها لهم ، يعني أنقدها نقدًا ، ويكون ولاؤك لي فعلت ، فذهبت بريرة إلى أهلها ، يعني أسيادها ، فقالت لهم ذلك . فقالوا : لا . الولاء لنا . فرجعت بريرة إلى عائشة رضي الله عنها وأخبرتها بأن أهلها قالوا : لا بد أن يكون الولاء لنا . فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « حذيتها واشترطي لهم الولاء ، فإنما الولاء لمن أعتق » فأخذتها واشترطت الولاء لهم ، ثم خطب الناس - عليه الصلاة والسلام - وقال : « ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق » ^(٢) .

ومن ذلك أيضًا : أن امرأة من بني مخزوم كانت تستعير المتاع ، تقول للناس : أعيروني شيئًا ، فيعيرونها المتاع ؛ القدر والقربة وما أشبه ذلك من متاع البيت ، ثم بعد ذلك تقول : ما أعرتموني شيئًا !! تجحد ذلك ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها ، لأنها سارقة ، فهذه سرقة ، فاهتمت قريش لهذا الأمر ؛ كيف تقطع يد مخزومية من بني مخزوم ، من كبار قبائل العرب ، فطلبوا من يشفع إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - فأرسلوا أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه ؛ لأن النبي ﷺ كان يحبه ويحب أباه فكلّم النبي ﷺ في شأن تلك المرأة يشفع لها ، فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » يقوله منكراً عليه ؛ لأن حدود الله ليس فيها شفاعة ، فإذا وصلت للسلطان فلعن الله الشافع والمشفع له . ثم قام في الناس يخطب ، فقال : « ألا وإن من كان قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » . وأخبر أن هذا هو الذي أهلك الأمم السابقة . ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « وإيم الله - يعني أحلف بالله - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ^(٣) فهل هذه المخزومية أفضل وأشرف أم فاطمة بنت محمد ؟ فاطمة أفضل منها ، ومع ذلك يقول - عليه الصلاة والسلام - : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها » . فهذه من الخطب العارضة ، فكان - صلوات الله وسلامه عليه - من هديه أنه يخطب الناس لأمر راتبه ، ولأمر عارضة ، وسبق لنا حديث العرباض بن سارية قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة

(١) راجع ذلك في المغني مع الشرح الكبير (١٦٧/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٢٩) ، ومسلم في العتق (٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ، ومسلم في الحدود (٩ ، ١٠) .

بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون (١) .

والخلاصة : أنه يستفاد من هذا الحديث أنه ينبغي للإنسان ، من قاضٍ ، أو مفتٍ ، أو عالم ، أو داعية ، أن يخطب الناس في الأمور العارضة التي يحتاجون فيها إلي بيان الحق ، وفي الأمور الراضية ، مثل : الجمعة ، والعيدين ، والاستسقاء ، والكسوف كما مر ، وهذا من هدي رسول الله ﷺ وحسن تبليغه ؛ لأن الشيء إذا جاء في وقته عند حاجته صار له قبول أكثر .

وقد نقل المؤلف رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قام فيهم خطيباً ، وهذه من خطبه العارضة ﷺ ، فقد قام فيهم خطيباً وقال : « إنكم محشورون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » . محشورون : يعني مجموعة في صعيد واحد ، ليس فيه جبال ، وليس فيه أودية ، ولا بناء ، ولا أشجار ، يُسمعهم الداعي ، ويُنفذهم البصر . يعني لو دعاهم داعٍ لأسمعهم جميعاً ؛ لأنه ليس هناك ما يحول بينهم وبين إسماعهم ، وينفذهم البصر أي يدرکہم جميعاً .

« حفاة عراة غرلاً » . وفي رواية : « بُهْمًا » . « حفاة » : ليس عليهم نعال ، ولا خفاف ، ولا ما يقوون به أرجلهم . « عراة » : ليس عليهم كسوة ، بادية أبشارهم . « غرلاً » : يعني غير مختونين . والختان هو : قطع الجلد التي تكون على الحشفة ، وتقطع من أجل تمام الطهارة كما سنبينه إن شاء الله . « بُهْمًا » : قال العلماء بهما : أي ليس معهم مال ، فيكون الإنسان مجرداً من كل شيء ، ثم استدلل لذلك بقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] يعني أن الله يحشرهم كما بدأهم أول خلق ، يخرجون من بطون الأرض كما خرجوا من بطون أمهاتهم ، حفاة عراة غرلاً ؛ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ . ثم قال ﷻ : ﴿ وَعَدًا عَلَيْنَا ﴾ أي مؤكداً ، أكدّه الله على نفسه ؛ لأن هذا المقام يقتضي التوكيد ، فإن من البشر من كذب بالحشر - والعياذ بالله - وقال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] فقال الله ﷻ : ﴿ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

حدث النبي - عليه الصلاة والسلام - بهذا الحديث ، فقالت عائشة رضي الله عنها : واسوءتاه . الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال النبي ﷺ : « يا عائشة الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك » (٢) . الأمر عظيم ، ما ينظر أحد لأحد ﴿ يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ يَدَ أَخِي وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَنِيْعِهِ وَبَنِيهِ ﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ عبس : ٣٤ - ٣٧ » .

حتى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - عند عبور الصراط دعاؤهم : « اللهم سلم ، اللهم سلم ، اللهم سلم » (٣) لا يدري أحد أينجو أم لا . الأمر عظيم ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك . ثم قال : « ألا وإن أول من يكسى إبراهيم » إبراهيم الخليل - عليه الصلاة

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٣ ، ٢٦) .

والسلام - هو أول من يكسى يوم القيامة . وهذه الخصيصة لا تدل على التفضيل المطلق ، وأنه أفضل من نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - لأن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء والرسل ، سيد ولد آدم يوم القيامة ، لا يؤذن لأحد يشفع للخلائق يوم القيامة ، إلا محمد - عليه الصلاة والسلام - كما في قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] لكن قد يخص الله بعض الأنبياء بشيء لا يخص به الآخر ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَكُونُ سَوًى لِي أَطْلُقَ بَيْنَكَ عَلَى النَّاسِ يَرْسَلَنِي وَيَكَلِّمُنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] . فالرسالات كانت موجودة في غيره ، لكن في وقته كان هو الرسول لبني إسرائيل .

كذلك أيضاً قد يخص الله أحداً من الأنبياء أو غيرهم بخصيصة يتميز بها عن غيره ، ولا يوجب ذلك الفضل المطلق .

« ألا وإن أول من يكسى إبراهيم » - عليه الصلاة والسلام - ولا يقال : لماذا كان أول من يكسى ؟ لأن الفضائل لا يسأل عنها ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] لا يسأل عنها ؛ لأن الإنسان قد يصل فيها إلى نتيجة وقد لا يصل ، فكما أن الله تعالى فضل بني آدم بعضهم على بعض في الرزق ، وفي كمال الأخلاق والآداب ، وكذلك فضل بعضهم على بعض في العلم ، وكذلك في البدن والفكر وغير ذلك ، فالله تعالى يؤتي فضله من يشاء . وفي هذا الحديث : دليل على أن الناس يكسون بعد أن يخرجون حفاة عراة غرلاً . ولكن بأي طريق يكسون ؟ لا نعلم ذلك ، ليس هناك خياطون ، ولا هناك ثياب تُفضل . فالله أعلم بكيفية ذلك . وفي هذا الحديث : إشارة إلى الختان في قوله : « غُرلاً » فالأغرل هو الذي بقيت عليه جلدة الحشفة أي لم يختن . والختان اختلف العلماء في وجوبه ، فمنهم من قال : إنه واجب على الذكور والإناث ، وأنه يجب أن تختن البنت كما يختن الولد .

ومن العلماء من قال : إنه لا يجب الختان لا على الرجال ولا على النساء ، وأن الختان من الفطرة المستحبة ، وليس من الفطرة الواجبة .

ومنهم من توسط بين القولين فقال : الختان واجب في حق الذكور ، وسنة في حق الإناث ، وهذا القول أوسط الأقوال وأعدلها ^(١) ، فإنه واجب في حق الرجال ، لأن الرجل إذا بقيت هذه الجلدة فوق حشفته ، فإنها ستكون مَجْمَعًا للبول ، فيكون في ذلك تلويث للرجل ، وربما يحدث إثر هذا التهابات فيما بين الجلدة والحشفة ، ويتضرر الإنسان . فالصحيح أن الختان واجب على الذكور ، وسنة في حق الإناث ، وهذا أعدل الأقوال وأحسنها .

(١) ذهب إلى وجوب الختان في حق الرجال : الشافعية وقال ابن عطاء وهو قول أحمد وبعض المالكية . وعن أبي حنيفة قولان : واجب . وقيل : سنة . وذهب أكثر أهل العلم وبعض الشافعية إلى أنه ليس بواجب وهو في حق الذكور أكد منه في حق النساء ، أو يكون في حق الرجال الندب وفي حق النساء للإباحة (انظر : المغني مع الشرح الكبير ١٠٠/١ ، فقه الكتاب والسنة ٣٠٠٥/٥) .

ثم ذكر النبي ﷺ أنه يؤتى برجال من أمته فيؤخذ بهم ذات الشمال ، أي إلى طريق أهل النار والعياذ بالله . فيقول النبي ﷺ : « أصحابي » أي يشفع إلى الله ﷻ فيهم ، فيقال له : « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » فيقول النبي ﷺ كما قال العبد الصالح ، يعني به عيسى ابن مريم حين يقول يوم القيامة إذا قال الله تعالى له : ﴿ مَا نَتَّ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَتَمِّنِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] كما يزعم النصارى الذين يقولون : إنهم متبعون له ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦] لأن الألوهية ليست حقاً لأحد إلا لله رب العالمين . ثم يقول : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ أَرْقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧] .

فإذا قيل للنبي ﷺ يوم القيامة : « إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك » قال كما قال عيسى ابن مريم : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ أَرْقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . ثم يقال للرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » فيقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « سحقاً سحقاً » .

قوله : « إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » . تمسك به الرافضة الذين قالوا : إن الصحابة كلهم ارتدوا عن الإسلام - والعياذ بالله ، ومنهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان . أما علي وآل البيت فهم لم يرتدوا . ولا شك أنهم في هذا كاذبون ، وأن الخلفاء الأربعة كلهم لم يحصل منهم ردة بإجماع المسلمين ، وكذلك عامة أصحاب النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يحصل منهم ردة بإجماع المسلمين . إلا قوم من الأعراب لما مات النبي - عليه الصلاة والسلام - افتنوا ، وارتدوا على أدبارهم ، ومنعوا الزكاة ، حتى قاتلهم الخليفة الراشد أبو بكر رضي الله عنه ، وعاد أكثرهم إلى الإسلام . ولكن الرافضة من شدة حنقهم وبغضهم لأصحاب النبي ﷺ ، تمسكوا بظاهر هذا الحديث .

أما أهل السنة والجماعة فقالوا : إن هذا الحديث عام يراد به الخاص ، وما أكثر العام الذي يراد به الخاص . فقولوه : « أصحابي » يعني ليسوا كلهم ، بل الذين ارتدوا على أدبارهم ؛ لأن هكذا قيل للرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » . ومعلوم أن الخلفاء الراشدين ، وعامة أصحاب النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يرتدوا بالإجماع ، ولو قدر أنهم ارتدوا لم يبق لنا ثقة بالشريعة . ولهذا كان الطعن في الصحابة يتضمن الطعن في شريعة الله ، ويتضمن الطعن في رسول الله ﷺ ، ويتضمن الطعن بالله رب العالمين .

الذين يطعنون في الصحابة تضمن طعنهم أربعة محاذير ومنكرات عظيمة والعياذ بالله : الطعن في الصحابة ، والطعن في الشريعة ، والطعن في النبي ﷺ ، والطعن في رب العالمين تبارك وتعالى ، لكنهم قوم لا يفقهون ﴿ مِمَّنْ بَكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] .

أما كونه طعنًا في الشريعة : فلأن الذين نقلوا إلينا الشريعة هم الصحابة ، وإذا كانوا مرتدين ،

والشريعة جاءت من طريقهم ؛ فإنها لا تقبل ، لأن الكافر لا يقبل خبره ، بل الفاسق أيضًا كما قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ فَوَيْتَنُوا ﴾ [الحجرات : ٦] .

وأما كونه طعنًا برسول الله ﷺ : فيقال : إذا كان أصحاب النبي بهذه المثابة من الكفر والفسوق ، فهو طعن بالرسول ﷺ ؛ لأن القرين على دين قرينه ، وكل إنسان يعاب بقرينه إذا كان قرينه سيئًا . يقال : فلان ليس فيه خير ؛ لأن قرناه فلان وفلان وفلان من أهل الشر . فالطعن في الأصحاب طعن بالمصاحب . وأما كونه طعنًا بالله رب العالمين فظاهر جدًا : أن يجعل أفضل الرسالات وأهمها وأحسنها على يد هذا الرجل الذي هؤلاء أصحابه ، وأيضًا أن يجعل أصحاب هذا النبي الذين هو أفضل الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه - مثل هؤلاء الأصحاب ، الذين زعمت الرافضة أنهم ارتدوا على أدبارهم . ولهذا نعتقد أن هذه فرية عظيمة على الصحابة رضي الله عنهم ، وعدوان على الله ورسوله وشريعة الله ، ولا شك أننا نكن الحب لجميع أصحاب النبي ﷺ ، ولآل النبي ﷺ المؤمنين ، ونرى أن لآله المؤمنين حقين : حق الإيمان ، وحق قربهم من رسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِلَّا أَلَمُودَةً فِي الْقُرْآنِ ﴾ [الشورى : ٢٣] يعني إلا أن تودوا قرابتي على أحد التفاسير ^(١) . والتفسير الآخر لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَلَمُودَةً فِي الْقُرْآنِ ﴾ أي إلا أن تودوني لقرابتي منكم ^(٢) .

وعلى كل حال فهذا الحديث ليس فيه مطمع للرافضة في القدح في أصحاب النبي ﷺ ؛ لأنه لا يصدق إلا على من ارتدوا ، أما من بقوا على الإسلام ، وأجمع المسلمون على هدايتهم ودرابتهم ؛ فإنهم لا يدخلون في هذا الحديث . ويقال : إن الذي خصص هذا الحديث لإجماع المسلمين على أن الصحابة لم يرتدوا ، وإنما ارتدت طائفة قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ورجع أكثرهم إلى الإسلام .

* * *

١٦٦ - الحادي عشر : عن أبي سعيد عبد الله بن مَعْقِلٍ رضي الله عنه قال : نَهَى رسولُ الله ﷺ عن الخَذَفِ وقال : « إِنَّهُ لَا يَقْتُلُ الصَّيْدَ ، وَلَا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ ، وَيَكْسِرُ السِّنَّ » متفقٌ عليه . وفي رواية : أَنَّ قَرِينَا لَابْنَ مَعْقِلٍ خَذَفَ ، فَتَنَاهَا وقال : إِنَّ رسولَ الله ﷺ نَهَى عن الخَذَفِ وَقَالَ : « إِنَّهَا لَا تَصِيدُ صَيْدًا » ثُمَّ عَادَ فَقَالَ : أَخَذْتُكَ أَنْ رسولَ الله ﷺ نَهَى عَنْهُ ، ثُمَّ عُذْتُ تَخَذِفُ ؟! لَا أَكَلُمُكَ أَبَدًا ^(٣) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن مَعْقِلٍ رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ نهى عن الخذف ، وقال : « إنه لا يقتل صيدًا » وفي لفظ : « لا يصيد صيدًا » ولا ينكأ عدوًا ، وإنما يفقأ العين ويكسر السن .

(١) وهو قول علي بن الحسين وسعيد بن جبير والسدي (زاد المسير ٢٨٤/٧) .

(٢) وهو قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد (انظر زاد المسير ٢٨٤/٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٠) ، ومسلم في الصيد والذبائح (٥٤ ، ٥٥) ، وابن ماجه في الصيد (٣٢٢٦) .

والخذف : قال العلماء : معناه أن يضع الإنسان حصاة بين السبابة والإبهام ، فيضع على الإبهام حصاة ويدفعها بالسبابة ، أو يضع على السبابة ويدفعها بالإبهام . وقد نهى عنه النبي ﷺ ، وعلل ذلك بأنه يفتق العين ويكسر السن إذا أصابه ، ولا يصيد الصيد ؛ لأنه ليس له نفوذ ، ولا ينكأ العدو ، يعني لا يدفع العدو ؛ لأن العدو إنما ينكأ بالسهم لا بهذه الحصاة الصغيرة .

ثم إن قريئاً له خرج بخذف ، فنهاه عن الخذف وأخبره بنهي النبي ﷺ عنه ، ثم إنه رآه مرة ثانية يخذف فقال له : « أخبرتك أن النبي ﷺ نهى عن الخذف ، فجعلت تخذف !! لا أكلمك أبداً » فهجره ، لأنه خالف نهى النبي ﷺ .

وهذا كما فعل عبد الله بن عمر في أحد أبنائه ، حين حدث ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « لا تمتعوا إماءكم المساجد » . فقال أحد أبنائه وهو بلال بن عبد الله بن عمر : « والله لنمتعن » . لأن النساء تغيرت بعد عهد النبي ﷺ ، والناس تغيروا ، فقال بلال : « والله لنمتعن » . فأقبل عليه أبوه عبد الله بن عمر ، وجعل يسبه سباً عظيماً ، ما سبه مثله قط ، وقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول : والله لنمتعن . ثم هجره حتى مات ، لم يكلمه ^(١) ، فدل هذا على عظم تعظيم السلف الصالح لاتباع السنة .

فهذا عبد الله بن مغفل أقسم أن لا يكلم قريه لأنه خذف ، وقد نهى النبي ﷺ عن الخذف . وهذا ابن عمر هجر ابنه حتى مات ، لأنه قال : « والله لنمتعن » مع أن الرسول ﷺ أذن لهن ، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يعظم سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

ولكن إذا قال قائل : هل مثل هذا الأمر يوجب الهجر وقد نهى النبي ﷺ عن هجر المؤمن فوق ثلاث ؟ .

فالجواب عن هذا : أن هذين الصحابين - وأمثالهما ممن فعل مثل فعليهما - فعلا ذلك من باب التعزير ، ورأيا في هذا تعزيراً لهذين الرجلين ، وإلا فالأصل أن المؤمن إذا فعل ذنباً وتاب منه ، فإنه يُغفر له ما سلف ، حتى الكفار إذا تابوا غفر الله لهم ما سبق . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] كل ما مضى .

ولكن نظراً لأن هذين الصحابين رضي الله عنهما ، أرادا أن يعزرا من خالف أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - إما بقوله ، وإما بفعله ، ولو عن اجتهاد ؛ لأن بلال بن عبد الله بن عمر ، إنما قال ذلك عن اجتهاد ، لكن لا ينبغي للإنسان أن يعارض قول الرسول هذه المعارضة الظاهرة ، ولو أنه قال مثلاً : لعل النبي ﷺ أذن لهن في زمن كانت النيات فيه سليمة ، والأعمال مستقيمة ، وتغيرت الأحوال بعد ذلك ، وأتى بالكلام على هذا الوجه ، لكان أهون .

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها : لو أن رأى النبي ﷺ ما صنع النساء من بعده لمتعن - يعني من المساجد - كما منعت بنو إسرائيل نساءها ^(٢) . ولكن على كل حال ما فعله عبد الله بن المغفل ،

(١) انظر الحديث - بنصه - في مسلم في الصلاة (١٣٥) . (٢) انظر الحديث - بنصه - في مسلم في الصلاة (١٤٤) .

وعبد الله بن عمر رضي الله عنه ، يدل على تعظيم السنة ، وأن الإنسان يجب أن يقول لحكم الله ورسوله :
سمعنا وأطعنا .

* * *

١٦٧ - وعن عايس بن ربيعة قال : رأيت عُمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه يُقبِلُ الحجرَ - يعني الأسودَ - ويقولُ : إني أعلمُ أنك حجرٌ ما تنفع ولا تضر ، ولولا أنني رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يُقبِلُك ما قبَلْتُكَ ^(١) .
متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمته الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في باب الأمر باتباع السنة وآدابها ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت ، فقبِلَ الحجر الأسود . والحجر كما نعلم حجر من الأرض ، جعل في هذا الركن ، وشرع الله صلى الله عليه وسلم لعباده أن يقبلوه ؛ لكمال الذل والعبودية ، ولهذا قال عمر حين قبله : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » . وصدق صلى الله عليه وسلم ، فإن الأحجار لا تضر ولا تنفع . الضرر والنفع بيد الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ مِ يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ [المؤمنون : ٨٨ ، ٨٩] . ولكن يبيِّن صلى الله عليه وسلم أن تقبيله إياه لمجرد اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ولولا أنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل ما قبلتك » يعني فأنا أقبلك اتباعاً للسنّة ، لا رجاءً للنفع ، أو خوف الضرر ، ولكن لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك . ولهذا لا يشرع أن يقبل شيء من الكعبة المشرفة إلا الحجر الأسود فقط ، أما الركن اليماني فيستلم ، يعني يمسح ولا يُقبِل . الحجر الأسود أفضل شيء أن يستلمه الإنسان ويقبله ، يمسحه بيده اليمنى ويقبله ، فإن لم يمكن استلمه وقبل يده ، فإن لم يمكن أشار إليه بشيء معه أو بيده ، ولكن لا يقبل ما أشار به ؛ لأن هذا الذي أشار به لم يمسّ الحجر حتى يقبله .

أما الركن اليماني : فليس فيه إلا استلام فقط ، ويكون الاستلام باليد اليمنى . ونرى بعض الجهال يستلم باليد اليسرى ، واليد اليسرى كما قال أهل العلم : لا تستعمل إلا في الأذى ، في القدر والنجاسات وما أشبهها ، أما أن تعظم بها شعائر الله فلا . لكن أكثر الناس جهال لا يدرون لماذا استلموا هذا الحجر ؟

ثم إن بقية الأركان : الركن الشامي ، والعراقي ، يعني الشمالي الشرقي والشمالي الغربي ، هذان الركنان لا يقبلان ولا يمسحان ، وذلك لأنهما ليسا على قواعد إبراهيم ^(٢) ، وذلك أن قريشاً لما أرادوا بناء الكعبة ، قالوا : لن نبنيها إلا بمال طيب ، لا نبنيها بأموال الربا ، وانظر كيف عظم الله بيته حتى على أيدي الكفار ، فجمعوا المال الطيب ، فلم يكف لبنائها على قواعد إبراهيم ، ثم فكروا من أي جانب

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٩٧) ، ومسلم في الحج (٢٥١) ، وأبو داود في مناسك الحج (١٨٧٣) .

(٢) راجع ذلك كله في : المغني (٣٧٠/٣ - ٣٧٢) ، الأم (١٨٦/٢ - ١٨٨) ، بدائع الصنائع (١٤٦/٢) ،

شرح فتح القدير (٤٤٨/٢) .

ينقصونها . قالوا : نقصها من الشمال ؛ لأن الجانب اليماني الجنوبي فيه الحجر الأسود ، ولا يمكن أن نقصها من جانب الحجر الأسود ، فنقصوها من هناك ، فلم تكن على قواعد إبراهيم ، ولذلك لم يقبل النبي - عليه الصلاة والسلام - ولم يمسح الركن الشمالي الشرقي ولا الركن الشمالي الغربي .

ولما طاف معاوية رضي الله عنه ذات سنة ، وكان معه عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، جعل معاوية يمسح الأركان الأربعة ؛ الحجر الأسود ، والركن اليماني ، والشمالي ، والغربي . فقال له ابن عباس : كيف تمسح الركنين الشماليين ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - لم يمسح إلا الركن اليماني والحجر الأسود ؟ فقال معاوية : إنه ليس شيء من البيت مهجورًا . يعني البيت كله يحترم ويعظم ، فقال ابن عباس رضي الله عنه - وهو أفاقه من معاوية - قال : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . وما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يمسح إلا الركنين اليمانيين ، يعني ركن الحجر والركن اليماني . فقال له معاوية : صدقت ورجع إلى قوله ^(١) . لأن الخلفاء فيما سبق وإن كانوا كالمملوك في الأبهة والعظمة ، لكنهم كانوا يرجعون إلى الحق ، ولهذا رجع معاوية رضي الله عنه إلى الحق ، وقال له : صدقت ، وترك مسح الركنين الشمالي الشرقي والشمالي الغربي .

وفي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف عن عمر رضي الله عنه : دليل علي جهالة أولئك القوم الذين نشاهدهم ، يقف أحدهم عند الركن اليماني فيمسح بيده ، ويكون معه طفل قد حمله ، فيمسح الطفل بيده يتبرك بالركن ، وكذلك لو تيسر له المسح على الحجر الأسود ، هذا لا شك أنه بدعة ، وأنه نوع من الشرك ، لأن هؤلاء جعلوا ما ليس سببًا سببًا ، والقاعدة : أن كل أحد يجعل شيئًا سببًا لشيء بدون إذن من الشارع فإنه يكون مبتدعًا ، ولهذا يجب على من رأى أحدًا يفعل هذا أن ينصحه ، يقول له : هذا غير مشروع ، هذا بدعة ، حتى لا يظن الناس أن الأحجار تنفع أو تضر ، ثم تتعلق قلوبهم بها في شيء أكبر وأعظم من هذا .

المهم : أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يئن أنه لا يفعل ذلك إلا اتباعًا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا فإنه يعلم أنه لا يضر ولا ينفع . وفي هذا : دليل على أن كمال التبعد أن ينقاد الإنسان لله عز وجل ، سواء عرف السبب والحكمة في المشروعية أم لم يعرف . فعلى المؤمن إذا قيل له افعل أن يقول : سمعنا وأطعنا ، إن عرفت الحكمة فهو نور على نور ، وإن لم تعرف فالحكمة أمر الله ورسوله . ولهذا قال الله في كتابه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . وسئلت عائشة رضي الله عنها لماذا تقضي الحائض الصوم ولا تقضي الصلاة ، فقالت : كان يصيبنا ذلك فتؤمر بقضاء الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة ^(٢) ، كأنها رضي الله عنها تقول : إن وظيفة المؤمن أن يعمل بالشرع ، سواء عرف الحكمة أم لم يعرفها ، وهذا هو الصواب .

(١) انظر تلك القصة فيما أخرجه البخاري في الحج (١٦٠٨) ، وأحمد في مسنده (٢١٧/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (٦٨) ، والبخاري في الحيض (٣٢١) ، والدارمي في الوضوء (١٠٢) ، وأحمد في مسنده (٣٢/٦ ، ٩٤) .

١٧ - باب وجوب الانقياد لحكم الله تعالى

وما يقوله من دعي إلي ذلك وامر بمعروف أو نهى عن منكر

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾ ^(١) [النساء : ٥٠] .
وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وفيه من الأحاديث حديث أبي هريرة المذکور في أول الباب قبله وغيره من الأحاديث فيه .

١٦٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَسَابِغْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ، ثم بزكوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والجهاد والصيام والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما اقترأها القوم ، وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله تعالى في إثرها : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ فلما فعلوا ذلك نسحها الله تعالى ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال : نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قال : نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال : نعم ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال : نعم ^(٢) . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله « باب وجوب الانقياد لحكم الله تعالى ثم ذكر آيتين سبق الكلام عليهما ،

(١) قوله ﴿ شَجَرَ ﴾ أي اختلط ، قوله ﴿ حَرَجًا ﴾ أي ضيقًا ، قوله ﴿ وَيُسَلِّمُوا ﴾ أي ينقادوا لحكمك .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٩) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٤١٢/٢) ، قوله « وذلت » أي انقادت بالاستسلام ، قوله « إصْرًا » أي أمرًا يثقل علينا حمله . قوله ﴿ وَسْعَهَا ﴾ أي قدر طاقتها . قوله ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي لها ثواب ما عملت من الخير . قوله ﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ أي عليها وزر ما فعلت من الشر . قوله ﴿ لَا تُؤَاخِذْنَا ﴾ أي لا تأخذنا بالعقاب . قوله ﴿ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ما ليس لنا قوة بتحملة من التكليف والبلاء . قوله ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أي سيدنا . قوله « قال : نعم » القول هنا منسوب إلى الله ﷻ وقد أورد الطبري في تفسيره للآية (٢٨٤) من سورة البقرة في رواية عن أبي هريرة « قال الله : نعم » وفي رواية أخرى عن ابن عباس « قال : قد فعلت » .

منهما قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الصحابة رضي الله عنهم لما أنزل الله على نبيه هذه الآية ﴿ وَإِنْ تُبْذَوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] . كبر ذلك عليهم وشق عليهم ذلك ؛ لأن ما في النفس من الحديث أمر لا ساحل له ، فالشيطان يأتي الإنسان ويحدثه في نفسه بأشياء منكرة عظيمة ، منها ما يتعلق بالأمور الدينية ، ومنها ما يتعلق بالأمور الدنيوية ، ومنها ما يتعلق بالنفس ، ومنها ما يتعلق بالمال . أشياء كثيرة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان . والله سبحك يقول : ﴿ وَإِنْ تُبْذَوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فإذا كان كذلك هلك الناس .

فجاء الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجثو على ركبهم ، فعلوا ذلك من شدة الأمر . والإنسان إذا نزل به أمر شديد يجثو على ركبته ، وقالوا : يا رسول الله إن الله تعالى أمرنا بما نطيق : الصلاة ، والجهاد ، والصيام ، والصدقة ، هذه نطيقها ، نصلي ، نجاهد ، نتصدق ، نصوم . لكنه أنزل هذه الآية : ﴿ وَإِنْ تُبْذَوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ . وهذه شديدة عليهم لا أحد يطيق أن يمتنع الإنسان نفسه عما تحدثه به من الأمور التي لو حوسب عليها لهلك .

فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا » أهل الكتابين هم اليهود والنصارى . اليهود كتابهم التوراة وهي أشرف الكتب المنزلة بعد القرآن . والنصارى كتابهم الإنجيل وهو متمم للتوراة . واليهود والنصارى عصوا أنبياءهم وقالوا : سمعنا وعصينا ، فهل تريدون أن تكونوا مثلهم ؟ « ولكن قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » . وهكذا يجب على المسلم إذا سمع أمر الله ورسوله أن يقول : « سمعنا وأطعنا » ويمثّل بقدر ما يستطيع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

كثير من الناس اليوم يأتي إليك يقول : إن الرسول أمر بكذا ، هل هو واجب أو سنة ؟ والواجب أنه إذا أمرك أن تفعل ؛ إن كان واجباً فقد أبرأت الذمة ، وحصلت خيراً ، وإن كان مستحباً فقد حصلت خيراً أيضاً . أما أن تقول : هو واجب أو مستحب ، وتتوقف عن العمل حتى تعرف ، فهذا لا يكون إلا من إنسان كسول لا يحب الخير ولا الزيادة فيه . أما الإنسان الذي يحب الزيادة في الخير ، فهو إذا علم أمر الله ورسوله قال : سمعنا وأطعنا ثم فعل ، ولا يسأل هو واجب أو مستحب ، إلا إذا خالف ، حيثئذ يسأل ، ولهذا لم نعهد ولم نعلم أن الصحابة كانوا إذا أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر قالوا : يا رسول الله أعلى سبيل الوجوب أم على سبيل الاستحباب ؟ ما سمعنا بهذا ، كانوا يقولون : سمعنا وأطعنا ويمشون .

فأنت افعل وليس عليك من كونه مستحباً أو واجباً ، ولا يستطيع الإنسان أن يقول : إن هذا الأمر مستحب أو واجب إلا بدليل ، والحجة أن يقول لك المفتي : هكذا أمر الرسول عليه الصلاة والسلام .

ونحن نجد ابن عمر رضي الله عنه لما حدث ابنه بلالاً قال : إن الرسول ﷺ قال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد » وقد تغيرت الحال بعد وفاة النبي - عليه الصلاة والسلام - قال بلال : « والله لنمنعنهم » فسبه عبد الله بن عمر سباً شديداً ^(١) ، لماذا يقول : والله لنمنعنهم والرسول يقول لا تمنعونهم ، ثم إنه هجره حتى مات . وهذا يدل على شدة تعظيم الصحابة لأمر الله ورسوله ، أما نحن فنقول هل هذا الأمر واجب أم مستحب ، هذا النهي للتحريم أم للكرهية ، لكن إذا وقع الأمر فلك أن تسأل حينئذ هل أثمت بذلك أم لا ، لأجل أنه إذا قيل لك : إنك آثم تجدد توبتك ، وإذا قيل إنك غير آثم يستريح قلبك ، أما حين يوجه الأمر فلا تسأل عن الاستحباب أو الوجوب ، كما كان أدب الصحابة مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - يفعلون ما أمر ويتركون ما عنه نهى وزجر .

لكن مع ذلك نحن نبشركم بحديث قال فيه النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم » ^(٢) . الحمد لله ، رفع الحرج ، كل ما حدثت به نفسك ، ولكنك ما ركنت إليه ، ولا عملت ، ولا تكلمت ، فهو مغفوق عنه ، حتى ولو كان أكبر من الجبال . فاللهم لك الحمد .

حتى إن الصحابة قالوا : يا رسول الله ، نجد في نفوسنا ما نحب أن تكون حُصَةً - يعني فحمة محترقة - ولا نتكلم به قال : « ذاك صريح الإيمان » ^(٣) يعني ذاك هو الإيمان الخالص ، لأن الشيطان ما يلقي مثل هذه الوسوس في قلب غريب ، في قلب فيه شك ، إنما يتسلط الشيطان - أعاذنا الله منه - على قلب مؤمن خالص ؛ ليفسده .

ولما قيل لابن عباس أو ابن مسعود : إن اليهود إذا دخلوا في الصلاة لا يوسوسون ، قال : وما يصنع الشيطان بقلب خراب . فاليهود كفار ، قلوبهم خربة ، فالشيطان لا يوسوس لهم عند صلاتهم ؛ لأنها باطلة من أساسها . الشيطان يوسوس للمسلم الذي صلاته صحيحة مقبولة ، ليفسدها ، يأتي للمؤمن صريح الإيمان ليفسد هذا الإيمان الصريح .

ولكن - والحمد لله - من أعطاه الله تعالى طب القلوب والأبدان - محمد ﷺ - وصف لنا لهذا طباً ودواءً ، فأرشد إلى الاستعاذة بالله والانتهاة ^(٤) ، فإذا أحس الإنسان بشيء من هذه الوسوس الشيطانية ، فإنه يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وليتته يعرض عنها ولا يلتفت إليها ، امض فيما أنت عليه ، فإذا رأى الشيطان أنه لا سبيل إلى إفساد هذا القلب المؤمن الخالص ، نكص على عقبيه ورجع .

ثم إنهم لما قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، ولانت لها نفوسهم ، وذلت لها ألسنتهم أنزل الله بعدها : ﴿ ءَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ يعني والمؤمنون آمنوا ﴿ كُلُّ

- (١) أخرجه مسلم (واللفظ له) في الصلاة (١٣٥) أبو عوانة في مسنده باب النهي عن منع النساء (٥٧/٢) .
- (٢) أخرجه البخاري في الأيمان والتذور (٦٦٦٤) ، ومسلم في الإيمان واللفظ له (٢٠٢) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠٩) .
- (٣) أخرجه مسلم (واللفظ له) في الإيمان (٢٠٩) ، وأحمد في مسنده (٤٤١/١) .
- (٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) (والحديث بمعناه) ، ومسلم في الإيمان (٢١٤) .

ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾ فبين الله ﷻ في هذه الآية الثناء عليهم وعلى رسوله وعلى المؤمنين ؛ لأنهم قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

ثم أنزل الله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ فالذي ليس في وسع الإنسان لا يكلفه الله به ، ولا حرج عليه فيه ، مثل الوسواس التي تهجم على القلب ، ولكن الإنسان إذا لم يركن إليها ، ولم يصدق بها ، ولم يرفع بها رأساً فإنها لا تضره ؛ لأن هذه ليست داخلة في وسعه ، والله ﷻ يقول : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ .

فقد يحدث الشيطان الإنسان في نفسه عن أمور فظيعة عظيمة ، ولكن الإنسان إذا أعرض عنها واستعاذ بالله من الشيطان ومنها ، زالت عنه ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال : نعم . يعني قال الله : نعم لا أوأخذكم إن نسيتم أو أخطأتم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال : نعم . ولهذا قال الله تعالى في وصف رسوله محمد ﷺ : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ^(١) [الأعراف: ١٥٧] ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال الله : نعم . ولهذا لا يكلف الله تعالى في شرعه ما لا يطيقه الإنسان ، بل إذا عجز عن الشيء انتقل إلى بدله إذا كان له بدل ، أو سقط عنه إن لم يكن له بدل ، أما أن يكلف ما لا طاقة له به فإن الله تعالى قال هنا : نعم ، يعني لا أحملكم ما لا طاقة لكم به ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال الله : نعم ، فاعف عنا واغفر لنا وارحمنا هذه ثلاث كلمات ، كل كلمة لها معنى ، واعف عنا يعني تقصيرنا في الواجب ، واغفر لنا يعني انتهاكنا للمحرم ، وارحمنا يعني وفقنا للعمل الصالح . فالإنسان إما أن يترك واجباً أو يفعل محرماً ، فإن ترك الواجب فإنه يقول : اعف عنا ، أي اعف عنا ما قصرنا فيه من الواجب ، وإن فعل المحرم ، فإنه يقول : اغفر لنا ، يعني ما اقترنا من الذنوب ، أو يطلب تبيئاً وتأيداً وتنشيطاً على الخير في قوله ﴿وَارْحَمْنَا﴾ ، فهذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى .

﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي متولي أمورنا في الدنيا والآخرة ، فنولنا في الدنيا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قد يتبادر للإنسان أن المراد أعداؤنا من الكفار ، ولكنه أعم حتى إنه يتناول الانتصار على الشيطان ؛ لأن الشيطان رأس الكافرين .

إذن نستفيد من هذه الآيات الكريمة الأخيرة أن الله ﷻ لا يحملنا ما لا طاقة لنا به ، ولا يكلفنا إلا وسعنا ، وأن الوسواس التي تجول في صدورنا إذا لم نركن إليها ولم نطمئن إليها ولم نأخذ بها ، فإنها لا تضر .

(١) قوله ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكالييف الشاقة التي تشبه الأغلال كالقصاص من القاتل : عمداً كان القتل أو خطأ ، وكقتل النفس في التوبة .

٨ - باب النهي عن البدع ومحدثات الأمور

قال الله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَدَأَ الْحَقُّ إِلَّا الصَّلَاحَ ﴾ [يونس : ٣٢] وقال تعالى : ﴿ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ قَرَّدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالْمُسُولُ ﴾ [النساء : ٥٩] أي : الكتاب والسنة . وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ^(١) [الأنعام : ١٥٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - (باب النهي عن البدع ومحدثات الأمور) والبدع هي الأشياء التي يتبدعها الإنسان ، وهذا هو معناها في اللغة العربية ، ومنه قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١١٧] ، أي خالقهما على غير مثال سبق ، يعني لم يسبق لهما نظير ، بل ابتدعهما وأنشأهما أولاً . والبدعة في الشرع كل من تعبد لله ﷻ بغير ما شرع عقيدة أو قولاً أو فعلاً ، فمن تعبد لله بغير ما شرعه الله من عقيدة أو قول أو فعل فهو مبتدع .

فإذا أحدث الإنسان عقيدة في أسماء الله وصفاته مثلاً فهو مبتدع ، أو قال قولاً لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع ، أو فعل فعلاً لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع .

وليعلم أن الإنسان المبتدع يقع في محاذير كثيرة ؛ أولاً : أن ما ابتدعه فهو ضلالة بنص القرآن والسنة ، وذلك أن ما جاء به النبي ﷺ فهو الحق ، وقد قال الله تعالى ﴿ فَمَاذَا بَدَأَ الْحَقُّ إِلَّا الصَّلَاحَ ﴾ [يونس : ٣٢] ، هذا دليل القرآن ، ودليل السنة قوله ﷺ : « كل بدعة ضلالة » ^(٢) ، ومعلوم أن المؤمن لا يختار أن يتبع طريق الضالين الذين يتبرأ منهم المصلي في كل صلاة ﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ [الفاتحة : ٦٠] .

ثانياً : أن في البدعة خروجاً عن اتباع النبي ﷺ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فمن ابتدع بدعة يتعبد لله بها فقد خرج عن اتباع النبي ﷺ ، لأن النبي ﷺ لم يشرعها ، فيكون خارجاً عن شرعة الله فيما ابتدعه .

ثالثاً : أن هذه البدعة التي ابتدعها تنافي تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله ، لأن من حقق شهادة

(١) قوله ﴿ مَا قَرَّطْنَا ﴾ أي ما تركنا في الكتاب من شيء إلا وذكرناه والكتاب قيل : اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث ، وقيل : أي القرآن أي ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن ، قوله ﴿ صِرَاطِي ﴾ أي طريقي ، قوله ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ أي الأمور المحدثنة التي لا ترجع إلى كتاب أو سنة ، وهي البدع والشبهات ، قوله ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي بعيداً عن دين الله .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (مثلاً) صلاة الجمعة (٤٣) ، وهنا جزء من حديث ، وابن ماجه في المقدمة (٤٢) ، وأحمد في مسنده (٣١٠/٣) .

أن محمداً رسول الله فإنه لا يخرج عن التعبد بما جاء به ، بل يلتزم شريعته ولا يتجاوزها ولا يقصر عنها ، فمن قصر في الشريعة أو زاد فيها فقد قصر في اتباعه ، إما بنقص أو بزيادة ، فحينئذ لا يحقق شهادة أن محمداً رسول الله .

رابعاً : أن مضمون البدعة الطعن في الإسلام ، فإن الذي يتدع يتضمن بدعته أن الإسلام لم يكمل ، وأنه كمل الإسلام بهذه البدعة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْنْتُ عَلَيْكُمْ فَعَمِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] فيقال لهذا المبتدع : أنت الآن أتيت بشريعة غير التي كمل عليها الإسلام ، وهذا يتضمن الطعن في الإسلام وإن لم يكن الطعن فيه باللسان ، لكن الطعن فيه هنا بالفعل ، أين رسول الله ﷺ ، ثم أين الصحابة عن هذه العبادة التي ابتدعتها ؟ أهم في جهل منها ؟ أم في تقصير عنها ؟ إذن فهذا يكون طعنًا في الشريعة الإسلامية .

خامساً : أنه يتضمن الطعن في رسول الله ﷺ وذلك لأن هذه البدعة التي زعمت أنها عبادة إما أن يكون الرسول ﷺ لم يعلم بها ، وحينئذ يكون جاهلاً ، وإما أن يكون قد علم بها ولكنه كتمها وحينئذ يكون كاتمًا للرسالة أو لبعضها ، وهذا خطير جدًا .

سادساً : أن البدعة تتضمن تفريق الأمة الإسلامية ؛ لأن الأمة الإسلامية إذا فتح الباب لها في البدع صار هذا يتدع شيئًا ، وهذا يتدع شيئًا ، وهذا يتدع شيئًا كما هو الواقع الآن فتكون الأمة الإسلامية : كل حزب منها بما لديه فرح كما قال تعالى ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٢] كل حزب يقول الحق معي ، والضلال مع الآخر ، وقد قال الله لنبيه ﴿ إِنَّا الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَنَا اللَّهُ إِلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ فَإِنَّمَا ابْتَغَىٰ وَجْهَهُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ بَالِغِينَ فِي الْمُنَافِقَةِ وَالْمُتَكِبِينَ فِي الْكَذِبِ وَأُولَٰئِكَ يَكُونُ لَكَ مِنْهُمْ أُجْرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴾ [النعام : ١٥٩ ، ١٦٠] .

فإذا صار الناس يتدعون البدع تفرقوا وصار كل واحد يقوله الحق معي ، وفلان ضال مقصر ، ويرميه بالكذب والبهتان وسوء القصد وما أشبه ذلك .

ونضرب لهذا مثلاً بأولئك الذين ابتدعوا عيد ميلاد الرسول - عليه الصلاة والسلام - وصاروا يحتفلون بما يدعون أنه اليوم الذي ولد فيه ، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، أتدرون ماذا يقولون لمن لا يفعل هذه البدعة ؟ يقولون هؤلاء يبغضون الرسول ويكرهونه ، ولهذا لم يفرحوا بمولده ، ولم يقيموا له احتفالاً ، وما أشبه ذلك فتجدهم يرمون أهل الحق بما هم أحق به منهم .

والحقيقة أن المبتدع بدعته يتضمن أنه يبغض الرسول ﷺ وإن كان يدعي أنه يحبه ، لأنه إذا ابتدع هذه البدعة والرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يشرعها للأمة ، فهو كما قلت سابقاً إما جاهل وإما كاتم .

سابعاً : أن البدعة إذا انتشرت في الأمة اضمحلت السنة ؛ لأن الناس يعملون ؛ فإما بخير وإما بشر ، ولهذا قال بعض السلف : ما ابتدع قوم بدعة إلا أضعافوا من السنة مثلها ، يعني أو أشد . فالبدع تؤدي إلي نسيان السنن وضمحلها بين الأمة الإسلامية .

وقد يتدع بعض الناس بدعة بنية حسنة ، لكنه يكون قد أحسن في قصده وأساء في فعله ، ولا مانع أن يكون القصد حسناً والفعل سيئاً ، ولكن يجب على من علم أن فعله سيء أن يرجع عن فعله ، وأن يتبع السنة التي جاء بها رسول الله ﷺ .

ومن المفسد أيضاً : أن المبتدع لا يحكم الكتاب والسنة لأنه يرجع إلى هواه فيحكمه ، وقد قال الله تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَرْعَوْا شِعْرَ اللَّهِ وَالْحَرْبُ لَآتِيكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَتُضْمَّوْنَ إِلَيْهَا فَتُكَذِّبُونَ اللَّهَ بِمَا قَدْ كَذَّبَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمُ فَسُيِّرَ بِكُلٍّ مِنْهُمْ قَبِيلٌ ﴾ [النساء : ٥٩] (إلى الله) أي كتابه ﷻ ، (والرسول) أي : إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته - صلوات الله وسلامه عليه - .

* * *

١٦٩ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَخَذَتْ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » متفق عليه .

وفي رواية لمسلم : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » (١) .

الشرح

أما حديث عائشة هذا : فهو نصف العلم ، لأن الأعمال إما ظاهرة وإما باطنة ، فالأعمال الباطنة ميزاتها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأن النبي ﷺ قال : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ . وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » (٢) ، وميزان الأعمال الظاهرة حديث عائشة هذا « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » أي : مردود على صاحبه غير مقبول منه .

وقول (أمرنا) المراد به : ديننا وشرعنا ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] فأمر الله المراد به في هذا الحديث شرع الله ، من أحدث فيه ما ليس منه فهو رد ، في هذا : دليل واضح على أن العبادة إذا لم نعلم أنها من دين الله فهي مردودة ، ويستفاد من هذا : أنه لا بد من العلم ، لأن العبادة مشتملة على الشروط والأركان ، أو غلبة الظن إذا كان يكفي عن العلم ، كما في بعض الأشياء ، مثلاً الصلاة إذا شككت في عددها وغلب على ظنك عدد فائز على ما غلب على ظنك ، الطواف بالبيت سبعة أشواط وإذا غلب على ظنك عدد فائز على ما غلب على ظنك ، كذلك الطهارة إذا غلب على ظنك أنك أسبغت الوضوء كفى .

فالهم : أنه لا بد من العلم أو الظن إذا دلت النصوص على كفايته وإلا فالعبادة مردودة . وإذا كانت العبادة مردودة فإنه يحرم على الإنسان أن يتعبد لله بها ، لأنه إذا تعبد لله بعبادة لا يرضاها ولم يشرعها لعباده صار كالمستهزئ بالله والعياذ بالله .

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأقضية (واللفظ له) (١٧) ، وابن ماجه في المقدمة (١٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٤٠/٦) .

(٢) أخرجه البخاري (واللفظ له) في بدء الوحي (١) ، ومسلم في الإمارة (١٥٥) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧) ، وأحمد في مسنده (٢٥/١) .

حتى إن بعض العلماء قال : إن الإنسان إذا صلى محدثاً متعمداً خرج من الإسلام ، لأنه مستهزئ ، بخلاف الناسي فإنه لا إثم عليه ويعيد ^(١) .

وفي اللفظ الثاني « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ^(٢) وهو أشد من الأول ، لأن قوله « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا » يعني لا بد أن نعلم بأن كل عمل عملنا عليه أمر الله ورسوله وإلا فهو مردود ، وهو يشمل العبادات ويشمل المعاملات ، ولهذا لو باع الإنسان بيعاً فاسداً ، أو رهن رهناً فاسداً أو أوقف وقفاً فاسداً ، فكله غير صحيح ومردود على صاحبه ولا ينفذ .

* * *

١٧٠ - وعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب اَحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ ، وَعَلَا صَوْتُهُ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ : « صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ » وَيَقُولُ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وَيَقْرُنُ بَيْنَ أَصْبُعَيْهِ ، السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى ، وَيَقُولُ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا ، وَكُلُّ يَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » ثُمَّ يَقُولُ : « أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ، مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلْأَهْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ » ^(٣) رواه مسلم .

وعن العزباض بن سارية رضي الله عنه حَدِيثُهُ السَّابِقُ فِي بَابِ الْحَافَظَةِ عَلَى الشَّيْءِ .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في باب التحذير من البدع ، قال : كان النبي ﷺ (إذا خطب) يعني : يوم الجمعة ، (احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه) وإتما كان يفعل هذا لأنه أقوى في التأثير على السامع ، فكان ﷺ يكون على هذه الحال للمصلحة ، وإلا فإنه من المعلوم أنه ﷺ كان أحسن الناس خلقاً وألينهم عريكة ، لكن لكل مقام مقال فالخطبة ينبغي أن تحرك القلوب ، وتؤثر في النفوس وذلك في موضوعها ، وفي كيفية أدائها .

وكان ﷺ يقول « بعثت أنا والساعة كهاتين » ^(٤) ويقرن بين السبابة والوسطى ، يعني بين الإصبعين ، السبابة - وهي التي بين الوسطى والإبهام - والوسطى ، وأنت إذا قرنت بينهما وجدتهما متجاورتين ، ووجدت أنه ليس بينهما إلا فرق يسير ، ليس بين الوسطى والسبابة إلا شيء يسير مقدار

(١) كل حدث ينقض الطهارة - بعد أو نسيان - فإنه متى وجد بغلبة أو يكره أو بنسيان في الصلاة فهو ينقض الطهارة والصلاة ممّا يلزمه ابتداءها ، وما ورد سابقاً فهو من كلام الشيخ . (الحلى لابن حزم ١٥٣/٢) .

(٢) هذه الرواية لمسلم في الأقضية (١٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) ، وابن ماجه في المقدمة (٤٥) ، قوله « محدثاتها » أي ما لم يكن في كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا أصل له فيها

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٥) ، ومسلم في الفتن (١٣٥) ، والترمذي في الفتن (٢٢١٤) ، وأحمد في مسنده (١٢٤/٣) .

الظفر أو نصف الظفر ، والمعنى أن أجل الدنيا قريب وأنه ليس ببعيد ، وهذا كما فعل ﷺ ذات يوم حيث خطب الناس في آخر النهار ، والشمس على رؤوس النخل ، فقال : « إنه لم يبق من دنياكم إلا مثل ما بقي من هذا اليوم » (١) .

فإذا كان الأمر كذلك والنبي ﷺ الآن مات له ألف وأربعمائة سنة ولم تقم القيامة دل هذا على أن الدنيا طويلة الأمد ، ولكن ما يقدره بعض الجيولوجيين من عمر الدنيا الماضي بملايين الملايين فهذا خرس (٢) ، لا يُصَدَّق ولا يُكذَّب ، فهو كأخبار بني إسرائيل ، لأنه ليس لدينا علم من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ في مقدار ما مضى من الدنيا ، ولا في مقدار ما بقي منها على وجه التحديد ، وإنما هو كما ضرب النبي ﷺ هذه الأمثال ، والشيء الذي ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة وهو من أخبار ما مضى ، فإنه ليس مقبولا ، وإنما ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما شهد الشرع بصدقه ، فهذا يُقبل لشهادة الشرع به .

والثاني : ما شهد الشرع بكذبه فهذا يُرد لشهادة الشرع بكذبه .

والثالث : ما ليس فيه هذا ولا هذا ، فهذا يتوقف فيه ، إما أن يكون حقا وإما أن يكون باطلا ، ويدل لهذا قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم : ٩] ، فإذا حَصَرَ الْعِلْمُ - جل وعلا - في نفسه فإنه لا يتلقى علم هؤلاء إلا من وحيه ﷻ ، لا يعلمهم إلا الله ، فأى أحد يدعي شيئا فيما مضى مما يتعلق بالبشرية أو بطبيعة الأرض أو الأفلاك أو غيرها فإننا لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نقسم ما أخبر به إلى الأقسام الثلاثة السابقة .

أما المستقبل فالمستقبل ينقسم أيضًا إلى :

أولاً : ما أخبر الشرع بوقوعه ، فهذا لا بد أن يقع ، مثل أخبار يأجوج ومأجوج ، وأخبار الدجال ، ونزول عيسى بن مريم وأشباه ذلك ، مما ثبت في الكتاب والسنة .

والثاني : ما لم يرد به كتاب ولا سنة ، فهذا القول فيه من التخمين والظن ، بل لا يجوز لأحد أن يصدقه فيما يستقبل لأنه من علم الغيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله ﷻ .

فالحاصل : أن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقارب السبابة والوسطى ، والسبابة هي الإصبع الذي بين الإبهام والوسطى ، وتسمى السبابة لأن الإنسان إذا أراد أن يسبّ أحدًا أشار إليه بها ، وتسمى السبّاحة أيضًا لأن الإنسان عند الإشارة إلى تعظيم الله ﷻ يرفعها ، ويشير بها إلى السماء .

ثم يقول « أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ، وقد سبق الكلام علي هذه الجمل .

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٩١) ، وأحمد في مسنده (١٩/٣) .

(٢) خرس : كذب ، تخوُّص : تكذب بالباطل .

ثم يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه » كما قال ربه ﷻ ﴿ أَنْتَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] فهو أولى بك من نفسك ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم - عليه الصلاة والسلام - ثم يقول « من ترك مالا لأهله » يعني من ترك من الأموات مالا لأهله ؛ يرثونه حسب ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، « ومن ترك ديناً أو ضياعاً » ، يعني أولاداً صغاراً يضيعون « فإلي وعلي » ، يعني فأمرهم إلي ، وأنا وليهم ، والدين علي أنا أقضيه ، هكذا كان ﷺ حينما فتح الله عليه .

أما قبل ذلك فكان يؤتى بالرجل ليصلي عليه فيسأل : « هل عليه دين ؟ » إن قالوا نعم وليس له وفاء ترك الصلاة عليه ، فجاء إليه في يوم من الأيام برجل من الأنصار فتقدم ليصلي عليه ، ثم سأل عليه دين ؟ قالوا : نعم ثلاثة دنائير ، فتأخر وقال صلوا على صاحبكم ، فعرف ذلك في وجوه القوم . ثم قام أبو قتادة ﷺ وقال : صل عليه يا رسول الله وعلي دينه ، فالتزمهم أبو قتادة ﷺ ، فتقدم النبي ﷺ فصلى (١) . وفي هذا : دليل على عظم الدين ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يستدين إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك ؛ لا يستدين لا لزواج ، ولا لبناء بيت ، ولا لكفايات في البيت ، كل هذا من السفه ، يقول الله ﷻ ﴿ وَلَسْتَ مَعِفَّ الْأَلْبَانِ لَا يَحِلُّونَ نِكَاحًا حَتَّى يُفْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [البور : ٣٣] ، هذا النكاح فما بالك بما هو دونه بكثير !؟ .

وكثير من الجهال يستدين ليشتري مثلاً : فِرًا للدرج (٢) أو فراش للساحة أو باب للجراج يفتح بالكهرباء أو ما أشبه ذلك ، مع أنه فقير ، ويأخذه بالدين فهو إن اشترى شيئاً بضمن مؤجل فهو دين ، لأن الدين عند العلماء كل ما ثبت في الذمة من ثمن بيع أو قرض أو أجرة أو غير ذلك ، فإياكم والديون احذروها فإنها تهلككم ، إلا شيء ضروري فهذا شيء آخر ، لكن ما دمت في غنى لاتستدن . وكثير من الناس يستدين مثلاً أربعين ألفاً ، فإذا حل الأجل قال : ليس عندي شيء ، فيستدين للأربعين ألفاً التي عليه ستين ألفاً ، ثم يستدين السنة التالية ، ثم تتراكم عليه الديون الكثيرة من حيث لا يشعر .

١٩ - باب فيمن سنَّ سنَّه حسنة أو سيئة

قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء : ٧٣] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الباب للتحذير من البدع ، وليبين أن من الأشياء ما يكون أصله ثابتاً ، فإذا فعله الإنسان وكان أول من يفعله كان كمن سنه وصار له أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة .

(١) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٩) .

(٢) فراش للدرج أو فراش للدرج ، الدرج الأولى هي السلم من فدرج بمعنى صعد ، والثانية هي صندوق يدخل في ثنايا المكتب .

وقد سبق لنا أن الدين الإسلامي - والله الحمد - كامل ، لا يحتاج إلى تكميل ، ولا إلى بدع ، لأن الله تعالى قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .
ثم استشهد المؤلف بآيتين من كتاب الله ، أولاهما قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، هذا من جملة ما يدعو به عباد الرحمن ، الذين ذكر الله أوصافهم في آخر سورة الفرقان ﴿ وَعِساؤُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى أن قال ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٤] .

(هب لنا) يعني : أعطنا ، و (الأزواج) جمع زوج ، وهو صالح للذكر والأنثى ، فالزوجة تسمى زوجًا ، والزوج الذكر يسمى زوجًا ، ولهذا تجددون في الأحاديث و يربكم : وعن عائشة زوج النبي ﷺ ، وهذه هي اللغة الفصحى ، أن المرأة تسمى زوجًا ، لكن أهل الفرائض - رحمهم الله - جعلوا للرجل زوج وللمرأة زوجة ، من أجل التفريق عند قسمة الموارث ، أما في اللغة العربية فالزوج صالح للذكر والأنثى .
فهذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ كما هو صالح للرجال صالح للنساء أيضًا .
(وقرة العين) في المرأة أنك إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك و في ولدك ، وإذا بحثت عنها وجدتها قانتة لله ﴿ فَأَمَّا لَبِثْتُ لَقَدْ نَنَيْتُكَ فَحَفِظْتُكَ لِلْغَيْبِ يَمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (١)
[النساء: ٣٤] ، فهذه تسر زوجها .

وكذلك أيضًا الذرية إذا جعلهم الله تعالى قرة عين للإنسان ، يطيعونه إذا أمر ، ويتنهون عما نهاهم عنه ، ويسرونه في كل مناسبة ، ويصلحون ، فهذا من قرة الأعين للمتقين .
والجملة الأخيرة : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ هي الشاهد لهذا الباب ، يعني اجعلنا للمتقين أئمة ، يقتدي بنا المتقون في أفعالنا وأقوالنا ، فيما نفعل وفيما نترك ، فإن المؤمن ولاسيما أهل العلم يقتدي بهم ؛ بأقوالهم وأفعالهم ، ولهذا تجد العامة إذا أمرتهم بشيء أو نهيتهم عن شيء ، قالوا هذا فلان يفعل كذا وكذا ، ممن جعلوه إمامًا لهم .

والأئمة تشمل الأئمة في الدين الذي هو العبادة الخاصة بالإنسان ، والأئمة في الدعوة ، وفي التعلم ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شعائر الدين وشرائعه ، اجعلنا للمتقين إمامًا في كل شيء .
أما الآية الثانية فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرًا ﴾ أي صيرناهم أئمة علماء يهدون الناس ، أي : يدلونهم على دين الله بأمر الله ﷻ ، ولكن لیت المؤلف ذكر آخر الآية (٢) ، لأن الله بين أنه جعلهم أئمة بسبب ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] لما صبروا على

(١) في هذه الآية تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل ، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن ، قائمات بما عليهن من حقوق ، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن يحفظن ما يجرى بينهن وبين أزواجهن فلا يفشينه .
(٢) يلاحظ أن النووي يتحدث عن آية الأنبياء ، على حين يتحدث الشيخ هنا عن آية السجدة ، فليسا آية واحدة ، بل هما آيتان .

طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله ، وصبروا على أقدار الله ؛ صبروا على طاعة الله ففعلوا ما أمر ، وصبروا عن معصية الله فتركوا ما نهى عنه ، وصبروا على أقدار الله التي تأتيهم من أجل دعوتهم إلى الحق وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، لأن الإنسان إذا نصب نفسه داعية للحق أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ، فلا بد أن يصيبه من الأذى ما يصيبه ، لأن أكثر الذين يكرهون الحق سوف يكونون أعداء له فليصبر ، وكذلك أقدار الله التي تأتي بدون هذا أيضاً يصبرون عليها .

﴿ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِإِيمَانِنَا يُوقِنُونَ ﴾ يوقنون بما أخبر الله به ، ويوقنون بالجزاء الذي يحصل لهم في فعل الأوامر وترك النواهي ، وفي الدعوة إلى الله ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أي أنهم يعملون وهم يوقنون بالجزاء ، وهذه نقطة ينبغي لنا أن ننتبه لها ، أن نعمل ونحن نوقن بالجزاء ، وكثير من الناس يعملون ؛ يصلون ويصومون ويتصدقون بناءً على أن هذا أمر الله ، وهذا طيب ولا شئ أنه خير ، لكن ينبغي أن تدرك وأن تستحضر بأنك إنما تفعل هذا رجاء الثواب . وخوف العقاب ، حتى تكون موقناً بالآخرة .

وقد أخذ شيخ الإسلام رحمه الله من هذه الآية عبارة طيبة ، فقال : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ^(١) . أخذها من قوله تعالى : ﴿ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِإِيمَانِنَا يُوقِنُونَ ﴾ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . أسأل الله أن يجعلني وإياكم أئمة في دين الله ، هداة لعباد الله مهتدين ، إنه جواد كريم .

* * *

١٧١ - عَنْ أَبِي عَمْرٍو ، جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : « كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ غَرَاةٌ مُجْتَائِي النَّمَارِ ، أَوْ الْعَبَاءُ ، مُتَقَلِّدِي الشُّيُوفِ ، غَامِثُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ ، بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ ، فَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ، والآية الأخرى التي في آخر الحشر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِإِنْفُسِهَا تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرٍّ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ ، حَتَّى قَالَ : وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ﴾ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجَزُ عَنْهَا ، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهَا شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » ^(٢) رواه مسلم .

قوله « مُجْتَائِي النَّمَارِ » هُوَ بِالْجِيمِ وَبَعْدَ الْأَلِفِ بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ . وَالنَّمَارُ : جَمْعُ نَمْرَةٍ ، وَهِيَ : كِبْسَاءٌ مِنْ صُوفٍ مُخَطَّطٌ ، وَمَعْنَى « مُجْتَائِيهَا » أَي : لَا يَسِيحُهَا قَدْ خَرَقُوهَا فِي رُؤُوسِهِمْ . « وَالْجَوْبُ » : الْقَطْعُ ،

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٩/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) واللفظ له ، وأحمد في مسنده (٣٥٩/٤) ، قوله ﴿ رَقِيبًا ﴾ أي حافظاً لأعمالكم .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَمُودَ الَّذِي جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْكُودِ ﴾ أي : نَحَثُوهُ وَقَطَعُوهُ . وَقَوْلُهُ « تَمَرَّ » هو بالعين المهملة ، أي : تَغَيَّرَ . وَقَوْلُهُ : « رَأَيْتَ كَوْمَيْنِ » بفتح الكاف وضمتها ، أي : ضُبْرَتَيْنِ . وَقَوْلُهُ : « كَانَتْهُ مُذْهَبَةً » هو بالذال المعجمة ، وفتح الهاء والباء الموحدة . قَالَهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ وَغَيْرُهُ . وَصَحَّفَهُ يَغْضُهُمْ فَقَالَ : « مُذْهَنْةً » بِذالٍ مهملةٍ وضم الهاءِ والنون ، وَكَذَا ضَبَطَهُ الْحَمِيدِيُّ ، وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ . وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ : الصَّفَاءُ وَالِاسْتِنَارَةُ .

١٧٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى اثْنَيْنِ أَدَمَ الْأَوَّلِ يَكْفُلُ مِنْ دِمَهِمَا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في باب من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ، وهو حديث عظيم يتبين منه حرص النبي صلى الله عليه وسلم وشقيقته على أمته - صلوات الله وسلامه عليه - فينبغي أن يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول النهار إذا جاء قوم عامتهم من مضر أو كلهم من مضر ، معجتي النمار ، متقلدي السيوف رضي الله عنهم ، يعني أن الإنسان ليس عليه إلا ثوبه قد اجتنبه يستر به عورته ، وقد ربطه على رقبته ، ومعهم السيوف استعدادًا لما يؤمرون به من الجهاد رضي الله عنهم .

فتمعر وجه النبي صلى الله عليه وسلم يعني تغير وتلون لما رأى فيهم من الحاجة ، وهم من مضر ، من أشرف قبائل العرب ، وقد بلغت بهم الحاجة إلى هذا الحال ، ثم دخل بيته ثم خرج ثم أمر بلالا فأذن ثم صلى ثم خطب الناس - عليه الصلاة والسلام - فحمد الله صلى الله عليه وسلم كما هي عادته ، ثم قرأ قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ رِجْلَيْهَا رَجُلًا وَنَسَاءً وَأْتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] .

ثم حث على الصدقة ، فقال « تصدق رجل بديناره تصدق بدرهمه ، تصدق بثوبه ، تصدق بصاع بره ، تصدق بصاع تمره ، حتى ذكر ولو شق تمره » وكان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على الخير ، وأسرعهم إليه ، وأشدهم مسابقة ، فخرجوا إلى بيوتهم فجاءوا بالصدقات ، حتى جاء رجل بصرة معه في يده كادت تعجز يده عن حملها ، بل قد عجزت من فضة ثم وضعها بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثم رأى - : أي جرير راوي الحديث - كومين من الطعام والثياب وغيرها قد جمع في المسجد ، فصار وجه النبي - عليه الصلاة والسلام - بعد أن تمر ، ضار يتلهل كانه مذهبة ، يعني من شدة بريقه ولمعانه وسروره عليه الصلاة والسلام لما حصل من هذه المسابقة التي فيها سد حاجة هؤلاء الفقراء ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٢١) ، ومسلم في القسامة (٢٧) ، قوله « كفل » أي نصيب ، هذا الحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بالتعليق عليه لأن معناه وضحه في شرح الحديث قبله .

« مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » .

والمراد بالسنة في قوله ﷺ « من سن في الإسلام سنة حسنة » ابتداء العمل بسنة ، وليس من أحدث ، لأن من أحدث في الإسلام وما ليس منه فهو رد وليس بحسن ، لكن المراد بمن سنّها أي صار أول من عمل بها ؛ كهذا الرجل الذي جاء بالصدقة ﷺ ، فدل هذا على أن الإنسان إذا وفق لسن سنة حسنة في الإسلام ، سواء بادر إليها أو أحيّاها بعد أن أميتت .
وذلك لأن السنة في الإسلام ثلاثة أقسام :

سنة سيئة : وهي البدعة ، فهي سيئة وإن استحسنتها من سنّها ، لقول النبي ﷺ « كل بدعة ضلالة » (١) .
وسنة حسنة : وهي على نوعين :

النوع الأول : أن تكون السنة مشروعة ثم يترك العمل بها ثم يجددها من يجددها ، مثل قيام رمضان بإمام ، فإن النبي ﷺ شرع لأمته في أول الأمر الصلاة بإمام في قيام رمضان ، ثم تخلف خشية أن تفرض على الأمة ، ثم ترك الأمر في آخر حياة النبي ﷺ ، وفي عهد أبي بكر ﷺ وفي أول خلافة عمر ، ثم رأى عمر ﷺ أن يجمع الناس على إمام واحد ففعل ، فهو ﷺ قد سنّ في الإسلام سنة حسنة ، لأنه أحيّا سنة كانت قد تُركت .

والنوع الثاني : من السنن الحسنة أن يكون الإنسان أول من يبادر إليها ، مثل حال الرجل الذي بادر بالصدقة حتى تتابع الناس ووافقوه على ما فعل .

فالخلاصة أن من سنّ في الإسلام سنة حسنة ، ولا سنة حسنة إلا ما جاء به الشرع فله أجرها . وأجر من عمل بها من بعده .

وقد أخذ هذا الحديث : أولئك القوم الذين يتتبعون في دين الله ما ليس منه ، فيبتدعون أذكاءً ويتتبعون صلوات ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم يقولون هذه سنة حسنة ، نقول : لا ، كل بدعة ضلالة وكلها سيئة ، وليس في البدع من حسن ، لكن المراد في الحديث من سابق إليها وأسرع ، كما هو ظاهر السبب في الحديث ، أو من أحيّاها بعد أن أميتت فهذا له أجرها وأجر من عمل بها .

وفي هذا الحديث : الترغيب في فعل السنن التي أميتت وتُركت وهُجرت ، فإنه يكتب لمن أحيّاها أجرها وأجر من عمل بها ، وفيه التحذير من السنن السيئة ، وأن من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، حتى لو كانت في أول الأمر سهلة ثم توسعت ، فإن عليه وزر هذا التوسع ، مثل لو أن أحدًا من الناس رخص لأحد في شيء من المباح الذي يكون ذريعة واضحة إلى الحرم وقريبًا ، فإنه إذا توسع الأمر بسبب ما أفتى به الناس فإن عليه الوزر ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة نعم ، لو كان الشيء مباحًا ولا يخشى منه أن يكون ذريعة إلى محرم ، فلا بأس للإنسان أن يبينه للناس ، كما

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) وقد سبق تخريجه قريبًا .

لو كان الناس يظنون أن هذا الشيء محرم وليس بمحرم ، ثم يبينه للناس من أجل أن يتبين الحق ، ولكن لا يخشى عاقبته فهذا لا بأس به ، أما شيء تُخشى عاقبته ، فإنه يكون عليه وزره ووزر من عمل به .

٢٠ - باب الدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة

قال تعالى : ﴿ وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧] . وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَنَادُوا عَلَىٰ آلِهِ وَالْقَوِّيَّ ﴾ (١) [المائدة: ٢] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الدلالة على الخير والدعوة إليه) الدلالة على الخير يعني أن يبين الإنسان للناس الخير الذي ينتفعون به في أمور دينهم ودنياهم ، ومن دل على خير فهو كفاعله (٢) ، وأما الدعوة إليه فهي أحص من الدلالة ، لأن الإنسان قد يدل فيبين ولا يدعو ، فإذا دعا كان هذا أكمل وأفضل ، والإنسان مأمور بالدعوة إلى الخير أي الدعوة إلى الله ﷻ ، كما قال تعالى ﴿ وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وآخر الآية : ﴿ إِنَّكَ لَمَلِكٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم مَّا يَنْتَهِونَ ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [١٠٤، ١٠٥] . قال عمران : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [١٠٤، ١٠٥] . فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على أن الإنسان ينبغي له أن يكون داعيًا إلى الله ، ولكن لا يمكن أن تتم الدعوة إلا بعلم الإنسان بما يدعو إليه ، لأن الجاهل قد يدعو إلى شيء يظنه حقًا وهو باطل ، وقد ينهى عن شيء يظنه باطلاً وهو حق ، فلا بد من العلم أولاً فيتعلم الإنسان ما يدعو إليه .

وسواء كان عالماً متبحراً فاهماً في جميع أبواب العلم ، أو كان عالماً في نفس المسألة التي يدعو إليها ، يعني ليس بشرط أن يكون الإنسان عالماً متبحراً في كل شيء ، بل لنفرض أنك تريد أن تدعو الناس إلى إقام الصلاة ، فإذا فقهت أحكام الصلاة وعرفتها جيداً فادعوا إليها وإن كنت لا تعرف غيرها من أبواب العلم ، لقول النبي ﷺ « بلغوا عني ولو آية » (٣) .

ولكن لا يجوز أن تدعو بلا علم أبداً لأن ذلك فيه خطر ؛ خطر عليك أنت وخطر على غيرك ، أما خطره عليك فلأن الله حرم عليك أن تقول على الله ما لا تعلم ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَىٰ

(١) قوله ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ أي دين ربك ، قوله ﴿ بِالْحُكْمَةِ ﴾ أي : القرآن . قوله ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ أي : القول الحسن الطيب .

(٢) هذا معنى حديث أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢٧/١٧) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (١٦٦/١) .

(٣) أخرجه البخاري (والفظله) في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) ، والترمذي في العلم (٢٦٦٩) ، وأحمد في مسنده (١٥٩/٢) .

﴿لَا تَتَّبِعْ مَا تَدْعُو﴾ (١) [الأعراف: ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ، أي : لا تتبع ما ليس لك به علم ، فإنك مسؤول عن ذلك ، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

ولابد أيضًا من أن يكون الإنسان حكيماً في دعوته ، ينزل الأشياء في منازلها ، ويضعها في مواضعها ، فيدعو الإنسان المقبل إلى الله ﷻ بما يناسبه ، ويدعو الإنسان المعرض بما يناسبه ، ويدعو الإنسان الجاهل بما يناسبه ، كل أناس لهم دعوة خاصة حسب ما يليق بحالهم ، ودليل هذا : أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : « إنك تأتي قومًا أهل كتاب » (٢) فأعلمه بحالهم من أجل أن يستعد لهم وأن ينزلهم منزلتهم ، لأنهم إذا كانوا أهل كتاب صار عندهم من الجدل بما عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم ، فالمشركون جهال ضلال لكن أهل الكتاب عندهم علم ، يحتاجون إلى استعداد تام ، وأيضًا يجابهون بما يليق بهم ، لأنهم يرون أنفسهم أهل كتاب وأهل علم ، فيحتاج الأمر إلى أن يراعوا في كيفية الدعوة ، ولهذا قال له إنك ستأتي قومًا أهل كتاب . ولنضرب لهذا مثالاً واقعياً ، لو أن رجلاً جاهلاً تكلم وهو يصلي ، يحسب أن الكلام لا يضر ، فهذا لا نوبخه ولا ننهره ولا نشدد عليه ، بل نقول له إذا فرغ من صلاته : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن (٣) ، لكن لو علمنا أن شخصاً يعلم أن الكلام في الصلاة حرام ويطلبها ، لكنه إنسان مستهتر - والعياذ بالله - يتكلم ولا يبالي فهذا نخاطبه بما يليق به ونشدد عليه وننهره ، فلكل مقام مقال .

ولهذا قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ والحكمة أن تضع الأشياء في مواضعها ، وتنزل الناس في منازلها ، لا تخاطب الناس بخطاب واحد ، ولا تدعوهم بكيفية واحدة ، بل اجعل لكل إنسان ما يليق به .

فلا بد أن يكون الإنسان على علم بحال من يدعوه ، لأن المدعو له حالات : إما أن يكون جاهلاً ، أو معانداً مستكبراً ، أو يكون قابلاً للحق ولكنه قد خفي عليه مجتهداً متأولاً ، فلكل إنسان ما يليق به . ثم ذكر المؤلف قول الله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وسبيل الله هي دينه وشريعته التي شرعها الله لعباده ، وأضافها إلي نفسه لسببين :

السبب الأول : أنه هو الذي وضعها ﷻ للعباد ، ودلهم عليها . والثاني : أنها موصلة إليه ، فلا شيء يوصل إلى الله إلا سبيل الله التي شرعها لعباده على السنة رسلة صلوات الله وسلامه عليهم . وقوله : ﴿بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾ الحكمة قال العلماء : إنها من الأحكام ، وهو الإتيان ، وإتيان الشيء أن يضعه الإنسان في موضعه ، فهي وضع الأشياء في مواضعها ، وأما الموعظة فهي التذكير

(١) ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ : المعاصي المستقبحة من قول أو فعل ، ﴿وَالْإِثْمَ﴾ : جميع المعاصي التي توجب الإثم ، ﴿وَالْبَغْيَ﴾ : الظلم والتعدي على الناس .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٥٨) ، ومسلم - واللفظ له - في الإيمان (٢٩) ، وأبو داود في الزكاة (١٥٨٤) .

(٣) هذا معنى حديث أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) ، وأحمد في مسنده (٤٤٧/٥) .

المقرون بالترغيب أو التهيب ، فإذا كان الإنسان معه شيء من الإعراض فإنه يُوعظ ويُنصح .
 فإن لم يُفد فيه ذلك فيقول تعالى : ﴿ وَحَدِّثْهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ إذا كان الإنسان عنده شيء من
 المجادلة فيجادل ، والمجادلة بالتي هي أحسن أي من حيث المشافهة ، فلا تشدد عليه ولا تخفف عنه ، انظر
 ما هو أحسن ، بالتي هي أحسن أيضًا من حيث الأسلوب ، والإقناع وذكر الأدلة التي يمكن أن يقتنع بها ،
 لأن من الناس من يقتنع بالأدلة الشرعية أكثر مما يقتنع بالأدلة العقلية ، وهذا هو الذي عنده إيمان قوي .
 ومن الناس من يكون بالعكس لا يقتنع بالأدلة الشرعية إلا إذا ثبت ذلك عنده بالأدلة العقلية ،
 فتجده يعتمد على الأدلة العقلية أكثر مما يعتمد على الأدلة الشرعية ، بل ولا يقتنع بالأدلة الشرعية إلا
 حيث تؤيدها عنده الأدلة العقلية ، وهذا النوع من الناس يخشى عليه من الزيغ والعياذ بالله ؛ إذا كان
 لا يقبل الحق إلا بما عقله بعقله الفاسد فهذا خطر عليه ، ولهذا كان أقوى الناس إيمانًا أعظمهم إدعاءً
 للشرع أي : للكتاب والسنة ، فإذا رأيت من نفسك الإدعاء للكتاب والسنة والقبول والانقياد فهذا
 يشتر بخير ، وإذا رأيت من نفسك القلق على الأحكام الشرعية إلا حيث تكون مؤيدة عندك بالأدلة
 العقلية فاعلم أن في قلبك مرضًا ، لقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
 لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . بحيث لا يمكن أن يختاروا شيئًا سوى ما قضاه الله ورسوله ،
 ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وقوله ﴿ وَحَدِّثْهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وجاء في آية العنكبوت ﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي
 هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] . فهو لاء لا تليقوا معهم إذا كانوا ظالمين ، فقاتلوهم
 بالسيف حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وعلى هذا فتكون المراتب أربعة : الحكمة ،
 الموعظة ، المجادلة بالآتي هي أحسن ، المجادلة بالسيوف لمن كان ظالمًا .

وقال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .
 ١٧٣ - وعن أبي مسعود عُقْبَةُ بْنُ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ الْبَذَرِيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ
 دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أُجْرِ فَاعِلِهِ » ^(١) رواه مُسْلِمٌ .

الشرح

بقي من الآيات التي ذكرها المؤلف في باب الدلالة على الخير ، قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
 يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، هذا أمر من
 الله ﷻ بأن يكون منا هذه الأمة ، والأمة بمعنى الطائفة ، وترد الأمة في القرآن الكريم على أربعة
 معانٍ ، أمة بمعنى الطائفة ، وأمة بمعنى الملة ، وأمة بمعنى السنين ، وأمة بمعنى الإيمان ، فمن الطائفة هذه

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٣٣) ، وأبو داود في الأدب (٥١٣٩) ، وأحمد في مسنده (١٢٠/٤) .

الآية ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي : طائفة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إلى آخره .
والأمة بمعنى الدين مثل قوله تعالى : ﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [المؤمنون : ٥٢] أي دينكم دين واحد .
والأمة بمعنى السنين مثل قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف : ٤٥] ، أي بعد زمن .
والأمة بمعنى الإيمان مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل : ١٢٠] .

فقوله هنا ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ اللام في قوله «ولتكن» للأمر ، ومن في قوله «منكم» فيها قولان لأهل العلم ، منهم من قال : إنها للتبويض ، ومنهم من قال : إنها لبيان الجنس ، فعلى القول الأول يكون الأمر هنا أمراً كفاً ، أي : أنه إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي ، لأنه قال ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾ يعنى بعض منكم يدعون إلى الخير ، وعلي القول الثاني يكون الأمر أمراً عينياً وهو أنه يجب على كل واحد أن يكرس جهوده لهذا الأمر .. يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

والدعوة إلى الخير تشمل كل شيء فيه مصلحة للناس في معاشهم ومعادهم ؛ لأن الخير كما يكون في عمل الآخرة يكون في عمل الدنيا ، كما قال الله تعالى : ﴿رَبَّنَا مَا آتَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة : ٢٠١] ، وما ينفع الناس من الأمور الدنيوية فهو خير ، ولهذا سمي الله ﷻ المال خيراً ، فقال : ﴿وَأَنْتُمْ لِحِبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات : ٨] ، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] المعروف ما عرفه الشرع وأقره ، والمنكر ما أنكره ونهى عنه ، فإذاً يكون الأمر بالمعروف هو الأمر بطاعة الله ، والنهي عن المنكر هو النهي عن معصية الله ، فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

ولكن لا بد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شروط هي :

الشرط الأول : أن يكون الأمر أو الناهي عالماً بأن هذا معروف يأمر به ، وهذا منكر ينهي عنه ، فإن لم يكن عالماً فإنه لا يجوز أن يأمر وينهى ، لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء : ٣٦] ، والتحريم والتحليل لا يكون بحسب العاطفة ، لأنه لو كان بحسب العاطفة والهوى لوجدنا من الناس من يكره كل شيء يستغربه ، حتى لو حصل شيء ينفع الناس ، وهو مستغرب له قال : هذا منكر ، ومن الناس من هو بالعكس يتهاون ويرى أن كل شيء معروف ، فالمعروف والمنكر أمرهما إلى الشارع .

ويذكر لى أنه كان بعض الناس أول ما ظهرت السيارات يقولون إن الحج على السيارة ربع حجة ، ومقتضى هذا أن الإنسان لا يؤدي الفرض إلا بأربع حجج ، يعني كل واحدة ربع ، ما تكون واحدة كاملة إلا بأربع مرات فقال بعض الناس ونحن نذكر هذا ونحن صغار : إذن الحج على الطائرات بمقتضى قياسهم يكون ثمن حج ، أو عشر على كل حال بعض الناس إذا استغرب شيئاً قال هذا منكر .

كذلك أول ما ظهرت مكبرات الصوت أنكرها بعض الناس ، وقال إن هذا منكر ، كيف تؤدي الصلاة أو الخطبة بهذه الأبواق التي تشبه بوق اليهود ؟ ومن العلماء المحققين كشيخنا عبد الرحمن السعدي رحمه الله قال : إن هذه من نعمة الله ؛ أن الله يسر لعباده ما يوصل أصوات الحق إلى الخلق ،

وأن مثل هذه كمثل نظارات العين ، فالعين إذا ضعف النظر تحتاج إلى تقوية بلبس النظارات ، فهل نقول لا تلبس النظارات لأنها تقوي النظر وتكبر الصغير ؟ لا ، لا نقول هكذا .
فالحاصل أن المعروف والمنكر أمرهما إلى الله ورسوله ، لا إلى ذوق الإنسان ، أو هوى الإنسان ، أو فكر الإنسان .

إذن لابد أن يكون الإنسان عالماً بأن هذا معروف وهذا منكر ، هذا معروف يأمر به ، وهذا منكر ينهى عنه ، ولكن ما الطريق إلى معرفة ذلك ؟ الطريق إلى معرفة ذلك الكتاب والسنة فقط ، أو إجماع الأمة ، أو القياس الصحيح ، وإجماع الأمة والقياس الصحيح كلاهما مستند إلى الكتاب والسنة ، ولولا الكتاب والسنة ما عرفنا أن الإجماع حجة وأن القياس حجة .

والشرط الثاني : أن يعلم بوقوع المنكر من الشخص المدعو ، أو بتركه للمعروف ، فإن كان لا يعلم فإنه لا يرجم الناس بالغيب ، مثال ذلك لو أن رجلاً دخل المسجد وجلس ، فإن الذي تقتضيه الحكمة أن يسأله : لماذا جلس ولم يصل ؟ ولا ينهاه أو يزجره ، بدليل أن النبي ﷺ كان يخطب الناس يوم الجمعة فدخل رجل فجلس ، فقال له : « أصليت ؟ » قال : لا . قال : « قم فصل ركعتين » (١) ، فلم يزجره حين ترك الصلاة لأنه يحتمل أن يكون صلى والنبي - عليه الصلاة والسلام - لم يره .

كذلك أيضاً إذا رأيت شخصاً يأكل في نهار رمضان أو يشرب في نهار رمضان ، فلا تزجره ، بل أسأله ربما يكون له عذر في ترك الصيام . قل له : لماذا لم تصم ؟ فقد يكون مسافراً ، وقد يكون مريضاً مرضاً يحتاج معه إلى شرب الماء بكثرة ؛ مثل أوجاع الكلى تحتاج إلى شرب ماء كثير ، ولو كان الإنسان صحيحاً فيما يظهر للناس ، فالمهم أنه لابد أن تعرف أنه ترك المعروف حتى تأمره به ، ولا بد أيضاً أن تعرف أنه وقع في المنكر حتى تنهاه عنه ؛ لأنه قد لا يكون واقعاً في المنكر وأنت تظنه واقعاً .

مثال ذلك : إذا رأيت رجلاً في سيارة ومعه امرأة فهناك احتمال أن المرأة أجنبية منه وهناك احتمال أن تكون المرأة من محارمه ، أو أنها زوجته إذا لا تنكر عليه ، حتى تعلم أنه فعل منكراً ، وذلك بقرائن الأحوال ، لو فرضنا مثلاً أن الإنسان رأى ربية من هذا الشخص لكونه أهلاً لسوء الظن ، ورأى حركات ، والإنسان العاقل البصير يعرف ، فهذا ربما نقول يتوجه ويسأل : من هذه المرأة التي معك ؟ أو لماذا تحمل امرأة في سيارتك ليست من محارمك ؟ ولكن ليس ذلك لمجرد أن ترى رجلاً يمشي مع امرأة أو حاملاً امرأة في سيارته تنكر عليه وأنت لا تدري هل هذا منكر أم لا ؟

والمهم : أنه لابد من العلم بأن هذا معروف وهذا منكر ، ولا بد من العلم أن هذا ترك المعروف وفعل المنكر .

الشرط الثالث . أن لا يتحول المنكر إذا نهى عنه إلى أنكر منه وأعظم . مثال ذلك لو رأينا شخصاً يشرب الدخان ، فشراب الدخان حرام لا شك ومنكر يجب إنكاره ، لكننا لو أنكرنا عليه لتحول إلى

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣١) ، ومسلم - واللفظ له - في الجمعة (٥٥) .

شرب الخمر ، يعني أنه ذهب إلي الخمارين وشرب الخمر فهنا لا ننهاء عن منكره الأول لأن منكره الأول أهون ، وارتكاب أهون المفسدين واجب إذا كان لا بد من ارتكاب العليا .

ودليل هذا : الشرط قول الله ﷻ ﴿ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، فسب آلهة المشركين من الأمور المطلوبة شرعا ، ويجب علينا أن نسب آلهة المشركين ، وأن نسب أعياد الكفار ، وأن نحذر منها ، وأن لا نرضى بها ، وأن نبصر لإخواننا الجهال السفهاء بأنه لا يجوز مشاركة الكفار في أعيادهم ، لأن الرضا بالكفر يخشى أن يوقع صاحبه في الكفر والعياذ بالله ، هل ترضى أن شعائر الكفر تقام وتشارك فيها ؟ لا يرضى بهذا أحد من المسلمين ، لهذا قال ابن القيم رحمه الله وهو من تلاميذ شيخ الإسلام البارزين قال : إن الذي يشارك هؤلاء في أعيادهم ، ويهتفهم فيها ، إن لم يكن أتى الكفر فإنه قد فعل محرما بلاشك ، وصدق رحمه الله ، ولهذا يجب علينا أن نحذر لإخواننا المسلمين من مشابهة الكفار في أعيادهم ، لأن مشاركتهم في أعيادهم أو تهنتهم فيها ، مثل قول : عيد مبارك ، أو هنأك الله بالعيد - وما أشبه ذلك - لا شك أنه رضا بشعائر الكفر والعياذ بالله .

أقول : إن سب آلهة المشركين وشعائر المشركين وغيرهم من الكفار الكتابيين أمر مطلوب شرعا ، ولكن إذا كان يؤدي إلى شيء أعظم منه نكرا فإنه ينهى عنه ، يقول الله ﷻ ﴿ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أو يعني الأصنام لا تسبوها ﴿ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني إنكم إذا سببتم آلهتهم سبوا إلهكم ، وهو الله ﷻ ، ﴿ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ هو يعني : عدوانا منهم بغير علم ، أما أنتم إذا سببتم آلهة المشركين فإنه بعدل وعلم ، لكن سبهم لإلهكم عدوان بلا علم ، فأنتم لا تسبوهم فیسبوا الله .

إذن نأخذ من هذه الآيات الكريمة أنه إذا كان نهى الإنسان عن منكر ما يوقع الناس فيما هو أنكر منه ، فإن الواجب الصمت ، الصمت حتى يأتي اليوم الذي يتمكن فيه من النهي عن المنكر ليتحول إلي معروف . ويذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مر في الشام على قوم من التتار - والتتار أمة معروفة سلطها الله على المسلمين في سنة من السنوات ، وحصل بهم فتنه كبيرة عظيمة - ومعه صاحب له ، مر شيخ الإسلام ابن تيمية يقوم منهم يشربون الخمر فسكت وما نهاهم ، فقال له صاحبه : لماذا لم تنه عن هذا المنكر ؟ قال له إن نهيتهم عن هذا الشيء لذهبوا يفسدون نساء المسلمين بالزنى ، يشتبيحون أموالهم ، وربما يقتلونهم ، وشرب الخمر أهون ، وهذا من فقهه رحمه الله ورضي عنه ، أن الإنسان إذا كان يخشى أن يزول المنكر ويتحول إلي أنكر منه فإن الواجب الصمت .

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وليست من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الإنسان أول فاعل للمعروف وأول منته عن المنكر ، بمعنى أنه لا يأمر بالمعروف ثم لا يفعله ، أو لا ينه عن المنكر ثم يقع فيه ؛ لأن هذا داخل في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا يَمْ قُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿^(١)﴾ [] ، وفي

(١) ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ عظم بغضا ، وبشع كرها لكم عند الله قولكم ما لا تفعلون .

الحديث الصحيح : « إنه يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار حتى تندلق أفتاب بطنه » ، أفتاب بطنه : يعني أمعاءه ، وتندلق : يعني تنفجر . « فيدور عليها كما يدور الحمار على رحاه ، فيجتمع إليه أهل النار ويقولون له مالك يا فلان ، ألسنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر . فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وكنت أنهاكم عن المنكر وآتية » ^(١) ، فيقول ما لا يفعل والعياذ بالله . فمن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الإنسان أول ممثل للأمر ، وأول منته عن النهي .

ذكر أن ابن الجوزي الواعظ المشهور وهو من أصحاب الإمام أحمد يعني ممن يقلدون الإمام أحمد ، وكان واعظاً مشهوراً بالوعظ ، يوضع له كرسي يوم الجمعة ويلقي المواعظ ، ويحضره مئات الآلاف ، وكان من شدة تأثيره على القلوب أن بعض الحاضرين يصعق ويموت ، فجاء ذات يوم عبد رقيق ، فقال له يا سيدي ، إن سيدي يتعني ، ويشق علي ، ويأمرني بأشياء ما أطيقها ، فلعلك تعظ الناس وتحثهم على العتق فيعتقني ، فقال : نعم أفعل فبقي جمعة أو جمعتين أو ما شاء الله ، ولم يتكلم عن العتق بشيء . ثم تكلم يوماً من الأيام عن العتق فأثر ذلك في نفوس الناس فأعتق الرجل عبده ، فجاء إليه العبد ، وقال له : يا سيدي ، أنا قلت لك تكلم عن العتق منذ زمن ، ولم تتكلم إلا الآن ! قال : نعم ؛ لأنني لست أملك عبداً فأعتقه ، ولا أحب أن أحت على العتق وأنا ما عتقت - سبحان الله - فلما من الله عليّ بعبد وأعتقته صار لي مجال أن أتكلم في العتق .

فالخلاصة : أن هذا من آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، إنه جواد كريم .

* * *

١٧٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » ^(٢) رواه مسلم .

١٧٥ - وعن أبي العباس سهل بن سعيد الشافعي رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرٍ : « لَا عَظِيمَ الرَّأْيَةِ غَدَا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُنَّ لَيْلَتَهُمْ أَنَّهُمْ يُعْطَاهَا . فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَاوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا ، فَقَالَ : « أَيْنَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ » فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ ، قَالَ : « فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ » فَأَتِيَتْ بِهِ ، فَبَصَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ ، وَدَعَا لَهُ . فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ ، فَأَعْطَاهُ الرَّأْيَةَ ،

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٧) ، ومسلم في الزهد (٥١) ، وذلك باختلاف في اللفظ ، وأحمد في مسنده (٢٠٥/٥ ، ٢٠٦) .

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - في العلم (١٦) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٤) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٩٧/٢) .

فقال عليٌّ عليه السلام : يا رسول الله أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فقال : « انْفُذْ عَلَى رِشْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » ^(١) متفقٌ عليه .

قوله « يَذُوكُونَ » أي يَخُوضُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ ، قَوْلُهُ : « رِشْلِكَ » بكسر الراءِ وَفَتْحِهَا لُغَتَانِ ، وَالْكَشْرُ أَفْصَحُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا » من دعا إلى هدى ، يعني : يَهْدِي للناس ودعاهم إليه ، مثل أن يبين للناس أن ركعتي الضحى سنة ، وأنه ينبغي للإنسان أن يصلي ركعتين في الضحى ، ثم تبعه الناس وصاروا يصلون الضحى ، فإن له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شَيْئًا ، لأن فضل الله واسع .

أو قال للناس مثلاً : اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً ^(٢) ، ولا تناموا إلا على وتر إلا من طمع أن يقوم من آخر الليل فليجعل وتره في آخر الليل ، ف تبعه ناس على ذلك فإن له مثل أجورهم ، يعني : كلما أوتر واحد هداه الله على يده فله مثل أجره ، وكذلك بقية الأعمال الصالحة .

« وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » ، أي : إذا دعا إلى وزر وإلى ما فيه الإثم ، مثل أن يدعو الناس إلى لهو أو باطل أو غناء أو ربا أو غير ذلك من المحارم ، فإن كل إنسان تأثر بدعوته فإنه يُكْتَبَ له مثل أوزارهم ؛ لأنه دعا إلى الوزر والعياذ بالله .

واعلم أن الدعوة إلى الهدى والدعوة إلى الوزر تكون بالقول ؛ كما لو قال : افعَلْ كَذَا . افعَلْ كَذَا ، وتكون بالفعل خصوصاً مِنَ الَّذِينَ يَقْتَدِي بِهِمْ مِنَ النَّاسِ ، فإنه إذا كان يَقْتَدِي به ثم فعل شيئاً فكأنه دعا الناس إلى فعله ، ولهذا يَحْتَجُّونَ بفعله ويقولون : فعل فلان كذا وهو جائز ، أو ترك كذا وهو جائز .

فالمهم : أن من دعا إلى هدى كان له مثل أجر من اتبعه ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه مثل وزر من اتبعه .

وفي هذا دليل على أن المتسبب كالمباشر ؛ المتسبب للشيء كالمباشر له ، فهذا الذي دعا إلى الهدى تسبب فكان له مثل أجر من فعله ، والذي دعا إلى السوء أو إلى الوزر تسبب فكان عليه مثل وزر من اتبعه .

وقد أخذ العلماء الفقهاء - رحمهم الله - من ذلك قاعدة : بأن السبب كالمباشرة ، لكن إذا اجتمع سبب ومباشرة أحالوا الضمان على المباشرة ، لأنها أَمْسُ بالإتلاف .

أما حديث أبي العباس سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : « لَأُعْطِينَ الرَايَةَ غَدًا رَجُلًا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٠٩) ، ومسلم - واللفظ له - في فضائل الصحابة (٣٤) .

(٢) هذا معنى حديث ، وقد أخرجه البخاري في الوتر (٩٩٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٥١) ، وأحمد في مسنده (٢٠/٢) .

يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ « وهذا يتضمن بشرى عامة وبشرى خاصة ، أما العامة فهي قوله يفتح الله على يديه ، وأما الخاصة فهي قوله يحب الله ورسوله .
وخير مزارع وحصون لليهود ، كانت نحو مائة ميل في الشمال الغربي من المدينة ، وسكنها اليهود كما سكن طائفة منهم المدينة نفسها ، لأن اليهود يقرؤون في التوراة أنه سيبعث نبي ، وسيكون مهاجرة إلى المدينة ، وتسمى في العهد القديم يثرب ، لكنه نهى عن تسميتها يثرب ، وأنه سيهاجر إلى المدينة وسيقاتل وينتصر على أعدائه ، فعلموا أن هذا حق وذهبوا إلى المدينة وسكنوها ، وسكنوا خير ، وكانوا يظنون أن هذا النبي سيكون من بني إسرائيل ، فلما بُعث من بني إسماعيل من العرب حسدوهم ، وكفروا به والعياذ بالله ، بعد أن كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة: ٩٨] وقالوا : ليس هذا هو النبي الذي بُشِّرنا به .

وحصل منهم ما حصل من العهد مع النبي - عليه الصلاة والسلام - ثم الخيانة ، وكانوا في المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكلهم عاهد النبي - عليه الصلاة والسلام - ولكنهم نقضوا العهد كلهم .

فهزمهم الله - والحمد لله - على يد النبي ﷺ ، وكان آخرهم بني قريظة الذين حَكَمَ فيهم سعد بن معاذ ؓ بأن تُقتل مقاتلتهم ، وتُسيى نساؤهم وذريتهم ، وتغنم أموالهم ، وكانوا سبعمائة ، فأمر النبي ﷺ بقتلهم فحصدوهم عن آخرهم ^(١) ، وهكذا اليهود أهل غدر وخيانة ونقض للعهد ، منذ بُعث فيهم موسى - عليه الصلاة والسلام - إلي يومنا هذا وإلى يوم القيامة ، هم أغدر الناس بالعهد ، وأخونهم بالأمانة ، ولذلك لا يوثق منهم أبداً ؛ لا صرفاً ولا عدلاً ، ومن وثق بهم ، أو وثق منهم ، فإنه في الحقيقة لم يعرف سيرتهم منذ عهد قديم .

المهم : أن خير كانت حصون ومزارع لهم وغزاهم النبي - عليه الصلاة والسلام - وفتح الله على يديه . فقال النبي ﷺ : « لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غِذَا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » وهذان منقبتان عظيمتان .

الأولى : أن يفتح الله على يديه ؛ لأن من فتح الله على يديه نال خيراً كثيراً ، فإنه إن هدى الله به رجلاً واحداً ، كان خيراً له من حمر النعم : يعني من الإبل الحمر ، وإنما خص الإبل الحمر لأنها أغلى الأموال عند العرب . الثانية : يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، وفي ذلك فضل لعلي بن أبي طالب ؓ ؛ لأن الناس في تلك الليلة جعلوا يدوكون ، يعني : يخوضون ويتكلمون : من هذا الرجل ؟ فلما أصبح النبي ﷺ قال : « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقيل هو يشتكي عينيه ، يعني أن عينيه توجعه ويشتكيها ، فدعا به فأتي به ، فبصق في عينيه ودعا له فبرئ كأن لم يكن به وجع ، وهذه من آيات الله ﷻ ، فليس هناك قطرة ولا كي ، وإنما هو ريق النبي ﷺ ودعاؤه .

(١) هذا جزء من حديث وقد سبق تخريجه .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه يجوز للناس أن يتحدثوا في الأمر ليتفرسوا فيمن يصيبه ؟ لأن الصحابة صاروا في تلك الليلة يدوكون ليلتهم : من يحصل هذا ؟ وكل واحد يقول : لعله أنا . وفيه أيضا : دليل على أن الإنسان قد يهبه الله تعالى من الفضائل ما لم يخطر له على بال ، فعلي ليس حاضرا ، وربما لا يكون عنده علم بأصل المسألة ، ومع ذلك جعل الله له هذه المنقبة ، ففي هذا : دليل على أن الإنسان قد يحرم الشيء مع تربيته له ، وقد يُعطى الشيء مع عدم خطورته على بآله . « فأعطاه الراية » ، الراية يعني : العلم ، والعلم الذي يكون علما على القوم في حال الجهاد ، لأن الناس في الجهاد يقسمون ؛ هؤلاء إلى جانب وهؤلاء إلى جانب ، وهذه القبيلة وهذه القبيلة ، أو هذا الجنس من الناس كالمهاجرين مثلا والأنصار ، كل له راية أي علم يدل عليه .

فقال علي عليه السلام : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؛ يعني : أقاتلهم حتى يكونوا مسلمين ، أم ماذا ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم » ولم يقل له : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، وذلك لأن الكفار لا يقاتلون على الإسلام ويرغمون عليه ، وإنما يقاتلون لأحكام الإسلام ، فإن أسلموا فلهم وإن كفروا فعليهم ، ولكن يذلو لأحكام الإسلام فيعطون الجزية عن يد وهم صاغرون أو يدخلون في الإسلام .

وقد اختلف العلماء - رحمهم الله - : هل هذا خاص بأهل الكتاب أي مقاتلتهم حتى يعطوا الجزية - أو أنه عام لجميع الكفار ؟ فأكثر العلماء يقولون : إن الذي يُقاتل حتى يعطي الجزية أو يسلم هم أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وأما غيرهم فيقاتلون حتى يسلموا ، ولا يُقبل منهم إلا الإسلام ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١) [التوبة : ٢٩] فقال : قاتلوهم ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ .

والصحيح أنه عام : ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر وهم ليسوا أهل كتاب كما أخرجه البخاري (٢) ، ودليل آخر : حديث بريدة بن الحصيب الذي أخرجه مسلم ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أُمِّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه ومن معه من المسلمين خيراً (٣) ، وذكر في الحديث أنه يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فالجزية ، فإن أبوا يقاتلهم ، والصحيح أن هذا عام . ولذلك لم يقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم - لعلي حين سأله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا - : نعم أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، وإنما أرشده أن يفعل ما أمره به وأن يمشي على رسله ، حتى ينزل بساحتهم .

قوله « على رسلك » أي لا تمشي عَجَلًا ، فتتعبد أنت وتُتعبد الجيش ويتعب من معك ، ولكن على

(١) قوله ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ الخراج المقرر على رؤوسهم وذلك مقابل تكفل الدولة بحماية نفس الذمي وماله وعرضه ودينه ولا يكلف حرباً ولا يدفع للدولة زكاة ، قوله : ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ عن قدرة (بملا يشق عليه) أو عن قهر وقوة . قوله : ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ خاضعون لحكم الدولة .

(٢) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٣) .

ورسلك حتى تنزل بساحتهم أي بجانبهم ، « ثم ادعهم إلى الإسلام » ، قوله ﷺ : « ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه » فأمره ﷺ بأمرين : الأمر الأول : الدعوة إلى الإسلام ، بأن يقل لهم : أسلموا ، إذا كانوا يعرفون معنى الإسلام ويكفي ذلك ، وإن كانوا لا يعرفونه ، فإنه يبين لهم أن الإسلام شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت .

الأمر الثاني : قال : « وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه » ، وهو السمع والطاعة لأوامر الله ورسوله ، لأجل أن يكون الداخل في الإسلام داخلاً على بصيرة ، لأن بعض الناس يدخل في الإسلام على أنه دين ولكن لا يدري ما هو ؟ ثم إذا بينت له الشرائع ، ارتد - والعياذ بالله - فصار كفره الثاني أعظم من كفره الأول ، لأن الردة لا يقر عليها صاحبها ، بل يقال له : إما أن ترجع لما خرجت منه . وإما أن تقتلك .

ولهذا ينبغي لنا في هذا العصر لما كثر الكفار بيننا من نصارى وبوذيين ومشركين وغيرهم ، إذا دعوناهم إلى الإسلام أن نبين لهم الإسلام أولاً ، ونشرحه شرحاً يتبين فيه الأمر ، حتى يدخلوا على بصيرة ، لا نكتفي بقولنا : أسلموا فقط ، لأنهم لا يعرفون ما يجب عليهم من حق الله تعالى في الإسلام ، فإذا دخلوا على بصيرة صار لنا العذر فيما بعد ، إذا ارتدوا أن نطلب منهم الرجوع إلى الإسلام أو نقتلهم ، أما إن بُيِّن لهم إجمالاً هكذا ، فإنها دعوة قاصرة ، والدليل على هذا حديث سهل بن سعد رضي الله عنه الذي نشرحه .

وفي هذا الحديث ، في قوله ﷺ : « فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » يهديه : أي يوفقه بسبيلك إلى الإسلام فإنه خير لك من حمر النعم يعني من الإبل الحمر ، وذلك لأن الإبل الحمر عند العرب كانت من أنفس الأموال ، إن لم تكن أنفس الأموال ، ففعل ﷺ ونزل بساحتهم ، ودعاهم إلى الإسلام ولكنهم لم يسلموا .

ثم في النهاية كانت الغلبة - ولله الحمد - للمسلمين ، ففتح الله على يدي علي بن أبي طالب ، والقصة مشهورة في كتب المغازي والسير ، لكن الشاهد من هذا الحديث ، أنه أمرهم أن يدعواهم إلى الإسلام ، وأن يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه .

وفي هذا الحديث من الفوائد : ظهور آية من آيات النبي ﷺ وهي أنه لما بصق في عيني علي بن أبي طالب برئ حتى كأن لم يكن به وجع ، وفيه أيضاً آية أخرى ، وهو قوله : يفتح الله على يديه وهو خير غيبى ، ومع ذلك فتح الله على يديه ، وفيه أيضاً من الفوائد : أنه ينبغي نصب الرايات في الجهاد ، وهي الأعلام ، وأن يُجعل لكل قوم راية معينة يعرفون بها كما سبقت الإشارة إليه .

وفيه أيضاً من الفوائد تحري الإنسان للخير والسبق إليه ؛ لأن الصحابة جعلوا في تلك الليلة يدوكون ليلتهم ، « يدوكون ليلتهم » يعني : يدوكون في ليلتهم ، فهي منصوبة على الظرفية ، يعني أنهم يبحثون من يكون ؟ وفيه أيضاً : أن الإنسان قد يعطى الشيء من غير أن يخطر له على بال . وأنه يحرم من كان متوقفاً أن يناله هذا الشيء ، لأن علي بن أبي طالب كان مريضاً في عينيه ، ولا أظن أنه يخطر بباله أن رسول الله ﷺ سيعطيه الراية ، ومع ذلك أدركها ، فَفَضَّلَ اللهُ تعالى يؤتيه من يشاء ، والله الموفق .

١٧٦ - وعن أنس رضي الله عنه : أَن قَتِيٍّ مِنْ أَسْلَمَ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ الْغَزَا وَلَيْسَ مَعِيَ مَا أَتَجَهَّزُ بِهِ ؟ قَالَ : « أَتَيْتَ فَلَانًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرَضَ » فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقْرَنُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ : أَعْطَيْتِي الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ ، فَقَالَ : يَا فَلَانَةُ أَعْطِيهِ الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ ، وَلَا تَحْبِسِي مِنْهُ شَيْقًا ، فَوَاللَّهِ لَا تَحْبِسِينَ مِنْهُ شَيْقًا فَيَبْتَازَكَ لَكَ فِيهِ ^(١) . رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف فيه : الدلالة على الخير ، فإن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يتجهز إلى الغزو ، فأرشده النبي ﷺ ودله على رجل كان قد تجهز براحلته وما يلزمه لسفره ولكنه مرض ، فلم يتمكن من الخروج إلى الجهاد ، فجاء الرجل إلى صاحبه الذي كان قد تجهز ، فأخبره بما قال النبي ﷺ ، فقال الرجل لامرأته : أخرجي ما تجهزت به ولا تحبسي منه شَيْقًا ، فوالله لا تحبسني منه فيبارك لنا فيه .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان إذا دل أحدًا على الخير فإنه يثاب على ذلك ، وقد سبق أنه « من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله » ^(٢) .

وفيه : دليل أيضًا على أن من أراد عملاً صالحاً فحبسه عنه مرض ، فإنه ينبغي أن يدفع ما بذله لهذا العمل الصالح إلى من يقوم به حتى يكتب له الأجر كاملاً ، لأن الإنسان إذا مرض وقد أراد العمل وتجهز له ، ولكن حال بينه وبينه مرضه ، فإنه يكتب له الأجر كاملاً والله الحمد ، قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُفْقُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠] وفيه : دليل أيضاً من كلام الصحابة رضي الله عنهم ، أن الإنسان إذا بذل الشيء في الخير فإن الأفضل أن ينفعه ، فمثلاً لو أردت أن تصدق بمال ، وعزلت المال الذي تريد أن تصدق به أو تبذله في مسجد ، أو في جمعية خيرية أو ما أشبه ذلك ، فلك الخيار أن ترجع عما فعلت ، لأنه مادام الشيء لم يبلغ محله فهو بيدك ، ولكن الأفضل أن تنفعه ولا ترجع فيما أردت من أجل أن تكون من السباقين إلى الخير ، والله الموفق .

٢١ - باب التعاون على البر والتقوى

قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٢] وقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالعَصْرِ ۝ ﴾ [العصر: ١-٣] .
قال الإمام الشافعي رحمته الله كلاماً معناه : إن الناس أو أكثرهم في غفلة عن تدبير هذه الشؤرة .

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٤) ، قوله « ما أتجهز به » من عدة القتال من سلاح وغيره ، قوله « ولا تحبسي » أي : لا تؤخري .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٣) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب التعاون على البر والتقوى) والتعاون معناه التساعد ، وأن يعين الناس بعضهم بعضاً على البر والتقوى ، فالبر : فعل الخير ، والتقوى : اتقاء الشر .
وذلك أن الناس يعملون على وجهين ؛ على ما فيه الخير ، وعلى ما فيه الشر ، فأما ما فيه الخير فالتعاون عليه أن تساعد صاحبك على هذا الفعل وتيسر له الأمر ؛ سواء كان هذا يتعلق بك أو بما يتعلق بغيرك ، وأما الشر فالتعاون فيه بأن تحذر منه ، وأن تمنع منه ما استطعت ، وأن تشير على من أراد أن يفعله بتركه وهكذا ، فالبر : فعل الخير ، والتعاون عليه ، والتساعد عليه ، وتيسيره للناس ، والتقوى : اتقاء الشر ، والتعاون عليه بأن تحول بين الناس وبين فعل الشر ، وأن تحذرهم منه ؛ حتى تكون الأمة أمة واحدة .
والأمر في قوله : ﴿ وَتَعَاوَنُوا ﴾ أمر إيجاب فيما يجب ، واستحباب فيما يستحب ، وكذلك في التقوى أمر إيجاب فيما يحرم ، وأمر استحباب فيما يكره .

وأما الدليل الثاني : في التعاون على البر والتقوى ، فهو ما ذكره المؤلف ﷺ من سياق سورة العصر ، حيث قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ فأقسم الله تعالى بالعصر الذي هو الزمن ، وإنما أقسم الله تعالى به لأن الزمن هو وعاء الأعمال والناس فيه ، منهم من يملؤه خيراً ومنهم من يملؤه شراً ، فأقسم بالعصر لمناسبة المقسم به للمقسم عليه ، وهو أعمال العباد فقال ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِرٌ ﴾ الإنسان عام ؛ يشمل كل إنسان ، من مؤمن وكافر ، وعدل وفاسق ، وذكر وأنثى ، كل الإنسان في خسر ، خاسر كل عمله ، خسران عليه ، تعب في الدنيا وعدم فائدة في الآخرة .

إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ فأصلحوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح ، وأصلحوا غيرهم بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر .
فالإيمان يكون بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، مما أخبر به الله ورسوله ، وقد بينه الرسول ﷺ في قوله « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر والقدر خيره وشره » (١) ستة أركان .
وأما عمل الصالحات : فهو كل ما يقرب إلى الله ، ولا يكون العمل صالحاً إلا بشرطين ، هما الإخلاص لله ﷻ ، والمتابعة لرسوله .

الإخلاص لله : بمعنى ألا تقصد بعملك مراعاة عباد الله ، لا تقصد إلا وجه الله والدار الآخرة .
وأما المتابعة : فهي المتابعة للرسول ﷺ بحيث لا تأت بدعة ، لأن البدعة وإن أخلص الإنسان فيها مردودة : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (٢) ، والعبادة التي فيها الاتباع ، ولكن فيها رياء

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٣١٩/١) .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث رقم (١٦٩) .

مردودة أيضًا ، لقوله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » ^(١) وهو حديث قدسي .

وأما قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ يعني : أن بعضهم يوصي بعضهم بالحق ، وهو ما جاءت به الرسل ، وتواصوا بالصبر عليه ؛ لأن النفس تحتاج إلى صبر لفعل الطاعات وترك المحرمات .

قال الشافعي رحمته الله : لو لم ينزل الله على عباده سورة غير هذه السورة لكفتهم . لأنها جامعة مانعة . نسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من المؤمنين العاملين الصالحات ، المتواصين بالحق ، المتواصين بالصبر .

* * *

١٧٧ - عن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا » ^(٢) متفق عليه .

١٧٨ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، بَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي لُحْيَانَ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَالَ : « لِيُتَبَيَّنَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَالْأُخْرَى يَنْتَهَمَا » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله - في هذا - باب التعاون على البر والتقوى - ما ثبت عن النبي ﷺ في قوله : « مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا » وهذا من التعاون على البر والتقوى ، إذا جهز الإنسان غَازِيًا ، يعني براحلته ومتاعه وسلاحه ، ثلاثة أشياء : الراحلة والمتاع والسلاح ، إذا جهزه بذلك فقد غزا ، أي كتب له أجر الغازي ، لأنه أعانه على الخير .

وكذلك من خلفه في أهله بخير فقد غزا ، يعني لو أن الغازي أراد أن يغزو ، ولكنه أشكل عليه أهله من يكون عند حاجاتهم ، فانتدب رجلاً من المسلمين ، وقال : أنا أخلفك في أهلك بخير ، فإن هذا الذي خلفه يكون له أجر الغازي ، أجر الغازي لأنه أعانه .

إذا فإعانة الغازي تكون على وجهين : الأول : أن يعينه في رحله ومتاعه وسلاحه ، والثاني : أن يعينه في كونه خلف عنه في أهله ؛ لأن هذا من أكبر العون ، فإن كثيراً من الناس يشكل عليه من يكون عند أهله يقوم بحاجاتهم ، فإذا قام هذا الرجل بحاجة أهله وخلفه فيهم بخير فقد غزا .

ومن ذلك : ما جرى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حين خلفه رسول الله ﷺ في غزو تبوك ، خلفه في أهله ، فقال : يا رسول الله ، أتدعني مع النساء والصبيان ؟ فقال له : « أما ترضى أن تكون مني »

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٤٣) ، ومسلم - واللفظ له - في الإمارة (١٣٥) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٨ ، ١٦٣١) والنسائي في سننه (٤٦/٦) ، قوله « خلف غَازِيًا فِي أَهْلِهِ » أي قام على قضاء حوائجهم .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٩/٣) ، والبيهقي في سننه (٤٠/٩) .

بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» ^(١) يعني أن أخلفك في أهلي ، كما خلف موسى هارون في قومه . حينما ذهب إلى ميقات ربه .

ويؤخذ من هذا أن كل من أعان شخصاً في طاعة الله فله مثل أجره ، فإذا أعنت طالب علم في شراء الكتب له ، أو تأمين السكن ، أو النفقة ، أو ما أشبه ذلك ، فإن لك أجراً ، أي : مثل أجره ، من غير أن ينقص من أجره شيئاً ، وهكذا أيضاً لو أعنت مصلحاً على تسهيل مهمته في صلته في مكانه وثيابه ، أو في وضوئه ، في أي شيء فإنه يكتب لك في ذلك أجر .

فالقاعدة العامة : أن من أعان شخصاً في طاعات من طاعة الله كان له مثل أجره ، من غير أن ينقص من أجره شيئاً .

* * *

١٧٩ - وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لقي ركباً بالروحاء فقال : « من القوم ؟ » قالوا : المسلمون ، فقالوا : من أنت ؟ قال : « رسول الله » فرفعت إليه امرأة صبيّاً فقالت : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ، ولك أجر » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ لقي ركباً بالروحاء ، والروحاء مكان بين مكة والمدينة ، وكان هذا في حجة الوداع ، فقال لهم : من القوم ؟ قالوا : المسلمون ، فمن أنت ؟ قال : أنا رسول الله ﷺ ، فرفعت إليه امرأة صبيّاً ، فقالت : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ، ولك أجر » رواه مسلم ، ففي هذا الحديث من الفوائد : ما ساقه المؤلف من أجله ، وهو أن من أعان شخصاً على طاعة الله فله أجر ، لأن هذه المرأة سوف تقوم برعاية ولدها إذا أحرم وفي الطواف ، وفي السعي ، وفي الوقوف ، وغير ذلك ، قال : له حج ، ولك أجر . وهذا كالذي سبق فيمن جهز غازياً أو خلفه في أهله فإنه يكون له أجر الغازي .

وفي هذا الحديث من الفوائد : أن الإنسان ينبغي له أن يسأل عمن يجمله إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، لأن الرسول ﷺ سأل : « من القوم ؟ » يخشى أن يكونوا من العدو فيخونوا أو يغدروا ، أما إذا لم تدع الحاجة إلى ذلك فلا حاجة أن تسأل عن الشخص ، فتقول : من أنت ؛ لأن هذا قد يكون داخلًا فيما لا يعنيك ، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ^(٣) ، لكن إذا دعت الحاجة فاسأل حتى تكون على بينة من الأمر وعلى بصيرة .

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في فضائل أصحاب النبي (٣٧٠٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٠٩) ، وأبو داود في مناسك الحج (١٧٣٦) ، قوله « ركباً » الركب أصحاب الإبل خاصة . وأصله أن يستعمل في عشرة فما دونها .

(٣) هذا معنى حديث ، وقد أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧) ، وأحمد في مسنده (٢٠١/١) .

وفي هذا الحديث : دليل على أن وصف الإنسان نفسه بالصفات الحميدة إذا لم يقصد الفخر وإنما يقصد التعريف لا بأس به ، لأن هؤلاء الصحابة لما سئلوا : من أنتم ؟ قالوا : مسلمون ، والإسلام - لا شك أنه - وصف مدح ، لكن إذا أخبر الإنسان به عن نفسه ، فقال : أنا مسلم ، أنا مؤمن لمجرد الخبر لا من أجل الافتخار فإن ذلك لا بأس به ، وكذلك لو قاله على سبيل التحدث بنعمة ، فلو قال : الحمد لله الذي جعلني من المسلمين ، وما أشبه ذلك فإنه لا بأس به ، بل يكون محموداً إذا لم يحصل فيه محذور .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان إذا وصف نفسه بصفة هي فيه بدون فخر ، فإنه لا يعد هذا من باب مدح النفس وتركبة النفس الذي نهى الله عنه في قوله ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَتَّقُونَ ﴾

[النجم : ٣٢] .

وفيه : دليل أيضاً على أن الإنسان ينبغي له أن يغتنم وجود العالم ، لأن هؤلاء القوم لما أخبرهم رسول الله ﷺ : أنه رسول الله ، جعلوا يسألونه ، فينبغي للإنسان أن يغتنم فرصة وجود العالم من أجل أن يسأله عما يشكك عليه .

ومن فوائده أيضاً : أن الصبي إذا حج له وليه فله أجر ، والحج يكون للصبي لا للولي ، وقد اشتهر عند عامة الناس أن الصبي يكون حجة لوالديه ، وهذا لا أصل له ، بل حج الصبي له ، لقول النبي ﷺ ، لما قالت المرأة : ألهذا حج قال : « نعم ، ولك أجر » ، فالحج له ، وليعلم أن الصبي بل كل من دون البلوغ يكتب له الأجر ولا يكتب عليه الوزر .

واستدل بعض العلماء بقوله : « نعم له حج » أنه إذا أحرم الصبي لزمه جميع لوازم الحج ، يلزمه الطواف ، والسعي ، والوقوف بعرفة ، والمبيت بمزدلفة ومنى ، ورمي الجمرات ، يفعل ما يقدر عليه ، وما لا يقدر عليه يفعل عنه ، إلا الطواف والسعي فإنه يطاف ويسعى به .

وقال بعض أهل العلم : لا بأس أن يتحلل الصبي ولو بدون سبب ، لأنه قد رفع عنه القلم ، وليس بمكلف ، ولا يقال : إن نفل الحج كفره ، لا يجوز الخروج منه ، وهذا الصبي متنفل فلا يجوز له أن يخرج لأن أصل الصبي من غير المكلفين ، فلا تلزمه بشيء ، وهو غير مكلف ، وهذا مذهب أبي حنيفة رحمته الله أن الصبي لا يلزم بإتمام الحج ، ولا بواجبات الحج ، ولا باجتناب محذوراته ، وأن ما جاء منه قبل ، وما تخلف لا يُسأل عنه ، وهذا يقع كثيراً من الناس الآن ، حيث يحرمون بصبيانهم ، ثم يتعب الصبي ، ويأبى أن يكمل ويخلع إحرامه ، فعلى مذهب جمهور العلماء لا بد أن نلزمه بالإتمام ، وعلى مذهب أبي حنيفة وهو الذي مال إليه صاحب الفروع رحمته الله ، من أصحاب الإمام أحمد ، ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنه لا يلزم ، لأنه ليس أهلاً للتكليف .

وفي هذا الحديث أيضاً : ما يدل على أن الصبي وإن كان غير مميز فإنه يصح منه الحج ولكن كيف تصح نيته وهو غير مميز ؟ قال العلماء : ينوي عنه وليه بقلبه أنه أدخله في الإحرام ، ويفعل وليه كل ما يعجز عنه .

وفي هذه المناسبة نود أن نبين هل يجب على من دخل في الحج أن ينوي الطواف بنية مستقلة

والسعي بنية مستقلة والرمي كذلك ، أم لا يشترط ؟

هذه المسألة فيها خلاف بين العلماء : من العلماء من قال : إذا أحرم الإنسان بالحج وطاف وسعى على النية الأولى ، يعني : لم يجدد نيته عند الطواف ولا عند السعي ، فإن حجه صحيح ، قال تعليلاً لقوله : إن الطواف والسعي والوقوف والرمي والمبيت كلها أجزاء من عبادة فتكفي النية الأولى ، كما أن الإنسان إذا صلى ونوى عند الدخول في الصلاة أنه دخل في الصلاة ، فإنه لا يلزمه أن ينوي الركوع ولا السجود ولا القيام ولا القعود لأنها أجزاء من العبادة ، فكذلك الحج .

وهذا القول ينبغي أن يؤتى به عند الضرورة ، يعني : لو جاءك مستفت يقول : أنا دخلت المسجد الحرام وطفت ، وفي تلك الساعة لم تكن عندي نية ، فهنا ينبغي أن يفتي بأنه لا شيء عليه ، وأن طوافه صحيح ، أما عند السعي فينبغي أن يقال : إنك إذا نويت أحسن ، وهو على كل لابد أن ينوي الطواف ، ولكن أحياناً يغيب عن ذهنه أنه طواف الركن أو طواف التطوع وما أشبه ذلك .

١٨٠ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « الْحَازَنُ الْمُسْلِمُ الْأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ مَا أَمَرَ بِهِ ، فَيُعْطِيهِ كَامِلًا مُؤَفَّرًا ، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ إِلَى الَّذِي أَمَرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقِينَ » ^(١) متفق عليه . وفي رواية : « الَّذِي يُعْطِي مَا أَمَرَ بِهِ » وَضَبَطُوا « الْمُتَصَدِّقِينَ » بفتح القاف مع كسر النون على التثنية ، وَعَكَّسَهُ عَلَى الْجَمْعِ وَكَلَاهُمَا صَحِيحٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ، قال : « الْحَازَنُ الْمُسْلِمُ الْأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ مَا أَمَرَ بِهِ ، فَيُعْطِيهِ كَامِلًا مُؤَفَّرًا ، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ إِلَى الَّذِي أَمَرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقِينَ » متفق عليه . الحازن مبتدأ وأحد المتصدقين خبر ، يعني أن الحازن الذي جمع هذه الأوصاف الأربعة : المسلم ، الأمين ، الذي ينفذ ما أمر به ، طيبة بها نفسه .

الوصف الأول : فهو مسلم احترازاً من الكافر ، فالحازن إذا كان كافراً وإن كان أميناً وينفذ ما أمر به ليس له أجر ، لأن الكفار لا أجر لهم في الآخرة فيما عملوا من الخير ، قال الله تعالى : ﴿ وَفَرِحْنَا بِكُم بَيْنَمَا تَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا لَوْ أَنَّ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الفرقان : ٢٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْكَدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَكُونُ خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٧] أما إذا عمل خيراً ثم أسلم فإن يسلم على ما أسلف من خير يُعْطَى أَجْرُهُ .

(١) أخرجه البخاري بنحوه في الإجارة (٧٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠٢٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٩٤/٤) ، ورواية « الذي يعطي ما أمر به » هذه رواية لمسلم ، ولأحمد في المسند ، قوله « الحازن » أي لمال غيره بإذنه .

(٢) قوله : ﴿ هَبْكَ نَشْتُرًا ﴾ الهباء مثل ذرات التراب الصغيرة التي لا تُرى بالعين إلا من خلال أشعة الشمس الداخلة من كوة أو من نافذة . والمشتور : المرق لا يمكن جمعه ، قوله : ﴿ حَبَطْتَ ﴾ فسدت وبطلت .

الوصف الثاني : الأمين يعني الذي أدى ما أؤتمن عليه ، فحفظ المال ، ولم يفسده ، ولم يغز فيه ، ولم يتعد فيه .

الوصف الثالث : الذي ينفذ ما أمر به : يعني يفعله ؛ لأن من الناس من يكون أميناً لكنه متكاسل ، فهذا أمين ومنفذ يفعل ما أمر به ، فيجمع بين القوة والأمانة .

الوصف الرابع : أن تكون طيبة به نفسه ، إذا نفذ وأعطى ما أمر به أعطاه وهو طيبة به نفسه ، يعني لا يمين على المعطي ، أو يظهر أن له فضلاً عليه ، بل يعطيه طيبة به نفسه ، هذا يكون أحد المتصدقين مع أنه لم يدفع من ماله فلساً واحداً .

مثال ذلك : إذا كان عند رجل مال ، وكان أمين الصندوق - صندوق المال - مسلماً أميناً ، ينفذ ما أمره به ، ويعطيه صاحبه طيبة به نفسه ، فإذا قال لهم صاحب الصندوق : يا فلان أعط هذا الفقير عشرة آلاف ريال . فأعطاه على الوصف الذي قال النبي ﷺ فإنه يكون كالذي تصدق بعشرة آلاف ريال ، من غير أن ينقص من أجر المتصدق شيئاً ، ولكنه فضل من الله ﷻ .

ففي هذا الحديث : دليل على فضل الأمانة ، وعلى فضل التنفيذ فيما وُكل فيه وعدم التفريط فيه ، ودليل على أن التعاون على البر والتقوى يكتب لمن أعان مثل ما يكتب لمن فعل ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .

٢٢ - باب النصيحة

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] وقال تعالى : إخباراً عن نوح ﷺ : ﴿ وَأَنْصَحْ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٦٢] وَعَنْ هُودٍ ﷺ : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ^(١) [الأعراف : ٦٨] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - (باب النصيحة) النصيحة : هي بذل النصح للغير ، والنصح معناه أن الشخص يحب لأخيه الخير ، ويدعوه إليه ، ويبينه له ، ويرغبه فيه ، وقد جعل النبي ﷺ الدين النصيحة ، فقال : « الدين النصيحة » ثلاث مرات ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » ^(٢) وضد النصيحة المكر والغش والخيانة والخديعة . ثم صدر المؤلف هذا الباب بثلاث آيات .

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وإذا ثبتت هذه الجملة بالمؤمنين ، أي : إذا تحققت فيهم واتصفوا بها ، فإنه لا بد أن تكون هذه الأخوة مشعرة للنصيحة .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَأَنْصَحْ لَكُمْ ﴾ أي : أدلكم على طريق رشدكم ، قوله تعالى : ﴿ أَمِينٌ ﴾ أي : ثقة على ما أؤتمن عليه .

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - في الإيمان (٩٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٦) ، وأحمد في مسنده (٢٩٧/٢) .

والواجب على المؤمنين أن يكونوا كما قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وهم إخوة في الدين ، والأخوة في الدين أقوى من الأخوة في النسب ، بل إن الأخوة في النسب مع عدم الدين ليست بشيء ، ولهذا قال الله ﷻ لنوح لما قال : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] أما المؤمنون فإنهم وإن تباعدت أقطارهم وتباينت لغاتهم ، فإنهم إخوة مهما كان ، والأخ لا بد أن يكون ناصحاً لأخيه ، مبدئياً له الخير ، مبيئاً ذلك له داعياً له .

أما الآية الثانية : فهي قول نوح ، وهو أول الرسل ، يقول لقومه حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني لست بغاشٍ لكم ، ولا خادع ، ولا غادر ، ولكنني ناصح .

أما الآية الثالثة : فقول الله تعالى : عن هود ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ . وعلى كل حال يجب على المرء أن يكون لإخوانه من الناصحين مبدئياً لهم الخير داعياً لهم إليه حتى يحقق بذلك الأخوة الإيمانية .

* * *

وأما الأحاديث :

١٨١ - فالأول : عن أبي رُقَيْة تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : « لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ » (١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : في (باب النصيحة) ثلاثة أحاديث : الحديث الأول عن تميم بن أوس الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ » ، كررها ثلاثاً ﷺ لأجل أن ينتبه المخاطب والسامع حتى يتلقى ما يقوله النبي ﷺ بانتباه ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قَالَ : « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » خمسة أشياء هي محل النصيحة : والنصيحة لله ﷻ تكون بالإخلاص لله تعالى ، والتعبد له محبة وتعظيماً ، لأن الله ﷻ يتعبد له العبد محبة ، فيقوم بأوامره طلباً للوصول إلى محبته ﷻ وتعظيمها ، فينتهي عند محارمه خوفاً منه ﷻ . ومن النصيحة لله : أن يكون الإنسان دائماً ذاكراً لربه ، بقلبه ولسانه وجوارحه ، أما القلب فإنه لا حدود لذكره ، والإنسان يستطيع أن يذكر الله بقلبه على كل حال ، وفي كل ما يشاء ، وفي كل ما يسمع ، لأن في كل شيء لله تعالى آية تدل على وحدانيته وعظمته وسلطانه ، يفكر في خلق السموات والأرض ، يفكر في الليل والنهار ، يفكر في آيات الله من الشمس والقمر والنجوم والجال والشجر والدواب وغير ذلك ، فيحدث هذا ذكراً لله ﷻ في قلبه .

(١) أخرجه مسلم - اللفظ له - في الإيمان (٩٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٧/٢) .

من النصيحة لله : أن تكون غيرته لله فيغار لله ﷻ إذا انتهكت محارمه ^(١) ، كما كان النبي ﷺ هكذا فإنه - عليه الصلاة والسلام - كان لا ينتقم لنفسه أبدًا ، مهما قال الناس فيه لا ينتقم لنفسه ، ولكنه إذا انتهكت محارم الله صار أشد الناس انتقامًا ممن ينتهك حرمت الله تعالى ، فيغار الإنسان على ربه ؛ فلا يسمع أحدًا يسب الله أو يشتم الله أو يستهزئ بالله إلا غار من ذلك ، حتى إذا كان له أن يقتله قتله ، لأن هذا من النصيحة لله ﷻ .

ومن النصيحة لله : أن يذب عن دين الله تعالى الذي شرعه لعباده ، فيبطل كيد الكائدين ، ويرد على الملحدّين الذين يعرضون الدين وكأنه قيود ، تقيد الناس عن حرياتهم ، والحقيقة أنها قيود حرية ، لأن الإنسان يتقيد لله ﷻ ، وبالله ، وفي دين الله ، من لم يتقيد بهذا تقيد للشيطان ، وفي خطوات الشيطان ، لأن النفس همامة دائمًا ، فلا تسكن نفس أحد أبدًا ، بل لا بد أن تكون لها همم في أي شيء ؛ إما في خير ، وإما في شر .

وما أحسن قول ابن القيم رحمه الله في التوبة ، حيث قال :

هربوا من الرق الذي خُلِقُوا له وبلوا برق النفس والشيطان
هربوا من الرق الذي خُلِقُوا له . ما هو الرق الذي خلقنا له ؟ عبادة الله . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] لكنهم هربوا من هذا الرق الذي هو كمال الحرية وكمال السعادة إلى رق النفس والشيطان .

والنفس - نعوذ بالله من شرها - تسترق الإنسان وتملي عليه الهوى فيكون خاضعًا لهواها ، وإذا غلب الهوى زال العقل ، وكما قال الشاعر :

سكران سكر هوى وسكر مدامة فمتى إفاقة من به سُكران ؟
يصف شخصًا يشرب الخمر - والعياذ بالله - فيقول إنه فيه سكران ، سكر الهوى وسكر المدامة ، فمتى إفاقة من به سكران ؟ وواضح أن هذا لا ترجى له إفاقة .

فالخاصل : أن الإنسان يتعبد لله ﷻ لا للنفس ولا للشيطان ، حتى يتحرر من القيود التي تضربه ولا تنفعه .
ومن النصيحة لله ﷻ : أن يكون بآثا دين الله في عباد الله ، لأن هذا مقام الرسل كلهم ، فهم دعاة إلى الله يدعون الناس إلى الله ﷻ ، كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(٢) [النحل : ٣٦] وقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من الأمة التي بعث فيها الرسول . نسأل الله تعالى أن

(١) هذا معنى حديث ولفظه « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ... » وقد أخرجه مسلم في التوبة (٣٦) ، وأحمد في مسنده (٥٢٠ / ٢) .

(٢) ﴿ الطَّاغُوتُ ﴾ كل متعد ، وكل معبود من دون الله ، قوله : ﴿ حَقَّتْ ﴾ ثبت ووجبت ، قوله : ﴿ الضَّلَالَةُ ﴾ الضلال هو الكفر بكل أنواعه .

يهدينا وإياكم صراطه المستقيم .

ثم قال ﷺ « ولكتاباه » يعني أيضًا من الدين النصيحة لكتاب الله ﷻ ، وهذا يشمل كتاب الله الذي نزل على محمد ﷺ ، والذي أنزل من قبل ، والنصيحة لهذه الكتب بتصديق أخبارها ، أي أن ما أخبرت به يجب أن نصدقه .

أما بالنسبة للقرآن فظاهر ، لأن القرآن - ولله الحمد - نُقل بالتواتر من عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا وإلى أن يرفعه الله ﷻ في آخر الزمان ، يقرأه الصغير والكبير ، وأما الكتب السابقة فإنها قد حرفت وغيّرت وبدلت ، لكن ما صح منها فإنه يجب تصديق خبره واعتقاد صحة حكمه ، لكننا لسنا متعبدين بأحكام الكتب السابقة إلا بدليل من شرعنا .

ومن النصيحة لكتاب الله : أن يدافع الإنسان عنه ، يدافع مَنْ حَرَفَهُ تَحْرِيفًا لَفْظِيًّا ، أو تحريفًا معنويًّا ، أو من زعم أن فيه نقصًا ، أو أن فيه زيادة ، فالرافضة مثلاً يدعون أن القرآن فيه نقص ، وأن القرآن الذي نزل على محمد أكثر من هذا الموجود بين أيدي المسلمين . فخالفوا بذلك إجماع المسلمين ، والقرآن - ولله الحمد - لم ينقص منه شيء ، ومن زعم أنه قد نقص منه شيء فقد كَذَبَ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فالله ﷻ تكفل بحفظه ، من ادعى أنه قد نُقص حرفًا واحدًا أو اختزل منه فقد كَذَبَ الله ﷻ ، فعليه أن يتوب ويرجع إلى الله من هذه الردة .

ومن النصيحة لكتاب الله : أن ينشر الإنسان معناه بين المسلمين ؛ المعنى الصحيح الموافق لظاهره ، بحيث لا يكون فيه تحريف ولا تغيير ، فإذا جلس مجلسًا فإن من الخير والنصيحة لكتاب الله أن يأتي بآية من كتاب الله ﷻ يبينها للناس ، ويوضح معناها ، ولا سيما الآيات التي تكثر قراءتها بين المسلمين ؛ مثل الفاتحة ، فإن الفاتحة كما نعلم جميعًا ركن من أركان الصلاة في كل ركعة ؛ للإمام والمأموم والمنفرد ، فيحتاج الناس إلى معرفتها ، فإذا فسرّها بين يدي الناس وبيّنها لهم فإن هذا من النصيحة لكتاب الله ﷻ .

ومن النصيحة لكتاب الله : أن تؤمن بأن الله تعالى تكلم بهذا القرآن حقيقة ، وأنه كلامه ﷻ ؛ الحرف والمعنى ، ليس الكلام الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف ، بل إنه كلام الله لفظًا ومعنى تكلم به وتلقاه منه جبريل ثم نزل به على محمد ﷺ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا لَنَزِيلُ رَبِّ التَّكْوِينِ ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَيَّ فَلْيَكْ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] وتأمل كيف قال : على قلبك مع أن الرسول ﷺ يسمعه بأذنيه ، ولكن الأذن إن لم يصل مسموعها إلى القلب فإنه لا يستقر في النفس ، فلا يستقر في النفس إلا ما وصل إلى القلب عن طريق الأذن ، أو عن طريق الرؤيا بالعين ، أو المس باليد ، أو الشم بالأنف ، أو الذوق بالفم فالمهم : القرار وهو القلب ، ولهذا قال ﴿ عَلَيَّ فَلْيَكْ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ وعلى هذا فليس من النصيحة الخوض في الكلام على القرآن : هل هو كلام الله حقيقة أو ليس بكلام الله حقيقة ؟ أو أن يقول إنه خلق من مخلوقات الله ، أو ما أشبه ذلك ، بل من النصيحة أن تؤمن بأنه كلام الله حقًا اللفظ والمعنى .

ومن النصيحة لكتاب الله تعالى : أن يقوم الإنسان باحترام هذا القرآن العظيم ، فمن ذلك أن لا يمس القرآن إلا وهو طاهر من الحدثين ؛ الأصغر والأكبر ، لقول النبي ﷺ « لا يمس القرآن إلا طاهر » ^(١) أو من وراء حائل ، لأن من مسه من وراء حائل فإنه لم يمس في الواقع ، وينبغي - لا على سبيل الوجوب - أن لا يقرأ القرآن ولو عن ظهر قلب إلا متطهراً ، لأن هذا من احترام القرآن .

ومن النصيحة لكتاب الله ﷻ : أن لا تضعه في موضع يمتن فيه ، ويكون وضعه فيه امتهاناً له ، كمحل القاذورات وما أشبه ذلك ، ولهذا يجب الحذر مما يصنعه بعض الصبيان إذا انتهوا من الدروس في مدارسهم ، ألقوا مقرراتهم والتي من بينها الأجزاء من المصحف في الطرقات وفي الزباله أو ما أشبه ذلك والعياذ بالله .

وأما وضع المصحف على الأرض الطاهرة الطيبة ، فإن هذا لا بأس به ولا حرج فيه ، لأن هذا ليس فيه امتهان للقرآن ، ولا إهانة له ، وهو يقع كثيراً من الناس إذا كان يصلي ويقرأ من المصحف وأراد السجود يضعه بين يديه ، فهذا لا يعد امتهاناً ولا إهانة للمصحف فلا بأس به والله أعلم .

وأما الثالثة : فقال النبي ﷺ : « ولرسوله » . والنصيحة لرسول الله ﷺ تتضمن أشياء :
الأول : الإيمان التام برسالته وأن الله تعالى أرسله إلى جميع الخلق ؛ عربهم وعجمهم ، بل إنسهم وجنهم ، قال الله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ [النساء : ٧٩] ، وقال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] وقال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] والآيات في هذه كثيرة ، فيؤمن بأن محمداً رسول الله إلى جميع الخلق من جن وإنس .
ومن النصيحة لرسول الله ﷺ : تصديق خبره : وأنه صادق مصدوق ، صادق فيما يخبر به ، مصدوق فيما أخبر به من الوحي ، فما كُذِبَ ولا كُذِبَ ﷺ .

ومن النصيحة لرسول الله ﷺ : صدق الاتباع له ، بحيث لا تتجاوز شريعته ولا تنقص عنها ، فتجعله إمامك في جميع العبادات ، فإن الرسول ﷺ هو إمام هذه الأمة وهو متبوعها ، ولا يحل لأحد أن يتبع سواه ، إلا إن كان واسطة بينه وبين الرسول ، بحيث يكون عنده من علم السنة ما ليس عندك ، فحينئذ لا حرج أن تتبع هذا الرجل بشرط أن تكون معتقداً بأنه واسطة بينك وبين الشريعة ، لا أنه مستقل ، لأنه لا أحد يستقل بالتشريع إلا الرسول ﷺ ، أما من سواه فهو مبلغ عن الرسول ﷺ ، كما قال الرسول ﷺ « بلغوا عني ولو آية » ^(٢) .

ومن النصيحة لرسول الله ﷺ : الذب عن شريعته وحمايتها ، فالذب عنها بأن لا ينتقصها أحد ،

(١) أخرجه مالك في الموطأ في القرآن (١) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٧٦/١) ، والهندي في كنز العمال (٢٨٣٠) ، وهذا الحديث له طرق ومعظمها لا يخلو من ضعف ولكنه ضعف يسير ، فالعلة فيه تكمن في إرسال الحديث أو سوء الحفظ فقد قال ابن عبد البر : لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) ، والترمذي في العلم (٢٦٦٩) ، وأحمد في مسنده (١٥٩/٢) .

والذب عنها بأن لا يزيد فيها أحد ما ليس منها ، فتحارب أهل البدع القولية والفعلية والعقدية ، لأن البدع كلها باب واحد ، كلها حقل واحد ، كلها ضلالة ، كما قال الرسول ﷺ « كل بدعة ضلالة » ^(١) لا يستثنى من هذا بدعة قولية ولا فعلية ولا عقدية ، كل ما خالف هدي النبي ﷺ وما جاء به في العقيدة أو في القول أو في العمل فهو بدعة .

فمن النصيحة لرسول الله ﷺ أن تحارب أهل البدع بمثل ما يحاربون به السنة ؛ إن حاربوا بالقول فبالقول ، وإن حاربوا بالفعل فبالفعل ، جزاء وفاقاً ، لأن هذا من النصيحة لرسول الله ﷺ .

ومن النصيحة للنبي ﷺ : احترام أصحابه وتعظيمهم ومحبتهم لأن صحب الإنسان لاشك أنهم خاصته من الناس وأخص الناس به ، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم خير القرون ؛ لأنهم أصحاب رسول الله ﷺ ، فمن سب الصحابة ، أو أبغضهم ، أو لزمهم ، أو أشار إلى شيء يهتهم فيه ، فإنه لم ينصح للرسول ﷺ وإن زعم أنه ناصح للرسول فهو كاذب ، كيف تسب أصحاب الرسول ﷺ وتبغضهم وأنت تحب الرسول وتنصح له ؟ وقد جاء عن النبي ﷺ « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ^(٢) فإذا كان أصحاب الرسول ﷺ يسبهم الساب المفترى الكذاب فإنه في الحقيقة قد سب الرسول ﷺ ، ولم ينصح له ، بل هو في الحقيقة قدح في الشريعة ، لأن حملة الشريعة إلينا هم الصحابة ، فإذا كانوا أهلاً للسب والقدح لم يوثق بالشريعة ، لأن نقلتها أهل ذم وقدح ، بل إن سب الصحابة سب لله ﷻ - نسأل الله العافية - وقدح في حكمته أن يختار لنبيه ﷺ ولحمل دينه من هم أهل للذم والقدح ، إذن من النصيحة للرسول ﷺ محبة أصحابه واحترامهم وتعظيمهم ، فهذا من الدين ، فصار النصح لرسول الله ﷺ يتضمن هذه الأمور كلها .

الرابع : قال ﷺ « ولأئمة المسلمين » الأئمة جمع إمام ، والمراد بالإمام من يقتدى به ويؤتمر بأمره ، وينقسم إلى قسمين : إمامة في الدين وإمامة في السلطة .

فالإمامة في الدين : هي بيدي العلماء ، فالعلماء هم أئمة الدين الذين يقودون الناس لكتاب الله ويهدونهم إليه ويدلونهم على شريعة الله ، قال الله تبارك وتعالى في دعاء عباد الرحمن ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ^(٣) [الفرقان : ٧٤] فهؤلاء ما سألوا الله إمامة السلطة والإمارة ، بل سألوا الله إمامة الدين ، لأن عباد الرحمن لا يريدون السلطة على الناس ولا يطلبون الإمارة ، بل قد قال الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه : « لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها » ^(٤) لكنهم يسألون إمامة الدين ، التي قال الله عنها ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] فقال ﷺ : ﴿ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) ، وقد سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٣٣) ، والترمذي في الزهد (٢٣٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

(٣) قوله : ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ : أسباب سرور وفرح ، قوله : ﴿ إِمَامًا ﴾ : حجة وقنوة في الخير .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٢٢) ، ومسلم - واللفظ له - في الإيمان (١٩) .

والنصح لأئمة المسلمين أي : إمامة الدين والعلم ، هو أن الإنسان يحرص على تلقي ما عندهم من العلم ، فإنهم الوساطة بين الرسول ﷺ وبين أمته فيحرص على تلقي العلم عنهم بكل وسيلة .
والوسائل في وقتنا - ولله الحمد - كثرت ؛ من كتابة وتسجيل وتلقي وغير ذلك ، فالوسائل - والحمد لله - كثيرة ، فليحرص على تلقي العلم من العلماء ، وليكن تلقيه على وجه التأنى لا على وجه التسرع ، لأن الإنسان إذا تسرع في تلقي العلم فرمما يتلقاه على غير ما ألقاه إليه شيخه ، وقد أدب الله النبي ﷺ هذا الأدب ، فقال تعالى ﴿ لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَعَجَّلَ بِهِ ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۖ إِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : ١٦-١٨] لأن النبي ﷺ كان يادار جبريل إذا ألقى عليه القرآن فيقرأ ، فقال الله تعالى : ﴿ لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَعَجَّلَ بِهِ ۖ ﴾ يعني : اسكت لا تحرك اللسان ولا سراً حتى ينتهي جبريل من القراءة ، ثم بعد ذلك أقرأه .

﴿ ثُمَّ لِنَعْلَمَ بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : ١٩] تكفل الرب ﷻ ببيانه يعني أنك لن تنساه ، مع أن المتوقع أن الإنسان إذا سكت حتى ينتهي الملقى من إلقائه ربما ينسى بعض الجمل ، لكن قال الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ لِنَعْلَمَ بَيَانَهُ ﴾ .
ومن النصح أيضاً لعلماء المسلمين : أن لا يتتبع الإنسان عوراتهم ، وزلاتهم ، وما يخطؤون فيه ، لأنهم غير معصومين ، قد يزلون وقد يخطؤون ، وكل ابن آدم خطأ وخير الخطائين التوابون ^(١) ، ولا سيما من يتلقى العلم فإنه يجب أن يكون أبلغ الناس في تحمل الأخطاء التي يخطئ بها شيخه ، وينبهه عليها ، فكم من إنسان انتفع من تلاميذه ؛ ينبهونه على بعض الشيء ؛ على الخطأ العلمي أو على الخطأ العملي ، وعلى أخطاء كثيرة ، لأن الإنسان بشر .

لكن الشيء المهم أن لا يكون حريصاً على تلقي الزلات ، فإنه جاء في الحديث « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل في قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه فضحه الله ولو في بيت أمه » ^(٢) ، هذا وهم مسلمون عامة فكيف بالعلماء ؟ .

إن الذين يلتقطون زلات العلماء ليشيعوها ليسوا مسيئين للعلماء شخصياً وحسب ، بل مسيئون شخصياً ، ومسيئون إلى علمهم الذي يحملونه ، ومسيئون إلى الشريعة التي تتلقى من جهتهم ، لأن العلماء إذا لم يثق الناس فيهم ، وإذا اطلعوا على عوراتهم التي قد لا تكون عورات إلا على حسب نظر هذا المغرض ، فإنهم تقل ثقتهم بالعلماء وبما عندهم من العلم ، فيكون في هذا جناية على الشرع الذي يحملونه من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

لذلك من نصيحتك لأئمة المسلمين من أهل العلم : أن تدافع عن عوراتهم ، وأن تسترها ما استطعت ، وأن لا تسكت بل ، نبه العالم ، وابحث معه واسأله ، ربما يُنقل عنه أشياء غير صحيحة ، وقد نقل عنا وعن غيرنا أشياء غير صحيحة لكن الناس - نسأل الله العافية - إذا كان لهم هوى

(١) هذا معنى حديث ، وقد أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٨٠) ، وأحمد في مسنده (٤٢٤/٤) ، وهذا الحديث مروى بالمعنى .

وأحبوا شيئاً وعرفوا أحداً من أهل العلم يقبل الناس قوله ، نسبوه لهذا العالم ، ثم إذا سألت نفس الذي نُسِبَ إليه القول ، قال : أبداً ما قلت كذا ، وقد يخطئ السائل مثلاً في صيغة السؤال ، فيجيب العالم على قدر السؤال ويفهمه السائل على حسب ما في نفسه هو ، فيحصل الخطأ ، وقد يجيب العالم بالصواب بعد فهم السؤال لكن يفهمه السائل على غير وجهه فيخطئ في النقل .

وعلى كل حال من النصيحة لأئمة المسلمين : في العلم والدين أن لا يتبع الإنسان عوراتهم ، بل يلتبس العذر لهم ، لا مانع من أن يتصل بهم ، فإذا أراد التأكد من شيء سمعه ويرى أنه خطأ ، فإذا اتصل به ربما يترن له ، وربما يشرح له شيئاً لا يعرفه ويظن أنه أخطأ فيه ، وربما قد خفي عليه شيء فتنبه أنت ، وتكون مشكوراً على هذا ، وقد قال أول إمام في الدين والسلطة في هذه الأمة بعد الرسول ﷺ ، أبو بكر رضي الله عنه . حيث خطب أول خطبة ، قال للناس وهو يخاطبهم يتحدث عن نفسه : إن اعوججت فأقيموني . وذلك لأن الإنسان بشر .

فقوم أخاك ولا سيما أهل العلم ؛ لأن العالم خطره عظيم ، الخطر الزللي ، والخطر الرفيع ، لأن كلمة الخطر تكون للعلو والنزول ، فهو خطره عظيم ، إن أصاب هدى الله على يده خلقاً كثيراً ، وإن أخطأ ضل على يده خلق كثير ، فزلة العالم من أعظم الزلات ^(١) .

ولهذا أقول : يجب أن نحمي أعراض علمائنا ، وأن ندافع عنهم وأن نلتبس العذر لأخطائهم ، ولا يمنع هذا أن نتصل بهم ، وأن نسألهم ، وأن نبث معهم ، وأن نناقشهم حتى نكون مخلصين ناصحين لأئمة المسلمين .

النوع الثاني من أئمة المسلمين : أئمة السلطة وهم الأمراء ، والأمراء في الغالب أكثر خطأ من العلماء ، لأنه لسلطته قد تأخذه العزة بالإثم ، فيريد أن يفرض سلطته على الصواب والخطأ ، فالغالب من أئمة المسلمين في السلطة وهم الأمراء أن الخطأ فيهم أكثر من العلماء إلا ما شاء الله .

والنصيحة لهم : هي أن تكف عن مساوئهم ، وأن لا تنشرها بين الناس ، وأن نبذل لهم النصيحة ما استطعنا ، بالمباشرة إذا كنا نستطيع أن نباشرهم ، أو بالكتابة إذا كنا لا نستطيع ، أو بالاتصال بمن يتصل بهم إذا كنا لا نستطيع الكتابة ، لأنه أحياناً ما يستطيع الإنسان لهم الكتابة ، ولو كتب لم تصل إلى المسؤول ، فيتصل بأحد يتصل بالمسؤول وينبهه ، فهذا من النصيح .

أما نشر مساوئهم فليس به عدوان شخصي عليهم فقط ، بل هو عدوان شخصي عليهم وعلى الأمة جميعاً ، لأن الأمة إذا امتلأت صدورهم من الحقد على ولاة أمورهم عصت الولاة ، ونايذتهم ، وحيثئذ تحصل الفوضى ويسود الخوف ويزل الأمن ، فإذا بقيت هيبة ولاة الأمور في الصدور صار لهم هيبة ، وحميت أوامرهم ونظمهم التي لا تخالف الشريعة .

فالهم : أن أئمة المسلمين تشمل النوعين ، أئمة الدين وهم العلماء وأئمة السلطان وهم الأمراء ، وإن

(١) هذا معنى حديث وقد أخرجه الدارمي في المقدمة (٢١٩) باب (٢٣) ولفظه «هل تعرف ما يهدم الإسلام ..» .

شئت فقل أئمة البيان وأئمة السلطان ، أئمة البيان وهم العلماء الذين يبينون للناس ، وأئمة السلطان وهم الأمراء الذين ينفذون شريعة الله بقوة السلطان ، إذن أئمة المسلمين سواء أئمة العلم والبيان أو أئمة القوة والسلطان يجب علينا أن نناصحهم وأن نحرص على بذل النصيحة لهم ، في الدفاع عنهم وستر معايهم ، وعلى أن نكون معهم إذا أخطؤوا في بيان ذلك الخطأ لهم بيننا وبينهم ، لأنه ربما نعتقد أن هذا العالم مخطئ أو أن هذا الأمير مخطئ وإذا ناقشناه تبين لنا أنه غير مخطئ ، كما يقع هذا كثيرا .

كذلك أيضا : ربما تنقل لنا هذه الأشياء عن العالم أو عن الأمير على غير وجهها ، إمّا لسوء القصد من الناقل ، لأن بعض الناس - والعياذ بالله - يحب تشهير السوء بالعلماء وبالأمراء ، فيكون سب القصد ينقل عليهم ما لم يقولوا ، وينسب إليهم ما لا يفعلون ، فلا بد إذا سمعنا عن عالم أو عن أمير ما نرى أنه أخطأ لابد في تمام النصيحة من الاتصال به ومناقشته وبيان الأمر وتبينه حتى نكون على بصيرة .

أما آخر الحديث فيقول : (وعامتهم) يعني النصيح لعامة المسلمين ، وقدم الأئمة على العامة ؛ لأن الأئمة إذا صلحوا صلحت العامة ؛ فإذا صلح الأمراء صلحت العامة ، وإذا صلح العلماء صلحت العامة ؛ لذلك بدأ بهم ، وليعلم أن أئمة المسلمين لا يراد بهم الأئمة الذين لهم الإمامة العظمى ، ولكن يراد به ما هو أعم ، فكل من له إمرة ولو في مدرسة فإنه يعتبر من أئمة المسلمين إذا نوصح وصلح ، صلح من تحت يده .

والنصيحة لعامة المسلمين : بأن تحب لهم ما تحب لنفسك ، وأن ترشدهم إلى الخير ، وأن تهديهم إلى الحق إذا ضلوا عنه ، وأن تذكرهم به إذا نسوه ، وأن تجعلهم لك بمنزلة الإخوة ، لأن الرسول ﷺ قال « المسلم أخو المسلم » ^(١) ، وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ^(٢) ، وقال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحوى والسهر » ^(٣) فأنت إذا أحسست بألم في أطرف شيء من أعضائك ، فإن هذا الألم يسري على جميع البدن ، كذلك ينبغي أن تكون للمسلمين هكذا إذا اشتكى أحد من المسلمين فكأنما الأمر يرجع إليك أنت .

وليعلم أن النصيحة هي مخاطبة الإنسان سرّاً بينك وبينه ، لأنك إذا نصحته سرّاً بينك وبينه أثرت في نفسه ، وعلم أنك ناصح ، لكن إذا تكلمت أمام الناس عليه فإنه قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقبل النصيحة ، وقد يظن أنك إنما تريد الانتقام منه وتوبيخه وحق منزلته بين الناس فلا يقبل ، لكن إذا كان السر بينك وبينه صار لها ميزانٌ كبيرٌ عنده وقيمة ، وقبل منك .

* * *

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢٧٧/٢) .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الأدب (٦٠٢٦) ، ومسلم في البر والصلة (٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١) ومسلم - واللفظ له - وبدون كلمة : الواحد في البر والصلة (٦٦) .

١٨٢ - الثَّانِي : عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالنَّصِيحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ ^(١) . متفقٌ عليه .

١٨٣ - الثَّالِثُ : عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله عن جرير بن عبد الله البجلي قال : بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم ؛ هذه ثلاثة أشياء حق محض لله ، وحق للآدمي محض ، وحق مشترك ، أما الحق المحض لله فهو قوله : إقام الصلاة .

ومعنى إقام الصلاة : أن يأتي بها الإنسان مستقيماً على الوجه المطلوب ، فيحافظ عليها في أوقاتها ويقوم بأركانها ، وواجباتها ، وشروطها ، ويتم ذلك ، بمستحباتها .

ومن هذا : بالنسبة للرجال إقامة الصلاة في المساجد مع الجماعة ، فإن هذا من إقامة الصلاة ، ومن تخلف عن الجماعة بلا عذر فهو آثم ، بل هو عن بعض العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله إذا صلى بدون عذر مع غير الجماعة فصلاته باطلة مردودة عليه ، لا تقبل منه ، ولكن الجمهور على أنها تصح مع الإثم ، وهذا هو الصحيح ، فمن ترك صلاة الجماعة بلا عذر فصلاته صحيحة ولكنه آثم ، وهذا هو القول الراجح وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وهو الذي عليه جمهور من قالوا بوجوب صلاة الجماعة .

ومن إقامة الصلاة : الخشوع فيها ، والخشوع هو حضور القلب وتأمله بما يقوله المصلي وما يفعله ، وهو أمر مهم ؛ لأن الصلاة بلا خشوع كالجسد بلا روح ، فأنت إذا صليت وقلبك يدور في كل واد فإنك تصلي حركات بدنية فقط ، فإذا كان قلبك حاضراً تشعر كأنك بين يدي الله ﷻ ، تناجيه بكلامه وتتقرب إليه بذكره ودعائه ، فهذا هو لب الصلاة وروحها .

وأما قوله : إيتاء الزكاة يعني : إعطاؤها لمستحقيها ، وهذه جامعة بين حق الله وحق العباد ، أما كونها حقاً لله فلأن الله فرض على عباده الزكاة وجعلها من أركان الإسلام ، وأما كونها حقاً للآدمي فلما فيها من قضاء حوائج المحتاجين ، وغير ذلك من المصالح المألومة في معرفة أهل الزكاة .

وأما قوله : « النصح لكل مسلم » فهذا هو الشاهد من الحديث للباب ، أي أن ينصح لكل مسلم ؛ قريب أو بعيد ، صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٧) ، ومسلم في الإيمان (٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣) ، ومسلم في الإيمان (٤٥) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥) والإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٣) .

وكيفية النصح لكل مسلم هي كما ذكره في حديث أنس بعد « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » هذه هي النصيحة أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك ، بحيث يسرك ما يسرهم ويسوءك ما يسوءهم ، وتعاملهم بما تحب أن يعاملوك به ، وهذا الباب واسع كبير جداً .

نفى النبي - عليه الصلاة والسلام - الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه في كل شيء ، ونفى الإيمان : قال العلماء المراد به نفي الإيمان الكامل ، يعني لا يكمل إيمانك حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وليس المراد انتفاء الإيمان بالكلية .

ويذكر أن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه حين بايع النبي - عليه الصلاة والسلام - على النصح لكل مسلم ، أنه اشترى فرساً من شخص بدراهم فلما اشتراه وذهب به وجد أنه يساوي أكثر ، فرجع إلى البائع وقال له : إن فرسك يساوي أكثر ، فأعطاه ما يرى أنها قيمته ، فانصرف وجرب الفرس فإذا به يجده يساوي أكثر مما أعطاه أخيراً ، فرجع إليه وقال له : إن فرسك يساوي أكثر فأعطاه ما يرى أنها قيمته ، وكذلك مرة ثالثة حتى بلغ من مائتي درهم إلى ثمان مائة درهم ، لأنه بايع الرسول ﷺ على النصح لكل مسلم ، وإذا بايع النبي ﷺ أحداً على شيء لا يختص به فهو عام لجميع الناس ، كل الناس مبايعون الرسول - عليه الصلاة والسلام - على النصح لكل مسلم ، بل على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإسداء النصح لكل مسلم ، والمبايعة هنا بمعنى المعاهدة ؛ لأن المبايعة تطلق على البيع والشراء ، وتطلق على المعاهدة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] ، وسميت مبايعة لأن كلاً من المتبايعين يمد باعه إلى الآخر ، يعني يده من أجل أن يمسك بيد الآخر ، ويقول : بايعتك على كذا وكذا .

* * *

٢٣ - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] وقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ٧٨ ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(١) [المائدة : ٧٨-٧٩] .

(١) قوله : ﴿ يَدْعُونَ ﴾ أي : يأمرون الناس ، قوله : ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : الظافرون ، قوله : ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي أنصار يتعاونون على العبادة ، قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ هم أصحاب السبت الذين جاء ذكرهم في سورة الأعراف ، قوله : ﴿ لَا يَتَنَاهَوْنَ ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فالمعروف : كل ما عرفه الشرع وأقره من العبادات القولية والفعلية الظاهرة والباطنة ، والمنكر : كل ما أنكره الشرع ومنعه من أنواع المعاصي ، من الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، وغير ذلك . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فرض كفاية ، إذا قام به من يكفي حصل المقصود ، وإذا لم يقم به من يكفي وجب على جميع المسلمين ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فبدأ بالدعوة إلى الخير ، ثم ثنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك لأن الدعوة إلى الخير قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير هي بيان الخير للناس ، بأن يدعوهم إلى الصلاة وإلى الزكاة وإلى الحج وإلى الصيام وإلى بر الوالدين وإلى صلة الأرحام وما أشبه ذلك ، ثم بعد هذا يأتي دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيأمر يقول : صَلِّ ، إما على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص ، بأن يمسك برجل متهاون بالصلاة ويقول : صَلِّ .

* * *

١٨٤ - فالأول : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُعِزَّهُ يَدِيهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَيَقْلِبْهُ وَذَلِكَ أَوْعَفُ الْإِيمَانِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

وهناك مرحلة أخرى وهي التغيير الذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » ولم يقل : فليئنه عنه لأن هذه مرحلة فوق النهي ، « فإن لم يستطع فليؤنسه » وإن لم يستطع فقلبه » ^(٢) اللسان هو مرحلة النهي عن المنكر ، إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم فإنه ينكر بقلبه ، بكرهته وبغضه لهذا المنكر .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى أمور :

الأمر الأول : أن يكون الإنسان عالماً بالمعروف والمنكر ، فإن لم يكن عالماً بالمعروف فإنه لا يجوز أن يأمر به ، لأنه قد يأمر بأمر يظنه معروفاً وهو منكر ولا يدري ، فلا بد أن يكون عالماً أن هذا من المعروف الذي شرعه الله ورسوله ، ولا بد أن يكون عالماً بالمنكر ، أي عالماً بأن هذا منكر فإن لم يكن عالماً بذلك فلا ينه عنه ، لأنه قد ينهي عن شيء هو معروف فيترك المعروف بسببه ، أو ينهي عن شيء وهو مباح فيضيق على عباد الله ، بمنعهم مما أباح الله لهم ، فلا بد أن يكون عالماً بأن هذا منكر ، وقد يتسرع كثير من إخواننا الغيورين ، فينهون عن أمور مباحة يظنونها منكراً فيضيقون على عباد الله .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٨) ، والترمذي في الفتن (٢١٧٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠/٣) ، ٤٩ ،

(٥٢) ، قوله « فقلبه » أي : ينكره ؛ بأن يكره ذلك ، ويعزم أن لو قدر على إزالته بقول أو فعل ففعل .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٨) ، والترمذي في الفتن (٢١٧٢) ، وأحمد في مسنده (٢٠/٣) .

فالواجب أن لا تأمر بشيء إلا وأنت تدري أنه معروف ، وأن لا تنه عن شيء إلا وأنت تدري أنه منكر .
الأمر الثاني : أن تعلم بأن هذا الرجل تارك للمعروف أو فاعل للمنكر ، ولا تأخذ الناس بالتهمة أو بالظن ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ^(١) [الحجرات : ١٢] ، فإذا رأيت شخصاً لا يصلي معك في المسجد ، فلا يلزم من ذلك أنه لا يصلي في مسجد آخر ، بل قد يكون يصلي في مسجد آخر ، وقد يكون معذوراً ، فلا تذهب من أجل أن تنكر عليه حتى تعلم أنه يتخفف بلا عذر .

نعم : لا بأس أن تذهب وتساله ، وتقول : يا فلان ، نحن نفقدك في المسجد ، لا بأس عليك ، أما أن تنكر ، أو أشد من ذلك أن تتكلم به في المجالس ، فهذا لا يجوز ، لأنك لا تدري ؛ ربما يكون يصلي في مسجد آخر ، أو يكون معذوراً .

ولهذا كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يستفهم أولاً قبل أن يأمر ، فإنه ثبت في صحيح مسلم أن رجلاً دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب ، فجلس ولم يصل تحية المسجد ، فقال النبي ﷺ : « أصليت ؟ » قال : لا ، قال : « قُمْ فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ » ^(٢) ، ولم يأمره أن يصلي ركعتين حتى سأله : هل صلى أم لا ؟ مع أن ظاهر الحال أنه رجل دخل وجلس ولم يصل ، ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - خاف أن يكون قد صلى وهو لم يشعر به ، فقال : أصليت ؟ فقال : لا ، قال : قم فصل ركعتين .

كذلك في المنكر لا يجوز أن تنكر على شخص إلا إذا علمت أنه وقع في المنكر ، فإذا رأيت مع شخص امرأة في سيارة مثلاً ، فإنه لا يجوز أن تتكلم عليه أو على المرأة ، لأنه ربما أن تكون هذه المرأة من محارمه ؛ زوجة أو أم أو أخت أو ما أشبه ذلك ، حتى تعلم أنه قد أركب معه امرأة ليست من محارمه ، وأمثال هذا كثير ، المهم أنه لا بد من علم الإنسان أن هذا معروف ليأمر به ، أو منكر لينهي عنه ، ولا بد أن يعلم - أيضاً - أن الذي وجه إليه الأمر أو النهي قد وقع في أمر يحتاج إلى أمر فيه أو نهى عنه . ثم إن الذي ينبغي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون رفيقاً بأمره رفيقاً في نهيه ، لأنه إذا كان رفيقاً أعطاه الله ﷻ ما لا يُعطى على العنف ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي عن العنف » ^(٣) فأنت إذا عنت على من تنصح ربما ينفر ، وتأخذه العزة بالإثم ، ولا ينقاد لك ، ولكن إذا جئته بالتتي هي أحسن فإنه ينتفع .

ويذكر أنه رجلاً من أهل الحسبة - يعني من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر - في زمان مضى قديماً مر على شخص يسنى على إبله - أي يستخرج لها الماء من البئر عند آذان المغرب ، وعادة الناس الذين يسنون أن يحذوا بالإبل ، يعني : يُنشد شعراً من أجل أن تخف الإبل - سبحانه الله -

(١) قوله : ﴿ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ هو ظن السوء بأهل الخير قوله : ﴿ بَعْضَ الظَّنِّ ﴾ ظن السوء بالآخرين دون دليل ، قوله : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ لا تتبعوا شؤون الناس الخاصة بهم مما قد يتضمن عورة من عوراتهم .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣١) ، ومسلم - اللفظ له - في الجمعة (٥٥) .

(٣) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٧) .

تطرب لنشيد الشعر فجاء هذا الرجل ومعه غيره ، وتكلم على هذا بكلام قبيح على العامل الذي يسني ، والعامل متعب من الشغل وضاعت عليه نفسه فضرب الرجل بالمسوقة - المسوقة عصا طويلة متينة - فشرد الرجل وذهب إلى المسجد والتقى بالشيخ - عالم من العلماء من أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمته الله - وقال إني فعلت كذا وكذا وإن الرجل ضربني بالمسوقة .

فلما كان من اليوم الثاني ذهب الشيخ بنفسه إلى المكان قبل غروب الشمس ، وتوضأ ووضع مشلحه ^(١) على خشبة حول منحة .

ثم أذن المغرب فوقف كأنه يريد أن يأخذ المشلح ، فقال له : يا فلان يا أخي جزاك الله خيراً ، أنت تطلب الخير في العمل هذا ، وأنت على خير ، لكن الآن أذن ، لو أنك تذهب وتصلي المغرب وترجع ما فاتك شيء . الكلام اللين هين ، قال له : جزاك الله خيراً مرَّ علي رجل أمس جلَّف وقام ينتهرني ، وقال لي : أنت فيك ما فيك ، وما ملكت نفسي حتى ضربته بالمسوقة ، قال : الأمر لا يحتاج إلى ضرب ، أنت عاقل . تكلم معه بكلام لين فأسند المسوقة (العصا التي يضرب بها الإبل) ثم ذهب يصلي بانقياد .

وكان هذا لأن الأول عامله بالعنف ، والثاني عامله بالرفق ، ونحن وإن لم نحصل هذه القضية فلدينا كلام الرسول ﷺ ، يقول : « إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف » ^(٢) ويقول ﷺ : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما ينزع من شيء إلا شانه » ^(٣) فعلى الأمر أن يحرص على أن يكون أمره ونهيه رفيقاً .

الشرط الثالث : أن لا يزول المنكر إلى ما هو أعظم منه ، فإن كان هذا المنكر لو نهينا عنه زال إلى ما هو أعظم منه ، فإنه لا يجوز أن ننهى عنه ، درءاً لكبرى المفسدتين بصغراهما . لأنه إذا تعارض عندنا مفسدتان وكانت إحدهما أكبر من الأخرى ، فإننا نتقي الكبرى بالصغرى .

مثال ذلك : لو أن رجلاً يشرب الدخان أمامك فأردت أن تنهيه وتقيمه من المجلس ، ولكنك تعرف أنك لو فعلت لذهب يجلس مع السكارى ، ومعلوم أن شرب الخمر أعظم من شرب الدخان ، فهنا لا ننهاء بل نعالجه بالتي هي أحسن لئلا يؤول الأمر إلى ما هو أنكر وأعظم .

ويذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله عليه - مرَّ يقوم في الشام من التار ووجدهم يشربون الخمر ، وكان معه صاحب له ، فمرَّ بهم شيخ الإسلام ولم ينههم ، فقال له صاحبه لماذا لم تنههم ؟ قال : لو نهيناهم لذهبوا يهتكون أعراض المسلمين وينهبون أموالهم ، وهذا أعظم من شربهم الخمر ، فتركهم مخافة أن يفعلوا ما هو أنكر وأعظم وهذا لا شك أنه من فقهه رحمته الله .

فالمهم أنه يشترط لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن لا يتضمن ذلك ما هو أكبر ضرراً وأعظم إثماً ، فإن تضمن ذلك فإن الواجب دفع أعلى المفسدتين بأدناهما ، ودفع أكبرهما بأصغرهما ، وهذه قاعدة مشهورة معروفة عند العلماء .

(١) مشلحه : أي ثيابه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٨) ، وأحمد في مسنده (٥٨/٦) .

الشرط الرابع : اختلف العلماء - رحمهم الله - في اشتراط أن يكون الأمر والنهي فاعلاً لما أمر به تاركاً لما نهى عنه ، والصحيح أنه لا يشترط ، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولو كان لا يفعل المعروف ولا يتجنب المنكر ، فإن ذنبه عليه ، لكن يجب أن يأمر وينهى ، لأنه إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفعل المأمور ولا يترك المحذور ، لأضاف ذنباً إلى ذنبه ، لذا فإنه يجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن كان يفعل المنكر ويترك المعروف .

ولكن في الغالب بمقتضى الطبيعة الفطرية أن الإنسان لا يأمر الناس بشيء لا يفعله ، بل يستحي ، ويخجل ، ولا ينهى الناس عن شيء يفعله . لكن الواجب أن يأمر بما أمر به الشرع وإن كان لا يفعله ، وأن ينهى عما نهى عنه الشرع وإن كان لا يتجنبه ، لأن كل واحد منهما واجب منفصل عن الآخر ، وهما غير متلازمين .

ثم إنه ينبغي للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر أن يقصد بذلك إصلاح الخلق ، وإقامة شرع الله ، لا أن يقصد الانتقام من العاصي ، أو الانتصار لنفسه ، فإنه إذا نوى هذه النية لم ينزل الله البركة في أمره ولا في نهيه ، بل يكون كالطبيب يريد معالجة الناس ودفع البلاء عنهم ، فينوي بأمره أولاً : إقامة شرع الله ، وثانياً : إصلاح خلق الله ، وكذلك نهيه ، حتى يكون مصلحاً وصالحاً ، نسأل الله أن يجعلني وإياكم من الهداة المهتدين المصلحين الصالحين إنه جواد كريم .

وفي ختام الآية يقول الله ﷻ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ المشار إليهم تلك الأمة التي تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، والمفلح : هو الذي فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه .

وهنا قال : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهذه الجملة تفيد عند أهل العلم باللغة العربية تفيد الحصر ، أي أن الفلاح إنما يكون لهؤلاء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى الخير .

ثم قال ﷻ بعدها ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] ، والنهي عن التفرق بعد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق ، وذلك أن الناس إذا كانت لهم مشارب متعددة مختلفة تفرقوا ، فهذا يعمل طاعة وهذا يعمل معصية ، وهذا يسكر وهذا يصلي وما أشبه ذلك ، فتتفرق الأمة ، ويكون لكل طائفة مشرب ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴾ .

إذن لا يجمع الأمة إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلو أن الأمة أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، وتحاكت إلى الكتاب والسنة ، ما تفرقت أبداً ، وحصل لهم الأمن ، ولكان لهم أمن أشد من كل أمن . كما قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ وَهُمْ مُثَبَّدُونَ ﴾ (١) [الأنعام : ٨٢] الدول الآن الكبرى والصغرى كلها تكرر الجهود الكبيرة الجبارة لحفظ الأمن ، ولكن كثيراً من المسلمين غفلوا عن هذه الآية ، الأمن التام موجود في هاتين الكلمتين : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

(١) قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا ﴾ أي : لم يخلطوا ، قوله تعالى : ﴿ يَلْبِسُوا ﴾ أي : يتركبوا .

يُظَلِّمُ ﴿١﴾ إذا تحقق الإيمان في الشعب ، ولم يلبس إيمانه بظلم ، فحينئذ يحصل له الأمن .

وأضرب مثلاً قريئاً للأفهام بعيداً للأزمان ، في صدر هذه الأمة المباركة كان أكبر مسؤول فيها ينام وحده في المسجد ، ويمشي في السوق وحده ، لا يخاف إلا الله ، عمر بن الخطاب ؓ يكون الحصبة في المسجد وينام عليها ، ليس عنده حارس ولا يحتاج لأحد يحرسه ؛ لا في السوق ولا في بيته ولا في المسجد ، لأن الإيمان الخالص لم يلبس بظلم ، أي : لم يخلط بظلم كان في ذلك الوقت ، فكان الناس آمنين . ثم ذهب عهد الخلفاء الراشدين وجاء عهد بنو أمية ، وصار في أمراء بني أمية من حاد عن سبيل الخلفاء الراشدين ، فحصل الاضطراب ، وحصلت الفتن ، وقامت الخوارج ، وحصل الشر .

ثم جاء عهد عمر بن عبد العزيز ؓ فاستتب الأمن ، وصاروا يسافرون ويذهبون ويجيئون وهم آمنون ، ولكن الله ﷻ من حكمته لم يمد له في الخلافة ، فكانت خلافته سنتين وأشهرًا . فالمهم أن الأمن كل الأمن ليس بكثرة الجنود ، ولا بقوة السلاح ، ولا بقوة الملاحظة والمراقبة ، ولكن الأمن في هذين الأمرين فقط ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُسْتَبَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

ثم ذكر المؤلف ؓ في سياق الآيات قول الله تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] ، المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، كل واحد يتولى الثاني ، ينصره ويساعده ، وانظر إلى هذه الآية في المؤمنين حيث قال ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وفي المنافقين قال : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٦٧] وليسوا أولياء بعض ، بل المؤمن هو ولي أخيه ، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر .

وفي هذه الآية دليل على أن وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست خاصة بالرجال ، بل حتى النساء عليهن أن يأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر ، ولكن في حقول النساء ، ليس في مجامع الرجال وفي أسواق الرجال ، لكن في حقول النساء ومجتمعات النساء ؛ في أيام العرس ، وفي أيام الدراسة وما أشبه ذلك ، إذا رأت المرأة منكراً تنهى عنه ، وإذا رأت تفریطاً في واجب تأمر به ؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل مؤمن ومؤمنة ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] نسأل الله أن يعيننا وإياكم برحمته ومغفرته .

ذكر ؓ هذه الآية ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨] اللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله والعياذ بالله ، ولا يستحقه إلا من فعل كبيرة من كبائر الذنوب .

وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فإسرائيل هذا لقب ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، إبراهيم له ولدان : إسماعيل وإسحاق . إسماعيل هو الولد الأكبر وهو الذي أمره الله بذبحه ،

أمره الله أن يذبحه ثم مَنَّ الله عليهما جميعاً برفع هذا الأمر ، ونسخه ، وفداه الله ﷺ بذبح عظيم ، وأما إسحاق وهو الولد الثاني لإبراهيم وهو من زوجته ، وأما إسماعيل فهو من سريته هاجر ﷺ ، بنو إسرائيل هم من نسل يعقوب بن إسحاق ، وأرسل الله لهم الرسل الكثيرة ، وكان منهم المعتدون الذين يقتلون الأنبياء بغير حق ، والعياذ بالله .

وكانوا أيضاً لا ينهاون عن منكر فعلوه ، بل يرى بعضهم المنكر ولا ينهى عنه ، وقصة القرية التي كانت حاضرة البحر مشهورة معلومة في القرآن الكريم ، وهم قوم من اليهود حرم الله عليهم الصيد من البحر يوم السبت ، فكان في يوم السبت تأتي الحيتان شرعاً على وجه الماء من كثرتها ، ويوم لا يستون لا تأتئهم ، فطال عليهم الأمد ، فقالوا : لابد أن نتخذ حيلة نتوصل بها إلى الصيد ، فقالوا : نضع شباكاً في البحر ، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت مسكتها الشباك ، فإذا كان يوم الأحد أخذناها ، ففعلوا ذلك ، فكان منهم من يعظون وينهاون عن هذا المنكر ، وقوم ساكتين ، وقوم فاعلين ، فعاقبهم الله ﷻ وقال : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة : ٦٥] ، فكانوا - والعياذ بالله - قردة ، بنو آدم انقلبوا قردة خاسئين أدلة . والشاهد من هذا : أن فيهم قوماً لم يعظوا ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم من النهي عن المنكر ، فكانوا ممن دخلوا في هذه اللعنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وداود متأخر عن موسى بكثير ، وعيسى بن مريم كذلك ، فهذان النبيان لعنا الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وقد حكى ذلك عنهما مقرئاً ذلك ، فصار (من لا يتناهي عن المنكر من الملعونين) والعياذ بالله . وفي هذا : دليل على وجوب النهي عن المنكر ، وعلى أن تركه سبب اللعن والطرده عن رحمة الله .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ بِمَا تَوَدَّرُ ﴾ [الحجر : ٩٤] وقال تعالى : ﴿ أَجْمَعْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْرِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ^(١) [الأعراف : ١٦٥] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

ثم قال المؤلف رحمه الله فيما ساقه من الآيات ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] الحق من الله ﷻ ، من الرب الذي خلق الخلق ، والذي له الحق في أن يوجب على عباده ما شاء ، الحق منه فيجب علينا قبوله .

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ هذه الجملة ليست للتخيير ، وأن الإنسان مخير إن شاء آمن وإن شاء كفر ، ولكنها للتهديد ، والدليل على هذا آخر الآية ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا

(١) قوله ﷻ : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي : اجهر بدعوتك ، قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا ﴾ أي : أهلكنا .

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَتُوبُ الْكَافِرُونَ وَسَاءَتْ مَرْفَقًا ﴿١﴾ [الكهف: ٢٩] فمن شاء فليؤمن من فله الثواب الجزيل ، ومن شاء فليكفر فعليه العقاب الأليم ، ويكون من الظالمين كما قال تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ، ففي هذا تهديد لمن لم يؤمن بالله ﷻ ، وأن الحق بين وظاهر جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام - من رب العالمين ، فمن اهتدى فقد وفق ، نسأل الله لنا ولكم الهداية ، ومن ضل - والعياذ بالله - فقد خزي . والله المستعان .

ثم قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما ذكره من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ساق - رحمه الله تعالى - قوله ﷻ : ﴿ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، والخطاب هنا للنبي ﷺ ، وليعلم أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ ينقسم إلى قسمين :

قسم خاص به ، وقسم له ولأئمة ، والأصل أنه له ولأئمة ، لأن لأئمة أسوة حسنة فيه - عليه الصلاة والسلام - لكن إذا وجدت قرينة تدل على أن الخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - كان خاصاً به ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١] ومثل قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ (٢) [الضحى: ١-٣] فهذا خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام .

أما مثل قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرِمَ مَا لَحَلَ اللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم: ١] فهذا له ولأئمة ، ﴿ يَأْتِيَنَّ النَّبِيَّ إِذَا طَلَقْتَهُ النِّسَاءَ فَلْيَقْوِمَنَّ لِمَعْدَنَ ﴾ [الطلاق: ١] ، فهذا له ولأئمة ، ﴿ يَأْتِيَنَّ الرَّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] فهذا له ولأئمة ، لقوله ﷺ « بلغوا عني » (٣) .

فهنا يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ ﴿ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ يعني : أظهر ما تؤمر به ويؤنه ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وهذا له ولأئمة ، كل الأمة يجب عليها أن تصدع بما أمرها الله به ؛ تأمر به الناس ، وأن تصدع بما نهى الله عنه ؛ تنهى عنه الناس ، لأن النهي عن الشيء أمر بتركه .

﴿ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يعني : لا تهتم بهم ، في حالهم ولا فيما يأتي من أذاهم ، يعني لا تحزن لعدم إيمانهم كما قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا لَكَ بَنُوعٌ نَفْسَكَ عَلَى مَآثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٤) [الكهف: ٦] .

﴿ لَمَّا لَكَ بَنُوعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣] يعني لعلك مهلك نفسك إذا لم يؤمنوا بك ، يعني : لا تبالي بهم ، بل أعرض عنهم فيما يحصل منهم من أذي ، فإن العاقبة لك ، وفعلًا صارت

(١) قوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أحاط بهم عذاب كأنه سرادق أو خيمة ضربت عليهم ، قوله تعالى : ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ كمعكر الزيت المغلي أو كاللذاب من المعادن ، قوله تعالى : ﴿ وَسَاءَتْ مَرْفَقًا ﴾ ساءت النار متكا أو مقرا .

(٢) قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ما أبغضك ولا كرهك .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) ، والترمذي في العلم (٢٦٦٩) ، وأحمد في مسنده (١٥٩/٢) .

(٤) قوله تعالى : ﴿ بَنُوعٌ نَفْسَكَ ﴾ قاتلها ومهلكها من شدة الغم ، قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَآثَرِهِمْ ﴾ أي من بعد توليهم عن الإيمان ، قوله تعالى : ﴿ أَسَفًا ﴾ حزنا عليهم أو غيظا عليهم أو غضبا .

العاقبة للرسول - عليه الصلاة والسلام - صبر وظفر .

فإنه - عليه الصلاة والسلام - خرج من مكة مهاجراً مخفياً ، يخشى على نفسه ، قد جعلت قريش لمن يأتي به وبصاحبه أي بكر مائتين من الإبل ، عن كل واحدة مائة ، ولكن الله تعالى أنجاهما ، وبعد مضي سنوات قليلة رجع النبي - عليه الصلاة والسلام - فاتحاً مكة ظافراً مظفراً ، كانت له المنة على الملأ من قريش ، حتى وقف على باب الكعبة ، يقول « يا معشر قريش ما ترون أي فاعل بكم ؟ » ^(١) كلهم تحت أذلة ، قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » فمنّ عليهم - عليه الصلاة والسلام - بعد أن كان قادراً عليهم .

فالخاصل : أن قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يشمل أمرين ؛ أعرض عن المشركين لا تهتم بحالهم إذا لم يؤمنوا ولا تحزن عليهم ، وأعرض عن المشركين فيما يحصل لك من أذى ، فإنه سوف تكون العاقبة لك وهذا هو الواقع ، ولهذا قال بعد الآية نفسها ﴿ إِنَّا كُنْزُكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا هُوَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿ [الحجر : ٩٥ - ٩٨] . وتأمل كيف أمر الله تعالى بتسبيحه بحمده بعد أن قال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ لأن المقام هنا مقام يحتاج إلى تنزيه الرب ﷻ وحمده ، من هذه الضائقة التي تصيب النبي - عليه الصلاة والسلام - من قريش ، يعني نزهه عن كل ما لا يليق به ، واعلم أن ما أجراه جل وعلا فهو في غاية الحكمة ، وهو كذلك ، فإنه صار في غاية الحكمة وفي غاية الرحمة التي يُحمد عليهما ﷻ . ثم قال في آخر ما ساقه من الآيات قال الله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْشُّرِّ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٥] ، هذه هي قصة القرية التي أشرنا إليها قبل وهي قرية على البحر حرم الله عليهم أن يصطادوا السمك في يوم السبت ، وابتلاهم ﷻ فصار السمك يوم السبت يأتي بكثرة شرعاً على سطح الماء ، وفي غير يوم السبت لا يرونها ، فطال عليهم الأمد فتحيلوا بحيلة لم تنفعهم شيئاً ، فوضعوا شبكاً في يوم الجمعة فإذا جاء يوم السبت وقع الحيتان في هذا الشبك ، فإذا صار يوم الأحد أخذوا هذه الحيتان .

فكان النكال من الله ﷻ أن قال لهم : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال لهم قولاً قدرئاً : كونوا قردة خاسئين ، فأصبحوا قردة ، ولو قال : كونوا حميراً لكانوا حميراً لكن قال : كونوا قردة ، لأن القردة أشبه ما يكون بالإنسان ، وفعلهم الخبيث أشبه بالحلال لأنه حيلة ، فالذي يراهم ظاهرياً يقول : ما صادوا يوم السبت بل وضعوا الشبك يوم الجمعة وأخذوها يوم الأحد ، فصورة ذلك صورة حلال لكنه حرام ، فصارت العقوبة مناسبة تماماً للعمل . وفي هذا : قاعدة ذكرها الله ﷻ في كتابه أن الجزاء من جنس العمل ، فقال ﴿ فَلَمَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] ، كل إنسان يؤخذ بمثل جريمته ، فهؤلاء قيل لهم كونوا قردة خاسئين فأصبحوا قردة

يتعاونون - والعياذ بالله - في الأسواق .

وعلى الجانب الآخر قال تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ [الأعراف: ١٦٥] وذلك حيث كانوا قد انقسموا ثلاثة أقسام : قسم فعل الحيلة ، وقسم سكت ، وقسم نهى ، وكان الذين سكتوا يقولون للذين ينهون عن السوء ﴿ لِمَ تَقَظُّونَ قَوْلًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤] يعني : اتركوهم ، هؤلاء هالكين ، لا تعظوهم ، ما تنفع فيهم الموعظة ، قالوا ﴿ مَعْذَرَةٌ لِّإِنِّ رَكِبُوا وَلَمَّا نَحْنُ يُنقَوْنَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤] يعني : دعونا نستفيد فائدتين المعذرة إلى الله بأن يكون لنا عذر عند الله ﷻ ، ولعلمهم يتقون ، كما قال الله تعالى في فرعون : ﴿ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لِمَ أَتَيْنَاكَ بِتَنكِزٍ أَوْ بِخَشْيٍ ﴾ [طه: ٤٤] ، فهنا قال : ﴿ وَلَمَّا نَحْنُ يُنقَوْنَ ﴾ ولكن سكت الله ﷻ عن هذه الطائفة الثالثة .

قال تعالى : ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَينِ يَمَينِ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥] فاختلف العلماء : هل الطائفة الساكنة أخذت بالعذاب أم أنها نجت ، والذي ينبغي أن نسكت كما سكت الله ، نقول أما التي نهت فقد نجت ، وأما التي وقعت في الحرام فقد هلكت وأخذت بالعذاب ، وأما الساكنة فقد سكت الله عنها ويسعنا ما في كتاب الله ﷻ .

١٨٥ - الثاني : عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِرٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِرٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِرٌ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » ^(١) رواه مسلم .

١٨٦ - الثالث : عن أبي الوليد عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال : « بَاتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرِهِ ، وَعَلَى أَثَرَةِ عَلَيْنَا ، وَعَلَى أَنْ لَا تَنْتَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا يَوَاحَا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ بُؤْهَانٌ ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَاتِمَةً » ^(٢) متفق عليه .

« الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرِهِ » يَفْتَحُ مِيمَاهُمَا : أَي : فِي السَّهْلِ وَالصَّعْبِ . « وَالْأَثَرَةُ » : الْإِخْتِصَاصُ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٥٨/١) ، والبيهقي في سننه (٩٠/١٠) . قوله « حَوَارِيُونَ » أي خُلَصَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَقِيلَ : أَنْصَارُهُمْ ، وَقِيلَ : الْمُجَاهِدُونَ . وَقِيلَ : الْمُخْتَصِمُونَ الْمُفْضَلُونَ وَالَّذِينَ يَصْلَحُونَ لِلخِلافةِ بَعْدِهِمْ ، قَوْلُهُ : « إِنَّهَا تَخْلُفُ » الضَّمِيرُ فِي إِنَّهَا لِلشَّأْنِ . وَتَخْلُفُ أَي تَحْدُثُ ، وَالْخُلُوفُ جَمْعُ خُلْفٍ بِتَسْكِينِ اللَّامِ وَهُوَ الْخَالِفُ بِشَرٍّ . وَأَمَّا بَفَتْحِ اللَّامِ « خَلْفَ » فَهُوَ الْخَالِفُ بِخَيْرٍ . وَذَلِكَ الْأَشْهُرُ ، قَوْلُهُ « وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » أَي لَيْسَ بَعْدَ كَرَاهَةِ الْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ وَكُنِيَ بِهَا عَنْ نَهَايَةِ الْقَلَّةِ ، فَالرَّضَا بِالْكَفْرِ كَفْرٌ ، وَالرَّضَا بِالْمَعَاصِي نَقْصَانٌ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْحَدِيثُ لَمْ يَقُمْ الشَّارِحُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بِشَرْحِهِ .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩ ، ٧١٢٠) ، ومسلم - واللفظ له - في الإمارة (٤١) ، قوله « بَرَهَانٌ » أَي : دَلِيلٌ وَاضِحٌ .

بالمُشْتَرَكِ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهَا . « بَوَاحَا » بَفَتْحِ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ بَعْدَهَا وَآوْ ثُمَّ أَلْفٌ ثُمَّ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ : أَي ظَاهِرًا لَا يَخْتَمِلُ تَأْوِيلًا .

الشرح

قال - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، قال بايعنا رسول الله ﷺ ، أو (بايعنا) رسول الله ﷺ ، على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا . (بايعنا) أي بايع الصحابة رضي الله عنهم الرسول ﷺ على السمع والطاعة ، يعني لمن ولاة الله الأمر ، لأن الله تعالى قال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقد سبق لنا بيان من هم أولو الأمر ، وذكرنا أنهم طائفتان ؛ العلماء والأمراء ، كلهم ولاة أمور ، لكن العلماء أولياء أمر في العلم والبيان ، وأما الأمراء فهم أولياء أمر في التنفيذ والسلطان .

يقول : بايعناه على السمع والطاعة ، ويستثنى من هذا معصية الله ﷻ فلا يبايع عليها أحد ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ^(١) ، ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه حين تولى الخلافة ، قال : « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » . فإذا أمر ولي الأمر بمعصية من المعاصي فإنه لا يجوز لأحد أن يسمع له أو يطيع ، لأن ملك الملوك رب العالمين ﷻ ، ولا يمكن أن يعصى رب العالمين لطاعة من هو مملوك مريبوب ؛ لأن كل من سوى الله فإنهم مملوكون لله ﷻ ، فكيف يقدم الإنسان طاعتهم على طاعة الله ؟! إذن يستثنى من قوله : « السمع والطاعة » ما دلت عليه النصوص من أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقوله : في العسر واليسر يعني سواء كنا معسرين في المال أو كنا موسرين ، يجب علينا جميعاً أغنيائنا وفقرائنا أن نطيع ولاة أمورنا ونسمع لهم ، وكذلك في منشطنا ومكرهنا ، يعني سواء كنا كارهين لذلك لكونهم أمروا بما لا نهواه ولا نريده ، أو كنا نشيطين في ذلك ، لكونهم أمروا بما يلائمنا ويوافقنا . المهم أن نسمع ونطيع في كل حال إلا ما استثنى فيما سبق .

قال : « وأثرة علينا » . أثره يعني استئثاراً علينا ، يعني لو كان ولاة الأمر يستأثرون على الرعية بالمال أو غيره ، مما يرفهون به أنفسهم ويحرمون من ولاهم الله عليهم ، فإنه يجب علينا السمع والطاعة ، لا نقول : أنتم أكلتم الأموال ، وأفسدتوها ، وبذرتوها . فلا نطيعكم بل نقول : سمعاً وطاعة لله رب العالمين ، ولو كان لكم استئثار علينا ، ولو كنا نحن لا نسكن إلا الأكواخ ، ولا نفرش إلا الخلق من الفرش ، وأنتم تسكنون القصور ، وتتمتعون بأفضل الفرش . لا يهمنا هذا ، لأن هذا كله متاع الدنيا وستزولون عنه ، أو يزول عنكم ، إما هذا أو هذا ، أما نحن فعلى السمع والطاعة ، ولو وجدنا من يستأثر علينا من ولاة الأمور .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/١) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٦٥/١٨) ، والهندي في كنز العمال (١٤٤٠١) .

وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - في حديث آخر : « اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك » ^(١) واعلم أنك سوف تقتص منه يوم القيامة ، من حسناته فإن بقي من حسناته شيء وإلا أخذ من سيئات من ظلمهم ، ثم طرح عليه ثم طرح في النار والعياذ بالله ^(٢) . الأمر مضبوط ومحكم لا يضيع على الله شيء .

ثم قال « وألا تنازع الأمر أهله » يعني لا تنازع ولاية الأمور ما ولاهم الله علينا ، لنأخذ الإمرة منهم ، فإن هذه المنازعة توجب شرًا كثيرًا ، وفتنًا عظيمة ، وتفرقًا بين المسلمين ، ولم يدم للأمة الإسلامية إلا منازعة الأمر أهله ، من عهد عثمان رضي الله عنه إلى يومنا هذا ، ما أفسد الناس إلا منازعة الأمر أهله .

قال « إلا أن تروا كفراً بواحاً ، عندكم فيه من الله برهان » ثلاثة شروط ، إذا رأينا هذا وتحت الشروط الثلاثة فحيث ننازع الأمر أهله ، ونحاول إزالتهم عن ولاية الأمر ، لكن بشروط بثلاثة : الأول : أن تروا ، فلا بد من علم ، مجرد الظن لا يجوز الخروج على الأئمة ، لا بد أن نعلم .

الثاني : أن نعلم كفراً لا فسقاً . الفسوق مهما فسق ولاية الأمور لا يجوز الخروج عليهم ؛ لو شربوا الخمر ، لو زنوا ، لو ظلموا الناس ، لا يجوز الخروج عليهم ، لكن إذا رأينا كفراً صريحاً يكون بواحاً .

الثالث : الكفر البواح ، وهذا معناه الكفر الصريح ، والبواح الشيء البين الظاهر ، فأما ما يحتمل التأويل فلا يجوز الخروج عليهم ، يعني لو قدرنا أنهم فعلوا شيئاً نرى أنه كفر ، لكن فيه احتمال أنه ليس بكفر ، فإنه لا يجوز أن ننازعهم أو نخرج عليهم ونولهم ما تولوا .

لكن إذا كان بواحاً صريحاً مثل : لو أن ولي من ولاية الأمور قال لشعبه : إن الخمر حلال . اشربوا ما شئتم ، وإن اللواط حلال تلوطوا بمن شئتم ، وإن الزنى حلال ازنوا بمن شئتم ، فهذا كفر بواح ما فيه إشكال ، هذا يجب على الرعية أن يزيلوه بكل وسيلة ولو بالقتل ، لأن هذا كفر بواح .

الشرط الرابع : عندكم فيه من الله برهان ، يعني عندنا دليل قاطع على أن هذا كفر ، فإن كان الدليل ضعيفاً في ثبوته ، أو ضعيفاً في دلالته ، فإنه لا يجوز الخروج عليهم ، لأن الخروج فيه شرٌ كثير جداً ومفاسد عظيمة .

فهذه إن شئتم فقولوا ثلاثة شروط ، وإن شئتم فقولوا أربعة : أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان هذه أربعة شروط .

وإذا رأينا هذا مثلاً فلا تجوز المنازعة حتى تكون لدينا قدرة على إزاحته ، فإن لم يكن لدينا قدرة فلا تجوز المنازعة ، لأنه ربما إذا نازعنا وليس عندنا قدرة يقضي على البقية الصالحة ، وتتم سيطرته .

فهذه الشروط شروط للجواز أو للوجوب - وجوب الخروج على ولي الأمر - لكن بشرط أن

(١) هذا جزء من حديث ، ولفظه « يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهدأى .. » وقد أخرجه مسلم في الإمارة (٥٢) .

(٢) هذا معنى حديث ولفظه « أتدرون من المفلس ... » ، وقد أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٩) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤١٨) .

يكون لدينا قدرة ، فإن لم يكن لدينا قدرة فلا يجوز الخروج ، لأن هذا من إلقاء النفس في التهلكة . أي فائدة إذا خرجنا على هذا الولي الذي رأينا عنده كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان ، ونحن لا نخرج إليه بسكين المطبخ ، وهو معه الدبابات والرشاشات ؟! لا فائدة ، ومعنى هذا أننا خرجنا لنقتل أنفسنا ، نعم لابد أن نتحيل بكل حيلة على القضاء عليه وعلى حكمه ، لكن بالشروط الأربعة التي ذكرها النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » . عرفنا فيما سبق حق ولاية الأمر على الرعية ، ولكن بقي أن نقول : فما حق الناس على ولاية الأمر ؟

حق الناس على ولاية الأمر أن يعدلوا فيهم ، وأن يتقوا الله تعالى فيهم ، وأن لا يشقوا عليهم ، وأن لا يولوا عليهم من يجدون خيراً منه ، فإن النبي ﷺ قال : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشق عليه » ^(١) دعاء من الرسول - عليه الصلاة والسلام - : أن من ولي من أمور المسلمين شيئاً صغيراً كان أم كبيراً وشق عليهم ، قال : « فاشق عليه » وما ظنك بشخص شق الله عليه والعياذ بالله ، إنه سوف يخسر وينحط ، وأخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه : « ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة » ^(٢) لأنه يجب على الأمير أن ينصح للرعية ، ويختار لها الأفضل ، وأن يولي على الأمور أهلها ، بدون أي مراعاة ، يُنظر لمصلحة العباد فيولي عليهم من هو أولى بهم .

والولايات تختلف ، فإمام المسجد مثلاً ، أولى الناس به من هو أقرأ لكتاب الله ، والأمور الأخرى كالجهاد أولى الناس بها من هو أعلم بالجهاد ، وهلم جراً . المهم أنه يجب على ولي المسلمين أن يولي على المسلمين خيارهم ، ولا يجوز أن يولي على الناس أحداً وفيهم من هو خير منه ، لأن هذا خيانة . وكذلك أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة » ^(٣) والعياذ بالله .

فولاية الأمور عليهم حقوق عظيمة لمن ولاهم الله عليهم ، كما أن على المولى عليهم حقوقاً عظيمة يجب عليهم أن يقوموا بها لولاية الأمر ، فلا يعصونهم حتى وإن استأثروا ولاية الأمور بشيء ، فإن الواجب لهم السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر ، إلا إذا كان ذلك في معصية الله ، يعني : لو أمروا بمعصية الله ، فإنه لا يجوز أن يأمرؤا بمعصية الله ، ولا يجوز لأحد أن يطيعهم في معصية الله . وأما قول بعض الناس السفهاء : إنه لا تجب علينا طاعة ولاية الأمور إلا إذا استقاموا استقامة تامة ، فهذا خطأ وهذا غلط وهذا ليس من الشرع في شيء ، بل هذا من مذهب الخوارج ، الذين يريدون من ولاية الأمور أن يستقيموا على أمر الله في كل شيء ، وهذا لم يحصل من زمن فقد تغيرت الأمور . ويذكر أن أحد ملوك بني أمية سمع أن أناساً يتكلمون فيه وفي خلافته ، فجمع أشراف الناس

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه مسلم في الإمامة (١٨) ، وأحمد في مسنده (٩٣/٦) .

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - في الإمامة (٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٥٠) ومسلم - واللفظ له - في الإمامة (٢١) .

ووجهائهم وتكلم فيهم ، وقال لهم : إنكم تريدون منا أن نكون مثل أبي بكر وعمر ؟ قالوا : نعم ، أنت خليفة وهم خلفاء ، قال : كونوا أنتم مثل رجال أبي بكر وعمر ، نحن نحن مثل أبي بكر وعمر ، وهذا جواب عظيم ، فالناس إذا تغيروا لابد أن يغير الله ولاتهم ، كما تكونون يؤلى عليكم . أما أن يريد الناس من الولاة أن يكونوا مثل الخلفاء وهم أبعد ما يكونون عن رجال الخلفاء ، هذا غير صحيح ، والله حكيم ﷻ ﴿ وَكَذَلِكَ يُؤَلَّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

وذكروا أن رجلاً من الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب جاءوا إلى علي ، فقال له : يا علي ، ما بال الناس قد تغيروا عليك ولم يتغيروا على أبي بكر وعمر ، قال : لأن رجال أبي بكر وعمر أنا وأمثالي ، ورجالي أنت وأمثالك وهذا كلام جيد ، يعني أنك ما فيك خير ولذلك تغير الناس علينا ، لكن في عهد أبي بكر وعمر رجالهم مثل علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وغيرهم من الصحابة الفضلاء ، فلم يتغيروا على ولاتهم .

فالحاصل : أنه يجب علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا في كل شيء ، إلا في معصية الخالق ، لأن معصية الخالق ليس لهم أن يأمروا الناس بها ، فلما لم يكن لهم أن يأمروا الناس بها ، لم يكن للناس عليهم طاعة في معصية الله ﷻ .

وكذلك أيضًا يجب على الرعية أن ينصحوا لولي الأمر ، ولا يكذبوا عليه ولا يخدعوه ولا يغشوه ، ومع الأسف الناس اليوم عندهم كذب وتحايل على أنظمة الدولة ، ورشاوى وغير ذلك مما لا يليق بالعاقل فضلاً عن المسلم ، إذا كانت الدول الكافرة تعاقب من يأخذ الرشوة ولو كان من أكبر الناس ، فالذي يعاقب الذي يأخذ الرشوة هو الله ﷻ ، نحن نؤمن بالله وما جاء على لسان رسوله ﷺ ، وإذا كان النبي ﷺ « لعن الراشي والمرتشي » ^(١) فعقوبة الله أشد من عقوبة الآدميين ، ومع ذلك نجد الرشوة مع الأسف موجودة في جميع قطاعات الدولة إلا أن يشاء الله .

وكذلك تجدد الكذب والدجل من الناس على الحكومة ، مثل أن يأتي المزارع يدخل زرع غيره باسمه وهو كاذب ، ولكن من أجل مصلحة ومن أجل أن يأكل بها ، أحياناً قد تكون الدولة قد استلمت الحب ، ولم يبق إلا الدراهم عند الدولة ، فيأتي الإنسان ويبيعها على آخر ، يبيع دراهم بدراهم مع التفاضل ومع تأخير القبض ، إلى غير ذلك من المعاصي التي يرتكبها الشعب ، ثم يريدون من ولاتهم أن يكونوا مثل أبي بكر وعمر ، فهذا ليس بصحيح .

ومن الأمور التي يهملها كثير من الناس : أنهم لا يحترمون أعراض ولاية الأمور ، تجدد فاكهة مجالسهم - نسأل الله العافية وأن يتوب علينا وعليهم - أن يتكلموا في أعراض ولاية الأمور ، لو كان هذا الكلام مجدداً وتصلح به الحال لقلنا : لا بأس وهذا طيب ، لكن هذا لا يجدي ، ولا تصلح به الحال ، وإنما يوغر الصدور على ولاية الأمور ، سواء كانوا من العلماء أو الأمراء .

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام (١٣٣٧) ، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٣) ، وأحمد في مسنده (١٦٤/٢) .

تجد الآن بعض الناس همه إذا جلس في المجلس ما يستأنس إلا إذا مسك عالم من العلماء أو وزير من الوزراء أو أمير من الأمراء ولا من فوقه ليتكلم في عرضه ، وهذا غير صحيح ، ولو كان هذا الكلام يجدي لكننا أول من يشجع عليه ، ولقلنا : لا بأس ، المنكر يجب أن يزال ، والخطأ يجب أن يصحح ، لكنه لا يجدي ، إنما يوغر الصدور ، ويكره ولادة الأمور إلى الناس ، ويكره العلماء إلى الناس ولا يحصل فيه فائدة .

وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - كلمة جامعة مانعة - جزاه الله عن أمته خيرًا - : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » ^(١) والعجب أن بعض الناس - من أهل الدين - لو أردت أن تتكلم في شخص عادي من الناس قالوا لا تغتبه هذا حرام ، لكن لو تكلمت في واحد من ولادة الأمور تكثيف ^(٢) ، مع أنه في غير ولادة الأمور ما يرضى أن يتكلم أحد في عرض أحد عنده ، لكن في ولادة الأمور يرى أن هذا لا بأس به .

وهذه مسألة مرض بها كثير من الناس ، وأنا اعتبرها مرض - نسأل الله أن يعافينا وإياكم من هذا الداء - ابتلي به كثير من الناس .

ولو أن الناس كفوا ألسنتهم ونصحوا لولادة أمورهم ، ولا أقول : اسكت على الخطأ ، لكن اكتب لولادة الأمور ، اكتب كتاب إن وصل فهذا هو المطلوب ، وإذا انتفعوا به فهذا أحسن ، وإذا لم ينتفعوا به فالإثم عليهم ، إذا كان خطأ صحيحًا ، وإذا لم يصل إليهم فالإثم على من منع عنهم . قوله ﷺ فيما يابعوا عليه النبي ﷺ « وأن نقول بالحق أينما كنا » يعني أن نقوم بالحق الذي هو دين الإسلام ومشرائعه العظام أينما كنا ، يعني في أي مكان ؛ سواء في البلد ، أو في البر ، أو في البحر ، أو في أي مكان ، وسواء في بلاد الكفر ، أو في بلاد الإسلام ، نقوم بالحق أينما كنا ، لا تأخذنا في الله لومة لائم ، يعني لا يهمننا إذا لامنا أحد في دين الله ، لأننا نقوم بالحق .

فمثلاً : لو أراد الإنسان أن يطبق سنة يستنكرها العامة ، فإن هذا الاستنكار لا يمنع الإنسان من أن يقوم بهذه السنة ، ولنضرب لهذا مثلاً - تسوية الصفوف في صلاة الجماعة ؛ أكثر العوام يستنكرون إذا قال : الإمام استوتوا ، وجعل ينظر إليهم ، ويقول تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، أو تأخر الإمام عن الدخول في الصلاة حتى تستوي الصفوف يستنكرون هذا ، ويفضون منه ، حتى إن بعضهم قيل له مرة من المرات : يا فلان تأخر إنك متقدم ، فقال من الغضب والزعل : إن شئت طلعت من المسجد كله وخليته لك ، فمثل هذا لا ينبغي للإنسان أن تأخذه لومة لائم في الله ، بل يصبر ويمرن الناس على السنة ، والناس إذا تمرنوا على السنة أخذوا عليها وهانت عليهم ، لكن إذا رأى أن هؤلاء العوام جفاة جدًّا ، ففي هذه الحال ينبغي أن يعلمهم أولاً ، حتى تستقر نفوسهم ، وتألف السنة إذا طبقت ، فيحصل بذلك الخير .

ومن ذلك أيضًا : أن العامة يستنكرون سجود السهو بعد السلام ، ومعلوم أن السنة وردت به إذا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ، ومسلم في الإيمان (٧٤) - واللفظ له - وابن ماجه في الفتن (٣٩٧١) .

(٢) تكثيف : تكثيف الشيء صار على كيفية من الكيفيات ، والمقصود أن ذلك أعجبه .

كان السهو عن زيادة ، أو عن شك مترجح به أحد الطرفين فإنه يُسجد بعد السلام لا قبل السلام ، هذه هي السنة حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله قال : إنه يجب أن يسجد بعد السلام إذا كان السجود بعد السلام ، وقبل السلام إذا كان السجود قبله ، يعني لم يجعل هذا على سبيل الأفضلية بل على سبيل الوجوب .

سجد أحد الأئمة بعد السلام لسهو سهاه في صلاته ؛ زاد أو شك شكًا مترجحًا فيه وبنى على الراجح ، فسجد بعد السلام ، فلما سجد بعد السلام ثار عليه العامة - : وما هذا الدين الجديد ؟ هذا غلط ، قال رجل من الناس فقلت لهم : هذا حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام - سلم الرسول - عليه الصلاة والسلام - من ركعتين ، ثم أخبروه فأكمل صلاته ثم سلم ثم سجد للسهو بعد السلام ^(١) ، قالوا : أبدًا ، ولا نقبل ، قيل : من ترضون من العلماء ؟ قالوا نرضى فلانًا وفلانًا . فلما ذهبوا إليه قال : لهم هذا صحيح ، وهذا هو السنة فيعز الأئمة يأنف أن يسجد بعد السلام وهو يعلم أن السنة أن السجود بعد السلام خوفًا من ألسنة العامة ، وهذا خلاف ما بايع النبي - عليه الصلاة والسلام - أصحابه عليه ، قم بالحق ولا تخف في الله لومة لائم .

كذلك أيضًا : فيما يتعلق بالصدق في المعاملة ؛ بعض الناس إذا أخبر الإنسان بما عليه الأمر بحسب الواقع ، قالوا : هذه وساوس ، وليس بل لازم أن أعلم الناس بكل شيء ، مثلاً عيب في السلعة ، قالوا هذا سهل والناس يرضونه ، والواجب أن الإنسان يتقي الله تعالى ويقوم بالعدل ويقوم باللازم ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ولكن كما قلت أولاً إذا كان عند عامة جفافة ، فالأحسن أن يبلغهم الشرع قبل أن يطبق ، من أجل أن تهدأ نفوسهم ، وإذا طبّق الشرع بعد ذلك إذا هم قد حصل عندهم علم منه ، ولم يحصل منهم نفور .

* * *

١٨٧ - الزَّايِع : عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهْتَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَغْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا ، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَمُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا » ^(٢) رواه البخاري .

(١) هذا معنى حديث ولفظه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهأ فسلم في الركعتين .. » وقد أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦٩/٤) ، والبيهقي في سننه (٢٨٨/١٠) . قوله صلى الله عليه وسلم : « وإن أخذوا على أيديهم » أي : منعهم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه ، في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها » القائم فيها يعني : الذي استقام على دين الله ، فقام بالواجب ، وترك المحرم ، والواقع فيها أي : في حدود الله ، أي الفاعل للمحرم أو التارك للواجب ، كمثل قوم استهموا على سفينة يعني ضربوا سهمًا ، وهو ما يسمى بالقرعة ، أيهم يكون الأعلى ؟ ، « فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء » يعني إذا طلبوا الماء ليشربوا منه « مروا على من فوقهم » يعني الذين في أعلاها ، لأن الماء لا يقدر عليه إلا من فوق ، « فقالوا : لو خرقنا في نصيبنا » يعني لو نخرق خرقًا في مكاننا نستقي منه ، حتى لا نؤذي من فوقنا ، هكذا قدروا وأرادوا .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا » لأنهم إذا خرقوا خرقًا في أسفل السفينة دخل الماء ، ثم أغرق السفينة ، « وإن أخذوا على أيديهم » ومنعواهم من ذلك « نجوا ونجوا جميعًا » ، يعني : نجا هؤلاء وهؤلاء .

وهذا المثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم هو من الأمثلة التي لها مغزى عظيم ومعنى عال ، فالناس في دين الله كالذين في سفينة في لجة النهر فهم تتقاذفهم الأمواج ، ولا بد أن يكون بعضهم إذا كانوا كثيرين في الأسفل وبعضهم في الأعلى ، حتى تتوازن حمولة السفينة ، وحتى لا يضيّق بعضهم على بعض ، وفيه أن هذه السفينة المشتركة بين هؤلاء القوم إذا أراد أحد منهم أن يخربها ، فإنه لا بد أن يمسكوا على يديه ، وأن يأخذوا على يديه ، لينجوا جميعًا ، فإن لم يفعلوا هلكوا جميعًا ، هكذا دين الله ، إذا أخذ العقلاء وأهل العلم والدين على الجهال والسفهاء نجوا جميعًا ، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ^(١) [الأنفال : ٢٥] .

وفي هذا المثل دليل : على أنه ينبغي لمعلم الناس أن يضرب لهم الأمثال ، ليقرب لهم المعقول بصورة المحسوس ، قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] . وكم من إنسان تشرح له المعنى شرحًا كثيرًا وتردده عليه فلا يفهم ، فإذا ضربت له مثلاً بشيء محسوس يعرفه ، فهم .

وانظر إلى المثل العجيب الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم لرجل من الأعراب ، صاحب بادية إبل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يا رسول الله إن زوجتي ولدت غلامًا أسود ، يعني وأنا أبيض والمرأة بيضاء . من أين جاءنا هذا الأسود ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « هل لك من إبل ؟ » قال : نعم . قال « ما ألوانها ؟ » قال : حمر . قال : « هل فيها من أورك ؟ » - يعني أسود بياض . قال : نعم . قال : « من أين جاءها

(١) قوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةً ﴾ أي : تجنبوا بلاءً وعذابًا .

ذلك ؟ » قال : لعله نزعه عرق ، يعني ربما يكون له أجداد أو جدات سابقة لونها هكذا ، فنزعه هذا العرق ، قال : « فابنك هذا لعله نزعه عرق » ^(١) ، يمكن واحد من أجداده أو جداته أو أخواله أو آبائه لونه أسود فجاء الولد عليه ، فافتتح الأعراي تمام الاقتناع ، لو جاءه النبي - عليه الصلاة والسلام - يشرح له شرحاً فهو أعراي لا يعرف ، لكن أتاه بمثال من حياته التي يعيشها ، فانطلق وهو مقتنع . وهكذا ينبغي لطالب العلم ، بل ينبغي للمعلم أن يقرب المعاني المعقولة لأذهان الناس بضرب الأمثال المحسوسة ، كما فعل النبي ﷺ :

وفي هذا الحديث : إثبات القرعة وأنها جائزة . وقد وردت الآيات والأحاديث بالقرعة في موضعين من كتاب الله ، وفي ستة مواضع من سنة الرسول ﷺ أما الموضعين من كتاب الله وكلكم يقرأهما والحمد لله : الموضع الأول في سورة آل عمران ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، الموضع الثاني في سورة الصافات ﴿ وَإِنَّ يُوسُفَ لَإِنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ فَالْقَمَةُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴾ لَلَبْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ ^(٢) [الصافات : ١٣٩-١٤٤] .

يونس أحد الأنبياء ركب مع قوم في سفينة فضاعت بهم ، وقالوا : إن بقينا كلنا على ظهرها هلكنا وغرقت ، لابد أن ننزل بعضها في البحر . فمن ننزل ؟ أول راكب أم أكبر راكب . أم أكبر بدنًا ؟ فعملوا قرعة ، فصارت القرعة على جماعة منهم يونس ، لأن الآية تقول : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ إذن معه ناس ، نزلوهم ، والذين معه الله أعلم بهم لا نعرف ماذا صار لهم .

أما هو فالتقمة حوت عظيم ، أي ابتلعه بلعاً دون أن يملكه ^(٣) فصار في بطن الحوت ، فنادى في الظلمات : ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فلفظه الحوت على سيف البحر ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، (يقطين) قال العلماء : قرع النجد . قرع النجد لين ، وأوراقه لينة كالإبريسم ، ومن خصائصه أنه لا يقع عليه الذباب فأنبت الله عليه شجرة من يقطين حتى ترعرع بعد أن بقي في بطن الحوت ، ثم أنجاه الله ﷻ .

المهم : أن القرعة من الأمور المشروعة الثابتة بالكتاب والسنة ، وقد ذكر ابن رجب رحمه الله في كتابه القواعد الفقهية ، ذكر قاعدة في الأشياء التي تستعمل فيها القرعة ، من أول الفقه إلى آخره .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٠٥) ، ومسلم في اللعان (٢٠) ، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٢٨) .
(٢) قوله تعالى : ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ عند أحبار بيت القدس ، قوله تعالى : ﴿ يُقُولُ أَفْلَهُمُ ﴾ يطرحون سهامهم للاقتراع بها ، قوله تعالى : ﴿ أَتَى ﴾ هرب من سيده ترك قومه ، وهاجر دون إذن ربه ، قوله تعالى : ﴿ الْفُلْكِ ﴾ السفينة ، قوله تعالى : ﴿ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء ، قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ عمل قرعة مع من في السفينة ، قوله تعالى : ﴿ الْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين في القرعة (نصيبه أن يلقى في الماء) ، قوله تعالى : ﴿ فَالْقَمَةُ الْحَوْثُ ﴾ ابتلعه .
(٣) يملكه : أي يعضه .

١٨٨ - الخامس : عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ هِنْدِ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ حَدِيثَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرَأَ ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نُقَاتِلُهُمْ ؟ قَالَ : « لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ » ^(١) رواه مسلم .

مَعْنَاهُ : مَنْ كَرِهَ بَقْلِيهِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِنْكَارًا يَبِيدُ وَلَا لِسَانًا فَقَدْ بَرَأَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَأَذَى وَظِيْفَتِهِ ، وَمَنْ أَنْكَرَ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الْمَغْصِيَةِ ، وَمَنْ رَضِيَ بِفِعْلِهِمْ وَتَابَعَهُمْ ، فَهُوَ الْعَاصِي .

الشرح

وفي هذا الحديث : الذي ذكره المؤلف ، أخبر - عليه الصلاة والسلام - (أنه يُستعمل علينا أمراء) يعني يولون علينا من قبل ولي الأمر ، (فتعرفون وتنكرون) ، يعني أنهم لا يقيمون حدود الله ، ولا يستقيمون على أمر الله ، تعرفون منهم وتنكرون ، وهم أمراء لولي الأمر الذي له البيعة ، (فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم) ، (ولكن من رضي وتابع) يعني أنه يهلك كما هلكوا . ثم سألو النبي ﷺ : أَلَا نُقَاتِلُهُمْ ؟ قَالَ : « لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ » .

فدل هذا على أنهم - أي الأمراء - إذا رأينا منهم ما ننكر ، فإننا نكره ذلك ، وننكر عليهم ، فإن اهتدوا ، فلنا ولهم ، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم ، وأنه لا يجوز أن نقاتل الأمراء الذين نرى منهم المنكر ، لأن مقاتلتهم فيها شرٌّ كثير ، ويفوت بها خير كثير ، لأنهم إذا قتلوا أو نوبذوا لم يزدهم ذلك إلا شرًا ، فإنهم أمراء يرون أنفسهم فوق الناس ، فإذا نابذهم الناس أو قاتلوهم ازداد شرهم ، إلا أن النبي ﷺ شرط ذلك بشرط ، قال : « مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ » . فدل ذلك على أنه إذا لم يقيموا الصلاة فإننا نقاتلهم .

وفي هذا الحديث دليل : على أن ترك الصلاة كفر ، وذلك لأنه لا يجوز قتال ولاية الأمور إلا إذا رأينا كفرًا بواحا عندنا فيه من الله برهان ، فإذا أذن لنا النبي ﷺ أن نقاتلهم إذا لم يقيموا الصلاة ، دل ذلك على أن ترك الصلاة كفر بواحا عندنا فيه من الله برهان .

وهذا هو القول الحق ؛ أن تارك الصلاة تركًا مطلقًا ، لا يصلي مع الجماعة ولا في بيته كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، ولم يرد عن النبي ﷺ أن تارك الصلاة في الجنة ، أو أنه مؤمن ، أو أنه ناج من النار ، أو ما أشبه ذلك .

فالواجب إبقاء النصوص على عمومها في كفر تارك الصلاة ، ولم يأت أحد بحجة تدل على أنه لا يكفر ، إلا حججًا لا تنفعهم ، لأنها تنقسم إلى خمسة أقسام :

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (٦٣) ، قوله « فمن كره فقد برئ » أي : من كره ذلك المنكر فقد برئ عن إثمه وعقوبته .

١ - إما أنه ليس فيها دليل أصلاً .

٢ - وإما أنها مقيدة بوصف لا يمكن معه ترك الصلاة .

٣ - وإما أنها مقيدة بحال يعذر فيه ترك الصلاة .

٤ - وإما أنها عامة خُصّت بنصوص ترك الصلاة .

٥ - وإما أنها ضعيفة .

فهذه خمسة أقسام : لا تخلو أدلة من قال إنه لا يكفر منها أبداً .

فالصواب : الذي لا شك فيه عندي : أن تارك الصلاة كافر كفراً مخرجاً عن الملة ، وأنه أشد كفراً من اليهود والنصارى ، لأن اليهود والنصارى يُقرّون على دينهم ، أما هو فلا يُقرّ ، لأنه مرتد ، يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

١٨٩ - السَّادِسُ : عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ الْحَكَمِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَرَعَا يَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيَلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ ، فُتِيحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِثْلُ هَذِهِ » وَخَلَقَ بِأَصْبُعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْهَلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْحَبْتُ » (١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما نقله عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا محمراً وجهه يقول : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ » دخل عليها بهذه الصفة ، متغير اللون ، محمر الوجه يقول : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » تحقيقاً للتوحيد وتثبيتاً له ، لأن التوحيد هو القاعدة الذي تبنى عليها جميع الشريعة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . فتوحيد الله بالعبادة ، والمحبة ، والتعظيم ، والإنابة ، والتوكل ، والاستعانة ، والخشية ، وغير ذلك ، هو أساس الملة .

ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » في هذه الحال التي كان فيها فرعاً متغير اللون ، تثبيتاً للتوحيد وتطميناً للقلوب . ثم حذر العرب فقال : « وَيَلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ » . وحذر العرب لأن العرب هم حاملو لواء الإسلام ، فالله تعالى بعث محمداً ﷺ - في

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٣٥) ، ومسلم - واللفظ له - في الفتن (٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٦) ، والترمذي في الفتن (٢١٨٧) ، قوله « إذا كثرت الحبت » فسره الجمهور بالفسوق والفجور ، وقيل بالزنا خاصة ، وقيل بأولاد الزنا ، والظاهر أنه المعاصي مطلقاً ، قوله « الإبهام » الأصبع الغليظة الخامسة من أصابع اليد والرجل .

الأميين - في العرب : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَزَكَاةَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٠ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحج: ٣، ٤] فينب النبي - عليه الصلاة والسلام - هذا الوعيد للعرب ، لأنهم حاملو لواء الإسلام .

وقوله ﷺ : « من شَرَّ قَدْ اقْتَرَبَ » الشر هو الذي يحصل بياجوج ومأجوج ، ولهذا فسرهُ بذلك فقال : « فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِثْلَ هَذِهِ » وأشار بالسبابة والإبهام ، يعني أنه جزء ضعيف ومع ذلك فإنه يهدد العرب .

فالعرب الذين حملوا لواء الإسلام من عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى يومنا هذا ، مُهَدَّدُونَ من قبل يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ المفسدين في الأرض ، كما حكى تعالى عن ذي القرنين أنه قيل له : ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الكهف : ٩٤] فهم أهل الشر وأهل الفساد . ثم قالت زينب : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كَثُرَ الْخَبْثُ » الصالح لا يهلك وإنما هو سالم ناج ، لكن إذا كثر الخبث هلك الصالحون ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٢٥] والخبث هنا يراد به شيئان : الأول : الأعمال الخبيثة ، والثاني : البشر الخبيث .

فإذا كثرت الأعمال الخبيثة السيئة في المجتمع ولو كانوا مسلمين فإنهم عرضوا أنفسهم للهلاك .
وإذا كثر فيهم الكفار فقد عرضوا أنفسهم للهلاك أيضًا . ولهذا حذر النبي - عليه الصلاة والسلام -
من بقاء اليهود والنصارى والمشركين في جزيرة العرب حذر من ذلك فقال : « أخرجوا اليهود
والنصارى من جزيرة العرب » (١) .

وقال في مرض موته : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » (٢) .

وقال في آخر حياته : « لئن عشتُ لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب » (٣) .

أو قال : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلمًا » (٤) هكذا صَحَّ عنه - عليه الصلاة والسلام - ومع الأسف الشديد الآن تجد الناس كأنما يتسابقون إلى جلب اليهود والنصارى والوثنيين إلى بلادنا للعمالة ، ويدعي بعضهم أنهم أحسن من المسلمين . نعوذ بالله من الخذلان وانتكاس الفطرة .

هكذا يلعب الشيطان بعقول بعض الناس حتى يفضل الكافر على المؤمن ، والله عََلَيْكَ يَقُولُ : ﴿وَلَعِبَدُ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ

(١) هذا الحديث متفق عليه بلفظ « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » البخاري في الجزية (٣١٦٨) ومسلم في الوصية (٢٠) .
(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/١) ، والهندي في كنز العمال (١١٥٠٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٦٣) .

وَيَبِّينْ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ [البقرة: ٢٢١] فالحذر الحذر من استجلاب اليهود والنصارى والوثنيين من البوذيين وغيرهم إلى هذه الجزيرة ، لأنها جزيرة إسلام منها بدأ وإليها يعود . فكيف نجعل هؤلاء الخبث بين أظهرنا ، وفي أولادنا ، وفي أهلنا وفي مجتمعنا . هذا مؤذنٌ بالهلاك ولا بد .

ولهذا من تأمل أحوالنا اليوم وقارن بينها وبين أحوالنا بالأمس ، وجد الفرق الكبير ، ولولا الناشئة الطيبة التي من الله عليها بالالتزام ، والتي نسأل الله أن يشتها عليه ، لولا هذا لرأيت شراً كثيراً ، ولكن لعل الله أن يرحمنا بعفوه ، ثم بهؤلاء الشباب الصالح الذين لهم نهضة طيبة أدام الله عليهم فضله ، وأعاذنا وإياهم من الشيطان الرجيم .

* * *

١٩٠ - السَّابِعُ : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرَقَاتِ » فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدَّ ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « فَإِذَا أَيْتُمُ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والجلوس في الطرقات » هذه الصيغة صيغة تحذير ، يعني : أحذركم من الجلوس على الطرقات ، وذلك لأن الجلوس على الطرقات يؤدي إلى كشف عورات الناس ؛ الذاهب والراجع ، وإلى النظر فيما يحملونه من الأغراض التي قد تكون خاصة بما لا يحبون أن يطلع عليها أحد ، وربما يقضي أيضاً إلى الكلام والغيبة فيمن يمر ، إذا مر من عند هؤلاء الجالسين أحد أخذوا يتكلمون في عرضه .

المهم أن الجلوس على الطرقات يؤدي إلى مفساد ، ولكن لما قال : « إياكم والجلوس في الطرقات » وحذرهم . قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بدُّ ، يعني : أننا نجلس نتحدث ، ويأنس بعضنا ببعض ، ويألف بعضنا بعضاً ، ويحصل في ذلك خير . لأن كل واحد منا يعرف أحوال الآخر .

فلما رأى النبي - عليه الصلاة والسلام - أنهم مصمّمون على الجلوس قال : « فإن أيتّم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه » ولم يشدد عليهم - عليه الصلاة والسلام - ولم يمنعهم من هذه المجالس التي يتحدث بعضهم فيه إلى بعض ، ويألف بعضهم بعضاً ، ويأنس بعضهم ببعض ، لم يشق عليهم في هذا ، وكان - عليه الصلاة والسلام - من صفته بالمؤمنين رعوف رحيم فقال : « إن أيتّم إلا المجلس » يعني إلا الجلوس « فأعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٦٥) ، ومسلم - واللفظ له - في اللباس (١١٤) ، والإمام أحمد في مسنده

(٣٦/٣) ، قوله « بد » أي : عيوض ، قوله صلى الله عليه وسلم « غض البصر » أي كفه عن النظر إلى المحرمات .

البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر « خمسة أشياء :
 أولاً : غض البصر : أن تغضوا أبصاركم عن من يرمي ، سواء كان رجلاً أو امرأة ، لأن المرأة يجب
 غض الإنسان من بصره عنها . والرجل كذلك ، تغض البصر عنه ، لا تحذ البصر فيه حتى تعرف ما
 معه . وكان الناس في السابق يأتي الرجل بأغراض البيت يومياً فيحملها في يده ، ثم إذا مر بهؤلاء
 شاهدوها ، وقالوا : ما الذي معه ؟ وما أشبه ذلك ، وكانوا إلى وقت غير بعيد إذا مر الرجل ومعه
 اللحم لأهل بيته صاروا يتحدثون : فلان قد أتى اليوم بلحم لأهله ، فلان أتى بكذا ، فلان أتى بكذا ،
 فلهذا أمر النبي ﷺ أصحابه بغض البصر .

ثانياً : كف الأذى : أي كف الأذى القولي والفعلية . أما الأذى القولي فبأن يتكلموا على الإنسان
 إذا مر ، أو يتحدثوا فيه بعد ذلك بالغيبة والنميمة .

والأذى الفعلية : بأن يضايقه في الطريق ، بحيث يملأون الطريق حتى يؤذوا المارة ، ولا يحصل
 المرور إلا بتعب ومشقة .

ثالثاً : رد السلام : إذا سلم أحد فردوا عليه السلام ، هذا من حق الطريق ، لأن السنة أن المار يسلم
 على الجالس ، فإذا كانت السنة أن يسلم المار على الجالس فإذا سلم فردوا السلام .

رابعاً : الأمر بالمعروف : فالمعروف هو كل ما أمر الله تعالى به أو أمر به رسول الله ﷺ ؛ فإنك تأمر
 به ، فإذا رأيتم أحداً مقصراً سواء كان من المارين أو من غيرهم فأمروه بالمعروف ، وحثوه على الخير
 وزينوه له ورجبوه فيه .

خامساً : النهي عن المنكر : فإذا رأيتم أحداً مر وهو يفعل المنكر ، مثل أن يمر وهو يشرب الدخان أو
 ما أشبه ذلك من المنكرات ، فانهوه عن ذلك ، فهذا حق الطريق .

ففي هذا الحديث يُحذّر النبي ﷺ المسلمين من الجلوس على الطرقات ، فإن كان لابد من
 ذلك ، فإنه يجب أن يعطي الطريق حقه .

وحق الطريق خمسة أمور ؛ بينها النبي - عليه الصلاة والسلام - وهي : « غض البصر ، وكف
 الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » . هذه حقوق الطريق لمن كان جالساً فيه
 كما بينها النبي ﷺ . والله الموفق .

١٩١ - الثامن : عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل ،
 فترعه فطرخه وقال : « يعمد أحدكم إلى جمر من نار فيجعلها في يده ! » فقبل للرجل بقدمه
 ذهب رسول الله ﷺ : أخذ خاتمك ، انتفع به . قال : لا والله لا أخذه أبداً وقد طرعه رسول
 الله ﷺ (١) . رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم في اللباس (٥٢) ، والبيهقي في سننه (٤٢٤/٢) ، قوله « طرعه » أي : ألقاه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ رأى رجلاً وفي يده خاتم من ذهب ، فنزعه النبي ﷺ من يده ، وطرحه في الأرض ، وقال : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده » فلما ذهب النبي ﷺ قيل : للرجل : خذ خاتمك انتفع به ، قال : والله لا آخذ خاتماً طرحه النبي ﷺ .

أتى المؤلف رحمته الله بهذا الحديث في باب : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » لأن فيه تغيير المنكر باليد ، فإن لباس الرجل الذهب محرم ومنكر ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : في الذهب والحريز : « أنهما أحلا لنساء أمتي وحزما على ذكورها » ^(١) .

فلا يجوز للرجل أن يلبس خاتماً من ذهب ، ولا أن يلبس قلادة من ذهب ، ولا أن يلبس ثياباً فيها أزرة من ذهب ولا غير ذلك ، يجب أن يتجنب الذهب كله ، وذلك أن الذهب إنما يلبسه من يحتاج إلى الزينة والتجمل ، كالمرأة تتجمل لزوجها حتى يرغب فيها . قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ : ﴿ أَوْ مَن يُنَشِّئُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴾ ^(٢) [الزخرف : ١٨] يعني : النساء . النساء ينشأن في الحلية ويرين عليها ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴾ أي عِيَّة لا تُفصح .

على كل حال : الذهب يحتاج إليه النساء للتجمل للأزواج ، والرجل ليس بحاجة إلى ذلك . الرجل يُتَجَمَّلُ له ولا يتجمل لغيره ، اللهم إلا الرجل فيما بينه وبين زوجته ، كل يتجمل للآخر ، لما في ذلك من الإلفة ، ولكن مهما كان ، فإن الرجل لا يجوز له أن يلبس الذهب بأي حال من الأحوال .

وأما لباس الفضة فلا بأس به ، يجوز أن يلبس الرجل خاتماً من فضة ، ولكن بشرط أن لا يكون هناك عقيدة في ذلك ، كما يفعله بعض الناس الذين اعتادوا عادات النصارى في مسألة الدبلة التي يلبسها البعض عند الزواج .

الدبلة ، يقولون : إن النصارى إذا أراد الرجل منهم أن يتزوج ، جاء إليه القسيس - بمنزلة العالم عند المسلمين - وأخذ الخاتم ووضعه في أصابعه : إصبع بعد إصبع ، حتى ينتهي إلى ما يريد ثم يقول : هذا الرباط بينك وبين زوجتك ، فإذا لبس الرجل هذه الدبلة معتقداً ذلك فهو تشبه بالنصارى ، مصحوب بعقيدة باطلة ، فلا يجوز حينئذ للرجل أن يلبس هذه الدبلة .

أما لو لبس خاتماً عادياً بغير عقيدة ، فإن هذا لا بأس به .

وليس التخت من الأمور المستحبة ، بل هو من الأمور التي إذا دعت الحاجة إليها فعلت وإلا فلا

(١) أخرجه الترمذي في اللباس (١٧٢٠) ، والنسائي في سنته (٥١٤٨) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَن يُنَشِّئُ فِي الْحَيَاةِ ﴾ : أو يجعلون لله من يربي في الزينة والتعفة (البنات) ، قوله تعالى : ﴿ فِي الْخِصَامِ ﴾ : الخاصمة والمجادلة ، قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُبِينٍ ﴾ : غير مظهر للحجة لضعفه عن ذلك .

تفعل ، بدليل أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان لا يلبس الخاتم . لكنه لما قيل له : إن الملوك والرؤساء لا يقبلون الكتاب إلا بختم ، اتخذ خاتماً نقش في فضه : « محمد رسول الله » حتى إذا انتهى من الكتاب ختمه بهذا الخاتم ^(١) .

وفي هذا الحديث : دليل على استعمال الشدة في تغيير المنكر إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، لأن النبي ﷺ لم يقل له : إن الذهب حرام فلا تلبسه ، أو فاخلعه ، بل هو بنفسه خلعه وطرحه في الأرض .

ومعلوم أن هناك فرقاً بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبين تغيير المنكر ، لأن تغيير المنكر يكون من ذي سلطة قادر ، مثل الأمير ومن جعل له تغييره ، ومثل الرجل في أهل بيته ، والمرأة في بيتها وما أشبه ذلك . فهذا له السلطة أن يغير بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلمه .

أما الأمر : فهو واجب بكل حال ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بكل حال ، لأنه ليس فيه تغيير ، بل فيه أمر بالخير ونهي عن الشر ، وفيه أيضاً دعوة إلى الخير والمعروف وإلى ترك المنكر ، فهذه ثلاث مراتب : دعوة ، وأمر ونهي ، وتغيير .

أما الدعوة : فمثل أن يقوم الرجل خطيباً في الناس ، يعظهم ويذكرهم ويدعوهم إلى الهدى . وأما الأمر : فأن يأمر أمراً موجهاً إلى شخص معين ، أو إلى طائفة معينة . يا فلان احرص على الصلاة ، اترك الكذب ، اترك الغيبة وما أشبه ذلك .

أما التغيير : فأن يغير هذا الشيء ، يزيله من المنكر إلى المعروف ، كما صنع النبي ﷺ حين نزع الخاتم من صاحبه نزعاً ، وطرحه على الأرض طرحاً .

وفيه أيضاً : دليل على جواز إتلاف ما يكون به المنكر ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - طرحه لما نزع من يده ولم يقل له : خذه وأعطه أهلك مثلاً ، ولهذا كان من فقه هذا الرجل أنه لما قيل له : خذ خاتمك ، قال : لا آخذ خاتماً طرحه النبي ﷺ ، لأنه فهم أن هذا من باب التعزير وإتلافه عليه ، لأنه حصلت به المعصية ، والشيء الذي تحصل به المعصية أو ترك الواجب ، لا حرج على الإنسان أن يتلفه انتقاماً من نفسه بنفسه ، كما فعل نبي الله سليمان - عليه الصلاة والسلام - حين غرضت عليه الخيل الجياد ، ولهى بها حتى غربت الشمس ، فاشتغل بها عن صلاة العصر فقاتته ، ثم دعا بها - عليه الصلاة والسلام - وجعل يضربها ، يعقرها ويقطع أعناقها ، كما قال تعالى : ﴿ فَطَقَّ مَسَاحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ ^(٢) [ص: ٣٣] أتلفها انتقاماً من نفسه ، لرضى الله ﷻ .

فإذا رأى الإنسان أن شيئاً من ماله ألهاه عن طاعة الله ، وأراد أن يتلفه انتقاماً من نفسه وتعزيراً لها ،

(١) أخرجه البخاري في اللباس والزينة (٥٨٧٢) ، ومسلم في اللباس (٥٨) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ فَطَقَّ مَسَاحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ فشرع سليمان ﷺ يقطع سوقها وأعناقها بالسيف قرباناً لله وتصدق بلحمها .

فإن ذلك لا بأس به .

وفي هذا الحديث : دليل على أن لبس الذهب موجب للعذاب بالنار والعياذ بالله ؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام - : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها في يده » . فإن الرسول ﷺ جعل هذا جمرة من نار ، يعني يُعذب بها يوم القيامة ، وهو عذاب جزئي أي على بعض البدن ، على الجزء الذي حصلت به المخالفة . ونظيره قوله ﷺ فيمن جزّ ثوبه أسفل من الكعبين قال : « ما أسفل من الكعبين ففي النار » ^(١) ونظيره أيضًا حين قصّر الصحابة في غسل أرجلهم ، فقال النبي ﷺ : « ويل للأعقاب من النار » ^(٢) .

فهذه ثلاثة نصوص من السنة كلها فيها إثبات أن العذاب بالنار قد يكون على جزء معين من البدن .

وفي القرآن أيضًا من ذلك كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [التوبة : ٣٥] مواضع معينة ، فالعذاب كما يكون عامًا على جميع البدن ، قد يكون خاصًا ببعض أجزائه وهو ما حصلت به المخالفة .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : بيان كمال صدق الصحابة في إيمانهم ، فإن هذا الرجل لما قيل له : خذ خاتمك انتفع به . قال : لا آخذ خاتمًا طرحه النبي - عليه الصلاة والسلام - وذلك من كمال إيمانه ﷺ . ولو كان ضعيف الإيمان ، لأخذه وانتفع به ؛ يبيع أو بإعطائه أهله أو ما أشبه ذلك .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أن الإنسان يستعمل الحكمة في تغيير المنكر ، فهذا الرجل كما ترون استعمل معه النبي - عليه الصلاة والسلام - شيئًا من الشدة . لكن الأعرابي الذي بال في المسجد لم يستعمل معه النبي - عليه الصلاة والسلام - الشدة ^(٣) ، ولعل ذلك لأن هذا الذي لبس خاتم الذهب علم النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه كان عالمًا بالحكم والتحريم ولكنه متساهل ، بخلاف الأعرابي ، فإنه كان جاهلًا لا يعرف ، جاء ووجد هذه الفسحة في المسجد ، فجعل يبول ، يحسب نفسه أنه في البر !! ولما قام إليه الناس يزجرونه ، نهاهم النبي ﷺ عن ذلك .

وكذلك استعمل النبي ﷺ اللين مع معاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة ، وكذلك مع الرجل الذي جامع زوجته في نهار رمضان ، فلكلّ مقام مقال .

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٧) ، وأحمد في مسنده (٤١٠/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضل العلم (٦٠) ، ومسلم في الطهارة (٢٦) ، والترمذي في الطهارة (٤١) ، وأحمد في مسنده (١٩٣/٢) .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٠) ، ومسلم في الطهارة (٩٨) ، وابن ماجه في الطهارة (٥٣٠) ، وأحمد في مسنده (١١٤/٣) .

فعليك يا أخي المسلم أن تستعمل الحكمة في كل ما تفعل وكل ما تقول ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] نسأل الله أن يجعلنا ممن أوتي الحكمة ونال بها خير كثيرًا .

* * *

١٩٢ - التاسع : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْحَسَنِ الْبَضْرِيِّ أَنَّ عَائِذَ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنه دَخَلَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ زَيْدٍ فَقَالَ : أَيُّ بُنْيَ إِني سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْخَطْمَةُ » فَإِنَّكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ . فَقَالَ لَهُ : اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نَحَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نَحَالَةٌ ؟ ، إِنَّمَا كَانَتْ النُّحَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيْرِهِمْ ! ^(١) رواه مسلم .

١٩٣ - العاشر : عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَتَعَثَّ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن ينزل عليكم عقابًا ثم تدعون فلا يستجاب لكم » .

قوله - عليه الصلاة والسلام - : « والذي نفسي بيده » هذا قسم ، يقسم فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالله ، لأنه هو الذي أنفُس العباد بيده جل وعلا ، يهديها إن شاء ، ويضلها إن شاء ، ويميتها إن شاء ، ويقيها إن شاء ، فالأنفُس بيد الله هداية وضلالة ، وإحياء وإماتة ، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ وَتَقْرَأُ مَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ ﴾ [الشمس: ٨، ٧] فالأنفُس بيد الله وحده ، ولهذا أقسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقسم كثيرًا بهذا القسم : « والذي نفسي بيده » وأحيانًا يقول : « والذي نفس محمد بيده » لأن نفس محمد صلى الله عليه وسلم أطيب الأنفُس ، فأقسم بها لكونها أطيب الأنفُس .

ثم ذكر المقسم عليه ، وهو أن نقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو يعننا الله بعقاب من عنده حتى ندعوه فلا يستجيب لنا . نسأل الله العافية .

وقد سبق لنا عدة أحاديث كلها تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحذير من

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (٢٣) ، والبيهقي في سننه (١٦١/٨) ، قوله : « الرعاء » جمع راع ، قوله : « الخطمة » أي العنق في رعيته لا يرفق بها في سوقها ومرعاها ، بل يحطمها في ذلك وفي سقيها ، ويحزم بعضها ببعض بحيث يؤذيها ويحطمها ، قوله : « نخالة » يعني لست من فضلائهم وعلمائهم وأهل المراتب منهم ، بل من سقطهم ، والنخالة هنا استعارة من نخالة الدقيق وهي قشوره ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) ، والطبراني في الكبير (١٨٠/١٠) .

عدمه ، فالواجب علينا جميعاً أن نأمر بالمعروف ، فإذا رأينا أخاً لنا قد قصّر في واجب أمرناه به وحذرناه من المخالفة ، وإذا رأينا أخاً لنا قد أتى منكراً نهيناه عنه وحذرناه من ذلك ، حتى نكون أمة واحدة ، لأننا إذا تفرقنا وصار كل واحد منا له مشرب ، حصل بيننا من النزاع والفرقة والاختلاف ما يحصل ، فإذا اجتمعنا كلنا على الحق حصل لنا الخير والسعادة والفلاح .

وفي هذا الحديث : دليل على جواز القسم بدون أن يُستقسم الإنسان ، أي جواز القسم دون أن يُطلب من الإنسان أن يقسم ، ولكن هذا لا ينبغي إلا في الأمور التي لها أهمية ولها شأن ، فهذه يقسم عليها الإنسان ، أما الشيء الذي ليس له أهمية ولا شأن ، فلا ينبغي أن تحلف عليه إلا إذا استحلفت للتوكيد فلا بأس .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم واجبات الدين وفروضة ، حتى أن بعض العلماء عدّه ركناً سادساً من أركان الإسلام . والصحيح أنه ليس ركناً سادساً ، وإنما هو من أوجب الواجبات . والأمة إذا لم تقم بهذا الواجب ، فإنها سوف تتفرق وتتمزق ، يكون كل قوم لهم منهاج يسرون عليه ، ولكنهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، اتفق منهاجهم وصاروا أمة واحدة كما أمرهم الله بذلك : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ (١) [آل عمران : ١٠٤ ، ١٠٥] .

ولكن على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يلاحظ مسألة مهمة ، وهي أن يكون قصده بذلك إصلاح أخيه ، لا الانتقام منه والاستئثار عليه ، لأنه ربما إذا قصد الانتقام منه والاستئثار عليه يُعجب بنفسه وبعمله ، ويحقر أخاه ، وربما يستبعد أن يرحمه الله ، ويقول : هذا بعيد من رحمة الله ، ثم بعد يحبط عمله . كما جاء ذلك في الحديث الذي صحّ عن النبي ﷺ ، أن رجلاً قال لرجل آخر مسرف على نفسه : « والله لا يغفر الله لفلان » فقال الله ﷻ : « من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان ، وقد غفرت له وأبطلت عملك » (٢) .

فانظر إلى هذا الرجل ؛ تكلم بكلمة أوبقت ديناه وآخرته ، هلك كل عمله وسعيه ، لأنه حمله إعجابه بنفسه ، واحتقاره لأخيه ، واستبعاده رحمة الله على أن يقول هذه المقالة ، فحصل بذلك أن أوبقت هذه الكلمة ديناه وآخرته .

فالهم : أنه يجب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يستحضر هذا المعنى ، أن لا يكون قصده الانتصار لنفسه أو الانتقام من أخيه ، بل يكون كالطبيب المخلص الذي قصده دواء هذا

(١) قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ كنتم كذلك في تقدير الله تعالى وحكمه ، قوله تعالى : ﴿ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي : البراهين الواضحات .

(٢) أخرجه مسلم - بزيادة (فإني قد) - في البر والصلة (١٣٧) ، قوله : « يتألى » : يُقسم .

المريض ، الذي مرض بالمنكر فيعمل على أن يعالجه معالجة تقيه شر هذا المنكر ، أو ترك واجباً فيعالجه معالجةً تحمله على فعل الواجب . وإذا علم الله من نيته الإخلاص ، جعل في سعيه بركة ، وهدى به من شاء من عبادته ، فحصل على خير كثير ، وحصل منه خير عظيم . والله الموفق .

١٩٤ - الحادي عشر : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ بَجَائِرٍ » ^(١) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ بَجَائِرٍ » .

للسلطان بطانتان : بطانة السوء ، وبطانة الخير .

بطانة السوء : تنظر ماذا يريد السلطان ، ثم تزينه له وتقول : هذا هو الحق ، هذا هو الطيب ، وأحسن وأقصد ، ولو كان - والعياذ بالله - من أجور ما يكون ، تفعل ذلك مدهانة للسلطين وطلباً للدنيا .

أما بطانة الحق : فإنها تنظر ما يرضي الله ورسوله ، وتدلل الحاكم عليه ، هذه هي البطانة الحسنة . كلمة الباطل عند سلطان جائر ، هذه - والعياذ بالله - ضد الجهاد .

وكلمة الباطل عند سلطان جائر ، تكون بأن ينظر المتكلم ماذا يريد السلطان فيتكلم به عنده ويزينه له .

وقول كلمة الحق عند سلطان جائر من أعظم الجهاد . وقال : « عند سلطان جائر » لأن السلطان العادل ، كلمة الحق عنده لا تضر قائلها ، لأنه يقبل ، أما الجائر فقد ينتقم من صاحبها ويؤذيه . فالآن عندنا أربع أحوال :

١ - كلمة حق عند سلطان عادل ، وهذه سهلة .

٢ - كلمة باطل عند سلطان عادل ، وهذه خطيرة ، لأنك قد تفتن السلطان العادل بكلمتك ، بما تزينه له من الزخارف .

٣ - كلمة حق عند سلطان جائر ، وهذه أفضل الجهاد .

٤ - كلمة باطل عند سلطان جائر ، وهذه أقبح ما يكون .

فهذه أقسام أربعة ، لكن أفضلها كلمة الحق عند السلطان الجائر . نسأل الله أن يجعلنا ممن يقول

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٤٤) ، والترمذي بنحوه في الفتن (٢١٧٤) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠١١) .

الحق - ظاهراً وباطناً - على نفسه وعلى غيره .

١٩٥ - الثَّانِي عَشَرَ : عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ الْبَجَلِيِّ الْأَخْمَسِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْعَزْرِ : أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » ^(١) رواه النسائي بإسنادٍ صحيح .

« الْعَزْرُ » بَعَيْنٌ مُعْجَمَةٌ مَفْتُوحَةٌ ثُمَّ رَاءِ سَاكِنَةٌ ثُمَّ زَايٍ ، وَهُوَ رِكَابٌ كَوْرِ الْجَمَلِ إِذَا كَانَ مِنْ جِلْدٍ أَوْ خَشَبٍ ، وَقِيلَ : لَا يَخْتَصُّ بِجِلْدٍ وَخَشَبٍ .

١٩٦ - الثَّالِثُ عَشَرَ : عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : يَا هَذَا أَتَى اللَّهَ وَدَعَا مَا تَصْنَعُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْقَدِّ وَهُوَ عَلَى خَالِهِ ، فَلَا يَمْتَنِعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيئَهُ وَقَعِيدَهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ » ثُمَّ قَالَ : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ^(٢) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(٣) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَتَقِفُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ - ٨١] ثُمَّ قَالَ : « كَلَّا ، وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذْنَ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا ، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا ، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبٍ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ » رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

هذا لفظ أبي داود ، ولفظ الترمذي : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ غُلَامَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوْا ، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ مُنْكِحًا فَقَالَ : « لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا » ^(٢) .

قَوْلُهُ : « تَأْطِرُوهُمْ » أَيُّ تَغْطِفُوهُمْ . « وَلَتَقْصُرُنَّهُ » أَيُّ لَتَحْبِسُنَّهُ .

(١) أخرجه النسائي في سننه (٤٢٠٩) ، والحديث روي بنحوه في سنن ابن ماجه من حديث أبي امامة في الفتن

(٤٠١٢) ، والحديث بنفس المعنى السابق فلم يعلق عليه الشارح - رحمه الله تعالى .

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٦) ، والترمذي في التفسير (٣٠٤٨) ، والبيهقي في سننه (٩٣/١٠) ، وقوله « ولتقصرنه » إلى آخر الحديث زيادة في رواية أبي داود ، قوله « ليلعنكم » اللعنة أي : الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

١٩٧ - الرَّابِعُ عَشَرَ : عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَتَفْرُقُونَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ : « إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْتَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ » ^(١) رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي بأسانيد صحيحة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أما بعد أيها الناس ، فإنكم تفرقون هذه الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وهذه الآية ظاهرها أن الإنسان إذا اهتدى بنفسه فإنه لا يضره ضلال الناس ، لأنه استقام بنفسه ، فإذا استقام بنفسه فشان أجره على الله ﷻ . فقد يفسرها بعض الناس ويفهم منها معنى فاسداً ، يظن أن هذا هو المراد بالآية الكريمة وليس كذلك ، فإن الله اشترط لكون من ضل لا يضرنا أن نهتدي فقال : ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ .

ومن الاهتداء : أن نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، فإذا كان هذا من الاهتداء ، فلا بد أن نسلم من الضرر ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولهذا قال ﷺ : وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يَغْيُرُوهُ ، أَوْ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ » يعني : أنهم يضرهم من ضل ، إذا كانوا يرون الضال ولا يأمرونه بالمعروف ، ولا ينهونه عن المنكر ، فإنه يوشك أن يعمهم الله بالعقاب ؛ الفاعل والغافل ، الفاعل للمنكر والغافل الذي لم يته عن المنكر .

وفي هذا دليل على أنه يجب على الإنسان العناية بفهم كتاب الله ﷻ ، حتى لا يفهمه على غير ما أراد الله ، وأن الناس قد يظنون المعنى على خلاف ما أراد الله في كتابه ، فيضلوا بتفسير القرآن ، ولهذا جاء في الحديث الوعيد على من قال في القرآن برأيه ، أي فسر به بما يرى ويهوى ، لا بمقتضى اللغة العربية والشريعة الإسلامية ، فإذا فسر الإنسان القرآن بهواه ورأيه فليتبوأ مقعده من النار ^(٢) .

أما من فسر بمقتضى اللغة العربية ، وهو ممن يعرف اللغة العربية ، فهذا لا إثم عليه ، لأن القرآن نزل باللسان العربي ، فيفسر بما يدل عليه . وكذلك إذا كانت الكلمات قد نقلت من المعنى اللغوي إلى المعنى الشرعي ، وفسرها بمعناها الشرعي فلا حرج عليه .

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨) ، والترمذي في الفتن (٢١٦٩) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥) ، قوله « فلم يأخذوا على يديه » أي بأن يمنعوه من ذلك باليد إن قدروا وإلا فباللسان ، فإن عجزوا بأن خافوا على نفس محرمة أو مال أو أن يقع المنكر عليه في منكر أشد مما أراد فعله فلا حرج عليهم .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٥٠) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣/١) .

فالمهم أنه يجب على الإنسان أن يكون فاهماً لمراد الله ﷻ في كتابه ، وكذلك لمراد النبي ﷺ في سنته ، حتى لا يفسرهما إلا بما أراد الله ورسوله . والله الموفق .

* * *

٢٤ - باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وَخَالَفَ قَوْلُهُ فِعْلُهُ

قال الله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤]
وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢، ٣] وقال تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ كُفَّ عَنْهُ ﴾ (١) [هود : ٨٨] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف فعله قوله . لما كان الباب الذي قبله في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كان المناسب ذكر هذا الباب في تغليظ عقوبة من أمر بمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن منكر وفعله - والعياذ بالله - وذلك أن من هذه حاله ، لا يكون صادقاً في أمره ونهيه لأنه لو كان صادقاً في أمره ، معتقداً أن ما أمر به معروف ، وأنه نافع ، لكان هوأول من يفعله لو كان عاقلاً . وكذلك لو نهى عن منكر ، وهو يعتقد أنه ضار ، وأن فعله إثم ، لكان أول من يتركه لو كان عاقلاً . فإذا أمر بمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن منكر وفعله ، علم أن قوله هذا ليس مبنياً على عقيدة والعياذ بالله .

ولهذا أنكر الله على من فعل ذلك فقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] . والاستفهام هنا للإنكار ، يعني : كيف تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم فلا تفعلونه ، وأنتم تتلون الكتاب وتعرفون البر من غير البر : أفلا تعقلون ؟! وهذا الاستفهام للتوبيخ ؛ يقول لهم : كيف يقع منكم هذا الشيء ؟ أين عقولكم لو كنتم صادقين ؟

مثال ذلك : رجل يأمر بترك الناس للربا ، ولكنه يتعامل به أو يفعل ما هو أعظم منه . فهو يقول للناس مثلاً : لا تأخذوا الربا في معاملات البنوك ، ثم يذهب هو فيأخذ الربا بالحيلة والمكر والخداع ، ولم يعلم أن ما وقع هو فيه من الحيلة والمكر والخداع ، أكبر ذنباً ، وأعظم إثماً ، ممن أتى الأمر على وجهه .

ولهذا قال أيوب السخيتاني رحمه الله : « إنهم يخادعون الله كما يخادعون

(١) قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ ﴾ هو فعل الخيرات ، قوله تعالى : ﴿ نَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي تقرأون التوراة والإنجيل وتعلمون أحكامها .

الصبيان ، لو أنهم أتوا الأمر على وجهه لكان أهون . وصدق ﷺ .

كذلك أيضًا رجل يأمر الناس بالصلاة ، ولكنه هو نفسه لا يصلي !! فكيف يكون هذا ؟ كيف تأمر بالصلاة ، وترى أنها معروف ، ثم لا تصلي ؟ هل هذا من العقل ؟ ليس من العقل فضلًا عن أن يكون من الدين ، فهو مخالف للعقل ، وسفه في الدين . نسأل الله العافية .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣، ٢] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خاطبهم بالإيمان ، لأن مقتضى الإيمان ألا يفعل الإنسان هذا ، وألا يقول ما لا يفعل ، ثم وبَّخهم بقوله : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . ثم بين أن هذا الفعل مكروه عند الله ، مُبْعَضٌ لديه أشدُّ البغض ، فقال : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . والمقت . قال العلماء : هو أشدُّ البغض فالله تعالى يبغض الرجل الذي هذه حاله ؛ يقول ما لا يفعل . وبين الله ﷻ لعباده أن ذلك مما يبغضه من أجل أن يتعدوا عنه ، لأن المؤمن حقًا يتعد عما نهى الله عنه .

وقال عن شعيب : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ﴾ [مرد: ٨٨] يعني أنه يقول لقومه : لا يمكن أن أنهاركم عن الشرك ، وأنهاركم عن نقص المكيال والميزان وأنا أفعله ، لا يمكن أبدًا ، لأن الرسل ﷺ هم أنصح الخلق للخلق ، وهم أشدُّ الناس تعظيمًا لله ، وامتنالًا لأمره واجتنابًا لنهيهِ ، فلا يمكن أن يخالفهم إلى ما ينهارهم عنه فيفعله .

وفي هذا : دليل على أن الإنسان الذي يفعل ما ينهى عنه ، أو يترك ما أمر به ، مخالف لطريقة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأنهم لا يمكن أن يخالفوا الناس إلى ما ينهونهم عنه . وستأتي الأحاديث إن شاء الله في بيان عقوبة من ترك ما أمر به أو فعل ما نهى عنه والله الموفق .

١٩٨ - وعن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة ؓ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَا ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ ، وَآنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْتُهُ » (١) متفق عليه .

قوله : « تَنْدَلِقُ » هُوَ بِالْدَّالِ الْمَهْمَلَةِ ، وَمَعْنَاهُ تَخْرُجُ . وَ « الْأَقْتَابُ » : الْأَمْعَاءُ ، وَاجِدْهَا قِثْب .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أسامة بن زيد ؓ أن النبي ﷺ قال : « يُؤْتَى

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٧) ، ومسلم - واللفظ له - في الزهد (٥١) ، قوله « الرحا » الأداة التي يطحن بها .

بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرِّحَا ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية » فهذا الحديث فيه التحذير الشديد من الرجل الذي يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ويخالف قوله فعله .

يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة » أي تأتي به الملائكة ، فيلقى في النار إلقاءً ، لا يدخلها برفق ، ولكنه يلقى فيها كما يلقى الحجر في اليمِّ ، فتندلق أفتاب بطنه ، يعني : أمعائه ، الأفتاب : جمع قتب وهو المعى ، ومعنى تندلق : تخرج من بطنه من شدة الإلقاء - والعياذ بالله - .

« فيدور بها كما يدور الحمار في الرِّحَا » وهذا التشبيه للتقيح ، شبهه بالحمار الذي يدور على الرِّحَا ، وصفة ذلك : أنه في المطاحن القديمة قبل أن توجد هذه الآلات والمعدات الحديدية ، كان يُجعل حجران كبيران وينقشان فيما بينهما أي ينقران ، ويوضع للأعلى منهما فتحة تدخل منها الحبوب ، وفيها خشبة تربط بمثن الحمار ، ثم يستدير على الرِّحَا ، وفي استدارته تَطْحَنُ الرِّحَا .

فهذا الرجل الذي يلقى في النار يدور على أمعائه - والعياذ بالله - كما يدور الحمار على رحاه ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون له : مالك ؟ أي شيء جاء بك إلى هنا ، وأنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول مقروءاً على نفسه : « كنت أمر بالمعروف ولا آتية » يقول للناس : صلّوا ولا يصلي . ويقول لهم : زكوا أموالكم ولا يزكي . ويقول : بروا الوالدين ، ولا يبرّ والديه . وهكذا يأمر بالمعروف ولكنه لا يأتية .

« وأنهى عن المنكر وآتية » يقول للناس : لا تغتابوا الناس ، لا تأكلوا الربا ، لا تغشوا في البيع ، لا تسيؤوا العشرة ، لا تسيؤوا الجيرة وما أشبه ذلك من الأشياء المحرمة التي ينهى عنها ، ولكنه يأتيتها والعياذ بالله ، يبيع بالربا ، ويغش ، ويسيء العشرة ، ويسيء إلى الجيران وغير هذا ، فهو بذلك يأمر بالمعروف ولا يأتية ، وينهى عن المنكر ويأتية - نسأل الله العافية - فيعذب هذا العذاب ويخرى هذا الخزي .

فالواجب على المرء أن يبدأ بنفسه فيأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر ، لأن أعظم الناس حقاً عليك بعد رسول الله ﷺ نفسك .

أبدأ بنفسك فانها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
أبدأ بها ثم حاول نصح إخوانك ، وأمرهم بالمعروف ، وإنهم عن المنكر ، لتكون صالحاً مصلحاً .
نسأل الله أن يجعلني وإياكم من الصالحين المصلحين إنه جواد كريم .

٢٥ - باب الأمر بأداء الأمانة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب الأمر بأداء الأمانة .

الأمانة : تطلق على معان متعددة ، منها ما ائتمنه الله على عباده من العبادات التي كلفهم بها ، فإنها أمانة ائتمن الله عليها العباد .

ومنها : الأمانة المالية ، وهي الودائع التي تُعطى للإنسان ليحفظها لأهلها ، وكذلك الأموال الأخرى التي تكون بيد الإنسان ، لمصلحته أو مصلحته ومصلحة مالكها ، وذلك أن الأمانة التي بيد الإنسان ؛ إما أن تكون لمصلحة مالكها ، أو لمصلحة من هي يده ، أو لمصلحتها جميعاً .

فأما الأول : فالوديعة ؛ الوديعة تجعلها عند شخص ، تقول مثلاً : هذه ساعتني عندك احفظها لي ، أو هذه دراهم احفظها لي وما أشبه ذلك ، فهذه وديعة المودع ، فهي بقيت عنده لمصلحة مالكها . وأما التي لمصلحة من هي يده فالعارية : يعطيك شخص شيئاً يعيرك إياه ؛ من إئاء ، أو فراش ، أو ساعة ، أو سيارة ، فهذه بقيت في يدك لمصلحتك .

وأما التي لمصلحة مالكها ومن هي يده : فالعينُ المشتأجرة ، فهذه مصلحتها للجميع ؛ استأجرت مني سيارة ، وأخذتها ، فأنت تتنفع بها في قضاء حاجاتك ، وأنا أنتفع بالأجرة . وكذلك البيت والدكان وما أشبه ذلك . كل هذه من الأمانات .

ومن الأمانة أيضاً : أمانة الولاية وهي أعظمها مسؤوليةً - الولاية العامة والولايات الخاصة - فالسلطان مثلاً الرئيس الأعلى في الدولة ، أمين على الأمة كلها ، على مصالحها الدينية ومصلحتها الدنيوية ، على أموالها التي تكون في بيت المال ، لا يذرها ، ولا ينفقها في غير مصلحة المسلمين وما أشبه ذلك .

وهناك أمانات أخرى دونها ، كأمانة الوزير مثلاً في وزارته ، وأمانة الأمير في منطقته ، وأمانة القاضي في عمله ، وأمانة الإنسان في أهله . المهم أن الأمانة باب واسع جداً . وأصلها أمران : أمانة في حقوق الله ؛ وهي أمانة العبد في عبادات الله ﷻ .

وأمانة في حقوق البشر ؛ وهي كثيرة جداً ، وقد أشرنا إلى شيء منها ، وكلها يؤمر الإنسان بأدائها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] تأمل هذه الصيغة : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ » صيغة قوة ، وسلطان ، لم يقل : أدوا الأمانة ، ولم يقل : إني آمركم ولكن قال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ » يأمركم بألوهيته العظيمة ، يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، فأقام الخطاب مقام الغائب تعظيماً لهذا المقام ، ولهذا الأمر .

وهذا كقول السلطان - ولله المثل الأعلى - : إن الأمير يأمركم ، إن الملك يأمركم ، فهذا أبلغ وأقوى من قوله : إني آمركم كما قال ذلك علماء البلاغة .

« أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » . ومن لازم الأمراء بأداء الأمانة إلى أهلها ؛ الأمر بحفظها ؛ لأنه لا يمكن أداؤها إلى أهلها إلا بحفظها . وحفظها ألا يتعدى فيها ولا يفرط ، بل يحفظها حفظاً تاماً ليس فيه تعدٍّ ولا تفريط ، حتى يؤديها إلى أهلها .

وأداء الأمانة من علامات الإيمان ، فكلما وجدت الإنسان أميناً فيما يؤتمن عليه ، مؤدياً له على الوجه الأكمل ، فاعلم أنه قوي الإيمان . وكلما وجدته خائناً فاعلم أنه ضعيف الإيمان .

ومن الأمانات : ما يكون بين الرجل وصاحبه من الأمور الخاصة التي لا يجب أن يطلع عليها أحد ، فإنه لا يجوز لصاحبه أن يخبر بها .

فلو استأمنك على حديث حدثك به ، وقال لك : هذا أمانة ، فإنه لا يحل لك أن تخبر به أحداً من الناس ، ولو كان أقرب الناس إليك . سواء أوصاك بأن لا تخبر به أحداً ، أو علم من قرائن الأحوال أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد . ولهذا قال العلماء : إذا حدثك الرجل بحديث والتفت فهذه أمانة ^(١) . لماذا ؟ لأن كونه يلتفت ، فإنه يخشى بذلك أن يسمع أحد ، إذن فهو لا يحب أن يطلع عليه أحد ، فإذا ائتمنتك الإنسان على حديث ، فإنه لا يجوز لك أن تغشيه .

ومن ذلك أيضاً : ما يكون بين الرجل وبين زوجته من الأشياء الخاصة ، فإن شر الناس منزلة عند الله تعالى يوم القيامة ، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ثم يروح ينشر سرها ، ويتحدث بما جرى بينهما ^(٢) ، فلا يجوز للإنسان أن يتحدث بما جرى بينه وبين زوجته .

وكثير من الشباب السفهاء يتفكهون في الجالس بذكر تلك الخصوصيات ، يقول الواحد منهم : فعلت بامرأتي كذا وكذا ، من الأمور التي لا تحب هي أن يطلع عليها أحد . وكذلك كل إنسان عاقل له ذوق سليم ، لا يحب أن يطلع أحد على ما جرى بينه وبين زوجته .

إذن علينا أن نحافظ على الأمانات ، وأول شيء أن نحافظ على الأمانات التي بيننا وبين ربنا ، لأن حق ربنا أعظم الحقوق علينا ، ثم بعد ذلك ما يكون من حقوق الخلق ، الأقرب فالأقرب . والله الموفق .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

(١) انظر في ذلك سنن أبي داود (٤٨٦٨) ، وسنن الترمذي (١٩٥٩) ، ومسند الإمام أحمد (٣/٣٥٢ ، ٣٨٠) .

(٢) انظر الحديث في سنن أبي داود (٤٨٧٠) ، ومسند الإمام أحمد (٣/٦٩) ، والإفضاء إلى المرأة أي مباشرتها (عون المعبود ١٣/٢٢٦) .

الشرح

سبق الكلام على أن الأمانات شاملة لحقوق الله وحقوق العباد ، وأنها أنواع كثيرة ، وذكرنا ما تيسر منها ، وتكلمنا عن قوله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ثم قال تعالى في الآية نفسها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمِيزُ بَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ يَبِينُونَ﴾ فأنشئ الله ﷻ على ما يعظنا به من الأوامر والنواهي ، من الأوامر التي يريد منا فعلها ، والنواهي التي يريد منا تركها . ثم ختم الآية بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] سميعاً لما تقولون ، بصيراً بما تفعلون ، وختم الآية بهذين الاسمين الكريمين المتضمنين لشامل سمع الله وبصره ، يقتضي التهديد ، فهو يهدد ﷻ مَنْ لم يقم بأداء الأمانات إلى أهلها .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب : ٧٢] عرض الله الأمانة وهي التكليف والإلزام بما يجب ، عرضها على السموات والأرض والجبال ، ولكنها أبَت أن تحملها ، لما فيها من المشقة ، ولخشية هذه الثلاثة : السموات والأرض والجبال من إضاعتها .

فإذا قال قائل : كيف يعرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهي جماد ليس لها عقل ولا تشعر ؟! . فالجواب : أن كل جماد فهو بالنسبة لله ﷻ عاقل يفهم ويمثل . أرأيت إلى قوله تعالى فيما أخبر به النبي ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَمَا خَلَقَ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ : اكْتُبْ﴾ . فخطب الله القلم وهو جماد ، ورد عليه القلم قال : « وماذا أكتب ؟ » لأن الأمر مجمل ، ولا يمكن الامتثال للأمر المجمل إلا ببيانه ، قال : « اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة »^(١) . فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة . هذا أمر وتكليف وإلزام .

فهنا بين الله ﷻ أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبت أن تحملها .

وقال تعالى : ﴿لَمَّا اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنَبِّئَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢) [فصلت : ٢١] . فخطبهما بالأمر وقال : أتينا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، فقالتا : أتينا طائعين . ففهمت السموات والأرض خطاب الله ، وامتلتا وقالتا : أتينا طائعين . وعصاة بني آدم يقولون : سمعنا وعصينا .

الأمانة حملها الإنسان . وكيف حملها ؟

حملها بأمرين : العقل ، والرسول . العقل الذي أعطاه الله ﷻ ، وفضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً . والرسول الذين أرسلهم الله ﷻ للإنسان ، وبينوا له الحق من الضلال ، فلم يبق له عذر . ولكن مع ذلك وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول ، فاختلف العلماء : هل « الإنسان » هنا عام ، أم خاص بالكافر ؟ فقال بعض العلماء : إنه خاص بالكافر ، فهو الظلوم الجهول . أما المؤمن فهو ذو عدل وعلم وحكمة ورشد . وقال بعض العلماء : بل هو عام والمراد الإنسان بحسب طبيعته ، أما المؤمن فإن

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٠٠) ، والترمذي (٢١٥٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٣١٧/٥) .

(٢) وهي دخان : مكونة مما يشبه الدخان . صفوة البيان لمعاني القرآن (٦٠٥) .

اللَّهُ مَنْ عَلَيْهِ بِالْهُدَايَةِ ، فيكون مستثنى من هذا وأيًا كان فمن قام بالأمانة انتفى عنه وصف الظلم والجهالة التي في قول الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

* * *

١٩٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ » متفقٌ عليه .

وفي رواية : « وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » ^(١) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

الآية : يعني العلامة ، كما قال تعالى : ﴿ أَوْ لَرَّ يَكُنْ لَمْ يَأَيَّ أَنْ يَعْلَمُ عُلْمَتَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] يعني أو لم يكن لهم علامة على صدق ما جاء به النبي ﷺ ، وصحة شريعته وأن هذا القرآن حق : ﴿ أَنْ يَعْلَمُ عُلْمَتَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ، ويعلمون أنه هو الذي بشر به عيسى - عليه الصلاة والسلام - وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ ^(٢) [يس : ٤١] . آية يعني علامة . فعلاقة المنافق ثلاث .

والمنافق هو الذي يُسرُّ الشرَّ ويُظهر الخير . ومن ذلك : أن يُبَيِّرَ الكفر ويظهر الإسلام . وأصله مأخوذ من نافقاء اليربوع . اليربوع : أو الذي نسميه الجربوع ، يخفر له حجرًا في الأرض ويفتح له بابًا ، ثم يحفر في أقصى الجحر خرقًا للخروج ، لكنه خرق خفي لا يعلم به ، بحيث إذا حجره أحد من عند الباب ، ضرب هذا الخرق الذي في الأسفل برأسه ثم هرب منه . فالمنافق يظهر الخير ويطن الشر ، يظهر الإسلام ويطن الكفر .

وقد برز النفاق في عهد النبي ﷺ بعد غزوة بدر ، لما قُتل صناديد ^(٣) قريش في بدر ، وصارت الغلبة للمسلمين ، ظهر النفاق ، فأظهر هؤلاء المنافقون أنهم مسلمون وهم كفار ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة : ١٥] وقال عنهم أيضًا : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ يؤكدون كلامهم بالشهادة و « يان » و « اللام » فقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(٤) [المنافقون : ١] .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ، ومسلم في الإيمان (١٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٥٧/٢) ، والرواية الثانية أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٩) .

(٢) أي حملنا أولادهم صغارًا وكبارًا في السفن المملوءة دون أن يلحقهم أذى وتمكينًا للكبار منهم من وسائل العيش وأهمها التجارات . انظر صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٥٦١) .

(٣) صناديد : جمع صنديد وهو الشديد . المعجم الوسيط (٤٥٤/١) .

(٤) أي كاذبون في قولهم « تشهد أنك لرسول الله » لأنهم أضمرُوا خلاف ما أظهروا . وحقيقة الإيمان أن يواطئ القلب اللسان فمن أخبر عن شيء وهو يضر خلافه فهو كاذب . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٧٢٥) .

فشهد شهادة أقوى منها بأنهم لكاذبون في قولهم : « نشهد إنك لرسول الله » لا في أن محمدًا رسول الله ولهذا استدرك فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

المنافق له علامات ، يعرفها الذي أعطاه الله فراسة ^(١) ونورًا في قلبه يعرف المنافق من تتبّع أحواله . وهناك علامات ظاهرة لا تحتاج إلى فراسة ؛ منها هذه الثلاثة التي بيّنها النبي ﷺ « إذا حدث كذب » يقول مثلاً : فلان فعل كذا وكذا ، فإذا بحثت وجدته كذب ، وهذا الشخص لم يفعل شيئاً ، فإذا رأيت الإنسان يكذب فاعلم أن في قلبه شعبة من النفاق .

« الثاني إذا وعد أخلف » يعدك ولكن يخلف ، يقول لك مثلاً سأتي إليك في الساعة السابعة صباحاً ولكن لا يأتي ، أو يقول : سأتي إليك غداً بعد صلاة الظهر ولكن لا يأتي . يقول : أعطيك كذا وكذا ، ولا يعطيك ، فهو كما قال النبي ﷺ « إذا وعد أخلف » ، والمؤمن إذا وعد وفّى ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ يَهْدِيهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] لكن المنافق يعدك ويفرك ^(٢) ، فإذا وجدت الرجل يغدر كثيراً بما يعد ، ولا يفي ، فاعلم أن في قلبه شعبة من النفاق ، والعياذ بالله .

الثالث « إذا أؤتمن خان » وهذا الشاهد من هذا الحديث الباب ، فالمنافق إذا ائتمنته على مال خانك ، وإذا ائتمنته على سرّ بينك وبينه خانك ، وإذا ائتمنته على أهلك خانك ، وإذا ائتمنته على بيع أو شراء خانك . كلما ائتمنته على شيء يخونك والعياذ بالله ، يدل ذلك على أن في قلبه شعبة من النفاق . وأخبر النبي ﷺ بهذا الخبر لأمرين :

الأمر الأول : أن نحذر من هذه الصفات الذميمة ، لأنها من علامات النفاق ، ويخشى أن يكون هذا النفاق العملي مؤدياً إلى نفاق في الاعتقاد ، والعياذ بالله ، فيكون الإنسان منافقاً نفاقاً اعتقادياً فيخرج من الإسلام وهو لا يشعر ، فأخبرنا الرسول - عليه الصلاة والسلام - لنحذر من ذلك .

الأمر الثاني : لنحذر من يتصف بهذه الصفات ، ونعلم أنه منافق يخدعنا ويلعب بنا ، ويغرنا بحلاوة لفظه وحسن قوله ، إذن عكس ذلك يكون من علامات الإيمان . فالمؤمن إذا وعد أوفى . المؤمن إذا أؤتمن أدى الأمانة على وجهها ، هذا هو المؤمن وكذلك إذا حدث كان صادقاً في حديث مخبراً بما هو الواقع فعلاً .

ومن الأسف فإن قوماً من السفهاء عندنا إذا وعدته بوعده يقول : « وعد إنجليزي أم وعد عربي » يعني أن الإنجليز هم الذين يوفون بالوعد ، هذا بلاشك أنه سفه وغرور بهؤلاء الكفرة ، الإنجليز فيهم مسلمون ومؤمنون ولكن جملتهم كفار ، ووافاؤهم بالوعد لا يبتغون به وجه الله ، لكن يبتغون به أن يحسنوا صورتهم عند الناس ليغتر الناس بهم .

(١) فراسة : الفراسة المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها المعجم الوسيط (٧٠٦/٢) .

(٢) أي يخدعك ويظلمك بالباطل . المعجم الوسيط (٦٧٢/٢) .

المؤمن في الحقيقة هو الذي يفي تماماً ، ولهذا إذا أردت أن تتأكد فقل لصاحبك : تعدني وعد مؤمن أو وعد منافق ؟ هذا هو الصواب ، فمن أوفى بالوعد فهو مؤمن ، ومن أخلف الوعد كان فيه من خصال النفاق .

* * *

٢٠٠ - وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيتهما أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر : حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ ، ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ فَقَالَ : « يَتَأَمُّ الرَّجُلُ التَّوَمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ ، فَيُظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ ، ثُمَّ يَتَأَمُّ التَّوَمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ ، فَيُظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْحَجَلِ ، كَحَجَرٍ دَخَرَجْتُهُ عَلَى رَجُلَيْكَ ، فَتَقِطُ فَرَّاهُ مُتَتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ » ثُمَّ أَخَذَ حَصَاةً فَدَخَرَجَهُ عَلَى رَجُلَيْهِ « فَيُضْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ ، فَلَا يَكَاذُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ : إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا ، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا أَجَلَدُهُ ، مَا أَظْرَفُهُ ، مَا أَغْفَلُهُ ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خُرْدٍ مِنْ إِيْمَانٍ . وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَتَالِي أَيْكُمْ بَاتِعْتُ ، لَيْنٌ كَانَ مُسْلِمًا لِيَرُدُّهُ عَلَيَّ دِينُهُ ، وَلَيْنٌ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لِيَرُدُّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَاتِيعُ مِنْكُمْ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا » ^(١) متفقٌ عليه .

قوله : « جَذَرُ » يفتح الجيم وإشكان الدال المعجمة : وهو أصل الشيء و « الْوَكْتُ » بالثاء المثناة من فوق : الأثر اليسير . « وَالْحَجَلُ » يفتح الميم وإسكان الجيم ، وهو تنقط في اليد ونحوها من أثر عمل وغيره . قوله : « مُتَتَبِرًا » : مُتَوَفِّعًا . قوله : « سَاعِيهِ » : الْوَالِي عَلَيْهِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيتهما أحدهما وأنا أنتظر الآخر وكان النبي ﷺ يحدث أصحابه بما يراه مناسبا ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - إذا حدث أحدا بشيء ، فإنه حديث له وللأمة إلى يوم القيامة وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقال له صاحب السر ، لأن النبي ﷺ حدثه عن قوم من المنافقين ، عليهم النبي ﷺ فأخبر بهم حذيفة ، وكانوا نحو ثلاثة عشر رجلا ، سماهم بأسمائهم .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لشدة خوفه من الله ، يلتقي بحذيفة فيقول : أنشدك الله هل سئاني لك رسول الله ﷺ مع من سماهم من المنافقين ؟ هذا وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها وأبي بكر رضي الله عنه ، أجمعين ، فهو الثاني بعد الرسول - عليه الصلاة والسلام - في هذه الأمة ، وله من اليقين والمقامات العظيمة ما هو معلوم ، حتى قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد ،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٧) ، ومسلم في الإيمان (٢٣) ، والترمذي في الفتن (٢١٧٩) .

فإن عمر بن الخطاب منهم ^(١) يعني إن كان فيكم أحد ملهم للصواب فهو عمر ، يمدحه ويشني عليه لموافقته للصواب . وإيمانه ﷺ معروف مشهور ومع ذلك يقول : « أنشدك الله هل سماني لك رسول الله مع من سماهم من المنافقين ؟ فيقول حذيفة : لا ولا أزكي بعدك أحدًا » ^(٢) .

فذكر ﷺ ما حدثه به النبي ﷺ من نزع الأمانة من قلوب الرجال ، فقوله ﷺ : « إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال » يعني في أصلها ، ثم أنزل عليهم من القرآن والسنة ما يثبت ويؤيد هذا الأصل ، فجاء القرآن والسنة مؤيدًا للفطرة التي فطر الناس عليها ، وعلموا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ فازدادوا بذلك إيمانًا وثباتًا وأداءً للأمانة .

ولكن أخبر بالحديث الثاني أن هذه الأمانة سوف تنزع من قلوب الرجال والعياذ بالله ، تنزع فيصبح الناس يتحدثون أن في بني فلان رجل أمين ، يعني أنك لا تكاد تجد في القبيلة رجلًا واحدًا أمينًا ، والباقي كلهم على خيانة ، لم يؤدوا الأمانة .

ولقد شاهد الناس اليوم مصداق هذا الحديث عن رسول الله ﷺ ، فإنك تستعرض الناس رجلًا رجلًا حتى تبلغ إلى حد المائة أو المئات ، لا تجد الرجل الأمين الذي أدى الأمانة كما ينبغي في حق الله ولا في حق الناس . قد تجد رجلًا أمينًا في حق الله ، يؤدي الصلاة ، يؤدي الزكاة ، يصوم ، يحج ، يذكر الله كثيرًا ، يسبح ، لكنه في المال ليس أمينًا ، إن وكل إليه عمل حكومي فوط ، وصار لا يأتي للدوام إلا متأخرًا ، ويخرج قبل انتهاء الوقت ، ويضيع الأيام الكثيرة في أشغاله الخاصة ، ولا ييالي ، مع أنك تجده في مقدمة الناس في المساجد ، وفي الصدقات ، وفي الصيام ، وفي الحج ، لكنه ليس أمينًا من جهة أخرى .

كذلك تجد الرجل يقيم الصلاة ، ويصوم ، ويحج ، ويتصدق ، لكنه ليس أمينًا في وظيفته ، يعرف أنه لا يجوز للموظف أن يتاجر أو يفتح محل تجارة ، ولكنه لا ييالي ، ويفتح محل تجارة ، إما باسمه صريحًا ، أو باسم مستعار ، وإما برجل أجنبي يجعله في هذا الدكان وما أشبه ذلك . فيكذب ، ويخون الدولة ، ويأكل المال بالباطل ، وهذا الذي يأكله من الحرام مانع لإجابة دعوته والعياذ بالله .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : ٥١] . ثم ذكر الرجل « يطيل السفر ، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وغذّي بالحرام ، فأني يستجاب لذلك » ^(٣) .

يقول النبي ﷺ : « أنى يستجاب لذلك » بعيد أن يستجيب الله لهذا الرجل ، الذي هو أشعث أغبر ، يمد يديه للسماء : يا رب يا رب ، ومع ذلك يبعد أن الله يستجيب له ، لأنه يأكل الحرام . هذا

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٨٩) ، ومسلم - واللفظ له - في فضائل الصحابة (٢٣) .

(٢) انظره بنحوه في كنز العمال (٣٤٤/١٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

الذي يكون موظفًا بمقتضى عهد الوظيفة فإنه يمنع من مزاوله التجارة^(١)، فكل كسب كسبه من هذه التجارة فهو حرام عليه، سحت - والعياذ بالله - نقول لمثل هذا: أنت الآن بالخيار؛ إن شئت أن تبقي على الوظيفة فاترك التجارة، وإن رأيت أن التجارة أنسب لك وأكثر فائدة فاترك الوظيفة.

قال الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَثْوًى﴾ [الإسراء: ٣٤] يتعلل بعض الناس فيقول كيف تمنعوني من التجارة وهناك وزراء يتاجرون بالأراضي وعندهم شركات كبيرة، فنقول: إذا ضل الناس لم يكن ضلالهم هدى، وإذا كانوا هم ضالين ظالمين بما صنعوا فلا تضل أنت. فإذا قال مثلاً: هذه النظم جاءت من تحت أيديهم، هم الذين شرعوا فكيف يخالفونها؟ نقول: حسابهم على الله سيكونون هم أول من يحزن ويتحسر على ما صنعوا يوم القيامة، حيث لا مال عندهم يفقدون به أنفسهم، ولا خدم ولا حراس يحجزون عنهم، ولا نسب ولا قرابة تنفعهم. فأنت لا تتخذ من مخالفات الناس دليلاً وسلماً لمعصية الله، ولكن عليك بالوفاء بما عاهدت غيرك عليه، وإن كان غيرك يخالف ذلك فليس لك أن تخالفه أنت.

٢٠١ - وعن حذيفة، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالوا: قال رسول الله ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتَحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَيْكُمُ! لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، أَذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالَ: فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمُدُوا إِلَى مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ وَرُوحِهِ. فَيَقُولُ عِيسَى: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤَذِّنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَيَقُومَانِ جَنَّتِي الصُّرَاطَ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ» قُلْتُ: يَا أَبِي وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرُ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرُ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرُ الطَّيْرِ، وَشَدُّ الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصُّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ لَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا رَحْفًا، وَفِي خَافَتِي الصُّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمُخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمُكْرَدَسٌ فِي النَّارِ» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا^(٢). رواه مسلم.

(١) أي من الوقت المخصص لأداء وظيفته، كما يمنع منّا من استغلال وظيفته في الترويج لتجارته، الترويج منها.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢٩)، قوله «حتى تُزْلَفَ» أي تقرب، قوله «استفتح لنا» أي اسأل الله فتحها لنا لندخلها، قوله «حتى تعجز أعمال العباد» أي تضعف أعمالهم الصالحة عن المرور بهم فيطفون في السير، قوله «كلاليب» جمع كلوب: خشبة في رأسها عقافة حديد وقد تكون حديدًا كلها، وقيل: يعلق عليها اللحم ويرسل في التنور، قوله «مكردس» معناه كون الأشياء بعضها على بعض، وتكردست الدابة في مشيها إذا ركب بعضها على بعض، قوله «إن قعر جهنم سبعون خريفًا» أي مسافته مسير سبعين خريفًا.

قوله : « وَرَاءَ وَرَاءَ » هو بالفتح فيهما . وَقِيلَ : بِالضَّمِّ بِلَا تَنْوِين ، وَمَعْنَاهُ : لَكُنْتُ نَيْلَكَ الدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تُذَكِّرُ عَلَى سَبِيلِ التَّوَاضُّعِ . وَقَدْ بَسَطْتُ مَعْنَاهَا فِي شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن حذيفة ، وأبي هريرة رضي الله عنهما في حديث الشفاعة . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وعده ربُّهُ أن يبعثه مقامًا محمودًا فقال جل وعلا : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وإذا جاءت « عسى » من الله فهي واجبة ، بخلاف عسى من الخلق ، فإنها للترجي . فإذا قلت : عسى الله أن يهديني ، عسى الله أن يغفر لي ، عسى الله أن يرحمني ، فهذا رجاء . أما إذا قال الله « عسى » فهذا وعد . لذلك قالوا : « عسى من الله واجبة » مثل قوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ﴾ [النساء: ٩٩] وقوله : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ [المائدة: ٥٢] وما أشبه ذلك .

فألله صلى الله عليه وسلم وعد نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبعثه مقامًا محمودًا ، أي مقامًا يحمد فيه الأولون والآخرون ، وذلك من عدة أوجه منها حديث الشفاعة ^(١) ، فإن الناس يُبعثون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، حفاة لا يلبسون النعال ، وعراة ليس عليهم ثياب ، وغرلاً أي غير مختونين ، يعني أن ما قطع منهم في الدنيا أثناء الختان سيعود إليهم يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] . فيجمع الله الخلائق ، والشمس فوقهم قدر ميل ، أهوال عظيمة ، يشاهدون الجبال تمر مر السحاب ، تكون هباءً منثورًا فيلحقهم من الهم والغم ما لا يطيقون ، فيقول بعضهم لبعض : ألا تطلبون من يشفع لنا عند الله ، فيذهبون إلى آدم ويطلبونه لشفاعة ، فيذكر خطيئته التي وقعت منه . والخطيئة التي وقعت منه أن الله صلى الله عليه وسلم قال له ولزوجه حين أسكنهما الجنة : ﴿ وَلَا تَمْنَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] شجرة عينها الله صلى الله عليه وسلم وليس لنا في معرفة نوعها كبير فائدة ، ولهذا فنحن لا نعرف نوع هذه الشجرة ، هل هي من شجر الزيتون ، أم من الحنطة ، أم من العنب ، أم من النخل ، لا ندري ، فالواجب أن نبهما كما أبهما الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان لنا في تعيينها فائدة لبينها الله صلى الله عليه وسلم .

فقال صلى الله عليه وسلم لآدم وحواء : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فأتاهما الشيطان فوسوس لهما ودلاهما بغرور ^(٢) وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، وهكذا يفعل في بني آدم ، يغرهم ويغريهم ويوسوس لهم ويقسم لهم أنني ناصح وهو كذوب .

فالشاهد من حديثنا : أن آدم عليه السلام تذكر خطيئته هو وزوجته ؛ وهي أكلهما من الشجرة التي

(١) انظر البخاري في التفسير (٤٧١٢) ومسلم في الإيمان (٣٢٧) .

(٢) أي فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية بما غرهما به من القسم ، من التذلية وهي إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل ومنه دلى الدلو في البئر . والغرور : إظهار النصيحة مع إبطان الغش . انظر صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٢٠١) .

حظرها الله عليهما ؛ ولكنه تاب إلى الله تعالى من ذلك ، فأمره الله سبحانه أن يهبط هو وزوجته إلى الأرض فهبطا وكانت منهما هذه الذرية ، فمنهم الشهداء والرسل والأنبياء والصالحون ، ومنهم غير ذلك من أهل الفساد والكفر والنفاق والإلحاد والضلال .

فعندما يذهب الناس إلى آدم عليه السلام في هذا الموقف العظيم يوم القيامة يعتذر عن مساعدتهم ويتذكر خطيئته التي أخرجه من الجنة .

أما القصة التي تروى عن ابن عباس رضي الله عنه في سبب خروج آدم وحواء من الجنة ، وأن حواء حملت فجاءها الشيطان فقال : سميا الولد عبد الحارث ، أو لأجعلن له قرنا ، فيخرج من بطنك فيشقه فأبيا أن يطيعا ، فجاءهم في المرة الثانية ، فأبيا أن يطيعا ، فجاءهم في المرة الثالثة فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث . وجعل ذلك تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِمَسْكُنٍ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلٌ خَفِيًّا فَهَمَزَتْ فِيهِ فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَاكِ رَبُّهَا لَمَّا آتَيْنَا صَلَاحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] فإن هذه القصة قصة مكذوبة ليست بصحيحة ، وحتى إن صحت عن ابن عباس فإنه رضي الله عنه ممن عرفوا بالأخذ من بني إسرائيل ، فتكون هذه القصة من الإسرائيليات ^(١) .

فتنحن نعلم من خلال حديث الشفاعة وما تقرر من عصمة الأنبياء أن هذا الفعل لا يصح من آدم أبداً ، لأنه شرك ، والشرك لا يقع من الأنبياء .

يعتذر آدم عن الشفاعة فيأتي الناس نوحا عليه السلام وهو أول رسول أرسله الله إلى الأرض ، فيخاطبه الناس بهذه المنقبة فيقولون له : أنت أول رسول بعثه الله إلى الأرض اشفع لنا عند ربك فيعتذر لأنه سأل ربه ما ليس له به علم وذلك حين قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَنْبِئُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَأَنَا كَافِرٌ وَتَافِيَةٌ ﴾ [هود: ٤٥] .

وكان لنوح عليه السلام ولدٌ كافر به . وَلَدٌ رَسُولٌ ، ولكنه كفر بالرسول والعياذ بالله ، لأن النسب لا ينفع الإنسان . فابن العالم لا يأتي عالماً ، بل قد يكون جاهلاً ، وكذلك ابن العابد لا يأتي عابداً ، قد يكون فاسقا فاجرا ، ابن الرسول قد لا يكون مؤمنا بل هذا ابن نوح عليه السلام أحد أبنائه كان كافرا . كان أبوه يقول : ﴿ يَبْنِيْ اَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [مرد: ٤٢] فيجيبه قائلاً ﴿ قَالَ سَتَأْتِيْ اِلَيَّ جَبَلٌ يَّعْصِمُنِي مِنَ الْمَلَأِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَمَا بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [مرد: ٤٣] . فيعتذر نوح بأنه سأل ما ليس له به علم ، والشافع لا بد أن لا يكون بينه وبين المشفوع إليه جفوة ، لأن الشافع إذا كان بينه وبين المشفوع إليه جفوة ، فكيف يكون شافعا . الشافع لا بد أن يكون بينه وبين المشفوع إليه صلة قوية لا يخذلها شيء ، مع أن نوحا عليه السلام غفر الله له ، وآدم غفر الله له ،

(١) أورد هذه القصة الطبري في تفسيره (١٩٤/٦) ، والسيوطي في الدر (٦٢٥/٣) ، ابن كثير في تفسير الآية (١٩٠، ١٨٩) من سورة الأعراف .

اجتياه ربه فتاب ، فغفر الله له ، ولكن لكمال مرتبتهم وعلو مقامهم ، جعلوا هذا الذنب الذي غفر لهم مانعا من الشفاعة ، كل هذا تعظيما لله ﷻ ، وحياء منه ، وخجلا منه .

ثم يأتون إلى إبراهيم خليل الله ﷻ ، فيعتذر ويقول : إنه كذب في ذات الله ثلاث كذبات ، وهذه الكذبات التي كذبها ليست كذبا في الواقع ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - قد تأول فيها ، والتأول ليس بكذب ^(١) ، لكن لشدة تعظيمه لله ﷻ ، رأى أن هذا مانع للشفاعة أي من أن يتقدم للشفاعة لأحد .

ثم يأتون موسى ويقولون له : إن الله كلمك ، وكتب لك التوراة بيده ، فيعتذر بأنه قتل نفسا لم يؤمر بقتلها ، وذلك أن موسى - عليه الصلاة والسلام - كان من أشد الرجال وأقواهم ، فمر ذات يوم برجلين يقتلان ، هذا من شيعته ، يعني من بني إسرائيل ، وهذا من عدوه يعني من آل فرعون من القبط ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، يعني طلب منه أن يغيبه وأن يعينه على هذا الرجل ، فوكزه ^(٢) موسى أي وكز الذي من عدوه ففضى عليه أي أهلكه ومات بوكزة واحدة ، لأنه كان قويا شديدا - عليه الصلاة والسلام - فقال : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] .

وفي الصباح وجد صاحبه الذي كان بالأمس وجده يتنازع مع شخص آخر ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصْرَمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ ﴾ ^(٣) قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [القصص : ١٨] يعني بالأمس كنت تنازع رجلا واليوم تنازع آخر فهم موسى أن يبطش بالذي هو عدو لهما فقال له الإسرائيلي : ﴿ أَتَرِيدُ أَنْ قَتِّلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ [القصص : ١٩] وكان الناس يحسسون من الذي قتل الرجل بالأمس ، ففطن لذلك الفرعوني ، فأخبر الناس أن موسى قاتله ، فالشاهد من ذلك أن موسى ﷺ يعتذر إلى الخلق يوم القيامة لأنه قتل نفسا لم يؤمر بقتلها .

ثم يذهبون إلى عيسى ويقولون له : أنت كلمة الله وروحه ، كلمة الله : يعني أنك خلقت بكلمة الله ، وروحه ، أي : أنك روح من أرواح الله ﷻ التي خلقها ، فيعتذر ولكنه لا يذكر ذنبا ، أو لا

(١) انظر الحديث في البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٨) ، ومسلم في الفضائل (١٥٤) . والثلاث كذبات هي قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ وقوله في سارة : هي أختي . والتأول المذكور هو قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ : ذكر أن قومه كانوا أهل تنجيم ، فرأى نجما قد طلع ، فغضب رأسه وقال : إني مطعون ، وكان قومه يهربون من الطاعون ، فأراد أن يتركوه في بيت آلهتهم ، ويخرجوا عنه ؛ ليخالفهم إليها فيكسره . انظر تفسير الطبري (٨٣/١٢) .
- قوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ عند تكسيره الآلهة قال ابن جرير : وغير مستحيل أن يكون الله أذن لخليله في ذلك ؛ ليقرع قومه به ، ويحتج به عليهم ، وتعترفهم موضع خطيئهم وسوء نظرهم لأنفسهم ، كما قال مؤذن يوسف لإخوته : ﴿ أَبْنَتْهَا أَلَيْسَ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴾ ولم يكونوا سرقوا شيئا . انظر تفسير الطبري (٥٤/١٠) .
- قوله هي أختي (كان هذا القول لجبار من الجبابرة قد سأله عنها) انظر ذلك في الحديث (٣٣٥٨) من صحيح البخاري .

(٢) وكزه : ضربه بجمع يده على ذقنه . (انظر المعجم الوسيط ١٠٩٦/٢) .

(٣) يستصرخه : يستغيث به من قبطني آخر بصوت مرتفع [صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٤٩٢] .

يذكر شيئاً يعتذر به ، فيحيلهم إلى النبي ﷺ ، فيقول : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتون إلى النبي ﷺ فيقوم فيؤذن له ، فيشفع . يشفع في الناس حتى يُقضى بينهم . وفي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله : أنَّ الأمانة والرحم تقفان على جانبي الصراط . والصراط : جسر ممدود على متن جهنم . واختلف العلماء في هذا الجسر ، هل هو جسر واسع أو هو جسر ضيق ، ففي بعض الروايات أنه أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف ، ولكن الناس يعبرون عليه ، والله على كل شيء قدير .

وعلى هذا الجسر كالليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن الناس من يُخطف فيلقى في النار ، ومنهم من يمرُّ سريعاً كلمح البرق ، ومنهم من يمر كركاب الإبل أو كالريح حسب درجاتهم وأعمالهم ، تجري بهم أعمالهم ، كل من كان في هذه الدنيا أسرع إلى التزام صراط الله ﷻ واتباع شريعته ، كان على هذا الصراط أسرع مروراً ، ومن كان متباطئاً عن الشرع في الدنيا ، كان سيره هناك بطيئاً ، ودعاء الرسل يومئذ : اللهم سلِّمْ سلِّمْ كلَّ يخاف على نفسه ، لأن الأمر ليس بهين ، الأمر شديد . الناس فيه أشد ما يكون خوفاً ووجلاً حتى يعبر المسلمون هذا الصراط إلى الجنة ومن الناس من يكردس في نار جهنم ويعذب على حسب عمله .

أما الكفار الخُلص فإنهم لا يصعدون هذا الصراط ولا يَمرون عليه ، بل يذهب بهم إلى جهنم قبل أن يصعدوا هذا الصراط ، ويذهب بهم إلى جهنم ورداً ، إنما يصعده المؤمنون فقط ، لكن من كان له ذنوب لم تغفر فإنه قد يقع في نار جهنم ، ويعذب بحسب أعماله والله أعلم .

* * *

٢٠٢ - وعن أبي حبيب - بضم الحاء المعجمة - عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : لما وَقَفَ الزبيرُ يومَ الجَمَلِ دَعَانِي فَعُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ ، فَقَالَ : يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لَا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ ، وَإِنِّي لَا أُرَانِي إِلَّا سَاقِلَ الْيَوْمِ مَظْلُومًا ، وَإِنْ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي ، أَفَتَرَى دَيْنًا يُتَّقَى مِنْ مَالِنَا شَيْئًا ؟ ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ بَعِ مَالَنَا وَأَقْضِ دَيْنِي ، وَأَوْصَى بِالْثُلْثِ وَثُلْثِي لِبَنِيهِ - يَغْنِي لِبَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزبير - ثُلْثُ الثُلْثِ . قَالَ : فَإِنْ فَضَّلَ مِنْ مَالِنَا بَعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيْءً فَثُلْثُهُ لِبَنِيكَ ، قَالَ هَشَامٌ : وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ وَازَى بَعْضَ بَنِي الزبيرِ حُبِيبَ وَعَبَادٍ ، وَلَهُ يَوْمِئِذٍ تِسْعَةُ بَنِينَ وَتِسْعُ بَنَاتٍ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَجَعَلَ يُوصِينِي بِدَيْنِهِ وَيَقُولُ : يَا بُنَيَّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِمَوْلَايَ . قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا ذَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ : يَا أَبَتِ مَنْ مَوْلَاكَ ؟ قَالَ : اللَّهُ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُزْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ إِلَّا قُلْتُ : يَا مَوْلَى الزبيرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ ، فَيَقْضِيهِ . قَالَ : فَقَتِلَ الزبيرُ وَلَمْ يَدْعُ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا أَرْضِيَنَ ، مِنْهَا الْغَابَةُ وَإِحْدَى عَشْرَةَ دَارًا بِالْمَدِينَةِ ، وَدَارَيْنِ بِالْبَصْرَةِ ، وَدَارًا بِالْكُوفَةِ ، وَدَارًا بِمِصْرَ . قَالَ : وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأْتِيهِ بِالْمَالِ ، فَيَسْتَوْدِعُهُ إِثَاءً ، فَيَقُولُ الزبيرُ : لَا وَلَكِنْ هُوَ سَلَفَ إِلَيَّ أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ ، وَمَا لِي بِإِمَارَةٍ قَطُّ وَلَا جَبَايَةٍ وَلَا خَرَاجًا وَلَا شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي غَزْوٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ

ﷺ ، أَوْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَحَسِبْتُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفِي أَلْفٍ وَمِائَتِي أَلْفٍ ! فَلَقِي حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ فَقَالَ : يَا ابْنَ أُخِي كَمْ عَلَى أُخِي مِنَ الدِّينِ ؟ فَكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ : مِائَةُ أَلْفٍ . فَقَالَ حَكِيمٌ : وَاللَّهِ مَا أَرَى أَمْوَالَكُمْ تَسْعُ هَذِهِ ! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَتْ أَلْفِي أَلْفٍ وَمِائَتِي أَلْفٍ ؟ قَالَ : مَا أَرَاكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي . قَالَ : وَكَانَ الزُّبَيْرُ قَدْ اشْتَرَى الْعَابَةَ بِسِتِّينَ وَمِائَةِ أَلْفٍ ، فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بِالْأَلْفِ وَسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ : مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ شَيْءٌ فَلْيُؤَاظِمْنَا بِالْعَابَةِ ، فَأَتَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، وَكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ ، فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ : إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَا ، قَالَ : فَإِنْ شِئْتُمْ جَعَلْتُهَا فِيمَا تُؤَخَّرُونَ إِنْ أَخَّرْتُمْ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَا ، قَالَ : فَأَقْطَعُوا لِي قِطْعَةً ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَكَ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَا . فَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ مِنْهَا ، فَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ ، وَأَوْفَاهُ وَبَقِيَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُمٍ وَنِصْفٌ ، فَقَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ عُمَرُو بْنُ عُثْمَانَ ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَابْنُ زَمْعَةَ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : كَمْ قَوْمَتِ الْعَابَةُ ؟ قَالَ : كُلُّ سَهْمٍ بِمِائَةِ أَلْفٍ قَالَ : كَمْ بَقِيَ مِنْهَا ؟ قَالَ : أَرْبَعَةُ أَشْهُمٍ وَنِصْفٌ ، فَقَالَ الْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ : قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ ، قَالَ عُمَرُو بْنُ عُثْمَانَ : قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ . وَقَالَ ابْنُ زَمْعَةَ : قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : كَمْ بَقِيَ مِنْهَا ؟ قَالَ : سَهْمٌ وَنِصْفٌ سَهْمٌ ، قَالَ : قَدْ أَخَذْتُهُ بِخَمْسِينَ وَمِائَةِ أَلْفٍ . قَالَ : وَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ نَصِيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ . فَلَمَّا فَرَغَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ قَضَاءِ دَيْنِهِ قَالَ بَنُو الزُّبَيْرِ : أَقْسِمُ نِسْنًا مِيرَاتِنَا . قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أَنْتَادِيَ بِالْمَوْسِمِ أَرْبَعَ سِنِينَ : أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِهِ . فَجَعَلَ كُلُّ سَنَةٍ يُنَادِي فِي الْمَوْسِمِ ، فَلَمَّا مَضَى أَرْبَعُ سِنِينَ قَسَمَ بَيْنَهُمْ وَدَفَعَ الثَّلْثَ . وَكَانَ لِلزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ ، فَأَصَابَ كُلُّ امْرَأَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ وَمِائَتَا أَلْفٍ ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِائَتَا أَلْفٍ ^(١) . رواه البخاري .

٢٦ - باب تحريم الظلم والأمر برذ المظالم

قال الله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاع ﴾ [غافر : ١٨] وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ ^(٢) [الحج : ٧١] .

وأما الأحاديث فَمِنْهَا حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه الْمُتَقَدِّمُ فِي آخِرِ بَابِ الْمُجَاهَدَةِ ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٢٩) مع اختلاف في بعض الألفاظ . قوله « ولم يدع » أي ولم يترك . قوله « أخشى عليه الضيعة » أي الضياع . قوله « جباية » الجباية : استخراج الأموال من مظانها . والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٢) قوله ﴿ حِمٍ ﴾ أي : قريب مشفق [صفوة البيان ص ٥٩٧] .

(٣) انظر الحديث رقم ١١١ .

٢٠٣ - وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّعْ ؛ فَإِنَّ الشُّعْ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : ياب تحريم الظلم والأمر برد المظالم ، يعني إلى أهلها . هذا الباب يشتمل على أمرين : الأمر الأول : تحريم الظلم . والأمر الثاني : وجوب رد المظالم . واعلم أن الظلم هو النقص . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَبِئْسَ مَا آتَتْ أَكْهَبًا وَلَكِنَّ تَطْلِيلًا مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ [الكهف : ٣٣] يعني لم تنقص منه شيئاً . والنقص إما أن يكون بالتجرؤ على ما لا يجوز للإنسان ، وإما بالتفريط فيما يجب عليه . وبذلك يدور الظلم على هذين الأمرين ، إما ترك واجب ، وإما فعل محرم .

والظلم نوعان : ظلم يتعلق بحقوق الله ﻋَﻠَﻴْهِ ، وظلم يتعلق بحقوق العباد ، وأعظمهما المتعلق بحقوق الله والإشراك به ، فإن النبي ﷺ سئل : أي الذنب أعظم ؟ فقال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ^(٢) . ويليه الظلم في الكبائر ، ثم الظلم في الصغائر .

أما في حقوق الله : فالظلم يدور على ثلاثة أشياء ، بينها النبي ﷺ في خطبة الوداع ، فقال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا في شهركم هذا » ^(٣) . الظلم في النفس هو الظلم في الدماء ، يكون بأن يعتدي الإنسان على حق غيره ، بسفك الدماء أو الجروح أو ما أشبه ذلك ، الظلم في الأموال بأن يعتدي الإنسان ويظلم غيره في الأموال ، إما بعدم بذل الواجب ، وإما بإتيان محرم ، وإما بأن يمتنع من واجب عليه ، وإما بأن يفعل شيئاً محرماً في مال غيره . وأما الظلم في الأعراض ، فيشمل الاعتداء على الغير بالزنا ، واللواط والقذف ، وما أشبه ذلك .

وكل الظلم بأنواعه محرم ، ولن يجد الظالم من ينصره أمام الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي أنه يوم القيامة ، لا يجد الظالم حميماً أي صديقاً ينجيه من عذاب الله ، ولا يجد شفيعاً يشفع له فيطاع ، لأنه منبوذ بظلمه وعُشْمه ^(٤) وعدوانه ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [البقرة : ٢٧٠] يعني لا يجدون أنصاراً ينصرونهم ويخرجونهم من عذاب الله ﻋَﻠَﻴْهِ في ذلك اليوم .

ثم ذكر المؤلف ﷺ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اتَّقُوا الظُّلْمَ » ، اتقوا : يعني : احذروا ، والظلم هو كما سبق أن بينا يكون في حق الله ويكون في حق العباد ، فقوله ﷺ :

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) واللفظ له ومسلم في الإيمان (١٤١) .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٦٧) ومسلم في القسامة (٢٩) واللفظ له وفيه (فإن) .

(٤) العُشْم : أشدُّ الظلم . المعجم الوسيط (٦٧٧/٢) .

« اتقوا الظلم » أي : لا تظلموا أحدًا ، لا أنفسكم ولا غيركم ، « فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » ويوم القيامة ليس هناك نور إلا مَنْ أثار الله تعالى له ، وأما من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور . الإنسان إن كان مسلمًا فله نور بقدر إسلامه ، ولكن إن كان ظالمًا ، فَقَدْ مِنْ هذا النور بمقدار ما حصل من الظلم ، لقوله ﷺ : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

ومن الظلم : مَظْلُ الغني يعني أن لا يوفي الإنسان ما عليه وهو غني به ، لقوله ﷺ : « مَظْلُ الغني ظلم » ^(١) وما أكثر الذين يماطلون في حقوق الناس ، يأتي إليه صاحب الحق فيقول : يا فلان أعطني حقي فيقول : غداً ، فيأتيه من غد فيقول : بعد غد وهكذا ، فإن هذا الظلم يكون ظلمات يوم القيامة على صاحبه .

« واتقوا الشحَّ » الشحُّ : الحرص على المال ، « فإنه أهلك من كان قبلكم » لأن الحرص على المال - نسأل الله السلامة - يوجب للإنسان أن يكسب المال من أي وجه كان ، من حلال أو حرام ، بل قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « حملهم » أي حمل من كان قبلنا « على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » يسفك الشحيح الدماء إذا لم يتوصل إلى طمعه إلا بالدماء ، كما هو الواقع عند أهل الشحِّ ، يقطعون الطريق على المسلمين ، ويقتلون الرجل ، ويأخذون مئنته ، ويأخذون بغيره ، وكذلك أيضًا يعتدون على الناس في داخل بيوتهم ، ويهتكون حُجُبَ بيوتهم ، فيأخذون المال بالقوة والغلبة .

فحذر النبي ﷺ من أمرين : من الظلم ومن الشحِّ . فالظلم هو الاعتداء على الغير ، والشح هو الطمع فيما عند الغير . فكل ذلك حرام ، ولهذا قال الله تعالى في كتابه : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النحر : ٩] فدلَّت الآية على أن من لم يوق شح نفسه فلا فلاح له . المفلح من وقاه الله شح نفسه . نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الظلم ، وأن يقينا شح أنفسنا وشروها .

* * *

٢٠٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ » .

ففي هذا الحديث : أقسم النبي ﷺ وهو الصادق المصدق بغير قسم . أقسم أن الحقوق ستؤدى إلى

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٠) ، والحوالات (٢٢٨٧ ، ٢٢٨٨) ، ومسلم في المساقاة (٣٣) ، والترمذي في سننه (١٣٠٨ ، ١٣٠٩) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٥/٢) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠) .

أهلها يوم القيامة ، ولا يضيع لأحد حق . الحق الذي لك إن لم تستوفه في الدنيا استوفيته في الآخرة ، حتى إنه يُقْتَصُّ للشاة الجلهاء من الشاة القرناء . الجلهاء : التي ليس لها قرن . والقرناء : التي لها قرن . والغالب أن التي لها قرن إذا ناطحت الجلهاء التي ليس لها قرن تؤذيها أكثر . فإذا كان يوم القيامة قضى الله بين هاتين الشاتين واقتص للشاة الجلهاء من الشاة القرناء . هذا وهن بهائم لا يعقلن ولا يفهمن . لكن الله ﷻ حكم عدل ، أراد أن يُري عباده كمال عدله حتى في البهائم العجم ، فكيف ببني آدم !!

وفي هذا الحديث : دليل على أن البهائم تُحشر يوم القيامة ، كذلك تُحشر الدواب ، وكل ما فيه روح يحشر يوم القيامة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُنْمِئَ أَتَانُكُمْ ﴾ [الأنعام : ٣٨] أم كثيرة ، أمة الذر ، أمة الطيور ، أمة السباع ، أمة الحيات وهكذا ﴿ إِلَّا أُنْمِئَ أَتَانُكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وكل شيء مكتوب ، حتى أعمال البهائم والحشرات مكتوبة في اللوح المحفوظ ﴿ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] على كل حال ففي يوم القيامة يُقتص للمظلوم من الظالم ويؤخذ من حسنات الظالم فتضاف إلى حسنات المظلوم ، إلا إذا نفذت حسناته ؛ فيؤخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « أتدرون ما المفلس ؟ » قالوا : المفلس من لا درهم له ولا متاع . قال : « المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، فيأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذَ من خطاياهم فطُرحت عليه ، ثم طرح في النار » (١) .

لا بد أن يقتص للمظلوم من الظالم ، ولكن إذا أخذ المظلوم بحقه في الدنيا ، فدعا على الظالم بقدر مظلمته واستجاب الله دعاءه فيه ، فقد اقتص لنفسه قبل أن يموت ، لأن النبي ﷺ قال لمعاذ : « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (٢) . فإذا دعا المظلوم على ظالمه في الدنيا واستجيب لدعائه فقد اقتص منه في الدنيا أما إذا سكت فلم يدع عليه ولم يعف عنه ، فإنه يُقتص له منه يوم القيامة .

٢٠٥ - وعن ابن عمر رضيهما الله عن حجة الوداع ، والنبي ﷺ يسن أظهُرنا ، ولا نذري ما حجة الوداع ، حتى حمى الله رسول الله ﷺ ، وأثنى عليه ، ثم ذكر المسيح الدجال فأطنبت في ذكره ، وقال : « ما بعث الله من نبي إلا أنذرته أمته : أنذرته نوح والنبيون من بعده ، وإنه إن يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفي عليكم ، إن ربكم ليس بأعور ، وإنه أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنب طافية . ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم ، كحرمه يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد - ثلاثا - ويليكم ، أو

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٩) - بلفظه - ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) ، ومسلم في الإيمان (٢٩) - واللفظ له - .

وَيَحْكُمُ ، انْظُرُوا : لَا تَزْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » ^(١) رواه البخاري ، وروى مسلم بعضه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : كنا نقول والنبى ﷺ حي : ما حجة الوداع ؟ وحجة الوداع هي الحجة التي حجها النبي ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة ، وودع الناس فيها وقال : « لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا » ولم يحج النبي ﷺ بعد الهجرة إلا هذه المرة فقط ، وقد ذكر أنه حج قبل الهجرة مرتين ، ولكن الظاهر والله أعلم أنه حج أكثر ، لأنه كان هناك في مكة ، وكان يخرج في الموسم يدعو الناس والقبائل إلى دين الله ﻻ ﻳَـُـحِـيـُـنَّ فيبعد أنه يخرج ولا يحج . وعلى كل حال الذي يهمننا أنه ﷺ حج في آخر عمره في السنة العاشرة من الهجرة ، ولم يحج قبلها بعد هجرته ، وذلك لأن مكة كانت بأيدي المشركين إلى السنة الثامنة من الهجرة ، ففتحها النبي ﷺ في رمضان في السنة الثامنة ، ثم خرج بعد ذلك إلى الطائف ، وغزا ثقيفاً وحصلت غزوة الطائف المشهورة ، ثم رجع بعد هذا ونزل في الجعرانة ، وأتى بعمره ليلاً ، ولم يطلع عليه كثير من الناس ، ثم عاد إلى المدينة ، هذا في السنة الثامنة .

وفي السنة التاسعة كانت الوفود ترد إلى النبي ﷺ من كل ناحية ، فبقي في المدينة ، ليتلقى الوفود ، حتى لا يتقل عليهم بطلبه ، حتى إذا جاء الوفود إلى المدينة وجدوا النبي ﷺ ولم يتعبوا في طلبه ويلحقونه يميناً وشمالاً ، فلم يحج في السنة التاسعة لتلقي الوفود هذا من وجه .

ومن وجه آخر : في السنة التاسعة حج مع المسلمين المشركون لأنهم لم يُمنعوا من دخول مكة ، ثم مُنعوا من دخول مكة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ [التوبة : ٢٨] ، وأذن مؤذن رسول الله ﷺ بأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ^(٢) . وكان أمير الناس في تلك الحجة - أعني حجة سنة تسع - أبا بكر رضي الله عنه ، ثم أرفه النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب في السنة العاشرة ، وأعلن النبي ﷺ أنه سيحج ، وقدم المدينة بشر كثير يقدرون نحو مائة ألف ، والمسلمون كلهم مائة وأربعة وعشرون ألفاً ، أي لم يتخلف من المسلمين إلا القليل ، فحجوا مع النبي ﷺ هذه الحجة التي سميت « حجة الوداع » ، لأن النبي ﷺ ودع الناس فيها بقوله : « لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا » فصار الأمر كذلك ، فإنه توفي بعد رجوعه من المدينة في ربيع الأول ، أي بعد حجه . فمضى محرم وصفر واثنى عشر يوماً من ربيع الأول صلوات الله وسلامه عليه .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٠٢ ، ٤٤٠٣) ، وروى مسلم بعضه في الفتن (١٠٠) .

(٢) انظر البخاري في الحج (١٦٢٢) ، ومسلم في الحج (٤٣٥) .

كان ﷺ في حجة الوداع يخطب الناس . خطبهم في عرفة ، وخطبهم في منى ، فذكر المسيح الدجال ، وعظم من شأنه ، وحذر منه تحذيرًا بالغًا . وفعل ذلك أيضًا في المدينة ، ذكر الدجال وحذر منه ، وبالغ في شأنه ، حتى قال الصحابة : كنا نظنُّ أنه في أفراس النخل أي قد جاء ودخل ، من شدة قول النبي ﷺ فيه ، ثم أخبر - عليه الصلاة والسلام - أنه ما من نبي إلا أنذره قومه ، فكل الأنبياء ينذرون قومهم من الدجال ، يخوفونهم ويعظمون شأنه عندهم .

وإنما كانوا ينذرون قومهم الدجال مع أن الله يعلم أنه لن يكون إلا في آخر الدنيا ، من أجل الاهتمام به ، وبيان خطورته ، وأن جميع الملل تحذر منه ، لأن هذا الدجال - وقانا الله وإياكم فتنته وأمثاله - هذا الدجال يأتي إلى الناس ، يدعوهم إلى أن يعبدوه ، ويقول : أنا ربكم ، وإن شئتم أريتكم أني ربكم ، فيأمر السماء يقول لها : أمطري فتطر ، ويأمر الأرض فيقول لها : أنبتي فتنبت ، أما إذا غصصوا أَمَرَ الأرض فأملحت والسماء فقحطت ، وأصبح الناس محملين . هذا لا شك أنه خطر عظيم ، لا سيما في البادية التي لا تعرف إلا الماء والمرعى ، فيتبعه أناس كثيرون إلا من عصم الله . ومع هذا فله علامات بينة تدل على أنه كذاب .

منها : أنه مكتوب بين عينيه كافر (ك . ف . ر) ^(١) يقرأها المؤمن فقط وإن كان لا يعرف القراءة ، ويعجز عنها الكافر وإن كان يقرأ ، لأن هذه الكتابة ليست كتابة عادية ، إنما هي كتابة إلهية من الله ﷻ . ومن علاماته : أنه أعور العين اليمنى ، والرب ﷻ ليس بأعور ، الرب ﷻ كامل الصفات ، ليس في صفاته نقص بوجه من الوجوه . أما هذا فإنه أعور ، عينه اليمنى كأنها عنة طافية . وهذه علامة حسية واضحة كل يعرفها .

فإن قال قائل : إذا كان فيه هذه العلامة الحسية فكيف يُفتن الناس به ؟ نقول : إن الله قال في كتابه : ﴿ وَمَا تَتَّبِعِ الْآيَاتِ وَالَّذُرُّ عَنْ قَوَرٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] الذين أضلهم الله لا تنفعهم علامات الضلال تحذيرًا ، ولا علامات الهدى تبشيرًا ، ولا يستفيدون من آيات الله ودلائل وحدانيته وألوهيته ، وإن كانت العلامات ظاهرة .

ثم بين الرسول ﷺ أن هذه العلامات لا تخفى على أحد ، وبين في حديث آخر أنه إن خرج والنبي ﷺ فيهم فهو حجيجهم دونهم يحججه النبي ﷺ ويكشف زيغه وضلاله قال : « وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم » ^(٢) فوكل الله ﷻ .

فالخلاصة : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حذر من الدجال تحذيرًا بالغًا ، وأخبر أن الدجال الأكبر يخرج في آخر الزمان ، ويبقى في الأرض أربعين يومًا فقط ، ولكن اليوم الأول كسنة « اثنا عشر شهرًا » تبقى الشمس في أوج السماء ستة أشهر من المشرق إلى المغرب ما تغيب هذه الفترة الطويلة ،

(١) انظر البخاري في الفتن (٧١٣١) ، ومسلم في الإيمان (٢٧٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) ، وأبو داود في سننه (٤٣٢١) والإمام أحمد في مسنده (١٨١/٤) .

وتبقى غائبة ليلاً ستة أشهر ، هذا أول يوم . واليوم الثاني كشهر ، والثالث كجمعة ، وبقية الأيام كسائر الأيام سبعة وثلاثون يوماً كسائر الأيام .

لما حدث النبي ﷺ الصحابة بهذا الحديث . لم يستشكلوا كيف تبقى الشمس سنة كاملة ما تدور على الأرض ، وهي تدور عليها في كل أربع وعشرين ساعة فقدره الله فوق ذلك ، وأن الله على كل شيء قدير . والصحابة لا يسألون في الغالب عن المسائل الكونية والقدرية ، لأنهم يعلمون قدرة الله ﷻ ، لكن يسألون عن الأمور التي تهمهم ، وهي الأمور الشرعية ، فلما حدثهم بأن اليوم الأول كسنة : قالوا : يا رسول الله اليوم الذي كسنة . هل تكفينا فيه صلاة واحدة ؟ قال : « لا اقدروا له قدره » (١) يعني قدروا ما بين الصلاتين وصلوا .

مثلاً إذا طلع الصبح نصلي الصبح ، إذا انقضى الوقت ما بين الصبح والزوال صلينا الظهر ، حتى لو كانت الشمس في أول المشرق ، وهي تكون أول المشرق ، لأنها تبقى ستة أشهر كاملة ، فيقدرون له قدره ، إذن نصلي في اليوم الأول صلاة سنة ، والصيام نصوم شهراً ، ونقدر للصوم ، والزكاة كذلك وهذا ربما يلغز بها فيقال : « مال لم يمض عليه إلا يوم وجبت فيه الزكاة » .

كذلك اليوم الثاني نقدر فيه صلاة شهر ، والثالث صلاة أسبوع ، وبعده تعود الأيام كما هي ، وفي إلهام الله للصحابة أن يسألوا هذا السؤال عبرة ، لأنه يوجد الآن في شمالي الأرض وجنوبي الأرض ، يوجد أناس تغيب عنهم الشمس ستة أشهر ، وتطلع عليهم ستة أشهر ، لولا هذا الحديث لأشكل على الناس ، كيف يصلي هؤلاء ، وكيف يصومون ، لكن الآن نطبق هذا الحديث على حال هؤلاء فنقول : هؤلاء الذين تكون الشمس عندهم ستة أشهر كاملة يقدرون للصلاة وقتها ، كما أرشد النبي ﷺ الصحابة في أيام الدجال .

* * *

٢٠٦ - وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوْفَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » (٢) متفق عليه .

٢٠٧ - وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَيُعْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] (٣) متفق عليه .

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) ، وأبو داود في سننه (٤٣٢١) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨١/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٥٣) ، ومسلم في المساقاة (١٤٢) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٦) ، ومسلم - واللفظ له - في البر والصلة (٦١) ، قوله « لم يفلته » أي : لم يطلقه ولم يفلت منه .

الشرح

نقل المؤلف عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « من ظلم من الأرض قيد شبر طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين » هذا الحديث يتناول نوعاً من أنواع الظلم وهو الظلم في الأراضي . وظلم الأراضي من أكبر الكبائر ، لأن النبي ﷺ « لعن من غيّر منار الأرض » ^(١) . قال العلماء : منار الأرض حدودها ، لأنه مأخوذ من « المنور » وهو العلامة ، فإذا غير الإنسان من هذه الأرض ، بأن أدخل شيئاً من هذه الأرض إلى أرض غيره ، فإنه ملعون على لسان النبي ﷺ . واللعنة : الطرد والإبعاد عن رحمة الله .

وثمة عقوبة أخرى ، وهو ما ذكره في هذا الحديث ؛ أنه إذا ظلم قيد شبر طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين ، لأن الأرضين سبع ، كما جاءت به السنة صريحاً ، وكما ذكره الله تعالى في القرآن إشارة في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ومعلوم أن المماثلة ها هنا ليست في الكيفية ، لأن بين السماء والأرض من الفرق كما بينهما من المسافة ، السماء أكبر بكثير من الأرض ، وأوسع ، وأعظم . قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [الناريت : ٤٧] أي بقوة ، وقال تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا قَوَائِمَ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [البأ : ١٢] أي قوية .

فالإنسان إذا ظلم قيد شبر من الأرض فإنه يطوق من سبع أرضين يوم القيامة ، أي : يجعل له طوقاً في عنقه والعياذ بالله ، يحمله أمام الناس أمام العالم ، يخزى به يوم القيامة . وقوله : « قيد شبر من الأرض » ليس هذا على سبيل القيد ، بل هو على سبيل المبالغة يعني ، فإن ظلم ما دونه طُوقه أيضاً ، لكن العرب يذكرون مثل هذا للمبالغة ، يعني ولو كان شيئاً قليلاً فإنه سيطوقه يوم القيامة .

وفي هذا الحديث : دليل على أن من ملك الأرض ملك قعرها إلى الأرض السابعة ، فليس لأحد أن يضع نفقاً تحت أرضه إلا بإذنه ، يعني لو فرض أن لك أرضاً مسافتها ثلاثة أمتار بين أرض لجارك ، فأراد جارك أن يفتح نفقاً بين الأرضين ويمرّ من تحت أرضك ، فليس له الحق في ذلك ، لأنك تملك الأرض وما تحتها إلى الأرض السابعة ، كما أن الهواء لك إلى السماء ، فلا أحد يستطيع أن يبنى على أرضك سقفاً إلا بإذنك . ولهذا قال العلماء : الهواء تابع للقرار ، والقرار ثابت إلى الأرض السابعة ، فالإنسان له من فوق ومن تحت ، لا أحد عليه يتجرأ .

قال أهل العلم : ولو كان عند جارك شجرة ، فامتدت أغصانها إلى أرضك ، وصار الغصن إلى أرضك ، فإن الجار يلويه عن أرضك ، وإن لم يمكن له فإنه يقطع ، إلا بإذن منك وإقرار ، لأن الهواء لك وهو تابع للقرار .

أما حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : فقد قال النبي ﷺ : « إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته » ، يملئ له : يعني يمهّل له حتى يتمادى في ظلمه والعياذ بالله ، فلا يعجل له العقوبة ، وهذا من البلاء نسأل الله أن يعيذنا وإياكم . فمن الاستدراج أن يملئ للإنسان في ظلمه ، فلا يعاقب له سريعاً

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم في الأضاحي (٤٣ - ٤٥) ، ومسند الإمام أحمد (١٠٨/١ ، ١١٨ ، ١٥٣) .

حتى يتكسد على الإنسان المظالم ، فإذا أخذه الله لم يفلته ، أخذه أخذ عزيز مقتدر . ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] .

فعلى الإنسان الظالم أن لا يعتر بنفسه ولا ياملأ الله له ، فإن ذلك مصيبة فوق مصيبته لأن الإنسان إذا عوقب بالظلم عاجلاً ، فربما يتذكر ويتعظ ويدع الظلم ، لكن إذا أملى له واكتسب أثاماً أو ازداد ظلمًا ، ازدادت عقوبته والعياذ بالله فيؤخذ على غرة ، حتى إذا أخذه الله لم يفلته ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الاعتبار بآياته ، وأن يعيدنا وإياكم من ظلم أنفسنا ومن ظلم غيرنا إنه جواد كريم .

* * *

٢٠٨ - وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تَتَّخِذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ قَرْضًا عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَآتَيْ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ » (١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وكانت بعثته إياه في ربيع من السنة العاشرة من الهجرة ، بعثه ﷺ إلى اليمن ، وكانوا أهل كتاب ، وقال له : « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » أخبره بحالهم لكي يكون مستعداً لهم ، لأن الذي يجادل أهل الكتاب لابد أن يكون معه من الحجة أكثر وأقوى مما عند المشرك ، لأن المشرك جاهل ، والذي هو من أهل الكتاب عنده علم ، وأيضاً أعلمه بحالهم ، لينزلهم منزلتهم ، فيجادلهم بالتي هي أحسن .

ثم وجهه - عليه الصلاة والسلام - في أن أول ما يدعوههم إليه : التوحيد والرسالة ، قال له : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » أن يشهدوا أن لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله ﷻ ، فهو المستحق للعبادة ، وما عداه فلا يستحق للعبادة ، بل عبادته باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أَلْبَاطٌ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان: ٣٠] « وأني رسول الله » ، يعني مرسله الذي أرسله إلى الإنس والجن ، وختم به الرسالات ، ومن لم يؤمن به فإنه من أهل النار .

ثم قال له : « فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ » يعني شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ « فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ » وهي الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر ، لا يجب شيء من الصلوات اليومية إلا هذه الخمس ، فالسنن الرواتب ليست

بواجبة ، والوتر ليس بواجب ، وصلاة الضحى ليست بواجبة ، وأما صلاة العيد والكسوف فإن الراجح هو القول بوجوبهما ، وذلك لأمر عارض له سبب يختص به .

ثم قال له : « فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم » وهذه هي الزكاة . الزكاة صدقة واجبة في المال تؤخذ من الغني وترد في الفقير . والغني هنا من يملك نصاباً زكويّاً ، وليس الغني هنا الذي يملك المال الكثير ، بل من يملك نصاباً فهو الغني ، ولو لم يكن عنده إلا نصاباً واحداً ، فإنه غني . وقوله : « وترد في فقرائهم » أي تصرف في فقراء البلد ، لأن فقراء البلد أحق من تصرف إليهم صدقات أهل البلد .

ولهذا يخطئ قوم يرسلون صدقاتهم إلى بلاد بعيدة ، وفي بلادهم من هو محتاج ، فإن ذلك حرام عليهم ، لأن النبي ﷺ قال : « تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم » ولأن الأقربين أولى بالمعروف ، ولأن المقرين يعرفون المال الذي عندك ، ويعرفون أنك غني ، فإذا لم ينتفعوا بمالك فإنه سيقع في قلوبهم من العداوة والبغضاء ، ما تكون أنت السبب فيه ، ربما إذا رأوا أنك تخرج صدقة إلى بلاد بعيدة وهم محتاجون ، ربما يعتدون عليك ، ويفسدون أموالك ، ولهذا كان من الحكمة أنه ما دام في أهل بلدك من هو في حاجة أن لا تصرف صدقتك إلى غيره .

ثم قال له ﷺ : « فإن هم أطاعوا لذلك » يعني انقادوا ووافقوا ، « فإياك وكرائم أموالهم » يعني لا تأخذ من أموالهم الطيب ، ولكن خذ المتوسط ، لا تظلم ولا تُظلم « واتق دعوة المظلوم » يعني أنك أخذت من نفائس أموالهم ، فإنك ظالم لهم ، وربما يدعون عليك ، فاتق دعوتهم ، « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » تصعد إلى الله تعالى ، ويستجيبها ، وهذا هو الشاهد من هذا الحديث في الباب الذي ذكره المؤلف فيه ، أن الإنسان يجب عليه أن يتقي دعوة المظلوم .

ويستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة : منها ما يتعلق بهذا الباب ، ومنها ما يتعلق بغيره ، فينبغي أن نعلم أولاً أن الكتاب والسنة نزلا ليحكمنا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، والأحكام الشرعية من الألفاظ ، مما دلت عليه منطقاً ومفهوماً وإشارة . والله ﷻ يفضل بعض الناس على بعض في فهم كتابه وسنة رسوله ﷺ . ولهذا لما سأل أبو جحيفة علي بن أبي طالب ﷺ : هل عهد إليكم رسول الله ﷺ شيئاً لله ؟ قال : لا إلا فهماً يؤتيه الله تعالى من شاء في كتاب الله وما في هذه الصحيفة وبين له ما في تلك الصحيفة فقال : « العقل ، وفكك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر » ^(١) الشاهد قوله إلا فهماً يؤتيه الله من شاء في كتاب الله .

فالناس يختلفون ، والذي ينبغي لطالب العلم خاصة ، أن يحرص على استنباط الفوائد والأحكام من نصوص الكتاب والسنة ، لأنها هي المورد المعين ، فاستنباط الأحكام منهما بمنزلة الرجل يرد على الماء فيستسقي منه في إنائه فمقل ومكثر .

(١) أخرجه البخاري في العلم (١١١) ، والترمذي في سننه (١٤١٢) وقال : حديث حسن صحيح .

وهذا الحديث العظيم الذي بين فيه معاذ بن جبل رضي الله عنه بماذا بعثه النبي ﷺ إلى أهل اليمن فيه فوائد كثيرة منها : أولاً : وجوب بعث الدعاة إلى الله ، وهذا من خصائص ولي الأمر ، يجب على ولي أمر المسلمين أن يبعث الدعاة إلى الله في كل مكان ، كل مكان يحتاج إلى الدعوة ، فإن على ولي أمر المسلمين أن يبعث من يدعو الناس إلى دين الله ﻋَﻠَﻴْﻜِﻢ ، لأن هذا دأب النبي ﷺ وهدية أن يبعث الرسل يدعون إلى الله ﻋَﻠَﻴْﻜِﻢ .

ومنها : أنه ينبغي أن يُذكر للمبعوث حال المبعوث إليه ، حتى يتأهب لهم ، وينزلهم منازلهم ، لئلا يأتيهم على غرة ، فيوردون عليه من الشبهات ما ينقطع به ، ويكون في هذا مضرة عظيمة على الدعوة . فينبغي على الداعي أن يكون على أهبة واستعداد لما يلقيه إليه المدعون ، حتى لا يأتيه الأمر على غرة ^(١) ، فيعجز وينقطع وحينئذ يكون في ذلك ضررٌ على الدعوة .

ومنها : أن أول ما يدعى إليه الناس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وذلك قبل كل شيء . لا تقل للكفار مثلاً إذا أتيت لتدعوهم : اتركوا الخمر ، اتركوا الزنا ، اتركوا الربا ، هذا غلط أصلاً الأصل أولاً ، ثم فرع الفروع . فأول ما تدعو : أن تدعو إلى التوحيد والرسالة ؛ أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم بعد ذلك عليك ببقية أركان الدين الأهم فالأهم .

ومنها : أنه إذا كان المدعو فاهماً للخطاب ، فلا يحتاج إلى شرح ، فإنه قال : « أن تدعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله » ولم يشرحها لهم ، لأنهم يعرفون معناها ، لسانهم لسان عربي ، لكن لو كنا نخاطب بذلك من لا يعرف المعنى ، وجب أن نفهمه المعنى ؛ لأنه إذا لم يفهم المعنى لم يستفد من اللفظ ، ولهذا لم يُرسل الله تعالى رسولاً إلا بلسان قومه ولغتهم ، حتى يبين لهم ، فمثلاً إذا كنا نخاطب شخصاً لا يعرف معنى لا إله إلا الله ، فلا بد أن نشرحها له ، ونقول : معنى لا إله إلا الله : أي لا معبود حق إلا الله ، كل ما عبد من دون الله فهو باطل ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان : ٣٠] .

كذلك أيضاً : « أن محمداً رسول الله » لا يكفي أن يقولها الإنسان بلسانه أو يسمعها بأذنه ، دون أن يفهمها بقلبه ، فيبين له معنى أن محمداً رسول الله ، فيقال مثلاً : محمد هو ذلك الرجل الذي بعثه الله ﷺ من بني هاشم ، بعثه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسله بالهدى ودين الحق ، فيبين للناس كل خير ، ودعاهم إليه ، ويثنى لهم كل شر وحذرهم منه ، وهو رسول الله الذي يجب أن يصدق فيما أخبر ، ويطاع فيما أمر ، ويترك ما عنه نهى وزجر .

ويبين له أيضاً ، بأنه رسول وليس برَبٍّ ، وليس بكذاب ، بل هو عبد لا يُعبد ، ورسول لا يُكذَّب صلوات الله وسلامه عليه .

ويبين له أيضاً أن هاتين الشهادتين هما مفتاح الإسلام ، ولهذا لا تصح أي عبادة إلا بشهادة أن لا

(١) الغرة : غفلة في اليقظة . المعجم الوسيط (٦٧٣/٢) .

إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

ومن فوائد هذا الحديث : أن أهم شيء بعد الشهادتين هي الصلاة ، لأن النبي ﷺ قال : « فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة » .

ومن فوائده : أن الوتر ليس بواجب ، لأن النبي ﷺ لم يذكره ، ولم يذكر إلا خمس صلوات فقط ، وهذا القول هو القول الراجح من أقوال أهل العلم . ومن العلماء من قال : إن الوتر واجب ، ومنهم من فصل وقال : من كان له وزد من الليل وقيام من الليل ، فالوتر عليه واجب ، ومن لا فلا . والصحيح أنه ليس بواجب مطلقًا ، لأنه لو كان واجبا لبينه الرسول ﷺ .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة واجبة وهي فرض من فروض الإسلام ، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام ، والثاني بعد الشهادتين . ولهذا قال : « أعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم » .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة واجبة في المال لا في الذمة . لكن الصحيح أنها واجبة في المال ، ولها تعلق بالذمة ، ويتفرع على هذا فوائد منها :

لو قلنا إنها واجبة في الذمة لسقطت الزكاة على من عليه دين ، لأن محل الدين الذمة ، وإذا قلنا محل الزكاة الذمة ، وكان عليه ألف ويده ألف ، لم تجب عليه الزكاة ، لأن الحقين تعارضا والصحيح أنها واجبة في المال لقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ... ﴾ [التوبة : ١٠٣] وقال في هذا الحديث : « أعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة في أموالهم » لكن لها تعلق بالذمة ، بمعنى أنها إذا وجبت وفطر الإنسان فيها فإنه يضمن .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أن الزكاة لا تجب على الفقير ، لقوله : « من أغنيائهم فترد في فقرائهم » ولكن من هو الغني ؟ أهو الذي يملك ملاين ؟ الغني في هذا الباب هو الذي يملك نصابًا (١) . إذا ملك الإنسان نصابًا فهو غني تجب عليه الزكاة ، وإن كان قد يكون فقيرًا من وجه آخر ، لكنه غني من حيث وجوب الزكاة عليه .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة تصرف في فقراء البلد ؛ لقوله : « فترد في فقرائهم » ولا تخرج عن البلد إلا لسبب ، أما ما دام في البلد مستحقون ، فإنهم أولى من غيرهم . وقد حرم بعض العلماء إخراج الزكاة عن البلد إذا كان فيهم مستحقون ، واستدل بهذا الحديث ، وبأن فقراء البلد تتعلق أنفسهم بما عند أغنيائهم ، وبأن الأغنياء إذا صرفوها إلى خارج البلد ربما يعتدي الفقراء عليهم ويقولون :

(١) اشترط الإسلام أن يبلغ المال مقدارًا معينًا (النصاب) لتجب فيه الزكاة . فقد جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بإعفاء ما دون الخمس من الإبل ، والأربعين من الغنم ، فليس فيهما زكاة ، وكذلك ما دون مائتي درهم من النقود الفضية (الورق) وما دون خمسة أوسق من الحبوب والثمار والخاصات الزراعية . انظر فقه الزكاة للدكتور / يوسف القرضاوي (١٤٩/١) .

حرمتمونا من حقنا ، فيتسلطون عليهم بالنهب والفساد ، ولا شك أنه من الخطأ أن يخرج الإنسان زكاة ماله إلى البلاد البعيدة ، مع وجود مستحق في بلده ، لأن الأقرب أولى بالمعروف . والمراد بالصدقة في هذا الحديث هي الزكاة ، وهي بذل النصيب الذي أوجبه الله تعالى في الأموال الزكوية .

وسميت صدقة لأن بذل المال دليل على صدق باذله ، فإن المال محبوب إلى النفوس ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ^(١) [الفجر : ٢٠] والإنسان لا يبذل المحبوب إلا لما هو أحب منه ، فإذا كان هذا الرجل أو المرأة بذل المال مع حبه له ، دل ذلك على أنه يحب ما عند الله أكثر من حبه لماله ، وهو دليل على صدق الإيمان ، وفي قوله : « تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » دليل على أن لولي الأمر أن يأخذ الزكاة من أهلها ويصرفها في مصارفها ، وأنه إذا فعل ذلك برئت الذمة . ولكن لو قال قائل أنا لا آمن أن يتلاعب بها من يأخذها ثم يصرفها في غير مصرفها ، نقل له أنت إذا أديت ما عليك فقد برئت ذمتك سواء صُرفت في مصارفها أو لم تصرف ، لكن قال الإمام أحمد : إذا رأى أن الإمام لا يصرفها في مصرفها ، فلا يعطه إلا إذا طلب منه ذلك ، وألزمه به ، وحينئذ تبرأ ذمته ، وبناء على هذا فلا بأس أن يخفي الإنسان شيئاً من ماله إذا كان الذي يأخذها لا يصرفها في مصارفها ، لأجل أن يؤدي هو نفسه الزكاة الواجبة عليه .

وإذا قدر أن ولي الأمر أخذ أكثر مما يجب فإن ذلك ظلم لا يحل لولي الأمر ، أما صاحب المال فعليه السمع والطاعة ، لقول النبي ﷺ : « تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع » ^(٢) . وإذا قدر أن ولي الأمر أخذ دون الواجب ، وجب على صاحب المال أن يخرج البقية ، ولا يقول إنه أخذ مني وبرئت الذمة ، لأنه إذا كانت الزكاة ألفاً وأخذ ثمانمائة فعليك أن تكمل المائتين فتخرجها . من فوائد هذا الحديث : أنه يجوز صرف الزكاة في صنف واحد من أصناف الزكاة ، وأصناف الزكاة ثمانية : الفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل ، فإذا أداها المزكي إلى صنف من هذه الأصناف أجزأ ، بل إذا أداها إلى فرد في نوع من هذه الأنواع أجزأ . مثل لو أعطى مُزكّ زكاته كلها فقيراً واحداً فلا حرج ، فلو قدر مثلاً أن شخصاً عليه مائة ألف ريال ديناً ، وزكاته مائة ألف ريال وقضيت دينه كله فإن ذمتك تبرأ بهذا . وعليه فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ بيان المصارف فقط ، ولا يجب أن تعطي كل الأصناف الثمانية ، ولا يجب أن تعطي ثلاثة من كل صنف ، بل إذا أديتها لواحد من صنف واحد أجزأ ذلك كما في هذا الحديث .

ويستفاد منه : أن الزكاة تصرف في بلدها أي : في بلد المال ، وقد سبق ذكر ذلك وبيان أنه لا يجوز أن تخرج الزكاة عن البلد الذي فيه المال ، إلا إذا كان هناك مصلحة أو حاجة أكثر ، وأما ما دام فيه

(١) جماً : أي كثيراً مع حرص وشرو . انظر صفوة البيان لمعاني القرآن (ص ٨٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٢) .

مستحقون فلا يخرجها ، بل يؤد الزكاة في نفس البلد .

وفي الحديث أيضًا : دليل على تحريم الظلم وأنه لا يجوز للساعي على الزكاة أن يأخذ أكثر من الواجب ، ولهذا حذر النبي ﷺ معاذًا ، فقال له : « إياك وكرائم أموالهم » والكرائم : جمع كريمة وهي الحسنة المرغوبة .

وفيه : دليل على أن دعوة المظلوم مستجابة لقوله : « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .
وفيه : دليل على أنه يجب على الإنسان أن يتقي الظلم ويخاف من دعوة المظلوم ؛ لأن الرسول ﷺ أمر بذلك ، قال : « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

٢١٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ ، مِنْ عِزِّهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : من كان عنده مظلمة لأخيه ؛ من عرضه أو غيره فليتحلل منه اليوم - يعني في الدنيا - قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، وذلك يوم القيامة ، فإنه في الدنيا يمكن أن يتحلل الإنسان من المظالم التي عليها بأدائها إلى أهلها ، أو استحلالهم منها ، لكن في الآخرة ليس هناك شيء إلا الأعمال الصالحة ، فإذا كان يوم القيامة اقتص من الظالم للمظلوم من حسناته ؛ يؤخذ من حسناته التي هي رأس ماله في ذلك اليوم ، فإن بقي منه شيء وإلا أخذ من سيئات المظلوم وحملت على الظالم والعياذ بالله ، فازداد بذلك سيئات إلى سيئاته .

وظاهر هذا الحديث : أنه يجب على الإنسان أن يتحلل من ظلم أخيه حتى في العرض ، سواء علم أم لم يعلم ، وذلك أن المظالم إما أن تكون بالنفس ، أو بالمال ، أو بالعرض ، لقول النبي ﷺ : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم » ^(٢) .

فإن كانت بالنفس مثل أن يكون قد جنى عليه ، أو ضربه حتى جرحه ، أو قطع عضوًا من أعضائه أو قتل له قتيلاً ، فإنه يتحلل منه بأن يمكن صاحب الحق من القصاص ، أو من بذل الدمة ، إذا لم يكن القصاص ، أو اختيرت الدية .

أما إن كانت في المال فإنه يعطيه ماله ، إذا كان عنده مال لأحد ، فالواجب أن يعطيه صاحبه ، فإن غاب عنه ولم يعرف مكانه وأيس منه فإنه يتصدق به عنه ، والله ﷻ يعلم ويؤدي إلى صاحب

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٦) ، قوله « فليتحلل » أي : ليسأله أن يجعله في حل من قتله . يقال : تحلته واستحلته إذا سأته أن يجعلك في حل . ومعناه أن يترك مظلمته ويقطع دعواه .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٦٧) ، ومسلم في القسامة (٢٩) ، وفيه (فإن) .

الحق حقه ، وإن كان قد مات - أي : صاحب الحق - فإنه يوصله إلى ورثته ، لأن المال بعد الموت ينتقل إلى الورثة ، فلا بد أن يسلمه للورثة ، فإن لم يعلمهم بأن جهلهم ولم يدبر عنهم تصدق به عنهم ، والله تعالى يعلمهم ويعطيهم حقه .

أما إن كانت في العرض مثل أن يكون قد سب شخصاً في مجالس أو اغتابه ، فلا بد أن يتحلل منه إذا كان قد علم بأنه سبه ، فيذهب إليه ، ويقول أنا فعلت كذا وفعلت كذا ، وأنا جئتكم معذراً ، فإن عذره فهذا من نعمة الله على الجميع ، لأن الله يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] . وإن لم يعف فليعطه مالاً ، يشبعه من المال حتى يحلله ، فإن أبى فإن الله تعالى إذا علم أن توبة الظالم توبة حقيقية ، فإنه ﷺ يرضي المظلوم يوم القيامة .

وقال بعض العلماء في مسألة العرض : إن كان المظلوم لم يعلم فلا حاجة أن يعلمه ، مثل أن يكون قد سبه في مجلس من المجالس ، وتاب فإنه لا حاجة أن يعلمه ، ولكن يستغفر له ويدعو له ، ويشي عليه بالخير في المجالس التي كان يسبه فيها ، وبذلك يتحلل منه .
والمهم أن الأمر خطير ، وحقوق الناس لا بد أن تعطى لهم ، إما في الدنيا وإما في الآخرة .

* * *

٢١١ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » (١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ : أن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

والمسلم يطلق على معان كثيرة ، منها المستسلم ، فالمستسلم لغيره يقال له مسلم ، ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَآمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : ١٤] أي قولوا استسلمنا ، ولم نقاتلكم ، والقول الثاني في الآية إن المراد بالإسلام ، الإسلام لله ﷻ وهو الصحيح .
والمعنى الثاني : يطلق الإسلام على الأصول الخمسة التي بينها النبي ﷺ لجبريل حين سألته عن الإسلام ، فقال : « أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » (٢) .

ويطلق الإسلام على السلامة ، يعني أن يسلم الناس من شره ، فيقال أسلم بمعنى دخل في السلم أي المسالمة للناس ، بحيث لا يؤذي الناس ، ومنه هذا الحديث : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٠) ومسلم في الإيمان (٦٤) وأبو داود في سننه (٢٨٤٩) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٤٧) ومسلم في الإيمان (١) واللفظ له .

ويده . سلم المسلمون من لسانه فلا يسبهم ، ولا يعلنهم ، ولا يغتابهم ، ولا ينم بينهم ، ولا يسعى بينهم بأي نوع من أنواع الشر والفساد ، فهو قد كف لسانه ، وكف اللسان من أشد ما يكون على الإنسان ، وهو من الأمور التي تصعب على المرء وربما يستسهل إطلاق لسانه .

ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لمعاذ بن جبل : « أفلا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه وقال : « كف عليك هذا » ، قلت يا رسول الله : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، يعني هل نؤاخذ بالكلام ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » ^(١) .

فاللسان من أشد الجوارح خطرًا على الإنسان ، ولهذا إذا أصبح الإنسان فإن الجوارح : اليدين والرجلين والعينين كل الجوارح تكفر اللسان ، وكذلك أيضًا الفرج ، لأن الفرج فيه شهوة التكاثر ، واللسان فيه شهوة الكلام ، وقل من سلم من هاتين الشهوتين .

فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ، أي : كف عنهم ؛ لا يذكرهم إلا بخير ، ولا يسب ، ولا يغتاب ، ولا ينم ، ولا يحرش بين الناس ، فهو رجل مسالم ، إذا سمع السوء حفظ لسانه ، وليس كما يفعل بعض الناس - والعياذ بالله - إذا سمع السوء في أخيه المسلم طار به فرحًا وطار به في البلاد نشرًا وإذاعة ، فإن هذا ليس بمسلم .

الثاني : من سلم المسلمون من يده ، فلا يعتدي عليهم بالضرب ، أو الجرح ، أو أخذ المال ، أو ما أشبه ذلك ، قد كف يده لا يأخذ إلا ما يستحقه شرعًا ، ولا يعتدي على أحد ، فإذا اجتمع للإنسان سلامة الناس من يده ومن لسانه ، فهذا هو المسلم .

وعلم من هذا الحديث : أن من لم يسلم الناس من لسانه أو يده ، فليس بمسلم ، فمن كان ليس له هم إلا القيل والقال في عباد الله ، وأكل لحومهم وأعراضهم ، فهذا ليس بمسلم ، وكذلك كان ليس له هم إلا الاعتداء على الناس بالضرب ، وأخذ المال ، وغير ذلك مما يتعلق باليد ، فإنه ليس بمسلم .

هكذا أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - وليس إخبار النبي ﷺ مجرد أن نعلم به فقط ، بل لنعلم به ونعمل به ، وإلا فما الفائدة من كلام لا يعمل به ، إذن فاحرص إن كنت تريد الإسلام حقًا على أن يسلم الناس من لسانك ويدك ، حتى تكون مسلمًا حقًا ، أسأل الله أن يكفيني ويكف عنا ، ويعافنا ويعفو عنا ، إنه جواد كريم .

٢١٢ - وعنه ﷺ قال : كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كَزْكِرَةُ ، فَمَاتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هُوَ فِي النَّارِ » فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا ^(٢) . رواه البخاري .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) .

(٢) رواه البخاري في الجهاد (٣٠٧٤) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٠/٢) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٩) ، قوله « قد غلَّها » الغلول هنا الخيانة في المغنم .

٢١٣ - وعن أبي بكرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ : السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ : ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ : ذُو الْقَعْدَةِ ، وَذُو الْحِجَّةِ ، وَالْحَرَمُ ، وَرَجَبٌ مُضَرٌّ الَّذِي يَبِينُ جُمَادَى وَشَعْبَانَ ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : « أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟ » قُلْنَا : بَلَى . قَالَ : « فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ . قَالَ : « أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ » قُلْنَا : بَلَى . قَالَ : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَتَسْتَلْقُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ » ثُمَّ قَالَ : « أَلَا هَلْ بَلَغْتُ ، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ ؟ » قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي بكرَةَ نفيل بن الحارث رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ خطبهم يوم النحر ، وذلك في حجة الوداع ، فأخبرهم - عليه الصلاة والسلام - أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، يعني أن الزمان وإن كان قد غير وبدل فيه لما كانوا يفعلون في الجاهلية ، حيث كانوا يفعلون النسيء فيحلون الحرام ويحرمون الحلال ، يعني يجعلون الأشهر الحرم في أشهر أخرى ، فيحلون الشهر الحرام ، ويحرمون الشهر الحلال ، ولكن صادف في تلك السنة أن النسيء صار موافقًا لما شرعه الله ﷻ في الأشهر الحرم .

ثم بين - عليه الصلاة والسلام - أن عدة الشهور اثنا عشر شهرًا ، وهي : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الثاني ، وجمادى الأولى ، وجمادى الثانية ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة . هذه هي الأشهر الاثنا عشر شهرًا ، التي جعلها الله أشهرًا لعباده منذ خلق السموات والأرض ، كانوا في الجاهلية يحلون الحرم ، ويحرمون صفر .

وبين - عليه الصلاة والسلام - أن هذه الاثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية وواحد منفرد و الثلاثة المتوالية هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، جعلها الله تعالى أشهرًا محرمة ، يحرم

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٠٦) ومسلم في القسامة (٢٩) باختلاف يسير ، والإمام أحمد بنحوه في مسنده (٣٧/٥) ، قوله « إن الزمان قد استدار كهيئته » قال العلماء : معناه أنهم كانوا في الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم في تحريم الأشهر الحرم ، وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات . فكانوا إذا احتاجوا إلى القتال أخرخوا تحريم الحرم إلى الشهر الذي بعده - وهو صفر - ثم يؤخروه في السنة الأخرى إلى شهر آخر وهكذا حتى اختلط عليهم الأمر . وصادفت حجة الوداع تحريمهم لشهر الحرم حيث عاد إلى موضعه مطابقًا للشرع .

فيها القتال ، ولا يعتدي فيها أحد على أحد ، لأن هذه الأشهر هي أشهر سير الناس إلى حج بيت الله ، فجعلها الله ﷻ محرمة لئلا يقع القتال في هذه الأشهر والناس سائرون إلى بيت الله الحرام ، وهذه من حكمة الله ﷻ .

والصحيح أن القتال ما زال محرماً ، وأنه لم ينسخ إلى الآن ، وأنه يحرم ابتداء القتال فيها ، يقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » وهو الشهر الرابع ، وكانوا في الجاهلية يؤدون العمرة فيه فيجعلون شهر رجب للعمرة والأشهر الثلاثة للحج ، فصار هذا الشهر محرماً يحرم فيه القتال ، كما يحرم في ذي القعدة ، وذي الحجة والمحرم .

إذن الأشهر السنوية - التي جعلها الله لعباده - اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، كما في القرآن الكريم ذي القعدة وذي الحجة ، والمحرم ورجب .

ثم سألهم النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أي شهر هذا ؟ وأي بلد هذا ؟ وأي يوم هذا ؟ سألهم عن ذلك من أجل استحضار همهم ، وانتباههم لأن الأمر أمر عظيم ، فسألهم : « أي شهر هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، لأنهم استبعدوا أن يسأل النبي ﷺ عن الشهر وهو معروف أنه ذو الحجة ، ولكن من أدبهم ﷺ أنهم لم يقولوا هذا شهر ذي الحجة ، لأن الأمر معلوم ، بل من أدبهم أنهم قالوا : الله ورسوله أعلم .

ثم سكت لأجل أن الإنسان إذا تكلم ثم سكت انتبه الناس : ما الذي أسكته ؟ وهذه طريقة متبعة في الإلقاء ، أن الإنسان إذا رأى من الناس الذين حوله عدم إنصات يسكت حتى يتنبهوا ، لأن الكلام إذا كان مسترسلاً فقد يحصل للسامع غفلة ، لكن إذا توقف فإنهم سيتنبهون لماذا وقف ؟!

وسكت النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول أبو بكر حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، ثم قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قالوا : بلى ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « أي بلد هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، هم يعلمون أنه مكة لكن لأدبهم واحترامهم لرسول الله ﷺ ، لم يقولوا هذا شيء معلوم يا رسول الله . كيف تسأل عنه ؟ بل قالوا الله ورسوله أعلم . ثم سكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : « أليس البلدة ؟ » والبلدة اسم من أسماء مكة . ثم قال : « أي يوم هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، مثل ما قالوا في الأول ، قال : « أليس يوم النحر ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، وهم يعلمون أن مكة حرام ، وأن شهر ذي الحجة حرام ، وأن يوم النحر حرام يعني كلها حرم محترمة .

فقال - عليه الصلاة والسلام - : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمه يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا » فأكد - عليه الصلاة والسلام - تحريم هذه الثلاثة : الدماء والأموال والأعراض ، فكلها محرمة . والدماء تشمل النفوس وما دونها ، والأموال تشمل القليل والكثير ، والأعراض تشمل الزنا واللواط والقذف ، وربما تشمل الغيبة والسب والشتم . فهذه الأشياء الثلاثة حرام على المسلم أن يتهكها من أخيه المسلم .

« فلا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاثة » : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه

المفارق للجماعة (١).

الأموال أيضًا حرام ، فلا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه منه ، وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] .

والأعراض أيضًا محترمة ، لا يحل للمسلم أن يغتاب أخاه ، أو أن يقذفه ، بل إن القاذف إذا قذف شخصًا عفيفًا بعيدًا عن التهمة ، وقال : يا زاني ، أو أنت زاني ، أو أنت لوطي ، أو ما أشبه ذلك ، فيما أن يأتي بأربعة شهداء يشهدون على الزنا صريحًا ، وإلا فإن هذا القاذف يعاقب بثلاث عقوبات .
العقوبة الأولى : أن يجلد ثمانين جلدة ، والعقوبة الثانية : ألا تقبل له شهادة أبدًا كلما شهد عن القاضي ترد شهادته ، سواء شهد بالأموال ، أو شهد بالدماء ، أو شهد برؤية الهلال ، أو شهد بأي شيء آخر يرفض القاضي شهادته ويردها (٢) ، والعقوبة الثالثة : الفسق أن يكون فاسقًا بعد أن كان عدلًا ، فلا يزوج ابنته ولا أخته ولا يتقدم إمامًا في المسلمين عند كثير من العلماء ، ولا يولي أي ولاية لأنه صار فاسقًا ، هذه عقوبة من يرمي شخصًا بالزنا أو باللواط .

إلا أن يأتي بأربعة شهداء ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴾ [النور : ١٣] حتى لو فرض أن هذا الرجل من أصدق الناس ولم يأت بأربعة شهداء ، فإنه يجلد ثمانين جلدة .

ولهذا شهد أربعة من الرجال ، على رجل بأنه زنى عند عمر بن الخطاب ، فجاء بهم عمر فسألهم ، قال للأول تشهد أنه زنى ؟ قال : نعم ، قال تشهد أنك رأيت ذكره في فرجها غائبًا كما يغيب المروء في المكحلة ؟ قال : نعم ، فجاء بالثاني ، قال نعم ، فجاء بالثالث : قال نعم ، فجاء بالرابع فتوقف ، قال أنا لا أشهد بالزنا ، لكنني رأيت أمرًا منكروا ، قال رأيت رجلًا على امرأة يتحرك كتحرك الجماع لكن لا أشهد ، فجلد الثلاثة الأولين على ثمانين جلدة ، لأنه تبين أنهم كذبة وأطلق الرابع .

فالأعراض من أشد الأشياء حرمة ، ولهذا كما سمعتم قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَاجْلِدُوهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور : ٤] هذه هي العقوبة الأولى ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ وهذه هي الثانية ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٤] وهذه هي الثالثة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٥] يعني لا يكونون فاسقًا ، لكن بشرط التوبة والإصلاح ، ما يكفي أن يقول أنا تائب حتى ننظر هل الرجل أصلح أم لم يصلح ؟

إذن جدير بمن كانت هذه حاله أن يؤكد النبي ﷺ في هذه الخطبة العظيمة ، في مشهد الصحابة ، في يوم النحر في منى ، يقول - عليه الصلاة والسلام - : « إن ذماءكم وأموالكم

(١) انظر الأحاديث الدالة على ذلك من صحيح البخاري في الديات (٦٨٧٨) ، ومسلم في القسامة (٢٥) .
(٢) جاء ذلك في سورة النور آية (٤) .
والترمذي في سننه (١٤٠٢) .

وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا .

ثم قال : « ألا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض » لأن المسلمين لو صاروا يضرب بعضهم رقاب بعض صاروا كفارًا ، لأنه لا يستحل دم المسلم إلا الكافر ، فالمسلم لا يمكن أن يشهر السلاح على أخيه ، لكن لا أحد يشهر السلاح على المسلم إلا الكافر ، ولهذا وصف النبي - عليه الصلاة والسلام - المسلمين إذا اقتتلوا بأنهم كفار فقال : « ألا فلا ترجعوا بعدي كفارًا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وهذه المسألة بحسب النصوص فيها تفصيل ؛ إن قاتل المسلم مستحلاً لقتله بغير إذن شرعي فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة ، وإن قاتله بتأويل ، أو لقصد رئاسة ، أو لقصد سلطان فهذا لا يكفر كفر ردة ، ولكنه كفر دون كفر ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا آلَی تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِئَءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [النساء: ٩٠] ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين الحزبين ﴿ [الحجرات: ٩، ١٠] وهذا هو الجمع بين هذه الآية وبين الحديث ، فيقال : إن تقاتل المسلمون مستحلاً كل واحد دم أخيه فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة ، وإن كان لرئاسة أو عصبية أو حمية أو ما أشبه ذلك ، فإنه لا يكفر كفر ردة ، بل يكون كفره كفراً دون كفر ، وعليه أن يتوب ويستغفر .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ » يسأل الصحابة رضي الله عنهم قالوا : نعم ، أي : بلغت ، فتأمل كيف يقرر النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه بلغ في المواطن العظيمة الكثيرة الجمع ، في عرفة خطبهم - عليه الصلاة والسلام - قال : « ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس ، يقول : اللهم اشهد عليهم أنني بلغتهم ، وكذلك أشهد ربه على أنه بلغ أمته وأقروا بذلك في يوم النحر .

ونحن نشهد ونشهد الله وملائكته ومن سمعنا من خلقه أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين ، وأنه بلغ الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة ، فما ترك خيراً إلا ودل أمته عليه ، ولا شراً إلا وحذرهم منه ، وأنه ترك أمته على المحجة البيضاء ، وأنه ما بقي شيء من أمور الدين أو الدنيا تحتاجه الأمة إلا بينه - عليه الصلاة والسلام - ولكن الخطأ ممن يبلغه الخير ، فهو الذي قد يكون قاصراً في فهمه ، وقد يكون له نية سيئة فيحرم الصواب ، وقد يكون هناك أسباب أخرى ، وإلا فالرسول - عليه الصلاة والسلام - بلغ بلاغاً تاماً كاملاً .

والصحابه رضي الله عنهم بلغوا جميع ما سمعوه منه - عليه الصلاة والسلام - ما كتبوا من سنته شيئاً ، وبلغوا ما جاء به من الوحي ، ولم يكتبوا منه شيئاً ، فجاءت الشريعة ولله الحمد كاملة من كل وجه ، بلغها النبي ﷺ عن ربه ثم بلغها الصحابة رضي الله عنهم ، ثم التابعون عمن قبلهم وهكذا إلى يومنا هذا ولله الحمد .

ثم أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يبلغ الشاهد الغائب ، يعني يبلغ من شاهده وسمع خطبته أن يبلغ باقي الأمة ، وأخير - عليه الصلاة والسلام - أنه ربما يكون مبلغ أوعى للحديث من سامع ، وهذه الوصية من الرسول - عليه الصلاة والسلام - وصية لمن حضر في ذلك اليوم ، ووصية لمن سمع حديثه

إلى يوم القيامة ، فعلينا إذا سمعنا حديثاً عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن نبليغه إلى الأمة . ونحن محملون بأن نبليغ ، ومنهون بأن نكون كاليهود ؛ الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، وقد وصفهم الله بأبشع وصف ، فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةُ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا ﴾ [الحجرات : ٥] فالحمار إذا حمل أثقاراً - يعني كتباً - فإنه لا ينتفع منها ، إذا كان الحمار يحمل أثقاراً لا ينتفع منها ، فالذي يحمل القرآن أو السنة ولا ينتفع منها كمثل الحمار يحمل أثقاراً . نسأل الله أن يرزقني وإياكم العلم النافع والعمل الصالح .

ويستفاد من هذا الحديث : تحذير النبي - عليه الصلاة والسلام - أمته من قتال بعضهم بعضاً ، ولكن مع الأسف أنه وقع بينهم السيف ، وصارت الفتن منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى يومنا هذا ، وما زالت الفتن قائمة بين الناس ، لكن أحياناً تشتعل اشتعلاً واسعاً ، وأحياناً تكون في مناطق معينة . ولكن الواجب على المسلم أن يتقي دم أخيه ما استطاع ، نعم إذا بلي الإنسان بنفسه وصيل ^(١) عليه يريد الصائل نفسه أو ماله أو حرمة ، فله أن يدافع عن نفسه ، ولكن بالأسهل فالأسهل ، فإن لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتله ، فإن قتله فالصائل في النار ، وإن قُتل الدافع فهو شهيد ، كما جاء ذلك عن النبي ﷺ ^(٢) .

وفي هذا الحديث تحذير من أعراض المسلمين ، وأنه لا يجوز للمسلم أن يتهك عرض أخيه ، لا صادقاً ولا كاذباً ، لأنه إن كان صادقاً فقد اغتابه وإن كان كاذباً فقد بهته ، وأنت إذا رأيت من أخيك شيئاً تنتقده فيه في عباداته أو في أخلاقه أو في معاملاته ، فعليك بنصيحته ، فهذه من واجبه عليك ، وتنصحه فيما بينك وبينه مشافهة أو مكاتبة ، وبهذا تبرئ ذمتك .

لكن هنا شيء لابد منه ؛ وهو أنك إذا أردت أن تناصحه بالمكاتبة فلا بد أن تذكر اسمك ، ولا تخاف ولا تكن جباناً ، اذكر وقل من فلان إلى أخيه فلان ابن فلان ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ... فأنا أنتقد عليك كذا وكذا وكذا ، من أجل أنه إذا عرف اسمك دعاك أو أتى إليك وناقشك في الأمر .

أما أن تكون جباناً ، ترمي من وراء جدار ، فهذا لا يليق بالمسلم ، وليس هذا بنصح ، لأنك ستبقى حاملاً عليه في قلبك فيما تراه أنه أخطأ فيه ، وهو سيبقى ويستمر على ما هو فيه ، لأن الذي كتب له بالنصيحة ليس أمامه حتى يشرح له وجهة نظره ، ويستفسر منه عن وجهة نظره هو الآخر ، فيبقى الشر على ما هو عليه ، والخطأ على ما هو عليه .

لكن إذا كتب اسمه كان مشكوراً على هذا ، وكان بإمكان المكتوب إليه المنصوح أن يخاطبه ، وأن يبين له ما عنده ، حتى يقتنع أحد الرجلين بما عند الآخر .

(١) صال عليه صولاً وصولاً : سطا عليه ليقهره المعجم الوسيط (٥٤٩/٢) .

(٢) سبق تخريجه .

٢١٤ - وعن أبي أُمَامَةَ إِبْنِ نَاسٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْحَارِثِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ اِمْرِي مُسْلِمٍ يَجِئُهُ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » فَقَالَ رَجُلٌ : وَإِنْ كَانَ شَيْعًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ » ^(١) رواه مسلم .

٢١٥ - وعن عُدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ ، فَكَتَمْنَا مَخِطًا فَمَا فَوْقَهُ ، كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ ، كَانِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكُ ، قَالَ : « وَمَا لَكَ ؟ » قَالَ : سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذًا وَكَذًا ، قَالَ : « وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ : مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى » ^(٢) رواه مسلم .

٢١٦ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : فُلَانٌ شَهِيدٌ ، وفُلَانٌ شَهِيدٌ ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فَقَالُوا : فُلَانٌ شَهِيدٌ . فقال النبي ﷺ : « كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُودَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٍ - » ^(٣) رواه مسلم .

٢١٧ - وعن أبي قَتَادَةَ الْحَارِثِ بْنِ رَبِيعٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ ، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، تُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُذْبِرٌ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَيْفَ قُلْتَ ؟ » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُذْبِرٌ ، إِلَّا الدِّينَ فَإِنَّ جَبْرِيلَ قَالَ لِي ذَلِكَ » ^(٤) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في بيان فضيلة الجهاد في سبيل الله والشهادة ، فالجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ ، والشهادة في سبيل الله تكفر كل شيء إلا الدين ، وكذلك إذا غل الإنسان شيئاً مما غنمه فإنه لا يقال له شهيد .

والبردة نوع من الثياب ، والعباءة معروفة ، غلها : يعني كتمها ، غنمها من أموال الكفار وقت

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨٢) ، والنسائي في سننه (٢٤٦/٨) ، قوله « من أراك » الأراك : شجر معروف يستاك بأعواده .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (٣٠) ، والإمام أحمد في مسنده (١٩٢/٤) ، والبيهقي في سننه (١٥٨/٤) ، قوله « مخيطاً » المحيط الإبرة ، قوله « غلولاً » الغلول : الخيانة في المغنم وغيره والحديث لم يتناوله الشارح - رحمه الله تعالى - بشرح .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨٢) . محتسب : أي مخلص عملك لوجه الله تعالى راجياً ثوابه ورضاه وعطايه .

(٤) أخرجه مسلم في الإمامة (١١٧) ، والترمذي في سننه (١٧١٢) .

القتال ، فكتمها يريد أن يختص بها لنفسه فعذب بها في نار جهنم ، وانتفت عنه هذه الصفة العظيمة وهي الشهادة ، لأن النبي ﷺ قال : « كلا » يعني ليس بشهيد لأنه غلّ هذا الشيء البسيط ، فأحبط جهاده وصار في النار ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [آل عمران : ٦١] ففي هذا دليل على أنه لا ينبغي لنا أن نحكم على شخص بأنه شهيد ، وإن قتل في معركة بين المسلمين والكفار ، لا نقول فلان شهيد لاحتمال أن يكون غل شيئاً من الغنائم أو الفبيء ولو غل قرشاً واحداً ، ولو مسماراً زال عنه اسم الشهادة ، وكذلك لاحتمال أن تكون نيته غير صواب ، بأن يتوي بذلك الحمية أو أن يُرى مكانه .

ولهذا سئل النبي - عليه الصلاة والسلام - عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل ليرى مكانه . أي ذلك في سبيل الله ؟ قال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » (١) ، والنية أمر باطني في القلب لا يعلمه إلا الله .

ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ما من مكلم يكلم في سبيل الله » ، أي ما من مجروح يجرح في سبيل الله ، « والله أعلم بمن يكلم في سبيله » ، قد نظن أنه يقاتل في سبيل الله ونحن لا نعلم ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، « إلا جاء يوم القيامة وجرحه يشعب » (٢) دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك » (٣) .

ولهذا ترجم البخاري رحمه الله في صحيحه قال : باب لا يقال فلان شهيد ، يعني لا تعين وتقول فلان شهيد إلا إذا عينه الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو ذكر عند الرسول ﷺ وأقره ، فحيثما يحكم بشهادته بعينه ، وإلا فلا تشهد لشخص بعينه .

ونحن الآن في عصرنا هذا أصبح لقب الشهادة سهلاً ويسيراً ، كل يعطى هذا الوسام ، حتى لو قتل ونحن نعلم أنه قتل حمية وعصية ونعلم عن حاله بأنه ليس بذاك الرجل المؤمن ، ومع ذلك يقولون : فلان شهيد ، استشهد فلان .

وقد نهى عمر رضي الله عنه أن يقال : فلان شهيد ، قال إنكم تقولون : فلان شهيد ، فلان قتل في سبيل الله ، ولعله يكون كذا وكذا ، يعني : غل ، ولكن قولوا : من قتل في سبيل الله أو مات فهو شهيد . عمم ، أما قول فلان شهيد ، وإن كان في المعركة يتشطح بدمه ، فلا تقل شهيداً ، علمه عند الله ، قد يكون في قلبه شيء لا نعلمه . ثم نحن شهدنا أو لم نشهد إن كان شهيداً عند الله فهو شهيد ، وإن لم تقل إنه شهيد ، وإن لم يكن شهيد عند الله فليس بشهيد وإن قلنا إنه شهيد ، إذن نقول : نرجو أن يكون فلان شهيداً ، أو نقول عموماً : من قتل في سبيل الله فهو شهيد وما أشبه ذلك . أما الحديث الثاني ففيه : دليل على أن الشهادة إذا قاتل الإنسان في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨١٠) ومسلم في الإمامة (١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١) ، والترمذي في سننه (١٦٤٦) .

(٢) قوله يشعب : انتشب الماء والدّم ونحوهما أي انفجر . انظر المعجم الوسيط (١٠٠/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (١٠٥) .

غير مدبر ، فإن ذلك يكفر عنه خطيئاته وسيئاته إلا الدين ، إذا كان عليه دين فإنه لا يسقط بالشهادة ، لأنه حق آدمي ، وحق آدمي لابد من وفائه .

وفي هذا : دليل على عظم الدين ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتساهل به ، ومع الأسف أننا في عصرنا الآن يتساهل الكثير منا في الدين ، فتجد البعض يشتري الشيء وهو ليس في حاجة إليه ، بل هو من الأمور الكمالية ، يشتريه في ذمته بالتقسيط أو ما أشبه ذلك ، ولا يهمه هذا الأمر .

وقد تجد إنساناً فقيراً يشتري سيارة بثمانين ألفاً أو يزيد ، وهو يمكنه أن يشتري سيارة بعشرين ألفاً ، كل هذا من قلة الفقه في الدين ، وضعف اليقين ، احرص على ألا تأخذ شيئاً بالتقسيط وإن دعتك الضرورة إلى ذلك ، فاقصر على أقل ما يمكن لك الاقتصار عليه بعيداً عن الدين . نسأل الله أن يحميننا وإياكم مما يغضبه ، وأن يقضي عنا وعنكم دينه ودين عباده .

* * *

٢١٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ » قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أَتَيْتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُغْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فُتِنَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضِيَ مَا عَلَيْهِ ، أَخِذْ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طَرِحْ فِي النَّارِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ » الاستفهام هنا للاستعلام الذي يراد به الإخبار ، لأن المستفهم تارة يستفهم عن جهل ولا يدري فيسأل غيره ، وتارة يستفهم لتبنيه المخاطب لما يلقي إليه ، أو لتقرير الحكم ، فمثال الثاني قول النبي ﷺ وقد سئل عن بيع الرطب بالتمر : أينقص إذا جف ؟ يعني الرطب ، قالوا : نعم ، فنهى عن ذلك ^(٢) .

أما في هذا الحديث فسيخبر الصحابة عن أمر لا يعلمونه ، أو لا يعلمون مراد النبي ﷺ به ، قال : « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ » قالوا يا رسول الله ، المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع ، يعني ليس عنده نقود ولا عنده متاع ، أي : أعيان من المال ، أي أن المفلس يعني الفقير ، وهذا هو المعروف من المفلس بين الناس ، فإذا قالوا من المفلس ؟ يعني الذي ليس عنده فلوس ، ولا عنده متاع ، بل هو فقير .

فقال النبي ﷺ : « الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ » ، وفي رواية « مَنْ يَأْتِي بِحَسَنَاتٍ مِثْلَ الْجِبَالِ » ، أي : يأتي بحسنات عظيمة ، فهو عنده ثروة من الحسنات لكنه يأتي وقد

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٩) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤١٨) ، قوله « متاع » ما يتفجع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها ، قوله « سفك » أي : أهرق .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٣٥٩) والترمذي في سننه (١٢٢٥) .

شتم هذا ، وضرب هذا ، وأخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، أي اعتدى على الناس بأنواع الاعتداء ، والناس يريدون أخذ حقهم ، ما لا يأخذونه في الدنيا يأخذونه في الآخرة ، فيقتص لهم منه ؛ فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، وهذا من حسناته بالعدل والقصاص بالحق ، فإن فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار ، والعياذ بالله .

تنقضي حسناته ، ثواب الصلاة ينتهي ، وثواب الزكاة ينتهي ، وثواب الصيام ينتهي ، كل ما عنده من حسنات ينتهي ، فيؤخذ من سيئاتهم وي طرح عليه ، ثم يطرح في النار والعياذ بالله .

وصدق النبي ﷺ فإن هذا هو المفلس حقاً ، أما مفلس الدنيا فإن الدنيا تأتي وتذهب ، ربما يكون الإنسان فقيراً فيمسي غنياً ، أو بالعكس ، لكن الإفلاس كل الإفلاس أن يفلس الإنسان من حسناته التي تعب عليها ، وكانت أمامه يوم القيامة يشاهدها ، ثم تؤخذ منه لفلان وفلان .

وفي هذا : التحذير من العدوان على الخلق ، وأنه يجب على الإنسان أن يؤدي ما للناس في حياته قبل مماته ، حتى يكون القصاص في الدنيا مما يستطيع ، أما في الآخرة فليس هناك درهم ولا دينار حتى يفدي نفسه ، ليس فيه إلا الحسنات ، يقول الرسول ﷺ : « فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار » .

ولكن هذا الحديث لا يعني أنه يخلد في النار ، بل يعذب بقدر ما حصل عليه من سيئات الغير التي طرحت عليه ، ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة ، لأن المؤمن لا يخلد في النار ، والنار حرها شديد ، لا يصبر الإنسان على النار ولو للحظة واحدة ، هذا على نار الدنيا فضلاً عن نار الآخرة ، أجارني الله وإياكم منها .

٢١٩ - وعن أم سلمة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِي لَهُ يَنْحُو مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ » (١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب تحريم الظلم ، ووجوب رد المظالم إلى أهلها عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ » .

ففي هذا الحديث : دليل على أن الرسول ﷺ بشر مثلنا ، ليس ملائكة من الملائكة ، بل هو بشر يعتريه ما يعترى البشر بمقتضى الطبيعة البشرية ، فهو ﷺ يجوع ويعطش ، ويرد ويحتر ، ويتام ويستيقظ ، ويأكل ويشرب ، ويذكر وينسى ، ويعلم ويجهل بعض الشيء كالbشر تماماً يقول ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٩) ، ومسلم في الأفضية (٤) وفيه (أقطع له به) .

« إنما أنا بشر مثلكم » .

وهكذا أمره الله ﷻ أن يعلن للملأ فيقول ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ [الكهف: ١١٠] فلست إلهاً يعبد ولا رباً ينفع ويضر ، بل - عليه الصلاة والسلام - لا يملك لنفسه نفقاً ولا ضرراً .

وبهذا تنقطع جميع شبه الذين يتعلقون بالرسول ﷺ من يدعونه ، أو يعبدونه ، أو يؤملونه لكشف الضر ، أو يؤملونه لجلب الخير ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - لا يملك ذلك ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَمَكًا ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي لَا يُجِيرُنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا ^(١) ﴾ ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ ﴾ [الحج: ٢١-٢٣] لو أراد الله أن يصيبني بسوء ما أجارني منه أحد .

وفي قوله : « إنما أنا بشر مثلكم » تمهيد لقوله « وإنكم تختصمون إلي » يعني فإذا كنت بشراً مثلكم فإني لا أعلم من الحق منكم ومن المبطل « تختصمون إلي » : يعني تحاكمون إلي في الخصومة ، فيكون بعضكم ألحن من البعض الآخر في الحجة ، أي أفصح وأقوى كلاماً ، يقال فلان حجيج وفلان ذو جدل ، يقوى على غيره في الحجة ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَقَالَ أَكْفَيْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٣] أي غلبني في الخطاب والخاصمة ، فهكذا هنا ألحن يعني أين وأفصح وأظهر .

وهذا مشاهد فقد تجد اثنين يتحاکمان إلى القاضي ؛ أحدهما يكون عنده لسان وعنده بيان وحجة وقوة جدل ، والثاني دون ذلك وإن كان الحكم معه ، فيحكم القاضي للأول ، ولهذا قال : « فأقضي لك بنحوه ما أسمع » . وفي قوله : « فأقضي له بنحو ما أسمع » فسحة كبيرة للقضاة ، وأنهم لا يكلفون بشيء غاب عنهم ، بل يقضون حسب البيانات التي بين أيديهم ، فإن أخطأوا فلهم أجر ، وإن أصابوا فلهم أجران ، ولا يكلفون ما وراء ذلك ، بل ولا يحل لهم أن يحكموا بخلاف الظاهر ، لأنهم لو حكموا بخلاف الظاهر لأدى ذلك إلى الفوضى ، وأدى ذلك إلى الاشتباه وإلى التهمة ، ولقيل : القاضي يحكم بخلاف الظاهر لسبب من الأسباب .

لهذا كان الواجب على القاضي أن يحكم بالظاهر ، والباطن يتولاه الله ﷻ ، فلو ادعى شخص على آخر بمائة ريال وأتى المدعي بشهود اثنين فعلى القاضي أن يحكم بشيئ المائة في ذمة المدعي عليه ، وإن كان يشبهه في الشهود ، إلا أنه في حال الاشتباه يجب أن يتحرى ، لكن إذا لم يوجد قبح ظاهر فإنه يجب عليه أن يحكم ، وإن غلب على ظنه أن الأمر بخلاف ذلك ، لقوله : « فأقضي له بنحو ما أسمع » .

ولكن النبي ﷺ تواعد من قضى له بغير حق ، فقال : « فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار » يعني أن حكم الحاكم لا يبيح الحرام ، فلو أن الحاكم حكم للمبطل بمقتضى ظاهر الدعوى ، فإن ذلك لا يحل له ما حكم له به ، بل إنه يزداد إثماً لأنه توصل إلى الباطل بطريق باطل ،

(١) قوله ملتحدًا : أي ملجأً يؤكئ إليه [انظر صفوة البيان لمعاني القرآن (ص ٧٥٥)] .

فيكون أعظم ممن أخذه بغير هذه الطريق .

وفي هذا الحديث : التحذير الشديد من حكم الحاكم بغير ما بين يديه من الوثائق ، مهما كان الأمر ، ولو كان أقرب قريب لك ، واختلف العلماء - رحمهم الله - : هل يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه أم لا ؟ فقل لا يجوز ؛ لأنه قال : فأقضي له بنحو ما أسمع ، ولأنه لو قضى بعلمه لأدى ذلك إلى التهمة ، لأنه - العلم - ليس شيئاً ظاهراً يعرفه الناس حتى يحكم له به ، وقال بعض العلماء : بل يحكم بعلمه ، وقال آخرون بل يتوقف إذا وصلت البينة إلى ما يخالف علمه .

والأصح أنه لا يحكم بعلمه إلا في مسائل خاصة ، ومثال ذلك إذا حكم بعلمه بمقتضى حجة المتخاصمين في مجلس الحكم ؛ فمثلاً إذا تحاكم إليه شخصان فأقر أحدهما بالحق ، ثم مع المدالة والأخذ والرد أنكروا ما أقر به أولاً ، فهنا للقاضي أن يحكم بعلمه لأنه علمه في مجلس الحكم . ومثال آخر : إذا كان الأمر مشتهراً ، مثل أن يشتهر أن هذا الملك وقف عام للمسلمين أو يشتهر أنه ملك فلان ويشتهر ذلك بين الناس ، فهنا له أن يحكم بعلمه لأن التهمة في هذه الحال متتفية ، ولا يتهم القاضي بشيء ، ولا يمكن أن يتجرأ أحد للحكم بعلمه وهو خاطئ بناء على أنه أمر مشهور . والقول الصحيح في هذا هو التفصيل ، وإلا فإن الواجب أن يكون القضاء على حسب الظاهر لا على حسب علم القاضي .

وإذا جاء الشيء على خلاف علمه تحول المسألة إلى قاضي آخر ويكون هو شاهد من الشهود ، مثل أن يدعي شخص على آخر بمائة ريال فينكر المدعي عليه والقاضي عنده علم بثبوت المائة على المدعي عليه ، فلا يحكم هنا بعلمه ولا يحكم بخلاف علمه ، بل يقول : أحولها على قاضي آخر وأنا لك أيها المدعي شاهد ، فتحول القضية إلى قاض آخر ، ثم يكون القاضي هذا شاهداً ، فيحكم يمين المدعي وشهادة القاضي .

٢٢٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب تحريم الظلم ، ووجوب التحلل منه ، قال فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا » ، « لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ » : أي في سعة من دينه ، « مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا » يعني مالم يقتل مؤمناً أو ذمياً أو معاهداً أو مستأمناً ، فهذه هي الدماء المحرمة ، وهي أربعة أصناف : دم المسلم ، ودم الذمي ودم المعاهد ، ودم المستأمن ، وأشدّها وأعظمها دم المؤمن ، أما الكافر الحربي فهذا دمه غير حرام ، فإذا أصاب

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٩٤/٢) .

الإنسان دماً حراماً فإنه يضيق عليه دينه ، أي : إن صدره يضيق به حتى يخرج منه - والعياذ بالله - ويموت كافراً .

وهذا هو السر في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] فهذه خمس عقوبات والعياذ بالله : جهنم ، خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً لمن قتل مؤمناً متعمداً ، لأنه إذا قتل مؤمناً متعمداً فقد أصاب دماً حراماً ، فيضيق عليه دينه ، ويضيق به صدره ، حتى ينسلخ من دينه بالكلية ، ويكون من أهل النار المخلدين فيها .

وفي هذا : دليل على أن إصابة الدم الحرام من كبائر الذنوب ، ولا شك في هذا ، فإن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب .

ولكن إذا تاب الإنسان من هذا القتل فهل تصح توبته ؟

جمهور العلماء على أن توبته تصح لعموم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ^(١) ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مَهْكًا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] فهنا نص على أن من تاب من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فإن الله يتوب عليه . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَبَايِدُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا ^(٢) ۝ يَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ولكن بماذا تكون التوبة ؟ قتل المؤمن عمداً يتعلق به ثلاثة حقوق : الحق الأول : حق الله ، الحق الثاني : حق المقتول ، الحق الثالث : حق أولياء المقتول .

أما حق الله : فإذا تاب منه تاب الله عليه ، ولا شك في هذا ، وأما حق المقتول : فالمقتول حقه عنده ، وهو قد قتل الآن ولا يمكن التحلل منه في الدنيا ، ولكن هل توبته تقضي أن يتحمل الله عنه حق المقتول فيؤديه عنه أم لا بد من أخذه بالاعتصاص منه يوم القيامة ؟

هذا محل نظر ؛ فمن العلماء من قال : إن حق المقتول لا يسقط بالتوبة ، لأن من شروط التوبة رد المظالم إلى أهلها ، والمقتول لا يمكن رد مظلمته إليه لأنه قتل ، فلا بد أن يقتصر من قاتله يوم القيامة ، ولكن ظاهر الآيات الكريمة التي ذكرناها في سورة الفرقان يقتضي أن الله يتوب عليه توبة تامة ، وأن الله جل وعلا إذا علم من عبده صدق التوبة فإنه يتحمل عنه حق أخيه المقتول .

أما الحق الثالث : فهو حق أولياء المقتول ، وهذا لا بد من التخلص منه ، لأنه يمكن للإنسان أن يتخلص منه ، وذلك بأن يسلم نفسه إليهم ويقول لهم : أنا قتلت صاحبكم فافعلوا ما شئتم وحيث

(١) ﴿ يَلْقَى أَثَامًا ﴾ : أي جزاء الإثم وهو العقوبة . [صفوة البياة (ص ٤٦٨)] .

(٢) ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ : أي لا تيأسوا . [صفوة البيان (ص ٥٩١)] .

يخبرون بين أمور أربعة : إما أن يعفوا عنه مجاناً ، وإما أن يقتلوه قصاصاً ، وإما أن يأخذوا الدية منه ، وإما أن يصالحوه مصالحة على أقل من الدية أو على الدية ، وهذا جائز بالاتفاق .

فإن لم يسقط حقهم إلا بأكثر من الدية ففيه خلاف بين أهل العلم ، منهم من يقول : لا بأس أن يصالحوا على أكثر من الدية لأن الحق لهم ، فإن شاءوا قالوا نقتل وإن شاءوا قالوا : لا نعفو إلا بعشر ديات ، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد رحمته الله ، أنه يجوز المصالحة عن القصاص بأكثر من الدية ، والتعليل هو ما ذكرنا من أن الحق لهم ، أي لأولياء المقتول فلهم أن يمتنعوا عن إسقاطه إلا بما تطيب به نفوسهم من المال .

إذن نقول توبة القاتل عمداً تصح للآية التي ذكرناها ، من سورة الفرقان وهي خاصة في القتل ، وللآية الثانية العامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وهذا الحديث يدل على عظم قتل النفس ، وأنه من أكبر الكبائر - والعياذ بالله - وأن القاتل عمداً يخشى أن يسلب دينه .

٢٢١ - وعن خولة بنت غامير الأنصارية ، وهي امرأة حمزة (رضي الله عنه وعنهما) قالت : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن خولة زوجة حمزة بن عبد المطلب رحمته الله ، أن النبي ﷺ قال : « إن رجلاً يتخوضون في مال الله بغير حق ، فلهم النار يوم القيامة » هذا أيضاً مما يدل على تحريم الظلم في الأموال الذي هو خلاف العدل .

وفي قوله : « يتخوضون » دليل على أنهم يتصرفون تصرفاً طائشاً غير مبني على أصول شرعية ، فيفسدون الأموال بيدلها فيما يضر ، مثل من يذل أمواله في الدخان ، أو في المخدرات ، أو في شرب الخمر أو ما أشبه ذلك ، وكذلك أيضاً يتخوضون فيها بالسرقات والغصب وما أشبه ذلك ، وكذلك يتخوضون فيها بالدعوى الباطلة ، كأن يدعي ما ليس له وهو كاذب وما أشبه هذا .

فالهم : أن كل من يتصرف تصرفاً غير شرعي في المال - سواء ماله أو مال غيره - فإن له النار - والعياذ بالله - يوم القيامة إلا أن يتوب ، فيرد المظالم إلى أهلها ، ويتوب مما يذل ماله فيه من الحرام ؛ كالدخان والخمر وما أشبه ذلك ، فإن من تاب تاب الله عليه ، لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَبَايِدُ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [٢] وَإِنِّي بَرٌّ .

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١١٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٤١٠/٦) قوله « يتخوضون » أي : يتفرون .

(٢) ﴿ وَإِنِّي بَرٌّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ : أي ارجعوا إليه بالتوبة . [صفوة البيان (٥٩٠)] .

إِنَّ رَبَّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْةً ۖ (١) وَأَنْتُمْ لَا تَتَعَرَّوْنَ ﴿٢٧﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا قَرَّلْتُ فِي حَيْثُ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ التَّخِيرِينَ (٢) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ (٣) فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٩﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ مَا يَنبَغِي فَكُذِّبَتْ بِهَا وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ [الزمر: ٥٣-٥٩]

وفي هذا الحديث تحذير من بدل المال في غير ما ينفع والتخوض فيه ؛ لأن المال جعله الله قايماً للناس تقوم به مصالح دينهم ودنياهم ، فإذا بذله في غير مصلحة كان من المتخوضين في مال الله بغير حق .

* * *

٢٧ - باب تعظيم حرمت المسلمين

وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج : ٣٠] وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] وقال تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَقْتُلْ نَفْسًا أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - (باب تعظيم حرمت المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم) ، فالمسلم له حق على أخيه المسلم بل له حقوق متعددة ، بينها النبي ﷺ في مواضع كثيرة : منها إذا لقيه فليسلم عليه . يُلقِي عليه السلام ، يقول : السلام عليك أو السلام عليكم ، ولا يحل له أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام (١) . ولكن لك أن تهجره لمدة ثلاثة أيام ، إذا رأيت في هذا مصلحة ، ولك أن تهجره أكثر إذا رأيت على معصية أصر عليها ولم يتب منها ، فرأيت أن هجره يحمله على التوبة ، ولهذا كان القول

(١) بغية : أي فجأة . [صفوة البيان (٥٩١)] .

(٢) المعنى : أي كراهة أن تقول نفس يا حسرتي وندامتني بسبب تفرطني وتقصيري في طاعة الله أو في حقه تعالى . وأصل الجنب والجنب الجهة المحسوسة وأطلق على الطاعة مجازاً حيث شُبِّهَتْ بالجهة بجامع التعلق في كلِّ بصاحبه ، فالطاعة لها تعلق بالله كما أن الجهة لها تعلق بصاحبه . [صفوة البيان (ص ٥٩٢ ، ٥٩٣)] .

(٣) كرة : أي رجعة إلى الدنيا . [صفوة البيان (٥٩٣)] .

(٤) انظر الحديث الدال على ذلك في البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧) ، ومسلم في البر والصلة (٢٣ ، ٢٥) ، وأبو داود في سننه (٤٩١١ ، ٤٩١٤) .

الصحيح في الهجر أنهم رخصوا فيه في خلال ثلاثة أيام ، وما زاد على ذلك فينظر فيه للمصلحة ؛ إن كان فيه خير فليفعل ، وإلا فلا ، حتى لو جهر بالمعصية ، فإذا لم يكن في هجره مصلحة فلا تهجره . ثم ساق المؤلف عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج : ٣٠] من يعظم حرماته : أي ما جعله محترماً من الأماكن أو الأزمان أو الأشخاص ، فالذي يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، ومن كان يكره أو يشق عليه تعظيم هذا المكان كالحرمين مثلاً والمساجد ، أو الزمان كالأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وما أشبه ذلك ، فليحمل على نفسه وليكرهها على التعظيم .

ومن ذلك : تعظيم إخوانه المسلمين ، وتنزيلهم منزلتهم ، فإن المسلم لا يحل له أن يحقر أخاه المسلم ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ^(١) . بحسب : الباء هنا زائدة والمعنى : حسب من الشر أن يحقر أخاه المسلم بقلبه ، أو أن يعتدي فوق ذلك بلسانه أو ييده على أخيه المسلم ، فإن ذلك حسب من الإثم والعياذ بالله ، وكذلك أيضاً تعظيم ما حرمه الله ﷻ في المعاهدات التي تكون بين المسلمين وبين الكفار ، فإنه لا يحل لأحد أن ينقض عهداً بينه وبين غيره من الكفار .

ولكن المعاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم : أتموا عهدهم فهؤلاء تنعم عهدهم .

وقسم آخر : خانوا أو نقضوا قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَمْ يَنْ أَفَّا اللَّهُ يُبِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [التوبة : ٧] فهؤلاء ينتقض عهدهم كما فعلت قريش في الصلح الذي جرى بينها وبين النبي ﷺ في الحديبية ، فإنهم وضعوا الحرب بينهم عشر سنين ، ولكن قريشاً نقضوا العهد فهؤلاء ينتقض عهدهم ، ولا يكون بيننا وبينهم عهد ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَرَبُوا بِأَخْرَاجِ الرُّسُولِ وَهُمْ بَدُّوا كَيْفَ أُولَئِكَ مَرَّةً ﴾ [التوبة : ١٣] .

والقسم الثالث : من لم ينتقض العهد لكن نخاف منه أن ينتقض العهد ، فهؤلاء نخبرهم بألا عهد بيننا وبينهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا نَخَافُ مِنْ قَوْلِ كَيْفَ تَأْتِيهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ^(٢) . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

فهذه من حرمات الله ﷻ ، وكل شيء جعله الله محترماً من زمان أو مكان أو عيان فهو من حرمات الله ﷻ ، فإن الواجب على المسلم أن يحترمه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج : ٣٠] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) وأبو داود بنحوه في سننه (٤٨٨٢) .

(٢) ﴿ قَائِدٌ إِلَيْهِمْ ﴾ أي اطرأ إليهم عهدهم ، ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي على طريق مستوٍ ظاهر بإعلامك إياهم بنبذك عهدهم قبل محاربتهم .

[الحج: ٣٢] الشعائر: العبادات الظاهرة سواء كانت كبيرة أم صغيرة؛ مثل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والأذان والإقامة وغيرهما من شعائر الإسلام، فإنها إذا عظمها الإنسان كان ذلك دليلاً على تقواه، فإن التقوى هي التي تحمل العبد على تعظيم الشعائر.

أما الآية الثالثة: فهي قوله تعالى: ﴿وَلَخِفْضُ جَنَاحِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وفي الآية الأخرى: ﴿لَئِنْ أَتَيْتَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشراء: ٢١٥] والمعنى تذلل لهم ولأن لهم في المقال والفعال؛ لأن المؤمن مع أخيه المؤمن رحيم به، شفيق به، كما قال الله تعالى في وصف النبي ﷺ ومن معه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي قوله: ﴿وَلَخِفْضُ جَنَاحِكَ لِمَنْ أَتَيْتَكَ﴾ دليل على أن الإنسان مأمور بالتواضع لإخوانه وإن كان رفيع المنزلة، كما يرتفع الطير بجناحه، فإنه وإن كان رفيع المنزلة فليخفص جناحه وليتذلل وليتطامن لإخوانه، وليعلم أن من تواضع لله رفعه الله ﷻ، والإنسان ربما يقول لو تواضعت للفقير وكلمت الفقير، أو تواضعت للصغير وكلمته أو ما أشبه ذلك، فربما يكون في هذا وضع لي، وتنزيل من رتبتي، ولكن هذا من وساوس الشيطان، فالشيطان يدخل على الإنسان في كل شيء، قال تعالى عنه: ﴿يَمَّا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) ثُمَّ لَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [الأعراف: ١٧، ١٦].

فالشيطان يأتي الإنسان ويقول له: كيف تتواضع لهذا الفقير؟ كيف تتواضع لهذا الصغير؟ كيف تكلم فلاناً؟ كيف تمشي مع فلان؟ ولكن من تواضع لله رفعه الله ﷻ، حتى وإن كان عالماً أو كبيراً أو غنياً، فإنه ينبغي أن يتواضع لمن كان مؤمناً، أما من كان كافراً فإن الإنسان لا يجوز له أن يخفص جناحه له، لكن يجب عليه أن يخضع للحق بدعوته إلى الدين، ولا يستنكف عنه ويستكبر فلا يدعوه، بل يدعوه ولكن بعزة وكرامة، دون إهانة له فهذا معنى قوله: ﴿وَلَخِفْضُ جَنَاحِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وفي الآية الثانية: ﴿وَلَخِفْضُ جَنَاحِكَ لِمَنْ أَتَيْتَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشراء: ٢١٥]، فهذه وظيفة المسلم مع إخوانه، أن يكون هيناً ليناً بالقول وبالفعل، لأن هذا مما يوجب المودة والألفة بين الناس، وهذه الألفة والمودة أمر مطلوب للشرع، ولهذا نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن كل ما يوجب العداوة والبغضاء، مثل البيع على بيع المسلم، والسوم على سوم المسلم (٢)، وغير ذلك مما هو معروف لكثير من الناس - والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾

[المائدة: ٣٢].

(١) المعنى: فأقسم بإغوائك إياي لأقعدن لهم على طريق الحق لأصدهم عنها.

(٢) انظر الحديث في البخاري في الشروط (٢٧٢٣، ٢٧٢٧)، ومسلم في النكاح (٣٨، ٤٩، ٥١، ٥٤، ٥٥)،

والإمام أحمد في مسنده (٣٩٤/٢، ٤١١).

٢٢٢- وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْتَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ^(١) . متفق عليه .

الشرح

سبق ذكر عدة آيات في بيان تعظيم محرمات المسلمين ، والرفق بهم ، والإحسان إليهم ، ومن جملة الآيات التي فيها بيان تعظيم حرمة المسلم قوله تعالى : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَقْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] بين الله في هذه الآية أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، لأن حرمة المسلمين واحدة ، ومن انتهك حرمة شخص من المسلمين ، فكأنما انتهك حرمة جميع المسلمين . كما أن من كذب رسولا واحدا من الرسل ، فكأنما كذب جميع الرسل . ولهذا اقرأ قوله تعالى ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُوءَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] ، مع أنهم لم يكذبوا إلا واحدا ، فإنه لم يبعث رسول قبل نوح ، وما بعد نوح لم يدركه قومه ، لكن من كذب رسولا واحدا فكأنما كذب جميع الرسل ، ومن قتل نفسا محرمة ، فكأنما قتل الناس جميعا ، لأن حرمة المسلمين واحدة ، ومن أحيأها - أي : سعى في إحيائها وإنقاذها من هلكة - فكأنما أحيأ الناس جميعا . وإحيائها وإنقاذها من الهلكة تارة يكون من هلكة لا قبل للإنسان بها فتكون من الله ، مثل أن يشب حريق في بيت رجل ، فتحاول إنقاذه فهذا إحياء للنفس . وأما القسم الثاني : فهو ما للإنسان فيه قبل ، مثل أن يحاول رجل العدوان على شخص ليقته ، فتحول بينه وبينه وتحميه من القتل ، فأنت الآن أحييت نفسا . ومن فعل ذلك فكأنما أحيأ الناس جميعا ، لأن إحياء شخص مسلم كإحياء جميع الناس . وقوله ﷻ : ﴿ يَقْتَرِ نَفْسٍ ﴾ يستفاد منه أن من قتل نفسا بنفس فهو معذور ولا حرج عليه . قال الله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِيهَا أَنْ أَنْفُسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة : ٤٥] فإذا قتل شخصا بحق أي بنفس أخرى فلا لوم عليه ولا إثم ، ويرث القاتل من المقتول إذا قتله بحق ، ولا يرث القاتل من المقتول إذا قتله بغير حق . ولنضرب لهذا مثلا بثلاثة إخوة قتل الكبير منهم الصغير عمدا فالذي يرث الصغير أخوه الأوسط ، وأخوه الكبير لا يرثه لأنه قتله بغير حق . ثم طالب الأوسط بدم أخيه الصغير ، فقتل أخاه الكبير قصاصا ، فهل يرث الأوسط من أخيه الكبير وهو قاتله ؟ نعم يرث لأنه قتله بحق . والكبير الذي قتل الصغير لا يرث ، لأنه قتله بغير حق .

فالقتل بحق لا لوم فيه وليس له أثر ، لأنه قصاص ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَنْبِيَاءَ لِمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ﴾ ^(٢) [البقرة : ١٧٩] .

وقوله ﷻ : ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ والفساد في الأرض ليس معناه أن يسلط الإنسان الحفَّار فيهدم بيتا ولو كان ذلك بغير حق . فهذا وإن كان فسادا ، لكن لا يحل به دم مسلم ، الفساد في الأرض إنما

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٦٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨) .

(٢) المعنى : أن من هم بالقتل إذا علم أنه إذا قتل اقتص منه ارتدع وانكف .

يكون بنشر الأفكار السيئة ، أو العقائد الخبيثة ، أو قطع الطريق ، أو ترويع المخدرات أو ما أشبه ذلك ، هذا هو الفساد في الأرض . فمن أغسَد في الأرض على هذا الوجه قدمه هدر حلال ، يُقتل لأنه ساعٍ في الأرض بالفساد .

بل إن الله قال في نفس السورة : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٣٣] على حسب جريمتهم ، إن كانت كبيرة فبالقتل ، وإن كانت دونها فبالصلب ، وإن كانت دونها فتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، وإن كان دون ذلك فينفوا من الأرض ، إما بالحبس مدى الحياة . كما قال بذلك بعض أهل العلم ، وإما بالطرد عن المدن كما قاله آخرون ، لكن إذا كان لا يندفع شرهم بطردهم من المدن حبسوا إلى الموت .

فالحاصل : أن من قتل نفساً لإفسادها في الأرض فلا لوم عليه ، بل إن قتل النفس التي تسعى للإفساد واجب ، وقتل النفس بالنفس مباح إلا على رأي الإمام مالك رحمته الله وشيخ الإسلام ابن تيمية ، فإن قتل الغيلة واجب فيه القصاص ، يعني من غافل شخصاً فقتله فإنه يقتل حتى ولو عفا أولياء المقتول ، لأن الغيلة شر وفساد ، لا يمكن التخلص منها .

مثلاً يجيء إنسان لشخص أثناء نومه فيقتله ، فهذا يقتل على كل حال ، حتى ولو قال أولياء المقتول : عفونا عنه ولا نبغي شيئاً ، هذا رأي الإمام مالك وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله ، وهو القول الحق ، أنه إذا قتل إنسان غيلة فلا بد من قتل القاتل ولا خيار لأولياء المقتول في ذلك .

فالحاصل : أن الله بين في هذه الآية أن قتل نفس واحدة بغير نفس أو فساد في الأرض كقتل جميع الناس ، وإحياء نفس واحدة كإحياء جميع الناس ، وهذا يدل على عظم القتل ، ولو أن إنساناً أحصى كم قتل من بني آدم بغير حق لم يقدر ، ومع ذلك فكل نفس تقتل فعلى ابن آدم الأول الذي قتل أخاه . كُفِّلَ منها ، وعليه من إثمه نصيب .

وابن آدم الذي قتل أخاه ، قتله حسداً ، حيث كان أول ما جاء آدم من الأبناء اثنين من بني آدم ، أول ما جاء آدم من الأبناء . في أول بطن . وقد قربا قرباناً ، قربة إلى الله ، فتقبل الله من واحد ولم يتقبل من الآخر ، فقال الثاني - الذي لم يتقبل الله منه - لأخيه : لأقتلك ، لماذا يتقبل الله منك ولا يتقبل مني ؟ حسده على فضل الله تعالى عليه ، فقال له ربه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] يعني : اتق الله ويقبل الله منك ، لكن من توعد أخاه بالقتل فليس بمتقٍ لله . في النهاية قتله والعياذ بالله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٣٠] ، خسر - والعياذ بالله - بهذه الفعلة الشنيعة التي أقدم عليها .

ويقال : إنه بقي يحمل أخاه الذي قتله أربعين يوماً على ظهره ، ما يدري ماذا يفعل به ، لأن القبور ما عرفت في ذاك الوقت ، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ، يعني بأظفاره ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، وقيل إن غرابين اقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر أحدهما للثاني فدونه . فاعتدى به هذا القاتل

ودفن أخاه ، وهذا من العجائب أن تكون الغريبان هي التي علمت بني آدم الدفن .
فالحاصل أن كل نفس تقتل بغير حق فعلى القاتل الأول من إثمها نصيب والعياذ بالله . وهكذا
أيضاً من سنّ القتل بعد أمن الناس وصار يغتال الناس وما أشبه ذلك ، وتجراً الناس على هذا من أجل
فعله ، فإن عليه من الإثم نصيباً ، لأنه هو الذي كان سبباً في هذا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها
ووزر من عمل بها إلى يوم الدين . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من دعاة الخير وفاعليه إنه جواد كريم .

٢٢٣ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا ، أَوْ أَسْوَاقِنَا ، وَمَعَهُ نَبْلٌ
فَلْيَمْسِكْ ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نَصَالِهَا ^(١) يَكْفَهُ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ » ^(٢) متفق عليه .
٢٢٤ - وعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ
وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى » ^(٣) متفق عليه .
٢٢٥ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : قَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ،
فَقَالَ الْأَقْرَعُ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا . فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « مَنْ لَا
يَزْحَمُ لَا يُزْحَمُ » ^(٤) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله جملة من أحاديث الرفق بالمسلمين ، منها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن
النبي ﷺ قال : « مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا أَوْ أَسْوَاقِنَا وَمَعَهُ نَبْلٌ فليَمْسِكْ أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نَصَالِهَا
بِكفهِ » النبل : السهام التي يُرمى بها ، وأطرافها تكون دائمة دقيقة تنفذ فيما تصيبه من المرمى ، فإذا
أمسك الإنسان بها وقى الناس شرها . وإذا تركها هكذا فربما تؤذي أحداً من الناس ، ربما يأتي أحدٌ
بسرعة فتخذه ، أو يمر الرجل الذي يمسك بها وهي مفتوحة غير ممسكة فتخذه هم أيضاً .
ومثل ذلك أيضاً العصي ، إذا كان معك عصاً فامسكها طولاً ، يعني اجعل رأسها إلى السماء ولا
تجعلها عرضاً ، لأنك إذا جعلتها عرضاً أذيت الناس الذين وراءك ، وربما تؤذي الذين أمامك .
ومثله الشمسية أيضاً ؛ إذا كان معك شمسية وأنت في السوق فارفعها ، لئلا تؤذي الناس .

(١) النصل : حديدة الرمح والسهم والسكين .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٢) ، ومسلم في البر والصلة (١٢٣ ، ١٢٤) بألفاظ مختلفة .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١) بلفظ « ترى المؤمنين » ، ومسلم في البر والصلة (٨٦) ورواه الإمام أحمد
في مسنده (٢٧٠/٤) ، قوله « بالسهر والحُمى » أما بالسهر فلأن الألم يمنع النوم ، وأما الحُمى فلأن فقد النوم يثيرها ،
والحديث لم يُشر إليه الشارح (رحمه الله تعالى) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٧) ومسلم في الفضائل (٦٥) والإمام أحمد في مسنده (٢٤١/٢) ،
والبيهقي في سننه (٦٩/٤) .

فكل شيء يؤدي المسلمين أو يخشى من أذيته فإنه يتجنبه الإنسان ، لأن أذية المسلمين ليست بالهينة . قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [الأحراب : ٥٨] .

ومن الأحاديث التي ذكرها المصنف حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل الحسن بن علي بن أبي طالب وكان عنده الأقرع بن حابس . والحسن بن علي بن أبي طالب هو ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجده من أمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوه علي بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الحسن والحسين لأنهما سبطاه ، ويفضل الحسن على الحسين .

فالحسن قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فتيين من المسلمين » ^(١) فكان الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لما حصلت الفتنة في زمن معاوية ، وآلت الخلافة إلى الحسن بعد أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، تنازل عنها رضي الله عنه لمعاوية بن أبي سفيان حقاً لدعاء المسلمين ، لأنه يعلم أن في الناس أشرار ، وأنهم ربما يأتون إليه ويغرونه كما فعلوا بأخيه الحسين بن علي رضي الله عنه ، غره أهل العراق وحصل ما حصل من المقتلة العظيمة في كربلاء وقتل الحسين .

أما الحسن رضي الله عنه فإنه تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، فصار ذلك مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم « ولعل الله أن يصلح به بين فتيين من المسلمين » .

كان عند النبي صلى الله عليه وسلم الأقرع بن حابس من زعماء بني تميم ، والغالب أن أهل البادية وأشباههم يكون فيهم جفاء ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم الحسن ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم - أعوذ بالله من قلب قاسٍ ما يقبلهم ولو كانوا صغاراً - فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « من لا يرحم لا يرحم » يعني : أن الذي لا يرحم عباد الله لا يرحمه الله . ويفهم من هذا أن من رحم عباد الله صلى الله عليه وسلم ، وهو كذلك فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الراحمون يرحمهم الرحمن » ^(٢) .

ففي هذا : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل الرحمة في معاملة الصغار ونحوهم ، وأنه ينبغي للإنسان أن يقبل أبناءه ، وأبناء بناته ، وأبناء أبنائه ، يقبلهم رحمة بهم ، واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما ما يفعله بعض الناس من الجفاء والغلظة بالنسبة للصبيان ، فتجده لا يمكن صبيه من أن يحضر إلى مجلسه ، ولا أن يمكن صبيه من أن يطلب منه شيئاً ، وإذا رآه عند الرجال انتهره فهذا خلاف السنة وخلاف الرحمة .

كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يصلي بالناس إحدى صلاتي العشي ، إما العصر وإما الظهر ، فجاءته بنت بنته أمانة ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحملها وهو يصلي بالناس ؛ إذا قام حملها ، وإذا سجد وضعها ^(٣) . أين هذا الخلق من أخلاقنا اليوم ؟ الآن لو يجد الإنسان صبيّاً في المسجد أخرجه ، فضلاً

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٠٩) ، وأبو داود في سننه (٢٦٦٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٤١) ، والترمذي في سننه (١٩٢٤) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٠/٢) .

(٣) انظر الحديث في البخاري في الصلاة (٥١٦) ، ومسلم في المساجد (٤١) ، وأبو داود في سننه (٩١٧) .

عن كونه يحمله في الصلاة .

وكان النبي ﷺ يوماً من الأيام ساجداً ، فجاءه الحسن أو الحسين فركب عليه . أي جعله راحلة ، فأطال النبي ﷺ السجود ، فلما سلم قال : « إن ابني ارتحلني وإني كرهت أن أقوم حتى يقضي نهمته » (١) . وكان ﷺ يخطب الناس يوماً على المنبر ، فأقبل الحسن والحسين وعليهما ثوبان جديدان يعثران بهما ، فنزل النبي ﷺ وحملهما بين يديه ، وقال : « صدق الله ﷻ إِنْمَا أَمَوَلَكُم وَأَوَلَدَكُمُ فِتْنَةٌ » [التغابن : ١٥] « نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان يعثران فلم أصبر » (٢) يعني فما طابت نفسه حتى نزل وحملهما . ففي هذا كله وأمثاله : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يرحم الصغار ، ويلطف بهم ، وأن ذلك سبب لرحمة الله ﷻ ، نسأل الله أن يعننا وإياكم برحمته ولطفه وإحسانه .

* * *

٢٢٦ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : أَتَقْبَلُونَا صِبْيَانَكُمْ ؟ فقال : « نَعَمْ » قالوا : لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ ! فقال رسول الله ﷺ : « أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ ؟ » (٣) متفق عليه .

٢٢٧ - وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ » (٤) متفق عليه .

٢٢٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ؛ فَإِنْ فِيهِمُ الضَّعِيفُ وَالسَّقِيمُ وَالْكَبِيرُ . وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ ، فَلْيَطْوِلْ مَا شَاءَ » (٥) متفق عليه . وفي رواية : « وَذَا الْحَاجَّةِ » .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عائشة رضي الله عنها : قالت : جاء قوم من الأعراب إلى النبي ﷺ فسألوا : هل تقبلون صبيانكم ؟ قال النبي ﷺ : « نعم » . والأعراب كما نعلم جميعاً جفاة ، وعندهم غلظة وشدة ولا سيما رعاية الإبل منهم ، فإن عندهم من الغلظة والشدة ما يجعل قلوبهم كالحجارة . نسأل الله العافية ، قالوا : إنا لسنا نقبل صبياننا ، فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ » يعني لا أملك لكم شيئاً إذا نزع الله الرحمة من قلوبكم . وفي هذا : دليل على تقبيل الصبيان شفقة عليهم ، ورقة لهم ، ورحمة بهم .

(١) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (٤٩٤/٣) ، (٩٩/٦) ، والنسائي في سننه (٢٢٩/٢ ، ٢٣٠) حديث (١١٤١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٧٧٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٨) ، ومسلم - واللفظ له - في الفضائل (٦٤) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٦) ، ومسلم في الفضائل (٦٦) واللفظ له والإمام أحمد في مسنده (٣٥٨/٤) .

(٥) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٣) - واللفظ له - ، ومسلم في الصلاة (١٨٣) ، وأبو داود في الصلاة (٧٩٤ ، ٧٩٥) .

وفيه : دليل على أن الله تعالى قد أنزل في قلب الإنسان الرحمة ، وإذا أنزل الله في قلب الإنسان الرحمة فإنه يرحم غيره . وإذا رحم غيره رحمه الله ﷻ ، كما في الحديث الثاني حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » نسأل الله العافية .

الذي لا يرحم الناس لا يرحمه الله ﷻ ، والمراد بالناس : الناس الذين هم أهل للرحمة كالمؤمنين وأهل الذمة ومن شابههم ، وأما الكفار الحريون فإنهم لا يرحمون ، بل يقتلون لأن الله تعالى قال في وصف النبي ﷺ وأصحابه : ﴿ أَشِدَّةُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] وقال تعالى للنبي ﷺ : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، ذكر الله تعالى هذه الآية في سورتين من القرآن الكريم بهذا اللفظ نفسه : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴾ ذكرها الله في سورة التوبة وفي سورة التحريم ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَطْلُوتُ مَوْطِنًا ^(١) يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُوتُ مِنْ عَذَابٍ نِيعًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

وكذلك أيضًا رحمة الدواب والبهائم فإنها من علامات رحمة الله ﷻ للإنسان ، لأنه إذا رُق قلب المرء رحم كل شيء ذي روح ، وإذا رحم كل شيء ذي روح رحمه الله . قيل : يا رسول الله ، ألنا في البهائم أجر ؟ قال : « نعم في كل كبد رطبة أجر » ^(٢) .

ومن الشفقة والرحمة بالمؤمنين أنه إذا كان الإنسان إمامًا لهم ، فإنه لا ينبغي له أن يطيل عليهم في الصلاة . ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إذا صلى أحدكم للناس فليخفف ، فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة والكبير » وفي رواية « وذا الحاجة » يعني من ورائه أهل الأعذار الذين يحتاجون إلى التخفيف ، والمراد بالتخفيف ما وافق سنة النبي ﷺ ، هذا هو التخفيف وليس المراد بالتخفيف ما وافق أهواء الناس ، حتى صار الإمام يركض في صلاته ولا يطمئن ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من النبي ﷺ ، ومع ذلك فكان يقرأ في فجر الجمعة « ألم تنزل السجدة » كاملة في الركعة الأولى . ﴿ هَذَ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ كاملة في الركعة الثانية ، وكان يقرأ بسورة الدخان في المغرب ، ويقرأ فيها بالمرسلات ، ويقرأ فيها بالطور ، وربما قرأ فيها بالأعراف ، ومع هذا فهي خفيفة ، قال أنس رضي الله عنه : ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من النبي ﷺ ^(٣) .

وليس هذا الحديث حجة للذين يريدون من الأئمة أن يخففوا تخفيفًا ينقص الأجر ويخالف السنة . ثم اعلم أنه قد يكون التخفيف عارضًا طارئًا ، مثل ما كان النبي ﷺ يفعل ، كان يدخل في الصلاة وهو يريد أن يطيل فيها ، فيسمع بكاء الصبي فيوجز مخافة أن تفتن أمه ^(٤) . فإذا حصل

(١) ﴿ وَلَا يَطْلُوتُ مَوْطِنًا ﴾ : أي ولا يدوسون مكانًا .

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣) ، ومسلم في السلام (١٥٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٨) ، ومسلم في الصلاة (١٩٠) .

(٤) انظر الحديث في البخاري في الأذان (٧٠٨) ، ومسلم في الصلاة (١٩٢) .

طارئ يوجب أن يخفف الإنسان صلاته فليخفف ، لكن على وجه لا يُخل بالواجب .
فالتخفيف نوعان : تخفيف دائم : وهو ما وافق سنة النبي ﷺ . وتخفيف طارئ : يكون أخف ،
وهو ما دعت إليه الحاجة ، وهو أيضاً من السنة ، فإن النبي ﷺ كان إذا سمع بكاء الصبي خفف
الصلاة حتى لا تفتن أمه ، والمهم أنه ينبغي للإنسان مراعاة أحوال الناس ورحمتهم .

٢٢٩ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل ، وهو يحب أن يعمل
به ، خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم ^(١) متفق عليه .
٢٣٠ - وعنها رضي الله عنها قالت : نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمة لهم ، فقالوا : إنك تواصل ؟
قال : « إني لست كهيبتكم ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني » ^(٢) متفق عليه .
معناه : يجعل في قوة من أكل وشرب .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عائشة رضي الله عنها في باب الرق بالمسلمين والشفقة
عليهم ، قالت عائشة رضي الله عنها : (إن كان النبي ﷺ ليدع العمل ، وهو يحب أن يعمل به ؛ خشية أن
يعمل به الناس فيفرض عليهم) . قولها : (إن كان) « إن » هذه مخففة من الثقيلة ، وأصلها « إن » ،
ويقول النحويون : إن اسمها محذوف ويسمونه ضمير الشأن ، وجملة (كان ليدع) خبرها . فالجملة
هنا ثبوتية وليست سلبية . والمعنى أن النبي ﷺ كان يترك العمل وهو يحب أن يفعله ، لئلا يعمل به
الناس ، فيفرض عليهم ، فيشق عليهم .

ومن ذلك : ما فعله في رمضان - عليه الصلاة والسلام - صلى في رمضان ذات ليلة ، فعلم به أناس
من الصحابة ، فاجتمعوا إليه وصلوا معه ، وفي الليلة الثانية صلوا أكثر ، وفي الثالثة أكثر وأكثر ، ثم ترك
الصلاة في المسجد ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « أما بعد ، فإنه لم يخف علي مكانكم » يعني ما
جرى منهم من الاجتماع « ولكني كرهت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها » ^(٣) فترك هذا القيام جماعة
خوفاً من أن تفرض على الأمة ، وهذا من شفقته ، وكان يقول : « لولا أن أشق على أمتي لفعلت كذا
وكذا أو لأمرت بكذا وكذا » مثل قوله : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » ^(٤) .
ومثله : قوله ﷺ حين تأخر في صلاة العشاء حتى ذهب عامة الليل ، فقال : « إنه لو قُتِلَ يعني
آخر الوقت . ثم قال : « لولا أن أشق على أمتي » فهو - عليه الصلاة والسلام - كان يدع العمل

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه في الصوم (١٩٦٧) ، ومسلم في الصيام (٥٧ ، ٦١) .

(٣) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الجمعة (٩٢٤) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٩/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٧) ، ومسلم - واللفظ له - في الطهارة (٤٢) .

ويدع الأمر بالعمل ، خوفاً من أن يشق على الأمة .

ومن ذلك أيضاً : ما روته عائشة رضي الله عنها أنه نهاهم عن الوصال رحمة بهم ، يعني نهى الصحابة عن الوصال ، والوصال يعني أن يصل الإنسان يومين فأكثر في الصيام من غير فطر ، يعني يصوم الليل والنهار يومين أو ثلاثة أو أكثر ، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك ، ولكنهم رضي الله عنهم فهموا أنه نهاهم رحمة بهم لا كراهة للعمل ، فواصلوا ثم واصلوا حتى هل شهر شوال ، فقال ﷺ : « لو تأخر الهلال لزدتكم » ^(١) يعني لأبقيتكم تواصلون قال ذلك تنكيلاً لهم ، حتى يعرفوا ألم الجوع والعطش ، ويكفوا عن الوصال من أنفسهم .

المهم : أنه نهاهم عن الوصال رحمة بهم . فقالوا إنك تواصل ونحن نفتدي بك . فقال « إني لست كهيتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني » يعني أنه - عليه الصلاة والسلام - ليس كالأمة ، بل هو يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه ، ومعنى ذلك أنه - عليه الصلاة والسلام - يتعهد بالليل ، ويخلو بالله ﷻ ، يذكره ، وقراءة كلامه ، وغير ذلك مما يغنيه عن الأكل والشرب ، لأن الإنسان إذا اشتغل بالشيء نسي الأكل والشرب ، خصوصاً إذا كان الشيء مما يحبه ويرضاه ، ولهذا قال الشاعر في محبوبته :
لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

يعني أنها إذا قعدت تتحدث عن هذا الرجل تكثر من ذكره حتى يلهيها ذلك عن الطعام والشراب ، وهو أمر واقع واضح . حتى إن الإنسان قد يكون في الأشغال يشتغل بها ، فيلهو عن الأكل والشرب ، مثل طالب العلم الذي يكون منهوماً بالعلم شغوفاً به ، ربما يبقى في مكتبته يطالع من الصباح إلى المساء فينسى الأكل والشرب ، ينسى الغذاء والعشاء ، وربما ينسى النوم . وكذلك طالب الدنيا منهوم لا يشبع ، ربما يبقى في دفاتره وحساباته فينشغل عن الأكل والشرب .

ويذكر أن رجلاً غنياً كان يشتغل بحساباته وبكتاباته وماله وله زوجة ، وكان له جار فقير متزوج ، وكانوا يشعرون بأن هذا الجار الفقير يعاشر زوجته بالمعروف ، فغارت زوجة الغني ، لأن الغني غافل عنها ، فقالت له : ألا تنظر إلى جارنا يعاشر زوجته بالمعروف ، ويستأنس مع أهله ، فقطن الرجل الغني لهذا ، فدعا الرجل الفقير وقال له : إنك رجل فقير تحتاج إلى المال ، وأنا سأعطيك مالاً تتجر به ، فأعطاه المال يتجر به ، فانشغل به الفقير عن أهله ، وصار لا يعاشرهم ولا يؤانسهم ، فصار مثل التاجر .
فالحاصل : أن الإنسان إذا انشغل بالشيء المحبوب إليه أنساه كل شيء ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني » فليست كهيتكم ، وما زعمه بعض أهل العلم من أن المراد بالإطعام والإسقاء ، الإطعام من الجنة والإسقاء من الجنة فليس بصحيح ، لأنه لو طعم طعاماً حسياً وشرب شرباً حسياً ، لم يكن واصلًا ، وإنما المراد بالطعام والسقي ما يشتغل به ﷻ من ذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٩٩) ، ومسلم في الصيام (٥٧) .

٢٣١ - وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إني لأقوم إلى الصلاة، وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي، فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه» ^(١) رواه البخاري .

٢٣٢ - وعن مجتذب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم» ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الرفق بالمسلمين فيما نقله عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز كراهية أن أشق على أمه» هذا الحديث من التماذج التي تدل على رحمة النبي ﷺ بأمته ، كما وصفه الله تعالى به في قوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ^(٣) [التوبة : ١٢٨] ، فهو يدخل في صلاة الجماعة يريد أن يطيل فيها ، والمراد الإطالة النسبية ، ليست الإطالة الزائدة عن ما كان يفعله من قبل ، فإذا سمع بكاء الصبي أوجز وخفف مخافة أن يشق على أمه ، لأن أمه إذا سمعت بكاءه فإنه يشق عليها أن تسمع بكاء ابنها ، وربما يشغلها كثيراً عن الصلاة ، فيخفف - عليه الصلاة والسلام - لأجل ذلك .
ففي هذا الحديث فوائد منها :

أولاً : رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليها .

ثانياً : جواز حضور النساء إلى المساجد ليصلين مع الجماعة ، وهذا ما لم تخرج المرأة على وجه لا يجوز ، مثل أن تخرج متعطرة أو متبرجة ، فإن ذلك لا يجوز ، لأن النبي ﷺ قال : «أما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا صلاة العشاء» ^(٤) .

ثالثاً : جواز إدخال الصبيان للمسجد ، هذا إذا كان صبيها معها ، وإن كان خارج المسجد قريباً منه فليس فيه دلالة ، ولكنه يصعب أن تسمع المرأة بكاء صبيها في البيت وهي في المسجد ، فالظاهر أن صبيانهم كانوا معهم ، فيكون فيه دليل على جواز إدخال الصبيان المساجد ، لكن بشرط أن لا يحصل

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٥/٥) ، قوله «فأتجوّز» أي أخفف .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٢٦٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٤) وقوله «في ذمة الله» قيل : الذمة هنا

الضمان . وقيل : الأمان ، قوله «فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه» الضمير في (فإنه) للشأن والضمير المستتر في (من يطلبه) لله والضمير البارز لـ (من ذمته بشيء يدركه) يعني : من يطلبه الله للمواخظة بما فرط في حقه والقيام بعهده يدركه الله ؛ إذ لا يفوت منه هارب .

(٣) عزيز عليه ما عنتم : شديد وشاق عليه عنتكم لكونه بعضاً منكم .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤٣) .

منهم أذية لا على المسجد ولا على المصلين ، فإن كان يخشى منهم أذية على المسجد كتلوته بالبول والتجاسة ، فإنهم يمنعون ، وكذلك إذا كان يخشى منهم التشويش على الناس بالصراخ والركض والجلبة ، فإنهم يمنعون أيضًا . أما إذا لم يكن منهم بأس فإنه لا بأس بأن يؤتى بهم إلى المساجد .

وأما حديث : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم » فهو ضعيف ^(١) .

رابعًا : أنه يجوز للمصلي أن يسمع ما حوله ولا يلزمه أن يصد أذنيه ، بل له أن يسمع ، لكن إن كان ما حوله يشوش عليه إذا سمعه فلا يصلّي حوله ، وإنما يبعد كما لو أراد الإنسان أن يصلّي في المسجد وحوله حلقة ذكر ، أو حلقة قرآن ، ويخشى أن يشوشوا عليه إذا دنا منهم ، فليبعد . وأما إذا لم يشوشوا فلا بأس أن يسمع ، بخلاف الاستماع فإن المصلي لا يستمع إلا إلى قراءة الإمام .

وعلى هذا إذا كنت تصلي وجاء القارئ يقرأ حديثًا أو موعظة ، فلا تشدّ سمعك إليه ، لا تستمع إليه ، ولا تجعل تركيزك معه ، أما إذا سمعته ولكنك ماضٍ في صلاتك لم تهتم به ولم تلتفت إليه فلا بأس . خامسًا : ومن فوائد هذا الحديث أنه يجوز للمصلي أن يغير نيته من تطويل إلى تقصير أو بالعكس ، إذا وجد سببًا لذلك ، لأن النبي ﷺ كان يدخل في الصلاة ناويًا أن يطيلها فيؤجز لما ذكره من السبب .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من صلى الفجر فهو في ذمة الله » الفجر هي الصلاة الأولى عند بعض العلماء . وعند بعض العلماء أن الصلاة الأولى هي صلاة الظهر ، ولكن الأصح أن الصلاة الأولى هي صلاة الفجر ، والثانية : الظهر ، والثالثة : العصر ، وهي الوسطى ، والرابعة : المغرب ، والخامسة : العشاء .

وصلاة الفجر تأتي وكثير من الناس نيام ، ولهذا يتكاسل عنها المنافقون . كما قال النبي ﷺ : « أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا » ^(٢) . وهي وصلاة العصر أفضل الصلوات الخمس لقول النبي ﷺ : « من صلى البردين دخل الجنة » ^(٣) والبردان هما : الفجر والعصر ، لأن الفجر يراد الليل والعصر يراد النهار ، وقوله : « من صلى الفجر » ظاهره من صلى في جماعة أو غير جماعة .

وقوله : « فهو في ذمة الله » أي في عهده ، يعني أنه دخل في عهد الله فكانه معاهد لله ﷻ أن لا يصيبه أحد بسوء ، ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام - : « فلا يظلمكم الله من ذمته بشيء » يعني لا يترك عهده على من صلى الفجر ، لأنه في ذمة الله وفي عهده ، فإياكم أن يظلمكم الله تعالى من ذمته بشيء ، « فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ، ثم يكتبه على وجهه في نار جهنم » .

ففي هذا : دليل على أنه يجب احترام المسلمين الذين صدّقوا إسلامهم بصلاة الفجر ، لأن صلاة

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٧٥٠) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩/٢) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الأذان (٦٥٧) ، ومسلم في المساجد (٢٥٢) ، وأخرجه - بلفظه - الإمام أحمد في مسنده (٤٢٤/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت (٥٧٤) ، ومسلم في المساجد (٢١٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٨٠/٤) .

الفجر لا يصلحها إلا مؤمن ، فالمنافقون لا يشهدون الجماعة ولا يصلون الفجر أبداً ، لأنهم إنما يصلون مراعاة للناس ، فإذا لم يكن الناس ينتبهون لهم ، فإنهم لا يصلون .

والفجر في عهد النبي ﷺ ليست كالفجر في يومنا ، بل كان الليل في عهد النبي ﷺ ليلاً حالكاً لا يرى الناس فيه ، فيأتي الإنسان ويذهب وهو لا يعرف ، لكن الآن ليلنا - والحمد لله - كنهارنا بما أنعم الله علينا به من هذه الإضاءة بالكهرباء ، لكن في عهد النبي ﷺ لظلمة الليل وعدم وضوح الرؤية ، كان المنافقون لا يصلون الفجر والعشاء جماعة . والمهم أن هذا الحديث يدل على وجوب احترام المسلمين الذين برهنوا على إسلامهم بصلاة الفجر وأنه لا يجوز لأحد أن يعتدي عليهم .

* * *

٢٣٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يُسْلِمُهُ ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم » يعني في الدين ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمْسِجْهُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا مَآبَهُمْ فَلْيَخْرُجُوا مِنَ الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ ﴾ (٢) [الأحزاب : ٥] ، وهذه الأخوة هي أوثق الأخوات ، أوثق من أخوة النسب ، فإن أخوة النسب قد يتخلف مقتضاها ، فيكون أخوك من النسب عدواً لك كارهاً لك ، وذلك يكون في الدنيا وفي الآخرة . قال الله تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) [التخرف : ٦٧] .

أما أخوة الدين فإنها أخوة ثابتة راسخة في الدنيا وفي الآخرة . تنفع الإنسان في حياته وبعد مماته ، لكن هذه الأخوة لا يترتب عليها ما يترتب على أخوة النسب من التوارث ووجوب النفقة وما أشبه ذلك .

ثم قال : « لا يظلمه ولا يسلمه » لا يظلمه لا في ماله ، ولا في بدنه ، ولا في عرضه ، ولا في أهله ، يعني : لا يظلمه بأي نوع من الظلم « ولا يسلمه » يعني : لا يسلمه لمن يظلمه ، فهو يدافع عنه ويحميه من شره ، فهو جامع بين أمرين - الأمر الأول : أنه لا يظلمه . والأمر الثاني : أنه لا يسلمه لمن يظلمه ، بل يدافع عنه :

ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : يجب على الإنسان أن يدافع عن أخيه في عرضه وبدنه وماله .

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣) .

(٢) ﴿ فَلْيَخْرُجُوا مِنَ الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ ﴾ : أي أولياؤكم فيه ، فادعواهم بالأخوة والمولوية وقولوا للواحد منهم : أخي ومولاي ، ولذا قيل لسالم بعد نزول الآية : سالم مولى أبي حذيفة ، وكان قد تبناه قبل .

(٣) (الأخلاء : أي الأصدقاء الأحاب في الدنيا .

في عرضه : يعني إذا سمع أحدًا يسبه ويغتابه ، يجب عليه أن يدافع عنه . وكذلك أيضًا في بدنه : إذا أراد أحد أن يعتدي على أخيك المسلم وأنت قادر على دفعه ، وجب عليك أن تدافع عنه ، وكذلك في ماله : لو أراد أحد أن يأخذ ماله ، فإنه يجب عليك أن تدافع عنه .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » يعني أنك إذا كنت في حاجة أخيك تقضيها وتساعده عليها ، فإن الله تعالى يساعدك في حاجتك ويعينك عليها جزاءً وفاقًا . ويفهم من ذلك : أن الإنسان إذا ظلم أخاه ، فإن أخوته ناقصة ، وإذا أسلمه إلى من يظلمه فإن أخوته ناقصة ، وإذا لم يكن في حاجته ، فإن هذا يفوته الخير العظيم ، وهو كون الله تعالى في حاجته . ثم قال : « ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » الكرب ما يضيق على الإنسان ويشق عليه ، ويجد له في نفسه همًا وغمًا ، فإذا فرجت عن أخيك هذه الكربة فرج الله عنك كربة من كرب يوم القيامة .

وتفريج الكربات يكون في أمور متعددة : إن كانت كربة مالية فيأعطائه المال الذي تزول به الكربة ، وإن كانت كربة معنوية فبالحرص على ردّ معنويته وردّ اعتباره حتى تزول عنه الكربة ، وإذا كانت كربة هم وغم فبأن توسع عليه وتنفس له ، وتبين له أن الأمور لا تدوم ، وأن دوام الحال من الحال ، وتبين له ما في هذا من الأجر والثواب العظيم ، حتى تهوّن عليه الكربة .

« ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة » ، ستر يعني غطى عيبه ولم يبينه ، فإن الله يستره في الدنيا والآخرة ، وهذا ليس على إطلاقه فهناك نصوص تدل على أنه غير مطلق ، فالستر قد يكون مأمورًا به محمودًا ، وقد يكون حرامًا ، فإذا رأينا شخصًا على معصية ، وهو رجل شرير منهك في المعاصي ، لا يزيده الستر إلا طغيانًا ، فإننا لا نستره ، بل نبليغ عنه حتى يُردع ردعًا يحصل به المقصود . أما إذا لم تبدر منه بوادر سيئة ، ولكن حصلت منه هفوة ، فإن من المستحب أن تستره ولا تبينه لأحد ، لا للجهات المسؤولة ولا لغيرها ، فإذا سترته ستر الله عليك في الدنيا والآخرة .

ومن ذلك أيضًا : أن تستر عنه العيب الخلقي ، إذا كان فيه عيب في خلقته كجروح مؤثرة في جلده أو برص^(١) أو بهق^(٢) أو ما أشبه ذلك ، وهو يستر ويحب ألا يطلع عليه الناس فإنك تستره ، إذا سترته سترك الله في الدنيا والآخرة . وكذلك إذا كان سيئ الخلق لكنه يتظاهر للناس بأنه حسن الخلق وواسع الصدر ، وأنت تعرف عنه خلاف ذلك ، فاستره فمن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة . فالستر كما قلت بالنسبة للأعمال السيئة التي يقوم بها الإنسان ينقسم إلى قسمين : قسم : يكون من شخص منهك في المعاصي مستهتر ، فهذا لا نستره عليه . وقسم آخر : حصل منه هفوة ، فهذا هو الذي نستره عليه . أما الأمور الأخرى فالستر فيها أكمل وأفضل . والله المستعان .

(١) البرص : بياض يصيب الجلد .

(٢) البهق : داء يذهب بلون الجلد فتظهر فيه بقع بيض .

٢٣٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ ، التَّقْوَى هَهُنَا ، بِحَسَبِ اقْرَبِي مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ » ^(١) ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم » وقد تقدم الكلام على هذه الجملة . وأن هذه الأخوة أخوة الإيمان ، وأنها أقوى رابطة ، وأوثق من أخوة النسب ، وبيننا وجه ذلك فيما سبق .

ويشعر هنا في هذا الحديث أنه « لا يظلمه ولا يخونه ولا يكذبه » لا يخونه يعني : لا يغدر به في محل الائتمان ، إذا ائتمنه على شيء ، أو على مال ، أو على سر ، أو على غير ذلك فإنه لا يخونه ، والخيانة هي الغدر بالشخص في موضع الائتمان ولا يجوز لأحد أن يخون أخاه المسلم حتى وإن خانته ، يعني وإن خانك أخوك المسلم فلا تخنه لقول النبي ﷺ : « أَدْ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخَنْ مِنْ خَانَكَ » ^(٢) فلو قرضنا أن شخصاً خانك في مال ؛ بأن أقرضته مالاً أي سلفته ، ثم أنكبر بعد ذلك وقال لم تقرضني شيئاً ، فإنه لا يحل لك أن تخونه فتقترض منه ثم تنكره ، بل أَدْ إِلَيْهِ أَمَانَتَهُ واسأل الله الحق الذي لك ، لقوله - عليه الصلاة والسلام - : « وَلَا تَخَنْ مِنْ خَانَكَ » .

كذلك أيضاً : لا يكذبه أي لا يحدثه بكذب . والكذب حرام ، وكلما كانت آثاره أسوأ كان أشد إثماً . وليس في الكذب شيء حلالاً ، وأما ما ادعاه بعض العامة حيث يقولون إن الكذب نوعان : أسود وأبيض ، فالحرام هو الأسود ، والحلال هو الأبيض ، فجوابه : أن الكذب كله أسود ، ليس فيه شيء أبيض : لكن يتضاعف إثمه بحسب ما يترتب عليه ، فإذا كان يترتب عليه أكل مال المسلم ، أو غرر على مسلم ، صار أشد إثماً . وإذا كان لا يترتب عليه أي شيء من الأضرار ، فإنه أخف ولكنه حرام .

لكن ورد عن النبي ﷺ « أَنَّهُ رَخَّصَ فِي الْكَذْبِ عِدَّةَ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَفِي الْحَرْبِ ، وَفِي حَدِيثِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ ، وَحَدِيثِهَا إِيَّاهُ » ^(٣) .

ولكن كثيراً من العلماء قال : إن المراد بالكذب في هذا الحديث ليس الكذب الصريح ، وإنما هو التورية ، والتورية تسمى كذباً ، كما قال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حين يأتي الناس له يوم القيامة ليشفع لهم : إنه كذب ثلاث كذبات ، وهو لم يكذب ولكنه وُزِي تورية ، يعني أظهر للمخاطب شيئاً غير الذي يريد هو فبعض العلماء يقول : إن هذا الحديث الذي فيه أن الكذب يجوز

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٢٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٣٤) ، والترمذي (١٢٦٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٤١٤/٣) .

(٣) الترمذي في البر (١٩٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٥٤/٦) .

في هذه الأشياء الثلاثة ، يراد به كذب التورية لا الكذب الصريح ، وعلى هذا فلا يستثنى من الكذب شيء ، وكل الكذب حرام ، ثم اعلم أن الكذب يحار فيه الإنسان ويعجز عن معالجته كما قيل :

لي حيلة في من ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة

الذي ينم والذي يلقي النيمة بين الناس ، لي فيه حيلة أي يمكن أن أحتال وأتخلص منه ومن شره ، لكن الذي يكذب يقول فعلت وفعلت وهو كاذب ، ليس لي فيه حيلة إذا كان يخلق ما يقول وما شاء قاله ، فهذا مشكل ليس لي فيه حيلة ، ولهذا قال هنا : « ولا يكذبه » .

وفي لفظ : « ولا يحقره » يعني لا يحتقره ولا يستصغره ، حتى وإن كان أكبر منه سنًا ، وإن كان أكثر منه مالًا ، وإن كان أغزر منه علمًا فلا يحقره .

واحتقار الناس من الكبر - والعياذ بالله - قال النبي ﷺ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » (١) بطر الحق يعني : رده ، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدراءهم ، فالمسلم يرى أخاه بعين الإكبار ويحترمه ويعظمه . والعامة يقولون : احترم الناس يحترموك ، واحتقر الناس يحقروك . يعني من رأى الناس بعين الاحتقار رأوه بعين الاحتقار ، ومن رآهم بعين الإكبار والإجلال ، رأوه بعين الإكبار والإجلال ، وهذا شيء مشاهد .

ولهذا تجد الرجل المتواضع اللين الهين محترمًا عند الناس كلهم ، لا أحد يكرهه ، ولا أحد يسبه . والإنسان الشامخ بأنفه المستكبر المحتقر لغيره ، تجده مكروهًا مذمومًا عند الناس ، ولولا حاجة الناس إليه إذا كانوا يحتاجون إليه ما كلمه أحد . لأنهم يحقرونه .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « التقوى ههنا » أشار إلى صدره ثلاث مرات ، يعني أن التقوى في القلب ، فإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ، وإذا لم يتق القلب لم تتق الجوارح ، وهذا كقوله ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة (٢) إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » (٣) فإذا كان في قلب الإنسان تقوى لله ﷻ وخوف منه وخشية له ، استقامت أعماله الظاهرة ، لأن الأعمال الظاهرة تتبع القلب .

وقد مثل بعض العلماء ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه القلب بالملك المطاع مع جنوده ، فالملك المطاع مع جنوده إذا أمرهم بشيء أطاعوه ، ولكن بعض العلماء قال : إن هذا المثل أنقص من قول النبي ﷺ : « إذا صلحت صلح الجسد كله » وذلك لأن الملك مع جنوده وإن كان مطاعًا فإنهم لا يصلحون بصلاحه ، لكن القلب إذا صَلَحَ صَلَحَ الجسد ، وإذا اتقى اتقى الجسد .

واعلم أن من الناس من يجادل بالباطل بهذا الحديث ، فإذا أمرته بمعروف ، أو نهيته عن منكر ،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) . (٢) المضغة : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢) ، ومسلم في المساقاة (١٠٧) .

قال : التقوى ههنا . تقول له لا تحلق لحيتك ، فحلق اللحية حرام ، وحلق اللحية من هدي المجوس والمشركون ، وإعفاء اللحية من هدي النبيين والمرسلين وأولياء الله الصالحين ، إذا قلت له هذا قال : التقوى ههنا . التقوى ههنا . نقول له : كذبت وإنه ليس في قلبك تقوى ، لو كان في قلبك تقوى لاتقيت الله ، لأن القلب إذا اتقى اتقت الجوارح ، وإذا انهمك في معصية الله انهمكت الجوارح . وفي قوله : « التقوى ههنا » وإشارته إلى صدره دليل على أن العقل في القلب الذي في الصدر ، وهذا هو المطابق للقرآن تماماً ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، فقال : ﴿ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ثم قال : ﴿ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

وليس القلب هم المخ كما يظنه بعض الجهال ، فالعقل في القلب ، ولكن المخ لا شك أن له أثراً في أعمال العبد ، في حركاته ، وفي سكناته ، لكنهم قالوا إن المخ مثل الخادم ، يهئ الأشياء ويطبئها ، ثم يبعث بها إلى القلب ، ثم يصدر القلب الأوامر على المخ من أجل أن المخ يدير الأعصاب وبقية الجسم فيكون هذا المخ خادماً للقلب عند تصدير الأشياء إليه واستصدارها منه ، فالأشياء تمر من القلب ذاهبة وآتية إلى المخ ، والمخ هو الذي يحرك البدن ، ولذلك إذا اختل المخ اختل كل شيء . ثم قال ﷺ : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » يعني : لو لم يكن من الشر للمسلم إلا أن يحقر أخاه ويستصغره ويستذله ، لكان كافياً في الإثم والعياذ بالله ، وفي هذا التحريم أعظم زاجر من احتقار أخيك المسلم ، وأن الواجب عليك أن تحترمه وتعظمه بما فيه من الإسلام والإيمان . ثم قال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » : « كل المسلم على المسلم حرام دمه » فلا يعتدى على المسلم بقتل أو جرح أو غير ذلك « وماله » فلا يؤخذ ماله ، لا غصباً ، ولا سرقة ، ولا خيانة ، ولا دعوى ما ليس له ، ولا غير ذلك بأي طريق ، فلا يحل لك أن تأخذ مال أخيك بغير حق فإنه حرام عليك .

« وعرضه » بأن لا تنتهك عرضه ، وتتكلم فيه بين الناس ، سواء كنت صادقاً فيما تقول أو كاذباً ، لأن النبي ﷺ لما سئل عن الغيبة فقال : « ذكرك أخاك بما يكره » قالوا : يا رسول الله ، أرايت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » فالواجب على المسلم أن يحترم أخاه في ماله وعرضه ودمه كما قال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

٢٣٥ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تتاجشوا ، ولا تباعضوا ، ولا تذايبروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يحرقه ، ولا يخذله . التقوى ههنا - ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ

يَحْقِرُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ . كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِزُّهُ » ^(١) . رواه مسلم .
« النَّجَشُ » : أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ سِلْعَةٍ يُتَادَى عَلَيْهَا فِي الشُّوقِ وَنَحْوِهِ ، وَلَا رَغْبَةَ لَهُ فِي شِرَائِهَا بَلْ
يَقْصِدُ أَنْ يُغَرَّغَ غَيْرَهُ ، وَهَذَا حَرَامٌ . « وَالتَّدَايُرُ » : أَنْ يُغْرِضَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَيَهْجُرُهُ وَيَجْعَلَهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي
وَرَاءَ الظَّهْرِ وَالذُّبْرِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تحاسدوا »
أي لا يحسد بعضكم بعضا . والحسد أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره . هذا هو الحسد ،
ومثاله : أن تكره أن الله أنعم على هذا الرجل بالمال ، أو بالبنين ، أو بالزوجة ، أو بالعلم ، أو بالعبادة ،
أو بغير ذلك من النعم ، سواء تمنيت أن تزول أم لم تمن .

وإن كان بعض العلماء يقول : إن الحسد أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره ، لكن هذا أخبثه وأشدّه ،
وإلا فمجرد كراهة الإنسان أن ينعم الله على الشخص فهو حسد . والحسد من خصال اليهود ، فمن
حسد فهو متشبه بهم والعياذ بالله ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كَغَارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال تعالى فيهم : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَاهُمُ آلَ إِزْرِهِمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤] ولا فرق بين أن تكره
ما أنعم الله به على غيرك ليعود هذا الشيء إليك ، أو ليرتفع عن أخيك وإن لم يعد إليك .

واعلم أن في الحسد مفسدات كثيرة :

منها : أنه تشبه باليهود أخبث عباد الله وأخس عباد الله ، الذين جعل الله منهم القردة والخنازير
وعبد الطاغوت .

ومنها : أن فيه دليل على خبث نفس الحاسد ، وأنه لا يحب لإخوانه ما يحب لنفسه ، لأن من
أحب لإخوانه ما يحب لنفسه لم يحسد الناس على شيء ، بل يفرح إذا أنعم الله على غيره بنعمة
ويقول : اللهم آتني مثلها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَ وَرَبَّاءُ كُنَّ يَتَنَبَّهْنَ وَاسْتَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٣٢] .

ومنها : أن فيه اعتراضا على قدر الله ﻋَظِمْ وقضائه ، وإلا فمن الذي أنعم على هذا الرجل ؟ الله ﻋَظِمْ ،
فإذا كرهت ذلك فقد كرهت قضاء الله وقدره ، ومعلوم أن الإنسان إذا كره قضاء الله وقدره فإنه على
خطر في دينه - نسأل الله العافية - لأنه يريد أن يزاحم ربَّ الأرباب جلَّ وعلا في تدييره وتقديره .

ومن مفسدات الحسد : أنه كلما أنعم الله على عباده نعمة التهيت نار الحسد في قلبه ، فصار دائما في
حسرة ودائما في غم ، لأن نعم الله على العباد لا تحصى ، وهو رجل خبيث كلما أنعم الله على عبده

نعمة غلى ذلك الحسد في قلبه حتى يحرقه .

ومن مفسد الحسد : أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب كما قال ﷺ : « إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (١) .

ومن مفسده : أنه يعرقل الإنسان عن السعي في الأشياء النافعة ، لأنه دائماً يفكر ويكون في غم ؛ كيف جاء هذا الرجل مالاً ؟ كيف جاءه علم ؟ كيف جاءه ولد ؟ كيف جاءه زوجة وما أشبه ذلك ، فتجده دائماً متحسراً منطوياً على نفسه ، ليس له هم إلا تتبع نعم الله على العباد واغتمامه بها نسأل الله العافية .

ومن مفسد الحسد : أنه ينشئ عن نفس شريرة ضيقة ، لا تحب الخير ، وإنما هي نفس أنانية تريد أن يكون كل شيء لها .

ومن مفسد الحسد أيضاً : أنه لا يمكن أن يغير شيئاً مما قضاه الله ﷻ أبداً ، مهما عملت ، ومهما كرهت ، ومهما سعت لإخوانك في إزالة نعم الله عليهم ، فإنك لا تستطيع شيئاً .

ومن مفسده : أنه ربما يترقى بالإنسان إلى أن يصل إلى درجة العائن ، والعائن الذي تسميه النحوت يعين الناس ، لأن العائن أصله أن نفسه شريرة حاسدة حاقدة ، إذا رأى ما يعجبه انطلق من هذه النفس الخبيثة مثل السهم حتى يصيب بالعين ، فالإنسان إذا حسد وصار فيه نوع من الحسد ، فإنه يترقى به الأمر حتى يكون من أهل العيون الذين يؤذون الناس بأعينهم ، ولا شك أن العائن عليه من الوبال والنقمة بقدر ما ضرَّ العباد . إن ضرهم بأموالهم فعليه من ذلك إثم أو بأبدانهم أو بمجتمعهم ، ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى تضمين العائن كل ما أتلف ، يعني إذا نحت أحداً وأتلف شيئاً من ماله أو أولاده أو غيرهم ، فإنه يضمن ، كما أنهم قالوا : إن من اشتهر بذلك ، فإنه يجب أن يُحبس إلا أن يتوب ، يحبس اتقاء شره ، لأنه يؤذي الناس ويضرهم ، فيحبس كفأ لشره .

ومن مفسد الحسد : أنه يؤدي إلى تفريق المسلمين لأن الحاسد مكروه عند الناس مبغض ، والإنسان الطيب القلب الذي يحب لإخوانه ما يحبه لنفسه ، تجده محبوباً من الناس ، الكل يحبه . ولهذا دائماً نقول : والله فلان هذا طيب ما في قلبه حسد ، وفلان رجل خبيث حسود وحقود وما أشبه ذلك .

فهذه عشر مفسد كلها في الحسد ، وبهذا نعرف حكمة النبي ﷺ حيث قال : « لا تحاسدوا » أي : لا يحسد بعضكم بعضاً ، فإن قال قائل : ربما يجد الإنسان في نفسه أنه يحب أن يتقدم على غيره في الخير ، فهل هذا من الحسد ؟ فالجواب أن ذلك ليس من الحسد بل هذا من التنافس في الخيرات ، قال الله تعالى : ﴿ لِيُثْلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ ﴾ [الصفات : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] فإذا أحب الإنسان أن يتقدم على غيره في الخير ، فهذا ليس من الحسد في شيء ، الحسد أن يكره الخير لغيره .

واعلم أن للحسد علامات : منها أن الحاسد يحب دائماً أن يخفي فضائل غيره ، فإذا كان إنسان ذو

مال ، ينفق ماله في الخير من صدقات ، وبناء مساجد ، وإصلاح طرق ، وشراء كتب يوقفها على طلبة العلم وغير ذلك ، فتجد هذا الرجل الحسود إذا تحدث الناس على هذا المحسن يسكت وكأنه لم يسمع شيئاً ، هذا لاشك أن عنده حسداً ، لأن الذي يحب الخير يحب نشر الخير للغير ، فإذا رأيت الرجل إذا تكلم عن أهل الخير يأنصاف وأثنى عليهم وقال هذا فيه خير وهذا محسن ، وهذا كريم ، فهذا يدل على طيب قلبه وسلامته من الحسد . نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الحسد ومن منكرات الأخلاق والأعمال .

أما قوله : « ولا تناجشوا » فالنجش هو أن يزيد في السلعة على أخيه وهو لا يريد شراءها ، وإنما يريد أن يضرب المشتري أو ينفع البائع أو الأمرين جميعاً .

مثال ذلك : عرضت سلعة في السوق فصار الناس يتزايدون فيها ، فقام رجل فجعل يزيد فيها وهو لا يريد الشراء ، تسام بمائة فقال بمائة وعشرة وهو لا يريد أن يشتري ، ولكنه يريد أن يزيد الثمن على المشتري ، أو يريد أن ينفع البائع فيزيد الثمن له أو الأمرين جميعاً ، فهذا حرام ولا يجوز لما فيه من العدوان . أما إذا زاد الإنسان في الثمن عن رغبة في السلعة ولكن لما ارتفعت قيمتها تركها فهذا لا بأس به ، فإن كثيراً من الناس يزيد في السلعة لأنه يرى أنها رخيصة ، فإذا زادت قيمتها تركها فهذا ليس عليه بأس . كما أن من الناس من يزيد السلعة يريد بها ويزيد في ثمنها حتى تخرج عن قيمتها كثيراً .

فالناس على زيادتهم في السلعة على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : نجش وهو حرام ، الثاني : يزيد فيها لأنه يرى أنها رخيصة ، وأنها ستكسبه ، وليس له قصد في عين السلعة ولا يريد بها بعينها ، لكن لما رأى أنها رخيصة وأنها ستكسبه جعل يزيد ، فلما ارتفعت قيمتها تركها فهذا أيضاً لا بأس به . الثالث : أن يكون له غرض في السلعة ، يريد أن يشتري هذه السلعة ، فيزيد حتى يطيب خاطره ويظفر بها ، فهذا أيضاً لا بأس به .

وقوله ﷺ : « ولا تباغضوا » أي لا يبغض بعضهم بعضاً ، وهذا بالنسبة للمؤمنين بعضهم مع بعض ، فلا يجوز للإنسان أن يبغض أخاه أي : يكرهه في قلبه ؛ لأنه أخوه ، ولكن لو كان هذا الأخ من العصاة الفسقة ، فإنه يجوز لك أن تبغضه من أجل فسقه ، لا تبغضه بغضاً مطلقاً ، لكن أبغضه على ما فيه من المعصية ، وأحبه على ما فيه من الإيمان .

ومن المعلوم أننا لو وجدنا رجلاً مسلماً يشرب الخمر ويشرب الدخان ويجر ثوبه خيلاء ، فإننا لا نبغضه كما نبغض الكافر ، فمن أبغضه كما يبغض الكافر فقد انقلب على وجهه ، كيف تسوي بين مؤمن عاص فاسق ، وبين الكافر ؟ هذا خطأ عظيم . ربما بعض الناس يكره المؤمن الذي عنده هذا الفسق أكثر مما يكره الكافر ، وهذا - والعياذ بالله - من انقلاب الفطرة ، فالمؤمن مهما كان خيراً من الكافر .

فأنت أبغضه على ما فيه من المعصية وأحبه على ما معه من الإيمان ، فإن قلت : كيف يجتمع حب وكرهية في شيء واحد ؟ فالجواب : أنه يمكن أن يجتمع حب وكرهية في شيء واحد ، أرأيت لو أن الطبيب وصف لك دواءً مرًا متن الرائحة ، ولكنه قال أشربه وتشفى بإذن الله ، فإنك لا تحب هذا

تغضب» (١) .

قد يقول الإنسان : إن الغضب جمة يلقبها الشيطان في قلب ابن آدم ، كما جاء في الحديث (٢) ، فلا سبيل له إلى إخماده ، ونقول : بل له سبيل ، افعل الأسباب التي تخفف الغضب حتى يزول عنك الغضب . قال : « ولا تدابروا » فهل المراد ألا يولي بعضكم دبر بعض من التدابير الحسي ؟ بمعنى مثلاً أن تجلس وتخلي الناس وراءك في المجالس . نعم هذا من المدايرة ، ومن المدايرة أيضاً المقاطعة في الكلام حين يتكلم أخوك معك وأنت قد صدت عنه ، أو إذا تكلم وليت وخليته ، فهذا من التدابير ، وهذا التدابير حسي . وهناك تدابير معنوي ، وهو اختلاف الرأي ، بحيث يكون كل واحد منا له رأي مخالف للآخر ، وهذا التدابير في الرأي أيضاً نهى عنه الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

وعندي : أن من التدابير ما يفعله بعض الإخوة إذا سلم من الصلاة تقدم على الصف مقدار شبر أو نحوه ، فهذا فيه من نوع من التدابير ، ولهذا شكاً إلي بعض الناس هذه الحال ، قال : بعض الناس إذا سلمنا تقدم قليلاً ثم يحول بيني وبين الإمام ، لا سيما إذا كان هناك درس فإنه يحول بيني وبين مشاهدة الإمام ، ومعلوم أن الإنسان إذا كان يرى المدرس كان أنبه له وأقرب للفهم والإدراك ، فبعض الناس يكره هذا الشيء ، لذا أيضاً ينبغي للإنسان أن يكون ذا بصيرة وفطنة فلا تتقدم على إخوانك وتلقيهم وراءك ، إذا كان بودك أن تتوسع فقم وتقدم بعيداً واجلس إذا كنت في الصف الأول ، وإن كنت في الصف الثاني تأخر ، أما أن تتقدم على الناس وتبقي لهم ظهرك فهذا فيه نوع من سوء الأدب ، وفيه نوع من التدابير . فينبغي في هذه المسألة وفي غيرها أن يتفطن الإنسان لغيره ، بل لا يكون أنانيًا يفعل فقط ما طرأ على باله فعله ، دون مراعاة للناس ودون حذر من فعل ما ينتقد عليه .

أما الجملة الخامسة فهي قوله : « ولا يبيع بعضكم على بيع بعض » لا يبيع بعضكم على بيع بعض لأن هذا يؤدي إلى الكراهية والعداوة والبغضاء . ومثال بيع الإنسان على أخيه أن يذهب لمن اشترى سلعة من شخص بمائة فيقول أن أعطيك مثلها بثمانين ، أو أعطيك أحسن منها بمائة فيرجع المشتري ويفسخ العقد الأول ويعقد مع الثاني ، ففي هذا عدوان ظاهر على حق البائع الأول ، وهذا العدوان يوجب العداوة والبغضاء بين المسلمين .

ومثل ذلك الشراء على شرائه ، مثل : أن يذهب إلى شخص باع سلعة بمائة فيقول له أنا أشتريها منك بمائة وعشرين ، فيذهب البائع ويفسخ العقد ويبيع على الثاني ، فهذا أيضاً حرام لأنه بمعنى البيع على البيع .

ولكن هل هذا خاص في زمن الخيار أو عام ؟ .

الحديث عام : أنه لا يحل لك أن تبيع على بيع أخيك سواء في زمن الخيار أو لا ، وقال بعض

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦) ، والترمذي في سننه (٢٠٢٠) .

(٢) انظر الحديث في سنن الترمذي (٢١٩١) ، وانظر مسند الإمام أحمد (١٩/٣) .

العلماء : إنه محمول على ما إذا كان ذلك في زمن الخيار ، لأنه إذا انتهى زمن الخيار فإنه لا يستطيع أن يفسخ العقد ، ومثال ذلك رجل باع على شخص سيارة بعشرة آلاف ريال ، وجعل له الخيار ثلاثة أيام ، فذهب شخص إلى المشتري وقال : أنا أعطيك أحسن منها بعشرة آلاف ريال يسهل على المشتري أن يذهب للبائع ويقول فسخ العقد ، أو يذهب شخص إلى البائع يقول : سمعت أنك بعت سيارتك على فلان بعشرة آلاف ريال ، أنا أعطيك أحد عشر ألفاً فيفسخ البيع ويرد ويبيعها على الثاني .

أما إذا كان بعد انتهاء المدة : فقال بعض العلماء : أنه لا بأس ، يعني بعد أن باعه وجعل له الخيار ثلاثة أيام وانتهت الأيام الثلاثة فلا بأس أن يذهب إلى الشخص الذي اشتراها ويقول : أن أعطيك مثلها بأقل ، أو أحسن منها بالثمن الذي اشتريته به . وعللوا ذلك بأنه لا يمكن حيث أن يفسخ البيع لانتهاء زمن الخيار . ولكن ظاهر الحديث العموم ؛ لأنه وإن كان لا يمكنه أن يفسخ البيع لانتهاء زمن الخيار فإنه قد يحاول أن يوجد مفسداً للعقد ، أو على الأقل يندم على شرائه ، ويعتقد أن البائع غبنه ^(١) وأنه لعب عليه ، فيحدث له بذلك العداوة والبغضاء ، وهذا مع قرب المدة أما إذا طالت المدة فلا بأس بها ؛ لأنه إذا طالت المدة فإنه من المتعذر أو المتعسر كثيراً أن يفسخ العقد .

والحاصل : أن لدينا ثلاث حالات :

الحال الأولى : أن يكون البيع أو الشراء على أخيه في زمن الخيار ، فلا شك في أنه حرام ، والحال الثانية : أن يكون بعد انتهاء زمن الخيار بمدة قريبة ، ففيه خلاف بين العلماء والصحيح أنه حرام ، والحال الثالثة : أن يكون بعد زمن بعيد ، كشهر أو شهرين أو أكثر ، فهذا لا بأس به ، ولا حرج فيه ، لأن الناس يتبادلون السلع فيما بينهم على هذا الوجه ، وعلى وجوه أخرى .

ومثل ذلك : الإجارة على إجارته ، مثل أن يذهب شخص إلى آخر استأجر بيتاً من إنسان السنة بألف ريال ، وقال له أنا عندي لك أحسن منه بثمائمائة ريال ، فهذا حرام لأنه عدوان كالبيع على بيعه . ومثل ذلك أيضاً السوم ^(٢) على سومه ، وقد جاء صريحاً فيما رواه مسلم ^(٣) ، ويسوم على سومه كما إذا سام شخص سلعة من آخر ، وركن إليه صاحب السلعة ، ولم يبق إلا العقد ، مثل أن يقول بعها علي بألف فيركن إليه البائع ، ولكن لم يتم العقد ، بل يجزم أن يبيع عليه ، فيأتي إنسان آخر ويقول أنا أعطيك بها ألفاً ومائة فإن هذا لا يجوز . لأن النبي ﷺ قال : « لا يسم على سوم أخيه » .

ومثل ذلك أيضاً : في النكاح ، إذا خطب شخص من آخر فلا يحل لأحد أن يخطب على خطبته ، لقول النبي ﷺ : « ولا يخطب على خطبة أخيه » ^(٤) وكل هذا احتراماً لحقوق المسلمين بعضهم على بعض ، فلا يحل للإنسان أن يعتدي على حق إخوانه ؛ لا يبيع ولا شراء ولا إجارة ولا سوم ولا نكاح ولا غير ذلك من الحقوق .

بقي الكلام على قوله - عليه الصلاة والسلام - : « التقوى ههنا » ويشير إلى صدره ، وقد سبق لنا أن

(٢) السوم هنا : المغالة .

(١) غبنه : غبنه في البيع أي غلبته ونقصه .

(٣) (٤ ، ٤) انظر صحيح مسلم في النكاح (٣٨) .

المعنى أن التقوى في القلب ، فإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ، وإذا زاغ القلب ^(١) زاغت الجوارح - والعياذ بالله - قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْعَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَنْعُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٨] .

واعلم أن زيغ القلب لا يكون إلا بسبب الإنسان ، فإذا كان الإنسان يريد الشر ولا يريد الخير فإنه يزيغ قلبه والعياذ بالله ، ودليل هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَا الْتَقَىٰ قُلُوبُهُمَا فِي الْأَنْسَرَةِ إِنْ يَسْمَعْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٠] .

فإذا علم الله من العبد نية صالحة وإرادة للخير يسر الله له ذلك وأعاناه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَعْطَىٰ زَاغُوا وَرَأَىٰ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنِيَرُنَا بَإَيْسَرِ ۚ ﴾ [الليل : ٥-٧] .

وقوله - عليه الصلاة والسلام - : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » يعني لو يكن للإنسان من الشر إلا أن يحقر أخاه المسلم لكان كافياً ، وهذا يدل على كثرة إثم من حقر إخوانه المسلمين ، لأن الواجب على المسلم أن يعظم إخوانه المسلمين ويكبرهم ويعتقد لهم منزلة في قلبه ، وأما احتقارهم وازدراؤهم ^(٢) فإن في ذلك من الإثم ما يكفي - نسأل الله السلامة .

ثم قال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . يعني أن المسلم حرام على المسلم في هذه الأمور الثلاثة ، أي في كل شيء ؛ لأن هذه الأمور الثلاثة تتضمن كل شيء ، الدم : كالقتل والجراح وما أشبهها ، والعرض : كالغيبية ، والمال : كأكل المال ، وأكل المال له طرق كثيرة : منها السرقة ، ومنها الغصب - وهو أخذ المال قهراً - ، ومنها أن يجحده ما عليه من الدين لغيره ، ومنها أن يدعي ما ليس له ، وغير ذلك ، وكل هذه أشياء حرام ، ويجب على المسلم أن يحترم أخاه في ماله ودمه وعرضه .

٢٣٦ - وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » ^(٣) متفق عليه .

٢٣٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرْهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرْهُ ؟ قَالَ : « تَحْمِزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ نَصْرُهُ » ^(٤) رواه البخاري .

(١) زاغ القلب : مال عن الهدى والقصد .

(٢) ازدراؤهم : احتقارهم وانتقاصهم .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣) ، ومسلم في الإيمان (٧١) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥) .

(٤) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٤) ، والترمذي بنحوه في الفتن (٢٢٥٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٩٩/٣) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » لا يؤمن : يعني لا يكون مؤمناً حقاً تام الإيمان إلا بهذا الشرط ؛ أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير ، وما يحب لنفسه من ترك الشر ، يعني ويكره لأخيه ما يكره لنفسه ، هذا هو المؤمن حقاً ، وإذا كان الإنسان يعامل لإخوانه هذه المعاملة فإنه لا يمكن أن يغشهم أو يخونهم ، ولا يكذب عليهم ، ولا يعتدي عليهم ، كما أنه لا يحب أن يفعل به مثل ذلك . وهذا الحديث : يدل على أن من كره لأخيه ما يحبه لنفسه ، أو أحب لأخيه ما يكرهه لنفسه فليس بمؤمن ، يعني ليس بمؤمن كامل الإيمان .

ويدل على أن ذلك من كبائر الذنوب إذا أحببت لأخيك ما تكره لنفسك أو كرهت له ما تحب لنفسك .

وعلى هذا فيجب عليك أخي المسلم أن تربي نفسك على هذا ، على أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك حتى تحقق الإيمان ، وصح عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتأته منيته ^(١) وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويحب أن يأتي إلى الناس ما يؤتى إليه » ^(٢) الأول : حق الله ، والثاني حق العباد ، تأتيك المنية وأنت تؤمن بالله وباليوم الآخر - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم كذلك - وأن تحب أن يأتي لأخيك ما تحب أن يؤتى إليك .

وأما حديث أنس الثاني من قول النبي ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » النصر بمعنى الدفاع عن الغير أي دفع ما يضره ، انصر أخاك أي : ادفع ما يضره ، سواء كان ظالماً أو مظلوماً ، فقال رجل : يا رسول الله ، أرايت إن كان ظالماً فكيف أنصره ؟ ولم يقل : فلا أنصره ، بل قال : كيف أنصره ؟ يعني سأنصره ولكن أخبرني كيف أنصره ، قال : « تحجزه - أو قال : « تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره » ، فإذا رأيت هذا الرجل يريد أن يعتدي على الناس فتمنعه فهذا نصره أي : بأن تمنعه ، أما إذا كان مظلوماً فنصره أن تدفع عنه الظالم .

وفي هذا دليل على وجوب نصره المظلوم ، وعلى وجوب نصر الظالم على هذا الوجه الذي ذكره النبي ﷺ .

* * *

٢٣٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَفْسٌ : رَدُّ السَّلَامِ ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ ، وَتَشْيِيتُ الْعَاطِسِ » متفق عليه .

(١) منيته : موته .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦) ، والإمام أحمد في مسنده (١٩٢/٢) .

وفي رواية لمسلم: « حَقُّ الْمُسْلِمِ سِتٌّ : إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجَبْتَهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَأَنْصَحْتَهُ ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمَّمْتَهُ ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدُّهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَأَتْبَعْتَهُ » (١) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا ما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه في بيان حقوق المسلم على أخيه ، وحقوق المسلم على أخيه كثيرة ، لكن النبي ﷺ أحياناً يذكر أشياء معينة من أشياء كثيرة عناية بها واحتفاءً بها ، فمن ذلك ما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام » يعني إذا سلم عليك فرد عليه ، وفي الحديث الثاني « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه » .

فهذان أمران : ابتداء السلام المأخوذ من قوله « إذا لقيته فسلم عليه » ، ورد السلام المأخوذ من قوله « رد السلام » ، فابتداء السلام سنة مؤكدة ، وإذا كان الحامل لتركه الهجر كان حراماً فيما زاد على ثلاثة أيام ، أما في الثلاثة أيام فأقل فلا بأس أن تهجره ، ومن المعلوم أن الإنسان لن يهجر أخاه إلا لسبب ، فأجاز النبي - عليه الصلاة والسلام - للمسلم أن يهجر أخاه ثلاثة أيام فأقل ، لأن الإنسان بشر ، فقد يكون في النفوس شيء ، ولا يتحمل المرء أن يسلم عليه ، أو أن يرد السلام ، فوُضِعَ له ثلاثة أيام فأقل .

وابتداء السلام يكون من الصغير على الكبير ، ومن الماشي على القاعد ، ومن الراكب على الماشي ، كل بحسبه وصيغة السلام المشروعة أن يقول الإنسان : السلام عليك ، أو السلام عليكم ، كلاهما جائز ، والرد المشروع أن يقول : عليك السلام ، أو : وعليكم السلام . بهذا يتضح لنا أن النبي ﷺ بين أن من الحقوق التي للمسلم على أخيه : السلام ردّاً وابتداءً . وحكم السلام : أن ابتداءه سنة ورده فرض ، فرض عين على من قصد به ، وفرض كفاية إذا قصد به جماعة ، فإنه يجزئ رد أحدهم ، والسلام حسنة من الحسنات إذا قام به الإنسان فله عشر أمثاله ، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، يعني إذا سلمت على أخيك وقلت السلام عليك فلك عشر حسنات أجراً باقياً تجده أحوج ما تكون إليه .

ونحن نعلم أنه لو قيل لشخص كلما لقيت أحداً فسلمت عليه فلك بكل تسليمة درهم واحد ، لوجدت الإنسان يطلب الناس ليسلم عليهم ابتغاء هذا الدرهم الواحد ، مع أن الدرهم الواحد يفتى ويزول ، والأجر والثواب الباقي نجدنا - عاملنا الله وإياكم بعفوه - فاترين فيه ، متهاونين به .

فالذي ينبغي لك كلما لقيك أحد من إخوانك المسلمين أن تسلم عليه ، أما غير المسلم فلا تسلم عليه ، لأن النبي ﷺ قال « لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام » ، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٠) - واللفظ له - ، ومسلم بنحوه في السلام (٤ ، ٥) .

أضيقه ^(١) فاليهودي والنصراني والمشرک والملحد والمردد كالذي لا يصلي ، والمبتدع بدعة يكفر بها ، كل هؤلاء لا يحل ابتداء السلام عليهم ، ولو كانوا أقرب الناس إليك ، لكن إذا سلموا فرد عليهم بمثل ما سلموا به ، إذا قالوا : أهلاً ومرحباً ، فقل : أهلاً ومرحباً ، وإذا قالوا : السلام عليكم قل : وعليكم السلام ، وإذا شككت هل هو يقول : السلام عليكم ، أو يقول : السلام عليكم ، فقل : وعليكم .

بل إذا لم تتيقن أنه قال : السلام عليكم باللام فقل : وعليكم ، وذلك أن اليهود كانوا يميرون بالنبي ﷺ وأصحابه فيسلمون عليه لكن يقولون : السلام عليكم يدغمونها ، والسلام يعني : الموت ، فقال النبي ﷺ : « إن اليهود إذا سلموا عليكم يقول أحدهم : السلام عليكم . فقل : عليك » ^(٢) أي إن كانوا يدعون لنا بالسلام فعليهم السلام ، وإن كانوا يدعون علينا بالموت فعليهم الموت ، وهذا من العدل ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَعِيُوا إِيَّاهُ أَوْ رُؤُوسَهُ ﴾ [النساء : ٨٦] فهذا من العدل ، ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه : « أحكام أهل الذمة » أنهم إذا قالوا : السلام عليكم بكلام بين فلك أن تقول : عليكم السلام .

وأما أهل المعاصي : فإن كان في هجرهم فائدة فاهجرهم ، والفائدة أن يقلعوا عن معصيتهم ، وإن لم يكن في هجرهم فائدة فهجرهم حرام ، لأنهم من المؤمنين ، وإذا كانوا من المؤمنين فقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » ^(٣) ، أما إذا كان يفيد ، بحيث يرتدعون عن المعصية وينتهون عنها فهجرهم مطلوب ، إما واجب وإما مستحب .

وانظر إلى ما حصل من فائدة هجر كعب بن مالك رضي الله عنه وصاحبيه ؛ حين تخلفوا عن غزوة تبوك فخلفوا عن قبول عذرهم ، انظر ماذا حصل لهم من قوة الإيمان والصبر على ما حصل ، وانتظار الفرج من الله ﷻ ما نالوا به ما هو من أعظم الثوابات ، نالوا به كلام رب العالمين الذي يقرأ في الليل والنهار من كل مسلم حتى في الصلوات . من من الناس يثنى عليه في الصلوات الفريضة والنافلة ؟ ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَى يَوْمِئِذٍ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٤) [التوبة : ١١٨] ، وهذا نص ، وإن كانوا لم يذكروا بأسمائهم ، لكن ذكروا بوصف لا ينطبق على من سواهم .

وأما ما ذهب إليه كثير من المفسرين في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْخُذُ عِنْدَ مَنْ يَقْتَرِحُ تَجَرَّتْ ﴾ إِلَّا آيَاتَهُ وَتَوَرَّيْهِ أَلْعَلَّ ﴿ وَلَسَوْفَ يَرَى ﴾ [البقرة : ١٩-٢١] بأن هذا هو أبو بكر فهذا ليس كالنص الخاص لهؤلاء الثلاثة ، ولذلك لا نعلم أن أحداً من الصحابة أثني عليه بهذا النص مثل ما أثني على هؤلاء الثلاثة .

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، والترمذي بنحوه أيضاً في سننه (١٦٠٢ ، ٢٧٠٠) ، وأحمد في مسنده (٢٦٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٨) ومسلم في السلام (٨) والإمام أحمد في مسنده (٥٨/٢) كما أخرجه البخاري في استئابة المرتدين (٦٩٢٦) بلفظ « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧) ومسلم في البر والصلة (٢٥) واللفظ له .

(٤) ﴿ يَمَّا رَجَبَتْ ﴾ : أي مع سعتها .

وقد هجرهم النبي - عليه الصلاة والسلام - (١) أربعين ليلة لا يكلمهم ، وأمر الناس أن لا يكلموهم فلم يكلمهم أحد ، وبعد تمام الأربعين أمرهم أن يعتزلوا نساءهم ، ولما جاء الرسول إلى كعب بن مالك - الرسول الذي أرسله النبي ﷺ بأن يعتزل امرأته - قال له كعب - : أطلقها ؟ - يعني فأنا مستعد - أم ماذا ؟ قال الرسول : لا أدري ، إن النبي ﷺ أمرك أن تعتزل امرأتك ولا أدري ، فانظر كيف كان هذا الامتثال العظيم مع هذه المحنة العظيمة التي لا ترد على قلب فينجو منها إلا من عصمه الله ﷻ .

فالمهم أن الهجر إذا كان ينفع في تقليل المعصية ، أو التوبة منها فإنه مطلوب ؛ إما على سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحباب ، أما إذا كان لا ينفع وإنما يزيد العاصي عتوًا ونفورًا من أهل الخير فلا تهجره ، لأن الإنسان مهما كان عنده من المعاصي وهو مسلم فهو مؤمن ، لكنه ناقص الإيمان . أما الحق الثاني : فهو عيادة المريض : المريض إذا مرض وانقطع في بيته فإن له حقًا على إخوانه المسلمين أن يعودوه ويذكروه ما ينبغي أن يذكروه به ، من التوبة والوصية وكثرة الذكر والاستغفار وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال الصالحة ، وكذلك يدعون له بالشفاء ؛ مثل أن يقولوا : لا بأس طهور (٢) إن شاء الله وما أشبه ذلك .

وعيادة المريض فرض كفاية ، لا بد أن يعود المسلمون أخاهم وإذا عاده واحد منهم حصلت به الكفاية ، وقد تكون فرض عين إذا كان المريض من الأقارب ، وعُدَّت عيادته من الصلة ، فإن صلة الأرحام واجبة فتكون فرض عين .

واعلم أن العلماء - رحمهم الله - ذكروا لعيادة المريض آدابًا منها : ألا يكثر العائد للمريض محادثته بالسؤال عن حاله وعن نموه وأكله وشربه وما أشبه ذلك ، إلا إذا كان يأنس بهذا ويُسر به ، أما إذا كان يتضجر ولا يحب أن يكثر أحد الكلام معه كما هو حال بعض المرضى ، فإنك لا تتبع معه الكلام ولا تضجره بالمساءلات .

لذلك قالوا : ينبغي ألا يكثر المقام عنده ويطيل ، لأنه قد يكون له حاجة مع أهله أو في نفسه ، ولا يحب أن يطيل الجلوس عنده أحدٌ ، لكن إذا علمت أنه يستأنس بهذا ويفرح ، فإنك تنظر ما فيه المصلحة . قالوا : ينبغي أيضًا ألا يزوره في الأوقات التي يكون الغالب فيها النوم والراحة كالقيلولة والليل وما أشبه هذا ، لأن ذلك يضجره وينكد عليه ، بل يكون بكرة وعشيًا حسب ما تقتضيه الحال .

قالوا : ولا ينبغي أيضًا أن يكثر من عيادته ، بحيث يأتيه صباحًا ومساءً ، إلا إذا اقتضت الحاجة ذلك .

(١) انظر حديث (٢١) من هذا الكتاب .

(٢) انظر الحديث في صحيح البخاري في التوحيد (٧٤٧٠) والمرضى (٥٦٥٦) وطهور خير مبتدأ محذوف أي : هو طهور لك من ذنوبك أي : مطهره .

والحاصل أن العائد للمريض ينبغي أن يراعي المصلحة في كل ما يكون مع المريض وفي كل ما يترك ، ثم إنه إذا كان المرض مما يُعلم أن له دواءً معيناً فينبغي أن تذكر له هذا الدواء ، لأن الدواء مباح بل هو سنة إذا رُجي نفعه وغلب على الظن ، لأن النبي ﷺ قال : « تداووا ولا تداووا بحرام » ^(١) . وكذلك ينبغي أن يسأله كيف يصلي ؟ لأن كثيراً من المرضى يجهل هل يصلي بالماء أو بالتيمم ؟ وهل يصلي كل صلاة في وقتها أو يجمع ؟ لأن هذا أمر مهم قد يخفى على بعض المرضى .

حتى إن بعض المرضى يظنون أنه إذا جاز لهم الجمع جاز لهم القصر وهم في بلادهم ، وهذه من الأشياء التي يجب التنبيه لها ، نعم إذا كان المريض مسافراً إلى مستشفى في غير بلده فله أن يقصر ويجمع ، أما إذا كان في بلده فلا يقصر ، لكن إن شق عليه أن يصلي كل صلاة في وقتها فله الجمع ولو كان في بلده ، لكنه جمع بلا قصر ، لأن الجمع والقصر لا يتلازمان ؛ قد يشرع القصر دون الجمع ، وقد يشرع الجمع دون القصر ، وقد يشرعان جميعاً ، فالمسافر الذي يشق عليه أن يصلي كل صلاة في وقتها بحيث يكون قد جد به السير يُشرع له الجمع والقصر ، والمسافر المقيم يشرع له القصر دون الجمع ، وإن جمع فلا بأس .

أما الحق الثالث : فهو : اتباع الجنائز وتشيعها ، فإن من حق المسلم على أخيه أن يتبع جنازته من بيته إلى المصلى - سواء في المسجد ، أو في مكان آخر - إلى المقبرة ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من شهد الجنازة حتى يُصلي عليها فله قيراط ، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان » . قيل : وما القيراطان ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين » ^(٢) وفي رواية : « أصغرهما مثل أحد » ^(٣) وهذا فضل عظيم وأجر كبير .

ولما بلغ عبد الله بن عمر ؓ هذا الحديث قال : لقد فرطنا في قرارات كثيرة ، ثم صار بعد ذلك لا يرى جنازة إلا تبعها ﷺ لأن هذه غنيمة !! غنيمة أن يحصل الإنسان مثل الجبلين العظيمين في عمل يسير ، وهذا الأجر متى يلقاه ؟ يلقاه في يوم هو أحوج ما يكون إليه ؛ في يوم ليس عنده درهم ، ولا دينار ولا متاع ، ولا قرابة ، ولا زوجة تنفعه يوم القيامة ، إلا العمل الصالح ، فهو إذا تبع الجنازة حتى يصلي عليها ، ثم حتى تدفن ، فله قيراطان مثل الجبلين العظيمين أصغرهما مثل أحد .

وينبغي لمن اتبع الجنازة أن يكون خاشعاً ، مفكراً في مآله ^(٤) ، يقول لنفسه : يا نفسي أنت مآلك كمال هذا الذي فوق أعناقنا ، عن قريب أو بعيد ، وربما يكون عن قريب ، ويتذكر هذا الرحيل ، يتذكر أن أقرب الناس إليه وأولى الناس به ، وأشفق الناس عليه ، من يسلمه إلى حفرة ويدفنه ويرمسه

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٨٧٤) ، والبيهقي في الكبرى (٥/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٢٥) ، ومسلم - واللفظ له - في الجنائز (٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٠١/٢) .

(٤) مآله : مرجعه وما هو صائر إليه .

ويتخلى عنه ، وأقرب الناس إليك الذي يحملك إلى مدفنك ثم ينصرف عنك ويدعك في هذا اللحد وحيداً بأعمالك ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولهذا قال العلماء : يكره للإنسان المتبع للجنائز أن يتحدث في شيء من أمور الدنيا ، أو أن يتبسم ويضحك .

وكذلك أيضاً إذا وصلت إلى المقبرة ، وجلست تنتظر دفنها ، فينبغي أن تفكر في مآلك ، وأنك سوف ينتظر دفنك كما انتظر دفن هذا الرجل ، وإذا كان حولك أناس وحدثهم بما حدث به النبي ﷺ أصحابه ، حينما خرج في جنازة رجل من الأنصار ، فأنتهى إلى القبر ولماً يلحد ، فجلس - عليه الصلاة والسلام - وحوله أصحابه ، وفي يده مخرصة ، أي : عود ينكت به الأرض ، يعتبر - عليه الصلاة والسلام - يفكر ويحدث أصحابه بما يكون عند الاحتضار ، وعند الدفن ، حتى يكون جامعاً بين الموعظة وبين تشييع الجنائز (١) .

ولكن ليست هذه الموعظة كما يفعله بعض إخواننا الآن في بعض المحلات ؛ حيث يقوم الرجل خطيباً يعظ الناس ، فإن هذا ليس معروفاً في عهد النبي - عليه الصلاة والسلام - ولا عهد أصحابه ، لكن لما جلس النبي ﷺ ينتظر لحد هذا الميت وجلس أصحابه حدثهم حديث المجالس بما ينفعهم وبما يناسب .

وكذلك كان - عليه الصلاة والسلام - حاضراً دفن إحدى بناته ، وكان على شفير القبر وعيناه تدمعان ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل وننكل على ما كتب لنا ؟ قال : « لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فيسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فيسرون لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ۖ فَسَنِيْرُهُ لِيْسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَفْتَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۖ فَسَنِيْرُهُ لِّلْعُسْرَى ۖ ﴾ (٢) [البقره: ٥-١٠] ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل السعادة ، الذين يسرون لليسرى وجنبوا العسرى .

فإذا شرعوا في الدفن فينبغي للإنسان أن يشارك في الدفن ؛ بأن يحثو يديه ثلاث حثيات ثم ينصرف ، وإن شاء شارك إلى انتهاء الدفن ، فإذا فرغوا من دفنه وقف عليه ، وإذا كان مطاعاً كالعالم ، قال للناس : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل ، فإن النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » (٣) الآن حين فرغ من دفنه وانتهى الناس منه وسلموه لعالم الآخرة يأتيه عالم الآخرة ؛ يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، فيجيب المؤمن قائلًا : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد - أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يجيب بهذا الجواب .

(١) انظر الحديث في سنن أبي داود (٤٧٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه في التفسير (٤٩٤٥ ، ٤٩٤٦ ، ٤٩٤٧ ، ٤٩٤٨) ، ومسلم في القدر (٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٣٢٢١) .

أما غير المؤمن المرتاب الشاك ، فيقول : ها ها لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، يعني : ولم يصل الإيمان إلى قلبه - والعياذ بالله ، فينبغي لك أن تقف بعد انتهاء الدفن وتقول : اللهم اغفر له ، اللهم ثبته ، اللهم اغفر له ، اللهم ثبته ، لأن النبي ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثاً ^(١) . فتدعو ثلاثاً ثم تنصرف ولا حاجة إلى إطالة الوقوف .

وإذا انصرف الناس عن الميت حتى إنه ليسمع قرع نعالمهم وهم ينصرفون عنه ، يسمع قرع النعال ، أي ضربه بالأرض وهم ينصرفون عنه ، جاءه ملكان : فأجلساه وسألاه عن ربه ودينه ونبيه ، ويجلسانه في القبر ، وإن كان القبر ضيقاً لكنه يجلس ، كما أن النائم الآن يرى نفسه أنه قائم ، وأنه ماش ، وأنه قاعد ، وهو ملتحف في فراشه لم يتحرك منه ، لأن أحوال البرزخ أبلغ من أحوال الدنيا وأعظم ، ففيه أشياء لا تنطبق على أحوال الدنيا ، فها هو الميت المؤمن يفسح له في قبره مد البصر ، والمقبرة كلها ليست بشيء ، فهي ليست مد البصر ، لكن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا ، وواجبنا فيما جاء في كتاب الله أو صح عن رسول الله ﷺ من أمور الآخرة ، أن نقول : سمعنا وصدقنا ، وأمنا ، وكل من عند ربنا ، والله على كل شيء قدير .

الحق الرابع : إجابة الدعوة : فمن حق المسلم على أخيه إذا دعاه أن يجيبه ، والإجابة إلى الدعوة مشروعة بلا خلاف بين العلماء فيما نعلم ، إذا كان الداعي مسلماً ، ولم يكن مجاهراً بالمعصية ، ولم تكن الدعوة مشتملة على معصية لا يستطيع إزالتها ، ولكنها لا تجب عند جمهور العلماء إلا في دعوة العرس ؛ إذا دعاه الزوج أول مرة في اليوم الأول فإن الإجابة واجبة إذا عيَّنه بالشروط السابقة التي ذكرناها .

فإن كان الداعي غير مسلم فلا تجب الإجابة ، بل ولا تشرع الإجابة إلا إذا كان في ذلك مصلحة ، فإذا كان في ذلك مصلحة كرجاء إسلامه والتأليف فلا بأس بإجابة غير المسلم ، لأن النبي ﷺ أجاب دعوة يهودي دعاه في المدينة .

وإن كان الداعي مسلماً مجاهراً بالمعصية كحلق اللحية مثلاً ، أو شرب الدخان علناً في الأسواق ، أو غير ذلك من المحرمات ، فإن إجابته ليست بواجبة ، ولكن إن كان في إجابته مصلحة أجابه ، وإن كان ليست في إجابته مصلحة نظرت ؛ فإن كان في عدم إجابته مصلحة بحيث إذا رأى نفسه بأنه قد هُجر ، وأن الناس لا يجيبون دعوته تاب وأناب ، فلا تجب دعوته لعل الله يهديه ، وإن كان فلا فائدة من ذلك فأنت بالخيار ؛ إن شئت فأجب وإن شئت فلا تجب .

وإذا كان في الدعوة منكر فإن كان الإنسان قادراً على التغيير وجبت عليه الإجابة ، من وجهين : الوجه الأول : إزالة المنكر ، والوجه الثاني : إجابة دعوة أخيه ، إذا كان في العرس ، وكان ذلك في أول

(١) انظر صحيح مسلم في الجهاد والسير (١٠٧) .

يوم ، وأما إذا كان منكراً في الدعوة لا تستطيع تغييره كما لو كان في الدعوة شرب الدخان ، أو شيشة ، أو كان هناك أغاني محرمة فإنه لا يجوز لك أن تجيب .

قال أهل العلم : إلا إذا كان المنكر في محل آخر ، وأنت تجيب إلى محل ليس فيه منكر ، وكان الداعي من أقاربك الذين لو تركت إجابتهم لعد ذلك قطيعة ، فلا بأس بالإجابة في هذه الحال ، وإن كان الهجر يترتب عليه ترك هذه المعصية فاهجره ، يعني مثلاً لو دعاك قريبك وأنت تعلم أنه سيكون في الدعوة محرماً ، وقلت له : أنا لا أجيبك إلا بشرط ألا يكون في الدعوة محرماً ، وقبل بذلك فأجب ، وأما إن أصر على وجود المحرم فلا تجب ، لأن حضور المحرم ولو مع كراهة الإنسان له بقلبه يكون فيه الإنسان مشاركاً للفاعل ، لقول الله تعالى : ﴿ وَقد نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلَهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] هذا حكم إجابة الدعوة .

فهذه الحقوق التي يبيها النبي ﷺ كلها إذا قام بها الناس بعضهم مع بعض ، حصل بذلك الألفة والمودة وزال ما في القلوب والنفوس من الضغائن والأحقاد .

والحق الخامس : تشميت العاطس : يعني أن من حقوق المسلم على المسلم أن يشمته إذا عطس ، هكذا في الرواية الأولى التي أخرجها البخاري ومسلم ، وفي الرواية الثانية التي أخرجها مسلم : « إذا عطس فحمد الله فشمته » فقيد ذلك بما إذا حمد الله .

فإذا عطس الرجل وحمد الله وسمعته فشمته ، يعني : قل : يرحمك الله ، فإذا قلت : يرحمك الله ، وجب عليه أن يقول : يهديكم الله ويصلح بالكم ، هكذا جاء الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه يقول في الجواب : « يهديكم الله ويصلح بالكم » ^(١) .

لكن هل تشميت العاطس إذا حمد فرض عين أو فرض كفاية ؟ يعني : هل يكفي واحد من الجماعة إذا شمته عن الجماعة ، أم لابد على كل من سمعه أن يشمته ؟ والجواب : أنه ذهب بعض العلماء إلى أن التشميت فرض كفاية ؛ فإذا كنا جماعة وعطس رجل وقال : الحمد لله ، فقال أحدنا له : يرحمك الله ، كفى .

وقال بعض العلماء : بل تشميته فرض عين على كل من سمعه ، لأن النبي ﷺ قال : « كان حقاً على كل من سمعه أن يقول : يرحمك الله » وظاهر هذا أنه فرض عين ، فعلى هذا كل من سمعه يقول له : يرحمك الله ، ويقول له : يهديكم الله ويصلح بالكم ، ويكفي منه رد واحد على الجميع ، إذا نواه للجميع كفى .

فإن عطس ولم يحمد الله فلا تقل : يرحمك الله ، تعزيراً له على عدم حمده لله ﷻ ، يعني كما أنه لم يحمد الله فاحرمه هذا الدعاء ، فلا تقل له : يرحمك الله .

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٤) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٣٣) .

ثم هل تذكره وتقول وقل الحمد لله أو لا تذكره ؟

والجواب : من المعلوم أنه يحتمل أنه قد ترك الحمد تهاوناً ، ويحتمل أنه تركه نسياناً ، فإن كان تركه نسياناً فذكره وقل له : الحمد لله ، وإن كان تركه تهاوناً فلا تذكره ، ولكن أين لي العلم بذلك ؟ وكيف أعلم أنه نسيان أو أنه تهاون ؟ ظاهر الحديث « فحمد الله » ، فإذا لم يحمد لا تشمته ولا تذكره مطلقاً .

ولكن يمكنك فيما بعد أن تعلمه وتقول له : إن الإنسان إذا عطس فإنه يحمد الله على هذا العطاس ، لأن العطاس من الله ، والثاؤب من الشيطان ، العطاس دليل على نشاط جسم الإنسان ، ولهذا يجد الإنسان بعد العطاس خفة .

ثم إن التشميت بقول : يرحمك الله ، مقيد بثلاث ؛ إذا شمته ثلاث مرات يعني عطس فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس الرابعة فقل : عافاك الله ، إنك مزكوم . تدعو له بالعافية وتبين أنه مزكوم ؛ لئلا يقول : لماذا لا تقول : يرحمك الله كما كنت بالأول تقول : يرحمك الله ، فتبين العلة حين تقول : إنك مزكوم .

وفي هذا : تنبيه له على أن يحاول الاحتراز مما يزيد الزكام ، وإلا فإن الزكام في الغالب لا دواء له إذا أصاب الإنسان ، وأنه لا يذهب عنه حتى ينتهي منه . لكن من أسباب تخفيف هذا الزكام عدم التعرض للهواء البارد ، وعدم شرب الماء البارد ، وعدم التعرض للبراد بعد الدفء ، والإنسان طيب نفسه .

ثم إن ما يقول بعض العامة إذا قلت له : يرحمك الله ، حيث يقول : يهدينا ويهديكم الله ، فهذا ليس بصحيح ، لأن الرجل دعا لك أنت فقال : يرحمك الله ، فكيف تقول : يهدينا ويهديكم الله فتدعو لنفسك قبله ، نعم لو قال يرحمنا ويرحمك الله ، فقل يهدينا ويهديكم الله ، لكن هو قال يرحمك الله كما أمر ، فأنت أجبه كما أمرت ؛ فقل : يهديكم الله ويصلح بالكم .

وذكر أن اليهود كانوا يتعاطسون عند النبي - عليه الصلاة والسلام - يتعاطسون يعني : يتكلفون العطاس - من أجل أن يقول لهم : يرحمكم الله ، لأنهم يعلمون أنه نبي وأن دعاءه بالرحمة قد ينفعهم ، ولكنه لا ينفعهم ، لأن الكفار لو دعوت لهم بالرحمة لا ينفعهم ذلك ، ولا يحل لك أن تدعو لهم بالرحمة إذا ماتوا ولا بالمغفرة ^(١) ، لقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣] .

فإن قيل : أليس إبراهيم استغفر لأبيه ، وإبراهيم على الحنيفية وعلى التوحيد ، والجواب يتضح في

قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

* * *

٢٣٩ - وعن أبي عُمَارَةَ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قال : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ : أَمَرَنَا بِبَيَادَةِ الْمَرِيضِ ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ ، وَتَشْمِيمِ الْعَاطِسِ ، وَإِثْرَارِ الْمُقْسِمِ ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ ، وَاجَابَةِ الدَّاعِي ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ . وَنَهَانَا عَنْ خَوَاتِيمٍ - أَوْ نَحْتِمٍ - بِالذَّهَبِ ، وَعَنْ شُرْبِ الْفَيْضَةِ ، وَعَنِ الْمَيَّائِرِ الْحُمْرِ ، وَعَنِ الْقَسِيِّ ، وَعَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ وَالْإِسْتَبْرَقِ وَالْدِّيْبَاجِ ^(١) . متفق عليه .
وفي رواية : وَإِنْشَادِ الضَّالَّةِ فِي السَّبْعِ الْأَوَّلِ ^(٢) .

« الْمَيَّائِرِ » بَيَاءٌ مُثَنَّى قَبْلَ الْأَلِفِ ، وَتَاءٌ مُثَلَّثَةٌ بَعْدَهَا ، وَهِيَ جَمْعُ مَيْثَرَةٍ ، وَهِيَ شَيْءٌ يُتَّخَذُ مِنْ حَرِيرٍ وَيُخْشَى قُطْنًا أَوْ غَيْرَهُ ، وَيُجْعَلُ فِي الشُّرُجِ وَكُورِ الْبَعِيرِ يَجْلِسُ عَلَيْهِ الرَّكَّابُ . « الْقَسِيُّ » بَفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِ السِّينِ الْمَهْمَلَةِ الْمَشْدُودَةِ : وَهِيَ ثِيَابٌ تُنْسَجُ مِنْ حَرِيرٍ وَكَثَّانٍ مُخْتَلِطَيْنِ . « وَإِنْشَادُ الضَّالَّةِ » : تَغْرِيقُهَا .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في بيان حقوق المسلم على أخيه حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ « أَمَرَنَا بِسَبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ » ، وقد تقدم الكلام على خمسة من هذه الأمور التي أمر بها رسول الله ﷺ في هذا الحديث ، تقدم الكلام عليها في الحديث السابق فلا حاجة إلى إعادتها ، وفي هذا الحديث من الزيادة على ما سبق قوله « نصر المظلوم » .

الحق السادس : من حقوق المسلم على أخيه المسلم « نصر المظلوم » : يعني دفع الظلم عنه ، سواء كان ظلمه في المال أو في العرض أو في النفس ، فيجب على المسلم أن ينصر أخاه المسلم ، ولقد قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ^(٣) قالوا : يا رسول الله ، هذا المظلوم - يعني ندفع عنه الظلم - فكيف نصر الظالم ؟! قال : « تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » ^(٤) ، لأن الظالم قد غلبته نفسه حتى ظلم فتنصره أنت على نفسه حتى تمنعه من الظلم .
فإذا رأيت شخصاً يظلم جاره بالإساءة إليه وعدم المبالاة به ، فإنه يجب عليك أن تنصر هذا وهذا ؛ الظالم والمظلوم ، فتذهب إلى الظالم ، الجار الذي أحل بحقوق جاره ، وتنصحه وتبين له ما

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٣٩) ، ومسلم - واللفظ له - في اللباس (٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٣٩) مسلم في اللباس (٣) .

(٣) انظر الحديث (٢٣٧) وشرحه وتخريجه .

(٤) انظر الهامش السابق .

في إساءة الجوار من الإثم والعقوبة ، وما في حسن الجوار من الأجر والثوبة ، وتكرر عليه حتى يهديه الله فيرتدع ، وتنصر المظلوم الجار وتقول له : أنا سوف أنصح جارك وأكلمه ، فإن هداه الله فهذا هو المطلوب ، وإن لم يهتد فأخبرني حتى نكون أنا وأنت عند القاضي أو الحاكم سواءً نتعاون على دفع ظلم هذا الظالم .

وكذلك إذا وجدت شخصًا جحد لأخيه حقًا تدري أنه جحده ، وأن لأخيه عليه هذا الحق ، فتذهب إلى هذا الظالم الذي جحد حق أخيه وتنصحه وتبين له ما في أكل المال بالباطل من العقوبة ، وأنه لاخير في أكل المال بالباطل لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل هو شر ، حتى يؤدي ما عليه . وتذهب إلى صاحب الحق وتقول له : أنا معك واصبرها نحن ننصحه ، ها نحن نوبخه ، وهكذا بقية المظالم تنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا . والظالم نصرك إياه أن تمعنه عن الظلم .

الحق السابع : إبرار القسم : يعني إذا أقسم عليك أخوك بشيء فبره ووافقه على ما قسم عليه ، فإذا حلف قال : والله لتفعلن كذا وكذا ، فإن من حقه عليك أن تبر يمينه وأن توافقه ، إلا إذا كان في ذلك ضرر عليك ، مثل لو حلف عليك أن تخبره عما في بيتك من الأشياء التي لا تحب أن يطلع عليها أحد فلا تخبره ، لأنه معتد ، لكونه يطلب منك أن تبين له ما كان سرًا عندك ، وإذا كان معتدًا فإن المعتدي جزاؤه أن يُترك ولا يوافق على اعتدائه .

لكن إذا لم يكن عدوان وحلف عليك فإن من حقه أن تبر يمينه ، وتعطيه ما حلف عليه ، إلا إذا كان معصية ، فإذا كان معصية فلا تجبه ، مثل لو أقسم عليك أن تعطيه دراهم يشتري بها دخانًا ، فهذا لا يلزمك ، بل لا يجوز لك أن توافقه لأنك تعينه على الإثم والعدوان .

أو كان في ذلك ضرر عليك كما مثلنا بمن حلف عليك أن تخبره بما في سر البيت من الأمور التي لا تحب أن يطلع عليها أحد .

أو حلف عليك بشيء يضرك ، مثل أن يحلف عليك بشيء يضرك إذا وافقته عليه ، كأن يقول أبوك مثلاً : والله لا تحج البيت ، والحج واجب عليك ، فإنك لا تطعه ؛ لأن في هذا تركًا للواجب ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، أو حلف عليك ألا تزور أمك وقد طلقها ، وصار بينه وبينها مشاكل فكرهها ، فقال لك : والله لا تذهب إلى أمك ، فهذا لا تطعه ، وذلك لأنه آثم بكونه يحول بينك وبين صلة الرحم ، وصلة الرحم واجبة ، وبر الوالدين واجب ، فلا تطعه .

ومن ذلك أيضًا : إذا حلف ألا تزور أحدًا من إخوانك أو أعمامك أو أقاربك فلا تطعه ، ولا تبر يمينه ولو كان أباك ، لأن صلة الرحم واجبة ، ولا يحل له أن يحلف مثل هذا الحلف ، وصلة الرحم إذا قام بها الإنسان فإن الله تعالى يصله ، فقد تعهد الله للرحم أن يصل من وصلها وأن يقطع من قطعها ^(١) ، فإذا

(١) انظر الأحاديث الدالة على ذلك في البخاري في الأدب (٥٩٨٧ ، ٥٩٨٨ ، ٥٩٨٩) ، ومسلم في البر والصلة (١٦ ، ١٣) .

انتفت الموانع فإن الأولى أن تبرّ بهن .

وها هنا مسألة : وهي أنه ربما يحلف هو وتحلف أنت ، وهذا يقع كثيرًا في الضيف إذا نزل عليك ، قال : والله ما تذبح لي ، فتحلف أنت وتقول : والله لأذبح لك ، فهنا من الذي يبرّ ، الأول أم الثاني ؟ يبرّ الأول لأن حقه ثابت ، ونقول للثاني صاحب البيت الذي حلف أن يذبح ، نقول : لا تذبح وكفر عن يمينك ، لأن الأول أحق بالبر وأسبق .

وهنا مسألة : يجب أن يتفطن لها أيضًا في هذا الأمر : وهو أن بعض السفهاء إذا نزل به ضيف ، طلق الضيف أن لا يذبح له ؛ قال : علي الطلاق من امرأتي أو من نسائي إن كان له أكثر من امرأة أن لا تذبح لي ، فيقول صاحب البيت : وأنا علي الطلاق أن أذبح لك ، وهذا غلط ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت » ^(١) أما الطلاق فلا ، ما ذنب المرأة حتى تطلقها ؟! وهو من الخطأ العظيم .

وأقول لكم : إن المفتين اليوم - وأنا منهم - نفتي بأن الإنسان إذا أراد بذلك التهديد أو التأكيد فإنه لا طلاق ، وعليه كفارة يمين ، يعني أن حكمه حكم اليمين ، ولكني أقول لكم : إن أكثر أهل العلم ، ومنهم أصحاب المذاهب الأربعة على أن هذا طلاق وعلى أنه إذا لم يف بما قال طلقت امرأته ، فالمسألة خطيرة ، لا تظنوا أن الناس إذا أفنوا بالأمر السهل أن المسألة سهلة ، بل هي خطيرة جدًا ، إذا كان أصحاب المذاهب الأربعة : المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي كلهم يرون أن مثل هذا يكون طلاقًا ، وأنه إذا طلق ألا تذبح وذبحت طلقت زوجته ، وإذا طلقت أن تذبح ولم تذبح طلقت زوجته ، وهذه المذاهب الأربعة ليست بهينة ، والخلاف في هذا ليس بهين ، فلا تستهينوا بهذا الأمر ، فهو خطير جدًا .

وأنت الآن مثلاً إذا رجعت إلى زوجتك وكانت هذه آخر طلقة ، فأنت تطؤها على المذاهب الأربعة وطناً حراماً . وعلى القول أنه يمين تكفر عن يمينك وتحلف لك ، فالمسألة خطيرة للغاية ، لذلك يجب علينا أن نتناهى عنها ، وألا نقول إذا حصل اذهب لابن باز أو لابن عثيمين أو الثاني أو الثالث فهذا ما ينفعك ، فهناك علماء أجلاء أكبر منهم يرون أن هذا طلاق ، وأنه إذا كان هذا آخر طلقة ، فإن المرأة تبين بها ، ولا تحل لزوجها إلا بعد زوج آخر . أقول هذا من أجل ألا تتهاونوا في هذا الأمر ، فهذا الأمر خطير جدًا ، فمن كان حالفًا فليحلف بالله ، يقول : والله .

ثم إنني أشير عليكم بأمر هام ؛ أنك إذا حلفت على يمين فقل : إن شاء الله ولو لم يسمعها صاحبك ، قل : إن شاء ، وإن لم يسمعها صاحبك ؛ لأنك إذا قلت إن شاء الله يسر الله لك الأمر حتى تبرّ يمينك ، وإذا قدر أنه ما حصل الذي تريد فلا كفارة عليك ، وهذه فائدة عظيمة .

فلو قلت لواحد مثلاً : والله ما تذبح لي ، ثم قلت بينك وبين نفسك : إن شاء الله - بينك وبين

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٤٦) ، ومسلم في الأيمان (٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٥٢٠/٢) .

نفسك - ثم ذبح فلا عليك شيء ولا عليك كفارة يمين ، وكذلك أيضا بالعكس ، لو قلت والله لأذبح ، ثم قلت - بينك وبين نفسك - : إن شاء الله ، وهو ما سمع صاحبك ، فإنه إذا لم تذبح ليس عليك كفارة ، لقول النبي ﷺ : « من حلف على يمين ، فقال : إن شاء الله لم يحنث » ^(١) وهذه فائدة عظيمة اجعلها على لسانك دائما ، اجعل الاستثناء بإن « شاء الله » على لسانك دائما ، حتى يكون فيه فائدتان : الفائدة الأولى : أن تُيسر لك الأمور . والفائدة الثانية : أنك إذا حنثت ما يلزمك الكفارة .

السبع التي نهى عنها - عليه الصلاة والسلام - في حديث البراء ، فمنها يتختم بالذهب ، والتختم بالذهب خاص بالرجال ، فالرجل لا يحل له أن يلبس الذهب وأن يتختم بالذهب ، ولا أن يلبس سوارًا من ذهب ، ولا أن يلبس قلادة من ذهب ، ولا أن يلبس خرسًا ^(٢) من ذهب ، ولا أن يلبس على رأسه شيئًا من الذهب ، كل الذهب حرام على الرجل ، لأن النبي ﷺ قال في رجل رأى عليه خاتمًا من ذهب ، قال : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في أصبعه أو قال في يده » ^(٣) ثم نزع النبي ﷺ الخاتم فرمى به ، فلما انصرف النبي ﷺ قالوا للرجل خذ خاتمك ، انتفع به ، قال : والله لا أخذ خاتمًا طرحة النبي ﷺ . وقال - عليه الصلاة والسلام - في حديث علي بن أبي طالب في شأن الذهب والحريز - : « إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإنائهم » ^(٤) .

وأما تختم المرأة بالذهب فلا بأس به ولا حرج فيه ، فيجوز لهن التختم بالذهب والتسور به ، وأن يلبسن ما شئن منه ، إلا إذا بلغ حد الإسراف ، فإن الإسراف لا يحل لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وقد حكى بعض العلماء : إجماع أهل العلم على جواز لباس المرأة للخاتم والسوار ونحوهما ، وأما الأحاديث الواردة في النهي عن الذهب المخلق للنساء فهي أحاديث إما ضعيفة ، وإما شاذة تُرك العمل بها ، وتواترت الأحاديث الكثيرة التي فيها إقرار النبي ﷺ للنساء على لبس المخلق من الأسورة ، وكذلك من الخواتم .

ولكن يجب على المرأة إذا كان عندها ما يبلغ النصاب من الخلي من الذهب أداء زكاته ؛ بأن تقوم كل سنة بما يساويه وتخرج منه ربع العشر ، لأن النبي ﷺ رأى امرأة وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من الذهب ، يعني سوارين غليظين ، فقال : « أتؤدين زكاة هذا ؟ » قالت : لا . قال : « أيسرك أن يسورك الله بهما سوارين من نار يوم القيامة » فخلعتهما وأعطتهما النبي ﷺ وقالت : هما لله ورسوله ^(٥) .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٥٣٢) بلفظه ، وأبو داود في سننه (٣٢٦٢) .

(٢) خيرضا من ذهب : الخرص : الحلقة من الذهب أو الفضة وأيضا القرط بجهة واحدة .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس (٥٢) ، والبيهقي في الكبرى (٤٢٤/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١٧٢٠) بنحوه ، وابن ماجه في سننه (٣٥٩٥) بلفظه .

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٥٦٣) ، والنسائي في سننه (٢٤٧٩) .

ونهى أيضًا في هذا الحديث : « عن الشرب في آنية الفضة » يعني : نهانا أن نشرب في آنية الفضة ، سواء كان الشراب ماءً أو لبنًا أو مرقًا أو غير ذلك .

وسواء كان الشارب رجلًا أو امرأة ؛ لأن تحريم الأواني من الذهب والفضة شامل للرجال والنساء ، ولا فرق بين الفضة الخالصة وبين الموه بالفضة ، كل ذلك حرام .

وأما آنية الذهب : فهي أشدُّ وأشد ، وقد ثبت النهي عنها عن النبي ﷺ حيث قال : « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » (١) .

أما المياثر الحمر : فهي مثل المخدة ، يجعل في حشوها قطن ويجعل على هذا القطن خرقة من الحرير ، وتربط في سرج الفرس أو في كور البعير من أجل أن يجلس عليها الراكب فيستريح . وكذلك القسي وغيرها ، فإنها كلها من أنواع الحرير ، وهي حرام على الرجال ، لأنه لا يجوز للرجل أن يلبس الحرير ، ولا أن يجلس عليه ، ولا أن يفترشه ، ولا أن يلتحفه .

وأما المرأة : فيجوز لها لبس الحرير ، لأنها محتاجة إلى الزينة والتجمل كما قال الله تعالى : ﴿ أَوْ مَن يُنَشِّئُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي لُصْصَارٍ عَيْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : أو من يُرَفِّقه في الحلية ، وهو في الخصام غير مبين - كمن ليس كذلك وهم الرجال ، فالرجال لا يرفهون في الحلية ولا يُنَشِّئون فيها ، لأنهم مستغنون بيطولتهم ورجولتهم عن التزين والتجمل بهذه الأشياء .

وأما افتراش المرأة للحرير والتحافها به وجلسها عليه : فقد اختلف فيه العلماء ، منهم من منع وحرّم واستدل بعموم هذا الحديث ؛ وأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - نهى عن المياثر الحمر وشبهها ، وقال إن المرأة يباح لها أن تلبس الحرير لاحتياجها إليه ، أما أن تفتريه فلا حاجة لها إلى أن تفتري الحرير ، وهذا القول أقرب من القول بالحُلِّ مطلقًا أي بحل الحرير للنساء مطلقًا ؛ لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا .

بقي الكلام على قوله : « وإنشاد الضالة » يعني مما أمرهم به إنشاد الضالة ، يعني أن الإنسان إذا وجد ضالة وجب عليه إنشادها ، أي : طلب من هي له ، والضالة هي ما ضاع من البهائم .

وقد قسم العلماء - رحمهم الله - الضالة إلى قسمين :

الأول : قسم يمتنع من الذئب ونحوها من صغار السباع ، فهذا لا يجوز التقاطه ولا إيواؤه ، ومن آوى ضالة فهو ضال ، مثل الإبل ، أو ما يمتنع بطيرانه مثل الطيور كالصقور والحمام وشبهها ، أو ما يمتنع بعدوه كالظباء ونحوها .

فالذي يمتنع من صغار السباع كالذئب وشبهها ثلاثة أنواع : ما يمتنع من السباع لكبر جثته وقوته مثل الإبل ، وما يمتنع من السباع لطيرانه كالصقور والحمام ، وما يمتنع من السباع لعدوه وسرعة سعيه كالظباء . فهذه لا يجوز للإنسان أن يلتقطها ، ولا يجوز له أن يؤويها بل يطردها من إبله ، ويطردها من

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الأطعمة (٥٤٢٦) ، ومسلم في لباس (٥) وليس فيه (ولكم في الآخرة) .

حمامه إذا أوت إلى حمامه ؛ فإن النبي ﷺ سئل عن ضالة الإبل فقال : « مالك ولها ؛ معها سقاؤها وحذاؤها ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها » ^(١) معها سقاؤها : يعني بطنها تملؤه ماءً ، وحذاؤها : يعني خفها تمشي عليه ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها .

فلا يجوز لك أن تؤوي هذه الضالة ولا أن تلتقطها ، ولو كنت تريد الخير ، اللهم إلا إذا كنت في أرض قُطاع طريق تخشى أن يأخذوها ويضيعوها على صاحبها ، فلا بأس أن تأخذها حينئذٍ ، أو إذا كنت تعرف صاحبها فتأخذها لتردها عليه ، فهذا لا بأس به .

الثاني : ما لا يمتنع من صغار السباع يعني الذي يعجز أن يفك نفسه مثل الغنم أو الماعز أو الشياه أو ما أشبه ذلك ، فإنك تأخذها ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « هي لك أو لأخيك أو للذئب » ^(٢) ، ولكن يجب عليك أن تبحث عن صاحبها .

وقوله : « هي لك » يعني إن لم تجد صاحبها ، « أو لأخيك » يعني صاحبها إذا عرفته ، « أو للذئب » إذا لم يجدها أحد أكلها الذئب .

فهذه تؤخذ ويُبحث عن صاحبها ، فإذا تمت السنة ولم يُوجد صاحبها فهي لمن وجدها . وإنشاد الضالة له معنيان :

المعنى الأول : ما ذكرنا وهذا واجب على الإنسان .

المعنى الثاني : منهى عنه وذلك مثل ما يقع في المساجد ، وهو أن يطلب الإنسان الضالة فيه ، مثل أن يقول : من عينَ كذا وكذا ؟ أو : يا أيها الناس قد ضاع لي كذا وكذا فمن وجدها ؟ .

فهذا لا يجوز في المسجد ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ؛ فإن المساجد لم تُبن لهذا » ^(٣) .

إنسان يقف في المسجد ويقول يا جماعة ، من عينَ لي شاة ؟ من عينَ لي عزة ؟ من عينَ لي كذا ؟ فهذا حرام ، والمساجد ما بنيت لهذا ، ونحن مأمورون أن ندعو الله عليه ، فنقول : لا ردها الله عليك ، كما أننا إذا سمعنا شخصاً يبيع ويشترى في المسجد فإننا نقول : لا أربح الله تجارتك ؛ لأن المساجد لم تُبن للبيع والشراء .

فهذه الأوامر التي أمر بها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - كلها خير ، والنواهي التي نهى عنها كلها شرٌّ ، لأن قاعدة الشريعة تأمر بالمصالح وتنهى عن المفاصد ، وإذا اجتمع في الشيء مفسدة ومصلحة غُلب الأقوى منهما والأكثر ، فإن كان الأكثر المصلحة غُلبت ، وإن كانت المفسدة غُلبت ، وإن تساوى الأمران غُلبت المفسدة ؛ لأن درء المفاصد أولى من جلب المصالح .

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٧٢) ، ومسلم في اللقطة (١) .

(٢) البخاري في المساقاة (٢٣٧٢) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٧٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٤٩/٢) .

٢٨ - باب ستر عورات المسلمين والنهي عن

إشاعتها لغير ضرورة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(١) [النور : ١٩] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها . العورة هنا هي العورة المعنوية ؛ لأن العورة نوعان : عورة حسية وعورة معنوية .

فالعورة الحسية : هي ما يحرم النظر إليه كالقبل والدبر ، وما أشبه ذلك مما هو معروف في الفقه . والعورة المعنوية : وهي العيب والسوء الخلقي أو العملي .

ولاشك أن الإنسان كما وصفه الله ﷻ في قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ^(٢) [الأحزاب : ٧٢] .

فالإنسان موصوف بهذين الوصفين : الظلم ، والجهل ؛ فإما أن يرتكب الخطأ عن عمد فيكون ظالماً ، وإما أن يرتكب الخطأ عن جهل فيكون جهولاً ، هذه حال الإنسان إلا من عصم الله ﷻ ووقفه للعلم والعدل ، فإنه يمشي بالحق ويهدي إلى الحق .

وإذا كان الإنسان من طبيعته التقصير والنقص والعيب ، فإن الواجب على المسلم نحو أخيه أن يستر عورته ولا يُشيعها إلا من ضرورة ^(٣) فإذا دعت الضرورة إلى ذلك فلا بد منه ، لكن بدون ضرورة فالأولى والأفضل أن يستر عورة أخيه ، لأن الإنسان بشر ربما يخطئ عن شهوة - يعني عن إرادة سيئة - أو عن شبهة ، حيث يشبهه عليه الحق فيقول بالباطل أو يعمل به . والمؤمن مأمور بأن يستر عورة أخيه .

هب أنك رأيت رجلاً على كذب وغش في البيع والشراء ، فلا تفضحه بين الناس ، بل انصحه واستر عليه ، فإن توفّق واهتدى وترك ما هو عليه كان ذلك هو المراد ، وإلا وجب عليك أن تبين أمره للناس لئلا يقتروا به .

وهب أنك وجدت إنساناً مُبتلى بالنظر إلى النساء ، ولا يفيض بصره ، فاستر عليه ، وانصحه وبين

(١) قوله ﴿ تَشِيعَ ﴾ أي تفشو ، قوله : ﴿ الْفَاحِشَةُ ﴾ أي الفعل القبيح .

(٢) قوله ﴿ الْأَمَانَةَ ﴾ : الصفات التي ميز الله بها الإنسان عن غيره فكانت منشأ تكليفه لتمييز من يشكره عليها . قوله ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ : امتنعن عن حملها .

(٣) هذا معنى حديث ولفظه « من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته .. » ، وقد أخرجه ابن ماجه في الحدود

(٢٥٤٦) ، وأحمد في مسنده (٢٧٤/٢) .

له أن هذا سهم من سهام إبليس ، لأن النظر - والعياذ بالله - سهم من سهام إبليس يصيب به قلب العبد ^(١) ، فإن كان عنده مناعة اعتصم بالله من هذا السهم الذي ألقاه الشيطان في قلبه ، وإن لم يكن عنده مناعة أصابه السهم ، وتدرج به إلى أن يصل إلى الفحشاء والمنكر والعياذ بالله .
فما دام الستر ممكناً ، ولم يكن في الكشف عن عورة أخيك مصلحة راجحة أو ضرورة ملحة ، فاستر عليه ولا تفضحه .

ثم استدلل المؤلف رحمته الله بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور : ١٩] . هؤلاء الذين يحبون أن تشيع ، فكيف بمن أشاع الفاحشة والعياذ بالله !؟ .

ولحجة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا معنيان :

المعنى الأول : محبة شيوع الفاحشة في المجتمع المسلم ، ومن ذلك من يشون الأفلام الخليعة ، والصحف الخبيثة الداعرة ، فإن هؤلاء لاشك أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم ، ويريدون أن يفتتن المسلم في دينه بسبب ما يشاع من هذه المجلات الخليعة الفاسدة والأفلام الخليعة الفاسدة أو ما أشبه ذلك .

وكذلك تمكن هؤلاء مع القدرة على منعهم ، داخل في محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، فالذي يقدر على منع هذه المجلات وهذه الأفلام الخليعة ، ويمكن من شيوعها في المجتمع المسلم ، هو ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أي : عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة .

المعنى الثاني : محبة أن تشيع الفاحشة في شخص معين ، وليس في المجتمع الإسلامي كله ، فهذا أيضاً له عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، فمن أحب أن تشيع الفاحشة في زيد من الناس لسبب ما ، هذا أيضاً له عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، لاسيما فيمن نزلت الآية في سياق الدفع عنه ، وهي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .
لأن هذه الآية في سياق آيات الإفك ، والإفك هو الكذب الذي افتراه من يكرهون النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه وسلم - ومن يحبون أن يتدنس فراشه ، ومن يحبون أن يُعير بأهله ، من المنافقين وأمثالهم .
وقضية الإفك مشهورة ^(٢) ، وهي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وسلم - كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، وذلك من عدله - عليه الصلاة والسلام - فأتيهن خرج سهمها خرج بها . فأقرع بين نسائه ذات سفر فخرج السهم لعائشة فخرج بها .

وفي أثناء رجوعهم عرسوا في الطريق ، يعني ناموا في آخر الليل ، فلما ناموا احتاجت عائشة رضي الله عنها أن تبرز لتقضي حاجتها ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالرحيل في آخر الليل ، فجاء القوم فحموا هودجها ، ولم يشعروا

(١) هذا معنى حديث ولفظه « النظره سهم من سهام إبليس مسمومة » ، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک (٣١٤/٤) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤١/٥) .

(٢) حادثة الإفك أخرجها البخاري في المغازي (٤١٤١) ، ومسلم في التوبة (٥٦) .

أنها ليست فيه لأنها كانت صغيرة ما أخذها اللحم ، فقد تزوجها النبي ﷺ ولها ست سنين ، ودخل عليها ولها تسع سنين ، ومات عنها ولها ثماني عشرة سنة ، فحملوا الهودج ، وظنوا أنها فيه ثم ساروا . ولما رجعت لم تجد القوم في مكانهم ، ولكن من عقلها وذكائها لم تذهب يميناً وشمالاً تطلبهم ، بل بقيت في مكانها وقالت سيفقدوني ويرجعون إلى مكاني .

ولما طلعت الشمس إذا برجل يقال له صفوان بن المعطل ، وكان من قوم إذا ناموا لم يستيقظوا ، كما هو حال بعض الناس الذين إذا ناموا لا يستيقظون ، حتى ولو علت الأصوات من حوله . فكان صفوان من جملة هؤلاء القوم ، فكان إذا نام تعمق في النوم فلا يمكن أن يستيقظ إلا إذا أيقظه الله ﷻ كأنه ميت .

فلما استيقظ وجاء وإذا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وحدها في مكان في البر - وكان يعرفها قبل أن ينزل الحجاب - فما كان منه إلا أن أناخ بعيره ، ولم يكلمها بكلمة . والسبب في أنه لم يتكلم هو احترامه لفراش رسول الله ﷺ ، فلم يرد أن يتكلم مع أهله بغيبته ﷺ ، فأناخ البعير ووضع يده على ركة البعير ولم يقل أركبي ، ولا تكلم بشيء ، فركبت ثم ذهب بها يقودها ، وما نظر إليها ﷺ ولا كلمها كلمة واحدة .

ولما أقبل على القوم ضحى قد ارتفع النهار ، فرح المنافقون أعظم فرح أن يجدوا مدخلاً للطعن في رسول الله ﷺ ، فاتهموا الرجل بالعفاف الرزان الطاهرة النقية - فراش رسول الله ﷺ - اتهموه بها وصاروا يشيعون الفاحشة بأن هذا الرجل فعل ما فعل ، وسقط في ذلك أيضاً ثلاثة من الصحابة الخُلص وقعوا فيما وقع فيه المنافقون : مسطح بن أثانة ابن خالة أبي بكر ، وحسان بن ثابت رضي الله عنه ، وحمزة بنت جحش .

فصارت ضجة ، وصار الناس يتكلمون : ما هذا ؟ وكيف يكون ؟ من مشته عليه الأمر ، ومن منكر غاية الإنكار . وقالوا : لا يمكن أن يتدنس فراش رسول الله ﷺ لأنه أظهر الفرش على وجه الأرض .

وأراد الله عزته وقدرته وحكمته أن تمرض عائشة رضي الله عنها وبقيت حبيسة البيت لا تخرج ، وكان النبي ﷺ من عادته إذا عاها في مرضها سأل وتكلم ، أما في ذلك الوقت فكان - عليه الصلاة والسلام - لا يتكلم ، يأتي ويدخل ويقول : « كيف تيكم ؟ » أي كيف هذه ، ثم ينصرف ، وقد استكرت ذلك منه رضي الله عنها ، ولكنها ما كان يخطر ببالها أن أحداً يتكلم في عرضها وفيما فيه دنس فراش رسول الله ﷺ .

فقد أشاع المنافقون هذه الفرية لا كراهة لعائشة رضي الله عنها لذاتها ، فإنهم يكرهون كل المؤمنين ؛ وإنما بغضاً لرسول الله ﷺ ومحبة لإيذائه والانتقام منه ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !!

ولكن الله تعالى أنزل في هذه القصة عشر آيات من القرآن ابتدأها بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾

(١) قوله ﴿ بِالْإِفْكِ ﴾ أفصح الكذب وأفحشه والمراد به إفك به على السيدة عائشة رضي الله عنها وقد أنزل الله في براءتها قرآناً يتلى . قوله ﴿ عَصِيَّةً يَنْحَرُ ﴾ جماعة منكم . قوله ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ تحمّل معظمة (هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين) .

عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ [النور: ١١] ، والذي تولى كبره هو رأس المنافقين عبد الله ابن أبي المنافق ، فإنه هو الذي كان يشيع الخبر .

لكنه خبيث لا يشيعه بلفظه صريح فيقول مثلاً إن فلاناً زنى بفلانة ، لكنه يشيع ذلك بالتعريض والتلميح ؛ لأن المنافقين جبنا يتسترون ولا يصرحون بما في نفوسهم ، فيقول ﷺ : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١١ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَبَرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿ [النور: ١١-١٢] .

وفي هذا توبيخ من الله ﷻ للذين تكلموا في هذا الأمر ، يقول هلا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وذلك أن أم المؤمنين أهم فكيف يظنون بها ما لا يليق ، وكان الواجب عليهم لما سمعوا هذا الخبر أن يظنوا بأنفسهم خيراً ويتبرعوا منه ومن قاله .

﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣] يعني هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على هذا الأمر .

﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ولو صدقوا ، ولهذا لو أن شخصاً شاهد إنساناً يزني ، وجاء إلى القاضي وقال أنا أشهد أن فلاناً يزني ، قلنا : هات أربعة شهداء ، فإذا لم يأت بأربعة شهداء جلدناه ثمانين جلدة ، فإن جاء برجل ثان ، معه جلدناهم كل واحد ثمانين جلدة ، وثالث أيضاً نجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة .

فمثلاً : لو جاءنا ثلاثة يشهدون بأنهم رأوا فلاناً يزني بفلانة ، ولم يثبت ذلك ، فإننا نجلد كل واحد ثمانين جلدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ١٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ [النور: ١٣-١٤] لولا الفضل والرحمة من الله لأصابكم فيما أفضتم فيه العقاب المذكور ، وفي قوله : ﴿ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ دليل على أن الحديث انتشر وفاض واستفاض واشتهر ؛ لأنه أمر جلل عظيم خطير ، والعادة جرت بأن الأمور الكبيرة تنتشر بسرعة وتملأ البيوت ، وتملأ الأفواه والأذان ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٣ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿ [النور: ١٤-١٥] .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ من غير روية ، ومن غير بينة ، ومن غير يقين ، ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ لأنه كذب لأطهر امرأة على وجه الأرض ، وهي صاحباتها زوجات رسول الله ﷺ ، فالأمر صعب وعظيم .

وفي ذلك أيضاً تعريض [من المنافقين] برسول الله ﷺ ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ لَخَبِيثَاتٍ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ [النور: ٢٦] .

فإذا كانت عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ ويحصل منها هذا الأمر - وحاشاها منه - فإن ذلك يدل على خبث زوجها - والعياذ بالله - لأن الخبيثات للخبيثين، ولكنها ﷺ طيبة وزوجها طيب، فزوجها محمد رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وهي الصديقة بنت الصديق ﷺ وعن أبيها .

ولهذا يقول تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ يعني هلا إذ سمعتموه ﴿ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنُ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦] . وهذا هو الواجب عليك ؛ أن تنزه الله أن يقع مثل هذا من زوج النبي ﷺ ، ولهذا قال : ﴿ سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنُ عَظِيمٌ ﴾ .

وتأمل كيف جاءت هذه الكلمة التي تتضمن تنزيه الله ﷻ ، إذ أنه لا يليق بحكمة الله ورحمته وفضله وإحسانه أن يقع مثل هذا من زوج رسول الله ﷺ ، ثم قال تعالى : ﴿ يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ١٧] يعني لا تعودوا لمثل هذا أبداً إن كنتم مؤمنين .

ثم قال تعالى : ﴿ وَرَبِّينِ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٨] والحمد لله على بيانه ، ولهذا أجمع العلماء على أن من رمى أم المؤمنين عائشة ﷺ بما جاء في حديث الإفك فإنه كافر مرتد ، كافر كالذي يسجد للصنم ، فإن تاب وأكذب نفسه ، وإلا قتل كافراً ؛ لأنه كذب القرآن .

على أن الصحيح أن من رمى زوجة من زوجات الرسول ﷺ بمثل هذا فإنه كافر ، لأنه متنقص لرسول الله ﷺ ، كل من رمى زوجة من زوجات الرسول بما برأ الله منه عائشة فإنه يكون كافراً مرتدّاً ، يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل بالسيف ، وألقيت جيفته في حفرة من الأرض ، بدون تغسيل ، ولا تكفين ، ولا صلاة ، لأن الأمر خطير .

ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ١٩-٢٠] .

وسبق أن أشرنا إلى أن ثلاثة من الصحابة الخالص تورطوا في هذه القضية ، وهم : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثانة - وهو ابن خالة أبي بكر - وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، وزينت بنت جحش زوج الرسول - عليه الصلاة والسلام - وضرة عائشة ، ومع ذلك حماها الله ، لكن أختها تورطت ، ولما أنزل الله براءتها أمر النبي ﷺ أن يحد هؤلاء الثلاثة حد القذف ، فجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة .

أما المنافقون فلم يقيم النبي ﷺ عليهم الحد ، واختلف العلماء في ذلك :

فقيل : لأن المنافقين ما كانوا يجرمون وإنما يقولون : يقال ، أو : يذكر ، أو : سمعنا ، أو ما أشبه ذلك .

وقيل : لأن المنافق ليس أهلاً للتطهير فالحد طهرة للمحدود ، وهؤلاء المنافقون ليسوا بأهل

للتطهير ، ولهذا لم يجلدهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأنه لو جلدهم لظهرهم من دنس هذا

الشيء ، لكنهم ليسوا أهلاً للتطهير فهم في الدرك الأسفل من النار ، فتركهم ، وذنبهم ، فليس فيهم

خير . وقيل غير ذلك .

وعلى كل حال فإن هذه القصة قصة عظيمة ، فيها عبر كثيرة .

٢٤٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله تعالى يوم القيامة » .

الستر يعني الإخفاء ، وقد سبق لنا أن الستر ليس محمودًا على كل حال ، وليس مذمومًا على كل حال ، فهو نوعان :

النوع الأول : ستر محمود ويكون في حق الإنسان المستقيم ، الذي لم يعهد منه فاحشة ، ولم يحدث منه عدوان إلا نادرًا ، فهذا ينبغي أن يستر وينصح ويبين له أنه على خطأ ، فهذا الستر محمود .
والنوع الثاني : ستر شخص مستهتر متهاون في الأمور معتد على عباد الله شرير ، فهذا لا يستر ، بل المشروع أن يبين أمره لولاة الأمر حتى يردعوه عما هو عليه ، وحتى يكون نكالًا لغيره .

فالستر يتبع المصالح ؛ فإذا كانت المصلحة في الستر فهو أولى ، وإن كانت المصلحة في الكشف فهو أولى ، وإن تردد الإنسان بين هذا وهذا فالستر أولى .

٢٤١ - وعنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ ، وَإِنْ مِنْ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَفْعَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ، ثُمَّ يُضْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ : يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذًا وَكَذًا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ، وَيُضْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « كل أمتي معافي إلا المجاهرين » . يعني بكل الأمة أمة الإجابة الذين استجابوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، معافي : يعني قد عافاهم الله صلى الله عليه وسلم ، إلا المجاهرين : والمجاهرون هم الذين يجاهرون بمعصية الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ينقسمون إلى قسمين :

الأول : أن يعمل المعصية وهو مجاهر بها ، فيعملها أمام الناس ، وهم ينظرون إليه ، وهذا لاشك أنه غير معافي وهو من المجاهرين ؛ لأنه جر على نفسه الويل ، وجره على نفسه الويل ، وجره على غيره أيضًا .

أما جرّه على نفسه ، فلأنه ظلم نفسه حيث عصى الله ورسوله ، وكل إنسان يعصي الله ورسوله ، ^(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩) بلفظ « وإن من المجانة » ، ومسلم في الزهد (٥٢) بلفظ « وإن من الإجهار » .

فإنه ظالم لنفسه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥٧] ، والنفس أمانة عندك يجب عليك أن ترعاها حق رعايتها ، وكما أنه لو كان لك ماشية فإنك تتخير لها المراعي الطيبة ، وتبعدها عن المراعي الخبيثة الضارة ، فكذلك نفسك يجب عليك أن تتحرى لها المراعي الطيبة ، وهي الأعمال الصالحة ، وأن تبعدها عن المراعي الخبيثة وهي الأعمال السيئة .

وأما جره على غيره ، فلأن الناس إذا رأوه قد عمل المعصية هانت في نفوسهم ، وفعلوا مثله ، وصار - والعياذ بالله - من الأئمة الذين يدعون إلى النار ، كما قال الله تعالى عن آل فرعون : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَكْفُحُونَ إِلَى الْكَافِرِ ذُرِّيَّتَهُ لِأَئِمَّةِ الْكَافِرِينَ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ [القصاص : ٤١] .

وقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من سن في الإسلام سنة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ^(١) . فهذا نوع من المجاهرة ، ولم يذكره النبي ﷺ ؛ لأنه واضح ، لكنه ذكر أمراً آخر قد يخفى على بعض الناس فقال :

ومن المجاهرة : أن يعمل الإنسان العمل السيئ في الليل فيستره الله عليه ، يعمل العمل في بيته فيستره الله عليه ولا يطلع عليه أحد ، ولو تاب فيما بينه وبين ربه لكان خيراً له ، ولكنه إذا قام في الصباح واختلط بالناس قال : عملت البارحة كذا ، وعملت كذا وعملت كذا ، فهذا ليس معافى ، هذا - والعياذ بالله - قد ستر الله عليه فأصبح يفضح نفسه .

وهذا الذي يفعله بعض الناس أيضاً يكون له أسباب :

السبب الأول : أن يكون الإنسان غافلاً سليماً لا يهتم بشيء ، فتجده يعمل السيئة ثم يتحدث بها عن طيب قلب لا عن خبث قصد .

والسبب الثاني : أن يتحدث بها تبجحاً بالمعاصي واستهتاراً بعظمة الخالق ، فيصبحون يتحدثون بالمعاصي متبجحين بها كأنما نالوا غنيمة ، فهؤلاء - والعياذ بالله - شر الأقسام .

ويوجد من الناس من يفعل هذا مع أصحابه ، يعني أنه يتحدث به مع أصحابه فيحدثهم بأمر خفي لا ينبغي أن يذكر لأحد ، لكنه لا يهتم بهذا الأمر فهذا ليس من المعافين ، لأنه من المجاهرين .

والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يستر بستر الله ﷻ ، وأن يحمده الله على العافية ، وأن يتوب فيما بينه وبين ربه من المعاصي التي قام بها ، وإذا تاب إلى الله ، ستره الله في الدنيا والآخرة .

٢٤٢ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « إِذَا زَنَتِ الْأُمَةُ فَنَبِيْنِ زَنَاها فَلْيَجْلِدْها الْحَدَّ ، وَلَا يَثْرِبْ عَلَيْها ، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّانِيَةُ فَلْيَجْلِدْها الْحَدَّ وَلَا يَثْرِبْ عَلَيْها ، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةُ فَلْيَغْفِرْها وَلَوْ يَجْزِي مِنْ شَعْرٍ » ^(٢) متفق عليه . « الثَّرِيبُ » : التوبيخ .

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الزكاة (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٣٥٧/٤) .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٥٥٥) ، ومسلم - مع اختلاف في اللفظ - في الحدود (٣٠) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب » .

والأمة : هي المملوكة التي تباع وتشتري ، فإذا زنت فليجلدها الحد ، وحد الأمة نصف حد الحرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ آتَيْنَ بِفَنَحَشْنَهُنَّ فَمَلَّتَيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [النساء : ٢٥] .

والحرة إذا كانت بكرًا وَزَنَتْ تجلد مائة جلدة وتغرب سنة ، والأمة نصف ذلك يعني خمسين جلدة ، وأما تغريبها ففي ذلك قولان للعلماء : منهم من قال تغرب نصف سنة . ومنهم من قال إنها تغرب ؛ لأنه قد تعلق بها حق السيد .

ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب ، ثم إن زنت يعني في الثالثة أو الرابعة فليبيعها ولو بحبل من شعر ، يعني ولا يقيها لأنه لا خير فيها .
ففي هذا دليل على أن السيد يقيم الحد على مملوكه ، وأما غير السيد فلا يقيم الحد .

* * *

٢٤٣ - وعنه قال : أُنِّي النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْرًا قَالَ : « اضْرِبُوهُ » قال أَبُو هُرَيْرَةَ : فَمِئًا الضَّارِبُ بِيَدِهِ ، وَالضَّارِبُ بَنَعْلِهِ ، وَالضَّارِبُ بَنُوهِ . فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : أَخْزَاكَ اللَّهُ ، قَالَ : « لَا تَقُولُوا هَكَذَا ، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

نقل المؤلف رحمته الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أُنِّي النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْرًا » .
والخمر : هي كل ما خامر العقل من أي شراب كان ؛ سواء كان بما اعتيد شربه أم لا ؛ وسواء كان من عصير العنب أو التمر أو الشعير أو البر أو غير ذلك من أنواع العصائر التي تسكر ، فالمالدار كله على الإسكار ، وما أسكر كثيره فقليله حرام .
ولذلك فلما جاء إلى النبي ﷺ هذا الشارب للخمر قال : « اضربه » .

فقال أبو هريرة : فمنا الضارب بيده ، ومنا الضارب بسوطه ، ومنا الضارب بنعله ، ولم يحدد لهم النبي ﷺ عددًا معينًا ، فلما انصرف بعضهم قال له رجل : أخزأك الله ، فقال النبي ﷺ : « لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ » لأن الخزي معناه العار والذل ، فأنت إذا قلت لرجل : أخزأك الله ، فإنك قد دعوت الله عليه بما يذله ويفضحه ، فتعين عليه الشيطان .

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٧٧) ، قوله « أخزأك » أي فضحك وأهانك .

وفي هذا الحديث : دليل على أن عقوبة الخمر ليس لها حدّ معين ، ولهذا لم يحدّ لهم النبي ﷺ حدّاً ، كلّ يضرب بما تيسر ، من يضرب يده ، ومن يضرب بطرف ثوبه ، ومن يضرب بعصاه ، ومن يضرب بنعله ، لم يحدّ فيها حدّاً ، وبقي الأمر كذلك .

وفي عهد أبي بكر صارت تقدّر بنحو أربعين ، وفي عهد عمر كثر الناس الذين دخلوا في الإسلام ، ومنهم من دخل عن غير رغبة ، فكثّر شرب الخمر في عهد عمر رضي الله عنه ، فلما رأى الناس قد أكثروا فيها استشار الصحابة فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أخف الحدود ثمانون وهو حدّ القذف ، فرفع عمر رضي الله عنه عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين جلدة .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان إذا فعل ذنباً وعوقب عليه في الدنيا ، فإنه لا ينبغي لنا أن ندعو عليه بالخزي والعار ، بل نسأل الله له الهداية ، ونسأل الله له المغفرة .

* * *

٢٩ - باب قضاء حوائج المسلمين

قال الله تعالى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] .

٢٤٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ . مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَوَجَّ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) متفق عليه .

٢٤٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا ، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ . وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَذَكَّرُونَ فِيهِمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَخَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِندَهُ ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » ^(٢) رواه مسلم .

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣) بلفظ « فإن الله في حاجتك » قوله « كربة » أي شدة .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٨) . قوله « ومن يسر على معسر » أي بإبراء أو هبة أو نظرة إلى ميسرة بنفسه أو وساطته قوله « وغشيتهم » أي عمتهم قوله : « ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » أي ومن قصر به عمله لفقد بعض شروط الصحة والكمال لم يلحق برتب أصحاب الأعمال الكاملة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب قضاء حوائج المسلمين .

الحوائج : ما يحتاجه الإنسان ليكمل به أموره ، وأما الضروريات فهي ما يضطر إليه الإنسان ليدفع به ضرراً ، ودفع الضرورات واجب ؛ فإنه يجب على الإنسان إذا رأى أخاه في ضرورة أن يدفع ضرورته ؛ فإذا رآه في ضرورة إلى الطعام أو إلى الشراب أو إلى التدفئة ، أو إلى التبردة ، وجب عليه أن يقضي حاجته ، ووجب عليه أن يزيل ضرورته ويرفعها .

حتى إن أهل العلم يقولون : لو اضطر الإنسان إلى طعام في يد شخص أو إلى شرابه ، والشخص الذي بيده الطعام أو الشراب غير مضطر إلى هذا الطعام أو الشراب ، ومنعه بعد طلبه ، ومات هذا المضطر ، فإنه يضمن ؛ لأنه فرط في إنقاذ أخيه من هلكة .

أما إذا كان الأمر حاجياً وليس ضرورياً ، فإن الأفضل أن تعين أخاك على حاجته ، وأن تيسرها له ما لم تكن الحاجة فيها مضرته ، فإن كانت الحاجة فيها مضرته فلا تعنه ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

فلو فرض أن شخصاً احتاج إلى شرب دخان ، وطلب منك أن تعينه بدفع القيمة له أو شرائه له أو ما أشبه ذلك ، فإنه لا يحل لك أن تعينه ولو كان محتاجاً ، حتى لو رأيته ضائعاً يريد أن يشرب الدخان فلا تعنه ، لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ حتى لو كان أباك ، فإنك لا تعينه على هذا ، حتى لو غضب عليك إذا لم تأت به فليغضب ؛ لأنه غضب في غير موضع الغضب ، بل إنك إذا امتنعت من أن تأتي لأبيك بما يضره ، فإنك تكون باراً به ، ولا تكون عاقاً له ، لأن هذا هو الإحسان ؛ فأعظم الإحسان أن تمنع أباك مما يضره ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قالوا : يا رسول الله : كيف ننصره إذا كان ظالماً . قال : « تمنعه من الظلم ، فذلك نصره إياه » (١) .

وعلى هذا فإن ما ذكره المؤلف في باب قضاء حوائج المسلمين يريد بذلك الحوائج المباحة ، فإنه ينبغي لك أن تعين أخاك عليها ، فإن الله في عونك ما كنت في عون أخيك .

ثم ذكر المؤلف أحاديث من الكلام عليها فلا حاجة إلى إعادتها ، إلا أن فيها بعض الجمل تحتاج إلى كلام ؛ منها قوله : « من يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » فإذا رأيت معسراً ، ويسر الله الأمر يسر الله عليك في الدنيا والآخرة ، مثل أن ترى شخصاً ليس بيده ما يشتري لأهله من طعام وشراب ، لكن ليس عنده ضرورة ، فأنت إذا يسرت عليه يسر الله عليك في الدنيا والآخرة . ومن ذلك أيضاً : إذا كنت تطلب شخصاً معسراً ، فإنه يجب عليك أن تيسر عليه وجوباً ، لقوله

(١) أخرجه البخاري بنحوه في المظالم (٢٤٤٤) ، وأحمد في مسنده (٩٩/٣) .

تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُتُقَةٍ فَتَنْظُرُهُ إِلَىٰ مَسَرَفٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] وقد قال العلماء - رحمهم الله - : من كان له غريم معسر فإنه يحرم عليه أن يطلب منه الدين ، أو أن يطالبه به ، أو أن يرفع أمره إلى الحاكم ، بل يجب عليه إنظاره .

ويوجد بعض الناس - والعياذ بالله - ممن لا يخافون الله ، ولا يرحمون عباد الله ، يطالبون المعسرين ، ويضيقون عليهم ، ويرفعونهم إلى الجهات المسؤولة فيحبسون ويؤذون ويمنعون من أهلهم ومن ديارهم ، كل هذا بسبب الظلم ، وإن كان الواجب على القاضي إذا ثبت عنده إفسار الشخص ، فواجب عليه أن يرفع الظلم عنه ، وأن يقول لغرمائه : ليس لكم شيء .

ثم إن بعض الناس - والعياذ بالله - إذا كان لهم غريم معسر يحتال عليه بأن يدينه مرة أخرى برئاً ، فيقول مثلاً : اشتري مني السلعة الفلانية بزيادة على ثمنها وأوفني ، أو يتفق مع شخص ثالث يقول : اذهب تدّين من فلان وأوفني ، وهكذا حتى يصبح هذا المسكين بين يدي هذين الظالمين كالكرة بين يدي الصبي يلعب بها والعياذ بالله .

والمهم : أن عليكم إذا رأيتم شخصاً ، يطالب معسراً أن تبينوا له أنه آثم ، وأن ذلك حرام عليه ، وأنه يجب عليه إنظاره لقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُتُقَةٍ فَتَنْظُرُهُ إِلَىٰ مَسَرَفٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] وأنه إذا ضيق على أخيه المسلم ، فإنه يوشك أن يضيق الله عليه في الدنيا أو في الآخرة ، أو في الدنيا والآخرة معاً ، ويوشك أن يعجل له بالعقوبة ، ومن العقوبة أن يستمر في مطالبة هذا المعسر وهو معسر ؛ لأنه كلما طالبه ازداد إثماً .

وعلى العكس من ذلك ، فإنه يوجد بعض الناس - والعياذ بالله - يماطلون بالحقوق التي عليهم ، مع قدرتهم على وفائهم ، فتجده يأتيه صاحب الحق فيقول : غداً ، وإذا أتاه في غد ؛ وهكذا ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظَلَمٌ » (١) .

وإذا كان ظلماً فإن أي ساعة أو لحظة تمضي وهو قادر على وفاء دينه فإنه لا يزداد بها إلا إثماً ، نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

* * *



قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ (٢) [النساء : ٨٥] .

٢٤٦ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٠) ، ومسلم في المساقاة (٣٣) ، وأحمد في مسنده (٧١/٢) .

(٢) قوله ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً ﴾ أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

لِجَلْسَائِهِ فَقَالَ : « اشفَعُوا تُؤْخَرُوا وَيَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبُّ » متفقٌ عليه .
وفي رواية : « مَا شَاءَ » (١) .

٢٤٧ - وعن ابن عباس ؓ في قصة بَرِيرَةَ وَزَوْجِهَا . قال : قال لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : « لَوْ رَاجَعْتِهِ ؟ »
قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي ؟ قال : « إِنَّمَا أَشْفَعُ » قَالَتْ : لا حَاجَةَ لِي فِيهِ (٢) . رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الشفاعة . والشفاعة : هي التوسط للغير ؛ لجلب منفعة أو دفع مضرة .

مثال الأول : أن تتوسط لشخص عند آخر في أن يساعده في أمر من الأمور .
ومثال الثاني : أن تشفع لشخص عند آخر في أن يسامحه ويعفو عن مظلمته ، حتى يندفع عنه الضرر .
ومثال ذلك في الآخرة ؛ أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف ليقضى بينهم ، حين يصيبهم من الكرب والغم ما لا يطيقون (٣) ، فهذه شفاعة في دفع مضرة .
ومثالها في جلب منفعة ؛ أن النبي ﷺ يشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة (٤) .
والمراد بالشفاعة في كلام المؤلف : الشفاعة في الدنيا ؛ وهي أن يشفع الإنسان لشخص عند آخر ؛ يتوسط له لجلب المنفعة له أو دفع المضرة عنه .
والشفاعة أقسام :

القسم الأول : شفاعة محرمة لا تجوز ، وهي أن يشفع لشخص وجب عليه الحدُّ بعد أن يصل إلى الإمام ، فإن هذه شفاعة محرمة لا تجوز ؛ مثال ذلك : رجل وجب عليه حدٌّ في قطع يده للسرقة ، فلما وصلت إلى الإمام أو نائب الإمام ، أراد إنسان أن يشفع لهذا السارق أن لا تقطع يده ، فهذا حرام أنكره النبي - عليه الصلاة والسلام - إنكاراً عظيماً .

وذلك حينما أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن تقطع يد المرأة المخزومية ، امرأة من بني مخزوم من أشرف قبائل العرب ، كانت تستعير الشيء ثم تجرده ، أي : تستعيره لتنتفع به ثم تنكر

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٣٢) ، ومسلم في البر والصلة (١٤٥) ، وفيه « اشفَعُوا فَلتُؤْخَرُوا » . قوله : « ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب » أي : ما أراد مما سبق في علم الله الأزلي من وقوع الأمر وحصوله أو عدمه .
(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٨٣) .

(٣) هذا حديث ولفظه « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا .. » . وقد أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ، ومسلم في الإيمان (٣٢٢) .

(٤) هذا حديث ولفظه « أنا أول الناس يشفع في الجنة .. » . وقد أخرجه مسلم في الإيمان (٣٣٠) ، والدارمي في المقدمة (٤٨) .

بعد ذلك أنها استعارت شيئاً ، فأمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بقطع يدها فاهتمت لذلك قريش ، قالوا : امرأة من بني مخزوم تقطع يدها ؟ هذا عار كبير ، من يشفع لنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فرأوا أن أقرب الناس لذلك أسامة بن زيد بن حارثة .

وأسامه بن زيد ابن مولى رسول الله ﷺ ، لأن زيد بن حارثة عبدٌ أهدته إلى رسول الله ﷺ خديجة ، ثم أعتقه وكان يحبه - عليه الصلاة والسلام - ويجب ابنه أسامة ، فذهب أسامة إلى النبي ﷺ يشفع لهذه المرأة ألا تقطع يدها ، فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » قال ذلك إنكاراً عليه ، ثم قام فخطب الناس وقال : « أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم ؛ أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله - يعني : أقسم بالله - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعْتُ يدها » (١) .

وهذه المرأة المخزومية دون فاطمة شرقاً ونسباً ، ومع ذلك فإنه ﷺ قال : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعْتُ يدها » ليسد باب الشفاعة والوساطة في الحدود إذا بلغت الإمام .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : « من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضادَّ الله في أمره » (٢) .

وقال ﷺ : « إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع » (٣) .

ولما سرق رداء صفوان بن أمية وكان قد توسده في المسجد ، فجاء رجل فسرقه ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يد السارق - انظر ماذا سرق ؟ سرق رداء ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يده - فقال : يا رسول الله ، أنا لا أريد ردائي ، يعني أنه رحم هذا السارق وشفع فيه أن لا تقطع يده ، فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « هلا كان ذلك قبل أن تأتيني به » (٤) .

يعني لو عفوت عنه قبل أن تأتيني به لكان ذلك لك ، لكن إذا بلغت الحدود السلطان فلا بد من تنفيذها ، وتحرم فيها الشفاعة .

القسم الثاني : أن يشفع في شيء محرم ، مثل أن يشفع لإنسان معتد على أخيه ، أعرف مثلاً أن هذا الرجل يريد أن يخطب امرأة مخطوبة ، والمرأة المخطوبة لا يحل لأحد خطبتها ، فذهب رجل ثانٍ إلى شخص ، وقال : يا فلان أحب أن تشفع لي عند والد هذه المرأة يزوجنيها ، وهو يعلم أنها مخطوبة ، فهنا لا يحل له أن يشفع ؛ لأن هذه شفاعة في محرم .

والشفاعة في المحرم تعاون على الإثم والعدوان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعَوْنِ

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٣٣) ، ومسلم - واللفظ له - في الحدود (٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٧) بدون لفظ « في أمره » ، والحاكم في المستدرک (٢٧/٢) ، وأحمد في مسنده (٧٠/٢) .

(٣) أخرجه مالك في الحدود (٢٩) بلفظ « إذا بلغت به السلطان .. » .

(٤) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٣٩٤) ، وابن ماجه في الحدود (٢٥٩٥) ، والنسائي في الحدود (٤٨٧٨) .

وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿٣﴾ [المائدة: ٣] .

ومن ذلك أيضًا أن يأتي رجل لشخص فيقول : يا فلان أنا أريد أن أشتري دخانًا من فلان وقد شمتُهُ بكذا وكذا ، وأبى عليَّ إلا بكذا وكذا أكثر مما سمته به ، فأرجوك أن تشفع لي عنده ليبيعه عليَّ بهذا السعر الرخيص ، فهنا لا تجوز الشفاعة ؛ لأن هذه إعانة على الإثم والعدوان .

القسم الثالث : الشفاعة في شيء مباح وهذه لا بأس بها ، ويكون للإنسان فيها أجرٌ ، مثل أن يأتي شخص لآخر فيسومُ منه بيتًا ويقول له : هذا الثمن قليل ، فيذهب السائم إلى شخص ثالث ، ويقول : يا فلان اشفع لي عند صاحب البيت ، لعله يبيعه عليَّ ، فيذهب ويشفع له ، فهذا جائز ، بل هو مأجور على ذلك ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أتاه صاحب حاجة التفت إلى أصحابه وقال : « اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » أو « ما أحب » فهنا يأمر - عليه الصلاة والسلام - أصحابه بأن يشفعوا لصاحب الحاجة .

ومثل ذلك أيضًا لو وجب لك حق على شخص ورأيت أنك إذا تنازلت عنه هكذا ربما استخفَّ بك في المستقبل وانتهك حرمتك ، فهنا لا حرج أن تقول مثلًا لبعض الناس : اشفعوا له عندي ؛ حتى تظهر أنت بمظهر القوي ولا تجبن أمامه ويحصل المقصود .

المهم أن الشفاعة في غير أمر محرم من الإحسان إلى الغير كما قال تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء: ٣٥] .

* * *

٣١ - باب الإصلاح بين الناس

قال الله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّبَوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١٤] وقال تعالى : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء: ٢٨] وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الإصلاح بين الناس . الإصلاح بين الناس هو أن يكون بين شخصين معاداة وبغضاء ، فيأتي رجل موفِّق فيصلح بينهما ، ويزيل ما بينهما من العداوة والبغضاء ، وكلما كان الرجلان أقرب صلة بينهما من بعض ، فإن الصلح بينهما أؤكد ، يعني أن الصلح بين الأب وابنه أفضل من الصلح بين الرجل وصاحبه ، والصلح بين الأخ وأخيه أفضل من الصلح بين العم وابن أخيه ، وهكذا كلما كانت القطيعة أعظم كان الصلح بين المتباغضين وبين المتقاطعين أكمل وأفضل وأؤكد .

واعلم أن الصلح بين الناس من أفضل الأعمال الصالحة ، قال الله ﷻ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أي : إلا نجوى من أمر بصدقة . والنجوى : الكلام الخفي بين الرجل وصاحبه ، فأكثر المناجاة بين الناس لا خير فيها إلا من أمر بصدقة أو معروف .

والمعروف : كل ما أمر به الشرع ، يعني أمر بخير .

أو إصلاح بين الناس : بين الرجل وصاحبه مفسدة ، فيأتي شخص موثق فيصلح بينهما ، ويزيل ما بين الرجل وصاحبه من العداوة والبغضاء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] فبين سبحانه في هذه الآية أن الخير حاصل فيمن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، فهذا خير حاصل لاشك فيه ، أما الثواب فقال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . فأنت - يا أخي المسلم - إذا رأيت بين شخصين عداوة وبغضاء وكرهه ، فاحرص على أن تسعى بينهما بالصلح حتى لو خسرت شيئاً من مالك فإنه مخلوف عليك .

ثم اعلم أن الصلح يجوز فيه التورية أي : أن تقول لشخص : إن فلاناً لم يتكلم فيك بشيء ، إن فلاناً يحب أهل الخير وما أشبه ذلك ، أو تقول : فلان يحبك إن كنت من أهل الخير ، وتضمر في نفسك جملة « إن كنت من أهل الخير » لأجل أن تخرج من الكذب .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا شُكْرًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ (١) [النساء : ١٢٨] . هذه جملة عامة « الصلح خير » في جميع الأمور .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] إشارة إلى أن الإنسان ينبغي له عند الإصلاح أن يتنازل عما في نفسه ، وأن لا يتبع نفسه ؛ لأنه إذا اتبع نفسه فإن النفس شحيحة ، ربما يريد الإنسان أن يأخذ بحقه كاملاً ، وإذا أراد الإنسان أن يأخذ بحقه كاملاً فإن الصلح يتعذر ؛ لأنك إذا أردت أن تأخذ بحقك كاملاً ، وأراد صاحبك أن يأخذ بحقه كاملاً ، لم يكن إصلاحاً ، لكن إذا تنازل كل واحد منكما عما يريد وغلب شح نفسه ، فإنه يحصل الخير ، ويحصل الصلح ، وهذا هو الفائدة من قوله تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : ٩] فأمر الله ﷻ بالإصلاح بين المتقاتلين من المؤمنين .

المهم أن الإصلاح كله خير ، فعليك يا أخي المسلم إذا رأيت شخصين متنازعين متباغضين متعادين ؛ أن تصلح بينهما ، لتنال الخير الكثير ، وابتغ في ذلك وجه الله ، حتى يحصل لك الخير الكثير ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] . أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الصالحين المصلحين .

(١) قوله : ﴿ بَعْلِهَا ﴾ أي : زوجها ، وقوله : ﴿ شُكْرًا ﴾ تجافياً وسوء معاملة .

٢٤٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ : تَعْدِلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَائِيهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا ، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » ^(١) متفقٌ عليه . ومعنى « تَعْدِلُ بَيْنَهُمَا » : تُصْلِحُ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ .

الشرح

سبق لنا ما ذكره المؤلف من الآية الكريمة الدالة على فضيلة الإصلاح بين الناس ، ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يصبح على كل سلامي من الناس صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس » ، والسلامي هي العظام والمفاصل ؛ يعني كل يوم تطلع الشمس فعلى كل مفصل من مفاصلك صدقة . قال العلماء من أهل الفقه والحديث : وعدد السلامي في كل إنسان ثلاثمائة وستون عضواً أو مفصلاً ، فعلى كل واحد من الناس أن يتصدق كل يوم تطلع فيه الشمس بثلاثمائة وستين صدقة ، ولكن الصدقة لا تختص بالمال ، بل كل ما يقرب إلى الله فهو صدقة بالمعنى العام ؛ لأن فعله يدل على صدق صاحبه في طلب رضوان الله ﷻ .

ثم بين ﷺ هذه الصدقة فقال : « تعدل بين اثنين صدقة » يعني : رجلان يتخاصمان إليك فتعدل بينهما ؛ تحكم بينهما بالعدل ، وكل ما وافق الشرع فهو عدل ، وكل ما خالف الشرع فهو ظلم وجور . وعلى هذا فنقول : هذه القوانين التي يحكم بها بعض الناس وهي مخالفة لشريعة الله ليست عدلاً ، بل هي جور وظلم وباطل ، ومن حكم بها معتقداً أنها مثل حكم الله أو أحسن منه ، فإنه كافر مرتد عن دين الله ؛ لأنه كذب قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] يعني : لا أحد أحسن من الله حكماً ، لكن لا يفهم هذا إلا من يوقن ، أما الذي أعمى الله بصيرته ، فإنه لا يدري بل قد يزعم له سوء عمله فيراه حسناً والعياذ بالله .

ومن العدل بين اثنين : العدل بينهما بالصلح ، لأن الحاكم بين الاثنين سواء كان متطوعاً أو من قبل ولي الأمر ، قد لا يتبين له وجه الصواب مع أحد الطرفين ، فإذا لم يتبين له فلا سبيل له إلا بالإصلاح ، فيصلح بينهما بقدر ما يستطيع .

وقد سبق لنا أنه صلح مع المشاحة ، يعني أن الإنسان إذا أراد أن يعامل أخاه بالمشاحة ، فإنه لا يمكن الصلح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] يشير إلى أن الصلح ينبغي للإنسان أن يبعد فيه عن الشُّح ، وأن لا يطالب بكامل حقه ؛ لأنه إن طالب بكامل حقه ، طالب الآخر بكامل حقه ولم يحصل بينهما صلح بل لابد أن يتنازل كل واحد منهم عن بعض حقه .

فإذا لم يمكن الحكم بين الناس بالحق ، بل اشتبه على الإنسان إما من حيث الدليل ، أو من حيث

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩) ، ومسلم - واللفظ له - في الزكاة (٥٦) .

حال المتخاصمين ، فليس هناك إلا السعي بينهما بالصلح .

قال - عليه الصلاة والسلام - : « تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعاً صدقة » .

هذا أيضا من الصدقات ؛ أن تعين الرجل في دابته فتحمله عليها إذا كان لا يستطيع أن يركبها بنفسه ، أو تحمل له عليها متاعه ، تساعد على حمل المتاع على الدابة فهذا صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة ؛ يعني إذا رأيت ما يؤلم المشاة فأمطته أي أزلته فهذه صدقة ، سواء كان حجراً ، أم زجاجاً ، أم قشر بطيخ ، أم ثياباً يلتوي بعضها على بعض ، أو ما أشبه ذلك .

المهم : كل ما يؤذي فأزله عن الطريق ، فإنك بذلك تكون متصدقاً ، وإذا كان إمطة الأذى عن الطريق صدقة ، فإن إلقاء الأذى في الطريق سيئة .

ومن ذلك من يلقون قمامتهم في وسط الشارع ، أو يتركون المياه تجري في الأسواق فتؤذي الناس ، مع أن في ترك المياه مفسدة أخرى ، وهي استنفاد الماء ؛ لأن الماء مخزون في الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاْتَرْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُطَيَّرُ بِهِ وَمَا أَنَشَرْنَا لَكُمْ بِهِ خَدْرًا أَلَمْ تَكُونُوا أَبْصَارًا ﴾ [الحجر: ٢٢] والمخزون ينقد . ولهذا نرى أن الذي يترك المياه ويسرف في صرفها ولا يبالي في ضياعها مسيء إلى كل الأمة ؛ لأن الماء مشترك ، فإذا أسأت في تصريفه وأنفقته ولم تبالي به كنت مسرفاً ، والله لا يحب المسرفين ، وكنت مسيئاً لتهديد الأمة في نقص مائها أو زواله ، وهذا ضرر عام .

المهم : أن الذين يلقون في الأسواق ومسار الناس ما يؤذيهم هم مسيئون ، والذين يزيلون ذلك هم متصدقون ومحسنون .

« وتميط الأذى عن الطريق صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة » ، وهذه - ولله الحمد - من أعم ما يكون . والكلمة الطيبة تنقسم إلى قسمين : طيبة بذاتها ، طيبة بغاياتها .

أما الطيبة بذاتها : كالذكر : لا إله إلا الله ، الله أكبر ، الحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأفضل الذكر قراءة القرآن .

وأما الكلمة الطيبة في غايتها : فهي الكلمة المباحة كالحدث مع الناس ، إذا قصدت بهذا إيناسهم وإدخال السرور عليهم ، فإن هذا الكلام وإن لم يكن طيباً بذاته لكنه طيب في غاياته ، في إدخال السرور على إخوانك ، وإدخال السرور على إخوانك مما يقربك إلى الله ﷻ ، فالكلمة الطيبة صدقة وهذا من أعم ما يكون .

ثم قال : « وفي كل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة » .

كل خطوة : خطوة - بالفتح - يعني خطوة واحدة تخطوها إلى الصلاة ففيها صدقة . عدّ الخطى من بيتك إلى المسجد تجدها كثيرة ، ومع ذلك فكل خطوة فهي صدقة لك ، إذا خرجت من بيتك مسبقاً الوضوء ، لا يخرجك من بيتك إلى المسجد إلا الصلاة ، فإن كل خطوة صدقة ، وكل خطوة

تخطوها يرفع الله لك بها درجة ، ويحطُ عنك بها خطيئة . وهذا فضل عظيم .
أسبغ الوضوء في بيتك ، وأخرج إلى المسجد ، لا يخرجك إلا الصلاة ، وأبشر بثلاث فوائد :
الأولى : صدقة ، والثانية : رفع درجة ، والثالثة : حطُ خطيئة .
كل هذا من نعم الله ﷻ .

* * *

٢٤٩ - وعن أمِّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :
« لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُضْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنِمِّي خَيْرًا ، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا » متفقٌ عليه .
وفي رواية مسلم زيادة ، قالت : وَلَمْ أَشْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ ،
تُعْنِي : الْحَرْبَ ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ ، وَحَدِيثَ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا ^(١) .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً » فالإنسان إذا قصد الإصلاح بين الناس وقال للشخص : إن فلاناً يثني عليك ويمدحك ويدعو لك وما أشبه ذلك من الكلمات ، فإن ذلك لا بأس به .

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة ، هل المراد أن يكذب الإنسان كذباً صريحاً ، أو أن المراد أن يورّي ، بمعنى أن يظهر للمخاطب غير الواقع ، لكنه له وجه صحيح ، كأن يعني بقوله مثلاً : فلان يثني عليك أي على جنسك وأمثالك من المسلمين ، فإن كل إنسان يثني علي المسلمين من غير تخصيص . أو يريد بقوله : إنه يدعو لك ؛ أنه من عباد الله ، والإنسان يدعو لكل عبد صالح في كل صلاة ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنكم إذا قُلتُم ذلك » - يعني قُلتُم ذلك - يعني قُلتُم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - « فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض » ^(٢) . وقال بعضهم : إن التورية تُعد كذباً ؛ لأنها خلاف الواقع ، وإن كان المتكلم قد نوى بها معنى صحيحاً ، واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ : « إن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يعتذر عن

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٢) ، ومسلم في البر والصلة (١٠) . قوله « فينمي خيراً » أي يبلغ خيراً ويعرف خيراً ، قوله « يرخص » من الترخيص ضد الحظر قوله « الحرب » كأن يقول لأعداء الدين : لنا جيش كبير يأتينا أو غير ذلك مما فيه مصلحة عامة للمسلمين فيجوز ارتكاب الكذب ؛ لعظم النفع ، قوله « والإصلاح بين الناس » كأن يقوله له : فلان - يعني عدوه - يحبك ويثني عليك خيراً ؛ رغبة في الإصلاح بينهما ، قوله « وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها » كأن يقول لها : لا أحد أحب إلي منك . فهذا الكذب جائز لعظم المصلحة .
(٢) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١٢٠٢) ، ومسلم في الصلاة (٥٥) .

الشفاعة بأنه كذب ثلاث كذبات في ذات الله^(١) وهو لم يكذب - عليه الصلاة والسلام - ولكنه ورى .

وعلى كل حال فالإنسان المصلح ينبغي له أن يتحرز من الكذب ، وإذا كان ولا بد فليتأول ، ليكون بذلك مورّياً ، والإنسان إذا كان مورّياً فلا إثم عليه فيما بينه وبين الله ، والتورية جائزة عند المصلحة . أما اللفظ الثاني : ففيه زيادة عن الإصلاح بين الناس ، وهو الكذب في الحرب . والكذب في الحرب هو أيضاً نوع من التورية مثل أن يقول للعدو : إن ورائي جنوداً عظيمة وما أشبه ذلك من الأشياء التي يرهّب بها الأعداء .

وتنقسم التورية في الحرب إلى قسمين :

قسم في اللفظ ، وقسم في الفعل ، مثل ما فعل القعقاع بن عمرو رضي الله عنه في إحدى الغزوات ، فإنه أراد أن يرهّب العدو فصار يأتي بالجيش في الصباح ثم يغادر المكان ثم يأتي به في صباح يوم آخر وكأنه مدد جديد جاء ليساعد المحاربين المجاهدين ، فيتوهم العدو أن هذا مدد جديد جاء ليساعد المحاربين المجاهدين ، فيتوهم العدو أن هذا مدد جديد فيرهّب ويخاف ، وهذا جائز للمصلحة .

أما المسألة الثالثة : فهي أن يحدث الرجل زوجته وتحدث المرأة زوجها ، وهذا أيضاً من باب التورية ، مثل أن يقول لها : إنك من أحب الناس إليّ ، وإني أرغب في مثلك ، وما أشبه ذلك من الكلمات التي توجب الألفة والمحبة بينهما .

ولكن مع هذا لا ينبغي فيما بين الزوجين أن يكثر الإنسان من هذا الأمر ؛ لأن المرأة إذا عثرت على شيء يخالف ما حدثها به ، فإنه ربما تنعكس الحال وتكرهه أكثر مما كان يتوقع ، وكذلك المرأة مع الرجل .

* * *

٢٥٠ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سميع رسول الله ﷺ صَوَّتْ خُصُومَ بِالْبَابِ عَالِيَةً أَصْوَاتَهُمَا ، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ ، وَهُوَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ ؟ » فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ ^(٢) . متفقٌ عليه .

معنى « يَسْتَوْضِعُهُ » : يَسْأَلُهُ أَنْ يَضَعَ عَنْهُ بَعْضَ دَيْنِهِ . « وَيَسْتَرْفِقُهُ » : يَسْأَلُهُ الرِّفْقَ . « وَالْمُتَأَلِّي » : الْحَالِفُ .

(١) هذا الحديث مروى بالمعنى وقد أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٥٧) ، ومسلم في الفضائل (١٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٥) ، ومسلم في المساقاة (١٩) . قوله « فله أي ذلك أحب » هذا من جملة مقول المتألي ؛ أي : فلخصمي ما أحب من الوضع أو الرفق .

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف رحمته الله في بيان الصلح بين اثنين متنازعين فإذا رأى شخص رجلين يتنازعان في شيء وأصلح بينهما ، فله أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فعل خيراً كثيراً ، كما سبق الكلام فيه على قول الله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجُوْنِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ الْاٰثْنَيْنِ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ اٰتَيْنَاهُ مَرْحٰتًا مِّنْ لَّدُنِّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ اَجْرًا عَظِيْمًا ۝﴾ [النساء : ١١٤] .

فالنبي صلى الله عليه وسلم لما سمع نزاع رجلين وقد علت أصواتهما ، خرج إليهما صلى الله عليه وسلم لينظر ماذا عندهما . وفيه : دليل على أنه لا حرج على الإنسان أن يتدخل في النزاع بين اثنين ، إذا لم يكن ذلك سراً بينهما ؛ لأن هذين الرجلين قد أعلننا ذلك ، وكانا يتكلمان بصوت مرتفع ، أما لو كان الأمر بين اثنين على وجه السر والإخفاء ، فلا يجوز للإنسان أن يتدخل بينهما ؛ لأن في ذلك إحراجاً لهما ، فإن إخفاءهما للشيء يدل على أنهما لا يحببان أن يطلع عليه أحد من الناس ، فإذا أقحمت نفسك في الدخول بينهما أخرجتهما وضيق عليهما ، وربما تأخذهما العزة بالإثم فلا يصطلحان .

والمهم : أنه ينبغي للإنسان أن يكون أداة خير ، وأن يحرص على الإصلاح بين الناس وإزالة العداوة والضغائن حتى ينال خيراً كثيراً .

٢٥١ - وعن أبي العباس سهل بن سعيد الشاعدي رحمته الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن بني عمرو ابن عوف كان بينهم شرٌّ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلح بينهم في أناس معه ، فحس رسول الله صلى الله عليه وسلم وخانت الصلاة ، فجاء بلال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حبس ، وخانت الصلاة ، فهل لك أن تؤم الناس ؟ قال : نعم إن شئت ، فأقام بلال الصلاة ، وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في الصفوف حتى قام في الصف ، فأخذ الناس في التضييق ، وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يلتفت في صلاته ، فلما أكثر الناس التضييق التفت ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده فحمد الله ، ورجع القهقري وراءه حتى قام في الصف ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى للناس ، فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ما لكم حين نأبكم شيء في الصلاة أخذتم في التضييق ؟ ! إنما التضييق للنساء . من نأبه شيء في صلاته فليقل : سبحان الله ؛ فإنه لا يسمعه أحد حين يقول : سبحان الله ، إلا التفت . يا أبا بكر ، ما منعك أن تصلّي بالناس حين أشوت إليك ؟ » فقال أبو بكر : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلّي بالناس حين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) . متفق عليه .

معنى « حَسِبَ » : أمسكوه ليضيّقوه .

(١) أخرجه البخاري في السهو (١٢٣٤) ، ومسلم في الصلاة (١٠٣) . قوله « القهقري » أي يمشي إلى خلفه ، قوله « وراء » بالنصب على الحال تأكيد ، وفعل ذلك ؛ لئلا يستدير القيلة فيبطل صلاته ، وقوله « نأبكم شيء » أي أصابكم ، والشيء المراد هنا هو إرادتهم تنبيه الصديق على مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

٢٢ - باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين

قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَقْدِرْ عَلَيْهِمْ قُوَّةٌ ﴾ [الكهف : ٢٨] .

الشرح

قال - رحمه الله تعالى - : باب فضل ضعفاء المسلمين وفقرائهم والخاملين منهم .
المراد بهذا الباب ؛ تسليية من قدر الله عليه أن يكون ضعيفاً في بدنه ، أو ضعيفاً في عقله ، أو ضعيفاً في ماله ، أو ضعيفاً في جاهه أو غير ذلك مما يعذبه الناس ضعفاً ، فإن الله ﷻ قد يجعل الإنسان ضعيفاً من وجه لكنه قويٌّ عند الله ﷻ ، يحبه الله ويكرمه ، وينزله المنازل العالية ، وهذا هو المهم .

المهم أن تكون قويّاً عند الله ﷻ ، وجيهاً عنده ، ذا شرف يكرمك الله به .
ثم ذكر قول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ في قوله : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الكهف : ٢٨] . اصبر نفسك أي احبسها مع هؤلاء القوم الذين يدعون الله بالغداة : أول النهار ، والعشي : آخر النهار ، والمراد بالدعاء هنا : دعاء المسألة ، ودعاء العبادة .
فإن دعاء المسألة يعتبر دعاء ؛ كقوله تعالى في الحديث القدسي : « من يدعوني فأستجيب له » (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .
ودعاء عبادة : وهو أن يتعبد الإنسان لربه بما شرعه ؛ لأن العابد يدعو بلسان الحال ، ولسان المقال .
فالصلاة مثلاً عبادة تشتمل على قراءة القرآن ، وذكر الله ، وتسييحه ، ودعائه أيضاً ، والصوم عبادة ، وإن كان في جوهره ليس فيه دعاء ، ولكن الإنسان لم يصم إلا رجاء ثواب الله ، وخوف عقاب الله ، فهو دعاء بلسان الحال .

وقد تكون العبادة دعاءً محضاً يدعو الإنسان ربه بدعاء فيكون عابداً له ، وإن كان مجرد دعاء ؛ لأن الدعاء يعني افتقار الإنسان إلى الله ، وإحسان ظنه به ، ورجاءه ، والخوف من عقابه .
فقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ ، يدعون ربهم : أي يسألونه حاجاتهم ، ويعبدونه ؛ لأن العابد داع بلسان الحال ، بالغداة : أول النهار ، والعشي : آخر النهار ، ولعل المراد بذلك : يدعون ربهم دائماً ، لكنهم يخصّون الغداة والعشي بدعائه الخاص ، ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ يعني :

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨) .

لا يريدون عرضًا من الدنيا ، إنما يريدون وجه الله ﷻ .

﴿ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يعني : لا تتجاوز عينك إلى غيرهم ، بل كن دائمًا ناظرًا إليهم ، وكن معهم في دعائهم وعبادتهم وغير ذلك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (١) [طه : ١٣١] فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يعني اجعل عينيك دائمًا فيهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي لا تنظر إلى أهل الدنيا وما مُتّعوا به من النعيم ، ومن المراكب ، والملابس ، والمساكن ، وغير ذلك .

فكل هذا زهرة الدنيا ، والزهرة آخر مآلها الذبول واليبس والزوال ، وهي أسرع أوراق الشجرة ذبولًا وزوالًا ، ولهذا قال : زهرة ، وهي زهرة حسنة في رونقها وجمالها وريحها - إن كانت ذات ريح - لكنها سريعة الذبول ، وهكذا الدنيا ، زهرة تذبل سريعًا ، نسأل الله أن يجعل لنا حظًا ونصيبًا في الآخرة .

يقول : ﴿ لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، أي رزق الله بالطاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَرَ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَابُ لِلنَّعْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] .

وكان النبي ﷺ إذا رأى شيئًا يعجبه من الدنيا قال : « اللهم إن العيش عيش الآخرة » (٢) كلمتان عظيمتان ، فالإنسان إذا نظر إلى الدنيا ربما تعجبه فيلهو عن طاعة الله ، فينبغي أن يذكر نعيم الآخرة عند ذلك ، ويقارن بينه وبين هذا النعيم الدنيوي الزائل ، ثم يوطن نفسه ويرغبها في هذا النعيم الأخروي الذي لا ينقطع ، ويقول : « اللهم إن العيش عيش الآخرة » .

وصدق الرسول ﷺ فعيش الدنيا - مهما كان - زائل ، ومهما كان ، فمحفوف بالحزن ، ومحفوف بالآفات ، ومحفوف بالنقص ، وكما يقول الشاعر في شعره الحكيم :

لا طيب للعيش مادامت منغصةً لذاته بادكار الموت والهزم
والعيش مآله أحد أمرين :

إما الهرم : حتى يعود الإنسان إلى سن الطفولة ، والضعف البدني مع الضعف العقلي ، ويكون عالة حتى على أهله فإنهم يملونه .

وإما الموت : فكيف يطيب العيش للإنسان العاقل ؟ ولولا أنه يؤمل ما في الآخرة ، وما يرجوه من ثواب الآخرة ، لكانت حياته عبثًا .

(١) قوله ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ ﴾ لا تشغل نفسك ب..... قوله ﴿ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أصنافًا من الكفار . قوله : ﴿ لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنجعلهم لهم فتنة وابتلاء .

(٢) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٤) ومسلم في الجهاد والسير (١٢٦ ، ١٢٧) .

على كل حال أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين يدعون الله بالغداة والعشي يريدون وجهه ، والآية ليست أمراً خاصاً بالضعفاء ، وإن كان سبب النزول هكذا ، لكن العبرة بالعموم . الذين يدعون الله ويعبدونه سواء كانوا ضعفاء أم أقوياء ، فقراء أم أغنياء كن معهم دائماً .

لكن الغالب أن الملاء والأشراف يكونون أبعد عن الدين من الضعفاء والمستضعفين ، ولهذا تجد الذين يكذبون الرسل هم الملاء ، قال الملاء من قوم صالح : ﴿ قَالَ أَمْلَأْ أَلْيَيْنَ أَسْتَكْبِرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَقْلَمْتُمْ أَنْتَ صَاحِبًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الأعراف : ٧٥] فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الحق ودعاة الحق وأنصاره . إنه جواد كريم .

* * *

٢٥٢ - عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ . أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ غُلٍّ جَوَاطِ مُشْتَكِرٍ » ^(١) متفق عليه .

« الْغُلُّ » : الْغَلِيظُ الْجَافِي . « وَالْجَوَاطِ » بفتح الجيم وتشديد الواو وبالطاء المعجمة : وَهُوَ الْجَمُوعُ الْمَنُوعُ ، وَقِيلَ : الضَّخْمُ الْمُخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ ، وَقِيلَ : الْقَصِيرُ الْبَطِينُ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : فيما نقله عن حارثة بن وهب رضي الله عنه في باب ضعفاء المسلمين وأذلائهم أن النبي ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » يعني هذه من علامات أهل الجنة ؛ أن الإنسان يكون ضعيفاً متضعفاً ، أي لا يهتم بمنصبه أو جاهه ، أو يسعى إلى علو المنازل في الدنيا ، ولكنه ضعيف في نفسه متضعف ، يميل إلى الخمول وإلى عدم الظهور ؛ لأنه يرى أن المهم أن يكون له جاه عند الله ﷻ ، لا أن يكون شريفاً في قومه أو ذا عظمة فيهم ، ولكن همه كله هو أن يكون عند الله ﷻ ذا منزلة كبيرة عالية .

ولذلك تجد أهل الآخرة لا يهتمون بما يفوتهم من الدنيا ؛ إن جاءهم من الدنيا شيء قبلوه ، وإن فاتهم شيء لم يهتموا به ؛ لأنهم يرون أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن الأمور بيد الله ، وأن تغيير الحال من المحال ، وأنه لا يمكن رفع ما وقع ولا دفع ما قدر إلا بالأسباب الشرعية التي جعلها الله تعالى سبباً .

وقوله : « لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » يعني لو حلف على شيء ليشر الله له أمره ، حتى يحقق له ما حلف عليه ، وهذا كثيراً ما يقع ؛ أن يحلف الإنسان على شيء ثقة بالله ﷻ ، ورجاء لثوابه فير الله

(١) البخاري في التفسير (٤٩١٨) - واللفظ له - ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤٦) ، والترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٥) قوله « لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » أي : لو حلف يميناً طمعاً في كرم الله بإبراره لأبره بحصول ذلك .

قسمه ، وأما الخالف على الله تعالى وتحجراً لرحمته ، فإن هذا يخذل والعياذ بالله .
وها هنا مثلان :

المثل الأول : أن الربيع بنت النضر رضي الله عنها وهي من الأنصار ، كسرت ثنية جارية من الأنصار ، فرفعوا الأمر إلى رسول الله ﷺ فأمر النبي ﷺ أن تكسر ثنية الربيع ، لقول الله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ بَهِيمٍ فَلَمَّ أَنْتَفَسَ بِالنَّفْسِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالْيَسْنَ بِالْيَتَنِ ﴾ [المائدة : ٥٠] فقال أخوها أنس بن النضر : والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع ، فقال : « يا أنس كتاب الله القصاص » فقال : والله لا تكسر ثنية الربيع . أقسم بهذا ليس ردّاً لحكم الله ورسوله ، ولكنه يحاول بقدر ما يستطيع أن يتكلم مع أهلها حتى يعفوا ويأخذوا الدية ، أو يعفوا مجاناً دون دية ، كأنه واثق من موافقتهم ، لا ردّاً لحكم الله ورسوله ، فيشر الله ﷻ فعفا أهل الجارية عن القصاص ، فقال النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » (١) .

وهنا لاشك أن الحامل لأنس بن النضر هو قوة رجائه بالله ﷻ ، وأن الله سييسر من الأسباب ما يمنع كسر ثنية أخته الربيع .

أما المثل الثاني : الذي أقسم على الله تألياً وتعارضاً وترفعاً فإن الله يخيب آماله ، ومثال ذلك الرجل الذي كان مطيعاً لله ﷻ عابداً ، يمر على رجل عاصٍ ، كلما مرَّ عليه وجده على المعصية ، فقال : والله لا يغفر الله لفلان ، حملة على ذلك الإعجاب بنفسه ، والتحجر بفضل الله ورحمته ، واستبعاد رحمة الله ﷻ من عباده .

فقال الله تعالى : « من ذا الذي يتألى عليّ - أي يحلف عليّ - ألا أغفر لفلان . قد غفرت له ، وأحبطت عمله » (٢) ، فانظر الفرق بين هذا وهذا .

فقال الرسول ﷺ : « إن من عباد الله » فمن هنا للتبويض ، « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » ، وذلك فيمن أقسم على الله ثقة به ورجاء لما عند الله ﷻ .

ثم قال ﷺ : « ألا أخبركم بأهل النار ، كل عتل جواز مستكبر » ؛ هذه علامات أهل النار ، عتل : يعني أنه غليظ جاف ، قلبه حجر - والعياذ بالله - كالحجارة أو أشد قسوة . « جواز مستكبر » الجواز فيه تفاسير متعددة ، قيل إنه الجموع المتنوع ، يعني الذي يجمع المال ويمنع ما يجب فيه . والظاهر أن الجواز هو الرجل الذي لا يصبر ، فجواز يعني : أنه جزوع لا يصبر على شيء ، ويرى أنه في قمة أعلى من أن يمسه شيء .

ومن ذلك : قصة الرجل الذي كان مع الرسول ﷺ في غزوة ، وكان شجاعاً لا يدع شاذة ولا فاذة

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٣) ، ومسلم في القسامة (٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧) .

للعُدو إلا قضى عليها ، فقال النبي ﷺ : « إن هذا من أهل النار » فعظم ذلك على الصحابة ، وقالوا كيف يكون هذا من أهل النار وهو بهذه المثابة ؟ ثم قال رجل : والله لألزمه يعني لألزمه حتى أنظر ماذا يكون حاله ، فلزمه فأصاب هذا الرجل الشجاع سهمٌ من العدو ، فعجز عن الصبر وجزع ثم أخذ بذبابة سيفه فوضعه في صدره ثم اتكأ عليه حتى خرج السيف من ظهره - والعياذ بالله - فقتل نفسه . فجاء الرجل للرسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله أشهد أنك لرسول الله ، قال : « وبم ؟ » قال لأن الرجل الذي قلت إنه من أهل النار ، فعل كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار » ^(١) فانظر إلى هذا الرجل جزع وعجز أن يتحمل قتل نفسه . فالجواظ هو الجزوع الذي لا يصبر ، دائماً في أنين وحزن وهمٍّ وغمٍّ ، معترضاً على القضاء والقدر ، لا يخضع له ، ولا يرضى بالله رباً .

وأما المستكبر : فهو الذي جمع بين وصفين : غمط الناس ، وبطر الحق ؛ لأن النبي ﷺ قال : « الكبير بطر الحق وغمط الناس » وبطر الحق : يعني رده ، وغمط الناس : يعني احتقارهم ، فهو في نفسه عالٍ على الحق ، وعالٍ على الخلق ، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق والعياذ بالله . فهذه علامات أهل النار . نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من النار ، وأن يدخلنا وإياكم الجنة . إنه جواد كريم .

* * *

٢٥٣ - وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رحمه الله قال : مرَّ رجلٌ على النبي ﷺ ، فقال لرجلٍ عنده جاليس : « ما رأيك في هذا ؟ » فقال : رجلٌ من أشرف الناس ، هذا والله حريٌّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع . فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مرَّ رجلٌ آخر ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما رأيك في هذا ؟ » فقال : يا رسول الله هذا رجلٌ من فقراء المسلمين ، هذا حريٌّ إن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يشفع لقوله . فقال رسول الله ﷺ : « هذا خيرٌ من ميلء الأرض مثل هذا » ^(١) متفقٌ عليه .

قوله : « حريٌّ » هو بفتح الحاء وكسر الراء وتشديد الياء : أي حقيق . وقوله : « شفع » بفتح الفاء .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن سهل بن سعد الساعدي رحمه الله ، قال : مرَّ رجلٌ

(١) أخرجه البخاري - وله تكملة - في الجهاد والسير (٢٨٩٨) ، ومسلم في الإيمان (١٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٧) ، والطبراني في الكبير (٢٠٨/٦) .

قوله « أشرف الناس » أي : سادتهم . قوله « أن ينكح » أي : تزوج . وليس الحديث عند مسلم ، كما تدل عليه عبارة المصنف رحمه الله .

عند رسول الله ﷺ ، فقال لرجل : « ما تقول في هذا ؟ » قال : رجلٌ من أشرف الناس ، حرِّيَّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، ثم مر رجل آخر ، فسأل عنه فقال : هذا رجلٌ من ضعفاء المسلمين ، حرِّيَّ إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله .

فهذان رجلان أحدهما من أشرف القوم ، وممن له كلمة فيهم ، وممن يجاب إذا خطب ، ويُسمع إذا قال ، والثاني بالعكس رجلٌ من ضعفاء الناس ليس له قيمة ، إن خطب فلا يجاب ، وإن شفع فلا يشفع ، وإن قال فلا يسمع .

فقال النبي ﷺ : « هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا » ، أي خير عند الله ﷻ من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذي له شرف وجاه في قومه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس ينظر إلى الشرف ، والجاه ، والنسب والمال ، والصورة ، واللباس ، والمركوب ، والمسكون ، وإنما ينظر إلى القلب والعمل ، فإذا صلح القلب فيما بينه وبين الله ﷻ ، وأتاب إلى الله ، وصار ذاكرًا لله تعالى خائفًا منه ، محبًا إليه ، عاملاً بما يرضي الله ﷻ ، فهذا هو الكريم عند الله ، وهذا هو الوجيه عنده ، وهذا هو الذي لو أقسم على الله لأبره .

فيؤخذ من هذا فائدة عظيمة وهي أن الرجل قد يكون ذا منزلة عالية في الدنيا ، ولكنه ليس له قدر عند الله ، وقد يكون في الدنيا ذا مرتبة منخفضة ، وليس له قيمة عند الناس ، وهو عند الله خيرٌ من كثير ممن سواه - نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الوجهاء عنده ، وأن يجعل لنا ولكم عنده منزلة عالية ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

٢٥٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « اِخْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَقَالَتِ النَّارُ : فِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ : فِي ضِعْفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينِهِمْ ، فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا : إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمْتِي أَوْحَمَ بِكَ مِنْ أَشَاءَ ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ ، وَلِكُلِّكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا » (١) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ : « اِخْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ » يعني تحاجا فيما بينهما ، كل واحدة تدلي بحجتها ، وهذا من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها حتى وإن استبعدتها العقول وحرار الإنسان ، وقال : كيف تحتاج الجنة والنار وهما جمادان ؟ ! فإننا نقول إن الله ﷻ على كل شيء قدير وقد أخبر الله ﷻ أن الأرض يوم القيامة تحدث أخبارها بما أوحى الله إليها به ، فإذا أمر الله شيئًا بأمر فإن هذا المأمور سيستجيب على كل حال ،

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٦) .

الأيدي يوم القيامة والألسن والأرجل والجلود كلها تشهد ، مع أنها جماد ، وتشهد على صاحبها مع أنها أقرب الناس إليه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير .

فالجنة احتجت على النار ، والنار احتجت على الجنة . النار احتجت بأن فيها الجبارين والمتكبرين . الجبارون أصحاب الغلظة والقسوة ، والمتكبرون أصحاب الترفع والعلو ، الذين يغطون الناس ويردون الحق ، كما قال النبي ﷺ في الكبير : « إنه بטר الحق وغطت الناس » ^(١) .

فأهل الجبروت وأهل الكبرياء هم أهل النار - والعياذ بالله - وربما يكون صاحب النار لين الجانب للناس ، حسن الأخلاق ، لكنه جبارٌ بالنسبة للحق ، مستكبر عن الحق ، فلا ينفعه لين جانبه وعطفه على الناس ، بل هو موصوف بالجبروت والكبرياء ولو كان لين الجانب للناس ، لأنه تجبر واستكبر عن الحق .

أما الجنة فقالت : إن فيها ضعفاء الناس وفقراء الناس . فهم في الغالب الذين يلينون للحق ، ويتقادون له ، وأما أهل الكبرياء والجبروت ، ففي الغالب أنهم لا يتقادون .

فقضى الله ﷻ بينهما قال : « إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشياء » وقال للنار : « إنك النار عذابي أعذب بك من أشياء » إنك الجنة رحمتي : يعني أنها الدار التي نشأت من رحمة الله ، وليست رحمته التي هي صفته ؛ لأن رحمته التي هي صفته وصف قائم به ، لكن الرحمة هنا مخلوق ، أنت رحمتي يعني خلقتك برحمتي ، أرحم بك من أشياء .

وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشياء كقوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [العنكبوت : ٢١] فأهل الجنة هم أهل رحمة الله - نسأل الله أن يجعلني وإياك منهم - وأهل النار هم أهل عذاب الله .

ثم قال ﷻ : « ولكليهما غَيٌّ ملؤها » تكفل ﷻ وأوجب على نفسه أن يملأ الجنة ويملاً ، وفضل الله ﷻ ورحمته أوسع من غضبه ، فإنه إذا كان يوم القيامة ألقى من يلقي في النار ، وهي تقول هل من مزيد ، يعني أعطوني . أعطوني . زيدوا . فيضع الله عليها رجله ، وفي لفظ عليها قدمه ، فينزوي بعضها على بعض ، ينضم بعضها إلى بعض من أثر وضع الرب ﷻ عليها قدمه ، وتقول : قط قط ، يعني كفاية كفاية ، وهذا ملؤها .

أما الجنة فإن الجنة واسعة ، عرضها السموات والأرض يدخلها أهلها ويبقى فيها فضل زائد على أهلها ، فينشئ الله تعالى لها أقواماً فيدخلهم الجنة بفضله ورحمته ^(٢) ، لأن الله تكفل لها بملئها . ففي هذا : دليل على أن الفقراء والضعفاء هم أهل الجنة ؛ لأنهم الغالب هم الذين يتقادون للحق ،

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الإيمان (١٤٧) .

(٢) هذا معنى حديث ولفظه « ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة .. » وقد أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٨٤) بلفظه ، ومسلم في الجنة (٣٨) .

وأن الجبارين المتكبرين هم أهل النار .
والعياذ بالله ؛ لأنهم مستكبرون على الحق وجبارون . لا تلين قلوبهم لذكر الله ، ولا لعباد الله .
نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

٢٥٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحُ بَعُوضَةٍ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » ذكر المؤلف هذا الحديث في باب المستضعفين والفقراء من المسلمين ؛ وذلك لأن الغالب أن السمنة إنما تأتي من البطنة أي من كثرة الأكل ، وكثرة الأكل تدل على كثرة المال والغنى ، والغالب على الأغنياء البطر ، والأشر ، وكفر النعمة ، حتى إنهم يوم القيامة يكونون بهذه المثابة ، يؤتى بالرجل العظيم السمين يعني كثير اللحم والشحم . عظيم كبير الجسم لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة ، والبعوضة معروفة من أشد الحيوانات امتهاناً وأهونها وأضعفها ، وجناحها كذلك .

وفي هذا الحديث : إثبات الوزن يوم القيامة ، وقد دل على ذلك كتاب الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ^(٢) [الأنبياء : ٤٧] .

وقال جل وعلا : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] . وقال النبي ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ^(٣) .

فالوزن يوم القيامة وزن عدل ليس فيه ظلم ، يجازى فيه الإنسان على حسب ما عنده من الحسنات والسيئات . وقال أهل العلم فمن رجحت سيئاته على حسناته استحق أن يعذب في النار ، ومن تساوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف ، الذين يكونون بين الجنة والنار لمدة ، على حسب ما يشاء الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ ، وفي النهاية يدخلون الجنة .

ثم إن الوزن وزن حسي بميزان له كفتان ، توضع في إحدهما السيئات وفي الأخرى الحسنات ،

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢٩) ، ومسلم في صفات المنافقين (١٨) . قوله « لا يزن عند الله جناح بعوضة » أي لا يعدله ، والمقصود أنه لا قدر له عنده .

(٢) قوله ﴿ الْقِسْطَ ﴾ ذوات العدل في محاسبة الناس . قوله ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي وزن أقل شيء (كتابة عن كمال إحاطة علم الله) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٣) ، ومسلم في الزكاة (٦٨) .

وتثقل الحسنات وتخف السيئات إذا كانت الحسنات أكثر ، والعكس بالعكس .

ثم ما الذي يوزن ؟ ظاهر هذا الحديث أن الذي يوزن الإنسان ، وأنه يخف ويثقل بحسب أعماله . وقال بعض العلماء : بل الذي يوزن صحائف الأعمال ، توضع صحائف السيئات في كفة ، وصحائف الحسنات في كفة ، وما رجح فالعمل عليه .

وقيل : بل الذي يوزن العمل ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧] فجعل الوزن للعمل ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ لَمْ تَعْلَمُوا مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْزًا حَسِيرًا ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وقال النبي ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ^(١) ، فقلوه ﷺ : « كلمتان ثقيلتان في الميزان » يدل على أن الذي يوزن هو العمل ، وهذا هو ظاهر القرآن الكريم وظاهر السنة ، وربما يوزن هذا وهذا ، أي توزن الأعمال وتوزن صحائف الأعمال .

وفي هذا الحديث : التحذير من كون الإنسان لا يهتم إلا بنفسه أي بتنعيم جسده ، والذي ينبغي للعاقل أن يهتم بتنعيم قلبه ، ونعيم قلب الإنسان بالفطرة وهي التزام دين الله ﷻ ، وإذا نعم القلب نعم البدن ولا عكس . وقد ينعم البدن ويؤتى الإنسان من الدنيا ما يؤتى من زهرتها ، ولكن قلبه في جحيم والعياذ بالله .

وإذا شئت أن تبين هذا فاقرا قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] لم يقل فلننعمن أبدانهم ، بل قال فلنحيينه حياة طيبة وذلك بما يجعل الله في قلوبهم من الأنس ، وانشراح الصدر ، وطمأنينة القلب وغير ذلك ، حتى إن بعض السلف قال : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف : يعني من انشراح الصدر ونور القلب والطمأنينة والسكون .

أسأل الله أن يشرح قلبي وقلوبكم للإسلام ، وينورها بالعلم والإيمان إنه جواد كريم .

٢٥٦ - وعنه أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ ، أَوْ شَابًا ، فَقَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَسَأَلَ عَنْهَا ، أَوْ عَنْهُ ، فَقَالُوا : مَاتَ . قَالَ : « أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْثُمُونِي » فَكَأَنَّهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا ، أَوْ أَمْرَهُ ، فَقَالَ : « ذُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ » فَذَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ » ^(٢) متفق عليه .

قوله : « تَقُمُّ » هو يفتح التاء وَضَمَّ الْقَافِ : أي تَكُنُسُ . « وَالْقَمَامَةُ » : الْكُنَاسَةُ . « وَأَذْثُمُونِي »

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٨٢) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣١) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧) ، وأحمد في مسنده (٢٣٢/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٣٧) ، ومسلم - واللفظ له - في الجنائز (٧١) .

بَدَّ الهمزة : أي أعلمتموني .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كان تقم المسجد أو شائبا، وأكثر الروايات على أنها امرأة سوداء ، كانت تقم المسجد : يعني تنظفه وتزيل القمامة ، فماتت في الليل فصغر الصحابة رضي الله عنهم شأنها ، وقالوا : لا حاجة إلى أن نخبر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الليل ، فدفنوها ، ففقدتها النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنها ماتت ، فقال : « أفلا كنتم آذنتموني » يعني أعلمتموني حين ماتت ، ثم قال : « دلوني على قبرها » فدلوه ، فصلى عليها ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم » .

ففي هذا الحديث عدة فوائد :

منها : أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يعظم الناس بحسب أعمالهم ، وما قدموا به من طاعة الله وعبادته . ومن الفوائد : جواز تولي المرأة لتنظيف المسجد ، وأنه لا يحجر ذلك على الرجال فقط ، بل كل من احتسب ونظف المسجد فله أجره ؛ سواء باشرته المرأة ، أو استأجرت من يقم المسجد على حسابها . ومن فوائد هذا الحديث : مشروعية تنظيف المساجد ، وإزالة القمامة عنها ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عرضت عليّ أجور أمتي حتى القذا يخرجها الرجل من المسجد » ^(١) ، والقذا : الشيء الصغير ، يخرجها من المسجد فإنه يؤجر عليه .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر ببناء المساجد في الدور ، وأن تنظف وتطيب ، فالمساجد بيوت الله ينبغي العناية بها وتنظيفها ، ولكن لا ينبغي زخرفتها وتفتيشها بما يوجب أن يلهو المصلون بما فيه من الزخرفة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لتزخرفنها - يعني المساجد - كما زخرفها اليهود والنصارى » ^(٢) .

ومن فوائد هذا الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ، ولهذا قال : « دلوني على قبرها » ، فإذا كان لا يعلم الشيء المحسوس فالغائب من باب أولى ، فهو صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ، وقد قال الله له : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] وقال له : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَقْمًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَكَسْتَكُفْرًا مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

ومن فوائد هذا الحديث : مشروعية الصلاة على القبر لمن لم يصل عليه قبل الدفن ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج فصلى على القبر حيث لم يُصل عليها قبل الدفن ، ولكن هذا مشروع لمن مات في عهدك وفي عصرك ، أما

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن وقال : غريب (٢٩١٦) ، وأبو داود في الصلاة (٤٦١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ببيان المسجد وهو - عنده - معلق عن ابن عباس وقد وصله أبو داود في الصلاة (٤٤٨) .

من مات سابقاً فلا يشرع أن تصلي عليه ، ولهذا لا يشرع لنا أن نصلي على النبي ﷺ على قبره ، أو على قبر أبي بكر ، أو عمر ، أو عثمان ، أو غيرهم من الصحابة ، أو غيرهم من العلماء والأئمة .

وإنما تشرع الصلاة لمن مات في عهدك فمثلاً إذا مات إنسان قبل ثلاثين سنة وعمره ثلاثون سنة فإنك لا تصلي عليه صلاة الميت ؛ لأنه مات قبل أن تخلق وقبل أن تكون من أهل الصلاة ، أما من مات وأنت قد كنت من أهل الصلاة من قريب أو أحد تحب أن تصلي عليه فلا بأس .
فلو فرض أن رجلاً مات قبل سنة أو سنتين ، وأحببت أن تصلي على قبره وأنت لم تصل عليه من قبل فلا بأس .

ومن فوائد هذا الحديث : حسن رعاية النبي ﷺ لأئمة ، وأنه كان يتفقدهم ويسأل عنهم ، فلا يشتغل بالكبير عن الصغير ؛ كل ما يهم المسلمين فإنه يسأل عنه ﷺ .

ومن فوائد هذا الحديث : جواز سؤال المرء مالا تكون به مئة في الغالب ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « دلوني على قبرها » وهذا سؤال ، لكن مثل هذا السؤال ليس فيه مئة ، بخلاف سؤال المال فإن سؤال المال محرم ، يعني لا يجوز أن تسأل شخصاً مالا وتقول أعطني عشرة ريالات أو مائة ريال ، إلا عند الضرورة . أما سؤال غير المال مما لا يكون فيه مئة في الغالب فإن هذا لا بأس به ، ولعل هذا مخصص لما كان الرسول ﷺ يسأل أصحابه عليه حيث كان يبايعهم ألا يسألوا الناس شيئاً .

وربما يؤخذ من هذا الحديث : جواز إعادة الصلاة على الجنازة ، لمن صلى عليها من قبل إذا وجد جماعة ؛ لأن الظاهر أن الذين خرجوا مع النبي ﷺ صلوا معه ، وعلى هذا فتشرع إعادة صلاة الجماعة إذا صلى عليها جماعة آخرون مرة ثانية .

والى هذا ذهب بعض أهل العلم ، وقالوا : إنه كما أن صلاة الفريضة تعاد إذا صليتها ثم أدركتها مع جماعة أخرى ، فكذلك صلاة الجنازة ، وبناءً على ذلك لو أن أحداً صلى على جنازة في المسجد ، ثم خرجوا بها للمقبرة ، ثم أقام أناس يصلون عليها جماعة ، فإنه لا حرج ولا كراهة في أن تدخل في الجماعة الآخرين فتعيد الصلاة ؛ لأن إعادة الصلاة هنا لها سبب ، ليست مجرد تكرار بل لها سبب ، وهو وجود الجماعة الأخرى .

فإذا قال قائل : إذا صليت على القبر فأين أقف ؟ فالجواب أنك تقف وراءه تجعله بينك وبين القبلة ، كما هو الشأن فيما إذا صليت عليه قبل الدفن .

* * *

٢٥٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رَبِّ أَشَعَّتْ أَغْبَرُ مَذْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةِ » (١) رواه مسلم .

٢٥٨ - وعن أُسَامَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ ؛ فَإِذَا عَامَّةٌ مِّنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ . وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ ؛ فَإِذَا عَامَّةٌ مِّنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ » ^(١) متفقٌ عليه .

« وَالْجَدُّ » بفتح الجيم : الحظُّ والغنى . وقوله : « مَحْبُوسُونَ » أي : لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ بَعْدُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ قال : « رُبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرُ مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبْرَهُ » وَأَشْعَثُ مِنْ صِفَاتِ الشَّعْرِ ، وَشَعْرُهُ أَشْعَثُ يَعْنِي : لَيْسَ لَهُ مَا يَدُهْنُ بِهِ الشَّعْرَ ، وَلَا مَا يَرْجُلُهُ ، وَلَيْسَ يَهْتَمُّ بِمُظْهِرِهِ ، وَأَغْبَرُ يَعْنِي أَغْبَرُ اللَّوْنُ ، أَغْبَرُ الثِّيَابِ وَذَلِكَ لَشِدَّةِ فَقْرِهِ .

« مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ » : يَعْنِي لَيْسَ لَهُ جَاهٌ ، إِذَا جَاءَ إِلَى النَّاسِ يَسْتَأْذِنُ لَا يَأْذَنُونَ لَهُ ، بَلْ يَدْفَعُونَهُ بِالْبَابِ ، أَيْ إِذَا فَتَحَ صَاحِبُ الْبَيْتِ وَوَجَدَ هَذَا الرَّجُلَ دَفَعَ الْبَابَ فِي وَجْهِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ قِيَمَةٌ عِنْدَ النَّاسِ . لَكِنْ هَذَا الرَّجُلُ لَهُ قِيَمَةٌ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبْرَهُ ، لَوْ قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَكُونُ كَذَا لَمْ يَكُنْ ، وَاللَّهِ لَيَكُونُنِي كَذَا لَكَانَ . لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبْرَهُ ، لَكَرَّمَهُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ وَمَنْزَلَتْهُ .

لَكِنْ بِأَيِّ شَيْءٍ يَحْصُلُ هَذَا ؟ فَرُبَّمَا يَكُونُ رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ مَا أَبْرَهُ ، وَرُبَّ أَشْعَثٍ أَغْبَرٍ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبْرَهُ . فَمَا هُوَ الْمِيزَانُ ؟

الْمِيزَانُ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] فَمَنْ كَانَ أَتَقَى لِلَّهِ فَهُوَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ ، يَسِّرُ اللَّهُ لَهُ الْأَمْرَ ، يَجِيبُ دُعَاؤَهُ ، وَيَكْشِفُ ضُرَّهُ ، وَيَبْرِ قَسَمَهُ .

وَهَذَا الَّذِي أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَنْ يَقْسَمَ بِظُلْمٍ لِأَحَدٍ ، وَلَنْ يَجْتَرِئَ عَلَى اللَّهِ فِي مَلِكِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَقْسَمُ عَلَى اللَّهِ فِيمَا يَرْضَى اللَّهُ ثِقَةً بِاللَّهِ ﷻ ، أَوْ فِي أُمُورٍ مَبَاحَةٍ ثِقَةً بِاللَّهِ ﷻ .

وَقَدْ مَرَّ عَلَيْنَا فِي قِصَّةِ الرِّبْعِ بِنْتُ النَّضْرِ وَأَخِيهَا أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ ؛ فَإِنَّ الرِّبْعَ كَسَرَتْ ثَنِيَّةً جَارِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَاحْتَكَمُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تَكْسُرَ ثَنِيَّةُ الرِّبْعِ لِأَنَّهَا كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ الْجَارِيَةِ الْأُنْثَى ، فَقَالَ أَخُوهَا أَنَسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تَكْسُرُ ثَنِيَّةَ الرِّبْعِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، كِتَابُ اللَّهِ الْقَصَاصُ ، السِّنُّ بِالسِّنِّ » ، قَالَ : وَاللَّهِ لَا تَكْسُرُ ثَنِيَّةَ الرِّبْعِ ، قَالَ ذَلِكَ ثِقَةً بِاللَّهِ ﷻ ، وَرَجَاءً لِتَيْسِيرِهِ وَتَسْهِيلِهِ .

فَأَقْسَمَ هَذَا الْقِسْمَ ، لَيْسَ رَدًّا لِحُكْمِ الرَّسُولِ . كَلَّا ، وَلَكِنْ ثِقَةً بِاللَّهِ ﷻ ، فَهَدَى اللَّهُ أَهْلَ الْجَارِيَةِ وَرَضُوا بِالْأَدِيَّةِ أَوْ عَفَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبْرَهُ » ^(٢) ، لِأَنَّهُ

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في النكاح (٥١٩٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٩٣) .

(٢) سبق تخريجه .

يقسم على الله في شيء يرضاه الله ﷺ ، إحسانًا في ظنه بالله ﷻ .

أما من أقسم على الله تأليًا على الله ، واستكبارًا على عباد الله ، وإعجابًا بنفسه ، فهذا لا يبر الله قسمه ؛ لأنه ظالم ، ومن ذلك قصة الرجل العابد الذي كان يمر برجل مسرف على نفسه ، فقال : والله لا يغفر الله لفلان ، أقسم أن الله لا يغفر له ، لماذا يقسم ؟ هل المغفرة بيده ؟ هل الرحمة بيده ؟ فقال الله جل وعلا : « من ذا الذي يتألى عليّ ألا أغفر لفلان ؟ » استفهام إنكار « قد غفرت له وأبطلت عملك » (١) ؛ نتيجة سيئة - والعياذ بالله - لم يبر الله بقسمه ، بل أحبط عمله لأنه قال ذلك إعجابًا بعمله ، وإعجابًا بنفسه ، واستكبارًا على عباد الله ﷻ .

أما حديث أسامة بن زيد ، أن النبي ﷺ يقول : « قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين » ، يعني أكثرهم ؛ أكثر من يدخل الجنة الفقراء ؛ لأن الفقراء في الغالب أقرب إلى العبادة والخشية لله من الأغنياء ، ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ [العلق : ٦ : ٧] والغني يرى أنه مستغن بماله ، فهو أقل تعبدًا من الفقير ، وإن كان من الأغنياء من يعبد الله أكثر من الفقراء ، لكن الغالب . « وأصحاب الجدد محبسون » يعني : أصحاب الحظ والغنى محبسون لم يدخلوا الجنة بعد ؛ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء ، « غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار » .

فقسم الرسول ﷺ الناس إلى أقسام ثلاثة : أهل النار : دخلوا النار - أعاذنا الله وإياكم منها - والفقراء : دخلوا الجنة ، والأغنياء : من المؤمنين موقوفون محبسون ، إلى أن يشاء الله .

أما أهل النار فأخبر الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق أن عامة من دخلها النساء ؛ أكثر من يدخل النار النساء ؛ لأنهن أصحاب فتنة ، ولهذا قال لهن الرسول ﷺ يوم عيد من الأعياد : « يا معشر النساء ، تصدقن ، ولو من خليكن فإنكن أكثر أهل النار » ، قالوا : يا رسول الله لم ؟ قال « لأنكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير » (٢) ، تكثرن اللعن : أي السب والشتم ؛ فلسانهن سليط ، وكيدهن عظيم ، وتكفرن العشير : أي المعاشر وهو الزوج ، لو أحسن إليها الدهر كله ، ثم رأت سيئة واحدة ، قالت : ما رأيت خيرا قط ، تكفر النعمة ولا تقر بها .

في هذا الحديث : دليل على أنه يجب على الإنسان أن يحترز من فتنة الغنى ، فإن الغنى قد يُطغى ، وقد يؤدي بصاحبه إلى الأشر ، والبطر ، ورد الحق ، وغمط الناس ، فاحذر نعمتين : الغنى والصحة والفراغ أيضًا سبب للفتنة ، فالثلاث هذه : الغنى والصحة والفراغ ، هذه مما يغبن فيها كثير من الناس « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » (٣) ، والفراغ في الغالب يأتي من الغنى ؛ لأن الغنى منكف عن كل شيء ومتفرغ ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من فتنة الحيا والممات

(١) سبق تخرجه .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٢) ، ومسلم في الإيمان (١٣٢) ، وذلك بألفاظ مختلفة .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٢) ، والترمذي في الزهد (٢٣٠٤) ، وأحمد في مسنده (٢٥٨/١) .

وفتة المسيح الدجال .

* * *

٢٥٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ : عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا ، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا ، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ، أُمِّي وَصَلَاتِي ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَأَنْصَرَفَتْ . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ، فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ ، أُمِّي وَصَلَاتِي . فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ، فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ ، أُمِّي وَصَلَاتِي ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تُمِثَّهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ . فَتَذَكَّرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُمَثِّلُ بِحُسْنِهَا ، فَقَالَتْ : إِنْ شِئْتُمْ لِأَقْسِنَتْهُ ، فَتَعَرَّضْتُ لَهُ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعِيهِ ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا . فَحَمَلَتْ ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ : هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ قَالُوا : زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ قَوْلَدْتَ مِنْكَ . قَالَ : أَيْنَ الصَّبِيِّ ؟ فَجَاوَزُوا بِهِ فَقَالَ : دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّي ، فَصَلَّى ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ : يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ ؟ قَالَ : فَلَانُ الرَّاعِي ، فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا : نَبِيِّ لَكَ صَوْمَعَتُكَ مِنْ ذَهَبٍ ، قَالَ : لَا ، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ ، فَفَعَلُوا . وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَزْضَعُ مِنْ أُمِّهِ ، فَعَمَّرَ رَجُلٌ رَاكِبًا عَلَى دَابَّةٍ قَارِهَةٍ وَشَارِقَةٍ حَسَنَةٍ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا ، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَزْضَعُ « فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَخِيكِي اِزْتِصَاعُهُ بِأَضْبَعِهِ السَّبَابَةِ فِي فِيهِ ، فَجَعَلَ يُصْصِهَا ، قَالَ : « وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا ، وَيَقُولُونَ : زَنَيْتَ ، سَرَقْتَ ، وَهِيَ تَقُولُ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا ، فَتَرَكَ الرِّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ، فَهَنَّا لَكَ تَرَاجَعًا الْحَدِيثَ فَقَالَتْ : مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتُ : بِهِذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ : زَنَيْتَ ، سَرَقْتَ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ! قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا : زَنَيْتَ وَلَمْ تَزْنِي ، وَسَرَقْتَ وَلَمْ تَسْرِقْ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا » (١) متفق عليه .

« وَالْمُؤْمِسَاتُ » بَضْمُ الْمِيمِ الْأُولَى ، وَاسْكَانِ الْوَاوِ وَكسْرِ الْمِيمِ الثَّانِيَةِ وَبِالْسِينِ الْمُهِمْلَةِ ، وَهُنَّ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦) ، ومسلم - واللفظ له - في البر والصلة (٨) قوله « صومعة » الصومعة البناء المرتفع المحدد أعلاه . قوله « بغي » يتمثل بحسنها « أي زانية يضرب بحسنها المثل لانفرادها به . قوله « راعيا كان يأوي إلى صومعته » أي : صومعة جريج .

الزَّوَانِي . وَالْمُؤْمِسَةُ : الزَّانِيَةُ . وقوله : « دَابَّةٌ فَارِهَةٌ » بِالْفَاءِ : أَي حَازِقَةٌ نَفِيسَةٌ . « وَالشَّارَةُ » بِالشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَتَخْفِيفِ الرَّاءِ : وَهِيَ الْجَمَالُ الظَّاهِرُ فِي الْهَيْئَةِ وَالْمَلْبَسِ . وَمَعْنَى « تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ » أَي : حَدَّثَتِ الصَّبِيَّ وَحَدَّثَهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن نبينا ﷺ أنه قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة » .

أولاً : عيسى ابن مريم ﷺ ، وعيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل ، بل آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ ، فإنه لم يكن بينه وبين النبي ﷺ نبي ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا مَنِّي إِنْ رَأَوْهُ فَقُلُوا هَذَا نَبِيُّ رَبِّكَ يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِن تَوَلَّوْا فَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمُ الْعَذَابُ عَظِيمًا ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وأما ما يذكر عند المؤرخين من وجود أنبياء في العرب كخالد بن سنان ، فهذا كذب ولا صحة له . وعيسى ابن مريم كان آية من آيات الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَاسْمُهُ آيَةٌ وَأَوْتَيْنَاهُمَا آلَ إِبْرَاهِيمَ فَأَبَتْ فَآبَرُ وَمَعِينٌ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] كان آية في منشئه ، وآية في وضعه .

أما في منشئه : فإن أمه مريم رضي الله عنها حملت به من غير أب ، حيث أرسل الله ﷻ جبريل إليها فتمثل لها بشراً سوياً ، ونفخ في فرجها فحملت بعيسى ﷺ .

والله على كل شيء قدير ، فالقادر على أن يخلق الولد من المني قادر على أن يخلقه من هذه النفخة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] . لا يستعصي على قدرة الله شيء ، إذا أراد شيئاً قال له : كن فكان ، فحملت وولدت ، وقيل : أنه لم يبق في بطنها كما تبقى الأجنة ، ولكنها حملته وشب سريعاً ، ثم وضعته .

وكان آية في وضعه ، حيث جاء مريم المخاض إلى جذع النخلة ، فقالت : ﴿ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] هي لم تتمن الموت لكنها تمنت أنه لم يأتها هذا الشيء حتى الموت ﴿ فَتَادَّبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم : ٢٤] أي : عين تمشي تحت النخلة .

ثم قال : ﴿ وَهَرَزَ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ سُقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥] تهز الجذع وهي امرأة قد أتاها المخاض ، فتساقط من هزها الرطب ، رطباً جنيّاً لا يفسد إذا وقع على الأرض ، وهذا خلاف العادة ؛ فالعادة أن المرأة عند النفاس تكون ضعيفة . والعادة عند هز النخلة ألا تهز من أسفل ، بل تهز من فوق ، فمن الجذع لا تهتز لو هزها الإنسان . والعادة أيضاً أن الرطب إذا سقط فإنه يسقط على الأرض ويتمزق ، لكن الله قال : ﴿ وَهَرَزَ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ سُقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ فكل ما تهز وقري عينا ، الله أكبر ! من آيات الله ﷻ . الله على كل شيء قدير .

ولما وضعت الولد أتت به قومها تحمله ، تحمل طفلاً وهي لم تتزوج ، فقالوا لها يعرضونها بالبغاء ، ﴿ يَتَأَخَتْ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْوً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْعًا ﴾ يعني كأنهم يقولون من أين جاءك الزنى - نسأل الله العافية - وأبوك ليس امرأ سوء وأمك ليست بغية ، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان إذا زنى فقد يتلى نسله بالزنى - والعياذ بالله - كما جاء في الحديث في الأثر : « من زنى زنى أهله » (١) .

فهؤلاء قالوا : ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغية ، فألهمها الله ﷻ فأشارت إلى الطفل ، أشارت إليه فكأنهم سخروا بها ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيًا ؟ هذا غير معقول !

ولكنه التفت إليهم وقال هذا الكلام البليغ العجيب . قال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَيْئًا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣٠-٣٣] سبع جمل - الله أكبر ! - من طفل في المهد .

ولكن لا تتعجب فإن قدرة الله فوق كل شيء ، أليست جلودنا وأيدينا وأرجلنا وألسنتنا يوم القيامة تشهد علينا بما فعلنا ؟ بلى : تشهد . أليست الأرض تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ؟ الأرض تشهد بما عملت عليها من قول أو فعل ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ ﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿ [الزلزلة : ٤ ، ٥] .

إذا هذا كلام عيسى بن مريم ، تكلم بهذه الكلمات العظيمة ؛ سبع جمل وهو في المهد .

أما الثاني : فهو صاحب جريج ، وجريج رجل عابد ، انزل عن الناس ، والعزلة خير إذا كان في الخلطة شر ، أما إذا لم يكن في الخلطة شر فالاختلاط بالناس أفضل ، قال النبي ﷺ : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » (٢) .

لكن إذا كانت الخلطة ضرراً عليك في دينك ، فانج بدينك ، كما قال النبي ﷺ : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعث الجبال ومواقع القطر » (٣) يعني يفر بدينه من الفتن .

فهنا جريج انزل عن الناس ، وبني صومعة - يعني مكاناً يتعبد فيه لله ﷻ - فجاءته أمه ذات يوم وهو يصلي فنادته ، فقال في نفسه : أي ربي أمي وصلاتي : هل أجيب أمي وأقطع الصلاة أو أستمّر في صلاتي ؟ فمضى في صلاته .

(١) هذا الحديث موضوع رواه ابن عدي (٢/١٥) ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢٧٨/١) ، بلفظ « ما زنى عبد قط فأدمن على الزنا إلا ابتلي في أهل بيته » . عن إسحاق بن نجيح عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً ، وقال ابن عدي : إسحاق بن نجيح يثنى الأمر في الضعفاء وهو ممن يضع الحديث . وما يؤيد بطلان هذا الحديث تنافيه مع الأصل المقرر في القرآن ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٥٤/٢) رقم (٧٢٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة (٢٥٠٧) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٢) ، وأحمد في مسنده (٤٣/٢) .

(٣) أخرجه البخاري بنحوه في الإيمان (١٩) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٠) ، وأحمد في مسنده (٦/٣) .

وجاءته مرة ثانية ، وقالت له مثل الأولى ، فقال مثل ما قال ، ثم استمر في صلاته ، فجاءته مرة
ثالثة فدعته ، فقال مثل ما قال ثم استمر في صلاته ، فأدركها الغضب ، وقالت : اللهم لا تمته حتى
ينظر في وجوه المومسات أي : الزواني ؛ حتى ينظر في وجوه الزواني والعياذ بالله .

والإنسان إذا نظر في وجوه الزواني افتتن ؛ لأن نظر الرجل إلى المرأة فتنة . فكيف إذا كانت والعياذ
بالله زانية بغية ؟! فأشد فتنة ؛ لأنه ينظر إليها على أنها تمكنه من نفسها فيفتن ، فدعت عليه أمه بذلك .
يستفاد من هذه الجملة من هذا الحديث أن الوالدين إذا نادياك وأنت تصلي ، فإن الواجب
إجابتها ، لكن بشرط ألا تكون الصلاة فريضة ، فإن كانت فريضة فلا يجوز أن تجيبها ، لكن إذا
كانت نافلة فأجبها .

إلا إذا كانا ممن يقدرون الأمور قدرها ، وأنهما إذا علما أنك في صلاة عذراك فهنا أشر إليهما بأنك
في صلاة ؛ إما بالحنحة ، أو بقول سبحان الله ، أو برفع صوتك في آية تقرأها أو دعاء تدعو به ،
حتى يشعر المنادي بأنك في صلاة ، فإذا علمت أن هذين الأبوين الأم والأب عندهما مرونة ؛
يعذرانك إذا كنت تصلي ألا تجيب ، فنبههم على أنك تصلي .

فمثلاً إذا جاءك أبوك وأنت تصلي سنة الفجر ، قال : يا فلان ؛ وأنت تصلي ، فإن كان أبوك
رجلاً مرناً يعذرک فتحنح له ، أو قل سبحان الله ، أو ارفع صوتك بالقراءة أو بالدعاء أو بالذكر الذي
أنت فيه ، حتى يعذرک ..

وإن كان من الآخرين الذين لا يعذرون ، ويريدون أن يكون قولهم هو الأعلى فاقطع صلاتك
وكلمهم ، وكذلك يقال في الأم .

أما الفريضة : فلا تقطعها لأحد ، إلا عند الضرورة ، كما لو رأيت شخصاً تخشى أن يقع في هكلة ؛ في
بئر ، أو في بحر ، أو في نار ، فهنا اقطع صلاتك للضرورة ، وأما لغير ذلك فلا يجوز قطع الفريضة .
ويستفاد من هذه القطعة : أن دعاء الوالد إذا كان بحق فإنه حريٌّ بالإجابة ، فدعاء الوالد ولو كان
على ولده إذا كان بحق فهو حري أن يجيبه الله ، ولهذا ينبغي لك أن تحتس غاية الاحتراس من دعاء
الوالدين ، حتى لا تعرض نفسك لقبول الله دعاءهما فتخسر .

وفي الحديث أيضاً : دليل على أن الشفقة التي أودعها الله في الوالدين ، قد يوجد ما يرفع هذه
الشفقة ؛ لأن هذه الدعوة من هذه المرأة عظيمة ؛ أن تدعو على ولدها أن لا يموت حتى ينظر في وجوه
المومسات ، لكن شدة الغضب - والعياذ بالله - أوجب بها أن تدعو بهذا الدعاء .

وذكرنا أن أمه لما نادته ثلاثاً وهو يصلي فيقبل على صلاته وتنصرف ، دعت عليه في الثالثة
فقال : اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات . فتكلم فيه بنو إسرائيل وفي عبادته ، فقالت امرأة
منهم : أنا أكفيكم وأفته إن شئتم .

وفي قصته من الفوائد غير ما سبق : أن الإنسان إذا تعرف إلى الله تعالى في الرخاء عرفه في الشدة ،

فإن هذا الرجل كان عابداً يتعبد لله ﷻ ، فلما وقع في الشدة العظيمة ، أنجاه الله منها . لما جاء إليه هؤلاء الذين كادوا له هذا الكيد العظيم ، ذهبت هذه المرأة إلى جريج لتفتحه لكنه لم يلتفت إليها ، فإذا راعي غنم يرعاها ثم يأوي إلى صومعة هذا الرجل ، فذهبت إلى الراعي فزنى بها - والعياذ بالله - فحملت منه .

ثم قالوا : إن هذا الولد ولد زنى من جريج . رموه بهذه الفاحشة العظيمة ، فأقبلوا عليه يضربونه وأخرجوه من صومعته وهدموها ، فطلب منهم أن يأتوا بالغلام الذي من الراعي ، فلما أتوا به ، ضرب في بطنه ، وقال : من أبوك ؟ - وهو في المهد - فقال : أي فلان ، يعني ذلك الراعي . فأقبلوا إلى جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا له : هل تريد أن نبني لك صومعتك من ذهب ؛ لأنهم هدموها ظلماً ، قال : لا ، ردوها على ما كانت عليه من الطين ، فبنوها له .

ففي هذه القصة : أن هذا الصبي تكلم وهو في المهد ، وقال : إن أباه فلان الراعي ، واستدل بعض العلماء من هذا الحديث على أن ولد الزنى يلحق الزاني ؛ لأن جريج قال : من أبوك ؟ قال : أي فلان الراعي ، وقد قصها النبي ﷺ علينا للعبرة ، فإذا لم يناعز الزاني في الولد واستلحق الولد فإنه يلحقه ، وإلى هذا ذهب طائفة يسيرة من أهل العلم .

وأكثر العلماء على أن ولد الزنى لا يلحق الزاني ، لقول النبي ﷺ : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » (١) . ولكن الذين قالوا بلحقه قالوا : هذا إذا كان له منازع ، كصاحب الفراش ، فإن الولد لصاحب الفراش ، وأما إذا لم يكن له منازع واستلحقه فإنه يلحقه ؛ لأنه ولده قدرًا ، فإن هذا الولد لاشك أنه خلق من ماء الزاني فهو ولده قدرًا ، ولم يكن له أب شرعي يناعزه ، وعلى هذا فليحق به . قالوا : وهذا أولى من ضياع نسب هذا الولد ؛ لأنه إذا لم يكن له أب ضاع نسبه ، وصار ينسب إلى أمه .

وفي هذا الحديث : دليل على صبر هذا الرجل - جريج - حيث إنه لم ينتقم لنفسه ، ولم يكلفهم شططاً فيننون له صومعته من ذهب ، وإنما رضي بما كان رضي به أولاً من القناعة وأن تبني من الطين . أما الثالث : الذي تكلم في المهد ، فهو هذا الصبي الذي مع أمه يرضع ، فمر رجل على فرس فارهة وعلى شارة حسنة ، وهو من أكابر القوم وأشرف القوم ، فقالت أم الصبي : اللهم اجعل ابني هذا مثله ، فترك الصبي الثدي وأقبل على أمه بعد أن نظر إلى هذا الرجل ، فقال : اللهم لا تجعلني مثله . وحكى النبي ﷺ ارتضاع هذا الطفل من ثدي أمه بأن وضع إصبعه السبابة في فمه يمض ، تحقيقاً للأمر ﷺ .

فقال : اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبلوا بجارية ؛ امرأة يضربونها ويقولون لها : زנית ، سرقت ؛

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥٣) ، ومسلم في الرضاع (٣٦) ، وأحمد في مسنده (٢٥/١)

وهي تقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقالت المرأة - أم الصبي - وهي ترضعه : اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فأطلق الثدي ، وجعل ينظر إليها ، وقال : اللهم اجعلني مثلها .

فترجع الحديث مع أمه ؛ طفل قام يتكلم معها ، قالت : إنني مررت أو مر بي هذا الرجل ذو الهيئة الحسنة فقلت : اللهم اجعل ابني مثله ، فقلت أنت : اللهم لا تجعلني مثله ، فقال : نعم ؛ هذا رجل كان جباراً عنيداً فسألت الله ألا يجعلني مثله .

أما المرأة فإنهم يقولون : زنت وسرقت ، وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقلت : اللهم اجعلني مثلها . أي اجعلني طاهراً من الزنى والسرقة مفوضاً أمري إلى الله ، في قولها : حسبي الله ونعم الوكيل .

وفي هذا : آية من آيات الله ؛ أن يكون هذا الصبي يشعر وينظر ويتأمل ويفكر ، وعنده شيء من العلم ؛ يقول : هذا كان جباراً عنيداً . وهو طفل ، وقال لهذه المرأة : اللهم اجعلني مثلها ؛ علم أنها مظلومة وأنها بريئة مما اتهمت به ، وعلم أنها فوضت أمرها إلى الله ﷻ ، فهذا أيضاً من آيات الله أن يكون عند هذا الصبي شيء من العلم .

والحاصل أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ؛ فقد يحصل من الأمور المخالفة للعادة ما يكون آية من آياته إما تأييداً لرسوله أو تأييداً لأحد من أوليائه .

٣٣ - باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين

والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم ، وخفض الجناح لهم

قال الله تعالى : ﴿ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْثِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْعُدْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَالضَّحَى : ٩ ، ١٠ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون : ١ - ٣] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب ملاطفة اليتامى والضعفة والبنات ، ونحوهم ممن هم محل الشفقة والرحمة ؛ وذلك أن دين الإسلام دين الرحمة والعطف والإحسان ، وقد حث الله ﷻ على الإحسان في عدة آيات من كتابه ، وبين ﷺ أنه يحب المحسنين ، والذين هم في حاجة إلى الإحسان يكون الإحسان إليهم أفضل وأكمل ؛ فمنهم اليتامى .

واليتيم : هو الصغير الذي مات أبوه قبل بلوغه ؛ سواء كان ذكراً أو أنثى ، ولا عبرة بوفاة الأم ، يعني أن اليتيم هو الصغير الذي مات أبوه قبل بلوغه وإن كان له أم ، وأما من ماتت أمه وأبوه موجود

فليس يتيم ، خلافاً لما يفهمه عوام الناس ؛ حيث يظنون أن اليتيم هو الذي ماتت أمه وليس كذلك ، بل اليتيم هو الذي مات أبوه .

ويُسمى يتيمًا لئيمه ، واليتيم هو الانفراد ؛ لأن هذا الصغير انفرد عن كاسب ، وهو صغير لا يستطيع الكسب . وقد أوصى الله ﷺ في عدة آيات باليتامى ، وجعل لهم حقًا خاصًا ؛ لأن اليتيم قد انكسر قلبه بموت أبيه ، فهو محل للعطف والرحمة ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] .

وكذلك البنات والنساء محل العطف والشفقة والرحمة لأنهن ضعيفات ؛ ضعيفات في العقل ، وفي العزيمة ، وفي كل شيء ، فالرجال أقوى من الناس في الأبدان والعقول والأفكار والعزيمة وغير ذلك ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء : ٣٤] .

كذلك أيضًا المنكسرين ؛ يعني الذين أصابهم شيء فانكسروا من أجله ، وليس هو كسر العظم بل كسر القلب ، يعني مثلاً أصابته جائحة اجتاحت ماله ، أو مات أهله أو مات صديق له فانكسر قلبه ، والمهم أن المنكسر ينبغي ملاطفته ، ولهذا شرعت تعزية من مات له ميت إذا أصيب بموته ؛ يُعزى ويلاطف ويُبين له أن هذا أمر الله ، وأن الله سبحانه وتعالى إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون وما أشبه ذلك .

وكذلك ينبغي خفض الجناح لهم ولين الجانب ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] اخفض جناحك يعني : تطامن لهم وتهاون لهم ، وقال : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾ يعني : حتى لو شمخت نفسك وارتفعت في الهواء كما يرتفع الطير فاخفض جناحك ، ولو كان عندك من المال ولك من الجاه والرئاسة ما يجعلك تتعالى على الخلق ، وتطير كما يطير الطير في الجو فاخفض الجناح ، اخفض الجناح حتى يكونوا فوقك ، ﴿ لِيَنْ أُنَبِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] وهذا أمر للرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو أمر للأمة كلها .

فيجب على الإنسان أن يكون لين الجانب لإخوانه المؤمنين ، ويجب عليه أيضًا أنه كلما رأى إنسانًا أتبع لرسول الله ﷺ فليخفض له جناحه أكثر ؛ لأن المتبع للرسول - عليه الصلاة والسلام - أهل لأن يتواضع له ، وأن يكرم ، وأن يعزز ، لا لأنه فلان ابن فلان لكن لأنه أتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولأن كل من اتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فهو حبيبنا وهو أخونا وهو صديقنا وهو صاحبنا ، وكل من كان أبعد عن اتباع الرسول فإننا نبتعد عنه بقدر ابتعاده عن اتباع الرسول ، هكذا المؤمن يجب أن يكون خافضًا جناحه لكل من اتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - اخفض جناحك لمن أتبعك من المؤمنين .

وقال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقَعُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فاصبر نفسك : احبسها مع هؤلاء القوم السادة الكرماء الشرفاء ، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي : يعني صباحًا ومساءً ، ولا رياء ولا

سمعة ، ولكنهم يريدون وجهه . يريدون وجه الله ﷻ في دعائهم له وعبادتهم له وذكرهم له وتسييحهم له .

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني : لا تبعد عنهم واجعلهم يرونك ، لا تعد دائماً عنهم عينك : أي لا تتجاوز عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا .

فمثلاً إذا كان هناك رجلان ؛ أحدهما مقبل على طاعة الله يدعو ربه بالغداة والعشي ، ويطيق الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويصوم ، ويحسن إلى الناس ، وآخر غني كبير عنده أموال وقصور وسيارات وخدم ، أيهم أحق أن نصبر أنفسنا معه ؟ الأول أحق أن نصبر أنفسنا معه ، وأن نجالسه ، وأن نخالطه وأن لا نتعداه نريد زينة الحياة الدنيا .

الحياة كلها ليست بشيء بل عرض زائل ، وما فيها من النعيم أو من السرور فإنه محفوف بالأحزان والتأكيد ، ما من فرح في الدنيا إلا ويتلوه الترح (١) والحزن . قال - أظنه - ابن مسعود ؓ : ما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ حزناً وترحاً ، وصدق ﷺ : لو لم يكن من ذلك إلا أنهم سيموتون تباغاً واحداً بعد الثاني ، كلما مات واحد حزنوا عليه ، فتكون هذه الأفراح والمسرات تنقلب إلى أحزان وأتراح ، فالدنيا كلها ليست بشيء .

إذاً لا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، بل كن معهم وكن ناصرًا لهم ، ولا يهملك ما متعنا به أحداً من الدنيا ، وهذا كقوله ﷻ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقَكَ رَيْكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّطِرِ عَلَيْهَا لَا شَنْكَكَ رِزْقًا نَحْنُ رَزَقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٢) [طه : ١٣١ ، ١٣٢] ، أسأل الله أن يحسن لي ولكم العاقبة ، وأن يجعل العاقبة لنا ولإخواننا المسلمين حميدة .

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ ﴾ [الضحى : ٩ ، ١٠] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما ساقه من الآيات الكريمة في باب الخنو على الفقراء واليتامى والمساكين وما أشبههم ، قال : وقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ٦ - ١١] الخطاب في قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ للنبي ﷺ . يقرر الله تعالى في هذه الآيات أن الرسول ﷺ كان يتيمًا ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - عاش من غير أم ولا أب ، فكفله جده عبد المطلب ، ثم مات وهو في السنة

(١) الترح : الحزن وقلة الخير ، أترحه أي أحزنه .

(٢) قوله ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ .. ﴾ لا تشغل نفسك ب... قوله ﴿ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أصنافاً من الكفار وعباد الدنيا . قوله ﴿ لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ ﴾ لنجعلهم لهم فتنة وابتلاء قوله ﴿ وَالصَّطِرِ عَلَيْهَا ﴾ اصبر بقوة وداوم عليها في أوقاتها .

الثامنة من عمره ﷺ ثم كلفه عمه أبو طالب .

فكان يتيماً وكان ﷺ يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط ، يعني على شيء يسير من الدراهم ؛ لأنه ما من نبي بعثه الله إلا ورعى الغنم ^(١) ، فكل الأنبياء الذين أرسلوا أول أمرهم كانوا رعاة غنم ، من أجل أن يعرفوا ويتمرنوا على الرعاية وحسن الولاية ، واختار الله لهم أن تكون رعيتهم غنماً ؛ لأن راعي الغنم يكون عليه السكينة والرأفة والرحمة ؛ لأنه يرعى مواشي ضعيفة بخلاف رعاة الإبل ، رعاة الإبل أكثر ما يكون فيهم الجفاء والغلظة لأن الإبل كذلك غليظة قوية جبارة .

فنشأ ﷺ يتيماً ثم إن الله سبحانه وتعالى أكرمه فيسر له زوجة صالحة ، وهي أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ؛ تزوجها وله خمس وعشرون من العمر ولها أربعون سنة ، وكانت حكيمة عاقلة صالحة ، رزقه الله منها أولاده كلهم من بنين وبنات إلا إبراهيم فإنه كان من سرته مارية القبطية ، المهم أن الله يسرها له وقامت بشئونه ، ولم يتزوج سواها ﷺ حتى ماتت .

أكرمه الله ﷺ بالنبوة فكان أول ما بدئ بالوحي أن يرى الرؤيا في المنام ، فإذا رأى الرؤيا في المنام جاءت مثل فلق الصبح في يومها بينة واضحة ^(٢) ؛ لأن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ^(٣) ، فدعا إلى الله وبشر وأنذر وتبعه الناس ، وكان هذا اليتيم الذي يرعى الغنم كان إماماً لأمة هي أعظم الأمم ، وكان راعياً لهم - عليه الصلاة والسلام - راعياً للبشر ولهذه الأمة العظيمة .

قال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَكَأَنِّي ﴾ آواك الله بعد يتمك ، ويسر لك من يقوم بشئونك حتى ترعرعت ، وكبرت ، ومن الله عليك بالرسالة العظمى .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ وجدك ضالاً : يعني غير عالم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُ بِمِيقَاتِهِ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] ، وقال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ مَا كُنْتُمْ تَدْرُونَ مَا أَلْكَتِبُ وَلَا الْيَمِينُ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، ولكن صار بهذا الكتاب العظيم عالماً كامل الإيمان - عليه الصلاة والسلام - ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ﴾ أي غير عالم ولكنه هداك . بماذا هداك ؟ هداك الله بالقرآن .

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا ﴾ يعني فقيراً ﴿ فَأَغْنَى ﴾ أغناك ، وفتح الله عليك الفتوح حتى كان يقسم ويعطي الناس ، وقد أعطى ذات يوم رجلاً غنماً بين جبلين ، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة - عليه

(١) هذا معنى حديث ولفظه « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم .. » ، وقد أخرجه البخاري في الإجازة (٢٢٦٢) ، ومالك في الاستئذان (١٨) ، وأحمد في مسنده (٣٢٦/٣) .

(٢) هذا معنى حديث ولفظه « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ... » ، وقد أخرجه البخاري في بدء الوحي (٣) ، ومسلم في الصلاة (٢٠٧) .

(٣) وهذا معنى حديث ولفظه « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » . وقد أخرجه البخاري في التعبير (٦٩٨٣) ، ومسلم في الرؤيا (٦) .

الصلاة والسلام - (١) .

ثم تأملوا قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ ما قال : فأواك ، بل قال : ﴿ فَآوَى ﴾ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ولم يقل : فهذا ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ ولم يقل فأغناك . لماذا ؟ لمناسبتين ؛ إحداهما لفظية ، والثانية معنوية .

أما اللفظية : فلأجل أن تتناسب رؤوس الآيات لقوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحي : ١-٥] كل آخر الآيات ألف ، فقوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ لو قال فأواك اختلف اللفظ ، ووجدك ضالًّا فهذا اختلف اللفظ ، ووجدك عائلاً فأغناك اختلف اللفظ ، لكن جعل الآيات كلها على فواصل حرف واحد .

المناسبة الثانية معنوية : وهي أعظم ، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ هل آواه الله وحده أو آواه وآوى أمته ، والجواب : الثاني ، آواه الله وآوى على يديه أمما لا يحصيه إلا الله ﷻ ، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ، هل هداه وحده ؟ لا ، هدى به أمما عظيمة إلى يوم القيامة ، ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ . هل أغناه الله وحده ؟ لا ؛ أغناه الله وأغنى به . كم حصل للأمة الإسلامية من الفتوحات العظيمة . ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِيحَ ﴾ [الفتح : ٢٠] ، فأغناهم الله ﷻ بمحمد ﷺ . إذا ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ فأواك وآوى بك ، ووجدك ضالًّا فهذا وهدى بك ، ووجدك عائلاً فأغناك وأغنى بك ، هكذا حال الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ اذكر نفسك حين حين كنت يتيمًا ، فلا تقهر اليتيم ، بل يسر له أمره ؛ إذا صاح فسكته ، وإذا غضب فأرضه ، وإذا تعب فخفف عليه ، وهكذا .

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ السائل : يظهر من سياق الآيات أنه سائل المال الذي يقول أعطني مالاً ، فلا تنهره ؛ لأنه قال ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ ، فلما أغناك لا تنهر السائل . تذكر حالك حينما كنت فقيراً ، ولا تنهر السائل .

ويحتمل أن يراد بالسائل سائل المال وسائل العلم ، حتى الذي يسأل العلم لا تنهره . بل الذي يسأل العلم الفقه بانشرح صدر ؛ لأنه لولا أنه محتاج ولولا أن عنده خوف الله ﷻ ما جاء يسأل ، فلا تنهره ، اللهم إلا من تعنت فهذا لا حرج أن تنهره . لو كنت تخبره ثم يقول لكل شيء : لماذا هذا حرام ؟ ولماذا هذا حلال ؟ لماذا حرم الله الربا وأحل البيع ؟ لماذا حرم الله الأم من الرضاع ؟ وأشياء كثيرة من قبيل هذا . فهذا الذي يتعنت انهره ولا حرج أن تغضب عليه .

كما فعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - حين تشاجر رجل من الأنصار والزيير بين العوام ، في الوادي حيث يأتي السيل ، وكان الزيير ﷺ حائطه قبل حائط الأنصاري فتنازعا ؛ الأنصاري يقول

(١) هذا معنى حديث ولفظه « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه .. » ، وقد أخرجه مسلم في الفضائل (٥٧) ، وأحمد في مسنده (١٠٨/٣) .

للزبير : لا تحبس الماء عني والزبير يقول : أنا أعلى فأنا أحق ، فتشاجرا وتخاصموا عند الرسول - عليه الصلاة والسلام - فقال النبي ﷺ : « اسق يا زبير ثم أرسله إلى جارك » ، وهذا حكم . فقال : أن كان ابن عمتك يا رسول الله ! كلمة ... لكن الغضب حمله عليها والعياذ بالله ، والزبير بن العوام بن صفيية بنت عبد المطلب عمه الرسول - عليه الصلاة والسلام . قال : أن كان ابن عمتك يا رسول الله ، فغضب الرسول ﷺ وقال : « اسق يا زبير حتى يصل إلى الجدر ثم أرسله إلى جارك » (١) .

فالحاصل أن السائل للعلم لا تنهره ، بل تلقه بصدر رحب وعلمه حتى يفهم ، خصوصاً في وقتنا الآن ، فكثير من الناس الآن يسألك وقلبه ليس معك . تجبه بالسؤال ثم يفهمه خطأ ، ثم يذهب يقول للناس أفتاني العالم الفلاني بكذا وكذا ، ولهذا ينبغي ألا تطلق الإنسان الذي يسألك حتى تعرف أنه عرف .

﴿ وَأَمَّا نِعْمَةُ رَبِّكَ فَمَعَتَ ﴾ نعمة الله عليك حدث بها ، قل الحمد لله ؛ رزقني الله علماً ، رزقني الله مالاً ، رزقني الله ولداً وما أشبه ذلك .

والتحديث بنعمة الله نوعان : تحديث باللسان ، وتحديث بالأركان .

تحديث باللسان : كأن تقول : أنعم الله عليّ ؛ كنت فقيراً فأغناني الله ، كنت ما أعرف فعلمني الله ، وما أشبه ذلك .

والتحديث بالأركان : أن تُري أثر نعمة الله عليك ، فإن كنت غنياً فلا تلبس ثياب الفقراء بل البس ثياباً تليق بك ، وكذلك في المنزل ، وكذلك في المركوب ، في كل شيء دع الناس يعرفون نعمة الله عليك ، فإن هذا من التحديث بنعمة الله ﷻ ، ومن التحديث بنعمة الله ﷻ إذا كنت قد أعطاك الله علماً أن تحدث الناس به ، وتعلم الناس ؛ لأن الناس محتاجون . وفقني الله والمسلمين لما يحب ويرضى .

وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ﴾ ۖ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ ۖ ﴿ [الماعون : ١ - ٣] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في سياق الآيات التي فيها الحث على الرفق باليتامى ونحوهم من الضعفاء ، قال : وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ﴾ ۖ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ ۖ ﴿ .

﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ يقول العلماء : إن معناه أخبرني ، يعني أخبرني عن حال هذا الرجل وماذا تكون . والدين : الجزء ؛ يعني يكذب بالجزء واليوم الآخر ولا يصدق به ، وعلامة ذلك أنه يدع اليتيم يعني :

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٥٩ ، ٢٣٦٠) - باختلاف في اللفظ - ، وكذلك مسلم في الفضائل (١٢٩) .

يدفعه بعنف وشدة ولا يرحمه .

﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴾ أي : لا يحث الناس على طعام المسكين ، وهو بنفسه لا يفعله أيضًا ، ولا يُطعم المساكين ، فحال هذا - والغياذ بالله - أسوأ حال ؛ لأنه لو كان يؤمن بيوم الدين حقيقة لرحم من أوصى الله برحمتهم ، وحض على طعام المساكين .

وفي سورة الفجر يقول الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴾ [الفجر : ١٧ ، ١٨] وهذه أبلغ مما في سورة الماعون لأنه قال : ﴿ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ وإكرامه أكثر من الوقوف بدون إكرام ولا إهانة ، فاليتيم يجب أن يكرم .

وتأمل قوله : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴾ فالمسكين حظه الإطعام ودفع حاجته ، أما اليتيم فالإكرام ؛ فإن كان غنيًا فإنه يكرم ليطعم ولا يطعم لغناه ، وإن كان فقيرًا - أي اليتيم - فإنه يكرم ليطعم ويفقره ، ولكن أكثر الناس لا يبالون لهذا الشيء .

واعلم أن الرفق بالضعفاء واليتامى والصغار يجعل في القلب رحمة ولينًا وعطفًا وإنابة إلى الله ﷻ ، لا يدركها إلا من جرب ذلك ، فالذي ينبغي لك أن ترحم الصغار وترحم الأيتام وترحم الفقراء ، حتى يكون في قلبك العطف والحنان والرحمة و « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » (١) . نسأل الله أن يعننا والمسلمين برحمته وفضله ، إنه كريم جواد .

٢٦٠ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : اطُودُ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرُّونَ عَلَيْنَا ، وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أَسْمِيَهُمَا ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ ، فَحَدَّثَتْ نَفْسُهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٢٠] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ » وهذا في أول الإسلام في مكة ؛ لأن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام ، أسلم وأسلم معه جماعة .

ومن المعلوم أن من أول الناس إسلامًا أبا بكر رضي الله عنه ، بعد خديجة وورقة بن نوفل ، وكان هؤلاء النفر ستة منهم ابن مسعود رضي الله عنه ، وكان راعي غنم فقيرًا ، وكذلك بلال بن رباح وكان عبدًا مملوكًا ،

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في الجنايز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنايز (١١) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٦) ، قوله ﴿ لَا يَجْتَرُّونَ ﴾ أي : لا يحصل منهم الجراءة قوله ﴿ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ أي في أول النهار قوله ﴿ وَالْعَشِيِّ ﴾ أي : في آخر النهار .

وكانوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - يجلسون إليه ويستمعون له ويتنفعون بما عنده . وكان المشركون العظماء في أنفسهم ، يجلسون إلى النبي ﷺ فقالوا له : اطرده عنا هؤلاء ، قالوا هذا احتقاراً لهؤلاء الذين يجلسون مع النبي ﷺ .

فوقع في نفس النبي ﷺ ما وقع وفكر في الأمر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يُدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] نهى الله ﷻ أن يطرد هؤلاء وإن كانوا فقراء ، وإن لم يكن لهم قيمة في المجتمع ، لكن لهم قيمة عند الله ؛ لأنهم يدعون الله بالغداة والعشي ، يعني صباحاً ومساءً ، يدعونه دعاء مسألة فيسألونه رضوانه والجنة ، ويستعينون به من النار .

ويدعونه دعاء عبادة فيعبدون الله ، وعبادة الله تشتمل على الدعاء ، ففي الصلاة مثلاً يقول الإنسان : رب اغفر لي ، ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وما أشبه ذلك ، ثم إن العابد أيضاً إنما يعبد لنيل رضا الله ﷻ .

وفي قوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ تنبيه على الإخلاص وأن الإخلاص له أثر كبير في قبول الأعمال ورفعة العمال عند الله ﷻ ، فكلما كان الإنسان في عمله أخلص كان أَرْضَى لَهِ وَأَكْثَرُ ثَوَابَهُ ، وكَم من إنسان يصلي وإلى جانبه آخر يصلي معه الصلاة ، ويكون بينهما من الرفعة عند الله والثواب الجزاء كما بين السماء والأرض ، وذلك لإخلاص النية عند أحدهما دون الآخر .

فالواجب على الإنسان أن يحرص غاية الحرص على إخلاص نيته في عبادته ، وألا يقصد بعبادته شيئاً من أمور الدنيا ؛ لا يقصد إلا رضا الله وثوابه حتى ينال بذلك الرفعة في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى في آخر الآية : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ يعني ليس عليك شيء منهم ، ولا عليهم شيء منك ، حساب الجميع على الله ، وكل يجازي بعمله .

﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، الفاء هذه التي في ﴿ فَتَكُونَ ﴾ تعود على قوله ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ لا على قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ ﴾ فعندنا هنا في الآية فاعان ، الفاء الأولى : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ وهذه مرتبة على قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ مرتبة على قوله : ﴿ وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يُدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ يعني : فإن طردتهم فإنك من الظالمين .

ويستفاد من هذا الحديث : أن الإنسان ينبغي له أن يكون جلساؤه من أهل الخير الذين يدعون الله صباحاً ومساءً يريدون وجهه ، وألا يهتم بالجلوس مع الأكابر ، والأشراف ، والأمراء والوزراء ، والحكام ، بل لا ينبغي أن يجلس إلى هؤلاء إلا أن يكون في ذلك مصلحة ، فإن كان في ذلك مصلحة ؛ مثل أن يريد أن يأمرهم بمعروف ، أو ينهاهم عن منكر ، أو يبين لهم ما خفي عليهم من حال الأمة ، فهذا طيب وفيه خير .

أما مجرد الأُنس بمجالستهم ، ونيل الجاه بأن جلس مع الأكابر ، أو مع الوزراء ، أو مع الأمراء ، أو مع ولاية الأمر ، فهذا غرض لا يحمد عليه العبد ، إنما يحمد على الجلوس مع من كان أتقى لله ؛ من

غني وفقير ، وحقير وشريف . المدار كله على رضا الله ﷻ ، وعلى محبة من أحب الله .
وقد ذاق طعم الإيمان من والي من والاه الله ، وعادى من عاداه الله ، وأحب في الله ، وأبغض في الله ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم كذلك ، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

٢٦١ - وعن أبي هُبَيْرَةَ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو الْمُزَنِيِّ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ ﷺ ، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصَهْبٍ وَبِلَالٍ فِي تَفَرٍّ فَقَالُوا : مَا أَخَذْتَ سَيُوفَ اللَّهِ مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ مَاخِذَهَا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخٍ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ ؟ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : « يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ ؟ لَئِنْ كُنْتُ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » فَأَتَاهُمْ فَقَالَ : يَا إِخْوَتَاهُ أَغْضَبْتُكُمْ ؟ قَالُوا : لَا ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي ^(١) . رواه مسلم .

قوله « مَاخِذَهَا » أي : لَمْ تَسْتَوْفِ حَقَّهَا مِنْهُ . وقوله : « يَا أَخِي » رُوي بفتح الهمزة وكسر الحاء وتخفيف الياء ، ورُوي بضم الهمزة وفتح الحاء وتشديد الياء .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله في قضية الضعفاء والمساكين ، وأنه تجب ملاطفتهم والرفق بهم والإحسان إليهم ، أن أبا سفيان مر بسلمان وصهيب وبلال ، وهؤلاء الثلاثة كلهم من الموالي ، صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي ، فمر بهم فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها يعني يريدون أنهم لم يشفوا أنفسهم مما فعل بهم أسيادهم من قريش ، الذين كانوا يعذبونهم ويؤذونهم في دين الله ﷻ ، فكان أبا بكر ﷺ لا مهم على ذلك ، وقال : أتقولون لسيد قريش مثل هذا الكلام .

ثم إن أبا بكر أخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال له : « لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك » ، يعني أغضبت هؤلاء النفر - مع أنهم من الموالي وليسوا بشيء في عداد الناس وأشرافهم - لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، فذهب أبو بكر ﷺ إلى هؤلاء النفر وسألهم : أغضبتكم ؟ فقالوا : لا ، قال : يا إخوانه ، أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أبا بكر .

فدل هذا على أنه لا يجوز للإنسان أن يترفع على الفقراء والمساكين ، ومن ليس لهم قيمة في المجتمع ؛ لأن القيمة الحقيقية هي قيمة الإنسان عند الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ﴾ [الحجرات : ١٣] والذي ينبغي للإنسان أن يخفض جناحه للمؤمنين ولو كانوا غير ذي جاه ؛

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٧٠) ، قولهم « لا ، يغفر الله لك يا أخي » روي عن أبي بكر أنه نهى عن مثل هذه الصيغة ، أي نهى عن أن تقول قبل الدعاء : لا فتصير صورته صورة نفي الدعاء . وقال البعض : قل : لا ، ويغفر الله لك .

لأن هذا هو الذي أمر الله به نبيه ﷺ حيث قال : ﴿ لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَّا مَا مَتَّعَنَا بِهِ زَوْجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] .

وفي هذا : دليل على ورع أبي بكر رضي الله عنه ، وعلى حرصه على إبراء ذمته ، وأن الإنسان ينبغي له بل يجب عليه إذا اعتدى على أحد بقول أو فعل أو بأخذ مال أو سب أو شتم أن يستحله في الدنيا ، قبل أن يأخذ ذلك منه في الآخرة ؛ لأن الإنسان إذا لم يأخذ حقه في الدنيا فإنه يأخذه يوم القيامة ، ويأخذه من أشرف شيء وأعز شيء على الإنسان ، يأخذه من الحسنات ؛ من الأعمال الصالحة التي هو في حاجة إليها في ذلك المكان .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ماذا تعدون المفلس فيكم ؟ » قالوا : من ليس له درهم ولا دينار أو قالوا : ولا متاع . فقال : المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، فيأتي وقد ضرب هذا ، وشم هذا ، وأخذ مال هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن بقي من حسناته شيء وإلا أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار ^(١) .

٢٦٢ - وعن سهل بن سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّائَةِ وَالْوُسْطَى ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا » ^(٢) . رواه البخاري .
و « كَافِلُ الْيَتِيمِ » : الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ .

٢٦٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لغيرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » وَأَشَارَ الزَّوَايَ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بِالسَّبَّائَةِ وَالْوُسْطَى ^(٣) . رواه مسلم .
وقوله ﷺ : « الْيَتِيمُ لَهُ أَوْ لغيرِهِ » مَعْنَاهُ : قَرِيبُهُ ، أَوْ الْأَجَنِّي مِنْهُ ، فَالْقَرِيبُ مِثْلُ أَنْ تَكْفُلَهُ أُمُّهُ أَوْ جَدُّهُ أَوْ أَخُوهُ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٢٦٤ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَزِدُّهُ الثَّمَرَةُ وَالثَّمَرَتَانِ ، وَلَا اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ ؛ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ » متفق عليه .

وفي رواية في « الصحيحين » : « لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَزِدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ ، وَالثَّمَرَةُ وَالثَّمَرَتَانِ ؛ وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ » ^(٤) .

(١) هذا الحديث مروي بالمعنى ، وقد أخرجه مسلم في البر (٦٠) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٠٤) . (٣) أخرجه مسلم في الزهد (٤٢) .

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٣٩) بزيادة « ولا قبل : اللقمتان » ، ومسلم في الزكاة (١٠٢) بلفظ المتعفف .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى ، يعني بالأصبع السبابة والوسطى ؛ والأصبع السبابة هي التي بين الوسطى والإبهام ، وتسمى السبابة ؛ لأن الإنسان يشير بها عند السب ، فإذا سب شخصًا قال هذا وأشار بها .

وتسمى السبابة لأن الإنسان يشير بها أيضًا عند التسبيح ، ولهذا يشير الإنسان بها في صلاته إذا جلس بين السجدة ودعا : رب اغفر لي وارحمني ؛ كلما دعا رفعها ، يشير إلى الله ﻋَﻠَﻴْكَ ؛ لأن الله في السماء جل وعلا ، وكذلك أيضًا يشير بها في التشهد إذا دعا : السلام عليك أيها النبي ، السلام علينا ، اللهم صل على محمد ، اللهم بارك على محمد ، في كل جملة دعائية يشير بها إشارة إلى علو الله تعالى وتوحيده .

وفرّج بينهما - عليه الصلاة والسلام - يعني قارن بينهما وفرّج ، يعني أن كافل اليتيم مع النبي - عليه الصلاة والسلام - في الجنة قريب منه ، وفي هذا حث على كفالة اليتيم ، وكفالة اليتيم هي القيام بما يصلحه في دينه ودنياه ؛ بما يصلحه في دينه من التربية والتوجيه والتعليم وما أشبه ذلك ، وما يصلحه في دنياه من الطعام والشراب والمسكن .

واليتيم حده البلوغ ، فإذا بلغ الصبي زال عنه اليتيم ، وإذا كان قبل البلوغ فهو يتيم ؛ هذا إن مات أبوه ، وأما إذا ماتت أمه دون أبيه فإنه ليس بيتيم .

وكذلك الحديث الذي بعده فيه أيضًا : ثواب من قام بشئون اليتيم وإصلاحه .

أما الحديث الثالث : فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول : « ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذي يتعفف » . يعني المسكين ؛ ليس (الشحاذ) الذي (يشحذ) الناس ، ترده اللقمة واللقمتان : يعني إذا أعطيته لقمة أو لقمتين أو تمرّة أو تمرتين ردته ، بل المسكين حقيقة هو الذي يتعفف كما قال تعالى : ﴿ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أُغْنِيَهُمْ مِنْ التَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] هذا هو المسكين حقيقة ؛ لأن يسأل فيعطى ولا يفتن له فيعطى . كما يقول العامة : عاف كاف ، ما يدرى عنه ، هذا هو المسكين الذي ينبغي للناس تفقده وإصلاح حاله ، والحنو عليه ، والعطف عليه .

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للمسكين أن يصبر وأن ينتظر الفرج من الله ، أن لا يتكفف الناس أعطوه أو منعه ، لأن الإنسان إذا علق قلبه بالخلق وكل إليهم ، كما جاء في الحديث : « من تعلق شيئًا وكل إليه » ^(١) وإذا وكلت إلى الخلق نسيت الخالق ، بل اجعل أمرك إلى الله ﻋَﻠَﻴْكَ ، وعلق رجاءك وخوفك وتوكلك واعتمادك على الله ﻋَﻠَﻴْكَ فإنه يكفيك : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الزكاة (١٤٧٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠١) .

أَمْرُهُ ﴿ [الطلاق : ٣] ، كل ما أمر الله ﷻ به فهو بالغك ، لا يمنعه شيء ولا يردده شيء .

فالمسكين يجب عليه الصبر ، ويجب عليه أن يمتنع عن سؤال الناس لا يسأل إلا عند الضرورة القصوى ؛ إذا حلت له الميتة حل له السؤال ، أما قبل ذلك ما دام يمكن أن يتعفف ولو أن يأكل كسرة من خبز أو شقة من تمر فلا يسأل ، ولا يزال الإنسان يسأل الناس ، ثم يسأل الناس ، ثم يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم ^(١) .

وليحذر الإنسان من التشبه ببعض الذين يترددون على الناس يسألونهم وهم أغنياء ؛ الذين إذا ماتوا وجد عندهم الآلاف ، توجد عنده الآلاف من الذهب والفضة والدرهم القديمة والأوراق .

وهم إذا رأيتهم قلت : إن هؤلاء أفقر الناس ، ثم هم يؤذون الناس بالسؤال ، أو يسألون الناس وهم ليس عندهم شيء لكن يريدون أن يجعلوا بيوتهم كبيوت الأغنياء ، وسياراتهم كسيارات الأغنياء ، ولباسهم كلباس الأغنياء فهذا سفه : « المتشبع بما لم يعط كلبس ثوبي زور » ^(٢) اقتنع بما أعطاك الله ؛ إن كنت فقيراً فعلى حسب حالك .

أما أن تقلد الأغنياء وتقول : أنا أريد سيارة فخمة ، وأريد بيتاً فارهاً ، وأريد فرساً ، ثم تذهب تسأل الناس سواء سألتهم مباشرة قبل أن تشتري هذه الأشياء التي أردت ، أو تشتريها ثم تذهب تقول : أنا علي دين وما أشبه ذلك هذا خطأ عظيم ، اقتصر على ما عندك ، وعلى ما أعطاك ربك ﷻ ، واسأل الله أن يرزقك رزقاً لا يطغيك ، رزقاً يغنيك عن الخلق وكفى . نسأل الله لنا ولكم التوفيق والسلامة .

* * *

٢٦٥ - وعنه عن النبي ﷺ : « السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وَأَحْسَبُهُ قَالَ : « وَكَالْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْتَرُ ، وَكَالصَّائِمِ الَّذِي لَا يُفْطِرُ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ في هذا الباب : باب الرفق باليتامى والمستضعفين والفقراء ونحوهم ، قول رسول الله ﷺ : « السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وَأَحْسَبُهُ قَالَ : « وَكَالْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْتَرُ وَكَالصَّائِمِ الَّذِي لَا يُفْطِرُ » ، والساعي عليهم هو الذي يقوم بمصالحهم ومئونتهم وما يلزمهم . والأرامل : هم الذين لا عائل لهم سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً ، والمساكين : هم الفقراء ، ومن هذا

(١) أخرجه الترمذي في الطب (٢٠٧٢) ، والنسائي في التحريم (٤٠٧٩) ، وأحمد في مسنده (٣١١/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢١٩) ، ومسلم في اللباس (١٢٧) .

(٣) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٣) ، ومسلم بدون كلمة « الذي » في الزهد (٤١) قوله « كَالْقَائِمِ » أي : بالتهجد . قوله : « الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر » المقصود ملازمة العبادة ليلاً ونهاراً .

قيام الإنسان على عائلته وسعيه عليهم ، على العائلة الذين لا يكتسبون ، فإن الساعي عليهم والقائم بمقوتهم ساع على أرملة ومساكين ، فيكون مستحقاً لهذا الوعد ويكون كالجاهد في سبيل الله ، أو كالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر .

وفي هذا دليل على جهل أولئك القوم الذين يذهبون يمينا وشمالا ويدعون عوائلهم في بيوتهم مع النساء ، ولا يكون لهم عائل فيضيعون ؛ لأنهم يحتاجون إلى الإنفاق ويحتاجون إلى الرعاية وإلى غير ذلك ، وتجدهم يذهبون يتجولون في القرى وربما في المدن أيضا ، بدون أن يكون هناك ضرورة ، ولكن شيء في نفوسهم ، يظنون أن هذا أفضل من البقاء في أهلهم بتأديهم وتربيتهم .

وهذا ظن خطأ ، فإن بقاءهم في أهلهم ، وتوجيه أولادهم من ذكور وإناث ، وزوجاتهم ومن يتعلق بهم أفضل من كونهم يخرجون يزعمون أنهم يرشدون الناس وهم يتركون عوائلهم الذين هم أحق من غيرهم بنصيحتهم وإرشادهم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فبدأ بعشيرته الأقربين قبل كل أحد .

أما الذي يذهب إلى الدعوة إلى الله يوما أو يومين أو ما أشبه ذلك ، وهو عائد إلى أهله عن قرب فهذا لا يضره ، وهو على خير - لكن كلامنا في قوم يذهبون أربعة أشهر ، أو خمسة أشهر ، أو سنة - عن عوائلهم ؛ يتركونهم للأهواء والرياح تعصف بهم ، فهؤلاء لاشك أن هذا من قصور فقههم في دين الله ﷻ .

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » ^(١) فالفقيه في الدين هو الذي يعرف الأمور ، ويحسب لها ، ويعرف كيف تؤتى البيوت من أبوابها ، حتى يقوم بما يجب عليه .

* * *

٢٦٦ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ ؛ يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا ، وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْتَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ غَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ^(٢) رواه مسلم .

وفي رواية في « الصحيحين » عن أبي هريرة من قوله : « يَفْسُ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ ؛ يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ ، وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ » ^(٣) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « شر الطعام

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧١) ، ومسلم في الزكاة (٩٨) .

(٢) أخرجه مسلم في النكاح (١١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٧٧) ، ومسلم - واللفظ له - مع تغيير كلمة الفقراء به المساكين ، في النكاح (١٠٧) .

طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعى إليها من يأبأها ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله . قوله عليه الصلاة والسلام : « شر الطعام طعام الوليمة » يحتمل أن يكون المراد بالوليمة هنا وليمة العرس ، ويحتمل أن يكون أعم ، وأن المراد بالوليمة كل ما دعي إلى الاجتماع إليه من عرس أو غيره ، وسيأتي بيان ذلك في الأحكام إن شاء الله .

ثم فسر هذه الوليمة التي طعامها شر الطعام وهي التي يدعى إليها من يأبأها ويمنعها من يأتيها ، يعني يدعى إليها الأغنياء ، والغني لا يحرص على الحضور إذا دعي ؛ لأنه مستغن بماله ، ويمنع منها الفقراء ؛ والفقير هو الذي إذا دعي أجاب ، فهذه الوليمة ليست وليمة مقربة إلى الله ؛ لأنه لا يدعى إليها من هم أحق بها وهم الفقراء ، بل يدعى إليها الأغنياء .

أما الوليمة من حيث هي - ولا سيما وليمة العرس - فإنها سنة مؤكدة ، قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف : « أولم ولو بشاة » ^(١) فأمره بالوليمة ، قال : « ولو بشاة » يعني ولو بشيء قليل ، والشاة قليلة بالنسبة لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لأنه من الأغنياء .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « ومن لم يجب فقد عصى الله ورسوله » يدل على أن إجابة دعوة الوليمة واجبة ؛ لأنه لا شيء يكون معصية بتركه إلا وهو واجب ، ولكن لا بد فيها من شروط : الشرط الأول : أن يكون الداعي مسلماً ؛ فإن لم يكن مسلماً لم تجب الإجابة ، ولكن تجوز الإجابة لاسيما إذا كان في هذا مصلحة ، يعني لو دعاك كافر إلى وليمة عرسه فلا بأس أن تجيب ، لاسيما إن كان في ذلك مصلحة كتأليفه إلى الإسلام ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن يهوديًا دعاه في المدينة ، فأجابه ، وجعل له خبرًا من الشعر وإهالة سنخة ^(٢) ؛ يعني ودكًا قديمًا متغيرًا .

وأما اشتراط العدالة : يعني اشتراط أن يكون الداعي عدلاً فليس بشرط ، فتجوز إجابة دعوة الفاسق ، إذا دعاك ، مثل أن يدعوك إنسان قليل الصلاة مع الجماعة ، أو حليق اللحية أو شارب دخان ، فأجبه كما تجيب من كان سالماً من ذلك .

لكن إن كان عدم الإجابة يفضي إلى مصلحة بحيث يخجل هذا الداعي ويترك المعصية التي كان يعتادها حيث الناس لا يجيبون دعوته ، فلا تجب دعوته من أجل مصلحته أما إذا كان لا يستفيد سواء أجبه أو لم تجبه ، فأجب الدعوة ؛ لأنه مسلم .

الشرط الثاني : أن يكون ماله حلالاً ؛ فإن كان ماله حراماً كالذي يكتسب ماله بالربا ؛ فإنه لا تجب إجابته ؛ لأن ماله حرام ، والذي ماله حرام ينبغي للإنسان أن يتورع عن أكل ماله ، ولكنه ليس

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٦٦) ، ومسلم في النكاح (٨٠) ، وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٦٩) .

بحرام ، يعني : لا يحرم عليك أن تأكل من مال من كسبه حرام ؛ لأن النبي ﷺ أكل من طعام اليهود وهم يأكلون الربا ؛ يأخذونه ويتعاملون به . لكن الورع أن لا تأكل ممن ماله حرام .

أما إذا كان في ماله حرام يعني ماله مختلط ؛ يتجر تجارة حلالاً ويكتسب كسباً محرماً فلا بأس من إجابته ، ولا تتورع عن ماله ؛ لأنه لا يسلم كثير من الناس اليوم من أن يكون في ماله حرام ، فمن الناس من يغش فيكتسب من حرام ، ومنهم من يراي في بعض الأشياء ، ومنهم الموظفون ، وكثير من الموظفين لا يقومون بواجب وظيفتهم ، فتجده يتأخر عن الدوام أو يتقدم فيخرج قبل وقت انتهاء الدوام ، وهذا ليس راتبه حلالاً ، بل إنه يأكل من الحرام بقدر ما نقص من عمل الوظيفة ؛ لأنه ملتزم بالعقد مع الحكومة مثلاً أنه يقوم بوظيفته من كذا وكذا ، فلو فتشت الناس اليوم لوجدت كثيراً منهم يكون في ماله دخن من الحرام .

الشرط الثالث : ألا يكون في الدعوة منكر ، فإن كان في الدعوة منكر فإنه لا تجب الإجابة ، مثل لو علمت أنهم سيأتون بمغنيين ، أو عندهم (شيش) يشربها الحاضرون ، أو عندهم شراب دخان فلا تجب إلا إذا كنت قادراً على تغيير هذا المنكر ، فإنه يجب عليك الحضور لسببين :

السبب الأول : إزالة المنكر ، والسبب الثاني : إجابة الدعوة .

أما إذا كنت ستحضر ولكن لا تستطيع تغيير المنكر فإن حضورك حرام .

الشرط الرابع : أن يُعَيَّن المدعو ، ومعنى يعينه أن يقول : يا فلان ، أدعوك إلى حضور وليمة العرس ؛ فإن لم يعينه بأن دعا دعوة عامة في مجلس فقال : يا جماعة عندنا حفل زواج ، ووليمة عرس فاحضروا ، فإنه لا يجب عليك أن تحضر ؛ لأنه دعا دعوة عامة وما نص عليك .

فلا بد أن يعينه فإن لم يعينه فإنها لا تجب ، ثم إنه ينبغي للإنسان أن يجيب كل دعوة ؛ لأن من حق المسلم على أخيه أن يجيب دعوته ، إلا إذا كان في امتناعه مصلحة راجحة فليتبع المصلحة .

٢٦٧ - وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ » وَصَمَّ أَصَابِعُهُ ^(١) . رواه مسلم .

« جَارِيَتَيْنِ » أي : بَنَتَيْنِ .

الشرح

أما هذا الحديث ففيه : فضل عول الإنسان للبنات ، وذلك أن البنت قاصرة ضعيفة مهينة ، والغالب أن أهلها لا يأبهون بها ، ولا يهتمون بها ؛ فلذلك قال النبي ﷺ : « من عال جارتين حتى

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٩) .

تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين « وَضَمَّ أَصْبَعِيهِ السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى ، والمعنى أنه يكون رفيقاً لرسول الله ﷺ في الجنة إذا عال الجاريتين ؛ يعني الأنثيين من بنات أو أخوات أو غيرهما ، أي أنه يكون مع النبي ﷺ في الجنة .

والعول في الغالب يكون بالقيام بمثونة البدن ؛ من الكسوة والطعام والشراب والسكن والفرش ونحو ذلك ، وكذلك يكون في غذاء الروح ؛ بالتعليم والتهديب والتوجيه والأمر بالخير والنهي عن الشر وما إلى ذلك .

ويؤخذ من هذا الحديث ومما قبله أيضاً : أنه ينبغي للإنسان أن يهتم بالأمر التي تقربه إلى الله لا بالأمر الشكليات ، أو مراعاة ما ينفع في الدنيا فقط ، بل يلاحظ هذا ويلاحظ ما ينفع في الآخرة أكثر وأكثر .

وقوله : « حتى تبلغا » يعني : حتى تصلا سن البلوغ ؛ وهو خمس عشرة سنة ، أو غير ذلك من علامات البلوغ في المرأة .

وعلامات البلوغ في المرأة أربع وهي :

الأولى : تمام خمس عشرة سنة . الثانية : نبات العانة . الثالثة : الاحتلام .

الرابعة : الحيض . فإذا حاضت ولو كان لها أقل من خمس عشرة سنة فهي بالغ .

* * *

٢٦٨ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : دَخَلْتُ عَلَى امْرَأَةٍ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَعْطَيْتُهَا إِياَهَا فَقَسَمْتُهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا ، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ : « مَنِ ابْنَتِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ ؛ كُنْ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قصة عجيبة غريبة ، قالت : « دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل . وذلك لأنها فقيرة ، قالت : فلم تجد عندي إلا ثمرة واحدة - بيت من بيوت النبي - عليه الصلاة والسلام - لا توجد فيه إلا ثمرة واحدة ! - قالت : « فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيهما » نصفين وأعطت واحدة نصف الثمرة وأعطت الأخرى نصف الثمرة الآخر ، ولم تأكل منها شيئاً .

فدخل النبي ﷺ على عائشة فأخبرته بتلك القصة العجيبة الغريبة ، فقال النبي ﷺ : « من ابنتي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له ستراً من النار » وقوله ﷺ : « من ابنتي » ليس المراد به هنا بلوى الشر ، لكن المراد : من قدر له ، كما قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرِ

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٨) بلفظ « دخلت امرأة ومعها ابنتان .. » ، ومسلم في البر والصلة (١٤٧) .

وَالْخَيْرَ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿١﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، يعني من قدر له ابتتان فأحسن إليهما كن له ستراً من النار يوم القيامة ، يعني أن الله تعالى يحجبه عن النار بإحسانه إلى البنات ؛ لأن البنت ضعيفة لا تستطيع التكسب ، والذي يكتسب هو الرجل ، قال الله تعالى : ﴿ اَلَيْسَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَوْتٌ عَلَى اَلْإِنْسَاءِ يَمَّا فَصَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤] .

فالذي ينفق على العائلة ويكتسب هو الرجل ، أما المرأة فإنما شأنها في البيت ، تقيمه وتصلحه لزوجها وتؤدب أولادها ، وليست المرأة للوظائف والتكسب إلا عند الغرب الكفرة ومن كان على شاكلتهم ، ممن اغتر بهم فقلدهم وجعل المرأة مثل الرجل في الاكتساب وفي التجارة وفي المكاتب ، حتى صار الناس يختلطون بعضهم ببعض ، وكلما كانت المرأة أجمل كانت أحظى بالوظيفة الراقية عند الغرب ومن شاكلهم ومن شابههم !.

ونحن - ولله الحمد في بلادنا هذه - نسأل الله أن يديم علينا هذه النعمة - قد منعت الحكومة حسب ما قرأنا من كتاباتها أن يتوظف النساء لا في القطاع العام ولا في القطاع الخاص إلا فيما يتعلق بالنساء ؛ مثل مدارس البنات وشبهها . لكن نسأل الله الثبات ، وأن يزيدها من فضله ، وأن يمنعها مما عليه الأمم اليوم من هذا الاختلاط الضار .

ومما ورد في هذا الحديث من العبر :

أولاً : بيت من بيوت رسول الله ﷺ ومن أشرف بيوته ، فيه أحب نسائه إليه ، لا يوجد به إلا ثمرة واحدة ، ونحن الآن في بلدنا هذا يقدم للإنسان عند الأكل خمسة أصناف شتى ، فلماذا فتحت علينا الدنيا وأغلقت عليهم ؟! ألكوننا أحب إلى الله منهم ؟! لا والله هم أحب إلى الله منا ، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء ، ونحن ابتلينا بهذه النعم ، فصارت هذه النعم عند كثير من الناس سبباً للشر والفساد والأشر والبطر ، حتى فسقوا - والعياذ بالله - ويخشى علينا من عقوبة الله ﷻ بسبب أن كثيراً منا بطروا هذه النعم وكفروها ، وجعلوها عوناً على معاصي الله سبحانه وتعالى - نسأل الله السلامة .

ثانياً : وفيه أيضاً ما كان عليه الصحابة رضوا عنه من الإيثار ، فإن عائشة ليس عندها إلا ثمرة ومع ذلك أثرت بها هذه المسكينة ، ونحن الآن عندنا أموال كثيرة ويأتي السائل ونرده .

لكن المشكلة في الحقيقة في رد السائل أن كثيراً من السائلين كاذبون ؛ يسأل وهو أغنى من المسؤول ، وكم من إنسان سأل ويسأل الناس ويلحف في المسألة فإذا مات وجدت عندهم دراهم الفضة والذهب الأحمر والأوراق الكثيرة من النقود ! وهذا هو الذي يجعل الإنسان لا يتشجع على إعطاء كل سائل ، من أجل الكذب والخداع ، حيث يظهرون بمظهر العجزة والمعتهين والفقراء وهم كاذبون .

ثالثاً : وفي الحديث أيضاً من العبر أن الصحابة رضوا عنه يوجد فيهم الفقير كما يوجد فيهم الغني ، قال

(١) قوله : ﴿ وَيَلُوكُمْ ﴾ نخبركم مع علمنا بحالكم . قوله : ﴿ فِتْنَةً ﴾ ابتلاء .

اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَهْمَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، ولولا هذا التفاوت ما اتخذ بعضهم بعضًا سُخْرِيًّا ، ولو كنا على حد سواء واحتاج الإنسان منا مثلاً لعمل ما كالبناء ، فجاء إلى الآخر فقال : أريدك أن تبني لي بيتاً ، فقال : ما أبني ، أنا مثلك ، أنا غني ، فإذا أردنا أن نصنع باباً ، قال الآخر : ما أصنع ، أنا غني مثلك ؛ فهذا التفاوت جعل الناس يخدم بعضهم بعضاً :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدماً حتى التاجر الغني صاحب المليارات يخدم الفقير . كيف ؟! يورد الأطعمة والأشربة والأكسية ومواد البناء وغيرها ؛ يجعلها للفقير فينتفع بها ، فكل الناس بعضهم يحتاج لبعض ، ويخدم بعضهم بعضاً ؛ ذلك حكمة من الله ﷻ .

رابعاً : وفي هذا الحديث أيضاً : دليل على فضل من أحسن إلى البنات بالمال ، والكسوة ، وطيب الخاطر ، ومراعاة أنفسهن ؛ لأنهن عاجزات قاصرات .

خامساً : وفيه ما أشرنا إليه أولاً من أن الذي يكلف بالنفقة وينفق هم الرجال ، أما النساء فللبیوت ولمصالح البيوت ، وكذلك للمصالح التي لا يقوم بها إلا النساء كمدارس البنات .

أما أن يجعلن موظفات مع الرجال في مكتب واحد ، أو سكرتيرات كما يوجد في كثير من بلاد المسلمين ، فإن هذا لاشك خطأ عظيم ، وشر عظيم ، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء أولها وشرها آخرها » ^(١) وذلك لأن أولها قريب من الرجال فصار شراً ، وآخرها بعيد عن الرجال فصار خيراً . فانظر كيف تُدب للمرأة أن تتأخر وتبتعد عن الإمام ، كل ذلك من أجل البعد عن الرجال ، نسأل الله أن يحميننا وإخواننا المسلمين من أسباب سخطه وعقابه .

* * *

٢٦٩ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : جاءني مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا ، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا ، فَاسْتَطَعَتْهَا ابْنَتَاهَا ، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا ، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ » ^(٢) رواه مسلم .

٢٧٠ - وعن أبي شُرَيْحٍ خُوَيْلِدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَزَازِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَخْرِجْ

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٢) ، وأبو داود في الصلاة (٦٧٨) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٤) ، وأحمد في مسنده (٢٤٧/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٩٢/٦) قوله « فاستطعمتها ابنتها » أي طلبتها منها أن تطعمها إياهما .

حَقَّ الضَّعِيفِينَ : الْيَتِيمَ ، وَالْمَرْأَةَ » ^(١) حديث حسن رواه النسائي بإسنادٍ جيد .
ومعنى : « أَخْرِجْ » : أُلْحِقْ الْحَرْجَ ، وَهُوَ الْإِثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُمَا ، وَأَحْذَرُ مِنْ ذَلِكَ تَحْذِيرًا بَلِيغًا ،
وَأَزْجُرُ عَنْهُ زَجْرًا أَكِيدًا .

٢٧١ - وعن مُضْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قال : رَأَى سَعْدٌ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ ،
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « هَلْ تُنْصَرُّونَ وَتُزْرَقُونَ إِلَّا بِضَعْفَائِكُمْ » ^(٢) رواه البخاري هكذا مُرْسَلًا ، فَإِنَّ
مُضْعَبَ بْنَ سَعْدٍ تَابِعِيٌّ ، وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ مُتَّصِلًا عَنْ مُضْعَبٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه .
٢٧٢ - وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ عُمَيْرٍ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « ابْغُوزِي الضَّعْفَاءَ ،
فَإِنَّمَا تُنْصَرُّونَ ، وَتُزْرَقُونَ بِضَعْفَائِكُمْ » ^(٣) رواه أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ .

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدل على مضمون ما سبق من الفرق بالضعفاء واليتامى والبنات وما أشبه ذلك ، وفي حديث عائشة الأولى قصة كحديثها السابق ، ولكن الحديث السابق أن عائشة رضي الله عنها أعطتها تمرة واحدة فشقتها بين ابنتيها .

أما هذا الحديث فأعطتها ثلاث تمرات ، فأعطت إحدى البنتين واحدة ، والثانية التمرة الأخرى ، ثم رفعت الثالثة إلى فيها لتأكلها ، فاستطعمتها - يعني أن البنتين نظرتا إلى التمرة التي رفعتها الأم - فلم تطعمها الأم بل شقتها بينهما نصفين ، فأكلت كل بنت تمرة ونصفًا والأم لم تأكل شيئًا . فذكرت ذلك للرسول ﷺ وأخبرته بما صنعت المرأة ، فقال : « إِنَّ اللَّهَ أَوْجِبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ » يعني لأنها لما رحمتها هذه الرحمة العظيمة أوجب الله لها بذلك الجنة .

فدل ذلك على أن ملاطفة الصبيان والرحمة بهم من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار نسأل الله أن يكتب لنا ولكم ذلك .

وفي الأحاديث الثلاثة التالية لهذا الحديث ما يدل على أن الضعفاء سبب للنصر وسبب للرزق ، فإذا حنا عليهم الإنسان وعطف عليهم وآتاهم مما آتاه الله ﷻ كان ذلك سببًا للنصر على الأعداء ، وكان سببًا للرزق ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه إذا أنفق الإنسان لربه نفقة فإن الله تعالى يخلفها عليه . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سأ : ٣٩] ، يخلفه أي : يأتي بخلفه وبدله .

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٢) ، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٩٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٩٤) ، والبيهقي في سننه (٣٤٥/٣) ، قوله « ابغوزي » أي : اطلبوا لي ، قوله « الضعفاء » أي : صغاليك المسلمين أستعين بهم .

٣٤ - باب الوصية بالنساء

قال الله تعالى : ﴿ وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ١٩] وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُلْقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ^(١) [النساء : ١٢٩] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الوصية بالنساء ، يعني الوصية على أن يرفق بهم الإنسان وأن يتقي الله تعالى فيهن ؛ لأنهن قاصرات يحتجن إلى من يجبرهن ويكملهن ، كما قال الله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء : ٣٤] .
ثم استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - بقول الله تعالى : ﴿ وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يعني عاشروا النساء بالمعروف .

والمعاشرة : معناها المصاحبة والمعاملة ؛ فيعاملها الإنسان بالمعروف ويصاحبها كذلك .
والمعروف : ما عرفه الشرع وأقره واطرد به العرف ، والعبرة بما أقره الشرع ، فإذا أقر الشرع شيئاً فهو المعروف ، وإذا أنكر شيئاً فهو المنكر ولو عرفه الناس .
وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء : ١٢٩] وهذا الخطاب لمن كان عنده زوجتان فأكثر ، بين الله ﷻ أن الإنسان لا يستطيع أن يعدل بين النساء ولو حرص ؛ لأن هناك أشياء تكون بغير اختيار الإنسان ؛ كالمودعة والميل وما أشبه ذلك ، مما يكون في القلب .
أما ما يكون بالبدن : فإنه يمكن العدل فيه ؛ كالعدل في النفقة ، والعدل في المعاملة بأن يقسم لهذه ليتها وهذه ليتها ، والكسوة وغير ذلك ، فهذا يمكن ، لكن ما في القلب لا يمكن أن يعدل الإنسان فيه ؛ لأنه بغير اختياره .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا ﴾ أي : تذرُوا المرأة التي ملتم عنها ﴿ كَالْمُلْقَةِ ﴾ أي : بين السماء والأرض ، ليس لها قرار ؛ لأن المرأة إذا رأت أن زوجها مال مع ضررتها تعبت تعباً عظيماً ، واشتعل قلبها ، فصارت كالمعلقة بين السماء والأرض ليس لها قرار .
ثم قال : ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يعني : إن تسلكوا سبيل الإصلاح وتقوى الله ﷻ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يعني : يغفر لكم ما لا تستطيعونه ، ولكنه

(١) قوله ﴿ وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي علموهن الفرائض والسنن ، وذلك بحسن الخلق معهن ومع آبائكم ، قوله ﴿ تَعْدِلُوا ﴾ أي : تسووا ، قوله ﴿ كُلَّ الْمِيلِ ﴾ هو تمعد الإساءة ومنعها يومها ونفقتها ، قوله ﴿ فَتَدْرُوهَا ﴾ أي : تتركوها ، قوله ﴿ كَالْمُلْقَةِ ﴾ أي : لا هي أم ولا هي ذات زوج .

يؤاخذكم بما تستطيعون .

وهاتان الآيتان وغيرهما من نصوص الكتاب والسنة كلها تدل على الرفق بالمرأة وملاحظتها ومعاشرتها بالتي هي أحسن ، وأن الإنسان لا يطلب منها حقه كاملاً ؛ لأنه لا يمكن أن تأتي به على وجه الكمال فليعف وليصفح .

* * *

٢٧٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالنساء خيراً ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنْ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَغْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسْرَتُهُ ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ ، لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ » ^(١) متفق عليه .

وفي رواية في « الصحيحين » : « الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرَتْهَا ، وَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا ، اسْتَمْتَعْتَ وَفِيهَا عَوَجٌ » ^(٢) .

وفي رواية لمسلم : « إِنْ الْمَرْأَةُ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسْرَتُهَا ، وَكَسَرُهَا طَلَأُهَا » ^(٣) .

قوله : « عَوَجٌ » هو بفتح العين والواو .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه في معاشرته النساء أن النبي ﷺ قال : « استوصوا بالنساء خيراً » يعني اقبلوا هذه الوصيلة التي أوصيكم بها ، وذلك أن تفعلوا خيراً مع النساء ؛ لأن النساء قاصرات في العقول ، وقاصرات في الدين ، وقاصرات في التفكير ، وقاصرات في جميع شئونهن ، فإنهن خلقن من ضلع .

وذلك أن آدم - عليه الصلاة والسلام - خلقه الله من غير أب ولا أم ، بل خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ، ولما أراد الله تعالى أن يث من هذه الخليقة ، خلق منه زوجة ، فخلقها من ضلعه الأعوج ، فخلقت من الضلع الأعوج ، والضلع الأعوج إن استمتع به استمتع به وفيه العوج ، وإن ذهب تقيمه انكسر .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣١) مع استبدال كلمة ما بـ (شيء) ، ومسلم في الرضاع (٦٠) . قوله « من ضلع » بكسر الضاد وفتح اللام ، ويجوز تسكينها . قيل : فيه إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر ، وقيل : من ضلعه القصير ، قوله : « وإن أعوج ما في الضلع أغلاه » قيل : فيه إشارة إلى أن أعوج ما في المرأة لسانها ، وقيل : يعني : أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع فلا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على تعوجها ، قوله : « استمتع بها » أي لقضاء الوطر وطلب الولد الصالح والإعفاف .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - (مع زيادة كلمة : بها قبل : وفيها عوج) في النكاح (٥١٨٤) ، ومسلم في الرضاع (٦٥) .

(٣) هذه رواية مسلم مع تغيير (وفيها الكلمة بها) في الرضاع (٥٩) .

فهذه المرأة أيضًا إن استمتع بها الإنسان استمتع بها على عوج ، فيرضى بما تيسر ، وإن أراد أن تستقيم فإنها لن تستقيم ، ولن يتمكن من ذلك ، فهي وإن استقامت في دينها فلن تستقيم فيما تقضيه طبيعتها ، ولا تكون لزوجها على ما يريد في كل شيء ، بل لابد من مخالفة ولابد من تقصير ، مع القصور الذي فيها .

فهي قاصرة بمقتضى جبلتها وطبيعتها ، ومقصرة أيضًا ، فإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرهما طلاقها ، يعني معنى ذلك أنك إن حاولت أن تستقيم لك على ما تريد فلا يمكن ذلك ، وحيثئذ تسأم منها وتطلقها ، فكسرها طلاقها .

وفي هذا : توجيه من رسول الله ﷺ إلى معاشرته الإنسان لأهله ، وأنه ينبغي أن يأخذ منهم العفو وما تيسر ، كما قال تعالى : ﴿ خُذْ أَلَمَتَا ﴾ يعني ما عفي وسهل من أخلاق الناس ﴿ وَأَمَّا بِالْعَرَفِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

ولا يمكن أن تجد امرأة مهما كان الأمر سالمة من العيب مائة بالمائة ، أو مواتية للزوج مائة بالمائة ، ولكن كما أرشد النبي - عليه الصلاة والسلام - استمتع بها على ما فيها من العوج .

وأيضًا إن كرهت منها خلقًا رضيت منها خلقًا آخر ^(١) ، فقابل هذا بهذا مع الصبر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

٢٧٤ - وعن عبد الله بن زمرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يخطب ، وذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَهَا ، فقال رسول الله ﷺ : « ﴿ إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقْنَهَا ﴾ انْبَعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ ، عَارِمٌ مَبِيعٌ فِي رَهْطِهِ » ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ ، فَوَعَّظَ فِيهِنَّ ، فَقَالَ : « يَقْعِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعَلَّهُ يَضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ » ثُمَّ وَعَّظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ وقال : « لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ ؟ » ^(٢) متفق عليه . « وَالْعَارِمُ » بالعين المهملة والراء : هُوَ الشَّرِيرُ الْمُفْسِدُ ، وقوله : « انْبَعَتْ » ، أي : قام بشُرْعَةٍ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن زمرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يخطب على ناقته ، وكان - عليه الصلاة والسلام - خطبه على نوعين : نوع راتب ونوع عارض ؛ فالخطب الراتب : كخطب يوم الجمعة وخطب العيدين والاستسقاء والكسوف وما أشبه ذلك ، والخطب العارضة : هي التي يكون لها سبب ، فيقوم النبي ﷺ فيخطب الناس ويعظهم ويبين لهم ؛ وأحيانًا يخطب على

(١) هذا معنى حديث ولفظه « ولا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا ... » ، وقد أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٩/٢) .
(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - وإضافة الفاء في (فيجلد) في تفسير القرآن (٤٩٤٢) ، ومسلم في الجنة (٤٩٠) ، قوله « الناقة » أي : التي كانت معجزة لسيدنا صالح عليه السلام ، قوله « أشقاها » أي : أشقى قبيلة ثمود قوله « عزيز » أي : قوي ذو منعة . قوله « رهطه » أي : قومه وجماعته .

المنبر ، وأحياناً يخطب قائماً على الأرض ، وأحياناً يخطب على ناقته ، وأحياناً يخطب معتمداً على بعض أصحابه ، حسب ما تقتضيه الحال في وقتها ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - من هديه أنه لا يتكلف ؛ فلا يطلب المعدوم ، ولا يرد الموجود إذا لم يكن في ذلك تقصير في الشرع ، أو تجاوز فيه . فكان ﷺ يخطب وسمعه عبد الله بن زمعة ، ومن جملة ما خطب أنه قال : « يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد » يعني يجلدها جلد شخص كأنه لا علاقة بينه وبينها ، وكأنها عنده عبد أسير (عان) وهذا لا يليق ؛ لأن علاقة الرجل مع أهله علاقة خاصة ينبغي أن تكون مبنية على المحبة والألفة والبعد عن الفحشاء القولية والفعلية .

أما أن يجلدها كما يجلد العبد ثم في آخر اليوم يضاجعها . كيف تضاجعها في آخر اليوم وتستمتع بها محبة وتلذذا وشهوة وأنت قد جلدها جلد العبد ؟! فهذا تناقض ، ولهذا عتب النبي - عليه الصلاة والسلام - على هذا العمل ؛ فإنه لا ينبغي أن يقع هذا الشيء من الإنسان ، وصدق النبي - عليه الصلاة والسلام - فإن هذا لا يليق بالعاقل فضلاً عن المؤمن .

ثم تحدث أيضاً عن شيء آخر وهو الضحك من الضربة ، يعني إذا ضرب الإنسان وخرجت الریح من دبره ولها صوت ضحكوا ، فقال ﷺ واعظاً لهم في ذلك : « لم يضحك أحدكم مما يفعل ؟ » . ألسنت أنت تضطرب كما يضطرب هذا الرجل ؟ بلى ، إذا كان كذلك فلماذا تضحك ؟ فالإنسان إنما يضحك ويتعجب من شيء لا يقع منه ؛ فإنه لا ينبغي أن يضحك منه ، ولهذا عاتب النبي ﷺ من يضحكون من الضربة ، لأن هذا شيء يخرج منهم ، وهو عادة عند كثير من الناس .

كثير من الناس في بعض الأعراف لا يبالون إذا ضرب أحدهم وإلى جنبه إخوانه ولا يحتشمون ذلك أبداً ، ويرون أنها من جنس العطاس أو السعال أو ما أشبه ذلك . ولكن في بعض الأعراف ينتقدون هذا .

لكن كونك تضحك وتُخجل صاحبك ، فهذا مما لا ينبغي .

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي له أن يعيب غيره فيما يفعله هو بنفسه ، إذا كنت لا تعيب نفسك فكيف تعيب إخوانك ؟!

وبهذه المناسبة أود أن أتنبه على مسألة شائعة عند العامة : فإنه من المعلوم أن لحم الإبل إذا أكل منه الإنسان وهو متوضئ انتقض وضوؤه ، ووجب عليه أن يتوضأ إذا أراد الصلاة ، سواء أكله نيئاً أو مطبوخاً ، وسواء كان هبياً ، أو كبداً ، أو مصراناً ، أو كرشاً ، أو قلباً ، أو رئة ، كل ما حملت البعير فإن أكله ناقض للوضوء ؛ لأن النبي ﷺ لم يستثن شيئاً وإنما قال : « توضئوا من لحوم الإبل » ^(١) ، وسئل أتوضأ من لحوم الإبل فقال : « نعم » ، قال : من لحوم الغنم ؟ فقال : « إن شئت » ^(٢) ؛ لحم

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (١٨٤) ، والترمذي في الطهارة (٨١) ، وأحمد في مسنده (٢٨٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الحیض (٩٧) .

الغنم لا ينقض الوضوء ، لحم البقر لا ينقض الوضوء ، لحم الخيل لا ينقض الوضوء ، لكن لحم الإبل ينقض الوضوء ؛ إذا أكلته نيئاً أو مطبوخاً وجب عليك أن تتوضأ .

فأما شرب لبنها ، فإن الصحيح أنه ليس بناقض للوضوء ؛ لأن النبي ﷺ لما أمر العرنيين أن يخرجوا إلى إبل الصدقة ، ويشربوا من أبوالها وألبانها لم يأمرهم بالوضوء ، ولو كان واجباً لأمرهم به ، فإن توضأت فهو أحسن ، أما الوجوب فلا .

وكذلك المرق لا يجب الوضوء منه ، وإن توضأت فهو أحسن ، أما اللحم فلا بد ، وكذلك الشحم فلا بد من الوضوء منه .

يقول بعض الناس إن السبب أن الرسول ﷺ كان في وليمة وكان لحمها لحم إبل ، وأنه خرجت ريح من بعض الحاضرين ولا يدري من ، فقال الرسول ﷺ : « من أكل لحم إبل فليتوضأ » فقام جميعهم يتوضئون .

وجعلوا هذا السبب في أن الإنسان يتوضأ من لحم الإبل ، وهذا حديث باطل لا أصل له ، وإنما الرسول ﷺ أمر بالوضوء من لحم الإبل لحكمة يعلمها الله ، قد نعلمها نحن ، وقد لا نعلمها ، المهم نحن علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا ، أمرنا الرسول ﷺ أن نتوضأ من لحوم الإبل إذا أكلنا منها فسمعنا وطاعة .

٢٧٥ - وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً ؛ إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر » أو قال : « غيرُهُ » ^(١) رواه مسلم .

وقوله : « يفرك » هو بفتح الياء وإسكان الفاء وفتح الراء معناه : يبغيض ، يقال : فركت المرأة زوجها ، وفركتها زوجها ، بكسر الراء ، يفركها بفتحها : أي : أبغضها ، والله أعلم .

الشرح

ذكر المؤلف فيما نقله عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « لا يفرك مؤمنٌ مؤمنة ، إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر » ، الفرق : يعني البغضاء والعداوة ، يعني : لا يعادي المؤمن المؤمنة كزوجته مثلاً لا يعاديه ويبغضها إذا رأى منها ما يكرهه من الأخلاق ؛ وذلك لأن الإنسان يجب عليه القيام بالعدل ، وأن يراعي المعامل له بما تقتضيه حاله ، والعدل أن يوازن بين السيئات والحسنات ، وينظر أيهما أكثر وأيهما أعظم وقفاً فيغلب ما كان أكثر وما كان أشد تأثيراً ؛ لأن هذا هو العدل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة : ٨] يعني لا يحملكم بعضهم على عدم العدل ، اعدلوا ولو كنتم تبغضونه ، ولهذا لما بعث

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (٦١) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٢٩/٢) .

النبي ﷺ عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر ليخرص ^(١) عليهم ثمر النخل ، وكان النبي ﷺ قد عامل أهل خيبر حين فتحها على أن يكفوه المثونة ، ويقوموا بإصلاح النخيل والزرع ولهم النصف . فكان يبعث عليهم من يخرص عليهم الثمرة ، فبعث إليهم عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم ، ثم قال لهم : يا معشر اليهود أنتم أبغض الخلق إليّ ، قتلتم أنبياء الله ﷺ ، وكذبتم على الله ، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم ، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر ، فإن شئتم فلکم ، وإن أبيتم فلي ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض ^(٢) .

فالشاهد : أن الرسول ﷺ أمر أن يكون الإنسان حاكمًا بالعدل وبالقسط ، فقال : « لا يفرک مؤمن مؤمنة » يعني : لا يبغيضها لأخلاقها ، إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر .

إذا أساءت مثلاً في ردّها عليك مرة ، لكنها أحسنت إليك مرات ، أساءت ليلة لكنها أحسنت ليالي ، أساءت في معاملة الأولاد مرة ، لكن أحسنت كثيرًا .. وهكذا .

فأنت إذا أساءت إليك زوجتك لا تنظر إلى الإساءة في الوقت الحاضر ، ولكن انظر إلى الماضي وانظر إلى المستقبل واحكم بالعدل .

وهذا الذي ذكره النبي ﷺ في المرأة يكون في غيرها أيضًا ممن يكون بينك وبينه معاملة أو صداقة أو ما أشبه ذلك . إذا أساء إليك يومًا من الدهر فلا تنس إحسانه إليك مرة أخرى وقارن بين هذا وهذا ، وإذا غلب الإحسان على الإساءة فالحكم للإحسان ، وإن غلبت الإساءة على الإحسان فانظر ؛ إن كان أهلاً للعفو فاعف عنه ، ومن عفا وأصلح فأجره على الله ، وإن لم يكن أهلاً للعفو فخذ بحقك وأنت غير ملوم إذا أخذت بحقك ، لكن انظر للمصلحة .

فالخاص : أن الإنسان ينبغي له أن يعامل من بينه وبينه صلة من زوجية أو صداقة أو معاملة ، في بيع أو شراء أو غيره ، أن يعامله بالعدل إذا كره منه خلقًا أو أساء إليه في معاملة ، أن ينظر للجوانب الأخرى الحسنة حتى يقارن بين هذا وهذا ، فإن هذا هو العدل الذي أمر الله به ورسوله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

* * *

٢٧٦ - وعن عمرو بن الأخوص الجشمي رضي الله عنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ يَقْدَأُ أَنْ حَمَدَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَتْنَىٰ عَلَيْهِ وَذَكَرَ وَوَعَّظَ ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي

(١) ليخرص : أي ليحزره ويقدره بالظن : يقال خرص النخل والكرم : حزر ما عليه من الرطب تمرًا ومن العنب زبيبًا .

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد - واللفظ له - في مسنده (٣٦٧/٣) ، وأبو داود في البيوع (٣٤١٠) .

المُضَاجِعَ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَحَقِّقْكُمْ عَلَيْهِنَّ : أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ : أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ » (١) رواه الترمذي وقال : 'حديث حسن صحيح .

قوله ﷺ : « عَوَانٍ » أي : أسيرات جمع غانية ، بالغين المهملة ، وهي الأسيرة ، والغاني : الأسير . شبه رسول الله ﷺ المرأة في دخولها تحت حكم الزوج بالأسير « وَالضَّرْبُ الْمُبْرِحُ » : هُوَ الشَّاقُّ الشَّدِيدُ ، وقوله ﷺ : « فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا » أي : لا تَطْلُبُوا طريقًا تَحْتَجُونَ بِهِ عَلَيْهِنَّ وَتُؤْذِنُهُنَّ بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقله عن عمرو بن الأحوص الجشمي رحمه الله أنه سمع النبي ﷺ في خطبة الوداع يخطب ، وكان ذلك في عرفة ؛ لأن النبي ﷺ في حجة الوداع قدم مكة يوم الأحد الرابع من ذي الحجة ، وبقي فيها إلى يوم الخميس الثامن من ذي الحجة .

وخرج ضحى يوم الخميس إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، فلما طلعت الشمس ، صار إلى عرفة ، فنزل بنمرة وهي مكان معروف قبل عرفة وليست من عرفة ، ثم زالت الشمس وحلت صلاة الظهر ، فأمر أن تُرْحَلْ له ناقته فرحلت له وركب ، حتى أتى بطن الوادي - بطن عرنة - وهو شعب عظيم يحدُّ عرفة من الناحية الغربية إلى الناحية الشمالية ، فنزل ثم خطب الناس ﷺ خطبة عظيمة بليغة .

ثم قال فيها من جملة ما قال موصيًا أمته بالنساء : « استوصوا بالنساء خيرًا ، فإنما هنَّ عوان عندكم » العواني جمع غانية ، وهي الأسيرة ، يعني : أن الزوجة عند زوجها بمنزلة الأسير عند من أسره ، لأنه يملكها ، وإذا كان يملكها فهي كالأسير عنده ، ثم بين ﷺ أنه لاحق لنا أن نضربهن إلا إذا أتين بفاحشة مبينة ، والفاحشة هنا عصيان الزوج ، بدليل قوله : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٣٤] يعني : إن أهملت الزوجة في حق زوجها عليها فإنه يعظها أولاً ، ثم يهجرها في المضجع فلا ينام معها ، ثم يضربها ضربًا غير مبرح إن هي استمرت على العصيان .

هذه مراتب تأديب المرأة إذا أتت بفاحشة مبينة ، وهي عصيان الزوج فيما يجب له : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٣٤] يعني : لا تضربوهن ولا تقصروا في حقهن ؛ لأنهن قمن بالواجب . ثم بين ﷺ الحق الذي لهن والذي عليهن ، فقال : « لكم عليهن ألا يوطئن فُرْشَكُمْ أحدًا تَكْرَهُونَ »

(١) أخرجه الترمذي - واللفظ له - مع اختلاف في عبارة « فحقكم عليهن أن لا » إلى « فأما حقكم على نساءكم فلا » وذلك في الرضاع (١١٦٣) ، وابن ماجه في النكاح (١٨٥١) ، قوله « المضاجع » هي أماكن نوم الرجل والمرأة .

يعني : لا يجعلن أحدًا يدخل عليهن على فراش النوم أو غيره وأنت تكره أن يجلس على فراش بيتك ، وكان هذا - والعلم عند الله - ضرب مثل ، والمعنى أن لا يكرمن أحدًا تكرهونه ؛ هذا من المضادة لكم أن يكرمن من تكرهونه بإجلالسه على الفراش أو تقديم الطعام له ، أو ما أشبه ذلك .

وأن لا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ، يعني : لا يدخلن أحدًا البيت وأنت تكره أن يدخل ، حتى لو كانت أمها أو أبها ، فلا يحل لها أن تدخل أمها أو أبها ، أو أختها ، أو أخاها ، أو عمها أو خالها ، أو عمتها أو خالتها إلى بيت زوجها إذا كان يكره ذلك .

وإنما نهت على هذا لأن بعض النساء - والعياذ بالله - شر ، شر حتى على ابنتها ، إذا رأت حياة ابنتها مستقرة وسعيدة مع زوجها أصابتها الغيرة - والعياذ بالله - وهي الأم ! - ثم حاولت أن تفسد ما بين ابنتها وزوجها ، فللزواج أن يمنع هذه الأم من دخول بيته ، له أن يقول لزوجته : لا تدخل بيتي ، له أن يمنعها شرعًا ، وله أن يمنع زوجته من الذهاب إليها لأنها غامة تفسد ، وقد قال النبي ﷺ : « لا يدخل الجنة قتات » ^(١) أي نمام .

ثم قال ﷺ : « ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

فالزوج هو الذي ينفق على زوجته حتى لو كانت غنية ، ولو كانت موظفة ، فليس له حق في وظيفتها ولا في راتبها ، ليس له قرش واحد كله لها ، وتلزمه بأن ينفق عليها ؛ إذا قال : كيف أنفق عليك وأنت غنية ، ولك راتب كراتبي ؟ تقول : يلزمك الإنفاق عليها وإن كانت كذلك ، فإن أبيت فللحاكم القاضي أن يفسخ النكاح غصبًا من الزوج ؛ وذلك لأنه ملتزم بنفقتها .

الحاصل أن خطبة حجة الوداع خطبة عظيمة قرر فيها النبي ﷺ شيئًا كثيرًا من أصول الدين ومن الحقوق ، حتى قال ﷺ من جملة ما قال : « ألا وإن ربا الجاهلية موضوع تحت قدمي » ؛ كانوا في الجاهلية - نسأل الله العافية - إذا حل الدين على الفقير قالوا له : إما أن تربى وإما أن تقضي : تقضي يعني : توفينا ، تربى يعني : نزيد عليك الدين حتى يصبح أضعافًا مضاعفة .

فقال ﷺ في حجة الوداع حاكمًا ومشرعًا : « إن ربا الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين » يعني تحت رجلي ليس له قائمة ، ثم قال : « وأول ربًا أضع ربا العباس بن عبد المطلب » ^(٢) .

الله أكبر ، قوة عظيمة في تنفيذ أحكام الله ، وعدل قائم ، « أول ربًا أضع ربا العباس » ، العباس عم الرسول ﷺ ؛ فلا محابة لأحد لقربته ولا لنسبه ولا لسلطانه .

لو كان النبي ﷺ رجلًا من أهل الدنيا لحاي عمه ، ولأبقى رباه على ما هو عليه ، لكن الرسول ﷺ

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٦) ، ومسلم في الإيمان (١٦٩) ، قوله « قتات » القتات : هو النمام يقال نم الحديث ينمه ويئمه نماً فالنميعة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم .

(٢) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨) بلفظ « ألاكل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع .. » .

الذي هو غاية الخلق في العدل يقول : « أول رباً أضع ربا العباس بن عبد المطلب » ، فإنه موضوع كله ، فليس لأحد ممن عليه الربا أن يوفيه ، فهو ساقط كأن لم يكن ؛ ليس للعباس إلا رأس ماله فقط .

وهذا كقوله ﷺ حينما جاء الناس يشفعون في امرأة من بني مخزوم كانت تستعير المتاع وتجمده ، تستعير المتاع كالقدر والفرش وغيره ، ثم إنها بعد أن تأخذ هذا المتاع كانت تنكر أنها أخذت شيئاً ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها ؛ لأنها سارقة .

فأهم قريشاً شأنها لأنها امرأة من بني مخزوم - إحدى قبائل قريش الكبرى - وقدموا أسامة بن زيد يشفع عند النبي ﷺ .

وأسامة هو ابن عتيق الرسول ﷺ زيد بن حارثة ؛ عبد أهدته خديجة للرسول ﷺ فأعتقه ثم جاء بأسامة ، وكان النبي ﷺ يحبهما - أسامة وأباه زيداً - فقالوا لأسامة : اشفع عند الرسول ﷺ . فلما جاء يشفع أنكر عليه النبي ﷺ ، وقال : « أتشفع في حد من حدود الله » . أنكر عليه إنكار توبيخ .

ثم قام فخطب الناس وقال لهم كلاماً خالداً عظيماً : « أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

والضعيف أحق بالعفو إن كان هناك تفريق ومحابة ، ولكن ولله الحمد ليس هناك تفريق ولا محابة في إقامة حدود الله . ثم قال النبي ﷺ : « وإيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ^(١) وهي أشرف من الخزومية نسباً وقدرًا ودينًا ، وهي بلا شك أفضل من الخزومية ؛ لأنها سيدة نساء أهل الجنة ﷺ .

وقوله ﷺ : « وإيم الله » حلف وإن لم يستحلف ، لتأكيد هذا الحكم وبيان أهميته « لو أن فاطمة » وهي أشرف من هذه الخزومية « بنت محمد » أشرف البشر « سرقت لقطعت يدها » ليقطع كل الحجاج والوساطات والشفاعات ، وهذا يدل على كمال عدله ﷺ .

المهم : أن الرسول ﷺ خطب في حجة الوداع خطبة عظيمة بين فيها كثيراً من أحكام الإسلام وآدابه ، وقد قام بشرح هذه الخطبة الشيخ العلامة عبد الله بن محمد بن حميد - رحمة الله عليه - رئيس القضاة في هذه المملكة في زمنه ، شرحها شرحاً موجزاً لكنه مفيد ، فمن أحب فليرجع إليه .

٢٧٧ - وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما حق زوجه أحياناً عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ، ومسلم - واللفظ له - في الحدود (٨) باختلاف : « من كان قبلكم » إلى « الذين قبلكم » .

الْبَيْتِ » (١) حديث حسن رواه أبو داود وقال : معنى « لَا تُقَبِّحْ » أي : لَا تُثَلِّمَ فَحْكُ اللَّهِ .
 ٢٧٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخَيْرًاكُمْ خَيْرًاكُمْ لِنِسَائِهِمْ » (٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله فيما نقل عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ ما حق امرأة أهدنا عليه ، والصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا سألوا النبي ﷺ فإنما يسألونه ليعملوا لا ليعلموا فقط ، خلافا لما عليه كثير من الناس اليوم يسألون ليعلموا ثم لا يعمل إلا قليل منهم ؛ وذلك أن الإنسان إذا علم من شريعة الله ما علم كان حجة له أو عليه : إن عمل به فهو حجة له يوم القيامة ، وإن لم يعمل به كان حجة عليه يؤاخذ به .

وما أكثر ما كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن أمور دينهم ، ففي القرآن مسائل كثيرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٥] ، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾ [البقرة : ٢٢٠] ، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَنِيِّ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ﴾ (٣) [البقرة : ١٨٩] ؛ كلها أسئلة يريد بها الصحابة رضي الله عنهم أن يعلموا منها حكم الله ثم يطبقوه في أنفسهم وفي أهلهم .

وهنا سأله معاوية : ما حق امرأة أهدنا عليه ؟ قال : « أَنْ تَطْعَمَهَا إِذَا طَعَمْتَ وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ » يعني لا تخص نفسك بالكسوة دونها ولا بالطعام دونها ، بل هي شريكة لك يجب عليك أن تنفق عليها كما تنفق على نفسك ، حتى إن كثيرا من العلماء يقول : إذا لم ينفق الرجل على زوجته وطالبت بالفسخ عند القاضي فللقاضي أن يفسخ النكاح ؛ لأنه قصر بحقها الواجب لها .
 قال : « وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ وَلَا تُقَبِّحْ » فلا تضربها إلا لسبب وإذا ضربتها فاجتنب الوجه وليكن ضربا غير مبرح .

وقد سبق لنا أن الإنسان إذا رأى من امرأته نشورا وترفقا عليه ، وأنها لا تقوم بحقه وعظما أولا ، ثم هجرها في المضجع ، ثم ضربها ضربا غير مبرح ، فإذا حق له أن يضربها لوجود السبب ؛ فإنه لا يضرب الوجه .

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٤٢) ، والبيهقي في سننه (٣٠٥/٧) قوله « وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ » أي : لَا تتحول عنها وَلَا تحولها إلى دار أخرى ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَفْجُرُوهَا فِي الْمَتَابَعِ ﴾ .

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٢) بزيادة في آخره : « خُلُقًا » . وأبو داود في السنة (٤٦٨٢) وليس في حديثه « وَخَيْرًاكُمْ خَيْرًاكُمْ لِنِسَائِهِمْ » .

(٣) قوله ﴿ عَنِ الْغَنِيِّ ﴾ أي : عن حكم موقعة المرأة أثناء الحيض ، قوله ﴿ الْأَهْلِ ﴾ هي جمع هلال أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يعظم ثم يستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان فقل لهم إنها أوقات لعباداتكم .

وكذلك غير الزوجة لا يُضرب على الوجه ، فالابن إذا أخطأ لا يُضرب على الوجه ؛ لأن الوجه أشرف ما في الإنسان ، وهو واجهة البدن كله ، فإذا ضُرب كان أذل للإنسان مما لو ضُرب غير وجهه ، يعني يُضرب الرجل مع كتفه ، مع عضده ، مع ظهره ؛ فلا يرى بذلك أنه استذل كما لو ضربته على وجهه ، ولهذا نهى عن ضرب الوجه وعن تقبيح الوجه .

قوله : « لا تقبح » يعني لا تقل : أنت قبيحة ، أو قبح الله وجهك ، ويشمل النهي عن التقبيح : النهي عن التقبيح الحسي والمعنوي ، فلا يقبحها مثل أن يقول : أنت من قبيلة رديئة أو من عائلة سيئة أو غير ذلك .

كل هذا من التقبيح الذي نهى الله عنه ، قال : « ولا تهجر إلا في البيت » يعني إذا وجد سبب الهجر فلا تهجرها علناً وتظهر للناس أنك هجرتها .

اهجرها في البيت ؛ لأنه ربما تهجرها اليوم وتتصالح معها في الغد فتكون حالكما مستورة ، لكن إذا ظهرت حالكما للناس بأن قمت بنشر ذلك والتحديث به كان هذا خطأ ، اهجرها في البيت ، ولا يطلع على هجرك أحد ، حتى إذا اصطلحت معها رجع كل شيء على ما يرام ، دون أن يطلع عليه أحد من الناس .

أما الحديث الثاني : حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، فإنه حديث عظيم ، قال فيه النبي ﷺ : « أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً » .

الإيمان يتفاوت ويتفاضل كما قال الله تعالى : ﴿ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ [الذثر: ٣١] وليس الناس في الإيمان سواء ؛ من الناس من يؤمن بالغيب وكأنه يشاهده شهود عيان ، يؤمن بيوم القيامة وكأنه الآن في تلك الساعات ، يؤمن بالجنة وكأنها ماثلة أمامه ، يؤمن بالنار وكأنه يراها بعينه ، يؤمن إيماناً حقيقياً مطمئناً لا يخالطه شك .

ومن الناس من يكون مزعزع الإيمان - نسأل الله العافية - كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ [الحج: ١١] يعني على طرف ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ يعني إن لم يواجه أحدًا يشككه في الدين ، ولم يواجه إلا صلحاء يعينونه ﴿ أَطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ أي ركن إليه .

﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَلْقَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [الحج: ١١] إن أصابته فتنة في بدنه ، أو ماله ، أو أهله انقلب على وجهه واعترض على القضاء والقدر ، وتسخط وهلك - والعياذ بالله - ﴿ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وفي هذا حث عظيم على حسن الخلق ، حسن الخلق مع الله وحسن الخلق مع الناس .

أما حسن الخلق مع الله : فأن يرضى الإنسان بشريعته ، وينقاد إليها مسلماً راضياً ، مطمئناً بها ، سواء كان أمراً يأمر به ، أو نهياً ينهى عنه .

وأن يرضى الإنسان بقدر الله ﷻ ، ويكون الذي قدر الله عليه مما يسوءه كالذي قدر الله عليه مما يسره ، فيقول : يا رب كل شيء من عندك ، فأنا راض بك رباً ، إن أعطيتني ما يسرني شكرت ، وإن أصابني ما يسوءني صبرت ، فيرضى بالله ، قضاءً وقدرًا ، وأمرًا وشرعًا ؛ هذا حسن الخلق مع الله . أما حسن الخلق مع الناس : فظاهر ، فكف الأذى وبذل الندى ، والصبر عليهم وعلى أذاهم ، هذا من حسن الخلق مع الناس ؛ أن تعاملهم بهذه المعاملة تكف أذاك عنهم ، وتبذل نذاك . الندى يعني العطاء ، سواء كان مألًا أو جاهًا أو غير ذلك ، وكذلك تصبر على البلاء منهم ، فإذا كنت كذلك كنت أكمل الناس إيمانًا .

ثم قال النبي ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » ^(١) فخير الناس هو خيرهم لأهله ، لأن الأقربين أولى بالمعروف فإذا كان فيك خير فليكن أهلك هم أول المستفيدين من هذا الخير .

وهذا عكس ما يفعله بعض الناس اليوم ، تجده سئ الخلق مع أهله ، حسن الخلق مع غيرهم ، وهذا خطأ عظيم ؛ أهلك أحق بإحسان الخلق ؛ أحسن الخلق معهم ؛ لأنهم هم الذين معك ليلاً ونهارًا ، سرًا وعلاية ، إن أصابك شيء أصيبوا معك ، وإن سررت سرروا معك ، وإن حزنت حزنوا معك ، فلتكن معاملتك معهم خيرًا من معاملتك مع الأجانب ، فخير الناس خيرهم لأهله . نسأل الله أن يكمل لي وللمسلمين الإيمان ، وأن يجعلنا خير عباد الله في أهلينا ومن لهم حق علينا .

* * *

٢٧٩ - وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تضرُّوا إماء الله » فجاء عمر ؓ إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « ذِئْزَنُ النِّسَاءِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، فَرَحَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ ، فَأَطَافَ بِأَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونُ أَزْوَاجَهُنَّ ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ أَطَافَ بِأَلِ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونُ أَزْوَاجَهُنَّ ، لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ » ^(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح . قوله : « ذِئْزَنُ » هُوَ بَذَالٌ مُعْجَمَةٌ مَفْتُوحَةٌ ثُمَّ هَمْزَةٌ مَكْسُورَةٌ ثُمَّ رَاءٌ سَاكِنَةٌ ثُمَّ نُونٌ : أَي : اجْتَرَأَنَ ، قوله : « أَطَافَ » أَي : أَحَاطَ .

٢٨٠ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » ^(٣) رواه مسلم .

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥) ، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٤٦) - واللفظ له - ولكن بدون كلمة « بيت » بعد « آل » وابن ماجه في سننه في النكاح (١٩٨٥) قوله « بَالِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ » المقصود به هنا نساء النبي ﷺ . قوله « لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ » أَي الضاريون لأزواجهم . (٣) أخرجه مسلم في الرضاع (٦٤) .

الشرح

ذكر - رحمه الله تعالى - فيما نقله فيما يتعلق بأمر النساء ، أن النبي ﷺ قال : « لا تضربوا إماء الله » ، يريد بذلك النساء ، فيقال أمة الله كما يقال عبد الله ، ويقال إماء الله كما يقال عباد الله ، ومن ذلك الحديث الصحيح « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (١) .

نهاهم عن ضرب النساء ، فكفوا عن ذلك ؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا من الطراز الأول والجيل المفضل ، الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله قالوا سمعنا ، وأطعنا فكفوا عن ضرب النساء .

والنساء قاصرات عقل وناقصات دين . فلما نهى النبي ﷺ عن ضربهن ، اجترأن على أزواجهن ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله إن النساء ذئرن على أزواجهن ، يعني اجترأن وتعالين على الرجال ، فلما سمع النبي ﷺ ما قال عمر أجاز ضربهن ، فأفرط الرجال في ذلك وجعلوا يضربونهن حتى وإن لم يكن ذلك من حقهم ، فطافت النساء بآل النبي ﷺ ، أي ببيوته ، وجعلن يتجمعن حول بيوت النبي ﷺ يشكون أزواجهن .

فقال النبي ﷺ يخاطب الناس يخبرهم بأن هؤلاء الذين يضربون أزواجهن ليسوا بخيارهم ، أي ليسوا بخيار الرجال ، وهذا كقوله : « خيركم خيركم لأهله » فدل هذا على أن الإنسان يُفَرِّط ولا يُفَرِّط في ضرب أهله ؛ إن وجد سبباً يقتضي الضرب فلا بأس .

وقد بين الله ﷻ مراتب ذلك في كتابه فقال : ﴿ وَالَّذِي تَخَاوَنُ شَوْهَرَهُمْ فَعَوَّاهُمْ وَأَفْجَرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَأَضْرَبُوهُمْ ﴾ [النساء : ٣٤] المرتبة الثالثة : الضرب ، وإذا ضربوهن فليضربوهن ضرباً غير مبرح . ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » فقوله ﷺ : « الدنيا متاع » يعني شيء يتمتع به ، كما يتمتع المسافر بزماده ثم ينتهي ، وخير متاعها المرأة الصالحة ؛ إذا وفق الإنسان لامرأة صالحة في دينها وعقلها فهذا خير متاع الدنيا ؛ لأنها تحفظه في سره وماله وولده .

وإذا كانت صالحة في العقل أيضاً ، فإنها تدبر له التدبير الحسن في بيته وفي تربية أولادها ، إن نظر إليها سرته ، وإن غاب عنها حفظته ، وإن وكل إليها أمره لم تخنه ، فهذه المرأة هي خير متاع الدنيا . ولهذا قال النبي ﷺ : « تنكح المرأة لأربع ؛ لمالها وحسبها وجمالها ودينها ، فافظر بذات الدين تربت يداك » (٢) ، يعني عليك بها ، فإنها خير من يتزوجه الإنسان ؛ فذات الدين وإن كانت غير جميلة الصورة ، لكن يجملها خلقها ودينها ، فافظر بذات الدين تربت يداك .

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠) ، ومسلم في الصلاة (١٣٦) ، وأحمد في مسنده (٣٦ ، ١٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - مع إضافة « اللام » إلى كلمة : « وحسبها ، ودينها » قوله « تربت يداك » هذه الكلمة جارية على ألسنة العرب يريدون بها الدعاء على المخاطب والمراد بها الحث والتحريض .

٣٥ - باب حق الزوج على المرأة

قال الله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْمُتَلَحِّثُ قَتِينَتْ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ ^(١) [النساء : ٣٤] .

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ : فَمِنْهَا حَدِيثُ عُمَرُو بْنِ الْأَخْوَصِ السَّابِقِ فِي الْبَابِ قَبْلَهُ .

٢٨١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانًا عَلَيْهَا لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُضْبِعَ » ^(٢) متفق عليه .

وفي رواية لهما : « إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُضْبِعَ » ^(٣) .

وفي رواية قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْتِي عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاحِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا » ^(٤) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب حق الزوج على المرأة . لما ذكر ﷺ حقوق الزوجة على زوجها ، ذكر حقوق الزوج على زوجته ، ثم استدل بقول الله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْمُتَلَحِّثُ قَتِينَتْ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ : يعني أن الرجل هو القيم الذي له الأمر على المرأة ، يديرها ويوجهها ويأمرها فطبيع ، إلا إذا أمرها بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة ؛ لأنه لا طاعة لخلق في معصية ^(٥) الخالق مهما كان هذا المخلوق .

وفي هذا : دليل على سفه أولئك الكفار من الغريبيين وغير الغريبيين ، الذين صاروا أذناناً للغرب يقدسون المرأة أكثر من تقديس الرجل ؛ لأنهم يتبعون أولئك الأراذل من الكفار الذين لم يعرفوا لصاحب الفضل فضله ، فتجدهم مثلاً في مخاطباتهم يقدمون المرأة على الرجل فيقول أحدهم : أيها السيدات والسادة ، وتجد المرأة في المكان الأعلى عندهم والرجل دونها .

(١) قوله : ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي سبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات . قوله ﴿ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ ﴾ أي للسر أو للطفل الذي هو من الرجل في أرحامهن .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٧) ، ومسلم - واللفظ له - في النكاح (١٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٩٤) ، ومسلم - واللفظ له - في النكاح (١٢٠) .

(٤) هذه رواية لمسلم مع اختلاف لفظ : فراشه إلى فراشها وقد أخرجه مسلم في النكاح (١٢١) .

(٥) هذا حديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧٧/٢) .

ولكن هذا ليس بغريب على قوم يقدسون كلاهم ، حتى إنهم يشترون الكلب بالآلاف ويخصصون له من الصابون وآلات التطهير وغير ذلك ما يضحك السفهاء فضلاً عن العقلاء ، مع أن الكلب نجس العين ، لا يطهر أبداً .

فالحاصل أن الرجال هم القوامون على النساء ﴿يَمَّا فَصَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وهذا وجه آخر للقوامة على النساء ، وهو أن الرجل هو الذي ينفق على المرأة ، وهو المطالب بذلك ، وهو صاحب البيت ، وليست المرأة هي التي تنفق .

وهذا إشارة إلى أن أصحاب الكسب الذين يكسبون ويعملون هم الرجال ، أما المرأة فصناعتها بيتها ، تبقى في بيتها تصلح أحوال زوجها ، وأحوال أولادها ، وأحوال البيت ، هذه وظيفتها ، أما أن تشارك الرجال بالكسب وطلب الرزق ثم بالتالي تكون هي المنفقة عليه ؛ فهذا خلاف الفطرة وخلاف الشريعة ، فالله تعالى يقول : ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فصاحب الإنفاق هو الرجل .

قال تعالى : ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ يَمَّا حَفَظَ اللَّهُ﴾ فالصالحات قانتات أي : مديمات للطاعة ، الصالحة قننت ليس معناها : الدعاء بالقنوت ، بل القنوت دوام الطاعة كما قال تعالى : ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ [البقرة : ٢٣٨] أي مديمين لطاعته ﴿قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ يَمَّا حَفَظَ اللَّهُ﴾ يعني يحفظن سر الرجل وغيبه وما يكون داخل جدرانه من الأمور الخاصة ، وتحفظه بما حفظ الله ، أي بما أمر الله تعالى بحفظه فهذه هي الصالحة ، فعليك بالمرأة الصالحة ؛ لأنها خير لك من امرأة جميلة ليست بصالحة .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

ولعن الملائكة يعني أنها تدعو على هذه المرأة باللعنة ، واللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، فإذا دعاها إلى فراشه ليستمتع بها بما أذن الله له فيه فأبت أن تجيء ، فإنها تلعن الملائكة - والعياذ بالله - أي تدعو عليها باللعنة إلى أن تصبح .

واللفظ الثاني : أنها إذا هجرت فراش زوجها ، فإن الله تعالى يغضب عليها حتى يرضى عنها الزوج ، وهذا أشد من الأول ؛ لأن الله ﷻ إذا سخط فإن سخطه أعظم من لعنة الإنسان ، نسأل الله العافية .

ودليل ذلك : أن الله تعالى ذكر في آية اللعان أنه إذا لعن الرجل يقول : ﴿أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [النور : ٧] وهي إذا لاعت تقول : ﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور : ٩] وهذا يدل على أن الغضب أشد .

وأيضاً قال في الحديث : « إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها » أي الزوج ، وهناك قال : « حتى تصبح » ، أما هنا فعلقه برضى الزوج ، وهذا قد يكون أقل ، وقد يكون أكثر

يعني ربما يرضى الزوج عنها قبل طلوع الفجر وربما لا يرضى إلا بعد يومٍ أو يومين ، المهم مادام الزوج ساخطاً عليها فالله ﷻ ساخطٌ عليها .

وفي هذا : دليل على عظم حق الزوج على زوجته ، ولكن هذا في حق الزوج القائم بحق الزوجة ، أما إذا نشز ولم يقيم بحقها ، فلها الحق أن تقتص منه وألا تعطيه حقه كاملاً ، لقول الله تعالى : ﴿ الْقَتْلُ الْكَرَامَ وَالنَّهْرَ الْكَرَامَ وَالْمَوْتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، ولقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

لكن إذا كان الزوج مستقيماً قائماً بحقها فنشزت هي وضيعت حقه فهذا جزاؤها إذا دعاها إلى فراشه فأبت أن تأتي .

والحاصل : أن هذه الألفاظ التي وردت في هذا الحديث هي مطلقة ، لكنها مقيدة بكونه قائماً بحقها ، أما إذا لم يقيم بحقها فلها أن تقتص منه وأن تمنعه من حقه مثل ما منعها من حقها ، لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ ، قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ .

وفي هذا الحديث : دليل صريح لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة من أن الله ﷻ في السماء هو نفسه جل وعلا ، فوق عرشه ، فوق سبع سموات ، وليس المراد بقوله في السماء في ملكه في السماء ، بل هذا تحريف للكلم في مواضعه .

وتحريف الكلم عن مواضعه من صفات اليهود - والعياذ بالله - الذين حرفوا التوراة عن مواضعها ، وعما أراد الله بها ، فإن ملك الله ﷻ في السماء وفي الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٨٩] ، وقال أيضاً : ﴿ قُلْ مَنْ يَبْدَأُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وقال أيضاً : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ١٢] .

كل السموات والأرض بيد الله ﷻ ، كلها ملك الله ، ولكن المراد أنه هو نفسه ﷻ فوق سماواته على العرش استوى ، ولذلك نجد أن المسألة فطرية لا تحتاج إلى دراسة وتعب حتى يقر الإنسان أن الله في السماء ، بمجرد الفطرة يرفع الإنسان يديه إلى ربه إذا دعا ويتوجه قلبه إلى السماء ، واليد ترفع أيضاً نحو السماء .

بل حتى البهائم ترفع إلى السماء ، حدثني أحد الأساتذة في الجماعة عندنا عن شخص اتصل عليه من القاهرة إبان الزلزلة التي أصابت مصر يقول : إنه قبل الزلزلة بدقائق ، هاجت الحيوانات في مقرها الذي يسمونه : « حديقة الحيوانات » هاجت هياجاً عظيماً ثم بدأت ترفع رأسها إلى السماء ، سبحان الله ، بهائم تعرف أن الله في السماء ، وأوادم من بني آدم ينكرون أن الله في السماء والعياذ بالله ، فالبهائم تدري وتعرف .

نحن نشاهد بعض الحشرات إذا طردتها أو أذيتها وقفت ثم رفعت قوائمها إلى السماء ، نشاهدها

مشاهدة ، فهذا يدل على أن كون الله ﷻ في السماء أمر فطري لا يحتاج إلى دليل أو تعب أو عنت ، حتى الذين ينكرون أن الله في السماء - نسأل الله لنا ولهم الهداية - لو جاءوا يدعون أين يرفعون أيديهم ؟ .. إلى السماء ، فسبحان الله ! أفعالهم تكذب عقيدتهم ، هذه العقيدة الباطلة الفاسدة التي يخشى عليهم من الكفر بها .

وهذه جارية ، أمة مملوكة في عهد النبي ﷺ ، أراد سيدها أن يعتقها ، فقال له النبي ﷺ : « ادعها » ، فجاءت الجارية ، فقال لها النبي ﷺ : « أين الله ؟ » قالت : الله في السماء . قال : « من أنا » قالت : أنت رسول الله قال لسيدها : « اعتقها فإنها مؤمنة » (١) .

وسبحان الله ، إن هؤلاء الذين يعتقدون أن الله ليس في السماء ، يقولون من قال إن الله في السماء فهو كافر والعياذ بالله نسأل الله لنا ولهم الهداية .

المهم : أن من عقيدتنا التي ندين الله بها أن الله ﷻ فوق كل شيء وهو القاهر فوق عباده ، وأنه على العرش استوى ، وأن العرش على السموات مثل القبة ، كأنه قبة أي خيمة مضروبة على السموات والأرض ، والسموات والأرض بالنسبة للعرش ليست بشيء .

وجاء في بعض الآثار : أن السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض ، حلقة الدرع حلقة ضيقة ما يدخل فيها مفتاح ، إذا ألقيت في فلاة من الأرض ماذا تشغل من مساحة هذه الفلاة ؟ لا شيء .

قال : « وإن فضل العرش على الكرسي ، كفضل الفلاة على هذه الحلقة » (٢) ، إذا الله أكبر من كل شيء ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ يعني : أحاط بها بما بالك بالرب ﷻ . فالرب ﷻ فوق كل شيء ، هذه عقيدتنا التي نسأل الله تعالى أن نموت عليها ونبعث عليها ، هذه العقيدة التي يعتقدها أهل السنة والجماعة بالاتفاق .

* * *

٢٨٢ - وعن أبي هريرة ؓ أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » (٣) متفقٌ عليه . وهذا لفظ البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ؓ : إن النبي ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » .

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) .

(٢) هذا الأثر ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٠٩) تحت عنوان : من عظمة العرش والكرسي .

(٣) أخرجه البخاري - واللفظ له - مع اختلاف كلمة « لامرأة » إلى « للمرأة » في النكاح (٥١٩٥) ، ومسلم في الزكاة (٨٤) .

هذا من حقوق الزوج على زوجته ، أنه لا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه مادام حاضراً في البلد ، أما إذا كان غائباً فلها أن تصوم ما شاءت ، لكن إذا كان في البلد فلا تصوم .

وظاهر الحديث أنها لا تصوم فرضاً ولا نفلاً إلا بإذنه ، أما النفل فواضح أنها لا تصوم إلا بإذنه ؛ لأن حق الزوج عليها واجب والنفل تطوع لا تأثم بتركه ، وحق الزوج تأثم بتركه ، وذلك أن الزوج ربما يحتاج إلى أن يستمتع بها ، فإذا كانت صائمة وأراد الاستمتاع بها صار في نفسه حرج ، وإلا فله أن يستمتع بها ويجماعها وهي صائمة صوم تطوع إذا لم يأذن فيه من قبل ولو أفسد صومها ولا إثم عليه .

لكن من المعلوم أنه سيكون في نفسه حرج ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه » .

أما صيام الفرض فإن كان قد بقي من السنة مدة أكثر مما يجب عليها ، فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذن زوجها إذا كان شاهداً ، يعني مثلاً عليها عشرة أيام من رمضان ، وهي الآن في رجب ، وقالت : أريد أن أصوم القضاء ، نقول : لا تصومي القضاء إلا بإذن الزوج ؛ لأن معك سعة من الوقت ، أما إذا كان بقي من شعبان عشرة أيام فلها أن تصوم وإن لم يأذن ؛ لأنه لا يحل للإنسان الذي عليه قضاء من رمضان أن يؤخره إلى رمضان الثاني ، وحيثئذ تكون فاعلة لشيء واجب فرض في الدين ، وهذا لا يشترط فيه إذن الزوج ولا غيره .

فصوم المرأة فيه تفصيل : أما التطوع فلا يجوز إلا بإذن الزوج ، وأما الفرض فإن كان الوقت متسعاً ، فإنه لا يجوز إلا بإذن الزوج ، وإن كان لا يسع إلا مقدار ما عليها من الصوم ، فإنه لا يشترط إذن الزوج ، هذا إذا كان حاضراً ، أما إذا كان غائباً فلها أن تصوم .

وهل مثل ذلك الصلاة ؟ يحتمل أن تكون الصلاة مثل الصوم ، وأنها لا تتطوع في الصلاة إلا بإذنه ، ويحتمل أن لا تكون مثل الصوم ؛ لأن وقت الصلاة قصير بخلاف الصوم ، الصوم كل النهار ، والصلاة ليست كذلك ، الصلاة ركعتان إذا كانت تطوعاً ، والفريضة معروف أنه لا يشترط إذنه .

والظاهر : أن الصلاة ليست كالصوم ، فلها أن تصلي ولو كان زوجها حاضراً ، إلا أن يمنعها فيقول : أنا محتاج إلى استمتاع ، لا تصلين الضحى مثلاً ، لا تهجدين الليلة .

على أنه لا يجوز للزوج أن يحرم زوجته الخير ، إلا إذا كان هناك حاجة بأن غلبت عليه الشهوة ، ولا يتمكن من الصبر ، وإلا فعليه أن يكون عوناً لها على طاعة الله ، وعلى فعل الخير ؛ لأنه يكون مأجوراً بذلك كما أنها مأجورة أيضاً على الخير .

وأما إدخال أحد بيته بغير إذنه فظاهر . فلا يجوز أن تدخل أحدًا بيته إلا بإذنه ، لكن الإذن في إدخال البيت نوعان :

الإذن الأول : إذن العرف : يعني جرى به العرف مثل دخول امرأة الجيران والقرابات والصاحبات والزميلات وما أشبه ذلك ، هذا جرى العرف به ، وأن الزوج يأذن به ، فلها أن تدخل هؤلاء إلا إذا

منع وقال : لا تدخل عليك فلانة ، فهنا يجب المنع ، ويجب أن لا تدخل .
والإذن الثاني : إذن لفظي ، بأن يقول لها : أدخلي من شئت ولا حرج عليك إلا من رأيت منه
مضرة فلا تدخله ، فيتقيد الأمر بإذنه .

وفي هذا : دليل على أن الزوج يتحكم في بيته أن يمنع حتى أم الزوجة إذا شاء أن يمنعها ، وحتى
أختها وخالتها وعمتها ، لكنه لا يمنعها من هؤلاء إلا إذا كان هناك ضرر عليه وعلى بيته ؛ لأن بعض
النساء - والعياذ بالله - لا يكون فيها خير ، تكون ضرراً على ابنتها وزوجها ، تأتي إلى ابنتها وتحقنها
من العداوة والبغضاء بينها وبين الزوج ، حتى تكره زوجها ، ومثل هذه الأم لا ينبغي أن تترك مع ابنتها
لأنها تفسدها على زوجها ، فهي كالسحرة الذين يتعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه .

* * *

٢٨٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ،
وَالْأُمِيرُ رَاعٍ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ ؛ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى نَيْبِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ،
وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » ^(١) متفق عليه .

٢٨٤ - وعن أبي علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ
لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الثُّور » ^(٢) رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن
صحيح .

٢٨٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ
الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٢٨٦ - وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَمَّا امْرَأَةٌ مَاتَتْ ، وَزَوْجُهَا عَنْهَا
رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إن النبي ﷺ قال :
« كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته » .

الخطاب للأمة جميعاً يبين فيه الرسول ﷺ أن كل إنسان راع ومسؤول عن رعيته . والراعي هو

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٣) - بألفاظ مختلفة - ، ومسلم كذلك في الإمارة (٢٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٠) ، وابن حبان (١٢٩٥) قوله « لحاجته » أي : لما يريده الرجل من زوجته
من أمور زوجية ، قوله « الثُّور » : الثور الذي يخبز فيه .

(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٥٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦١) ، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٤) .

الذي يقوم على الشيء ويرعى مصالحه فيهيئها له ، ويرعى مفسده فيجنيه إياها ، كراعي الغنم ينظر ويبحث عن المكان المربع ^(١) حتى يذهب بالغنم إليه ، وينظر في المكان المجدب فلا يتركها في هذا المكان .

هكذا بنوا آدم كل إنسان راع ، وكل مسؤول عن رعيته ، فالأمير راع ومسؤول عن رعيته . والأمرء يختلفون في نفوذهم وفي مناطق أعمالهم ، قد يكون هذا الأمير أميراً على قرية صغيرة ، فتكون مسؤوليته صغيرة ، وقد يكون أميراً على مدينة كبيرة فتكون مسؤوليته كبيرة ، وقد يكون مسؤولاً عن أمة كالأمير الذي ليس فوقه أمير في منطقته ، كالملك مثلاً هنا ، وكالرؤساء في البلاد الأخرى ، وكأمرء المؤمنين في عهد عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وكالخلفاء في زمن بني أمية وبني العباس وغيرهم .

المهم أن الرعاية تتنوع رعايتهم أو تتنوع رعايتهم ما بين مسؤولية كبيرة واسعة ، ومسؤولية صغيرة ، ولهذا قال : « الأمير راع » يعني هو مسؤول عن رعيته ، الرجل راع لكن رعيته محصورة ؛ هو راع في أهل بيته ، في زوجته ، في ابنه ، في بنته ، في أخته ، في عمته ، في خالته ، كل من في بيته ، وهو راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته ، يجب عليه أن يرعاهم أحسن رعاية ؛ لأنه مسؤول عنهم .

كذلك المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته ، يجب عليها أن تنصح في البيت ، في الطبخ ، في القهوة ، في الشاي ، في الفرش ، لا تطبخ أكثر من اللازم ، ولا تسوي الشاي أكثر مما يحتاج إليه ؛ يجب عليها أن تكون امرأة مقتصة ؛ فإن الاقتصاد نصف المعيشة ، غير مفرطة فيما ينبغي .

مسؤولة أيضاً عن أولادها في إصلاحهم وإصلاح أحوالهم وشؤونهم ، كإلباسهم الثياب ، وخلعهم الثياب غير النظيفة ، وتغيير فراشهم الذي ينامون عليه ، وتغطيتهم في الشتاء وهكذا مسؤولة عن كل هذا ، مسؤولة عن الطبخ وإحسانه ونضجه ، وهكذا مسؤولة عن كل ما في البيت .

كذلك العبد مسؤول وراع في مال سيده ، ومسؤول عن رعيته ، يجب عليه أن يحفظ مال سيده ، وأن يتصرف فيه بما هو أحسن ، وألا يفرط فيه ، وألا يتعدى الحدود وهكذا ، فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته .

أما بقية الأحاديث التي ساقها المؤلف ؛ فكلها أحاديث تحتاج إلى نظر في صحتها ، لكن مجمل ما تدل عليه عظم حق الزوج على زوجته ، وأن حق الزوج على زوجته عظيم ، يجب عليها أن تقوم به ، كما يجب عليه أن يقوم بحقوقها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] وهذا من المساواة والعدل في الحقوق والواجبات التي تمتاز به شريعتنا الإسلامية .

* * *

٢٨٧ - وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحَوْرِ الْعَيْنِ : لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ ! فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ ذَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٢٨٨ - وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في نقله عن أسامة بن زيد رضي الله عنه : إن النبي ﷺ قال : « ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء » .

والمعنى أن النبي ﷺ يخبر بأنه ما ترك فتنة أضر على الرجال من النساء ، وذلك أن الناس كما قال الله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَنْثَى وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرَرِ ﴾ ^(٣) [آل عمران: ١٤] .

كل هذه مما زين للناس في دنياهم ، وصار سبباً لفتنتهم فيها ، لكن أشدها فتنة النساء ، ولهذا بدأ الله بها ، فقال : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ .
وإخبار النبي ﷺ بذلك يريد به الحذر من فتنة النساء ، وأن يكون الناس منها على حذر ؛ لأن الإنسان بشر إذا عرضت عليه الفتن ، فإنه يخشى عليه منها .

ويستفاد منه ؛ سد كل طريق يوجب الفتنة بالمرأة ، فكل طريق يوجب الفتنة بالمرأة فإن الواجب على المسلمين سده ، ولذلك وجب على المرأة أن تحتجب عن الرجال الأجانب ، فتغطي وجهها ، وكذلك تغطي يديها ورجليها عند كثير من أهل العلم ، ويجب عليها كذلك أن تبتعد عن الاختلاط بالرجال ؛ لأن الاختلاط بالرجال فتنة وسبب للشر من الجانبيين ، من جانب الرجال ومن جانب النساء .

ولهذا قال النبي ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » ^(٤) وما ذلك إلا من أجل بعد المرأة عن الرجال ، فكلما بعدت فهو خير وأفضل .

وقد كان النبي ﷺ يأمر النساء أن يخرجن إلى صلاة العيد ، ولكنهن لا يختلطن مع الرجال ، بل يكون لهن موضع خاص ، حتى إن النبي ﷺ كان إذا خطب الرجال وانتهى من خطبتهم ، نزل

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٧٤) ، وابن ماجه في سننه في النكاح (٢٠١٤) ، وفيه (أوشك) . قوله « ذخيل » أي : ضيف ونزيل ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ، ومسلم - واللفظ له - في الذكر والدعاء (٩٧) ، قوله « فتنة » أي : محنة وابتلاء .

(٣) قوله ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ ﴾ جمع قطار (المال الكثير) ، قوله ﴿ الْمُقَنْطَرَةِ ﴾ المضاعفة ، قوله ﴿ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ المعلقة .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٢) ، وأبو داود في الصلاة (٦٧٨) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٤) .

فذهب إلى النساء فوعظهن وذكرهن ، وهذا يدل على أن النساء كنَّ في مكان منعزل عن الرجال .
 وكان هذا والعصر عصر قوة في الدين وبعد عن الفواحش ، فكيف بعصرنا هذا ؟
 فإن الواجب توقي فتنة النساء بكل ما يستطيع ، ولا ينبغي أن يغرن ما يدعو إليه أهل الشر والفساد
 من المقلدين للكفار ، من الدعوة إلى اختلاط المرأة بالرجال ؛ فإن ذلك من وحي الشيطان والعياذ بالله ،
 هو الذي يزين ذلك في قلوبهم ، وإلا فلا شك أن الأم التي كانت تقدم النساء وتجعلن مع الرجال
 مختلطات ، لاشك أنها اليوم في ويلات عظيمة من هذا الأمر ، يتمنون الخلاص منه فلا يستطيعون .
 ولكن - مع الأسف - فإن بعض الناس منا ومن أبنائنا ومن أبناء جلدتنا يدعون إلى التحلل من
 مكارم الأخلاق ، وإلى جلب الفتن إلى بلادنا ، عن طريق التوسع في خروج المرأة ، واختلاطها
 بالرجال ، ومحاولة توظيفهم مع الرجال جنباً إلى جنب ، نسأل الله تعالى أن يعصمنا والمسلمين من
 الشر والفتن إنه جواد كريم .

* * *

٣٦ - باب النفقة على العيال

قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] وقال تعالى : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق : ٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ ^(١) [سبا : ٣٩] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب النفقة على العيال .

العيال : هم الذين يعولهم الإنسان من زوجة أو قريب أو مملوك ، وقد سبق الكلام على حقوق الزوجة ، أما الأقارب فلهم حق ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء : ٣٦] .

فالقريب له حق في أن ينفق عليه ، يعني أن تبذل له من الطعام والشراب والكسوة والسكنى ما يقوم بكفائته ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ المولود له هو الأب ، عليه أن ينفق على أولاده وعلى زوجاته ، وعلى من أرضعت ولده ولو كانت في غير حباله ؛ لأنه قال : ﴿ وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ من أجل الإرضاع ، أما إذا كانت في حباله فلها النفقة من أجل الزوجية .

(١) قوله ﴿ ذُو سَعَةٍ ﴾ أي : صاحب مال . قوله ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي : ضيق عليه .

وقوله : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ يشمل الأب الأدنى والأب الأعلى ، كالجدة ومن فوقه ، فعليه أن ينفق على أولاد أولاده ، وإن نزلوا .

لكن يشترط لذلك شروط :

الشرط الأول : أن يكون المنفق قادراً على الإنفاق ، فإن كان عاجزاً فإنه لا يجب عليه الإنفاق ، لقوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيَّتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْرِهْ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَاهَا ﴾ أي إلا ما أعطاهها ، ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] .

الشرط الثاني : أن يكون المنفق عليه عاجزاً عن الإنفاق على نفسه ، فإن كان قادراً على الإنفاق على نفسه فنفسه أولى ، ولا يجب على أحد أن ينفق عليه ؛ لأنه مستغن ، وإذا كان مستغنياً ، فإنه لا يستحق أن ينفق عليه .

الشرط الثالث : أن يكون المنفق وارثاً للمنفق عليه لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، فإن كان قريباً لا يرث ، فإنه لا يجب عليه الإنفاق .

فإذا تمت الشروط الثلاثة ؛ فإنه يجب على القريب أن ينفق على قريبه ما يحتاج إليه ؛ من طعام ، وشراب ، ولباس ، ومسكن ، ونكاح ، وإن كان قادراً على بعض الشيء دون بعض ، وجب على القريب الوارث أن يكمل ما نقص لعموم قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ .

ثم ذكر المؤلف ثلاث آيات ، الآية الأولى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ، والآية الثانية : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيَّتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ ﴾ ، والآية الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

فقوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ أي شيء قد أنفقتموه لله ﷻ ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي يعطيكم خلفه وبدله وهو خير الرازقين .

* * *

٢٨٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دِينَارٌ أَنْفَقْتُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتُهُ فِي رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتُهُ عَلَى أَهْلِكَ ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتُهُ عَلَى أَهْلِكَ » ^(١) رواه مسلم .

٢٩٠ - وعن أبي عبد الله - ويقال له : أبو عبد الرحمن - ثوبان بن بُجْدُد مَوْلَى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ : دِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى ذَاتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٢) رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٣٩) قوله « أنفقته في رقة » أي : في تحرير رقة من الرق .

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - في الزكاة (٣٨) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٠) بلفظ « دينار ينفق على فرس » ، قوله « على عياله » أي من يعوله ويلزمه مؤنته من نحو زوجة وخدام وولد .

٢٩١ - وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ لِي أَجْرٌ فِي بَنِي أَبِي سَلَمَةَ أَنْ أَتُنْفِقَ عَلَيْهِمْ ، وَلَسْتُ بِتَارِكِهِمْ هَكَذَا وَهَكَذَا ؛ إِنَّمَا هُمْ بَنِي ؟ فَقَالَ : « نَعَمْ لَكَ أَجْرٌ مَا أَتُنْفِقُ عَلَيْهِمْ » ^(١) متفقٌ عليه .

٢٩٢ - وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ فِي بَابِ النِّيَّةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ : « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَزْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ » ^(٢) متفقٌ عليه .

٢٩٣ - وعن أَبِي مَسْعُودٍ الْبَذَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ » ^(٣) متفقٌ عليه .

٢٩٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ » حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ .

ورواه مسلم في صحيحه بِمَعْنَاهُ قَالَ : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَخْشِيَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُ » ^(٤) .

٢٩٥ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُضْبَحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّقًا خَلْفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَغْطِ مُمِسِكًا تَلَفًا » ^(٥) متفقٌ عليه .

٢٩٦ - وعنه عن النبي ﷺ قَالَ : « الْيَدُ الْعَالِيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وَإِذَا بَعَثَ تَعُولُ ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غَنَى ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ » ^(٦) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في النفقات (٥٣٦٩) ، ومسلم في الزكاة (٤٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٣/٦) قوله « هكذا وهكذا » أي يتفرون لطلب القوت ميمًا وشمالًا .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الجنائز (١٢٩٥) ، ومسلم في الوصية (٥) ، قوله « في في امرأتك » أي : في نفسها .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٥) ، ومسلم في الزكاة (٤٨) ، قوله « يحتسبها » أي : يقصد بها وجه الله والتقرب إليه .

(٤) أخرجه أبو داود - واللفظ له - في الزكاة (١٦٩٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٠/٢) ، قوله « يضيع من يقوت » أي : يمنع من تلزمه نفقته من زوجة ، وولد يعطي غيرهم ولو صدقة .

(٥) هذه رواية مسلم في الزكاة (٤٠) .

(٦) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم في الزكاة (٥٧) ، قوله « أعط متفقًا خلفًا » الإنفاق هنا في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال .. وغير ذلك مما لا يسمى سرفًا ، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا .

(٧) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٧) ، قوله « اليد العليا » أي : اليد المنفقة ، قوله « عن ظهر غنى » أي : أفضلها ما وقع عن عدم احتياجه إلى المتصدق به لنفسه وأهله وعياله ، قوله « ومن يستعفف » أي : عن السؤال وعن المال الحرام ، قوله « يعفه الله » أي : بالغنى أو بقناعة النفس .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف في باب النفقة على الأهل ، كلها تدل على فضيلة الإنفاق على الأهل ، وأنه أفضل من الإنفاق في سبيل الله ، وأفضل من الإنفاق في الرقاب ، وأفضل من الإنفاق على المساكين ؛ وذلك لأن الأهل ممن أزمك الله بهم ، وأوجب عليك نفقتهم ، فالإنفاق عليهم فرض عين ، والإنفاق على من سواهم فرض كفاية ، وفرض العين أفضل من فرض الكفاية .

وقد يكون الإنفاق على من سواهم على وجه التطوع ، والفرض أفضل من التطوع ، لقول الله تعالى في الحديث القدسي : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه » (١) .

لكن الشيطان يرغب الإنسان في التطوع ويزهده في الواجب ، فتجده مثلاً يحرص على الصدقة ويدع الواجب ، يتصدق على مسكين أو ما أشبه ذلك ويدع الواجب لأهله ، يتصدق على مسكين أو نحوه ويدع الواجب لنفسه ، كقضاء الدين مثلاً ، تجده مديناً يطالبه صاحب الدين بدينه وهو لا يوفي ، ويذهب يتصدق على المساكين وربما يذهب للعمرة أو لحج التطوع وما أشبه ذلك ويدع الواجب ، وهذا خلاف الشرع وخلاف الحكمة ، فهو سفه في العقل وضلال في الشرع .

والواجب على المسلم أن يبدأ بالواجب الذي هو محتتم عليه ، ثم بعد ذلك ما أراد من التطوع بشرط ألا تكون مسرفاً ولا مقتراً ، فتخرج عن سبيل الاعتدال لقول الله تعالى في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] يعني لا إقتار ولا إسراف ، بل قواماً ، ولم يقل بين ذلك فقط ، بل : بين ذلك قواماً ، قد يكون الأفضل أن تزيد أو تنقص أو بين ذلك بالوسط .

على كل حال هذه الأحاديث كلها تدل على أنه يجب على الإنسان أن ينفق على من عليه نفقته ، وأن إنفاقه على من عليه نفقته أفضل من الإنفاق على الغير .

وفي هذه الأحاديث : أيضاً التهديد والوعيد على من ضيع عمن يملك قوته ، وهو شامل للإنسان وغير الإنسان ، فالإنسان يملك الأرقه مثلاً ، ويملك المواشي من إبل وبقر وغنم فهو آثم إذا ضيع من يلزمه قوته من آدميين أو غير آدميين ، « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم » ، واللفظ الثاني في غير مسلم : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » ، وفي هذا : دليل على وجوب رعاية من أزمك الله بالإنفاق عليه .

* * *

٣٧ - باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد

قال الله تعالى : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ [آل عمران : ٩٢] وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ (١)
[البقرة : ٢٦٧] .

٢٩٧ - عن أنس رضي الله عنه قال : كَانَ أَبُو طَلْحَةَ ؓ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرِخَاءُ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٌ ، قَالَ أَنَسٌ : فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْكَ : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرِخَاءُ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « بَخ ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِخٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِخٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإِنِّي أَرَى أَنَّ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ » فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ ، وَبَنِي عَمِّهِ (٢) . متفقٌ عليه .

قوله ﷺ : « مَالٌ رَابِخٌ » رُوي في الصحيحين « رَابِخٌ » و « رَابِخٌ » بالباء الموحدة وبالياء المشددة ، أي : رَابِخٌ عَلَيْكَ نَفْعُهُ ، و « بَيْرِخَاءُ » حَديقَةُ نَخْلٍ ، وروي بكسر الباءِ وَفَتْحِهَا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد .

لما ذكر ﷺ وجوب الإنفاق على الزوجة وعلى الأقارب ، ذكر أنه ينبغي للإنسان أن يكون ذا همة عالية ، وأن ينفق من أطيب ماله وما يحب من ماله ، وهناك فرق بين الأطيب وبين الذي يحب ، الغالب أن الإنسان لا يحب إلا أطيب ماله ، لكن أحياناً يتعلق قلبه بشيء من ماله وليس أطيب ماله فإذا أنفق من الطيب الذي هو محبوب لعامة الناس وما يحبه هو بنفسه وإن لم يكن من الطيب ، كان ذلك دليلاً على أنه صادق فيما عامل الله به .

ولهذا سميت الصدقة صدقة لدالاتها على صدق باذليها ، فالإنسان ينبغي له أن ينفق من أطيب ماله ، وينبغي له أن ينفق مما يحب ، حتى يصدق في تقديم ما يحبه الله ﷻ على ما تهواه نفسه .

(١) قوله ﴿ طَيِّبَاتٍ ﴾ حلال أو خيار ما تحبون . قوله ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا ﴾ لا تقصدوا .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الزكاة (١٤٦١) ، ومسلم في الزكاة (٤٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٤١/٣) ، قوله « بَخ ! » يأسكان الخاء وتوينها مكسورة معناه تعظيم الأمر وتفخيمه ، قوله « برها وذخرها » أي لا أريد ثمرتها الدنيوية العاجلة الفانية ، وإنما أطلب مثوبتها الأخروية الآجلة الباقية .

ثم استدلل المؤلف - رحمه الله تعالى - بآيتين من كتاب الله ، فقال : قال الله تعالى : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ ﴾ البر يعني : الخير الكثير ، ومنه سمي البر للخلاء الواسع ، فالبر هو الخير الكثير ، يعني لن تنال الخير ولن تنال رتبة الأبرار حتى تنفق مما تحب .

والمال كله محبوب لكن بعضه أشد محبة من بعض ، فإذا أنفقت مما تحب كان ذلك دليلاً على أنك صادق ، ثم نلت بذلك مرتبة الأبرار .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِيَازِيزٍ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] الحَيْث من كل شيء بحسبه ، فالحيث من المال يطلق على الرديء ، ويطلق على الكسب الرديء ، ويطلق على الحرام .

فمن إطلاقه على الرديء قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِيَازِيزٍ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ ﴾ هذا بقية الآية التي أولها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْزَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ والخارج من الأرض منه الطيب ومنه الرديء ، قال : ﴿ وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيْثَ ﴾ أي : لا تقصدوا الحَيْث وهو الرديء تنفقون فيه ﴿ وَلَسْتُمْ بِيَازِيزٍ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ ﴾ يعني : لو كان الحق لكم ما أخذتم الرديء إلا على إغماض وعلى كره ، فكيف ترضون لغيركم أن تعطوه الرديء وأنتم تأبون أن تأخذوه ؟!

وهذا من باب الاستدلال على الإنسان بما يُقر به ويعترف به ؛ لأنه لا يرضى أن يأخذ الرديء بدلاً من الطيب فكيف يرضى أن يعطي الرديء بدلاً من الطيب ؟!

فالحيث بمعنى الرديء ، ومن ذلك أيضاً تسمية النبي ﷺ البصل والكراث الشجرة الحبيثة ^(١) ؛ لأنها رديئة منتنة كريهة ، حتى إن الإنسان إذا أكل منها ، وبقيت رائحتها في فمه فإنه يحرم عليه أن يدخل المسجد ، لا للصلاة ولا لغير الصلاة ؛ لأن المسجد معمور بالملائكة فإذا دخل المسجد آذى الملائكة ، والملائكة طيبون ، والطيبون للطيبات ، تكره الحباث من الأعمال والأعيان ، فإذا دخلت المسجد وأنت ذو رائحة كريهة آذيت الملائكة .

وكان الرجل في عهد الرسول ﷺ إذا دخل المسجد وقد أكل كراثاً أو بصلاً طردوه طرداً إلى البقيع ، والبقيع تعرفون المسافة بينه وبين المسجد النبوي وأنها بعيدة ، يطرد إلى البقيع ولا يقرب المسجد .

وللأسف أن بعض الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية والعصمة - يشرب الدخان والشيشة ويأتي إلى المسجد ورائحة الدخان والشيشة في فمه أو على ثيابه ، مع أن هذه رائحة كريهة كل يكرهها ، حتى إن بعض الناس لا يستطيع أن يصلي جنب مثل هؤلاء ، وهؤلاء يحرم عليهم أن يدخلوا المسجد والروائح الكريهة بفيهم .

(١) هذا معنى حديث ، ولفظه « من أكل من هذه الشجرة الحبيثة شيئاً .. » ، وقد أخرجه مسلم في المساجد (٧٦) ، وأحمد في مسنده (٤٢٩/٢) .

وكذلك من به إصنان ، والإصنان رائحة كريهة تفوح من إبطيه ، أو تفوح من أذنيه ، أو تفوح من رأسه وتؤدي ، فإنه لا يجوز أن يصلي مادامت الرائحة المؤذية فيه ، لا يجوز أن يدخل المسجد بل يتعد .

والحمد لله ، فإن هذه من المصائب والبلاوي ، فإذا ابتلى بمثل هذا لا يقول كيف أحرم نفسي المسجد ، فهذا من الله ﷻ ، فاحرم نفسك المسجد ولا تؤدي الناس والملائكة ، وحاول بقدر ما تستطيع أن تتخلص من هذه الرائحة ؛ إما بالتنظيف التام ، أو بأن تضع رائحة طيبة تغطي الرائحة الكريهة ، وبهذا يمكن أن تعالج هذه الروائح فلا يشم منك إلا الرائحة الطيبة .

ومن إطلاق الخبيث على الكسب الرديء قول النبي ﷺ : « كسب الحجام خبيث » ^(١) الحجام الذي يخرج الدم بالحجامة ، هذا كسبه خبيث ، يعني رديء ، وليس المراد أنه حرام ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو كان كسب الحجام حراماً ما أعطاه النبي ﷺ أجرته ، فقد احتجم النبي ﷺ ، وأعطى الحجام أجره ، ولو كانت حراماً ما أعطاه ؛ لأن الرسول لا يقر على الحرام ولا يعين على الحرام ، لكن هذا من باب أنه كسب رديء دنيء ينبغي للإنسان أن يتنزه عنه ، وأن يحجم الناس إذا احتاجوا إلى حجامة تبرعاً وتطوعاً .

ومن إطلاق الخبيث على المحرم قوله تعالى في وصف النبي ﷺ : ﴿ وَحِيلَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] يعني يحرم عليهم الخبائث وهي ضد الطيبات ، مثل : الميتة ، لحم الخنزير ، المنخقة ، الخمر ، وما أشبه ذلك .

ومعنى الآية : أنه لا يحرم إلا الخبائث ، وليس معناها أن كل خبيث يحرمه ؛ لأننا عرفنا الآن أن الخبيث يطلق على أوصاف متعددة ، لكن المعنى أنه ﷺ لا يحرم إلا الخبائث .

فالخاصل : أن الله ﷻ نهى أن يقصد الإنسان الرديء من ماله فيصدق به ، وحث على أن ينفق مما يحب ومما هو خير .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي طلحة زوج أم أنس رضي الله عنه ، وأبو طلحة أكثر الأنصار حقلاً يعني أكثرهم مزارع ، وكان له بستان فيه ماء طيب مستقبل المسجد - أي مسجد الرسول ﷺ - يعني أن المسجد في قبلة هذا البستان ، وكان فيه ماء طيب عذب ، يأتيه النبي ﷺ ويشرب منه .

فلما نزل قوله تعالى : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ [آل عمران ٩٢] بادر ﷺ وسابق وجاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ، إن الله تعالى أنزل قوله : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ وإن أحب أموالي إلي يبرحاء - وهذا اسم ذلك البستان - وإنني أضعها : يعني بين يديك صدقة ، إلى الله ورسوله : يعني تصرفها إلى الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ متعجباً : « بخ بخ » كلمة تعجب ، يعني : ما أعظم هذه الهمة ، وما أعلاها « ذاك مال رابع ، ذاك مال رابع » .

وصدق الرسول ﷺ فهذا المال رابع ، فكم من حسنة يربح هذا المال إذا كانت الحسنة بعشر

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (٤١) ، والترمذي في البيوع (١٢٧٥) .

أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة ؟ صدق النبي ﷺ : « ذاك مال رابح ذاك مال رابح .. أرى أن تجعلها في الأقربين » أرى أن تجعلها في الأقربين : أي أقاربك ، ففعل ﷺ ، وقسمها في أقاربه وبني عمه .

وسياتي إن شاء الله على بعض ما يستفاد من هذا الحديث ، لكن تعجبوا كيف كانت مبادرة الصحابة ﷺ ، ومسارعتهم إلى الخير ، وكان ابن عمر إذا أعجبه شيء في ماله وتعلقت به نفسه تصدق به ، لأجل أن يربحه ويلقاه فيما أمامه .

لكن ما متمسك به فهو إما زائل عنك وإما أن تزول عنه أنت ، ولا بد من أحد الأمرين ، إما أن يتلف أو تلف أنت ، لكن الذي تقدمه هو الذي يبقى ، نسأل الله أن يعيننا والمسلمين على أنفسنا ويعيذنا من البخل والشح .

والحقيقة : أن مالك الحقيقي هو ما تقدمه ، وقد ذبح آل النبي ﷺ شاة وتصدقوا بها إلا كفها ، فقدم النبي ﷺ وقال : « ما بقي منها ؟ » قالت عائشة رضي الله عنها : ما بقي منها إلا كفها . يعني أنها تصدقت بها كلها إلا كفها ، فقال النبي ﷺ : « بقي كلها غير كفها » ^(١) ، والمعنى أن الذي أكلتم هو الذي ذهب ، وأما ما تصدقتم به فهو الذي بقي لكم .

فالحاصل : أن الصحابة وذوي الهمم العالية هم الذين يعرفون قدر الدنيا وقدر المال ، وأن ما قدموه هو الباقي ، وما أبقوه هو الفاني ، نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين من الشح والبخل والجبن والكسل .

* * *

٣٨ - باب وخوب أمر أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى ونهيه عن المخالفة ، وتأديبهم ، ومنعهم من ارتكاب منهي عنه

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبًا أَنفُسُهُمْ وَأَقْلَامُهُمْ نَارًا ﴾ ^(٢) [التحریم : ٦] .

٢٩٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ الحسن بن علي ؑ تمرًا من تمر الصدقة فجعلها في فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « كَخْ كَخْ ، ازمِ بها ، أما علمت أننا لا نأكل الصدقة ؟! » ^(٣) متفق عليه . وفي رواية « أَنَّا لَا نَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةَ » ^(٤) وقوله : « كَخْ كَخْ » يُقَالُ يَأْكُلُ الْخَاءُ ، وَيُقَالُ بَكَشَرَهَا مَعَ التَّوْنِ ، وَهِيَ كَلِمَةُ زَجَرٍ لِلصَّبِيِّ عَنِ الْمُسْتَفْذَرَاتِ ، وَكَانَ الْحَسَنُ ؑ صَبِيًّا .

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٠) .

(٢) قوله ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ أي كن واسع الصبر . قوله ﴿ قُلُوبًا أَنفُسُهُمْ ﴾ أي احفظوا أنفسكم .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩١) ، ومسلم - واللفظ له - في الزكاة (١٦١) .

(٤) هذه رواية ثانية لمسلم في الزكاة (١٦١) .

الشرح

قال المؤلف رحمته : باب وجوب أمر أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى ، ونهيهم عن المخالفة ، وتأديبهم ، ومنعهم من ارتكاب منهي عنه .

ووجه المناسبة أن المؤلف رحمته ، لما ذكر ما يجب للأهل من غذاء الجسم ، ذكر لهم ما يجب من غذاء الروح على أيهم ومن له ولاية عليهم ، وأولى ما يؤمر به وأوجب وأفضل هي الصلاة ، كما قال الله تعالى لنبيه محمد عليه السلام : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه : ١٣٢] فأمره أن يأمر أهله بالصلاة .

والأهل كل من في البيت ؛ من زوجة ، وابن ، وبنت ، وعمة ، وخالة ، وأم ، كل من في البيت أهل ، أمره أن يأمرهم بالصلاة ، وأمره أن يصطبر عليهم يعني يحض نفسه على الصبر ، ولهذا جاءت التاء التي فيها زيادة البنية وفيها زيادة المعنى اصطبر ؛ لأن أصلها اصتبر عليها .

وذكر الله عن إسماعيل أبي محمد عليه السلام ، إذ أنه أحد أجداده ، أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيًا ، فالإنسان مسؤول عن أهله ، مسؤول عن تربيتهم ، حتى ولو كانوا صغارًا إذا كانوا مميزين ، أما غير المميز فإنه يؤمر بما يتحمله عقله .

ثم ذكر حديث الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه أخذ تمرًا من الصدقة فجعلها في فيه ، فقال النبي عليه السلام : « كخ كخ » يعني أنها لا تصلح لك ، ثم أمره أن يخرجها من فيه ، وقال : إنا لا نحل لنا الصدقة .

فالصدقة لا تحل لآل محمد ؛ وذلك لأنهم أشرف الناس ، والصدقات والزكوات أوساخ الناس ، ولا يتناسب لأشراف الناس أن يأخذوا أوساخ الناس ، كما قال النبي عليه السلام لعنه العباس بن عبد المطلب عليه السلام : « إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة ؛ إنما هي أوساخ الناس » ^(١) .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان يجب عليه أن يؤدب أولاده عن فعل المحرم ، كما يجب عليه أن يؤدبهم على فعل الواجب .

٢٩٩ - وعن أبي حفص عمر بن أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد زبيب رسول الله عليه السلام قال : كُنتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام وَكَانَتْ يَدَيَّ تَطِيشُ فِي الصُّحْفَةِ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام : « يَا غُلَامُ سَمِ اللَّهَ تَعَالَى ، وَكُلْ يَمِينِكَ ، وَكُلْ يَمَانِكَ » فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ ^(٢) . متفق عليه . « وَتَطِيشُ » : تَدَوُّرُ فِي تَوَاجِيهِ الصُّحْفَةِ .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٦٨) ، وأبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦) ، ومسلم في الأشربة (١٠٨) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٧) . وقوله « الصُحْفَةُ » إناء كالقصعة وقيل : هي القصعة المستطيلة . قوله « فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ » : أي صفة أكلتي بعد ذلك الأمر .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه ، وكان ربيب النبي ﷺ ؛ لأنه ابن زوجته أم سلمة رضي الله عنها ، أنه كان مع النبي ﷺ في طعام يأكل فجعلت يده تطيش في الصحفة ، يعني تذهب يمينًا وشمالًا ، فقال له النبي ﷺ : « يا غلام ، سم الله ، وكل بيمينك وكل مما يليك » فهذه ثلاثة آداب علمها النبي ﷺ هذا الغلام وهي :
أولاً : قال « سم الله » ، وهذا عند الأكل .

فعند ابتداء الأكل يجب أن يقول الإنسان بسم الله ، ولا يحل له أن يتركها ؛ لأنه إذا تركها شاركه الشيطان في أكله ؛ أعدى عدو له يشاركه في الأكل إذا لم يقل بسم الله ، ولو زاد : الرحمن الرحيم فلا بأس ؛ لأن قول الرسول ﷺ : « سم الله » : يعني اذكر اسم الله .

والتسمية الكاملة هي أن يقول الإنسان : بسم الله الرحمن الرحيم كما ابتدأ الله بها كتابه ، وكما أرسل بها سليمان ﷺ ﴿ إِنَّمَا مِنْ سُلَيْمَانَ وَلِإِيمَانٍ إِلَيْهِ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [النمل : ٣٠] فإن اقتصر على قول بسم الله فلا حرج ، وإن زدت الرحمن الرحيم فلا حرج ، الأمر في هذا واسع .

وأما التسمية على الذبيحة فهي شرط من شروط التذكية ، إذا لم تسم على الذبيحة فهي حرام ميتة ، كأنما ماتت بغير ذبح .

ولكن العلماء يقولون : لا ينبغي أن يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لأنه الآن يريد أن يذبحها ، فالفعل ينافي القول بالنسبة لهذه الذبيحة ؛ لأنها ستذبح . هكذا علل بعض العلماء ، ولكن لو قالها أيضًا فلا حرج (١) .

الأدب الثاني : قوله « وكل بيمينك » : وهذا أمر على سبيل الوجوب ، فيجب على الإنسان أن يأكل بيمينه وأن يشرب بيمينه ؛ لأن النبي ﷺ نهى أن يأكل الإنسان بشماله أو أن يشرب بشماله ، وقال : « إن الشيطان يفعل هذا » (٢) ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ، وقد نهينا عن اتباع خطوات الشيطان ، قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [النور : ٢١] .

ولهذا كان القول الراجح وجوب الأكل باليمين ، ووجوب الشرب باليمين ، وأن الأكل بالشمال

(١) مذهب الشافعية أن التسمية مستحبة عند الذبح والرمي إلى الصيد فلو تركها عمدًا أو سهوًا حلت الذبيحة ، ولكن تركها عمدًا مكروه على الصحيح .

أما الحنفية : إن ترك التسمية عمدًا يحرم به أكل الصيد والمذبح ، والمسلم والكتاني في ذلك سواء ، وإن ترك ناسيًا لم يحرم . والمالكية والخنابلة : إن متروك التسمية عمدًا لا يحل أكله . الوسيط في المذهب (١٤٤/٧) .

(٢) هذا معنى حديث ولفظه « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه .. » وقد أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٥) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٧٦) .

أو الشرب بالشمال حرام ، ثم إن الأكل بالشمال والشرب بالشمال مع كونه من هدي الشيطان فهو أيضًا من هدي الكفار ؛ لأن الكفار يأكلون بشمائلهم ويشربون بشمائلهم .

ثم إن بعض الناس إذا كان على الأكل وأراد أن يشرب فإنه يمسك الكأس باليسار ويشرب ، ويقول أخشى أن تتلوث الكأس إذا شربت باليمين ، فنقول : لتلوث ، فإنها إذا تلوثت فإنما تتلوث بطعام ، ولم تتلوث ببول ولا غائط . تلوثت بطعام ثم تغسل .

وإمكانك أن تمسك الكأس من الأسفل بين إبهامك والسبابة ، وتجعلها كالحلقة ولا يتلوث منه إلا شيء يسير ، ولا عذر لأحد بالشرب بالشمال من أجل هذا ؛ لأن المسألة على سبيل التحريم ، والحرام لا يجوز إلا عند الضرورة ، والضرورة مثل أن تكون اليد اليمنى شلاء ، لا يمكن أن يرفعها إلى فيه ، أو مكسورة لا يمكن أن يرفعها إلى فيه ، فهذه ضرورة ، أو تكون متجرحة لا يمكن أن يأكل بها أو يشرب .

المهم : إذا كان هناك ضرورة فلا بأس باليسار ، وإلا فلا يحل للمسلم أن يأكل باليسار ولا أن يشرب باليسار .

الأدب الثالث : قوله : « وكل مما يليك » : يعني لا تأكل من حافة غيرك ، بل كل من الذي يليك ؛ لأنك إذا اعتديت على حافة غيرك فهذا سوء أدب ، فكل من الذي يليك .

إلا إذا كان الطعام أنواعًا ، مثل أن يكون هناك لحم في غير الذي يليك فلا بأس أن تأكل ، أو يكون هناك قرع ، أو ما أشبه ذلك مما يقصد ، فلا بأس أن تأكل من الذي لا يليك ؛ لأن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أكلت مع النبي ﷺ : « فكان يتتبع الدباء من حوالي القصعة » ^(١) ، الدباء : القرع ، يتبعه يعني يَلْقُطُهُ من على الصحيفة ليأكله ، هذا لا بأس به .

وفي هذا الحديث من الفوائد : أنه يجب على الإنسان أن يؤدب أولاده على كيفية الأكل والشرب ، وعلى ما ينبغي أن يقول في الأكل والشرب ، كما فعل النبي ﷺ في ربيبه .

وفي هذا : حسن خلق النبي ﷺ وتعليمه ؛ لأنه لم يزجر هذا الغلام حين جعلت يده تطيش في الصحيفة ، ولكن علمه برفق ، وناداه برفق : يا غلام سم الله ، وكل بيمينك .

وليعلم أن تعليم الصغار لمثل هذه الآداب لا ينسى ، يعني أن الطفل لا ينسى إذا علمته وهو صغير ، لكن إذا كبر ربما ينسى إذا علمته ، وربما يتمرد عليك بعض الشيء إذا كبر ، لكن مادام صغيرًا وعلمته يكون أكثر إقبالًا ، ومن اتقى الله في أولاده اتقوا الله فيه ، ومن ضيع حق أولاده ضيعوا حقه إذا احتاج إليهم .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٩) ، ومسلم في الأشربة (١٤٤) .

٣٠٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإمامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » ^(١) متفقٌ عليه .

٣٠١ - وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ » ^(٢) حديثٌ حسنٌ رواه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ .

٣٠٢ - وعن أبي ثَرْيَّةَ سَبْرَةَ بنِ مَعْبُدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ لِسَبْعِ سِنِينَ ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ » ^(٣) حديثٌ حسنٌ رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسن . وَلَفَّظَ أَبِي دَاوُدَ : « مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ » .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر » وهو حديث حسن له شاهد من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه ، وهذا من حقوق الأولاد على آبائهم ؛ أن يأمرهم بالصلاة إذا بلغوا سبع سنوات ، وأن يضربوهم عليها أي على التفريط فيها وإضاعتها إذا بلغوا عشر سنين ، ولكن بشرط أن يكونوا ذوي عقل .

فإن بلغوا سبع سنين أو عشر سنين وهم لا يعقلون ، يعني فيهم جنون فإنهم لا يؤمرون بشيء ولا يضربون على شيء ، لكن يمتنعون من الإفساد ؛ سواء في البيت أو خارج البيت .

قوله : « اضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين » : المراد الضرب الذي يحصل به التأديب بلا ضرر ، فلا يجوز للأب أن يضرب أولاده ضرباً مبرحاً ، ولا يجوز أن يضربهم ضرباً مكرراً لا حاجة إليه ، بل إذا احتاج إليه مثل ألا يقوم الولد للصلاة إلا بالضرب فإنه يضربه ضرباً غير مبرح ، بل ضرباً معتاداً ؛ لأن النبي ﷺ إنما أمر بضربهم لا لإيلاهم ولكن لتأديبهم وتقويمهم .

وفي هذا الحديث : إشارة إلى أن ما ذهب إليه بعض المتأخرين ممن يدعون أنهم أصحاب تربية من أن الصغار لا يضربون في المدارس إذا أهملوا ، ففي هذا الحديث الرد عليهم ، وهو دليل على بطلان فكرتهم ، وأنها غير صحيحة ؛ لأن بعض الصغار لا ينفعهم الكلام في الغالب ، ولكن الضرب ينفعهم

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥١) ، ومسلم في الإمارة (٢٠) ، وكذلك الإمام أحمد في مسنده (١٢١/٢) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٥) قوله « المضاجع » أي أماكن النوم .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٤) ، والترمذي في أبواب الصلاة (٤٠٧) .

أكثر ، فلو أنهم تركوا بدون ضرب لضيعوا الواجب عليهم ، وفرطوا في الدروس وأهملوا ، فلا بد من ضربهم ليعتادوا النظام ، ويقوموا بما ينبغي أن يقوموا به ، وإلا لصارت المسألة فوضى .
إلا أنه كما قلنا لا بد أن يكون الضرب للتأديب لا للإيلام والإيجاع ، فيضرب ضرباً يليق بحاله ، ضرباً غير مبرح ، لا يفعل كما يفعل بعض المعلمين في الزمن السابق ؛ يضرب الضرب العظيم الموجه ، ولا يهمل كما يدعي هؤلاء المربون الذين هم من أبعد الناس عن التربية ، لا يقال لهم شيء ؛ لأن الصبي لا يمثل ولا يعرف ، لكن الضرب يؤدبه .

* * *

٣٩ - باب حق الجار والوصية به

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالَّذِينَ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

[النساء : ٣٦]

٣٠٣ - وعن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما قالوا : قال رسول الله ﷺ : « مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى طُنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ » ^(١) متفق عليه .

٣٠٤ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً ، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ » ^(٢) رواه مسلم .

وفي رواية له عن أبي ذر قال : إن خليلي ﷺ أوصاني : « إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتِ مِنْ جِيرَانِكَ ، فَأَصْبِهِمْ مِنْهَا بِمَغْرُوفٍ » ^(٣) .

٣٠٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ! »
قيل : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : « الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَاقِعِهِ ! » متفق عليه .

وفي رواية لمسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بِوَاقِعِهِ » ^(٤) .
« الْبَوَائِقُ » الْغَوَائِلُ وَالشُّرُورُ .

٣٠٦ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةَ لَجَارَتِهَا وَلَوْ فَوْسِقَ شَاةٍ » ^(٥) متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٤١) ، وأبو داود بنحوه في الأدب (٥١٥١) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٢) . (٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٦) ، ومسلم في الإيمان (٧٣) ، والإمام أحمد بنحوه في مسنده (٢٨٨/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٧) ، ومسلم في الزكاة (٩٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦٤/٢) .

٣٠٧ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَمْتَنِعُ جَارٌ جَارَةً أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ » ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : مَالِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُغْرِضِينَ ! وَاللَّهِ لَأَرْمِينَ بِهَا يَمِينَ أَكْتَافِكُمْ ^(١) . متفقٌ عليه .

رُوي « خَشَبَةً » بِالْإِضَافَةِ وَالْجَمْعِ ، وَرُوي « خَشَبَةً » بِالتَّنْوِينِ عَلَى الْإِفْرَادِ . وقوله : « مَالِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُغْرِضِينَ » : يَعْنِي عَنْ هَذِهِ الشَّيْءِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب حق الجار والوصية به ، الجار : هو الملاصق لك في بيتك والقريب من ذلك ، وقد وردت بعض الآثار بما يدل على أن الجار أربعون دارًا من كل جانب ، ولا شك أن الملاصق للبيت جار ، وأما ما وراء ذلك فإن صحت الأخبار بذلك عن النبي ﷺ فالحق ما جاءت به ، وإلا فإنه يرجع في ذلك إلى العرف ، فما عده الناس جوارًا فهو جوار .

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - آية سورة النساء : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ الجار ذي القربى : يعني الجار القريب ، والجار الجنب : يعني الجار البعيد الأجنبي منك .

قال أهل العلم : والجيران ثلاثة :

- ١ - جار قريب مسلم ، فله حق الجوار والقرابة والإسلام .
 - ٢ - وجار مسلم غير قريب ، فله حق الجوار والإسلام .
 - ٣ - وجار كافر ، فله حق الجوار ، وإن كان قريبًا فله حق القرابة أيضًا .
- فهؤلاء الجيران لهم حقوق ؛ حقوق واجبة وحقوق يجب تركها .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله خمسة أحاديث ، عن ابن عمر ، وعن أبي ذر ، وعن أبي هريرة ، أما حديث ابن عمر : ففيه : أن النبي ﷺ قال : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » أي سينزل الوحي بتوريثه ، وليس المعنى أن جبريل يشرع توريثه ؛ لأن جبريل ليس له حق في ذلك ، لكن المعنى أنه سينزل الوحي الذي يأتي به جبريل بتوريث الجار ، وذلك من شدة إعطاء جبريل به النبي ﷺ .

وأما حديث أبي ذر : ففيه : أن على الإنسان إذا وسع الله عليه برزق ، أن يصيب منه جاره بعض الشيء المعروف ، حيث قال ﷺ : « إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثَرَ مَاءَهَا ، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ » ، أكثر ماءها يعني زدها في الماء لتكثر وتوزع على جيرانك منها ، والمرقة عادة تكون من اللحم أو من غيره مما يؤتمد به ، وهكذا أيضًا إذا كان عندك طعام غير المرق ، أو شراب كفضل اللبن مثلاً ، وما أشبهه ينبغي لك أن تعاهد جيرانك به ؛ لأن لهم حقًا عليك .

وأما أحاديث أبي هريرة : ففيها أن النبي ﷺ أقسم ثلاث مرات فقال : « وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٦٣) - واللفظ له - ، ومسلم في المساقاة (١٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٨٠/٣) .

يؤمن، والله لا يؤمن» قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : « من لا يأمن جاره بوائقه » يعني غدره وخيانتة وظلمه وعدوانه ، فالذي لا يأمن جاره من ذلك ليس بمؤمن ، وإذا كان يفعل ذلك ويوقعه فعلاً فهو أشد . وفي هذا : دليل على تحريم العدوان على الجار ؛ سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل ، أما بالقول فأن يسمع منه ما يزعجه ويقلقه ، كالذين يفتحون الراديو أو التلفزيون أو غيرهما مما يسمع فيزعج الجيران ، فإن هذا لا يحل له ، حتى لو فتحه على كتاب الله وهو مما يزعج الجيران بصوته فإنه معتد عليهم ، ولا يحل له أن يفعل ذلك . وأما بالفعل فيكون بإلقاء الكناسه حول بابه ، والتضييق عليه عند مداخل بابه ، أو بالدق ، أو ما أشبه ذلك مما يضره ، ومن هذا أيضًا إذا كان له نخلة أو شجرة حول جدار جاره فكان يسقيها حتى يؤذي جاره بهذا السقي ، فإن ذلك من بوائق الجار فلا يحل له .

إذن يحرم على الجار أن يؤذي جاره بأي شيء ، فإن فعل فإنه ليس بمؤمن ، والمعنى أنه ليس متصفاً بصفات المؤمنين في هذه المسألة التي خالف بها الحق .

وأما ما ذكره في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره » يعني إذا كان جارك يريد أن يسقف بيته ووضع الخشب على الجدار ؛ فإنه لا يحل لك منعه ؛ لأن وضع الخشب على الجدار لا يضر ، بل يزيده قوة ، ويمنع السيل منه ، ولا سيما فيها سبق حيث كان البناء من اللبن ، فإن الخشب يمنع هطول المطر على الجدار فيحميه ، وهو أيضًا يشده ويقويه ، ففيه مصلحة للجار وفيه مصلحة للجدار ، فلا يحل للجار أن يمنع جاره من وضع الخشب على جداره ، وإن فعل ومنع فإنه يجبر على أن يوضع الخشب رغماً عن أنفه .

ولهذا قال أبو هريرة : ما لي أراكم عنها معرضين ، والله لأرمين بها بين أكتافكم ، يعني من لم يمكن من وضع الخشب على جداره وضعناه على متن جسده بين أكتافه ، وهذا قاله ﷺ حينما كان أميراً على المدينة في زمن مروان بن الحكم .

وهذا نظير ما قاله - أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب في المشاجرة التي جرت بين محمد بن مسلمة وجاره ، حيث أراد أن يجري الماء إلى بستانه وحال بينه وبينه بستان جاره ، فمنعه الجار من أن يجري الماء من على أرضه ، فترافعا إلى عمر ، فقال : والله لئن منعته لأجرينه على بطنك ، وألزمه أن يجري الماء ؛ لأن إجراء الماء ليس فيه ضرر ؛ لأن كل بستان زرع فإذا جرى الماء الساقى ، انتفعت الأرض وانتفع ما حول الساقى من الزرع وانتفع الجار ، نعم لو كان الجار يريد أن يبنها بناءً وقال لا أريد أن يجري الماء على الأرض فله المنع ، أما إذا كان يريد أن يزرعها فالماء لا يزيده إلا خيراً ^(١) .

وبناءً على هذا فتجب مراعاة حقوق الجيران فيجب الإحسان إليهم بقدر الإمكان ويحرم الاعتداء عليهم بأي عدوان ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » ^(٢) .

(١) انظر موطأ الإمام مالك (٧٤٦/٢) في الأفضية (٣٣) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الإيمان (٧٦ ، ٧٧) .

- ٣٠٨ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلَا يُوْذِي جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ » ^(١) متفق عليه .
- ٣٠٩ - وعن أبي شريح الخزازي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ فَلْيُخْسِنِ إِلَى جَارِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ » ^(٢) رواه مسلم بهذا اللفظ ، وروى البخاري بعضه .
- ٣١٠ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله إن لي جارين ، فإلى أيهما أهدي ؟ قال : « إلى أقربهما منك بابا » ^(٣) رواه البخاري .

٣١١ - وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لَجَارِهِ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٤٠ - بَابُ بَزِّ الْوَالِدَيْنِ وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ^(١) وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ ^(٢) بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [النساء : ١] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ [الآية : الرعد : ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت : ٨] وقال تعالى : ﴿ وَصَفَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِهًا ^(٣) وَأخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ ^(٤) فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] .

٣١٢ - عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب

- (١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ، ومسلم في الإيمان (٧٥) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بالتعليق عليه .
- (٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٧) ، روى البخاري بعضه في الرقاق (٦٤٧٦) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بالتعليق عليه .
- (٣) أخرجه البخاري في الهمزة (٢٥٩٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٩/٦) ، والبيهقي في سننه (٢٧٥/٦) .
- (٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٤٤) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٦/٢) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بالتعليق عليه .
- (٥) أي البعيد مكانًا ، وقيل : هو الذي لا قرابة في النسب بينه وبين جاره ويقابله الجار ذو القربى .
- (٦) أي الرفيق في أمر حسن كتعلم وتجارة وسفر وصناعة ، يصحبك فيها ويكون في جنبك وجوارك .
- (٧) تساءلون : تتعاهدون وتتعاهدون . (٨) لا تنهرهما : لا تزجرهما . (٩) وفصاله : وقطامه .

إلى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » ^(١) متفق عليه .

٣١٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَجْزِي وَلَدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا ، فَيَشْتَرِيَهُ ، فَيُعْتِقَهُ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الوالدين وصلة الأرحام . الوالدان هما الأب والأم ، وعبر بالبر اتباعًا لما جاء في النص ، وعبر عن صلة الأرحام بالصلة لأنه هكذا جاء أيضًا بالنص ، والأرحام هم القرابة . وبر الوالدين من أفضل الأعمال ، بل هو الحق الثاني بعد حق الله ورسوله .

وذكر المؤلف رحمته الله آيات كثيرة في هذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ، قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ رَبُّكَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا ﴾ ، قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَمَلَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَلْعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾ .

وكل هذه الآيات وغيرها تدل على عظم حق الوالدين ، وقد بين الله ﷻ حال الأم ، وأنها تحمل ولدها وهما على وهن : أي ضعفاً على ضعف ، من حين أن تحمل به إلى أن تضعه وهي في ضعف ومشقة وعناء ، وكذلك عند الوضع ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحاف : ١٥] كل هذا البيان سبب حقها العظيم .

ثم ذكر الله أشد حالة يكون عليها الوالدان فقال تعالى : ﴿ إِمَّا يَلْعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ ﴾ ؛ لأن الوالدين إذا بلغا الكبر ضعفت نفوسهما ، وصارا عالة على الولد ، ومع ذلك يقول : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ ﴾ يعني لا تقل لاني متضرر منكما ، بل عاملهما باللطف والإحسان والرفق ، ولا تنهرهما إذا تكلما ، وقول لهما قولاً كريماً : يعني رد عليهما رداً جميلاً لعظم الحق .

ثم ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال حين سأله عبد الله بن مسعود : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » .

فجعل النبي ﷺ مرتبة البر بالوالدين مقدمة على مرتبة الجهاد في سبيل الله ، قال : ولو استزددته لزداني . وفي هذا : دليل على فضل بر الوالدين .

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في مواقيت الصلاة (٥٢٧) ، ومسلم في الإيمان (١٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٤١٠٩ ، ٤١٠٠) .

(٢) أخرجه مسلم في العتق (٢٥) ، وأبو داود في الأدب (٥١٣٧) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٦) .

فإن قال قائل : ما هو البر ؟ قلنا : هو الإحسان إليهما ؛ بالقول ، والفعل ، والمال بقدر المستطاع ، اتقوا الله ما استطعتم ، وضد ذلك العقوق .

ثم ذكر الحديث الثاني وهو قول الرسول ﷺ : « لا يجزي ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه » يعني : يعتقه بشرائه ؛ لأنه فك أباه من رق العبودية للإنسان ، وهذا الحديث : لا يدل على أن من ملك أباه لا يعتق عليه ، بل نقول : إن معناه إلا أن يشتريه فيعتقه ، أي فيعتقه بشرائه ؛ لأن الإنسان إذا ملك أباه عتق عليه بمجرد الملك ، ولا يحتاج إلى أن يقول عتقته ، وكذلك إذا ملك أمه تعتق بمجرد الملك ، ولا يحتاج إلى أن يقول عتقتها .

٣١٤ - وعنه أيضًا ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلْيُكْرِمْ صَبِيَّهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلْيُصِلْ رَجُلَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (١) متفق عليه .

٣١٥ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّجُمُ ، فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَاثِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ ، قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أُصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى ، قَالَ : فَذَلِكَ لَكَ » ثم قال رسول الله ﷺ : « أَفَرُؤُوكُمْ إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّهُمْ أَبْصَرَهُمْ ﴾ » . [محمد : ٢٢ ، ٢٣] متفق عليه .

وفي رواية للبخاري : فقال الله تعالى : « مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ » (٢) .

٣١٦ - وعنه ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قَالَ : « أُمُّكَ » قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « أُمُّكَ » قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « أُمُّكَ » قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « أَبُوكَ » (٣) متفق عليه .

وفي رواية : يا رسول الله ، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ ؟ قَالَ : « أُمُّكَ ، ثُمَّ أُمُّكَ ، ثُمَّ أُمُّكَ ، ثُمَّ أَبَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ » (٤) .

« وَالصُّحَابَةُ » بمعنى : الصُّحْبَةِ . وقوله : « ثُمَّ أَبَاكَ » هكذا هو منصوب بفعل محذوف ، أي : ثم يَرْ أَبَاكَ وفي رواية : « ثُمَّ أَبُوكَ » وهذا واضح .

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ، ومسلم في الإيمان (٧٤) والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بالتعليق عليه .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٢) وفيه أن قرأ إلى ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ، ومسلم - واللفظ له - في البر والصلة (١٦) وفيه أنه قرأ إلى ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَفْأَلَهَا ﴾ ، والرواية الثانية أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٩) .
(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١) ، ومسلم في البر والصلة (١) .
(٤) والرواية الثانية أخرجه مسلم - واللفظ له - في البر والصلة (٢) . والرواية فيه - بحسب النسخ التي بين أيدينا - ثم أبوك .

الشرح

هذان الحديثان في بيان فضل صلة الرحم ، والرحم سبق لنا أنهم هم الأقارب ، وصلتهم بما جرى به العرف واتبعه الناس ؛ لأنه لم يبين في الكتاب ولا السنة نوعها ولا جنسها ولا مقدارها ؛ لأن النبي ﷺ لم يقيد بشيء معين ؛ فلم يقيد بأن يأكلوا معك ، أو يشربوا معك ، أو يكتسوا معك ، أو يسكنوا معك ، بل أطلق ، ولذلك يرجع فيها للعرف ، فما جرى به العرف أنه صلة فهو الصلة ، وما تعارف عليه الناس أنه قطيعة فهو قطيعة ، هذا هو الأصل .

نعم ، لو فرض أن الأعراف فسدت ، وصار الناس لا يبالون بالقطيعة ، وصارت القطيعة عندهم صلة فلا عبرة بهذا العرف ؛ لأن هذا العرف ليس عرفاً إسلامياً ، فإن الدول الكافرة الآن لا تتلاءم أسرها ، ولا يعرف بعضهم بعضاً ، حتى إن الإنسان إذا شب ولده وكبر صار مثله مثل الرجل الأجنبي الذي لا يعرف أن له أباً ؛ لأنهم لا يعرفون صلة الأرحام ، ولا يعرفون حسن الجوار ، وكل أمورهم فوضى فاسدة ؛ لأن الكفر دمرهم تدميراً والعياذ بالله ، لكن كلامنا عن المجتمع المسلم المحافظ ، فما عده الناس صلة فهو صلة ، وما عدوه قطيعة فهو قطيعة .

وفي حديث أبي هريرة الأول : أن الله ﷻ تكفل للرحم بأن يصل من وصلها ويقطع من قطعها ، وفي هذا : حث وترغيب في صلة الرحم ، فإذا أردت أن يصلك الله - وكل إنسان يريد أن يصله ربه - فصل رحمك ، وإذا أردت أن يقطعك الله فقطع رحمك ، جزاءً وفاقاً ، وكلما كان الإنسان لرحمه أوصل كان الله له أوصل ، وكلما قصر جاءه من الثواب بقدر ما عمل ، لا يظلم الله أحداً .

وذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - قوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿ فبين سبحانه وتعالى أن الذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ملعونون - والعياذ بالله - أي : مطرودون ومبعدون عن رحمة الله ، وقد أصمهم الله ؛ أي جعلهم لا يسمعون الحق ولو سمعوا ما انتفعوا به ، وأعمى أبصارهم ؛ فلا يرون الحق ، ولو رأوه لم ينتفعوا به ، فسد عنهم طرق الخير ؛ لأن السمع والبصر يوصل المعلومات إلى القلب ، فإذا انسد الطريق لم يصل إلى القلب خير والعياذ بالله .

وقد ذكر أهل العلم من جملة الصلة النفقة على الأقارب : فقالوا : إن الإنسان إذا كان له أقارب فقراء وهو غني وهو وارث لهم ، فإنه يلزمه النفقة عليهم ، كالأخ الشقيق مع أخيه الشقيق ، إذا كان الأخ هذا يرثه لو مات فإنه يجب على الوارث أن ينفق على أخيه مادام غنياً ، وأخوه فقيراً عاجزاً عن التكسب ، فإن هذا من جملة الصلة .

وقالوا أيضاً : إن من جملة الإنفاق أنه إذا احتاج إلى النكاح فإنه يزوجه ؛ لأن إعفاف الإنسان من أشد الحاجات .

وعلى هذا : فإذا كان للإنسان أخ شقيق ولا يرثه إلا أخوه ، وأخوه غني وهو فقير عاجز عن

التكسب ، وجب عليه أن ينفق عليه طعاماً وشراباً وكسوة ومسكناً ومركوباً إذا كان يحتاجه ، وأن يزوجه أيضاً إذا احتاج إلى النكاح ؛ لأن الإعفاف من أشد الحاجات فيدخل في صلة الرحم .

وهذه الأمور يجب على الإنسان إذا كان لا يعلم عنها شيئاً أن يسأل أهل العلم حتى يدلوه على الحق ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٧] .

والحديث الثاني : في بيان أحق الناس بحسن صحبة الإنسان ، فبين النبي ﷺ أن أحق الناس بذلك الأم ، فأعيد عليه السؤال فقال : أمك مرة ثانية ، كرر ذلك ثلاث مرات ، ثم بعد ذلك الأب ؛ لأن الأم حصل عليها من العناء والمشقة للولد ما لم يحصل لغيرها ؛ حملته أمه وهنأ على وهن ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وفي الليل تمهده وتهدئه حتى ينام ، وإذا أناه ما يؤلمه لم تنم تلك الليلة حتى ينام . ثم إنها تقديه بنفسها بالتدفئة عند البرد ، والتبريد عند الحر وغير ذلك ، فهي أشد عناية من الأب بالطفل ، ولذلك كان حقها مضاعفاً ثلاث مرات على حق الأب .

ثم إنها أيضاً ضعيفة ، أنثى لا تأخذ بحقها ، فلهذا أوصى بها النبي ﷺ ثلاث مرات ، وأوصى بالأب مرة واحدة ، وفي ذلك الحث على أن يحسن الإنسان صحبه أمه ، وصحبه أبيه أيضاً بقدر المستطاع . أعاننا الله والمسلمين على ذلك .

وفق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح ، ووصلنا والمسلمين بفضله وإحسانه .

٣١٧ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « رَغِمَ أَنْفٌ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ ؛ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ، فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ » ^(١) رواه مسلم .

٣١٨ - وعنه ﷺ أن رجلاً قال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ^(٢) ، فقال : « لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ » ^(٣) رواه مسلم .

« وَتُسِفُّهُمْ » بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء « وَالْمَلَّ » بفتح الميم ، وتشديد اللام وهو الرماد الحار : أي كأنما تُطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الإنم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم ، ولا شيء على هذا المحسن إليهم ، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقّه ، وإذخاليهم الأذى عليه ، والله أعلم .

٣١٩ - وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَاطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي

(١) يجهلون علي : يسيئون . والجهل هنا : القبيح من القول .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١) ومسلم في البر والصلة (١ ، ٢) والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٢) ، والإمام أحمد بنحوه في مسنده (٣٠٠ / ٢) .

أثره ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ^(١) متفق عليه . ومعنى « يُنْسَأُ لَهُ فِي أَثَرِهِ » : أي : يُؤَخَّرُ له في أَجَلِهِ وَعُمْرِهِ .
 ٣٢٠ - وعنه قال : كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَحْلٍ ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ
 بَيْرَحَاءَ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا ، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٌ ، فَلَمَّا
 تَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ [آل عمران : ٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ
 بَيْرَحَاءَ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، أَزْجُو بِرَّهَا وَدُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ .
 فقال رسول الله ﷺ : « بَخ ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ ! وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإِنِّي أَرَى أَنَّ تَجْعَلَهَا
 فِي الْأَقْرَبِينَ » فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ ^(٢) . متفق عليه .
 وَسَبَقَ بَيَانُ أَلْفَاظِهِ فِي : بَابِ الْإِثْقَاكِ بِمَا يُجِبُّ .

٣٢١ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ :
 أَبَايُغْلِكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَتُبْغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ : « فَهَلْ لَكَ مِنَ الْوَلَدِ أَحَدٌ حَيٌّ ؟ »
 قَالَ : نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا . قَالَ : « فَتُبْغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؟ » قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : « فَارْجِعْ إِلَى
 وَالِدَيْكَ ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا » متفق عليه . وهذا لَفْظُ مُسْلِمٍ .
 وفي رواية لهُمَا : جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ « أَحْيَى وَالِدَاكَ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « فَبِهِمَا فَجَاهِدْ » ^(٣) .
 ٣٢٢ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ
 وَصَلَّهَا » ^(٤) رواه البخاري . وَ « قُطِعَتْ » بِفَتْحِ الْقَافِ وَالطَّاءِ . وَ « رَحِمُهُ » مَرْفُوعٌ .
 ٣٢٣ - وعن عائشة قالت : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ : مَنْ وَصَلَنِي
 وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ » ^(٥) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضيلة صلة الرحم ، أن الإنسان الواصل ليس المكافئ الذي إذا وصله
 أقاربه وصلهم ، ولكن الواصل هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها ، فتكون صلته لله لا مكافأة لعباد
 الله ، ولا من أجل أن ينال بذلك مدحاً عند الناس ، قال النبي ﷺ : « ليس الواصل بالمكافئ » يعني
 بالذي إذا وصله أقاربه وصلهم مكافأة لهم ، وإنما الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها .

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢١) .

(٢) انظر حديث ٢٩٧ ص ٦٧٩ .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦) ، وأخرج الرواية الثانية البخاري في الجهاد (٣٠٠٤) ، ومسلم في البر والصلة (٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩١) ، وأبو داود في سننه (١٦٩٧) ، والترمذي في سننه (١٩٠٨) .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٩) ، ومسلم - واللفظ له - في البر والصلة (١٧) .

وكذلك أيضًا في هذه الأحاديث : أن الرحم متعلقة بالعرش ، تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله ، وهذا يحتمل أن يكون خبرًا وأن يكون دعاءً ، يعني يحتمل أن الرحم تخبر بهذا أو تدعو الله ﷻ به ، وعلى كل حال فهو دليل على عظم شأن الرحم وصلتها ، وأنها تحت العرش تدعو بهذا الدعاء ، أو تخبر بهذا الخبر . ثم ذكر المؤلف حديث الرجل الذي كان يحسن إلى قرابته فيسيتقون إليه ويصلهم فيقطعونه ، فقال النبي ﷺ : « لمن كنت » : يعني كما تقول « فكأنما تسفهم المل » والمثل : هو الرماد الحار ، وتسفهم : يعني تجعله في أفواههم ، والمعنى : أنك كأنما ترغمهم بهذا الرماد الحار عقوبة لهم ، « ولا يزال لك من الله عليهم ظهير » يعني عون عليهم ما دمت على ذلك ، أي تصلهم وهم يقطعونك . فكل هذه الأحاديث وما شابهها تدل على أنه يجب على الإنسان أن يصل رحمه وأقاربه بقدر ما يستطيع ، ويقدر ما جرى به العرف ، ويحذر من قطيعة الرحم .

٣٢٤ - وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضيها الله عنها أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي ﷺ ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه ، قالت : أشعرت يا رسول الله أنني أعتقت وليدتي ؟ قال : « أو فقلت ؟ » قالت : نعم . قال : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك » ^(١) متفق عليه .

٣٢٥ - وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضيها الله عنها قالت : قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيت رسول الله ﷺ ، قلت : قدمت علي أمي وهي راغبة ، أفأصل أمي ؟ قال : « نعم صلي أمك » ^(٢) متفق عليه .

وقولها : « راغبة » ، أي : طامعة عندي تسألني شيئًا ، قيل : كانت أمها من النسب . وقيل : من الرضاغة والصحيح الأول .

٣٢٦ - وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه وعنهما) قالت : قال رسول الله ﷺ : « تصدقن يا معشر النساء ولو من خليككن » قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له : إنك رجل خفيف ذات اليد ، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فأبى ، فأسأله ، فإن كان ذلك يجزئ عني وإلا صرفتها إلى غيركم . فقال عبد الله : بلى أئيب أنت ، فأنطلقت ، فإذا امرأة من الأنصار يتاب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها ، وكان رسول الله ﷺ قد ألبس عليه المهابة ، فخرج علينا بلال ، فقلنا له : أئيب رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك : أئجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجبورهما ^(٣) ؟ ولا تخبره من نحن ، فدخل بلال على رسول الله ﷺ ، فأسأله ، فقال له رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩٢) ، ومسلم في الزكاة (٤٤) ، والبيهقي في سننه (٥٩/٦) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٢٠) واللفظ له ، ومسلم في الزكاة (٥٠) ، والإمام أحمد بنحوه في مسنده (٣/٣٤٤ ، ٣٤٧) .

(٣) حجورهما : كنفيهما ورعايتهما .

ﷺ : « من هُما ؟ » قَالَ : امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَزَيْنَبُ . فقال رسول الله ﷺ : « أَيُّ الزَّيْنَبِ هِيَ ؟ » قَالَ : امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ ، فقال رسول الله ﷺ : « لَهُمَا أَجْرَانِ : أَجْرُ الْقَرَابَةِ ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ » (١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف فيما نقله عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها وعن أبيها - : إن أمها قدمت عليها المدينة وهي راغبة فاستفتت النبي ﷺ هل تصلها أم لا ؟ وقالت : يا رسول الله ، إن أُمِّي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ فأمرها أن تصلها .

وقولها وهي راغبة ، قال بعض العلماء معناه : وهي راغبة في الإسلام ؛ فيكون الأمر بصلتها من أجل تأليفها على الإسلام ، وقيل : بل معنى قولها وهي راغبة ، أي راغبة في أن أصلها ، ومتطلعة إلى ذلك ، فأمرها النبي ﷺ أن تصلها ، وهذا هو الأقرب أنها جاءت تشوق وتتطلع إلى أن تعطيها ابنتها ما شاء الله .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان يصل أقرابه ولو كانوا على غير الإسلام ؛ لأن لهم حق القرابة ، ويدل لهذا قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥] يعني إن أمرك والداك وألحا في الطلب على أن تشرك بالله فلا تطعهما ؛ لأنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ، ولكن صاحبهما في الدنيا معروفًا ، أي أعطهم الدنيا ما يجب لهم من الصلة ، ولو كانا كافرين أو فاسقين ؛ لأن لهما حق القرابة .

وهذا الحديث : يدل على ما دلت عليه الآية ، وهو أن النبي ﷺ أمر أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها وعن أبيها - أن تصل أمها مع أنها كافرة .

ثم إن صلة الأقارب بالصدقة يحصل بها أجران ؛ أجر الصدقة وأجر الصلة ، ودليل ذلك : حديث زينب بنت مسعود الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود ؓ أن النبي ﷺ أمر النساء بالصدقة ، فرجعت إلى بيتها وكان زوجها عبد الله بن مسعود خفيف ذات اليد ، يعني أنه ليس عنده مال ، فأخبرته ، فطلب منها أن تتصدق عليه ، وعلى أيتام كانوا في حاجتها ، ولكنه أشكل عليها الأمر (٢) فذهبت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه ، فلما وصلت إلى بيته وجدت عنده امرأة من الأنصار ، حاجتها كحاجة زينب ، تريد أن تسأل النبي ﷺ أن تتصدق على زوجها ، ومن في بيتها .

فخرج بلال وكان النبي ﷺ قد أعطاه الله المهابة العظيمة ، كل من رآه هابه ، لكنه من خالطه معاشرته أحبه وزالت عنه الهيبة ، لكن أول ما يراه الإنسان يهابه هيبة عظيمة ، فإذا خالطه وعاشره أحبه وألفه ﷺ ؛ فخرج بلال فسألها عن حاجتها فأخبرته أنها يسألان النبي ﷺ : هل تجوز الصدقة على أزواجهما ومن في بيتهما ؟ ولكنهما قالتا له : لا تخبر الرسول ﷺ من هما ؛ أحبنا أن تختفيا . فدخل بلال على النبي ﷺ وأخبره ، وقال إن بالباب امرأتين حاجتهما كذا وكذا ، فقال : من

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٦) بطريق آخر مع اختلاف في اللفظ ، ومسلم في الزكاة (٤٥ ، ٤٦) بطريقتين مختلفتين ورواية البخاري إحداهما . (٢) أشكل عليها الأمر : التبس .

هما ؟ وحيتي وقع بلال بين أمرين بين أمانة ائتمنتاه عليها المرتأتان ؛ حيث قالتا : لا تخبره من نحن ، ولكن الرسول قال من هما ؟ قال : امرأة من الأنصار ، وزينب .

فقال : « أي الزيانب ؟ » حيث اسم زينب كثير ، فقال : امرأة عبد الله وكان عبد الله بن مسعود خادماً للرسول ﷺ يدخل بيته حتى بلا استعذان ، وقد عرف النبي ﷺ أهله وعرف حاله .

وهو إنما أخبره مع قولهما له : لا تخبره لأن طاعة النبي ﷺ واجبة مقدمة على طاعة كل أحد . فقال : إن صدقتهما على هؤلاء صدقة وصلة ، يعني فيها أجران : أجر الصدقة وأجر الصلة ؛ فدل ذلك على أنه يجوز للإنسان أن يتصدق على أولاده عند الحاجة ، ويتصدق على زوجته ، وكذلك الزوجة تتصدق على زوجها ، وأن ذلك عليهم صدقة وصلة .

أما الزكاة فإن كان مما يجب على الإنسان أن يدفعه فإنه لا يصح أن يدفع إليهم الزكاة لو كانت الزكاة لدفع حاجتهما من نفقة ، وهو ممن تجب عليه النفقة وماله يحتمل ، فإنه لا يجوز له أن يعطيها من الزكاة ، أما إذا كان ممن لا يجب عليه ، كما إن قضى ديناً عن أبيه أو عن ابنه أو زوجته ، أو قضت ديناً على زوجها فإن ذلك لا بأس به إذا كان المدين حياً ، أما إذا كان المدين ميتاً فلا يقضي عنه تبرعاً ، أو من التركة ، ولا يقضي عنه من الزكاة .

* * *

٣٢٧ - وعن أبي شفيان صخر بن حرب رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هرقل أن هرقل قال لأبي شفيان : فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ ؟ - يعني النبي ﷺ - قال : قلت : يقول : « اغْبُدُوا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَاتَّزَكُوا مَا يَقُولُ أَبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ ، وَالْعَقَافِ ، وَالصَّلَاةِ » ^(١) متفق عليه .

٣٢٨ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّكُمْ سَتَنْفَتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقَيْرَاطُ » ^(٢) .

وفي رواية : « سَتَنْفَتَحُونَ مَضَرَ ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَيْرَاطُ ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا ؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا » ^(٣) .

وفي رواية : « إِذَا افْتَتَحْتُمُوهَا فَأَخْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا ؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا » أو قال : « ذِمَّةٌ وَصِهْرًا » ^(٤) رواه مسلم .

قال العلماء : الرَّحِمُ التي لَهُمْ كَوْنُ هَاجِرٍ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ رضي الله عنه مِنْهُمْ ، « وَالصَّهْرُ » : كَوْنُ مَارِيَةَ أُمِّ

(١) العفاف : الكف عن المحارم ، أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧) ، ومسلم في الجهاد (٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٦) القيراط : قال العلماء : جزء من أجزاء الدينار والدرهم ، وكان هذا اللفظ مستعملاً بين أهل مصر .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٧) .

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٧) وفيه (فتحتموها) ، والإمام أحمد في مسنده (١٧٤/٥) .

إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم .

٣٢٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] دَعَا رسول الله ﷺ قَوْيَشًا ، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ ، وَخَصَّ وَقَالَ : « يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ! يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي الْمُطَّلِبِ ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ ! أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ ؛ فَإِنِّي لَا أَفْلِكَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأُبَلِّغُهَا بِبِلَالِهَا » (١) رواه مسلم .
قوله ﷺ « بِبِلَالِهَا » هو بفتح الباء الثانية وَكسرها « وَالْبِلَالُ » : الماء . ومعنى الحديث : سَأَصِلُهَا ، شَبَّهَ قَطِيعَتَهَا بِالْحَرَارَةِ تُطْفَأُ بِالمَاءِ وَهَذِهِ تُبْرَدُ بِالصَّلَةِ .

٣٣٠ - وعن أبي عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ جهازًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ : « إِنَّ آلَ بَنِي فُلَانٍ لَيَسْهُوْنَ بِأَوْلِيَائِي ، إِنَّمَا وَلِيِّي (٢) اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أُبَلِّغُهَا بِبِلَالِهَا » (٣) متفقٌ عليه . وَاللَّفْظُ لِلْبَخَارِيِّ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله كلها تدل على أهمية صلة الرحم ، أي صلة القرابة وصداقتها بحديث أبي سفيان صخر بن حرب حين وفد ومعه قومٌ من قريش على هرقل ، وكان قد وفد على هرقل قبل أن يسلم ﷺ ؛ لأنه أسلم عام الفتح .

وأما قدمه إلى هرقل فكان بعد صلح الحديبية ، ولما سمع بهم هرقل وكان رجلًا عاقلًا ، عنده علمٌ من الكتاب ، وعنده علمٌ بمبعث النبي ﷺ وبما يدعو إليه ؛ لأن صفة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - موجودة في التوراة والإنجيل ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ النَّبِيُّ الْأَوَّلُ الَّذِي يَحْدُوثُهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] مكتوبًا بصفته ومعروفًا ، حتى إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لا يشكون فيهم .

فلما قدم هؤلاء الجماعة من العرب من مبعث النبي ﷺ ، من الحجاز دعاهم يسألهم عن حال النبي ﷺ ، وعما يأمر به ، وعما ينهى عنه ، وعن كيفية أصحابه ، ومعاملتهم له ، إلى غير ذلك مما سألهم عنه ، وقد ذكره البخاري مطولاً في صحيحه ، وكان من جملة ما سألهم عنه : ماذا يأمر به ؟ قالوا : كان يأمرنا بالصلة والصدق والعفاف .

الصلة يعني : صلة الرحم ، والصدق : الخبر الصحيح المطابق للواقع ، والعفاف عن الزنى ، وعما في أيدي الناس من الأموال وكذلك الأعراض .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٨) ، وفيه أن نداء بني عبد شمس بعد نداء بني مرة بن كعب .

(٢) قوله « إِنَّمَا وَلِيِّي » أي ناصري والذي أتولاه في جميع الأمر .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٠) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان (٣٦٦) .

ثم إنه لما ذكر لهم ما ذكر قال له : إن كان ما تقوله حقاً فسيملك ما تحت قدمي هاتين ، يقول ذلك وهو أحد الرئيسين في الدولتين الكبيرتين الروم والفرس .

يقول ذلك وهو ملك له مملكة كبيرة عظيمة ، لكنه يعلم أن ما جاء به النبي ﷺ حق ، وأنه هو الصواب المطابق للفترة ولمصالح الخلق ، كان يأمر بالصدق والعفاف والصلة ، أي صلة الأرحام . ثم ذكر المؤلف ﷺ ، أحاديث في هذا المعنى ، أي في صلة الأرحام ، ومنها أن النبي ﷺ لما أنزل الله عليه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] جمع قريشاً ، وعمم وخصص وقال : « يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني فلان » يعذهم أفخاداً أفخاداً ^(١) حتى وصل إلى ابنته فاطمة ، قال : « يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار ؛ فإني لا أملك لك من الله شيئاً » وهذا من الصلة .

وبين أن لهم رحماً سيلها بيلالها ، أي سيلها بالماء ؛ وذلك لأن قطعة الرحم نار والماء يطفئ النار ، وقطعة الرحم موت والماء به الحياة ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] فشبه الرسول ﷺ صلة الرحم بالماء الذي يُبَلُّ به الشيء .

وكذلك أيضاً من الأحاديث التي ساقها المؤلف ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي » وذلك لأنهم كفار .

والواجب على المؤمن أن يتبرأ من ولاية الكافرين ، كما قال الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهِكُمْ وَبَيْنَكُمْ وَالْعَذَابُ إِلَّا تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ ضَعْفُؤُكُمْ ﴾ [الممتحنة : ٤] فتنبرأ منهم مع قرابتهم له .

قال : « ولكن لهم رحم أثلها بيلالها » يعني سأعطيها حقها من الصلة ، وإن كانوا كفاراً . وهذا يدل على أن القريب له حق الصلة وإن كان كافراً ، لكن ليس له الولاية ، فلا يوالى ولا يُناصر لما عليه من الباطل .

ثم ذكر أيضاً من الأحاديث أن النبي ﷺ أخبر الصحابة بأنهم سيفتحون مصر ، وأوصى بأهلها خيراً ، وقال : « إن لهم رحماً وصهراً » وذلك أن هاجر أم إسماعيل سرية إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - كانت من مصر ، ولهذا قال : « إن لهم ذمة ورحماً » ؛ لأنهم أحوال إسماعيل ، وإسماعيل هو أبو العرب المستعربة كلها .

فدل ذلك على أن الرحم لها صلة ولو كانت بعيدة . ما دمت تعرف أن هؤلاء من قبيلتك فلهم الصلة ولو كان بعداء .

ودل أيضاً على أن صلة القرابة من جهة الأم كصلة القرابة من جهة الأب .

(١) أي دعاهم فَيَخِذًا فَيَخِذًا : والفَخِذُ العشيرة .

٣٣١ - وعن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ! أخبرني بعمل يَدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ . فقال النبي ﷺ : « تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ » ^(١) متفق عليه .

٣٣٢ - وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِذَا أَفْطَرْنَا أَحَدُكُمْ ، فَلْيَفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ ؛ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا ، فَلَمَاءٌ ؛ فَإِنَّهُ طَهُورٌ » وقال : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ : صَدَقَةٌ ، وَصِلَةٌ » ^(٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٣٣٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ ، وَكُنْتُ أَحِبُّهَا ، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا ، فَقَالَ لِي : طَلِّقْهَا ، فَأَتَيْتُ ، فَاتَى عُمَرُ رضي الله عنه النبي ﷺ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ النبي ﷺ : « طَلِّقْهَا » ^(٣) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٣٣٤ - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً أتاه فقال : إِنَّ لِي امْرَأَةً وَإِنَّ أُمِّي تَأْمُرُنِي بِطَلْقِهَا ؟ فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، فَإِنْ شِفَتْ ، فَأَضِيعَ ذَلِكَ الْبَابُ ، أَوْ أَحْفَظَتْ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٣٣٥ - وعن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ » ^(٥) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة ، منها حديث أصحاب الغار ، وحديث جريج وقد سبقا ، وأحاديث مشهورة في الصحيح حَدَّثَتْهَا اخْتِصَارًا ، وَمِنْ أَمَمَّهَا حَدِيثُ عَفْرُو بْنِ عَبْسَةَ رضي الله عنه الطَّوِيلُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى جَمَلٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوَائِدِ الْإِسْلَامِ وَأَدَابِهِ ، وَسَادُّ كُرْهُ بَتَعَامِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَابِ الرَّجَاءِ ، قَالَ فِيهِ : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ - يَغْنِي فِي أَوَّلِ الثُّبُوتِ - فَقُلْتُ لَهُ : مَا أَنْتَ ؟ قَالَ : « نَبِيٌّ » فَقُلْتُ : وَمَا نَبِيٌّ ؟ قَالَ : « أُرْسَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى » فَقُلْتُ : بِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ ؟ قَالَ : « أُرْسَلَنِي بِصَلَاةِ الْأَرْحَامِ ، وَكَسْرِ الْأَوْتَانِ ، وَأَنْ يُؤَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ » وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ ^(٦) . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان صلة الرحم وبر الوالدين .

منها حديث خالد بن زيد الأنصاري : أنه سأل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويباعده من النار ،

(١) أخرجه - بنحوه - البخاري في الزكاة (١٣٩٦) ، ومسلم في الإيمان (١٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٦٥٨) ، وابن ماجه في الصيام (١٦٩٩) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٥١٣٨) ، وأخرجه - بنحوه - الترمذي في سننه (١١٨٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٠٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٤٥/٦) ، وليس فيه (فإن شئت) .

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٠٤) . (٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٩٤) .

فقال له : « تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتصل الرحم » . والشاهد هنا حيث قال : « تصل الرحم » ، فجعل النبي ﷺ صلة الرحم من الأسباب التي تدخل الإنسان الجنة وتباعده عن النار .

ولاشك أن كل إنسان يسعى إلى هذا الكسب العظيم ؛ أن ينجو من النار ويدخل الجنة ، فإن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وكل مسلم يسعى إلى ذلك ، وهذا يحصل بهذه الأمور الأربعة .
الأول : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، لا شركاً أصغر ولا شركاً أكبر .

والثاني : تقيم الصلاة ، وتأتي بها كاملة في أوقاتها مع الجماعة إن كنت رجلاً ، ودون الجماعة إن كانت امرأة .

والثالث : تؤتي الزكاة ؛ بأن تؤدي ما أوجب الله عليك من الزكاة في مالك إلى مستحقه .
والرابع : تصل الرحم ؛ بأن تؤتيهم حقهم بالصلة حسب ما يتعارف الناس ، فما أعده الناس صلة فهو صلة ، وما لم يعدوه صلة فليس بصلة ، إلا إذا كان الإنسان في مجتمع لا يبالون بالقرابات ، ولا يهتمون بها ، فالعبرة بالصلة نفسها المعتبرة شرعاً .

ثم ذكر حديث سلمان بن عامر الضبي ، في الإفطار على التمر ، فإن لم يجد فعلى ماء ، وأن الصدقة على الفقير صدقة ، وعلى ذي القرابة ثنتان ؛ صدقة وصلة .

ولهذا قال العلماء : إذا اجتمع فقيران أحدهما من قرابتك والثاني من غير قرابتك ، فالذي من قرابتك أولى ؛ لأنه أحق بالصلة .

ثم ذكر حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أنه كان له امرأة يحبها ، فأمره أبوه أن يطلقها ، لكنه أبى ذلك ؛ لأنه يحبها ، فذكر عمر ذلك للنبي ﷺ ، فأمر ابن عمر بطلاقها .

وكذلك الحديث الآخر في امرأة كانت تأمر ابنها بطلاق زوجته فبين النبي ﷺ أن صلة الرحم أو بر الوالدين سبب لدخول الجنة ، وهو إشارة إلى أنه إذا بر والدته بطلاق زوجته كان ذلك سبباً لدخول الجنة .

ولكن ليس كل والد يأمر ابنه بطلاق زوجته تجب طاعته ؛ فإن رجلاً سأل الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله ، قال : إن أبي يقول : طلق امرأتك ، وأنا أحبها ، قال : لا تطلقها ، قال : أليس النبي ﷺ قد أمر ابن عمر أن يطلق زوجته لما أمره عمر ، فقال له الإمام أحمد : وهل أبوك عمر ؟ لأن عمر نعلم علم اليقين أنه لن يأمر عبد الله بطلاق زوجته إلا لسبب شرعي ، وقد يكون ابن عمر لم يعلمه ؛ لأنه من المستحيل أن عمر يأمر ابنه بطلاق زوجته ليفرق بينه وبين زوجته بدون سبب شرعي . فهذا بعيد . وعلى هذا فإذا أمر أبوك أو أهلك بأن تطلق امرأتك ، وأنت تحبها ، ولم تجد عليها مأخذاً شرعياً ، فلا تطلقها ؛ لأن هذه من الحاجات الخاصة التي لا يتدخل أحدٌ فيها بين الإنسان وبين زوجته .

٤١ - باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم

قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿ [محمد : ٢٢ ، ٢٣] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقْسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَفَضَى رَبِّيكَ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا أَوْ لَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

٣٣٦ - وعن أبي بكره نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أُتْبِعُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ » - ثَلَاثًا - قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَالَ : « الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ » وَكَانَ مُشْكِكًا فَجَلَسَ ، فَقَالَ : « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ » فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ ^(١) . متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب تحريم العقوق وقطيعة الأرحام .
العقوق بالنسبة للوالدين ، وقطيعة الأرحام بالنسبة للأقارب غير الوالدين .

والعقوق : مأخوذ من العق وهو القطع ، ومنه سميت العقيقة التي تذبح عن المولود في اليوم السابع ؛ لأنها تعق : يعني تقطع رقبته عن الذبح .

والعقوق من كبائر الذنوب لثبوت الوعيد عليه من الكتاب والسنة وكذلك قطيعة الرحم . قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿ يعني أنكم إذا توليتم أفسدتم في الأرض ، وقطعتم الرحم وحقت عليكم اللعنة . ﴿ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ المراد بالأبصار هنا البصيرة وليس بصر العين ، والمراد أن الله تعالى يعمي بصيرة الإنسان - والعياذ بالله - حتى يرى الباطل حقًا والحق باطلاً .

وهذه عقوبة أخروية ودينية :

أما الأخروية : فقولوه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ .

وأما الدنيوية : فقولوه ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ ، يعني أصم أذانهم عن سماع الحق والانتفاع به ، ﴿ وَأَعَمَّى ﴾

(١) أخرجه - بنحوه - البخاري في الشهادات (٢٦٥٤) ، ومسلم في الإيمان (١٤٣) ، باختلاف يسير والإمام أحمد في مسنده (٣٦/٥) .

أَبْصَرْتُمْ ﴿١﴾ ، عن رؤية الحق والانتفاع به .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ، ميثاق العهد : توكيده ، فينقضون العهد ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من القربات وغيرهم ، ويفسدون في الأرض بكثرة المعاصي ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ واللعة تعني : الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أي سوء العاقبة .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنِي وَلَاهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ۖ ﴾ .

فأمر الله بالإحسان إلى الوالدين ، وقال : إن بلغا عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، إما الأم أو الأب أو الأم والأب جميعًا فزجرت منهم ؛ لأن الإنسان إذا كبر قد يصل إلى الهرم وأرذل العمر فيستعيب ، فقال حتى في هذا الحال ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنِي ﴾ أي لا تقل : إني متضجر منكما ﴿ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ﴾ أي عند القول ، ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ يعني طيبًا حسنًا يدخل السرور عليهما ، ويزيل عنهما الكآبة والحزن ، ﴿ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ يعني تذلل لهما مهما بلغت من علو المنزلة ، كما تعلق الطيور ، فاخفض لهما جناح الذل ، وتذلل لهما رحمة بهما ، ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾ فارحمهما أنت ، وادعُ الله أن يرحمهما .

هذا هو الذي أمر الله به بالنسبة للوالدين في حالة الكبر ، وأما في حال الشباب ؛ فإن الوالد في الغالب يكون مستغنياً عن ولده ولا يهيمه .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الإشرak بالله ، وعقوق الوالدين » ، هذا من أكبر الكبائر .

فالإشرak بالله كبيرة في حق الله ، وعقوق الوالدين كبيرة في حق من هم أحق الناس بالولاية والرعاية ، وهما الوالدان .

وكان ﷺ متكئاً فجلس أي معتمداً على يده ، فجلس واستقام في جلسته وقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » .

هذا أيضاً من أكبر الكبائر وإنما جلس النبي ﷺ عند هذا لأن هذا ضرره عظيم ، وعاقبته وخيمة . وقول الزور يعني الكذب ، وشهادة الزور أي الذي يشهد بالكذب والعياذ بالله ، وما أُرخص شهادة الزور اليوم عند كثير من الناس ، يظن الشاهد أنه أحسن إلى من شهد له ، ولكنه أساء إلى نفسه ، وأساء إلى من شهد له ، وأساء إلى من شهد عليه .

أما إساءته إلى نفسه فلأنه أتى كبيرة من كبائر الذنوب والعياذ بالله ، بل من أكبر الكبائر ، وأما كونه أساء إلى المشهود له فلأنه سلطه على ما لا يستحق وأكله الباطل ، وأما إساءته إلى المشهود عليه

فظاهره ؛ فإنه ظلمه واعتدى عليه ، ولهذا كانت شهادة الزور من أكبر الكبائر والعياذ بالله .
ولا تظن أنك إذا شهدت لأحد زورا أنك محسن إليه ، لا والله ... بل أنت مسيء إليه ، وللأسف
فكثير من الناس الآن يشهد عند الحكومة في المسائل بأن فلان هو المستحق ، ويلبسون على
الحكومة ^(١) ، ويستعيرون أسماء ليست بصحيحة ، كل هذا من أجل أن ينالوا شيئا من الدنيا ، لكنهم
خسروا الدنيا والآخرة بهذا الكذب والعياذ بالله .
وهذا الحديث يوجب للعاقل الحذر من هذه الأمور الأربعة : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ،
وقول الزور ، وشهادة الزور .

٣٣٧ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الكبائر : الإشراك بالله ،
وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . واليمين الغموس » ^(٢) رواه البخاري .
« اليمين الغموس » التي يخلفها كاذبا غامدا ، سُميت غموسا ؛ لأنها تغمش الخالف في الإنم .
٣٣٨ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر : شتم الرجل والديه ! » قالوا : يا رسول الله
وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ؛ يشتم أبا الرجل ، فيشتم أباه ، ويشتم أمه ، فيشتم
أمه » ^(٣) متفق عليه .
وفي رواية : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ! » قيل : يا رسول الله ! كيف يلعن
الرجل والديه ؟ قال : « يشتم أبا الرجل ، فيشتم أباه ، ويشتم أمه ، فيشتم أمه » ^(٤) .
٣٣٩ - وعن أبي محمد مجيب بن مطيع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ »
قال سفيان في روايته : يعني : قاطع رجم ^(٥) . متفق عليه .
٣٤٠ - وعن أبي عيسى المغيرة بن شعبه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى حرم عليكم
عقوق الأمهات ، ومنقأ وهات ، وأذ البنات ، وكرة لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة
المال » ^(٦) متفق عليه .

قوله : « منقأ » معناه : منع ما وجب عليه ، و « هات » : طلب ما ليس له ، و « أذ البنات »
معناه : دقهن في الحياة ، و « قيل وقال » معناه : الحديث بكل ما يسمعه ، فيقول : قيل كذا ، وقال
فلان كذا بما لا يعلم صحته ولا يظنها ، وكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع . و « إضاعة

(١) أي يلبسون عليها . (٢) أخرجه البخاري في الإيمان والنور (٦٦٧٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) . (٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٣) .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٨) .

(٦) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الأدب (٥٩٧٥) وفيه (ومنع) ، ومسلم بنحوه في الأقضية (١٢) .

المال : تَبْذِيرُهُ وَحَرْفُهُ فِي غَيْرِ الرُّجُوهِ الْمَأْذُونِ فِيهَا مِنْ مَقَاصِدِ الْآخِرَةِ وَالْدُّنْيَا ، وَتَرْكُ حِفْظِهِ مَعَ إِمْتِنَانِ الْحِفْظِ . و « كَثْرَةُ السُّؤَالِ » : الإِلْحَاحُ فِيمَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ .

وفي البابِ أَحَادِيثٌ سَبَقَتْ فِي الْبَابِ قَبْلَهُ كَحَدِيثِ : « وَأَقْطَعُ مَنْ قَطَعَكَ » وحديث : « مَنْ قَطَعَنِي قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ » .

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدل على تحريم قطيعة الرحم وعقوق الوالدين ، وقد سبق لها نظائر ، وما فيه زيادة عما سبق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » يعني : سبهما ولعنهما كما جاء ذلك في رواية أخرى : « لعن الله من لعن والديه » قالوا : يا رسول الله ، كيف يشتم الرجل والديه ؟ لأن هذا أمر مستغرب ، وأمر بعيد . قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

وذلك تحذير من أن يكون الإنسان سبياً في شتم والديه بأن يأتي إلى شخص فيشتم والذي الشخص ، فيقابله الشخص الآخر بالمثل ويشتم والديه ، ولا يعني ذلك أنه يجوز للثاني أن يشتم والذي الرجل ؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولكنه في العادة والطبيعة أن الإنسان يجازي غيره بمثل ما فعل به ، فإذا سبه سبه .

وذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا ^(١) بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] لذلك لما كان سبياً في سب والديه كان عليه إثم ذلك .

ثم ذكر المؤلف حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعاً وهات ، ووأد البنات » الشاهد من هذا الحديث قوله : « عقوق الأمهات » وهو قطع ما يجب لهن من البر ، وأما وأد البنات : فهو دفنهن أحياء ، وذلك لأنهم في الجاهلية كانوا يكرهون البنات ، ويعيرون بقاء البنت عند الرجل ، ويقولون : إن بقاء البنت عند الرجل مسبة له .

فكانوا - والعياذ بالله - يأتون بالبنت فيحفرون لها حفرة ويدفنونها وهي حية . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَبَتْ ^(٢) بِأَنْفِ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨ ، ٩] فحرم الله ذلك ، وهو لاشك من أكبر الكبائر ، وإذا كان قتل الأجنبية المؤمن سبياً للخلود في النار كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] ، فالقراءة أشد وأشد .

« ومنعاً وهات » يعني أن يكون الإنسان جموعاً متنوعاً ؛ يمنع ما يجب عليه بذله من المال ، ويطلب ما ليس له ، فهات : يعني أعطوني المال ، ومنعاً : أي يمنع ما يجب عليه ، فإن هذا أيضاً مما

(١) عدواً : اعتداء وظلماً

حرمه الله ﷻ ؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يمنع ما يجب عليه بذله من المال ، ولا يجوز أن يسأل ما لا يستحق ، فكلاهما حرام ، ولهذا قال : « إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ، ومنقأ وهات » .
 « وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » ، كره وحرّم ليس بينهما فرق ؛ لأن الكراهة في لسان الشارع معناها التحريم . ولكن هذا والله أعلم من باب اختلاف التعبير فقط .
 « كره لكم قيل وقال » يعني نقل الكلام ، وكثرة ما يتكلم الإنسان ويثرثر به ، وأن يكون ليس له هم إلا الكلام في الناس ، قالوا كذا وقيل كذا ، ولا سيما إذا كان هذا في أعراض أهل العلم وأعراض ولاية الأمور ، فإنه يكون أشد وأشد كراهة عند الله ﷻ .

والإنسان المؤمن هو الذي لا يقول إلا خيراً كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ^(١) .

وكثرة السؤال يحتمل أن يكون المراد السؤال عن العلم ، ويحتمل أن يكون المراد السؤال عن المال .
 أما الأول : وهو كثرة السؤال عن العلم فهذا إنما يكره إذا كان الإنسان لا يريد إلا إعانت المسؤول ، والإشفاق عليه ، وإدخال السأمة والملل عليه ، أما إذا كان يريد العلم فإنه لا ينهى عن ذلك ، ولا يكره ذلك ، وقد كان عبد الله بن عباس ؓ كثير السؤال ، فقد قيل له : بم أدركت العلم ؟ قال : أدركت العلم بلسان سؤال ، وقلب عقول ، وبدن غير ملول .
 لكن إذا كان قصد السائل الإشفاق على المسؤول والإعانت عليه ، وإلحاق السأمة به ، أو تليق زلاته لعله يزل فيكون في ذلك قدح فيه ، فإن هذا هو المكروه .

وأما الثاني : وهو سؤال المال فإن كثرة السؤال قد تلحق الإنسان بأصحاب الشح والطمع ، ولهذا لا يجوز للإنسان سؤال المال إلا عند الحاجة ، أو إذا كان يرى أن المسؤول يمن عليه أن يسأله ، كما لو كان صديقاً لك قوي الصداقة ، قريباً جداً ، فسأله حاجة وأنت تعرف أنه يكون بذلك ممنوناً ، فهذا لا بأس به ، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فلا يجوز أن تسأل إلا عند الضرورة .

وأما إضاعة المال فهو بذل الإنسان له في غير فائدة لا دينية ولا دنيوية ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَا تَوَسَّوْا السُّبُهَةَ أَنْتُمْ لَكُمْ إِلَهٌ لَكُمْ فِيمَا ﴾ [النساء : ٥] فالمال قيام للناس ؛ تقوم به مصالح دينهم ودنياهم ، فإذا بذله الإنسان في غير ذلك فهذا إضاعة له ، وأقبح من ذلك أن يبذله في محرم ، فيرتكب في هذا محظورين :

المحظور الأول : إضاعة المال .

والمحظور الثاني : ارتكاب المحرم .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٥) ، ومسلم في الإيمان (٤٧) واللقطة (١٤) ، والترمذي في سنته (٢٥٠٠ ، ١٩٦٧) .

فالأموال يجب أن يحافظ عليها الإنسان ، وألا يضيعها وألا يذلها إلا فيما فيه مصلحة له دينية أو دنيوية .

* * *

**٤٢ - باب بز أصدقاء الأب
والأم والأقارب والزوجة وسائر من يندب إكرامه**

٣٤١ - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن أبر البر أن يصل الرجل وُدَّ أبيه » ^(١) .
٣٤٢ - وعن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة ، فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، قال ابن دينار ، فقلنا له : أضحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان وُدًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أبر البر صلة الرجل أهل وُدَّ أبيه » ^(٢) .

وفي رواية عن ابن دينار عن ابن عمر : أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يترؤخ عليه إذا مل ركوب الراحلة وعمامة يشدُّ بها رأسه ، فبينما هو يوماً على ذلك الحمار إذ مرَّ به أعرابي ، فقال : ألفت ابن فلان ابن فلان ؟ قال : بلى . فأعطاه الحمار ، فقال : ارتكب هذا ، وأعطاه العمامة وقال : اشدُّ بها رأسك ، فقال له بغض أصحابه : غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت ترؤخ عليه ، وعمامة كنت تشدُّ بها رأسك ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل وُدَّ أبيه بعد أن يولي » ^(٣) وإن أباه كان صديقاً لعمر رضي الله عنه ، روى هذه الروايات كلها مسلم .

الشرح

لما ذكر المؤلف ﷺ أحكام بر الوالدين وصلة الأرحام ذكر أيضاً أحكام صلة من يصل الوالدين والأرحام ، وذلك للعلاقة التي بينهم وبين أقاربه أو بينهم وبين والديه ، ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما وهي قصة غريبة - كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا خرج إلى مكة حاجاً يكون معه حمار يتروح عليه إذا مل الركوب على الراحلة - أي على البعير - فيستريح على هذا الحمار ثم يركب الراحلة .
وفي يوم من الأيام لقيه أعرابي فسأله ابن عمر : أنت فلان بن فلان ؟ قال : نعم ، فنزل عن الحمار

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٩٧/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١١) ، والترمذي في سننه (١٩٠٣) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣) .

وقال : خذ هذا اركب عليه ، وأعطاه عمامة كان قد شد بها رأسه وقال لهذا الأعراي : اشدد رأسك بهذا .
فقيل لعبد الله بن عمر : أصلحك الله أو غفر الله لك ! إنهم لأعراب ، والأعراب يرضون بدون ذلك ، يعنون : كيف تنزل أنت عن الحمار تمشي على قدميك ، وتعطيه عمامتك التي تشد بها رأسك ، وهو أعراي يرضى بأقل من ذلك .

فقال : إني سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه » يعني : إن أبر البر أنه إذا مات أبو الرجل أو أمه أو أحد من أقاربه أن تبر أهل وده ، يعني ليس صديقه فقط بل حتى أقارب صديقه .

وإن أبا هذا كان صديقاً لعمر أي لعمر بن الخطاب أبيه ، فلما كان صديقاً لأبيه فأكرمه برأ أبيه عمر ﷺ .

وفي هذا الحديث : دليل على امتثال الصحابة ، ورغبتهم في الخير ومسايرتهم إليه ؛ لأن ابن عمر استفاد من هذا الحديث فائدة عظيمة ، فإنه فعل هذا الإكرام بهذا الأعراي من أجل أن أباه كان صديقاً لعمر ، فما ظنك لو رأى الرجل الذي كان صديقاً لعمر ؟ لأكرمه أكثر وأكثر .

فيستفاد من هذا الحديث : أنه إذا كان لأبيك أو أمك أحد بينهم وبينه وُدٌ فأكرمه ، كذلك إذا كان هناك نسوة صديقات لأمك فأكرم هؤلاء النسوة ، وإذا كان رجال أصدقاء لأبيك فأكرم هؤلاء الرجال ، فإن هذا من البر .

وفي هذا الحديث أيضاً : سعة رحمة الله ﷻ حيث إن البر باب واسع لا يختص بالوالد والأم فقط ، بل حتى أصدقاء الوالد وأصدقاء الأم ، إذا أحسنت إليهم فإنما بررت والديك فتثاب ثواب البار بوالديه .
وهذه من نعمة الله ﷻ ، أن وسع على عباده أبواب الخير وكثرها لهم ، حتى يلجوا ^(١) فيها من كل جانب نسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين من البررة ، إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

٣٤٣ - وعن أبي أسيد - بضم الهمزة وفتح السين - مالك بن ربيعة الساعدي رحمه الله قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال : « نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » ^(٢) رواه أبو داود .

٣٤٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة رضي الله عنها ، وما رأيتها قط ، ولكن كان يُكَيَّرُ ذكرها ، وربما ذبح الشاة ، ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها

فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةٍ ، قَرَّبْنَا قَلْبَ لَهْ : كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا خَدِيجَةُ ! فيقول : « إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ » متفق عليه ^(١) .

وفي رواية : « وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاءَ ، فَيَهْدِي فِي خِلَالِهَا مِنْهَا مَا يَسْعُهُنَّ » ^(٢) .

وفي رواية : « كَانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاءَ يَقُولُ : « أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ » » ^(٣) .

وفي رواية قالت : اشْتَأَذَتْ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أَخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ ، فَارْتَأَحَ لِذَلِكَ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » ^(٤) .

قولها : « فَارْتَأَحَ » هو بالحاء ، وفي الجمع بين الصحيحين لِلْحَمِيدِي : « فَارْتَأَحَ » بالعين ومعناه : اهْتَمَّ بِهِ .

الشرح

كذلك أيضًا يبقى من البر بعد موت الوالدين ما ذكره النبي ﷺ حين سئل : هل بقي من بر أبي شيءٍ أبرهما به بعد موتهما ؟ قال ﷺ : « نعم ، الصلاة عليهما » يعني الدعاء لهما ، وليس المراد صلاة الجنائز ، بل المراد الدعاء .

فالصلاة هنا بمعنى الدعاء وهي كقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] وكان النبي ﷺ إذا أتته الصدقة قال : اللهم صل على آل فلان ، كما قال عبد الله بن أبي أوفى أنه أتى بصدقة قومه إلى النبي ﷺ فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » ^(٥) ، فدعا لهم بالصلاة عليهم .

فقول النبي ﷺ هنا : « الصلاة عليهما » يعني الدعاء لهما بالصلاة ، فيقول اللهم صل على أبي ، أو يدعو لهم بدخول الجنة والنجاة من النار وما أشبه ذلك .

الثاني : « الاستغفار لهما » وهو أن يستغفر الإنسان لوالديه ، وأما « إنفاذ عهديهما » يعني إنفاذ وصيتهما .

فهذه خمسة أشياء : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإكرام صديقيهما ، وإنفاذ عهديهما ، وصلة الرحم التي لا صلة لك إلا بهما ، هذه من بر الوالدين .

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٦) واللفظ له ، ومسلم في فضائل الصحابة (٧٤) ، خلاؤها : جمع خليل وهو الصديق .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٧٥) .

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٢١) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٧٨) واللفظ له .

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٥٩) ، ومسلم في الزكاة (١٧٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٥٣/٤) ، (٣٨١ ، ٣٥٥) .

أما الصدقة لهما ، أو قراءة القرآن لهما ، أو الصلاة - بأن يصلي الإنسان ركعتين ويقول : لوالدي - فهذا لم يأمر به النبي ﷺ ولا أرشد إليه ، بل قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » ^(١) ولم يقل : ولد صالح يتصدق له ، أو يصلي له ، أو يحج له ، أو يعتمر له ، بل قال : يدعو له فالدعاء خير من العمل الصالح للوالدين .

لكن لو فعل الإنسان ونوى بهذا العمل لوالديه لا بأس به ؛ لأن الرسول ﷺ لم يمنع سعد بن عبادَةَ من أن يتصدق لأمه بل أذن له ^(٢) ، ولا الرجل الذي قال : يا رسول الله ، إن أُمِّي افْتَلَتَتْ نفسها ، ولو تكلمت لتصدق ^(٣) .

فهذه خمسة أشياء من بر الوالدين بعد موتهما .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة رضي الله عنها ، والغيرة : انفعال يكون في الإنسان ؛ يحب أن يختص صاحبه به دون غيره ، ولهذا سميت غيرة ؛ لأنه يكره أن يكون الغير حبيبًا لحبيه ، والنساء الضرات هن أشد بني آدم غيرة . وعائشة رضي الله عنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ ، ولم يحب أحدًا مثلها في حياته بعد خديجة ، وكان - عليه الصلاة والسلام - يحب خديجة ؛ لأنها أم أولاده - إلا إبراهيم فمن مارية - ولأنها وازرته ^(٤) وساعدته في أول البعثة ، وواسته في مالها ، فلذلك كان لا ينساها .

فكان في المدينة إذا ذبح شاة أخذ من لحمها وأهداه إلى صديقات خديجة رضي الله عنها ، ولم تصبر عائشة رضي الله عنها على ذلك ، قالت : يا رسول الله ، كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة .

قال : « إنها كانت وكانت » ، يعني كانت تفعل كذا ، وتفعل كذا ، وذكر من خصالها رضي الله عنها . « وكان لي منها ولد » حيث كل أولاده ؛ أربع بنات وثلاثة أولاد كلهم منها إلا ولدًا واحدًا هو إبراهيم عليه السلام ، فإنه كان من مارية القبطية التي أهداها إليه ملك القبط ، فأولاده كلهم من خديجة فلذلك قال إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد .

ويستفاد من هذا الحديث : أن إكرام صديق الإنسان بعد موته يعتبر إكرامًا له ، وبرًا به ، سواء كان من الوالدين ، أو من الأزواج ، أو من الأصدقاء ، أو من الأقارب ، فإن إكرام صديق الميت يعتبر إكرامًا له .

٣٤٥ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خرجت مع جبرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه في سفر ، فكان يخدمني فقلت له : لا تفعل ، فقال : إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا آليث على

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، والترمذي في سننه (١٣٧٦) واللفظ له .

(٢) انظر البخاري في الوصايا (٢٧٦٢) .

(٣) انظر البخاري في الوصايا (٢٧٦٠) ، ومسلم في الوصية (١٢ ، ١٣) .

(٤) وازرته : أي أعانته وقوته .

نَفْسِي أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ ^(١) . متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في بقية أحاديث بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه كان في سفر فجعل يخدم رفقته وهم من الأنصار ، فقبل له في ذلك ، يعني : كيف تخدمهم وأنت صاحب رسول الله ﷺ ؟

فقال : إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئاً ؛ آلت على نفسي ألا أصحب أحداً منهم إلا خدمته ، يعني : حلفت .

وهذا من إكرام من يكرم النبي ﷺ ، فإكرام أصحاب الرجل لإكرام للرجل ، واحترامهم احترام له ، ولهذا جعل ﷺ إكرام هؤلاء من إكرام النبي ﷺ .

٤٣ - باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْظَمْ شَعْرَتَهُ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ ﴾ ^(١) [الفتح : ٣٢] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم وأهل بيت الرسول ﷺ : ينقسمون إلى قسمين :

قسم كفار فهوؤلاء ليسوا من أهل بيته وإن كانوا أقارب له في النسب ، لكنهم ليسوا من أهل بيته ؛ لأن الله قال لنوح - عليه الصلاة والسلام - حين قال : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَبْنَى مِنْ أَهْلِي ﴾ ، وكان ابنه كافراً فقال الله له : ﴿ إِنَّكَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : ٤٦] .

فالكفار من أقارب الرسول ﷺ ليسوا من أهل بيته ، وإن كانوا أقارب له نسباً .

لكن المؤمنين من قرابته هم أهل بيته ، ومنهم أيضاً زوجاته ، فإن زوجاته رضي الله عنهن من آل بيته ، كما قال الله تعالى في سياق نساء أمهات المؤمنين : ﴿ بَيْنَهُنَّ الَّذِينَ تَسَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَنْفُسَهُنَّ فَلَا تَحْضَمْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [٣] وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٨١) واللفظ له ، والبخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٨) .

(٢) أي الزمنها ، فلا تخرجن لغير حاجة مشروعة .

الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُ تَطْهِيرًا ﴿ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣] .

وهذا نص صريح واضح جدًا بأن زوجات الرسول ﷺ من آل بيته ، خلافاً للرافضة الذين قالوا : إن زوجات الرسول ﷺ ليسوا من أهل بيته ، وهذا غير صحيح ، فزوجاته من أهل بيته بلا شك .
ولأهل بيت الرسول ﷺ المؤمنين حقان : حق الإيمان ، وحق القرابة من الرسول ﷺ .
وزوجات الرسول ﷺ أمهات المؤمنين ، كما قال تعالى في كتابه ﴿ أَلَتِيَّ أُولَىٰ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنْفُسِهِمْ وَأَرْوَاجُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] .

فأزواج الرسول ﷺ أمهات للمؤمنين ، وهذا بالإجماع ، فمن قال : إن عائشة رضي الله عنها ليست أمًا لي فليس من المؤمنين ؛ لأن الله قال : ﴿ أَلَتِيَّ أُولَىٰ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنْفُسِهِمْ وَأَرْوَاجُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ ﴾ فمن قال إن عائشة رضي الله عنها ليست أمًا للمؤمنين ، فهو ليس بمؤمن ؛ لا مؤمن بالقرآن ولا بالرسول ﷺ .

وعجباً لهؤلاء ؛ يقدحون في عائشة ويسبوننها ويغضونها وهي أحب زوجات الرسول ﷺ إلى الرسول ﷺ ، لا يحب أحدًا من نسائه مثلما يحبها ، كما صرح ذلك عنه في البخاري أنه قيل : يا رسول الله ، من أحب الناس إليك ؟ قال : « عائشة » . قالوا : فمن الرجال ؟ قال : « أبوها » ^(١) أبو بكر رضي الله عنه .

وهؤلاء القوم يكرهون عائشة ويسبوننها ويلعنونها ، وهي أقرب نساء الرسول ﷺ إليه ، فكيف يقال : إن هؤلاء يحبون الرسول ؟ وكيف يقال : إن هؤلاء يحبون آل الرسول ؟ ولكنها دعاوى كاذبة لا أساس لها من الصحة .

فالواجب علينا احترام آل بيت الرسول ﷺ من قرابته المؤمنين ، ومن زوجاته أمهات المؤمنين ، كلهم آل بيته ولهم حق .

ثم ذكر المؤلف الآية التي سقناها الآن ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ، نقاء وطهارة ، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴾ أي النجس المعنوي ، ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ بعد إزالة النجاسة . والتطهر : تخلية وتخلية ، وقوله ﴿ تَطْهِيرًا ﴾ هذا مصدر مؤكد لما سبق ، يدل على أنها طهارة كاملة .

ولهذا من رمى واحدة من نساء الرسول ﷺ بالزنى - والعياذ بالله - فإنه كافر حتى لو كانت غير عائشة . عائشة ، الذي يرميها بما برأها الله منه كافر مكذب لله ، يحل دمه وماله ، وأما الذي يرمي سواها بالزنى فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه كافر أيضًا ؛ لأن هذا أعظم قدح برسول الله ﷺ ، أن يكون فراشه ممن يزني والعياذ بالله ، وقد قال الله تعالى ﴿ لَقَدْ بَيَّنَّتْ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ [النور: ٢٦] .
فمن رمى واحدة من زوجات الرسول ﷺ بالزنا فقد جعل النبي ﷺ - وحاشاه من ذلك - جعله خبيثًا - نعوذ بالله ؛ لأن الله يقول : ﴿ لَقَدْ بَيَّنَّتْ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ وبهذا يعرف أن المسألة خطيرة وعظيمة ،

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٢) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٣/٤) .

وأن الواجب علينا أن نُكِنَّ المحبة الصادقة لجميع آل بيت الرسول ﷺ ؛ نسائه كلهن والمؤمنين من قرابته .

٣٤٦ - وعن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحُصَيْنُ بنُ سبرة ، وعُمَرُو بنُ مُسلم إلى زيد بن أرقم ؓ فلما جلسنا إليه قال له حُصَيْنُ : لَقَدْ لَقِيتُ يا زَيْدٌ خَيْرًا كثيرًا ، رأيتُ رسولَ الله ﷺ ، وسمعتُ حديثه ، وغزوتُ معه ، وصليتُ خلفه ؛ لَقَدْ لَقِيتُ يا زَيْدٌ خَيْرًا كثيرًا ، حدثنا يا زَيْدٌ ما سمعتُ من رسول الله ﷺ ، قال : يا ابنَ أخي وَاللَّهِ لَقَدْ كَبُرَتْ سِنِّي ، وقَدِمَ عَهْدِي ، ونَسِيتُ بعضَ الَّذِي كُنْتُ أَعْمِي من رسول الله ﷺ ، فَمَا حَدِّثْكُمْ فَأَقْبِلُوا ، وَمَا لَا فَلَائِكُلْفُونِيهِ ، ثُمَّ قال : قام رسول الله ﷺ يومًا فِينَا خَطِيبًا يَمَاءٍ يُدْعَى خُحْمًا يَنْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَوَعَظَ ، وَذَكَرَ ، ثُمَّ قال : « أَمَّا بَعْدُ : أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبَ ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ : أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ ، فِيهِ الْهُدَى وَالتُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ » فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قال : « وَأَهْلُ بَيْتِي ؛ أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي » فَقَالَ لَهُ حُصَيْنُ : وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يا زَيْدٌ ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ؟ قال : نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حَرَّمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ ، قال : وَمَنْ هُمْ ؟ قال : هُمُ آلُ عَلِيٍّ ، وَآلُ عَقِيلٍ ، وَآلُ جَعْفَرٍ ، وَآلُ عَبَّاسٍ ، قال : كُلُّ هَؤُلَاءِ حَرَّمَ الصَّدَقَةَ ؟ قال : نَعَمْ . رواه مسلم .

وفي رواية : « أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ : أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ ، مِنْ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ » ^(١) .

٣٤٧ - وعن ابنِ عُمَرَ ؓ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ؓ مَوْفُوقًا عَلَيْهِ أَنَّهُ قال : ارْزُقُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ ^(٢) . رواه البخاري .

مَعْنَى « ارْزُقُوا » رَاغُوهُ وَاحْتَرِمُوهُ وَأَكْرِمُوهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

هذا الحديث وهذا الأثر في بيان حق آل النبي ﷺ ، وقد سبق أن آل بيته هم زوجاته ومن كان مؤمنًا من قرابته ، من آل علي وآل عَقِيلِ وآل جَعْفَرِ وآل عَبَّاسٍ ، وهم الذين تحرم عليهم الصدقة ؛ لأن النبي ﷺ قال لعنه العباس وقد سأله من الصدقة ، قال : « إِنْ هَذِهِ [الصَّدَقَاتُ إِنَّمَا هِيَ] أَوْسَاخُ النَّاسِ وَإِنِّهَا لَا تَحِلُّ [لِمُحَمَّدٍ وَلَا] لِآلِ مُحَمَّدٍ » ^(٣) .

وآل محمد لهم خصائص ليست لغيرهم ، ففي باب الفيء لهم حق يختصون به ، كما قال تعالى :

(١) أخرجه الروايتين الإمام مسلم في فضائل الصحابة : الأولى برقم (٣٦) ، والثانية (٣٧) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٥١) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٦٨) ، وأبو داود في الإمارة (٢٠) .

﴿وَاتْلَمَّوْا أَنْتُمْ غِنْتُمْ مِنْ مَقْوٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] يعني قرابة النبي ﷺ .
ولهم كرامة وشرف وسيادة ، فلا تحل لهم الصدقة ولا الزكاة الواجبة ؛ لأنها أوساخ الناس ، كما قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] فلا يحل لهم الصدقة ؛ فهم أشرف وأعلى من أن تحل لهم الصدقة ، لكن يُعطون بدلها من الخمس .

ثم يبين في حديث زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال يوم غدیر خم ؛ وهو غدیر بين مكة والمدينة ، نزل فيه النبي ﷺ ، ووعد وذکر ، وحث على القرآن ، وبيّن أن فيه الشفاء والنور ، ثم حث على أهل بيته ، فقال : « أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » . ولم يقل : إن أهل بيته معصومون ، وإن أقوالهم كالقرآن يجب أن يعمل بها ، كما تدعيه الرافضة ، فإنهم ليسوا معصومين ، بل هم يخطؤون كما يخطئ غيرهم ، ويصيبون كما يصيب غيرهم ، ولكن لهم حق قرابة النبي ﷺ كما سبق .

وقوله : « أذكركم الله في أهل بيتي » : يعني اعرفوا لهم حقوقهم ، ولا تظلموهم ، ولا تعتدوا عليهم ، هذا من باب التوكيد ، وإلا فكل إنسان مؤمن له حق على أخيه ، لا يحق له أن يعتدي عليه ، ولا أن يظلمه ، لكن لآل النبي ﷺ حق زائد على حقوق غيرهم من المسلمين .

وإذا كان هذا في حق آل النبي ﷺ فما بالك بحق الرسول ﷺ ؟

حق الرسول ﷺ أعظم الحقوق بعد حق الله ؛ يجب أن يقدم على النفس والولد والأهل وعلى جميع الناس ، في المحبة والتعظيم وقبول هديه وسنته ﷺ ، فهو مقدم على كل أحد ﷺ (١) . نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من أتباعه ظاهراً وباطناً .

٤٤ - باب توفير العلماء والكبار وأهل الفضل

وتقديمهم على غيرهم ، ورفع مجالسهم ، وإظهار مرتبتهم

قال الله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢) [الزمر: ٩] .
٣٤٨ - وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو البصري الأنصاري ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : «يَوْمُ الْقَوْمِ أَفْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً ؛ فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً ؛ فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةَ ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً ؛ فَأَقْدَمُهُمْ سِيًّا ، وَلَا يُؤْمِنُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (٣) رواه مسلم .

(١) انظر البخاري في الإيمان (١٥) ، ومسلم في الإيمان (٧٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٧/٣) .

(٢) أولو الأبواب : أصحاب العقول . (٣) أخرجه مسلم في المساجد (٢٩٠) .

وفي رواية له : « فَأَقْدَمْتُهُمْ سِلْمًا » ^(١) بَدَل « سَيْئًا » : أو إِسْلَامًا .
 وفي رواية : « يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَأْتُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَقْدَمْتُهُمْ قِرَاءَةً ؛ فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً ؛ فَيَوْمُهُمْ أَقْدَمْتُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً ؛ فَلْيَوْمُهُمْ أَكْبَرُهُمْ سَيْئًا » ^(٢) .
 والمراد « بِسُلْطَانِهِ » محل ولايته ، أو الموضع الذي يختص به « وَتَكْرِمَتُهُ » بفتح التاء وكسر الراء : وهي ما يتقرر به من فرائض وسريه ونحوهما .
 ٣٤٩ - وعنه قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مَنَابِتَنَا فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ : « اسْتَوْوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا ، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ ، لِيَلِينِي مِنْكُمْ أَوَّلُو الْأَخْلَامِ وَالنَّهْيُ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ » ^(٣) رواه مسلم .
 وقوله ﷺ : « لِيَلِينِي » هو بتخفيف الثون وليس قبلها ياء ، وزوي بتشديد الثون مع ياء قبلها .
 « وَالنَّهْيُ » : القَوْلُ : « وَأَوَّلُو الْأَخْلَامِ » هُمُ الْبَالِغُونَ ، وَقِيلَ : أَهْلُ الْحِلْمِ وَالْفَضْلِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب توقيير العلماء ، وأهل الفضل ، وتقديمهم على غيرهم ، ورفع مجالسهم ، وإظهار مرتبتهم ، يعني وما يتعلق بهذا من المعاني الجليلة .
 المؤلف رحمه الله يريد بالعلماء علماء الشريعة الذين هم ورثة النبي ﷺ ، فإن العلماء ورثة الأنبياء ؛ لأن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً ، فإن النبي ﷺ توفي عن بنته فاطمة وعمة العباس لم يرثوا شيئاً ؛ لأن الأنبياء لا يورثون إنما ورثوا العلم ^(٤) .
 فالعلم شريعة الله فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر من ميراث العلماء .
 وإذا كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم ، فلمن ورثهم نصيب من ذلك ، أن يعجل ويعظم ويكرم ، فلهذا عقد المؤلف رحمه الله لهذه المسألة العظيمة باباً لأنها مسألة عظيمة ومهمة .
 وتوقير العلماء توقر الشريعة ؛ لأنهم حاملوها ، وبإهانة العلماء تهان الشريعة ؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس ، ذلت الشريعة التي يحملونها ، ولم يبق لها قيمة عند الناس ، وصار كل إنسان يحقرهم ، ويزدرهم فتضيع الشريعة .
 كما أن ولادة الأمر من الأمراء والسلاطين يجب احترامهم وتوقيرهم وتعظيمهم وطاعتهم ، حسب ما جاءت به الشريعة ؛ لأنهم إذا احتقرُوا أمام الناس ، وأذلوا ، وهُوِّنَ أمرهم ؛ ضاع الأمن وصارت البلاد فوضى ، ولم يكن للسلطان قوة ولا نفوذ .
 فهذا الصنفان من الناس : العلماء والأمراء ، إذا احتقرُوا أمام الناس فسدت الشريعة ، وفسد

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٩٠) . (٢) أخرجه مسلم في المساجد (١٩١) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) .

(٤) انظر الحديث الدال على ذلك في سنن أبي داود في العلم (٣٦٤١) ، والترمذي في العلم (٢٦٨٢) .

الأمن ، وضاعت الأمور ، وصار كل إنسان يرى أنه هو العالم ، وكل إنسان يرى أنه الأمير ، فضاعت الشريعة وضاعت البلاد ، ولهذا أمر الله تعالى بطاعة ولاية الأمور من العلماء والأمراء ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

ونضرب لكم مثلاً إذا لم يعظم العلماء والأمراء ، فإن الناس إذا سمعوا من العالم شيئاً قالوا : هذا هين ، قال فلان خلاف ذلك .

أو قالوا : هذا هين هو يعرف ونحن نعرف ، كما سمعنا عن بعض السفهاء الجهال ، أنهم إذا جودلوا في مسألة من مسائل العلم ، وقيل لهم : هذا قول الإمام أحمد بن حنبل ، أو هذا قول الشافعي ، أو قول مالك ، أو قول أبي حنيفة ، أو قول سفيان ، أو ما أشبه ذلك قال : نعم ، هم رجال ونحن رجال ، لكن فرق بين رجولة هؤلاء ورجولة هؤلاء ، من أنت حتى تصادم بقولك وسوء فهمك وقصور علمك وتقصيرك في الاجتهاد وحتى تجعل نفسك ندّاً لهؤلاء الأئمة رحمهم الله ؟

فإذا استهان الناس بالعلماء لقال كل واحد : أنا العالم ، أنا التحرير ^(١) ، أنا الفهامة ، أنا العلامة ، أنا البحر الذي لا ساحل له ، ولما بقي عالم ولصار كل يتكلم بما شاء ، ويفتي بما شاء ، ولتمزقت الشريعة بسبب هذا الذي يحصل من بعض السفهاء .

وكذلك الأمراء ، إذا قيل لواحد مثلاً : أمر الولي بكذا وكذا ، قال : لا طاعة له ؛ لأنه مغل بكذا ومغل بكذا ، وأقول : إنه إذا أخل بكذا وكذا ، فذنبه عليه ، وأنت مأمور بالسمع والطاعة ، حتى وإن شربوا الخمر وحتى إن عانقوا الزمور ، وغير ذلك ما لم نر كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان ، وإلا فطاعتهم واجبة ؛ ولو فسقوا ، ولو عتوا ، ولو ظلموا ^(٢) .

وقد قال النبي ﷺ : « تسمع وتطيع للأمر ، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع » ^(٣) . وقال لأصحابه فيما إذا أخل الأمرء بواجبهم ، قال : « اسمعوا وأطيعوا فإنما عليكم ما حملتم وعليهم ما حملوا » ^(٤) .

أما من يريد أن تكون أمراًؤنا كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، فهذا لا يمكن ، لنكن نحن مثل الرعية في ذلك الوقت ، ولنكن نحن صحابة أو مثل الصحابة حتى يكون ولاية الأمور مثل خلفاء الصحابة .

أما والشعب كما نعلم الآن ؛ أكثرهم مفرط في الواجبات ، وكثير متتهك للحرمان ، ثم يريدون أن يولي الله عليهم خلفاء راشدين ، فهذا بعيد ، لكن نحن علينا أن نسمع ونطيع ، وإن كانوا هم أنفسهم مقصرين فتقصيرهم هذا عليهم . عليهم ما حملوا وعلينا ما حملنا .

(١) التحرير : العالم الحاذق في علمه .

(٢) انظر الحديث الأمر بذلك في صحيح البخاري في الفتن (٧٠٥٣) ، ومسلم في الإمارة (٣١٠ - ٤٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٢) . (٤) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٩ ، ٥٠) .

فإذا لم يوقر العلماء ولم يوقر الأمراء ضاع الدين والدنيا . نسأل الله العافية .

ثم استدل المؤلف بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ : يعني لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؛ لأن الجاهل متصف بصفة ذم ، والعالم متصف بصفة مدح ، ولهذا لو تعير أدنى واحد من العامة وتقول له : أنت جاهل ، غضب وأنكر ذلك ، مما يدل على أن الجاهل عيب مذموم ، كل ينفر منه ، والعلم خير ، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون في أي حال من الأحوال .

العالم يعبد الله على بصيرة ، يعرف كيف يتوضأ ، وكيف يصلي ، وكيف يزكي ، وكيف يصوم ، وكيف يحج ، وكيف يبر والديه ، وكيف يصل رحمه .

العالم يهدي الناس ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] لا يمكن أن يكون هذا مثل هذا ، فالعالم نور يهتدى به ، ويرفع الله به ، والجاهل عالة على غيره ، لا ينفع نفسه ولا غيره ، بل إن أفتى بجهل ضر نفسه وضر غيره ، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون (١) .

ثم استدل المؤلف بحديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله » ، يعني يكون إماماً فيهم أقرؤهم لكتاب الله « فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالشئ فإن كانوا بالشئ سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلماً » أي إسلاماً ، وفي لفظ شيئاً أي أكبرهم شيئاً .

وهذا يدل : على أن صاحب العلم مقدم على غيره ؛ يقدم العالم بكتاب الله ثم العالم بسنة رسول الله ﷺ ، ولا يقدم من القوم في الأمور الدينية إلا خيرهم وأفضلهم .

وهذا يدل : على تقديم الأفضل فالأفضل في الإمامة ، وهذا في غير الإمام الراتب ، أما الإمام الراتب فهو الإمام وإن كان في الناس من هو أقرأ منه ؛ لقول النبي ﷺ في الحديث : « ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه » وإمام المسجد الراتب سلطان في مسجده ، حتى إن بعض العلماء يقول : لو أن أحداً تقدم وصلى بجماعة المسجد بدون إذن الإمام فصلاتهم باطلة ، وعليهم أن يعيدوا ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن هذه الإمامة والنهي يقتضي الفساد .

٣٥٠ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليتني مثكم أولو الأخلام

(١) رأى أن الآية تتحدث عن كل كافر ومؤمن . وقيل إن المراد بهذا المثل رجلان : عمر بن الخطاب حيث كان قبل إسلامه ميثاً فأحياه الله بإسلامه ، وجعل له نوراً يمشي به في الناس ، وقيل عمار بن ياسر . والذي في الظلمات ليس بخارج منها هو أبو جهل عمرو بن هشام لعنه الله ، انظر تفسير ابن كثير (١٧٢/٢) وتفسير الطبري (٣٠/٥-٣٢) ، وتفسير القرطبي (٧٨/٧) .

وَالْتَهَى ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ » ثَلَاثًا « وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ » (١) رواه مسلم (٢) .

٣٥١ - وعن أبي يحيى - وقيل : أبي مُحَمَّدٍ سَهْلٍ بن أبي حَفْصَةَ - بفتح الحاءِ المهملَةِ وإسكانِ الناءِ المثناةِ - الأنصاري رحمه الله قال : انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بن سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ بَنُ مَسْعُودٍ إِلَى خَيْبَرَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صُلُحٌ (٣) ، فَتَفَرَّقَا ، فَأَتَى مُحَيِّصَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بن سَهْلٍ وَهُوَ يَتَشَحَّطُ (٤) فِي دَمِهِ قَيْلًا ، فَدَفَنَهُ ، ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَأَنْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ وَخُوَيْصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ : « كَبُرَ كَبْرُ » وَهُوَ أَخَذْتُ الْقَوْمَ ، فَسَكَتَ ، فَتَكَلَّمَا فَقَالَ : « أَتَحْلِفُونَ وَتَسْتَحْجُونَ قَاتِلَكُمْ ؟ » وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ (٥) . متفقٌ عليه .

وقوله ﷺ : « كَبُرَ كَبْرُ » مَغْنَاهُ : يَتَكَلَّمُ الْأَكْبَرُ .

٣٥٢ - وعن جابر رحمه الله أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتَلَى أَحَدٍ ، يَغْنِي فِي الْقَبْرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : « أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ ؟ » (٦) فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ (٧) . رواه البخاري (٨) .

٣٥٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أَرَانِي فِي الْمَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكِ ، فَجَاءَنِي رَجُلَانِ ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ ، فَتَاوَلْتُ السَّوَاكَ الْأَصْغَرَ ، فَقِيلَ لِي : كَبُرَ ، فَدَفَعْتُهُ إِلَى الْأَكْبَرِ مِنْهُمَا » (٩) رواه مسلم مُسْتَنَدًا وَالبخاري تعليقًا .

٣٥٤ - وعن أبي موسى رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى (١٠) إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ (١١) ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ (١٢) وَالْجَانَفِي عَنَّهُ (١٣) ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ » (١٤) حَدِيثٌ حَسَنٌ رواه أبو داود .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٣) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٥٧/١) ، وفيه (وهوشات الأسواق) .

(٢) أي ما يكون فيها من الاختلاط والمنازعة والخصومات وارتفاع الأصوات واللفظ والفتن . والهوشة والهيشة بمعنى .

(٣) أي بعد فتحها وإقرار أهلها عليها صلحًا . (٤) أي يتخطب ويضطرب .

(٥) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧٣) واللفظ له ، ومسلم في القسامة (١) .

(٦) أي أكثر حفظًا . (٧) قدمه في اللحد أي إلى جهة القبلة من غيره .

(٨) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٣) .

(٩) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤٦) واللفظ له ، ومسلم في الزهد (٧٠) .

(١٠) أي من تعظيمه وتبجيله .

(١١) أي تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام بتوفيره والشفقة عليه .

(١٢) الغلو : التشديد ومجاوزة الحد ، يعني غير المتجاوز الحد في العمل به وتبعية ما خفي واشتبه عليه من معانيه وفي

حدود قراءته ومخارج حروفه . (١٣) أي العادل .

(١٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٣) والبيهقي في سننه (١٦٣/٨) .

٣٥٥ - وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَزَحْمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا » ^(١) حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وفي رواية أبي داود : « حَقٌّ كَبِيرَنَا » .

٣٥٦ - وعن ميمون بن أبي شبيب عليه السلام أن عائشة رضي الله عنها مَرَّ بِهَا سَائِلٌ ، فَأَعْطَتْهُ كِشْرَةً ، وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ ، فَأَقْعَدَتْهُ ، فَأَكَلَ فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ ؟ فَقَالَتْ : قال رسول الله ﷺ : « أَنْزَلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » رواه أبو داود . لكن قال : ميمون لم يُذكر عائشة .

وقَدْ ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ فِي أَوَّلِ صَحِيحِهِ تَفْصِيلًا فَقَالَ : وَذَكَرَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ ، وَذَكَرَهُ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ « مَعْرِفَةُ عُلُومِ الْحَدِيثِ » ^(٢) وقال : هو حديث صحيح .

٣٥٧ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قَدِمَ عُثَيْبَةُ بْنُ حِصْنٍ ، فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُذْنِبُهُمْ عُمَرُ رضي الله عنه ، وَكَانَ الْقَرَاءَةُ أَصْحَابَ مَجْلِسٍ عُمَرُ وَمُشَاوَرَتِهِ ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا ، فَقَالَ عُثَيْبَةُ لِابْنِ أَخِيهِ : يَا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ ، فَاسْتَأْذَنْ لَهُ ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ : قَوْلُ اللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ ، وَلَا تُحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ ، فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ . وَإِنْ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ . وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ^(٣) . رواه البخاري .

٣٥٨ - وعن أبي سعيد سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه قال : لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُلَامًا ، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا أَنْ هُنَا رَجُلًا هُمْ أَسْنُ مِنِّي ^(٤) . متفق عليه .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٤٣) والترمذي في البر والصلة (١٩٢٠) واللفظ للترمذي ، قوله « ويعرف » شرف كبيرنا ، أي بما يستحقه من التعظيم والتبجيل .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٢) . قوله « فأعطته كسرة » بكسر الكاف وسكون المهملة . وهي هنا القطعة المكسورة من الخبز ، قوله « عليه ثياب وهئية » المراد حاله حسنة . قوله « فقيل لها في ذلك » أي لعائشة ، والمعنى قيل لها : لم فرقت بينهما حيث أعطيت الأول كسرة وأقعدت الثاني وأطعمته ؟ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٤٢) . قوله « يذنبهم » أي يقرهم ، قوله « فاستأذن لي عليه » أي أسأل لي منه الإذن في الدخول عليه ، قوله « هي » بكسر الهاء وسكون التحتية : كلمة تهديد ، وقيل : ضمير وثم محذوف ، أي : هي داهية . قوله « فوالله ما تعطينا الجزل » أي ما يجزل لنا من العطاء ، وأصل الجزل : ما عظم من الخطب ، قوله « يوقع به شيئا » أي من العقوبة .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٦٤) ، قوله « فما يمنعني من القول » أي من التحديث .

٣٥٩ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَكْرَمَ شَابَّ شَيْخًا لَيْسَتْهُ إِلَّا قِيَضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِتِّهِ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث غريب .

الشرح

هذه الأحاديث فيها الإشارة إلى ما سبق عن المؤلف رحمته الله بإكرام أهل العلم وأهل الفضل الكبير ، فمن ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لِيَلْنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » قال ذلك ثلاثاً ، « وإياكم وهيشات الأسواق » وفي قوله : ليلني منكم ، اللام لام الأمر ، والمعنى أنه في الصلاة ينبغي أن يتقدم أُولُو الْأَحْلَامِ والنهي .

وأُولُو الْأَحْلَامِ : يعني الذين بلغوا الحلم وهم البالغون ، والنهي جمع نهيية وهي العقل ، يعني العقلاء ، فالذي يجب أن يتقدم في الصلاة العاقلون البالغون ؛ لأن ذلك أقرب إلى فهم ما يقوله النبي ﷺ أو ما يفعله ، من الصغار ونحوهم ، فلهذا حث النبي ﷺ أن يتقدم هؤلاء حتى يلوا الإمام . وليس معنى الحديث لا يلني إلا أُولُو الْأَحْلَامِ والنهي ، بحيث تطرد الصبيان عن الصف الأول ، فإن هذا لا يجوز . فلا يجوز طرد الصبيان عن الصف الأول إلا أن يحدث منهم أذية ، فإن لم يحدث منهم أذية فإن من سبق إلى ما لم يسبق إليه أحد أحق به .

وهناك فرق بين أن تكون العبارة النبوية لا يلني إلا أُولُو الْأَحْلَامِ ، وبين قوله : ليلني أُولُو الْأَحْلَامِ ، فالثانية تحت الكبار العقلاء على التقديم ، والأولى لو قدر أنها نص الحديث لكان ينهي أن يلي الإمام من ليس بالغا ، أو ليس عاقلاً .

ولهذا نقول : إن أولئك الذين يطردون الصبيان عن الصف الأول أخطأوا من جهة أنهم منعوا ذوي الحقوق حقوقهم ؛ فإن النبي ﷺ قال : « من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له » ^(٢) . ومن جهة أخرى أنهم يكرهون الصبيان المساجد ، وهذا يؤدي إلى أن ينفر الصبي عن المسجد إذا كان يطرد عنه .

ومنها : أن هذه لا تزال في نفسه عقدة من الذي طرده ، فتجده يكرهه ويكره ذكره ، فمن أجل هذه المفاسد نقول لا تطردوا الصبيان من أوائل الصفوف .

ثم إننا لو طردناهم من أوائل الصفوف حصل منهم لعب ، لو كانوا كلهم في صف واحد كما يقوله من يقوله من أهل العلم ، لحصل منهم من اللعب ما يوجب اضطراب المسجد ، واضطراب أهل المسجد ، ولكن إذا كانوا مع الناس في الصف الأول ومتفرقين فإن ذلك أسلم من الفوضى التي تحصل بكونهم يجتمعون في صف واحد .

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٢٢) ، قوله « قِيَضَ » أي هيا وسير .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٧١) ، وأشار الألباني في إرواء الغليل (٩/٦ ، ١١) إلى ضعفه .

وقوله ﷺ : « ليلني منكم أولو الأحلام والنهي » يستفاد منه أن الدنو من الإمام له شأن مطلوب ، ولهذا قال ليلني أي يكون هو الذي يليني .

وعلى هذا نقول : إذا كان يمين الصف بعيداً ، وأيسر الصف أقرب منه بشكل واضح ، فإن الصف الأيسر أفضل من الأيمن ، من أجل دنوه من الإمام ؛ ولأنه لما كان الناس في أول الأمر إذا كان إمامهم واثنان معه ، فإنهما يكونونا عن يمينه واحد ، وعن شماله واحد ، ولا يكون كلاهما عن اليمين ، فدل هذا على مراعاة الدنو من الإمام ، وتوسط الإمام من المأمومين .

ولكن هذا الأمر أي كون الإمام واثنان معه يكونان في صف واحد ، هذا نسخ ، وصار الإمام إذا كان معه اثنان يصفان خلفه ، ولكن كونه - حين كان مشروعاً - يجعل أحدهما عن اليمين والثاني عن اليسار ؛ يدل على أنه ليس الأيمن أفضل مطلقاً ، بل الأفضل من الأيسر إذا كان مقارباً أو مثله ، أما إذا تميز بميزة بينة فاليسار مع الدنو من الإمام أفضل .

وفي حديث الرؤيا التي رآها الرسول ﷺ ، أنه كان ﷺ يتسوك بسواك فجاءه رجلان فأراد أن يعطيه الأصغر ، ف قيل له : كبر كبر . فيه دليل أيضاً على اعتبار الكبر ، وأنه يقدم الأكبر في إعطاء الشيء . ومن ذلك إذا قدمت الطعام مثلاً أو القهوة أو الشاي فلا تبدأ باليمين ، بل ابدأ بالأكبر الذي أمامك ؛ لأن النبي ﷺ لما أراد أن يعطيه الأصغر قيل له كبر ، ومعلوم أنه لو كان الأصغر هو الأيسر ما ذهب الرسول ﷺ يعطيه إياه ، فالظاهر أنه أعطى الأيمن من أجل التيامن ، لكن قيل له : كبر يعني : أعطه الأكبر ، فهذا إذا كان الناس أمامك تبدأ بالأكبر ، لا تبدأ باليمين ، أما إذا كانوا جالسين عن اليمين وعن الشمال فابدأ باليمين .

وبهذا يجمع بين الأدلة الدالة على اعتبار التكبير أي مراعاة الكبير ، وعلى اعتبار الأيمن ، أي مراعاة الأيمن ، فنقول إذا كانت القصة كما جاء عن النبي ﷺ أنه كان معه إناء يشرب منه ، وعلى يساره الأشياخ وعلى يمينه غلام ، فقال النبي ﷺ للغلام : « أتأذن لي أن أعطي هؤلاء » فقال الغلام : لا والله ، لا أوثر بنصبي منك أحداً . فأعطاه رسول الله ﷺ (١) . فإذا كان هكذا فأعطه من على يمينك ، أما الذين أمامك فابدأ بالأكبر ، كما تدل عليه السنة ، وهذا هو وجه الجمع بينهما .

ثم إن الإنسان إذا أعطى الشراب الكبير فمن يعطي بعده ؟ هل يعطي الذي على يمين الكبير ويكون عن يسار الصاب ، أم الذي عن يمين الصاب ؟

نقول : يبدأ بالذي عن يمين الصاب وإن كان على يسار الكبير ؛ لأننا إذا اعتبرنا التيامن بعد مراعاة الكبير ، فالذي عن يمينك هو الذي عن يسار مقابلك فتبدأ به ، ما لم يسمح بعضهم لبعض ، ويقول أعطه فلاناً .. أعطه فلاناً ؛ فالحق لهم ، ولهم أن يسقطوه .

(١) أخرجه البخاري في الشرب والمساقاة (٢٣٥١) ، ومسلم في الأشربة (١٢٧) .

٤٥ - باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم

ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ ^(١) لَا أَبْرَحُ ^(٢) حَتَّىٰ أَتِلِّغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ^(٣) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ^(٤) ﴾ [الكهف : ٦٠ - ٦٦] .
وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ^(٥) ﴾ [الكهف : ٢٨] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - باب زيارة أهل الخير ومحبتهم وصحبتهم وطلب الزيارة منهم .
أهل الخير هم أهل العلم والإيمان والصلاح ، و محبتهم واجبة ، لأن أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله ، فإذا كان الإنسان محبته تابعة لحبة الله ، وبغضه تابع لبغض الله ، فهذا هو الذي ينال ولاية الله ﷻ .

وأهل الخير إذا جالستهم فأنت على خير ، لأن النبي ﷺ مثل الجليس الصالح بحامل المسك ، إما أن يحذيك يعني يعطيك ، وإما أن يبيعك ، يعني يبيع عليك ، وإما أن تجد منه رائحة طيبة ^(٥) .
وكذلك ينبغي أن تطلب منهم أن يزوروك ويأتوا إليك لما في مجيئهم إليك من الخير .

ثم ذكر المؤلف قصة موسى ﷺ مع الخضر فإن موسى قال لفته : ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتِلِّغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ^(٣) ﴾ [الكهف : ٦٠] لأن الله أخبره بأن له عبد من عباد الله أتاه الله رحمة منه وعلمه من لدنه علماً ، فذهب موسى يطلب هذا الرجل حتى لقيه ، وذكر الله تعالى قصتهما مبسوطاً في سورة الكهف وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله .

* * *

٣٦٠ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : انْطَلَقْتُ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَزَوُّرَهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزَوُّرُهَا ، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَيْهَا ، بَكَتْ ، فَقَالَا لَهَا : مَا يُبْكِيكِ ؟ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فقالت : إِنِّي لَا أَبْكِي أَنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا ^(٦) . رواه مسلم .

(١) هو يوشع بن نون .

(٢) أي لا أزال أسير .

(٣) أي زمناً طويلاً .

(٤) أي هدى ومعرفة .

(٥) انظر الحديث في البخاري في الذبائح (٥٥٣٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٤٦) .

(٦) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٣) .

٣٦١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « أَنْ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَذْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ . قَالَ : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَزُبُّهَا عَلَيْهِ ؟ قَالَ : لَا ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْبَبَكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ » ^(١) رواه مسلم .

يقال : « أَرْصَدَهُ » لِكَذَا : إِذَا وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ ، وَ « الْمَذْرَجَةُ » بَفَتْحِ الْمِيمِ وَالرَّاءِ : الطَّرِيقُ ، وَمَعْنَى « تَزُبُّهَا » تَقُومُ بِهَا ، وَتَسْعَى فِي صَلَاحِهَا .

٣٦٢ - وعنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ ^(٢) ، نَادَاهُ مُتَاذٍ : بِأَنْ طِبْتَ ، وَطَابَ تَمَشَاكَ ، وَتَبَوَّأتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ غَرِيبٌ .

٣٦٣ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ الشُّوءِ ، كَحَامِلِ الْمِشْكِ ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ ^(٤) ، فَحَامِلِ الْمِشْكِ ، إِذَا أَنْ يُحْذِيكَ ، وَإِنَّمَا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ ، إِذَا أَنْ يُخْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُثْنَتَةً » ^(٥) متفقٌ عليه . « يُحْذِيكَ » يُعْطِيكَ .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل زيارة الإخوان بعضهم لبعض والمحبة في الله ﷻ .

ففي الحديث الأول : في قصة الرجلين من الصحابة رضي الله عنهم ، زارا امرأة كان النبي ﷺ يزورها . فزاراها من أجل زيارة النبي ﷺ إياها . فلما جلسا عندها بكث ، فقالا لها : ما ييكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله ﷻ خير لرسوله ، يعني خير من الدنيا .

فقالت إني لا أبكي لذلك ولكن لانقطاع الوحي ، لأن النبي ﷺ لما مات انقطع الوحي ، بعد رسول الله ﷺ ولهذا أكمل الله شريعته قبل أن يموت ، فقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] فجعلنا ييكيان لأنها ذكرتاهما بما كانا قد نسياه . وأما الأحاديث الأخرى : ففيها أيضًا : فضل الزيارة لله ﷻ ، وأن الله ﷻ يثيب من زار أخاه أو عادته في مرضه ، فيقال له : طبت وطاب ممشاك . ويقال لمن زار أخاه لغير أمر ديني ولكن لمحبة في الله : إن الله أحبك كما أحبته فيه .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٨) . (٢) أي مخلصًا في ذلك لله سبحانه .

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٨) وقال هذا حديث حسن غريب .

(٤) الكبير : جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإذكائها والجمع : أكيار وكيرة .

(٥) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٣٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٤٦) .

والزيارة لها فوائد : منها هذه الأجر العظيم ، العظيم ، ومنها أنها تؤلف القلوب ، وتجمع الناس ، وتذكر الناسي ، وتنبه الغافل ، وتعلم الجاهل ، وفيها مصالح كثيرة يعرفها من جربها .

وأما عيادة المريض : ففيها كذلك أيضًا من الصالح والمنافع الشيء الكثير ، وقد سبق لنا أنها من حقوق المسلم على المسلم . أن يعودوه إذا مرض ^(١) ، ويذكره بالله ﷻ ، بالتوبة والوصية وغير ذلك مما يستفيد منه . فهذه الأحاديث وأشباهها كلها تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يفعل ما فيه المودة والمحبة لإخوانه ، من زيارة وعيادة واجتماع وغير ذلك .

٣٦٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « تُنَكِّحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ^(٢) ، وَلِجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَأَظْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ ^(٣) » ^(٤) متفق عليه .

ومعناه : أَنَّ النَّاسَ يَقْصِدُونَ فِي الْعَادَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ هَذِهِ الْخِصَالِ الْأَرْبَعِ ، فَأَخْرَضَ أَنْتَ عَلَى ذَاتِ الدِّينِ ، وَأَظْفَرُ بِهَا ، وَأَخْرَضَ عَلَى صُحْبَتِهَا .

٣٦٥ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ لجبريل : « مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا ؟ » فَنَزَلَتْ : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ ^(٥) رواه البخاري

٣٦٦ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا ، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا » ^(٦) . رواه أبو داود ، والترمذي بإسناد لا بأس به .

٣٦٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرُوا أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » ^(٧) . رواه أبو داود ، والترمذي بإسناد صحيح ، وقال الترمذي : حديث حسن .

٣٦٨ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » متفق عليه . وفي رواية قال : قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » ^(٨) .

(١) انظر كتاب عيادة المريض من هذا الكتاب ..

(٢) الحسب : شرف الأصل أو ما يعده المرء من مناقبه أو من شرف آبائه .

(٣) تربت يداك : ترب الرجل إذا افتقر ، أي لصق بالتراب ، وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر به ، والمراد بها الخث والتحرير . وقيل : معناه : افتقرت إن لم تفعل ما أرشدتك إليه .

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠) ، ومسلم في الرضاع (٥٣) ، والبيهقي في سننه (٧٩/٧) .

(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣١) .

(٦) أبو داود في الأدب (٤٨٣٢) ، والترمذي في الزهد (٢٣٩٥) .

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٣٣) ، والترمذي في الزهد (٢١٧٨) وفيه (المراد) .

(٨) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٧٠) ، ومسلم في البر والصلة (١٦٥) ، وأبو داود في الأدب (٥١٢٧) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تنكح المرأة لأربع :
لمالها ، وحسبها ، وجمالها ، ودينها . فاظفر بذات الدين » .

يعني أن الأغراض التي تنكح من أجلها المرأة في الغالب تنحصر في هذه الأربع :

المال : من أجل أن ينتفع به الزوج ، والحسب : يعني أن تكون من قبيلة شريفة ، من أجل أن يرتفع بها الزوج ، والجمال : من أجل أن يتمتع بها الزوج ، والدين : من أجل أن تعينه على دينه ، وتحفظ أمانته وترعى أولاده .

قال النبي ﷺ : « فاظفر بذات الدين تربت يداك » يعني تمسك بها واحرص عليها ، وحث على ذلك بقوله ﷺ : « تربت يداك » . وهذه الكلمة تقال عند العرب للحث على الشيء .

ثم ذكر المؤلف أيضًا حديث جبريل أن النبي ﷺ قال : « ألا تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت : ﴿ وَمَا نَنْتَهِزُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤] .

ففي هذا الحديث : طلب زيارة أهل الخير إلى بيتك . فتطلب منهم أن يزوروك من أجل أن تستفيع بصحبتهم .

وكذلك في حديث أبي هريرة صحبة المرأة الدينية تعينك على دين الله .

وقد سبق أيضًا أن مثل الجليس الصالح كحامل المسك ، إما أن يحذيك يعني يعطيك منه ، أو يبعك ، أو تجد منه رائحة طيبة ^(١) .

ثم ذكر المؤلف أحاديث بهذا المعنى ، مثل ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « المرء على دين خليله . فلينظر أحدكم من يخالل » يعني : أن الإنسان يكون في الدين وكذلك في الخلق على قدر من يصاحب ، فلينظر من يصاحب ، فإن صاحب أهل الخير صار منهم ، وإن صاحب سواهم صار مثلهم .

فالحاصل : أن هذه الأحاديث وأمثالها كلها تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يصطحب الأخيار ، وأن يزورهم ويؤزروه ، ويطلب منهم الزيارة لما في ذلك من الخير والفوائد العظيمة .

٣٦٩ - وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « ما أعَدَدْتُ لَهَا » قال : حُبُّ اللَّهِ ورسوله قال : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » ^(١) . متفقٌ عليه ، وهذا لفظ

(۱) انظر الحديث (۳۶۳) من هذا الكتاب .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٨٨) ، ومسلم في البر والصلة (١٦١) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (١٧٢/٣ ، ١٧٣) .

مسلم .

وفي رواية لهما : « مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرٍ صَوْمٍ ، وَلَا صَلَاةٍ ، وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ »^(١) .

٣٧٠ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ » فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »^(٢) متفق عليه .

٣٧١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « النَّاسُ مَعَادِينُ »^(٣) كَمَعَادِينِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا ، وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ^(٤) ، فَمَا تَعَارَفَ^(٥) مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَازَعَ مِنْهَا اخْتَلَفَ »^(٦) رواه مسلم .

وروى البخاري قوله : « الْأَرْوَاحُ » إلخ من رواية عائشة رضي الله عنها .

٣٧٢ - وعن أسير بن عمرو - ويُقال : ابن جابر « وهو بضم الهمزة وفتح السين المهملة » - قال : « كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إِذْ أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ : أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ؟ . قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : لَكَ وَالِدَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَءَهُ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ » فاستغفر لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الْكُوفَةَ ، قَالَ : أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا ؟ قَالَ : أَكُونُ فِي غَيْرِ النَّاسِ أَحَبَّ إِلَيَّ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ ، فَوَافَى عُمَرَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ ، فَقَالَ : تَرَكْتُهُ رَتْ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَءَهُ ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٧١) ، ومسلم في البر والصلة (١٦٤) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٩) ، ومسلم في البر والصلة (١٦٥) .

(٣) معادن : أي أصول للخير والشر بحسب ما جعلهم الله مستعدين له .

(٤) أي جموع مجتمعة وأنواع مختلفة .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٥٣٩/٢) ، ورواية عائشة رضي الله عنها المشار إليها

رواها البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٥/٢) .

(٦) أما تعارفها فهو لأمر جعلها الله عليه . وقيل : إنها موافقة صفاتها التي جعلها الله عليها وتناسبها في شيمها ، وقيل : أنها خلقت مجتمعة ثم فرقت في أجسادها ، فمن وافقه في شيمه ألفه ، ومن باعده نافرته وخالفه .

فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ ، فَأَفْعَلْ » فَأَتَى أُوَيْسًا ، فَقَالَ : اسْتَغْفِرْ لِي ، قَالَ : أَنْتَ أَخَذْتَ عَهْدًا بِسَفَرِ صَالِحٍ ، فَأَسْتَغْفِرُ لِي . قَالَ : لَقِيتَ عُمَرَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَسْتَغْفِرُ لَهُ ، فَقَطِنَ لَهُ النَّاسُ ، فَأَنْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ (١) . رواه مسلم .

وفي رواية لمسلم أيضًا عن أسير بن جابر رضي الله عنه أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَقَدُوا عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه وَفِيهِمْ رَجُلٌ يَمُنُّ كَأَن يَسْحَرَ بِأُوَيْسٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنَ الْقَرْنَيْنِ ؟ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ قَالَ : « إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ : أُوَيْسٌ ، لَا يَدْعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمِّ لَهُ ، قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدَعَا اللَّهُ تَعَالَى ، فَأَذْهَبَهُ إِلَّا مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوْ الدَّرْهَمِ ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ » (٢) .

وفي رواية له عن عمر رضي الله عنه قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : أُوَيْسٌ ، وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ ، فَمُرُوهُ ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ » (٣) .

قوله : « غَيْرَاءُ النَّاسِ » يفتح الغين المعجمة ، واسكان الباء وبالمد ، وهم فقراؤهم وصعاليكهم ومن لا يُعْرِفُ عَيْتَهُ مِنْ أَخْلَاطِهِمْ « وَالْأَمْدَادُ » جفف مددٌ وَهُمْ الْأَعْوَانُ وَالنَّاصِرُونَ الَّذِينَ كَانُوا يُعِيدُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَادِ .

٣٧٣ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ : اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِي الْعُمْرَةِ ، فَأَذِنَ لِي ، وَقَالَ : « لَا تَسْتَسَا يَا أَخِي مِنْ دُعَايِكَ » فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا .
وفي رواية قَالَ : « أَشْرِكْنَا يَا أَخِي فِي دُعَايِكَ » (٤) .

حديث صحيح رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٣٧٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَزُورُ قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَاشِيًا ، فَيُصَلِّي فِيهِ رَكَعَيْنِ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ (٥) .

وفي رواية : « كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُهُ » (٦) .

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٥) ، وأمداد أهل اليمن هم الغزاة الذين يمدون جيوش الإسلام في الغزو وواحدهم مدد . وغبراء الناس أي ضعافهم وصعاليكهم وأخلاطهم الذين لا يؤبه لهم .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٣) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٤) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٩٨) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٢) ، والبيهقي في السنن (٢٥١/٥) .

(٥) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٣ ، ١١٩٤) ، ومسلم في الحج (٥١٥) .

(٦) أخرجه مسلم في الحج (٥٢٠) .

الشرح

هذه الأحاديث تتعلق بالبَاب الذي ذكره المؤلف ، من أنه ينبغي لإكرام العلماء وتوقيرهم واحترامهم ومصاحبة أهل الخير والصلاح وزيارتهم ودعوتهم للزيارة وما أشبه ذلك . ففي الحديث الأول عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابيا قال : يا رسول الله : متى الساعة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ماذا أعددت لها ، » قال : حب الله ورسوله .

ففي هذا الحديث : دليل على أنه ليس الشأن - كل الشأن - أن يسأل الإنسان متى يموت ؟ أو بأي أرض يموت ؟ ولكن على أي حال يموت ؟ هل يموت على خاتمة حسنة ؟ أو على خاتمة سيئة ؟ ولهذا قال : « ماذا أعددت لها ؟ » يعني لا تسأل عنها فإنها ستأتي .

قال تعالى : ﴿ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَا ﴾ [النازعات : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] .

لكن الشأن ماذا أعددت لها ؟ هل عملت ؟ هل أنبت إلى ربك ؟ هل تبت من ذنبك ؟ هذا هو المهم .

وكذلك حديث ابن مسعود وما ذكره المؤلف بعده من فضل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن الإنسان إذا أحب قوما كان منهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام بشيء فرحنا بهذا الحديث ، فأنا أحب الله ورسوله . أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحب أبا بكر وعمر ، فالمرء مع من أحب ، لأنه إذا أحب قوما فإنه يألفهم ، ويتقرب منهم ، ويتخلق بأخلاقهم ، ويقتدي بأفعالهم ، كما هي طبيعة البشر .

وأما حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أراد أن يعتمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تنسنا يا أخي من دعائك - أو أشركنا - يا أخي في دعائك » ، فهذا حديث ضعيف وإن صححه المؤلف ، فإن المؤلف رحمته الله له منهجه الذي منه أنه إذا كان الحديث في فضائل الأعمال فإنه يتساهل في الحكم عليه والعمل به .

وهذا وإن كان يصدر عن حسن نية ، لكن الواجب اتباع الحق ، فالصحيح صحيح ، والضعيف ضعيف ، وفضائل الأعمال تدرك بغير تصحيح الأحاديث الضعيفة .

نعم أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - من رأى أويضا القرنى أو القرنى أن يطلب منه الدعاء . لكن هذا خاص به ، لأنه كان رجلا بارًا بأمه ، وأراد الله تعالى أن يرفع ذكره في هذه الدنيا قبل جزاء الآخرة .

ولهذا لم يأمر النبي - عليه الصلاة والسلام - بأن يطلب أحد من أخيه أن يدعو له ، مع

أن هناك من هو أفضل من أويس ، فأبو بكر أفضل من أويس بلا شك ، وغيره من الصحابة أفضل منه من حيث الصحبة ، وما أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - أحدًا أن يطلب الدعاء من أحد .

فالصواب أنه لا ينبغي أن يطلب أحد الدعاء من غيره ولو كان رجلًا صالحًا ، وذلك لأن هذا ليس من هدي النبي ﷺ ولا من هدي خلفائه الراشدين ، أما إذا كان الدعاء عامًا ، يعني تريد أن تطلب من هذا الرجل الصالح أن يدعو بدعاء عام ، كأن تطلب منه أن يدعو الله تعالى بالغيث أو برفع الفتن عن الناس أو ما أشبه ذلك ، فلا بأس ، لأن هذا لمصلحة غيرك ، كما لو سألت المال للفقير ، فإنك لا تلام على هذا ولا تؤثم .

وكذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - فإن سؤال الصحابة له من خصوصياته ، يسألونه أن يدعو الله لهم ، كما قال الرجل حين حدث النبي ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقام عكاشة بن محصن قال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ﷺ : « سبقك بها عكاشة » (١) .

وكما قالت المرأة التي كانت تصرع ، حيث طلبت من النبي ﷺ أن يدعو الله لها . فقال : « إن شئت دعوت الله لك وإن شئت صبرت ولك الجنة » . فقالت : أصبر ولكن أدع الله أن لا تنكشف عورتى (٢) .

فالحاصل أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - من خصوصياته أن يُسأل الدعاء ، أما غيره فلا . نعم لو أراد الإنسان أن يسأل من غيره الدعاء وقصده مصلحة الغير ، يعني يريد أن الله يثيب هذا الرجل على دعوته لأخيه ، أو أن الله تعالى يستجيب دعوته ، لأنه إذا دعا الإنسان لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك بمثله ، فالأعمال بالنيات . هذا ما نوى ذلك لمصلحة نفسه خاصة بل لمصلحة نفسه ومصلحة أخيه الذي طلب منه الدعاء ، فالأعمال بالنيات . أما المصلحة الخاصة فهذا كما قال الشافعي رحمه الله يدخل في المسألة المذمومة ، وقد بايع النبي ﷺ أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا .

* * *

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري في الرقاق (٦٥٤١) ، ومسلم الإيمان (٣٧١) .

(٢) سبق تخريجه .

٤٦ - باب فضل الحب في الله والحث عليه

وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه ، وماذا يقول له إذا أعلمه

قال الله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] إلى آخر السورة . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الحشر : ٩] .

٣٧٥ - وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ خَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَبْغِيَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ » ^(١) متفق عليه .

٣٧٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ بَيْنَهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب فضل الحب في الله والبغض فيه ، وإعلام الرجل من يحبه ، وما يقول له إذا أعلمه .

هذه أربعة أمور ، بين المؤلف رحمته الله الأدلة الدالة عليها .

فذكر رحمته الله قول الله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ محمد رسول الله ، والذين معه هم أصحابه ، أشداء على الكفار ، أقوياء على الكفار ، رحماء بينهم ، يعني يرحم بعضهم بعضاً .

﴿ تَرَبَّيْتُمْ مَعَهُ سَجْدًا يَتَذَكَّرُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ ، يعني تنظر إليهم في حال الصلاة تجدهم ركعاً سجداً ، خضوعاً لله ﷻ وتقرباً إليه ، لا يريدون شيئاً من الدنيا ، ولكنهم يتفنون فضلاً من الله ورضواناً من الله : هو الثواب ، والرضوان : هو رضا الله عنهم .

﴿ سَيَبَاهُهُمْ فِي رُجُومِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ يعني علامتهم في وجوههم من أثر السجود ، وهذه « السبما » هي نور الوجه . نور وجوههم من سجودهم لله ﷻ . وليست العلامة التي تكون في الجبهة ، وهذه العلامة ربما تكون دليلاً على كثرة السجود ، ولكن العلامة الحقيقية هي نور الوجه . ﴿ سَيَبَاهُهُمْ فِي رُجُومِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ ﴾ يعني ذلك صفتهم في التوبة ، فإن

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦) ، ومسلم في الإيمان (٦٧) واللفظ له وفيه (أن يكون) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) واللفظ له فيه (ذات منصب) ، ومسلم في الزكاة (٩١) .

اللَّهُ ﷻ نُوّه بهذه الأمة وبرسولها ﷺ ، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل ، كما قال الله تعالى ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (١) [الأعراف: ١٥٧] .

﴿وَمَثَلُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْنَجٍ أَخْرَجَ شَرْطَهُ فَأَثَرُهُ فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لَيْغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ يعني : مثلهم كمثل الزرع ، ﴿أَخْرَجَ شَرْطَهُ﴾ يعني : الغصن الثاني غير الغصن الأم ﴿فَأَثَرُهُ﴾ يعني شدة وقواه ، ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ قام وعانق الأصل ، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يعني أهل الخبرة والزرع يعجبهم مثل هذا الزرع القوي ، إذا كان له شطاً مؤازر له ، ومقو له .

﴿لَيْغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي يغیظ الله بهم الكفار من بني آدم ، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ، مغفرة للذنوب وأجرًا عظيمًا على الحسنات .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩] هؤلاء الأنصار ﷺ وأرضاهم ، ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ المدينة ، أي سكنوها ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين ، وحققوا الإيمان من قبل أن يهاجر إليهم المؤمنون ، لأن الإيمان دخل في المدينة قبل الهجرة ، ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ سكنوها ، ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ حققوا الإيمان ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين . ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ لأنهم إخوانهم ولهذا لما هاجروا أخى النبي ﷺ بينهم . أي جعلهم إخوانًا ، حتى إن الواحد من الأنصار كان يتنازل عن نصف ماله لأخيه المهاجري ، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ يعني لا يجدون في صدورهم حسداً مما أوتي المهاجرين من الفضل والولاية والنصرة لرسول الله ﷺ .

﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي يقدمون غيرهم على أنفسهم . ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي ولو كانوا جباناً ، فإنهم كانوا يجيعون أنفسهم ليشبع إخوانهم المهاجرين ﷺ وأرضاهم . ﴿وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ قَوْلُكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني من يقيه الله شح نفسه ، يكون كريماً ، ييسط المال ويبدل ، ويحب أخاه ، فأولئك هم المفلحون .

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هؤلاء وهم التابعون إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم هم تبع لهم ، قد ﷺ كما قال تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

وهذه الآيات الثلاث ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ

(١) الإصر : في الأصل : الثقل الذي يأصر صاحبه ، أي يحبس عن الحراك ، والأغلل : جمع غُل وهو الحديد التي تجمع يد الأسير إلى عنقه . والمعنى هنا أنه يخفف عنهم ما ألزموا العمل به من تكاليف شاقة شديدة في التوراة ، كقطع موضع النجاسة من الثوب ، وإحراق الغنائم ، وتحريم السبت ، وتعين القصاص في القتل مطلقاً دون شرع الدية ، ونحو ذلك .

جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿ آيات تبين من يستحق الفيء من بيت المال ، والذين يستحقون الفيء هم هؤلاء الأصناف الثلاثة ، منهم الذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . سئل الإمام مالك رحمته الله : هل يعطي الرافضة من الفيء ؟ قال : لا يعطون من الفيء ؛ لأن الرافضة لا يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ؛ لأن الرافضة يرون الصحابة إلا نفراً قليلاً يرونهم كلهم كفاراً والعياذ بالله ، حتي أبو بكر وعمر ، يرون أنهما كافران ، وأنهما ماتا على النفاق ، وأنهما ارتدا بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام . نسأل الله العافية .

ولهذا قال الإمام مالك : لا يستحقون من الفيء شيئاً ؛ لأنهم لا يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولكن يخصّون الرحمة والمغفرة أو سؤال المغفرة والرحمة لمن يرون أنهم لم يرتدوا ، وهو نفر قليل من آل البيت واثنتان أو ثلاثة أو عشرة من غيرهم .

فالشاهد من هذه الآية قوله : ﴿ يُجِيبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ يعني من المؤمنين ، وهذا حب في الله ، وإلا فإن الأنصار من الأوس والخزرج ، ليس بينهم وبين المهاجرين نسب . ليسوا من قريش ، لكن الأخوة الإيمانية هي التي جمعت بينهم وصاروا إخواناً لهم . والأخوة الإيمانية هي أوثق عرى الإيمان ، أوثق عرى الإيمان هي الحب في الله والبغض في الله .

ثم ذكر المؤلف حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان » من كن فيه : يعني من اتصف بهن ، « وجد بهن » يعني بسببهن ، « حلاوة الإيمان » ليست حلاوة السكر والعسل ، وإنما هي حلاوة أعظم من كل حلاوة . حلاوة يجدها الإنسان في قلبه ، ولذة عظيمة لا يساويها شيء ، يجد انشراحاً في صدره ، رغبة في الخير ، حباً لأهل الخير . حلاوة لا يعرفها إلا من ذاقها بعد أن حُرّمها .

« أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » وهنا قال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولم يقل : ثم رسوله ؛ لأن محبة الرسول - عليه الصلاة والسلام - هنا تابعة وتابعة من محبة الله ﷻ .

فالإنسان يحب الرسول بقدر ما يحب الله ، كلما كان لله أحب ، كان للرسول صلى الله عليه وسلم أحب . لكن مع الأسف إن بعض الناس يحبّ الرسول مع الله ولا يحب الرسول لله .

انتبهوا لهذا الفرق . يحب الرسول - مع الله - ولا يحب الرسول لله . كيف ؟ تجده يحب الرسول أكثر من محبته لله ، وهذا نوع من الشرك . أنت تحب الرسول لله ، لأنه رسول الله ، والمحبة في الأصل والأم محبة الله ﷻ ، ولكن هؤلاء الذين غلوا في رسول صلى الله عليه وسلم ، يحبون الرسول مع الله لا يحبونه لله ، أي يجعلونه شريكاً لله في المحبة ، بل يحبه أعظم من محبة الله . تجده إذا ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أقشعر جلده من المحبة والتعظيم ، لكن إذا ذكر الله إذا هو بارد لا يتأثر .

هل هذه محبة نافعة للإنسان ؟ لا تنفعه ، هذه محبة شركية ، عليك أن تحب الله ورسوله ، وأن

تكون محبتك للرسول ﷺ نابعة من محبة الله وتابعة لمحبة الله (١) ، « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله » هذا الشاهد . تحب المرء لا تحبه إلا لله . لا تحبه لقربة ، ولا لمال ، ولا لجاه ، ولا لشيء من الدنيا ، إنما تحبه لله .

أما محبة القرابة فهي محبة طبيعية . كل يحب قريبه محبة طبيعية ، حتى البهائم تحب أولادها ، تجد الأم من البهائم والحشرات تحب أولادها حتى يكبروا ويستقلوا بأنفسهم ، ثم تبدأ في طردهم . وإذا كان عندك هرة انظر إليها كيف تحنو على أولادها وتحملهم في أيام البرد ، تدخلهم في الدفء ، وتمسكهم بأسنانها ، لكن لا تؤثر فيهم شيئاً ، لأنها تمسكهم إمساك رحمة ، حتى إذا فطموا واستقلوا بأنفسهم ، بدأت تطردهم ، فالله يلقي في قلبها الرحمة ماداموا محتاجين إليها ، ثم بعد ذلك يكونون مثل غيرهم .

فالشاهد : أن محبة القرابة محبة طبيعية ، لكن إذا كان قريبك من عباد الله الصالحين ، فأحبيته فوق المحبة الطبيعية فأنت أحبيته لله . « أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » يعني يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه . وهذه ظاهرة فيمن كان كافراً ثم أسلم ، لكن من ولد في الإسلام فيكره أن يكون في الكفر بعد أن من الله عليه بالإسلام كما يكره أن يقذف في النار ، يعني أنه لو قذف في النار لكان أهون عليه من أن يعود كافراً بعد إسلامه ، وهذا والحمد لله حال كثير من المؤمنين ، كثير من المؤمنين لو قيل له : تكفر أو نلقيك من أعلى شاطئ في البلد أو نحرقك لقال : احرقوني . ألقوني من أعلى شاطئ ولا أردت من بعد إسلامي . والمراد الردة الحقيقية التي تكون في القلب ، أما من أكره على الكفر فكفر ظاهراً لا باطناً ، بل قلبه مطمئن بالإيمان فهذا لا يضره لقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْزَرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٠٦: ١٠٧) ، لما قيل لهم : نقتلكم أو اكفروا ، فباعوا الآخرة بالدنيا ، وكفروا ليبقوا ، فاستحبوا الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . نسأل الله لنا ولكم الهداية .

وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار .

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأة ذات حسن وجمال ، فقال إني

(١) انظر في ذلك الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه (٣٧٨٩) ، والحاكم في المستدرک (١٤٩/٣) ونصه أنه ﷺ قال : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي » واللفظ للحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه « فهو لاء سبعة وليس المراد بالسبعة العدد ، يعني أنهم سبعة أنفار فقط ، ولكنهم سبعة أصناف ؛ لأنهم قد يكونون عددا لا يحصيهم إلا الله ﷻ .

ونحن لا نتكلم على ما ساق المؤلف الحديث من أجله ، لأن هذا سبق لنا وقد شرحناه فيما مضى ، ولكن نتكلم على مسألة ضل فيها كثير من الجهال ، وهي قوله : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » حيث توهموا - جهلاً منهم - أن هذا ظل الله نفسه ، وأن الله تعالى يظلمهم من الشمس بذاته ﷻ ، وهذا فهم خاطئ منكر ، يقوله بعض المتعلمين الذين يقولون : إن مذهب أهل السنة إجراء النصوص على ظاهرها فيقال أين الظاهر ؟ ! وكيف يكون ظاهر الحديث وأن الرب جل وعلا يظلمهم من الشمس ؟ !

فإن هذا يقتضي أن تكون الشمس فوق الله ﷻ ، وهذا شيء منكر لا أحد يقول به من أهل السنة (لكن مشكلات الناس ولا سيما في هذا العصر ؛ أن الإنسان إذا فهم لم يعرف التطبيق) وإذا فهم مسألة ظن أنه أحاط بكل شيء علماً .

والواجب على الإنسان أن يعرف قدر نفسه ، وألا يتكلم - لاسيما في باب الصفات - إلا بما يعلم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكلام الأئمة .

فمعنى « يوم لا ظل إلا ظله » . أو « يظلمهم الله في ظله » يعني : الظل الذي لا يقدر أحد عليه في ذلك الوقت ؛ لأنه في ذلك الوقت لا بناء يني ، ولا شجر يفرس ، ولا رمال تقام ولا أحجار تُصَف ، ولا شيء من هذا . قال الله ﷻ : ﴿ وَتَسْأَلُونَ عَنِ اللَّيَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ^(١) ۚ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ^(٢) ۚ ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧] .

ولا يظل الخلائق من الشمس شيء ، لا بناء ولا شجر ولا حجر ، ولا غير ذلك . لكن الله ﷻ يخلق شيئاً يظل به من شاء من عباده ، يوم لا ظل إلا ظله ، هذا هو معنى الحديث ، ولا يجوز أن يكون له معنى سوى هذا .

والشاهد من الحديث لهذا الباب قوله : « رجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه » يعني : أنهما جرت بينهما محبة ، لكنها محبة في الله ، لا في مال ، ولا جاه ، ولا نسب ، ولا أي شيء ، إنما هو محبة الله ﷻ ، رآه قائماً بطاعة الله ، متجنباً لمحارم الله ، فأحبه من أجل ذلك ، فهذا هو الذي يدخل في هذا الحديث : « تحاباً في الله » .

وقوله : « اجتماعا عليه وتفرقا عليه » يعني اجتماعا عليه في الدنيا وبقيت المحبة بينهما حتى فرق بينهما الموت تفرقاً وهما على ذلك .

(١) ﴿ صَفْصَفًا ﴾ : أي ملساء ؛ كأجزاءها صف واحد من كل جهة .

(٢) ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ﴾ : أي مكاناً منخفضاً ، ﴿ وَلَا أَمْتًا ﴾ : أي مكاناً مرتفعاً . بل تراها مستوية .

وفي هذا إشارة إلى أن المتحايين في الله لا يقطع محبتهم في الله شيء من أمور الدنيا ، وإنما هم متحابون في الله لا يفرقهم إلا الموت ، حتى لو أن بعضهم أخطأ على بعض ، أو قصر في حق بعض ، فإن هذا لا يهمهم ؛ لأنه إنما أحبه الله ﷻ ، ولكنه يصحح خطأه ويبين تقصيره ؛ لأن هذا من تمام النصيحة ، فنسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من المتحايين فيه ، المتعاونين على البر والتقوي إنه جواد كريم .

٣٧٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بَجَلَالِي ^(١) ؟ الْيَوْمَ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي » ^(٢) رواه مسلم .

٣٧٨ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفَسُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » ^(٣) رواه مسلم .

٣٧٩ - وعنه عن النبي ﷺ : « أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخَاهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَذْرَجِهِ مَلَكًا . وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى قَوْلِهِ : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْبَبَكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ » ^(٤) رواه مسلم . وقد سبق بالباب قبله .

٣٨٠ - وعن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في الْأَنْصَارِ : « لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ » ^(٥) متفق عليه .

٣٨١ - وعن مُعَاذٍ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي ، لَهُمْ مَنَازِلٌ مِنْ نُورٍ يَغِيظُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشَّهَدَاءُ » ^(٦) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٣٨٢ - وعن أبي إدريس الخولاني رضي الله عنه قَالَ : دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَإِذَا فَتَى بَرَأَقَ الشَّيْئَانَا ^(٧) وَإِذَا النَّاسُ مَعَهُ ، فَإِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ ، أَسْتَدْوُهُ إِلَيْهِ ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ ، فَقِيلَ : هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِيدِ ، هَجَرْتُ ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهْجِيرِ ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي ، فَأَنْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قُلْتُ : وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبَّكَ لِلَّهِ ، فَقَالَ : أَلِلَّهِ ؟

(١) أي بعظمتي وطاعتي ، لا للدنيا .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٧٧/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٨) .

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٨٣) ومسلم في الإيمان (١٢٩) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٠) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه ، قوله « يغبطهم النبيون » الغبطة تمنى مثل ما للغير من الخير من غير زواله عن صاحبه ، ولا يلزم من ذلك أن يكون المتحابون في الله أفضل من الأنبياء ؛ فقد يكون لك مائة فرس من العناق وترى لأخيكَ فرسًا فتشتهي شراؤه أو شراء مثله . ويجوز أنه لم يقصد معنى الغبطة أصلًا وإنما أراد بيان فضلهم عند الله فقط .

(٦) براق الشئاناء : أي أبيض الثغر حسنه ، وقيل : كثير التبسم .

فَقُلْتُ : اللَّهُ ، فقال : اللَّهُ ؟ فَقُلْتُ : اللَّهُ ، فَأَخَذَنِي بِحَبْوَةِ رِدَائِي ^(١) ، فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَبَشِرْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « قال الله تعالى : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » ^(٢) حديث صحيح رواه مالك في الموطأ بإسناده الصحيح ^(٣) .
قَوْلُهُ « هَجَزْتُ » أَي بَكَّرْتُ ، وَهُوَ بِتَشْدِيدِ الْجِيم . قَوْلُهُ : « اللَّهُ : فَقُلْتُ : اللَّهُ » الْأَوَّلُ بِهِمْزَةٌ مَمْدُودَةٌ لِلِاسْتِفْهَامِ ، وَالثَّانِي بِلَا مَدٍّ .

٣٨٣ - عَنْ أَبِي كَرِيمَةَ الْمُقَدَّادِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرَبُ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ » ^(٤) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .
٣٨٤ - وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، أَخَذَ يَدَيْهِ وَقَالَ : « يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبَّكَ ، ثُمَّ أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ : لَا تَدْعَنَّ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ » ^(٥) . حديث صحيح ، رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح .

٣٨٥ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَمَرَّ رَجُلٌ بِهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ هَذَا ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « أَأَعْلَمْتُهُ ؟ » قَالَ : لَا : قَالَ : « أَغْلِمُهُ » فَلَحِقَهُ ، فَقَالَ : إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ ، فَقَالَ : أُحِبُّكَ الَّذِي أُحِبُّنِي لَهُ ^(٦) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث كلها في بيان المحبة وأن الإنسان ينبغي له أن يكون حبه لله وفي الله ، وفي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله حيث قال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابوا . أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم . أفشوا السلام بينكم » .
ففي هذا : الدليل على أن المحبة من كمال الإيمان ، وأنه لا يُكْمَلُ إيمان العبد حتى يحب أخاه ، وأن من أسباب المحبة أن يفشي الإنسان السلام بين إخوانه ، أي يظهره ويعلمه ، ويسلم على من لقيه من المؤمنين ، سواء عرفه أو لم يعرفه ، فإن هذا من أسباب المحبة ، ولذلك إذا مر بك رجل وسلم عليك أحبيته ، وإذا أعرض كرهته ولو كان أقرب الناس إليك .

فالذي يجب على الإنسان ؛ أن يسعى لكل سبب يوجب المودة والمحبة بين المسلمين ؛ لأنه ليس

(١) بحبوة رِدَائِي : أي مجتمع ثوبه يحتبى به ، وملتقى طرفيه في صدره .

(٢) والمتباذلين في : أي الباذلين أموالهم وأنفسهم في القيام على طاعة الله وجهاد أعدائه .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في الشعر (٩٥٣/٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٣/٥) وفي الموطأ تكرر الاستفهام : فقال : الله ؟ قلت الله . ثلاث مرات .
(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٢٤) .

(٥) أخرجه أبو داود في مسنده (١٥٢٢) ، والنسائي في مسنده (٥٣/٣) (١٣٠٣) .

(٦) أخرجه أبو داود في مسنده في الأدب (٥١٢٥) ، والإمام أحمد في مسنده (١٥٠/٣) ، وصححه الحاكم في المستدرک (١٧١/٤) .

من المعقول ولا من العادة أن يتعاون الإنسان مع شخص لا يحبه ، ولا يمكن التعاون على الخير والتعاون على البر والتقوى إلا بالحب ، ولهذا كانت المحبة في الله من كمال الإيمان .

وفي حديث معاذ رضي الله عنه إخبار النبي ﷺ أنه يحبه ، وقوله لأنس لما قال له : إني أحب هذا الرجل . قال له : « أعلمته ؟ » فدل هذا على أنه من السنة إذا أحببت شخصاً أن تقول : إني أحبك ، وذلك لما في هذه الكلمة من إلقاء المحبة في قلبه ؛ لأن الإنسان إذا علم أنك تحبه أحبك مع أن القلوب لها تعارف وتآلف وإن لم تنطق الألسن .

وكما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ^(١) لكن إذا قال الإنسان بلسانه فإن هذا يزيد محبة في القلب فتقول : إني أحبك في الله . وفي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « لاتدعن أن تقول في دبر كل صلاة » يعني في آخر كل صلاة ؛ لأن دبر الشيء من الشيء كدبر الحيوان ، وقد ورد هذا الحديث بلفظ واضح يدل على أن الإنسان يقولها قبل أن يسلم فيقول قبل السلام : « اللهم أعني على ذكرك وعلى شكرك وعلى حسن عبادتك » .

* * *

٤٧ - باب علامات حب الله تعالى للعبد
والحث على التخلق بها والسعي في تحصيلها

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٣١] ﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ قَوْلٌ مِنْكَ (١) عَنْ دِينِهِمْ قَوْلٌ بَاقٍ اللَّهُ يَقُولُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٢) أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٣) يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

٣٨٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا ، فَقَدْ آذَنَتْهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أَجِبَهُ ، فَإِذَا أَجَبْتُهُ ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَتَبَطَّشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي ، لأَعِيذَنَّهُ » ^(٤) . رواه البخاري .
معنى « آذَنَتْهُ » : أَعْلَمْتُهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ . وقوله : « اسْتَعَاذَنِي » روي بالباء وروي بالنون .

٣٨٧ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ ، نَادَى جَبْرِيلَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

(١) أي يعود إلى الكفر .

(٢) انظر الحديث ٣٧١ .

(٣) أي شداد متغلبون .

(٤) أي عطفاء رحماء حافظين .

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) وفيه (لأعطين) ، والبيهقي في سنن (٢١٩/١٠) وفيه (فقد بارزني بالحرب) .

يُحِبُّ فُلَانًا ، فَأَخْبِيَهُ ، فَيَجِبُهُ جِبْرِيلُ ، فَيَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا ، فَأَجِبُوهُ ، فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ « متفقٌ عليه (١) .

وفي رواية لمسلم : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ ، فَقَالَ : إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَخْبِيَهُ ، فَيَجِبُهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يَنَادِي فِي السَّمَاءِ ، فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا ، فَأَجِبُوهُ ، فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا ، فَأَبْغِضْهُ ، فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ ، إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا ، فَأَبْغِضُوهُ ، فَيَبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ » (٢) .

٣٨٨ - وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بَثَّ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ ، فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ ، فَيَخْتِمُ بِ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ، ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ ؟ » فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا . فقال رسول الله ﷺ : « أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ » (٣) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب علامات حب الله تعالى للعبد ، يعني علامة أن الله يحب العبد ؛ لأن لكل شيء علامة ، ومحبة الله للعبد لها علامة ؛ منها كون الإنسان متبعاً لرسول الله ﷺ ، فإنه كلما كان الإنسان لرسول الله ﷺ أتبع ، كان لله أطوع ، وكان أحب إلى الله تعالى . واستشهد المؤلف رحمه الله لذلك بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني إن كنتم صادقين في أنكم تحبون الله فأروني علامة ذلك : اتبعوني يحببكم الله . وهذه الآية تسمى عند السلف آية الامتحان ، يمتحن بها من ادعى محبة الله ، فينظر إذا كان يتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فهذا دليل على صدق دعواه .

وإذا أحب الله أحبه الله ﷻ ، لهذا قال : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ وهذه ثمرة جليلة ؛ أن الله تعالى يحبك ؛ لأن الله تعالى إذا أحبك نلت بذلك سعادة الدنيا والآخرة .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » من عادى لي ولياً يعني صار عدواً لولي من أوليائي ، فإنني أعلن عليه الحرب ، يكون حرباً لله . الذي يكون عدواً لأحد من أولياء الله فهو حرب لله والعياذ بالله مثل أكل الربا ﴿ فَإِنْ تَمَّ قَتَلُوا فَأْذَنُوا »

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩) بلفظ الرواية الأولى ، ومسلم في البر والصلة (١٥٧) .

(٢) قوله « ثم يوضع له القبول في الأرض » المراد بالقبول الحب في قلوب أهل الدين والخير ، والرضا به واستطابة ذكره في حال غيبته .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٣) واللفظ له .

يَحْرَبُ بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ [البقرة: ٢٧٩] .

ولكن من هو ولي الله ؟ ولي الله بينه ﷺ في قوله : ﴿ آيَاتِ آلِهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ [يونس: ٦٢، ٦٣] .
هؤلاء هم أولياء الله فمن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً ، هذه هي الولاية ، وليست الولاية أن يخشوشن الإنسان في لباسه ، أو أن يترهبين أمام الناس ، أو أن يخنع رأسه .
بل الولاية الإيمان والتقوى ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ فمن عادى هؤلاء فإنه حرب لله والعياذ بالله .

ثم قال الله ﷻ في الحديث القدسي : « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه »
يعني : أحب ما يجب الله الفرائض . فالظهر أحب إلى الله من راتبة الظهر ، والمغرب أحب إلى الله من راتبة المغرب ، والعشاء أحب إلى الله من راتبة العشاء ، والفجر أحب إلى الله من راتبة الفجر ، والصلاة المفروضة أحب إلى الله من قيام الليل ، كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل ، والزكاة أحب إلى الله من الصدقة ، وحج الفريضة أحب إلى الله من حج التطوع ، كل ما كان أوجب فهو أحب إلى الله ﷻ .
« وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » ، وفي هذا إشارة إلى أن من أسباب محبة الله أن تكثر من النوافل ومن التطوع ؛ نوافل الصلاة ، نوافل الصدقة ، نوافل الصوم ، نوافل الحج ، وغير ذلك من النوافل .
فلا يزال العبد يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه الله ، فإذا أحبه الله كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سأله ليعطينه ، ولئن استعاذه ليعيذه .

« كنت سمعه » يعني أنني أسدده في سمعه ، فلا يسمع إلا ما يرضي الله ، « وبصره » أسدده في بصره ، فلا يبصر إلا ما يحب الله . « ويده التي يبطش بها » فلا يعمل بيده إلا ما يرضي الله ، « ورجله التي يمشي بها » فلا يمشي برجله إلا لما يرضي الله ﷻ ، فيكون مسدداً في أقواله وفي أفعاله .
« ولئن سألتني لأعطينه » هذه من ثمرات النوافل ومحبة الله ﷻ ؛ أنه إذا سأل الله أعطاه ، « ولئن استعاذني » يعني استجار بي مما يخاف من شره « لأعيذه » فهذه من علامة محبة الله ؛ أن يسدّد الإنسان في أقواله وأفعاله ، فإذا سدّد دلّ ذلك على أن الله يحبه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

وذكر أيضاً أحاديث أخرى : في بيان محبة الله ﷻ وأن الله تعالى إذا أحب شخصاً نادى جبريل ، وجبريل أشرف الملائكة ، كما أن محمداً ﷺ أشرف البشر . « نادى جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » فيحبه أهل الأرض .

وإذا أبغض الله أحداً - والعياذ بالله - نادى جبريل : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض والعياذ بالله ، فيبغضه أهل الأرض ، وهذا أيضاً من علامات محبة الله ؛ أن يوضع للإنسان القبول في الأرض ، بأن يكون مقبولاً لدى الناس ، محبوباً إليهم ، فإن هذا من علامات محبة الله تعالى للعبد . نسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين من أحبائه وأوليائه .

* * *

٤٨ - باب التحذير من إيذاء الصالحين والضعفة والمساكين

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا ^(١) وَإِنَّمَا

مُيْتَنًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ ^(٢) ﴾ [الضحى : ٩ ، ١٠] .

وأما الأحاديث ، فكثيرة منها :

حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الباب قبل هذا : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ » ^(٣) .
ومنها حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه السابق في « باب ملاطفة اليتيم » وقوله عليه السلام : « يَا أَبَا بَكْرٍ لَئِنْ كُنْتُ أَغْضَبْتُهُمْ ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » ^(٤) .

٣٨٩ - وعن مجنذب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ ؛ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ ، فَلَا يَطْلُبُكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ ، يُدْرِكْهُ ، ثُمَّ يَكْبِتُهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » ^(٥) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - باب التحذير من إيذاء المسلمين والضعفاء والمساكين ونحوهم ، ثم ساق المؤلف قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُيْتَنًا ﴾ .

والأذية : هي أن تحاول أن تؤذي الشخص بما يتألم منه قليلاً ، أو بما يتألم منه بدنياً ؛ سواء كان

(١) بهتاناً : فعلاً شنيعاً ، أو كذباً فظيحاً .

(٢) فلا تنهر : أي لا تزجره ولا تغلظ له القول ، بل اسعفه بما يطلبه ما استطعت .

(٣) انظر الحديث السابق .

(٤) انظر صحيح مسلم في فضائل الصحابة (١٧٠) وفيه (لعلك أغضبتهم) بعد النداء ، ومسنند الإمام أحمد (٦٤/٥) .

(٥) أخرجه مسلم في المساجد (٢٦٢) .

ذلك بالسب ، أو بالشتم ، أو باختلاق الأشياء عليه ، أو بمحاولة حسده ، أو غير ذلك من الأشياء التي يتأذى بها المسلم .

وهذا كله حرام ؛ لأن الله ﷻ يبين أن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً .

وفهم من الآية الكريمة أن من آذى المؤمنين بما اكتسبوا فإنه ليس عليه شيء ، مثل إقامة الحد على المجرم ، تغريم الظالم ، وما أشبه ذلك ، فهذا وإن كان فيه أذية ، لكنها بكسبه ، فقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ طَائِفَتًا مِّنْهُمْ يَتَّبِعُوا آلَئِهَا فِي غَمٍّ وَقَذِيرٍ ۚ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا طَائِفَتًا مِّنْهُمْ يَتَّبِعُوا آلَئِهَا فِي غَمٍّ وَقَذِيرٍ ۚ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا طَائِفَتًا مِّنْهُمْ يَتَّبِعُوا آلَئِهَا فِي غَمٍّ وَقَذِيرٍ ۚ ﴾ [النور: ٢٠] . ولا حرج في أن يؤذي الإنسان شخصاً بسبب كسبه هو وجنابته على نفسه ، فإن ذلك لا يؤثر عليه شيئاً .

ثم أشار المؤلف إلى أحاديث تدل على التحذير من أذية المؤمنين ، ومنها ما سبق من حديث أبي هريرة ؓ أن الله قال : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » فالذي يعادي أحداً من أولياء الله فإن الله تعالى يعلن عليه الحرب ، ومن كان حرباً لله تعالى فهو خاسر بلا شك .

قال أهل العلم : وأنواع الأذى كثيرة ، منها أن يؤذي جاره ، ومنها أن يؤذي صاحبه ، ومنها أن يؤذي من كان معه في عمل من الأعمال - وإن لم يكن بينهم صداقة - بالمضايقة وما أشبه ذلك ، وكل هذا حرام والواجب على المسلم الحذر منه .

٤٩ - باب إجراء أحكام الناس على الظاهر

وسرائرهم إلى الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ (١) [التوبة: ٥] .
 ٣٩٠ - وعن ابن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى » (٢) متفق عليه .
 ٣٩١ - وعن أبي عبد الله طارق بن أشيم ؓ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، حَرَّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى » (٣) رواه مسلم .

(١) أي دعوهم ولا تتعرضوا لهم .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان (٣٦) وفيه (لإباحتها) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧) .

٣٩٢ - وعن أبي معبد المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : قلت لرسول الله ﷺ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ ، فَأَقْتُلْتَنِي ، فَفَضَّرْتُ بِإِخْدَى يَدَيْهِ بِالسَّيْفِ ، فَقَطَعَهَا ، ثُمَّ لاذَّ مِنِّي بِشَجَرَةٍ ، فَقَالَ : أَسَلَمْتُ لِلَّهِ ، أَقْتُلْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا ؟ فَقَالَ : « لَا تَقْتُلْهُ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَطَعَ إِخْدَى يَدَيْ ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا ؟ قَالَ : « لَا تَقْتُلْهُ ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ ، فَإِنَّهُ بِمِثْرَلَيْكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلْهُ ، وَإِنَّكَ بِمِثْرَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتُهُ الَّتِي قَالَ » ^(١) متفق عليه .

ومعنى : « إِنَّهُ بِمِثْرَلَيْكَ » أي : مَغْضُومُ الدِّمِّ مَحْكُومٌ بِإِسْلَامِهِ ، ومعنى « إِنَّكَ بِمِثْرَلَيْهِ » أي : مُبَاحُ الدِّمِّ بِالْقَضَا لِيُورَثِيهِ ، لَا أَنَّهُ بِمِثْرَلَيْهِ فِي الْكُفْرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٣٩٣ - وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، إِلَى الْحُرْقَةِ مِنْ جُھَيْنَةَ ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ ^(٢) قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَكَفْتُ عَنْهُ الْأَنْصَارِيَّ ، وَطَعْنْتُهُ بِوُمُجِي حَتَّى قَتَلْتُهُ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ، بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لِي : « يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا ، فَقَالَ : « أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ » فَمَا زَالَ يُكْرِّزُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَّتْ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ . متفق عليه ^(٣) .

وفي رواية : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ ، قَالَ : « أَفَلَا شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا ؟ » فَمَا زَالَ يُكْرِّزُهَا حَتَّى تَمَّتْ أَنِّي أَسَلَمْتُ يَوْمَئِذٍ ^(٤) .

« الْحُرْقَةُ » بضم الحاء المهملة وفتح الراء : بَطْنٌ مِنْ جُھَيْنَةَ الْقَبِيلَةِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَقَوْلُهُ : « مُتَعَوِّذًا » . أي : مُعْتَصِمًا بِهَا مِنَ الْقَتْلِ لَا مُعْتَقِدًا لَهَا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب حمل الناس على ظواهرهم ، وأن يكل الإنسان سرائرهم إلى الله ﷻ .

أولاً : اعلم أن العبرة في الدنيا بما في الظواهر ؛ اللسان والجوارح . وأن العبرة في الآخرة بما في السرائر بالقلب .

فالإنسان يوم القيامة يحاسب على ما في قلبه ، وفي الدنيا على ما في لسانه وجوارحه ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَّمَ بِقَلَمِهِ قُلُوبَهُمْ ۖ وَيَوْمَ تَكُونُ السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٨ ، ٩] ، تختبر السرائر والقلوب . وقال

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٥) ، ومسلم في الإيمان (١٥٥) واللفظ له مع اختلاف يسير والإمام أحمد في مسنده (٤/٦) .

(٢) غَشِينَاهُ : أي أتيناها أو لحقناها .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٩) ، ومسلم في الإيمان (١٥٩) .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في الإيمان (١٥٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٤) و (٢٠٧/٥) .

تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافٍ مَّا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَّا فِي الصُّدُورِ ۖ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [الماديات : ٩ - ١١] .

فاحرص يا أخي على طهارة قلبك قبل طهارة جوارحك . كم من إنسان يصلي ، ويصوم ، ويتصدق ، ويحج ، لكن قلبه فاسد .

وهاهم الخوارج حدث عنهم النبي - عليه الصلاة والسلام - أنهم يصلون ، ويصومون ، ويتصدقون ، ويقرؤون القرآن ، ويقومون الليل ، ويكونون ، ويتعبدون ، ويحرقون الصحابي صلاته عند صلاتهم ، لكن قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا يجاوز إيمانهم حناجرهم » ^(١) لا يدخل الإيمان قلوبهم .

مع أنهم صالحوا الظواهر ، لكن ما نفعهم . فلا تغتر بصلاح جوارحك ، وانظر قبل كل شيء إلى قلبك ، أسأل الله أن يصلح قلبي وقلوبكم . فإن أهم شيء هو القلب .

رُفِعَ رجل إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد شرب الخمر فجلبده ، ثم رفع إليه مرة أخرى فجلبده ، فسبته رجل من الصحابة ، وقال : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

فقال له الرسول ﷺ : « لا تلعنه ؛ فإنه يحب الله ورسوله » ^(٢) فالأصل فيه أنه مسلم ، وفي قلبه محبة الله ورسوله ، فالأصل هو القلب ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَرَّ يُبْرِدُ اللَّهُ أَن يُظَاهِرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤١] .

أما في الدنيا بالنسبة لنا مع غيرنا ، فالواجب إجراء الناس على ظواهرهم ؛ لأننا لا نعلم الغيب ، ولا نعلم ما في القلوب ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنما أقضي بنحو ما أسمع » ^(٣) .

ولسنا مكلفين بأن نبحث عما في قلوب الناس ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥] ، يعني المشركين إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ فخلوا سبيلهم وأمرهم إلى الله ، إن الله غفور رحيم .

وقال النبي - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه ابن عمر رضيهما : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى » .

وبذلك يكون العمل بالظواهر ؛ فإذا شهد إنسان أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، عصم دمه وماله ، وحسابه على الله ؛ فليس لنا إلا الظاهر .

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٣٠) .

(٢) انظر الحديث صحيح البخاري في الحدود (٦٧٨٠) .

(٣) سبق تخريجه .

وكذلك أيضًا من قال : لا إله إلا الله حرم دمه وماله ، هكذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - (١) ، ثم ذكر المؤلف حديثين عجيبين فيهما قصتان عجيبتان .

الأولى : حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، قال : يا رسول الله ، إن لقيت رجلاً من المشركين ، فقاتلته ، فضربني بالسيف حتى قطع يدي ، ثم لاذ مني بشجرة ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله . أفأقتله ؟ قال : « لا تقتله » وهو مشرك قطع يد رجل مسلم ، ولاذ بالشجرة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله . قال : أفأقتله ؟

قال « لا تقتله » فإن قتلته فأنت مثله قبل أن يقول هذه الكلمة ، يعني تكون كافراً . مع العلم بأنني أنا وأنتم ، نظن أن هذا الرجل قال : أشهد أن لا إله إلا الله خوفاً من القتل ، ومع ذلك يقول : لا تقتله ، فعصم دمه وماله .

وفي هذا الحديث أيضًا دليل على أن ما أتلّفه الكفار من أموال المسلمين وما جنّوه على المسلمين غير مضمون . يعني الكافر لو أتلّف شيئاً للمسلمين ، أو قتل نفساً لا يضمن إذا أسلم ، فالإسلام يحو ما قبله . القصة الثانية : بعث النبي صلى الله عليه وآله أسامة بن زيد في سرية إلى الحُرقة من جهينة ، فلما وصلوا إلى القوم وغشّوهم ، هرب من المشركين رجل ، فلحقه أسامة ورجل من الأنصار يتبعانه يريدان قتله فلما أدركاه قال : لا إله إلا الله ، أما الأنصاري فكان أفقه من أسامة ، فكفّ عنه ، تركه لما قال : لا إله إلا الله . وأما أسامة فقتله .

فلما رجعوا إلى المدينة وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله قال لأسامة : « أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله » . قال : نعم يا رسول الله ؛ إنما قال ذلك يتعوذ من القتل ، يستجير بها من القتل ، قال : « أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله » قال : نعم ، قالها يتعوذ من القتل . كرر ذلك عليه ، حتى قال له في رواية لمسلم : « ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة ؟ » .

يقول أسامة رضي الله عنه : حتى تمنيت أنني لم أكن أسلمت قبل هذا اليوم ؛ لأنه لو كان كافراً ثم أسلم عفا الله عنه ، لكن الآن فعل هذا الفعل وهو مسلم ، فهذا مشكل جداً على أسامة .

والرسول صلى الله عليه وآله يكرر : « أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله » . « ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة ؟ » . مع العلم بأن الذي يغلب على الظن ما فهمه أسامة ؛ أنه قالها متعوذاً من القتل ، يستجير بها من القتل ، لكن مع ذلك إذا قال لا إله إلا الله انتهى الأمر ويجب الكف عنه ، ويعصم بذلك دمه وماله ، وإن كان قالها متعوذاً أو قالها نفاقاً ، حسابه على الله .

فهذا دليل على أننا نحمل الناس في الدنيا على ظواهرهم ، وأما ما في القلوب فمعوذه يوم القيامة ، تنكشف السرائر ، ويُخَصَّل ما في الضمائر ، ولهذا علينا أيها الإخوة أن نظهر قلوبنا قبل كل شيء ثم جوارحنا .

أما بالنسبة لمعاملتنا لغيرنا ، فعلينا أن نعامل غيرنا بالظاهر .

واسمع إلى قول الرسول ﷺ : « إنكم تختصمون إليّ » يعني تخاصمون مخاصمات بينكم ولعل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض » يعني أفصح وأقوى دعوى « فأقضي له بنحو ما أسمع ، فمن أقطع له من حق أخيه شيئاً فإنما أقطع له جمرَةً من نار ، فليستقل أو ليستكثر » (١) .
فحمل النبي - عليه الصلاة والسلام - الأمر في الخصومة على الظاهر ، لكن ورائك النار إذا كنت كاذباً في دعواك ، وأنت أخذت القاضي بلسانك وبشهادة الزور ، فإنما يقطع لك جمره من النار فاستقل أو استكثر .

وخلاصة ما تقدم : أن الإنسان يعامل في الدنيا على الظاهر ، وأما يوم القيامة فعلى الباطن .
فعلينا نحن أن نعامل غيرنا بما يظهر لنا من حاله ، وأمره إلى الله ، وعلينا نحن أنفسنا أن نظهر قلوبنا ، لا يكون فيها شيء ؛ لا يكون فيها بلاء ؛ كبر ، حقد ، حسد ، شرك ، شك ، نسأل الله أن يعيدنا من هذه الأخلاق ، فإن هذا خطير جداً .
نسأل الله أن يهدينا وإياكم لأحسن الأخلاق والأعمال ، لا يهدي لأحسنها إلا هو ، وأن يجنبنا سيئات الأخلاق والأعمال ، لا يجنبنا إياها إلا هو .

٣٩٤ - وعن مجذوب بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين ، وأنهم التقوا ، فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له قتلته ، وأن رجلاً من المسلمين قصد قتلته ، وكذا نتحدث أنه أسامة بن زيد ، فلما رفع السيف ، قال : لا إله إلا الله ، فقتله ، فجاء البشير إلى رسول الله ﷺ ، فسأله ، وأخبره ، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع ، فدعاه فسأله ، فقال : « لم قتلته ؟ » فقال : يا رسول الله أوجع في المسلمين ، وقتل فلاناً وفلاناً - وسئى له نفرأ - وإني حملت عليه ، فلما رأى السيف قال : لا إله إلا الله . قال رسول الله ﷺ : « أقتلته ؟ » قال : نعم ، قال : « فكيف تصنع بلا إله إلا الله ، إذا جاءت يوم القيامة ؟ » قال : يا رسول الله استغفر لي . قال : « وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » فجعل لا يريد على أن يقول : « كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة » (٢) رواه مسلم .

٣٩٥ - وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ ، وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً ، أمثاله وقرباته ، وليس لنا من سريره شيء ، الله يحاسبه في

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٠) ، والحديث لم يُشر إليه الشارح - رحمه الله تعالى - أثناء شرحه ؛ لأنه بنفس معنى الحديث السابق مباشرة .

سِرِّيرَتِهِ ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا شَوْعًا ، لَمْ تَأْمَنْهُ ، وَلَمْ تُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ : إِنَّ سِرِّيرَتَهُ حَسَنَةٌ ^(١) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف فيما نقله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من رواية عبد الله بن عتبة بن مسعود ؛ عمه عبد الله بن مسعود - الصحابي الجليل - رضي الله عنه ؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إنا نعلم يعني : عن أسر سريرة باطلة في وقت الوحي بما ينزل من الوحي ؛ لأن أناسًا في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - كانوا منافقين ، يظهرون الخير ويطنون الشر ، ولكن الله تعالى كان يفضحهم بما ينزل من الوحي على رسوله صلوات الله عليه يفضحهم لا بأسمائهم ، ولكن بأوصافهم التي تحدد أعيانهم .

والحكمة من ذكرهم بالأوصاف دون الأعيان ؛ أن ذلك يكون للعموم ، يعني لكل من اتصف بهذه الصفات ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٢) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ - ٧٧] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ ^(٣) فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ [التوبة : ٥٨] .

ومثل قوله : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] .

وهذا كثير في سورة التوبة التي سماها بعض السلف : الفاضحة ، لأنها فضحت المنافقين .

لكن لما انقطع الوحي صار الناس لا يعلمون من المنافق ؛ لأن النفاق في القلب والعياذ بالله .

يقول رضي الله عنه : من أظهر لنا خيرا أخذناه بما أظهر لنا ، وإن أسر سريرة يعني سيئة ، ومن أظهر لنا شرا ، فإننا نأخذ بشره ولو أضمر ضميرة طيبة ؛ لأننا نحن لا نكلف إلا بالظاهر ، وهذا من نعمة الله صلوات الله عليه علينا ؛ ألا نحكم إلا بالظاهر ؛ لأن الحكم على الباطن من الأمور الشاقة ، والله صلوات الله عليه لا يكلف نفسا إلا وسعها .

فمن أبدى خيرا عاملناه بخيره الذي أبداه لنا ، ومن أبدى شرا عاملناه بشره الذي أبداه لنا ، وليس لنا من نيته مسؤولية ، والنية موكولة إلى رب العالمين صلوات الله عليه ، الذي يعلم ما توسوس به نفس الإنسان .

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٤١) .

(٢) أي ومنهم من يعيك ويطعن عليك في قسمة أموال الزكاة ، أو فيها وفي قسمة الغنائم ، من اللز وهو العيب ، ولزه : أي أعابه .

٥٠ - باب الخوف

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنِّي فَأَرْهُمْ يَوْمَ (١) ﴾ [البقرة : ٤٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ (٢) رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٧] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (٣) ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَرَسِيدٌ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (٤) [مرد : ١٠٢ - ١٠٦] وقال تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسُكُمْ ﴾ [آل عمران : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿ وَأَخِيهِ وَأَخِيهِ وَبَنِيهِ ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ ﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٧] وقال تعالى : ﴿ يَتَّيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿ يَوْمَ تَكُونُهَا تَذَهُلٌ (٥) ﴾ كَلُّ مُرْمِضَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَرَى النَّاسُ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ٢٠١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن : ٤٦] الآيات . وقال تعالى : ﴿ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَلَّلُونَ ﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٦) ﴿ فَتَرَى اللَّهُ عَالِمًا وَرَقْنَا عَذَابَ السَّمُورِ (٨) ﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْكَبِيرُ (٩) الرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٥ - ٢٨] والآيات في الباب كثيرة جدًا معلومات ، والغرض الإشارة إلى بعضها وقد حصل .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب الخوف ، الخوف ممن ؟ الخوف من الله ﷻ ؛ لأن الذي يعبد الله يجب أن يكون خائفًا راجيًا ؛ إن نظر إلى ذنوبه وكثرة أعماله السيئة خاف ، إن نظر إلى أعماله الصالحة وأنه قد يشوبها شيء من العجب والإدلال على الله خاف ، إن نظر إلى أعماله الصالحة وأنه قد ينالها شيء من الرياء خاف ، وإن نظر إلى عفو الله ، ومغفرته ، وكرمه ، وحمله ، ورحمته رجا ؛ فيكون دائرًا بين الخوف والرجاء .

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ يعني يعطون ما أعطوا من الأعمال الصالحة ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ خائفة أن لا تقبل منهم ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] فينبغي بل يجب أن يكون سير الإنسان إلى الله ﷻ دائرًا بين الخوف والرجاء ، لكن أيهما يغلب ؟ هل يغلب الرجاء ؟ أو يغلب

(١) أي فخافون .

(٢) يوم مشهود : أي يشهده أهل السماء والأرض .

(٣) من أمارات الساعة ما يحدث في الأرض من الزلزلة الشديدة التي أخبر الله عنها بأنها شيء عظيم الأهوال ويعقبها طلوع الشمس من مغربها .

(٤) أي : شرطاها وعلاماتها .

(٥) تذهل : أي تنسى وتترك .

(٦) عذاب السموم : أي عذاب النار التي تنفذ إلى المسام .

(٧) البر : أي المحسن .

(٨) البطش : الأخذ بشدة وعنف .

الخوف ؟ أو يجعلهما سواء ؟

قال الإمام أحمد رحمته الله : ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا ، فأيهما غلب هلك صاحبه ، لأنه إن غلب جانب الرجاء صار من الآمنين من عذاب الله ، وإن غلب جانب الخوف صار من القانتين من رحمة الله ، وكلاهما سيئ ، فينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله آيات في سياق باب الخوف ، سبق بعضها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُكُمْ ﴾ [آل عمران : ٢٨] يعني أن الله تعالى يحذرنا من نفسه أن يعاقبنا على معاصينا وذنوبنا ، وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًاؤُا رِيَكُمُ إِنَّكَ رَزَقَ النَّاسَ شَفْعًا عَظِيمًا ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ٢٠١] .

هذا أيضًا فيه أن الإنسان يجب أن يخاف هذا اليوم العظيم ، الذي قال الله عنه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ يعني من شدة ما ترى من الأحوال ومن الأفراع .

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ ﴾ يعني مشدوهين ، ليس عندهم عقول ، ولكنهم ليسوا بسكارى . ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَى الَّذِينَ يَنُوءُا ﴾ وسبق الكلام عليها .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ إلى آخر السورة ، أي : من خاف المقام بين يدي الله تعالى فإنه سوف يقوم بطاعته ، ويخشى من عقاب ، فله جنتان ، وفي أثناء الآيات يقول : ﴿ وَبَيْنَ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن : ٦٢] فهذه أربع جئات لمن خاف مقام الله تعالى ، ولكن الناس فيها على درجات . نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من أهلها بمنه وكرمه .

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا ، فنذكر منها طرفًا وبالله التوفيق .

٣٩٦ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق : « إِنْ أَخَذَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْقَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكُتِّبَ رِزْقُهُ ، وَأَجَلُهُ ، وَعَمَلُهُ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَخَذَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنْ أَخَذَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » ^(١) متفق عليه .

(١) أخرجه - بنحوه - البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢٠٨) ، ومسلم في القدر (١) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٢/١) ، والترمذي في القدر (٢١٣٧) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الخوف والتحذير من الأمن من مكر الله ، قال فيما نقله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله عمله وشقي أم سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

قوله ﷺ : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق ، يعني الصادق فيما يقول ، المصدق فيما يوحى إليه من الوحي ، وفيما يقال له من الوحي ، فهو صادق لا يخبر إلا بالصدق ، مصدوق لا ينأى إلا بالصدق صلوات الله وسلامه عليه .

وإنما قدم هذه المقدمة ؛ لأنه سيخبر عن أمر غيبي باطن يحدث في ظلمات ثلاث : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة » إذا جامع الرجل امرأته ، وألقى في رحمها الماء بقي أربعين يوماً وهو نطفة على ما هو عليه ، ماء ، لكنه يتغير شيئاً فشيئاً ، يميل إلى الحمرة ، حتى يتم عليه أربعون يوماً . فإذا تم عليه أربعون يوماً ، إذا هو قد استكمل الحمرة وصار قطعة دم علقه ، فيمضي عليه أربعون يوماً أخرى وهو علقه ، يعني قطعة دم ، لكنها جامدة . ولكنه يشخن ويغلظ شيئاً فشيئاً ، حتى يتم له ثمانون يوماً . فإذا تم له ثمانون يوماً فإذا ، إذا هو مضغة ؛ قطعة لحم ، هذه المضغة قال الله تعالى فيها : ﴿ تَخَلَّقَ وَغَيْرَ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج : ٥] فبقى أربعين يوماً ، تخلق من واحد وثمانين يوماً إلى مائة وعشرين يوماً ، ولا يتبين فيها الخلق تبيناً ظاهراً إلا إذا تم لها تسعون يوماً في الغالب .

فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة ، أرسل الله إليها الملك الموكل بالأرحام ؛ لأن الله ﻻ يقول : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الدنر : ٣١] ، فالملائكة جنود الله ﻻ ، وكل منهم موكل بشيء . منهم الموكل بالأرحام ، ومنهم الموكل بالنفوس يقبضها ، ومنهم الموكل بالأعمال يكتبها ، ومنهم الموكل بالأبدان يحفظها ، وظائف عظيمة للملائكة ، أمرهم الله ﻻ بها .

فيأتي ملك الأرحام إلى كل رحم ، فينفخ فيه الروح بإذن الله ﻻ ، وهذه الروح لا يعلمه إلا رب العالمين . قال الله تعالى : ﴿ وَنَسْئَلُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الاسراء : ٨٥] ، ينفخها في هذا البدن ، الذي هو قطعة لحم في الرحم ، ليس فيها حراك ولا إحساس ولا شيء ، فإذا نفخ هذه الروح دخلت في هذا البدن ، فتسير فيه كما تسير الجمرة في الفحمة بإذن الله ، أو الطين في المدر ^(١) اليابس ، فتدب في هذا الجسد حتى تدخل في الجسد كله ، فيكون إنساناً ، ويتحرك ، وتحس الأم بتحركه بعد مائة وعشرين يوماً ، وحينئذ يكون إنساناً ، أما قبل هذا فهو ليس بشيء .

ولو سقط الجنين قبل تمام مائة وعشرين يومًا ، فليس له حكم من جهة الصلاة عليه ، بل يؤخذ ويدفن في أي حفرة من الأرض ، ولا يصلى عليه .

أما إذا تم مائة وعشرين يومًا ، يعني أربعة أشهر ، حينئذ صار إنسانًا ، فإذا سقط بعد فإنه يغسل ، ويكفن ، ويصلى عليه ، ولو كان قدر اليد ، فإنه يصلى عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين إن كان مسلمًا . وإن كان من أولاد النصارى ، يعني أمه وأبوه من النصارى ، فلا يدفن في مقابر المسلمين ، بل يخرج ويدفن بدون تغسيل ولا تكفين ؟ لأنه وإن كان طفلًا ، فإن الرسول سئل عن أولاد المشركين فقال : « هم منهم » ^(١) .

المهم أنه إذا تم له أربعة أشهر يغسل ^(٢) ، ويكفن ، ويصلى عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين ، ويسمى ، ويُعق عنه على الأرجح ليشفع لوالديه يوم القيامة لأنه يعث يوم القيامة .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ويؤمر » يعني الملك « بأربع » كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد .

فيكتب رزقه : وكتب الرزق يعني : هو قليل ، أم كثير ؟ ومتى يأتيه ؟ وهل ينتقص أم لا ينتقص ؟ المهم أنه يكتب كاملاً .

ويكتب أجله أيضًا : في أي يوم ؟ وفي أي مكان ؟ وفي أي ساعة ؟ وفي أي لحظة ؟ وعن بُعد أم عن قرب ؟ وبأي سبب من الأسباب موته ؟ والمهم أنه يكتب كاملاً .

ويكتب عمله : هل هو صالح ، أم سيئ ، أم نافع ، أم قاصر على الشخص نفسه ؟ والمهم يكتب كل أعماله . ويكتب ماله : وما أدراك ما المال ؟ فيكتب هل شقي أم سعيد ؟ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ ^(٣) خَلِيلَيْكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ^(٤) إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ تَجْدُوهُ ﴾ [هود : ١٠٦-١٠٨] . كل هذا يكتب . لكن أين يكتب ؟ وردت آثار أنه يكتب في جبينه على جبهته .

فإن قال قائل : كيف تتسع الجبهة لكتابة هذه الأشياء كلها ؟

قلنا : لا تسأل عن أمور الغيب . ومن أنت حتى تسأل عن أمور الغيب ؟ قل آمنت بالله وصدقت بالله وبرسوله ، ولا تسأل : كيف ؟

وقد وقع الآن في وقتنا ما يشهد لمثل هذا - كمبيوتر قدر اليد يكتب به الإنسان آلاف الكلمات ،

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠١٢) واللفظ له ، ومسلم في الجهاد (٢٦) .

(٢) هذا هو رأي الإمام أحمد والشافعي في القديم وقال الحسن وإبراهيم والحكم وحماد والشافعي في الأم : لا يصلى عليه . ورأى الحنفية أنه إذا ولد ميتًا لا يغسل ، وروي عن محمد وأبي يوسف أنه يغسل ويكفن ولا يصلى عليه . انظر المجموع شرح المهذب (٢٠٩/٥) وبذائع الصنائع (٤٤٧/١) والمغنى والشرح الكبير (٣٩٣/٢) .

(٣) أي غير مقطوع عنهم .

وهو من صنع البشر . فما بالك بصنع الله ﷻ .

والمهم : أن هذا من المسائل التي يخبر بها الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأنت لا تدريها بحسبك ، فإن الواجب عليك أن تصدق وتسلم ، لأنك لو لم تصدق وتسلم إلا بما تدريكه بحسبك لم تكن مؤمنًا ، وما كنت مؤمنًا بالغيب ، فالذي يؤمن بالغيب هو الذي يقبل كل ما جاء عن الله ورسوله ، ويقول : آمنت بالله ورسوله وصدقت .

قال : « فالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » . ولكن أبشروا فإن هذا الحديث مقيد ، بأنه لا يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وأما الذي يعمل بعمل أهل الجنة بقلب وإخلاص فإن الله لا يخذله ﷻ ، والله أكرم من العبد ، فإذا عملت بعمل أهل الجنة بإخلاص - نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين منهم - فإن الله لا يخذلك ، لكن فيما يبدو للناس .

والدليل على هذا القيد ما ثبت في صحيح البخاري ، أن رجلاً كان مع النبي ﷺ في غزوة ، وكان شجاعاً مقداماً ، لا يترك للعدو شاذة ولا فاذة إلا قضى عليها ، فتعجب الناس منه ؛ ومن شجاعته ، ومن إقدامه ، فقال النبي ﷺ ذات يوم : « إنه من أهل النار » أعوذ بالله ، هذا الشجاع الذي يفتك بالعدو من أهل النار ؟ فكبر ذلك على المسلمين ، وعظم عليهم ، وخافوا ، كيف يصير هذا من أهل النار ؟ فقال رجل : والله لأكرمه وأتابعه وأراقبه ؛ لأرى نهايته كيف تكون ؟ فمشى معه ، وفي أثناء القتال أصاب هذا الرجل الشجاع السهم فجزع ، فأخذ بسيفه فسله ، فوضعه في صدره ، واتكأ عليه حتى خرج من ظهره ، قتل نفسه جزعاً ، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال : ويتم ؟

قال : الرجل الذي قلت إنه من أهل النار . حصل له كذا وكذا .

فقال النبي ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس » الحمد لله على هذا القيد ، يعمل فيما يبدو للناس بعمل أهل الجنة وهو من أهل النار ، يظنون أنه صالح ، ولكن في قلبه فساد ، وهو من أهل النار (١) .

قال في حديث ابن مسعود : « وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » هذا عكس الأول .

الأول : وجدنا له شاهدًا في الواقع وهي قصة هذا الرجل .

وهذا أيضًا له شاهد في الواقع ، يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . وقع هذا في عهد الرسول ﷺ ، رجل يقال له : الأصيرم من بني عبد الأشهل ، كافر متنازل للدعوة الإلهية ، ضد المسلمين ، فلما كان في غزوة أحد ، وخرج الناس من المدينة يغزون ، ألقى الله

في قلبه الإسلام ، فأسلم وخرج يجاهد .

فلما حصل ما حصل على المسلمين ، وقتل منهم من قُتل ، وذهب الناس ينظرون في قتلاهم ، فوجدوا الأصيرم ، فقال له قومه : ما الذي جاء بك ؛ فقد عهدناك ضد هذه الدعوة ، أخذت^(١) على قومك ، يعني عصبية ، أم رغبة في الإسلام ؟ قال : بل رغبة في الإسلام ، وأقرتوا الرسول ﷺ مني السلام ، وأخبروه أنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم مات ، فأخبروا بذلك النبي ﷺ وأظنه قال : « إنه لمن أهل الجنة »^(٢) .

فهذا الرجل أمضى عمره كله في الكفر ، ضد الإسلام ، وضد المسلمين ، وكان خاتمة هذه الخاتمة ، عمل بعمل أهل النار ، حتى لم يكن بينه وبينها إلا ذراع ، فسبق عليه الكتاب ، فعمل بعمل أهل الجنة ، فكان من أهل الجنة .

ساق المؤلف هذا الحديث من أجل أن نخاف وأن نرجو ، نخاف على أنفسنا من الفتنة ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائماً الثبات : اللهم ثبتني بالقول الثابت ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « اللهم مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك » اللهم مصرف القلوب ، صرف قلبي إلى طاعتك^(٣) هذا وهو النبي ﷺ .

وأيضاً نأخذ من هذا الحديث : ألا نياس ، ولا نياس من شخص نجده على الكفر أو على الفسق ، ربما يهديه الله في آخر لحظة ، ويموت على الإسلام . نسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن يتوفانا على الإيمان بمَنه وكرمه .

* * *

٣٩٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ^(٤) ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَحْمِلُونَهَا »^(٥) رواه مسلم .

٣٩٨ - وعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوَضَّعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ^(٦) جَحْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا ، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا »^(٧) متفق عليه .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٩/٥) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٦٣/٩) .

(٢) انظر سنن أبي داود (٢٥٣٧) ، ومسنند الإمام أحمد (٤٢٨/٥ ، ٤٢٩) .

(٣) انظر صحيح مسلم في القدر (١٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/٢) .

(٤) سبعون ألف زمام : الزمام : ما يجعل في أنف البعير ، فيحتمل أن يكون ذلك على حقيقته ، ويحتمل أن يكون تمثيلاً لعظمها وكبرها ، بحيث إنها تحتاج إلى كل هذه الأزرمة والملائكة في الإتيان بها .

(٥) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٩) .

(٦) أحمص قدميه : الأحمص باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض .

(٧) أخرجه بنحوه البخاري في الرقاق (٦٥٦٢) ، ومسلم في الإيمان (٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤) .

٣٩٩ - وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْرَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى تَرْقُوتَيْهِ » ^(١) رواه مسلم ^(٢) .

« الْحُجْرَةُ » : مَقْعِدُ الْإِزَارِ تَحْتَ الشُّرَّةِ ، وَ « التَّرْقُوتَةُ » بفتح التاء وضم القاف : هِيَ الْعِظَمُ الَّذِي عِنْدَ تَرْقُوتِ النَّحْرِ ، وَلِلْإِنْسَانِ تَرْقُوتَانِ فِي النَّحْرِ .

٤٠٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ » ^(٣) متفق عليه . وَ « الرَّشْحُ » الْعَرَقُ .

٤٠١ - وعن أنس رضي الله عنه ، قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ ، فَقَالَ : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » فَقَطَّيْنَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُوهَهُمْ ، وَلَهُمْ خَيْنٌ . متفق عليه .

وفي رواية : بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءً فَخَطَبَ ، فَقَالَ : « غَرِضْتُ عَلَيَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ ، غَطُّوا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَيْنٌ ^(٤) .

« الْخَيْنُ » بِالْحَاءِ الْمُعْجَمَةِ : هُوَ الْبُكَاءُ مَعَ غَنَّةٍ وَانْتِشَاقِ الصَّوْتِ مِنَ الْأَنْفِ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمته الله ، كلها أحاديث تفيد الخوف من يوم القيامة ومن عذاب النار ، فذكر أحاديث منها : أنه يؤتى يوم القيامة بجَهَنَّمَ ، لها سبعون ألف زمام ، سبعون ألف ملك يجرونها ، وهذا يدل على عظمة هذه النار - نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين منها ، ومن هول ذلك اليوم - لأن الله تعالى جعل سبعين ألف ملك مع كل زمام من سبعين ألف زمام يجرون بها جهنم والعياذ بالله . فهذا العدد الكبير من الملائكة يدل على أن الأمر عظيم والخطر جسيم .

ويؤيد النبي ﷺ أن أهون أهل النار عذابًا ، من يوضع في قدميه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه . وهو يرى أنه أشد الناس عذابًا ، وإنه لأهونهم ؛ لأنه لو رأى غيره لهان عليه الأمر ، وتسلى به ، ولكنه يرى أنه أشد الناس عذابًا والعياذ بالله ، فحيثما يتضرع ويزداد بلاء والعياذ بالله ومرضًا نفسيًا ، ولذلك ذكر النبي ﷺ هذا الحديث تحذيرًا لأمته من عذاب النار .

(١) تأخذه : تصل إليه .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٣) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٨) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٠) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢١) ، ومسلم في الفضائل (١٣٤) .

وذكر أيضًا أن من الناس من تبلغ النار إلى كعبيه ، وإلى ركبتيه ، وإلى حُجْزته .
 وذكر أيضًا أن الناس في يوم القيامة يبلغ العرق منهم إلى الكعبين ، وإلى الركبتين ، والحقوين ^(١) ،
 ومن الناس من يلجمه العرق .
 فالأمر خطير ، فيجب علينا جميعًا أن نحذر من أهوال هذا اليوم ، وأن نخاف الله ﷻ ، فنقوم
 بما أوجب علينا ، وندع ما حرم علينا . نسأل الله أن يعيننا والمسلمين على ذلك بمَنه وكرمه .

* * *

٤٠٢ - وعن المقداد ﷺ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ : « تُذْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كِمِقْدَارِ مِيلٍ » قَالَ سُلَيْمُ بْنُ غَامِرٍ الرَّائِي عَنْ الْمِقْدَادِ : قَوْلَ اللَّهِ مَا أَذْرِي
 مَا يَغْنِي بِالْمِيلِ ، أَمَسَافَةُ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلُ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ ؟ « فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ
 فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى
 حَقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا » ^(٢) وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدِيهِ إِلَى فِيهِ ^(٣) . رواه
 مسلم .

٤٠٣ - وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يَفْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ
 عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا ، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَتَلَعَّ أَدَانَهُمْ » ^(٤) متفق عليه .
 ومعنى « يَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ » : يَنْزِلُ وَيَغُوصُ .

٤٠٤ - وعنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، إِذْ سَمِعَ وَجِبَةً ^(٥) فقال : « هَلْ تَذَرُونَ مَا هَذَا ؟ »
 قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَغْلَمَ . قال : هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ
 حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا ، فَسَمِعْتُمْ وَجِبَتَهَا » ^(٦) رواه مسلم .

٤٠٥ - وعن عدي بن حاتم ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ
 رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ^(٧) ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ ، فَلَا يَرَى

(١) الحقو : معقد الإزار . والمراد هنا ما يحاذي ذلك الموضع من جنبيه .

(٢) يلجمه العرق إلجامًا : أي يصل إلى فيه فيكون له بمنزلة اللجام من الحيوانات .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٢) ، واللفظ ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦١) .

(٥) وجبة : سقطه يقال : وجب الحائط ونحوه : سقط .

(٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣١) .

(٧) ترجمان : ترجمة الكلام أي بيانها وإيضاحها واسم الفاعل ترجمان ، وفيه لغات ترتبها حسب الأفضلية :

ترجمان - ترجمان - ترجمان .

إِلَّا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ يَمِينَ يَدَيْهِ ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ ^(١) وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ ^(٢) وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ^(٣) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٤٠٦ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أَطَلَّتِ السَّمَاءُ وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنَظُّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعُ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَنَتهُ سَاجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » رواه الترمذي وقال : حديث حسن ^(٤) .
و « أَطَلَّتْ » بفتح الهمزة وتشديد الطاء ، و « تَنَظُّ » بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة ، وَالْأَطْيَطُ : صَوْتُ الرِّجْلِ وَالْقَتَبِ وَشِبْهِهِمَا ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ كَثْرَةَ مَنْ فِي السَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْعَابِدِينَ قَدْ أَثْقَلَتْهَا حَتَّى أَطَلَّتْ .

و « الصُّعْدَاتِ » بضم الصاد والعين : الطُّرُقَاتُ . ومعنى « تَجَارُونَ » : تَسْتَعِيثُونَ .

٤٠٧ - وعن أبي بوزة - إِبْرَاهِيمَ ثَمَ زَايٍ - نَضْلَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ ^(٥) حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمرِهِ فِيمَ أَقْنَاهُ ، وَعَنْ عَلَيْهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ » ^(٦) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ^(٧) .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمته الله ، كلها تدل على عظم يوم القيامة ، وأن على المؤمن أن يخاف من هذا اليوم العظيم .

ذكر أحاديث فيها دنو الشمس من الخلائق بقدر ميل ، قال سليم بن عامر الراوي عن المقداد : لا أدري أيريد بذلك مسافة الأرض ، أم ميل المكحلة ؟ وكلاهما قريب ، وإذا كانت الشمس في أوجها في الدنيا وبعدها عنا بهذه الحرارة ، فكيف إذا كانت بهذا القرب ؟ !

ولكن هذه الشمس ينجو منها من شاء الله ، فإن الله تعالى يظل أقوامًا بظله يوم لا ظل إلا ظله ، منهم من سبق ذكره وهم : السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعه امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى

(١) تلقاء : أي قبالة .

(٢) اتقوا النار : أي اجعلوا صالح أعمالكم وقاية لكم منها .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٢) ، ومسلم في الزكاة (٦٧) واللفظ له ، ورواه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٤) .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٢) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٠) ، أحمد في مسنده (١٧٣/٥) .

(٥) لا تزول قدما عبد : أي عن موقفه للحساب إلى جنة أو نار .

(٦) وعن جسمه فيما أبلاه : في طاعة الله أم في سواه ؟ (٧) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧) .

لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ^(١) .

وكذلك من أنظر معسراً ، أو وضع عنه ^(٢) ، المهم أن هناك أناساً ينجون من حرّ هذه الشمس ، فيظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وذكر أحاديث العرق ، وأن الناس يعرقون حتى يبلغ العرق من الأرض سبعين ذراعاً ، وحتى يلجم بعضهم إلجاماً ، وبعضهم يصل إلى كعبه ، وبعضهم إلى ركبتيه ، وبعضهم إلى حقويه ، يختلف الناس حسب أعمالهم في هذا العرق . وذكر أيضاً أحاديث أخرى ، فيها التحذير من نار جهنم ، نسأل الله لنا وللمسلمين السلامة منها .

والحاصل : أن الإنسان إذا قرأ هذه الأحاديث وغيرها مما لم يذكره المؤلف ، فإن المؤمن يخاف ويحذر ، وليس بين الإنسان وبين هذا إلا أن ينتهي أجله في الدنيا ، ثم ينتقل إلى دار الجزاء ؛ لأنه ينتهي العمل . أحسن الله لنا وللمسلمين الخاتمة .

* * *

٤٠٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ثم قال : « أَتَذَرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهَرِهَا تَقُولُ : عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا ، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٤٠٩ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ اتَّقَمَ الْقَرْنَ ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالتَّقْصِ فَتَنْفُخُ » فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لَهُمْ : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٤١٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ خَافَ أَذْلَجَ ، وَمَنْ أَذْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ » ^(٥) . أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ » ^(٦) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(١) انظر الحديث (٣٧٦) .

(٢) انظر الحديث في صحيح البخاري في البيوع (٢٠٧٧) ، ومسلم في الزهد (٧٤) .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٣٥٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٧٤/٢) .

(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٣١) ، والإمام أحمد في مسنده بنحوه (٣٢٦/١) . قوله « صاحب القرن » أي الصور ويعني الملك الموكل به وهو إسرافيل ، قوله « التقم القرن » أي وضع فاهه عليه .

(٥) ومن أذلج بلغ المنزل : الذي يأمن فيه البيات . قيل : إن هذا مثل طالب الآخرة وكون الشيطان على طريقة يأمن الرجل منه بالطاعة والصبر . وقيل : من خاف الله فليهرب من المعاصي إلى طاعته تعالى .

(٦) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٠) .

« وَأَدْجَجَ » يَأْشُكُن الدَّال ، ومعناه : سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ ، وَالْمُرَادُ : التَّشْمِيرُ فِي الطَّاعَةِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٤١١ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ قَالَ : « يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهْمَهُمْ ذَلِكَ » .

وفي رواية : « الْأَمْرُ أَهَمُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ » ^(١) متفقٌ عليه .

« غُرُلًا » بَضَمُ الْعَيْنِ الْمُفْجَمَةِ ، أَي : غَيْرَ مَخْتُونِينَ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الخوف ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ » أَدْلَجَ يَعْنِي مَشَى فِي الدَّلْجَةِ ، وَهِيَ أَوَّلُ اللَّيْلِ « وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ » ؛ لِأَنَّهُ إِذَا سَارَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى اهْتِمَامِهِ فِي الْمَسِيرِ ، وَأَنَّهُ جَادَ فِيهِ ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ بَلَغَ الْمَنْزِلَةَ : « أَلَا وَإِنْ سَلَعَةَ اللَّهُ غَالِيَةً ، أَلَا وَإِنْ سَلَعَةَ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . السَّلْعَةُ : يَعْنِي الَّتِي يَعْرِضُهَا الْإِنْسَانُ لِلْبَيْعِ ، وَالْجَنَّةُ قَدْ عَرَضَهَا اللَّهُ ﷻ لِعِبَادِهِ لِيَشْتَرَوْهَا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُدْفِعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ وَالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْفُلْبِيُّ ﴾ [التوبة: ١١١] .

فَمَنْ خَافَ : يَعْنِي مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَوْفُ اللَّهِ ، عَمِلَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَنْجِيهِ مِمَّا يَخَافُ .

وَأَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : قَالَتْ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « يُحْشَرُ النَّاسُ » يَعْنِي يَجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ « حُفَاةَ » لَيْسَ لَهُمْ نَعَالٌ « عُرَاةَ » لَيْسَ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ « غُرُلًا » غَيْرَ مَخْتُونِينَ .

فَالنَّاسُ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُمْ أُمّهَاتُهُمْ يَعْنِي فِي كَمَالِ الْخَلْقَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « يَارَسُولَ اللَّهِ ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ » يَعْنِي عُرَاةَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ . قَالَ : « الْأَمْرُ أَهَمُّ أَوْ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ ، أَوْ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ » أَيِ إِنْ الْأَمْرُ عَظِيمٌ جَدًّا ، لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ إِلَى أَحَدٍ ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّا يَنْتَهِي يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُ ﴾ [عس: ٣٧] .

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْجِيَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَخَافُهُ وَيَرْجُوهُ .

(١) أَخْرَجَهُ بَنُوهُ الْبَخَارِيُّ فِي الرِّقَاقِ (٦٥٢٧) ، وَأَخْرَجَ مُسْلِمُ الرِّوَايَةَ الثَّانِيَةَ بِلَفْظِهَا فِي الْجَنَّةِ وَصِفَةُ نَعِيمِهَا (٥٦) وَالْفَلْظُ لَهُ .

٥١ - باب الرجاء

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ^(١) لَا تَقْنَطُوا ^(٢) مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴾ [سبا: ١٧] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [طه: ٤٨] وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

٤١٢ - وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَزُورُوحُ مِنْهُ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ » متفق عليه .
وفي رواية لمسلم : « مَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ » ^(٣) .

٤١٣ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ، فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلَهَا أَوْ أَعْفِرُ . وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَيْئًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً ، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيقَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيْتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً » ^(٤) رواه مسلم .

معنى الحديث : « مَنْ تَقَرَّبَ » إِلَيَّ بِطَاعَتِي « تَقَرَّبْتُ » إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي ، وَإِنْ زَادَ زِدْتُ ، « فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي » وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي « أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً » أَي : صَبِيْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ ، وَسَبَقْتُهُ بِهَا ، وَلَمْ أُخْرِجْهُ إِلَى الْمَشْيِ الْكَثِيرِ فِي الْوُضُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ ، « وَقُرَابِ الْأَرْضِ » بَضْمُ الْقَافِ وَيُقَالُ بِكَسْرِهَا ، وَالضَّمُّ أَصْحَ وَأَشْهَرُ ، وَمَعْنَاهُ : مَا يُقَارِبُ مِلًّا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٤١٤ - وعن جابر رضي الله عنه قال : جَاءَ أَغْرَابِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُوجِبَتَانِ ^(٥) ؟ فَقَالَ : « مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ » ^(٦) رواه مسلم .

(١) ﴿ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ : أَي أَفْرَطُوا فِي الْجَنَاحَةِ عَلَيْهَا .

(٢) ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ : لَا تَيْأَسُوا .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٥) بلفظ الرواية الأولى ، وأخرج الثانية مسلم في الإيمان (٤٧) والترمذي في سننه (٢٦٣٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٢) .

(٥) الموجبتان : الحصلة الموجبة للجنة والحصلة الموجبة للنار .

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥١) .

٤١٥ - وعن أنس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، وَمُعَاذٌ رَدِيقُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ : « يَا مُعَاذُ » قَالَ : لَيْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : « يَا مُعَاذُ » قَالَ : لَيْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ . قَالَ : « يَا مُعَاذُ » قَالَ : لَيْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ - ثَلَاثًا - قَالَ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ ؛ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا ؟ قَالَ : « إِذَا يَتَكَلَّمُوا » فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ ثَأْنًا ^(١) . متفق عليه .
وقوله : « ثَأْنًا » أي : خَوْفًا مِنَ الْإِثْمِ فِي كَثْمِ هَذَا الْعِلْمِ .

الشرح

لما ذكر المؤلف ﷺ باب الخوف ذكر باب الرجاء ، وكأنه ﷺ يغلب جانب الخوف ، أو يقول : إذا رأيت الخوف قد غلب عليك ، فافتح باب الرجاء .

ثم ذكر المؤلف آيات وأحاديث ، منها قول الله تعالى ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْنَا أَنْفُسُهُمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] هذه الآية نزلت في التائبين ، فإن من تاب تاب الله عليه وإن عظم ذنبه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ^(٢) ﴾ يَضَعُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهْكًا ^(٣) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] . فمن تاب من أي ذنب ، فإن الله يتوب عليه مهما عظم ذنبه ، لكن إن كانت المعصية في أمر يتعلق بالخلقين ، فلا بد من إيفائهم حقهم في الدنيا قبل الآخرة ، حتى تصح توبتك .

أما غير التائبين ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] غفير التائبين أن كان عملهم كفرًا ؛ فإنه لا يغفر ، إن كان سوى الكفر ، فإنه تحت المشيئة ، وإن شاء الله عذب عليه ، وإن شاء غفر له . لكن إن كان من الصغائر ، فإن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر ، وبعض الأعمال الصالحة .

ثم ذكر المؤلف أحاديث متعددة في هذا الباب ، وكلها أحاديث توجب للإنسان قوة الرجاء بالله ﷻ ، حتى يلاقي الإنسان ربه وهو يرجو رحمته ، ويغلبها على جانب الخوف .

وفيهما أحاديث مطلقة مقيدة بنصوص أخرى ، مثل ما ذكره ﷺ في أن من لقي الله ﷻ لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار . المراد بهذا : الشرك وكذلك الكفر ، ككفر الجعود والاستكبار وما أشبه ذلك ؛ فإنه داخل في الشرك الذي لا يغفر . نسأل الله أن يجعلنا

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢٨) ، ومسلم في الإيمان (٥٣) واللفظ له ، وليس فيه كلمة (صدقًا) .

(٢) ﴿ أَثَامًا ﴾ أي : جزاء الإثم .

ممن يرجون رحمته ويخافون عذابه .

٤١٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - أَوْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه شَكَّ الْوَادِي ، وَلَا يَضُرُّ الشُّكَّ فِي عَيْنِ الصُّحَابِيِّ ؛ لَأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ عُذُولٌ - قَالَ : لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ ، أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَذْنَتْ لَنَا فَتَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا ، فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « افْعَلُوا » فَجَاءَ عُمَرُ رضي الله عنه فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ فَعَلْتُ ، قُلُ الظَّهْرُ ، وَلَكِنْ اذْعُهُمْ بِفَضْلِ أَرْوَادِهِمْ ، ثُمَّ اذْعُ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ الْبَرَكَةَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ » فَدَعَا يَنْطَعِ قَبَسَطُهُ ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَرْوَادِهِمْ ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَّةٍ ، وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ ، وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكِسْرَةٍ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النَّطْعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَرَكَةِ ، ثُمَّ قَالَ : « خَذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ » فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَشَكِ وَغَاءٍ إِلَّا مَلَوُوهُ ، وَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضَلَ فَضْلُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍّ ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ » ^(١) . رواه مسلم .

٤١٧ - وَعَنْ عِثَانَ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه وَهُوَ مِمَّنْ شَهِدَ بَذْرًا ، قَالَ : كُنْتُ أَصْلِي لِقَوْمِي بَنِي سَالِمٍ ، وَكَانَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَاِدَّاءُ جَاءَتِ الْأَمْطَارُ ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِنَاؤُهُ قِتْلَ مَسْجِدِهِمْ ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصْرِي ^(٢) ، وَإِنَّ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي يَسِيلُ إِذَا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِنَاؤُهُ ، فَوَدِدْتُ أَنَّكَ تَأْتِي ، فَتُصَلِّيَ فِي يَتِي مَكَانًا اتَّخَذَهُ مُصَلًى ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَأَفْعَلُ » . فَقَدَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ ، وَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَذْنَتْ لَهُ ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ : « أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أَصْلِيَ مِنْ بَيْتِكَ ؟ » فَأَشْرَفْتُ لَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَكَبَّرَ وَصَفَّقْنَا وَرَاءَهُ ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ ، فَحَبَسَتْهُ عَلَى خَزِيرَةٍ تُصْنَعُ لَهُ ، فَسَمِعَ أَهْلَ الدَّارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي ، فَتَنَابَ رِجَالٌ مِنْهُمْ حَتَّى كَثُرَ الرِّجَالُ فِي الْبَيْتِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : مَا فَعَلَ مَالِكٌ لَا أَرَاهُ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : ذَلِكَ مُتَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُثْقِلْ ذَلِكَ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الإيمان (٤٥) ، قوله « نواضحنا » النواضح من الإبل : التي يُسْتَقَى عليها ، قوله « وادنا » أي اتخذنا دهنًا من شحومها لارتققنا بذلك ، أو لكان خيرًا أو صوابًا ، قوله « الظهر » المراد الدواب ، قوله « بفضل أروادهم » أي بآبائهم ، وزاد المسافر : طعامه المتخذ لسفره ، قوله « ينطع » النطع بساط متخذ من أديم ، والجمع أنطاع ، وكانت تتخذ بين يدي الملوك والأمراء إذا أرادوا قتل أحد صبرًا لصيانة المجلس من الدم .

(٢) قوله « أنكرت بصري » وردت في بعض الروايات : « أصابني في بصري بعض الشيء » وفي بعضها « ساء بصري » وفي بعضها « وأنا رجل ضريب البصر » وفي رواية لمسلم « أنه عمي فأرسل » وقرب ابن حجر بين هذه الروايات بقوله : (أطلق عليه عمي لقربه منه ومشاركته له في فوات بعض ما كان يعهده في حال الصحة) انظر فتح الباري (٥٢٠ / ١) .

يَتَّبِعِي لَذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى ١٩ . فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، أَمَا نَحْنُ قَوْلُ اللَّهِ مَا نَرَى وَدُّهُ ، وَلَا حَدِيثُهُ إِلَّا إِلَى الْمُتَّفَقِينَ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ » (١) متفقٌ عليه .

و « عَتَبَان » بكسر العين المهملة ، وإسكان التاء المثناة فوق وبغدها باء مؤخدة . و « الْحَزِيرَةُ » بالخاء المعجمة ، وَالزَّاي : هي دَقِيقٌ يُطْبَخُ بِشَحْمٍ . وقوله : « ثَابَ رَجَالٌ » بِالثَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ ، أَي : بجاءوا واجْتَمَعُوا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عتبان بن مالك ؓ ، وكان يؤم قومه بني سالم ، « وكان بينه » أي بين بيته وبين قومه « واد » يعني شعيب يجري فيه السيل فإذا جاء السيل شق عليه عبوره . وأضف إلى ذلك أن بصره ضعف ، فصار يشق عليه مرتين ، من جهة المشي ، ومن جهة البصر والنظر . فجاء فأخبر النبي ﷺ بذلك وطلب منه أن يأتي بيته ليصلي في مكان من البيت ، يتخذ عتبان مصلي يصلي فيه ، وإن لم يكن مسجدًا . فقال النبي ﷺ : « سأفعل » ثم خرج هو وأبو بكر ؓ حين اشتد النهار ، وكان أبو بكر رفيقه حضراً وسفراً ، لا يفارقه ، كثيراً ما يكون معه ، وكثيراً ما يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، رجعت أنا وأبو بكر وعمر » (٢) ، فهما صاحباها ووزيراها ؓ ، صاحباها في الدنيا ، وصاحباها في البرزخ ، هؤلاء الثلاثة يقومون لله رب العالمين من مكان واحد ، من البيت الذي دفن فيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - والذي أصبح الآن في قرارة المسجد النبوي .

انظر إلى الحكمة : اختار الله ﷻ أن يكون البيت الذي دفن فيه الرسول داخل المسجد ، ليقوم هؤلاء الثلاثة يوم القيامة من وسط المسجد ، مسجد النبي - عليه الصلاة والسلام - وعلى هذا لا تكره شيئاً اختاره الله ، قد يختار الله شيئاً فيه مصلحة عظيمة لا تدري عنها أنت ، كره الناس أن يكون بيت الرسول الذي دفن فيه في وسط المسجد ، وقالوا : هذا شبهة لعباد القبور الذين يبنون المساجد على المقابر . ولكن ليس في ذلك شبهة ؛ لأن المسجد لم يبن على القبر ، وإنما امتد المسجد وبقي القبر في البيت مستقلاً عن المسجد ، ليس فيه حجة لأي إنسان إلا رجلاً مبطلاً ، يقول كما قال إبليس : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] لكن انظر الحكمة ، أن يكون خروجهم يوم القيامة من مكان واحد ، من جوف المسجد النبوي ، سبحانه الله العظيم ! حكمة تغيب عن كثير من الناس . المهم أن النبي ﷺ خرج حين اشتد النهار ، يعني حين ارتفعت الشمس إلى دار بني مالك ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ولم يجلس ، بل قال : « أين تحب أن أصلي ؟ » لأنه جاء لغرض ، فأحب أن يبدأ بالغرض الذي جاء من أجله قبل أي شيء ، وهذا من الحكمة ، أنك إذا أردت

(١) أخرجه البخاري بنحوه في الصلاة (٤٢٥) ، ومسلم في المساجد (٢٦٣) .

(٢) وبدل لذلك ما رواه : البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٧٧) .

شيئًا لا تعرج إلى غيره حتى تنتهي منه من أجل أن تضبط الوقت ويبارك لك فيه .

كثير من الناس تضيع عليه الأوقات بسبب أنه يتلقف الأشياء . وأضرب لهذا مثالاً : هب أنك تريد أن تراجع مسألة من مسائل العلم في كتاب من الكتب ، تقرأ الفهرس ، لأجل أن تعرف أين مكان هذه المسألة ، ثم تمر بك مسألة فتقول : أريد أن أطلع على هذه المسألة . ثم تطلع على الأخرى ، ويفوتك المقصود الذي من أجله راجعت هذا الكتاب . لكن ابدأ أولاً بما أردت قبل أي شيء ، ثم بعد ذلك ما زاد فهو فضل . فصلى النبي ﷺ بالمكان ، وصلوا معه جماعة ؛ لأن هذه جماعة عارضة لا دائمة .

ثم لما فرغ من صلاته ، إذا هو قد أعد له طعاماً زهيداً ، فسمع أهل الدار . الدار هو ما نسميه عندنا بالحلي والحارة ، سمع أهل الدار أن الرسول ﷺ عند عتبان بن مالك ، فتاب إليه أناس ، يعني اجتمعوا يريدون أن يهتدوا بالنبي - عليه الصلاة والسلام - ويسمعوا من قوله ، ويأخذوا من سنته ، فاجتمعوا فقالوا : أين فلان ؟ قالوا : ذاك منافق . ذاك منافق . فأنكر النبي ﷺ على من قال ذلك وقال : « لا تقل ذلك ، ألا تراه قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ؟ » .

فقال الرجل : الله ورسوله أعلم ؛ لأن من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله فهو مؤمن ليس منافقاً ، والمنافق يقولها رياءً وسمعة ، لا تدخل قلبه والعياذ بالله ، أما من قالها يبتغي بها وجه الله فإنه مؤمن بها ، مصدق ، تدخل قلبه .

ثم إن النبي ﷺ قال : « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله » . فكل من قالها يبتغي وجه الله فإن الله يحرمه على النار لماذا ؟ لأنه إذا قالها يبتغي بها وجه الله ؛ فإنه سيقوم بمقتضاها ، ويعمل بما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة ، من أداء الواجب ، وترك المحرم ، والإنسان إذا أدى الواجب وترك المحرم ، أحل الحلال ، وحرم الحرام ، وقام بالفرائض ، واجتنب النواهي ، فإن هذا من أهل الجنة ، يدخل الجنة ويحرم الله عليه النار .

وليس في هذا الحديث دليل على أن تارك الصلاة لا يكفر ؛ لأننا نعلم علم اليقين ، مثل الشمس ، أن من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله لا يمكن أن يترك الصلاة . هذا محال ، فالذي يقول : أنا أقول لا إله إلا الله أبتغي بذلك وجه الله ، وهو لا يصلي ؛ فهو من أكذب الكاذبين . لو كان يبتغي وجه الله ما ترك الصلاة ، التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين .

وفي هذا الحديث فوائد :

منها : أن من كانت حاله مثل حال عتبان بن مالك ، فإنه معذور بترك الجماعة وله أن يصلي في بيته ، مثل أن يكون بينه وبين المسجد وادٍ لا يستطيع العبور معه ، فإنه معذور .

ومنها : جواز قول الإنسان سأفعل في المستقبل ، إذا قال ستأتينا غداً ، قال : سأتيك ، وإن لم يقل إن شاء الله . فإن قال قائل : ما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ

عَدَا ۞ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۝ [الكهف: ٢٣، ٤٢] ، لشيء : عام سواء من فعل الله أو من فعلك ؟ .
قلنا : إن الذي يقول سأتيك غداً له نيتان :

النية الأولى : أن يقول هذا جازماً بالفعل ، فهذا لا يقوله إلا أن يقول إن شاء الله ؛ لأنه لا يدري أيأتي عليه الغد أم لا ، ولا يدري هل إذا أتى عليه الغد يكون قادراً ، يحول بينه وبينه مانع أو لا .

النية الثانية : إذا قال : سأفعل ، يريد أن يخبر عما في قلبه من الجزم دون أن يقصد الفعل ، فهذا لا بأس به ؛ لأنه يتكلم عن شيء حاضر ، مثل لو قيل : هل ستسافر مكة ، قلت : نعم سأسافر . تريد أن تخبر عما في قلبك من الجزم ، هذا شيء حاضر حاصل ، أما إن أردت الفعل ، أنك ستفعل يعني سيقع منك هذا ؛ فهذا لا تقل فيه سأفعل إلا مقروناً بمشيئة الله .

ومنها : أن الإنسان يعذر بترك الجماعة فيها إذا كان بينه وبين المسجد ما يشق عليه من وحل أو ماء أو غيره ، وقد كان من هدي النبي ﷺ أنه كان ينادي متأديه في الليلة المطيرة ^(١) ، أن صلوا في رحالكم ، يعني في أماكنكم . وذلك من أجل أن لا يشق على الناس ، فإما إذا كان ماء بلا مشقة وبلا دحر ووحل ، فإنه لا يعذر الإنسان بترك الجماعة ^(٢) .

ومن فوائد حديث عتب بن مالك ؓ : أن المصلي في بيته لا يصلي إلا فيه ، فليس بمسجد ، سواء حَجَرَهُ أو لم يُحَجَرِهِ .

وعلى هذا فلا تثبت له أحكام المسجد ، فيجوز للإنسان أن يبقى فيه وهو جنب ، وإذا جلس فيه لا يلزمه تحية المسجد فكل أحكام المساجد لا تثبت له ، وإذا أراد أن يعتكف فيه لم يصح اعتكافه . حتى لو كانت امرأة ولها مسجد في بيتها ، فإنها لا تعتكف فيه .

ومن فوائد حديثه ؓ : أنه يجوز أن تقام الجماعة في النوافل لكن ليس دائماً بل أحياناً ، فإن النبي ﷺ لما أراه عتب بن مالك الذي يصلي فيه تقدم وصلى بهم ركعتين وصلوا خلفه ، فإذا صلى الإنسان الرتبة مثلاً أو سنة الضحى ، إذا صلاها جماعة ، فلا بأس أحياناً .

وثبت عنه ﷺ أنه صلى معه ابن عباس ؓ ^(٣) صلاة الليل ، وصلى معه ابن مسعود ^(٤) ، وصلى معه حذيفة ^(٥) ، لكن ليس دائماً . فصلاة الجماعة نقلاً أحياناً لا بأس بها .

(١) انظر البخاري في الأذان (٦٣٢ ، ٦٦٦) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٢ ، ٢٤) .

(٢) انظر : مسلم في المساجد (٢٥٥) .

(٣) انظر البخاري في الوضوء (١٨٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٨٢) ، وأبو داود في سنته (١٣٦٤) .

(٤) انظر البخاري في التهجد (١١٣٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٤) ، وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

(٥) انظر مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣) ، وأبو داود في السنن (٨٧٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٨/٥) .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه لا بأس أن يتخذ الإنسان مصلى يعتاد الصلاة فيه في بيته ، ولا يقال : إن هذا مثل اتخاذ مكان معين في المسجد لا يصلى إلا فيه ، فإن هذا منهي عنه ، يعني ينهى الإنسان أن يتخذ في المسجد مكاناً لا يصلى فيه ، مثل أنه لا يصلى النافلة لا تحية المسجد ولا غيرها إلا فيه ، فإن النبي ﷺ نهى عن استيطان كاستيطان البعير ^(١) ، يعني عن اتخاذ موطن كأعطان الإبل ، تأوي إليه وتبيت فيه .

ومنها : أنه يجب على الإنسان أن يحبس لسانه عن الكلام في الناس ، بنفاق ، أو كفر ، أو فسق ، إلا ما دعت الحاجة إليه ؛ فإنه لا بد أن يبينه ؛ لأن النبي ﷺ لما قال رجل عن مالك : إنه منافق ، قال : « لا تقل هكذا ، أما علمت أنه قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » .

لكن هذا متى يحصل أن يشهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - لرجل بالإخلاص ، هو ليس بحاصل بعد موت الرسول - عليه الصلاة والسلام - إنما ليس لنا إلا الظاهر ، فمن ظهر لنا من حالة الصلاح وجب علينا أن نحكم له بالصلاح ، وألا نغتابه ولا نسبه .

ومن فوائد هذا الحديث : محبة الصحابة لرسول الله ﷺ والجلوس إليه ؛ لأنهم لما علموا أنه عند عتبان ابن مالك ثابوا إليه ، واجتمعوا عنده ، ليتعلموا منه ، وينالهم من بركة علمه - عليه الصلاة والسلام .

ومنها : ما سبق أن أشرنا إليه أن الإنسان يبدأ بالشغل الذي يريد قبل كل شيء ؛ لأن النبي ﷺ صلى في المكان قبل أن ينظر إلى ما صنع له من الطعام .

ومن فوائده أيضًا : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان على جانب كبير من التواضع ؛ لأنه لما انتهى من الصلاة ، يقول عتبان : حبسته على (خزيرة) نوع من الطعام ليس بذاك الجيد . حبسه : يعني قال له : انتظر حتى ينتهي الطعام ، ويقدمه إلى رسول الله ﷺ ، وهذا لا شك أن فيه تواضعًا من رسول الله ﷺ .

ومنها : وهي من أكبر فوائد هذا الحديث . أن من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ، فإن الله يحرم عليه النار « فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » يعني يطلب وجه الله . ومعلوم أن الذي يقول هذا طالبًا وجه الله فسي فعل كل شيء يقربه إلى الله ، من فروض ونوافل ، فلا يكون في هذا دليل للكسالي والمهملين ، يقولون : نحن نقول لا إله إلا الله نبتغي بذلك وجه الله . نقول : لو كنتم صادقين ما أهملتم العبادات الواجبة عليكم .

* * *

٤١٨ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قَدِمَ رسول الله ﷺ ، بسني ، فإذا امرأة من السَّني تَشَقَّى ، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّني أَخَذَتْهُ ، فَأَلَزَقَتْهُ بِطَنْهَا ، فَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ رسول الله ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ

(١) انظر أبو داود في الصلاة (٨٤٠) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٩) ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ » قُلْنَا : لَا وَاللَّهِ . فَقَالَ : « لَللَّهِ أَوْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا » ^(١) متفقٌ عليه .

٤١٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبَ غَضَبِي » . وفي رواية : « غَلَبَتْ غَضَبِي » وفي رواية « سَبَقَتْ غَضَبِي » ^(٢) متفقٌ عليه .

٤٢٠ - وعنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : يَقُولُ : « جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخُمُ الْخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ خَافِرُهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ » ^(٣) .

وفي رواية : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ ^(٤) ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ ، وَبِهَا يَتَرَاخُمُونَ ، وَبِهَا تَغْطِطُ الْوُحُشُ عَلَى وَلَدِهَا ، وَأَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَزَحُمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » متفقٌ عليه ^(٥) .

ورواه مسلم أيضًا من رواية سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاخُمُ بِهَا الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ ، وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٦) .

وفي رواية : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ^(٧) ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً ، فِيهَا تَغْطِطُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا ، وَالْوُحُشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ » ^(٨) .

٤٢١ - وعنه عن النبي ﷺ ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، قَالَ : « أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ » ^(٩) متفقٌ عليه .

(١) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب (٥٩٩٩) ومسلم في التوبة (٢٢) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (١٤) واللفظ له ، والبخاري في التوحيد (٧٤٠٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦٠/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٠) ، ومسلم في التوبة (١٧) .

(٤) الهوام : جمع هامة وهي الدابة وكل ذي سم يقتل سمه .

(٥) أخرجه مسلم في التوبة (١٩) . (٦) أخرجه مسلم في التوبة (٢١) .

(٧) أي ما يملأ ذلك لو كان جسمًا من كبره وعظمه . (٨) أخرجه مسلم في التوبة (٢١) .

(٩) هذا الحديث لم يذكره الشارح - رحمه الله - والحديث أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٧) ، ومسلم في

التوبة (٣٠) بلفظ (فليعمل ما شاء) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٩٢/٢) وفيه (اعمل ما شئت قد غفرت لك) .

قوله « يأخذ بالذنوب » أي يعاقب .

وقوله تعالى : « فليفعل ما شاء » أي : مَا دَامَ يَفْعَلُ هَكَذَا ، يُذْنِبُ وَيَتُوبُ أَغْفِرُ لَهُ ؛ فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا .

٤٢٢ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ ^(١) ، وَلَجَأَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ » ^(٢) رواه مسلم .

٤٢٣ - وعن أبي أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ ، يقول : « لَوْلا أَنْتُمْ تَذْنِبُونَ ، لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ ، فَيَسْتَغْفِرُونَ ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ » ^(٣) رواه مسلم .

٤٢٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كُنَّا قُعُودًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما فِي نَقْرٍ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا ^(٤) ، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا ، فَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا ^(٥) ، فَقَزَعْنَا ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَرَعَ ، فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي ^(٦) رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا ^(٧) لِلْأَنْصَارِ - وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ إِلَى قَوْلِهِ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَذْهَبَ فَعَنْ لَقِيَتْ وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُشْتَقِينَ بِهَا قَلْبُهُ فَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ » ^(٨) رواه مسلم .

٤٢٥ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَمْسَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَعْصِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، وَقَوْلَ عِيسَى ﷺ : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أُمِّتِي أُمِّتِي » وَبَكَى ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : « يَا جَبْرِيلُ أَذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبِّكَ أَغْلَمْ ، فَسَلِّهُ مَا يُنْكِيهِ ؟ » فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَغْلَمْ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « يَا جَبْرِيلُ أَذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ : إِنَّا سَرَضْنَاهُ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسْوُوكُ ^(٩) » ^(١٠) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في باب الرجاء ، ذكرها المؤلف رحمه الله وهي كثيرة جدًا منها : أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَرْحَمُ بَعَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا ، دَلِيلُ ذَلِكَ قِصَّةُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي السَّيِّئِ فَرَأَتْ صَبِيًّا ، فَأَخَذَتْهُ وَأَلْبَسَتْهُ عَلَى صَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ » . قَالُوا : لَا . قَالَ : « هَالِكٌ أَرْحَمُ بَعَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا » .

(١) أي أفناكم من الدنيا .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٩) وفيه (يذنبون يغفر لهم) وله شاهد في جامع الترمذي بسند آخر في الدعوات

(٣٥٣٩) ورواه أحمد في مسنده (٤١٤/٥) . (٤) بين أظهرنا : أي بيننا .

(٥) فخشيننا أن تقطع دوننا : أي يصاب بمكره من عدو . (٦) أبتغي : أطلب .

(٧) حائطًا : بستانًا . (٨) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٢) .

(٩) ولا نسووك : نرضيك ولا ندخل عليك خزينا ، بل ننجي الجميع .

(١٠) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٦) .

وهذا من تمام رحمته ﷺ .

وآيات ذلك كثيرة ، منها : هذه النعم التي ترى علينا ، وأعظمها نعمة الإسلام ، فإن الله تعالى أضل عن الإسلام أمما ، وهدى عباده المؤمنين لذلك ، وهي أكبر النعم .

ومنها : أن الله أرسل الرسل إلى الخلق مبشرين و منذرين ، لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل ^(١) . وكذلك ذكر المؤلف الأحاديث التي فيها أن رحمة الله سبقت غضبه ، ولهذا يعرض الله ﷻ على المذنبين أن يستغفروا ربهم ، حتى يغفر لهم ، ولو شاء لأهلكهم ولم يرغبهم في التوبة ، ﴿ وَلَوْ يَوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابْكَةٍ وَلَئِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر : ٤٥] ، ولهذا قال في الحديث الذي رواه مسلم ، قال : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

وهذا ترغيب في أن الإنسان إذا أذنب ، فليستغفر الله ، فإنه إذا استغفر الله ﷻ بنية صادقة ، وقلب مؤمن ، فإن الله تعالى يغفر له ، ﴿ قُلْ يَبَايِدُ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ^(٢) لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ومنها : أن النبي ﷺ لما تلا قول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في الأصنام ﴿ رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ لِي رَسُولًا مِنْ ذُرِّيَّتِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، وقول عيسى : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّكُمْ عَادَتُمْ وَإِنْ تَتَّقِرْ لَهُمْ فَإِنَّكُمْ أَنْتَ الْمَرْبُؤُ لِلْحَكِيمِ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، رفع ﷺ يديه وبكى ، وقال : « يارب أمتي أمتي » . فقال الله ﷻ لجبريل : « اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك » .

وقد أرضاه ﷻ في أمته ، بأن جعل لهذه الأمة أجرا مضاعفا ، كما جاء في الحديث الصحيح : إن مثل هذه الأمة مع من سبقها ، كمثل رجل استأجر أجرا ، من أول النهار إلى الظهر ، فأعطاهم على دينار دينار ، واستأجر أجرا من الظهر إلى العصر وأعطاهم على دينار دينار ، واستأجر أجرا من العصر إلى الغروب وأعطاهم على دينارين دينارين ، فاحتج الأولون وقالوا : وكيف تعطينا على دينار دينار ونحن أكثر منهم عملا وتعطي هؤلاء على دينارين دينارين . فقال لهم الذي استأجرهم : هل ظلمتكم شيئا ، قالوا : لا ^(٣) . إذا لا لوم عليه في ذلك ، ففضل الله على هذه الأمة كثير .

وقد أرضاه الله في أمته ولله الحمد من عدة وجوه ، منها كثرة الأجر ، وأنهم الآخرون السابقون يوم القيامة ، وأنها فضلت بفضائل كثيرة ، مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ،

(١) تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] .

(٢) ﴿ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ : أي أفرطوا في المعاصي جانين على أنفسهم بارتكابها والقنوط : لا تقتطروا أي لا تيأسوا .

(٣) انظر البخاري في الإجارة (٢٢٦٨) .

وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» (١).

فهذه الخصائص له ولأمته - عليه الصلاة والسلام - فالحاصل أن هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمته، كلها أحاديث رجاء، تحمل الإنسان على أن يعمل العمل الصالح، يرجو بذلك ثواب الله ومغفرته.

* * *

٤٢٦ - وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَل رضي الله عنه قال : كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ : « يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ » قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « فَإِنْ حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قَالَ : « لَا تُبَشِّرُوهُمْ فَيَكْبَرُوا » (٢) متفق عليه .

٤٢٧ - وعن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ » [إبراهيم : ٢٧] (٣) متفق عليه .

٤٢٨ - وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً ، أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ » (٤) . وفي رواية : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً (٥) يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ ، فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَقْضَى إِلَى الْآخِرَةِ (٦) ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا » (٧) رواه مسلم .

٤٢٩ - وعن جابر رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَيْرٍ عَلَى بَابٍ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ » (٨) رواه مسلم . « الْعَمْرُ » الْكَثِيرُ .

٤٣٠ - وعن ابن عباس رضي الله عنه سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتَ فَيَقُومَ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ » (٩) رواه مسلم .

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في المساجد (٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٧) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان (٤٩) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٩) واللفظ له ، ومسلم في الجنة (٧٣) .

(٤) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٧) . (٥) أي لا يترك مجازاته بشيء من حسناته .

(٦) أي إذا صار إليها .

(٧) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٦) ، والإمام أحمد في مسنده (١٢٣/٣ ، ٢٨٣) .

(٨) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٢٦/٢) ، قوله « على باب أحدكم » إشارة إلى قربهِ وسهولة تناوله .

(٩) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٩) ، والبيهقي في السنن (١٨١/٣) .

٤٣١ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ ، فَقَالَ : « أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ » قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : « أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ » قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشَّرِّ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ » ^(١) متفق عليه .

٤٣٢ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ : هَذَا فِكَائُكَ مِنَ النَّارِ » ^(٢) .
وفي رواية عنه عن النبي ﷺ قال : « يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَثْقَالٍ الْجِبَالِ يَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ » ^(٣) رواه مسلم .

قوله : « دَفَعَ اللَّهُ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ : هَذَا فِكَائُكَ مِنَ النَّارِ » مَعْنَاهُ : مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : « لِكُلِّ أَحَدٍ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ ، فَالْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ خَلَفَهُ الْكَافِرُ فِي النَّارِ ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِذَلِكَ بِكُفْرِهِ » .

وَمَعْنَى « فِكَائُكَ » : أَنَّكَ كُنْتَ مُعْرَضًا لِدُخُولِ النَّارِ وَهَذَا فِكَائُكَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لِلنَّارِ عَذَابًا يَمْلَأُهَا ، فَإِذَا دَخَلَهَا الْكُفَّارُ بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، صَارُوا فِي مَعْنَى الْفِكَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٤٣٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : يُدْزَنُ ^(٤) الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَصْغَحَ كَنَفُهُ عَلَيْهِ ، فَيَقْرُؤُهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ أَغْرِفْ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ ^(٥) متفق عليه . « كَنَفُهُ » : سِتْرُهُ وَرَحْمَتُهُ .

الشرح

هذه الأحاديث المتعددة كلها في باب الرجاء ، ولكن الرجاء لابد أن يكون له عمل يبنى عليه . أما الرجاء من دون عمل يبنى عليه ، فإنه تمزُّ لا يستفيد منه العبد ، ولهذا جاء في الحديث : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » ^(٦) . فلا بد من عمل يتحقق به الرجاء .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٢٨) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٧) واللفظ له ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٤٩) . (٣) أخرجه مسلم في التوبة (٥١) .

(٤) يدني : أي يقرب والقرب هنا قرب مكانة لا قرب مكان .

(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٥) واللفظ له ، ومسلم في التوبة (٥٢) .

(٦) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٩) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠) ، أحمد في مسنده (١٢٤/٤) .

ذكر المؤلف رحمته الله حديث معاذ بن جبل ، أنه كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار . فقال له : « أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ » قال الله ورسوله أعلم . وهذا من آداب طالب العلم ، إذا سئل عن شيء ، أن يقول الله أعلم ، ولا يتكلم فيما لا يعلم . قال : « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً » .

يعني أن لا يعذب من عبده وهو لا يشرك به شيئاً ؛ لأن نفي الشرك يدل على الإخلاص والتوحيد ، ولا إخلاص وتوحيد إلا بعبادة .

فقلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ فقال : « لا تبشروهم فيتكلوا » . يعني لا تبشروهم فيتكلوا على ما يجب ، ولا يقوموا بما ينبغي أن يقوموا به من النوافل ، ولكن معاذاً صلى الله عليه وسلم أخبر بها عند موته تأثماً . يعني خوفاً من إثم كتمان العلم فأخبر بها .

ولكن قول الرسول : « لا تبشروهم فيتكلوا » فيه إنذار من الاتكال على هذا ، وأن الإنسان يجب أن يعلم أنه لا بد من عبادة .

وكذلك الأحاديث التي ذكرها المؤلف كلها في سياق الرجاء . منها : أن المؤمن يُسأل في القبر ، فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذا هو القول الثابت الذي قال الله فيه : ﴿ يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . والميت في قبره يُسأل عن ثلاث : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم (١) .

وكذلك أيضاً : ما ذكره رحمته الله من صفة محاسبة العبد المؤمن ، أن الله تعالى يأتي يوم القيامة ، فيخلو بعبده المؤمن ، ويضع عليه كتفه يعني ستره ، ويقول : فعلت كذا وفعلت كذا ، ويقرره بالذنوب ، فإذا أقر قال : « كنت سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطي كتاب حسناته باليمين » .

ومن ذلك أيضاً : أن المؤمنين كل واحد منهم يعطى يهودياً أو نصرانياً يوم القيامة ، ويقال : « هذا فكاكك من النار » يعني هذا يكون بذلك في النار ، وأما أنت فقد نجت . فنحن يوم القيامة إن شاء الله تعالى كل واحد منا يجعل بيده يهودي أو نصراني يلقي في النار بدلاً عنه ، يكون فكاكاً له من النار .

ولا يلزم من هذا أن يكون اليهود والنصارى على قدر المسلمين ، فالكفار أكثر من المسلمين بكثير ، من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم ؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون كلهم في النار وواحد في الجنة .

وذكر المؤلف أيضًا حديثًا : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - عرض على الصحابة . فقال : « أترضون أن تكونوا ربيع أهل الجنة ؟ أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ » قالوا : نعم ، قال : « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » يعني نصف أهل الجنة من هذه الأمة ، والنصف الباقي من بقية الأمم كلها ، وهذا يدل على كثرة هذه الأمة ؛ لأنها آخر الأمم ، وهي التي ستبقى إلى يوم القيامة . وقد جاء في السنن والمسند ، أن صفوف أهل الجنة مائة وعشرون ، منها ثمانون من هذه الأمة ^(١) ، فتكون هذه الأمة ثلثي أهل الجنة ، وهذا من رحمة الله ﷻ ومن فضل الرسول - عليه الصلاة والسلام ؛ لأن الرسول ﷺ يعطي أجر كل من عمل بسنته وشريعته .

* * *

٤٣٤ - وعن ابن مسعود ؓ أن رجلاً أصاب من امرأة قبله ، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ ^(٢) إِنَّ الْخِصَمَاءَ بِذُنُوبِنَ السَّيِّئَاتِ ﴿ [هود : ١١٤] فقال الرجل : ألي هذا يا رسول الله ؟ قال : « لجميع أمتي كلهم » ^(٣) متفق عليه .

٤٣٥ - وعن أنس ؓ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أصبتُ حذًا ، فأَغَمُّهُ عَلَيَّ ، وَخَضَرْتُ الصَّلَاةَ ، فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ : يا رسول الله ، إِنِّي أَصَبْتُ حَذًا ، فَأَقِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ . قال : « هَلْ خَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلَاةَ ؟ » قال : نعم . قال « قَدْ غُفِرَ لَكَ » ^(٤) متفق عليه . وقوله : « أَصَبْتُ حَذًا » معناه : مَقْصِيَّةٌ تُوجِبُ التَّغْزِيرَ ، وليس المرادُ الحَذَّ الشَّرْعِيَّ الْحَقِيقِيَّ كَحَذِّ الزُّنَا وَالْخَمْرِ وَغَيْرِهِمَا ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْحُدُودَ لَا تَشْقُطُ بِالصَّلَاةِ ، وَلَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ تَرْكُهَا .

٤٣٦ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهُ لَيَبْزُغُ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيُحْمَدَهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيُحْمَدَهُ عَلَيْهَا » ^(٥) رواه مسلم .

« الْأَكْلَةُ » بفتح الهمزة وهي المرة الواحدة مِنَ الْأَكْلِ كَالْعِدْوَةِ وَالْعَشْوَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٤٣٧ - وعن أبي موسى ؓ عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُثَوِّبَ مُسِيئَةَ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ ^(٦) بِالنَّهَارِ لِيُثَوِّبَ مُسِيئَةَ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » ^(٧) رواه مسلم .

(١) انظر سنن الترمذي (٢٥٤٦) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٨٩) ، ومسند أحمد (٣٤٧/٥) ، ومستدرک الحاكم (٨٢/١) .
(٢) ﴿ طَرَفِي الْتَهَارِ ﴾ أي الغداة والعشي ؛ أي الصباح والظهر والعصر . ﴿ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ أي طائفة من أوله ، أي المغرب والعشاء .

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٦) واللفظ له ، ومسلم في التوبة (٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٠/١) .
(٤) أخرجه مسلم في التوبة (٤٤) - واللفظ له - والبخاري في المحاريق من أهل الكفر والردة (٦٨٢٣) .
(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩) ، والترمذي في الأطعمة (١٨١٦) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٣) .
(٦) يبسط يده : قال المازري : المراد قبول التوبة ، وإنما جاء لفظ بسط اليد ؛ لأن العرب إذا رضي أحدهم عن شيء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه ، فخطبوا بأمر حسي يفهمونه وهو مجاز .
(٧) أخرجه مسلم في التوبة (٣١) ، أحمد في مسنده (٣٩٥/٤) ، والبيهقي في السنن (١٣٦/٨ ، ١٨٨/١٠) .

٤٣٨ - وعن أبي نجیح عمرو بن عَبَسَةَ - بفتح العين والباء - السلمي رضي الله عنه قال : كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة ، وأنهم ليسوا على شيء ، وهم يغفلون الأوثان ، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً ، ففعدت على راحلتي ، فقدمت عليه ، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً ، جزاء عليه قومه ، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة ، فقلت له : ما أنت ؟ قال : « أنا نبي » قلت : وما نبي ؟ قال : « أرسلني الله » قلت : وبأي شيء أرسلك ؟ قال : « أرسلني بصلية الأرحام ، وكسر الأوثان ، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء » قلت : فمن معك على هذا ؟ قال : « حر وعبد » معه يومئذ أبو بكر وبلال رضي الله عنهما قلت : إني متبعك ، قال : « إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى خالي وحال الناس ؟ ولكن ارجع إلى أهلِكَ فإذا سمعت بي قد ظهرْتُ ^(١) فأتني » قال : فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكنت في أهلي ، فجعلت أتخير الأختار ^(٢) ، وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم نفر من أهلي المدينة ، فقلت : ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة ؟ فقالوا : الناس إليه سراع ، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك ، فقدمت المدينة ، فدخلت عليه ، فقلت : يا رسول الله أتعرفني ؟ قال : « نعم أنت الذي لقيتني بمكة » قال : فقلت : يا رسول الله أخبرني عما علمك الله وأجهله ، أخبرني عن الصلاة ؟ قال : « صل صلاة الصبح ، ثم اقصر عن الصلاة حتى ترتفع الشمس قيد رُمح ؛ فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صل ؛ فإن الصلاة مشهودة محضورة ^(٣) ، حتى يستقل الظل بالرمح ^(٤) ، ثم اقصر عن الصلاة ؛ فإنه حينئذ تشجر جهنم ^(٥) ، فإذا أقبل الفيل فصل ؛ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تضيء العصر ، ثم اقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس ؛ فإنها تغرب بين قرني شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار » قال : فقلت : يا نبي الله ، فالوضوء حدثني عنه . فقال : « ما منكم رجل يقرب وضوءه ، فيتمضمض ويستشيق فيتبر ، إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه ، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله ، إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحية مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين ، إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء ، ثم يمسح رأسه ، إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين ، إلا خرت خطايا رجليه من أنامله ^(٦) مع الماء ، فإن هو قام فصلى ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل ، وفرغ قلبه لله تعالى ، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه » .

فحدث عمرو بن عَبَسَةَ بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ، فقال له أبو أمامة : يا عمرو بن

(١) ظهرت : ظهر ظهوراً : تبين وبرز ، وظهر على عدوه أي غلبه .

(٢) أتخير الأخبار : أي أسأل عنها و أستمعها .

(٣) مشهودة محضورة : أي تشهدا وتحضرها الملائكة .

(٤) حتى يستقل الظل بالرمح : أي يقوم مقابلة جهة الشمال ليس مائلاً إلى المشرق ولا إلى المغرب .

(٥) أي يوقد عليها إيقاداً بليغاً .

(٦) أنامله : أي أطراف أصابعه .

عَبَسَ، انظر ما تقول ! في مقام واحد يُعْطَى هَذَا الرَّجُلُ ؟ فقال عمرو : يا أبا أمامة لَقَدْ كَبُرَتْ سِنِي ، وَرَقَّ عَظْمِي ، وَاقْتَرَبَ أَجَلِي ، وما بي حاجة أَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، ولا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لو لم أَسْمَعُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، حَتَّى عَدُّ سَبْعِ مَرَّاتٍ ، ما حَدَّثْتُ أَبَدًا بِهِ ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ^(١) . رواه مسلم .

قوله : « جُرَاءٌ عَلَيْهِ قَوْمُهُ » : هو بِجِيمٍ مضمومة وبالمَدِّ على وزنِ غُلَمَاءَ ، أي : جاسرون مُسْتَطِيلُونَ غيرِ هَائِبِينَ . هذه الرواية المشهورة ، ورواه الحُمَيْدِي وغيرُهُ : « حَرَاءٌ » بكسر الحاء المهملة ، وقال : معناه : غَضَابٌ ذُوو غَمٍّ وَهَمٍّ ، قد عِيلَ صَبْرُهُمْ بِهِ ، حَتَّى أَثَّرَ فِي أَجْسَامِهِمْ ، من قولهم : خَرَى جِسْمُهُ يَخْرَى ، إِذَا نَقَصَ مِنْ أَلَمٍ أَوْ غَمٍّ وَنَحْوِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ بِالْجِيمِ . قوله ﷺ : « بَيْنَ قَرْنِي شَيْطَانٌ » أي : ناحيتي رَأْسِي ، وَالْمَرَادُ التَّمثِيلُ ، معناه : أَنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَحَرَّكُ الشَّيْطَانُ وَشِعْثُهُ ، وَيَتَسَلَّطُونَ . وقوله : « يُقَرَّبُ وَضَوْءُهُ » معناه : يُحْضِرُ الْمَاءَ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِهِ . وقوله : « إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا » هو بِالْخَاءِ المعجمة : أي سَقَطَتْ ، ورواه بَعْضُهُمْ « جَرَّتْ » بِالْجِيمِ ، وَالصَّحِيحُ بِالْخَاءِ ، وَهُوَ رِوَايَةُ الْجُمْهُورِ . وقوله : « فَيَنْتَبِذُ » أي : يَسْتَخْرِجُ ما فِي أَنْفِهِ مِنْ أَدَى ، وَالتَّنْثَةُ : طَرَفُ الْأَنْفِ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كُلُّهَا أَيْضًا فِيهَا مِنَ الرَّجَاءِ ما فِيهَا ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تَكْفِرُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي قَبْلَهَا ، كما فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قَبْلَهُ ، وَالَّذِي أَصَابَ حَدًّا وَطَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقِيْمَهُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ هِيَ أَفْضَلُ أَعْمَالِ الْبَدَنِ وَهِيَ تَذْهَبُ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ اللَّهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْأَثَارِ وَذُلْفَا مِنْ الْأَيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ﴾ [مرد: ١١٤] .

ولكن لا بد أن تكون الصلاة على الوجه الذي يرضاه الله ﷻ ، كما جاء في حديث عمرو بن عبسة أن لها أوقاتًا محددة ، وهناك أوقات ينهى الإنسان أن يصلي فيها .

ثم أرشد النبي ﷺ عمرو بن عبسة إلى صفة الوضوء الصحيحة ، لأن الإنسان إذا توضأ على هذه الصفة خرجت خطاياه ، وإذا صلى وقد فرغ قلبه لله كفر الله عنه . فلا بد من ملاحظة هذا القيد ؛ لأن من الناس من يصلي ولكنه ينصرف من صلاته ما كتب له إلا عشرين أو أقل ؛ لأن قلبه غافل وليس في صلاة بل كأنه يبيع ويشترى أو يعمل أعمالاً أخرى حتى تنتهي الصلاة .

ومن وساوس الشيطان : أن الإنسان يصلي فإذا كبر للصلاة انفتحت عليه الهواجس من كل مكان ، فإذا سلم زالت عنه ، مما يدل على أن هذا من الشيطان ، يريد أن يخرب عليه صلاته حتى يحرم من هذا الأجر العظيم .

وفي حديث عمرو بن عبسة فوائد كثيرة منها : أن النبي ﷺ بدأ غريبتا خائفًا متخفيًا ﷺ ، جاءه

عمرو بن عبسة وقد رأى ما عليه أهل الجاهلية وأنهم ليسوا على شيء ، فصار يتطلب الدين الصحيح الموافق للفطرة ، حتى سمع بالنبي ﷺ في مكة فجاء إليه ، فوجده مستخفياً في بيته ، لم يتبعه إلا حر وعبد - أبو بكر وبلال - لم يتبعه أحد ، وفي هذا : دليل على أن أبا بكر ﷺ أول من آمن بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم آمن بعده من الأحرار علي بن أبي طالب ﷺ .

ومن حكمة النبي ﷺ أنه قال لعمرو : « إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى حالي وحال الناس ؟ ولكن اذهب إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني » فذهب وأتى إليه بعد ثلاثة عشر سنة في المدينة ، وأخبره أنه يعرفه لم ينسى طوال هذه المدة .

ثم أخبره مما يجب عليه لله ﷻ من حقوق ، وبين له أن الإنسان إذا توضأ وأحسن الوضوء خرجت خطاياهم من جميع أعضائه ، وأنه إذا صلى فإن هذه الصلاة تكفر عنه ، فضل ذلك على أن فضل الله ﷻ أوسع من غضبه ، وأن رحمته سبقت غضبه . نسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته إنه جواد كريم .

* * *

٤٣٩ - وعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها ، فجعل لها فرطاً وسلفاً بين يديها ، وإذا أراد هلكة أمة ، عذبها ونبيها حي ، فأهلكها وهو حي ينظر ، فأقر عينه بهلاكها حين كذبوه وعصوا أمره » ^(١) رواه مسلم .

* * *

٥٢ - باب فضل الرجاء

قال الله تعالى إخباراً عن العبد الصالح : ﴿ وَأَوْفُوا بِرِغَابِكُمْ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِبَصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ ^(١) فَقَوْلُهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا ^(٢) [غافر : ٤٤ ، ٤٥] .

٤٤٠ - وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال الله ﷻ : أنا عند ظن عبدي بي ^(٣) وأنا معه حيث يذكرني - والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة - ومن تقرب إلي شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلي يمشي ، أقبلت إليه أهزولاً » ^(٤) متفق عليه ، وهذا لفظ إحدى روايات مسلم ^(٥) . تقدم شرحه في الباب قبله .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الفضائل (٢٤) ، قوله « فرطاً » أي أنه شفيق يتقدم ، قوله « سلفاً » هو المقدم .

(٢) ﴿ وَأَوْفُوا بِرِغَابِكُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ : أي أسلمه .

(٣) ﴿ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا ﴾ : أي شذائدهم مكرهم .

(٤) أنا عند ظن عبدي بي : قيل : معناه بالغفران ، إذا استغفر والقبول إذا تاب والإجابة إذا دعا ، وقيل : المراد الرجاء وتأميل العفو وهو الأصح .

(٥) الهرولة : الإسراع بين العدو والمشي .

(٦) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ، ومسلم في التوبة (١) واللفظ له .

وروي في الصحيحين : « وأنا معه حينَ يَذْكُرُنِي » بالنون ، وفي هذه الرواية « حيثُ » بالثاء وكلاهما صحيح .

٤٤١ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ : « لَا يُمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ صلى الله عليه وسلم » (١) (٢) رواه مسلم .

٤٤٢ - وعن أنس رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَيَّ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَتَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » (٣) رواه الترمذي . وقال : حديث حسن .

« عَتَانُ السَّمَاءِ » بفتح العين ، قيل : هو ما عَنَّ لَكَ منها ، أي : ظَهَرَ إِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ ، وقيل : هو الشَّحَابُ . و « قُرَابُ الْأَرْضِ » بضم القاف ، وقيل بكسرها ، والضم أصح وأشهر ، وهو : ما يُقَارِبُ مَلَأَهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب فضل الرجاء ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم النصوص الدالة على الرجاء وعلى سعة فضل الله وكرمه ، ذكر فضل الرجاء ، والإنسان ينبغي له أن يكون طامعًا في فضل الله صلى الله عليه وسلم راجيًا ما عنده .

ثم ذكر قول العبد الصالح وهو الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتُم إيمانه ، وكان ناصحًا لقومه ، يناصحهم ويبين لهم بالبراهين ما هم عليه من الباطل ، وما عليه موسى من الحق ، وفي النهاية قال لهم : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْأَعْيَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] ، ﴿ وَأَفَوتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ يعني أبعده مفوضًا إليه ، لا أعتمد على غيره ، ولا أرجو إلا إياه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْأَعْيَادِ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ قَوْلَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ﴾ أي سيئات مكرهم ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٥] .

ثم ذكر حديث أبي هريرة أن الله تعالى قال في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي و أنا معه حيث يذكُرني » ، « أنا عند ظن عبدي بي » : يعني أن الله عند ظن عبده به ، إن ظن به خيرًا فله ، وإن ظن به سوءًا فله ، ولكن متى يكون العبد محسنًا الظن بالله صلى الله عليه وسلم ؟ .

يكون كذلك إذا فعل ما يوجب فضل الله ورحمته ، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن الله

(١) أي يظن أنه يعفو عنه ويرحمه .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٢٥/١) .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٠) وفي النسخة التي بين أيدينا لم يقل الترمذي : حديث حسن كما قال

المصنف وإنما قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وأخرجه أيضًا الإمام أحمد في مسنده (١٥٤/٥) .

تعالى يقبله أما أن يحسن الظن وهو لا يعمل ، فهذا من باب التمني على الله ، و من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني فهو عاجز .

حسن الظن : بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضي حسن الظن بالله ﷻ فمثلاً أحسن الظن بالله بأن الله يقبلها منك ، إذا صمت فكذلك ، إذا تصدقت ، إذا عملت عملاً صالحاً أحسن الظن بأن الله تعالى يقبل منك ، أما أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مال يرجعون إليه .

ثم ذكر أن الله ﷻ أكرم من عبده ، فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبراً ، تقرب الله منه ذراعاً ، وإن تقرب منه ذراعاً ، تقرب منه باعاً ، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول ﷻ فهو أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده . هذه الأحاديث و أمثالها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله ﷻ ، لكننا لا ندري كيف تكون هذه الهرولة ، وكيف يكون هذا التقرب ، فهو أمر ترجع كيفية إلى ﷻ . ثم ذكر المؤلف أحاديث في هذا المعنى كلها تدل على أنه يجب على الإنسان أن يحسن الظن بالله ﷻ ، ولكن مع فعل الأسباب التي توجب ذلك . نسأل الله أن يوفقنا والمسلمين لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة .

* * *

٥٣ - باب الجمع بين الخوف والرجاء

اعْلَمْ أَنَّ الْمُخْتَارَ لِلْعَبْدِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا ، وَيَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ سَوَاءً ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ يُمَحِّضُ الرَّجَاءَ . وَقَوَاعِدُ الشَّرْعِ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مُتَطَاهِرَةٌ عَلَى ذَلِكَ . قال الله تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يَأْنِسُ مِنْ رَدِّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَشَفِيعٌ رَجِيءٌ ﴾ [الأعراف : ١٦٧] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْمٍ ۖ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الأنفطار : ١٣، ١٤] وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ^(١) [الفراعة : ٦-٩] والآيات في هذا المعنى كثيرة فَيَجْتَمِعُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ فِي آيَتَيْنِ مُفْتَرَتَيْنِ أَوْ آيَاتٍ أَوْ آيَةٍ .

٤٤٣ - وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ ، قال : « لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ

(١) ﴿ مَكْرَ اللَّهِ ﴾ : أي استدراج الله ﷻ لهم بالنعم ، ﴿ يَأْنِسُ ﴾ : يقنط ، ﴿ الْأَبْرَارَ ﴾ : المؤمنون الصادقون ، ﴿ نَيْمٍ ﴾ : الجنة ، ﴿ الْفُجَّارَ ﴾ : الكفار ، ﴿ جَحِيمٍ ﴾ : نار محرقة ، ﴿ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ : أي رجحت حسناته عن سيئاته ، ﴿ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ : أي رجحت سيئاته عن حسناته ، ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ : أي مسكنه ومأواه ، ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ : أي يهوى فيها الكافر على رأسه في جهنم .

العقوبة ، ما طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، مَا قَنِطَ ^(١) مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ ^(٢) » رواه مسلم .

٤٤٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا وُضِعَتِ الْجِنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا النَّاسُ أَوْ الرِّجَالُ عَلَى أَغْتَابِهِمْ ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ : قَدُمُونِي قَدُمُونِي ^(٣) ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ ، قَالَتْ : يَا وَيْلَهَا ! أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا ؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ ، وَلَوْ سَمِعَهُ ضَعِيقٌ ^(٤) » ^(٥) رواه البخاري .

٥٤٤ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ^(٦) ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ » ^(٧) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الجمع بين الخوف والرجاء وتغليب الرجاء في حال المرض . هذا الباب قد اختلف فيه العلماء ، هل الإنسان يغلب جانب الرجاء أو جانب الخوف ؛ فمنهم من قال : يغلب جانب الرجاء مطلقاً ، ومنهم من قال : يغلب جانب الخوف مطلقاً . ومنهم من قال : ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه سواءً ، لا يغلب هذا على هذا ، ولا هذا على هذا ، لأنه إن غلب جانب الرجاء أمن مكر الله ، وإن غلب جانب الخوف يمس من رحمة الله .

وقال بعضهم : في حال الصحة يجعل رجاءه وخوفه واحداً كما اختاره النووي رحمته الله في هذا الكتاب ، وفي حال المرض يغلب الرجاء أو يحضه .

وقال بعض العلماء أيضاً : إذا كان في طاعة فليغلب الرجاء وأن الله يقبل منه ، وإذا كان عند المعصية فليغلب الخوف ، لئلا يقدم على المعصية .

والإنسان يجب عليه أن يكون طيب نفسه ، إذا رأى من نفسه أنه أمن من مكر الله ، وأنه مقيم على معصية الله ، ومتمن على الله الأمانى ؛ فليعدل عن هذه الطريق ، وليسلك طريق الخوف . وإذا رأى أن فيه وسوسة ، وأنه يخاف بلا موجب ؛ فليعدل عن هذا الطريق ، وليغلب جانب الرجاء حتى يعتدل خوفه ورجاءه .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله آيات جمع الله فيها ذكر ما يوجب الخوف وذكر ما يوجب الرجاء ، ذكر

(١) قنط : أي يمس .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣) والترمذي في الدعوات (٣٥٤٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٣٤/٢) .

(٣) أي أسرعوا بي إلى لقاء ربي .

(٤) أي هلك .

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣١٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٥٨/٣) والبيهقي في السنن (٢١/٤) .

(٦) شراك نعله : الشراك : سير النعل التي تكون على وجهها والجمع شُرُوك .

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١ ، ٤١٣) .

فيها أهل الجنة وأهل النار ، وذكر فيها صفته ﷻ وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [المائدة: ٩٨، ٩٩] ، حيث إنه في مقام التهديد والوعيد قدم ذكر شدة العقاب ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وفي حالة تحدته عن نفسه وبيان كمال صفاته قال : ﴿ يَتَّقُ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] ، فقدم ذكر المغفرة على ذكر العذاب ؛ لأنه يتحدث عن نفسه ﷻ ، وعن صفاته الكاملة وعن رحمته التي سبقت غضبه .

ثم ذكر المؤلف أحاديث في هذا المعنى تدل على أنه يجب على الإنسان أن يجمع بين الخوف والرجاء ، مثل قول النبي ﷺ « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد » . والمراد لو يعلم علم حقيقة وعلم كيفية ، لا أن المراد لو يعلم علم نظر وخير ، فإن المؤمن يعلم ما عند الله من العذاب لأهل الكفر والضلال ، لكن حقيقة هذا لا تدرك الآن ، لا يدركها من وقع في ذلك - أعاذنا الله وإياكم من عذابه .

« ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنط من جنته أحد » ، والمراد حقيقة ذلك ، وإلا فإن الكافر يعلم أن الله غفور رحيم ، ويعلم معنى المغفرة ، ويعلم معنى الرحمة .

وذكر المؤلف أحاديث في معنى ذلك مثل قوله : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » . شراك النعل يضرب فيه المثل في القرب ؛ لأن الإنسان لا يمس نعله ، فالجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله ؛ لأنها ربما تحصل للإنسان بكلمة واحدة ، « والنار مثل ذلك » ربما تحدث النار بسبب كلمة يقولها قائل ، مثل الرجل الذي كان يمر على صاحب معصية فينهاه ويذجره ، فلما تعب قال : والله لا يغفر الله لفلان . فقال الله تعالى : « من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان ، فإني قد غفرت له وأحبطت عمله » ، قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته (١) .

فالواجب على الإنسان أن يكون طيب نفسه في كونه يغلب الخوف أو الرجاء ، إن رأى نفسه تميل إلى الرجاء وإلى التهاون بالواجبات وإلى انتهاك المحرمات استناداً إلى مغفرة الله ورحمته فليعدل عن هذه الطريق ، وإن رأى أن عنده وسواساً ، وأن الله لا يقبل منه ؛ فإنه يعدل عن هذا الطريق إلى ما يحصله في الصحة وفي حال المرض .

* * *

٥٤ - باب فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقاً إليه

قال الله تعالى : ﴿ وَخَرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٩] وقال تعالى : ﴿ أَقْبِنْ هَذَا لِلْعِدْتِ مَجْبُونًا ﴾ [النجم : ٥٩ ، ٦٠] .

٤٤٦ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي النبي ﷺ : « اقرأ علي القرآن » قلت : يا رسول الله اقرأ عليّ ، وعليّ أنزل ! قال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت عليه سورة النساء ، حتى جئت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] قال : « حسبك الآن » ^(١) فالتفت إليّ ، فإذا عيناه تذرفان ^(٢) . متفق عليه ^(٣) .

٤٤٧ - وعن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط ، فقال : « لو تعلمون ما أعلم لصبحكنم قليلاً ولبكيكنم كثيراً » قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ، ولهم خنين . متفق عليه ^(٤) ، وسبق بيانه في باب الخوف .

٤٤٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار ^(٥) رجل بكى من خشية الله ^(٦) حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » ^(٧) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

٤٤٩ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » ^(٨) متفق عليه .

(١) حسبك : أي كفاك .

(٢) تذرفان : أي سال دمعها .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٢) وليس فيه كلمة (القرآن) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤٧) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٨ / ١ ، ٤٣٣) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢١) واللفظ له ، ومسلم في الفضائل (١٣٤) .

(٥) لا يلج : أي لا يدخل .

(٦) خشية الله : أي الخوف منه .

(٧) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٣) وفي الزهد (٢٣١١) والنسائي في سننه (١٢ / ٦) .

(٨) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والترمذي في الزهد (٢٣٩١) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : فضل البكاء من خشية الله ﷻ ، يعني خوفاً منه وشوقاً إليه تبارك وتعالى ، وذلك أن البكاء له أسباب : تارة يكون الخوف ، وتارة يكون الألم ، وتارة يكون الشوق وغير ذلك من الأسباب التي يعرفها الناس . ولكن البكاء من خشية الله إما خوفاً منه ، وإما شوقاً إليه تبارك وتعالى ، فإذا كان البكاء من معصية فعلها الإنسان ، فهذا البكاء سببه الخوف من الله ﷻ ، وإذا كان بعد طاعة فعلها ، كان هذا البكاء شوقاً إلى الله ﷻ .

وذكر المؤلف رحمه الله آيتين ، آية فيها الثناء على الذين يبكون من خشية الله وهي قوله تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ [الإسراء: ١٠٧] أي أوتوا العلم من قبل القرآن ، وهم أهل الكتاب ، ﴿ إِذَا يَسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخَوِّرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجْدًا ﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] يعني إن وعد ربنا واقع لا محالة ، فإن هنا للتوكيد . ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِدُّهُمْ خُشوعًا ﴾ . ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ يعني عليها . والمراد المبالغة في السجود ، حتى تكاد أذقانهم تضرب بالأرض من شدة المبالغة في سجودهم . ﴿ وَيَزِدُّهُمْ خُشوعًا ﴾ خشوعاً في القلب يظهر أثره وعلامته على الجوارح . والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ هَٰذَا الَّذِي يَصَّبُّونَ ﴿٦٠﴾ وَتَضَعُونَ لَهَا تُكُوفًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠] وهذا ذم لهم . أن يضحك الإنسان من القرآن ويعجب منه عجب استنكار وسخرية ولا ييكي منه . والقرآن أعظم واعظ ، يعظ الله به القلوب ، لكنه إذا ورد على قلوب كالحجارة والعياذ بالله فإنها لا تلين ولكنها تزداد صلابة . نسأل الله العافية .

ثم ذكر المؤلف حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه القرآن ، فقال : يا رسول الله ، كيف أقرأه عليك وعليك أنزل ؟ ؛ يعني فأنت أعلم به مني ، فكيف أقرأه عليك ؟ . قال : « إني أحب أن أسمع من غيري » . هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام ، وفيه دليل على أن الإنسان قد يكون إنصاته لقراءة غيره أخشع لقلبه مما لو قرأ هو ، وهو كذلك أحياناً ، فأحياناً إذا سمعت القرآن من غيره خشعت وبكيت ، لكن لو قرأته أنت ما حصلت لك هذه الحال .

فقرأ عليه سورة النساء ، فلما بلغ هذه الآية العظيمة : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] يعني ماذا تكون حالك ؟ وماذا تكون حالهم ؟ . كيف هنا للاستفهام ، والاستفهام يشد النفس وينبه القلب ﴿ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ يوم القيامة . والشهداء طائفتان من الناس : الطائفة الأولى : الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى : ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

والثانية : أهل العلم الذين ورثوا الأنبياء ؛ فإنهم شهداء بعد أن يموت الأنبياء ، فالشهداء على الخلق هم العلماء بعد الرسل يشهدون بأن الرسل بلغوا ، ويشهدون على الأمة بأن الرسالة قد بلغتهم ، وبألها

من ميزة عظيمة لأهل العلم ، أن يكونوا هم شهداء الله في أرضه . يقول : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ، وقد ذكر الله في سورة الجاثية ﴿ وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَائِدٌ ﴾ على ركبها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾ كتاب الأعمال ، أو إلى كتابها الذي نزل عليها بالوحي ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يعني يا محمد ﴿ عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ الأم ﴿ شَهِيدًا ﴾ ماذا تكون الحال . فقال النبي ﷺ له : « حسبك الآن » . قال ابن مسعود : فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان . يبكي - عليه الصلاة والسلام - خوفًا من هذه الحالة الرهيبة العظيمة . ففي هذا دليل على البكاء من سماع القرآن أو عند قراءته .

وذكر المؤلف حديثًا آخر سبق لنا شرحه وهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا وليبكتكم كثيرًا » يعني لو تعلمون ما أعلم من حقائق الأمور التي أخفاها الله عنكم وعلمها الرسول ﷺ لكنه أخفاها عن الخلق رحمة بهم وعلمها النبي ﷺ ولكنه لم يؤمر بإبلاغها للناس .

ولما قال ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا وليبكتكم كثيرًا » غطى الصحابة وجوههم ولهم خنن . يعني أصوات بكاء . سيكون لأن المرد بقول الرسول عليه الصلاة والسلام « لو تعلمون ما أعلم » التحذير مما علمه - عليه الصلاة والسلام - فجعلوا يبكون ﷺ وأرضاهم ، وهذا يدل على كمال إيمانهم ، وكمال تصديقهم بما أخبر به الرسول ﷺ .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة المشهور ، وقد سبق أيضًا « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » وذكر منهم : « رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » ذكر الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأحكامه وآياته ، ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه ، إما شوقًا إليه ، وإما خوفًا منه ، فهذا من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . والمراد بالظل هنا : ظل يخلقه الله ﷻ يوم القيامة يظل في ظل من شاء من عبادته ، وليس المراد ظل نفسه جل وعلا ؛ لأن الله نور السموات والأرض ، ولا يمكن أن يكون الله ظلًا من الشمس ، فتكون الشمس فوقه وهو بينها وبين الخلق ، ومن فهم هذا الفهم فهو بليد أبعد من الحمار ؛ لأنه لا يمكن أن يكون الله ﷻ تحت شيء من مخلوقاته ، فهو العلي الأعلى ، ثم هو نور السموات والأرض . قال النبي عليه الصلاة والسلام « حجاب » يعني حجاب الله « النور » لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (١) ، يعني لو كشف هذا الحجاب - والحجب أيضًا من نور ، لكنها نور دون نور الباري ﷻ لو كشف الله هذا النور لأحرقت سبحات وجهه يعني بهاؤه وعظمته ونوره ، ما انتهى إليه بصره من خلقه ، وبصره من خلقه ، وبصره ينتهي إلى كل شيء .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٠١/٤ ، ٤٠٥) ابن ماجه في سننه (١٩٦) .

والمعنى : لو كشفه لأحرق هذا النور كل شيء ، كيف يكون المراد بالظل ظل الرب ﷻ ؟ لكن كما قلت : فبعض الناس أجهل من الحمار ، لا يدري ما يترتب على قوله الذي يقوله في تفسير كلام الله وكلام رسوله ﷺ ولا يمكن أن يريد الرسول عليه الصلاة والسلام هذا .

حتى الرواية التي وردت في ظل عرشه ^(١) فيها نظر ؛ لأن المعروف أن العرش أكبر من السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، والسماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة ^(٢) ، فكيف يكون العرش تحت الشمس يظل الناس ؟

لو صح الحديث لقنا : ربما يكون طرف العرش مثلاً ، والله ﷻ على كل شيء قدير ، لكن هذه اللفظة في صحتها نظر ، والصواب أنه ظل يخلقه الله في ذلك اليوم ، إما من الغمام أو من غير ذلك ، فالله أعلم به ، لكنه ظل يستر الله به من شاء من عبادته من حر الشمس . وإنما قال : « يوم لا ظل إلا ظله » ، لأننا في الدنيا نستظل بالبناء الذي نبنيه ، ونستظل بالأشجار التي تنمو ، ونستظل بسفوح الجبال ، وبالجدران ، وبغير ذلك ، ونستظل بأشياء نحن نصنعها بأيدينا وبأشياء خلقها الله ﷻ .

لكن في الآخرة ليس هناك ظل ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [طه : ١٠٥] كل الجبال تنسف مهما عظمت ، أكبر الجبال وأعظمها تنسف ، تكون رملاً ، هباء منثوراً ، تطير في الجو ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] تطير في الهواء وإن كنت تظنها جامدة لا تتحرك . وقد سمعت بعض الناس المتأخرين يقول ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً ﴾ يعني في الدنيا ، وأن هذا دليل على أن الأرض تدور ، وعلل ذلك بأن يوم القيامة ليس فيه شيء من الحسبان . وهذا من جهله وعدم معرفته ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورًا رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوُنَهَا نَدْهَلُ كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ ﴾ [الحج : ٢١] هذا من يراهم على خلاف الواقع ، فالأمر إذا ذهل الإنسان ولو كان أمامه شيء متيقن ؛ فإنه تضيع حواسه وإدراكاته . المهم أن قوله : « يوم لا ظل إلا ظله » أي إلا الظل الذي يخلقه الله ﷻ ، يظل به من شاء من عبادته . وهذا هو الشاهد .

قوله : « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » . فأنت يا أخي إذا ذكرت الله فاذا ذكر ربك خالي القلب ، لا تفكر في شيء ، إن فكرت في شيء لم يحصل لك البكاء من خشية الله أو الشوق إليه ، لأنه لا يمكن أن يبكي الإنسان وقلبه مشغول بشيء آخر ، كيف تبكي شوقاً إلى الله

(١) ذكرها البيهقي في الأسماء والصفات ص (٣٧١) .

(٢) سبق تخريجه .

وحوقاً منه ، وقلبك مشغول بغيره !؟ ولهذا قال : « ذكر الله خالياً » يعني خالي القلب مما سوى الله ﷻ ، خالي الجسم أيضاً ، ليس عنده أحد حتى يكون بكاؤه رياءً وسمعة ، فهو مخلص حاضر القلب ، فهذا أيضاً ممن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . أسأل الله أن يظلني والمسلمين في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

٤٥٠ - وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيزِ المِجَلِّ من البكاء ^(١) . حديث صحيح رواه أبو داود ، والترمذي ^(٢) في الشمائل بإسناد صحيح .

٤٥١ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأُمِّي بن كعب رضي الله عنه : « إِنْ اللَّهُ ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ : ﴿ لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قَالَ : وَسَمَانِي ؟ قَالَ : « نَعَمْ » فَبَكَى أُمِّي ^(٤) . متفق عليه . وفي رواية : فَجَعَلَ أُمِّي يَبْكِي .

٤٥٢ - وعنه قال : قال أبو بكرٍ لعمر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ : انطلق بنا إلى أمِّ أَيْمَنَ رضي الله عنها نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ ، فَقَالَا لَهَا : مَا يَبْكِيكَ ؟ أَمَّا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! قَالَتْ : إِنِّي لَا أَبْكِي أُنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَكِنِّي أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَهَيَّجَتْهُمَا ^(٥) عَلَى الْبُكَاءِ ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا ^(٦) . رواه مسلم . وقد سبق في باب زيارة أهل الخير .

٤٥٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : لَمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ ، قِيلَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ ، فَقَالَ : « مُزُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » فقالت عائشة رضي الله عنها : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ ^(٧) ، إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ غَلَبَتْهُ الْبُكَاءُ ، فَقَالَ : « مُزُوهُ فَلْيُصَلِّ » .

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : قُلْتُ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ مِنْ

(١) أي تنسى وتترك كل امرأة الطفل الذي ألقمته ثديها من شدة كربها ودهشتها .

(٢) أزيز : أي صوت .

(٣) أخرجه أبو داود في البكاء في الصلاة (٩٠٤) والترمذي في الشمائل ص (٢٦٣) والنسائي في سننه (١٣/٣) وأحمد في مسنده (٢٥/٤) والحاكم في المستدرک (٢٦٤/١) وصححه على شرط مسلم .

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٩) واللفظ له وليس فيه (أي) في العبارة الأخيرة ؛ ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٥) والإمام أحمد في مسنده (١٣/٣ ، ١٨٥ ، ٢١٨) .

(٥) أي أثرت فيهما مما جعلهما يبكيان بشدة .

(٦) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٣) .

(٧) أي رقيق القلب .

البكاء^(١) . متفق عليه .

٤٥٤ - وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أَنَّ عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ رضي الله عنه أتى بطعامٍ وكان صائماً ، فقال : قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكْفَى فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ إِنْ غُطِّيَ بِهَا رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِنْ غُطِّيَ بِهَا رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ ، ثُمَّ بَسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا ^(٢) مَا بَسِطَ - أَوْ قَالَ : أَعْطَيْنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا - قَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجَلَتْ لَنَا ^(٣) . ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ ^(٤) رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف في باب البكاء من خشية الله أو من الشوق إليه رضي الله عنه ، ذكر فيها عدة أحاديث ، منها حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء . المرجل : القدر يغلي على النار وله صوت معروف ، وأزيز صدر النبي صلى الله عليه وسلم كان من خشية الله بلا شك ، فهذا بكاء من خشية الله .

وذكر حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب : « إِنْ اللَّهُ تعالى أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ قرآن لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ من [البينة : ١] فَقَالَ : وَسْمَانِي لَكَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » . فبكى أبي . لكن هذا البكاء يحتمل أن شوقاً إلى الله تعالى ؛ لأن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقرأ هذه السورة على أبي تدل على رفعة أبي بن كعب رضي الله عنه ، ويحتمل أن يكون ذلك من الفرح ، فإنما الإنسان ربما يبكي إذا فرح ، كما أنه يبكي إذا حزن .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله أحاديث كلها تدل على البكاء بسبب الحزن على ما مضى ، منها حديث أم أيمن رضي الله عنها حين زارها الصحابيَّان أبو بكر وعمر ، أتيا إليها كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يزورها ، فلما أتيا بكَّت فقالا لها : « ما يبكيك ، أما علمت أن ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : بلى إني لا أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء » انقطع الوحي « فهيجتهما على البكاء فجعلتا يبكيان معها » .

وكذلك حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حين جيء إليه بالطعام وهو صائم ، والصائم يشتهي الطعام عادة ، ولكنه رضي الله عنه تذكر ما كان عليه الصحابة الأولون ، وهو رضي الله عنه من الصحابة الأولين من المهاجرين رضي الله عنه ، لكنه قال احتقاراً لنفسه : « قتل مصعب بن عمير وهو خير مني » . وكان

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٤) ومسلم في الصلاة (٩٤ ، ٩٥) والرواية الثانية : أخرجهما بلفظها البخاري في الاعتصام (٧٣٠٣) ومسلم في الأذان (١٠١) .

(٢) المراد وسع الله لنا فيها .

(٣) المراد عُجِّلَ لنا جزاؤها فلا نقدم على ثواب مدخر .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٧٤ ، ١٢٧٥) .

مصعب^(١) رجلاً شائباً ، كان عند والديه بمكة وكان والداه أغنياء ، وكان يلبسانه من خير لباس الشباب والفتيان ، وقد دللاه دلالة عظيمة ، فلما أسلم هجراه وأبعداه ، وهاجر مع النبي ﷺ فكان مع المهاجرين ، وكان عليه ثوب مرقع بعد ما كان في مكة عند أبويه يلبس أحسن الثياب ، ولكنه ترك ذلك كله مهاجراً إلى الله ورسوله . وأعطاه النبي ﷺ الراية يوم أحد ، فاستشهد ﷺ . وكان معه بردة أي ثوب إذا غطوا به رأسه بدت رجلاه . وذلك لقصر الثوب وإن غطوا رجله بدا رأسه ، فأمر النبي ﷺ أن يستر به رأسه وأن تستر رجلاه بالإذخر ، نبات معروف^(٢) .

فكان عبد الرحمن بن عوف يذكر حال هذا الرجل ، ثم يقول أنهم قد مضوا وسلموا مما فتح الله به من الدنيا على من بعدهم من المغامر الكثيرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَقَانِرَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح : ١٩] . ثم قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ : « قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا » لأن الكافر يجزى على حسناته في الدنيا ، وله في الآخرة عذاب النار ، والمؤمن قد يجزى في الدنيا وفي الآخرة ، ولكن جزاء الآخرة هو الأهم . فخشي ﷺ أن تكون حسناتهم قد عجلت لهم في هذه الدنيا ، فبكى خوفاً وفرقاً ، ثم ترك الطعام ﷺ . ففي هذا دليل على البكاء من خشية الله ومخافة عقابه .

* * *

٤٥٥ - وعن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ : قَطْرَةٌ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَقَطْرَةٌ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَأَمَّا الْأَثَرَانِ : فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةِ مَنْ قَرَأَ اللَّهُ تَعَالَى »^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وفي الباب أحاديث كثيرة ، منها :

٤٥٦ - حديث الغرياض بن سارية ﷺ قال : وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً وَجِلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ . [تقدم الحديث برقم : ١٥٧]^(٤) .

* * *

(١) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (٢٠٨/٧) وأسد الغابة (٣٦٨/٤) والإصابة (٢٠٨/٩) وسير أعلام النبلاء (١٤٥/١) .

(٢) انظر البخاري في الجنائز (١٢٧٦) ومسلم في الجنائز (٤٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٩) والطبراني في الكبير (٢٨٠/٨) . قوله « أثرين » الأثر ما بقي من الشيء دلالة عليه ، قوله « تهراق » الهاء مفتوحة زائدة ، قوله « أثر في سبيل الله » أي ما يبقى بعد الاندمال من ضربة سيف أو طعنة رمح ، قوله « أثر في فريضة الله تعالى » أي أثر السجود والبلل في أعضاء الوضوء .

(٤) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) والترمذي في العلم (٢٦٧٦) والإمام أحمد في مسنده (١٢٦/٤ ، ١٢٧) والبيهقي في سننه (١١٤/١٠) . قوله (وجلت) أي خافت وارتعدت .

٥٥ - باب فضل الزهد في الدنيا

والحث على التقلل منها وفضل الفقر

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا اخْتَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْهَیْهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَمْ بِالْأَمْثِلِ كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآدِثِينَ لِقَوْمٍ يُنْفَكُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ۝ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٥، ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَانِهِ ثُمَّ يَسِيحُ مَازِجُهُ مِضْجَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُودِ ﴾ ^(١) [الحديد : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .
وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْكَافِرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ١-٥] .
وقال تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) [العنكبوت : ٦٤] .

(١) قوله ﴿ وَزُخْرُفَهَا ﴾ أي بهجتها . قوله ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي تزينت الأرض بالزهر . قوله ﴿ قَدِرُوا عَلَىهَا ﴾ أي متمكنون من تحصيل ثمارها .

قوله ﴿ أَمْرًا ﴾ أي عذابنا . قوله ﴿ لَمْ تَغْنَمْ ﴾ أي : تكن . قوله ﴿ نَقْصِلُ ﴾ أي نبين . قوله ﴿ هَشِيمًا ﴾ أي مكسورًا . قوله ﴿ تَذَرُوهُ ﴾ أي تفرقه . قوله ﴿ مُّقْدِرًا ﴾ أي قادرًا . وقوله ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ هي سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والكلام الطيب . قوله ﴿ ثَوَابًا ﴾ أي عائداً . قوله ﴿ أَمَلًا ﴾ أي رجاء قوله ﴿ وَلَهُمْ ﴾ هو صرف الهم عن النفس . قوله ﴿ غَيْثٍ ﴾ أي مطر . وقوله ﴿ يَسِيحُ ﴾ أي ييس . قوله ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾ أي تبثا يابسا متهشما . قوله ﴿ وَرِضْوَانٌ ﴾ أي الجنة .

(٢) قوله ﴿ زَيْنٌ ﴾ أي حجب . قوله ﴿ الشَّهَوَاتِ ﴾ هو ما تشتهي النفس وتدعو إليه من لعب ولهو . قوله ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ﴾ أي الأموال الكثيرة المجمعة . قوله ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ هي الخيل المعلمة . قوله ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ هي الإبل والبق والغنم . قوله ﴿ وَالْحَرْثُ ﴾ أي الزرع . قوله ﴿ الْمَقَابِلِ ﴾ أي المرجع . قوله ﴿ تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ ﴾ أي يذهلكم التمتع =

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب فصل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر .

الدنيا : هي حياتنا هذه التي نعيش فيها ، وسميت دنيا لسببين :

السبب الأول : أنها أدنى من الآخرة ، لأنها قبلها كما قال تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾

[الضحى : ٤] .

والثاني : أنها دنيئة ليست بشيء بالنسبة للآخرة ، كما روى الإمام أحمد رحمته الله من حديث المستورد بن شداد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » ^(١) موضع السوط : موضع العصي القصيرة الصغيرة في الجنة خير من الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ، فهذه هي الدنيا . وذكر المؤلف رحمته الله آيات عديدة كلها تفيد أنه لا ينبغي للعاقل أن يركن إلى الدنيا ، أو يغتر بها ، أو يلهو بها عن الآخرة ، أو تكون مانعاً له من ذكر الله تعالى ، منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَلٍّ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ يعني المطر ﴿ فَانْخَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ يعني أنبتت الأرض منه نباتاً متنوعاً مختلطاً متقارباً ، ليس بينه فجوات ليس فيها نبات ، كل الأرض نباتات بأنواع الأعشاب من كل زوج بهيج ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لُغِفَتِ الْأَرْضُ لُغْفُومًا وَارْتَدَّتْ ﴾ أي كملت ﴿ وَطُفَّتْ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ زُورَتْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ آمَرُوا بِإِثْلٍ أَوْ نَهَرًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴾ كأن لم تكن .

وهذه هي الحياة الدنيا ، واعتبر ذلك أنت في واقعك ، فكم من أناس عشت معهم عاشوا في هذه الدنيا عيشة راضية ، وفي رفاهية وأنس وأولاد وزوجات وقصور وسيارات ، ثم انتقلوا عنها كأن لم يكونوا بالأمس ، انتقلوا هم عنها ، أو يأتي دنياهم شيء يتلفها ، فكم من إنسان غني عنده أموال عظيمة أصبح فقيراً يسأل الناس .

فهذه هي الدنيا ، وإنما ضرب الله هذا المثل لثلاث نغتر بها ، فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ يعني مثل هذا التفصيل والتبيين ﴿ نَفَّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ لمن عندهم تفكير في الأمور ونظر في العواقب . ثم قال ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس : ٢٥] أي فرق بين هذه وهذه ، دار السلام هي الجنة . وسميت كذلك ؛ لأنها سالمة من كل كدر ، ومن كل تنغيص ، ومن كل أذى . فإلى أيهما تركن أيها العاقل ؟ لا شك أن العاقل يركن إلى دار السلام ، ولا تهمه دار الفناء والتكد والتنغيص ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو كل الخلق إلى دار السلام ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : ٢٥] .

والهداية مقيدة ، فإنه لم يقل : كل أحد ، ولكن قال : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فالحقيق والجدير بهداية الله هو من أناب إلى الله تعالى ، كما قال تعالى ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْنَا مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] .

= بالحياة الدنيا عن طلب الآخرة والسعي لها . قوله ﴿ الْفَرِيدُ ﴾ أي الشيطان قوله ﴿ أَلَهَكُمْ ﴾ أي شغلكم . قوله ﴿ الْكَافِرُ ﴾ أي كثرة الأموال . قوله ﴿ الْحَيَوَانُ ﴾ أي دار الحياة الحقيقي .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٩٢) والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨) وأحمد في مسنده (٣١٥/٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥٠] كل من كان عنده نية طيبة وخالصة لاجتماع وجه الله والدار الآخرة ، فهذا هو الذي يهديه الله ﷻ ، وهو داخل في قوله : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

ثم ذكر المؤلف آيات أخرى مثل قوله : ﴿ وَأَضْرَبَ لَمْثًا مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَخَلَّتْ بِهِ نَبَاتٌ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ [الكهف: ٤٥] معناه أن الحياة الدنيا كماء نزل على أرض فأنبتت ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، ييس وصارت الرياح تطير به ، هكذا أيضاً الدنيا . وقال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد: ٢٠] . هذه خمسة أشياء كلها ليس بشيء : لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، مثالها : ﴿ كَثَلٌ عِثٌّ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد: ٢٠] أعجب الكفار ، لأن الكفار هم الذين يتعلقون بالدنيا وتسيي عقولهم ، فهذا نبات نبت من الغيث فصار الكفار يتعجبون من حسنة ونصارته : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَبًا ﴾ [الحديد: ٢٠] يزول وينتهي ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ [الحديد: ٢٠] .

فأيهما تريد ؟ هناك عذاب شديد لمن أثر الحياة الدنيا على الآخرة ، وهناك ﴿ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ لمن أثر الآخرة على الدنيا . والعاقل إذا قرأ القرآن وتبصر عرف قيمة الدنيا ، وأنها ليست بشيء ، وأنها مزرعة للآخرة ، فانظر ماذا زرعت فيها لآخرتك ؟ إن كنت زرعت خيراً فأبشر بالحصاد الذي يرضيك ، وإن كان الأمر بالعكس فقد خسرت الدنيا والآخرة . نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

وأما الأحاديث فأكثر من أن تحصر فننبه بطرف منها على ما سواه .

٤٥٧ - عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيته ، فقدم بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف ، فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ، ثم قال : « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أبا عبيدة قديم بشيء من البحرين ؟ » فقالوا : أجل يا رسول الله ، فقال : « أَيْبَسُوا وَأَمَلُوا مَا يَسْرُكُم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتتافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » (١) متفق عليه .

٤٥٨ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال :

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦) واللفظ له والبخاري في الجزية والموادعة (٣١٥٨) والإمام أحمد في مسنده (١٣٧/٤) وقوله « فعرضوا له » أي قصدوا له ، قوله « تبسط الدنيا » أي توسع ، قوله « تنافسوها » التنافس المسابقة إلى الشيء وكراهة أخذ الغير له وهو أول درجات الحسد .

« إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَغْدِي ؛ مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا » ^(١) متفق عليه .
 ٤٥٩ - وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف ﷺ في باب الزهد في الدنيا والترغيب فيه ، وقد ذكر قبل ذلك آيات متعددة كلها تدل على أَنَّ هذه الدنيا بشيء بالنسبة للآخرة ، وأنها ممر ومزرعة للآخرة ، فإن قال قائل : يقال ورع ، ويقال زهد ، فأيهما أعلى ؟ وما الفرق بينهما ؟

فالجواب أَنَّ الزهد أعلى من الورع ، والفرق بينهما أَنَّ الورع ترك ما يضر ، والزهد ترك ما لا ينفع ، فالأشياء ثلاثة أقسام : منها ما يضر في الآخرة ، ومنها ما ينفع ، ومنها ما لا يضر ولا ينفع .

فالورع : أَن يدع الإنسان ما يضره في الآخرة ، يعني أَن يترك الحرام .
 والزهد : أَن يدع مالا ينفعه في الآخرة ، فالذي لا ينفعه لا يأخذ به ، والذي ينفعه يأخذ به ، والذي يضره لا يأخذ به من باب أولى ، فكان الزهد أعلى حالاً من الورع ، فكل زاهد ورع ، وليس كل ورع زاهدًا .

ولكن حذر النبي عليه الصلاة والسلام من أَن تفتح علينا الدنيا كما فتحت على من كان قبلنا فنهلك كما هلكوا .

لما قدم أبو عبيدة ببال من البحرين ، وسمع الأنصار بذلك ، جاؤوا إلى النبي ﷺ فوافوه في صلاة الفجر ، فلما انصرف من الصلاة تعرضوا له ، فتبسم عليه الصلاة والسلام ؛ يعني ضحك بدون صوت ، تبسم ؛ لأنهم جاؤوا متشوقين للمال .

فقال لهم : « أَظُنْكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ؟ » قالوا : أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ .
 يعني سمعنا بذلك وجئنا لننال نصيبنا .

فقال عليه الصلاة والسلام : « أَبْشِرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسْرُكُمْ ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ » فالفقر لا يخشاه علينا النبي ﷺ .

والفقر قد يكون خيراً للإنسان ، كما جاء في الحديث القدسي الذي يروى عن النبي ﷺ أَنَّ اللَّهَ قَالَ : « إِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى » ، أَطْغَاهُ وَأَضْلَهُ عَنِ الْآخِرَةِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ فَفَسَدَ ،

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٣) واللفظ له و البخاري في الزكاة (١٤٦٥) بلفظ « إِنِّي مِمَّا أَخَافُ .. » قوله « زَهْرَةٌ لِّلْـدُّنْيَا » أي متاعها وزينتها .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) واللفظ له والترمذي في الفتن (٢١٩١) والإمام أحمد في مسنده (٣٦٤/٦) وقوله « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ » يراد به شيان : أحدهما الحسن والنضارة ، وثانيهما سرعه الفناء ، قوله « وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا » أي بمنزلة الخلفاء عنه في التصرف فيها فلا تصرفوا بما لم يأذن لكم به .

« وإن من عبادي من لو أفقرته لأفسده الفقر » (١) .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « ما الفقر أخشى عليكم » يعني لا أخشى عليكم من الفقر ، لأن الفقير في الغالب أقرب إلى الحق من الغني .

وانظروا إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ من الذي يكذبهم ؟ يكذبهم الملأ الأشرار الأغنياء ، وأكثر من يتبعهم الفقراء ، حتى النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من اتبعه الفقراء .

فالفقر لا يخشى منه ، بل الذي يخشى منه أن تبسط الدنيا علينا ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتافسوها كما تنافسوها ، فهلككم كما أهلكتهم » .

وهذا هو الواقع ، وانظر إلى حالنا نحن لما كان الناس إلى الفقر أقرب ، كانوا لله أتقى ، وأخشع ، وأخشى ، ولما كثر المال ، كثر الإعراض عن سبيل الله ، وحصل الطغيان ، وصار الإنسان الآن يتشوف لزهرة الدنيا وزينتها .. سيارة ، بيت ، فرش ، لباس ، يباهي الناس بهذا كله ، ويعرض عما ينفعه في الآخرة .

وصارت الجرائد والصحف وما أشبهها لا تتكلم إلا عن الرفاهية وما يتعلق بالدنيا ، وأعرضوا عن الآخرة ، وفسد الناس إلا من شاء الله .

فالحاصل أن الدنيا إذا فتحت - نسأل الله أن يقينا وإياكم شرها - أنها تجلب الشر وتطغي الناس ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآكْفٍ ﴾ (٢) [العلق : ٦ ، ٧] .

وقد قال فرعون لقومه : ﴿ يَقَوْمِ آلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذَا الْوَادِيءُ يَخْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ [الزخرف : ٥١] . افتخر بالدنيا ، لذلك فالدنيا خطيرة جدًا .

وفي هذه الأحاديث أيضًا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن الدنيا حلوة خضرة » حلوة المذاق ، خضرة المنظر ، تجذب وتفتن ، فالشيء إذا كان حلواً ومنظره طيباً فإنه يفتن الإنسان ، فالدنيا هكذا حلوة خضرة .

ولكن : « إن الله مستخلفكم فيها فانظر كيف تعملون » يعني جعلكم خلائف فيها ؛ يخلف بعضهم بعضاً ، ويرث بعضهم بعضاً « فينظر كيف تعملون » هل تقدمون الدنيا أو الآخرة ؟ ، ولهذا قال : « فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » .

ولكن إذا أغنى الله الإنسان ، وصار غناه عوناً له على طاعة الله ينفق ماله في الحق ، وفي سبيل الله ، صارت الدنيا خيراً .

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص (١٢١) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٢/١) .

(٢) قوله ﴿ كَلَّا ﴾ حقاً (حرف تنبيه) قوله ﴿ لَبِئْسَ ﴾ ليجاوز حدود الله في العصيان . قوله ﴿ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ﴾ لأجل أنه رأى نفسه صار غنياً .

ولهذا كان رجل الدنيا الذي ينفق ماله في سبيل الله ، وفي مرضاة الله ﷻ ، في منزلة العالم الذي آتاه الله الحكمة والعلم وصار يعلم الناس .

فهناك فرق بين الذي ينهمك في الدنيا ويعرض عن الآخرة ، وبين الذي يغنيه الله ، ويكون غناه سببا لسعادته والإنفاق في سبيل الله ﴿ رَبَّنَا مَا لَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَاكَ الْغَايِبُ ﴾ [البقرة: ٢٠١] .

٤٦٠ - وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اللَّهُمَّ لَا عِيشَ إِلَّا عِيشُ الْآخِرَةِ » ^(١) متفق عليه .

٤٦١ - وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « يَبْتَغِ الْمَيِّتُ ثَلَاثَةً : أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ أَثْنَانِ ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ : يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ » ^(٢) متفق عليه .

٤٦٢ - وعنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ . وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ، هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ » ^(٣) رواه مسلم .

٤٦٣ - وعن المُشْتَوَرِدِ بْنِ شَدَّادٍ رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبَغَةً فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ ؟ » ^(٤) رواه مسلم .

٤٦٤ - وعن جابر رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالشُّوْقِ وَالنَّاسِ كَتَفَتِيهِ ، فَمَرَّ بِجَنْدِي أَسَلَكُ مَيِّتٍ ، فَتَنَاولَهُ ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَتَيْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمُ ؟ » فَقَالُوا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ ثُمَّ قَالَ : « أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟ » قَالُوا : وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَبًّا كَانَ عَيْنًا إِنَّهُ أَسَلَكُ . فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ ؟ فَقَالَ : « فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ » ^(٥) رواه مسلم .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٣) ومسلم في الجهاد والسير (١٢٧) قوله « لَا عِيشَ إِلَّا عِيشُ الْآخِرَةِ » أي أنه لا عيش باقي ولا عيش مطلوب إلا عيش الآخرة .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ومسلم في الزهد والرقائق (٥) والترمذي في الزهد (٢٣٧٩) .

(٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٥) واللفظ له والإمام أحمد في مسنده (٢٠٣/٣) قوله « بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا » أي بأكثرهم نعمة من لذات الدنيا . قوله « يَصْبَغُ » أي يغمس ، قوله « بُؤْسًا » أي شدة .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٥) واللفظ له والترمذي في الزهد (٢٣٢٣) قوله « مَا الدُّنْيَا » أي ما مثلها أو ما نعيمها قوله « فِي الْيَمِّ » أي في البحر .

(٥) أخرجه مسلم في الزهد (٢) قوله « كَتَفَتِيهِ » أي جانيبه . قوله « بِجَنْدِي » الجدي ولد المعز ، قوله « أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ » أهون أفل من الهون وهان يهون هونًا أي ذل وحقر .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته أحاديث في بيان الزهد في الدنيا ، وأن النعيم هو نعيم الآخرة ، منها : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » يعني العيشة الهنية الراضية الباقية هي عيش الآخرة ، أما الدنيا فإنه مهما طاب عيشها فمآلها للفناء ، وإذا لم يصحبها عمل صالح فإنها خسارة . ولهذا ذكر في ضمن هذه الأحاديث « أنه يؤتى بأنعم أهل الدنيا في الدنيا » يعني أشدهم نعيمًا في بدنه وثيابه وأهله ومسكنه ومركوبه وغير ذلك ، « فيصبغ في النار صبغة » يعني يُغمس فيها غمسة واحدة ، ويقال له : « يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ ، فيقول : لا والله يا رب » ، لأنه ينسى كل هذا النعيم ، هذا وهو شيء يسير ، فكيف بمن يكون مخلصًا فيها والعياذ بالله أبد الآبدين . وذكر أيضًا في حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم مر في السوق بجدي أسك . والجدي من صفار الماعز ، وهو أسك : أي مقطوع الأذنين ، فأخذه النبي عليه الصلاة والسلام ورفعاه وقال : « أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ » قالوا : يا رسول الله ؛ ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أحببون أنه لكم ؟ » فقالوا : والله لو كان حيًا كان عبيدًا أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « فوالله إن الدنيا أهون على الله تعالى من هذا عليكم » . فهذا جدي ميت لا يساوي شيئًا ، ومع ذلك فالدنيا أهون وأحقر عند الله تعالى من الجدي الأسك الميت ، فهي ليست بشيء .

ومع ذلك فإن من عمل فيها عملاً صالحاً صارت مزرعة له في الآخرة ، ونال السعادتين ؛ سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أما من غفل وتغافل وتهاون ومضت الأيام عليه وهو لم يعمل ؛ فإنه يخسر الدنيا والآخرة . قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الْفُتُورَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الَّذِينَ ﴾ [الزمر: ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۚ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) [العصر: ١-٣] .

وكل بني آدم خاسر إلا هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف الأربعة : آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . جعلنا الله والمسلمين منهم .

٤٦٥ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : كُنْتُ أَتَشِيَّ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي حُرَّةٍ بِالْمَدِينَةِ ، فَاسْتَقْبَلَنَا أَحَدٌ فَقَالَ :

(١) قوله ﴿ وَالصَّابِرِينَ ﴾ أقسم الله بصلاة العصر لفضلها ، لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور أو بوقتها . قوله ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ أي : إن جنس الإنسان لا ينفك عن خسران ونقصان في مساعيه وأعماله وعمره . أو أن الكافر لفي خسر . قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ استثناء متصل إذا أريد بالإنسان عامة ومنقطع إذا أريد به خصوص الكافر .

« يا أبا ذر » . قلت : لبيك يا رسول الله . فقال : « ما يسرني أن عنيدي مثل أحد هذا ذهباً تمضي علي ثلاثة أيام وعندي منه دينار ، إلا شيء أُرصد له لدين ، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا ، وهكذا ، وهكذا » عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ، ثم سار فقال : « إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال ، هكذا وهكذا ، وهكذا » عن يمينه ، وعن شماله ، ومن خلفه « وقليل ما هم » . ثم قال لي : « مكانك لا تبرح حتى آتيك » . ثم انطلق في سواد الليل حتى توارى ، فسمعت صوتاً قد ارتفع ، فتخوفت أن يكون أحد عرض للنبي ﷺ فأردت أن آتيه فذكرت قوله : « لا تبرح حتى آتيك » فلم أبرح حتى أتاني ، فقلت : لقد سمعت صوتاً تخوفت منه ، فذكرت له ، فقال : « وهل سمعته ؟ » قلت : نعم ، قال : « ذاك جبريل أتاني فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق » ^(١) متفق عليه ، وهذا لفظ البخاري .

٤٦٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « لو كان لي مثل أحد ذهباً ، لسررتي أن لا تمر علي ثلاث ليالٍ وعندي منه شيء إلا شيء أُرصد له لدين » ^(٢) متفق عليه .

٤٦٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ؛ فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم . وفي رواية البخاري : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق ، فليَئِظْهُ إلى من هو أسفل منه » ^(٣) .

٤٦٨ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « تبس عبث الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أُعطي رضي ، وإن لم يُعط لم يرض » ^(٤) رواه البخاري .

٤٦٩ - وعنه رضي الله عنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفّة ، ما منهم رجل عليه رداء ، إمّا إزار ، وإمّا كساء ، قد ربطوا في أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه يديه كراهية أن تُرى عورته » ^(٥) رواه البخاري .

-
- (١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٤) واللفظ له ومسلم في الزكاة (٣٢) قوله « أُرصد له دين » أي أحفظه لأجل وفاء دين ، قوله « إن الأكثرين هم الأقلون » الإكثار المراد به من المال والإقلال من ثواب الآخرة ، قوله « لا تبرح » أي الزم مكانك لا تتركه قوله « توارى » أي غاب شخصه وغاب عن البصر . وقوله « عرض للنبي ﷺ » أي تعرض له بسوء .
- (٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٥) ومسلم في الزكاة (٣١) .
- (٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٩) واللفظ له والبخاري له الرواية الثانية في الرقاق (٦٤٩٠) قوله « أجدر » أي أحق ، قوله « ألا تزدروا » أي ألا تحقروا وتستصغروا . وقوله « الخلق » أي الصورة المدركة بحاسة البصر .
- (٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦) . قوله « تبس » أي خر لوجهه والمراد هلك قوله « القطيفة » نوع من الثياب وهو الثوب الذي له خمل ، قوله « الخميصة » الخميصة كساء مربع .
- (٥) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٢) . قوله « أهل الصفّة » هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منزل يسكنه ، كانوا يأوون إلى موضع مظلل بمسجد المدينة يسكنونه ، قوله « رداء » الرداء ما يستر أعالي البدن ، قوله « إزار » الإزار ما يستر أسافل البدن .

٤٧٠ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدُّنْيَا سَجُنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله ، كلها تدل على الزهد في الدنيا .

فمنها حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما يسرنى أن عندي مثل أحد هذا ذهباً تمضي علي ثلاثة أيام وعندي منه دينار ، إلا شيء أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا » عن يمينه وعن شماله ومن خلفه .

وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان أزهد الناس في الدنيا ، لأنه لا يريد أن يجمع المال إلا شيئاً يرصده لدين ، وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في شعر أخذه لأهله ^(٢) .

ولو كانت الدنيا محبوبة إلى الله ﷻ ما حرم منها نبيه ﷺ « فالدُّنْيَا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا ومتعلمًا » ^(٣) وما يكون في طاعة الله ﷻ .

ثم ذكر في حديث أبي ذر « أن المكثرين هم المقلون يوم القيامة » يعني المكثرين من الدنيا هم المقلون من الأعمال الصالحة يوم القيامة ، وذلك لأن الغالب على من كثر ماله في الدنيا أن يستغني ويتكبر ويعرض عن طاعة الله ، لأن الدنيا تلهيه ، فيكون مكثراً في الدنيا مقللاً في الآخرة . وقوله : « إلا من قال بالمال هكذا ، وهكذا » يعني في المال وصرفه في سبيل الله ﷻ .

وفي حديث أبي ذر : أن من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة وإن زنى وإن سرق ، وهذا لا يعني أن الزنى والسرقعة من الأمور السهلة ، بل هي صعبة ، ولهذا استعظمها أبو ذر وقال : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق » .

وذلك لأن من مات على الإيمان وعليه معاص من كبائر الذنوب ؛ فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] .

قد يعفو الله عنه ولا يعاقبه ، وقد يعاقبه ، ولكن إن عاقبه فمآله إلى الجنة ، لأن كل من كان لا يشرك بالله ولم يأت شيئاً مكفراً ؛ فإن مآله إلى الجنة .

أما من أتى مكفراً كالذي لا يصلي والعياذ بالله ، فهذا مخلد في النار ؛ لأنه كافر مرتد حتى لو قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وآمنت بالله وباليوم الآخر وهو لا يصلي ، فإنه مرتد ^(٤) ،

(١) أخرجه مسلم في الزهد (١) والإمام أحمد في مسنده (١٩٧/٢) والترمذي في الزهد (٢٣٢٤) . قوله « سجن المؤمن » أي بالنسبة لما أعد له من النعيم . قوله « جنة الكافر » أي بالنسبة لما أعد له من العذاب .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٦) ومسلم في المساقاة (١٢٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٢) وابن ماجه في الزهد (٤١١٢) .

(٤) تارك الصلاة إن كان منكراً لوجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين خارج من ملة الإسلام إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ولم يخالف المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه ، وإن كان تركه تكاسلاً مع اعتقاده وجوبها كما هو =

لأن المنافقين كانوا يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ [النافقون: ١] ، وكانوا يذكرون الله ولكن لا يذكرون الله إلا قليلاً ويصلون ولكن ﴿ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَآءٍ ﴾ [النساء: ١٤٢] ومع ذلك فهم في الدرك الأسفل من النار .

وكذلك الأحاديث التي تلت ما رواه أبو ذر رضي الله عنه ، كلها تدل على الزهد في الدنيا ، وأن الإنسان لا ينبغي أن تتعلق نفسه بها ، وأن تكون الدنيا بيده لا بقلبه ، حتى يقبل بقلبه على الله تعالى ؛ فإن هذا هو كمال الزهد ، وليس المعنى أنك لا تأخذ شيئاً من الدنيا ، بل خذ من الدنيا ما يحل لك ، ولا تنس نصيبك منها ، ولكن اجعلها في يدك ولا تجعلها في قلبك ، وهذا هو المهم . نسأل الله لنا وللمسلمين العافية والسلامة .

* * *

٤٧١ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ، فقال : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ : إِذَا أَمْسَيْتَ ، فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبْحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ ، فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ ^(١) . رواه البخاري .

قالوا في شرح هذا الحديث معناه : لَا تَرَكْنِ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا ، وَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِطُولِ الْبَقَاءِ فِيهَا ، وَلَا بِالْاعْتِنَاءِ بِهَا ، وَلَا تَتَّعَلَّقْ مِنْهَا إِلَّا بِمَا يَتَّعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيبُ فِي غَيْرِ وَطَنِهِ ، وَلَا تَشْتَغِلْ فِيهَا بِمَا لَا يَشْتَغِلُ بِهِ الْغَرِيبُ الَّذِي يُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى أَهْلِهِ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في باب الزهد في الدنيا حديث ابن عمر رضي الله عنه قال : أخذ النبي ﷺ بمنكبي ، وأخذ بمنكبه من أجل أن يستعد لما يليق عليه فينتبه فقال : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » ، يحتمل أن هذا من باب الشك ، أي أن الراوي شك ، هل قال رسول الله ﷺ الأول أو الثاني . ويحتمل أنه من باب التنويع يعني كن كالغريب الذي يداخل الناس ولا يهتم بهم ، ولا يعرف بينهم ، أو كأنك عابر سبيل تريد أن تأخذ ما تحتاجه في سفرك وأنت ماش .

= حال كثير من الناس فقد اختلف العلماء فيه ، فذهب مالك والشافعي رحمهما الله والجمهور من السلف والخلف إلى أنه لا يكفر بل يفسق ويستتاب ، فإن تاب وإلا قتلناه حدًا كالزاني المحصن . وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر وهو مروي عن علي بن أبي طالب وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل وهو وجه لبعض أصحاب الشافعي ، وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزني صاحب الشافعي أنه لا يكفر ولا يقتل بل يعزر ويحبس حتى يصلي صحيح مسلم بشرح النووي (٧٠/١) .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦) والترمذي في الزهد (٢٣٣٣) وابن ماجه في الزهد (٤١١٤) . قوله « إِذَا » أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبْحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ المراد انتظر الموت كل وقت واجعله نصب عينيك ، قوله « خُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ » أي أعمالاً صالحة لا تغفل عنها في زمن تمكنت فيه منها .

وهذا التمثيل الذي ذكره النبي ﷺ هو الواقع ؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا مسافر ، فالدنيا ليست دار مقر ، بل هي دار ممر ، سريع راحته لا يفتر ليلاً ولا نهائاً ، فالمسافر ربما ينزل منزلاً فيستريح ، ولكن مسافر الدنيا لا ينزل ، هو دائماً في سفر ، كل لحظة فإنك تقطع بها شوطاً من هذه الدنيا لتقرب من الآخرة . فما ظنكم بسفر لا يفتر صاحبه يمشي ويسير . أليس ينتهي بسرعة ؟ بلى ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ لِأَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ إِلَّا عَنِيَّةٌ أَوْ ضُحَّةٌ ﴾ [النازعات : ٤٦] .

والإنسان عليه أن يقيس ما يستقبل من عمره بما مضى ، فالذي مضى كأنه لا شيء ، حتى أمشك الأذن ، كأنك لم تمر به أو كأنه حلم ، وكذلك فما يستقبل من دنياك ، فهو كالذي تقدم ، ولهذا لا ينبغي الركون إلى الدنيا ولا الرضا بها ؛ وكأن الإنسان مخلد فيها . ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك » .

* * *

٤٧٢ - وعن أبي العباس سهل بن سعيد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحببني الله ، وأحبنى الناس ، فقال : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » (١) حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

٤٧٣ - وعن الثعمان بن بشير رضي الله عنه قال : ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا ، فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه (٢) . رواه مسلم .

« الدقل » بفتح الدال المهملة والقاف : زديء الثغر .

٤٧٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « ثوفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي ، فأكلت منه حتى طال علي ، فكلته ففني » (٣) متفق عليه .

« شطر شعير » أي : شيء من شعير ، كذا فسرته الترمذي .

٤٧٥ - وعن عمرو بن الحارث أخيه جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها قال : ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ، ولا درهماً ، ولا غبناً ، ولا أمةً ، ولا شيئاً إلا بقلته البيضاء التي كان يركبها ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة (٤) رواه البخاري .

(١) هذا الحديث وما بعده حتى حديث رقم ٤٧٥ لم يقم الشارح رحمه الله بشرحها أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٢) والطبراني في الكبير (٢٣٧ / ٦) . قوله « إذا عملته » أي مريداً به وجه الله تعالى .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٧) ومسلم في الزهد (٢٧) . قولها « ذو كبد » أي حيوان ، وعبر به لأنه من الأجزاء الرئيسية في البدن ، قولها « حتى طال علي » أي داومت على أكله حتى طال ذلك علي ، قولها « ففني » أي حتى فرغ .

(٤) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٩) .

٤٧٦ - وعن خُباب بن الأَرْتِّ رضي الله عنه قال : هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ ، فَمِئًا مَن مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِّنْ أَجْرِهِ شَيْئًا ، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه قِيلَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَتَرَكَ نَمِرَةً ، فَكُنَّا إِذَا غَطَيْنَا بِهَا رَأْسَهُ ، بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِذَا غَطَيْنَا بِهَا رِجْلَيْهِ ، بَدَا رَأْسُهُ ، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَغْطِيَ رَأْسَهُ ، وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْإِذْخِرِ ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ ، فَهُوَ يَهْدِيهَا ^(١) . متفقٌ عليه .

« النَمِرَةُ » كَسَاءٌ مَلُؤَنٌ مِنْ صُوفٍ . وقوله : « أَيْنَعَتْ » أَي : نَضِجَتْ وَأَذْرَكَتْ . وقوله : « يَهْدِيهَا » هو بفتح الياء وضم الدال وكسرهما ، لُعْنَانٌ ، أَي : يَقْطِفُهَا وَيَجْتَنِيهَا ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ لِمَا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَتَمَكَّنُوا فِيهَا .

٤٧٧ - وعن سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَبْدُلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ » ^(٢) .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدور على ما سبق من الحث على الزهد في الدنيا ، والإقبال على الآخرة . فذكر المؤلف رحمته الله حديث خباب بن الأَرْتِّ رضي الله عنه في قصة مصعب بن عمير ، وهو من المهاجرين الذين هاجروا لله ﷻ ابتغاء وجهه ، وكان شابًا مدللًا من قبل والديه في مكة ، ولما أسلم طرده أبواه لأنهما كانا كافرين ، فهاجر رضي الله عنه وقتل في أحد في السنة الثالثة من الهجرة ، فلم يمس على هجرته إلا ثلاثة أعوام أو أقل ، فقتل شهيدًا رضي الله عنه ، وكان صاحب الراية ، ولم يكن معه شيء إلا بردة ، ثوب واحد ، إن غطوا به رأسه بدت رِجلاه ، وإن غطوا به رِجله بدا رأسه ، فأمر النبي ﷺ أَنْ يَغْطِيَ رَأْسَهُ ، ويجعل على رِجله شيء من الإذخر ، وهو نبات معروف تأكله البهائم ، فأمر النبي ﷺ أَنْ يجعل على رِجله لأجل أَنْ يَغْطِيَهُمَا .

قال : « وَمِنَّا » : يعني المهاجرين « مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ » أَيْنَعَتْ : يعني استوت وأثمرت « فهو يهديها » أي يجنيها ويقطفها ويتمتع بها ، ويقول ذلك شوقًا إلى العهد الأول ، وإلى ما كانوا عليه من زهد قبل أَنْ تفتح عليهم الدنيا فيشتغل بها البعض .

٤٧٨ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ، مَلْعُونٌ

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٧٦) ومسلم في الجنائز (٤٤) . قوله « نلتمس » أي نطلب بهجرتنا ، قوله « فوقع » أي كتب ، قوله « لم يأكل » أي لم يصب ، قوله « الإذخر » نبات معروف طيب الرائحة .

(٢) قوله « ما سقى كافرًا منها شربة ماء » أي لهوانه عليه وسقوطه .

مَا فِيهَا ، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالَمًا وَمُتَعَلِّمًا » ^(١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
 ٤٧٩ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبُوا فِي الدُّنْيَا » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٤٨٠ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : مرَّ عَلَيْنَا رسول الله ﷺ وَنَحْنُ نَعَالِجُ خُصْبًا لَنَا فَقَالَ : « مَا هَذَا ؟ » فَقُلْنَا : قَدْ وَهَى ، فَتَحْنُ نُضْلِحُهُ ، فقال : « مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ » رواه أبو داود ، والترمذي بإسناد البخاري ومسلم ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
 ٤٨١ - وعن كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ ، يَقُولُ : « إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ » رواه الترمذي وَقَالَ : حديث حسن صحيح .

٤٨٢ - وعن أَبِي عَمْرٍو ، وَيُقَالُ : أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، وَيُقَالُ : أَبُو لَيْلَى ، عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ : بَيْتٌ يَشْكُنُهُ ، وَتَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ ، وَجِلْفٌ الْخَبِيرُ ، وَالْمَاءُ » رواه الترمذي وقال : حديث صحيح .

٤٨٣ - وعن عبد الله بن الشَّخِيرِ - بكسر الشين والحاء المشددة المعجمتين رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ قَالَ : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي ، مَالِي ، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ! » رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله هذه الأحاديث للتحذير من فتنة الدنيا ، فذكر حديث كعب بن عياض رضي الله عنه ، أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال » ، إذا كثر المال عند الناس نسوا الآخرة ، ولهذا نهى ﷺ عن اتخاذ الضياع يعني الحدائق والبساتين ، فإن الإنسان يلهو عما هو أهم منها من أمور الآخرة .

والحاصل أن الإنسان يجب عليه أن يكون زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة ، وأن الله إذا رزقه مالاً فيجعله عوناً على طاعة الله ، وليجعل الدنيا في يده لا في قلبه ، حتى يفوز بخيري الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] .

وقرأ النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ ، ٢] ، ألهاكم يعني شغلكم عن المقابر وعن الموت وما بعده ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أي حتى أصبحتم من أهل القبور بعد موتكم . ثم قال رسول الله ﷺ : « يقول ابن آدم مالي » يفتخر به « وهل لك يا ابن آدم ، من مالك إلا ما أكلت فأفنيته ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ، هكذا قال النبي - عليه الصلاة

والسلام - وهو كذلك ، فالإنسان ما له من ماله إلا هذه الأشياء ، إما أن يأكل طعامًا وشرابًا ، وإما أن يلبس من أنواع اللباس ، وإما أن يتصدق ، والباقي له هو ما يتصدق به ، أما ما يأكله وما يلبسه ؛ فإن كان يستعين به على طاعة الله كان خيرًا له ، وإن كان يستعين به على معصية الله وعلى الأشر والبطر كان محنة عليه والعياذ بالله .

٤٨٤ - وعن عبد الله بن مُعْقِل رضي الله عنه قال : قال رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ : يا رسولَ الله ، والله إني لأُحِبُّكَ ، فقال : « انظُرْ ماذا تَقُولُ ؟ » قال : وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فقال : « إِنْ كُنْتُ تُحِبُّنِي فَأَعِدْ لِلْفَقْرِ تَجَفُّفًا ، فَإِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَى مِنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُتَنَاهَا » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن . « التَّخَفُّفُ » بكسر التاء المثناة فوق وإسكان الجيم وبالفاء المكررة ، وَهُوَ شَيْءٌ يُلْبَسُهُ الْفَرَسُ ، لِيَتَقَيَّ بِهِ الْأَذَى ، وَقَدْ يُلْبَسُهُ الْإِنْسَانُ .

٤٨٥ - وعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُزِيلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ جِرْصِ الْمُرَّةِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ ، لِيَدِينَهُ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٤٨٦ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، عَلَى حَصِيرٍ ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ . قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً ! فَقَالَ : « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتِظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » ^(٣) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٤٨٧ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث صحيح .

٤٨٨ - وعن ابن عباس ، وعمران بن الحصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « أُطْلِعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ ، وَأُطْلِعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ » ^(٥) متفقٌ عليه من رواية ابن عباس . ورواه البخاري أيضًا من رواية عمران بن الحصين .

٤٨٩ - وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، فَكَانَ عَامَّةٌ مِنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ . وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ » ^(٦) متفقٌ عليه .

٤٩٠ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ » ^(٧) متفقٌ عليه .

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٥٠) . (٢) أخرجه مسلم في الزهد (٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧) وأخرجه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٣٩١/١) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥١٣/٢) والترمذي في الزهد (٢٣٥٣) .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤١) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٤) .

(٦) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٠٥/٥) .

(٧) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١) ومسلم في الشعر (٣) والإمام أحمد في مسنده (٣٣٩/٢) .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الزهد في الدنيا ، منها حديث عبد الله ابن مغفل رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : والله إني لأحبك ، فقال النبي ﷺ : « انظر ماذا تقول ؟ » قال : والله إني لأحبك ، فرددها ثلاثاً ، فقال النبي ﷺ : « إن كنت تحبني فأعد للفقير تجفافاً ، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه » لأن السيل إذا كان له منتهى وقد جاء من مرتفع يكون سريعاً . ولكن هذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ ، لأنه لا ارتباط بين الغنى ومجبة النبي ﷺ ، فكم من إنسان غني يحب الرسول ﷺ ، وكم من إنسان فقير أبغض ما يكون إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ .

فعلامه محبة الرسول ﷺ أن يكون الإنسان أشد اتباعاً له ، وأشد تمسكاً بسنته ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] . فالميزان هو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن كان للرسول أتبع فهو له أحب ، وأما الفقر والغنى فإنه بيد الله ﻻ .

وكذلك أيضاً من الزهد في الدنيا ما كان عليه النبي ﷺ ، من شطف العيش وقلة ذات اليد ، حيث كان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه ، فيقال له : ألا نجعل لك وطاءً ، يعني فراشاً تطؤه وتنام عليه ؟ فقال : « مالي وللدنيا ؟ ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

فالرسول ﷺ ليس له تطلع إلى الدنيا ، بل كان ينفق ماله كله في سبيل الله ، ويعيش عيشة الفقراء . ثم ذكر المؤلف أحاديث تدل على أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء ، وأن الفقراء أكثر أهل الجنة ، وذلك لأن الفقراء ليس عندهم ما يطغيهم ، فهم متمسكون خاضعون .

ولهذا إذا تأملت الآيات وجدت أن الذين يكذبون الرسل هم الملأ الأشراف والأغنياء ، وأن المستضعفين هم الذين يتبعون الرسل ، فلهذا كانوا أكثر أهل الجنة ، وكانوا يدخلون الجنة قبل الأغنياء بتقادير اختلفت فيها الأحاديث عن النبي ﷺ ، ويجمعها أن السير يختلف ، فقد يكون السير في عشرة أيام لشخص مسرع يسيره الآخر في عشرين يوماً مثلاً .

ثم ذكر حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه يوماً قال : « أصدق كلمة قالها شاعر ؛ كلمة لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » كل شيء سوى الله فهو باطل ضائع لا ينفع ، وأما ما كان لله فإنه ينفع صاحبه ويبقى له ، ومن ذلك الدنيا فإنها باطل ، كما قال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَبِثٌ وَهْوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، إلا ما كان فيها من ذكر الله وطاعته ، فإنه حق وخير .

وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الحق يقبل حتى لو كان من الشعراء ، فالحق مقبول من كل أحد جاء به ، حتى لو كان كافراً وقال بالحق فإنه يقبل منه ، ولو كان شاعراً أو فاسقاً وقال بالحق فإنه يقبل منه .

وأما من قال بالباطل فقله مردود ولو كان مسلماً ؛ يعني العبرة بالمقالات لا بالقائلين ، ولهذا يجب على الإنسان أن ينظر إلى الإنسان من خلال فعله لا من شخصه .

**٥٦ - باب فضل الجوع وخشونة العيش
والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس
وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات**

قال الله تعالى : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝ ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠] وقال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُورُوا قَوْمَكُمُ لَدُنْكَ قَوْمٌ لَدُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ ﴾ وقال الَّذِينَ أُورُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۝ ﴾ [النقص: ٧٩، ٨٠] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنْسْتَلَنَّ يَوْمَ عَنِ النَّبِيِّ ۝ ﴾ [التكاثر: ٨] وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ ﴾ (١) [الإسراء: ١٨] .
والآيات في الباب كثيرة معلومة .

٤٩١ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْرٍ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ . متفق عليه (٢) .

وفي رواية : مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْذُ قَدِيمِ الْمَدِينَةِ مِنْ طَعَامِ الْبُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعًا حَتَّى قُبِضَ (٣) .
٤٩٢ - وعن عذوة عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ : وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْتَظِرُ إِلَى الْهِلَالِ ، ثُمَّ الْهِلَالِ ، ثُمَّ الْهِلَالِ : ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ ، وَمَا أُوقِدَ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ . قُلْتُ : يَا خَالَةَ فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ؟ قالت : الْأَسْوَدَانِ : الثَّعْمَرُ وَالْمَاءُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبَانِيَا فَيَسْقِينَا . متفق عليه (٤) .

٤٩٣ - وعن أبي سعيد المقبري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ يَقُومُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةً مُضْلِيَةً ، فَدَعَا فَأَتَى أَنْ يَأْكُلَ ، وقال : خرج رسول الله ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبِعْ مِنْ خُبْرِ الشَّعِيرِ . رواه البخاري (٥) .

(١) قوله ﴿ الَّذِينَ أُورُوا الْعِلْمَ ﴾ أي العلم النافع بأحوال الآخرة . قوله ﴿ تَوَابُ اللَّهِ ﴾ أي جزاء الله قوله ﴿ مَذْمُومًا ﴾ أي مطرودًا من رحمة الله تعالى .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٢٢) واللفظ له والبخاري في الأطعمة (٥٤١٦) وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٤) . قوله « البر » أي القمح . (٣) هذه رواية البخاري في الأطعمة (٥٤١٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الزهد (٢٨) واللفظ له والبخاري في الهبة (٢٥٦٧) قوله « منائح » جمع منيحة وهي الشاة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع لبنها . (٥) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤١٤) .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف رحمته الله بعد باب الزهد في الدنيا ، بين فيه أن على الإنسان ألا يكثّر من الشهوات في أمور الدنيا ، وأن يقتصر على قدر الحاجة فقط ، كما كان النبي صلى الله عليه وآله يفعل ذلك ، وذكر آيات فيها بيان عاقبة الذين يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات ، فذكر قول الله تعالى : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝ ﴾ [مریم: ٥٩، ٦٠] .

قوله تعالى : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي من بعد الأنبياء الذين ذكروا قبل هذه الآية ، خلف من بعدهم خلف لم يتبعوا طريقتهم وإنما ﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ .

وإضاعة الصلاة يعني التفريط فيها ؛ في شروطها : كالطهارة ، وستر العورة ، واستقبال القبلة . وفي أركانها : كالطمأنينة في الركوع ، والسجود ، والقيام ، والقعود .

وفي واجباتها : كسؤال المغفرة بين السجدين ، والتسبيح في الركوع ، والسجود ، والتشهد الأول ، وما أشبه ذلك .

وأشد من هذا الذين يضيعونها عن وقتها ؛ فلا يصلون إلا بعد خروج الوقت ، فإن هؤلاء إما أن يكون لهم عذر من نوم أو نسيان ، فصلاتهم مقبولة ولو بعد الوقت ، وإما ألا يكون لهم عذر فصلاتهم مردودة لا تقبل منهم ، ولو صلوا ألف مرة .

وقوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ : يعني ليس لهم هم إلا الشهوات ؛ ما تشتهيه بطونهم وفروجهم ، فهم ينعمون أبدانهم ويتبعون ما تنعم به الأبدان ، ويضيعون الصلاة والعباد بالله .

ثم قال تعالى مبيناً جزاءهم : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ وهذا وعيد لهم ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝ ﴾ .

ثم ذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها في بيان عيش النبي صلى الله عليه وآله ، وأنه ما شبع من خبز الشعير ليلتين تباعاً ؛ لقلّة ذات يده عليه الصلاة والسلام ، وأنه كان يمضي عليه الشهران في ثلاثة أهلة ما يوقد في بيته نار ، وإنما هو الأسودان التمر والماء ، مع أنه صلى الله عليه وآله لو شاء لصارت الجبال معه ذهباً ، ولكنه صلى الله عليه وآله اقتصر من الدنيا على الضروري منها فقط ، وادخر حظه في الآخرة .

٤٩٤ - وعن أنس رضي الله عنه قال : لم يأكل النبي صلى الله عليه وآله على خيوان حتى مات ، وما أكل خُبْزاً مرققاً حتى مات . رواه البخاري . وفي رواية له : وَلَا رَأَى شاةً سَمِيطاً بِقَيْنِهِ قَطُّ ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٥٠) . قوله « خيوان » الحيوان المائدة ما لم يكن عليها طعام ، قوله « مرققاً » أي محسناً مليئاً ، قوله « سميطة » السميطة هو ما أزيل شعره بماء سخن وشوي بجملده ، ومن هذا الحديث حتى نهاية الحديث رقم ٥٢٣ لم يشرحه الشارح رحمته الله .

٤٩٥ - وعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ ، وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَتَهُ ^(١) ، رواه مسلم .
« الدَّقْلُ » : تَمَرٌ رَدِيءٌ .

٤٩٦ - وعن سهل بن سعيد رضي الله عنه قَالَ : مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّبِيَّ مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَقِيلَ لَهُ : هَلْ كَانَ لَكُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنَاجِلُ ؟ قَالَ : مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنْخَلًا مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ الشَّعِيرَ غَيْرَ مُنْخُولٍ ؟ قَالَ : كُنَّا نَطْحَنُهُ وَنَتَفَحُهُ ، فَيَطِيرُ مَا طَارَ ، وَمَا بَقِيَ ثَرِينَاهُ ^(٢) . رواه البخاري .
قوله « النَّبِيُّ » : هو بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء ، وهو الخبز الحُوَارِي ، وَهُوَ : الدَّرْمَكُ .
قوله : « ثَرِينَاهُ » هُوَ بِنَاءٌ مُثَلَّثَةٌ ، ثُمَّ رَاءٌ مُشَدَّدَةٌ ، ثُمَّ يَاءٌ مُثَنَّاةٌ مِنْ تَحْتَ ثَمَّ نون ، أَي : بَلَلْنَاهُ وَعَجَنَاهُ .

٤٩٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنه فَقَالَ : « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ » قَالَا : الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَأُخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا . قُومَا » فَقَامَا مَعَهُ ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيْنَ فُلَانٌ ؟ » قَالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا الْمَاءَ ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ ، فَتَنَظَّرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، مَا أَخَذَ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مَنِي . فَاِنْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ يَعْذِقُ فِيهِ بُشْرٌ وَتَمَرٌ وَرَطَبٌ ، فَقَالَ : كُلُوا ، وَأَخَذَ الْمُدِّيَّةَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّكَ وَالْحُلُوبُ » فَذَبَحَ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرَبُوا . فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَزَوُّوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنه : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَشَالُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَخْرَجَكُمُ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمُ هَذَا النَّعِيمُ » ^(٣) رواه مسلم .

قَوْلُهَا : « يَسْتَعْذِبُ » أَي : يَطْلُبُ الْمَاءَ الْعَذْبَ ، وَهُوَ الطَّيِّبُ . وَ « الْعِذْقُ » بِكسر العين وإسكان الذال المعجمة : وَهُوَ الْكِبَاسَةُ ، وَهِيَ الْعُصْرُ . وَ « الْمُدِّيَّةُ » بِضم الميم وكسرها : هِيَ السُّكَيْنُ . وَ « الْحُلُوبُ » ذَاتُ اللَّبَنِ . وَالسُّوَالُ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ سُوَالُ تَعْدِيدِ النَّعْمِ لَا سُوَالُ تَوَيْخٍ وَتَغْذِيبٍ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَهَذَا الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي أَتَتْهُ هُوَ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ ، رضي الله عنه كَذَا جَاءَ مُبَيَّنًا فِي رَوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ .

٤٩٨ - وعن خالد بن عُمَرَ الْعَدَوِيِّ قَالَ : خَطَبَنَا عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ، وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى الْبَصْرَةِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنْتْ بِضُرْمٍ ، وَوَلَّتْ حَذَاءً ، وَلَمْ يَتَّقِ مِنْهَا إِلَّا ضُبَابَةَ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُهَا صَاحِبُهَا ، وَإِنْكُمْ مُتَّقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا ، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرٍ مَا

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٨٤) والتِّرْمِذِيُّ فِي الزَّهْدِ (٢٣٧٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤١٣) والتِّرْمِذِيُّ بِنَحْوِهِ فِي الزَّهْدِ (٢٣٦٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٤٠) والطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (٢٥٧/١٩) .

بَحْضَرْتَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا ، لَا يُدْرِكُ لَهَا قَفْرًا ، وَاللَّهُ لَتُمْلَأَنَّ ... أَفَعَجِبْتُمْ ؟! وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصَارِيحِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمَ وَهُوَ كَطِيطٍ مِنَ الرِّحَامِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا ، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ ، فَأَتَرَزْتُ بِنِصْفِهَا ، وَاتَّرَزَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا ، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِثْلًا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا ، وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا ^(١) . رواه مسلم .

قوله : « آذَنْتُ » هُوَ بِمَدِّ الْأَلِفِ ، أَي : أَعْلَمْتُ . وقوله : « بِضُرْمٍ » : هو بضم الصاد ، أَي : بانقِطَاعِهَا وَفَنَائِهَا . وقوله « وَرَلْتُ حَدَاءً » هو بحاءٍ مهملة مفتوحة ، ثُمَّ ذَالٌ معجمة مشددة ، ثُمَّ أَلِفٌ ممدودة ، أَي : سَرِيعَةً . وَ « الضَّبَابَةُ » بضم الصاد المهملة : وهي البَقِيَّةُ الْيَسِيرَةُ . وقوله : « يَنْصَابُهَا » هو بتشديد الباء قبل الهاء ، أَي : يَجْمَعُهَا . وَ « الكَطِيطُ » الْكَثِيرُ الْمُتَمَلِّئُ وقوله : « قَرِحَتْ » هو بفتح القاف وكسر الراء ، أَي : صَارَتْ فِيهَا قُرُوحٌ .

٤٩٩ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : أَخْرَجَتْ لَنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كِسَاءً وَازَارًا غَلِيظًا قَالَتْ : قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ ^(٢) . متفقٌ عليه .

٥٠٠ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : إِنِّي لِأَوَّلِ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحَبَلَةِ ، وَهَذَا السُّمُرُ حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ مَا لَهُ خَلْطٌ ^(٣) . متفقٌ عليه .

« الْحَبَلَةُ » بضم الحاء المهملة وإسكان الباء الموحدة : وهي والسُّمُرُ ، نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ مِنْ شَجَرِ الْبَادِيَةِ .

٥٠١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا » ^(٤) متفقٌ عليه .

قال أهل اللغة والغريب : مَعْنَى « قُوتًا » أَي : مَا يَشُدُّ الرِّمْقَ .

٥٠٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِنْ كُنْتُ لِأَعْتَمِدَ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ ، وَإِنْ كُنْتُ لِأَشُدَّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ . وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمْ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ ، فَمَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَانِي ، وَعَرَفَ مَا فِي وَجْهِِي وَمَا فِي نَفْسِي ، ثُمَّ قَالَ : « أَبَا

(١) أخرجه مسلم في الزهد (١٤) والإمام أحمد في مسنده (١٧٤/٤) . قوله « شفير جهنم » حرفها ، وقيل : حرفها الأعلى ، قوله « مصراعيه » المصراع من الباب الشطر وهما مصراعان .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨١٨) ومسلم في اللباس (٣٤) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٨٧٢٨) ومسلم في الزهد (١٢) . قوله « ليضع » كناية عن الغائط ، قوله « كما تضع الشاة » أي من البعر ليسه وعدم ألفه المعدلة له .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٠) ومسلم في الزكاة (١٢٦) والإمام أحمد في مسنده (٤٤٦/٢ ، ٤٨١) .

هَرَّ « قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : « الحق » وَمَضَى ، فَاتَّبَعْتُهُ ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ ، فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ فَقَالَ : « مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ ؟ » قَالُوا : أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ - أَوْ فُلَانَةٌ - قَالَ : « أبا هِرَّ » قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : « الحق إلى أهل الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي » قال : وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ ، لَا يَأْوُونَ عَلَى أَهْلِ ، وَلَا مَالٍ ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ ، وَكَانَ إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَّةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، وَأَصَابَ مِنْهَا ، وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا ، فَسَأَنِي ذَلِكَ فَقُلْتُ : وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ ؟ كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَّقَوِي بِهَا ، فَإِذَا جَاءُوا وَأَمَرَنِي فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بُدٌّ ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ ، فَأَقْبَلُوا وَاسْتَأْذَنُوا ، فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ قَالَ : « يَا أبا هِرَّ » قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : « خُذْ فَأَعْطِهِمْ » قال : فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَزُودَ ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَزُودَ ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَزُودَ ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ زَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدَيْهِ ، فَتَنَظَّرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ ، فَقَالَ : « أبا هِرَّ » قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : « بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ » قلت : صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : « افْعُدْ فَأَشْرَبْ » فَفَعَدْتُ فَشَرِبْتُ : فَقَالَ : « اشْرَبْ » فَشَرِبْتُ ، فَمَا زَالَ يَقُولُ : « اشْرَبْ » حَتَّى قُلْتُ : لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا ! قَالَ : « فَأَرِنِي » فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ ، فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ » ^(١) رواه البخاري .

٥٠٣ - وعن مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لِأَخِيرُ فِيمَا يَنْبَغُ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَغْشِيًا عَلَيَّ ، فَيَجِيءُ الْجَائِي ، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي ، وَيَرَى أَنِّي مَجْنُونٌ وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ ، مَا بِي إِلَّا الْجُوعُ ^(٢) . رواه البخاري .

٥٠٤ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : تُؤَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ ^(٣) . متفقٌ عليه .

٥٠٥ - وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَهَنَ النَّبِيُّ ﷺ دِرْعَهُ بِشَعِيرٍ ، وَمَشَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْرٍ شَعِيرٍ ، وَإِهَالَةٍ سِنْخَةٍ ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : « مَا أَصْبَحَ لَالَ مُحَمَّدٍ صَاعٌ وَلَا أَمْسَى » وَإِنَّهُمْ لَتَسْعَةُ آيَاتٍ ^(٤) . رواه البخاري .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٥٢) . قوله « كنت لأعتمد بكبدي على الأرض » أي ألصق بطني بها .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٤) . قوله « وإنني لأخر » أي أسقط ، قوله « مغشياً علي » أي مغشى علي والإغماء زوال الشعور مع فنور في الأعضاء ، قوله « يضع رجله على عنقي » كانت تلك عاداتهم بالمجنون حتى يفيق .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٦) وللحديث روايات كثيرة بنحوه في جامع الترمذي في البيوع (١٢١٤) ومسنند الإمام أحمد (٢٣٦/١ ، ٣٠٠ ، ١٠٢/٣ ، ١٣٣ ، ٤٥٣/٦ ، ٤٥٧) .
(٤) أخرجه البخاري في الرهن (٢٥٠٨) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٨/٣) .

« الإِهَالَةُ » بكسر الهمزة : الشَّحْمُ الذَّائِبُ . وَ « السَّيْحَةُ » بالنون والحاء المعجمة ، وَهِيَ : الْمُتَغَيَّرَةُ .
 ٥٠٦ - وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رَدَاءٌ ،
 إِذَا إِزَّازَ وَإِنَّمَا كِسَاءٌ ، قَدْ رَبَطُوا فِي أَغْنَائِهِمْ مِنْهَا مَا يَتَلَعُ نِصْفَ الشَّاقَيْنِ ، وَمِنْهَا مَا يَتَلَعُ الْكَفَّيْنِ ،
 فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةً أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ ^(١) . رواه البخاري .

٥٠٧ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهُ لَيْفٌ ^(٢) . رواه البخاري .

٥٠٨ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كُنَّا مُجْلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ،
 فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَدْبَرَ الْأَنْصَارِيُّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَخَا الْأَنْصَارِ ، كَيْفَ أَخِي سَعْدُ بْنُ
 عُبَادَةَ ؟ » فقال : صَالِحٌ ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ ؟ » فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ ، وَنَحْنُ بَضْعَةُ
 عَشَرَ ، مَا عَلَيْنَا نِعَالَ ، وَلَا خِفَافٌ ، وَلَا قَلَانِسٌ ، وَلَا قُمُصٌ ، نَمُشِي فِي تِلْكَ السَّبَاخِ ، حَتَّى جِئْنَاهُ ،
 فَاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حَوْلِهِ حَتَّى دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ ^(٣) . رواه مسلم .

٥٠٩ - وعن عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ
 يُلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ » قَالَ عِمْرَانُ : فَمَا أَدْرِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا « ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ
 قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفَوْنَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ
 السُّمُنُ » ^(٤) متفقٌ عليه .

٥١٠ - وعن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا ابْنَ آدَمَ ! إِنَّكَ أَنْ تَبْذَلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ
 لَكَ ، وَأَنْ تُمَسِّكَهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلَا تُلَامَ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ » ^(٥) رواه الترمذي وقال : حديث
 حسن صحيح .

٥١١ - وعن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِخْصَنِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَطَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٥٦) والإمام أحمد في مسنده (٧٣/٦) . قوله « من آدم » الأدم جمع أديم وهو
 الجلد المدبوغ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنايز (١٣) قوله « ولا خفاف » جمع خف وهو ما يلبس في الرجل من جلد رقيق . قوله « ولا
 قَلَانِسٌ » جمع قلنسوة وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال . قوله « ولا قمص » جمع قميص وهو الثوب المعروف
 الملبوس على البدن . قوله « سباح » السباح جمع سبخة وهي الأرض التي تعلقها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر .
 (٤) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢١٤) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٨) ،
 ٤١٠/٢ ، ٤٧٩ ، ٤٣٦/٤ والبيهقي في سننه (١٠/٧٤ ، ١٢٣) .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٧) والترمذي في الزهد (٢٣٤٣) والبيهقي في سننه (٤ / ١٨٢) . قوله « كفاف »
 أي قدر الحاجة من طعام وشراب وغيره .

أَصْبَحَ مِنْكُمْ أَمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَائِهَا» (١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

« سِرْبِهِ » بكسر السين المهملة ، أي : نَفْسِهِ ، وَقِيلَ : قَوْمِهِ .

٥١٢ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاصٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا ، وَفَتْنُهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » (٢) رواه مسلم .

٥١٣ - وعن أبي مُحَمَّدٍ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « طُوتِي لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا ، وَفَنِيَ » (٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٥١٤ - وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُنْتَابِعَةَ طَاوِيًا ، وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً ، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْرِهِمْ خُبْرَ الشَّعِيرِ (٤) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٥١٥ - وعن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى بِالنَّاسِ ، يَخْرُجُ رَجُلًا مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الْخِصَاصَةِ - وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَةِ - حَتَّى يَقُولُ الْأَعْرَابُ : هَؤُلَاءِ مَجَانِينُ ، فَإِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : « لَوْ تَغْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، لَأُخْبِشُكُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً » (٥) رواه الترمذي ، وقال : حديث صحيح ، « الْخِصَاصَةُ » : الْفَاقَةُ وَالْجُوعُ الشَّدِيدُ .

٥١٦ - وعن أبي كَرِيمَةَ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرُبُ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَغَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسَبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتِ يُقَمِّنُ صُلْبُهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ ، قُلْتُ لِبَطْنِي ، وَتُلْتُ لِشِرَائِي ، وَتُلْتُ لِنَفْسِي » (٦) .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

« أَكْلَاتِ » أي : لُقْمَ .

٥١٧ - وعن أبي أَمَامَةَ إِيَّاسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْأَنْصَارِيِّ الْحَارِثِيِّ رضي الله عنه قَالَ : ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ إِنَّ الْبَدَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ ، إِنَّ

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وابن ماجه في الزهد (١٤١٤) . قوله « حيزت » أي ضمت وجمعت ، قوله « بحذائها » أي بجوانبها ، أي فكأنما أعطي الدنيا بأسرها .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) والترمذي في الزهد (٢٣٤٨) والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/٢ ، ١٧٣) والبيهقي في سننه (١٩٦/٤) . قوله « كفافًا » الكفاف هو الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩/٦) والترمذي في الزهد (٢٣٤٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٦٠) وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٥/١ ، ٣٧٤) .

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٦٨) والطبراني في الكبير (٣١٠/١٨ ، ٣١١) . قوله « يخر » أي يسقط .

(٦) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٨٠) . قوله « بحسب ابن آدم » أي كافيهِ ، قوله « فإن كان لا محالة ... » المعنى فإن كان لابد من الكثرة على ذلك فليكن أثلثًا .

الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ » يَعْنِي : التَّقْوَلُ (١) . رواه أبو داود .

« الْبَذَاذَةُ » : بِالنِّبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَالذَّالَيْنِ الْمُجْتَمِعَيْنِ ، وَهِيَ رِثَاءُ الْهَيْئَةِ ، وَتَرْكُ فَاخِرِ اللَّبَاسِ . وَأَمَّا « التَّقْوَلُ » فَبِالْقَافِ وَالْحَاءِ ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : الْمُتَّقَوِّلُ : هُوَ الرَّجُلُ الْيَاسُ الْجُلْدُ مِنْ خُشُونَةِ الْعَيْشِ ، وَتَرْكُ التَّرَفِّهِ .

٥١٨ - وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَمَرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه نَتَلَقَى عِيرًا لِقَرْيَشٍ ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً ، فَقِيلَ : كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا ؟ قَالَ : نَمْضُهَا كَمَا يَمَضُ الصَّبِيُّ ، ثُمَّ نَشْرِبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعَصِينَا الْخَبْطَ ، ثُمَّ نَبْلُهُ بِالْمَاءِ فَتَأْكُلُهُ . قَالَ : وَأَنْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَرَفَعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَيْسِ الضَّخْمِ ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ ذَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرُ ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : مَيْتَةٌ ، ثُمَّ قَالَ : لَا ، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ اضْطَرُّرْتُمْ فَكُلُوا ، فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا ، وَنَحْنُ ثَلَاثُمِائَةٍ ، حَتَّى سَمِعْنَا ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا نَعْفَرُفَ مِنْ وَقَبٍ عَلَيْهِ بِالْقِلَالِ الدَّهْنِ وَنَقَطُغَ مِنْهُ الْفِدْرَ كَالثَّوْرِ أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ ، وَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقَبٍ عَلَيْهِ وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا ، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بِعَيْرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا ، وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقٍ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : « هُوَ رِزْقُ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٍ فَتَطْعَمُونَا ؟ » فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ (٢) . رواه مسلم .

« الْجِرَابُ » : وَغَاءٌ مِنْ جِلْدٍ مَعْرُوفٍ ، وَهُوَ بِكَسْرِ الْجِيمِ وَفَتْحِهَا ، وَالْكَسْرُ أَفْضَحُ . قَوْلُهُ : « نَمْضُهَا » بِفَتْحِ الْمِيمِ . « وَالْخَبْطُ » وَرَقٌ شَجَرٍ مَعْرُوفٍ تَأْكُلُهُ الْإِبِلُ . « وَالْكََيْسُ » : التَّلُّ مِنَ الرَّمْلِ . « وَالْوَقَبُ » : بَفَتْحِ الْوَاوِ وَإِسْكَانِ الْقَافِ وَبَعْدَهَا بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ ، وَهُوَ نَفْرَةُ الْعَيْنِ . « وَالْقِلَالُ » الْجِرَارُ . « وَالْفِدْرُ » بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِ : الْقِطْعُ . « رَحَلَ الْبَعِيرُ » بِتَخْفِيفِ الْحَاءِ : أَيِ جَعَلَ عَلَيْهِ الرَّحْلَ . « الْوَشَائِقُ » بِالشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَالْقَافِ : اللَّحْمُ الَّذِي اقْطِيعَ لِيُقَدَّدَ مِنْهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٥١٩ - وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ كُثْمٌ قَمِيصِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الرُّصَيْغِ (٣) ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

« الرُّصَيْغُ » بِالصَّادِ ، وَالرُّشْعُ بِالسَّيْنِ أَيْضًا : هُوَ الْمَفْصَلُ بَيْنَ الْكَفِّ وَالسَّاعِدِ .

٥٢٠ - وعن جابر رضي الله عنه قَالَ : إِنَّا كُنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ ، فَعَرَضَتْ كُذْيَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَجَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : هَذِهِ كُذْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ . فَقَالَ : « أَنَا نَازِلٌ » ثُمَّ قَامَ ، وَبَطْنُهُ مَغْصُوبٌ

(١) أخرجه أبو داود في الترجل (٤١٦١) والطبراني في الكبير (٢٤٦/١ ، ٢٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٧) .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٧) والتِّرْمِذِيُّ فِي اللَّبَاسِ (١٧٦٥) .

يَحْجِرُ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِغُولَ، فَضَرَبَ، فَعَادَ كَثِيرًا أَهْيَلًا، أَوْ أَهْمًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَذُنُّ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لَامِرَاتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنْقَاقٌ، فَذَبَحْتُ الْعَنْقَاقَ وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُومَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ، وَالْبُومَةُ بَيْنَ الْأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ تَنْضِجُ، فَقُلْتُ: طُعِمْتُ لِي، فَقُمْتُ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ؟» فَذَكَرْتُ لَهُ فَقَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قُلْ لَهَا لَا تَنْزِعِ الْبُومَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُورِ حَتَّى آتِي» فَقَالَ: «قُومُوا» فقام المهاجرون والأنصارُ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهَا فَقُلْتُ: وَيَحْكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَمَنْ مَعَهُمْ! قَالَتْ: هَلْ سَأَلْتُكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «ادْخُلُوا وَلَا تَصَاغَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيَحْمَرُّ الْبُومَةَ وَالتَّنُورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيَقْرُبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ مِنْهُ، فَقَالَ: «كُلِّي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ» متفقٌ عليه.

وفي رواية: قال جابر: لما حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ حَمَصًا، فَأَنْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ، فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَمَصًا شَدِيدًا؟ فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جَرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ، فَفَرَعْتُ إِلَى فَرَاغِي، وَقَطَعْتُهَا فِي بُومَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُه فَسَارَزْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا بُهَيْمَةَ لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَتَعَالَ أَنْتَ وَتَفَرَّ مَعَكَ، فَصَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ: إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيِّهَا بِكُمْ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُثْرِلُنَّ بُومَتَكُمْ وَلَا تُخَبِرُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ» فَجِئْتُ، وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَدِّمُ النَّاسَ، حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ! فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ. فَأَخْرَجَتْ عَجِينًا، فَبَسَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُومَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «اذْهَبِي خَابِزَةً فَلْتَخْبِرْ مَعَكَ، وَأَقْدَحِي مِنْ بُومَتِكُمْ وَلَا تُثْرِلُوها» وَهُمْ أَلْفٌ، فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَكُلُوا حَتَّى تَرْكُوهُ وَانْحَرِفُوا، وَإِنْ بُومَتَنَا لَتَغُطَّ كَمَا هِيَ، وَإِنْ عَجِينَنَا لَيُخْبِرَ كَمَا هُوَ^(١).

قَوْلُهُ: «عَرَضَتْ كُذْبَةٌ»: بَضْمُ الْكَافِ وَإِسْكَانُ الدَّالِ وَبِالْيَاءِ الْمُنْثَاةِ تَحْتَ، وَهِيَ قِطْعَةٌ غَلِيظَةٌ صُلْبَةٌ مِنَ الْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهَا الْفَأْسُ. «وَالْكُثْبُ»: أَصْلُهُ تَلُّ الرَّمْلِ، وَالْمُرَادُ هُنَا: صَارَتْ ثُرَابًا نَاعِمًا، وَهُوَ مَعْنَى «أَهْيَلًا». وَ«الْأَثَافِيُّ»: الْأَحْجَارُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْقِدْرُ. وَ«تَصَاغَطُوا»: تَزَاحَمُوا. وَ«الْمَجَاعَةُ»: الْجُوعُ، وَهُوَ يَفْتَحُ الْمِيمَ. وَ«الْحَمَصُ»: يَفْتَحُ الْخَاءَ الْمَعْجَمَةَ وَالْمِيمَ: الْجُوعُ. وَ«انْكَفَأْتُ»: انْقَلَبْتُ وَرَجَعْتُ. وَ«الْبُهَيْمَةُ»: بَضْمُ الْبَاءِ: تَصْغِيرُ بُهْمَةٍ، وَهِيَ الْعَنْقَاقُ - يَفْتَحُ الْعَيْنَ - وَ«الدَّاجِنُ»: هِيَ الَّتِي أَلْقَتْ الْبَيْتَ. وَ«السُّورُ»: الطَّعَامُ الَّذِي يُذْعَى النَّاسُ إِلَيْهِ، وَهُوَ بِالْفَارْسِيَّةِ، وَ«حَيِّهَا»: أَي: تَعَالَوْا. وَقَوْلُهَا: «بِكَ وَبِكَ» أَي: خَاصَمْتُهُ وَسَبَّيْتُه؛ لِأَنَّهَا اعْتَقَدَتْ أَنَّ

الَّذِي عِنْدَهَا لَا يَكْفِيهِمْ ، فَاسْتَحْيَتْ وَخَفِيَ عَلَيْهَا مَا أَكْرَمَ اللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ نَبِيُّهُ ﷺ مِنَ الْمَعْجَزَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْآيَةِ الْبَاهِرَةِ . « بَسَقَ » أَي : بَصَقَ ، وَيُقَالُ أَيْضًا : بَرَقَ - ثَلَاثُ لُغَاتٍ - وَ « عَمَدَ » بَفَتْحِ الْمِيمِ : أَي : قَصَدَ . وَ « افْدَحِيَ » أَي : اغْرِفِي ، وَالْمِقْدَحَةُ : الْمَغْرِفَةُ . وَ « تَغِطُّ » أَي : لِعَلَّيَانِهَا صَوْتُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٥٢١ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال أبو طلحة رضي الله عنه لأُمّ سليم : قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضَعِيفًا أَعْرَفَ فِيهِ الْجُوعَ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَتْ : نَعَمْ ، فَأَخْرَجْتُ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ ، ثُمَّ أَخَذْتُ حِمَارًا لَهَا ، فَلَقْتُ الْحَبَرَ بِعَصِيهِ ، ثُمَّ دَسْتُهُ تَحْتَ ثَوْبِي وَرَدَدْتَنِي بِعَصِيهِ ، ثُمَّ أَرْسَلْتَنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَذَهَبْتُ بِهِ ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ ، وَمَعَهُ النَّاسُ ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَرْسَلَكِ أَبُو طَلْحَةَ ؟ » فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَ : « أَلطعام » فَقُلْتُ : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « قُومُوا » فَانْطَلَقُوا وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : يَا أُمُّ سَلِيمَ : قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ ؟ فَقَالَتْ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَلُمِّي مَا عِنْدَكَ يَا أُمُّ سَلِيمَ » فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْحَبْرِ ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُتْ ، وَعَصَصَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سَلِيمَ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ ، ثُمَّ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ، ثُمَّ قَالَ : « ائْذَنْ لِعَشْرَةِ » فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ، ثُمَّ قَالَ : « ائْذَنْ لِعَشْرَةِ » فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَرَجُوا ، ثُمَّ قَالَ : « ائْذَنْ لِعَشْرَةِ » فَأَذِنَ لَهُمْ حَتَّى أَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا ، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلًا أَوْ ثَمَانُونَ ^(١) . متفقٌ عليه .

وفي رواية : فما زال يَدْخُلُ عَشْرَةً وَيَخْرُجُ عَشْرَةً ، حتى لم يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ ، فَأَكَلَ حَتَّى شَبِعَ ، ثُمَّ هَيَّأَهَا فَإِذَا هِيَ مِثْلَهَا حِينَ أَكَلُوا مِنْهَا .

وفي رواية : فَأَكَلُوا عَشْرَةَ عَشْرَةَ ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ بِثَمَانِينَ رَجُلًا ، ثُمَّ أَكَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَهْلُ الْبَيْتِ ، وَتَرَكُوا سُورًا .

وفي رواية : ثم أَفْضَلُوا مَا بَلَّغُوا جِيرَانَهُمْ .

وفي رواية عن أنس قال : جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا ، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ ، وَقَدْ عَصَبَ بَطْنُهُ بَعْضَايَةَ ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ : لِمَ عَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَطْنَهُ ؟ فَقَالُوا : مِنَ الْجُوعِ ، فَذَهَبْتُ إِلَى أُمِّي طَلْحَةَ ، وَهُوَ زَوْجُ أُمِّ سُلَيْمِ بْنِ مِلْحَانَ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَتَاهُ ، قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَصَبَ بَطْنَهُ بَعْضَايَةَ ، فَسَأَلْتُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ ، فَقَالُوا : مِنَ الْجُوعِ . فَدَخَلَ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى أُمِّي فَقَالَ : هَلْ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في الأطعمه (٥٤٥٠) ومسلم في الأشربة (١٤٢، ١٤٣). قوله «عُكَّة»: هي وعاء من جلد مستدير مختص بالسمن والعسل وهو بالسمن أخص.

شيء؟ قالت : نعم ؛ عندي كِسْرٌ من خُبزٍ وَتَمَرَاتٌ ، فَإِنْ جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَذَهُ أَشْبَعْنَاهُ ، وَإِنْ جَاءَ آخَرُ مَعَهُ قُلْ عَنْهُمْ ، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

* * *

٥٧ - باب القناعة والعفاف والاقتصاد
في المعيشة والإنفاق ودم السؤال من غير ضرورة

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [مرد : ٦] وقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الذِّبَاتِ أَحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿ ^(١) [الذاريات : ٥٦ ، ٥٧] .

وأما الأحاديث ، فَتَقَدَّمَ مُعْظَمُهَا فِي الْبَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ ، وَمَا لَمْ يَتَقَدَّمَ .

٥٢٢ - عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

« الْعَرَضُ » بفتح العين والراء : هُوَ الْمَالُ .

٥٢٣ - وعن عبد الله بن عمرو ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَرُزِقَ كِفَافًا ، وَتَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » ^(٣) رواه مسلم .

٥٢٤ - وعن حكيم بن حزام ؓ قال : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ قَالَ : « يَا حَكِيمُ ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ مُخْلَوٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِسْرَافٍ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ ؛ وَالْيَدُ الْغُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ الشَّفَلَى » قَالَ حَكِيمٌ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرَى أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا . فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ؓ يَدْعُو حَكِيمًا لِيُعْطِيَهُ الْعَطَاءَ ، فَيَأْتِي أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا . ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ ؓ

(١) قوله ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ هي كل ما دب على الأرض من جميع الحيوان الذي يحتاج إلى رزق . قوله ﴿ أَحْصِرُوا ﴾ أي حبسوا أنفسهم في الجهاد . قوله ﴿ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ ذهابًا بالتجارة لاشتغالهم بالجهاد . قوله ﴿ التَّعَفُّفِ ﴾ عدم قدرتهم على السؤال . قوله ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ بعلامات السجود . قوله ﴿ إِلْحَافًا ﴾ أي إلحافًا . قوله ﴿ يُسْرِفُوا ﴾ أي يفرطوا حتى يضيعوا حقًا ناجزًا . قوله ﴿ يَقْتُرُوا ﴾ أي يفرطوا في الشح . قوله ﴿ قَوَامًا ﴾ أي وسطًا وعدلًا .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦) ومسلم في الزكاة (١٢٠) والإمام أحمد في مسنده (٢٤٣/٢ ، ٢٦١ ، ٣١٥) .

(٣) إلى نهاية هنا لم يقم الشارح بشرحه وهذا الحديث أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/٢ ، ١٧٣) والبيهقي في سننه (١٩٦/٤) ، الكفاف : الذي ليس فيه فضل عن الكفاية .

ﷺ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ . فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، أَشْهَدُكُمْ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ الَّذِي قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُ فِي هَذَا الْفِيءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ . فَلَمْ يَرِزْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تُوَفِّي (١) . متفقٌ عليه .

« يَرِزُ » براءٌ ثم زاي ثم همزة ، أي : لم يأخذ من أحدٍ شيئاً ، وأصل الرِزء : التَّقْصَانُ ، أي : لم يَنْقُصْ أَحَدًا شَيْئًا بِالْأَخْذِ مِنْهُ . و « إِشْرَافُ النَّفْسِ » : تَطَلُّعُهَا وَطَمَعُهَا بِالشَّيْءِ . و « سَخَاوَةُ النَّفْسِ » : هِيَ عَدَمُ الْإِشْرَافِ إِلَى الشَّيْءِ ، وَالطَّمَعُ فِيهِ ، وَالْمُبَالَغَةُ بِهِ وَالشَّرُّهُ .

٥٢٥ - وعن أبي بُرْدَةَ عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ يَنْتَهِ بَعْضُهُمْ نَعْتَقِبُهُ ، فَتَقَبَّطْنَا أَقْدَامُنَا وَتَقَبَّطَ قَدَمِي ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي ، فَكُنْتُ نَلْفُ عَلَى أَرْجُلِنَا الْحَرِقَ ، فَسَمِيتُ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ لِمَا كُنْتُ نَنْصَبُ عَلَى أَرْجُلِنَا مِنَ الْحَرِقِ .

قال أبو بُرْدَةَ : فَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الْحَدِيثِ ، ثُمَّ كَرِهَ ذَلِكَ ، وَقَالَ : مَا كُنْتُ أَضْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ ! قال : كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاءُ (٢) . متفقٌ عليه .

٥٢٦ - وعن عمرو بن تَغْلِبٍ - بفتح التاء المثناة فوق وإسكان الغين المعجمة وكسر اللام - ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِمَالٍ أَوْ سَبِيٍّ فَقَسَمَهُ ، فَأَعْطَى رَجُلًا ، وَتَرَكَ رَجُلًا ، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِي تَرَكَ عَتَبُوا ، فَحَمِدَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَتْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدْعُ الرَّجُلَ ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي ، وَلَكِنِّي إِنَّمَا أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ ، وَأَكِلَ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبٍ » قال عَمْرُو بْنُ تَغْلِبٍ : فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحَرَّرَ النَّعَمِ (٣) . رواه البخاري .

« الْهَلَعُ » هُوَ أَشَدُّ الْجَزَعِ ، وَقِيلَ : الضُّجْرُ .

٥٢٧ - وعن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعْمَلُ ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنَى ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ » (٤) متفقٌ عليه . وهذا لفظ البخاري ، ولفظ مسلم أحصر .

٥٢٨ - وعن أبي سُفْيَانَ صَخْرٍ بْنِ حَزْبٍ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : لا تُلْجِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ ،

(١) أخرجه البخاري في الرصايا (٢٧٥٠) واللفظ له ومسلم في الزكاة (٩٦) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢٨) ومسلم في الجهاد والسير (١٤٩) . قوله « نعتبه » أي يركبه كل واحد منا نوبة ، قوله « فنقتب » أي قرحت من الحفاء .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٧) واللفظ له ومسلم في الزكاة (٩٥) قوله « اليد العليا » أي المنفقة ، قوله « اليد السفلى » أي السائلة .

فَوَاللَّهِ لَا يَشَأْنَنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا ، فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارَةٌ ، فَيُبَارِكَ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ » (١) رواه مسلم .

٥٢٩ - وعن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً ، فَقَالَ : « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ » وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِبَيْعَةِ ، فَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . ثُمَّ قَالَ : « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ » فَبَسَطْنَا أَيْدِينَا وَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَعَلَامَ تُبَايِعُكَ ؟ قَالَ : « عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَالصَّلَاةَ الْخَمْسَ ، وَتُطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَسْرَ كُلَّمَا خَفِيَتْ : « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا » فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيكَ النَّفَرِ يَشْقُطُ سَوَاطِئَ أَجْدِهِمْ فَمَا لَ تَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِثَاءً » (٢) . رواه مسلم .

٥٣٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُرْعَةُ لَحْمٍ » (٣) متفق عليه .
« الْمُرْعَةُ » بضم الميم وإسكان الزاي وبالعين المهملة : الْقِطْعَةُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ فأعطاه ؛ أي سأله مالا فأعطاه ، ثم سأله فأعطاه ، ثم سأله فأعطاه .

وكان من هدي النبي ﷺ وكرمه وحسن خلقه أنه لا يرد سائلا سأله شيئا ، فما سئل شيئا على الإسلام إلا أعطاه - عليه الصلاة والسلام - ثم قال لحكيم : « إن هذا المال خضر حلو » خضر يسر الناظرين ، حلو يسر الذائقين ، فطلبه النفس وتحرص عليه .

« فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه » ، فكيف بمن أخذه بسؤال ؟ يكون أبعد وأبعد ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لعمر بن الخطاب : « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ ، وما لا فلا تتبعه نفسك » (٤) . يعني ما جاءك بإشراف نفس وتطلع وتشوف فلا تأخذه ، وما جاءك بسؤال فلا تأخذه .

ثم قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لحكيم بن حزام : « اليد العليا خير من اليد السفلى » : اليد العليا هي يد المعطي ، واليد السفلى هي يد الآخذ ، فالمعطي يده خير من يد الآخذ ؛ لأن المعطي فوق الآخذ ، فيده هي العليا كما قال النبي ﷺ .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٩) واللفظ له والإمام أحمد في مسنده (٩٨/٤) . قوله « لا تلحفوا في المسألة » أي لا تلحوا فيها .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٣) واللفظ له والبخاري في الزكاة (١٤٧٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٣ ، ٧١٦٤) ومسلم في الزكاة (١١١) .

فأقسم حكيم بن حزام رضي الله عنه بالذي بعث النبي ﷺ بالحق ألا يسأل أحداً بعده شيئاً ، قال : « يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا » .

فتوفي الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه ، فكان يعطيه العطاء فلا يقبله ، ثم توفي أبو بكر ، فتولى عمر فدعاه ليعطيه ، فأبى ، فاشتشهد عمر عليه ، فقال : أشهدوا أنني أعطيه من بيت مال المسلمين فلا يقبله ، قال ذلك ﷺ لئلا يكون له حجة على عمر يوم القيامة بين يدي الله ، وليتبرأ من عهده أمام الناس ، ولكن مع ذلك أصر حكيم رضي الله عنه ألا يأخذ منه شيئاً حتى توفي .

وفي اللفظ الآخر الذي ساقه المؤلف أن الرسول ﷺ قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » فالإنسان يبدأ بمن يعول ، يعني بمن يلزمه نفقته ، فالإنفاق على الأهل أفضل من الصدقة على الفقراء ؛ لأن الإنفاق على الأهل صدقة وصله وكفاف وعفاف ، فكان ذلك أولى ، والإنفاق على نفسك أولى من الإنفاق على غيرك ، كما جاء في الحديث « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلاهلك » ^(١) .

وذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس في وجهه مزعة لحم » . يأتي وليس عليه إلا عظام تلوح أمام الناس يوم القيامة . نسأل الله العافية . وهذا وعيد شديد يدل على تحريم كثرة السؤال ، ولهذا قال العلماء : لا يحل لأحد أن يسأل شيئاً إلا عند الضرورة ، إذا اضطر الإنسان فلا بأس أن يسأل ، أما أن يسأل للأموال الكمالية لأجل أن يسابق الناس فيما يجعله في بيته ، فإن هذا لا شك في تحريمه ، ولا يحل له أن يأخذ شيئاً ، حتى الزكاة ولو أعطيتها فلا يأخذ لإنفاقها في الأمور الكماليات التي لا يريد منها إلا أن يساق الناس ويماريهم و أما الشيء الضروري فلا بأس به . والله أعلم .

* * *

٥٣١ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر ، وذَكَرَ الصَّدَقَةَ والتَّعَقُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ : « اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هي المتفقة ، والسفلى هي السائلة » ^(٢) متفق عليه .

٥٣٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا ، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ » ^(٣) رواه مسلم .

٥٣٣ - وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كَذٌّ يَكُذُّ بِهَا الرَّجُلُ

(١) أخرجه مسلم واللفظ له في الزكاة (٤١) والنسائي في البيوع (٢٥٤٦) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٩) ومسلم في الزكاة (٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم بلفظ « من سأل الناس أموالهم تكثرنا .. » في الزكاة (١٠٥) وابن ماجه في الزكاة (١٨٣٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٣١/٢) . قوله تكثرنا أي ليكثر ماله مما يجتمع عنده ، قوله « يسأل جمراً » أي يجلب لنفسه ناراً .

وَجْهَهُ ، إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا أَوْ فِي أَمْرِ لَا بُدَّ مِنْهُ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . « الكَدُّ » الخَدَشُ وَنَحْوُهُ .

٥٣٤ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدِّ فَاقَتُهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ » ^(٢) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

« يُوشِكُ » بكسر الشين : أي يُسِرُّعُ .

٥٣٥ - وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا ، وَاتَّكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ ؟ » فقلت : أنا . فكان لا يسأل أحدًا شيئًا ^(٣) ، رواه أبو داود بإسناد صحيح .

٥٣٦ - وعن أبي بشر قبيصة بن الحارث رضي الله عنه قال : تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا ، فَقَالَ : « أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَتَأْمُرَ لَكَ بِهَا » ثُمَّ قَالَ : « يَاقَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ : رَجُلٌ تَحْمَلُ حِمَالَةً ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصَيِّبَهَا ، ثُمَّ يُمْسِكُ . وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَنَحَتْ مَالَهُ ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصَيِّبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ ، أَوْ قَالَ : سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ ، حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةَ مِنْ ذَوِي الْحِجَى مِنْ قَوْمِهِ : لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصَيِّبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ : سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَاقَبِيصَةُ سُحْتٌ ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا » ^(٤) رواه مسلم .

« الْحِمَالَةُ » بفتح الحاء : أَنْ يَقَعَ قِتَالٌ وَنَحْوُهُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ ، فَيُصْلِحُ إِنْسَانٌ بَيْنَهُمْ عَلَى مَا لِي يَتَحَمَّلُهُ وَيَلْتَزِمُهُ عَلَى نَفْسِهِ . و « الْجَائِحَةُ » : الْآفَةُ تُصَيِّبُ مَالَ الْإِنْسَانِ . و « الْقِيَامُ » بكسر : القاف وفتحها : هُوَ مَا يَقُومُ بِهِ أَمْرُ الْإِنْسَانِ مِنْ مَالٍ وَنَحْوِهِ . و « السَّدَادُ » بكسر السين : مَا يَسُدُّ حَاجَةَ الْمُغْوِرِ وَيَكْفِيهِ ، و « الْفَاقَةُ » : الْفَقْرُ . و « الْحِجَى » : الْعَقْلُ .

٥٣٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ الْمَشْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرَدُّدُ اللَّقْمَةِ وَاللَّقْمَتَانِ ، وَالثَّمَرَةُ وَالثَّمَرَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمَشْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ ، فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ » ^(٥) متفق عليه .

(١) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦٨١) واللفظ له وأبو داود في الزكاة (١٦٣٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٤٥) والترمذي في الزهد (٢٣٢٦) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٧/١) . قوله « فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ » أي طلب رفعها عنه بإعانتهم له .

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٤٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٧٦/٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٩) واللفظ له وأبو داود في الزكاة (١٦٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٦٠/٥) قوله « تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً » الحِمَالَةُ هي المال الذي يتحملة الإنسان أي يستدينه ويدفعه في إصلاح ذات البين كالإصلاح بين قبيلتين .

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٩) ومسلم في الزكاة (١٠١) . قوله « وَلَا يُفْطِنُ لَهُ » لتصبره وكنم حاله وما هو فيه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان وعيد من سأل الناس أموالهم بغير ضرورة . ففي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « من سأل الناس أموالهم تكثر ، فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر » يعني من سأل الناس أموالهم ليكثر بها ماله ، فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر ، إن استكثر زاد الجمر عليه ، وإن استقل قل الجمر عليه ، وإن ترك سلم من الجمر ، ففي هذا دليل على أن سؤال الناس بلا حاجة من كبائر الذنوب .

ثم ذكر أحاديث منها أن من أنزل حاجته وفاقته بالناس فإنه لا تقضى حاجته ؛ لأن من تعلق شيئاً وكل إليه ، ومن وكل إلى الناس أمره ، فإنه خائب لا تقضى حاجته ، ويستمر دائماً يسأل ولا يشبع ، ومن أنزلها بالله واعتمد على الله وتوكل عليه ، وفعل الأسباب التي أمر بها ، فإنه يوشك أن تقضى حاجته ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وذكر حديث قبيصة أنه جاء يسأل النبي ﷺ في حمالة تحملها ، فأمره أن يقيم عنده حتى تأتية الصدقة فيأمر له بها ، وذكر ﷺ أن المسألة لا تحل إلا لواحد من ثلاثة :

رجل تحمل حمالة ، يعني التزم في ذمته لإصلاح ذات البين ، فهذا يعطى وله أن يسأل حتى يصيبها ، ثم يمسك ولا يسأل .

ورجل آخر أصابته جائحة اجتاحت ماله ، كنار وغرق وعدو وغير ذلك ، فيسأل حتى يصيب قواماً من عيش .

والثالث : رجل كان غنياً فافتقر بدون سبب ظاهر ، وبدون جائحة معلومة ، فهذا له أن يسأل ، لكن لا يعطى حتى يشهد ثلاثة من أهل العقول من قومه بأنه أصابته فاقة ، فيعطى بقدر ما أصابه من الفقر .

فهؤلاء الثلاثة هم الذين تحل لهم المسألة وما سوى ذلك فإن الرسول ﷺ قال : « وما سواهم من المسألة يا قبيصة ، سحت يأكلها صاحبها سحتاً » .

والسحت هو الحرام وسمي سحتاً ؛ لأنه يسحت بركة المال وربما يسحت المال كله ، فيكون عليه آفات وغرامات تسحت ماله من أصله .

* * *

٥٨ - باب جواز الأخذ من غير مسألة ولا تطلع إليه

٥٣٨ - عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِينِي الْعَطَاءَ ، فَأَقُولُ : أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي ، فَقَالَ : « خُذْهُ ، إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ ، فَخُذْهُ فْتَمَوَّلْهُ فَإِنْ شِئْتَ كُلَّهُ ، وَإِنْ شِئْتَ تَصَدَّقْ بِهِ ،

وَمَا لَا ، فَلَا تُثَبِّغُهُ نَفْسَكَ ۖ قَالَ سَالِمٌ : فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا ، وَلَا يُرَدُّ شَيْئًا أُعْطِيَهُ ^(١) .
متفق عليه .

« مشرف » بالشين المعجمة : أي : مُتَطَلِّعٌ إِلَيْهِ .

٥٩ - باب الحث على الأكل من عمل يده
والتعفف به عن السؤال والتعرض للإعطاء

- قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ ﴾ ^(٢) [الجمعة : ١٠] .
٥٣٩ - عن أبي عبد الله الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبَلُهُ ثُمَّ يَأْتِيَ الْجَبَلَ ، فَإِنِّي بِخُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعُهَا ، فَيَكْفُ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ » ^(٣) رواه البخاري .
٥٤٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَأَنْ يَخْتَطِبَ أَحَدُكُمْ خُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ » ^(٤) متفق عليه .
٥٤١ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « كَانَ دَاوُدُ عليه السلام لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ » ^(٥) رواه البخاري .
٥٤٢ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ نَجَّارًا » ^(٦) رواه مسلم .
٥٤٣ - وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ » ^(٧) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب جواز الأخذ من غير مسألة ولا تطالع إليه .

- (١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٣) ومسلم في الزكاة (١١١) والنسائي في سننه (٢٦٠٨) وأحمد في مسنده (١٧/١) . قوله « فتموله » أي اتخذه مالا ، قوله « ومالا » أي : وأي مال لا يجيبك على الحال المذكورة وأنت مشرف أو سائل .
(٢) قوله « فانتشروا » أي تفرقوا لقضاء حوائجكم . قوله ﴿ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أي رزق الله .
(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧١) والإمام أحمد في مسنده (١٦٧/١) قوله « أحبله » جمع حبل ، قوله « فيكف الله بها وجهه » أي يمنعه الله بها من الحاجة .
(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٠) ومسلم في الزكاة (١٠٧) .
(٥) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٣) .
(٦) أخرجه مسلم في الفضائل (١٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٦/٢ ، ٤٠٥) .
(٧) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٢) .

يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن يعلق نفسه بالمال فيتطلع إليه أو يسأل ؛ لأن ذلك يؤدي إلى ألا يكون له هم إلا الدنيا ، والإنسان إنما خلق في الدنيا من أجل الآخرة . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذريات : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] . فلا ينبغي للإنسان أن يعلق نفسه بالمال أو يهتم به . إن جاءه من غير تعب ولا سؤال ولا استشراف نفس فيقبله ، وإلا فلا .

ثم ذكر حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه . أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعطيه العطاء فيقول : أعطيه من هو أفقر مني فيقول له الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « خذه ؛ إذا جاءك من المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ ، فتمولّه فإن شئت كله ، وإن شئت تصدّق به وما لا فلا تتبعه نفسك » .

فكان ابن عمر رضي الله عنه لا يسأل أحدا شيئا ، وإذا جاءه شيء من غير سؤال قبله ، وهذا غاية ما يكون من الأدب ، ألا تذلل نفسك بالسؤال ، ولا تستشرف للمال وتعلق قلبك به . وإذا أعطاك أحد شيئا فقبله ؛ لأن رد العطية والهدية قد يحمل من أعطاك على كراهيتك فيقول : هذا الرجل مستكبر ، هذا الرجل متغطرس ، وما أشبه ذلك .

فالذي ينبغي أن من أعطاك بغير مسألة تقبل منه ، إلا إذا كان الإنسان يخشى من أعطاه أن يمين به عليه في المستقبل فيقول : أنا أعطيتك ، أنا فعلت معك كذا وكذا وما أشبه ذلك ، فهنا يرد ؛ لأنه إذا خشي أن يقطع المعطي رقبته بالمنة عليه في المستقبل فليحم نفسه من هذا .

ثم ذكر المؤلف باب الحث على الأكل من عمل يده ، وذكر الآيات والأحاديث التي تبين فضيلة أن يأكل الإنسان من عمل يده ويتعفف عن السؤال ، وأن يكتسب ويتجر .

فذكر قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك : ١٥] أي في أنحائها : ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ أي ابتغوا الرزق من فضل الله تعالى .

وقال الله تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ولكن لا ينسبك ابتغاؤك من فضل الله ذكر ربك ، ولهذا قال : ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم ما ثبت في صحيح البخاري ، أن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده ، وكان داود يصنع الدروع كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] . فكان حداذا . أما زكريا فكان نجارا يعمل ويأخذ الأجرة على ذلك .

وهذا يدل على أن العمل والمهنة ليست نقصا ؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يمارسونها ، ولا شك أن هذا خير من سؤال الناس ، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « لأن

يأخذ أحدكم حزمة من حطب على ظهره فيبيعها « يعني ويأخذ ما كسب منها : » خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه .

ولا شك أن هذا هو الخلق النبيل ؛ ألا يخضع الإنسان لأحد ، ولا يذل له ، بل يأكل من كسب يده ، من تجارته أو صناعته أو حرثه . قال تعالى : ﴿ وَكَارِهُونَ يُضَرُّونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (١) [الزمل : ٢٠] .

٦٠ - باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبا : ٣٩] وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنُفِصِلَنَّ عَنْكُمْ لُحُومُ الْبُخَارِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٢) [البقرة : ٢٧٣] .

٥٤٤ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها » (٣) متفق عليه . معناه : ينبغي أن لا يُغبط أحد إلا على إحدى هاتين الخصلتين .

٥٤٥ - وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما مينا أخذ إلا ماله أحب إليه ، قال : « فَإِنْ مَالُهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ » (٤) رواه البخاري .

٥٤٦ - وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » (٥) متفق عليه .

٥٤٧ - وعن جابر رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال : لا (٦) . متفق عليه .

٥٤٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّقًا خَلْفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ ثَمَسِيكَ تَلْفًا » (٧) متفق عليه .

(١) قوله ﴿ يُضَرُّونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يسافر للتجارة وغيرها . قوله ﴿ يَنْتَعُونَ ﴾ يطلبون .
(٢) قوله ﴿ يُخْلِفُهُ ﴾ أي يعوضه في الدارين . قوله ﴿ أَنْتَعَا وَجُوهُهُ ﴾ أي مرضاة الله تعالى .
(٣) أخرجه مسلم واللفظ له في صلاة المسافرين (٢٦٨) والبخاري في العلم (٧٣) وقوله « هلكته » أي إنفاقه .
(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢) قوله « فَإِنْ مَالُهُ مَا قَدَّمَ » أي : بأن تصدق أو أكل أو ليس .
(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٧) ومسلم في الزكاة (٦٧) قوله « اتَّقُوا النَّارَ » أي اتخذوا بينكم وبينها وقاية من صالح الأعمال .

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل (٥٦) واللفظ له والبخاري في الأدب (٦٠٣٤) .

(٧) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (٥٧) .

٥٤٩ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنْفَقْ بَاثِنَ آدَمَ يُنْفَقَ عَلَيْكَ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى .
المال الذي أعطاه الله بني آدم ، أعطاهم إياه فتنه ، ليلوهم ؛ هل يحسنون التصرف فيه أم لا .
قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٥] ، فمن الناس من ينفقه في شهواته المحرمة ، وفي لذائذه التي لا تزيده من الله إلا بعداً ، فهذا يكون ماله وبالأعلى عليه والعياذ بالله .

ومن الناس من ينفقه ابتغاء وجه الله فيما يقربه إلى الله على حسب شريعة الله ، فهذا ماله خير له .
ومن الناس من يبذل ماله في غير فائدة ، ليس في شيء محرم ولا في شيء مشروع ، فهذا ماله ضائع عليه ، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال ^(٢) .

وينبغي للإنسان إذا بذل ماله فيما يرضي الله أن يكون واثقاً بوعد الله سبحانه وتعالى حيث قال في كتابه : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبا : ٣٩] ، ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي يعطيكم خلقاً عنه .

وليس معناه فهو يُخْلِفُهُ ، إذ لو كان المراد فهو يُخْلِفُهُ ، لكان معني الآية : أن الله يكون خليفة ، وليس الأمر كذلك ، بل فهو يُخْلِفُهُ أي يعطيكم خلقاً عنه .

ومنه الحديث : « اللهم أجرنني في مصيبتني وأخلف لي خيراً منها » ^(٣) . ولا تقل وأخلف لي خيراً منها ، بل وأخلف أي أرزقني خلقاً عنها خيراً منها .

فאלله وعد في كتابه أن ما أنفقه الإنسان فإن الله يخلفه عليه ، يعطيه خلقاً عنه ، وهذا يفسره قول الرسول عليه الصلاة والسلام في الأحاديث التي ساقها المؤلف مثل قوله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلقاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » يعني أتلف ماله .

والمراد بذلك من يمسك عما أوجب الله عليه من بذل المال فيه ، وليس كل ممسك يدعى عليه ، بل الذي يمسك ماله عن إنفاقه فيما أوجب الله ، فهو الذي تدعو عليه الملائكة بأن الله يتلفه ويتلف ماله .
والتلف نوعان : تلف حسي وتلف معنوي .

(١) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٢) ومسلم في الزكاة (٦٨) وهو عند البخاري ومسلم بلفظ « أنفق يا ابن آدم أنفق عليك » .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٣) وأحمد في مسنده (٢٧/٤) .

- ١ - التلف الحسي : أن يتلف المال نفسه ، بأن يأتيه آفة تحرقه أو يسرق أو ما أشبه ذلك .
- ٢ - والتلف المعنوي : أن تنزع بركته ، بحيث لا يستفيد الإنسان منه في حياته ، ومنه ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال لأصحابه : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحد إلا وماله أحب إليه .
- فمالك أحب إليك من مال زيد وعمرو وخالد ، ولو كان من ورثتك ، قال : « فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » .

وهذه حكمة عظيمة ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ ، فمالك الذي تقدمه لله ﷻ تجده أمامك يوم القيامة ، ومال الوارث ما يبقى بعدك من مالك فينتفع به ويأكله الوارث ، فهو مال وارثك على الحقيقة . فأنفق مالك فيما يرضي الله ، وإذا أنفقت فإن الله يخلفه وينفق عليك ، كما قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنفق يا ابن آدم ينفق عليك » .

وهذه الأحاديث كلها وكذلك الآيات تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يبذل ماله حسب ما شرع الله ﷻ ، كما جاء في الحديث الذي صُدِّرَ به المؤلف هذا الباب ؛ أن الرسول ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين » يعني لا غبطة ، ولا أحد يغبط على ما أعطاه الله ﷻ من مال وغيره إلا في اثنتين فقط : الأولى : رجل أعطاه الله مالا ، فسلطه على هلكته في الحق ، صار لا يبذله إلا فيما يرضي الله ، هذا يحسد لأنك الآن تجد التجار يختلفون ، منهم من ينفق أمواله في سبيل الله ؛ في الخيرات ، في أعمال البر ، إعانة فقير ، بناء مساجد ، بناء مدارس ، طبع كتب ، إعانة على الجهاد ، وما أشبه ذلك . فهذا سلط على هلكته في الحق .

ومنهم من يسلطه على هلكته في اللذائذ المحرمة والعياذ بالله ، يسافر إلى الخارج فيزني ، ويشرب الخمر ، ويلعب القمار ، ويتلف ماله فيما يغضب الرب ﷻ ، فالذي سلطه الله على هلكة ماله في الحق يغبط ، لأن الغالب أن الذي يستغني بيطر ويمرح ويفسق فإذا رُؤي أن هذا الرجل الذي أعطاه الله المال ينفقه في سبيل الله فهو يغبط .

والثانية : رجل آتاه الله الحكمة يعني العلم ، الحكمة هنا العلم كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ ﴾ [النساء : ١١٣] ، « فهو يقضي بها ويعلمها » يقضي بها في نفسه وفي أهله ، وفي من تحاكم عنده ، ويعلمها الناس أيضا ، لا يقتصر على أن يأتيه الناس فيقول إذا جاءوني حكمت وقضيت ، بل يقضي ويعلم ، ويبدأ الناس بذلك ، فهذا لا شك أنه مغبوط على ما آتاه الله من الحكمة .

والناس في الحكمة ينقسمون إلى أقسام :

قسم آتاه الله الحكمة فبخل بها حتى على نفسه ، لم ينتفع بها في نفسه ، ولم يعمل بطاعة الله ، ولم ينته عن معصية الله ، فهذا خاسر والعياذ بالله ، وهذا يشبه اليهود الذين عملوا الحق واستكبروا عنه .

وقسم آخر آتاه الله الحكمة فعمل بها في نفسه ، لكن لم ينفع بها عباد الله ، وهذا خير من الذي

قبله ، لكنه ناقص .

وقسم آخر أعطاه الله الحكمة ففقدى بها وعمل بها في نفسه وعلمها الناس ، فهذا خير الأقسام .
وهناك قسم رابع لم يؤت الحكمة إطلاقاً فهو جاهل ، وهذا حرم خيراً كثيراً ، لكنه أحسن حالاً
ممن أوتي الحكمة ولم يعمل بها ؛ لأن هذا يرجى إذا علم أن يتعلم ويعمل ، بخلاف الذي أعطاه الله
العلم ، وكان علمه وبالاً عليه والعياذ بالله .

* * *

٥٥٠ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ : « تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » ^(١) متفق عليه .

٥٥١ - وعنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهَا مَنِيحَةُ الْعَنْزِ مَا مِنْ غَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصَدِيقِ مُوْعِدِهَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا الْجَنَّةَ » ^(٢) رواه البخاري . وقد سبق بيان هذا الحديث في باب بيان كَثْرَةِ طُرُقِ الْخَيْرِ .

٥٥٢ - وعن أبي أُمَامَةَ صَدِيقِ بْنِ عَجْلَانَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْ تُمَسِّكَهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلَا تُلَامَ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَقُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ^(٣) رواه مسلم .

٥٥٣ - وعن أنس رضي الله عنه قَالَ : مَا سُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُ رَجُلٌ ، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ : يَا قَوْمَ أَسْلِمُوا ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيْسَ لَهُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا ، فَمَا يَلْبَثُ إِلَّا يَسِيرُوا حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا ، وَمَا عَلَيْهَا ^(٤) . رواه مسلم .

٥٥٤ - وعن عُمرَ رضي الله عنه قَالَ : قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَسَمًا فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَعَيْرُ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحَقُّ بِهِ مِنْهُمْ؟ قَالَ : « إِنَّهُمْ خَيْرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفَحْشِ أَوْ يُخْلُونِي ، وَلَسْتُ بِتَاخِلٍ » ^(٥) رواه مسلم .

(١) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه ، وأخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٢) ومسلم في الزكاة (٣٦) .

(٢) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه ، وأخرجه البخاري في الإيمان (١٢) ومسلم في الإيمان (٦٣) وأبو داود في الأدب (٥١٩٤) .

(٣) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه ، وأخرجه البخاري في الهبة (٢٦٣١) . قوله « منيحة العنز » المنيحة عند العرب على وجهين : - إعطاء الرجل صاحبه نحو شاة صلة . - إعطاء الرجل صاحبه شاة أو ناقة ينتفع بحلبها ثم يردّها وهذا هو المراد هنا .

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل (٥٨) . قوله « فأعطاه غنماً بين جبلين » أي كثيرة تملأ ما بين جبلين .

(٥) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه ، وأخرجه مسلم في الزكاة (١٢٧) . قوله « إنهم خيروني » أي ألحوا علي في المسألة لضعف إيمانهم وألجأوني بمقتضى حالهم إلى السؤال بالفحش أو نسبتي إلى البخل ولست بياخل ولا ينبغي احتمال واحد من الأمرين .

٥٥٥ - وعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه أنه قال : يَمْنَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَقْفَلُهُ مِنْ حَتِينٍ ، فَعَلِقَهُ الْأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ ، حَتَّى اضْطَرُّوه إِلَى سَمُرَةٍ ، فَخَطِطَتْ رِدَائِهِ ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « أَعْطُونِي رِدَائِي ، فَلَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِصَاهِ نَعْمًا ، لَقَسَمْتُه يَنُكُّم ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بِخَيْلًا وَلَا كَذَابًا وَلَا جَبَانًا » ^(١) رواه البخاري .
« مَقْفَلُهُ » : أي : خال رُجُوعِهِ . و « السَّمُرَةُ » : شَجَرَةٌ . و « الْعِصَاهُ » : شَجَرٌ لَهُ شَوْكٌ .
٥٥٦ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ ﷻ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً على الإسلام إلا أعطاه ؛ لأنه ﷺ كان أكرم الناس ، وكان يبذل ماله فيما يقرب إلى الله ﷻ . ومن ذلك أنه ﷺ إذا سأله شخص على الإسلام يعني على التأليف على الإسلام والرغبة فيه إلا أعطاه ، مهما كان هذا الشيء ، حتى إنه سأله أعرابي فأعطاه غنماً بين جبلين ، أي أنها غنم كثيرة أعطاه إياها الرسول عليه الصلاة والسلام لما يرجو من الخير لهذا الرجل ولمن وراءه .

ولذلك ذهب هذا الرجل إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر - عليه الصلاة والسلام - يعني يعطي عطاءً جزيلاً ، عطاء من لا يخشى الفقر ، فانظر إلى العطاء كيف أثر في هذا الرجل هذا التأثير العظيم ، حتى أصبح داعية إلى الإسلام .

وهو إنما سأل طمعاً كغيره من الأعراب ، فالأعراب أهل طمع ، يحبون المال ويسألونه ، ولكنه لما أعطاه الرسول عليه الصلاة والسلام هذا العطاء الجزيل صار داعية إلى الإسلام ، فقال : يا قوم أسلموا . ولم يقل : أسلموا تدخلوا الجنة وتنجوا من النار ، بل قال : أسلموا ؛ فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر . يعني سيعطيكم ويكثر .

ولكنهم إذا أسلموا من أجل المال ، فإنهم لا يلبثون يسيراً إلا ويصير الإسلام أحب شيء إليهم ، أحب من الدنيا وما فيها ، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعطي الرجل تأليفاً له على الإسلام حتى يسلم ، وإن كانت نيته للمال ، إلا أنه إذا دخل في الإسلام وتعلم محاسن الإسلام وقر الإيمان في قلبه ^(٣) . ويؤخذ من هذا الحديث وأمثاله : أنه لا ينبغي لنا أن نتعد عن أهل الكفر وعن أهل الفسوق ، وأن ندعهم للشياطين تلعب بهم ، بل نؤلفهم ، ونجذبهم إلينا بالمال واللين وحسن الخلق حتى يألفوا الإسلام ، فهاهو الرسول عليه الصلاة والسلام يعطي الكفار ، يعطيهم حتى من الفيء .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، الحديث أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢١) والإمام أحمد في مسنده (٨٢/٤) والطبراني في الكبير (١٣٥/٢ ، ١٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٥/٢ ، ٣٨٦) .

(٣) إذا حدث ذلك فإنه لا يعطى من سهم المؤلفه قلوبهم .

بل إن الله جعل لهم حظًا من الزكاة ، نعطيهم لنؤلفهم على الإسلام ، حتى يدخلوا في دين الله ، والإنسان قد يسلم للدنيا ، ولكن إذا ذاق طعم الإسلام رغب فيه ، حتى يكون أحب شيء إليه . قال بعض أهل العلم : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله ، فالأعمال الصالحة لا بد أن تربي صاحبها على الإخلاص لله ، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام .

وإذا كان هذا دأب الإسلام فيمن يعطى على الإسلام ويؤلف ، فإنه ينبغي لنا أن ننظر إلى هذا نظرة جدية ، فنعطي من كان كافرًا إذا وجدنا فيه قربًا من الإسلام ، ونهاديه ونحسن له الخلق ، فإذا اهتدى فإله يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم ^(٢) .

وهكذا أيضًا الفساق هادهم ، انصحهم باللين ، وبآلتي هي أحسن ، ولا تقل : أنا أبغضهم لله ، أبغضهم لله وأدعهم إلى الله ، بغضك إياهم لله لا يمنعك أن تدعوهم إلى الله بل ادعهم إلى الله وإن كنت تكرههم ، فلعلهم يكونون من أحبائك في الله يومًا من الأيام .

ثم ذكر المؤلف الحديث الآخر أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « ما نقصت صدقة من مال » إذا تصدق الإنسان فإن الشيطان يقول له : إذا تصدقت نقص مالك ، عندك مائة ريال إذا تصدقت بعشرة لم يكن عندك إلا تسعون ، إذا نقص المال فلا تصدق ، كلما تصدقت ينقص مالك .

ولكن من لا ينطق عن الهوى يقول : « ما نقصت صدقة من مال » ، قد تنقصه كذا ، لكنها تزيد كذا وبركة ، وربما هذه العشرة يأتي بدلها مائة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبا: ٣٩] . أي يجعل لكم خلفًا عنه عاجلاً ، وأجرًا وثوابًا آجلاً . قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ مَنَاحِيْرَ حَبَّتِ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة: ٢٦١] . وقد كان النبي ﷺ أجود الناس وكان أكرم الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة ^(٣) .

الريح المرسلة التي أمرها الله وأرسلها فهي عاصفة سريعة ، ومع ذلك فالرسول عليه الصلاة والسلام أسرع بالخير في رمضان من هذه الريح المرسلة ، فينبغي لنا أن نكثر من الصدقة والإحسان وخصوصًا في رمضان ، فنكثر من الصدقات والزكوات وبذل المعروف وإغاثة الملهوف وغير ذلك من أنواع البر والصلة . ويزيد العامة على قوله ﷺ : « ما نقصت صدقة من مال » قولهم : بل تزده بل تزده . وهذه لا صحة لها ، فلم تصح عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإنما الذي صح عنه ﷺ قوله : « ما نقصت صدقة من مال » .

والزيادة التي تحصل بدل الصدقة : إما كمية ، وإما كيفية .

مثال الكمية : أن الله تعالى يفتح لك بابًا من الرزق ما كان في حسابك .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٩) وأحمد في مسنده (٢٣٨/٥) .

(٣) انظر صحيح البخاري في بدء الوحي (٦) ومسلم في الفضائل (٤٨) .

والكيفية : أن ينزل الله لك البركة فيما بقي من مالك .

ثم قال ﷺ : « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » ، إذا جنى عليك أحد وظلمك في مالك ، أو في بدنك ، أو في أهلك ، أو في حق من حقوقك ، فإن النفس شحيحة تأبى إلا أن تنتقم منه ، وأن تأخذ بحقك ، وهذا لك . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَعْتَذَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَذَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

ولا يلام الإنسان على ذلك ، لكن إذا هم بالعفو وحدث نفسه بالعفو قالت له نفسه الأمانة بالسوء : إن هذا ذل وضعف ، كيف تغفو عن شخص جنى عليك أو اعتدى عليك ؟

وهنا يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » والعز ضد الذل ، وما تحدثك به نفسك أنك إذا عفوت فقد ذلت أمام من اعتدى عليك ، فهذا من خداع النفس الأمانة بالسوء ونهيها عن الخير ، فإن الله تعالى يثبك على عفوك هذا عزاً ورفعة في الدنيا والآخرة .

ثم قال ﷺ : « وما تواضع أحد لله إلا رفعه » . والتواضع من هذا الباب أيضاً ، فبعض الناس تراه متكبراً ويظن أنه إذا تواضع للناس نزل ، ولكن الأمر بالعكس ، إذا تواضعت للناس فإنك تتواضع لله أولاً ، ومن تواضع لله يرفعه ويعلي شأنه .

وقوله : « تواضع لله » لها معنيان :

المعنى الأول : أن تتواضع لله بالعبادة وتخضع وتنقاد لأمر الله .

المعنى الثاني : أن تتواضع لعباد الله من أجل الله ، وكلاهما سبب لرفعة ، سواء تواضعت لله بامتثال أمره واجتتاب نهيهِ وذلت له وعبدته أو تواضعت لعباد الله من أجل الله لا خوفاً منهم ، ولا مداراة لهم ، ولا طلباً لمال أو غيره ، إنما تتواضع من أجل الله عز وجل ، فإن الله تعالى يرفعك في الدنيا وفي الآخرة .

فهذه الأحاديث كلها تدل على فضل الصدقة والتبرع ، وبذل المعروف والإحسان إلى الغير ، وأن ذلك من خلق النبي ﷺ .

* * *

٥٥٧ - وعن أبي كبشة عمر بن سعيد الأماري رحمه الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاثة أقسيماً عليهن وأحدنكم حديثاً فاحفظوه : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر - أو كلمة نحوها - وأحدنكم حديثاً فاحفظوه » قال : « إنما الدنيا لأربعة نفر :

عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقي فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل .

وَعَبْدُ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا ، وَلَمْ يَزِرْهُ مَالًا ، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ ، فَهُوَ بَيْنَهُمَا ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ .

وَعَبْدُ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا ، وَلَمْ يَزِرْهُ عِلْمًا ، فَهُوَ يَخْطُبُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَتُهُ ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ .

وَعَبْدٌ لَمْ يَزِرْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا ، فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ ، فَهُوَ نِيئُهُ ، فَوَزَرُهُمَا سَوَاءٌ ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٥٥٨ - وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ » قَالَتْ : مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَيْفُهَا ، قَالَ : « بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَيْفِهَا » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث صحيح .

ومعناه : تَصَدَّقُوا بِهَا إِلَّا كَيْفُهَا فَقَالَ : بَقِيَ لَنَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَيْفُهَا .

٥٥٩ - وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُوَكِّي فَيُوكِّي عَلَيْكَ » .

وفي رواية « أَنْفِقِي ، أَوْ أَنْفِجِي ، أَوْ انْضَحِي ، وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِي اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا تُوَكِّي فَيُوكِّي اللَّهُ عَلَيْكَ » ^(٣) متفقٌ عليه .

و « أَنْفِجِي » بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ : وَهُوَ بِمَعْنَى « أَنْفِقِي » وَكَذَلِكَ : « انْضَحِي » .

٥٦٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنْتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدْيَيْهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ ، فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبْعَتْ ، أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جُلْدِهِ حَتَّى تُخْفِي بَنَانَهُ ، وَتَغْفُو أَثَرُهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ ، فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لِرَقَّتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوسِّعُهَا فَلَا تَسْغِي » ^(٤) متفقٌ عليه .

و « الْجُنَّةُ » الدَّرْعُ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الْمُنْفِقَ كُلَّمَا أَنْفَقَ سَبْعَتْ ، وَطَالَتْ حَتَّى تُجَرَّ وَرَازَةٌ ، وَتُخْفِي رِجْلَيْهِ وَأَثَرُ مَشْيِهِ وَخُطْوَاتِهِ .

(١) من هذا الحديث حتى نهاية الحديث رقم (٥٦٢) لم يقم الشارح رحمته الله بشرحها ، وقد ذكرناها إتماماً للفائدة ، مع شرح مفردات ألفاظها ، وهذا الحديث أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٥) . قوله « ولا فتح عبد باب مسألة » أي لينال بذلك الغنى تكثر من أموال الناس . (٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٣٣) ومسلم في الزكاة (٨٨) . قوله « لا توكي » أي لا تدخري وتشدي ما عندك وتمنعي ما في يدك ، قوله « فيوكي الله عليك » أي فيقطع عليك مادة الرزق ، قوله « تحصي » أي تمسكي المال وتدخريه ، قوله « توعي » أي تمنعي ما فضل عنك عنم هو محتاج إليه .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧١٩) ، ومسلم في الزكاة (٧٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) . قوله « ثديهما » جمع ثدي ، قوله « ترأقيهما » جمع ثرقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين ، قوله « بنانه » أي مفاصل الأصبع .

٥٦١ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَذْلٍ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا يَبْسُطُهَا فِي يَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَلِيلِ » (١) متفق عليه .

« الْفَلَوُ » بفتح الفاء وضَمّ اللام وتشديد الواو ، ويقال أيضًا : بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو : وهو المَهْرُ .

٥٦٢ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « يَنْمُو رَجُلٌ يَمْشِي بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ : اسْقِ حِدِيقَةَ فُلَانٍ ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَوْزَةٍ ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشَّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ ، فَتَبَعَ الْمَاءَ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حِدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : فُلَانٌ - لِلْإِسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ - فَقَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي ؟ فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَأْوُهُ يَقُولُ : اسْقِ حِدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا ؟ فَقَالَ : أَمَا إِذْ قُلْتُ هَذَا ، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلْثِهِ ، وَأَكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلْثًا ، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلْثَهُ » (٢) . رواه مسلم .

« الْحَوْزَةُ » الْأَرْضُ الْمَلْبَسَةُ حِجَارَةً سَوْدَاءَ . « وَالشَّرْجَةُ » بفتح الشين المعجمة وإسكان الراء وبالجميم : هِيَ مَسِيلُ الْمَاءِ .

٦١ - بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْبَخْلِ وَالشَّحِّ

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ يَبْخُلْ وَأَسْتَفْتِ ۖ وَكَذَّبَ بِإِلْمِهِ ۖ فَنُفِثْهُ فِي الْأَمْشَرِ ۚ وَمَا يَفْقَهُ عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل : ٨ - ١١] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْكَلْ شَحٌّ نَفْسِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) [التغابن : ١٦] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه رياض الصالحين باب النهي عن البخل والشح .
والبخل : هو منع ما يجب وما ينبغي بذله .

(١) الحديث أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠) ومسلم في الزكاة (٦٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٣١/٢) والبيهقي في سننه (١٧٧/٤ ، ١٩٠) . قوله « بعدل ثمرة » أي بقيمتها .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٤٥) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٦/٦) . قوله « فتنحى » أي قصد ، قوله « بمسحاته » سحا الطين يسحبه ويسحوه سحواً ؛ أي قشره وجرفه ، والمسحاة : ما شحج به .

(٣) قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَفْتِ ۖ ﴾ أي استغنى بالدنيا عن الآخرة . قوله تعالى : ﴿ فَنُفِثْهُ ۚ ﴾ أي إلى الشدة المؤدية إلى الآخرة . قوله تعالى : ﴿ تَرَدَّى ﴾ أي هلك وسقط في جهنم . قوله تعالى : ﴿ شَحٌّ نَفْسِهِ ۖ ﴾ هو شح النفس وهو الفقر الذي لا يذهب غنى المال بل يزيده .

والشح : هو الطمع فيما ليس عنده ، وهو أشد من البخل ؛ لأن الشحيح يطمع فيما عند الناس ويمنع ما عنده مما أوجب الله عليه من زكاة ونفقات ، وما ينبغي بذله فيما تقتضيه المروءة .

وكلاهما - أعني البخل والشح - خلقان ذميما ، فإن الله ﷻ ذم من يخلون ويأمرون الناس بالبخل ، فقال : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : ١٦] .

ثم استدل المؤلف رحمه الله بآيتين من كتاب الله :

الآية الأولى : وهي في البخل ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَفْتَقْ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۝ فَنُفِثَ لِلْمُصْرَى ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝ ﴾ [الليل : ٨ - ١١] . وهذه الآيات قسيم الآيات التي قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿ قَلَمًا مَنْ أَطْعَمَ وَأَقْنَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ۝ فَنُفِثَ لِلْمُصْرَى ۝ ﴾ [الليل : ٥ - ٧] .

فالإنسان المصدق بالحق المعطي لما يجب إعطاؤه وبذله من علم ، ومال وجاه ، المتقي لله ﷻ ، هذا ييسر لليسرى ، أي ييسره الله تعالى لأيسر الطرق في الدنيا والآخرة .

وقد أجاب النبي ﷺ أصحابه حينما حدثهم فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومن النار » . يعني أنه أمر مفروغ منه - قالوا : « يا رسول الله ، أفلا نتكل وندع العمل ؟ يعني نتكل على ما كتب لنا ندع العمل . قال : « لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ^(١) . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ قَلَمًا مَنْ أَطْعَمَ وَأَقْنَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ۝ فَنُفِثَ لِلْمُصْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَفْتَقْ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۝ فَنُفِثَ لِلْمُصْرَى ۝ ﴾ . فأنت فكر في نفسك ، هل عندك تصديق وإعطاء وبذل لما يجب بذله وتقوى لله ﷻ ، فإنك موفق ميسر لليسرى ، والعكس بالعكس .

الشاهد من هذه الآية في الباب ، قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَفْتَقْ ﴾ بخل بما يجب بذله من مال أو جاه أو علم .

ومن ذلك : ما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « البخل من إذا ذكرت عنده لم يصل على » ^(٢) عليه الصلاة والسلام . وهذا بخل بما يجب على الإنسان إذا سمع ذكر نبيه عليه الصلاة والسلام الذي هداه الله على يديه . وكان الأولى به والأجدر أن يبادر بالصلاة والسلام عليه . وقوله : ﴿ وَاسْتَفْتَقْ ﴾ أي استغنى بنفسه وزعم أنه مستغن عن رحمة الله والعياذ بالله ، فلا يعمل ولا يستقيم على أمر الله .

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ أي كذب بالكلمة الحسنی وهي قول الحق ، وهي ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

﴿ فَنُفِثَ لِلْمُصْرَى ﴾ تعسر عليه الأمور التي تسهل على المتقي ، فلا تسهل عليه الطاعات ، يجد

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠٥) ، ومسلم في القدر (٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٦) ، وأحمد في مسنده (٢٠١/١) .

الطاعات ثقيلة ؛ الصلاة ثقيلة ، والصدقة ثقيلة ، والصيام ثقيل ، والحج ثقيل ، كل شيء متعسر عنده .
﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ يعني أي شيء يغني عنه ماله إذا هلك ؟ والجواب أنه لا يغني عنه شيئاً ، فهذا المال الذي بخل به لا يحميه من عذاب الله وعقابه ولا يغني عنه شيئاً .

وأما الآية الثانية : فهي في الشح ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ يعني من يقية الله شح نفسه فلا يطمع فيما ليس له فهذا هو المفلح .

٥٦٣ - وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتاب رياض الصالحين في باب النهي عن البخل والشح فيما رواه جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » اتَّقُوا الظلم بمعنى احذروه ، واتخذوا وقاية منه وابتعدوا عنه .

والظلم : هو العدوان على الغير ، وأعظم الظلم وأشدّه الشرك بالله ﷻ . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

ويشمل الظلم ظلم العباد ، وهو نوعان : ظلم بترك الواجب لهم ، وظلم بالعدوان عليهم بأخذ أو بانتهاك حرمانهم .

فمثال الأول : ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في قوله : « مطل الغني ظلم » ^(٢) يعني ممانعة الإنسان الذي عليه دين عن الوفاء وهو غني قادر على الوفاء ظلم ، وهو منع ما يجب ؛ لأن الواجب على الإنسان أن يبادر بالوفاء إذا كان له قدرة ، ولا يحل له أن يؤخر ، فإن أخر الوفاء وهو قادر عليه كان ظلماً والعياذ بالله .

والظلم ظلمات يوم القيامة ، وكل ساعة أو لحظة تمضي على المماطل فإنه لا يزداد بها إلا إثماً والعياذ بالله ، وربما يعسر الله عليه أمره فلا يستطيع الوفاء إما بخلاً وإما إعداءً ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٦) . قوله « أهلك من كان قبلكم » أي من بني إسرائيل ، قوله « سفكوا دماءهم » أي أراقوها وقتل بعضهم بعضاً ، قوله « واستحلوا محارمهم » أي ما حرم الله عليهم من الشحوم فباعوه واحتالوا لولوج السمك إلى ما حفروه يوم السبت ليدخل في حوزهم فيبيعوه بعد فيوقعهم ذلك في الشح .
(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٠) ومسلم في المساقاة (٣٣) .

فمفهوم الآية أن من لا يتقي الله لا يجعل له من أمره يسراً ، ولذلك يجب على الإنسان القادر أن يبادر بالوفاء إذا طلبه صاحبه ، أو أجله وانتهى الأجل .

ومن الظلم أيضاً : اقتطاع شيء من الأرض . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه يوم القيامة من سبع أرضين » ^(١) .

ومن الظلم : الاعتداء على الناس في أعراضهم بالغيبة أو النسيئة أو ما أشبه ذلك ، فإن الغيبة : ذكرك أخاك بما يكره في غيبته ، فإن كان في حضرته فهو سب وشتم ، فإذا ظلم الناس بالغيبة بأن قال : فلان طويل . فلان قصير . فلان سيئ الخلق . فلان فيه كذا ، فهذه غيبة وظلم يحاسب عليها يوم القيامة .

وكذلك أيضاً إذا جحد ما يجب عليه جحوداً ، بأن كان لفلان عليه حق ، فيقول : ليس له علي حق ويكتم ، فإن هذا ظلم ، لأنه إذا كانت المماثلة ظلماً فهذا أظلم ، كمن جحد شيئاً واجباً عليه ، فإنه ظالم .

وعلى كل حال ؛ اتقوا الظلم بجميع أنواعه ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، يكون على صاحبه والعياذ بالله ظلمات بحسب الظلم الذي وقع منه ؛ الكبير ظلماته كبيرة ، والكثير ظلماته كثيرة كل شيء بحسبه ، قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ^(٢) [الأنبياء : ٤٧] .

وفي هذا دليل على أن الظلم من كبائر الذنوب ؛ لأنه لا وعيد إلا على كبيرة من كبائر الذنوب ، فظلم العباد وظلم الخالق ﷻ رب العباد ؛ كله من كبائر الذنوب .

ثم قال ﷺ : « واتقوا الشح » يعني الطمع في حقوق الغير . اتقوه : أي احذروا منه ، واجتنبوه « فإنه أهلك من كان قبلكم » يعني من الأمم « حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » فكان هلاكهم بذلك والعياذ بالله .

٦٢ - باب الإيثار والمواساة

قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ أَمْرًا عَلَى حُبِّهِمْ شَيْئاً وَابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ﴾ ^(١) [الذمر : ٨] إلى آخر الآيات .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ومسلم في المساقاة (١٤٢) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أَلْقَسَطَ ﴾ ذوات العدل في محاسبة الناس . قوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ وزن أقل شيء (كناية عن كمال إحاطة علم الله بدقائق الأشياء) .

(٣) قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتُونَ ﴾ أي يقدمون على أنفسهم ، قوله تعالى : ﴿ خَصَاصَةٌ ﴾ أي حاجة إلى ما عندهم .

الشرح

باب الإيثار والمواساة . ذكر المؤلف هذا الباب عقب باب النهي عن البخل والشح لأنهما متضادان ، فالإيثار أن يقدم الإنسان غيره على نفسه ، والمواساة أن يواسي غيره بنفسه ، والإيثار أفضل ولكن ليعلم أن الإيثار ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول : ممنوع ، والثاني : مكروه أو مباح ، والثالث : مباح .
القسم الأول : وهو الممنوع ، وهو أن تؤثر غيرك بما يجب عليك شرعاً فإنه لا يجوز أن تقدم غيرك فيما يجب عليك شرعاً .

ومثاله : إذا كان معك ماء يكفي لوضوء رجل واحد ، وأنت لست على وضوء ، وهناك صاحب لك ليس على وضوء والماء لك ، لكن إما أن يتوضأ به صاحبك وتتييم أنت ، أو تتوضأ أنت وتتييم صاحبك ، ففي هذه الحال لا يجوز أن تعطيه الماء وتتييم أنت ؛ لأنك واجد للماء ، والماء في ملكك ، ولا يجوز العدول عن الماء إلى التييم إلا لعادم .

فالإيثار في الواجبات الشرعية حرام ، ولا يحل ؛ لأنه يستلزم إسقاط الواجب عليك .
القسم الثاني : وهو المكروه أو المباح : فهو الإيثار في الأمور المستحبة ، وقد كرهه بعض أهل العلم وأباحه بعضهم ، لكن تركه أولى لا شك إلا لمصلحة .

ومثاله : أن تؤثر غيرك في الصف الأول الذي أنت فيه ، مثل أن تكون أنت في الصف الأول في الصلاة ، فيدخل إنسان فتقوم عن مكانك وتؤثره به ، فقد كره أهل العلم هذا ، وقالوا : إن هذا دليل على أن الإنسان يرغب عن الخير ، والرغبة عن الخير مكروهة ، إذ كيف تقدم غيرك إلى مكان فاضل أنت أحق به منه ؟!

وقال بعض العلماء : تركه أولى إلا إذا كان فيه مصلحة ، كما لو كان أبوك وتخشى أن يقع في قلبه شيء عليك فتؤثره بمكانك الفاضل ، فهذا لا بأس به .

القسم الثالث : وهو المباح : وهذا المباح قد يكون مستحباً ، وذلك أن تؤثر غيرك في أمر غير تعبدية ، أي تؤثر غيرك وتقدمه على نفسك في أمر غير تعبدية .

ومثاله : أن يكون معك طعام وأنت جائع ، وصاحب لك جائع مثلك ، ففي هذه الحال إذا أثرته فإنك محمود على الإيثار ، لقول الله تبارك وتعالى في وصف الأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] .

ووجه إيثارهم على أنفسهم أن المهاجرين لما قدموا المدينة تلقاهم الأنصار بالإكرام والاحترام والإيثار بالمال ، حتى أن بعضهم يقول لأخيه المهاجري : إن شئت أن أتنازل عن إحدى زوجتي لك فعلت ؛ يعني يطلقها فيتزوجها المهاجري بعد مضي عدتها . وهذا من شدة إيثارهم ﷺ لإخوانهم المهاجرين .

وقال تعالى : ﴿ وَطَعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِمْ مَسْكِينًا وَيتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨] . يعني يطعمون الطعام وهم يحبونه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ، ويتركون أنفسهم ، هذا أيضًا من باب الإيثار .

٥٦٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني مجاهد ، فأرسل إلى بعض نسائي ، فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، ثم أرسل إلى أخرى ، فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء . فقال النبي ﷺ : « من يضيف هذا الليلة ؟ » فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله ، فأنطلق به إلى رحله ، فقال لإمرأته : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ .

وفي رواية قال لإمرأته : هل عندك شيء ؟ فقالت : لا ، إلا قوت صبياني . قال : غلّهم بشيء ، وإذا أراؤوا العشاء ، فتؤمهم ، وإذا دخل ضيفنا ، فأطفيئ السراج ، وأريه أنا نأكل ، فقعدوا وأكل الضيف وباتوا طاويين ، فلما أصبح ، غدا على النبي ﷺ : فقال : « لقد عجب الله من ضيفكما بضيفكما الليلة » ^(١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الإيثار والمواساة هذا الحديث العظيم العجيب ؛ الذي يبين حال رسول الله ﷺ وأصحابه حيث جاءه رجل فقال : يا رسول الله ﷺ « إني مجاهد » يعني مجهد من الفقر والجوع ، وهو ضيف على رسول الله ﷺ ، فأرسل النبي ﷺ إلى زوجته واحدة تلو الأخرى يسألها هل عندها شيء ، فكانت كل واحدة تقول : « لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء » .

تسعة آيات للرسول - عليه الصلاة والسلام - ليس فيها إلا الماء ، مع أن النبي ﷺ لو شاء أن يسير الله الجبال معه ذهبًا لسارت ، لكنه - عليه الصلاة والسلام - كان أزهّد الناس في الدنيا ، كل يئوته التسعة ليس فيها شيء إلا الماء .

فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من يضيف هذا الليلة » يعني هذا الضيف . فقال رجل من الأنصار : « أنا يا رسول الله » أنا أضيفه . « فذهب بالرجل إلى رحله ، وقال لإمرأته هل عندك شيء ؟ قالت : لا ؛ إلا طعام صبياني » يعني ليس عندها في البيت إلا العشاء لهم تلك الليلة فقط . فقال : « أكرمي ضيف رسول الله ﷺ » وأمرها أن تشغل أولادها وتلهيهم .

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٧٢) واللفظ له والبخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٨) قوله « إني مجاهد » أي أصابني الجهد والمشقة والحاجة وسوء العيش والجوع ، وقوله « فغلّهم بشيء » محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين للأكل ، وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضر ، إذ لو كانوا بحال يضرهم فيها الجوع لكان إطعامهم واجبًا مقدمًا على الضيافة ، قوله « طاويين » أي خاليا البطن جائعين لم يأكلوا .

حتى إذا جاء وقت الطعام نومتهم ، فأطفأت المصباح ، وأرت الضيف أنهم يأكلون معه ففعلت ، هدأت الصبيان وعللتهم ونومتهم ، فناموا على غير عشاء ، ثم إن العشاء لما قدم أطفأت المصباح وأرت الضيف أنها تأكل هي وزوجها ، وهما لا يأكلان ، فشبع الضيف وباتا طاويين ، يعني غير متعشيين إكرامًا لضيف الرسول ﷺ .

ثم إنه أصبح ففدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره الرسول عليه الصلاة والسلام أن الله قد عجب من صنعيهما تلك الليلة ، والعجب هنا عجب استحسان ، استحسَنَ الله ﷻ صنعيهما تلك الليلة .
ففي هذا الحديث من الفوائد ما يلي :

أولاً : بيان حال رسول الله ﷺ وما كان عليه من شطف العيش وقلة ذات اليد ، مع أنه عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق على الله ، ولو كانت الدنيا تساوي عند الله شيئاً ، لكان أبر الناس بها وأحقهم رسول الله ﷺ ، ولكنها لا تساوي شيئاً .

قال ابن القيم رحمه الله :

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة
لم يسق منها الرب ذا الكفران
لكنها والله أحقر عنده
من ذا الجناح القاصر الطيران

أحقر من جناح البعوضة عند الله ؛ فليست بشيء .

ثانياً : حسن أدب الصحابة مع النبي ﷺ ، فإن هذا الأنصاري رحمه الله قال لزوجته : « أكرمي ضيف رسول الله ﷺ » فلم يقل : أكرمي ضيفنا مع أن الذي أضافه في الحقيقة هو هذا الرجل ، لكنه أضافه نيابة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فجعله ضيفاً لرسول الله ﷺ .

ثالثاً : أنه يجوز عرض الضيافة على الناس ، ولا يعد هذا من المسألة المذمومة ، أولاً ؛ لأنه لم يعين ، فلم يقل : يا فلان ضيف هذا الرجل حتى نقول : إنه أخرج ، وإنما هو على سبيل العموم ، فيجوز للإنسان مثلاً إذا نزل به ضيف وكان مشغولاً ، أو ليس عنده ما يضيفه به ، أن يقول لمن حوله : من يضيف هذا الرجل ؟ ولا حرج في ذلك .

رابعاً : الإيثار العظيم من هذا الرجل الأنصاري ، حيث بات هو وزوجته وصبيته من غير عشاء إكراماً لهذا الضيف الذي نزل ضيفاً على رسول الله ﷺ .

خامساً : ومن فوائد هذا الحديث أنه ينبغي للإنسان ألا يشعر ضيفه أنه مأن عليه ، أو أن الضيف مضيق عليه ، ومخرج له ، لأن الرجل أمر بإطفاء المصباح حتى لا يظن الضيف أنه ضيق عليه وحرهم العشاء ، وهذا مأخوذ من أدب الخليل إبراهيم عليه السلام حين نزلت به الملائكة ضيوفاً ﴿ فَرَأَى إِلَهُه فَجَلَّ عَلَيْهِ سِتْرٌ ﴾ [الذاريات : ٢٦] مشوي ، لكنه راغ إلى أهله ، أي ذهب بسرعة وخفية لئلا يخجل الضيف .

سادساً : ومن فوائد هذا الحديث أيضاً أنه يجوز للإنسان أن يؤثر الضيف ونحوه على عائلته ،

وهذا في الأحوال النادرة العارضة ، وإلا فقد قال النبي ﷺ : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » (١) .
ولكن إذا عرضت مثل هذه الأحوال فلا حرج على الإنسان أن يقدم الضيف أو نحوه ممن يجب عليه إكرامه .

ومن تأمل الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهديه وهدي أصحابه ، وجد فيها من مكارم الأخلاق ومعالي الآداب ما لو سار الناس عليه لنالوا بذلك رفعة الدنيا والآخرة . وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير في الدنيا والآخرة .

٥٦٥ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ » متفق عليه (٢) .

وفي رواية لمسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « طَعَامُ الواحدِ يَكْفِي الاثْنَيْنِ ، وَطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الأَرْبَعَةَ ، وَطَعَامُ الأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ » (٣) .

٥٦٦ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ ، فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ » فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ (٤) ، رواه مسلم .

٥٦٧ - وعن سهل بن سعيد رضي الله عنه أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرِدَّةٍ مَنْشُوجَةٍ ، فَقَالَتْ : نَسَجْتَهَا بِيَدَيَّ لَأَكْسُوَكَهَا ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا لِإِرْزَاؤِهِ ، فَقَالَ فُلَانٌ : اكْسِينِيهَا مَا أَحْسَنَهَا ! فَقَالَ : « نَعَمْ » فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَّأَهَا ، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ : مَا أَحْسَنْتَ ! لَبَسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ ، وَعِلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَزِدُّ سَائِلًا ، فَقَالَ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لَأَلْبَسَهَا ، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لَتَكُونَ كَفَنِي . قال سهل : فكانت كفنه (٥) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله هذه الأحاديث في باب الإيثار وهي حديث أبي هريرة وجابر وأبي سعيد .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٤١) ، والنسائي في سننه (٢٥٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٢) ، ومسلم في الأشربة (١٧٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٤٤/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٧٩) .

(٤) أخرجه مسلم في اللقطة (١٨) . قوله « فضل ظهر » أي زيادة ما يركب على ظهره من الدواب وخصه اللغويون بالإبل ، قوله « فليعد به » عاد فلان بمعروفه إذا أحسن ثم زاد ، قوله « زاد » زاد المسافر هو الطعام المعد لسفره .

(٥) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٩٣) .

ففي الحديثين الأولين ، بين النبي ﷺ أن طعام الواحد يكفي الاثنين ، وأن طعام الاثنين يكفي الأربعة ، وأن طعام الأربعة يكفي الثمانية ، وهذا حث منه عليه الصلاة والسلام على الإيثار ، يعني أنك لو أتيت بطعامك الذي قُدِّرَتْ أنه يكفيك ، وجاء رجل آخر فلا تبخل وتقول : هذا طعامي وحدي ، بل أعطه منه حتى يكون كافياً للاثنين .

وكذلك لو جاء اثنان بطعامهما ، ثم جاءهما اثنان ، فلا يبخلان به ويقولان هذا طعامنا ، بل يطعمانهما ؛ فإن طعامهما يكفيهما ويكفي الاثنين ، وهكذا الأربعة مع الثمانية .

وإنما ذكر الرسول - عليه الصلاة والسلام - هذا من أجل أن وجود الإنسان بفضل طعامه على أخيه . وكذلك أيضًا حديث أبي سعيد ، في قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ على رحل له ، فجعل يلتفت يمينًا وشمالًا ، وكان النبي ﷺ فهم أن الرجل محتاج ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » . وذكر أنواعًا ولم يعين فيقول : « من كان له فضل زاد » مثلاً لثلا يخجل الرجل ، بل قال : « من كان له فضل ظهر » ، والرجل لا يحتاج إلى الظهر ؛ لأنه كان على راحلته ، لكن هذا من حسن خطاب النبي ﷺ . يقول الراوي : « حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في فضل » يعني أن الإنسان يبدل كل ما عنده حتى لا يبقى معه فضل ، يعني من الطعام والشراب والرحل وغير ذلك ، وهذا كله من باب الإيثار . وأما الحديث الرابع حديث سهل بن سعد ، فإن امرأة جاءت وأهدت إلى النبي ﷺ بردة ، وكان ﷺ لا يرد الهدية ، بل يقبل الهدية ويثيب عليها صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا من كرمه وحسن خلقه ، فتقدم رجل إليه ، فقال : ما أحسن هذه ، وطلبها من النبي ﷺ ، ففعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - خلعها وطواها ، وأعطاه إياها .

فقيل للرجل : كيف تطلبها من النبي ﷺ وأنت تعلم أنه لا يرُدُّ سائلاً ؟ فقال : والله ما طلبتها لألبسها ، ولكن لتكون كفني ، فأبقاها عنده فصارت كفته ، ففي هذا إيثار النبي ﷺ على نفسه ولأنه أثر هذا الرجل بهذه البردة التي كان محتاجاً إليها ؛ لأنه لبسها بالفعل ، مما يدل على شدة احتياجه إليها .

٥٦٨ - وعن أبي موسى عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْعَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ ، جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ ^(١) متفق عليه .
« أَرْمَلُوا » : فَرَّغَ زَادُهُمْ ، أَوْ قَارَبَ الْفَرَاغَ .

٦٢ - باب التنافس في أمور الآخرة

والاستكثار مما يُترك به

قال الله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴾ ^(١) [المطففين: ٢٦] .

٥٦٩ - وعن سهل بن سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتته بَشْرَابٌ ، فَشَرِبَ مِنْهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ ، وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاحُ ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ : « أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ ؟ » فَقَالَ الْغُلَامُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أُؤَيِّرُ بِنَفْسِي مِنْكَ أَحَدًا ، فَقُلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ ^(٢) . متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في آخر باب فضل الإيثار ، حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وأصحابه الذين هم من الأشعرين من أهل اليمن ، كانوا يتساعدون في أمورهم ، فإذا أتاهم شيء من المال جمعه ثم اقتسموه بينهم بالسوية . قال النبي ﷺ : « فهم مني وأنا منهم » قال ذلك تشجيعاً لما يفعلونه . وهذا الحديث أصل في الجمعيات التعاونية التي يفعلها بعض الناس اليوم ، تجتمع القبيلة على أن يضعوا صندوقاً يجمعون فيها ما تيسر من المال ؛ إما بالنسبة وإما بالاجتهاد والترشيح ، فيتفقون مثلاً على أن كل واحد منهم يدفع اثنين في المائة من راتبه أو من كسبه أو ما أشبه ذلك ، ويكون هذا الصندوق معداً للجوائح والنكبات التي تحصل على واحد منهم .

فهذا أصله حديث أبي موسى رضي الله عنه ، فإذا جمع الناس صندوقاً على هذا النحو ليتساعدوا فيه على نكبات الزمان من الحوادث وغيرها ، فإن لذلك أصلاً في السنة ، وهو من الأمور المشروعة . ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا الصندوق قد يكون لمن يقع عليه الحادث ، وقد يكون لمن يقع منه الحادث .

أما الأول : فإن يوضع الصندوق للناس لمساعدة الناس الذين يحصل عليهم جوائح ؛ مثل جوائح تلف زروعهم ومواشيهم ، أو أقطار تهدم بيوتهم ، أو حوادث تحدث على سياراتهم من غيرهم ، فيحتاجون إلى المساعدة ؛ فهذا طيب ولا إشكال فيه .

أما الثاني : فهو للحوادث التي تقع من الشخص ، فإذا فعل شخص حادثاً إذا دعس ^(٣) أحداً أو ما أشبه ذلك ، فينبغي أن ينظر في هذا الأمر لأننا إذا وضعنا صندوقاً لهذا فإن السفهاء قد يتهورون ، ولا يهمهم أن تقع الحوادث منهم ، فإذا قدر أننا وضعنا صندوقاً لهذا الشيء فليكن ذلك بعد الدراسة ؛

(١) قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴾ وفي الأسباب الموصلة إلى ذلك النعيم . قوله تعالى : ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ﴾ فليتنافس .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٥١) ومسلم في الأشربة (١٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٣٣/٥) . قوله « بنصبي منك » أي من أثر بركتك وفيضك ، فلم يكن عدم الإيثار كونه شراً وإنما لحلول أثر بركة النبي ﷺ وفضله .

(٣) دعس : طعن ودعسه : داسه دوساً شديداً (المعجم الوسيط ٢٩٥/١) .

دراسة ما حصل من الشخص دراسة عميقة ، وأنه لم يحصل منه تهور ولم يحصل منه تفريط ، وإلا فلا ينبغي أن توضع الصناديق لمساعدة هؤلاء السفهاء الذين يؤمّون يد عسّون شخصاً ، ويؤمّون يصدّمون سيارة وما أشبه ذلك ، وربما يقع ذلك عن حال غير مرضية كسكر ، أو عن حال يفرط فيها الإنسان كالنوم مثلاً .

المهم أن هذه الصناديق تكون على وجهين :

الوجه الأول : مساعدة من يحصل عليه الحادث ، فهذا طيب ولا إشكال فيه .

والوجه الثاني : أن يكون ممن يحصل منه الحادث ، فهذا إن وضع ولا أحبذ أن يوضع ، لكن إن وضع - فإنه يجب التحرز والثبّت من كون هذا الرجل الذي حصل منه الحادث لم يحصل منه تفريط ولا تعدّد .

ثم إن هذا المال الذي يوضع في الصندوق ليس فيه زكاة مهما بلغ من القدر ، وذلك لأنه ليس له مالك ، ومن شروط وجوب الزكاة أن يكون المال له مالك ، وهذا الصندوق ليس له مالك ، بل من حصل عليه حادث فإنه يساعد منه ، وأما أصحاب الصندوق الذين وضعوا هذه الفلوس فيه فإنهم لا يملكون نقدها ، لأنهم قد أخرجوها من أموالهم للمساعدة ، وعلى هذا فلا يكون فيها زكاة .

ثم ها هنا مسألة يسأل عنها الكثير من الناس ، وهي : أنه يجتمع أناس من الموظفين مثلاً ، ويقولون : سنخصم من كل راتب من رواتب هؤلاء ألف ريال على كل واحد ، أو عشرة في المائة من راتبه ، يعني إما بالنسبة أو بالتعيين ، ونعطيها واحداً منا ، وفي الشهر الثاني نعطيها الثاني ، وفي الشهر الثالث نعطيها الثالث ، وفي الشهر الرابع نعطيها الرابع ، حتى تدور عليهم ثم ترجع للأول مرة الثانية ، فبعض الناس يسأل عن ذلك .

والجواب على هذا أن نقول : إن هذا صحيح ولا بأس به ، وليس فيه حرج ، ومن توهم أنه من باب القرض الذي جرّ نفقاً فقد وهم ، لأنني إذا سلفْتُ هؤلاء الإخوان الذين معي شيئاً فأنا لا آخذ أكثر مما أعطيت ، وكونهم يقولون سوف يرجع إليه مال كثير نقول : نعم ، ولكن لم يرجع إليه أكثر مما أعطى ، فغاية ما فيه أنه سلف بشرط أن يوفي وليس في هذا شيء .

فهذا وهم من بعض طلبة العلم الذين يظنون أن هذا من باب الربا ؛ لأنه ليس فيه ربا إطلاقاً ، بل هو من باب التساعد والتعاون ، وكثيراً من يحتاج بعض الناس إلى أموال حاضرة تفك مشاكله ، ويسلم من أن يذهب إلى أحد يتدين منه ويربي عليه ، أو يذهب إلى بنك يأخذ منه بالربا أو ما أشبه ذلك ، فهذه مصلحة وليس فيها مفسدة بأي وجه من الوجوه .

* * *

٥٧٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ يَغْتَسِلُ غُرْبَانَا ، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَنِي فِي ثَوْبِهِ ، فَتَادَاهُ رَبُّهُ ﷻ : يَا أَيُّوبُ ، أَلَمْ أَكُنْ أَعْنَيْتُكَ عَمَّا

تَرَى! قال: بَلَى وَعِزَّتِكَ ، وَلَكِنَّ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَاتِكَ « (١) رواه البخاري .

٦٤ - باب فضل الغني الشاكر

وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [الليل: ٥-٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۖ وَالَّذِي يُوَقِّدُ مَالَهُ يَرْزُقْهُ ۖ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتِنَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۖ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [الليل: ١٧-٢١] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْوَاهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١] .

وقال تعالى : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِنْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٢) [الأمراء: ٩٢] والآيات في فضل الإنفاق في الطاعات كثيرة معلومة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب فضل الشاكر ، وهو الذي يأخذ المال بحقه ويصرفه في حقه . فالغني هو الذي أعطاه الله ﷻ ما يستغني به عن غيره من مال أو علم أو جاه أو غير ذلك ، وإن كان الأكثر استعمالاً أن الغني هو الذي أعطاه الله المال الذي يستغني به عن غيره .

والله ﷻ يتلي عباده بالمال يعني بالغنى وبالفقر ، فمن الناس من لو أغناه الله لأفسده الغنى ، ومن الناس من لو أفقره الله لأفسده الفقر (٣) ، والله ﷻ يعطي كل أحد بحسب ما تقتضيه الحكمة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرَى وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] .

وإذا أعطى الله الإنسان المال فإنه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : من يعطيه الله المال يكتسبه من طريق حرام ، كالمرابي والكذاب والغشاش في البيع والشراء ومن أكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك ، فهذا غناه لا ينفعه لأنه غني في الدنيا ، ولكنه فقير والعياذ بالله في الدنيا والآخرة .

إذ إن هذا الشيء الذي دخل عليه من هذا الوجه سوف يعاقب عليه يوم القيامة ، وأعظمه الربا ، فإن

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الغسل (٢٧٩) والإمام أحمد في مسنده (٣١٤/٢) .

(٢) قوله ﴿ وَالَّذِي يُوَقِّدُ مَالَهُ يَرْزُقْهُ ﴾ أي ابتعد عن المحارم . قوله ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ أي الجنة في الدار الآخرة . قوله ﴿ وَالَّذِي يُوَقِّدُ مَالَهُ يَرْزُقْهُ ﴾ أي يفتي كل ما يفضله الله ، قوله ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ فنعمة شيقاً إظهار الصدقات .

(٣) هذا الحديث وقد أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص (١٢١) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٢/١) .

اللَّهُ ﷻ يقول في كتابه : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْعَلُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ، ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١ فَإِنْ لَمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَحْلُمُونَ وَلَا تَطْلُمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩] .

القسم الثاني من الأغنياء : من أغناه الله بمال لكن عن طريق الحلال ، يبيع بالبيان والنصح والصدق ، ويأخذ كذلك ، ولا يكتسب إلا المال الحلال ، فهذا هو الذي ينفعه غناه ، لأن من كان كذلك فالغالب أن الله يوفقه لصرفه فيما ينفع .

فهذا هو الغني الشاكر الذي يأخذ المال بحقه ، ويصرفه في حقه على الوجه الذي شرعه الله له . ثم ذكر المؤلف ﷻ آيات في هذا المعنى ، فذكر قول الله ﷻ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ ٢ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِ ٣ فَسَيَرْجِيهِ رَبِّي ٤ ﴾ [البل: ٥-٧] . أعطى بذل المال في وجهه ، واتقى الله ﷻ في بذله وفي جمعه ، فهذا ييسر لليسرى .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى ٥ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنِ ٦ فَسَيُجْزَى لَهُ الْغُصْنِ ٧ ﴾ [البل: ٨-١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ يعني النار ﴿ الْآلَتَى ﴾ ٨ الَّتِي يُؤْتَى بِهَا مَالٌ بَرَكًا ٩ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ١٠ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ١١ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ يعني على وجه يتركى به ، وعلى وجه يقربه إلى الله ﷻ . ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ يعني ليس يعطي المال من باب المكافآت على قضاء مصالحه الشخصية ، ولكنه يعطي المال لله ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ فهو يعطي المال ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ بما يجازيه الله به .

فعلى المؤمن إذا أغناه الله ﷻ أن يكون شاكرا لله قائما بما أوجب الله عليه من بذل المال في حقه على الوجه الذي يرضي الله ﷻ .

٥٧١ - وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، فسلطه علىهلكه في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » (١) متفق عليه وتقدم شرحه قريبا .

٥٧٢ - وعن ابن عمر ؓ عن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » (٢) متفق عليه .

(١) أخرجه مسلم واللفظ له في صلاة المسافرين (٢٦٨) والبخاري في العلم (٧٣) وقوله « هلكه » أي إنفاقه .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٦٦) واللفظ له والبخاري في التوحيد (٧٥٢٩) .

«الآناء» : الشاعات .

٥٧٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ قُرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرجاتِ العُلى ، وَالنَّعِيمِ المقيم ، فَقَالَ : « وَمَا ذَاكَ ؟ » فَقَالُوا : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيُصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا تَتَصَدَّقُ ، وَيَعْتِقُونَ وَلَا نَعْتِقُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَفَلَا أَعَلَّيْكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ؟ » قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « تُسَبِّحُونَ ، وَتُحَمِّدُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً » فَرَجَعَ قُرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا ، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » ^(١) متفقٌ عليه وهذا لفظ رواية مسلم .

«الدُّثُورُ» : الأموال الكثيرة ، واللَّهُ أعلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله أحاديث في بيان الذين ينفقون أموالهم ويوجدون بها في سبيل الله ، ففي حديث عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما بيان أنه لا حسد إلا في اثنتين ، يعني لا أحد يُغبط غبطة حقيقة إلا هذان الصنفان .

الأول : من آتاه الله العلم وهو الحكمة ، فكان يعمل بها ويعلمها الناس ، فهذا هو الذي يغبط ، لأنك إذا قارنت بين حال هذا الرجل وحال الجاهل عرفت الفرق بينهما ؛ الجاهل يعبد الله على جهل ، ولا يعرف من شريعة الله إلا ما فعله الناس ، فتجده يتبع الناس على الصواب والخطأ ، وهذا نقص كبير في عبادة الرجل ؛ لأن الإنسان إذا عبد الله على غير بصيرة صارت عبادته ناقصة .

كذلك إذا قارنت بين رجل آتاه الله العلم ولكنه لم يعمل به ورجل آتاه الله العلم فعمل به وعلمه الناس ، تجد الفرق العظيم بين هذا وهذا ، فالذي يغبط حقيقة هو الذي آتاه العلم فعمل به وعلمه الناس .

والثاني : رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في سبيل الله ، في كل ما يرضي الله ليلاً ونهاراً ، فهذا هو الذي يغبط ، أما من آتاه الله المال ولكنه لم ينفقه في مرضاة الله ، فلا غبطة فيه ، ولا يغبط على ما أوتي ؛ لأن هذا المال إن انتفع به انتفع به في الدنيا فقط ، لأنه لا ينفقه لله ولا في سبيل الله .

وكذلك إذا كان رجل فقير لم يؤت مالاً فهو أيضاً لا يغبط ، فلا يغبط من ذوي المال إلا من آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، فيما يرضي الله ﷻ .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين جاء قراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : « يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور » جمع أجر « بالدرجات العلى والنعيم المقيم » . قال : « وما ذاك ؟ »

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٩) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٢) .

قالوا : « يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا تصدق ، ويعتقون ولا نعتق » يعني فهم أفضل منا ، لأن الله من عليهم بالمال فبذلوه في طاعة الله ، وفيما يرضي الله .

فقال - عليه الصلاة والسلام - : « أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتُم ؟ » فقالوا : « بلى يا رسول الله » ، قال : « تسبحون وتحمدون وتكبرون ، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة » .

يعني تقولون : سبحان الله ثلاثاً وثلاثين ، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين ، والله أكبر ثلاثاً وثلاثين ، فصاروا يفعلون ذلك ، ولكن الأغنياء سمعوا بهذا فصاروا يقولونه ؛ يسبحون ويكبرون ويحمدون ثلاثاً وثلاثين دبر كل صلاة .

فرجع الفقراء مرة ثانية إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - وقالوا : « يا رسول الله ، سمع إخواننا أهل الأموال بما صنعنا فصنعوا مثله » ، فقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يعني أن الله ﷻ أغناهم وأعطاهم المال فبذلوه في طاعة الله ، وهذا فضل الله .

وفي هذا دليل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتسابقون إلى الخير ، فالأغنياء لما سمعوا بما أرشد إليه النبي - عليه الصلاة والسلام - الفقراء بادروا إليه وفعلوه ، والفقراء جاءوا يشكون أنهم لا يستطيعون فعل بعض العبادات المالية لقلة ذات أيديهم ، فأرشدهم النبي ﷺ لما يدركون به من سبق ، ويسبقون به من بعدهم . ففعلوا ذلك إلا أنهم أتوا مرة أخرى يشكون أن إخوانهم الأغنياء لما سمعوا بذلك بادروا بفعله ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

والخلاصة : أنه يجب على الإنسان إذا آتاه الله المال أن يبذله فيما يرضي الله ، فإن هذا هو الذي يحسد ، يعني يغبط ما آتاه الله من المال .

* * *

٦٥ - باب ذكر الموت وقصر الأمل

قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في رياض الصالحين : باب ذكر الموت وقصر الأمل ، هذا الباب يذكر فيه المؤلف رحمه الله أنه يجب على العاقل أن يتذكر الموت وأن يقصر الأمل في الدنيا ، وليس الأمل في ثواب الله ﷻ وما عنده من الثواب الجزيل لمن عمل صالحاً .

لكن المراد أنك لا تطل الأمل في الدنيا ، فكم من إنسان أمل أملاً بعيداً فإذا الأجل يفجؤه !؟ وكم

من إنسان يُقَدَّر ويفكر سيفعل ويفعل ويفعل ، فإذا به قد انتهى أجله وترك ما أمله ، وانقطع حبل الأمل ، وحضر الأجل ١؟

فالذي ينبغي للإنسان العاقل كلما رأى من نفسه طموحاً إلى الدنيا وانشغالاً بها واغتراراً بها أن يتذكر الموت ، ويتذكر حال الآخرة ، لأن هذا هو المآل المتيقن ، وما يؤمله الإنسان في الدنيا فقد يحصل وقد لا يحصل ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ [الإسراء: ١٨] ، لا ما يشاء هو ، بل ما يشاء الله ﷻ : ﴿ مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثَمَّ جَعَلْنَا لَهُمُ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۖ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] .

ثم ذكر الآيات ومنها قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] . فكل نفس منفوسة من بني آدم وغير بني آدم ذائقة الموت ، لا بد أن تذوق الموت ، وعبر بقوله : ذائقة ؛ لأن الموت يكون له مذاق مر يكرهه كل إنسان .

لكن المؤمن إذا حضره أجله وبشر بما عند الله ﷻ أحب لقاء الله ولا يكره الموت حينئذ ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي تعطينها وافية كاملة يوم القيامة .

وإن أوتي الإنسان أجره في الدنيا فإنه ليس هذا هو الأجر فقط ، بل الأجر الوافي الكامل الذي به يستوفي الإنسان كل أجره يكون يوم القيامة ، وإلا فإن المؤمن قد يثاب على أعماله الصالحة في الدنيا ، لكن ليس هو الأجر الكامل الذي فيه التوفية الكاملة ، لأن هذه إنما تكون يوم القيامة ﴿ فَمَن رُّحِحَ عَنِ النَّارِ ﴾ زحزح يعني أبعد عن النار ﴿ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ لأنه نجى من المكروه وحصل له المطلوب ، نجى من المكروه وهو دخول النار ، وحصل له المطلوب وهو دخول الجنة ، وهذا هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله .

﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠] . صدق الله ﷻ ؛ الدنيا متاع الغرور يعني متاع ليس دائماً ، بل كما يكون للمسافر متاع يصل به إلى منتهى سفره ، ومع ذلك فهي متاع غرور تغر الإنسان ، تزدان له وتزدهر وتكتحل وتحسن وتكون كأحسن شيء ، ولكنها تغره .

كلما كثرت الدنيا وتشبث الإنسان بها بُعد من الآخرة ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (١) .

ولهذا نجد الإنسان أحياناً يكون في حال الضيق أو الوسط خيراً منه في حال الغنى ، لأنه يغره الغنى ويطغيه والعياذ بالله ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ يعني فلا تغتروا بها ، وعليكم بالآخرة التي إذا زحزح فيها الإنسان عن النار وأدخل الجنة ، فإنه بذلك يفوز فوزاً لا فوز مثله .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بَأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤] .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٥) ومسلم في الزهد (٦) .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَفْزِحُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ [النحل : ٦١] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب ذكر الموت وقصر الأمل فيما ساقه من آيات الله ﷻ ، ذكر قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ يَأْتِي أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ وهذه إحدى مفاخ الغيب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ .

قال الله تعالى : ﴿ وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ومفاخ الغيب هي الخمس المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ يَأْتِي أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

فهذه الخمس لا يعلمها إلا الله ﷻ ، فعلم الساعة لا يعلمه أحد ، حتى إن جبريل وهو أشرف الملائكة سأل رسول الله ﷺ وهو أعلم البشر فقال : « أخبرني عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » (١) . فلا يعلمها إلا الله ﷻ .

﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ والمنزل للغيث يعلم متى ينزل ، فهو ﷻ هو الذي يعلم متى ينزل الغيث وهو الذي ينزله ، والغيث هو المطر الذي يحصل به نبات الأرض وزوال الشدة .

وليس كل مطر يسمى غيثاً ، فإن المطر أحياناً لا يجعل الله فيه بركة فلا تنبت به الأرض ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « ليس السنة ألا تمطروا » يعني ليس الجذب ألا تمطروا « بل السنة أن تمطروا ولا تنبت الأرض شيئاً » (٢) .

وهذا يقع أحياناً ، فأحياناً تكثر الأمطار ولا يجعل الله تعالى فيها بركة ، فلا تنبت الأرض ولا تحيا ، وهذا الحديث الذي سقته في صحيح مسلم : « إنما السنة أن تمطروا فلا تنبت الأرض شيئاً » .

فالذي ينزل الغيث هو الله ، والمنزل له عالم متى ينزل ، وأما ما نسمعه في الإذاعات من أنه يتوقع مطر في المكان الفلاني وما أشبه ذلك ، فهو ظن بحسب ما يتبادر من احتمال المطر بمقياس الجو ، وهي مقاييس دقيقة يعرفون بها هل الجو متهيئ للمطر أو لا ، ومع ذلك فهم يخطئون كثيراً ، فلا يعلم متى ينزل المطر إلا الله ﷻ .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ لا يعلم ما في الأرحام إلا الله ، والأجنة التي في الأرحام لها أحوال ، منها ما يعلم إذا وجد ولو كان الإنسان في بطن أمه ، ومنها ما لا يعلم أبداً ، فكونه ذكراً أو أنثى يعلم وهو في بطن أمه ، ولكنه لا يعلم إلا إذا خلق الله تعالى فيه علامات الذكورة أو علامات الأنوثة .

وأما متى يولد ، وهل يولد حيّاً أو ميتاً ، وهل يبقى في الدنيا طويلاً أو لا يبقى إلا مدة قصيرة ، وهل يكون عمله صالحاً ، أو عمله سيئاً ، وهل يُختم له بالسعادة أو بالشقاوة ، وهل ييسر له في الرزق أو يُقدر عليه زرقه ، فكل هذا لا يعلمه إلا الله .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (٤٤) .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ يعني ماذا تكسب في المستقبل ؟ فلا تدري نفس ماذا تكسب ، هل تكسب خيرًا أو تكسب شرًا ، أو تموت قبل غد ، أو يأتي غد وفيه ما يمنع العمل ، وما أشبه ذلك ؟ فالإنسان يظل يقول : سأفعل كذا ، سأفعل كذا ، لكنه قد لا يفعل ، فهو لا يعلم ماذا يكسب غدا علمًا يقينيًا ، ولكنه يقدر وقد تختلف الأمور .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ، لا يدري الإنسان بأي أرض يموت ، هل يموت بأرضه ، أو بأرض بعيدة عنها ، أو قرية منها ، أو يموت في البحر ، أو يموت في الجو ؟ لا يدري ، ولا يعلم ذلك إلا الله . فإذا كنت لا تدري بأي أرض تموت ، وأنت يمكنك أن تذهب يمينًا وشمالًا ، فكذلك لا تعلم متى تموت ، لا تدري في أي وقت تموت ، هل ستموت في الصباح ، في المساء ، في الليل ، في وسط النهار ، في الشهر القريب ، في الشهر البعيد ؟ لا تدري متى تموت ولا بأي أرض تموت .

فإذا كنت كذلك فأقصر الأمل ، لا تمد الأمل طويلًا ، لا تقل : أنا شاب وسوف أبقى زمانًا طويلًا ، فكم من شاب مات في شبابه ، وكم من شيخ عمّر ، ولا تقل : إني صحيح البدن والموت بعيد ، كم من إنسان مرض بمرض يهلكه بسرعة ، وكم من إنسان حصل عليه حادث ، وكم من إنسان مات بغته ، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يطيل الأمل ، بل عليه أن يعمل ، وللدنيا عملها وللآخرة عملها ، فيسعى للآخرة سعيها بإيمان بالله ﷻ واتكال عليه .

فقد قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ إذا جاء أجل الإنسان لا يمكن أن يتأخر دقيقة واحدة ولا يمكن أن يتقدم ، بل هو بأجل معدود محدود ، لا يتقدم عليه ولا يتأخر فلماذا تجعل الأمل طويلًا ؟

فالإنسان لا يعلم متى يموت ، ولا يعلم بأي أرض يموت ، وقد حدثني أحد إخواني الثقات قال : إنهم كانوا في سفر الحج على الإبل ، وكان معهم رجل معه أمه يمرضها ، فتأخر عن القوم في آخر الليل ، فارتحل الناس ومشوا وبقي مع أمه يمرضها ، ولما أصبح وسار خلف القوم لم يدر كههم ، ولم يدر إلى أين اتجهوا ؛ لأنهم في مكة .

يقول : فسلك طريقًا بين هذه الجبال ، فإذا هو واقف على بيت من الشعر فيه عدد من الناس قليلين ، فسألهم أين طريق نجد ؟ قالوا : أنت بعيد عن الطريق ، لكن نوخ البعير واجلس استرح ثم نحن نوصلك ، يقول : فنزل فنوخ البعير وأنزل أمه ، يقول : فما هي إلا أن اضطجعت على هذه الأرض فقبض الله روحها ، كيف جاء من القصيم إلى مكة مع الحجاج ، وأراد الله أن يتيه هذا الرجل حتى ينزل بهذا المكان ، لا يعلم هذا إلا الله ﷻ .

وكذلك أيضًا في الزمن ، كم بلغنا من أناس تأخروا قليلًا فجاءهم حادث فماتوا به ، ولو تقدموا قليلًا لسلموا منه ، كل هذا لأن الله تعالى قد قدر كل شيء بأجل محدود ، فالإنسان يجب عليه أن يحتاط لنفسه ، وألا يطيل الأمل ، وأن يعمل للآخرة ، وكأنه يموت قريبًا لأجل أن يستعد لها ، فهذه

الآيات كلها تدل على أن الإنسان يجب عليه أن يقصر الأمل وأن يستعد للآخرة .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٠ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ١١ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٢ ﴾ [الأنفال: ٩-١١] .

وقال تعالى : ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ١٣ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن رَّزَائِبِهِمْ رَجْعٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُمْشُونَ ١٤ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ١٥ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٦ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ١٧ تَلَفَحَ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِثَاقِ ١٨ أَلَمْ تَكُنْ أَتَانِي تَتْلُو عَلَيْنَا فُكْرَهُمْ بِمَا تَكْذِبُونَ ١٩ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ٢٠ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ٢١ قَالَ أَسْتَشْأِرُ فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ٢٢ إِنَّهُمْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَبِيرُ الرَّحِيمِينَ ٢٣ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا حَتَّىٰ أَتَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ٢٤ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٢٥ قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةٌ سِنِينَ ٢٦ قَالُوا لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَلَّ الْعَاقِبِينَ ٢٧ قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَتَاكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٨ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ٢٩ ﴾ [الزمر: ٩٩-١١٥] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته في كتابه رياض الصالحين في باب ذكر الموت وقصر الأمل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ١١ ﴾ . أمر الله بالإنفاق مما رزقنا ، أي مما أعطانا ، وحذرنا مما لا بد منه ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ . وحينئذ يندم الإنسان على عدم الإنفاق ويقول : ﴿ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ . يتمنى أن الله يؤخره إلى أجل قريب ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . يعني فيسبب تأخيرك إياي أتصدق وأكن من الصالحين .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٢ ﴾ . إذا جاء الأجل لا يمكن أن يتأخر الإنسان لحظة واحدة ، بل لا بد أن يموت في المدة التي عينها الله تعالى على حسب ما تقتضيه حكمته .

فمن الناس من يطول بقاؤه في الدنيا ، ومن الناس من يقصر ، كما أن من الناس من يكثر رزقه ، ومنهم من يقل ، ومنهم من يكثر علمه ، ومنهم من يقل ، ومنهم من يقوى فهمه ، ومنهم من يضعف ، ومنهم من يكون طويلاً ، ومنهم من يكون قصيراً ، فالله تعالى خلق عباده متفاوتين في كل شيء .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٠ ﴾ . نهى الله تعالى أن تلهينا أموالنا وأولادنا عن ذكر الله ، وبين أن من ألهته هذه الأشياء عن ذكر الله فهو خاسر مهما ربح ... لو ربح أموالاً كثيرة ، وكان عنده بنون ، وكان

عنده أهل ، ولكنه قد تلهى بهم عن ذكر الله فإنه خاسر .

فالرابع من اشتغل بذكر الله ﷻ . وذكر الله ليس هو قول لا إله إلا الله فقط ، بل كل قول يقرب إلى الله فهو ذكر له وكل فعل يقرب إلى الله فهو ذكر له ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْنِ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] . ولأن الإنسان إذا قال قولاً يتقرب به إلى الله ، أو فعل فعلاً يتقرب به إلى الله ، فهو حين النية ذاكر لله ﷻ ، فذكر الله يشمل كل قول أو فعل يقرب إليه .

قال : ﴿ حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ فقلوه : ﴿ حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي إذا جاء أحد المكذبين للرسل ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ أرجعون إلى الدنيا ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ .

ولم يقل : لعلني أتمتع في قصورها وحبورها ونسائها وغير ذلك ، بل قال : ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ ، أي فيما تركت من المال الذي بخلت به حتى أنفقه في سبيل الله . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ۚ يَعْنِي لَا رَجُوعَ وَلَا يُمْكِنُ الرَّجُوعُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَاءَ الْأَجَلُ ﴾ ﴿ فَلَا يَسْتَفْرِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] .

ثم قال : ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ هذه الكلمة يؤكد الله ﷻ أنه يقولها وهي قوله : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ ، ﴿ وَبَيْنَ دَرَائِمِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يعني من أمام هؤلاء الذين حضرتهم الوفاة ﴿ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

والبرزخ : هو الفاصل بين الدنيا وبين قيام الساعة ، سواء كان الإنسان مدفوناً في الأرض أو على ظهر الأرض تأكله السباع وتلقفه الرياح ، أو كان في قاع البحار ؛ كل هذا يسمى برزخاً ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يعني يخرجون من القبور لله ﷻ في يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ وذلك عند قيام الساعة ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ . والنفخ في الصور مرتان :

النفخة الأولى : يكون فيها الفرع والصعق يعني الموت ، فينفخ إسرافيل في الصور نفخة يكون لها صوت عظيم مزعج جداً ، فيفرع الناس ثم يموتون كلهم إلا ما شاء الله .

والنفخة الثانية : ينفخ في الصور فتخرج الأرواح من الصور وتعود إلى أجسادها ، وهذه التي يكون بها الحياة الأبدية التي لا موت بعدها .

﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ يعني بعد أن يعيشوا من قبورهم لا تنفعهم الأنساب والقرابات ﴿ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم عن بعض ، بل إن الله تعالى يقول : ﴿ يَوْمَ يُعْرَأُ أَكْثَرُهُمْ أَنْبَاءُهُمْ وَأَنْبَاءُهُمْ وَأَنْبَاءُهُمْ ۚ وَصَحِّفِهِمْ وَبَيْنَهُمْ ۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَتْرَابٌ مِمَّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُ ﴾ [عبس : ٣٤-٣٧] .

فالأنساب في ذلك الوقت لا تنفع ، والقربات لا يتساءلون عن بعضهم ، بينما في الدنيا يسأل بعضهم عن بعض ، ما الذي حصل لهذا ماذا فعل فلان ؟ أما في الآخرة ف﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ ﴾ [عبس : ٣٧] .
قال تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٨] ، فينقسم الناس في ذلك اليوم إلى قسمين : قسم تثقل موازينه فهذا مفلح فائز بما يحب ناج مما يكره .

والموازين : جمع ميزان ، وقد وردت في الكتاب والسنة مجموعة ومفردة ، فقال الله تعالى هنا : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ، وقال النبي ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ^(١) ، فقال : في الميزان ولم يقل : في الموازين ، فجمعت مرة وأفردت أخرى ، وذلك لكثرة ما يوزن ، فلكثرة ما يوزن جمعت ، ولكون الميزان واحدًا ليس فيه ظلم ولا بخرس أفردت .

وأما الذي يوزن فقد قال بعض العلماء : إن الذي يوزن هو العمل ، وقال بعض العلماء : الذي يوزن صحائف العمل .

وقال بعض العلماء : الذي يوزن العامل نفسه ، وذلك لأن كلاً منها جاءت به أحاديث .
أما الذين يقولون إن الذي يوزن هو العمل ، فاستدلوا بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، فجعل الوزن للعمل ، ويقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان » . فجعل الثقل للكلمتين وهما العمل .

والذين قالوا : إن الذي يوزن صحائف العمل استدلوا بحديث صاحب البطاقة ، الذي يأتي يوم القيامة فيمد له سجل يعني أوراقاً كثيرة مد البصر كلها سيئات ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله له : « إن لك عندنا حسنة فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله » قالها من قبله فتوضع البطاقة في كفة ، وتلك السجلات في كفة ، فترجح البطاقة بها ^(٢) ، فهذا يدل على أن الذي يوزن هو صحائف العمل .
وأما الذين قالوا إن الذي يوزن هو العامل نفسه ، فاستدلوا بقوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] .

وبأن النبي ﷺ قال حين ضحك الناس على عبد الله بن مسعود ؓ ، وكان ؓ نحيفاً ، فقام إلى شجرة أراك في ريح شديدة ، فجعلت الريح تهزه هزاً ، فضحك الناس من ذلك ، فقال النبي ﷺ : « أتضحكون - أو قال ﷺ أتعجبون - من دقة ساقيه ، والذي نفسي بيده إنهما في الميزان لأنقل من جبل أحد » ^(٣) وهذا يدل على أن الذي يوزن هو العامل نفسه .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦٣) واللفظ له ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣١) .

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٣٩) ، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/١ ، ٤٢١) .

والمهم أنه يوم القيامة توزن الأعمال أو صحائف الأعمال أو العمال ، ﴿ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [١] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ .

وقوله ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ إنما قال خسروا أنفسهم ، لأنهم أخرجوا إلى الدنيا وجاءتهم الرسل وبينت لهم الحق ، ولكنهم - والعياذ بالله - عاندوا واستكبروا فخسروا أنفسهم ولم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئاً ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥] .

ثم قال تعالى مبيناً أنهم كما يعذبون بدنياً ، فإنهم يعذبون قلوباً ، فيقرعون ويوبخون فيقال لهم : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِي نَذِيرًا فَكُنْ مِنْهُمْ ﴾ فقد تليت عليهم آيات الله ، وبينت لهم ، وجاءتهم الرسل بالحق ، ولكنهم كفروا والعياذ بالله ، وكذبوا بهذه الآيات .

قالوا في الجواب : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ [٢] رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا ﴾ يعني إن عدنا إلى التكذيب ﴿ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ ، فيقرعون - والعياذ بالله - بأن الشقاوة غلبت عليهم وأنهم ضلوا الضلال المبين الذي أوصلهم إلى هذه النار ، نسأل الله أن يعيدنا وإياكم منها .

قال الله تعالى : ﴿ أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أي ابقوا فيها أذلاء صاغرين ، ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وهذا أشد ما يكون عليهم والعياذ بالله أن يوبخهم الله هذا التوبيخ فيقول : ﴿ أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فإنهم لو كلموا الله لن يستجيب لهم ، لأنه قضى عليهم بالخلود في النار .

ثم قال تعالى مبيناً حالهم مع أوليائهم : ﴿ إِنَّكُمْ كَانُمْ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ، وهؤلاء المؤمنون بالله ورسوله يقولون : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا ﴾ أي آمنا بك وبرسلك وبما جاءوا به من الحق ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ اغفر لنا ذنوبنا حتى لا ندخل النار ، وارحمنا بالقبول حتى ندخل الجنة . ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فلا أحد أرحم بعباد الله من ربهم ﷻ . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لله بعباده أرحم من الوالدة بولدها » (١) .

﴿ فَأَتَّخِذُكُمْ سُخْرِيًّا وَرَبِّيَ خَيْرٌ مِنْكُمْ ﴾ [٣] وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ يعني أنكم تسخرون بهؤلاء المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويسألونه المغفرة والرحمة ، فكنتم تسخرون منهم وتستهزئون بهم ، ﴿ وَرَبِّيَ خَيْرٌ مِنْكُمْ ﴾ أي حتى كانت سخريتكم بهم واستهزاؤكم بهم منسية لكم ذكري .

﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ يعني في الدنيا كانوا يضحكون بالمؤمنين ويستهزئون بهم .

ولكن الله قال في سورة المطففين : ﴿ قَالِیْمٌ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وهذا الضحك الذي لا بكاء بعده ، أما ضحك الكفار من المسلمين في الدنيا ، فإنه سيعقبه البكاء الدائم والعياذ بالله .

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني جزى الله تعالى المؤمنين بما صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ، وصبروا على أقداره ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين فازوا بهذا اليوم فأدركوا المطلوب ونجوا من المهروب ، وإنما ذكر الله هذا لهؤلاء المكذبين زيادة في حسرتهم وندامتهم ، كأنه يقول ﷺ : لو كنتم مثلهم لنلتهم هذا الثواب ، فيزدادون بذلك حسرة إلى حسرتهم والعياذ بالله . كيف أصبح حال هؤلاء الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا ويضحكون منهم ؟ وكيف كان حالهم وهم في نار جهنم ؟

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلِ الْعَاذِينَ﴾ انظر : جاءتهم الرسل وعمروا عمراً يتذكر فيه من تذكر ، ولكنهم والعياذ بالله لم ينتفعوا بهذا ، ورأوا أنهم كأنما لبثوا ساعة أو بعض ساعة ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلِ الْعَاذِينَ﴾ أسأل العادين منا ، فإننا لا نرى أننا لبثنا إلا يوماً أو بعض يوم .

قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني : ما لبثتم إلا قليلاً في الدنيا وآل بكم الأمر إلى الآخرة التي تبقون فيها أبد الأبدین معذین . ﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني لو أنكم كنتم من ذوي العلم لعلمتم مقدار تكذيبكم للرسل ومقدار أعمالكم التي خسرتوها .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ يعني : أتظنون أننا ﴿خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ﴾ هم ظنوا كذلك ، ظنوا هذا الظن ، ولكن الله وبخهم على هذا الظن ، هل من حكمة الله أن ينشئ هذه الخليفة ، ويرسل إليها الرسل ، وينزل عليها الكتب ثم تكون النهاية الموت والفناء بدون بعث أو رجوع ؟ هذا لا يمكن ، لكن هذا ظن الذين كفروا ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾ تعالى : يعني ترفع ﷻ عن كل نقص وعن كل سوء وعلا بذاته فوق عرشه ﷻ ، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الملك يعني ذو الملك والسلطان والعظمة ، الحق : الذي كان ملكه وملكوته حقاً وليس بباطل .

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود حق إلا الله ﷻ ، ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ إلى آخر السورة .

فهذه الآيات تبين أن الإنسان يجب عليه أن ينتهز فرصة العمر وألا يخسر عمره كما خسر هؤلاء ، لأنه سوف يبعث ويجازى ويحاسب على عمله .

وقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١) [الحديد: ١٦] والآيات في الباب

(١) قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : ألم يحزن لهم .. ؟ قوله تعالى : ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ عند تذكر حساب الله وجزائه قوله تعالى : ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى ، قوله تعالى : ﴿الْأَمَدُ﴾ الأجل أو الزمان بينهم وبين أنبيائهم .

كثيرة معلومة .

٥٧٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ غَائِبٌ سَبِيلَ » .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ : « إِذَا أَمْسَيْتَ ، فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبَاخَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ ، فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صَبْحَتِكَ لِمَرْضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في باب ذكر الموت وقصر الأمل . قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، يعني ألم يأت الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين لذكر الله ﻋَﻠَﻴْهِمُ السَّلَامُ ؟ والخشوع : معناه الخضوع والذل ﴿ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعني عند ذكره ، فإن المؤمنين ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأفال : ٢] . وقوله : ﴿ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي لتذكر الله وعظمته ، ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنْ أَمَلٍ ﴾ أي ويخشعون لما نزل من الحق ، وهو ما كان في كتاب الله ﻋَﻠَﻴْهِمُ السَّلَامُ ؛ فإن هذا الكتاب جاء بالحق ، والنبي ﷺ الذي نزل عليه هذا الكتاب جاء بالحق ، فيحق للمؤمن أن يخشع قلبه لذكر الله وما نزل من الحق .

قال : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، يعني : ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتاب من قبل وهم اليهود والنصارى ، فاليهود أُوتوا التوراة ، والنصارى أُوتوا الإنجيل ، ومع ذلك فإن اليهود كفروا بالإنجيل ، والنصارى كفروا بالقرآن ، فصار الكل كفارًا ، ولذلك كان اليهود قبل بعثة النبي ﷺ مغضوبًا عليهم ، لأنهم علموا الحق وهو ما جاء به عيسى ، ولكنهم استكبروا عنه وأعرضوا عنه .

أما بعد بعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فكان اليهود والنصارى كلهم مغضوبًا عليهم ، وذلك لأن النصارى علموا الحق فهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، ومع ذلك استكبروا عنه ، فكانوا كلهم مغضوبًا عليهم ، لأن القاعدة في المغضوب عليهم أنهم الذين علموا الحق ولم يعملوا به كاليهود والنصارى بعد بعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

هؤلاء الذين أُوتوا الكتاب ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ أي الوقت ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ لأن النبي ﷺ بعث بعد عيسى بستمائة سنة ، وهي فترة طويلة انحرف فيها من انحرف من أهل الكتاب ، ولم يبق على الأرض من أهل الحق إلا بقايا يسيرة من أهل الكتاب ، ولهذا قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ولم يقل : أكثرهم فاسقون ، ولم يقل : كلهم فاسقون ، فكثير منهم فاسقون خارجون عن الحق .

فحذر الله ﻋَﻠَﻴْهِمُ السَّلَامُ ونهى أن نكون كهؤلاء الذين أُوتوا الكتاب ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦) .

وإذا نظرت إلى الأمة الإسلامية ، وجدت أنها ارتكبت ما ارتكبه الذين أوتوا الكتاب من قبل . فإن الأمة الإسلامية في هذه العصور التي طال فيها الأمد من بعثة الرسول ﷺ ، قست قلوب كثير منهم وفسق كثير منهم ، واستولى على المسلمين من ليس أهلاً للولاية لفسقه بل ومروقه عن الإسلام ، فإن الذين لا يحكمون بكتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ ، ويرون أن الحكم بالقوانين أفضل من حكم الله ورسوله كفار بلا شك ومرتدون عن الإسلام ^(١) .

ولكن الله ﷻ يلو الناس بعضهم ببعض ، وإذا صبر المؤمن واحتسب وانتظر الفرج من الله ﷻ ، وعمل الأسباب التي توصل إلى المقصود يسر الله له الأمر .

فالمهم : أن الله نهانا أن نكون كالذين أوتوا الكتاب من قبل فقسست قلوبهم ، ولكن صار الكثير منا في الوقت الحاضر متشبهًا بهؤلاء الذين قست قلوبهم ، وكثير من هؤلاء أيضًا فسقوا عن أمر الله ، وخرجوا عن طاعة الله .

- ثم قال المؤلف : والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

وأما الأحاديث : فم منها حديث عبد الله بن عمر ؓ قال : « أخذ النبي ﷺ بمنكبي » يعني أمسك به ، والمنكب هو أعلى الكتف ، أخذ به من أجل أن يتبّه ابن عمر لما سيلقي إليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - من القول .

وهذا من حسن تعليم الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - كان إذا تكلم اتخذ الأسباب التي توجب انتباه المخاطب ، إما بالفعل كما هنا ، وإما بالقول كما في قوله : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله » ^(٢) .

ثم قال النبي ﷺ لابن عمر : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » سبحانه الله ! أعطى الله نبيه جوامع الكلم ، هاتان الكلمتان يمكن أن تكونا نبراشاً يسير الإنسان عليه في حياته « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

والفرق بينهما : أن عابر السبيل ماشٍ يمر بالقرية وهو ماشٍ منها . وأما الغريب فهو مقيم فيها حتى يرتحل عنها ، يقيم فيها يومين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، أو شهراً ، وكل منهما لم يتخذ القرية التي هو فيها وطناً وسكناً وقراراً .

(١) من لم يحكم بما أنزل الله ردّاً للقرآن ، وجحدًا لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن مسعود والحسن في تفسير آية ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أي معتقداً ذلك ومستحلاً له ، فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، وقال ابن عباس في رواية : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفار . وقيل : أي ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية (القرطبي : تفسير سورة المائدة الآية ٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٦) ، ومسلم في الإيمان (١٤٣) .

فيقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : كن في الدنيا كهذا الرجل ، إما غريب أو عابر سبيل . فالغريب وعابر السبيل لا يستوطن ، يريد أن يذهب إلى أهله وإلى بلده ، لو أن الإنسان عامل نفسه في هذه الدنيا بهذه المعاملة لكان دائماً مشمراً للآخرة ، لا يريد إلا الآخرة ، ولا يكون أمام عينيه إلا الآخرة حتى يسير إليها سيراً يصل به إلى مطلوبه .

وكان ابن عمر يقول : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح » المعنى لا تأمل أنك إذا أصبحت أمسيت ، وإذا أمسيت أصبحت ، فكلم من إنسان أصبح ولم يمس ! وكلم من إنسان أمسى ولم يصبح ! وكلم من إنسان لبس ثوبه ولم يُخلِقه إلا الغاسل ! وكلم من إنسان خرج من أهله قد هياؤا له غداءه أو عشاءه ولم يأكله ! وكلم من إنسان نام ولم يقم من فراشه ! المهم أن الإنسان لا ينبغي له أن يطيل الأمل بل يكون حذراً حاذقاً حازماً كيئساً ، هذا معنى قوله : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح » .

« وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك » الإنسان الصحيح منشرح الصدر ، منبسط النفس ، واسع الفكر ، عنده سعة في الوقت والصحة ، لكن ما أكثر الذين يضيعون هذا ، لأنه يأمل أن هذه الصحة سوف تبقى وتدوم ، وأنه سوف تطول به الدنيا ، فتجده قد ضيع هذه الصحة .

فابن عمر رضي الله عنه يقول : « خذ من صحتك لمرضك » المرض تضيق به النفس ، ويتعب به الجسم ، وتضييق عليه الدنيا ولا يستطيع أن يعمل العمل الذي يعمل به في حال الصحة ، فليأخذ من صحته لمرضه ، ومن حياته لموته ، قس ما بين حياتك وموتك أيهما أطول ؟ لاشك أن الحياة لا تنسب للموت ، كم للرسول - عليه الصلاة والسلام - ميتاً ؟ كم لمن قبله ؟ وحياتهم قليلة بالنسبة لموتهم ، فكيف إلى الآخرة .

ولهذا ينبغي للإنسان أن يأخذ من حياته - ما دام الله قد أحياه - لموته إذا عاجز عن العمل ، لأن النبي ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ^(١) فخذ من حياتك لموتك .

٥٧٥ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما حقُّ امرئٍ مُسلمٍ ، لهُ شيءٌ يُوصي فيه ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إلا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ » ^(٢) متفقٌ عليه ، هذا لفظ البخاري .

وفي رواية لمسلم « يَبِيتُ ثَلَاثَ لَيَالٍ » قال ابن عمر : مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي ^(٣) .

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠) ، وأحمد في مسنده (٣٧٢/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨) ، ومسلم في الوصية (١) .

(٣) أخرجه مسلم في الوصية (٤) .

الشرح

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا وصيته مكتوبة عنده » يعني ما حقه أن يبيت ليلتين إلا وقد كتب وصيته التي يريد أن يوصي بها ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما منذ سمع هذا الكلام من رسول الله ﷺ لا يبيت ليلة إلا وقد كتب وصيته .
والوصية : معناها العهد ، وهي أن يعهد الإنسان بعد موته لشخص في تصريف شيء من ماله ، أو يعهد لشخص بالنظر على أولاده الصغار ، أو يعهد لشخص في أي شيء من الأعمال التي يملكها بعد موته فيوصي به ، هذه هي الوصية .

مثل أن يكتب الرجل : وصيتي إلى فلان بن فلان بالنظر على أولادي الصغار . وصيتي إلى فلان ابن فلان بتفريق ثلث مالي أو رבעه أو خمسه في سبيل الله . وصيتي إلى فلان في أن ينتفع بما خلفت من عقار أو غيره أو ما أشبه ذلك .

المهم أن الوصية هي العهد ، عهد الإنسان بعد موته إلى شخص بشيء يملكه .
والوصية أنواع : واجبة ، ومحرمة ، وجائزة .

أولاً : الوصية الواجبة : وهي أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة ، لثلاث يجحدها الورثة ، لا سيما إذا لم يكن عليها بينة .

مثل أن يكون على الإنسان دين أو حق لغيره ، فيجب أن يوصي به لا سيما إذا لم يكن فيه بينة ، لأنه إذا لم يوص به فإن الورثة قد ينكرونه ، والورثة لا يلزمون أن يصدقوا كل من جاء من الناس وقال : إن لي على ميتكم كذا وكذا ، لا يلزمهم أن يصدقوا ، فإذا لم يوص الميت بذلك ، فإنه ربما يكون ضائعاً ، فمن عليه دين يعني حق في ذمته لأحد ، فإنه يجب عليه أن يوصي به .

كذلك أيضاً يجب أن يوصي لأقاربه غير الوراثين بما تيسر لقول الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة: ١٨٠] يعني مالاً كثيراً ﴿ أَلَوْصِيَّةٌ ﴾ هذه نائب الفاعل ﴿ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ فخرج من الوالدين والأقربين من كانوا ورثة ، فإن الورثة لا يوصى لهم ، وبقيت الآية محكمة فيما عدا الوراثين .

هكذا دلالة الآية ، وبها فسرهما ابن عباس رضي الله عنهما ، وذهب إلى ذلك كثير من أهل العلم ، أن الإنسان يجب أن يوصي إذا كان عنده مال كثير بما تيسر لأقاربه غير الوراثين ، أما الوارث فلا يجوز أن يوصى له ، لأن حقه من الإرث يكفيه ، فهذان أمران تجب فيهما الوصية :

الأول : إذا كان عليه دين يعني حقاً للناس .

والثاني : إذا ترك مالاً كثيراً ، فإنه يلزمه أن يوصي لأقاربه من غير الوراثين .

ثانياً : الوصية المحرمة : وهي محرمة إذا أوصى لأحد من الورثة ، مثل أن يوصي لولده الكبير بشيء

من بين سائر الورثة ، أو يوصي لزوجته بشيء من بين سائر الورثة ، فإن هذا حرام عليه ، حتى ولو قدر أن الزوجة كانت تخدمه في حياته وتطيعه وتحترمه ، وأراد أن يكافئها فإنه لا يحل له أن يوصي لها بشيء ، وكذلك إذا كان أحد أولاده ير به ويخدمه ويسعى في ماله ، فأراد أن يوصي له بشيء ، فإن ذلك حرام عليه ^(١) .

وكذلك ما يفعله بعض الناس إذا كان له أولاد عدة وزوج الكبير أوصى للصغار بمثل المال الذي زوج به الكبير ، فإن هذا حرام أيضًا ، لأن التزويج دفع حاجة كالأكل والشرب ، فمن احتاج إليه من الأولاد وعند أبيهم قدرة وجب عليه أن يزوجه ، ومن لم يحتج إليه فإنه لا يحل له أن يعطيه شيئًا مثل ما أعطى أخاه الذي احتاج للزواج .

وهذه مسألة تخفى على كثير من الناس حتى على طلبة العلم ، يظنون أنك إذا زوجت ولدك ، فإنك يجب أن توصي للأولاد الصغار بمثل ما زوجته به ، وهذا ليس بصحيح ، فالوصية للوارث لا تجوز مطلقًا .

فإن قدر أن أحدًا جاهلًا وأوصى لأحد الورثة بشيء ، فإنه يرجع إلى الورثة بعد موته ، إن شاءوا نفذوا الوصية ، وإن شاءوا ردوها .

ثالثًا : الوصية المباحة : فهي أن يوصي الإنسان بشيء من ماله لا يتجاوز الثلث ، لأن تجاوز الثلث ممنوع ، لكن ما دون الثلث أنت حر فيه ، ولك أن توصي فيه لمن شئت إلا الورثة .

ولكن هل الأفضل الثلث أو الربع أو ما دون ذلك ؟ نقول : أكثر شيء الثلث لا تزد عليه ، وما دون الثلث فهو أفضل منه ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاص : « الثلث والثلث كثير » ^(٢) وكان أبو بكر رضي الله عنه أوصى بخمس ماله . وقال : « أرضى بما رضي الله لنفسه » فأوصى بخمس ماله . وهذا أحسن ما يكون .

وليت أن طلبة العلم والذين يكتبون الوصايا ينبهون الموصين على أن الأفضل الوصية بالخمس لا بالثلث ، وقد شاع عند الناس الثلث دائمًا ، وهذا الحد الأعلى الذي حده الرسول - عليه الصلاة والسلام - وما دونه أفضل منه ، فالربع أفضل من الثلث ، والخمس أفضل من الربع .

وإذا كان الورثة محتاجين فترك الوصية أولى ؛ لأنهم أحق من غيرهم . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس » ، فإذا كان الورثة الذين يرثونك تعرف أن حالهم ، وسط والمال شحيح عندهم ، وأنهم إلى الفقر أقرب ، فالأفضل ألا توصي . ففي هذا الحديث : إشارة إلى أن الإنسان يوصي ، ولكن الوصية تنقسم إلى أقسام كما أشرنا ؛

(١) هذا معنى حديث وقد أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٨٦) ولفظه : « أكل ولدك نحلته مثله » ومسلم في الهبات

(٩ ، ١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨) ومسلم في الوصية (٥) .

منها واجبة ، ومنها محرمة ، ومنها مباحة .

فالواجبة : أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة لئلا يجحدوا الورثة ، فيضيع حق من هي له ، لا سيما إذا لم يكن عليها يئنه . وكذلك وصية من ترك مالاً كثيراً لأقاربه الذين لا يرثون بدون تقدير ، على ألا تزيد على الثلث .

والمحرمة : نوعان أيضاً : أن تكون لأحد من الورثة ، وأن تكون زائدة على الثلث . والمباحة : ما سوى ذلك ، ولكن الأفضل أن تكون من الخمس فأقل ، وإن زاد إلى الربع فلا بأس ، وإلى الثلث فلا بأس ، ولا يزيد على الثلث .

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما : العمل بالكتابة ، لقوله ﷺ : « إلا ووصيته مكتوبة عنده » فدل هذا على وجوب العمل بالكتابة .

وفي قوله : « مكتوبة » اسم مفعول ، إشارة إلى أنه لا فرق بين أن يكون هو كاتبها أو غيره ممن تثبت الوصية بكتابتهما ، فلا بد أن تكون الكتابة معلومة ؛ إما بخط الموصي نفسه ، أو بخط شخص معتمد ، وأما إذا كانت بخط مجهول فلا عبرة بها ولا عمل عليها .

وفي قوله : « عنده » إشارة إلى أنه ينبغي أن يحتفظ الإنسان بالوثائق وألا يسلط عليها أحداً ، بل تكون عنده في شيء محفوظ محرز كالصندوق وغيره ؛ لأنه إذا أهملها فربما تضيع منه ، أو يسلط عليها أحد يأخذها ويتلفها أو ما أشبه ذلك .

المهم : في هذا الاعتناء بالوصية ، وأن يحتفظ بها الإنسان حتى لا تضيع .

وفيه أيضاً : سرعة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ ؛ ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما بعد ما سمع هذا الحديث من النبي ﷺ : « ما مرت علي ليلة منذ سمعت النبي ﷺ يقول هذا إلا ووصيتي مكتوبة عندي » . فالذي ينبغي للإنسان أن يهتم بهذا الأمر حتى لا يفجأه الموت ، وهو قد أضاع نفسه ، وأضاع حق غيره .

* * *

٥٧٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال : خَطَّ النبي ﷺ خُطوطاً فقال : « هَذَا الْإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ الْخَطُّ الْأَقْرَبُ » ^(١) رواه البخاري .

٥٧٧ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خَطَّ النبي ﷺ خُطّاً مُرَبَّعاً ، وَخَطَّ خَطّاً فِي الْوَسْطِ خَارِجاً مِنْهُ ، وَخَطَّ خُطّاً صِغَاراً إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ ، فَقَالَ : « هَذَا الْإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا ، نَهَشَهُ هَذَا ، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا ، نَهَشَهُ هَذَا » ^(٢) رواه البخاري . وَهَذِهِ

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٨) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٧) .

صُورَتُهُ :

| | | | | | |
|-------|--|--|--|--|-------|
| | | | | | الأجل |
| الأمل | | | | | |

الأعراض

٥٧٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا ، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ، أَوْ الدَّجَالَ ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةُ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرُهُ !؟ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف رحمته الله في باب ذكر الموت وقصر الأمل ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا » يعني اعملوا قبل أن تصيبكم هذه السبع التي ذكرها النبي ﷺ ، فبادروا بها .

ثم ذكر هذه السبع وأنها :

إما « فَقْرًا مُنْسِيًا » بأن يصاب الإنسان بفقر ينسيه ذكر ربه ، لأن الفقر أعاذنا الله وإياكم منه شر درع يلبسه العبد ، فإنه إذا كان فقيرًا يحتاج إلى أكل وشرب ولباس وسكن وزوجة ، فلا يجد من ذلك شيئًا ، فتضيق عليه الأرض بما رحبت ، ويذهب يتطلب ليحصل على شيء من ذلك فينسى ذكر الله ﷻ ، ولا يتمكن من أداء العبادة على وجهها .

وكذلك يفوته كثير من العبادات التي تستوجب أو التي تستلزم الغنى ، كالزكاة ، والصدقات ، والعق ، والحج ، والإنفاق ، في سبيل الله ، وما أشبه ذلك .

« أَوْ غِنًى مُطْغِيًا » بأن يغني الله الإنسان ويفتح عليه من الدنيا فيطغى بذلك ، ويرى أنه استغنى عن ربه ﷻ ، فلا يقوم بما أوجب الله عليه ، ولا ينتهي عما نهاه الله عنه . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ۝١٠ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ۚ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] .

كذلك « أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا » مرض يفسد على الإنسان حياته ، لأن الإنسان ما دام في صحة فهو في نشاط وانشراح صدر ، والدنيا أمامه مفتوحة ، فإذا مرض ضعف البدن ، وضعفت النفس وضاعت ، وصار الإنسان دائمًا في هَمٍّ وَغَمٍّ فففسد عليه حياته .

كذلك أيضًا الهرم المفسد : « أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا » يعني كبيرًا يفند قوته ويحطمها ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ ۝١١ ﴾

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٠٦) .

وَهُوَ أَلْعَلِيُّ الْقَدِيرُ ﴿الرزم: ٢٥٤﴾ .

فالإنسان ما دام نشيطاً شاباً يعمل العبادة بنشاط ، يتوضأ بنشاط ، يصلي بنشاط ، يذهب إلى العلم بنشاط ، لكن إذا كبر فهو كما قال الله ﷻ عن زكريا ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] أي ضعف العظم ، والعظم هو الهيكل الذي ينبنى عليه الجسم ، فيضعف وتضعف القوة ولا يستطيع أن يفعل ما كان يفعله في حال الشباب ، كما قال الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

« أو موتاً مجهزاً » هذا أيضاً ما يُنتظر ، وإذا مات الإنسان انقطع عمله ، ولم يتمكن من العمل . « مجهزاً » سريعاً ، وكم من إنسان مات من حيث لا يظن أنه لا يموت ، كم من إنسان مات وهو في شبابه وصحته .. في حوادث احتراق ، أو انقلاب سيارة ، أو سقوط جدار عليه ، أو سكتة قلبية ، أشياء كثيرة يموت الإنسان بسببها ولو كان شاباً .

فبادر هذا لأنك لا تدري ربما تموت وأنت تخاطب أهلك ، أو تموت وأنت على فراشك ، أو تموت وأنت على غداك ، أو تموت وأنت في سيارتك ، أو في سفرك ، إذا بادر .

ومن ذلك أيضاً : قوله : « أو الدجال ؛ فشر غائب ينتظر » يعني أو تنتظرون الدجال ، وهو الرجل الخبيث الكذاب المموه الذي يبعث في آخر الزمان يدعو الناس إلى عبادته ويوهمهم ، فيفتن به الخلق إلا من شاء الله .

وهذا أمرنا أن نستعيز بالله منه في كل صلاة ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إذا تشهد أحدكم التشهد الأخير فليقل : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (١) .

والمسيح الدجال رجل من بني آدم . لكنه أعور خبيث كافر متمرد ، وقد كتب بين عينيه كافر ، يقرؤه المؤمن ولو كان غير قارئ ، ولا يقرؤه الكافر ولو كان قارئاً . وهذه آية من آيات الله ﷻ .

وهذا الدجال يدعو الناس إلى عبادته فيقول : أنا ربكم ، فإن أطاعوه أدخلهم جنته وإن عصوه أدخلهم ناره ، لكن ما هي جنته وناره ؟ قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنه يجيء معه بمثل الجنة والنار ، فالتى يقول إنها الجنة هي النار » (٢) .

لكنه يوهم الناس ويموه عليهم فيحسبون أن هذا الذي أطاعه أدخله الجنة ، وأن هذا الذي عصاه أدخله النار ، والحقيقة بخلاف ذلك .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٧) ومسلم في المساجد (١٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٨) ومسلم في الفتن (١٠٩) .

كذلك يأتي إلى القوم في البادية ، يأتي إليهم محلين ، ليس في ضروع مواشيهم لبن ، ولا في أرضهم نبات ، فيدعوهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، يقول للسماء أمطري ؛ فتمطر ، ويأمر الأرض فتنبت ، يقول : يا أرض أنبتي ، ؛ فتنبت ، فيصبحون على أخصب ما يكون ، ترجع إليهم مواشيهم أسبغ ما يكون ضروعاً ؛ ضروعها مملوءة ، وأطول ما يكون ذرى ؛ أسنمتها رفيعة من الشيع والسمن ، فييقون على عبادته ، فيسعدون في الدنيا مدة يسيرة ، ولكنهم في الحقيقة خسروا الدنيا والآخرة ؛ لأنهم اتخذوا الدجال رباً من دون الله .

فالدجال يقول عنه الرسول ﷺ : إنه « شر غائب ينتظر » . أعاذنا الله وإياكم من فتنته .

ثم قال : « أو الساعة » يعني أو تنتظرون الساعة ، أي قيام الساعة ، ﴿ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴾ يعني أشد داهية وأمر مذاقاً ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴾ [القدر: ٤٦] .
والحاصل : أن الإنسان لن يخرج عن هذه السبع . وهذه السبعة كلها تعيقه عن العمل ، فعليه أن يبادر ، ما دام في صحة ، ونشاط ، وشباب ، وفراغ ، وأمن ، قبل أن يفوته ذلك كله فيندم حيث لا ينفع الندم .

* * *

٥٧٩ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْثَرُ مَا ذَكَرَ هَازِمُ اللَّذَاتِ » يعني الموت ^(١) ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٥٨٠ - وعن أبي بن كعب ؓ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ : قَامَ فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ ، تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي ؟ قَالَ : « مَا شِئْتَ » قُلْتُ : الرَّبُوعُ ؟ قَالَ : « مَا شِئْتَ ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قُلْتُ : فَالنِّصْفُ ؟ قَالَ : « مَا شِئْتَ ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قُلْتُ : أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا ؟ قَالَ : « إِذَا تَكْفَى هَمَّكَ ، وَيُعْفِرَ لَكَ ذَنْبَكَ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

* * *

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه وقد أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٠٧) ، قوله « هازم اللذات » أي قاطعها .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه وقد أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٧) ، قوله « الراجفة » أي النفخة الأولى التي تضطرب عندها وتحرك الجبال ، قوله « الرادفة » أي في الواقعة التي تردف الأولى وهي النفخة الثانية .

٦٦ - باب استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر

٥٨١ - عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا » ^(١) رواه مسلم .

٥٨٢ - وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ كلما كانَ لَيْلَتَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ ، فَيَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَأَنَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاجِقُونَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْعَزْقِدِ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتاب رياض الصالحين : باب استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر .
زيارة القبور : أي الخروج إليها امتثالاً واتباعاً لرسول الله ﷺ . والقبور هي دور الأموات ، وذلك أن الإنسان له أربعة دور :

الدار الأولى : في بطن أمه . والثانية : الدنيا . والثالثة : القبور .

والرابعة : الآخرة وهي المقر وهي النهاية والغاية - جعلنا الله من الفائزين فيها .

هذه الدار - أعني دار القبور - كان النبي ﷺ نهى عن زيارتها ؛ خوفاً من الشرك بأهل القبور ، لأن الناس كانوا حديثي عهد بجاهلية ، فنهى عنها رسول الله ﷺ سداً لذرائع الشرك ؛ لأن الشرك لما كان أمره عظيماً سدَّ النبي ﷺ كل ذريعة وكل باب يوصل إليه .

وكلما كانت المعصية عظيمة كانت وسائلها أشد منعاً . الزنا مثلاً فاحشة ، فوسائله من النظر والخلوة وما أشبه ذلك محرمة .

وكذلك فإن الشرك أعظم الظلم ، كما سئل النبي ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ^(٣) .

فلما كان الناس يعظمون القبور ، نهاهم النبي ﷺ عن ذلك ، فلما استقر الإيمان في قلوبهم أذن لهم فقال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فإنها تذكركم الآخرة » .

رفع النبي ﷺ النهي وأباح الزيارة ، بل رغب فيها لقوله : « فإنها تذكركم الآخرة » . والذي يذكر الآخرة ينبغي للإنسان أن يعمل به ، لأن القلب إذا نسي الآخرة غفل واشتغل بالدنيا ، فأضاع الدنيا والآخرة ؛ لأن من أضاع الآخرة فقد أضاع الدنيا والآخرة .

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٥٤) واللفظ له ومسلم في الجنائز (١٠٦) بلفظ « نهيتكم عن زيارة القبور » .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) ، ومسلم في الإيمان (١٤١) .

فينبغي أن نزور القبور ؛ ولكن نزورها لنفعها أو للاتفاف بها ؟ نزورها لنفعها ، لندعوا للأموات لا لندعواهم ، فيخرج الإنسان ويسلم على القبور ، كما فعل النبي ﷺ . وقالت عائشة : إن النبي ﷺ إذا كان عندها ، خرج من آخر الليل فسلم على أهل البقيع وقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون ، غداً مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون » .

ثم يقول : « اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » : بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة ، وهذه الدعوة يرجى أن تشمل من كان من أهل بقيع الغرقد إلى يوم القيامة ، ويحتمل أن يراد بهم أهل بقيع الغرقد الذين كانوا أهلهم في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - فقط ، فلا يشمل من يأتي بعدهم . ولكن من كان من أهل الرحمة فهو من أهل الرحمة ، سواء حصلت له هذه الدعوة أم لم تحصل ، ومن كان من أهل الشقاء فإنه لا تشمله هذه الدعوة ولا ينتفع بها .

المهم : أن الإنسان ينبغي له أن يزور القبور في كل وقت ، في الليل ، في النهار ، في الصباح ، في المساء ، في يوم الجمعة ، في غير يوم الجمعة ، ليس لها وقت محدد ، وكلما غفل قلبك واندمجت نفسك في الحياة الدنيا ، فاخرج إلى القبور ، وتفكر في هؤلاء القوم الذين كانوا بالأمس مثلك على الأرض يأكلون ويشربون ويتمتعون ، والآن أين ذهبوا ؟ صاروا مرتين بأعمالهم ، لم ينفعهم إلا ما قدموا ، كما أخبر بذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - حيث قال : « يتبع الميت ثلاثة : ماله وأهله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » (١) .

ففكر في هؤلاء القوم ، ثم سلم عليهم : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » والظاهر - والله أعلم - أنهم يردون السلام ، لأنه يسلم عليهم بصيغة الخطاب « السلام عليكم » ويحتمل أن يراد بذلك السلام مجرد الدعاء فقط ، سواء سمعوا أم لم يسمعوا ، أجابوا أم لم يجيبوا .

فعلى كل حال على الإنسان أن يدعو لهم ويقول مقررًا المصير الحتمي : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » . إن شاء الله هذه تعود إلى وقت اللحق وليس إلى اللحق ، لأن اللحق متيقن ، والمتيقن لا يقيد بالمشيئة لكن تعود إلى وقت اللحق ، لأن كل واحد منا لا يدري متى يلحق ، فيكون معنى قوله : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » أي وإنا متى شاء الله بكم لا حقون ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّا سَأَلْنَا أَنْفُسَنَا ۖ مَا يَفْعَلُ مَا أَمَرُ ۖ ﴾ [عبس : ٢٢، ٢٣] .

ثم يدعو لهم بالدعاء الذي جاءت به السنة ، فإن لم يعرف شيئاً منه ، دعا بما تيسر : اللهم اغفر لهم ، اللهم ارحمهم ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم ، ثم ينصرف . هكذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يزور المقبرة .

وأما ما يفعله بعض الجهال من البقاء هناك ، والتمرغ على التراب ، والطواف بالقبور وما أشبه ذلك ، فكله أمر منكر وبدعة محظورة ، فإن اعتقد أن هؤلاء الأموات ينفعون أو يضررون كان مشركاً

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ومسلم في الزهد والرقائق (٥) .

والعياذ بالله خارجا عن الإسلام ، لأن هؤلاء الأموات لا ينفعون ولا يضررون ، لا يستطيعون الدعاء لك ، ولا يشفعون لك إلا بإذن الله .

وليس هذا وقت الشفاعة أيضًا ، وقت الشفاعة يوم القيامة ، فلا ينفعك شيء منهم إذا دعوتهم أو سألتهم الشفاعة أو قضاء الحاجات وتفريج الكربات .

فالواجب على إخواننا الذين يوجد مثل هذا في بلادهم أن ينصحوا هؤلاء الجهال ، وأن يبينوا لهم أن الأموات لا ينفعونهم ، حتى الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما ينفع الناس وهو ميت ، وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا أصابهم الجذب في عهد الرسول ﷺ وفي حياته جاءوا إليه وقالوا : استسق الله لنا ، فيستسقي الله لهم .

لكن لما مات ما جاء الصحابة إلى قبره يقولون : ادع الله أن يسقينا ، وقبره إلى جانب المسجد ليس بعيدًا ، لكن لما أجذبت الأرض في عهد عمر ، وحصل القحط قال : اللهم إنا كنا نستسقي إليك نبينا فتسقينا ، أي أنهم كانوا يسألون الرسول أن يدعو لهم بالسقيا فيسقون ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، ثم يقوم العباس فيدعو الله ^(١) .

ولم يقل : يا رسول الله ، ادع الله أن يسقينا ، ادع الله أن يرفع عنا القحط ، لأنه ﷺ يعلم أن ذلك غير ممكن ، والإنسان إذا مات انقطع عمله ، ولا يمكن أن يعمل أي عمل كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث » ^(٢) ، فلا يستطيع الميت أن يستغفر لك ولا أن يدعو لك ؛ لأنه انقطع عن العمل .

فالخاص : أن زيارة القبور لمنفعة أهل القبور لا لمنفعة الزائر ، إلا فيما يناله من الأجر عند الله ﷻ ، أما أن ينتفع بهم بزيارته إياهم فلا . لكن ينتفع بالأجر الذي يحصل له ، وينتفع بالموعظة التي تحصل لقلبه إذا وفقه الله تعالى للاعطاء .

* * *

٥٨٣ - وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ » ^(٣) رواه مسلم .

٥٨٤ - وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنه ، قال : مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقُبُورٍ بِالْمَدِينَةِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ ، أَنْتُمْ سَلَفُنَا ، وَنَحْنُ بِالْآخِرِ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(١) أخرجه البخاري في الامتسقاء (١٠١٠) . (٢) سبق تخريجه .

(٣) هذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمته الله ، وقد أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٤) ، وابن ماجه في الجنائز (١٥٤٧) .

(٤) هذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمته الله ، وقد أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٥٣) .

٦٧ - باب كراهة تمنى الموت

بسبب ضرر نزل به ولا بأس به لخوف الفتنة في الدين

٥٨٥ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَتَمَنَّي أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا ، فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ » ^(١) متفق عليه وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ .

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَتَمَنَّي أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمرُهُ إِلَّا خَيْرًا » ^(٢) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب كراهية تمنى الموت لضرر نزل به . يعني من مرض أو نحوه ، وأما إذا كان لخوف فتنة في الدين فلا بأس بتمنى الموت ، هكذا قال المؤلف رحمته الله ، فالإنسان إذا نزل به الضرر فلا يتمن الموت ؛ فإن هذا خطأ وسفه في العقل ، وضلال في الدين .

أما كونه سفهاً في العقل ؛ فلأن الإنسان إذا بقي في حياته ، فإما محسناً فيزداد ، وإما مسيئاً فيستعتب ويتوب إلى الله ﷻ ، وكونه يموت فإنه لا يدري ، فلعله يموت على أسوأ خاتمة والعياذ بالله ، لهذا نقول : لا تفعل فإن هذا سفه في العقل .

أما كونه ضلالاً في الدين فلأنه ارتكاب لما نهى عنه النبي ﷺ ، ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام - : « لَا يَتَمَنَّي أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ » والنهي هنا للتحريم ، لأن تمنى الموت فيه شيء من عدم الرضا بقضاء الله ، والمؤمن يجب عليه الصبر ، إذا أصابته الضراء ، فإذا صبر على الضراء نال شيئين مهمين : الأول : تكفير الخطايا ، فإن الإنسان لا يصيبه هم ولا غم ولا أذى ولا شيء إلا كفر الله به عنه حتى الشوكة يشاكها ؛ فإنه يكفر بها عنه .

الثاني : إذا وفق لاحتساب الأجر من الله وصبر يبتغي بذلك وجه الله ، فإنه يثاب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الْقَصْدُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] .

أما كونه يتمنى الموت : فهذا يدل على أنه غير صابر على ما قضى الله ﷻ ولا راض به ، ويحزن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه إما أن يكون من المحسنين ، فيزداد في بقاء حياته عملاً صالحاً .

ومن المعلوم أن التسبيحة الواحدة في صحيفة الإنسان خير من الدنيا وما فيها ؛ لأن الدنيا وما فيها تذهب وتزول ، والتسبيح والعمل الصالح يبقى ، قال الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ آتِ الْبَنِينَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ^(٣) [الكهف: ٤٦] . فأنت إذا بقيت ولو على أذى ولو

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ومسلم في الذكر والدعاء (١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٣) .

(٣) قوله ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ كل عبادة يقصد بها وجه الله . قيل الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس ، =

على ضرر ؛ فإنك ربما تزداد حسنات .

وإما مسيقًا قد عمل سيئًا ، فاعله يستعيب أي يطلب من الله العتبي أي الرضا والعذر ، فيموت وقد تاب من سيئاته ، فلا تتم الموت لأن الأمر كله مقضي ، وربما يكون في بقائك خير لك أو خير لك ولغيرك ، فلا تتمن الموت ، بل اصبر واحتسب ، فإن الله سيجعل بعد عسر يسرا .

٥٨٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَ أَصَابُهُ ، فَإِنْ كَانَ لَابْدُ فَاعِلًا ، فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي » ^(١) متفق عليه .

٥٨٧ - وعن قيس بن أبي حازم قال : دخلنا على خباب بن الارت رضي الله عنه نَعُوذُهُ وَقَدْ اكْتَوَى سَبْعَ كَيَاتٍ فَقَالَ : إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ سَلَفُوا مَضَوْا ، وَلَمْ تَنْقُضْهُمْ الدُّنْيَا ، وَإِنَّا أَصَبْنَا مَا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ ، وَلَوْلَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ ، ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَتَنِي حَائِطًا لَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُسْلِمَ لَيُؤْخَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ إِلَّا فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ ^(٢) . متفق عليه ، هذا لفظ رواية البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به إلا أن يكون لفتنة في الدين : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَ أَصَابُهُ » مثل أن يصاب الإنسان بمرض شديد ، أو بفقر شديد ، أو بدين متعب ، فيقول : اللهم أمتني حتى أستريح من هذه الدنيا ، فإن هذا حرام ولا يجوز ، لأنه لو مات فإنه لن يستريح ، ربما ينتقل من عذاب الدنيا إلى عذاب في الآخرة أشد وأشد .

ولهذا نهى النبي - عليه الصلاة والسلام - أن تتمنى الموت للضر الذي ينزل بك ، ولكن قابل هذه المصائب بالصبر والاحتساب وانتظار الفرج ، واعلم أن دوام الحال من المحال ، والله ﷻ يقدر الليل والنهار ، ويخلف الأمور على وجه لا يحتسبه الإنسان ولا يظنه ، لأن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له : كن . فيكون ، لا تتمن الموت لضر نزل بك .

أما ما يتعلق بفتنة الدين ، إذا افتتن الناس في دينهم وأصابتهم فتنة ؛ إما في زخارف الدنيا أو غيرها من الفتن ، أو أفكار فاسدة ، أو ديانات منحرفة أو غير ذلك ، فهذا أيضًا لا يتمنى بسببه الإنسان الموت ، ولكن يقول : اللهم اقبضني إليك غير مقتون ، فيسأل الله أن يثبته وأن يقبضه إليه غير مقتون .

= وقيل : هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) أخرجه البخاري في المرضي (٥٦٧١) ومسلم في الذكر والدعاء (١٠) والإمام أحمد في مسنده (١٠٣/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضي (٥٦٧٢) ومسلم في الذكر والدعاء (١٢) .

والأ فليصبر ؛ لأنه ربما يكون بقاءه مع هذه الفتن خيراً للمسلمين يدافع عنهم ويناضل ، ويساعد المسلمين ويقوي ظهورهم ، لكن يقول : اللهم إن أردت بعبادك فتنة ، فاقبضني إليك غير مفتون . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فإن كان لابد فاعلاً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » ؛ فأنت لا تدري وجه الخير في ذلك ، فاجعل الأمر إلى الله : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي » يعني إذا كانت . « وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » . فإذا دعوت الله بهذا الدعاء ، فإن الله ﷻ يستجيب دعاءك .

وفي هذا الحديث : دليل على جواز الشرط في الدعاء ، أن تشترط على الله ﷻ في الدعاء ، وقد جاء ذلك في نصوص أخرى ؛ مثل آية اللعان فإن الزوج يقول في الخامسة : إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وهي تقول في الخامسة : إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فالشرط في الدعاء لا بأس به .

ثم ذكر المؤلف حديث قيس بن حازم حين دخلوا على خباب بن الارت ﷺ وهو من الصحابة الأجلاء ، دخلوا يعودونه بعد أن فتحت الدنيا على المسلمين .

والمسلمون كانوا في العهد الأول فقراء ، ولكن الله أغناهم بالغنائم الكثيرة التي غنموها من الكفار بإذن الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح : ٢٠] وقال : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح : ١٩] .

فلما فتح الله على المسلمين كثرت الأموال عندهم ، فزادت ونمت فحصل لبعضهم ترف ، وصار بعضهم إذا قدم له الغداء أو العشاء ييكي على ما كانوا عليه من ضحالة العيش وقلة ذات اليد . دخلوا على خباب بن الارت ﷺ وهو مريض وقد اكتوى سبع كيات .

والكي أحد الأدوية النافعة بإذن الله ، ثلاثة أشياء نص عليها الرسول - عليه الصلاة والسلام - وبين أنها بها الشفاء بإذن الله : « الكي والحجامة والعسل » ^(١) ؛ هذه الثلاثة من أنفع ما يكون بإذن الله ﷻ ، وهناك بعض العلل ما ينفع فيها إلا الكي ، فمثلاً ذات الجنب ، وهو داء يصيب الرئة فتتجلط وتلتصق بالصدر ويموت الإنسان منها إلا أن يشفيه الله ﷻ بأسباب .

هذا النوع من الأمراض لا ينفع فيه إلا الكي ، كم من مريض يصاب بذات الجنب يذهب إلى الأطباء ويعطونه الإبر والأدوية وغيرها ولا ينفع ، فإذا كُوي برئ بإذن الله .

كذلك هناك أشياء تصيب الأمعاء تسمى عند أطباء العرب الطير ؛ لأنها تتفرق في الجسد ، هذه أيضاً لا ينفع فيها إلا الكي ، مهما أعطيت المريض من الأدوية لا ينفع فيها إلا الكي .

(١) هذا معنى حديث وقد أخرجه البخاري في الطب (٥٦٨١) ولفظه « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربه عسل ، أو كية بنار ... » وعند ابن ماجه في الطب (٣٤٩١) .

هناك أيضًا شيء ثالث يسمى عند الناس الحبة ، ورم يظهر في الفم أو في الحلق ، وإذا انفجر هلك الإنسان ، هذا أيضًا لا ينفع فيه إلا الكي ، وأشياء كثيرة ما ينفع فيها إلا الكي .

خبايا بن الأرت رضي الله عنه كوي سبع كيات ، ثم جاءه أصحابه يعودونه فأخبرهم أن النبي ﷺ قال : « إن الإنسان يؤجر على كل شيء أنفقه إلا في شيء يجعله في التراب » يعني في البناء ، لأن البناء إذا اقتصر الإنسان على ما يكفيه ، فإنه لا يحتاج إلى كبير نفقة . يبنى له حجرة تكفيه هو وعائلته كما كان الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق ، كانت بيوته حُجُورًا ، لكل زوجة من زوجاته حجرة ، ليس فيها أكثر من ذلك ، وعند قضاء الحاجة يخرجون إلى الخلاء ويقضون حاجتهم فيه .

لكن تتطور الناس ، ومن علامات الساعة : أن ترى الحفاة العراة العالة - يعني الفقراء - يتطاولون في البنيان ^(١) ؛ في علوه في السماء أو في تدويقه وتحسينه ، فهذا المال الذي يجعل في البناء لا يؤجر الإنسان عليه ، اللهم إلا بناء يجعله للفقراء يسكنونه ، أو يجعل غلته في سبيل الله أو ما أشبه ذلك ، فهذا يؤجر عليه ، لكن بناء يسكنه ، هذا ليس فيه أجر ، بل ربما إذا زاد الإنسان فيه حصل له وزر ، مثل ما يفعل بعض الفقراء الآن .

الآن عندنا فقراء يستدين الإنسان منهم إلى عشر سنين أو خمسة عشر وإن طال الأجل إلى عشرين سنة ، من أجل أن يرصع بنيانه بالأحجار الجميلة ، أو من أجل أن يضع له أقواسًا أو شرفات ، وهو مسكين يعمل هذا العمل المنهي عنه ويستدين على نفسه الديون الكثيرة .

وأما البنيان الذي يكون على حسب العادة ، وليس فيه تفاخر ولا سرف ولا استدانة من أحد ، فهذا لا بأس به وليس فيه إثم إن شاء الله .

* * *

٦٨ - باب الورع وترك الشبهات

قال الله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَيْكَ لَيَالْمِرْصَادِ ﴾ ^(٢) [الفجر: ١٤] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب الورع وترك الشبهات .

الورع والزهد يشته به معناه عند كثير من الناس ، لكن الفرق بينهما كما قال ابن القيم رحمه الله في كتاب الروح : الورع ترك ما يضر في الآخرة ، والزهد ترك ما لا ينفع ، فمقام الزهد أعلى من مقام الورع ، لأن الورع أن يترك الإنسان ما يضر ، والزهد ، أن يترك الإنسان ما لا ينفع ، لأن الأشياء ثلاثة أقسام : ضار ، ونافع ، وما ليس بضار ولا نافع .

(١) هذا معنى حديث وهو جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في الإيمان (٥) ، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠) .

(٢) قوله ﴿ هَيِّنًا ﴾ أي سهلاً ، قوله ﴿ لَيَالْمِرْصَادِ ﴾ أي يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها .

فالزاهد يترك شيئين من هذا ؛ يترك الضار ، ويترك ما ليس بنافع ولا ضار ، ويفعل ما هو نافع .
والورع يترك شيئاً واحداً منهما وهو ما كان ضاراً ، ويفعل النافع ويفعل الشيء الذي ليس فيه نفع ولا ضرر .

وبهذا صارت منزلة الزاهد أرفع من منزلة الورع ، وربما يطلق أحدهما على الآخر ؛ فالورع ترك ما يضر ، ومن ذلك ترك الأشياء المشتبهة ؛ المشتبهة في حكمها ، والمشتبهة في حقيقتها ، فالأول : اشتباه في الحكم ، والثاني : اشتباه في الحال ، فالإنسان الورع هو الذي إذا اشتبه عليه الأمر تركه إن كان اشتباهاً في تحريره ، وفعله إن كان اشتباهاً في وجوبه لئلا يآثم بالترك .

ثم إن المؤلف رحمه الله ذكر آيتين في هذا الباب ، ذكر قوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .
﴿ وَتَحْسَبُونَهُ ﴾ : الضمير يعود على ما تلقاه الناس من الحديث الإفك الكذب في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (١) ، وذلك أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : كانت زوج النبي ﷺ ، وكان المنافقون يتربصون بالنبي ﷺ أن يشوهوا سمعته ، ويدنسوا عرضه ، فحصلت غزوة من الغزوات ، فلما قفل النبي ﷺ راجعاً منها نام في أثناء الطريق ، وكان لنساء النبي ﷺ رجال يساعدون في ترحيلهن . فلما كان في آخر الليل ذهبت عائشة رضي الله عنها لقضاء حاجتها ، فجاء الذين يحملون الهودج الذي تركب فيه فحملوه على البعير وشدوه عليه ، وظنوا أنها بداخله ؛ لأنها كانت في ذلك الوقت صغيرة السن خفيفة الوزن .

ثم سار الركب ، فلما رجعت عائشة رضي الله عنها إلى المكان وجدت الناس قد رحلوا ، فكان من ذكائها وثبات جأشها وطمأنينتها أن بقيت في المكان ، ما ذهبت تتجول يميناً وشمالاً ، لأنها لو ذهبت ربما ضاعت وضيعوها ، لكنها بقيت في مكانها ، وكان رجل من خيار الصحابة يقال له : صفوان بن المعطل نائماً ، وكان من قوم إذا ناموا لم يستيقظوا إلا إذا شبعوا من النوم ، فلو أيقظت أحدهم قبل أن يأخذ كفايته من النوم لم يستيقظ .

فاستيقظ صفوان رضي الله عنه فوجد الناس قد رحلوا ، ورأى هذا الشبح ؛ هذا السواد ، فأقبل إليها ، فإذا هي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكان يعرفها قبل أن ينزل الحجاب ، فماذا صنع هذا الرجل ؟
أنأخ البعير ، ولم يتكلم بأي كلمة احتراماً لفراس رسول الله ﷺ ، لا يريد أن يتكلم مع زوجته في مثل هذا المكان ، أنأخ البعير ، ووضع رجله على ساق البعير ، فركبت عائشة رضي الله عنها ، فأخذ الزمام وجعل يقود البعير ، ليجعل عائشة خلفه .

فلما أقبل على القوم تكلم المنافقون ، ورأوا في ذلك فرصة ، وقالوا في أم المؤمنين ما هم فيه كاذبون ؛ امرأة في سفر مع رجل تتأخر عن القوم ، فصاروا يتكلمون في عرض عائشة ، وهم لا يريدون عرض عائشة ، لا تهمهم فتاة عند زوجها ، الذي يهمهم تدنيس فراس رسول الله ﷺ : ﴿ قَتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾

(١) حديث الإفك أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١) ، ومسلم في التوبة (٥٦) .

أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ ﴿ [التوبة: ٣٠] .

فجعلوا يتكلمون ، وكان من حكمة الله ﷻ أَنْ عائشة لما قدموا المدينة مرضت وبقيت في بيتها ، وكان النبي ﷺ يدخل عليها ، لكنها لم تر منه ما كانت تراه في السابق ، كان يمر ويقول : كيف تيكم ؟ يعني : كيف هذه ؟ يسأل هكذا سؤالاً عابراً ، لا يستقصي في السؤال فيقول مثلاً : كيف هي اليوم ؟ عساها أحسن من أمس ، وما أشبه ذلك ، ولكنه يقول هذه الكلمة ؛ لأن كلام المنافيين قد شاع في المدينة وصار عند بعض المؤمنين تردد ، والرسول - عليه الصلاة والسلام - كان لا يشك في أهله ، ويرى أن الله ﷻ يأبى بحكمته أن يدنس فراش نبيه ﷺ .

ولم يكن ليصدق بهذا أبداً ، لكن مع كثرة الكلام وكثرة القرع وكثرة الإرجاف ، تردد الرسول ﷺ في الأمر ، وبعد أن مضى نحو شهر خرجت عائشة رَضِيهَا اللهُ عَنْهَا وخالتها أم مسطح بن أثاثه ، خرجت تقضي حاجتها ، وكانوا في هذا الوقت ليس عندهم مراحيض في البيوت ، إذا أراد الواحد أن يقضي حاجته خرج إلى الخلاء وبحث عن مكانٍ مطمئنٍ نازلٍ وقضى فيه حاجته .

فخرجت عائشة مع أم مسطح إلى مكان قضاء الحاجة ، فعثرت أم مسطح ، فقالت : تعس مسطح ، فتعجبت عائشة كيف تقول لرجل من المهاجرين شهد بدراً تقول فيه : تعس مسطح ، وهو كذلك ابنها ؟ فسألتها عائشة عن سبب قولها ذلك .

فإن تعس معناها : خسر وهلك ، فقالت : أما علمت بكذا وكذا وكذا ، وأخبرتها بقصة الإفك ، وأن مسطحاً كان ممن صدقوا تلك الفرية ، فازدادت عائشة رَضِيهَا اللهُ عَنْهَا مرضاً إلى مرضها ، وصارت تبكي ليلاً ونهاراً لا يرقأ لها دمع ، ولا تهنأ بعيش .

وبينما الأمر كذلك حتى انتهى نفاق المنافيين إلى الرأس ، أنزل الله فيها هذه الآيات الكريمة : ﴿ إِنْ الَّذِينَ جَاءُوا بِإِفْكِ عُصْبَةِ نِسْكَ ﴾ يعني طائفة منكم ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ سبحانه الله !! هذا الإفك والرمي بالفاحشة لا نحسبه شراً ؟ نعم لا نحسبه شراً ، بل هو خير لرسول الله ﷺ وزوجه والمؤمنين ؛ لأنه حصل به من تمحيص الذنوب ورفع المقامات ، والدفاع عن عرض الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفراشه ما هو خير .

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ كل واحد تكلم في هذا الأمر له ما اكتسب من الإثم ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] .

أعظمهم إثماً الذي قاد هذه الفتنة وأوقد نارها والعياذ بالله .

ثم ساق الله تعالى الآيات إلى قوله : ﴿ إِنْ تَقَوُّوْهُ يَا سَيِّدُكُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّا يَأْتِيَنَّكُمْ بِهِ يَعْلَمُ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥] .

وكان الورع والتقوى ألا يتكلموا في هذا الأمر ، وأن يسألوا أنفسهم : من أين مصدره ؟ من المنافيين الذين هم أكذب الناس .

ولهذا من علامات النفاق الكذب ، استمعوا إلى قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ شهادة مؤكدة بأن واللام . قال الله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ حق إنك رسوله ومع ذلك : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

شهادة بشهادة أيهما أعظم ؛ قولهم : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أم قول الله : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؟ لاشك أن قول الله أصدق ، فهو يشهد ﷻ : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ .

هذه الفاحشة التي أشيعت مصدرها من المنافقين ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، لكن الخبيث ما كان يتكلم صراحة ، يأتي إلى الناس ويقول : أما سمعتم ما قيل في عائشة ، قيل كذا وكذا . وهناك أناس من المؤمنين تكلموا بهذا صراحة ، منهم مسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ؓ ، وحمنة بنت جحش ، تكلموا ؛ لأنهم بشر ، وأقسم أبو بكر ؓ ألا ينفق على مسطح بن أثانة وهو ابن خالته ، لكنه أقسم ألا ينفق عليه ، لا لأنه قال في ابنته ؛ بل قال في رسول الله ﷺ ما لا يليق . فأنزل الله ﷻ قوله : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمُ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النور : ٢٢] .

﴿ وَلَا يَأْتِلِ ﴾ : أي لا يحلف ، والمراد بهذا أبو بكر . ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمُ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني بذلك مسطحاً ، فلا ينبغي لأهل الفضل أمثال أبي بكر ؓ أن يمتنعوا عن الإنفاق على أولي القربى والمساكين والمهاجرين ، وإن هم أخطؤوا في بعض الأمور .

﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : بلى والله ، نحب أن يغفر الله لنا ، فرد النفقة على مسطح . فامثل أبو بكر هذا الامتثال العظيم . ثم أمر النبي ﷺ أن يجلد مسطح وحسان وحمنة ، كل واحد منهم ثمانين جلدة حد القذف ، لكن عبد الله بن أبي ما أمر بجلده ، لأنه خبيث ما كان يصرح ؛ ولأن الحد تطهير للمحدود ، وعبد الله بن أبي ليس أهلاً للطهارة ، لأنه نجس خبيث .

فالخلاصة : أن من الورع ألا يتكلم إلا بما يعلم ، وهذا الاستشهاد الذي استشهد به المؤلف ينطبق تمامًا على زماننا الآن ، ما أكثر الذين يتكلمون في ولاية الأمور بغير علم ، ما أكثر الذين يتكلمون في العلماء بغير علم ، ما أكثر الذين يتكلمون في طلبه العلم بغير علم ، ما أكثر الذين يتكلمون في المحسنين من ذوي الأموال بغير علم .

فليس عند أكثر الناس ورع ، يتكلم الإنسان بما جاء على لسانه من غير أن يتحقق ، وهذا من الظلم والعدوان على من تكلم فيه . لما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - في الغيبة إنها : « ذكرك أخاك بما يكره » قالوا : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ،

وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته ^(١) .

٥٨٨ - وعن الثعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ الْحَلَالَ يَتُّنُ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ يَتُّنُ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ : أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » ^(٢) متفقٌ عليه . وَرَوَاهُ مِنْ طُرُقٍ بِالْفَاظِ مُتَقَارِبَةٌ .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله فيما نقله عن الثعمان بن بشير رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » قسم النبي ﷺ الأمور إلى ثلاثة أقسام : حلال يتُّن ، وحرام يتُّن ، ومشتبه .

الحلال البيِّن : كحلِّ بهيمة الأنعام ، والحرام البين كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وكل ما في القرآن من كلمة « أحلَّ » فهو حلال ، ومن كلمة « حرمَ » فهو حرام ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَحْلَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] هذا حلال يتُّن ، وقوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ الزَّيْوَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] هذا حرام يتُّن . هناك أمور مشتبهات تخفى على الناس ، وأسباب الخفاء كثيرة ، منها ألا يكون النصُّ ثابتاً عند الإنسان فيتردد : هل يصح عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو لا يصح ، ثم إذا صح قد تشبه دلالته : هل يدل على كذا أو لا يدل ؟ ثم إذا دلَّ على شيء معين فقد يشبهه : هل له مخصص إن كان عائماً ؟ هل له مقيد إن كان مطلقاً ؟ ثم إذا تبين قد يشبهه : هل هو باقٍ أو منسوخ .

المهم : أن أسباب الاشتباه كثيرة ، فما هو الطريق إلى حل هذا الاشتباه ؟ الطريق بينه النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » من اتقاها يعني تجنبها إلى الشيء الواضح البين فقد استبرأ لدينه وعرضه .

« استبرأ لدينه » : حيث سلم من الوقوع في المحرم . ولعرضه : حيث سلم من كلام الناس فيه ، لأنه إذا أخذ الأمور المشتبهة صار عرضة للكلام فيه ، كما إذا أتى الأمور البينة الواضح تحريمها .

ثم ضرب النبي ﷺ مثلاً لذلك بالراعي الذي يرعى الغنم ، أو الإبل ، أو البقر « يرعى حول الحمى » الذي حماه أحد من الناس لا يرعى فيه أحد ، ومعلوم أنه إذا حمى ازدهر وكثر عشبه أو كثر زرعه ، لأن

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٠) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٤) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٤) .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٠٧) واللفظ له ، والبخاري في الإيمان (٥٢) ، قوله « استبرأ لدينه وعرضه » أي حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعي ، وصان عرضه عن كلام الناس ، قوله « الحمى » الحمى ما حمى من الأرض لأجل الدواب ، قوله « مضغة » أي قطعة من اللحم قدر ما يمسح .

الناس لا ينتهكونه بالرعي ، فالراعي الذي يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ؛ لأن البهائم إذا رأت الخضرة في هذا الحمى ، ورأت العشب ، فإنها تنطلق إليه وتحتاج إلى ملاحظة ومراقبة كبيرة .
ولو لاحظ الإنسان وراقب ، فإنه قد يغفل ، وقد تغلبه هذه البهائم ، فترتع في هذا الحمى « كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « ألا وإن لكل ملك حمى » وهذا يحتمل أن الرسول ﷺ قال ذلك إقراراً له ، وأن الملك له أن يحمي مكاناً معيناً يكثر فيه العشب لبهائم المسلمين ؛ وهي البهائم التي تكون في بيت المال ، كإبل الصدقة ، وخيل الجهاد وما أشبه ذلك .
وأما الذي يحمي لنفسه فإن ذلك حرام عليه ، لا يحل لأحد أن يحمي شيئاً من أرض الله يختص بها دون عباد الله ، فإن ذلك حرام عليه ، لأن النبي ﷺ قال : « المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء والكلاء والنار » (١) .

فالكلاء لا يجوز لأحد أن يحميه فيضع عليه الشبك ، أو يضع عنده جنوداً يمنعون الناس من أن يرعوا فيه ، فهو غصب لهذا المكان ، وإن لم يكن غصباً خاصاً ؛ لأنه ليس ملكاً لأحد ، لكنه منع بشيء يشترك فيه الناس جميعاً ، فهذا لا يجوز ، ولهذا قال أهل العلم : يجوز للإمام أن يتخذ حمى مرعاً لدواب المسلمين بشرط ألا يضرهم أيضاً .

فقول الرسول ﷺ : « ألا وإن لكل ملك حمى » يحتمل أنه إقرار ، فإن كان كذلك فالمراد به ما يحميه الملك لدواب المسلمين ؛ كخيول الجهاد ، وإبل الصدقة وما أشبه ذلك .

ويحتمل أنه إخبار بالواقع وإن لم يكن إقراراً له ، لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد يخبر بالشيء الواقع أو الذي سيقع من غير إقرار له ، أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أننا سنركب سنن اليهود والنصارى . فقال : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمَنْ ؟ » (٢) فهذا ليس إقراراً ولكنه تحذير .

على كل حال فالملك له حمى يُحمى سواء بحق أو بغير حق ، فإذا جاء الناس يرعون حول الحمى ؛ حول الأرض المعشبة الخضرة ، فإنهم لا يملكون منع البهائم أن ترتع فيها .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « ألا وإن حمى الله محارمه » الله ﷻ أحاط الشريعة بسياج محكم ، حمى كل شيء محرم يضر الناس في دينهم ودنياهم ، وإذا كان الشيء مما تدعو النفوس إليه شدد السياج حوله .

(١) أخرجه أبو داود في البيوع (٣٤٧٧) ، وابن ماجه في الرهن (٢٤٧٢) .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده بلفظ « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم أهل الكتاب حذو القذة بالقذة » (١٢٥/٤) ، قوله « القذة » هي ريشة لطائر كالنسر والصقر بعد تسويتها وإعدادها لتركب في السهم (القذة بالقذة) يضرب بها المثل للشئيين يستويان ولا يتفاوتان .

انظر مثلاً إلى الزنى - والعياذ بالله - الزنى سببه قوة الشهوة وضعف الإيمان ، لكن النفوس تدعو إليه ، لأنه جبلة وطبيعة ، فجعل حوله سياجاً يبعد الناس عنه فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ [الإساءة: ٣٢] لم يقل ولا تزنوا ، قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ يشمل كل ذريعة توصل إلى الزنى من النظر واللمس والمحادثة وغير ذلك . كذلك الربا حرمه الله ﷻ ، ولما كانت النفوس تطلبه لما فيه من الفائدة حرم كل ذريعة إليه ، فحرم الحيل على الربا ومنعها ، وهكذا جعل الله ﷻ للمحارم حمى له تمنع الناس من الوقوع فيها . ثم قال ﷻ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » . « مضغة » يعني قطعة لحم صغيرة بقدر ما يعضغه الإنسان ، لكن شأنها عظيم ، هي التي تدير الجسد « إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله » ليست العين ، ولا الأنف ، ولا اللسان ، ولا اليد ، ولا الرجل ، ولا الكبد ، ولا غيرها من الأعضاء ، إنما هي القلب ، ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول : « اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك » (١) .

فالإنسان مدار صلاحه وفساده على القلب . ولهذا عليك أيها المسلم أن تعتني بصلاح قلبك ، فصلاح الظواهر وأعمال الجوارح طيب ، ولكن الشأن كل الشأن في صلاح القلب ، يقول الله عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [النافقون: ٤] ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ من الهيئة الحسنة ، وحسن عمل الجوارح ، وإذا قالوا ، قالوا قولاً تسمع له من حسنه وزخرفته ، لكن قلوبهم خربة والعياذ بالله ، ﴿ كَانَتْهُمْ حُشُبٌ مُّسْتَنْدَةٌ ﴾ [النافقون: ٤] ليس فيها خير .

فاعتن يا عبد الله ، بصلاح قلبك ، وانظر قلبك هل فيه شيء من الشرك ؟ هل فيه شيء من كراهة ما أنزل الله ؟ هل فيه شيء من كراهة عباد الله الصالحين ؟ هل فيه شيء من الميل إلى الكفار ؟ هل فيه شيء من موالاة الكفار ؟ هل فيه شيء من الحسد ؟ هل فيه شيء من الغل ؟ هل فيه شيء من الحقد ؟ أو غير ذلك من الأمراض العظيمة الكثيرة فإذا كان فيه من ذلك فظهر قلبك من هذا وأصلحه ، فإن المدار عليه .

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ فِي الْقُبُورِ ۖ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ٩، ١٠] هذا في يوم القيامة ، العمل يكون على الباطن ، في الدنيا العمل على الظاهر ، مالنا إلا ظواهر الناس ، لكن في الآخرة العمل على الباطن ، أصلح الله قلوبنا وقلوبكم .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الطارق: ٩] يعني تختبر البواطن فمن كان من المؤمنين ظهر إيمانه ، ومن كان من أهل النفاق ظهر نفاقه والعياذ بالله .

لذلك أصلح قلبك يا أخي ، لا تكره شريعة الله ، لا تكره عباد الله الصالحين ، لا تكره أي شيء مما أنزل الله ، فإن كراهيتك لشيء مما أنزل الله كفر بالله تعالى ، ودليل على عدم إيمانك ، ودليل على أن الإيمان لم يتمكن من قلبك .

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٧) بلفظ « اللهم مصرف القلوب ... » ، والترمذي في الدعوات (٣٥٢٢) .

٥٨٩ - وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم وجدَ تمرَةً في الطريق ، فقال : « لَوْلا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا » ^(١) متفقٌ عليه .

٥٩٠ - وعن الثَّوَالِيسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الْبِرُّ حُسْنُ الْخَلْقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » ^(٢) رواه مسلم .

٥٩١ - وعن وابصةَ بن معبد رضي الله عنه قال : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : « جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ ؟ » قُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَ : « اسْتَنْتَفَيْتَ قَلْبَكَ ، الْبِرُّ : مَا اطْمَأَنَّتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَقْتَوَكَ » ^(٣) حديثٌ حسن ، رواه أحمدُ والدارِمِيُّ في مُسْتَدْرَكَيْهِمَا .

الشرح

قال المؤلف - الحافظ النووي - رحمته الله في كتابه رياض الصالحين في باب الورع وترك الشبهات : عن الثَّوَالِيسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الْبِرُّ حُسْنُ الْخَلْقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » .

ف قوله - عليه الصلاة والسلام - : « الْبِرُّ حُسْنُ الْخَلْقِ » يعني أن حسن الخلق من البر الداخل في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] .

وحسن الخلق يكون في عبادة الله ، ويكون في معاملة عباد الله .

فحسن الخلق في عبادة الله : أن يتلقى الإنسان أوامر الله بصدر منشرح ، ونفس مطمئنة ، ويفعل ذلك بانقياد تام ، بدون تردد ، وبدون شك ، وبدون تسخط ، يؤدي الصلاة مع الجماعة منقاداً لذلك ، يتوضأ في أيام البرد منقاداً لذلك ، يتصدق بالزكاة من ماله منقاداً لذلك ، يصوم رمضان منقاداً لذلك ، يحج منقاداً لذلك .

وأما في معاملة الناس : بأن يقوم ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والنصح بالمعاملة وغير هذا ، وهو منشرح الصدر ، واسع البال ، لا يضيق بذلك ذرعاً ، ولا يتضجر منه ، فإذا علمت من نفسك أنك في هذه الحال ، فإنك من أهل البر .

أما الإثم : فهو أن الإنسان يتردد في الشيء ، ويشك فيه ، ولا ترتاح له نفسه ، وهذا فيمن نفسه مطمئنة راضية ، بشرع الله .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، وقد أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥٥) ، ومسلم في الزكاة (١٦٤) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤) - واللفظ له - ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٢/٤) ، قوله « الْبِرُّ » البر بمعنى الصلة واللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة والطاعة ، وتلك هي مجامع حسن الخلق .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٨/٤) ، والدارمي في البيوع (٢٤٦/٢) ، وعند أحمد والدارمي « جئت تسأل عن البر والإثم » ، قوله « وتردد في الصدر » أي لم ينشرح له الصدر .

وأما أهل الفسوق والفجور : فإنهم لا يترددون في الآثام ، تجدد الإنسان منهم يفعل المعصية منشرحاً بها صدره - والعياذ بالله ، ولا يبالى بذلك ، لكن صاحب الخير الذي وفق للبر هو الذي يتردد الشيء في نفسه ، ولا تطمئن إليه ، ويحيك في صدره ، فيعلم بذلك أنه إثم .

وموقف الإنسان من هذا أن يدعه ، وأن يتركه إلى شيء تطمئن إليه نفسه ، ولا يكون في صدره حرج منه ، وهذا هو الورع ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « وإن أفتاك الناس وأفتوك » ، حتى لو أفتاك مفت بأن هذا جائز ، ولكن نفسك لم تطمئن ولم تشرح إليه فدعه ، فإن هذا من الخير والبر . إلا إذا علمت أن في نفسك مرضاً من الوسواس والشك والتردد فيما أحل الله ، فلا تلتفت لهذا ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - إنما يخاطب الناس ، أو يتكلم على الوجه الذي ليس فيه أمراض ، أي ليس في قلب صاحبه مرض ، فإن البر هو ما أطمأنت إليه نفس صاحب هذا القلب الصحيح ، والإثم ما حاك في صدره وكره أن يطلع عليه الناس .

* * *

٥٩٢ - وعن أبي سبرة - بكسر السين المهملة وفتحها - عُبَيْةُ بْنُ الْحَارِثِ رضي الله عنه أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُبَيْةً وَالتَّتِي قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا ، فَقَالَ لَهَا عُبَيْةُ : مَا أَعْلَمُ أَنَّكَ أَرْضَعْتَنِي وَلَا أَخْبَرْتَنِي ، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالْمَدِينَةِ ، فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ ، وَقَدْ قِيلَ ؟ ! » فَفَارَقَهَا عُبَيْةٌ وَتَكَحَّتْ زَوْجاً غَيْرَهُ ^(١) . رواه البخاري .

٥٩٣ - وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .
معناه : اترك ما تشك فيه ، وخذ ما لا تشك فيه .

الشرح

هذان الحديثان ذكرهما المؤلف رحمته الله في باب الورع وترك الشبهات . فالأول في مسألة الرضاع : حديث عبة ، والثاني في ترك المتشابه : حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
أما الأول : فإن عبة تزوج امرأة ابن أبي إهاب ، فلما تزوجها جاءت امرأة فقالت إنني أرضعته هو والمرأة التي تزوجها ، يعني فيكون أختاً لها من الرضاع ، وأخوها من الرضاع يحرم عليها كما يحرم عليها أخوها من النسب ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ^(٣) ولكن لا بد لهذا من شروط :

(١) أخرجه البخاري في العلم (٨٨) . قوله « كيف وقد قيل » أي كيف يكون اجتماعكما كزوجين وقد قيل إنكما أخوان .
(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥/٨) .
(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٤٥) ومسلم في الرضاع (١٢) .

الشرط الأول : أن يكون اللبن من آدمية ، فلو اشترك طفلان في الرضاع من شاة أو من بقرة أو من بعير ، فإنهما لا يصيران أخوين ، لأنه لا بد أن يكون الرضاع من آدمية لقوله تعالى : ﴿ وَأَمْتُهُنَّكُمْ أَكْثَرُ ﴾ [النساء : ٢٣] .

الشرط الثاني : لا بد أن يكون الرضاع خمس رضعات فأكثر ، فإن كان مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثة مرات أو أربع مرات ، فإنه ليس بشيء ، ولا يؤثر ^(١) ، فلو أن امرأة أرضعت طفلاً أربع مرات في أربعة أيام كل مرة يشبع ، فإنه لا يكون ابناً لها ، لأنه لا بد من خمس ، ولو أرضعته خمس مرات ولو لم يشبع فإنه تكون أمًا له ويكون الرضاع محرماً .

الشرط الثالث : لا بد أن يكون في زمن الإرضاع ، وهو ما قبل الفطام في الحولين ، فإن لم يكن في هذا الزمن بأن أرضعته وهو كبير ، فإن ذلك لا يؤثر ^(٢) ، فلو أن طفلاً له خمس سنوات رضع من امرأة خمس مرات أو عشر مرات ، فإنه لا يكون ابناً لها من الرضاع ، لأنه ليس في زمن الإرضاع . فهذه شروط ثلاثة ، وإذا ثبت التحريم فإنه ينتشر إلى المرتضع وذريته فقط ، ولا ينتشر إلى إخوانه وأبائه وأمهاته ، وعلى هذا فيجوز لأخي الطفل الراضع أن يتزوج أخت أخيه من الرضاع ، وأن يتزوج أم أخيه من الرضاع ، لأنه لا تأثير في الرضاع إلا على المرتضع وذريته يعني فروعه .

فأما أصوله وحواشيه : أصوله من آباء وأمهات ، وحواشيه من إخوة ، وأعمام ، وأبنائهم ، وبناتهم ، فإنه لا تأثير لهم في الرضاع ، سواء كان أكبر منه أو أصغر منه ، وما اشتهر عند العامة من أن إخوته الذين هم أصغر منه يلحقهم حكم الرضاع ، فإنه لا صحة له .

بعض العوام يقول : إذا رضع طفل من امرأة صار ابناً لها وصار إخوته الذين من بعده أبناءً لها وهذا غير صحيح ، بل جميع إخوته ليس لهم فيها تعلق بوجه من الوجوه .

وأما حديث الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ منه هذه الجملة - المفيدة العظيمة التي تعتبر قاعدة في الورع وهي : « دع ما يريك إلا ما لا يريك » يريك : أي يحصل لك به ريب وشك ، فدعه ولا تأخذ إلا بما تيقنته أو غلب على ظنك ، إن كان مما يفيد فيه غلبة الظن .

وأما ما شككت فيه فدعه ، وهذا أصل من أصول الورع ، ولهذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم تمر في الطريق فلم يأكلها وقال : « لولا أنني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها » ^(٣) ، وهذا يدخل في هذا الحديث : « دع ما يريك إلى ما لا يريك » .

ومن ذلك : ما إذا كان بينك وبين شخص محاسبة ، وحصل زيادة لك من أجل هذه المحاسبة ،

(١) مذهب الشافعية أنه لا يحرم إلا خمس رضعات ، وهو مذهب الحنابلة أيضاً . أما الحنفية فقالوا : « يحصل ثلاث رضعات » (الوسيط في المذهب ١٨٣/٦) .

(٢) عند الشافعي لا أثر للرضاع بعد الحولين ، وعند أبي حنيفة « ثلاثون شهراً » (الوسيط في المذاهب ١٨٢/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٣١) ، ومسلم في الزكاة (١٦٤) .

وشككت فيها فدعها ، وإذا شك فيها صاحبك وتركها فتصدق بها تخلصاً منها ، أو تجعلها صدقة معلقة ؛ بأن تقول : اللهم إن كانت لي فهي صدقة أتقرب بها إليك ، وإن لم تكن لي فهو مالٌ أتخلص بالصدقة به من عذابه .

والحاصل : أن هذا الحديث حديث عظيم في باب الورع : « دع ما يريك إلى ما لا يريك » . ما تشك فيه اتركه وخذ بالشيء الذي لا يلحقك به قلق ولا شك ولا اضطراب .

٥٩٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلامٌ يُخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجِهِ ، فجاء يوماً بشيء ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : تَذري ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو ؟ قال : كنتُ تكهنتُ لإنسانٍ في الجاهلية وما أُخسِنُ الكهانة إلا أنني خدعته ، فلقيني ، فأعطاني بذلك هذا الذي أكلتُ منه ، فأدخل أبو بكر يده فقَاء كل شيء في بطنِهِ ^(١) ، رواه البخاري . « الخراج » : شيءٌ يجعلُهُ السيدُ على عبده يُؤديه إلى السيد كل يوم ، وباقِي كسبه يَكُونُ للعبد .

الشرح

نقل الحافظ النووي رحمته الله في باب الورع وترك الشبهات عن عائشة رضي الله عنها أن غلاماً كان لأبي بكر ، وكان أبو بكر يخرجه أي يدعه يشتغل ويضرب عليه خراجاً معيناً ، يقول : اثبت لي كل يوم بكذا وكذا وما زاد فهو لك .

وهذه المخارجة جائزة بالنسبة للعبيد ، إذا كان الإنسان عنده عبيد وقال لهم : اذهبوا اشتغلوا واثبوني كل يوم بكذا وكذا من الدراهم وما زاد فهو لكم ؛ فإن هذا جائز ؛ لأن العبيد ملك للسيد ، فما حصلوه فهو له سواء خارجهم على ذلك أم لم يخرجهم .

لكن فائدة المخارجة أن العبد إذا حصل ما اتفق عليه مع سيده فإن له أن يبقى من غير عمل ، يذهب في طلب العلم ، يبقى مستريحاً في بيته أو أن يشتغل ويأخذ ما زاد .

أما بالنسبة للعمال الذين يجلبهم الإنسان إلى البلاد ويقول : اذهبوا وعليكم كل شهر كذا وكذا من الدراهم ، فإن هذا حرام وظلم ومخالف لنظام الدولة ، والعقد على هذا الوجه باطل ، فليس لصاحب العمل شيء مما فرضه على هؤلاء العمال ، لأن العامل ربما يكدر ويتعب ولا يحصل ما فرضه عليه كفيله ، وربما لا يحصل شيئاً أبداً ، فكان في هذا ظلم .

أما العبيد فهم عبيد الإنسان ، مالههم وما في أيديهم فهو له .

هذا الغلام لأبي بكر كان قد خرجه على شيء معين يأتي به إليه كل يوم ، وفي يوم من الأيام قدم هذا الغلام طعماً لأبي بكر فأكله فقال : أتدري ما هذا ؟ قال : وما هو ؟ قال : هذا عوض عن أجره

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤٢) .

كهانة تكهننت بها في الجاهلية وأنا لا أحسن الكهانة ، لكنني خدعت الرجل فلقيني فأعطاني إياها .
وعوض الكهانة حرام ، سواء كان الكاهن يحسن صنعة الكهانة أو لا يحسن ؛ لأن النبي - عليه
الصلاة والسلام - نهى عن « خلوان الكاهن » ^(١) .

فلما قال لأبي بكر هذه المقالة ، أدخل أبو بكر يده في فمه فقاء كل ما أكل ، وأخرجه من بطنه ، لئلا
يتغذى بطنه بحرام . وهذا مال حرام ؛ لأنه عوض عن حرام ، وقد قال النبي ﷺ : « إن الله إذا حرم شيئاً
حرم ثمنه » ^(٢) ؛ فالأجرة على فعل الحرام حرام ، ومن ذلك تأجير بعض الناس دكاكينهم على الحلاقين
الذين يخلقون اللحى ، فإن هذه الأجرة حرام ولا تحل لصاحب الدكان ، لأنه استؤجر منه لعمل محرم ^(٣) .
ومن ذلك أيضاً : تأجير البنوك في المحلات ، فإن تأجير البنوك حرام ، لأن البنك معاملته كلها أو
غالبها حرام ، وإذا وجد فيه معاملة حلال فهي خلاف الأصل الذي من أجله أنشئ هذا البنك ،
فالأصل في إنشاء البنوك أنها للربا ، فإذا أجر الإنسان بيته أو دكانه للبنك فتعامل فيه بالربا فإن الأجرة
حرام ولا تحل لصاحب البيت أو صاحب الدكان .

وكذلك من أجر شخصاً يبيع المجلات الخليعة أو المحتوية على الأفكار الرديئة ومصادمة الشرع ، فإنه لا
يجوز تأجير المحلات لمن يبيع هذه المجلات ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾
[المائدة : ٢] ، وتأجير المحلات لهؤلاء معونة لهم ، وقال النبي ﷺ : « إن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه » ^(٤) .

وفي هذا الحديث : دليل على شدة ورع أبي بكر رضي الله عنه ، فهو جدير بهذا ؛ لأنه الخليفة الأول على
هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ، ولهذا كان قول أهل السنة والجماعة أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل هذه الأمة ، لأنه
الخليفة الأول . ولأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد خطب الناس في مرضه وقال : « إنه ليس
من الناس أحدٌ آمنٌ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر » ، ثم قال : « ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً »
لا اتخذت أبا بكر ، ولكن خلة الإسلام أفضل » .

والنصوص في هذا كثيرة متواترة ، حتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب القائل بالصدق وبالقسط

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٧) ومسلم في المساقاة (٣٩) ، قوله « خلوان الكاهن » هو ما يعطاه على كهانته .

(٢) هذا جزء من حديث وقد أخرجه أبو داود في البيوع (٣٤٨٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٤٧/١) .

(٣) الذي عليه سائر العلماء أنه لا يجوز للرجل أن يؤجر داره أو دكانه إذا كان ذلك بغرض فعل مُحَرَّم كبيع الخمر أو القمار
(انظر المعنى ٥٥٠/٥ ، بدائع الصنائع ١٨٩/٤ ، قفه الكتاب والسنة ١٥٤٤/٣ ، ١٥٤٥) . وقد قال ابن قدامة : تجوز إجارة
كل عين يمكن أن ينتفع بها منفعة مباحة مع بقائها بحكم الأصل . أما ما لا تجوز إجارته فعلى أقسام أولاً : ما لا يمكن الانتفاع به
مع بقاء عينه كالطعوم والمشروبات والأزهار . ثانياً : ما منفعته محرمة كالزنا والزرع والنوح والغناء وكتابة شعر محرم وحمل خمر
لمن يشربها أو حمل خنزير وميتة لمن يأكلهما . ثالثاً : ما يحرم بيعه لا يجوز إجارته سواء كان مما يقدر على تسليمه كالجمل
الشارد والمغصوب من غير غاصبه أو مما تجهل صفته أو مما لا نفع فيه كسباع البهائم التي لا تصلح للصيد ويستثنى من ذلك الحر
والوقف وأم الولد والمدير فإنه يجوز إجارته لكل منها مع حرمة بيعه ولا تجوز إجارة الكلب والخنزير بحال ولا تجوز إجارة ما لا
يقدر على تسليم منفعته . هذا هو ما ذكره ابن قدامة في المحرمات للإجارة . انظر المعنى مع الشرح الكبير (١٤٣/٦ ، ١٦٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢) .

والعدل ، كان يقول على منبر الكوفة وقد تواتر ذلك عنه : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » ^(١) . هكذا يقول ﷺ ، وقال : « لا أوتى برجل يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدّ المفتري » يعني جلد القذف والكذب ، وهذا من تواضعه ﷺ في الحق وقول الصدق .

وفيه رد ظاهر على الروافض الذين يفضلون عليًا على أبي بكر وعمر ؟ ﷺ ، بل بعضهم يفضل عليًا على رسول الله ﷺ ويقول : علي أفضل من محمد وأحق بالرسالة ، ولكن جبريل خان الأمانة وانصرف بالرسالة عن علي إلى محمد ، ولا شك أنهم على ضلال بين - والعياذ بالله - نسأل الله لنا ولهم الهداية . والحاصل : أن أبا بكر ﷺ كان من أهل الورع والزهد والبعد عن المشتبهات ؛ ولذلك فقد قاء كل ما في بطنه بعد أن أكله ؛ حتى لا يتعدى بطنه على شيء جاء من حرام أو من طريق شبهة .

٥٩٥ - وعن نافع أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ فَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ ، وفرض لآلِيهِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وخمسمائة ، فقيل له : هو من المهاجرين فَلِمَ نَقَصْتُهُ ؟ فقال : إِنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أَبُوهُ . يَقُولُ : لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ ^(٢) . رواه البخاري .

٥٩٦ - وعن عَطِيَّةَ بِنْتِ عُرْوَةَ السَّعْدِيَّةِ الصَّحَابِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَتْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدْعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ ، حَذَرًا لِمَا بِهِ بَأْسٌ » ^(٣) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في باب الورع وترك الشبهات فيما نقله عن نافع عن عبد الله بن عمر ﷺ أن - أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب فرض للناس أعطياتهم من بيت المال ، فجعل للمهاجرين أربعة آلاف ، وجعل لابنه عبد الله ثلاث آلاف وخمسمائة . وابنه عبد الله مهاجر ، فنقصه عن المهاجرين خمسمائة من أربعة آلاف ، فقيل له : إنه من المهاجرين فلماذا نقصته ؟ قال : « إنه هاجر به أبوه ولم يهاجر هو بنفسه ، وليس من هاجر به أبوه كمن هاجر بنفسه » ، وهذا يدل دلالة عظيمة على شدة ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ . وهكذا يجب على من تولى شيئًا من أمور المسلمين ألا يحايي قريبًا لقرابته ، ولا غنيًا لغناه ، ولا فقيرًا لفقره ، بل ينزل كل أحد منزلته ، فهذا من الورع والعدل ، ولم يقل عبد الله بن عمر : يا أبت ، أنا مهاجر ولو شئت لبقيت في مكة ، بل وافق على ما فرضه له أبوه . وأما الحديث الأخير في هذا الباب : فهو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يبلغ العبد أن يكون من

(١) ذكره الهندي في كثر العمال (٣٢٦٨٤) ، والعقيلي في الضعفاء (١٨١/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩١٢) وعند البخاري « إنما هاجر به أبواه .. » .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥) .

المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرًا لما به بأس ، وهذا فيما إذا اشتبه مباح بمحرم ، وتعذر التمييز بينهما ، فإنه من تمام اليقين والتقوى أن تدع الحلال خوفًا من الوقوع في الحرام .
وهذا أمر واجب كما قاله أهل العلم : أنه إذا اشتبه مباح بمحرم وجب اجتناب الجميع ، لأن اجتناب المحرم واجب ، ولا يتم إلا باجتناب المباح ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .
لكن لو اضطر إلى أحدهما فله أن يتحرى في هذه الحال ويأخذ بما غلب على ظنه ، ولنفرض أنه اشتبه طعام غيره بطعام نفسه ، ولكنه مضطر إلى الطعام ، ففي هذه الحال يتحرى ويأكل ما يغلب على ظنه أنه طعامه .

* * *

٦٩ - باب استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان
أو الخوف من فتنة في الدين ووقوع في حرام وشبهات ونحوها

قال الله تعالى : ﴿ فَهَرُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ^(١) [الذاريات : ٥٠] .
٥٩٧ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْحَفِيَّ » ^(٢) رواه مسلم .
والمراد بـ « الْغَنِيَّ » : غَنَى النَّفْسِ ، كما سَبَقَ في الحديث الصحيح .
٥٩٨ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رَجُلٌ : أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : « مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال : ثم من ؟ قال : « ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَعْزُدُ رُكْنَهُ » . وفي رواية : « يَتَّقِي اللَّهَ ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » ^(٣) متفق عليه .
٥٩٩ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعْفَ الْجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ . يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ » ^(٤) رواه البخاري .
و « شَعْفَ الْجِبَالِ » أغلاها .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان وخوف الفتنة .
واعلم أن الأفضل هو المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، هذا أفضل من المؤمن الذي لا

(١) قوله ﴿ فَهَرُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي اهربوا من عقاب الله إلى رحمته .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١١) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/١) .
(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (١٢٣) - واللفظ له - ، والبخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٦) .
(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (١٩) ، قوله « ومواقع القطر » أي الغيث ومواقعه هي مواضع الكلاء .

يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم^(١)، ولكن أحياناً تحصل أمور تكون العزلة فيها خيراً من الاختلاط بالناس؛ من ذلك إذا خاف الإنسان على نفسه فتنة، مثل أن يكون في بلد يطالب فيها بأن ينحرف عن دينه، أو يدعو إلى بدعة، أو يرى الفسوق الكثير فيها، أو يخشى على نفسه من الفواحش، فهنا تكون العزلة خيراً له. ولهذا أمر الإنسان أن يهاجر من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، ومن بلد الفسوق إلى بلد الاستقامة، فكَذَلِكَ إذا تغير الناس والزمان؛ ولهذا صح عن النبي ﷺ أنه قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن».

فهذا هو التقسيم؛ تكون العزلة هي الخير إن كان في الاختلاط شر وفتنة في الدين، وإلا فالأصل أن الاختلاط هو الخير، يختلط الإنسان مع الناس فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يدعو إلى حق، يبين السنة للناس، فهذا خير. لكن إذا عجز عن الصبر وكثرت الفتن، فالعزلة خير ولو أن يعبد الله على رأس جبل أو في قعر وادٍ. وبين النبي - عليه الصلاة والسلام - صفة الرجل الذي يحبه الله ﷻ فقال: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي». «التقي»: الذي يتقي الله ﷻ، فيقوم بأوامره، ويجتنب نواهيه؛ يقوم بأوامره من فعل الصلاة وأدائها في جماعة، يقوم بأوامره من أداء الزكاة وإعطائها مستحقيها، يصوم رمضان، يحج البيت، يبر والديه، يصل أرحامه، يحسن إلى جيرانه، يحسن إلى اليتامى، إلى غير ذلك من أنواع التقى والبر وأبواب الخير. «الغني»: الذي استغنى بنفسه عن الناس، غني بالله ﷻ عن سواه، لا يسأل الناس شيئاً، ولا يتعرض للناس بتذلل، بل هو غني عن الناس، مستغن بربه، لا يلتفت إلى غيره. «الخفي»: هو الذي لا يظهر نفسه، ولا يهتم أن يظهر عند الناس، أو يشار إليه بالبنان، أو يتحدث الناس عنه، تجده من بيته إلى المسجد، ومن مسجده إلى بيته، ومن بيته إلى أقاربه وإخوانه، يخفي نفسه.

ولكن لا يعني ذلك أن الإنسان إذا أعطاه الله علماً أن يتقوقع في بيته ولا يعلم الناس، هذا يعارض التقى، فتعليمه الناس خير من كونه يقبع في بيته ولا ينفع أحداً بعلمه، أو يقعد في بيته ولا ينفع الناس بماله.

لكن إذا دار الأمر بين أن يلمع نفسه ويظهر نفسه وبين نفسه، وبين أن يخفيها، فحينئذ يختار الخفاء، أما إذا كان لابد من إظهار نفسه فلا بد أن يظهرها، وذلك عن طريق نشر علمه في الناس وإقامة دروس العلم وحلقاته في كل مكان، وكذلك عن طريق الخطابة في يوم الجمعة والعيد وغير ذلك؛ فهذا مما يحبه الله ﷻ.

٦٠٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ

(١) هذا معنى حديث وقد أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٣٢) بلفظ «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم...»، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٧).

أصحابه : وَأَنْتَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ » ^(١) رواه البخاري .

٦٠١ - وعنه عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمَسِّكٌ عِثَانًا فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرْعَةً ، طَارَ عَلَيْهِ يَتَّبِعِي الْقَتْلَ ، أَوِ الْمَوْتَ مَطَانَهُ ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ ، أَوْ بَطْنٍ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ » ^(٢) رواه مسلم .

« يَطِيرُ » أي يُسْرِع . « وَمَتْنُهُ » : ظَهْرُهُ . « وَالْهَيْعَةُ » : الصَوْتُ للحرب . « وَالْفَرْعَةُ » : نحوه . وَ « مَطَانُ الشَّيْءِ » : المواضع التي يُطَنُّ وجودُهُ فيها . « وَالْغُنَيْمَةُ » - بضم الغين - تصغير الغنم . « وَالشَّعْفَةُ » بفتح الشين والعين : هي أعلى الجَبَل .

الشرح

هذان الحديثان في باب استحباب العزلة عند فساد الناس : الأول : حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم » ، يعني ما من نبي من الأنبياء أرسله الله ﷻ إلى عباده إلا رعى الغنم ، قالوا : وَأَنْتَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ » ، حتى النبي - عليه الصلاة والسلام - رعى الغنم . قال العلماء : والحكمة من ذلك أن يتمرن الإنسان على رعاية الخلق وتوجيههم إلى ما فيه الصلاح ، لأن الراعي للغنم تارة يوجهها إلى وادٍ مزهر مخضر ، وتارة إلى وادٍ خلاف ذلك ، وتارة يقيها واقفة ، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - سيرعى الأمة ويوجهها إلى الخير عن علم وهدى وبصيرة ، كالراعي الذي عنده علم بالمراعي الحسنة ، وعنده نصح وتوجيه للغنم إلى ما فيه خيرها ، وما فيه غداؤها وسقاؤها .

واختيرت الغنم ؛ لأن صاحب الغنم متصف بالسكينة والهدوء والاطمئنان ، بخلاف الإبل ؛ الإبل أصحابها في الغالب عندهم شدة وغلظة ، لأن الإبل كذلك فيها الشدة والغلظة ، فلهذا اختار الله ﷻ لرسوله أن يرعى الغنم ، حتى يتعودوا ويتمرنوا على رعاية الخلق .

فرسول الله ﷺ رعاها على قراريط لأهل مكة ، وموسى - عليه الصلاة والسلام - رعاها مهراً لابنة صاحب مدين ، فإنه قال : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ بِحَدَى ابْنَتِي هَازِلَةَ إِنَّكَ تَجِدُنِي فِي هَذِهِ أَوْ أَبْلَاكَ وَلَوْ أَنَّكَ لَعَدْتَنِ بِشَهِيدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا يَنْقُصُ عَهْدِي بِكَ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكَ » [النقص: ٢٧] .

وأما الحديث الثاني ففيه أيضاً دليل على أن العزلة خير فيكون الإنسان ممسكاً بعنان فرسه ، يطير

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢) ، قوله « قراريط » : قيل المراد بالقراريط هنا جزء من الدينار والدرهم ، وقيل : اسم مرعى بمكة .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٢٥) ، قوله « من خير معاش الناس » المعاش هو العيش وهو الحياة ، والمقصود والله أعلم : من خير أحوال عيشهم رجل ممسك ، قوله « ممسك عنان فرسه » أي متأهب ومتنظر وواقف بنفسه على الجهاد في سبيل الله ، قوله « حتى يأتيه اليقين » أي حتى يأتيه ملك الموت فيقبض روحه .

عليه كلما سمع هيئة ، فهو بعيد عن الناس يحمي ثغور المسلمين ، مهتم بأمور الجهاد على أتم استعداد للنفور والجهاد كلما سمع هيئة ركب فرسه فطار به ، أي مشى مشيًا مسرعًا .
وكذلك من كان في مكان من الأودية والشعاب منعزلًا عن الناس ، يعبد الله ﷻ ، ليس من الناس إلا في خير ، فهذا فيه خير .

ولكننا سبق أن قلنا إن هذه النصوص تحمل على ما إذا كان في الاختلاط فتنة وشر ، وأما إذا لم يكن فيه فتنة وشر ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم (١) .

* * *

٧٠ - باب فضل الاختلاط بالناس

وحضور جمعهم وجماعاتهم ، ومشاهد الخير ، ومجالس الذكر معهم ،
وعيادة مريضهم وحضور جنازتهم ومواساة محتاجهم ، وإرشاد جاهلهم ،
وغير ذلك من مصالحهم ، لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذى

اعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته هو المختار الذي كان عليه رسول الله ﷺ ،
وسائر الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وكذلك الخلفاء الراشدون ، ومن بعدهم من الصحابة
والتابعين ، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخبارهم ، وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم ، وبه
قال الشافعي وأحمد ، وأكثر الفقهاء . أجمعين . قال الله تعالى : ﴿ وَتَوَاتَوْا عَلَى الْبِرِّ وَالْقَوَىٰ ﴾
[المائدة : ٢] والآيات في معنى ما ذكرته كثيرة معلومة (٢) .

* * *

٧١ - باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين

قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] وقال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ عَنْكُمْ مِنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾
[المائدة : ٥٤] وقال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَرْكَبُوا أُنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾
[الجم : ٣٢] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنَ الْأَنْعَامِ رِجَالًا يَرَوْنَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ

(٢) هذا الباب لم يشرحه الشارح رحمه الله .

(١) هذا معنى حديث وقد سبق تخريجه .

تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٢﴾ [الأعراف: ٤٨، ٤٩] .

الشرح

قال النووي - رحمه الله تعالى - في كتاب رياض الصالحين : باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين .
التواضع : ضد التعالي وهو ألا يرتفع الإنسان ولا يترفع على غيره ، بعلم ولا نسب ولا مال ولا إمارة ولا وزارة ولا غير ذلك ، بل الواجب على المرء أن يخفض جناحه للمؤمنين ، أن يتواضع لهم كما كان أشرف الخلق وأعلامهم منزلة عند الله ؛ رسول الله ﷺ يتواضع للمؤمنين ، حتى إن الصبية لتمسك بيده لتأخذه إلى أي مكان تريد فيقضي حاجتها - عليه الصلاة والسلام - (١) .
وقوله الله تعالى : ﴿ وَكُفِّضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨] ، وفي آية أخرى : ﴿ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَكُفِّضَ جَنَاحَكَ ﴾ : أي تواضع ؛ وذلك أن المتعالي والمترفع يرى نفسه أنه كالطير يسبح في جو السماء ، فأمر أن يخفض جناحه وينزله للمؤمنين الذين اتبعوا النبي ﷺ .
وعلم من هذا أن الكافر لا يخفض له الجناح وهو كذلك ، بل الكافر ترفع عليه واعل عليه ، واجعل نفسك في موضع أعلى منه ، لأنك مستمسك بكلمة الله ، وكلمة الله هي العليا .
ولهذا قال الله ﷻ في وصف النبي ﷺ وأصحابه : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] ، يعني أنهم على الكفار أقوياء ذوا غلظة ، أما فيما بينهم فهم رحماء .
ثم ساق المؤلف الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ يَنَالُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَيْدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقُوَّةٍ يُجِبُّهُمْ وَيُجِيبُهُمْ أَدْلُوهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، أي من يرجع منكم عن دينه فيكون كافراً بعد أن كان مؤمناً .

وهذا قد يقع من الناس ، أن يكون الإنسان داخلاً في الإسلام عاملاً به ، ثم يزيغه الشيطان - والعياذ بالله - حتى يرتد عن دينه ، فإذا ارتد عن دينه فإنه لا يكون ولياً للمؤمنين ، ولا يكون معيئاً للمؤمنين ، ولهذا قال : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقُوَّةٍ يُجِبُّهُمْ وَيُجِيبُهُمْ ﴾ يعني بقوم مؤمنين ، ﴿ يُجِبُّهُمْ وَيُجِيبُهُمْ ﴾ .
﴿ أَدْلُوهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، فهم في جانب المؤمنين أذلة لا يترفعون عليهم ، ولا يأخذون بالعزة عليهم ، ولكنهم يذلون لهم ، أما على الكفار فهم أعزة مترفعون ، ولهذا قال النبي -

(١) قوله ﴿ رَيْدٍ مِنْكُمْ ﴾ أي يعود إلى ملة الكفر ، قوله ﴿ أَدْلُوهُ ﴾ أي رحماء عطفاء ، قوله ﴿ أَعِزَّةٌ ﴾ أي قساة شداد ، قوله ﴿ فَلَا تَرْكُؤُوا ﴾ أي لا تمدحوا ولا تفتخروا بأنفسكم ، قوله ﴿ يَسِيتُكُمْ ﴾ أي علاماتهم ، قوله ﴿ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ ﴾ أي لم ينفعكم ، قوله ﴿ جَمَعُكُمْ ﴾ أي كثرتم في الدنيا ، قوله ﴿ لَا يَنَالُهُمْ ﴾ أي لا يصيبهم .
(٢) هذا معنى حديث أخرجه البخاري من الأدب (٦٠٧٢) ولفظه : « كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتقل به حيث شاءت » .

عليه الصلاة والسلام - : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضييقه » ^(١) إذلالاً لهم ، وخذلاناً لهم ، لأنهم أعدى أعداء لك ، وأعداء لربك ، وأعداء لرسولك ، وأعداء لدينك ، وأعداء لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

وفي هذه الآية : دليل على إثبات المحبة من الله ﷻ ، وأن الله يحب ويحب ﴿ مَوَدَّةً بَيْنَ اللَّهِ يَتَوَدَّدُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وهذا الحب حب عظيم لا يماثل شيء ، تجدد الحب لله ﷻ ترخص عنده الدنيا ، والأهل ، والأموال ، بل والنفس ، فيما يرضي الله ﷻ ، ولهذا يذل ويعرض رقبته لأعداء الله ، محبة في نصرة الله ﷻ ونصرة دينه ، وهذا دليل على أن الإنسان مقدم ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسه .

ومن علامات محبة الله : أن الإنسان يديم ذكر الله ؛ يذكر ربه دائماً بقلبه ولسانه وجوارحه . ومنها : أن يحب من أحب الله ﷻ من الأشخاص ، فيحب الرسول ﷺ ، ويحب الخلفاء الراشدين ، ويحب الأئمة ، ويحب من كان في وقته من أهل العلم والصلاح .

ومنها : أن يقوم الإنسان بطاعة الله ، مقدماً ذلك على هواه ، فإذا أذن المؤذن يقول : حي على الصلاة ، ترك عمله وأقبل إلى الصلاة ، لأنه يحب ما يرضي الله أكثر من محبته ما ترضى به نفسه . ومحبة الله علامات كثيرة ، إذا أحب الإنسان ربه فالله ﷻ أسرع إليه حباً ، لأنه قال ﷻ في الحديث القدسي : « ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » ^(٢) ، وإذا أحبه الله فهذا هو المقصود الأعظم . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ولم يقل : فاتبعوني تصدقوا الله ، بل قال : ﴿ يُحِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ لأن هذه هي الثمرة أن يحب الرب ﷻ عبده ، فإذا أحب عبده نال خير الدنيا والآخرة . جعلني الله وإياكم من أحبابه .

وفي قوله : ﴿ وَيُحِبُّهُنَّ ﴾ دليل على إثبات محبة العبد لربه ، وهذا أمر واضح واقع مشاهد ، يجد الإنسان من قلبه ميلاً إلى ما يرضي الله ، وهذا يدل على أنه يحب الله ﷻ .

والإنسان المؤمن الموفق لهذه الصفة العظيمة ، تجده يحب الله أكثر من نفسه ، أكثر من ولده ، أكثر منه أمه ، أكثر من أبيه ، يحب الله أكثر من كل شيء ، ويحب الشخص ؛ لأنه يحب الله ، ومعلوم أن المحب يحب أحباب حبيبه ، فتجد هذا الرجل لمحبه لله يحب من يحبه الله ﷻ من الأشخاص ، وما يحبه من الأعمال ، وما يحبه من الأقوال .

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ يخاطب الله ﷻ الناس كلهم مبيناً أنه خلقهم من ذكر وأنثى ، أي من هذا الجنس أو من هذا الشخص .

يعني إما أن يكون المراد بالذكر والأنثى آدم وحواء .

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، وأبو داود في الأدب (١٣٧) ، والترمذي في السير (١٦٠٢) .

(٢) هذا جزء حديث ، وقد أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥) .

أو أن المراد الجنس أي أن بني آدم خلقوا كلهم من ذكر وأنثى . وهذا هو الغالب ، وهو الأكثر .
والإفان الله خلق آدم من غير أم ولا أب ، خلقه من تراب ، من طين ، من صلصال كالفخار ، ثم
نفخ فيه من روحه ، خلق له روحاً فنفخها فيه فصار بشراً سوياً .

وخلق الله حواء من أب بلا أم .

وخلق الله عيسى من أم بلا أب .

وخلق الله سائر البشر من أم وأب .

والإنسان أيضاً كما أنه أربعة أنواع من جهة مادة خلقه ، كذلك هو أربعة أنواع من جهة جنس
الخلق ، يقول الله ﷻ : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ
يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ بَرُوجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] .
هذه أيضاً أربعة أقسام :

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثَاءً﴾ بلا ذكور ، يعني يوجد بعض الناس يولد له الإناث ولا يولد له ذكور
أبداً ، كل نسله إناث .

﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ فيكون كل نسله ذكورا بلا إناث .

﴿أَوْ بَرُوجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنثَاءً﴾ يزوجهم أي يصنفهم ، لأن الزوج يعني الصنف ، كما قال تعالى :
﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَرِهِ أَزْوَاجًا﴾ [ص: ٥٨] أي أصناف ، وقال : ﴿تَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾
[الصافات: ٢٢] أي أصنافهم وأشكالهم ، يزوجهم أي يصنفهم ذكرا وإناثا ، هذه ثلاثة أقسام .

القسم الرابع : ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له لا ذكر ولا أنثى ، لأن الله ﷻ له ملك
السموات والأرض يخلق ما يشاء ، لا معقب لحكمه وهو السميع العليم .

يقول جل ذكره : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ، الشعوب : الطوائف الكبيرة كالعرب والعجم وما
أشبه ذلك ، والقبائل : ما دون ذلك ، جمع قبيلة ، فالناس بنو آدم شعوب وقبائل .

شعوب : أم عظيمة كبيرة ، كما تقول : العرب - بجميع أصنافهم - ، والعجم - بجميع
أصنافهم - ، كذلك القبائل دون ذلك ، كما نقول : قريش ، بنو تميم ، وما أشبه ذلك ، هؤلاء القبائل .
﴿لِتَعَارَفُوا﴾ : هذه هي الحكمة من أن الله جعلنا شعوبا وقبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضا ،
هذا عربي ، وهذا عجمي ، هذا من بني تميم ، هذا من قريش ، هذا من خزاعة ، وهكذا .

فالله جعل هذه القبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضا ، لا من أجل أن يفخر بعضنا على بعض ،
فيقول : أنا عربي وأنت عجمي ، أنا قبيلي وأنت حضيري ، أنا غني وأنت فقير ، هذا من دعوى
الجاهلية - والعياذ بالله - لم يجعل الله هؤلاء الأصناف إلا من أجل التعارف فقط ، لا من أجل
التفاخر ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إن الله أذهب عنكم غيبة الجاهلية وفخرها

بالآباء ، مؤمن تقى ، وفاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب » (١) .
فالفضل في الإسلام بالتقوى ، أكرمنا عند الله هو الأتقى لله ﷻ ، فمن كان أتقى لله فهو عند الله
أكرم .

ولكن يجب أن نعلم أن بعض القبائل أو بعض الشعوب أفضل من بعض ، فالشعب الذي بعث فيه
الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو أفضل الشعوب ، شعب العرب أفضل الشعوب ؛ لأن الله قال
في كتابه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وقال النبي ﷺ : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » (٢) .
ولا يعني هذا إهدار الجنس البشري بالكلية . لا . لكن التفاخر هو الممنوع ، أما التفاضل فإن الله
يفضل بعض الأجناس على بعض ، فالعرب أفضل من غيرهم ، جنس العرب أفضل من جنس العجم ،
لكن إذا كان العربي غير متقى والعجمي متقى ، فالعجمي عند الله أكرم من العربي .

ثم ساق المؤلف الآيات الأخرى : ﴿ فَلَا تَرْكُؤُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ لا تركوها : أي لا
تصفوها بالزكاة افتخاراً ، وأما التحدث بنعمة الله على العبد مثل أن يقول القائل : كان مسرقاً على
نفسه ، كان منحرفاً ، فهذه الله ووفقه ولزم الاستقامة ؛ تحدثاً بنعمة الله لا تركية لنفسه ؛ فإن هذا لا
بأس به ولا حرج فيه أن يذكر الإنسان نعمة الله عليه في الهداية والتوفيق ، كما أنه لا حرج أن يذكر
نعمة الله عليه بالغنى بعد الفقر .

وقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ هو أي الرب ﷻ ﴿ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ، وكم من شخصين يقومان
بعمل أو يدعان عملاً وبينهما في التقى مثل ما بين السماء والأرض ، ولهذا قال : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
اتَّقَى ﴾ ؛ تجد الشخصين يصليان كل واحد جنب الآخر ، لكن بين ما في قلوبهما من التقوى مثل ما
بين السماء والأرض ، شخصان يتجنبان الفاحشة لكن بينهما في التقوى مثل ما بين السماء والأرض ،
ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَرْكُؤُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

ثم ذكر المؤلف آية أخرى وهي قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ بِمَا لَا يَرْفُقُونَهُمْ يَسْمِعُهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى
عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، أصحاب الأعراف : قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا
يدخلون الجنة ولا يدخلون النار ، يحشر أهل النار إلى النار ، ويساق المتقون إلى الرحمن وفداً ، إلى
الجنة زمراً ، فيدخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، وأصحاب الأعراف في مكان مرتفع .

فالأعراف جمع عرف ، وهو المكان المرتفع ، لكن ليسوا في الجنة وليسوا في النار ، وهم يطلعون
إلى هؤلاء وإلى هؤلاء ، وفي النهاية يدخلون الجنة ، لأنه ليس هناك إلا جنة أو نار ، هما الباقيتان أبداً ،
وأما ما سواهما فيزول .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١١٦) ، والترمذي في المناقب (٣٩٥٦) ، قوله « عيبة » الكبير والفخر .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٤٩٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٩٩) .

فيقول الله تعالى : ﴿ وَكَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَقْرُونَهُمْ بِسَمْعِهِ ﴾ أي بعلامتهم معرفة تامة ، ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُهُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعني جمعكم المال والأولاد والأهل ، ما أغنى عنكم هؤلاء ، وما أغنى عنكم جمعكم من الناس الذين هم جنودكم ، تجمعونهم إليكم وتستنصرون بهم ، ما أغنوا عنكم شيئاً ، ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعني وما أغنى عنكم استكباركم على الحق .

﴿ أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ يعني الضعفاء ، وكان الملأ المكذبون للرسول يسخرون من المؤمنين ويقولون : ﴿ أَهْتُولَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام : ٥٣] ، يقولون : هؤلاء أصحاب الرحمة ؟ هؤلاء أهل الجنة ؟ يسخرون منهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين : ٢٩-٣١] .

فيقولون لهم : ﴿ أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ يعني قد قيل لهم : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

إذا تواضعهم للحق واتباعهم الرسل هو الذي بلغهم هذه المنازل العالية ، أما هؤلاء المستكبرون الذين فخرُوا بما أغناهم الله به من الجمع والمال ؛ فإن ذلك لم يغن عنهم شيئاً ؛ فدل ذلك على فضل التواضع للحق .

* * *

٦٠٢ - وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ ، وَلَا يَغِيْبِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ » ^(١) رواه مسلم .

٦٠٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ » ^(٢) رواه مسلم .

٦٠٤ - وعن أنس رضي الله عنه أنه مرَّ على صبيانٍ فسَلَّم عليهم وقال : كان النبي ﷺ يَفْعَلُهُ ^(٣) . متفقٌ عليه .

٦٠٥ - وعنه قال : إِنْ كَانَتْ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ الْمَدِينَةِ لَتَاتُخِذُ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ ^(٤) . رواه البخاري .

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٤) - واللفظ له - ، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٥) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) - واللفظ له - ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٥/٢) ، قوله « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ » فيه وجهان : - مباركة الله فيه ، ودفعه المضرات عنه .

- أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبراً لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٧) ، ومسلم في السلام (١٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٢) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٧) ، قوله « الْأُمَّة » أي الجارية الصغيرة .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رحمته في كتاب رياض الصالحين في باب التواضع ؛ فمنها حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله أوحى إلي أن تواضعوا » يعني أن يتواضع كل واحد للآخر ولا يترفع عليه ، بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر ، وكان من عادة السلف - رحمهم الله - أن الإنسان منهم يجعل من هو أصغر منه مثل ابنه ، ومن هو أكبر مثل أبيه ، ومن هو مثله مثل أخيه ، فينظر إلى من هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال ، وإلى من هو دونه نظرة إشفاق ورحمة ، وإلى من هو مثله نظرة مساواة ، فلا يبغي أحد على أحد وهذا من الأمور التي يجب على الإنسان أن يتصف بها ، أي بالتواضع لله ﷻ ولإخوانه من المسلمين .

وأما الكافر : فقد أمر الله تعالى بمجاهدته والغلبة عليه وإغاضته وإهاتته بقدر المستطاع ، لكن من كان له عهد وذمة فإنه يجب على المسلمين أن يفوا له بعهده وذمته ، وألا يخفروا ذمته ، وألا يؤذوه ما دام له عهد .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال » يعني أن الصدقات لا تنقص الأموال كما يتوهمه الإنسان ، وكما يعد به الشيطان ، فإن الشيطان كما قال الله ﷻ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

الفحشاء : كل ما يستفحش من بخل أو غيره ، فهو يعد الإنسان الفقر ، إذا أراد الإنسان أن يتصدق قال : لا تتصدق هذا ينقص مالك ، هذا يجعلك فقيرًا ، لا تتصدق ، أمسك ، ولكن النبي ﷺ أخبرنا بأن الصدقة لا تنقص المال ، فإن قال قائل : كيف لا تنقص المال ، والإنسان إذا كان عنده مائة فتصدق بعشرة صار عنده تسعون ، فيقال : هذا نقص كم ، ولكنها تزيد في الكيف ، ثم يفتح الله للإنسان أبوابًا من الرزق تردّ عليه ما أنفق ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ ﴾ [سبا : ٣٩] أي يجعل بدله خلفًا ، فلا تظن أنك إذا تصدقت بعشرة من مائة فصارت تسعين أن ذلك ينقص المال ، بل يزيده بركة ونماء ، وترزق من حيث لا تحتسب .

« وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا » يعني أن الإنسان إذا عفا عمن ظلمه فقد تقول له نفسه : إن هذا ذل وخضوع وخذلان ، فبين الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الله ما يزيده أحدًا بعفو إلا عزًا ، فيعزه الله ويرفع من شأنه ، وفي هذا حث على العفو ، ولكن العفو مقيد بما إذا كان إصلاحًا لقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

أما إذا لم يكن إصلاحًا بل كان إفسادًا ، فإنه لا يؤمر به ، مثال ذلك اعتدى شخص شرير معروف بالعدوان على آخر ، فهل نقول للآخر الذي اعتدى عليه : اعف عن هذا الشرير ؟ لا نقول : اعف عنه ، لأنه شرير ، إذا عفوت عنه تعدى على غيرك من الغد ، أو عليك أنت أيضًا ، فمثل هذا نقول : الحزم والأفضل أن تأخذه بجريته ، يعني أن تأخذ حقلك منه ، وألا تعفو عنه ، لأن العفو عن أهل

الشر والفساد ليس بإصلاح ، بل لا يزيدهم إلا فسادًا وشرًا .

فأما إذا كان في العفو خير وإحسان ، وربما يخجل الذي عفوت عنه ولا يتعدى عليك ولا على غيرك فهذا خير .

« وما تواضع أحد لله إلا رفعه » هذا الشاهد من الحديث : « ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .
والتواضع لله له معنيان :

المعنى الأول : أن تتواضع لدين الله ، فلا تترفع عن الدين ولا تستكبر عنه وعن أداء أحكامه .
والثاني : أن تتواضع لعباد الله من أجل الله ، لا خوفًا منهم ، ولا رجاء لما عندهم ، ولكن لله عِزٌّ .
والمعنيان صحيحان ، فمن تواضع لله ؛ رفعه الله ﷻ في الدنيا وفي الآخرة ، وهذا أمر مشاهد ، أن الإنسان المتواضع يكون محل رفعة عند الناس وذكر حسن ، ويعجبه الناس ، وانظر إلى تواضع الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو أشرف الخلق ، حيث كانت الأمة من إمام المدينة تأتي إليه ، وتأخذ بيده ، وتذهب به حيث شاءت ليعينها في حاجتها ، هذا وهو أشرف الخلق ، أمة من الإماء تأتي وتأخذ بيده تذهب به حيث شاءت ليقضي حاجتها ، ولا يقول أين تذهبين بي ، أو يقول : اذهبي إلى غيري ، بل كان يذهب معها ويقضي حاجتها ، لكن مع هذا ما زاده الله ﷻ بذلك إلا عزًّا ورفعة صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

٦٠٦ - وعن الأسود بن يزيد قال : سئِلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟
قالت : كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةٍ أَهْلِيهِ - يَعْنِي : خِدْمَةِ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ ، خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ ^(١) .
رواه البخاري .

٦٠٧ - وعن أبي رفاعَةَ تَمِيمِ بْنِ أَسِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَرَكَ حُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ ، فَأَتَانِي بِكُرْسِيِّ ، فَقَعَدَ عَلَيَّ ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ أَتَى حُطْبَتَهُ ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا ^(٢) . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها الحافظ النووي - رحمه الله تعالى - في بيان تواضع النبي ﷺ ، منها أنه كان يسلم على الصبيان إذا مرَّ عليهم ، يسلم عليهم مع أنهم صبيان غير مكلفين ، واقتدى به أصحابه ، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم ، يمر بهم في السوق يلعبون فيسلم عليهم ويقول : إن النبي ﷺ كان يفعله أي كان يسلم على الصبيان إذا مرَّ عليهم ، وهذا من التواضع وحسن الخلق ،

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٧٦) ، والإمام أحمد في مسنده (١٢٦/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٠) .

ومن التربية وحسن التعليم والإرشاد والتوجيه ، لأن الصبيان إذا سلم الإنسان عليهم ، فإنهم يعتادون ذلك ، ويكون ذلك كالغريزة في نفوسهم .

إن الإنسان إذا مر على أحد سلم عليه ، وإذا كان هذا يقع من النبي ﷺ على الصبيان ، فإننا نأسف لقوم يملكون بالكبار البالغين ولا يسلمون عليهم - والعياذ بالله - قد لا يكون ذلك هجراً أو كراهة ، لكن عدم مبالاة ، عدم اتباع للسنة ، جهل ، غفلة ، وهم وإن كانوا غير آثمين ؛ لأنهم لم يتخذوا ذلك هجراً ، لكنهم قد فاتهم خير كثير .

فالسنة أن تسلم على كل من لقيت ، وأن تبدأ بالسلام ولو كان أصغر منك ، لأن النبي ﷺ كان يبدأ من لقيه بالسلام ، وهو - عليه الصلاة والسلام - أكبر الناس قدراً ، ومع ذلك كان يبدأ من لقيه بالسلام . وأنت إذا بدأت من لقيته بالسلام حصلت على خير كثير ، منه اتباع الرسول ﷺ .

ومنه أنك تكون سبباً لنشر هذه السنة التي ماتت عند كثير من الناس ، ومعلوم أن إحياء السنن يؤجر الإنسان عليه مرتين ، مرة على فعل السنة ، ومرة على إحياء السنة .

ومنه أنك تكون السبب في إجابة هذا الرجل وإجابته فرض كفاية ، فتكون سبباً في إيجاد فرض الكفاية من هذا الرجل .

ولهذا كان ابتداء السلام أفضل من الرد ، وإن كان الرد فرضاً وهذا سنة ، لكن لما كان الفرض ينبي على هذه السنة ، كانت السنة أفضل من هذا الفرض ، لأنه مبني عليها .

وهذه من المسائل التي ألغز بها بعض العلماء وقال : عندنا سنة أفضل من الفريضة ؛ لأنه من المتفق عليه أن الفرض أفضل ، مثلاً صلاة الفجر ركعتان أفضل من راتبتها ركعتين ، لأنها فرض والراتبة سنة ، لكن ابتداء السلام سنة ، ومع ذلك صار أفضل من رده ، لأن رده مبني عليه .

فالمهم : أنه ينبغي لنا إحياء هذه السنة ، أعني إفشاء السلام ، وهو من أسباب المحبة ، ومن كمال الإيمان ، ومن أسباب دخول الجنة ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولاً أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » (١) .

ومن تواضع النبي - عليه الصلاة والسلام - ، أنه كان في بيته في خدمة أهله ، يحلب الشاة ، يخصف النعل ، يخدمهم في بيتهم ، لأن عائشة سئلت ماذا كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت : « كان في مهنة أهله » يعني في خدمتهم - عليه الصلاة والسلام - .

فمثلاً الإنسان إذا كان في بيته فمن السنة أن يصنع الشاي مثلاً لنفسه ، ويطبخ إذا كان يعرف ، ويغسل ما يحتاج إلى غسله ، كل هذا من السنة ، أنت إذا فعلت ذلك تثاب عليه ثواب سنة ، اقتداء بالرسول - عليه الصلاة والسلام - وتواضعاً لله ﷻ ، ولأن هذا يوجد المحبة بينك وبين أهلك ، إذا شعر

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٣ ، ٩٤) ، وأحمد في مسنده (٣٩١/٢) .

أهلك أنك تساعدهم في مهنتهم أحبك وازدادت قيمتك عندهم ، فيكون في هذا مصلحة كبيرة .
ومن تواضع الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه جاءه رجل وهو يخطب الناس فقال : « رجل غريب جاء يسأل عن دينه » فأقبل إليه النبي - عليه الصلاة والسلام - وقطع خطبته ، حتى انتهى إليه ، ثم جيء إليه بكرسي ، فجعل يعلم هذا الرجل ، لأن هذا الرجل جاء مشفقاً محبباً للعلم ، يريد أن يعلم دينه حتى يعمل به ، فأقبل إليه النبي - عليه الصلاة والسلام - وقطع الخطبة ، ثم بعد ذلك أكمل خطبته ، وهذا من تواضع الرسول - عليه الصلاة والسلام - وحسن رعايته .

فإن قال قائل : أليست المصلحة العامة أولى بالمراعاة من المصلحة الخاصة ؟ وحاجة هذا الرجل خاصة ، وهو ﷺ يخطب في الجماعة ؟ قلنا : نعم لو كانت مصلحة العامة تفوت لكان مراعاة المصلحة العامة أولى ، لكن مصلحة العامة لا تفوت ، بل إنهم سيستفيدون مما يعلمه الرسول ﷺ لهذا الرجل الغريب ، والمصلحة العامة لا تفوت .

وهذا الغريب الذي جاء يسأل عن دينه إذا أقبل إليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - وعلمه كان في هذا تأليف على الإسلام ، ومحبة للإسلام ، ومحبة للرسول ﷺ ، وهذا من حكمة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - . وفق الله الجميع لما يحبه ويرضى .

* * *

٦٠٨ - وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أكلَ طعاماً لَعِقَ أَصَابِعُهُ الثَّلَاثَ قال : وقال : « إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ ، فَلْيُمِطْ عَنْهَا الْأَذَى ، وَلْيَأْكُلْهَا ، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ » وَأَمَرَ أَنْ تُسَلَّتِ الْقَضَعَةُ قَالَ : « فَإِنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمْ الْبَرَكَةَ » ^(٢) رواه مسلم .

٦٠٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : قال : « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ » قَالَ أَصْحَابُهُ : وَأَنْتَ ؟ فَقَالَ : « نَعَمْ ؛ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ » ^(٣) رواه البخاري .

٦١٠ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « لَوْ دُعِيَْتُ إِلَى كُرَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أَهْدَى إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبَلْتُ » ^(٤) رواه البخاري .

٦١١ - وعن أنس رضي الله عنه قال : كَانَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَضْبَاءُ لَا تُسَبِّقُ ، أَوْ لَا تَكَاذُ تُسَبِّقُ فَجَاءَ أَغْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ ، فَسَبَّحَهَا ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ ، فَقَالَ : « حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (١٠٠/٣) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٥) ، قوله « فليمط » أي فليزل ، قوله « ولا يدعها » أي ولا يتركها ، قوله « تسلت » السلت المسح وتبع ما فيها من الطعام .
(٢) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢) ، قوله « قراريط » قيل : المراد بالقراريط هنا جزء من الدينار والدرهم ، وقيل : قراريط : اسم مرعى بمكة .

(٣) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٦٨) ، قوله « كراع أو ذراع » الكراع من الدابة هو ما بين الركبتين إلى الساق . وقد جمع بين الذراع والكراع ليجمع بين الخطير والحقير ؛ لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها والكراع لا قيمة له .

لَا يَوْفِقُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ ^(١) . رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها الحافظ النووي - رحمه الله تعالى - في باب التواضع ، فمنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من الأكل لعق أصابعه الثلاث . لعقها : أي لحسها حتى يكون ما بقي من الطعام فيها داخلاً في طعامه الذي أكله من قبل ، وفيه فائدة ذكرها بعض الأطباء ؛ أن الأنامل تفرز عند الأكل شيئاً يعين على هضم الطعام .

فيكون في لعق الأصابع بعد الطعام فائدتان :

فائدة شرعية : وهي الاقتداء بالنبي ﷺ . وفائدة صحية طبية : وهي هذا الإفراز الذي يكون بعد الطعام يعين على الهضم .

والمؤمن لا يجعل همه فيما يتعلق بالصحة البدنية ، أهم شيء عند المؤمن هو اتباع الرسول ﷺ والاقتداء به ، لأن فيه صحة القلب ، وكلما كان الإنسان للرسول ﷺ أتبع كان إيمانه أقوى .

وكذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : « إذا سقطت لقمة أحدكم » يعني على الأرض أو على السفرة « فليمط عنها الأذى وليأكلها ، ولا يدعها للشيطان » فإذا سقطت اللقمة أو الثمرة أو ما أشبه ذلك على السفرة ، فخذها وأزل ما فيها من الأذى إن كان فيها أذى من تراب وعيدان وكلها ؛ تواضعاً لله ﷻ ، وامتنالاً لأمر النبي ﷺ ، وحرماناً للشيطان من الأكل معك ، لأنك إذا تركتها أكلها الشيطان . والشيطان ربما يشارك الإنسان في أكله في مثل هذه المسألة ، وفيما إذا أكل ولم يسم ، فإن الشيطان يشاركه في أكله .

والثالث أمره بإسلات الصحن أو القصعة ، وهو الإناء الذي فيه الطعام ، فإذا انتهيت فأسلته ، بمعنى أن تتبع ما علق فيه من طعام بأصابعك وتلعقها .

فهذا أيضاً من السنة التي غفل عنها كثير من الناس مع الأسف حتى من طلبة العلم أيضاً ، إذا فرغوا من الأكل وجدت الجهة التي تليهم ما زال الأكل باقياً فيها ، لا يلحقون الصحفة ، وهذا خلاف ما أمر به النبي ﷺ ، ثم بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - الحكمة من ذلك فقال : « فإنكم لا تدرّون في أي طعامكم البركة » قد تكون البركة من هذا الطعام في هذا الذي سلته ^(٢) من القصعة . وفي هذا الحديث : حسن تعليم الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وأنه إذا ذكر الحكم ذكر الحكمة منه ؛ لأن ذكر الحكمة مقرونًا بالحكم يفيد فائدتين عظيمتين :

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٧٢) . قوله « العضباء » العضباء اسم لئناقة النبي ﷺ وقيل : صفة لها ، قوله « على قعود له » القعود هو ما استحق الركوب من الإبل ، وقيل : البكر حتى يركب ، وقيل أنه لا يقال إلا للذكر أما الأنثى فهي قلووص .

(٢) سلته : أي مسح .

الفائدة الأولى : بيان سمو الشريعة ، وأنها شريعة مبنية على المصالح ، فما من شيء أمر الله به ورسوله ﷺ إلا والمصلحة في وجوده ، وما من شيء نهى الله عنه ورسوله ﷺ إلا والمصلحة في عدمه .

الفائدة الثانية : زيادة اطمئنان النفس ، لأن الإنسان بشر قد يكون عنده إيمان وتسليم بما حكم الله به ورسوله ، لكن إذا ذكرت الحكمة ازداد إيماناً ، وازداد يقيناً ، ونشط على فعل المأمور أو ترك المحذور .

ثم ذكر المؤلف حديث أنس بن مالك ؓ ، في قصة الأعرابي الذي جاء بعود له ، ناقة ليست كبيرة ، أو جمل ليس بكبير ، وكانت ناقة النبي ﷺ العضباء وهي غير القصواء التي حجج عليها ، هذه ناقة أخرى ، وكان من هدي الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه يسمي دوابه وسلاحه وما أشبه ذلك .

فالعضباء هذه كان الصحابة ؓ يرون أنها لا تسبق أو لا تكاد تسبق ، فجاء هذا الأعرابي بعوده ^(١) فسبق العضباء ، فكأن ذلك شق على الصحابة ؓ ، فقال النبي ﷺ لما عرف ما في نفوسهم : « حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه » .

فكل ارتفاع يكون في الدنيا فإنه لا بد أن يؤول إلى انخفاض ، فإن صحب هذا الارتفاع في النفوس وعلو في النفوس ، فإن الوضع إليه أسرع ؛ لأن الوضع يكون عقوبة ، أما إذا لم يصحبه شيء ، فإنه لا بد أن يرجع ويوضع ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَلٍّ أُنْزِلَتْ مِنْ سَّمَاءٍ فَخَلَّتْ بِهِ نَبَاتٌ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ [يونس: ٢٤] أي ظهر فيه من كل نوع .

﴿ حَتَّىٰ إِنَّمَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ آمَنُوا بِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ ﴾ ^(٢) [يونس: ٢٤] ذهبت كلها . كل هذه الزينة ، وكل هذا النبات الذي اختلط من كل صنف ، كله يزول كأن لم يكن ، وهكذا الدنيا كلها تزول كأن لم تكن ، حتى الإنسان نفسه يبدو صغيراً ضعيفاً ، ثم يقوى ، فإذا انتهت قوته عاد إلى الضعف والهرم ، ثم إلى الفناء والعدم ، فما من شيء ارتفع من الدنيا إلا وضعه الله ﷻ .

وفي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « من الدنيا » دليل على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله ، فقوله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] فهو لا يضعهم الله ﷻ ما داموا على وصف العلم والإيمان ، فإنه لا يمكن أن يضعهم الله ﷻ . بل يرفع لهم الذكر ، ويرفع درجاتهم في الآخرة .

(١) والقعود : ما استحق الركوب من الإبل ، وقيل : البكر حتى يركب ، وقيل أنه لا يقال إلا للذكر أما الأنثى فهي قلووس .

(٢) حصيداً : أي فجعلنا زرعها كالحصود من أصله بالمناجل .

٧٢ - باب تحريم الكبر والإعجاب

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [النقص : ٨٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] ومعنى ﴿ تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : تميّله وتقرض به عن الناس تكبرًا عليهم . والمَرَح : التَّخَوُّر . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَ مِنْ فَرِحٍ مُّوْتِقَةٍ عَلَيْهِمْ وَلَئِنَّهُمْ مِنْ الْكَاذِبِينَ مَا إِنَّ مَعَانِهِمْ لَنَسْوًا بِالْمُصْبَا أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [النقص : ٧٦] إلى قوله تعالى : ﴿ فَتَسْفَتْنَا بِهِمُ وَيَذَرُونَا الْأَرْضَ ﴾ الآيات .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب تحريم الكبر والإعجاب .

والكبر : هو الترفع واعتقاد الإنسان نفسه أنه كبير ، وأنه فوق الناس ، وأن له فضلًا عليهم . والإعجاب : أن يرى الإنسان عمل نفسه فيعجب به ، ويستعظمه ، ويستكثره . فالإعجاب يكون في العمل ، والكبر يكون في النفس ، وكلاهما خلق مذموم . والكبر نوعان : كبير على الحق ، وكبير على الخلق ، وقد بينهما النبي ﷺ في قوله : « الكبير بطر الحق وغمط الناس » ^(١) فبطر الحق يعني رده والإعراض عنه ، وعدم قبوله ، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدراءهم ، وألا يرى الناس شيئًا ، ويرى أنه فوقهم . وقيل لرجل : ماذا ترى الناس ؟ قال : لا أراهم إلا مثل البعوض ، فقيل له : إنهم لا يرونك إلا كذلك .

وقيل لآخر : ما ترى الناس ؟ قال : أرى الناس أعظم مني ، ولهم شأن ، ولهم منزلة ، فقيل له : إنهم يرونك أعظم منهم ، وأن لك شأنًا ومحلًا .

فأنت إذا رأيت الناس على أي وجه فالناس يرونك بمثل ما تراهم به ، إن رأيتهم في محل الإكرام والإجلال والتعظيم ، ونزلتهم منزلتهم عرفوا لك ذلك ، ورأوك في محل الإجلال والإكرام والتعظيم ، ونزلوك منزلتك ، والعكس بالعكس .

أما بطر الحق : فهو رده ، وألا يقبل الإنسان الحق بل يرفضه ويرده اعتدادًا بنفسه ورأيه ، فيرى - والعياذ بالله - أنه أكبر من الحق ، وعلامة ذلك أن الإنسان يؤتى إليه بالأدلة من الكتاب والسنة ، ويقال : هذا كتاب الله ، هذه سنة رسول الله ، ولكنه لا يقبل ، بل يستمر على رأيه ، فهذا ردُّ الحق والعياذ بالله .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) .

وكثير من الناس ينتصر لنفسه ، فإذا قال قولاً لا يمكن أن يتزحزح عنه ، ولو رأى الصواب في خلافه ، ولكن هذا خلاف العقل وخلاف الشرع .

والواجب أن يرجع الإنسان للحق حيثما وجده ، حتى لو خالف قوله فليرجع إليه ، فإن هذا أعز له عند الله ، وأعز له عند الناس ، وأسلم لذمته وأبرأ .

فلا تظن أنك إذا رجعت عن قولك إلى الصواب أن ذلك يضع منزلتك عند الناس ، بل هذا يرفع منزلتك ، ويعرف الناس أنك لا تتبع إلا الحق ، أما الذي يعاند ويبقى على ما هو عليه ويرد الحق ، فهذا متكبر والعياذ بالله .

وهذا يقع من بعض الناس والعياذ بالله حتى من طلبة العلم ، يتبين له بعد المناقشة وجه الصواب وأن الصواب خلاف ما قاله بالأمس ، ولكنه يبقى على رأيه ، يملئ عليه الشيطان أنه إذا رجع استهان الناس به ، وقالوا عنه إنه إمعة كل يوم له قول ، وهذا لا يضر إذا رجعت إلى الصواب ، فليكن قولك اليوم خلاف قولك بالأمس ، فالأئمة الأجلة كان يكون لهم في المسألة الواحدة أقوال متعددة .

وها هو الإمام أحمد رحمته الله إمام أهل السنة ، وأرفع الأئمة من حيث اتباع الدليل وسعة الإطلاع ، نجد أن له في المسألة الواحدة في بعض الأحيان أكثر من أربعة أقوال ، لماذا ؟ لأنه إذا تبين له الدليل رجع إليه ، وهكذا شأن كل إنسان منصف عليه أن يتبع الدليل حيثما كان .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله آيات تتعلق بهذا الباب يبين فيها رحمته الله أنها كلها تدل على ذم الكبر ، وآخرها الآيات المتعلقة بقارون .

وقارون رجل من بني إسرائيل من قوم موسى ، أعطاه الله ﷻ مالا كثيرا ، حتى إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، يعني مفاتيح الخزائن تثقل وتشق على العصبة ، أي الجماعة من الرجال أولي القوة لكثرتها . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ فإن هذا الرجل بطر والعياذ بالله وتكبر ، ولما ذكر بآيات الله ردها واستكبر ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ، فأنكر فضل الله عليه ، وقال أنا اكتسبته بنفسه وقوتي وبعلم أدركت به هذا المال .

وكانت النتيجة أن الله خسف به وبداره الأرض ، وزال هو وأملاكه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴾ ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ فتأمل نتيجة الكبر والعياذ بالله والعجب والاعتداد بالنفس ، وكيف كان عاقبة ذلك من الهلاك والدمار .

ثم ذكر المؤلف عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الدار الآخرة هي آخر دور بني آدم ، لأن ابن آدم له أربعة دور كلها تنتهي بالآخرة . الدار الأولى : في بطن أمه .

والدار الثاني : إذا خرج من بطن أمه إلى دار الدنيا .

والدار الثالثة : البرزخ ؛ ما بين موته وقيام الساعة .

والدار الرابعة : الدار الآخرة . وهي النهاية ، وهي القرار ، هذه الدار قال الله تعالى عنها : ﴿ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ لا يريدون التعلي على الحق ، ولا التعلي على الخلق ، وإنما هم متواضعون ، وإذا نفى الله عنهم إرادة العلو والفساد ، فهو من باب أولى ألا يكون منهم علو ولا فساد ، فهم لا يعملون في الأرض ، ولا يفسدون ، ولا يريدون ذلك ، لأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم علا وفسد وأفسد ، فهذا اجتمع في حقه الإرادة والفعل .

٢ - وقسم لم يرد الفساد ولا العلو ، فقد انتفى عنه الأمران .

٣ - وقسم ثالث يريد العلو والفساد ولكن لا يقدر عليه . وهذا الثالث بين الأول والثاني ، لكن عليه الوزر ؛ لأنه أراد السوء ، فالدار الآخرة إنما تكون ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي تعليًا على الحق أو على الخلق ﴿ وَلَا فَسَادًا وَالصَّالِحِينَ ﴾ . فإن قال قائل : ما هو الفساد في الأرض ؟

فالجواب : أن الفساد في الأرض ليس هدم المنازل ولا إحراق الزروع ، بل الفساد في الأرض بالمعاصي ، كما قال أهل العلم - رحمهم الله - في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] أي لا تعصوا الله ؛ لأن المعاصي سبب للفساد .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] فلم يفتح الله عليهم بركات من السماء ولا من الأرض ، فالفساد في الأرض يكون بالمعاصي نسأل الله العافية .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان: ١٨] يعني لا تمش مرحًا مستكبرًا متبخترًا متعاطفًا في نفسك ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] يعني مهما كنت فأنت لا تقدر أن تنزل في الأرض ولا تتباهى حتى تساوي الجبال ، بل إنك أنت أنت . أنت ابن آدم حقير ضعيف ، فكيف تمشي في الأرض مرحًا .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] .

تصغير الخد للناس : أن يعرض الإنسان عن الناس ، فتجده والعياذ بالله مستكبرًا لا ويًا عنقه ، تحدته وهو يحدثك وقد صد عنك ، وصغر خده .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ يعني لا تمش تبخترًا وتعاطفًا وتكبرًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ المختال في هيئته ، والفخور بلسانه وقوله ، فهو بهيئته مختال ؛ في ثيابه ، في ملابسه ، في مظهره ، في مشيته ، فخور بقوله ولسانه ، والله تعالى لا يحب هذا ، إنما يحب المتواضع الغني الخفي التقى . هذا هو الذي يحبه الله ﷻ .

٦١٢ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » فقال رجلٌ : إِنْ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ؟ قال : « إِنْ اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ؛ الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ » ^(١) رواه مسلم .

« بَطَرُ الْحَقِّ » : دَفَعُهُ وَرَدَّهُ عَلَى قَائِلِهِ ، « وَغَمَطُ النَّاسِ » : اخْتِفَازُهُمْ .

٦١٣ - وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ ، فَقَالَ : « كُلْ يَمِينِكَ » . قَالَ : لَا أَشْتَطِيعُ ! قَالَ : « لَا اسْتَطَعْتَ » مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ . قال : فما رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ ^(٢) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر الحافظ النووي رحمته الله في باب تحريم الكبر والعجب ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » .

وهذا الحديث من أحاديث الوعيد التي يطلقها الرسول ﷺ تنفيرًا عن الشيء ، وإن كانت تحتاج إلى تفصيل حسب الأدلة الشرعية .

فالذي في قلبه كبر ، إما أَنْ يَكُونَ كِبَرًا عَنِ الْحَقِّ وَكَرَاهَةً لَهُ ، فهذا كافر مخلد في النار ولا يدخل الجنة ، لقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ﴾ ^(٣) [محمد : ٩] ولا يحبط العمل إلا بالكفر لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَزِدْذَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْآدْنَىٰ وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

وأما إذا كان كبرًا على الخلق وتعظيمًا على الخلق ، لكنه لم يستكبر عن عبادة الله ، فهذا لا يدخل الجنة دخولًا كاملاً مطلقًا لم يسبق بعذاب ، بل لا بد من عذاب على ما حصل من كبره وعلوائه على الخلق ثم إذا طهر دخل الجنة .

ولما حدث النبي ﷺ بهذا الحديث قال رجل : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة . يعني فهل هذا من الكبر ؟ فقال النبي ﷺ : « إِنْ اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ » جميل في ذاته ، جميل في أفعاله ، جميل في صفاته ، كل ما يصدر عن الله ﷻ فإنه جميل وليس بقيح ، بل حسن ، تستحسنه العقول السليمة ، وتستسيغه النفوس .

وقوله : « يحب الجمال » أي يحب التجميل بمعنى أنه يحب أن يتجمل الإنسان في ثيابه ، وفي نعله ، وفي بدنه ، وفي جميع شؤونه ، لأن التجميل يجذب القلوب إلى الإنسان ، ويحييه إلى الناس ، بخلاف التشوه الذي يكون فيه الإنسان قبيحًا في شعره أو في ثوبه أو في لباسه ، فلهذا قال : « إِنْ اللَّهُ

(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٧) .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) .

(٣) فأحبط أعمالهم : فأبطلها .

جميل يحب الجمال » أي يحب أن يتجمل الإنسان .

وأما الجمال الخلقى الذي من الله ﷻ ، فهذا إلى الله ﷻ ، ليس للإنسان فيه حيلة ، وليس له فيه كسب ، وإنما ذكر النبي ﷺ ما للإنسان فيه كسب وهو التجمل .

أما الحديث الثاني : فهو حديث سلمة بن الأكوع ؓ أن رجلاً أكل عند النبي ﷺ بيده اليسرى ، فقال : « كل يمينك » قال : « لا أستطيع » . ما منعه إلا الكبر ، فقال النبي ﷺ : « لا استطعت » لأن الرسول ﷺ عرف أنه متكبر ، فقال : « لا استطعت » أي دعا عليه بأن الله تعالى يصيبه بأمر لا يستطيع معه رفع يده اليمنى إلى فمه ، فلما قال النبي ﷺ له ذلك أجاب الله دعوته فلم يرفعها إلى فمه بعد ذلك ، صارت والعياذ بالله قائمة كالعصا ، لا يستطيع رفعها ؛ لأنه استكبر على دين الله ﷻ .

وفي هذا : دليل على وجوب الأكل باليمين والشرب باليمين ، وأن الأكل باليسار حرام ، يأثم عليه الإنسان ، وكذلك الشرب باليسار حرام ، يأثم عليه الإنسان ، لأنه إذا فعل ذلك أي أكل بشماله أو شرب بشماله شابه الشيطان وأولياء الشيطان ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » (١) .

وإذا نظرنا الآن إلى الكفار ، وجدنا أنهم يأكلون بيسارهم ويشربون بيسارهم ، وعلى هذا فالذي يأكل بشماله أو يشرب بشماله متشبه بالشيطان وأولياء الشيطان .

ويجب على من رآه أن ينكر عليه ، لكن بالتي هي أحسن ، إما أن يُعَرِّضَ إذا كان يخشى أن يخلج صاحبه أو أن يستنكف (٢) ويستكبر ، فيقول : من الناس من يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، وهذا حرام ولا يجوز .

أو إذا كان معه طالب علم سأل طالب العلم وقال له . ما تقول فيمن يأكل بالشمال ويشرب بالشمال ، حتى ينتبه الآخر ، فإن انتبه فهذا المطلوب ، وإن لم ينتبه قيل له - ولو سرًا - لا تأكل بشمالك ولا تشرب بشمالك ، حتى يعلم دين الله تعالى وشرعه .

يوجد بعض المترفين يأكل باليمين ويشرب باليمين ، إلا إذا شرب وهو يأكل فإنه يشرب بالشمال ، يدعي أنه لو شرب باليمين لوث الكأس ، فيقال له : المسألة ليست هينة وليست على سبيل الاستحباب حتى تقول الأمر هين ، بل أنت إذا شربت بالشمال فأنت عاص لأنه محرم ، والحرم لا يجوز إلا للضرورة ، ولا ضرورة للشرب بالشمال خوفاً من أن يتلوث الكأس بالطعام .

ثم إنه يمكن أن تمسكه بين الإبهام والسبابة من أسفله وحيث لا يتلوث ، والإنسان الذي يريد الخير والحق يسهل عليه فعله ، أما المعاند أو المترف أو الذي يقلد أعداء الله من الشيطان وأوليائه ، فهذا له شأن آخر .

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٦) بلفظ التوكيد (لا يأكل) (ولا يشرب) ، والترمذي في سننه (١٧٩٩) ، وأحمد في مسنده (٨٠/٢) .
(٢) يستنكف : بأنف ويتكبر .

٦١٤ - وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ» ^(١) متفقٌ عليه . وتقدّم شرحه في بابِ ضَعْفَةِ الْمُسْلِمِينَ .

٦١٥ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « اخْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَقَالَتِ النَّارُ : فِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ : فِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ . فَقَضَى اللَّهُ يَنَهِمَا : إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمَتِي ، أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي ، أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ ، وَلِكُلِّكُمَا عَلِيٌّ مَلُؤُهَا » ^(٢) رواه مسلم .

٦١٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَزَأَ لَزَارُهُ بَطْرًا » ^(٣) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه أحاديث ساقها ﷺ في باب تحريم الكبر والعجب ، وقد سبق لنا الكلام على الآيات الواردة في هذا ، وكذلك الكلام على الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى في هذا الباب . ثم ذكر المؤلف ﷺ أن النبي ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ » ، وهذا من الأسلوب الذي كان النبي ﷺ يستعمله ، أن يورد الكلام على صيغة الاستفهام ، من أجل أن ينتبه المخاطب ويعي ما يقول ، فهو يقول : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ » ، الكل سيقول نعم أخبرنا يا رسول الله . قال : « كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ » . العتل : معناها الشديد الغليظ ، ومنه العتلة التي تحفر بها الأرض ، فإنها شديدة غليظة ، فالعتل هو الشديد الغليظ ، والعياذ بالله .

الجواظ : يعني أنه فيه زيادة من سوء الأخلاق .

والمستكبر - وهذا هو الشاهد - : هو الذي عنده كبر - والعياذ بالله - وغطرسة ، كبر على الحق ، فهو لا يلين للحق أبداً ، ولا يرحم الخلق والعياذ بالله .

هؤلاء هم أهل النار ، أما أهل الجنة فهم الضعفاء المساكين الذين ليس عندهم ما يستكبرون به ، بل هم دائماً متواضعون ليس عندهم كبرياء ولا غلظة ، لأن المال أحياناً يفسد صاحبه ، ويحمله على أن يستكبر على الخلق ويرد الحق ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿١﴾ إِنَّ رَأَاهُ اسْتَفْتَقَ ۚ ﴿٢﴾ ﴾ ^(٤)

[العلق : ٦ ، ٧] .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٨) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٧٩/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٨) - واللفظ له - ومسلم في اللباس (٤٨) .

(٤) أي ليجاوز الحد ويستكبر على ربه ويكفر به من أجل رؤية نفسه ذا غنى وثناء وقوة وقدرة . (صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٨١٥) .

وكذلك أيضًا ذكر حديث احتجاج النار والجنة ؛ احتجت النار والجنة ، فقالت النار : إن أهلها هم الجبارون المتكبرون ، وقالت الجنة : إن أهلها هم الضعفاء والمساكين ، فاحتجت كل واحدة منهما على الأخرى .

فحكم الله بينهما ﷺ ، وقال في الجنة : « أنت رحمتي أرحم بك من أشاء » وقال للنار : « أنت عذابي أعذب بك من أشاء » فصارت النار دار العذاب - والعياذ بالله - والجنة دار الرحمة ، فهي رحمة الله ويسكنها الرحماء من عباده ، كما قال النبي ﷺ : « وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » (١) . وقال « ولكل منكما علي ملؤها » فوعد الله ﷻ النار ملأها ، ووعد الجنة ملأها ، وهو لا يخلف الميعاد ﷻ .

ولكن أتدرون ماذا تكون العاقبة ؟ تكون العاقبة - كما ثبتت بها الأحاديث الصحيحة - أن النار لا يزال يلقى فيها ، وهي تقول « هل من مزيد » كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠] يعني تطلب الزيادة ؛ لأنها لم تمتلئ ، فيضع الرب ﷻ عليها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض أن ينضم بعضها إلى بعض وتقول : « قط قط » (٢) أي حسي ، حسي ، لا أريد زيادة فصارت تملأ بهذه الطريقة .

أما الجنة : فإن الجنة ﴿ عَنْهُمْهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ويسكنها أولياء الله ، جعلني الله وإياكم منهم ، ويسكنها أهلها ، ويبقى فيها فضل ، يعني مكان ليس فيه أحد ، فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلهم الجنة برحمته (٣) .

وهذه هي النتيجة ؛ امتلأت النار بعدل الله ﷻ ، وامتلأت الجنة بفضل الله تعالى ورحمته . ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديثًا في الإنسان المسبل ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « لا ينظر الله إلى من جرَّ ثوبه خيلاء » وهذه مسألة خطيرة وذلك أن الرجل منهبي عن أن ينزل ثوبه أو سرواله أو مشلحه أو إزاره عن الكعب ، لا بد أن يكون من الكعب ؛ فما فوق ، فمن نزل عن الكعب ؛ فإن فعله هذا من الكبائر والعياذ بالله .

لأنه إن نزل كبرًا وخيلاء فإنه لا ينظر الله إليه يوم القيامة ، ولا يكلمه ، ولا يزكّيه ، وله عذاب أليم ، وإن كان نزل لغير ذلك كأن يكون طويلًا ولم يلاحظه ، فإنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار » (٤) .

فكانت العقوبة حاصلة على كل حال فيما نزل عن الكعبين ، لكن إن كان بطرًا وخيلاء فالعقوبة

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنائز (١١) .

(٢) انظر الحديث في صحيح البخاري في كتاب التفسير (٤٨٥٠) ، وصحيح مسلم في الجنة (٣٨) .

(٣) انظر الحديث الدال على ذلك في البخاري في التفسير (٤٨٥٠) ، ومسلم في الجنة (٣٨ ، ٣٩) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٧) .

أعظم ؛ لا يكلم الله صاحبه يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، وإن كان غير خيلاء ، فإنه يعذب بالنار والعياذ بالله .

فإذا قال قائل : ما هي السنة ؟ قلنا السنة من الكعب إلى نصف الساق هذه هي السنة ، نصف الساق سنة ، وما دونه سنة ، وما كان إلى الكعبين فهو سنة ، لأن هذا هو لبس النبي ﷺ وأصحابه ، فإنهم كانوا لا يتجاوز لباسهم الكعبين ، ولكن يكون إلى نصف الساق أو يرتفع قليلاً ، وما بين ذلك كله من السنة .

* * *

٦١٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخُ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » ^(١) رواه مسلم .

٦١٨ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : الْعُرُ لِزَارِي ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ يُنَازِعْنِي عَذَّبْتُهُ » ^(٢) . رواه مسلم .

٦١٩ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ ^(٣) تَعَجَّبَهُ نَفْسُهُ ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ ، إِذْ حَسَفَ اللَّهُ بِهِ ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٤) متفق عليه . « مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ » ، أي : مُمَشِّطُهُ . « يَتَجَلَجَلُ » بالجيمين ، أي : يَغُوصُ وَيَنْزِلُ .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمه الله في باب تحريم الكبر والإعجاب ، فذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ » .

ثلاثة : يعني ثلاثة أصناف ، وليس المراد ثلاثة رجال ، بل قد يكونون آلافاً من الناس ، لكن المراد ثلاثة أصناف . وهكذا كلما جاءت كلمة ثلاثة أو سبعة أو ما أشبه ذلك فالمراد أصنافاً لا أفراداً .

فهؤلاء الثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . الأول : شيخ زان : يعني رجلاً كبيراً مستأزناً ، فهذا لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ؛ وذلك لأن الشيخ ليس هناك شهوة تجبره على أن يفعل هذا الفعل .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٨٠/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٦) بلفظه « العز لزاره والكبرياء ردائه » قال النووي في شرح صحيح مسلم

(١٧٣/١٦) : وفيه محذوف تقديره : قال الله تعالى : « ومن ينازعني ... » وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٨/٢) ،

وأبو داود في سننه (٤٠٩٠) ، وابن ماجه في سننه (٤١٧٤) الثلاثة بلفظه « الكبرياء ردائي والعزة لزارى » وفي

مسند أحمد « ألقبه في النار » ، وفي سنن أبي داود « قذفته » وفي سنن ابن ماجه « ألقيته » .

(٣) حلة : الثوب الجيد الجديد غليظاً أو رقيقاً .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٩) ، ومسلم في اللباس بنحوه (٤٩) ، والإمام أحمد في مسنده بنحوه

(٤٦٧/٢) .

فالشاب قد يكون عنده شهوة ويعجز أن يملك نفسه ، لكن الشيخ قد بردت شهوته وزالت أو نقصت كثيراً ، فكونه يزني هذا يدل على أنه والعياذ بالله - سيئ للغاية ، لأنه فعل الفاحشة من غير سبب قوي يدفعه إليها .

والزنى كله فاحشة سواء من الشاب أو من الشيخ ، لكنه من الشيخ أشد وأعظم - والعياذ بالله - إلا أن هذا الحديث مقيد بما ثبت في الصحيحين أن من أتى شيئاً من هذه القاذورات ، وأقيم عليه الحد في الدنيا ، فإن الله تعالى لا يجمع عليه عقوبتين ^(١) ، بل يزول عنه ذلك ، ويكون الحد تطهيراً له .
الثاني : ملك كذاب ، وكذاب هذه صيغة مبالغة أي كثير الكذب ؛ وذلك لأن الملك لا يحتاج إلى أن يكذب ، كلمته هي العليا بين الناس ، فلا حاجة إلى أن يكذب ، فإذا كذب صار يعد الناس ولكن لا يوفي ، يقول سأفعل كذا ولكن لا يفعل ، سأترك كذا ولكن لا يترك ، ويحدث الناس يلعب بعقولهم ويكذب عليهم ، فهذا - والعياذ بالله - داخل في هذا الوعيد ، لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم .

والكذب حرام من الملك وغير الملك ، لكنه من الملك أعظم وأشد ؛ لأنه لا حاجة إلى أن يكذب ، كلمته بين الناس هي العليا فيجب عليه أن يكن صريحاً ، إذا كان يريد الشيء يوافق عليه ويفعل ، وإذا كان لا يريد يرفضه ولا يفعل ، الواحد من الرعية قد يحتاج إلى الكذب فيكذب ، ولكن الملك لا يحتاج .
والكذب حرام ، ومن صفات المنافقين - والعياذ بالله - فإن المنافق إذا حدث كذب ^(٢) ، ولا يجوز لأحد أن يكذب مطلقاً ، وقول بعض العامة إن الكذب إذا كان لا يقطع مُحلاً من حلاله فلا بأس به ، هذه قاعدة شيطانية ، ليس لها أساس من الصحة ولا من الدين ، والصواب أن الكذب حرام بكل حال .

الثالث : عائل مستكبر ، وهذا هو الشاهد من الحديث ، عائل يعني فقيراً ، مستكبر يعني يتكبر على الناس - والعياذ بالله - فإن هذا العائل الفقير ليس عنده ما يوجب الكبر ، فالغني ربما يخذعه غناه ويغره ، فيتكبر على عباد الله ، أو يتكبر عن الحق ، لكن الفقير : حشف وسوء كيلة ^(٣) ، ما دام فقيراً فكيف يستكبر؟! فالعائل المستكبر هذا لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم .

والكبر حرام من الغني ومن الفقير ، لكنه من الفقير أشد ، ولهذا تجد الناس إذا رأوا غنياً متواضعاً استغربوا ذلك منه ، واستعظموا ذلك منه ، ورأوا أن هذا الغني في غاية الخلق النبيل ، لكن لو يجدون فقيراً متواضعاً لكان من سائر الناس ، لأن الفقر يوجب للإنسان أن يتواضع ، لأنه لأي شيء يستكبر؟! فإذا جاء إنسان والعياذ بالله عائل فقير يستكبر على الخلق ، أو يستكبر عن الحق ، فليس هناك ما

(١) انظر الحديث الدال على ذلك في البخاري في الحدود (٦٧٨٤) ، ومسلم في الحدود (٤١ - ٤٤) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في الوصايا (٢٧٤٩) ، ومسلم في الإيمان (١٠٧) .

(٣) مثل من الأمثال أورده ابن منظور في لسان العرب ، والحشف أردأ التمر ، وهو ما لم يثو ، فإذا يبس صُلِبَ وفسد ، وهو لا طعم له ولا لحاء ولا حلاوة . لسان العرب (ص ٨٨٧) .

يوجب الكبرياء في حقه ، فيكون - والعياذ بالله - داخلًا في هذا الحديث .

ثم ذكر المؤلف رحمته فيما ساقه من الأدلة على تحريم الكبر والإعجاب ، وأنه من كبائر الذنوب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني عذبتة » (١) . هذا من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي صلى الله عليه وسلم عن الله ، وهي ليست في مرتبة القرآن ، فالقرآن له أحكام تخصه ، منها أنه معجز للبشر عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور منه ، أو بسورة أو بحديث مثله ، وأنه لا يجوز للجنب أن يقرأ القرآن ، وأن الصلاة تصح إذا قرأ المصلي من القرآن ، بل تجب القراءة بالفاتحة ، أما الأحاديث القدسية فليست كذلك .

ثم القرآن محفوظ لا يزداد فيه ولا ينقص ، ولا يُروى بالمعنى ، وليس فيه شيء ضعيف . أما الأحاديث القدسية : فإنها تروى بالمعنى ، وفيها أحاديث ضعيفة ، وفيها أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم ليست بصحيحة وهو كثير ، فالمهم أنها ليست في منزلة القرآن إلا أنه يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه . فالله تعالى يقول : « العز إزاري والكبرياء ردائي » وهذا من الأحاديث التي تمر كما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يتعرض لمعناها بتحريف أو تكليف ، وإنما يقال هكذا ، قال الله تعالى فيما رواه النبي صلى الله عليه وسلم عنه : فمن نازع الله في عزته وأراد أن يتخذ سلطانًا كسلطان الله ، أو نازع الله في كبريائه وتكبر على عباد الله ، فإن الله يعذبه ، يعذبه على ما صنع ونازع الله تعالى فيما يختص به .

ثم ذكر المؤلف رحمته حديث أبي هريرة الآخر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينما رجل يمشي في حلة ، تعجبه نفسه ، مرجل رأسه ، يختال في مشيته » أي عنده من الخيلاء والكبرياء والغطرسة ما عنده « إذ خسف الله به » أي خسف به الأرض « فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » يعني انهارت به الأرض وانغمس فيها واندفن ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ؛ لأنه - والعياذ بالله - لما صار عنده هذا الكبرياء وهذا التيه (٢) وهذا الإعجاب خسف به .

وهذا نظير قارون الذي ذكره المؤلف رحمته في صدر الباب ، فإن قارون خرج على قومه في زينته ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْتَ لَنَا مَثَلًا مَّا أَوْفَتْ قُرُونُهُمْ إِنَّهُمْ لَدُوْ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْغَائِبُونَ ﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُقْتَصِرِينَ ﴿ [القصر: ٧٩-٨١] .

وقوله : « يتجلجل في الأرض » يحتمل أنه يتجلجل وهو حي حياة دنيوية ، فيبقى هكذا معذبًا إلى يوم القيامة ، معذبًا وهو في جوف الأرض وهو حي ، فيتعذب كما يتعذب الأحياء ، ويحتمل أنه لما

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٦) بلفظه « العز إزاره والكبرياء رداؤه » قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٧٣/١٦) : (وفيه محذوف تقديره : قال الله تعالى : « ومن ينازعني ... » ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٨/٢) ، وأبو داود في سننه (٤٠٩٠) ، وابن ماجه في سننه (٤١٧٤) الثلاثة بلفظ « الكبرياء ردائي والعزة إزاري » ، وفي مسند أحمد « ألقيه في النار » ، وفي سنن أبي داود « قذفته » ، وفي سنن ابن ماجه « ألقيته » . (٢) التيه : التكبر .

اندفن مات ، كما هي سنة الله ﷻ ، مات ولكن مع ذلك يتجلجل في الأرض وهو ميت ، فيكون تجلجله هذا تجلجلًا برزخيًا ^(١) لا تُعلم كيفيته ، والله أعلم . المهم أن هذا جزاؤه والعياذ بالله . وفي هذا وما قبله وما يأتي بعده : دليل على تحريم الكبر وتحريم الإعجاب ، وأن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه وينزلها منزلتها .

٦٢٠ - وعن سلمة بن الأكوخ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَارَيْنِ ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن . « يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ » أي يَرْتَفِعُ وَيَكْبُرُ .

الشرح

في هذا الحديث الأخير في هذا الباب أن النبي ﷺ حذر الإنسان من أن يعجب بنفسه ، فلا يزال في نفسه يرتفع ويتعظم حتى يكتب من الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم . والجبارون - والعياذ بالله - لو لم يكن من عقوبتهم إلا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ﴾ [غافر: ٣٥] لكان عظيمًا . فالجبار - والعياذ بالله - يُطْبَعُ على قلبه ، حتى لا يصل إليه الخير ، ولا ينتهي عن الشر . وخلاصة هذا الباب أنه يدور على شيئين : الأول : تحريم الكبر وأنه من كبائر الذنوب .

والثاني : تحريم الإعجاب ، إعجاب الإنسان بنفسه ، فإنه أيضًا من المحرمات ، وربما يكون سببًا لحبوط العمل إذا أعجب الإنسان بعبادته ، أو قراءته القرآن ، أو غير ذلك ، ربما يحبط أجره وهو لا يعلم .



قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [النم: ٤] وقال تعالى : ﴿ وَالْعَظِيمِينَ أَلْفَيْتَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] .

٦٢١ - وعن أنس ﷺ قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا ^(٣) . متفق عليه .

(١) برزخيًا : البرزخ : ما بين الموت والبعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٣٣) ، ومسلم في الآداب (٣٠) .

الشرح

قال الحافظ النووي رحمته الله باب حسن الخلق ، يعني باب الحس عليه ، وفضيلته ، وبيان من اتصف به من عباد الله ، وحسن الخلق يكون مع الله ويكون مع عباد الله .

أما حسن الخلق مع الله : فهو الرضا بحكمه شرعاً وقدرًا ، وتلقي ذلك بالانشراح وعدم التضجر ، وعدم الأسى والحزن ، فإذا قدر الله على المسلم شيئاً يكرهه رضي بذلك واستسلم وصبر ، وقال بلسانه وقلبه رضي بالله ربًا ، وإذا حكم الله عليه بحكم شرعي رضي واستسلم ، وانقاد لشريعة الله صلى الله عليه وسلم بصدر منشرح ونفس مطمئنة ، فهذا حسن الخلق مع الله صلى الله عليه وسلم .

أما مع الخلق : فبحسن الخلق معهم بما قاله بعض العلماء ؛ كف الأذى ، وبذل الندى ، وطلاقة الوجه .

كف الأذى : بألا يؤذي الناس لا بلسانه ولا بجوارحه .

وبذل الندى : يعني العطاء ، فيبذل العطاء من مال وعلم وجاه وغير ذلك .

وطلاقة الوجه : بأن يلاقي الناس بوجه منطلق ، ليس بعبوس ولا مصعير خده ، وهذا هو حسن الخلق . ولا شك أن الذي يفعل هذا ؛ فيكف الأذى ، ويبذل الندى ، ويجعل وجهه منطلقًا ؛ لاشك أنه سيصبر على أذى الناس أيضًا ، فإن الصبر على أذى الناس لاشك أنه من حسن الخلق ؛ فإن من الناس من يؤذي أخاه ، وربما يعتدي عليه بما يضره ؛ بأكل ماله ، أو جحد حق له ، أو ما أشبه ذلك ، فيصبر ويحتسب الأجر من الله صلى الله عليه وسلم ، والعاقبة للمتقين ، وهذا كله من حسن الخلق مع الناس .

ثم صَدَّرَ المؤلف رحمته الله هذا الباب بقوله تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وهذا معطوف على جواب القسم ﴿ تَوَّابًا وَأَلْقَيْتُ مَا يَسْطُرُونَ ﴾ ﴿ مَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ مِّمَّنْ يَمْجَلُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ١-٤] .

﴿ وَإِنَّكَ ﴾ : يعني يا محمد ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ لم يتخلق أحد بمثله ، في كل شيء ؛ خلق مع الله ، خلق مع عباد الله ، في التشجاعة والكرم وحسن المعاملة ، وفي كل شيء ، وكان - عليه الصلاة والسلام - خلقه القرآن يتأدب بأدابه ؛ يمثل أوامره ويجتنب نواهيه .

ثم ساق المؤلف جزءًا من آية آل عمران في قوله : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وهذه صفات المتقين الذين أعد الله لهم الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤] .

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ يعني الذين يكتمون غضبهم ، فإذا غضب ؛ ملك نفسه ، وكظم غيظه ، ولم يتعد على أحد بموجب هذا الغضب .

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ إذا أساءوا إليهم ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن من الإحسان أن تعفو عمن ظلمك ، ولكن العفو له محل ؛ إن كان المعتدي أهلاً للعفو فالعفو محمود ، وإن لم يكن أهلاً للعفو فإن العفو ليس بمحمود ؛ لأن الله تعالى قال في كتابه : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى : ٤٠] .
فلو أن رجلاً اعتدى عليك بضربك ، أو أخذ مالك ، أو إهانتك ، أو ما أشبه ذلك ، فهل الأفضل أن تعفو عنه أم لا ؟

نقول : في هذا تفصيل : إن كان الرجل شريراً ، سيئاً ، إذا عفوت عنه ازداد في الاعتداء عليك وعلى غيرك ، فلا تعف عنه ، خذ حقلك منه بيدك ، إلا أن تكون تحت ولاية شرعية ترفع الأمر إلى من له الولاية الشرعية ، وإلا فتأخذه بيدك ما لم يترتب على ذلك ضرر أكبر .

والمهم أنه إذا كان الرجل المعتدي سيئاً شريراً فهذا ليس أهلاً للعفو فلا يُعف عنه ، بل الأفضل أن تأخذ بحقلك ؛ لأن الله يقول : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ ، والعفو في مثل هذه الحال ليس بإصلاح .
أما إذا كان الرجل حسن الخلق ، لكن بدرت منه هذه الإساءة ، فالأفضل العفو عنه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ .

والنفس ربما تأمرك أن تأخذ بحقلك ، ولكن كما قلت إذا كان الإنسان أهلاً للعفو ؛ فالأفضل أن تعفو عنه وإلا فلا .

* * *

٦٢٢ - وعنه قال : مَا مَسِسْتُ دِيْبَاجًا ^(١) وَلَا حَرِيرًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا شَمَمْتُ رَائِحَةً قَطُّ أَطْلَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَقَدْ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ ، فَمَا قَالَ لِي قَطُّ : أَفٌّ ، وَلَا قَالَ لِي شَيْءٍ فَعَلْتُهُ ؟ لِمَ فَعَلْتُهُ ؟ وَلَا لِي شَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ : أَلَا فَعَلْتُ كَذَا ؟ ^(٢) متفقٌ عليه .

٦٢٣ - وعن الصَّعْبِ بْنِ جُثَّامَةَ ؓ قَالَ : أَهْدَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا وَخَشِيئًا ، فَرَدَّهُ عَلَيَّ ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ : « إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حَرَمٌ » ^(٣) . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - الحافظ النووي - رحمه الله في باب حسن الخلق ما نقله عن أنس بن مالك ؓ قال :
ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من يدي رسول الله ﷺ .

وكان أنس بن مالك ؓ قد خدم النبي ﷺ عشر سنين ؛ جاءت به أمه حين قدم النبي ﷺ المدينة ، فقالت : يا رسول الله ، هذا أنس بن مالك يخدمك ، فقيل ﷺ أن يخدمه ، ودعا له أن يبارك الله

(١) الديباج : ثوب سداه ولحمته إبريسم وهو الحرير . وقيل : هو معرب .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦١) ، ومسلم في الفضائل (٨١ ، ٨٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٧٣) ، ومسلم في الحج (٥٠) واللفظ له .

له في ماله وولده ، فبارك الله له في ماله وولده ^(١) ، حتى قيل إنه كان له بستان يثمر في السنة مرتين ، من بركة المال الذي دعا له رسول الله ﷺ به ، أما أولاده من صلبه فبلغوا مائة وعشرين ولداً ، كل هذا ببركة دعوة النبي ﷺ .

يقول إنه ما مس ديباجاً ولا حريزاً ألين من يد رسول الله ﷺ ، فكانت يده ﷺ لينة إذا مسها الإنسان فإذا هي لينة .

وكما ألان الله يده فقد ألان الله ﷺ قلبه ، قال الله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صِرَتْ لَنَا لَهُمْ ﴾ وَلَوْ كُنْتَ قَطًّا عَظِيطَ الْقَلْبِ لَأَنفَضْنَا مِنْ حَوَاكٍ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﷻ [آل عمران : ١٥٩] .

وكذلك أيضاً راحته ﷺ ، ما شم طيباً قط أحسن من رائحة النبي ﷺ ، وكان - عليه الصلاة والسلام - طيب الريح كثير استعمال الطيب ، قال : « حُب إليَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ^(٢) هو نفسه طيب ﷺ ، حتى كان الناس يتبادرون إلى أخذ عرقه ﷺ من حسنه وطيبه ، ويتبركون بعرقه ؛ لأن من خصائص الرسول ﷺ أننا نتبرك بعرقه وبريقه وبشابهه ^(٣) ، أما غير الرسول فلا يتبرك بعرقه ولا بشيابه ولا بريقه .

يقول : ولقد خدمت النبي ﷺ عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، يعني ما تضجر منه أبداً ، عشر سنوات يخدمه ما تضجر منه ، والواحد منا إذا خدمه أحد أو صاحبه أحد لمدة أسبوع أو نحوه لا بد أن يجد منه تضجراً ، لكن الرسول ﷺ عشر سنوات وهذا الرجل يخدمه ، ومع ذلك ما قال له أف قط .

ولا قال لشيء فعلته لما فعلت كذا ؟ حتى الأشياء التي يفعلها أنس اجتهداً منه ما كان الرسول ﷺ يؤنبه أو يوبخه أو يقول لما فعلت كذا ، مع أنه خادم ، وكذلك ما قال لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعل كذا وكذا ؟ فكان - عليه الصلاة والسلام - يعامله بما أرشده الله ﷻ إليه في قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

أتدرون ما العفو ؟ ما عفا من أخلاق الناس وما تيسر ، يعني خذ من الناس ما تيسر ، ولا تريد أن يكون الناس لك على ما تريد في كل شيء ، من أراد أن يكون الناس له على ما يريد في كل شيء فاته كل شيء ، ولكن خذ ما تيسر ، عامل الناس بما إن جاءك قبلت وإن فاتك لم تغضب ، ولهذا قال : ما قال لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعل كذا وكذا ، وهذا من حسن خلقه - عليه الصلاة والسلام - . ومن حسن خلقه ﷺ : أنه كان لا يدهن الناس في دين الله ، ولا يفوته أن يطيب قلوبهم ،

(١) انظر صحيح البخاري في الدعوات (٦٣٣٤) ومسلم في فضائل الصحابة (١٤١ - ١٤٣) .

(٢) أخرجه النسائي في سننه (٣٩٣٩) ومسنده أحمد (١٢٨/٣) .

(٣) انظر في بركة العرق : صحيح البخاري في الاستئذان (٦٢٨١) ومسلم في الفضائل (٨٣ ، ٨٥) ومسنده أحمد

(١٣٦/٣) وفي بركة الريق : البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٦٠) ومسنده أحمد (١٨١/٣) وفي بركة الثياب :

صحيح البخاري في الأدب (٦٠٣٦) .

فالصعب بن جثامة رضي الله عنه مر به النبي ﷺ ، والنبي ﷺ محرم ، وكان الصعب بن جثامة عداءً رامياً ، عداءً : يعني سبوقاً ، رامياً : يعني يجيد الرمي .

فلما نزل به النبي ﷺ ضيفاً رأى أنه لا أحد أكرم ضيفاً منه ، فذهب يصيد للرسول ﷺ صيداً ، فصاد له حمازاً وحشيّاً وكان في الجزيرة العربية في ذلك الوقت كثير من الصيد ، لكنها قلت . صاد له حمازاً وحشيّاً وجاء به إليه فردّه النبي ﷺ فصعب ذلك على الصعب ؛ كيف يرد النبي ﷺ هديته ؟ فتغير وجهه ، فلما رأى ما في وجهه طيب قلبه وقال : « إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم » يعني محرمون ، والحرم لا يأكل من الصيد الذي صيد من أجله .

فلو أن محرماً مر بك وأنت في بلدك وهو محرم وصدت له صيداً أو ذبحت له صيداً عندك ؛ فإنه لا يحل له أن يأكل منه ؛ وذلك لأنه ممنوع من أكل ما صيد من أجله ، أما إذا لم تصده من أجله ؛ فالصحيح أنه حلال له .

ولهذا أكل النبي ﷺ من الصيد الذي صاده أبو قتادة رضي الله عنه ^(١) ؛ لأن أبا قتادة لم يصده من أجل الرسول ﷺ ، وهذا أحسن ما قيل في هذه المسألة ، أنه إذا صيد الصيد من أجل المحرم كان حراماً عليه ، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه المحرم فلا بأس .

على أن بعض العلماء قال ^(٢) : إن المحرم لا يأكل من الصيد مطلقاً ؛ صيد من أجله أم لم يصد ، قالوا : لأن حديث الصعب بن جثامة متأخر عن حديث أبي قتادة ، فإن حديث أبي قتادة كان في غزوة الحديبية في السنة السادسة ، وحديث الصعب بن جثامة في حجة الوداع في السنة العاشرة ، ويؤخذ بالآخر فالآخر . ولكن القاعدة الأصولية الحديثية تأبى هذا القول ؛ لأنه لا يصار إلى النسخ إلا إذا تعذر الجمع ، فإذا أمكن فلا نسخ ، والجمع هنا ممكن ، وهو أن يقال : إن صيداً لأجل المحرم فحرام ، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه المحرم فلا بأس .

ويؤيد هذا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « صيد البر حلالٌ لكم ما لم تصيدوه أو يصد لكم » ^(٣) ، وهذا تفصيل واضح ؛ « ما لم تصيدوه أو يصد لكم » .

الحاصل : أن هذا الحديث ؛ حديث الصعب بن جثامة رضي الله عنه فيه فائدتان عظيمتان : الأولى : أن النبي ﷺ لا يداهن أحداً في دين الله ، وإلا لكان قبل الهدية من الصعب ، وسكت إرضاءً له ومداهنة له ، لكنه - عليه الصلاة والسلام - لا يمكن أن يفعل هذا .

الثانية : أنه ينبغي للإنسان أن يجبر خاطر أخيه إذا فعل معه ما لا يحب ، ويبين السبب ؛ لأجل أن تطيب نفسه ، ويطمئن قلبه ؛ فإن هذا من هدي النبي ﷺ .

(١) انظر الحديث في البخاري (١٨٢٤) ومسلم في الحج (٦٠) .

(٢) هذا هو رأي الإمام مالك انظر : بداية المجتهد (٨١١/٢) ، وأسهل المدارك (٤٨٨/١) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (١٨٥١) والترمذي في سننه (٨٤٦) .

- ٦٢٤ - وعن التّوأس بن سمعان رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن البرّ والإثم ، فقال : « البرّ تحسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » ^(١) رواه مسلم .
- ٦٢٥ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاجشاً ، ولا متفحشاً . وكان يقول : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً » ^(٢) متفق عليه .
- ٦٢٦ - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله ينجس الفاجش البذي » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

« البذي » : هو الذي يتكلم بالفحش ، ورديء الكلام .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمته الله في باب حسن الخلق وقد سبق شيء من هذه الأحاديث . أما حديث النّوأس بن سمعان رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « البر حسن الخلق » ، وقد تقدم شرح هذه الجملة ، وبيننا أن حسن الخلق يحصل فيه الخير الكثير ؛ لأن البر هو الخير الكثير . وأما الإثم : فقال هو : « ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » يعني بما حاك في النفس : ما لم تطمئن إليه نفسك ، بل ترددت فيه ، وكرهت أن يطلع عليه الناس . ولكن هذا خطاب للمؤمن ، أما الفاسق : فإن الإثم لا يحيك في صدره ، ولا يهمه أن يطلع عليه الناس ، بل يجاهر به ولا ييالي ، لكن المؤمن لكون الله ﻻ قد أعطاه نوراً في قلبه ، إذا هم بالإثم حاك في صدره ، وتردد فيه ، وكره أن يطلع عليه الناس ، فهذا الميزان إنما هو في حق المؤمنين . أما الفاسقون : فإنهم لا يهتمهم أن يطلع الناس على آثامهم ، ولا تحيك الآثام في صدورهم ؛ بل يفعلونها والعياذ بالله بانطلاق وانسراح ؛ لأن الله ﻻ يقول : ﴿ أَفَمَنْ زُينَ لَهُ سُوْءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [ناظر : ٨] .

فقد يزين للإنسان سوء العمل فيشرح له صدره ، مثل ما نرى من أهل الفسق الذين يشربون الخمر ، وتنشرح صدورهم له ، والذين يتعاملون بالربا وتنشرح صدورهم لذلك ، والذين يتعودون العهر والزنا وتنشرح صدورهم لذلك ، ولا يبالون بهذا ، بل ربما إذا فعلوا ذلك سرّاً ذهبوا يشيعونه ويعلمونه ، مثل ما يوجد من بعض الفساق إذا ذهبوا إلى البلاد الخارجية المأجنة الفاجرة ورجعوا ، قاموا يتحدثون فعلت كذا وفعلت كذا ، يعني أنهم زنوا - والعياذ بالله - وشربوا الخمر وما أشبه ذلك .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٥) ، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٢/٤) .
 (٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٩) ، ومسلم في الفضائل (٦٨) .
 (٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٧٩٩) ، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٢) .

وفي هذه الأحاديث بيان صفة الرسول ﷺ وأنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، يعني أنه ﷺ بعيد عن الفحش طبعاً وكسباً ، فلم يكن فاحشاً في نفسه ولا في غريزته بل هو لين سهل ، ولم يكن متفحشاً أي متطبع بالفحشاء ، بل كان ﷺ أبعد الناس عن الفحش في مقاله وفي فعالة ﷺ .

وفيه أيضاً الحث على حسن الخلق ، وأنه من أثقل ما يكون في الميزان يوم القيامة ، وهذا من باب الترغيب فيه ، فعليك يا أخي المسلم أن تحسن خلقك مع الله ﷻ ؛ في تلقي أحكامه الكونية والشرعية ، بصدرٍ منشرحٍ منقادٍ راضٍ مستسلم ، وكذلك مع عباد الله فإن الله تعالى يحب المحسنين .

٦٢٧ - وعن أبي هريرة ؓ قال : سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ قال : « تقوى الله ، وحسن الخلق » وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الفم ، والفرج » (١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٦٢٨ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » (٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل حسن الخلق ، ومنها : عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ سئل : ما أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ يعني ما هو الشيء الذي يكون سبباً لدخول الجنة كثيراً ؟ فقال : « تقوى الله ، وحسن الخلق » . تقوى الله تعالى ، وهذه كلمة جامعة لفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ، فأن تفعل ما أمرك الله به وأن تدع ما نهاك عنه ، هذه هي التقوى ؛ لأن التقوى مأخوذة من الوقاية ، وهي أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله ، ولا شيء يقي من عذاب الله إلا فعل الأوامر واجتناب النواهي . وأكثر ما يدخل الناس النار الفم ، والفرج .

الفم : يعني بذلك قول اللسان ؛ فإن الإنسان قد يقول كلمة لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً (٣) ، والعياذ بالله أي سبعين سنة ، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : « أفلا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه وقال : « كف عليك هذا » . قلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ يعني هل نؤاخذ بالكلام ؟ قال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » (٤) . ولما كان عمل اللسان سهلاً صار إطلاقة سهلاً ؛ لأن الكلام لا يتعب به الإنسان ، ليس كعمل اليد ، وعمل

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٠/٢ ، ٤٧٢) .

(٣) انظر الحديث في البخاري في الرقاق (٦٤٧٨) ومسلم في الزهد (٥٠) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦١٦) وابن ماجه في سننه (٣٩٧٣) .

٦٢٩ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحَسَنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ » ^(١) رواه أبو داود .

٦٣٠ - وعن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا ، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ ، وَإِنْ كَانَ مَارْحًا ، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ » ^(٢) حديث صحيح ، رواه أبو داود بإسناد صحيح .
« الزَّعِيمُ » : الضَّامِنُ .

٦٣١ - وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَحْسَنَتْكُمْ أَخْلَاقًا . وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الثَّرَاوُونَ ، وَالتَّشْدُقُونَ ، وَالتَّفْهِيهُونَ » قالوا : يا رسول الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوُونَ وَالتَّشْدُقُونَ فَمَا التَّفْهِيهُونَ ؟ قال : « الْمُتَكَبِّرُونَ » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

« الثَّرَاوُ » : هُوَ كَثِيرُ الْكَلَامِ تَكَلُّفًا . « وَالتَّشْدُقُ » الْمُتَطَاوُلُ عَلَى النَّاسِ بِكَلَامِهِ ، وَيَتَكَلَّمُ بِمَلٍّ فِيهِ تَفَاضُحًا وَتَغْظِيمًا لِكَلَامِهِ ، « وَالتَّفْهِيهُ » : أَصْلُهُ مِنَ الْفَهْقِ ، وَهُوَ الْإِمْتِلَاءُ ، وَهُوَ الَّذِي يَمْلَأُ فَمَهُ بِالْكَلَامِ ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهِ ، وَيَغْرُبُ بِهِ تَكَبُّرًا وَارْتِفَاعًا ، وَإِظْهَارًا لِلْفُضِيلَةِ عَلَى غَيْرِهِ .
وروى الترمذي عن عبد الله بن المبارك رحمته الله في تَفْسِيرِ حُسْنِ الْخُلُقِ قال : هُوَ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ^(٤) .

الشرح

هنا ذكر المؤلف رحمته الله أحاديث متعددة في بيان حسن الخلق ، وأن من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ أحاسنهم أخلاقًا ، فكلما كنت أحسن خلقًا كنت أقرب إلى الله ورسوله من غيرك ، وأبعد الناس منزلة من رسول الله ﷺ الثرثارون ، والمتشدقون ، والمتفهبون .

الثرثارون : الذين يكثرون الكلام ويأخذون المجالس عن الناس ، فإذا جلس في المجلس أخذ الكلام عن غيره ، وصار كأن لم يكن في المجلس إلا هو ؛ يتكلم ولا يدع غيره يتكلم ، وهذا لاشك أنه نوع من الكبرياء .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٩٠/٦) وأبو داود في الأدب (٤٧٩٨) ، والمعنى : أن يبلغ أعلى الدرجات ؛ لأن أعلى درجات الليل درجات القائم المتجهد ، وأعلى درجات النهار درجات الصائم في حر الهواجر .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٠٠) والبيهقي في سننه (٢٤١/١٠) ، قوله « فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ » أي ما حولها خارجًا عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع ، قوله « الْمِرَاءُ » أي الجدال كسرًا لنفسه ؛ كيلا يرفع نفسه على خصمه بظهور فضله .
(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٨) .

(٤) انظر سنن الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٥) وفيه : « هُوَ بَسْطُ الْوَجْهِ » بدلًا من « طَلَاقُهُ الْوَجْهِ » .

لكن لو فرضنا أن أهل المجلس فوضوه وقالوا : أعطنا نصيحة ، أعطنا موعظة ، فتكلم ، فلا حرج ، إنما في الكلام العادي ، كونك تملك المجلس ولا تدع أحداً يتكلم ، حتى إن بعض الناس يحب أن يتكلم لكن لا يستطيع أن يتكلم ، يخشى من مقاطعة هذا الرجل الذي ملك المجلس بكلامه .

كذلك أيضاً المتشدقون ، والمتشددون : هو الذي يملء شذقيه ، تجده يتكلم وكأنه أفصح العرب تكبيراً وتبختراً ، ومن ذلك من يتكلم باللغة العربية أمام العامة ، فإن العامة لا يعرفون اللغة العربية ، لو تكلمت بينهم باللغة العربية لعدوا ذلك من باب التشدد في الكلام والتشدد^(١) ، أما إذا كنت تدرس لطلبة فينبغي أن تتكلم باللغة العربية ، لأجل أن تمرنهم على اللغة العربية وعلى النطق بها ، أما العامة الذين لا يعرفون فلا ينبغي أن تتكلم بينهم باللغة العربية ، بل تكلم معهم بلغتهم التي يعرفون ، ولا تغرب في الكلمات ، يعني لا تأتي بكلمات غريبة تشكل عليهم ، فإن ذلك من التشدد في الكلام .

أما المتفهبون : فقد وصفهم النبي ﷺ بالتكبرين ، المتكبر الذي يتكبر على الناس ويتفهب ، وإذا قام يمشي كأنه يمشي على ورق من تكبره وغطرسته ، فإن هذا لاشك خلق ذميم ، ويجب على الإنسان أن يحذر منه ؛ لأن الإنسان بشر ، فينبغي أن يعرف قدر نفسه ، حتى لو أنعم الله عليه بمال ، أو أنعم الله عليه بعلم ، أو أنعم الله عليه بجاه ، ينبغي أن يتواضع ، وتواضع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالمال والعلم والجاه أفضل من تواضع غيرهم ، ممن لا يكون كذلك .

ولهذا جاء في الحديث : من الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم : « عائل مستكبر »^(٢) ، لأن العائل لا داعي لا ستكباره ، والعائل هو الفقير ، فهؤلاء الذين من الله عليهم بالعلم والمال والجاه كلما تواضعوا صاروا أفضل ممن تواضع من غيرهم الذين لم يمن الله عليهم بذلك . فينبغي لكل من أعطاه الله نعمة أن يزداد شكراً لله ، وتواضعاً للحق ، وتواضعاً للخلق ، وفقني الله والمسلمين لأحسن الأخلاق والأعمال ، وجنبنا والمسلمين سيئات الأخلاق والأعمال إنه جواد كريم .

٧٤ - باب الحلم والأناة والرفق

قال الله تعالى : ﴿ وَالصَّالِحِينَ الْقَبِيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤]
وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَوْفَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾^(٣) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [نمل : ٣٤، ٣٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾

(١) تنطع في كلامه أي تفصح فيه وتعمق . المعجم الوسيط (٩٦٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٢) والإمام أحمد في مسنده (٤٨٠/٢) .

(٣) ﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي صديق شقيق .

وَعَفَرَ لَكَ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿ [الشورى: ٤٣] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : الحلم ، والأناة ، والرفق .

هذه ثلاثة أمور متقاربة : الحلم ، والأناة ، والرفق .

أما الحلم : فهو أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب ، إذا حصل غضب وهو قادر فإنه يحلم ، ولا يعاقب ، ولا يعجل بالعقوبة .

وأما الأناة : فهو التأني في الأمور ، وعدم العجلة ، وألا يأخذ الإنسان الأمور بظاهرها فيتعجل ، ويحكم على الشيء قبل أن يتأني فيه وينظر .

وأما الرفق : فهو معاملة الناس بالرفق والهون ، حتى وإن استحقوا ما يستحقون من العقوبة والنكال فإنه يرفق بهم .

ولكن هذا فيما إذا كان الإنسان الذي يرفق به محلاً للرفق ، أما إذا لم يكن محلاً للرفق ؛ فإن الله ﷻ قال : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاصْلُبُوهُمَا كُلُّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢] .

ثم ساق المؤلف آيات ؛ الآية الأولى قول الله تعالى : ﴿ وَالْكَاذِبِينَ الْغَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] هذه من جملة الأوصاف التي يتصف بها المتقون الذين أعدت لهم الجنة : أنهم إذا غضبوا كظموا الغيظ .

وفي قوله : ﴿ وَالْكَاذِبِينَ الْغَافِينَ ﴾ دليل على أنهم يشق عليهم ذلك ، لكنهم يغلبون أنفسهم فيكظمون غيظهم ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ليس الشديد بالصرعة » الصرعة : يعني الذي يصرع الناس إذا صارعه : « وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ فقد سبق الكلام عليه ، وبيان التفصيل فيمن يستحق العفو ومن لا يستحق ، فالإنسان الشرير الذي لا يزداد بالعفو عنه إلا سوءاً وشراسة ومعاندة هذا لا يعفى عنه .

والإنسان الذي هو أهل للعفو . ينبغي للإنسان أن يعفو عنه ، لأن الله يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] .

وأما الآية الثانية فقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال خذ العفو ولم يقل اعف ولا افعل العفو ، بل قال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ والمراد بالعفو هنا ما عفا وسهل من الناس ؛ لأن الناس يعامل بعضهم بعضاً ، فمن أراد من الناس أن يعاملوه على الوجه الذي يحب وعلى

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٦/٢) .

الوجه الأكمل ، فهذا شيء يصعب عليه ويشق عليه ويتعب وراء الناس .

وأما من استرشد بهذه الآية ، وأخذ ما عفا من الناس وما سهل ؛ فما جاء منهم قبله ، وما أضاعوه من حقه تركه ، إلا إذا انتهكت محارم الله ، فإن هذا هو الذي أرشد الله إليه ؛ أن نأخذ العفو ، فخذ ما تيسر من أخلاق الناس ومعاملتهم لك ، والباقي أنت صاحب الفضل فيه إذا تركته .

﴿ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ ﴾ يعني أوامر بما يتعارفه الناس ويعرفه الشرع من أمور الخير ، ولا تسكت عن الأمر بالخير إذا كان الناس أدخلوا به ، فيما بينك وبينهم . حقلك افعل به ما تشاء ، لكن الشيء المعروف ينبغي أن تأمر به .

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ المراد بالجاهل هنا ليس هو الذي لا يعلم الحكم ، بل الجاهل السفه في التصرف ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ﴾ أي بسفاهة ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء : ١٧] .

فالجاهلون هنا هم السفهاء الذين يجهلون حقوق الغير ، ويفرطون فيها ، فأعرض عنهم ولا تبال بهم ، وأنت إذا أعرضت عنهم ولم تبال بهم ؛ فإنهم سوف يملّون ويتعبون ، ثم بعد ذلك يرجعون إلى صوابهم ، ولكنك إذا عاندتهم أو خاصمتهم أو أردت منهم أن يعطوك حقلك كاملاً ؛ فإنهم ربما بسفهمهم يعاندونك ولا يأتون بالذي تريد .

فهذه ثلاثة أوامر من الله ﷻ فيها الخير لو أننا سرنا عليها : ﴿ خُذِ الزَّمْرَ وَامْرُءًا بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] ﴿ صَبَرَ ﴾ : يعني على الأذى ، ﴿ وَغَفَرَ ﴾ : يعني تجاوز عنه إذا وقع به ، و ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ : أي لمن معزومات الأمور ، أي من الأمور التي تدل على عزم الرجل ، وعلى حزمه ، وعلى أنه قادر على نفسه مسيطر عليها ، وذلك لأن الناس ينقسمون إلى أقسام بالنسبة لسيطرتهم على أنفسهم .

فمن الناس من لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبداً ، ومن الناس من يستطيع لكن بمشقة شديدة ، ومن الناس من يستطيع لكن بسهولة ، يكون قد جبلة ^(١) الله ﷻ على مكارم الأخلاق ، فيسهل عليه الصبر والغفران .

فالذي يصبر على أذى الناس ويتحمل ويحتسب الأجر من الله ويغفر لهم ، هذا هو الذي صنع هذا المعزوم من الأمور ، أي من الشئون ، وهذا حث واضح على أنه ينبغي للإنسان أن يصبر ويغفر ، وقد سبق لنا التفصيل في مسألة العفو عن الجناة والمعتدين ، وأنه لا يمدح مطلقاً ولا يذم مطلقاً ، بل ينظر إلى الإصلاح .

* * *

(١) جبلة : أي طبعه . المعجم الوسيط (١١٠/١) .

٦٣٢ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَشْجِ عَبْدِ الْقَيْسِ : « إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُجِبُهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ ، وَالْأَنَاءَةُ » ^(١) رواه مسلم .

٦٣٣ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ » ^(٢) فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ ^(٣) متفق عليه .

٦٣٤ - وعنها أن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ » ^(٤) رواه مسلم .

٦٣٥ - وعنها أن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْتَرَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ » ^(٥) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف هنا في سياق الأحاديث ما قاله النبي ﷺ لأشج عبد القيس ، قال له : « إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » .

« الحلم » : عندما يثار الإنسان ويجنى عليه ويعتدى عليه يحلم ، لكنه ليس كالحمار لا ييالي بما فعل به ، يتأثر لكن يكون حليماً لا يتعجل العقوبة ، حتى إذا صارت العقوبة خيراً من العفو أخذ بالعقوبة .

« والأناة » : التأني في الأمور وعدم التسرع ، وما أكثر ما يهلك الإنسان ويزل بسبب التعجل في الأمور ، سواء في نقل الأخبار ، أو في الحكم على ما سمع ، أو في غير ذلك .
فمن الناس مثلاً من يتخطف الأخبار بمجرد ما يسمع الخبر يحدث به وينقله ، وقد جاء في الحديث « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » ^(٦) .

ومن الناس من يتسرع في الحكم ، يسمع عن شخص شيئاً من الأشياء ، ويتأكد أنه قاله أو أنه فعله ، ثم يتسرع في الحكم عليه ، أنه أخطأ أو ضل أو ما أشبه ذلك ، وهذا غلط ، التأني في الأمور كله خير .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٥) ، والترمذي في البر والصلة (٢٠١١) وأبو داود في الأدب (٥٢٢٥) وفيه خلطين .

(٢) الرفق : لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف .

(٣) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين والمعاندين (٦٩٢٧) ومسلم في السلام (١٠) والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٧) والبيهقي في سننه (١٩٣/١٠) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٨) والإمام أحمد في مسنده (١٢٥/٦) ، وقوله شانه : أي عابه وقبحه .

(٦) أخرجه مسلم في المقدمة (٥) .

ثم ذكر المؤلف أحاديث عائشة رضي الله عنها الثلاثة في باب الرفق ، وأن الرفق محبوب إلى الله ﷻ ، وأنه ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه ، ففيه الحث على أن يكون الإنسان رقيقاً في جميع شئونه ؛ رقيقاً في معاملة أهله ، وفي معاملة إخوانه ، وفي معاملة أصدقائه ، وفي معاملة عامة الناس يرفق بهم ، فإن الله تعالى رقيق يحب الرفق .

ولهذا فإن الإنسان إذا عامل الناس بالرفق يجد لذة وانسراحاً ، وإذا عاملهم بالشدة والعنف ندم ، ثم قال : ليتني لم أفعل ، لكن بعد أن يفوت الأوان ، أما إذا عاملهم بالرفق واللين والأناة انشرح صدره ، ولم يندم على شيء فعله .

وفق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح وحسن الأخلاق والآداب .

* * *

٦٣٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أغرابي في المسجد ، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقْعُوا فِيهِ ^(١) ، فقال النبي ﷺ : « دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُتَسَرِّينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ » ^(٢) رواه البخاري .

« السَّجْلُ » بفتح السين المهملة وإسكان الجيم : وَهِيَ الدَّلْوُ الْمُتَمَلِّقَةُ مَاءً ، وَكَذَلِكَ الدُّنُوبُ .

الشرح

ساق المؤلف ﷺ في باب الحلم والأناة والرفق في كتابه رياض الصالحين ، حديث أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن أعرابياً بال في المسجد . أعرابي : يعني بدوي ؛ والبدوي في الغالب لا يعرف أحكام الشرع ؛ لأنه يعيش في البادية في إبله أو في غنمه ، وليس له علم بشرعة الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٩٧] يعني أقرب ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ؛ لأنهم في باديتهم بعيدون عن الناس وعن العلم والشرع .

فهذا الأعرابي دخل المسجد واحتاج إلى أن يبول ، فبال في طائفة المسجد ، أي تنحى وبال في المسجد ، فهم الناس به أن يقعوا فيه وزجروه ، ولكن النبي ﷺ قال : لهم « دعو » أي يقضي بوله ، « وأريقوا على بوله سجلاً من ماء ، أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » فتركه الناس .

فلما قضى بوله صبوا عليه ذنوباً من الماء ، يعني دلوا من الماء ، فطهر المحل ، وزال المحذور ، ثم دعا بالأعرابي وقال له : « إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر ، وإنما هي للصلاة

(١) ليقعوا فيه : أي بالسب ونحوه ، والرجل هو ذو الخويصرة اليماني ، وقيل : الأقرع بن حابس .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٠) وفيه (وهريقوا) .

وقراءة القرآن ، والتكبير » (١) كما قال الرسول ﷺ .

ففي هذا الحديث فوائد كثيرة :

منها : العذر بالجهل ، وأن الإنسان الجاهل لا يعامل كما يعامل العالم ؛ لأن العالم معاند ، والجاهل متطلع للعلم فيعذر بجهله ، ولهذا عذره النبي ﷺ ورفق به .

ومنها : أن الشرع يقتضي دفع أعلى المفسدتين بأدناهما ، يعني إذا كان هناك مفسدتان لابد من ارتكاب أحدهما ، فإنه يرتكب الأسهل .

فهنا أمامنا مفسدتان : الأولى : استمرار هذا الأعراي في بوله ، وهذه مفسدة .

والثانية : إقامته من بوله ، وهذه مفسدة أيضًا ، لكن هذه أكبر ؛ لأن هذه يترتب عليها :

أولاً : الضرر على هذا البائل ؛ لأن البائل إذا منع البول المتهى للخروج ففي ذلك ضرر ، فربما تتأثر مجاري البول ومسالك البول .

ثانياً : أنه إذا قام فإما أن يقطع رافعاً ثوبه ، لئلا تصيبه قطرات البول ، وحينئذ تكون القطرات منتشرة في المكان ، وربما تأتي على أفخاذه ويبقى مكشوف العورة أمام الناس وفي المسجد ، وإما أن يدلي ثوبه ، وحينئذ يتلوث الثوب ويتلوث البدن وهذه أيضًا مفسدة ؛ فلهذا ترك النبي ﷺ هذا الرجل يبول حتى انتهى ، ثم أمر بأن يصب عليه ذنوبًا من ماء .

وعلى هذا فيكون لدينا قاعدة : إذا اجتمعت مفسدتان لابد من ارتكاب إحداهما ؛ فإنه يرتكب الأسهل والأخف ، دفعًا للأعلى ، كما أنه إذا اجتمعت مصالح ولا يمكن فعل جميعها ؛ فإنه يؤخذ الأعلى فالأعلى ، ففي المصالح يقدم الأعلى ، وفي المفاصد يقدم الأسهل والأدنى .

ومن فوائد هذا الحديث : وجوب تطهير المسجد وأنه فرض كفاية ، لقول الرسول ﷺ : « أريقوا على بوله سجلاً من ماء » فيجب على من رأى نجاسة في المسجد أن يطهرها بنفسه ، أو يبلغ من هو معني بالمسجد ومستول عنه حتى يقوم بتطهيرها .

ومنها : اشتراط طهارة مكان المصلي ، فالمصلي يجب عليه أن يطهر ثوبه ، وبدنه ، ومكان صلاته ، لابد من ذلك سواء أرضًا كانت ، أو فراشًا ، أو غير ذلك ، المهم أنه لابد من طهارة مكان المصلي .

ومنها : أن الأرض يكفي في تطهيرها أن يصب على النجاسة ماء مرة واحدة ، فإذا غمرت بالماء طهرت ، لكن إن كانت النجاسة ذات جرم كالفائط والروث وما أشبهها ؛ فلا بد من زوال هذا الجرم ، وبعدها يظهر المحل بصب ماء عليه .

ومنها : أنه لابد من الماء في تطهير النجاسة ، لقوله : « أريقوا على بوله سجلاً من ماء » وأن

النجاسة لا تطهر بغير الماء ، وهذا ما عليه أكثر العلماء ^(١) .

والصحيح أن النجاسة تطهر بكل ما يزيلها من ماء أو بتزوين أو غيره ، وإنما أمر النبي ﷺ بصب الماء على مكان البول ؛ لأنه أسرع في تطهير المكان ، وإلا فمن الممكن أن يبقى المكان لا يصب عليه الماء ، ثم مع الرياح والشمس تزول النجاسة ويظهر ، لكن هذا أسرع وأسهل .

ومن المعلوم أنه في عهد الرسول ﷺ لا توجد هذه المزيلات الكيماوية أو البترولية ، فلذلك كانوا يعتمدون في إزالة النجاسة على الماء ، ولكن متى زالت النجاسة طهر المحل بأي مزيل كان ؛ لأن النجاسة عين خبيثة نجسة ، متى زالت عاد المحل إلى طهارته بأي شيء كان .

ولهذا يطهر البول والغائط بالأحجار ؛ يستجمر الإنسان بالحجر ثلاث مرات مع الإنقاء ^(٢) ويكفي . وثوب المرأة الذي تجره إذا مر بالنجاسة ثم مر بعد ذلك بأرض طاهرة طهرته ، وكان من عادة النساء في عهد الرسول ﷺ أن المرأة إذا خرجت واتخذت ثوباً ضافياً ^(٣) يستر قدميها ، وينجر من ورائها إلى شبر ، أو شبرين ، أو ذراع ، ولكن لا يزداد على ذراع . هذا في عهد الرسول ﷺ ، عهد النساء الطاهرات في الزمن الطاهر ، فما بالك باليوم !؟

لكن مع الأسف أن المسلمين اليوم لا ينظرون إلى من سلف من هذه الأمة ، ولكنهم ينظرون إلى من تأخر من هذه الأمة ؛ إلى الخلف الذين قال الله فيهم : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ [مريم : ٥٩] .

صرنا ننظر الآن إلى من خلف . بل ننظر إلى ما دون ذلك ؛ ننظر إلى أعدائنا ؛ اليهود والنصارى والمجوس والوثنيين وما أشبه ذلك ، فنقتدي بهم في مثل هذه الألبسة ، فترى النساء الآن كلما جاءت المجلة التي يسمونها البردة ، ذهبن ينظرن إليها ، تذهب المرأة وتفعل مثل ما فعلوا .

وأقول : يجب على أولياء الأمور أن يمنعوا من تداول هذه المجلات ، وهذه البردات بين أيدي النساء ؛ لأن المرأة ضعيفة ؛ ضعيفة العقل وضعيفة الدين كما وصفها بهذا الرسول ﷺ : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » ^(٤) فتعتر وتخدع بهذه المظاهر .

وكثير من الرجال مع الأسف الشديد هم رجال في ثياب رجال وإلا فهم نساء ، التدبير للنساء عليهم ، وهن القوامات عليهم ، عكس ما أمر الله : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ ، لكن أصبح

(١) قالت الحنفية : أن بقية المائعات غير الماء لا تصلح للوضوء ، ولكن تصلح لإزالة النجاسة الحقيقية كالبول والدم ونحو ذلك . واتفق جمهور العلماء غير الحنفية على عدم جواز التطهير بغير الماء من المائعات . انظر فقه الكتاب والسنة (٢٠٥٩ / ٤ ، ٢٠٦٠) .

(٢) أي النظافة والنقاء . المعجم الوسيط (٩٨٧ / ٢) .

(٣) أي سابقاً : طويلاً واسعاً .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٢) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان (١٣٢) .

الآن بين كثير من الناس النساء قوامات على الرجال ، هي التي تدبر الرجل ، وهي التي تلبس ما شاءت ، وتفعل ما شاءت ، ولا تبالي بزواجها ولا بوليها .

فالواجب على الأولياء أن يمنعوا من تداول هذه المجلات التي تأتينا بهذه الأزياء البعيدة عن الزي الإسلامي ، فالنساء في عهد الرسول ﷺ إذا خرجن إلى السوق لبسن ثياباً طويلة حتى لا تبدو أقدامهن ^(١) .

وأما في البيوت فكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله : المرأة في بيتها في عهد الرسول عليها لباس يستر من كف اليد إلى كعب الرجل ، وهي في البيت ، ما عندها إلا النساء أو رجال محارم ، ومع ذلك تستتر من الكف إلى الكعب ، فكلها متسترة ^(٢) .

وبهذا نعرف فساد تصور من تصور قول الرسول ﷺ : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » ^(٣) أن المرأة يجوز لها أن تقتصر في لباسها على لباس يستر ما بين السرة والركبة ، يردن أن تخرج المرأة كاشفة كل بدنهما إلا ما بين السرة والركبة ، فمن قال هذا ؟!

إن الرسول ﷺ يخاطب الناظرة لا اللابسة يقول : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » ، يعني ربما تكون اللابسة قد كشفت ثوبها لقضاء حاجة من بول أو غائط ، فيقول لا تنظر لعورتها ، لم يقل الرسول ﷺ للمرأة أن تلبس ما يستر ما بين السرة والركبة فقط ، ومن توهم هذا فإنه من وحي الشيطان ، ولننظر كيف كانت النساء في عهد الرسول ﷺ تلبس الثياب ؛ لذلك يجب أن نصحح هذا المفهوم الذي تدندن به كل امرأة ليس عندها فهم ، وليس عندها نظر لمن سبق ، نقول لها هل تظنين أن الشرع الإسلامي يبيح للمرأة أن تخرج بين النساء ليس عليها إلا سروال قصير يستر ما بين السرة والركبة ، فمن قال إن هذا هو الشرع الإسلامي ؟ ومن قال إن هذا هو معنى قول رسول الله ﷺ : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » ؟!

والرسول ﷺ قال : « ولا الرجل إلى عورة الرجل » ومع ذلك كان الرجال في عهده يلبسون رداءً وإزاراً ، أو يلبسون قميصاً ، ولا يلبسون إزاراً فقط ؛ حتى أن الرجل الفقير الذي طلب من النبي ﷺ أن يزوجه المرأة التي وهبت نفسها له ولم يردها ، قال : زوجنيها ، قال : « ما معك من صداق ؟ » قال : إزاري ؛ لأنه فقير ، كيف يكون الإزار مهراً للمرأة إن أعطيتها إياه بقيت بلا إزار ، وإن بقي عليك بقيت بلا مهر ؟! ارجع فالتمس ولو خاتماً من حديد ، ولكنه لم يجد ، فلم يكونوا وهم رجال يقتصرون على ما بين السرة والركبة أبداً ^(٤) .

والحاصل : أن العلم يحتاج إلى فقه ، ويحتاج إلى نظر في حال الصحابة رضي الله عنهم ؛ كيف فهموا النصوص فطبقوها ، حتى دول الغرب الكافرة الآن أكثرهم يلبس ما يستر الصدر والفخذين ، ولم

(١) انظر في ذلك سنن ابن ماجه في اللباس (٣٥٨٠) .

(٢) انظر فتاوى ابن تيمية (٣٧١/١٥) .

(٣) انظر صحيح مسلم في الحيض (٧٤) وابن ماجه في سننه (٦٦١) والإمام أحمد في مسنده (٦٣/٣) .

(٤) انظر البخاري في النكاح (٥١٢١) وسنن أبي داود في النكاح (٢١١١) والترمذي في النكاح (١١١٣) .

يفهم أحد من هذا الحديث أن المعنى للمرأة أن تبقى مكشوفة البدن إلا ما بين السرة والركبة ، ما فهم هذا أحدًا أبدًا .

فالحاصل : أن الرسول ﷺ جعل ذيل المرأة أي طرف ثوبها الذي يمشي على الأرض إذا التقى بنجاسة ثم مرت على أرض طاهرة فإن الطاهر يطهره ^(١) ، فدل ذلك على أن النجاسة تطهر بكل ما يزيلها من ماء وغيره .

ومن فوائد حديث الأعرابي : حسن خلق الرسول ﷺ ، وتعليمه ، ورفقه ، وأن هذا هو الذي ينبغي لنا إذا دعونا إلى الله ، أو أمرنا بمعروف أو نهينا عن منكر أن نرفق ؛ لأن الرفق يحصل به الخير ، والعنف يحصل به الشر ، ربما إذا عنفت أن يحصل من قبيلك ما يسمونه برد الفعل ولا يقبل منك شيئًا ، يرد الشرع من أجلك ، لكن إذا رفقت وتأنيت فهذا هو الأقرب إلى الإجابة .

ومنها : أن الرسول ﷺ جعل هذه الأمة مبعوثة ، فقال : « فلما بعثتم » مع أن المبعوث هو ، لكن أمته يجب أن تقوم مقامه في الدعوة إلى دينه ﷺ ، وأن يكون الإنسان كانه المبعوث وكأنه الرسول في تبليغ الشرع ، ولهذا قال الرسول ﷺ : « ليلغ الشاهد منكم الغائب » ^(٢) فنحن أمة محمد ﷺ علينا أن نبليغ شرعه إلى جميع الناس ، ولهذا قال : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » .

وفي هذا الحديث : أن الرسول ﷺ لما كلم الأعرابي بهذا اللطف واللين ، وقال : « إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى والقدر » قال الأعرابي : اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا ^(٣) ، انظر كيف انشرح صدره بكلام محمد ﷺ .

أما الجماعة من الصحابة رضي الله عنهم لما أغضبوه وانتهروه رأى - وهو أعرابي لا يعرف - أن الجنة والرحمة تكون له ولمحمد ، وغيرهما لا يرحمون ، وليته قال اللهم ارحمني ومحمدًا وسكت ، بل قال ولا ترحم معنا أحدًا ، فتحجر الرحمة ، لكنه جاهل ، والجاهل له حكمه .

فالحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يرفق في الدعوة ، وفي الأمر ، وفي النهي . وجربوا وانظروا أيهما أصح ، ونحن نعلم علم اليقين أن الأصلح هو الرفق ؛ لأن هذا هو الذي قاله الرسول ﷺ ^(٤) ، وهو الذي اتبعه في هديه ﷺ .

(١) انظر سنن ابن ماجه في الطهارة (٥٣١ ، ٥٣٣) والدارمي (٧٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٠٥) ومسلم في الحج (٤٤٦) والقسامة (٢٩ ، ٣٠) .

(٣) في سنن أبي داود (٣٨٠) والترمذي في الطهارة (١٤٧) وأحمد في مسنده (٢٣٩/٢) وابن ماجه في الطهارة (٥٢٩) والإحسان لابن حبان (٩٨١) أن هذه الكلمة وقعت قبل حادث بول الرجل في المسجد . وأشار ابن حجر في فتح الباري (٤٣٩/١٠) إلى ذلك ذاكرًا رواية ابن ماجه وابن حبان للحديث : ولم نجد ما يدل على أن بول الرجل في المسجد وقع أولاً .

(٤) انظر الأحاديث رقم (٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥) .

٦٣٧ - وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يَسْرُوا وَلَا تَعْسُرُوا . وَيَسْرُوا وَلَا تَنْقُرُوا » ^(١) متفق عليه .

الشرح

هذا الحديث ذكره النووي رحمته الله في باب الحلم والرفق والأناة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

هذه أربع جمل : الأولى قوله : « يسروا » يعني اسلكوا ما فيه اليسر والسهولة سواء كان فيما يتعلق بأعمالكم أو معاملتكم مع غيركم ، ولهذا كان النبي ﷺ من هديه أنه : ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ^(٢) .

فأنت اختر الأيسر لك حتى في كل أحوالك ، حتى في العبادات ، وفي المعاملات مع الناس ، وفي كل شيء ؛ لأن اليسر هو الذي يريده الله ﷻ منا ، ويريده بنا : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

فمثلاً إذا كان لك طريقان إلى المسجد ؛ أحدهما صعب فيه حصى وأحجار وأشواك والثاني سهل ، فالأفضل أن تسلك الأسهل ، وإذا كان هناك ماء وأنت في الشتاء ، وكان أحدهما بارداً يؤلمك والثاني ساخناً ترتاح له ، فالأفضل أن تستعمل الساخن لأنه أيسر وأسهل ، وإذا كان يمكن أن تحج على سيارة أو تحج على بعير ، والسيارة أسهل ، فالحج على السيارة أفضل .

فالهمم أنه كل ما كان أيسر فهو أفضل مالم يكن إثماً ، لأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول : كان الرسول ﷺ ما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً .

أما إذا كان فعل العبادة لا يتأتى إلا بمشقة ، وهذه المشقة لا تسقطها عنك ففعلتها على مشقة ، فهذا أجر يزداد لك ، فإن إسباغ الوضوء على المكاره مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا ، لكن كون الإنسان يذهب إلى الأصعب مع إمكان الأسهل هذا خلاف الأفضل ، فالأفضل اتباع الأسهل في كل شيء .

وانظر إلى الصوم ، قال فيه الرسول ﷺ : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » ^(٣) ، وفي حديث آخر « وأخروا السحور » ^(٤) لماذا ؟ لأن تأخير السحور أقوى على الصوم مما لو تقدم ، والمبادرة

(١) أخرجه البخاري في العلم (٦٩) ومسلم بنحوه في الجهاد والسير (٦) وأبو داود في الأدب (٤٨٣٥) .

(٢) انظر صحيح البخاري في المناقب (٣٥٦٠) والأدب (٦١٢٦) ومسلم في الفضائل (٧٧) وأبو داود في الأدب (٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) ومسلم في الصيام (٤٨) .

(٤) ما جاء في الكتب الصحاح يؤكد هذا المعنى وينظر في ذلك البخاري في الصوم (١٩٢٠ ، ١٩٢١) أما هذه الرواية فأخرجها عبد الرزاق في مصنفه (٧٦١٥) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥٥/٣) .

بالفطر أسهل وأيسر على النفس لا سيما مع طول النهار وشدة الظمأ .

فهذا وغيره من الشواهد يدل على أن الأيسر أفضل ، فأنت يسر على نفسك .

كذلك أيضًا في مزاولة الأعمال فإذا رأيت أنك إذا سلكت هذا العمل فهو أسهل وأقرب ويحصل به المقصود ، فلا تتعب نفسك في أعمال أخرى أكثر من اللازم وأنت لا تحتاج إليها ، بل افعل ما هو أسهل في كل شيء ، وهذه قاعدة : أن اتباع الأسهل والأيسر هو الأرفق بالنفس والأفضل عند الله .

« ولا تعسروا » يعني لا تسلكوا طرق العسر لا في عبادتكم ، ولا في معاملتكم ، ولا في غير ذلك ، فإن هذا منهي عنه فلا تعسر ، ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلاً واقفاً في الشمس ، سأل عنه ، قالوا : يا رسول الله ، هو صائم ؛ نذر أن يصوم ويقف في الشمس ، فنهاه وقال له لا تقف في الشمس ^(١) ؛ لأن هذا فيه عسر على الإنسان ومشقة ، والرسول ﷺ يقول لا تعسر .

« وبشروا » يعني اجعلوا طريقكم دائماً البشارة ، بشروا أنفسكم وبشروا غيركم ، يعني إذا عملت عملاً فاستبشر وبشر نفسك ، فإذا عملت عملاً صالحاً فبشر نفسك بأنه سيقبل منك إذا اتقيت الله فيه ؛ لأن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وإذا دعوت الله فبشر نفسك أن الله يستجيب لك ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ولهذا قال بعض السلف : من وفق للدعاء فليشتر بالإجابة ؛ لأن الله قال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] فأنت بشر نفسك في كل عمل .

وهذا يؤيده أن النبي ﷺ كان يكره الطيرة ويعجبه الفأل ^(٢) ؛ لأن الإنسان إذا تفاعل نشط واستبشر وحصل له خير ، وإذا تشائم فإنه يتحسر ، وتضيق نفسه ، ولا يقدم على العمل ، ويعمل وكأنه مكره ، فأنت بشر نفسك ، كذلك بشر غيرك ، فإذا جاءك إنسان ، قال : فعلت كذا وفعلت كذا وهو خائف ، فبشره ، وأدخل عليه السرور .

لا سيما في عيادة المريض ؛ فإذا عدت مريضاً فقل له : أبشر بالخير ، وأنت على خير ، ودوام الحال من المحال ، والإنسان عليه أن يصبر ويحتسب ويؤجر على ذلك ، وما أشبه ذلك ، وبشره قائلاً : أنت اليوم وجهك طيب ، وما أشبه ذلك ؛ لأنك بهذا تدخل عليه السرور ، وتبشره ، فأنت اجعل طريقك هكذا فيما تعامل به نفسك وفيما تعامل به غيرك ، الزم البشارة تدخل السرور على نفسك ، وتدخل السرور على غيرك ، فهذا هو الخير .

« ولا تنفروا » يعني لا تنفروا الناس عن الأعمال الصالحة ، ولا تنفروهم عن الطرق السليمة ، بل شجعوهم عليها ، حتى في العبادات لا تنفروهم .

(١) انظر البخاري في الأيمان والندور (٦٠٠٤) .

(٢) انظر البخاري في الطب (٥٧٠٧) ومسلم في السلام (١٠٢ ، ١٠٧) .

ومن ذلك : أن يطيل الإمام بالجماعة أكثر من السنة ، فإن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان إذا صلى مع النبي ﷺ صلاة العشاء ، ذهب إلى قومه ف صلى بهم تلك الصلاة ، فدخل يوماً من الأيام في الصلاة ، فشرع في سورة طويلة ، فانصرف رجل وصلى وحده ، فقبل : نافق فلان ، فذهب الرجل للنبي ﷺ ، ثم إن معاذاً أتى إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : « أفنان أنت يا معاذ » ^(١) .

وكذلك الرجل الآخر قال له الرسول ﷺ : « إن منكم منفرين فأيكم أمم الناس فليخفف » ^(٢) .
فالتفسير لا ينبغي ؛ فلا تنفر الناس بل لئن لهم ، حتى في الدعوة إلى الله ﻻ تدعهم إلى الله دعوة منفر ، لا تقل إذا رأيت إنساناً على خطأ : يا فلان أنت خالفت ، أنت عصيت ، أنت فيك ... إلى آخره ، هذا ينفرهم ويزيدهم في التمادي في المعصية ، ولكن ادعهم بهون ولين حتى يألفك ويعرف ما تدعو إليه ، وبذلك تمثل أمر النبي ﷺ في قوله : « بشروا ولا تنفروا » .

فخذ هذا الحديث أيها الأخ رأس مال لك « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » سر إلى الله ﻻ تدعهم إلى الله على هذا الأصل ، وعلى هذا الطريق ، وسر مع عباد الله على ذلك تجد الخير كله .

* * *

٦٣٨ - وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ يُحَرِّمِ الرِّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » ^(٣) رواه مسلم .

٦٣٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أَوْصِنِي قَالَ : « لَا تَغْضَبَ » فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قَالَ : « لَا تَغْضَبَ » ^(٤) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله حديثاً فيه الأمر بالرفق والحث عليه ، حيث قال النبي ﷺ : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » يعني أن الإنسان إذا حرم الرفق في الأمور فيما يتصرف فيه لنفسه ، وفيما يتصرف فيه مع غيره ، فإنه يحرم الخير كله أي فيما يتصرف فيه ، فإذا تصرف الإنسان بالعنف والشدة فإنه يحرم الخير فيما فعل .

وهذا شيء مجرب ومشاهد أن الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشدة ؛ فإنه يحرم الخير ولا ينال الخير ، وإذا كان يتعامل بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر ، حصل على خير كثير ، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائماً رقيقاً حتى ينال الخير .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٥) ومسلم في الصلاة (١٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان بنحوه (٧٢) والبيهقي في السنن (١١٥/٣) بلفظه .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٤) وأبو داود في سننه (٤٨٠٩) وابن ماجه في السنن (٣٦٨٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦) والإمام أحمد في مسنده (١٧٥/٢ ، ٣٦٢) .

أما حديث أبي هريرة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أوصني ، قال : « لا تغضب » فردد مراراً وهو يقول أوصني ، فقال : « لا تغضب » والمعنى : لا تكن سريع الغضب يستثيرك كل شيء ، بل كن مطمئناً متأنياً ؛ لأن الغضب جمة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان حتى يغلي القلب ، ولهذا تنتفخ الأوداج ؛ عروق الدم ، وتحمر العين ، ثم يفعل الإنسان حتى يفعل شيئاً يندم عليه .

وإنما أوصى النبي ﷺ هذا الرجل ألا يغضب دون أن يوصيه بتقوى الله أو بالصلاة أو بالصيام أو ما أشبه ذلك ، لأن حال هذا الرجل تقتضي ذلك ، ولهذا أوصى غيره بغير هذا الشيء ؛ أوصى أبا هريرة أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وأن يوتر قبل أن ينام ^(١) ، وأوصى أبا الدرداء بمثل ذلك ، أما هذا فأوصاه ألا يغضب ، وأوصاه ألا يغضب لأن النبي ﷺ . علم من حاله أنه غضوب كثير الغضب ، فلذلك قال : « لا تغضب » .

والغضب يحمل الإنسان على أن يقول كلمة الكفر ، أو أن يطلق زوجته ، أو أن يضرب أمه ، أو أن يعق أباه ، كما هو مشاهد ومعلوم ، ثم تجد الإنسان من حين أن يتصرف يبرد ثم يندم ندماً عظيماً ، وما أكثر الذين يسألون : غضبت على زوجتي فطلقتها ثلاثاً ، وما أشبه ذلك ، فأنت لا تغضب . لا تغضب ؛ فإن الغضب لا شك أنه يؤثر على الإنسان حتى يتصرف تصرف المجانين .

ولهذا قال بعض العلماء : إن الإنسان إذا غضب غضباً شديداً حتى لا يدري ما يقول ؛ فإنه لا عبرة بقوله ، ولا أثر لقوله ؛ إن كان طلاقاً فإن امرأته لا تطلق ، وإن كان دعاءً فإنه لا يستجاب ؛ لأنه يتكلم بدون عقل وبدون تصور . نسأل الله لنا وللمسلمين العافية والسلامة .

* * *

٦٤٠ - وعن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وإليحد أخذكم شفرته ، وإليحد ذبيحتة » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

نقل المؤلف رحمته الله في كتابه رياض الصالحين في باب الحلم والرفق والأناة في سياق الأحاديث الواردة في ذلك ، نقل عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » .

كتبه على كل شيء : يعني كتب الإحسان في كل شيء ، أي أن الله ﷻ شرع الإحسان في كل شيء ، حتى في القتل ، وحتى في الذبح ، وفي غير ذلك من الأمور . عليك أن تكون محسناً لما تقوم به . « فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » . وذلك لأن إزهاق النفوس يكون

(١) انظر أبو داود في الصلاة (١٤٢٣) وأحمد في مسنده (٣٢٩/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد والذبايح (٥٧) وأبو داود في الأضاحي (٢٨١٥) والترمذي في الديات (١٤٠٩) .

بالقتل أحيانًا ، وبالذبح أحيانًا .

فالذبح والنحر يكون فيما يحل أي فيما يؤكل ، ويكون النحر للإبل والذبح فيما سواها ، والنحر يكون في أسفل الرقبة مما يلي الصدر ، والذبح يكون في أعلى الرقبة مما يلي الرأس ، ولا بد في الذبح والنحر من قطع الودجين ، وهما العرقان الغليظان يجري منهما الدم إلى بقية البدن ؛ لأن النبي ﷺ قال : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا » ^(١) .

ولا ينهر الدم إلا قطع الودجين ، فالشرط في حل المذكي أو المنحور أن يقطع الودجان ، أما الحلقوم الذي هو مجرى النفس ، والمريء الذي هو مجرى الطعام ، فقطعهما أكمل في الذبح والنحر ، ولكن ليس ذلك بشرط . أما القتل فيكون فيما لا يحل أكله ، فيما أمر بقتله ، وفيما أبيع قتله ، ومما أمر بقتله : الفأر ، وكذلك العقرب ، وكذلك الحية ، وكذلك الكلب العقور ^(٢) ، فقتل هذه الأشياء ، وكذلك كل مؤذ فإنه يقتل . وعند العلماء قاعدة تقول : ما آذي طبعًا قتل شرعًا ، يعني ما كان طبيعته الأذى فإنه يقتل شرعًا ، وما لم يؤذ طبعًا ولكن صار منه أذية فلك قتله ، لكن هذا الأخير مقيد ، فلو آذاك النمل في البيت ، فصار يحفر البيت ويفسده فلك قتله وإن كان منهيًا عنه في الأصل ، لكن إذا آذاك فلك قتله ، وكذلك غيره مما لا يؤذي طبعًا ولكن تعرض منه الأذية فاقتله إذا لم يندفع إلا بالقتل .

فمثلًا إذا أردت أن تقتل فأرة وقتلها مستحب فأحسن القتلة ، اقتلها بما يزهق روحها حالًا ، ولا تؤذيها ، ومن أذيتها ما يفعله بعض الناس حيث يضع لها شيئًا لاصقًا تلتصق به ، ثم يدعها تموت جوعًا وعطشًا ، وهذا لا يجوز ، فإذا وضعت هذا اللاصق فلا بد أن تكرر مراجعته ومراقبته ، حتى إذا وجدت فيه شيئًا لاصقًا قتله .

أما أن تترك هذا اللاصق يومين أو ثلاثة وتقع فيه الفأرة وتموت عطشًا أو جوعًا ، فإنه يخشى عليك أن تدخل النار بذلك ؛ لأن النبي ﷺ قال : « دخلت النار امرأة في هرة حبستها ، حتى ماتت لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض » ^(٣) .

المهم أن ما يشرع قتله بأقرب ما يكون من إهلاكه وإتلافه ، ومن ذلك الوزغ الذي يسمى السام الأبرص ، ويسمى البرص أيضًا ، اقتله واحرص على أن تقتله بأن يموت في أول مرة ، فهو أفضل وأعظم أجرًا وأيسر له ، وكذلك بقية الأشياء التي تقتل .

ومن ذلك من يقتل قصاصًا ، لكن الذي يقتل قصاصًا فإنه يفعل به كما فعل في المقتول ، ودليل ذلك : أن النبي ﷺ رفع إليه قضية امرأة أتاه يهودي ، وكان معها حلي ، فقتلها وأخذ الحلي ، لكن

(١) انظر ذلك في البخاري في بدء الخلق (٣٣١٤) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الأضاحي (٢٠) والإمام أحمد في مسنده (١٤٢/٤) .

(٣) روى الشيخ الحديث بمعناه ، والحديث أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٨) ومسلم في البر والصلة (١٣٥) والتوبة (٢٥) .

كيف قتلها ، وضع رأسها على حجر وقتلها بحجر ثان ، فرض رأسها بين حجرين .
فأتى إليها وفيها رمق من حياة ، فقيل لها : من قتلك ، حتى ذكروا اليهودي فأشارت برأسها أن
نعم ، فأخذوا اليهودي فاعترف ، فأمر النبي ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين ، فوضع رأسه على حجر
ثم ضرب بالحجر الثاني حتى مات (١) ؛ لأن هذا قصاص ، والله ﷻ يقول : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ
فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمْنَلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

لكن لو وجب قتله بالحراة يعني أنه صار يقطع الطريق على الناس ؛ يأخذ الأموال ، ويقتل الناس ،
فهذا يقتل ، لكن يقتل بالسيف ، إلا إذا كان قد مثل بمن قتله فيمثل به حسبما فعل ، فيفعل به كما
فعل .

فإن قال قائل : ما تقولون في الرجل إذا زنا وهو محصن ؛ فإنه يرجم بالحصى ، أي بالحجر الصغير
حتى يموت ، وهذا يؤله ويؤذيه قبل أن يموت ، فهل يعارض ذلك هذا الحديث ؟
فالجواب : لا . لا يعارضه ؛ لأنه يحمل على أحد أمرين :

الأول : إما أن يراد بإحسان القتلة ما وافق الشرع ، وحينئذ يكون الرجم من إحسان القتلة ؛ لأنه
موافق للشرع .

والثاني : إما أن يقال : هذا مستثنى دلت عليه السنة ، بل دل عليه القرآن الذي نسخ لفظه وبقي
حكمه ، ودل عليه صريح السنة .

فالزاني المحصن الذي تزوج وجامع زوجته ، إذا زنا والعياذ بالله فإنه يؤتى به ، وتؤخذ حجارة صغيرة
أقل من البيضة ومثل النمرة تقريباً أو أكبر قليلاً ويرجم حتى يموت ، ويتقي المقاتل ؛ يعني لا يضرب في
موضع يموت به سريعاً ، بل يضرب على ظهره وبطنه وما أشبه ذلك حتى يموت ؛ لأن هذا هو الواجب .
والحكمة من هذا : أن البدن الذي تلذذ بالشهوة المحرمة ، عمت الشهوة جميع بدنه ، فمن الحكمة
أن تعم العقوبة جميع بدنه وهذا من حكمة الله ﷻ .

ثم قال النبي ﷺ : « وليحد أحدكم شفرته » ، اللام هنا للأمر ، ويحد : يعني يجعلها حديدة
سريعة القطع ، والشفرة : السكين .

يعني إذا أردت أن تذبح فاذبح بسكين مشحودة أي مسنونة ، بحيث يكون ذلك أقرب إلى القطع
بدون ألم .

« وليرح ذبيحته » هذا أمر زائد على شحذ الشفرة ، وذلك بأن يقطع بقوة ، فيضع السكين ، على
الرقبة ثم يجرها بقوة ، حتى يكون ذلك أسرع من كونه يجرها مرتين أو ثلاث ، وبعض الناس يوقفه
الله ومن مرة واحدة يقطع الودجين والحلقوم والمريء ؛ لأنه يأخذ السكين بقوة ، وتكون السكين جيدة

(١) انظر الحديث في البخاري في الخصومات (٢٤١٣) ومسلم في القسامة (١٧) .

مشحودة ، فيسهل على الذبيحة أو المنحورة الموت .

ومن إراحة الذبيحة : أن تضع رجلك على رقبته ، وتمسك الرأس باليد اليسرى وتذبح باليمنى ، وحينئذ تكون مضطجعة على الجنب الأيسر ، ودع القوائم اليدين والرجلين وخلها تتحرك بسهولة ؛ لأنك إذا أمسكت بها فإن هذا ضغط عليها ، وإذا تركتها تحرك يديها ورجليها كان هذا أيسر لها ، وهناك أيضًا فائدة من ذلك وهي تفريغ الدم بهذه الحركة ؛ لأنه مع الحركة والاضطراب يتفرغ الدم أكثر ، وكلما تفرغ فهو أحسن .

وأما ما يفعله بعض العامة من أنه يأخذها بيدها اليسرى ويلويها على عنقها ، ثم يترك على قوائمها الثلاث رجل ويمسك بها حتى لا تتحرك أبدًا ؛ فهذا خلاف السنة ، السنة أن تضع الرجل على الرقبة ثم تدع القوائم تتحرك ؛ لأن ذلك أيسر لها وأشد تفريقًا للدم .

فالشاهد من الحديث قوله ﷺ : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » فإن هذا من الرفق .

ولنتنبه إلى الإنسان إذا قتل بحد ، يعني قتل وهو زان أو قتل قصاصًا ؛ فإنه يصلى عليه ، ويدعى له بالرحمة والعفو مثل سائر المسلمين ، لعل الله أن يعفو عنه ويرحمه .

أما من قُتل كافرًا مرتدًا ؛ فإنه لا يدعى له بالرحمة ، ولا يغسل . مثل أن يقتل إنسان لا يصلي ؛ فإنه يقتل مرتدًا كافرًا ، فلا يغسل ولا يكفن ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن مع المسلمين ، ولا يدعى له بالرحمة ، ومن دعا له بالرحمة ؛ فإنه آثم متبع غير سبيل المؤمنين ؛ لقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانِ لِلنَّاسِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّكُمْ لَجَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٣] .

* * *

٦٤١ - وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا ، كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله تعالى (١) . متفق عليه .

٦٤٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار - أو بمن تحرم عليه النار ؟ - تحرم على كل قريب هينين لين سهل » (٢) .

* * *

(١) هذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمه الله ، وأخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٠) ومسلم في الفضائل (٧٧) ، قوله « إثمًا » أي معصية ، قوله « إلا أن تنتهك حرمة الله » انتهاكها بارتكاب المحرمات .

(٢) هذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمه الله ، أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٨) وابن حبان (١٠٩٧) ، قوله « قريب » أي من الناس بحسن ملافتهم لهم ، قوله « هين » من الهون وهو السكينة والوقار والسهولة ، يقضي حوائجهم ويسهل أمورهم .

٧٥ - باب العفو والإعراض عن الجاهلين

- قال الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .
 وقال تعالى : ﴿ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَبِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥] .
 وقال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢] .
 وقال تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] .
 وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ صَبْرٌ وَعَفْوٌ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ^(١) [الشورى: ٤٣] .
 والآيات في الباب كثيرة معلومة .

٦٤٣ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُدٍ؟ قال : « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ ^(٢) ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مُهْمُومٌ عَلَى وَجْهِهِ ، فَلَمْ أَسْتَفِيقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي ، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ ^(٣) ، فَتَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكُ الْجَبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، فَتَادَانِي مَلَكُ الْجَبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجَبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَّبِّي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ : إِنْ شِئْتَ أَطَبَقْتُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَالِهِمْ مَنْ يَغْفِدُ اللَّهُ وَخَدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ^(٤) متفقٌ عليه .
 « الْأَخْشَبَانِ » : الْجَبَلَانِ الْمُحِيطَانِ بِمَكَّةَ . وَالْأَخْشَبُ : هُوَ الْجَبَلُ الْغَلِيظُ .

الشرح

قال المؤلف النووي : باب العفو والإعراض عن الجاهلين . ثم ساق آيات تكلمنا عليها سابقا في أبواب سبقت .

ثم ذكر حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سألت النبي ﷺ : « هل مر عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ » لأن يوم أحد كان شديداً على رسول الله ﷺ ^(١) .

ويوم أحد كان غزوة غزاها النبي ﷺ حين تجمعت قريش لغزوه ، لينتقموا من النبي ﷺ فيما حصل من قتل زعمائهم في بدر ؛ لأنه قتل في بدر وهي في السنة الثانية من الهجرة - من زعمائهم أناس لهم شرفٌ وجاه في قريش .

(١) ﴿ لَيْنَ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ : أي من الأمور التي ندب إليها .

(٢) أي من قريش . وحذف هنا مفعول (لقيت) والمقصود ما لقيت .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١) ومسلم في الجهاد والسير (١١١) وألفظ له .

(٤) انظر الأحاديث الواردة في غزوة أحد في البخاري في المغازي من الحديث (٤٠٤١) وحتى (٤٠٨٢) .

وفي شوال من السنة التي تليها ، وهي الثالثة من الهجرة ، اجتمعت قريش فجاعوا إلى المدينة ليغزوا النبي ﷺ ، ولما سمع بهم النبي ﷺ ، استشار أصحابه هل يخرج إليهم ، أم يبقى بالمدينة ؛ فإذا دخلوا المدينة قاتلهم ، فأشار عليه الشباب والذين لم يحضروا بدرًا أن يخرج إليهم ، فخرج إليهم ﷺ في نحو ألف مقاتل . إلا أنه انخزل نحو ثلث الجيش ؛ لأنهم كانوا منافقين والعياذ بالله ، وقالوا : لو نعلم قتلاً لا تبغناك ، فبقي النبي ﷺ في نحو سبعمائة نفر ، ورتبهم النبي ﷺ أحسن ترتيب في سفح جبل أحد ، وحصل القتال ، وانهزم المشركون في أول النهار ، وبدأ المسلمون يجمعون الغنائم .

وكان النبي ﷺ قد جعل على ثغر الجبل خمسين رجلاً رامياً يحمون ظهور المسلمين ، ولما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين هزموا المشركين وصاروا يجمعون الغنائم ، قالوا : لننزل من الجبل نساعد المسلمين على جمع الغنائم ، هكذا ظنوا ، فذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير بما قاله النبي ﷺ ، حيث إن النبي ﷺ لما وضعهم في هذا المكان قال : لا تبرحوا مكانكم ، ولا تتعدوه سواء لنا أو علينا ، لكنهم - عفا الله عنهم - تعجلوا ونزل أكثرهم .

فلما رأى فرسان قريش مكان الرماة خاليًا كروا ^(١) على المسلمين من الخلف ، ومنهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، اللذان أسلما فيما بعد وصارا فارسين من فوارس المسلمين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . فدخلوا على المسلمين من خلفهم واختلطوا بهم ، واستشهد من المسلمين سبعون رجلاً ، على رأسهم أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يحبه ويجله . وحصل للنبي ﷺ ما حصل ؛ ضربوا وجهه وشجوه وصار الدم يتزف على وجهه ، وفاطمة رضي الله عنها تغسل الدم حتى إذا لم يتوقف أحرقت حصيرًا - يعني خصبًا من سعف النخل - ودرته عليه حتى وقف ، وكسروا ربايعته ﷺ ، وحصل من البلاء ما حصل . حصل بلاء عظيم قال الله تعالى فيه : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَىٰ لَئِمَّانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٥ ، ١٦٦] .

فما دام الأمر بإذنه فهو خير ، وحصل في هذا ما حصل من الشدة على النبي ﷺ وعلى أصحابه ، وحملوا الشهداء إلى المدينة ، ولكن النبي ﷺ أمر أن يردوا إلى مصارعهم إلى المكان الذي استشهدوا فيه ودفنوا هناك ، ليخرجوا يوم القيامة من هذا المكان الذي استشهدوا فيه ﷺ وأرضاهم .

فقال النبي ﷺ لعائشة لما سألته : هل مر عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : « نعم » وذكر لها قصة ذهابه إلى الطائف ؛ لأن النبي ﷺ لما دعا قريشًا في مكة ، ولم يستجيبوا له خرج إلى الطائف ، ليبلغ كلام الله ﷻ ، ودعا أهل الطائف لكن كانوا أسفه من أهل مكة ، حيث اجتمعوا هم وسفهاؤهم ، وصاروا صفيين متقابلين في طريق النبي ﷺ ، وجعلوا يرمونه بالحجارة ، يرمونه بالخصى حتى أدموا عقبه ﷺ وخرج مغموًا مهمومًا .

(١) كروا : أي رجعوا . المعجم الوسيط (٢ / ٨١٣) .

ولم يفق ﷺ إلا وهو في قرن الثعالب ، فأظلمت غمامة فرفع رأسه ، فإذا في هذه الغمامة جبريل العظيم ، وقال له : هذا ملك الجبال يقرؤك السلام ، فسلم عليه وقال : إن ربي أرسلني إليك ، فإن شئت أن أطبق عليهم - يعني الجبلين - ففعلت .

ولكن النبي ﷺ لحلمه وبعد نظره وتأنيه في الأمر قال : لا ؛ لأنه لو أطبق عليهم الجبلين هلكوا ، فقال : « لا ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .

وهذا الذي حصل ؛ أن الله قد أخرج من أصلاب هؤلاء المشركين الذين آذوا الرسول ﷺ هذه الأذية العظيمة ، أخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً . فهذا يبين أن الرسول ﷺ حصل له أشد مما حصل له في أحد ، وحصل له أنواع من الأذى لكنه صابر .

ومن أعظم ما كان : أنه كان ذات يوم ساجداً تحت الكعبة ، يصلي لله - والمسجد الحرام لو يجد الإنسان فيه قاتل أبيه ما قتله - فقال بعض السفهاء من قريش والمعتدين منهم : اذهبوا إلى جزور آل فلان فأتوا بسلاها فضعوه على محمد وهو ساجد ، فذهبوا وأتوا بسلا الجذور ، والرسول ﷺ ساجداً تحت الكعبة ، فوضعه على ظهره ، إهانة له وإغاظه له . فبقي الرسول ﷺ ساجداً حتى جاءت بنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وألقت السلا عن ظهره ، فقام من السجود ، ولما سلم رفع يديه يدعو الله تعالى على هؤلاء الملأ من قريش ^(١) .

فالشاهد أن الرسول ﷺ كان يؤذى أشد الأذى ، ومع ذلك يعفو ويصفح ويتأني ويترجى ، فبلغه الله - ولله الحمد - مراده وحصل له النصر المبين المؤزر .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يصبر على الأذى ، لا سيما إذا أؤذي في الله ؛ فإنه يصبر ويحتسب ويتنظر الفرج ، وقد قال النبي ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » ^(٢) .

* * *

٦٤٤ - وعنها قالت : ما ضَرَبَ رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يُجَاهِدَ في سبيل الله ، وما نيلَ منه شيء قط فَيَنْتَقِمَ مِنْ صاحبه ، إلا أن يُتَّهَكَ شيءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ^(٣) تعالى ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ تعالى ^(٤) . رواه مسلم .

٦٤٥ - وعن أنس رضي الله عنه قال : كُنْتُ أَتَشِي مَعَ رسول الله ﷺ ، وعليه بُرْدٌ نَجْرَانِي ^(٥) غُلِظُ الحَاشِيَةِ ، فَأَدْرَكَهُ أَغْرَابِي ، فَجَبَذَهُ ^(٦) بِرِذَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً ، فَتَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ ^(٧) عَاتِي ^(٨) النَّبِيِّ

(١) انظر الحديث في البخاري في الجهاد (٢٩٣٤) وأحمد في مسنده (٤١٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٧/١) . (٣) يتهك شيء من محارم الله : أي بارتكاب المحرمات .

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل (٧٩) .

(٥) كساء يلتحف به ، ونجراني أي منسوب إلى نجران من بلاد همدان من اليمن .

(٦) فجبهه : قيل إنه لغة في جذب . وقيل : إنه مقلوبه . (٧) صفحة : أي جانب ما .

(٨) عاتق : العاتق ما بين العنق والكتف .

ﷺ ، وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرَّذَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ مُزِلِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ . فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ، فَضَحِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ ^(١) . متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمته الله في باب العفو والإعراض عن الجاهلين ، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما ضرب أحداً ؛ لا خادماً ولا غيره بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وهذا من كرمه ﷺ ؛ أنه لا يضرب أحداً على شيء من حقوقه هو الخاصة به ؛ لأن له أن يعفو عن حقه ، وله أن يأخذ بحقه .

ولكن إذا انتهكت محارم الله فإنه ﷺ لا يرضى بذلك ، ويكون أشد ما يكون أخذاً بها ، لأنه ﷺ لا يقر أحداً على ما يغضب الله ﻋﻠﻴﻪ ، وهكذا ينبغي للإنسان أن يحرص على أخذ العفو ، وما عفي من أحوال الناس وأخلاقهم ويعرض عنهم ، إلا إذا انتهكت محارم الله ، فإنه لا يقر أحداً على ذلك . ومن الأحاديث التي ساقها قصة هذا الأعراي ، الذي لحق النبي ﷺ وعليه جبة نجرانية غليظة الحاشية ، فجبذه ، يعني : جذبته جذباً شديداً ، حتى أثرت حاشية الجبة في عنق الرسول ﷺ من شدة الجذب ، فالتفت فإذا هو أعراي يطلب منه عطاءً ، فضحك النبي ﷺ وأمر له بعطاء .

فانظر إلى هذا الخلق الرفيع ؛ لم يوبخه النبي ﷺ ، ولم يضربه ، ولم يكهر ^(٢) في وجهه ، ولم يعيس ؛ بل ضحك ﷺ ومع هذا أمر له بعطاء ، ونحن لو أن أحداً فعل بنا هذا الفعل ما أقررناه عليه بل لضاربناه ، وأما الرسول ﷺ الذي قال الله فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] فإنه التفت إليه ، وضحك إليه ، وأعطاه العطاء .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون ذا سعة ، وإذا اشتد الناس أن يسترخي هو . وسئل معاوية رضي الله عنه بم سست الناس ؟ وذلك لأن معاوية معروف بالسياسة والحكمة ، فقال : أجمل بيني وبين الناس شجرة ؛ إن جذبوها تبعتهم ، وإن جذبتها تبعوني ، لكن لا تنقطع . ومعنى كلامه أنه سهل الانقياد ، لأن الشجرة إذا جعلتها بينك وبين صاحبك إذا جذبها أدنى جذب انقطعت ، لكن من حسن سياسته رضي الله عنه كان يسوس الناس بهذه السياسة ؛ إذا رآهم مقبلين استقبلهم ، وإذا رآهم مدبرين تبعهم حتى يتمكن منهم .

فهكذا ينبغي للإنسان أن يكون دائماً في سياسته رفيقاً حليماً ، كما كان النبي ﷺ هكذا ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الآداب والأخلاق .

(١) أخرجه بنحوه البخاري في اللباس (٥٨٠٩) ومسلم في الزكاة (١٢٨) .

(٢) كهر في وجهه أي قهره أو نهاه . المعجم الوسيط (٨٣٤/٢) .

٦٤٦ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، ضَرْبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ ^(١) ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ^(٢) متفق عليه .

٦٤٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

ومن الأحاديث التي نقلها النووي رحمته الله في باب العفو والإعراض عن الجاهلين هذا الحديث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ ضَرْبَهُ قَوْمَهُ حَتَّى أَدَمَوْا وَجْهَهُ ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

وهذا من حلم الأنبياء وصبرهم على أذى قومهم ، وكم نال الأنبياء من أذى قومهم !؟ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَيْنَاهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

فهذا النبي ﷺ الذي ضربه قومه حتى أدموا وجهه يقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » وكان هؤلاء القوم كانوا مسلمين ، لكن حصل منهم مغاضبة مع نبيهم ففعلوا هذا معه ، فدعا لهم بالمغفرة ؛ إذ لو كانوا غير مسلمين لكان يدعو لهم بالهداية ، فيقول اللهم اهد قومي ، لكن الظاهر أنهم كانوا مسلمين .

والحق حقه ؛ فله أن يسمح عنه وله أن يتنازل عنه ، ولهذا كان القول الراجح فيمن سب النبي ﷺ ثم تاب أن توبته تقبل ، ولكنه يقتل ، وأما من سب الله ثم تاب فإن توبته تقبل ولا يقتل ، وليس هذا يعني أن سب الرسول ﷺ أعظم من سب الله ، بل سب الله أعظم ، لكن الله قد أخبرنا أنه يعفو عن حقه لمن تاب منه فهذا الرجل تاب فعلمنا أن الله تعالى قد عفا عنه .

أما الرسول ﷺ فهو قد مات ، فإذا سبه أحد فقد امتنهن حقه ، فإذا تاب فإن الله يتوب عليه ويعفو له كفره ، الذي كفره بسبب سبه ، ولكن حق الرسول باق فيقتل .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ » يعني ليس القوي الذي يصرع الناس إذا صارعهم ، والمصارعة معروفة وهي من الرياضة النبوية المباحة ، فإن الرسول ﷺ صارع ركانة بن عبد يزيد ^(٤) ، وكان هذا الرجل لا يصصره أحد ، فصارعه النبي ﷺ

(١) أدموه : أي أجروا دمه بالجراحات .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧) واللفظ له ومسلم في الجهاد والسير (١٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٦/٢) ، (٢٦٨ ، ٥١٧) .

(٤) انظر سنن أبي داود (٤٠٧٨) ، وسنن الترمذي (١٧٨٤) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الصبر على الأذى ، الأذى : هو ما يتأذى به الإنسان من قول أو عمل أو غير ذلك ، والأذى إما يكون في أمر ديني أو أمر دنيوي ، فإذا كان في أمر ديني ، بمعنى أن الرجل يؤذى من أجل دينه ، كان في هذا الصبر على الأذى أسوة بالرسول الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، لأن الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتَهُمُ نَصْرًا ﴾ [الأنعام : ٢٤] أودوا حتى أتاهم نصر الله ﷻ .

والإنسان إذا كان معه دين ، وكان معه أمرٌ بالمعروف ونهي عن المنكر فلا بد أن يؤذى ، ولكن عليه بالصبر ، وإذا صبر فالعاقبة للمتقين ، ويبتلى المرء على قدر دينه ^(١) ، فيسلط الله عليه من يؤذيه امتحاناً واختباراً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِنَّهُ ﴾ [العنكبوت : ١٠] يعني إذا أُوذِيَ في الله من جهة دينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودعوته للخير ، جعل هذه الفتنة كالعذاب ، فنكص على عقبيه والعياذ بالله .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] يعني أن بعض الناس يعبد الله على حرف ، وليس عنده عباده متمكنة ، فإن أصابه خير ولم تأت فتنه ولا أذية استمر واطمأن ، وإن أصابته فتنة من شبهة أو أذية أو ما أشبه ذلك انقلب على وجهه - والعياذ بالله - خسر الدنيا والآخرة .

فالواجب الصبر على الأذى في ذات الله ﷻ .

واما الأذى فيما يتعلق بأمور الدنيا ومعاملة الناس ، فأنت بالخيار إن شئت فاصبر وإن شئت فخذ بحقك ، والصبر أفضل ، إلا إذا كان في الصبر عدوان واستمر في العدوان ، فالأخذ بحقك أولى . فلنفرض أن لك جارا يؤذيك ؛ بأصوات مزعجة ، أو دق الجدار ، أو إيقاف السيارة أمام بيتك ، أو ما أشبه ذلك ، فالحق لك ، وهو لم يؤذك في ذات الله ، فإن شئت فاصبر وتحمل وانتظر الفرج ، والله ﷻ يجعل لك نصيراً عليه ، وإن شئت فخذ بحقك ، لقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : ٤١] ولكن الصبر أفضل ما لم يحصل بذلك زيادة عدوان من المعتدي ، فحيثُذ الأفضل أن يأخذ بحقه ليردعه عن ظلمه .

ثم ذكر المؤلف ﷻ آيتين سبق الكلام عليهما ؛ قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ٢٤] وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] وسبق الكلام عليهما .

(١) حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٠/١) بلفظ « يلى الرجل على قدر دينه » .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه في رجل قال للنبي ﷺ : إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، يعني : فماذا أصنع ؟ فقال النبي ﷺ : « لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملل ، ولا يزال معك من الله تعالى ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك » يعني ناصر ، فينصرك الله عليهم ولو في المستقبل .

لأن هؤلاء القرابة والعياذ بالله يصلهم قريبهم لكن يقطعونه ، ويحسن إليهم فيسيئون إليه ، ويحلم عليهم ويعفو ويصفح ولكن يجهلون عليه ويزدادون ، فهؤلاء قال النبي ﷺ : « فكأنما تسفهم الملل » ، المل : الرماذ الحار ، وتسفهم : يعني تلقمهم إياه في أفواههم ، وهو كناية عن أن هذا الرجل متنصر عليهم . وليس الواصل لرحمه من يكافئ من وصله ، ولكن الواصل حقيقة هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها ، فهذا هو الواصل حقاً ^(١) ، فعلى الإنسان أن يصير ويحتسب على أذية أقاربه وجيرانه وأصحابه وغيرهم ، فلا يزال من الله ظهيرٌ عليهم ، وهو الرابع ، وهم الخاسرون ، وقفنا الله لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة .

* * *

٧٧ - باب الغضب إذا انتهكت حرمان الشرع

والانتصار لدين الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِّمَنْ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَصَرُّوا لِلَّهِ يَصْرُكُمْ وَبَيَّنَّتْ أَعْدَاكُمْ ﴾ [محمد : ٧]

وفي الباب حديث عائشة السابق في باب العفو .

٦٤٩ - وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدرى رضي الله عنه قال : جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : إني لأنأخر عن صلاة الصبح من أجل فلانٍ مما يطيل بنا ! فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ ، فقال : « يا أيها الناس : إن منكم متفرقين . فأياكم أم الناس فليؤجز ؛ فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

قال الحافظ النووي - رحمه الله تعالى - في كتابه رياض الصالحين : باب الغضب إذا انتهكت

(١) تصديقا للحديث الصحيح « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩١) وأبو داود في سننه (١٦٩٧) والترمذي في سننه (١٩٠٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٤) واللفظ وفيه (الكبير والضعيف وذا الحاجة) ومسلم في الصلاة (١٨٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٧٣/٢) .

حرمت الشرع ، والانتصار لدين الله .

والغضب له عدة أسباب ؛ منها : أن ينتصر الإنسان لنفسه ؛ يفعل أحد ما يغضبه فيغضب لينتصر لنفسه ، وهذا الغضب منهجي عنه ، لأن رجلاً سأل النبي ﷺ قال له : أوصني ، قال : « لا تغضب » فردد مراراً يقول : أوصني ، وهو يقول : « لا تغضب » (١) .

والثاني من أسباب الغضب : الغضب لله ﷻ ، بأن يرى الإنسان شخصاً ينتهك حرمت الله فيغضب غيره لدين الله ، وحمية لدين الله فإن هذا محمود ويثاب الإنسان عليه ، لأن الرسول ﷺ كان هذا من سنته ، ولأنه داخل في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِّمَنْ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج : ٣٠] ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] فتعظيم شعائر الله وتعظيم حرمت الله أن يجدها الإنسان عظيمة ، وأن يجد امتنانها عظيماً فيغضب ويثأر لذلك ، حتى يفعل ما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك .

ثم ذكر المؤلف آية ثانية ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] والمراد بنصر الله نصر دينه ، فإن الله ﷻ بنفسه لا يحتاج إلى نصر ، هو غني عن سواه ، لكن النصر هنا نصر دين الله بحماية الدين ، والذب عنه ، والغيظ عند انتهاكه ، وغير ذلك من أسباب نصر الشريعة .

ومن هذا الجهاد في سبيل الله ، القتال لتكون كلمة الله هي العليا ، هذا من نصر الله ، وقد وعد الله ﷻ من ينصره بهذين الأمرين : ﴿ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ينصركم على من عاداكم ، ويثبت أقدامكم على دينه حتى لا تزولوا ، فتأمل الآن إذا نصرنا الله مرة أثابنا مرتين ؛ ﴿ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

ثم قال بعدها : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٨] يعني أن الكافرين أمام المؤمنين الذين ينصرون الله لهم التعس ، وهو الخسران والذل والهوان ، وأضل أعمالهم يعني يكون تدبيرهم تدميراً عليهم ، وتكون أعمالهم ضالة لا تنفعهم ولا ينتفعون بها .

ثم ذكر حديث عقبة بن عمرو البصري رضي الله عنه ، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال : إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا ، وكان هذا الإمام يطيل بهم إطالة أكثر من السنة ، فغضب النبي ﷺ ، يقول : فما رأيته غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ .

وقال : « يأبها الناس إن منكم منفرين فأيكم أم الناس فليوجز » . منفرين يعني ينفرون الناس عن دين الله ، وهذا الرجل لم يقل للناس لا تصلوا صلاة الفجر ، لكنه نفرهم بفعله ؛ بالتطويل الذي هو خارج عن السنة ، فنفّر الناس ، وفي هذا إشارة إلى أن كل شيء ينفّر الناس عن دينهم - ولو لم يتكلم الإنسان بالتنفير - فإنه يدخل في التنفير عن دين الله .

ولهذا كان الرسول ﷺ يداري في الأمور الشرعية ، فيترك ما هو حسن لدرء ما هو أشد من تركه

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦) والترمذي في سنن (٢٠٢٠) والإمام أحمد في مسنده (١٧٥/٢) .

فتنة وضرراً ، فإنه ﷺ هم أن يني الكعبة على قواعد إبراهيم ، ولكن خاف من الفتنة فترك ذلك ^(١) ، وكان يصوم في السفر فإذا رأى أصحابه صائمين - وقد شق عليهم الصوم - أفطر ليسهل عليهم ^(٢) . فكون الإنسان يحرص على أن يقبل الناس دين الله بطمأنينة ورضى وإقبال بدون محذور شرعي ، فإن هذا هو الذي كان من هدي الرسول ﷺ .

والشاهد من هذا الحديث : غضب النبي ﷺ من هذا الفعل الذي فعله هذا الإمام ، وفيه أيضاً إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يغضب عند الموعظة لانتهاك حرمة الله ، وقد قال جابر رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا خطب يوم الجمعة احمرت عيناه وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ^(٣) .

ثم قال ﷺ : « فأياكم أم الناس فليوجز » يعني فليخفف الصلاة ، على حسب ما جاءت به السنة . « فإن من ورائه الصغير والكبير وذا الحاجة » أي في المأمومين ضعيف البنية ، وضعيف القوة ، وفيهم مريض ، وفيهم ذو حاجة ؛ قد وعد أحداً يذهب إليه ، أو ينتظر أحداً ، أو ما أشبه ذلك ، فلا يجوز للإمام أن يثقل بالناس أكثر مما جاءت به السنة .

وأما صلاته بالناس بحسب ما جاء في السنة فليفعل ، غضب من غضب ، ورضي من رضي ، والذي لا ترضيه السنة فلا أرضاه الله ، السنة تتبع ولكن مازاد عليها فلا . والأئمة في هذه المسألة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم مُفْطِرٌ : يسرع سرعة تمنع المأمومين فعل ما يسن ، وهذا مخطئ ، وآثم ، ولم يؤد الأمانة التي عليه . وقسم مُقْطِرٌ : أي زائد ، يثقل بالناس وكأنه يصلي لنفسه ، فتجده يثقل القراءة ، والركوع ، والسجود ، والقيام بعد الركوع ، والجلوس بين السجدين ، وهذا أيضاً مخطئ ، ظالم لنفسه . والثالث : يصلي بهم كصلاة النبي ﷺ ، فهذا خير الأقسام ، وهو الذي قام بالأمانة على الوجه الأكمل .

* * *

٦٥٠ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ ، وَقَدْ سَتَرَتْ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَائِيلٌ ، فَلَمَّا رَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَتَكَهْ وَتَلَوْنَ وَجْهَهُ وَقَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ » ^(٤) متفق عليه .

(١) انظر البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٨) ومسلم في الحج (٣٩٩) .

(٢) انظر البخاري في الصوم (١٩٤٤) ومسلم في الصيام (٨٨ ، ٩٠) .

(٣) انظر صحيح مسلم في الجمعة (٤٣) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٤) ومسلم في اللباس (٩٢) والإمام أحمد في مسنده (٣٦/٦ ، ٨٣٢ ،

« السَّهْوَةُ » : كالصَّفَةِ تَكُونُ بين يدي البيت . و « القرام » بكسر القاف : ستر رقيق ، و « هتكه » : أفسد الصورة التي فيه .

٦٥١ - وعنها : أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمُّهُمْ شَأْنَ الْمَرْأَةِ الْخَزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا : مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا : مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى !؟ » ثُمَّ قَامَ فَأَخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ : « إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ ^(١) تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ! وَإِنَّمَا اللَّهُ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

ثم نقل المؤلف رحمه الله في باب الغضب إذا انتهكت حرمت الشرع - أحاديث عائشة رضي الله عنها ؛ والأول أن النبي ﷺ قدم من سفر فوجدوها قد سترت سهوة لها بقرام فيه تماثيل ، يعني فيه صور ، فهتكه النبي ﷺ ، وأخبر أن أشد الناس عذاباً الذين يضاهون بخلق الله ، يعني المصورين ، فهم أشد الناس عذاباً ، لأنهم أرادوا أن يضادوا الله ﷻ في خلقه ، وفي تصويره .

وكانوا فيما سبق يصورون باليد ؛ لأنه ليس عندهم آلات وأجهزة تلتقط الصورة بدون عمل يدوي ، فكانوا يخططون بأيديهم ، فيأتي الحاذق منهم ويصور صورة يده ويتقنها لتشابه صورة الله ، ليقال : ما أشد مهارة هذا الرجل ، وما أعرفه ، كيف استطاع أن يقلد خلق الله ﷻ ؟

فهم يريدون بذلك أن يشاركوا الله ﷻ في تصويره ، وهو ﷻ لا شريك له : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٦] ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٤] ، فهتكه : يعني مزقه - عليه الصلاة والسلام - .

وفي هذا دليل على مشروعية تمزيق الصور التي تصور باليد ؛ لأنه يضاهي بها خلق الله ﷻ ، وإقرار المنكر كفعل المنكر ، وفيه الغضب إذا انتهكت حرمت الله ﷻ ، لأن النبي ﷺ غضب وهتكه .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الخزومية وهي امرأة من بني مخزوم كانت تستعير المتاع فتجده ، يعني تأتي للناس تقول : أعرني قدرًا ، أعرني إناءً ، أعرني كذا ، أعرني كذا ، فإذا أعاروها جمحت وقالت : لم آخذ منكم شيئاً ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها ؛ لأن هذا نوع من السرقة . وكانت هذه المرأة من بني مخزوم ، من قبيلة من أشرف قبائل العرب ذات الأهمية والشأن ، فأهم قرينًا شأنها ، وقالوا : كيف تُقطع يد مخزومية ، ثم طلبوا شفيعًا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أسامة

(١) الشريف : أي صاحب المال والجاه .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (٨) .

ابن زيد حب رسول الله ﷺ . حبه يعني : محبوبه ، يعني : أنه يحبه .

وأسماء هو ابن زيد بن حارثة ، وزيد بن حارثة كان عبداً وهبته خديجة للنبي ﷺ فأعتقه ، وأسماء ابنة ، وكان النبي ﷺ يحبهما ، فقالوا : ليس إلا أسماء بن زيد ، فتقدم أسماء بن زيد ﷺ إلى النبي ﷺ ليشفع ، فأنكر عليه وقال : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » .

ثم قام فاخطب ، فخطب الناس وقال لهم - عليه الصلاة والسلام - : « إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإيم الله - يعني أقسم بالله - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

والشاهد من هذا : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - غضب لشفاعة أسماء بن زيد في حد من حدود الله . فالغضب لله ﷻ محمود ، وأما الغضب للانتقام وحظ النفس فإنه مذموم ، وقد نهى عنه النبي ﷺ حين طلب أحد الصحابة أن يوصيه ، فقال : « لا تغضب » ، قال أوصني ، قال : « لا تغضب » ، قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » ^(١) . فالفرق بين الغضبين ظاهر .

فالغضب لله ولشرائع الله محمود ، وهو من هدي الرسول ﷺ ، ودليل على غيره الإنسان وعلى محبته لإقامة شريعة الله أما الغضب للنفس فينبغي للإنسان أن يكتمه وأن يحلم ، وإذا أصابه الغضب فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، وإذا كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فليضطجع ، كل هذا مما يخفف عنه الغضب والله الموفق .

* * *

٦٥٢ - وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى نُخَامَةً ^(٢) في القبلة ، فشق ذلك عليه حتى رؤي في وجهه ^(٣) ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فقال : « إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يُنَاجِي رَبَّهُ ، وَإِنْ رَبَّهُ يَنْتَهُ وَيَتَيْنُ الْقِبْلَةَ ، فَلَا يَتَزَوَّقُ ^(٤) أَحَدُكُمْ قَبْلَ الْقِبْلَةِ . وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ ، أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ » ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِجْلَيْهِ فَبَصَّقَ فِيهِ ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فقال : « أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا » ^(٥) متفق عليه .
وَالْأَمْرُ بِالْبَصَاقِ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ هُوَ فِيمَا إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ ، فَأَمَّا فِي الْمَسْجِدِ فَلَا يَصِقُّ إِلَّا فِي ثَوْبِهِ .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره النووي رحمه الله في باب الغضب إذا انتهكت حرمات الله ﷻ ، أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة ، أي في قبلة المسجد ، فغضب - عليه الصلاة والسلام - وحكها بيده

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦) والترمذي في سنن (٢٠٢٠) والإمام أحمد في مسنده (١٧٥/٢) .
(٢) أي نخاعة ، وقيل : ما يخرج من الخيشوم . (٣) حتى رؤي في وجهه : أي أثر ذلك .
(٤) البزاق : البصاق .
(٥) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٥) واللفظ له ومسلم في المساجد (٥٠) .

وقال : « إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه » يعني إذا كان يصلي فإنه يناجي الله أي يخاطبه ، والله ﷻ يرد عليه .

فقد ثبت في الصحيح أن العبد إذا قال : الحمد لله رب العالمين ، أجابه الله فقال : « حمدني عبدي » ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : « أثني علي عبدي » ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : « مجدني عبدي » ، وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : « هذا بيني وبين عبدي نصفين » ، فإذا قال : اهتدنا الصراط المستقيم ، قال : « هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » ^(١) .

فأنت تناجي الله ﷻ بكلامه ، وتدعوه ﷻ ، وتسبحه ، وتمجده ، وتعظمه . فهو ﷻ أمامك بينك وبين القبلة ، وإن كان الله ﷻ في السماء فوق عرشه ، فإنه أمامك ، لأنه محيط بكل شيء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

ثم إن النبي ﷺ لما ذكر منع التنخم في قبلة الإنسان ذكر الشيء المباح ؛ لأن هذا هو الهدي ، وهذه هي الحكمة ، أنك إذا ذكرت للناس ما هو ممنوع أن تذكر لهم ما هو جائز ، حتى لا تسد الأبواب عليهم . فأمر الإنسان أن يصبق عن يساره ، أو تحت قدمه ، أو في ثوبه ويحك بعضه ببعض ؛ ثلاثة أمور : إما تحت قدمه يصبق ويطأ عليها ، وإما عن يساره ، وهذا والذي قبله متعذر إذا كان الإنسان في المسجد ، لأنه يلوثه ، وقد قال النبي ﷺ : « البصاق في المسجد خطيئة » ^(٢) ، وإما في ثوبه ، فيصبق في ثوبه ويحك بعضه ببعض .

وفي هذا الحديث : دليل على أن النخامة ليست نجسة ؛ لأن النبي ﷺ أمر أن يصبق المصلي تحت قدمه أو في ثوبه ، ولو كانت نجسة ما أذن له أن يصبق في ثوبه ، وفيه التعليم بالفعل لقول النبي ﷺ : أو يقول هكذا ، وبصق في ثوبه وحك بعضه في بعض ^(٣) .

وفيه أيضًا : إطلاق القول على الفعل في قوله : « أن يقول هكذا » ^(٤) وهو يريد الفعل .

وفيه أيضًا : أن الإنسان لا حرج عليه أن يصبق أمام الناس ، ولا سيما إذا كان للتعليم .

وفيه أيضًا : أن من المروءة أن لا يرى في ثوبك شيء يستقذره الناس - لأنه حك بعضها ببعض - فلا تبقى صورتها في ثوبك ، وإذا رآها الناس تأذوا منك وكرهوك . فالإنسان ينبغي أن يكون نظيفًا في مظهره وفي ثيابه وفي غير ثيابه ، حتى لا يتقزز الناس مما يشاهدونه منه .

والشاهد من هذا : أن الرسول ﷺ تأثر وغرف في وجهه الكراهية لما رأى النخامة في قبلة المسجد .

* * *

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم في الصلاة (٣٨) وسنن الترمذي في التفسير (٢٩٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٤١٥) ومسلم في المساجد (٥٥٢) ، ذكره بلفظ (البزاق) .

(٣) ، (٤) حكاية الشارح هنا للحديث بالمعنى حيث ورد في صحيح مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣) بلفظ « فليقل هكذا » .

٧٨ - باب أمر ولاة الأمور بالرفق برعاياهم ونصيحتهم والشفقة عليهم

والنهي عن غشهم والتشديد عليهم وإهمال مصالحهم والغفلة عنهم وعن حوائجهم

قال الله تعالى : ﴿ وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

٦٥٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الإمام رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » ^(١) متفق عليه .

٦٥٤ - وعن أبي يعلى مَعْقِل بن يَسَارٍ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » متفق عليه ^(٢) .

وفي رواية : « فَلَمْ يَخْطُهَا بِنُصْحِهِ لَمْ يَجِدْ رَاحَةَ الْجَنَّةِ » ^(٣) .

وفي رواية لمسلم : « مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ » ^(٤) .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف رحمته الله في كتابه هو باب عظيم مهم يُخاطب به ولاة الأمور ويخاطب به الرعية ولكل منهم على الآخر حق يجب مراعاته .

أما ولاة الأمور : فيجب عليهم الرفق بالرعية ، والإحسان إليهم ، واتباع مصالحهم ، وتولية من هو أهل للولاية ، ودفع الشر عنهم وغير ذلك من مصالحهم ؛ لأنهم مسئولون عنهم أمام الله ﷻ .

وأما الرعية : فالواجب عليهم السمع والطاعة في غير المعصية ، والنصح للولاة ، وعدم التشويش عليهم ، وعدم إثارة الناس عليهم ، وطبي مساوئهم ، وبيان محاسنهم ؛ لأن المساوئ يمكن أن ينصح فيها الولاة سراً بدون أن تُنشر على الناس ؛ لأن نشر مساوئ ولاة الأمور أمام الناس لا يستفاد منه ، بل لا يزيد الأمر إلا شدة ؛ فتحمل صدور الناس الكراهية والبغضاء لولاة الأمور .

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٣) واللفظ له ومسلم في الإمارة (٢٠) والإمام أحمد في مسنده (٥٤ ، ٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٧١٥٠) ومسلم في الإيمان (١٤٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٥٠) . (٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٩) .

وإذا كره الناس ولاة الأمور وأبغضوهم وتمردوا عليهم ، ورأوا أمرهم بالخير أمراً بالشر ، ولم يسكتوا عن مساوئهم ، وحصل بذلك إيفار للصدور ^(١) وشر وفساد .

والأمة إذا تفرقت وتمزقت حصلت الفتنة بينها ووقعت ، مثل ما حصل في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، حين بدأ الناس يتكلمون فيه ، فأوغروا الصدور عليه ، وحشدوا الناس ضده ، وحصل ما حصل من الفتن والشرور إلى يومنا هذا .

فولاة الأمور لهم حق وعليهم حق .

ثم استدلل المؤلف رحمه الله تعالى بآيات من كتاب الله فذكر قول الله تعالى : ﴿ وَخُفِّضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني لا تتعالى عليهم ، ولا ترتفع في الجو ، بل اخفض جناحك ، حتى وإن كنت تستطيع أن تطير في الجو فاخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين .

وأما من خالفك وعصاك فأقم عليه العقوبة اللائقة به ؛ لأن الله تعالى لم يقل اخفض جناحك لكل أحد ، بل قال : ﴿ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وأما المتمردون والعصاة فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣ ، ٣٤] ، وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] . إن الله يأمر بهذه الأمور الثلاثة :

بالعدل وهو واجب ، فيجب على الإنسان أن يقيم العدل في نفسه ، وفي أهله ، وفيمن استرعاه الله عليهم .

فالعدل في نفسه بالألّا يثقل عليها في غير ما أمر الله ، وأن يراعيها حتى في أمر الخير ، فلا يثقل عليها أو يحملها فوق ما تطيقه . ولهذا لما قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أصوم ولا أفطر ، وأصلي ولا أنام ، دعاه النبي - عليه الصلاة والسلام - ونهاه عن ذلك وقال : « إن لنفسك عليك حقاً ، ولربك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه » ^(٢) .

وكذلك يجب العدل في أهل الإنسان ، فمن كان له زوجتان وجب عليه العدل بينهما ، « ومن كان له امرأتان فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » ^(٣) .

ويجب العدل بين الأولاد ؛ فإذا أعطيت أحدهم ريالاً ، فأعط الآخر مثله ، وإذا أعطيت الابن ريالين ، فأعط البنت ريالاً ، وإذا أعطيت الابن ريالاً فأعط البنت نصف ريال .

(١) أوغر صدر فلان أي أحماه من الغيظ وسهره .

(٢) نص الحديث في البخاري في الأدب (٦١٣٤) ومسلم في الصيام (١٩٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في النكاح (١١٤١) وابن ماجه في سننه (١٩٦٩) .

حتى إن السلف رحمهم الله كانوا يعدلون بين الأولاد في القَبْل ؛ فإذا قَبِلَ الولد الصغير وأخوه عنده قَبِلَ الولد الثاني ، لئلا يجحف معهم في التقبيل .

وكذلك أيضًا في الكلام ، يجب أن تعدل بينهم ، فلا تتكلم مع أحدهم بكلام خشن ومع الآخر بكلام لين .

وكذلك يجب العدل فيمن ولاك الله عليهم ، فلا تحاب قريك لأنه قريك ، ولا الغني لأنه غني ، ولا الفقير لأنه فقير ، ولا الصديق لأنه صديق ، ولا تحاب أحدًا فالتناس سواء .

حتى إن العلماء رحمهم الله قالوا : يجب العدل بين الخصمين إذا دخلا على القاضي ؛ في لفظه ولحظه وكلامه ومجلسه ودخولهما عليه . لا تنظر لهذا نظرة غضب ولهذا نظرة رضا ، لا تلتن الكلام لهذا والثاني بعكسه . لا تقل لأحد : كيف أنت ؟ كيف أهلك ؟ كيف أولادك ؟ والثاني تتركه ، بل اعدل بينهما حتى في هذا .

وكذلك في المجلس لا تجعل أحدهما يجلس على اليمين قريتا منك والثاني تجعله بعيدًا عنك . بل اجعلهما أمامك على حد سواء .

حتى المؤمن والكافر إذا تخاصما عند القاضي ، يجب أن يعدل بينهما في الكلام والنظر والجلوس ولا يقل للمسلم : تعال بجواري والكافر يبعده ، بل يجعلهما يجلسان جميعًا أمامه ، فالعدل واجب في كل الأمور ^(١) .

أما الإحسان فهو فضل زائد على العدل ، ومع ذلك أمر الله به لكن أمره بالعدل واجب وأمره بالإحسان سنة وتطوع .

﴿ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى ﴾ أي إعطاء القريب حقه . فإن القريب له حق ؛ حق الصلة ، فمن وصل رحمه وصله الله ، ومن قطع رحمه قطعه الله .

﴿ وَيَتَّقِنِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَيَتَّقِنِ عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ : الفحشاء هي كل ما يُستفحش من الذنوب ، كعقوق الوالدين ، وقطيعة الأرحام ، والزنا ، ونكاح المحارم ، وغير ذلك مما يُستفحش شرعًا وعرفًا ، ﴿ وَالنُّكْرِ ﴾ هو ما يُنكر ، وهو دون الفحشاء كعامة المعاصي . ﴿ وَالْبَغْيِ ﴾ : تجاوز الحد ، وهو الاعتداء على الخلق بأخذ أموالهم ، والاعتداء على دمائهم وأعراضهم ، كل هذا يدخل في البغي .

وبين الله ﷻ أنه أمر ونهى ليعظنا ويصلح أحوالنا ، ولهذا قال : ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . وسبق لنا الكلام على حديث « كلكم راع ومسؤول عن رعيته » ، وأما حديث معقل بن يسار الذي ذكره المؤلف ، فإن فيه التحذير من غش الرعية ، وأنه ما من عبد يسترعيه الله على رعيته ثم يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة ، وأنه إذا لم يحطهم بنصيحتهم ؛ فإنه لا يدخل معهم الجنة .

(١) يراجع في ذلك وصية عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حينما ولاه القضاء وهي موجودة في : الدارقطني في السنن (٢٠٦/٤ ، ٢٠٧) ، وبدائع الصنائع (٩/٧) ، والأحكام السلطانية ص (٧١ ، ٧٢) وفقه الكتاب والسنة (١٢٦٣/٣ ، ١٢٦٤) .

وهذا يدل على أن ولاة الأمور مسئولون عن الصغيرة والكبيرة ، وعليهم أن ينصحوا لمن ولاهم الله أمرهم ، وأن يذللوا لهم النصيحة ، وأهمها النصيحة في دين الله ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير .

ومن النصيحة لهم : أن يسلك بهم الطريق التي فيها صلاحهم في معادهم ومعاشهم ، فيمنع عنهم كل ما يضرهم في دينهم ، يمنع عنهم الأفكار السيئة ، والأخلاق السافلة ، وما يؤدي إلى ذلك من المجلات والصحف وغيرها ؛ ولهذا يجب على ولي الأمر في البيت وهو الرجل في بيته أن يمنع من وجود هذه الأشياء في البيت ؛ الصحف السيئة الفاسدة ، الأفكار المنحرفة ، الأخلاق السافلة .

وكذلك فإن ولي الأمر العام يجب عليه أن يمنع هذه الأشياء ؛ وذلك لأن هذه الأشياء إذا شاعت بين الناس صار المجتمع بهيمًا ؛ لا يهيمه إلا إشباع البطن وشهوة الفرج وتحصل الفوضى ، ويزول الأمن ، ويكون الشر والفساد ، فإذا منع ولي الأمر ما يفسد الخلق ، حصل بهذا الخير الكثير .

لو أن كل واحد منا في بيته منع أهله من اقتناء هذه الصحف والمجلات الخليعة الفاسدة ، ومن مشاهدة التمثيليات الفاسدة ، والمسلسلات الخبيثة ، لصلح الناس ؛ لأن الناس هم أفراد الشعب ؛ أنت في بيتك ، والثاني في بيته ، والثالث في بيته ، وهكذا إذا صلحوا صلح كل شيء . نسأل الله أن يصلح ولاة أمورنا وأن يرزقهم البطانة الصالحة .

* * *

٦٥٥ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيته هذا : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا ، فَرَفَقَ بِهِمْ ، فَارْفُقْ بِهِ » ^(١) رواه مسلم .

٦٥٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَشْوِشُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ، كُلُّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي ، وَسَيَكُونُ بَعْدِي خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ » قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ : « أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَلِأَوَّلٍ ، ثُمَّ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في باب أمر ولاة الأمور بالرفق واللين ، ورعاية مصالح من استرعاهم الله عليهم في سياق الأحاديث : ما نقله عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : سمعت النبي ﷺ في بيته هذا يقول : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ » .

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٩) والبيهقي في الكبرى (٤٣ / ٩ ، ١٣٦ / ١٠) .

(٢) ذكره النووي بنحو رواية البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥) ومسلم في الإمامة (٤٤) والبيهقي في السنن (١٤٤ / ٨) .

وهذا دعاء من النبي ﷺ على من تولى أمور المسلمين الخاصة والعامة ؛ فيقع على الإنسان أن يتولى أمر بيته ، وعلى مدير المدرسة يتولى أمر المدرسة ، وعلى المدرس يتولى أمر الفصل ، وعلى الإمام يتولى أمر المسجد .

ولهذا قال : « من ولي من أمر أمتي شيئا » . و « شيئا » نكرة في سياق الشرط ، وقد ذكر علماء الأصول أن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم ؛ أي شيء يكون ، « ففرق بهم فافرق به » ، ولكن ما معنى الفرق ؟

قد يظن بعض الناس أن معنى الفرق أن تأتي للناس على ما يشتهون ويريدون ، وليس الأمر كذلك ، بل الفرق أن تسير بالناس حسب أمر الله ورسوله ، وأن تسلك أقرب الطرق وأرفق الطرق بالناس ، ولا تشق عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله ، فإن شققت عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله فإنك تدخل في الطرف الثاني من الحديث ؛ وهو الدعاء عليك بأن يشق الله عليك والعياذ بالله . يشق عليك إما بأفات في بدنك ، أو في قلبك ، أو في صدرك ، أو في أهلك ، أو في غير ذلك ؛ لأن الحديث مطلق « فاشق عليه » بأي شيء يكون ، وربما لا يظهر للناس المشقة ، قد يكون في قلبه نار تلظى والناس لا يعلمون ، لكن نحن نؤمن بأنه إذا شق على الأمة بما لم ينزل الله به سلطانا فإنه مستحق لهذه العقوبة من الله تعالى .

أما الحديث الثاني : فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - أخبر بأن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء ؛ أي تُبعث فيهم الأنبياء فيصلحون من أحوالهم ، « وإنه لا نبي بعدي » فإن النبي ﷺ خاتم النبيين بالنص والإجماع ، كما قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

ولهذا من ادعى النبوة بعده فهو كافر مرتد يجب قتله ، ومن صدّق من ادعى النبوة بعده فهو كاذب مرتد يجب قتله إلا أن يتوب ، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - هو خاتم الأنبياء ، ولكن جعل الله له خلفاء ؛ خلفاء في العلم ، وخلفاء في السلطة ، والمراد بالخلفاء في هذا الحديث : خلفاء السلطة . ولهذا قال : « سيكون خلفاء ويكثررون » . قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ يعني : من تقى ببيعته ؟ قال : « الأول فالأول » فإذا بايعوا الخليفة وجب عليهم أن يبقوا على بيعتهم ، وأن ينبذوا كل من أراد الخلافة وهو حي ، وأن يعينوا الخليفة في حياته ؛ لأن كل من نازع السلطان ؛ فإنه يجب أن يُقاتل ؛ حتى تكون الأمة واحدة ، فإن الناس لو تركوا فوضى ، وصار كل من لا يريد هذا السلطان يذهب ويتخذ له حزبا يقاتل به السلطان فسدت الأمور .

وفي آخر الحديث حمل النبي ﷺ هؤلاء الخلفاء ما عليهم ، وأمرنا نحن أن نوفي لهم بحقوقهم ، وأن نسأل الله الذي لنا ، لا نقول هؤلاء ظلموا ، هؤلاء جاروا ، هؤلاء لم يقوموا بالعدل ، ثم تنازعهم ولا نطيعهم فيما أمرنا الله به ، لا ؛ هذا لا يجوز ، فيجب أن نوفي لهم بالحق ، وأن نسأل الله الحق

الذي لنا ، كالإنسان الذي له قريب إذا قطعك فصله ، واسأل الله الذي لك ، أما أن تقول : لا أصل إلا من وصلني ، أو لا أطيع من السلطان إلا من لا يظلم ولا يستأثر بالمال ولا غيره ، فهذا خطأ ، قم أنت بما يجب عليك ، واسأل الله الذي لك ، وفي قول النبي ﷺ : « تسوسهم الأنبياء » دليل على أن دين الله - وهو دين الإسلام في كل مكان وفي كل زمان - هو السياسة الحقيقية النافعة ، وليست السياسة التي يفرضها أعداء الإسلام من الكفار .

السياسة حقيقة ما جاء في شرع الله و ولهذا نقول : إن الإسلام شريعة وسياسة ، ومن فرق بين السياسة والشريعة فقد ضل ؛ ففي الإسلام سياسة الخلق مع الله وبيان العبادات ، وسياسة الإنسان مع أهله ، ومع جيرانه ، ومع أقاربه و ومع أصحابه ، ومع تلاميذه ، ومع معلميه ، ومع كل أحد ؛ كل له سياسة تخصه ، سياسة مع الأعداء الكفار ، ما بين حريين ومعاهدين ومستأمنين وذميين .

وكل طائفة قد بين الإسلام حقوقهم ، وأمر أن نسلك بهم كما يجب ، فمثلاً الحريون نحاربهم ، ودماؤهم حلال لنا ، وأموالهم حلال لنا ، وأراضيتهم حلال لنا .

والمستأمنون يجب أن نؤمنهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُفْهُ مَأْمِنَةً ﴾ [التوبة : ٦] .

والمعاهدون يجب أن نوفي لهم بعهودهم ، ثم أن نطمئن إليهم ، أو نخاف منهم ، أو ينقضوا العهد . ثلاث حالات كلها مبينة في القرآن ؛ فإن اطمأنا إليهم وجب أن نفي لهم بعهدهم ، وإن خفناهم فقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّا نَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ^(١) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِضِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] . قل لهم : ما بيننا عهدٌ إذا خفت منهم و ولا تنقض العهد بدون أن تخبرهم .

والثالث هم الذين نقضوا العهد ﴿ فَذَلَّلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] ، إذا نقضوا العهد فلا أيمان لهم ولا عهد لهم ، فالهم أن الدين دين الله وأن الدين سياسة : سياسة شرعية . سياسة اجتماعية . سياسة مع الأجانب ، ومع المسلمين ، ومع كل أحد .

ومن فصل الدين عن السياسة فقد ضل ؛ فهو بين أمرين : إما جاهل بالدين ولا يعرف ، ويظن أن الدين عبادات بين العبد وربّه ، وحقوق شخصية وما أشبه ذلك ؛ يظن أن هذا هو الدين فقط .

أو أنه قد بهره الكفرة وما هم عليه من القوة المادية ، فظن أنهم هم المصيبون .

وأما من عرف الإسلام حق المعرفة ؛ عرف أنه شريعة وسياسة .

(١) أي فاطرح إليهم عهدهم وحاربهم ولكن بطريق مستوٍ ظاهر بأن تعلمهم ببذلك عهدهم قبل أن تحاربهم ؛ حتى تكون أنت وهم في العلم بنبي العهد سواء ، فلا يتوهم أحد فيك الغدر ، أما إذا ظهر نقضهم العهد ظهوراً مقطوعاً به فلا حاجة إلى إعلامهم بالنبيذ .

٦٥٧ - وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّ بَنِي ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحَطْمَةُ » فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ ^(١) . متفقٌ عليه .

٦٥٨ - وعن أَبِي مَرْيَمَ الْأَزْدِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِمَعَاوِيَةَ رضي الله عنه : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقَرِهِمْ ؛ احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقَرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ ^(٢) . رواه أبو داود ، والترمذي .

الشرح

هذان الحديثان في بيان ما يجب على الرعاة لرعيتهما من الحقوق ، من ذلك قول النبي ﷺ : « إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحَطْمَةُ » « الرعاء » : جمع راع ، « والحطمة » : الذي يحطم الناس ويشق عليهم ويؤذيهم ، فهذا شر الرعاء ، فإذا كان هذا شر الرعاء ؛ فإن خير الرعاء اللين السهل ، الذي يصل إلى مقصوده بدون عنف .

فَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ فائدتان :

الفائدة الأولى : أنه لا يجوز للإنسان الذي ولاه الله على أمر من أمور المسلمين أن يكون عنيفًا عليهم و بل يكون رقيقًا بهم .

الفائدة الثانية : وجوب الرفق بمن ولاه الله عليهم بحيث يرفق بهم في قضاء حوائجهم وغير ذلك ، مع كونه يستعمل الحزم والقوة والنشاط ، يعني لا يكون لينًا مع ضعف ولكن لينًا بحزم وقوة ونشاط . وأما الحديث الثاني : ففيه التحذير من اتخاذ الإنسان الذي يوليه الله تعالى أمرًا من أمور المسلمين حاجبًا يحول دون خلتهم وفقرهم وحاجتهم ، وأن من فعل ذلك ؛ فإن الله تعالى يحول بينه وبين حاجته وخلته وفقره .

لما تحدث معاوية رضي الله عنه بهذا الحديث اتخذ رجلًا لحوائج الناس يستقبل الناس وينظر في حوائجهم ، ثم يرفعها إلى معاوية رضي الله عنه بعد أن كان أميرًا للمؤمنين .

وهكذا أيضًا من له نوع من الولاية وللناس حاجة عنده ؛ فإنه لا ينبغي أن يحتجب دون حوائجهم ، ولكن له أن يرتب أموره بحيث يجعل لهؤلاء وقتًا ، ولهؤلاء وقتًا ، ولهؤلاء وقتًا ، حتى لا تنفرط عليه الأمور .

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (٢٣) والبيهقي في سنن (١٦١/٨) ولم نجده في صحيح البخاري .
(٢) قوله « خلته » أي محبته وصداقته (المعجم العربي الأساسي ص : ٤٢١) ، والحديث أخرجه أبو داود في السنن (٢٩٤٨) والترمذي في السنن (١٣٣٢) والحاكم في المستدرک (٩٣/٤) .

٧٩ - باب الوالي العادل

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] . وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا نَكُنَّا بِمُعْظِمْهُمْ أَجْرًا ﴾ [الحجرات : ٩] .

٦٥٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » ^(١) متفق عليه .

٦٦٠ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَازِلٍ مِنْ نُورٍ : الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

قال النووي - رحمه الله تعالى - في باب الوالي العادل . والوالي هو الذي يتولى أمرًا من أمور المسلمين الخاصة أو العامة ، حتى الرجل في أهل بيته يُعتبر واليًا عليهم لقول النبي ﷺ : « الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته » والعدل واجب حتى في معاملة الإنسان نفسه ، لقول النبي ﷺ : « إن لنفسك عليك حقًا ، ولربك عليك حقًا ، ولأهلك عليك حقًا ، ولزورك - أي الزائر لك - عليك حقًا فأعط كل ذي حق حقه » ^(٣) .

فالعدل واجب في كل شيء ، لكنه في حق ولاية الأمور أوكد وأولى وأعظم ، لأن الظلم إذا وقع من ولاية الأمور حصلت الفوضى والكرامية لهم حيث لم يعدلوا .

لكن نوقفنا نحو الإمام أو نحو الوالي الذي لم يعدل أو ليس بعادل أن نصبر ؛ نصبر على ظلمه وعلى جوره وعلى استثنائه ، حتى أن النبي ﷺ أوصى الأنصار رضي الله عنهم وقال لهم : « إنكم ستلقون بعدي أثرة » يعني استثناءً عليكم « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » ^(٤) ؛ ذلك لأن منازعة ولي الأمر يحصل بها الشر والفساد الذي هو أعظم من جوره وظلمه ، ومعلوم أن العقل والشرع ينهى عن ارتكاب أشد

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (١٨) وفي مسلم زيادة بعد كلمة نور « عن يمين الرحمن ﷻ ، وكلتا يديه يمين » .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٣٤) ومسلم في الصيام (١١٥٩) وورد الحديث بألفاظ مختلفة ، انظر روايات

الحديث في صحيح البخاري في الصوم (١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥) ، والتهجد (١١٥٣) والنكاح (٥١٩٩)

والأدب (٦١٣٤ ، ٦١٣٩) وانظر صحيح مسلم في الصيام (١٨٢) وسنن الترمذي (٢٤١٣) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (١٣٩) .

الضررين ، ويأمر بارتكاب أخف الضررين إذا كان لابد من ارتكاب أحدهما .

ثم ساق المؤلف رحمه الله آيات وأحاديث منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ العدل واجب ، والإحسان فضل وزيادة فهو سنة . وحسبته سيد ذكر قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴿ [النساء : ٥٩] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

العدل من الوالي ألا يفرق بين الناس ؛ لا يجوز على أحد ، ولا يحايي غنيا لغناه ، ولا قريتا لقربته ، ولا فقيرا لفقره ، ولكن يحكم بالعدل ، حتى إن العلماء رحمهم الله قالوا : يجب على القاضي أن يستعمل العدل مع الخصمين ، ولو كان أحدهما كافرا ؛ يعني لو دخل كافر ومسلم على القاضي ، فإن الواجب أن يعدل بينهم في الجلوس والمكالمة والملاحظة بالعين وغير ذلك ؛ لأن المقام حكم يجب فيه العدل ، وإن كان بعض الجهال يقول : لا ، قدم المسلم . نقول : لا يجوز أن نقدم المسلم ؛ لأن المقام مقام محاكمة ومعادلة ، فلا بد من العدل في كل شيء .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » سبعة يظلمهم الله ، وليس هذا على سبيل الحصر ، هناك أناس آخرون يظلمهم الله غير هؤلاء ، وقد جمعهم الحافظ ابن حجر في شرح البخاري فزادوا على العشرين ^(١) .

لكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يتحدث أحيانا بما يناسب المقام ، فتجده يقول ثلاثة ، أو سبعة ، أو أربعة ، أو ما أشبه ذلك ، مع أن هناك أشياء أخر لم يذكرها ؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - أفصح الخلق وأقواهم بلاغة فيتحدث بما يناسب المقام .

وقوله : « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » وذلك يوم القيامة ، فإن الناس يحشرون حفاة عراة غرلا ^(٢) ليس هناك ظل إلا ظل الله ، أي ظل يخلقه الله ﷻ يظل فيه من يظلمهم الله تعالى في ذلك اليوم ؛ لأنه ليس هناك بناء ولا ظل شجر ، ولا ظل ثياب ، ولا ظل مصنوعات أبداً ، ليس هناك إلا الظل الذي ييسره الله تعالى للإنسان ، يخلقه جل وعلا ظلًا من عنده ، الله أعلم بكيفيته ، ويظلل الإنسان .

بدأ بالإمام العادل الذي يعدل بين الناس ، وأهم عدل في الإمام : أن يحكم بين الناس بشريعة الله ؛ لأن شريعة الله هي العدل ، وأما من حكم بالقوانين الوضعية المخالفة للشريعة فهو من أشد الولاة جورا - والعياذ بالله - وأبعد الناس من أن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ لأنه ليس من العدل أن تحكم بين عباد الله بشريعة غير شريعة الله ، من جعل لك هذا ؟ احكم بين الناس بشريعة ربهم ﷻ ، فأعظم العدل أن يحكم الإمام بشريعة الله .

(١) انظر فتح الباري لابن حجر (١٤٣/٢ ، ١٤٤) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٦) .

ومن ذلك أن يأخذ الحق حتى من نفسه ومن أقرب الناس إليه ؛ لقول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْفَسِطٍ ^(١) شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ومن ذلك أيضًا : ألا يفرق بين قريه وغيره ، فتجده إذا كان الحق على القريب تهاون في تنفيذه وجعل يسوِّف ويؤخر ، وإذا كان لقريه على غيره بادر فاقتص منه .
فإن هذا ليس من العدل . والعدل بالنسبة لولي الأمر له فروع كثيرة وأنواع كثيرة لا يتسع المقام الآن لذكرها .

أما الثاني : فهو « شاب نشأ في طاعة الله » ، الشاب صغير السن الذي نشأ في طاعة الله واستمر على ذلك ، هذا أيضًا ممن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ لأنه ليس له صبوة ، والغالب أن الشباب يكون لهم صبوة وميل وانحراف .

ولكن إذا كان هذا الشاب نشأ في طاعة الله ، ولم يكن له ميل ولا انحراف واستمر على هذا ، فإن الله تعالى يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .
والثالث : « رجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه » .

« رجلان تحابا في الله » يعني ليس بينهما صلة من نسب أو غيره ، ولكن تحابا في الله . كل واحد منهما رأى أن صاحبه ذو عبادة وطاعة لله ﷻ ، وقيام بما يجب لأهله ولئن له حق عليه ، فراه على هذه الحال فأحبه .

« اجتماعا عليه وتفرقا عليه » يعني اجتماعا عليه في الدنيا ، وبقيًا على ذلك إلى أن ماتا فتفرقا على ذلك ؛ هذان أيضًا ممن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والرابع : « رجل قلبه معلق بالمساجد » يعني أنه يألف الصلاة ويحبها ، وكلما فرغ من صلاة إذا هو يتطلع إلى صلاة أخرى .

فالمساجد : أماكن السجود ، سواء بُنيت للصلاة فيها أم لا ، المهم أنه دائمًا يرغب الصلاة ، قلبه معلق بها ؛ كلما فرغ من صلاة تطلع للصلاة الأخرى .

وهذا يدل على قوة صلته بالله ﷻ ؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه ، فإذا أحبها الإنسان وألفها فهذا يدل على أنه يحب الصلة التي بينه وبين الله ، فيكون ممن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والخامس : « رجل دعت امرأه ذات منصب وجمال » يعني دعت لنفسها ليفجر بها ، ولكنه كان قوي العفة ، طاهر العرض « قال : إني أخاف الله » فهو رجل ذو شهوة ، والدعوة التي دعت إليها هذه المرأة تُوجب أن يفعل ؛ لأنها هي التي طلبته ، والمكان خال ليس فيه أحد ، ولكن منعه من ذلك

(١) أي مواظبين على إقامة العدل في جميع الأمور .

خوف الله ﷻ . « قال : إني أخاف الله » ، لم يقل : أخشى أن يطلع علينا أحد ، ولم يقل إنه لا رغبة له في الجماع ، ولكن قال : « إني أخاف الله » ، فهذا يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ لكمال عفته .

والسادس : « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » تصدق بصدقة مخلصاً بذلك لله ﷻ ، حتى إنه لو كان أحد على يساره ما علم بذلك من شدة الإخفاء ، فهذا عنده كمال الإخلاص ، فيظله الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وهذا ما لم يكن إظهار الصدقة فيه مصلحة وخير ، فإذا كان في إظهار الصدقة مصلحة وخير كان إظهارها أولى ، لكن إذا لم يكن فيه مصلحة فالإسرار أولى .

والسابع : « رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » ذكر الله خاليا في مكان لا يطلع عليه أحد ، خاليا قلبه من التعلق بالدنيا ، فخشع من ذلك وفاضت عيناه . هؤلاء السبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، قد توجد صفتان فأكثر في شخص واحد ، وقد لا يوجد في الإنسان إلا صفة واحدة وهي كافية .

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ ، أن النبي ﷺ قال : « المقسطون على منابر من نور يوم القيامة ، الذين يعدلون في أهلهم وما ولوا » يعني أن المقسطين العادلين في أهلهم وفيمن ولاهم الله عليه ، يكونون على منابر من نور يوم القيامة على يمين الله ﷻ . وهذا دليل على فضل العدل في الأهل ، وكذلك في الأولاد ، وكذلك أيضا في كل من ولاك الله عليه ، واعدل حتى تكون على منبر من نور عن يمين الله ﷻ يوم القيامة .

٦٦١ - وعن عوف بن مالك ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خَيْرُ أَتَمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ ، وَشَرُّ أَتَمَّتِكُمُ الَّذِينَ يُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ ^(١) ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ ! » قال : قلنا : يا رسول الله ، أفلا نتأبذهم ^(٢) ؟ قال : « لا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ ، لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ » ^(٣) رواه مسلم . قوله : « تُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ » : تَدْعُونَ لَهُمْ .

٦٦٢ - وعن عياض بن حماد ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : دُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٍ مُؤَفَّقٍ ، وَرَجُلٍ رَحِيمٍ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُوَّةٍ وَمُسْلِمٍ ، وَغَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » ^(٤)

(١) تبغضونهم : أي تكرهونهم .

(٢) نتأبذهم : تفرقهم وتبغضهم (المعجم العربي الأساسي ص : ١١٦٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (٦٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٤/٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٣) والإمام أحمد في مسنده (١٦٢/٤) .

رواه مسلم

الشرح

ذكر النووي رحمته الله فضل الإمام العادل : عن عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » الأئمة : يعني ولاية الأمور ، سواء أكان الإمام الكبير في البلد وهو السلطان الأعلى أم كان من دونه .

هؤلاء الأئمة الذين هم ولاية أمورنا ، ينقسمون إلى قسمين : قسم نحبههم ويحبوننا ، فتجدنا ناصحين لهم وهم ناصحون لنا ؛ ولذلك نحبههم ؛ لأنهم يقومون بما أوجب الله عليهم من النصيحة لمن ولاهم الله عليه ، ومعلوم أن من قام بواجب النصيحة فإن الله تعالى يحبه ، ثم يحبه أهل الأرض . فهؤلاء الأئمة الذين قاموا بما يجب عليهم محبوبون لدي رعيتهم .

وقوله : « وتصلون عليهم ويصلون عليكم » . الصلاة هنا بمعنى الدعاء ، يعني تدعون لهم ويدعون لكم ، تدعون لهم بأن يهديهم الله ويصلح بطانتهم ، ويوفقهم للعدل إلى غير ذلك من الدعاء الذي يدعى به للسلطان ، وهم يدعون لكم : اللهم أصلح رعيتنا ، اللهم اجعلهم قائمين بأمرك ، وما أشبه ذلك . أما شرار الأئمة : فهم « الذين تبغضونهم ويبغضونكم » تكرهونهم ؛ لأنهم لم يقوموا بما أوجب الله عليهم من النصيحة للرعية ، وإعطاء الحقوق إلى أهلها ، وإذا فعلوا ذلك فإن الناس يبغضونهم ، فتحصل البغضاء من هؤلاء وهؤلاء ؛ تحصل البغضاء من الرعية للرعاة ؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم ، ثم تحصل البغضاء من الرعاة للرعية ؛ لأن الرعية إذا أبغضت الوالي تمرت عليه وكرهته ، ولم تطع أوامره ولم تتجنب ما نهى عنه ، وحينئذ « تلعنونهم ويلعنونكم » والعياذ بالله ؛ يعني يسبونكم وتسبونهم ، أو يدعون عليكم باللعنة وتدعون عليهم باللعنة .

إذا الأئمة ينقسمون إلى قسمين : قسم وفقوا وقاموا بما يجب عليهم فأحبهم الناس وأحبوا الناس ، وصار كل واحد منهم يدعو للآخر . وقسم آخر بالعكس شرار الأئمة ، يبغضون الناس والناس يبغضونهم ، ويسبون الناس والناس يسبونهم .

أما حديث عياض بن حمار رضي الله عنه : فهو أن النبي ﷺ قال : « أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موفق » وهذا هو الشاهد ؛ يعني صاحب سلطان ، والسلطان يعم السلطة العليا وما دونها . « مقسط » : أي عادل بين من ولاه الله عليهم . موفق : أي مهتد لما فيه التوفيق والصلاح ، قد هُدي إلى ما فيه الخير ، فهذا من أصحاب الجنة .

وقد سبق أن الإمام العادل ممن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وهذا هو الشاهد من هذا الحديث « ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم » رجل رحيم يرحم عباد الله ، يرحم الفقراء ، يرحم العجزة ، يرحم الصغار ، يرحم كل من يستحق الرحمة ،

« رقيق القلب » ليس قلبه قاسيًا . « لكل ذي قربي ومسلم » ، وأما للكفار فإنه غليظ عليهم . هذا أيضًا من أهل الجنة ، أن يكون الإنسان رقيق القلب يعني فيه لين ، وفيه شفقة على كل ذي قربي ومسلم .

والثالث : « رجل عفيف متعفف ذو عيال » يعني أنه فقير ولكنه متعفف ، لا يسأل الناس شيئًا ، يحسبه الجاهل غنيًا من التعفف . « ذو عيال » أي أنه مع فقره عنده عائلة ، فتجده صابرًا محتسبًا يكد على نفسه ، فرما يأخذ الحبل يحتطب ويأكل منه ، أو يأخذ الخلب يحتش فيأكل منه ، المهم أنه عفيف متعفف ذو عيال ، ولكنه صابر على البلاء ، صابر على عياله ، فهذا من أهل الجنة . نسأل الله أن يجعلنا من أحد هؤلاء الأصناف .

* * *

٨٠ - باب وجوب طاعة ولاية الأمر في غير مفسية
وتحريم طاعتهم في العصية

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .
٦٦٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ » ^(١) متفق عليه .
٦٦٤ - وعنه قال : كُنَّا إِذَا بَاتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا : « فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ » ^(٢) متفق عليه .
٦٦٥ - وعنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ ؛ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حُجَّةَ لَهُ ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » رواه مسلم .
وفي رواية له : « وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُفَارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ ؛ فَإِنَّهُ يَمُوتُ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » ^(٣) . « الْمِيتَةُ » بكسر الميم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : وجوب طاعة ولاية الأمور في غير معصية وتحريم طاعتهم في معصية الله . واستدل لذلك بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .
ولاية الأمور ، ذكر أهل العلم أنهم قسمان : العلماء ، والأمراء .

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (٣٨) واللفظ له ، والبخاري في الأحكام (٧١٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢٠٢) ومسلم في الإمامة (٩٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (٥٨) .

أما العلماء فهم ولاية أمور المسلمين في بيان الشرع ، وتعليم الشرع ، وهداية الخلق إلى الحق ، فهم ولاية أمور في هذا الجانب ، وأما الأمراء : فهم ولاية الأمور في ضبط الأمن وحماية الشريعة وإلزام الناس بها ، فصار لهؤلاء وجهة .

والأصل : العلماء لأن العلماء هم الذين يبينون الشرع ويقولون للأمراء هذا شرع الله فاعملوا به ، ويلزم الأمراء بذلك ، لكن الأمراء لا طريق لهم إلى علم الشرع إلا عن طريق العلماء ، وهم إذا علموا الشرع نفذوه على الخلق .

والعلماء يؤثرون على من في قلبه إيمان ودين ؛ لأن الذي في قلبه إيمان ودين ينصاع للعلماء ويأخذ بتوجيهاتهم وأمرهم .

والأمراء ينصاع لهم من خاف من سطوتهم وكان عنده ضعف إيمان ، فيخاف من الأمير أكثر مما يخاف من العالم ، وبعضهم يخاف أكثر مما يخاف من الله والعياذ بالله .

فلذلك كان لابد للأمة الإسلامية من علماء وأمراء ، وكان واجبا على الأمة الإسلامية أن يطيعوا الأمراء ، ولكن طاعة هؤلاء وهؤلاء تابعة لطاعة الله لقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ولم يقل أطيعوا أولي الأمر منكم ؛ لأن طاعة ولاية الأمر تابعة لا مستقلة ، أما طاعة الله ورسوله فهي مستقلة ، ولهذا أعاد فيها الفعل فقال : أطيعوا وأطيعوا ، أما طاعة ولاية الأمور فهي تابعة ليست مستقلة .

وعلى هذا فإذا أمر ولاية الأمور بمعصية الله ؛ فإنه لا سمع لهم ولا طاعة ؛ لأن ولاية الأمور فوقهم ولي الأمر الأعلى جل وعلا وهو الله ، فإذا أمروا بمخالفته فلا سمع لهم ولا طاعة .

أما الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله : فمنها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وبها ، ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

قوله : « على المرء » : هذه كلمة تدل على الوجوب ، وأنه يجب على المرء المسلم بمقتضى إسلامه أن يسمع لولاية الأمور فيما أحب وبها ، حتى لو أمر بشيء يكرهه ؛ فإنه يجب عليه أن يقوم به ولو كان يرى خلافه ، ولو كان يكرهه أن ينفذه . فالواجب عليه أن ينفذ ، إلا إذا أمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية الله فطاعة الله فوق كل طاعة ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وفي هذا دليل على بطلان مسلك من يقول : لا نطيع ولاية الأمور إلا فيما أمرنا الله به ، يعني إذا أمرونا أن نصلي صلينا ، إذا أمرونا أن نزكي زكينا . أما إذا أمرونا بأمر ليس فيه أمر شرعي ؛ فإنه لا يجب علينا طاعتهم ؛ لأننا لو وجبت علينا طاعتهم لكانوا مشرعين ، فإن هذه نظرة باطلة مخالفة للقرآن والسنة ، لأننا لو قلنا : إننا لا نطيعهم إلا فيما أمرنا الله ؛ به لم يكن بينهم وبين غيرهم فرق ، كل إنسان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإنه يطاع .

ثم نقول : بل نحن قد أمرنا بطاعتهم فيما لم يأمرنا الله ﷻ ؛ إذا لم يكن ذلك منهياً عنه أو محرماً ، فإننا نطيعهم حتى في التنظيم إذا نظموا شيئاً من الأعمال ، يجب علينا أن نطيعهم ؛ وذلك أن بطاعتهم يكون امتثال أمر الله ﷻ ، وامثال أمر رسول الله ﷺ ، وحفظ الأمن ، والبعد عن التمرد على ولاية الأمور ، وعن التفرق ، فإذا قلنا لا نطيعهم إلا في شيء أمرنا به ، فهذا معناه أنه لا طاعة لهم .

هناك بعض الأنظمة : مثلاً تنظم الحكومة أنظمة لا تخالف فيها الشرع ، لكن لم يأت به الشرع بعينه ، فيأتي بعض الناس ويقول : لا نطيع في هذا ، فيقال : بل يجب عليك أن تطيع ، فإن عصيت فإنك آثم مستحق لعقوبة الله ، ومستحق لعقوبة ولاية الأمور . وعلى ولاية الأمور أن يُعزَّروا مثل هؤلاء الذين يعصون أوامرهم التي يلزمهم أن يقوموا بها ؛ لأنهم إذا عصوا أوامر ولاية الأمور - وقد أمر الله بطاعتهم فيها - فهذا معصية لله . وكل إنسان يعصي الله ؛ فإنه مستحق للتعزير ، يعني : التأديب بما يراه ولي الأمر .

من ذلك مثلاً : أنظمة المرور ؛ فأنظمة المرور مما نظمها ولي الأمر ، وليس فيها معصية ، فإذا خالفها الإنسان فهو عاص وآثم ، مثلاً السير على اليسار ، والسير على اليمين ، والسير في الاتجاه الفلاني ، وفي السير يجب أن يقف إذا كانت الإشارة حمراء وما أشبه ذلك ، كل هذا يجب أن ينفذ وجوباً ، فمثلاً إذا كانت الإشارة حمراء وجب عليك الوقوف . لا تقل : ما أمرنا الله بذلك ، ولاية الأمور نظموا لك هذا التنظيم وقالوا التزم به ، فإذا تجاوزت فإنك عاص آثم ، لأنك قلت لربك لا سمع ولا طاعة والعياذ بالله . فإن الله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ كذلك أيضاً في التقاطع ، معروف أن الذي في الخط العام هو الذي له الحق أن يتجاوز ، إذا كنت أنت في خط فرعي ووجدت إنسان مقبلاً من الخط العام فلا تتجاوز لأن النظام يقتضي منع ذلك .

وهكذا أيضاً الأنظمة في الإمارة ، والأنظمة في القضاء ، وكل الأنظمة التي لا تخالف الشرع ؛ فإنه يجب علينا أن نطيع ولاية الأمور فيها ، وإلا أصبحت المسألة فوضى ، وكل إنسان له رأي ، وكل إنسان يحكم بما يريد ، وأصبح ولاية الأمور لا قيمة لهم ، بل هم أمراء بلا أمر ، وقضاة بلا قضاء . فالواجب على الإنسان أن يمثل لأمر ولاية الأمور إلا فيما كان فيه معصية الله . فلو قالوا لنا مثلاً : لا تخرجوا إلى المساجد لتصلوا الجمعة ، لا تصلوا الجمعة والجماعة ، قلنا لهم : لا سمع ولا طاعة ، ولو قالوا : اظلموا الناس في شيء ، قلنا : لا سمع ولا طاعة . كل شيء أمر به أو نهى عنه الله فإنه لا سمع ولا طاعة لهم في ضده أبداً .

كذلك لو قالوا مثلاً : احلقوا اللحى - مثل بعض الدول يأمرهم بحلق اللحى ولا سيما جنودهم الذين عندهم - لو قالوا : احلقوا اللحى ، قلنا : لا سمع لكم ولا طاعة . وهم آثمون في قولهم لجنودهم : احلقوا اللحى ، وهم بذلك آثمون مضادون لله ورسوله ، منابذون لله ورسوله .

كذلك لو قالوا مثلاً : أنزلوا ثيابكم إلى أسفل من الكعبين ، فإننا نقول : لا ، لا سمع ولا طاعة ، لأن هذا مما حرمه الله وتوعد عليه ، فإذا أمرتمونا بمعصية فإننا لا نسمع لكم ولا نطيع ؛ لأن لنا ولكم رباً حكمه فوق حكمنا وحكمكم .

فإذا أوامر ولاية الأمور تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يأمر بما أمر الله به ، فهنا تجب طاعتهم لوجهين .

الوجه الأول : أنه مما أمر الله به .

والوجه الثاني مما أمروا به ، كغيرهم من الناس : إذا أمرك شخص بالمعروف وهو واجب ، فالواجب عليك أن تقوم به .

الثاني : أن يأمر بمعصية الله ، فهنا لا سمع ولا طاعة مهما كان ، وأنت إذا نالك عذاب منهم بسبب هذا فسيعاقبون عليه هم يوم القيامة .

أولاً : لحق الله ؛ لأن أمرهم بمعصية الله من منابذة لله ﷻ .

ثانياً : لحقك أنت ؛ لأنهم اعتدوا عليك ، وأنت وهم كلكم عبيد الله ، ولا يحل لكم أن تعصوا الله .

الثالث : إذا أمروا بشيء ليس فيه أمر ولا نهى ، فيجب عليك أن تطيعهم وجوباً ، فإن لم تفعل فأنت آثم ، ولهم الحق أن يعزروك وأن يؤدبوك بما يرون من تعزيز وتأديب ؛ لأنك خالفت أمر الله في طاعتهم ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وماكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

ثم أشد من ذلك من لا يعتقد للإمام بيعة ؛ من يقول : أنا ما بايعت الإمام ، ولا له بيعة علي ، لأن مضمون هذا الكلام أنه لا سمع له ولا طاعة ولا ولاية ، وهذا أيضاً من الأمر المنكر العظيم ؛ فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أخبر أن مات من غير بيعة وليس له إمام فإنه يموت ميتة جاهلية ، يعني ليست ميتة إسلامية ، بل ميتة أهل الجهل والعياذ بالله ، وسيجد جزاءه عند الله ﷻ . ()

فالواجب أن يعتقد الإنسان أن له إماماً ، وأن له أميراً يدين له بالطاعة في غير معصية الله ، فإذا قال مثلاً : أنا لن أبايع ، قلنا : البيعة لا تكون في رعا عوام الناس ، إنما تكون لأهل الحل والعقد .

ولهذا نقول : هل بايع كل الناس أبا بكر وعمر وعثمان وعلي ؟ هل بايعهم حتى الأطفال والعجوز والمرأة في خدرها ؟ أبداً ما بايعوهم . ولم يأت أهل مكة يبايعون أبا بكر ، ولا أهل الطائف ولا غيرهم ، إنما بايعه أهل الحل والعقد في المدينة ، وتمت البيعة بذلك . وليست البيعة لازمة لكل واحد أن

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم في الإمارة (٥٨) والبيهقي في السنن (١٥٦/٨) .

يجيء نيايح ، ولا يمكن لعوام الناس ؛ فعوام الناس تابعون لأهل الحل والعقد ، فإذا تمت البيعة من أهل الحل والعقد صار المتابع إمامًا ، وصار ولي أمر تجب طاعته في غير معصية الله ، فلو مات إنسان وهو يعتقد أنه ليس له ولي أمر ، وأنه ليست له بيعة ؛ فإنه يموت ميتة جاهلية . نسأل الله العافية .

٦٦٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي ، كأن رأسه زبيبة » ^(١) رواه البخاري .

٦٦٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في سياق الأحاديث الواردة في وجوب طاعة ولادة الأمور . فقال فيما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » « اسمعوا وأطيعوا » : يعني الزموا السمع والطاعة لولادة الأمور ، حتى لو استعمل عليكم عبد حبشي . والنبي ﷺ هنا يخاطب العرب يقول : ولو استعمل عليكم عبد حبشي غير عربي ؛ عبد أصلاً وفرعاً وخلقة ، كأن رأسه زبيبة ؛ لأن شعر الحبشة غير شعر العرب ؛ فالحبشة يكون في رؤوسهم حلق كأنها الزبيب ، وهذا من باب المبالغة في كون هذا العامل عبداً حبشياً أصلاً وفرعاً ، وهذا يشمل قوله : « وإن استعمل » فيشمل الأمير الذي هو أمير السلطان ، وكذلك السلطان .

فلو فرض أن السلطان غلب الناس واستولى وسيطر وليس من العرب ، بل كان عبداً حبشياً ؛ فعلينا أن نسمع ونطيع ؛ لأن العلة واحدة ، وهي أنه إن لم نسمع ونطع حصلت الفوضى ، وزال النظام ، وزال الأمن ، وحل الخوف . فالمهم أن علينا أن نسمع ونطيع لولادة أمورنا إلا إذا أمروا بمعصية .

وكذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك » السمع والطاعة لولادة الأمور في المنشط والمكره ؛ في المنشط : يعني الأمر الذي إذا أمروك به نشطت عليه ؛ لأنه يوافق هواك ، وفي المكره : في الأمر الذي إذا أمروك به لم تكن نشيطاً فيه ؛ لأنك تكرهه ، اسمع في هذا وهذا ، وفي العسر واليسر ، حتى إن كنت غنياً فأمروك فاسمع ولا تستكبر ؛ لأنك غني ، وإذا كنت فقيراً فاسمع ولا تقل أسمع وهم أغنياء وأنا

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٢) والإمام أحمد في مسنده (١١٤/٣) والبيهقي في السنن (١٥٥/٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٨١/٢ ، ٣٢١) .

فقير . اسمع وأطع في أي حال من الأحوال ، حتى في الأثرة ؛ يعني إذا استأثر ولاية الأمور على الناس ، فعليهم أيضاً السمع والطاعة في غير معصية الله ﷻ .

فلو أن ولاية الأمور سكنوا القصور الفخمة ، وركبوا السيارات المريحة ، ولبسوا أحسن الثياب ، وتزوجوا وصار عندهم الإماء ، وتنعموا في الدنيا أكبر تنعم ، والناس سواهم في بؤس وشقاء وجوع ، فعليهم السمع والطاعة ؛ لأننا لنا شيء والولاية لهم شيء آخر ؛ فنحن علينا السمع والطاعة ، وعلى الولاية النصح لنا ، وأن يسيروا بنا على هدي رسول الله ﷺ ، لكن لا نقول إذا استأثروا علينا وكانت لهم القصور الفخمة والسيارات المريحة والثياب الجميلة وما أشبه ذلك ، لا نقول : والله ما يمكن أن نسمع وهم في قصورهم وسياراتهم ونحن في بؤس وحاجة ، والواحد منا لا يجد السكن وما أشبه ذلك . هذا حرام علينا ، يجب أن نسمع ونطيع حتى في حال الأثرة . وقد قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » يقول للأنصار ذلك منذ ألف وأربعمائة سنة ، من ذلك الوقت والولاية يستأثرون على الرعية ، ومع هذا يقول : « اصبروا حتى تلقوني على الحوض » ^(١) ، فليس استئثار ولاية الأمور بما يستأثرون به مانعاً من السمع والطاعة لهم ، الواجب السمع والطاعة في كل ما أمروا به مالم يأمرُوا بمعصية ، نسأل الله أن يصلحنا جميعاً رعية ورعاة وأن يهبنا منه رحمة إنه هو الوهاب .

* * *

٦٦٨ - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَتَزَلْنَا مَنَزَلاً ، فَمِنَّا مَنْ يُصَلِّحُ خِجَابَهُ ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ ؛ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ . فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَإِنْ أَمَّنَكُمْ هَذِهِ جَعَلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا ، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا ، وَتَجِيءُ فَنَ يُرْفَقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ مُهْلِكَتِي ، ثُمَّ تَنْكَشِفُ ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ هَذِهِ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْخَزَ عَنِ النَّارِ ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ ، فَلَتَايَةِ مَبِيتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلِيَأْتِيَ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدِهِ ^(٢) ، وَثَمَرَةً فَلَيْهِ ؛ فَلْيَطِغْ إِنْ اسْتَطَاعَ ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ ، فَأَضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ » ^(٣) رواه مسلم .

قوله : « يَنْتَضِلُ » أي : يُسَابِقُ بِالرُّمِي بِالنَّبْلِ وَالنُّشَابِ . « وَالْجَشَرُ » بفتح الجيم والشين المعجمة وبالراء : وهي الدُّوَابُّ التي تَزْعَى وتَبِيتُ مكانها . وقوله : « يُرْفَقُ بَعْضُهَا بَعْضًا » أي : يُصِيبُ بَعْضُهَا

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٢١) ومسلم في الزكاة (٤٢) .

(٢) الصفقة : ضرب اليد على اليد .

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (٤٦) والإمام أحمد في مسنده (١٩١/٢) .

رَقِيقًا ، أي : خَفِيفًا لِعَظَم ما بَعَدَهُ ، فَالثَّانِي يُرَقِّقُ الْأَوَّلَ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : يُشَوِّقُ بَعْضُهَا إِلَى بَقِيضِ تَحْسِينِهَا وَتَسْوِيلِهَا ، وَقِيلَ : يُشَبِّهُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف ﷺ في باب وجوب طاعة ولاية الأمور . عن ابن عمرو ؓ قال : « كنا مع النبي ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً ، فنزل الناس فترقوا ، منهم من كان يصلح خبائه ، ومنهم من ينتضل ، ومنهم من هو في جشره » . كالعادة أن الناس إذا نزلوا وهم سفر كل يشتغل بما يرى أنه لا بد من الاشتغال فيه . « فنادى منادي رسول الله ﷺ يقول : الصلاة جامعة » ، وهذا النداء يُنادى به لصلاة الكسوف ، وينادى به إذا أراد الإمام أو الأمير أن يجتمع بالناس ، بدلاً من أن يقول : يأيها الناس هلموا إلى المكان الفلاني . فاجتمع الناس ، فخطبهم النبي - عليه الصلاة والسلام - ، وأخبرهم أنه ما من نبي بعثه الله إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وأنذرهم شر ما يعلمه لهم ؛ كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان منهم النصيحة لأقوامهم ، يعلمونهم الخير ويدلونهم عليه ويحثونهم عليه ، ويبينون الشر ويحذرونهم منه . وهكذا يجب على أهل العلم وطلبة العلم أن يبينوا للناس الخير ويحثوهم عليه ، ويبينوا الشر ويحذروهم منه ، لأن علماء هذه الأمة ورثة الأنبياء ، فإن النبي ﷺ ليس بعده نبي ، ختمت النبوة به ، فلم يبق إلا العلماء الذين يتلقون شرعه ودينه ، فيجب عليهم ما يجب على الأنبياء من بيان الخير والحث عليه ودلالة الناس إليه ، وبيان الشر والتحذير منه .

ثم أخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة - يعني أمة محمد - جعل الله عافيتها في أولها ، يعني أن أول الأمة في عافية ليس فيها فتن ، ففي عهد النبي - عليه الصلاة والسلام - لم تكن هناك فتن ، وكذلك في عهد أبي بكر وعمر ؓ . وحين قتل عمر ؓ قتله غلام المغيرة ، غلام يقال له : أبو لؤلؤة ، وهو مجوسي خبيث ، كان في قلبه غل على أمير المؤمنين عمر ، فلما تقدم لصلاة الصبح ضربه بخنجر له رأسان ، وقيل : إنه كان مسموماً ، فضربه حتى قد بطنه ؓ ، وحمل وبقي ثلاثة أيام ثم مات ؓ . ثم إن هذا الرجل الخبيث هرب ، فلحقه الناس فقتل ثلاثة عشر رجلاً ؛ لأن الخنجر الذي معه مقبضه في الوسط وله رأسان ، فهو يقول به هكذا وهكذا ، ويضرب الناس يميناً وشمالاً ، حتى ألقى عليه أحد الصحابة بساطاً فقتل نفسه والعياذ بالله .

من ذاك الوقت بدأت الفتنة ترفع رأسها ، وأخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - في هذا الحديث أنه تأتي فتن يرقق بعضها بعضاً ، أي أن بعضها يجعل ما قبله رقيقاً وسهلاً ، لأن الثانية أعظم من الأولى ، كل واحدة أعظم من الأخرى فترقق ما قبلها ، ولهذا قال : « يرقق بعضها بعضاً » فتجيء الفتنة فيقول المؤمن : « هذه مهلكتي » ؛ لأن أول ما تأتي يستعظمها فيقول : من هنا نهلك .

ثم تأتي الأخرى فترقق الأولى وتكون الأولى سهلة بالنسبة إليها ، فيقول المؤمن : « هذه هذه » ،

يعني هذه التي فيها البلاء كل البلاء ، نسأل الله أن يعيذنا من الفتنة ، ولكن المؤمن يصبر ويحتسب ويلجأ إلى الله ﷻ ، ويستعيز بالله من الفتنة ، وفي كل صلاة يقول : « أعوذ بالله من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة الحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (١) .

ثم قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر » نسأل الله أن يمتتنا على ذلك ؛ من كان يحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة - وكلنا يحب ذلك - فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر .

« وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » يعني يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، فينصح للناس كما ينصح لنفسه ، ويكره للناس ما يكره لنفسه ، فيكون هذا قائماً بحق الله ، مؤمناً بالله واليوم الآخر ، وقائماً بحق الناس ، لا يعامل الناس إلا بما يحب أن يعاملوه به ، فلا يكذب عليهم ، ولا يغشهم ، ولا يخدعهم ، ولا يحب لهم الشر ، يعني يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، فإذا جاء يسأل مثلاً هل هذا حرام أم حلال ؟ قلنا له : هل تحب أن يعاملك الناس بهذا ؟ إذا قال : لا . قلنا له : اتركه سواء كان حلالاً أم حراماً .

ما دمت لا تحب أن يعاملك الناس به فلا تعامل الناس به ، واجعل هذا ميزاناً بينك وبين الناس في معاملتهم ؛ لا تأت الناس إلا بما تحب أن يؤتى إليك ؛ فتعاملهم باللطف كما تحب أن يعاملك باللطف واللين ، بحسن الكلام ، بحسن المنطق ، باليسر ، كما تحب أن يفعلوا بك هذا ، هذا الذي يزحزح عن النار ويدخل الجنة . نسأل الله أن يجعلنا منهم .

* * *

٦٦٩ - وعن أبي هُنيْدَةَ وإِيلَ بنِ حُجْرٍ رضي الله عنهما قَالَ : سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ ، وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا ، فَمَا تَأْمُرُونَا ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا ، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ » (٢) رواه مسلم .

٦٧٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي اثْرَةٌ ، وَأُمُورٌ تُتَكَبَّرُ نَهَا ! » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَذْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ ؟ قَالَ : « تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ » (٣) متفق عليه .

٦٧٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ

(١) انظر الحديث في البخاري في الجنائز (١٣٧٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (٤٩) والترمذي في الفتن (٢١٩٩) .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٣) ومسلم في الإمامة (٤٥) .

خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شَبْرًا ؛ مَاتَ مَيَّةً جَاهِلِيَّةً ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف في باب « طاعة ولي الأمر » فيها دليل على أمور :

أولاً : حديث وائل بن حجر أن النبي ﷺ سئل عن أمراء يسألون حقهم الذي لهم ، ويمنعون الحق الذي عليهم ؛ سئل عن هؤلاء الأمراء ماذا نصنع معهم ؟ ، والأمراء هنا يشمل الأمراء الذين هم دون السلطان الأعظم ، ويشمل السلطان الأعظم أيضاً لأنه أمير ، وما من أمير إلا فوقه أمير حتى ينتهي الحكم إلى الله ﷻ .

سئل عن هؤلاء الأمراء ، أمراء يطلبون حقهم من السمع والطاعة لهم ، ومساعدتهم في الجهاد ، ومساعدتهم في الأمور التي يحتاجون إلى المساعدة فيها ، ولكنهم يمنعون الحق الذي عليهم ؛ لا يؤدون إلى الناس حقهم ، ويظلمونهم ويستأثرون عليهم ، فأعرض النبي ﷺ عنه ، كأنه - عليه الصلاة والسلام - كره هذه المسائل ، وكره أن يفتح هذا الباب ، ولكن أعاد السائل عليه ذلك .

فأمر النبي ﷺ أن نؤدي لهم حقهم ، وأن عليهم ما حُمِّلوا وعلينا ما حُمِّلنا ، فنحن حُمِّلنا السمع والطاعة ، وهم حُمِّلوا أن يحكموا فينا بالعدل ، وألا يظلموا أحداً ، وأن يقيمونا حدود الله على عباد الله ، وأن يقيموا شريعة الله في أرض الله ، وأن يجاهدوا أعداء الله ، هذا الذي يجب عليهم ، فإن قاموا به فهذا هو المطلوب ، وإن لم يقوموا به فإننا لا نقول لهم : أنتم لم تؤدوا الحق الذي عليكم فلا نؤدي الذي لكم ، هذا حرام ، يجب أن نؤدي الحق الذي علينا ، فنسمع ونطيع ، ونخرج معهم في الجهاد ، ونصلي وراءهم في الجمع والأعياد وغير ذلك ، ونسأل الله الحق الذي لنا .

وهذا الذي دل عليه هذا الحديث وأقره المؤلف ﷺ هو مذهب أهل السنة والجماعة ، مذهب السلف الصالح ؛ السمع والطاعة للأمراء وعدم عصيانهم فيما تجب الطاعة فيه ، وعدم إثارة الضغائن عليهم ، وعدم إثارة الأحقاد عليهم ، هذا مذهب أهل السنة والجماعة . حتى الإمام أحمد ﷺ يضربه السلطان ، يضربه ويجره بالبغال ، يُضرب بالسياط حتى يغمى عليه في الأسواق ، وهو إمام أهل السنة ﷺ ورضي عنه ، ومع ذلك يدعو للسلطان ويسميه أمير المؤمنين ، حتى إنهم منعه ذات يوم ، قالوا له : لا تحدث الناس ، فسمع وأطاع ولم يحدث الناس جهراً ، بدأ يخرج يميناً وشمالاً ثم يأتيه أصحابه يحدثهم بالحديث ^(٢) .

وكل هذا من أجل ألا يباذ السلطان ؛ لأنه سبق لنا أنهم قالوا : يا رسول الله أفلا نناذبهم ؟ لما

(١) ذكر المؤلف ﷺ هذا الحديث قبل الحديث رقم (٦٧١) ثم ذكر الحديث (٦٧١) قبل الحديث (٦٧٣) وهذا مخالف لترتيب الإمام النووي لهما في كتابه ، وهذا الحديث أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٣) ومسلم في الإمارة (٥٦) .

(٢) انظر في ذلك سير أعلام النبلاء (١٩٧/١١ ، ٢٠١ ، ٢٣٨ - ٢٤٥) .

قال : « خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قالوا : أفلا نناذبهم . قال : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة . مرتين » (١) . فماداموا يصلون فإننا لا نناذبهم ، بل نسمع ونطيع ونقوم بالحق الذي علينا وهم عليهم ما حُمّلوا .

وفي آخر الأحاديث قال النبي ﷺ : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر » ليصبر وليتحمل ولا ينابذه ولا يتكلم « فإن من خرج عن الجماعة مات ميتة جاهلية » يعني ليس ميتة الإسلام والعياذ بالله . وهذا يحتمل معنيين :

الأول : يحتمل أنه يموت ميتة جاهلية بمعنى أنه يزاغ قلبه والعياذ بالله و حتى تكون هذه المعصية سبباً لردته .

الثاني : ويحمل المعنى الآخر أنه يموت ميتة جاهلية ، لأن أهل الجاهلية ليس لهم إمام وليس لهم أمير و بل لهم رؤساء وزعماء لكن ليس لهم ولاية كولاية الإسلام ، فيكون هذا مات ميتة جاهلية . والمهم أن الواجب أن نسمع ونطيع لولاية الأمر إلا في حال واحدة فإننا لا نطيعهم ؛ إذا أمرونا بمعصية الخالق فإننا لا نطيعهم . لو قالوا : احلقوا لحاكم قلنا : لا نسمع ولا طاعة و لو قالوا : نزلوا ثيابكم أو سراويلكم إلى أسفل الكعبين ، قلنا : لا نسمع ولا طاعة ، لأن هذه معصية . لو قالوا : لا تقيموا الصلاة جماعة ، قلنا : لا نسمع ولا طاعة .

لو قالوا : لا تصوموا رمضان ، قلنا : لا نسمع ولا طاعة ، كل معصية لا نطيعهم فيها مهما كان . أما إذا أمروا بشيء ليس معصية وجب علينا أن نطيع .

ثانياً : لا يجوز لنا أن نناذب ولاية الأمور .

ثالثاً : لا يجوز لنا أن نتكلم بين العامة فيما يثير الضغائن على ولاية الأمور ، وفيما يسبب البغضاء لهم ، لأن في ذلك مفسدة كبيرة . قد يتراءى للإنسان أن هذه غيرة ، وأن هذا صدع بالحق ؛ والصدع بالحق لا يكون من وراء حجاب ، الصدع بالحق أن يكون ولي الأمر أمامك وتقول له : أنت فعلت كذا وهذا لا يجوز ، تركت هذا ، وهذا واجب .

أما أن نتحدث من وراء حجاب في سب ولي الأمر والتشهير به ، فهذا ليس من الصدع بالحق ، بل هذا من الفساد ، هذا مما يوجب إيغار الصدور وكرهة ولاية الأمور والتمرد عليهم ، وربما يقضي إلى ما هو أكبر إلى الخروج عليهم ونيز بيعهم والعياذ بالله .

وكل هذه أمور يجب أن نتفطن لها ، ويجب أن نسير فيها على ما سار عليه أهل السنة والجماعة ، ومن أراد أن يعرف ذلك فليقرأ كتب السنة المؤلفة في هذا .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في آخر كتاب العقيدة الواسطية - وهي عقيدة مختصرة

ولكنها كبيرة جدًا في المعنى - ذكر أن من هدي أهل السنة والجماعة وطريقتهم ، أنهم يدينون بالولاء لولاة الأمور ، وأنهم يرون إقامة الحج والجهاد والأعياد والجمع مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا ، حتى لو كان ولي الأمر فاجرًا فإن أهل السنة والجماعة يرون إقامة الجهاد معه وإقامة الحج وإقامة الجمع وإقامة الأعياد .

إلا إذا رأينا كفرًا بواحا صريحًا عندنا فيه من الله برهان والعياذ بالله ، فهنا يجب علينا ما استطعنا أن نزيل هذا الحاكم ، وأن نستبدله بخير منه ، أما مجرد المعاصي والاستثثار وغيرها ؛ فإن أهل السنة والجماعة يرون أن ولي الأمر له الولاية حتى مع هذه الأمور كلها ، وأن له السمع والطاعة ، وأنه لا تجوز منابذته ولا إغفار الصدور عليه ، ولا غير ذلك مما يكون فسادة أعظم وأعظم .

والشر ليس يُدفع بالشر ؛ ادفع الشر بالخير ، أما أن تدفع الشر بالشر ، فإن كان مثله فلا فائدة ؛ وإن كان أشر منه كما هو الغالب في مثل هذه الأمور ، فإن ذلك مفسدة كبيرة . نسأل الله أن يهدي ولادة أمورنا وأن يهدي رعيتنا إلى ما يلزمها ، وأن يوفق الجميع للقيام بما يجب عليه .

* * *

٦٧١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي » ^(١) متفق عليه .

٦٧٣ - وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ أَهَانَ السُّلْطَانَ أَهَانَهُ اللَّهُ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح ، وقد سبق بعضها في أبواب .

الشرح

هذان الحديثان بقية باب وجوب طاعة ولادة الأمور في غير معصية الله ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني » .

ففي هذا الحديث بين الرسول ﷺ أن طاعته من طاعة الله . قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] والنبي - عليه الصلاة والسلام - لا يأمر إلا بالوحي ؛ إلا بالشرع الذي شرعه الله تعالى له ولأمته ، فإذا أمر بشيء فهو شرع الله ﷻ ، فمن أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله . الأمير إذا أطاعه الإنسان فقد أطاع الرسول ؛ لأن النبي ﷺ أمر في أكثر من

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧) واللفظ له ، ومسلم في الإمامة (٣٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن (٢٢٢٤) والإمام أحمد في مسنده (٤٢/٥ ، ٤٩) .

حديث بطاعة ولي الأمر وقال : « اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك » ^(١) وقال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » ^(٢) وقال : « على المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه » ^(٣) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فقد أمر بطاعة ولي الأمر ، وإذا أطعت ولي الأمر فقد أطعت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وإذا أطعت الرسول فقد أطعت الله .

وهذا الحديث وما سبقه وما لم يذكره المؤلف كلها تدل على وجوب طاعة ولاة الأمور إلا في معصية الله ، لما في طاعتهم من الخير والأمن والاستقرار وعدم الفوضى وعدم اتباع الهوى .

أما إذا عصي ولاة الأمور في أمر تلزم طاعتهم فيه ؛ فإنه تحصل الفوضى ، ويحصل إعجاب كل ذي رأي برأيه ، ويزول الأمن ، وتفسد الأمور ، وتكثر الفتن ، فلهذا يجب علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا إلا إذا أمرونا بمعصية ؛ فإذا أمرونا بمعصية الله فربنا وربهم الله له الحكم ، فلا نطيعهم فيها ؛ بل نقول لهم : يجب عليكم أن تتجنبوا معصية الله ، فكيف تأمروننا بها ؟ فلا نسمع لكم ولا نطيع .

وقد سبق لنا أن قلنا : إن ما أمر به ولاة الأمور ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن يكون الله قد أمر به ، مثل أن يأمرونا بإقامة الجماعة في المساجد ، وأن يأمرونا بفعل الخير وترك المنكر وما أشبه ذلك ، فهذا واجب من جهتين : أولاً : أنه واجب أصلاً . والثاني : أنه أمر به ولاة الأمور .

القسم الثاني : أن يأمرونا بمعصية الله ، فهذا لا يجوز لنا طاعتهم فيه مهما كان ، مثل أن يقولوا : لا تصلوا جماعة ، احلقوا لحاكم ، أنزلوا ثيابكم إلى أسفل ، اظلموا المسلمين بأخذ المال أو الضرب أو ما أشبه ذلك ، فهذا أمر لا يطاع ولا يحل لنا طاعتهم فيه ، لكن علينا أن نناصحهم وأن نقول : اتقوا الله ، هذا أمر لا يجوز ، لا يحل لكم أن تأمروا عباد الله بمعصية الله .

القسم الثالث : أن يأمرونا بأمر ليس فيه أمر من الله ورسوله بذاته ، وليس فيه نهى بذاته ، فيجب علينا طاعتهم فيه ، كالأنظمة التي يستنونها وهي لا تخالف الشرع ، فإن الواجب علينا طاعتهم فيها واتباع هذه الأنظمة وهذا التقسيم ، فإذا فعل الناس ذلك فإنهم سيجدون الأمن والاستقرار والراحة والطمأنينة ، ويحبون ولاة أمورهم ، ويحبهم ولاة أمورهم .

ثم ذكر المؤلف آخر حديث في هذا الباب ؛ حديث أبي بكرة أن الرسول ﷺ قال : « من أهان السلطان أهانه الله » وإهانة السلطان لها عدة صور : ومنها : إذا فعل السلطان شيئاً لا يراه هذا الإنسان . قال : انظروا ، انظروا ماذا يفعل ؟ يريد أن يهون أمر السلطان على الناس ؛ لأنه إذا هون أمر

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٥) ورواه الشيخ بتغيير قليل .

السلطان على الناس استهانوا به ، ولم يمتثلوا أمره ، ولم يجتنبوا نهيه .
ولهذا فإن الذي يهين السلطان بنشر معاييه بين الناس وذمه والتشنيع عليه والتشهير به يكون عرضة لأن يهينه الله ﷻ ، لأنه إذا أهان السلطان بمثل هذه الأمور ترمد الناس عليه فعصوه ، وحيثذ يكون هذا سبب شر فيهينه الله ﷻ . فإن أهانه في الدنيا فقد أدرك عقوبته ، وإن لم يهينه في الدنيا فإنه يستحق أن يهان في الآخرة والعياذ بالله . لأن كلام الرسول ﷺ حق : من أهان السلطان أهانه الله . ومن أعان السلطان أعانه الله ؛ لأنه أعان على خير وعلى بر ، فإذا بينت للناس ما يجب عليهم للسلطان وأعتتهم على طاعته في غير معصية فهذا خير كثير ، بشرط أن يكون إعانة على البر والتقوى وعلى الخير .

* * *

٨١ - باب النهي عن سؤال الإمارة واختيار ترك الولايات

إذا لم يتعين عليه أو تدع حاجة إليه

قال الله تعالى : ﴿ تَكَ الْأَدَارُ الْآخِرَةُ فَبَعَلْهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) [القصص : ٢٨] .

٦٧٤ - وعن أبي سعيد عبد الرحمن بن سمره ؓ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ : لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِذَا خَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، فَأَبِ الْذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفَّرْ عَنْ يَمِينِكَ » (٢) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله : (باب النهي عن طلب الإمارة وترك الولايات إلا من حاجة أو مصلحة) .

والإمارة هنا معناها التأمر على الناس والاستيلاء عليهم . وهي كبرى وصغرى . أما الكبرى : فهي التي تكون إمارة عامة على كل المسلمين ، كإمارة أبي بكر الصديق ؓ وهو خليفة رسول الله ﷺ ، وإمارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وغيرهم من الخلفاء ، هذه إمارة عامة وسلطة عامة .

(١) قوله تعالى : ﴿ عُلُوًّا ﴾ أي تكبراً ، قوله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ أي الفوز .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٧) ، ومسلم في الإيمان (١٩) ، ورواه بنحوه أبو داود في الخراج (٢٩٢٩) ، قوله « وَكَلْتَ إِلَيْهَا » أي ضرفت إليها ، ومن وكل إلى نفسه هلك .

والصغرى : إمارة خاصة دون ذلك ، تكون إمارة على منطقة من المناطق تشتمل على قرى ومدن ، أو إمارة أخص من ذلك على قرية واحدة أو مدينة واحدة ، وكلها يُنهى الإنسان أن يطلب فيها أن يكون أميرًا ، كما سيأتي في حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه .

ثم صدر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الباب بقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْأَمْثَلُ لِمَنْ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني الجنة ﴿ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ . وطلب الإمارة ربما يكون قصد الطالب للإمارة أن يعلو على الناس ، ويملك رقابهم ، ويأمر وينهى ، فيكون قصده سيطرًا ، فلا يكون له حظ من الآخرة والعياذ بالله ، ولهذا نُهي عن طلب الإمارة .

وقوله : ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ أي فسادًا في الأرض بقطع الطريق وسرقة أموال الناس ، والاعتداء ، على أعراضهم وغير ذلك من الفساد ، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عاقبة الأمر للمتقين ، فيما أن تظهر هذه العاقبة في الدنيا ، وإما أن تكون في الآخرة . فالمتقون هم الذين لهم العاقبة سواء في الدنيا أو في الآخرة أو في الدنيا والآخرة .

ثم ساق المؤلف رحمته الله حديث عبد الرحمن بن سمرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا عبد الرحمن بن سمرة » ناداه باسمه واسم أبيه من أجل أن يتبّه لما يُلقى إليه ، لأن الموضوع ليس بالهين . « لا تسأل الإمارة » يعني لا تطلب أن تكون أميرًا . « فإنك إن أعطيتها عن مسألة » يعني بسبب سؤالك « وكلت إليها » وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها « والمعين هو الله » .

فإذا أعطيتها بطلب منك وكلك الله إليها وتخلّى عنك والعياذ بالله ، وفشلت فيها ولم تنجح ولم تغلب ، وإن أعطيتها عن غير مسألة بل الناس هم الذين اختاروك وهم الذين طلبوك ، فإن الله تعالى يعينك عليها ، يعني فاقبلها وخذها .

وهذا يشبه المال ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعمر : « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ ، ومالا فلا تتبعه نفسك » ^(١) .

ولهذا ينبغي للإنسان الموفق ألا يسأل شيئًا من الوظائف ، فإن رُقي بدون مسألة فهذا هو الأحسن وله أن يقبل حينئذ ، أما أن يطلب ويلج ، فإنه يُخشى أن يكون داخلًا في هذا الحديث .

فالورع والاحتياط ألا تطلب شيئًا من ترقية أو انتداب أو غير ذلك ، إن أعطيت فخذ ، وإن لم تعط فالأحسن والأورع والأبقى ألا تطالب ، فكل الدنيا ليست بشيء ، وإذا رزقك الله رزقًا كفافًا لا فتنة فيه ، فهو خير من مال كثير تفتن فيه ، نسأل الله السلامة .

« لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها » وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٣ ، ٧١٦٤) ومسلم في الزكاة (١١٠ ، ١١١) .

عليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأتيت الذي هو خير » ، يعني إذا حلفت ألا تفعل شيئاً ، ثم تبين لك أن الخير في فعله ، فكفر عن يمينك وافعله ، وإذا حلفت أن تفعل شيئاً ثم بدا لك أن الخير في تركه ، فاتركه وكفر عن يمينك .

وإنما قال له النبي ذلك ، لأنه إذا كان الإنسان أميراً فحلف على شيء فربما تملي عليه أنفة الإمارة ألا يتحول عن حلفه ، ولكن ينبغي - وإن كان أميراً - إذا حلف على شيء ورأى الخير في تركه أن يتركه ، أو حلف ألا يفعل شيئاً ورأى الخير في فعله أن يفعله ، وهذا شامل للأمير وغيره .

إذا حلفت على شيء ورأيت أن الخير في خلافه فكفر عن يمينك وافعل الخير . مثال ذلك : رجل حلف ألا يزور قريه ؛ لأنه صار بينه وبينه شيء فقال : والله لا أزوره ؛ فهذا حلف على قطع الرحم ؛ وصلة الرحم خير من القطيعة ، فنقول : يجب عليك أن تكفر عن يمينك وأن تزور قريتك ، لأن هذا من الصلة والصلة واجبة .

مثال آخر : رجل حلف ألا يكلم أخاه المسلم ويهجره نقول : هذا غلط ، كفر عن يمينك وكلمه . وهكذا كل شيء تحلف عليه ويكون الخير بخلاف ما حلفت فكفر عن يمينك وافعل الخير ، وهذه قاعدة في كل الأيمان ، ولكن الذي ينبغي للإنسان ألا يتسرع في الحلف ؛ فإن كثيراً من الناس يتسرعون في الحلف أو في الطلاق أو ما أشبه ذلك ، ويندمون بعد ذلك ، فنقول : لا تتعجل ولا تتسرع ، إذا كنت عازماً على الشيء فافعله أو اتركه بدون يمين وبدون طلاق ، ثم إن ابتليت بكثرة الحلف فاقرن حلفك بقولك : إن شاء الله ، فإنك إن حلفت وقلت : إن شاء الله ، فأنت في حل حتى لو خالفت ما حلفت عليه فإنه لا يضر .

فلو قلت : والله إن شاء الله لا أفعل هذا الشيء ، ثم فعلته فليس عليك شيء ، لأن من قال في يمينه إن شاء الله ، فلا حنث عليه ، والله الموفق .

٦٧٥ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَوَلِّئَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » ^(١) رواه مسلم .

٦٧٦ - وعنه قال : قلت : يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فَضَرَبَ يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَذَامَةٌ ، إِنْ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا » ^(٢) رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم في الإمارة واللفظ له (١٧) ، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٨) ، قوله : « لا تأمرن » أي لا تأمرن .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦) ، قوله : « ألا تستعملني » أي ألا تصيرني عاملاً ، قوله : « منكبي » المنكب مجتمع العضد والكف ، قوله : « خزي » أي فضيحة ، قوله : « بحقها » أي بأن كان متأهلاً لها .

٦٧٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ ، وَتَسْتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

ذكر الحافظ النووي رحمته الله في باب النهي عن سؤال الإمارة ما نقله عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : « إِنَّكَ امْرُؤٌ ضَعِيفٌ وَإِنِّي أَحَبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي ، فَلَا تَأْمُرْ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَوْلِنْ عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ » هذه أربع جمل بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأبي ذر فيها ما بين :

الأولى : قال له : « إِنَّكَ امْرُؤٌ ضَعِيفٌ » ، وهذا القول إذا كان مصارحة أمام الإنسان فلا شك أنه ثقیل على النفس ، وأنه قد يؤثر فيك أن يُقال لك : إِنَّكَ امْرُؤٌ ضَعِيفٌ ، لكن الأمانة تقتضي هذا ، أن يُصرح للإنسان بوصفه الذي هو عليه ؛ إن كان قوياً فقوي وإن كان ضعيفاً فضعيف .

هذا هو النصيح : « إِنَّكَ امْرُؤٌ ضَعِيفٌ » ، ولا حرج على الإنسان إذا قال لشخص مثلاً : إن فيك كذا وكذا ، من باب النصيحة لا من باب السب والتعير ، فالنبي ﷺ قال : « إِنَّكَ امْرُؤٌ ضَعِيفٌ » . الثانية : قال : « وَإِنِّي أَحَبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي » وهذا من حسن خلق النبي - عليه الصلاة والسلام - ، لما كانت الجملة الأولى فيها شيء من الجرح قال : « وَإِنِّي أَحَبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي » يعني لم أقل لك ذلك إلا أنني أحب لك ما أحب لنفسي .

الثالثة : « فَلَا تَأْمُرْ عَلَى اثْنَيْنِ » ، يعني لا تكن أميراً على اثنين وما زاد فهو من باب أولى . والمعنى أن النبي ﷺ نهاه أن يكون أميراً ؛ لأنه ضعيف ، والإمارة تحتاج إلى إنسان قوي أمين ، قوي بحيث تكون له سلطة وكلمة حادة ؛ إذا قَالَ فَعَلَّ ، لا يكون ضعيفاً أمام الناس ، لأن الناس إذا استضعفوا الشخص لم يبق له حرمة عندهم ، وتجراً عليه لكع بن لكع ، وصار الإنسان ليس بشيء ، لكن إذا كان قوياً حاداً في ذات الله لا يتجاوز حدود الله ﷻ ، ولا يقصر عن السلطة التي جعلها الله له فهذا هو الأمير حقيقة .

الرابعة : « وَلَا تَوْلِنْ مَالِ الْيَتِيمِ » واليتيم هو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ . فنهاه الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يتولى على مال اليتيم ؛ لأن مال اليتيم إلى عناية ويحتاج إلى رعاية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] ، وأبو ذر ضعيف لا يستطيع أن يرعى هذا المال حق رعايته ؛ فلهذا قال : « وَلَا تَوْلِنْ مَالِ يَتِيمٍ » يعني لا تكن ولياً عليه دعه لغيرك .

(١) هذا الحديث لم يتم الشارح رحمته الله بشرحه ، أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ، والبيهقي في سننه (١٢٩/٣ ، ٩٥/١٠) .

ففي هذا دليل على أنه يشترط للإمارة أن يكون الإنسان قويًا وأن يكون أمينًا ، لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال : « إنها أمانة » ، فإذا كان قويًا أمينًا فهذه هي الصفات التي يستحق بها أن يكون أميرًا . فإن كان قويًا غير أمين ، أو أمينًا غير قوي ، أو ضعيفًا غير أمين ، فهذه الأحوال الثلاثة لا ينبغي أن يكون صاحبها أميرًا .

ولكن يجب أن نعلم أن الأشياء تتقيد بقيد الحاجة ، فإذا لم نجد إلا أميرًا ضعيفًا أو أميرًا غير أمين ، وكان لا يوجد في الساحة أحد تنطبق عليه الأوصاف كاملة ، فإنه يُولى الأمل فالأمثل ، ولا تُترك الأمور بلا إمارة ، لأن الناس محتاجون إلى أمير ، ومحتاجون إلى قاضٍ ، ومحتاجون إلى من يتولى أمورهم ، فإن أمكن وجود من تتم فيه الشروط فهذا هو الواجب وإن لم يوجد فإنه يُولى الأمل فالأمثل لقول الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .

وتختلف الأنظار فيما إذا كان لدينا رجلان : أحدهما أمين غير قوي ، والثاني قوي غير أمين ، كل منهما معيب من وجه ، لكن في باب الإمارة يفضل القوي وإن كان فيه ضعف في الأمانة ، لأن القوي ربما يكون أمينًا ، لكن الضعيف الذي طبيعته الضعف فإن الطبع لا يتغير ولا يتحول غالبًا .

فإذا كان أمامنا رجلان : أحدهما ضعيف ولكنه أمين ، والثاني قوي لكنه ضعيف في الأمانة ، فإننا نؤمر القوي ؛ لأن هذا أنفع للناس ، فالناس يحتاجون إلى سلطة وإلى قوة ، وإذا لم تكن قوة ولا سيما مع ضعف الدين ضاعت الأمور .

* * *

٨٢ - باب حث السلطان والقاضي وغيرهما من ولاة الأمور على اتخاذ وزير صالح وتحذيرهم من قرناء السوء والقبول منهم

قال الله تعالى : ﴿ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِغَضَبِهِمْ لِبَعْضِ عَدُوٍّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) [الزخرف : ٢٧] .

٦٧٨ - عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ ؛ بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَلَيْهِ ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَنْهَاهُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ » (٢) رواه البخاري .

٦٧٩ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ خَيْرًا ، جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صَدِيقٍ ، إِنْ نَسِيَ ذِكْرَهُ ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ شَوِيءٍ ، إِنْ نَسِيَ لَمْ

(١) قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٨) ، قوله « بَطَانَتَانِ » بطانة الرجل أولياؤه وأصفياءه .. وأيضًا صاحب سره . قوله « تَنْهَاهُ » أي تحرضه .

يُذَكِّرُهُ ، وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعْنَهُ » ^(١) رواه أبو داود بإسنادٍ جيدٍ على شرط مسلم .

الشرح

قال النووي رحمته الله في : (باب حث القاضي والسلطان وغيرهما من ولاة الأمور على اتخاذ وزير صالح والتحذير من قرناء السوء) ، ثم ذكر المؤلف قول الله تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ .

الأخلاء : جمع خليل ، والخليل هو الذي أحبك وتبّه حبّاً عظيماً ، حتى يتخلل حبه جميع البدن ، وفي ذلك يقول الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا شُمي الخليل خليلاً

فإذا صدق الودُ واشتد فإن أعلى أنواع المحبة هي الخلّة ، ولهذا اتخذ الله إبراهيم خليلاً واتخذ محمداً صلّى الله عليه وآله خليلاً . ولا نعلم أنه اتخذ خليلاً من خلقه إلا هذين النبيين إبراهيم ومحمداً صلى الله عليهما وسلم .

ولهذا نقول : من قال : إن إبراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله ، ومحمد حبيب الله ، فقد هضم محمداً صلّى الله عليه وآله حقه ؛ لأنه إذا جعله حبيب الله فقط فقد نُزِّل رتبته ؛ بل هو - عليه الصلاة والسلام - أعلى من الحبيب ، فالله تعالى يحب المؤمنين ، ويحب المقسطين ، ويحب المتقين ، فمحبتة أوسع ، لكن الخلّة لا تحصل لكل أحد .

فهؤلاء المساكين الجهال يقولون : محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله . سبحان الله ! يقولون ذلك مع أنه يروى أن النبي صلّى الله عليه وآله قال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » ^(٢) ، وقال - عليه الصلاة والسلام - : « لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر » ^(٣) ، ومع هذا سئل أي الرجل أحب إليك ؟ قال : « أبو بكر » ^(٤) .

ففرق بين الخلّة والمحبة ؛ الخلّة أعظم من المحبة .

فالأخلاء في الدنيا والأصدقاء في الدنيا هم على صداقتهم ، لكنهم في الآخرة أعداء ، قال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ .

فإن المتقين محبتهم في الله ، والرجلان إذا تحابا في الله - اجتمعا عليه وتفرقا عليه - كانا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ^(٥) ، جعلنا الله منهم .

(١) أخرجه أبو داود في الحراج والإمارة والفيء (٢٩٣٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٤١) والحديث في ضعيف الجامع للألباني (١٥٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦٦ ، ٤٦٧) ومسلم في المساجد (٢٣) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٢) .

(٥) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٩) بلفظ « سبعة يظلهم الله في ظله .. » ، ومسلم =

ويدل على أن الأخلاء سيكونون أعداء إلا المتقين قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتُحِبُّونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَلُمُّوا إِلَيْهِمْ وَلْيُخَوِّعُوا إِلَيْهِمْ فَبِئْسَ الْفِتْنَىٰ ۚ بَلْ أَتَىٰ عَلَى الْغَايَةِ ۚ وَلَقَدْ أَتَىٰ عَلَى الْغَايَةِ ۚ وَلَقَدْ أَتَىٰ عَلَى الْغَايَةِ ۚ وَلَقَدْ أَتَىٰ عَلَى الْغَايَةِ ۚ ﴾ [الأعراف: ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ قال ابن عباس رحمهما الله : تقطعت بهم المحبة ، فكانت المحبة بينهما في الدنيا ، وفي الآخرة تتلاشى وتقطع . ثم إنه يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى يتلى العبد ، فتارة ييسره لأخلاء صدق يدعونه للخير ؛ يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ، ويعينونه على ما يعجز عنه . وتارة يتلى بقوم خلاف ذلك ، ولهذا جاء في الحديث « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ^(١) .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : « مثل المجلس الصالح كحامل المسك إما أن يسيعك » أي يسيع لك مسكاً « وإما أن يحذيك » أي يعطيك مجاًناً « وإما أن تجد منه رائحة طيبة » ^(٢) أما المجلس السوء والعياذ بالله ، فإنه « كنافخ الكير » إما أن يحرق ثيابك « بما يتطاير عليك من شر النار » ، وإما أن تجد منه رائحة كريهة .

وفي حديث عائشة الذي ساقه المؤلف رحمهما الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أراد الله بأمر خير جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » .

وكذلك أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أن الله ما بعث من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كان له بطانتان ؛ بطانة خير تأمره بالخير وتحثه عليه ، وبطانة سوء تدله على السوء وتأمره به . قال : « والمعصوم من عصمه الله » وهذا شيء مشاهد تجد الأمراء بعضهم يكون صالحاً في نفسه ، حريصاً على الخير ، لكن يقبض الله له قرناء سوء - والعياذ بالله - فيصدونه عما يريد من الخير ، ويزينون له السوء ويبغضونه لعباد الله .

وتجد بعض الأمراء يكون في نفسه غير صالح ، لكن عنده بطانة خير تدله على الخير وتحثه عليه ، وتدله على ما يوجب المحبة بينه وبين رعيته حتى يستقيم وتصلح حاله ، والمعصوم من عصمه الله .

وإذا كان هذا في الأمراء ففتش نفسك أنت . فأنت بنفسك إذا رأيت من أصحابك أنهم يدلونك على الخير ويعينونك عليه ، وإذا نسيت ذكرك . وإذا جهلت علموك ، فاستمسك بحجزهم وعصّ عليهم بالنواجد .

= في الزكاة (٩١) .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٣٣) والترمذي في الزهد (٢٣٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٣٤) ومسلم في البر والصلة (١٤٦) .

وإذا رأيت من أصحابك من هو مهمل في حقك ولا ييالي - هل هلكت أم بقيت ؟ ، بل ربما يسعى لهلاكك ، فاحذره فإنه السم الناقع والعياذ بالله ، لا تقرب هؤلاء بل ابتعد عنهم ، فر منهم فراك من الأسد ، والإنسان الموفق هو الذي لا يكون بليداً كالحجر بل يكون ذكياً كالزجاجة فإنها صلبة ولكن يُرى ما وراءها من صفاء ، فيكون عنده قوة وصلابة ، لكن عنده يقظة بحيث يعرف - وكأنما يرى بالغيب - ما ينفعه مما يضره ، فيحرص على ما ينفعه ويتجنب ما يضره . نسأل الله لنا وللمسلمين التوفيق .

* * *

٨٣ - باب النهي عن تولية الإمارة والقضاء

وغيرهما من الولايات لمن سألها أو حرص عليها فعرض بها

٦٨٠ - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي ، فَقَالَ أَخَذَهُمَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَرْنَا عَلَى بَعْضِ مَاوَلَاكَ اللَّهُ ﷻ ، وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : « إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَلِّي هَذَا الْعَمَلَ أَحَدًا سَأَلَهُ ، أَوْ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ » ^(١) متفق عليه

الشرح

هذا الباب الذي ذكره النووي رحمته الله في « رياض الصالحين » : (النهي عن تولية من طلب الإمارة أو حرص عليها) . وقد سبق في حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها » .

كذلك أيضًا لا ينبغي لولي الأمر إذا سأل أحد أن يؤمره على بلد أو على قطعة من الأرض فيها بادية أو ما أشبه ذلك أن يؤمره ، حتى وإن كان الطالب أهلاً لذلك ، لأن النبي ﷺ كما في حديث أبي موسى الذي ذكره المصنف لما سأل الرجلان أن يؤمرهما على بعض ما ولاه الله عليه ، قال : « إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً سألَهُ أو أحداً حرص عليه » ؛ يعني لا نولي أحداً سأل أن يتأمر على شيء وحرص عليه ، وذلك لأن الذي يطلب أو يحرص على ذلك ربما يكون غرضه بهذا أن يجعل لنفسه سلطة لا أن يصلح الخلق ، فلما كان قد يُتهم بهذه التهمة منع النبي ﷺ أن يولي من طلب الإمارة . وقال : « إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً سألَهُ أو أحداً حرص عليه » .

وكذلك أيضًا لو أن أحداً سأل القضاء ؛ فقال لولي الأمر في القضاء كوزير العدل مثلاً : ولّني القضاء في البلد الفلاني ، فإنه لا يُؤلى ، وأما من طلب النقل من بلد إلى بلد أو ما أشبه ذلك فلا يدخل في هذا الحديث ، لأنه قد تولي من قبل ولكنه طلب أن يكون في محل آخر ، إلا إذا علمنا أن

(١) أخرجه مسلم في الإمارة واللفظ له (١٤) ، والبخاري في الأحكام (٧١٤٩) .

نيتة وقصده هي السلطة على أهل هذه البلدة فإننا نمنعه . فالأعمال بالنيات .

فإن قال قائل : كيف تجيبون عن قول يوسف - عليه الصلاة والسلام - للعزيز : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴾ [يوسف : ٥٥] .

فإننا نجيب بأحد جوابين :

أولاً : إما أن يقال إن شرع من قبلنا إذا خالفه شرعنا فالعمدة على شرعنا ، بناء على القاعدة المعروفة عند الأصوليين « شَرْعٌ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا مَا لَمْ يَرِدْ شَرْعًا بِخِلَافِهِ » وقد ورد شرعنا بخلافه : أننا لا نولي الأمر أحداً طلب الولاية عليه .

ثانياً : أو يُقال : إن يوسف - عليه الصلاة والسلام - رأى أن المال ضائع وأنه يُفترط فيه ويُلعب فيه ، فأراد أن ينقذ البلاد من هذا التلاعب ، ومثل هذا يكون الغرض منه إزالة سوء التدبير وسوء العمل ، ويكون هذا لا بأس به ، فمثلاً : إذا رأينا أميراً في ناحية لكنه قد أضاع الإمرة وأفسد الخلق ، فللصالح لهذا الأمر - إذا لم يجد أحداً غيره - أن يطلب من ولي الأمر أن يوليّه على هذه الناحية ، فيقول له : ولني هذه البلدة لأجل دفع الشر الذي فيها ويكون هذا لا بأس به ، متفقاً مع القواعد .

ويحضرني في هذا حديث عثمان بن أبي العاص ، أنه قال للنبي ﷺ : اجعلني إمام قومي ؛ يعني في الصلاة ، فقال : « أنت إمامهم » ^(١) فولي الأمر ينظر ما هو السبب في أن هذا الرجل طلب أن يكون أميراً ، أو طلب أن يكون قاضياً ، أو طلب أن يكون إماماً ، ثم يعمل بما يرى أن فيه المصلحة .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٣١) وأحمد في مسنده (٢١/٤) .

فهرس المجلد الأول

| الصفحة | الموضوع | الصفحة | الموضوع |
|--------|---|--------|---|
| ٤٨٢ | باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر | ٣ | تقديم الكتاب |
| | باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو | ٧ | مقدمة الإمام النووي |
| ٥١٣ | نهي عن منكر وخالف قوله فعله | ٩ | باب الإخلاص |
| ٥١٦ | باب الأمر بأداء الأمانة | ٤٢ | باب التوبة |
| ٥٢٨ | باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم | ٦٧ | باب الصبر |
| | باب تعظيم حرمت المسلمين وبيان | ١٢٢ | باب الصدق |
| ٥٥٧ | حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم | ١٥٢ | باب المراقبة |
| | باب ستر عورات المسلمين ، والنهي عن | ٢٤٣ | باب التقوى |
| ٥٩٧ | إشاعتها لغير ضرورة | ٢٥٥ | باب اليقين والتوكل |
| ٦٠٥ | باب قضاء حوائج المسلمين | ٢٧١ | باب الاستقامة |
| ٦٠٧ | باب الشفاعة | ٢٧٥ | باب التفكير في عظيم مخلوقات الله |
| ٦١٠ | باب الإصلاح بين الناس | ٢٨٣ | باب المبادرة إلى الخيرات |
| ٦١٧ | باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء الخاملين | ٣٠٥ | باب المجاهدة |
| ٦٣٥ | باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة | | باب الحث على الازدياد من الخيرات في |
| ٦٥٤ | باب الوصية بالنساء | ٣٤٨ | أواخر العمر |
| ٦٦٧ | باب حق الزوج على المرأة | ٣٥٤ | باب بيان كثرة طرق الخير |
| ٦٧٥ | باب النفقة على العيال | ٣٨٤ | باب الاقتصاد في الطاعة |
| ٦٧٩ | باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد | ٤٠٠ | باب المحافظة على الأعمال |
| | باب وجوب أمر أهله وأولاده المميزين | ٤٠٥ | باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها |
| ٦٨٢ | وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى | ٤٤١ | باب وجوب الانقياد لحكم الله تعالى |
| ٦٨٧ | باب حق الجار والوصية له | ٤٤٥ | باب النهي عن البدع ومحدثات الأمور |
| ٦٩٠ | باب بر الوالدين وصلة الأرحام | ٤٥٠ | باب فيمن سن سنة حسنة أو سيئة |
| ٧٠٣ | باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم | | باب في الدلالة على خير ، والدعاء إلى |
| ٧٠٨ | باب بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة | ٤٥٥ | هدى أو ضلالة |
| | باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ | ٤٦٦ | باب التعاون على البر والتقوى |
| ٧١٢ | وبيان فضلهم | ٤٧٢ | باب النصيحة |

- باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل ٧١٥
- باب زيارة أهل الخير ومجالستهم ٧٢٣
- باب فضل الحب في الله والحث عليه ... ٧٣١
- باب علامات حب الله تعالى العبد والحث على التخلق بها ٧٣٨
- باب التحذير من إيذاء الصالحين ٧٤١
- باب إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرايرهم إلى الله تعالى ٧٤٢
- باب الخوف ٧٤٨
- باب الرجاء ٧٥٩
- باب فضل الرجاء ٧٧٥
- باب الجمع بين الخوف والرجاء ٧٧٧
- باب فضل البكاء ٧٨٠
- باب فضل الزهد في الدنيا ٧٨٧
- باب فضل الجوع وخشونة العيش ٨٠٢
- باب القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذم السؤال من غير ضرورة ٨١٢
- باب جواز الأخذ من غير مسألة ٨١٧
- باب الحث على الأكل من عمل يده ٨١٨
- باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ٨٢٠
- باب النهي عن البخل والشح ٨٢٨
- باب الإيثار والمواساة ٨٣١
- باب التنافس في أمور الآخرة والاستكثار مما يُتبرك به ٨٣٧
- باب فضل الغني الشاكر وهو من أخذ المال من وجهه ، وصرفه في وجوهه المأمور بها ٨٣٩
- باب ذكر الموت وقصر الأمل ٨٤٢
- باب استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر ٨٦٠
- باب كراهة تمني الموت بسبب ضرر نزل به ٨٦٣
- باب الورع وترك الشبهات ٨٦٦
- باب استحباب العزلة عند الفساد ٨٧٩
- باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جمعهم وجماعاتهم ٨٨٢
- باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين ٨٨٢
- باب تحريم الكبر والإعجاب ٨٩٤
- باب حسن الخلق ٩٠٤
- باب الحلم والأناة والرفق ٩١٣
- باب العفو والإعراض عن الجاهلين ٩٢٩
- باب احتمال الأذى ٩٣٤
- باب الغضب إذا انتهكت حرمت الشرع والانتصار للدين ٩٣٦
- باب أمر ولاة الأمور بالرفق برعاياهم ٩٤٢
- باب الوالي العادل ٩٤٩
- باب وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية ٩٥٤
- باب النهي عن سؤال الإمارة واختيار ترك الولايات ٩٦٦
- باب حث السلطان والقاضي وغيرهما على اتخاذ وزير صالح وتحذيرهم من قرناء السوء والقبول منهم ٩٧٠
- باب النهي عن تولية الإمارة والقضاء وغيرهما لمن سألها أو حرص عليها ٩٧٣
- باب فهرس المجلد الأول ٩٧٥

شرح رِضَا الصَّالِحِينَ

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ

لِلْإِمَامِ أَبِي زَكْرِيَّا بَحْثِي بْنِ شَرْفِ النَّوَوِيِّ

الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦٧٦ هـ

شَرْحُهُ وَأَمْلَاهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِمِيِّ

عُصْرَتُهُ حَكَارُ الْعُلَمَاءِ وَأَشْكَادُ فِي كِتَابَةِ الشَّرِيعَةِ بِالتَّصْيِيرِ

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَشَرَحَ غَرِيبَهُ

أَحْمَدُ عَبْدُ الرَّازِقِ الْبَكْرِي مُحَمَّدُ عَادِلُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدُ عَبْدُ الْلطِيفِ خَلْفٌ

بِإِشْرَافِ

أ. د. عَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْمَنْعُمِ مَذْكَورٌ

أَشْكَادُ بِكَلْبَةِ دَارِ الْعُلُومِ بِجَامِعَةِ الْقَادِصَةِ

المجلد الثاني

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للساشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت
على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة
أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،
٢٠٠١م هي عضو الجائزة تنريجا لقد
ثالث مضي في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية

الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي مواز لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران
عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشرييني - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتب : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتب : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع
مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

بريدًا : من ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب الأدب

٨٤ - باب الحياء وفضله والحث على التخلق به

- ٦٨١ - عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ مرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ » ^(١) متفقٌ عليه .
- ٦٨٢ - وعن عِمْرَانَ بنِ مُحْصِينٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ » ^(٢) متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلم : « الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ » أَوْ قَالَ : « الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ » ^(٣) .

الشرح

- قال المؤلف النووي رحمته الله في كتابه «رياض الصالحين» : (كتاب باب : الحياء وفضله والحث عليه) .
- الأدب : الأخلاق التي يتأدب بها الإنسان ، وله أنواع كثيرة .
- منها : الكرم والشجاعة ، وطيب النفس ، وانسراح الصدر ، وطلاقة الوجه ، وغير ذلك كثير .
- فالأدب هو عبارة عن أخلاق يتخلق بها الإنسان يمدح عليها ، ومنها الحياء .
- والحياء صفة في النفس تحمل الإنسان على فعل ما يُجمل ويزين ، وترك ما يندس ويشين ، فتجده إذا فعل شيئاً يخالف المروعة استحيا من الناس ، وإذا فعل شيئاً محرماً استحيا من الله ﷻ ، وإذا ترك واجباً استحيا من الله ، وإذا ترك ما ينبغي فعله استحيا من الناس .
- فالحياء من الإيمان ، ولهذا ذكر ابن عمر رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ مرَّ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ ، يعني أَنَّهُ يحثه عليه ويرغبه فيه ، فيبين النبي - عليه الصلاة والسلام - : أَنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ .
- وقال - عليه الصلاة والسلام - في حديث آخر : « الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » ^(٤) .

وإذا كان عند الإنسان حياء وجدته يمشي مشياً مستقيماً ، ليس بالعجلة التي يذم عليها ، وليس بالتماوت الذي يذم عليه أيضاً ، كذلك إذا تكلم تجده لا يتكلم إلا بالخير وبكلام طيب ، وبأدب ،

- (١) أخرجه البخاري في الإيمان والفظ له (٢٤) ، ومسلم في الإيمان (٥٩) ، قوله « يعظ أخاه في الحياء » أي : ينهاه عنه ويقبح له فعله ويزجره عن كثرته ، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك .
- (٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٧) ومسلم في الإيمان (٦٠) .
- (٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٦١) .
- (٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٩) ولفظه « الإيمان بضع وستون شعبة .. » ، ومسلم في الإيمان (٥٧) .

وبأسلوب رفيع حسب ما يقدر عليه .

وإذا لم يكن حيًّا فإنه يفعل ما شاء ، كما في الحديث الصحيح « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » (١) .

وكان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها (٢) . العذراء : المرأة التي لم تتزوج ، وعادتها أن تكون حية ، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها ، ولكنه لا يستحي من الحق ، يتكلم بالحق ويصدع به ولا ييالي بأحد .

أما ما لا تضع به الحقوق فإنه ﷺ كان أحياناً الناس . فعليك يا أخي باستعمال الحياء والأدب والتخلق بالأخلاق الطيبة التي تمدح بها بين الناس .

٦٨٣ - وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بضْعٌ وَسَبْعُونَ ، أو بضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » (٣) متفقٌ عليه .

« البِضْعُ » : بكسر الباء ، ويجوز فتحها ، وَهُوَ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ « وَالشُّعْبَةُ » : الْقِطْعَةُ وَالْخَصْلَةُ . « وَالْإِمَاطَةُ » : الإِزَالَةُ . « وَالْأَذَى » : مَا يُؤْذِي كَحَجَرٍ وَشَوْكٍ وَطِينٍ وَزَمَادٍ وَقَدَرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بضْعٌ وسبعون أو بضْعٌ وستون شعبة » ؛ شكُّ من الراوي هل قال النبي : « بضْعٌ وسبعون » ، أو قال : « بضْعٌ وستون » ؟ « فأفضلها » وفي لفظ : « فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » وهذا هو الشاهد لهذا الباب ؛ باب الحياء وفضله .

في هذا الحديث : بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الإيمان شعب كثيرة ؛ بضْعٌ وستون أو بضْعٌ وسبعون ، ولم يبيتها الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأجل أن يجتهد الإنسان بنفسه ويتتبع نصوص الكتاب والسنة حتى يجمع هذه الشعب ويعمل بها ، وهذا كثير : أي أنه يكون في القرآن والسنة أشياء مبهمة يُبهمها الله ﷻ من أجل امتحان الخلق ليتبين الحريص من غير الحريص .

فمثلاً : ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان أو في السبع الأواخر من رمضان ، لكن لا تعلم في أي ليلة هي ، من أجل أن يحرص الناس على العمل في كل الليالي رجاء هذه الليلة ، ولو علمت

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٢٠) وأحمد في مسنده (٣٨٣/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٩) ومسلم في الفضائل (٦٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٩) ومسلم في الإيمان (٥٨) واللفظ له .

بعينها لاجتهد النَّاس في هذه الليلة عن بقية الليالي .

ومن ذلك : ساعة الإجابة في يوم الجمعة « فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله إلا أعطاه إياه » ^(١) هذه أيضًا مبهمة من أجل أن يحرص الناس على التحري والعمل .

كذلك في كل ليلة ساعة إجابة لا يوافقها أحد يدعو الله ﷻ إلا استجاب له .

كذلك أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أن لله تسعة وتسعون اسمًا ؛ مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة » ^(٢) ولم يعدها ، والحديث الوارد في سردها حديث ضعيف ^(٣) ، لا تقوم به حجة .

وعلى هذا فإن قول النبي ﷺ هنا : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة » ترك تعيينها من أجل أن نحرص نحن على تتبعها في الكتاب والسنة ، حتى نجمع هذه الشعب ، ثم نقوم بالعمل بها ، وهذا من حكمة النبي ﷺ التي آتاه الله تعالى .

يقول الرسول ﷺ عن هذه الشعب : « أفضلها » أو « أعلاها قول لا إله إلا الله » هذه الكلمة العظيمة لو وزنت السموات السبع والأرضين السبع وجميع المخلوقات لرجحت بهن ، لأنها أعظم كلمة ، وهي كلمة التوحيد التي إذا قالها الإنسان صار مسلمًا ، وإذا استكبر عنها صار كافرًا ، فهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر .

ولذلك كانت أعلى شعب الإيمان وأفضلها : « لا إله إلا الله » ؛ أي لا معبود بحق إلا الله ﷻ ، فكل المعبودات من دون الله باطلة إلا الله وحده لا شريك له ، فهو الحق كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَكْذِبُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج : ٦٢] . والإيمان بهذا التوحيد العظيم - بأنه لا معبود بحق إلا الله - يتضمن الإيمان بأنه لا خالق إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا مدبر للخلق إلا الله ولا يملك الضر والنفع إلا الله .

ويتضمن كذلك الإيمان بأسماء الله وصفاته إذ لا يُعبد إلا من عُلم أنه أهل للعبادة ، ولا أهل للعبادة سوى الخالق ﷻ ، لهذا كانت هذه الكلمة أعلى شعب الإيمان وأفضلها : ومن خُتم له بها في الحياة الدنيا فإنه يكون من أهل الجنة ، فإن « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة » ^(٤) ، نسأل الله أن يختم لنا بها إنه على كل شيء قدير .

« أعلاها قول لا إله إلا الله » ، « وأدناها » يعني : الشيء الهين « إمطة الأذى عن الطريق » ؛

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣٥) ، ومسلم في الجمعة (١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤١٠) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٧) ، والعلّة في هذا الحديث تفرد الوليد بن مسلم به ، قال الحاكم : لا أعلم خلافاً عند أهل الحديث أن الوليد أوثق وأحفظ وأجل وأعظم من بشر بن شبيب وعلي بن عياش . (تحفة الأحوذى ٣٩٠/٩) وأخرجه ابن ماجه في الدعاء (٣٨٦١) .

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣/٥) ، والحاكم في المستدرک (٣٥١/١) .

الأذى : ما يؤذي المارة من شوك أو خرق أو خشب أو حجر أو غير ذلك ، فإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان ، وهذا يدل على سعة الإيمان وأنه يشمل الأعمال كلها .

« والحياء شعبة من الإيمان » ؛ الحياء إنكسار يكون في القلب ، وخجل لفعل ما لا يستحسنه الناس ، والحياء من الله والحياء من الخلق من الإيمان ، فالحياء من الله يوجب للعبد أن يقوم بطاعة الله ، وأن ينتهي عما نهى الله ، والحياء من الناس يوجب للعبد أن يستعمل المروءة ، وأن يفعل ما يجمله ويزينه عند الناس ، ويتجنب ما يذنبه ويشينه ، فالحياء كله من الإيمان .

وسئل النبي - عليه الصلاة والسلام - عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » ^(١) ، فإذا جمعت هذا الحديث بذاك الحديث الآخر تبين لك أن الإيمان كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة يشمل العقيدة ، ويشمل القول ، ويشمل الفعل ؛ فيشمل عمل القلب (عقيدة القلب وعمل القلب) وقول اللسان وعمل الجوارح .

« لا إله إلا الله » : هي قول اللسان ، « إماطة الأذى عن الطريق » : عمل الجوارح ، « الحياء » : عمل القلب ، « الإيمان بملائكته وكتبه » : اعتقاد القلب .

فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يتضمن كل هذه الأربعة : اعتقاد القلب ، وعمل القلب ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ، وأدلة ذلك من الكتاب والسنة كثيرة .

في هذا الحديث حث على إماطة الأذى عن الطريق ، لأنه إذا كان من الإيمان فافعله يزداد إيمانك ويكمل ، فإذا وجدت أذى في طريق ؛ حجراً أو زجاجاً أو شوكاً أو غير ذلك ، فأزله فإن ذلك من الإيمان ، حتى السيارة إذا جعلتها في وسط الطريق وضيق على الناس فقد وضعت الأذى في طرق الناس ، وإزالة ذلك من الإيمان ، وإذا كان إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، فوضع الأذى في الطريق من الخسران والعياذ بالله ، ومن نقص الإيمان ، ولذلك يجب أن يكون الإنسان حيي القلب ، يشعر بشعور الناس . تجد بعض الناس الآن يوقف السيارة في أي مكان بالطول أو بالعرض ما يهتم ، المكان ضيق أو المكان واسع ما يبالي . ليست هذه خصال المؤمن ، المؤمن هو الذي يكون حيي القلب ، يشعر بشعور الناس ، يحب للناس ما يحب لنفسه ، كيف تأتي - مثلاً - وتوقف سيارتك في عرض الطريق ولا تبالي بتضييق الطريق على الناس ؟!

أحياناً يسدون الطريق يقفون عند باب مسجد جامع وتكون الطريق ضيقاً ، فإذا خرج الناس يوم الجمعة ضيقوا عليهم ، وهذا غلط ، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة .

فعلى هذا ينبغي للإنسان أن يقوم بإماطة الأذى عن الطريق ، وإذا كان لا يستطيع كما لو كانت أحجاراً كبيرة أو أكواماً من الرمل أو ما أشبه ذلك فليبلغ المسئولين ، ليلغ البلدية مثلاً ؛ لأنها المسئولة عن هذا ، يبلغها حتى يكون ممن تعاونوا على البر والتقوى .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) واللفظ له ، والبخاري في الإيمان (٥٠) .

الحياء شعبة من الإيمان ، فإذا كان الإنسان حييًّا لا يتكلم بما يدنسُه عند الناس ، بل تجده وقورًا ساكنًا مطمئنًا ، فهذا من علامة الإيمان . والله الموفق .

* * *

٦٨٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءَ من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفتاه في وجهه ^(١) . متفق عليه .

قال العلماء : حقيقة الحياء خلق يتعش على ترك القبيح ، ويمتنع من التفتيش في حق ذي الحق . وروينا عن أبي القاسم الجنيد رحمته الله قال : الحياء رؤية الآلاء - أي : النعم - ورؤية التفتيش ، فيتولد بينهما حالة تُسمى حياء .

الشرح

ثم ذكر النووي رحمته الله في باب الحياء وفضله فيما نقله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ « كان أشد حياء من العذراء في خدرها » . العذراء : هي المرأة التي لم تتزوج وهي أشد النساء حياء ، لأنها لم تتزوج ولم تعاشر الرجال فتجدها حياء في خدرها ، فرسول الله ﷺ أشد حياء منها ، ولكنه ﷺ إذا رأى ما يكره عُرف ذلك في وجهه ، يتغير وجهه ، لكن يستحي - عليه الصلاة والسلام - . وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون حييًّا لا يتخط ، ولا يفعل ما يخجل ، ولا يفعل ما ينتقد عليه ، ولكن إذا سمع ما يكره أو رأى ما يكره ، فإنه يتأثر ، وليس من الرجولة أن لا تتأثر بشيء ، لأن الذي لا يتأثر بشيء هو البليد الذي لا يحس ، لكن تتأثر ويمنعك الحياء أن تفعل ما يُنكر ، أو أن تقول ما يُنكر . ثم إن الحياء لا يجوز أن يمنع الإنسان من السؤال عن دينه فيما يجب عليه ، لأن ترك السؤال عن الدين فيما يجب ليس حياء ، ولكنه خور ، فالله ﻻ يستحي من الحق .

قالت عائشة رضي الله عنها : « نعم النساء أنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين » ^(٢) فكانت المرأة تأتي تسأل النبي ﷺ عن الشيء الذي يستحي من ذكره الرجال ، فلا بد أن يسأل الإنسان عن دينه ولا يستحي .

ولهذا لما جاء ماعز بن مالك رضي الله عنه إلى النبي عليه الصلاة والسلام جاء يقر بالزنا يقول إنه زنى ، فأعرض عنه النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم جاء ثانية وقال إنه زنى ، فأعرض عنه ، ثم جاء ثالثة وقال إنه زنى ، فأعرض عنه النبي - عليه الصلاة والسلام - يريد أن يتوب فيتوب الله عليه .

فلما جاء الرابعة ناقشه النبي عليه الصلاة والسلام قال : « أبك جنون ؟ » قال : لا يا رسول الله قال : « أتدري ما الزنا ؟ » قال : نعم ، الزنا : أن يأتي الرجل من المرأة حرامًا ما يأتي الرجل من زوجته حلالًا ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٠٢) واللفظ له ومسلم في الفضائل (٦٧) والإمام أحمد في مسنده (٧١/٣ ، ٩١) ، قوله : « من العذراء في خدرها » أي : البكر ، والخنزير : ستر تجعله البكر في جنب البيت ، والمقصود : أنه أشد حياء من البكر حال اختلاطها بالزوج الذي لم تعرفه قُبِل واستحياتها منه . (٢) أخرجه مسلم في الحيض (٦١) .

فقال له : « أنكثها » ^(١) ؛ لا يكني ، بل صرح هنا مع أن هذا مما يُستحي منه ، لكن الحق لا يُستحي منه ، قال له : « أنكثها » قال : نعم ، قال : « حتى غاب ذاك منك في ذلك منها كما يغيب المروء في المكحلة والرشاء في البئر ؟ » قال : نعم ^(٢) . فهذا شيء يُستحي منه ولكن في باب الحق لا يستحي .
جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ تسأله فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحي من الحق ، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت ؟ قال : « نعم إذا هي رأت الماء » ^(٣) .
هذا السؤال ربما يخجل منه الرجل أن يسأله ، ولا سيما في المجلس ، لكن أم سليم لم يمنعها الحياء من أن تعرف دينها وتتفقه فيه .

وعلى هذا فالحياء الذي يمنع من السؤال عما يجب السؤال عنه حياء مذموم ، ولا ينبغي أن نسميه حياءً ، بل نقول إن هذا خور وجبن ، وهو من الشيطان ، فاسأل عن دينك ولا تستح .
أما الأشياء التي لا تتعلق بالأمور الواجبة : فالحياء خير من عدم الحياء ، « وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ^(٤) .
ومما يجانب الحياء ما يفعله بعض الناس الآن في الأسواق من الكلام البذيء السيئ ، أو الأفعال السيئة أو ما أشبه ذلك ، فلذلك يجب على الإنسان أن يكون حيًّا إلا في أمرٍ يجب عليه معرفته فلا يستحي من الحق .

* * *

٨٥ - باب حفظ السر

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴾ ^(٥) [الإسراء : ٣٤] .
٦٨٥ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مِنْ أَشْرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى الْمَرْأَةِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا » ^(٦) رواه مسلم .

الشرح

قال الإمام النووي رحمه الله : (باب حفظ السر) .

- (١) أخرجه البخاري في المحارين (٦٨٢٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٧٠/١) .
- (٢) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٢٨) .
- (٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩١) ، ومسلم في الحيض (٣٢) .
- (٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٢٠) ، وأحمد في مسنده (١٢١/٤) .
- (٥) قوله تعالى : ﴿ وَالْعَهْدُ ﴾ أي بالعقد الذي يعقد الصلح بين أهل الحرب والإسلام . قوله : ﴿ مَسْئُولًا ﴾ أي مسؤولاً عنه هل وفى به أم لا ؟ .
- (٦) أخرجه مسلم في النكاح (١٢٣) ، قوله « يفضي » من الإفضاء وهو مباشرة البشارة وهو كناية عن الجماع وأصل الإفضاء هو الانتهاء .

والسر هو ما يقع خفية بينك وبين صاحبك . ولا يحل لك أن تفشي هذا السر أو أن تبينه لأحد ، سواء قال لك لا تبينه لأحد ، أو علم بالقرينة الفعلية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد ، أو علم بالقرينة الحالية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد .

مثال الأول : اللفظ ؛ أن يحدثك بحديث ثم يقول : لا تخبر أحداً ، هو معك أمانة .

ومثال الثاني : القرينة الفعلية ؛ أن يحدثك وهو حال تحدّثه إياك يلتفت ؛ يخشى أن يكون أحد يسمع ، لأن معنى التفاته أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد .

ومثال الثالث : القرينة الحالية ؛ أن يكون هذا الذي حدثك به أو أخبرك به من الأمور التي يستحي من ذكرها أو يخشى من ذكرها أو ما أشبه ذلك ، فلا يحل لك أن تبين وتفشي هذا السر .

ثم استدل المؤلف رحمته الله لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ : يعني إذا عاهدتم على شيء بلسان الحال أو بلسان المقال ، فإنه يجب عليكم أن توفوا بالعهد ، ومن العهود الشروط التي تقع بين الناس في الشراء والإجارة والاستئجار والرهن وغير ذلك ، فإن هذه الشروط من العهد . وكذلك ما يجري بين المسلمين والكفار من العهد ، فإنه يجب على المسلمين أن يوفوا به . والمعاهدون من الكفار ، بين الله في سورة التوبة أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم لا يزالون يوفون بالعهد ، فهؤلاء يجب أن نوفي عهدهم .

وقسم ثانٍ نقضوا العهد ، فهؤلاء لا عهد بيننا وبينهم ؛ لأنهم نقضوا العهد ، قال تعالى : ﴿ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ سَبْعًا وَلَا تُسَاعِدُوهُمْ فِي مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٣] . وقسم ثالث لم ينقضوا العهد ولم يتبين لنا أنهم سيستمرون في الوفاء به ، بل نخاف منهم أن يخونوا وينقضوا العهد ، فهؤلاء قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَلَا يَدْرِي كَيْفَ تَتَوَلَّوْنَ بَعْدَ ذَلِكَ سَاءَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] ، يعني قل لهم لا عهد بيننا وبينكم حتى يكون الأمر صريحاً .

فالمهم أن جميع ما يشترط بين الناس فإنه من العهود ، ومن ذلك التزام الموظفين بأداء عملهم ، فإن الموظف قد التزم بالشروط التي تشترطها الحكومة على الموظفين ؛ من الحضور في أول الدوام وعدم الخروج إلا بعد انتهاء الدوام ، والنصح في العمل ، وما أشبه ذلك مما هو معروف في ديوان الخدمة . فالواجب الوفاء بهذه العهود وإلا فاترك الوظيفة وكن حرّاً فيما تعمل ، لأن الوظيفة لم تلزم بها ، بل أنت الذي أتيت وتوظفت ، فيجب أن تلتزم بما تقتضيه شروط هذه الوظيفة من كل شيء ، وإلا فدعها وكن حرّاً فيما تريد ، ولا أحد يحاسبك إلا الله عز وجل .

ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة » أشر : هذه لغة قليلة ؛ لأن اللغة الكثيرة حذف الهمزة ، فخير وشر الأكثر فيهما في اللغة حذف الهمزة ، لا يقال أخير ولا أشر إلا قليلاً ، وإنما يقال خير وشر . قال الله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ

جُنْدًا ﴿ [مرم: ٧٥] ، حَذَفَ الهمزة في خير وشر لكن يأتي ذكرها أحياناً بناء على الأصل .
فهنا « إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه » يعني بذلك الزوجة
« فيصبح ينشر سرها » أو هي أيضاً تصبح تنشر سره ، فيقول فعلت في امرأتي البارحة كذا وفعلت
كذا ، والعياذ بالله ، فالغائب كأنه يشاهد . كأنه بينهما في الفراش ، والعياذ بالله ، يخبره بالشيء السر
الذي لا تحب الزوجة أن يطلع عليه أحد .

أو الزوجة كذلك تخبر النساء بأن زوجها يفعل بها كذا وكذا ، وكل هذا حرام ولا يحل وهو من
شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة . فالواجب أن الأمور السرية في البيوت وفي الفراش وفي غيرها
تحفظ وألا يطلع عليها أحد أبداً . فإن من حفظ سر أخيه حفظ الله سره ، فالجزاء من جنس العمل .

* * *

٦٨٦ - وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه حِينَ تَأَيَّمَتْ بِثَوْبِهِ حَفْصَةُ قَالَ : لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ
عُفَانَ رضي الله عنه فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ فَقُلْتُ : إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ ؟ قَالَ : سَأَنْظُرُ فِي
أَمْرِي . فَلَبِثْتُ لَيْالِي ، ثُمَّ لَقِيتِي ، فَقَالَ : قَدْ بَدَأَ لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا . فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ
رضي الله عنه فَقُلْتُ : إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَلَمْ يَزَجِعْ إِلَيَّ شَيْئاً ! فَكُنْتُ
عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ ، فَلَبِثْتُ لَيْالِي ، ثُمَّ خَطَبَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ، فَأَنكَحَهَا إِيَّاهُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ
فَقَالَ : لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئاً ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَإِنَّهُ
لَمْ يَمْتَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ذَكَرَهَا ، فَلَمْ أَكُنْ
لَأَفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَلَوْ تَرَكَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَقَبِلْتُهَا ^(١) . رواه البخاري .

قوله : « تَأَيَّمَتْ » أي : صَارَتْ بِلاَ زَوْجٍ ، وَكَانَ زَوْجُهَا تُوفًى رضي الله عنه . « وَجَدْتُ » : غَضِبْتُ .

٦٨٧ - وعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : كُنْتُ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عِنْدَهُ ، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها تَمْشِي ، مَا
تَخْطِي مِشْيَتَهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئاً ، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَّبَ بِهَا وَقَالَ : « مَرْحَبًا بِابْنَتِي » ثُمَّ
أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ، ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا ، سَارَّهَا الثَّانِيَةَ
فَصَحَّحَتْ ، فَقُلْتُ لَهَا : خَصُّكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالْإِسْرَارِ ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ ! فَلَمَّا قَامَ
رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَأَلْتُهَا : مَا قَالَ لِكَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قَالَتْ : مَا كُنْتُ لَأَفْشِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم
سِرَّهُ . فَلَمَّا تُوفًى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قُلْتُ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِمَا حَدَّثْتَنِي مَا قَالَ لِكَ
رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ؟ فَقَالَتْ : أَمَّا الْآنَ فَتَعَمْ ، أَمَّا حِينَ سَارَّتَنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَأَخْبَرْتَنِي « أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ
يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَأَنَّهُ عَارَضُهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ ، وَلَئِنِّي لَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ
اقْتَرَبَ ، فَأَتَقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي ، فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لِكَ » فَبَكَتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتُ . فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٠٥) ، قوله « أوجد » أي أشد غضبا ، قوله « النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها » أي مريداً
التزوج بها ، قوله « أفشي » أي أظهر .

سَارَنِي الثَّانِيَّةُ ، فقال : « يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؟ » فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتَ ^(١) . متفقٌ عليه . وهذا لفظ مسلم .

٦٨٨ - وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : أتى عَلَيَّ رسول الله ﷺ وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا ، فَبَغْتَنِي فِي حَاجَةٍ ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي . فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ : مَا حَبَسَكَ ؟ فَقُلْتُ : بَغْتَنِي رسول الله ﷺ لِحَاجَةٍ ، قَالَتْ : مَا حَاجَتُهُ ؟ قُلْتُ : إِنَّهَا سِرٌّ . قَالَتْ : لَا تُخْبِرُنَّ بِسِرِّ رسول الله ﷺ أَحَدًا ، قَالَ أَنَسُ : وَاللَّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ بِهِ يَا ثَابِتُ . رواه مسلم ، وروى البخاري بغضه مُخْتَصَرًا ^(٢) .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في باب حفظ السر فيما نقله عن ثابت عن أنس خادم رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ به وهو يلعب مع الصبيان فسلم عليهم ، يعني سلم على الصبيان وهم يلعبون - لأن رسول الله ﷺ كان أحسن خلقًا ، فكان يمر بالصبيان فيسلم عليهم - ثم دعا أنس بن مالك رضي الله عنه وأرسله في حاجة . فأبطأ على أمه - وأمّه هي أم سليم امرأة أبي طلحة ، فلما جاء إليها سألته : ما الذي أبطأ بك ؟ ، قال بعثني النبي ﷺ في حاجة ؟ يعني أرسلني بها . قالت : ما حاجته ؟ قال : ما كنت لأخبر بسرَّ رسول الله ﷺ ، فقالت لا تخبرن أحدًا بسرَّ رسول الله ﷺ . قال أنس لثابت : وكان ملازمًا له : لو كنت مخبرًا أحدًا بذلك لأخبرتكم به ؛ أي بالحاجة التي أرسله النبي ﷺ بها .

ففي هذا الحديث فوائد :

أولاً : حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه الجم - على شرفه ومكانته وجاهه عند الله وعند خلقه - يتواضع حتى يسلم على الصبيان وهم يلعبون في السوق . ومن منا يفعل ذلك إلا من شاء الله .

ثانياً : من فوائد هذا الحديث أنه يسن للإنسان أن يسلم على من مرَّ به ولو كان من الصبيان ، لأن السلام دعاء تدعو لأخيك به تقول : السلام عليك . ورده دعاء لك يقول : عليك السلام ، ولأنك إذا سلمت على الصبيان عودتهم الترية الحسنة حتى ينشئوا عليها ويعيشوا عليها ، ويكون لك أجر في كل ما اهتمدوا بك فيه ، فكل شيء يهتدي فيه بك الناس من أمور الخير لك فيه أجر .

ثالثاً : جواز إرسال الصبي بالحاجة لكن بشرط أن يكون مأموناً ، أما إذا كان غير مأمون ؛ بأن يكون الصبي كثير اللعب ولا يهتم بالحوائح فلا تعتمد عليه .

(١) أخرجه البخاري في المنقب (٣٦٢٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٩٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٨٢/٦) . قوله « سارها » أي أسر إليها القول ، قوله « جزعها » جزع الرجل من باب تعب إذا ضعف مثته عن حمل ما نزل به ولم يجد صبراً ، قولها : أفشي أي أظهر . قولها « عزمت بما لي عليك » استعارة للقسم أي أقسمت عليك ، قوله « جبريل كان يعارضه القرآن » قيل : إنه كان يقرأ النبي ﷺ من القرآن فيعيده بعينه جبريل ولعل ذلك ليجمع بين مرتين : العرض والأخذ من فم المبلغ .

(٢) أخرجه مسلم باختلاف في اللفظ في فضائل الصحابة (١٤٥) والبخاري مختصراً في الاستئذان (٦٢٨٩) .

رابعاً : ما ذكره الفقهاء - رحمهم الله - أن الصبي إذا جاءك بحاجة وقال هذه من أبي ، هذه من أمي وما أشبه ذلك ، فلك أن تقبلها وإن كان هو بنفسه لا يملك أن يتبرع من ماله بشيء ، لكن إذا جاءك على أنه مرسل وقال : هذا من أبي ؛ جاءك مثلاً بتمر ، جاءك ببطيخ ، جاءك بثوب ، بأي شيء ، إذا جاءك فاقبله ولا تقل : هذا صبي ربما سرقها ، وربما كذا ، ربما كذا ، أخذاً بالظاهر .

خامساً : مراعاة الوالدة والأهل ، وأن الإنسان إذا أراد أن يقضي حاجة وخاف أن يبطئ عليهم ، أن يخبرهم إذا لم تفت الحاجة بذلك ؛ يعني إذا خرجت من أهلك فينبغي أن تقول خرجت للجهة الفلانية حتى يطمئنوا ولا تشغل خواطرهم ، والإنسان لا يدري ربما يذهب إلى الجهة الفلانية ويصاب بحادث أو مرض أو غيره ، فإذا لم يكن معلوماً بقي أمره مشكلاً عند أهله ، فينبغي إذا أردت أن تذهب إلى شيء غير معتاد أن تخبرهم بوجهتك ، أما الشيء المعتاد مثل الخروج إلى المسجد وما أشبهه فلا بأس .

مثلاً إذا أردت أن تذهب إلى بلد قريب من بلدك قلت لهم : اليوم أذهب إلى المكان الفلاني . أو تريد أن تذهب في نزهة قل : أذهب اليوم في نزهة ، فأخبرهم حتى يطمئنوا .

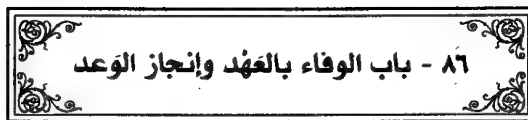
سادساً : أنه لا يجوز للإنسان أن ييدي سر شخص حتى لأمه وأبيه . فلو أن إنساناً أرسلك في حاجة ، ثم قال لك أبوك : ما الذي أرسلك به ؟ ، لا تخبره ولو كان أباك ، أو قالت أمك : ما الذي أرسلك به ؟ لا تخبرها ولو كانت أمك ، لأن هذا من أسرار الناس ولا يجوز إبدائها لأحد .

سابعاً : حسن تربية أم سليم لابنها حيث قالت : لا تخبرن أحداً بسر رسول الله ﷺ وإنما قالت له ذلك - مع أنه لم يخبرها ولم يخبر غيرها - تأييداً له وتثبيتاً له وإقامة للعذر له ، لأنه أبي أن يخبرها بسر رسول الله ﷺ ، فقالت : لا تخبرن به أحداً ، كأنها تقول : أنا أوافقك على هذا فاستمسك به .

ثامناً : إظهار محبة أنس لثابت ؛ لأنه ملازم له ، ولهذا تجده يروي عنه كثيراً ، ولهذا قال له : لو كنت مخبراً أحداً بذلك لأخبرتكَ ، وهذا يدل على المحبة بين أنس وبين تلميذه ثابت .

وهكذا أيضاً تنبغي أن تكون المودة بين التلاميذ ومعلمهم متبادلة ، لأنه إذا لم يكن بين التلميذ والمعلم مودة فإن التلميذ لا يقبل كل ما قاله معلمه ، وكذلك المعلم لا ينشط لتعليم تلميذه ولا يهتم به كثيراً ، فإذا صارت المودة بينهم متبادلة حصل بهذا خير كثير .

* * *



قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] . وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ [النحل : ٩١] . وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَآفُؤًا وَآفُؤًا بِالْعَمْعُودِ ﴾ [المائدة : ١] . وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا

تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ [الصف: ٢، ٣] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد) .

العهد : ما يعاهد الإنسان به غيره ، وهو نوعان :

عهد مع الله ﷻ ، فإن الله ﷻ قال في كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ، فقد أخذ الله العهد على عباده جميعاً أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، لأنه ربهم وخالقهم .

وعهد مع عباد الله ؛ ومنه العهود التي تقع بين الناس ؛ بين الإنسان وبين أخيه المسلم ، بين المسلمين وبين الكفار ، وغير ذلك من العهود المعروفة . فقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد فقال ﷻ : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴾ يعني أن الوفاء بالعهد مسئول عنه الإنسان يوم القيامة ، يُسأل عن عهده هل وفى به أم لا ؟

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ يعني ولا تخلفوا العهد .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] ، والإنسان إذا عاهد ولم يفِ فقد قال ما لا يفعل .

فمثلاً : لو قلت لشخص : عاهدتك ألا أخبر بالسر الذي بيني وبينك ، أو عاهدتك ألا أخبر بما صنعت في كذا وكذا . ثم نقضت وأخبرت ، فهذا من القول بما لا تفعل ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ : يعني كبر بغضاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، فإن الله يبغض هذا الشيء ويحب الموفين بالعهد إذا عاهدوا .

٦٨٩ - عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ » (٢) متفق عليه .

زَادَ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمَ : « وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » (٣) .

(١) قوله ﷻ ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ نزلت في الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة لها ، ومنها مبايعتهم الرسول ﷺ على الإسلام ، قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ بالعهود المؤكدة ، وهي ما ألزمه الله عباده وعقده عليهم من التكليف ، وما يعقدونه فيما بينهم من عقود المعاملات والأمانات ، قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ استفهام على جهة الإنكار على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لم يكن قد فعله ، أو ما لا يفعله فهو إما كذب وإما خلف وكلاهما مذموم ، قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ عظم قولكم ما لا تفعلون مقْتًا عند الله والمقت أشد البغض .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الأيمان (١٠٩) .

٦٩٠ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَزْبَعُ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُتَافِقًا خَالِصًا . وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا : إِذَا أُوتِمِنْ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » ^(١) متفق عليه .

٦٩١ - وعن جابر رضي الله عنه قال : قال لي النبي ﷺ : « لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطَيْتَكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا ، فَلَمْ يَجِئْ مَالُ الْبَحْرَيْنِ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَلَمَّا جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَتَادَى : مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَّةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا ، فَأَتَيْنَاهُ وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا ، فَحَتَّى لِي حَنِيَّةٌ ، فَعَدَدْتُهَا ، فَإِذَا هِيَ خَمْسُمِائَةٍ ، فَقَالَ لِي : خُذْ مِثْلَهَا ^(٢) . متفق عليه .

الشرح

نقل المؤلف رحمته الله في (باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث » آيته يعني علامته ثلاث « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » يعني أن هذه من علامات المنافقين .

إذا رأيت الرجل يكذب ، ويخلف إذا وعد ، ويخون إذا أؤتمن فهذه من علامات المنافقين ، لأن أصل المنافق مبني على التورية والستر ، يستر الخبيث ويظهر الطيب ، يستر الكفر ويظهر الإيمان . والكاذب كذلك يخبر بخلاف الواقع ، والواعد الذي يعد ويخلف كذلك ، وكذلك الذي يخون إذا أؤتمن فهذه علامات النفاق والعياذ بالله .

وفي هذا : التحذير من الكذب وأنه من علامات المنافقين ، فلا يجوز للإنسان أن يكذب ، لكن إن اضطر إلى التورية وهي التأويل فلا بأس ؛ مثل أن يسأله أحد عن أمر لا يحب أن يطلع عليه غيره فيحدث بشيء خلاف الواقع ، لكن يتأول فهذا لا بأس به .

وأما إخلاف الوعد فحرام ، يجب الوفاء بالوعد سواء وعدته مالا ، أو وعدته إعانة تعينه في شيء ، أو أي أمر من الأمور إذا وعدت فيجب عليك أن تفي بالوعد .

وفي هذا : ينبغي للإنسان أن يحدد المواعيد ويضبطها فإذا قال لأحد إخوانه : أواعدك في المكان الفلاني ، فليحدد الساعة الفلانية حتى إذا تأخر الموعد وانصرف الواعد يكون له عذر ، حتى لا يربطه في المكان كثيرا .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦) والترمذي في الإيمان (٢٦٣٢) ، قوله « فَجَرَ » أي مال عن الحق وقال الباطل أو شق ستر الديانة .

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٣) ومسلم في الفضائل (٦٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/٣) ، قوله : « عِدَّةٌ » أي : وعد ، قوله : « فَحَتَّى لِي حَنِيَّةٌ » أي : غرف لي غرفة .

وقد اشتهر عند بعض السفهاء أنهم يقولون : أنا أواعدك ولا أخلفك ؛ وعدي إنجليزي ، يظنون أن الذين يوفون بالوعد هم الإنجليز ، ولكن الوعد الذي يُوفى به هو وعد المؤمن ، ولهذا ينبغي لك أن تقول إذا وعدت أحداً وأردت أن تؤكد : إنه وعد مؤمن حتى لا يخلفه ، لأنه لا يخلف الوعد إلا المنافق .

« وإذا أؤتمن خان » : يعني إذا ائتمنه الناس على أموالهم أو على أسرارهم أو على أولادهم أو على أي شيء من هذه الأشياء ، فإنه يخون - والعياذ بالله - فهذه أيضاً من علامات النفاق .

وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ففيه « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » المراد به : أن هذه الأربع لا تجتمع إلا في المنافق الخالص ، وإن كان المؤمن قد يحصل له واحدة منها ، لكنه لا يكون منافقاً خالصاً ، بل يكون فيه خصلة من نفاق حتى يدعها .

وهذه الأربع هي :

« إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب » وسبق الكلام على هاتين الجملتين .

والثالثة : قال : « وإذا عاهد غدر » وهو قريب من قوله فيما سبق « إذا وعد أخلف » - أي إذا عاهد أحداً غدر به ، ولم يَفِ بالعهد الذي عاهده عليه .

والرابعة : « إذا خاصم فجر » والخصومة : هي المخاصمة عند القاضي ونحوه ، فإذا خاصم فجر . والفجور في الخصومة على نوعين :

أحدهما : أن يدعي ما ليس له .

والثاني : أن ينكر ما يجب عليه .

مثال الأول : ادعى شخص على آخر فقال عند القاضي : أنا أطلب من هذا الرجل ألف ريال - وهو كاذب - وحلف على هذه الدعوى ، وأتى بشاهد زور ، فحكم له القاضي ، فهذا خاصم فجور ؛ لأنه ادعى ما ليس له ، وحلف عليه .

مثال الثاني : أن يكون عند شخص ألف ريال فيأتيه صاحب الحق فيقول : أوفني حقي ، فيقول : ليس لك عندي شيء ، فإذا اختصما عند القاضي ولم يكن للمدعي بينة ، حلف هذا المنكر الكاذب في إنكاره أنه ليس في ذمته له شيء ، فيحكم القاضي ببراءته ، فهذه خصومة فجور - والعياذ بالله - وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من حلف على يمين صبر ليقطع بها حق امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان » ^(١) نعوذ بالله .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٧٦) ، ومسلم في الإيمان (٢٢٠) ، قوله « من حلف على يمين صبر » هو بإضافة يمين إلى صبر ويمين الصبر : هي التي يحبس الخالف نفسه عليها وتسمى اليمين الغموس .

وهذه الخصال الأربع إذا اجتمعت في المرء كان منافقًا خالصًا ، لأنه استوفى خصال النفاق والعياذ بالله ، وإذا كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

وفي هذا الحديث : دليل على التحذير البالغ من هذه الصفات الأربع : الخيانة في الأمانة ، والكذب في الحديث ، والغدر بالعهد ، والفجور في الخصومة .

وفيه أيضًا : دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال نفاق لقوله : « كان فيه خصلة من النفاق » وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ؛ أن الإنسان يكون فيه خصلة نفاق ، وخصلة إيمان وخصلة فسوق ، وخصلة عدالة ، وخصلة عداوة ، وخصلة ولاية يعني أن الإنسان ليس بالضرورة أن يكون كافرًا خالصًا أو مؤمنًا خالصًا ، بل قد يكون فيه خصال من الكفر وهو مؤمن وخصال من الإيمان .

ثم ذكر حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لو قد جاء مال البحرين لأعطيت هكذا وهكذا وهكذا » مال البحرين يعني مال الإحساء وما جاورها ، كلها تسمى البحرين في ذلك العهد . يقول : « لو قد جاء لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » يقول بيديه - عليه الصلاة والسلام - ، وهذا وعد من رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله أن يعطيه من مال البحرين هكذا وهكذا وهكذا . فلما توفي الرسول - عليه الصلاة والسلام - قبل أن يأتي مال البحرين وكان الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه بإجماع الصحابة ؛ بايعوه كلهم على أنه هو الخليفة ، بعد رسول الله ﷺ .

فجاء مال البحرين في خلافة أبي بكر ، فقال ﷺ : « من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين » عدة : يعني وعد ، أو دين : يعني على الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؛ لأنه ربما يكون الرسول اشترى من أحد شيئًا فلزمه دين ، أو وعد أحدًا شيئًا ، وفعلًا توفي الرسول - عليه الصلاة والسلام - ودرعه مرهونة عند رجل يهودي في المدينة بثلاثين صاعًا من شعير ^(١) اشتراها لأهله - عليه الصلاة والسلام - ؛ فهو ﷺ ليس عنده مال ولم يُبعث جانيًا للمال ، ولا يَبقى عنده المال إلا بمقدار ما يفرقه على المسلمين .

المهم : أن أبا بكر نادى : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا ، فجاء جابر رضي الله عنه إلى أبي بكر وقال : إن النبي ﷺ قال : « لو جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » فقال : خذ فأخذ بيديه فعدّها فإذا هي خمس مائة ، فقال : خذ مثلها ، لأن الرسول قال : « هكذا وهكذا وهكذا » ثلاث مرات ، فأعطاه أبو بكر رضي الله عنه العدة التي وعده إياها رسول الله ﷺ .

وفي هذا الحديث من الفوائد :

جواز تخصيص بعض المسلمين بشيء من بيت المال لأن النبي ﷺ خصص جابرًا ، ولكن بشرط ألا يكون ذلك لمجرد الهوى بل للمصلحة العامة أو الخاصة .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٦٧) ، والترمذي في البيوع (١٢١٤) ، وعنده « بعشرين صاعًا » وابن ماجه في الرهون (٢٤٣٩) .

وفيه : دليل على كرم النبي ﷺ حيث يحثو المال حثيثاً ، ولا يعده عدداً لأنه قال بيديه ، وهذا يدل على الكرم وأن المال لا يساوي عنده شيئاً - صلوات الله وسلامه عليه ، بخلاف الذي جمع مالاً وعدده ، يعدد « الهلال » قبل « الريالات » من حرصه على المال .

وفي هذا دليل أيضاً على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، لأنه وعد وتوفي قبل أن يفي بالوعد ، لأن المال لم يأت .

وفيه أيضاً دليل على فضيلة أبي بكر ﷺ لمبايعة الصحابة له .

وفيه دليل أيضاً على قبول دعوى المدعي إذا لم يكن له منازع يردّ دعواه وكان هذا المدعي ثقة ، أما إذا كان له منازع ، فإن البينة على المدعي واليمين على من أنكر . وفي هذه القصة لا منازع لجابر ﷺ ، لأن أبا بكر هو المسؤول عن بيت المال ، وقد عرض على الناس : من كان له عدة أو دين فليأتنا ، فجاء جابر ولم يقل له أبو بكر : أين البينة على أن الرسول ﷺ وعدك ؟ ما طلب منه البينة ، لأنه واثق به ولا منازع له .

وفيه دليل أيضاً على اعتبار الشيء بنظيره ، وأن الإنسان إذا وزن شيئاً في إناء وكان وزنه - مثلاً - مائة كيلو ، فله أن يملأ هذا الإناء مرة ثانية بشيء آخر ويعتبره مائة كيلو إذا تساوى الموزون في الخفة والنقل ، لأن أبا بكر ﷺ لما عدّ الحثية الأولى اعتبر الحثية الثانية والثالثة بمثلها في العدد .

فإذا فرضنا أن شخصاً وجب عليه خمسمائة صاع مثلاً ، ثم كان في إناء عشرة أصواع ، وأراد أن يعتبر الباقي بهذا الإناء ، فإن ذلك لا بأس به ، لأنه إذا تساوى الشيء فإنه لا بأس أن يُعتبر هذا الاعتبار لفعل أبي بكر الصديق ﷺ . والله الموفق .

٨٧ - باب المحافظة على ما اعتاده من الخير

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَدَنِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ ﴾ [النحل : ٩٢] .

« وَالْأَنْكَاثُ » : جَمْعُ نَكَثٍ ، وَهُوَ الْغَزْلُ الْمُنْقُوضُ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) [الحديد : ١٦] . وقال تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : ٢٧] .

٦٩٢ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ ، لَا

(١) قوله ﷺ : ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من النعمة أو النعمة . قوله ﷺ : ﴿ نَفَضَتْ ﴾ أي أفسدت . قوله ﷺ : ﴿ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ أي بعد إحكامه وقتله . قوله ﷺ : ﴿ الْكِتَابَ ﴾ أي الزمان . قوله ﷺ : ﴿ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن الله .

تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ ! » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب المحافظة على ما اعتاده من الخير) . يعني أن الإنسان إذا اعتاد فعل الخير فينبغي أن يداوم عليه فمثلاً إذا اعتاد ألا يدع الرواتب - يعني الصلوات النوافل التي تتبع الصلوات الخمس - فليحافظ على ذلك ، وإذا كان يقوم الليل فليحافظ على ذلك ، وإذا كان يصلي ركعتين من الضحى فليحافظ على ذلك وكل شيء من الخير إذا اعتاده فإنه ينبغي أن يحافظ عليه . وكان من هدي النبي ﷺ أن عمله ديمة ، يعني يداوم عليه ؛ فكان إذا عمل عملاً أثبتته ولم يغيره ؛ وذلك لأن الإنسان إذا اعتاد الخير وعمل به ثم تركه ، فإن هذا يؤدي إلى الرغبة عن الخير ، لأن الرجوع بعد الإقدام شر من عدم الإقدام ، فلو أنك لم تفعل الخير ابتداءً لكان أهون مما إذا فعلته ثم تركته ، وهذا شيء مشاهد مجرب .

وذكر المؤلف رحمه الله عدة آيات من القرآن ، كلها تدل على أن الإنسان ينبغي أن يحافظ على ما اعتاده من الخير ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ ﴾ يعني : لا تكونوا كالمرأة الغازلة التي تغزل الصوف ، ثم إذا غزلته وأتقنته نقضته أنكأاً ومزقته ، بل دوموا على ما أنتم عليه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : أنهم كانوا يعملون العمل الصالح لكن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وتركوا العلم ، فلا تكونوا مثلهم . وأما الأحاديث التي ذكرها المؤلف فمنها : حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » كلمة فلان يعني بها عن الإنسان البشر الرجل . والمرأة يقال لها : فلانة ، وهذه الكلمة يحتمل أنها من كلام الرسول ﷺ وأن الرسول لم يذكر اسمه لعبد الله بن عمرو سترًا عليه ، لأن المقصود القضية دون صاحبها ، ويحتمل أن الرسول ﷺ عينه لكن أبهمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، وأيًا كان فالمهم العمل .

والقضية أن رجلاً كان يقوم من الليل فلم يثبتته ولم يداوم عليه ، مع أن قيام الليل في الأصل سنة ، فلو لم يفعله الإنسان لم يُلَم عليه ؛ يعني لو لم يقم من الليل ما لاه ولا قال له : « لماذا لم تقم من الليل ؟ » لأنه سنة ، لكن كونه يقوم ثم يرجع ويترك ، هذا هو الذي يلام عليه . ولهذا قال الرسول ﷺ : « لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » .

ومن ذلك وهو أهم وأعظم أن يبدأ الإنسان بطلب العلم الشرعي ، ثم إذا فتح الله عليه بما فتح تركه ، فإن هذا كفر نعمة أنعمها الله عليه ، فإذا بدأت بطلب العلم فاستمر إلا أن يشغلك عنه شيء على وجه الضرورة ، وإلا فداوم لأن طلب العلم فرض كفاية ، كل من طلب العلم فإن الله تعالى يثيبه

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٢) ، ومسلم في الصيام (١٨٥) ، قوله « كان يقوم الليل » أي : لصلاة التهجد .

على طلبه ثواب الفرض .

وثواب الفرض أعظم من ثواب النافلة ، كما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه » ^(١) فطلب العلم فرض كفاية إذا قام به الإنسان قام بفرض عن عموم الأمة ، وقد يكون فرض عين فيما إذا احتاج الإنسان إليه في نفسه ، كمن أراد أن يصلي فلا بد أن يتعلم أحكام الصلاة ، ومن كان عنده مال فلا بد أن يتعلم أحكام الزكاة ، والبائع والمشتري لابد أن يتعلما أحكام البيع والشراء ، ومن أراد أن يحج فلا بد أن يتعلم أحكام الحج ؛ هذا فرض عين .

أما بقية العلوم فهي فرض كفاية ، فإذا شرع الإنسان في طلب العلم فلا يرجع وإنما يستمر إلا أن يصده عن ذلك شيء ضروري ، فهذا شيء آخر ، ولهذا كان المنافقون هم الذين إذا بدأوا بالعمل تركوه .

في غزوة أحد خرج مع النبي ﷺ نحو ألف رجل وكان ثلثهم تقريباً من المنافقين فرجعوا من الطريق وقالوا : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] .

فالْحاصل : أنه ينبغي للمسلم إذا مَنَّ الله عليه بعمل مما يُتعبد به لله من عبادات خاصة كالصلاة ، أو عبادات متعدية للغير كطلب العلم ألا يتقاعس وألا يتأخر ، ليستمر على ذلك ؛ فإن ذلك من هدي النبي ﷺ ومن إرشاده بقوله : « يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » . والله الموفق .

* * *

٨٨ - باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء

قال الله تعالى : ﴿ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ آلُكَابِ لَا تَقْنُصُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ^(٢) [آل عمران : ١٥٩] .

٦٩٣ - عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةً طَيِّبَةً » ^(٣) متفق عليه .

٦٩٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ » ^(٤) متفق عليه . وهو بعض حديث تقدم بطوله .

٦٩٥ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٦) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ فَظًا ﴾ أي سئئ الخلق . قوله تعالى : ﴿ غَلِظَ ﴾ أي قاسي . قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْنُصُوا ﴾ أي لتفرقوا .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٣) ، ومسلم في الزكاة (٦٦) بلفظ « من استطاع منكم أن يستتر .. » .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩) ، ومسلم في الزكاة (٥٦) .

تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِيقٍ» (١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : في « باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء » .
يعني : إذا لاقى الإنسان أخاه ، إنه ينبغي له أن يلاقيه بالبشر وطلاقة الوجه وحسن المنطق ، لأن هذا من خلق النبي ﷺ ولا يعد هذا تنزلاً من الإنسان ، ولكنه رفعة وأجر له عند الله ﷻ ، واتباع لسنة النبي ﷺ ، فإن النبي ﷺ كان دائم البشر ، كثير التبسم صلوات الله وسلامه عليه .
فالإنسان ينبغي له أن يلقي أخاه بوجه طلق ، وبكلمة طيبة ، لينال بذلك الأجر والمحبة والألفة ، والبعد عن التكبر والترفع على عباد الله .

ثم ذكر المؤلف آيات منها : قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اخفض جناحك : يعني لئن وتواضع للمؤمنين ؛ لأن المؤمن أهل لأن يتواضع له .

أما الكفار فقد قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا وَالْكَفَّارُ الْمُنْفِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ السَّيْرِ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، فالذي يتلقى بالبشر وطلاقة الوجه هو المؤمن ، أما الكافر فإن كان يرجى إسلامه إذا عاملناه بطلاقة الوجه والبشر ، فإننا نعامله بذلك رجاء إسلامه وانتفاعه بهذا اللقاء .

وأما إذا كان هذا التواضع وطلاقة الوجه لا يزيده إلا تعاليًا على المسلم وترفعًا عليه ، فإنه لا يقابل بذلك .
ثم إن طلاقة الوجه توجب سرور صاحبك لأنه يفرق بين شخص يلقاك بوجه معبس وشخص يلقاك بوجه منطلق ، لهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لأبي ذر : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » ، فهذا من المعروف لأنه يدخل السرور على أخيك ، ويشرح صدره .
ثم إذا قرن ذلك بالكلمة الطيبة حصل بذلك مصلحتان : طلاقة الوجه والكلمة الطيبة التي قال عنها النبي ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمر » يعني : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية « ولو بشق تمر » ؛ يعني : ولو أن تصدقوا بنصف تمر ، فإن ذلك يقيكم من النار إذا قبلها الله ﷻ .

« فإن لم يجد فبكلمة طيبة » . كلمة طيبة مثل أن تقول له : كيف أنت ؟

كيف حالك ؟ كيف إخوانك ؟ كيف أهلك ؟ وما أشبه ذلك ، لأن هذه من الكلمات الطيبة التي تدخل السرور على صاحبك ، كل كلمة طيبة فهي صدقة لك عند الله وأجر وثواب وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « البر حسن الخلق » (٢) وقال : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » (٣) .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) وفيه « بوجه طلق » .

(٢) هذا جزء من حديث وقد أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤) ، قوله : « البر » البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة ، وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق .

(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٢) ، وأبو داود في السنة (٤٦٨٢) ، وأحمد في مسنده (٢٥٠/٢) .

٨٩ - باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب

وتكريره ليفهم إذا لم يفهم إلا بذلك

- ٦٩٦ - عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا ^(١) . رواه البخاري .
- ٦٩٧ - وعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَلَامًا فَضْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ ^(٢) . رواه أبو داود .

الشرح

قال المؤلف النووي - رحمه الله تعالى - : (باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب وتكريره ليفهم إذا لم يفهم إلا بذلك) .

والمعنى : أنه ينبغي للإنسان إذا تكلم وخاطب الناس أن يكلمهم بكلام يبين ، لا يستعجل في إلقاء الكلمات ، ولا يدغم شيئاً في شيء ويكون حقه الإظهار بل يكون كلامه فصلاً بيناً واضحاً حتى يفهم المخاطب بدون مشقة وبدون كلفة .

فبعض الناس تجده يسرع في الكلام ويأكل الكلام حتى أن الإنسان يحتاج إلى أن يقول له : ماذا تقول ؟ . فهذا خلاف السنة ، فالسنة أن يكون الكلام بيناً واضحاً يفهمه المخاطب وليس من الواجب أن يكون خطابك باللغة الفصحى .

فعليك أن تخاطب الناس بلسانهم ، وليكن كلامك بيناً واضحاً ، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ .

فقوله : « حتى تفهم عنه » يدل على أنها إذا فهمت بدون تكرار فإنه لا يكررها ، وهذا هو الواقع فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - نسمع عنه أحاديث كثيرة يقولها في خطبه وفي المجتمعات ولا يكرر ذلك .

لكن إذا لم يفهم الإنسان ؛ بأن كان لا يعرف المعنى جيداً فكرر عليه حتى يفهم ، أو كان سمعه ثقيلاً لا يسمع ، أو كان هناك ضجة حوله لا يسمع ، فهنا يستحب أن تكرر حتى يفهم عنك .

وكان ﷺ إذا سلم على قوم « سلم عليهم ثلاثاً » معناه : أنه كان لا يكرر أكثر من ثلاث ؛ يسلم مرة فإذا لم يُجِبْ سلم الثانية ، فإذا لم يُجِبْ سلم الثالثة ، فإذا لم يُجِبْ تركه .

وكذلك في الاستئذان كان ﷺ يستئذن ثلاثاً ، يعني : إذا جاء للإنسان يستئذن في الدخول على بيته ، يدق عليه الباب ثلاث مرات ، فإذا لم يجب انصرف ، فهذه سنته - عليه الصلاة والسلام - أن يكرر الأمور ثلاثاً ثم ينتهي .

وهل مثل ذلك إذا دق جرس الهاتف ثلاث مرات ؟ ، يحتمل أن يكون من هذا الباب ، وأنت إذا

(١) أخرجه البخاري في العلم (٩٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في الادب (٤٨٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (١٣٨/٦) .

اتصلت بإنسان ودق الجرس ثلاث مرات وأنت تسمعه وهو لم يجبك ، فأنت في حل إذا وضعت سماعة الهاتف .

ويحتمل أن يقال : إن الهاتف له حكم آخر وأنت تبقى حتى تأس من أهل البيت ، لأنهم ربما لا يكونون حول الهاتف عند اتصالك ، فربما يكونون في طرف المكان ويحتاجون إلى خطوات كثيرة حتى يصلوا إلى الهاتف ، فلذلك قلنا باحتمال الأمرين .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كلامه « فصلًا » يعني : مفصلاً ، لا يُدْخِل الحروف بعضها على بعض ، ولا الكلمات بعضها على بعض ، حتى لو شاء العاد أن يحصيه لأحصاه من شدة تأنيهِ صلى الله عليه وسلم في الكلام .

وهكذا ينبغي للإنسان أن لا يكون كلامه متداخلاً بحيث يخفى على السامع ، لأن المقصود من الكلام هو إفهام المخاطب ، وكلما كان أقرب إلى الإفهام كان أولى وأحسن .

ثم إنه ينبغي للإنسان إذا استعمل هذه الطريقة ؛ يعني : إذا جعل كلامه فصلاً بيناً واضحاً ، وكرره ثلاث مرات لمن لم يفهم ، ينبغي أن يستشعر في هذا أنه متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يحصل له بذلك الأجر وإفهام أخيه المسلم .

وهكذا جميع السنن اجعل على بالك أنك متبع فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتحقق لك الاتباع .

٩٠ - باب إصغاء الجليس لحديث جليسه الذي ليس بحرام
واستنصات العالم والواعظ حاضري مجلسه

٦٩٨ - عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : « اسْتَنْصِتِ النَّاسَ » ثُمَّ قَالَ : « لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الباب في إصغاء الإنسان إلى جليسه إذا لم يكن يتكلم بشيء محرم ، واستنصات العالم والمعلم الناس يعني : ليستمعوا إلى كلامه ، وقد سبق لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم ثلاثاً ، والمراد أنه إذا لم يسمع المسلم عليه سلم ثلاثاً ؛ فإنه يسلم أول مرة ، فإذا لم يجب سلم ثانية ، فإذا لم يجب سلم ثالثة ، فإذا لم يجب تركه .

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢١) ، ومسلم في الإيمان (١١٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٦٣/٤ ، ٣٦٦) قوله : « استنصت الناس » أي : أمرهم بالإنصات ، قوله : « لا ترجعوا بعدي كفاراً » المعنى هنا الزجر أي : لا تشبهوا بالكفار في قتل بعضهم بعضاً .

أما إذا ردَّ المسلم عليه من أول مرة فإنه لا يعيد السلام مرة ثانية .

أما هذا الباب ففيه : أنه ينبغي للإنسان أن يكون حسن الإصغاء إلى كلام جليسه ، إذا لم يكن يتكلم بحرم . وحسن الإصغاء يكون بالقول وبالفعل .

أما القول : فبالأ يتكلم إذا كان جليسه يتكلم ، فيحصل بذلك التشويش بأن يكون كل واحد يتكلم مع جليسه ، والذي في المجالس أن يكون الكلام كلاماً واحداً حتى ينتفع الناس جميعاً بما يتكلم به بعضهم .

وأما الإصغاء بالفعل : فينبغي إذا كان الإنسان يحدثك أن تقبل إليه بوجهك ، وألا تلتفت يمينا وشمالاً ، لأنك إذا التفت يمينا وشمالاً وهو يحدثك نسبك إلى الكبرياء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَوِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان : ١٨] ، فينبغي أن تصغى إليه وأن تقابله بوجهك حتى يعرف أنك قد أحسست به ، وأنك قد اهتممت بكلامه ، إلا إذا كان يتكلم بشيء محرم ، كغيبة ، أو كلام لغو ، أو ما أشبه ذلك من الأشياء المحرمة ، فإنك لا تصغى إليه . بل انه عن ذلك الشيء .

فإن استمر يتكلم بالكلام المحرم ولو يصغى إلى قولك وإلى نصحك ، فالواجب عليك أن تقوم من مكانك وأن تفارقه ، لأن الله يقول : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَرِيبٍ إِنَّكُمْ إِذَا أَنْتَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع : « استنصت الناس » يعني سكتهم حتى يستمعوا لما يقوله النبي ﷺ .

ثم قال النبي ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » يضرب هنا بالرفع ، ولا يجوز جزمها على أنها جواب النهي ، بل هي بالرفع لأنها حال ، يعني لا ترجعوا بعدي كفاراً حال كونكم يضرب بعضكم رقاب بعض ، وفي هذا دليل على أن قتال المؤمنين بعضهم بعضاً كفر ، وقد أيد هذا الحديث قوله - عليه الصلاة والسلام - : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ^(١) لكنه كفر لا يخرج من الملة ، والدليل على أنه لا يخرج من الملة قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ٩ ، ١٠] .

٩١ - بَابُ الْوَعْظِ وَالْاِقْتِصَادِ فِيهِ

قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ^(١) [النحل : ١٢٥] .

٦٩٩ - عن أبي وإيل شقيق بن سلمة قال : كَانَ ابْنُ مَشْعُودٍ رضي الله عنه يُذَكِّرُنَا فِي كُلِّ خَمِيسٍ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، لَوِذِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ ، فَقَالَ : أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَتَرُهُ أَن أَمْلِكُمْ ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا ^(٢) . متفقٌ عليه .

﴿ يَتَخَوَّلُنَا ﴾ : يَتَعَهَّدُنَا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الوعظ والاقتصاد فيه) . وذلك لعدم إدخال المَلَلِ والسَّامَةِ على الناس فيما يعظ به .

الوعظ : هو ذكر الأحكام الشرعية مقرونة بالترغيب أو التهيب ، كأن تقول للإنسان مثلاً : إنه يجب عليك كذا وكذا . فاتق الله ، وقم بما أوجب الله عليك وما أشبه ذلك .

وأعظم واعظ هو كتاب الله تعالى فإن الله يقول : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَشَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَذَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] ، فأعظم ما يُوعظ به كتاب الله تعالى ، لأنه جامع بين الترغيب والتهيب ، وذكر الجنة والنار ، والمتقين والفجار ، فهو أعظم كتاب يوعظ به .

ولكن إنما يكون كذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

أما من قست قلوبهم - والعياذ بالله - فقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَؤُلَاءِ آيَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤] ، وهكذا المؤمن كلما قرأ آية من كتاب الله ازداد إيماناً بالله ، واستبشر بما جعل في قلبه من النور من هذا الكتاب العظيم ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ^(٣) [التوبة : ١٢٥] ، ونعوذ بالله من ذلك .

فينبغي للإنسان أن يعظ الناس بالقرآن ، وبالسنة ، وبكلام الأئمة وبكل ما يلين القلوب ويوجهها إلى الله تعالى .

(١) قوله تعالى : ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ أي دين ربك . قوله تعالى : ﴿ بِالْحُكْمَةِ ﴾ أي بالقرآن . قوله تعالى : ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ الكلام الطيب .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧٠) ، ومسلم في صفات المنافقين (٨٣) قوله : « أملككم » أي أصيبكم بالملل .

(٣) قوله تعالى : ﴿ مَّرَمٌ ﴾ نفاق . قوله تعالى : ﴿ رِجْسًا ﴾ نفاقاً وكفراً .

ثم ذكر المؤلف رحمته أنه ينبغي الاقتصاد في الموعظة ، فلا تكثر على الناس فتملهم ، وتكره إليهم القرآن والسنة وكلام أهل العلم ، لأن النفوس إذا ملت كلت وتعبت ، وسئمت ، وكرهت الحق وإن كان حقاً ، ولهذا كان أحكم الواعظين من الخلق محمد صلوات الله عليه يتخول الناس بالموعظة ، ما يكثر عليهم لئلا يملوا ويسأموا ويكرهوا ما يقال من الحق .

ثم صدر المؤلف هذا الباب بقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ادع إلي سبيل ربك : يعني إلى دين الله ، لأن سبيل الله هو دين الله حيث إنه يوصل إلى الله تعالى ، فمن سلك هذا الدين أوصله إلى الله ﷻ ، ولأن هذا الدين وضعه الله ﷻ وشرعه لعباده ، ولهذا أضيف إليه ، فقيل : سبيل الله ^(١) .

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي بثلاثة أمور :

أولاً : الحكمة : وذلك بأن تنزل الأمور منازلها ، في الوقت المناسب ، والكلام المناسب ، والقول المناسب ، لأن بعض الأماكن لا تنبغي فيها الموعظة ، وبعض الأزمنة لا تنبغي فيها الموعظة وكذلك بعض الأشخاص لا ينبغي أن تعظهم في حال من الأحوال ، بل تنتظر حتى يكون متهيئاً لقبول الموعظة ، ولهذا قال : ﴿ بِالْحُكْمَةِ ﴾ قال العلماء : الحكمة : وضع الأشياء في مواضعها .

ثانياً : الموعظة الحسنة ، يعني اجعل دعوتك مقرونة بموعظة حسنة ، موعظة تلين القلب وترققه وتوجهه إلى الله ، بشرط أن تكون حسنة ، إن كان الترغيب فيها أولى فبالترغيب ، وإن كان التهيب والتهويل فيها أولى فبالتهيب والتهويل .

وكذلك تكون حسنة من حيث الأسلوب والصياغة ، وكذلك تكون حسنة من حيث الإقناع ، بحيث تأتي بموعظة تكون فيها أدلة مقنعة ؛ أدلة شرعية ، وأدلة عقلية تسند الشرعية ، لأن بعض الناس يقنع بالأدلة الشرعية كالمؤمنين الخالص ، فإن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] . ومن الناس من لا يكتفي بالأدلة الشرعية ، بل يحتاج أن تسند الأدلة الشرعية عنده بأدلة عقلية ، ولهذا يستدل الله ﷻ في آيات كثيرة بالأدلة العقلية على ما أوحاه إلى نبيه من الأدلة الشرعية .

انظر - مثلاً - إلى البعث بعد الموت ؛ فالبعث بعد الموت أنكره الكفار وقالوا : من يحيي العظام وهي رميم ؟ ، كيف يموت الإنسان وتأكل الأرض عظامه ولحمه وجلده ، ثم يبعث ؟ ، فأجاب الله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٩] ، من الذي خلق هذه العظام أول مرة ؟ ، هو الله ، وإعادة الخلق أهون من ابتدائه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى ﴾ [يس: ٨١] ، هذه أدلة عقلية ؛ الاستدلال بالمبدأ على المعاد .

وكذلك يستدل الله ﷻ على إمكان البعث بإحياء الأرض بعد موتها ، فإن الله تعالى ينزل المطر

(١) قوله : « سبيل الله » أضيف لفظ الجلالة إلى (سبيل) لبيان الدلالة على أن الدين هو - دائماً - الطريق إلى الله تعالى .

على أرض هامدة قاحلة ، ليس فيها حياة ولا نبات ، فتصبح الأرض مخضرة بهذا المطر . من الذي أحيا هذا النبات إلا الله ؟ فالذي أحيا هذا النبات بعد ييسه وموته قادر على إحياء الموتى .

ولابد من حياة أخرى لأنه ليس من الحكمة أن الله ينشئ هذا الخلق ويمدهم بالنعيم والرزق ، وينزل عليهم الكتب ، ويرسل إليهم الرسل ، ويشرع الجهاد لأعدائه ثم تكون المسألة مجرد دنيا تروح ، فهذا لا يمكن ، وهذا خلاف الحكمة ، بل لابد من حياة أخرى هي الحياة الحقيقية كما قال تعالى : ﴿ يَكَلِّمُنِي فَعَمَّتْ لِحْيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤] .

الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة ﴿ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابُ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١] .

ثم قال : ﴿ وَحَدِّثْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ يعني : إذا وعظت موعظة حسنة وصار الإنسان يجادل ولم يقبل فجادله ، لا تنسحب ، لكن جادل بالتالي هي أحسن من حيث الأسلوب ، ومن حيث العرض ، ومن حيث الإقناع ، إذا استدلل عليك بدليل فحاول إبطال دليله ، فإذا كان إبطال دليله يطول فانتقل إلى دليل آخر ، ولا تأخذ في الجدل معه ، بل انتقل إلى دليل آخر لا يستطيع مجادلته فيه .

انظر إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لما حاجه الرجل في الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ وَيُغَيَّبُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ؛ يعني : وأنت لا تستطيع أن تحيى وتميت ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ كيف يحيى ويميت هذا الجادل المعاند ؟ ؛ كان يؤتى بالرجل لا يستحق القتل فيقول : اقتلوه فجعل هذا التمويه لإحياء وإماتة .

فقال إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، ولم يجادله على قوله : أنا أحى وأميت ، وإلا لو جادله لقال : أنت لم تحيى ولم تميت حقيقة وإنما تفعل سبب الموت فيموت ، وهو القتل ، وترفع موجب القتل فلا يقتل ، لكنه عدل عن هذا إلى شيء لا يستطيع الخصم أن يتحرك معه أو أن ينطق ، قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ فلم يستطع الخصم ردًا ، ولهذا قال : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) [البقرة: ٢٥٨] .

فالخلاصة أن الله يقول : ﴿ وَحَدِّثْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وفهم من الآية أن من لا يستطيع المجادلة بالتالي هي أحسن فلا يجادل ، لأنه قد يأتي إنسان مؤمن حقًا وليس عنده إشكال لما معه من الإيمان ، لكن يجادله ألذ خصم فيعجز عن مقاومته ، ففي هذه الحال لا تجادل ؛ لأنك إن جادلت لن تجادل بالتالي هي أحسن . اتركه إلى وقت آخر أو إلى أن يأتي أحد أقوى منك في المجادلة فيجادله .

* * *

٧٠٠ - وعن أبي اليقظان عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « إِنْ طَوَّلَ

(١) قوله ﴿ فَبُهِتَ ﴾ دُهِشَ وَتَحَيَّرَ وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ .

صَلَاةَ الرَّجُلِ ، وَقَصَرَ خُطْبَتِهِ ، مِئْتَةً مِنْ فَقْهِهِ ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ ، وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ » ^(١) رواه مسلم .
« مِئْتَةً » بيمين مفتوحة ، ثم همزة مكسورة ، ثم نون مشددة ، أي علامة دالة على فقهه .

٧٠١ - وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال : « بَيْنَا أَنَا أَصْلِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ : يَزْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ! فَقُلْتُ : وَاتَّكَلْ أُمِّيَاهُ ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ ! فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمْتُونَنِي لِكُنِّي سَكَتُ . فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَبَإْيِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَغْلِيمًا مِنْهُ ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا سَتَمَنِي ، قَالَ : « إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَضْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّشْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ » أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ ، وَإِنَّ مِثْرًا رَجَالًا يَأْتُونَ الْكُفْهَانَ ؟ قَالَ : « فَلَا تَأْتِهِمْ » قُلْتُ : وَمِنْ رَجَالٍ يَطِيرُونَ ؟ قَالَ : « ذَاكِ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ ، فَلَا يَصُدُّهُمْ » ^(٢) رواه مسلم .

٧٠٢ - وعن العزباض بن سارية رضي الله عنه قال : وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ . وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَقَدْ سَبَقَ بِكَمَالِهِ فِي بَابِ الْأَمْرِ بِالْحِفَافَةِ عَلَى الشُّنَّةِ ^(٣) ، وَذَكَرْنَا أَنَّ التِّرْمِذِيَّ قَالَ : إِنَّهُ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

الشرح

ذكر المؤلف النووي - رحمه الله تعالى - في : (باب الوعظ والاقتصاد فيه ، وعدم إدخال الملل والسامة على الناس فيما يعظ به) .

وسبق الكلام عن الآية التي ذكرها المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذا الباب ، وهي قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُمُ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

ثم ذكر المؤلف أحاديث منها : حديث عمار بن ياسر ، أن النبي ﷺ قال : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئة من فقهه » يعني : صلاة الجمعة .

فصلاة الجمعة لها خطبتان قبلها ، فيقول النبي ﷺ : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئة من فقهه » وهذا وإن كان ظاهرًا في خطبة الجمعة فهو عام أيضًا حتى في الخطب العارضة ، لا ينبغي للإنسان أن يطيل على الناس ، كلما قصر كان أحسن لوجهين :

الوجه الأول : ألا يمل الناس .
الوجه الثاني : أن يستوعبوا ما قال .

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦٣/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٤٤٧/٥ ، ٤٤٨) ، قوله : « فرماني القوم بأبصارهم » أي شزروا إنكارًا لما فعلت ، قوله : « يتطيرون » من الطيرة وهو التشاؤم بالشيء .

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١٢٦/٤ ، ١٢٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) ، هذا الحديث ذكر سلفًا وتم شرحه في (باب الأمر بالمحافضة على السنة وأدائها) .

لأن الكلام إذا طال ضيع بعضه بعضًا . فإذا كان قصيرًا مهضومًا مستوعبًا انتفع الناس به ، وكذلك لا يلحقهم الملل .

وأما طول الصلاة فالمراد أن تكون كصلاة النبي ﷺ ليست طويلة ؛ لأن النبي ﷺ أنكر على معاذ إطالته في صلاة العشاء ، وأنكر على الرجل الآخر إطالته في صلاة الفجر ، وقال : « أيها الناس إن منكم منفرين » (١) . فالمراد بطول الصلاة هنا الطول الموافق لصلاة رسول الله ﷺ ، هذا إذا كان الإنسان إمامًا ، أما إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء ، ولا أحد يمنعه لأنه يعامل نفسه بنفسه ، ثم قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة » أطيلوها كما ورد واقصروا الخطبة ، لكن لابد من خطبة تثير المشاعر ويحصل بها الموعظة والانتفاع .

ثم ذكر المؤلف حديث معاوية بن الحكم ، أن بينما كان مع النبي ﷺ يصلي إذ عطس رجل من القوم فقال : الحمد لله ، فقال له معاوية : يرحمك الله ، لأنك إذا سمعت العطاس يحمد الله بعد عطاسه ، وجب عليك أن تشمته ؛ فتقول : يرحمك الله ، حتى ولو كنت تقرأ أو تطالع أو تراجع . أما في الصلاة فلا يجوز ، لأن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، ولهذا أنكر الناس بأعينهم على معاوية ، فرموه بأبصارهم ، فقال : واثكل أثياه . ماذا صنعت ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم يسكتونه ، فسكت ومضى في صلاته ، فلما انصرف من الصلاة دعاه النبي ﷺ فقال : فبأي هو وأمي ، ما رأيت معلمًا أحسن تعليمًا منه لا قبله ولا بعده ، والله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني ، وإنما خاطبه بلطف وقال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » أو كما قال - عليه الصلاة والسلام - .

فهذه موعظة قصيرة مفيدة ، انتفع بها معاوية ، ونقلها من بعده .

وفي هذا الحديث دليل على أنه لا بأس أن يلتفت المصلي أو ينظر إذا كان ذلك لمصلحة أو حاجة ، وإلا فالأصل أن يكون نظره إلى موضع سجوده ، وفي حال الجلوس يكون نظره إلى موضع إشارته ، لأن الجالس في التشهد أو بين السجدين يرفع إصبعه قليلًا ويشير بها عند الدعاء ، فيكون نظره إلى موضع إشارته ، وأما في حال القيام والركوع فينظر إلى موضع سجوده .

وقال بعض العلماء ينظر لتقاء وجهه ، والأمر في هذا واسع ؛ إن شاء نظر إلى موضع سجوده ، وإن شاء نظر لتقاء وجهه ، لكن إذا حصلت حاجة والتفت فإن ذلك لا بأس به .

وفيه أيضًا : أن العمل اليسير في الصلاة لا يضر ، لأن الصحابة جعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، ولم ينكر النبي ﷺ عليهم ذلك ، إلا أنه ﷺ قال في حديث آخر : « إذا نابكم شيء فليسبح الرجال ولتصفق النساء » (٢) .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٨٢) بلفظ « يا أيها الناس .. » ، والبخاري في الأذان (٧٠٢) .

(٢) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١٢١٨) ، ومسلم في الصلاة (١٠٢) ، والنسائي في الإمامة (٧٨٤) .

وفيه دليل : على أن الكلام في الصلاة لا يجوز ، وأنه مبطل لها ، إلا إذا كان الإنسان جاهلاً أو ناسياً أو غافلاً ، فمثلاً - لو أن أحداً سلم عليك وأنت تصلي ، أو دق الباب وأنت تصلي فقلت غافلاً : ادخل . أو قلت : وعليكم السلام ناسياً أو غافلاً ، فصلاتك صحيحة ، لأن الله لا يؤاخذ الإنسان بالجهل أو بالنسيان أو بالغفلة ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥] .

ومن فوائد الحديث : حسن تعليم النبي ﷺ ، وأنه يعلم بالرفق واللين ، وهذا هديه ﷺ وهو أسوة أمته ، فالذي ينبغي للإنسان أن ينزل الناس منازلهم ، فالمعاند المكابر يخاطب بخطاب يليق به ، والجاهل الملتبس للعلم يخاطب بخطاب يليق به .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين ، وإنما هي التسبيح والتكبير وقراءة قرآن ، أو كما قال - عليه الصلاة والسلام - والصلاة كما نعلم فيها قراءة قرآن وفيها تكبير ، وفيها تسبيح ، وفيها دعاء ، وفيها تشهد .

وفي الحديث : الثناء على الواعظ إذا كانت عظمته جيدة وليس عنده عنف ، وهذا يشجع أهل الوعظ على أن يلتزموا بهذه الطريقة التي التزم بها رسول الله ﷺ .

وفي سياق حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه قال : قلت : يا رسول الله ، إني حديث بجاهلية ، وإن الله تعالى قد جاء بالإسلام . قال هذا الكلام لبيّن حاله من قبل وحاله من بعد ، وليحدث بنعمة الله عليه ، حيث كانوا في جاهلية لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، إلا ما جرت به العادات بينهم . وجاءنا الله بهذا الإسلام ، بالنور المبين ، والفرقان العظيم ، فيبين الحق من الباطل ، ويبين النافع من الضار ، ويبين الإيمان من الكفر ، والتوحيد من الشرك إلى غير ذلك مما من الله به على هذه الأمة بالإسلام . ثم قال ﷺ : وإنّ منّا رجلاً يأتون الكهان . قال : « فلا تأتهم » .

الكهان : كانوا رجالاً تنزل عليهم شياطين الجن بما يسمعون من خبر السماء ، ثم يحدثون الناس بما أخبرت به الشياطين ، ويضيفون إلى الخبر الحق أشياء كثيرة من الكذب ، فإذا صدقوا في واحد من مائة ، اتخذهم الناس حكاماً ، ولهذا يأتون إليهم ويتحاكمون إليهم .

فالكاهن : عبارة عن رجل يأتيه الشيطان يخبره بما سمع من خبر السماء ، ويضيف إلى هذا الخبر أشياء كثيرة من الكذب ، يأتيهم الناس فيسألونهم : ما حالنا ؟ ما مستقبلنا ؟ يسألونهم عن أمور مستقبلية عامة أو خاصة ، فيخبرونهم بما سمعوا من أخبار الشياطين .

قال النبي ﷺ : « فلا تأتهم » كلمة واحدة : لا تأت الكهان . وهل تظن أن معاوية أو غيره من الصحابة إذا قال لهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - : لا تفعلوا . أن يفعلوا ؟ لا ، لا نظن ذلك ، فإنهم ليسوا كحال كثير من الناس اليوم يُكرّر عليه النهي ولكنه لا ينتهي ، أو يتأول ويقول : النهي للكرهية ، أو النهي للأدب أو لخلاف الأولى ، أو ما أشبه ذلك .

ثم اعلم أن الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل ، وإذا أتاه الإنسان فله ثلاث حالات :

الحال الأولى : أن يأتيه يسأله ولا يصدقه ، فثبت في (صحيح مسلم) أن من فعل هذا لا تقبل له صلاة أربعين يوماً ^(١) .

الحال الثانية : أن يأتيه يسأله ويصدقه فهذا كافر لقوله ﷺ : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » ^(٢) ، ووجه كفره أن تصديقه إياه يتضمن تكذيب قول الله جل وعلا : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥] ؛ لأن الكاهن يخبر عن الغيب في المستقبل ، فإذا صدقته فمضمونه أنك تكذب هذه الآية فيكون ذلك كفراً .

الحال الثالثة : أن يسأل الكاهن ليكذبه ، وإنما يسأله اختباراً ، فهذا لا بأس به . وقد قال النبي ﷺ ابن الصياد عما أضمر له . فقال له : « الدخ » يعني : الدخان ، فقال له النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أخسأ فلن تعدو قدرك » ^(٣) .

فإذا سأله ليفضحه ويكشف كذبه وحاله للناس ، فإن هذا لا بأس به ، بل إن هذا يكون محموداً مطلوباً لما في ذلك من إبطال الباطل .

ثم سأل معاوية رضي الله عنه رسول الله ﷺ سؤالاً آخر ؛ قال : ومنا رجال يتطيرون ؟ قال : « ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم » .

والتطير : هو التشاؤم بالأشياء ، وكان العرب يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور ، فإذا طار يميناً فله حال ، وإن طار يساراً فله حال ، وإن اتجه أماماً فله حال ، أو رجع فله حال . حسب اصطلاحات العرب وخرافاتهم .

فكانوا يتطيرون ؛ فيجعلون الطيور هي التي تمضيهم أو تردهم ، إذا كان الطير مثلاً عن اليسار قال : هذا نذير سوء فلا أسافر ، إذا طار يميناً قال هذا سفر مبارك . حيث اليمين من اليمن والبركة ، وهكذا اصطلاحات عندهم .

فكانوا يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور ، وربما تشاءموا من الأيام ، وربما تشاءموا من الشهور وربما تشاءموا فيما يصنعون من الأصوات ، وربما تشاءموا حتى من الأشخاص ، حتى إنه يوجد الآن أناس إذا خرج أحدهم من بيته ثم لاقاه شخص قبيح المنظر قال : هذا اليوم يوم سوء وتشاءم ، وإذا لقي رجلاً جميل الوجه قال : هذا اليوم خير ، فتفاءل .

فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « هذا شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم » . والإنسان إذا ركن إلى التطير تنغصت عليه حاله ، وربما يصنع الجني ما يكره ليقى دائماً في غمّ وهم ، ولكن لا تتشاءم .

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٢٥) بلفظ « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

(٢) أخرجه الترمذي في الطهارة (١٣٥) ، وابن ماجه في الطهارة (٦٣٩) .

(٣) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٨) ، ومسلم في الفتن (٩٥) .

وكان العرب يتشاءمون من شهر شوال في النكاح ، يقولون الذي يتزوج في شهر شوال لا يوفق في زواجه ؛ هكذا كانوا يقولون ، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول : تزوجني النبي ﷺ في شوال ؛ عقد عليها في شوال ، ودخل بها في شوال . فتقول : أيكم أحظى إليه مني ؟ ^(١) .

لا شك أن عائشة رضي الله عنها أحب النساء إليه بعد أن تزوجها ، ومع ذلك عقد عليها في شوال ، ودخل عليها في شوال ، والعرب لجهلهم وسخافتهم يقولون : الذي يتزوج في شوال لا يوفق ، ونحن الآن نشاهد أناساً يتزوجون في شوال ولا يكون فيهم إلا الخير .

فالمهم أنه يجب عليك أن تمحو من قلبك التطير والتشاؤم ، وكن دائماً متفائلاً ، واجعل الدنيا دائماً أمامك واسعة ، واجعل الطريق أمامك دائماً مفتوحاً . فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يكره الطيرة ويعجبه الفأل الحسن ^(٢) .

فاجعل نفسك دائماً في تفاؤل ، والذي يريده الله سيكون ، لكن كن مسروراً فرحاً ، فالدنيا أمامك واسعة ، والطريق مفتوح ، ودائماً كن في تفاؤل ، ودائماً كن واسع الصدر ، فهذا هو الخير . أما التشاؤم والانقباض ، وأن يجعل الإنسان باله في كل شيء ، فإن الدنيا ستضيق عليه . فمن محاسن الإسلام أنه ألغى الطيرة وأثبت الفأل ، لأن الفأل خير والطيرة شر .

* * *

٩٢ - باب الوقار والسكينة

قال الله تعالى : ﴿ وَيَعِزُّكَ الرَّحْمَنُ الَّذِيكَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ^(٣)

[الفرقان : ٦٣] .

٧٠٣ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مُسْتَجْبِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى تُرَى مِنْهُ لَهَوَاتُهُ ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ ^(٤) . متفقٌ عليه .

« اللّهوات » جمع لهافة : وهي اللحمة التي في أقصى سَقْفِ الفم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الوقار والسكينة) .

(١) انظر الحديث فيما أخرجه مسلم في النكاح (٧٣) ، والترمذي في النكاح (١٠٩٣) ، والدارمي في النكاح (٥٣) ، وأحمد في مسنده (٥٤/٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطب (٣٥٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (١٣٠/٦) .

(٣) قوله سبحانه : ﴿ هَوْنًا ﴾ أي بسكينة ووقار وتواضع وحلم . قوله تعالى : ﴿ سَلَامًا ﴾ أي قولاً سديداً يسلمون فيه من الإثم .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٢) ، ومسلم في الاستسقاء (١٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٦٦/٦) .

قولها ﷺ : « مستجمعاً » المستجمع في الشيء : المجد فيه ، القاصد له .

والوقار : هو هيئة يتصف بها العبد يكون وقورًا ، بحيث إذا رآه من رآه يحترمه ويعظمه . والسكينة هي عدم الحركة الكثيرة وعدم الطيش ، بل يكون ساكنًا في قلبه ، وفي جوارحه ، وفي مقاله . ولا شك أن هذين الوصفين (الوقار والسكينة) من خير الخصال التي يمن الله بها على العبد . لأن ضد ذلك أن يكون الإنسان لا شخصية له ، ولا هيئة له وليس وقورًا ذا هيئة ، بل هو مهين ، قد وضع نفسه ونزلها . وكذلك السكينة ضدها أن يكون الإنسان كثير الحركات كثير التلفت ، لا يُرى عليه أثر سكينة في قلبه ولا قوله ولا فعله ، فإذا مَنَّ الله على العبد بذلك ، فإنه ينال بذلك مخلقين كريمين .

وضد ذلك أيضًا العجلة ؛ أن يكون الإنسان عجلًا لا يتحرى ولا يتأنى ، ليس له هم إلا القيل والقال اللذين نهى عنهما رسول الله ﷺ ، فقد كان ينهى عن القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ^(١) . فإذا كان الإنسان ليس متأنيًا ولا متبئنًا في الأمور ، حصل منه زلل كثير ، وأصبح الناس لا يثقون في قوله ، وصار عند الناس من القوم الذين يُرد حديثهم ولا يُتفع به .

ثم استشهد المؤلف بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَعَاذُ الرَّحْمَنُ الَّذِيكَ يَسْتَشْنُونَ عَلَى الْآلَتِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴾ .

﴿ وَيَعَاذُ الرَّحْمَنُ ﴾ : الذين مَنَّ الله عليهم بالرحمة ووقفهم للخير ، هم الذين يمشون على الأرض هونًا . يعني إذا رأيت أحدهم رأيت رجلًا ، في مشيته وقارًا ، بدون أن يعجل عجلة تقبح .

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴾ : يعني قالوا قولًا يسلمون به من شرهم ، وليس المعنى أنهم يلقون السلام ؛ بل المعنى أنه إذا خاطبه الجاهل قال قولًا يسلم به من شره ، إما أن يدافعه بالتالي هي أحسن ، وإما أن يسكت إذا رأى السكوت خيرًا .

المهم : أنه يقول قولًا يسلم به ، لأن الجاهل أمره مشكل ؛ إن خاصمته أو جادلته فربما ييدر منه كلام سيئ عليك ، وربما ييدر منه كلام سيئ على ما تدعو إليه من الخير ، فيسب الدين وما أشبه ذلك والعياذ بالله .

فمن توفيق عباد الرحمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ، يعني قالوا قولًا يسلمون به ولا يحصل لهم به إثم ، وكذلك من أوصافهم ما ذكره في آخر الآيات .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ : يعني لا يشهدون القول الكذب ولا الفعل القبيح . ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ : أي الذي ليس فيه خير ولا شر . ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أي سالمين منه .

وذلك أن الأشياء إما خير وإما شر وإما لغو ، فالشر لا يشهدونه ، واللغو يسلمون منه ، ويمرون به كرامًا ، والخير يرتعون فيه .

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ لم يستجمع قط ضاحكًا تبدو منه لهواته . يعني ليس يضحك ضحكًا فاحشًا بقهقهة ، يفتح فمه حتى تبدو لهواته ، ولكنه ﷺ كان يتسم ، أو

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٧) ، ومسلم في الأفضية (١٠) .

يضحك حتى تبدو نواجذه أو تبدو أنيابه ؛ وهذا من وقار النبي ﷺ .
ولهذا تجد الرجل كثير الكركرة الذي إذا ضحك قهقهه وفتح فاه يكون هيئاً عند الناس ، وضيقاً عندهم ليس له وقار . وأما الذي يكثر التبسم في محله ، فإنه يكون محبوباً تنشرح برؤيته الصدور وتطمئن به القلوب .

٩٣ - باب النذب إلى إتيان الصلاة والعلم ونحوهما
من العبادات بالسكينة والوقار

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ ^(١) [الحج : ٣٢] .
٧٠٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إذا أُقِمَتِ الصَّلَاةُ ، فلا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ ، وَأَتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا ، وَمَا قَاتَكُمُ فَأَعْمُوا » متفقٌ عليه ^(٢) .
زاد مسلم في رواية له : « فَإِنْ أَخَذَكُمُ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَهَوَ فِي صَلَاةٍ » ^(٣) .
٧٠٥ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّهُ دَفَعَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ عَرَفَةَ فَسَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَرَأَاهُ زَجْرًا شَدِيدًا وَضَرْبًا وَصَوْتًا لِلإِبِلِ ، فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ وقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ ؛ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالْإِضْطَاعِ » ^(٤) رواه البخاري ، وروى مسلم بعضه .
« الْبِرُّ » الطَّاعَةُ . « وَالْإِضْطَاعُ » إِضْطَاعٌ مَعْجَمَةٌ قَبْلُهَا يَاءٌ وَهَمْزَةٌ مَكْسُورَةٌ ، وَهُوَ : الإِسْرَاعُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب النذب إلى إتيان الصلاة والعلم ونحوهما من العبادات بالسكينة والوقار) .

- (١) قوله ﷺ : ﴿ وَمَنْ يَعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ ﴾ جمع شعيرة ، وهي كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم . وشعائر الله : أعلام دينه في الحج أو الأعمال التي أمر بها فيه . وتعظيم شعائر الله : امتثال ما أمر به عندها . وأداء المناسك على الوجه المشروع . قوله : ﴿ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ أي خشية الله وتعظيمه .
(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٨) ، ومسلم في المساجد (١٥١) ، قوله « فلا تأتوها وأنتم تسعون » المنهي عنه هنا السعي بمعنى العدو والإسراع في المشي . ولا يخالف ذلك قوله تعالى : ﴿ يَأْتِهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا دُعُوا لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فالأمر به في الآية هو المضي فيها . قوله « وأنتم تمشون » أي بلا إسراع . قوله « وعليكم السكينة » السكينة الثاني في الحركات واجتناب العبث ، والوقار في الهيئة كفض البصر وخفض الصوت وعدم الالتفات .
(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٥٢) . قوله « يعمد إلى الصلاة » أي يقصد أدائها .
(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٦٧١) ، وأخرج مسلم بعضه في الحج (٢٦٨) .

الصلاة من المعلوم أنها أكد أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهي من أعظم شعائر الله . والإنسان إذا أقبل إلى الصلاة فإنما يقبل إلى الوقوف بين يدي الله ﷻ .

ومن المعلوم أن الإنسان إذا أتى إلى شخص من بني آدم يعظمه ، فإنه يأتي إليه بأدب وسكينة ووقار ، فكيف إذا أتى ليقف بين يدي الله ﷻ ؟

ولهذا ينبغي للإنسان أن يأتي إلى الصلاة في سكينة كما سيأتي في حديث أبي هريرة ؓ .
ثم استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - لهذا الباب بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ .

الذي يعظم شعائر الله فيرى أنها عظيمة في قلبه ، ويقوم بما ينبغي لها من التعظيم بجوارحه ، فإن هذا من تقوى القلوب ، علامة على صلاح نيته وتقوى قلبه ، وإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ، لقول النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي : القلب » (١) .
فعليك بتعظيم شعائر الله فإن ذلك تقوى لقلبك ، وأيضاً يكون خيراً لك عند الله ﷻ ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج : ٣٠] .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون » يعني إذا سمعتم الإقامة من خارج المسجد ، وهذا يدل على أن الإقامة تسمع من خارج المسجد وهو الظاهر ، وقد جاء في الحديث أن بلالاً قال للنبي ﷺ : لا تسبقني بآمين (٢) . مما يدل على أنه يقيم في مكان يسمعه الناس فيقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة » تمشون مشياً عادياً وعليكم السكينة .

وفي قوله ﷺ : « وأنتم تمشون » دليل على أنه يمشي مشياً معتاداً ، وأنه لا يقارب الخطي كما استحبه بعض أهل العلم ، وأما قول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لم يخط خطوة إلا رفع الله بها درجة » يعني أنه يقارب الخطي ، لكن يمشي مشيه المعتاد بدون إسراع ، فإذا أتى الإنسان على هذا الوجه فقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » .

إلا أن أهل العلم قالوا : إذا خشي فوات الركعة يعني فوات الركوع فلا بأس أن يسرع قليلاً ، سرعة لا تكون سرعة قبيحة ، فإنه لا بأس بذلك ، لكن لا ينبغي أن تكون سرعة تقبح ، يكون لها جلبة وصوت . يستفاد من هذا الحديث فوائد منها : تعظيم شأن الصلاة ، وأن الإنسان ينبغي أن يأتي إليها بأدب وخشوع وسكينة ووقار .

ومنها : أنه لا بأس أن تسمع الإقامة من خارج المسجد وعلى هذا فإذا أقيم المؤذن في مكبر الصوت

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢) ، ومسلم في المساقاة (١٠٧) ، قوله « ألا وإن في الجسد مضغة » المضغة القطعة من اللحم سميت بذلك لأنها في حجم ما يعض في الفم لصغرها : المراد تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسم مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب . (٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٩٣٧) .

ليسمع من كان خارج المسجد فلا بأس .

وإن كان بعض الناس قد اعترض على هذا وقال : إنه إذا أقام من خارج المسجد تكاسل الناس ، وصاروا لا يحضرون إلا إذا سمعوا الإقامة ، وربما فوتتهم الركعة الأولى ، أو فوتهم أكثر حسب قربهم من المسجد أو بعدهم منه . ولكن مادام الأمر قد حدث مثله في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وأن الإقامة كانت تسمع من الخارج ، فإننا نرى أنه لا بأس بذلك ، لكن الشيء الذي يُخشى منه الإثم ما يفعله بعض الناس فينقل الصلاة نفسها عبر مكبر الصوت من المنارة ، فإن هذا يشوش على من حوله ، ولا سيما في صلاة الليل الجهرية ، يشوش على أصل البيوت ويشوش على المساجد القريبة ، حتى إننا سمعنا بعض الناس إذا سمع مكبر الصوت من مسجد قريب وكان الإمام حسن الصوت والقراءة ، صار المأموم الذي في هذا المسجد يتابع بقلبه الإمام الذي في المسجد الثاني . حتى سمعنا أن بعضهم أثنى على قراءة إمام المسجد الثاني ، لما قال إمام المسجد الثاني ﴿ وَالصَّالِّينَ ﴾ قال هؤلاء : آمين ، وهذا ليس يبعد ، لأن القلب إذا انشغل بشيء أعرض عن غيره ، فإذا كانوا يتابعون قراءة المسجد المجاور ، وكانت قراءة الإمام جيدة في الصوت والأداء ، فإن القلب قد يلهم عن الإمام الذي بين يديه .

وقد ثبت في (موطأ الإمام مالك رحمته الله) أن النبي ﷺ خرج ذات ليلة وأصحابه في المسجد يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « إن المصلي يناجي ربه ، فلينظر بم يناجيه به ، ولا يجهر بعضهم على بعض بالقرآن » (١) .

وعند أبي داود : « ألا كلكم مناج ربّه ، فلا يؤذّن بعضكم بعضاً ، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة » (٢) .

فجعل هذا أذية ونهى عنه ، والواقع شاهد بذلك ، ولهذا نرى أن الذين يفعلون هذا ؛ يؤذون الصلاة عبر مكبر الصوت ، نرى أنهم إذا كانوا يؤذون من حولهم فإنهم آثمون .

فإذا كان هذا العمل يكون فيه الإنسان إما آثماً وإما سالماً ، فلا شك أن تركه أولى ، وهو في الحقيقة لا فائدة منه ، لأن الإنسان لا يصلي إلى من هم خارج المسجد ، وإنما يصلي لأهل المسجد ، أما الذين في الخارج فلا عليك منهم .

ثم إن هذا العمل فيه مفسدة أخرى ؛ وهي أن بعض الناس يتكاسل عن إتيان المسجد للصلاة مادام أنه يسمع صوت قراءة الإمام فيتكاسل ، وكلما أراد أن يقوم ثبطه الشيطان ، وقال له : انتظر الركعة الثانية ، انتظر الثالثة ، اجلس حتى لا يبقى إلا ركعة فيحزم بذلك من الخير .

لهذا نوصي إخواننا لا سيما الأئمة ألا يفعلوا هذا ، وأن تسلم ذمهم ويسلم لإخوانهم من أذيتهم

(١) أخرجه مالك في الموطأ في الصلاة (٢٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٦٧/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣٣٢) .

حتى في البيوت أيضًا .

ربما بعض الناس يكون قد صلى ويحب أن ينام ويرتاح ، قد يكون مريضًا فيزعجه هذا الصوت ، وقد يكون المسجد قريبًا من السطوح في أيام القيظ وفيه الصبيان فيفرعهم صوت المكبر .

فالحاصل : إن هذه المسألة أثبت بها بعض الناس - نسأل الله أن يعافينا - وصاروا يؤذون من بجوارهم من المساجد أو البيوت في أمر لا فائدة منه .

ومعنى قوله ﷺ : « فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » أن الإنسان يكبر تكبيرة الإحرام ثم يدخل مع الإمام على الحال التي فيها ، فإذا جئت والإمام راع فكبر تكبيرة الإحرام وأنت قائم معتدل ثم اركع ، وبذلك تدرك الركعة .

وإذا أتيت وهو قائم من الركوع فكبر وادخل معه واسجد معه ، ولا تحسب هذه الركعة ، لأن الإنسان إذا لم يدرك ركوع الإمام فاتته الركعة .

وإذا أتيت وهو ساجد فكبر للإحرام وأنت قائم ثم اسجد ولا تنتظر حتى يقوم ، وإذا أتيت وهو جالس فكبر وأنت قائم واجلس ، أي حال أدركت الإمام عليها فاصنع كما يصنع الإمام .

وإذا أتيت وهو في التشهد الأخير نظرت إن كان معك جماعة في مثل حالك فلا تدخل معه ، لأنك لا تدرك صلاة الجماعة بإدراك التشهد ، لا تدرك الجماعة إلا إذا أدركت ركعة كاملة ، لقول النبي ﷺ : « من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة » (١) .

وإذا لم يكن معك جماعة ، أو لا يمكنك أن تدرك مسجدًا آخر فادخل معه ولو في التشهد ، ولا تحسب هذا شيئًا ، لأنه فاتك الركوع .

وفي قوله ﷺ : « فأتموا » دليل على أن المسبوق إذا قام يقضي فإنه يقضي آخر صلاته لا أولها ، فإذا أدرك الركعتين الأخيرتين من الظهر مثلاً وقام يقضي فإن الركعتين اللتين يقضيها هما آخر صلاته ، فلا يزيد على الفاتحة ، لأن السنة في الركعتين الأخيرتين أن لا يزيد فيهما على الفاتحة .

وأما حديث ابن عباس ؓ الذي ذكره المؤلف أن النبي ﷺ دفع من عرفة فسمع وراءه جلبة وضربًا وزجرًا للإبل وأصواتًا للإبل ، لأنهم كانوا في الجاهلية إذا دفعوا من عرفة أسرعوا لإسراعًا عظيمًا يبادرون النهار قبل أن يظلم الجو ، فكانوا يضربون الإبل ضربًا شديدًا ، فأومأ النبي ﷺ إليهم بسوطة ، وقال : « أيها الناس عليكم بالسكينة » يعني الطمأنينة والهدوء « فإن البر ليس بالإيضاع » يعني : أن

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٨٠) ، ومسلم في المساجد (١٦١) قال النووي في شرح مسلم : إذا أدرك المسبوق مع الإمام ركعة كان مدركًا لفضيلة الجماعة بلا خلاف وإن لم يدرك ركعة بل أدركه قبل السلام بحيث لا يحسب له ركعة ففيه وجهان لأصحابنا : أحدهما لا يكون مدركًا للجماعة لمفهوم قوله ﷺ : من أدرك ركعة من الصلاة مع الإمام فقد أدرك الصلاة . والثاني وهو الصحيح وبه قال جمهور أصحابنا يكون مدركًا لفضيلة الجماعة لأنه أدرك جزءًا منه . (صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٦/٥) .

البر والخير ليس بالإيضاع ، أي ليس بالإسراع . والإيضاع نوع من اليسر سريع .
ففي هذا : دليل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يسرع إذا تقدم إلى أماكن العبادة ، لأن الذين
يدفعون من عرفة يتجهون إلى مزدلفة إلى عبادة .

وبهذا يتم المؤلف ﷺ ما ترجم به من النذب إلى إتيان الصلاة ، ومجالس العلم ، وغيرها من
العبادة بسكينة ووقار .

فإذا أتيت إلى مجالس العلم والخير ، فكن ساكنًا وقورًا مهيبًا ، حتى لا يستهان بك أمام الناس ،
ويكون تعظيمك لهذه المجالس من تعظيم الله ﷻ .

* * *



قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ
شَاكِرُونَ ۝ فَرَأَىٰ لِكُلِّ أَهْلٍ قَبْلَهُ يَسْجُدُ لِمَنْ فِي سَمَاءٍ فَرَأَاهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ قَالَ
تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَتَقَوَّمُ عَنْكَ مَا بَيْنَ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِ الْإِنْس مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۝ ۱ ۝ ﴾ [مود : ٧٨] .

الشرح

قال المؤلف ﷺ : (باب إكرام الضيف) .

والضيف : هو الذي ينزل بك مسافرا ، لأجل أن تلقاه بالإيواء والطعام والشراب وما يحتاج إليه .
والضيافة : خلق فاضل قديم منذ عهد إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - ، وإن لم يكن قبل ذلك .
وسيدكر المؤلف - إن شاء الله - أحاديث متعددة حول إكرام الضيف ، وأن إكرامه من الإيمان بالله
واليوم الآخر ، ولكنه ﷺ كعادته يبدأ بالآيات الكريمة ، لأن القرآن مقدم على السنة ، فهو كلام الله
والحديث كلام رسول الله ﷺ ، وكلاهما حق يجب تصديقه إن كان خيرا ، وامتناله إن كان طلبا .
فذكر قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝ هَلْ أَتَاكَ ؟ : الاستفهام هنا للتشويق
من أجل أن ينتبه المخاطب ، والخطاب في قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ۝ ۱ ۝ ﴾ إما للرسول ﷺ وإما له وللأمة ؛ أي
لكل من يصح خطابه .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۝ ۱ ۝ ﴾ وهؤلاء الضيف ملائكة
أرسلهم الله ﷻ إلى إبراهيم ، ثم إلى لوط .

(١) قوله تعالى : ﴿ شَكَرُونَ ۝ ۱ ۝ ﴾ أي غير معروفين . قوله تعالى : ﴿ فَرَأَىٰ ۝ ۱ ۝ ﴾ أي فذهب . قوله تعالى : ﴿ يُهْرَعُونَ ۝ ۱ ۝ ﴾ أي
يسرعون . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخْزَوْا ۝ ۱ ۝ ﴾ أي لا تفضحوني . قوله تعالى : ﴿ رَشِيدٌ ۝ ۱ ۝ ﴾ أي عاقل .

وقوله : ﴿ الْمُكْرِبِينَ ﴾ يعني الذين أكرمهم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ قال العلماء : إن قولهم سلامًا يعني نسلم سلامًا ، وإن قوله : سلامٌ يعني : عليكم سلامٌ .
والثانية أبلغ من الأولى ، لأن المشروع لمن حُبي بتحية أن يحيي بأحسن منها أو بمثلها كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] .
ولما كانت الثانية أبلغ من الأولى لأن الأولى جملة فعليه ، والثانية جملة اسمية ، تفيد الثبوت والاستمرار .

ثم قال : ﴿ قَوْمٌ مُّشْكُرُونَ ﴾ ولم يقل : أنتم قوم ، لأن أنتم صريح في الخطاب ، وهذا قد يكون مستبشعًا عند بعض الناس ، فكان من حسن معاملته لضيفه أن قال : قوم منكرون .
و ﴿ قَوْمٌ ﴾ لو أخذناها هكذا لكان يمكن أن يكون التقدير : هم قوم ، أو أنتم قوم ، أو هؤلاء قوم ، ليست في الصراحة كقوله أنتم قوم ، فلهذا حذف المبتدأ وصارت : قوم منكرون . ومعنى كونهم منكربين أنه لا يعرفهم لأنه أول مرة يلتقي بهم .

﴿ فَرَأَى إِلَآءَ أَهْلِهِ ﴾ وكان الطبخ كرمًا ، ومعنى راغ : أي ذهب بسرعة وخفية ﴿ إِلَآءَ أَهْلِهِ ﴾ أي إلى بيته ﴿ فَمَجَّاءَ بِعَجَلٍ سَيْنٍ ﴾ جاء بعجل ؛ وهي صغار البقر ، لأن لحمه خفيف ولذيذ ، وكونه سميتا يكون أحلى للحمه وأطيب ، وفي الآية الأخرى أنه جاء بعجل حنيد ، أي محتوذ يعني مشوي لم يخرج من طعمه شيء وهذا ألد ما يكون من اللحم .

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ ولم يضعه بعيدًا عنهم فيقول : تقدموا إلى الطعام ، ولكن هو الذي قربه لئلا يكون عليهم عناء ومشقة ، ومع ذلك لم يقل : كلوا . هكذا بصيغة الأمر ، ولكن قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وهذا عرض وليس بأمر ، وهو أيضًا من حسن معاملته لضيفه .

ثم إن هؤلاء الضيوف ذهبوا إلى لوط بصورة شبان مُرْد ذوي جمال وفتنة ، وكان قوم لوط - والعياذ بالله - قد ابتلوا بداء اللواط ، وهو إتيان الذكر الذكر ، فلما ذهبوا إلى لوط انطلق بعضهم إلى بعض يخبر بعضهم بعضًا ويقولون : جاء إلى لوط مردان شبان ذوو جمال ، فجاءوا ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي : يسرعون .
﴿ وَهِنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ يعني : كانوا يعملون الفاحشة وهي اللواط .

﴿ قَالَ يَقْتُورَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي مِنْ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْشَوْنَ فِي صَبِيحٍ ﴾ قال بعض العلماء ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ يشير إلى بنات القوم ما هن بناته من صلبه ، ولكنه يعني بذلك بنات قومه ، لأن النبي لقومه بمنزلة الأب لهم ، كأنه يقول : عندكم النساء ، وهذا كقوله في آية أخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَمَلِيِّينَ ۖ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦] يعني من النساء ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

المهم : أنه - عليه الصلاة والسلام - قال لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْشَوْنَ ﴾ وقوله ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي مِنْ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ هذا من باب التفضيل الذي ليس في الجانب المفضل عليه منه شيء ؛ لأن إتيان الذكور ليس فيه طهارة ، كله خبث وخبائث ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَجْنِبُهُ مِنَ الْقُرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْتِثِ ﴾

[الأنباء: ٧٤] ، لكن هن أطهر لكم لأن فروج النساء تحل بالعقد .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ زَشِيدٌ ﴾ ولكن لم يكن منهم رجل رشيد ، والعبادة بالله .
﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩] يعني تعلم أننا نريد هؤلاء

الشباب الذين جاءوا إليك .

﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى زُكِّي شَدِيدٍ ﴾ ^(١) [هود: ٨٠] ، فقالت الرسل ﴿ يَلُوطُ إِنَّا رَمَلْنَا رَبَّكَ لَنَبْصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٨١] ، ثم أرشدوه إلى أن يسري بأهله ويدع البلدة .

وفي سورة القمر قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ﴾ ^(٢) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالُ لُوطٍ لَمَّحْتَهُمْ بِسَحَرٍ ﴿ يَتَمَنَّاهُ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْرَى مِنْ شَكْرٍ ﴾ ^(٣) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَسَّاسًا أَعْيَنَهُمْ فَذَوُّوا عَلَيْهِمْ يُنذِرُ ﴾ ^(٤) [القمر: ٣٣-٣٧] . قيل : إن الملائكة صفقوهم على وجوههم فعميت أبصارهم ، وقيل : إن الله أعمى أبصارهم في نفس الحال .

وعلى كل حال فإن قوله : ﴿ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ يدل على أن الضيوف كانوا مكرمين عند لوط ، كما هم مكرمون عند إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - .

والحاصل : أنك إذا نزل بك ضيف فإنه يجب عليك أن تضيفه يوماً وليلة ، ولكن لا تفعل كما يفعل السفهاء ، تذهب وتتكلف وتصنع وليمة كبيرة ترمي معظمها ، حتى إذا نسجم عن بعض الناس أنه إذا نزل به الضيف ذهب صاحب البيت من أجل أن يذبح له ذبيحة ، فيقول الضيف : لا تذبح . عليّ الطلاق ما تذبح . فيقول الثاني : عليّ الطلاق أن أذبح ، هذا غلط ومنكر ، فلا حاجة إلى اليمين في ذلك ، إما أن تذبح وإما أن لا تذبح .

وإذا اضطرت إلى اليمين فليس هناك حاجة إلى اليمين بالطلاق ، لأن الحلف بالطلاق أمره ليس بالهين . فالأئمة الأربعة : مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وجمهور أتباعهم يرون : أن الحلف بالطلاق طلاق إذا حنث فيه الإنسان ، يعني إذا قلت : عليّ الطلاق ما تفعلين كذا . ففعلت طلقت زوجتك ولو أردت اليمين ، هذا مذهب جمهور الأمة وجميع الأئمة المتبعين من هذه الأمة . إذا المسألة خطيرة وتهاون الناس اليوم بهذه المسألة غلط كبير .

ما أسرع أن يقول الإنسان : عليّ الطلاق أن أفعل ، عليّ الطلاق ما أفعل ، أو امرأتي طالق إن فعلت ، أو امرأتي طالق إن لم أفعله وهذا غلط عظيم . كيف تقول هذا الكلام وأكثر الأئمة يرون أنك إذا حنثت طلقت امرأتك .

(١) قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ ﴾ لو أن لي على دفعكم مقدرة لدفعتمكم . قوله تعالى : ﴿ أَوْ آوَى إِلَى زُكِّي ﴾ الجأ إلى قوتي أنتصر عليكم .

(٢) قوله تعالى : ﴿ بِالَّذِي ﴾ بالأنذر ، قوله تعالى : ﴿ حَاصِبًا ﴾ ريحاً عاصفة ترميهم بالحصباء (الحصى الصغير) ، قوله تعالى : ﴿ فَتَمَارَوْا بِالَّذِي ﴾ فكذبوا بالإنذارات متشككين ، قوله تعالى : ﴿ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ طلبوا منه أن يتخلى عنهم ويمكنهم منهم . قوله تعالى : ﴿ فَطَسَّاسًا أَعْيَنَهُمْ ﴾ أعيناهم أو أزلنا أثر عيونهم بمسحها .

٧٠٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْنَعْ » ^(١) متفق عليه .

٧٠٧ - وعن أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتُهُ » قالوا : وما جَائِزَتُهُ يا رسول الله ؟ قال : « يَوْمُهُ وَلَيْكَتُهُ . وَالضَّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَهَامَ ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ » ^(٢) متفق عليه .

وفي رواية لمسلم : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْتِمَهُ » قالوا : يا رسول الله ، وَكَيْفَ يُؤْتِمُهُ ؟ قال : « يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ » ^(٣) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في : (باب الضيافة وإكرام الضيف) ، الأحاديث التي تدل على إكرام الضيف وقراءه ، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » ، وهذا من باب الحث والإغراء على إكرام الضيف ، يعني : أن إكرام الضيف من علامة الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن تمام الإيمان بالله واليوم الآخر .

وذلك أن الذي يكرم ضيفه يشبه الله تعالى يوم القيامة ، وربما أتابه يوم القيامة وفي الدنيا ، كما قال الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ ^(٤) [الشورى : ٢٠] ، فيشبه الله في الدنيا بالخلف ، وفي الآخرة بالتواب ، ولهذا قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » .

وإكرام الضيف يختلف بحسب أحوال الضيف ، فمن الناس من هو من أشرف القوم ووجهاء القوم فيكرم بما يليق به ، ومن الناس من هو من سقط القوم فيكرم بما يليق به ، ومنهم من هو دون ذلك .

فالمهم أن النبي - عليه الصلاة والسلام - أطلق الإكرام فيشمل كل الإكرام ، فمن الناس إذا نزل بك ضيفاً لا يرضيه أن تأتي له بطعام عليه دجاجتان وما أشبه ذلك ، يحتاج إلى أن تأتي له بطعام عليه ذبيحة ، ويكون من إكرامه أيضاً أن تدعو جيرانك وما أشبه ذلك . ومن الناس من هو دون ذلك .

المهم : أن النبي ﷺ لم يقيد الإكرام بشيء بل أطلق ، فيكون راجعاً إلى ما يعده الناس لإكرامهم . قال : « وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » ، وفي حديث آخر « فليكرم جاره » ^(٥) ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٣٨) ، ومسلم في الإيمان (٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم في اللقطة (١٤) واللفظ له ، والبخاري في الأدب (٦١٣٥) .

(٣) أخرجه مسلم في اللقطة (١٥) ، قوله : (يؤتمه) أي يوقعه في الإثم ، قوله (يقره) قرى الضيف يقره قرى وقراء أي : أحسن إليه .

(٤) قوله تعالى : ﴿ حَرْثَ الْآخِرَةِ ﴾ ثوابها . قوله تعالى : ﴿ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ نعمها ولذاتها .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٤) ، وأحمد في مسنده (٣١/٤) ، والحاكم في المستدرک (١٦٤/٤) .

« فليصل رحمه » : الرحم هم الأقارب ، وكلما كان القريب إليك أقرب كان حقه أوجب ، فعلى المرء أن يصل رحمه ، ولم يبين النبي ﷺ بماذا يصله ؟ فيرجع أيضًا إلى العرف ، فمن الأقارب من تصله بالزيارة والإكرام البدني ، ومن الأقارب من تصله بإعطاء المال لحاجته إليه ، ومن الأقارب من تكرمه بالطعام والكسوة ، كل بحسب حاله ، المهم - أكرم أقاربك بما يعد إكرامًا .

فمثلاً : إذا كان قريك غنيًا كريمًا فهذا لا يمكن أن ترسل إليه طبقًا من طعام ، إنما تكرمه بالزيارة والكلام اللين وما أشبه ذلك . أما إذا كان قريك فقيرًا فطبق الطعام أحب إليه من غيره ، فترسل له طبقًا من الطعام ، أما إذا كان قريك يحتاج إلى المال فالأفضل أن ترسل إليه المال وهلم جرا . فكل إنسان يكرم بما يليق بحاله .

الثالث قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » ، وبإيتنا نسير على ذلك في حياتنا . « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » : وقد يكون الكلام نفس الكلام خيرًا ، وقد يكون الخير في المقصود منه ، فمثلاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم مسألة من مسائل العلم والدين ، والكلام هنا خير في نفسه .

والكلام الآخر الذي ليس في نفسه خير من حيث هو ، لكن تتكلم به من أجل أن تدخل الأُنس على مجالسك وأن تشرح صدره ، هذا أيضًا خير ، وإن كان نفس الكلام ليس مما يتقرب به إلى الله ، لكنه ليس إثماً ، وتقصد بذلك أن توسع صدر جليسك وأن تدخل عليه الأُنس والسرور ، فهذا أيضًا من الخير .

وعَلِمَ من هذا : أن من لم يقل الخير ، فإن إيمانه بالله واليوم الآخر يكون ناقصًا ، فكيف بمن يقول الشر ؟ وكيف بمن أصبح يأكل لحوم الناس - والعياذ بالله - ويسمى بينهم بالنميمة ، ويكذب ويغش ؟ بل كيف من أصبح يؤلب على أهل العلم ويسب أهل العلم ، ويذمهم بأمر هم فيه أقرب إلى الصواب مما يظن ؟ فإن هذا أعظم وأعظم ، لأن الكلام في أهل العلم ليس كالكلام في عامة الناس .

الكلام في عامة الناس ربما يجرح الرجل نفسه ، لكن الكلام في أهل العلم جرح في العلماء وجرح فيما يحملونه من الشريعة ، لأن الناس لن يثقوا بهم إذا كثر القول فيهم والخوض فيهم ، ولهذا يجب عند كثرة الكلام وخوض الناس في أمر من الأمور أن يحرص الإنسان على كف لسانه ، وعدم الكلام إلا فيما كانت مصلحته ظاهرة ، حتى لو سئل فإنه يقول : نسأل الله الهداية ، نسأل الله أن يهدي الجميع .

أما أن يتكلم ويطلق لسانه في أمور ليس لها أصل البتة ، فهذا من عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ ولا يكفر الإنسان بهذا لكن إيمانه يكون ناقصًا ، لأن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » ، وكما قيل : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وقيل أيضًا في الحكمة : الصمت حكمة وقليل فاعله . وقيل أيضًا : من صمت نجا ومن تكلم فإنه خطر .

فلذلك الزم الصمت إلا في شيء ترى أنه خير فحينئذ تكلم فالخير مطلوب .

٩٥ - باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير

قال الله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] . وقال تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَاقُصَةٌ مِّنْ مِّيقَةٍ ﴾ [التوبة: ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَأَنْبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِقُلُوبٍ حَلِيمَةٍ ﴾ [الصافات: ١٠١] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ [هود: ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا رَبُّ فَأَقْبِمُ فَأَضْحِكُ فَبَشِّرْهُمْ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ دُونِهِ إِسْحَاقُ بِعُقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] . وقال تعالى : ﴿ فَتَادَتُهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ ^(١) [آل عمران: ٣٩] . وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ﴾ [آل عمران: ٤٥] . الآية . والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير) .
والبشارة تكون في الأمور التي تسر ، وسميت بذلك لأن الإنسان كان إذا بشر بما يسره ظهر أثر ذلك في وجهه وفي بشرته ، وقد تكون البشارة فيما يسوء مثل قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق: ٢٤] .

والبشارة فيما يسر تكون فيما يسر في الآخرة ، وفيما يسر في الدنيا ؛ أما البشارة فيما يسر في الآخرة فكثيرة ، ذكرها الله في القرآن في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: ٢٥] ، وقوله : ﴿ لَهُمُ النَّارُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] ، وقوله : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَاقُصَةٌ مِّنْ مِّيقَةٍ ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ يُصِيبُهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَقَعْدٌ قَرِيبٌ وَيَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٣] ، هذا كله فيما يتعلق بأمر الآخرة .

ومن الأمور التي تبشر بالخير في أمور الآخرة : الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تراه له ^(٢) ، مثل أن يرى إنسان رؤيا فيقال له في المنام مثلاً : بشر فلاناً بأنه من أهل الجنة فيبشره ، فهذه بشرى .

كذلك أيضاً الإنسان إذا رأى من نفسه أنه ينقاد للخير والعمل الصالح ويرغب فيه ويحبه ، وأنه

(١) قوله تعالى : ﴿ الْقَوْلَ ﴾ أي القرآن . قوله تعالى : ﴿ يَنْفُلِي حَلِيمَةٍ ﴾ هو إسماعيل عليه السلام ، قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا رَبُّ فَأَقْبِمُ فَأَضْحِكُ ﴾ استبشاراً بهلاك قوم لوط أو تعجبت كيف تلد وهي عجوز ، أو حاضت في الوقت ليكون ذلك علامة على ما بُشِّرَتْ به . قوله تعالى : ﴿ الْمِحْرَابِ ﴾ هو محل الصلاة .

(٢) هذا معنى حديث وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٩/٦) ولفظه « الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تراه له » ومالك في الموطأ في الرؤيا (٥) ص (٩٥٨) .

يكره الشر ، فهذه أيضًا بشرى ، لأن الله تعالى قال : ﴿ قَالَا مَنْ آتَيْنَاكَ بِهِ ﴾ ⑤ وَصَدَقَ الْحَقُّ ⑥ فَتَسْتَبِيرُ ⑦ [الليل : ٥-٧] .

وأما البشارة فيما يتعلق بأمر الدنيا فمثل قوله تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿ إِنَّا نَبِّئُكَ بِعَلَمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : ٥٣] ، وفي آية أخرى : ﴿ قَبَسْنَاهُ لِعَلْمِهِ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] ، والذي بشر به في الآية الأولى غير الذي بُشر به في الآية الثانية التي فيها : إنا نبشرك بغلام عليم ، هذا إسحاق ، والتي فيها : فبشرناه بغلام حليم ، هذا إسماعيل ﷺ .

إسحاق أبو بني إسرائيل ، لأن ابنه يعقوب ، ويعقوب هو إسرائيل الذي من ذريته موسى وعيسى ﷺ ، وأكثر الأنبياء المذكورين في القرآن كلهم من ذرية إسرائيل .

أما التي ذكر الله فيها فبشرناه بغلام حليم - وهي التي في سورة الصافات - فهذا إسماعيل أبو العرب ، وليس في ذريته رسول إلا رسول واحد ولكنه ختم جميع الرسالات وُبعث إلى الناس كافة من بعثته إلى يوم القيامة ، وغيره من الأنبياء كان يبعث إلى قومه خاصة . هذا الرسول الذي من بني إسماعيل هو محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وكذلك قال تعالى عن امرأة إبراهيم : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ، هذا أيضًا بشارة للأنثى .

فالحاصل أن البشارة تكون في أمور الآخرة وفي أمور الدنيا ، وينبغي للإنسان أن يكون متفائلًا مستبشرًا بالخير ، وألا يرى الدنيا أمامه كالحلة فيستحسر ويقنط .

وينبغي للإنسان أيضًا إذا حصل له خير أن يهتئ به وأن يُبشر به إذا كان مستقبلًا ، يُهتئ به بالخير إذا وقع ، ويُبشر بالخير في المستقبل . بَشَّرَ أَخَاكَ ، أدخل عليه السرور حتى لو رأيت مثلاً إنسانًا مغتصًا قد ضاقت عليه الدنيا وتكالبت عليه الأمور ، فقل له : أبشرك بالفرج لأن النبي ﷺ يقول : « واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » ^(١) ، هذا كلام الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، ما ينطق عن الهوى .

فإذا رأيت أخاك مكروبا ، فقل له : أبشرك بالفرج قريب ، وإذا رأيته في عسر فقل له : اليسر قريب ، وكما قال ابن عباس ؓ : « لن يغلب عسر يسرين » ^(٢) في سورة ألم نشرح لك صدرك ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ① إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ② ﴾ [الشرح : ٥-٦] ، العسر ذكر مرتين واليسر ذكر مرتين ، لكن حقيقة الأمر أن العسر لم يذكر إلا مرة واحدة واليسر ذكر مرتين . لماذا ؟ قال العلماء : إذا تكررت الكلمة معرفة بآل فهي واحدة ، وإذا تكررت غير معرفة بآل فهي اثنان .

(١) هذا جزء من حديث وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/١) ولفظه : « يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات .. » .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٢٨/٢) عن الحسن بلفظ « لن يغلب عسر يسرين .. » وفي كشف الحفاء ذكر

أنه ورد عن ابن عباس (٢٠٧٩) .

العسر كرر مرتين لكن بآل ، فيكون العسر الثاني هو الأول ، واليسر كرر مرتين لكن بدون (آل) فيكون اليسر الثاني غير اليسر الأول ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه : « لن يغلب عسر يسرين » .

يقال : إن الحجاج بن يوسف الثقفي وهو رجل معروف - نسأل الله أن يعفو عنه - ، رجل ظالم يقتل الناس بغير حق ، تكلم عنده أحد الناس وقال له كلمة استنكرها الحجاج ، وكان الحجاج جيداً في اللغة العربية ، فهو الذي شكل القرآن وهذه من حسناته ، وإن كان له سيئات كثيرة . قال له الحجاج : ليس هذا في اللغة العربية ، فُعل ما تأتي في اللغة العربية ، قال : هكذا سمعت من الأعراب . وكانوا يأخذون اللغة من الأعراب ؛ لأن الأعراب في البادية ليسوا في المدن ، والمدن دخل فيها الفرس والروم الذين أسلموا فتغير اللسان . فقال الحجاج : اذهب عند الأعراب واثنني بشاهد من كلام العرب ما يدل على أن فُعل ما موجودة في اللغة العربية ، ولك كذا وكذا يوم ، فإن لم تأتني فأنا أضرب عنقك .

ذهب الرجل مكروباً والحجاج ينفذ ما يقول ، وذهب يطلب من الأعراب ، فسمع أعرابياً يقول : ربما تكره النفوس من الأمر له فُرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ ، ففرح بها فرحاً عظيماً وجاء بها إلى الحجاج ، فينما هو في الطريق قيل له : إن الحجاج قد مات ، فقال : والله ما أدري هل أنا أشد فرحاً بهذه الكلمة التي وجدتُها عند الأعرابي أو بموت هذا الرجل .

فالخاصل : أن الإنسان ينبغي له أن يدخل السرور والبشري على إخوانه حتى يفرحوا ، وينشطوا ، ويؤملوا ، وينتظروا الفرج . نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين ممن له البشري في الحياة الدنيا والآخرة .

٧٠٨ - عن أبي إبراهيم - وَيُقَالُ : أَبُو مُحَمَّد ، ويقال : أَبُو مُعَاوِيَةَ - عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بَشَّرَ خَدِيجَةَ رضي الله عنها بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لَا صَحْبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ ^(١) . متفق عليه .

« الْقَصَبُ » هُنَا : اللُّؤْلُؤُ الْمَجْرُوفُ « وَالصَّحْبُ » : الصَّيَاحُ وَاللَّغَطُ . « وَالنَّصَبُ » : التَّعَبُ .

٧٠٩ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : لَا تَزِمَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا تُكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا ، فَجَاءَ الْمَسْجِدَ ، فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالُوا : وَجَّهْ هُنَا ، قَالَ : فَخَرَجْتُ عَلَى أثرِهِ أَشْأَلُ عَنْهُ ، حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ أَرِيَسَ ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاجَتَهُ وَتَوَضَّأَ ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ جَلَسَ عَلَى بَيْتِ أَرِيَسَ ، وَتَوَسَّطَ قُفُّهَا ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبَيْتِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انصرفتُ ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ فَقُلْتُ : لَا تُكُونَنَّ بِوَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْيَوْمَ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَدَفَعَ الْبَابَ فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : أَبُو بَكْرٍ ، فَقُلْتُ : عَلَى رِسْلِكَ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ ، فَقَالَ : « ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ » فَأَقْبَلْتُ حَتَّى

قُلْتُ لَأَبِي بَكْرٍ : اذْخُلْ وَرَسُولُ اللَّهِ يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَهُ فِي الْقَفِّ وَذَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ كَمَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَجَلَسْتُ ، وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقْنِي ، فَقُلْتُ : إِنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِقُلَانٍ - يُرِيدُ أَخَاهُ - خَيْرًا يَأْتِي بِهِ ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ . فَقُلْتُ : عَلَى رِسْلِكَ ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : هَذَا عُمَرُ يَسْتَأْذِنُ ؟ فَقَالَ : « ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ » فَجِئْتُ عُمَرَ ، فَقُلْتُ : أَذِنَ وَيُبَشِّرُكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقَفِّ عَنْ يَسَارِهِ ، وَذَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَجَلَسْتُ فَقُلْتُ : إِنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِقُلَانٍ خَيْرًا - يَعْنِي أَخَاهُ - يَأْتِي بِهِ ، فَجَاءَ إِنْسَانٌ فَحَرَّكَ الْبَابَ . فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقُلْتُ : عَلَى رِسْلِكَ ، وَجِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ : « ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُهُ » ، فَجِئْتُ فَقُلْتُ : اذْخُلْ وَيُبَشِّرُكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُكَ ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقَفَّ قَدْ مَلَأَ ، فَجَلَسَ وَجَاهَهُمْ مِنَ الشَّقِّ الْآخَرِ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : فَأَوَّلَتْهَا قُبُورُهُمْ . متفق عليه (١) .

وزاد في رواية : « وَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ الْبَابِ . وَفِيهَا : أَنَّ عُثْمَانَ حِينَ بَشَّرَهُ حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ (٢) .

قوله : « وَجَّة » بفتح الواو وتشديد الجيم ، أي : تَوَجُّه . وقوله : « بئر أريس » : هو بفتح الهمزة وكسر الراء ، وبغدها ياء مشناة من تحت ساكنة ، ثُمَّ سِينٌ مَهْمَلَةٌ ، وهو مصروف ، ومنهم من مَنَعَ صَرْفَهُ . « وَالْقَفُّ » بضم القاف وتشديد الفاء : هُوَ الْمَبْنِيُّ حَوْلَ الْبِئْرِ . قوله : « عَلَى رِسْلِكَ » بكسر الراء على المشهور ، وقيل بفتحها ، أي : اِرْقُ .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (باب استحباب التبشير بالخير والتهنئة به) آيات سبق الكلام عليها ، وبينا أن البشارة قد تكون بخير في الدنيا وقد تكون في الآخرة .

ثم ذكر حديثين : حديث أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشَّرَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ببيت في الجنة . وكذلك حديث أبي موسى الأشعري وسيأتي إن شاء الله .

فقد بشر ﷺ خديجة ببيت في الجنة من قصب ليس فيه صخب ولا نصب . ولكن القصب الذي بُنِيَ مِنْهُ قَصْرُ خَدِيجَةَ فِي الْجَنَّةِ لَيْسَ كَالْقَصْبِ الَّذِي فِي الدُّنْيَا . الاسم هو الاسم

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٩) واللفظ له ، والبخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٧٤) قوله « فأولتها قبورهم » قيل : نية وقوع التأويل في اللفظة وهو الذي يسمى الفراسة . والمراد اجتماع أبي بكر وعمر مع النبي ﷺ في الدفن وانفراد عثمان عنهم .

(٢) هذه رواية للبخاري أخرجها في الأدب (٦٢١٦) .

والحقيقة غير الحقيقة ، كما أنه في الجنة نخل ورمان وفاكهة ولحم طير وغير ذلك لكن التشابه في الاسم فقط ، فالاسم هو الاسم والحقيقة غير الحقيقة .

وهذا باب يجب على الإنسان أن يتفطن له ؛ فإن أمور الغيب التي لها نظير في الدنيا لا تماثل نظيرها في الآخرة .

فمثلاً في صفات الله ﷻ ، لله ﷻ وجه كريم ، موصوف بالجلال والإكرام ، ونحن أيضاً لنا وجه فالأمر لا يختلف في الاسم ، لكن قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، فوجهه يليق بجلاله وعظمته ، ولا يمكن الإحاطة به ؛ لا وصفاً ، ولا تصوراً في الذهن ، ولا نطقاً باللسان ، فهو أعظم وأجل من أن تحيط به الأوصاف ، وهكذا بقية صفاته ﷻ . اسمها يوافق الاسم الذي تنصف به ، ولكن الحقيقة غير الحقيقة .

كذلك أيضاً الجنة فيها عسل ، وماء ، وخمر ، ولحم ، ونساء ، وفاكهة ، ورمان ، وغير ذلك ، لكن ليست كالذي في الدنيا ؛ لأن الله ﷻ قال في القرآن الكريم : ﴿ فَلَا تَمْلِكُمْ نَفْسٌ مَّا أُخِيتُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] ، ولو كانت مثل ما في الدنيا لكنها ليست مثلها ولا قريباً منها . وكذلك قال النبي ﷺ فيما يرويه عن الله أنه قال : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ^(١) نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين ممن أعد الله لهم ذلك . فخديجة رضي الله عنها رضي الله عنها بشرها النبي ﷺ بواسطة جبريل ، هو الذي أخبر الرسول ﷺ : بشرها ببيت في الجنة من قصب ، ولكن ليس القصب الذي في الجنة مثل القصب الذي في الدنيا ، ثم قال : « ليس فيه صخب ولا نصب » .

والصخب : أي الأصوات المزعجة الشديدة ، أهل الجنة كلهم ليس عندهم صخب ولا نصب ولا كلام لغو ، كما قال تعالى : ﴿ لَا تَلْعَوْ فِيهَا وَلَا تَأْتِينَ ﴾ [الطور : ٢٣] .

﴿ يَخْتَلِفُ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] ، فكلامهم طيب لأنهم جوار الطيب جل وعلا ، فهم طيبون في جنات عدن ، مساكن طيبة عند الطيب جل وعلا ، كما أن قلوبهم في الدنيا طيبة ، وأفعالهم طيبة ، لأن الله لا يقبل إلا الطيب ^(٢) ، وأفعالهم مقبولة ، فهم كذلك في الآخرة .

فقصر خديجة ليس فيه صخب ، وليس فيه نصب ، وليس فيه تعب ، لا يحتاج إلى كنس القمامة ولا غيره ، بل كله طيب . وهذه بشارة لأهل المؤمنين خديجة رضي الله عنها .

وأم المؤمنين خديجة هي أول امرأة تزوجها النبي ﷺ ، تزوجها وهو ﷺ ابن خمس وعشرين سنة ، ولها أربعون سنة من زوج سابق قبله ، وولدت له ﷺ بناته الأربع وأولاده الثلاثة أو الاثنان ،

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢) .

(٢) هذا معنى حديث وقد أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) بلفظ « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

ان ، ولم يتزوج عليها أحدًا حتى ماتت ﷺ ، وكانت امرأة عاقلة ذكية حكيمة ، لها مآثر طيبة معروفة يجدها من يراجع ترجمتها في كتب التاريخ ^(١) ، وكانت تسامي عائشة رضي الله عنها يعني إنها هي وعائشة أفضل نساء الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأحب نسائه إليه .

واختلف العلماء أيهما أفضل ؛ فقيل : عائشة ، وقيل : خديجة ، والصحيح أن لكل واحدة منهما مزية تختص بها ، لا تشاركها فيها الأخرى .

فلعائشة رضي الله عنها في آخر الرسالة ، وبعد موت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، من نشر الرسالة والعلم والشريعة ما ليس لخديجة .

وخديجة رضي الله عنها لها في أول الرسالة ومناصرة النبي ﷺ ومعاضدته ما ليس لعائشة ، فلكل واحدة منهما مزية . أما الفضيلة الكبرى فكفى لهما فخراً أنهما أحب نساء النبي ﷺ إليه ، ويكفي هذا ، وأما الفضائل فكل واحدة لها فضيلة .

* * *

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أنه في يوم من الأيام توضأ في بيته وخرج يطلب النبي ﷺ ويقول : « لأزمن رسول الله ﷺ يومي هذا » . الزمن : يعني أكون معه ذاهباً وآتياً . وفي هذا : دليل على أن الإنسان ينبغي إذا خرج من بيته أن يكون متوضئاً لأجل أن يكون مستعداً للصلاة وهو خارج البيت ، فإذا جاء وقت الصلاة وهو في مكان لا يوجد فيه ماء كان على طهارة وصلى ، وإذا حضرت جنازة صلى عليها وهو خارج البيت ، أو على الأقل يكون على طهر ، لأن كون الإنسان على طهر أفضل من أن يكون على غير طهر ، وربما أيضاً يحصل له الموت في هذا الوقت فيكون على طهر ، فالإنسان يحرص ما استطاع أن يكون على طهر لاسيما إذا خرج من بيته .

فخرج ﷺ يطلب النبي ﷺ فأتى المسجد ، لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - إما في المسجد وإما في بيته في مهنة أهله ^(٢) ، وإما في مصالح أصحابه - عليه الصلاة والسلام - ، فلم يجده في المسجد ، فسأل عنه فقالوا : وجّه هاهنا ، وأشاروا إلى ناحية (أريس) وهي بئر حول قباء ، فخرج أبو موسى في إثره حتى وصل إلى البئر ، فوجد النبي ﷺ هنالك فلزم الباب ﷺ .

فقضى النبي ﷺ حاجته وتوضأ ثم جلس على قُفِّ البئر يعني على حافته ، ودلى رجله وكشف عن ساقيه . والظاهر - والله أعلم - أنه كان في ذلك الوقت في حرٍّ ، وهذا البئر فيه ماء ، والماء قريب وحوله الأشجار والنخل والظلال ، وعادة أن الإنسان إذا حصل له مثل ذلك فعل مثل هذا الفعل ؛ فيكشف عن ساقيه ليبرد جسمه ، وتأتيه من برودة الماء الذي في البئر ، وفي هذا الظل .

فجلس - عليه الصلاة والسلام - متوسطاً للقف أي حافة البئر ، ودلى رجله ، وكشف عن

(١) انظر الطبقات الكبرى (٥٢/٨) ، وأعلام النساء لعمر رضا كحالة (٣٢٦/١) .

(٢) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٦٣) بلفظ « كان (يكون) في مهنة أهله ... » ، والإمام أحمد في مسنده (٤٩/٦) .

ساقيه ، وكان أبو موسى على الباب يحفظ باب البئر ، فاستأذن أبو بكر ﷺ ، لكنه لم يأذن له أبو موسى حتى يستشير النبي ﷺ ، فقال للنبي ﷺ : هذا أبو بكر يستأذن ، فقال : « ائذن له وبشره بالجنة » فأذن له وقال له : يشرك رسول الله ﷺ بالجنة .

ويا لها من بشارة .. ! يشره بالجنة ثم يأذن له أن يدخل ليكون مع الرسول ﷺ .

فدخل ووجد النبي ﷺ متوسطاً القفّ فجلس عن يمينه ؛ لأن النبي ﷺ يعجبه التيامن في كل شيء ، فجلس أبو بكر على يمينه وصنع مثل ما صنع النبي ﷺ ؛ دلى رجله في البئر وكشف عن ساقيه كراهة أن يخالف النبي ﷺ ؛ في هذه الجلسة ، وإلا فليس من المشروع أن يجلس الإنسان على بئر ويدلي رجله ويكشف عن ساقيه ، لكنه لا يحب أن يجلس مع النبي ﷺ على غير الهيئة التي كان النبي ﷺ يجلس عليها .

فقال أبو موسى - وكان قد ترك أخاه يتوضأ ويلحقه - : إن يرد الله به خيراً يأتي به ، وإذا جاء واستأذن فقد يحصل له أن يُشَرَّ بالجنة ، ولكن استأذن الرجل الثاني ، فجاء أبو موسى إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقال : هذا عمر قال : « ائذن له وبشره بالجنة » فأذن له ، وقال له : يشرك رسول الله ﷺ بالجنة .

فدخل فوجد النبي ﷺ وأبا بكر على القف ، فجلس عن يسار الرسول - عليه الصلاة والسلام - والبئر ضيقة ، ليست واسعة كثيراً ، فهؤلاء الثلاثة كانوا في جانب واحد .

ثم استأذن عثمان وصنع أبو موسى مثل ما صنع من الاستئذان فقال النبي ﷺ : « ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه » ، فأذن له وقال : يشرك الرسول ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك ، فاجتمع في حقه نعمة وبلوى ، فدخل فوجد القف قد امتلأ ، لأنه ليس واسعاً كثيراً ، فذهب إلى الناحية الأخرى تجاههم وجلس فيها ، ودلى رجله ، وكشف عن ساقيه .

أولها سعيد بن المسيب - أحد كبار التابعين - على أنها قبور هؤلاء ؛ لأن قبور الثلاثة كانت في مكان واحد ، فالنبي ﷺ وأبو بكر وعمر كلهم كانوا في حجرة واحدة ، دفنوا جميعاً في مكان واحد ، وكانوا في الدنيا يذهبون جميعاً ويرجعون جميعاً ، ودائماً يقول النبي ﷺ : « ذهب أنا وأبو بكر وعمر » وجئت أنا وأبو بكر وعمر ^(١) ، فهما صاحباها ووزيراها ، ويوم القيامة يخرجون من قبورهم جميعاً . فجلس عثمان رضي الله عنه تجاههم ، وبشره ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبه ، وهذه البلوى هي ما حصل له من اختلاف الناس عليه وخروجهم عليه ، وقتلهم إياه في بيته ﷺ ، حيث دخلوا عليه في بيته وقتلوه وهو يقرأ القرآن ، وكتاب الله بين يديه .

ويذكر بعض المؤرخين أن قطرة من الدم نزلت على قوله تعالى : ﴿ نَبِّئِكُمُ اللَّهُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴾

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٨٥) بلفظ « ذهب أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر » وابن ماجه في المقدمة (٩٨) .

الْمَكِيلُ ﴿ [البقرة: ١٢٧] ، والله أعلم .

لكن على كل حال هو ﷺ كان معروفاً بكثرة القراءة والتهجد ، فدخل عليه أولئك المعتدون الظالمون فقتلوه ، فقتل شهيداً .

وبذلك تحقق قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - حينما صعد على جبل أحد - وهو جبل معروف كبير في المدينة - هو وأبو بكر وعمر وعثمان ، وارتج بهم الجبل ، وهذا من آيات الله ، ليس هو ارتجاج نعمة وخسف ، لكنه ارتجاج فرح ، فلما ارتج بهم الجبل قال له النبي ﷺ : « اثبت أحمُ ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان » ^(١) فالتني هو - عليه الصلاة والسلام - ، والصديق أبو بكر ، والشهيدان : عمر وعثمان . وكلاهما ﷺ قتل شهيداً ؛ أما عمر فقتل وهو متقدم لصلاة الفجر بالمسلمين ، قُتل في المحراب ، وأما عثمان فقتل وهو يتهجّد في بيته في صلاة الليل ، فرضي الله عنهما ، وألحقنا وصالح المسلمين بهما في دار النعيم المقيم .

فهذه القصة فيها بشارة لأبي بكر وعمر وعثمان ، ولذلك ذكرها المصنف رحمه الله في هذا الباب ، فرضي الله عنهم جميعاً ، وجعلنا والمسلمين ممن يحشرون في زمرة محمد ﷺ .

* * *

٧١٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَمَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ﷺ فِي نَقَرٍ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا ، وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا وَفَرَعْنَا فَقُنَّتَا ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَرَغَ ، فَخَرَجْتُ أَتْبَعِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجَدُ لَهُ أَبَا ؟ فَلَمْ أَجِدْ ، فَإِذَا رَيْعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بَقَرٍ خَارِجُهُ - وَالرَّيْعُ الْجَدُولُ الصَّغِيرُ - فَاحْتَفَزْتُ ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « أَبُو هُرَيْرَةَ ؟ » فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « مَا شَأْنُكَ » قُلْتُ : كُنْتُ بَيْنَ ظَهْرَيْنَا فَقُمْتُ فَأَبْطَأَتْ عَلَيْنَا ، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا ، فَفَرَعْنَا ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَرَغَ ، فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ ، فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّغْلَبُ ، وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي ، فَقَالَ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ » وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ فَقَالَ : « اذْهَبْ بِنَعْلَيْ هَاتَيْنِ ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيِقِنًا بِهَا قَلْبُهُ ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ » وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ ^(٢) ، رواه مسلم .

« الرَّيْعُ » : التَّهْرُ الصَّغِيرُ ، وَهُوَ الْجَدُولُ - بفتح الجيم - كَمَا فَسَّرَهُ فِي الْحَدِيثِ . وقوله :

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٧٥) ، والترمذي في المناقب (٣٦٩٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٢) . قوله « من بين أظهرنا » يقال : نحن بين أظهركم وظهركم وظهرايتكم ، أي بينكم ، قوله « يقتطع دوننا » أي يصاب بمكروه من عدو ، قوله « وفرعنا » الفرع بمعنى الروع ، وبمعنى الاهتمام بالشيء والهوب له ، وبمعنى الإغائة . والمعاني الثلاثة تصح هنا ، قوله « حائطا » أي بستانا . وسمي بذلك ؛ لأنه حائط لا سقف له .

« اِخْتَفَرْتُ » رَوَى بِالرَّاءِ وَالزَّايِ ، ومعناه بالزاي : تَضَامَّتْ وَتَصَاعَزَتْ حَتَّى أَمَكَّنْتِي الدُّخُولَ .

الشرح

هذا الحديث الذي نقله المؤلف في (باب التبشير والتهنئة بالخير) فيه أيضًا البشارة ، فإن النبي ﷺ كان جالسًا في أصحابه في نفر منهم ، ومعه أبو بكر وعمر ، فقام النبي ﷺ ثم أبطأ عليهم ، فخشوا أن يكون أحد من الناس اقتطعه دونهم ، لأن النبي ﷺ مطلوب من جهة المنافقين ومن جهة غيرهم من أعداء الدين . فقام الصحابة ﷺ فرعين ، فكان أول من فرغ أبو هريرة ؓ ، حتى أتى حائطًا لبني النجار ، فجعل يطوف به لعله يجد بابًا فلم يجد ، ولعله أراد بابًا مفتوحًا فلم يجد لأنه من المعلوم أن الشيطان لا بد أن يكون لها أبواب ، ولكن لعله أن يكون وجد بابًا مغلقًا ، ولكنه وجد فتحة صغيرة في الجدار فضم جسمه حتى دخل فوجد النبي ﷺ .

فقال له : « أبو هريرة » . قال : نعم . فأعطاه نعليه - عليه الصلاة والسلام - وقال له : « اذهب يَنْغَلِيْ هَاتَيْنِ ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا به قلبه فبشره بالجنة » . فخرج أبو هريرة ؓ ومعه نعل رسول الله ﷺ ، وكان الرسول ﷺ أعطاه النعلين أمانة وعلامة أنه صادق ، لأن هذه بشارة عظيمة ، أن من شهد لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه دخل الجنة ، لأن الذي يقول هذه الكلمة مستيقنًا بها قلبه لا بد أن يقوم بأوامر الله ويحجب نواهي الله ، لأنه يقول : لا معبود بحق إلا الله ، وإذا كان هذا معنى تلك الكلمة العظيمة ، فإنه لا بد أن يعبد الله ﷻ وحده لا شريك له .

أما من قالها بلسانه ولم يوقن بها قلبه - والعياذ بالله - فإنها لا تنفعه ، فهاهم المنافقون يشهدون أن لا إله إلا الله ، لكنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا ، ويقومون ويصلون ، لكنهم يصلون صلاة المنافقين ، فالصلاة ثقيلة عليهم ، وأثقلها صلاة العشاء والفجر ، ويأتون للرسول - عليه الصلاة والسلام - يقولون : نشهد أنك لرسول الله ، ويؤكدون هذا .

ولكن الله يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ؛ لم تستيقن قلوبهم بلا إله إلا الله ولا بحمد رسول الله ، ولهذا لم تنفعهم ، أما من استيقن بها قلبه فهذا هو الذي يشير بذلك .

ولكن لا يمكن أن يوجد إنسان صادق يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويترك الفرائض ، ولهذا لا يكون هذا الحديث دليلًا على أن تارك الصلاة لا يكفر . لا ، ليس فيه دلالة ، لأن تارك الصلاة يكفر ولو قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، لأنه يقولها من غير يقين . إذ كيف يقولها من يقين ويترك الصلاة ويحافظ على تركها والعياذ بالله ؟ (١) .

(١) إن من ترك الصلاة عن جحود ونكران وكفران كما لو كان غير معتقد مشروعيتها أو فائدتها ، أو كان ينظر إليها باستخفاف وزرارية وسخرية فذلكم لا جرم أنه كافر وهو ما أجمع عليه العلماء سلفًا وخلفًا وقد نقل الإمام المارودي الإجماع على ذلك وهو في ذلك جاز في جحود كل مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة (مغني المحتاج ج ١ ص =

ولكن قد يرد على القلب وساوس من الشيطان في الله ﷻ ، وهذه الوسوس لا تضر المؤمن شيئاً ، فإن النبي ﷺ قال : « هذا صريح الإيمان » ^(١) . ليس معنى ذلك أن الوسوس نفسها صريح الإيمان ، لكن الوسوس دليل على خالص الإيمان ، لأن الشيطان يأتي إلى القلب الخالص الصريح الخالي من الشك ويوقع عليه الوسوس لعله يشك ، أو لعله يفسد إيمانه .

فيأتي الشيطان إلى القلب العاير بالإيمان فإذا دافعه الإنسان ، وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأخذ يوحد الله ﷻ ويمجده وأعرض عن هذه الوسوس زالت عنه ، والشيطان لا يأتي إلى قلب خراب ليفسده ؛ لأن القلب الخراب خراب .

ويذكر أن ابن مسعود أو ابن عباس ؓ جاء إليه ناس يقولون : إن اليهود يقولون : نحن لا نؤمن في الصلاة . فقال ابن عباس أو ابن مسعود : وما يصنع الشيطان بقلب خراب ؟

معنى هذا أن قلوبهم خربة ، والقلوب الخربة لا يأتي الشيطان لها ، لأنها انتهت إلى ما يريده الشيطان ، إنما يأتي الشيطان للقلوب السليمة المخلصة من أجل أن يلقي عليها الوسوس والشكوك . فدفع عنك هذه الوسوس والشكوك والتجئ إلى ربك وقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فسيزول عنك ذلك ياذن الله .

ففي هذا الحديث : بشارة بالخير ، وهو أن من شهد أن لا إله إلا الله موقفاً بها قلبه فليشتر بالجنة .

* * *

٧١١ - وعن ابن شماس قال : حضرنا عمرو بن العاص ؓ وهو في سبابة الموت فبكى طويلاً ، وحول وجهه إلى الجدار ، فجعل ابته يقول : يا أبتاه ، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ فأقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، إني قد كنت على أطباق ثلاث : لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحب إلي من أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : انشط يمينك فلا تأبغك ، فبسط يمينه فقبضت يدي ، فقال : « مالك يا عمرو ؟ » قلت : أرذت أن أشترط ، قال : « تشترط ماذا ؟ » ، قلت : أن يغفر لي ، قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان

= (٣٢٧ ، المحلى ج ٢ ص ٢٤١) .

أم إن تركها عن غير جحد ولا نكران ولا استخفاف بها ، بل تركها كسلاً وعجزاً أو تهاوناً وتثاقلاً مع أنه مؤمن بها من حيث الأهمية والمشروعية فإنه لا يكفر بل يفسق تفسيقاً ، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه ينبغي قتله بعد أن ينذر ويحذر ويستتاب فإن أبى إلا النكول عن الصلاة وهو غير جاحد لها فقد وجب قتله حداً لا كفراً .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٩) ، وأحمد في مسنده (٤٤١/١) .

قَبْلَهَا ، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ؟ » وما كان أخذَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا أَجَلَ فِي عَيْنِي مِنْهُ ، وَمَا كُنْتُ أَطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ ، إِجْلَالًا لَهُ ، وَلَوْ سِيلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ ، وَلَوْ مِثْتُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَحْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ وَلَّيْنَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا خَالِي فِيهَا ؟ فَإِذَا أَنَا مُتٌ فَلَا تَصْحَبَنِي نَائِحَةٌ وَلَا نَارٌ ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي ، فَسُتُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سُنًّا ، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدَرٌ مَا تُنَحَرُ جَزُورٌ ، وَيُقَسَّمُ لِحْمُهَا ، حَتَّى أَتَأْتِيَنَّ بِكُمْ ، وَأَنْظُرَ مَا أَرَا جُعَ بِهِ رُسُلَ رَبِّي ^(١) . رواه مسلم .

قوله : « سُنُّوا » رُويَ بِالشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَبِالْمُهْمَلَةِ ، أَي : صُبُّهُ قَلِيلًا قَلِيلًا . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

الشرح

ثم ذكر المؤلف ﷺ في سياق الأحاديث الواردة في التبشير والتهنئة بالخير حديث عمرو بن العاص ﷺ ، تلك القصة العظيمة أنه حضره بعض أصحابه وهو في سياق الموت ، فبكى بكاءً شديدًا وحول وجهه نحو الجدار ﷺ ، وهو في سياق الموت سيفارق الدنيا ، فقال له ابنه : غلام تبكي وقد بشرك النبي ﷺ بالجنة ؟ فقال : « يا بني إني كنت على أطباق ثلاث » ، أطباق يعني أحوال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق : ١٩] ، يعني حالًا بعد حال .

ثم ذكر هذه الأطباق الثلاث ؛ أنه كان يُغضض النبي ﷺ بغضًا شديدًا ، وأنه لم يكن على وجه الأرض أحد يغضه كما كان يغضه هو ، وأنه يود أنه لو تمكن منه فقتله ، وهذا أشد ما يكون من الكفر ، حتى ألقى الله الإسلام في قلبه ، فجاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : ابسط يدك فلا يابعك على الإسلام ، وكان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا ، فمد يده ولكن عمرو بن العاص كفَّ يده ليس استكبارًا ، ولكن استنباطًا لما سيذكره ، فقال له : « مَالِكٌ » ؟ قال : يا رسول الله ، إني أشرتُ - يعني على الإسلام - قال : « ماذا تشرط » ؟ قال : أشرتُ أن يُغفر لي .

هذا أكبر همه ﷺ ، يشترط أن الله يغفر له ، ظن أن الله لن يغفر له لما كان له من سابقة في محاربة الدين . فقال له النبي ﷺ : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » ثلاثة أشياء .

أما الإسلام فإنه يهدم ما كان قبله بنص الكتاب العزيز ، قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُوءُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

والهجرة : إذا هاجر الإنسان من بلده التي كان يعيش فيها وهي بلد كفر ، هدمت ما قبلها .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٢) . قوله « في سياقة الموت » أي حال حضور الموت ، قوله « كنت على أطباق ثلاث » أي على أحوال ثلاث ، قوله « فلا تصحبني نائحة » النائحة الرافعة صوتها بالبكاء كـ « يا جبلاه » ، وهي ملعونة في السنة ، قوله « جزور » الجزور هي الناقة التي تنحر .

والحج يهدم ما قبله لقول النبي ﷺ : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (١) .
فبايع ﷺ وأحب النبي ﷺ حُبًّا شديدًا حتى كان أحب الناس إليه ، وحتى أنه لا يستطيع أن يحد النظر فيه إجلالاً له - عليه الصلاة والسلام - . سبحان مقلب القلوب ! بالأمنس كان يَغضه بغضًا شديدًا ، حتى يتمنى أنه يقدر عليه فيقتله ، والآن ما يستطيع أن يرفع طرفه إليه إجلالاً له ، ولا يستطيع أن يصفه لأنه لا يحيط به ، حيث إنه لم يدركه إدراكًا جيدًا مهابةً له ﷺ .

يقول ﷺ : إنه لو مات على الطبقة الأولى لكان من أهل النار ، يقول : لو مات على تلك الحال يعني الطبقة الثانية ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة . انظر الاحتياط فقد جزم أنه لو مات على الحال الأولى لكان من أهل النار ، أما الحال الثانية فإنه لشدة خوفه قال : لو مات على هذه الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ولم يقل : لكنت من أهل الجنة ، لأن الشهادة بالجنة أمرها صعب ، نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها .

ثم إنه بعد ذلك تولى أمورًا ﷺ ، وتولى إمارات وقيادات ، وحصل ما حصل في قصة حرب معاوية وغيره ، وكان عمرو بن العاص معروف أنه من أدهى العرب وأذكى العرب ، فيقول : أخشى من هذا الذي حدث بعد الطبقة الأوسط أن يكون أحاط بعمله .

ثم أوصى ﷺ أنه مات فلا تتبعه نائحة . والنائحة : هي المرأة التي تنوح على الميت وتبكي عليه بكاءً يشبه نوح الحمام ، وأمر ﷺ إذا دفنوه أن يبقوا عند قبره قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها ، حتى يراجع رسل ربه وهم الملائكة الذين يأتون إلى الميت إذا دفن الميت فإنه يأتيه ملكان ويجلسانه في قبره ويسألانه ثلاثة أسئلة يقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

أما المؤمن الذي ثبته الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة - جعلنا الله منهم بمنه وكرمه - فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، يثبت الله في هذا المقام الضنك .
وأما المنافق - والعياذ بالله - أو المرتاب الذي عنده الشك فيقول : هاه .. هاه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته ، لأن الإيمان ما دخل إلى قلبه ولا وفر في قلبه ، فهو يسمع ويقول ، لكن - نسأل الله العافية - لم يلج الإيمان قلبه ، فيضرب بمرزبة ، والمرزبة : هي المطرقة العظيمة من الحديد ؛ يضرب بِمَرَزَبَةٍ ، من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان (٢) .

وقال النبي ﷺ : « ولو سمعها الإنسان لصعق » ، لو يسمع الناس من يعذب في قبره لصُعِقُوا ، لأنه يصيح صيحة لا نظير لها في الدنيا ، لأن الصياح في الدنيا مهما كان لا يموت منه أحد ، لكن هذه الصيحة عظيمة ليس لها نظير ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصُعِقَ .

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١) ، ومسلم في الحج (٤٣٨) قوله : « فلم يرفث ولم يفسق » الرث اسم للفحش من القول ، وقيل : هو الجماع وأما الفسوق فالمعصية ، وفسر بالخروج عن الاستقامة .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٤) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٠) .

فأمر عمرو بن العاص رضي الله عنه أهله أن يقيموا عليه قدر ما تنحر الجزور ويقسم لحمها ليستأنس بهم ، وهذا يدل على أن الميت يحس بأهله ، وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا من دفنه ^(١) . قرع النعال الخفي يسمعه الميت إذا انصرفوا من دفنه .

وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - في حديث حسن أنه كان إذا دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأحييكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » ^(٢) ، فيستحب إذا دفن الميت أن يقف الإنسان على قبره ويقول : اللهم ثبته ، اللهم ثبته ، اللهم ثبته ، اللهم اغفر له ، اللهم اغفر له ، اللهم اغفر له . لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم سلم ثلاثاً ، وإذا دعا دعا ثلاثاً ^(٣) .

نسأل الله تعالى أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .
المهم : أن ابن عمرو بن العاص قال له : بشرك النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وهذا من باب البشارة بالخير والتهنئة به .

* * *

٩٦ - باب وداع الضاحب ووصيته عند فراقه لسفر

وغيره والدعاء له وطلب الدعاء منه

قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِلَهًا وَحِيدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤﴾ [البقرة : ١٣٢ ، ١٣٣] .
وأما الأحاديث :

٧١٢ - فمنها حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه الذي سبق في باب إكرام أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ووعظ وذكّر ، ثم قال : « أُمَّا بَعْدُ ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ : أَوَّلُهُمَا : كِتَابُ اللَّهِ ، فِيهِ الْهُدَى وَالتُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ » فَحُتَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَرَعِبَ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : « وَأَهْلُ بَيْتِي ، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي » ^(٥) رواه مسلم . وَقَدْ سَبَقَ بِطَوِيلِهِ .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٣) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢٢١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٠٧) .

(٤) قوله تعالى : ﴿ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ أي اختار لكم الإسلام . قوله تعالى : ﴿ شُهَدَاءَ ﴾ أي حاضرين .

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦/٣ ، ٥٩) . قوله « يوشك أن يأتي رسول ربي » أي بالانتقال إليه وإن كان يخير بين ذلك وبين البقاء في الدنيا ، لكن من المعلوم أنه لا يؤثر على النقلة إليه البقاء في الدنيا ، قوله « ثقلين » شئنا به لعظمهما .

الشرح

قال النووي - رحمه الله تعالى - : (باب وداع الصاحب ووصيته عند فراقه لسفر وغيره والدعاء له وطلب الدعاء منه) .

وذلك أن الإنسان إذا سافر فينبغي لذويه وأقاربه وأصحابه أن يودّعوه ، وأن يوصوه بتقوى الله ﷻ ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﷻ ﴾ [النساء : ١٣١] .

وكان النبي ﷺ إذا بعث جيشاً أو سرية وأقر عليهم أميراً قال له : « أوصيك بتقوى الله ومن معك من المسلمين خيراً » ^(١) ، وذلك أن الإنسان يحتاج من يساعده ويعينه على طاعة ربه لا سيما عند السفر ، لأن السفر محل الشغل والتقصير لا سيما فيما سبق من الزمان ، لما كانت الأسفار بعيدة على المطايا وعلى الأقدام ، فالناس يحتاجون إلى وصية وإلى تثبيت وإلى إعانة .

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - الآيات الواردة في ذلك فذكر قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] وهذه الوصية هو قول الله ﷻ في إبراهيم : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] ، ولم يتردد فأسلم وانقاد له .
﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ ﴾ يعني : وصى بهذه الوصية ، وهي أن يسلموا لله ﷻ ظاهراً وباطناً ، فالإسلام الظاهر يكون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، والإسلام الباطن يكون بالإيمان بالله وملائكته وكتبه إلى آخره .

﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ ﴾ يعني : أن إبراهيم ويعقوب كلأ منهما وصى بها بنيه قائلاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ أي : اختاره لكم ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ المعنى : استدينوا الإسلام واثبتوا عليه إلى الممات ولا تتردوا عنه .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدَى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا ﴾ وهذا غاية التوحيد ، وهو من نصيح يعقوب ﷺ لبنيه حيث أراد أن يعرف حالهم قبل أن يفارق الدنيا ، ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدَى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

أما إبراهيم فهو أبوه يعني جده ، وإسحاق أبوه من صلبه ، وأما إسماعيل فهو عمه لكن أطلق عليه لفظ الآباء من باب التغليب ، لأن العم صنو الأب ، كما قال النبي ﷺ لعمر : « يا عمر ! أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » ^(٢) يعني شريكه في الأصل والجذر . والصنو هو عبارة عن النخلتين يكون أصلهما واحداً وهما قريتان .

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١١) .

وقوله : ﴿إِلَهِهَا وَحِدًا﴾ من باب التوكيد ﴿وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

فهذه الوصية ينبغي للإنسان أن يوصي بها من أراد سفرًا ، وأن يوصي بها أهله ، وأن يتعاهدهم عليها ، لأنها هي التي عليها بناء كل شيء ، فلا دين بدون إخلاص ، ولا عبادة بدون إخلاص ، ولا اتباع بدون إخلاص ، كل شيء مبناه على الإخلاص لله ﷻ .

* * *

٧١٣ - وعن أبي سليمان مالك بن الحويرث ؓ قال : أتينا رسول الله ﷺ ونَحْنُ شَبِيَّةٌ مُتَقَارِبُونَ ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا ، فَظَنُّ أَنَّا قَدِ اسْتَقْنَا أَهْلَنَا ، فَسَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا مِنْ أَهْلِنَا ، فَأَخْبَرَنَا ، فَقَالَ : « ارجعوا إلى أهليكم ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ ، وَعَلِّمُوهُمْ وَمُزَوِّهِمْ ، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا ، وَصَلُّوا كَذَا فِي حِينِ كَذَا ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤْذَنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ ، وَلْيُؤْمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ » متفق عليه (١) .

زاد البخاري في رواية له : « وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِي » (٢) .

قوله : « رَحِيمًا رَفِيقًا » روي بقاء وقاف ، وروي بقافين .

الشرح

ذكر المؤلف النووي - رحمه الله تعالى - في باب توديع صاحب والمسافر ما نقله عن مالك بن الحويرث ؓ قال : أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبِيَّةٌ مُتَقَارِبُونَ ، وهذا في عام الوفود في السنة التاسعة من الهجرة وكانوا شبابًا ، فأقاموا عند النبي ﷺ عشرين ليلة .

جاءوا من أجل أن يتفقهوا في دين الله ، قال مالك : وكان رسول الله ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا ، فَظَنُّ أَنَّا قَدِ اسْتَقْنَا أَهْلَنَا ، يعني اشتقنا إليهم ، فسألنا عن تركنا من أهلنا ، فأخبرناه ، فقال : « ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلِّمُوهم ومزوّهِهم ، وصلُّوا صلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمِّكم أكبركم » زاد البخاري : « وصلُّوا كما رأيتموني أصلي » .

فهذا الحديث فيه فوائد :

منها : أن النبي ﷺ كان مشهورًا بالرحمة والرفق ، فكان أرحم الناس بالناس ، وكان أرفق الناس بالناس - عليه الصلاة والسلام - . رَحِيمًا رَفِيقًا ، حتى إن الجارية من أهل المدينة - البنت الصغيرة - كانت تمسك بيده ليذهب معها ليقضي حاجتها ، وحتى العجوز كذلك ، فكان - عليه الصلاة والسلام - أرحم الناس بالناس ، وأرفق الناس بالناس .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٨٥) ، ومسلم في المساجد (٦٧٤) . قوله « شَبِيَّةٌ » جمع شاب ، قوله « متقاربون » أي في السن .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٣١) .

ومنها : أن الإنسان ينبغي له أن يكون شعوره شعور الآخرين ، لا يكون أنانيًا إذا تمت له الأمور نسي من سواه ، فإن رسول الله ﷺ كان مقيمًا في أهله مستريح البال مطمئن القلب مرتاح النفس ، لكن هؤلاء الناس الشبية الذين جاءوا يتعلمون الدين ، كانت الفطرة والعادة والطبيعة أن الإنسان يشتاق إلى أهله ، فلما رأى أنهم اشتاقوا إلى أهلهم وسألهم من خلفوا وراءهم وأخبروه ، أمرهم أن يرجعوا إلى أهلهم .

فينبغي عليك أن تشعر بشعور الآخرين وأن تجعل نفسك مكانهم حتى تعاملهم بما تحب أن تعامل به نفسك .

ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن يقيم في أهله ما أمكنه ، ولا ينبغي أن يتغرب عنهم ولا أن يتعد عنهم ، حتى إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أمر المسافر إذا سافر وقضى حاجته أن يرجع إلى أهله ، لأن بقاء الإنسان في أهله فيه خير كثير ، فيه الألفة والمودة والمحبة ، والترية ومراعاة أحوالهم ، والتأديب والتوجيه لهم ، فلهذا كان الذي ينبغي للإنسان ألا يفارق أهله إلا عند الحاجة ، ومتى انتهت حاجته رجع إليهم .

ومن فوائد الحديث : أن الإنسان مأمور بأن يعلم أهله ولهذا قال : « ارجعوا إلى أهليكم وعلموهم » ، يعلمونهم ماتعلموه من رسول الله ﷺ ، فالإنسان ينبغي له أن يعلم أهله ما يحتاجون إليه ، إما أن يجعل جلسة خاصة لهم ، أو إذا جلسوا على الطعام أو على الشراب أو في انتظار النوم أو ما أشبه ذلك يعلمهم .

ومن فوائد الحديث أيضًا : أن الإنسان لا يقتصر على التعليم فقط ، قال : « علموهم ومروهم » فيعلمهم ويأمرهم ، وأهم ما يأمر به : الصلاة ، وقد نص الرسول - عليه الصلاة والسلام - عليها فقال : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر » ^(١) ، فلا بد من تعليم الأهل ، ولا بد من أمرهم وتأديبهم وتوجيههم .

ومن فوائد الحديث : وجوب الأذان وأنه فرض كفاية ؛ لقوله : « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم » .

ومنها : أنه لا يصح الأذان قبل الوقت ، فلو أذن الإنسان قبل الوقت ولو بتكبير واحدة من الأذان ، فإن أذانه لا يصح ، ويجب عليه أن يعينه بعد دخول الصلاة ، لقوله : « إذا حضرت الصلاة » والصلاة لا تحضر إلا إذا دخل وقتها .

وبهذا نعرف أن قول الرسول ﷺ لأبي محذورة « إذا أذنت بالأول من الصبح فقل : الصلاة خير من النوم مرتين » ^(٢) المراد به الأذان الذي يكون بعد دخول الوقت ، لأنه قال الأول لصلاة الصبح .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٥) ، والترمذي في الصلاة (٤٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٧/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٠٨/٣) .

خلافًا لما فهمه بعض الناس من أن المراد بذلك الأذان الذي يكون قبل الفجر لأن الأذان الذي يكون قبل الفجر ليس أذانًا لصلاة الفجر ، فقد بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الأذان الذي يكون قبل الفجر هو لإيقاظ النائم وإرجاع القائم . فقال : « إن بالأذان يؤذن بليل ليوقظ نائمكم ويرجع قائمكم ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » (١) .

هكذا قال النبي ﷺ في هذا الحديث أن الأذان الذي يكون في آخر الليل ، والذي يسميه الناس الأذان الأول ليس للفجر وليس للصلاة ، لأن الأذان للصلاة لا يكون إلا بعد دخول وقتها : « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم » وقد بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن هذا الأذان ليس لصلاة الفجر بقوله : « ليرجع قائمكم » يعني ليرده ليتسحر « ويوقظ نائمكم » ليتسحر . ومن فوائد هذا الحديث : وجوب صلاة الجماعة لقوله : « وليؤمكم أكبركم » واللام هنا للامر فصلاة الجماعة واجبة (٢) .

ومن فوائد الحديث : أن صلاة الجماعة واجبة على المسافرين كما هي واجبة على المقيمين ، لأن هؤلاء وفد سيرجعون إلى أهلهم ، فهم مسافرون ، وأمرهم مع ذلك بالصلاة جماعة ، وعلى هذا فإذا كان الإنسان في البلد وهو مسافر ، فإنه يجب عليه أن يحض الجماعة في المساجد .

وبعض العامة إذا قلت له : صل قال : أنا مسافر ، والمسافر ما عليه صلاة جماعة . وهذا خطأ ، يجب عليك أن تصلي مع الجماعة في المساجد ولو كنت مسافرًا ، فأنت وأهل البلد سواء ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لرجل : « أسمع النداء ؟ » قال : نعم . قال : « فأجب » (٣) .

ومن فوائد هذا الحديث : تقديم الكبير في الإمامة لقوله : « وليؤمكم أكبركم » وهذا لا ينافي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله » (٤) ؛ لأن هؤلاء الشباب كلهم وفدوا في وقت واحد ، والظاهر أنه ليس بينهم فرق يبين في قراءة القرآن ، وأنهم متقاربون ، ليس بعضهم أقرأ من بعض ولهذا قال : « وليؤمكم أكبركم » لأنهم متساوون في القراءة أو متقاربون ، فإذا تساوا في

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٩) ، ومسلم في الصيام (٣٨) .

(٢) قالت الحنفية : صلاة الجماعة واجبة وحجتهم في ذلك أن النبي ﷺ وإظبا عليها ، قالت المالكية : إن الصلاة المكتوبة غير الجمعة إيقاعها في الجماعة سنة مؤكدة يحصل بها ثواب جليل وفضل عظيم ، والحنابلة تقول بأن الجماعة واجبة في الصلوات الخمس على كل رجل حر قادر حتى ولو كان مسافرًا وأحاق به خوف شديد . ونصح الصلاة من منفرد لكنه يأثم لترك الجماعة بغير عذر .

أما الشافعية فلهم أقوال ثلاثة : الأول أن صلاة الجماعة في حق كل رجل قادر مفروضة على الكفاية حتى إذا صلاها فريق من المسلمين في كل بلد كفت الباقيين . والثاني أنها سنة مؤكدة والثالث أنها فرض عين لكن ليست شرط صحة الصلاة بمعنى أن صلاة المنفرد جائزة مع الإثم (فقه الكتاب والسنة ١/ ٥٦٢) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٢٥٥) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٢٩٠) ، وأبو داود في الصلاة (٥٨٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٣/٣) .

القراءة والسنة والهجرة ، فإنه يرجع إلى الأكبر سناً .

وفيه أيضًا : اعتبار الكبير في السن وأن الكبير في السن مقدم على غيره . إذا لم يكن لغيره ميزة يفضل بها هذا الكبير في السن .

ومن فوائده أيضًا : أنه ينبغي للإنسان أن يوجه الناس لكل أمر وإن كان يظن أنه معلوم ، ولهذا قال : « صلوا صلاة كذا في حين كذا » مع أنهم قد صلوا مع النبي عليه الصلاة والسلام وصلوا معه عشرين ليلة ، وهم يعلمون ذلك ، لكن من أجل التنبيه . قال صلوا الظهر - مثلاً - في وقت كذا ، صلوا العصر في وقت كذا ، صلوا المغرب في وقت كذا ، صلوا العشاء في وقت كذا ، صلوا الفجر في وقت كذا .

ومن فوائد هذا الحديث : أن النبي ﷺ كان يعلم الناس بالقول وبالفعل ، فعلم الذي صلى بغير طمأنينة بالقول ، قال : « إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع » ^(١) إلى آخره .

أما هؤلاء فقال لهم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » وهذا تعليم بالفعل ، وكما فعل - عليه الصلاة والسلام - حينما صنع له المنبر ، فصعد عليه وجعل يصلي بالناس وهو على المنبر ، فيركع وهو على المنبر ، فإذا أراد السجود نزل من المنبر وهو مستقبل القبلة ثم سجد ، وقال لما سلم : « إنما فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي » ^(٢) .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه يجب على الإنسان أن يعرف كيف كان النبي ﷺ يصلي ، فيقرأ من كتب العلم التي كتبها من يوثق في علمه ، كيف كان الرسول ﷺ يصلي ، حتى ينفذ أمر الرسول في قوله : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .

* * *

٧١٤ - وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قال : « اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْعُمْرَةِ ، فَأَذَنَ ، وَقَالَ : « لَا تُسَبِّحُنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ » . فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسْبُرُنِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا .
وفي رواية قال : « أَشْرِكُنَا يَا أَخِي فِي دُعَائِكَ » ^(٣) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٧١٥ - وعن سالم بن عبد الله بن عُمَرَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه كَانَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا : اذْنُ مِنِّي حَتَّى أَوْدَعَكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوَدِّعُنَا ، فَيَقُولُ : « اسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ ،

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٧) ، ومسلم في الصلاة (٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩١٧) ، ومسلم في المساجد (٤٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٩٨) واللفظ له ، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٢) .

وَأَمَانَتُكَ ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ » (١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

٧١٦ - وعن عبد الله بن يزيد الخطمي الصحابي رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُودَعَ الْجَيْشَ قَالَ : « أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكُمْ ، وَأَمَانَتَكُمْ ، وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُمْ » (٢) .

حديث صحيح ، رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح .

٧١٧ - وعن أنس رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا ، فَرُودُنِي ، فَقَالَ : « زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى » قَالَ : زِدْنِي ، قَالَ : « وَغَفَرَ ذَنْبَكَ » ، قَالَ : زِدْنِي ، قَالَ : « وَيَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ » (٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي - رحمه الله تعالى - في هذا الباب فيما يستحب من وداع الصاحب والدعاء له وطلب الدعاء منه ، فذكر حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أراد أن يعتمر ، فاستأذن النبي ﷺ فأذن له . وقال : « لا تنسنا يا أخِي من دعائك » وفي رواية : « أشركنا يا أخِي في دعائك » ، وذكر أن الترمذي أخرجه وقال : إنه حسن صحيح ولكن الحقيقة أنه ضعيف وأنه لا يصح عن النبي ﷺ . وطلب الدعاء من الغير ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : أن يطلب من الغير الدعاء لصالح المسلمين جميعًا ، أي شيء عام ، فهذا لا بأس به ، وقد دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يُغنينا ، فرفع النبي ﷺ يديه وقال : « اللهم أغثنا . اللهم أغثنا . اللهم أغثنا » ، فأنشأ الله سحابة فانتشرت وتوسعت وأمطرت ، ولم ينزل النبي ﷺ من المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته ، وبقي المطر أسبوعًا كاملاً .

وفي الجمعة الثانية دخل رجل آخر - أو الأول - فقال : يا رسول الله ، غرق المال ، وتهدم البناء ، فادع الله يمسكها عنا ، فرفع النبي ﷺ يديه وقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » وجعل يشير إلى النواحي ، فما يشير إلى ناحية إلا انفجرت وتمازر السحاب ، حتى خرج الناس يمشون في الشمس (٤) . فإذا طلبت من شخص صالح مرجو الإجابة شيئًا عامًا للمسلمين فهذا لا بأس به ، لأنك لم تسأل لنفسك ، مثال ذلك : لو أن رجلًا جاء إليك يطلب منك الشفاعة لتغيب رجلًا ملهوقًا ، أو تقضي عنه

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٤٣) واللفظ له وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٠) قوله « أستودع الله دينك » أي أودعه إياه ، والسين لتأكيد ذلك وتحقيقه . وذكر الدين ؛ لأن السفر مظنة التساهل في أمره لمشقته ؛ ولذا رخص للمسافر في أمور العبادات ، قوله : « وأمانتك » أي وما أوثمت عليه من تكاليف شرعية وحقوق إنسانية .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠١) . (٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٤٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٣) ، ومسلم في الاستسقاء (٨) .

دينه ، أو ترفع الظلم عن رجل ضعيف من المسلمين ، فإن هذا لا بأس به لأن المصلحة لغيره .
القسم الثاني : أن يطلب الدعاء من الرجل الصالح من أجل أن ينتفع الرجل بهذا الدعاء . ولا يهمله هو أن ينتفع ، لكن يحب من هذا الرجل الذي طلب منه الدعاء أن يلجأ إلى الله ، وأن يسأل الله ﷻ ، وأن يعلق قلبه بالله ، وأن يعلم أن الله ﷻ سميع الدعاء ، المهم أن يكون قصده مصلحة هذا الرجل ، فهذا لا بأس به أيضًا ، لأنك لم تسأله لمحض نفعلك ، ولكن لنفعله هو ، فأنت تريد أن يزداد هذا الرجل الصالح خيرًا بدعاء الله ﷻ ، وأن يتقرب إلى الله بالدعاء وأن يحصل على الأجر والصواب .

القسم الثالث : أن يطلب الدعاء من الغير لمصلحة نفسه هو ، فهذا أجازة بعض العلماء وقال : لا بأس أن تطلب من الرجل الصالح أن يدعو لك .

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال : لا ينبغي إذا كان قصدك مصلحة نفسك فقط ^(١) ، لأن هذا قد يدخل في المسألة المذمومة ، لأن النبي ﷺ بايع أصحابه ألا يسألوا الناس شيئًا ^(٢) .
وكذلك لأنه ربما يعتمد هذا السائل الذي سأل غيره أن يدعو له ؛ ربما يعتمد على دعاء هذا الغير ، وينسى أن يدعو هو لنفسه ، فيقول : أنا قلت لفلان وهو رجل صالح ادع الله لي ، وإذا استجاب الله هذا الدعاء فهو كافٍ فيعتمد على غيره ، وكذلك لأنه ربما يلحق المسؤول غرور في نفسه ، وأنه رجل صالح يطمع الناس إلى دعائه ، فيحصل في هذا شر على المسؤول .

وعلى كل حال فإن هذا القسم الثالث مختلف فيه ، فمن العلماء من قال : لا بأس أن تقول للرجل الصالح : يا فلان ادع الله لي ، ومنهم من قال : لا ينبغي ، والأحسن ألا تقول ذلك ، لأنه ربما يمين عليك بهذا ، وربما تذلل أمامه بسؤالك ، ثم إنه من الذي يحول بينك وبين ربك ؟ ادع الله أنت بنفسك ، لا أحد يحول بينك وبين الله .

لماذا تذهب تفتقر إلى غيرك وتقول : ادع الله لي وأنت ليس بينك وبين ربك واسطة !؟ قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

(١) انظر مجموع الفتاوى (٣٥٢/١) .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٨) ، ولفظه « ألا تبايعون رسول الله » .

٩٧ - باب الاستشارة والمشاورة

قال الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْهُمْ بِشُورَىٰهِمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] أي : يَتَشَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ فِيهِ .

٧١٨ - عن جابر رضي الله عنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْاِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَالشُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ، يَقُولُ : « إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَعِذُّكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي ، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ » . قال : وَيُسَمِّي حاجته (١) . رواه البخاري .

الشرح

قال النووي رحمته الله : باب الاستشارة والمشاورة .

والإستشارة مع الله ، والمشاورة مع أهل الرأي والصلاح ، وذلك أن الإنسان عنده قصور أو تقصير ، والإنسان مخلوق ضعيفاً ، فقد تشكّل عليه الأمور ، وقد يتردد فيها ، فماذا يصنع ؟ لنفرض أنه همّ بسفر وتردد هل هو خير أم شر ، أو همّ أن يشتري سيارة أو بيتاً ، أو أن يصاهر رجلاً يتزوج ابنته أو ما أشبه ذلك ، ولكنه متردد . فماذا يصنع ؟ نقول : له طريقان :

الطريق الأول : استشارة ربّ العالمين ﷻ الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

الطريق الثاني : استشارة أهل الرأي والصلاح والأمانة ، واستدل المؤلف رحمته الله على المشاورة بأيتين من كتاب الله هما قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ وهذا خطاب للنبي ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَعِثْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وكان النبي ﷺ وهو أسدّ الناس رأياً وأصوبهم صواباً ، يستشير أصحابه في بعض الأمور التي تشكّل عليه ، وكذلك خلفاؤه من بعده كانوا يستشيرون أهل الرأي والصلاح .

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٢) واللفظ له ، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٨) قوله : « إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ » أي الجائز فعلاً وتركاً . قوله : « أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ » أي أسألك أن تشرح صبري لخير الأمرين فلا يعلم خيرهما إلا العالم بذلك وليس كذلك إلا أنت ، قوله : « وَأَسْتَعِذُّكَ بِقُدْرَتِكَ » أي أسألك منك أن تقدّرني على خير الأمرين ، قوله « فاقدره » أي اقض به وهيئه .

ولابد من هذين الشرطين فيمن تستشيرهُ ؛ أن يكون ذا رأي وخبرة في الأمور وتأنّ وتجربة وعدم تسرع ، وأن يكون صالحاً في دينه ، لأن من ليس بصالح في دينه ليس بأمين ، حتى وإن كان ذكياً وعاقلاً ومحسناً في الأمور ، إذا لم يكن صالحاً في دينه فلا خير فيه ، وليس أهلاً لأن يكون من أهل المشورة ، لأنه إذا كان غير صالح في دينه ، فإنه ربما يخون والعياذ بالله ، ويُشير بما فيه الضرر ، أو يشير بما لا خير فيه ، فيحصل بذلك من الشر والفساد ما الله به عليم .

ولنفرض أنه رجل من أهل الفسق والمجون والفجور فلا يجوز أن تستشيرهُ ، لأن هذا يوقعك في هلاك . كذلك لو كان رجلاً صالحاً ديناً أميناً لكنه مغفل ، ما يعرف الأمور ، أو متسرع لا خبرة له ، فهذا أيضاً لا تحرص على استشارته ، لأنه ربما إذا كان مغفلاً لا يدري عن الأمور ؛ يأخذ الأمور بظواهرها ، ولا يعرف شيئاً مما وراء الظواهر ، وكذلك إذا كان متسرعاً فإنه ربما يحمله التسرع على أن يشير عليك بما لا خير فيه ، فلا بد من أن يكون ذا خبرة وذا رأي وصلاح في الدين .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا شُرَاقِبَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] يعني أمرهم المشترك الذي هو للجميع ، كالجهاد مثلاً فإنه شورى بينهم . فإذا أراد ولي الأمر أن يجاهد أو أن يفعل شيئاً عاماً للمسلمين ، فإنه يشاورهم .

ولكن كيف تكون المشورة ؟

المشورة تكون إذا حدث له أمر يتردد فيه ، جمع الإمام من يرى أنهم أهل للمشورة برأيهم وصلاحهم واستشارهم .

أما الاستخارة : فهي مع الله ﷻ ، يستخير الإنسان ربه إذا هم بأمر وهو لا يدري عاقبته ولا يدري مستقبله ، فعليه بالاستخارة .

والاستخارة معناها طلب خير الأمرين . وقد أرشد النبي ﷺ إلى ذلك ، بأن يصلي الإنسان ركعتين من غير الفريضة في غير وقت النهي ، إلا في أمر يخشى فواته قبل خروج وقت النهي ، فلا بأس أن يستخير ولو في وقت النهي .

أما ما كان فيه الأمر واسعاً فلا يجوز أن يستخير وقت النهي ، فلا يستخير بعد صلاة العصر وكذلك بعد الفجر حتى ترتفع الشمس مقدار رمح ، وكذلك عند زوالها حتى تزول لا يستخير ، إلا في أمر قد يفوت عليه ، يصلي ركعتين من غير الفريضة ، ثم يسلم ، وإذا سلم قال : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كان هذا الأمر - ويسميه - خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : « عاجل أمري وآجله » يعني إما أن تقول هذا أو هذا - فاقدري لي ويسره لي . وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، أو قال : عاجل أمري وآجله ، فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به » وينتهي ثم بعد ذلك إن انشرح صدره بأحد

الأمرين بالإقدار أو الإحجام ، فهذا المطلوب ، يأخذ بما ينشرح به صدره ، فإن لم ينشرح صدره لشيء وبقي متردداً أعاد الاستخارة مرة ثانية وثالثة .

ثم بعد ذلك المشورة إذا لم يتبين له شيء بعد الاستخارة ، فإنه يشاور أهل الرأي والصلاح ، ثم ما أشير عليه به فهو الخير إن شاء الله لأن الله تعالى قد لا يجعل في قلبه بالاستخارة ميلاً إلى شيء معين حتى يستشير ، فيجعل الله تعالى ميل قلبه بعد المشورة .
وقد اختلف العلماء هل المقدم المشورة أو الاستخارة ؟

والصحيح أن المقدم الاستخارة ، فقدم أولاً الاستخارة ، لقول النبي ﷺ : « إذا هم أحدكم بالأمر فليصل ركعتين ... إلى آخره » ، ثم إذا كررتها ثلاث مرات ولم يتبين لك الأمر ، فاستشر ؛ ثم ما أشير عليك به فخذ به ، وإنما قلنا : إنه يستخير ثلاث مرات ، لأن من عادة النبي ﷺ أنه إذا دعا دعاً ثلاثاً ^(١) ، والاستخارة دعاء ، وقد لا يتبين للإنسان خير الأمرين من أول مرة ، بل قد يتبين في أول مرة ، أو في الثانية ، أو في الثالثة ، وإذا لم يتبين فليستشر .

* * *

٩٨ - باب استحباب الذهاب إلى العيد وعبادة المريض والحج والغزو والجنابة

ونحوها من طريق والرجوع من طريق آخر ، لتكثير مواضع العبادة

٧١٩ - عن جابر رضي الله عنه قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدِ خَالَفَ الطَّرِيقَ ^(١) . رواه البخاري .

قوله : « خَالَفَ الطَّرِيقَ » يعني : ذَهَبَ فِي طَرِيقٍ ، وَزَجَعَ فِي طَرِيقٍ آخَرَ .

٧٢٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ طَرِيقِ الشَّجَرَةِ ، وَيَدْخُلُ مِنْ طَرِيقِ الْمُعَرَّسِ ، وَإِذَا دَخَلَ مَكَّةَ دَخَلَ مِنَ الثَّنِيَةِ الْعُلْيَا ، وَيَخْرُجُ مِنَ الثَّنِيَةِ السُّفْلَى ^(٢) . متفقٌ عليه .

(١) سبق تخريجه في « باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب » .

(٢) أخرجه البخاري في العيدين (٩٨٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٢٢٣) واللفظ له ، والبخاري في الحج (١٥٣٣) ، قوله : « من طريق الشجرة » طريق عند مسجد ذي الحليفة ، قوله : « الْمُعَرَّسِ » موضع معروف بقرب المدينة على بعد ستة أميال منها ، قوله « الثنية العليا » الثنية طريق العقبة ، وهو الطريق العالي والثنية العليا هنا هي التي ينزل منها إلى المعلاة وهي مقبرة مكة المكرمة ، قوله : « الثنية السفلى » هي التي بأسفل مكة عند باب الشيبة .

الشرح

ثم ذكر النووي رحمته الله (باب استحباب مخالفة الطريق في العيد والجمعة وغيرها من العبادات) .
ومعني مخالفة الطريق : أن يذهب إلى العبادة من طريق ويرجع من الطريق الآخر ؛ فمثلاً يذهب
من الجانب الأيمن ويرجع من الجانب الأيسر ، وهذا ثابت عن النبي ﷺ في العيدين ، كما رواه جابر
رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق ؛ يعني خرج من طريق ورجع من طريق آخر .
واختلف العلماء لِمَ كان رسول الله ﷺ يصنع ذلك ؟

فقيل : ليشهد له الطريقتان يوم القيامة ، لأن الأرض يوم القيامة تشهد على ما عمل فيها من خير
وشر ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ ﴾ ١ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿ ٢ ﴾ [الزلزلة : ٤ ، ٥] ،
تشهد الأرض فتقول : عمل عليّ فلان كذا ، وعمل كذا وعمل كذا . فإذا ذهب من طريق ورجع
من آخر شهد له الطريقتان يوم القيامة بأنه أدي صلاة العيد .

وقيل : من أجل إظهار الشعيرة ؛ شعيرة العيد ، حتى تكتظ الأسواق هنا وهناك . ومعلوم أن الناس
لا يخرجون كلهم من طريق واحد ويرجعون من طريق واحد ، تجد هذا يخرج من هذا الطريق ، وهذا
من هذا ، فإذا انتشر الناس في طرق المدينة صار في هذا إظهار لهذه الشعيرة ، لأن صلاة العيد من
شعائر الدين ، والدليل على ذلك أن الناس يؤمرون بالخروج إلى الصحراء إظهاراً لذلك ، وإعلاتاً له .
وبعضهم قال : إنما خالف الطريق من أجل المساكين الذين يكونون في الأسواق ، قد يكون في هذا
الطريق ما ليس في هذا الطريق من المساكين ، فيتصدق على هؤلاء وهؤلاء .

ولكن الأقرب والله أعلم ، أنه من أجل إظهار تلك الشعيرة حتى تظهر شعيرة صلاة العيد بالخروج
إليها من جميع سكك البلد .

ثم اختلف العلماء - رحمهم الله - هل يلحق في ذلك صلاة الجمعة ؟ لأن صلاة الجمعة صلاة عيد .

قالوا : تلحق بصلاة العيدين ، فيأتي إلى الجمعة من طريق ويرجع من طريق آخر .

ثم توسع بعض العلماء وقالوا : يُشرع ذلك أيضًا في الصلوات الخمس ، فيأتي مثلاً في صلاة الظهر
من طريق ويرجع من طريق آخر ، وهكذا في صلاة العصر وبقية الصلوات ، قالوا : لأن ذلك حضور
إلى الصلاة ، فيقاس على صلاة العيد .

وتوسع آخرون فقالوا : تُشرع مخالفة الطريق في كل تعبد ، كل عبادة تذهب إليها فاذهب إليها
من طريق وارجع منها من طريق آخر ، حتى عبادة المريض ، فإذا عدت مريضاً فاذهب إليه من طريق
وارجع من طريق آخر ، وكذلك إذا شيعت جنازة ، فاذهب من طريق وارجع من طريق آخر ..

وكل هذه الأقيسة الثلاثة كلها ضعيفة ؛ لا قياس لصلاة الجمعة على العيدين ، ولا بقية الصلوات
على العيدين ، ولا المشي في العبادة على العيدين ، وذلك لأن العبادات ليس فيها قياس ، ولأن هذه

الأشياء كانت في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، كان في عهده الجمعة ، والصلوات الخمس ، وعيادة المريض ، وتشيع الجنائز ، ولم يحفظ عنه أنه كان ﷺ يخالف الطريق في هذا .
والشيء إذا وجد في عهد الرسول ﷺ ولم يسن فيه شيئاً ، فالسنة ترك ذلك .
أما في الحج : فإن الرسول ﷺ خالف الطريق في دخوله إلى مكة ؛ دخل من أعلاها ، وخرج من أسفلها ، وكذلك في ذهابه إلى عرفة ، ذهب من طريق ورجع من طريق آخر .
واختلف العلماء أيضاً في هذه المسألة : هل كان النبي ﷺ فعل ذلك على سبيل التبعيد ، أو لأنه أسهل لدخوله وخروجه ؟ لأنه كان الأسهل لدخوله أن يدخل من الأعلى ولخروجه أن يخرج من الأسفل .
فتمن من العلماء قال بالأول قال : إنه سنة أن تدخل من أعلاها - أي : أعلى مكة - وتخرج من أسفلها ، وسنة أن تأتي عرفة من طريق وترجع من طريق آخر .
ومنهم من قال : إن هذا حسب تيسر الطريق ، فاسلك المتيسر سواء من الأعلى أو من الأسفل .
وعلى كل حال إن تيسر لك أن تدخل من أعلاها وتخرج من أسفلها فهذا طيب ، فإن كان ذلك عبادة فقد أدركته ، وإن لم يكن عبادة لم يكن عليك ضرر فيه ، وإن لم يتيسر كما هو الواقع في وقتنا الحاضر ، حيث إن الطريق قد وجهت توجيهاً واحداً ، ولا يمكن للإنسان أن يخالف ، فالأمر - والحمد لله - واسع .

٩٩ - باب استحباب تقديم اليمين في كل ما هو من باب التكريم

كالوضوء والغسل والتيمم ، ولبس الثوب والتغسل والخف والسرائيل ودخول المسجد ، والسواك ، والاحتحاح ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، وتنف الإبط ، وحلق الرأس ، والسلام من الصلاة ، والأكل والشرب ، والمصافحة ، واستلام الحجر الأسود ، والخروج من الخلاء ، والأخذ والعطاء ، وغير ذلك مما هو في معناه ، ويُسْتَحَبُّ تقديم اليسار في ضد ذلك ، كالامتيحاط والبصاق عن اليسار ، ودخول الخلاء ، والخروج من المسجد ، وخلع الخف والتغسل والسرائيل والثوب ، والاستنجاء وفعل المشتدات وأشباه ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبُهُ يُعِينُهُ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَمْرُهَُا كَيْتِبُهُ ۖ ﴾ الآيات [الحاقة : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ فَأَصْحَبُ اللَّيْمَةِ مَا أَصْحَبُ اللَّيْمَةِ ۖ وَأَصْحَبُ الشَّقَةِ مَا أَصْحَبُ الشَّقَةِ ۖ ﴾ ^(١) [الواقعة : ٨ ، ٩] .

(١) قوله تعالى : ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أي تعالوا . قوله تعالى : ﴿ اللَّيْمَةِ ﴾ هم الذين على يمين العرش ، أو الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم . قوله تعالى : ﴿ الشَّقَةِ ﴾ هم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم وهم أصحاب النار .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب استحباب تقدم اليمين في كل ما هو من باب التكريم .
والعكس بالعكس فيما يُقصد به الإهانة فإنه يبدأ باليد اليسرى .

وقد ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - أشياء متعددة مثل الوضوء والغسل والتيمم ولبس الثوب .
فالوضوء يتدئ فيه الإنسان باليمين ، يتدئ باليد اليمنى قبل اليد اليسرى ، وبالرجل اليمنى قبل
الرجل اليسرى ، هذا إذا كانا عضوين متميزين .

أما إذا كان عضواً واحداً كالوجه مثلاً ، فإننا لا نقول : ابدأ بيمين الوجه قبل يساره ، بل يغسل
الوجه مرة واحدة كما جاءت به السنة .

نعم لو فرض أن الإنسان لا يستطيع أن يغسل وجهه إلا بيد واحدة فهنا يبدأ باليمين ، ربما يُقال :
يبدأ من اليمين وربما يُقال : يبدأ من الأعلى ، وكذلك مسح الأذنين لا تمسح الأذن اليمنى قبل اليسرى ،
بل يمسحان جميعاً ، إلا إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يمسح يديه جميعاً فيبدأ باليمنى قبل اليسرى .
وكذلك في الغسل إذا أراد الإنسان أن يغتسل من الجنابة ، فإنه يتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يفيض
الماء على رأسه ثلاث مرات حتى يُروى ، ثم يغسل سائر جسده ، ويبدأ بالشق الأيمن منه قبل الأيسر ،
لقول النبي ﷺ للنساء اللاتي كن يغسلن ابنته قال : « ابدأن بيمينها ومواضع الوضوء منها » (١) .
فإذا كنت تحت الصنبور وهو يصب على رأسك وأنت تريد أن تغتسل ، فإذا غسلت رأسك
وأرويته فابدأ بغسل الجانب الأيمن من الجسد قبل الأيسر ، هذا هو السنة .

كذلك في التيمم ، ولكن التيمم جاءت السنة أن الإنسان يمسح وجهه يديه جميعاً ثم يمسح كل
واحدة بالأخرى ، فلا يظهر فيها التيامن ، لأن التيمم في عضوين فقط ، ؛ في الوجه والكفين ، وإذا
كان في الوجه والكفين ، فالوجه يمسح مرة واحدة ، والكفان يمسح بعضهما ببعض .

كذلك لبس الثوب والنعل والخف والسرَّويل ، كل هذه يبدأ فيها باليمين ، إذا أردت أن تلبس
الثوب فأدخل اليد اليمنى في كمها قبل اليد اليسرى ، في السرَّويل أدخل الرجل اليمنى في كمها قبل
أن تدخل الرجل اليسرى ، في النعل إذا أردت أن تلبس النعل ابدأ بالرجل اليمنى أدخلها في النعل قبل
اليسرى ، كذلك في الخف والجوارب ، ابدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى ، هذه هي السنة كما
جاءت عن النبي ﷺ .

وكذلك دخول المسجد تبدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى تقصد ذلك ، فإذا أقبلت على
المسجد فانتبه حتى تكون رجلك اليمنى هي الداخلة الأولى .

كذلك أيضاً السواك إذا أراد الإنسان أن يتسوك فيبدأ بالجانب الأيمن قبل الأيسر .

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٧) ، ومسلم في الجنائز (٤٢) .

وكذلك الاكتحال إذا أراد أن يكتحل يبدأ بالعين اليمنى قبل اليسرى .

كذلك تقليم الأظفار يبدأ بالأيمن قبل الأيسر ، فيبدأ مثلاً في اليمنى بالخنصر ، ثم البنصر ، ثم الوسطى ، ثم السبابة ، ثم الإبهام ، وفي اليد اليسرى يبدأ بتقليم الإبهام ، ثم السبابة ، ثم الوسطى ، ثم البنصر ، ثم الخنصر . ويبدأ أيضاً بالقدم اليمنى في تقليم أظفارها قبل القدم اليسرى .

كذلك في قص الشارب ابدأ بالجانب الأيمن منه قبل الأيسر .

كذلك نتف الإبط وحلق الرأس ، نتف الإبط سنة ، فإذا أردت أن تتف الآباط يعني : تتف الشعر فابدأ بالإبط الأيمن قبل الأيسر ، وكذلك في حلق الرأس ابدأ بالجانب الأيمن من الرأس قبل الأيسر . وكذلك أيضاً السلام من الصلاة يلتفت الإنسان عن يمينه قبل أن يلتفت عن يساره .

وكذلك الأكل والشرب فيأكل بيمينه ويشرب بيمينه ، ولا يجوز أن يأكل باليسرى أو يشرب باليسرى ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك وقال : « إن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » (١) .

فإذا رأيت رجلين أحدهما يأكل باليمين ويشرب باليمين ، والثاني يأكل بالشمال ويشرب بالشمال ، فالأول على هدي النبي ﷺ والثاني على هدي الشيطان ، وهل يرضي أحد من الناس أن يتبع هدي الشيطان ويعرض عن هدي محمد ﷺ؟! لا أحد يريد ذلك أبداً ، لكن الشيطان يزين للناس الأكل بالشمال والشرب بالشمال ، وربما بعض الناس يظن أن هذا تقدم وحضارة ، لأن الغريسين الكفرة يقدمون اليسار عن اليمين ، ولهذا يجب على الإنسان أن يأكل باليمين وأن يشرب باليمين إلا للضرورة .

ويجب علينا أيضاً أن نعلم أولادنا الصغار أن يأكلوا باليمين ويشربوا باليمين ، كذلك المصافحة يصافح باليمين ولا يصافح باليسار ، فإن مدَّ إليك يده اليسرى للمصافحة فلا تصافحه ، اهجره لأنه خالف السنة إلا إذا كانت اليد اليمنى شلاء لا يستطيع أن يحركها فهذا عذر .

كذلك استلام الحجر الأسود باليمين ، وكذلك إذا لم يستطع الإنسان مسحه فإنه يشير إليه ، ويكون ذلك باليد اليمنى ، وكذلك استلام الركن اليماني يكون باليمين .

ونحن نرى الآن بعض الطائفين يمسح الحجر الأسود باليسرى أو يشير إليه باليسرى ، أو يشير إليه باليدين جميعاً أما الركن اليماني فإن استطعت أن تستلمه يعني تمسحه باليد فافعل ، وإلا فلا تشر إليه لأنه لم يرد عن النبي ﷺ أنه أشار إليه .

والغالب أن هذا جهل منهم فإذا رأيت أحداً يمسح الركن اليماني أو الحجر الأسود باليد اليسرى فنبهه أن هذا ليس من الإكرام ، فليس من إكرام بيت الله أن تمسح الركن اليماني أو الحجر الأسود باليد اليسرى ، بل امسحهما باليد اليمنى .

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٥ ، ١٠٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٣ ، ٨/٢) .

كذلك الخروج من الخلاء يعني إذا دخلت الحمام لقضاء الحاجة من بول أو غائط ثم خرجت فقدم الرجل اليمينى ، لأن خارج الخلاء أحق بالتكريم من الخلاء ، فإذا خرجت فابدأ بالرجل اليمينى . كذلك الأخذ والإعطاء وغير ذلك ؛ الأخذ والإعطاء يعني إذا أردت أن تناول صاحبك شيئاً ، فناوله باليمين ، وإذا أردت أن تأخذ شيئاً يناولك إياه فخذ باليمين .

هذه أخلاق الإسلام ، لكن بعض الناس يناولك باليسار ويأخذ منك باليسار ، ظناً منه أن هذا هو التقدم ، لأن الكفرة يأخذون باليسار ويعطون باليسار ، وسبحان الله العظيم ، أصحاب الشمال لهم الشمال ، لأن الكفرة أصحاب الشمال ، والمؤمنون هم أصحاب اليمين ، ولهذا تجدد الكافر دائماً يفضل اليسار ، لأنه أهل اليسار وأهل الشمال ، فهو من أهل اليسار في الدنيا وفي الآخرة والعباد بالله . إذاً كل هذه الأمور ابدأ فيها باليمين ، وكذلك غيرها مما يشمل التكريم ، كل شيء للتكريم فإنه يبدأ فيه باليمين لأن اليمين أكرم وأفضل ، أما اليسار فبالعكس .

ثم ذكر المؤلف أشياء مما يُقدم فيها اليسار ؛ كالامتخاط والبصاق ، فإنه يكون باليسار . الامتخاط : يعني إذا استنثر الإنسان ليخرج ما في أنفه من الأذى ، فإنه يكون باليد اليسرى ، وكذلك لو أراد أن يسمح المخاط ، فإنه يكون باليد اليسرى .

وكذلك عند دخول الخلاء يقدم الرجل اليسرى ، وأما الخروج منه فقد سبق أنه يقدم الرجل اليمينى . وكذلك إذا خرج من المسجد ، فإنه يقدم الرجل اليسرى .

وكذلك إذا أراد أن يخلع النعل ، أو أن يخلع الخف ، أو أن يخلع الثوب أو أن يخلع السراويل ، فإنه يبدأ بإخراج الرجل اليسرى ، وتكون اليمينى هي الأولى عند اللبس .

كذلك الاستنجاء يكون باليد اليسرى ، وقد نهى النبي ﷺ أن يستنجى الرجل يمينه (١) ، لأن اليمين محل الإكرام ، ويؤكل بها ويشرب بها ، فينبغي إبعادها عن القاذورات ، وكذلك كل شيء مستقذر ، فإنه يكون باليد اليسرى ، وأما اليمينى فهي لما يكون فيه الإكرام ، ولغيره مما لا إكرام فيه ولا إهانة . فاليسرى تكون للأذى واليمينى لما سواها .

واعلم أن الناس حينما ظهرت الساعات التي تتعلق باليد ، صاروا يلبسونها باليد اليسار من أجل أن تبقى اليد اليمينى طليقة ليس فيها ساعة يتأذى بها الإنسان عند الحركة ، لأن حركة اليمينى أكثر من حركة اليسرى ، ويحتاج الإنسان لحركة اليمينى أكثر ، فكانوا يجعلونها في اليد اليسرى ، لأن ذلك أسهل ولأن اليد اليمينى هي التي يكون فيها العمل غالباً فربما تتعرض الساعة لشيء يضرها ، ولذلك جعلوها باليسار .

وقد ظن بعض الناس أن الأفضل جعلها في اليمين بناء على تقدم اليد اليمينى ، ولكن هذا ظن ليس

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٧) .

مبتئاً على صواب ، لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتختم يمينه ويتختم أحياناً بيساره ، وربما كان تختمه بيساره أفضل ليسهل أخذ الخاتم باليد اليمنى . والساعة أقرب ما تكون للخاتم فلا تفضل فيها اليمنى على اليسرى ولا اليسرى على اليمنى . الأمر في هذا واسع ، وإن شئت جعلتها باليمين وإن شئت جعلتها باليسار ، كل هذا لا حرج فيه .

ثم ذكر المؤلف آيتين من كتاب الله هما قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُ يَسِيئِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي ﴾ ، وهذا يكون يوم القيامة . فإن الناس يؤتون كتبهم أي كتب أعمالهم التي كتب فيها عمل الإنسان ، إما باليمين وإما بالشمال ، ﴿ مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُ يَسِيئِهِ ﴾ جعلنا الله منهم - فإنه يأخذه فرحاً مسروراً يقول للناس : انظروا إليّ ﴿ أَقْرَبُوا كِتَابِي ﴾ كما نشاهد الآن الطالب إذا أخذ ورقة النجاح صار يريها أصدقاءه وأقاربه فرحاً بها ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُ إِشْمَالِهِ ﴾ فإنه على العكس من ذلك ، يتمنى أنه لم يؤت الكتاب فضلاً عن أن يطلع عليه غيره .

والآية الأخرى التي ذكرها المؤلف فهي قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ، فذكر الله سبحانه أن الناس يكونون يوم القيامة ثلاثة أقسام : أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، والسابقون ، فالسابقون هم المقربون ، وأصحاب الميمنة ناجون ، وأصحاب المشأمة هالكون ، فهم يوم القيامة ثلاثة أصناف .

وهم كذلك عند خروج الروح من البدن ثلاثة أصناف . ذكر الله في سورة الواقعة أحوالهم يوم القيامة ، وذكر في آخرها أحوالهم عند الاحتضار ، فقال : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ وَأَنْتَ حِينِئذٍ نَنْظُرُونَ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ ﴾ ^(١) [الواقعة : ٨٣ - ٨٩] .

والمقربون هم السابقون الذين يسبقون إلى الخيرات في كل نوع من أنواع الخير ، ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ ﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ ^(٢) .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْفُصَّالِينَ ﴾ فَتَلَّ مِنْ حَمِيمٍ ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ ^(٣) [الواقعة : ٩٢ - ٩٤] ، وهؤلاء هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله ، فهم المكذبون الضالون ، أعاذنا الله من حالهم . وأشار المؤلف ﷺ في هاتين الآيتين إلى أن أهل اليمين للفضائل الدائمة في الدنيا وفي الآخرة ،

(١) قوله تعالى : ﴿ بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ بلغت الروح الحلقوم عند الموت . قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بعلمنا وقدرتنا . قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ غير مقضي عليكم بالبعث والحساب ، أو غير مستعبدين وغير مسلوبين الحرية في أمركم . قوله تعالى : ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ تردون الروح إلى الجسد بعد أن بلغت الحلقوم . قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في زعمكم أن الله يعث من يموت . قوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ فله استراحة أو رحمة أو فرح أو سرور . قوله تعالى : ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ نبات له رائحة طيبة (رزق حسن) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أصحاب السعادات . قوله تعالى : ﴿ فَسَلَّمَ لَكَ ﴾ تقول له ملائكة الرحمة عند الموت : سلام . (٣) قوله تعالى : ﴿ فَتَلَّ ﴾ فله قرى وضيافة . قوله تعالى : ﴿ حَمِيمٍ ﴾ ماء بالغ غاية الحرارة قوله تعالى : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ مقاساة لحر النار ، أو إدخال فيها .

ويأتي إن شاء الله بقية الكلام على هذا .

٧٢١ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ رسول الله ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيْمُنُ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ : فِي طَهْرِهِ ، وَتَرْجُلِهِ ، وَتَنْعَلِهِ ^(١) . متفقٌ عليه .

٧٢٢ - وعنها قالت : كَانَتْ يَدُ رسول الله ﷺ الْيُمْنَى لِطَهْرِهِ وَطَعَامِهِ ، وَكَانَتِ الْيُسْرَى لِلْخَلَائِطِ وَمَا كَانَ مِنْ أَدَى ^(٢) . حديث صحيح ، رواه أبو داود وغيره بإسنادٍ صحيح .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - في (باب استحباب تقديم اليمين فيما من شأنه التكريم) ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في شأنه كله ، « في شأنه كله » أي : في جميع أحواله ، يعجبه : يعني يسره ويستحسن البدء باليمين في كل شيء ، في طهوره وترجله وتنعله . « في طهوره » : يعني إذا تطهر يبدأ باليمين ، فيبدأ بغسل اليد اليمنى قبل اليسرى ، وبغسل الرجل اليمنى قبل اليسرى ، وأما الأذنان فإنهما عضو واحد داخلان في الرأس ، فيمسح بهما جميعاً إلا إذا كان لا يستطيع أن يمسح إلا بيد واحدة ، فهنا يبدأ بالأذن اليمنى للضرورة .

قالت « وترجله » : والترجل يعني تسريح الشعر ومشطه ودهنه ، وكان الرسول ﷺ كعادة الناس في ذلك الوقت لا يأخذ رأسه إلا في حج أو عمرة ، لكن أحياناً يأخذ منه وأحياناً يقيه ، فأحياناً يكون إلى شحمة أذنيه ، وأحياناً ينزل حتى يضرب على منكبيه ، فكان ﷺ يتعاهده بالتنظيف والتسريح والدهن حتى يبقى نظيفاً ، لا يكون فيه الغبار ولا القمل ولا غير ذلك مما يستقذر .

وكذلك أيضاً يعجبه التيمن في « تنعله » : أي إذا لبس النعل فإنه يبدأ باليمين قبل اليسار ، وإذا خلع يبدأ باليسار قبل اليمين ، وكذلك الثوب إذا لبسه يبدأ بإدخال الكم اليمين قبل اليسار ، وكذلك السروال يبدأ بإدخال الرجل اليمنى قبل اليسرى ، والعكس في الخلع .

وفي الحديث الثاني عن عائشة رضي الله عنها أنها بينت ما كان النبي ﷺ يستعمل فيه اليمين ويستعمل فيه اليسار ، فذكرت أن الذي يستعمل فيه اليسار ما كان فيه أذى ، كالاستنجاء والاستجمار والاستنشاق والاستنثار وما أشبه ذلك ، كل ما فيه أذى فإنه تُقدَّم فيه اليسرى ، وما سوى ذلك فإنه تُقدَّم فيه اليمنى تكريماً لها ، لأن الأيمن أفضل من الأيسر كما سبق .

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٢٦) بلفظ « يحب » بدل يعجبه ، ومسلم بنحوه في الطهارة (٦٧) قولها « في طهوره » الطهور : استعمال الماء للتطهير ، والطهور الماء المتطهر به .

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٣) قولها ﷺ « لخلائه » أي لما فيه من استنجاء ، قولها ﷺ « وما كان من أذى » كتنحية نحو بصاق ومخاط وغيره .

٧٢٣ - وعن أم عطية رضي الله عنها أن النبي ﷺ ؛ قال لهن في غسل ابنتي زينب رضي الله عنها : « ابدأن بيمينها ومواضع الوضوء منها » ^(١) متفق عليه .

٧٢٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى ، وإذا نزع فليبدأ بالشمال . لتكن اليمنى أولهما تنعل ، وآخرهما تنزع » ^(٢) متفق عليه .

٧٢٥ - وعن حفصة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه ، ويجعل يساره لما سوى ذلك ^(٣) . رواه أبو داود والترمذي وغيره .

٧٢٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا لبستهم ، وإذا توضأتهم ، فأبدؤوا بأيمانكم » ^(٤) حديث صحيح ، رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح .

٧٢٧ - وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى منى : فأتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ، ونحر ، ثم قال للحلالي : « خذ » وأشار إلى جانيه الأيمن ، ثم الأيسر ، ثم جعل يعطيه الناس ^(٥) . متفق عليه .

وفي رواية : لما رمى الجمرة ، ونحر نسكه وخلق : تناول الحلاق شقفة الأيمن فحلقه ، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه ، فأعطاه إياه ، ثم ناوله الشق الأيسر فقال : « اخلق » فحلقه ، فأعطاه أبا طلحة فقال : « اقسمه بين الناس » ^(٦) .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان استحباب البداءة باليمين فيما طريقه التكريم ، وتقديم اليسار فيما طريقه الأذى والقدر ؛ كالاستنجاء والاستجمار وما أشبه ذلك ، فذكر المؤلف حديثاً عن أم عطية رضي الله عنها ، وكانت أم عطية رضي الله عنها من نساء الأنصار وكان لها أعمال جليلة ؛ منها أنها كانت تغسل الأموات من النساء ، فلما ماتت زينب بنت محمد ﷺ وحضرن ليغسلنها ، فقال لهن النبي ﷺ : « ابدأن بيمينها ومواضع الوضوء منها » .

وكيفية تغسيل الميت : بأن تُخلع ثيابه بعد أن يوضع على عورته ما يسترها ، ثم يضع الغاسل خرقة

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٧) ومسلم في الجنائز (٤٢ ، ٤٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٠٨ / ٦) قوله « بيمينها » جمع ميمنة ، قوله « ومواضع الوضوء منها » لشرف أعضاء الوضوء على باقي البدن .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٦٧) واللفظ له ، والبخاري في اللباس (٥٨٥٦) ، وأبو داود في اللباس (٤١٣٩) .
(٣) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١٤١) ، والترمذي في اللباس (١٧٦٦) بلفظ مختلف ، قوله « بأيمانكم » جمع أيمن .
(٥) أخرجه مسلم واللفظ له في الحج (٣٢٣) والبخاري في الوضوء (١٧١) .

(٦) أخرجه مسلم في الحج (٣٢٦) .

على يده فينجيه ، يعني يغسل فرجه القبل والدبر حتى ينظفه ، ثم بعد ذلك يزيل هذه الخرقة ويغسل كفيه كما يتوضأ الإنسان في العادة ، ثم يأخذ خرقة مبلولة بالماء ، فينظف أسنانه وفمه وينظف منخريه بدلاً عن المضمضة والاستنشاق ، ولا يدخل الماء في فمه ولا في أنفه لأنه إذا فعل ذلك نزل الماء إلى جوفه وربما يخرج فيؤذيهم عند التغسيل ، ثم يغسل وجهه ، ويديه إلى المرفقين ، ويمسح رأسه ، ويغسل رجليه ، وضوءاً كاملاً .

ثم بعد ذلك يغسل رأسه برغوة السدر ، بعد أن يكون قد أعد ماءً فيه سدر مطحون يضربه بيده حتى يكون له رغوة ، فيأخذ الرغوة ويغسل بها رأس الميت ، ثم يغسل ببقية السدر بقية البدن . على أن المرأة لا يغسلها إلا نساء ، حتى أبوها لا يغسلها ولا ابنها ولا أحد من محارمها ، إلا النساء أو الزوج .

والرجل لا يغسله إلا الرجال ، لا تغسله أمه ولا بنته ولا أحد من النساء إلا زوجته ، فالزوج يغسل زوجته والزوجة تغسل زوجها ، وما سوى ذلك لا يغسل الذكر الأنثى ولا الأنثى الذكر .

حضرت النساء لتغسيل زينب بنت رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « ابدأن بميامنها » يعني بالأيمن قبل الأيسر ؛ اليد اليمنى قبل اليسرى ، والرجل اليمنى قبل اليسرى ، والشق الأيمن قبل الشق الأيسر ، و « مواضع الوضوء منها » ، ففعلن ذلك ، وجعلن رأسها ثلاثة قرون ، يعني ثلاث جدائل : الجانب الأيمن قرن ، والأيسر قرن ، ووسط الرأس قرن ، وألقيته خلفها ، ثم أعطاهن النبي ﷺ حقوه : يعني إزاره ، وقال : « أشعرنها إياه » يعني : الففنه على جسدها مباشرة و تبركاً بإزار النبي ﷺ ففعلن ذلك . والشاهد من هذا قوله : « ابدأن بميامنها » .

ثم ذكر المؤلف أحاديث فيها معنى ما تقدم ، كحديثي أبي هريرة ؓ في لبس الثوب والنعل والوضوء ، وكذلك حديث حفصة ؓ .

ثم ذكر حديث أنس بن مالك ؓ ، في قصة حلق النبي ﷺ في حجة الوداع . فإن النبي ﷺ في حجة الوداع . لما بات بمزدلفة وصلى الفجر ، وجلس يدعو حتى أسفر جداً ودفع قبل أن تطلع الشمس ، ووصل إلى جمرة العقبة وقد ارتفع النهار ، وصار للشمس حرارة ، فرمى الجمرة وذلك يوم العيد .

وذهب ﷺ إلى منزله فدعا بالحلاق فحلق رأسه ؛ وأشار ﷺ إلى الشق الأيمن فبدأ الحلاق بالشق الأيمن ، وكان النبي ﷺ يُعَفِّي شعر الرأس ، فكان شعر رأسه كثيراً ، فبدأ بالشق الأيمن فحلقه ، ثم دعا أبا طلحة ؓ الأنصاري وأعطاه شعر الشق الأيمن كله ، ثم حلق بقية الرأس ودعا أبا طلحة وأعطاه إياه ، وقال : « اقسمه بين الناس » فقسمه ، فمن الناس من ناله شعرة واحدة ، ومنهم من ناله شعرتان ، ومنهم من ناله أكثر حسب ما تيسر ، وذلك لأجل التبرك بهذا الشعر الكريم ؛ شعر النبي ﷺ .

وكون أبا طلحة خصه الرسول بالجانب الأيمن كله يدل على أن من الناس من يختص بخصيصة يخصه الله بها ، وإن كان في الصحابة من هو أفضل منه ؛ فأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وكثير من الصحابة أفضل من أبي طلحة ، لكن فضل الله ﷺ يؤتيه من يشاء ، وكان الصحابة يتبركون بشعر النبي ﷺ وبشياهه وبعرقه ، لكن غيره لا يتبرك بشعره ولا بشياهه ولا بعرقه .

وكان عند أم سلمة رضي الله عنها - إحدى زوجات الرسول ﷺ - شعرات من شعر الرسول ﷺ ، وضعتها في مجلجل يعني : طابوق من الفضة ، وجعلته من الفضة تكريماً لشعر الرسول ﷺ ، فكان الناس إذا مرضي عندهم مريض جاءوا إليها فصببت على الشعر ماء وحركته به ، ثم أعطته المريض فيشفى بإذن الله ببركة شعر النبي ﷺ .

لكن هذا ليس لغير النبي ﷺ ، فإن الصحابة لم يتبركوا بشعر أبي بكر وهو أفضل الأمة بعد الرسول ﷺ ، ولا بشعر عمر ، ولا غيره من الصحابة ، وكذلك من دونهم لا يتبرك بشعره ولا بعرقه ولا بشياهه ، إنما ذلك خاص برسول الله ﷺ .

والشاهد من حديث أنس أن النبي ﷺ أشار إلى الحلاق أن يبدأ بالجانب الأيمن . فإذا حججت وأردت أن تحلق أو تقصر فابدأ بالجانب الأيمن ، وكذلك لو حلقت حلقاً عادياً فابدأ بالجانب الأيمن .

* * *

كتاب أدب الطعام

١٠٠ - باب التسمية في أوله والحمد في آخره

٧٢٨ - عن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ يَمِينَكَ ، وَكُلْ يَمَانِيكَ » ^(١) متفق عليه .

٧٢٩ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ ، فَلْيَقُلْ : بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ » ^(٢) . رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله « كتاب أدب الطعام » : فالطعام ما يطعمه الإنسان ، أي ما يتذوق طعمه ، ويكون شرباً ويكون أكلاً ، والدليل على أن الشراب يسمى طعاماً أو طعاماً قوله تبارك وتعالى :

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٨) واللفظ له ، ومسلم في الأشربة (١٠٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦/٤) ،

(٢) قوله : « وكل مما يليك » أي إذا كان الطعام لوناً واحداً ، فإن كان ألواناً جاز الأكل من جميع الجوانب .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٦٧) ، والترمذي في الأطعمة (١٨٥٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٤٦/٦) .

﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

ثم قال : (باب التسمية في أوله والحمد في آخره) . ثم ذكر حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه وكان ربيب النبي ﷺ يعني : ابن زوجته أم سلمة ، فإنه قُدِّمَ للنبي ﷺ طعام ، وكان غلامًا صغيرًا فجعلت يده تطيش في الصفحة من هنا ومن هنا ، وكان النبي ﷺ لا يدع مجالًا يحتاج إلى التعليم إلا علم ، حتى الصغار ، فقال له : « سَمِّ اللَّهَ ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » .
فهذه ثلاثة آداب في الأكل علمها النبي ﷺ هذا الغلام .

أولاً : قال : « سَمِّ اللَّهَ » ، يعني قل : بسم الله ، ولا حرج أن يزيد الإنسان : الرحمن الرحيم ، لأن هذين الاسمين أثنى الله بهما على نفسه في البسملة في القرآن الكريم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإن قال : بسم الله الرحمن الرحيم . فلا حرج ، وإن اقتصر على بسم الله كفى .
والتسمية على الأكل واجبة إذا تركها الإنسان فإنه يأثم ويشاركه الشيطان في أكله ، ولا أحد يرضى أن يشاركه عدوه في أكله ، فلا أحد يرضى أن يشاركه الشيطان في أكله ، فإذا لم تقل : بسم الله فإن الشيطان يشاركك فيه .

فإن نسيت أن تسمي في أوله وذكرت في أثنائه فقل : « بسم الله أوله وآخره » كما أرشد إلى ذلك النبي ﷺ في الحديث الذي روته عائشة وأخرجه أبو داود والترمذي .

ثانياً : قال : « كُلْ بِيَمِينِكَ » والأكل باليمين واجب ، ومن أكل بشماله فهو آثم عاصٍ للرسول ﷺ ، ومن عصى الرسول فقد عصى الله ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله .

ثالثاً : « كُلْ مِمَّا يَلِيكَ » يعني : إذا كان معك مشارك فكل من الذي يليك ، لا تأكل من جهته ، ومن الذي يليه ، فإن هذا سوء أدب ، قال العلماء : إلا أن يكون الطعام أنواعاً ، مثل أن يكون فيه قرع وباذنجان ولحم وغيره ، فلا بأس أن تتخطى يدك إلى هذا النوع أو ذاك ، كما كان الرسول ﷺ يتبع الدُّبَاءَ من الصفحة ويأكلها ^(١) . والدُّبَاءُ يعني القرع .

وكذلك لو كنت تأكل وحدك فلا حرج أن تأكل من الطرف الآخر لأنك لا تؤذي أحداً في ذلك ، لكن لا تأكل من أعلى الصفحة لأن البركة تنزل في أعلاها ، ولكن كل من الجوانب .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه ينبغي لنا أن نعلّم الصبيان والغلمان آداب الأكل والشرب ، وكذلك آداب النوم ، فضلاً عن الأمور الأخرى كالصلاة ، فإن الرسول ﷺ قال : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر » ^(٢) .

٧٣٠ - وعن جابر رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ ، فَذَكَرَ اللَّهَ

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٩) ، والترمذي في الأطعمة (١٨٤٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٥) ، والترمذي في الصلاة (٤٠٧) .

تعالى عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ ، قَالَ الشَّيْطَانُ لِأَصْحَابِهِ : لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ ، وَإِذَا دَخَلَ ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ دُخُولِهِ ، قَالَ الشَّيْطَانُ : أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ : أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ ^(١) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في سياق أدب الطعام ، عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء » ؛ ذلك لأن الإنسان ذكر الله .

وذكر الله تعالى عند دخول البيت أن يقول : « بسم الله ولجنا ، وبسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، اللهم إني أسألك خير المولج ، وأسألك خير المخرج » ^(٢) ، هذا الذكر عند دخول المنزل ، سواء في الليل أو في النهار .

وأما الذكر عند العشاء فأن يقول : « بسم الله » .

فإذا ذكر الله عند دخوله البيت ، وذكر الله عند أكله عند العشاء ، قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ، لأن هذا البيت وهذا العشاء حُجْمِي بذكر الله ﷻ ، حماه الله تعالى من الشياطين . وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء ، أي أن الشيطان يشاركه المبيت والطعام لعدم التحصن بذكر الله . وفي هذا : حث على أن الإنسان ينبغي له إذا دخل بيته أن يذكر اسم الله ، والذكر الوارد في ذلك : « بسم الله ولجنا ، وبسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج » ، ثم يستاك ، لأن النبي ﷺ إذا دخل بيته فأول ما يبدأ به السواك ، ثم يسلم على أهله ^(٣) .

أما عند العشاء فيقول : « بسم الله » . وبذلك يحترز من الشيطان الرجيم مبيتاً وعشاءً ، فإن ذكر اسم الله عند الدخول دون العشاء شاركه الشيطان في عشاءه ، وإن ذكر اسم الله عند العشاء دون الدخول شاركه الشيطان في المبيت دون العشاء ، وإن ذكر اسم الله عند الدخول وعند العشاء فإن الشيطان لا يكون له مبيت ولا عشاء .

٧٣١ - وعن حذيفة رضي الله عنه قال : كنّا إذا حضّرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً ، لم نَضْغْ أيدينا حتّى يَبْدَأَ رسول الله ﷺ فَيَضْغَ يَدَهُ ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَاماً ، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ ، فَذَهَبَتْ

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٣) واللفظ له ، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٤٦/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٣) ولفظه « أن النبي ﷺ كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك » .

لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهَا ، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ ، فَأَخَذَ يَدَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهِذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا ، فَأَخَذْتُ يَدَهَا فَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيُّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ ، فَأَخَذْتُ يَدَهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ يَدِهِ فِي يَدِي مَعَ يَدَيْهِمَا » ثُمَّ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَكَلَ ^(١) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب أدب الطعام ما نقله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً ، لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده ؛ وذلك لكمال احترامهم للنبي ﷺ ، فلا يضعون أيديهم في الطعام حتى يضع يده .

فحضر مع رسول الله ﷺ ذات يوم طعاماً قدم إلى رسول الله ﷺ ، فلما بدؤوا جاءت جارية ، يعني طفلة صغيرة كأنما تُدفع دفقا ، يعني كأنها تركض ، فأرادت أن تضع يدها في الطعام بدون أن تسمي فأمسك النبي ﷺ يدها ، ثم جاء أعْرَابِيٌّ كذلك كأنما يُدفع دفقا ، فجاء ليضع يده في الطعام فأمسك النبي ﷺ يده ، ثم أخبر النبي ﷺ أن هذا الأعْرَابِيٌّ وهذه الجارية جاء بهما الشيطان لأجل أن يستحل الطعام بهما إذا أكلَا بدون تسمية .

وهما قد يكونان معذورين لجهلهما ؛ هذه لصغرهما وهذا أعْرَابِيٌّ ، لكن الشيطان أتى بهما من أجل أنهما إذا أكلَا بدون تسمية شارك في الطعام .

ثم أقسم النبي ﷺ أن يد الشيطان مع أيديهما في يد النبي ﷺ .

وهذا الحديث يدل على فوائد :

منها : احترام الصحابة لرسول الله ﷺ وأدبهم معه .

ومنها : أنه ينبغي إذا كان هناك كبير على الطعام ألا يتقدم أحدٌ قبل أكله ، بل يؤثرون الكبير بالأكل أولاً ، لأن التقدم بين يدي الكبير غير مناسب وينافي الأدب .

ومنها : أن الشيطان يأمر الإنسان ويحثه ويزجره على فعل ما لا ينبغي ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [النور: ٢١] ، فدل هذا

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/٥) قوله : « كأنها تدفع » أي لشدة سرعتها ، قوله « يستحل الطعام » أي يتمكن منه ، قوله « أن لا يذكر اسم الله تعالى عليه » أي علة استحلاله ، والجار قبلها ، أي : بأن لا يذكر اسم الله عليه . وحذف الجار من أن . قوله « فأخذت يدها » أي منعنا للشيطان مما أراد ، قوله « إن يده في يدي مع يدهما » أي يد الشيطان .

(٢) قوله تعالى : ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ طرقة وآثارة ومذاهبه . قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ يوقع من يتبعه بما عظم قبحه من الذنوب . قوله تعالى : ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ما ينكره الشرع وينهى عنه .

على أن الشيطان له إمرة على بني آدم والمعصوم من عصمه الله .

ومنها : أن الإنسان إذا أتى في أثناء الطعام فليست ولا يقل : سمي الأولون قبلي .

ولكن إذا كانوا جميعاً وبدؤوا بالطعام جميعاً ، فهل يكفي تسمية الواحد ؟

والجواب : إن كان الواحد سمي سرّاً فإن تسميته لا تكفي لأن الآخرين لم يسمعوها ، وإن سمي جهراً ونوى عن الجميع فقد يقال : إنها تكفي ، وقد يقال : الأفضل أن يسمي كل إنسان لنفسه ، وهذا أكمل وأحسن .

ومن فوائد هذا الحديث : أن للشيطان بدءاً ، لأن النبي ﷺ أمسك بيده .

ومنها أيضاً : أن هذا الحديث آية من آيات الرسول ﷺ ، حيث أعلمه الله تعالى بما حصل في هذه القصة ، وأن الشيطان دفع الأعرابي والجارية ، وأنه أمسك بأيديهم ؛ أي بأيدي الثلاثة بيده الكريمة صلوات الله وسلامه عليه .

ومنها : أنه إذا جاء أحد يريد أن يأكل ولم تسمعه سمي فأمسك بيده حتى يسمي ، لأن النبي ﷺ أمسك بأيديهم ولم يقل : سمياً ، بل أمسك بأيديهم حتى يكون في ذلك ذكرى لهم ؛ يذكرون هذه القصة ولا ينسون التسمية في المستقبل .

ومن فوائد هذا الحديث : تأكد التسمية عند الأكل ، والصحيح أن التسمية عند الأكل واجبة ، وأن الإنسان إذا لم يسم فهو عاصٍ لله ﷻ ، وراضٍ بأن يشاركه في طعامه أعدى عدو له وهو الشيطان ، فلذلك كانت التسمية واجبة ، فإن نسي التسمية في أوله وذكرت في أثنائه فقل : بسم الله أوله وآخره .

٧٣٢ - وعن أمية بن مخشبي الصحابي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ جالساً ، ورجل يأكل ، فلم يسم الله حتى لم يبق من طعامه إلا لقمة ، فلما رفعها إلى فيه ، قال : بسم الله أوله وآخره ، فضحك النبي ﷺ ، ثم قال : « ما زال الشيطان يأكل معك ، فلما ذكر اسم الله اشتقاء ما في بطنه » (١) .

رواه أبو داود ، والنسائي .

٧٣٣ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يأكل طعاماً في سيرة من أصحابه ، فجاء أعرابي ، فأكله بلقمتين . فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه لو سمي لكفاكم » (٢) .

رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٦٨) ، والطبراني في الكبير (٢٦٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (١٨٥٨) .

٧٣٤ - وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ ^(١) وَلَا مُوَدِّعٍ ^(٢) ، وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ رَبُّنَا » ^(٣) رواه البخاري .

٧٣٥ - عن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا ، وَزَرَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٤) رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها المؤلف رحمته الله في كتاب أدب الطعام ، وفيها دلالة على أمور :

منها : أن الإنسان إذا لم يسم الله على طعامه فإن الشيطان يأكل معه ، لحديث أمية بن مخشي ، أن رجلاً أكل طعاماً فلم يسم ، فلما بقي لقمة واحدة تذكر فسمى الله تعالى ، فضحك النبي ﷺ ، وأخبر أن الشيطان كان يأكل معه ، فلما ذكر الله قاء الشيطان ما أكله . وهذه من نعمة الله سبحانه وتعالى ؛ أن الشيطان يُحرم أن يأكل معنا إذا سمينا في أول الطعام ، وكذلك إذا سمينا في آخره وقلنا : بسم الله أوله وآخره ، فإن ما أكله يتَقَيَّرُ فيحرم إياه .

وفي الحديث دليل على أن الشيطان يأكل ، لأنه أكل من هذا الطعام ، فالشيطان يأكل ويشرب ويشارك الأكل والشارب إذا لم يسم الله تعالى على أكله وشربه .

وكذلك ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يأكل في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي فدخل معهم فأكل الباقي بلقمتين ، هذا كأنه جائع والله أعلم ، فجاء منهما في الأكل ، فأكل الباقي بلقمتين ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه لو سمي لكفاكم » لكنه لم يسم ، فأكل الباقي كله بلقمتين ولم يكفه .

وهذا يدل على أن الإنسان إذا لم يسم تُزْعَت البركة من طعامه ، لأن الشيطان يأكل معه ، فيكون الطعام الذي يظن أنه يكفيه لا يكفيه ، لأن البركة تنزع منه .

وبقية الأحاديث فيها دليل على أن الإنسان ينبغي له إذا أكل أكلاً أن يحمده الله ﻋَظِيمُ ، وأن يقول : الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقني من غير حول مني ولا قوة . ومعنى ذلك أنه لولا أن الله تعالى يسر

(١) غير مكفي : قيل : يحتمل أن تكون من كفات الإناء : أي غير مردود عليه إنعامه ، ويحتمل أن تكون من الكفاية : أي أن الله غير مكفي رزق عباده لأنه لا يكفيهم أحد غيره . وقيل : المعنى أنا غير مكفئ بنفسني عن كفايته . وهذا كله إذا كان الضمير لله . وقيل : يحتمل أن يكون الضمير للطعام ، ومكفي بمعنى مقلوب من الإكفاء وهو القلب ، غير أنه لا يكفي الإناء للاستغناء عنه .

(٢) ولا موذع : بفتح الدال أي غير متروك ، ويحتمل كسرهما على أنه حال من القائل ، أي غير تارك .

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨) .

(٤) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٣) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) .

لك هذا الطعام ما حصل لك ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتُمْنَنُ الزَّرْعُونَ (٢) لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٣) إِنَّا لَمُعْرِضُونَ (٤) بَلْ تَحْنَنُ تَحْرِثُونَ (٥) [الواقعة : ٦٣ - ٦٧] .

فالإنسان لولا أن الله ييسر له الطعام من حين أن يئزر ، ثم ينبت ، ثم يحصد ، ثم يحضر إليه ، ثم يطحن ، ثم يعجن ، ثم يطبخ ، ثم ييسر الله الأكل ، ما تيسر له ذلك .

ولهذا قال بعض العلماء : إن الطعام لا يصل إلى الإنسان ويقدم إليه إلا وقد سبق ذلك نحو مائة نعمة من الله لهذا الطعام ، ولكننا أكثر الأحيان في غفلة عن هذا ، نسأل الله أن يطعمنا وجميع المسلمين الطعام الحلال ، وأن يرزقنا شكر نعمته ، إنه على كل شيء قدير .

وفي حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه ، حث النبي ﷺ على قول : « الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيه ، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » ، أي إننا لا نستغني عن الله ﷻ ، ولا أحد يكفيننا دونه ، فهو سبحانه حسبا وهو رازقنا جل وعلا .

١٠١ - باب لا يعيب الطعام واستحباب مدحه

٧٣٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ما غاب رسول الله ﷺ طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه » (٤) متفق عليه .

٧٣٧ - وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأل أهله الأذم فقالوا : ما عندنا إلا خل ، فدعا به ، فجعل يأكل ويقول : « نغم الأذم الخل ، نغم الأذم الخل » (٥) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب لا يعيب الطعام ، واستحباب مدحه) .
والطعام : ما يطعمه من مأكل ومشروب ، والذي ينبغي للإنسان إذا قدم له الطعام أن يعرف قدر نعمة الله ﷻ بتيسيره ، وأن يشكره على ذلك ، وألا يعيبه ؛ إن كان يشتهي وطابت به نفسه فليأكله ، وإلا فلا يأكله ، ولا يتكلم فيه بقدر أو يعيب .

ودليل ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما غاب رسول الله ﷺ طعاما قط . يعني لم يعيب أبدا

(١) أي لجعلنا ذلك الزرع متكسرا متفتتا لشدة يبسه لا نفع فيه بعد ما أنبتناه .

(٢) أي تقولون : إنا لمهلكون بهلاك أقواتنا . (٣) أي ممنوعون الرزق بالكلية .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٠٩) ومسلم في الأشربة (١٨٧) وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦٣) .

(٥) الأذم : ما يؤتد به مع الخبز ، مائكا كان أو جامدا .

(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١٦٦) بلفظ ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠١/٣ ، ٣٦٤) .

فيما مضى طعامًا ، ولكنه إن اشتهاه أكله وإلا تركه ولا يعيبه .

مثال ذلك : رجل قَدَّم له تمر وكان التمر رديقًا ، فلا يقل : هذا تمر رديء ، بل يقال له : إن اشتهيته فَكُلْ وإلا فلا تأكله ، أمَّا أن تعيبه وهو نعمة أنعم الله بها عليك ويسرها لك ، فهذا لا يليق . كذلك إذا صُنِعَ طعام فَقدَّم إليه ، ولكنه لم يعجبه فلا يعيبه ، ويقال له : إن كان هذا الطبخ قد ساغ لك فَكُلْ ، وإلا فاتركه .

وأما في مدح الطعام والثناء عليه فذكر حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم ، فقالوا : ما عندنا شيء إلا الخل . والخل : عبارة عن ماء يوضع فيه التمر حتى يكون حلواً ، فجاء إليه بالخل فجعل يأتمم به ، يعني يغط فيه الخبز ويأكله ، ويقول : « نعم الأدم الخل ، نعم الأدم الخل » . وهذا ثناء على الطعام ، لأن الخل وإن كان شراباً يشرب ولكن الشراب يسمى طعاماً ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، وإنما سمي طعاماً لأن له طعمًا يطعم .

وهذا أيضًا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا أعجبه الطعام أثنى عليه . وكذلك مثلاً : لو أثنت على الخبز ، قلت : نعم الخبز خبز فلان أو ما أشبه ذلك ، فهذا أيضًا من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

١٠٢ - باب ما يقوله من حضر الطعام وهو صائم إذا لم يفطر

٧٣٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دُعِيَ أَحَدُكُمْ ، فَلْيَجِبْ ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيَصِلْ ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ » ^(١) رواه مسلم .
قال العلماء : معنى « فَلْيَصِلْ » : فَلْيَذُفْ ، ومعنى « فَلْيَطْعَمْ » : فَلْيَأْكُلْ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب ما يقوله من حضر الطعام وهو صائم إذا لم يفطر) .
ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيمن دُعي إلى طعام وهو صائم ، قال : « فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيَصِلْ ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ » .

« فليصل » : يعني فليدعو لأن الصلاة هنا المراد بها الدعاء ، كما هو في اللغة العربية أن الصلاة هي الدعاء ، أما في الشرع ، فالصلاة هي العبادة المعروفة ، إلا إذا دلَّ الدليل على أن المراد بها الدعاء فهو على ما دل عليه الدليل .

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٠٦) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٦٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٨٩/٢) .

فالإنسان إذا دعي إلى طعام وحضر فلا يكفي الحضور ، بل يأكل لأن الرجل الذي دعاك لم يصنع الطعام إلا ليؤكل ، فقد تكلف لك وصنع طعاماً أكثر من طعام أهله ، ودعاك إليه ، فإذا قلنا لا حرج عليك إن تركت الأكل لزم من هذا أن يبقى طعامه لم يؤكل ، فمثلاً لو دعا عشرة وصنع لهم طعاماً ، وقلنا : إن الواجب الحضور دون الأكل ، ثم قاموا ولم يأكلوا لصار في ذلك مفسدة لماله ، ومضیعة لماله ، وصار في قلبه على الحاضرين شيء ؛ لماذا لم يأكلوا طعامي ؟ ! .

فنقول : إذا دعاك داع فالسنة أن تجيبه إلا إذا كان الداعي هو الزوج في وليمة العرس ، فإن الواجب أن تجيبه إلى دعوته ، ولا يحل لك أن تمتنع ، لقول النبي ﷺ : « من لم يجب فقد عصى الله ورسوله » ^(١) يعني دعوة الوليمة ، أما غيرها من الدعوات فأنت بالخيار .

مثال ذلك : لو أن إنساناً دعاك في طعام لأنه قدم من سفر ، أو لأنه دعا أصحابه ، أو ما أشبه ذلك ، فأنت بالخيار ؛ إن شئت فأجب وإن شئت فلا تجب ، لكن الأفضل أن تجيب ، وهذا الذي عليه جمهور العلماء .

وقال بعض العلماء : يجب أن تجيب في دعوة الطعام في العرس وغيره ، إلا لسبب شرعي . فإذا حضرت فإن كنت مفطراً فكل ، وإن كنت صائماً فادع لصاحب الطعام ، وأخبره بأنك صائم ، حتى لا يكون في قلبه شيء ، وإن رأيت أنك إذا أفطرت وأكلت صار أطيّب لقلبه فأفطر ، إلا أن يكون الصوم صوم فريضة ، فلا تفطر .

فتبين الآن أن المسألة ثلاثة أحوال :

أولاً : إذا دعاك وأنت مفطر فكل .

ثانياً : إذا دعاك وأنت صائم صوم فريضة فلا تأكل ولا تفطر .

ثالثاً : إذا دعاك وأنت صائم صوم نفل فأنت بالخيار ؛ إن شئت فأفطر وكل ، وإن شئت فلا تأكل ، وأخبره بأنك صائم ، واتبع في ذلك ما هو الأصح ؛ إذا رأيت أن من الخير أن تفطر فأفطر وكل ، وإلا فلزوم الصيام أولى .

أما البطاقات : فلا تجب الإجابة فيها ، إلا إذا علمت أن الرجل أرسل إليك البطاقة بدعوة حقيقية ، لأن كثيراً من البطاقات ترسل إلى الناس من باب المجاملة ، ولا يهمه حضرت أم لم تحضر ، لكن إذا علمت أنه يهمه أن تحضر لكونه قريباً لك أو صديقاً لك فأجب .

١٠٣ - باب ما يقوله من دعي إلى طعام فتبعه غيره

٧٣٩ - عن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه قال : دَعَا رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ لِبَطْعَامٍ صَنَعَهُ لَهُ خَمِيسَ خَمْسِيَّةٍ ، فَتَبِعَهُمْ رَجُلٌ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنْ هَذَا تَبِعَنَا ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعْ » قَالَ : بَلْ أَذْنُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ^(١) . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في (كتاب أدب الطعام) : (باب ما يقوله من دعي إلى طعام فتبعه غيره) . ثم ذكر حديث أبي مسعود البدرى رضي الله عنه ، أن رجلاً دعا النبي ﷺ إلى طعام خامس خمسة ، يعني حدد العدد بأنهم خمسة ، فتبعهم رجل فكانوا ستة ، فلما بلغ النبي ﷺ منزل الداعي استأذن للرجل السادس ؛ قال ﷺ : « إِنْ هَذَا تَبِعَنَا ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعْ » ، ففي هذا دليل على فوائد :

منها : أنه يجوز للإنسان إذا دعا قومًا أن يحدد العدد ولا حرج في ذلك ، وبعض الناس يقول : إنه إذا حدد العدد فإنه بخيل ، ولكن يقال قد يكون الإنسان قليل ذات اليد ، يحتاج أن يحدد لأجل أن يصنع الطعام الذي لا يزيد عن كفايتهم ، ولا سيما في مكان يكون فيه عامة الناس فقراء ، أما الأغنياء فالحمد لله لا يحددون .

وفيه أيضًا دليل على جواز اتباع الرجل للمدعوين لعله يحصل على طعام ، لأن النبي ﷺ لم يمنع هذا الرجل من اتباعهم بل استأذن له ، ولأنه ورد أيضًا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، حين تبع النبي ﷺ من أجل أن يشبع بطنه .

وفيه أيضًا دليل على أنه إذا جاء مع الإنسان من لم يُدْعَ فإنه يستأذن له ، خصوصًا إذا كنت تظن أن صاحب البيت دعاك لغرض خاص لا يجب أن يطلع عليه أحد ، فحيثُ لا بد أن تستأذن . وفيه أيضًا دليل على أنه لا حرج على صاحب البيت إذا لم يأذن للذي تبع المدعو ، لأنه لو كان في ذلك حرج ما استأذنه النبي ﷺ ، فلما استأذنه دلَّ على أنه بالخيار ؛ إن شاء أذن وإن شاء قال : ارجع .

وذلك أن الإنسان إذا استأذن على شخص فصاحب البيت بالخيار ؛ إن شاء أذن له وإن شاء قال : ارجع ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٨] .

فلا يكن في صدرك حرج ولا في نفسك ضيق إذا استأذنت على شخص وقال : ارجع ، أنا الآن مشغول . خلافاً لبعض الناس إذا استأذن على إنسان وقال له : ارجع أنا مشغول ، صار في قلبه شيء ،

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٣٤) مسلم في الأشربة (١٣٨) .

وهذا غلط لأن الناس لهم حاجات خاصة في بيوتهم ، وقد يكون لهم تعلقات بأناس آخرين أهم ، فإذا استأذنت على شخص في البيت ، وقال لك : الآن عندي شغل ؛ فارجع ، ارجع بكل راحة وبكل طمأنينة ، لأن هذا هو الشرع .

* * *

١٠٤ - باب الأكل مما يليه ووعظه وتأديبه من نسيء أكله

٧٤٠ - عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال : « كُنْتُ غَلامًا في جِبرِ رسول الله ﷺ ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ في الصُّحْفَةِ ، فقال لي رسول الله ﷺ : « يَا غَلامُ سَمِ اللّٰهُ تَعَالَى ، وَكُلْ يَمِينِكَ ، وَكُلْ يَمَانِكَ » ^(١) متفقٌ عليه .

قوله : « تَطِيشُ » بكسر الطاء وبعدها ياء مشاة من تحت ، معناه : تتحرك وتمتد إلى نواحي الصُّحْفَةِ .

٧٤١ - وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أَكَلَ عِنْدَ رسول الله ﷺ بِشِمَالِهِ ، فقال : « كُلْ يَمِينِكَ » قال : لا أَستطِيعُ ، قال : « لا أَستطِعتُ » ما مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ ! فَمَا رَفَعَهَا إِلَيَّ فِيهِ ^(٢) . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتاب أدب الطعام : (باب الأكل مما يليه ووعظه وتأديبه من نسيء أكله) . وقد سبق لنا الكلام على أن الأكل باليمين والشرب باليمين واجب ، وأنه يحرم على الإنسان أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، وأن من أكل بشماله أو شرب بشماله فإنه عاصٍ وآثم ؛ عاصٍ لله ورسوله ، وآثم ومشابه للشيطان ولأولياء الشيطان من الكفار . والواجب على المسلم أن يأكل باليمين إلا لعذر ، كما لو كانت اليمين مشلولة أو ما أشبه ذلك ، فاتقوا الله ما استطعتم .

ولهذا ذكر المؤلف حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال لرجل يأكل بشماله : « كُلْ يَمِينِكَ » ، قال : لا أَستطِيعُ ، قال النبي ﷺ : « لا أَستطِعتُ » ؛ يعني دعا عليه أن يعجز أن يرفع يده اليمنى إلى فمه ، لأنه ما منعه إلا الكبر والعياذ بالله ، فدعا عليه الرسول ﷺ فلم يرفعها بعد ذلك إلى فمه .

(١) أخرجه البخاري في الأُطعمة (٥٣٧٦) ، ومسلم في الأُشربة (١٠٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الأُشربة (١٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٥/٤) ، والبيهقي في سننه (٢٧٧/٧) .

ويحتمل قوله : ما منعه إلا الكبر ؛ يعني إلا التكبر عن أمر الرسول ﷺ ، ويحتمل أنه : ما منعه إلا الكبر ؛ يعني ما منعه أن يأكل بيمينه إلا الكبر ، وأيًا كان فإن دعاء الرسول ﷺ عليه بهذه الدعوة التي أوجبت أن تنشل يده حتى لا ترفع إلى فمه ، دليل على أن الأكل بالشمال حرام .

وقد أخبر النبي ﷺ أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ^(١) ، فأنت الآن أمامك هدي النبي ﷺ وهدي الشيطان ، فهل تأخذ بهدي الرسول أو بهدي الشيطان ؟ ! وكل مؤمن يقول : آخذ بهدي الرسول ﷺ ، والرسول ﷺ يأكل بيمينه وأمر بالأكل باليمين ويشرب بيمينه وأمر بالشرب باليمين ، والشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ، فاختر أي الطريقين شئت .

ولهذا كان أولياء الشيطان من اليهود والنصارى والمشركين لا يعرفون الأكل إلا بالشمال ، ولا الشرب إلا بالشمال ، لأنهم أولياء الشيطان وتولاهم الشيطان والعياذ بالله ، واستحوذ عليهم ، فإياك أن تكون مثلهم .

وبعض الناس إذا كان يأكل وأراد أن يتشرب يمسك الكأس باليسار ويشرب ، وهذا لا يجوز ، لأن الحرام لا يباح إلا للضرورة ، وهذا ليس له ضرورة ، يستطيع أن يمسك الكأس من أسفله باليد اليمنى ، فغالب كئوس الناس اليوم إما من البلاستيك يشرب بها ثم ترمى ولا تغسل ، أو من الحديد أو الزجاج فيمكن غسلها حتى لو تلطخت .

ولكن لا يجوز للإنسان أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، فإن فعل فهو عاص لله ورسوله ؛ عاص للرسول لأنه نهى عن ذلك ، وعاص لله لأن معصية الرسول معصية لله ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، والرسول ما يتكلم من عند نفسه ، بل يتكلم لأنه رسول رب العالمين ﷺ .

وذكر المؤلف رحمه الله حديث عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله ﷺ ، وعمر بن أبي سلمة ابن أم سلمة ، وأم سلمة مات عنها زوجها أبو سلمة رحمه الله ، وكانت تحبه حبًا عظيمًا وهو ابن عمها ، وحضر النبي ﷺ وفاته ، ودخل عليه النبي ﷺ وقد شخص بصره أي انفتح انفتاحًا كبيرًا ، فقال ﷺ : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر » ^(٢) ؛ لأن الروح بإذن الله جسم لطيف خفيف يخرج من البدن ، ولا يمكن أن نشاهده بل يشاهده الميت ، فيشاهد نفسه خرجت من جسده .

قال : إن الروح إذا قبضت تبعها البصر ، فضج ناس من أهله لما سمعوا كلام الرسول ﷺ عرفوا أنه مات ، فضجوا كعادة الناس ، لأنه في الجاهلية إذا مات الميت دعوا بالويل والثبور : واثبوره واويلاه وما أشبه ذلك ، فقال ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم ، إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون ^(٣) على ما تقولون » .

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم في الأشربة (١٠٥) ، وسنن أبي داود (٣٧٧٦) ، ومسند الإمام أحمد (٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٧/٦) .

(٣) يؤمنون : آمن على دعائه أي قال : آمين أي استجب .

ثم أغمض النبي ﷺ بصره ، يعني رد أجفانه بعضها إلى بعض ، لئلا تبقى عيناه مفتوحتين ، وهكذا ينبغي أن يغمض الميت إذا مات ، لأنه إذا برد ما تستطيع أن تغمض عينيه ، فما دام حاراً فأغمض عينيه .

وقال ﷺ : « اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ، وافسح له في قبره ونور له فيه » . يا لها من دعوات كلنا يتمناها .

« اللهم اغفر لأبي سلمة » : يعني ذنوبه ، « وارفع درجته في المهديين » : أي في جنات النعيم - جعلنا الله من أهلها - ، « وافسح له في قبره » : أي وسع له في قبره ، « ونور له فيه » لأن القبر ظلمة إلا من نوره الله عليه ، نور الله قبورنا ، « واخلفه في عقبه » : يعني كن خليفته في عقبه .

وكانت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد سمعت من النبي ﷺ أن الإنسان إذا أصيب بمصيبة فقال : « اللهم أجرنني في مصيبتني واخلف لي خيراً منها ؛ أجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها » فقالت ذلك لما مات زوجها وابن عمها وأحب الناس إليها ، ثم جعلت تفكر تقول في نفسها : من خير من أبي سلمة ؟ فهي مؤمنة بأن الله سيخلف لها خيراً منه ، لكن تقول : من خير من أبي سلمة ؟

فما أن انتهت عدتها من وفاة زوجها حتى خطبها النبي ﷺ ، فكان النبي ﷺ خيراً لها من أبي سلمة بلا شك (١) .

ثم إن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ لما قال في أبي سلمة : « أخلفه في عقبه » ، خلفه الله في عقبه ، وجعل خليفة أبيهم رسول الله ﷺ ، وهو نعم الخليفة ، خلف أبا سلمة في أهله وفي أولاده . وكان منهم عمر بن أبي سلمة ؓ وكان صغيراً غلاماً ، جلس مع الرسول ﷺ يأكل فجعلت يده تطيش في الصحفة ؛ صبي صغير ما تعلم تروح يده يميناً ويساراً ، يأكل مما يليه ومن وسط الصحفة ومن الجانب الآخر .

فقال له النبي ﷺ : « يا غلام سَمَّ الله » يعني قُلْ : بسم الله عند الأكل ، « وكُلْ يمينك وكل مما يليك » .

فعلَّم الرسول هذا الغلام ثلاث سنن : « سَمَّ الله » والتسمية على الأكل واجبة ، « وكُلْ يمينك » والاكل باليمين واجب ، « وكُلْ مما يليك » تأدباً مع صاحبك ، لأن من سوء الأدب أن تأكل من حافة صاحبك ، فعلمه النبي ﷺ ثلاث سنن في أكلة واحدة ، وهذه من بركات النبي ﷺ ؛ أن يجعل الله فيه بركة فيعلم في كل مناسبة .

وكذلك ينبغي لطالب العلم وغير طالب العلم ، كل من علِمَ شئاً ينبغي أن يبينها في كل مناسبة

ولا تقل : أنا لست بعالم . نعم لست بعالم لكن عندك علم ، قال النبي ﷺ : « بلغوا عني ولو آية »^(١) ، فينبغي للإنسان في مثل هذه الأمور أن يتتبع الفرص ، كلما سمحت الفرصة لنشر السنة فأنشرها يكن لك أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

١٠٥ - باب النهي عن القران بين تمرتين ونحوهما
إذا أكل جماعة إلا بإذن رفقته

٧٤٢ - عن جبلة بن سحيم قال : أصابتنا عام سنة مع ابن الزبير فزفقتا تمرًا ، وكان عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما يمر بنا ونحن نأكل ، فيقول : لا تقارنوا ؛ فإن النبي ﷺ نهى عن الإقرا ، ثم يقول : « إلا أن يستأذن الرجل أخاه »^(٢) متفق عليه .

١٠٦ - باب ما يقوله ويفعله من يأكل ولا يشبع

٧٤٣ - عن وحشي بن حرب رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، إنا نأكل ولا نشبع ؟ قال : « فاعلمكم تفرقون » قالوا : نعم . قال : « فاجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله ، يبارك لكم فيه »^(٣) رواه أبو داود .

الشرح

هذان بابان ذكرهما النووي رحمه الله في كتاب أدب الطعام .

أما أولهما : فهو في النهي عن القران بين التمرتين ونحوهما مما يؤكل أفرادًا إذا كان مع جماعة إلا بإذن أصحابه ، فمثلاً : الشيء الذي جرت العادة أن يؤكل واحدة واحدة كالتمر ، إذا كان معك جماعة فلا تأكل تمرتين جميعاً ، لأن هذا يضر بإخوانك الذين معك ، فلا تأكل أكثر منهم إلا إذا استأذنت ، وقلت : تأذنون لي أن أكل تمرتين في آن واحد ، فإن أذنوا لك فلا بأس . وكذلك ما جاء في العادة بأنه يؤكل أفرادًا ، كبعض الفواكه الصغيرة التي يلتقطها الناس حبةً ويأكلونها ،

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) والترمذي في العلم (٢٦٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٤٦) وفيه القران ومسلم في الأشربة (١٥٠) وفيه الإقرا والمعروف في اللغة القران : يقال قرن بين الشيئين يقرن بضم الراء وكسرهما أي جمع . ولا يقال : قرن ، وأخرجه أبو داود في الأطعمة

(٣٨٣٤) والترمذي في الأطعمة (١٨١٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٦٤) .

فإن الإنسان لا يجمع بين اثنتين إلا بإذن صاحبه الذي معه ، مخافة أن يأكل أكثر مما يأكل صاحبه .
أما إذا كان الإنسان وحده فلا بأس أن يأكل التمرتين جميعاً ، أو الحبتين مما يؤكل أفراداً جميعاً ،
لأنه لا يضر بذلك أحداً ، إلا أن يخشى على نفسه من الشَّرْقِ أو الغصص ، فإن العامة يقولون : من
كبر اللقمة غُصٌّ ، فإذا كان يخشى أنه لو أكل تمرتين جميعاً أو حبتين جميعاً مما يؤكل أفراداً أن يغص
فلا يفعل ، لأن ذلك يضرُّ بنفسه ، والنفس أمانة عندك ؛ لا يحل لك أن تفعل ما يؤذيها أو يضرها .
ثم ذكر المؤلف ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه نهى عن القران ، يعني أن يقرن الإنسان
بين تمرتين إلا أن يستأذن من كان معه فلا بأس .

أما الباب الثاني : فهو في الذي يأكل ولا يشبع ، ولذلك أسباب :
منها : أنه لا يسمي الله على الطعام ؛ فإن الإنسان إذا لم يسم الله على الطعام أكل الشيطان معه ،
وَنَزَعَتْ البركة من طعامه ^(١) .

ومنها : أن يأكل من أعلى الصفحة فإن ذلك أيضًا مما ينزع البركة من الصفحة ، لأن النبي ﷺ
نهى أن يأكل الإنسان من أعلى الصفحة فإن فيه البركة ، فيأكل من الجوانب .

ومنها : التفرق على الطعام ، فإن ذلك أيضًا من أسباب نزع البركة ، لأن التفرق يستلزم أن كل
واحد يجعل له إناءً خاصاً ، فيتفرق الطعام ، وتنزع بركته ، وذلك لأنك لو جعلت لكل إنسان طعاماً
في صحن واحد ، أو في إناء واحد لتفرق الطعام ، لكن إذا جعلته كله في إناء واحد اجتمعوا عليه
وصار في القليل بركة .

وهذا يدل على أنه ينبغي للجماعة أن يكون طعامهم في إناء واحد ، ولو كانوا عشرة أو خمسة
يكون طعامهم في صحن واحد بحسبهم ، فإن ذلك من أسباب نزول البركة ، والتفرق من أسباب
نزع البركة .

١٠٧ - باب الأمر بالأكل من جانب القضية والنهي عن الأكل من وسطها

فيه : قوله ﷺ : « وَكُلْ مِمَّا بَيْنَكَ » ^(٢) متفقٌ عليه كما سبق .

٧٤٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « الْبَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسْطَ الطَّعَامِ ، فَكُلُوا مِنْ خَاتَمَيْهِ
وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسْطِهِ » ^(٣) رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديث حسنٌ صحيحٌ .

(١) انظر أبي داود في الأطعمة (٣٧٧٢ ، ٣٧٧٣) والترمذي في الأطعمة (١٨٠٥) .

(٢) انظر حديث رقم (٧٤٠) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٧٢) ، والترمذي في الأطعمة (١٨٠٥) .

٧٤٥ - وعن عبد الله بن بشر رضي الله عنه قال : كان للنبي ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لَهَا : الْغَرَاءُ ^(١) ، يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلْكَ الْقَصْعَةِ ، يعني وقد تُرِدَ فيها ^(٢) ، فَالْتَقُوا عَلَيْهَا ، فَلَمَّا كَثُرُوا جِئَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : أَعْرَائِي : مَا هَذِهِ الْجِلْسَةُ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا غَنِيذًا » ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُوا مِنْ خَوَالِيهَا ، وَدَعُوا ذُرْوَتَهَا ؛ يُبَارِكُ فِيهَا » ^(٣) رواه أبو داود ^(٤) بإسناد جيد .

« ذُرْوَتَهَا » : أَغْلَاهَا : بكسر الدال وضمها .

الشرح

هذا الباب الذي عقده المؤلف رحمته الله في (كتاب أدب الطعام) يفيد ما أشرنا إليه فيما سبق ، وهو أنه ينبغي للناس أن يأكلوا من حواف القصعة ، يعني من جوانبها لا من وسطها ولا من أعلاها . ففي حديث عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن بسر رضي الله عنه ما يدل على ذلك ، وأن الإنسان إذا قُدِّمَ إليه الطعام فلا يأكل من أعلاه بل يأكل من الجانب ، وإذا كان معه جماعة فليأكل مما يليه ، ولا يأكل مما يلي غيره .

وقوله ﷺ : « إن البركة تنزل في وسط الطعام » يدل على أن الإنسان إذا أَكَلَ من أعلاه - أي من الوسط - نزعت البركة من الطعام .

قال أهل العلم : إلا إذا كان الطعام أنواعًا ، وكان نوعٌ منه في الوسط وأراد أن يأخذ منه شيئًا فلا بأس ، مثل أن يوضع اللحم في وسط الصحيفة فإنه لا بأس أن تأكل من اللحم ولو كان في وسطها ، لأنه ليس له نظير في جوانبها ، فلا حرج و كما أن النبي ﷺ كان يتبع الدباء يلتقطها من الصحيفة كلها ، والدباء هي القرع ^(٥) .

وفي حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه دليل على استحباب ركعتي الضحى ، لقوله فلما سجدوا الضحى ؛ أي لما صلوا صلاة الضحى ، وصلاة الضحى شُئَتْ ، ووقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح ، يعني من ربع ساعة من طلوع الشمس إلى قبيل الزوال يعني إلى أن يبقى على الظهر عشر دقائق ، كل هذا وقت لها .

(١) الغراء : مشتق من الغرة وهي بياض الوجه ، وإضاءته ، ويجوز أن تكون من الغرة بمعنى الشيء النفيس والمربوب فيه ، فيكون وصفها بذلك لرغبة الناس فيها لنفاستها ما فيها ، أو لكثرة ما تسعه ، وقيل : سميت غراء لبياضها بالإليه والشحم ، أو لبياض وبرها ، أو لبياضها باللبن .

(٢) سجدوا الضحى : أي صلوا صلاته .

(٣) الثريد : فت الخبز وبله بالمرق ؛ والمراد ثرده بماء اللحم ؛ لأن الثريد غالبًا لا يكون إلا من لحم .

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٧٣) .

(٥) انظر البخاري في الأطعمة (٥٣٧٩) .

وهي سنة ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها لأنها تغني عن الصدقات التي تصبح على كل عضو من أعضاء البدن ، كما أخبر النبي ﷺ بأنه يصبح على كل سلامى من الناس صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعني كل عضو من أعضائك عليك به صدقة كل يوم ^(١) .

لكن ليست صدقة مال فقط ، بل التسييح صدقة ، والتكبير صدقة ، والتهليل صدقة ، وقراءة القرآن صدقة ، والأمر بالمعروف صدقة ، والنهي عن المنكر صدقة ، ومعوذة الرجل على متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وإتيان الرجل زوجته صدقة ، كل شيء يتقرب به العبد إلى الله فهو صدقة ، ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى ، وهذا يدل على أن سنة الضحى سنة في كل يوم .

وفيه أيضًا دليل على أن الإنسان عند الأكل لا يأكل متكئًا وإنما يأكل مستوفزًا ؛ يعني جاثٍ على ركبتيه حتى لا يكثر من الأكل ، لقول النبي ﷺ في الإكثار من الأكل : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، فإن كان لا محالة : فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ^(٢) » ، هذا هو الأكل النافع الطبيعي وإذا جعت فكل ، فالأمر ليس مقصوراً على ساعات معينة .

ولو قال قائل : إن الإنسان لو اقتصر على ثلث وثلث وثلث ، قد يجوع قبل أن يأتي وقت العشاء . نقول : إذا جعت فكل ، لكن كونك تأكل هذا الخفيف يكون أسهل للهضم وأسهل للمعدة ، وإذا اشتبهت فكل ، وهذا من الطب النبوي .

لكن لا بأس بالشبع أحياناً لأن النبي ﷺ أفقر أبا هريرة ؓ حينما سقاه اللبن وقال : « اشرب . اشرب . اشرب » ، حتى قال : والله لا أجد له مساعاً ^(٣) ؛ يعني لا أجد له مكاناً ، فأقره النبي ﷺ على ذلك ، وإنما الذي ينبغي أن يكون الأكثر في أكلك كما أرشد إليه النبي ﷺ ، ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس .

* * *

١٠٨ - باب كراهية الأكل متكئاً

٧٤٦ - عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أكل متكئاً » ^(٤) رواه البخاري .

قال الخطابي : المتكئ هنا : هو الجالس مُتَعَمِّدًا على وِطَاءٍ تحته قال : وأراد أنه لا يَقْعُدُ على الوِطَاءِ

(١) انظر صحيح البخاري في الصلح (٢٧٠٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٨٠) ، والحاكم في المستدرک (٣٣١/٤) .

(٣) انظر الحديث في سنن الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٨) .

وَالْوَسَائِدُ كَيْفَ غُلَّ مَنْ يُرِيدُ الْإِكْتِازَ مِنَ الطَّعَامِ ، بَلْ يَفْعُدُ مُشْتَوِظًا لَا مُشْتَرِطًا (١) ، وَيَأْكُلُ بُلْغَةً (٢) .
 هذا كلام الخطابي ، وَأَشَارَ غَيْرُهُ إِلَى أَنَّ الْمُتَكَيِّ هُوَ الْمَائِلُ عَلَى جَنْبِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
 ٧٤٧ - وعن أنس رضي الله عنه قال : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا مُقْعِيًا يَأْكُلُ تَمْرًا (٣) . رواه مسلم .
 « الْمُقْعِي » : هُوَ الَّذِي يُلْصِقُ أَلْيَتَيْهِ بِالْأَرْضِ ، وَيَنْصَبُ سَاقِيهِ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتاب أدب الطعام : (باب كراهية الأكل متكئا) . الأكل ينقسم بالنسبة للجلوس له إلى قسمين : قسم منهى عنه ، وليس من هدي النبي ﷺ ، وهو أن يأكل الإنسان متكئا ؛ إما على اليد اليمنى أو على اليد اليسرى ، وذلك لأن الانكاء يدل على غطرسة وكبرياء ، وهذا معنى نفسي . ولأنه إذا أكل متكئا يتضرر ، حيث يكون مجرى الطعام متمايلا ليس مستقيما فلا يكون على طبيعته ، فربما حصل في مجاري الطعام أضرار من ذلك .

ولهذا قال النبي ﷺ في حديث أبي جحيفة عبد الله بن وهب السواري رحمه الله ، قال النبي ﷺ : « لَا أَكُلُ مُتَكَيًّا » ، يعني ليس من هدي أن أكل متكئا ، وذلك للسببين الذين ذكرناهما : سبب معنوي يكون بالنفس وهو الكبرياء ، وسبب حسي يتعلق بالبدن وهو الضرر الذي ينتج عن الأكل على هذا الوجه .

وذكر المؤلف حديث أنس أنه رأى النبي ﷺ يأكل تمرًا مقعيا ، والإقعاء : أن ينصب قدميه ويجلس على عقبه هذا هو الإقعاء ، وإنما أكل النبي ﷺ كذلك لثلا يستقر في الجلسة فيأكل أكلا كثيرا ، لأن الغالب أن الإنسان إذا كان مقعيا لا يكون مطمئا في الجلوس فلا يأكل كثيرا ، وإذا كان غير مطمئن فلن يأكل كثيرا ، وإذا كان مطمئا فإنه يأكل كثيرا ، هذا هو الغالب ، وربما يأكل الإنسان كثيرا وهو غير مطمئن ، وربما يأكل قليلا وهو مطمئن ، لكن من أسباب تقليل الأكل ألا يستقر الإنسان في جلسته ، وألا يكون مطمئا الطمأنينة الكاملة .

والحاصل : أن عندنا جلستين : الجلسة الأولى الانكاء ؛ وهذا ليس من هدي النبي ﷺ أن يأكل متكئا ، وكل أنواع الجلوس الباقية جائزة ، ولكن أحسن ما يكون ألا تجلس جلسة الإنسان المطمئن المستقر ، لثلا يكون ذلك سببا لإكثار الطعام ، وإكثار الطعام لا ينبغي ، والأفضل أن يجعل الإنسان ثلثا للأكل وثلثا للشرب وثلثا للنفس ، هذا أصح ما يكون في الغذاء ، فإن تيسر فهذا هو المطلوب ، ولا بأس أن يشبع الإنسان أحيانا .

* * *

(١) أي قد قوموا منتصبين غير مطمئن .

(٢) بلغة : أي يكفي ويجتزئ به .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٠/٣) .

١٠٩ - بَابِ اسْتِحْبَابِ الْأَكْلِ بِثَلَاثِ أَصَابِعٍ وَاسْتِحْبَابِ لَعْقِ الْأَصَابِعِ وَكَرَاهَةِ مَسْحِهَا قَبْلَ لَعْقِهَا وَاسْتِحْبَابِ لَعْقِ الْقِصْعَةِ وَآخِذِ اللَّقْمَةِ الَّتِي تَسْقُطُ مِنْهُ وَأَكْلِهَا وَجِوَّازِ مَسْحِهَا بَعْدَ اللَّعْقِ بِالسَّاعِدِ وَالْقَدَمِ وَغَيْرِهَا

٧٤٨ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا ، فَلَا يَمْسَحْ أَصَابِعُهُ حَتَّى يَلْعَقَهَا ^(١) أَوْ يُلْعَقَهَا ^(٢) » . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٧٤٩ - وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ بِثَلَاثِ أَصَابِعٍ ، فَإِذَا فَرَغَ لَعَقَهَا ^(٣) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٧٥٠ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِلَعْقِ الْأَصَابِعِ وَالصُّحُفَةِ ^(٤) ، وَقَالَ : « إِنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ الْبِرْكَةَ ^(٥) » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٧٥١ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةٌ أَحَدَكُمْ ، فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُيْطِ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى وَلْيَأْكُلْهَا ، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ ، وَلَا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمَنَادِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبِرْكَةُ ^(٦) » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٧٥٢ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ الشَّيْطَانُ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ ، حَتَّى يَخْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ ، فَإِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُيْطِ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى ، ثُمَّ لْيَأْكُلْهَا وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبِرْكَةُ ^(٧) » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٧٥٣ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا ، لَعَقَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ ، وَقَالَ : « إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا ، وَلْيُيْطِ عَنْهَا الْأَدَى ، وَلْيَأْكُلْهَا ، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ » وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقِصْعَةَ ^(٨) وَقَالَ : « إِنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ الْبِرْكَةَ ^(٩) » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٧٥٤ - وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّهُ سَأَلَ جَابِرًا رضي الله عنه عَنِ الْوُضُوءِ بِمَا مَسَّتِ النَّارُ ، فَقَالَ : لَا ، قَدْ كُنَّا زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ لَا نَجِدُ مِثْلَ ذَلِكَ الطَّعَامِ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِذَا نَحْنُ وَجَدْنَاهُ ، لَمْ يَكُنْ لَنَا مَنَادِيلُ إِلَّا أَكْفُنَا

(١) أي يلحسها ؛ إغتنامًا للبركة وحرصًا عليها .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٦) ومسلم في الأشربة (١٣٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٢) . (٤) الصحيفة : إناء للطعام يشبع خمسة نفر .

(٥) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٣) .

(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٤) ، وأحمد في مسنده (١٧٧/٣) .

(٧) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٥) . (٨) نسلت القصة : أي نمسحها .

(٩) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٦) .

وَسَوَاعِدَنَا وَأَقْدَامَنَا ، ثُمَّ نُصَلِّي وَلَا تَتَوَضَّأُ ^(١) . رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمته الله في (كتاب آداب الطعام) تضمنت مسائل متعددة :
المسألة الأولى : أنه ينبغي للإنسان أن يأكل بثلاث أصابع : الوسطى والسبابة والإبهام ، لأن ذلك أدل على عدم الشره ، وأدل على التواضع ، ولكن هذا في الطعام الذي يكفي فيه ثلاث أصابع ، أما الطعام الذي لا يكفي فيه ثلاث أصابع مثل الأرز ، فلا بأس بأن تأكل بأكثر ، لكن الشيء الذي تكفي فيه الأصابع الثلاثة يقتصر عليها ، فإن هذا سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

المسألة الثانية : أنه ينبغي للإنسان إذا انتهى من الطعام أن يلعق أصابعه قبل أن يمسحها بالمنديل ، كما أمر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ؛ يلعقها هو أو يُلْعَقُها غيره ، أما كونه هو يلعقها فالأمر ظاهر ، وكونه يُلْعَقُها غيره هذا أيضًا ممكن ، فإنه إذا كانت المحبة بين الرجل وزوجته محبة قوية ، يسهل عليه جدًا أن تلعق أصابعه أو أن يلعق أصابعها فهذا ممكن .

وقول بعض الناس : إن هذا لا يمكن أن يقوله النبي - عليه الصلاة والسلام - ، لأنه كيف يلعق الإنسان أصابع غيره ؟ نقول : إن النبي - عليه الصلاة والسلام - لا يقول إلا حقًا ، ولا يمكن أن يقول شيئًا لا يمكن ، فالأمر في هذا ممكن جدًا .

وكذلك الأولاد الصغار ، أحيانًا الإنسان يحبهم ويلعق أصابعهم بعد الطعام هذا شيء ممكن ، فالسنة أن تلْعَقُها أو تُلْعَقُها غيرك ، والأمر الحمد لله واسع ، ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : فليلعقها غيره حتى نقول هذا إيجاب للناس على شيء يشق عليهم ، الغفها أنت ، أو أَلْعَقُها غيرك .

وقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة » ، قد تكون البركة ونفع الطعام الكثير بهذا الجزء الذي تلعه من أصابعك .

حتى إنه ذكر لي بعض الناس عن بعض الأطباء ، أن الأنامل - بإذن الله - تفرز إفرازات عند الطعام تعين على هضم الطعام في المعدة ، وهذه من الحكمة ولكننا نفعلها سنة ، إن حصلت لنا هذه الفائدة الطبية حصلت ، وإن لم تحصل فلا يهمنا ، الذي يهمنا امتثال أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - .

المسألة الثالثة : أنه ينبغي للإنسان أن يلعق الصحن أو القدر أو الإناء الذي فيه الطعام ، إذا انتهت فالحسن حافته كما أمر بهذا النبي - عليه الصلاة والسلام - ، فإنك لا تدري في أي طعامك البركة .

ومع الأسف أن الناس يفرقون عن الطعام بدون تنفيذ هذه السنة ، فتجد حافات الآنية عليها الطعام كما هي . والسبب في هذا الجهل بالسنة ، ولو أن طلبة العلم إذا أكلوا مع العامة وجهوهم إلى هذه السنة وغيرها من سنن الأكل والشرب لانتشرت هذه السنن ، لكن نسأل الله أن يعاملنا بعفوه ،

فنحن نتجاوز كثيراً ونتهاون في الأمر ، وهذا خلاف الدعوة إلى الحق .

المسألة الرابعة : إن الإنسان إذا سقطت منه اللقمة فلا يتركها ، بل يأخذها ، وإذا كان فيها أذى يمسحه ، لا يأكل الأذى ، لأن الإنسان ليس مجبراً على أن يأكل شيئاً لا يشتهي ، يسمح الأذى ، كأن يكون فيها عود أو تراب أو ما أشبه ذلك ، امسحه ثم كله ، لماذا ؟ لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال : « ولا يدعها للشيطان » ، لأن الشيطان يحضر ابن آدم في كل شئونه ، إن أراد أن يأكل حضره ، وإن أراد أن يشرب حضره ، وإن أراد أن يأتي أهله حضره ؛ حتى يشاركه ، كما في الآية الكريمة ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الأنعام : ٦٤] ، فهو يشارك أهل الغفلة .

فإذا قلت وأنت تأكل : بسم الله ، منعتك من الأكل ، ما يقدر على الأكل معك وقد سميت على الطعام أبداً ، إذا لم تقل : بسم الله ، أكل معك ، فإذا قلت : بسم الله ، فإن الشيطان يترقب اللقمة إذا سقطت بالأرض ، فإن رفعتها أنت فهي لك ، وإن تركتها أكلها هو ، فصار إذا لم يشاركك في الطعام شاركك فيما يسقط من الطعام ، ولهذا فضيئاً عليه في ذلك أيضاً ، فإذا سقطت اللقمة أو التمرة أو ما أشبه ذلك في الأرض فخذها ، وإذا كان علق بها أذى من تراب أو عيدان أو ما أشبه ذلك فأزل ذلك الأذى ثم كلها ولا تدعها للشيطان .

المسألة الخامسة : الوضوء من الطعام المطبوخ الذي مسته النار ، كالخبز والرز والجريش وغيرها ، هل يتوضأ الإنسان إذا أكله أم لا ؟ قال بعض العلماء ^(١) إنه يجب على من أكل شيئاً مطبوخاً على النار أن يتوضأ ، لأن النبي ﷺ أمر بالوضوء مما مست النار ^(٢) ، ولكن الصحيح أنه لا يجب ، كما في حديث جابر في « صحيح البخاري » الذي أورده المؤلف رحمه الله ، فالصحيح أنه لا يجب بل هو (سنة) ، يعني الأفضل أن تتوضأ حتى ولو كنت على وضوء ؛ إذا أكلت شيئاً مطبوخاً على النار فالأفضل أن تتوضأ ، لكنه ليس بواجب ، لأن آخر الأمرين من النبي ﷺ ترك الوضوء مما مست النار ^(٣) ، يعني عدم الالتزام به . ويدل لهذا أيضاً أن النبي ﷺ سئل : تتوضأ من لحوم الإبل قال : « نعم » . قال : تتوضأ من لحوم الغنم ؟ قال : « إن شئت » ^(٤) ، لأن لحم الإبل إذا أكله الإنسان انتقض وضوؤه لو كان على وضوء فلا بد أن يتوضأ ، ولكن ما يجب غسل الفرج لأنه ما بال ولا تغوط ، إنما يجب الوضوء ، سواء كان اللحم نيئاً أو مطبوخاً وسواء أكلت الهبر ^(٥) أو الكبد أو القلب أو الكرش أو الأمعاء ، أي شيء تأكله من البعير فإنه يجب عليك أن تتوضأ ، لأنه كله ناقض للوضوء ، أما غيره فإذا أكلته مطبوخاً فالأفضل أن تتوضأ ولا يجب عليك ذلك .

(١) ذهب أكثر العلماء إلى عدم الوضوء مما مست النار ، وهو قول الحنفية والشافعية والمالكية واستندوا في ذلك إلى الحديث الذي رواه أبو داود في سننه في الطهارة (١٩٢) من حديث جابر أنه كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ عدم الوضوء مما مست النار ، انظر فقه الكتاب والسنة للدكتور أمير عبد العزيز (١٩٦٠/٤) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الحيض (٩٠) .

(٣) انظر سنن أبي داود في الطهارة (١٩٢) وسنن النسائي في الطهارة (١٠٨/١) حديث رقم (١٨٥) .

(٤) انظر الحديث في صحيح مسلم في الحيض (٩٧) .

(٥) الهَيْر : قِطْعُ اللحم .

هذه من الآداب ، والحقيقة أن هذا الكتاب « رياض الصالحين » كتاب جامع نافع ، ويصدق عليه أنه رياض للصالحين ، ففيه من كل زوج بهيج ، فيه أشياء كثيرة من مسائل العلم ، ومسائل الآداب لا تكاد تجاهد في غيره .

١١٠ - باب تكثير الأيدي على الطعام

٧٥٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « طَعَامُ الاثْنَيْنِ كافي الثَلَاثَةِ ، وَطَعَامُ الثَلَاثَةِ كافي الأَرْبَعَةِ » ^(١) متفق عليه .

٧٥٦ - وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ : « طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الاثْنَيْنِ ، وَطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الأَرْبَعَةَ ، وَطَعَامُ الأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ » ^(٢) رواه مسلم .

١١١ - باب أدب الشرب واستحباب التنفس ثلاثاً خارج الإناء وكرهية التنفس في الإناء واستحباب إدارة الإناء على الأيمن فالأيمن بعد المبتدئ

٧٥٧ - عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الشَّرَابِ ثَلَاثًا ^(٣) . متفق عليه . يعني : يَتَنَفَّسُ خَارِجَ الْإِنَاءِ .

٧٥٨ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَشْرَبُوا ^(٤) وَاحِدًا كَشَرْبِ الْبَعِيرِ ، وَلَكِنْ اشْرَبُوا مِثْنَى وَثَلَاثَ ^(٥) ، وَسَمُّوا إِذَا أَنْتُمْ سَرِبْتُمْ ، وَاحْمَدُوا إِذَا أَنْتُمْ رَفَعْتُمْ » ^(٦) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٧٥٩ - وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نَهَى أَنْ يَتَنَفَّسَ فِي الْإِنَاءِ ^(٧) . متفق عليه . يعني : يَتَنَفَّسُ فِي نَفْسِ الْإِنَاءِ .

٧٦٠ - وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بِلَبَنٍ قَدْ شِيبَ بِمَاءٍ ، وَعَنْ يَمِينِهِ أَغْرَاطِي ، وَعَنْ

(١) لم يقم الشارح رحمته الله بشرح هذا الحديث ، وقد أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٢) ، ومسلم في الأشربة (١٥٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٤٤/٢) .

(٢) لم يقم الشارح رحمته الله بشرح هذا الحديث ، وقد أخرجه مسلم في الأشربة (١٧٩) ، والترمذي في الأطعمة (١٨٢٠) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٥٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣١) ، ومسلم في الأشربة (١٢٢) .

(٤) لا تشربوا واحداً : أي شرباً واحداً بأن لا تتنفسوا فيه .

(٥) أي في نفسين أو ثلاثة . (٦) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٨٥) .

(٧) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣٠) ، ومسلم في الطهارة (٦٥) .

يَسَارِهِ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه ، فَشَرِبَ ، ثُمَّ أَعْطَى الْأَعْرَابِيَّ وَقَالَ : « الْأَيْمَنُ فَلَا أَيْمَنَ » ^(١) متفق عليه .
قوله : « شَيْب » أي : خُلِطَ .

٧٦١ - وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتَيْهِ بِشَرَابٍ ، فَشَرِبَ مِنْهُ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ ،
وعن يَسَارِهِ أَشْيَاخٌ ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ : « أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ ؟ » فقال الغلام : لا والله ، لا أُؤْثِرُ
بَنَصِيبي مِنْكَ أَحَدًا ، فَتَلَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ ^(٢) . متفق عليه .
قوله : « تَلَّهَ » أي : وَضَعَهُ ، وهذا الغلام هو ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب أدب الشرب واستحباب النفس ثلاثاً خارج الإناء ،
وكرهه التنفس في الإناء ، واستحباب إدارة الإناء على الأيمن فالأيمن بعد المبتدئ) .

وقد بين المؤلف في الباب السابق ما يتعلق بالطعام ، فقد سبق جمل كثيرة من آداب الأكل ، والله
ﷻ على عباده نعم لا تحصى كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، فالأكل والشرب من نعم الله ﷻ .

ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا من حرمها ، نسأل ألا يحرمنا إياها ، فمن حرمها وذاق الجوع وذاق
العطش عرف قدر نعمة الله تعالى بالأكل والشرب ، وهذه إحدى الحكم من الصيام ؛ أن الإنسان
يمسك عن الأكل والشرب حتى يعرف قدر نعمة الله عليه بتيسير الأكل والشرب .

وللشرب آداب ، منها : أن يسمى الله ﷻ إذا شرب ، فيقول عند الشرب : بسم الله .

ومنها : أن يتنفس في الشرب ثلاثاً ، لقول أنس بن مالك رضي الله عنه : كان النبي ﷺ إذا شرب تنفس في
الشراب ثلاثاً . كيف يتنفس في الشراب ثلاثاً ؟ يعني يشرب ، ثم يفصل الإناء عن فمه ، ثم يشرب ثم
يفصله عن فمه ، ثم يشرب الثالثة ؛ ولا يتنفس في الإناء ، لحديث أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ : « نهى
أن يتنفس الإنسان في الإناء » .

والحكمة من ذلك أن النفس في الإناء مستقذرة على من يشرب من بعده ، وربما تخرج مع النفس
أمراض في المعدة ، أو في المريء ، أو في الفم فتلتصق بالإناء ؛ وربما يَشْرُقُ إذا تنفس في الإناء ، فلهذا
نهى النبي ﷺ أن يتنفس الإنسان في الإناء ، يل يتنفس ثلاثة أنفاس كل نفس يُعَدُّ فيه الإناء عن فمه .
وقد أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - بأن هذا أهنا وأبرأ وأمرأ ^(٣) ؛ أهنا : لأنه يشرب بمهلة .
وأبرأ : يعني أبرأ من العطش ، وأسلم من المرض . وأمرأ : أسهل في النزول إلى الأمعاء .

(١) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦١٢) ، ومسلم في الأشربة (١٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٢٠) ، ومسلم في الأشربة (١٢٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٣٣/٥) .

(٣) انظر أبي داود في الأشربة (٣٧٢٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١١٨/٣ ، ١١٩) .

ووجه ذلك أن العطش عبارة عن حرارة المعدة لقلّة الماء أو لغير ذلك ، وأحيانًا يكون المرض ، فإذا جاءها الماء دفعة واحدة ربما يضر ، فإذا راسله الإنسان عليها مراسلة كان هذا أبرأ في إزالة العطش ، وفي السلامة من المرض والأثر الذي يحصل بمرور الماء على المعدة دفعة واحدة .

ولهذا ينبغي أيضًا إذا شرب أن لا يعبّ الماء عبثًا ، وإنما يمصّه مصًّا ، لا يعبه عبثًا ^(١) فيأخذ جرعات كبيرة ، بل يمصّه مصًّا ، حتى يأتي المعدة شيئًا فشيئًا ، فيمصّه في النفس الأول ، ثم يطلق الإناء ، ثم يمصّه في النفس الثاني ، ثم يطلق الإناء ، ثم في النفس الثالث ، هذه هي السنة .

وأما تناول يعني بمن يبدأ في إعطاء الإناء إذا أراد أن يعطي الشراب أحدًا ؟ ؛ مثال ذلك : رجل دخل ومعه شراب ؛ شاي أو قهوة بمن يبدأ ؟ نقول : إذا كان أحد من الناس قد طلب الشراب فقال : هات الماء مثلاً ، فإنه يبدأ به هو الأول ، وإذا لم يكن أحد طلبه ، فإنه يبدأ بالأكبر ثم الأكبر ، يناوله من على يمينه .

وإذا كان لكل واحد إناء كاللكوس مثلاً ، فليبدأ بالأكبر ثم يعطي الذي عن يساره ، لأن الذي عن يساره هو الذي عن يمين الصاب ، والصاب هو الذي سيناوّل ، فيبدأ بمن على يمينه . والذي على يمين الصاب هو الذي يسار الشارب ، لأن الصاب مستقبل للشارب ، فيكون من على يسار الشارب هو الذي على يمين الصاب .

مثال ذلك مثلاً : إنسان طلب الماء ، فجاء إليه بالماء فشرب منه ، وأراد أن يناوله أحدًا بعده ، إن كان الذي جاء بالشراب واقفاً على رأسه يقول : أعطني الإناء إذا فرغت فيعطيه إياه ، وإن لم يكن فإنه إذا انتهى يعطيه للذي على يمينه ، سواء كان صغيراً أو كبيراً شريفاً أو وضيعاً .

والدليل على هذا : أن النبي ﷺ أتى بلبن قد شيب بماء فشرب وعلى يمينه رجل من الأعراب ، وعلى يساره أبو بكر وعمر فلما فرغ النبي ﷺ ناوله الأعرابي ، فقال عمر للأعرابي : هذا أبو بكر ، يريد من الأعرابي أن يكرم أبا بكر ويقول : خذه يا أبا بكر ، لأن أبا بكر مشهور معروف بين الصحابة ، أنه أحص أصحاب النبي ﷺ بالنبي ، ولكن الأعرابي أخذ الإناء فشرب ، فهنا نجد أن النبي ﷺ فضل المفضلون على الفاضل ، لأن أبا بكر أفضل من الأعرابي ، لكن فضله عليه ﷺ لأنه عن يمينه وقال : « الأيمن فالأيمن » .

والقصة الثانية : أتى النبي ﷺ بشراب فشرب منه ، وعلى يمينه غلام ، وعلى يساره الأشياخ الكبار ، فلما شرب قال للذي على يمينه وهو الغلام : « أتأذن لي أن أعطي هؤلاء » يعني الأشياخ ، فقال : والله يا رسول الله ما أنا بالذي أؤثر بنصيبك عليك أحدًا ، يعني ما أؤثرهم علي ، أنا أحب أن أشرب فضلتك ، « قتله رسول الله ﷺ في يده » ، يعني : أعطاه الإناء في يده .

فهذا دليل على أنه إذا كان الذي على اليمين أصغر سنًا فإنه يفضل على الذي على اليسار

(١) عبّ الماء عبثًا أي شربه بلا تنفس ومصّ . المعجم الوسيط (٦٠٠/٢) .

ولو كان أكبر سناً . والأول يدل على أنه إذا كان الذي على اليمين أقل قدراً ، فإنه يُعطى ويقدم على الذي هو أعظم قدراً إذا كان على اليسار ، لقول الرسول : « الأيمنون ، الأيمنون ، الأيمنون ، ألا فيمنوا ، ألا فيمنوا ، ألا فيمنوا »^(١) هكذا جاء الحديث . لكن هذا فيمن إذا شرب يريد أن يناول من على يمينه أو على يساره .

أما ما يفعله الناس اليوم ؛ يأتي الرجل بالإبريق ويدخل المجلس ، فهنا يبدأ بالأكبر لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كانوا يدؤون به فيعطونه أولاً ، ولأنه لما أراد أن يناول - عليه الصلاة والسلام - المسواك أحد الرجلين اللذين وقفا ، قيل له : « كبر كبر »^(٢) ، وقد ورد في ذلك أيضاً أحاديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام - ، أنك إذا دخلت المجلس تبدأ بالأكبر لا بمن على اليمين .

* * *

١١٢ - باب كراهة الشرب من فم القربة ونحوها
وبيان انه كراهة تنزيه لا تحريم

٧٦٢ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن اختِاثِ الأَسْقِيَةِ يعني : أن تُكسرَ أفواهها ، ويُشربَ منها^(٣) . متفق عليه .

٧٦٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ أن يُشربَ من في السقاءِ أو القِرْبَةِ^(٤) . متفق عليه .

٧٦٤ - وعن أم ثابت كَبْشَةَ بِنْتِ ثَابِتِ أَخْتِ حِشَّانِ بْنِ ثَابِتِ (رضي الله عنه وعنهما) قالت : دخل علي رسول الله ﷺ ، فَشَرِبَ مِنْ فِي قِرْبَةٍ مُعَلَّقَةٍ قَائِماً ، فَقُمْتُ إِلَى فِيهَا فَقَطَعْتُهُ^(٥) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وإنما قَطَعْتُهَا ، لِتَحْفَظَ مَوْضِعَ فَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَنْبَهِكَ بِهِ ، وَتَصُونَهُ عَنِ الْإِثْدَالِ . وَهَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى بَيَانِ الْجَوَازِ ، وَالْحَدِيثَانِ السَّابِقَانِ لِبَيَانِ الْأَفْضَلِ وَالْأَكْمَلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٧١) بلفظ « الأيمنون الأيمنون ، ألا فيمنوا » ، ومسلم في الأشربة (١٢٦) بلفظ « الأيمنون الأيمنون الأيمنون » .

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٤٥٢١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٢٥) ومسلم في الأشربة (١١١) .

(٤) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٢٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٠/٢) ، ومسلم في المساقاة (١٦٠٩) .

(٥) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٩٢) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب (كراهة الشرب من فم القربة ونحوها وبيان أنه كراهة تنزيه لا تحريم) .

من آداب الشرب : ألا يشرب الإنسان من فم القربة أو السقاء ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ، والحكمة من هذا أن المياه فيما سبق ليست بتلك المياه النظيفة ، فإذا صارت في القربة أو في السقاء ، فإنه يكون فيها أشياء مؤذية عيدان أو حشرات أو غير ذلك مما هو معروف لمن كانوا يستعملون هذا من قبل ، فلهذا نهى النبي ﷺ « عن اختناث الأسقية » يعني أن الإنسان يكسر أفواهها هكذا ثم يشرب .

وذكر أن رجلاً شرب مرة هكذا فخرجت حية من القربة ، وهذا لا شك أنه على خطر ، إما أن تلدغه أو تؤذيه ، لهذا ينهى عن الشرب من فم القربة ، وليس من ذلك الشرب من الصنبور ، أو من الجرار التي يُخزّن فيها الماء ، لأن هذه معلومة ونظيفة ، فهو كالشرب من الأواني ، لكن إذا كان هناك حاجة فلا بأس أن يشرب الإنسان من فم القربة ، مثل أن يكون محتاجاً إلى الماء وليس عنده إناء ، فإنه يشرب من في القربة ، وعلى هذا فيكون النهي عن ذلك كما قال المؤلف ﷺ للكرهة وليس للتحريم .

ويستفاد من الحديث الأخير : أنه يجوز أن يشرب الإنسان قائماً إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، مع أن النبي ﷺ نهى عن الشرب قائماً ، لكن إذا كان هناك حاجة فلا بأس كما في هذه الحالة ، القربة معلقة ، والمعلقة تكون عالية عن القاعد ، وليس عنده إناء ، فشرب النبي ﷺ من هذه القربة المعلقة قائماً .

وفي الحديث أيضاً دليل على جواز التبرك بآثار النبي ﷺ وهو كذلك ، وقد كان الصحابة يتبركون بعرق النبي ﷺ ، ويتبركون بريقه ، ويتبركون بشيابه ، ويتبركون بشعره ^(١) ، أما غيره ﷺ فإنه لا يتبرك بشيء من هذا منه ، فلا يتبرك بشباب الإنسان ولا بشعره ولا بأظفاره ولا بشيء من متعلقاته ، إلا النبي ﷺ .

* * *

١١٣ - باب كراهة النفخ في الشراب

٧٦٥ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب ، فقال رجل : القذأة ^(٢) أراها في الإناء ؟ فقال : « أهرقها » قال : إني لا أروى من نفسٍ واحدٍ ؟ قال : « فأين القَذَحُ إذا عن فيك » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(١) سبق تخريج الأحاديث الدالة على ذلك في « باب استحباب تقديم اليمين في كل ما هو من باب التكريم » .

(٢) القذأة : واحدة القذى ، ومعناه ما يسقط في الشراب من ذباب وغيره .

(٣) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٨٧) .

٧٦٦ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نهى أن يُتَنَفَّسَ في الإناءِ ، أو يُتَنَفَّخَ فيه ^(١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في آداب الطعام والشراب : (باب كراهة النفخ في الشراب) .

ثم ذكر حديثين فيهما النهي عن النفخ في الشراب ؛ وذلك لأن الإنسان إذا نفخ ربما يحصل من الهواء الذي يخرج منه ، أشياء مؤذية أو ضارة كمرض ونحوه ، فلهذا نهى النبي ﷺ عن النفخ فيه ، فسأله الرجل قال : يا رسول الله ، القذاة - يعني تكون في الشراب - يعني مثل العود الصغير أو ما أشبه ذلك ، فينفخه الإنسان من أجل أن يخرج ، فقال النبي ﷺ : « أهرقها » يعني : صب الماء الذي فيه القذاة ولا تنفخ فيه .

ثم سأله : أنه لا يروى بنفس واحد فقال : « أين الإناء عن نفسك » المعنى أنه يشرب ويحتاج إلى تنفس ، فأمره النبي ﷺ أن يبين الإناء عن فمه يعني يفصله ، ثم يتنفس ، ثم يعود فيشرب ، إلا أن بعض العلماء استثنى من ذلك ما دعت الحاجة إليه ، كما لو كان الشراب حاراً ويحتاج إلى السرعة ، فرخص في هذا بعض العلماء ، ولكن الأولى ألا ينفخ حتى لو كان حاراً ، إذا كان حاراً وعنده إناء آخر ، فإنه يصبه في الإناء ثم يعيده مرة ثانية حتى يبرد .

وفي هذا : دليل على أن الشريعة الإسلامية كاملة من جميع الوجوه ، كل شيء قد علمنا إياه رسول الله ﷺ ، كما قال أبو ذر : « لقد توفّي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً » ^(٢) حتى الطيور في السماء لنا منها علم بتعليم الله ورسوله إيانا .

وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه : علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة ، يعني حتى الجلوس على قضاء الحاجة لبول أو غائط . قال : أجل ، وذكر ما علمه لنا النبي ﷺ في ذلك : ألا نستقبل القبلة بغائط ولا بول وألا نستنجي باليمين ، وألا نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار ، وألا نستنجي برجيع ^(٣) أو عظم ^(٤) .

فالهم : أن شريعتنا ولله الحمد كاملة من كل وجه ، ليس فيها نقص ، ولا تحتاج إلى أحد يكملها ، وفيه ردّ على السفهاء الذين يزعمون أن الشريعة الإسلامية إنما تنظم العبادة بين الله وبين الخلق فقط ، وأما المعاملات بين الناس بعضهم بعضاً ، فإن الشريعة لا تعتني بها ، فيقال لهؤلاء : تبّاً

(١) أخرجه الترمذي في الأثرية (١٨٨٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣/٥ ، ١٦٢) .

(٣) الرجيع : البروث والعذرة ، فعيل بمعنى فاعل لأنه يرجع عن حاله الأولى ، بعد أن كان طعناً أو علقاً .

(٤) انظر صحيح مسلم في الطهارة (٥٧) ، وأبو داود في الطهارة (٧) ، والترمذي في الطهارة (١٦) .

لكم ، وسفها لعقولكم ، أطول آية في كتاب الله العزيز كلها في المداينة ^(١) ، في التعامل بين الناس ، وهل بعد هذا من اعتناء ؟ !

وما أكثر الآيات التي في القرآن الكريم في تنظيم المال وإصلاحه وما أشبه ذلك ، وكذلك في السنة ، فالشريعة الإسلامية ولله الحمد كاملة من كل وجه .

١١٤ - باب بيان جواز الشرب قائما
وبيان أن الأكمل والأفضل الشرب قاعدا

فيه حديث كبشة السابق .

٧٦٧ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : سَقَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ زَمْزَمَ ، فَشَرِبَ وَهُوَ قَائِمٌ ^(٢) . متفق عليه .

٧٦٨ - وعن الثَّوَالِي بن سَبْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : أَتَى عَلِيَّ رضي الله عنه بَابَ الرُّوحِيَّةِ فَشَرِبَ قَائِمًا ، وَقَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَ كَمَا رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ ^(٣) . رواه البخاري .

٧٦٩ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا نَأْكُلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَمْشِي ، وَنَشْرَبُ وَنَحْنُ قِيَامٌ ^(٤) . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

٧٧٠ - وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَشْرَبُ قَائِمًا وَقَاعِدًا ^(٥) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٧٧١ - وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَشْرَبَ الرَّجُلُ قَائِمًا ، قَالَ قَتَادَةُ : فَقُلْنَا لَأَنْسَ : فَلَا أَكُلُ ؟ قَالَ : ذَلِكَ أَشْرُ أَوْ أَحَبُّ . رواه مسلم .

وفي رواية له أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَجَزَ عَنِ الشُّرْبِ قَائِمًا ^(٦) .

٧٧٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَشْرَبُ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَائِمًا ، فَمَنْ نَسِيَ فَلْيَشْتَقِ » ^(٧) رواه مسلم .

(١) الآية (٢٨٢) من سورة البقرة .

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٦٣٧) ، ومسلم في الأشربة (١١٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦١٥) .

(٤) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٨٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في الأشربة (١١٢ ، ١١٣) .

(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١١٦) .

(٧) أخرجه الترمذي في الأشربة (١١٦) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب بيان جواز الشرب قائماً ، وبيان أن الأكمل والأفضل الشرب قاعدًا) .

فالأفضل في الأكل والشرب أن يكون الإنسان قاعدًا ، لأن هذا هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يأكل وهو قائم ولا يشرب وهو قائم .

أما الشرب وهو قائم : فإنه صح عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذلك . وسئل أنس بن مالك عن الأكل قال : ذاك أشد وأخبث ، يعني معناه أنه إذا نهى عن الشرب قائماً فالأكل قائماً من باب أولى . لكن في حديث ابن عمر الذي أخرجه الترمذي وصححه قال : كنا في عهد النبي ﷺ نأكل ونحن نمشي ، ونشرب ونحن قيام . فهذا يدل على أن النهي ليس للتحريم ولكنه لترك الأولى ، بمعنى أن الأحسن والأكمل أن يشرب الإنسان وهو قاعد وأن يأكل وهو قاعد ، ولكن لا بأس أن يشرب وهو قائم وأن يأكل وهو قائم . والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عباس ؓ قال : سقيت النبي صلى الله عليه وسلم من زمزم فشرب وهو قائم .

زمزم : هي عين الماء التي حول الكعبة ، وسببها : أن إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - (١) ترك هاجر أم إسماعيل وابنها إسماعيل في مكة وليس فيها أحد ، ليس فيها سكان ، وليس فيها كعبة ، وليس فيها أحد ، بل وليس فيها زروع ، هي وادٍ غير ذي زرع ، وجعل عندهما وعاء من تمر وسقاء من ماء وانصرف ، لأن الله أمره أن يقيهما هنالك ، فلما انصرف لحقته هاجر وقالت له : كيف تذهب وتركنا ؟ هل أمرك الله بذلك ؟ قال : نعم ، قالت : إذا كان الله أمرك بذلك فإنه لن يضيعنا ، وهذا يدل على كمال إيمان هاجر رضي الله عنها .

وقصتها هذه نظير قصة أم موسى بن عمران (٢) : كان فرعون مسلطاً على بني إسرائيل ، يقتل أبناءهم ، ويقتل نساءهم ؛ إذلالاً لهم ، وقد قيل إن المنجمين قالوا له : إنه سيظهر من بني إسرائيل رجل يكون هلاكك على يده ، فصار يقتل أبناءهم .

فخافت أم موسى عليه ، فأوحى الله إليها وحي إلهام لا وحي نبوة ، أنها إذا خافت عليه تجعله في تابوت - صندوق من الخشب - ، وتلقيه في البحر ، وهذا شيء شديد على النفس ، أن تضع ولدها في تابوت وتلقيه في البحر ، لكنها مؤمنة واثقة بوعد الله ﷻ ، ففعلت ؛ جعلته في التابوت وألقته في البحر ، فرآه جند فرعون ، فأخذوه ليقتلوه ، فلما رآته زوجة فرعون ألقى الله محبته في قلبها وقالت : ﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْصِرُكَ عَنْ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩] .

واضطربت أم موسى ، أصبح فؤادها فارغاً ، يعني ما كأن شيئاً وراءه ، قد فرغ قلبها على ولدها

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير قصة إبراهيم وقصة إسماعيل ؑ .

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير قصة موسى ؑ .

مع إيمانها بالله ، ولكن الله ﷻ بقدرته جعل هذا الابن كلما عرضت عليه امرأة ليَرْضَعَهَا أتى أن يَرْضَعَهَا ؛ لا يرضى أن يرضع من أي امرأة ، فإذا أخت موسى قد أرسلتها والدته تنظر ماذا حدث له ، فرأت الناس يبحثون عن مرضع لهذا الصبي فقالت : ﴿ هَلْ أَتَاكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴾ [التقصص: ١٢] ، فرده الله إلى أمه قبل أن يرضع من أي امرأة ؛ ما رضع من أحد سوى أمه مع أنها قد ألقته في البحر لكن رده الله عليها .

« فهاجر نوح » لما قال لها إبراهيم : إن الله أمرني بهذا قالت : إذا لا يضيعنا ، ثم بقيت هي وطفلها في هذا المكان الذي ليس فيه أحد من بني آدم ، وجعلت تأكل من التمر وتشرب من الماء ، وتدر اللبن على الولد ويرضع ، حتى نفذ التمر والماء وجاعت الأم ، ومعلوم أن الأم إذا جاعت لا يكون فيها لبن ، وجعل الطفل يصيح ويكي .

فبحثت بما ألهمها الله عن أقرب جبل لها تصعد عليه لعلها تسمع صوتاً أو ترى أحداً ، فوجدت أقرب مكان إليها الصفا - والمشاهد الآن أن أقرب جبل للكعبة هو الصفا - ، فصعدت عليه وتسمعت فما وجدت أحداً ، فنزلت وقالت : أذهب إلى الجهة الثانية ؛ وأقرب جبل إليها في الجهة الثانية هو المروة ، فصعدت على المروة تسمع ، فلم تجد أحداً ، وكان بين الصفا والمروة شعيب ، وإذ مجرى سيل ، ومعروف أن الشعيب يكون نازلاً عن الأرض ، فكانت إذا نزلت في الشعيب ركضت ركضاً عظيماً ، تركض من أجل أن تسمع الولد وتلتفت إليه وتراه ، فعلت هذا سبع مرات .

فلما أكملت سبع مرات إذا هي تسمع شيئاً ، فقالت : أغث إن كان عندك غواث ؛ سمعت حساً وإذا هو جبريل ، أمره ربه ﷻ أن ينزل إلى الأرض فيضرب بعقبه أو بجناحه مكان زمزم ، فضربه مرة واحدة ، فخرج هذا الماء ينبع ، فجعلت تحوطه تحجر عليه ، خافت أن يسبح في الأرض وينقص ، وشربت من الماء وإذا الماء يكفي عن الطعام والشراب وهو ماء ، فجعلت تشرب من هذا الماء وترضع الولد ، وفرج الله ﷻ عنها .

وكان حولها أناس ولكنهم كانوا بعيدين عنها من (جرهم) قبيلة من العرب كانوا حولها ، فرأوا الطيور تهوي إلى هذا المكان مكان زمزم الذي فيه الماء ، والطيور يرى من بعيد ، فقالوا : ما خبرنا أن هنا ماء حتى تأوي الطيور إليه ، لكنهم قالوا : لا يمكن للطيور أن تأوي إلا إلى ماء ، فتبعوا هذه الطيور حتى وصلوا إلى المكان ، وإذا المكان عين تنبع ، فنزلوا حول المرأة وأنست بهم ، وكبر إسماعيل وتزوج منهم .

بعد مدة جاء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، فدخل على أهل إسماعيل وعلى هاجر ، وسأل زوجة إسماعيل كيف حالكم ؟ فشكت الحال وتضجرت ، فقال لها : إذا جاء زوجك فقول لي : يغير عتبة بابي فجاء إسماعيل وأخبرته بالذي حصل ؛ قال : هل جاءكم أحد ؟ قالت : نعم جاء شيخ صفته كذا وكذا وإنه قال : أقرئني السلام وقولي له : يغير عتبة بابي . ماذا يريد إبراهيم بهذه الكلمة ؟ يريد أن يطلقها ؛ لأن المرأة شكاية ، شكت زوجها يعني أن ما عندهم إلا كل بؤس . فقال : هذا أبي وأنت العتبة ، فالحقني بأهلك .

ثم تزوج غيرها ، ثم جاء إبراهيم مرة أخرى بعد أن غاب عنه مدة ، ودخل على بيت ابنه إسماعيل

ووجد الزوجة فسألها عن حالهم ، فأثنت على حالهم وقالت : نحن بخير ، وأثنت على الحال ، فقال : أقرني زوجك مني السلام وقولي له : يمسك بعتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه سأل هل جاء أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ صفته كذا وكذا ، وأنه يقرئك السلام ويقول : يمسك بعتبة بابه ، قال : ذاك أبي ، وأنت عتبة الباب ، وأمرني أن أمسكك .

فالحاصل : أن زمزم ماء مبارك « طعام طعم وشفاء سقم » ^(١) ، « وماء زمزم لما شرب له » ^(٢) إن شربته ليعطش رويته ، وإن شربته لجوع شبعته ، حتى إن بعض العلماء أخذ من عموم هذا الحديث أن الإنسان إذا كان مريضاً وشربه للشفاء شفي ، وإذا كان كثير النسيان وشربه للحفظ صار حافظاً ، وإذا شربه لأي غرض ينفعه ، فعلى كل حال هذا الماء ماء مبارك .

فالحاصل : أن الأكمل والأفضل أن يشرب الإنسان وهو قاعد ويجوز الشرب قائماً ، وقد شرب علي بن أبي طالب عليه السلام قائماً ، وقال : إن النبي ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت ، فدل ذلك على أن الشرب قائماً لا بأس به ، لكن الأفضل أن يشرب قاعداً .

بقي أن يقال : إذا كانت البرادة في المسجد ودخل الإنسان المسجد ، فهل يجلس ويشرب أو يشرب قائماً ؟ لأنه إن جلس خالف قول النبي ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين » ^(٣) ، وإن شرب قائماً ترك الأفضل . فنقول : الأفضل أن يشرب قائماً ، لأن الجلوس قبل صلاة الركعتين حرام عند بعض العلماء ^(٤) ، بخلاف الشرب قائماً فهو أهون ، وعلى هذا فيشرب قائماً ثم يذهب ويصلي تحية المسجد .

١٧٥ - باب استحباب كون ساقى القوم آخرهم شرباً

٧٧٣ - عن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ساقى القوم آخرهم شرباً » ^(٥) .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتاب أدب الطعام : باب استحباب كون ساقى القوم آخرهم شرباً .

(١) انظر صحيح مسلم في فضائل الصحابة (١٣٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٧/٣) ، وابن ماجه في المناسك (٣٠٦٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٤) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧١٤) .

(٤) ذهب الجمهور إلى أن ركعتي دخول المسجد مندوب إليها من غير إيجاب وذهب أهل الظاهر إلى وجوبها . انظر بداية المجتهد (١٥١/١) .

(٥) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٩٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٣١١) من حديث طويل .

يعني الذي يسقي القوم ماءً أو لبنًا أو قهوة أو شايًا ، ينبغي أن يكون هو آخرهم شربًا ؛ من أجل أن يكون مؤثرًا على نفسه ، ومن أجل أن يكون النقص - إن كان - على نفس الساقى ، وهذا لاشك أنه أحسن امتثالًا لأمر النبي ﷺ ، وأخذًا بأدب النبي ﷺ ، لكنه إذا كان لا يشتهي أن يشرب فليس يلزم أن يشرب بعدهم ، إن شاء شرب ، وإن شاء لا يشرب .

المهم : أن يكون هو الأخير إذا أراد أن يشرب ، لما في ذلك من الإيثار وامتثال أمر النبي ﷺ ، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يخدم إخوانه بسقيهم ، وإذا كان صاحب البيت فليقدم إليهم الشراب أو الأكل ، كما فعل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ﴿ قَرَأَ لَكَ أَقْلِيهِ فَبَعَا يَحْتَبِلُ سَمِينَ ﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ [الذاريات : ٢٦ ، ٢٧] .

فصاحب البيت يقرب الأكل ويتناول الشراب ، ويكون هو آخر القوم ، ثم هل الأفضل أن يشاركهم في الطعام سواء كان غداءً أو عشاءً أو فطورًا ، أو الأفضل أن ينصرف ولا يشاركهم ؟ هذا يرجع إلى عادة الناس ، فإذا كانت مشاركته أطيب لقلوب الضيوف وأكثر إيناسًا فليأكل معهم ، وإذا كان الأمر بالعكس وجرت العادة أنه لا يأكل الإنسان مع ضيوفه فلا يأكل .

فهذا أمر يرجع إلى العرف ؛ إن كان العرف أن من إكرام الضيف ألا تأكل معه وأن تجعله حرًا يأكل ما شاء فلا تأكل ، وإن كان الأمر بالعكس فكل ، ولقد قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » (١) ، ولم يبين نوع الإكرام فيرجع في ذلك إلى ما جرى به عرف الناس .

١١٦ - باب جواز الشرب من جميع الأواني الطاهرة غير الذهب والفضة وجواز الكزح (وهو الشرب بالفم من النهر وغيره) بغير إناء ولا يد وتحريم استعمال إناء الذهب والفضة في الشرب والأكل والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

٧٧٤ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : حَضَرَتِ الصَّلَاةُ ، فَقَامَ مَنْ كَانَ قَرِيبَ الدَّارِ إِلَى أَهْلِهِ ، وَبَقِيَ قَوْمٌ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمِخْضَبٍ (٢) مِنْ حِجَارَةٍ ، فَصَغَّرَ الْخِضْبُ أَنْ يَسْطُ فِيهِ كَفَّهُ ، فَتَوَضَّأَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ . قَالُوا : كَمْ كُنْتُمْ ؟ قَالَ : ثَمَانِينَ وَزِيَادَةً (٣) . متفقٌ عليه . هذه رواية البخاري . وفي رواية له ولمسلم : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ ، فَأَتَى بِقَدَحٍ رَخْوَجٍ (٤) فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ومسلم في الإيمان (٧٤) .

(٢) أي بلانة . (٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٩٥) .

(٤) الرخراج : الواسع القصير الجدار .

فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِيهِ . قَالَ أَنَسٌ : فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ إِلَى الْمَاءِ يَتَّبِعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ، فَحَزَزْتُ ^(١) مِنْ تَوَضُّأٍ مَا يَسِرُّ السَّبْعِينَ إِلَى الثَّمَانِينَ ^(٢) .

٧٧٥ - وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال : أَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَخْرَجَنَا لَهُ مَاءً فِي ثَوْبٍ مِنْ صُفْرِ قَتَوْضًا ^(٣) . رواه البخاري .

« الصُّفْرُ » بضم الصاد ، ويجوز كسرهما ، وهو النحاس ، و « الثَّوْبُ » : كالقدح ، وهو بالناء المشناة من فوق .

٧٧٦ - وعن جابر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَاءٌ بَاتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فِي سَنَةٍ وَلَا ^(٤) كَرَعْنَا ^(٥) » رواه البخاري .

« السَّنُ » : الْقُوَّةُ .

٧٧٧ - وعن حذيفة رضي الله عنه قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا عَنِ الْحَرِيرِ وَالْدِّيَنَاجِ وَالشُّرْبِ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَقَالَ : « هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَهِيَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ » ^(١) متفق عليه .

٧٧٨ - وعن أم سلمة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الَّذِي يَشْرَبُ فِي آيَةِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجْزِئُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ ^(٢) » متفق عليه .

وفي رواية لمسلم : « إِنْ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آيَةِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ » ^(٣) .

وفي رواية له : « مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَإِنَّمَا يُجْزِئُ فِي بَطْنِهِ نَارًا مِنْ جَهَنَّمَ » ^(٤) .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف رحمته الله في كتابه لبيان حكم الأواني واستعمالها في الشرب .
وليعلم أن هناك قاعدة نافعة ، وهي أن الأصل في كل ما خلق الله في الأرض أنه حلال ، فالأصل أن حكمه الحل ، إلا ما قام الدليل على تحريمه ، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

(١) حرزت الشيء حرزاً أي : قدرته .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٠٠) بلفظه ، ومسلم في الفضائل (٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٩٧) .

(٤) الحكمة من طلب الماء البات أنه أبرد وأصفى ، والكرع : تناول الماء بالفم من غير إناء ولا كف .

(٥) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦١٣) .

(٦) أخرجه بنحوه البخاري في الأشربة (٥٦٣٣) ، واللباس (٥٨٣١) ، ومسلم في اللباس والزينة (٤) .

(٧) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣٤) ، ومسلم في اللباس والزينة (١) .

(٨) انظر صحيح مسلم في اللباس والزينة (١) . (٩) انظر صحيح مسلم في اللباس والزينة (٢) .

لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿٢٩﴾ [البقرة: ٢٩] ، كل ما في الأرض فهو لنا حلال من حيوان وأشجار وأحجار وكل شيء ، كل الذي في الأرض حلال أحله الله لنا إلا ما قام الدليل على تحريمه .

وبناءً على هذه القاعدة العظيمة التي بينها الله لنا في كتابه ، فإن كل من ادعى أن هذا حرام فعليه الدليل ، إذا قال مثلاً : إن هذا الحيوان حرام ، نقول : هات الدليل ، وإلا فالأصل أنه حلال . إذا قال : هذه الآية حرام ، قلنا : هات الدليل ، وإلا فالأصل أنه حلال ؛ لأن الذي يقول : إنه حلال معه أصل من الله ﷻ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ، وقال ﷻ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحاقة: ١٣] . فهذا هو الأصل .

ولهذا قال المؤلف رحمه الله : (باب جواز الشرب من جميع الآنية) : من خشب أو حجر أو غير ذلك ، إلا الذهب والفضة ، فإن الذهب والفضة لا يجوز فيهما الأكل ولا الشرب ، ودليل هذا حديث حذيفة بن اليمان وأم سلمة رضي الله عنهما : «أما حديث حذيفة بن اليمان فقد صرح ﷺ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن الشرب في آنية الذهب والفضة ، وكذلك حديث أم سلمة ، ويصن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الحكمة من ذلك فقال : «هي لهم في الدنيا - يعني الكفار - وهي لكم في الآخرة» .

فالكفار في الآخرة في نار جهنم والعياذ بالله ، إذا استغاثوا وهلكوا من العطش فقد قال الله تعالى : ﴿وَلَنْ يَسْتَقْبِلُوهُ فِيهَا وَلَا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا^(١)﴾ [الكهف: ٢٩] ، يؤتى إليهم بالماء كالمهل وهو كرديء الزيت المحمى والعياذ بالله ، إذا قربوه إلى وجوههم ليشربوا منه فإنه يشوي وجوههم ، ﴿وَشُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] والعياذ بالله .

لكن أهل الجنة - جفنا الله منهم - ﴿يَسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ^(٢)﴾ ﴿خِتْمُهُمْ مِنْكُمْ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦] ، يسقون بآنية الذهب والفضة ، ولذلك نهى النبي ﷺ عن الأكل والشرب فيهما ، لأنهما آنية الجنة .

ونهى عن لبس الحرير للرجال ؛ لأن الحرير للمؤمنين في الجنة ، والرجال لا يليق بهم لبس الحرير في الدنيا . وكذلك النساء ، لولا أن الله تعالى رخص لهن في لباس الحرير من أجل مصلحتهن ومصلحة أزواجهن ، حتى تتجمل المرأة لزوجها ، فيحصل بذلك مصلحة للجميع ، ولولا هذا لكان الحرير حراماً على النساء كما هو حرام على الرجال ؛ لأنه لباس أهل الجنة .

فالخاصل : أن جميع الأواني من زجاج وخزف وخشب وأحجار وغير ذلك ، الأصل فيها الحل

(١) مرتقفاً أي متكأ . صفوة البيان لمعاني القرآن (ص ٣٨٠) .

(٢) أي من خمر بيضاء لذيدة خالصة مما يكدرها حتى من الغول الذي في خمر الدنيا و ﴿مَخْتُومٍ﴾ أي أوانيه وأكوابه وختمها المسك بدل الطين ، أو تمثيل لكمال نفاسته ، وإلا فليس هناك غبار أو ذباب ليصان الرحيق عن ذلك بالخطم ، أو المعنى أن شربه يجد في نهاية شربه رائحة المسك . صفوة البيان (ص ٧٩٢) .

حتى لو كانت من أغلى المعادن ، فإنها حلال إلا الذهب والفضة ، والعلة في ذلك ليس كما قال بعض الفقهاء : إنها الخيلاء وكسر قلوب الفقراء وما أشبه ذلك ، لأنه لو كان هكذا لكان كل إناء يكسر قلوب الفقراء يحرم فيه الأكل والشرب و لكن العلة بيّنها الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « هي لهم في الدنيا وهي لكم في الآخرة » ، وهذا خاص بآية الذهب والفضة .

لو أن الإنسان شرب في آنية من معدن أغلى من الذهب والفضة لم يكن هذا حراماً إذا لم يصل إلى حد السرف ، ولكن لو أكل أو شرب في الذهب والفضة كان ذلك حراماً ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ويُنسب السبب .

وفي حديث أم سلمة : دليل على أن الأكل في آنية الذهب والفضة من كبائر الذنوب ، لأن النبي ﷺ توعّد على ذلك بأن من فعله : « فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم » ؛ الجرجرة : صوت الطعام والشراب وهو ينحدر في البلعوم ، فإذا أكل أو شرب في إناء الذهب والفضة ، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم ، وهذا يدل على أنه من كبائر الذنوب ؛ لأن فيه الوعيد ، وكل ذنب فيه وعيد ، فإنه من كبائر الذنوب .

المطلبي بالذهب والفضة قال العلماء : إنه كالحالص ، لا يجوز أن يؤكل فيه ولا أن يُشرب فيه .

كتاب اللباس

١١٧ - باب استحباب الثوب الأبيض وجواز الأحمر والأخضر والأصفر والأسود

وجوازه من قطن وكتان وشعر وصوف وغيرها إلا الحرير

قال الله تعالى : ﴿ يَبْنَؤُ مَادَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِي سَوْءَ دِينِكَ وَرَبِّثْنَا لِبَاسًا الْفَقْرَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾

[الأعراف : ٢٦] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : كتاب اللباس .

وهذا من أحسن الترتيب فإن الأكل والشرب لباس الباطن ، والثياب لباس الظاهر . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۖ ﴾ (١) [طه : ١١٨-١١٩] ، فقال ﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۖ ﴾ لأن الجوع عري الباطن ، فخلوا البطن من الطعام عري لها . ﴿ وَلَا تَعْرَى ۖ ﴾ من لباس الظاهر ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا ۖ ﴾ هذا حرارة الباطن ﴿ وَلَا تَصْحَى ۖ ﴾ هذا حرارة الظاهر ، ولهذا أشكل على بعض الناس قال : لماذا لم يقل : إن لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ ، وأنت لا تعري

(١) أي لا يصيبك حر شمس الضحى لاتفتائها فيها . صفوة البيان (ص ٤٠٩) .

فيها ولا تضحى ؟ ولكن من تفتن للمعنى الذي أشرنا إليه ، تبين له بلاغة القرآن . ﴿ لَا تَجْرَعْ فِيهَا ﴾ : هذا انتفاء العري في الباطن . ﴿ وَلَا تَعْرَى ﴾ : انتفاؤه في الظاهر . و ﴿ لَا تَظْمَأْ ﴾ : هذا انتفاء الحرارة في الباطن . ﴿ وَلَا تَضْحَى ﴾ يعني لا تتعرض للشمس الحارة ؛ فيه انتفاء للحرارة في الظاهر .

كذلك المؤلف رحمه الله بدأ بأداب الأكل ، ثم بأداب الشرب ، ثم باللباس الذي هو كسوة الظاهر ، وافتتح هذا الكتاب بقوله تعالى : ﴿ بَنِيَّ آدَمَ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] ، فذكر الله تعالى نوعين من اللباس : نوعاً ظاهراً ونوعاً باطناً ، أو نوعاً حسياً ونوعاً معنوياً ، وذكر أن الحسي قسمان : قسم ضروري توارى به العورة ، وقسم كمالي - وهو الريش - ، لباس الزينة .

والله عز وجل من حكمته أن جعل بني آدم محتاجين للباس لمواراة السوءة ، يعني لتغطية السوءة ، حتى يستتر الإنسان ، كما أنه محتاج للباس يوارى سوءته الحسية ، فهو محتاج للباس يوارى سوءته المعنوية وهي المعاصي ، وهذا من حكمة الله تعالى .

ولهذا نجد غالب المخلوقات - سوى الآدمي - لها ما يستر جلدها من شعر أو صوف أو وبر أو ريش ، لأنها ليست بحاجة إلى أن تذكر العري المعنوي ، بخلاف بني آدم ؛ فإنهم محتاجون إلى أن يتذكروا العورة المعنوية وهي عورة الذنوب ، حماتها الله منها .

﴿ بَنِيَّ آدَمَ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَكُمْ ﴾ أي عوراتكم ﴿ وَرِيشًا ﴾ أي ثياب زينة وجمال زائدة عن اللباس الضروري ، ﴿ وَلِبَاسَ التَّقْوَى ﴾ هذا هو اللباس المعنوي ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي خير من اللباس الظاهر ؛ سواء كان مما هو ضروري ، كالذي يوارى السوءة أم من الكمالي .

وإذا كان لباس التقوى خيراً من لباس الظاهر ، فيجب على الإنسان أن يفكر ، حيث تجدنا نحرص على نظافة اللباس الظاهر - فالإنسان إذا أصاب ثوبه بقعة أو وسخ ذهب يغسلها بالماء والصابون ، وبما يقدر عليه من التنظيف - لكن لباس التقوى كثير من الناس لا يهتم به ، يتنظف أو يتسوخ لا يهتم به .

مع أن هذا كما قال الله عز وجل : هو الخير ، وهو إشارة أنه يجب الاعتناء بلباس التقوى أكثر مما يجب الاعتناء بلباس البدن الظاهر الحسي ، لأن لباس التقوى أهم ، وهنا قال : ذلك خير ، ولم يقل : ولباس التقوى هو خير ، لأن ذلك اسم إشارة ، وجيء بها للبعد إشارة إلى علو مرتبة هذا اللباس ، كما قال تعالى : ﴿ آتَىٰ ذَٰلِكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢) ولم يقل : هذا الكتاب إشارة إلى علو مرتبة القرآن ، كذلك قوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ إشارة إلى علو مرتبة لباس التقوى .

فينبغي للإنسان أن يعتني بهذا اللباس ، بأن يتقي الله عز وجل ، وأن يفكر دائماً في سيئاته ومعاصيه ، وتنظيف السيئات والمعاصي أسهل من تنظيف الثياب الظاهرة ، الثياب الظاهرة تحتاج إلى عمل وتعب وأجرة وتحضير ماء ومنظف ، لكن هذا الأمر سهل جداً ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥] بالاستغفار والتوبة يُمحي كل ما سلف ، نسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمَنِّه وكرمه .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مَرَزِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيْلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١] .
 ٧٧٩ - وعن ابن عباس ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْبُسُوَا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبِيَاضُ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ ، وَكَفُّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمُ » ^(١) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .
 ٧٨٠ - وعن سَمُرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْبُسُوَا الْبِيَاضُ ؛ فَإِنَّهَا أَطْهَرُ ^(٢) وَأَطْيَبُ ^(٣) ، وَكَفُّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمُ » ^(٤) رواه النسائي ، والحاكم وقال : حديث صحيح .
 ٧٨١ - وعن البراء ؓ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرْبُوعًا ^(٥) ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ خُمْرَاءَ مَا رَأَيْتُ شَيْعًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ ^(٦) . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

الشرح

وذكر المؤلف رحمه الله آية أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مَرَزِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيْلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ ، والسراريِل : هي الدروع يعني : مثل لباسنا هذا يسمى سراريِل : القمص والدروع وشبهها .
 ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مَرَزِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيْلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ . أما السراييل التي تقينا البأس فهي سراييل الحديد ، والدروع من الحديد ، كانوا في السابق يلبسونها عند الحرب والقتال ؛ لأنها تقي الإنسان السهام الواردة إليه ؛ فإنها عبارة عن حلق من حديد منسوج ، كما قال الله تعالى وهو يعلم داود : ﴿ أِنِ اعْمَلْ مَنِغْنَتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ^(٧) ﴾ [سبا: ١١] فيصفون هذه الدروع بأنها إذا لبسها الإنسان وجاءته السهام أو الرماح أو السيوف ، ضربت على هذا الحديد ووقته الشر .

أما قوله : ﴿ مَرَزِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ ﴾ : فهي الثياب من القطن وشبهها تقي الحر ، وقد يقول قائل : لماذا لم يقل : تقيكم البرد ؟ أجاب العلماء عن ذلك بأن هذا على تقدير شيء محذوف أي تقيكم الحر وتقيكم البرد ، لكنه ذكر الحر ؛ لأن السورة مكية نزلت في مكة وأهل مكة ليس عندهم برد ، فذكر الله

(١) أخرجه أبو داود في سننه في الطب (٣٨٧٨) ، والترمذي في الجنايز (٩٩٤) .

(٢) لأنها لتقاتها يظهر ما يخالطها من الدنس وإن قل .

(٣) أي لسلامتها غالبًا من الخيلاء الذي يكون في لبس الملونات .

(٤) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨١٠) ، والنسائي في سننه في الزينة (٢٠٥/٨) ، والحاكم في المستدرک (١٨٥/٤) .

(٥) أي لم يكن طويلًا باثًا ولا قصيرًا ، بل كان بينها وإلى الطول أقرب .

(٦) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٤٨) واللفظ له ، ومسلم في الفضائل (٩١) ، وأحمد في مسنده (٢٨١/٨) .

(٧) سابغات : جمع سابعة وهي الدروع الواسعة وقدر في السرد أي أحكم نسج الدروع بحيث تُدخل الحلق بعضها في بعض . صفوة البيان ص ٥٤١ .

منته عليهم بهذه السراويل التي تقي الحر ، وقيل : إنه ليس في الآية شيء محذوف ، وأن الدروع التي تقي البأس تقي الإنسان حر السهام ونحوها ، والسراويل الخفية تقي الحر الجوي ؛ وذلك أن الإنسان في الجو الحار لو لم يكن عليه سراويل تقيه الحر للفقح الحرّ واسودّ جلده وتأذى وجف ، ولكن الله ﷻ جعل السراويل التي تقي الحر من نعمته تبارك وتعالى .

ثم ذكر حديث ابن عباس ؓ ، وحديث سمرة في أن النبي ﷺ حثّ على لبس الثياب البيض وقال : « إنها من خير ثيابكم » وقال « كفنوا فيها موتاكم » . وصدق النبي - عليه الصلاة والسلام - ؛ فإن الثوب الأبيض خير من غيره ، من جهة الإضاءة والنور ، ومن جهة أنه إذا اتسخ أدنى اتساخ ظهر فيه ، فبادر الإنسان إلى غسله . أما الثياب الأخرى فربما تتراكم فيها الأوساخ ، والإنسان لا يشعر بها ولا يغسلها ، وإذا غسلها فلا يدري ؛ هل تنظفت أم لا ؟ ، فلهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم » .

وهو شامل للباس الثياب البيض : القمص ، والأزر ، والسراويل ، كلها ينبغي أن تكون من البياض ، فإنه أفضل ، ولكن لو أنه لبس من لون آخر فلا بأس ، بشرط ألا يكون مما يختص لبسه بالنساء ، فإن كان مما يختص لبسه بالنساء فإنه لا يجوز أن يلبسه الرجل ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعن المتشبهين من الرجال بالنساء ^(١) ، وكذلك بشرط ألا يكون أحمر ، لأن الأحمر قد نهى عنه النبي ﷺ إذا كان أحمر خالصاً ، فإن كان أحمر وفيه بياض فلا بأس .

وعلى هذا يحمل الحديث الثالث الذي ذكره المؤلف أن النبي ﷺ كان مربوعاً ، وأنه كان عليه حلّة حمراء ، هذه الحلّة الحمراء ليس معناها أنها كلها حمراء ، لكن معناها : أن أعلامها حمراء ، مثل ما تقول الشماع أحمر وليس هو كله أحمر ، بل فيه بياض كثير ، لكن نقطه ووشمه الذي فيه أحمر ، كذلك الحلّة الحمراء يعني أن أعلامها حمراء ، أما أن يلبس الرجل أحمر خالصاً ليس فيه شيء من البياض ، فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك .

٧٨٢ - وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله ؓ قال : رأيت النبي ﷺ بمكة وهو بالأبطح ^(٢) في قبة ^(٣) له حمراء من آدم ^(٤) ، فخرج يلاًل يوضوئيه ، فمن ناضح ونائل ^(٥) ، فخرج النبي ﷺ وعليه

(١) انظر صحيح البخاري في اللباس (٨٥٨٥) ، وسنن أبي داود في اللباس (٤٠٧٩) .

(٢) أي المحصب ويقال له البطحاء .

(٣) هي ما يعبر عنها بالخيمة الآن .

(٤) جمع آدم وهو الجلد المذبوغ .

(٥) قال النووي : معناه فمنهم من ينال من شيئاً ومنهم من ينصح عليه غير شيئاً مما ناله ، ويرش عليه بللاً مما حصل له فيه تقديم وتأخير تقديره فوضاً فمن نائل بعد ذلك وناصح فيه تقديم وتأخير تقديره فوضاً فمن نائل بعد ذلك وناصح تبركاً بآثاره ﷺ . صحيح مسلم بشرح النووي (٢١٨/٤ ، ٢١٩) .

حُلَّةَ حُمْرَاءَ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ سَاقِيهِ ، فَتَوَضَّأَ وَأَذَّنَ بِلَالٌ ، فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ فَأَهْ هَهُنَا وَهَهُنَا ، يَقُولُ يَمِينًا وَشِمَالًا : حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ثُمَّ رُكِّزَتْ لَهُ عَنَزَةٌ ، فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى ؛ يَمُوزُ يَمِينَ يَدِيهِ الْكَلْبُ وَالْحِمَارُ لَا يَمْتَنِعُ ^(١) . متفقٌ عليه ^(٢) .

« العَنَزَةُ » بفتح النون : نَحْوُ الْعَكَازَةِ .

٧٨٣ - وعن أبي رَمَثَةَ رِفَاعَةَ التَّيْمِيِّ رضي الله عنه قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ ^(٣) . رواه أبو داود ، والترمذي بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

٧٨٤ - وعن جابر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ يَوْمَ قَتَحٍ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءَ ^(٤) . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي رحمته الله في « رياض الصالحين » في (كتاب اللباس) وقد سبق ذكر شيء من هذه الأحاديث ، وهنا حديث وهب بن عبد الله السوائي أبي جحيفة رضي الله عنه ، أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في قبة له حمراء من آدم أو من أدم ، ولكن الصواب من آدم .

وذلك في الأبطح في حجة الوداع ، فإن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - لما قدم مكة في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة ، قدمها ضحى يوم الأحد ، الرابع من ذي الحجة ، ونزل إلى المسجد الحرام فطاف وسعى ثم خرج إلى الأبطح ، فنزل فيه إلى اليوم الثامن وكان في هذه القبة التي ضربت له - عليه الصلاة والسلام - .

يقول : فخرج ، يعني حين زالت الشمس ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وعليه حلة حمراء كأني أنظر إلى بياض ساقيه . وهذه الحلة حلة حمراء يعني أن أعلامها حمر ليست سوداً ولا خضراً ، لأن الأحمر الخالص قد ثبت نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن لبسه ، فتحمل هذه على أن المراد أن أعلامها يعني خطوطها ونقشها حمر .

خرج بلال رضي الله عنه يوضوء النبي - عليه الصلاة والسلام - يعني بما بقي من مائه الذي توضع به ، فجعل الناس يأخذون منه من ناضج ونائل ، يعني بعضهم أخذ كثيراً وبعضهم أخذ قليلاً ؛ يتركون بفضل وضوئه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، من هذه القبة ، وأذن بلال ، ثم ركزت العنزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعنزة : رمح في طرفه زج ، يعني رمح في طرفه حديدة محددة ،

(١) أي من وراء السترة لأن المصلي إنما يمنع المرور بينه وبين السترة .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٧٦) ، ومسلم في الصلاة (٢٤٩) .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٦٥) ، والترمذي في الأدب (٢٨١٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤٥١) .

كان النبي ﷺ يصحبها معه في السفر ، ركزت العنزة من أجل أن يصلي إليها ، لأن الإنسان إذا كان في السفر فإنه ينبغي أن يصلي إلى شيء قائم ؛ كعصا يركزها في الأرض أو ما أشبه ذلك .

يقول : فتقدم فصلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين ، وهذا يدل على جواز الجمع للمسافر وإن كان نازلاً ، لكن الأفضل ألا يجمع إلا من حاجة ؛ كما لو كان سائراً يمشي أو كان نازلاً ولكن يحتاج إلى راحة ؛ فيجمع جمع تأخير أو جمع تقديم ، وإلا فالأفضل للنازل ألا يجمع .

ثم ذكر وهب بن عبد الله السوائي أبو جحيفة كيف كان أذان بلال ؛ يقول : جعلت ألتبع فاه هاهنا وهاهنا ؛ يعني : يميناً وشمالاً ، يقول : حي على الصلاة حي على الفلاح .

واختلف العلماء رحمهم الله ^(١) : هل يقول : « حي على الصلاة » على اليمين ، « حي على الصلاة » على اليسار ، ثم « حي على الفلاح » على اليمين ، « حي على الفلاح » على اليسار ، أم أنه يجعل « حي على الصلاة » كلها على اليمين ، « حي على الفلاح » كلها على اليسار ؟ ، والأمر في هذا واسع ، وإن فعل هذا أو هذا فكله على خير ولا بأس به .

ثم ذكر حديثين آخرين ؛ أحدهما : أن النبي ﷺ كان عليه لباس أخضر ، والثاني : كان عليه عمامة سوداء ، وهذا يدل أيضاً على جواز لباس الأخضر ولباس الأسود .

٧٨٥ - وعن أبي سعيد عمر بن حريث رضي الله عنه قال : كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وعليه عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ ^(٢) ، قَدْ أَرْخَى طَرَفِيهَا يَمِينَ كَفِيهِ ^(٣) . رواه مسلم .

وفي رواية له : أن رسول الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ ، وَعَلِيهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ ^(٤) .

٧٨٦ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كُنْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فِي ثَلَاثَةِ أَثَوَابٍ بَيضٍ سَحُولِيَّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ ^(٥) ، متفقٌ عليه .

« السَّحُولِيَّةُ » بفتح السين وضمها وضم الحاء المهملتين : ثيابٌ تُنْسَبُ إِلَى سَحُولٍ ، قَزِيَّةٌ بِالْيَمِينِ .
« وَالْكُرْسُفُ » : القُطْنُ .

(١) قال ابن قدامة في المغني (٤٧٢/١) ، المستحب أن يؤذن مستقبل القبلة لا نعلم فيه خلافاً ، ويستحب أن يدير وجهه يمينه إذا قال حي على الصلاة وعلى يساره إذا قال حي على الفلاح ولا يزيل قدميه عن القبلة في التفاته لما روى أبو جحيفة قال : رأيت بلالاً يؤذن وأتبع فاه ههنا وههنا وأصبعاه في أذنيه (متفق عليه) وفي لفظ قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في قبة حمراء من آدم فخرج بلال فأذن فلما بلغ حي علي الصلاة حي علي الفلاح التفت يميناً شمالاً ولم يستدر . وظاهر الكلام أنه لا يستدير سواء كان على الأرض أو فوق منارة وهو قول الشافعي .

(٢) لا يخالف ذلك ما جاء من أنه رضي الله عنه دخل يومئذ وعليه مغفر ؛ لإمكان الجمع بدخوله بهما معا وهي فوقه ، أو كان واحداً بعد آخر ، ولبسه العمامة السوداء يومئذ إشارة إلى أن هذا الدين لا يتغير كالسواد بخلاف سائر الألوان وللتنبية على عدم المنع منه .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٥٣) . (٤) أخرجه مسلم في الحج (٤٥٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٧٣) ومسلم في الجنائز (٤٦) .

٧٨٧ - وعنها قالت : خَرَجَ رسول الله ﷺ ذاتَ غَدَاةٍ (١) ، وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرْخَلٌ مِنْ شَعْرِ أَمْنُودٍ (٢) .
رواه مسلم .

« المِرْطُ » بكسر الميم : وهو كساءٌ « والمُرْخَلُ » بالحاء المهملة : هُوَ الَّذِي فِيهِ صُورَةُ رِحَالِ الْإِبِلِ ، وَهِيَ الْأَكْوَارُ .

٧٨٨ - وعن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَسِيرٍ ، فَقَالَ لِي : « أَمَّا كَ مَا ؟ » قُلْتُ : نَعَمْ ، فَتَزَلَّ عَنْ رِجْلَيْهِ فَمَشَى حَتَّى تَوَارَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ ثُمَّ جَاءَ فَأَقْرَعْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَعَلَيْهِ حُجَّةٌ مِنْ صُوفٍ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْرِجَ ذِرَاعِيهِ مِنْهَا حَتَّى أَخْرَجَهُمَا مِنْ أَشْفَلِ الْحُجَّةِ ، فَغَسَلَ ذِرَاعِيهِ وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ ، ثُمَّ أَهْوَيْتَ لِأَنْزِعَ حُفْيَهُ فَقَالَ : « دَعُهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ » وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا . متفقٌ عليه (٣) .

وفي رواية : وَعَلَيْهِ حُجَّةٌ شَامِيَّةٌ ضَيِّقَةُ الْكُمَيْنِ (٤) .

وفي رواية : أَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ كَانَتْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي (كتاب اللباس) فيها الإشارة - كما سبق - إلى أنه يجوز للإنسان أن يلبس ما شاء من الثياب ، البيض ، والسود ، والخضر ، والصفير ، والحمير ، إلا أن الأحمر الخالص قد ثبت فيه النهي عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ، فلا يلبس الأحمر الخالص إلا مشوباً بلون آخر .
وفي حديث عمرو بن حريث ، أنه رأى النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وعليه عمامة سوداء ، وسبق أنه ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سواء فهو يدل على جواز لبس العمامة السوداء ، وكذلك الشمال (٥) الذي نقشه أسود أو أخضر أو أحمر كل هذا جائز .

وفيه : دليل على جواز لبس العمامة ، وأن من الأفضل أن يجعل الإنسان لها ذؤابة ، وأن يرخي طرفها من خلف ، كما فعل النبي ﷺ . والعمامة التي ليس لها ذؤابة تسمى العمامة الصماء ، لأنه ليس لها طرف مرخي ، وكلاهما جائز ، وكلاهما أيضاً يجوز المسح عليه على القول الراجح .

وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كَفَنَ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بَيْضَ مَحُولِيَةٍ مِنْ كَرْسَفٍ ؛ لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ ، فَقِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يَكْفَنَ

(١) أي في أي ساعة من البكرة .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٩٩) ، ومسلم في الطهارة (٧٩) واللفظ له .

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٧٧) .

(٥) الشمال : كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلف به . المعجم العربي الأساسي ص (٧٠٣) .

الأموات في الثياب البيض ، وهذا إن تيسر ، لكن لو فرض أنه لم يتيسر فيكفن الميت في مثل ما يليسه الحي ، من أي لون كان إلا الأحمر الخالص .

وفي حديث عائشة : دليل على أن الميت لا يجعل عليه قميص ولا عمامة ، وإنما توضع القطع واحدة فوق الأخرى ، ثم يوضع عليها الميت ، ثم تلف القطع العليا عليه ، ثم الوسطى ثم السفلى ، ثم تُثنى من عند رأسه ومن عند الرجلين ، وتُرَبط وتُحْزَم حتى يدخل الميت القبر ، فإذا أدخل القبر فإنها تفك الحزائم . قال العلماء : تفك الحزائم ؛ لأن الميت إذا مات يتنفخ ، فإذا انتفخ وقد ربط فربما يتفجر ، فتفك الحزائم من أجل ألا يتفجر .

وفي حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في غزوة تبوك نزل من بعيره وأخذ الإداوة : وهي إناء يوضع فيه الماء - فأخذ الإداوة - عليه الصلاة والسلام - وانطلق حتى توارى في سواد الليل ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - أشد حياءً ، فلا يجب أن يراه أحد وهو جالس على قضاء حاجته ، وإن لم تر عورته .

وهذا من كمال الأدب ؛ أنك إذا أردت أن تقضي حاجتك فابعد عن الناس حتى توارى عنهم ، لا من أجل ألا يروا عورتك ، بل لأن ستر العورة واجب ولا يجوز أن تتكشف أمام الناس ، لكن هذا فوق ذلك ، يعني الأفضل ألا يرى الإنسان وهو على حاجته ، وهذا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن هديه أكمل الهدى .

ثم أراد أن يتوضأ وكان عليه حُجَّةٌ من صوف ضيقة الأكمام ، لبسها - عليه الصلاة والسلام - لأن الوقت كان بارداً ، لأن تبوك قرية من الشام والشام باردة ، فلذلك كان عليه هذه الجبة - عليه الصلاة والسلام - ، فلما توضأ وغسل وجهه وأراد أن يخرج ذراعيه من الكم ، وكان ضيقاً صفيقاً فلم تستطع يده أن تخرج ، فأخرجها من أسفل وغسلها - عليه الصلاة والسلام - .

ولما أراد أن يغسل قدميه أهوى المغيرة بن شعبة لينزع خفيه ، قياساً على أن الرسول لم يمسح على الكمين لما كانا ضيقين ، وإنما أخرج يده من أسفل حتى غسلها ، فظن المغيرة بن شعبة أن الخفين مثل ذلك ، وأنها تنزع من أجل غسل الرجل ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « دعهما فإنني أدخلتهما طاهرتين » فمسح عليهما ، وقوله : « أدخلتهما طاهرتين » أي لبستهما على طهارة ، فمسح عليهما . ففي هذا الحديث عدة فوائد :

منها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يناله ما ينال البشر من الأمور الطبيعية ، يبرد كما يبرد الناس ، ويحترق كما يحترق الناس ، ولهذا رآه مرة معاوية وقد فك أزرار القميص ^(١) - لأنه والله أعلم - كان محترقاً ففك الأزرار ، فظن معاوية رضي الله عنه أن هذا من السنة ، وهو ليس من السنن المطلقة ، لكن من السنة إذا كان فيه تخفيف على البدن ، لأن كل ما يخفف عن البدن فهو خير .

فإذا كان الإنسان محتترًا وأراد أن يفتح الأزرار الأعلى والذي يليه فلا بأس ويكون هذا من السنة ، أما بدون سبب فإنه ليس من السنة ، لأنه لو كان من السنة لكان وضع الأزرار عبثًا لا فائدة منه ؛ والدين الإسلامي ليس فيه شيء عبث ، فكله جد .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه لا حرج على الإنسان أن يتوقى ما يؤذيه من حر أو برد ، كما فعل النبي ﷺ ، بل الأفضل للإنسان أن يتوقى ما يؤذيه ؛ لأن هذا من تمام الرعاية للنفس ، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال : الأكل إذا خفت أن يؤذيك صار حرامًا عليك ؛ الأكل الذي هو الغذاء إذا خفت أن يؤذيك ؛ إما بكثرته وإما بكونك أكلت قريبًا فتخشى أن تتأذى بالأكل الجديد ، فإنه يحرم عليك ، بمعنى أنك تأثم إذا أكلته ؛ لأن الإنسان يجب أن يرمى نفسه حق الرعاية .

ومن فوائد الحديث : أنه لا يجوز أن يمسح على حائل سوى الخفين أو العمامة ، فلو كان على الإنسان ثوب ضيق الأكمام ولا تخرج اليد إلا بصعوبة وقال : أمسح على هذا الثوب كما أمسح على الخف ، قلنا : هذا لا يجوز ، لابد أن تخرج يدك حتى تغسلها ، حتى لو فرض أنها لم تخرج إلا بشق الكم يشق فإنه حتى يؤدي الإنسان ما فرض الله عليه من غسل اليد ﴿ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرَأْسِكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] .

ومن فوائد الحديث : بيان جهل بعض الناس الذين يظنون أن ما يسمى بالمناكير مثل الخفين ، إذا وضعته المرأة على طهارة تغسلها يومًا وليلة وهذا خطأ ليس بصحيح ، فالمناكير يجب أن يزال عند الوضوء حتى يصل الماء إلى الأطراف وأطراف الأصابع .

ومن فوائد هذا الحديث : جواز استخدام الأحرار ؛ لأن النبي ﷺ كان المغيرة يخدمه ، ولكن لا شك أن خدمة الرسول ﷺ شرف ، كل يفخر بخدمة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وكان للنبي ﷺ خدم من الأحرار كعبد الله بن مسعود ؓ ، وأنس بن مالك وغيرهما ؛ فالمغيرة كان يخدم النبي ﷺ .

ومن فوائد الحديث : جواز إعانة المتوضئ على وضوئه يعني تصب عليه ، أو تقرب له الإناء وما أشبه ذلك . وكذلك لو فرض أنه لا يستطيع أن يغسل أعضائه فاغسلها أنت ، فلو فرض أن يده كسرا أو شللاً أو ما أشبه ذلك ، فلا حرج أن تغسل أعضائه أنت .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان إذا كان لابسا خفين أو جوارب على طهارة ، فإنه يمسح عليهما ، وأن المسح أفضل من أن يخعلهما ويغسل قدميه ، لأن الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « دعها - أي اتركهما لا تخلعهما - فإنني أدخلتهما طاهرتين » فمسح عليهما .

ومن فوائد هذا الحديث : ما ذهب إليه بعض العلماء من أن المسح على الخفين يكون مرة واحدة على القدمين ؛ إذ إن المغيرة لم يذكر أنه بدأ باليمنى قبل اليسرى ، فاستتبط بعض العلماء من ذلك أن المسح على الخفين يكون هذا أو يمسح على الرجل اليمنى قبل اليسرى ، لأن المسح بدل عن الغسل

والغسل تقدم فيه اليمنى على اليسرى والبذل له حكم المبدل ، فإن فعل الإنسان هذا أو هذا فلا حرج والأمر في هذا واسع .

ومن فوائد الحديث : أنه لا يجوز المسح على الخفين أو الجورين إلا إذا كان لبسهما على طهارة ، فإن لبسهما على غير طهارة وجب عليه أن يخلعهما عند الوضوء ويغسل قدميه ، ومنه فوائد أخرى .

١١٨ - بَابُ اسْتِحْبَابِ الْقَمِيصِ

٧٨٩ - عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ أَحَبُّ الثِّيَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْقَمِيصُ ^(١) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

١١٩ - بَابُ صِفَةِ طَوْلِ الْقَمِيصِ وَالْكَفِّ وَالْإِزَارِ وَطَرَفِ الْعِمَامَةِ

وَتَحْرِيمِ إِسْبَالِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْخِيَلَاءِ وَكَرَاهَتِهِ مِنْ غَيْرِ خِيَلَاءٍ

٧٩٠ - عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ كُمٌ قَمِيصِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الرُّمَحِ ^(٢) ، رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

٧٩١ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فقال أبو بكر : يا رسول الله إن إزارى يشتزخي ^(٣) إلا أن أتعاقدته ^(٤) ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنَّكَ لَسْتَ بِمَنْ يَفْعَلُهُ خِيَلَاءٌ » ^(٥) . رواه البخاري ، وروى مسلم بعضه .

٧٩٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا » ^(٦) متفق عليه ^(٧) .

٧٩٣ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا أَشْفَلَ مِنَ الْكَفَّيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فِي النَّارِ » ^(٨) رواه البخاري .

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٥) ، والترمذي في اللباس (١٧٦٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٧) ، والترمذي في اللباس (١٧٦٥) .

(٣) أي لنحافة يده .

(٤) أي بالشد والرفع .

(٥) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٤) ، ومسلم في اللباس (٤٢) ، والترمذي في اللباس (١٧٣٠) .

(٦) البطر كفر النعمة وعدم شكرها ، والمراد لازم ذلك ، أي عجبًا وخيلاء ، فما قبله مفسر له .

(٧) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٨) ، ومسلم في اللباس (٤٨) .

(٨) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٧) ، وأحمد في سننه (٤٦١/٢ ، ٩/٥) وابن ماجه في اللباس (٣٥٧٣) .

والمعنى قيل : أن ما دون الكعب من القدم يعذب عقوبةً ، ويكون ذلك من تسمية الشيء باسم ما جاوره أو حل فيه . =

٧٩٤ - وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكّيهم ، ولهم عذاب أليم » قال : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار . قال أبو ذر : خائبوا وخيبروا ! من هم يا رسول الله ؟ قال : « المشيل ، والمثان ، والمثنيق سيلقته بالحليف الكاذب » ^(١) رواه مسلم . وفي رواية له : « المشيل لإزاره » .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها النووي رحمته الله في (كتاب اللباس) فيها أحاديث تدل على أن أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص ؛ وذلك أن القميص أستر من الإزار والرداء ، وكانوا في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - يلبسون الإزار والرداء أحياناً ، وأحياناً يلبسون القميص ، وكان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يحب القميص لأنه أستر ، ولأنه قطعة واحدة يلبسها الإنسان مرة واحدة ، فهي أسهل من أن يلبس الإزار أولاً ثم الرداء ثانياً .

ولكن مع ذلك لو كنت في بلد يعتادون لباس الأزر والأردية وليست مثلهم فلا حرج ، المهم ألا تخالف لباس أهل بلدك فتقع في الشهرة وقد نهى النبي ﷺ عن لباس الشهرة .

وفي هذه الأحاديث أيضاً دليل على أن كم القميص يكون إلى الرسغ ، والرسغ هو الوسط بين الكوع والكرسوع ، لأن الإنسان له مرفق وهو المفصل الذي بين العضد والذراع ، وله كوع وكرسوع ورسغ ، فالكوع : هو طرف الذراع مما يلي الكف من جهة الإبهام . والكرسوع : طرف عظم الذراع مما يلي الكف من جهة الخنصر ، وأما الرسغ فهو ما بينهما ، وعلى هذا قول الناظم :

وعظم يلي الإبهام كوع وما يلي الخنصر الكرسوع والرسغ ما وسط

وعظم يلي إبهام رجل ملقب بيوع فخذ بالعلم واحذر من الغلط

والعوام إذا أرادوا ضرب المثل بالإنسان الأبله ، قالوا : هذا رجل لا يعرف كوعه من كرسوعه . وأكثر الناس يظنون أن الكوع : هو المرفق الذي إليه منتهى الوضوء ؛ ولكن ليس كذلك ، فما عند مفصل الكف من الذراع ؛ مما يلي الخنصر هو الكرسوع ، وما يلي الإبهام فهو الكوع ، وما بينهما فهو الرسغ . والنبي - عليه الصلاة والسلام - كان قميصه إلى الرسغ .

ثم ذكر المؤلف حديث ابن عمر ، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه في إنبال الثياب يقع على وجهين .

= ويحتمل أن يكون المراد الشخص نفسه فيكون التقدير : لابس أسفل ما سفل من الكعنين . أو يكون التقدير : فعل ذلك محسوب في أفعال أهل النار . وكل ذلك مستفاد من استحالة الإزار في النار حقيقة .

وقد يحمل الحديث على ظاهره من باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَكْتُمُ مَا قَدَّمُوا مِنْ آلِهِمْ أَن يَكُونُوا فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ حَصْبٌ لَهُمْ جَهَنَّمَ فِي الْإِيمَانِ (١٧١) . أخرجه مسلم في الإيمان (١٧١) .

الوجه الأول : أن يجر الثوب خيلاء .

والوجه الثاني : أن يترك الثوب أسفل من الكعبين من غير خيلاء .

أما الوجه الأول : وهو الذي يجر ثوبه خيلاء ، فإن النبي ﷺ ذكر له أربع عقوبات والعياذ بالله : لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه - يعني : نظر رحمة - ولا يركبه ، وله عذاب أليم . أربع عقوبات يعاقب بها المرء إذا جر ثوبه خيلاء .

ولما سمع أبو بكر بهذا الحديث قال : يا رسول الله إن أحد شقي إزارني يسترخي عليّ إلا أن أتعاذه ، يعني - فهل يشملني هذا الوعيد ؟ فقال ﷺ : « إنك لست ممن يصنع هذا خيلاء » فزكاه النبي - عليه الصلاة والسلام - بأنه لا يصنع هذا خيلاء ، وإنما العقوبة على من فعله خيلاء .

أما من لم يفعله خيلاء : فعقوبته أهون ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار » ، ولم يذكر إلا عقوبة واحدة ، ثم هذه العقوبة أيضًا لا تعم البدن كله ، إنما تختص بما فيه المخالفة ؛ وهو ما نزل من الكعب ، فإذا نزل ثوب الإنسان أو « مشلحه » أو سرواله إلى أسفل من الكعب ، فإنه يعاقب على هذا النازل بالنار ، ولا يشمل النار كلّ الجسد ، إنما يكوى بالنار - والعياذ بالله - بقدر ما نزل .

ولا تستغرب أن يكون العذاب على بعض البدن الذي حصلت فيه المخالفة ، فإنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ رأى أصحابه توضؤوا ولم يسبغوا الوضوء ، فنادى بأعلى صوته « ويل للأعقاب من النار »^(١) فهنا جعل العقوبة على الأعقاب ، يعني العراقيب التي لم يسبغوا وضوءها ، فالعقاب بالنار يكون عامًا ؛ كأن يحرق الإنسان كله بالنار والعياذ بالله ، ويكون في بعض البدن الذي حصلت فيه المخالفة ، ولا غرابة في ذلك .

وبهذا نعرف ضعف قول النووي رحمه الله : بتحريم الإسبال خيلاء وكرهيته لغير الخيلاء^(٢) ، والصحيح أنه حرام سواء كان لخيلاء أم لغير خيلاء ، بل الصحيح أنه من كبائر الذنوب ، لأن كبائر الذنوب : كل ذنب جعل الله عليه عقوبة خاصة به وهذا عليه عقوبة خاصة ؛ ففيه الوعيد بالنار إذا كان لغير الخيلاء ، وفيه وعيد بالعقوبات الأربع إذا كان خيلاء ، لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يركبه ، وله عذاب أليم .

وختم المؤلف بحديث أبي ذر أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، ولا يركبهم ، ولهم عذاب أليم » قرأها ثلاث مرات وإنما فعل النبي - عليه الصلاة والسلام - هذا من أجل أن ينتبه الإنسان ، لأن اللفظ إذا جاء مجملًا - ولا سيما مع التكرار - ينتبه له الإنسان ، حتى إذا جاءه التفصيل والبيان ورد على نفس متشوفة تطلب البيان .

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٣) ، ومسلم في الطهارة (٢٤٠) .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٦٢/١٤) .

فقال أبو ذر : يا رسول الله خابوا وخسروا مَنْ هؤلاء ؟ قال : « المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

الأول المسبل : يعني الذي يجز ثوبه خيلاء .
والثاني المنان : الذي يمن بما أعطى ، إذا أحسن إلى أحد بشيء جعل يمن عليه : فعلت بك كذا وفعلت بك كذا .

والمَنْ من كبائر الذنوب ، لأن عليه هذا الوعيد ، وهو مبطل للأجر لقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

والثالث المنفق سلعته بالحلف الكاذب : يعني الذي يحلف وهو كاذب ليزيد ثمن السلعة ، فيقول : والله لقد اشتريتها بعشرة ، وهو لم يشتريها إلا بثمانية ، أو يقول : أعطيت فيها عشرة ، وهو لم يعط فيها إلا ثمانية ، فيحلف على هذا ، فهذا ممن يستحق هذه العقوبات الأربع ؛ لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يذكى ، وله عذاب أليم . نسأل الله العافية .

٧٩٥ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « الإسبال في الإزار ، والقَمِيص ، والعمامة ، من جرَّ شَيْقًا خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) رواه أبو داود ، والنسائي بإسناد صحيح .

٧٩٦ - وعن أبي جُرَيْجٍ جَابِرِ بْنِ سَلِيمٍ رضي الله عنه قال : رَأَيْتُ رَجُلًا يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِ ^(٢) ، لَا يَقُولُ شَيْقًا إِلَّا صَدَرُوا عَنْهُ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . قُلْتُ : عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ - مَرَّتَيْنِ - قَالَ : « لَا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلَامُ ، عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى - قُلِ : السَّلَامُ عَلَيْكَ » قَالَ : قُلْتُ : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : « أَنَا رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي ^(٣) إِذَا أَصَابَكَ ضَرْفٌ فَدَعْوَتُهُ كَشَفَهُ عَنْكَ ، وَإِذَا أَصَابَكَ عَامٌ سَنَةٌ ^(٤) فَدَعْوَتُهُ أَنْتَبَهَا لَكَ ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ ^(٥) أَوْ فَلَاقٍ ^(٦) ، فَصَلَّتْ رَاحِلَتُكَ ، فَدَعْوَتُهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ » قَالَ : قُلْتُ : اعْهَدْ إِلَيَّ ^(٧) . قَالَ : « لَا تَشْبَنُ أَحَدًا » قَالَ : فَمَا سَبَبُ بَغْدَةِ

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٤) والنسائي في مسنده (٢٠٨/٨) وابن ماجه في اللباس (٣٥٧٦) والطبراني في الكبير (٣١١/١٢) وهذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه . قوله « والعمامة » إسبال العمامة يكون بإطالة عذبتها أي طرفها .
(٢) أي يرجعون إلى ما يظهر من صدره من الرأي الذي يرشدهم إليه .
(٣) صفة لله ﷻ .

(٤) أي عام شدة ومجاعة . وقال المنذري : السنة هي العام المقحط الذي لم تنبت الأرض شيئًا سواء نزل عليها الغيث أم لا .

(٥) القفر : الأرض الخالية من الأنيس التي لا ماء بها ولا ناس .

(٦) الفلاة : الأرض التي لا ماء فيها ، والجمع فلا ، وفلوات .

(٧) أي أوصني .

حُرًّا ، وَلَا عَبْدًا ، وَلَا بَعِيرًا ، وَلَا شَاةٌ « وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ^(١) ، وَأَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُتَبَسِّطٌ إِلَيْهِ وَجْهَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ . وَارْفَعْ لِرَأْسِكَ إِلَى نَصْفِ الشَّاقِ ، فَإِنْ أَتَيْتَ قَالِي الْكُفَّيْنِ ، وَإِنَّكَ وَإِسْبَالُ الْإِرَارِ ؛ فَإِنَّهَا مِنَ الْخِيَلَةِ ^(٢) ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْخِيَلَةَ ، وَإِنْ أَمَرُوا شَتَمَكَ وَعَبَّرَكَ بِمَا يَغْلَمُ فِيكَ فَلَا تُعَيِّرُهُ بِمَا تَغْلَمُ فِيهِ ، فَإِنَّمَا وَبَأَلُ ^(٣) ذَلِكَ عَلَيْهِ ^(٤) رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في (كتاب اللباس) ، عن جابر بن سليم رحمه الله أنه قدم المدينة فرأى رجلاً يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئاً إلا صدوراً عنه ؛ يعني أنهم يأخذون بما يقول وبما يوجه ، لأنه رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ، فسأل من هذا ؟ لأنه رجل لا يعرف النبي صلى الله عليه وآله قالوا : رسول الله ، فجاء إليه فقال : أنت رسول الله ؟ قال : نعم .

ولكنه قال : عليك السلام ؛ فقدم الخير فقال النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : « لا تقل : عليك السلام ؛ عليك السلام تحية الموتى ، ولكن قل : السلام عليك » ومعنى قوله - عليه الصلاة والسلام - : « عليك السلام تحية الموتى » ، يعني : أنهم كانوا في الجاهلية يسلمون على الأموات هكذا ، كما قال الشاعر :

عليك سلام الله قيس بن عامر ورحمته ما شاء أن يترحم

فكانوا في الجاهلية إذا سلموا على الأموات يقولون : عليك السلام ، لكن الإسلام نسخ هذا وصار السلام يقال لمن ابتدئ به ، السلام عليك ، حتى الموتى كان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يخرج إليهم إلى المقبرة يسلم عليهم فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، ولا يقول : عليكم السلام . وفي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « قل السلام عليك » دليل على أن الإنسان إذا سلم على الواحد يقول : السلام عليك ، وهكذا جاء أيضاً في حديث الرجل الذي يسمى المسيء في صلاته ، أنه جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وآله فقال : السلام عليك ^(٥) ؛ بالإنفراد ، وهذا هو الأفضل .

وقال بعض العلماء : تقول : السلام عليكم ، تريد بذلك أن تسلم على الإنسان الذي سلمت عليه ومن معه من الملائكة ، ولكن الذي وردت به السنة أولى وأحسن ؛ أن تقول : السلام عليك ، إلا إذا كانوا جماعة فإنك تسلم عليهم بلفظ السلام عليكم .

ثم إن النبي صلى الله عليه وآله يَرَى له أنه رسول رب العالمين الذي يكشف الضر ويجلب النفع ، فإذا ضاعت البعير في فلاة من الأرض فدعوت الله تعالى ردها عليك ، يقول : « وإذا أصابك سنة » يعني : جدباً

(١) أي لا تتركه احتقاراً له واستهانةً لقدره . (٢) أي النفوس ذوات الخيلاء .

(٣) أي ثقل .

(٤) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٨٤) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٢) .

(٥) سبق تخريجه .

في الأرض وعدم نبات ، « فدعوت الله كشفه عنك » أنبت الأرض لك ، وكذلك إذا أصابك الضر فدعوت الله كشفه عنك ، كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْمَعُ الْمُخْلَسَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٦٢] .

فبين له أنه - أي الرب ﷻ - يجلب لعباده الخير ، وأنه إذا دعاه عبده لم يخب ، وهكذا كل دعاء تدعو به ربك فإنك لا تخيب ، لو لم يأتك من هذا إلا أن الدعاء عبادة تؤجر عليه ؛ الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لكفى .

وإذا لم يكن هناك موانع تمنع إجابة الدعاء ، فإن الله تعالى إما أن يعطيك ما سألت وتراه رأي العين ؛ تدعو الله بالشيء فيحصل ، وإما أن يكشف عنك من الضر ما هو أعظم ، وإما أن يدخر ذلك لك عنده ، وإلا فلن يخيب من دعا الله ﷻ أبداً .

ولكن إياك أن تستبطئ الإجابة فتقول : دعوت ودعوت فلم يستجب لي ^(١) ؛ فإن الشيطان قد يلقي في قلبك هذا ويقول : كم دعوت الله من مرة وما جاءك مطلوب ؟ ثم يقنطك من رحمة الله والعياذ بالله ، وهذه من كبائر الذنوب ؛ القنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب .

ولا تقنط من رحمة الله ولو تأخرت إجابة الدعاء ، فأنت لا تدري ما هو الخير ؟ ما أمرك الله تعالى بالدعاء إلا وهو يريد أن يستجيب لك ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، لكنك تستعجل ، انتظر وألح على الله بالدعاء ، فربما أن الله ﷻ يؤخر إجابتك لأجل أن تكثر من الدعاء فتزداد حسناتك ، وتعرف قدر نفسك ، وتعرف قدر حاجتك إلى الله ﷻ ، فهذا خير .

فإياك أن تستعجل ، وألح على الله في الدعاء ، والله ﷻ يحب الملحين في الدعاء المبالغين فيه ، لأن الإنسان يدعو من إليه المنتهى ﷻ ، من ييده ملكوت كل شيء .

وسواء كان ذلك في صلاتك أو في خلواتك ، ادع الله بما شئت حتى وأنت تصلي ، ادع الله بما شئت لأن النبي ﷺ قال : « أما السجود فأكثرها فيه من الدعاء » ^(٢) وقال حين ذكر التشهد « ثم ليتخذ من الدعاء ما شاء » ^(٣) ، فليس للإنسان أحد سوى الله ، فليلجأ إليه في كل دقيق وجليل ، حتى إنه جاء في الحديث « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع » ^(٤) ، شراك النعل أدنى شيء يسأله الله ﷻ ، لأن السؤال عبادة والتجاء إلى الله ﷻ وإنابة إليه وارتباط به ﷻ ، يكون قلبك دائماً مع الله ﷻ ، فأكثر من الدعاء .

ثم إن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أمر جابر بن سليم ألا يحقرن من المعروف شيئاً ،

(١) انظر حديث رسول الله ﷺ في ذلك في صحيح مسلم في الذكر والدعاء (٩٠ ، ٩١ ، ٩٢) ، ومسند أحمد

(٣٩٦/٢) . (٢) انظر صحيح مسلم في الصلاة (٢٠٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٥) ، ومسلم في الصلاة (٥٨) .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (١١٧) .

كل معروف فعله سواء كان قولاً أو فعلاً أو جاعاً أو أي شيء لا تحقر شيئاً من المعروف ، فإن المعروف من الإحسان ، والله ﷻ يحب المحسنين .

فلو ساعدت إنساناً على تحميل متاعه في السيارة فهذا معروف ، لو أدنيت له شيئاً يحتاج إليه فهذا من المعروف ، لو أعطيته القلم يكتب به فهذا من المعروف ، لو أعطيته حافظة من أجل أن يحفظ بها شيئاً من الأشياء ، فهذا من المعروف ، أحسن فإن الله يحب المحسنين .

واعلم أن هناك قاعدة إذا ذكرها الإنسان سهّل عليه الإحسان ، وهي ما ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - من قوله : « ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » ^(١) ، وما ظنك إذا كان الله في حاجتك ؟ هل تتعثر الأمور ؟ الجواب : لا ، إذا كان الله في حاجتك يساعدك على حاجتك ويعينك عليها ، فلا شك أنها سوف تسهل ، فأنت كلما كنت في حاجة أخيك كان الله في حاجتك ، فأكثر من المعروف ، أكثر من الإحسان ، ولا تحقر شيئاً ولو كان قليلاً ، قال النبي ﷺ : « لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » ^(٢) ، أي لا تحقر ولو هذا الشيء القليل .

ثم قال النبي ﷺ لجابر بن سليم : « وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف » . لما قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً » يبيّن أن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق لا معبس ولا مكفهر ، بل يكون منبسطاً وذلك لأن هذا يدخل السرور على أخيك ، وكل ما أدخل السرور على أخيك فإنه معروف وإحسان ، والله يحب المحسنين ، وهذا لا شك أنه خير ، إلا أنه في بعض الأحيان قد يكون المرء الذي يخاطبك من المصلحة ألا تلقاه بوجه منبسط ؛ كأن يكون قد فعل شيئاً لا يحمد عليه ، فلا تلقه بوجه منبسط تعزيراً له ، لأجل أن يرتدع ويتأدب ، ولكل مقام مقال .

ثم إن النبي ﷺ أمره أن يرفع إزاره إلى نصف الساق ، فإن أتى فإلى الكعبين وهذا يدل على أن رفع الإزار إلى نصف الساق أفضل ، ولكن لا حرج أن ينزل إلى الكعبين وذلك لأن هذا من باب الرخصة ، وليس بلام أن يرفع الإنسان إزاره إلى نصف الساق أو يرى أن ذلك حتم عليه ، وأن الذي لا يرفع قد خالف السنة ، لأن الرسول ﷺ قال : « فإن أبيت فإلى الكعبين » فإن أبيت فعليك كذا وكذا من الوعيد فدل ذلك على أن الأمر في هذا واسع .

وقد مرّ علينا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : « إن أحد شقي إزاري يسترخي عليّ إلا أن تعاهده » ^(٣) .

وقلنا إن هذا يدل على أن إزار أبي بكر رضي الله عنه كان نازلاً عن نصف الساق ، وأن هذا لا بأس به ، فلا ينبغي للإنسان أن يشدد على نفسه أو على الناس ، بحيث يرى أنه لزام عليه أن يجعل سرواله أو ثوبه أو « مشلحه » إلى نصف الساق ، فالأمر في هذا واسع ، هو سنة ولكن مع ذلك الأمر فيه واسع والله الحمد بترخيص النبي ﷺ .

(١) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥١) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٧) ومسلم في الزكاة (١٠٣٠) .

(٣) سبق تخريجه .

ثم حذر النبي ﷺ جابر بن سليم من الخيلة ، يعني أن يختال في مشيته أو ثوبه أو عمامته أو (مثلحه) أو كلامه أو أي شيء يفعله خيلاء ، فإن الله لا يحب ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] ، فالإنسان ينبغي له أن يكون متواضعاً دائماً في لباسه ومشيته وهيبته وكل أحواله ، لأن من تواضع لله رفعه الله .

فهذه الآداب التي علمها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أمته ، ينبغي للإنسان أن يتأدب بها ، لأنه يحصل على أمرين :

أولاً : امتثال أمر النبي ﷺ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [النساء : ١٣] .

ثانياً : التحلي بحسن الخلق من خلال التأدب بهذه الآداب الراقية التي لا يستطيع أحد من البشر أن يوجه الناس إلى آداب مثلها أبداً ، لأن الآداب التي جاء بها الشرع هي خير الآداب .

ثم إن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعيه بما تعلم ، فإنما وبال ذلك عليه » وذلك أن الإنسان ينبغي له أن يعفو ويصفح ولا يجعل كل كلمة يسمعهامقياساً له في الحكم على الناس ، تغاض عن الشيء واعف واصفح ، فإن الله تعالى يحب العافين عن الناس ويثيبهم على ذلك ، وأنت إذا عيرته أو سببته بما تعلم فيه طال النزاع ، وربما حصل بذلك العداوة والبغضاء فإذا كفت وسكت هدأت الأمور .

وهذا شيء مجرب ؛ أن الإنسان إذا سابه أحدًا قد سبه طال السباب بينهما وحصل تفرق وتباغض ، وإذا سكت فإنه قد يكون أنفع ، كما قال الله تبارك وتعالى في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، يعني : قالوا قولاً يسلمون به ، إما أن يقولوا مثلاً : جزاك الله خيراً ، أعرض عن هذا ، اترك الكلام وما أشبه ذلك .

وقال ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ يعني ما عفى وسهل من أخلاق الناس ، ولا تُرد من الناس أن يكونوا على أكمل حال بالنسبة لك ، الناس ليسوا على هواك ، لكن خذ منهم ما عفى وما سهل ، وما صعب فلا تطلبه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الجاهل إذا سابك أو شتمك أو ما أشبه ذلك ، فأعرض عنه ، فإن هذا هو الخير وهو المصلحة والمنفعة .

٧٩٧ - وعن أبي هريرة ؓ قال : بينما رجل يُصلي مُسْبِلٌ لِرَازِهِ ، قال له رسول الله ﷺ : « اذْهَبْ فَتَوَضَّأْ » فَذَهَبَ فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ : « اذْهَبْ فَتَوَضَّأْ » فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا لَكَ أَمَرْتَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ ثُمَّ سَكَتَ عَنْهُ ؟ قَالَ : « إِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ مُسْبِلٌ لِرَازِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ رَجُلٍ مُسْبِلٍ » (١) . رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط مسلم .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٣٨) .

الشرح

في الأحاديث السابقة يَنْبَغِي النبي ﷺ أن من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه ، ولا يكلمه يوم القيامة ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، وأن ما أسفل من الكعبين ففي النار ، وبيننا أن هذا من كبائر الذنوب ، وأنه لا يحل للإنسان أن يلبس ثوباً نازلاً عن الكعب ، وأما ما كان على حذاء الكعب يعني على وزن الكعب فلا بأس به ، وكذلك ما ارتفع إلى نصف الساق ، فما بين نصف الساق إلى الكعب كله من الألبسة المرخص فيها .

والإنسان في حل وفي سعة إذا لبس إزاراً أو سروالاً أو قميصاً أو « مشلحاً » يكون فيما بين ذلك ، وأما ما نزل عن الكعب فحرام بكل حال ، بل هو من كبائر الذنوب .

ثم اختلف العلماء - رحمهم الله - فيما لو صلى الإنسان وهو مسبل ، يعني قد نزل ثوبه أو سرواله أو إزاره أو (مشلحه) الذي يستر ولا يشف ، اختلف في هذا أهل العلم ، هل تصح صلاته أو لا تصح ؟

فمن العلماء من قال : إنها لا تصح صلاته ؛ لأنه لبس ثوباً محرماً ، والله ﷻ إنما أباح لنا أن نلبس ما أحل لنا ، فإن قوله : ﴿ يَبْتَغِي مَادَمَ حُدُوا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١] يعني ثيابكم ، يريد بها ما أباح لنا وما أحله لنا ، وأما ما حرمه علينا فلسنا مأمورين به ، بل نحن منهيون عنه . واستدل الذين يقولون : إن الله لا يقبل صلاته إذا أسبل ، بهذا الحديث الذي ذكره المؤلف عن أبي هريرة ؛ أن النبي ﷺ رأى رجلاً مسبلاً فقال له النبي ﷺ : « اذهب فتوضأ » ، فذهب فتوضأ ، ثم رجع فقال : « اذهب فتوضأ » ، ثم سأل النبي ﷺ رجل فقال : يا رسول الله مالك أمرته أن يتوضأ ؟ قال : « إنه كان يصلي وهو مسبل إزاره ، وإن الله لا يقبل صلاة مسبل » . وهذا نص صريح في أن الله لا يقبل صلاة المسبل ؛ يعني فتكون صلاته فاسدة ، ويُلْزَم بإعادتها .

والمؤلف يقول رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط مسلم ولكن هذا فيه نظر ، فإن الحديث ضعيف لا يصح عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - .

والصحيح من أقوال العلماء : أن صلاة المسبل صحيحة ، ولكنه آثم ، ومثل ذلك أيضاً من لبس محرماً عليه ؛ كثوب سرقه الإنسان فصلى به ، أو ثوب فيه تصاوير ؛ فيه صليب مثلاً ، أو فيه صور حيوان ، فكل هذا يحرم لبسه في الصلاة ، وفي خارج الصلاة ، فإذا صلى الإنسان في مثل هذا فالصلاة صحيحة ، لكنه آثم بلبسه .

هذا هو القول الراجح في هذه المسألة ؛ لأن النهي هنا ليس نهياً خاصاً بالصلاة ، فلبس الثوب المحرم عام في الصلاة وغيرها ، فلا يختص بها فلا يطلها ، هذه هي القاعدة التي أخذ بها جمهور العلماء رحمهم الله ، وهي القاعدة الصحيحة .

وهذا الحديث لو صح لكان فاصلاً للنزاع ، لكنه ضعيف ، فمن ضعفه قال : صلاة المسبل

صحيحة ومن صححه قال : صلاة المسبل غير صحيحة ، وعلى كل حال فإن الإنسان يجب عليه أن يتقي الله ﷻ وألا يتخذ من نعمته وسيلة لغضبه - والعياذ بالله - فإن من بارز الله بالعصيان وقيل له : إن الثوب النازل عن الكعب حرام ومن كبائر الذنوب ولكنه لم يبال بهذا ، فهذا استعان بنعمة الله على معصية الله نسأل الله العافية .

* * *

٧٩٨ - وعن قيس بن بشر التُّغَلِيّ قال : أَخْبَرَنِي أَبِي - وكان جليسا لأبي الدرداء - قال : كان يَدْمِشَقُ رَجُلٌ من أصحاب النبي ﷺ يقال له سهل بن الحنظلية ، وكان رجلاً مُتَوَحِّداً ^(١) قَلَمًا يُجَالِسُ النَّاسَ ، إِنَّمَا هُوَ صَلَاةٌ ^(٢) ، فَإِذَا فَرَغَ فَإِنَّمَا هُوَ تَسْبِيحٌ وَتَكْبِيرٌ حَتَّى يَأْتِيَ أَهْلَهُ ، فَمَرُّ بَنَاتِنَا وَنَحْنُ عِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ : كَلِمَةٌ تَنْفَعُنَا وَلَا تَضُرُّكَ . قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَةً فَقَدِمَتْ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَلَسَ فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي يَجْلِسُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِهِ : لَوْ رَأَيْتَنَا حِينَ التَّقِيْنَا نَحْنُ وَالْعَدُوَّ ، فَحَمَلَ ^(٣) فَلَانٌ وَطَعَنَ ، فَقَالَ : خُذْهَا مِنِّي ، وَأَنَا الْعُلَامُ الْغِفَارِيُّ ، كَيْفَ تَرَى فِي قَوْلِهِ ؟ قَالَ : مَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ بَطَلَ أَجْرُهُ ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ آخَرُ فَقَالَ : مَا أَرَى بِذَلِكَ بَأْسًا ، فَتَنَازَعَا حَتَّى سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « سُبْحَانَ اللَّهِ ؟ لَا بَأْسَ أَنْ يُوجَرَ وَيُحْمَدَ » فَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ سُرَّ بِذَلِكَ ، وَجَعَلَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ : أَنْتَ سَمِعْتَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! فيقول : نَعَمْ . فَمَا زَالَ يَعِيدُ عَلَيْهِ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ لَيَبْرُكَنَّ عَلَى رَكْبَتَيْهِ .

قال : فَمَرُّ بَنَاتِنَا يَوْمًا آخَرَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ : كَلِمَةٌ تَنْفَعُنَا وَلَا تَضُرُّكَ ، قَالَ : قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمُتَّقِيُّ عَلَى الْخَلِيلِ كَالْبَاسِطِ يَدَهُ بِالصَّدَقَةِ لَا يَقْبِضُهَا » .

ثم مَرَّ بَنَاتِنَا يَوْمًا آخَرَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ : كَلِمَةٌ تَنْفَعُنَا وَلَا تَضُرُّكَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نِعَمَ الرَّجُلِ خَزِيمَ الْأَسَدِيِّ ! لَوْلَا طُولُ جُمُتَيْهِ وَإِسْبَالُ إِزَارِهِ ! » فَبَلَغَ خُرَيْمًا ، فَعَجَلَ ، فَأَخَذَ شَفْرَةً فَقَطَعَ بِهَا جُمَّتَهُ ^(٤) إِلَى أُذُنِهِ ، وَرَفَعَ إِزَارَهُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ .

ثم مَرَّ بَنَاتِنَا يَوْمًا آخَرَ فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ : كَلِمَةٌ تَنْفَعُنَا وَلَا تَضُرُّكَ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ ، فَأَصْلِحُوا رَحَالَكُمْ ^(٥) ، وَأَصْلِحُوا لِيَأْسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ

(١) أي يجب التوحد وهو الانفراد عن الناس .

(٢) أي ذو صلاة تشغله .

(٣) أي على شخص من العدو .

(٤) لولا طول جمته : الجملة الشعر إذا اطال حتى بلغ المنكبين وسقط عليها .

(٥) أي ما أنتم راكبون عليه .

شَامَةٌ فِي الثَّاسِ ^(١) ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ ^(٢) وَلَا التَّفَحُّشَ ^(٣) .

رواه أبو داود بإسناد حسن ، إلا قيس بن بشر ، فاختلّفوا في توثيقه وتضعيفه ، وقد روى له مسلم .

الشرح

في هذا الحديث الذي ذكره المؤلف في قصة ابن الحنظلية رضي الله عنه عبر وفوائد ، حيث كان رجلاً يحب التفرد ، ما هو إلا صلاة ثم تسبيح ثم في شأن أهله ، يعني أنه لا يحب أن يذهب عمره سُدىً مع الناس في القيل والقال والكلام الفارغ الذي ليس فيه فائدة ، يصلي ويسبح ويكون في أهله .

فمر ذات يوم بأبي الدرداء رضي الله عنه وهو جالس مع أصحابه ، فقال له أبو الدرداء رضي الله عنه : « كلمة تنفعنا ولا تضرك » يعني أعطنا كلمة أو قل لنا كلمة تنفعنا ولا تضرك ، فذكر ابن الحنظلية أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بعث سرية ثم قدمت السرية . والسرية يعني الجيش القليل ، أقل من أربعمائة نفر ^(٤) ، يذهبون يقاتلون الكفار إذا لم يسلموا ، فقدموا إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - فجلس أحدهم في المكان الذي يجلس فيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وجعل يتحدث عن السرية وما صنعت ، وذكر رجلاً رامياً يرمي ويقول : خذها وأنا الغلام الغفاري ؛ يفتخر . والحرب لا بأس أن الإنسان يفتخر فيها أمام العدو ، ولهذا جاز للإنسان في مقابلة الأعداء ، أن يمشي الخيلاء وأن يتبختر في مشيته ، وأن يضع على عمامته ريش النعام وما أشبه ذلك ، مما يعد مفخرة ، لأن هذا يغيظ الأعداء ، وكل شيء يغيظ الكفار فلك فيه أجر عند الله ، حتى الكلام الذي يغيظ الكافر ويذله هو عِزٌّ لك عند الله ﷻ أجر .

هذا الغلام الغفاري كان يفتخر ويقول : « خذها » يعني خذ الرمية « وأنا الغلام الغفاري » فقال بعض الحاضرين : بَطُلَ أَجْرُهُ ، لأنه افتخر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] . وهذا صحيح أن الله لا يحب كل مختال فخور إلا في الحرب ، فقال الآخر : لا بأس في ذلك . فصار بينهم كلام ، فخرج النبي ﷺ وهم يتنازعون فقال : « سبحان الله » يعني تنزيهاً لله ﷻ عن كل عيب ونقص ، لأن الله تعالى كامل الصفات من كل وجه ، ليس في علمه قصور ، ولا في قدرته

(١) المراد كونوا في أحسن هيئة وزى حتى تظهروا للناس ظهور الشامة في البدن .

(٢) أي لا يجب من تكون هيئته ولباسه وقوله فاحشاً ، ولا المتكلف الفحش الفاعل له .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٨٩) . قوله « متوحداً » أي يحب التوحد وهو الانفراد عن الناس ، قوله « إنما هو صلاة » أي ذو صلاة تشغله ، قوله « سرية » السرية قطعة من الجيش يعيها الإمام إلى العدو وسميت به ؛ لأنها تكون سراة العسكر أي خلاصته والنفيس منه ، وقيل : لسيرهم ليلاً ، قوله « فحمل » أي على شخص من العدو . قوله « لولا طول مجتمه » الشعر إذا طال متى بلغ المنكبين وسقط عليهما . قوله « رحالكم » أي ما أنتم راكبون عليه . قوله « كأنكم شامة في الناس » المراد كونوا في أحسن هيئة وزى حتى تظهروا للناس ظهور الشامة في البدن . قوله « لا يحب الفحش ولا التفحش » أي لا يجب من تكون هيئته ولباسه وقوله فاحشاً ، ولا المتكلف الفحش الفاعل له .

(٤) المعجم العربي الأساسي ص : ٦٢١ مادة سري .

قصور ، ولا في حكمته قصور ، ولا في عزته قصور ، كل صفاته جل وعلا كاملة من جميع الوجوه . قال : « سبحان الله » ؛ يعني كيف تتنازعون في هذا ؟ « لا بأس أن يُحمد ويؤجر » ، يعني يجمع الله له بين خيري الدين والدنيا ، يُحمد بأنه رجل شجاع رام ، وأنه يؤجر عند الله ﷻ ، فلا بأس في هذا . وكان عامر بن الأكوع ؓ لما لحق القوم في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يقول : خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع ^(١) ؛ فلا بأس أن يفخر الإنسان في حال الحرب بنفسه وقوته وعشيرته وما أشبه ذلك .

ومر ابن الحنظلية بأبي الدرداء يوماً آخر فقال له أبو الدرداء : « كلمة تنفعنا ولا تضرك » يعني علمنا كلمة تنفعنا ولا تضرك ، فأخبره أن النبي ﷺ قال : « المنفق على الخيل كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها » ، لأن الخيل في ذلك الوقت هي المركوب الذي يُركب به في الجهاد في سبيل الله ، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها ، فيكون الإنفاق على الخيل من الصدقات ، لأنها تستعمل في الجهاد في سبيل الله .

ثم مر به مرة أخرى فقال : « كلمة تنفعنا ولا تضرك » فأخبره أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أثنى على رجل إلا أنه قال : « لولا طول جمته وإسبال إزاره » ، الجملة : الشعر ؛ يعني أنه عنده شيء من الخيلاء .

هذا الرجل قد أطال شعره وأطال ثوبه ، فسمع الرجل بذلك فقص جمته حتى صارت إلى كتفه وقصر ثوبه .

وفي هذا دليل على أن طول الجملة - يعني الشعر للرجال - من الخيلة ، وأن الشعر للرجل لا يتجاوز الكنف أو شحمة الأذن أو ما أشبه ذلك ، لأن الذي يحتاج إلى التجميل بالرأس هي المرأة ، فإن المرأة هي التي تحتاج إلى التجميل ، وفي هذا إشارة إلى أن الرجال لا يجوز لهم أن يتشبهوا بالنساء في الشعر أو في غير الشعر ، لأن النبي ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال ^(٢) .

والله ﷻ جعل الذكور جنساً والإناث جنساً ، وأحل لكل واحد منهما ما يناسبه ، فلا يجوز أن يلحق الرجال بالنساء ، ولا أعلم أن أحداً من المسلمين ألحق النساء بالرجال في كل شيء . لكن الكفار الذين انتكسوا ونكس الله فطرتهم وطبيعتهم هم الذين يقدمون النساء ، ويقولون : لا بد أن تشارك المرأة الرجل حتى لا يحصل فرق ، ولا شك أن هذا خلاف الفطرة التي جبل الله عليها الخلق ، وخلاف الشريعة التي جاءت بها الرسل فالنساء لهن خصائص والرجال لهم خصائص . ثم إن الرجل سمع ذلك فقص جمته ، وفيه دليل على امتثال الصحابة ؓ لأمر النبي ﷺ واسترشادهم بإرشاده ، وأنهم كانوا يتسابقون إلى تنفيذ ما يقول ، وهذا علامة الإيمان .

(١) انظر ذلك بنصه في البخاري في المغازي (٤١٩٤) ، ومسلم في الجهاد (١٣٢) ، وأحمد في مسنده (٤٣١/٣) .

(٢) سبق تخريجه .

أما المتباطئ في تنفيذ أمر الله ورسوله ؛ فإن فيه شبهاً من المناققين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، تجده مثلاً يُخْبِرُ عن حكم الله ورسوله في شيء ، ثم يتباطأ ويتأقل وكأنما وضع على رأسه صخرة والعياذ بالله ، ثم يذهب إلى كل عالمٍ لعله يجد رخصة ، مع أن العلماء قالوا : إن تتبع الرخص من الفسق - والعياذ بالله - والمتبع للرخص فاسق ، حتى إن بعضهم قال : إن من تتبع الرخص فقد تزندق أي : صار زنديقاً .

فعلى الإنسان إذا بلغه أمر الله ورسوله من شخص يثق به في علمه وفي دينه ألا يتردد ، وأقول في علمه ودينه ؛ لأن من الناس من هو دين ملتزم متيق لكن ليس عنده علم ، تجده يحفظ حديثاً من أحاديث الرسول ثم يقول ويتكلم في الناس وكأنه إمام من الأئمة ، وهذا يجب الحذر منه ومن فتاواه ، لأنه قد يخطئ كثيراً لقلة علمه .

ومن الناس من يكون عنده علم واسع لكن له هوى - والعياذ بالله - يفتي الناس بما يرضي الناس لا بما يرضي الله ، وهذا يسمى عالم الأمة . فالعلماء ثلاثة أقسام : عالم ملة ، وعالم دولة ، وعالم أمة . أما عالم الملة : فهو الذي ينشر دين الإسلام ، ويفتي بدين الإسلام عن علم ، ولا ييالي بما دل عليه الشرع أو افق أهواء الناس أم لم يوافق ؟ .

وأما عالم الدولة : فهو الذي ينظر ماذا تريد الدولة فيفتي بما تريد الدولة ، ولو كان في ذلك تحريف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وأما عالم الأمة : فهو الذي ينظر ماذا يرضي الناس ، إذا رأى الناس على شيء أفتى بما يرضيهم ، ثم يحاول أن يُخَرِّفَ نصوص الكتاب والسنة من أجل موافقة أهواء الناس ، نسأل الله أن يجعلنا من علماء الملة العاملين بها .

فالمهم : أن الإنسان يجب عليه ألا يُغَرِّزَ بدينه وألا يغتر ، بل يكون مطمئناً حتى يجد من يثق به في علمه ودينه ويأخذ دينه منه . كما قال أحد السلف : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

فهذا العلم دين وطريق إلى الله ﷻ ، ثم إن هؤلاء المغرمين بالكفار وتقليدهم - والعياذ بالله - تجدهم يقلدون الكفار في الملابس ، فإذا جاءت هذه المجلات التي يسمونها البردة وغيرها اشتروها مباشرة وذهبوا بها إلى أهل البيت ، وقالوا : انظروا إلى هذه الملابس ، فتجد صوراً خلية وألبسة مخالفة للشرعية ، والنساء لقصرهن نظراً ونقصهن عقلاً ودينياً ، إذا رأت شيئاً يعجبها يمليه عليها هواها قالت لزوجها : أريد مثل هذا ، أو ذهبت بنفسها إلى الخياط ليصنع لها مثل هذه الألبسة الفاضحة ، فيصبح الشعب المسلم في زيّه كزي الشعب الكافر والعياذ بالله ، وهذه مسألة خطيرة قال ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » (١) .

ومن ذلك الآن ما تفعله النساء برؤوسهن ، كان النساء إلى عهد قريب تفرج المرأة إذا طال شعرها ، والخطاب إذا خطب امرأة كان يسأل عن شعرها أطويل هو أم قصير ؟ أما الآن فصار الأمر بالعكس ، المرأة تقص رأسها حتى يكون قريباً من رأس الرجل أو مثل الرجل ، نسأل الله العافية .

ثم بدأنا أيضًا يستعملن ما يسمى بالخنفسة ، تجد المرأة تقص سواها رأسها - مقدم الرأس - والباقي يبقى مقصراً مشرقاً ، كل هذا تقليد ، كل هذا بسبب الغفلة من الرجال عن النساء ، والواجب أن تكون رجلاً في بيتك ، رجلاً بمعنى الكلمة فلا تكون كأنك خشبة عند أهلك . إذا رأيت أهلك مقصرين في واجب لله ﷻ ثمهم به ، وإذا كان الشرع يجيز لك أن تضرب فاضرب ، إذا رأيتهم يخافون الشرع في شيء من الأمور الأخرى فألزمهم بالشرع ، لأنك مسئول أعطاك النبي ﷺ إمارة على أهلك « الرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته » ^(١) ؛ ما نصبتك فلان وفلان ، ما نصبتك أمير البلد ولا الوزير ولا الملك ولا غيره ، نصبتك محمد رسول الله ﷺ .

فأنت أمير في بيتك « الرجل راع في بيته ومسئول عن رعيته » ولم يقل : راع وسكت ، لو كان كذلك لهان الأمر ، لكن قال : « ومسئول عن رعيته » فانظر ماذا يكون جوابك إذا وقفت يوم القيامة بين يدي الله ، فعلينا أن نتنبه إلى هذه الأمور ، قبل أن يجترفنا السيل الجرار الذي لا يبقى ولا يذر والعياذ بالله ، ثم تنقلب عادتنا وأحوالنا كأحوال النصارى .

ثم ذكر في بقية الحديث أن النبي ﷺ أرشدكم إلى أن يخرج الرجل على وجه يرضي قال : « إنكم قادمون على إخوانكم » يعني فأصلحوا أحوالكم وأصلحوا ثيابكم ؛ لأنه من المعروف فيما سبق أن المسافر تكون ثيابه رثة ، ويكون شعره شعثاً ، ويكون عليه الغبار ، ليس الأمر كاليوم ، فالיום تسافر بالطائرات نظيفة ونزيهة وليس فيها شيء ، لكن فيما سبق كان الأمر على العكس من هذا ، فأمرهم أن يصلحوا أحوالهم ؛ يعني الشعر الشعث يُرَجَّل ويصلح ، وكذلك يتنظف الإنسان ويلبس الثياب التي ليست ثياب سفر ، حتى يلقي الناس دون أن يشمتوا منه .

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يلاحظ نفسه في هذه الأمور ولا يكون غافلاً ، حتى جمال الثياب ؛ فإنه لما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » قالوا : يا رسول الله كلنا يُحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « إن الله جميل يحب الجمال - يعني يحب التجميل - ليكن ثوبك حسناً ، ونعلك حسناً ، وهيتك حسنة » . « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبير بطر الحق وغمط الناس » ^(٢) ، « بطر الحق » يعني : رد الحق ؛ أن الإنسان يستكبر عن الحق ، يقال : هذا حق ؛ فيعرض والعياذ بالله « وغمط الناس » احتقارهم وازدراؤهم وألا يراهم شيئاً . قال رجل لابنه يابني كيف ترى الناس ؟ قال : أراهم

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٩) ، ومسلم في الإمارة (٢٠) ، والترمذي في السنن (١٧٠٥) ، وأحمد في مسنده (٥٤/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) وأحمد في مسنده (١٣٣/٤ ، ١٣٤) .

قال : أراهم ملوكًا . قال : هم يرونك كذلك . وقال آخر لابنه : كيف ترى الناس قال : لا أراهم شيئًا . قال : هم كذلك يرونك . يعني إذا رأيت الناس ملوكًا فهم يجعلونك ملكًا . ، وإذا لم ترهم شيئًا لا تكون أنت شيئًا عندهم ، فالناس ينظرون إليك بقدر ما تنظر إليهم .

٧٩٩ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إزره المسلم إلى نصف الساق ، ولا حرج - أو لا جناح - فيما بينه وبين الكعبين ، فما كان أسفل من الكعبين فهو في النار ، ومن جر إزاره بطرًا لم ينظر الله إليه » ^(١) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

٨٠٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : مررت على رسول الله ﷺ وفي إزاره اشتبخاء ، فقال : « يا عبد الله ، ارفع إزارك » فرفعته ، ثم قال : « زد » ، فزدت ، فما زلت أتحرها بعد . فقال بعض القوم : إلى أين ؟ فقال : إلى أنصاف الساقين ^(٢) . رواه مسلم .

٨٠١ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » فقالت أم سلمة : فكيف تصنع النساء بذنوبهن ؟ ، قال : « يرخين شبرًا » قالت : إذا تنكشفت أفدامهن . قال : « فيرخينه ذراعًا لا يردن » ^(٣) .

رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذه أحاديث ثلاثة ساقها النووي رحمته الله في (كتاب اللباس) ، منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « إزره المسلم إلى نصف الساق ، ولا جناح » أو قال « لا حرج فيما بينه وبين الكعبين ، وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار ، ومن جر إزاره بطرًا لم ينظر الله إليه » . فقسم النبي ﷺ طول القميص إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : السنة : إلى نصف الساق .

والقسم الثاني : الرخصة : وهو ما نزل من نصف الساق إلى الكعب .

والقسم الثالث : كبيرة من كبائر الذنوب : وهو ما نزل عن الكعبين ولكنه لم يكن بطرًا .

القسم الرابع : من جر ثوبه خيلاء أو بطرًا : وهو أشد من الذي قبله .

فصارت الأقسام أربعة : قسم هو السنة ، وقسم جائز ، وقسم محرم ؛ بل من كبائر الذنوب ،

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٣) قوله « إزره المؤمن » أي الهيئة المستحبة في اتزار المؤمن .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٤٧) والبيهقي في السنن (٢٤٤/٢) قوله : « فما زلت أتحرها » أي أقصدها .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١١٩) ، والترمذي في اللباس (١٧٣١) ، قوله « يرخين شبرًا » الشبر : ما بين

الخنصر والإبهام بالتفريج المعروف .

لكنه دون الذي بعده ، والقسم الرابع من جره خيلاء ، فإن الله تعالى لا ينظر إليه .
وفي هذا : دليل على أن من أنزل ثوبه ؛ إزارًا أو قميصًا أو سروالًا أو (مشلحًا) إلى أسفل من
الكعبين ؛ فإنه قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب ، سواء فعل ذلك خيلاء أو لغير الخيلاء ؛ لأن النبي ﷺ فرق
في هذا الحديث بين ما كان خيلاء وما لم يكن كذلك ، فالذي جعله خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة .
وإذا ضممتنا هذا الحديث إلى حديث أبي ذر السابق قلنا : لا ينظر الله إليه ، ولا يكلمه ، ولا
يزكّيه ، وله عذاب أليم (١) .

أما ما دون الكعبين ؛ فإنه يعاقب عليه بالنار فقط ، ولكن لا تحصل له العقوبات الأربع .
ثم ذكر حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن يرفع إزاره ، فرفعه ثم
قال : « زد » ثم قال : « زد » حتى قال رجل : إلى أين يا رسول الله ؟ قال : « إلى أنصاف الساقين »
يعني الزيادة إلى فوق لا تتجاوز نصف الساق من فوق ، لكنها من نصف الساق إلى الكعب كل هذا
جائز وكلما ارتفع إلى نصف الساق فهو أفضل .

وأما حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رخص للنساء أن يرخين ذيولهن يعني أسفل ثيابهن إلى
شبر ، فقالت : إذا تنكشف أقدامهن ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « فيرخينه ذراعًا لا يردن »
لأن المرأة قدمها عورة ، فإذا برز للناس ورأوه ؛ فإن ذلك قد يكون فيه فتنة ، فإذا نزلت ثوبها وجعلت
تمشي سترت قدمها .

وفي هذا دليل على وجوب تغطية الوجه ؛ لأنه إذا كانت القدم يجب سترها مع أن الفتنة فيها أقل
من الفتنة في الوجه ، فستر الوجه من باب أولى ، ولا يمكن للشرعية التي نزلت من لدن حكيم خبير
أن تقول للنساء يغطين أقدامهن ولا يغطين وجوههن ؛ لأن هذا تناقض ، بل هذا إعطاء للحكم في
شيء ، وحجب الحكم عن شيء أولى منه ، وهذا لا يتصور في الشريعة العادلة التي هي الميزان ، ولهذا
بجانب الصواب من قال من العلماء : إنه يجب أن تُستر القدمان ولا يجب أن يُستر الوجه والعينان .
هذا لا يمكن أبدًا ، والصواب الذي لا شك عندنا فيه ، أنه لا يحل للمرأة أن تكشف وجهها إلا
لزوجها أو محارمها .

١٢٠ - باب استحباب ترك الترفع في اللباس تواضعًا

قَدْ سَبَقَ فِي بَابِ فَضْلِ الْجُوعِ وَخُشُوعَةِ الْعَيْشِ جُمْلًا تَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْبَابِ
٨٠٢ - وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ تَرَكَ اللَّبَاسَ تَوَاضَعًا لِلَّهِ ، وَهُوَ

يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا ^(١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

* * *

١٢١ - بَابُ اسْتِحْبَابِ التَّوَسُّطِ فِي اللَّبَاسِ

ولا يقتصر على ما يزري به لغير حاجة ولا مقصود شرعي .

٨٠٣ - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عليه السلام قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

عقد المؤلف رحمته الله في (كتاب اللباس) هذين البابين :

الباب الأول : في استحباب ترك رفيع الثياب تواضعاً لله ﷻ .

والثاني : في التوسط في اللباس .

أما الأول : فعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « من ترك اللباس - يعني اللباس الجميل الطيب - تواضعاً لله ﷻ - وهو يقدر عليه ؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حُلل الإيمان شاء يلبسها » .

وهذا يعني أن الإنسان إذا كان بين أناس متوسطي الحال لا يستطيعون اللباس الرفيع فتواضع وصار يلبس مثلهم ؛ لئلا تنكسر قلوبهم ، ولئلا يفخر عليهم ؛ فإنه ينال هذا الأجر العظيم ، أما إذا كان بين أناس قد أنعم الله عليهم ويلبسون الثياب الرفيعة لكنها غير محرمة ، فإن الأفضل أن يلبس مثلهم ؛ لأن الله تعالى جميل يحب الجمال .

ولا شك أن الإنسان إذا كان بين أناس رفيعي الحال يلبسون الثياب الجميلة وليس دونهم ؛ فإن هذا يعد لباس شهرة ، فالإنسان ينظر ما تقتضيه الحال ، فإذا كان ترك رفيع الثياب تواضعاً لله ومواساة لمن كان حوله من الناس ، فإن له الأجر العظيم ، أما إذا كان بين أناس قد أغناهم الله ويلبسون الثياب الرفيعة ؛ فإنه يلبس مثلهم .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله الاقتصاد في اللباس ، وأن الإنسان يقتصد في جميع أحواله ؛ في لباسه ، وطعامه ، وشرابه و لكن لا يجحد النعمة ، فإن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، إذا

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨١) . قوله « حتى يخيره من أي حُلل الإيمان شاء » أي وينشر تشريفه بأنواع الشرف ، يخيره بين حُلل أهل الإيمان المتفاوتة المقام فيختار الأعلى ، ويرد من الفيوض المورداً الأدنى فينزل المكان الأعلى .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨١٩) ، وأحمد في مسنده (٢١٣/٢٥) ، والحاكم في المستدرک (١٣٥/٤) .

أنعم على عبده نعمة فإنه يحب أن يرى أثر هذه النعمة عليه . فإن كانت مالا ؛ فإنه يحب سبحانه وتعالى أن يرى أثر هذا المال على من أنعم الله عليه به بالإففاق ، والصدقات ، والمشاركة في الإحسان ، والثياب الجميلة اللائقة به وغير ذلك . وإذا أنعم الله على عبده بعلم ؛ فإنه يحب أن يرى أثر هذه النعمة عليه بالعمل بهذا العلم ، في العبادة وحسن المعاملة ، ونشر الدعوة ، وتعليم الناس وغير ذلك .

وكلما أنعم الله عليك نعمة فأر الله تعالى أثر هذه النعمة عليك ، فإن هذا من شكر النعمة . وأما من أنعم الله عليه بالمال وصار لا يرى عليه أثر النعمة ؛ يخرج إلى الناس بلباس رث وكأنه أفقر عباد الله ، فهذا في الحقيقة قد جحد نعمة الله عليه ، كيف ينعم الله عليك بالمال والخير وتخرج إلى الناس بثياب كلباس الفقراء أو أقل ، وكذلك ينعم الله عليك بالمال ثم تمسك ولا تنفق لا فيما أوجب الله عليك ، ولا فيما ندب لك أن تنفق فيه . ينعم الله عليك بالعلم فلا يرى أثر هذه النعمة عليك ، لا بزيادة عبادة أو خشوع أو حسن معاملة ، ولا بتعليم الناس ونشر العلم . كل هذا نوع من كتمان النعمة التي ينعم الله بها على العبد ، الإنسان كلما أنعم الله عليه بنعمة ؛ فإنه ينبغي أن يظهر أثر هذه النعمة عليه حتى لا يجحد نعمة الله .

* * *

١٢٢ - باب تحريم لباس الحرير على الرجال وتحريم جلوسهم عليه واستنادهم إليه وجواز لبسه للنساء

٨٠٤ - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ ، فَإِنَّ مَنْ لَبَسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ » ^(١) متفق عليه .

٨٠٥ - وعنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ » متفق عليه . وفي رواية للبخاري : « مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ » ^(٢) . قوله : « مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ » ، أي : لَا نَصِيبَ لَهُ .

٨٠٦ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ »

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٤) ، ومسلم في اللباس (١١) قوله : « لم يلبسه في الآخرة » قال الحافظ ابن حجر : بأن من يدخل الجنة من هؤلاء يعاقب بذلك في الجنة وذلك بأن يصرف الله نفسه عن طلبه ، لا أنه يحب ذلك ويمنع منه ؛ لأن ذلك يخالف تلك الدار من زيادة الإكرام ، ومثل ذلك في شارب الخمر الميت على غير توبة لا يشرب الخمر في الجنة .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٥) ومسلم في اللباس (٩) .

الآخِرَةَ (١) متفق عليه .

٨٠٧ - وعن عليٍّ عليه السلام قال : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ حَرِيرًا ، فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ ، وَذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي » (٢) .

رواه أبو داود بإسناد حسن .

٨٠٨ - وعن أبي موسى الأشعري عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال : « حَرَّمَ لِبَاسُ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي ، وَأَجَلَ لِلنِّسَاءِ » (٣) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح

٨٠٩ - وعن حذيفة عليه السلام قال : نَهَانَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَشْرَبَ فِي آتِنَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا ، وَعَنْ لُبَيْسِ الْحَرِيرِ وَالذِّيَّاجِ ، وَأَنْ نَجْلِسَ عَلَيْهِ (٤) . رواه البخاري .

الشرح

باب تحريم الحرير على الرجال وافتراشه والاستناد إليه ، هذه ثلاثة أمور : لباس الحرير ، وافتراشه ، والاستناد إليه ، وقد جزم المؤلف بأن هذا حرام على الرجال ، وذلك للأحاديث التي أوردها عن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأنس بن مالك ، وأبي موسى الأشعري ، وحذيفة بن اليمان عليه السلام ، وكلها تدل على تحريم لباس الذهب ، وعلى تحريم لباس الحرير للرجال .

وفي حديث عمر بن الخطاب عليه السلام : أنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، يعني إذا لبس الرجل حريرًا في الدنيا ؛ فإنه لا يلبسه في الآخرة ، وهذا وعيد يدل على أن لباس الحرير للرجال من كبائر الذنوب ؛ لأن فيه الوعيد في الآخرة ، وكل ذنب فيه وعيد الآخرة فهو كبيرة من كبائر الذنوب عند أهل العلم ، ولا فرق بين أن يكون قميصًا أو سراويل أو غترة أو طاقية أو غير ذلك مما يلبس ، كل هذا حرام على الرجال إذا كان من الحرير ، ولا يجوز للرجال أن يلبسوا شيئًا من الحرير لا قليلًا ولا كثيرًا .

وفي حديث عليٍّ : أن النبي ﷺ أخذ ذهبًا وحريرًا بيديه وقال : « هذان حرام على ذكور أمتي حلٌّ لِنِائِهَا » والحكمة في ذلك : أن المرأة محتاجة إلى التجميل لزوجها ، فأُبيح لها الذهب والحرير . وأما الرجل فليس في حاجة إلى ذلك ، فلهذا حُرِّمَ عليه لبس الذهب والحرير .

وفي حديث عمر بن الخطاب عليه السلام : أنه « إنما يلبسه من لا خلاق له في الآخرة » ، يعني من لا

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٢) ، ومسلم في اللباس (٢١ ، ٢٢) وأحمد في مسنده ٢٦/١ ، ٢٣/٣ ، (١٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٥/١) ، وأبو داود في اللباس (٤٠٥٧) والنسائي في السنن (١٦٠/٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في اللباس (١٧٢٠) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٧) قوله « الذِّيَّاجِ » هو نوع من الحرير .

نصيب له في الآخرة ، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان إذا لبس الحرير في الدنيا ؛ فإنه لا يدخل الجنة والعياذ بالله ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال : « لا خلاق له في الآخرة » أي لا نصيب له . وقال أيضًا : « من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . وهذا يعني أنه لا يدخل الجنة ، ولكن قال بعض العلماء : إنه يدخلها ، ولكن لا يتمتع بلباس الحرير مع أن أهل الجنة لباسهم فيها حرير ، وإنما يلبس شيئاً آخر وهذا ما لم يتب ، فإن تاب من ذنوبه فإن التائب من الذنب يغفر الله له ذنبه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَكْبَادُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وهذا في الحرير الطبيعي الذي يخرج من دود القز ، وأما الحرير الصناعي فليس حراماً ، لكن لا ينبغي للرجل أن يلبسه لما فيه من الميوعة والتنزل بحال الرجل الذي ينبغي أن يكون فيها خشتاً ، يلبس ثياب الرجولة لا ثياب النعومة .

لكن الفائدة من قولنا : إن الحرير الصناعي ليس حراماً ، يعني لو لبس طاقية من الحرير الصناعي أو سروالاً لا يُرى ، فهذا لا بأس به ، وأما القميص والغترة ؛ فلا ينبغي وإن كان حلالاً ، لا ينبغي أن يلبسه الرجل لما فيه من الميوعة والتدني ، ولأن الجاهل إذا رآه يظنه حريراً طبعياً ، فيظن أن ذلك سائغ للرجال وربما يقتدي به ، والسلامة أسلم للإنسان .

وكذلك الذهب ؛ فإنه محرم على الرجال حلال للنساء ؛ لأنهن يحتجن إلى التجميل لأزواجهن . وأما « الدبلة » من الذهب ؛ فهي حرام على الرجل لاشك ، وأما المرأة فإن قارن ذلك عقيدة ، كاعتقادها أنها تحببها إلى زوجها - فهي حرام ، وإن كان بدون عقيدة فهي خاتم من الخواتم .

١٢٣ - باب جواز لبس الحرير لمن به حكة

٨١٠ - عن أنس رضي الله عنه قال : رَخَّصَ رسول الله ﷺ ، للزَّيْبِرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه في لَبْسِ الْحَرِيرِ ؛ لِحَكَّةٍ بِهِمَا ^(١) . متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٩) ، ومسلم في اللباس (٢٥) .

١٢٤ - باب النَّهْيِ عَنِ اقْتِرَاشِ جُلُودِ النَّمُورِ وَالرَّكُوبِ عَلَيْهَا

٨١١ - عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَزُكُّبُوا الْحُرَّ وَلَا النَّمَارَ » ^(١) .

حديث حسن ، رواه أبو داود وغيره بإسناد حسن .

٨١٢ - وَعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ جُلُودِ السَّبَاعِ ^(٢) . رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي بأسانيد ضحاح . وفي رواية الترمذي : نَهَى عَنْ جُلُودِ السَّبَاعِ أَنْ تُقْتَرَشَ .

١٢٥ - باب ما يقول إذا لبس ثوبا جديدا

٨١٣ - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَبَجَدَ ثَوْبًا سَمَاءَ بِاسْمِهِ - عِمَامَةً ، أَوْ قَمِيصًا ، أَوْ رِدَاءً - يَقُولُ : « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِي ، أَنْشَأْتَ لَكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ » ^(٣) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

١٢٦ - باب استحباب الابتداء باليمين في اللباس

هذا الباب قد تقم مقصوده وذكرنا الأحاديث الصحيح فيه .

الشرح

هذه الأبواب التي ذكرها المؤلف هي آخر أبواب (كتاب اللباس) في (كتاب رياض الصالحين) .
فالباب الأول : جواز لبس الحرير لمن به حكمة . وقد سبق أن النبي ﷺ نهى الرجال عن لبس الحرير وقال : « إِنَّمَا يَلْبَسُهُ مَنْ لَا خِلَاقَ لَهُ » ^(٤) وقال : « مَنْ لَبَسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ » ^(٥) .
لكن إذا دعت الحاجة إلى ذلك فإنه لا بأس به ، مثل أن يكون في الإنسان حكمة ، يعني حساسية واحتياج إلى لبس الحرير ؛ فإنه يلبسه ويكون مما يلي الجسد ؛ لأن الحرير لين وناعم وبارد يناسب الحكمة فيطفئها ؛ ولهذا رخص النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزيبر أن يلبسا الحرير من حكمة كانت بهما .

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١٢٩) ، وأحمد في مسنده (٩٣/٤) . قوله : « وَلَا النَّمَارَ » : النمار جمع نمر . وهنا نهى عن استعمال جلوده ؛ لما فيها من الزينة والخلاء ، ولأنها زي الأعاجم . والنهي هنا شامل للمذكى وغيره ولأنه يحرم أكله ، وقد يكون النهي ؛ لأن الدباغ لا يؤثر فيها ويبقى عليها بعض من الشعر .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١٣٢) ، والترمذي في اللباس (١٧٧٠) ، والنسائي في السنن (١٧٦/٧) .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٠) ، والترمذي في اللباس (١٧٦٧) .

(٤ ، ٥) سبق تخريجه .

كذلك أيضًا إذا كان الحرير أربعة أصابع فأقل^(١) ، يعني عرضه أربعة أصابع فأقل ؛ فإنه لا بأس به ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رخص في ذلك ، يعني مثلًا : لو كان إنسان عنده جبة وفي فتحتها خيوط من الحرير أو تطريزًا من الحرير لا يتجاوز أربعة أصابع ، فإن ذلك لا بأس به . وكذلك إذا كان الثوب مختلطًا بين الحرير والقطن ، أو بين الحرير والصوف ، وكان الأكثر الصوف أو القطن ، يعني أكثر من الحرير ، فإنه لا بأس به ، فهذه ثلاثة أمور .

الأمر الرابع : إذا كان في الحرب ، يعني التقى الصفان بين المسلمين والكفار ، فلا بأس أن يلبس الإنسان ثياب الحرير ؛ لأن ذلك يغيظ الكفار ، وكل شيء يغيظ الكفار فإنه مطلوب . فهذه أربعة أشياء تستثنى :

الأول : إذا كان حاجة كالحكمة ، ويكون مما يلي الجسد . والحكمة في ذلك واضحة .

الثاني : إذا كان أربعة أصابع فأقل .

والثالث : إذا كان مختلطًا والأكثر ظهورًا سوى الحرير .

والرابع : في الحرب من أجل إغاية الكفار .

فهذه المواضع الأربعة لا بأس فيها من الحرير .

أما الباب الثاني : فهو لباس جلود النمار . والتمار جمع نمر ؛ وهو حيوان معروف ، فلا يجوز للإنسان أن يلبس فروًا من جلود النمار ، وكذلك لا يجوز للإنسان أن يلبس فروًا من جلود السباع ، كما يدل عليه الحديث الآخر ؛ لأن جلود السباع نجسة ، كل السباع نجسة ، وأخبثها الكلب ؛ لأن نجاسة الكلب مغلظة ، لا يكفي فيها إلا الغسل سبع مرات إحداهما بالتراب^(٢) ، أما ما سواه من السباع فهو نجس ، لكن ليس بهذه الغلظة .

وعلى كل حال فجلود الذئب ، وجلود النمر ، وأي جلود أخرى ، حرام كجلد الأسد مثلاً يحرم لبسها ، وكذلك يحرم اقتراشها ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن ذلك ، يعني لو جعلتها مقاعد تجلس عليها فإن ذلك حرام .

أما جلود الضأن ، وجلود ما تحله الذكاة ، فلا بأس أن يفترشها الإنسان ، ولا بأس أن يلبسها أيضًا ؛ لأنها طاهرة . والظاهر لا بأس باستعماله .

وأما الباب الثالث : فهو ما يقوله الإنسان إذا لبس ثوبًا جديدًا ، ولا شك أن الإنسان لا يملك لنفسه نقعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ، ولا شك أن ما نأكله ونشربه ونلبسه من نعمة الله ﷻ ، وأنه هو

(١) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٢٨) النسائي في السنن (١٦٣/٨) ، وأحمد في مسنده (٩٢/٤ ، ٩٦) ، والترمذي في اللباس (١٧٢١) .

(٢) وذلك لما أخرجه مسلم في الطهارة (٩٣) ، وأبو داود في الطهارة (٧٣) ، والنسائي في السنن (٥٤/١) وابن ماجه في الطهارة (٣٦٤) .

الذي خلقه لنا ، ولولا أن الله يسره ما تيسر ، لو شاء الله تعالى لفقد المال من بين أيدينا فلم نستطع أن نحصل شيئاً ، ولو شاء الله لوجد المال بيننا لكن لا نجد شيئاً نطمعه أو نلبسه أو نشربه ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلٍّ مَّعِينٍ ﴾ ^(١) [الملك : ٣٠] .

فكل ما بنا من نعمة الله وحده ومن ذلك اللباس و فإذا من الله عليك بلباس جديد ؛ قميص أو سروال أو غترة أو مشلح أو نحوها ولبستها ، فقل « اللهم لك الحمد أنت كسوتني » وتسميه باسمه ، اللهم لك الحمد أنت كسوتني هذا القميص ، أنت كسوتني هذا السروال ، أنت كسوتني هذه الغترة ، أنت كسوتني هذه الطاقية ، أنت كسوتني هذا المشلح ، أي شيء تلبسه وهو جديد فاحمد الله قل : « اللهم لك الحمد أنت كسوتني » أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له . فربما يكون هذا سبب شر عليك ، ربما تأكل النار طرفه ثم تتقد حتى تشمل هذا اللباس ، وتقضي عليك أنت أيضاً ، ربما تكون فيه أشياء سامية ما تعلم عنها شيئاً ، فالحمد أنك تقول : « اللهم إني أعوذ بك من شره وشر ما صنع له » لأنه قد يصنع ويكون سبباً للشر ؛ كأن يحمل صاحبه على الكبر والترفع على الناس ، أو قد يكون سبباً للفتنة وهي من أعظم الشر والفساد ، كذلك الأكبسة التي تتفنن النساء في صنعها مضاهاة لغيرهن من نساء الغرب الكافرات .

* * *

كتاب آداب النوم

١٣٧ - باب آداب النوم والاضطجاع والقعود والجلوس والجليس والرؤيا

٨١٤ - عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَامَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ، ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ ، وَقَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، وَرَغَبْتُ وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجِيَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » ^(١) .

رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الأدب من صحيحه .

(١) قوله ﴿ غَوْرًا ﴾ أي غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء ، قوله ﴿ مَّعِينٍ ﴾ أي جار أو ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٥) وأحمد في مسنده (٢٩٦/٤) بنحوه . قوله « أوى إلى فراشه » أي انضم إليه . قوله : « اللهم أسلمت نفسي إليك » أي تركتها مسلمة إليك من غير تعرض مني لما يرد إليها منك . ولكن صادقاً عند إرادة ذلك بقلبه . قوله : « ووجهت وجهي » أي ذاتي ، وكنت عن الذات بالوجه ؛ لأنه أشرف ما في الإنسان ؛ فهو محل الصورة التي بها تمايز الأشكال والجمال ، قوله : « وألجأت ظهري إليك » أي أرجعته إليك ، فجعلته راجعاً بين يديك فلا ملجأ منك إلا إليك . قوله : « رغبة ورهبة » أي طمعاً في ثوابك وخوفاً من عقابك .

٨١٥ - وعنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ، وَقُلْ ... » وَذَكَرَ نَحْوَهُ ، وَفِيهِ : « وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

عقد المؤلف ﷺ كتاباً في آداب النوم والجلوس والجليس ، وغير ذلك مما يحتاج إليه الإنسان في حياته ، وهذا يدل على أن هذا الكتاب - أعني رياض الصالحين - كتاب شامل عام ينبغي لكل مسلم أن يقتنيه وأن يقرأه وأن يفهم ما فيه .

فذكر المؤلف ﷺ آداب النوم ، والنوم من آيات الله ﷻ الدالة على كمال قدرته ورحمته وحكمته ، قال تعالى : ﴿ وَمِن مَّآيِنِهِ مَتَاعُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنفَعَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [الزمر: ٢٣] وهو نعمة من الله تعالى على العبد ؛ لأنه يستريح فيه من تعب سابق ، وينشط فيه لعمل لاحق ، فهو ينفع الإنسان فيما مضى وفيما يستقبل ، وهو من كمال الحياة الدنيا ؛ وذلك لأن الدنيا ناقصة ، فتكمل بالنوم لأجل الراحة . لكنه نقص من وجه آخر بالنسبة للقيوم ﷻ وهو الله ، فإن الله تعالى ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لكمال حياته فهو لا يحتاج إلى النوم ، ولا يحتاج إلى شيء ، وهو الغني الحميد ﷻ .

لكن الإنسان في هذه الحياة الدنيا بشر ناقص يحتاج إلى تكميل ، والنوم عبارة عن أن الله سبحانه وتعالى يقبض النفس حين النوم ، لكنه ليس القبض التام الذي تحصل به المفارقة التامة ، ولذلك تجد الإنسان حيّاً ميتاً في الحقيقة لا يحس بما عنده ؛ لا يسمع قولاً ، ولا يصر شخصاً ، ولا يشم رائحة ، ولكن لم تخرج نفسه من بدنه الخروج الكامل . قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ وهذه الوفاة الكبرى ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ يوفّاها في منامها ﴿ فَيَمْسُكُ أَلْسِنَ قَضْنِ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ وهي الأولى ﴿ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَجَ ﴾ وهي النائمة ، يعني يطلقها ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢] ، لأن كل شيء عند الله تعالى بمقدار ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، كل فعله جل وعلا حكمة في غاية الإتقان .

فهذا النوم من آيات الله ﷻ ، تأتي القوم مثلاً في حجرة أو في سطح أو في بر ، وهم نيام كأنهم جثث موتى لا يشعرون بشيء ، ثم هؤلاء القوم يبعثهم الله ﷻ ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم ^(٢) بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٠] .

ثم إن الإنسان يعتبر بالنوم اعتباراً آخر وهو إحياء الأموات بعد الموت ، فإن القادر على رد الروح حتى يصحو الإنسان ويستيقظ ويعمل عمله في الدنيا ، قادر على أن يبعث الأموات من قبورهم ، وهو على كل شيء قدير .

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١١) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ مَا جَرَحْتُم ﴾ : أي ما كسبتم بالجوارح من الخير والشر .

ومن آداب النوم : أن ينام الإنسان على الشق الأيمن ؛ لأن هذا فعل النبي ﷺ وأمره ، فالبراء بن عازب رضي الله عنه روى أن النبي ﷺ كان يضطجع على شقه الأيمن ^(١) ، والنبي ﷺ أمر البراء بن عازب أن ينام على شقه الأيمن ، هذا هو الأفضل ، سواء كانت القبلة خلفك أو أمامك أو عن يمينك أو عن شمالك ، النوم على الشق الأيمن هو المهم لأمر النبي ﷺ به .

بعض الناس اعتاد أن ينام على الجانب الأيسر ولو نام على الأيمن ربما لا يأتيه النوم ، لكن عليه أن يعود نفسه ؛ لأن المسألة ليست بالأمر الهين ، ثبت من فعل الرسول ﷺ وأمره ، فأنت إذا نمت على الجانب الأيمن تشعر بأنك متبع للرسول - عليه الصلاة والسلام - حيث كان ينام على جنبه الأيمن ، وممثل لأمره حيث أمر به - عليه الصلاة والسلام - . فعود نفسك وجاهدها على ذلك يوماً أو يومين أو أسبوعاً حتى تستطيع النوم وأنت ممثلة لسنة نبيك ﷺ .

ومن السنن أيضاً : إذا تيسر أن تضع يدك اليمنى تحت خدك الأيمن ^(٢) ، لأن هذا ثبت من فعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فإن تيسر لك ذلك فهو جيد وأفضل ، وإن لم يتيسر فليس هو بالتأكيد كممثل النوم على الجانب الأيمن .

ومن ذلك أيضاً : أن تقول هذا الذكر الذي قاله النبي ﷺ وأمر به : « اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت » . واجعل هذا آخر ما تقول يعني بعد الأذكار مثل : « اللهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ^(٣) » . وما أشبه ذلك . المهم اجعل هذا الذكر الذي علمه النبي ﷺ البراء بن عازب آخر ما تقول .

وقد أمر النبي ﷺ البراء بن عازب أن يعيد عليه هذا الذكر ، فأعاده لكن قال : وبرسولك الذي أرسلت ، فقال له النبي ﷺ : « لا ، قل : ونبيك الذي أرسلت ، ولا تقل وبرسولك » .

قال أهل العلم : وذلك لأن الرسول يطلق على الرسول البشري والرسول الملكي (جبريل) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [التكوير : ١٩ ، ٢٠] .

و (النبي) ؛ للنبي البشري ، وأنت إذا قلت : نبيك الذي أرسلت ، جمعت بين الشهادة للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالنبوة والرسالة ، فكان هذا اللفظ أولى من قولك : وبرسولك الذي أرسلت ؛ لأنك لو قلت : وبرسولك الذي أرسلت ؛ يمكن أن يكون جبريل عليه السلام ؛ لأن جبريل رسول أرسله الله إلى الأنبياء بالوحي .

(١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٠٠/١) .

(٢) انظر ذلك فيما أخرجه النسائي في السنن (٢٠٣/٤ ، ٢٠٤) ، وأحمد في مسنده (٢٨٨/٦٥) :

(٣) أخرجه الدارمي في السنن (٢٩٠/٢) بلفظه ، ونحوه البخاري في التوحيد (٧٣٩٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٦٤) .

فينبغي عليكم أن تحفظوا هذا الذكر ، وأن تقولوه إذا اضطجعتم على فرشكم ، وأن تجعلوه آخر ما تقولون امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، واتباعاً لسنة هديه . هذه من آداب النوم . ومن حكمة الله ﷻ ورحمته أنك لا تكاد تجد فعلاً للإنسان إلا وجدته مقروناً بذكر ؛ اللباس له ذكر ، الأكل له ذكر ، الشرب له ذكر ، النوم له ذكر ، حتى جماع الرجل لامرأته له ذكر ، كل شيء له ذكر . وذلك من أجل ألا يغفل الإنسان عن ذكر الله ، يكون ذكر الله على قلبه دائماً ، وعلى لسانه دائماً ، وهذه من نعمة الله التي نسأل الله تعالى أن يرزقنا شكرها ، وأن يعيننا عليها .

٨١٦ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَجِيءَ الْمُؤَذِّنُ فَيُؤَذِّنُهُ (١) . متفق عليه .

٨١٧ - وعن حذيفة رضي الله عنه قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأُحْيَا » وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » (٢) رواه البخاري .

الشرح

هذه من الأحاديث التي ساقها النووي رحمه الله في (كتاب آداب النوم) ، وقد سبق أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمر البراء بن عازب أن يضطجع على جنبه الأيمن ، وأن يقول : « اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ... » إلى آخر الحديث ويثاب أن السنة والأفضل أن ينام الإنسان على جنبه الأيمن .

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه : أنه ينبغي أن يضع الإنسان يده تحت خده . ومعلوم أنها اليد اليمنى تكون تحت الخد الأيمن ، وهذا ليس على سبيل الوجوب ، ولكن على سبيل الأفضلية ، فإن تيسر لك هذا وإلا فالأمر واسع والله الحمد .

فكان النبي ﷺ يضع يده تحت خده ويقول : « باسمك اللهم أَمُوتُ وَأُحْيَا » يعني أنني أَمُوتُ وَأُحْيَا بإرادة الله ﷻ ، والمراد بالموت هنا والله أعلم : موت النوم ، لأن النوم يسمى وفاة ، أو أنه الموت الأكبر الذي هو مفارقة الروح للبدن ، ويكون كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ سَأَلْتُمْ عَمَلِي وَنَحْيَايَ وَمَمَاتِي لَرَبِّي أَعْلَمُ بِمَا كُنْتُ فَعَلْتُ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

وإذا قام قال : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » وهذا يؤيد أن المراد بالموت في

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٠) واللفظ له ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٢٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٤) . قوله : « بعد ما أماتنا » أي أماتنا . قوله : « النشور » أي الرجوع .

قوله : « باسمك اللهم أموت وأحيا » : يعني موت النوم ، وهو الموت الأصغر .

أما حديث عائشة رضي الله عنها : فقد أخرج أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة ، وهذا أكثر ما كان يصلي ؛ إما إحدى عشرة ، وإما ثلاثة عشر ، وقد ينقص عن ذلك ، حسب ما تكون حاله - عليه الصلاة والسلام - من النشاط وعدم النشاط .

ثم كان إذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين وهما سنة الفجر ، فإن السنة أن يخففها ، فيقرأ في الأولى ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وفي الثانية ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(١) ، أو في الأولى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] إلى آخر الآية في سورة البقرة ، وفي الثانية ﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ^(٢) في آل عمران .

والهمم : أن يخففهما ؛ فيخفف الركوع والسجود والقيام والقعود ، لكن بشرط ألا يخل بالطمأنينة ، لأنه لو أحل بالطمأنينة لفسدت ، ثم يضطجع على جنبه الأيمن - عليه الصلاة والسلام - بعد أن يصلي الركعتين سنة الفجر ، يضطجع على الجانب الأيمن حتى يؤذنه ، يعني حتى يعلمه بأن وقت الإقامة قد جاء ، فيخرج ويصلي .

ففي هذا الحديث فوائد :

منها : أن من نعمة الله ﷻ أن أطلعنا على ما كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعمل في السر في الليل بواسطة زوجاته رضي الله عنهن ، وهذا من الحكمة في كثرة تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ فإنه مات عن تسع نسوة ، ومن فوائد ذلك : أن كل امرأة منهن تأتي بسنة لا يطلع عليها إلا هي .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في الليل إحدى عشرة ركعة ، وكان يطيل القيام - عليه الصلاة والسلام - كان يقوم إذا انتصف الليل ، وأحياناً بعد ذلك حسب نشاطه ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا قام من نصف الليل ينام في آخر الليل ، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث آخر ، وإلا صلى إلى الفجر إذا تأخر ، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين ، ثم اضطجع على جنبه الأيمن .

وفيه دليل : على أنه يُسن تخفيف ركعتي الفجر كما فعل النبي - عليه الصلاة والسلام - وفيه : أن الأفضل للإمام ألا يحضر إلى المسجد إلا عند إقامة الصلاة ، وأن يجعل صلاة الرواتب في بيته ، كما كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يفعل ، أما المأموم فإنه يتقدم ، لكن الإمام لما كان يُنتظر ولا ينتظر كانت السنة أن يتأخر في بيته حتى يصلي النوافل المشروعة ثم يأتي .

وفيه دليل على استحباب الاضطجاع على الجانب الأيمن بعد سنة الفجر لمن تطوع في بيته كما فعل النبي - عليه الصلاة والسلام - واختلف العلماء رحمهم الله في هذه الضجعة :

فمنهم من قال : إنها سنة بكل حال . ومنهم من قال : إنها ليست بسنة إلا إذا كان الإنسان

(١) انظر في ذلك ما أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والدارمي في السنن (٤٦/٢) .

(٢) أخرج ذلك مسلم في صلاة المسافرين (٩٩ ، ١٠٠) .

صاحب صلاة في آخر الليل ، فإنه يضطجع ليعطي بدنه شيئاً من الراحة .

ومنهم من شدد فيها حتى جعلها بعض العلماء من شروط صلاة الفجر ، وقال : من لم يضطجع بعد السنة فلا صلاة له ، لكن هذا قول شاذ ، وإنما ذكرناه لنين لكم أن بعض العلماء يأتون بأقوال شاذة بعيدة من الصواب .

والصواب أنها سنة لمن كان له تهجد من الليل وصلاة وطول قيام فهذا يضطجع حتى يؤذن بالصلاة وهذا في حق الإمام ظاهر ، أما المأموم فإنه ربما لو اضطجع يقيمون الصلاة ، فيفوته شيء منها وهو لا يشعر ، لأن المأموم ينتظر ولا ينتظر ، لكن الإمام هو الذي ينتظره الناس ، فإذا اضطجع بعد سنة الفجر في بيته ، فإن هذا من السنة إذا كان ممن يجتهد في التهجد ، أما من لا يقوم إلا متأخراً أو لا يقوم إلا مع أذان الفجر فهذا لا حاجة إلى أن يضطجع بعد سنة الفجر .

٨١٨ - وعن يعيش بن طخفة الغفاري رضي الله عنه قال : قال أبي : نِيَمَةُ أَنَا مُضْطَجِعٌ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى بَطْنِي إِذَا رَجُلٌ يُحَرِّكُنِي بِرَجْلِهِ فَقَالَ : « إِنْ هَذِهِ ضِجَّةٌ يَبْغِضُهَا اللَّهُ » قَالَ : فَتَنَظَّرْتُ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . (١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

٨١٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ ، كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِزَةٌ ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ ، كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِزَةٌ » (٢) رواه أبو داود بإسناد حسن . « التِّزَةُ » بكسر التاء المثناة من فوق ، وهي : النقص ، وقيل : التبعة .

الشرح

هذه بقية الأحاديث الواردة في آداب النوم والاضطجاع ، ذكر فيها المؤلف حديث يعيش بن طخفة الغفاري أنه قال : حدثني أبي أنه كان نائماً في المسجد على بطنه ، فإذا رجل يركضه برجله ويقول : « إِنْ هَذِهِ ضِجَّةٌ يَبْغِضُهَا اللَّهُ ﷻ » فنظرت فإذا رسول الله ﷺ .

ففي هذا الحديث دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن ينام على بطنه لا سيما في الأماكن التي يغشاها الناس ؛ لأن الناس إذا رأوه على هذه الحال فهي رؤية مكروهة ، لكن إذا كان في الإنسان وجع في بطنه وأراد أن ينام على هذه الكيفية لأنها أريح له ، فإن هذا لا بأس به ، لأن هذه حاجة . وفي هذا : دليل على جواز ركض الإنسان بالرجل يعني : نخسه برجله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فعل ذلك وهو أشد الناس تواضعاً ، ولا يعد هذا من الكبر اللهم إلا أن يكون في قلب

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٤٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٠/٣) طخفة بالخاء المعجمة ويقال : طهفة بالخاء وطهفة بالغين المعجمة ورجح البخاري في الأوسط طخفة .
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٦) .

الإنسان شيء من كبر فهذا شيء آخر ، لكن مجرد أن تركض الرجل برجلك لا يعتبر هذا كبراً ، إلا أنه ينبغي مراعاة الأحوال إذا كنت تخشى أن الرجل الذي تركضه برجلك يرى أنك مستهين به ، وأنت محتقر له فلا تفعل ، لأن الشيء المباح إذا ترتب عليه محذور فإنه يمنع .

ثم ذكر حديث أبي هريرة في الرجل يجلس مجلساً لا يذكر الله فيه ، أو يضطجع مضطجاً لا يذكر الله فيه ، كان عليه من الله ترة .

والتره يعني الخسارة ؛ أن تجلس مجلساً لا تذكر الله فيه فهذا خسارة ؛ لأنك لم تربح فيه . وفيه دليل : على أنه ينبغي للإنسان أن يكثر من ذكر الله ؛ قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وكذلك إذا اضطجعت مضطجاً لم تذكر اسم الله فيه فإنه يكون عليك من الله ترة أي خسارة .

فأكثر من ذكر الله دائماً وأبداً ، كن كمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاتِّخَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿ آل عمران ١٩٠-١٩١ ﴾ ، لتكون ممثلاً لقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴾ ﴿ وَسَيُحْمِلُهُمْ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ^(١) [الأحزاب : ٤١-٤٢] . أعاننا الله على ذكره وشكره وحسن عبادته .

١٢٨ - باب جواز الاستلقاء على القفا ووضع إحدى الرجلين على الأخرى

إذا لم يخف انكشاف العورة وجواز القعود متربعا ومحتبياً

٨٢٠ - عن عبد الله بن يزيد ؓ أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمَسْجِدِ ، وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ^(١) . متفق عليه .

٨٢١ - وعن جابر بن سمرة ؓ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى الْفَجْرَ تَرَبَّعَ فِي مَجْلِسِهِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسَنَاءَ ^(٢) . حديث صحيح ، رواه أبو داود وغيره بأسانيد صحيحة .

٨٢٢ - وعن ابن عمر ؓ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَفْتَاءُ الْكَفْبَةَ مُحْتَبِيًا بِيَدَيْهِ هَكَذَا . وَوَصَفَ بِيَدَيْهِ الْاِخْتِيَاءَ ، وَهُوَ الْقَرْفُصَاءُ ^(٣) . رواه البخاري .

(١) قوله تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ لأدلة على قدرة الله وصدق رسوله . قوله تعالى : ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ لأصحاب العقول . قوله تعالى : ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٧٥) واللفظ له ، والبخاري في اللباس (٥٩٦٩) . قوله : ﴿ مُسْتَلْقِيًا ﴾ أي نائماً على ظهره . (٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٠) واللفظ ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٧) . قوله ﴿ تَرَبَّعَ ﴾ في مجلسه ، أي جلس متربعا في محل صلاته يذكر الله تعالى ، قوله : ﴿ حَسَنَاءَ ﴾ أي يضاء .

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٧٢) قوله ﴿ مُحْتَبِيًا ﴾ الاحتباء الجلوس على الألية وضم الفخذين والساقين إلى البطن بالذراعين للاستناد .

- ٨٢٣ - وعن قَيْلَةَ بِنْتِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنها قالت : رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ قَاعِدٌ الْقَرْفَصَاءَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمُتَخَشَّعَ فِي الْجُلُوسَةِ أَرَعَدْتُ مِنَ الْفَرْقِ ^(١) . رواه أبو داود ، والترمذي .
- ٨٢٤ - وعن الشَّرِيدِ بْنِ سُؤَيْدٍ رضي الله عنه قال : مَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا جَالِسٌ هَكَذَا ، وَقَدْ وَضَعْتُ يَدَيَّ الْيُسْرَى خَلْفَ ظَهْرِي ، وَاتَّكَأْتُ عَلَى أَلْيَةِ يَدِي فَقَالَ : « أَتَقْعُدُ قَعْدَةَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ۚ » ^(٢) . رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

الشرح

هذا الباب الذي عقده النووي رحمته الله في بيان النوم على الظهر ، وقد سبق أن الأفضل لمن أراد أن ينام ، أن ينام على الجنب الأيمن ، وسبق ذكرنا أن النوم على البطن لا ينبغي إلا لحاجة .

وبقي النوم على الظهر وهو لا بأس به بشرط أن يأمن انكشاف العورة ، فإن كان يخشى من انكشاف عورته ، بحيث يرفع إحدى رجليه فيرتفع الإزار وليس عليه سراويل ؛ فإنه لا ينبغي ، لكن إذا أمن من انكشاف العورة ؛ فإن ذلك لا بأس به .

وبقي شيء رابع وهو النوم على الجنب الأيسر ، فهذا أيضاً لا بأس به ، فالنوم على الظهر لا بأس به ، والنوم على الجنب الأيسر لا بأس به ، والنوم على الجنب الأيمن أفضل ، والنوم منبطحاً لا ينبغي إلا لحاجة .

أما القعود : فإن جميع أنواع القعود لا بأس بها ؛ فلا بأس أن يقعد الإنسان متربّعاً ، ولا بأس أن يجلس وهو محتبي القرفصاء ؛ يعني يقيم فخذه وساقه ، ويجعل يديه مضمومتين على الساقين ، هذا أيضاً لا بأس به ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قعد هذه القعدة .

ولا يكره من الجلوس إلا ما وصفه النبي ﷺ بأنه قعدة المغضوب عليهم ، بأن يجعل يده اليسرى من خلف ظهره ويجعل بطن الكف على الأرض ويتكى عليها ، فإن هذه القعدة وصفها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنها قعدة المغضوب عليهم .

أما لو وضع اليدين كليهما من وراء ظهره واتكأ عليهما فلا بأس ولو وضع اليد اليمنى فلا بأس ، إنما التي وصفها النبي - عليه الصلاة والسلام - بأنها قعدة المغضوب عليهم ؛ أن يجعل اليد اليسرى من خلف ظهره ويجعل باطنها - أي أليتها - على الأرض ، ويتكى عليها ، فهذه هي التي وصفها النبي ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٧) ، قوله : « القرفصاء » أن يجلس على أليته ويلصق فخذه بيطنه ويحتبي يديه يضعهما على ساقه ، أو يجلس على ركبتيه متكباً ويلصق بطنه بفخذه ويتأبط كفيه ، قوله : « المتخشع » المتذل الخبت . قوله : « أرعدت » أي اضطربت . قوله : « من الفرق » أي من الخوف .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٨) ، وأحمد في مسنده (٣٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٢٣٦/٣) قوله : « على ألية يدي » ألية اليد : اللحمة التي في أصل الإبهام - والمسماة بألية الإبهام - وما يقابله من أصل الخنصر والذي يسمى بالضرة . قوله « قعدة » اسم لبيان الهيئة . قوله « المغضوب عليهم » وهم اليهود كما هو قول جمهور المفسرين في تفسير آخر الفاتحة .

١٢٩ - باب آداب المجلس والجلوس

٨٢٥ - عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقيمَنَّ أحدُكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا وتفشحوا » وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه ^(١) . متفق عليه .

٨٢٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قام أحدُكم من مجلس ، ثم رجع إليه ، فهو أحقُّ به » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في (باب آداب المجلس والجلوس) ، هذا الباب عقده المؤلف رحمته الله لبيان الآداب التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان في مجالسه ، ومع جلسيه .

وقد ذكر الله تعالى في كتابه شيئاً من آداب المجالس ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : ١١] . والشرعية الإسلامية شريعة شاملة لكل ما يحتاج الناس إليه في دينهم ودنياهم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] وقال أبو ذر رضي الله عنه : لقد توفي رسول الله عليه وعلى آله وسلم ، وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً ^(٣) .

ولهذا تجد الشريعة بينت مسائل الدين المهمة الكبيرة ، كالوحدانية وما يتصل به من العقيدة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وما كان دون ذلك من آداب النوم ، والأكل ، والشرب ، والمجالس .

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يقيمَنَّ أحدُكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفشحوا » يعني إذا دخلت مكاناً ووجدت المكان ممتلئاً ، فلا تقل : يا فلان قم ثم تجلس في مكانه ، ولكن إذا كنت لا بد أن تجلس ، فقل : تفشحوا توسعوا ، فإذا تفشحوا وتوسعوا ؛ فإن الله تعالى يوسع لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

أما أن تقيم الرجل وتجلس مكانه فإن هذا لا يجوز ، حتى في مجالس الصلاة ؛ لو رأيت إنساناً في الصف الأول فإنه لا يحل لك أن تقول له : قم ، ثم تجلس في مكانه ، حتى لو كان صبيّاً لكنه

(١) أخرجه مسلم بلفظه في السلام (٢٨) ، والبخاري بنحوه في الاستئذان (٦٢٦٩ ، ٦٢٧٠) ، قوله : « توسعوا » أي تكلفوا التوسع للقدام . قوله : « وتفشحوا » بمعنى توسعوا والعطف هنا تفسيري .

(٢) أخرجه مسلم في السلام (٣١) ، وأحمد في مسنده (٢٨٣/٢) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧١٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٥) .

يصلي ، فإنه لا يحل لك أن تقيمه من مكانه وتصلي فيه ؛ لأن الحديث عام ، والصبي لابد أن يصلي مع الناس ، ويكون في مكانه الذي يكون فيه .

وأما قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لينبي منكم أولو الأحلام والنهي » (١) فهو أمر للبالغين العقلاء أن يتقدموا حتى يلوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وليس نهياً أن يكون الصغار قريبين منه ، ولو كان أراد ذلك لقال ﷺ : لا يلني إلا أولو الأحلام والنهي ، أما إذا أمر أن يليه أولو الأحلام والنهي ، فالمعنى أنه يحثهم على التقدم حتى يكونوا وراء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يلونه ويفهمون عنه شريعته وينقلونها إلى الناس .

وكان ابن عمر رضيهما الله عنهما من ورعه إذا قام أحد له وقال له : اجلس في مكاني . لا يجلس فيه ، كل هذا من الورع ، يخشى أن هذا الذي قال قام خجلاً وحياءً من ابن عمر ، ومعلوم أن الذي يهدي إليك أو يعطيك شيئاً خجلاً وحياءً أنك لا تقبل منه ؛ لأن هذا كالمكره ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله : يحرم قبول الهدية إذا علمت أنه أهداك حياءً أو خجلاً .

ومن ذلك أيضاً إذا مررت ببيت وفيه صاحبه وقال : تفضل ، وانت تعرف أنه إنما قال ذلك حياءً وخجلاً فلا تدخل عليه ؛ لأن هذا يكون كالمكره .

هذه من آداب الجلوس التي شرعها النبي ﷺ لأمته ؛ ألا يقيم الرجل أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه .

٨٢٧ - وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ ، جَلَسَ أَحَدُنَا حَيْثُ يَنْتَهِي . (٢)

رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

٨٢٨ - وعن أبي عبد الله سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ ، وَيَدْهَنُ مِنْ ذَهَبِهِ ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبٍ يَبِيتُهُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى » (٣) رواه البخاري .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٢٥) ، والترمذي في الاستعذان (٢٧٢٥) ، قوله : « جلس أحدنا حيث ينتهي » سواء كان ذلك في صدر المجلس أو أسفله . وقد جاء أنه ﷺ كان يجلس حيث ينتهي به المجلس .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٣) قوله : « فلا يفرق بين اثنين » قال الزبيدي المنير : التفرقة بين اثنين يتناول القعود بينهما وإخراج أحدهما والقعود مكانه ، وقد يطلق على مجرد التخطي ، وفي التخطي زيادة رفع رجله على رعوها أو أكتافها ، وربما تعلق بشياهما شيء مما برجله ، واستثنى من كراهة التخطي ما إذا كان في الصفوف الأول فرجة فأراد الداخل سدهما ، فيتفرق له ؛ لتقصيرهم .

الشرح

هذان الحديثان نقلهما النووي رحمته الله في (باب آداب المجلس والجلس) ، فمن آداب المجلس : أن الإنسان إذا دخل على جماعة يجلس حيث ينتهي به المجلس ، هكذا كان فعل النبي ﷺ ، وفعل الصحابة إذا أتوا مجلس النبي ﷺ ، يعني : لا يتقدم إلى صدر المجلس إلا إذا أثره أحد بمكانه ، أو كان قد ترك له مكان في صدر المجلس فلا بأس .

وأما أن يشق المجلس وكأنه يقول للناس : ابتعدوا وأجلس أنا في صدر المجلس ، فهذا خلاف هدي النبي ﷺ وهدي أصحابه رضي الله عنهم ، وهو يدل على أن الإنسان عنده شيء من الكبرياء والإعجاب بالنفس . ثم إن كان الرجل صاحب خير وتذكير وعلم ؛ فإن مكانه الذي هو فيه سيكون هو صدر المجلس ، فسوف يتجه الناس إليه إن تكلم ، أو يسألونه إذا أرادوا سؤاله ، ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا دخل المجلس جلس حيث ينتهي به ، ثم يكون المكان الذي هو فيه الرسول ﷺ هو صدر المجلس .

وهكذا أيضًا ينبغي للإنسان إذا دخل المجلس ورأى الناس قد بقوا في أماكنهم ؛ فليجلس حيث ينتهي به المجلس ، ثم إن كان من عامة الناس فهذا مكانه ، وإن كان من خاصة الناس ؛ فإن الناس سوف يتجهون إليه ويكون مكانه هو صدر المجلس .

كذلك أيضًا من آداب المجلس : ألا يفرق بين اثنين ^(١) يعني لا يجلس بينهما فيضيق عليهما ، فإن النبي ﷺ ذكر الرجل يتطهر في بيته يوم الجمعة ويدهن ويأخذ من طيب أهله ، ثم يأتي إلى الجمعة ولا يفرق بين اثنين ، ويصلي ما كتب له حتى يحضر الإمام ؛ فإنه يغفر له ما بين الجمعة والجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام ؛ فدل ذلك على أنه يجب على الإنسان في يوم الجمعة أن يتطهر ، والمراد بذلك الاغتسال ؛ لأن غسل الجمعة واجب ويأثم من لم يغتسل إلا لضرورة ^(٢) ، لأن النبي ﷺ قال : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » ^(٣) ، يعني على كل بالغ ، فكل بالغ يأتي إلى الجمعة ؛ فإنه يجب

(١) انظر صحيح البخاري في الجمعة (٩١١) .

(٢) قال الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية أن غسل يوم الجمعة ليس واجباً ، وقال بذلك أيضًا الثوري والأوزاعي وابن المنذر ، قال ابن عبد البر في هذا : أجمع علماء المسلمين قديماً وحديثاً على أن غسل الجمعة ليس بفرض ، وحكي عن أحمد رواية قديماً وحديثاً على أن غسل يوم الجمعة ليس بفرض ، وحكي عنه رواية أخرى أنه واجب ، وروى ذلك عن أبي هريرة وهو قول أهل الظاهر ؛ إذا قالوا : الغسل واجب يوم الجمعة لليوم لا للصلاة ، والصحيح أن الغسل يوم الجمعة سنة لا فرض ؛ فله بذلك حكم سائر الندوبات ، وهو قول جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ودليل ذلك قوله ﷺ « من توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت ، ومن اغتسل بالغسل أفضل » (انظر : المغني ٣٤٦/٢ ، المجموع ٥٣٥/٤ ، بداية المجتهد ١٤٢/١ ، بدائع الصنائع ٢٦٩/١ ، المحلى ٧٥/٥ ، ٧٦ ، فقه الكتاب والسنة ٢٩٢٩/٣ ، ٢٩٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٩) ومسلم في الجمعة (٧) وابن ماجه في السنن (١٠٨٩) وأحمد في مسنده (٦٠/٣) .

عليه أن يغتسل إلا أن يخاف ضررًا أو لا يجد ماءً ، كما لو مرَّ مثلاً بقرية وهو مسافر ، وأراد أن يصلي الجمعة معهم ولم يجد مكانًا يغتسل فيه ، فهذا يسقط عنه لقوله تعالى : ﴿ لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَشَعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

كذلك أيضًا مما يسن في هذا اليوم : أن يدهن ^(١) ، وذلك إذا كان له شعر رأس ، فإنه يدهن رأسه ويصلحه حتى يكون على أجمل حال .

ومن ذلك أيضًا : أن يلبس أحسن ثيابه ^(٢) . ومن ذلك أيضًا : أن يتسوك ، يخصصها بسواك الجمعة وليس السواك العادي ، ولهذا لو أن الإنسان استعمل يوم الجمعة الفرشاة التي تطهر الفم لكان هذا حسنًا وجيدًا .

ومن ذلك : أن يتقدم إلى المسجد ، فإن من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، ومن أتى بعد دخول الإمام فليس له أجر التقدم ، ولكن له أجر الجمعة ^(٣) ، لكن أجر التقدم حرم منه . وكثير من الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية - ليس لهم شغل في يوم الجمعة ، ومع ذلك تجده يقعد في بيته أو في سوقه بدون أي حاجة وبدون أي سبب ، ولكن الشيطان يبطئه من أجل أن يفوت عليه هذا الأجر العظيم ، فبادر من حين تطلع الشمس ، واغتسل وتنظف ، والبس أحسن الثياب ، وتطيب ، وتقدم إلى المسجد ، وصل ما شاء الله ، واقرأ القرآن إلى أن يحضر الإمام .

وكذلك أيضًا من آداب الجمعة : ألا يفرق بين اثنين ^(٤) ، يعني لا تأتي بين اثنين تدخل بينهما وتضييق عليهما ، أما لو كان هناك فرجة ؛ فهذا ليس بتفريق ؛ لأن هذين الاثنين هما اللذان تفرقا ، لكن أن تجد اثنين متراصين ليس بينهما مكان لجالس ثم تجلس بينهما !! هذا من الإيذاء ، وقد رأى النبي ﷺ رجلًا يتخطى الرقاب يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب ، فقال له : « اجلس فقد آذيت » ^(٥) ، كل هذه من آداب الحضور إلى الجمعة .

٨٢٩ - وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا » رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

(١) انظر صحيح البخاري في الجمعة (٨٨٠ ، ٨٨٣) .

(٢) انظر صحيح البخاري في الجمعة (٨٨٦) .

(٣) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨١) .

(٤) انظر صحيح البخاري في الجمعة (٩١٠) .

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة (١١١٨) ، وابن ماجه في السنن (١١١٥) ، والنسائي في السنن (١٠٣/٣) .

وفي رواية لأبي داود : « لَا يُجْلَسُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا » ^(١) .

٨٣٠ - وعن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ جَلَسَ وَسَطَ الْحَلْقَةِ . رواه أبو داود بإسناد حسن .

وروى الترمذي عن أبي مِجَلَزٍ : أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ وَسَطَ حَلْقَةٍ ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ : مَلْعُونٌ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ - أَوْ : لَعَنَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ - مَنْ جَلَسَ وَسَطَ الْحَلْقَةِ ^(٢) . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

٨٣١ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « خَيْرُ الْمَجَالِسِ أَوْسَعُهَا » ^(٣) .

رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري .

٨٣٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ ، فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَآتُوبُ إِلَيْكَ ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

ومن آداب المجالس : ما ذكره المؤلف عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا » . يعني : إذا جئت ووجدت شخصين جلس أحدهما إلى جنب الآخر فلا تفرق بينهما ، إلا إذا أذن لك في هذا ، إما إذنًا باللسان ، يعني إذا قال أحدهما : تعال اجلس هنا ، أو بالفعل ؛ بأن يتفرق بعضهما عن بعض ؛ إشارة إلى أنك تجلس بينهما ، وإلا فلا تفرق بينهما ؛ لأن هذا من سوء الأدب إن قلت : تنفسح ، ومن الأذية إن جلست وضيقت عليهما . ومن الآداب أيضًا : أن يجلس الإنسان حيث انتهى به المجلس كما سبق ، فلا يجوز للإنسان أن يجلس وسط الحلقة ، يعني إذا رأيت جماعة متحلقين سواء كانوا متحلقين على من يعلمهم ، أو على من يتكلم معهم ، المهم إذا كانوا حلقة فلا تجلس في وسط الحلقة ؛ وذلك لأنك تحول بينهم وبين من معهم ، ثم إنهم لا يرضون في الغالب أن يجلس أحد في الحلقة يتقدم عليهم ، فيكون في ذلك عدوان عليهم وعلى حقوقهم ، إلا إذا أذنوا لك ، بأن وقفت مثلاً وكان المكان ضيقاً وقالوا : تفضل اجلس هنا فلا حرج ، أما بدون إذن ، فإن حذيفة بن اليمان أخبر بأن النبي صلى الله عليه وآله وعلى آله وسلم

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٥) ، وأحمد في مسنده ٢/٢١٣ ، والترمذي في الأدب (٢٧٥٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٢٦) ، والترمذي في الأدب (٢٧٥٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٢٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢/٤٩٤ ، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٣) قوله : « فكثر فيه لغظه » المراد : كثر كلامه بما لا ينفعه آخره . قوله : « سبحانك » أي تنزيهاً لك عما لا يليق بجلالك .

« لعن من جلس في وسط الحلقة » .

كذلك أيضًا من آداب المجالس : أن الإنسان إذا جلس مجلسًا فكثّر فيه لفظه ، فإنه يكفره أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » قبل أن يقوم من مجلسه ، فإذا قال ذلك ؛ فإن هذا يحرم ما كان منه من لفظ ، وعليه فيستحب أن يُختم المجلس الذي كثر فيه اللفظ بهذا الدعاء : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

ومما ينبغي في المجالس أيضًا أن تكون واسعة ، فإن سعة المجالس من خير المجالس كما قال ﷺ : « خير المجالس أوسعها » ؛ لأنها إذا كانت واسعة حملت أناسًا كثيرين ، وصار فيها انشراح وسعة صدر ، وهذا على حسب الحال ، قد يكون بعض الناس محجّر بيته ضيقة ، لكن إذا أمكنت السعة فهو أحسن ؛ لأنه يحمل أناسًا كثيرين ، ولأنه أشرح للصدر .

٨٣٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِأَخْرَجَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » فقال رجل : يا رسول الله ، إِنَّكَ تَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتُ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى ؟ قال : « ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ » (١) رواه أبو داود .

ورواه الحاكم أبو عبد الله في « المستدرک » من رواية عائشة رضي الله عنها وقال : صحيح الإسناد

الشرح

سبق أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « من جلس مجلسًا فكثّر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذاك » . وفي حديث أبي هريرة الذي وصله المؤلف بالحديث السابق دليل على أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يفعله ، وبين أن هذا كفارة المجلس ، وقلمًا يجلس الإنسان مجلسًا إلا ويحصل له فيه شيء من اللفظ ، أو من اللغو ، أو من ضياع الوقت ، فيحسن أن يقول ذلك كلما قام من مجلسه ؛ « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » حتى يكون كفارة للمجلس .

أما الحديث الآخر عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قلما كان يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات : « اللهم اقسم لنا من خشيتك » وذكر تمام الحديث ؛ فهذا سيأتي الكلام عليه إن شاء الله في موضع آخر .

والمقصود بهذا أن الرسول ﷺ كان يقول ذلك في أكثر أحيانه ، ولكن هل هو في كل مجلس حتى مجالس الوعظ ومجالس الذكر ؟ في هذا نظر ، وابن عمر رضي الله عنهما لا يتابع النبي ﷺ في كل

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٩) والحاكم في المستدرک (٥٣٧/١) قوله : « بأخرة » أي في آخر جلوسه ، ويجوز أن يكون في آخر عمره .

مجلس ، بل قد يفوته بعض المجالس ، فإن قال الإنسان هذا الذكر في أثناء المجلس ، أو في أوله أو في آخره ؛ حصل بذلك السنة التي كان النبي ﷺ يفعلها .

٨٣٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يذعو بهؤلاء الدعوات : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصُرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

نقل الإمام النووي رحمته الله في (باب آداب المجلس والجلس) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان قلما يقوم من مجلس إلا ويقول : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك » اقسام : بمعنى قدر ، والخشية : هي الخوف المقرون بالعلم ، لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وقوله : « ما تحول به بيننا وبين معصيتك » ؛ لأن الإنسان كلما خشي الله ﻋﻠﻴﻚ ، منعت خشيته من الله أن ينتهك محارم الله ، ولهذا قال : « ما تحول به بيننا وبين معصيتك » .

ثم قال : « ومن طاعتك » يعني : واقسم لنا من طاعتك « ما تبلغنا به جنتك » فإن الجنة طريقها طاعة الله ﻋﻠﻴﻚ ، فإذا وفق العبد لخشية الله واجتناب محارمه والقيام بطاعته نجا من النار بخوفه ودخل الجنة بطاعته . « ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » . واليقين : هو أعلى درجات الإيمان ، لأنه إيمان لا شك معه ولا تردد ، تتيقن ما غاب عنك كما تشاهد ما حضر بين يديك . فإذا كان عند الإنسان يقين تام بما أخبر الله تعالى به من أمور الغيب ، فيما يتعلق بالله ﻋﻠﻴﻚ ، أو بأسمائه ، أو صفاته ، أو اليوم الآخر ، أو غير ذلك ، وصار ما أخبر الله به من الغيب عنده بمنزلة المشاهد ؛ فهذا هو كمال اليقين .

وقوله : « ما تهون به علينا مصائب الدنيا » لأن الدنيا فيها مصائب كثيرة ، لكن هذه المصائب إذا كان عند الإنسان يقين أنه يكفر بها من سيئاته ، ويرفع بها من درجاته ، إذا صبر واحتسب الأجر من الله ؛ هانت عليه المصائب ، وسهلت عليه المحن مهما عظمت ، سواء كانت في بدنه ، أو في أهله ، أو في ماله ، ما دام عنده اليقين التام ؛ فإنها تهون عليه المصائب . « ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا » تسأل الله تعالى أن يمتنعك بهذه الحواس : السمع والبصر والقوة ما دمت حيًا ؛ لأن الإنسان إذا متع بهذه الحواس حصل على خير كثير ، وإذا افتقد هذه الحواس فاته خير كثير ، لكن لا يلام عليه

إذا كان لا يقدر عليها . « واجعله الوارث منا » يعني اجعل تمتعنا بهذه الأمور (السمع ، والبصر ، والقوة) الوارث منا ، يعني اجعله يمتد إلى آخر حياتنا حتي يبقى بعدنا ويكون كالوارث لنا ، وهو كناية عن استمرار هذه القوات إلى الموت . « واجعل ثأرنا على من ظلمنا » يعني اجعلنا نستأثر ، ويكون لنا الأثرة على من ظلمنا ، بحيث تقتص لنا منه ، إما بأشياء تصيبه في الدنيا أو في الآخرة ، ولا حرج على الإنسان أن يدعو على ظالمه بقدر ظلمه ، وإذا دعا على ظالم بقدر ما ظلمه فهذا إنصاف ، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعوة المظلوم .

قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاد وقد بعثه إلى اليمن وبين له ما يدعوهم إليه ، فقال : « فإن أجابوك لذلك » أي للصدقة من أموالهم « فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (١) ؛ لأن الله تعالى حكم عدل ينتقم من الظالم إذا رفع المظلوم الشكوى إليه ، فإذا رفع المظلوم الشكوى إلى الله انتقم الله من الظالم ، لكن لا يتجاوز في دعائه فيدعو بأكثر من مظلمته ؛ لأنه إذا دعا بأكثر من مظلمته صار هو الظالم .

« وانصرنا على من عادانا » وأكبر عدو لنا من عادانا في دين الله ؛ من اليهود والنصارى والمشركين البوذيين والملحدين والمنافقين وغيرهم . هؤلاء هم أعدونا ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة : ١] وقال الله في المنافقين : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ فَنَسْلَهُمُ اللَّهُ أَنَّ يُوَفَّقُونَ ﴾ [المنافقون : ٤] . فتسأل الله تعالى أن ينصرك على من عاداك ، وينصرك على اليهود والنصارى والمشركين والبوذيين وجميع أصناف الكفرة ، والله سبحانه وتعالى هو الناصر ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٠] .

« ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا » المصائب في الحقيقة تكون في مال الإنسان ؛ بأن يحترق ماله ، أو يسرق ، أو يتلف ، فهذه مصيبة . وتكون أيضًا في أهل الإنسان ، فيمرض أهله ، أو يموتون . وتكون في العقل : بأن يصاب هو أو أهله بالجنون ، نسأل الله العافية . وتكون في كل ما من شأنه أن يصاب به الإنسان . لكن أعظم مصيبة هي مصيبة الدين - نسأل الله أن يثبتنا على دينه الحق - فإذا أصيب الإنسان بدينه والعياذ بالله ، فهذه أعظم مصيبة . والمصائب في الدين مثل المصائب في البدن ، هناك مصائب خفيفة في البدن كالزكام والصداع اليسير وما أشبه ذلك ، وهناك مصائب في الدين خفيفة كشيء من المعاصي ، وهناك مصائب في الدين مهلكة مثل : الكفر ، والشرك ، والشك ، وما أشبه ذلك ، هذه مهلكة مثل الموت للبدن ، فأنت تسأل الله ألا يجعل مصيبتك في دينك . أما المصائب التي دون الدين ؛ فإنها سهلة ، فإن المصاب من حرم الثواب ، نسأل الله العافية .

« ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا » بذنوبنا « من لا يرحمنا » فلا تجعل

الدنيا أكبر همنا ، بل اجعل الآخرة أكبر همنا ، ولا ننسى نصيبنا من الدنيا ، فلا بد للإنسان من الدنيا ، لكن لا تكون الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه ، بل يسأل الله أن يجعل مبلغ علمه علم الآخرة ، أما علم الدنيا وما يتعلق بها فهذه مهما كانت فإنها ستزول ، يعني لو كان الإنسان عالماً في الطب ، عالماً في الفلك ، عالماً في الجغرافيا ، عالماً في أي شيء من علوم الدنيا ؛ فهي علوم تزول وتفتنى ، فالكلام على علم الشرع ؛ علم الآخرة ، فهذا هو المهم .

« ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » لا تسلط علينا أحدًا من خلقك لا يرحمنا ، يعني وكذلك من يرحمنا ، لا تسلط علينا أحدًا ، لكن الذي يرحمك لا ينالك منه السوء ، أما الذي ينالك منه السوء هو أن يسلط الله عليك من لا يرحمك ، نسأل الله ألا يسلط علينا من لا يرحمنا .

فكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا جلس مجلسًا يقول هذا الذكر لكنه ليس بلازم كما سبق أن قلنا ، وإنما المقصود أنه ﷺ كان يقول ذلك كثيرًا .

* * *

٨٣٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ ، إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةٌ » ^(١) .

رواه أبو داود بإسناد صحيح .

٨٣٦ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ فِيهِ ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٨٣٧ - وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ تِرَةٌ ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مُضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ » ^(٣) رواه أبو داود . وقد سبق قريبًا ، وشرحنا « الترة » فيه .

الشرح

هذه ثلاثة أحاديث في بيان آداب المجلس ، وكلها تدل على أنه ينبغي للإنسان إذا جلس مجلسًا أن يقتنم ذكر الله ﷻ والصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، حيث إنها تدل على أنه ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ إلا كان عليهم من الله ترة ، يعني قطيعة وخسارة إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم . ويتحقق ذكر الله ﷻ في

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٥) ، قوله : « إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ » أي في ذلك المجلس واستخدم لفظ « جيفة حمار » زيادة في التنفير ، وإيماء إلى أن تارك الذكر كالحمار المضروب به المثل في البلادة ، الغافل عن ذكر من أغدق له العطايا .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعاء (٣٣٨٠) وأحمد في مسنده من طريق آخر (٤٦٣/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٦) .

المجالس بصور عديدة ، فمثلاً : إذا تحدث أحد الأشخاص في المجلس عن آية من آيات الله ﷻ ، فإن هذا من ذكر الله ، مثل أن يقول : نحن في هذه الأيام في دفء كأتنا في الربيع وهذا من آيات الله ؛ لأننا في الشتاء ، وفي أشد ما يكون من أيام الشتاء برذاً ، ومع ذلك فكأتنا في الصيف فهذا من آيات الله . ويقول مثلاً : لو اجتمع الخلق على أن يدفخوا هذا الجو في هذه الأيام التي جرت العادة أن تكون باردة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وما أشبه ذلك ، أو مثلاً : يذكر حالة من أحوال النبي - عليه الصلاة والسلام - مثل أن يقول : كان النبي - عليه الصلاة والسلام - أخشى الناس لله وأتقاهم لله ، فيذكر الرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم يصلي عليه ، والحاضرون يكونون إذا استمعوا إليه مثله في الأجر .

هكذا يكون ذكر الله ﷻ والصلاة على رسوله ﷺ ، وإن شاء ذكر الله من الأصل ، إذا جلس قال : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، وما أشبه ذلك . المهم أن الإنسان العاقل يستطيع أن يعرف كيف يذكر الله ، ويصلي على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في هذا المجلس .

ومن ذلك أيضاً : أنه إذا انتهى المجلس وأراد أن يقوم يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » . وفي هذه الأحاديث الثلاثة دليل على أنه ينبغي للإنسان ألا يفوت عليه مجلساً ولا مضطجاً إلا يذكر الله ، حتى يكون ممن قال الله فيهم ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُسُودِهِمْ ﴾ [آل عمران : ٩١] .

١٣٠ - باب الرؤيا وما يتعلق بها

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكٌ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [الروم : ٢٣] .

٨٣٨ - وعن أبي هريرة ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » قالوا : وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » ^(١) رواه البخاري .

٨٣٩ - وعنه أن النبي ﷺ قال : « إذا اقترَبَ الزَّمانُ لَمْ تَكُذْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِيبٌ ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ » متفق عليه . وفي رواية : « أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا » ^(٢) .

٨٤٠ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَسْرَانِي فِي الْيَقَظَةِ - أَوْ كَأَنَّهَا رَأَى فِي الْيَقَظَةِ - لَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي » ^(٣) . متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٦٩٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠١٧) ، ومسلم في الرؤيا (٦) .

(٣) أخرجه البخاري في التعبير (٦٩٩٣) ، ومسلم في الرؤيا (١١) ، قوله : « فسراني في اليقظة » قيل : هذه بشرى برويتهم إياه - عليه الصلاة والسلام - يوم القيامة ، وسمي ذلك يقظة ؛ لأنها اليقظة الحقيقية . وذلك لابن أبي أن يكون التأويل بالنسبة إلى أمر الدنيا حصول خير دين ودنيا .

٨٤١ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ ، يقول : « إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا ، فَأَتَمَّا هِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا ، وَلْيُحَدِّثْ بِهَا - وَفِي رَوَايَةٍ : فَلَا يُحَدِّثْ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ - وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ يَمَّا يَكْرَهُ ، فَأَتَمَّا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا ، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمته الله في (باب الرؤيا وما يتعلق بها) .

الرؤيا : يعني رؤيا المنام ، فالإنسان إذا نام فإن الله تعالى يتوفى روحه ، لكنها وفاة صغرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَافَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] ، وهذه الوفاة الصغرى تذهب فيها الروح إلى حيث يشاء الله .

ولهذا كان من أذكار المنام أن نقول : « اللهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه ، فإن أمسكت روحى فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » ^(٢) .

ثم إن الروح في هذه الحال ترى منامات ومرائي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : رؤيا محبوبة ، ورؤيا مكروهة ورؤيا عبارة عن أشياء ليس لها معنى وليس لها هدف ، قد تكون من تلاعب الشيطان ، وقد تكون من حديث النفس ، وقد تكون من أسباب أخرى .

القسم الأول : الرؤيا الصالحة الحسنة ، وهي إذا رأى الإنسان ما يحب ، فهذه من الله ﷻ ، وهي من نعمة الله على الإنسان أن يريه ما يحب ؛ لأنه إذا رأى ما يحب نشط وفرح وصار هذا من البشرى ، فمن عاجل بشرى المؤمن الرؤيا الصالحة يراها أو ترى له ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » ، الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو ترى له ، هذه بشرى وخير ، وهي من الله ﷻ .

القسم الثاني : الرؤيا المكروهة ، وهي من الشيطان ، حيث يضرب الشيطان للإنسان أمثالا في منامه يزعجه بها ، لكن دواءها أن يستعيز بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأى ، ولا يذكر لأحد فإنها لا تضره ، ولا يحرص على أن تُغَيَّر ؛ لأن بعض الناس إذا رأى ما يكره حرص على أن تُغَيَّر وذهب إلى العابرين ، أو يطالع في الكتب لينظر ما هذه الرؤيا المكروهة ، ولكنها إذا غُيِّرَتْ ؛ فإنها تقع على الوجه المكروه .

وإذا استعاذ الإنسان من شرِّ الشيطان ومن شرِّ ما رأى ، ولم يحدث بها أحداً ؛ فإنها لا تضره مهما كانت ، وهذا دواء سهل أن الإنسان يَتَصَبَّرَ ويكتمها ويستعيز من شر الشيطان ومن شرها حتى لا تقع .

أما القسم الثالث : وهو الذي ليس له هدف معين ، فهذا أحيانا يكون من حديث النفس ، حين

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٥) ولم نجده في صحيح مسلم .

(٢) سبق تخريجه .

يكون الإنسان متعلقاً قلبه بشيء من الأشياء يفكر فيه وينشغل به ثم يراه في المنام ، أو أحياناً يلعب به الشيطان في منامه ، يراه أشياء ليس لها معنى ، كما ذكر رجل للنبي ﷺ قال : يا رسول الله ، رأيت في المنام أن رأسي قد قطع ، وذهب رأسي يركض وأنا أسعى وراءه فقال النبي صلى الله عليه وآله عليه وعلى آله وسلم : « لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك » (١) ، فهذا ليس له معنى ، رأس يقطع ويركض الرأس وهذا يركض بجسده وراءه ، هذا ليس له معنى .

المهم : أن هذه هي أقسام الرؤيا ، وإذا ضرب للإنسان مثل بأيه أو أمه أو أخيه أو عمه أو غير ذلك ، فقد يكون هذا هو الواقع ، وقد يكون من الشيطان ، يتمثل الشيطان للنفس بصورة هذا الإنسان ويراه النائم ، إلا النبي صلى الله عليه وآله عليه وعلى آله وسلم ؛ فإن الإنسان إذا رأى النبي صلى الله عليه وآله عليه وعلى آله وسلم لا يتمثل بالشيطان لا يتمثل بالنبي ﷺ أبداً ولا يجرؤ (٢) .

فإذا رأى الإنسان شخصاً وقع في نفسه أنه النبي ﷺ فليبحث عن أوصاف هذا الذي رأى ، هل تطابق أوصاف النبي - عليه الصلاة والسلام - ؟ فهو هو ، وإن لم تطابق فليس النبي ﷺ ، وإنما هذه أوهام من الشيطان ، أوقع في نفس النائم أنه هو الرسول ﷺ وليس هو الرسول ، ولذلك دائماً يأتي أحد يقول : رأيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقال كذا وفعل كذا ، ثم إذا وصفه إذا أوصافه لا تطابق أوصاف النبي ﷺ ، مع أنه في منامه وقع عليه أنه النبي ، لكن إذا تحدث عن أوصافه فإذا هو ليس النبي ﷺ ، فنعزم أن ليس هو الرسول ﷺ .

أما لو وصف لنا من رآه ، وانطبقت أوصافه على النبي ﷺ لله فهو النبي صلى الله عليه وآله عليه وعلى آله وسلم ، ولكن يجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يحدثه النبي ﷺ بشيء يخالف شريعته ، يعني لو جاء إنسان وقال : رأيت الرسول ، وقال لي كذا وأوصاني بكذا ، فإن كان يخالف الشريعة فهو كذب ، ويكون الكذب ممن تحدث به إذا انطبقت أوصاف من رآه على أوصاف النبي صلى الله عليه وآله عليه وعلى آله وسلم .

* * *

٨٤٢ - وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « الرؤيا الصالحة - وفي رواية : الرؤيا الحسنة - من الله ، والحلم من الشيطان ، فمن رأى شيئاً يكرهه فليتقنه عن شئائيه ثلاثاً ، وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره » (٣) متفق عليه .
« التفت » نفخ لطيف لا ريق معة .

(١) أخرجه مسلم في الرؤيا (١٤ ، ١٥) .

(٢) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في التعبير (٦٩٩٤) ، ومسلم في الرؤيا (٧) ، والترمذي في السنن (٢٢٧٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الرؤيا (٣) واللفظ له ، والبخاري في التعبير (٦٩٨٤) بنحوه . قوله « الرؤيا الحسنة من الله والحلم من الشيطان » الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه ، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والشيء القبيح ، ويستعمل كل واحد منهما مكان الآخر .

- ٨٤٣ - وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها ، فليصق عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً ، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه » ^(١) . رواه مسلم .
- ٨٤٤ - وعن أبي الأشعث وثالة بن الأشعث رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أعظم الفِرَى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه ، أو يُرى عينه مالم تر ، أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل » ^(٢) . رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث فيما يتعلق بالرؤيا ، وسبق شيء من ذلك ، وقد بينا أن الرؤيا ثلاثة أقسام :
القسم الأول : رؤيا حسنة صالحة فهذه من الله ﷻ ، وذكرنا أنها فيما يسر ، وأنها من عاجل بشرى المؤمن .

القسم الثاني : الحلم ، وهذا من الشيطان ، والغالب أنه يكون فيما يكره الإنسان ، أي أن الشيطان يُري الإنسان ما يكره حتى يفزع ويتكسر ويحزن وربما يمرض ؛ لأن الشيطان عدو للإنسان ؛ يحب ما يسوء الإنسان وما يحزنه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَرِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلة : ١٠] .

فالحلم هو هذا الذي يراه الإنسان في منامه يكرهه ويزعجه ، ولكن من نعمة الله ﷻ أن جعل لكل داء دواء . ودواء الحلم فيما يلي :

أولاً : أن يصبق الإنسان على يساره ثلاث مرات ، ويستعذ بالله من شر الشيطان ثلاث مرات ، ومن شر ما رأى ، يقول : أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت . ثلاث مرات ، ويتحول إلى الجنب الثاني ، فإذا كان على جنبه الأيسر يتحول إلى الأيمن ، وإذا كان على الأيمن يتحول إلى الأيسر .

ثانياً : وإذا لم ينفع هذا ، يعني لو أنه تحول عن جنبه الأول إلى الثاني ثم عادت هذه الرؤيا التي يكرهها ؛ فليقم ويتوضأ ويصَلِّ . ولا يخبر بها أحداً ، فلا يقول : رأيت ورأيت ، ولا يذهب إلى الناس يعبرونها ، ولا يذهب إلى أحد يفسرها ؛ فإنها لا تضره أبداً حتى وكأنها ما وقعت ، وفي هذا راحة له .

وبعض الناس إذا رأى شيئاً يكرهه ذهب يتلمس من يفسر له هذه الرؤيا ، ونحن نقول له : لا تفعل ذلك ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يرون الرؤيا يكرهونها ، فلما حدثهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بهذا الحديث استراحوا ؛ فصار الإنسان إذا رأى الرؤيا التي يكرهها بصق عن يساره ثلاث مرات ،

- (١) أخرجه مسلم في الرؤيا (٥) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٢٢) ، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٩٠٨) .
- (٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٩) قوله « الفِرَى » جمع فرية وهي الكذبة العظيمة . قوله « أن يدعى الرجل إلى غير أبيه » التعدية بإلى هنا لتضمنها معنى الانتساب ، وصار هذا الادعاء من أعظم الفري ؛ لأنه أفتراء على الله تعالى ، فالمدعي إلى غير أبيه يقول : خلقتني الله من ماء فلان ، وقد خلقه الله من ماء غيره . قوله « أو يري عينه ما لم تر » أي يكذب في رؤياه . قوله : « أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل » أي أن ينسب إليه من الحديث ما لم يقل ﷺ .

واستعاذ بالله من شرها وشر الشيطان ، ولم يحدث بها أحداً ، ثم لا تضره وكأنه ما رآها .
 أما القسم الثالث : فهو الحلم الذ يكون من حديث النفس ، حيث يكون الإنسان متعلقاً بشيء من الأشياء دائماً ، فهذا ربما يراه في المنام ، وهذا أيضاً لا حكم له ولا أثر له .
 وينبغي للإنسان إذا رأى رؤيا تسره ، وهي الرؤيا الصالحة ، أن يؤولها على خير ما يقع في نفسه ؛ لأن الرؤيا إذا عبرت ياذن الله فإنها تقع .

ثم إن من المهم ألا نعتمد على ما يوجد في بعض الكتب ؛ ككتاب تفسير الأحلام لابن سيرين ، وما أشبهها ؛ فإن ذلك خطأ ؛ وذلك لأن الرؤيا تختلف بحسب الرائي ، وبحسب الزمان ، وبحسب المكان ، وبحسب الأحوال ، يعني ربما يرى الشخص رؤيا ففسرها له بتفسير ، ويرى آخر رؤيا هي نفس الرؤيا ففسرها له بتفسير آخر غير الأول ، وذلك لأن هذا رأى ما يليق به ، وهذا رأى ما يليق به ، أو لأن الحال تقتضي أن يفسر هذه الرؤيا بهذا التفسير .

فالمهم : ألا يرجع الإنسان إلى الكتب المؤلفة في تفسير الأحلام ؛ لأن الأحلام والرؤى تختلف .
 ويذكر أن رجلاً رأى رؤيا ففسرت له بتفسير ، ثم رأى آخر نفس الرؤيا ففسرت بتفسير آخر ، فسئل الذي فسرهما في ذلك فقال : لأن هذا يليق به ذلك التفسير لما رأى ، وهذا يليق به ذلك التفسير لما رأى كل إنسان يفسر له بما يليق به .

ولهذا فإن النبي ﷺ في غزوة أحد قبل الواقعة أو في أثنائها ، رأى في المنام أن في سيفه ثلثة ، ورأى بقراً تنحر ، ففسرها بأنه يقتل أحد من أهل بيته ، وأنه يقتل نفر من أصحابه ^(١) ، فالثلثة هي أنه يقتل أحد من أهل بيته ، لأن الإنسان يحتمي بقبيلته ويحتمي بسيفه ، فلما صار في السيف ثلثة فمعنى ذلك أنه سيكون ثلثة في أهل بيته . ووقع كذلك ؛ فقد استشهد حمزة عم النبي ﷺ في أحد ، أما البقر التي تنحر : فالذين قتلوا من الصحابة ؓ في أحد نحو سبعين رجلاً ، وإنما رآه بقراً ؛ لأن البقر فيها منافع كثيرة ، فهي أنفع ما يكون من بهيمة الأنعام ؛ للحرث ، وللسمن ، وللنماء ، وللبن ، وفيها مصالح كثيرة ، والصحابة ؓ كلهم خير ، ففيهم خير كثير لهذه الأمة ، ولو لم يكن من خيرهم إلا أن الله سبحانه وتعالى وفقهم لحمل الشريعة إلى الأمة لكان ذلك يكفيهم ، إذ إنه لا طريق لنا إلى شريعة الله إلا بواسطة الصحابة ؓ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب السلام

١٣١ - باب فضل السلام والأمر بإفشائه

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧] .

٢ - ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ مَلَائِكَةٍ مُفَاعَلَةٍ أَوْ مَدِينَةٍ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيِّنَاتٌ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١] .

٣ - ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَجَوبُوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أَوْ رَدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] .

٤ - ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ① إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥] .

الشرح

قال المؤلف رحمته في كتابه «رياض الصالحين»: (كتاب السلام) والسلام يريد به التحية التي شرعها النبي ﷺ لأمته .

والسلام بمعنى: الدعاء بالسلامة من كل آفة، فإذا قلت لشخص: «السلام عليك» فهذا يعني أنك تدعوه بأن الله يُسلمه من كل آفة: يُسلمه من المرض، من الجنون، يُسلمه من الناس، يُسلمه من المعاصي وأمراض القلوب، يُسلمه من النار، فهو لفظ عام . معناه: الدعاء للمسلم عليه بالسلامة من كل آفة . وكان الصحابة رضي الله عنهم من محبتهم لله ﷻ كانوا يقولون في صلاتهم: السلام على الله من عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان وفلان، فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا: السلام على الله من عباده، وقال: «إن الله هو السلام»؛ يعني: السالم من كل عيب ونقص - جل وعلا - فلا حاجة أن تُثني عليه بالدعاء بأن يُسلم نفسه . ثم قال لهم: قولوا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنكم إذا قلتم ذلك سلّتم على كل عبد صالح في السماء والأرض» ① .

ولا أدري هل نحن نستحضر هذا إذا قلنا في الصلاة: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»؟! لا أدري هل نحن نستحضر أننا نُسلم على أنفسنا، السلام علينا، وعلى كل عبد صالح في السماء

① أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (٤)، ومسلم في الصلاة (٥٦)، وأحمد في مسنده (٢١٣/١) .

والأرض ، يعني نُسَلِّمُ على الأنبياء ، نُسَلِّمُ على الصحابة ، نُسَلِّمُ على التابعين لهم بإحسان ، نُسَلِّمُ على أصحاب الأنبياء ، كالحواريين أصحاب عيسى ، والذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام سبعين رجلاً ، وغير ذلك ؟! هل نحن نستحضر أننا نُسَلِّمُ على جبريل ، وعلى ميكائيل ، وعلى إسرافيل ، وعلى مالك خازن النار ، وعلى خازن الجنة ، وعلى جميع الملائكة ؟! لا أدري هل نحن نستحضر هذا أم لا ؟ إن كنا لا نستحضر فيجب أن نستحضر ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « إنكم إذا قلتم ذلك سلّمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض » .

والسلام مشروع بين المسلمين ، مأمور بإفشائه ، قال النبي ﷺ : « لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمْوهُ تَحَابَبْتُمْ ، أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » (١) يعني أظهروه .. أعلنوه ، وصدق رسول الله ﷺ ، أن إفشاء السلام بين الناس من أسباب المحبة ، ولذلك إذا لاقاك رجل ولم يُسَلِّم عليك كرهته ، وإذا سلّم عليك أحببته - وإن لم يكن بينك وبينه معرفة - ولهذا كان من حسن الإسلام أن تُفشي السلام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف (٢) .

ثم ذكر المؤلف ﷺ آيات من كتاب الله منها :

١ - أن السلام من سنن الرسل والملائكة أيضاً ؛ فهؤلاء الملائكة الذين جاءوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ لَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ شُكْرُونَ ﴾ ذكر علماء النحو أن إجابة إبراهيم أكمل من سلام الملائكة ، لأن الملائكة قالوا : ﴿ سَلَامًا ﴾ بالنصب وهو مصدر منصوب لفعل محذوف والتقدير : نسلم سلاماً ؛ فالجملة فعلية وهي لا تدل على الدوام والثبوت ، أما رَدُّ إبراهيم فقال : ﴿ سَلَامٌ ﴾ أي : عليكم سلام ؛ فهي جملة اسمية تدل على الثبوت ؛ فرده أكمل ؛ ولهذا يعتبر رَدُّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الرد الأكمل الذي قال الله ﷻ فيه : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ فبين في هذا أن السلام من سنن الرسل السابقين ، وأنه أيضاً من عمل الملائكة المقربين .

٢ - ثم ذكر المؤلف أيضاً آيات تدل على ذلك ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور : ٢٧] .

فإذا أردت أن تدخل بيتاً لا تدخل إذا لم يكن بيتك ، حتى تستأنس وتسلم ، يعني حتى لا يكون في قلبك وحشة ؛ لأن الإنسان إذا دخل بيت غيره بدون استئذان استوحش ، وإذا دخل باستئذان فهو مستأنس . وفي قراءة أخرى ﴿ تَسْتَأْذِنُوا ﴾ لكن السبعية ﴿ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾ وهي أعم ، لأن قوله : ﴿ تَسْتَأْذِنُوا ﴾ يشمل ما إذا استأنس الإنسان بإذن من صاحب البيت ، أو استأنس الإنسان بإذن سابق . مثلاً : قال له : اتني الساعة الرابعة والنصف وتجد الباب مفتوحاً ، فإذا جئت في الموعد ووجدت الباب مفتوحاً فلا حاجة لأن تستأنس ، لأنني الآن مستأنس أم مستوحش ؟ مستأنس ، لأن عندي إذن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٨) ، وابن ماجه (٣٦٩٢) ، وأحمد في مسنده (٤٧٧/٢) .

(٢) ودليل ذلك ما رواه : البخاري في الاستئذان (١٩/٩) ، والنسائي في الإيمان (١٠٧/٨) .

مسبق ، فقراءة ﴿ حَقَّ تَسَاتُؤُا ﴾ هي الصحيحة يعني هي أشمل من قراءة ﴿ حَقَّ تَسَاتُؤُا ﴾ ، وأيضاً هي السبعة .

وقوله : ﴿ وَتَسْلِمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ أيضاً تُسَلِّم على أهل البيت : السلام عليكم ... أَدخِل ؟ وإذا دخلت بيتك فلا حاجة للاستعذان ؛ لأنه بيتك ، ولكن تُسَلِّم على أهلك ، وأبدأ بالشواك قبل السلام ، فإذا وصلت أهلك قل : السلام عليكم . هذه هي السنة التي جاءت عن رسول الله ﷺ ^(١) .

٣ - قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَرِيفٌ مِنْهُمْ الْمَكْرِيَيْنِ ﴾ ٥٠ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٤ ، ٢٥] .

﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ مثل هذه الصيغة يُراد بها التشويق ، يعني أن الله ﷻ ذكرها بصيغة الاستفهام تشويقاً للمخاطب ، ومن المعلوم أن الإنسان يقول : لم يأتي ، لأنها ماضٍ . وقد سبق الكلام عن هذه الآية أيضاً ، أما قوله : ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ يعني : أنتم قوم منكرون ، أي : لا أعرفكم ، وليس المعنى أنه من المنكر الذي هو الحرام ، لكنه من المنكر الذي هو غير معروف يعني : أنا لا أعرفكم .

٤ - قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور : ٦١] .

﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ يعني على من فيها ، وجعلهم من أنفسهم ، لأن المؤمن للمؤمن كالبنیان يشُد بعضها بعضاً ، فهو كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، فالمعنى إذن : سلّموا على من فيها ، لأنكم أنتم وإياهم نفس واحدة .

والنفس قد تطلق على الغريب كما ذكرنا : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] يعني : لا يلمز بعضكم بعضاً ، وليس المعنى أن الإنسان يلمز نفسه ، المهم : أنك إذا دخلت بيتاً فسلّم على من فيه ، قل : السلام عليكم ، وهم يجب عليهم أن يردوا السلام ، وقد سبق أن السنة إذا دخلت بيتك أن أول ما تبدأ به أن تتسوّك ، ثم تسلم على أهل البيت .

٥ - ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ فَأَمَرَ اللَّهُ ﷻ إذا حُيِّينا بتحية أن نحیی بأحسن منها أو نردّها ، يعني نرد مثلها . فمثلاً : إذا قال لك إنسان : السلام عليك . فقل : عليك السلام ولا تنقص ، وإذا قال : السلام عليك ورحمة الله . فقل : عليك السلام ورحمة الله . وإذا قال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقل : عليك السلام ورحمة الله وبركاته . وجوباً ، لأن الله قال : ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ .

وإذا قال : السلام عليك . فقلت : وعليك السلام ورحمة الله . فهذا أحسن من الأول ، وأفضل ، لكنه ليس بواجب ، الواجب أن ترد عليه بمثل ما سلّم عليك .

وقوله سبحانه : ﴿ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ يشمل الأحسن نوعاً ، والأحسن كمّاً ، والأحسن كيفية .

(١) انظر في ذلك أحمد في مسنده (٣٤٦/٣) .

فمثلاً - إذا قال : السلام عليك . فقلت : أهلاً ومرحباً بأبي فلان حيَّاك الله وبياك ^(١) تفضل . فهذا لا يجزئ ولو قلته ألف مرة لن ينفع ، وكنت آثماً ، لأنك لم ترد بأحسن ولا بالمثل ، فهو عندما قال : السلام عليك ، يدعو لك بالسلام مع التحية ، فإذا قلت : أهلاً ومرحباً ، فهذه تحية بلا دعاء ، فلا بد أن تقول أحسن منها نوعاً ، أحسن منها كماً ، أو مثلها ، وإذا قال : السلام عليك ورحمة الله . فقلت : عليك السلام . فهذا لا يجوز ، لأنك ما رددت بأحسن ولا بالمثل ، لا بد أن تقول كما قال . كذلك أحسن منها كيفية : فإذا سلّم عليك بصوت واضح مرتفع لا ترد عليه بطرف أنفك . ومن ذلك أيضاً : إذا سلم عليك وقد أقبل إليك بوجهه فسلمت عليه مُعْرِضاً عنه مُصَغِّراً حَدْكَ له ، فهذا أيضاً نقص ؛ لم تردها ، ولم ترد بأحسن منها .

وظاهر الآية الكريمة : أنه لو حيَّاك رجل من الكفار قال : السلام عليك بعبارة واضحة فقلت : وعليك السلام ، فلا بأس بها ، لأنك رددت بالمثل ، وأما قول النبي ﷺ : « إِذَا سَلَّمْتَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقُولُوا : عَلَيْكُمْ » ^(٢) . يعني لا تقولوا : وعليكم السلام ؛ فإنه يئس سبب ذلك فقال : « إن اليهود إذا سلّموا على أحدكم إنما يقولون : السام عليكم » ^(٣) ، يعني : يدعون عليكم بالموت ، فقال رسول الله : قولوا : « وعليكم » أي وعليك أنت أيضاً السام ، فيفهم من هذا الحديث أنهم لو قالوا : السلام عليكم . فإننا نقول : وعليكم السلام . ولا بأس ، لأن الله قال : ﴿ وَإِذَا حَيَّيْتُمْ يَبْجِئُوا فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ والله الموفق .

* * *

٨٤٥ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : أي الإسلام خير؟ قال : « تَطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » ^(٤) متفق عليه .

الشرح

سبق الكلام على الآيات التي ذكرها المؤلف رحمته الله في هذا الباب ، ثم ذكر الأحاديث ومنها :

١ - حديث : عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ سُئِلَ : أي الإسلام خير ؟ . والصحابة رضي الله عنهم إذا سألوا الرسول في مثل هذه الأسئلة لا يريدون مجرد العلم ، وإنما يريدون العمل ، فإذا قال الإسلام : كذا وكذا ؛ فعلموه وتسابقوا إليه ، وهكذا ينبغي للسائل الذي يسأل العالم ويستفتيه أن ينوي بقلبه أنه إذا دله على الخير فعله - كما كان دأب الصحابة - لا يريد أن ينظر ماذا عند العالم فقط . فقال النبي ﷺ : « تطعم الطعام » يعني : من احتاج إليه ، وأول من يلزمك إطعامه هم عائلتك ، وإطعامهم صدقة وصلة وأفضل من إطعام الأبعد ، لأن إطعام أهلك قيام بواجب ، وإطعام

(١) حيّاك الله : أي ملكك وأبقاك ، وبياك : أي أضحكك ، أو بواك منزلاً في الجنة (لسان العرب ٤٠٨/١ ، مادة ببي) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠١) ، وابن ماجه في السنن (٣٦٩٧) .

(٣) أخرجه البخاري في استنباط المرتدين (٦٩٢٨) ، ومسلم في السلام (٨ ، ٩) ، والترمذي في السنن (١٦٠٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (١٢) ، ومسلم في الإيمان (٦٣) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٥٣) .

الأبعد قيام بمستحب ، والواجب أحب إلى الله من المستحب كما في الحديث القدسي : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه » ^(١) وبعض الناس ينفق على أهله ما ينفق ولكنه لا يشعر بأنه يتقرب إلى الله بهذا الإنفاق ، ولو جاءه مسكين وأعطاه « ريال واحد » يشعر بأنه متقرب إلى الله بهذه الصدقة ، ولكن الصدقة الواجبة على الأهل أفضل ، وأكثر أجراً ، فإذا أطعمت الطعام لأهلك فهذا من خير الإسلام .

« وَتَقْرَأُ السَّلَامَ » : وهذا هو الشاهد . وَتَقْرَأُ السَّلَامَ : يعني تقول : السلام عليك . ويسمى : قراءة السلام ، واللقاء السلام . « عَلَى مَنْ عَرَفَتْ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » : لا يكن سلامك سلام معرفة بل يكون مثوبة وإلفة ، لأن المُسَلِّم يثاب على سلامه ويحصل بسلامه التأليف كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « واللَّهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَتَوَمَّنُوا ، وَلَا تَتَوَمَّنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ، أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » ^(٢) ، أما من لا يسلم إلا سلام معرفة ؛ فسوف يفوته خير كثير ، لأنه ربما مرَّ به عشرات لا يعرف منهم إلا واحداً ، أما من يسلم سلام مثوبة وإلفة فهو يسلم على من عرف ومن لم يعرف إلا إذا كان الذي مررت به كافراً فلا تُسَلِّم عليه ، لأن النبي ﷺ قال : « لَا تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ » ^(٣) وغيرهم أخبث منهم مثل السنيخ والمشركين والشيوعيين ومن شابههم ، فلا تقرأ عليهم السلام ، ولا تُسَلِّم عليهم ، وكذلك الفاسق المعلن بفسقه - إذا كان في ترك السلام عليه مصلحة - وهو أنك إذا لم تسلم عليه تاب من فسقه ورجع إلى الله ، أما إذا لم يكن هناك مصلحة ، وأن الأمر بالنسبة له سياتي أو لم تسلم ، وكان عدم سلامك عليه يكون في قلبه عداوة عليك ويستمر في باطله ولا يقبل منك النصيحة ؛ فسَلِّم عليه .

ثم سبق نجد أن الناس صاروا ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الفاسق المعلن بفسقه : فهذا سَلِّم عليه إلا إذا كان في هجره مصلحة .

القسم الثاني : الكافر : لا تسلم عليه ، لكن إن سَلِّم عليك رُدَّ عليه .

القسم الثالث : إنسان مُسَلِّم لا تعلم عليه فسقاً فسَلِّم عليه ، واحرص على أن تكون أنت البادئ بالسلام ، لأن النبي ﷺ كان يبدأ من لقيه بالسلام ^(٤) - وهو أشرف الخلق - وقال عليه الصلاة والسلام : « لَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَ ، يَلْتَقِيَانِ فَيَعْرِضُ هَذَا وَيَعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » ^(٥) . وهكذا الحديث الذي معنا خير الإسلام « أَنْ تَقْرَأَ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣٤٦/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٨) ، وأحمد في مسنده (٤٧٧/٢) ، وابن ماجه في السنن (٣٦٩٢) جميعهم دون لفظ « واللَّهِ » .

(٣) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، وأحمد في مسنده (٢٦٦/٢) ، والترمذي في السنن (١٦٠٢) .

(٤) انظر الحديث في : مسلم في الإيمان (٢٧٨) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٣) ، وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) . بلفظ : « لَا يَحِلُّ الْمُسْلِمُ » .

ومن لم تعرف « والله الموفق .

٨٤٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ ﷺ قَالَ : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَئِكَ - نَفَرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ - فَاسْتَمِعَ مَا يُحَدِّثُونَكَ ، فَإِنَّمَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ . فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالُوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَرَأَوْهُ : وَرَحْمَةُ اللَّهِ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) في باب فضل السلام والأمر بإفشائه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الله لما خلق آدم قال له : « اذهب إلى هؤلاء النفر من الملائكة - وهم جلوس - فسلم عليهم ، وانظر ماذا يحيونك به ، فإنها تحيتك وتحيّة ذريتك ، فذهب آدم - امتثالاً لأمر الله - فسلم على الملائكة الجلوس : السلام عليكم . قالوا : السلام عليك ورحمة الله . فزادوا : ورحمة الله . ففي هذا الحديث دليل على : ١ - أن هذه الخليقة البشرية كانت من العدم ، وأنها لم تكن شيئاً مذكوراً من قبل كما قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ^(٢) [الإنسان : ١] فهذه البشرية لم تكن شيئاً مذكوراً من قبل ، فخلقها الله وأوجدتها لحكمة عظيمة ، ولهذا لما قالت الملائكة لله ﷻ حين أخبرها أنه جاعل في الأرض خليفة قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) [البقرة : ٣٠] خلق الله هذه البشرية وجعل منهم الأنبياء والرسل والصديقين والشهداء والصالحين .

٢ - أن الملائكة أجسام وليست أرواحاً بلا أجسام ؛ لأنهم جلوس ، والجالس يعني أنه جسم ، وقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سدّ الأفق ^(٤) ، والله ﷻ قال : ﴿ جِبْرِيلُ الْمَلَائِكَةِ رُؤُوسًا أُولَى أَبْجَعَةٍ ﴾ [فاطر : ١] فالملائكة أجسام ولكن الله ﷻ حببهم عبداً ، جعلهم عالمًا غيبياً كما أن الجن أجسام ولكن الله ﷻ حببهم عبداً فجعلهم عالمًا غيبياً ، وقد تظهر الملائكة في صورة إنسان كما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ مرة بصورة « دحية الكلبي » ^(٥) ، ومرة بصورة رجل غريب لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة ، وعليه ثياب بيض ، شعره أسود وجلس إلى النبي ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراتها ، ومن فوائد هذا الحديث . ٣ - أن الشئ في السلام « السلام عليك » - إذا كان المُسَلَّم عليه واحداً ، وإذا كانوا جماعة تقول :

- (١) أخرجه البخاري في الاستبذان (٦٢٢٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨) .
- (٢) قوله تعالى : ﴿ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ أي طائفة محدودة من الزمان الممتد ، والدهر يطلق على كل زمان طويل غير معين .
- (٣) قوله تعالى : ﴿ وَنَسْفِكَ الدِّمَاءَ ﴾ أي : يقتل ظلماً وعدواناً . وقوله تعالى : ﴿ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أي ننزهك عما لا يليق بعظمتك ، وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أي : نظهر ذكرك عما لا يليق بك ، تعظيماً لك وتمجيذاً .
- (٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٢) ، وأحمد في مسنده (٤٠١/١) .
- (٥) انظر مسلم في فضائل الصحابة (١٠٠) .

و السلام عليكم ، لأن الواحد يخاطب بخطاب الواحد ، والجماعة تخاطب بخطاب الجماعة .

٤ - أن السلام مُتَلَقَّن من الملائكة بأمر الله ، حيث قال ﷺ : « إنها تحيتك وتحية ذريتك » لكن في قولهم : « السلام عليك ورحمة الله » إشكال ؟ . وهو أن المعروف في الرد أن يُقَدَّم الخبر فيقال : عليك السلام . والرد على ذلك نقول : إما أن هذا يُعَلِّمونه التحية الابتدائية ، أو أن الشريعة وردت بخلاف ذلك - أي بتقديم الخبر - .

٥ - أن الأفضل في رد السلام أن يزيد الإنسان « ورحمة الله » ، لأن الملائكة زادوا ، والله ﷻ قال : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ فبدأ بالأحسن ﴿ أَوْ زِدْوهَا ﴾ إذا لم تردوا الأحسن .

٨٤٧ - وعن أبي عُمارة البراء بن عازب ﷺ قال : أمرنا رسول الله ﷺ بَسْتِيع : بَعِيَادَةِ الْمَرِيض ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ ، وَتَشْمِيعِ الْعَاطِسِ ، وَنَضْرِ الضَّعِيفِ ، وَعَوْنِ الْمَظْلُومِ ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ ، وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ ^(١) . متفق عليه ، هذا لفظ إحدى روايات البخاري .

٨٤٨ - وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَّلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمْوه تَحَابُّتُمْ ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » ^(٢) . رواه مسلم .

٨٤٩ - وعن أبي يوسف عبد الله بن سلام ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا النَّاسَ نِيَامًا ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ » ^(٣) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٨٥٠ - وعن الطفيل بن أبي بن كعب أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ، فَيَقْدُو مَعَهُ إِلَى الشُّوقِ ، قَالَ : فَإِذَا عَدَدْنَا إِلَى الشُّوقِ ، لَمْ يَمُرْ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى سَقَاطٍ وَلَا صَاحِبِ بَيْعَةٍ ، وَلَا مِسْكِينٍ ، وَلَا أَحَدٍ إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ ، قَالَ الطُّفَيْلُ : فَجِئْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَوْمًا ، فَاسْتَبَعَنِي إِلَى الشُّوقِ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا تَصْنَعُ بِالشُّوقِ ، وَأَنْتَ لَا تَقِفُ عَلَى الْبَيْعِ ، وَلَا تَسْأَلُ عَنِ السَّلْعِ ، وَلَا تَسُومُ بِهَا ، وَلَا تَجْلِسُ فِي مَجَالِسِ الشُّوقِ ؟ وَأَقُولُ : اجْلِسْ بِنَا هُنَا نَتَحَدَّثُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا بَطْنٍ - وَكَانَ الطُّفَيْلُ ذَا بَطْنٍ - إِنَّمَا نَقْدُو مِنْ أَجْلِ السَّلَامِ ، فَتُسَلِّمُ عَلَى مَنْ لَقِينَاهُ ^(٤) . رواه مالك في الموطأ بإسناد صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث في باب فضل السلام وإفشائه : حديث البراء ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن سلام كلها سبق الكلام عليها ؛ فلا حاجة إلى إعادة الكلام . أما حديث الطفيل بن أبي بن كعب ؛ فإنه ذكر له قصة

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٥) ، ومسلم في اللباس (٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٩٩/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٩١/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٧) . (٤) أخرجه مالك في الموطأ (٩٦١/٢ ، ٩٦٢) .

مع عبد الله بن عمر رضي الله عنه وهي : أنه استتبعه - يعني عبد الله بن عمر - يوماً إلى السوق فجعل عبد الله بن عمر يُسَلِّم على كل أحد : على صاحب الدكان ، وعلى كل من مرَّ به ممن عرف ومن لا يعرف . فجاءه ذات يوم ، فقال له : اذهب بنا إلى السوق . فقال له : ماذا تصنع في السوق ؟ فأنت لا تشتري شيئاً ، ولا تبّيع شيئاً ، اجلس بنا نتحدث . فقال : إنما أذهب إلى السوق من أجل السلام على الناس ، لأن الإنسان إذا سلَّم وأفشى السلام وأظهره كان هذا سبباً لدخول الجنة ، كما في حديث أبي هريرة : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا ^(١) السلام بينكم » ، ولأن الإنسان إذا سلَّم على أخيه فقال : السلام عليكم ، أو السلام عليك إذا كان واحداً ؛ فإنه يُكْتَب له بذلك عشر حسنات ، فإذا سلَّم على عشرة أشخاص ؛ كُتِب له بذلك مائة حسنة ، وهذا خير من البيع والشراء ، فكان عبد الله بن عمر يدخل السوق من أجل كثرة المُسَلِّم عليهم ، لأنه في بيته لا يأتيه أحد ، وإذا أتاه ، أتاه أقل بكثير من يوجد في السوق ، لكن من في السوق يمر عليهم ، ويسلم عليهم ، وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يَمَلَّ من كثرة السلام ، لو قابلت مائة شخص فيما بينك وبين المسجد مثلاً ، فسلم ؛ إذا سلمت على مائة شخص تحصل على ألف حسنة ، هذه نعمة كبيرة .

وفي هذا أيضاً دليل على حرص السلف الصالح على كسب الحسنات ، وأنهم لا يفرطون فيها بخلاف وقتنا الحاضر : تجد الإنسان يفرط في حسنات كثيرة . وابن عمر رضي الله عنه من أحرص الناس إلى المبادرة إلى فعل الخير لما حدّثه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله : أن من تبع الجنّاة حتى يُصَلِّيَ عليها كُتِب له قيراط ، ومن شهدها حتى تُدفن كُتِب له قيراطان ، قيل : وما القيراطان يا رسول الله ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين : أصغرهما مثل أحد » ^(٢) . ولما حدّث ابن عمر بهذا الحديث قال : والله لقد فرطنا في قرارات كثيرة ، ثم صار لا نحصل جنازة إلا تبعها رضي الله عنه وهكذا السلف الصالح إذا علموا ما في الأعمال من الخير والثواب بادروا إليها وحرصوا عليها ، فالذي ينبغي للمؤمن أن يكون حريصاً على فعل الخير كلما بان له خصلة خير فليبادر إليها . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المتسابقين إلى الخيرات ، إنه على كل شيء قدير .

أما قوله : « يا أبا بطن » فإن الطفيل كان كبير البطن ، وهذا من باب المداعبة ، وليس قصده أن يعيره بأنه كبير البطن ، ولكنه كان يداعبه ، مثل قول الرسول لأبي هريرة : « يا أبا هر » ^(٣) .

١٣٢ - باب كيفية السلام

يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ الْمُتَبَدِّئُ بِالسَّلَامِ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » فَإِنِّي بِضَمِيرِ الْجَمْعِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَاحِداً ، وَيَقُولُ الْمُجِيبُ : « وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » فَإِنِّي بِوَاحِدٍ

(١) قوله : « أفشوا » أي : أعلنوا وأظهروا .

(٢) أخرجه البخاري في الجنايز (١٣٢٣) ، ومسلم في الجنايز (٥٥) ، وأحمد في مسنده (٢٧٦/٥) .

(٣) ورد ذلك في مسند أحمد (٥٢٥/٢) ، والحاكم في المستدرک (١٥/٣) ، والبيهقي في السنن (٤٤٦/٢) .

العطف في قوله : وَعَلَيْكُمْ .

٨٥١ - عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليكم ، فردّ عليه ثم جلس ، فقال النبي ﷺ : « عشر » ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فردّ عليه فجلس ، فقال : « عشرون » ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردّ عليه فجلس ، فقال : « ثلاثون » ^(١) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

٨٥٢ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « هذا جبريل يقرأ عليك السلام » قالت : قلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ^(٢) . متفق عليه . وهكذا وقع في بعض روايات الصحيحين : « وبركاته » وفي بعضها بحذفها وزيادة الثقة مقبولة .

٨٥٣ - وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تسمع منه ، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً ^(٣) . رواه البخاري . وهذا مخمّل على ما إذا كان الجمع كثيراً .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في كتابه : (رياض الصالحين) باب كيفية السلام : يعني كيف يُسلم ؟ ماذا يقول إذا سلم ؟ وماذا يقول إذا ردّ ؟ وذكر المؤلف رحمته الله أنه يستحب أن يقول : السلام عليكم ورحمة الله ، وإن كان المسلم عليه واحداً ، ثم استدل بحديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليكم ، فردّ عليه ثم جلس ، فقال النبي ﷺ : « عشر » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فردّ عليه فجلس ، فقال : « عشرون » ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردّ عليه فجلس ، فقال : « ثلاثون » . فقال للأول : عشر حسنة ، والثاني : عشرون ، والثالث : ثلاثون ، لأن كل واحد منهم زاد .

وهذه مسألة اختلف فيها العلماء : هل إذا سلم على واحد يقول : السلام عليك أم عليكم ؟ والصحيح أن يقول : السلام عليك . هكذا ثبت عن النبي ﷺ كما في حديث المسيء في صلاته أنه قال : السلام عليك ^(٤) . وأما ما استدل به المؤلف من حديث عمران ؛ فليس فيه دلالة ، لأن الرجل دخل مع النبي ﷺ ومعه جماعة فسلم على الجميع . فإذا كانوا جماعة فقل : السلام عليكم ، وإذا كان واحداً فقل : السلام عليك ، وإن زدت : « ورحمة الله » ؛ فهو خير ، وإن زدت : « وبركاته » ؛

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٩٥) ، والترمذي في الاستعذان (٢٦٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٩١) .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٩٥) .

(٤) انظر مسلم في الصلاة (٤٥) والترمذي في السنن (٣٠٣) والنسائي في السنن (٥٩/٣) .

فهو خير ؛ لأن كل كلمة فيها عشر حسنات ، وإن اقتصرت على : « السلام عليك » فهو كافٍ .
ويقول الراذ : « وعليكم السلام » ثم إن كان المسلم لم يزد على قول : السلام عليك . كفى ، وإن كان المسلم قد قال : « السلام عليك ورحمة الله » ؛ فعلى الراذ أن يقول : « السلام عليك ورحمة الله » لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ ﴾ يعني : ردوا مثلها . وقال : يستحب أن يقول : « وعليكم » بزيادة الواو ، وهذا حسن ، لأنه إذا قال : « وعليكم » صار واضحاً أنه معطوف على الجملة التي سلم بها المسلم ، وإن حذفها فلا بأس ، لأن إبراهيم عليه السلام لم يأت بالواو في رده السلام على الملائكة ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ۖ ﴾ [هود : ٦٩] ، ولم يأت بالواو ، فإن أتى بالواو فحسن ، وإن تركها فلا بأس .

ثم إنه من السنة إذا نُقِلَ السلام من شخص إلى شخص أن يقول : عليه السلام . وإن قال : عليك وعليه السلام ، أو عليه وعليك السلام ، فحسن ، لأن هذا الذي نقل السلام محسن ، فتكافئه بالدعاء له ، فإذا قال شخص لآخر : سلم لي على فلان ، ثم نقل الوصية وقال : فلان يسلم عليك ، فإنه يقول : عليه وعليك السلام ، أو يقول : عليه السلام ، ويقتصر ، لأن النبي ﷺ بلغ عائشة أن جبريل يقرأ عليها السلام ، فقالت : عليه السلام ، فدل ذلك على أنه إذا نقل السلام إليك أحد من شخص تقول : عليه السلام ، ولكن هل يجب عليك أن تنقل الوصية إذا قال : سلم لي على فلان ، أم لا يجب ؟ .

فصل العلماء فقالوا : إن التزمت له بذلك وجب عليك ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ۗ ﴾ وأنت الآن تحملت هذا ، أما إذا قال : سلم لي على فلان وسكت ، أو قلت له مثلاً : إذا ذكرت أو ما أشبه ذلك ؛ فهذا لا يلزم إلا إذا ذكرت ، وقد التزمت له أن تسلم عليه إذا ذكرت ، لكن الأحسن ألا يكلف الإنسان أحدًا بهذا ، لأنه ربما يشق عليه ، ولكن يقول : سلم لي علي من سأل عني ، هذا طيب ، أما أن يُحْمَلْ فإن هذا لا ينفع ، لأنه قد يستحي منك فيقول : نعم انقل سلامك ؛ ثم ينسى أو تطول المدة أو ما أشبه ذلك .

ثم ذكر حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان إذا تكلم تكلم ثلاثاً ، وإذا سلم سلم ثلاثاً ؛ لكنه يتكلم ثلاثاً إذا لم تفهم الكلمة عنه ، أما إذا فهمت فلا يكرر ، لكن لو لم تفهم لكون المخاطب ثقيل السمع ، أو لكثرة الضجة حوله أو ما أشبه ذلك فليعد مرتين ، فإن لم تكف فثلاث ، يعني وبعد الثلاث لا يجوز . كما أنه إذا استأذن للدخول في البيت ثلاث مرات ولم يؤذن له انصرف ، وكذلك هنا إذا تكلم ثلاث مرات ولم يكلمه ، أو لم يفهم يتركه ، كذلك إذا سلمت ولم يسمع المسلم عليه أعد مرة ثانية وثالثة ، وهكذا إذا سلمت ورد عليك ردًا لا يُجزي : كما لو قلت : السلام عليك . قال : أهلاً ومرحباً . أعد السلام قل : السلام عليك . إذا قال : أهلاً ومرحباً . أعد السلام قل : السلام عليك - ثلاث مرات - فإن لم ينفع فاتركه ، ولكن نبهه بأن قول القائل في الإجابة : أهلاً ومرحباً لا يكفي ، ولا بد أن يقول : عليك السلام ، إذا قيل : السلام عليك .

٨٥٤ - وعن المقداد رضي الله عنه في حديثه الطويل قال : كُنَّا نَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيئَةً مِنَ اللَّبَنِ ، فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ ، فَيَسْلُمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا ، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلَّمُ ^(١) . رواه مسلم .

٨٥٥ - وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ مرَّ في المسجد يومًا ، وعُصْبَةٌ مِنَ النِّسَاءِ قُعُودٌ ، فَأَلْوَى بِيَدِهِ بِالتَّسْلِيمِ ^(٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
وهذا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ ﷺ جَمَعَ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْإِشَارَةِ ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنْ فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ : « فَسَلَّمَ عَلَيْنَا » .
٨٥٦ - وعن أبي جُرَيْجٍ الهَجِيمِيِّ رضي الله عنه قال : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « لَا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلَامُ ، فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ تَحِيَّةَ الْمَوْتَى » ^(٣) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقد سبق بطوله .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها النووي في كتاب (رياض الصالحين) من آداب السلام منها حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدخل البيت في الليل فيسلم سلامًا خفيًا يسمعه اليقظان ولا يوقظ النائم ، وهكذا ينبغي للإنسان إذا دخل بيتًا أو حجرة أو ما أشبه ذلك وفيها نيام وأيقاظ ؛ أن يسلم سلامًا يسمعه الأيقاظ ولا يوقظ النيام ، لأن النائم لا يحب أن يوقظه أحد ، لاسيما أن بعض الناس إذا أوقظ ما يأتيه النوم بعد ذلك ويبقى أرقًا إلى الفجر ، وهذا فيه أذى وفيه ضرر على الآخرين . فإذا دخلت مكانًا فيه أيقاظ ونيام ؛ فأعط الأيقاظ حقهم في السلام ، وامنع الأذى عن النيام بحيث يكون السلام خفيًا يسمعه اليقظان ولا يسمعه النائم .

ثم ذكر المؤلف حديث أسماء بمرور النبي ﷺ على نساء في المسجد فألوى بيده إليهن بالتسليم وقال ﷺ : إن هذا محمول على أنه جمع بين التسليم باليد - بالإشارة - وكذلك باللسان ، لأن التسليم باليد فقط منهى عنه ، نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام ^(٤) وأما الجمع بينهما فلا بأس خصوصًا إذا كان الإنسان بعيدًا يحتاج إلى أن ينظر لليد التي يشير بها المسلم ، أو كان أصم لا يسمع وما أشبه ذلك ، فإنه يجمع بين السلام وبين الإشارة ، وأما ما يفعله بعض الناس إذا مرَّ وهو يركب سيارته ؛ فإنه يضرب البوق ، فإن هذا لا يكون سلامًا ، وليس من السنة ، اللهم إلا أن بعض الناس يقول : أنا لا أريد به السلام ، لكن أريد أن يتبه ثم أسلم عليه ، هذا أرجو ألا يكون به بأس ، وأما أن

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٧٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في الاستعذان (٢٦٩٧) ، والبيهقي في سننه (٢٤/٣) ، والعصبة : نحو العشرة ، وقيل : من العشرة إلى الأربعين .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٩) ، والترمذي في الاستعذان (٢٧٢٢) .

(٤) وذلك فيما رواه الترمذي في الاستعذان (٤٥/٧) .

يجعله بدلاً عن السلام ؛ فإن هذا - لاشك - خلاف السنة ، فالسنة أن يسلم الإنسان بلسانه - وإذا كان الصوت لا يُسمع - فإنه يشير بيده ، حتى ينتبه البعيد أو الأصم .

وفي حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ مرَّ بمسجد فيه عصابة من النساء ، فآلوى إليهن بالتسليم - أي سلَّم عليهن وأشار بيده - قال النووي : وهو محمول على أنه جمع بين السلام والإشارة ؛ وذلك لأن السلام بالإشارة فقط منهي عنه ، فالسلام لا بد أن يكون بالقول .

وفي الحديث سلام النبي ﷺ على النساء ، وذلك لأن المحذور متتفٍ غاية الانتفاء ، وإلا فإن الرجل الأجنبي الذي ليس مخزماً للمرأة لا يُسلَّم عليها ، لما في ذلك من الفتنة ، ولا سيما الشاب مع الشابة ؛ فإنه لا يسلم الرجل على المرأة ، ولا المرأة على الرجل ، لكن إذا كان الرجل معروفاً بالصلاح ، ومرَّ على نساء مجتمعات في المسجد ، أو في درس ، أو ما أشبه ذلك ؛ فلا بأس أن يُسلَّم ، لأن المحذور متتفٍ ، والمسجد كلنا يدخل فيه ويخرج ، لكن أن يمر الإنسان على المرأة الشابة في الشارع ، أو السوق ويسلم عليها فهذا فتنة ، فلا يسلم على المرأة ، كذلك لو دخل بيته - وفيه نساء يزن أهله - فلا بأس أن يسلم ، لأن المحذور متتفٍ ، وأما ما يخشى منه الفتنة ؛ فإن لدينا القاعدة الشرعية وهي : « درأ المفسد أولى من جلب المصالح » . ومن هنا نعلم أن مصافحة المرأة لا تجوز ، لا الكبيرة ولا الصغيرة ، لا من وراء حائل ولا مباشرة ، لأن الفتنة قائمة ^(١) . أما المخرم فيجوز . والله أعلم .

كذلك أيضاً في صيغة السلام تقدم أنها : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وإذا كانوا جماعة تقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وأما : عليك السلام ، فإن النبي ﷺ نهى عنها ، وقال : « إن هذه تحية الموتى » يعني أنهم كانوا في الجاهلية يسلمون على أمواتهم بمثل هذا ، مثل قول الشاعر : -
* عليك سلام الله قيس بن عامر *

فهم إذا خاطبوا الأموات - ولو كانوا غائبين - لكنهم يستحضرونهم كأنهم بين أيديهم ، يسلمون عليهم بهذا : عليك سلام الله ، فلهذا نهى ﷺ عن ذلك ، لأنه تحية الموتى ، ومشابهة لأهل الجاهلية في جاهليتهم ، فبدلاً من أن تقول : عليك السلام . قل : السلام عليك . هذا هو السلام . والله أعلم .



٨٥٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُسَلَّمُ الرَّكَّابُ عَلَى الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ » متفقٌ عليه . وفي رواية للبخاري : « وَالصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ » ^(٢) .

(١) هذا هو رأي من يرى أن مس المرأة ناقض للوضوء وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد والأكثر من أمثا من يرون أنه لا ينقض الوضوء فإنهم يرون أنه لا شيء فيه إن كان للضرورة (انظر : المجموع ٣٠/١ ، ٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٢) ، ومسلم في السلام (١) ، والإمام أحمد في مسنده (٥١٠/٢) .

٨٥٨ - وعن أبي أُمَامَةَ صُدِّي بن عَجَلَانَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلِي النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمُ بِالسَّلَامِ » رواه أبو داود بإسنادٍ جيد .
ورواه الترمذي عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الرَّجُلَانِ يَلْتَقِيَانِ ، أَيُّهُمَا يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ ؟ قال : « أَوَّلَاهُمَا بِاللَّهِ تَعَالَى » ^(١) . قال الترمذي : هذا حديثٌ حسنٌ .

الشرح

هذه الأحاديث في شيء من آداب السلام ذكرها النووي رحمته الله في (رياض الصالحين) في آداب السلام ، سبق الكلام عن بعضها ، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه من الذي يُسَلِّمُ ؟ . فنقول أولاً : خيرُ الناس من يبدأ الناس بالسَّلام ، وقد كان النبي ﷺ - وهو أشرف الخلق - يبدأ من لقيه بالسَّلام ، فأحرص على أن تكون أنت الذي تسلم قبل صاحبك ولو كان أصغر منك ، لأن خير الناس من يبدؤهم بالسَّلام ، وأولى الناس بالله من يبدؤهم بالسَّلام ، فهل تحب أن تكون أولى الناس عند الله ؟! كلنا يحب ذلك ، إذن فابدأ الناس بالسَّلام .

ثم ذكر النبي ﷺ أن الراكب يسلم على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير ، وذلك لأن الراكب يكون (متعلِّياً) فيسلم على الماشي ، والماشي متعلِّياً على القاعد فيسلم عليه ، والقليل يسلم على الكثير ، لأن الكثير لهم حق على القليل ، والصغير يسلم على الكبير ، لأن الكبير له حق على الصغير ، ولكن لو قلَّرت أن القليلين في غفلة ولم يسلموا فليسلم الكثيرون ، ولو قلَّرت أن الصغير في غفلة فليسلم الكبير ولا ترك السنة ، وهذا الذي ذكره النبي ﷺ ليس معناه أنه لو سلم الكبير على الصغير كان حراماً ، ولكن المعنى : الأولى أن الصغير يسلم على الكبير ، فإذا لم يسلم فليسلم الكبير ، حتى إذا بادرت بالسَّلام - كما قلنا من قبل - كان أفضل ، وأولى الناس بالله من يبدؤهم بالسَّلام .

١٣٤ - باب استحباب إعادة السلام على من تكرر لقاءه على قرب ،

بأن دخل ثم خرج في الحال أو حال بينهما شجرة ونحوها

٨٥٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث المسيء صلاته أنه جاء فصلًى ، ثُمَّ جاء إلى النبي ﷺ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فقال : « ازْجِعْ فَصْلٌ ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ » فَزَجَعَ فَصْلًى ، ثُمَّ جاء فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى قَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(٢) . متفقٌ عليه .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٩٧) ، والترمذي في الاستغنان (٢٦٩٤) . ومعنى قوله : « أولى الناس بالله » أي أحقهم بالقرب منه بالطاعة .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٧) ، ومسلم في الصلاة (٤٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٧/٢) .

٨٦٠ - وعنه : عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ ، فَلْيَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَإِنْ حَالَتَ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ ، ثُمَّ لَقِيَهُ ، فَلْيَسَلِّمْ عَلَيْهِ » ^(١) رواه أبو داود .

١٣٥ - باب استحباب السلام إذا دخل بيته

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحْبِبَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تُبْرَكَةُ طَيْبَةً ﴾ [النور : ٦١] .
٨٦١ - وعن أنس رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا بُنَيَّ ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ ، فَسَلِّمْ ، يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ ، وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذان البابان من آداب السلام ذكرهما النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) ، فذكر أن الإنسان إذا سلم على أخيه ثم خرج ورجع عن قرب أو عن بعد - من باب أولى - فإنه يعيد السلام مثلاً - إنسان عنده ضيوف في البيت فدخل إلى البيت يأتي لهم بماء أو طعام أو نحو ذلك ، فإنه إذا رجع يسلم ، وهذه من نعمة الله أنه يُسِّنُّ السلام وتكراره كلما غاب الإنسان عن أخيه ، سواء غيبة طويلة أو قصيرة ، فإن الله شرع لنا أن يسلم بعضنا على بعض ، لأن السلام عبادة وأجر كلما ازددنا منه ازددنا عبادة لله ، وازداد أجرنا وثوابنا عند الله ، ولولا أن الله شرع هذا لكان تكرار السلام على هذا الوجه من البدعة ، لكن من نعمة الله أنك إذا غبت عن أخيك ورجعت - ولو عن قرب - فإنك تسلم عليه ، سواء حال بينكما شجرة أو حجر كبير بحيث تغيب عنه فإنك إذا لقيته سلم عليه . ثم استدل المعلق رحمه الله بحديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة الرجل الذي دخل المسجد فصلى صلاة لا يطمئن فيها - ينقرها نقرًا - ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه السلام وقال : « ارجع فصل ، فإنك لم تصل » ، فرجع الرجل وصلى لكن كصلاته الأولى ، بدون طمأنينة ، ثم رجع فسلم على النبي ﷺ فرد عليه السلام وقال : « ارجع فصل ، فإنك لم تصل » ثلاث مرات ، والرجل يصلي صلاة لا يعرف غيرها ؛ لأنه جاهل ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا فعلمني . وهذا من حكمة الرسول ﷺ جعله يتردد ، يصلي هذه الصلاة التي لا تهزئ من أجل أن يشاق إلى العلم ويتشوف إليه ، فيرد العلم على قلبه ، وهو منفتح له محتاج إليه . ومعروف أن الشيء إذا جاء على الحاجة يكون أقبل للنفس ، انظر الآن تعطي الفقير عشرة ريال ، وهو محتاج ، يفرح بها فرحاً شديداً ، ويكون لها منزلة ، لكن لو أعطيتها غنياً لا تهمة . الحاصل : أن النبي ﷺ رد هذا الرجل من أجل أن يشاق إلى العلم وينفتح قلبه له فقال ﷺ : « إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن - ولكن الفاتحة لا بد منها لدلالة نصوص أخرى عليها - ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ، ثم ارفع حتى تطمئن

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٠) . (٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٦٩٨) .

قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً - هذه ركعة تامة - ثم افعل ذلك في صلاتك كلها » علمه الرسول ﷺ فتعلم ومشى .

فاستدل المؤلف بهذا الحديث على أن الإنسان إذا رجع إلى أخيه ولو من قرب فَلْيُسَلِّمْ عليه ؛ مثلاً أنت في المسجد ثم انصرفت لتجديد الوضوء ، أو إحضار كتاب ، أو ما أشبه ذلك ، ثم رجعت فسلم ، وهذا خير ، فكل سلام بعشر حسنات .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أنه من السنة إذا دخل الإنسان بيته أن يسلم ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ۝ ﴾ .

إذا دخلت بيتك فسلم ، لكن أول ما تدخل تبدأ به السواك ، ثم سلم على أهلِكَ ، وقد أوصى النبي ﷺ أنس بن مالك - وهو خادمه - قال : « يا بني إذا دخلت على أهلِكَ فسلم ؛ تكن بركة عليك وعلى أهلِكَ » (١) ولهذا قال الله تعالى : ﴿ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ۝ ﴾ ، فإذا دخلت البيت فسلم على من فيه سواء أهلِكَ ، أو زملائك ، أو ما أشبه ذلك ؛ فهذا من السنة .

* * *

١٣٦ - باب السلام على الصبيان

٨٦٢ - عن أنس رضي الله عنه أنه مرَّ على صبيان ، فسَلَّم عليهم ، وقال : كَانَ رسول الله ﷺ يقول : « يَغْتَفَلُهُ » (٢) . متفقٌ عليه .

١٣٧ - باب سلام الرجل على زوجته والمرأة من محارمه

وعلى أجنبية وأجنبيات لا يخاف الفتنة بهن وسلامهن بهذا الشرط

٨٦٣ - عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : كَانَتْ فِينَا امْرَأَةٌ - وفي رواية : كَانَتْ لَنَا عَجُوزٌ - تَأْخُذُ مِنْ أَصُولِ السَّلَاقِ فَتَطْرَحُهُ فِي الْقَدِيرِ ، وَتُكْرِكُ حَبَابَ مِنْ شَعِيرٍ ، فَإِذَا صَلَّيْنَا الْجُمُعَةَ وَانْصَرَفْنَا ، نُسَلِّمُ عَلَيْهَا ، فَتَقْدُمُهُ إِلَيْنَا (٣) . رواه البخاري . قوله : « تكرر » أي تطحن .

٨٦٤ - وعن أمِّ هانئٍ فَاحِشَةُ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ وَهُوَ يَغْتَسِلُ ، وَفَاطِمَةُ تَشْتَرُهُ بِثَوْبٍ ، فَسَلَّمْتُ ، وَذَكَرْتُ الْحَدِيثَ (٤) . رواه مسلم .

(١) أخرجه الترمذي في الاستعذان (٢٦٩٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٦٠/٢) قوله : « يكون بركة » أي يكون السلام سبباً في زيادة البركة وكثرة الخير والرحمة .

(٢) أخرجه البخاري في الاستعذان (٦٢٤٧) واللفظ له ، ومسلم في السلام (١٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الاستعذان (٦٢٤٨) .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٥٩) واللفظ له ومسلم بنحوه في الحيض (٧٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٢٣/٦) .

الشرح

قال المؤلف في كتابه (رياض الصالحين) في آداب السلام : باب السلام على الصبيان ؛ يعني الصغار من سن التمييز إلى سن الثانية عشرة ونحوها ، وقد جرت عادة الكثير من الناس ألا يسلم على الصبيان استخفافاً بهم ، ولكن هذا خلاف هدي النبي ﷺ حيث كان يسلم على الصغير والكبير ، فهذا أنس بن مالك ؓ مر على صبيان فسلم عليهم وقال : إن النبي كان يفعل . أي كان يسلم على الصبيان . وللسلام على الصبيان أكثر من فائدة :

١ - اتباع السنة - سنة النبي ﷺ - وقد قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ ^(١) [الأحزاب : ٢١] .

٢ - التواضع ، حتى لا يذم الإنسان بنفسه ، ويشمخ بأنفه ، ويعلو برأسه ، وقد قال النبي ﷺ : « ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه » ^(٢) .

٣ - تعويد الصبيان لحسن الأخلاق ؛ لأن الصبيان إذا رأوا الرجل يمر بهم ويسلم عليهم تعودوا ذلك ، واعتادوا هذه السنة المباركة الطيبة .

٤ - أن هذا يجلب المودة للصبي ، بمعنى أن الصبي يحب الذي يسلم عليه ويفرح لذلك ، وربما لا ينساها أبداً ، لأن الصبي لا ينسى ما مر به .

فينبغي لنا إذا مررنا على صبيان يلعبون في السوق ، أو جالسين يبيعون شيئاً ، أو ما أشبه ذلك ؛ أن نسلم عليهم لهذه الفوائد التي ذكرناها .

أما السلام على النساء : فالسلام على المحارم من النساء والزوجات شئ ، والمحارم : يعني اللاتي لا يحل لك أن تتزوج بهن ، تسلم عليهن ، ولا حرج في ذلك ، تسلم على زوجتك ، أختك ، عمتك ، بنت أخيك ، بنت أختك ، ولا حرج في هذا ، أما الأجانب : فلا تسلم عليهن ، اللهم إلا العجائز الكبيرات إذا كنت آمناً على نفسك من الفتنة ، وأما إذا خفت الفتنة فلا تسلم ، ولهذا جرت عادة الناس اليوم أن الإنسان لا يسلم على المرأة إذا لاقاها في السوق ، وهذا هو الصواب ، ولكن لو أتيت بيتك ووجدت فيه نساء من معارفك وسلمت فلا بأس ولا حرج بشرط أمن الفتنة ، وكذلك المرأة تسلم على الرجل بشرط أمن الفتنة .

وذكر المؤلف رحمه الله حديث المرأة التي كانت تأخذ من « أصول السلق » وهو نوع من الشجر ، وأصوله طيبة تصلح إداماً ، فتأخذ من هذه الأصول وتلقيها في الماء ، وتغليها على النار ، وتكرر عليها حبات من شعير ، فإذا خرج الصحابة جاء إليها من شاء منهم يسلم عليها ، ويأكل من هذا السلق ويفرحون به ، لأن الصحابة ؓ لم يكونوا أغنياء إلا بعد أن فتح الله عليهم ، كما قال تعالى :

(١) قوله تعالى : ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ أي : قدوة .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥/٢) .

﴿ وَمَقَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ١٩] وقال : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَقَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ [الفتح: ٢٠] فكثرت الأموال بعد الفتوح ، أما قبل ذلك فإن غالبية الصحابة كانوا فقراء .

٨٦٥ - وعن أسماء بنت يزيد رضي عنها قالت : مرَّ علينا النبي ﷺ في نِسْوَةٍ فسلمَ عَلَيْنَا ^(١) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن ، وهذا لفظ أبي داود ، ولفظ الترمذي : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مرَّ في المَسْجِدِ يَوْمًا وَعُصْبَةٌ مِنَ النِّسَاءِ قُعُودٌ ، فَأَلَوَى بِيَدِهِ بِالتَّسْلِيمِ .

* * *

١٢٨ - باب تحريم ابتدائنا الكافر بالسلام وكيفية الرد عليهم
واستحباب السلام على أهل مجلس فيهم مسلمون وكفار

٨٦٦ - عن أبي هريرة رضي عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَصْبَحِهِ » ^(٢) رواه مسلم .

٨٦٧ - وعن أنس رضي عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا : وَعَلَيْكُمْ » ^(٣) متفقٌ عليه .

٨٦٨ - وعن أسامة رضي عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مرَّ عَلَى مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ - عُبْدَةُ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودَ - فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ ^(٤) . متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف في كتابه (رياض الصالحين) في حكم السلام على الكفار الخالص ، وعلى الكفار المختلطين بالمسلمين وقد سبق الكلام على المسلمين الخالص ، وأنه سنة مؤكدة .

أما السلام على الكفار : فإنه لا يحل لنا أن نبدأهم بالسلام ؛ يعني لا يجوز للإنسان إذا مر بالكافر أو دخل عليه أن يقول : السلام عليك ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك كما في حديث أبي هريرة رضي عنه وذلك لأن تسليمنا عليهم فيه نوع من الذل لهم ، ونوع من الإكرام لهم ، لأن التحية والسلام إكرام ، والكافر ليس أهلاً للإكرام ، بل الكافر حقه منا أن نغيظه ، وأن نذله ، وأن نهينه ، لأن الله ﷻ قال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَقْتُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح: ٢٩] قال : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ يعني أقوياء عليهم ، أعزة عليهم . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَقْتُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِبْغَانًا فِي وُجُوهِهِمْ ﴾

- (١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٤) ، والترمذي في الاستئذان (٢٦٩٧) .
(٢) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، والترمذي في السير (١٦٠٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٨) ، ومسلم في السلام (٧) .
(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٤) ، ومسلم في الجهاد والسير (١١٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٣/٥) .

مِنْ أَمْرِ الشُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَحٍ أَخْرَجَ سَطَنَهُ فَازَرَهُ فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴿١﴾ هذا الشاهد ، وقال تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَلَا يَطْلُوتُ مَوْطِنًا يَبْغِطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُوتُ مِنْ عَذَابٍ نِيلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ^(١) [التوبة: ٢٠] ابتداءً بإياهم بالسلام لإكرام لهم وإعزاز لهم ، والمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً على الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿ يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنْدِ مَنْهُمْ عَنْ يَدَيْهِمْ فَتَوَفَّى إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُغَوَّرُ الْهُيُومَةُ أُولَئِكَ عَلَى الْكُفَرَيْنِ أَعَزُّ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢) [المائدة: ٥٤] فهم لهم العزة على الكافرين يعني يرى المسلم أنه أعز من الكافر وأن له العزة عليه ، ولهذا لما كثرت العمالة النصرانية بيننا اليوم ذهب الغيرة من القلوب ، وكان النصراني أو اليهودي أو البوذي أو الوثني كأنه لا يخالفنا إلا كما يخالف المالكي الحنبلي ، والشافعي ، أو ما أشبه ذلك عند بعض الناس الذين يظنون أن اختلافنا مع أهل الكفر كاختلاف المذاهب الأربعة في الإسلام نسأل الله العافية .

وهذا لا شك أنه من موت القلوب ، فلا يحل للإنسان أبداً أن يعز الكافر . والمشروع أن نعمل كل ما فيه غيظ لهم ، ولكن يجب علينا أن نفي لهم بالعهد الذي بيننا وبينهم - إذا كان بيننا وبينهم عهد - فمثلاً : عمال ولو كانوا نصارى ، أولاً : نقول لا تأتي بعمال نصارى في الجزيرة العربية ، لأن الرسول ﷺ قال : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب » ^(٣) وأمر فقال : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » ^(٤) وقال وهو في مرض موته : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » ^(٥) فلا تأتي بكافر وأنت يمكنك أن تأتي بمسلم ، وأما ما يعتقد من أمات الله قلبه - والعياذ بالله - أو بما نقول : أزاح الله قلبه ، يقول : أنا آتي بعمال كفار ، لأنهم لا يصلون ، فلو صلوا لنقص العمل ، وحتى لا يصوموا ومن ثم فلا ينقص العمل ؛ وحتى لا يذهبوا لعمرة أو حج ومن ثم فلا ينقص العمل ، فهذا - والعياذ بالله - ممن اختار الدنيا على الآخرة نسأل الله العافية .

فالخاصل : أنه لا يجوز أن نبدأ أي كافر بالسلام ، لا يهودي ولا نصراني ولا بوذي ولا وثني ، فأَيُّ إنسان على غير الإسلام لا يجوز أن نبدأه بالسلام .

قال : « وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقة » ، يعني : لا توسع لهم الطريق ، فلو تلاقي جماعة من المسلمين ، وجماعة من الكفار في الطريق فعلى المسلمين ألا يفسحوا لهم المجال ، ولو تفرقوا في الطريق ؛ لأنك إذا أفسحت الطريق لهم يُعَدُّ هذا إكراماً .. أو ما أشبه ذلك .

إذا : لماذا تعاملهم هذه المعاملة ، تعاملهم بهذه المعاملة لأنهم أعداء لله - قبل كل شيء - وأعداء

(١) قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَطْلُوتُ مَوْطِنًا ﴾ أي : لا يدسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيلهم ، وقوله تعالى : ﴿ يَنَالُوتُ مِنْ عَذَابٍ ﴾ بقتل أو أسر أو جراحة أو غنيمية أو غير ذلك .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى الْكُفَرَيْنِ أَعَزُّ ﴾ أي : أشد غلظاء عليهم .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٦٣) ، والترمذي في السنن (١٦٠٧) ، وأبو داود في السنن (٣٠٣٠) ، وأحمد في مسنده (٣٤٥/٣) .

(٤) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٢٢٧/٣) ، والهندي في كنز العمال (١١٠/٥) .

(٥) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٦٨) ، ومسلم في الوصية (٢٠) ، وأحمد في مسنده (٢٢٢/١) .

لنا ، قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ
الْحَقِّ ﴾ ^(١) [المتحنة : ١] فهم أعداء الله أولاً - قبل كل شيء - وثانياً أعداء لنا ، وأفعالهم بالمسلمين
سابقاً ولاحقاً وإلى اليوم تدل على ذلك ؛ على شدة عداوتهم للمسلمين ، فلا يجوز أن نسلم عليهم ،
ولكن إذا سلموا ماذا نقول ؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إذا سلموا عليكم فقولوا : وعليكم »
فقط ، لا ترد على هذا ، لماذا ؟ لأنهم في عهد الرسول ﷺ كانوا يسلمون على المسلمين لكن سلام
خييئ يقولون : « السام عليكم » يعني : الموت . فيظن من يسمعونهم أنهم يقولون : السلام عليكم .
وهم يقولون السام عليكم - يعني الموت - فانظر إلى العداوة حتى في التحية ، لذا قال النبي ﷺ :
قولوا : وعليكم - فقط - فإن كانوا قد قالوا : السام ، فعليهم ، وإن كانوا قد قالوا : السلام ، فعليهم ،
وهذا من العدل ، لأن الله قال : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ وهذا عدل ، ولهذا قال
بعض العلماء : إذا قال الكافر : السلام عليك - باللام الواضحة - فقل : عليك السلام ، لأنه زال الأمر
الذي بنى عليه الرسول ﷺ قوله : « قولوا : وعليكم » كما في حديث ابن عمر في البخاري إنهم
يقولون : « السام عليكم فإذا سلموا فقولوا : وعليكم » ^(٢) . وهذه علة واضحة ، لأن السبب أننا نقول :
وعليكم ، لأنهم يقولون : السام عليكم ، أما إذا قالوا السلام صراحة ، فنقول : وعليكم السلام ، لأن
أقوم الناس بالعدل هم المسلمون - والحمد لله - فإذا قالوا : السلام عليكم . نقول : وعليكم السلام .
وإن قالوا : أهلاً وسهلاً . فقل : أهلاً وسهلاً : وإن قالوا : مرحباً . فقل : مرحباً . فنعطيهما مثل ما يعطوننا .
لكن قد أشكل على بعض الناس الآن أننا ابتلينا بقوم من الكفار يكونون رؤساء في بعض الشركات
فيدخل المسلم على مكتب الرئيس - رئيس الشركة - وهو يهودي أو نصراني فماذا يقول .. ؟ نقول :
يسلم ويقول : السلام فقط . وينوي بذلك أنه السلام عليه هو أي على المسلم ، لأنك إذا حذف المتعلق
فلا يدري لمن هذا السلام ، وهذا إذا خفت من شره ، أما إذا لم تخف من شره وأنه رجل لا يبالى
سلمت أم لم تسلم ، فادخل لقضاء مصلحتك منه بدون سلام ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال :
« لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام » . لكن إذا خفت من شره فنقول السلام فقط .

واختلف العلماء - رحمهم الله - هل يجوز أن نبدأهم بغير السلام مثل : مرحباً ، أهلاً وسهلاً ؟ فمنهم
من قال : لا بأس به تأليفاً ، لاسيما إن خاف منه أو من شره . ومنهم من قال : لا ، لأن ذلك فيه تعظيم له ،
والإنسان في هذه الحال - مرحباً ، أهلاً .. وما أشبه ذلك - ينظر ما تقتضيه الحاجة أو المصلحة .
ثم ذكر المؤلف حديث : إذا مر الإنسان بجمع فيه مسلمون وكفار ، هل يترك السلام ، لأن فيه
كفاراً أم يسلم لأن فيه مسلمين ؟

اجتمع الآن سببان : مبيح وحافظ . المبيح : وهم المسلمون ، والحافظ : - المانع - وهم الكفار ،
لكن هنا يمكن تشذير الحكم ^(٣) ، وإلا فالقاعدة الشرعية أنه إذا اجتمع مبيح وحافظ وتعذر انفكاك

(١) قوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ : أي ترسلون إليهم الأخبار .

(٢) تشذير الحكم : أي تزيينه وتحسينه .

(٣) سبق تخريجه .

أحدهما عن الآخر ؛ فإنه يغلب جانب الحاضر - أى المنع - لكن إذا أمكن الانفكاك : تسلم وتنوي على المسلمين ؛ لأن النبي ﷺ مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المشركين واليهود ، وفيهم مسلمون فسلم عليهم ^(١) . والله الموفق .

وختم المؤلف رحمه الله - كتاب السلام وآدابه - بهذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في الرجل إذا جاء إلى المجلس ثم قام منه ، ومن المعلوم أن الإنسان إذا دخل على قوم فإنه يسلم عليهم - كما سبق - والسلام سنة مؤكدة ، وردة فرض عين على من سلم عليه ، وإذا كانوا جماعة فهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقيين ، لكن إذا كانوا جماعة وكان من المعلوم أن المسلم يريد بالقصد الأول واحدًا منهم وجب على هذا الواحد أن يرد ، مثلاً أن كانوا طلبة ومعهم معلمهم ، والذي دخل وسلم يريد بالقصد الأول نفس المعلم ؛ فإنه يجب على المعلم أن يرد ولا يكفي ردُّ الجماعة - كالطلبة مثلاً - وكذلك لو كان أمير مع رجاله وشرطته ، فدخل إنسان وسلم ؛ فإنه من المعلوم أن المقصود بالقصد الأول هو الأمير ، فيجب عليه أن يرد ، أما إذا كانوا جماعة متساوين ولم يعلم أن واحدًا منهم هو المقصود بالقصد الأول ، فإنه إذا رد أحدهم السلام كفى ، لأن رد السلام فرض كفاية .

١٣٩ - باب استحباب السلام
إذا قام عن المجلس وفارق جلساءه أو جلسه

٨٦٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » ^(٢) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

ففي هذا الحديث أن الرجل إذا دخل على المجلس فإنه يسلم ، فإذا أراد أن ينصرف وقام وفارق المجلس فإنه يسلم ، لأن النبي ﷺ أمر بذلك ، وقال : « ليست الأولى بأحق من الثانية » . يعنى : كما أنك إذا دخلت تسلم كذلك إذا فارقت فسلم ، ولهذا إذا دخل الإنسان المسجد سلم على النبي ﷺ ، وإذا خرج سلم عليه أيضًا ، وإذا دخل مكة لعمره أو حج بدأ بالطواف وإذا فارق مكة وخرج ختم بالطواف ، لأن الطواف تحية مكة لمن دخل بحج أو عمرة ، وكذلك وداع مكة لمن أتى بحج أو عمرة ثم سافر ، وهذا من كمال الشريعة أنها جعلت المبتدى والمتنهي على حد سواء في مثل هذه الأمور ، والشريعة - كما نعلم جميعًا - من لدن حكيم خبير كما قال تعالى : ﴿ كُنْتُ أَهْكُتْ بِإِثْنَيْتَيْ ثُمَّ قُوتِلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [مرد : ١] فتجدها كلها متناسقة متصاحبة ليس فيها تناقض ولا تعريض حتى إن

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٦) ، ومسلم في الجهاد (١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٠٣/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٨) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠٦) .

الرسول عليه الصلاة والسلام نهى أن يمشى الرجل بنعل واحد - ولو لإصلاح الأخرى - لماذا .. ؟ لأنك إذا خصصت إحدى قدميك بالنعل ؛ صار ذلك جوراً وعدم عدل ، فهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية جاءت بالعدل في كل شيء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] والله الموفق .

* * *

١٤٠ - باب الاستئذان وآدابه

قال الله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنَّا بَلَّغْنَاكَ الْأَمْلَقَ نَسُوءًا مِّنْكُمْ أَلَمْ نَقُلْ لَّكَ قُلْ لَّيْسَ لِي مِنَ الشَّيْءِ عَلَيْهِمْ ذِكْرٌ ﴾ [النور: ٥٩] .

٨٧٠ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك وإلا فارجع » ^(١) متفق عليه .

٨٧١ - وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما يجمل الاستئذان من أجل البصر » ^(٢) متفق عليه .

٨٧٢ - وعن ربيعة بن جراح قال : حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت ، فقال : أليج ؟ فقال رسول الله ﷺ لحاجته : « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

٨٧٣ - عن كلدة بن الحنبل رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ ، فدخلت عليه ولم أسلم ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم أأدخل ؟ » ^(٤) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه رياض الصالحين باب الاستئذان وآدابه ، والاستئذان : يعني طلب الإذن أن تطلب من صاحب البيت أن يأذن لك في الدخول فإن أذن لك فادخل ، وإن لم يأذن لك فلا تدخل

- (١) أخرجه مسلم بلفظه في الآداب (٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧) ، وأخرجه البخاري بنحوه في الاستئذان (٦٢٤٥) .
- (٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤١) ، ومسلم في الآداب (٤٠) ، والبيهقي في سننه (٣٣٨/٨) .
- (٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٧٧) ، والبيهقي في السنن ٣٤٠/٨ وقوله : (أليج .. ؟) من الولوج أي : أدخل .
- (٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٧٦) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧١٠) .

حتى لو قال لك بصراحة : ارجع ، فارجع كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٨] وأنت يا صاحب البيت لا تستحي أن تقول : ارجع ، وأنت أيها المستأذن لا تغضب عليه إذا قال لك ارجع ؛ لأن الإنسان قد يكون في حاجة ، وقد يكون غير مستعد لاستقبال الناس ، فلا يمكن أن تلجئه وتخرجه ، وإذا رجعت بعد أن قال لك : ارجع ، فإن الله يقول أن ذلك هو أذكى لك ﴿ فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أي : أذكى لقلوبكم وأطهر . وذكر المؤلف رحمه الله آيتين من كتاب الله :

الآية الأولى : وقد سبق الكلام عليها - وهى قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾ وقلنا : إن معنى الاستئناس يعني أن تستأذنا ، أو أن تعلموا علم اليقين أن صاحبكم مستعد لدخولكم ، ومن ذلك : إذا واعدك الإنسان قال لك مثلاً : ائتنى بعد صلاة الظهر ، فإذا وجدت الباب مفتوحاً فهو إذن . فأنت إذا أتيت لا حاجة لأن تستأذن ، لأن صاحب البيت قال لك : ائتنى في الموعد المحدد ، فإذا وجدت الباب مفتوحاً فهذا إذن ، فالإذن لا فرق بين أن يكون سابقاً أو لاحقاً ، مادام قد علمت أن الرجل لم يفتح بابه إلا من أجل أن تدخل ، وبينك وبينه موعد فادخل ، ولكن لا بأس - بل الأولى بلا شك - أن تسلم عند الدخول لو لم يكن في ذلك إلا أن تحصل أجر السلام وثوابه والدعاء من أخيك حيث يقول لك : وعليك السلام .

أما الآية الثانية : فهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْاُلْفُذِلْ مِنْكُمْ الْحُلُمُ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ إذا بلغوا الحلم يعنى : بلغوا بالإنزال ، لكن كُنْى عنه بالحلم ، لأن الغالب أن الإنسان لا يخرج منه المنى أول ما يخرج إلا بالاحتلام ، وإن كان بعض الناس يبلغ بدون احتلام لكن الغالب أنه يحتلم ، فإذا بلغ الطفل الحلم فإنه لا يدخل البيت إلا باستئذان ، أما قبل ذلك فأمره هين ، لكن هناك ثلاث عورات لابد من الاستئذان فيها ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمُ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ .

الأولى : ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ ﴾ .

والثانية : ﴿ وَبَيْنَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ .

والثالثة : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ﴾ .

هذه الأوقات لابد أن نستأذن فيها ؟ حتى الصغار لابد وأن يستأذنا ، لأن الإنسان في هذه الأوقات الثلاثة قد يكون متهيئاً للنوم وعليه ثياب لا يحب أن يطلع عليه أحد ، فلذلك لابد من الاستئذان في هذه الساعات الثلاث .

وأما بالنسبة للنظر - نظر الطفل للمرأة - فليس مقيداً بالبلوغ ، بل هو مقيد بما إذا عُرف من الطفل أنه ينظر إلى المرأة نظر شهوة ، فإذا علم ولو لم يكن له إلا عشر سنوات فإنه يجب عليها أن تحتجب عنه ، لأن الله قال : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضِينَ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُوهِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِمُؤَلِّيَهُنَّ ﴾ [النور: ٣١] يعنى -

أزواجهن - إلى أن قال : ﴿ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِي تَرَىٰ يُظْهِرُوا عَلَىٰ غُرَّتِ النِّسَاءِ ﴾ قال العلماء : الذين لم يظهروا على عورات النساء : يعنى : ليس لهم غرض في النساء ولا يسري على بالهم المرأة ، بعض الأطفال من حين ما يتم له عشر سنوات وهو ينظر إلى النساء نظر شهوة ، وهذا يختلف - كما قلت - قد يكون هذا الطفل يجلس مع قوم أكثر حديثهم في النساء ، فهذا تربي فيه الشهوة الجنسية مبكراً ، وقد يكون عند قوم ليس همهم إلا الدرس وحفظ القرآن وما أشبه ذلك ولا يسري على بالهم هذا الشيء فلا تنمو فيه هذه الغريزة ، على كل حال فإذا عرفنا أن الطفل يطّلع على عورة المرأة ، ويتكلم في النساء ، وأشبعت نظراته نظرة الإنسان المشتبه ، فإنه يجب على المرأة أن تحتجب عنه ولو لم يكن له إلا عشر سنين ، مع أن العلماء - رحمهم الله - يقولون : يمكن لمن تم له عشر سنين أن يأتي له أولاد يعني وعنده (١١) سنة فلا تستغرب إذا جاء له ولد إذا تزوج وجامع زوجته فلا تستغرب ، ويذكر أن عمرو بن العاص ليس بينه وبين ابنه عبد الله إلا إحدى عشرة سنة ! وقال الشافعي رحمه الله : رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة - عندنا الآن تبلغ الواحد والعشرين وما تزوجت حتى الآن - لأن المرأة يمكن أن تبلغ - تحيض - ولها تسع سنوات ، فإذا قدرنا أنها تزوجت ولها تسع سنوات - يعنى في العاشرة - وحملت في أول سنة ، وأتت بنت ، ثم إن البنت لما تم لها تسع سنوات تزوجت في العاشرة - كم هكذا ، (٢٠) سنة ، يأتيها ولد في الحادي والعشرين فتكون جدته - أم البنت - والشافعي رحمه الله صدوق يقول : رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة .

والحاصل أنه إذا بلغ الطفل الحلم فلا يدخل البيت إلا باستئذان ، وإذا اطلع على عورات النساء وصار يتكلم فيهن وينظر إليهن بشهوة ، فإنه يجب أن تستتر عنه المرأة - ولم لو يتم له إلا عشر سنوات ، والله الموفق .

* * *

١٤١ - باب بيان أن السنة إذا قيل للمستأذن من أنت

ان يقول : فلان فيسمي نفسه بما يعرف به من اسم أو كنية

وكرهاة قوله « أنا » ونحوها

٨٧٤ - عن أنس رضي الله عنه في حديثه المشهور في الإسراء قال : قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ صَعِدَ بِي جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ . ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ وَسَائِرِهِنَّ ، وَيُقَالُ فِي بَابِ كُلِّ سَمَاءٍ : مَنْ هَذَا ؟ فَيَقُولُ : جِبْرِيلُ » (١) متفق عليه .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، وقد أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧) ، ومسلم في الإيمان (٢٥٩) . قوله : « فاستفتح » أي طلب من الملك الموكل بها الفتح ، وإنما لم يُفتح له ﷺ قبل مجيئه ليطهر جلياً أن فتحها إنما هو لكرامة المصطفى ﷺ ، وأن ذلك ليس عادة فيها .

٨٧٥ - وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : خَرَجْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي وَخَدُهُ ، فَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي ظِلِّ الْقَمَرِ ، فَالْتَفَتَ فَرَأَنِي فَقَالَ : « مَنْ هَذَا ؟ » فَقُلْتُ : أَبُو ذَرٍّ ^(١) . متفقٌ عليه .

٨٧٦ - وعن أُمِّ هَانِيٍّ رضي الله عنها قالت : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ تَسْتُرُهُ ، فَقَالَ : « مَنْ هَذِهِ ؟ » فَقُلْتُ : أَنَا أُمُّ هَانِيٍّ ^(٢) . متفقٌ عليه .

٨٧٧ - وعن جابر رضي الله عنه قال : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَدَقَّقْتُ الْبَابَ ، فَقَالَ : « مَنْ ذَا ؟ » فَقُلْتُ : أَنَا ، فَقَالَ : « أَنَا أَنَا !؟ » كَأَنَّهُ كَرِهَهَا ^(٣) . متفقٌ عليه .

١٤٢ - باب استحباب تسميت العاطس إذا حمد الله تعالى وكراهية تسميته
إذا لم يحمد الله تعالى وبيان آداب التسميت والعطاس والتثاؤب

٨٧٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْعَطَّاسَ ، وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ ، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ حَقًّا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِذَا تَنَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُرِدِّهِ مَا اسْتَطَاعَ ، فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا تَنَاءَبَ ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ » ^(٤) . رواه البخاري .

٨٧٩ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ . فَإِذَا قَالَ لَهُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَلْيَقُلْ : يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحَ بِالْكُم » ^(٥) . رواه البخاري .

٨٨٠ - وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتُوهُ ، فَإِنْ لَمْ يَحْمِدِ اللَّهَ فَلَا تُشَمِّتُوهُ » ^(٦) . رواه مسلم .

٨٨١ - وعن أنس رضي الله عنه قال : عَطَسَ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَشَمَّتْ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ ، فَقَالَ الَّذِي لَمْ يُشَمِّتْهُ : عَطَسَ فُلَانٌ فَشَمِّتُهُ ، وَعَطَسْتُ فَلَمْ تُشَمِّتْنِي ؟ فَقَالَ : « هَذَا حَمِيدُ اللَّهِ ، وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمِدِ اللَّهَ » ^(٧) . متفقٌ عليه .

(١) هذا الحديث لم يقدّمه الشارح رحمه الله بشرحه . أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٣) ، ومسلم في الزكاة (٣٣) .

(٢) هذا الحديث لم يقدّمه الشارح بشرحه . أخرجه البخاري بلفظه في الغسل (٢٨٠) ، ومسلم في الحيض (٧٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٢٣٦ ، ٤٢٥٠) .

(٣) هذا الحديث لم يقدّمه الشارح بشرحه . أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٠) ، ومسلم في الآداب (٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٢٠/٣) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧١١) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٦) . (٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٤) .

(٦) أخرجه مسلم في الزهد (٥٤) .

(٧) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٥) ، ومسلم في الزهد (٥٣) .

٨٨٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وخفّض - أو غصّ - بها صوته شك الراوي ^(١) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٨٨٣ - وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله ﷺ ، فيجئون أن يقول لهم : يزخّمكم الله ، فيقول : « يهديكم الله ويصلح بالكم » ^(٢) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٨٨٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تئأب أحدكم فليغسل يديه على فيه ، فإن الشيطان يدخل » ^(٣) . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمته الله في كتاب رياض الصالحين : باب استحباب تسميت العطاس إذا حمد الله تعالى وبيان آداب العطاس ، والتأؤب .

العطاس من الله ﷻ يحبه الله كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله يحب العطاس » والسبب في ذلك : أن العطاس يدل على النشاط ، والخفة ، ولهذا تجد الإنسان إذا عطس نشط ، والله ﷻ يحب الإنسان النشط الجاد ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » ^(٤) ، والعطاس يدل على الخفة والنشاط ، لهذا كان محبوباً إلى الله ، وكان مشروفاً للإنسان إذا عطس أن يقول : الحمد لله ؛ لأنها نعمة أعطيها فليحمد الله عليها ، فيقول : الحمد لله إذا عطس ، سواء أكان في الصلاة أو خارج الصلاة في أي مكان كان ، إلا أن العلماء - رحمهم الله - يقولون : إذا عطس - وهو في الخلاء - فلا يقول بلسانه « الحمد لله » ، ولكن يحمد بقلبه ؛ لأنهم يقولون - رحمهم الله - إن الإنسان لا يذكر الله في الخلاء ، فإذا عطس الإنسان وحمد الله كان حقاً على كل من سمعه أن يقول له : « يرحمك الله » فيدعو له بالرحمة جزاء له على حمده لله ﷻ فإنه لما حمد الله كان من جزائه أن إخوانه يدعون له بالرحمة .

وقوله : « كان حقاً على كل من سمعه » ظاهره أنه يجب على كل السامعين بأعيانهم ، ويؤيده قوله في الحديث الآخر : « إذا عطس فحمد الله فشمّثوه » ^(٥) .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٢٩) والترمذي في الأدب (٢٧٤٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٣٨) والترمذي في الأدب (٢٧٣٩) . قوله : (يتعاطسون) أي يظهرون العطاس بصوت يشبهه أو يطلبون أسبابه بنحو إظهار الرأس وغير ذلك .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٥٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٩٦/٣) .

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) ، وأحمد في مسنده (٣٧٠/٢) ، وابن ماجه في السنن (٤١٦٨) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٦٥/٤) .

وذهب بعض العلماء إلى أن : تشميت العاطس فرض كفاية ، يعني إذا قال واحد من الجماعة : يرحمك الله ، كفى ، لكن الاحتياط أن يشمته - أي يدعو له بالرحمة - كل من سمعه كما جاء في الحديث .
وأما التثاؤب : فإنه من الشيطان ، ولهذا كان الله يكرهه ، لماذا ؟ لأن التثاؤب يدل على الكسل ، ولهذا يكثر التثاؤب فيمن كان فيه نوم ، ولأجل أنه يدل على الكسل كان الله يكرهه ، ولكن إذا تئأب فالأولى أن يرده - أي يرد التثاؤب - يكظمه ويتصبر ، قال العلماء : وإذا أردت أن تكظمه فقص على شفتك السفلى ، وليس عَضًا شديدًا فتقطع ، ولكن لأجل أن تضمها حتى لا يفتح الفم ، فالهم أن تكظم سواء بهذه الطريقة أو غيرها ، فإن عجزت عن الكظم فضع يدك على فمك ، وما ذكره بعض العلماء - رحمهم الله - أنك تضع ظهرها على الفم فلا أصل له ، وإنما تضع بطنها - هكذا - تسد الفم ، والسبب في ذلك أن الإنسان إذا تئأب ضحك الشيطان منه ؛ لأنه - أي الشيطان - يعرف أن هذا يدل على كسله وعلى فقوره ، والشيطان يحب من بني آدم أن يكون كسولاً فتوراً^(١) ، أعاذنا الله وإياكم منه - ويكره الإنسان النشيط الجاد الذي يكون دائماً في حزم وقوة ونشاط ، فإذا جاءك التثاؤب فإن استطعت أن تكظمه وتمنعه فهذا هو السنة وهذا هو الأفضل ، وإن لم تقدر فضع يدك على فمك .

ولكن هل تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟ لا ، لأن ذلك لم يرد عن النبي عليه الصلاة والسلام ، فالنبي ﷺ علمنا ماذا نفعل عند التثاؤب ولم يقل : قولوا كذا ، وإنما قال : اكظموا ، أو ردوا باليد ، ولم يقل : قولوا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أما ما اشتهر عند بعض الناس أن الإنسان إذا تئأب يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ فهذا لا أصل له ، والعبادات مبنية على الشرع لا على الهوى ، لكن قد يقول بعض الناس : أليس الله يقول : ﴿ وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصل: ٣٦] ^(٢) ، وقد أخبر النبي ﷺ أن التثاؤب من الشيطان ، فهذا نزغ ؟ نقول : لا ؛ فقد فهمت الآية خطأ ، فالمراد من الآية ﴿ وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ يعني الأمر بالمعاصي ، أو بترك الواجبات فهذا نزغ الشيطان ، كما قال تعالى فيه ، إنه يترغ بين الناس وهذا نزغه : الأمر بالمعاصي والتضليل عن الواجبات ، فإن أحسست بذلك فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أما التثاؤب : فليس فيه إلا سنة فعلية فقط : وهي الكظم ما استطعت ، فإن لم تقدر ؛ فضع يدك على فمك .

ومن آداب العطاس : أنه ينبغي للإنسان إذا عطس أن يضع ثوبه على وجهه ^(٣) ، قال أهل العلم : وفي ذلك حكمتان :

الحكمة الأولى : أنه قد يخرج مع هذا العطاس أمراض تنتشر على من حوله . الحكمة الثانية : أنه

(١) الفتور : هو السكون بعد الجدة والنشاط (المعجم العربي الأساسي ص ٩١٥ مادة فتر) .

(٢) النزغ : هو الإفساد بين الناس وحمل بعضهم على بعض (المعجم العربي الأساسي ص : ١١٨٦) .

(٣) وذلك لما رواه الترمذي في الأدب (٢٧٤٥) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا عطس غطى وجهه بيده أو بثوبه ، وغض بها صوته .

قد يخرج من أنفه شيء مستقذر تنقزز النفوس منه ، فإذا غطي وجهه صار ذلك خير ^(١) . ولكن لا تفعل ما يفعله بعض الناس بأن تضع يدك على أنفك ، فهذا خطأ ، لأن هذا يحد من خروج الريح التي تخرج من الفم عند العطاس ، وربما يكون في ذلك ضرر عليك .

وفي هذه الأحاديث - التي ذكرها المؤلف - دليل على أن من عطس ولم يقل : الحمد لله ؛ فإنه لا يقال له : يرحمك الله ، لأن النبي ﷺ عطس عنده رجلان : أحدهما قال له النبي ﷺ : « يرحمك الله » . والثاني لم يقل له ذلك ، فقال الثاني : يا رسول الله عطس فلان : فقلت له : « يرحمك الله » ، وعطست فلم تقل لي ذلك ؟ قال - أي الرسول الكريم ﷺ - : « هذا حمّد الله ، وإنك لم تحمد الله » . وعلى هذا إذا عطس إنسان ولم يحمد الله فلا تقل له : يرحمك الله ، ولكن هل تذكره فقول له قل : (الحمد لله) ؟ لا ؛ لأن هذا الحديث يدل على أنك لا تذكره ، فلم يقل النبي ﷺ في الحديث : إذا عطس ولم يحمد الله فذكروه . بل قال : « لا تشمتوه » فنحن لا نقول : الحمد لله ، ولكن فيما بعد علينا أن نخبره أن الإنسان إذا عطس عليه أن يقول : « الحمد لله » ويكون ذلك من باب التعليم . ولا بد أن يكون حمد العاطس مسموعاً ، كما أن العاطس إذا قيل له : يرحمك الله ، يقول : « يهديكم الله ويصلح بالكم » أي يصلح شأنكم ، فندعو له بالهداية وإصلاح الشأن ، ويقول بعض العامة : (يهدينا أو يهديكم الله) وهذا خلاف المشروع ، المشروع أن يقول : « يهديكم الله ويصلح بالكم » كما بينا . والله الموفق .

* * *

١٤٢ - باب استحباب المصافحة عند اللقاء وبشاشة الوجه وتقبيل يد الرجل الصالح

وتقبيل ولده شفقة ومعانقة القادم من سفر وكراهية الانحناء

٨٨٥ - عن أبي الخطاب قتادة قال : قلت لأنس : أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ^(٢) . رواه البخاري .

٨٨٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال : لما جاء أهل اليمّين قال رسول الله ﷺ : « قد جاءكم أهل اليمّين » وهم أوّل من جاء بالمصافحة ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

٨٨٧ - وعن البراء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مُسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفرَ لهما قبل أن يفترقا » ^(٤) . رواه أبو داود .

(١) وقد قال ابن العربي : الحكمة في خفض الصوت بالعطاس : أن في رفعه إزعاجاً للأعضاء وفي تغطية الوجه : أنه لو بدر منه شيء أذى جلسه ، ولو لوى عنقه صيانة لجلسه لم يأمن من الالتواء (انظر : تحفة الأحوذ ١٥/٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستبذان (٦٢٦٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢١٣) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٢١٢/٣ ، ٢٥١) .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢١٢) وله شاهد من حديث أنس ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (١٤٢/٣)

والترمذي في الاستبذان (٢٧٢٩) .

٨٨٨ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الرَّجُلُ مِمَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ ، أَيْتَحَنِي لَهُ ؟ قَالَ : « لَا » قَالَ : أَفَتُتَرَّمُهُ وَيُقْبَلُهُ ؟ قَالَ : « لَا » قَالَ : فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف النووي رحمته الله في كتاب رياض الصالحين بآداب السلام والاستئذان وما يتعلق بذلك . فمنها : المصافحة - فهل يُسَرُّ للرجل إذا لقي أخاه أن يصافحه ؟ والجواب : نعم يُسَرُّ له ذلك ، لأن هذا من آداب الصحابة رضي الله عنهم كما سأل قتادة أنس بن مالك رضي الله عنه : هل كانت المصافحة في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . ويصافحه باليد اليمنى ، وإذا حصل ذلك ؛ فإنه يُغْفَرُ لهما قبل أن يفترقا ، وهذا يدل على فضيلة المصافحة إذا لاقاه ، وهذا إذا كان لاقاه ليتحدث معه أو ما أشبه ذلك ، أما مجرد الملاقاة في السوق ، فيكفي أن يُسَلِّمَ عليه ، وإذا كنت تقف إليه دائماً وتحدث إليه بشيء فمصافحه . ثم ينبغي أن نعرف أن بعض الناس إذا سَلَّمَ من الصلاة إذا كانت فرضاً صافح أخاه وأحياناً يقول له : « تقبل الله » أو « قبول ... قبول » وهذا من البدع ؛ فما كان الصحابة يفعلون هذا ، وإنما يكفي أن يُسَلِّمَ المصلّي عن يمينه وعن يساره « السلام عليكم ورحمة الله » .

وأما الانحناء عند الملاقاة أو المعانقة والالتزام : فإن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك : أَيْتَحَنِي ، قَالَ : « لَا » . قال السائل : أَيْلَتَزِمُهُ وَيَعَانِقُهُ ؟ . قَالَ : « لَا » . فإذا لاقاه ؛ فإنه لا يلتزمه - أي لا يَضُطُّهُ إليه - ولا يعانقه ولا ينحني له ، والانحناء أشد وأعظم ، لأن فيه نوعاً من الخضوع لغير الله تعالى بمثل ما يفعل لله في الركوع ؛ فهو منهى عنه ، ولكنه يصافحه وهذا كافٍ ، إلا إذا كان هناك سبب ، فإن المعانقة أو التقبيل لا بأس به ، كأن كان قادماً من سفرٍ أو نحو ذلك ، فإن قال قائل : كيف يكون قول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا ينحني له مع قول الله تعالى في إخوة يوسف لما دخلوا عليه : ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿ [يوسف : ٩٩-١٠٠] فالجواب عن هذا : أنه في شريعة سابقة ، وشريعتنا الإسلامية قد نسخته ، ومنعت منه ، فلا يجوز لأحد أن يسجد لأحد ، وإن لم يرد بذلك العبادة ، أو ينحني ، فإن الانحناء منع منه الرسول صلى الله عليه وسلم . فإذا قابلك أحد يجهل هذا الأمر وانحني لك ، فانصحه وأرشده ، قل له : هذا ممنوع لا تنحني ، ولا تخضع إلا لله وحده . وتقبيل اليد لا بأس به إذا كان الرجل أهلاً لذلك . والله الموفق .

* * *

٨٨٩ - وعن صفوان بن عسال رضي الله عنه قال : قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ : أَذْهَبَ بَنَّا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فَسَأَلَاهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى قَوْلِهِ : فَقَبَّلَا يَدَهُ وَرَجَلَهُ ، وَقَالَا : نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ ^(٢) . رواه الترمذي وغيره بأسانيد صحيحة .

(١) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨) . (٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٧٣٣) .

- ٨٩٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قصة قال فيها : فَدَنُونَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَبَّلْنَا يَدَهُ ^(١) . رواه أبو داود .
- ٨٩١ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْمَدِينَةَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَتِيٍّ ، فَأَتَاهُ فَقَرَعَ الْبَابَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ يُجَرُّ ثَوْبَهُ ، فَأَغْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ ^(٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
- ٨٩٢ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمُغْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِيقٍ » ^(٣) . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها الإمام النووي رحمته الله في رياض الصالحين في آداب المصافحة والمعانقة وما يتعلق بذلك . ومنها حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه : أن رجلاً يهودياً قال لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - فذهبوا إليه وأخبراه وذكر النبي ﷺ تسع آيات فقبل يده ورجله وقال : « نشهد أنك نبي » . واليهود كانوا في المدينة وكان أصلهم من مصر - من بني إسرائيل ، ثم انتقلوا إلى الشام - إلى الأرض المقدسة - التي قال لهم نبيهم موسى عليه السلام ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : ٢١] وكانوا يقرأون في التوراة أنه سيبعث نبي في آخر الزمان وأنه سيكون من مكة ، ومهاجرة المدينة ، فهاجر كثير منهم من الشام إلى المدينة ينتظرون النبي ﷺ ليتبعوه ؛ لأنه قد نوه عن فضله في التوراة والإنجيل ، فقد قال الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَادِعِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ^(٤) وكان إذا جرى بينهم وبين المشركين شيء يستفتحون على الذين كفروا يقولون سيبعث نبي ، ونتبعه ، ونستفتح به ونغلبكم ^(٥) ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] ثم إنهم صاروا ثلاث قبائل - أي اليهود في المدينة - : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة . وعاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة وكلهم نقضوا العهد ، فطردوا منها ، آخرهم بنو قريظة قتل منهم نحو : سبعمائة نفر لما خانوا العهد في يوم الأحزاب ، وانتقلوا إلى خيبر وفتحها النبي ﷺ وأبقاهم فيها ؛ لأنهم أصحاب مزارع يعرفون الحرث والزرع ، والصحابة مشغولون عن ذلك بما هو أهم ، فعاملهم النبي ﷺ قال لهم : تبقون في محلكم - خيبر - على أن لكم نصف الثمر والزرع وللمسلمين نصفهما ونقركم في ذلك ما شاء

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٢٣) . (٢) أخرجه الترمذي في الاستبذان (٢٧٣٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) .

(٤) قوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي يحلل لهم ما طاب في حكم الشرع كالشحوم ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ أي يحرم عليهم ما خبث في حكم الشرع كالربا ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ ﴾ أي يخفف عنهم ما ألزموا العمل به من التكاليف الشاقة في التوراة ؛ كقطع موضع النجاسة من الثوب ، وإحراق الغنائم ، وتحريم السبت .

(٥) انظر ذلك في تفسير الطبري (٥٧٧/١ - ٥٧٩) .

الله^(١) . ويقوا في عهد الرسول ﷺ في خير ، وفي عهد أئني بكر .

ولما تولى عمر حصل منهم خيانة - كما هي طبيعتهم التي عُرفوا بها من الخيانة والغدر ، فأجلاهم عمر^(٢) عن خير في السنة السادسة عشرة إلى « أذرعات » في الشام^(٣) . هذا أصل وجود اليهود في الجزيرة العربية ، كانوا ينتظرون بعث النبي ﷺ ليتبعوه ، ولكنهم لما رأوه عين اليقين كفروا ، ولعلمهم كانوا في أول الأمر يظنون أنه من بني إسرائيل هكذا قال بعض العلماء ولكن لما تبين أنه من بني إسماعيل حسدوهم - أي بنو إسماعيل - وكفروا ، ولكن لا يبين لي هذا ، لأن الله يقول : ﴿ يَرْفُؤُهُ كَمَا يَرْفُؤُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ فهم يعرفون أنه من العرب من بني إسماعيل ، لكن - والعياذ بالله - فرق بين علم اليقين ، وعين اليقين ، هم كانوا بالأول يظنون أنه إذا بُعث يتبعونه بسهولة لكنهم حسدوه والعياذ بالله .

المهم : أن هذين الرجلين قبلا يد النبي ﷺ ورجله ، فأقرهما على ذلك ، وفي هذا جواز تقبيل اليد والرجل للإنسان الكبير الشرف والعلم ، كذلك تقبيل اليد والرجل من الأب والأم وما أشبه ذلك ؛ لأن لهما حقًا ، وهذا من التواضع .

وذكر المؤلف أيضًا حديث ابن عمر^(٤) قال : أتينا النبي ﷺ فقبلنا يده . وأقرهما النبي ﷺ على ذلك . وتقبيل اليد كتقبيل الرأس ليس بينهما فرق ، لكن عجبنا أن الناس الآن يستنكرون تقبيل اليد أكثر من استنكارهم تقبيل الرأس ، وهو لا فرق بينهما ، لكن الذي يُستفاد من بعض الناس أنه إذا سلم عليه أحد قد مدَّ يده إليه وكأنه يقول : قبل يدي . فهذا هو الذي يستنكر ، ويقال للإنسان عندئذ : لا تفعل أما من يقبل يدك تكريمًا وتعظيمًا أو رأسك أو جبهتك فهذا لا بأس به ، إلا أن هذا لا يكون في كل مرة يلقاك ، لأنه سبق أن الرسول ﷺ مثل عن ذلك إذا لاقى الرجل أخاه أينحي له ؟ قال : « لا » . قال : أقبله ويعانقه ؟ قال : « لا » . قال : أيسافحه ، قال : نعم^(٥) . لكن إذا كان السبب فلا بأس للغائب ، ولهذا يذكر المؤلف^(٦) حديث عائشة في قدوم زيد بن حارثة حين جاء إلى النبي ﷺ واستأذن فقام الرسول ﷺ إليه يجز ثوبه ، وزيد بن حارثة مولى للرسول (أي كان عبدًا مملوكًا للرسول ﷺ) أهدته إليه خديجة^(٧) فأعتقه ، ولكن الرسول ﷺ كان يحبه ويحب ابنه أسامة ؛ ولهذا يسمى أسامة الحب بن الحب فهو محبوب لرسول الله^(٨) وابنه أسامة كذلك (المهم : أن الرسول ﷺ قام يجز ثوبه فعانقه وقبله ، لأن زيدًا^(٩) كان قادمًا من سفر ، فإذا كان عند القدوم من السفر ؛ فهذا لا بأس به ، أما كلما لاقاك يقبلك فهذا نهى عنه الرسول ﷺ .

كذلك أيضًا أوصى النبي ﷺ أن الإنسان لا يحقر من المعروف شيئًا ؛ يعنى : المعروف والإحسان

(١) انظر الحديث بنصه في : البخاري في الحرث (٢٣٢٩) ، ومسلم في المساقاة (٦) ، وأحمد في مسنده (١٧/٢) .

(٢) انظر القصة في أخبار عمر من : ١٦٥ ، وقد كان لطردهم قصة ، وهي أنهم اعتدوا على عبد الله بن عمر أثناء ذهابه إليهم لجمع الجزية ، فذكر عبد الله أباه بحديث النبي ﷺ : « أخرجوا اليهود من جزيرة العرب » وانظر القصة أيضًا في : البخاري في الشروط (٢٧٣٠) ، وأحمد في مسنده (١٥/١) .

(٣) سبق تخريجه في الباب السابق .

إلى الناس ؛ لا تحقر شيئاً منه أبداً ، وتقول : هذا قليل ، حتى ولو أعطيته قلماً أو شيئاً قليل القيمة مادياً ، فلا تحقر شيئاً ؛ فإن هذا يذكر الإنسان ولو بعد حين ، يقول : هذا الرجل أهداني سنة كذا وكذا ، فكل شيء يجلب المودة والمحبة بين الناس لا تحقره ، ولهذا قال الرسول ﷺ « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » إلى هذا الحد ! تلقى أخاك بوجه طليق يعني غير عيوس ، لكن أحياناً يغلبنا عدم التوسع في هذا الأمر لسبب أو لآخر ، فقد تكون هناك أسباب خفية ، يكون الإنسان مثلاً متأثراً بها - والناس لا يعلمون - فلا يحصل أن يلقي الإنسان الناس دائماً بوجه طليق ، إنما عليك المحاولة أن تلقاهم بوجه طليق منشرح ؛ لأن هذا من المعروف وسبب للمودة والمحبة ، والدين الإسلامي دين المحبة والوفاء والأخوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] نسأل الله أن يهدينا وإياكم إلى أحسن الأخلاق والأعمال فلا يهدي إلى أحسنها إلا هو ، وأن يصرف عنا سئى الأخلاق والأعمال فلا يصرف عنا سيئها إلا هو .

٨٩٣ - وعن أبي هريرة ؓ قال : قَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ ؓ فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لَا يُؤَحِّمُ لَا يُؤَحِّمُ ! »^(١) . متفق عليه .

الشرح

هذا الحديث ذكره النووي رحمه الله فيما يتعلق بالمعاقبة والتقبيل وما أشبه ذلك . ومن ذلك : تقبيل الصغار رحمة بهم وشفقة وإحساناً وتودداً ، فإن النبي ﷺ قَبِلَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ بن أبي طالب ؓ والحسن هو ابن فاطمة بنت محمد ﷺ ، يعني أن النبي ﷺ جَدُّهُ من قَبَلِ أُمِّهِ ، وكان النبي ﷺ يحب الحسن ويحب الحسين ويقول : « إنهما سيديا شباب أهل الجنة »^(٢) لكن الحسن أفضل من الحسين ، ولهذا قال عنه النبي ﷺ : « إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين »^(٣) ، ولذلك لما استشهد علي بن أبي طالب ؓ حين قتله الخارجي ، كان الذي تولى الخلافة بعده الحسن ابنه الأكبر والأفضل ، ولكنه لما رأى أن منازعته لمعاوية الخلافة سيحصل فيها سفك دماء وقتل وضرر عظيم تنازل ﷺ عن الخلافة لمعاوية تنازلاً تاماً درعاً للفتنة ، واتسلاً للأمة ، فأصلح الله به بين الأمة وصار بهذا له منقبة عظيمة ؟ حيث تنازل عما هو أحق به لمعاوية ﷺ درعاً للفتنة^(٤) .

كان الحسن بن علي ذات يوم عند النبي ﷺ وعنده الأقرع بن حابس ، وهو رجل من سادات بني تميم ، فقبِلَ النبي ﷺ الحسن ، فكأن هذا الرجل - الأقرع - الجافي كأنه استغرب : كيف يُقبِلُ النبي ﷺ هذا الطفل ! فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ، فقال النبي ﷺ : « من لا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٧) ، ومسلم في الفضائل (٦٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٤١/٢ ، ٥١٤) .
(٢) انظر الحديث في : الترمذي في السنن (٣٧٦٨) ، وأحمد في مسنده (٦٢/٣) ، والحاكم في المستدرک (١٦٦/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤/٥) ، والطبراني في الكبير (٢١/٣) .
(٤) لا يدل هذا الاستشهاد على أفضلية الحسن ﷺ على أخيه ؛ فلم ترد أخبار أو أحاديث .

يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » يعنى : من لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ ﷻ والعياذ بالله ، وَلَا يُوَفِّقُهُ لِرَحْمَةٍ . فذل ذلك على جواز تقبيل الأولاد الصغار رحمة وشفقة - سواء كانوا من أبنائك ، أو من أولاد أبنائك وبناتك ، أو من الأجانب ؛ لأن هذا يوجب الرحمة وأن لديك قلبًا يرحم الصغار ، وكلما كان الإنسان بعباد الله أرحم ؛ كان إلى رحمة الله أقرب ، حتى إن الله ﷻ غفر لامرأة بغية زانية ، غفر لها حين رحمت كلبتا يأكل الثرى من العطش ، فنزلت وأخذت بخفها ماءً وسقته فغفر الله لها ^(١) - مع أنها سقت ورحمت كلبتا - ولكن إذا جعل الله في قلب الإنسان رحمة لهؤلاء الضعفاء فذلك دليل على أنه سوف يُرْحَمُ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ . نسأل الله أن يرحمنا وإياكم .

فقال النبي ﷺ : « من لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » فذل ذلك على أنه ينبغي للإنسان أن يجعل قلبه ليتأ عطفًا رحيماً ، خلاف ما يفعله بعض السفهاء من الناس ، حتى إنه إذا دخل الصبي عليه - وهو في المقهى - انتهره ونهره فهذا خطأ ، وها هو النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا وأكرمهم أدبًا ، كان في يوم من الأيام ساجدًا يصلي بالناس ، فأتى الحسن بن علي بن أبي طالب فركب عليه - وهو ساجد - كما يفعل الصبيان ، وتأخر النبي في السجود ، فكأن الصحابة تعجبوا من ذلك ! فقال : « إن ابني ارتحلني - يعنى جعلني راحلة له - وإني أحببت ألا أقوم حتى يقضي نهمته » ^(٢) هذه من الرحمة ، وفي يوم آخر كانت أمانة بنت زينب بنت الرسول ﷺ كانت صغيرة فخرج بها الرسول ﷺ إلى المسجد فتقدم يصلى بالناس وهو حامل هذه الطفلة ، إذا سجد وضعها على الأرض ، وإذا قام حملها ^(٣) . كل هذا رحمة بها وعطف ، وإلا فقد كان من الممكن أن يقول لعائشة أو غيرها من نسائه : خذي البنت . ولكن لرحمته ﷺ ، ولعلمه أنها ربما تعلقت بجدها ﷺ ، فأراد أن يعطيها نفسها .

وفي يوم من الأيام كان يخطب الناس وكان على الحسن والحسين ثوبان لعلهما جديدان وكان فيهما طول فجعل يمشيان ويتعثران ، فنزل من على المنبر وحملهما بين يديه ﷺ وقال صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُكَمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ ﴾ [الأفقال : ٢٨] ولذا فإنه ما إن رآهما يتعثران فما طابت نفسه حتى نزل فحملهما ^(٤) .

المهم : أنه ينبغي لنا أن نعوذ أنفسنا على رحمة الصبيان وعلى رحمة كل من يحتاج الرحمة من اليتامى والفقراء والعاجزين وغيرهم ، وأن نجعل في قلوبنا رحمة ؛ ليكون ذلك سببًا لرحمة الله إيانا ؛ لأننا أيضًا محتاجون إلى الرحمة ، ورحمتنا لعباد الله سبب لرحمة الله لنا ، نسأل الله أن يعمننا وإياكم برحمته .

(١) انظر الحديث في : البخاري في بدء الخلق (٣٣٢١) ، وأحمد في مسنده (٥١٠/٢) ، والبخاري في شرح السنة (١٦٦/٦) . والثرى : أي التراب .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٦٣/٢) ، ومعنى قوله : « نهمته » أي : لعبه أو رغبته في اللعب (المعجم العربي الأساسي ص : ١٢٣٧) .

(٣) انظر نص الحديث في : البخاري في الصلاة (٥١٦) ، ومسلم في المساجد (٤١) ، وأحمد في مسنده (٢٠٧/٥) .

(٤) انظر الحديث في : النسائي في الجمعة (٣٠) ، وأبو داود في الصلاة (١١٠٩) ، وأحمد في مسنده (٣٥٤/٥) ، والترمذي في المناقب (٣٧٨٣) ، ومعنى « يتعثران » أي : يسقطان على الأرض لصغرهما وقلة قوتيهما .

كتاب عيادة المريض وتشيع الميت والصلاة على الميت
وحضور دفنه والمكث عند قبره بعد دفنه
١٤٤ - باب عيادة المريض

٨٩٤ - عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ ، وَتَشْيِيمِ الْعَاطِسِ ، وَإِثْرَارِ الْمُقْسِمِ ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ ^(١) . متفقٌ عليه .

الشرح

سبق لنا في رياض الصالحين لمؤلفه النووي رحمته الله عدة أبواب مفيدة وكلها تتعلق بالأحياء ثم ذكر رحمه الله - في هذا الباب - حكم عيادة المريض وتشيع الجنائز .

عيادة المريض : ذهب بعض العلماء إلى أنها فرض كفاية ، فإذا لم يقم بها أحد ؛ فإنه يجب على من عَلم بحال المريض أن يعُوّده ؛ لأن النبي ﷺ جعل ذلك من حقوق المسلم على أخيه ، ولا يليق بالمسلمين أن يعلموا أن أخاهم مريض ولا يعُوّده أحد منهم ؛ لأن هذا قطيعة وأي قطيعة !

وهذا القول هو الراجح : أن عيادة المرضى فرض كفاية ، ومن المعلوم أن غالب المرضى يعودهم أقاربهم وأصحابهم وتحصل بذلك الكفاية ، لكن لو علمنا أن أحدًا أجنبيًا في البلد مريضًا ليس معروفًا ، وقد علمت أنه لم يعده أحد فإن الواجب عليك أن تعُوّده ؛ لأن ذلك من حقوق المسلمين بعضهم على بعض . والمستحب لمن عاد المريض أن يسأل عن حاله كيف أنت ؟ وعن أعماله : كيف تتوضأ ؟ كيف تصلي ؟ وعن معاملاته : هل لك حقوق على الناس ، أو هل للناس حقوق عليك ؟ ثم إذا قال : نعم ، قل له : أوص بما عليك ، لأن النبي ﷺ قال : « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » ^(٢) ولا تُلحَف ^(٣) عليه في المسألة ، ولا سيما إذا كان مرضه شديدًا ؛ لأنه ربما يضجر ويتعب ، ولا تطل الجلوس عنده ، لأنه ربما يمل ، لأن حال المريض غير حال الصحيح ، وربما يمل ، ويحب أن تقوم عنه ليأتي إليه أهله وما أشبه ذلك ، ولكن إذا رأيت من المريض أنه مستأنس بك ، ويفرح أن تبقى ، وأن تطيل الجلوس عنده ؛ فهذا خير ولا بأس به ، وهذا ربما يكون سببًا في شفائه ؛ لأن من أسباب الشفاء إدخال السرور على المريض ، ومن أسباب دوام المرض وزيادته : إدخال الغم عليه ، فمثلًا إذا جئت مريضًا وقلت له : أنت اليوم أحسن من أمس ، حتى وإن لم يكن أحسن من جهة الطب لكن تقول : أحسن من أمس ، لأنك زدت خيرًا ، ما بين أمس واليوم صليت خمس صلوات ، استغفرت ، هللت ، كذلك زاد أجرك بالمرض ، وذلك حتى يدخل عليه السرور ، ولا تقل له : أنت

(١) أخرجه مسلم في اللباس (٣) واللفظ له ، والبخاري في الاستئذان (٦٢٣٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨) ومسلم في الوصية (١ ، ٤) وأحمد في مسنده (٨٠/٢) ومالك في الموطأ (٧٦١) .

(٣) تلحف عليه : أي لا تلح عليه (المعجم العربي الأساسي ص ١٠٧٧ مادة لحف) .

أمس أحسن من اليوم . فهذا خطأ حتى ولو كان الأمر كذلك ؛ لأنه إن لم يضر لن ينفع ، كذلك إذا كان المريض ممن يحب القصص وكان ذلك مدعاة لإدخال السرور عليه ، فهذا أيضًا طيب ، لأن من المهم إدخال السرور على المريض ، وإذا أردت أن تقوم واستأذنت تقول : أتأذن لي . فإن هذا أيضًا مما يسهره ؛ لأنه ربما يؤد أن تبقى فلا يأذن لك ، ثم احرص غاية الحرص على أن توجهه إلى فعل الخير وقوله في هذا المرض ، فيتفرغ للذكر ولقراءة القرآن وما أشبه ذلك ؛ لعله ينتبه ويكون لك أجر السبب .

* * *

٨٩٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ : رَدُّ السَّلَامِ ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ ، وَاجَابَةُ الدُّعْوَةِ ، وَتَشْمِيْتُ الْعَاطِسِ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمته الله في كتابه - رياض الصالحين - كتاب عيادة المريض وتشجيع الجنابة .
يقال : عيادة ، زيارة ، وتشجيع .

الزيارة : للصحيح إذا زرت أخًا لك في الله في بيته في مكانه فهذه زيارة . والعيادة للمريض ؛ لأن الإنسان يُعِيدُهَا ويكررها مادام أخوه مريضًا . وتشجيع الجنابة : اتباعها ، ثم ذكر المؤلف حديث البراء ابن عازب وقد سبق الكلام على أكثره ، والشاهد منه قوله : « وعيادة المريض » فهي أمرٌ أمَرَ به النبي ﷺ وهي فرض كفاية - إذا قام بها البعض سقط عن الباقي ، وإذا لم يقم بها أحد وجب على من علم أن يعودَه - ثم إن المراد بالمريض الذي يعاد : هو الذي انقطع في بيته ، ولا يخرج ، وأما المريض مرضًا خفيفًا لا يعوقه عن الخروج ومصاحبة الناس ؛ فإنه لا يُعاد ، لكن يُسأل عن حاله إذا علم به الإنسان . وللعيادة آداب كثيرة منها :

- ١ - أن ينوي الإنسان بها امتثال أمر النبي ﷺ ، فإن النبي ﷺ أمر بها .
- ٢ - أن ينوي الإحسان إلى أخيه بعيادته ، فإن المريض إذا عاده أخوه ؛ وجد في ذلك راحة عظيمة واثِّيرَاحٌ صَدِيرٌ .
- ٣ - أن يستغلَّ الفرصة في توجيه المريض إلى ما ينفعه ؛ فيأمره بالتوبة والاستغفار والخروج من حقوق الناس .
- ٤ - أنه ربما يكون على المريض إشكالات في طهارته أو صلاته أو ما أشبه ذلك ، فإذا كان العائد طالب علم انتفع به المريض ؛ لأنه لا بد أن يخبره عمدًا ينبغي أن يقوم به من طهارة وصلاة ، أو يسأله المريض .
- ٥ - أن الإنسان ينظر للمصلحة في إطالة البقاء عند المريض أو عدمها . وهذا القول هو القول الصحيح ، وذهب بعض العلماء إلى أنه ينبغي تخفيف العيادة ، وألا يثقل على المريض ، لكن الصحيح أن الإنسان ينظر للمصلحة : إذا رأى أن المريض مستأنس منبسط منشرح الصدر ، وأنه يحب بقاءه ،

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٠) ، ومسلم في السلام (٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٥٤٠/٢) .

فليتأن لما في ذلك من إدخال السرور عليه ، وإن رأى خلاف ذلك ؛ فإنه يقوم ولا يتأخر .

٦ - أن يتذكر الإنسان نعمة الله عليه بالعافية ، فإن الإنسان لا يعرف قدر نعمة الله عليه إلا إذا رأى من ابتلي بفقدائها ، كما قيل : وبضدّها تميز الأشياء . فتحمد الله ﷻ على العافية وتساءله أن يديم عليك النعمة .

٧ - ومنها ما يرجى من دعاء المريض للعائد ، ودعاء المريض حري^(١) بالإجابة ، لأن الله ﷻ عند المنكسرة قلوبهم ، والمريض من أشد الناس ضعفاً في النفس ، ولا سيما إذا طال به المرض وثقل فيرجى إجابة دعوة هذا المريض .

وهناك فوائد أكثر مما ذكرنا ؛ لذلك ينبغي للإنسان أن يحرص على عيادة المرضى ؛ لما في ذلك من الأجر الكثير والثواب العظيم .

* * *

٨٩٦ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ! قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ !؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي ! قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَطْعُمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ !؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنََّّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَهُ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَشَقَيْتُكَ فَلَمْ تَشْفِنِي ! قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَشْفِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ !؟ قَالَ : اسْتَشَقَّاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَشْفِهِ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ شَفَيْتَهُ لَوَجَدْتَهُ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث ذكره النووي رحمه الله في رياض الصالحين باب عيادة المريض وتشجيع الميت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني » قال : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! يعني : وأنت لست بحاجة إليّ حتى أعودك . قال : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ ؟! أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ » هذا الحديث ليس فيه إشكال في قوله تعالى : « مرضت فلم تعدني » لأن الله تعالى يستحيل عليه المرض ؛ لأن المرض صفة نقص ، والله ﷻ منزّه عن كل نقص قال الله تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : ١٨٠] لكن المراد بالمرض : مرض عبد من عباده الصالحين ، وأولياء الله ﷻ هم خاصته ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي أيضاً : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » ^(٣) . يعني من يعادي أولياء الله فهو محارب لله ﷻ مع أنه - وإن كان لم يُعادِ الله على زعمه - لكنه عادى أولياءه وحاربهم ، كذلك إذا مرض عبد

(١) حري : أي : جدير (المعجم العربي الأساسي ص : ٣١١ مادة حري) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٤٣) ، وقوله « تعدني » أي : تزورني .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٥٨) ، والبيهقي في السنن (٣٤٦/٣) .

من عباد الله الصالحين فإن الله ﷻ يكون عنده ؛ ولهذا قال : « أما إنك لو عدته لوجدتني عنده » ولم يقل : لوجدت ذلك عندي كما قال في الطعام والشراب بل قال : « لوجدتني عنده » وهذا يدل على قرب المريض من الله ﷻ ولهذا قال العلماء : إن المريض حُرِّيَّ بإجابة الدعاء إذا دعا لشخص أو دعا عليه ، وفي هذا دليل على استحباب عيادة المريض ، وأن الله ﷻ عند المريض وعند من عاده ، لقوله : « لوجدتني عنده » وقد سبق لنا كيف تكون عيادة المريض وما ينبغي أن يقوله له العائد .

« يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني » يعني طلبت منك طعاماً فلم تطعمني ، ومعلوم أن الله تعالى لا يطلب الطعام لنفسه لقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يَطْعَمُ ﴾ [الأنعام : ١٤] فهو غني عن كل شيء لا يحتاج لطعام ولا شراب ، لكن جاء عبد من عباد الله فعلم به شخص فلم يطعمه ، قال الله تعالى : « أما إنك لو أعطيته لوجدت ذلك عندي » يعني لوجدت ثوابه عندي مُدْخَرًا لك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين ألف ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وفي هذا دليل على استحباب إطعام الجائع ، وأن الإنسان إذا أطعم الجائع وجد ذلك عند الله .

« يا ابن آدم استسقيتك - أي طلبت منك أن تسقيني - فلم تسقني » قال : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟! يعني : لست في حاجة إلى طعام ولا شراب قال : « أما علمت أن عبيد فلا تأظمي ، أو استسقاك فلم تسقه ، أما علمت أنك لو استسقيته لوجدت ذلك عندي » ففيه أيضًا دليل على فضيلة إسقاء من طلب منك السقيا ، وأنت تجد ذلك عند الله مُدْخَرًا .

والشاهد من هذا الحديث : الجملة الأولى منه وهي قوله : « مرضت فلم تعدني » ففيه دليل على استحباب عيادة المريض . والله الموفق .

* * *

٨٩٧ - وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « عَوِّدُوا الْمَرِيضَ ، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ ، وَفُكُّوا الْعَانِي » (١) رواه البخاري .

٨٩٨ - وعن ثوبان ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرُوفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَزْجَعَ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خُرُوفَةُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : « جَنَّتَاهَا » (٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ في كتاب رياض الصالحين في باب عيادة المريض وتشجيع الميت .

عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال : « فكوا العاني - يعني : الأسير - وأطعموا الجائع ، وعودوا المريض » هذه ثلاثة أشياء أمر بها النبي ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٤/٤) وأبو داود في الجنائز (٣١٠٥) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٤٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٧٩/٥ ، ٢٨٣) بنحوه .

أولاً : عيادة المريض : وقد سبق أنها فرض كفاية يجب على المسلمين أن يعودوا مرضاهم . فإذا لم يقوم أحد بذلك ؛ وجب على من علم بالمريض أن يعود به ؛ لأن ذلك من حق المسلم على إخوانه .
ثانياً : أطعموا الجائع : فإذا وجدنا إنساناً جائعاً ؛ وجب علينا جميعاً أن نطعمه ، وإطعماه فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقيين ، فإن لم يقوم به أحد ؛ تعين على من علم بحاله أن يطعمه ، وكذلك أيضاً كسوة العاري وهو فرض كفاية .

ثالثاً : فكوا العاني : يعنى الأسير ، فكوا الأسير الذي عند الكفار من الأسر ، فإذا اختطف الكفار رجلاً مسلماً ؛ وجب علينا أن نفك أسره ، وكذلك لو أسروه في حرب بينهم وبين المسلمين ؛ فإنه يجب علينا أن نفك أسره ، وفك أسره فرض كفاية أيضاً . ثم ذكر حديث ثوبان أن النبي ﷺ قال : « إذا عاد المسلم أخاه المسلم - يعنى في مرضه - فإنه لا يزال في خُرفة الجنة » قيل : وما خُرفة الجنة ؟ قال : « جناها » يعنى : أنه يجني من ثمار الجنة مدة دوامه جالساً عند هذا المريض .

وقد سبق أن الجلوس عند المريض يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص - راجع ما سبق - وفي هذا الحديث الثاني دليل على فضل عيادة المريض ، فمن يحب أن يغترف من ثمار الجنة هذا من أسبابها . والله الموفق .

* * *

٨٩٩ - وعن عليٍّ عليه السلام قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدُوَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمِيسِي ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ » (١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن . « والخريف » : الثَّمَرُ المَخْرُوفُ ، أي : المَجْتَنَّى .
٩٠٠ - وعن أنس عليه السلام قال : كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَمَرَضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ : « أَسْلِمَ » فَتَنَظَّرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ ؟ فَقَالَ : أَطِيعَ أَبَا الْقَاسِمِ ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ » (٢) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب عيادة المريض وتشجيع الميت عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سمع النبي ﷺ يقول : « ما من مسلم يعود مريضاً غدوة ، إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي » وكذلك إن عادته في المساء « صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح » ، وكان في خريف الجنة . هذا الحديث له شاهد مما سبق أن الإنسان إذا عاد أخاه المريض فهو في خرفة الجنة أي : في جناها . وأما استغفار الملائكة له : ففيه نظر ، لأن فضل الله واسع ، لكن من قواعد الحديث الضعيف عند العلماء كثرة الثواب في عمل يسير جداً ، لكننا نقول : إنه ما دام قد ثبت أصل مشروعية عيادة المريض ؛

(١) أخرجه الترمذي في الجنايز (٩٦٩) . قوله : (غدوة) الغدوة تكون ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس والجمع غداً ، قوله : (إلا صلى عليه سبعون ألف ملك) استغفروا ودعوا له بأنواع الخير ، قوله : (عشية) أي آخر النهار .

(٢) أخرجه البخاري في الجنايز (١٣٥٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٨٠/٣) .

فإن ذكر الفضائل - إذا لم يكن الضعف شديداً - مما يساعد على فعل ما رغب فيه ، ويُشْطِط الإنسان ، ويرجو الإنسان ثواب ذلك - إن كان هذا الحديث ثابتاً عن النبي ﷺ ؛ حصل للإنسان ما دلّ عليه ، وإن لم يكن ثابتاً ؛ فإنه لا يزيده إلا رغبةً في الخير ، وعلى كل حال فهو يدل على فضيلة عيادة المريض ، وأنه إذا كان في الصباح ؛ فله هذا الأجر ، وإذا كان في المساء ، فله هذا الأجر .

أما حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض الغلام فعاده النبي ﷺ وجلس عند رأسه وقال له : « أسلم » فنظر إلى أبيه - يعني كأنه يستشير - فقال له - وهو يهودي - : « أطع أبا القاسم » ، لأن اليهودي يعلم أنه حق ، فقال لابنه : أطع أبا القاسم ، فأسلم هذا الغلام ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذي أنقذه من النار » ؛ ففي هذا الحديث عدة فوائد منها :

١ - جواز استخدام اليهودي - يعني جعلهم خدماً عنده ، وهذا بشرط أن يأمن من مكرهم ؛ لأن اليهود أصحاب مكر وخديعة وخيانة ، لا يوفون بعهدهم ، ولا يؤدون أمانة ، لكن إذا أمنتهم فلا بأس من أن يستخدمهم .

٢ - جواز عيادة المريض اليهودي ؛ لأن النبي ﷺ عاد هذا الغلام ، ولكن يحتمل أن تكون عيادة النبي ﷺ له كانت من أجل خدمته إياه ، وأن هذا من باب المكافأة ، وعلى هذا لا يكون الحكم لكل يهودي أن تعود ، ويحتمل أن الرسول ﷺ عاده ليعرض عليه الإسلام ، فتكون عيادة المريض اليهودي - أو غيره من الكفار - مستحبة إذا كان الإنسان يريد أن يعرض عليهم الإسلام ، فينقذهم الله به من النار ، وقد قال النبي ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم » (١) .

يعني : إذا هدى الله بك رجلاً من الكفر خير لك من الإبل الحمر التي هي أغلى أنواع الإبل عند العرب .

٣ - يجب على من عاد المريض أن يرشده إلى الحق ويرغبه فيه ، فإذا كان يعلم أنه - أي المريض - صاحب تقصير قال له : « يا فلان استغفر الله ، تب إليه » فأحسن ما تهدي للمريض هو أن تنفعه في دينه .

٤ - الأب قد يؤثر ابنه في الخير وهو لا يفعله ، فهذا اليهودي أشار على ابنه أن يطيع أبا القاسم ويُسلم ، ولكنه هو لم يُسلم ، فالأب قد يحب لابنه الخير وهو محروم منه والعياذ بالله .

٥ - فيه دليل على أن النبي ﷺ حق ، ودليل ذلك أن اليهودي قال لابنه : أطع أبا القاسم ، والحق ما شهدت به الأعداء ، ومعلوم أن اليهود والنصارى يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَوْعِدِنَا أَنُنَزِّلُ لَهُمُ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّهِمْ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا الْحَقَّ بِأَمْرٍ أَنزَلْنَاهُ فِي الْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ١٤٦] وإنما كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؛ لأن الله قال : ﴿ الَّذِينَ يَحْدُوثُهُمْ مَّكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] معروف مشهور باسمه العلم ﷺ ﴿ الَّذِينَ يَحْدُوثُهُمْ مَّكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

وَالْأَعْلَلُ أَلْقَى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿ [الأعراف: ١٥٧] هم يعرفون هذا ، لكن الحسد - والعياذ بالله - والاستكبار منعهم من الإيمان به ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩] نسأل الله السلامة .

وعلى هذا فإذا مرض إنسان كافر فلك أن تعود به إذا رجوت في عيادته خيراً ، بأن تعرض عليه الإسلام لعله يُسَلِّم ؛ فهؤلاء العمال الذين عندنا الآن من الكفار - وهم كثيرون - لا ينبغي أن نتركهم هكذا ، وأن نجعلهم في منزلة البهائم يعملون لنا دون أن ندلهم على الحق ، فهم لهم حق علينا واجب : أن ندعوهم للإسلام ، ونبين لهم الحق ، ونرغبهم فيه ، حتى يسلموا ، أما أن يكون عندنا هذا العدد الهائل من النصارى والبوذيين وغيرهم ، ثم لا نجد من يُسلم منهم إلا واحداً بعد واحد بعد عدة أيام ؛ فهو دليل على ضعف الدعوة عندنا ، وأنتا لم نحاول أن ندعوهم للإسلام ، وهذا - لا شك - تقصير مئاً ، وإلا فإن العامل جاء يتكفف الناس في الواقع يريد لقمة العيش ، فليس عنده دافع الاستكبار ، فلو أننا دعونا باللين ورغبناه لحصلنا خيراً كثيراً ، واهتدى على أيدينا أناس كثيرون ، ولكننا في غفلة عن هذه الدعوة إلى الحق ، والذي ينبغي لنا أن ننتهز الفرص في هذه الأمور ، والله الموفق .

* * *

١٤٥ - باب ما يدعى به للمريض

٩٠١ - عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه ، أو كانت به قرحة أو جرح ، قال النبي ﷺ بأصبعه هكذا ، ووضع سَفْتَانِ بِنِ غِيْنَةِ الزَّوَايِ سَبَابَتَهُ بِالْأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا وَقَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ ، تَرَبُّةُ أَرْضِنَا ، بِرِيقَةٍ بَعْضُنَا ، يُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا ، بِإِذْنِ رَبَّنَا » ^(١) متفق عليه .

٩٠٢ - وعنها : أن النبي ﷺ كَانَ يَعُوذُ بِغَضِ أَهْلِهِ يَمْسَحُ بِيَدِهِ الِئْمَنَى وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ ، أَذْهَبِ الْبَاسَ ، وَاشْفِ ، أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءٌ لَا يُعَادِرُ سَقَمًا » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

لما ذكر المؤلف - النووي رحمته الله - في كتاب رياض الصالحين ما يدل على استحباب عيادة المريض ذكر ما يُدْعَى له به وما يُفْعَل به ، فذكر حديثين عن عائشة رضي الله عنها .

الأول : أنه إذا كان في الإنسان المريض جرح أو قرحة أو نحو ذلك ؛ كان النبي ﷺ يبل إصبعه ثم يمسح بها الأرض ، فيأخذ من التراب بهذا البلل ، ثم يمسح به الجرح ويقول : « تربة أرضنا بريقة بعضنا ،

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٥) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٩٣/٦) بنحوه . وقوله : « إذا اشتكى الإنسان الشيء منه » أي : اشتكى ألماً في عضو من أعضائه وقوله : « بريقة بعضنا » أي : بمزوجة معها .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٣) ، ومسلم في البر والصلة (٤٨) . قوله « اللباس » أي : الشدة والعذاب ، وقوله « لا يغادر سَقَمًا » أي : لا يترك مرضاً .

يُشْفَى به مريضنا بإذن ربنا « وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يداوي الجرح بمثل ذلك ، ووجه ذلك : أن التراب طهور كما قال النبي ﷺ : « جُعِلَتْ تَرَبُّهَا لَنَا طَهْرًا » ^(١) وريق المؤمن طاهر أيضًا ، فيجتمع الطهوران مع قوة التوكل على الله ﷻ والثقة به فيشفى بها المريض ، ولكن لابد من أمرين :
١ - قوة اليقين في هذا الداعي بأن الله ﷻ سوف يشفي هذا المريض بهذه الرقية .

٢ - قبول المريض لهذا وإيمانه بأنه سينفع .

أما إذا كانت المسألة على وجه التجربة ؛ فإن ذلك لا ينفعه ؛ لأنه لابد من اليقين بأن ما فعله النبي ﷺ خير ، ولابد أن يكون المحل قابلاً - وهو المريض - يكون مؤمناً بفائدة ذلك ، وإلا فلا فائدة ؛ لأن الذين في قلوبهم مرض لا تزيدهم الآيات إلا رجساً إلى رجسهم والعياذ بالله .

أما الحديث الثاني : فإنه كان إذا عاد بعض أهله يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ ، أَذْهَبِ الْبَأْسَ ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءٌ لَا يَغَادِرُ سَقَمًا » ويمسح بيده اليمنى . أي : يمسح المريض ، ويقرأ عليه هذا الدعاء : « اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ » فيتوسل إلى الله ﷻ بربوبيته العامة ، فهو الرب ﷻ الخالق المالك المدير لجميع الأمور ، فأنت - أيها المريض - تقول : خلقتني الله ﷻ ولا بأس ثم قدر علي المرض ، والذي قدر علي المرض بعد الصحة قادر على أن يشفيني .

« أذهب البأس » يعني : المرض الذي حل بهذا المريض .

« اشف أنت الشافي » والشفاء : إزالة المرض وئزء المريض ، فيقال : اشف ، ولا يقال : أشف ^(٢) ، لأن الثانية - أشف - بمعنى أَهْلِكَ ، وأما الأولى - اشف - فمعناها البرء من السقم ، ولهذا يقال : « اللَّهُمَّ اشْفِ فَلَانًا وَلَا تُشْفِهِ » فالكلمتان - عند العامة - يُظَنُّ أن معناهما واحد ، ولكن بينهما هذا الفرق العظيم : اشفه أي : أبرئه من المرض ، أما أشفه : أهلكه .

« الشافي » هو الله ﷻ لأنه الذي يشفي المرض ، وما يصنع من الأدوية أو يُقرأ من الرقى ، فما هو إلا سبب قد ينفع وقد لا ينفع ، فالله هو المسبب ﷻ ولهذا ربما يمرض رجلان بمرض واحد ، ويداويان بدواء واحد ، وعلى (وصفة) واحدة فيموت هذا ، ويشفى ذاك ؛ لأن الأمر كله بيد الله ﷻ فهو الشافي ، وما يُصنَع من أدوية أو رُقَى فهو سبب ، ونحن مأمورون بذلك السبب كما قال النبي ﷺ : « تداووا ، ولا تتداووا بحرام » ^(٣) وقال : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواء » ^(٤) .

وقوله : « لا شفاء إلا شفاؤك » صدق رسول الله ﷺ فلا شفاء إلا شفاء الله ، فشفاء الله لا شفاء غيره ، وشفاء المخلوقين ليس إلا سببًا ، والشافي هو الله ، فليس الطبيب وليس الدواء هما اللذان

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٤) .

(٢) أشف : تسمى الهمزة التي في أولها « همزة الإزالة » فهي قد أزلت معنى الشفاء .

(٣) أخرجه أبو داود في الطب (٣٨٧٤) ، والبيهقي في السنن (٥/١٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٣/١) ، والحاكم في المستدرک (١٩٦/٤) .

يشفيان ، بل الطبيب سبب ، والدواء سبب ، وإنما الشافي هو الله .

وقوله : « شفاء لا يغادر سقمًا » يعني : شفاء كاملاً لا يبقى سقمًا أي : لا يبقى مرضًا .

فينبغي للإنسان إذا عاد المريض أن يمسه بيده اليمنى ، ويقول هذا الدعاء . والله الموفق .

٩٠٣ - وعن أنس رضي الله عنه أنه قال لثابت رضي الله عنه : ألا أزيحك برقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، قال : « اللهم رب الناس ، مذهب الناس ، أشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت ، شفاء لا يغادر سقمًا » ^(١) رواه البخاري .

٩٠٤ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : عاذني رسول الله ﷺ ، فقال : « اللهم اشف سعدًا ، اللهم اشف سعدًا ، اللهم اشف سعدًا » ^(٢) رواه مسلم .

٩٠٥ - وعن أبي عبد الله عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكى إلى رسول الله ﷺ . وجعًا يعجزه في جسده ، فقال له رسول الله ﷺ : « ضَع يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمُ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ : بِسْمِ اللَّهِ - ثَلَاثًا - وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَازِرُ » ^(٣) رواه مسلم .

٩٠٦ - وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَخْضُرْهُ أَجَلُهُ ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ ، إِلَّا عَافَاكَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ » ^(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن ، وقال الحاكم : حديث صحيح على شرط البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث مما يقال عند المريض إذا عادته الإنسان ذكرها النووي رحمته الله في كتابه رياض الصالحين .
حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ عادته في مرضه فقال : « اللهم اشف سعدًا ، اللهم اشف سعدًا ، اللهم اشف سعدًا » ، وفيه أيضًا حسن خلق النبي ﷺ ومعاملته لأصحابه ، فإنه كان (يَفُود مرضاهم ويدعو لهم) وفيه أن يُستحب أن يُدعى بهذا الدعاء « اللهم اشف فلانًا » وتسميه ، ثلاث مرات ، فإن هذا مما يكون سببًا في شفاء المريض ، وفيه أيضًا دليل على أن الإنسان يكرر الدعاء ، لقد كان الرسول ﷺ إذا دعا يدعو ثلاثًا ، وإذا سلّم ولم يفهم عنه سلّم ثلاثًا ، وتكرار الدعاء ثلاثًا من الأمور المشروعة كما كان ﷺ في الصلاة يقول : « رب اغفر لي ، رب اغفر لي ، رب اغفر لي » يكرر . هكذا أيضًا يكرر الدعاء للمريض .

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٥١/٣) ، وأبو داود في الطب (٣٨٩٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الوصايا (٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/١) .

(٣) أخرجه مسلم في السلام (٦٧) ، وقوله : « بزة الله » أي اعتصم بغلبته وأتخصن ، وقوله : « من شر ما أجد » أي : من الألم . وقوله : « أحاذر » أي : أتوقى .

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٠٦) والترمذي في الطب (٢٠٨٤) .

ثم ذكر المؤلف حديث عثمان بن أبي العاص : أن النبي ﷺ سأل عثمان أنه يشكو من مرض في جسده فأمره النبي ﷺ أن يقول هذا الدعاء : (بسم الله ثلاثاً) ويضع يده على موضع الألم ثم يقول : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » يقولها سبع مرات ، فهذا من أسباب الشفاء أيضاً ، فينبغي للإنسان إذا أحسّ بألم أن يضع يده على هذا الألم ويقول : « بسم الله ثلاثاً ، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » يقولها سبع مرات ، إذا قاله مؤقّلاً بذلك مؤمناً به ، وأنه سوف يستفيد من هذا ؛ فإنه يذهب الألم بإذن الله ﷻ ، وهذا أبلغ من الدواء الحسي كالأقراص ، والشراب والحقن ، لأنك تستعين بمن بيده ملكوت السموات والأرض الذي أنزل هذا المرض ، هو الذي يجيرك منه .

كذلك أيضاً حديث ابن عباس : أن الإنسان إذا زار مريضاً لم يحضر أجله - أي ليس الذي فيه مرض الموت - فقال : « أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات إلا شفاه الله من هذا المرض » هذا إذا لم يحضر الأجل ، أما إذا حضر الأجل ؛ فلا ينفع الدواء ولا القراءة ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْقِذُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] والله الموفق .

* * *

٩٠٧ - وعنه أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَى أَغْرَافِي يَتَوَدُّهُ ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَنْ يَتَوَدُّهُ قَالَ : « لَا بَأْسَ ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره النووي ﷺ في كتابه (رياض الصالحين) باب ما يدعى به للمريض . عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ دخل على أغرافي يعوده ، وكان إذا دخل على مريض يعوده قال : « لا بأس - طهور إن شاء الله » . « لا بأس » يعني : لا شدة عليك ولا أذى . « طهور » يعني : هذا طهور إن شاء الله ، وإنما قال النبي ﷺ : « إن شاء الله » لأن هذه جملة خبرية وليست جملة دعائية ، لأن الدعاء ينبغي للإنسان أن يجزم به ؟ ولا يقل إن شئت . ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ^(٢) لا تقل هذا ، لأن الله لا مكروه له ، إن شاء غفر لك ، وإن شاء لم يغفر ولم يرحم ، فلا يقال : إن شئت ؛ إلا لمن له مكروه ، أو لمن يستعظم العطاء ، فإذا سألت الله فلا تقل : إن شئت .

أما قول : إن شاء الله في قول النبي « لا بأس ، طهور إن شاء الله » فهذا لأنه خير وتفاؤل . فيقول : لا بأس ، كأنه ينفي أن يكون به بأس ، ثم يقول : « إن شاء الله » لأن الأمر كله بمشيئة الله ﷻ . فيؤخذ من هذا الحديث : أنه ينبغي لمن عاد المريض إذا دخل عليه أن يقول : « لا بأس ، طهور إن شاء الله » .

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٦) ، والبيهقي في سننه (٣٨٣/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩) ، ومسلم في الذكر (٨) ، وأحمد في مسنده (٢٤٣/٢) .

٩٠٨ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ ؟ قال : « نَعَمْ » قال : بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ ، اللَّهُ يَشْفِيكَ ، بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله : « اشتكيت » يعني : هل أنت مريض .. ؟ قال : نعم ، فقال : « بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أرقيك » هذا دعاء من جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم يقول له : « اشتكيت » قال : « نعم » وفي هذا دليل على أنه لا بأس أن يقول المريض للناس : إني مريض . إذا سأله ، وأن هذا ليس من باب الشكوى ، فالشكوى أن تشتكي الخالق للمخلوق ، تقول : أنا أمرضني الله بكذا وكذا ، تشكو الرب للخلق ، هذا لا يجوز ، ولهذا قال يعقوب : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّقَ إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] لكن إذا أخبر المريض بمرضه على سبيل الإخبار لا الشكوى فلا بأس ، ولهذا بعض العامة يقول : إخبار لا شكوى ، وهذا طيب ، وفيه أيضًا دليل على أنه ينبغي أن نقرأ على المريض بهذه الرقية : « بسم الله أرقيك » يعني : أقرأ عليك « من كل شيء يؤذيك » : من مرض ، حزن ، هم ، أو غم ... إلخ « من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك » « من شر كل نفس » من النفوس البشرية أو نفوس الجن أو غير ذلك ، أو « عين حاسد » أي : ما يسمونه الناس بالعين ، وذلك أن الحاسد - والعياذ بالله - الذي يكره أن يُنعم الله على عباده بنعمه نفسه خبيثة شريرة ، وهذه النفس الخبيثة الشريرة قد ينطلق منها ما يصيب المحسود ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ٥] ويكون المحسود مهمومًا بسبب هذه العين ، ولهذا قال : « أو عين حاسد الله يشفيك » أي : يبرئه ويزيل سقمه « بسم الله أرقيك » فبدأ بالبسملة في أول الدعاء وفي آخره ، فإذا كان الإنسان في مثل هذه الحالة قل له هذا الدعاء فهذا خير ؛ لأن كل ما جاء في السنة فإن مراعاته أفضل ، وإذا لم تعرف هذا الدعاء فادعُ بالمناسب : شفاك الله ، عافاك الله ، أسأل الله لك الشفاء ، أسأل الله لك العافية ، وما أشبه ذلك ، وفي هذا الحديث دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كغيره من البشر ، يصيبه المرض ، وفيه أيضًا أن القراءة على المريض لا تنافي كمال التوكل ، بخلاف الذي يطلب من الناس أن يقرأوا عليه ؛ ففيه شيء من نقص التوكل ؛ لأنه سأل الخلق ، واعتمد على سؤالهم ، لكن إذا جاء إنسان يقرأ عليه ولم تمنعه ؛ فإن ذلك لا شيء فيه ولا يُعَدُّ نقصًا في التوكل ، ولهذا قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على غيره ، وقرأ عليه أيضًا ^(٢) ، فذلك لا ينافي كمال التوكل إذا كان بغير سؤال . والله الموفق .

٩٠٩ - وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، صَدَقَهُ رَبُّهُ » ، فقال : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ . وَإِذَا قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في السلام (٤٠) ، وقوله « أرقيك » أي أعوذك .

(٢) انظر في ذلك : البخاري في المغازي (٤٤٣٩) .

وَحَدَّةَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، قَالَ : يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي لَا شَرِيكَ لِي . وَإِذَا قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِي الْمُلْكُ وَلِي الْحَمْدُ . وَإِذَا قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي ، وَكَانَ يَقُولُ : « مَنْ قَالَهَا فِي مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمَهُ النَّارُ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذا آخر حديث نقله النووي رحمته الله في كتابه « رياض الصالحين » في باب : « ما يدعى به للمريض » وقد سبقت الأحاديث فيما يدعو به العائد للمريض .

أما هذا فهو فيما يدعو به المريض نفسه ، فقد ذكر أبو هريرة وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أن الله ﻻ يصدق العبد إذا قال : « الله أكبر ، لا إله إلا الله » قال الله : « إنه لا إله إلا أنا ، وأنا أكبر » ، وإذا قال : « الله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » ، كذلك يصدق الله ، فمن قال هذا : « لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » ثم مات مع بقية الذكر فإنه لا تطعمه النار ، أي : يكون ذلك من أسباب تحريم الإنسان على النار ، فينبغي للإنسان أن يحفظ هذا الذكر ، وأن يكثر منه في حال مرضه ؛ حتى يُختم له بالخير إن شاء الله تعالى ، والله الموفق .

١٤٦ - باب استحباب سؤال أهل المريض عن حاله

٩١٠ - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعٍ الذي تُؤفِّي فيه ، فقال الثَّاسُ : يَا أَبَا الْحَسَنِ ، كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِئًا ^(٢) . رواه البخاري .

الشرح

بعد ما ذكر المؤلف النووي رحمته الله في كتابه : (رياض الصالحين) كثيراً من آداب عيادة المريض يتحدث عن بيان سؤال أهل المريض عن حاله ، وأن ذلك من الأمور التي جاءت بها السنة ، حيث ذكر عنه ابن عباس رضي الله عنهما أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه ، وكان علي بن أبي طالب صهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، وأفضل أهل البيت ، فهو الخليفة الرابع في هذه الأمة ، ولما خلَّقه النبي ﷺ على أهله في غزوة تبوك ، ورأى أنه تأثر من ذلك قال له النبي ﷺ : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » ^(٣) لأن موسى خلف هارون على أهله قال : « خلقتني في

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٢٦) . (٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٦) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٠٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٢) ، وأحمد في مسنده (١٧٥/١) .

قَوِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَنْتَبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ [الأعراف: ١٤٢] قال له النبي ﷺ ذلك ، ثم قال : «إلا أنه لا نبي بعدي» خرج من عند الرسول ﷺ في مرضه الذي مات فيه ، وكان النبي ﷺ عندما مرض يعدل بين نسائه (١) التسع إلا سودة بنت زمعة ، فإنها وَهَبَتْ يومها لعائشة ، فلما اشتد به المرض صار يقول : «أين أنا غداً ، أين أنا غداً ؟» يريد يوم عائشة فأذن له رضي الله عنهن أن يمرض في بيت عائشة (٢) ، وظلَّ عندها ﷺ حتى تُوفِّي . فَسُئِلَ عليٌّ عليه السلام : كيف أصبح النبي ﷺ ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً .

ففيه دليل على أنه إذا لم يمكن الوصول إلى المريض ؛ فإنه يُشَالُ عنه من يراه من أقاربه أو غيرهم ليطمئن الإنسان ، وفي وقتنا الحالي حصل - ولله الحمد - اتصالٌ بغير الأقارب وهو اتصال الهاتف ، فإن الإنسان إذا لم يتمكن من الذهاب إلى المريض بنفسه ، فهذا الهاتف يدخل على البيوت بدون استئذان ، لهذا نقول إذا لم تتمكن من عيادة المريض بنفسك ، فإنك تتصل بالهاتف وتَسْأَلُ عن حاله ويُكْتَبُ لك بذلك الأجر - إن شاء الله تعالى - والله الموفق .

* * *

١٤٧ - باب ما يقوله من أيس من حياته

٩١١ - عن عائشة رضيها قالت : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُسْتَدِّ إِلَيَّ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي ، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى» (٣) متفقٌ عليه .

٩١٢ - وعنها قالت : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْمَوْتِ ، عِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ ، وَهُوَ يَدْخُلُ يَدُهُ فِي الْقَدَحِ ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالْمَاءِ ، ثُمَّ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِ الْمَوْتِ» (٤) رواه الترمذي .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه «رياض الصالحين» باب ما يقوله من أيس من حياته ؛ اليأس من الحياة لا يُعلم إلا إذا حضر الموت ، أما قبل ذلك ؛ فإنه مهما اشتدَّ المرض فإن الإنسان لا ييأس ، وكم من إنسان اشتدَّ به المرض حتى جمع أهله ماءً تغسيله وحنوطه (٥) ، وكفته ثم شفاه الله وعافاه ، وكم من إنسان أشرف على الموت في أرض مفازة ليس عنده ماء ولا طعام فأنجاه الله ﷻ ومن ذلك ما قال النبي ﷺ : إِنَّ اللَّهَ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ حِينَ أَضْلَاهَا - يعني : ضياعها -

(١) قوله : « يعدل بين نسائه » أي : يساوي بينهما في كل شيء ومنها المبيت عندهن .

(٢) انظر : الحديث في البخاري في النكاح (٥٢/٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٨٤) ، والبيهقي في السنن (٢٩٨/٧) .

(٣) أخرجه البخاري في المرضي (٥٦٧٤) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٨٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣١/٦) .

(٤) أخرجه الترمذي في الجنائز (٩٧٨) ، وابن ماجه في الجنائز (١٦٢٣) . قوله : « غمرات الموت » أي شدائده

التي تكاد تغمر الإنسان وتغطيه وتستره ، قوله « سكرات الموت » : هي مقدمات الموت الشديدة التي تتمكن من

الإنسان حتى يغيب عن الإدراك . (٥) الحنوط : هو الطيب الذي يطيب به الجسد عند موته .

وعليها طعامه وشرابه وطلبها فلم يجدها ، فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت : أيس منها ، وما بقي عليه إلا أن يموت « فبينما هو كذلك إذا بخطام ناقته متعلقاً بالشجرة » ردَّ الله عليه ضالته حتى جاءت هذه الشجرة ترعاها فارتطم خطامها بها فأخذها الرجل وقال : « اللهم أنت عبيدي وأنا ربك » يريد أن يقول : « أنت ربي وأنا عبدك » لكنه من شدة الفرح أخطأ ^(١) ، فهذا الرجل أيس من حياته باعتبار صاحب الحال ، لأنه فقد طعامه وشرابه لكن اليأس الحقيقي : هو ما إذا حضر الإنسان الموت وصار في النزاع فحينئذ لا يمكن أن يحيى ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُمُ ۖ وَأَنْتُمْ جِينُهُ نُنْظُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٣ - ٨٤] يعني : الروح ﴿ الْمُلُوكُمُ ﴾ يعني : الخلق ، ﴿ وَأَنْتُمْ جِينُهُ نُنْظُرُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ قَرَّبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْهُمْ ﴾ الملائكة أقرب إلى الإنسان من خلقه عند احتضاره ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينٍ ﴾ ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٦ - ٨٧] هل أحد يمكن أن يردَّ روحه بعد أن بلغت الخلقوم ؟! أبداً أبداً ؛ إذا ييأس الإنسان من حياته إذا عاين الموت ، فماذا يقول ؟ تقول عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اغفر لي وارحمني وألحني بالرفيق الأعلى » هكذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عند موته وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر !

من هم الرفيق الأعلى ؟ هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وحسن أولئك رفيقاً ، هكذا كان الرسول يقول عند موته ، وكان عنده صلى الله عليه وسلم إناء فيه ماء ، وقد أتى من شدة الموت وسكراته ما لم يؤت أحد ^(٢) ، لأنه صلى الله عليه وسلم يمرض مرض رجلين ^(٣) ، شُدَّ عليه المرض ، شُدَّ عليه النزاع ، لماذا ؟ من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر ، لأن الصبر يحتاج إلى شيء يُضَيَّر عليه ، فكان الله قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون مرضه شديداً ، ونزعه شديداً حتى ينال أعلى درجات الصابرين صلى الله عليه وسلم . فكان صلى الله عليه وسلم يضع يده في الإناء الذي فيه الماء ، ويمسح بذلك وجهه ويقول : « اللهم أعني على غمرات الموت ، أو قال على سكرات الموت » أعني عليها حتى أتحمّل وأصبر وأتروى ، ولا يزيغ عقلي ، وحتى يختم لي بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله الله ، لأن المقام مقام عظيم ، مقام هول وشدة إذا لم يُعَنَّك الله ﷻ ويُصبرك ؛ فأنت على خطر ، ولهذا كان يقول : « اللهم أعني على غمرات الموت » وفي رواية أخرى يقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات » ^(٤) وصدق النبي صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ^(٥) [ق : ١٩] نسأل الله أن يُعِينَنَا وإياكم على غمرات الموت ، وأن يُحَسِّنَ لَنَا وَلَكُمْ الخاتمة ويتوفانا على الإيمان والتوحيد ، وأن يتوفانا وهو راضٍ عنا إنه على كل شيء قدير .

(١) انظر الحديث في البخاري في الدعوات (٦٣٠٩) ، ومسلم في التوبة (٣ ، ٤) ، وأحمد في مسنده (٥٠٠ / ٢) .

(٢) انظر في ذلك : الترمذي في الجنائز (٧) ، وابن ماجه في الجنائز (٦٤) ، وأحمد في مسنده (٧٠ / ٦) .

(٣) انظر ذلك في : البخاري في المرضى (٥٦٤٨) ، وابن ماجه في الجنائز (١٦٣٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٠) .

(٥) قوله تعالى : ﴿ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي : شدته وكرهه ، وقوله تعالى ﴿ تَحِيدُ ﴾ أي : تفر وتهرب .

١٤٨ - باب استحباب وصية أهل المريض

ومن يخدمه بالإحسان إليه واحتماله والصبر على ما يشق من أمره
وكذا بالوصية بمن قرب سبب موته بحد أو قصاص ونحوهما

٩١٣ - عن عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رضي الله عنه أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزَّانَا ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقْمُهُ عَلَيَّ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلِيَهَا ، فَقَالَ : « أَحْسِنِ إِلَيْهَا ، فَإِذَا وَضَعْتَ فَأَتْنِي بِهَا » فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ ، فَشَدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا ^(١) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمته الله في باب : استحباب وصية أهل المريض بالصبر وتحمله وغير ذلك ، يعني : أنه ينبغي للإنسان أن يُحسن إلى المريض ويتحمّله ويصبر على ما يجد منه من كلام قاس ؛ لأن المريض نفسه ضيقة ، والدنيا عليه قد ضاقت ، فربما يحصل منه كلام أو تضجر أو ما أشبه ذلك ، فليصبر الإنسان على هذا وليحتسب الأجر من الله ﷻ فإنه يُثَاب على إحسانه لهذا المريض ، ويُثَاب على تحمله المشقة منه والأذى ، ولا سيما إذا كان هذا الذي يتولاه الإنسان قد وُجد سبب موته أو سبب قتله كما ذكر حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه : أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ وهي حُبْلَى مِنَ الزَّانَا - حامل - فقالت : يا رسول الله إني أصبت حَدًّا فَأَقْمُهُ عَلَيَّ . تريد من الرسول ﷺ أن يُقيم عليها الحد وهو الرجم ؛ لأنها محصنة ، فدعا النبي ﷺ وليها وقال له : « أَحْسِنِ إِلَيْهَا إِذَا وَضَعْتَ فَأَتْنِي بِهَا » فجاء بها إلى رسول الله ﷺ بعد أن وضعت الحمل ، ثم أمرها أن تنتظر حتى تفتطم الصبي ، فلما فطمته جاءت فأقام عليها الحد وأمرها أن تشد عليها ثيابها أي : تحزم وتربط ، لئلا تضطرب عند رجمها فتبدو سوءتها - أي عورتها - ثم أمر بها فرجمت وصلى عليها ﷺ .

ففي هذا دليل على أنه يُوصَى أهل الميت ومن يتولاه بالإحسان إليه والرفق به وغير ما ذكر مما يناسب حاله ، كما فعل النبي ﷺ ، وفي هذا الحديث دليل على أنه لا يشترط في الإقرار بالزنا أن يتكرر أربع مرات ، وأن الزاني إذا أقر ولو مرة واحدة وهو عاقل لا اشتباه في حاله ؛ فإنه يُؤخذ بإقراره ويُقام عليه الحد ، وفيه أيضًا دليل على أنه يشترط في إقامة الحد ألا يتعدى الضرر إلى غير المحدود ، لأنها لو رُجِمَتْ لمات الذي في بطنها ، وهو ليس منه جناية ، ولهذا أمر النبي ﷺ أن تنتظر حتى تضع مولودها وتفتطمه ، وفي هذا دليل على أن المرأة لا يحفر لها في الرجم ، ولكن تربط عليها ثيابها ثم تُلقى عليها الحجة ، حجارة لا صغيرة ولا كبيرة ، حتى تموت ، وإنما كان الحد هكذا ؛ لأن الشهوة المحرمة شملت جميع البدن ، فناسب أن يذوق جميع البدن ألم العقوبة ، وهذا من حكمة الله ﷻ .

وفي هذا دليل على أن الحدود إذا أقيمت ؛ فإن صاحبها يبرأ منها ويخلص منها ويطهر منها ، ولهذا أمر النبي ﷺ بها فصلًى عليها وصلًى الناس أيضًا .

* * *

١٤٩ - باب جواز قول المريض : أنا وَجَع أو شديد الوجع
أو موعوك ونحو ذلك ، وبين أن لا كراهة في ذلك
إذا لم يكن على سبيل التسخط وإظهار الجزع

- ٩١٤ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ ، فَمَسَسْتُهُ ، فَقُلْتُ : إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَغَمًا شَدِيدًا ، فَقَالَ : « أَجَلٌ ؛ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ » ^(١) متفق عليه .
- ٩١٥ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَوِّدُنِي مِنْ وَجَعٍ اسْتَدَّ بِي ، فَقُلْتُ : بَلَّغْ بِي مَا تَرَى ، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرْتُنِّي إِلَّا ابْنَتِي ^(٢) ، وذكر الحديث . متفق عليه .
- ٩١٦ - وعن القاسم بن محمد قال : قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها : وَرَأَسَاهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « بَلَّ أَنَا وَرَأَسَاهُ » ^(٣) وذكر الحديث . رواه البخاري .

الشرح

قال الحافظ النووي رحمته الله فيما يتعلق بالمريض : أنه يجوز أن يُخبر عما فيه من المرض وشدته ، بشرط أن يكون ذلك إخبارًا لا شكوى ، أي : أنه يقصد بهذا الإخبار وليست الشكوى والتسخط من قدر الله وقضائه ، ثم استدلَّ بحديث ابن مسعود وحديث سعد بن أبي وقاص وحديث عائشة رضي الله عنهن وكلها أحاديث تدل على أنه لا بأس أن يُخبر الرجل المريض بأنه مريض أو شديد الوجع أو ما أشبه ذلك .

فحديث ابن عباس يذكر أنه دخل على النبي ﷺ وهو يوعك - أي : فيه شدة ، فمدَّ يده فقال له : إنك لتوعك يا رسول الله ، قال : « أَجَلٌ ، إِنِّي لَأُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ مِنْكُمْ » أي : يُشَدُّدُ عَلَيْهِ ﷺ فِي الْمَرَضِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنَالَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الصَّبْرِ ﷺ ؛ فَإِنْ أَنْوَاعُ الصَّبْرِ ثَابِتَةٌ فِي حَقِّهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَعْلَى ؛ فَقَدْ صَبَرَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، وَصَبَرَ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ ، وَصَبَرَ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ ﷺ : صَبَرَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ حِينَ بَلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ مَعَ شِدَّةِ الْإِذَاءِ لَهُ حَتَّى كَانَ يُؤَذَى فِي وَسْطِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ - وَهُوَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ - حَتَّى إِذَا خَرَجَ إِلَى أَهْلِ الطَّائِفِ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَلَكِنَّهُمْ اسْتَهْزَؤُوا بِهِ

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٨) ، ومسلم في البر والصلة (٤٥) .
(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٦٨) ، ومسلم في الوصية (٥) .
(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٦٦) ، والأحكام (٧٢١٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٢٨/٦) والبيهقي في سننه (٣٧٨/٣) .

وسخروا منه ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا عَقبه ، فلم يُفَقْ إلا وهو في قرن الثعالب ، ثم جاءه ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم الأخشبين فقال : « لا ، إني أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد وحده ولا يشرك به شيئاً » ^(١) فهذا صبر على أمر الله .

وصبر ﷺ عن معصية الله ، فكان أخشى الناس لله وأتقاهم له ، وصبر على أقدار الله ، فكم أُوذِيَ في الجهاد في سبيل الله وفي غير ذلك ، وكم حدث له من أمراض وهو صابر محتسب ، لينال بذلك درجة الصابرين ، فلنا فيه أسوة ، فالإنسان يجب عليه أن يصبر على أقدار الله المؤلمة ، كما صبر الرسول ﷺ ، يصبر ويحتسب ويعلم أنه ما من شيء يُصيبه إلا كَفَرَ الله به عنه خطيئة ، حتى الشوكة يُشاكها ، ثم إذا احتسب الأجر عند الله ونوى بذلك أن يكون هذا الصبر لنيل رفعة درجات له حصل له هذا ، فينال بالمصائب مرتبتين عظيمتين :

١ - مرتبة الصابرين على قضاء الله وقدره .

٢ - ينال من رفعة الدرجات مع الاحتساب ما يناله من الثواب .

وأما حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ : فهو أنه مرض في مكة - وكان من المهاجرين - وكانوا يكرهون أن يموت الإنسان في بلده الذي هاجر منه ، لأنه ترك البلد لله فيكره أن يموت فيها ، وكان من عادة النبي ﷺ وحسن رعايته وخلقه أنه يعود المريض من أصحابه ، فعاده ، فقال له سعد ﷺ : يا رسول الله إني ذو وَجَع - وجع شديد - وإني ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي - أي لا يرثه من الذرية إلا بنت ، وإلا فله عصبه - أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لا » قال : بالنصف ؟ قال : « لا » قال : بالثلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس » والغالب من الناس اليوم - وقبل اليوم - أنهم يوصون بالثلث مع أن النبي ﷺ قال : « الثلث كثير » ، وهذا يدل على أنه لا يجب أن يوصى الإنسان بالثلث ، ولكن أخذ الناس ذلك عادة وأصبحوا يوصون بالثلث ، ولهذا قال حبر هذه الأمة - الذي دعا له النبي ﷺ أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل : لو أن الناس غَضُّوا من الثلث إلى الربع . يعني لكان أحسن ، لأن النبي ﷺ قال : « الثلث ، والثلث كثير » ^(٢) والناس الآن يقولون : اكتب ثلثاً ، وثلثين ، وما أشبه ذلك ، وهذا غير محبوب ؛ لأن النبي ﷺ ، غَضَّ من الثلث إلى الربع ، وغَضَّ من الربع إلى الخمس وهو أفضل ؛ لأن أبا بكر ﷺ أفقه هذه الأمة ، والخليفة الأول بعد نبيها أوصى بالخمس وقال : « رضيت بما رضي الله به » لأن الله يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرًا غَنَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ قَوْلِ اللَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : ٤١] مع هذا نجد الذين يوصون بالثلث لا يوصون على الوجه المشروع بل يوصون بأشياء مفضولة وغيرها أفضل منها ، يوصي وأحياناً يحيف في الوصية حيث يوصي للأولاد ويدع البنات ، أو يوصي بأشياء تؤدي بالتزاع بين الموصى لهم في المستقبل ، ولو أن الناس إذا أرادوا أن يوصوا أوصوا بما هو نفع عام : كبناء المساجد والمدارس ، وشراء الكتب النافعة وما أشبه ذلك مما يُنفذ في حينه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الوصية (١٠) ، وأحمد في مسنده (٢٣٠/١) ، وقوله : « غَضُّوا » أي نقصوا .

ويجري أجره وَيَسْلُمُ الورثة أو الموصى لهم من التنازع ، لكان خيراً .

والذي يجب على أهل العلم الذين يكتبون الوصايا : أن يَفْقَهُوا أولاً في دين الله ، وأن يحملوا الناس على ما هو أفضل وأولى ، لأن العامي الذي جاء يطلب منك أن تكذب ويقول لك : اكتب وصيتي قد ائتمنتك ، فكونه يكون كاتب أئمة - أي : لا يهمه إلا ما يرضي الناس فقط - فهذا خطأ ، احمِلوا الناس على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم حتى ولو كان على خلاف عاداتهم ، فهذا العامي المسكين ما أراد إلا الخير ولا يدري ، فعليك أن تدله وتخبره بالخير الذي ينفعه في قبره بعد موته .

أما الحديث الثالث : فهو عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله وأرأساه ، تشكو من رأسها فقال النبي ﷺ : « بل أنا وأرأساه » فهذا اجتمع فيه ستتان : إقرارية ، وقولية ، أما الإقرارية : فإن النبي ﷺ أقر عائشة عندما قالت : « وأرأساه » ، وأما القولية : فهو نفسه قال : « وأرأساه » وعليه فإن الإنسان إذا قال : وأرأساه وأبطناه ... أو ما أشبه ذلك فلا حرج ، بشرط ألا يقصد بذلك أن يشكو الخالق إلى المخلوق بل يقصد التوجع مما قضاه الله عليه ، فإذا كان مجرد خير ؛ فهذا لا بأس ولا سيما إذا كان يذكر هذا عند مَنْ يريد أن يعالجه ، لأنه خير مجرد ليس المراد به الاعتراض والتسخط على قضاء الله وقدره ، نسأل الله لنا ولكم الشفاء من كل داء ، وأن يجعل هذا قوة لنا على طاعته إنه على كل شيء قدير .

* * *

٥٠ - باب تلقين المحتضر : لا إله إلا الله

٩١٧ - عن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان آخِرَ كلامِهِ لا إله إلا الله دَخَلَ الجنة » ^(١) . رواه أبو داود والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٩١٨ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إله إلا الله » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمته الله في : باب تلقين المحتضر قول لا إله إلا الله .

المحتضر هو : الذي حضرت الملائكة لقبض روحه ، والله ﷻ قد وكل بالإنسان ملائكة يحفظونه في حال حياته وبعد مماته ، قال الله تعالى : ﴿ لَمْ نَمُوتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) [الرعد : ١١] وقال الله تبارك وتعالى ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴾ ^(٤) [الأنعام : ٦١] والإنسان إذا حضر أجله نزل إليه ملائكة يقبضون روحه من يد ملك الموت ، فإن ملك

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١١٦) ، والحاكم في المستدرک (٣٥١/١ ، ٥٠٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٤٧ ، ٢٣٣/٥) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (١ ، ٢) ، والبيهقي في سننه (٣٨٣/٣) .

(٣) قوله تعالى : ﴿ مُمِيتٌ ﴾ أي ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ، لحفظه وكتابة أعماله وأقواله .

(٤) قوله تعالى : ﴿ لَا يُفْرِطُونَ ﴾ أي : لا يتوانون أو يقصرون .

الموت يتولَّى قبضها من البدن ، والملائكة معهم كفن وحنوط من الجنة إذا كان من المؤمنين - جعلنا الله وإياكم منهم - وأما إذا كان من الكافرين : فملائكة العذاب معهم كفن من النار وحنوط من النار - نعوذ بالله من ذلك - فإذا احتضر الإنسان وعلمنا أنه في التزع وأنه ميّت ؛ فإننا نلقنه : « لا إله إلا الله » ، كما قال النبي ﷺ : « لَقْنُوا موتاكم لا إله إلا الله » .

قال العلماء : فيلقّنه برفق ، لا يأمره ، لا يقل قل : لا إله إلا الله ، لأنه ربما إذا قال له : قل : لا إله إلا الله - وهو في هذه الحال - قد ضاق صدره وقد ضاقت عليه الدنيا ، فيقول : لا ؛ لأنك ما تتصور ضيق الصدر في هذه الحالة إلا إذا كنت في هذه الحالة ، نسأل الله أن يشرح صدورنا وإياكم عند لقاءه ، فتذكر الله عنده تقول : لا إله إلا الله . ترفع صوتك بهذا ليسمع قربا يميّن الله عليه فيستحضر أنك تلقنه فيقول : لا إله إلا الله ، فإذا قال : لا إله إلا الله ، وكانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة كما في حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » . قال أهل العلم : فإذا قال : لا إله إلا الله فليسكت ولا يقل شيئا ، فإن عاد المحتضر نفسه وتحدث في شيء مثل : اسقوني ، أعطوني ماء أو أي شيء آخر ، فليعذ التلقين ، ولكن إذا كان الإنسان - والعياذ بالله - كافرا مرتدا فهذا ربما نقول له بالأمر : قل : لا إله إلا الله ، فإن ممّن الله عليه وقالها فيها ونعمت ، وإن لم يقل فهو كافر ، لذلك لما حضرت أبا طالب الوفاة وهو عم النبي ﷺ وأعمام النبي الذين أدركوا الرسالة أربعة : اثنان أسلما : حمزة والعباس ، أحدهما أفضل من الآخر ، حمزة أفضل من العباس . واثنان ماتا على الكفر ، أحدهما أقبح كفرا من الآخر : أبو طالب - والد علي - ، وأبو لهب ، وأبو لهب - والعياذ بالله - من أشد الناس إيذاء للرسول ﷺ ، ولهذا أنزل الله في ذمه سورة كاملة يقرأها الناس في الصلوات في الفرائض والنوافل ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ [السد] ولكن أبا طالب - رغم كفره - كان به حدّث على الرسول ﷺ وحنان وشفقة ومدافعة وثناء عليه إلا أنه - والعياذ بالله - حيل بينه وبين الإسلام ، فعندما حضرته الوفاة - وكان النبي ﷺ عنده - وعنده رجلان من قريش ، فقال له الرسول ﷺ : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » ^(١) ولكن كان هذان الرجلان جليسي سوء قالا : أترغب عن ملة عبد المطلب . وكأنهما - والله أعلم - رأياه هم أن يقول : لا إله إلا الله ، فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلما قالا ذلك أخذته العزة بالإثم ، فقال : هو على ملة عبد المطلب ، وكان آخر كلمة منه كلمة الشرك - والعياذ بالله - ثم مات . يقول الرسول ﷺ : « إنه شفع له عند الله فحُفِّف عنه العذاب ، فكان في ضحضاح من النار قد غاص به ، وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه » ^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٩) ، كلاهما بلفظ « كلمة أشهد لك بها » وأبو عوانة في مسنده (١٤/١) بلفظه .

(٢) انظر الحديث في : البخاري في الرقاق (٦٥٦٤) ، ومسلم في الإيمان (٣٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢٠٧/١) . والضحضاح : هو ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين ، واستعير في النار .

والعياذ بالله ، ودماغه أبعد شيء عن قدميه ، فإذا كان يغلي كالقدر فيه الماء تحته النار ، فما بالك بما هو أدنى من رأسه إلى قدميه ؟ لكان أشد . قال النبي ﷺ : « ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » والشاهد من هذا أن النبي ﷺ قال له : « يا عم قل : لا إله إلا الله » ولم يذكر الله عنده فقط ، بل قال : قل : لا إله إلا الله . فهذا من أفضل وأجل ما يكون هدية للمرء إذا لقَّنه أخوه عند الموت قول : لا إله إلا الله ، فهي تساوي الدنيا كلها ، فإذا حضرت أحدًا - وهو يحضر - فاحرص على تلقينه : لا إله إلا الله ، امتثالاً لأمر النبي ﷺ وإحساناً لهذا الشخص ، وربما يُلَقِّنَكَ اللهُ ﷻ عند موتك ، لأن النبي ﷺ قال : « الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » (١) ختم الله لنا ولكم بالشهادة .

* * *



٩١٩ - عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ ، فَأَغْمَضَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ ، تَبِعَهُ الْبَصَرُ ، فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ ، فَقَالَ : « لَا تَدْعُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَيَّ مَا تَقُولُونَ » ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ ، وَاخْلُقْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَايِبِينَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ ، وَتَوَزَّ لَهُ فِيهِ » (٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في : باب ما يقال عند تغميض الميت .

يعني أن الإنسان إذا حضر الميت ، فإن الميت في الغالب يشخص بصره - ينفتح باتساع - يشاهد الروح إذا خرجت من البدن ، لأن الروح إذا خرجت من البدن لها جسم ، لكنه جسم لا يراه الناس ، لا يراه إلا الميت ، والملائكة فقط ، وتأخذها ، وقد دخل النبي ﷺ على أبي سلمة ، وكان من عادة النبي ﷺ أنه يعود المرضى ، فدخل عليه - وقد شَقَّ بصره - يعني اتسع وانفتح ، فعرف النبي ﷺ أنه مات ؛ فقال : « إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ » فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ - أي من أهل الميت عندما سمعوا النبي ﷺ يقول هذا الكلام - فعرفوا أن الرجل قد مات فَضَجُوا كعادة الناس ، فقال ﷺ : « لَا تَدْعُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَيَّ مَا تَقُولُونَ » وكانوا في الجاهلية إذا حصل مثل هذا يدعون على أنفسهم بالويل والثبور - والعياذ بالله - يقول : يا ويلاه يا ثوراه وما أشبه ذلك ، فقال : « لَا تَدْعُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَيَّ مَا تَقُولُونَ » ففي هذه الحال ينبغي للإنسان أن يدعو

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٨) ، وأبو داود في السنن (٤٩٩٠) ، والترمذي في السنن (١٤٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٧) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٧/٦) ، وابن ماجه في الجنائز (١٤٥٤) .

لنفسه بالخير ويقول ما أرشد إليه النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مَصِيبَتِي وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهَا » ^(١) بعد قوله : « إنا لله وإنا إليه راجعون » لأن كل مصيبة تقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وفي مصيبة الموت : « اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مَصِيبَتِي وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهَا » ، وكذلك غيرها ، وقد حدث النبي ﷺ بهذا الحديث فسمعت أم سلمة زوج أبي سلمة فلما مات زوجها - وكان من أحب الناس إليها - دعت بهذا الدعاء ، وقالت في نفسها : « من خير من أبي سلمة ؟ » لأنها مؤمنة بهذا الكلام فلما انقضت عِدَّتُهَا خطبها النبي ﷺ فكان خيرًا من أبي سلمة ^(٢) . ولا شك ، المهم أن الرسول ﷺ أغمض عيني أبي سلمة ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَبِي سَلَمَةَ ، وَاَرْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ ، وَنَوِّرْ لَهُ فِي قَبْرِهِ ، وَافْسَحْ لَهُ فِيهِ ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقْبِهِ » خمس كلمات تساوي الدنيا كلها :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَبِي سَلَمَةَ » يعني اغفر له ذنوبه فلا تعاقبه عليها وسامحه واعف عنه .

« ارفع درجته في المهديين » في الجنة ؛ لأن أصحاب الجنة مهديون كلهم .

« أفسح له في قبره » : يعني وسع له فيه ، فإن القبر بالنسبة لمنازل الدنيا ضيق بحسب الحسن ، لكنه يُفسح للمؤمن حتى يكون كمد البصر ، ويكون روضة من رياض الجنة .

« نَوِّرْ لَهُ فِيهِ » : والقبر مظلم بحسب الحسن لا فيه نور النهار ولا نور الشراج وغيره .

« اخلفه في عقبه » يعني : كن خليفة له في ذريته ، فهذه الدعوات الخمس منها شيء علمناه ومنها شيء رجونا . الذي علمناه : أن الله ﷻ خلفه في عقبه ؛ لأن زوجته تزوجها النبي ﷺ ، وأولاده صاروا رباب للنبي ﷺ تربوا في بيته ، وأما الأربعة الباقية : فإننا نرجو الله أن يكون قد قبل دعوة نبيه في هذا الرجل الصالح .

في هذا الحديث دليل على مسائل :

١ - أنه ينبغي للإنسان إذا أصيب بمصيبة ألا يدعو لنفسه إلا بالخير .

٢ - أنه ينبغي لمن حضر الميت إذا خرجت روحه وانفتح بصره أن يُغمِضَهُ ما دام حائرًا ، لأنه إذا برد وعيناه شاخصتان بقيتا شاخصتين . قال العلماء : وينبغي أيضًا أن يُلَيِّنَ مفاصله قبل أن تبرد وتشخص ، وذلك بأن يرد ذراعه إلى عضده ، وعضده إلى صدره ثم يمد يده ، ويرد الساق إلى الفخذ ، والفخذ إلى البطن ثم يدها عدة مرات حتى تلين ، ليسهل تغميسته وتكفينه .

٣ - الدلالة على أن الروح شيء يُرى لأنها جسم ، ولكنه ليس كأجسامنا هذا ، فأجسامنا غليظة ، لكن الروح جسم ليس بالغليظ بل باللطيف ، يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وليس مخلوقًا من طين بل من مادة الله أعلم بها ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٣) ، وأحمد في مسنده (٢٧/٤) ، وقوله : « أجزني » أي : أعطني جزاء صبري على مصيبتني وقوله : « واخلفني » أي : رد علي مثل ما أخذت مني .

(٢) انظر القصة في : مسلم في الجنائز (٤) ، وأحمد في مسنده (٢٨٩/٦) .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ أَلَمِيرٍ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] .

- ٤ - ينبغي لمن حضر الميت وأغمضه أن يدعو له وإذا دعا بهذه الدعوات العظيمة التي دعا بها الرسول ﷺ لأبي سلمة كان خيرًا ، وإن لم يعرفها دعا بما شاء .
- ٥ - الملائكة يؤمنون على الدعاء في هذه الحالة ، فينبغي لأهل الميت أن يدعو بالخير .

* * *

١٥٢ - باب ما يقال عند الميت ، وما يقوله من مات له ميت

٩٢٠ - عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ ، أَوِ الْمَيِّتَ ، فَقُولُوا خَيْرًا ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ » قَالَتْ : فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ ، أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ قَدْ مَاتَ ، قَالَ : « قُولِي : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ ، وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عَقْبِي حَسَنَةً » فَقُلْتُ ، فَأَعْقَبَنِي اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِّي مِنْهُ : مُحَمَّدًا ﷺ . رواه مسلم هكذا : « إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ » أَوْ « الْمَيِّتَ » عَلَى الشُّكِّ ^(١) ، ورواه أبو داود وغيره : « الْمَيِّتَ » بِلَا شُكٍّ .

٩٢١ - وعنها قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ ، فيقول : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أَوْجِرْني في مُصِيبَتِي ، وَأَخْلِفْ لي خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى في مُصِيبَتِهِ ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا » . قالت : فَلَمَّا تُوفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ ، رسولَ الله ﷺ ^(٢) . رواه مسلم .

٩٢٢ - وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ : قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فيقولون : نَعَمْ ، فيقول : قَبِضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ ؟ فيقولون : نَعَمْ . ، فيقول : فَمَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟ فيقولون : حَمِيدَكَ وَاسْتَرْجَعَ ، فيقولُ اللَّهُ تَعَالَى : ابْنُوا لِعَبْدِي نَيْتًا في الْجَنَّةِ ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٩٢٣ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّةً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ اخْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ » ^(٤) رواه البخاري .

٩٢٤ - وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَرْسَلْتُ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ تَدْعُوهُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّ صَبِيًّا لَهَا - أَوْ ابْنًا - في الْمَوْتِ ، فَقَالَ لِلرَّسُولِ : « ازْجِعْ إِلَيْهَا ، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَا أَخَذَ ، وَلَهُ مَا أَعْطَى ،

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٦/٦) ، والترمذي في الجنائز (٩٧٧) ، وابن ماجه في الجنائز (١٤٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٩/٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٢١) ، وقوله : « ثَمَرَةُ فُؤَادِهِ » بيان لعظمة المصيبة وعظم الصبر عليها .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٤) ، وقوله : « ثُمَّ اخْتَسَبَهُ » أي : بأن يرجو ثوابه ويدخره عند الله تعالى ، وذلك ينبيء عن مزيد الصبر والتسليم .

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَمُرَّهَا ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » ^(١) وذكر تمام الحديث . متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي رحمته الله : فيما يقال عند الموت يعني : إذا مات للإنسان أحد فماذا يقول .. ؟ وقد سبقت لنا الإشارة إلى حديثين صدر بهما هذا الباب وهما لأُم سلمة رضي الله عنها حين مات زوجها فقالت : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبي وأخلفني خيرا منها » فأخلف الله عليها محمداً عليه السلام .

أما الأحاديث الثلاثة الباقية : فهي فيمن مات له ولد ، فحمد الله واسترجع وصبر ، فإن الله ﷻ يُعَوِّضُهُ بِذَلِكَ الْجَنَّةَ ، كما في الحديث : « إن الله تعالى إذا قبضت الملائكة نفس ولده فإن الله يقول للملائكة : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم » وهو يعلم ﷻ ، لكن يقول هذا ليظهر فضل هذا العبد ، وأنه حمد الله واسترجع عند هذه المصيبة العظيمة ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ، فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال ؟ قالوا : حمدك واسترجع . يعني : قال : « الحمد لله ، إنا لله وإنا إليه راجعون » والحمد عند المصائب مما يدل على صبر الإنسان على قضائه وقدره ، وأنه صبر ، فأثنى على الله بهذه المصيبة وكان النبي ﷺ إذا أصابه ما يكره قال : « الحمد لله على كل حال » وإذا أصابه ما يسره قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ^(٢) فإذا حصل لك ما يسرك فقل : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا حصل العكس فقال : الحمد لله على كل حال .

وكذلك أخبر ﷺ فيما رواه عنه النبي ﷺ أنه « ما من إنسان يقبض الله له ولده فيصبر ويحتسب إلا عوّضه الله به الجنة » وكذلك أيضا ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى : ما جزاء عبدي المؤمن الذي قبضت له صفيه واحتسب إلا الجنة » صفيه : يعني من اصطفاه واختاره من ولد وزوجة أو غيرهما . أما الحديث الأخير : فهو في قصة لإحدى بنات النبي ﷺ كان لها صبي في سياق الموت ، فأرسلت إلى النبي ﷺ تدعوه . فقال النبي ﷺ للرسول الذي أرسلته إليه : « قل لها : إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مُّسَمًّى ، فَمُرَّهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » فينبغي للإنسان في تعزية أخيه أن يقول له هذه الكلمات فهي أحسن ما يعزى به : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مُّسَمًّى ، اصبر واحتسب » والله الموفق .

(١) أخرجه البخاري في الجنايز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنايز (١١) . قوله : « في الموت » أي في مقدماته المعتاد وجوده بعدها ، قوله : « إن لله تعالى ما أخذ » معناه : الحث على الصبر والتسليم لقضاء الله ، والتقدير : هذا الذي أخذ منكم كان له لا لكم ، فلم يأخذ إلا ما هو له ، فينبغي أن لا تجزعوا كما لا يجزع من استردت منه وديعة أو عارية ، قوله : « وله ما أعطى » معناه : أن ما وهبه لكم ليس خارجا عن ملكه ، بل هو سبحانه يفعل فيه ما يشاء ، قوله : « وكل شيء عنده بأجل مُّسَمًّى » أي : اصبروا ولا تجزعوا ، فكل من خلقه يكون قد قضى أجله المسمى ، ومحال تقديم هذا الأجل أو تأخيره ، فاصبروا واحتسبوا على ما نزل بكم .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٩/١) .

١٥٣ - باب جواز البكاء على الميت بغير نذب ولا نياحة

أَمَّا النِّياحَةُ فَحَرَامٌ وَسَيَأْتِي فِيهَا بَابٌ فِي كِتَابِ التَّهْنِئَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَأَمَّا الْبُكَاءُ فَجَاءَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ بِالتَّهْنِئَةِ عَنْهُ ، وَأَنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ ، وَهِيَ مُتَأَوَّلَةٌ وَمَحْمُولَةٌ عَلَى مَنْ أَوْصَى بِهِ ، وَالتَّهْنِئَةُ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْبُكَاءِ الَّذِي فِيهِ تَذَبُّ ، أَوْ نِياحَةٌ ، وَالذَّلِيلُ عَلَى جَوَازِ الْبُكَاءِ بغيرِ نَذْبٍ وَلَا نِياحَةٍ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا :

٩٢٥ - عَنْ ابْنِ عُصَمَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ، وَمَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَكَوْا ؛ فَقَالَ : « أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ إِنْ اللَّهَ لَا يَعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ ، وَلَكِنْ يُعَذَّبُ بِهَذَا أَوْ يَوْحَمُ » وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ ^(١) . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في : باب جواز البكاء على الميت من غير نذب ولا نياحة .

البكاء على الميت تارة يكون بمقتضى الطبيعة ، يعني يأتي للإنسان دون أن يقصده ، فهذا لاجرح فيه ، ولا إثم فيه ، بل هو من أخلاق النبي ﷺ كما في الحديث الذي ذكره المؤلف ، وهو دليل على رحمة الإنسان ورقة قلبه ، وتارة يكون بتكلف ومعه نذب أو نياحة ؛ فهذا هو الذي يَأْتِمُّ به الإنسان ؛ فالنذب هو أن يقوم بتعداد محاسن الميت إذا بكى ، يبكي ويقول : هذا فلان الذي يأتي لنا بكذا وكذا ، ويدافع عنا ، وما أشبه ذلك ، أو يقول وأبناه ... وأما النياحة : فهي البكاء برنة كنوح الحمام ، فهذا هو المحرم ، وقد لعن النبي ﷺ النائحة والمستمعة ^(٢) . أما البكاء الذي يأتي طبيعياً دون أن يتقصده الإنسان ولكنه حزن ورحمة فهو لا بأس به ، كما في الحديث الذي ذكره المؤلف رحمته الله أن النبي ﷺ عاد سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه من مرضيَّ أَلَمَ به فبكى عليه الصلاة والسلام فبكى من معه : سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ثم قال : « أَلَا تَسْمَعُونَ » يعني : اسمعوا « إِنْ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ » لا يعذب الباكي والحزين ولا يعذب الميت « وَإِنَّمَا يَعَذَّبُ بِهَذَا أَوْ يَرْحَمُ » وأشار إلى لسانه يعني : أن يقول الإنسان قولاً مُحَرِّمًا فهذا الذي يُعَذَّبُ به الإنسان ، فدلَّ ذلك على جواز البكاء على الميت بشرط ألا يكون فيه نذب ولا نياحة ، وإِنَّمَا تَأْتِي به الطبيعة والجلبة ، فهذا لا بأس به وهو من خُلُقِ النبي ﷺ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٩٢٦ - وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رُفِعَ إِلَيْهِ ابْنُ ابْنَتِهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ ، فَقَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي

(١) أخرجه البخاري في الجائز (١٣٠٤) ، ومسلم في الجائز (١٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣١٢٨) ، وأحمد في مسنده (٦٥/٣) .

قُلُوبِ عِبَادِهِ ، وَإِنَّمَا يَوْحُمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ ^(١) متفق عليه .

٩٢٧ - وعن أنس رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ دَخَلَ عَلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ رضي الله عنه وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! فَقَالَ : « يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ » ثُمَّ أَتَبَعَهَا بِأُخْرَى ، فَقَالَ : « إِنَّ الْعَيْنَ تَذْمَعُ ، وَالْقَلْبُ يَحْزَنُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ » ^(٢) . رواه البخاري ، وروى مسلم بعضه . والأحاديث في الباب كثيرة في الصحيح مشهورة ، والله أعلم .

الشرح

سبق لنا الكلام على الأحاديث الثلاثة الماضية التي ذكرها النووي رحمته الله في (رياض الصالحين) في باب جواز البكاء على الميت من غير ندب ولا نياحة ، ثم ذكر حديثين عن رسول الله ﷺ أنه بكى حين رأى طفلين في النزع :

أما الأول : فهو ابن ابنته الذي رفع إليه وهو في سياق الموت ، فذرفت عينا رسول الله ﷺ رحمة بهذا الصبي ، لأنه يراه يتنازع الموت ، فرق له وبكى ﷺ وهو ﷺ أرحم الخلق بالخلق . فقال له سعد ابن عباد : ما هذا يا رسول الله ؟! يعني : كيف تبكي ؟! فقال ﷺ : « هذه رحمة - يعني أنني رحمت هذا الصبي الذي يتنازع نفسه فَرَقَّتْ له - وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » كلما كان الإنسان بعباد الله أرحم ؛ كان قريباً من رحمة الله ، ولهذا ينبغي لك أن تعود نفسك على الرحمة والرفقة للأطفال والحيوان وغير ذلك ممن هو أهل للرحمة ، حتى تكون أهلاً لرحمة الله ﷻ « وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، وفي هذا : دليل على جواز البكاء على الميت ، لأن النبي ﷺ بكى وقال : « هذه رحمة » وفيه دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لرحمة الله ﷻ بكل وسيلة ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] وفي قوله ﷺ : « وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » إشارة إلى أن جزاء الله من جنس العمل ، فلما كان هذا الإنسان راحماً لعباد الله كان الله - تعالى - راحماً له ، لأن الله تعالى في حاجة العبد إذا كان العبد في حاجة أخيه « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » ^(٣) .

أما الحديث الثاني : حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : فهو أن النبي ﷺ رُفِعَ إِلَيْهِ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمَ رضي الله عنه وهذا الولد ليس من زوجته خديجة ، بل من مارية التي أهداها له ملك القبط ، فسراها النبي ﷺ - أي وطئها بملك اليمين - فأنت له بهذا الولد وبقي ستة عشر شهراً ومات في حياة النبي ﷺ ، رُفِعَ إِلَيْهِ وهو يجود بنفسه ، أي : يتنازع الموت ، وأشرف ما عند الإنسان نفسه ، وهذا المحتضر كأنما يُسَلَّمُهَا للملائكة يجود

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنائز (١١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٣) ، ومسلم في الفضائل (٦٢) ، قوله : « وهو يجود بنفسه » أي : يخرجها ويدفعها كما يدفع الإنسان ما يجود به ، قوله : « تذرطان » أي تدمعان .

(٣) أخرجه البخاري في المظالم (٤٢٢٤) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) ، والطبراني في الكبير (٢٨٧/١٢) .

بها ، فبكى ﷺ فقيل له : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ثم قالها مرة أخرى : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون » ثم توفي الولد وله ستة عشر شهراً ، فدل ذلك على الإنسان لا حرج عليه إذا بكى رحمةً بالميت وحزنًا على فراقه ، فإن الرسول هنا قال : إنه محزون على فراق ابنه ، وفيه أيضًا : دليل بجواز إخبار الإنسان عن نفسه بأنه محزون من هذه المصيبة ، لأنه ﷺ قال : « القلب يحزن » ، وفيه دليل على أن النبي ﷺ يموت له الولد ويتألم لذلك وأنه يلحقه ما يلحق البشر ، فكان له ﷺ من الأولاد سبعة : ثلاثة ذكور ، وأربعة إناث ، وأشهر الذكور هو إبراهيم عليه السلام أما الإناث فأفضلهن فاطمة ، وهي كانت مع علي بن أبي طالب عليه السلام وزينب امرأة أبي العاص بن الربيع ، وأم كلثوم ورقية كانتا مع عثمان بن عفان ، لما ماتت إحداهما زوجة النبي ﷺ الثانية ، ولم يزوج الرسول ﷺ أحدًا من صحابته ابنتين إلا عثمان ، فتميز عثمان عليه السلام أن الرسول زوجة ابنتيه ، لكن بعد أن ماتت الأولى . أما أولاده : القاسم ، وعبد الله ، وإبراهيم ، لكن الذي اشتهر وبقي مدة هو إبراهيم ، وكل هؤلاء من خديجة رضي الله عنها إلا إبراهيم ، فإنه من مارية القبطية ، ولم يبق أحد من أولاده لا ذكورهم ولا إناثهم بعد موته إلا فاطمة ، فقد ماتوا جميعًا في حياته ، وهذا من حكمة الله ﷻ فإنه لا أحد يستطيع أن يدفع الموت ، ولو كان أعظم الناس جاهًا عند الله حتى النبي ﷺ .

١٥٤ - باب الكف عما يرى في الميت من مكروه

٩٢٨ - عن أبي رافع أشلم مولى رسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ عَشَلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ ؛ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً » ^(١) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

الشرح

قال النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب من ستر على الميت ما رآه من مكروه . ثم ذكر حديث مولى رسول الله ﷺ في فضل الغاسل إذا ستر على الميت ما يرى من مكروه ، والذي يُرى من الميت من المكروهات نوعان :

النوع الأول : ما يتعلق بحاله
النوع الثاني : ما يتعلق بجسده .

الأول : لو رأى مثلاً : أن الميت تغير وجهه واسودَّ وقبح ، فهذا - والعياذ بالله - دليل على سوء خاتمته - نسأل الله العافية - فلا يحلُّ له أن يقول للناس : إني رأيت هذا الرجل على هذه الصفة ؛ لأن هذا كشفٌ لعيوبه ، والرجل قديمٌ على ربه وسوف يجازيه بما يستحق من عفو أو فضل ، إن كان عمل خيرًا ، فالله يجزيه الحسنة بعشرة أمثالها ، وإن كان غير ذلك ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٥٤/١ ، ٣٦٢) .

الثاني : ما يتعلق بجسده كأن يرى بجسده عيياً ، كأن يرى برصاً ^(١) أو سواداً أو غير ذلك مما يكره الإنسان أن يطلع عليه غيره ، فهذا أيضاً لا يجوز أن يكشفه للناس ، ويقول : رأيت فيه كذا وكذا . ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : يجب على الغاسل أن يستر ما رآه إن لم يكن حسنة . أما إذا رأى خيراً بالميت واستتاره بوجهه أو رآه يتبسّم فهذا خير ، وليخبر به الناس ، لأنه يجعل الناس يشنون عليه خيراً ، ولا بأس به ، ولا يُعدُّ هذا من الرياء أو ما أشبه ذلك ، فإن هذا يعد من عاجل بُشْرِى المؤمن ، لأن المؤمن له مبشرات ، ومن هذه مثلاً أنه يُرى بعد موته على حالة حسنة ، وكذلك يرى الرؤيا الحسنة لنفسه أو يراها له غيره ، كل هذه من المبشرات التي تبشر بالخير . ولهذا قال العلماء رحمهم الله : يكره لغير المُعِين في غسله أن يحضر غسله حتى ولو كان قريباً له ؛ لأنه ربما يُرى ما يكره فيكون في ذلك إساءة إلى الميت . والله الموفق .

١٥٥ - باب الصلاة على الميت وتشيعه وحضور دفنه
وكرهه اتباع النساء الجنائز

وَقَدْ سَبَقَ فَضْلُ التَّشْيِيعِ .

٩٢٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ شَهِدَ الْجِنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ » قِيلَ : وَمَا الْقِيرَاطَانِ ؟ قَالَ : « مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

٩٣٠ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ اتَّبَعَ جِنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا ، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا ؛ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ، ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ » ^(٣) رواه البخاري .

٩٣١ - وعن أمِّ عطية رضي الله عنها قَالَتْ : نُهِنَا عَنِ اتِّبَاعِ الْجِنَائِزِ ، وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا ^(٤) متفقٌ عليه . ومعناه : وَلَمْ يُشَدَّدْ فِي النَّهْيِ كَمَا يُشَدَّدُ فِي الْحَرَمَاتِ .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) : (باب الصلاة على الميت وتشيعه وحضور دفنه) . يعني : استحباب ذلك للرجال وكرهه للنساء .

(١) البرص : هو مرض يصيب الجلد .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٢٥) ، ومسلم في الجنائز (٥٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٠١/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٠/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٣٤ ، ٣٥) ، وابن ماجه في الجنائز (١٥٧٧) ، والبيهقي في سننه (٧٧/٤) .

والجَنَازَة - بالفتح - اسم للميت ، والجَنَازَة - بالكسر - اسم للنعش الذي عليه الميت .
وقد ذكر المؤلف حديث أبي هريرة الأول والثاني ، وحديث أم عطية ، ليُعلم أن تشييع الجنائز من حقوق المسلمين على إخوانهم . قال العلماء : وإذا خرج مع الجَنَازَة فينبغي أن يكون مُتَخَشِّعًا متفكرًا في مآله ، ويعلم أنه كما أنه الآن يتبع جَنَازَة هذا الرجل فسوف يأتي اليوم الذي يتبع الناس فيه جَنَازَتَه ، فكما حُمِلَ هذا فهو أيضًا سيُحمَلُ .

كل ابن أنثى ولو طالَّت سلامته يومًا على آله حذاءً محمولٌ
فيفكر في أمره ، وأنه مهما طالَّت به الدنيا فسوف يُحمَلُ كما حُمِلَ هذا ويُشَيَّعُ كما شَيَّعَ هذا ، ولهذا قالوا : لا ينبغي لتابع الجَنَازَة أن يتحدث في شيء من أمور الدنيا ، بل يفكر في نفسه ، وإذا كان معه أحد يكلمه فليذكره بمآل كلِّ حيٍّ ، حتى يكون تشييع الجَنَازَة تشييعًا وعبرة ، أي قضاء لحق المسلم ، وعبرة للمشييع .
ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديثي أبي هريرة وفيهما : أن من تبع الجَنَازَة من بيتها حتى يُصلِّيَ عليها ثم تُدْفَنَ فله قيراطان ، فسئل عن القيراطين قال : مثل الجبلين العظيمين ، وفي رواية لمسلم « أصغرهما مثل جبل أحد » . ولما حَدَّثَ ابن عمر بهذا الحديث قال : لقد فرطنا في قرارات كثيرة - يعني ما كنا نخرج مع الجنائز ، وفرطنا في هذه القرارات الكثيرة ، فصار يخرج بعد ذلك مع الجنائز ، ﷺ - فإذا شهدتها حتى يُصلِّيَ عليها فلك قيراط ، وإن استمرت معها حتى تُدْفَنَ فلك قيراطان ، لكن في رواية البخاري اشترط أن يكون ذلك إيمانًا واحتسابًا ، يعني : إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده واحتسابًا لثوابه ، وليس قصدك المجاملة لأهل الميت ، لأن المجاملة لأهل الميت ثواب عاجل في الدنيا فقط ، وقد يؤجر الإنسان على مجاملة إخوانه ، لكن الأجر الذي هو قيراطان لمن تبعها إيمانًا واحتسابًا .

أما النساء : فقالت أم عطية رضي الله عنها : نُهِنَّا عن اتباع الجنائز ، ولم يُعْزَم علينا (نهينا) إذا قاله صحابي أو قالته صحابية فالمعنى : أن النبي ﷺ نهاهم ، لأن النبي ﷺ هو الذي له الأمر والنهي ، فإذا قال الصحابي أو الصحابية : (نُهِنَّا) فالمعنى نهانا رسول الله ﷺ .

وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث : أن اتباع النساء للجنائز مكروه ؛ لأنها قالت : نهينا ولم يُعْزَم علينا . وقال بعض العلماء : بل اتباع النساء للجنائز مُحَرَّم ، لثبوت النهي . وقول أم عطية : ولم يعزم علينا . هذا تَفَقُّه منها رضي الله عنها ولا ندرى - هل الرسول ﷺ هو الذي نهاهن ولم يعزم عليهن ، أم هي التي فهمت أنه لم يُعْزَم على النساء بترك اتباع الجنائز ؟ .

والصحيح أن اتباع المرأة للجَنَازَة حرام ، وأنه لا يجوز للمرأة أن تتبع الجَنَازَة ؛ لأنها إذا تبعتها فهي لا شك ضعيفة ربما تصيح وتولول وتضرب الخدَّ وتنتف الشعر وتمزق الثوب ، وأيضًا ربما يحدث اختلاط بين الرجال والنساء في تشييع الجَنَازَة فيحصل بذلك فتنة وتزول الحكمة من اتباع الجنائز بحيث يكون الرجال ، أو الأراذل ^(١) من الرجال لا يكون لهم هَمٌّ إلا ملاحقة هؤلاء النساء أو التمتع

(١) الأَرْدَل : هو : الخسيس الرديء ، وأرذل العمر : آخره ، وهو الهرم والحرف (المعجم العربي الأساسي ص ٥١٨) .

بالنظر إليهن ، فالواجب منع النساء من اتباع الجنائز ؛ فهو حرام ولا يجوز ، كما أن زيارة المرأة للمقابر حرام ، لأن النبي ﷺ لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج (١) . والله الموفق .

١٥٦ - باب استحباب تكثير المصلين على الجنازة
وجعل صفوفهم ثلاثة فأكثر

٩٣٢ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةَ كُلِّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلَّا شَفَعُوا فِيهِ » (٢) رواه مسلم .

٩٣٣ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا ؛ إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ » (٣) رواه مسلم .

٩٣٤ - وعن مَرْثِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْيَزَنِيِّ قَالَ : كَانَ مَالِكُ بْنُ هُبَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ ، فَتَقَالَ النَّاسُ عَلَيْهَا ، جَزَأُهُمْ عَلَيْهَا ثَلَاثَةٌ أَجْزَاءٍ ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلَاثَةٌ صُفُوفٍ ، فَقَدْ أَوْجِبَ » (٤) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : باب استحباب تكثير المصلين على الميت ، ثم ذكر ﷺ ثلاثة أحاديث : حديث عائشة ، وعبد الله بن عباس ، ومالك بن هُبَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وكلها تدل على أنه كلما كثر الجمع على الميت كان ذلك أفضل وأرجى للشفاعة ، ففي حديث عائشة : أنه من صلى عليه طائفة من الناس يبلغون مائة يشفعون له إلا شفعهم الله فيه ، ومعلوم أن المصلين على الجنازة يشفعون إلى الله ﷻ لهذا الميت ، فهم يسألون من الله له المغفرة والرحمة ، والدعاء للميت في الجنازة من أوجب ما يكون في الصلاة ، بل هو ركن لا تصح صلاة الجنازة إلا به ، إلا المسبوق . وحديث ابن عباس يدل على أنه من قام على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً ؛ إلا شفعهم الله فيه - أي : قَبِلَ شفاعتهم فيه - وهذه بشرى للمؤمن ، إذا كثر المصلون على جنازته فشفعوا له عند الله أن الله تعالى يُشَفِّعُهُمْ فِيهِ . أما حديث مالك بن هُبَيْرَةَ : ففيه أن الرسول ﷺ قال : « مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلَاثَةٌ صُفُوفٍ إِلَّا أَوْجِبَ » يعني : وجبت له الجنة . وهذه الأحاديث كلها تدل على أنه كلما كثر الجمع كان

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٥٦) ، وأحمد في مسنده (٣٥٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٧٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٨) ، والبيهقي في السنن (٣٠/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٩) ، والبيهقي في سننه (١٨١/٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٦٦) ، والترمذي في الجنائز (١٠٢٨) ، قوله : (فتقال) أي فرأهم قليلين ، قوله : (فقد أوجب) أي : أوجب الله له الجنة بالوعد الصادق على لسان نبيه المصطفى ﷺ .

أفضل ، ولهذا نجد أن بعض الناس إذا صَلَّى على جنازة في مسجد نبه أهل المساجد الأخرى ليحضروا إليه حتى يكثر الجمع ، فينبغي للإمام إذا رأى الذين جاءوا ليشهدوا صلاة الجنازة قد فاتهم شيء من صلاة الفريضة ألا يتعجل بالصلاة على الميت حتى ينتهي الذين يقضون صلاتهم ليشاركوا الحاضرين في الصلاة على الميت ، فيكون ذلك أكثر للجمع ، وربما تكون دعوة واحد منهم هي المستجابة ، وكون بعض الناس بعدما يُسَلَّم يقوم ويصلي على الجنازة - وخلفه صف أو أكثر - فهذا وإن كان جائزاً - لكن الأفضل أن ينتظر حتى يتم الناس صلاتهم ويصلُّون على الجنازة . والله الموفق .

١٥٧ - باب ما يُقرأ في صلاة الجنازة

يُكَبِّرُ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ : يَتَعَوَّذُ بِغَدِّ الْأُولَى ، ثُمَّ يَقْرَأُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ، ثُمَّ يُكَبِّرُ الثَّانِيَةَ ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فيقول : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ يُتِمَّهُ بقوله : كما صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ .. إِلَى قَوْلِهِ : إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

وَلَا يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعَوَامِّ مِنْ قِرَاءَتِهِمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٦] فَإِنَّهُ لَا تَصِحُّ صَلَاتُهُ إِذَا اقْتَصَرَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ يُكَبِّرُ الثَّالِثَةَ ، وَيَدْعُو لِلْمَيِّتِ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِمَا سَنَدَكُرُّهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يُكَبِّرُ الرَّابِعَةَ وَيَدْعُو ، وَمِنْ أَحْسَنِهِ : اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ ، وَاعْفُوْ لَنَا وَلَهُ .

وَالْمُحْتَثَرُ أَنَّهُ يُطَوَّلُ الدُّعَاءُ فِي الرَّابِعَةِ خِلَافَ مَا يَغْتَاذُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ ؛ لِحَدِيثِ ابْنِ أَبِي أَوْفَى الَّذِي سَنَدَكُرُّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فَأَمَّا الْأَذْيَعِيَّةُ الْمَأْثُورَةُ بِغَدِّ التَّكْبِيرَةِ الثَّالِثَةِ ، فَمِنْهَا :

٩٣٥ - عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ؓ قَالَ : صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، وَارْحَمْهُ ، وَعَافِهِ ، وَاعْفُ عَنْهُ ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ ، وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ ، وَاعْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالتَّلَجِّ وَالتَّبَرِّدِ ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ » حَتَّى تَمْتَلِئَ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْمَيِّتَ ^(١) . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) باب ما يُدعى به للميت . صلاة الجنازة : تشتمل على قراءة الفاتحة . ثم الصلاة على النبي ﷺ ، ثم الدعاء ، فيبدأ أولاً بالفاتحة ، لأنها ثناء على الله ﷻ ثم الصلاة على النبي ﷺ وهو أحق الناس أن يُقَدَّم حتى على النفس ، ثم بعد ذلك

الدعاء العام « اللهم اغفر لحينا وميتنا » ثم الدعاء الخاص للميت « اللهم اغفر له وارحمه » وهذا الترتيب كالترتيب في التشهد حيث نبدأ أولاً بالتحيات لله وهو الشاء على الله ، ثم السلام على النبي ، ثم السلام على الإنسان وعلى عباد الله الصالحين ، وهذا أيضاً - الدعاء للميت - كذلك مُرتَّب ، لكن نبدأ بالعام قبل الخاص بخلاف التشهد فإنه يُتبدأ بالخاص قبل العام ؛ لأن التشهد تدعو لنفسك « السلام علينا » والنفس مقدمة على الغير إلا على النبي ﷺ . المهم أن صلاة الجنازة يكبر الإنسان التكبيرة الأولى ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ الفاتحة كاملة ، ثم يكبر الثانية فيصلي على النبي ﷺ ، وأحسن ما يصلي به عليه ما علمه أمته : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » ثم يكبر الثالثة فيدعو لعامة المسلمين « اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا » ثم يدعو للميت الدعاء الخاص ، ومنه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى على جنازة فحفظ من دعائه : « اللهم اغفر له وارحمه ، وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله ^(١) » يعني ضيافته ، لأن الميت في ضيافة الله ﷻ إذا انتقل إلى قبره فهو إما أن يكون في قبره معذباً أو منعماً ، ويقول : « وأوسع مدخله » ويجوز مدخله - يعني : أوسع قبره - لأنه يُدخل فيه « واغسله بالماء والثلج والبرد » واغسله يعني طهره من الذنوب بالماء والثلج والبرد ، ذكر الثلج والبرد لأنه بارد ، وذكر الماء لأن به النظافة ، والذنوب - أجارنا الله وإياكم منها - عقوبتها حارّة ؛ فناسب أن يقرن مع الماء ؛ الثلج والبرد ، فيحصل بالماء التنظيف ، ويحصل بالثلج والبرد التبريد « ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » يعني : نظفه تنظيفاً كاملاً من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ ، وذكر الثوب الأبيض ؛ لأنه هو الذي تظهر فيه أدنى دنسة ، فإذا كان الثوب الأبيض نقياً فمعناه أنه ليس به دنس إطلاقاً بخلاف الثوب الأسود والأحمر والأخضر وما أشبه ذلك ، فإنه ليس كالأبيض تبين به الدنسة بياناً واضحاً « اللهم أبدله داراً خيراً من داره » لأنه انتقل من دار الدنيا إلى دار البرزخ ، ودار الدنيا - كما نعلم - دار محن وأذى وكدر فيقول : « أبدله داراً خيراً من داره » ليكون منعماً في قبره « وأهلاً خيراً من أهله » أهله : ذوره ؛ كأمه وخالته ، وأبيه ، وابنه وما أشبه ذلك « وزوجاً خيراً من زوجه » يعني زوجة خيراً من زوجته ، وهم الحور العين ، وكذلك بزوجه في الدنيا ، لأن الإنسان إذا تزوج امرأة في الدنيا ومات على الإيمان ؛ فإنها تكون زوجته في الآخرة ، فإن قال قائل : كيف تكون خيراً من زوجتي وهي واحدة في الدنيا ؟! نقول : خيراً منها في الصفات والجمال وغير ذلك « وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار » كل هذا دعاء يدعو به الإنسان للميت ، وينبغي أن يخلص الإنسان للميت في هذا الدعاء ، فإن كانت امرأة فإنه يقول : « اللهم اغفر لها وارحمها ، وعافها واعف عنها ... » يعني بضمير المؤنث ، فإن كان لا يدري ، هل هي ذكر أم أنثى ؛ فإنه مُخير ، إن شاء قال : اللهم اغفر له - يعني لهذا الشخص - والمرأة توصف بأنها شخص ، أو إن شاء قال : « اغفر لها » أي : لهذه الجنازة ، والجنازة تطلق على الرجل وعلى

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٦٢) ، والنسائي في السنن (٥٢/١) ، وأحمد في مسنده (٢٣/٦) .

المرأة، وإن كان يعلم أنه ذكر ذكَّره، وإن كان يعلم أنها أنثى أنَّثها، وإن كان لا يدري جاز أن يذكره، وجاز أن يؤنثه، فإن ذكَّره فالمعنى « اغفر له » أي : لهذا الشخص الذي بين أيدينا، وإن قال : « اغفر لها » أي : لهذه الجنابة، والجنابة تطلق على الرجل والمرأة . والله الموفق .

* * *

٩٣٦ - وعن أبي هريرة وأبي قتادة، وأبي إبراهيم الأشْهلي عَنْ أَبِيهِ - وَأَبُوهُ صَحَابِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيَّتِنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرْنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا . اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ ، وَلَا تَقْتُلْنَا بَعْدَهُ » ^(١) رواه الترمذي من رواية أبي هريرة والأشْهلي، ورواه أبو داود من رواية أبي هريرة وأبي قتادة : قال الحاكم : حديث أبي هريرة صحيح على شرط البخاري ومسلم، قال الترمذي : قال البخاري : أصح روايات هذا الحديث رواية الأشْهلي . قال البخاري : وأصح شيء في الباب حديث عوف بن مالك .

٩٣٧ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ ، فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ » ^(٢) رواه أبو داود .

الشرح

هذان الحديثان فيما يُدعى به في الصلاة على الميت ، وقد سبق حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الدعاء الخاص للميت ، أما هذا الدعاء الذي ذكره المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو الدعاء العام ، يقول المصلي على الميت : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيَّتِنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرْنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا » وهذه الجمل تغني عنها جملة واحدة ، لو قال : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيَّتِنَا وَمَيِّتِنَا شمل الجميع ، لكن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط والتفصيل ، لأن الدعاء كل جملة منه عبادة لله ﷻ وإذا كررته ازدادت بذلك ثوابا فقله : « حَيَّتِنَا وَمَيِّتِنَا » يشمل الحي الحاضر والميت القديم والميت في عصره « وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا » كذلك أيضا يشمل الصغير والكبير الحي والميت ، وذكر الصغير مع أن الصغير لا ذنب له من باب التبعية ، وإلا فإن الصغير ليس له ذنب حتى تُسأل له المغفرة « وَذَكَرْنَا وَأُنْثَانَا » مثلها عامة « وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا » الحاضر والمسافر مثلا « اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ » الحياة ذكر معها الإسلام وهو الاستسلام الظاهر ، ومع الموت ذكر الإيمان ؛ لأن الإيمان أفضل ومحله القلب ، والمدار على ما في القلب عند الموت وفي يوم القيامة « اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ ، وَلَا تَقْتُلْنَا بَعْدَهُ » لا تحرمنا أجره يعني : بالصلاة عليه ، لأن الإنسان يؤجر بالصلاة على الميت - كما سبق - أن من شهدا حتى يصلِّي عليها فله قيراط ، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان . كذلك أيضا أجر آخر للمصاب بهذا

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٠١) ، والترمذي في الجنائز (١٠٢٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٩٩) ، وابن ماجه في الجنائز (١٤٩٧) ، والبيهقي في سننه (٤٠/٤) .

الميت الذي حزن لفراقه يؤجر أيضًا على صبره على المصيبة « ولا تفتنا بعده » : يعني لا نُضلنا عن ديننا بعده ، لأن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، ما دام الإنسان لم تخرج روحه فإنه عُرضة لثن يفتن في دينه - والعياذ بالله - ولهذا قال : « لا تفتنا بعده » فينبغي للإنسان أن يدعو بهذا الدعاء اقتداءً برسول الله ﷺ .

أما حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا دعوت للميت فأخلصوا له الدعاء » : فالمعنى : أنك تدعو بحضور قلب وإلحاح على الله لأخيك الميت ، لأنه مُحْتَاج لك . والله الموفق .

* * *

٩٣٨ - وعنه عن النبي ﷺ في الصلوة على الجنائز : « اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّهَا ، وَأَنْتَ خَلَقْتَهَا ، وَأَنْتَ هَدَيْتَهَا لِلْإِسْلَام ، وَأَنْتَ قَبَضْتَ رُوحَهَا ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهَا وَعَلَانِيَتِهَا ، جَنَّاكَ شُفَعَاءُ لَهُ ، فَاعْفُ لَهُ » ^(١) رواه أبو داود .

٩٣٩ - وعن وإبلة بن الأشعث ؓ قال : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَصَمِعْتُهُ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنَّ فُلَانًا ابْنُ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحِبْلِ جَوَارِكَ ، قَبِيحَ فِتْنَةِ الْقَبْرِ ، وَعَذَابِ النَّارِ ، وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَمْدِ ، اللَّهُمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » ^(٢) رواه أبو داود .

٩٤٠ - وعن عبد الله بن أبي أوفى ؓ أَنَّهُ كَبَّرَ عَلَى جَنَازَةِ ابْنَةٍ لَهُ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ ، فَقَامَ بَعْدَ الرَّابِعَةِ كَقَدْرِ مَا يَسْنُ التَّكْبِيرَتَيْنِ يَسْتَغْفِرُ لَهَا وَيَدْعُو ، ثُمَّ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ هَكَذَا .

وفي رواية : كَبَّرَ أَرْبَعًا ، فَمَكَثَ سَاعَةً حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُكَبِّرُ خَمْسًا ، ثُمَّ سَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ . فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْنَا لَهُ : مَا هَذَا ؟ فَقَالَ : إِنِّي لَا أَزِيدُكُمْ عَلَى مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ ، أَوْ هَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٣) . رواه الحاكم وقال : حديث صحيح .

* * *

١٥٨ - باب الإسراع بالجنائز

٩٤١ - عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ ؛ فَإِنَّ تِلْكَ صَالِحَةٌ ؛ فَخَيْرٌ تَقْدُمُونَهَا إِلَيْهِ ، وَإِنَّ تِلْكَ سِوَى ذَلِكَ ؛ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ » متفق عليه . وفي رواية لمسلم : « فَخَيْرٌ

(١) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٠٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٤٥ / ٢ ، ٣٦٣) ، والبيهقي في سننه (٤٢ / ٤) . قوله « أنت ربها » أي سيدها ومالكها ، قوله « بسرّها » وعلايتها ، أي باطنها وظاهرها .

(٢) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٠٢) ، وابن ماجه في الجنائز (١٤٩٩) ، قوله : « في ذمتك » أي في عهدك وأمانك ، قوله : « وحبل جوارك » أي في كنف حفظك وعهد جوارك ، قوله « فقه فتنة القبر » أي امتحان السؤال فيه ، أو فيه من أنواع عذابه من الضغطة والظلمة وغيرها .

(٣) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٦٠ / ١) ، وأخرجه ابن ماجه في الجنائز (١٥٠٣) ، والبيهقي في سننه (٣٥ / ٤) .

تَقْدُمُونَهَا عَلَيْهِ ^(١) .

٩٤٢ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً ، قَالَتْ : قَدَّمُونِي ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ ، قَالَتْ : لِأَهْلِهَا : يَا وَيْلَهَا ! أَلَيْسَ تَذْهَبُونَ بِهَا ؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ ، وَلَوْ سَمِعَ الْإِنْسَانُ لَصَبَقَ » ^(٢) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف في كتابه (رياض الصالحين) باب الإسراع في الجنائز ، الإسراع في الجنائز يشمل الإسراع في تجهيزها ^(٣) ، والإسراع في تشييعها ، والإسراع في دفنها ، وذلك أن الميت إذا مات فإما أن يكون صالحاً وإما أن يكون سوى ذلك ، فإن كان صالحاً فإن حبسه حيلولة بينه وبين ما أعدّه له الله من النعيم في قبره ، لأنه ينتقل من الدنيا إلى خير منها وإلى أفضل ، لأنه حين احتضاره ومنازعته الموت يُشِيرُ يقال لروحه : « أبشري برحمة من الله ورضوان » ^(٤) فيشتاق لهذه البشرية ، فيجب أن يتعجل وأن يُعَجَّلَ به ، فإذا حُبِسَ كان في هذا شيء من الجنابة عليه والحيلولة بينه وبين ما أعدّه الله له من النعيم . وإن كان غير صالح - والعياذ بالله - فإنه لا ينبغي أن يكون بيننا وبينه ما ينبغي أن نسارع بالتخلص منه ، ولهذا قال النبي ﷺ « أسرعوا بالجنائز » أسرعوا بها في تجهيزها وتشييعها ودفنها ، لا تؤخروها « فإن تكُ صالحة ؛ فخير تقدمونها إليه » خير : يعني خير مما انتقلت منه « تقدمونها إليه » لأنها تقدم - جعلنا الله وإياكم منهم - إلى رحمة الله ونييم وسرور ونور ، فتقدمونها إلى خير « وإن تك سوى ذلك » يعني : ليست صالحة « فشرّ تضعونه عن رقابكم » تَسْلُمُونَ منه ، لأنه ما لا خير فيه لا خير في بقائه . إذا يُستفاد من هذا الحديث أنه يُسَنُّ الإسراع بالجنائز وألا تؤخر ، وما يفعله بعض الناس اليوم إذا مات الميت قالوا : انتظروا حتى يقدم أهله من كل فجٍّ ، وبعضهم ربما كان في أوروبا أو في أمريكا ، وربما طال ذلك يوماً أو يومين ، فهذا جنازة على الميت وعصيان لأمر الرسول ﷺ ، « أسرعوا بالجنائز » فإذا جاء أهله إذا بعد دفنه فإنهم يصلُّون على قبره ، فالأمر واسع والحمد لله ، فلماذا يتأخر دفنه حتى يأتوا ؟ وماذا ينفعه من ذلك ؟ إنه لا ينفعه إلا الدعاء له بالصلاة عليه ، وهذا حاصل إذا صلُّوا عليه في قبره ، ولا وجه لهذا الحبس إطلاقاً ، فإن قال قائل : أليس النبي ﷺ مات يوم الاثنين ولم يدفن إلا ليلة الأربعاء ؟ قلنا : بلى ، لكن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا ألا يدفنوا الرسول ﷺ حتى يقيموا خليفة على عباد الله بعده ، فلا تخلو الأرض من خليفة لله فيها ؛ ولهذا لما تمت مبايعة أبي بكر رضي الله عنه دفنوا النبي ﷺ وهذه علة ظاهرة واضحة . وقوله ﷺ « إن تكُ صالحة ، فخير تقدمونها إليه ، وإن تكُ سوى ذلك ... » يستفاد منه : أنه ينبغي أن يُعبَّرَ عن الألفاظ السيئة بما يدل عليها بدون

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣١٥) ، ومسلم في الجنائز (٥٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣١٤) . (٣) المراد بتجهيزها أي : بغسلها وتجهيزها للصلاة عليها .

(٤) انظر الحديث في : ابن ماجه في الزهد (٤٢٦٢) ، وأحمد في مسنده (١٤٠/٦) .

سوء ، لأنه قسيم الصالحة الفاسدة ، ولكن النبي ﷺ عدل عن كلمة (تك فاسدة) إلى قوله « وإن تك سوى ذلك » وهذا من باب التأدب في اللفظ ، وإلا فالمعنى واحد ، والتأدب في اللفظ له شأن عجيب ، انظر إلى قوله تعالى عن الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] لما أرادوا الخير أضافوه إلى الله ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ، والشر قالوا : ﴿ أَشَرُّ أُرِيدَ ﴾ وما قالوا : شر أرادته الله ، مع أن الله مريد للخير والشر ، لكن الشر الذي يريده الله ليس شرًا في فعله بل في مفعولاته ، أما فعله ﷻ فلا شك أنه خير ، لكن يُقَدَّر الشر للخير لحكمة يريد بها ﷻ المهم أنه ينبغي للإنسان أن يتأدب في صياغة الألفاظ من غير إخلال بالمعنى ، ويذكر أن ملكًا من الملوك رأى رؤيا ، وهي أن أسنانه قد سقطت ، واهتم لذلك ، فجمع الذين يعثرون الرؤيا - أي يفسرونها - فقال له واحد : إن حاشيتك تموت وأهلك معهم . ففرع الملك ، ولم يعجبه هذا التفسير ، فأمر بالرجل فجلد ، ثم دعا آخر وقال له ما رأى . قال : إن الملك يكون أطول أهله عمرًا . المعنى واحد ، فأكرمه وأجازه ، فالألفاظ لها تأثير ، ولهذا قال الرسول ﷺ : « وإن تك سوى ذلك ، فشر تضعونه عن رقابكم » .

ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن الرجل إذا مات وحملت جنازته « فإن كانت صالحة قالت : قَدُموني ، قَدُموني » تقول ذلك بصوت مسموع يسمعه كل شيء إلا الإنسان ، لا يسمعه نعمة من الله ﷻ لأننا لو سمعنا ما يقوله الأموات على نعوشهم لانزعجنا ، تقول « قَدُموني ، قَدُموني » إلى أي شيء .. ؟ إلى ما أعده الله لها من النعيم الذي بُشِّرَتْ به عند الاحتضار .

وإن لم تكن صالحة قالت : « ياويلها أين تذهبون بها » - نعوذ بالله - تدعو بالويل ؛ لأنها ستقدم - نسأل الله العافية - إلى عذاب في القبر ، يُضَيَّقُ عليها القبر حتى تختلف الأضلاع ، ويفتح لها باب إلى النار - نسأل الله العافية - ولا أحد من الأحياء البشر يعلم ويشعر بذلك ، ومن نعمة الله ﷻ أن أخفاه علينا ، ولو علمنا بذلك ما تَدَافَعْنَا أبدًا ، لكن الله يخفيه ، وهذا يدل على أن من حق الميت علينا أن نبادر به ، ولذلك قال أهل العلم : يُسْرِعُ الإسراع في تجهيز الميت ، إلا إذا مات بغتة ^(١) ؛ فإنه ينتظر حتى يُتَيَقَّنَ أنه مات ، لأنه يحتمل أن يكون غشية وأنه حيٌّ ، فينتظر حتى يتيقن أنه مات ثم نبادر به . والله الموفق .

١٥٩ - باب تعجيل قضاء الدين عن الميت

والمبادرة إلى تجهيزه إلا أن يموت فجأة فيترك حتى يتيقن موته

٩٤٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدِينِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(١) بغتة : أي فجأة .

(٢) أخرجه الترمذي في الجنايز (١٠٧٨ و ١٠٧٩) ، وابن ماجه في الصدقات (٢٤١٣) ، والبيهقي في سننه (٤٩/٦ ، ٢٥/٩) ، قوله : « نفس المؤمن معلقة بدینه » أي : محبوسة عن مقامها الكريم .

٩٤٤ - وعن حُصَيْن بن وَحُوح رضي الله عنه أَنَّ طَلْحَةَ بْنَ الْبَرَاءِ رضي الله عنه مَرِضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَعُودُهُ فَقَالَ : « إِنِّي لَا أَرَى طَلْحَةَ إِلَّا قَدْ حَدَثَ فِيهِ الْمَوْتُ ، فَأَذِّنُونِي بِهِ ، وَعَجِّلُوا بِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِحَيِّفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تُحْبَسَ نَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِهِ » ^(١) رواه أبو داود .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتابه : (رياض الصالحين) : باب تعجيل قضاء الدين عن الميت وإسراع تجهيزه إلا أن يموت فجأة فينتظر حتى يتيقن موته .

وذلك يدل على أن الإنسان إذا مات فإنه يجب على أهله أن يبادروا بقضاء دينه إذا كان عليه دين ، ولا يجوز لهم أن يؤخروا ذلك ، لأن المال الذي ورثوه من ماله ليس لهم فيه حق إلا إذا انتهى الدين ؛ يعني : الورثة ليس لهم حق في شيء من التركة حتى يُقضى الدين - ولهذا قال الله تعالى في آيات الموارث : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ غَيْرَ مُضْكَرٍ ﴾ [النساء : ١٢] فليس للورثة حق أن يأخذوا شيئاً من التركة حتى يقضوا دين الميت ، ويجب عليهم المبادرة في قضاء الدين ، إلا إذا كان مؤجلاً ؛ فإنه يطلب من أهل الدين أن ينتظروا ، فإن أبوا فإنه يُعجل لهم ، وإلا إذا وثق الورثة برهن ، أو كفيل . وقد تهاون الناس في قضاء الدين عن الأموات ، فتجد الميت يموت وعليه الدين ، فيلعب الورثة بالتركة ويؤخرون قضاء الدين ، فيكون - مثلاً - عليه مئات الآلاف ، وترك عقارات كثيرة ، فيقول الورثة : لا نبيع العقارات ، بل ننتظر حتى تزيد العقارات ثم نبيع ، وهذا حرام ، الواجب أن يبادروا حتى ولو باعوا الشيء بنصف الثمن ، لأن المال ليس لهم بل هو للميت ، ومن ذلك : إذا كان الإنسان قد اقترض من صندوق التنمية العقارية ولم يدفع أقساطاً ، تجد الورثة يلعبون ولا يوفون صندوق التنمية ، وربما يسؤل لهم الشيطان أن يرفعوا إلى الحكومة طلب العفو عنه ثم يقولون ننتظر متى جاء الرد فربما يأتي بالرفض ، وربما يُعفى عنه ، لكن لا يُعلم ، فلا يحل لهم ذلك ، والواجب أن يبادروا بقضاء الدين عن الميت ، أما إذا كان الميت قد أوفى ما عليه من أقساط في حياته وبقي البيت مرهوناً لصندوق التنمية ؛ فإن الميت لا يبرأ بذلك ، ولا يلحقه شيء ، بعض الناس من أهل الورع إذا مات الميت وقد اقترض من صندوق التنمية وقد وُفِيَ بجميع الأقساط التي حُلَّت عليه في حياته ؛ يظنون أن الميت تتعلق روحه بهذا الدين ، وليس الأمر كذلك ، ما دام هناك رهن ، فالميت بريء منه ، ويدل على هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم مات وعليه دين لرجل من اليهود وقد أعطاه رهناً درعه ^(٢) . فهل تقول : إن نفس الرسول صلى الله عليه وسلم معلقة بالدين ! لا ، لأنه قد رهنه شيئاً يمكنه الاستيفاء منه .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه » يعني : أن نفسه وهو في قبره معلقة بالدين ، كأنها - والله أعلم - تتألم من تأخير الدين ، ولا تفرح بنعيم ولا تنبسط ، لأن عليه ديناً ومن ثم قلنا : إنه يجب على الورثة أن يبادروا بقضاء الدين .

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٥٩) .

(٢) انظر القصة في : البخاري في المغازي (٤٤٦٧) ، والترمذي في البيوع (١٢١/٤) ، وأحمد في مسنده (٢٣٦/١) .

أما الحديث الثاني : فقد تقدم الكلام عليه وهو أن يُسْرَعَ الإسراع في الجنزة ، ولهذا قال : « لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرائي أهلها » لكن لو حبست لساعة أو ساعتين لانتظار كثرة الجمع ، كما لو مات في أول النهار مثلاً يوم الجمعة وقالوا : ننتظر للصلاة لكثرة الجمع ؛ فهذا لا بأس به - إن شاء الله - وهو تأخير لا يضر والله الموفق .

* * *

١٦٠ - باب الموعظة عند القبر

٩٤٥ - عن علي عليه السلام قال : كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَعَدَ ، وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ ، فَتَكَسَّنَ وَجَعَلَ يَنْكُثُ بِمِخْصَرَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ » فقالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلَا تَتَكَلَّمُ عَلَيْنَا ؟ فَقَالَ : « اْعْمَلُوا ؛ فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ »^(١) وذكر تمام الحديث . متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : باب الموعظة عند القبر . والموعظة : هي تذكير الناس بما يُلِينُ قلوبهم ، إما بترغيب في خير ، وإما بترهيب من شر هذه هي الموعظة ، وأعظم واعظ وأفضله وأصلحه للقلب هو القرآن الكريم كما قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] فالقرآن - لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - هو أعظم واعظ ، لكن قلوب أكثر الناس لا تتعظ بالقرآن ، لأن بها قسوة وقد قال الله تعالى فيمن إذا تُتلى عليه الآيات : ﴿ قَالَ أَتَسْمِعُونَ الْأَعْرَابَ ﴾^(٢) [المطففين : ١٣] - والعياذ بالله - قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَوْا عَنْ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٣) [المطففين : ١٤] يعني : ختم عليها ما كانوا يكسبون من الأعمال السيئة حتى يشعروا بالقرآن كما يشعر به المتقون الذين مَنْ الله عليهم - نسأل الله أن يمن علينا وعليكم ، ولكن مع ذلك قد يأتي إنسان أعطاه الله بياناً وفصاحة وعلماً فيعظ الناس ويذكرهم ويلين قلوبهم بما لا تلين به إذا تلى عليها القرآن ، وهذا شيء مشاهد ومن ذلك الموعظة عند القبر ، فقد ذكر المؤلف رحمه الله حديث علي بن أبي طالب قال : « كنا في جنازة ببقيع الغرقد [المعروف الآن بالمدينة] - والغرقد : نوع من الشجر معروف ، وسُمِّي ببقيع الغرقد لكثرة وجود هذا النوع من الشجر به ، وكان مدفن أهل المدينة ، وقد قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ » قالها ثلاثاً^(٤) . فكانوا في جنازة فجاء النبي ﷺ فقعده وقعد الناس حوله ؛ لأن

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٩) ، ومسلم في القدر (٦ ، ٧) .

(٢) قوله ﴿ أَتَسْمِعُونَ الْأَعْرَابَ ﴾ أي : أباطيل وخرافات الأقدمين .

(٣) قوله ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَوْا عَنْ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : صدأ غطى على قلوبهم .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٢) ، والبيهقي في السنن (٧٩/٤) ، والألباني في إرواء الغليل (٢٣٦/٣) .

كل الناس يحبون أن يكونوا جلساء للنبي ﷺ جلسوا حوله وفي يده مخضرة ، يعني عود ، فنكس رأسه وجعل ينكت بالعود كالمهموم ﷺ ثم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار » كل إنسان من بني آدم مكتوب مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة ، ومقعده من النار إن كان من أهل النار ، وذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من السعداء - لما قال هذا الكلام قالوا : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ونشكل على الكتاب ؟! يعني ما دام الأمر مكتوب فما حاجة العمل ؟! فقال لا تدعوا العمل ، فالجنة لا تأتي إلا بعمل ، والنار لا تأتي إلا بعمل ، فلا يدخل النار إلا من عَمِلَ عَمَلَ أهل النار ، ولا يدخل الجنة إلا من عَمِلَ عَمَلَ أهل الجنة ، قال ﷺ : « اعملوا ، فكلٌ ميسر لما خُلِقَ له » أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَنْ أَطْعَمُ وَأَنْقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِ ۖ فَسَيُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ فَكَذَّبَ بِالْحُسْنِ ۖ فَسَيُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴾ [البقره : ١٠ - ١١] قال : اعمل لا تتكل على الكتاب ، الكتاب أمر مجهول ما ندري ما فيه ، لكن من عمل خيرا فهو بُشْرَى أنه من أهل الخير ، ومن عمل سوى ذلك فهذا إنذار ، قال : « اعملوا ، فكل ميسر لما خُلِقَ له » فأنت يا أخي إذا رأيت الله قد يسر لك عمل أهل السعادة فأبشُرْ أنك من أهل السعادة ، وإذا رأيت نفسك أنك تنقاد للصلاة ، للزكاة ، لفعل الخير ، عندك تقوى من الله ﷻ فاعلم واستبشر أنك من أهل السعادة ، لأن الله قال : ﴿ قَالُوا مَنْ أَطْعَمُ وَأَنْقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِ ۖ فَسَيُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ ﴾ وإن رأيت العكس ، رأيت نفسك تنشرح بفعل السيئات - والعياذ بالله - وتضيق ذرعا بفعل الطاعات فاحذر ، أنقذ نفسك ، وثب إلى الله ﷻ حتى يُيسر الله لك ، واعلم أنك إذا أقبلت على الله أقبل الله عليك حتى إذا أذنبت مهما أذنبت ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ آسَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۖ ﴾ [الزمر : ٥٣] وعلى هذا فإذا جاء الإنسان إلى المقبرة وجلس الناس حوله فهنا يحسن أن يعظهم بما يناسب ، بمثل هذا الحديث ، أو حديث عبد الرحمن بن سمرة حين جاء الرسول ﷺ انتهى إلى جنازة رجل من الأنصار ووجدهم يحفرون القبر ولم يتموا حفره فجلس وجلسوا حوله ، كأن على رؤوسهم الطير ، احتراما لرسول الله ﷺ وإجلالا لهذا المجلس وهيبة ، فجعل يحدثهم أن الإنسان إذا جاءه الموت نزلت إليه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، وجعل يحدثهم بحديث طويل يعظهم به ^(١) ، هذه هي الموعظة عند القبر ، أما أن يقوم القائم عند القبر يتكلم كأنه يخطب ؟ فهذا لم يكن من هدى الرسول ﷺ ، فليس من هدى الرسول ﷺ أن يقف الإنسان بين الناس يتكلم كأنه يخطب ، فهذا ليس من السنة ؛ فالسنة أن تفعل كما فعل الرسول ﷺ فقط ، فإذا كان الناس جلوسا ولم يدفن الميت فاجلس في انتظار دفنه وتحديث حديث المجالس حديثا عاديا ، وقد أخذ بعض الناس ترجمة النووي رحمه الله وترجمة البخاري في صحيحه « باب الموعظة عند القبر » ، أخذوا منها أن يكون الرجل خطيبا في الناس برفع صوت : ويا عباد الله . وما أشبه ذلك من

الكلمات التي تقال في الخطب ، وهذا فهم خاطئ غير صحيح ، فالموعظة عند القبر تُقَدِّمُ بما جاء في السنة فقط ، لئلا تتخذ المقابر منابر ، فالمواعظ الهادئة يكون الإنسان فيها جالساً ، ويدو عليه أثر الحزن والتفكير وما أشبه ذلك وليست موعظة وكأنه ينذر الجيش ، لكن فضل الله يؤتية من يشاء ، فبعض الناس يفهم شيئاً من النصوص فهماً غير مراد بها ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

١٦١ - باب الدعاء للميت بعد دفنه والقعود عند قبره ساعة
للدعاء له والاستغفار والقراءة

٩٤٦ - عن أبي عمرو - وقيل : أبو عبد الله ، وقيل : أبو ليلى - عُثْمَانُ بْنُ عُفَّانَ رضي الله عنه قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : « اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُّوا لَهُ التَّيْبَتَ ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ » ^(١) رواه أبو داود .

٩٤٧ - وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : إِذَا دَفَنْتُمُونِي ، فَأَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْخَرُ جُزُورٌ وَيُقَسَّمُ لِحْمُهَا ؛ حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ ، وَأَعْلَمَ مَاذَا أَرَا جَعَلَ بِهِ رُسُلَ رَبِّي ^(٢) . رواه مسلم . وقد سبق بطوله . قال الشَّافِعِيُّ رحمته الله : وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَإِنْ خَتَمُوا الْقُرْآنَ عِنْدَهُ كَانَ حَسَنًا .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب الوقوف بعد دفن الميت والدعاء له والاستغفار له ، وذلك أن الميت إذا دُفِنَ فإنه يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، فكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عنده وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التَّيْبَتَ فإنه الْآنَ يُسْأَلُ » فيسأل للإنسان - إذا فرغ الناس من دفن الميت - أَنْ يَقِفَ عنده ويقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ » ثلاث مرات ، « اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ » ثلاثاً ، لأن النبي ﷺ كان غالب أحيائه إذا دعا دعا ثلاثاً ، ثم ينصرف ولا يجلس بعد ذلك لا للذكر ولا للقراءة ولا للاستغفار ، هكذا جاءت به السنة ، أما ما ذكره رحمته الله عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه أمر أهله أَنْ يَقِيمُوا عنده إذا دفنوه قدر ما تُنْخَرُ جُزُورٌ قال : لعلني أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ وَأَرَا جَعَلَ ما أقوله لرسول ربي من الملائكة . فهذا اجتهاد منه ﷺ لكنه اجتهاد لا نرضى عنه ، لأن هدي النبي ﷺ أكمل من هدى غيره ، ولم يكن النبي ﷺ يقف أو يجلس عند القبر بعد الدفن قدر ما تنخر الجزور ويقسم لحمها ؛ ولم يأمر أصحابه بذلك ، غاية ما هنالك أنه أمرهم أَنْ يَقِفُوا على القبر ويستغفروا لصاحبه ويسألوا له التَّيْبَتَ فقط ، هذا هو السنة ،

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٢١) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٤) ، قوله « جزور » : ما يصلح أن يذبح من الإبل ذكراً كان أو أنثى .

ثم ينصرف الناس ، وأما القراءة عند القبر : فالأصح أنها مكروهة ، وأنه يُكره للإنسان أن يذهب إلى القبر ثم يقف عنده ويقرأ ؛ لأن هذا من البدع ، وقد قال النبي ﷺ « كل بدعة ضلالة » ^(١) وأقل أحوالها أن تكون مكروهة . والله الموفق .

١٦٢ - باب الصدقة عن الميت والدعاء له

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠] .

٩٤٨ - وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أُمِّي أَفْتَلَتْ نَفْسَهَا وَأَرَاهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ ، تَصَدَّقَتْ ، فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقَتْ عَنْهَا ؟ قال : « نَعَمْ » ^(٢) متفق عليه .

٩٤٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ : « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - في (رياض الصالحين) - : باب الصدقة عن الميت والدعاء له ثم ساق قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي : من بعد الصنفين السابقين وهم المهاجرون والأنصار الذين تبرعوا الدار والإيمان من قبلهم ، لأن هذه الأمة ثلاثة أقسام : مهاجرون ، وأنصار ، ومن جاءوا من بعدهم ، وقد جمع الله ذلك في آيتين في القرآن منها قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ^(٤) [الحشر: ٨ - ١٠] وكذلك في سورة الحشر : ﴿ لِلْفَقْرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا مِنْهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أَوْفَوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ^(٥) [الحشر: ٨ - ١٠] فإذا رأيت الرجل يترحم على الصحابة ويستغفر لهم ويحبهم فاعلم أنه منهم - أي يحشر معهم - وإذا رأيت الرجل يسب الصحابة ولا يترحم عليهم ولا يستغفر لهم ، فإنهم يريقون منه وهو بريء

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) ، وابن ماجه في السنن (٤٢) ، وأحمد في مسنده (٣١٠/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٨) ، ومسلم في الزكاة (٥١) ، ومعنى قوله : « أفلتت » أي ماتت فجأة .
(٣) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، وأبو داود في الرضايا (٢٨٨٠) ، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٧٢/٢) ، وقوله « انقطع عمله » أي : فائدة عمله وتجديد ثوابه .
(٤) قوله ﴿ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ أي : نزلوا المدينة وأقاموا بها .

منهم ، وليس له حظ في هذه الأمة ، لأن الصحابة هم الواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ الذين بلغوا شريعة الله عن رسول الله ﷺ ، والرسول ﷺ هو الواسطة التي بيننا وبين ربنا ، الذي بلغنا كلام ربنا ، فإذا طعن أحد في الواسطة التي بيننا وبين رسول الله ﷺ فهو طعن في الشريعة كلها ، وخاصة الطعن في أبي بكر وعمر ، لأنهما أفضل أتباع الرسل على الإطلاق ، ليس في أتباع موسى ولا إبراهيم ولا عيسى ولا محمد أفضل من أبي بكر وعمر ، فمن طعن فيهما ؛ فإنه ليس في قلبه شيء من الإيمان - والعياذ بالله - وكذلك من سب الصحابة وقذح فيهم ؛ فإنه قدح في دين الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠] .

ثم استدل بحديث عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن أمي اقلتت نفسها - يعني : ماتت ، ولو تكلمت لتصدق ، أفأتصدق عنها ؟ قال : « نعم » ؛ فدل ذلك على جواز الصدقة على الميت ، فتتوي إذا أردت أن تتصدق أن هذه عن أمك ، عن أهلك ، عن أخيك ، عن أختك ، عن أي إنسان مسلم ميت ، فإن ذلك ينفعه .

وأما الدعاء للميت : ففي حديث أبي هريرة : « إذا مات الإنسان انقطع عمله » لأن دار العمل هي دار الدنيا ، فإذا مات انتهى ، فليس هناك عمل بعد الموت « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية » يعني : هو نفسه يضع وقفًا ، عقارًا ، أي شيء للفقراء « أو علم ينتفع به » يعني : من بعده « أو ولد صالح يدعو له » لأن غير الصالح لا يدعو لوالديه ولا يبرهما ، لكن الصالح هو الذي يدعو لوالديه بعد موتهما ، ولهذا يتأكد علينا أن نحرص غاية الحرص على صلاح أولادنا ، لأن صلاحهم صلاح لهم وخير لنا ، حيث يدعون لنا بعد الموت ، وأفضل هذه الثلاثة : العلم الذي ينتفع به ، وأضرب لكم مثلاً بل أمثالاً كثيرة : أبو هريرة رضي الله عنه من أفضقه الصحابة بعد الرسول ﷺ يسقط أحياناً على الأرض من شدة الجوع ، ومع ذلك أكثر المسلمين الآن لا يقرؤون إلا رواياته ؛ فهو الذي نقل لنا هذه الأحاديث ، وهي صدقة جارية إذا ما قورنت بأي صدقات أخرى في عهده ! .

الإمام أحمد ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، يُدرس لنا وهو في قبره لأن كتبه بين أيدينا ، أكبر خليفة ، أكبر تاجر في عهد ابن تيمية رضي الله عنه هل وصل خبرهم إلينا الآن ؟ أبداً ، إذا العلم أنفع الثلاثة ، فالصدقة الجارية قد تتعثر ، والولد الصالح قد يموت ، لكن العلم النافع الذي ينتفع به المسلمون باقي إلى ما شاء الله ! فاحرص أخي على العلم ؛ فهو لا يعدله شيء ، كما قال الإمام أحمد لمن صحت نيته . فاحرص على العلم الشرعي وعلى مساعداته كالنحو وما أشبه ذلك ، حتى ينفعك الله وينفع بك ، والله الموفق .

١٦٣ - باب ثناء الناس على الميت

٩٥٠ - عن أنس رضي الله عنه قال : مرّوا بجنازة فآثنوا عليها خيراً ، فقال النبي ﷺ : « وَجِبَتْ » ، ثم مرّوا بأخرى ، فآثنوا عليها شراً ، فقال النبي ﷺ : « وَجِبَتْ » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت ؟ قال : « هذا آثنتم عليه خيراً ، فوجب له الجنة ، وهذا آثنتم عليه شراً ، فوجب له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض » ^(١) متفق عليه .

٩٥١ - وعن أبي الأسود قال : قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ ، فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، فَمَرَّتْ بِهِمْ جِنَازَةٌ ، فَأُتِنِي عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا ، فَقَالَ عُمَرُ : وَجِبَتْ ، ثُمَّ مَرَّ بِأُخْرَى ، فَأُتِنِي عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا ، فَقَالَ عُمَرُ : وَجِبَتْ ، ثُمَّ مَرَّ بِالثَّالِثَةِ ، فَأُتِنِي عَلَى صَاحِبِهَا شَرًّا ، فَقَالَ عُمَرُ : وَجِبَتْ ، قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : فَقُلْتُ : وَمَا وَجِبَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : قُلْتُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَيْمًا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » فَقُلْنَا : وَثَلَاثَةٌ ؟ قَالَ : « وَثَلَاثَةٌ » فَقُلْنَا : وَاثْنَانِ ؟ قَالَ : « وَاثْنَانِ » ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ ^(٢) . رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب ثناء الناس على الميت . ثناء الناس على الميت يعني : ذكره بخير أو بشر ؛ فالمت إذا مات فإما أن يشي الناس عليه خيراً ، وإما شراً حسب ما يعلمون من حاله . ثم ذكر المؤلف حديث أنس رضي الله عنه وحديث أبي الأسود مع عمر بن الخطاب ، ففي حديث أنس أن النبي ﷺ مرّ بجنازة في مجلسه فآثنوا على صاحبها خيراً فقال : « وجبت » ثم مرّوا بجنازة أخرى فآثنوا عليها شراً فقال النبي ﷺ : « وجبت » فقال عمر بن الخطاب : ما وجبت يا رسول الله ، قال : « آثنتم على الأول خيراً فوجب له الجنة ، وآثنتم علي الثاني شراً فوجب له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض » والثاني كأنه - والله أعلم - من المنافقين ، وقد كان المنافقون في عهد الرسول ﷺ موجودين في المدينة بكثرة ، يظهرون الإسلام ويطنون الكفر - والعياذ بالله - والمنافقون في الدرك الأسفل من النار إلا من تاب ، وفي هذا : دليل على أن المسلمين إذا آثنوا على الميت خيراً ؛ دل ذلك على أنه من أهل الجنة فوجب له الجنة ، وإذا آثنوا عليه شراً دل ذلك على أنه من أهل النار فوجب له النار ، ولا فرق في هذا بين أن تكون الشهادة في عهد النبي ﷺ أو بعده ؛ لأن حديث أبي الأسود مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بعد النبي ﷺ ، وقد تنازل النبي ﷺ إلى أن ذكر من شهد له اثنان بخير كان من أهل الجنة ، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أننا لا نشهد لأحد بجنة أو نار إلا من يشهد له النبي ﷺ ، فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ بالجنة ، ونشهد بالنار لمن شهد له بالنار ، فمثال من شهد له بالجنة الخلفاء الأربعة : (أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي) وكذلك بقية العشرة

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٧) ، ومسلم في الجنائز (٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٨) .

المبشرين بالجنة فإن النبي ﷺ قال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة ، والزيبر بن العوام في الجنة » ^(١) هؤلاء عشرة جعلهم النبي ﷺ جميعاً من أهل الجنة ، وعُكاشة بن الحُصن لما أخبر النبي ﷺ : « أنه يدخل من هذه الأمة سبعون ألفاً بلا حساب أو عذاب » قال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال : « أنت منهم » فقال آخر : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال : « سبقك بها عُكاشة » ^(٢) .

ثابت بن القيس ؓ كان جهوري الصوت ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ^(٣) [المحجرات : ٢] خاف ﷺ وبقي في بيته محبوباً يبكي يخشى أن يكون حبط عمله ، لأنه جهوري الصوت ، ففقدته النبي ﷺ فأرسل إليه ، فأخبره الخبر ، فقال : « بل تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة » فكل من شهد له النبي ﷺ بالجنة نشهد له ، ومن شهد له بالنار فإننا نشهد له بالنار ، وقد شهد النبي ﷺ لجماعة بالنار ، وكذلك في القرآن ، قال الله تعالى في أبي لهب وهو عم النبي ﷺ : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ^(٤) وأمرأته حمالة الحطب ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ^(٥) [السد : ٣-٥] وأخبر ﷺ أن عمه أبا طالب في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه ^(٦) - والعياذ بالله - وجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أين أبي ؟ فقال : « أبوك في النار » ^(٧) وأخبر ﷺ : « أن عمرو بن لُحي الخزاعي يجرقُسطه في النار » ^(٨) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وكذلك من أجمعت الأمة على الثناء عليه فإننا نشهد له بالجنة ، فمثلاً الإمام أحمد ؓ ، الشافعي ، أبو حنيفة ، مالك ، سفيان الثوري ، سفيان بن عيينة ، وغيرهم من الأئمة الذين أجمعت الأمة على الثناء عليهم ، فنشهد لهم بأنهم من أهل الجنة ، شيخ الإسلام ابن تيمية ؓ أجمع الناس بالثناء عليه إلا من شذ ، ومن شذ شذ في النار ، نشهد له بالجنة على هذا الرأي ، ويؤيد هذا الرأي حديث عمر ؓ الذي رواه البخاري أن الرسول ﷺ قال : « من شهد له أربعة وثلاثة واثنتان » ثم لم يسألوه عن الواحد . نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة المحرمين على النار .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٦٥٠) ، والترمذي في السنن (٣٧٤٧) ، وابن ماجه في السنن (١٣٣) ، وأحمد في مسنده (١٨٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٢) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٤) ، وأحمد في مسنده (٤٠٠/٢) .

(٣) قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ : نهي عن مساواة أصواتهم بصوته ﷺ ، قوله : ﴿ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي : يطل ثواب أعمالكم بفعل النهي عنه .

(٤) قوله : ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أي : عنقه ، وقوله : ﴿ مَّسَدٍ ﴾ أي : حبل من ليف ،

(٥) سبق تخريجه . (٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧١٨) .

(٧) انظر الحديث في : مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، وأحمد في (٢٧٥/٢) .

١٦٤ - باب فضل من مات له أولاد صغار

٩٥٢ - عن أنس رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَلْعَوْا الْحِنْتَ ؛ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ » ^(١) متفق عليه .

٩٥٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَا تَمْسُهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ » ^(٢) متفق عليه .

« وَتَحِلَّةُ الْقَسَمِ » قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مرم: ٧١] « وَالْوُرُودُ » : هُوَ الْغُبُورُ عَلَى الصَّرَاطِ ، وَهُوَ جَسَدٌ مَنْصُوبٌ عَلَى ظَهَرِ جَهَنَّمَ . عَافَانَا اللَّهُ مِنْهَا .

٩٥٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ : جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تَعْلُمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ ، قَالَ : « اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا » فَاجْتَمِعْنَ ، فَأَتَاهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : « مَا مِنْكُنَّ مِنْ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ » فَقَالَتِ امْرَأَةٌ : وَاثْنَيْنِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَاثْنَيْنِ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : (باب فضل من مات له أولاد صغار) يعني : باب الفضل الذي يُعطى إياه الذي مات له أولاد صغار - يعني : فاحتسب الأجر من الله ﷻ وصبر - ثم ذكر حديث أنس وأبي هريرة وأبي سعيد ، وكلها تدل على فضل ذلك ، وهو أن الإنسان إذا مات له أولاد صغار لم يبلغوا الحنث - يعني : لم يبلغوا - فإنهم يكونون له سِتْرًا من النار بفضل رحمته إياهم ، لأن هؤلاء الأولاد الصغار هم محل الرحمة ؛ فالأولاد إذا كبروا استقلوا بأنفسهم ، ولم يكن عند والدهم من الرحمة لهم كالرحمة التي عنده للأولاد الصغار ، وإذا كان له أولاد صغار وماتوا واحتسب الأجر من الله - وهم ثلاثة - فإنهم يكونون له سِتْرًا من النار فلا تمسهم النار إلا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ ، يريد به « تحلة القسم » قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾ ^(٤) [مريم: ٧١-٧٢] .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١٥٢/٣) ، قوله ﷺ : « لم يبلغوا الحنث » أي لم يبلغوا سن التكليف .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٥١) ، ومسلم في البر والصلة (١٥٠) ، والترمذي في الجنائز (١٠٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٩) ، ومسلم في البر والصلة (١٥٢) ، قوله « ذهب الرجال بحديثك » أي : أن الرجال يستأثرون بحديثك دون النساء ، وقوله « تقدم » أي : يموت لها .

(٤) قوله ﴿ وَارِدُهَا ﴾ أي : أدخلها .

وفي حديث أبي سعيد الخدري في اجتماع النساء حتى أتى إليهن النبي ﷺ فعلمهن مما علمه الله وأخبرهن « أنه ما من امرأة يموت لها ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث ؛ إلا لم تمسه النار إلا تحلة القسم » ، فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : « واثنين » وعلى هذا فيكون ذلك من فضل الله أيضاً ، أنه إذا مات للإنسان اثنان من الولد - ذكورا أو إناثا - ثم صبر واحتسب ؛ كان ذلك له حجاً من النار ، والله الموفق .

* * *

١٦٥ - باب البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين ومصارعهم وإظهار

الافتقار إلى الله تعالى والتحذير من الغفلة عن ذلك

٩٥٥ - عَنِ ابْنِ عُمرَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ - يَغْنِي لَنَا وَصَلُوا الْحِجَرَ : دِيَارَ ثَمُودَ : « لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ ، لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » متفق عليه .

وفي رواية قال : لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ : « لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ » ثُمَّ قَنَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِي ^(١) .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه « رياض الصالحين » : باب البكاء عند المرور بقبور الظالمين والخوف من أن يُصيب الإنسان ما أصابهم ، ثم ذكر حديث ابن عمر بمرور النبي ﷺ بالحِجر - ديار ثمود - وثمرود هم قوم صالح الذين أرسل الله إليهم صالحاً - عليه الصلاة والسلام - فذكّرهم بالله ولكنهم كفروا به فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ثم أخذتهم الصيحة والرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وكان الله تعالى قد أعطاهم قدرة وقوة في نحت الجبال وبناء القصور في السهول ، وأصبحوا أمة قوية ، ولكن الله تعالى أخذهم برجفة وصيحة فماتوا عن آخرهم ، وقد مرّ بهم النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك ، فقال ﷺ : « لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ ؛ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » ولهذا نقول لا يجوز لأحد أن يذهب لديار ثمود ليتفرج وينظر مساكنهم ، لأن ذلك وقوع في معصية الرسول ﷺ إلا رجلاً يريد أن يذهب للعبرة ويكون باكياً عند مروره بتلك الأماكن ، فإن لم يكن باكياً ؛ فإنه لا يجوز أن يدخل عليهم ؛ لأنه ربما يصيبه ما أصابهم ؛ ولما مرّ النبي ﷺ بواديهم قَنَّعَ رأسه - يعني خفضه - وأسرع السير حتى تجاوز الوادي ، وبه نعرف خطأ هؤلاء الجهّال الذين يذهبون إلى ديار ثمود للتفرج والتتزه ويقون فيها أياماً ينظرون آثارهم القديمة ، فإن ذلك معصية للرسول ﷺ ومخالفة لهديه وسنته ، فإنه ﷺ لَمَّا مَرَّ بِهَذِهِ الدِّيارِ أَسْرَعَ وَقَنَّعَ رَأْسَهُ حَتَّى جَاوَزَ الْوَادِي وَحُذِرَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٢) ، ومسلم في الزهد والرفائق (٣٨) ، قوله « ديار ثمود » هي : أرض بين المدينة والشام هلك فيها قوم صالح عليه السلام ، قوله « قَنَّعَ رأسه » أي : لف رأسه بقناع ، قوله « أجاز الوادي » أي : سار فيه حتى قطعه .

أن يسكن الإنسان في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، والذين أهلكهم الله في هذه الأرض خوفاً أن يصيب الإنسان ما أصابهم من عذاب الله ، إما بكفره بالله ﷻ حتى يستحق هذا العذاب ، وإما بعقوبة يعاقب بها وإن لم يكفر ، وإذا لقي الله تعالى يوم القيامة فالله بصير بالعباد ، والله الموفق .

* * *

كتاب آداب السفر

١٦٦ - باب استحباب الخروج يوم الخميس واستحبابه أول النهار

٩٥٦ - عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج في غزوة تبوك يوم الخميس ، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس . متفق عليه .

وفي رواية في « الصحيحين » : لَقَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ^(١) .
٩٥٧ - وعن صخر بن وداعة الغامدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمِّي فِي بُكُورِهَا » وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ . وَكَانَ صَخْرُ تَاجِرًا ، فَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ أَوَّلَ النَّهَارِ ، فَأُتِيَ وَكَثُرَ مَالُهُ ^(٢) ، رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : كتاب آداب السفر ، السفر : هو مفارقة الوطن ، أن يخرج الإنسان من وطنه إلى وطن آخر ، وسُمِّيَ سفراً ؛ لأنه من الإسفار ، وهو الخروج والظهور كما يقال : أسفر الصبح إذا ظهر وبان ، وقيل : في المعنى سُمِّيَ السفر سفراً ؛ لأنه يُشِيرُ عن أخلاق الرجال ؛ يعني يبين ويوضح أحوالهم ، فكم من إنسان لا تعرفه ولا تعرف سيرته إلا إذا سافرت معه عندئذ تعرف أخلاقه وسيرته وإثاره ... إلخ ، حتى كان عمر رضي الله عنه إذا زكى رجل شخصاً عنده قال له : هل سافرت معه ، هل عاملته ؟ إن قال : نعم قبل ذلك ، وإن قال : لا . فقال : لا علم لك به .

ثم إن السفر ينبغي للإنسان أن يتحرى فيه الأوقات التي تكون أسهل ، وأنسب ، من ذلك أن يكون في آخر الأسبوع كما كان النبي ﷺ في أكثر أسفاره يخرج يوم الخميس ، وربما خرج في غيره ؛ فقد خرج رضي الله عنه في آخر سفرة سافرها - وهي حجة الوداع - يوم السبت ، لكن دائماً كان إذا سافر - ولا سيما إذا كان في غزو - كان ذلك يوم الخميس ، والحكمة من ذلك - والله أعلم - أنه يوم ترفع فيه الأعمال وتعرض على الله ﷻ فكان يحب ﷺ أن يُعرض على الله عمله في ذلك اليوم ^(٣) . وكان رضي الله عنه يحب أن يخرج من أول النهار لما في ذلك من استقبال النهار ، لأنه ربما يفاجأ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٠) ، ولم يُقَرَّرْ عليه في صحيح مسلم ، وأحمد في مسنده (٤٥٥/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٦) ، والترمذي في البيوع (١٢١٢) ، وابن ماجه في التجارات (٢٢٣٦) .

(٣) انظر الحديث في: مسلم في البر والصلة (٣٥) ، والدارمي في الصوم (٤١) ، وأحمد في مسنده (٢٦٨/٢) .

الإنسان في سفره طولاً وقد تجهز قليلاً فيصعب عليه التخلص منه ، وهذا في الأسفار التي كانت في عهد الرسول ﷺ على الدواب والأرجل ، أما اليوم فكما تشاهدون الناس لا يجدون صعوبة في أول النهار أو آخره ، ثم إن السفر في الوقت الحاضر مرتبط بطائرات ومواعيد ، على كل حال إذا خرج في أول النهار وفي يوم الخميس فهو أفضل ، وإن لم يتيسر له ذلك فلا بأس والحمد لله .

ثم ذكر حديث صخر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اللهم بارك لأمتي في بكورها » - أي : في أول النهار - فدعا النبي ﷺ أن يبارك الله في أول النهار فيه لأمة ؛ لأنه مستقبل العمل ؛ فإن النهار كما قال الله تعالى معاش : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبا : ١١] فإذا استقبله الإنسان من أوله صار في ذلك بركة ، وهذا شيء مشاهد ، أن الإنسان إذا عمل في أول النهار وجد في عمله بركة ، لكن وللأسف أكثرنا اليوم ينأمن في أول النهار ولا يستيقظون إلا في الضحى ، فيفوت عليهم أول النهار الذي فيه بركة ، وقد قال العامة : أمير النهار أوله . يعني أن أول النهار هو الذي يتركز عليه العمل ، وكان صخر يبعث بتجارته أول النهار فأثرى وكثر ماله من أجل دعاء النبي ﷺ بالبركة لهذه الأمة في بكورها . والله الموفق .

**١٦٧ - باب استحباب طلب الرفقة
وتأمرهم على انفسهم واحدا يطيعونه**

٩٥٨ - عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ أَنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِنَ الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمَ مَا سَارَ زَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ » ^(١) رواه البخاري .

٩٥٩ - وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الرَّاَكِبُ شَيْطَانٌ ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ » ^(٢) .

رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي بأسانيد صحيحة ، وقال الترمذي : حديث حسن .

٩٦٠ - وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنه قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ » ^(٣) حديث حسن ، رواه أبو داود بإسناد حسن .

٩٦١ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلِيلَةٍ » ^(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١٢٠/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٧) ، والترمذي في الجهاد (١٦٧٤) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٦/٢ ، ٢١٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٨) ، والبيهقي في سننه (٢٥٧/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦١١) ، والترمذي في السير (١٥٥٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٩ ، ٢٩٤/١) .

قوله : « خير الأصحاب أربعة » قيل : هم الخلفاء الأربعة ، وقوله : « السرايا » هي جزء من الجيش لا يغل عدده عن ثلاثمائة إلى =

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في : باب استحباب الرفقة وتأثير أحدهم ، هذا الباب تضمن مسألتين :

الأولى : أنه ينبغي للإنسان أن يكون معه رفقة في السفر وألا يسافر وحده ، ولهذا قال النبي ﷺ : لو يعلم الناس ما في الوحدة ما سار راكبٌ لبيل قط وحده يعني : معناه أن الإنسان لا ينبغي أبداً أن يسير وحده في السفر ، لأنه ربما يصاب بمرض أو إغماء ، أو يتسلط عليه أحد ، أو غير ذلك من المحظورات فلا يكون معه أحد يدافع عنه أو يخبر عنه أو ما أشبه ذلك ، وهذا في الأسفار التي تتحقق فيها الوحدة ، وأما ما يكون في الخطوط العامة التي لا تكاد تمر فيها دقيقة واحدة إلا وتمر بك فيها سيارة فهذا - وإن كان الإنسان في سيارة وحده - فليس من هذا الباب - يعني ليس من السفر وحده - لأن الخطوط الآن عامرة من محافظة لأخرى ، ومن مدينة لثانية . وما أشبه ذلك ، فلا يدخل في النهي .

ثم بين النبي ﷺ في حديث عمرو بن شعيب أن الراكب شيطان ، والراكبين شيطانان ، والثلاثة ركب ، يعني : من يسافر وحده شيطان ، والذي يسافر وليس معه سوى واحد شيطانان ، والثلاثة ركب - يعني : ليسوا من الشياطين - بل هم ركب مستقل ، وهذا أيضاً على الحذر والتنفير من سفر الوحدة ، وكذلك من سفر الاثنين ، والثلاثة لا بأس ، وهذا كما قلت مقيد بالأسفار التي لا يكون فيها ذاهب وآت .

ثم ذكر حديث أبي سعيد وأبي هريرة أن الرسول ﷺ أمر المسافرين إذا سافروا أن يؤمروا أحدهم . يعني : يؤمرون واحداً منهم يتولّى تدييرهم ، يقول نذهب ، ونجلس ، نتوضأ ، نتناول العشاء ، وما أشبه ذلك ، لأنهم إذا لم يؤمروا واحداً صار أمرهم فوضى ، ولهذا قيل : لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ، لا بد من أمير يتولّى أمرهم ، وظاهر الحديث : أن هذا الأمير إذا رضوه وجبت طاعته فيما يتعلق بمصالح السفر ، لأنه أمير ، أما ما لا يتعلق بأمر السفر ؛ فلا تجب طاعته كالمسائل الخاصة بالإنسان ، إلا أنه لا يعني ذلك أن هذا الأمير يستبدّ بل يكون كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَاعْتَصِمْ بِالْإِنْسَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ بِكَ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ١٥٩] فعليه أن يشاورهم في الأمور التي يخفى فيها جانب المصلحة ، ولا يستبدّ برأيه ، أما الأمور الواضحة فلا حاجة للمشورة فيها . والله الموفق .

١٦٨ - باب آداب السير والنزول والمبيت والنوم في السفر
واستحباب السرى ، والرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها

٩٦٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْجَدْبِ ، فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ ، وَتَادَرُوا بِهَا نَفْيَهَا ، وَإِذَا عَرَسْتُمْ ، فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ ؛ فَإِنَّهَا طَرِيقُ الدَّوَابِّ ، وَمَأْوَى الْهَوَامِّ بِاللَّيْلِ » ^(١) رواه مسلم .

معنى : « أعطوا الإبل حظها من الأرض » أي : ازفقوا بها في السير لتزعى في حال سيرها وقوله : « نفيها » هو بكسر النون ، وإسكان القاف ، وبالياء المثناة من تحت وهو : المخ ، معناه : أسرعوا بها حتى تصلوا المقصد قبل أن يذهب مخرجها من ضحك السير . و « التفريس » : النزول في الليل .

٩٦٣ - وعن أبي قتادة رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ ، فَعَرَسَ بَلِيلٍ ؛ اضْطَجَعَ عَلَى يَمِينِهِ ، وَإِذَا عَرَسَ قُبِيلَ الصُّبْحِ ؛ نَصَبَ ذِرَاعَهُ ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى كَفِّهِ ^(٢) . رواه مسلم .
قال العلماء : إِنَّمَا نَصَبَ ذِرَاعَهُ لئَلَّا يَسْتَفْرِقَ فِي النَّوْمِ ، فَتَقُوتَ صَلَاةُ الصُّبْحِ عَنْ وَفَّيْهَا أَوْ عَنْ أَوَّلِ وَفَّيْهَا .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في هذا الباب آداباً كثيرة تتعلق بالسفر والرواحل ، وذلك أن المسافر - إذا سافر على راحلة : بهيمة من إبل أو حمار أو بغال أو خيل - فإن عليه أن يراعي مصلحتها ؛ لأنه مسئول عنها ، ولهذا كان النبي ﷺ - في حجة الوداع - راكباً على ناقته وقد شد لها زمامها ^(٣) ، فإذا أتى مرتفعاً من المرتفعات أرخى لها قليلاً .

ومن الآداب : أن الإنسان إذا سافر في أيام الخصب فإنه ينبغي أن يتأنى في السير - يعني : لا يسير سيراً حثيثاً ، يعطي فيه الإبل من حقها من الرعي - لأنه إذا كان يمشي الهوينى أمكن لها ذلك ، فإذا كانت الأرض مُعْشِبة وخصبة وأنت على إبل ، فلا تُسرع السير ، ذعها ترعى في مهل من أجل أن تنال حظها من الخصب ، أما إذا كان الأمر بالعكس وكانت السنة جَدْباً ؛ فإن المفروض أن تُسرع ، لأنك إذا أمهلت في السير والأرض جذب لا ترعى ، طالت مدة السفر فيذهب مخرجها ، وهذا من حكمة النبي ﷺ وأن الله تعالى قد أعطاه مصالح الرعاية للإنسان والبهائم ، حيث أرشد ﷺ المسافرين إلى هذه الآداب : في الخصب : تأن في السير ، في الجذب : أسرع في السير ، كذلك أمر ﷺ أننا إذا عرشنا - نزلنا - ليلاً لنستريح وننام فإننا لا ننام في الطريق يعني : في الجادة ؛ لأنها طرق البهائم ، فالتناس يستطرقون هذا الطريق فرجماً يأتي إنسان غافل فيقع في هذا الطريق ، كذلك هي أيضاً

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الإمارة (١٧٨) ، والبيهقي في السنن (٢٥٦/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٣١٣) ، وقوله : « عرس قبل الصبح » أي : نام قبل أذان الفجر .

(٣) الزمام : هو الخيط يشد المقود إلى طرفه (المعجم العربي الأساسي ص : ٥٨٥) .

مأوى الهوام تأتي إلى هذه الطرق حتى إذا سقط من أحد شيء من الطعام أكلته ، ولهذا يكثر وجود الهوام في هذه الطرق ، فلهذا أمر النبي ﷺ ألا ننام في الطرقات بل نرتفع عنها ، حتى لا يجرح السائرين على الطريق ، وحتى لا تتعرض لأذى الهوام ، ومثل ذلك - بل من باب أولى - طرق سيارات اليوم ، فإن الإنسان يتعد عنها ، لأنه ربما يأتي سائق ينعس ولو لحظة ، فيقتحم بسيارته هؤلاء الذين ينامون على الطريق ، وتحدث كارثة ، فابعد عن هذه الطرق السريعة لا تنم حولها ، حتى لا تقع في الخطر ، وهذا من إرشاد النبي ﷺ .

وكان من هديه ﷺ أنه إذا عرس في أول الليل : اضطجع على يمينه ، وإذا عرس قبيل الفجر : اتكأ على يده اليسرى ؛ لأن إذا كان أول الليل ينام على اليمين ليعطي النفس حظها من النوم ، ولهذا كان ﷺ في بيته إذا نام ينام على الجانب الأيمن بل أمر بذلك ^(١) ، أما إذا كان قبيل الفجر فكان ينصب ذراعه ﷺ وينام على يده لئلا يستغرق في النوم فتفوته صلاة الفجر ، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان أيضًا يعطي نفسه حظها من الراحة ، ولا ينسى عبادة ربه ، ففي أول الليل يمكنه أن ينام ويشيع قبل الفجر ثم يقوم ، أما في آخر الليل فإنه لا ينام نومة المطمئن ، بل نومة المستيقظ الذي لا يستغرق في النوم لئلا تفوته صلاة الفجر ، وفي هذا دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يستعمل المنبه في النوم ؛ لينبهه حتى لا تفوته الصلاة ، فأمر الرسول ﷺ نصب ذراعه من أجل أن ينتبه ، كذلك الإنسان ينبغي أن يجعل معه منبهًا للصلاة ، فهذا من آداب السفر التي دل عليها خير البشر ﷺ ، والله الموفق .

* * *

٩٦٤ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالذُّلَّةِ ؛ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ » ^(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن . « الذُّلَّة » : السَّيْرُ فِي اللَّيْلِ .

٩٦٥ - وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال : كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنَزَلًا تَفَرَّقُوا فِي الشَّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ تَفَرَّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشَّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلَّكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ ! » فَلَمْ يَنْزَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مَنَزَلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد حسن .

٩٦٦ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ عَمْرٍو - وَقِيلَ : سَهْلُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ تَبَعَةِ الرُّضَوَانِ - رَوَى عَنْهُ قَالَ : مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَعْضِ قَدْحٍ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ ، فَقَالَ : « اتَّقُوا

(١) انظر الحديث في مسند أحمد (٢٨١/٤ ، ٢٩٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٧١) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٢/٣) ، وقوله « فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ » أي : يسهل المشي فيها بحيث يظن الماشي أنه سار قليلاً في حين أنه يكون قد سار كثيراً ؛ وذلك للإحساس بالنشاط من برودة الليل .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٢٨) ، والبيهقي في سننه (١٥٢/٩) ، وقوله « مَنَزَلًا » أي مكاناً ، وقوله : « الشَّعَاب » : هي الطرق بين جبلين ، وقوله « الْأَوْدِيَةِ » هي المسيل ما بين الجبلين ، أي مقر نزول السيول .

اللَّهُ في هذه البهائم الْمُعْجَمَةِ ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً ، وَكُلُّوهَا صَالِحَةً » ^(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .
 ٩٦٧ - وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَرَدَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ ، وَأَسْرَ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا اسْتَشَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِجَاجِيهِ هَدَفٌ أَوْ حَائِشٌ نَخْلٍ . يَعْنِي حَائِشٌ نَخْلٍ . رواه مسلم هكذا مختصرًا .

وزاد فيه البرقاني بإسناد مسلم بعد قوله : حَائِشٌ نَخْلٍ : فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَوْجَرَ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ سَرَاتَهُ - أَي : سَنَامَهُ - وَذَفَرَاهُ فَسَكَتَ ، فَقَالَ : « مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ » فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : هَذَا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : « أَقْلًا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ؟ فَإِنَّهُ يَشْكُو إِلَيَّ أَنَّكَ تُجْبِعُهُ وَتُذْيِبُهُ » ^(٢) ورواه أبو داود كرواية البرقاني .

قوله : « ذَفَرَاهُ » هو بكسر الهمزة وإسكان الفاء ، وهو لفظ مفرد مؤنث . قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ : الذَّفَرَى : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَفْرُقُ مِنَ الْبَيْعْرِ خَلْفَ الْأَذَنِ ، وَقوله : « تُذْيِبُهُ » أَي : تُتْبِعُهُ .

٩٦٨ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا إِذَا نَزَلْنَا مَنَزِلًا ، لَا نُسَبِّحُ حَتَّى نَحُلَّ الرِّحَالَ ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد على شرط مسلم .

وقوله : « لَا نُسَبِّحُ » : أَي لَا نُصَلِّي التَّائِلَةَ ، ومعناه : أَنَا - مَعَ جِزْئِنَا عَلَى الصَّلَاةِ - لَا نُقَدِّمُهَا عَلَى خَطِّ الرِّحَالِ وَارْزَاقِ الدُّوَابِّ .

الشرح

هذه الأحاديث في آداب السفر ساقها النووي رَحِمَهُ اللَّهُ منها : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَشَدَ أَمَتَهُ إِلَى أَنْ يَسِيرُوا فِي اللَّيْلِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْأَرْضَ تَطْوِي لِلْمَسَافِرِ إِذَا سَافَرَ فِي اللَّيْلِ ، يَعْنِي أَنَّهُ يَقْطَعُ فِي الدَّلْجَةِ - اللَّيْلِ - مَا لَا يَقْطَعُهُ فِي النَّهَارِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّيْلَ وَقْتُ بَرَادٍ ، فَهُوَ أَنْشَطُ لِلرَّوَاحِلِ وَأَسْرَعُ فِي سِيرِهَا ، وَلِهَذَا عَبَّرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ تَطْوِي الْأَرْضَ لِلْمَسَافِرِ إِذَا مَشَى فِي اللَّيْلِ . وَمِنَ الْآدَابِ أَيْضًا : أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْجَمَاعَةِ أَلَّا يَتَفَرَّقُوا إِذَا نَزَلُوا مَنَزِلًا فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا إِذَا نَزَلُوا مَنَزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشَّعَابِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ » يَعْنِي تَفَرَّقَكُمْ فَمَا نَزَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مَنَزِلًا إِلَّا اجْتَمَعُوا جَمِيعًا ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَقْوَى لَهُمْ وَأَحْفَظُ ، وَلَوْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ فِي هَذَا اللَّيْلِ - وَكَانُوا جَمِيعًا - أَمَكْنَهُمُ الْمُدَافَعَةُ ، لَكِنْ إِذَا تَفَرَّقُوا تَوَزَعُوا وَفْشَلُوا .

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٤٨) ، قوله « لحق ظهره ببطنه » كناية عن شدة الجوع ، قوله « فاركبوها صالحة » أي اركبوها إذا كانت تطيق الركوب عليها ، قوله : « وكلوها صالحة » أي : حال كونها سمينة صالحة للأكل .
 (٢) أخرجه مسلم في الحيض (٧٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٤٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٤/١ ، ٢٠٥) ، قوله : « هدف » هو كل ما ارتفع على وجه الأرض من بناء وغيره ، وقوله : « حائش » أي : بستان نخل .
 (٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٥١) .

ومن ذلك أيضًا : أن النبي ﷺ أمر بالرفق بالبهائم ، وأنه يجب على الإنسان أن يعاملها معاملة حسنة ، فلا يكلفها ما لا تطيق ، ولا يقصر عنها في أكل أو شرب .

ومن ذلك أيضًا : أن الإنسان يركب الرحلة وحده ، وله أن يُردف ^(١) غيره لكن بشرط أن تكون الرحلة مطيقة لذلك ، فإن لم تكن مطيقة لضعفها أو نحو ذلك ؛ فإنه لا يحل له أن يكلفها ما لا تطيق ، لأن هذه البهائم تتعب كما يتعب الإنسان ، هي مكونة مما كُؤن منه الإنسان : لحم وعظم ودم ، فإذا كان الإنسان يتعب إذا حُمِّل ما لا يطيق ، أو حُمِّل عملًا يتعبه ، كذلك هذه البهائم ، ولهذا أمر النبي ﷺ أن نتقي الله ﷻ فيها وألا نقصر في حقها .

ثم ذكر حديث ابن الحنظلية أن الرسول ﷺ كان قلما يقضي حاجته إلا إلى هدف أو حائل ، هدف : مثل العنزة كان يركزها ويقضي حاجته ﷺ ، فدخل ذات يوم حائط رجل من الأنصار فإذا بجمل ، فلما رأى النبي ﷺ - أي الجمل رأى النبي ﷺ - جاء يجرجر وعيناه تذرفان ، يشكو صاحبه إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ » فجاء رجل من الأنصار فقال : إنه لي يا رسول الله . فأخبره ﷺ أن الجمل يشكو إليه صاحبه بأنه يجيعه ويحملة ما لا يطيق ، وأمره أن يتقي الله تعالى فيه ، وهذا من آيات النبي ﷺ أن البهائم العُجم تشكو إليه إذا رآته ﷺ ؛ لأن هذا من آيات الله التي يؤيد الله بها رسوله ﷺ فإن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا أعطاه آيات تدل على نبوته لئلا يكذبه الناس ، لأن الناس إذا جاء إليهم رجل وقال : أنا رسول الله لكم بدون آية ما صدقوه ، لكن الله تعالى يؤتي رسله آيات تدل على أنهم صادقون ، وأعظم آيات أعطيها الأنبياء ما أعطيه النبي ﷺ ، وقد ذكر ابن كثير ﷺ في « البداية والنهاية » وغيره أيضًا أنه ما من آية لنبي من السابقين إلا كان لرسول الله ﷺ مثلها أو أعظم منها ^(٢) . إما له شخصيًا وإما لأتباعه ، وذكر على ذلك أمثلة وشواهد كثيرة ، لكن لم يعط أحد من الأنبياء مثل ما أعطي النبي ﷺ من هذا الوحي - القرآن - ولهذا قال : « إنما الذي أوتيته وحي أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » ^(٣) لأن هذا الوحي باقٍ إلى يومنا هذا ، والناس كلما قرأوه ازدادوا إيمانًا بالله ورسوله ؛ لما فيه من الآيات العظيمة الدالة على أن رسول الله ﷺ رسول الله حقًا . والله الموفق .

١٦٩ - باب إعانة الرفيق

في الباب أحاديث كثيرة تقدمت كحديث : « وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » . وحديث : « كُلُّ مَغْرُوفٍ صَدَقَةٌ » وَأَشْبَاهِهِمَا .

(١) ردف : أي يجعل واحدًا يركب خلفه . (٢) البداية والنهاية (٦٥/٦) . (٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ، ومسلم في الإيمان (٢٣٩) ، وأحمد في مسنده (٣٤١/٢) .

٩٦٩ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : **يَتِمَّا نَحْنُ فِي سَفَرٍ ؛ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ ، فَلْيُعْذِ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ زَادَ ، فَلْيُعْذِ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ » فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَهُ ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ ^(١) . رواه مسلم .**

٩٧٠ - وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ! إِنْ مِنْ إِخْوَانِكُمْ قَوْمًا ، لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ ، وَلَا عَشِيرَةٌ ، فَلْيَضُمُّ أَحَدُكُمْ إِلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ ، أَوْ الثَّلَاثَةَ » فَمَا لِأَحَدِنَا مِنْ ظَهَرٍ يَحْمِلُهُ إِلَّا عُقْبَةٌ كَعُقْبَةِ - يَغْنِي أَحَدَهُمْ - قَالَ : فَضَمَّمْتُ إِلَيَّ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً مَا لِي إِلَّا عُقْبَةٌ كَعُقْبَةِ أَحَدِهِمْ مِنْ جَمَلِي ^(٢) . رواه أبو داود .

٩٧١ - وعنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ ، فَيُرْجِي الضَّعِيفَ ، وَيُزِدُ وَيَدْعُو لَهُ ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - باب الإحسان إلى الرفيق عند السفر والرفق به ، وهذا من آداب السفر أن الإنسان يُحسن إلى رفيقه في السفر ويرفق به ، ثم ذكر المؤلف رحمته الله ثلاثة أحاديث : منها : أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وهو في سفر فجعل يلتفت يمينه وشماله وكأنه يريد حاجة ، فقال النبي ﷺ : **« مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعْذِ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيُعْذِ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ »** وذكر أصنافاً من المال ، فصار الناس كلٌّ منهم ينظر إلى رفيقه ويُركبه معه ويُشركه في زاده . وهكذا أيضاً في الحديث الثاني : أن النبي ﷺ أمر أن يتعاقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد ، حتى يكون الناس كلهم سواء ، وكذلك الحديث الثالث : أن الرسول ﷺ يكون في أخريات القوم في السفر يزجي الضعيف - يسوقه - ويدعو له ، كما ثبت ذلك عنه في صحيح مسلم في قصة جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ لحقه - وكان جابر على جمل قد أعيا - فضربه النبي ﷺ - ضرب الجمل - ودعا له ، فصار يمشي كما تمشي الركاب بل كان يتقدم عليها ^(٤) . والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يكون مع رفقاءه في السفر محسناً إليهم قاضياً لحاجتهم معيئاً لهم ، فإن هذا من الآداب النبوية التي جاءت بها سنة النبي ﷺ والله أعلم .

(١) أخرجه مسلم في اللقطة (١٨) ، والبيهقي في سننه (١٨٢/٨) ، قوله « فضل ظهر » أي دابة زائدة عن حاجته ، قوله : « فضل زاد » أي : طعام زائد عن حاجته .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٣٤) ، قوله « معشر » هم كل جماعة أمرهم واحد ، وهم أيضاً أهل الرجل ، قوله « العشيرة » : هي القبيلة ، قوله « إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي » أي أنهم يتساوون في تناوب ركوب الدابة ، والمقصود : أنه لم يكن لي فضل في الركوب على الذين ضممتهم إلي ، بل كان لي عقبة من جملي ، مثل عقبة أحدهم . (٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٣٩) .

(٤) انظر الحديث في البخاري في الشروط (٢٧١٨) ، ومسلم في المساقاة (١٠٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٩/٣) .

١٧٠ - باب ما يقول إذا ركب الدابة للسفر

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ ۝ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ [الزخرف : ١٢ - ١٤] .

٩٧٢ - وعن ابن عمر رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ ؛ كَبَّرَ ثَلَاثًا ، ثُمَّ قَالَ : « سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ . اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالْتِقَايَ ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى . اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ . اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَغْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ » وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ : « أَيُّونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب آداب السفر : باب ما يقوله إذا ركب دابته للسفر . هكذا قبض المؤلف رضي الله عنه الحكم فيما إذا ركب للسفر ، وظاهر الآية الكريمة أن الحكم عام ، أن الإنسان إذا ركب دابته أو سيارته أو السفينة ، فإنه يقول ما ذكره الله تعالى .

ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا ركب دابته خَارِجًا فِي سفر قال : كذا وكذا ، وذكر قبل ذلك الآية وهي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ ۝ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ الآية . ﴿ وَجَعَلَ لَكُم ﴾ يعني : سِيرَ لَكُمْ . ﴿ مِّنَ الْفَلَائِكِ ﴾ : يعني : السفن وهي ثلاثة أنواع : بحرية ، وبرية ، وجوية ، أما البحرية فكانت معروفة من قديم الزمان من زمن نوح عليه السلام حين أوحى الله إليه ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ﴾ [هود : ٣٧] ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا بَابَهُ فَهَلْ مِن مَّدْکَرٍ ﴾ [النمر : ١٥] وأما السفن البرية فظهرت متأخرة وهي : السيارات ، وأما الجوية فهي أيضًا بعد ذلك وهي : الطائرات وكلها داخلة في قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ ﴾ فإنها فلك لأنها تجمع ما شاء الله من الخلق . وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ يعني الإبل والبغال والحُمير والخيول وغيرها مما يُرْكَب ، وقد اختلف العلماء في جواز ركوب الإنسان ما لم تجر العادة بركوبه ، كما لو ركب البقر ، فمنهم من قال : إنه جائز ما لم يشق عليه . ومنهم من قال : إنه لا يجوز ، لأنها لم تخلق لهذا . والصحيح أنه جائز ، وأنه لا بأس أن

(١) أخرجه مسلم في الحج (٤٢٥) ، وأبو داود بنحوه في الجهاد (٢٥٩٩) ، قوله : « استوى على بعيره » أي استقر على ظهره . قوله : « سخر » أي ذلل ، قوله : « واطوعنا » أي قربه لنا ، قوله « الخليفة » أي : المعتمد عليه والمفوض إليه كل الأمور .

يركب الإنسان ما لم تجر العادة بركوبه لكن بشرط ألا يشق عليها ، فإن شق عليه فهو ممنوع . وقوله تعالى : ﴿ لَسْتَوْا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ اللام إما للتعليل أو للعاقبة ، يعني أنه جعل لنا ما نركب لنستقر على الظهور ، فلم يجعله صعباً نرزا لا يستوي الإنسان على ظهره ولا يستقره ، بل هو يُستقر على ظهره ، وهذا مشاهد في السيارات والسفن والطائرات والإبل الذلول وما أشبه ذلك ﴿ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ بعد الاستواء تذكرون نعمة الله بما يشر لكم مما خلق من الأنعام وما علمكم من الفلك ، وتقولوا : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴿ كان الذي يتبادر أن يقول الإنسان : الحمد لله الذي سخر لنا هذا . ولكنه أمر أن يقول : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ لماذا ؟ لأن (سبحانه) تدل على التنزيه : يعني تنزيه الله ﷻ عن الحاجة وعن النقص ، فكان الإنسان يشعر إذا ركب على هذه الفلك والأنعام أنه محتاج إليه يستعين به على حاجاته فيسبح الله ﷻ الذي هو مستغن عن كل خلقه فكان التسبيح في هذا المقام أنسب ، مع أنه جاء في الشنة أنه يحمد الله ، لكننا نتكلم عن هذه الآية ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ يعني : ما كنا مطيقين له لولا أن الله سخره أي ذلله ، كما قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَيَنهَا رُكُوبَهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] رأيتم لو كانت هذه البعير الكبيرة الجسم القوية النشيطة لو لم تسخر هل نركبها ؟! هل نقدر عليها ؟! الجواب : لا ؛ لأن هناك من السباع ما هو دونها بكثير ولا نستطيع أن نقدر عليه ، لكن الله سخر لنا هذا الذي نركبه ، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمام الناقة ويقودها إلى حيث شاء ، هذا من تسخير الله ﷻ وتذليله ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي : مطيقين ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴾ هذه الجملة جملة عظيمة ، كأن الإنسان لما ركب مسافراً على هذه الذلول أو الفلك كأنه يتذكر السفر الأخير من هذه الدنيا وهو سفر الإنسان إلى الله ﷻ إذا مات ، وحملته الناس على أعناقهم فيتذكر ويقول : ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴾ جل وعلا فالمنقلب إلى الله ، والله تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ [الانشقاق : ١٦] كادح إلى ربك ، لم يقل كادح لربك بل كادح إليه : يعني سيكون مالك ومال كدك وكدحك إلى الله ﷻ ﴿ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي : عامل وراجع إلى ربك ، ﴿ فَلْيَقِهِ ﴾ كلنا سوف يلاقي الله ، ولكن على أي شيء وشأن يلاقي الله ﷻ ؟! .

يعني الإنسان لا يهيمه أين يموت ولا متى يموت ؟ ربما أنه يحب أن يطيل الله عمره ، وأن يموت في بلد مقدس كما اختار ذلك موسى ﷺ ، لكن الشأن كل الشأن على أي شيء يموت - نسأل الله أن يتوفانا وإياكم على الإيمان والتوحيد - هذا هو المهم ، فإن مت على خير ؛ فإنه لا فرق أن تموت هنا أو هناك ، أو في بلد مقدس أو غير مقدس ، ولا في هذا الشهر ولا في هذا اليوم ولا في هذا الوقت ، المهم أن تموت على خير ، فينبغي للإنسان إذا ركب سيارته أو الطائرة أن يقول هذا الذكر الوارد عن النبي ﷺ في حديث ابن عمر : يكبر ثلاثاً ويقول : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴿ ، ثم يدعو بهذا الدعاء الذي ذكره ابن عمر ﷺ وتأمل في هذا الحديث كلمة تدل على إحاطة الله بكل شيء يقول : « أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في

الأهل» «الصاحب في السفر» يعني : تصحبني في سفري ، تُيسره عليّ ، تسهله عليّ « وأنت الخليفة في الأهل» أي : الخليفة في الأهل من بعدي تحوطهم برعايتك وعنايتك ، فهو جلّ وعلا مع الإنسان في سفره ، وخليفته في أهله ، لأنه جلّ وعلا بكل شيء محيط . والله الموفق .

٩٧٣ - وعن عبد الله بن مسرج بن مَرْجِسٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ ، وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ ^(١) . رواه مسلم . هكذا هو في صحيح مسلم : الْحَوْرُ بَعْدَ الْكَوْنِ ، بالنون ، وكذا رواه الترمذي ، والنسائي . قال الترمذي : ويروى «الكور» بالراء ، ويكلاهما له وَجْهٌ .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَمَعْنَاهُ بِالنُّونِ وَالرَّاءِ جَمِيعًا : الرَّجُوعُ مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ ، أَوِ الزَّيَادَةُ إِلَى التَّقْصِصِ . قَالُوا : وَرَوَايَةُ الرَّاءِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ ، وَهُوَ لَقَبُهَا وَجَمْعُهَا ، وَرَوَايَةُ النُّونِ مِنَ الْكَوْنِ ، مَصْدَرٌ : كَانَ يَكُونُ كَوْنًا ، إِذَا وُجِدَ وَاسْتَقَرَّ .

٩٧٤ - وعن علي بن ربيعة قال : شَهِدْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ ، وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ ^(١) . رواه مسلم . هكذا هو في صحيح مسلم : الْحَوْرُ بَعْدَ الْكَوْنِ ، بالنون ، وكذا رواه الترمذي ، والنسائي . قال الترمذي : ويروى «الكور» بالراء ، ويكلاهما له وَجْهٌ .

٩٧٤ - وعن علي بن ربيعة قال : شَهِدْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ ، وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ ^(١) . رواه مسلم . هكذا هو في صحيح مسلم : الْحَوْرُ بَعْدَ الْكَوْنِ ، بالنون ، وكذا رواه الترمذي ، والنسائي . قال الترمذي : ويروى «الكور» بالراء ، ويكلاهما له وَجْهٌ .

الشرح

هذان الحديثان في الأدعية والأذكار التي تقال إذا ركب الإنسان راحلته في السفر ، وسبق لنا شرح الآية الكريمة أن الله تعالى قال : ﴿ لَتَسَوَّرْنَا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُتِّقِينَ ﴾ . كذلك أيضًا يتعوذ الإنسان من وعْثَاءِ السَّفَرِ ومن كآبة المنظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل ، ويتعوذ أيضًا من دعوة المظلوم ، ويسأل الله المغفرة والرحمة ويحمد الله ثلاثًا ويكبر ثلاثًا ، كل هذا مما جاء عن النبي ﷺ فَإِنْ ذَكَرْتَهُ بِلَفْظِهِ فَهَذَا هُوَ الْأَحْسَنُ وَالْأَفْضَلُ ، وَإِلَّا فَقُلْ مَا تَيْسَّرُ ، وَأَهَمُّ شَيْءٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُتِّقِينَ ﴾ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُسَبِّحُونَ .

وفي حديث علي بن أبي طالب عليه السلام بيان سعة مغفرة الله ورحمته وأنه ﷻ يفرح من عبده إذا استغفره وتاب إليه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته ... » وذكر الحديث وهو أن رجلاً مسافراً أضلّ راحلته وفقدها فطلبها فلم يجدها وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ومن الحياة ، ونام تحت شجرة ينتظر الموت ، فبينما هو كذلك إذا براحلته قد تعلقت بالشجرة ، فأخذ بزمامها وقال : « اللهم أنت عبيدي وأنا ربك » يريد أن يقول : « اللهم أنت ربي وأنا عبدك » لكنه أخطأ من شدة الفرح ^(١) . فאלله ﷻ يفرح بتوبة عبده فعليك - أخي المسلم - أن تتوب إلى الله وترجع وتستغفر وتعلم أنك متى استغفرت الله تعالى بصدق وإخلاص فإن الله تعالى يغفر لك ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] نسأل الله أن يغفر لنا ولكم ويرحمنا ويرحمكم إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٧١ - باب تكبير المسافر إذا صعد الثنايا وشبهها وتسبيحه إذا هبط الأودية

ونحوها ، والنهي عن المبالغة برفع الصوت بالتكبير ونحوه

٩٧٥ - عن جابر رضي الله عنه قال : كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا ، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا ^(٢) . رواه البخاري .
 ٩٧٦ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَجِئُوشُهُ إِذَا عَلَوْا الثَّنَائِيَا كَبَّرُوا وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف النووي رحمته الله تحت آداب السفر وما يُقال فيه ، فمن ذلك أنه من آداب السفر أنه إذا صعد الإنسان شيئاً مرتفعاً كالجبل ، وكذلك الطائرة إذا صعدت فإنه يكبر يقول : « الله أكبر » إما مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، وإذا نزل « سَبَّح » قال : سبحان الله مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، ووجه ذلك : أن الإنسان إذا علا فإنه يرى نفسه في مكان عالٍ ، فقد يستعظم نفسه فيقول : الله أكبر - يعني يرد نفسه إلى الاستصغار ، أما كبرياء الله ﷻ فيقول : الله أكبر . يعني : لو علوتي أيتها النفس فإن فوقك من هو أعلى منك وهو الله - عز وعلا - أما إذا نزل فالنزول سفول ودنو وذل ، فيقول : سبحان الله ، يعني : أنزه الله ﷻ عن السفول والنزول ؛ لأنه ﷻ فوق كل شيء ، وإن كان - جل وعلا - ثبت عن رسول الله ﷺ أنه ينزل إلى السماء الدنيا هذا نزول يليق بجلاله وعظمته ولا يلزم منه السفول ، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء ، المهم أنه من الآداب المستحبة التي من هدي الرسول ﷺ وأصحابه أنك إذا صعدت تقول : الله أكبر ، وإذا نزلت وادياً تقول : سبحان الله ، كذلك الطائرة عند ارتفاعها تكبر ،

(١) انظر الحديث في مسلم في التوبة (٣ ، ٤) ، وأحمد في مسنده (٣١٦ / ٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٣) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٢٤٥) ، بلفظه ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٩) بنحوه .

عند نزولها المطار تسبح ، لأنه لا فرق بين الصعود في الهواء والنزول منه ، أو على الأرض . والله الموفق .

٩٧٩ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَقْنَا عَلَى وَادٍ هَلَلْنَا وَكَبَّرْنَا وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْزُقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّهُ مَعَكُمْ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » ^(١) متفقٌ عليه .
« ارْزُقُوا » يَفْتَحِ الْبَاءُ الْمُوَحَّدَةُ أَيْ : ارْزُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ .

الشرح

تقدّم أنه ينبغي للمسافر إذا علا وارتفع أن يكبر ، وإذا هبط ونزل أن يسبح ، وبيننا الحكمة في ذلك ، ولكن ينبغي للإنسان إذا فعل هذا ألا يُجهد نفسه ولا يشق عليها ولا يرفع صوته رفعا بالغًا ، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فكانوا يهللون ويكبرون ويرفعون أصواتهم فقال النبي ﷺ : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم » يعني هُونُوا عليها ولا تشقوا على أنفسكم في رفع الصوت ، « فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا ، إنما تدعون سميعًا مجيبًا قريبًا » وهو الله ﷻ لا يحتاج أن تُجهدوا أنفسكم في رفع الصوت عند التسييح والتحميد والتكبير ، لأن الله تعالى يسمع ويصير وهو قريب - جلَّ وعلا - مع أنه فوق السماوات لكنه محيط بكل شيء - جلَّ وعلا - قال ابن عباس رضي الله عنه : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم » ^(٢) كل السماوات والأرض لا تنسب - فقط - إلى الله ﷻ بل هو - جلَّ وعلا - محيط بكل شيء وهو فوق كل شيء ، وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه في العبادات لا في أدائها ولا في المداومة عليها ، ولهذا لما بلغ النبي ﷺ أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال من شدة رغبته في الخير : « لأقومنَّ الليل ما عشت ، ولأصومنَّ النهار ما عشت » يعني : يريد أن يصوم كلَّ النهار ويقوم كلَّ الليل ، فبلغ النبي ﷺ ذلك فدعاه ، وقال : « أنت الذي قلت هذا ، » قال : نعم يا رسول الله . قال : « إنك لا تطيق ذلك » ، ثم أمره أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وأن يقوم وينام ، فقال : إني أطيق أكثر من ذلك ، فما زال به حتى قال النبي ﷺ له : « صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا » قال : فإني أطيق أكثر من ذلك ، قال : « لا أفضل من هذا ، هذا صوم داود ﷺ يصوم يومًا ويفطر يومًا . ليتقوى بيوم الفطر على يوم الصيام ، فلما كبر ﷺ شق عليه ذلك ، شق أن يصوم يومًا ويفطر يومًا فقال : ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ ^(٣) . ثم صار يصوم خمسة عشر يومًا سرًا ويفطر خمسة عشر يومًا سرًا ؛ لأنه عجز أن يصوم يومًا ويفطر يومًا ، أما في القيام فقال له : أعظم ما يكون أن

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٢) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤) ، والبيهقي في سننه (١٨٤/٢) .

(٢) ذكره أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢٠٥/٢) .

(٣) انظر الحديث في (البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسنَد الإمام أحمد (١٨٨/٢) .

ينام نصف الليل ، ويقوم ثلث الليل ، وينام سدس الليل ، قسمه ثلاثة أقسام : ينام النصف ، ويقوم الثلث ، وينام السدس ، وقال : « لا أفضل من ذلك » .

والحاصل : أنه لا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه في العبادة ، متى تسهّلت فليحمد الله ، بعض الناس في أيام الشتاء يكون عنده الماء الساخن والبارد ، يتوضأ بالبارد ويترك الساخن ، يعذب نفسه والله ﷻ يقول : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] نعم ، إذا لم يكن عندك إلا الماء البارد واستعملته وشق عليك فلك أجر ، أما أن تعدل عن السهل إلى الصعب طلباً للأجر فهذا ليس بصواب ، متى تسهّل الأمر فافعله ، كذلك بعض الناس مثلاً يقول : أمشي على رجلي للحج ؛ لأنه أصعب من المشي بالسيارة . قلنا : هذا خطأ ، إذا سهّل الله لك العبادة فافعل ، أو أنك تقرأ على نور ضعيف ولا تقرأ على نور قوي ؛ لأن القراءة على النور الضعيف أصعب ، ونقول : هذا أيضاً خطأ ، كلما تسهّلت العبادة فافعل ما تيسّر ولكن لا تقصر ، أما إذا لم يمكن إلا مع تعب فهذا الأمر إلى الله ، ومتى تعبت في العبادة فلك أجر . والله الموفق .

١٧٢ - باب استحباب الدعاء في السفر

٩٨٠ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ : دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ ، وَدَعْوَةُ الْمَسَافِرِ ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ » ^(١) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن ، وليس في رواية أبي داود : « على ولده » .

١٧٣ - باب ما يدعو به إذا خاف ناساً أو غيرهم

٩٨١ - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نَحْوِهِمْ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ » ^(٢) رواه أبو داود ، والنسائي بإسناد صحيح .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في : باب دعاء المسافر .

المسافر : هو الذي فارق وطنه فإنه يكون مسافراً حتى يرجع إليه ، ودعوة المسافر دعوة محتاج في

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٣٦) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٥) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في الصلاة (١٥٣٧) ، والبيهقي في سننه (١٥٢/٩) ، قوله « نجعلك في نحوهم » أي نسألك أن تصد صدورهم .

الغالب ، والإنسان إذا احتاج ودعا ربه أو شك أن يستجاب له ، لأن الله ﷻ يجيب دعوة المضطر ودعوة المحتاج أكثر مما يستجيب لغيرهما ، ثم ذكر الحديث ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد ، أما دعوة المظلوم : فمعناها إذا ظلمك أحد فأخذ مالك أو غير ذلك ، فهذا ظلم ، فإذا دعوت الله عليه استجاب الله دعائك ، حتى ولو كان المظلوم كافراً وظلمته ، ثم دعا الله فإن الله يستجيب دعاءه ، لا حباً للكافر ولكن حباً للعدل ، والمظلوم لا بد أن يُنصف له من الظالم ، ولهذا لما أرسل النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : « اتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » ^(١) فالمظلوم دعوته مستجابة إذا دعا على ظلمه بمثل ما ظلمه أو أقل ، أما إذا تجاوز ؛ فإنه يكون معتدياً فلا يستجاب له ، هذه واحدة ، الثانية : دعوة المسافر ، إذا دعا الله ﷻ أن يسره سفره ، أو يعينه عليه ، أو غير ذلك من الدعوات ؛ فإن الله تعالى يستجيب له ، ولذا ينبغي أن يغتنم فرصة الدعاء في السفر ، وإذا كان السفر سفر طاعة كعمرة وحج ؛ فإنه يزداد ذلك قوة في إجابة الدعاء ، الثالثة : دعوة الوالد ، في بعض ألفاظ الحديث (على ولده) وفي بعض ألفاظه مطلقة ، (الوالد) أي سواء لولده أو عليه ، وهذا هو الأصح ، دعوة الوالد لولده أو عليه مستجابة ، أما دعوته لولده ؛ فلأنه يدعو لولده شفقة ورحمة ، والراحمون يرحمهم الله ﷻ وأما عليه ؛ فإنه لا يمكن أن يدعو على ولده إلا باستحقاق ، فإذا دعا عليه - وهو مستحق لها - استجاب الله دعوته ، هذه ثلاث دعوات مستجابات ، دعوة المظلوم ، والمسافر ، والوالد سواء الأم أو الأب .

ثم ذكر المؤلف حديث ما يُسنُّ للإنسان إذا خاف ناساً أو غيرهم ماذا يقول ، مثلاً : قابلك أناس تخشى منهم ، قابلك شخص تخشى من شره ، فقل : « اللهم إنا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » إذا قلت ذلك بصدق وإخلاص ولجوء إلى الله كفافك الله شرهم ، (اللهم إنا نجعلك في نحورهم) : أي أمامهم تدفعهم عنا ، وتمنعنا منهم ، (ونعوذ بك من شرورهم) ففي هذه الحال يكفيك الله شرهم ، كلمتان يسيرتان إذا قالهما الإنسان بصدق وإخلاص فإن الله تعالى يستجيب له . والله الموفق .

* * *

١٧٤ - باب ما يقول إذا نزل منزلاً

٩٨٢ - عن خولة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ نَزَلَ مَنْزَلاً ثُمَّ قَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّمَانِيَةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَزْئِلَ مِنْ مَنَازِلِهِ ذَلِكَ » ^(١) رواه مسلم .

٩٨٣ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ فَأَقْبَلَ اللَّيْلُ قَالَ : « يَا أَرْضُ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ ، وَشَرِّ مَا فِيكَ ، وَشَرِّ مَا خَلَقَ فِيكَ ، وَشَرِّ مَا يَدُبُّ عَلَيْكَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٩٦/٤) ، والدارقطني في السنن (١٣٦/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٥٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/٦) والترمذي في الدعوات (٣٤٣٧) .

مِنْ شَرِّ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ ، وَمِنْ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ ، وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » ^(١) رواه أبو داود .
« وَالْأَسْوَدُ » : الشَّخْصُ ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ : « وَسَاكِنِ الْبَلَدِ » : هُمُ الْجِنُّ الَّذِينَ هُمْ سُكَّانُ الْأَرْضِ .
قَالَ : وَالْبَلَدُ مِنَ الْأَرْضِ : مَا كَانَ مَأْوَى الْحَيَوَانِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ بَنَاءٌ وَمَتَنَزَلٌ . قَالَ : وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَرَادَ « بِالْوَالِدِ » : إِبْلِيسُ « وَمَا وَلَدَ » : الشَّيَاطِينُ .

الشرح

هذان الحديثان في بيان ما يقوله الإنسان إذا كان مسافراً ونزل منزلاً ، ففي حديث خَوْلَةَ بنت حكيم رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ نَزَلَ مِنْزَلاً فَقَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ هَذَا » قوله : « نَزَلَ مِنْزَلاً » يشمل مَنْ نَزَلَ مِنْزَلاً فِي السَّفَرِ إِذَا كَانَ مُسَافِراً ، ثُمَّ نَزَلَ لِيَسْتَرِيحَ لَعْدَاءٍ أَوْ عِشَاءٍ أَوْ نَوْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا نَزَلَ يَقُولُ : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » وَأَعُوذُ أَيُّ : أَعْتَصِمُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ ، وَ « كَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ » تَشْمَلُ كَلِمَاتِهِ الْكُونِيَّةَ وَالشَّرْعِيَّةَ ، فَأَمَّا الْكُونِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] فَيَحْمِيكَ اللَّهُ تَعَالَى بِكَلِمَاتِهِ الْكُونِيَّةِ ، يَدْفَعُ عَنْكَ مَا يَضُرُّكَ إِذَا قُلْتَ هَذَا الْكَلَامَ ، كَذَلِكَ الْكَلِمَاتِ الشَّرْعِيَّةُ وَهِيَ الْوَحْيُ ، فِيهَا وَقَايَةُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَشَرٍّ ، وَقَايَةُ مِنَ الشَّرِّ قَبْلَ نَزْوِهِ وَبَعْدَ نَزْوِهِ ، أَمَّا قَبْلَ نَزْوِهِ : فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكَرْسِيِّ فِي لَيْلَةٍ ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرِبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يَصْبِحَ ^(٢) ، وَأَمَّا بَعْدَ نَزْوِهِ الشَّرِّ : فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ : أَنَّ الْفَاتِحَةَ إِذَا قُرِئَ بِهَا عَلَى الْمَرِيضِ فَإِنَّهُ يَبْرَأُ بِهَا ، حَتَّى إِنْ الصَّحَابِيُّ ﷺ لَمَّا قَرَأَ الْفَاتِحَةَ عَلَى سَيِّدِ الْقَوْمِ الَّذِي لُدِغَ قَامَ كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ ، يَعْنِي : بَرَأَتْ حَالَهُ ^(٣) ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ شِفَاءٌ ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] فَاحْرَصْ - يَا أَحْيَى الْمُسْلِمَ - إِذَا نَزَلْتَ مِنْزَلاً فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، أَوْ مِنْزَلاً اشْتَهَيْتَهُ لِلنَّوْمِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَقُلْ : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ شَيْءٌ حَتَّى تَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِكَ ذَلِكَ . وَاللَّهُ الْمُوفِقُ .

١٧٥ - باب استحباب تعجيل المسافر الرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته

٩٨٤ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ، يَمْتَنِعُ أَحَدُكُمْ طَعَامَهُ ، وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ ، فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ ، فَلْيَعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ » ^(٤) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . « نَهْمَتُهُ » : مَقْصُودُهُ .

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٣) . (٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٠) .

(٣) انظر الحديث في البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) ، والترمذي في السنن (٢٠٦٤) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٩١) .

(٤) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠٤) ، ومسلم في الإمامة (١٧٩) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما يتعلق بالسفر : باب استحباب تعجيل المسافر الرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته ، وذلك أن المسافر إذا سافر فإنه يترك أهله ، وربما يحتاجون إليه في تعليمهم ورعايتهم وغير ذلك ، وربما يحدث لهم أشياء توجب أن يكون عندهم ، ولهذا أمر النبي ﷺ كما في الحديث الذي ذكره المؤلف أن الإنسان إذا قضى نهمته من سفره فليرجع إلى أهله ، وقال ﷺ في هذا الحديث : « إن السفر قطعة من العذاب » ويعني ذلك : عذاب الضمير وعذاب الجسم ، ولا سيما الذي كان في الزمن السابق حيث يسافرون على الإبل ويكون فيها مشقات كبيرة ، وحرّ في الصيف وبرد في الشتاء ، ولهذا قال ﷺ : « إنه قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه » لأنه - أي المسافر - مشغول البال ولا يأكل ويشرب كطعامه وشرابه العادي في أيامه العادية ، وكذلك في النوم ، فإذا كان كذلك فليرجع الإنسان إلى الراحة إلى أهله وبلده ليقوم على أهله بالرعاية والتأديب وغير ذلك ، وفي هذا دليل على أن إقامة الإنسان في أهله أفضل من سفره إلا أن يكون هناك حاجة ، ووجهه أن أهله يحتاجون إليه ، ولهذا لما قدم مالك بن الحويرث ومعه عشرون رجلاً من قومه إلى النبي ﷺ وأقاموا عنده نحو عشرين ليلة ، فرأى أنهم قد اشتاقوا إلى أهلهم قال : « ارجعوا إلى أهليكم وأقيموا فيهم وأدّبوهم وعلموهم » ^(١) فدل ذلك على أن الإنسان لا ينبغي أن يغيب عن أهله إلا بقدر الحاجة ، هذا هو الأفضل . والله الموفق .

* * *

١٧٦ - باب استحباب القدوم على أهله نهاراً وكراهته في الليل لغير حاجة

٩٨٥ - عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أطال أحدكم العيئة فلا يطرق أهله ليلاً » . وفي رواية : أن رسول الله ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً ^(٢) . متفق عليه .

٩٨٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله ليلاً ، وكان يأتيهم غدوة أو عشية ^(٣) . متفق عليه . « الطُّرُوقُ » : المجيء في الليل .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٣١) ، ومسلم في المساجد (٢٩٢) ، والنسائي في السنن (٩/٢) ، والدارمي في السنن (٢٨٦/١) .

(٢) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠١) ، ومسلم في الإمارة (١٨٢) ، بنحوه ، والإمام أحمد في المسند (٣٩٦/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠٠) ، ومسلم في الإمارة (١٨٠) .

١٧٧ - باب ما يقوله إذا رجع وإذا رأى بلدته

فيه حديث ابن عمر السابق في باب تكبير المسافر إذا صعد الثنأيا .

٩٨٧ - وعن أنس رضي الله عنه قال : أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بظَهْرِ الْمَدِينَةِ قَالَ : « آيُونَ ، تَائِبُونَ ، عَابِدُونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » ^(١) فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ، رواه مسلم .

* * *

١٧٨ - باب استحباب ابتداء القدوم بالمسجد الذي في جواره

وصلاته فيه ركعتين

٩٨٨ - عن كعب بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَزَكَّعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ^(٢) . متفق عليه .

الشرح

هذه الأبواب الثلاثة من آداب السفر :

أما الباب الأول : فإن الإنسان إذا غاب عن أهله وطالت غيبته فلا يطرقهم ليلاً ، أي : لا يأتيهم في الليل إلا لحاجة أو إعلان ، الحاجة : مثل أن يحصل عليه في السفر مشقة لو انتظر إلى الصباح مثلاً ، فهذه حاجة يقدم عليهم في الليل ولا حرج ، وكذلك أيضاً إذا كان قد أعلمهم قال : إنه سيقدم عليهم الليلة الفلانية ، فلا بأس أن يقدم عليهم ليلاً ، أما إذا كان أطال الغيبة فإنه لا يطرقهم ليلاً ، لأن النبي ﷺ علل ذلك فقال : « لكي تمتشط الشعثة ، وتستحد المغيبة » ^(٣) يعني : لأجل أن المرأة تتجمل وتزين لزوجها لئلا يقدم عليها وهي شعثة غير ماشطة ، أو لم تستحد أي : لم تخلق عانتها ، فهذا قيد المسألة إذا أطال السفر ، أما إذا لم يطل السفر ، كسفر يوم أو يومين أو ما أشبه ذلك ؛ فلا حرج عليه أن يقدم إلى أهله متى شاء ، والحاصل : أنه إذا أطال الغيبة فلا يقدم على أهله ليلاً إلا لحاجة أو إعلام فلا بأس .

أما الحديث الثاني : فهو إذا قدم الإنسان من السفر فليبدأ قبل كل شيء بالمسجد ، فقبل أن يدخل على أهله ، يبدأ بالمسجد ويصلي فيه ركعتين ، لأن النبي ﷺ سَنَّ ذَلِكَ لِأُمَّتِهِ فِي قَوْلِهِ وَفَعَلَهُ ، فكان

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٣٤٥) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٤٠) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٦/١) ، قوله « بظهر المدينة » أي : في مكان تظهر منه دور المدينة ؛ أي على مشارف المدينة .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٨٨) ، ومسلم في التوبة (٥٩) ، من حديث طويل ، وأبو داود في الجهاد (٢٧٧٣) ، والإمام أحمد في المسند (٤٥٥/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٤٧) ، ومسلم في الإمارة (١٨١) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٣) . ومعنى « الشعثة » أي : التي اغبر وتلبد وتوسخ شعر رأسها ، وقوله : « المغيبة » أي التي غاب عنها زوجها .

ﷺ إذا قدم أول ما يبدأ به هو المسجد يصلي فيه ركعتين ^(١) . ولما جاءه جابر رضي الله عنه ليأخذ ثمن جملة الذي باعه عليه قال له : « أدخلت المسجد وصليت ؟ » قال : لا ، قال : « ادخل المسجد وصل ركعتين » ^(٢) وهذه السنة قد غفل عنها كثير من الناس ، إما جهلاً بذلك وإما تهاوناً ، ولكن ينبغي للإنسان أن يحيي هذه السنة ، وإذا وصل إلى البلد فليكن أول ما يبدأ به أن يدخل إلى المسجد ويصلي ركعتين ثم بعد ذلك يذهب إلى أهله . والله الموفق .

* * *

١٧٩ - باب تحريم سفر المرأة وحدها

٩٨٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها » ^(٣) متفق عليه .

٩٩٠ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لا يخلون رجلٌ بامرأةٍ إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم » فقال له رجلٌ : يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة ، وإني اكتئبت في غزوة كذا وكذا ؟ قال : « انطلق فحج مع امرأتك » ^(٤) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في : باب تحريم سفر المرأة وحدها ، يعني : بلا محرم ، وذلك أن المرأة ناقصة العقل والدين ، قريية التصور ، كل إنسان يخدعها ، وكل إنسان يذلُّ بها ، وهي فتنة الرجال كما قال النبي ﷺ : « أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » ^(٥) وقال : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » ^(٦) فلهذا تمنع المرأة من السفر بلا محرم ، واختلف العلماء فيما إذا كان السفر قصيراً هل تمنع منه أم لا ؟ فمنهم من قال بالمنع حتى من السفر القصير ، ومنهم من قال : لا تمنع إلا من السفر الطويل ، والصحيح أنها تمنع مما يُسميه الناس سفراً ؛ فكل ما يطلق عليه اسم سفر ؛ فإنه لا يجوز للمرأة أن تسافر إلا مع ذي محرم ، خوفاً عليها من الفتنة والشر والبلاء .

- (١) انظر الحديث أيضاً في : البخاري في العمرة (١٨٠٢) ، ومسلم في التوبة (٥٣) ، وأبو داود في الأدب (٢٧٧٣) .
- (٢) انظر الحديث في : البخاري في البيوع (٢٠٩٧) .
- (٣) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١٠٨٨) ، ومسلم في الحج (٤٧٩) ، قوله : « ذي محرم » هو الزوج أو أحد أقاربها ممن لا يجوز لها الزواج به مثل : الأخ والأب والابن والعم والخال والجد .
- (٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٣) ، ومسلم في الحج (٤٢٤) ، قوله : « اكتئبت في غزوة كذا » أي عئيت في أسماء من عين في تلك الغزوة .
- (٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٢/٣) .
- (٦) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧) ، والترمذي في السنن (٢٧٨٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٠/٥) .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما فيما يدل على أنه يحرم أن تسافر المرأة بلا محرم ، وظاهر الحديث أنه لا فرق بين المرأة الشابة والكبيرة ، والحسنة والقبيحة ، ومن معها نساء ومن لا نساء معها ، ومن هي آمنة وغير آمنة ، وإذا قُدر أن يوجد في سفر من الأسفار السلامة يقيناً ؛ فإن ذلك لا يوجد في كل سفر ، ولما كانت المسألة خطيرة منعت المرأة منعاً باتاً من السفر بلا محرم ، وقد تهاون بعض الناس اليوم في السفر بلا محرم ولا سيما في سفر الطائرة وكذلك النقل الجماعي وهذا غلط وتهاون في طاعة الله ورسوله ﷺ ، فلا يحل للمرأة أن تسافر بلا محرم ، ولو بالطائرة حتى لو كان محرماً سيثيبها إلى أن تركب الطائرة ، ومحرماً الثاني يقابلها في البلد الآخر ، فإن ذلك لا يجوز ، لأننا مهما قُدرنا من السلامة ؛ فإنه من يركب إلى جنب هذه المرأة ؟ لأن النساء الآن في الطائرة لا يُفرق بينهن وبين الرجال ، تجد المرأة إلى جانب الرجل ، لهذا نقول : إنه يحرم على المرأة أن تسافر بلا محرم في الطائرة أو السيارة أو الجمل أو الحمار أو الأرجل كل ذلك حرام ، والمحرّم : هو من تحرم عليه تحريماً مؤبداً بنسب أو مصاهرة أو رضاعة ، وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم قال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ [النساء : ٢٣] هؤلاء سبع من النسب ثم قال : ﴿ وَأُمَّهُنَّ أَلْفٌ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِمَّنْ أَرْضَعْتُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] هذا من الرضاعة ، وكذلك العمّة من الرضاعة والخالة من الرضاعة ، كلها محارم لقول النبي ﷺ « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ^(١) .

أما المصاهرة : فأبو الزوج وجده من قبل الأب أو الأم محرم للزوجة ، وابن الزوج وابن بنت الزوج وإن نزل كذلك أيضاً من محارم الزوجة ، فلو سافر جد الزوج سافر بامرأة ابنه ، فإن ذلك لا بأس به ، لأنه محرم ، ولو أن ابن الزوج النابه سافر بزوجة أبيه فلا بأس ، لأنها محرم له ، وأما ما يظنه بعض العوام من أن الإنسان إذا أنقذ امرأة من هلاك صار محرماً لها ؛ فهذا ليس له أصل ، كأن يقول بعض الناس : إذا غرقت امرأة ثم جاء إنسان وأنقذها ، أو شبت حريق بالبيت فجاء إنسان وأنقذها ، يدّعي بعض العوام أنه يصير محرماً لها وهذا ليس له أصل ، غير صحيح ، المحارم سبع من النسب ، وسبع من الرضاع ، وأربع من المصاهرة ^(٢) . أما الزوج فمعلوم أنه محرم ، لأنه زوج . والله الموفق .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٩/١) ، والبيهقي في السنن (٤٥٢/٧) ، وأخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٩) ومسلم في الرضاع (٩ ، ٢) كلاهما بلفظه « ما يحرم من الولادة » .

(٢) انظر في ذلك المبسوط (١٩٨/٤) ، وكشاف القناع (٦٩/٥) ، حاشيتا القليوبي وعميرة (٢٤١/٣) ، بداية المجتهد (٣٠/٢) ، المحلى (٥٢٠/٩) فقه الكتاب والسنة (١٠٧٩/٢) .

كتاب الفضائل
٨٠ - باب فضل قراءة القرآن

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : كتاب الفضائل ، الفضائل : جمع فضيلة ، ثم بدأ بفرائض كتاب الله ﷻ فقال : باب فضل قراءة القرآن ، والقرآن الذي بين أيدينا هو كلام الله ﷻ ، تكلم به ﷻ حقيقةً كلاماً سمعه جبريل ، ثم تلاه جبريل على النبي ﷺ قال الله تعالى : ﴿ وَلَهُ لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٠﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٥١﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٥٢﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤] وقال : ﴿ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴿١٥٣﴾ لِأَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَحَلُّ الْوَعْيِ وَالْإِدْرَاكِ وَالْفَقْهُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ ﴿١٥٤﴾ [القيامة : ١٦] وكان النبي ﷺ من شدة حرصه على القرآن كان يبادر جبريل - وجبريل يقرأ عليه يلقنه - فيبادره القراءة ، فقال الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ ﴿١٥٥﴾ يعني : اسكت حتى يقرأ جبريل ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٥٦﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ ﴿١٥٧﴾ [القيامة : ١٧ - ١٨] يعني : قرأه جبريل الذي هو رسول رب العالمين إلى محمد ﷺ ﴿ ١٥٨ ﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ بِهٖ كُرْآنَهُ ﴿١٥٩﴾ يعني : اقرأه بعده ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٦٠﴾ يعني لا تقاطع جبريل في القراءة .

فهذا القرآن تكلم الله به - جلّ وعلا - وهو يتكلم به ﷻ إذا أراد أن ينزله ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴿١٦١﴾ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ جُمْلَةٌ مَاضِيَةٌ ، يعني ، أنها فعل ماضٍ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾ يدل على تقدّم كلام هذه المرأة وعلى تأخر كلام الله في قصتها وشأنها ، ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٦٢﴾ [المجادلة : ١] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْفِتَالِ ﴿١٦٣﴾ [آل عمران : ١٢١] هذا في أحد ، يقول : إذ غدوت من أهلك ، إذن فالغدو سابق على كلام الله تعالى هذا ، والله جلّ وعلا يتكلم متى شاء بما شاء ، كيف شاء ، ولا يحل لنا أن نقول : إن كلام الله تعالى ككلامنا ، يعني أن صوته في القرآن كأصواتنا ، كلا ، لكنه يتكلم بالحروف التي نتكلم بها ، فهذا القرآن الذي بين أيدينا هو الحروف التي نكوّن منها كلامنا ، وهو كلام الله ﷻ ، المعنى واللفظ كله كلام الله ، هذا هو ما دلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة أهل السنة : أن القرآن كلام الله وأنه مُنَزَّل من عنده ، وأن الله تكلم به حقيقةً ، وأنه تلقاه عنه جبريل ، ثم نزل به على قلب النبي ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٦٤﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٦٥﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿١٦٦﴾ [التكوير : ١٩ - ٢١] فهو أمين ، أعني جبريل عليه الصلاة والسلام ، نزل به على أمين البشر ، جبريل أمين الملائكة ، ومحمد ﷺ أمين البشر ، وكلاهما أمين على وحي الله ﷻ .

هذا القرآن له فضائل عظيمة ، فضائل عامة ، وفضائل في آيات وسور خاصة ، مثلاً : الفاتحة هي

(١) انظر في ذلك البخاري في تفسير سورة القيامة باب (١ ، ٢) ، ومسلم في الصلاة (١٤٨) والترمذي في

التفسير سورة القيامة باب (١) . (٢) قوله تعالى : ﴿ بُبَوِّئُ ﴾ أي : تهبّ لهم مواطن وأماكن القتال .

(٣) قوله تعالى : ﴿ مَكِينٌ ﴾ أي : صاحب مكانة رفيعة ومنزلة عظيمة .

السبع المثاني ، وهي أم الكتاب ^(١) ، وآية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله ^(٢) ، وهلم جرا ، في آيات أو سور لها فضائل خاصة ، أما القرآن عموماً فله أيضاً فضائل عامة .

وهذا يوجب لنا أن نحرص غاية الحرص على تلاوة كتاب الله ﷻ ليلاً ونهاراً ، لأن الإنسان إذا تلا كلام الله صار له بكل حرف عشر حسنات ، الحرف الواحد من الكلمة له فيه عشر حسنات ، فمثلاً : « قل » فيها عشرون حسنة ؛ لأنها حرفان : القاف واللام .

« أعوذ » : هذه أربعة أحرف فيها أربعون حسنة ، يعني ثواب عظيم لا يتصوره الإنسان إذا قرأ هذا الكتاب العزيز العظيم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] . وينبغي للإنسان إذا قرأ القرآن أن يترتل فيه وألا يتعجل عجلة تُوجِبُ سقوطَ بعض الحروف ، فإن بعض الناس يَهْذِهْ هذا ^(٣) حتى يسقط بعض الحروف ، هذا ما تلاه كما أنزل ! فلا بد من بيان الحروف ، لكن التجويد المصطلح عليه في كتب التجويد ليس بواجب ، لكنه من كمال تحسين الصوت ، الواجب ألا تُسقط حرفاً من الحروف ولا شدة من الشدات ، وأما قواعد التجويد المعروفة فهي من باب التحسين والتكميل وليست من باب الواجبات ، ولهذا يُضَعَّفُ القول بأن التجويد واجب وأن من لم يجد القرآن آثم ، فإن هذا قول ضعيف جداً ^(٤) ، بل يقال : القرآن أمره - ولله الحمد - بَيِّنٌ واضح لا تسقط حرفاً من حروفه ، وأما مراعاة قواعد التجويد فليست بواجبة ، لكنها من باب تحسين الصوت بالقرآن .

واعلم أن القرآن أول ما نزل نزل على سبعة أحرف ^(٥) ؛ لأن الناس عرب من قبائل متعددة ولهجات مختلفة ، ونحن نعرف أن الواحد إذا أراد أن يتكلم بلهجة غيره يصعب عليه ويشق عليه ؛ فكان من رحمة الله ﷻ أن جعل القرآن على سبعة أحرف ، كلُّ يقرأ بلهجته من العرب ، بقي على هذا ، في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كله ، وفي عهد أبي بكر ، وفي عهد عمر ، وفي عهد عثمان صار الناس يقرؤون على لهجاتهم فصار في هذا اختلافٌ ، واللغة القرشية كانت غلبت على جميع اللهجات ، بعد أن تطور اللسان وصارت الدولة كلُّ خلفائها من قريش ، غلبت اللغة القرشية ،

(١) انظر في ذلك البخاري في التفسير (٤٤٧٤) ، وأبو داود في السنن (١٤٥٧) ، والترمذي في السنن (٣١٢٤) وأحمد في مسنده (٤٤٨/٢) .

(٢) انظر في ذلك : أبو داود في السنن (٤٠٠٣) ، والطبراني في الكبير (١٤٣/٩) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٩/٢) .

(٣) هذ القرآن : أسرع في قراءته .

(٤) هذا هو رأي الشارح والصحيح الذي تعارف عليه أهل العلم أن تجويد القرآن أمر واجب على كل حافظ للقرآن الكريم ، ومعرفة قواعد علم التجويد تعرف القارئ قواعد التلاوة دون لحن أو خطأ . وأصدق مثال على ذلك ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أحد الصحابة عندما وجده يقرأ الآية بالقصر فأحضره إلى النبي ﷺ وأخبره بما حدث فأقر النبي ﷺ كل واحد منهما على قراءته لأن قراءة الآية كان فيها قراءتان . فلو لم تكن أحكام التجويد مهمة ما فعل عمر رضي الله عنه ذلك . انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٩٩٢) .

(٥) ودليل ذلك قوله ﷺ : « نزل القرآن على سبعة أحرف » أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩١) وأحمد في مسنده (٢٠٤/٤) ، والحاكم في المستدرک (٥٥٣/١) .

وغلِبَ حرف قريش على جميع اللّهجات ، فلما خاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أن يختلف الناس في كلام الله وأن تؤدي هذه الأحرف السبعة إلى شقاق ونزاع ، أمر رضي الله عنه أن يؤخذ القرآن على حرف واحد ، ألا وهو حرف قريش - أي لغة قريش - فجمع القرآن على حرف واحد على لغة قريش وهو الذي نقرأ به الآن ، ثم أمر بسائر المصاحف فأحرقت ^(١) ، لئلا تبقى فيفتن الناس بها ، فكان في ذلك مصلحة عظيمة وفضيلة لأمر المؤمنين عثمان رضي الله عنه لا توصف ، فنسأل الله تعالى أن يجزيه عن المسلمين خيرا . وأحث نفسي وإياكم على تلاوة كتاب الله ، لا تتركوا القرآن ، ولو في الشهر مرة تقرأه كله ، أو مرتين ، أو أربعة ، أو عشر مرات ، وهذا أدنى ما يكون من الكمال ، أن تقرأه كل ثلاثة أيام ^(٢) ، هذا أفضل ما يكون ، وإن رأيت أنه لا يتيسر لك إلا في الأسبوع مرة ، أو كل عشرة أيام مرة ، أو في الأسبوعين مرة ، أو في ثلاثة أسابيع مرة ، أو في الشهر مرة ، المهم لا تهجر القرآن ؛ لأنه كلام الله تعالى ولا يزيدك إلا نورا في القلب وبصيرة في العلم . والله الموفق .

* * *

٩٩١ - عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول الله يقول : « اقْرَأُوا الْقُرْآنَ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ » ^(٣) رواه مسلم .

٩٩٢ - وعن الثَّوَالِيسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْقُرْآنِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَإِلَ عِمْرَانَ ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا » ^(٤) رواه مسلم .

الشرح

قال النووي رحمته الله في كتاب (رياض الصالحين) كتاب الفضائل ، باب فضل قراءة القرآن ، وقد سبق لنا شيء من الكلام على ذلك في الدرس الماضي ، ونتناول الآن الأحاديث التي ساقها في هذا الباب ، ومنها عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اقْرَأُوا الْقُرْآنَ » فأمر ﷺ بقراءة القرآن وأطلق ؛ فهي مستحبة في كل وقت وعلى كل حال ، إلا إذا كان الإنسان على حاجة - يعني يول أو يتغوط - فلا يقرأ القرآن ؛ لأن القرآن معظم محترم فلا يُقرأ في هذه الحال ، وكذلك إذا كان الإنسان مع أهله حال جماعه ؛ فإنه لا يقرأ القرآن ، لكنه يقول عند جماعه : « بِسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا » ^(٥) . قال النبي ﷺ : « اقْرَأُوا الْقُرْآنَ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ » إذا كان يوم القيامة جعل

(١) انظر البخاري في التفسير (٤٩٨٧) .

(٢) وذلك مصداقا لما رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٢) ، والبيهقي في السنن (٣٩٥/٢) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٥/٥) ،

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٣) ، والإمام أحمد في المسند (١٨٣/٤) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٦١) ، والدارمي في السنن (١٤٥/٢) ، وأحمد في مسنده (٢١٧/١) .

اللَّهُ ﷻ ثواب هذا القرآن شيئاً قائماً بنفسه ، يأتي يوم القيامة شفيحاً لأصحابه يشفع لهم عند الله ﷻ فإن القرآن إذا تلاه الإنسان محتسباً فيه الأجر عند الله ﷻ فله بكل حرف عشر حسنات .

ومثله حديث الثَّوَّاس بن سَمْعَانَ ﷺ : أن النبي ﷺ أخبر أن من قرأ القرآن وعمل به ، فإنه يأتي يوم القيامة يتقدمه سورة البقرة وآل عمران يحاججان عن صاحبهما يوم القيامة ، ولكن الرسول ﷺ قيد في هذا الحديث قراءة القرآن بالعمل به ، لأن الذين يقرأون القرآن ينقسمون إلى قسمين : قسم لا يعمل به ، فلا يؤمنون بأخباره ولا يعملون بأحكامه ، هؤلاء يكون القرآن حجة عليهم ، وقسم آخر يؤمنون بأخباره ويصدقون بها ويعملون بأحكامه . فهؤلاء يكون القرآن حجة لهم يحاج عنهم يوم القيامة ، لأن النبي ﷺ قال : « القرآن حجة لك أو عليك » (١) . وفي هذا دليل على أن أهم شيء في القرآن : العمل به . ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ وَأُتَى بِهِ وَلَسْتَ تَدْرِكُ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ [ص: ٢٩] أي : يتفهمون معانيها ويعملون بها ، وإنما أخر العمل عن التدبر ؛ لأنه لا يمكن العمل بلا تدبر ؛ إذ إن التدبر يحصل به العلم ، والعمل فرع عن العلم ، فالمهم أن هذا هو الفائدة من إنزال القرآن : أن يُتْلَى ويُعْمَل به ، يؤمن بأخباره ويُعْمَل بأحكامه ، يُمَثَّل أمره ، يُجْتَنَب نهيه ، فإذا كان يوم القيامة فإنه يحاج عن أصحابه . وفي هذا دليل على أن الترتيب بين سورة البقرة وآل عمران والنساء هو ما في المصحف الآن يعني البقرة ثم آل عمران ثم النساء . وأما حديث حذيفة بن اليمان ﷺ : أنه صَلَّى مع النبي ﷺ فقرأ بالبقرة ثم بالنساء ثم بآل عمران (٢) ، فإن هذا نُسِخ في الترتيب الأخير حيث جعلت آل عمران قبل النساء ، ولهذا اتفق الصحابة ﷺ على أن آل عمران بعد سورة البقرة ، فهي بينها وبين سورة النساء . والله الموفق .

* * *

٩٩٣ - وعن عثمان بن عفان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » (٣) رواه البخاري .

٩٩٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ » (٤) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل قراءة القرآن : عن عثمان بن عفان ﷺ أن النبي ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » الخطاب للأمة عامة ،

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (١) ، وابن ماجه في السنن (٢٨٠) ، وأحمد في مسنده (٣٤٣/٥) .

(٢) انظر الحديث في مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣) ، وأحمد في مسنده (٣٨٤/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٢) ، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٨) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٧) ، ومسلم في الصلاة (٢٤٤) ، قوله : « مع السفرة الكرام البررة » أي : مع الملاحكة الذين يحصون الأعمال في منازلهم ؛ وذلك لأنه مثلهم في حمل كتاب الله تعالى ، قوله « يتتعتع » أي : يصعب عليه .

فَخَيَّرُ النَّاسَ مِنْ جَمْعٍ بَيْنَ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ : مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ، وَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ، تَعَلَّمَهُ مِنْ غَيْرِهِ وَعَلَّمَهُ غَيْرَهُ ، وَالتَّعَلَّمَ وَالتَّعْلِيمُ يَشْمَلُ التَّعَلُّمَ اللَّفْظِي وَالْمَعْنَوِي ، فَمَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ ؛ يَعْنِي صَارَ يَعْلَمُ النَّاسَ التَّلَاوَةَ وَيَحْفَظُهُمْ إِيَّاهُ ؛ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي التَّعْلِيمِ ، وَكَذَلِكَ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؛ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي التَّعَلُّمِ ، وَبِهِ نَعْرِفُ فَضِيلَةَ الْحَلِيقِ الْمَوْجُودَةِ الْآنَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - فِي الْمَسَاجِدِ حَيْثُ يَتَعَلَّمُ الصِّبْيَانُ فِيهَا كَلَامَ اللَّهِ ﷻ ، فَمَنْ سَاهَمَ فِيهَا بِشَيْءٍ ؛ فَلَهُ أَجْرٌ ، وَمَنْ دَخَلَ أَوْلَادَهُ فِيهَا فَلَهُ أَجْرٌ ، وَمَنْ تَبَرَّعَ وَعَلَّمَ فِيهَا فَلَهُ أَجْرٌ ، كُلُّهُمْ دَاخِلُونَ فِي قَوْلِهِ ﷺ : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » .

وَالنُّوعُ الثَّانِي : تَعْلِيمُ الْمَعْنَى ، يَعْنِي تَعْلِيمُ التَّفْسِيرِ ، أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجْلِسُ إِلَى النَّاسِ يَعْلَمُهُمْ تَفْسِيرَ كَلَامِ اللَّهِ ﷻ كَيْفَ يَفْسِّرُ الْقُرْآنَ ، وَالْقُرْآنَ كَمَا نَعْلَمُ مُتَشَابِهًا ، تَجِدُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ آيَاتٍ تَتَكَرَّرُ بِلَفْظِهَا مِثْلُ : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴾ (١) [التوبة : ٧٣] هَذِهِ تَكَرَّرَتْ بِلَفْظِهَا فِي سَوْرَتَيْنِ : التَّوْبَةِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْآيَاتِ يَتَكَرَّرُ ، فَإِذَا عَلَّمَ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ كَيْفَ يُفْسِّرُ الْقُرْآنَ وَأَعْطَاهُ الْقَوَاعِدَ فِي ذَلِكَ فَهَذَا مِنْ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ . وَلِنَعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ حَيْثُ التَّفْسِيرِ ، يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُفْسِّرَ الْقُرْآنَ بِهَوَاهُ وَيَحْمِلُ الْآيَاتِ عَلَى مَا يَرِيدُهُ هُوَ ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْإِلْحَادِ بآيَاتِ اللَّهِ ﷻ مِنْ أَهْلِ التَّعْطِيلِ وَغَيْرِهِمْ ، يَحْمِلُونَ الْآيَةَ عَلَى غَيْرِ مَا أَرَادَ اللَّهُ ، مِثْلًا : يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [النجم : ٢٢] يَقُولُ : وَجَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ هَذَا حَرَامٌ . لَا يَجُوزُ ، لِأَنَّ الَّذِي يَفْسِّرُ الْقُرْآنَ إِنَّمَا يَشْهَدُ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ أَرَادَ كَذَا ، وَهَذِهِ عَظِيمَةٌ وَلَيْسَتْ هَيْئَةً ، لَوْ كُنْتَ تَفْسِّرُ كَلَامَ عَالِمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ لَعُدَّ ذَلِكَ جُنَايَةً إِذَا فَسَّرْتَهُ بِمَا تَرِيدُ أَنْتَ ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ! وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيَهُ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » (٢) فَالْوَاجِبُ أَنْ يَتَحَرَّزَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَعْنَى الْآيَةِ : كَذَا وَكَذَا - وَهُوَ لَا يَدْرِي - لَكِنْ إِذَا كَانَ طَالِبَ عِلْمٍ وَتَكَلَّمَ بِمَعْنَى الْآيَةِ عِنْدَ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ عَلَى أَسَاسٍ أَنَّهُ سِيرَ شِدَّةً إِذَا أَخْطَأَ فَلَا بَأْسَ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُثْقَى فِي الْأَخْتِبَارَاتِ مِثْلُ : فَسَّرَ الْآيَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَيَكُونُ الطَّالِبُ لَيْسَ عِنْدَهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ اسْتِحْضَارُ لَمَعْنَاهَا فَهَلْ يَفْسِّرُهَا بِمَا عِنْدَهُ ؟ نَقُولُ : نَعَمْ ، لِأَنَّ هَذَا يُخْتَبَرُ ، وَإِذَا أَخْطَأَ فَعِنْدَهُ مِنْ سَيِّئِهِ ، لَكِنْ يَتَحَرَّى أَخْطَاءَهُ ، أَمَّا الْإِنْسَانُ الَّذِي يَفْسِّرُ لَيْسَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ - وَهُوَ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ - فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى هَذَا ، لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَيْسَ كَغَيْرِهِ .

أَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ : « الْمَاهِرَ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ » الْمَاهِرُ : الَّذِي يَجِيدُ الْقُرْآنَ ، يَتَقَنَّهُ ، هَذَا مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ وَهَؤُلَاءِ السَّفَرَةُ الْكِرَامِ الْبَرَّةُ هُمُ الْمَلَائِكَةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِي صُفْحٍ مَكْرَمٍ ۝ تَرْتُفَعُ مُتَبَاهِرَةٌ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (٣)

(١) قَوْلُهُ ﴿ جَهْدَ الْكَفَّارِ ﴾ أَيُّ بِالْقِتَالِ ، ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ بِالْعِظِّ بِاللِّسَانِ وَالْإِزَامِ الْحِجَّةَ ، قَوْلُهُ ﴿ وَاعْلَظَ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ شَدَّدَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا فِي الْجِهَادِ بِقِسْمِهِ . (٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي السَّنَنِ (٢٩٥٠) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٣٣/١) .

(٣) قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَرْتُفَعُ ﴾ أَيُّ : ذَاتُ مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُتَبَاهِرَةٌ ﴾ أَيُّ : مَنْزَعَةٌ عَنْ مَسَاسٍ أَيْ دَنَسٍ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَفَرَةٍ ﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ سَفَرَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَرْسَلِهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أَيُّ أَنْقِيَاءَ مَطْهَيْنِ .

[عس: ١٣-١٦] فالماهر مع الملائكة ؛ وأما الذي يتتبع فيه : يتهجاه وهو عليه شاق فله أجران ، الأول للتلاوة ، والثاني للتعب والمشقة ، ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة : «أجرك على قدر نصبك » (١) أي : على قدر تعبك ، فالذي يتتبع في القرآن ويشق عليه له أجران : أجر التلاوة ، وأجر قراءة القرآن ، لكن الأول أفضل منه ؛ لأن الأول مرتبته عظيمة ، وفرق بين إنسان له مرتبة عالية وإنسان دون ذلك ولكن له أجر ، ونضرب مثلاً لهذا - والثواب ليس له نظير - لكن لو أن رجلاً له شرف وسيادة ومنزلة عالية في الناس لكن دراهمه قليلة ، وآخر وضعيع بين الناس ليس له قيمة لكن دراهمه كثيرة ، الأول أفضل . فالمهم أن الماهر بالقرآن المجيد فيه مع السفارة الكرام البررة ، وأما الذي يتلوه ويتتبع فيه وهو عليه شاق فله أجران ، إذن تالي القرآن ليس بخاسر مهما كان . والله الموفق .

* * *

٩٩٥ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الثمرة : لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة : ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنظل : ليس لها ريح وطعمها مر » (٢) متفق عليه .

الشرح

هذا الحديث ساقه المؤلف رحمه الله في باب فضل قراءة القرآن في (رياض الصالحين) ، في بيان أحوال الناس بالنسبة للقرآن ، أن النبي ﷺ ضرب أمثلة للمؤمن والمنافق ، المؤمن إما أن يكون قارئاً للقرآن أو غير قارئ ، فإن كان قارئاً له : فمثله كمثل الأترجة - يعني الثمرة - ريحها طيب وطعمها طيب ، فهذا المؤمن الذي يقرأ القرآن ؛ لأن نفسه طيبة وقلبه طيب ، وفيه خير لغيره ، الجلسة معه خير ، وكما قال النبي ﷺ أن مثل المجلس الصالح ؛ كمثل حامل المسك ، إما أن يبيعه أو تجد منه رائحة طيبة (٣) . فالمؤمن الذي يقرأ القرآن كله خير في ذاته وفي غيره ، فهو كالأترجة لها رائحة طيبة ذكية وطعمها طيب ، أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن : فهو كمثل الثمرة ، طعمها حلو ولكن ليس لها رائحة ذكية كرائحة الأترجة ، ونفى النبي ﷺ ريحها ؛ لأنه ليس بريح طيب وإن كان كل شيء له رائحة ، لكن ليست رائحتها ذكية لكنها حلوة طيبة ، هذا المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، إذن فالمؤمن القارئ للقرآن أفضل بكثير من الذي لا يقرأ القرآن ، ومعنى لا يقرأه : يعني : لا يعرفه ولم يتعلمه . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، لها رائحة طيبة لكن طعمها مر ، لأن المنافق في ذاته خبيث لا خير فيه ، والمنافق : هو الذي يُظهر أنه مسلم ولكن قلبه كافر - والعياذ بالله - هو الذي قال

(١) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٨٧) ، ومسلم في الحج (١٢٦) ، وأحمد في مسنده (٤٣/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٣) .

(٣) انظر الحديث في البخاري في البيوع (٢١٠١) ، ومسلم في البر والصلة (١٤٦) .

اللَّهُ فِيهِ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٥١ ﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٥٢ ﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿ ١ ﴾ [البقرة: ٨-١٠] يوجد منافقون يقرأون القرآن قراءة طيبة مرتلة مجودة لكنهم منافقون - والعياذ بالله - كما قال النبي ﷺ في الخوارج : « يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم » ^(٢) وهؤلاء - والعياذ بالله - ضرب لهم النبي ﷺ مثلاً بالريحانة ريحها طيب وذلك لما معهم من القرآن ، وطعمها مرٌّ ، وذلك لحبث طويبتهم وفساد نيتهم ، والمنافق الذي لا يقرأ القرآن ضرب النبي ﷺ له مثلاً بالحنظلة طعمها مرٌّ وليس لها ريح ، هذا المنافق الذي لا يقرأ القرآن لا خير فيه ، طعمه مرٌّ وليس معه قرآن ينتفع الناس به ، هذه أقسام الناس بالنسبة لكتاب الله ﷻ فاحرص أخي المسلم على أن تكون من المؤمنين الذين يقرأون القرآن ويتلونه حتى تلاوته حتى تكون مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها حلو . والله الموفق .

* * *

٩٩٦ - وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه (رياض الصالحين) في باب فضل قراءة القرآن فيما نقله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ الْآخَرِينَ » يعني معناه : أن هذا القرآن يأخذه أناس يتلونه ويقرءونه ، فمنهم من يرفعه الله به في الدنيا والآخرة ، ومنهم من يضعهم الله به في الدنيا والآخرة ، فمن هذا ؟ ومن هذا ؟ من عمل بهذا القرآن تصديقاً بأخباره وتنفيذاً لأوامره واجتناباً لنواهيه ، واهتداءً بهديه ، وتخلقاً بما جاء به من أخلاق - وكلها أخلاق فاضلة - فإن الله تعالى يرفعه به في الدنيا والآخرة ؛ وذلك لأن هذا القرآن هو أصل العلم ومنبع العلم وكل العلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] أما في الآخرة فيرفع الله به أقواماً في جنات النعيم ، ويقال للقارئ : « اقرأ ورتل واصعد » ^(٤) وله إلى منتهى قراءته صعود في الجنة - إن شاء الله - وأما الذين يضعهم الله به فقوم يقرأونه ويحسنون قراءته لكنهم يستكبرون عنه - والعياذ بالله - لا يصدقون بأخباره ولا يعملون بأحكامه يستكبرون عنه عملاً

(١) قوله تعالى ﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ ﴾ أي : يخادعون رسول الله ﷺ بإظهار الإيمان وإضمار الكفر ليدفعوا عن أنفسهم القتل والأسر والجزية ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي ما يفطنون إلى أن وبال خداعهم عائد عليهم بالشقاء الأبدي ، وقوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أي نفاق .

(٢) انظر الحديث بأكمله في : البخاري في المغازي (٣٤٥١) ، ومسلم في الزكاة (١٤٤ ، ١٤٥) ، وأحمد في مسنده (٤/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٦٩) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥/١) ، والبيهقي في السنن (٨٩/٣) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩١٤) ، وأبو داود في السنن (١٤٦٤) ، وأحمد في مسنده (١٩٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٥٣/٢) .

ويجحدونه خبيرا ، إذا جاءهم شيء من القرآن كقصص الأنبياء السابقين أو غيرهم أو عن اليوم الآخر أو ما أشبه ذلك صاروا - والعياذ بالله - يشككون في ذلك ولا يؤمنون ، بل ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَضٌ ﴾ مرتابون - والعياذ بالله - وربما يصل بهم الحال إلى الجحد مع أنهم يقرأون القرآن ، وفي الأحكام يستكبرون ، لا يأترون بأمره ولا ينتهون بنهيهِ ، هؤلاء - والعياذ بالله - يضعهم الله في الدنيا والآخرة ، ولا بد أن يكون أمرهم خسارا حتى لو فرض أن الدنيا دانت لهم وتزخرت فإن مآلهم إلى الخسار - والعياذ بالله - ولكن ربما يمهّل لهم ويملي لهم وتفتح عليهم الدنيا ، ولكنهم كلما انفتح عليهم شيء من زهرة الدنيا ؛ فإنهم لا يزدادون به إلا خسارا - والعياذ بالله - ﴿ وَيَوْمَ يَرْمُؤُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبَتْهُمْ لَمْ يَنَجَّوْا فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعَتْ بِهَا قَالِيَوْمَ تَجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحزاب: ٢٠] يعني : ربما يمهّل الله ﷻ للكافر الجاحد المستكبر وتزدان له الدنيا ، لكنه لا يزيده ذلك إلا خسارا وإثما في الآخرة - والعياذ بالله - فالخذر الخذر أن تكون من القسم الثاني الذين يضعهم الله بهذا القرآن ، كن من القسم الأول الذين يرفعهم الله بالقرآن - جعلنا الله وإياكم منهم .

* * *

٩٩٧ - وعن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ؛ فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا ؛ فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » ^(١) متفق عليه . « والآناء » الساعات .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في باب فضل القرآن - في كتاب (رياض الصالحين) - فيما نقله عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين » الحسد قال العلماء : إن معناه هنا هو : الغبطة ، يعني لا شيء فيه غبطة إلا هاتين اثنتين ، وذلك لأن الناس يغبط بعضهم بعضا في أمور الدنيا وفي أمور الآخرة ، فتجد - مثلا - بعض الناس يغبط هذا الرجل حين أعطاه الله المال والأولاد والأهل والقصور والسيارات ، وما أشبه ذلك ، يقول : هذا هو الحضيض ، هذا هو المغبط ، وما أشبه ذلك ، يحسد ، يغبط بعض الناس على ما آتاه الله من الصحة وسلامة البنين وغير ذلك ، يغبطه على أنه له شرف وجاه في قومه ، إن قال سُمع ، وإن عمل أُتبع ، فيقول : هذا هو الحضيض ^(٢) ، لكن النبي ﷺ بيّن أن الذي يُغْبَط من حصل على هذين اثنتين : الأولى آتاه الله تعالى الحكمة - القرآن - فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، آتاه الله القرآن حفظه وفهمه وعمل به آناء الليل والنهار يقوم به ، يفكر ماذا قال الله ﷻ عن الصلاة ، فيقول : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فيقيمها ، ماذا قال عن الزكاة ، فيقول : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فيؤتيها ، ماذا قال عن الوالدين ، قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٦٦) .

(٢) الحضيض : هو قرار الأرض ، وهو التدني ، وهو أيضا : نقطة مقابلة للأوج وهو أعلى منازل القمر (المعجم العربي الأساسي ص ٣٢٨ مادة حضض) .

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴿٣٦﴾ النساء : ٣٦ وماذا قال عن صلة الأرحام ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد : ٣١] فيصل رحمه ، ماذا قال عن الجيران ، قال تعالى : ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْبُجْبِ﴾ [النساء : ٣٦] إلى آخره ، فتجده يقوم بالقرآن آناء الليل والنهار . هذه هي الغبطة ، وهي الغنيمة ، وهي الحظ .

والثاني : « رجل آتاه الله المال » يعني : صار غنياً « فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » يعني : في سبيل الله فيما يرضي الله ﷻ أي شيء يرضي الله ، ينفق ماله فيه ... بناء المساجد ، الصدقات على الفقراء ، إعانة المجاهدين ، إعانة الملهوفين ، وغير ذلك ، المهم لا يجد شيئاً يقرب إلى الله إلا بذل ماله فيه ليلاً ونهاراً ، ليس ممسكاً ولا مبدراً فيغلو ويزيد ، بل ينفقه لله وبالله وفي الله منفقاً لله مستعيناً به متمشياً على شرعه ، هذا هو الذي يغبط ، أما الذي عنده حظ من الدنيا يتمتع به كما تتمتع البهيمة بالعلف ثم يذهب عنها ، هذا ليس محسوداً ولا يُحسد على ذلك ، لأنه تالف أو متلوف عنه ، لكن الذي ينفق ماله في سبيل الله هو الذي يغبط ، وفي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يقوم بالقرآن آناء الليل والنهار ، دائماً يجعل أعماله كلها مبنية على القرآن ، يتمشى بهدي القرآن ، وأنه ينبغي لمن آتاه الله المال أن يؤدي حقه ويقوم بواجبه وينفقه حيث كان إنفاقه خيراً ، والله الموفق .

* * *

٩٩٨ - وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ ، وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَظْطَيْنِ ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو ، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : « تِلْكَ السَّكِينَةُ نَزَلَتْ لِلْقُرْآنِ » (١) متفق عليه . « الشُّطْنُ » بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة : الحبل .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمته الله في كتاب (رياض الصالحين) في (باب فضل قراءة القرآن) ما يدل على فضل قراءة القرآن من الأحاديث السابقة واللاحقة ، فمن ذلك حديث البراء بن عازب رضي الله عنه : أن رجلاً كان يقرأ في سورة الكهف ، وسورة الكهف هي التي بين الإسراء ومريم ، هذه السورة من فضائلها : أن الإنسان إذا قرأها يوم الجمعة أضاء له ما بين الجمعتين (٢) ، وفيها قصص وعبر قصّها الله ﷻ على رسوله ﷺ . وكان هذا الرجل يقرأ القرآن فتغشاه - يعني غطاه - شيء مثل الظلمة كأنه غمامة ، كلما قرأ نزل ، كلما قرأ نزل من فوق ، وجعلت الفرس - وهي مربوطة بشظنتين - تميل ، تنفر من هذا الذي رآته ، فلما أخبر النبي ﷺ قال : « تلك السكينة نزلت لقراءة القرآن » لأن السكينة تنزل عند قراءة القرآن ، إذا قرأه الإنسان بتمهل وتدبر ؛ فإن السكينة تنزل حتى تصل إلى قلب القارئ ؛ لينزلها الله في قلبه .

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٠) ، قوله « تغشته سحابة » أي غطته وكانت فوقه .

(٢) انظر الحديث في : الحاكم في المستدرک (٥٦٤/١) وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في السنن (٢٤٩/٣) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥١٣/١) ، والألباني في إرواء الغليل (٩٣/٣) .

وهذه القصة من كرامات الأولياء ، فالأولياء لهم كرامات ، لكن ليس لكل ولي كرامة ، وإنما يؤتي الله بعض أوليائه كرامة تثبتاً له وتصديقاً لما كان عليه من الحق ، وهي - يعني الكرامات - أمور خارقة للعادة - يعني لا تأتي على وفق العادة - يجريها الله ﷻ على يدي بعض أوليائه تكريماً له وتثبيتاً له ، وتصديقاً لما هو عليه من الحق ، وهي في نفس الوقت معجزة للرسول الذي يتبعه هذا الولي ، وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أن الخوارق ثلاثة أقسام : قسم آيات للأنبياء ، وقسم كرامات للأولياء ، وقسم إهانات من الشياطين يجريها الله على خلاف العادة على أيدي الشياطين - والعياذ بالله - وعلامة ذلك : أن الذي تحصل له هذه الخوارق (١) إما أن يكون نبياً ، أو ولياً للرحمن ، أو ولياً للشيطان ، ومن المعلوم أنه بعد وفاة النبي محمد ﷺ لا يمكن أن تكون هناك كرامة معجزة أبداً ؛ لأن النبوة انقطعت ، بوفاء رسول الله وخاتم النبيين ، وبقيت الكرامات ، والأحوال الشيطانية والشعوذات والسحر وما أشبه ذلك ، والكرامات علامتها أن يجريها الله ﷻ على يد عبد صالح من أولياء الله ، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وإذا أُجْرِيَ شيء خارق للعادة على يد رجل صالح مؤمن تقي معروف بالخير قيل هذه كرامة .

والقسم الثالث : السحر والأحوال الشيطانية وهذه تجري على يد طواغيت وأولياء الشياطين الذين يدعون أنهم أولياء ، ويلعبون بعقول الشفهاء وعقول العامة ، تجد الإنسان يكبر عمامته ويوسع كُمه ويُطِيل لحيته ويُعَفِّر جبهته في الأرض ليظهر عليه أثر السجود ، وما أشبه ذلك من اللعب بعقول الناس ، ثم يستخدم الشياطين لأغراض خاصة ، فتقلب له البعير ، وربما تحمله في الهواء ويطير ، حتى إن بعضهم شوهد في أول يوم عرفة ثم حملته الشياطين حتى أدرك الناس في عرفة ... هذا من زمان وهم يلعبون بعقول الناس ، هؤلاء شياطين ، وإن كانوا يفعلون هذا الشيء ؛ فإنه لا كرامة لهم ، والكرامات والإهانات ألّف فيها العلماء كثيراً ، ومن أحسن ما ألّف كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذكر فيها أشياء كثيرة من كرامات الأولياء وأشياء أخرى من إهانات الأعداء ، يُذكر أن «مسليمة الكذاب» الذي خرج في اليمامة بالرياض وادّعى أنه نبي ، أنه جاءه قوم فقالوا له : إن عندنا بئراً غار ماؤها ولم يبق منه إلا قليل ، وطلبوا منه أن يأتي إليها ، لأجل أن يباركها ، كما كان الرسول ﷺ إذا شكوا إليه قلة الماء يشر على يديه ﷺ أن ينبع الماء من بين أصابعه فجاءوا إلى «مسليمة الكذاب» فذهب إلى البئر ، يقولون : إنه مَجٌّ فيها مَجَّةٌ (٢) من الماء ولما مَجَّ فيها الماء غار الماء الموجود فيها ، وكانوا يتوقعون أن الماء يكثر وينهمر فأراهم الله ﷻ آية لتكذيب هذا الرجل ، هذا - لا شك - أنه أمر خارق للعادة ، لأن ليس من العادة أن الإنسان يَمَجُّ الماء في بئر ليس

(١) الخوارق : هي الأشياء التي تتجاوز قدرة العبد أو طبيعة المخلوقات كالمعجزة والكرامة (المعجم العربي الأساسي ص ٩٣٢ مادة خرق) .

(٢) مَجٌّ : أي رمى به من فمه أي بصق فيه (المعجم العربي الأساسي ص ١١١٨ مادة مَجَج) .

فيها إلا ماء قليل ثم يغار ^(١) ، هذا خلاف العادة ، لكن الله أجرى ذلك إهانة له ، فعلى كل حال إذا رأيت من شخص ما يكون خارقاً للعادة فإن كان مؤمناً تقياً يُعرف بالصلاح والاستقامة فهذا من كرامات الأولياء ، وإن لم يكن كذلك فهي أحوال شيطانية من الشياطين ، أو سحر يسحر أعين الناس ، لأن السحر قد يسحر الأعين حتى ترى المتحرك ساكناً والساكن متحركاً ، فهاهم سحرة فرعون ألقوا حبلاً عادية وعصياً في الأرض ثم سحروا أعين الناس حتى جعل الوادي كله حيات ، حتى موسى عليه السلام أوجس في نفسه خيفة ، فأوحى الله تعالى أن يُلقي عصاه ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَبَاطِثٌ مَّيِّمٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢] حية عظيمة جعلت تمشي على هذه الحبال والعصي تلقفها ، فعرفوا أنه صادق ؛ لأنه التهم كل سحر .
فالخلاصة : أن هذه الظلة التي حصلت للقارئ والذي كان يقرأ سورة الكهف هذه كرامة له ، وهي شهادة من الله ﷻ بالفعل على أن هذا القرآن حق تنزل السكينة لقراءته وتلاوته . نسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم به ، وأن يجعله حجة لنا وقائداً إلى جنات النعيم .

٩٩٩ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، لَا أَقُولُ : أَلَمْ حَرْفٌ ، وَلَكِنْ : أَلِفٌ حَرْفٌ ، وَلَاَمٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٠٠٠ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذان الحديثان في فضل قراءة القرآن وثوابه ، الحديث الأول عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخبر أن من قرأ القرآن فله بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها . ثم بين ذلك في قوله : « لَا أَقُولُ أَلَمْ حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ، وَلَاَمٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ » فتكون ثلاثة فيها ثلاثون حسنة ، وكذلك بقية الكلمات في القرآن العظيم ، إذا قرأها الإنسان ففي كل حرف من كل كلمة عشر حسنات وهذه نعمة عظيمة وأجر كثير ، فينبغي للإنسان أن يكثر ما استطاع من تلاوة كتاب الله ﷻ وليس بلام أن تكون قد حفظت القرآن كله ، اقرأ ما تيسر ، حتى لو فرض أنك لم تحفظ إلا سورة الفاتحة وجزء عم وتبارك وما أشبه ذلك ، كل القرآن خير حتى إن الرسول ﷺ أخبر أن من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن ^(٤) .

(١) انظر القصة في البداية والنهاية (٣٢٧/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٢) ، والبغوي في شرح السنة (٤٦١/١٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٤) ، قوله « في جوفه » أي في قلبه ، قوله « البيت الخرب » أي البيت الخالي من المتاع أو الزينة .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٥٩) ، والترمذي في السنن (٢٨٩٣) .

كذلك أيضًا الحديث الثاني بين الرسول ﷺ أن الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الحرب ، يعني أن القرآن يَغْمُر القلب ويجعله مستنيرًا بالعلم وبنور الكتاب العزيز ، وإذا فُقد القرآن من قلب العبد فإنه يكون كالبيت الحرب - والعياذ بالله - ليس فيه خير ، وهذا أيضًا فيه تحذير من عدم قراءة القرآن ، والحرص عليه ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يتلونه حق تلاوته .

* * *

١٠٠١ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنْ مَثَرَتْكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا » ^(١) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حسن صحيح .

* * *

٨١ - باب الأمر بتعهد القرآن والتحذير من تعريضه للنسيان

١٠٠٢ - عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ ثَقَلًا مِنْ الْإِبِلِ فِي عُقْلَيْهَا » ^(٢) متفق عليه .

١٠٠٣ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الْإِبِلِ الْمُعْقَلَةِ ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا ، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في : (باب الأمر بتعهد القرآن ، والتحذير من تعريضه للنسيان) أن كتاب الله ﷻ إذا مَنَّ الله عليك فحفظته فتعاهده ، وذلك لأن القرآن الكريم كما شبهه النبي ﷺ كالإبل في عُقْلها إذا تعهدتها الإنسان أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت وضاعت ، وقد أقسم على ذلك النبي ﷺ حين قال كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد ثقلًا من الإبل في عُقْلها » فينبغي لك أن تجعل لك حزبًا معينًا تتعاهده كل يوم - مثلاً - تقول : كل يوم أقرأ جزءًا ، فتحفظ القرآن في شهر ، أو جزأين فتحفظه في خمسة عشر يومًا ، أو ثلاثة أجزاء

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه والحديث أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٦٤) والترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٥) ، والإمام أحمد في المسند (١٩٢/٢) والبيهقي في السنن (٥٣/٢) ، قوله « ارتق » أي اصعد درجات الجنة .
(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣٢) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٣١) ، والترمذي في السنن (٢٨٩٣) وقوله « كفلتا » أي تخلصًا . وقوله « عقْلها » هو الحبل الذي يشد به البصير .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣١) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٢٦) والإمام أحمد في المسند (١١٢/٢) ، ومالك في الموطأ (٢٠٢) ، قوله « صاحب القرآن » أي الحافظ له عن ظهر قلب ، قوله « الإبل المعقلة » هي المشدودة بالعقال ؛ وهو الحبل الذي يشد في ركة البعير ، قوله « إن عاهد عليها » أي احتفظ بها ولازمها واستمر ممسكًا لها .

فتحفظه في عشرة أيام إلى تسعة أيام إلى ثلاثة أيام ، تعاهد هذا حتى لا تنساه ، وقد وردت أحاديث في التحذير من نسيانه لمن أهمله ، أما من نساه بمقتضى الطبيعة ؛ فإنه لا يضُرُّ ، لكن من أهمل وتغافل عنه - بعد أن أنعم الله عليه بحفظه ؛ فإنه يخشى عليه من العقوبة ، فأنت يا أخي إذا مَنَّ الله عليك بالقرآن فتعاهده بالقراءة بتكرار التلاوة ، وكذلك أيضًا بالعمل به ، لأن العمل بالشيء يؤدي إلى حفظه وبقائه ، ولهذا قال بعض العلماء : قيد العلم بالعمل به ، فإن العمل بالعلم يقتضي بقاءه ، لأنه لا يزال على قلبك وعلى جوارحك ، فإذا صار هكذا فإنه يبقى ولا ينسى ، أما إذا أهمل فإنه يضيع . وينبغي لمن قرأ القرآن أن يقرأه بتدبر وتمهل ، ولا يحلُّ له أن يُسرَّع السرعة التي توجب إسقاط بعض الحروف ، لأنه إذا أسقط بعض الحروف فقد غيَّر كلام الله عن موضعه ، وحرَّفه ، أما العجلة التي لا تستوجب سقوط الحروف ؛ فإنه لا بأس بها . والله الموفق .

٨٢ - باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن وطلب القراءة

من حسن الصوت والاستماع لها

١٠٠٤ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَعَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ » ^(١) متفقٌ عليه . معنى « أَذِنَ اللَّهُ » : أي استمع ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الرِّضَى وَالْقَبُولِ .

١٠٠٥ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ : « لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » متفقٌ عليه . وفي رواية لمسلم : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ : « لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ » ^(٢) .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) في آداب القراءة : باب استحباب تحسين الصوت بالقراءة ، وطلب القراءة من حسن الصوت والاستماع إليه ، هاتان مسألتان :

المسألة الأولى : استحباب تحسين الصوت في قراءة القرآن ، وتحسين الصوت ينقسم إلى قسمين : أحدهما : تحسين الأداء بحيث يبين الحروف ويخرجها من مخارجها حتى يبدو القرآن واضحًا يثَّنا ، فلا يُخفي ولا يحذف شيئًا من الحروف ، لئلا ينقص شيء مما أنزل الله على رسوله ﷺ .

الثاني : تحسين النغمة بالصوت فيحسن صوته ، وكلاهما أمر مطلوب ، ولكن الأمر الأول -

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٣٢) ، والإمام أحمد في المسند (٢٧١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٣٥) ، والبيهقي في السنن (١٢/٣) .

تحسين الأداء - لا ينبغي المبالغة فيه والغلو فيه بحيث تجد الرجل يقرأ القرآن يتكلف ويحمر وجهه ، ويتكلف في الغنة وفي الإدغام وفي مثل ذلك فإن هذا من إقامة الحروف المتكلفة ، ولكن لتكن قراءته طبيعية ويبيّن فيها الحروف والحركات ، هذا هو المطلوب ، وأما الغلو والمبالغة ؛ فإنهما ليسا مطلوبين ، وبه نعلم أن تعلم التجويد ليس بواجب ، لأنه يعود إلى تحسين الصوت بدون غلو ولا مبالغة ، فهو من الأمور المستحبة التي يتوصل بها الإنسان إلى شيء مستحب لا إلى شيء واجب .

وأما القسم الثاني : هو تحسين الصوت فقد يقول قائل : حُسن الصوت ليس باختيار الإنسان ، لأن الله تعالى هو الذي يُمُنّ على من يشاء من عباده فيعطيه حنجره قوية وصوتاً طيباً ، فيقال : نعم ، الأمر كذلك ، لكن يُحسّن الإنسان الصوت بالتعلّم ، لأن حُسن الصوت غريزي ومكتسب ، فلا يزال يقرأ بصوت حسن حتى يتعلّم ويؤدي بصوت حسن .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما أذن الله لشيء إذنه لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به » « أذن » قال العلماء : استمع ، يعني ما استمع الله لشيء من الأشياء التي يسمعها - جل وعلا - مثل استماعه لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به ، يعني : نبي ، والأنبياء هم أفضل طبقات الخلق « يتغنّى بالقرآن » يعني : يقرأه بصوت حسن « يجهر به » يعني : يرفع صوته به ، فهذا هو الذي يأذن الله له ؛ أي : يستمع له جلّ وعلا ، لأنه يحب الصوت الحسن بالقرآن والأداء الحسن ، ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو عبد الله بن قيس أحد خطباء النبي ﷺ : أن النبي ﷺ استمع إلى قراءته ذات ليلة فأعجبته ، فقال النبي ﷺ لأبي موسى : « لقد أوتيت مزامراً من مزامير آل داود » وآل داود يعني به داود عليه السلام . فداود كان لديه صوت حسن جميل رفيع ، حتى قال الله تعالى : ﴿ يَنْجَالُ أَبِي مَعْمٍ وَالطَّيْرُ ﴾ (١) فكانت الجبال ترجع مع داود وهو يتلو الزبور لحسن صوته ، تجاوبه جبال أحجار جامدة ، وكذلك الطير تؤرّب معه - سبحانه الله - تأتي فإذا سمعت قراءته ؛ تجمّعت في جو السماء وجعلت ترجع معه ، فكانت الجبال والطيور إذا سمعت قراءة داود للزبور قامت ترجع معه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأبي موسى : « لقد أوتيت مزامراً من مزامير آل داود » يعني صوتاً حسناً كصوت آل داود ، يقول أبو موسى : لما قال له الرسول : لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك البارحة - قال : لو علمت أنك تستمع - أو قال تسمع - لحبّته لك تحبيراً (٢) . يعني يزيّنه أحسن مما كان .

قال العلماء : وفي هذا دليل على أن الإنسان لو حسن صوته بالقرآن لأجل أن يتلذذ السامع ويُسّر به ، فإن ذلك لا بأس به ولا يُعَدُّ من الرياء ؛ بل هذا مما يدعو إلى الاستماع لكلام الله ﷻ حتى يُسّر الناس به ؛ ولهذا يوجد بعض الناس إذا ضاق صدره استمع إلى قراءة إنسان حسن القراءة حسن الصوت ، وهذه مُتَّبِعَةٌ الآن في أشربة لبعض القراء الذين لا يتكفّلون القراءة ، وأصواتهم حسنة وأداؤهم حسن ، إذا استمع الإنسان إليهم لا يكاد يمل ؛ لأن كلام الله له تأثير إذا جاء من إنسان حسن الصوت وحسن الأداء لا يمل . ويستفاد من هذين الحديثين : أنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن

(١) قوله تعالى : ﴿ أَبِي مَعْمٍ وَالطَّيْرُ ﴾ أي رجعي ورددي معه التسييح . (٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٢/٣) .

على أكمل ما يمكنه أن يقرأه عليه ، من حسن الصوت ، وحسن الأداء ، ونسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم ممن يقيم حروفه وحدوده حتى يكون حجة لنا لا علينا . والله الموفق .

* * *

١٠٠٦ - وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في العشاءِ بالتَّينِ والزَّيْتُونِ ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ ^(١) . متفقٌ عليه .

١٠٠٧ - وعن أبي ثبابةٍ بشير بن عبد المُنذر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا » ^(٢) رواه أبو داود بإسنادٍ جيد . ومعنى « يَتَغَنَّي » : يُحَسِّنُ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ .

١٠٠٨ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ؟ قَالَ : « إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى جِئْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] قَالَ : « حَشَبُكَ الْآنَ » فَالْتَفَتْتُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ ^(٣) . متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان تحسين الصوت والقراءة في القرآن الكريم ، فحديث البراء بن عازب رضي الله عنه أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ، فقرأ ﴿ وَالزَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ قال : فما سمعت قراءة أحسن من قراءته - أو قال : صوتًا أحسن من صوته - وكلاهما صحيح ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس صوتًا بالقرآن وهو أول - وأولى - من يدخل في قوله فيما سبق من حديث : « ما أذن الله لشيء إذنه لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهره به » فرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس صوتًا بالقرآن ، وأحسن الناس أداءً في القراءة ؛ لأن القرآن عليه أنزل ، والقرآن هو خلقه صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا الحديث : دليل على أن صلاة العشاء لا بأس أن يُقرأ فيها بقصار المفصل ، لأن التين من قصار المفصل ولكن الأكثر أن يُقرأ فيها من أوساطه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر معاذ بن جبل أن يُقرأ فيها بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ و ﴿ وَإِذْ إِذَا يَتَشَنَّي ﴾ و ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ^(٤) وما أشبه ذلك لكن لا حرج أن يُقرأ بقصار المفصل كالتين ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ وما أشبه ذلك ، وكذلك أيضًا حتَّى النبي صلى الله عليه وسلم على التغني بالقرآن وقال : « من لم يتغنَّ بالقرآن فليس منا » . قال العلماء : وهذه الكلمة لها معنيان :

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٦٩) ومسلم في الصلاة (١٧٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٧١) ، والإمام أحمد في المسند (١٧٢/١ ، ١٧٥ ، ١٧٩) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٠) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٧) ، قوله « تذرّفان » أي تجري دموعهما رحمةً لأمتة .

(٤) انظر الحديث في مسند أحمد (١٢٤/٣ ، ٣٠٨) والألباني في إرواء الغليل (٣٣٠/١) .

الأول : (من لم يتغنَّ به) : أي : من لم يستغن به عن غيره بحيث يطلب الهدى من سواه فليس منا ، فهذا - لاشك - أن من طلب الهدى من غير القرآن أضله الله والعياذ بالله .
والمعنى الثاني : (من لم يتغنَّ) : أي من لم يحسن صوته بالقرآن فليس منا ؛ فيدل على أنه ينبغي للإنسان أن يحسن صوته بالقرآن وأن يستغني به عن غيره .

وأما الحديث الثالث عن ابن مسعود رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه أن يقرأ عليه ، فقال عبد الله بن مسعود : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟! فقال صلى الله عليه وسلم : « إني أحب أن أسمعه من غيري » ؛ فذلك لأن الإنسان الذي يستمع قد يكون أقرب إلى تدبر القرآن من القارئ ، فالقارئ تجده يركز على ألا يخطئ في القراءة ، والمستمع يتدبر ويتأمل ، ولهذا قيل : « القارئ حالب والمستمع شارب » ^(١) يعني القارئ يحلب الناقة أو الشاة ، والمستمع شارب هو الذي يستفيد ، المهم أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه فقال : أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل ؟! قال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأ بسورة النساء حتى إذا جاء إلى قول الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ يعني : كيف تكون الحال ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « حسبك الآن » يقول : فالتفت فإذا عيناه تذرفان ، يبكي صلى الله عليه وسلم أن يؤتى به يوم القيامة شهيداً على أمته ؛ لأنه يؤتى يوم القيامة من كل أمة بشهيد ؛ الأنبياء شهداء ، العلماء شهداء ؛ لأن العلماء واسطة بين الرسل وبين الخلق ، هم الذين يحملون شريعة الرسل إلى الخلق ، فهم شهداء ، فالعالم يشهد بأمرين : أمر أعلى ، وأمر أسفل ، الأمر الأعلى : يشهد بأن هذا حكم الله ، والأمر الأسفل : يشهد بأنه قد بلغ الناس ، لأن العالم يبلغ فمثلاً يقرأ آية أو حديثاً ، ويقول للناس معناها كذا وكذا اعملوا بها ، فيشهد عليهم ، فهو شاهد من طرفين : طرف أعلى ، وطرف أسفل ، فيوم القيامة يؤتى من كل أمة بشهيد ، أول من يشهد الرسل : نشهد أننا بلغنا رسالة ربنا إلى خلقه ، ويؤتى من هذه الأمة بـ « محمد » صلى الله عليه وسلم يستشهد الله فيشهد أنه بلغ ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم استشهد ربه في أكبر مجمع للمسلمين في ذلك الوقت في يوم عرفة ، لما خطب الناس الخطبة الطويلة العظيمة البليغة قال : « ألا هل بلغت » ؛ قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد » ، قال : « ألا هل بلغت » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد » قال : « ألا هل بلغت » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد » ^(٢) .

لما وصل لهذه الآية بكى صلى الله عليه وسلم لأنه تصوّر هذه الحال ، تخيلها ، حالاً عظيمة ، كل أمة جاثية ^(٣) ، وكل أمة تُدعى إلى كتابها ، كل أمة تأتي على الركب من شدة الهول وعظمتها ، كل أمة تُدعى إلى كتابها ﴿ الْيَوْمَ نَحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٨] ولهذا قال في الآية الكريمة التي وقف عليها عبد الله بن مسعود : ﴿ يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ لَوْ سُوَّى يَوْمَ الْآزْدُ ﴾ [النساء : ٤٢] يعني : يودون أنهم مابعثوا وما قبضوا ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ^(٤) .

(١) هذا قول مشهور من أمثلة العامة .

(٢) انظر البخاري في الحج (١٧٤١) ومسلم في الحج (٤٤٦) وأحمد في مسنده (٣٢/٤) ، والدارمي في المناسك (٧٢) .

(٣) قوله « كل أمة جاثية » أي باركين على الركب من هول الموقف .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤١﴾ [النساء: ٤١-٤٢] يودون أنهم بقوا في الأرض ، أو أن يكونوا تراباً ، ولكن لا ينفعهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .
فالمهم : أنه يجوز للإنسان أن يطلب من شخص قارئ أن يقرأ عليه ولو كان هذا القارئ أقل منه علماً ، لأن بعض الناس يعطيه الله تعالى حُسن صوت وحُسن أداء وإن كان قليل العلم ، فلا بأس أن تقول : يا فلان - جزاك الله خيراً - اقرأ عليّ ، إما أن تعين له ما يقرأ ، وإما أن تدع الأمر إليه ، فستسمع ، وفي هذا الحديث بركة القرآن أنه يستفيع به القارئ والمستمع ، ولا شك أن القرآن أعظم الكتب بركة ، وأفيدها ، وأصلحها للقلب ، وأرضاها للرب نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين يعملون به ظاهراً وباطناً يموتون عليه ويحيون عليه . والله الموفق .

* * *

٨٢ - باب الحث على سُور وآيات مخصوصة

١٠٠٩ - عن أبي سعيد رافع بن المُعَلَّى رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ ؟ » فَأَخَذَ بِيَدِي ، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ : لِأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : « ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ » هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ ^(١) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب الحث على سور وآيات معينة وفيما سبق ذكر الحث على القرآن عموماً ، أما هذا الباب ففيه ذكر آيات وسور معينة لها فضل خاص ، فمن ذلك : سورة الفاتحة ، فهي أعظم سورة في كتاب الله ، ولهذا تُسَمَّى أم القرآن ، والأم : هو الذي يرجع إليه الشيء ، فسورة الفاتحة ترجع إليها معاني القرآن كلها ؛ ولذلك أوجب الله قراءتها في كل ركعة من الصلوات ، فقال النبي ﷺ : « لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن ، أو بفاتحة الكتاب » ^(٢) .
وهذه السورة لها خصائص منها : أن الإنسان إذا قرأ على مريض فإنه يشفى بإذن الله ، لكن بشرط أن يقرأها بإيمان - يعني وهو مؤمن أنها رقية نافعة .

والشرط الثاني : أن يقرأها على مريض مؤمن أيضاً مصدق بأنها رقية ونافعة ، ويدل على هذا أن النبي ﷺ بعث سريةً ، فنزلوا على قوم فاستضافوهم ولكن القوم لم يضيفوهم ، فسلب الله على

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٦) ، قوله « السبع المثاني » أي أنها تنشئ في كل صلاة ؛ أي تقرأ في كل صلاة .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) والترمذي في السنن (٢٤٧) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٥) .

سيدهم - أي : سيد القوم - أن لدغته عقرب ، وتأذى منها أذىً شديداً ، فقال بعضهم : اذهبوا إلى هذا الرهط لعل فيهم قارئاً يقرأ ، فجاءوا إلى السريّة ، وقالوا : إن سيدهم لدغته عقرب فهل منكم أحد يقرأ ؟ قالوا : نعم ، لكن ما نقرأ عليكم إلا إذا أعطينا مكافاً غنماً فقالوا : نعطيكم ، فتقدم أحد القوم من الصحابة ، فجعل يقرأ عليه سورة الفاتحة - وهو أشد ما يكون من الألم - فقرأ عليه ، فقام الرجل المريض كأنما نشط من غقال ، يعني : كأنه بعير فكُ عقاله ، ليس فيه داء ، فأعطوهم الغنم ، ثم قال بعضهم لبعض : نخشى أن تكون الغنم حراماً ، لا نأكل منها حتى نصل إلى النبي ﷺ ، فلما وصلوا المدينة وأخبروا النبي ﷺ قال لهم : « خذوها واضربوا لي معكم بسهم » ^(١) يعني اجعلوا لي سهماً منها ، وإنما قال ذلك تطبيخاً لقلوبهم ، وإلا فهو ﷺ في غنى عن هذا ، لكن تطبيخاً لقلوبهم ويناهاً لحلّ هذا الشيء ، ثم قال للذي قرأها : وما يدريك أنها رقية ، فإذا قرأ الإنسان على مريض وهو مؤمن أنها رقية والمريض مؤمن كذلك بأنها نافعة بإذن الله ؛ فإن الله تعالى ينفع بها نفعاً عجيبيّاً ، هذا من فضائل سورة الفاتحة ، وهي أعظم سورة في كتاب الله كما في هذا الحديث . والله الموفق .

* * *

١٠١٠ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ » .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « أَيْعَجُزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟ » فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالُوا : أَيُّنَا يُطِيقُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ اللَّهُ أَضَكُّهُ ^(٢) ثُلُثُ الْقُرْآنِ » رواه البخاري .

١٠١١ - وعنه : أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدُّهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالَّهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ » ^(٣) رواه البخاري .

الشرح

قال النووي رحمه الله فيما نقله من الأحاديث في باب الحث على شور معينة في كتاب الله في فضل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ اللَّهُ أَضَكُّهُ وهي تسمى سورة الإخلاص ؛ لأن الله ﷻ أخلصها لنفسها ، فلم يذكر فيها شيئاً إلا من أسماء الله وصفاته ، وأيضاً من قرأها مؤمناً بها معتقداً لما دلت عليه ؛ فإنه مخلص لله ﷻ من الشرك ، هذه - السورة كلها أسماء لله وصفاته ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ

(١) انظر الحديث في : البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧) ومسلم في السلام (٦٥) وأبو داود في الطب (١٩) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٥) ، والإمام أحمد في المسند (٤٤٧/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٥/٣) والنسائي في السنن (١٧١/٢) .

أَحَدٌ ﴿١﴾ يقال : إن المشركين سألوا النبي ﷺ وقالوا : انسب لنا ربك ؟ يعني : ما نسبته ؟ كأنهم يقولون : من هو ابن له - والعباد بالله - أو أنهم سألوه : من أي شيء هو ؟ أمن ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك . فأنزل الله هذه السورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) ، يعني : واحد منفرد عن كل مخلوقاته - جل وعلا - و ﴿ أَحَدٌ ﴾ اسم مختص بالله ﷻ لا يُطلق على غيره ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ الصمد : اختلفت عبارات المفسرين في معناه ، لكن المعنى الجامع لها : أن الصمد هو الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته ؛ فهو الكامل في علمه ، في قدرته ، في رحمته ، في حلمه ، وفي غير ذلك من صفاته ، وكذلك هو الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته ، كل الخلائق تصمد إليه في حاجتها وتسأله حتى المشركون إذا كانوا في البحر وماجت الأمواج فإيما يدعون الله وحده ؛ فهو - جل وعلا - مرجع الخلائق كلها فالصمد - إذا - معناه : الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ ﴿ لَمْ يَكِدْ ﴾ : لم يكِدْ : ليس له أولاد ﴿ لَمْ يَكُنْ ﴾ لأنه غني عن كل أحد ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ صَحِجَّةٌ ﴾ (٢) [الأنعام : ١٠١] وفي هذا ردٌّ وإبطال لما ادعته اليهود والنصارى والمشركون ، اليهود قالوا : غُزير ابن الله (٣) ؛ يعني قالوا : إله يلد وابنه غُزير ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله (٤) ، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله (٥) ، فأبطل الله ذلك كله ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وذلك لأنه - جل وعلا - هو الأول الذي ليس قبله شيء ، فهو الأول وما بعده كائن بعد أن لم يكن ، أما الرب - جل وعلا - فإنه أول أزلي أبدي ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ ﴾ يعني : لا أحد يكافئه ويكون نذًا له لا في علمه ، ولا في قدرته ، ولا في غير ذلك ، ولما افتخرت عاد بقوتها وقالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ [نفسك : ١٥ - ١٦] ريحًا : هواء من ألين المخلوقات ، فدمرهم تدميرًا وهم يقولون : من أشد منا قوة ؟ ١؟ والله ﷻ لا يكون له كفؤ أحد ، واعلم أن ﴿ كُفُّوا ﴾ فيها ثلاثة قراءات : (كُفُّوا) بضم الفاء والواو ، ولا يصلح أن تكون (كُفُّوا) بسكون الفاء - وفيها قراءتان أخريان بالهمز مع سكون الفاء ، وبالهمز مع ضم الفاء كُفُّوا ، وكُفُّوا - وأما مع الواو فإنها مضمومة ، ونسمع كثيرًا من القراء يقرؤونها بالسكون مع الواو ، وهذا لحن ، فأنت إذا قرأتها بالواو ضُمَّ الفاء (٦) .

هذه السورة أقسم النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن ، وقال لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ » فشق عليهم ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَكِدْ

(١) انظر الترمذي في التفسير (٣٣٦٥) ، والسيوطي في الدر المنثور (٦٦٩/٨) ، والطبري في تفسيره (٤٤٦/٣٠) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ صَحِجَّةٌ ﴾ أي زوجة . (٣) الآية ٣٠ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٣٠ من سورة التوبة . (٥) الآية ٥٧ من سورة النحل .

(٦) قرأ حفص (كُفُّوا) بضم الفاء وفتح الواو من غيرهم ، وقرأ حمزة بإسكان الفاء مع الهمز ﴿ كُفُّوا ﴾ في الوصل ، فإذا وقف أبدل الهمزة واوًا مفتوحة ﴿ كُفُّوا ﴾ إتيانًا للخط ، والقياس أن يلقي حركتها على الفاء ، وقرأ الباقون بضم الفاء مع الهمز ﴿ كُفُّوا ﴾ . (انظر التيسير في القراءات السبع ص : ١٨٣) .

وَلَمْ يُؤَلِّدْ ① وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ ② تعدل ثلث القرآن يعني : أجزأها كأجر ثلث القرآن ، لكنها لا تجزئ عن القرآن ، ولهذا لو قرأها الإنسان مثلاً ثلاث مرات بدل قراءة الفاتحة في الصلاة لا تجزئ ، لأن هناك فرقاً بين المعادلة في الأجر والمعادلة في الأجزاء ؛ قد يكون الشيء معادلاً لغيره في الأجر ولكنه لا يعادله في أجزائه ، أرايتم مثلاً إذا قال الإنسان : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل ^(١) ؛ يعني يعادل عتق أربعة رقاب ، لكن لو كان عليه عتق رقبة وقال ذلك ما نفعه ذلك ، فهناك فرق بين المعادلة في الثواب والمعادلة في الأجزاء ، فهي تعدل ثلث القرآن في الثواب ولكنها لا تعدل في الأجزاء ، ولهذا لو قرأها الإنسان ثلاث مرات في الصلاة لم تجزئه عن الفاتحة . والله الموفق .

* * *

١٠١٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : « إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ » ^(٢) رواه مسلم .

١٠١٣ - وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أحب هذه السورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، قال : « إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن . ورواه البخاري في صحيحه تعليقاً .

١٠١٤ - وعن عُقْبَةَ بْنِ غَاوِمٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرْ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ؟ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْكَاسِ ﴾ » ^(٤) رواه مسلم .

١٠١٥ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ ، وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ ، حَتَّى نَزَلَتْ الْمُعَوَّذَاتِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ ، أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا ^(٥) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٠١٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مِنَ الْقُرْآنِ سُورَةُ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ ، وَهِيَ : ﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ » ^(٦) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

١٠١٧ - وعن أبي مسعود البصري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفَّاتِهِ » ^(٧) متفق عليه . قيل : كَفَّاتُهُ الْمَكْرُوءَةُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَقِيلَ : كَفَّاتُهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ .

(١) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٣) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٦١) . (٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠١) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٦٤) ، والإمام أحمد في مسنده (١٥١/٤) بنحوه ، قوله « لم ير مثلهن قط » أي لم يبصر مثلهن فيما يعوذ به . (٥) أخرجه الترمذي في الطب (٢٠٥٨) .

(٦) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٠٠) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٣) ، قوله تعالى : ﴿ تَبَرَّكَ ﴾ أي تعالى وتعظيم .

(٧) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٦) ، والبيهقي في السنن (٢٠/٣ ، ٢١) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الحث على قراءة سور وآيات معينة من سور القرآن ما سبق في سورة الفاتحة وسورة الإخلاص ، وقد تقدم الكلام عليهما ، ومن ذلك المعوذتان : فإن المعوذتين - وهما ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ما تعوذ بهما متعوذ عن إيمان وصدق إلا أعاده الله ﷻ .

أما سورة « الفلق » فيقول الله ﷻ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ [الفلق: ١، ٢] يعني : قل أيها الإنسان مستعيناً بربك : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، الفلق : فلق الصباح ، وفلق الحب والنوى ، قال الله تعالى ﴿ قَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ ^(١) [الأنعام: ٩٦] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَى ﴾ ^(٢) [الأنعام: ٩٥] فهو ﷻ رب الفلق ، لا يستطيع أحد أن يفلق شيئاً من هذه التي ذكرها الله إلا الله ﷻ ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي : كل ما خلق ، ومنهم نفسه ، كما جاء في الحديث الصحيح : «نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » ^(٣) والنفس أمارة بالسوء فنستعيز بالله من شر ما خلق أي : من شر كل ما خلق من الإنس والجن والنفس وغير ذلك ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الغاسق : الليل ؛ لأن الليل تخرج فيه الهوام وتخرج فيه السباع ، وتكون فيه الشرور ، فتستعين بالله من شر الليل إذا وقب أي : إذا دخل ﴿ وَمِنْ شَرِّ الْتَقَشَّتْ فِي الْفَقْدِ ﴾ يعني الساحرات اللاتي ينقشن في العقد ليسحرن الناس ، ونص على النساء وإن كان السحر يكون في النساء وفي الرجال ؛ لأنه هو الغالب فيهن ، ويجوز أن يكون من ﴿ الْتَقَشَّتْ ﴾ أي : النفوس النفاثات فتشمل النساء والرجال ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ هذه العين ، صاحب العين - والعياذ بالله - الشرير الذي لا يحب الخير للغير تجده إذا من الله على أحد بشيء من مال أو جاه أو علم أو ولد أو زوجة أو غير ذلك ، يخرج من نفسه الخبيثة كما يخرج السهم فيصيب الرجل ، وهذا السهم لا ينفعه شيئاً ، لكن نفسه خبيثة - والعياذ بالله - لا تحب الخير للغير ، فيصاب الإنسان بالعين ، قال النبي ﷺ : « لو سبق القضاء شيء - أو قال القدر - لسبقته العين » ^(٤) فالعين تترك وهي حق حتى قال بعض العلماء : إنها المراد من قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٥٤] .

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ ﴾ ثم قال : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ لأن الحاسد قد لا يحسد ، لكن إذا حسد - والعياذ بالله - تعدى شره غيره يعني تعدى إلى غيره ، ويجوز أن يكون المراد بالآية : الحاسد العائن وغير العائن ؛ لأن بعض الناس حسود - والعياذ بالله - .

والحسد : هو كراهة ما أنعم الله به على غيرك - وإن كنت لا تتمنى زواله ، فإن تمنيت زواله صار

(١) قوله تعالى : ﴿ قَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ أي شاق ظلمة الصباح عن ياض النهار فيذهب الليل بسواده ويجيء النهار بضياؤه .

(٢) قوله تعالى : ﴿ قَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَى ﴾ أي يشق الحبة اليابسة فيخرج منها النبات ويشق النواة اليابسة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٢/١) .

(٤) الحديث بنصه في مسلم في السلام (٤٢) ، والترمذي في السنن (٢٠٥٩) وابن ماجه في السنن (٣٥١٠) ، وأحمد في مسنده (٤٣٨/٦) ، جميعهم بلفظ : « لو كان شيء سابق القدر » .

أشدُّ - والعياذ بالله - والحاسدون - والعياذ بالله نسأل الله العافية - لا يُحرقون إلا أنفسهم ، الحاسد يحترق ؛ كلما أنعم الله على عباده نعمة احترق قلبه ، فهذا الحاسد - والعياذ بالله - أحياناً إذا حسد بغى على الغير واعتدى عليهم ؛ مثلاً افترض أن إنساناً من الله عليه بمالٍ وصار ينفقه في سبيل الله ، ووجده رجل حسود - والعياذ بالله - قلبه يحترق ، أيضاً إذا من الله على إنسان بعلم وصار له قبول عند الناس صار - والعياذ بالله - يحسد . وهلم جراً ، والحسد - والعياذ بالله - من كبائر الذنوب ، وقد ذمَّ الله اليهود عليه فقال : ﴿ أَمْرٌ يُحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ^(١) [النساء : ٥٤] فالفضل من الله يؤتاه من يشاء ، وأنت إذا حسدت جنيت على من أعطاهم الله الفضل ، وجنيت واعتديت على حق الله ، كأنك تقول : ما استحق هذا الرجل هذه النعمة فتحسد ، هذه سورة الفلق .

والمهم : أن الإنسان ينبغي أن يتعوذ بهاتين السورتين ، وذكر الترمذي رحمته الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الجانِّ ومن عين الإنسان حتى نزلت ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ فصار يتعوذ بهما وترك ما سواهما . والله الموفق .

* * *

١٠١٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ » ^(٢) رواه مسلم .

١٠١٩ - وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « يَا أَبَا الْمُثَنَّى أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ قُلْتُ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ، فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ : « لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُثَنَّى » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل آيات أو سور من القرآن الكريم منها : سورة البقرة .

نقل المؤلف رحمته الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ » قال العلماء : معنى ذلك : لا تتركوا الصلاة فيها - يعني صلوا في بيوتكم - وإنما سُمِّي البيوت في حال عدم الصلاة فيها مقابر ؛ لأن المقبرة لا تصح الصلاة فيها كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَامَ » ^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا تَصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا » ^(٥)

(١) قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُثَنَّى ﴾ أي يصرعونك بأبصارهم من شدة نظرهم إليك شزراً يبيتون العداوة والبغضاء .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢١٢) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٧) ، والإمام أحمد في المسند (٢٨٤/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٨) ، قوله « لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ » أي ليكن العلم هنيئاً لك .
(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٣١٧) وابن ماجه في المساجد (٧٤٥) وأحمد في مسنده (٢٨٣/٣) ، والحاكم في المستدرک (٢٥١/١) .

(٥) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٨) والنسائي في السنن (٦٧/٢) ، وأحمد في مسنده (١٣٥/٤) .

فالمقبرة لا تصح فيها صلاة النافلة ولا الفريضة ، ولا سجدة التلاوة ولا سجدة الشكر ، ولا أي شيء من الصلوات ؛ إلا صلاة واحدة وهي صلاة الجنائزة إذا صَلَّيَ على الجنائزة في المقبرة فلا بأس ، سواء كان ذلك قبل الدفن أم بعده ، لكن بعد الدفن لا يُصَلَّى عليها في أوقات النهي : يعني : مثلاً لو جئت لحضور جنازة بعد صلاة العصر ووجدت أنهم قد دفنوها فلا تصلُّ عليها ، لأنه يمكنك أن تصلي في وقت آخر غير وقت النهي كالضحى مثلاً ، وأما إذا جئت وهم لم يدفنوها ، لكن قد وضعت في الأرض للدفن ، فلا بأس أن تصلي عليها ولو كان ذلك بعد العصر ، في هذه الحال تكون صلاة لها سبب ، والصلاة التي لها سبب ليس عنها وقت نهى .

ثم أخبر ﷺ أن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة ، يعني إذا قرأت في بيتك سورة البقرة فإن الشيطان يفر منها ولا يقرب البيت ، والسبب أن في سورة البقرة « آية الكرسي » ويدل لهذا الحديث الذي ذكره المؤلف بعد وهو حديث أبي بن كعب ؓ أن النبي ﷺ سأله : أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال : آية الكرسي فضرب النبي ﷺ على صدره ، وقال « لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ » يعني هتأه حيث علم أن أعظم آية في كتاب الله « آية الكرسي » لأن هذه الآية مشتملة على عشر صفات من صفات الله ﷻ يقول ﷻ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْقَيُّومُ ﴾ ففي هذا إخلاص التوحيد لله ﷻ ومعنى ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : لا معبود حق إلا هو - جل وعلا - فجميع المعبودات من دون الله معبودة بغير حق - حتى ولو سُميت آلهة - فإنما هي أسماء سئوها ما أنزل الله بها من سلطان ﴿ أَلَمْ يَلْقَ الْيَوْمَ الْكَمَالَ فِي حَيَاتِهِ ﴾ يعني : الكامل في حياته وفي قِيُومِيَّتِهِ ، فهو الحي الكامل في حياته لم يسبق حياته عدم ولا يلحقها فناء ، لأنه الأول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، قال الله ﷻ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ^(١) [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] قال بعض السلف : ينبغي لمن قرأ هذه الآية ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ألا يقف بل يقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ لأجل أن يتبين في ذلك نقص المخلوقات وكمال الخالق - جل وعلا - فهو ﷻ الحي الكامل في حياته ، كذلك حياته لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه ، وحياة غيره كلها نقص انظر حياتك أنت : إن جئت بالسمع فسمعك ناقص ، لا تسمع كل شيء ، البصر كذلك ، الصحة كذلك ، وما أكثر الأمراض التي تصيب الناس وهكذا بقية أسباب الحياة ناقصة أما الرب ﷻ فهو كامل الحياة ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ معناها القائم بنفسه القائم على غيره ، يعني معنى القائم بنفسه لا يحتاج لغيره ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] فهو غني ، وفي الحديث القدسي أنه قال جل وعلا : « يا عبادي إنكم لن تبغوا ضري فتضروني ، ولن تبغوا نفعي فتنفعوني » ^(٢) فهو قائم بنفسه لا يحتاج لأحد ، قائم على غيره : كل ما سواه فإن القائم عليه هو الله ﷻ قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ^(٣) [الرعد : ٣٣] يعني : كمن لا يملك

(١) قوله ﷻ : ﴿ فَانٍ ﴾ أي هالك ، وقوله ﷻ : ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ أي صاحب العظمة والاستغناء المطلق .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

(٣) قوله ﷻ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ أي أقم هورقيب على كل نفس حفيظ عليها . عالم بما علمت من خير أو شر فمجازيها به .

شيئاً والقائم على كل نفس بما كسبت هو الله ﷻ ؛ إِذَا ﴿ الْقِيَوْمُ ﴾ له معنيان : القائم بنفسه ، والقائم على غيره . ﴿ لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ السُّنَّةُ هي : النعاس والنعاس هو مقدمة النوم ، والنوم معروف ، فالله ﷻ لا تأخذه سنة ولا نوم ، والإنسان تأخذه السنة ويأخذه النوم اختار أم لم يختار ، أحياناً ينام الإنسان وهو يصلي ، ينعس وهو يكلم الناس ، لكن الله ﷻ لا تأخذه سنة ولا نوم لكمال حياته وكمال قيوميته ، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام » ^(١) يعني مستحيل غاية الاستحالة أن ينام ﷻ لأنه كامل الحياة كامل القيومية ، مَنْ يقوم على الخلق لو نام الخالق ! لا أحد فهو جلٌ وعلا لا تأخذه سنة ولا نوم . والله أعلم .

* * *

١٠٢٠ - وعن أبي هريرة ؓ قال : وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةٍ رَمَضَانَ ، فَأَتَانِي آتٍ ، فَجَعَلَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : إِنِّي مُخْتَانَجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ ، وَبِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَخَلَيْتُ عَنْهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ . مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأ حَاجَةً وَعِيَالًا ، فَرَجَعْتُهُ ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ . فَقَالَ : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ » فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَصَدْتُهُ ، فَجَاءَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَقُلْتُ : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : دَعْنِي فَإِنِّي مُخْتَانَجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ ، فَرَجَعْتُهُ فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأ حَاجَةً وَعِيَالًا فَرَجَعْتُهُ ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، فَقَالَ : « إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ » فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ . فَجَاءَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ ، فَقُلْتُ : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ ، ثُمَّ تَعُودُ ! فَقَالَ : دَعْنِي فَإِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا ، قُلْتُ : مَا هُنَّ ؟ قَالَ : إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَأَقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ : « مَا هِيَ ؟ » قلت : قَالَ لِي : إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَأَقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وقال لِي : لَا يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ ، وَلَنْ يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تَخَاطَبُ مِنْذُ ثَلَاثِ يَ أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ » قلت : لا ، قَالَ : « ذَلِكَ شَيْطَانٌ » ^(٢) رواه البخاري .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤) ، وابن ماجه في السنن (١٩٥) ، وأحمد في مسنده (٤٠١/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣١١) ، والبيهقي في دلائل النبوة (١٣٠ ، ١٣١) ، قوله « فرصدته » أي راقبته ، قوله « يحنو » أي يأخذ بكفيه ، قوله « فخليت سبيله » أي تركه يذهب لحاله .

الشرح

هذه القصة قصة عجيبة عظيمة ، وذلك لأن النبي ﷺ وكل أبا هريرة ؓ على صدقة رمضان - يعني الفطر - يحفظها ، وكانوا يجمعونها قبل العيد يوم أو يومين ، وكان أبوهريرة وكيلاً عليها ، وفي ليلة من الليالي جاء رجل يحثو من الطعام ، فأمسكه أبو هريرة وقال : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فخاف وقال : إنني ذو عيال ، وذو حاجة ، فرحمه وأطلقه ، فلما أصبح وجاء إلى رسول الله ﷺ قال له ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » وهذه من آيات الله ، لأن النبي ﷺ لم يكن عنده ولكنه علم بذلك عن طريق الوحي ، قال : « ما فعل أسيرك البارحة ، » قلت : يا رسول الله إنه قال : إنه ذو حاجة وذو عيال فرحمته وأطلقته ، فقال النبي ﷺ : « كَذَبَكَ - يعني كذب عليك - وسيعود » يقول : فعلت أنه سيعود لقول النبي ﷺ إنه سيعود - وكان الصحابة ؓ يؤمنون بما أخبر به النبي ﷺ كما يؤمنون بما يشاهدونه بأعينهم أو أكثر - يقول : فرصدته ، فجاء ، فجعل يحثو من الطعام ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فاشتكى شكايته الأولى أنه محتاج وذو عيال فرحمه ﷺ ، وإنما رحمه مع أن الرسول ﷺ قال : « كَذَبَكَ » ؛ لأن أبا هريرة يعلم جلم النبي ﷺ وسعة صدره ، وأنه لن يُؤَنَّبَهُ وفعلاً لم يُؤَنَّبَهُ ، فلما أصبح وجاء إلى النبي ﷺ وأخبره ، قال : إنه كذبك وسيعود ، في المرة الثالثة جعل يترقبه ، وجاء يأكل من الطعام ، فقلت : لأرفعن أمرك إلى النبي ﷺ في هذه المرة ، لأنك قلت : لن تعود ثلاث مرات وعدت ، فقال : دعني وإني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، قال : وما هن ، قال : آية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إذا أويت إلى فراشك للنوم فاقرأها ، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، فلا يقربك شيطان حتى تصبح ، فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ وقال له الخبر ، فقال : « إنه صدقك وهو كذوب » - يعني ، هذه المرة ما قاله لك صادق فيه وهو كذوب - أتدري من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ؟! قلت : يا رسول الله لا أعلم . قال : « ذاك شيطان مُتَّبَسِّس في صورة آدمي . »

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة ، ولكننا نعود لشرح آية الكرسي ؛ حيث وقفنا عند قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ والسنة : النعاس ، والنوم معروف ﴿ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ هذه جملة تفيد عموم ملك الله ﷻ وأنه منفرد بالملك ﷻ ﴿ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ والدليل على عموم ملكه أن (ما) في قوله : ﴿ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ اسم موصول - يعني له الذي - واسم الموصول يفيد العموم ، والدليل على انفراده بالملك : أنه قُدِّمَ فيها الخبر ﴿ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ، وتقديم الخبر يدل على الحصر ، فلا أحد يملك شيئاً في السموات ، ولا في الأرض إلا الله ، وما يملكه الإنسان من ثياب وعقارات ونحو ذلك مُلْكٌ مُقَبَّد ، لا يستطيع أن يتصرف فيه كيف يشاء لو أراد إنسان أن يحرق ثوبه مُنْع ، إذا فملكه الذي هو ملكي لست حرّاً في تصرفي فيه إلا على حسب الشرع ، ولهذا لا يجوز لنا أن نُرَائي في أموالنا ، مع أنه ربما يكون الذي أعطى الربا موافقاً راضياً ، لكن لا يجوز ، لأننا لسنا أحراراً في أملاكنا لا نملكها إلا ملكاً مقيداً ، الملك التام المطلق الذي يفعل فيه المالك ما يشاء

هو ملك الله ﷻ ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿مَنْ﴾ : اسم استفهام بمعنى النفي يعني : لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله ، والشفاعة معروفة وهي : التوسط للغير لجلب منفعة أو لدفع مضرة ، ومن المعلوم أن ملوك الدنيا مهما عظم ملكهم فإن الإنسان يشفع عندهم بدون أي استئذان ، حتى إن الملوك الكبار تشفع عنده زوجته ولا تستأذن منه ، لكن الله ﷻ لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، فأكرم عباده عنده لا يشفع إلا بإذن الله ، وهذا دليل على كمال سلطانه ﷻ وأنه من كمال سلطانه لا أحد يستطيع أن يتكلم عنده ولا بالشفاعة التي هي خير إلا بإذنه ، من أكرم الخلق من بني آدم عند الله ؟ .

إنه « محمد ﷺ » ويوم القيامة لا يمكن أن يشفع إلا بعد أن يستأذن من الله ثم يسجد سجوداً طويلاً يفتح الله عليه من المحامد ما لم يفتحها عليه من قبل ثم يشفع ، ومن دونه من باب أولى ، لا أحد يشفع إلا بإذن الله لماذا ؟
لكمال ملكه وسلطانه ﷻ .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم الله ﷻ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ كل الأمور المستقبلية ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ كل الأمور الماضية ، وهذا دليل على كمال علمه ﷻ وأنه محيط بكل شيء : ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

فما بين يديك : ما تستقبله ولو بلحظة ، وما خلفك : ما خلفته ولو بلحظة ، فمثلاً : لأن كلامنا اليوم بعد صلاة العصر من بين أيدينا أم من خلفنا ؟ من خلفنا ، كلماتي الآن أنا أقول الآن وما بعد الآن مستقبل ، والآن حاضر فالله ﷻ يعلم كل ما يكون بين أيدينا الحاضر والمستقبل وما خلفنا .

وهذا يدل على كمال علمه - جلّ وعلا - لأن علم غيره ناقص .

أولاً : نجهل كثيراً من الأمور ثم يتجدد لنا العلم .

ثانياً : إذا علمنا شيئاً فهناك آفة لعلمنا وهي النسيان ، أما علم الله ﷻ فليس فيه نسيان ولا جهل سابق ، كما قال موسى عليه السلام لما قال له فرعون : ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ^(١) [طه : ٥١ ، ٥٢] .

﴿لَا يَضِلُّ﴾ : يعني لا يجهل ، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ : ما مضى فعلمنا نحن محفوف بآفتين : آفة سابقة وهي الجهل ، وآفة لاحقة وهي النسيان ، وعلم الله ﷻ خالٍ من ذلك كله ^(٢) .

(١) قوله : ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي ما حال الأمم الخالية التي عبدت غير ما تدعو لعبادته .

(٢) بعد هذا الكلام قام الشارح رحمه الله بذكر الحديث (١٠١٩ ، ١٠٢٠) مرة أخرى بنفس المعنى ، وقد أثّرنا أن نتابع الشرح بما لا يخل أو يوضح أن هناك تكراراً ، وحتى تكون الفائدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ يعني : أن الخلق لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والعلم هنا بمعنى المعلوم يعني : أننا لا نحيط بشيء مما يعلمه الله إلا بما شاء الله ﷻ وهذا كقوله : ﴿ عَنَّا الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ ۝ ﴾ .

كذلك أيضًا لا نحيط بشيء من علمه - أي من علم ذاته وصفاته - إلا بما شاء . فلا نعلم ما يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته إلا بما شاء .

ولهذا قال العلماء رحمهم الله : إن الأسماء والصفات توقيفية ، بمعنى أنه يتوقف إثباتها أو نفيها على ما جاء به الشرع ؛ لأننا لا نعلم من صفات ربنا إلا ما علمنا ولا من أسمائه إلا ما علمنا ولا من ذاته إلا ما علمنا ﷻ .

وفي هذه الجملة دليل على افتقار الإنسان إلى علم الله ﷻ وأنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله تعالى أن يعلمه ما لم يكن يعلم مما فيه مصلحة دينه ودنياه : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ ۝ ﴾ .

الكرسي : قال ابن عباس ؓ : هو موضع قدمي الله ﷻ وهو دون العرش ، والعرش أعظم منه ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة » .

العرش أعظم بكثير من الكرسي ، وخالق العرش - جل وعلا - أعظم وأعظم - سبحانه وتعالى - فإذا كان هذا شأن الكرسي أنه واسع ومحيط بالسماوات والأرض ، فالعرش أعظم ، والرب أعظم من كل شيء .

﴿ وَلَا يَتَوَدَّرُ حِفْظُهُمَا ﴾ يعني : لا يتقل ويعجز الله ﷻ أن يحفظ السماوات والأرض على ما فيهما من الخلائق وعلى كبرهما واتساعهما وعلى علوه ﷻ فوق كل شيء ، فهو لا يغيب عنه شيء ، لا يتقله أن يحفظ السماوات والأرض ، ولا يتقله أن يحفظ ما في السماوات والأرض ﴿ لَمْ تُمَفِّقْتِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ﴿ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فالله ﷻ مع علوه فوق كل شيء ﴿ وَلَا يَتَوَدَّرُ ﴾ أي : لا يتقله أن يحفظ السماوات والأرض .

﴿ وَهُوَ أَعْلَى الْعَظِيمِ ﴾ وهو العلي - جل وعلا - فوق كل شيء ، وهو العظيم على كل شيء . قال بعض أهل العلم والعلو نوعان : علو ذاته وعلو صفاته ، فصفاته فوق كل شيء ، والعظيم يعني ذو العظمة والعزة والكبرياء والجلال .

وبهذه المعاني القليلة بالنسبة لهذه الآية العظيمة يتبين أنها أعظم آية في كتاب الله . والله الموفق .

[ونعود بعد ذلك إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه مع أسيره] فإذا الوحي قد جاء النبي ﷺ من الله ﻋﻠﻴﻪ في هذه القصة ، فقال له أي لأبي هريرة : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » يعني : الذي أمسكته فقال : يا رسول الله إنه ادعى أنه ذو حاجة وذو عيال فرحمته وأطلقته ، قال : « أما إنه كذبتك وسيعود » يقول : فعلت أن هذا الشخص سيعود لقول النبي ﷺ فرصده يعني ترصد له في الليلة الثانية فجاءه وفعل كالليلة الأولى واعتذر بما اعتذر به في الليلة الأولى ، فرحمه أبو هريرة وأطلقه ، ثم أخبر النبي ﷺ فقال : « إنه كذبتك وسيعود » ، فعاد في المرة الثالثة ، ولكن أبا هريرة أمسكه وقال : لا بد أن أرفعك إلى النبي ﷺ فقال : إني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، قلت : وما هن ؟ قال : آية الكرسي ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه صدقك وهو كذوب » أي : أخبرك بالصدق مع أنه كذوب غرور كذب على آينا آدم ، وقال له وهو في الجنة - ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمُلْكٍ لَا يَبَلُغُ ﴾ ^(١) [طه : ١٢٠] الشجرة هذه شجرة قال الله لآدم وحواء : ﴿ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ يَشْتَأْنِ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [الأعراف : ١٩] فجاء الشيطان إلى آدم وحواء وغرهما وأقسم لهما أنه ناصح ، وهو كاذب غاش ، فهو كذوب .

وأقره ﷺ أن من قرأ هذه الآية (آية الكرسي) لم يزل عليه حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح .
هذه القصة فيها فوائد :

- ١ - أنه لا بأس أن يخرج الناس صدقات الفطر إلى ولي الأمر - السلطان أو نائبه - فلو شككت لجنة تجمع زكاة الفطر من الناس ؛ فإن الإنسان إذا دفع المال إلى هذه اللجنة برئت ذمته .
- ٢ - جواز تصرف الوكيل فيما وكل فيه إذا وافق على ذلك الموكل ؛ لأن أبا هريرة تصرف هذا التصرف وأعطى هذا الرجل أو الشخص - أقول الرجل أو الشخص - لأن الجن يسمون رجالاً قال تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ كَانَ يَجَالُ مِنْ الْإِنْسِ يُوَدُّونَ يِرَّالِي مِنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ^(٢) [الجن : ٦] .
- ٣ - أن الشيطان قد يتمثل بصورة الإنسان ، ويتمثل بصورة الكلاب ، حتى قال بعض العلماء في قول الرسول ﷺ : « الكلب الأسود شيطان » ^(٣) أي : أن الشياطين تتمثل فتكون كلاباً سوداء . ولكن الصحيح أن معنى الحديث : أن الكلب الأسود شيطان - يعني هو شيطان الكلاب - وأخبثها وأشدّها ضرراً وتمرّداً وتمثل الشياطين بالحيوانات في القط . وتمثل أيضاً بالحية كما في الحديث الصحيح : أن رجلاً من الأنصار شاباً تزوج حديثاً فلما جاء إلى بيته وجد زوجته على الباب فسألها لماذا !؟ قالت : ادخل ، فلما دخل وجد على الفراش حية ، فأخذ الرمح فوخزها فماتت ، ولما ماتت

(١) قوله تعالى : ﴿ لَا يَبَلُغُ ﴾ أي لا يزول ولا يضيئ .
(٢) قوله تعالى : ﴿ يُوَدُّونَ ﴾ أي يستعينون برجال من الجن حين يتزلون في أسفارهم بمكان موحش فيقول قائلهم : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فيبيت في جواره حتى يصبح ، وأول من فعل ذلك قوم من أهل اليمن ثم بنو حنيفة .
(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٦٥) ، والترمذي في السنن (٣٣٨) ، وأحمد في مسنده (١٥١/٥) .

مات هو في الحال ^(١) . فلا يدري أيهما أسرع موتاً : الحية أم هذا الرجل ؟ ! لأن الحية هذه صارت جنية ، فلما قتلها قتله أهلها في الحال ! .

ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتل الحيات التي في البيوت ^(٢) ، فلا يجوز للإنسان أن يقتل الحية إذا رآها في بيته ، ولكن خرّج عليها ثلاثة أيام : قل لها : أنت مني في حرج ، لا تقعي في بيتي إذا جاءت بعد الثالثة اقلها ^(٣) ؛ لأنها إن كانت جنية فهي إذا خرّجت لا تأتي ، وإن كانت غير ذلك فإنها لا تدري فتأتي بعد الثالثة وحينئذ تقتل ، إلا أن الرسول ﷺ استثنى نوعين من هذه الدواب تقتل ولو في البيوت وهما : الأبر وذو الطفتين ^(٤) ، والأبر قصير الذنب وهو نوع من الحيات ، فهو يقتل ولو في البيت . وذو الطفتين : يقول العلماء : إنهما خطّان أبيضان على ظهر الحية ، هذه تقتل ولو في البيوت ؛ لأنهما كما قال النبي ﷺ : يخطفان البصر من شدة قبحهما ، ويدفعان ما في بطون النساء من حمل ؛ فلهذا أمر النبي ﷺ بقتل هذين النوعين ولو في البيوت ، والشاهد من هذا أن الشيطان والجن يتصوران بصور غير صورها الأصلية .

٤ - أنه يجوز تقديم زكاة الفطر قبل العيد ولو بأكثر من يومين إذا كانت تدفع إلى ولي الأمر ، وولي الأمر يجب عليه ألا يخرجها إلا في وقتها .

٥ - آية من آيات الرسول ﷺ وهو علمه بما جرى مع أنه لم يطلع - لكن جاءه الوحي من الله ﷻ .

٦ - ينبغي للإنسان كلما جاء إلى فراشه للنوم أن يقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها ، وليس منها قوله تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] هذه آية خارجة عنها ، آخر آية الكرسي : ﴿ وَهُوَ الْمَلِكُ الْقَدِيمُ ﴾ فقرأها كلما أويت إلى فراشك حتى لا يقربك الشيطان ولم يزل عليه من الله حافظ ، وحدثني جدّ هذا الرجل الذي يتولّى الأذان معنا الآن أنه كان يقرأها كل ليلة وأنه نسيها ليلة من الليالي فلدغته عقرب ، لأن الرسول ﷺ قال : « لم يزل عليه من الله حافظ » وهو نسي أن يقرأها فلم يوجد الحافظ ، فإذا حرص على قراءتها كل ليلة وخصوصاً إذا أويت إلى فراشك .

(١) انظر الحديث وقصته في : مسلم في السلام (١٣٩) ، ومالك في الموطأ (٩٧٦/٢) ، والبخاري في شرح السنة (١٩٤/١٢) .

(٢) حديث النهي عن قتل الحيات : أخرجه الترمذي في الصيد (١٥) ، أحمد في مسنده (٤٣٠/٣) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/٥) .

(٣) انظر في ذلك : الترمذي في الأحكام (١٤٨٥) ، والبخاري في شرح السنة (١٩٤/١٢) ، وأبو داود في الأدب (٥٢٦٠) .

(٤) انظر الحديث في : البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٧) ، ومسلم في السلام (١٢٧) ، وأحمد في مسنده (١٢١/٢) .

٧ - قبول الحق - ولو جاء من أي إنسان - حتى ولو كان شيطاناً ، أو مشركاً ، حتى لو كان يهودياً أو نصرانياً ، فإن الله قبل الحق من المشركين ، والنبي ﷺ قبل الحق من اليهودي ، وأقر الحق من الشيطان كما في هذا الحديث ، أما قبول الله من المشركين : ﴿ وَإِذَا قَالُوا فَتَحْنَا قُلُوبَنَا وَبَدَّلْنَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ (١) [الأعراف: ٢٨] فتعللوا بعلتين : أنهما وجدوا عليها أباءهم والثانية : أن الله أمرهم بها فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨] وسكت عن قولهم : ﴿ وَبَدَّلْنَا آيَاتِنَا ﴾ ، لأنه حق صحيح .

وأما قبول النبي ﷺ من اليهودي : فإنه جاءه خبر من أحبار اليهود قال : إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأراضين على إصبع والشجر على إصبع ، وذكر تمام الحديث ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول هذا اليهودي الخبر ، ثم قرأ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) [الزمر: ٦٧] وأقر الحق الذي قال به الشيطان كما في هذا الحديث ، فعليك أن تقبل الحق من أي إنسان ، وأن ترد الباطل من أي إنسان ، ولهذا كان من الكلمات الماثورة عند العلماء : الرجال يعرفون بالحق ، والحق لا يعرف بالرجال . يعني : لا تجعل مدار قبولك الحق على الرجل ، وصحيح أن العالم أقرب إلى الصواب ولكن قد يخطئ وقد يصيب . والله الموفق .

* * *

١٠٢١ - وعن أبي الدرداء ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ ، عُصِمَ مِنَ الدُّجَالِ » . وفي رواية : « مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْكَهْفِ » (٣) رواهما مسلم .

١٠٢٢ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ قَالَ : يَنْتَهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَاعِدَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ قَوِّهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحِ الْيَوْمَ ، وَلَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ ، فَتَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ : هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ ، فَسَلَّمَ وَقَالَ : « أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا ، لَمْ يُؤْتِهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةِ الْكِتَابِ ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِخُرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيَتْ » (٤) رواه مسلم .

(١) قوله ﷺ : ﴿ فَتَحْنَا قُلُوبَنَا ﴾ أي فعلة متناهية في القبح كالشرك وغيره .
(٢) قوله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموا الله تعالى حق تعظيمه ، وقوله ﷺ : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ بيان لعظيم قدرته تعالى وأنه المتولي لإبقاء السماوات والأرض في الدنيا وهو المتولي لتخريبها يوم القيامة .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٥٤٧١) ، ومسلم في المناقير (١٩) .
(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٧) .
(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٤) ، قوله « نَقِيضًا » أي صوتاً كصوت الباب إذا فتح .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في سياق الأحاديث في باب الحث على آيات وسور معينة من كتاب الله ما يتعلق بسورة الكهف ، وما يتعلق بفاتحة الكتاب ، وآخر سورة البقرة .

أما الأول : فإن النبي ﷺ أخبر أنه من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف أو من آخرها عُصِمَ من الدُّجَالِ ، والدجال رجل كافر يُبعث في آخر الزمان يدَّعي النبوة أولاً ثم يدعي أنه إله - والعياذ بالله - وفتنته أعظم فتنة تكون على الأرض منذ خلق آدم إلى قيام الساعة ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ ، وقال : « إن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإلا فالله خليفتي على كل مسلم » ^(١) وقد حذَّر النبي ﷺ من فتنته ، وما من نبي من الأنبياء إلا أنذر قومه حتى يستعدَّ بنو آدم لهذه الفتنة العظيمة ، وإن كان من المعلوم أنه لا يأتي إلا في آخر الزمان ، لكن لأجل التنبيه لعظم فتنته وأنها كبيرة عظيمة ، لا ينجو منها إلا من أنجاه الله ﷻ .

فهذا الدُّجَالُ يجعل الله على يديه آيات خوارق فتنة للناس : منها أنه يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت ، فيأتي إلى القوم ليس في أرضهم رعي ومواشيهم ضعاف عجاف فيدعوهم ، ويمنيهم ، فيتبعونه ، فيأمر السماء فتمطر ، ويأمر الأرض فتنبت ، ثم تروح عليهم مواشيهم وهي أغزر ما تكون لبناً وأوفر ما تكون لحماً ، ثم يأتي إلى آخرين فيدعوهم ، ولكنهم ينكروونه فيصبحون مقفرين ليس في أرضهم نبات ، هل تجدون أعظم من هذه الفتنة ؟! لا سيما في البادية ، فيتبعه أناس كثيرون فمن تبعه أدخله جنته ، ومن أنكره أدخله ناره ^(٢) ، وهي جنة فيما يبدو للناس لكنها نار - والعياذ بالله - وناره نار فيما يبدو للناس لكنها جنة وماء عذب ، ولكن الناس ليس لهم إلا الظاهر ، إلا أن الله سبحانه وتعالى بيَّن لنا آياته : أنه كاذب بما أخبرنا به ﷺ من أن هذا الرجل مكتوب بين عينيه كافر يقرأها كل مؤمن ^(٣) - حتى الذي لا يستطيع القراءة - ويعمى عنه كل منافق ، كما أن الإنسان في القبر - إذا كان مؤمناً - أجاب بالصواب وقال : ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ، وإذا كان منافقاً - ولو كان قارئاً - لم يجب ^(٤) - والعياذ بالله - وأعطانا نبينا ﷺ آية أيضاً بيَّنة وهي أنه أعور ليس له إلا عين واحدة وربنا - جل وعلا - ليس بأعور ، منزه عن كل عيب ونقص ، فمن وُفِّقَ سَلِمَ من فتنته ونجا ، يبقى هذا الدجال الحبيث في الأرض أربعين يوماً أول يوم كسنة - يعني اثني عشر شهراً - واليوم الثاني كشهر - ثلاثون يوماً - والثالث كالأسبوع - سبعة أيام - وبقيّة الأيام كأيامنا ، يبقى

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) ، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢١) ، وأحمد في مسنده (١٨١/٤) .

(٢) انظر فتنة الدجال وأخباره في : البخاري في الأنبياء (٣٤٥٠) ، والفتن (٧١٢٢ - ٧١٣٢) ، ومسلم في الفتن (١٠٥ - ١٠٨) ، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢١) ، وأحمد في مسنده (١١٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٧) .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الفتن (٩٥) ، وأحمد في مسنده (٤٣٣/٥) .

(٤) انظر البخاري في الجنائز (١٣٧٤) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٠) .

هذه المدة ثم ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقتل هذا الدجال ^(١) ، المسيح الصادق النبي الطاهر يقتله ، يسلمه الله عز وجل عليه فيقتله ، ومن أجل عظم فتنته أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ منه في كل صلاة فقال : « إذا تشهّد أحدكم فليقل : أعوذ بالله من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » ^(٢) ، لأن فتنه عظيمة ، فينبغي لنا أن نستعيذ بالله عز وجل بقلب صادق من فتنة هذا المسيح الدجال ، ثم إنه أيضًا من أسباب الوقاية من فتنه : أن من حفظ عشر آيات من سورة الكهف من أولها أو آخرها وقرأهن عليه عُصِمَ من فتنه .

ومن السور المعينة والآيات المعينة سورة الفاتحة ، وآيتان من آخر سورة البقرة ؛ فإنهما ما قرأهما واحد من هذه الأمة مؤمنًا موقنًا إلا أتاه الله تعالى ما فيهما من الطلب ، وفي سورة الفاتحة : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] قال الله تعالى لعبده إذا قرأها في الصلاة : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل ^(٣) . وأما آخر سورة البقرة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَغْطَيْنَا رَبَّنَا وَلَا تَجْعَلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] سبع جمل دعائية ما يدعو بهن مؤمن موقنًا مؤمنًا إلا استحباب الله له ، وهذه ميزة وفضل عظيم - نسأل الله تعالى أن يعفو عنا وعنكم ، وأن ينصرنا على القوم الكافرين .

* * *

٨٤ - باب استحباب الاجتماع على القراءة

١٠٢٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَذَكَّرُونَ بَيْنَهُمْ ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَحُفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ » ^(٤) . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمته الله في : باب استحباب الاجتماع على تلاوة القرآن : يعني بذلك أنه من المستحب أن يجتمع الناس على تلاوة القرآن كما يوجد الآن في حلقات تحفيظ القرآن في المساجد ،

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٤/٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٦٩/١) ، والبيهقي في السنن (٣٧٩/٢) .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٥) .

فإن اجتماعهم لتعلم القرآن ، وتعليمه مما نَدَب إليه النبي ﷺ ، وذلك فيما رواه أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ؛ إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » هذه أربعة أشياء ترتب على هذا الاجتماع بقوله ﷺ : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، وبيوت الله في الأرض المساجد ، قال الله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُكُمْ يُسَبِّحُ لَكُمْ فِيهَا بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ ۝ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۝ ﴾ ^(١) وأضاف الله هذه الأماكن إلى نفسه تشريقاً وتعظيماً ، ولأنها محل ذكره ، وتلاوة كلامه ، والتقرب إليه بالصلاة ، وإلا فهو ﷺ فوق عرشه فوق سماواته لا يحل في شيء من خلقه ولا يحل فيه شيء من خلقه - جل وعلا - لكن هذه الإضافة للتشريف ، وقد قال العلماء - رحمهم الله - : الإضافة إلى الله نوعان : صفة لا تقوم إلا بمحل ؛ فهذه تكون من صفات الله ﷻ مثل : عزة الله ، قدرة الله ، كلام الله ، سمع الله ، بصر الله ، هذه صفة لا تقوم إلا بموصوف فتكون من صفات الله ﷻ .

الثاني : شيء بائن من الله ﷻ مخلوق ؛ فهذا ليس من صفات الله ، وإنما هو مُضَاف إليه ﷻ على سبيل التشريف والتكريم مثل : مساجد الله ، بيوت الله ، ناقة الله ، ومثل قوله تعالى في آدم : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [ص : ٢٢] ، كذلك في عيسى ابن مريم ، فإن الروح شيء بائن من الله تعالى مخلوق من مخلوقاته ، لكن أضيف إليه على سبيل التشريف والتكريم ، وقوله ﷺ : « يتلون كتاب الله » . تلاوة كتاب الله - ﷻ تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - تلاوة اللفظ . ٢ - تلاوة المعنى . ٣ - تلاوة العمل .

أما تلاوة اللفظ : فمعروف ؛ يقرأ هذا ، وهذا ، وهذا ، وهي على نوعين :

١ - أن يقرأ القارئ صفحة أو صفحتين ثم يتابع الباقيون يقرؤون نفس ما قرأ ، وهذا غالباً يكون في التعليم .

٢ - أن يقرأ القارئ صفحة ، أو صفحتين ثم يقرأ الثاني بعده صفحة أو صفحتين غير ما قرأهما الأول ، وهلم جرا .

فإن قال قائل : هذا النوع الثاني يفوت فيه ثواب بعضهم ، لأن ما قرأه هذا غير ما قرأه ذاك . فيقال : لا يفوته شيء ، لأن المستمع كالقارئ له ثوابه ، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى في سورة يونس في قصة موسى عليه السلام حين دعا على آل فرعون ﴿ رَبَّنَا أَطْرِسْ عَلَيْنَا مَوْلَانَا وَاصْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا

(١) قوله تعالى : ﴿ تُرْفَعَ ﴾ أي أمر أن يعظم قدرها بصيانتها عن دخول الجنب والحائض وعن تلويثها وإدخال نجاسات فيها . وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ أي ينزهه تعالى فيها ويقدمه عما لا يليق به في ذاته وصفاته . وقوله تعالى : ﴿ بِالْقُدُورِ ﴾ هو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَصَالِ ﴾ هو ما بين العصر وتروحة الشمس .

يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١﴾ [يونس: ٨٨] القائل هو موسى كما في أول الآية : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ مَأْتِيَتٌ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ... ﴾ [يونس: ٨٨] قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٩] الداعي واحد ، لكن قال العلماء : إن هارون كان يستمع ويؤمن على دعائه ﴿٢﴾ ، فكان الدعاء لهما جميعاً .

أما التلاوة المعنوية : فأن يتدارس هؤلاء القوم كلام الله ﷻ ويفهموا معناه ، وقد كان السلف الصالح لا يقرؤون عشر آيات حتى يفهموها وما فيها من العلم والعمل .

أما القسم الثالث من التلاوة : فهي تلاوة العمل : وهذه هي المقصود الأعظم للقرآن الكريم ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ بِإِذْنِكَ مُبَارَكٌ لِّدَعْوَتِهِمْ وَأَبْتَغَى وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ [ص: ٢٩] العمل بما جاء في القرآن وذلك بتصديق ما أخبر الله به ، والقيام بما أمر به ، والبعد عما نهى عنه ، هذه التلاوة العملية لكتاب الله ﷻ يقول ﷺ : « إلا نزلت عليهم السكينة » السكينة : شيء يقذفه الله ﷻ في القلب فيطمئن ، ويوقن ، ويستقر ، ولا يكون عنده قلق ، ولا شك ، ولا ارتياب ، هو ذاته مطمئن ، وهذه من أكبر نعم الله على العبد أن ينزل السكينة في قلبه بحيث يكون مطمئناً غير قلق ولا شاك ، راضياً بقضاء الله وقدره ، مع الله ﷻ في قضائه وقدره - إن أصابته ضراء صبر وانتظر الأجر من الله ، وإن أصابته سراء شكر وحمد الله على ذلك - مطمئن ، مستقر ، مستريح ، هذه السكينة نعمة عظيمة - نسأل الله أن ينزل في قلوبنا وقلوبكم السكينة - وقد قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤] فهي من أسباب زيادة الإيمان « وغشيتهم الرحمة » يعني : غطتهم ، والغشيان بمعنى الغطاء كما قال تعالى : ﴿ وَائِيلَ إِذَا بَقِيَ ﴾ [الليل: ١] يعني : يغطي الأرض بظلامه ، غشيتهم الرحمة أي : رحمة الله ﷻ فتغشاهم وتحيط بهم ، وتكون لهم بمنزلة الغطاء الشامل لكل ما يحتاجون إليه من رحمة الله ﷻ : « وحفتهم الملائكة » أي : أحاطت بهم يستمعون الذكر ، ويكونون شهداء عليهم ، « وذكرهم الله فيمن عنده » : يذكرهم الله تعالى في الملاء الأعلى ، وهذا كقوله تعالى في الحديث القدسي : « من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » ﴿٣﴾ وهذا الحديث يدل على فضيلة الاجتماع على كتاب الله ﷻ واللَّهُ الموفق .

﴿١﴾ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَسْأَلْكَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ يَرْكَبُوا قُلُوبَهُمْ وَلْيَسْمَعُوا أَصْوَاتَ الْكَلْبِ ﴾ [البقرة: ١٧٠] أي أهلكها أو امح أثرها . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَنْذِ ﴾ أي اربط عليها وقشها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان .

﴿٢﴾ هذا هو قول : عكرمة والريبع بن أنس وأبي العالية كما ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٨/١١) .

﴿٣﴾ قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ أي أوجد الطمأنينة والثبات ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾ أي ليزدادوا يقيناً .

﴿٤﴾ أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٤/٢) .

٨٥ - باب فضل الوضوء

قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

الشرح

قال النووي رحمه الله الوضوء : في اللغة العربية : مأخوذ من الوضأة وهي الحسن والنظافة ، وأما في الشرع : فهو تطهير الأعضاء - الأربعة على صفة مخصوصة . الأعضاء الأربعة هي : الوجه واليدين والرأس والرجلان - والوضوء من نعمة الله ﷺ على هذه الأمة حيث أمرهم به ورب عليه الثواب الذي سيذكر في هذا الباب إن شاء الله ، قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ الآية . ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فانتبه وأرعها سمعك ، فإذا خير تؤمر به ، وإما شر تنهى عنه ، وإما خبر صادق تنتفع به ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ أي : إذا أردتم القيام إلى الصلاة - فريضة أو نافلة - ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ : ولم يذكر الله تعالى غسل الكفين ؛ لأنه سنة وليس بواجب ، والوجه من الأذن إلى الأذن غرضاً ، ومن منحني الجبهة إلى أسفل اللحية طوياً ، ويدخل فيه المضمضة في الفم والاستنشاق في الأنف ، ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ يعني : واغسلوا أيديكم إلى المرافق ، والمرق هو المفصل الذي بين الذراع والعُضد ، وهو داخل في الغسل ؛ لأن النبي ﷺ كان إذا غسل يديه أشرع في العضد ^(١) ، ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ الرأس يمسح ولا يجب غسله ، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده ؛ لأن الرأس فيه شعر فلو قُرض غسله لكان فيه مشقة على الناس ولجرى الماء على الثياب ، وليلحق الناس مشقة في أيام الشتاء ، ولكن من رحمة الله أن الرأس يمسح ولا يغسل ، ومن الرأس الأذنان . يمسحان أيضاً ؛ لأن النبي ﷺ كان يمسح بأذنيه ^(٢) ، ﴿ وَارْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ يعني : واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ، والكعبان هما العظمتان النابتتان أسفل الساق ، وهما داخلتان في الغسل ، هذه أربعة أعضاء ، وهذه هي أعضاء الوضوء ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ ، وفي الآية الثانية : ﴿ فَاغْسِلُوا ﴾ يعني إذا كان الإنسان عليه جنابة وجب عليه أن يطهر جميع بدنه : من رأسه إلى أخمص قدميه ، ومنه المضمضة والاستنشاق فالمضمضة والاستنشاق واجبتان في الوضوء وكذلك الغسل .

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٤) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٠٥/١) .

والجُنُب : هو الذي حصلت عليه جنابة ، والجنابة : إما إنزال المني بشهوة وإما جماع - وإن لم يُنزل - ، فإذا جامع الإنسان زوجته وجب عليه أن يغتسل سواء أنزل أم لم يُنزل ، وإذا أنزل وجب عليه غسل سواء جامع أم لم يجمع ، حتى لو فكر وأنزل وجب عليه الغسل ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَمْ يَجِدْ مَاءً فَلَمْ يَجِدْ مَاءً فَيَتِيمُوا صَبِيحًا طَيِّبًا ﴾ : يعني أن الإنسان إذا وجب عليه الوضوء أو الغسل ولم يجد ماءً أو كان مريضاً يتضرر باستعمال الماء ؛ فإنه يتيمم : يضرب الأرض بكفيه ويمسح وجهه وكفيه ؛ ﴿ فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يعني : فيما فرض علينا ، لم يُرد أن يُحَرِّجَنَا ويلحق بنا المشقة ، بل هو أرحم بنا من أنفسنا وأولادنا وأمهاتنا ، والدليل على أنه أرحم بنا من أنفسنا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] فالذي يوصيك ألا تقتل نفسك هو أرحم بك من نفسك ، فهو لا يريد منا بهذا الفرض أن يشق علينا أو يلحقنا الحرج ، ولكن يريد ليطهركم .

هذا الذي أراده الله منا بالوضوء والغسل أن يطهر ظواهرنا بالماء وبواطننا بالتوحيد ، ولهذا يُسنُّ إذا فرغت من الوضوء أن تشهد تقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين . ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ : وذلك بهذا الوضوء الذي يحصل به تكفير السيئات ورفع الدرجات ، فإن من توضأ وأسبغ الوضوء ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين . فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ^(١) . وقوله : ﴿ تَشْكُرُونَ ﴾ : أي : لأجل أن تشكروا الله ﷻ على نعمه ؛ فالواجب على المرء أن يشكر الله على نعمه ، لأن نعم الله لا تحصى ولا سيما النعم الدينية ، لأن بها سعادة الدنيا والآخرة ، والشكر : هو القيام بطاعة الله بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، باللسان والأركان والقلوب نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر نعمته وحسن عبادته إنه على كل شيء قدير .

١٠٢٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ أُمِّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ ، فَلْيَفْعَلْ » ^(٢) متفق عليه .

١٠٢٥ - وعنه قَالَ : سَمِعْتُ خَلِيلِي رضي الله عنه يَقُولُ : « تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ » ^(٣) رواه مسلم .

(١) وذلك لما رواه : الترمذي في الطهارة (٥٥) ، والنسائي في السنن (٩٣/١) ، وأحمد في مسنده (٢٦٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٦) ، ومسلم في الطهارة (٣٥) ، والإمام أحمد في المسند (٤٠٠/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) ، وأحمد في المسند (٣٧١/٢) ، والبيهقي في السنن (٥٧/١) ، وقوله : « تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ » أي النور يوم القيامة .

١٠٢٦ - وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ؛ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي رحمته الله في فضل الوضوء . حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ ، فَلْيَفْعَلْ » . يعني أن هذه الأمة أمة محمد ﷺ تدعى يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِينَ ، الغرة : بياض الوجه ، والتحجيل : بياض الأطراف ، أطراف اليدين ، وأطراف الرجلين . يعني أن هذه المواضع تكون نورًا يتلأأ يوم القيامة لهذه الأمة ، وهذه خاصة بنا ولله الحمد ، كما قال النبي ﷺ « سِمْاءُ أُمِّي لَيْسَتْ لغيركم » ^(٢) . يعني علامة تبيين بها أمة محمد ﷺ في هذا اليوم المشهود ، وهذا دليل على فضل الوضوء ، وأن أعضاء الوضوء تأتي بيبضاء يوم القيامة تلوح من النور يقول : « فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ » هذه الجملة ليست من كلام النبي ﷺ بل هي من كلام أبي هريرة رضي الله عنه وليست بصحيحة من جهة الحكم الشرعي ، لأن ظاهرها أن الإنسان يمكنه أن يطيل غُرَّتَهُ : يعني : يطيل وجهه وهذا غير ممكن ، فالوجه محدد من الأذن إلى الأذن ، ومن منحني الجبهة إلى أسفل اللحية ، وهذا مما يدل على أن هذه الجملة من كلام أبي هريرة رضي الله عنه قالها اجتهاذاً ، كما أشار إلى ذلك ابن القيم في النونية قال :

وأبو هريرة قال ذا من كيسه فغدا يميزه أولو العرفان

وطالة الغرات ليس يمكن أيضًا وهذا واضح التبيان ^(٣)

لكن على كل حال ما فرضه الله علينا أن نغسل الوجوه والأيدي إلى المرافق ، والأرجل إلى الكعبين ، هذا هو منتهى الوضوء وكفى فخراً أن يأتي الناس يوم القيامة وهذه المواضع تتلأأ نوراً من أجسادهم من أثر الوضوء ، ففي هذا دليل على فضيلة الوضوء وعلى إثبات البعث ، وأن الأمم يوم القيامة تأتي كل أمة تُدعى إلى كتابها . هل صدقت كتابها أم لم تصدق .

وأما الحديث الثاني وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » : الحلية يوم القيامة يُحلى بها الرجال والنساء ، يلبس الرجال والنساء حلية من ذهب وفضة ولؤلؤ ﴿ وَهَلَاؤُا أَشَاوَرٍ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : ٢١] ﴿ يُكَلِّفُونَ فِيهَا مِنْ أَكَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا ﴾ [الحج : ٢٣] فهم يحلّون بهذه الأنواع الثلاثة يلبس الرجل والمرأة في الجنة خُلُتًا من هذه الأنواع الثلاثة :

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٣) ، قوله « خرجت خطاياها » المراد بها الصفات المتعلقة بحق الله تعالى وخروجها منجاز عن غفرانها .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٨٢) .

(٣) شرح قصيدة الإمام ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى (٤٩٠/٢) .

ذهب وفضة ولؤلؤ ، ولا بد أن تكون مرصوفة على وجه يحصل به الجمال أكثر وأكثر ، لأن التحلي بكل نوع من هذا لاشك أنه يكسب الإنسان جمالاً ، فإذا رصف بعضها إلى بعض ، ورتبت ترتيباً حسناً أعطت جمالاً أكثر ، فيوم القيامة تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء ، إذن كل الذراع يكون حلية ، مملوءة حلية من ذهب وفضة ولؤلؤ ، وهذا يدل على فضيلة الوضوء ، حيث تكون مواضعه يوم القيامة يحلى بها الإنسان في الجنة ، جعلني الله وإياكم من أهلها .

وأما الحديث الثالث ، حديث عثمان رضي الله عنه ، ففيه : « أن من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه » تخرج خطاياه من هذا الوضوء حتى من تحت أظفاره ، وعلى هذا فالوضوء يكون سبباً لكفارة الخطايا حتى من أدق مكان وهو ما تحت الأظفار ، وهذه الأحاديث وأمثالها يدل على أن الوضوء من أفضل العبادات ، وأنه عبادة ينبغي للإنسان أن ينوي به التقرب إلى الله تعالى يعني : أن يستحضر - وهو يتوضأ - أنه يتقرب إلى الله ، كما أنه إذا صلى - يستشعر أنه يتقرب إلى الله ، كذلك وهو يتوضأ ، ويستشعر بأنه يمثل أمر الله في قوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ويستشعر أيضاً أنه مُمَثِّلٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في وضوئه ، وكذلك أيضاً يستحضر أنه يريد الثواب ، وأنه يُثَاب على هذا العمل حتى يتقنه ويحسنه . والله الموفق .

* * *

١٠٢٧ - وعنه قال : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَوَضَّأَ مِثْلَ وُضُوءِي هَذَا ثُمَّ قَالَ : « مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً » ^(١) رواه مسلم .

١٠٢٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَعَسَلَ وَجْهَهُ ؛ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ ؛ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَتْ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ ؛ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذَّنْبِ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمته الله منها حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ : فغسل كفيه ثلاثاً ، وتمضمض ، واستنشق ثلاثاً ، بثلاث غُرَفَات ، وغسل وجهه ثلاثاً ، وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثاً ، ومسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدير ، ومسح أذنيه ، وغسل رجليه ثلاثاً إلى الكعبين . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من توضأ نحو وضوء هذا ، ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّثُ بهما نفسه غفر الله له ما تقدم من

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٢) ، قوله : « بطشها يده » أي اكتسبتها أو فعلتها ، قوله : « مشتها رجليه » أي مشتها لها أو فيها .

ذنبه « وهذا شيء يسير - ولله الحمد - أن الإنسان يعمل هذا العمل ثم يُغْفَر ما تقدم من ذنبه . وأخذ العلماء من ذلك أنه يُستحب لمن أسبغ الوضوء أن يصلي ركعتين ، وتُسَمَّى سنة الوضوء ، سواء في الصباح أو المساء ، في الليل أو النهار ، بعد الفجر أو بعد العصر ؛ لأنها سنة لها سبب ، فإذا توضأ الإنسان نحو وضوء الرسول ﷺ فإنه يصلي ركعتين يُغْفَر له ما تقدم من ذنبه ، وفي هذا الحديث قال : « وكان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة » ^(١) يعني : زائد على مغفرة الذنوب ، وليس معنى نافلة يعني صلاة تطوع ، قد تكون صلاة فريضة ، ولكن نافلة : يعني شيئاً زائداً على مغفرة الذنوب ، لأن ذنوبه غفرت بوضوئه وصلاته الأولى ، فيكون مشيه للمسجد وصلاته ولو فريضة نافلة أي زيادة على مغفرة الذنوب ؛ لأن النفل في اللغة معناه الزيادة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَنَافِلَةٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ ^(٢) [الإسراء : ٧٩] .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أبي هريرة في أن الوضوء تخرج به الخطايا ، إذا غسلت وجهك خرجت خطايا وجهك مع الماء ، أو مع آخر قطر الماء ، أو هنا للشك من الراوي ، وعلى كل حال فإن الإنسان إذا غسل وجهه خرجت خطايا وجهه ، إذا غسل يديه خرجت خطايا يديه التي كان قد بطش بها ، وإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه حتى يخرج نقياً من الذنوب - ولله الحمد - فهذا دليل على فضيلة الوضوء ، ولكن مَنْ مِنَّا يستحضر هذا الفضل ؟! فهل يكتب هذا الفضل للإنسان سواء استحضره أم لا ؟ الظاهر - إن شاء الله - أنه يكتب له سواء استحضر أو لم يستحضر ، لكن إذا استحضر فهو أكمل ، لأنه إذا استحضر هذا احتسب الأجر على الله ﷻ وأيقن أنه سيجازى ويكافأ على هذا العمل جزاءً وفاقاً ، بخلاف ما إذا توضأ - وهو غافل - لكننا نرجو من الله ﷻ أن يكتب هذا الأجر حتى من الإنسان الغافل الذي يتوضأ على سبيل إبراء ذمته . والله الموفق .

١٠٢٩ - وعنه : أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ ذَا رُقُومٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاجِقُونَ ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا » قالوا : « أَوْ لَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ » قَالَ : « أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانَتَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ » قالوا : « كَيْفَ نَعْرِفُ مِنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ » فَقَالَ : « أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ يَسَّرَ ظَهْرِي خَيْلَ دُهُمٍ بِهِمْ ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ ؟ » قالوا : « بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ » ^(٣) رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٨) ، والنسائي في الطهارة (٧٥) ، ومالك في الموطأ (الطهارة) وأحمد في مسنده (٣٤٩/٤) .

(٢) وقوله تعالى : « نافلة » أي فريضة زائدة على الصلوات الخمس خاصة به ﷺ دون أمته .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٩) ، وأحمد في مسنده (٣٧٥/٢) .

الشرح

هذا الحديث الذي أورده النووي رحمته الله في فضل الوضوء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » كان النبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر نهى عن زيارة القبور ، لأن الناس حديث عهد بشرك ، فخشي أن تتعلق قلوبهم بالقبور وتفتتن بها ، فنهى عن الزيارة ، ثم لما استقر الإيمان في قلوبهم أمرهم بالزيارة فقال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم الموت » - وفي رواية « تذكر الآخرة » ^(١) فأمر صلى الله عليه وسلم بزيارتها وبين الحكمة العظيمة من هذه الزيارة ، وأنها تذكّر الإنسان الذي على ظهر الأرض أنه اليوم على ظهرها وغداً في بطنها ، ولا يذري متى يكون هذا ، قد يصبح على ظهرها ويمسي في بطنها ، والعكس فكان في زيارة المقابر تذكير بالموت وبالآخرة ، لأن الإنسان يمر بالمقبرة فإذا فكر يرى أباه ، عمه ، زوجته ، أخاه ... وما أشبه ذلك .

أمس كانوا معه يأكلون ويشربون ويتعممون والآن هم مرتنون بأعمالهم في القبور يتذكر العام الماضي في مثل هذا الوقت وهم معنا فرحون بالدنيا ، مغتبطون بها والآن غادروها ، وصاروا مرتنين بأعمالهم ، من يعمل خيراً يلقيه ومن يعمل سوءاً يلقيه ، فهي تذكر الآخرة تذكّر الموت حقاً ، اخرجوا إلى المقابر ، انظروا هؤلاء الذين لا يحصيهم إلا الله تعالى أو لا يُحصون إلا بمشقة كانوا بالأمس معنا ، والآن هم في بطن الأرض ولا تدري فلعلك ضجيعهم في مدة يسيرة ، فهي تذكّر الموت كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كان يخرج هو بنفسه إلى البقيع يزور أهل البقيع ، ويسلم عليهم صلى الله عليه وسلم ويدعو لهم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين . يعني : يا أهل دار قوم مؤمنين - والظاهر - والله أعلم - أنه يسلم عليهم ويسمعونه ؛ إذ لا فائدة من خطاب لا يسمعه المخاطب ؛ لكنهم لا يستجيبون ؛ لأنهم في قبورهم ، فيسلم عليهم : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وصدق النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ما من حيٍّ إلا سيلحق الميت بمشيئة الله تعالى يقول : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » واختلف العلماء - رحمهم الله - لماذا قال : وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وهو أمر معلوم متيقن ؟ والصحيح أنه لا إشكال في هذا فإن معنى التعليق هنا : أننا إذا لحقنا بكم فإنما نلحق بمشيئة الله ، متى شاء لحقنا بكم ، لأن الأمر أمره ، والمملك ملكه ، هو الذي يدير تعالى ما شاء فيمن شاء ، أليس الله يقول : ﴿ لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ [الفتح : ٢٧] مع أنهم سيدخلونه ، لأن الله أكد الدخول بالقسم واللام ونون التوكيد ، ولا شك في أنهم سيدخلونه ، ولهذا لما جرى الصلح في الحديبية على أن الرسول سيرجع ولا يكمل عمرته ، قال له عمر : أأنت تحدثنا أننا ندخل البيت ونظوف به ؟ قال : بلى ، لكن هل حددت لك هذا العام ، وإنك آتية ومظوف به ؟ ^(٢) .

فالخلاصة أن كلمة « إن شاء الله » هنا ليس معناها التعليق الذي يكون الإنسان فيه متردداً بين

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٠٥٤) ، والنسائي في السنن (٢٨٦/١) ، وابن ماجه في السنن (١٥٧١) ،

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١) .

والبيهقي في السنن (٧٦/٤) .

حصول الشيء وعدمه ، بل معنى التعليق : أن لحوقنا بكم ليس باختيارنا ولكنه بمشيئة الله ﷻ ثم قال ﷺ : « وددت أنا لقينا إخواننا » تمنى أن يلقي إخوانه ﷺ - اللهم اجعلني وإياكم منهم - قالوا : يا رسول الله ألسنا إخوانك ؟ قال : « أنتم أصحابي » - أخص من الإخوان - صاحب أخ وزيادة ، والأخ أخ بلا مصاحبة . قال : « أنتم أصحابي » - يعني : فأنتم أخص منهم ، وهم : - الصحابة - إخوان للرسول (وأصحاب له ، أما من جاءوا بعدهم من المؤمنين فهم لإخوانه وليسوا أصحابه .

« وددت أنا لقينا إخواننا » قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟! قال : « أنتم أصحابي ، ولكن إخواني قوم يأتون بعدي ، يؤمنون بي ولم يروني » - اللهم لك الحمد - اللهم تبثنا على ذلك - يؤمنون بالرسول ﷺ وأنه رسول الله حقاً وهم لا يرونه ، لكنهم مثل الذين يرونه - قالوا : يا رسول الله كيف تعرفهم ؟ - يعني : وأنت لم تدركهم ، فضرب مثلاً برجل له خيل غُرٌّ . غر يعني : فيها بياض في رأسها . ومحجلة : بياض في أرجلها - مع خيل دُهم - يعني سود ليس فيها أي غرة ، هل يشبه عليه هذا بهذا ، قالوا : لا . قال : « فإنكم تأتون يوم القيامة غُرّاً محجلين » - يعني : من أثر الوضوء ؛ ففي هذا دليل على فضيلة الوضوء ، وأن هذه الأمة يأتون يوم القيامة وهم غر محجلون من أثر الوضوء ، غُرٌّ يعني : يبيض الوجه ، مُحَجَّلُونَ يعني : يبيض الأرجل والأيدي ، وهذا البياض بياض نور وإضاءة ، يعرفهم الناس يوم القيامة في هذا اليوم المشهود العظيم ، تعرف أمة هذا النبي الكريم ﷺ بهذه السيماء والعلامة التي ليست لغيرهم ، أسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يحشرني وإياكم على هذا الوجه وأن يجعلنا من أمته ظاهراً وباطناً إنه على كل شيء قدير .

١٠٣٠ - وعنه : أن رسول الله ﷺ قَالَ : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ » قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « إِسْتَبَاغُ الْوُضْوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ » ^(١) رواه مسلم .

١٠٣١ - وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » ^(٢) رواه مسلم . وقد سبق بطوله في باب الصبر . وفي الباب حديث عمرو بن عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السَّابِقُ فِي آخِرِ بَابِ الرِّجَاءِ ، وَهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ ، مُشْتَمِلٌ عَلَى جَمَلٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ .

١٠٣٢ - وَعَنْ عُمرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيَبْلُغُ - أَوْ فَيَسْبِغُ الْوُضْوءَ - ثُمَّ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ » ^(٣) رواه مسلم . وزاد الترمذي :

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٤١) ، والبيهقي في السنن (٦٢/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١) ، والإمام أحمد في المسند (٣٤٢/٥ ، ٣٤٣) ، والبيهقي في السنن (٤٢/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٤ ، ١٤٦) .

«اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّائِبِينَ واجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ» .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل الوضوء ، وقد سبق حديث في هذا المعنى ، وتكلمنا على زيارة القبور التي ذكرها المؤلف رحمته الله وبيناً أن فيها فائدة عظيمة وهي تذكير الإنسان الموت أو الآخرة ، وليُعلم : أن زيارة القبور لا تحل للنساء ، فلا يجوز للمرأة أن تزور المقبرة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والشُّرج (١) ، ولأن المرأة ضعيفة لا تتحمل فرجا تنوح وتبكي وتلطم ؛ ولأن المقابر - في الغالب - تكون خالية من الناس ، فيخشى إذا خرجت المرأة إليها أن يتبعها السفهاء من الناس ويحصل بذلك المحذور والفتنة ؛ لهذا لعن النبي صلى الله عليه وسلم زائرات القبور ، أما إذا مرت المرأة بالمقبرة من غير أن تخرج لقصد الزيارة ، فلا بأس أن تقف وتسلم وتدعو كما يدعو الرجل ، يعني : هناك فرق بين القصد وعدم القصد ، ثم ليُعلم أيضاً أن أصحاب القبور مهما بلغوا من العمل الصالح والثقى لا يملكون لأنفسهم نفقاً ولا ضراً ، ولا يملكون لغيرهم أيضاً نفقاً ولا ضراً ؛ ولهذا هم يُدعى لهم ولا يدعوهم ، يُدعى لهم كما سبق أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهم (٢) . ولكنهم لا يُدعو ؛ لأنهم لا يفيدون ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾ [الأحقاف : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْتَفِكُمْ مِنْهُ خَيْرٌ ﴿٢﴾﴾ [فاطر : ١٣ ، ١٤] .

أما ما ذكره رحمته الله من الأحاديث الباقية ، فهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم - أو أخبركم - بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات » وإنما ساق الحديث صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستفهام من أجل أن ينتبه السامع لما يلقي إليه ؛ لأن الأمر مهم ، فقال : « ألا أدلكم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » .

« إسباغ الوضوء على المكاره » : يعني أن الإنسان يتوضأ ويسبغ وضوءه على كره منه ؛ إما لكونه فيه حمى ينفر من الماء فيتوضأ على كره ، وإما أن يكون الجو بارداً ، وليس عنده ما يُسخن به الماء فيتوضأ على كره ، وإما أن يكون هناك أمطار تحول بينه وبين الوصول لمكان الوضوء فيتوضأ على كره ، المهم أنه يتوضأ على كره ومشقة لكن بدون ضرر ، أما مع الضرر فلا يتوضأ بل يتيشم ، هذا مما

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن (١٥٧٦) ، وأحمد في مسنده (٢٣٧/٢) ، البيهقي في السنن (٧٨/٢) ، والألباني في إرواء الغليل (٢٣٢/٣) .

(٢) انظر في دعاء النبي للموتى : مسلم في الجنايز (١٠٤) ، وابن ماجه في السنن (١٥٤٧) ، وأحمد في مسنده (٣٥٣/٥) ، والنسائي في السنن (٩٤/١) .

(٣) قوله : ﴿فِطْمِيرٍ﴾ القطمير هو القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة ، وهي تضرب مثلاً للشيء الدنيء الطفيف .

يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ، ولكن هذا لا يعني أن الإنسان يشق على نفسه ويذهب يتوضأ بالبارد ويترك الساخن ، أو يكون عنده ما يُسَخِّن به الماء ، ويقول : لا ، أريد أن أتوضأ بالماء البارد ، لأنال هذا الأجر ، فهذا غير مشروع ، لأن الله يقول : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] ورأى النبي ﷺ رجلاً واقفاً في الشمس قال : « ما هذا ؟ » قالوا : نذر أن يقف في الشمس ، فنهاه عن ذلك وأمره أن يستظل ^(١) . فالإنسان ليس مأموراً ولا مندوباً في أن يفعل ما يشق عليه ويضره ، بل كلما سهّلت عليه العبادة فهو أفضل ، لكن إذا كان لابد من الأذى والكراهة ؛ فإنه يؤجر على ذلك ، لأنه بغير اختياره ، كذلك « كثرة الخطأ إلى المساجد » فيه دليل على أن الجماعة تكون في المسجد ولا تكون في البيت ، وأن الإنسان إذا كثرت خطاه إلى المساجد ؛ فإنه يؤجر : يرفع الله له به الدرجات ويمحو عنه الخطايا ، وقد ثبت عن النبي ﷺ : أن الرجل : إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة لم يخطُ خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة ^(٢) . وهذه نعمة عظيمة ، فإذا وصل المسجد وصلى لم تنزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلّاه ، تقول : اللهم صلّ عليه ، اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة ^(٣) ، « وكثرة الخطأ » معناه أن يأتي الإنسان للمسجد ولو من بعد ، وليس المعنى أن يتقصّد الطريق البعيد أو أن يقارب الخطأ هذا غير مشروع ، بل يمشي على عادته ولا يتقصّد البعد ؛ يعني : مثلاً لو كان بينه وبين المسجد طريق قريب وآخر بعيد ، لا يترك القريب ، لكن إذا كان بعيداً ولا بد أن يمشي إلى المسجد ؛ فإن كثرة الخطأ إلى المساجد مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ، وأما « انتظار الصلاة بعد الصلاة » : بمعنى أن الإنسان إذا فرغ من هذه الصلاة يتشوّق إلى الصلاة الأخرى وهكذا يكون قلبه معلقاً بالمساجد : كلما فرغ من صلاة فهو ينتظر الصلاة الأخرى ، هذا أيضاً مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ، قال : فذلكم الرباط فذلكم الرباط : يعني الرابطة على الخير ، وهو داخل في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاضُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَمَلِكُمْ تُقْلِحُونَ ﴾ ^(٤) [آل عمران : ٢٠٠] .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي مالك الأشعري ؓ أن النبي ﷺ قال : « الطهور شطر الإيمان » : يشمل طهور الماء ، التيمم ، طهارة القلب من الشرك والشك والغل والحقد على المسلمين ، وغير ذلك مما يجب التطهر منه ، فهو يشمل الطهارة الحسيّة والمعنوية ، « شطر الإيمان » : نصفه ، والنصف الثاني هو التحلي بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ؛ لأن كل شيء لا يتم إلا بتنقيته من الشوائب

(١) انظر الحديث في البخاري في الأيمان (٦٧٠٤) ، وأبو داود في الأيمان (٣٣٠٠) ، ومالك في الموطأ (النذور ٦) وأحمد في مسنده (١٦٨/٤) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٧) ومسلم في المساجد (٢٥٧) وأحمد في مسنده (٤١٥/١) .

(٣) وذلك لما رواه مسلم في المساجد (٢٧٥) والبخاري في الوضوء (١٧٦) والترمذي في الصلاة (٣٣٠) .

(٤) قوله : ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ أي : غالبوا الأعداء في الصبر على شدائد الحرب ولا تكونوا أضعف منهم . وقوله : ﴿ وَرَاضُوا ﴾ أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مستعدين للغزو في أي لحظة .

وتكميله بالفضائل ، فالتكميل بالفضائل نصف ، والتنقية من الرذائل نصف آخر ، ولهذا قال : « الطهور شطر الإيمان » وأما شطره الثاني هو التكميل بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة .

ثم ذكر المؤلف آخر ما ختم به الباب حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الرجل إذا أسبغ الوضوء ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ فإنها تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ، وزاد الترمذي رحمته الله : « اللهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين » هذه الأحاديث في فضل الوضوء ، والمؤلف لم يستوعب كل ما ورد في هذا الباب من فضائل ، لكن لو لم يكن من فضائله إلا حديث واحد لكفى به دعوة إلى الوضوء وإحسانه - وفق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح .

* * *

٨٦ - باب فضل الأذان

١٠٣٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ ؛ لَاسْتَهَمُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهَجِيرِ ؛ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ ؛ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا » ^(١) متفق عليه . « الاستهām » : الافتراغ ، و « التَّهَجِيرُ » : التَّبَكُّيرُ إلى الصَّلَاةِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : باب الأذان : يعني في فضله وما ورد فيه ، والأذان : هو الإعلام بالصلاة أي بدخول وقتها إن كانت مما يُقَدَّم أو بفعلها إن كانت مما يُؤَخَّر ، هذا هو الأذان ، يعني : ينادي الإنسان فيعلم الناس أن الوقت قد دخل في صلاة المغرب والفجر والعصر والظهر إلا أن يردوا بها ، وكذلك في العشاء إذا أخروها فالأذان كذلك يؤخر ، وإلا فإنه يؤذن عند دخول الوقت ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم » ^(٢) والأذان المشروع هو الذي يؤذن للصلوات الخمس ، وفرض في السنة الثانية من الهجرة فبعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة شُرع الأذان ، واختلف الصحابة حين تشاوروا كيف يُعَلَّم بدخول وقت الصلاة ؟ فقال بعضهم : نوقد ناراً عظيمة يعرف الناس أن الوقت قد دخل ، وقال بعضهم بل نضرب بالناقوس - الناقوس الذي يشبه الجرس - : وهو الذي يُنادي به النصراني لصلواتهم ، وقال آخرون : بل ننفع بالبوق كما يفعل اليهود ، وكل هذا كرهه النبي صلى الله عليه وسلم ، هرع رجل من الصحابة - وهو : عبد الله بن زيد - رأى رجلاً في المنام وفي يده ناقوس قال له : أتبيع هذا ، قال : وماذا تصنع به ، قال : أعلم به للصلاة ، قال : أفلا أدلك

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٥) ، ومسلم في الصلاة (١٢٩) ، قوله « العتمة » أي صلاة العشاء .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٢٨) ، ومسلم في المساجد (٢٩٢) ، والنسائي في السنن (٩/٢) ، وأحمد في

على خير من ذلك ؟ قال : بلى ، فقرأ عليه الأذان ، وقرأ عليه الإقامة ، فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ وأخبره بالخبر ، فقال النبي ﷺ : « إن هذا رؤيا حق » ثم علمه بلالاً فأذّن به ^(١) ، بهذا الأذان المعروف ، ولما كان في زمن عثمان بن عفان ؓ وكثر الناس جعل أذاناً أولاً للجمعة قبل الأذان الثاني الذي هو عند حضور الإمام ، فكان في يوم الجمعة أذانان ، وفي رمضان أمر النبي ﷺ بلالاً أن يؤذّن في آخر الليل إذا قرب وقت السحور ، وقال : « إن بلالاً يؤذّن بليل ؛ ليوقظ نائمكم ، ويرجع قائمكم ، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم ؛ فإنه لا يؤذّن حتى يطلع الفجر » ^(٢) فصار عندنا : الفجر لها أذان أول ، ولكن ليس لها ؛ بل لأجل الإعلان : أن وقت السحور قد حلّ ، والجمعة لها أذان أول من سنة عثمان ؓ وهو أحد الخلفاء الراشدين الذين أمرونا باتباع سنتهم : قال بعض المتحذلقين الذي يدّعون أنهم سلفيون شقيون : إن أذان الجمعة الأول لا تقبله ، لأنه بدعة ، لم يكن على عهد النبي ﷺ وهذا القول منهم قدح للنبي ﷺ ، وقدح بالخلفاء الراشدين ، وقدح بالصحابة ؓ ، وهؤلاء المساكين وصلوا إلى هذا الحد من حيث لا يعلمون ، أما كونه قدح بالرسول ﷺ ؛ فلأن النبي ﷺ قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » ^(٣) وإجماع المسلمين أن عثمان ؓ من الخلفاء الراشدين ، وأما كونه قدح بالخلفاء الراشدين : فهو قدح بعثمان ؓ وهو منهم ، والقادح في واحد منهم قادح في الجميع ، كما أن المكذب للرسول الواحد مكذب بجميع الرسل ، وأما كونه قدح في الصحابة : فلأن الصحابة لم ينكروا على عثمان ؓ مع أنه لو أخطأ لأنكروا عليه كما أنكروا عليه الإتمام في (مبنى) في الحج ، لكن في أذان الجمعة الأولى لم ينكروا عليه ، فهل هؤلاء المتحذلقون المخالفون أعلم بشريعة الله ومقاصدها من الصحابة ؟! لكن صدق رسول الله ﷺ : أن آخر هذه الأمة يلعن أولها - والعياذ بالله - ويقدح فيهم ، فالأذان الأول للجمعة أذان شرعي بإشارة النبي ﷺ وسنة أمير المؤمنين عثمان ؓ وإجماع الصحابة الإجماع السكوتي ولا عذر لأحد ، وقطع الله لسان من يعترض على خلفاء هذه الأمة الراشدين وعلى الصحابة .

قد يقول قائل : لماذا لم يشرعه الرسول ﷺ والجمعة موجودة في عهده ؟

والجواب : أن السبب هو أن الناس في عهد عثمان كثروا واتسعت المدينة واحتاجوا إلى أذان ينبههم يكون قبل الأذان الأخير الذي يكون عند مجيء الإمام فكان من الحكمة أن يؤذّن ، وعثمان ؓ بنى على أساس : فهاهو النبي ﷺ يأمر بلالاً أن يؤذّن بآخر الليل لا لأن الصلاة حلت ولكن ليوقظ النائم ، ويُرجع القائم ، فهو مقصد شرعي ، ولا إشكال في شرعية أذان الجمعة الأول ، إذا فالأذان الأول ليوم الجمعة مشروع بسنة الخلفاء الراشدين وإيماء سيد المرسلين محمد ﷺ وإجماع الصحابة الذين أدرکوا هذا ، أما الأذان في آخر الليل : فإنه مشروع بسنة النبي ﷺ في رمضان لإيقاظ النائم ، وإرجاع القائم ،

(١) انظر القصة في أبو داود في الصلاة (٥٠٧) ، والترمذي في الصلاة (١٨٩) ، وأحمد في مسنده (٤٣/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٧) ، ومسلم في الصيام (٣٦) ، كلاهما بنحوه ، والنسائي في السنن (١١/٢) بلفظه .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٧٦) ، وابن ماجه في السنن (٤٢) ، وأحمد في مسنده (١٢٦/٤) .

لكن هل يُشرع في غير رمضان ، نقول : لعله قياسًا على فعل عثمان رضي الله عنه نرى أنه لا بأس به .

وهنا مسألة ثانية « الصلاة خير من النوم » : زعم بعض المتأخرين أنها تُقال في الأذان الأول الذي قبل الفجر ، وأخطؤوا خطأ عظيمًا ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بلالًا أن يقولها في أذان الفجر قال : « إذا أذنت الأول في صلاة الصبح فقل : الصلاة خير من النوم » ^(١) . ومعلوم أن الأذان للصلاة لا يكون إلا بعد دخول وقتها لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم » ^(٢) وسمي أذانًا أولاً باعتبار الإقامة ، لأن الإقامة أذان ثانٍ ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بين كل أذانين صلاة » ^(٣) وجاء في صحيح مسلم رضي الله عنه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : فإذا أذن الأول للفجر - يعني : قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه لصلاة الفجر ^(٤) . وهذا صريح في أن أذان الفجر الأول يكون بعد دخول الوقت ، وأما الأذان آخر الليل فليس أذانًا للفجر ؛ بل هو أذان للنائمين ليقوموا ، وللقائمين ليرجعوا ويتسحرؤا إذا كان ذلك في رمضان ، والأذان من أفضل الأعمال ، وهو أفضل من الإمامة ، يعني أن مرتبة المؤذن في الأجر أفضل من مرتبة الإمام ، لأن المؤذن يعلن لتعظيم الله وتوحيد الله والشهادة للرسول بالرسالة ، وكذلك أيضًا يدعو الناس إلى الصلاة والفلاح في اليوم واللييلة خمس مرات أو أكثر ، والإمام لا يحصل منه ذلك . والمؤذن لا يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مدر إلا شهد له يوم القيامة ^(٥) . ولهذا كان الأذان مرتبته في الشرع أعلى من مرتبة الإمامة ، فإن قال قائل : إذا كان كذلك لماذا لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يؤذن ولا الخلفاء الراشدون ؟ أجاب العلماء عن هذا بأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا مشغولين بمصالح العباد ؛ لأنهم خلفاء أئمة يدبّرون الأمة والأذان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كالأذان في وقتنا ، الآن إذا أراد الإنسان أن يؤذن ليس عليه سوى أن ينظر إلى الساعة ويعرف الوقت حلٌّ أو لم يحل ، لكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يراقبون الشمس ، ويتابعون الظل حتى يعرفوا أن الشمس قد زالت ، وكذلك أيضًا يراقبونها حتى يعرفوا أنها غربت ، ثم يراقبون الشفق ، ثم يراقبون الفجر ، ففيه صعوبة عظيمة ؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون لا يتولّون الأذان لأن فضله أقل من الإمامة ، ولكن لأنهم مشغولون بما هم فيه عن الأذان ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم فضيلته بأن الناس « لو يعلمون ما فيه - النداء - ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » سبحانه الله معنى هذا أن الناس لو يعلمون ما في الأذان من فضل وأجر لكانوا يفترون أيهم الذي يؤذن ، بينما الناس الآن مع الأسف يتدافعون ، هذا يقول أذن ، وهذا يقول بل أذن أنت ؟ وهكذا ، فينبغي عليك إذا كنت في رحلة على أن تحرص أن تكون أنت المؤذن ، لكن معلوم أن الرحلة لها أمير - سواء سفر أو نزهة - فإذا نصّب الأمير شخصًا للأذان ؛ فليس لأحد أن يتقدم ويؤذن ؛ لأنه صار

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٨/٣) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٢٤) ومسلم في صلاة المسافرين (٣٠٤) والترمذي في السنن (١٨٥) وأبو داود في السنن (١٢٨٣) .

(٤) الحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٢١ ، ١٢٢) .

(٥) وذلك لما رواه ابن ماجه في الأذان (٧٢٣) .

مؤذناً راتباً، وكذلك إذا قال لأحدهم : أنت الإمام ، صار هو الإمام ولا أحد يتقدم عليه ؛ لقول النبي ﷺ : « لا يؤمن رجلٌ رجلاً في سلطانه إلا يأذن » ^(١) . وفق الله الجميع لما فيه الخير والصواب .

١٠٣٤ - وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أُعْتَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٢) رواه مسلم .

١٠٣٥ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَفْصَعَةَ ، أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ لَهُ : « إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ فَإِذَا كُنْتُ فِي غَنَمِكَ - أَوْ بَادِيَتِكَ - فَأَذْنْتُ لِلصَّلَاةِ ؛ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جُرٌّ وَلَا إِنْشَاءً وَلَا شَيْءً ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قال أبو سعيد : سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(٣) . رواه البخاري .

الشرح

هذان الحديثان ساقهما المؤلف رحمته الله في (رياض الصالحين) في : باب فضل الأذان : فعن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » إذا بُعث الناس فإن المؤذنين يكون لهم ميزة ليست لغيرهم وهي أنهم أطول الناس أعناقاً ، فيعرفون بذلك تنويهاً لفضلهم وإظهاراً لشرفهم ؛ لأنهم يؤذنون ويعلنون بتكبير الله ﻋَﻠَﻴْﻪُ السَّلَامُ وتوحيده والشهادة لرسوله ﷺ بالرسالة ، والدعوة إلى الصلاة وإلى الفلاح ، يعلنونها من الأماكن العالية ؛ ولهذا كان جزاؤهم من جنس العمل أن تعلق رءوسهم ، وأن تعلقوا وجوههم ، وذلك بإطالة أعناقهم يوم القيامة ، وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على أن يكون مؤذناً حتى لو كان في نزهة هو وأصحابه ؛ فإنه ينبغي أن يبادر لذلك ، وقد سبق أن النبي ﷺ قال : « لو يعلم الناس ما في النداء ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » وكذلك من فضيلة الأذان ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « أنه ما من إنس ، ولا جنٍّ ولا شيء يسمع صوت المؤذن إلا شهد له بذلك يوم القيامة » ^(٤) ، وهذا أيضاً من فضائل الأذان أن صاحبه يُشهد له يوم القيامة بأنه من المؤذنين تنويهاً لفضله وبيانا لثوابه .

فالخلاصة : أن الأذان له فضل عظيم ، وأنه ينبغي للإنسان أن يكون مؤذناً إلا أنه إذا كان هناك مؤذن راتب ؛ فإنه لا يحل لأحد أن يتجاوزه ، ويؤذن عنه إلا إذا كان قد وكَّله أو ما أشبه ذلك يعني لا تظنوا أن الإنسان ينبغي له أن يبادر للمسجد ويؤذن قبل المؤذن الراتب ، لأن هذا عُدوان عليه ، وقد قال النبي ﷺ : « لا يؤمن الرجلُ الرجلَ في سلطانه إلا يأذنه » ^(٥) والله الموفق .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١/٤) ، والبيهقي في السنن (١١٩/٣) ، والطبراني في الكبير (٢٢٠/١٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤) ، وابن ماجه في الأذان والسنة فيه (٧٢٥) ، والبيهقي في السنن (٤٣٣/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٩) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥/٣) ، والبيهقي في السنن (٣٩٧/١) ، (٤٢٧) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأذان (٧٢٢) .

(٥) سبق تخريجه .

١٠٣٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ ؛ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ ، وَلَهُ ضُرَاطٌ ؛ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأَذِينَ ، فَإِذَا قُضِيَ النَّدَاءُ أَقْبَلَ ، حَتَّى إِذَا تُوتِبَ لِلصَّلَاةِ ، أَذْبَرَ ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّوْبُ أَقْبَلَ ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ : اذْكُرْ كَذَا ، وَادْكُرْ كَذَا - لِمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ قَبْلُ - حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَذِيرِي كَمْ صَلَّى » ^(١) متفق عليه . « التَّوْبُ » : الإِقَامَةُ .

١٠٣٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَأَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ ؛ فَإِنَّهَا مَثَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ ؛ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث أيضًا في فضل الأذان : منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه إذا أذن المؤذن أذبر الشيطان وله ضراط كراهة أن يسمع ذكر الله ﷻ وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ سَرِّ الْأَوْسَائِينَ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤] الذي يخنس عند ذكر الله ﷻ ويختفي ويبعد ؛ لأن الشيطان أكره ما عنده عبادة الله ، وأبغض ما عنده من الرجال عباد الله ، وأحب ما يحب الشرك بالله ﷻ والمعاصي ؛ لأنه يأمر بالفحشاء : ﴿ أَلَسْتَ بِأَنَّ يَدُكَ الْفَقْرَ وَبِأَمْرُكَ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ^(٣) [البقرة : ٢٦٨] فيحب من الناس أن يأتوا ما لم يأمر الله به ، ويكره أن يأتوا ما أمر الله ﷻ فإذا أذن المؤذن ولَّى وأبعد عن مكان الأذان حتى يخرج بعيدًا عن البلاد لئلا يسمع الذكر ، فإذا انتهى الأذان أقبل حتى يُغوي بني آدم ، فإذا أقيمت الصلاة فإنه في حال الإقامة أيضًا يولِّي ويدبر ، ثم إذا فرغت الإقامة أذبر حتى يحول بين المرء وقلبه في صلاته : يقول له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، اذكر كذا ... حتى لا يطيق المصلي ، وهذا أمر يشهد له الواقع فإن الإنسان أحيانًا ينسى أشياء ، فإذا دخل في الصلاة ؛ فتح الشيطان عليه باب التذكُّر حتى جعل يذكرها ، ويذكر أن رجلًا جاء إلى أبي حنيفة رضي الله عنه وقال : إنه استودع وديعة ونسيها ، فقال له : اذهب فتوضأ فصل ركعتين وستذكرها ، ففعل الرجل فتوضأ ودخل في الصلاة ، فذكره إياها الشيطان ، وهذا أمر يشهد له الواقع ، وصدق رسول الله ﷺ . وقد أراد النبي ﷺ في هذا الحديث فائدتين عظيمتين :

بيان فضل الأذان ، وأنه يطرد الشياطين ؛ ولهذا استحَبَّ الكثير من العلماء إذا ولد المولود أول ما يولد أن يؤذن في أذنه ^(٤) حتى يطرد الشيطان عنه وبعضهم يقول : يؤذن في أذنه حتى يكون أول ما يسمع ذكر الله ﷻ وعلى

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٨) ، ومسلم في الصلاة (١٦) ، قوله : « قضى النداء » أي انتهى المؤذن من الأذان ، وقوله : « يخطر » أي يوسوس .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١١) ، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣) ، والترمذي في المناقب (٣٦١٤) ، والنسائي في السنن (٢٥/٢) .

(٣) قوله : ﴿ يَدُكَ الْفَقْرَ ﴾ أي يخوفكم سوء الحال والضعف ، وقوله : ﴿ وَبِأَمْرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أي يغريكم بالبخل .

(٤) انظر الحديث في : أبي داود في الأدب (٥١٠٥) .

كل حال ، فالأذان يطرد الشياطين ، ولكن هل إذا أذن الإنسان في غير وقت الأذان هل يطرد الشياطين ؟ الله أعلم ، لكن ذكر الله على سبيل العموم يطرد الشياطين ؛ لأن معنى الخُتَّاس : الذي يخنس عند ذكر الله ﷻ .

أما الحديث الثاني : فضيلته أن النبي ﷺ أمر إذا سمعنا المؤذن أن نقول مثل ما يقول : إذا قال : الله أكبر ، نقول : الله أكبر ... إلخ (إلا حي على الصلاة ، حي على الفلاح) فلا نقول ؛ لأننا نحن مدعوون والمؤذن داع فلا يصح أن نقول (حي على الصلاة) بعده لكننا نقول كلمة الاستعانة (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهذه الكلمة تعني أننا عزمنا على الإجابة ولكننا نستعين بالله ﷻ ولهذا أقول : إن هذه الكلمة كلمة استعانة تعين الإنسان على أموره ، وعلى صلاح أحواله ؛ ولهذا قال الرجل المؤمن في قصة صاحبي الجنتين قال لصاحبه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] يعني : لكان خيرا لك وسلمت جنتك من التلف ، فهذه الكلمة كلمة عظيمة حتى قال النبي ﷺ لعبد الله بن قيس - أبو موسى الأشعري - ﷺ : «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة» قال : بلى . قال : «لا حول ولا قوة إلا بالله» (١) فإذا قال المؤذن : حي على الصلاة حي على الفلاح نقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإذا قال في صلاة الفجر : الصلاة خير من النوم ، نقول : الصلاة خير من النوم وإذا قال : الله أكبر ، قلنا : الله أكبر ، وإذا قال : لا إله إلا الله ، قلنا : لا إله إلا الله ، ثم بعد ذلك نصلي على النبي ﷺ نقول : اللهم صل على محمد ؛ فإن من صلى عليه مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم نسأل الله له الوسيلة : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعته مقاما محمودا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد (٢) .

فإذا صلينا على النبي ، وسألنا الله له الوسيلة حلت لنا الشفاعة - يعني شفاعة النبي ﷺ - . الوسيلة : درجة عالية في الجنة ، أعلى ما يكون لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله ، قال النبي ﷺ «وأرجوا أن أكون أنا هو» وهذا الرجاء - إن شاء الله تعالى - سيكون محققا ، لأننا نعلم أن أفضل الخلق عند الله محمد ﷺ ولأن أمة محمد تدعو الله بذلك بعد كل أذان ، والدعاء بين الأذان والإقامة لا يُرد ، كل الأمة تقول : اللهم آت محمدا الوسيلة ، وأمة محمد جديرة - بإذن الله - إذا دعت أن يؤتى محمدا الوسيلة أن يقبل الله منها ، ولهذا قال : «أرجوا أن أكون أنا هو» إذن ينبغي لنا إذا سمعنا المؤذن أن نقول مثل ما يقول حتى لو كنا نقرأ نقطع القراءة ونجيب المؤذن ، وإذا فرغنا نقبل على القراءة ، واختلف العلماء - رحمهم الله - فيما إذا كان الإنسان يصلي : هل يتابع المؤذن ؟ فقال - شيخ الإسلام - ابن تيمية رحمه الله نعم ولو كنت تصلي ؛ لأن الأذان ذكر لا يطل الصلاة والنبي ﷺ يقول : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ولا يستثنى حالا من الأحوال ، ولكن أكثر العلماء يقولون : إذا كنت تصلي لا تجب المؤذن ؛ لأن الصلاة فيها شغل خاص بها ، والأذان طويل يشغلك كثيرا عنها ، ولكن لو عطست وأنت تصلي فقل : الحمد لله ، فليس هناك مانع ؛ لأنها

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٥٢٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٤) ، والترمذي في الصلاة (٢١١) بدون «إنك لا تخلف الميعاد» وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٢٦١/١) وهذه الزيادة شاذة ، لأنها لم ترد في جميع طرق الحديث إلا في رواية الكشميني لصحيح البخاري خلافا لغيره . ثم قال : ووقعت هذه الزيادة في كتاب : قاعدة جلية في التوسل والوسيلة لابن تيمية (ص : ٣٧) والظاهر أنها مدرجة من بعض النسخ .

كلمة واحدة لا تشغلك عن الصلاة ، أما إجابة المؤذن طويلة فلا تجب المؤذن ، ولكن إذا فرغت من الصلاة فأجب المؤذن ؛ لأنك سكت اشتغالاً بصلاتك ، كذلك إذا كنت على قضاء الحاجة ، وأذن المؤذن فلا تجبه ؛ لأن هذا ذكر ، لكن إذا فرغت وخرجت من المرحاض أجب ، وقيل : بل يجيبه بقلبه ، لكن هذا فيه نظر ؛ لقول الرسول ﷺ : « فقولوا مثل ما يقول » والمتابعة بالقلب ليست قولاً ، كذلك لو سمعت عدة مؤذنين فهل تجيب كل مؤذن ؟ نقول : إذا كانوا يؤذنون في صوت واحد ، بمعنى أن يبدأ الثاني قبل أن يتم الأول فانشغل بالأول ولا عليك بالثاني ، أما إذا سمعت الثاني بعد انتهاء الأول فتابعه ؛ لأنه خير وهو داخل في عموم قول الرسول ﷺ : « فقولوا مثل ما يقول » لكن العلماء - رحمهم الله - قيدوا هذا فيما لو لم يكن قد صلى ؛ فإن كان أذن وصلى ، ثم بعد ذلك سمع أذاناً قالوا : فلا يجبه ؛ لأنه غير مدعو بهذا الأذان ، هو أدى ما فرض عليه فلا يحتاج أن يتابع المؤذن ، ولكن في هذا القول نظر ؛ لأنه مخالف لعموم قول النبي ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول المؤذن » ولم يستثن شيئاً ؛ وقولهم : إنه غير مدعو بهذا الأذان ، نقول إنه غير مدعو به الآن لكن في المستقبل لابد أن يُدعى للصلاة ، والأمر هنا سهل نقول : أجب المؤذن - ولو كنت قد صليت - وأنت على خير ، ولا يضرك شيء . والله الموفق .

* * *

١٠٣٨- وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الثَّنَاءَ ، فَقُولُوا كَمَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ » (١) متفق عليه .

١٠٣٩- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الثَّنَاءَ : اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدُّعْوَةُ الثَّائِمَةُ ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ ، وَالْفَضِيلَةَ ، وَابْتَعْنَهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) رواه البخاري .

١٠٤٠- وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ » (٣) رواه مسلم .

١٠٤١- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الدُّعَاءُ لَا يُرَدُّ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ » (٤) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه الأحاديث بقية باب فضل الأذان ساقها النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي (رياض الصالحين) منها : قول

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦١١) ، ومسلم في الصلاة (١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣) ، والإمام أحمد في المسند (١٨١/١) ، والحاكم في المستدرک (٢٠٣/١) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٢١) ، والترمذي في الصلاة (٢١٢) ، وأحمد في المسند (١٥٥/٣) .

النبي ﷺ : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » ، ومنها من قال حين يسمع النداء : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته » ، ومنها « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، رضيت بالله ربنا وبالإسلام ديننا وبمحمد رسولا » ومنها : « أن الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُرد » (١) .

فأما الحديث الأول : فقد سبق الكلام عليه أنه ينبغي للإنسان إذا سمع النداء أن يقول مثل ما يقول المؤذن كما بينا من قبل .

وأما الحديث الثاني : من قال حين يسمع النداء : يعني : وفرغ المؤذن ، كما دل عليه الحديث السابق ، إذا فرغ المؤذن فإنك تصلي على النبي ﷺ ثم تقول : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه اللهم مقاما محمودا الذي وعدته » . « اللهم رب هذه الدعوة التامة » : هي الدعوة إلى الصلاة والفلاح ؛ لأن ذلك من أتم ما يكون من الدعوات . « الصلاة القائمة » يعني : الصلاة التي ستقام ، لأن النداء إعلان بدخول وقت الصلاة .

« آت محمدا الوسيلة والفضيلة » : يعني أعطه الوسيلة وهي درجة في الجنة أعلى ما يكون من درجاتها وهي للنبي ﷺ . والفضيلة : يعني الميزة والرتبة العالية وقد حصل له ذلك . « وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته » وقد وعده الله ذلك في قوله : ﴿ وَبَيْنَ أَيْدِي فَتَهَجَّدُ بِهِ نُافِلَةً لَّكَ عَنَّا أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ (٢) [الإسراء : ٧٩] ومن هذا المقام المحمود الشفاعة العظمى ، فإن الناس يوم القيامة يلحقهم من الكرب والغم ما لا يطيقون في ذلك اليوم العظيم الذي مقداره خمسون ألف سنة في صعيد واحد يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، عارية أجسادهم ، حافية أقدامهم ، شاخصة عيونهم ، لا يملكون لأنفسهم نفقا ولا ضرا يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . الشمس تدنو منهم قدر ميل ، ولا هناك عوج ولا أمت ولا ظل ، ولا بناء ولا شيء فيطلبون من يشفع لهم عند الله ، فيأتون آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى تصل إلى النبي ﷺ فيقوم ويشفع ، في هذا المقام يحمد الأولون والآخرون ؛ لأن الناس كلهم في هذا المقام ، فإذا تَعَلَّرَ الأنبياء الكرام الكبار : إبراهيم وموسى وعيسى ونوح وآدم أبو البشر ثم قام هذا النبي الكريم فشفع إلى الله فهنا يحمد الأولون والآخرون (٣) . وهذا من المقام المحمود الذي وعده الله ﷻ .

ثم إن هذا الحديث رواه البخاري إلى قوله : الذي وعدته ، لكن قد صحت الزيادة : إنك لا تخلف الميعاد ؛ فينبغي أن يقولها الإنسان ؛ لأنها صحيحة ، ولأن هذا دعاء المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ١٩٤] فهو - جل وعلا - لا

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) وأبو داود في الصلاة (٨٧٦) .

(٢) قوله : ﴿ فَتَهَجَّدُ ﴾ أي صل بالقرآن في بعض الليل ، قوله : ﴿ نُافِلَةً لَّكَ ﴾ أي فريضة زائدة على الصلوات الخمس ، وهي خاصة به ﷺ .

(٣) انظر حديث الشفاعة في : البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠) ، ومسلم في الإيمان (٣٢٧) ، وأحمد في مسنده (٢٨٢ ، ٤/١) .

يخلف الميعاد ؟ لكمال صدقه وكمال قدرته - جلّ وعلا - وإخلاف الوعد إما أن يكون عن كذب من الواعد ، وإما أن يكون عن عجز منه ، والله - جلّ وعلا - أصدق القائلين وأقدر القادرين فهو ﷻ وعد نبيه في قوله : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] وهو - جلّ وعلا - صادق في وعده قادر على تنفيذه .

أما من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ، فهذه تقال إذا قال المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله وكنت معه فقل هذا .

أما آخر الأحاديث : ففيه الحث على الدعاء بين الأذان والإقامة ، وأن الدعاء بينهما حريّ بالإجابة ، فينبغي أن تنتهز هذه الفرصة لعل الله أن يستجيب لك . والله الموفق .

* * *



قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب فضل الصلوات .

الصلوات : هي عبادات معلومة مفتوحة بالتكبير مختمة بالتسليم ، وهي أكد أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وأفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وأنفع أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهي صلة بين الإنسان وربه ؛ لأن الإنسان يقوم بين يدي الله ﷻ يناجيه ، يقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيقول الله : « حمدني عبدي » ، ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ ﴾ فيقول الله : « أثنى عليّ عبدي » ، ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فيقول الله : « مَجْدني عبدي » ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فيقول : « هذا بيني وبين عبدي نصفين » ، ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ : « هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل » ^(١) . محاورة ، مناجاة ، ثم هي أيضاً أفعال وأقوال كلها تعظيم من حين يبدأ الإنسان بقوله : الله أكبر . يعني أكبر من كل شيء ، علماً وسلطاناً وكبرياء وجبروتاً ، وكل شيء في السماوات السبع والأرضون السبع في كفه كخردلة في كف أحدنا ، فكل هذه السماوات على عظمها يطويها يمينه ﷻ ويقبض الأرض على كبرها كقبضة أحدنا بيده على الشيء ، ثم يناجيه بكلام ثم ينحني تعظيماً له بفعله ، ويعظمه بلسانه يقول : سبحان ربي العظيم ، ثم يرفع ثم يسجد وهذا الرفع من أجل الفصل

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٣٢) ، والترمذي في التفسير (١) ، وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) .

بين ركن التعظيم وهو الركوع وركن الذل وهو السجود ، ولهذا قال النبي ﷺ : « أما الركوع فعظموا فيه الرب » ، ثم يسجد ذلاً لله وخضوعاً فيضع أشرف ما به على مستوى أقدامه التي هي أسفل ما به يضع جبهته على الأرض ذلاً لله وخضوعاً لله ﷻ ثم يقول : « سبحان ربي الأعلى » تنزيهاً لربه ﷻ عن السفول ، كأنما يقول : سبحان من تنزه عن السفول ، فكان أعلى فوق كل شيء . فالصلاة عبادة عظيمة - نسأل الله أن يفتح علينا وعليكم حتى نعرف قدرها - ويدلك على فضلها وعظمتها ومحبة الله لها ؛ أنه ما من فريضة فرضت على الرسول ﷺ إلا بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فرضها الله على رسوله منه له مباشرة كلمه بها ، وفرضها عليه في أعلى مكان يصل إليه البشر ، وفرضها عليه في أشرف ليلة كانت لرسوله ﷺ وهي ليلة المعراج ، وفرضها عليه عدداً كبيراً ، خمسين صلاة في اليوم والليلة ؛ لأن الله يحبها ، ولأن ثوابها عظيم ، ولكن من لطف الله أن خففها حتى صارت خمس صلوات عن خمسين صلاة - اللهم لك الحمد - والصلاة لها ثمرات جليلة عظيمة منها :

ما ذكره الله تعالى في الآية التي صدر المؤلف بها هذا الباب ﴿ إِنِ اتَّخَذْتُمُ الصَّلَاةَ تَنَازُلًا فَتَحْشَاءُ وَالنَّكْرُ ﴾ الفحشاء : فواحش الذنوب كالزنا واللواط وما أشبهها ، والمنكر : ما دون ذلك . الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. لكن متى ؟ إذا كانت صلاةً مقامة على الوجه الأكمل ؛ ولهذا نجدنا كثيراً نصلي ولا نجد القلوب تتغير أو تكره الفحشاء أو المنكر ، أو يكون الإنسان بعد الصلاة خيراً منها قبلها ، لا نجد هذا ؛ لأن الصلاة التي نصليها ليست الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وإلا فكلام الله حق ، ووعد صدق ، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا كنت قد هممت بذنب أو كان قلبك يميل إلى المعاصي ، فإنك إذا صليت اتضح ذلك كله ، لكن بشرط أن تكون الصلاة التي تراد منك والتي تريدها أنت لله ﷻ صلاة أكمل ما يكون ، ولهذا يجب علينا - ونسأل الله أن يعيننا - أن نعتني بصلاتنا ، نكملها بقدر المستطاع بجميع أركانها وشروطها وواجباتها ومكملاتها ؛ فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر .

قال بعض السلف : من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بُعداً - نسأل الله العافية - لأنها ليست الصلاة المطلوبة منا ، الصلاة المطلوبة منا أن تكون صلاة بمعنى الكلمة ، كان بعض السلف إذا دخل في صلاته - لا يحس بشيء يغيب عن كل شيء إلا عن الله ﷻ حتى إن عروة بن الزبير رضي الله عنه وهو من فقهاء التابعين أصابت أحد أعضائه آكلة - جروح تتقرح حتى تقضي على الجسم كله - فقرر الأطباء أن تقطع رجله ، حتى لا تسري الآكلة إلى بقية البدن ، وكان في ذلك الوقت لا يوجد (بنج) فقال : أهملوني حتى أدخل في صلاتي . فلما دخل في صلاته قطعوا رجله ، فلم يحس بها ؛ لأن قلبه منشغل مع الله (١) .

والقلب إذا انشغل لا يحس بما يصيب البدن ، انظر إلى الحمالين - مثلاً - يحملون السيارة أو يفرغونها ، فيصاب أحدهم بجرح في يده أو قدمه مع التحميل ولا يحس به ، لأنه مشغول ، فإذا انتهى من العمل أحس بالجرح ، فالإنسان في صلاته لا بد أن يكون مع الله ﷻ لا يذهب قلبه يميناً وشمالاً كما

(١) انظر القصة في : وفيات الأعيان (٢٥٥/٣) ، والمعارف لابن قتيبة ص (٢٢٢) ، وحلية الأولياء (١٧٨/٢) .

هي العادة عند كثير منّا ، ولا تتسلط الهواجس ولا الوسوس^(١) إلا إذا دخل الإنسان في الصلاة ، جاء الشيطان يقول له : اذكر كذا .. اذكر كذا .. افعل كذا ... لا تفعل كذا ... وهذا يخل بالصلاة ، ربما ينصرف الإنسان ما من صلاته شيء وإن كانت تبرأ الذمة ، لكن ما أدرك شيئاً منها ، وكان عمر رضي الله عنه يجهز جيشه في الصلاة ، فأخذ البطالون من هذا أنه لا بأس أن الإنسان وهو في صلاته يوسوس وما إلى ذلك ، لكن تجهيز الجيش جهاد في سبيل الله والجهاد في سبيل الله يجوز أن يدخل على الصلاة ، ولهذا نجد أن الله شرع للمسلمين صلاة الخوف ، فعمر رضي الله عنه يجهز جيشه في صلاته - وهو حاضر القلب - لم يذهب قلبه يميناً ولا شمالاً ، لأنه يعبد الله تعالى وإن كان يجهز الجيش وهو يصلي ، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، وأن يتقبل منا ومنكم إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٠٤٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا يَتَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ » قَالُوا : لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ، قَالَ : « فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَ الْخَطَايَا »^(٢) متفق عليه .

١٠٤٣ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابٍ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ »^(٣) رواه مسلم . « الْعَمْرُ » بفتح الغين المعجمة : الكثير .

١٠٤٤ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي ائْتَارٍ وَذُلًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ لَكَ سِتْرًا يَذْهَبُ السَّيِّئَاتِ ﴾ فقال الرجل : ألي هذا ؟ قال : « لَجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ »^(٤) متفق عليه .

١٠٤٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ ، مَا لَمْ تُغَشَّ الْكِبَائِرُ »^(٥) رواه مسلم .

١٠٤٦ - وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرئٍ مُسْلِمٍ تَحَضَّرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ ، فَيُخْسِنُ وَضُوءَهَا ، وَخُشُوعَهَا ، وَزُكُوعَهَا ، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنْ

(١) الهواجس : هي الخواطر وتصور الفكر . والوسوس : هي الكلام الخفي المختلط (المعجم العربي الأساسي ص : ١٢٥٤ مادة هجس ، وص : ١٣٠٩ مادة وسوس) .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٣) ، قوله : « يباب أحذكم » إشارة إلى سهولته وقرب تناوله ، قوله : « درنه » أي وسخه أو ما علق به من أوساخ .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٤) ، والإمام أحمد في المسند (٤٢٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٦٣/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٧) ، ومسلم في التوبة (٣٩) ، قوله تعالى : ﴿ وَذُلًا مِنْ أَيْلٍ ﴾ هي ساعاته . ويدخل في صلاة طرفي النهار : الصبح والظهر والعصر . وفي زلفاً من الليل : المغرب والعشاء .

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) .

الذُّنُوبِ ما لم تُؤْتِ كَبِيرَةٌ ، وَذَلِكَ الدُّهْرُ كُلُّهُ » (١) رواه مسلم

الشرح

هذه الأحاديث من فضائل الصلوات فقد شبه النبي ﷺ الصلوات بنهر غفر جارٍ . النهر الغمر : الكثير الماء . الجاري : معروف ضد الراكد ، يغتسل منه الإنسان في اليوم خمس مرات ، فهل يبقى من وسخه شيء ؟

الجواب : لا يبقى من وسخه شيء ، فهكذا الصلوات الخمس يحو الله بهن الخطايا حتى يبقى الإنسان طاهرًا نقيًا من الخطايا ، ولكن كما أسلفنا فيما مضى أن هذا في الصلوات التي يتمها الإنسان ، ويحضر قلبه ، ويشعر أنه يتاجي الله ﷻ فإذا تمت الصلاة على المطلوب حصل هذا الثواب العظيم . وكذلك أيضًا من فضائل الصلوات الخمس : أن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهن ما لم تُغَشَّ الكبائر - يعني : ما لم تُفعل - فالصلوات الخمس تكفر الصغائر لكن الكبائر لا ، فالغش مثلًا في المعاملات كبيرة من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعله فقال : « من غش فليس منا » (٢) . فإذا صَلَّى الإنسان الصلوات الخمس - وهو غاشٌ - فإن الغش لا يُكْفَرُ ، لأنه كبيرة من كبائر الذنوب ، الحلف الكاذب في السلعة هذا أيضًا من كبائر الذنوب ، « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المَنَّان ، والمسبل ، والمنفق سلعته بحلف كاذب » (٣) كذلك لو كان الإنسان ينزل ثوبه خِيَلًا فإن هذا من كبائر الذنوب ؛ فإنه لا يُكْفَرُ عنه ذلك إذا صَلَّى بل لو أنزله إلى أسفل من الكعب - ولو لم يكن خِيَلًا - فإنه من كبائر الذنوب فلا يغفر له بصلاته ، لأنه كبيرة . الغيبة أيضًا من كبائر الذنوب ، فإذا اغتاب الإنسان رجلًا واحدًا فقط بين صلاة الفجر والظهر مثلًا فإن صلاة الظهر لا تكفِّر هذه الغيبة ، لأنها من كبائر الذنوب - ولو كانت مرة واحدة لرجل واحد - والغيبة هي التي يسميها العوام الشيبابة يعني : أن يذكر أخاه بما يكره ، لأن النبي ﷺ سئل عنها فقال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره » قال : أرأيت إن كان فيه ما أقول ، قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » (٤) والغيبة تختلف آثامها باختلاف آثارها وعواقبها ، فمثلًا : اغتياب العلماء أشد من العوام ، واغتياب ولاة الأمور أشد من اغتياب من دونهم ، وبهذا نعرف أن هذه

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦٠/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٩٠/٢) ، قوله « ما لم تؤت كبيرة » أي ما لم يعملها . قال النووي : معناه أن الذنوب كلها تغفر إلا الكبائر ، فإنها إنما تكفرها التوبة أو الرحمة ، قوله : « وذلك الدهر كله » أي أن التكفير بسبب الصلاة مستمر في جميع الأزمان لا يختص بزمان دون زمان . (٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤) ، والترمذي في السنن (١٣١٥) ، بلفظه .

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢١٢) ، ومسلم في الإيمان (١٧١-١٧٢) ، والترمذي في السنن (١٢١١) ، وقوله : « ولا يزكيهم » أي لا يطهرهم من دنس ذنوبهم . قوله : « المسبل » هو المرخي إزاره الجار طرفه .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٧٤) ، والترمذي في السنن (١٩٣٤) ، وأحمد في مسنده (٣٨٤/٢) . وقوله : « بهته » بفتح الهاء وتشديد التاء أي قلت عليه البهتان وهو كذب عظيم يهت فيه من يقال في حقه .

النشرات التي توزع بين الناس الآن من الغيبة ، وأن نشرها بين الناس من كبائر الذنوب ، وأن الإنسان يأثم بها إثمًا عظيمًا ، لأنها توجب أن يكره الناس من اغتیبوا فيها ، وأن يتمردوا عليهم ، وتوجب أيضًا إيفار الصدور ^(١) ، وإيقاظ الفتن ، فهي - والعياذ بالله - غيبة لولاء الأمور من أكبر الآثام في الغيبة ، فالذي ينشرها أو يصورها ويوزعها آثم فاعل كبيرة - والعياذ بالله - عليه إثمها وإثم كل من تأثر بها - نسأل الله السلامة والعافية ؛ لأن هذه الأمور لا شك أنها داخلية في الغيبة : ذكر ك أخاك بما يكره .

ثانيًا : ثم ما مصدر هذا الكلام ، من قال : إن هذا الكلام صحيح ، من يقول إنه صحيح ، ولذلك يوجد في بعض النشرات أشياء كذب ليست بصحيحة فتكون جامعة بين الغيبة ، والبهتان والعياذ بالله .

وثالثًا : ماذا يترتب على نشر هذه الأوراق ؟ هل تصلح الأمور ؟ هل يقلع الناس عما وصّفوا به في هذه النشرات ؟ أبدًا . لا يزيد الأمر إلا شدة ؛ لذلك نرى أن توزيع مثل هذه النشرات في غيبة ولالة الأمور من كبائر الذنوب ، وأن الإنسان آثم إذا نشرها أو صورها أو وزعها بين الناس لما فيها من انطباق حقيقة الغيبة عليها ، ثم يتولد عليها مفاصد عظيمة ليست كما لو اغتبت زيدًا أو عمرا ؛ فالأمر يكون عليه شخصيًا ، لكن هذا يترتب عليه أنه ضرر على المقتاب شخصيًا ، وضرر على الأمن ؛ لأنه يوجب إيفار الصدور وكراهة ولالة الأمور ، فنحن نحذر من نشر هذه الأوراق ، ونرى أن من شارك في نشرها أو توزيعها ؛ فإنه آثم فاعل كبيرة من كبائر الذنوب ، ولو كنا نعلم أن الأمور ستصلح بمثل هذا لكان الأمر هينًا ، ولكن الأمور ما تزداد إلا كراهة لولاء الأمور وشر مستطير ، نسأل الله ﷻ أن يجازي من نشرها بما يستحق إنه على كل شيء قدير .

* * *

٨٨ - باب فضل صلاة الصبح والعصر

١٠٤٧ - عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(١) متفق عليه . « الْبَرْدَانِ » : الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ .

١٠٤٨ - وعن أبي زهير عُمَارَةَ بْنِ رُوَيْتَةَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَنْ يَلْجُ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا » بِغْنِي الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ ^(٢) . رواه مسلم .

(١) إيفار الصدور : أي أشعالها غيظًا (المعجم العربي الأساسي ص ١٣٢١ مادة وغر) .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٤) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٥) والبيهقي في السنن (٤٦٦/١) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٣) ، والإمام أحمد في المسند (١٣٦/٤) .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتابه «رياض الصالحين»: باب فضل صلاة الصبح، وصلاة العصر. هاتان الصلاتان تميزتا بفضل ليس في غيرهما: أما الفجر فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّنِيسِ إِلَى عَشِيِّ الْآيِلِ وَفَرَمَانَ الْفَجْرِ إِنَّ فَرَمَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا﴾ ^(١) [الإسراء: ٧٨] يشهده الله وملائكته، وهذه فضيلة عظيمة، واختصت أيضًا بأنها مفصولة عن الصلوات الخمس منفردة بوقتها، فبينها وبين صلاة العشاء نصف الليل الأخير، وبينها وبين صلاة الظهر نصف النهار الأول، لأن وقت العشاء ينتهي بنصف الليل ولا يمتد إلى طلوع الفجر، فإذا انتصف الليل خرج وقت صلاة العشاء وبقي هذا النصف إلى الفجر ليس وقتًا لصلاة مفروضة، لكنه وقت التهجد لمن وفقه الله رحمته الله أما من طلوع الشمس إلى زوال الشمس؛ فليس أيضًا وقتًا لصلاة مفروضة، وإنما هو وقت لصلاة مطلقة كصلاة الضحى وما أشبه ذلك، فتميزت بأنها مشهودة، وبأنها منفردة بوقتها لا يتصل بها ما قبلها ولا تتصل بما بعدها، أما صلاة العصر: فتميزت بأنها الصلاة الوسطى، فإن الصلاة الوسطى بنص الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم هي صلاة العصر ^(٢). وتميزت بأن الله تعالى نوه بفضلها وشرفها حيث خصها بالذكر بعد أن عظم فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ هذا عام ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] يعني: صلاة العصر فخصها بالذكر لفضيلتها. وهناك فضائل وميزات اشتركت فيها صلاة الفجر وصلاة العصر منها ما أشار إليه المؤلف رحمته الله في هذا الباب:

- ١- أن من صلى البردين دخل الجنة، والبردان هما: صلاة الفجر، وصلاة العصر، لأن الفجر يأتي في براد الليل في آخره، والعصر تأتي في براد النهار في آخره، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من صلى البردين دخل الجنة».
- ٢- وكذلك أخبر صلى الله عليه وسلم: «أنه لا يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني: صلاة الفجر، وصلاة العصر. ففي الأول: إثبات دخول الجنة، وفي الثاني: انتفاء دخول النار، فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ رُخِّعَ عَنِ الْكَاكِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ٨٥] نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من المحافظين على الصلوات، والصلاة الوسطى وأن يُخَرِّجَنَا عَلَى النَّارِ ويدخلنا الجنة إنه على كل شيء قدير.

- ١٠٤٩- وعن مجتهد بن سفيان رحمته الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ؛ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَأَنْظِرْ يَا ابْنَ آدَمَ، لَا يَطْلُبُكَ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ» ^(٣) رواه مسلم.
- ١٠٥٠- وعن أبي هريرة رحمته الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ

(١) قوله: ﴿لِذُلُوكِ﴾ أي بعد زوالها وميلها عن وسط السماء ناحية الغرب. وقوله: ﴿عَشِيِّ الْآيِلِ﴾ أي شدة ظلمته.

(٢) وذلك لما رواه: أحمد في مسنده (١٢/٥)، وابن خزيمة في صحيحه (١٣٣٨).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٦١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٦) والترمذي في الصلاة (٢٢٢) بنحوه، قوله: «في ذمة الله» أي في أمان الله وضمائه.

وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ، ثُمَّ يُعْرِجُ الَّذِينَ بَاثُوا فِيكُمْ ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ^(١) متفقٌ عليه .

١٠٥١ - وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : كنا عند النبي ﷺ ، فَنَظَرُ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ : « إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبُّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَعْلُبُوا عَلَى صَلَاةِ قَبْلِ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَبْلِ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ^(٢) متفقٌ عليه . وفي رواية : « فَتَنَظَرُ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ » .

١٠٥٢ - وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ خِطَبَ عَمَلُهُ » ^(٣) رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضيلة صلاة الفجر ، وصلاة العصر فمنها :

الحديث الأول : أن النبي ﷺ قال : « من صلى الفجر ؛ فهو في ذمة الله ﻋﻠﯿﻚ » يعني : في عهده وأمانه « فلا يطالبكم الله من ذمته بشيء » يعني : لا تغدوا ، ولا تعملوا عملاً سيئاً فيطالبكم الله تعالى بما عهد به إليكم ، وهذا دليل على أن صلاة الفجر كالفتاح لصلاة النهار ، بل لعمل النهار كله ، وأنها كالمعاهدة بين الله بأن يقوم العبد بطاعة ربه ﻋﻠﯿﻚ ممثلاً لأمره ، مجتنباً لنهيهِ .

ومن فضائل صلاة الفجر والعصر :

١ - أن الله ﻋﻠﯿﻚ وكل بالعباد ملائكة معقبات يتعاقبون فينا يحفظوننا من أمر الله ﻋﻠﯿﻚ يجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر ، ثم يصعد الذين باثوا فينا إلى الله ﻋﻠﯿﻚ فيسألهم - وهو أعلم - كيف تركتم عبادي ، يسألهم ذلك إظهاراً لشرف العباد ، وتنويهاً بفضلهم ، وليس خفاءً عليه ، لأنه يعلم السر وأخفى ، لكن لإظهار فضيلتهم ، يسألهم : كيف تركتم عبادي ، فيقولون : (أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون) لأنهم يأتون في أول الليل وأول النهار فيتعاقبون في صلاة الفجر وصلاة العصر : هؤلاء ينزلون ، وهؤلاء يصعدون ، وقيد الله ﻋﻠﯿﻚ وقت صعودهم ونزولهم بهاتين الصلاتين لفضلهما ، لأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى ، وصلاة الفجر هي الصلاة المشهودة .

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٠) ، والنسائي في السنن (٢٤٠/١) ، ومالك في الموطأ (١٧٠) ، قوله « يتعاقبون فيكم ملائكة » أي تأتي عليكم طائفة بعد طائفة ؛ وقوله : « يرجع » أي يصعد .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٣) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١١) ، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩) ، قوله « لا تضامون » أي لا ينالكم ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض ، بل تستون كلكم في رؤيته تعالى . (٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥٠/٥) ، والنسائي في السنن (٢٣٦/١) .

٢ - ومن ذلك أيضًا : ما رواه جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر - ليلة الرابع عشر - فقال ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر » يعني يوم القيامة يراه المؤمنون في الجنة كما يرون القمر ليلة البدر ، ليس المعنى أن الله مثل القمر ؛ لأن الله ليس كمثله شيء ، بل هو أعظم وأجل ﷻ وقد قال النبي ﷺ فيما صبح عنه : « حجاب النور لو كشفه لأحرقت شبكات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » ^(١) لكن المراد من المعنى تشبيه الرؤية بالرؤية ، فكما أننا نرى القمر ليلة البدر رؤية حقيقية ليس فيها اشتباه ؛ فإننا سنرى ربنا ﷻ كما نرى هذا القمر رؤية حقيقية بالعين دون اشتباه .

واعلم أن ألد نعيم وأطيب نعيم عند أهل الجنة - أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم - هو النظر إلى وجه الله فلا شيء يعدله ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَسْئَةِ وَزِيَادَةٍ ﴾ [يونس : ٢٦] فشرها النبي ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله ﷻ : اسم تفضيل مؤنث يقابله « أحسن » في الذكر ، فالزيادة : زيادة على الأحسن وهي النظر إلى وجه الله ﷻ : فيقول رسول الله ﷺ لما ذكر أننا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر - : « فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها فافعلوا » والمراد من قوله : « استطعتم ألا تغلبوا على صلاة » أي على أن تأتوا بهما كاملتين .

ومنها : أن تصلي في جماعة : إن استطعتم ألا تغلبوا على هذا فافعلوا . وفي هذا دليل على أن المحافظة على صلاة الفجر ، وصلاة العصر من أسباب النظر إلى وجه الله ﷻ وبإلها من قيمة عظيمة ، حافظ على صلاة الفجر وصلاة العصر تنظر إلى وجه الله يوم القيامة في جنات النعيم .

٣ - ومن فضائل صلاة العصر خاصة : أن من تركها فقد حبط عمله ، لأنها عظيمة ، وقد استدل بهذا بعض العلماء على أن من ترك صلاة العصر كفر ، لأنه لا يحبط الأعمال إلا الردة كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنشَرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) [الأنعام : ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَزِدْكَ مِغْنًا مِّنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَزَيِّدْهُ مِغْنًا مِّنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأُمِّنْهُ بِمَا يَكْفُرُ ﴾ [البقرة : ٢١٧] فيقول بعض العلماء : صلاة العصر خاصة من تركها فقد كفر ، وكذلك من ترك بقية الصلوات عمومًا فقد كفر ، وهذا القول ليس يبعد من الصواب ؛ لأن حبوط العمل لا يكون إلا بالكفر والردة ؛ ففي هذا دليل على عظم شأن هذه الصلاة - صلاة العصر - ولذلك نص الله على المحافظة عليها من بين سائر الصلوات فقال : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ يعني : صلاة العصر ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣) ، وأحمد في مسنده (٤٠١/٤) ، قوله : « شبكات وجهه » أي نوره وجلاله وبهاؤه .

(٢) قوله : ﴿ لَحِطَ عَنْهُمْ ﴾ أي بطل وسقط عنهم . والقائل لهذا هم الخوارج كما قال ابن حجر في فتح الباري (٣٢/٢) وقد فصل المسألة هناك .

١٨٩ - باب فضل المشي إلى المساجد

١٠٥٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ عَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا عَدَا أَوْ رَاحَ » ^(١) متفق عليه .

١٠٥٤ - وعنه : أن النبي ﷺ قال : « مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ، ثُمَّ مَضَى إِلَى نَيْبٍ مِنْ يَنْبُوتِ اللَّهِ ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ ، كَانَتْ خُطْوَاتُهُ ، إِحْدَاهَا تَحُطُّ خَطِيئَةً ، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً » ^(٢) رواه مسلم .

١٠٥٥ - وعن أُتَيْبِ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قال : كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ ، وَكَانَتْ لَا تُحِطُّهُ صَلَاةٌ ! فَقِيلَ لَهُ : لَوْ اشْتَرَيْتَ جِمَارًا تَرَكَبْتُهُ فِي الظُّلُمَاءِ وَفِي الرَّمَضَاءِ ، قَالَ : مَا يَسُرُّنِي أَنْ مَثَرَلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ ؛ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتُبَ لِي تَمَشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ » ^(٣) رواه مسلم .

١٠٥٦ - وعن جَابِرٍ رضي الله عنه قال : خَلَّتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ ، فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ لَهُمْ : « بَلِّغْنِي أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ ، فَقَالَ : « بَنِي سَلَمَةَ ! دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ ، دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ » فَقَالُوا : مَا يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا نَحْوَلُنَا ^(٤) . متفق عليه ، وروى البخاري معناه من رواية أنس .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : (باب فضل المشي إلى المساجد) . المشي للمساجد : يعني : الصلاة فيها ، والمشي إلى المساجد يكون لأسباب متعددة ، مثلاً لحضور درس ، قراءة القرآن ، إصلاح شيء فيها ، أو غير ذلك ، لكن من جاء إلى المساجد للصلاة فهذا المقصود من هذا الباب ، ففي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح كتب الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح » .

« غدا » : يعني ذهب في الصباح . « راح » : يعني ذهب في العشي بعد الزوال ، فإنه يكتب له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح .

ونحن - ولله الحمد - نغدو إلى المساجد ونروح في كل يوم وليلة خمس مرات فيكتب للإنسان نزل

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٢٨٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٢) ، والبيهقي في السنن (٦٢/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٧٨) ، قوله : « لا تخطئه صلاة » أي لا تفوته صلاة في جماعة ، قوله : « في الظلماء » أي في ظلمة الليل ، قوله « في الرمضاء » أي في وقت الحر الشديد .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٠) ، والبخاري في الأذان (٦٥٥ ، ٦٥٦) ، من طريق آخر .

في الجنة يعني : ضيافة في الجنة ، هذه من فضائل المشي إلى المساجد ، ومن فضائلها أيضًا : أن الإنسان إذا تطهر في بيته وخرج إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة ففي الحديث الذي ساقه المؤلف هنا : أنه لا يخطو خطوة إلا رفع الله له بها درجة ، والخطوة الثانية يحط عنه خطيئة ، لكن في حديث آخر : « أنه لا يخطو خطوة إلا رفع الله له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئة » ^(١) فيكتسب في الخطوة الواحدة رفع الدرجة وحطَّ الخطيئة بشرط أن يتوضأ في بيته ويسبغ الوضوء ، ثم يخرج إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة ، فهذا له بكل خطوة يخطوها أن يرفع الله له بها درجة ويحط عنه خطيئة ، وهذه نعم عظيمة من الله ﷻ ومن فوائد ذلك : أنه ينبغي للإنسان أن يأتي إلى المسجد ماشيًا ويرجع ماشيًا فهو الأفضل ، ودليل ذلك قصة الأنصاري الذي كان بعيد الدار قليل له : لو اشتريت حملاً تركبه في الظلماء والرمضاء . فقال : لا ، فأنا أحسب على الله خطايا ، فقال النبي ﷺ : « قد كتب الله لك ذلك كله » ^(٢) فدل ذلك على أن الحجيء إلى المسجد على القدمين أفضل من الحجيء على مركوب ، لأنه يحسب لك أجر الخطأ ، ولكن إذا كان الإنسان معذوراً فلا بأس أن يأتي بالسيارة ، وخطوة السيارة دورة لعجلتها إذا دار عجلها دورة واحدة فهذه خطوة ، لأنه عند دورانه يرتفع الذي باشر الأرض ثم يدور حتى يرجع ثانية إلى الأرض ، فهو كرفع القدم من الأرض ثم وضعها مرة ثانية ، فإذا كان الإنسان معذوراً ؛ فلا بأس أن يأتي بالسيارة ، وهذا أيضًا من فضائل المشي إلى المساجد : أن الله تعالى يكتب للإنسان الخطوات كلما ذهب وكلما رجع ، ومما يدل أيضًا على فضل المشي إلى المساجد (ولو بعدت) حديث جابر في بني سلمة يقول : خلا ما حول المسجد - يعني : من المنازل - فأراد بنو سلمة أن يأتوا المسجد ويقربوا منه ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسألهم عن ذلك قالوا : نعم . أردنا أن نتحول لنقرب من المسجد فقال : « يا بني سلمة : دياركم تكتب آثاركم » يعني : الزموا دياركم ولا تقربوا تكتب آثاركم ، فدل هذا على أنه كلما كان منزل الإنسان أبعد من المسجد فإنه أكثر أجراً ، لأنه قال : « تكتب آثاركم » ، ولكن لا يعني هذا أن الإنسان يتقصّد أن ينزل بعيداً من المسجد ، لكن إذا قدر ألا يصلّي إلا في المكان البعيد أو كانت ديار قوم أو ما أشبه ذلك ، فإنه يكتب آثاره ؛ فدل ذلك على فضيلة المشي إلى المساجد ، وفضل الله واسع وعطاؤه كثير ، يعطي على العمل القليل الأجر الكثير - نسأل الله لنا ولكم من فضله العظيم - .

* * *

١٠٥٧ - وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَكْبَرَ النَّاسِ أَجْراً فِي الصَّلَاةِ أَنْبَعُهُمْ إِلَيْهَا مَعَشَى ، فَأَبْعَدُهُمْ ، وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ حَتَّى يُصَلِّيَهَا مَعَ الْإِمَامِ أَكْبَرُ أَجْراً مِنَ الَّذِي يُصَلِّي ثُمَّ يَنَامُ » ^(١) متفق عليه .

١٠٥٨ - وعن بُرَيْدَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « بَشُرُوا الْمُشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ النَّامِ

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥٧) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٢٧٨) ، وأحمد في مسنده (١٣٣/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥١) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٧٧) .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١) رواه أبو داود ، والترمذي .

١٠٥٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَلَا أَدْلِكُكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « إِشْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فِذْلُكُمْ الرِّبَاطُ ، فَذِلُّكُمْ الرِّبَاطُ »^(٢) رواه مسلم .

١٠٦٠ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَغْتَاذُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ ، قَالَ اللَّهُ ﻻ : ﴿ إِنَّمَا يَصْغُرُ مَنْسُجُ اللَّهِ مِنْ مَّامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية^(٣) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه بقية الأحاديث في فضل المشي إلى المساجد ، ذكر الحديث الأول : أن النبي ﷺ قال : « أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم مشى فأبعدهم » وذلك لما سبق من أن الإنسان إذا تطهر في بيته وخرج إلى المسجد لا يخرج إلا بالصلاة ، لم يخطئ خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحط عنه خطيئة ، ولا تزال الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه^(٤) . فإذا كان يبتعد عن المسجد ، ولم يمنع البعد من حضور الجماعة ؛ فإنك أعظم أجراً من القريب ، لأن القريب ليس له عذر ، يسهل عليه الوصول للمسجد ، أما البعيد : فقد يكون له شيء من العذر لبعدة ، ومع ذلك يتجشم البعد ويأتي إلى المسجد ، ويصلي مع الجماعة ، فكان هذا أفضل ، ثم ذكر أن الذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أفضل من الذي يصلي ثم ينام ، وهذا في صلاة العشاء ، فإن المشروع في صلاة العشاء أن تؤخر إلى ثلث الليل ، لأن النبي ﷺ صلى العشاء ذات يوم وقد مضى عامة الليل وقال : « إنه لوقتها ، لولا أن أشق على أمتي »^(٥) فهذا الذي صلى وحده ونام ؛ لأنه يشق عليه أن ينتظر صلاة الجماعة لكونهم يؤخرونها نقول له : إذا انتظرت وصليت مع الجماعة فهو أفضل ، وأما إذا كان الإمام يصلي على العادة ؛ فإنه لا يجوز للإنسان أن يصلي ثم ينام ؛ لأن صلاة الجماعة واجبة حتى إن النبي ﷺ قال : « لقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ، ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم أنطلق برجال معهم حزم من حطب لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار »^(٦) ثم ذكر الحديث الذي أخرجه الترمذي قال : « بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » وهذا الحديث ضعيف ،

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٦١) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٣) ، قوله : « المشائين » أي كثيري المشي في الظلام لحضور الصلاة ، قوله « النور التام » أي : النور المتلألئ يوم القيامة الذي عبر عنه قوله تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بِيَدِهِمْ وَإِيمَانُهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ . (٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٤١) .

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٢) ، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٨٠٢) ، والإمام أحمد في المسند (٦٨/٣) . (٤) سبق تخريجه .

(٥) أخرجه مسلم في المساجد (٢١٩) ، والنسائي في السنن (٢٦٧/١) ، وأحمد في مسنده (١٥٠/٦) .

(٦) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤٢٠) ، ومسلم في المساجد (٥٢) ، وأبو داود في الصلاة (٥٤٨) ، وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢) .

لكن لا شك أن الذي يذهب إلى المسجد في الظلم فإن جزاءه من جنس العمل ، يعني كما تجشم الظلم وأتى إلى المساجد فإنه يكتب له النور يوم القيامة ، وأضعف منه الحديث الذي بعده : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » ؛ فإن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا يَعْزَّزُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [التوبة: ١٨] هذا أيضًا حديث ضعيف لا يصح رفعه إلى رسول الله ﷺ لكنه يكفي في فضل المشي إلى المساجد ما سبق من الأحاديث الصحيحة الواضحة نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإخلاص في العمل والموافقة لما يرضاه جلّ وعلا .

١٩٠ - باب فضل انتظار الصلاة

- ١٠٦١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه ، لا يمتعه أن يتقلب إلى أهله إلا الصلاة » ^(١) متفق عليه .
- ١٠٦٢ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاة الذي صلى فيه ، ما لم يحدث ، تقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » ^(٢) رواه البخاري .
- ١٠٦٣ - وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخر ليلة صلاة العشاء إلى شطر الليل ، ثم أقبل علينا بوجهه بعد ما صلى فقال : « صلى الناس ووقفوا ولم تزلوا في صلاة منذ انتظروكموها » ^(٣) رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل انتظار الصلاة سواء كان ذلك بعد صلاة سابقة أو تقدم الإنسان إلى المسجد ينتظر الصلاة ، فقد بين النبي ﷺ في هذه الأحاديث أن الإنسان ما دام ينتظر الصلاة فإنه في الصلاة ، وبين أيضًا أن الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث تقول : « اللهم صل عليه ، اللهم اغفر له اللهم ارحمه » وقوله : « ما لم يحدث » قيل : ما لم يحدث حدثًا في الإسلام ؛ يعني ما لم يعص . وقيل : ما لم يحدث حدثًا ينقض الوضوء ؛ لأنه إذا أحدث حدثًا ينقض الوضوء ؛ فإنه يطل الصلاة فيمنع أن يكون في صلاة ، وأيًا كان ففيه دليل على فضيلة انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وعلى فضيلة انتظار الصلاة وإن لم يكن بعد الصلاة ، فيؤخذ من هذا أنه ينبغي للإنسان أن يتقدم إلى المسجد ، ثم ذكر قصة تأخير النبي ﷺ صلاة العشاء إلى نصف الليل ؛ يعني أنه لم ينته منها حتى

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٩) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٧٥) ، والبيهقي في السنن (٦٥/٣) ، قوله : « لا يزال أحدكم في صلاة » أي من حيث الثواب لا في سائر الأحكام .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٩) ، قوله : « تصلي على أحدكم » أي تستغفر له ، قوله : « ما لم يحدث » أي ما لم يأت بشيء ينقض الوضوء .

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٢) والإمام أحمد في المسند (٣٦٧/٣) .

منتصف الليل والصحابة ينتظرون النبي ﷺ فلما انصرف من صلاته قال : « إن الناس صلُّوا وناموا وإنكم ما تزالون في صلاة ما انتظرتُم الصلاة » . فكانت من وقت العشاء إلى نصف الليل أي إلى أن صلى النبي ﷺ ، والصحابة في انتظاره ، ولا يزالون في صلاة ما انتظروا الصلاة ، وفي هذا الحديث : دليل على أن الأفضل تأخير صلاة العشاء ، وهو كذلك إلا إذا كان يشق على الناس أو على بعضهم ، فالأفضل أن يُقدِّموا ، وعلى هذا فإذا كانوا جماعة في سفر أو في غير سفر أو في بلد لا تُقام فيها جماعات ؛ فإن الأفضل أن تؤخر الصلاة إلى قريب من منتصف الليل ، لأن النبي ﷺ قال : « إنه لوقتها لولا أن أشتَّى على أمتي » ^(١) وكان ﷺ في صلاة العشاء إذا رآهم اجتمعوا عجل ، وإذا رآهم أبطؤوا أخر . والله الموفق .

* * *

١٩١ - باب فضل صلاة الجماعة

١٠٦٤ - عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة » ^(٢) . متفق عليه .

١٠٦٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي شوقه خمسين ضعفا ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجها إلا الصلاة ؛ لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه بها خطيئة ، فإذا صلى ؛ لم تزل الملائكة تَصلي عليه ما دام في مُصلَّاه ، ما لم يُحدث ، تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » ^(٣) متفق عليه . وهذا لفظ البخاري .

الشرح

قال النووي رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب فضل صلاة الجماعة يريد بذلك رحمته الله بيان فضل الصلاة مع الجماعة ، وقد اتفق العلماء على أن صلاة الجماعة من أفضل العبادات وأجل الطاعات ، لكن اختلفوا هل هي سنة ، أم واجب ، أم شرط لصحة الصلاة ، على أقوال ثلاثة :

١ - أنها سنة ، إن قام بها الإنسان أثيب على ذلك ، وإن تركها فلا إثم عليه ^(٤) .

٢ - أنها واجبة ، يجب على الإنسان أن يصلي مع الجماعة فإن لم يفعل فهو آثم وصلاته

صحيحة ^(٥) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٥) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٤٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٧) .

(٤) هذا هو رأي المالكية (انظر أسهل المدارك (٢٣٩/١) وفقه الكتاب والسنة (٥٦٢/١) ،

(٥) وهذا هو رأي الحنابلة والظاهرية (انظر غاية المنتهى ١٨١/١ ، وفقه الكتاب والسنة ٥٦٣/١) .

٣ - أن الجماعة شرط لصحة الصلاة ، وأنه إذا لم يُصلَّ مع الجماعة فصلاته باطلة ، ولا تقبل منه . وهذا الأخير اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية (١) رحمته الله ورواية عن الإمام أحمد : أن الإنسان إذا صَلَّى وحده بدون عذر شرعي فإن صلاته لا تقبل ، كالذي يصلي بغير وضوء ، وعللوا ذلك بأن صلاة الجماعة واجبة .

والقاعدة : أن من ترك واجباً في الصلاة بطلت صلاته .

لكن القول الراجح : أنها واجبة يأثم الإنسان بتركها ، ولكنه إذا صَلَّى وحده قبلت صلاته ، فليست شرطاً لصحة الصلاة ، ويدل على هذا حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة » . ووجه الدلالة أنه لو كانت صلاة المنفرد لا ثواب فيها ما صحت المفاضلة ولكن يأثم الإنسان الذي لا يصلي مع الجماعة .

وأما حديث أبي هريرة : فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المرء في بيته وفي سوقه بخمسين وعشرين ضعفاً ، ولا منافاة بين الحديثين بل يؤخذ بالزائد ؛ لأن فضل الله واسع ، ثم بين ذلك : « وذلك أنه إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء - يعني : أتمه - ثم خرج من بيته إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة ؛ لم يخط خطوة ؛ إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه بها خطيئة » الخطوة الواحدة فيها فائدتان :

١ - أنه يرفع له بها درجة . ٢ - أنه يحط عنه بها خطيئة .

فإذا دخل المسجد وصلى ؛ « لم تزل الملائكة تُصلي عليه ما دام في مصلاه تقول : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، ما لم يحدث ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » وهذا أجر عظيم ، وفضل كبير ، لا ينبغي للرجل المؤمن العاقل أن يُفِرط فيه ، لو أنه قيل لك : إن سلعتك إذا بعته في بلدك بعته بمائة ، وإذا بعته في بلد آخر بالسفر إليه بعته « بمائة وعشرة » لسافرت من أجل عشرة بالمائة ، ولم يشق عليك السفر ، والكثير من الناس - والعياذ بالله - حرموا الخير ، تجدهم قريبين من المسجد يتركون هذا الفضل العظيم وهذا المكسب العظيم ، الواحد بسبع وعشرين يعني أضعاف ، ومع ذلك لا يأتي إلى المسجد - نسأل الله العافية - وربح الدنيا - مع قلته - يسعى إليه ويهتم به مع أنه زائل ، فإن كل ما في الدنيا من نعيم فإما زائل عنك ، وإما زائل أنت عنه ، ولا بد ، فما من نعيم دائم ولا إقامة دائمة ، ونعيم الآخرة باقي ، ومع ذلك نجد بعض الناس يفرط فيه ، ولا يهتم به ، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء - نسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

١٠٦٦ - وعنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ أعمى ، فقال : يا رسول الله ، ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُرَخَّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ ، فَرَخَّصَ لَهُ ، فَلَمَّا وُلَّى دَعَاهُ فَقَالَ

(١) انظر القواعد النورانية للفقهاء لابن تيمية (ص ٢٧) .

- له : « هَلْ تَسْمَعُ النَّدَاءَ بِالصَّلَاةِ ؟ » قال : نَعَمْ ، قال : « فَأَجِبْ » ^(١) رواه مسلم .
- ١٠٦٧ - وعن عبد الله - وقيل : عمرو بن قيس المعروف بابن أم مكتوم المؤذن رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله إن المدينة كثيرة الهوام والسباع . فقال رسول الله ﷺ : « تَسْمَعُ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ، فَحَيَّهَا » ^(٢) . رواه أبو داود بإسناد حسن ، ومعنى « حَيَّهَا » : تعال .
- ١٠٦٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُمَرَ بِحَطْبٍ فَيُحْتَطَبَ ، ثُمَّ أُمَرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ، ثُمَّ أُمَرَ رَجُلًا فَيُؤَمُّ النَّاسَ ، ثُمَّ أَخَالَفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحْرِقَ عَلَيْهِمْ بِيوتهم » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة في بيان وجوب صلاة الجماعة ، وأن تكون في المسجد فمنها حديث أبي هريرة الأخير : أن النبي ﷺ أقسم - وهو الصادق الباطن بدون قسم - أنه هم أن يأمر بالصلاة فتقام ، ثم يأمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم ينطلق بحزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فيحرق عليهم بيوتهم بالنار . وهذا يدل على وجوب صلاة الجماعة ؛ لأن النبي ﷺ لا يهم هذا الهم ؛ إلا لترك أمر واجب ، ولا يخبر الناس بذلك ؛ إلا ليحذرهم من تركه ومخالفته ، وإلا لم يكن هناك فائدة ، وكونه ﷺ هم أن يعاقبهم هذه العقوبة دليل على تأكيد الجماعة وأنها أمر مهم ، وقد روي بسند ضعيف أنه قال : « لولا ما في البيوت من النساء والذرية » ^(٤) لكن هذا ضعيف ، ولكن يكفي أن يكون هم بذلك وأخبر الأمة به .

ثم من الذي تجب عليه الجماعة ؟ هو الذي يستطيع أن يصل إليها - وهو يسمع النداء - ولهذا استفتى النبي ﷺ رجل قال يا رسول الله : إنني رجل أعمى وليس لي قائد يقودني إلى المسجد - يريد أن يُرخص له النبي ﷺ - فرخص له ، فلما أدبر ناداه ، قال : « هل تسمع النداء ؟ » قال : نعم ، قال : « فأجب » ، فدل ذلك على وجوب صلاة الجماعة على الأعمى ، وأن العمى ليس عذراً في ترك الجماعة ، ودل ذلك أيضاً على أنها تجب في المسجد ، وأنه ليس المقصود الجماعة فقط بل الجماعة وأن تكون في المسجد ، ودل ذلك أيضاً على أن العبرة بسماع النداء ، ولكن المراد سماع النداء المعتاد وليس بالميكروفون ، ودل ذلك أيضاً على أنه لا يصح اقتداء من كان خارج المسجد بمن في المسجد ولو أمكنه أن يقتدي به يعني - مثلاً - لو كان الإنسان عند بيت بجوار المسجد وهو

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٥٣) ، قوله : « الهوام » هي خشاش الأرض المؤذية كالأفمى والعقرب ، قوله « فحيها » كلمة حث واستعجال وضعت موضع أجب . وقيل : حي بمعنى أقبل ، وهلا بمعنى أسرع .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٢/٢) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٦٨/١) .

يسمع تكبيرات الإمام فقال لابنه - مثلاً - نصلي مع الإمام جماعة في بيتنا ؛ فإن ذلك لا يصح ، لأنه لا بد من حضور المكان الذي تقام فيه الجماعة ، إلا أنه إذا امتلأ المسجد ، وصلى الناس في الأسواق ، فإن الذين خارج المسجد يكونون تبعاً لمن في المسجد في اتصال الصفوف ، وإلا فبدون اتصال الصفوف ؛ فإن من كان خارج المسجد لا تصح صلاته مع أهل المسجد ، لا بد من الحضور حتى لو كان يسمع كل التكبيرات ، فإذا قال قائل : إذا كان مريضاً ولا يستطيع الحضور لكن يسمع النداء ، بواسطة الميكروفون يتابع الإمام ؟

قلنا : لا يصلي مع الإمام ، هو معذور في ترك الجماعة ، وإذا كان من عادته أنه يصلي مع الجماعة ؛ فإنه يكتب له ما كان يعمل لما كان صحيحاً ؛ لقول النبي ﷺ « من مرض أو سافر ؛ كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » ^(١) . والله أعلم .

* * *

١٠٦٩ - وعن ابن مسعود ؓ قال : مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى غَدًا مُسْلِمًا ؛ فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ ، حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى ، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ ؛ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ؛ لَضَلَلْتُمْ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُتَافِقٌ مَعْلُومُ التَّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ . رواه مسلم . وفي رواية له قال : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى ، وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى : الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَذَّنُ فِيهِ ^(٢) .

الشرح

ساق المؤلف ﷺ في باب فضل الجماعة هذا الأثر عن عبد الله بن مسعود ؓ هذا الأثر الذي كأنما يخرج من مشكاة النبوة ، كأنه من كلام الرسول ﷺ في سلاسته وحسنه ونظمه ، يقول : ﷺ من سره أن يلقى الله غدا مسلما ؛ فليحافظ على هذه الصلوات حيث يُنادى بهن - وكلنا يسره أن يلقى الله تعالى مسلما مؤمنا به - جل وعلا - فمن أراد ذلك فليحافظ على هؤلاء الصلوات الخمس حيث يُنادى بهن - أي : في المكان الذي نادى به عليهن ، أي : المساجد - وذلك لوجوب صلاة الجماعة في المسجد ، فلا يجوز لأحد يقدر على أن يصلي في المسجد إلا وجب عليه إذا كان من أهل وجوب الجماعة كالرجال ، ثم ذكر ﷺ أن الله ﷻ شرع لنبيه ﷺ سنن الهدى - يعني طرق الهدى - فكل ما جاء به النبي ﷺ فهو هدى ونور شرعه الله له : « وإنهن - يعني الصلوات الخمس - من سنن الهدى » وصدق ﷺ بل الصلوات الخمس أعظم سنن الهدى بعد الشهادتين ، لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، ثم قال : « لو أنكم صليتم في بيوتكم كما صلى هذا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٥/٦) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٤/١٠) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٠٨/٢) ، وقوله « سنن الهدى » أي طريق الصواب .

المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم » - يعني : لو أن كل واحد صلى في بيته كما صلى هذا المتخلف لتركنا السنة ، ولتعطلت المساجد ، ولانقطع الناس بعضهم عن بعض ، ولما تعارفوا ولا تألفوا ، ولا حصل هذا المظهر العظيم في الدين الإسلامي ، ولكن من رحمة الله وحكمته أن شرع للعباد أن يصلُّوا جماعة ، كلُّ يوم خمس مرات ؛ تلقى أخاك تسلم عليه ويسلم عليك وتقنّدي معه على إمام واحد ، فهي نعمة عظيمة من أعظم روابط الأخوة في المودة والمحبة ، ثم قال : « ولقد رأيتُ ما يتخلف عنها إلا منافق » والمنافقون كثيرون لاسيما إذا اعتزَّ الإسلام وقوي ما استطاع الإنسان أن يعلن كفره ؛ ولهذا لم يبرز النفاق ولم يكثُر في عهده ﷺ إلا حين انتصر المسلمون في غزوة بدر ، لما انتصر المسلمون في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة بدأ النفاق يظهر ، خاف الكفار على أنفسهم فصاروا يعلنون الإسلام حتى إنهم يأتون إلى الرسول ﷺ يقولون : ﴿ تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ فيقول الله ﷻ : ﴿ وَاللَّهِ يَظْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَفِيعِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] يعني : ما قالوا صدقاً بل قالوا بالسنتهم ما ليس في قلوبهم يقول : « ما يتخلف عنها إلا منافق » : لماذا يتخلف المنافق ؟ لأن المنافق لا يرجو ثواباً ، ولا يؤمن بالحساب ، فلا يحضرها ؛ ولهذا قال الرسول ﷺ : « أثقل الصلوات على المنافقين : العشاء ، والفجر » (١) ؛ لأن صلاة العشاء لا تروى فيها الذي يتخلف ففي عهد النبي ﷺ لم يكن يوجد كهرباء ولا أنوار فيتخلف الإنسان ولا يُدْرى عنه ، ثم إن صلاة العشاء والفجر تأتي في وقت الراحة والنوم ، فهي ثقيلة على المنافقين لا يأتون إليها ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ، ثم ذكر ﷺ أن الرجل من المسلمين يؤتى به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف ، فهو رجل مريض لا يستطيع أن يمشي وحده ، يهادونه : يمشون به رويداً رويداً حتى يُقام في الصف فيصلِّي مع الجماعة ﷻ وبهذه الأعمال وغيرها ملكوا مشارق الأرض ومغاربها ، ولما تخلفت الأمة الإسلامية واختلفت قلوبها ، صارت إلى ما ترون الآن : أمة ذليلة - على أنهم يبلغون ملياراً من البشر ومع ذلك هم في أذل ما يكون من الأمم ، لأنهم متفرقون ، بل بعضهم متعادون ، بل بعضهم يرى أن الآخر أشدُّ عليه من اليهود والنصارى - والعياذ بالله - لأنهم متنازعون متفرقون لكن في عهد الرسول ﷺ لا يمكن أن يتخلف أحد عن الجماعة حتى ولو كان مريضاً يؤتى به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف ، فلو أننا عدنا إلى ما كان الصحابة عليه لصرنا أمة عزيزة مرموقة الكل يخافها ، والكل يصانعها ، والكل يتودد إليها - نسأل الله أن يعيد لنا مجدنا لديننا ويعيد لنا كرامتنا إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٠٧٠ - وعن أبي الدرداء ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ مِنَ (١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب رقم (٢٠) ذكر العشاء والعمّة ، وأحمد في مسنده (٢٤٢/٢) ، وأبو داود في الصلاة (٥٥٤) .

الغنم القاصية» (١) رواه أبو داود بإسناد حسن .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) في باب فضل الجماعة فيما نقله عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو - يعني : ولا بادية - لا تقام فيهم الجماعة إلا استحوذ عليهم الشيطان » يعني : معنى ذلك : أنه إذا كان ثلاثة في قرية أو في بادية لا تقام فيهم الجماعة - ولا الجمعة - إلا استحوذ عليهم الشيطان ، فدل ذلك على أنه لا يجوز ترك الجماعة ، ولكن هذا الحديث يفيد أنه لا يجوز إذا كانوا ثلاثة فأكثر ، لكن هناك أحاديث أخرى تدل على أن الجماعة تجب إذا كانا « اثنين فأكثر » أما في الجمعة ، فلا تجب إلا إذا كانوا ثلاثة فأكثر في غير البرية (٢) أما البادية والمسافرون في البر ؛ فليس عليهم جمعة ، لكن القرى والأمصار فيها جمعة ، وأدنى ما يكون ثلاثة ، فإن قيل : كيف يمكن أن تكون قرية أو مدينة ليس فيها إلا ثلاثة ، فالجواب : يمكن هذا بأن تكون هذه المدينة مسافرين جاءوا للدراسة مثلاً (كما يوجد الآن في المجتمعات في بعض البلاد الخارجية) يكون من فيها من المواطنين ثلاثة فقط والباقيون كلهم مسافرون جاءوا للدراسة ؛ فهؤلاء تلزمهم الجمعة ؛ لأن فيها ثلاثة مواطنين ، وأما البادية فلا تجب عليهم الجمعة ؛ لأن الجمعة لا تكون إلا في القرى والأمصار ؛ ولهذا لم تكن البادية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهم حول المدينة يقيمون الجمعة ، وفي قوله : « وعليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية من الغنم » دليل على أنه لا ينبغي للمسلمين الافتراق والاختلاف ، وأنه واجب عليهم الاجتماع ، وأن الشرود عن الجماعة سبب في الهلاك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم شبه ذلك بالقاصية من الغنم البعيدة يأكلها الذئب فتهلك ، فهكذا الذي يشذ عن الجماعة حتى لو برأى ينفرد به ويظن أن النصوص معه وتدل عليه ، فإن الواجب إذا رأى الإنسان في رأي أن النصوص تدل على خلاف ما يراه الجمهور ، فالواجب عليه أن يعيد النظر مرة بعد أخرى ؛ إذ لا يمكن أن يكون الجمهور توهماً وأنت الذي أصبت ، ولهذا لما قال حذيفة لابن مسعود رضي الله عنه : إن قومًا يعتكفون في البصرة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا اعتكاف إلا في ثلاثة مساجد : الحرام ، والنبوي ، والأقصى » (٣) - قال : لعلمهم ذكروا ونُسيت ، وحفظوا . فوهم ابن مسعود حذيفة ، وذلك لأن المسلمين يكادون يجمعون على أن

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٤٧) ، والنسائي في السنن (١٠٦/٢) ، وقوله « استحوذ عليهم الشيطان » أي غلبهم وحولهم إليه ، قوله « فعليك بالجماعة » أي الزم الجماعة ؛ فإن الشيطان بعيد عن الجماعة ويستولي على من فارقه ، قوله : « القاصية » أي المنفردة عن الأغنام .

(٢) هذا هو قول الأحناف ولكنهم اختلفوا هل هم ثلاثة سوى الإمام أم ثلاثة بالإمام ، فذهب أبو حنيفة ومحمد بأن العدد الذي تصح به الجمعة ثلاثة سوى الإمام ولا يشترط كونهم ممن حقر الخطبة ، ووافقهم على ذلك الأوزاعي وأبو ثور والثوري والليث . أما أبو يوسف فقال أن أقلهم اثنان سوى الإمام ووجه قوله أن الشرط أداء الجمعة بجماعة وقد وجد ؛ لأنهما مع الإمام ثلاثة وهي جمع مطلق ، ولهذا يتقدمهما الإمام ويصطفان خلفه . (انظر فقه الكتاب والسنة ٢٩١٥/٥ ، بدائع الصنائع ٢٦٨/١) .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٤٠/٨) .

الاعتكاف يصح في كل مسجد ، وأنه لو فرض صحة حديث حذيفة لكان معناه لا اعتكافاً تاماً إلا في هذه المساجد الثلاثة ، وإلا فلا يمكن أن يخاطب الله بالقرآن الكريم الأمة الإسلامية يقول : ﴿ وَلَا تَبْتَغُوا مِنْهُ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ فِي الْمَسْجِدِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ثم نقول : لا اعتكاف إلا في ثلاثة مساجد لا يحضرها ولا واحد بالمائة من المسلمين ، هذا خلاف البلاغة وخلاف الفصاحة ، لكن بعض الناس يحب الإغراب في الشيء ، يحب أن يذكر ، ومن أمثال العامة : خالف تذكر ، هو إن شذ وخالف ما عليه الجماعة اشتهر ، ولهذا تجد بعض الناس يفتي بأقوال شاذة ما لها دليل ، مخالف للدليل ورأي الجمهور ، ثم يشتهر بهذا ، وقد شبه النبي ﷺ الشاذ عن الجماعة بالقاصية من الغنم يأكلها الذئب . والله الموفق .

١٩٢ - باب الحث على حضور الجماعة في الصباح والعشاء

١٠٧١ - عن عثمان بن عفان ؓ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ ، فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ ، فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ » رواه مسلم . وفي رواية الترمذي عن عثمان بن عفان ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ شَهِدَ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ قِيَامُ نِصْفِ لَيْلَةٍ ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ ، كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ » (١) قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

١٠٧٢ - وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا » (٢) متفق عليه . وقد سبق بطوله .

١٠٧٣ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُتَأَفِّقِينَ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا » (٣) متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه (رياض الصالحين) : (باب فضل صلاة الفجر ، وصلاة العشاء) - يعني في جماعة - ونص على هاتين الصلاتين لما فيهما من الأجر الكثير ، ففي حديث عثمان بن عفان ؓ : « أَنْ الْإِنْسَانَ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ » . أي : فكأنه قام يصلي الليل كله ، العشاء نصف الليل ، والفجر نصف الليل ، وهذا فضل عظيم ، يعني كأنك قائم الليل كله وأنت في فراشك ، إذا صليت الفجر في جماعة والعشاء في جماعة ، وقال (كما في حديث أبي هريرة : « لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا » .

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٦٠) ، وأبو داود في الصلاة (٤٨) ، والإمام أحمد في المسند (٥٨/١) ،

والترمذي في الصلاة (٢٢١) . (٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٤) ، ومسلم في الصلاة (١٢٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٧) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥٢) بنحوه .

« العتمة » هي العشاء ، و« الفجر » معروف ، لو يعلمون ما فيهما من الأجر والثواب لأتوهما يحبون على الأرض كما يحبو الصبي ، لما فيهما من الأجر العظيم ، وكذلك الحديث الذي بعده لأبي هريرة أيضًا : أن أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء ، وصلاة الفجر ، لأن المنافقين يصلون رياءً وشمعة ، وصلاة العشاء والفجر ظلمة لا يشاهدون ، فهم يأتون إليهما كرهاً ، لكن الظهر والعصر والمغرب يأتون ، لأن الناس يشاهدونهم ، فهم يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلاً ، والعشاء والفجر ما فيهما مراعاة ، لأنها ظلمة ، وفي عهد النبي ﷺ لم تكن توجد أنوار ولا شرج فلا يشاهدهم أحد ، فيكون حضورهم الفجر والعشاء ثقیلاً عليهم لفوات المراعاة ، هذا من وجه ، ومن وجه آخر أن صلاة العشاء والفجر وقت الراحة والنوم ، ففي عهد الرسول ﷺ كان الناس لا يسهرون كما يسهر الناس اليوم ، ينامون مبكرين بعد صلاة العشاء ، والفجر يقومون ، ومنهم من يمين الله عليه بقيام ، ومنهم من يقوم لصلاة الفجر ، فهما ثقيلتان على المنافقين ؛ فينبغي للإنسان أن يحرص على صلاة العشاء والفجر ، لكن صلاة العشاء ليست أفضل من صلاة العصر ؛ فصلاة العصر أفضل ، ولهذا صارت صلاة الفجر قرينة للعصر وقرينة للعشاء ، فهي قرينة للعصر كما سبق « من صلى البردين دخل الجنة » ^(١) وقال ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس - الفجر - وصلاة قبل غروبها - العصر - فافعلوا » ^(٢) وهي - أي صلاة الفجر - مع العشاء أيضًا إذا اجتمعتا فكأنما قام الإنسان الليل كله ، وكذلك أيضًا « لو يعلم الناس ما في العشاء والفجر لأتوهما ولو حبوا » فاحرص - أخي المسلم - على جميع الصلوات ، كن محافظًا عليها ، فإن الله ﷻ يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ﴾ ^(٣) [المؤمنون : ١-١١] فذكر الله الصلاة في أول الأوصاف الحميدة وفي آخرها ، وقال تعالى في سورة المعارج ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ خَاسِرٌ ۝ إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ جُرُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْدُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝ ﴾ ^(٤) [المعارج : ١٩-٢٣] ... وفي آخر الأوصاف الحميدة قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون : ٩] .

وفي هذا يُعرف أن الصلاة أعظم الأعمال بعد الشهادتين ، جعلني الله وإياكم من مقيمي الصلاة ، وموئتي الزكاة ، المحافظين على أداء فرائض الله ، واجتناب محارمه .

* * *

- (١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٤) ، ومسلم في المساجد (٢١٥) ، وأحمد في مسنده (٨٠/٤) ، وقوله : « البردين » هما العصر والفجر .
- (٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٤) ، ومسلم في المساجد (٢١١) ، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩) .
- (٣) قوله : ﴿ أَلْفَرْدَوْسَ ﴾ أعلى الجنات وأفضلها .
- (٤) قوله : ﴿ هَلُوعًا ﴾ أي شديد الجوع والضجر . وقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ جُرُوعًا ﴾ أي إذا مسه الفقر أصابه الجوع ولم يصبر .

١٩٢ - باب الأمر بالمحافظة على الصلوات المكتوبات

والنهي الأكيد والوعيد الشديد في تركهن

قال الله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] .
 ١٠٧٤ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « الصَّلَاةُ عَلَى وَفْقِهَا » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « يَرْوِي الْوَالِدِينَ » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في : باب وجوب المحافظة على الصلوات والتحذير من إضاعتهما . الصلوات : خمس كتبهن الله ﷻ على عباده في كل يوم وليلة ؛ لقوله - تبارك وتعالى - حين سأل النبي ﷺ ربه أن يخفف عن العباد قال : « إني خمس في الفعل وخمسون في الميزان » ^(٢) ، وسأل النبي ﷺ رجل عن الإسلام ومنه الصلوات فذكر له خمس صلوات ، قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تتطوع » ^(٣) . وأرسل معاذًا إلى اليمن وقال : أخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ^(٤) .

وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ خصها لما لها من المزية والفضل . والمراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر فشرها بذلك النبي ﷺ أعلم الخلق بكتاب الله وبمراده ، ولا قول لأحد بعد قول النبي ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ وليت المؤلف جاء بالآية الأخرى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ١١] أن هذه الآية تدل على أن من لم يقيم الصلاة فهو كافر ، ثم ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ، قال : « الصلاة على وقتها » يعني : على الوقت المطلوب شرعًا إن كان مما يُطلب تقديمه فتقديمه أفضل ، وإن كان مما يُطلب تأخيرها فتأخيرها أفضل ، والصلوات الخمس كلها الأفضل فيها التقديم ، إلا العشاء فالأفضل فيها التأخير ما لم يشق على الناس ، وإلا الظهر في شدة الحر ؛ فالأفضل فيها التأخير تيسيرًا على الناس وتخفيفًا عليهم ، أما الفجر والعصر والمغرب ؛ فالأفضل فيها التعجيل على كل حال . لكن قال العلماء - رحمهم الله -

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧) ومسلم في الإيمان (١٣٧) .
 (٢) انظر الحديث بتمامه في : البخاري في الصلاة (٣٤٩) والترمذي في الصلاة (٢١٣) والنسائي في الصلاة (٢٢١/١) .
 (٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في الصلاة (٣٩١) .
 (٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩) والترمذي في الزكاة (٦٢٥) وأحمد في مسنده (٢٣٢/١) .

من قام حين يسمع النداء يتوضأ ويتأهب للصلاة فهذا تقديم - يعني ليس المعنى أنه من حين يؤذن نصلي ، المهم أن تستعد للصلاة من أول وقتها .

قال ابن مسعود : ثم أي ، قال ﷺ : « بر الوالدين » يعني : الإحسان إليهما بالقول والمال والخدمة وغير ذلك . قال : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » . قال ابن مسعود : ولو استزددته لزادني يعني لو طلب زيادة ، ثم أي ، ثم أي ؟ لزاده النبي ﷺ ، قال ذلك بناء على ما عرفه من قرينة الحال . وفي الحديث دليل على إثبات المحبة لله ﷻ وأنه يحب الأعمال كما يحب العاملين ، وأن حبه يتفاوت ﷻ وفيه أن بر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله ، واجبه على واجبه ، وتطوعه على تطوعه ، فمثلاً إذا كان الوالدان ليس عندهما من يعولهما ولا من يخدمهما وهما في ضرورة للولد ؛ فإنه يجب عليه أن يبقى ولا يجاهد ، وإذا كان عندهما من يقوم بخدمتهما وأمرهما فهذا بقاؤه عندهما مستحب ، ثم الجهاد إذا احتاج إليه كان أفضل ، وإن لم يحتج إليه فبر الوالدين أفضل . والله أعلم .

أما بالنسبة لصلاة الفجر : المعروف أن التوقيت الذي يعرفه الناس الآن ليس بصحيح ، فالتوقيت مقدم على الوقت بخمس دقائق على أقل تقدير ، وبعض الإخوان خرجوا إلى البر ، فوجدوا أن الفرق بين التوقيت الذي بأيدي الناس ، وبين طلوع الفجر نحو ثلث ساعة ، فالمسألة خطيرة جداً .

ولهذا لا ينبغي للإنسان في صلاة الفجر أن يبادر في إقامة الصلاة ، وليتأخر ثلث ساعة ، أو (٢٥) دقيقة ، حتى يتيقن أن الفجر قد حضر وقته .

* * *

١٠٧٥ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » (١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب فضل الصلوات الخمس والنهي الأكيد ، والوعيد الشديد على من ضيعهن ، ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » هكذا رواه ابن عمر رضي الله عنهما وفي لفظ أنه قدم الصوم على الحج ، فعلى الأول بنى البخاري رحمه الله الترتيب الصحيح ، فبدأ بالحج قبل الصيام ، وأكثر الأحاديث على تقديم الصيام على الحج ، قوله ﷺ : « بني الإسلام » يعني : أنه شبه الإسلام بالقصر الذي له خمسة أعمدة ، ومعلوم أن الأعمدة هي أساس البنيان ، وأنه إذا فقدت الأعمدة تداعى البنيان وانهدم ، فإن بُني على غير أعمدة بُني بناءً ضعيفاً ، ولكن الإسلام بناء قوي مُحْكَم ، شرعه الله ﷻ لعباده وقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ، ومسلم في الإيمان (١٩) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩) .

وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٣﴾ [المائدة: ٣] هذه الدعائم وهذه الأعمدة الخمسة يشهدها ﷺ بقوله : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله - يعني : أن تشهد معترفًا بلسانك ، مؤمنًا بقلبك أنه لا معبود بحق إلا الله ، كل ما عُبد من دون الله فهو باطل ، وهذا هو مقتضى الشرع ومقتضى العقل ، لأن الذي يستحق العبادة هو الذي خلق الخلق ، ومن الذي خلق الخلق ؟! الله ﷻ قال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ^(١) [الواقعة: ٥٨ ، ٥٩] لو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا جنينًا واحدًا ما استطاعوا بل قال ﷻ : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ صُرْبًا مَثَلًا فَاَسْتَوِعُوا لَهَا مِنْكَ الْذِّبْنَ فَذَعُوبَتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج: ٧٣] سبحان الله ! كل المعبودات بالباطل على اختلاف أصنافها لن يخلقوا ذبابة ولو اجتمعوا له ، هذا في القدر . في الشرع قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْآدِثُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٨] إذن لا أحد يستطيع أن يأتي بمثل كلام الله ولا أن يخلق مثل خلق الله ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨] ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُبْدِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١] إذن هذا الذي يوصف بكل هذه الأوصاف هو المستحق للعبادة ، هل يستحق العبادة شيء مذبذب ؟! الشمس مذبذبة ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ^(٢) [يس: ٣٨] هل هي تستحق أن تعبد ؟! القمر هل يستحق أن يعبد ؟! النجم ، الشجر ، لا أحد يستحق ، فكل مخلوق .

حاج إبراهيم ﷺ قومه فلما جن عليه الليل وأظلم رأى كوكبا ، وكان من قومه من يعبد النجوم قال : هذا ربي وكالعادة غاب الكوكب ، فلما أفل قال : لا أحب الأفلين ؛ لأن الرب لا يغيب عن عباده ، فلما رأى القمر بازغا - وهو أعلى النجوم إضاءة - قال : هذا ربي . فلما أفل - أي : غاب - قال : ﴿ لَئِنْ تَمَّ يُهْدِيَ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧] وهذا أشد من الأول ، جاء إلى شيء أكبر وهي الشمس ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي فلما أفلت : غابت أعلن ﷺ التوحيد قال : ﴿ قَالَ يَنْفَعُوكَ إِيَّيَّ بِرِيٍّ وَمَا تَشْكُرُونَ ﴾ [إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين] ﴿ [الأنعام: ٧٨] إذن لا إله إلا الله : لا معبود بحق إلا الله وكل ما يُعبد من دون الله فهو باطل . والعجيب أن هذه الأصنام التي تعبد - يا إخواني - أنها يوم القيامة تجمع وتحصب في نار جهنم كما يحصب الحصى وكذلك عابدوها يحصبون : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ ﴿ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(٣) [الأنبياء: ٩٨ ، ٩٩] نعم : لو كانت هذه الأصنام آلهة حقًا هل ترد

(١) قوله : ﴿ مَا تُمْنُونَ ﴾ أي ما تقدفونه من النطف في الأرحام .

(٢) قوله : ﴿ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أي تسير مسرعة إلى مكان استقرارها كل يوم .

(٣) قوله : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أي وقود جهنم ، والحصب هو ما يرمى في النار وتهيج ، وقوله : ﴿ وَرَدُونَ ﴾ أي داخلون .

النار ١؟ وكذلك الذين يعبدونها ، لما جاءت هذه الآيات أراد المشركون أن يشبهوا بها قالوا : عيسى ابن مريم يعبد ، إذن يلقى في النار ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يسمعون حسيها وهم في ما أشتهت أنفسهم خاليون ﴿١﴾ [الأنبياء : ١٠١-١٠٣] فعيسى ابن مريم ممن سبقت لهم من الله الحسنى ، لأنه أحد أولي العزم من الرسل ، المهم - يا إخواني - أن تعلموا أن كل من يُعبد من دون الله ؛ فهو باطل سواء كان نجماً أو ولياً أو صالحاً أو عالماً أو رئيساً ، كل ما يعبد من دون الله فهو باطل ، عبادته باطلة ، فشهادة أن لا إله إلا الله تتضمن الإخلاص الذي لا تصح العبادة إلا به ، والمتابعة : التي يتضمنها شهادة أن محمداً رسول الله ، ولهذا يُعَدُّ هذا ركناً واحداً .

أما الثاني : فهو إقامة الصلاة ؛ يعني الصلوات الخمس وما يتبعها من النوافل لكون الصلاة من أركان الإسلام والصلوات الواجبة بالإجماع وهي خمس : الصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والجمعة تكون في محل الظهر ، وما عدا ذلك فمختلف فيه : فالوتر يختلف العلماء هل هو واجب يأثم الإنسان بتركه أم سنة أم فيه تفصيل وهو : أن من له ورد من الليل يجب عليه أن يوتر ، ومن ليس له ورد ، وإنما ينام إذا صلى العشاء إلى الفجر ؛ فهذا لا يجب عليه الوتر ^(٢) ؟ وأما صلاة الكسوف فمختلف فيها ؛ من العلماء من يقول : واجبة ^(٣) ، ومنهم من يقول : ليست بواجبة ، والصحيح أنها واجبة ^(٤) ، لأن النبي ﷺ أمر بها وفرع لما كسفت الشمس وصلاتها صلاة غريبة ، لكنها فرض كفاية إذا قام بها من يكفي من أهل البلد سقطت عن الباقيين ، وكذلك أيضاً اختلف العلماء - رحمهم الله - في تحية المسجد : هل هي واجبة أم لا ؟ والقول بالوجوب قول قوي ، لكن يمنع القطع به ؛ أحاديث تدل على أنها ليست بواجبة ، مثل مجيء الإمام يوم الجمعة ، فإن النبي ﷺ يدخل المسجد يوم الجمعة ويصعد المنبر ويخطب الناس ويجلس ولا يصلي تحية المسجد ، وكذلك رويت أخبار أخرى تدل على عدم وجوب تحية المسجد . وكذلك صلاة العيدين اختلف فيها العلماء : منهم من يقول : إنها واجبة ^(٥) ، ومنهم من يقول :

(١) قوله : ﴿ حَسْبَهَا ﴾ أي صوتها الذي يحس من حركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة ، وقوله : ﴿ الْفَرْجُ الْأَكْبَرُ ﴾ أي أحوال يوم القيامة .

(٢) انظر آراء الفقهاء في : بدائع الصنائع (٢٧٠/١) ، والبنية (٤٨٨/٢) ، والمجموع (١٢/٤) ، وأسهل المدارك (٣٠٢/١) ، والغني (١٦١/٢) .

(٣) وهو رأي الحنفية فقط (انظر بدائع الصنائع ٢٨٠/١ ، وشرح فتح القدير ٨٤/٢) .

(٤) الصحيح الذي عليه عامة العلماء أنها غير واجبة وأنها سنة مؤكدة ويدل على عدم وجوبها الحديث الذي أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩) عن الرجل الذي سأل النبي ﷺ عما عليه من فروض فأخبره عن الصلاة ، والزكاة ، والصوم والحج ، وفي كل مرة كان النبي ﷺ يخبره بقوله : « لا إلا أن تطوع » ولذا فإن غير الصلوات الخمس المكتوبة ليس واجباً ومن جملة ذلك صلاة الكسوف (انظر الوسيط في المذاهب ٣٣٩/٢ ، الميسوط ٧٥/٢ ، وشرح فتح القدير ٨٤/٢ ، وحاشية ابن عابدين ١٨٢/٢) .

(٥) وهذا هو رأي الحنفية وبعض الشافعية (انظر بدائع الصنائع ٢٧٤/١ ، وشرح القدير ٧٠/٢ ، وفقه الكتاب والسنة ٢٩٤٩/٥) .

إنها سنة ^(١) ، ومنهم من يقول : فرض كفاية ^(٢) ، المهم أن الصلوات المجمع على وجوبها هي :
الخمسة ، والجمعة بدلاً عن الظهر .

ومعنى : « إقامة الصلاة » : أن يأتي بها الإنسان في أوقاتها متممًا شروطها وأركانها وواجباتها ،
ومكملًا ذلك بمستحباتها ، هذا هو إقام الصلاة .

وأما « إيتاء الزكاة » : فهو إعطاء الزكاة لمستحقها ، والزكاة هي القسط من مالك الذي أوجبه الله
عليك في الذهب والفضة ، والنقد ، وعروض التجارة ، والخارج من الأرض ، وبهيمة الأنعام ، فيجب
أن تعطى الزكاة هذه لمستحقها وقد بين الله المستحقين لها في قوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينِ
وَالْمُعِيلِينَ عَلَيْهِمَا وَالْمَوْلُفَةُ فَلُوهُمُ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَدِيرِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيُّ السَّبِيلِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وأما حج البيت : فهو قصد مكة لأداء المناسك وقد فرضه الله ﷻ على هذه الأمة في السنة
التاسعة أو العاشرة من الهجرة .

وأما صوم رمضان : فهو صوم الشهر الذي بين شعبان وشوال ، وفرض في السنة الثانية من الهجرة .
فهذه هي أركان الإسلام ، من أتى بها فهو المسلم ، وقد بنى على أساس متين ، ومن لم يأت بها
فهو بين فاسق أو كافر ، فمن يأت بالشهادتين فهو كافر ، ومن لم يُصلِّ فهو كافر ، ومن منع
الزكاة فهو فاسق ، ومن لم يحج فهو فاسق ، ومن لم يصم فهو فاسق . والله الموفق .

* * *

١٠٧٦ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؛ غَضَّوْا مِنِّي دِمَاءَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

قال النووي رحمه الله : في باب المحافظة على الصلوات الخمس فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما
أن رسول الله ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ
اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » ، « أُمِرْتُ » : الأمر له هو الله ﷻ « أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » فالذي أمره بقتالهم هو

(١) وهذا هو رأي بعض الشافعية والمالكية (انظر مغني المحتاج ٣١٠/١) .

(٢) هذا هو رأي بعض الشافعية والحنابلة في ظاهر المذاهب (انظر مغني المحتاج ٣١٠/١ ، والمغني ٣٦٧/٢ ، وفقه
الكتاب والسنة ٢٩٤٩/٥ - ٢٩٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان (٣٦) ، والنسائي في السنن (١٤/٥) والإمام أحمد في
المسند (٣٤٥/٢) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٠) ، قوله « إِلَّا بِحَقِّهَا » أي : الدماء والأموال ؛ يعني هي معصومة إلا عند
حق الله فيها كردة وحدّ وترك صلاة وزكاة ، أو حق آدمي ، قوله « وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » أي : فيما يسترونه من كفر وإثم .

الذي خلقهم ، وله أن يتصرف في ملكه كيف يشاء ، له أن يأمر بقتل هؤلاء ، وله أن يأمر بقتالهم إلى أن يُسلموا ، فإذا أسلموا كف عنهم ، وهذا الحديث مخصوص بقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] وكذلك حديث بريدة بن الطفيل أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ﷻ وذكر الحديث وفيه أنهم إذا أرادوا الجزية فاقبلها وكف عنهم ^(١) . وعلى هذا فيقاتل الكفار إلى غايتين : إما أن يسلموا ، وإما أن يعطوا الجزية عن يد - وهم صاغرون - فإن لم يفعلوا لا هذا ولا هذا وجب على المسلمين قتالهم ، وقاتل المسلمين لهم بأمر الله الذي هو ربهم ورب الكافرين ، ليس تعصياً من المسلمين لدينهم وحق لهم أن يتعصبوا له ، لأنه دين الله ﷻ . ودين غير المسلمين دين باطل منسوخ لا يقبله الله ﷻ من أي أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ^(٢) [آل عمران : ٨٥] وقوله : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » سبق الكلام عليه .

« إذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم » وفي هذا دليل على أن الكفار إذا قوتلوا فأموالهم حلال لنا ، وكما أننا نستبيح دماءهم فنستبيح أموالهم من باب أولى ، وكذلك أيضاً نستبيح نساءهم وذرياتهم يكونون سبياً لنا ، ويكونون أرقاء للمسلمين ، لأننا نأخذهم بكلمات الله ﷻ بأمره ، ودينه ، وشرعه .

« فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » وقد قاتل أبو بكر الصديق ﷺ مانعي الزكاة حتى راجعه الصحابة ، وراجعه عمر في ذلك ، ولكنه أصر على مقاتلتهم وقال : « والله لو منعوني عناقاً - أي ماعزاً صغيرة ، وفي رواية : عقلاً ، وهي ما تربط به البعير - كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على ذلك » يقول : فلما رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال علمت أنه الحق ^(٣) . فهذا دليل على أهمية الصلاة ، وأن الناس يقاتلون على تركها إلى أن يُصلُّوا . والله الموفق .

١٠٧٧ - وعن معاذ ﷺ قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال : « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَأَذْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَتِي رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَأَغْلِبْهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خُمْسَ صُلُوبَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَأَغْلِبْهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ قَرْدٌ عَلَى فَقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَآتِي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ » ^(٤) متفق عليه .

(١) انظر الحديث بنصه في مسلم في الجهاد والسير (٢) .

(٢) قوله : ﴿ يَبْتَغِ ﴾ أي من يطلب بعد مبعثه ﷺ .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٠) ، ومسلم في الإيمان (٢٣) ، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) ، ومسلم في الإيمان (٢٩) ، وأبو داود في الزكاة (١٥٨٤) ، والنسائي في السنن (٢/٥) ، قوله : « صدقة » أي زكاة ، قوله : « فرد » أي تعطى .

الشرح

نقل المؤلف النووي رحمته الله في المحافظة على الصلوات : حديث ابن عباس رضي الله عنه عن معاذ بن جبل أنه بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، اليمن معروف جنوب الجزيرة العربية ، بعثه في السنة العاشرة من الهجرة في ربيع الأول ، ولما أراد أن يعثه قال له : « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب » ، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، لأن الله أنزل على اليهود التوراة ، وعلى النصارى الإنجيل ، ولما أخبره بذلك ليكون مستعداً لهم ، لأن أهل الكتاب هم أعلم الناس في ذلك الوقت بشرائع الله ، فيجب على الإنسان أن يعرف حالهم حتى يمكن أن يجادلهم بما يفحشهم به - وليكن أول ما تدعوهم إليه « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » وهذا هو مفتاح الإسلام ، وهذا لا يعني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مخصص بالرسالة ، فهناك رسل قبله : موسى ، وهود ، وعيسى ، وغيرهم ، ولكن رسول الله هو خاتم النبيين ، وشريعته نسخت جميع الشرائع ، فلا نبي بعده ، ولا شريعة سوى شريعته « فإن هم أطاعوك في ذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة » وهذا هو الشاهد « فإن هم أطاعوك في ذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » : « في أموالهم » هذه إحدى روايات البخاري ، « تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » : الأغنياء هنا جمع غني ، وهم الذين يملكون نصيباً زكائياً ، والغني في كل موضع بحسبه ، فيفسر في باب وجوب الزكاة بالنصاب الزكوي ، ويفسر في باب أهل الزكاة بأنه الذي يجد ما يكفيه وعائلته لمدة سنة فأكثر ؛ فإن وافقوا لذلك « فإياك وكرائم أموالهم » ؛ يعني احذر أن تأخذ الطيب من الأموال بل خذ الوسط لا يظلمون ولا يظلمون ، لا تأخذ الردي فظلم المستحقين للزكاة ، ولا الأجود فظلم الذين تجب عليهم الزكاة ، خذ الوسط ، « واتق دعوة المظلوم » يعني إنك إن أخذت من كرائم أموالهم فقد ظلمتهم ، فيدعون عليك ؛ فاتق دعوة المظلوم « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » فالله تعالى يستجيب لها ولو كانت من كافر ، المظلوم - إذا دعا الله ولو كان كافراً - فإن الله ينتقم له ممن ظلمه ، إما عاجلاً وإما آجلاً ، لأن هذا من باب إقامة العدل ، والله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، ومن تمام حكمته العدل بين عباده ، فيأخذ للمظلوم من الظالم ، والشاهد من هذا الحديث قوله : « فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة » . والله الموفق .

* * *

١٠٧٨ - وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » ^(١) رواه مسلم .

١٠٧٩ - وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٤) ، والبيهقي في السنن (٣٦٦/٣) .

فَقَدْ كَفَرَ ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٠٨٠ - وعن شقيق بن عبد الله التابعي المتقي على جلالته عليه السلام قال : كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ عليه السلام لَا يَمُوتُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكُوهُ كُفْرًا غَيْرَ الصَّلَاةِ ^(٢) . رواه الترمذي في كتاب الإيمان بإسناد صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث في التحذير من إضاعة الصلاة ، حديث جابر وحديث بُريدة ، أما حديث جابر فقد قال النبي عليه السلام إن بين الكفر والشرك ترك الصلاة ، وحديث بُريدة : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

فهذان الحديثان يدلان على أن تارك الصلاة كافر ، وأنه كافر كفراً مُخرجاً عن الملة ، فالذي لا يصلي أشد من اليهود والنصارى ، اليهود لو ذبحوا لأكل الإنسان ذبيحتهم ، والنصراني أيضاً كذلك ، أما تارك الصلاة لو ذبح فإن ذبيحته لا تحل ^(٣) .

تارك الصلاة لو كان أثنى لا يصلي فإنه لا يحل للمسلم أن يتزوجها ، ولو كانت نصرانية جاز أن يتزوجها المسلم ، ولو كانت يهودية جاز أن يتزوجها أيضاً المسلم .

تارك الصلاة لا يُقَرَّ على ترك الصلاة ، بل يقال : صلْ وإلا قتلناك ؟ واليهودي والنصراني يُقَرَّ على دينه إما بمعاودة أو استئمان أو ذمة ، فدل ذلك على أن ترك الصلاة أعظم من اليهودية والنصرانية ، هذا الأمر الذي يتهاون به الناس اليوم ، وليلعلم أن الإنسان إذا ترك الصلاة ثم عُقد له على امرأة فإن النكاح غير صحيح ، ولو جامعها فإنه يجامعها بزنى - والعياذ بالله - وكذلك لو عُقد له - وهو يصلي - ثم ترك الصلاة انفسخ النكاح ؟ ووجب أن يفرق بينه وبين المرأة إلا أن يتوب ويعود إلى الإسلام فيبقى على نكاحه ، وليلعلم أيضاً أن تارك الصلاة - إذا مات على ترك الصلاة - فإنه لا يُغْسَل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين ، ولا يُدعى له بالرحمة ، ولا تناله شفاعة النبي عليه السلام يوم القيامة ، ولكن ماذا نصنع به هل نُبقي جيفته للكلاب تأكلها ونحن نشاهده ؟ لا ؛ لأن في هذا إقشاداً لقلوب أقاربه ، لكن نخرج به بُراً ونحفر له حفرة ونغرسه فيها بشيابه بدون تكفين ولا

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٣) والإمام أحمد في المسند (٣٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٣٦٦/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٤) .

(٣) هذا هو مذهب الإمام أحمد الذي قال بأن تارك الصلاة كافر لمجرد تركه سواء كان مقراً بمشروعيتها أو جاحداً وبذلك يجب أن يعاقب بالقتل لكفره وارتداده ، وهو ما ذهب إليه أهل الظاهر ، وهو مروي عن علي وابن عباس وجابر بن عبد الله وأبي الدرداء . أما الحنفية فقد ذهبوا إلى أن تارك الصلاة وهو مقرر بفرضيتها غير جاحد لها لا يقتل بل ينبغي زجره وضربه أو سجنه حتى يصلي وإلا ظل حياً حتى يموت .

أما جمهور العلماء فقد ذهبوا إلى أنه وإن تركها عن غير جحود ولا نكران ولا استخفاف ؛ كأن يكون قد تركها كسلاً أو عجزاً أو تهاوناً أو تنافلاً مع أنه مؤمن بها فإنه لا يكفر بل يفسق ، وأنه يجب أن ينذر ويستتاب فإن أبى إلا النكول وهو غير جاحد لها فقد وجب قتله حداً لا كفراً (انظر فقه الكتاب والسنة ٤٩٤/١ ، والكافي ١٢٠/١ ، وأسهل المدارك ٢٦٤/١ ، والمحلى ٢٤١/٢) .

تغسيل ولا صلاة عليه ، ولولا أن أهله يتأثرون لقلنا : يبقى على وجه الأرض تأكله الكلاب - والناس ينظرون إليه - لكنه يؤمى اتقاءً لنتنه ورائحته وخبثه ، وإذا كان يوم القيامة قال النبي ﷺ « إنه يُحْشَرُ مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف » ^(١) وبهذا نعلم أن ترك الصلاة أمر عظيم ، وأنه يجب على من مات عنده ميت - وهو لا يصلي - أن يُعده عن مدافن المسلمين ، ولا يحل له أن يقدمه للمسلمين ليصلوا عليه - وهو يعلم أنه مات لا يصلي - أبدًا فإن فعل فهو مُسيء إلى المسلمين ، والمسلمون ليس عليهم إثم ، لأنهم ما علموا ، لأن الله قال : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَابَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُرًا وَهُمْ فَسِخْرٌ ﴾ ^(٢) [التوبة : ٨٤] والذي لا يصلي كافر بالله ورسوله ، حتى لو قال : أومن بأن الله موجود ، وأن محمدًا رسوله ، لا يكفي ، لأن المنافقين يقولون مثل هذا الكلام : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّثُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِّثِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ثم اعلم أنه إذا مات لك ميت - وهو لا يصلي - فإنه لا يحل لك من ميراثه شيء على قول أكثر أهل العلم ، لأن ميراثه ليس لأقاربه المسلمين كما أنه هو لو مات عنه قريب مسلم فإنه لا يرثه ، يعني : مثلاً إنسان مات وله ابن لا يصلي ، وله ابن عم بعيد يصلي ، من يرثه ، ابن العم البعيد ، وابنه لا يرث ، ولو مات عن أبيه - وهو لا يصلي - وله عم ، والولد غني ومات عن أبيه الذي لا يصلي وعمه المسلم الذي يصلي فالمال للعم لقول النبي ﷺ : « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » ^(٣) وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، كما حكاه عنهم عبد الله بن شقيق أو شقيق بن عبد الله قال : كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفراً غير الصلاة ^(٤) . وقال النووي في هذا الرجل : إنه متفق على جلالته وثقته وعدالته وتحريمه . وقد صرح علماؤنا المتأخرون كالشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله بأنه كافر كفراً مخرجاً عن الملة ، وأنه مُؤَنَّد عن دين الإسلام ، ومع الأسف أن الناس الآن يتهاونون في هذا الأمر . نسأل الله تعالى أن يهدينا لما فيه الخير والصلاح .

* * *

١٠٨١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ ، فَإِنْ صَلَحَتْ ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَإِنْ فَسَدَتْ ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ ، قَالَ الرَّبُّ ﷻ : انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ ، فَيُكْمَلُ مِنْهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ؟ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ أَعْمَالِهِ عَلَى هَذَا » ^(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(١) انظر الحديث في : الدارمي في الرقاق (٣٣) وأحمد في مسنده (١٦٩/٢) .

(٢) هذه الآية نزلت في المنافقين وليس في تاركي الصلاة .

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤) ، ومسلم في الفرائض (١) ، والترمذي في السنن (٢١٠٧) ، وأبو داود في السنن (٢٩٠٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٢٢) .

(٥) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤١٣) وأبو داود في الصلاة (٨٦٤) والبيهقي في السنن (٣٨٦/٢) والنسائي في السنن (٢٣٣/١) .

الشرح

هذا آخر حديث في باب فضل الصلاة والوعيد الشديد على من تركها والنهي الأكيد ، وفيه أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله يوم القيامة الصلاة - وهذا بالنسبة لحق الله ﷻ - فإن صلحت فقد أفلح ونجح ، وإلا فعلى العكس خاب وخسر - والعياذ بالله - أما بالنسبة لحقوق الآدميين ، فأول ما يُقضى بين الناس في الدماء ؛ لأنها أعظم الحقوق ، الدماء : يعني القتل ، ثم يأتي بقية المحاسبة على ما تبقى ، ولكن الله ﷻ إذا حاسب العبد على الصلاة وصحت أفلح ونجح ، وإلا خاب وخسر ، ثم يحمد الله ﷻ أن يُنظر في أعماله : هل له نوافل ، فإنها تكمل بها الفرائض ، ولهذا كان من فضل الله ورحمته ونعمته وإحسانه أن شرع لنا النوافل خلف الصلوات ، وقبلها ، وفي كل وقت إلا الأوقات المنهي عنها ، وذلك لأن الإنسان لابد أن يكون في صلاته خَلَلٌ فيكمل بهذه النوافل ، فالظهر له أربع ركعات قبلها بتسليمين وركعتان بعدها ، وصلاة العصر ليس لها راتبة لكن لها سنة مطلقة كما قال النبي ﷺ : « بين كل أذانين صلاة » ^(١) وصلاة المغرب لها راتبة بعدها ركعتان وسنة مطلقة قبلها ، وصلاة العشاء بعدها ركعتان ، والفجر قبلها ركعتان ، وصلاة الليل ، وصلاة الوتر ، وصلاة الضحى ، كل هذه النوافل يزداد بها أجر المصلّي ويكمل بها النقص الذي حصل في الفريضة ، وهذه من نعمة الله ﷻ نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

١٩٤ - باب فضل الصف الأول

والأمر بإتمام الصفوف الأول ، وتسويتها ، والتراص فيها

١٠٨٢ - عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ » فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ قَالَ : « يَتِمُّونَ الصَّفَّوْفَ الْأَوَّلَ ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ » ^(٢) رواه مسلم .

١٠٨٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ ؛ لَاسْتَهْمُوا » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

قال النووي رحمته الله : باب فضل الصف الأول والتراص في الصفوف وتسويتها وإكمال الأول

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٢٤) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٠٤) ، والترمذي في الصلاة (١٨٥) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٨٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٩٢) والإمام أحمد في مسنده (١٠١/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٥) ، ومسلم في الصلاة (١٢٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢٣٦/٢) .

فالأول .

هذه مسائل متعددة يَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ حُكْمُهَا بما ساقه من أحاديث .

الحديث الأول عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا » : الملائكة لها عبادات متنوعة ، وهم - عليهم الصلاة والسلام - لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وتأمل قوله : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ولم يقل : يسبحون في الليل والنهار ، لأنهم يستوعبون الوقت كله في التسبيح ، ومن عباداتهم عند ربهم أنهم يصفون عند الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ [الصافات : ١٦٥ ، ١٦٦] وكيف صفوفهم ؟ قال النبي ﷺ : يكملون الأول فالأول ويتراصون . إذن فنحن إذا صففنا بين يدي الله في صلاتنا ينبغي أن نكون كالملائكة : يكملون الأول فالأول ويتراصون . الأول فالأول : كما أنه من سنة الملائكة عند الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ وما رغب فيه النبي ﷺ ؛ فهو من الأمور التي ينبغي أن يتراخم الناس عليها ، لأن النبي ﷺ قال في حديث أبي هريرة : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول - يعني من الأجر - ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » يعني لو لم يجدوا طريقاً يصلون إلى الصف الأول به إلا أن يجروا قُرْعَةً لفعلوا - وهذا يدل على فضيلة الصف الأول ويدل على أن الأفضل التراص في الصفوف ، ويدل على أنه يكمل الأول فالأول ، فهذه ثلاث مسائل ينبغي للإنسان أن ينتبه لها :

١ - ألا يقف في صف حتى يَكْمُلَ الذي قبله .

٢ - في الصلاة يتراصون : يلصق بعضهم كعبه بكعب أخيه ، ومنكبه بمنكبه حتى تتم المراسمة ، لأنهم إذا لم يتراصوا تدخل الشياطين بينهم كأولاد الغنم الصغار ، ثم يشوشون عليهم صلاتهم ، ولكن يجب التنبيه لمسائل :

أ - ليس المراد بالمراسة المراسمة التي تشوش على الآخرين ، وإنما المراد منها ألا يكون بينك وبينه فُرْجَةٌ .

ب - الصف الأول : لا يجوز التقدم إليه بوضع المنيديل أو الكتاب أو ما أشبه ذلك وكأنه أصبح ملكاً له - يحجزه دائماً سواء جاء أو لا - فهذا لا يجوز حتى إن بعض الفقهاء قال : لا تصح صلاته ، لأنه شبه مغضوب حيث إنه جلس في مكان لا يستحقه ، فقول الرسول ﷺ : « ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » معناه أنهم يتقدمون ويتسابقون ، ثم إن حجز الأماكن فيه مضرة ، المهم - بارك الله فيكم - أن المراد من قول الرسول : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول » أن من يتقدم بنفسه . نعم إذا كان إنسان حاضر بالمسجد ولكنه أراد أن يتعد عن الصف الأول لأجل أن يقرأ أو يصلي أو يراجع أو ينام - ولا بأس بالنوم في المسجد - فلا بأس ، لأنه في المسجد ، لكن يجب أن يصل إلى مكانه قبل أن تتصل الصفوف فيحتاج إلى تخطي الرقاب ، وقد رأى النبي ﷺ

رجلاً يتخطى الرقاب فقال : « اجلس فقد آذيت » ^(١) .

وفي حديث أبي هريرة الثاني : دليل على جواز الاستهام في القرب ، يعني لو تنازع اثنان في الأذان ، وليس بينهما مؤذن راتب ، ومتساويان في الصفات المطلوبة في الأذان ، فحينئذ تُقرع بينهما ، فمن خرجت له القرعة هو الذي يؤذن ، ومع الأسف أنك ترى بعض الناس الآن - جماعة مسافرين أو ما أشبه ذلك - كل واحد يقول للثاني : أذن أنت ، وهو لا يعلم ما في الأذان من خير ، فهو - الأذان - لا يسمعه شجر ولا مدر ، ولا حجر إلا شهد لك يوم القيامة ^(٢) . فينبغي أن تبادر للأذان - نسأل الله لنا ولكم الخير ، وأن يجعلنا من المتسابقين للخيرات إنه على كل شيء قدير .

١٠٨٤ - وعنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أُولُهَا ، وَشَرُّهَا آخِرُهَا ، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا ، وَشَرُّهَا أُولُهَا » ^(٣) رواه مسلم .

١٠٨٥ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، رَأَى فِي أَصْحَابِهِ تَأَخُّراً ، فَقَالَ لَهُمْ : « تَقَدَّمُوا فَأَتَمُّوا بِي ، وَلْيَأْتِمِ بِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ ، وَلَا يَزَالِ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخَّرَهُمُ اللَّهُ » ^(٤) رواه مسلم .

١٠٨٦ - وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ ، وَيَقُولُ : « اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ ، لِيَلْنِي مِنْكُمْ أَوَّلُ الْأَحْلَامِ وَالْأَنهَى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » ^(٥) رواه مسلم .

١٠٨٧ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَوُّوا صُفُوفَكُمْ ؛ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ » متفق عليه . وفي رواية البخاري : « فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ » ^(٦) .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل الصفوف نقلها النووي رحمه الله منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » وذلك لأن صفوف النساء تكون خلف الرجال ، هذا هو الشئ ، فإذا كان أولها فهو قريب من الرجال فيكون شرها ، وآخرها بعيد عن الرجال فيكون خيرها ، أما الرجال : فكلما تقدموا فهو أفضل كما قال النبي ﷺ مُحَدِّثًا

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١١١٨) ، والنسائي في السنن (١٠٣/٣) ، وابن ماجه في السنن (١١١٥) .

(٢) وذلك لما رواه أحمد وابن ماجه في الأذان (٧٢٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٢) ، وأبو داود في الصلاة (٦٧٨) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٠) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٨٠) ، والإمام أحمد في المسند (٣٤/٣ ، ٥٤) .

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) ، قوله « لا تختلفوا » وذلك بأن يتقدم منكب أحدكم على منكب الآخر ، قوله : « ليلني » أي ليقف قريباً مني ، قوله : « أولو الأحلام والنهى » أي : أصحاب الأبواب والعقول .

(٦) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٣) ومسلم في الصلاة (١٢٤) .

عن التأخر: « لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله »^(١) وهذه خطيرة: أن الإنسان - كلما تأخر عن الصف الأول أو الثاني أو الثالث ألقى الله في قلبه محبة التأخر في كل عمل صالح - والعياذ بالله - ولهذا قال: « لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله » فأنت - يا أخي - تقدّم في الصف الأول فالأول، وقوله في الحديث: « خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها »: ما لم يكن النساء في مكان خاص لهن، فإن خير صفوفهن أولها، لأنه أقرب من الإمام ولا محذور فيه، لأنهن بعيدات عن الرجال، ثم ذكر أن النبي ﷺ كان يسوي مناكب أصحابه عند التكبير، مناكبهم: يعني أكتافهم ويقول: « استروا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » يعني: أن اختلاف الناس - بعضهم متقدم وبعضهم متأخر - يوجب اختلاف القلوب، وآخر الأحاديث أن الرسول ﷺ أمر بتسوية الصف وقال: « إن تسوية الصفوف من تمام الصلاة » وهو كذلك، وفي رواية: « إقامة الصفوف من تمام الصلاة » فالذي ينبغي لنا أن نقيم صفوفنا، وتكملة الأول فالأول، والتراص حتى يكون ذلك من تمام صلاتنا. والله الموفق.

* * *

١٠٨٨ - وَغَنَّهُ قَالَ: أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوَجِّهُهُ فَقَالَ: « أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ وَتَرَاصُّوا؛ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِلَفْظِهِ، وَمُسْلِمٌ بِمَعْنَاهُ. وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: وَكَانَ أَحَدُنَا يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ وَقَدَّمَهُ بِقَدَمِهِ^(٢).

١٠٨٩ - وَعَنِ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « لَتَسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجْهِكُمْ » متفقٌ عليه.

وفي رواية لمسلم: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُسَوِّي صُفُوفَنَا، حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ، حَتَّى رَأَى أَنَا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ. ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا فَقَامَ حَتَّى كَادَ يُكَبِّرُ، فَرَأَى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ مِنَ الصَّفِّ، فَقَالَ: « عِبَادَ اللَّهِ، لَتَسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجْهِكُمْ »^(٣).

الشرح

هذه الأحاديث في تمة باب إقامة الصفوف والحث على تسويتها وما يتعلق بذلك. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يسوي الصفوف فيقبل على الناس ويقول: « أقيموا صفوفكم، فإنني أراكم من وراء ظهري » فأمرهم ﷺ بإقامة الصفوف، وأخبر أنه يراهم من وراء ظهره؟ وهذا من خصائص النبي ﷺ أنه في هذه الحالة المعنية يرى الناس من وراء ظهره، أما فيما سوى ذلك فإنه لا يرى من وراء ظهره

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٠)، وابن ماجه في الصلاة (٩٧٨)، وأحمد في مسنده (٣٤/٣).
 (٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧١٩)، ومسلم في الصلاة (١٢٥)، والإمام أحمد في المسند (١٠٣/٣، ١٨٢)، والبيهقي في السنن (٢١/٢).
 (٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧١٧)، ومسلم في الصلاة (١٢٧)، وأبو داود في الصلاة (٦٦٤)، وأحمد في المسند (٢٧١/٤، ٢٧٢). قوله: « كأنما يسوي بها القداح » أي السهام والمراد المبالغة في الاستواء.

شيئاً ، وأخبر ﷺ في حديث النعمان بن بشير : أنه إما أن تسووا الصفوف أو يخالفن الله بين قلوبكم فقال : « عباد الله لتسوون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم » واختلف العلماء في قوله : « بين وجوهكم » : فقيل : المعنى : أن الله يعاقبهم بأن يجعل وجوههم نحو ظهورهم ، قتلوى الأعناق ، وقيل : المعنى : أي بين وجهات نظركم ، وهو كالحديث الذي سبق : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وهذا المعنى أصح وأرجح ، ومعلوم أن الاختلاف الظاهر يؤدي إلى اختلاف الباطن ، فإذا اختلف الناس فيما بينهم ظاهراً أدى ذلك إلى اختلاف القلوب ، وإذا اختلفت القلوب صار الشر والفساد - والعياذ بالله - وخلاصة هذا الباب كله : أننا مأمورون بتسوية الصفوف على النحو التالي :

١ - تسوية الصف بالمحاذاة : بحيث لا يتقدم أحد على أحد ، ولهذا كان الصحابة يلصقون أحدهم قدمه بقدم صاحبه ، ومنكبه بمنكبه ، وفي هذا الوصف دليل على فساد فهم الذين إذا وقفوا في الصف فتحوا بين أرجلهم حتى تكون القدم لاصقة بالقدم لكن المناكب متباعدة ، وهذا بدعة ، ليست من السنة ، فالسنة أننا نتراص جميعاً بحيث يُلصق الكعب بالكعب والمنكب بالمنكب .

٢ - تسوية الصف بإكمال الأول فالأول ، بحيث لا يصف أحد في الصف الثاني ، والأول لم يتم ، أو في الثالث والثاني لم يتم إلخ .

٣ - أن الأولى إذا اجتمع رجال ونساء أن تبتعد النساء عن الرجال ، فإن خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها .

٤ - سدُّ الفرج : ألا ندع للشياطين فرجاً يدخلون من بينها ؛ لأن الشياطين تُسلط على بني آدم ابتلاءً من الله وامتحاناً ، فإذا وجدوا فرجة في الصف تخللوا المصلين حتى يشوشوا عليهم صلواتهم .

٥ - إذا كانوا ثلاثة فإنه يتقدم أحدهم إماماً ويكون الباقيان خلفه ، وإن كانا بالغين أو صغيرين أو بالغ وصغير - كلهم يكونون خلفه ، لأن ذلك ثبت عن النبي ﷺ في صلاة النفل ، وصلاة الفرض مثل صلاة النفل إلا إذا قام دليل على الفرق بينهما . والله الموفق .

* * *

١٠٩٠ - وعن الزبائ بن عازب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ ، يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية ، يمسح صدورنا ، ومناكبنا ، ويقول : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وكان يقول : « إن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأولى » ^(١) رواه أبو داود بإسناد حسن .

١٠٩١ - وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذرؤا فرجات للشيطان ، ومن وصل صفاً وصله الله ، ومن قطع صفاً قطعه الله » ^(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٦٤) ، والإمام أحمد في المسند (١٢٢/٤) ، والحاكم في المستدرک (٥٧٣/١) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٦٦) ، والإمام أحمد في المسند (٩٥/١) ، والبيهقي في السنن (٢٢٩/٨) ، =

١٠٩٢ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « رُضُّوا صُفُوفَكُمْ ، وَقَارِبُوا بَيْنَهَا ، وَحَازُوا بِالْأَعْنَاقِ ؛ فَإِنَّ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ ، كَأَنَّهُا الْحَذَفُ » ^(١) حديث صحيح رواه أبو داود بإسنادٍ على شرط مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في تكملة هذا الباب الذي فيه بيان فضيلة الصف الأول وتكميل الأول فالأول من الصفوف ، فإن في هذه الأحاديث دليل على مسائل : أن النبي ﷺ كان يسمح صدور أصحابه ومناكبهم ، ليسوي صفوفهم ، ويقول : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » . وكان ﷺ يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية يسوي بيده الكريمة ، وكان هذا عادته . ولما كثر الناس في زمن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وفي زمن عثمان ، صار هناك رجال موكلون من قبل الخليفة ، يسوون الصفوف ، فإذا جاءوا إلى الإمام وقالوا : إن الصفوف قد تمت ، وكملت ، كبر للصلاة . وهذا دليل على عناية النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بالصفوف ، والترصص فيها ، وتسويتها ، وعدم فرجات الشيطان ، حتى تكون الصلاة تامة مستوية ؛ فإن تسوية الصف من تمام الصلاة ، ومن إقامة الصلاة .

* * *

١٠٩٣ - وعنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَتَمُّوا الصَّفَّ الْمَقْدَمَ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، فَمَا كَانَ مِنْ نَقْصٍ ؛ فَلْيَكُنْ فِي الصَّفِّ الْمُؤَخَّرِ » ^(٢) رواه أبو داود بإسنادٍ حسن .

١٠٩٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصَّفَافِ » ^(٣) رواه أبو داود بإسنادٍ على شرطٍ مُسَلِّمٍ ، وفيه رجلٌ مُخْتَلَفٌ فِي تَوْثِيقِهِ .

١٠٩٥ - وعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا إِذْ صَلَّيْنَا خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْبَبْنَا أَنْ نَكُونَ عَنْ يَمِينِهِ ؛ يُقْبَلُ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : « رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ - أَوْ تَجْمَعُ - عِبَادَكَ » ^(٤) رواه مسلم .

١٠٩٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَسَطُوا الْإِمَامَ ، وَسَدُّوا الْخَلَلَ » ^(٥) رواه أبو داود .

= وقوله : « أقيموا الصفوف » أي عدلوها وسووها ، وقوله : « الخلل » أي الفرجة في الصفوف ، وقوله : « ولينوا بأيدي إخوانكم » أي كونوا هينين لينين عند أخذكم بأيدي المصلين حتى يستوي الصف .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٦٧) ، والبيهقي في السنن (١٠٠/٣) ، وقوله : « رصوا صفوفكم » أي ضموا بعضها إلى بعض ، وقوله : « وقاربوا بينها » أي بحيث لا يسع بين الصنفين صف آخر ، وقوله : « وحاذوا بالأعناق » أي اجعلوا بعضها بمحاذاة بعض .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٧١) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٥) ، والبيهقي في السنن (١٠٣/٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٧٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٣٢/٣) ، (٢٢٥) ، والنسائي في السنن (٩٢/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٢) ، والإمام أحمد في المسند (٢٩٠/٤) ، والبيهقي في السنن (١٨٢/٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٨١) . والبيهقي (١٠٤/٣) بلفظ توسطوا الإمام ، وقوله : « سدوا الخلل » وذلك

بحيث لا يبقى ثمة ما يسع مصليناً سداً لمدخل الشيطان .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان الصفوف الأول، وقد سبق أن النبي ﷺ أمر بأن يُكْمَل الصف الأول فالأول، وأخبر أن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأول، وفي حديث أنس بن مالك الذي نقله المؤلف في هذا الباب: أن النبي ﷺ أمر أن نبدأ بالصف المقدم فالمقدم، وما كان من نقص فليكن في الصف المؤخر، وهذا يدل على أن من وقف في الثاني قبل تمام الأول - ولو كان معه غيره - فإنه لم يُصَبَّ الشَّعْثَةُ ؛ بل الشَّعْثَةُ أَلَا يَكُون أَحَدٌ فِي الثَّانِي حَتَّى يَتِمَّ الْأَوَّلُ وَلَا فِي الثَّلَاثِ حَتَّى يَتِمَّ الثَّانِي إلخ، هذه هي السنة . وفي الأحاديث التي ذكرها المؤلف هنا أن النبي ﷺ قال : « إِنْ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى مِيَامِنِ الصَّفُوفِ » لكن هذا الحديث فيه رجل مختلف في توثيقه، وعلى هذا فيكون ضعيفاً - وإن كان على شرط مسلم من حيث الإسناد - لكن إذا كان فيه رجل مختلف بتوثيقه فإنه يكون ضعيفاً .

أما الحديث الأخير: فالنبي ﷺ أمر أن يوسط الإمام فقال : « وَسُطُوا الْإِمَامَ » يعني : اجعلوه وسطاً، وهذا هو العدل، ولهذا لما كان في أول الهجرة وكان الناس يصفون إذا كانوا ثلاثة صفّاً واحداً كان مشروعاً أن الإمام يكون بينهم - لا يكون متطرفاً من حيث اليسار بل يكون بينهم فدل ذلك على أن توسيط الإمام له أهمية، وبه نعرف أن ما يفعله بعض الناس الآن : تجدهم يكملون الصف يميناً واليسار ليس فيه إلا القليل هذا خلاف السنة ؛ السنة أن يكون اليمين واليسار متقاربين، فإذا تساوا فهنا نقول : الأيمن أفضل فإن زاد رجل أو رجلان في الأيمن فلا بأس، أما أن يكون الأيمن تائماً واليسار ليس فيه إلا قليل فهذا خلاف السنة، لأنه ليس فيه توسيط الإمام، وقد عرفتم أن الحديث الذي فيه : « إِنْ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى مِيَامِنِ الصَّفُوفِ » فيه رجل قد اختلف في توثيقه والله أعلم .

* * *

١٩٥ - باب فضل السنن الراتبة مع الفرائض وبيان أقلها وأكملها وما بينهما

١٠٩٧ - عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ رَمَلَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّيَ لِلَّهِ تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رُكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ الْفَرِيضَةِ ؛ إِلَّا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » أَوْ : « إِلَّا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ » (١) رواه مسلم .

١٠٩٨ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُكْعَتَيْنِ قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرُكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرُكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ ، وَرُكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ ، وَرُكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ (٢) . متفق عليه .

١٠٩٩ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ ، بَيْنَ

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٠١) ، والإمام أحمد في المسند (٣٢٧/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٠٤) .

كُلُّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ ، يَبْنِي كُلُّ أَذَانَيْنِ صَلَاةً « قَالَ فِي الثَّلَاثَةِ : « لَمْ يَشَأْ » ^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

الشرح

اعلم أن من نعمة الله ﷻ أن شرع لعباده نوافل زائدة عن الفريضة لتُكْمَل بها الفرائض ؛ لأن الفرائض لا تخلو من نقص ، ولولا أن الله شرعها لكانت بدعة ، لكن من نعمة الله أن شرع هذه النوافل حتى تُكْمَل نقص الفرائض ، والنوافل أنواع متعددة وأجناس : منها الرواتب التابعة للمفروضات وهي : اثنتا عشرة ركعة : أربع قبل الظهر يُسَلِّم بين كل ركعتين ، وركعتان بعدها ، وركعتان بعد المغرب ، وركعتان بعد العشاء وركعتان قبل صلاة الفجر ، من صلاتهن في كل يوم وليلة بنى الله له بيتا في الجنة كما في حديث أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

والأفضل أن تصلي هذه الرواتب في البيت ، في حق المأموم وفي حق الإمام ، لأن النبي ﷺ قال : « أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » ^(٢) حتى لو كنت في مكة أو في المدينة فالأفضل أن تصلي هذه السنن الراتبة في بيتك ، لأن النبي ﷺ كان يصليها في بيته ويقول : « أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » . وهناك نوافل تابعة للمفروضات لكنها ليست كهذه الرواتب وهو ما رواه عبد الله بن مُقْفَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال : « بين كل أذانين صلاة » ثلاث مرات وقال في الثالثة « لمن شاء » ، لئلا يتخذها الناس سنة راتبة ، وعلى هذا فيكون بين كل أذانين - يعني الأذان والإقامة - صلاة الفجر بين الأذان والإقامة سنة راتبة ، الظهر بين الأذان والإقامة سنة راتبة ، العصر ليس لها راتبة ، قبلها ولا بعدها لكن يُدْخِل في هذا الحديث أن الإنسان إذا أَدْن للعصر فليصل ركعتين قبل الإقامة ، المغرب كذلك ليس لها سنة راتبة قبلها لكن يُسَنُّ أن يصلي ركعتين بعد الأذان ، وقد ورد فيها حديث بخصوصها قال : « صلوا قبل المغرب » ^(٣) ثلاثا . وقال في الثالثة : « لمن شاء » ، العشاء كذلك ليس لها راتبة قبلها لكن تدخل في الحديث أن يصلي بعد الأذان وقبل الإقامة ركعتين ، وإذا فاتت الرواتب التي قبل الصلاة فإنه يقضيها بعد ذلك .

وإذا كان للصلاة سُتَّان قبلها وبعدها وفاتته الأولى ؛ فإنه يبدأ أولا بالبعدية ثم ما فاتته . مثال ذلك : دخل والإمام يصلي الظهر - وهو لم يصل راتبة الظهر - فإذا انتهت الصلاة يصلي أولا الركعتين اللتين بعد الصلاة ثم يقضي الأربع التي قبلها .

الجمعة قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : إن النبي ﷺ كان يصلي بعدها ركعتين ، وثبت عنه (أنه أمر أن يصلي الإنسان بعدها أربع ركعات فقال : « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعاً » ^(٤) فقال بعض

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٢٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٣٠٤) ، والإمام أحمد في المسند (٨٦/٣) ، والترمذي في الصلاة (١٨٥) .

(٢) أخرجه النسائي في قيام الليل (١٩٨/٣) ، وأحمد في مسنده (١٨٦/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٣) ، وأبو داود في السنن (١٢٨١) ، والبيهقي في السنن (٤٧٤/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٧) ، والنسائي في السنن (١١٣/٣) ، وأحمد في مسنده (٤٩٩/٢) .

العلماء : يقدم القول وتكون راتبة الجمعة أربع ركعات ، وقال بعضهم : يجمع بين القول والفعل فتكون راتبة الجمعة ست ركعات وقال بعضهم : إن صَلَّيْتُ في المسجد فأربع ، وإن صَلَّيْتُ بالبيت فركعتان ، لأن الرسول ﷺ كان يصليها بالبيت ركعتين ، وقال : « صلوا بعد الجمعة أربعاً » فإن صَلَّيْتُ بالمسجد فأربع ، وإن صَلَّيْتُ بالبيت فركعتان ، والأمر في هذا واسع - إن شاء الله - لكن ينبغي للإنسان أن يحرص على هذه السنن الراتبة لما فيها من الخير وتكميل ناقص الفرائض . والله أعلم .

١٩٦ - باب تأكيد ركعتي سنة الصبح

١١٠٠ - عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَدْعُ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْغَدَاةِ ^(١) . رواه البخاري .

١١٠١ - وَعَنْهَا : قَالَتْ : لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْهُ عَلَى رَكْعَتِي الْفَجْرِ ^(٢) . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

١١٠٢ - وَعَنْهَا : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » رواه مسلم . وفي رواية : « لَهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا » ^(٣) .

١١٠٣ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بِلَالِ بْنِ رَبَاحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُؤَذِّنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُؤْذِنَهُ بِصَلَاةِ الْغَدَاةِ ، فَشَعَلَتْ عَائِشَةُ بِلَالًا بِأَمْرِ سَأَلَتْهُ عَنْهُ ، حَتَّى أَصْبَحَ جَدًّا ، فَقَامَ بِلَالٌ فَأَذَنَهُ بِالصَّلَاةِ ، وَتَابَعَ أَذَانَهُ ، فَلَمْ يَخْرُجْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا خَرَجَ صَلَّيْتُ بِالنَّاسِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ شَعَلَتْهُ بِأَمْرِ سَأَلَتْهُ عَنْهُ حَتَّى أَصْبَحَ جَدًّا ، وَأَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ بِالْخُرُوجِ ، فَقَالَ - يَغْنِي النَّبِيُّ ﷺ - : « إِنِّي كُنْتُ رَكْعَتِي الْفَجْرِ » فقال : يا رسول الله إِنَّكَ أَصْبَحْتَ جَدًّا ! قَالَ : « لَوْ أَصْبَحْتُ أَكْثَرَ مِمَّا أَصْبَحْتُ ، لَرَكَعْتُهُمَا ، وَأَحْسَنْتُهُمَا ، وَأَجَمَلْتُهُمَا » ^(٤) رواه أبو داود بإسناد حسن .

الشرح

تمتاز سنة الفجر وهي ركعتان قبل الصلاة بأمر :

١ - أنه يُسَنُّ تخفيفهما ، فلو أطالهما الإنسان لكان مخالفاً للسننة ، بل يخفف حتى كانت

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٢) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٥٣) ، وقوله : « قبل الغداة » أي الصبح .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٣) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٥٤) ، قوله « أشد تعاهداً » أي محافظة ومداومة .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٩٦) ، والترمذي في الصلاة (٤١٦) ، والبيهقي في السنن (٤٧٠/٢) والحاكم في المستدرک (٣٠٦/١) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٥٧) ، قوله : « ليؤذنه » أي ليخبره ويعلمه ، وقوله : « أصبحت جدًّا » أي دخل في الصبح .

عائشة تقول إنه يخفف فيهما حتى أقول أقرأ بأمر القرآن !؟^(١) من شدة التخفيف .

٢ - أنه يُسَنُّ فيهما قراءة معينة : إما ﴿ قُلْ يَتَّابِعَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون : ١] في الركعة الأولى ، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الصمد : ١] في الثانية ، وإما ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] و ﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ... ﴾ [آل عمران : ٦٤] يعني مرة هذا ومرة هذا .

٣ - ومنها أن النبي ﷺ لم يكن على شيء من النوافل - يعني رواتب الصلوات - أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر ، يتعاهدهما ﷺ .

٤ - أن النبي ﷺ أخبر أنهما خير من الدنيا وما فيها . وأحب إليه من الدنيا وما فيها .

٥ - أن النبي ﷺ لم يكن يَدْعُهُمَا حضراً ولا سفرًا . كل هذا تتميز به سنة الفجر ، فينبغي للإنسان أن يحافظ عليها ، وأن يحرص عليها حضراً وسفرًا ، وإذا فاتته قبل الصلاة فليصلهما بعدها ، إما في نفس الوقت وإما بعد ارتفاع الشمس قيد رمح .

وذكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَدْعُ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ ، لكنهما بتسليمتين ، لأن الظهر راتبتهما ست ركعات : أربع قبلها واثنتان بعدها فينبغي لنا أن نحرص على ما كان النبي ﷺ يحرص عليه ، وأن نقنّدي بسنته ﷺ ما استطعنا ، فإن الله يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] والله الموفق .

* * *

١٩٧ - باب تخفيف ركعتي الفجر وبيان ما يقرأ فيهما ، وبيان وقتهما

١١٠٤ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالْإِقَامَةِ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ . متفقٌ عليه . وفي رواية لهما : يُصَلِّي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ ، إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ ، فَيُخَفِّفُهُمَا حَتَّى أَقُولَ : هَلْ قَرَأَ فِيهِمَا بِأَمْرِ الْقُرْآنِ !؟ وفي رواية لمسلم : كَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ وَيُخَفِّفُهُمَا . وفي رواية : إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ^(٢) .

١١٠٥ - وَعَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَدَّانَ الْمُؤَذِّنُ لِلصُّبْحِ ، وَبَدَأَ الصُّبْحُ ؛ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ^(٣) . متفقٌ عليه . وفي رواية لمسلم : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا طَلَعَ صَلَّى الْفَجْرَ لَا يُصَلِّي إِلَّا رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ .

(١) انظر ما أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٩٢) .

(٢) هذا الحديث وما بعده حتى نهاية هذا الباب لم يقم الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشرحها والحديث أخرجه البخاري في التهجد

(١١٦٥) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٩١) ، قوله « الدعاء » أي الأذان .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٧) .

- ١١٠٦ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى ، وَيُؤَيِّزُ بِرَكْعَةٍ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، وَيُصَلِّي الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ ، وَكَأَنَّ الْأَذَانَ بِأُذُنَيْهِ ^(١) . متفقٌ عليه .
- ١١٠٧ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا : ﴿ قُولُوا مَآمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا : ﴿ مَآمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . وَفِي رَوَايَةٍ : فِي الْآخِرَةِ الَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ^(٢) رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ .
- ١١٠٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَرَأَ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .
- ١١٠٩ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ شَهْرًا وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(٤) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٩٨ - باب استحباب الاضطجاع بعد ركعتي الفجر
على جنبه الأيمن والحث عليه سواء كان تهجد بالليل أم لا

- ١١١٠ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ^(٥) . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .
- ١١١١ - وَعَنْهَا : قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِيمَا بَيْنَ أَنْ يَقْرَعَ مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى الْفَجْرِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ، يُسَلِّمُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ، وَيُؤَيِّزُ بِوَاحِدَةٍ ، فَإِذَا سَكَتَ الْمُؤَذِّنُ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ الْفَجْرُ ، وَجَاءَهُ الْمُؤَذِّنُ ، قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ، هَكَذَا حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُؤَذِّنُ لِلْإِقَامَةِ ^(٦) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .
- ١١١٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ ؛ فَلْيُضْطَجِعْ عَلَى يَمِينِهِ » ^(٧) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ بِأَسَانِيدٍ صَحِيحَةٍ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(١) أخرجه البخاري في الوتر (٩٩٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٩٩) ، والبيهقي في السنن (٤٢/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٩٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٥٦) والنسائي في السنن (١٥٦/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤١٧) ، قوله : « رمقت » أي أطلت النظر .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٠) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٤/٦) .

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٢٢) وأبو داود في الصلاة (١٣٣٦) والنسائي في السنن (٣٠/٢) .

(٧) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٦١) ، والترمذي في الصلاة (٤٢٠) .

الشرح

سبق لنا أن النبي ﷺ كان يصلي ركعتي الفجر ، وسبق أن هاتين الركعتين تتميزان عن بقية الرواتب بميزات سبق ذكرها ، ومن مميزاتها : أنه إذا صلى هاتين الركعتين اضطجع على شقه الأيمن كما كان النبي ﷺ يفعل ، ثبت ذلك عن عائشة رضي الله عنها في الصحيحين : « أنه كان إذا صلى سنة الفجر اضطجع بعدها على الجانب الأيمن » ، وفي حديث عائشة الثاني الذي رواه مسلم : أنه كان يصلي إحدى عشرة ركعة يُسلم بين كل ركعتين ، وفي هذا دليل على وهم من توهم أنه إذا صلى إحدى عشرة ركعة يصلي أربعاً أربعاً ، ثم ثلاثاً بناءً على حديثها رضي الله عنها أنها قالت : كان النبي ﷺ لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم ثلاثاً ^(١) فظن بعض الناس أنه يصلي أربعاً جميعاً ، ثم أربعاً جميعاً ، ثم ثلاثاً ، وهذا وهم ؛ فقد أخذوا بظاهر الحديث ، فيحمل هذا على أنه يصلي أربعاً على ركعتين ركعتين ، ثم يصلي أربعاً على ركعتين ركعتين ، ثم يستريح ، ثم يصلي ثلاثاً ، هكذا يجب أن يحمل ؛ لأن الراوي عن النبي ﷺ في ذلك واحد وهي عائشة ، والفعل واحد ، فيجب حمل بعضها على بعض لتتفق الشئنة ، لا يقال : إنه يفعل هذا مرة وهذا مرة ، لأن كلمة « كان » تدل على دوام الفعل غالباً .

وأما حديث أبي هريرة في أمر النبي ﷺ من صلى ركعتي الفجر أن يضطجع على جنبه الأيمن ؛ فهذا - وإن كان الترمذي وأبوداود قد رواه ، وقال المؤلف : إنه بأسانيد صحيحة فقد قال حبر الأمة وبحر العلوم العقلية والنقلية شيخ الإسلام ابن تيمية : إن هذا حديث منكر ، وإنه لم يصح الأمر به عن النبي ﷺ ، وهذا هو الصحيح ^(٢) ، لأن الرسول لم يأمر بأن يضطجع الرجل إذا صلى سنة الفجر على جنبه الأيمن . وقول المؤلف رحمه الله في الترجمة (لا فرق بين المتجهد وغيره) إشارة إلى خلاف في ذلك ، وهو : أن بعض العلماء قال : يُسن الاضطجاع بعد ركعتي الفجر مطلقاً ، وبعضهم قال لا يُسن مطلقاً ، وبعضهم قال بالتفصيل : إن كان له تهجد فإنه يُسن له أن يضطجع بعدهما من أجل الراحة بعد التعب ، وإن لم يكن له تهجد فلا يضطجع ، ومن أعجب الأقوال وأغربها أن بعض العلماء قال : إن الاضطجاع بعد سنة الفجر شرط لصحة صلاة الفجر ، وأن من لم يضطجع فصلاته باطلة ، وهذه من غرائب العلم ، وغرائب الأقوال !؟ ما الرابط بين هذا الاضطجاع وبين صلاة الفجر ، الجهة منفصلة عن الصلاة ولا علاقة لها بالاضطجاع ، . لكن ذكرناه لأجل أن تعجبوا من آراء بعض أهل العلم - رحمهم الله - أنهم يقولون أقوالاً لا يدل عليها نقل ولا عقل ، والصحيح هو ما قاله شيخ الإسلام : أنه إذا كان الإنسان مُتعباً من تهجده فإنه يستريح ، يضطجع على جنبه الأيمن ، وهذا بشرط ألا يخشى أن يغلبه النوم فتفوته الصلاة ، فإن خشي فلا ينم .

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٧) ، ومسلم صلاة المسافرين (١٢٥) ، ومالك في الموطأ (صلاة الليل ٩) .

(٢) فتاوى ابن تيمية (٢٠٣/٢٣ ، ٢٠٤) .

١٩٩ - باب سنة الظهر

١١١٣ - عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَهَا ^(١) . متفقٌ عليه .

١١١٤ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَدْعُ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ ^(٢) ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

١١١٥ - وَعَنْهَا : قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي يَتِي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ ، ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ، وَكَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ الْمَغْرِبَ ، ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ، وَيُصَلِّي بِالنَّاسِ الْعِشَاءَ ، وَيَدْخُلُ يَتِي ، فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ^(٣) . رواه مسلم .

١١١٦ - وَعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتِ قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَأَرْبَعِ بَعْدَهَا ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » ^(٤) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١١١٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي أَرْبَعًا بَعْدَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَقَالَ : « إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، فَأَجِبْ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ » ^(٥) . رواه الترمذي وَقَالَ : حديثٌ حسنٌ .

١١١٨ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا لَمْ يُصَلِّ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ ، صَلَّاهُنَّ بَعْدَهَا ^(٦) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله باب سنة الظهر ، وذكر أحاديث متعددة كلها تدل على أن الظهر لها ست ركعات : أربع قبلها بسلامين ، وركعتان بعدها ، وأنه إذا نسي الإنسان أو فاتته الأربع القبليّة فإنه يصليها بعد الظهر ، لأن الرواتب تُقضى كما تُقضى الفرائض ، ولكن قد ورد في حديث أخرجه ابن ماجه : أنه يبدأ أولاً بالسنة البعدية ، ثم بالسنة القبليّة ^(٧) . فمثلاً جئت لصلاة الظهر والإمام يصلي ولم تتمكن من صلاة السنة القبليّة نقول : صل ، وبعد الانتهاء من الصلاة ، صل الركعتين اللتين بعد الصلاة ثم صل ركعتين وركعتين للتي قبل الصلاة . هذا هو السنة . وفي هذه الأحاديث دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يحافظ على الرواتب ،

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٩) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٢) ، والإمام أحمد في المسند (٩٣/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٠٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٦٩) ، والترمذي في الصلاة (٤٢٧ ، ٤٢٨) .

(٥) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٧٨) ، قوله : « بعد أن تزلزال الشمس » أي قبل دخول وقت الظهر ، قوله :

« يصعد لي » يرتفع لي . (٦) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٢٦) .

(٧) انظر الحديث في ابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٥٩) .

لقول عائشة : كان النبي ﷺ : لا يدع أربعاً قبل الظهر - يعني لا يتركها - إلا أنه في السفر لا يصلي سنة الظهر القبلىة ولا البعدية ، لأن النبي ﷺ لم يكن يصلي رابعة الظهر إذا كان مسافراً . والله الموفق .

* * *

٢٠٠ - باب سنة العصر

١١١٩ - عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؓ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ، يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ بِالتَّسْلِيمِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ^(١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١١٢٠ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعَ » ^(٢) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

١١٢١ - وَعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي قَبْلَ الْعَصْرِ رَكَعَتَيْنِ ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

* * *

٢٠١ - باب سنة المغرب بعدها وقبلها

تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ ، وَحَدِيثُ عَائِشَةَ ، وَهُمَا صَحِيحَانِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي بَعْدَ الْمَغْرِبِ رَكَعَتَيْنِ .

١١٢٢ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقَلٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ » قَالَ فِي الثَّلَاثَةِ : « لِمَنْ شَاءَ » ^(٤) . رواه البخاري .

١١٢٣ - وَعَنْ أَنَسٍ ؓ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ كِبَارَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَذَرُونَ السُّوَارِي عِنْدَ الْمَغْرِبِ ^(٥) . رواه البخاري .

١١٢٤ - وَعَنْهُ قَالَ : كُنَّا نُصَلِّي عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَكَعَتَيْنِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، قَبْلَ

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٢٩) ، قوله : « يفصل بينهن » أي يسلم بعد الركعتين .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٧١) ، والترمذي في الصلاة (٤٣٠) ، والإمام أحمد في المسند (١١٧/٢) ، قوله : « رحم الله امرأة » أي أحسن الله إليه وغفر له . (٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٧٢) .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٣) والبيهقي في السنن (٤٧٤/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة (٥٠٣) وأحمد في مسنده (٢٨٠/٣) وقوله : « يتذرون » أي يستبقون ، وقوله : « السواري » أي أعمدة المسجد وكانت من جذوع النخل وذلك لئلا يقطع أحد عليه الصلاة .

المغرب ، فقيل : أَكَانَ رسول الله ﷺ صَلَّاهُمَا ؟ قَالَ : كَانَ يَرَانَا نُصَلِّيهِمَا ، فَلَمْ يَأْمُرْنَا ، وَلَمْ يَنْهَنَا ^(١) . رواه مسلم .

١١٢٥ - وعنه قَالَ : كُنَّا بِالْمَدِينَةِ ، فَإِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ لِصَلَاةِ الْمَغْرِبِ ؛ ابْتَدَرُوا السَّوَارِي ، فَزَكَّعُوا رَكَعَتَيْنِ ، حَتَّى إِذَا الرَّجُلُ الْغَرِيبُ لِيَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَيُحْسِبَ أَنَّ الصَّلَاةَ قَدْ ضَلَّتْ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ يُصَلِّيهِمَا ^(٢) . رواه مسلم .



فيه حديث ابن عمر السابق : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَحَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ : « بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ » متفقٌ عليه . كما سبق .

الشرح

هذه الأبواب في بيان سنة العصر والمغرب والعشاء ، وقد سبق بيان سنة الفجر وسنة الظهر .
فأما العصر : فمن السنن قبلها : أن يصلي الإنسان أربع ركعات استئناساً بهذا الحديث : « رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعاً » وهذه الجملة دعائية : يعني أن النبي ﷺ دعا لمن صلى قبل العصر أربعاً ، وهذا الحديث وإن كان فيه مقال عند أهل العلم ، لكنه يُرجى أن ينال الإنسان الأجر إذا صلى هذه الأربع .

وأما المغرب : فلها سنة قبلها وبعدها ، لكن السنة التي قبلها ليست راتبة ، والتي بعدها راتبة ، السنة التي قبلها فيها الحديث أن النبي ﷺ قال : « صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ » ثلاثاً ، وقال في الثالثة : « لمن شاء » ؟ لئلا تتخذ سنة راتبة ، فإذا أذن المغرب فصل ركعتين سنة لكن ليست كالتي بعدها راتبة مؤكدة ، بل هي سنة إن تركها الإنسان فلا حرج ، وإن فعلها فلا حرج ، ولهذا قال أنس : « كان النبي ﷺ يَرَانَا نُصَلِّيهِمَا فَلَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَنْهَنَا » .

وأما العشاء : فلها سنة قبلها وبعدها ، لكن السنة قبلها ليست راتبة ، بل هي داخلة في عموم قول النبي ﷺ : « بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ » . أما بعدها فيُسَنُّ ركعتان .

فتبين بهذا أن الصلوات الخمس : الفجر لها سنة قبلها ، وليس لها سنة بعدها ، والظهر لها سنة قبلها وبعدها ، والعصر ليس لها سنة قبلها ولا بعدها - يعني راتبة - لكن لها سنة غير راتبة قبلها وأما بعدها فهو وقت نهى ، والمغرب لها سنة بعدها - أي : راتبة - وقبلها - غير راتبة ، والعشاء لها سنة

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣٠٣) ، والدارمي في الصلاة (١٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣٠٣) ، (٣٠٤) والترمذي في الصلاة (١٨٥) .

بعدها - يعني راتبة - وقبلها وليست براتبة ، هذه هي السنن التابعة للمفروضات .
ومن فوائدها : أنه إذا حصل نقص بالفرائض فإنها تكملها .

٢٠٣ - باب سنة الجمعة

فيه حديث ابن عمر السابق (١٠٩٨) أنه صلى مع النبي ﷺ ركعتين بعد الجمعة : متفق عليه .
١١٢٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلى أحدكم الجمعة ، فليصل بعدها أربعا » (١) رواه مسلم .

١١٢٧ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان لا يصلي بعد الجمعة حتى يتصرف ، فيصلي ركعتين في بيته (٢) ، رواه مسلم .

الشرح

الجمعة : صلاة مستقلة ليست هي الظهر ؛ ولهذا لا يجمع العصر إليها ، يعني إذا كان الإنسان مسافرا ، ومررت ببلد وصليت معهم الجمعة فلا تجمع العصر إليها ، لأنها مستقلة (٣) ، والشنة إنما جاءت بالجمع بين الظهر والعصر لا بين الجمعة والعصر ، ولأنها أي : - الجمعة - تختلف عن سائر الصلوات بما يشرع قبلها وبعدها وفي يومها - فلا سنة قبلها - يعني ليس لها راتبة - إذا جاء الإنسان إلى المسجد يصلي ما شاء - إلا أن يحضر الإمام - من غير عدد معين ، يصلي ، يقرأ حتى يأتي الإمام سواء صلى ركعتين ، أم أربعا ، أم ستا على حسب نشاطه (٤) ، وأما بعدها فلها سنة راتبة ، والسنة الراتبة التي بعدها : ركعتان بالبيت لقول ابن عمر رضي الله عنهما : كان النبي ﷺ إذا صلى الجمعة لا يصلي بعدها شيئا حتى يتصرف إلى بيته فيصلي ركعتين ، وفي حديث أبي هريرة الذي ذكره المؤلف : أن النبي ﷺ قال : « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعا » فاختلف العلماء - رحمهم الله - هل سنة الجمعة أربع ركعات بسلامين أم ركعتان ، فمنهم من قال : إنها أربع ركعات ، لأن هذا هو الذي أمر به النبي ﷺ وأما الركعتان فهما فعله ، وأمره مقدّم على فعله . فتكون أربع ركعات .

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٧) ، والإمام أحمد في المسند (٤٩٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٣٩/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٧١) ، والنسائي في السنن (١١٣/٣) ، والبيهقي في السنن (٢٤٠/٣) .

(٣) الكلام على أن الجمعة صلاة مستقلة أم ظهر مقصورة فيه خلاف بين العلماء ، فقال بعضهم في الجمعة والظهر يوم الجمعة ثلاثة أقوال : الأول كل واحدة أصل بنفسه . والثاني الظهر أصل والجمعة بدل وهو القول بأنها ظهر مقصورة . والثالث : وهو أصحها أن الجمعة أصل والظهر بدل (انظر في ذلك : المجموع ٤٥١/٤) .

(٤) انظر فتاوى ابن تيمية (١٨٩/٢٤) .

ومنهم من قال : هي ركعتان فقط ^(١) ؛ لأن هذا هو الذي ذكره ابن عمر رضي الله عنهما وأما الأربع فليست براتبية . ومنهم من فصل فقال : إن صلى في المسجد سنة الجمعة صلى أربعاً ، وإن صلى بالبيت صلى ركعتين ، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله عليه - ومنهم من قال : يجمع بين هذا وهذا : فيصلي أربعاً بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ويصلي ركعتين بفعله ، فتكون السنة بعد الجمعة ست ركعات ^(٢) . والله الموفق .

٢٠٤ - باب استحباب جعل النوافل في البيت سواء الراتبية وغيرها
والأمر بالتحول للنافلة من موضع الفريضة أو الفصل بينهما بكلام

١١٢٨ - عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « صَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ ؛ فَإِنْ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ » ^(٣) متفق عليه .

١١٢٩ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : « اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا » ^(٤) متفق عليه .

١١٣٠ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « إِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ فِي مَسْجِدِهِ ؛ فَلْيَجْعَلْ لَبِيَّتِهِ نَصِييَا مِنْ صَلَاتِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ فِي بَيْتِهِ مِنْ صَلَاتِهِ خَيْرًا » ^(٥) رواه مسلم .

الشرح

لما ذكر المؤلف رحمته الله الرواتب التابعة للمفروضات ؛ بين في هذا الباب أن الأصل للإنسان أن يصلي في بيته ، وذكر في ذلك أحاديث منها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا أيها الناس في بيوتكم » فأمر أن يصلى في البيت ، فإن صلاة المرء في بيته أفضل إلا المفروضة ^(٦) ؛ فدل ذلك على أن الإنسان ينبغي له أن تكون جميع رواتبه في بيته سواء الرواتب أو صلاة الضحى أو التهجد أو غير ذلك ، حتى

(١) وهذا هو رأي طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد ، أما أصحاب أبي حنيفة وطائفة من أصحاب أحمد فقد قالوا بأنها أربعة (انظر فتاوى ابن تيمية ١٨٩/٢٤) .

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٩٢/٢٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٣١) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢١٣) ، والإمام أحمد في المسند (١٨٢/٥) ، والبيهقي في السنن (٤٩٤/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٢) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٨) والإمام أحمد في المسند (١٦/٢) ، قوله « من صلاتكم » أي بعض صلاتكم ، والمراد بها صلاة النافلة ، قوله « لا تتخذوها قبوراً » أي لا تجعلوها مهجورة كالقبور .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢١٠) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٧٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٥٠/٣ ، ٥٩) .

(٦) وذلك لما رواه أبو داود في الصلاة (١٠٤٤) والطبراني في الكبير (١٥٥/٥) والبيهقي في شرح السنة (١٣٠/٤) .

في مكة والمدينة ، الأفضل أن تكون الرواتب في البيت ، أفضل من كونها في المسجد ، في المسجد الحرام أو المسجد النبوي ، لأن النبي ﷺ قال هذا وهو في المدينة والصلاة في مسجده خير من ألف صلاة إلا المسجد الحرام . وكثير من الناس الآن يفضل أن يصلي النافلة في المسجد الحرام دون البيت ، وهذا نوع من الجهل ، فمثلاً إذا كنت في مكة وأذن لصلاة الفجر وسألك سائل : هل الأفضل أن تصلي الراتبة في البيت أو أذهب إلى المسجد الحرام ؟ قلنا : الأفضل في البيت ، سنة الضحى أفضل في المسجد الحرام أم في البيت ؟ قلنا : في البيت ، التهجد أفضل في المسجد الحرام أم في البيت ؟ قلنا : في البيت ، وهلم جر . إلا الفرائض ؛ فالفرائض لابد أن تكون في المساجد ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الأخير : « فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً » يعني أن البيت إذا صليت فيه جعل الله فيه خيراً ، جعل الله في صلاتك فيه خيراً . من هذا أن أهلَكَ إذا رأوك تصلي اقتدوا بك وألفوا الصلاة وأحبوها ولا سيما الصغار منهم ، ومنها : أن الصلاة في البيت أبعد من الرياء ، فإن الإنسان في المسجد يراه الناس وربما يقع في قلبه شيء من الرياء ، أما في البيت ؛ فإنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء . ومنها : أن الإنسان إذا صلى في بيته وجد فيه الراحة ، راحة قلبية وطمأنينة ، وهذا لا شك أنها تزيد في إيمان العبد ، فالهم أن الرسول ﷺ أمرنا أن نصلي في بيوتنا إلا الفرائض .

كذلك يستثنى من تلك النوافل : قيام رمضان ؛ فإن الأفضل في قيام رمضان أن يكون جماعة في المساجد مع أنه سنة وليس بواجب ، لكن دلت السنة على أن قيام رمضان في المسجد أفضل ، فإن الرسول ﷺ صلى بأصحابه ثلاث ليالي أو ليلتين ثم تخلى وقال : « إني خشيت أن تفرض عليكم » (١) . والله الموفق .

١١٣١ - وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَطَاءٍ أَنَّ نَافِعَ بْنِ جُبَيْرٍ أَرْسَلَهُ إِلَى السَّائِبِ ابْنِ أُخْتِ نَمِرٍ يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ رَأَاهُ مِنْهُ مُعَاوِيَةُ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ : نَعَمْ صَلَّيْتُ مَعَهُ الْجُمُعَةَ فِي الْمَقْصُورَةِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ الْإِمَامُ ، قُمْتُ فِي مَقَامِي ، فَصَلَّيْتُ ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَقَالَ : لَا تَعُدْ لِمَا فَعَلْتَ . إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ ، فَلَا تَصِلْهَا بِصَلَاةٍ حَتَّى تَتَكَلَّمَ أَوْ تَخْرُجَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنَا بِذَلِكَ ؛ أَنْ لَا نُوصِلَ صَلَاةً بِصَلَاةٍ حَتَّى تَتَكَلَّمَ أَوْ نَخْرُجَ (٢) . متفق عليه .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره رحمه الله في استحباب الفصل بين الفرض والسنة ، وهو حديث معاوية رضي الله عنه أنه رأى رجلاً صلى الجمعة ثم قام فصلى - يعني السنة - فدعاه معاوية وأخبره أن النبي ﷺ أمر ألا توصل صلاة بصلاة حتى تخرج أو تتكلم ، فمثلاً إذا صليت الظهر ، فالظهر لها راتبة بعدها - وأردت

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٧٣) ، وقوله : « في المقصورة » هي الحجرة المبنية في المسجد ، وكان معاوية قد أحدث ذلك في المسجد بعدما ضربه الخارجي .

أن تصلي الراتبه ، لا تصل في مكانك ، قم في محل آخر ، أو اخرج إلى بيتك وهو أفضل ، أو على الأقل تكلم ؛ لأن النبي ﷺ نهى أن توصل صلاة بصلاة حتى يخرج الإنسان أو يتكلم ، ولهذا قال العلماء : يسن الفصل بين الفرض وسنته بكلام أو انتقال من موضعه .

والحكمة من ذلك : ألا يوصل الفرض بالنفل ، فليكن الفرض وحده ، والنفل وحده حتى لا يختلط . هكذا قال أهل العلم رحمهم الله . والله الموفق .

٢٠٥ - باب الحث على صلاة الوتر وبيان أنه سنة مؤكدة وبيان وقته

١١٣٢ - عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : الْوِتْرُ لَيْسَ بِحَتْمٍ كَصَلَاةِ الْكُثُوبَةِ ، وَلَكِنْ سُنَّةُ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « إِنْ اللَّهُ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ ، فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ » ^(١) . رواه أبو داود والترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١١٣٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ ، وَمِنْ أَوْسَطِهِ ، وَمِنْ آخِرِهِ ، وَأَنْتَهَى وَتَرُهُ إِلَى الشَّحْرِ ^(٢) . متفقٌ عليه .

١١٣٤ - وَعَنْ ابْنِ عُثْمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وَتَرًا » ^(٣) . متفقٌ عليه .

الشرح

اعلم أنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنْ اللَّهُ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ » ، « إِنْ اللَّهُ وَتَرٌ » يعني : ليس معه إله ثانٍ ، وهو سبحانه وتعالى يحب الوتر ، وقد ظهرت آثار هذه المحبة في مخلوقاته ، وفي مشروعاته ، ففي مشروعاته : نجد أن أكثرها وتر ينقطع بوتر ؛ الصلوات الخمس عددها سبعة عشر ركعة وهي وتر ، صلاة الليل إحدى عشر ركعة وهي وتر ، كذلك المخلوقات أعظم ما نعلم من المخلوقات : العرش وهو واحد ، ثم السماوات وهي سبع ، ثم الأرضون وهي سبع ، فتجد أن الوترية ظهرت في مشروعات الله وفي مخلوقات الله ﷻ ، لأنه تبارك وتعالى وتر يحب الوتر .

واعلم أيضًا أن الوتر وتران : وتر فريضة ، وتر سنة .

أما وتر الفريضة : فهو صلاة المغرب كما ثبت في الحديث الصحيح : أنها وتر النهار ^(٤) ، يعني تختم بها صلاة النهار وهي وتر ، وإن كانت في أول الليل . وأما وتر النافلة فهو الوتر الذي يختتم به

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤١٦) والترمذي في الصلاة (٤٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (٩٩٦) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (٩٩٨) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٥١) والإمام أحمد في المسند (٢٠/٢) والبيهقي في السنن (٤٣/٣) ، قوله « اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً » يقصد به أن يختتم الإنسان عمله بالأفضل ، فعود عليه بركته ويحوز نفعه .

(٤) وذلك لما رواه أحمد في مسنده (٣٠/٢) ، والطبراني في الصغير (١١٢/١) .

صلاة الليل ، قال النبي ﷺ : « اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا » واختلف العلماء رحمهم الله في وتر صلاة الليل ، فمنهم من قال : إنه واجب وأن الذي يترك الوتر آثم ، ولكنه ليس كالفريضة ركن من أركان الإسلام ، لكنه واجب ، يأثم الإنسان بتركه ^(١) . ومنهم من قال : إنه سنة لا يأثم الإنسان بتركه ^(٢) ، ولكل منهم حجة ، لكن حجة من يقول : إنه ليس بواجب أقوى ، لأن رجلاً سأل النبي ﷺ عن ما يجب عليه من الصلوات ، فعد عليه الصلوات الخمس ، فقال : هل علي غيرها ، قال : « لا ، إلا أن تطوع » ^(٣) . وفصل بعض العلماء فقال : من كان له وتر من آخر الليل وجب عليه أن يوتر ، ومن لم يكن كذلك ، يعني : أنه يصلي العشاء ثم ينام - فهذا لا يلزمه الوتر ^(٤) ، ففصل بين من له وتر من آخر الليل الواجب عليه أن يوتر ، لقول النبي ﷺ : « أوتروا يا أهل القرآن » ^(٥) وهذا خاص بهم ، أمر خاص بهم ؛ لأن الأمر العام يشملهم وغيرهم ، لكن هذا أمر خاص . وعلى كل حال فإن ترك الوتر لا ينبغي ، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة قانع البدعة ، قال رحمه الله : من ترك الوتر فهو رجل سوء لا ينبغي أن تقبل له شهادة ^(٦) . إلى هذا الحد وصفه بأنه رجل سوء وأنه لا ينبغي أن تقبل له شهادة ، لأن الوتر أدناه ركعة ، ركعة لا تشتد على أحد ، ولا تكلف أحدًا ، ولا تأخذ من وقتك وقتًا كثيرًا . فالذي يتركها مع تأكدها وفضلها وأمر النبي ﷺ بها ، فهو رجل سوء ، فلا تتركها . قال : ولا ينبغي أن تقبل له شهادة فإذا جاء إلى القاضي وشهد ، وقد علمنا أنه لا يوتر ردنا شهادته ، هذا قول الإمام أحمد رحمه الله . وهذا يدل على تأكيد هذا الوتر ، فلا ينبغي للإنسان أن يدعه .

أما وقته : فهو من صلاة العشاء ، وستتها إلى طلوع الفجر ^(٧) . من صلاة العشاء ولو جمعت جمع تقديم مع المغرب ، يعني أن الإنسان إذا نزل مطر أو ما أشبه ذلك ، وجمع صلاة العشاء إلى المغرب تقديمًا ، فإن الوتر يدخل وقته ، فيصلي العشاء ثم الراتبة ثم الوتر ، سواء في أول الليل ، أو وسطه ، أو آخره كما قالت عائشة رضي الله عنها : من كل الليل أوتر النبي ﷺ : من أول الليل ، ووسطه ، وآخره ، وانتهى وتره إلى السحر ^(٨) ، هذا وقته .

أما عدده : فسيأتي إن شاء الله ، ولنعلم أن الذي يسرع في صلاته إسراعًا مخلًا بالطمأنينة ليست

(١) هذا هو أحد أقوال أبي حنيفة وهو الصحيح عنده ، وهو أدون درجة من الفرائض ولا يكفر جاحده (انظر فقه الكتاب والسنة ٣٠٤٨/٥ ، ٣٠٤٩) بدائع الصنائع (٢٧١/١) ، والنباية (٢٨٩/٢) .

(٢) وهذا هو مذهب أكثر أهل العلم كالشافعية والحنابلة والمالكية والصاحبان من الأحناف (انظر المجموع ١٢/٤ ، وأسهل المدارك ٢٢١/١ ، والمغني ١٦١/٢ ، وبداية المجتهد ١٧٠/١) .

(٣) انظر الحديث في : البخاري في الإيمان (٤٦) ، ومسلم في الإيمان (٨) ، وأبو داود في الصلاة (٣٩١) .

(٤) انظر في ذلك المجموع (١٤/٤ ، ١٥) ، والمغني (١٦٣/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/١) ، والبيهقي في السنن (٤٦٨/٢) .

(٦) انظر المغني (١٦١/٢) ، وفقه الكتاب والسنة (٣٠٤٩/٥) .

(٧) انظر بدائع الصنائع (٢٧٢:١) ، المجموع (١٣/٤) ، المغني (٦٢/٢) .

(٨) أخرجه البخاري في الوتر (٩٩٦) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٣٦) ، وأحمد في مسنده (٨٥/١ ، ٨٦) .

له صلاة : الفريضة والنفل ، لأن رجلاً جاء إلى المسجد وضلى بغير طمأنينة ، فقال له النبي ﷺ : « ارجع فصل فإنك لم تصل » ثلاث مرات ^(١) . فلا بد من الطمأنينة . وعجباً لبني آدم ، وعجلة بني آدم ، وجهل بني آدم ، وظلم بني آدم . كيف يسرع هذه السرعة وهو يخاطب الله ويناجيه . لو أن إنساناً وقف مع صديق له يحادثه لبقى الساعة والساعتين وهو واقف لا يمل ، فكيف وهو بين يدي الله ﷻ يناجيه ويخاطبه ؟ يا رب اغفر لي ، سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي العظيم ، يناجيه في كلامه ، لماذا هذه السرعة ، هل وراءه جيش ؟ أبداً ، لكن الشيطان عدو لنا ، ولا يحب منا إلا ما يسوؤنا ، يحب أن يصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة ، يقول لنا عجل ، كأننا على جمر . وأقول يا أخي جرب ، اطمئن في الصلاة واستحضر أنك تخاطب الله وتناجيه حتى تذوق طعمها ، وحتى تكون قرّة عينك كما كانت قرّة عين الرسول ﷺ ^(٢) . أما أن يسرقها سرقة ، فهذه سرقة من الشيطان . نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اللهم أعذنا جميعاً من الشيطان الرجيم .

* * *

١١٣٥ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أَوْزُوا قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا » ^(٣) رواه مسلم .
١١٣٦ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي صَلَاتَهُ بِاللَّيْلِ ، وَهِيَ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَإِذَا بَقِيَ الْوُتْرُ ، أَيْقَظَهَا فَأَوْتَرَتْ . رواه مسلم . وفي رواية له : فَإِذَا بَقِيَ الْوُتْرُ قَالَ : « قُومِي فَأَوْتِرِي يَا عَائِشَةُ » ^(٤) .

١١٣٧ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا الصُّبْحَ بِالْوُتْرِ » ^(٥) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١١٣٨ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ؛ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ ؛ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ ؛ فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ » ^(٦) رواه مسلم .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٧) ، ومسلم في الصلاة (٤٥) ، والترمذي في الصلاة (٣٠٣) ، والنسائي في السنن (٥٩/٣) .

(٢) وذلك مصداقاً لما رواه النسائي في السنن (٦١/٧) ، وأحمد في مسنده (١٢٨/٣) ، والحاكم في المستدرک (١٦٠/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٦٠) والترمذي في الصلاة (٤٦٨) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١١٨٩) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٤) ، والبيهقي في السنن (٢٧٥/٢ ، ٢٧٩) ، قوله : « وهي معترضة بين يديه » أي نائمة بينه وبين القبلة .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٩) ، والإمام أحمد في المسند (٣٧/٢ ، ٣٨) وأبو داود في الصلاة (١٤٣٦) والترمذي في الصلاة (٤٦٧) ، قوله : « بادروا الصبح بالوتر » أي سابقوه به ، وتعجلوا بأن تقوموه قبل دخوله .

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٦٢) ، والبيهقي في السنن (٣٥/٣) ، قوله : « مشهودة » أي تحضرها الملائكة .

الشرح

هذه الأحاديث في بقية ما يتعلق بالوتر ذكرها المؤلف في رياض الصالحين ومنها : أن النبي ﷺ قال : « أوتروا قبل أن تصبحوا » ؛ لأن الوتر ينتهي وقته بطلوع الفجر ، فإذا طلع الفجر فلا وتر حتى ولو بين أذان الفجر والإقامة لا وتر ، ولكن إذا طلع الفجر والإنسان لم يوتر ؛ فإنه يصلي في النهار شفعا ، إن كان يوتر بثلاث صلى أربعا ، إن كان يوتر بخمس صلى ستا ، إن كان يوتر بسبع صلى ثمانية ، لقول عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ إذا غلبه نوم أو وجع ؛ صلى من النهار ثنتي عشر ركعة ^(١) . واعلم أن الوتر له صفات : الصفة الأولى : أن يوتر بواحدة فقط ، وهذا جائز ولا يكره الوتر بها ^(٢) .

الثانية : أن يوتر بثلاث ، وله الخيار إن شاء سلم من الركعتين وأتى بالثالثة ، وإن شاء سردها سرداً يتشهد واحد .

الثالث : أن يوتر بخمس فيسردها سرداً لا يتشهد إلا في آخرها .

الرابع : أن يوتر بسبع فيسردها سرداً لا يتشهد إلا في آخرها .

الخامس : أن يوتر بتسع فيسردها سرداً لكن يتشهد بعد الثامنة ولا يسلم ثم يصلي التاسعة ويسلم .

السادسة : أن يوتر بإحدى عشرة فيسلم من كل ركعتين ويوتر بواحدة ^(٣) .

هذه صفة الوتر وقد سبق أنه سنة مؤكدة ، وأن من العلماء من أوجبه ، فلا تضيع الوتر . ثم إن كنت ترجو أن تستوتر من آخر الليل ؛ فاجعل الوتر في آخر الليل ؛ وإن كنت تخاف ألا تقوم ؛ فاجعل الوتر من أول الليل ، لا تتم إلا موتراً . ولهذا أوصى النبي ﷺ أبا هريرة أن يوتر قبل أن ينام ^(٤) ؛ لأن أبا هريرة كان يقرأ أحاديث الرسول ﷺ في أول الليل وينام في آخره ، فأمره النبي ﷺ أن يوتر قبل أن ينام .

واعلم أن الوتر سنة في الحضر والسفر ، حتى في السفر لا تتركه ، ومن ذلك ليلة المزدلفة ؛ فإن الإنسان إذا صلى العشاء ، فإنه يصلي المغرب والعشاء جمعاً ثم يوتر ، وإن كان جابر رضي الله عنه لم يذكره في حديثه لكن الأصل بقاء ما كان على ما كان ، وأن الرسول ﷺ لا يدع الوتر حضراً ولا سفراً ^(٥) . والله الموفق .

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩) .

(٢) وهذا هو قول المالكية ، الذين قالوا أنه ركعة واحدة ويندب أن يكون بعد الشفع لكرامة الاختصار على ركعة . (انظر أسهل المدارك ٣٠١/١) .

(٣) انظر تفصيل ذلك كله في المجموع (١٢/٤) ، بدائع الصنائع (٢٧٢/١) ، المغني (١٥٨/٢) .

(٤) مسلم في صلاة المسافرين (١٤٦ ، ١٤٧) ، وأحمد في مسنده (٣٤٧/٢) ، وأبو داود في السنن (١٤٣٣) .

(٥) وذلك لما رواه البخاري في الوتر (١٠٠٠) .

٢٠٦ - باب فضل صلاة الضحى

وبيان اقلها واكثرها واوسطها والحث على المحافظة عليها

١١٣٩ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : أَوْصَانِي خَلِيلِي صلى الله عليه وسلم بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَرَكَعَتَيِ الضُّحَى ، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَرْقُدَ . ^(١) متفق عليه .

وَالْإِيتَارُ قَبْلَ الثَّوَمِ إِنَّمَا يُسْتَحَبُّ لِمَنْ لَا يَتَّقِي بِالِاسْتِيقَاطِ آخِرَ اللَّيْلِ ، فَإِلَّا وَتَعَهُ ، فَأَخِرَ اللَّيْلِ أَفْضَلُ .
١١٤٠ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : « يُضْبَحُ عَلَى كُلِّ سَلَامَةٍ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ : فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَتُجْزَى مِنْ ذَلِكَ : رَكَعَتَانِ يَزْكُمُهُمَا مِنَ الضُّحَى » ^(٢) رواه مسلم .
١١٤١ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعًا ، وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللَّهُ ^(٣) . رواه مسلم .

١١٤٢ - وَعَنْ أُمِّ هَانِيٍّ فَاتِحَتِ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَتْ : ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ ، صَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ ، وَذَلِكَ ضُحًى ^(٤) متفق عليه . وهذا مختصر لفظ إحدى روايات مسلم .

الشرح

صلاة الضحى هي : ركعتان أو أكثر تفعلان من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى قبيل الزوال . وارتفاع الشمس قدر رمح يكون بمقدار ربع ساعة أو نحوها بعد طلوع الشمس فمن ثم يبدأ وقت صلاة الضحى إلى أن يبقى على الزوال عشر دقائق أو قريب منها .

كل هذا وقت لها لكن فعلها في آخر الوقت أفضل ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « صلاة الأوابين حين ترمض الفصال » ^(٥) . والفصال : أولاد النوق ، وترمض يعني تشتد عليها الرمضة ، وهذا في آخر الوقت . وهذه من الصلوات التي يسن تأخيرها ، ونظيرها في الفرائض صلاة العشاء ، فإن صلاة العشاء لها أن تؤخر في آخر وقتها إلا إذا شق على الناس .

- (١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٧٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٢١) ، والإمام أحمد في المسند (٢٦٥/٢) .
- (٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٤) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٨٩) ، والبيهقي في السنن (٤٧/٣) ، قوله : « على كل سلامى » قال النووي : أصله عظام الأصابع وسائر الكف ، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله ، قوله : « ويجزئ » ويكفي .
- (٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٨) ، والإمام أحمد في المسند (١٤٥/٦) ، والبيهقي في السنن (٥٠/٣) .
- (٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٧٦) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٢) .
- (٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤٣) ، وأحمد في مسنده (٣٦٦/٤) ، والبيهقي في السنن (٤٩/٣) .

وصلاة الضحى مما عهد النبي ﷺ إلى بعض أصحابه ؛ عهد بها إلى أبي هريرة ، وأبي الدرداء ، وأبي ذر ، قال النبي ﷺ لأبي هريرة ؓ حين أوصاه ، قال : « أوصاني خليلي ﷺ بثلاثة : صيام ثلاثة أيام من كل شهر » ، ولم يعين وقتها من الشهر ، ولهذا قالت عائشة : « كان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر لا ييالي أصامها من أول الشهر أو وسطه أو آخره » (١) . ولا فرق بين أن تكون متوالية يعني متتابعة أو متفرقة ، كلها يحصل بها الأجر ، لكن أفضل هذه الأيام الثلاثة أيام البيض : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر (٢) .

وأوصاه ﷺ بركعتي الضحى ، ركعتان يركعهما ما بين ارتفاع الشمس قدر رمح إلى قبيل الزوال . والثالث : بأن يوتر قبل أن ينام ، وإنما أوصاه بالوتر قبل أن ينام ؛ لأن أبا هريرة ؓ كان يدرس في أول الليل أحاديث رسول الله ﷺ فلا ينام إلا متأخراً ويخشى ألا يقوم من آخر الليل ، فلهذا أوصاه أن يوتر قبل أن ينام . والشاهد من هذا ركعتي الضحى .

ثم ذكر حديث أبي ذر : « أنه يصبح على كل سلامى من الناس صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس » . والسلامى هي الأعضاء أو العظام والمفاصل ، وقد ذكر العلماء السابقون رحمهم الله ، أن في كل إنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً ، كل مفصل يطالبك كل يوم بصدقة ؛ لأن الذي أحياه ﷺ وأمدّه وعافاه له عليك منة وفضل ، كل يوم كل عضو يطالبك بصدقة ، لكنها ليست بصدقة مال ، بل هي كل ما يقرب إلى الله من قول أو عمل أو بذل مال أو غير ذلك ؛ فكل تسيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، فكل ما يقرب إلى الله فهو صدقة ، ومثل هذا يسير على المرء أن يؤدي ثلاثمائة وستون صدقة كل يوم . قال : « ويجزئ من ذلك » يعني بدلاً عن ذلك ، يجزئ « ركعتان يركعهما في الضحى » هذه نعمة كبيرة بدلاً من أن تطالب عن كل عضو من أعضائك بصدقة ، يكفيك أن تصلي ركعتين من الضحى . وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يواظب عليهما ؛ أي على ركعتي الضحى حضراً وسفراً .

ولكن هل لها عدد معين ؟ نقول : إن أقلها ركعتان ، وأما أكثرها فما شاء الله ، لو تبقى تصلي كل الضحى ، فأنت على خير ، ولهذا تقول عائشة ؓ : كان النبي ﷺ يصلي من الضحى أربع ركعات ويزيد ما شاء الله . ولم تحدّد وأما قول من قال : إن أكثرها ثمان ، ففيه نظر ، لأن حديث أم هانئ في فتح مكة : أن رسول الله ﷺ صلى ثمان ركعات . لا يدل على أن هذا هو أعلاه ، قال وقع اتفاقاً وما يقع اتفاق ليس فيه دليل على الحصر .

وعلى هذا فنقول : أقلها ركعتان ولا حد لأكثرها ، صل ما شئت ، لكن كان النبي ﷺ يصلي أربعاً وربما صلى ثمانية ، فينبغي للإنسان أن يقتنم عمره بصلاح الأعمال ؛ لأنه سوف يندم إذا جاءه

(١) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٦٣) ، بلفظه والنسائي في الصوم (٢١٩/٤) ، وأحمد في مسنده (٩٠/٢) .

(٢) وذلك لما رواه النسائي في السنن (٢٢٠/٤ ، ٢٢١) وأحمد في مسنده (٢٨٧/٦) .

الموت أن أمضى ساعة من دهره لا يتقرب بها إلى الله ﷻ كل ساعة تمر عليك وأنت لا تتقرب إلى الله بها فهي خسارة ، لأنها راحت عليك لم تنتفع بها . فانتهاز الفرصة بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والتعلق بالله ﷻ ، اجعل قلبك دائماً مع الله ﷻ ربك في السماء وأنت في الأرض ، لا تغفل عن ذكر الله بلسانك وفي فعالك وبجنانك ، بالقلب ، فإن الدنيا زائلة لم تبق لأحد . انظر الأولين فمن سبقك من الأمم السابقة والماضية البعيدة المدى ، وانظر إلى من سبقك من أصحابك ، بالأمس كانوا معك يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل ، ويشربون كما تشرب ، والآن هم في أعمارهم مرتنون ، وأنت سيأتي عليك هذا ، طالت الدنيا أم قصرت قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا مُلْقِيَهُ ﴾ ^(١) [الانشقاق : ٦] فانتهاز الفرصة يا أخي ، انتهاز الفرصة ، فلن ينفعك يوم القيامة مال ولا بنون ولا أهل ، ولن ينفعك إلا أن تأتي الله بقلب سليم ، أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يأتي ربه بقلب سليم ، وأن يتوفانا على الإيمان والتوحيد ، إنه على كل شيء قدير .

٢٠٧ - باب تجويز صلاة الضحى من ارتفاع الشمس إلى زوالها

والأفضل أن تصلى عند اشتداد الحر وارتفاع الضحى

١١٤٣ - عن زيد بن أرقم ؓ أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا يُصَلُّونَ مِنَ الضُّحَى ، فَقَالَ : أَمَا لَقَدْ عِلِمُوا أَنَّ الصَّلَاةَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السَّاعَةِ أَفْضَلُ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفَيْصَالُ » ^(٢) رواه مسلم .

« تَرْمَضُ » : يفتح التاء والميم وبالضاد المعجمة ، يعني : شدة الحر ؟ « وَالْفَيْصَالُ » جَمْعُ فَيْصِلٍ وَهُوَ : الضَّيْفُ مِنَ الْإِبِلِ .

٢٠٨ - باب الحث على صلاة تحية المسجد بركعتين

وكراهية الجلوس قبل أن يصلي ركعتين في أي وقت دخل

١١٤٤ - عن أبي قتادة ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ ، فَلَا يَجْلِسُ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ » ^(٣) متفق عليه .

(١) قوله : ﴿ كَادِحٌ ﴾ أي جاهد ومجد في السير إلى لقاء ربك ، وقوله : ﴿ مُلْقِيَهُ ﴾ أي تلاقي ربك بعملك فيجازيك عليه .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه والحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٣) والإمام أحمد في المسند (٣٦٦/٤) بنحوه ، والبيهقي في السنن (٤٩/٣) ، قوله : « صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ » أي التائبين الرجاعين من الذنب إلى التوبة ومن الغفلة إلى الحضور .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٤) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٩) .

١١٤٥ - وعن جابر رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد، فقال: «صَلِّ رَكَعَتَيْنِ» ^(١) متفق عليه.

٢٠٩ - باب استحباب ركعتين بعد الوضوء

١١٤٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليلال: «يَا لَيْلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ ذَفَّ نَغْلِكَ يَمِينِي يَدِي فِي الْجَنَّةِ»، قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَزْجِي عِنْدِي مِنْ أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أَصَلِّيَ ^(٢). متفق عليه. وهذا لفظ البخاري. «الذَّفُّ» بالفاء: صَوْتُ الثَّغْلِ وَحَرَكَتُهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله باين، الأول: في تحية المسجد بأنها سنة مؤكدة، إذا دخل المسجد في أي وقت كان، وأنه يكره أن يجلس حتى يصلي ركعتين، وأنه لا فرق بين أن تكون الركعتان في تحية المسجد، أو في المراتب، أو فريضة، أو صلاة استخارة، أو غير ذلك، المهم ألا يجلس حتى يصلي ركعتين. وستتكلم أولاً عن سنة دخول المسجد وهي سنة مؤكدة جداً حتى إن بعض العلماء قال: إنها واجبة. ويدل على تأكيدها جداً أن رجلاً دخل يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فجلس، فقال له: «أصليت معنا؟» قال: لا، قال: «فقم فصل ركعتين وتجاوز فيهما» ^(٣) يعني: خففهما؛ لأجل أن يستمع للخطبة. وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أمره أن يصلي حال الخطبة مع أن استماع الخطبة واجب، كان ذلك إذاً بأن تحية المسجد واجبة، ولولا نصوص دلت على عدم الوجوب، لقلنا إنها واجبة، لكنها سنة مؤكدة في أي وقت، دخلت بعد صلاة الفجر صل ركعتين، بعد صلاة العصر صل ركعتين، عند غروب الشمس صل ركعتين، عند طلوع الشمس صل ركعتين، لا تجلس، دخلت والإمام يخطب صل ركعتين، دخلت والناس تستمع إلى درس، صل ركعتين في أي حال، وفي أي وقت، لا بد أن تصلي ركعتين، لكن يستثنى من ذلك أولاً: إذا دخل الخطيب فإنه لا يسن له أن يصلي ركعتين، بل يعتمد إلى المنبر ويسلم على الناس ويخطب. ثانياً: إذا دخل المسجد الحرام للطواف، فإنه يجزئه الطواف عن صلاة الركعتين ^(٤). وأما من

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٣) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧١) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١١٢) والإمام أحمد في المسند (٣٠٨، ٣٠٢/٣).

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٨) والإمام أحمد في المسند (٣٣٣/٢)، قوله: «ما كتب» أي ما قدر.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٨/٣، ٣٦٣) والنسائي في السنن (١٠٦/٣) وأبو داود في الصلاة (١١١٦).

(٤) انظر في ذلك المغني (٤٤٤/٣ - ٤٤٨)، بدائع الصنائع (١٤٢/٢)، والألم (١٨٠/٢ - ١٨١)، بداية المجتهد (٢٩٢/١).

دخل المسجد الحرام للصلاة ؛ فإنه كغيره من المساجد يصلي تحية المسجد . وما اشتهر بين العامة أن تحية المسجد الحرام الطواف ، هذا لا أصل له ، بل يقال : من دخل المسجد الحرام ليطوف أجزأه الطواف عن تحية المسجد ، ومن دخل لاستماع درس أو انتظار فريضة أو ما أشبه ذلك ؛ فهو كغيره من المساجد لا يجلس حتى يصلي ركعتين . وينبغي إذا دخل المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة أن يصلي ركعتين خفيفتين ، وإذا دخله والمؤذن يؤذن ؛ فإن كان في غير جمعة ؛ فإنه ينتظر قائماً حتى يتابع المؤذن ويدعو بالدعاء الذي بعد الأذان ثم يصلي ركعتين ، وإن كان في يوم الجمعة والأذان هو الثاني ؛ فإنه يصلي تحية المسجد حتى يتفرغ للاستماع للخطبة ^(١) ، هكذا قال أهل العلم رحمهم الله .

أما الباب الثاني فهو عن سنة الوضوء ، وأنه ينبغي للإنسان إذا توضأ أن يصلي ركعتين في أي وقت كان ، حتى لو بعد العصر ، بعد الفجر ، في أي وقت ينبغي لك إذا توضأت أن تصلي ركعتين ، لأن بلال بن رباح رضي الله عنه ، سأله النبي ﷺ عن أرجى عمل عمله في الإسلام ، فقال : إني ما توضأت في ليل أو نهار إلا صليت ركعتين ، فأقره النبي ﷺ على ذلك ، وينبغي في هاتين الركعتين أن تحرص غاية الحرص على ألا توسوس فيهما ، يعني اجعل قلبك وقلبك لصلاتك ، لأن من أحسن الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه ^(٢) . ويصلي ركعتين سواء في بيته إن توضأ في بيته ، أو في المسجد إن توضأ في المسجد أو في أي مكان . والله الموفق .

٢١٠ - باب فضل يوم الجمعة ووجوبها والاعتسال لها والطيب

والتبكير إليها والدعاء يوم الجمعة

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله أشياء من خصائص يوم الجمعة ، ويوم الجمعة هو اليوم الذي بين الخميس والسبت ، وهو اليوم الذي خصت به هذه الأمة ، وأضل الله عنه اليهود والنصارى ، اليهود كان لهم السبت ، والنصارى كان لهم الأحد ، فكانوا تبعاً لنا مع أنهم قبلنا في الزمن ^(٣) . وهذا من فضائل هذه الأمة ولله الحمد ، وهذا اليوم هو يوم الخصائص ، ويوم السبت والأحد ليس فيه خصائص ، لكن

(١) انظر آراء العلماء في هذه المسألة في المجموع (٥٥٠ / ٤) ، شرح فتح القدير (٦٧ / ٢) ، وبدائع الصنائع (٢٦٣ / ١) ، وأسهل المدارك (٣٢٤ / ١) .

(٢) وذلك لما رواه البخاري في الوضوء (١٦٠) ، ومسلم في الطهارة (٣ ، ٤) .

(٣) انظر في ذلك : البخاري في الجمعة (٨٧٦) ، ومسلم في الجمعة (٢٢) ، والنسائي في السنن (٨٥ / ٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨ / ٣) .

ضل اليهود والنصارى عن يوم الجمعة ، فصار لنا والله الحمد والمنة .

ويوم الجمعة له خصائص متعددة ، ومن أحسن من ذكرها ابن القيم رحمته الله في زاد المعاد ، فليرجع إليه فإنه واف شاف^(١) .

ثم صدر المؤلف رحمته الله هذا الباب بقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وكان هذا آخر آية سبقت وهو قوله : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ... [الجمعة : ٩ ، ١٠] فخاطب الله المؤمنين أن يتركوا البيع إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، والمراد به النداء الثاني الذي يكون إذا حضر الإمام ، أما النداء الأول ؛ فإن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما كثر الناس في المدينة أمر أن يؤذن أذان سابق ليستعد الناس للحضور^(٢) ، فكان هذا من سنة الخليفة الراشد عثمان الذي أمرنا باتباع سنته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي »^(٣) ولقد ضل من قال إنه بدعة ، وسفه الصحابة رضي الله عنهم وسفه الخليفة الراشد ، ونحن نقول له : أنت المتبدع في هذا القول الذي ادعيت أن هذا بدعة وكيف يكون بدعة وقد سمعنا الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ، « سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » . لكن هؤلاء سفهاء الأحلام وإن كانوا كبار السن ، كيف تضلل الصحابة رضي الله عنهم بقائدهم عثمان بن عفان ، وتدعي أنك أنت صاحب السنة ؟ بل أنت صاحب البدعة في هذا القول .

يقول صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ والمراد بذكر الله : الخطبة والصلاة ، أما الخطبة : فيذكر الله فيها بالتشهد وذكر الأحكام والموعظة وغير ذلك^(٤) ، وأما ذكر الله في الصلاة فهذا ظاهر . ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ اتركوا البيع ، ولهذا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة حرم البيع إلا على من لا تجب عليه كالنساء مثلاً ، وأما من تجب عليه الجمعة فإنه يحرم عليه البيع ، ولو باع لم يصح ، حتى لو كان في طريقه إلى المسجد ، وسمع أذان الجمعة ومعه زميل له فتباعا فإن البيع باطل لا ينتقل به المبيع إلى المشتري ولا الثمن إلى البائع^(٥) ؛ لأنه باطل وكل شيء نهى الله عنه فهو باطل لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل »^(٦) .

(١) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد (٣٦٤/١ - ٤٤١) .

(٢) انظر في ذلك ما رواه البيهقي في السنن (١٩٢/٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٧٦) وابن ماجه في المقدمة (٤٢) وأحمد في مسنده (١٢٧/٤) .

(٤) انظر في ذلك : بدائع الصنائع (٣٦٢/١) ، وشرح فتح القدير (٥٩/٢) ، المجموع (٥١٦/٤ - ٥٢١) ، وقفه الكتاب والسنة (٢٩٠٠/٥ - ٢٩٠٥) .

(٥) هذا هو رأي جمهور العلماء عدا الحنفية الذين قالوا : يكره البيع والشراء يوم الجمعة إذا صعد الإمام المنبر وأذن المؤذن بين يديه ، ولو باع يجوز ؛ لأن الأمر بترك البيع ليس لعين البيع بل لترك استماع الخطبة (انظر بدائع الصنائع ٢٧٠/١) ، والمغني (٢٩٨/٢) ، والمجموع (٥٠٠/٤) ، وأسهل المدارك (٣٢٨/١) ، وقفه الكتاب والسنة (٢٩٨٧/٥) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٥٢١) ، وأحمد في مسنده (٢١٣/٦) ، والبيهقي في السنن (١٣٢/١) .

قوله : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يشمل ، المسافر الذي في البلد إذا سمع أذان الجمعة يجب أن يحضر الجمعة ؛ لأنه مؤمن ، فمن الذي أخرجه ، فإذا قال أنا مسافر قلنا : أأنت مؤمن ، فيقول : بلى ، إذا قال : بلى ، قلنا اسمع ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ يعني خير لكم من البيع ؛ لأن فيه إقامة شعيرة من شعائر الإسلام وقيام بواجب ؛ فهو خير من البيع ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني إن كنتم من ذوي العلم فاعلموا أنه خير ، والمراد بهذه الجملة الشرطية الحث على ترك البيع والتوجه إلى الجمعة ^(١) . ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني : انتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله في البيع والشراء لكن لا يلهيكم ذلك عن ذكر الله .

ولهذا قال : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ يعني : لا تنظنوا أنكم إذا فرغتم من ذكر الله في الخطبة والصلاة أنكم انتهيت من ذكر الله ، لا ، ذكر الله في كل حال وفي كل وقت وفي كل مكان ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] من ذوي الأبواب ؟ ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ يُرَتِّقُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ضَرَفًا فَقَدْ خَلَقْتَهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ ^(٢) [آل عمران : ١٩١] .

فالخلاصة : أنه إذا قضيت الصلاة فلا جلوس بعدها ملزم ، اخرج ، ابتغ الرزق ، ابتغ من فضل الله ، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان إذا قدم الصلاة على البيع والشراء ثم اشترى وباع بعد ذلك ؛ فإنه يُرزق ، لأنه قال : ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنه لا خطبة بعد صلاة الجمعة ، لأن الله قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ فليس هناك خطبة ولا كلام ولا موعظة ، تكفي المواعظ التي في الخطبة التي قبل الصلاة والتي كانت مشروعة في هدي النبي ﷺ ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله : إذا تكلم أحد بعد الصلاة فلا تستمع له ، إلا أن يكون كتابًا من السلطان ، لأن الكتابات الموجهة من السلطان لا بد أن تستمعها الرعية ، لأن السلطان له حق على الرعية يوجهها ويدلها على الخير ، أما غير ذلك من النصائح ؛ فإن في الخطبتين كفاية ، خير الهدي ، هدي محمد ﷺ ، ولم يكن يخطب بعد الصلاة ، ولم يرو عنه ذلك بحرف صحيح ، ولا ضعيف . يوجد بعض الناس يتخذها سنة راتبة كلما انتهت صلاة الجمعة قام يتكلم ، فتكون الجمعة فيها كم خطبة ، ثلاثة خطب ، من أين هذا ، أما لو طرأ أمر لا بد منه ، لو جاء كتاب من السلطان ، أو من نائب السلطان من أحد الوزراء ، أو من غيرهم ممن له أن يتكلم ، فهذا نعم ، يُقرأ على الناس ويُسمع .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لعل هنا للتعليل وليست للترجي ، وكل ما جاءتك لعل في كتاب الله فهي للتعليل ؛ لأن الرجاء إنما يكون من شأن من يتعسر عليه الأمر ، وأما الرب ﷻ فكل

(١) ما أجمع عليه الفقهاء أنه يشترط لوجوب الجمعة في حق المصلي أن يكون مقيمًا أما المسافر فلا تجب عليه (انظر في ذلك : المغني ٣٢٩/٢ ، وبدائع الصنائع ٢٥٨/١ ، والمجموع ٤٨٤/٤ ، وأسهل المدارك ٣٢٢/١) .

(٢) قوله : ﴿ بَطْلًا ﴾ أي عبثًا وهزلًا عاريًا عن الحكمة بل خلقته مشتغلًا على حكم جليله .

شيء يسير عليه ، فإذا وجدت لعل في القرآن فهي للتعليل ، مثل : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَنْفُقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] وما أشبه ذلك .

﴿ لَمَّا كُنْتُمْ تَنْفُقُونَ ﴾ يعني : لأجل أن تنفقوا ، ﴿ لَمَّا كُنْتُمْ تَنْفُقُونَ ﴾ يعني لأجل أن تفلحوا . رزقنا الله وإياكم الفلاح والصلاح والإصلاح والهداية ، نسأل الله أن يهدينا وأن يهدي لنا وأن يهدي بنا ، إنه على كل شيء قدير .

وأنبه على أنه لا يشتري المساويك ، حتى المساويك بعد نداء الجمعة الثاني لا يجوز بيعها ولا شراؤها ولذلك أنبه صاحب المساويك . وأقول لك عبارة أحسن من المساويك (جمع سيء) لكن قل : أعواد الأراك ، والله أعلم .

١١٤٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال النووي رحمته الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة » ، والمراد بذلك خير يوم من أيام الأسبوع وإنما قلنا هذا لئلا يتعارض مع قول النبي ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم عرفة » ^(٢) ، فإن يوم عرفة أفضل باعتبار العام ، وهذا أفضل باعتبار الأسبوع « فيه خلق آدم » وآدم هو أبو البشر خلقه الله ﷻ بيده ، خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . خلق يوم الجمعة « وفيه أدخل الجنة » وهي جنة المأوى التي يأوي إليها البشر ، أدخله الله الجنة هو وزوجه وقال : ﴿ أَتَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) [البقرة: ٣٥] فأذن الله لهما أن يأكلا من جميع أشجار الجنة مما شاءا ونهاهما عن شجرة معينة اختبأرا وابتلاء فوسوس لهما الشيطان ودلها بغرور ^(٤) وأقسم لهما أن يأكلا من هذه الشجرة وأنه بذلك يحصل لهما الخلد والملك الذي لا يئلى ، وما زال بهما حتى أكلا من الشجرة ، وكان الله تعالى قد وضع على عورتيهما هبة فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وصار كل إنسان ينظر إلى عورته ، آدم ينظر إلى عورته ، وحواء تنظر إلى عورتها ، انكشفت ؛ لأنهما هتكاً حرمة الله ﷻ بأكلهما من الشجرة ، وقال الله تعالى عن ذلك : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ^(٥) [طه: ١٢١] لما

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (١٧) وأبو داود في الصلاة (١٠٤٦) والترمذي في الصلاة (٤٩١) .

(٢) لم أعثر على الحديث بهذا النص وإن كان هناك أحاديث أخرى توضح فضل هذا اليوم على سائر الأيام .

(٣) قوله : ﴿ رَغَدًا ﴾ أي كثيراً واسماً بلا عناء .

(٤) قوله : ﴿ فَغَوَى ﴾ أي أنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية بما غرهما من القسم .

(٥) قوله : ﴿ وَعَصَى آدَمُ ﴾ أي خالف نهي ربه له واعتقد أن النهي عن شجرة معينة لا عن النوع كله ، قوله :

﴿ فَغَوَى ﴾ أي ضل عن مطلوبه وهو الخلود في الجنة .

أكلها منها أمرهما الله ﷻ أن يخرجوا من الجنة فهبطا إلى الأرض ، وهذا من حكمة الله ﷻ ، لأنه لولا ذلك ما وجدت هذه البشرية ، وهذه الخليفة وحصل هذا الامتحان ، ولكن الله تعالى بحكمته قدر لكل شيء سبيلاً ، فانظر كيف نزل من الجنة العالية إلى الأرض الهابطة بمعصية واحدة .

فما بالك بنا نحن معاصينا كثيرة ، بالليل والنهار - نسأل الله أن يعاملنا وإياكم بعفوه - ومع ذلك نؤمل أملاً ما هو إلا أوهام ، نؤمل أننا في الدرجات العليا مع أننا هابطون بكثرة المعاصي والتهاون بالواجبات وما يعري القلوب من الحقد والبغضاء والكراهية - نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم وأن يصحح قلوبنا وقلوبكم - وهذه الجنة التي أهبط منها آدم ، اختلف فيها : هل هي جنة المأوى ، أو أنها جنة بستان عظيم على ربوة طيبة الهواء كثيرة الماء ؟ والصواب : أنها جنة الخلد ، وفي هذا يقول ابن القيم :

فحيا على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيه الخيم

والله على كل شيء قدير ، فهذا فضل يوم الجمعة أنه فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها . وكلاهما حكمة ، خلق آدم حكمة ، إدخاله الجنة حكمة ، إنزاله إلى الأرض بسبب المعصية حكمة ، ولكن اعلما أن آدم تاب إلى الله هو وزوجه : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَبَيَّنَتْ رَبُّهُمُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١) [طه: ٢٢٢] فكان بعد التوبة خيراً منه قبل التوبة ، والله الموفق .

١١٤٨ - وَعَنْهُ : قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ ، فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى ، فَقَدْ لَغَا » (٢) رواه مسلم .
١١٤٩ - وَعَنْهُ : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ، مُكْفَرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرَ » (٣) رواه مسلم .

١١٥٠ - وَعَنْهُ وَعَنِ ابْنِ عُثْمَرَ ؓ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادٍ مُتْبِرَةٍ : « لَيْتَ هَيَّئُ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ ، أَوْ لَيْتَ خَمْسَ اللَّهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ لَيْكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ » (٤) رواه مسلم .
١١٥١ - وَعَنِ ابْنِ عُثْمَرَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةُ فَلْيَتَغَسَّلْ » (٥) متفق عليه .
١١٥٢ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ

(١) قوله : ﴿ تَبَيَّنَتْ ﴾ أي اصطفاها للنبوة وقربه . (٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٥ ، ١٦) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥٩/٢) ، وابن ماجه في الطهارة (٥٩٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٠) ، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٩٤) ، والنسائي في السنن (٨٨/٣) ، قوله : « عن ودعهم » أي عن تركهم ، وقوله : « أو ليختمن الله على قلوبهم » أي يطبع على قلوبهم فلا يصير لها استعداد لقبول الهدى .

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٧) ، ومسلم في الجمعة (١) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٢ ، ٥٥) ،

ومالك في الموطأ (١٠٢ ، ١٠٣) .

على كلٍّ مُخْتَلِمٍ ^(١) متفق عليه .

المُرَاد بِالْمُخْتَلِمِ : البَالِغُ . وَالْمُرَادُ بِالْوُجُوبِ : وَجُوبُ اخْتِيَارٍ ، كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : حَقِّكَ وَاجِبٌ عَلَيَّ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

١١٥٣ - وَعَنْ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فِيهَا وَنَعِمَتْ ، وَمَنْ اغْتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ » ^(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان ما يتعلق بصلاة الجمعة ذكرها النووي رحمته الله في رياض الصالحين :

ومنها : أن الإنسان إذا تَوَضَّأَ في بيته ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من تمام الخطبة ؛ فإنه يغفر له ما بين الجمعتين ، ومن مس الحصى فقد لغا ، واللغو معناه : أن يحرم من فضل يوم الجمعة ، وتكون الجمعة في حقه باعتبار الثواب كأنها صلاة ظهر ليس كأنها صلاة جمعة ، والحصى يدل على أن مسجد الرسول ﷺ كان مفروشا بالحصى أي بالحجارة الصغيرة ؛ لأنه لم يكن فيه فرش ولا رمال ، وإنما كان فرش فيه الحصى - وهو كالحجارة التي يرمي بها الجمرات ، فمن مسه : يعني عبث فيه بلمس أو شبهه ؛ فقد لغا ، ووجه ذلك : أنه إذا فعل هذا اشتغل عن سماع الخطبة ، وسماع الخطبة واجب ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا » ^(٣) ، يعني الحمار الذي يحمل الكتب ما يتفجع بها ، والذي يقول له : أنصت ، ليست له جمعة ، يُحرم أجر الجمعة .

وفي هذا الحديث الذي رواه مسلم ، يقول : من تَوَضَّأَ يوم الجمعة ، لكن في حديث أبي سعيد الخدري : غسل الجمعة واجب على كل محتلم . والأخذ بحديث أبي سعيد أولى من عدة وجوه . الوجه الأول : أن حديث أبي سعيد فيه زيادة وهو الوجوب ، وجوب الاغتسال ، وحديث أبي هريرة فيه التوضؤ ، والأخذ بالزيادة واجب .

الوجه الثاني : أن حديث أبي سعيد أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وابن ماجه ، اتفق عليه السبعة ، وحديث أبي هريرة انفرد به مسلم ، ومعلوم أن ما اتفق عليه السبعة أولى بالأخذ مما انفرد به مسلم .

ومنها : أن في حديث أبي سعيد علق النبي ﷺ الوجوب بوصف يقتضي التكليف ، وهو قوله : « على كل محتلم » ، والمحتلم هو البالغ ، والبلوغ مناط التكليف ، ولهذا نقول : القول الراجح من أقوال أهل

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٥) ، ومسلم في الجمعة (٥) ، وأبو داود في الطهارة (٣٤١) .

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٥٤) ، والتِّرْمِذِيُّ في الصلاة (٤٩٧) ، والنسائي في السنن (٩٤/٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩١) ، قوله : « فيها » أي فيالرخصة المدلول عليها بالسياق .

(٣) أخرجه المنذري في الترييب والترهيب (٥/١) بلفظه ، وينحوه أحمد في مسنده (٢٣٠/١) .

العلم في هذه المسألة أن غسل الجمعة واجب على كل إنسان شتاء أو صيفاً ، سواء أكان به وسخ أم لم يكن به وسخ ، لأن كلام النبي ﷺ في ذلك واضح ، ولأن هذا هو الذي يظهر من فهم الصحابة رضي الله عنهم ، فإن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه دخل وعمر بن الخطاب أمير المؤمنين يخطب ، فأذكر عليه ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما زدت أن توضأت ثم أتيت ، فقال : والوضوء أيضاً وقد قال النبي ﷺ : « إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل » (١) يعني : كيف تقتصر على الوضوء ، فأذكر عليه في مشهد من الصحابة .

الحاصل : أن القول الراجح وجوب غسل الجمعة (٢) ، لكن لو لم يغتسل ، فهل تبطل الجمعة ؟ لا ، لا تبطل ، لأن هذا ليس غسل حدث ، حتى نقول إنه صلى بغير طهارة ، بل هو غسل واجب من غير حدث ، ولهذا لا يغني عن غسل الجنابة ، فلو أن الإنسان اغتسل للجمعة وهو عليه غسل جنابة وما نوى غسل الجنابة لم يجزئه ، لأن غسل الجمعة ليس عن حدث بخلاف غسل الجنابة . والله الموفق .

١١٥٤ - وَعَنْ سَلَمَانَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ ، وَيَدْهِنُ مِنْ ذَهَبِهِ ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبٍ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفْرَقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كَتَبَ لَهُ ، ثُمَّ يُنْصَبُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَةِ » (٣) رواه البخاري .

١١٥٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ، ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَهُ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبِشًا أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ ، حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ » (٤) متفق عليه . قوله : « غُسْلُ الْجَنَابَةِ » ؛ أي : غُسْلًا كَغُسْلِ الْجَنَابَةِ فِي الصُّفَةِ .

الشرح

هذه الأحاديث فيما يتعلق بيوم الجمعة وفي صلاحتها ، فالحديث الأول حديث سلمان رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٤٠) .

(٢) الذي عليه أكثر أهل العلم أن الغسل ليس بواجب وإنما هو سنة وهذا هو قول الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية ، وبه قال الثوري والأوزاعي وابن المنذر ، أما الرأي بأنه واجب فإنها رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وروي ذلك عن أبي هريرة فهو مذهب أهل الظاهر ؛ إذ قالوا : الغسل واجب يوم الجمعة لليوم لا للصلاة (انظر المجموع ٥٣٥/٤ ، والمغني ٣٤٥/٢ ، وأسهل المدارك ٣٢٦/١ ، وبدائع الصنائع ٢٦٩/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٧٨/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٤٣/٣) ، قوله : « فلا يفرق بين اثنين » أي لا يتخطى رقاب المصلين ؛ وهو كناية عن التبكير في الصلاة ، قوله : « ثم يصلي ما كتب له » أي ما قدر له من الصلاة فرضاً أو نفلاً .

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨١) ، ومسلم في الجمعة (١٠) ، والإمام أحمد في المسند (٤٦٠/٢) ، قوله : « ثم راح » أي ثم ذهب في أول النهار ، قوله : « قرب بدنه » أي تصدق بهنائه .

ذكر أشياء إذا فعلها الإنسان فإنه يغفر له ما بين الجمعة والجمعة : منها : الاغتسال ، أن يغتسل كما يغتسل للجنابة ، كما في حديث أبي هريرة السابق ، وهذا الاغتسال سبق أن القول الراجح وجوبه ، وأنه يجب على الإنسان أن يغتسل ليوم الجمعة إذا كان يصلي الجمعة ، أما النساء فلا يجب عليهن ، ولكن هذا الوجوب ليس عن حدث ، فلو تركه الإنسان وصلى الجمعة أثم وصحت الجمعة ، لأنه ليس عن حدث ، ومنها أن يدهن بالطيب ، يعني : يتطيب بعود أو ورد أو ريحان أو غير ذلك ، المهم أن يتطيب ويختار أطيب ما يجد . ومنها : ألا يفرق بين اثنين ، لأنه إذا فرق بين اثنين آذاهما ، وهذا يدل على أن المراد إذا وجد الصف مشتبكاً فلا يفرقه ، أما لو وجد فرجة فله أن يدخل فيها ، لأن الاثنين هما اللذان اترقا . ومنها : أن يصلي ما كتب له ، ولم يحدد النبي ﷺ صلاة ، فدل هذا على أن الجمعة ليست لها رتبة قبلها بل يصلي الإنسان ما شاء ، قليلاً كان أو كثيراً إلى أن يحضر الإمام . ومنها : أن ينصت ، يعني ينصت للخطبة فلا يتكلم إلى أن يفرغ الخطيب من الخطبة ، فإذا فعل هذه الأشياء الخمسة فإنه يغفر له ما بين الجمعتين ، وهذا فضل عظيم من الله ﷻ .

أما حديث أبي هريرة ، فقال النبي ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة » يعني : يوم الجمعة ، غسل الجنابة فهو معروف ، ثم راح يعني في الساعة الأولى ، فكأنما قرب بدنة ، يعني : كأنما ذبح بدنة ووزعها على الفقراء ، « ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن » ، وخص الكبش بالأقرن ، لأنه أقوى وأكبر حجماً . « ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة » فإذا حضر الإمام طويت الصحف ؛ ولم يكتب للحاضر شيء من الأجر ، إلا أجر الصلاة العادية ، فإذا دخل الإنسان بعد أن دخل الإمام فإنه لا يكتب له أجر التقدم ، ولكن يكتب له أجر الخطأ من بيته إلى المسجد .

ففي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان يوم الجمعة أن يكر وأكثر الناس اليوم - لله الحمد - ليس لهم شغل فارغون ، لكن يكسلهم الشيطان ويثبطهم عن الخير ، حتى أن الإنسان ليذهب إلى السوق ليس له شغل ولكن يقطع الوقت إلى أن يحضر الإمام فيحرم من هذا الخير ، هذه الساعات تختلف في طولها وقصرها بحسب اختلاف الأيام ، في أيام الصيف يطول النهار فتطول الساعات ، وفي أيام الشتاء يقصر النهار فتقصر الساعات ، والمهم أن تقسم ما بين طلوع الشمس إلى حضور الإمام إلى خمسة أقسام ، قد تكون ساعة عرفية كالساعات التي معنا ، وقد تكون أطول أو أقصر .

المهم : أن تقسم ما بين طلوع الشمس إلى مجيء الإمام إلى خمسة أقسام ، فالساعة الأولى هي الخمس الأول ، والثانية هي الخمس الثاني ، وهلم جرا . والله الموفق .

١١٥٦ - وَعَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَقَالَ : « فِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » ^(١) وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا . متفقٌ عليه .

١١٥٧ - وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنه : « سَمِعْتُ أَبَاكَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَأْنِ سَاعَةِ الْجُمُعَةِ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « هِيَ مَا يَنْبَغُ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ » ^(١) رواه مسلم .

١١٥٨ - وَعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » ^(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة فيما يتعلق بالجمعة . فأما الحديث الأول : حديث أبي هريرة ، والحديث الثاني : حديث أبي موسى : ففيهما بيان أن في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه . وهذا من خصائص يوم الجمعة ، فيها ساعة إذا سألت الله فيها شيئاً ، أي شيء يكون ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم ؛ فإن الله تعالى يجيبه ، لكن في الحديث « وهو قائم يصلي » وأشار النبي ﷺ يقلل هذه الساعة ، يعني الساعة ليست طويلة ، وقد اختلف العلماء في تعيين هذه الساعة متى ؟ من أول النهار ، من وسط النهار ، من آخر النهار ، اختلفوا فيها على أكثر من أربعين قولاً ، كما اختلفوا في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً . ولكن قد تكون بعض هذه الأقوال متداخلة ويمكن اختصارها .

وأرجى زمن تكون فيه هذه الساعة ما دل عليه حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاة ، يعني إذا دخل الإمام يوم الجمعة وسلم على الناس وجلس ، من هذا الحين تبدأ ساعة الإجابة ، ومن المعلوم أنه إذا قام يخطب فإن الناس منصتون ، لكن يمكن أن يدعو بين الخطبتين وأن يدعو في صلاة الفريضة ، والدعاء في صلاة الفريضة أقرب إلى الاستجابة ، لأن الإنسان يكون فيها ساجداً لله ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ^(٣) ، لهذا نرى أن أقرب ساعة تكون ساعة إجابة يوم الجمعة في هذه الساعة من حين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة . فأتى يا أخي على ربك في الدعاء في هذا الوقت لعل الله ﷻ أن يجيب ، ولا تستبطأ الإجابة ، ولا تستعظم المسؤول ؛ فإن الله ﷻ أعظم من أن يتعاضمه شيء ؛ كل شيء هين على الله ، لو تسأل أي ما تسأل فهو هين على الله ﷻ ، فادع الله ﷻ ، واحرص على الدعاء في هذا الوقت .

الوقت الثاني : من صلاة العصر إلى غروب الشمس ، هذا أيضاً ترجى فيه الإجابة ولكن يشكل على هذا قوله : « وهو قائم يصلي » ، فإن العصر ما فيه صلاة ، ولكن قد يقال : يمكن للإنسان أن

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (١٦) ، وأبو داود في الصلاة (١٠٤٩) ، والبيهقي في السنن (٢٥٠/٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٠٤٧) ، والنسائي في السنن (٩١/٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٥) ، قوله : « فإن صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » يعني على وجه القبول فيه ، وإلا فهي دائماً تعرض عليه بواسطة الملائكة ، إلا عند روضته فيسمعها بحضرته ﷺ .
(٣) وذلك مصداقاً لما رواه مسلم في الصلاة (٢١٥) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥) ، والنسائي في السنن (٢٢٦/٢) .

يتوضأ في هذا الوقت ، يحتاج إلى الوضوء فيتوضأ ثم يصلي ركعتين للوضوء ، أو يقال : إن الإنسان إذا كان في انتظار الصلاة فهو في صلاة ، ولهذا نرى أن الأرجى ما دل عليه حديث أبي موسى ثم ما دل عليه حديث أبي هريرة ، وباقي الأقوال ليس عليها دليل بين .

وما يختص بالجمعة : كثرة الصلاة على النبي ﷺ ، ولا شك أن النبي ﷺ أعظم الخلق حقوقاً علينا ، حقوقه علينا أعظم من حقوق أنفسنا علينا ، ولهذا يجب أن تقدم محبته على محبة نفسك وابنك وأبيك وأهلك وزوجك وكل الناس ، ولا يمكن أن يتم إيمانك إلا بهذا أن تقدم محبة الرسول ﷺ على محبة كل أحد .

من حقه عليك أن تكثر من الصلاة والسلام عليه ، وهو ليس بحاجة إلى صلاتك وسلامك ، لكنك أنت بحاجة إلى أجر هذه الصلاة ، لأنك إذا صليت على الرسول ﷺ مرة واحدة ؛ صلى الله عليك عشرة ^(١) ، فإذا قلت : اللهم صل على محمد ، صلى الله عليك عشر مرات ، مع أنك في حاجة إلى ذلك والرسول ﷺ ليس في حاجة .

ولكن ما معنى الصلاة على الرسول ؟ كلنا يقول : اللهم صل على محمد ، لكن كثيراً منا لا يعرف معنى هذه الكلمة ، ما معنى قولك : اللهم صل على محمد ؟ قال أبو العالية رضي الله عنه : صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى ، عند الملائكة المقربين ^(٢) ، يثنى عليه ، يقول عبدي فلان فيه كذا وكذا ويذكر من صفاته الحميدة ، فأنت إذا صليت على النبي أثنت الله عليك عشر مرات ، فعليك بالإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ في يوم الجمعة وفي كل وقت . أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقني وإياكم القيام بحقه وحق رسوله وحق عباده المؤمنين .

٢١١ - باب استحباب سجود الشكر

عند حصول نعمة ظاهرة أو اندفاع بلية ظاهرة

١١٥٩ - عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ نُرِيدُ الْمَدِينَةَ ، فَلَمَّا كُنَّا قَرِيْبًا مِنْ عَزْرَاءَ نَزَلَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ، فَدَعَا اللَّهَ سَاعَةً ، ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا فَمَكَثَ طَوِيلًا ثُمَّ قَامَ فَرَفَعَ يَدَيْهِ سَاعَةً ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا - فَقَعْلَهُ ثَلَاثًا - وَقَالَ : إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ، وَشَفَعْتُ لَأُمْتِي ، فَأَعْطَانِي ثَلَاثَ أُمْتِي ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي شُكْرًا ، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي ، فَسَأَلْتُ رَبِّي لَأُمْتِي ، فَأَعْطَانِي ثَلَاثَ

(١) وذلك لما رواه الترمذي في الصلاة (٤٨٤ ، ٤٨٥) ، وأحمد في مسنده (١٠٢/٢) ، والحاكم في المستدرک (٥٥٠/١) .

(٢) انظر زاد المسیر (٣٩٨/٦) ، وقيل : إن صلاة الله أي رحمته قاله الحسن ، وقيل مغفرته ، قاله سعيد بن جبیر ،

وقيل : كرامته قاله سفيان وقيل : بركته ، قاله أبو عبيدة أما صلاة الملائكة ، فقال أبو العالية : إنها دعاؤهم ، وقال

مقاتل : إنها استغفارهم .

أُمْتِي ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي شُكْرًا ، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي ، فَسَأَلْتُ رَبِّي لِأُمْتِي ، فَأَعْطَانِي الثُّلْثَ الْآخَرَ ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي » (١) زَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

الشرح

من المعلوم أن نعمة الله ﷻ لا تحصى ، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤] وأضرب مثلاً بالنفس الذي يتكرر في الدقيقة الواحدة ستين مرة ، هذا النفس لو قبض لهلك الإنسان ، فهو نعمة كبرى ولا يمكن عدها ، وكذلك الصحة والعافية ، الأكل والشرب ، البراز والبول ، كلها نعم عظيمة ، لكنها نعم مستمرة ، ولو كلف الإنسان أن يسجد عند كل نعمة منها ؛ لبقى ساجداً مدى الدهر ، لكن هناك نعم تتجدد للإنسان ، كإنسان ولد له ، أو تسهل له الزواج ، أو قدم له غائب ميثوس منه ، أو حصل له مال ، أو ما أشبه ذلك من النعم التي تتجدد ، أو بشر بنصر المسلمين ، أو ما أشبه ذلك ؛ فهذا يستحب للإنسان أن يسجد لله تبارك وتعالى شكراً له .

فمثلاً : إذا بُشِّرَ بولد قبل له : أبشر بولد ، هذه نعمة متجددة ؛ فيسجد لله كما يسجد في الصلاة ويقول : سبحان ربي الأعلى ، سبحانك الله ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي ، ثم يشكر الله على النعمة المعينة التي حصلت ، فيقول : أشكرك يا ربي على هذه النعمة ، ويشني على الله تعالى في ذلك . هكذا أيضاً في اندفاع النقم ، الإنسان في سلامة دائمة ، ودائماً هو معرض للآفات وللنقم ، لكن أحياناً تتعقد أسباب النعمة ويشاهدها فيرفعها الله عنه ، ولنضرب لذلك مثلاً بحادث ، إنسان مثلاً يمشي في الطريق فانقلبت السيارة فنجا ، هذا اندفاع نقمة ، فيسجد لله تعالى شكراً على اندفاع هذه النعمة ، أو إنسان مثلاً يمشي وبينما هو كذلك انخسفت به حفرة في الأرض فنجا ، فحضره اندفاع نقمة (٢) ، يحمد الله سبحانه وتعالى على ذلك .

واندفاع النقم كثير ، فإذا دفع الله عنك نقمة ؛ فاسجد لله تعالى شكراً على اندفاع هذه النعمة . وقل مثلاً في السجود : سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات ، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، اللهم إني أشكرك على أن نجيتني من هذه المصيبة وذكراها ، هذا سجود الشكر . واختلف العلماء رحمهم الله ، هل تشترط له الطهارة أو لا ؟ والصحيح أنها لا تشترط ، وذلك لأن هذا يأتي بغتة والإنسان غير متأهب ، فلو ذهب يتوضأ لطال الفصل بين السبب ومسببه فإذا كان على غير طهارة فليسجد . والله الموفق .

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٧٧٥) ، قوله : « عزوراء » بفتح فسكون ففتح : ثنية بالجحفة عليها الطريق من المدينة إلى مكة .

(٢) اندفاع النعمة : أي رد العقوبة .

٢١٢ - باب فضل قيام الليل

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] .
 وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

الشرح

قيام الليل يعني : الصلاة فيه وهو أفضل الصلاة بعد المكتوبة ، كما سيأتي إن شاء الله في الأحاديث . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الثناء على القائم في الليل ، فأمر نبيه ﷺ أن يتهجد ، قال : ﴿ وَمَنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ فأمر الله نبيه أن يتهجد من الليل يعني لا كل الليل ، لأن قيام كل الليل ليس من السنة إلا أحياناً ، كقيام عشر رمضان ، وأما البقية فالسنة أن ينام ويقوم . قوله : ﴿ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ اختلف العلماء في قوله : ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ فقيل : المعنى أن هذا خاص بك يعني الوجوب ، وجوب التهجد ؛ لأن غير النبي ﷺ لا يجب عليه التهجد إلا أن ينذره ، فإن نذر أن يتهجد ؛ لزمه الوفاء بالنذر وإلا فلا أما النبي ﷺ : فإنه يجب عليه أن يتهجد من الليل ، وقيل : المعنى ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ يعني أنه نافلة أي : زيادة ، فضل ، وهذا له ولغيره عليه الصلاة والسلام .

ثم قال تعالى مبيّناً ما يكون من ثمرات التهجد ، قال : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ قال العلماء : إذا قال الله تعالى في القرآن ﴿ عَسَى ﴾ فهو واجب ؛ يعني أن الله سيبعثك مقاماً محموداً ، أي يبعثك يوم القيامة مقاماً تحمد عليه من كل الخلائق .

فلرسول الله ﷺ المقام المحمود يوم القيامة ، ومنه الشفاعة العظمى ، يعني من المقام المحمود للنبي ﷺ الشفاعة العظمى ، وهي أن الناس يوم القيامة يبعثون في صعيد واحد ليس هناك جبال ولا أشجار ولا بناء ولا أنهار ، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصير ، لا يحول بينهم وبين الداعي شيء ، ولا بينهم وبين الرائي شيء في صعيد واحد وتدنون الشمس ، تدنو الشمس منهم حتى تكون على قدر ميل ، ويطول هذا اليوم حتى يكون مقداره خمسين ألف سنة ، سبحانه الله ، الإنسان ما يستطيع أن يقف ولا أربع وعشرين ساعة ، لكن هذا اليوم مقداره خمسون ألف سنة . فيلحق الناس من الهم والكرب ما لا يطيقون ، فيطلب بعضهم إلى بعض النظر في الأمر لعل أحداً يشفع لهم عند الله ﷻ يريحهم من هذا الموقف ، يلهمهم الله ﷻ أن يذهبوا إلى آدم ، آدم أبو البشر ، كل البشر أبوهم واحد وهو آدم عليه الصلاة والسلام ، وكما هو العادة أن الإنسان يفر إلى أقرب من يراه أنه أنفع ، فيذهبوا إلى أبيهم ويقولون : ألا ترى ما نحن فيه ، إن الله خلقك بيده ، وعلمك أسماء كل شيء وأسجد لك الملائكة ، يعني أعطاك خيراً كثيراً ، فاشفع لنا إلى الله ، فيعتذر ، يعتذر بماذا ؟ يقول : إن الله نهاه عن الأكل من

الشجرة فأكل منها ، وهذه معصية ، فهو حجلان من الله ﷻ ، فكيف يشفع لكم عند الله . فيذهبون إلى نوح وهو أول الرسل من البشر ، أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض هو نوح عليه السلام فيذكرونه بنعمة الله عليه ، أنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، ولكنه يعتذر ، يعتذر بماذا ؟ بقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِ وَادٍ وَعَدَدَكَ الْحَقُّ ﴾ [هود: ٤٥] ؛ لأن الله وعده أن ينجيه وأهله وكان أحد أبنائه كافرا لم ينج من الماء حتى قال له نوح : ﴿ يَبْنَئُ أَرْكَبُ مَعًا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ قَالَ سَوَّيْتُ لَكَ جَبَلٍ يَصْبُلُ مِنِّي أَلَمَّا ﴿ (١) [هود: ٤٢ ، ٤٣] يعني ولا أركب معك ، لأن المياه عظيمة ، فكيف كانت ، السماء فتحها ، في قراءة ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ [الفر: ١١] وفي قراءة : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ (٢) وهي أعظم ، فَتَحَ اللهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بَءَاءَ مِنْهُمْ ، غزير ، أشد من القرب ﴿ وَقَرَّبْنَا الْأَرْضَ عِيُونًا ﴾ حتى التنور الذي هو محل النار ، وهو أشد الأرض ييوسة وأبعدها من الماء ، بدأ التنور يفرور ، فجرنا الأرض عيونًا ، كل الأرض إذا كانت السماء فتحت بءاء منهمر ، والأرض فجرت بالعيون ، كيف يكون منسوب المياه ؟ يكون عظيمًا ... عظيمًا حتى صعد الماء إلى قمم الجبال .

وكانت امرأة من الكفار الذي كفروا بنوح معها صبي ، كلما ارتفع الماء في الجبل صعدت عليه ، كلما ارتفع صعدت عليه ، حتى وصل الماء إلى قمة الجبل فارتفع المنسوب ووصل إلى كعبها ثم إلى ركبتيها ثم ألجمها الماء فرفعت صبيها هكذا من أجل أن ينجو من الغرق ، فتفرق هي ، وترجو أن ينجو الولد من الغرق ، قال النبي ﷺ : « لو رحم الله أحدًا رحم أم الصبي » (٣) لكن والعياذ بالله قضى الله على أهل الأرض أن يغرقوا كلهم إلا من ركب في هذه السفينة . ابن نوح الذي كفر بأبيه أتى أن يركب ، قال : ﴿ سَوَّيْتُ لَكَ جَبَلٍ يَصْبُلُ مِنِّي أَلَمَّا ﴾ قال له أبوه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ أَوَّلَى إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣] غرق لكن نوح عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِ وَادٍ وَعَدَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَهْكُمَ لِلْكَافِرِينَ ﴾ قَالَ يَنْجُوْهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥ ، ٤٦] سبحانه الله كلام الله ﷻ لنبي من الأنبياء من أولي العزم ﴿ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] فيأتون إلى نوح في ذلك اليوم - نسأل الله أن ينجيننا وإياكم من عذابه - يأتون إلى نوح ويقولون : اشفع لنا ، فيذكر ذنبه ، أنه سأل ما ليس له به علم ، والمذنب ليس له وجه يشفع ، المذنب لا يمكن أن يشفع عند من عصاه ، لأنه ليس له وجه فيعتذر .

فيذهبون إلى إبراهيم عليه السلام أي الأنبياء الذي أمرنا أن نتبع ملته ويذكرونه بنعمة الله عليه ولكنه يعتذر ، يعتذر بأشياء ما تضره ، ولكنه عليه الصلاة والسلام بكمال إيمانه جعلها من الأشياء الضارة ، فيذكر ما يذكر من العذر ، ويقول : اذهبوا إلى موسى .

(١) قوله تعالى : ﴿ سَوَّيْتُ لَكَ جَبَلٍ يَصْبُلُ مِنِّي أَلَمَّا ﴾ أي سألنا واستند ، وقوله تعالى : ﴿ يَصْبُلُ مِنِّي أَلَمَّا ﴾ أي يمنع وصول الماء إلي .

(٢) قرأ ابن عامر ﴿ فَفَتَحْنَا ﴾ بتشديد التاء والياقون بتخفيفها (انظر التيسير في القراءات السبع ص ٨٥) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤٢/٢) ، بلفظ « لو رحم الله أحد لرحم أم الصبي » .

يأتون موسى ويذكرونه بنعمة الله عليه ، ولكنه يعتذر ، بماذا يعتذر ؟ يقول : أنه قتل نفساً لم يؤذن له بقتلها ؛ حين قتل القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي ، إسرائيلي من بني إسرائيل كان مع قبطي يتنازعان ، وكان موسى من أشد الناس صرامة قوي شديد ، وهذا من حكمة الله ، لأن بني إسرائيل لا ينفعهم إلا الأقوياء الأشداء ، فبعث الله إلى بني إسرائيل ، فلما رأى هذا القبطي قد استغاثه الإسرائيلي عليه وكزه ^(١) موسى : يعني أعطاه وكزه يده ، فقصى عليه .

فقال يعتذر أنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها ، اذهبوا إلى عيسى ، فيذهبون إلى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، الذي هو آخر الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، ليس بينه وبينه نبي ولا رسول ، ولكنه يعتذر بدون أن يذكر شيئاً ، لكنه يدلهم على من هو أكمل منه ، وهو محمد صلوات الله وسلامه عليه - أسأل الله تعالى أن يدخلني وإياكم في شفاعته - . يأتون إلى محمد فيقول : «أنا لها» ويذهب ويسجد تحت العرش بعد إذن الله ﷻ ، ثم يؤذن له بالشفاعة فيشفع ، فينزل الرب ﷻ للقضاء بين عباده ، فيقضي بينهم ويستريحون من هذا الموقف ^(٢) .

هذا المقام يا إخواني هل يُحمد عليه الرسول؟! نعم لا شك ، كل الأنبياء الكرام والرسل ، أولو العزم كلهم يعتذرون حتى تصل إلى الرسول ﷺ ، وانظر كيف كانت هذه السلسلة ، يعني لو شاء الله تبارك وتعالى لدلهم على محمد من أول الأمر ، لكن ليظهر فضل هذا النبي الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، ويتحقق قوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ ونعم هذا المقام مقام ، فصلوات الله وسلامه عليه .

ثم ذكر قول الله تبارك وتعالى : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذا في سياق قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥] فوصفهم الله ﷻ بهذه الأوصاف الجليلة : إذا ذكروا بآيات الله خروا سجداً ، أي : خروا سجداً فيما يتطلب السجود فلا يستكبرون على وضع جباههم وأنوفهم على الأرض بل يتذللون لله إذا أمر بالسجود سجدوا ، ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي : أن المراد بذلك كمال التذلل لله بالعبادة ، سواء كان سجدة أو غيرها ، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي : سبحوا الله ﷻ ، وتسبيح الله يعني : تنزيهه عن كل نقص وعيب ، هذا هو التسبيح ، سبحت الله يعني نزهته وبرأته من كل نقص وعيب ؛ لأنه جل وعلا كامل الصفات ، إذ يتنفي عنه جميع النقائص . وقوله : ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الباء للمصاحبة ، أي سبحوا الله تسييحاً مقروناً بالحمد مصاحباً به . والحمد هو : وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم . هذا معنى الحمد ، حمدت الله يعني : اعتقدت أن له أوصافاً كاملة ، وذكرته بلساني ذلك ، فإن كرر المدح صار ثناءً ، كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « قال الله ﷻ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال : الحمد لله

(١) قوله : « وكزه » أي ضربه بجميع يده على ذقنه (المعجم العربي الأساسي ص : ١٣٣٠) .

(٢) انظر حديث الشفاعة .

رب العالمين ، قال : حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثني علي عبدي ^(١) .
﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعني : لا يستكبرون عن عبادة الله ، إذا أمرهم الله امتثلوا الأمر بِذُلٍّ وخضوع ، وشعور بالعبودية ، وشعور بكمال الألوهية والربوبية لله ﷻ .

﴿ تَتَجَافَى ﴾ أي : تتباعد جنوبهم ﴿ مَنِ الْمَصَاحِبِ ﴾ أي : عن المراقدة فهم يحيون الليل بالصلاة وذكر الله ﷻ ، وإذا أتموا صلاتهم ختموا ذلك بالاستغفار كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَّا لَأَنفَخَنَّ بَشِيرٌ وَمَن يُسَفِّرُنَا ﴾ [الذاريات : ٨] قال بعض السلف : هذا يدل على كمال معرفتهم بأنفسهم ، يقومون الليل ، ثم يستغفرون في آخر الليل خوفاً من أن يكونوا قَصُروا مع الله ﷻ ^(٢) .

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يدعون الله دعاء المسألة ودعاء العبادة ، دعاء المسألة أن يقولوا : يا ربنا اغفر لنا ، يا ربنا أغننا ، يا ربنا يسر أمورنا ، يا ربنا اشرح صدورنا ، هذا دعاء المسألة ، أما دعاء العبادة : أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان ويحجوا البيت ، ويروا الوالدين ، ويصلوا الأرحام ، إلى غير ذلك من العبادات . وكانت العبادة دعاءً ؛ لأنك لو سألت العبد : لأي شيء تعبد الله ؟ لقال : لنيل رضوان الله ﷻ ، فهو داع بلسان الحال ، وقد يصحبه دعاء بلسان المقال ، فالصلاة مثلاً فيها دعاء ، يدعو الإنسان فيها دعاء ركن في الصلاة ، إذا لم تدع في الصلاة بهذا الدعاء بطلت صلاتك ، في أي موضع ؟! في الفاتحة ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هذا دعاء ركن في العبادة ، لو تركته ما صحت صلاتك ، فالصلاة دعاءً بلسان الحال ودعاء بلسان المقال ، ولهذا قال : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي : يعبدونه ويسألونه . ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه ؛ لأنهم إن فعلوا المحرم عوقبوا ، وإن تركوا المحرم وقاموا بالواجب أثيبوا ، فهم خائفون طامعون ، وقيل : خوفاً من ذنوبهم وطمعاً في فضل الله ، فالإنسان إذا نظر إلى نفسه وإلى ذنوبه خاف ، لأنها ذنوب أثقل من الجبال ، وأكثر من الرمال ، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بعفوه . وإن نظر إلى سعة رحمة الله وسعته عفوه ، وأن العفو أحب إليه من العقوبة وأنه يفرح بتوبة عبده المؤمن ، أشد من أي فرح في الدنيا كلها ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لله أشد فرحاً باللام هذه للابتداء ، وهي للتوكيد » بتوبة عبده المؤمن من أحدكم كان معه راحلته عليها طعامه وشرابه فأضلت ضاعت منه « في أرض فلاة » ما حوله أحد ، « فضاغت ، طلبها فلم يجدها ، فيئس من الحياة ، فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت ، ما بقي إلا أن يموت ، فإذا بخطام الناقة متعلقاً بالشجرة » ، خطام يعني : زمام « فقام وأخذه وقال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك » . هو يريد أن يقول : اللهم أنت ربي وأنا عبدك لكن من شدة الفرح قال : اللهم أنت عبدي وأنا ربك . « فאלله جل وعلا أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا الرجل براحلته » ^(٣) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٣) والبيهقي في السنن (٣٧/٢ ، ٣٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٧/٢) .

(٢) ذكر ذلك ابن الجوزي في زاد المسير (٣٦١/١) ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَضِيرِينَ بِالنَّجْمِ ﴾ آل عمران : ١٧ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨) ، ومسلم في التوبة (٤ ، ٣) ، وابن ماجه في السنن (٤٢٤٩) وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) ، جميعهم بألفاظ مختلفة عن هذا النص .

إِذَا نَحْنُ نَطْمَعُ فِي فَضْلِ اللَّهِ ، ذُنُوبُنَا كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ ، لَكِنْ فَضْلُ اللَّهِ أَوْسَعُ ، وَرَحْمَتُهُ أَوْسَعُ ، إِذَا كَانَتِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ تَكْفُرُ مَا بَيْنَهَا إِذَا لَمْ تَرْتَكِبِ الْكِبَاثِرَ فَهَذَا فَضْلُ عَظِيمٌ . فَعَلَى كُلِّ حَالٍ ، هُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ ، وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ ، خَوْفًا مِنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَطَمَعًا فِي فَضْلِهِ ، كُلُّ الْأَوْجِهَةِ صَحِيحَةٌ .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ مِنْ : للتبعض ، يعني : ينفقون بعض ما رزقناهم ؛ لأنه لا ينبغي للإنسان أن يتصدق بكل ماله ، ولهذا لما قال أبو لبابة : يا رسول الله ، إني أتصدق بكل مالي . قال : « يَكْفِيكَ الثَّلَاثُ ، تَصَدَّقْ بِالثَّلَاثِ » ^(١) . حتى إن العلماء قالوا : إذا نذر الصدقة بماله كله أجزأه ثلثه ، لأن هذا هو المذكور فعلى هذا تكون (من) للتبعض ، يعني : ينفقون شيئًا مما رزقناهم . وقيل : إن (من) للبيان ، لبيان الجنس ، فينفقون حسب الحال ، قد ينفقون قليلًا أو كثيرًا ، الثلث ، أو النصف ، أو الكل ، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه ، عندما حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة ، فتصدق أبو بكر بكل ماله ، وتصدق عمر بشطر ماله - بالنصف - قال : الآن أسبق أبا بكر ، لأن الصحابة يتسابقون ، ليس حسدًا ولكن تسابق في الخيرات فلما جاء بنصف ماله وإذا أبو بكر قد تصدق بكل ماله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : « ماذا تركت لأهلك ؟ » قال : تركت لهم الله ورسوله . قال لعمر : ماذا تركت ؟ قال : تركت النصف ، ثم قال عمر : والله لا أسابقه على شيء أبدًا بعد اليوم ^(٢) .

لأن أبا بكر رضي الله عنه له سوابق ، وفضائل لا يلحقه فيها عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا من دونهم . المهم أنهم ينفقون مما رزقهم الله . فما هو الجزاء وما هي الثمرة ؟ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٣) [السجدة : ١٧] اللهم اجعلنا منهم يا رب .

لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، وذلك في جنات النعيم ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، أتظنون أن قول الله تعالى : ﴿ فِيهَا نَضُجُهَا وَنُحْلُهَا وَرَمَانٌ ﴾ [الرحمن : ٦٨] أتظنون أن النخل والرمان والفاكهة كالذي في الدنيا لا والله ، ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء ، اسم الرُّمَّان لكن لا يمكن أن يخطر على بالك ، اسم النخل لكن لا يخطر على بالك ، اسم الفاكهة لكن ما تخطر على بالك ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء الأبرار الكرام البررة إنه على كل شيء قدير .

قال الله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣١٩) ، وأحمد في مسنده (٤٥٣/٣) ، كلاهما بلفظ : « يجزئ عنك الثلث » ومالك في الموطأ (النذور والأيمان ١٦) بلفظ « يجزيك من ذلك الثلث » .

(٢) انظر الحديث بنصه في : أبو داود في السنن (١٦٧٨) ، والترمذي في السنن (٣٦٧٥) ، والحاكم في المستدرک

(٤١٤/١) ، والبيهقي في السنن (١٨١/٤) ، جميعهم بلفظ « ما أبقيت لأهلك » .

(٣) قوله تعالى : ﴿ قُرَّةُ أَعْيُنٍ ﴾ أي مما تسر به قلوبهم .

١١٦٠ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَنْفَطِرَ قَدَمَاهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » (١) . متفق عليه . وَعَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ نَحْوَهُ ، متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف في : باب فضل قيام الليل ، آيات ثلاثاً ، تكلمنا عن اثنتين منها ، فهذه هي الثالثة ، وهي قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴾ (٢) وَالْأَخَرُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ .

هذه من أوصاف المتقين الذين أعد الله لهم الجنات والعيون ، من أوصافهم أنهم كانوا لا يهجعون من الليل إلا قليلاً ، وذلك أنهم يشتغلون بالقيام والتهجد وقراءة القرآن وغير ذلك . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ بِمَا أَنْتَ قَوْمٌ آدَنٌ مِنْ ثُلَاثِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَنُصْفَهُ وَلَوْلَا إِذْ يَنْزِلُ عَلَيْكَ الرَّحْمَةُ مِنْ رَبِّكَ لَأَكْبَرْتَ ﴾ (٣) [المزمل : ٢٠] فكانوا يقومون من الليل ، ثم إذا فرغوا من القيام رأوا أنهم مقصرون ، فاجعلوا يستغفرون الله ﷻ ، وبالأسحار يستغفرون . وقال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَاللَّسْتُبُورِ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] أي في آخر الليل .

ثم ذكر الأحاديث في ذلك ، ومنها حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ وَيَطِيلُ الْقِيَامَ حَتَّى تَنْفَطِرَ قَدَمَاهُ ، لِأَنَّ الدَّمَ يَنْزِلُ فِيهَا ، فَتَنْفَطِرُ ، فَقِيلَ : كَيْفَ تَفْعَلُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ : « أَفَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا » . فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الأعمال من شكر نعمة الله ﷻ ، فدل ذلك على أن الشكر هو القيام بطاعة المنعم ، وليس الإنسان إذا قال : أشكر الله ، هذا شكر باللسان ولكن لا يكفي ، لابد من الشكر بالجوارح والقيام بطاعة الله ﷻ ، وفي هذا دليل على تحمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعبادة ومحبة لها ؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك إلا لمحبة شديدة ، ولهذا قال : « جعلت قرة عيني في الصلاة » (٤) فالصلاة أحب الأعمال إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قام معه من الليل من أصحابه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام معه ذات ليلة فأطال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه وعلى آله وعلى آلهم الصلاة ، قال عبد الله : حتى هممت بأمر سوء ، قالوا : بما هممت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه (٤) . وهو شاب ، أقل سنًا من الرسول عليه الصلاة والسلام ومع ذلك عجز أن يكون كالنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ولكن لو قال قائل : هل الأفضل في قراءة الليل أن أطيل القيام ، أو أن أطيل السجود والركوع ؟ قلنا : انظر ما هو أصلح لقلبك ، قد يكون الإنسان في حال السجود أخشع وأحضر قلبًا ، وقد يكون

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٧) ، ومسلم في صفات المنافقين (٨١) ، بنحوه ، والإمام أحمد في المسند (٢٥١/٤ ، ٢٥٥) ، قوله : « تنفطر قدماه » أي تشقق .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أَنْتَ أَقْلٌ مِنْ أَقْلٍ مِنْ نَفْسِهِ وَأَقْلٌ مِنْ ثَلَاثَةِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ يَنْزِلُ عَلَيْكَ الرَّحْمَةُ مِنْ رَبِّكَ لَأَكْبَرْتَ ﴾ أي تقوم معك طائفة من أصحابك .

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٦٢/١) بلفظه ، والنسائي في السنن (٢٦١/٧) وأحمد في مسنده (١٢٨/٣) كلاهما بلفظ : « جعلت قرة عيني في الصلاة » .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٤) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٨) ، وأحمد في مسنده (٣٩٦/١) .

في حال القيام يقرأ القرآن ويتدبر القرآن ، ويحصل له لطائف من كتاب الله ﷻ ما لا يحصل له في حال السجود ، ولكن الأفضل أن يجعل صلاته متناسبة إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود ، وإذا قصر القيام قصر الركوع والسجود ، حتى تكون متناسبة كصلاة النبي ﷺ . والله أعلم .

١١٦١ - وَعَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةُ لَيْلًا ، فَقَالَ : « أَلَا تُصَلِّيَانِ ؟ » ^(١) متفق عليه . « طَرَقَهُ » : أَتَاهُ لَيْلًا .

١١٦٢ - وَعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَنْ أَبِيهِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ » قَالَ سَالِمٌ : فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ^(٢) . متفق عليه .

١١٦٣ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ ؛ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ » ^(٣) متفق عليه .

١١٦٤ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ ! قَالَ : « ذَاكَ رَجُلٌ بَالُ الشَّيْطَانِ فِي أَذُنِهِ » - أَوْ قَالَ : « فِي أُذُنِهِ » ^(٤) متفق عليه .

١١٦٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « يَغْفِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ - ثَلَاثَ عُقَدٍ ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ : عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ ، فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى ؛ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ ؛ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ صَلَّى ؛ انْحَلَّتْ عُقْدُهُ كُلُّهَا ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانًا » ^(٥) متفق عليه . « قَافِيَةُ الرَّأْسِ » : آخِرُهُ .

الشرح

هذان الحديثان فيما يتعلق بقيام الليل .

الحديث الأول : أنه ذكر عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجل نام حتى أصبح ، وقوله :

(١) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه والحديث أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٤٦/٢) .

(٢) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه والحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٣٩) ومسلم في فضائل الصحابة (١٤٠) .

(٣) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه والحديث أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٢) ومسلم في الصيام (١٨٥) والإمام أحمد في المسند (١٧٠/٢) ، قوله : « لا تكن مثل فلان » أي لا تماثله وتشابهه في ما فعل .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٤) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٥) والنسائي في السنن (٢٠٤/٣) ، قوله « بال الشيطان في أذنيه » أي أفسده الشيطان وجعله منافذاً إليه ، أو استخف به واحقره واستعلى عليه .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد (٣٢٦٩) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٧) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٢٩) ، والبيهقي في السنن (٥٠١/٢) ، وقوله : « يضرب على كل عقدة » أي يضرب على العقدة تأكيداً وإحكاماً لها ، وقيل : يحجب الحس عن النائم حتى يستيقظ .

« حتى أصبح » أي : حتى طلع الصبح ، ولم يتجهجد . ويحتمل حتى أصبح أي فاتته صلاة الفجر ، فقال النبي ﷺ : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه ، أو قال في أذنيه » . لما بال لم يسمع النداء ، لما بال في أذنيه حال بينه وبين سماع النداء فلم يقم . فدل هذا على فوائد : أولاً : أن الشيطان يبول ، لأن النبي ﷺ قال : « بال الشيطان في أذنه » .

ثانياً : أنه يأكل ويشرب ، وهذا ثبت أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يأكل أحدكم بشماله ، ولا يشرب بشماله ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » ^(١) أيضاً ثبت عن النبي ﷺ أن الشيطان يتقيأ فإن رجلاً أكل طعاماً ولم يسم ، فشاركه الشيطان فيه ؛ لأنك إذا بدأت في الطعام ولم تسم الله شاركك الشيطان ، فلما سمى الرجل ذكر النبي ﷺ : أن الشيطان يتقيأ ما أكله ^(٢) يتقيأ يعني : أخرجه من جوفه .

فهذه أربعة أشياء : البول ، والأكل ، والشرب ، والتقوى ، يجب علينا أن نؤمن بها كما أخبر بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأن نؤمن بأنها حق على حقيقتها ؛ لأن الرسول ﷺ هو أعلم الخلق في أمور الغيب . ثانياً : هو أنصح الخلق للأمة . ثالثاً : أنه أصدق الخلق - عليه الصلاة والسلام - ولا يمكن أن ينطق بكلام وهو يريد خلاف ظاهره أبداً ، إذا الشيطان يأكل ويشرب ويتقيأ ويبول ، ولكن هل بوله وقيئه وأكله وشربه ، شيء محسوس يشاهد ، لا ، لا يشاهد ، فتؤمن بذلك ، ونقول هذه أمور غيبية لا نعرف عن كيفيةها ولا نعرف عنها من واقع الأمر المحسوس .

وفي الحديث : دليل أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على قيام الليل حتى لا يكون للشيطان عليه سبيلاً . أما حديث أبي هريرة : أن النبي ﷺ أخبر أن الشيطان يعقد على قافية أحدنا إذا نام ثلاث عقد ، يعقدها ويحكمها ، يقول : « عليك ليل طويل » ^(٣) ثم وما أشبه ذلك ، يبطه عن الخير ، لكن إذا قام الإنسان وذكر الله انحلت عقدة ، فإذا توضأ انحلت العقدة الثانية ، فإذا صلى انحلت العقدة الثالثة ، فأصبح طيب النفس نسيطاً ، والحمد لله هذا سهل ، اذكر الله ، قل : لا إله إلا الله ، الحمد لله الذي أحياناً بعد ما أماتنا وإليه النشور ، وقرأ عشر آيات في آخر سورة آل عمران ^(٤) ، توضأ ، تحل عقدتان ، صل تحل العقد الثالثة ، ولهذا يستحب أن يفتح الإنسان قيام الليل بركعتين خفيفتين ، لأن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أمر بذلك ؛ ولأنه هو نفسه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يفعل

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٧٩٩) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٣) كلاهما بلفظه ، ومسلم في الأشربة (١٠٦) بلفظ « لا يأكل » .

(٢) انظر الحديث في : أبو داود في الأطعمة (٣٧٦٨) والطبراني في الكبير (٢٩٦/١) ، والحاكم في المستدرک (١٠٨/٤) ، وأحمد في مسنده (٣٣٦/٤) .

(٣) انظر الحديث في : البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٩) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٧) ، ومالك في الموطأ (السفر ٩٥) ، وأحمد في مسنده (٢٤٣/٢) ، ومعنى قوله « قافية » أي مؤخرة الرأس .

(٤) انظر الحديث في البخاري في الدعوات (٦٣١٢) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٩) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٨٠) .

ذلك ، يفتح صلاة الليل بركتين خفيتين^(١) ؛ ولأن ذلك أسرع في حل عقد الشيطان ، فمجرد أن يصلي ركعتين تحل العقد ، وهذه من أمور الغيب التي لا ندرکہا نحن بحواسنا ، لا ندرکہا إلا عن طريق الوحي ، ويجب علينا أن نقول آمنا وصدقنا بما أخبر الله به ورسوله ؛ لأن هذا هو حقيقة الإيمان ، أما الذي لا يؤمن إلا بما يشاهد فليس بمؤمن ، ولهذا إذا شاهد الكفار العذاب ، أو شاهدوا الموت يؤمنون ، فرعون لما غرق ورأى أنه هالك قال : ﴿ مَا نَسْتُ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] بعد أن كان يتسلط على بني إسرائيل أراد أن يؤمن بما آمنوا به ، أذل نفسه وهو حي قبل أن يموت ، فقيل له : ﴿ مَا لَكِنَّ ﴾ يعني : الآن تؤمن ، لا ينفع ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿ فَأَلَيْتُمْ نَجِيحَ يَدَيْكَ ﴾ فقط ﴿ لَنَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ [يونس : ٩١ ، ٩٢] لأن بني إسرائيل قد أربعهم فرعون ، لو قيل لهم مات سيكونون في شك ، لكن إذا رأوا جثته طافية على الماء آمنوا ﴿ فَأَلَيْتُمْ نَجِيحَ يَدَيْكَ لَنَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَنَافِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٢] .

فالخاصل : يا إخواني أن هذه الأمور التي قد تستبعدا عقولكم يجب أن تصدقوا بها ، قالها المعصوم ، قل آمنا وصدقنا ، فنؤمن بأنه يول في أذن الإنسان إذا تأخر عن صلاة الصبح ، سواء وجدت رطوبة أم لا ، تقياً ما أكل في وسط الطعام ومع ذلك نأكله ، ولو تقياً بشر في وسط الطعام ما أكلناه ، فالواجب في مثل هذه الأمور أن يُصدق الإنسان ويؤمن ، وما أكثر ما خفي علينا ، لما جاءوا يسألون الرسول عن الروح ، ما هي هذه الروح التي إذا كانت في البدن صار حياً يتحرك وإذا خرجت منه صار جثه ، ما هي هذه الروح ؟ قال تعالى : ﴿ وَنَسْأَلُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ولما جاء عصفور ونقر في البحر ، والبحر كثير الماء - نقر العصفور من البحر ، يعني شرب - هل ينقص البحر ؟ لا ما ينقص البحر ، قال الخضر لموسى - عليه الصلاة والسلام - : « ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر »^(٢) .

فنحن لا نعلم إلا ما علمنا الله ، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً . والله الموفق .

١١٦٦ - وعن عبد الله بن سلام عليه السلام : أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ أَقْسُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ؛ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ »^(٣) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

نقل المؤلف النووي رحمته الله عن عبد الله بن سلام عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس

(١) انظر الحديث في : البخاري في التهجد (١١٧٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٧ ، ٨٨) ، وأبو داود في الطلوع (١٣٢٣) ، والترمذي في الوتر (٤٥٩) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٤٤) ، وأحمد في مسنده (١١٨/٥) بلفظ : « إلا كنقرة هذا العصفور في البحر » .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٥) ، والدارمي في سنته (٢٧٥/٢) .

أفشوا السلام .

اعلم أن خطاب الشرع إذا صدر بالنداء ؛ دل ذلك على أهمية هذا الخطاب ؛ لأن النداء يُوجب تنبيه المخاطَب ؛ فإنه فرق بين أن تقول الكلام مرسلًا وبين أن تنادي من مخاطب ، فالثاني يكون أبلغ في التنبيه والانتباه .

يقول : « يا أيها الناس أفشوا السلام » يعني : أظهروا وأعلنوا وأكثروا من السلام ، والسلام يخاطب به المُسَلَّم والمُسَلَّم عليه ؛ فإن المُسَلَّم ينبغي له أن يُسلم على كل من لاقاه ممن يستحق أن يُسَلَّم عليه ، سواء عرفه ، أو لم يعرفه .

والذي يستحق أن يُسَلَّم عليه هو المسلم الذي لا يحل هجره ، أما الكافر فلا تبدؤه بالسلام سواء كان كافرًا لا ينتسب للإسلام ، أو كان كافرًا ينتسب للإسلام لكنه على بدعة ، فهذا لا تسلم عليه لأنه لا يستحق ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام » ^(١) .

وينبغي للمُسَلَّم أن يرفع صوته حتى يُسمع وألا يسلم بأنفه ، لأن بعض الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية - يكون عنده كبرياء أو عنده جفاء ، فإذا لاقاك سلم عليك بأنفه ، لا تكاد تسمعه ، وهذا خلاف إفشاء السلام ؛ فإفشاء السلام أن ترفع صوتك وتجهر به ، السلام عليك . قال العلماء : إلا إذا سلم على قوم أيقاظ بينهم نيام ، فلا ينبغي أن يرفع صوته رفقا يستيقظ به النيام ؛ لأن هذا يؤذي النائمين .

ثم إن الصيغة المستحبة أن تقول : السلام عليك ، إن كان المُسَلَّم عليه واحدًا ، وإن كانوا جماعة رجال تقول : السلام عليكم ، وإن كانوا جماعة نساء تقول : السلام عليكن ، حسب المخاطَب ، ثم إنك إذا قلت : السلام عليك أو عليكم أو عليكن ، فإنك تشعر أنك تدعو لهم بالسلامة ، السلام عليكم مجرد تحية ، دعاء بالسلامة ، كأن الله يُسلم من كل الآفات ، من آفات الذنوب ، وآفات القلوب ، وآفات الأجسام ، وآفات الأعراض ، من كل آفة ، ولهذا لو قلت : أهلاً ومرحبًا ، بدل السلام ، ما أجزأك ؛ لأن أهلاً ومرحبًا ما فيها دعاء ، فيها صحيح تحية ، تهنئة ، ولكنها ليست فيها دعاء . فالسلام المشروع أن تقول : السلام عليكم .

أما المُسَلَّم عليه فالواجب عليه أن يرد كما سَلَّمَ عليه ، هذا أمر واجب لقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ ﴾ [النساء : ٨٦] فإذا قال : السلام عليك . فقلت : أهلاً ومرحبًا أبا فلان ، حياك الله سررنا بمحييتك .. تفضل .. كل هذه الكلمات لا تجزئ عن كلمة واحدة ما هي ؟! عليك السلام ، لا بد أن تقول عليك السلام ، فإن لم تفعل فأنت آثم عليك وزر ؛ لأنك تركت واجبًا ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ ﴾ .

كذلك أيضًا إذا سلم عليك بصوت مرتفع بين واضح ، لا ترد عليه السلام بأنفك ، هذا لا يجوز ؛ لأنك لم ترد بمثلها ولا بأحسن منها ، فقوله تعالى : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ ﴾ يشمل الصيغة ، وصفة الأداء . كذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : « أطعموا الطعام » لمن يطعم الطعام ؟ لمن يحتاج إليه ،

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، والترمذي في الفتن (١٧٠٠) ، وأحمد في مسنده (٢٦٦/٢) .

إطعامك أهلك من الزوجات والأولاد بنين أو بنات ومن في بيتك أفضل ما يكون ، أفضل من أن تصدق على مسكين ؛ لأن إطعامك أهلك قيام بواجب ، والقيام بالواجب أفضل من القيام بالتطوع لقول الله تعالى في الحديث القدسي : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه » ^(١) . فإطعام الطعام لأهلك أفضل من إطعام المسكين ؛ لأن الأول واجب وهذا تطوع ، فمن أطعم الطعام أهله ولم يقصر بشيء وقام بالواجب فقد أطعم الطعام ، وما فضل فتصدق به فهو خير .

« وصلوا بالليل والناس نيام » اللهم اجعلنا من هؤلاء ، ربما كان أحسن وألذ النوم ما كان من بعد منتصف الليل إلى الفجر ، فإذا قام الإنسان في هذا الوقت لله تعالى يتجهّد ، يتقرب إليه بكلامه وبدعاء خاشعاً بين يديه ، والناس نائمون فهذا من أفضل الأعمال . (صلوا بالليل والناس نيام) وهذا محل الشاهد من هذا الحديث ، أن الرسول ﷺ جعل الصلاة بالليل من أسباب دخول الجنة ، والثواب قال : (تدخلوا الجنة بسلام) تسلم عليك الملائكة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ۖ ﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] يهتئونهم بما صبروا وبهذا الثواب العظيم .

و « تدخلوا الجنة بسلام » : ظاهره أنه بلا عقاب ولا عذاب ؛ لأن من عذب لم يسلم . فهذه الأمور الثلاثة في هذا الحديث من أسباب دخول الجنة بسلام ، نسأل الله تعالى أن يعينني وإياكم عليها ، وأن يجعلنا ممن يدخلون الجنة بسلام ، إنه على كل شيء قدير .

١١٦٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْحَرَمِ ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ » ^(٢) رواه مسلم .

١١٦٨ - وَعَنْ ابْنِ عُمر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى ، فَإِذَا خِفَتِ الصُّبْحُ ، فَأَوْزِرْ بِوَاحِدَةٍ » ^(٣) متفق عليه .

١١٦٩ - وَعَنْهُ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ ، يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى ، وَيُؤَزِّرُ بِرُكْعَةٍ ^(٤) . متفق عليه .

١١٧٠ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، يُفْطِرُ مِنَ الشَّهْرِ حَتَّى نَظَرُ أَنْ لَا يَصُومَ مِنْهُ ، وَيَصُومُ حَتَّى نَظَرُ أَنْ لَا يُفْطِرَ مِنْهُ شَيْئًا ، وَكَانَ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْتَهُ ، وَلَا نَائِمًا إِلَّا رَأَيْتَهُ ^(٥) . رواه البخاري .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) والبيهقي في السنن (٣٤٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (٢٠٢) والنسائي في السنن (٢٠٧/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٧) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٥) ، والإمام أحمد في المسند (١٥٥/٢) ، قوله : « خفت الصبح » أي خشيت طلوعه .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (٩٩٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٦) ، والترمذي في الصلاة (٤٦١) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٧٤) .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٧٢) ، ومسلم في الصيام (١٨٠) نحوه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل صلاة الليل ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم » صيام شهر رمضان أحد أركان الإسلام ، وهو واجب بالإجماع ، وشهر المحرم أفضل الشهور التي يتطوع بها بالصوم ، وعلى هذا فيكون صوم شهر المحرم من الصيام المستحب ؛ لأنه أفضل الصيام بعد الفريضة . وأما الشاهد من هذا الحديث « وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » هذا هو الشاهد ، فصلاة الليل أفضل من صلاة النهار ، ما عدا الرواتب التابعة للمكتوبات ؛ فإنها أفضل من النفل المطلق في الليل ، فمثلاً راتبة الظهر أربع ركعات بسلامين قبلها وركعتان بعدها ، أفضل من ست في الليل ، لأنه راتبة مؤكدة ، تابعة للفريضة ، وأما النفل المطلق ففي الليل أفضل من النهار ، ولهذا قال : « أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » .

أما حديث ابن عمر الأول والثاني ، ففيه دليل على أن صلاة الليل تكون مثنى مثنى ، لا يمكن أن تصلي أربعاً ، بل لابد من اثنين ويسلم ، اثنين ويسلم ، قال الإمام أحمد رحمته الله : فإن قام إلى الثالثة ناسياً فهو كما لو قام إلى ثالثة في الفجر . يعني : فيجب عليه أن يرجع ، فإن لم يفعل بطلت صلاته يعني لو كنت تصلي بالليل على ركعتين ركعتين ، فقامت إلى الثالثة ناسياً ، وجب عليك أن ترجع حتى لو بدأت في قراءة الفاتحة ، يجب أن ترجع فإن لم تفعل بطلت صلاتك ، لأن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « صلاة الليل مثنى مثنى » يعني على اثنين اثنين ^(١) ، إلا أنه استثنى من ذلك الوتر ، إذا أوتر بثلاث أو خمس أو سبع أو تسع ، فإذا أوتر بثلاث فإن شاء سلم من الركعتين الأوليين وأتى بالثالثة وحدها ، وإن شاء جمع الثلاثة جميعاً بسلام واحد . وإن أوتر بخمس سردها كلها بسلام واحد وتشهد واحد ، وإن أوتر بسبع كذلك ، كلها بسلام واحد ، وإن أوتر بتسع كذلك ، إلا أنه في الثامنة يجلس ويتشهد ولا يسلم ، ثم يأتي بالتاسعة ويسلم . وإن أوتر بإحدى عشرة ، سلم من كل ركعتين ، كما فعل النبي ﷺ .

وفي حديث ابن عمر الأول والثاني دليل أن الوتر لا يكون بعد طلوع الفجر ، فإذا طلع الفجر انتهى وقت الوتر ، فإن غلبه النوم ولم يوتر قبل طلوع الفجر صلى من النهار ، لكن يصلي شفقا ، فإن كان من عادته أن يوتر بثلاث صلى أربعاً ، وإن كان من عادته أن يوتر بخمس صلى ستاً ... وهلم جرا .

فهذه الأحاديث في فضل صلاة الليل وفي كيفية صلاة الليل ، وأنها مثنى مثنى .

أما حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : ففيه دليل على أن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كان أحياناً يديم العمل الصالح ، حتى لا تراه إلا على هذا العمل ، كان لا تراه قائماً إلا رأيته ، ولا تراه نائماً إلا رأيته ، وكذلك في الصوم ، لا تراه صائماً إلا رأيته ، ولا تراه مفطراً إلا رأيته . يعني أنه - عليه الصلاة والسلام - يتبع ما هو أصلح وأنفع ، أحياناً يديم الصوم ، وأحياناً يديم الفطر ، وأحياناً يديم النوم ؛

(١) هذا هو قول أكثر أهل العلم ، وبه قال أبو يوسف ومحمد ، وقال أبو حنيفة إن شئت ركعتين وإن شئت أربعاً وإن شئت ستاً وإن شئت ثمانياً (انظر المغني مع الشرح الكبير ٧٩٦/١) .

لأنه - عليه الصلاة والسلام - يتبع ما هو الأفضل والأرضى لله ، وما هو الأريح لبدنه ؛ لأن الإنسان له حق على نفسه كما قال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص : « إن لنفسك عليك حقاً » ^(١) . والله الموفق .

١١٧١ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً - تَغْنِي فِي اللَّيْلِ - يَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذَلِكَ قَدَرٌ مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ ، وَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، ثُمَّ يَضْطَجِعُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُنَادِي لِلصَّلَاةِ ^(٢) . رواه البخاري .

١١٧٢ - وَعَنْهَا قَالَتْ : مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُ - فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ - عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً : يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِيَّهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ ! ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِيَّهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ ! ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْتُمُ قَبْلَ أَنْ تُؤْتَرَ ؟ فَقَالَ : « يَا عَائِشَةُ إِنَّ عَيْنِي تَنَامَانٍ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي » ^(٣) . متفق عليه .

١١٧٣ - وَعَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، كَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ آخِرَهُ فَيُصَلِّي ^(٤) . متفق عليه .

١١٧٤ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ . قِيلَ : مَا هَمَمْتَ ؟ قَالَ : هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدْعُهُ ^(٥) . متفق عليه .

١١٧٥ - وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْتَحَتِ الْبَقَرَةُ ، فَقُلْتُ : يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ ، ثُمَّ مَضَى ، فَقُلْتُ : يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ ، فَمَضَى ، فَقُلْتُ : يَرْكَعُ بِهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ ، فَقَرَأَهَا ، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا . إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ ، وَإِذَا مَرَّ بِسُورَةٍ سَأَلَ ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعْوِذٍ تَعَوَّذَ ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ » ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى » ، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ ^(٦) . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان صلاة النبي ﷺ في الليل . منها :

حديث عائشة الأول : أن النبي ﷺ « كان يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة » وقد بين ذلك

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/٦) ، والحاكم في المستدرک (٦٠/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٣) ، والنسائي في قيام الليل (٢٤٣/٣) والإمام أحمد في المسند (٨٨/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٢٥) ، والبيهقي في السنن (٦/٣) ، قوله : « إن عيني تنامان ولا ينام قلبي » قال النووي : هذا من خصائص الأنبياء ، ولذا لا ينتقص وضوؤهم بالنوم .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٦) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٠) ، والإمام أحمد في المسند (١٠٩/٦) .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٤) ، قوله « همت » أي قصدت فعل أمر .

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٣) .

في أحاديث أخرى ، أنه يسلم من ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعة ، يعني : يصلي إحدى عشرة ركعة ، يسلم من اثنتين ، ويوتر بواحدة (١) .

ثم كان ﷺ يصلي ركعتين قبل الغداة ، يعني إذا أذن الفجر صلى ركعتين ، وكان يخفف هاتين الركعتين حتى تقول عائشة أقرأ بأَم القرآن ؟ لشدة تخفيفه لهما ، ثم يضطجع على جنبه الأيمن حتى يأتيه المؤذن يؤذنه بالصلاة ﷺ (٢) . ففي هذا : دليل على أن قيام الليل إحدى عشرة ركعة يوتر بواحدة ، ودليل على أنه ينبغي أن يصلي الإنسان الراتبة في بيته أفضل من المسجد ، لاسيما الإمام ، وفيه أيضا أن الإمام لا يخرج من بيته إلا للإقامة ، يبقى في بيته حتى يأتي وقت الإقامة ، فيخرج إلى المسجد ويصلي ، هذا هو الأفضل ، أفضل من أن يتقدم الإمام ويصلي بالمسجد ، أما غير الإمام فينتظر الإمام ، والإمام ينتظره غيره ، فلذلك كان الأفضل في حقه أن يتأخر إلى قرب إقامة الصلاة ، إن لم يكن لهذا سبب أو في تقدمه مصلحة مثل أن يكون تقدمه يشجع المصلين فيتقدمون ، ولو تأخر لكسلوا ، فهذا أيضا للمصلحة .

وفي حديثها الآخر: أن النبي ﷺ كان لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة . لأنها سئلت : كيف كانت صلاة النبي ﷺ في رمضان ؟ قالت : كان لا يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثا . هذه أربع وأربع وثلاث : إحدى عشرة ، هذا هو السنة ؛ الأفضل ألا يزيد في صلاة الليل على إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاثة عشرة ركعة .

وقولها ﷺ : « يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن » . قد ظن بعض الناس أنها أربع مجموعة بسلام واحد ، وهذا خطأ ؛ لأنه قد جاء مفصلا مبيئا أنها أربع ركعات ، يسلم من كل ركعتين ، وأربع ركعات يسلم من كل ركعتين ، وثلاث ركعات ، فيكون قولها : « أربعا لا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي » ، يكون فيه دليل على أنه إذا صلى الأربع بسلام استراح قليلا ، لقولها : « ثم يصلي » وثم للترتيب في المهلة ، ثم يصلي الأربع على ركعتين ، ثم يسلم .

وأنا أشير في هذه المسألة أنه لا ينبغي للإنسان ألا يتعجل في فهم النصوص ، بل يجمع شواردها (٣) حتى يضم بعضها إلى بعض ليتبين له الأمر ، فبعض الإخوان الذين بدؤوا يتعلمون ولا سيما علم الحديث ، صاروا يصلون بالناس أربع ركعات جميعا ، وهذا غلط ، غلط على السنة ، وفهم خاطئ ؛ لأن النبي ﷺ سئل عن صلاة الليل فقال : « مني مني » فلا يمكن أن يصلي أربعا ، ممكن أن يصلي خمسا جميعا ، وسبعا جميعا ، وتسعا جميعا .

أما حديث عبد الله بن مسعود : أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة ؛ لأن النبي ﷺ بابه مفتوح ،

(١) وذلك لما رواه البخاري في الأذان (٦١٩) ، وأبو داود في الصلاة (١٣٣٥) ، والنسائي في السنن (٢٤٨/١) ، وأحمد في مسنده (٢١٥/٦) .

(٢) وذلك لما رواه مسلم في صلاة المسافرين (٩١) ، وأحمد في مسنده (١٨١/٦) .

(٣) شواردها : أي متفرقاتها (انظر لسان العرب ٢٢٣٠/٣ مادة شرد) .

بيته بيت للأمة ، للصحابة ، يأتي الواحد منهم يحب أن يصلي مع النبي ﷺ ، لا يقول له لا تصلي معي ، صل في بيتك ، لا بل يفتح له صدره ، ويدخل البيت ويصلي معه . وكان ابن مسعود رضي الله عنه من الذين يخدمون الرسول ﷺ صاحب السواك ، ينظف سواك الرسول ، وصاحب الوساد وساده وصاحب النعل . فكان يدخل على الرسول ويصلي معه ، فدخل فصلى معه ذات ليلة لما دخل في الصلاة أطال النبي ﷺ القيام ، يقول : حتى هممت بأمر سوء ، قيل : بماذا هممت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه . قال هذا وهو شاب ، والرسول ﷺ أسن منه ، ومع ذلك كان يقف ويطيل حتى يعجز الشباب عن قيامه - عليه الصلاة والسلام - وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، لكنه يصلي ﷺ شكراً لله ﷻ ، كما قال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً »^(١) .

والمرة الثانية صلى معه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، فبدأ بسورة البقرة ، « فقلت : يركع عند المائة ، ولكنه مضى ، فقلت : يركع بها ، ولكنه أتمها ثم بدأ بسورة النساء ، فأتمها ، ثم بدأ بسورة آل عمران فأتمها » يرتل - عليه الصلاة والسلام - يرتل القرآن ، وهذه السور الثلاث تمثل خمسة أجزاء وربع . بالترتيل كم تستغرق من وقت ؟! والنبي ﷺ واقف لا يمر بآية رحمة إلا سأل ، ولا آية تسبيح إلا سبح ، ولا آية وعيد إلا تعوذ ، فيجمع بين القراءة والذكر والدعاء ﷺ ، مع هذا الطول العظيم ، ثم ركع ، فكيف كان ركوعه ؟! كان ركوعه نحواً من قيامه ، أطال الركوع ، ثم رفع قائلاً : « سمع الله لمن حمده » ، وكان قيامه نحواً من ركوعه ، ثم سجد ، فكان سجوده نحواً من قيامه ، وهكذا صلاته كانت متناسبة ، وإذا أطال في القراءة أطال في الركوع والسجود ، يقول في الركوع : « سبحان ربي العظيم » ، ويقول في السجود : « سبحان ربي الأعلى » ، ويقول أيضاً إضافة إلى ذلك : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي »^(٢) . ويقول أيضاً : « سبح قدوس رب الملائكة والروح »^(٣) .

فالصلاة روضة من رياض العبادات ، فيها من كل زوج بهيج ، قرآن وذكر ودعاء وتسبيح وتكبير وتعوذ ، ولهذا كانت هي أفضل العبادات البدنية ، أفضل من الصيام ، وأفضل من الزكاة ، وأفضل من الحج ، وأفضل من كل العبادات ، إلا التوحيد ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . لأن هذا هو مفتاح الإسلام .

فالخلاصة : أن هذه صفة صلاة النبي ﷺ من الليل ، فاحرص أخي المسلم ، أسأل الله أن يعينني وإياك على اتباعه ظاهراً وباطناً ، وإن يتوفانا على ملته ويحشرنا في زمرة ، ويدخلنا معه جنات النعيم .

١١٧٦ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « طُولُ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٧) ، ومسلم في الصلاة (٢١٧) ، والنسائي في الصلاة (١٣٢/٢) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٣) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٢) ، والنسائي في السنن (٢٢٤/٢) .

القنوت» (١) رواه مسلم . المراد بالقنوت : القيام .

١١٧٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَيَصُومُ يَوْمًا ، وَيَفْطِرُ يَوْمًا » (٢) متفق عليه .

١١٧٨ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ إِلَّا أَعْطَاهُ إِثَاءً ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ » (٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها الإمام النووي في باب (فضل صلاة الليل) ومنها أن النبي ﷺ سئل : « أي الصلاة أفضل » ، قال : « طول القنوت » والمراد بطول القنوت : أي طول الخشوع لله ﻋَظِمْ والقيام والركوع والسجود . وقد اختلف العلماء رحمهم الله أيهما أفضل : طول القراءة مع تخفيف الركوع والسجود ، أو الأفضل تقصير القراءة والركوع والسجود ؛ بمعنى هل الأفضل أن تقصر الركعات مع كثرة العدد ، أو أن تطيل الركعات مع قلة العدد ؟ والصواب أن الأفضل في ذلك أن تكون الصلاة متناسبة ، وقد سبق معنا أن النبي ﷺ كان يجعل ركوعه نحوًا من قيامه ، وسجوده نحوًا من قيامه ، أي قريبًا منه ، وذكر ﷺ من ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ » أما صلاته ، يعني النافلة ، صلاة الليل ، فإنه كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، فيقسم الليل ثلاثة أقسام ، النصف الأول للنوم ، ثم الثلث للقيام ، ثم السدس للنوم ؛ لأن هذا فيه راحة البدن ، فإن الإنسان إذا نام نصف الليل ؛ أخذ حظًا كبيرًا من النوم ، فإذا قام الثلث ثم نام السدس ؛ فإن التعب الذي حصل له في القيام يذهب بالنوم الذي في آخر الليل ، ولكن مع هذا ، إذا قام الإنسان في أي ساعة من الليل ؛ فإنه يرجي له أن ينال الثواب ، هذا الذي ذكره النبي ﷺ هو الأحب إلى الله والأفضل ، لكن يكفي أن تقوم الثلث الأخير ، أو الثلث الأوسط ، أو النصف الأول ، حسب ما تيسر لك . قالت عائشة رضي الله عنها : من كل الليل أوتر النبي ﷺ من أول الليل ، ووسطه ، وآخره (٤) . فالأمر في هذا والله الحمد واسع .

ثم ذكر الحديث الثالث : أن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يدعو الله تعالى بخير إلا أعطاه إياه وهذه الساعة غير معلومة بعينها ؛ يعني : الله أعلم . لكن الرسول ﷺ أخبرنا بهذا من أجل أن

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٦٥) .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠) ، ومسلم في الصيام (١٨٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢٠٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٩٦/٤) ، قوله « أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ » أي أكثرها ثوابًا عنده .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٦٦) ، والإمام أحمد في المسند (٣١٣/٣) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٥٦) .

نجتهد ، وأن نتحرى قدر الله ﷻ ، وهذه الساعة كساعة يوم الجمعة مبهمة ، وإن كانت ساعة يوم الجمعة أرجى ما يكون إذا حضر الإمام يعني الخطيب إلى أن تقضى الصلاة . والله الموفق .

١١٧٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ ؛ فَلْيَفْتَحِ الصَّلَاةَ بِرَكَعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ » (١) رواه مسلم .

١١٨٠ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَحَ صَلَاتَهُ بِرَكَعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ (٢) ، رواه مسلم .

١١٨١ - وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَتِ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً (٣) . رواه مسلم .

١١٨٢ - وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ نَامَ عَنْ جُزْئِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ » (٤) رواه مسلم .

١١٨٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ، فَصَلَّى وَأَيَّقَظَ امْرَأَتَهُ ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ ، رَجِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ، وَأَيَّقَظَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ » (٥) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١١٨٤ - وَعَنْهُ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَيَّقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا - أَوْ صَلَّى - رَكَعَتَيْنِ جَمِيعًا ، كُتِبَا فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ » (٦) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١١٨٥ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٩٨) ، والبيهقي في السنن (٦/٣) ، قوله : « ليفتح الصلاة » أي لبدأ صلاته ، قوله : « برَكَعتين خفيفتين » وذلك حتى يذهب ما قد يبقى من كسل النوم فتشدد الأعصاب وتقوى الأعضاء من فتورها ، فتتوجه بكل نشاط لصلاة الليل .
(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٩٧) ، والنسائي في السنن (٢١٢/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٠) ، والبيهقي في السنن (٤٨٥/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٢) ، والترمذي في الصلاة (٥٨١) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٣) ، قوله : « عن حزبه » هو ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة .

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣٠٨) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٦) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٠/٢ ، ٤٣٦) ، قوله : « رحم الله رجلاً » خبر عن استحقيقه الرحمة واستيجابه لها ، أو دعاء له ومدح له بحسن ما فعل ، قوله : « قام من الليل » أي من بعض الليل ، قوله : « فإن أبَتْ » أي امتنعت لغلبة النوم وكثرة الكسل ، قوله : « نضح » أي رش .

(٦) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣٠٩) ، والطبراني في الصغير (٨١/١) .

يَذْهَبُ عَنْهُ النَّوْمُ ، فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ ، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسْبُتُ نَفْسُهُ ^(١) متفق عليه .
١١٨٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ ، مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنَ عَلَى لِسَانِهِ ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ ، فَلْيَضْطَجِعْ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

هذه بقية الأحاديث التي نقلها النووي رحمته الله في كتابه رياض الصالحين في : باب فضل صلاة الليل ، وتدل على أمور ، الأمر الأول : أن الإنسان إذا فاتته قيام الليل ؛ فإنه يقضيه من النهار ، ولكنه لا يوتر ؛ لأن الوتر تختتم به صلاة الليل ، وقد انتهت كما دل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ إذا غلبه وجع أو غيره ، يعني كالنوم فلم يصل في الليل ، صلى في النهار ثنتي عشرة ركعة ؛ لأنه - عليه الصلاة وسلام - كان يواظب في أكثر أحيانه على إحدى عشرة ركعة ، فكان يقضي ما هو الأكمل والأكثر ، يقضي ثنتي عشرة ركعة ، وعلى هذا فإذا كان من عادة الإنسان أنه يوتر بثلاث ولم يقم ؛ فإنه يقضي بالنهار أربعاً ، ولا يقضي ثلاثاً ، وإذا كان من عادته أن يوتر بخمس يقضي ستاً وهلم جزءاً ، ولكن متى يقضي ؟ يقضيه فيما بين طلوع الشمس وارتفاعها إلى زوال الشمس ، كما يدل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه فيمن فاتته ورده أو حزبه في الليل ، أو شيء منه ، أنه يقضيه في النهار بالضحى ، فيقضي ذلك في الضحى ، فإن نسي ولم يتذكر إلا بعد الظهر قضاه بعد الظهر ، لعموم قول النبي ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » ^(٣) .

وما دلت عليه هذه الأحاديث : أن الإنسان إذا غلبه النوم وجاءه النعاس وهو يصلي فلا يصلي ؛ وذلك لأنه ربما يذهب يستغفر لنفسه فيسب نفسه ؛ لأنه ينعس ، وأيضاً ربما يستعجم القرآن على لسانه ، فيتكلم بالكلمة من القرآن على غير وجهها فيحرف القرآن ، فأنت إذا كان من عادتك أن تصلي بالليل وجاءك النوم ؛ فلا تجهد نفسك ، ثم حتى يزول عنك النعاس ، ثم استأنف القيام ، فإن طلع الفجر فاقض الوتر في الضحى ولكن شفعا .

وما تدل عليه هذه الأحاديث : أن ينبغي للإنسان إذا كان له أهل وقام من الليل أن يوقظ أهله ، لكن حسب نشاط الأهل ، ولهذا كان الرسول ﷺ يصلي من الليل فإذا لم يبق إلا الوتر أبقت عائشة فأوترت ^(٤) ، يعني ليس من اللازم أن توقظ أهلَكَ معك ، قد يكون أهلَكَ ليسوا مثلك في النشاط البدني أو في النشاط النفسي ، فلا توقظهم معك ، ليس بلام إلا إذا رأيت أنهم يرغبون ، ولكن لا

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها بلفظه (٢٢٢) ، والبخاري في الوضوء بنحوه (٢١٢) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٢٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣١٨/٢) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١١) ، قوله : « فاستعجم القرآن » أي التبس عليه ولم ينطلق به لسانه لغلبة النعاس .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٤٢) ، وابن ماجه في السنن (٦٩٥ ، ٦٩٦) .

(٤) انظر الحديث في مسلم في صلاة المسافرين (١٣٤) .

تنسهم من آخر الليل ، يقومون ولو للوتر ، كما كان رسول الله ﷺ يفعل . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يقوم الليل ويصوم النهار ويعبد ربه حق عبادته .

٢١٣ - باب استحباب قيام رمضان وهو التراويح

١١٨٧ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا : غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(١) متفق عليه .

١١٨٨ - وَعَنْهُ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرْغِبُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ فِيهِ بِعَزِيمَةٍ ، فَيَقُولُ : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

سميت تراويح لأن السلف الصالحين كانوا يقومون رمضان ويطلقون القيام والركوع والسجود ، فإذا صلوا أربع ركعات - يعني بتسليمتين - استراحوا ، وإذا صلوا أربعًا استراحوا ، ثم يصلون ثلاثًا ، وهذا يؤيده حديث عائشة رضي الله عنها السابق ، كان يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثًا .

فكان النبي ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمر فيه بعزيمة ، يعني ما يلزم لكنه يرغب ، يقول : « من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وقام النبي ﷺ بأصحابه ثلاث ليالٍ في رمضان ، يصلي بهم جماعة ، ثم تأخر وقال : « إني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها » ^(٣) فتركه ، وبقي الناس يأتون إلى المسجد يصلون الرجلين والثلاثة كل يصلي مع صاحبه ، فخرج عمر ذات ليلة فوجدهم يصلون أوزاعًا ^(٤) ، فرأى رضي الله عنه بثاقب رأيه أن يجمعهم على إمام واحد ، فأمر أبي بن كعب رضي الله عنه وآخر معه أن يصليا بالناس إحدى عشرة ركعة ^(٥) ، فاجتمع الناس على إمام واحد في التراويح ، وبقي المسلمون على هذا إلى يومنا هذا ، لكن اختلف العلماء في عدد ركعات التراويح ، فمنهم من قال : إحدى عشرة ركعة ، ومنهم من قال : ثلاث عشرة ركعة ، ومنهم من قال : ثلاث وعشرون ركعة ، ومنهم من قال أكثر من ذلك ، والأمر في هذا واسع ؛ لأن السلف

(١) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠٠٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٧٣) ، وأبو داود في الصوم (١٣٧١) ، قوله : « من قام رمضان المقصود بالقيام : صلاة التراويح ، قوله : « إيمانًا واحتسابًا » أي تصديقًا بأنه حق معتقدًا فضيلته ، يريد بذلك وجه الله تعالى وحده .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٧٤) ، والإمام أحمد في المسند (٢٨١/٢) ، والترمذي في الصوم (٨٠٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٩) بنحوه . (٤) قوله : « أوزاعًا » أي متفردين .

(٥) انظر الحديث في سنن أبي داود في الصلاة (١٣٧٤) ، وأحمد في مسنده (٢٦٧/٦) .

الذين اختلفوا في هذا لم ينكر بعضهم على بعض ، فالأمر في هذا واسع ، يعني نحن لا ننكر على من زاد على إحدى عشرة ركعة ، ولا على من زاد على ثلاث وعشرين ركعة . ونقول : صل ما شئت ما دامت جماعة المسجد قد رضوا بذلك ، ولم ينكر أحد .

أما إذا اختلف الناس فالرجوع إلى السنة أولى ، والسنة ألا يزيد على ثلاث عشرة ركعة ؛ لأن عائشة سئلت كيف كان النبي ﷺ يصلي في رمضان ، فقالت : كان لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة ^(١) . فأما مع عدم الخلاف ، فإنه يصلي ثلاثاً وعشرين أو أكثر ، ما دام الناس لم يقولوا خفف ، فإذا قالوا خفف ؛ فلا يزيد على إحدى عشرة ، أو ثلاث عشرة ركعة . والله الموفق .

٢١٤ - باب فضل قيام ليلة القدر وبيان أرجى لياليها

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] إلى آخر السورة وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ... ﴾ [الدخان : ٣] .

١١٨٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٢) متفق عليه .

١١٩٠ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَزْوَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْمَنَامِ فِي الشَّيْءِ الْأَوَّخِرِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي الشَّيْءِ الْأَوَّخِرِ ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّبًا ؛ فَلْيَتَحَرَّهَا فِي الشَّيْءِ الْأَوَّخِرِ » ^(٣) متفق عليه .

١١٩١ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، يُجَاوِرُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، وَيَقُولُ : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » ^(٤) متفق عليه .

١١٩٢ - وَعَنْهَا رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوَتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » ^(٥) رواه البخاري .

- (١) أخرجه البخاري في التهجد (١١) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٢٥) .
- (٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٧٥) ، والإمام أحمد في المسند (٢٤١/٢ ، ٣٤٧) ، والنسائي في السنن (١٥٧/٤) .
- (٣) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠١٥) ، ومسلم في الصيام (٢٠٥) ، والإمام أحمد في المسند (٥/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٠٨/٤) ، قوله : « أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي الشَّيْءِ الْأَوَّخِرِ ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّبًا ؛ فَلْيَتَحَرَّهَا فِي الشَّيْءِ الْأَوَّخِرِ » ، أي طالبًا وقاصداً لها .
- (٤) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠٢٠) ، ومسلم بنحوه في الصيام (٢١٩) ، والترمذي في الصوم (٧٩٢) ، قوله : « يجاور » أي يعتكف .
- (٥) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠١٧) ، ومسلم في الصيام (٢١٩) ، والإمام أحمد في المسند (٥٦/٦) .

١١٩٣ - وَعَنْهَا رَوَاهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ الْأَوَّلُ مِنْ رَمَضَانَ ، أَخْبَا اللَّيْلَ ، وَأَيَّقَطَ أَهْلَهُ ، وَجَدَّ ، وَشَدَّ الْمِيزَرَ ^(١) . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

١١٩٤ - وَعَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، يَجْتَهِدُ فِي رَمَضَانَ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ ، وَفِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْهُ ، مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ ^(٢) . رواه مسلم .

١١٩٥ - وَعَنْهَا قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا ؟ قَالَ : « قُولِي : اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي » ^(٣) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ : (باب فضل ليلة القدر) .

وليلة القدر سميت بذلك لوجهين :

الوجه الأول : أنه يقدر فيها ما يكون في السنة من أعمال بني آدم وغيرها ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿ يعني : يفصل وبين : والوجه الثاني : أن ذلك الشرف ، أي ليلة القدر ، أي : ليلة ذات الشرف ؛ لأن قدرها عظيم ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ... ﴾ هذه الليلة خُصَّتْ بفضْلِها هذه الأمة ، فكانت لها ، ويذكر أن النبي ﷺ عرضت عليه أعمار أمته فتقاصرها ، فأعطى ليلة القدر ^(٤) . وجعلت هذه الليلة خيراً من ألف شهر ، فإذا كان الإنسان له عشرون سنة ، صار له عشرون ألف سنة في ليلة القدر ، وهذا من فضل الله ﷻ على هذه الأمة . والله تعالى خص هذه الأمة وخص نبيها ﷺ بخصائص لم تكن لمن سبقهم ، فالحمد لله رب العالمين . ثم ذكر المؤلف أحاديث وردت في ذلك ، وأنها - أي ليلة القدر - في رمضان ، وأنها في العشر الأواخر منه ، وأنها في أوتاره أكد ، وأنها في ليلة سبع وعشرين أكد ، لكن هي تنتقل في العشر ، يعني قد تكون هذه السنة ليلة إحدى وعشرين ، والسنة الثانية ليلة ثلاث وعشرين ، والثالثة ليلة خمس

(١) أخرجه البخاري في الصوم بنحوه (٢٠٢٤) : ومسلم في الاعتكاف (٧) : بلفظ « دخل العشر أحياناً » وكذلك أبو داود في الصوم (١٣٧٦) ، قوله : « أحياناً الليل » أي قامه بأنواع العبادات من الصلاة والذكر ، قوله : « وأيقظ أهله ، أي للصلاة ، وقوله : « وشد الميزر » كناية عن اجتهاده في العبادة زيادة على عادته في غيره من الشهور .

(٢) أخرجه مسلم في الاعتكاف (٨) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٦/٦) ، والترمذي في الصوم (٧٩٦) ، كلهم بلفظ « العشر الأواخر » .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٨) ، والإمام أحمد في المسند (١٧١/٦ ، ١٨٢) ، قوله « أَرَأَيْتَ » أي أعلمني أو أخبرني .

(٤) وذلك لما رواه مالك في الموطأ (الاعتكاف ١٥) ، وقال ابن عبد البر : هذا الحديث من الأحاديث الأربعة التي لا توجد في غير الموطأ .

وعشرين ، أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين ، أو أربع وعشرين أو ست وعشرين ، أو اثنتين وعشرين تتنقل لأنها ليست ليلة معينة دائماً ، لكن أرجى ما تكون ليلة سبع وعشرين ثم الأوتار ، وأرجى العشر الأواخر السبع الأواخر منها ، لأن جماعة من الصحابة أروا ليلة القدر في السبع الأواخر ، فقال عليه السلام : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريها ، فليتحرها في السبع الأواخر » . وهذا يحتمل أنه كل عام ، أو أنه تلك السنة فقط ، وعلى كل حال فهي في العشر الأواخر من رمضان . وذكر المؤلف رحمته الله أحاديث عن عائشة رضي الله عنها ، مما يدل على فضل هذه المرأة ، وأنها حفظت لأمة محمد عليه السلام من سنته ما لم تحفظه امرأة أخرى من النساء ، فهي رضي الله عنها أكثر النساء حديثاً عن رسول الله عليه السلام . حفظت من شريعة الله وسنة رسوله ما لم تحفظه امرأة سواها ، فجزاها الله عن أمة محمدًا خيراً . تقول عائشة للرسول عليه السلام : أرأيت إن وافقت أو علمت ، أي ليلة ليلة القدر ، ما أقول فيها ، قال : « قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » .

والعفو : هو التجاوز عن سيئات عباده ، وهو رحمته الله عفو قدير ، يعني يعفو مع القدرة ، ليس كعفو آدم إذا عجز عن الشيء سامح ، إنما يعفو مع القدرة جل وعلا ، وهذا هو كمال العفو ، وهو سبحانه وتعالى يحب العافين عن الناس ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْزَأُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، وهو سبحانه يحب الذين يأخذون من الناس العفو ، بل أمر بذلك فقال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ قال العلماء : معنى العفو يعني خذ ما عفي من الناس ، يعني ما سهل منه ، خذه ولا تشد الحبل ، فخذ العفو واترك ما وراء ذلك ، وهذا من آداب القرآن أن الإنسان يكون واسع الصدر لبني آدم يأخذ العفو ، فالشاهد أن أفضل ما تدعو به أن تقول : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » . والله الموفق .

٢١٥ - باب فضل السواك وخصال الفطرة

١١٩٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام قَالَ : « لَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ عَلَى النَّاسِ - لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ » ^(١) متفق عليه .

١١٩٧ - وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَمَةَ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَشُورُ فَأَهَّ بِالسَّوَاكِ ^(٢) . متفق عليه . « الشَّوْرُ » : الدَّلْكُ .

١١٩٨ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كُنَّا نَعْبُدُ لِرَسُولِ اللَّهِ عليه السلام سِوَاكَةً وَطَهُورَةً ، فَيَتَعَتُّهُ اللَّهُ مَا

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٧) ، ومسلم في الطهارة (٢٥٢) ، وأبو داود في الطهارة (٤٧) ، والإمام أحمد في المسند (٢٢١/١ ، ٣٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤٥) ، ومسلم في الطهارة (٢٤٧) ، وأبو داود في الطهارة (٥٥) ، والإمام أحمد في المسند (٣٨٢/٥) .

شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ ، فَيَتَسَوَّكُ ، وَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي ^(١) . رواه مسلم .
 ١١٩٩ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَكْثَرُتُمْ عَلَيْكُمْ فِي السَّوَاكِ » ^(٢) . رَوَاهُ
 الْبُخَارِيُّ .

١٢٠٠ - وَعَنْ شَرِيحِ بْنِ هَانِيٍّ قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَبْدَأُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا
 دَخَلَ بَيْتَهُ ؟ . قَالَتْ : بِالسَّوَاكِ ^(٣) ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٢٠١ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَطَرَفَ السَّوَاكِ عَلَى
 لِسَانِهِ ^(٤) . متفقٌ عليه ، وهذا لَفْظُ مُسْلِمٍ .

١٢٠٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : « السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ » ^(٥)
 رَوَاهُ النَّسَائِيُّ ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ بِأَسَانِيدٍ صَحِيحَةٍ .

الشرح

السواك هو : التسوك ، وهو ذلك الأسنان واللثة واللسان بعود الأراك ، هذا السواك المعروف هو
 عود الأراك ، ويحصل الفضل بعود الأراك أو بغيره من كل عود يشابهه ، والصحيح أنه يحصل أيضًا
 بالخرقة أو بالإصبع لكن العود أفضل .

والسواك ذكر النبي ﷺ فيه فائدتين عظيمتين .

[الفائدة الأولى] كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ ،
 مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ » « مطهرة للفم » يعني : يطهر الفم من الأوساخ والأنتان وغير ذلك مما يضر ، وقوله :
 « للفم » يشمل كل الفم ، الأسنان واللثة واللسان ، كما في حديث أبي موسى أنه دخل على النبي
ﷺ وطرف السواك على لسانه .

[الفائدة الثانية] : « مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ » ، أي أنه من أسباب رضا الله عن العبد أن يتسوك .

وللسواك مواضع يتأكد فيها ، وإلا فهو مسنون كل وقت ، لكن يتأكد في مواضع معينة منها :
 أولاً : إذا قام من النوم ، فإنه يُسن له أن يستاك لحديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ
 اللَّيْلِ يَشْوِصُ فَاهُ بِالسَّوَاكِ » ، يعني يتسوك ، وكذا يؤيده حديث عائشة أنهم كانوا يعدون له سواكه

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٩) ، والنسائي في السنن (٢٤١/٣) ، قوله « فَيَبْعَثُهُ اللَّهُ » أي
 يوقظه ؛ لأن النوم أخو الموت .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٥) ، بلفظه ، والبخاري في الوضوء بنحوه (٢٤٤) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (١٠/١) ، وابن ماجه في الطهارة (٢٨٩) بنحوه ، والإمام أحمد في المسند (١٠ ، ٣/١) ،
 قوله : « مطهرة للفم مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ » أي أنه يحمل الرجل على طهارة الفم ورضا الله ﷻ .

ووضوءه فإذا قام تسوك وتوضأ وصلى ما شاء الله ، ويسن عند القيام من النوم بالليل أو بالنهار ؛ لأن الفم يتغير فيسن أن يتسوك .

ثانياً : كذلك يسن إذا دخل الإنسان بيته أول ما يدخل يتسوك ؛ لأن عائشة سئلت : أي شيء يبدأ به الرسول ﷺ إذا دخل بيته قالت : السواك .

ثالثاً : يتسوك عند الصلاة ، سواء ذهب ليصلي فريضة أو نافلة ، صلاة ذات ركوع وسجود ، أو صلاة جنازة ؛ فإنه يسن أن يتسوك ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » يسن السواك أيضاً بتأكد عند الوضوء ، ومحله عند المضمضة أو قبل أو بعد ، لكنه عند الوضوء كما جاء ذلك عن النبي ﷺ .

وألقى العلماء - رحمهم الله - ما إذا تغير فمه بأكل أو شرب لبن أو نحوه مما له دسم ، فإنه يسن أن يتسوك ؛ لأنه يطهر الفم . وعلى كل حال فالسواك سنة ويتأكد في مواضع ، ولكنه من حيث السنة مشروع كل وقت حتى للصائم بعد الزوال ؛ فإنه كغيره يسن له أن يتسوك ، وأما من كره ذلك من أهل العلم فقوله لا دليل عليه ، والصحيح أن الصائم يتسوك أول النهار ، والله الموفق .

١٢٠٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « الْفِطْرَةُ خَمْسٌ » أَوْ « خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ : الْخِثَانُ ، وَالْأَسْتِخْدَاذُ ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ ، وَتَنْثُ الْإِبْطِ ، وَقَصُّ الشَّارِبِ » (١) متفق عليه .
« الْأَسْتِخْدَاذُ » : خَلْقُ الْعَانَةِ ، وَهُوَ خَلْقُ الشَّعْرِ الَّذِي حَوْلَ الْفَرْجِ .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله أحاديث خصال الفطرة في : باب فضل السواك ، وخصال الفطرة .
والفطرة : يعني التي فطر الخلق على استحسانها وأنها من الخير ، والمراد بذلك الفطر السليمة ؛ لأن الفطر المنحرفة لا عبرة بها لقول النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » (٢) .

وذكر منها حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أن النبي ﷺ قال : « الفطرة خمس » ، وفي لفظ : « خمس من الفطرة » فعلى اللفظ الأول يكون المعنى : أن الفطرة هي هذه الخمس ، وعلى الثاني يكون المعنى : أن هذه الخمس من الفطرة ، وهناك أشياء أخرى غيرها من الفطرة ، وهذا اللفظ أقرب إلى الواقع ؛ لأن الخمس التي ذكرت في حديث أبي هريرة يوجد شيء من الفطرة غيرها فيكون الأقرب أن لفظ

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٨٩) ، ومسلم في الطهارة (٤٩) ، والإمام أحمد في المسند (١٢٩/٢) ، والترمذي في الأدب (٢٧٥٦) ، قوله : « الفطرة » أي السنة ، قوله « الختان » هو في الذكر : قطع جميع الجلد التي تغطي الحشفة حتى تنكشف . وفي الأنثى : قطع أدنى جزء من الجلد التي في أعلى الفرج ، قوله : « تقليم الأظفار » أي قصها وقطعها .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ، وأبو داود في السنن (٤٧/٤) ، وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

الحديث : خمس من الفطرة .

أما على اللفظ الأول - على الحصر - فقد يراد بذلك الفطرة تامة ، وأما الأخرى فتكون من الفطرة التي هي من مكملات الفطرة .

أولاً : الختان : الذي يسمى عند الناس الطهارة وهو للرجال والنساء ، أما الرجال فختانهم واجب ، وأما النساء فختانهن سنة ، وليس بواجب ، وذلك أن الرجل إذا لم يختن وبقيت الجلدة التي فوق الحشفة فإنه يحتقن بها البول ، وتكون سبباً في النجاسة ؛ لأنه إذا احتقن بها البول ثم حصل ضغط عليها ، خرج البول الذي صار بينها وبين الحشفة فتلوث الثياب وتنجست ، ثم هي أيضاً عند الكبير ، وعندما يصل الإنسان إلى حد الزواج يكون هناك مشقة شديدة عند الجماع ، فلذلك كان من الفطرة أن تُنقص هذه الجلدة ، ولهذا كان كثير من الكفار الآن يختنون لا لأجل الطهارة والنظافة لأنهم نجس ، لكنهم يختنون من أجل التلذذ عند الجماع وعدم المشقة ، هذه واحدة .

ومتى يكون الختان ؟ يكون الختان من اليوم السابع فما بعده ، وكلما كان في الصغر فهو أفضل لأن ختان الصغير لا يكون فيه إلا الألم الجسمي دون الألم القلبي ، أما الكبير ، لو ختنته من له عشر سنوات مثلاً ، فإنه يكون فيه ألم قلبي وجسمي ، ثم إن نمو اللحم ونبات اللحم وسرعة البرء في الصغار أكثر ، لهذا قال العلماء : إن الختان في زمن الصغر أفضل ، وهو كذلك .

الثاني : الاستحداد : يعني حلق العانة ، والعانة هي الشعر الخشن الذي ينبت حول القبل ، وهو من علامات البلوغ ، فمن الفطرة أن يحلق الإنسان هذا الشعر ؛ لأنه إذا طال فرمما يتلوث بالنجاسة من أسفل أو من القبل ويحصل في ذلك وسخ وقذر ، ولأنه مضر وإن كان بعض الناس يُبقي العانة ويجعلها تزداد وتطول ، نسأل الله السلامة .

الثالث : قص الشارب : وهو الشعر النابت فوق الشفة العليا ، وحده : الشفة ، كل ما طال على الشفة العليا فهو شارب ، فهذا يحف ؛ لأن بقاءه يكون فيه تلويث بما يخرج من الأنف من الأذى ، ثم عند الشرب أيضاً يباشر الشعر المتلوث الماء فيقذره ، وربما يحمل ميكروبات مضرّة ، وعلى كل حال فهو من السنة ، أهم شيء أنه من السنة والتقرب إلى الله ﷻ إذا حلقته .

الرابع : قص الأظافر : يعني تقليمها ، والمراد بذلك أظافر اليدين والرجلين ولا ينبغي أن نقص حتى يصل إلى اللحم ؛ لأن هذا يضر الإنسان وربما يحصل فيه خُراج أو ما أشبه ذلك ، لكن نقصهما قصّاً معتدلاً .

الخامس : نفث الإبط : إذا كان فيه شعر فإنها تنتف ولا تقص ولا تحلق ، بل تنفها أولاً ؛ لأن التنف يزيلها بالكلية ويضعف أصولها حتى لا تنبت فيما بعد ، وهذا أمر مطلوب شرعاً .

هذه خمسة أشياء : الختان ، الاستحداد ، قص الشارب ، تقليم الأظافر ، نفث الإبط . أما الختان : فيفعل مرة واحدة وينتهي أمره ، وهنا أنه على مسألة ، وهي أن بعض الناس قد يؤلّد مختوناً ، ليس له كلفة ، تجد الحشفة بارزة ظاهرة من حين أن يولد ، وشهدنا ذلك بأعيننا ، فهذا لا يختن ، ما بقي

شيء يختن من أجله .

أما الأربع الباقية : الاستحداد ، قص الشارب ، تقليم الأظافر ، نتف الإبط ، فإنها لا تترك فوق أربعين يومًا ؛ لأن النبي ﷺ وَقَّتْ لأُمَّته بأن لا تترك هذه الأشياء فوق أربعين يومًا ^(١) ، فلها مدة محدودة لا تتجاوزها . وأحسن ما يكون في ضبط الأربعين أن تجعل وقتًا معينًا ، مثلاً تقول أول جمعة من كل شهر أقوم بعملي هذا ، حتى لا تنسى ؛ لأنه أحيانًا ينسى الإنسان وربما يمضي أربعون يومًا ، وخمسون يومًا وما يذكر ، فإذا جعلت شيئًا معينًا بأن تقول مثلاً : أول جمعة من كل شهر أزيل هذه الأشياء الأربعة ، علمت الوقت ، ولكن هذا ليس بسنة ، إنما هو من أجل ضبط الوقت لفعل السنة وهو أن لا تتركها فوق الأربعين يومًا .

لا يحلق الشارب بالموس ، حتى إن الإمام مالك رحمته الله ، قال : أرى أن يؤدَّب من حلق شاربه . لأنه يشوه الخلقة ، ولأنه خلاف السنة ، السنة حفه أو تقصيره . وفي الإبط الأصل النتف ، إلا أن بعض الناس يشق عليه النتف جدًا فلا بأس من استخدام الأدهان وشبيهها .

١٢٠٤ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ : قَصُّ الشَّارِبِ ، وَإِعْقَاءُ اللَّحْيَةِ ، وَالشَّوَاكِ ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ ، وَانْتِقَاضُ الْمَاءِ » قال الزَّوَاي : وَنَيْسَبْتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنَّ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ ، قَالَ وَكَيْفَ - وَهُوَ أَخَذَ رَوَاتِهِ - : انْتِقَاضُ الْمَاءِ ، يَعْنِي : الِاسْتِنْجَاءَ ^(٢) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ . «الْبَرَاجِمُ» بِالْبَاءِ الْمَوْحِدَةِ وَالْجِيمِ ، وَهِيَ : عَقْدُ الْأَصَابِعِ «وَإِعْقَاءُ اللَّحْيَةِ» مَقْنَأَةٌ : لَا يَقْصُرُ مِنْهَا شَيْئًا .

١٢٠٥ - وَعَنْ ابْنِ عُمرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «أَخْفُوا الشَّوَارِبَ ، وَأَغْفُوا اللَّحْيَ» ^(٣) متفق عليه .

الشرح

هذه بقية خصال الفطرة ، وقد سبق حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الفطرة خمس : الختان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط » وذكرنا أن الأربعة التي سوى الختان لا تترك فوق أربعين يومًا ، لأن النبي ﷺ وَقَّتْ ذلك .

أما حديث عائشة : ففيه أن الفطرة عشرة خصال ، منها ما سبق في حديث أبي هريرة ، ومنها ما ذكر في حديث عائشة دون حديث أبي هريرة . فمن ذلك : «إعفاء اللحية» فإنه من الفطرة ، وفي حديث ابن عمر ، أن النبي ﷺ أمر بإعفاء اللحية .

(١) وذلك لما رواه أبو داود في الترجل (٤٢٠٠) ، والترمذي في السنن (٢٧٥٨) ، وابن ماجه في السنن (٢٩٥) ، والبيهقي في السنن (١٥٠/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٦١) ، وأبو داود في الطهارة (٥٣) ، وابن ماجه في الطهارة (٢٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٢) ، بلفظه ، والبخاري في اللباس بنحوه (٥٨٩٣) ، والإمام أحمد في المسند (١٦/٢) .

واللحية ، قال أهل اللغة : إنها شعر الوجه ، واللَّحْيَيْن يعني : العوارض وشعر الخدين ، فهذه كلها من اللحية ، وأما الشارب فقد سبق الكلام عليه ، وإعفاء اللحية يعني إرخاءها وإطلاقها وتركها على ما هي عليه ، هذا من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وعلى استحسانها ، وعلى أنها من علامة الرجولة بل ومن جمال الرجولة ، وعلى هذا فلا يجوز للإنسان أن يحلق لحيته ، فإن فعل فقد خالف طريق النبي ﷺ وعصى أمره ، ووقع في مشابهة المشركين والمجوس ؛ لأن النبي ﷺ قال : « خالفوا المشركين ، وَفَرُوا اللَّحْيَ وحفوا الشوارب » ولم يكن الناس يعرفون هذا ، يعني : لم يكن المسلمون يعرفون حلق اللحية بل كان بعض الغلاة الظلمة إذا أرادوا أن يُعَدِّدُوا شخصًا حلقوا لحيته ، وهذا حرام عليهم لأنه لا يجوز التعذير بمحرم ، لكن يقاس به أنهم كانوا يعدون حلق اللحية مُثْلَةً وتعذيرًا وعذابًا . أما بعد أن استعمر الكفار ديار المسلمين في مصر والشام والعراق وغيرها ، وأدخلوا على المسلمين هذه العادة السيئة ، وهي حلق اللحية ، صار الناس لا يبالون بحلقها ، بل كان الذي يعفي لحيته مُسْتَكْرًا من بعض البلاد الإسلامية ، وهذه لا شك أنها معصية للرسول ﷺ ومن يعص الرسول ﷺ فقد عصى الله ومن يطع الرسول ﷺ فقد أطاع الله ، وإذا ابتلى الإنسان بأحد من أقاربه يحلق لحيته ، فالواجب عليه أن ينصحه ويبين له الحق ، أما هجره فهذا حسب المصلحة ، إذا كان هجره يفيد في ترك المعصية ، فليهجره ، وإن كان لا يفيد أو لا يزيد الأمر إلا شدة فلا يهجره ، لأن الهجر دواء يستعمل حيث ينفع ، وإذا لم ينفع ، فإن الأصل تحريم هجر المؤمن ، لقول النبي ﷺ : « لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » (١) .

ومما زيد في هذا الحديث : « الاستنشاق » ، والاستنشاق من الفطرة ؛ لأنه تنظيف وإزالة لما في الأنف ، فهو طهارة ، والاستنشاق يكون في الوضوء ويكون في غير الوضوء ، كلما احتجت إلى تنظيف الأنف فاستنشق الماء ونظف أنفك ، وهذا يختلف باختلاف الناس ، من الناس من لا يحتاج إلى هذا إلا في الوضوء ، ومن الناس من يحتاج إليه كثيرًا . ومن ذلك أيضًا - أي من سنن الفطرة - « المضمضة » فإنها من الفطرة ؛ لأن فيها تنظيف الفم ، والفم يحتاج إلى تنظيف ، لأنه يمر به الأكل والدهن وما أشبه ذلك ، فيحتاج إلى تنظيف ، فكانت المضمضة من خصال الفطرة . ومن ذلك أيضًا « الاستنجاء » ، وقد فسر وكيع انتقاص الماء بأنه الاستنجاء ، لأن الاستنجاء تنظيف وتطهير وإزالة أذى .

ومن ذلك أيضًا : « غسل البراجم » والبراجم قال العلماء : إنها مسقط الأصابع ، فإن مسقط الأصابع من الباطن يحتاج إلى تنظيف أكثر من ظاهرها ، لأن ظاهرها ممسوح وليس فيه شيء يحتاج إلى تنظيف أكثر . وفي هذا الحديث : دليل على أن إعفاء اللحية - مع كونه مخالفة للمشركين - من خصال الفطرة ، فيندفع بذلك شبهة من شبه وقال : إن من الكفار اليوم من يعفي لحيته أقلًا يليق بنا أن نخالفهم ونحلق اللحى ؟ انظر - والعياذ بالله - من الشيطان . فنقول : إن إعفاءهم اللحى تبع لفطرة ، ونحن مأمورون بالفطرة ، وإذا شابهونا هم بالفطرة ، فإننا لا نمتنعهم ولا ينفع أن نعدل عن الفطرة من أجل أنهم وافقونا

فيها ، كما أنهم إذا وافقونا في تقليم الأظفار فإننا لا نقول نترك تقليم الأظفار بل نقليمها ، وهكذا بقية الفطرة إذا وافقنا فيها الكفار فإننا لا نعدل عنها ، والله الموفق .

ونعلم أن الإكثار من استخدام الماء في الوضوء أو الغسل داخل في قول الله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] ولهذا قال الفقهاء - رحمهم الله - : يكره الإسراف ولو كان على نهر جار فكيف إذا كان على مكائن تستخرج الماء ، فالخلاص أن الإسراف في الوضوء وغير الوضوء من الأمور المذمومة .

* * *

٢١٦ - باب تأكيد وجوب الزكاة وبيان فضلها وما يتعلق بها

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام ، لقول النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة » ^(١) والله ﷻ يذكرها كثيراً مع الصلاة في القرآن الكريم ، ولهذا اختلف العلماء - رحمهم الله - هل تاركها يكفر كما يكفر تارك الصلاة أم لا ؟ على قولين .

والزكاة : هي التبع لله تعالى في دفع مال مخصوص من أموال مخصوصة . هذا المال المخصوص مقدر : ربع العشر ، نصف العشر ، العشر . وكذلك يدفع لطائفة مخصوصة كما سيأتي إن شاء الله . والزكاة لها فوائد عظيمة ، منها : تكميل إسلام العبد ، لأنها أحد أركان الإسلام ، وهي أفضل من الصدقة ، يعني لو أدى الإنسان مائة ريال زكاة أو مائة ريال صدقة تطوع ، كانت مائة ريال الزكاة أحب إلى الله ﷻ وأفضل . ومنها : أن الإنسان يخرج بها عن دائرة البخل إلى دائرة الكرماء ؛ لأنها بذل مالي ، والبخل إمساك المال ، فإذا بذلها الإنسان خرج من كونه بخيلاً إلى كونه كريماً ، ومنها مضاعفة الحسنات ؛ لأن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله مثلهم كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة ؛ يعني : ريال بمائة ريال أو أكثر . ومنها : أن فيها جبراً ^(٢) لقلوب الفقراء ودفعاً لحاجتهم وحماية من غضبهم ، لأن الفقراء إذا لم يُغَطَّوا من مال الأغنياء ربما يغضبون ويتجرعون ويكرهون الأغنياء ويرون أنهم في وادٍ والأغنياء في وادٍ ، والأمة الإسلامية أمة واحدة يجب أن يعتقد كل إنسان أنه لبنة في سور قصر مع إخوانه المسلمين ، لقول النبي ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ^(٣) . ومنها : أنها سبب في شرح الصدر ، لأن الإنسان كلما بذل شيئاً من ماله شرح الله له صدره ، وهذا شيء مجرب وواقع ، لو يتصدق الإنسان بأدنى من واجب الزكاة لوجد في صدره انشراحاً وفي

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ، ومسلم في الإيمان (٢٠) ، وأحمد في مسنده (٩٣/٢) .

(٢) قوله : « جبراً » أجاب طلبه وواساه (المعجم العربي الأساسي ص : ٢٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٦٥) ، والنسائي في السنن (٧٩/٥) .

قلبه محبة للخير .

ومنها : أنها تُطْفِئُ غضب الرب وتدفع ميتة السوء ، وهذه فائدة عظيمة ، تدفع ميتة السوء ؛ يعني الإنسان يموت على أحسن حال ، وحسن الخاتمة - أحسن الله لي ولكم الخاتمة - أعز ما يكون على الإنسان ، لأنه وقت فراق الدنيا إلى الآخرة ، والشيطان أحرص ما يكون على بني آدم عند الموت ، لأنها هي الساعة الحاسمة ، إما من أهل النار أو من أهل الجنة وفي حديث ابن مسعود : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ؛ فيدخلها » (١) . فالأعمال بالخواص ، والصدقة وعلى رأسها الزكاة تدفع ميتة السوء .

ومنها : أن النبي ﷺ أخبر أن كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة (٢) ، فالتاس تكون الشمس فوق رؤوسهم قدر ميل ، وهؤلاء المتصدقون وعلى رأس صدقاتهم الزكاة يكونون في ظل صدقاتهم يوم القيامة .

وحكى لي بعض الصالحاء أن رجلاً كان يمنع أهله من الصدقة من البيت يقول : لا تتصدقوا ، وفي يوم من الأيام نام ورأى في المنام كأن الساعة قد قامت ورأى فوق رأسه ظلًا يظله من الشمس إلا أن فيه ثلاثة خروق يقول : فجاءت تمرات فسدت هذه الخروق ، فتعجب ، كيف الثوب متخرق وتجيء التمرات تسد الخروق ، فلما قصها على زوجته ، أخبرته أنها تصدقت بثوب وثلاث تمرات ، فكان الكساء الأول هو الثوب لكنه مخرق فجاءت التمرات الثلاث فسدت الخروق ، ففرح بذلك وأذن لها بعد هذا أن تتصدق بما شاءت .

فالخاصل : أن هذه الرؤيا مصداق قول الرسول ﷺ : « كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة » (٣) . ومنها : أنها تلين القلب (٤) وصدقات التطوع تلين القلب ، حيث إن الإنسان يعطيها الفقراء المحتاجين فيلين قلبه ويرحمهم ، وفي ذلك تعرض لرحمة الله ، لأن الله إنما يرحم من عباده الرحماء ، ولها فوائد كثيرة قد يطول في المقام ذكرها .

وسأتي إن شاء الله الكلام على الآيات التي ذكرها المؤلف . والله الموفق .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ [البينة: ٥] . وقال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ، ومسلم في القدر (١) ، وأحمد في مسنده (٤٣٠/١) .

(٢) وذلك لما رواه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) . (٣) وذلك لما رواه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

(٤) وذلك لما رواه أحمد في مسنده (٢٦٣/٢) .

الشرح

قال النووي رحمته الله تعالى في وجوب الزكاة وبيان فضلها وما يتعلق بها . ثم ذكر آيات ثلاث ، الآية الأولى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فإقامة الصلاة : أن تأتي بها مستقيمة على الوجه الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإيتاء الزكاة : هو إعطاؤها لمستحقها وقد سبق بيان معنى الزكاة وبيان فوائدها ما يشر الله تعالى .

ثم ذكر الآية الثانية وهي قوله تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ خَلْقَهُمْ ﴾ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ يعني بذلك الناس ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي ينذلوا له بالعبادة بكل ما تعبد بهم به من عقيدة أو قول أو عمل ، ﴿ خَلْقَهُمْ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي مخلصين له العمل ، وإخلاص العمل لله ألا يبتغي الإنسان شيئاً بعمله سوى الله تعالى ، لا يبتغي به دنيا ولا جاه ولا رئاسة ولا غير ذلك ، لا يريد إلا ثواب الله . وقوله ﴿ خَلْقَهُ ﴾ يعني : مائلين عن الشرك ، إخلاص بلا إشراك . وقوله ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهذا هو الشاهد في قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ، وقوله ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ ، ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي : عبادة الله تعالى مخلصين له الدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ﴿ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ أي دين للملة القيمة فهو العمل المرضي عند الله تعالى . وقال سبحانه ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ يعني بذلك الزكاة ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّى عَلَيْهِمْ ﴾ تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة ، أما كونها تطهر من الذنوب فلقوله صلى الله عليه وسلم : « الصدقة تطفي الخطيئة كما يطفى الماء النار » ^(١) ، وأما كونها تطهر الأخلاق الرذيلة ، فلأنها تلحق الإنسان بالكرماء والمحسنين بما يئذله من أموال الزكاة لمستحقها . (وتزكيهم بها) أي تنمي أخلاقهم ، بعد التطهير من الأخلاق الرذيلة تنمي الأخلاق الفاضلة ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ تزكيهم أيضاً ديناً ، فهي تزكية دين وتزكية أخلاق . ﴿ وَصَلَّى عَلَيْهِمْ ﴾ أي ادعوا لهم بالصلاة عليهم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوماً بصدقة قال لهم : « اللهم صل عليهم » ^(٢) امتثالاً لأمر الله . ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ صلاتك عليهم : يعني دعائك لهم بالصلاة مسكن لهم ، تسكن إليه نفوسهم وتطمئن قلوبهم ، وتشرح صدورهم ، ويسهل عليهم بذل المال ، ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ففي هذه الآيات الثلاث دليل على وجوب الزكاة وأنها من أفضل الأعمال ، وسيأتي إن شاء الله الأحاديث .

١٢٠٦ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وإِقَامَ الصَّلَاةِ ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحُجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ » ^(٣) متفقٌ عليه .

(١) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦١٤) ، وابن ماجه في السنن (٤٢١٠) ، وأحمد في مسنده (٢٣٧/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٥٩) ، ومسلم في الزكاة (١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ، ومسلم في الإيمان (١٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢٦/٢ ، ٩٣) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩) .

١٢٠٧ - وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد نائز الرأس تشمخ دوي صوته ، ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا من رسول الله ﷺ ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرهن ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » فقال رسول الله ﷺ : « وصيام شهر رمضان » قال : هل علي غيره ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » قال : وذكر له رسول الله ﷺ ، الزكاة فقال : هل علي غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » فأذبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، فقال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » ^(١) متفق عليه .

١٢٠٨ - وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث مبعثاً إلى اليماني فقال : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة ذكرها النووي رحمته الله في تأكيد وجوب الزكاة ، أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما : وهو قول النبي ﷺ : « بني الإسلام ... » فقد تقدم الكلام عليه مفصلاً ولا حاجة إلى إعادته . وأما حديث طلحة بن عبيد الله في قصة الرجل النجدي الذي جاء نائز الرأس يسمعون صوته ولا يفقهون ما يقول وسأل النبي ﷺ عن الإسلام ، فذكر له : خمس صلوات ، وصيام رمضان ، والزكاة ، ولم يذكر شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لعلمه ﷺ بأنه قد نطقها وشهد بها لأنه جاء مسلماً ، لكن يريد أن يستفسر عن تفاصيل بعض الأشياء ، وفيه قوله ﷺ لهذا الرجل ، لما ذكر ﷺ خمس صلوات وصيام رمضان والزكاة ، وقال الرجل : هل علي غيرها ، قال : « لا ، إلا أن تطوع » فدل هذا على أنه لا يجب في اليوم والليلة أكثر من خمس صلوات ، فالوتر ليس بواجب لكنه سنة مؤكدة ، وتحية المسجد ليست بواجبة لكنها سنة مؤكدة ، وصلاة العيدين ليست بواجبة لكنها سنة مؤكدة ، وكذلك أيضاً ما اختلف فيه العلماء . هكذا ذهب بعض أهل العلم ، وجعل هذا الحديث أصلاً في عدم وجوب ما ذكر . ولكن عند التأمل ليس فيه دليل على ذلك ، يعني أنه لا يدل على عدم وجوب تحية المسجد ، وعلى عدم وجوب صلاة العيد ، وما أشبهها ؛ لأن هذه صلوات لها أسباب عارضة تجب بوجود أسبابها ، إلا أن القول الراجح أن تحية المسجد ليست بواجبة ولكنها سنة مؤكدة ، أما صلاة العيد فواجبة ؛ لأن النبي ﷺ أمر حتى الحائض

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٦) ، ومسلم في الإيمان (٨) ، والنسائي في السنن (٢٢٧/١) ، وأبو داود في الصلاة (٣٩١) ، قوله : « نائز الرأس » أي شعره منتفش غير مرجل ، قوله : « دوي صوته » أي قوة صوته .
(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٥) ، ومسلم في الإيمان (٢٩) ، بنحوه ، والإمام أحمد في المسند (٢٣٣/١) ، والنسائي في السنن (٥٥/٥) ، قوله : « وترد على فقرائهم » أي توزع على فقرائهم .

من النساء وذوات الخدور والعواتق أن يخرجن ويصلين إلا أن الحيض يعتزلن المصلى^(١)، وأما الوتر فنعم في الحديث دليل على أنه ليس بواجب، لأن الوتر يتكرر يوميًا، فلو كان واجبًا لبينه الرسول ﷺ لهذا الرجل، فالصواب أن الوتر سنة مؤكدة وليس بواجب، لو تركه الإنسان لا يأثم، لكن من داوم على تركه سقطت عدالته، قال الإمام أحمد رحمته الله : من ترك الوتر فهو رجل سوء لا ينبغي أن تقبل له شهادة^(٢).
وأما صيام رمضان : نعم، لا يجب على الإنسان أن يصوم غيره، اللهم إلا إن نذر، فإن النبي ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه »^(٣).

وأما الزكاة : فلا يجب غيرها أيضًا في المال، إلا ما كان له سبب كالنفقة على الزوجة والأقارب وما شابه ذلك مما له سبب معين يجب بوجوب السبب.

وأما قول الرجل لما أدير : « والله لا أزيد على هذا ولا أنقص » . عاهد الله عهدًا يمين ألا يزيد على هذا ولا ينقص، فقال النبي ﷺ : « أفلح إن صدق، أفلح إن صدق » . وهذا دليل على أن الإنسان إذا اقتصر على الواجب في الشرع؛ فإنه مفلح، ولكن لا يعني هذا أنه لا يُستثنى أن يأتي بالتطوع، لأن التطوع تكمّل به الفرائض يوم القيامة، وكم من إنسان أدى الفريضة وفيها خلل وفيها خروق، وفيها خدوش، تحتاج إلى تكميل وإلى رتق الصدع.

أما حديث ابن عباس رضي الله عنه : في بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن، فقد سبق الكلام عليه أيضًا، فلا حاجة إلى إعادته، لكن فيه أن الرسول ﷺ قال : « أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم »، فهذا هو الشاهد في هذا الباب. والله الموفق.

١٢٠٩ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ »^(٤) متفق عليه.

١٢١٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَفَرَتْ مِنْ كَفَرِ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالُهُ وَنَفْسُهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ »^(٥) ١٩

(١) انظر الحديث في البخاري في الحيض (٣٢٤)، ومسلم في العيدين (١٠، ١٢)، وأحمد في مسنده (٨٤/٥).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٨٨/٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٠)، وأبو داود في السنن (٣٢٨٩)، والترمذي في السنن (١٥٢٦) والنسائي في السنن (١٧/٧).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥)، ومسلم في الإيمان (٣٣)، والإمام أحمد في المسند (٣٤٥/٢، ٤٢٣)، والنسائي في السنن (١٤/٥).

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَاللَّهِ لَأَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ . وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَوْلُ اللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتَ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ (١) . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف منها ما سبق الكلام عليه ، ومنها حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » . قوله : (أُمِرْتُ) الأمر له هو الله ﷻ ، وفي هذا دليل على أن النبي ﷺ عبد مأمور مُكَلَّفٌ يُؤْمَرُ وَيُنْهَى كما يؤمر وينهى سائر الناس ؛ لأنه عبد من عباد الله - عليه الصلاة والسلام - ليس ربًّا ولا يملك شيئًا من حقوق الربوبية ، بل هو عبد يؤمر وينهى وربما يحصل له أكبر من ذلك ، لقول الله - تبارك وتعالى - له : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَسْبِغَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾ [التوبة : ٤٣] وكقوله تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) [التحریم : ١] يعاتبه ربه ﷻ ، ويقول له ﷺ : ﴿ وَأَتَى اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخُفِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٣) [الأحراب : ٣٧] . فمن زعم أن محمدًا ﷺ له شيء من الربوبية وأنه ينفع ويضر ويجيب الدعوة ويكشف سوء ؛ فقد أشرك بالله وكفر بمحمد ﷺ . يقول - عليه الصلاة والسلام - : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » ، يقاتل من امتنع عن واحدة من هذه الأربع : من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ومن إقامة الصلاة ، ومن إيتاء الزكاة . يقاتلهم حتى يذعنوا ويرضخوا لهذه الأربع ، فإذا فعلوا ذلك يعني ، شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، « عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ » . يعني : إذا فعلوا ذلك فقد استسلموا ظاهراً فيعصمون دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله ؛ لأن من الناس من يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ويقوم الصلاة ويؤتي الزكاة ، وقلبه منطو على الكفر ، ولهذا قال : « حسابهم على الله » فالمنافقون يقولون : لا إله إلا الله ، لكن لا يذكرون الله إلا قليلاً . ويقولون لرسول الله ﷺ : نشهد أنك لرسول الله ، ويقومون الصلاة ولكن لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالي ، ويتصدقون ولكن لا ينفقون إلا وهم كارهون . ومع ذلك قلوبهم منطوية على الكفر - نسأل الله العافية - ولهذا قال : « وحسابهم على الله ﷻ » .

ثم ذكر ﷺ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَحَاوُرِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخَلِيفَةَ الْأَوَّلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٩) ، ومسلم في الإيمان (٣٢) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٢٧ ، ٣٩٢٨) ،

والبيهقي في السنن (١٠٤/٤) . (٢) قوله : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أي تطلب رضاءهن .

(٣) قوله : ﴿ وَخُفِيَ النَّاسُ ﴾ أي تستحي من قولهم .

وعمر بن الخطاب الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ في مسألة دينية ، مع أن كل واحد منهما يحب الآخر حباً عظيماً ، لكن هذه المحبة لا تمنع من المحاوره و المراجعة الدينية ، لأن الدين فوق كل شيء ، لما كان أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ باختيار الصحابة له الخليفة بعد الرسول وكذلك بإشارة الرسول ﷺ إليه ، حيث خلفه عنه في الحج ^(١) . وهي إمامة كبرى بالنسبة للناس ، وفي الصلاة وهي إمامة صغرى ، لأن أمير الحج يؤم من الناس أكثر ما يؤمه أمير المسجد ، خلفه النبي ﷺ إماماً للمسجد حين مرض ^(٢) وخلفه في الحج بالناس عام تسع من الهجرة ، واتفق الصحابة بعد موت الرسول ﷺ على أن الخليفة من بعده أبو بكر ، ارتد من ارتد من العرب - والعياذ بالله - وقد أشار الله إلى ذلك في قوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ^(٣) [آل عمران : ١٤٤] وقد حصل ، ارتد من ارتد من العرب ومنعوا الزكاة وكفروا بالله ، فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه فحاوره عمر ، قال : كيف تقاتل الناس ؟ وقد قال النبي ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . وهذا هو الذي سمعه عمر من النبي ﷺ وإلا فإن ابنه سمع من الرسول أكثر من ذلك ، سمع من الرسول ﷺ أنه قال : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » . لكن عمر روى ما سمع : (حتى يقولوا لا إله إلا الله) . فقال أبو بكر : (والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة) ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقلاً - يعني عقلاً بغير - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على ذلك . وهذا دليل على حزمه رضي الله عنه حزم أبي بكر مع أنه ألين من عمر ، لكن في مواقف الشدة والضيقة يكون أبو بكر أحزم من عمر . فنضرب لكم أمثلة منها هذا المثال : عمر رأى ألا يقاتل الناس لكن بعد مراجعة أبي بكر له ، علم أنه الحق ، لما رأى أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال وهو الخليفة من بعد الرسول عرف أنه الحق ، إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يشرح صدر هذا الخليفة الراشد (أول خليفة في الأمة الإسلامية) إلا للحق ، عرف أنه الحق لما شرح الله صدر أبي بكر له . هذا موقف صار أبو بكر أجلد من عمر وأشد وأثبت .

والموضع الثاني : لما مات الرسول ﷺ أظلمت المدينة واضطرب الناس وصار يوماً عظيماً واجتمع الناس في المسجد وقام عمر وقال : « إن النبي ﷺ لم يميت ولكنه صعد - يعني : غشي عليه - وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم » . اهتز قلبه ، يقولها بتجد وحزم . وكان أبو بكر رضي الله عنه حين مات الرسول ﷺ خارج المدينة في حائط له ، فذهبوا فأخبروه ، أخبروا أبا بكر ، فجاء إلى الرسول ﷺ وكشف عن وجهه وقد غطي - عليه الصلاة والسلام - كشف عن وجهه وقبّله وقال : « بأبي أنت وأمي ، طبت حيّاً وميتاً ، والله لا يجمع الله عليك موتين ، أما الموتة الأولى فقد متها » ثم خرج إلى

(١) كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة (انظر في ذلك : السيرة النبوية لابن كثير ٦٨/٤) .

(٢) انظر الحديث في : البخاري في الأذان (٦٦٤) ، ومسلم في الصلاة (٩٥) ، والترمذي في السنن (٣٦٧٢) ، والنسائي في السنة (٩٩/٢) .

(٣) قوله : ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ أي رجعتم إلى ما كنتم عليه من الكفر والضلال .

الناس ، وإذا عمر يتكلم ، ينكر ويقول : (ما مات عُثْشي عليه وليبعثه الله) فقال أبو بكر : (على رسلك) يعني أرفق ، فجلس عمر أو بقي قائماً ، فصعد أبو بكر المنبر وخطب الناس خطبة عظيمة بليغة في هذا المقام الضنك ، قال : (أما بعد : أيها الناس) . من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ﷺ وهو أشد الناس فجيعة به - ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ﴾ يقول عمر : (حتى عثرت فما ثقلني رجلاي ، يعني : لا يقدر أن يقف ، فجلس ، لأنه علم أن هذا هو الحق) ^(١) . فانظر إلى ثبات أبي بكر في هذا المقام .

أما الموضع الثالث : فهو في صلح الحديبية : صلح الحديبية فيه شروط ظاهرها أنه فيه غضاضة على المسلمين ، منها : أن من جاء من قريش مسلماً - انتبه - من جاء من قريش مسلماً رده الرسول إلى قريش ، ومن ذهب من المسلمين إلى قريش فلا يلزمهم رده . هذا الشرط ظاهره أنه إجحاد ، عجز عمر ، فلا يقدر على هذا ، فقال : يا رسول الله ، كيف ؟ كيف ؟ من خرج منهم مسلماً وجاء مهاجراً إلينا نرده ، ومن ذهب منا لا يردونه ؟ كيف نعطي الدنيا في ديننا ؟ ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى ، لكن هذا أمر الله ، وأنا عبد الله ورسوله ، ولن أعصي الله ، وسينصرنا الله ﷻ » . فعجز عمر ، فذهب إلى أبي بكر يستنجد به لعله يشير على الرسول ﷺ بعدم الموافقة ، فكان جواب أبي بكر ﷺ كجواب الرسول ﷺ حرفاً بحرف ، مواقف عظيمة في هذا المقام الضنك ، قال : « إنه لرسول الله وإن الله ناصره ، فاستمسك بفرزه » يقول لعمر ، يعني : احذر أن تخالفه فإنه على الحق ^(٢) .

في هذه المواقف الثلاثة العظيمة تبين ثبات أبي بكر ﷺ وأنه أثبت الصحابة وأحق الصحابة بالخلافة وأحزمهم وأعقلهم ، وهكذا يتبين حال الإنسان الثابت الذي ينظر إلى الأمور من بعيد ويسبر غورها ^(٣) ، والإنسان الذي عنده غيرة لكنه لا يريد أن يتعجل ، فالتعجل قد يكون فيه غرر .

المهم : من هذا الحديث أو الفائدة منه في هذا الباب الذي بؤبه النووي ﷺ في رياض الصالحين أن من امتنع عن الزكاة وجب على الإمام قتاله حتى يؤدي الزكاة . والله الموفق .

١٢١١ - وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ، قَالَ : « تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ » ^(٤) متفق عليه .

(١) انظر في ذلك : البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٧) .

(٢) انظر القصة في : البخاري في التفسير (٤٨٤٤) ، ومسلم في الجهاد (٩٤) ، وأحمد في مسنده (٤٨٦/٣) .

(٣) سبر غورها : أي تبين حقيقته وسره . (المعجم الوسيط ٦٩٠/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٦) ، ومسلم في الإيمان (١٢) ، والترمذي في الإيمان (٢٦١٦) ، والإمام أحمد في المسند (٤٧٢/٣) .

١٢١٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتُهُ ، دَخَلْتُ الْجَنَّةَ . قَالَ : « تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ الْمَقْرُوضَةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ » قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا ، فَلَمَّا وَلَّى ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » ^(١) متفق عليه .

١٢١٣ - وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالتَّضَحِّيِّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ ^(٢) . متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة في باب تأكيد وجوب الزكاة وبيان فضلها ، حديث أبي أيوب وأبي هريرة وجري ، وكلها تدل على ما سبق من أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من فرائض الإسلام ، وفي حديث أبي أيوب زيادة « وتصل الرِّحِم » والرِّحِم : هم القرابة من جهة الأب أو من جهة الأم ، وصلَّتهم بما جرى به العرف والعادة ؛ لأن النبي ﷺ لم يبين كيفية الصلة ، وكل شيء جاء في الكتاب والسنة ولم يُبين فإن مرجعه إلى عادة الناس وعرفهم . وهذا يختلف باختلاف الأحوال واختلاف الأزمان واختلاف البلدان ، ففي حالة الحاجة والفقر وشدة المؤنة تكون صلتهم بإعطائهم ما يتيسر من المال وما يسد حاجتهم ، وكذلك إذا كان هناك مرضى في القرابة فإن صلتهم أن تعودهم وتكرر عليهم بحسب ما فيهم من مرض وبحسب القرابة . وإذا كانت الأمور ميسرة وليست هناك حاجة كما في غزونا اليوم ؛ فإنه يكفي أن تصلهم بالهاتف أو بالمكاتبة أو في المناسبات البعيدة كالأعياد وغير ذلك ، والمهم أن صلة الرحم واجبة ، ولكن غير محددة في الشرع فيرجع فيها على ما جرى به العرف وتعارفه الناس بينهم . وأما في حديث جرير بن عبد الله ؛ ففيه زيادة على ما سبق - من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة - « النصح لكل مسلم » ، إن الإنسان ينصح لكل مسلم بحيث يعامله كما يعامل نفسه وكما يحب أن يعامله الناس ، فلا يشتمه ، ولا يقذفه ، ولا يخدعه ، ولا يغشه ، ولا يخونه ، ويكون له ناصحاً من كل وجه ، وإذا استشاره في شيء وجب عليه أن يشير عليه بما هو الأصح له في دينه ودنياه . وقد ذكر أن جرير بن عبد الله رضي الله عنه حينما بايع النبي ﷺ على هذه البيعة : « النصح لكل مسلم » ، ذكر عنه أنه اشترى فرساً من شخص بثمن ثم إنه لما ركب ورأى الفرس لقاءه جيداً ، فرجع إلى البائع وقال : (إن فرسك هذا يساوي أكثر ، فزاده إلى أن زاده قسطاً بثمن الأول مرة أو مرتين) ؛ لأنه بايع النبي ﷺ على : (النصح لكل مسلم) . فعلى المرء أن يكون واصلًا لرحمه وأن يكون ناصحاً لإخوانه المسلمين ، وفي حديث تميم الداري أن النبي ﷺ قال : « الدين النصيحة » ثلاث مرات ، قالوا : لمن ، قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » ^(٣) . والله الموفق .

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باختصار (١٣٩٧) ومسلم في الإيمان (١٥) والإمام أحمد في المسند (٤٧٢/٣) وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠١) ومسلم في الإيمان (٩٧) .
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب (٤٣) ومسلم في الإيمان (٩٥) والنسائي في السنن (١٥٧/٧) ، وأحمد في مسنده (٢٩٧/٢) .

١٢١٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبٍ ، وَلَا فِضَّةٍ ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ ، فَأُخِيصَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَكُونُ بِهَا جَنْبُهُ ، وَجَبِينُهُ ، وَظَهْرُهُ ، كُلُّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُزَيَّ سَبِيلُهُ ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِلَيْلَ ؟ قَالَ : وَلَا صَاحِبٍ لَيْلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، وَمَنْ حَقَّهَا حَلْبُهَا يَوْمَ وَزْدِهَا ، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُطْبَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ أَوْفَرٍ مَا كَانَتْ ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا ، تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا ، وَتَعَضُّهُ بِأَقْوَاهِهَا ، كُلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا ، رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، فَيُزَيَّ سَبِيلُهُ ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ .

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْعَنَمُ ؟ قَالَ : « وَلَا صَاحِبٍ بَقَرٍ وَلَا عَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُطْبَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا ، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ ، وَلَا جُلْحَاءٌ ، وَلَا عَضْبَاءٌ ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا ، وَتَطْوُهُ بِأُظْلَافِهَا ، كُلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا ، رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، فَيُزَيَّ سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ » .

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْخَيْلُ ؟ قَالَ : « الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ : هِيَ لِرَجُلٍ وَزَرٌ ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سَيْتَرٌ ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وَزَرٌ : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنَوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَهِيَ لَهُ وَزَرٌ ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سَيْتَرٌ : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظَهْرِهَا ، وَلَا رِقَابَهَا ، فَهِيَ لَهُ سَيْتَرٌ ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي مَرْجٍ ، أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ ؛ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدُ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٍ ، وَكُتِبَ لَهُ عَدَدُ أَرْوَائِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٍ ، وَلَا تَقْطَعُ طَوْلُهَا فَاسْتَنْتَ شَرْفًا أَوْ شَرْفَيْنِ ؛ إِلَّا كُتِبَ لِلَّهِ لَهُ عَدَدُ أَثَارِهَا ، وَأَرْوَائِهَا حَسَنَاتٍ ، وَلَا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَشْقِيَهَا ؛ إِلَّا كُتِبَ لِلَّهِ لَهُ عَدَدُ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ » .

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْحُمْزُ ؟ قَالَ : « مَا أَنْزَلَ عَلَيَّ فِي الْحُمْزِ شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَاذَةُ الْجَامِعَةُ :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ ^(١) . [الزلزلة : ٦ ، ٧] .

متفق عليه . وهذا لفظُ مُسْلِمَ .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة بلفظه (٢٤) والبخاري في الزكاة (١٤٠٢) بنحوه ، والبيهقي في السنن (٨١/٤) ، قوله : « لا يؤدي منها حقها » أي ما قدر فيها من زكاة ، قوله : « صَفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ » أي جعلت كنوزها الذهبية والفضية كأمثال الألواح ، قوله : « يطح له بقاع قرقر » أي ألقي على وجهه في قعر صحراء واسعة مستوية ، قوله : « كلما مر عليه أولاهها رد عليه أخراها » هكذا في جميع الأصول ، وقال القاضي عياض : هو تغيير وتصحيف . وصوابه : كلما رد عليه أخراها رد عليه أولاهها ؛ حتى ينتظم الكلام ، قوله : « عَقْصَاءٌ » أي ملتوية القرنين ، قوله : « جُلْحَاءٌ » أي لا قرن لها ، قوله : « جذباء » هي التي انكسر قرنها ، قوله : « بِأُظْلَافِهَا » هو بمنزلة الحافر للفرس ، قوله : « ونواء » أي معادة ، قوله : « فرجل » أي فخيول رجل ، قوله : « ربطها . في سبيل الله » أي أعدها للجهاد ، قوله : « في مرج أو روضة » المرج هو الأرض الواسعة ذات النبات الكثير التي تسرح فيها الدواب ، والروضة أخص من =

الشرح

هذا الحديث الذي أورده المؤلف رحمته الله في باب تأكيد وجوب الزكاة وبيان فضلها ، وهو حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم مطوّلًا ، فيه ذكر النبي صلى الله عليه وآله الذهب والفضة والإبل ، والبقر ، والغنم ، والحيل والحمير ، وذكر حكم كل منها عليه الصلاة والسلام وهكذا كان صلى الله عليه وآله يبين للناس بيانًا شافيًا كافيًا حتى ترك أمته وقد أكمل به الله الدين وأتم به النعمة على المؤمنين ، فقال صلى الله عليه وآله : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَتْ له صفائح من نار فأُخِيمَ عليها في نار جهنم فيُكْوَى به جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقَضَى بين العباد ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة ، وإما إلى النار » . فالذهب والفضة تجب الزكاة في أعيانها في كل حال ، فالزكاة واجبة في أعيان الذهب والفضة في كل حال ، سواء أعدها الإنسان للنفقة ، أو للزواج ، أو لشراء بيت يحتاج إلى سكناه ، أو شراء سيارة يحتاج إلى ركوبها أو ادخارهما ليستكثر بهما المال ، أو غير ذلك ، ففيهما الزكاة على كل حال حتى ذَهَبَ المرأة الذي تلبسه والفضة التي تلبسها تجب عليها الزكاة ، تجب الزكاة فيها على كل حال ، لكن لا بد من بلوغ النصاب ، وهو في الذهب خمسة وثمانون جرامًا ونصف جرام ، والفضة خمسمائة وخمسة وتسعون جرامًا ، فإذا كان عند الإنسان من الفضة هذا المقدار ومن الذهب ذلك المقدار وجب عليه الزكاة على كل حال ، فإن لم يفعل فجزاؤه ما ذكره النبي صلى الله عليه وآله : « إذا كان يوم القيامة صُفِّحَتْ له صفائح من نار » لا من ذهب وفضة ، من نار - والعياذ بالله - قطع نارية ويُخَمَّى عليها في نار جهنم ، ونار جهنم قُضِّلَتْ على نار الدنيا كلها بتسعة وستين جزءًا ، نار الدنيا كلها حتى نار الغاز وما هو أشد حرارة ، نار جهنم قُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءًا ^(١) . نسأل الله أن يجيرنا وإياكم منها - يحمي عليها في نار جهنم فيُكْوَى به جنبه ، يعني الجنب الأيمن والأيسر ، وجبينه : يعني وجهه ، وظهره : واضح معناه ، كلما بردت أعيدت لا تبقى حتى تبرد وتسكت عنه ، كلما بردت أعيدت ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ليس ساعة ولا ساعتين ولا شهرًا ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين ، خمسون ألف سنة وهو يعذب هذا العذاب - والعياذ بالله - حتى يُقَضَى بين العباد ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، نسأل الله العافية ، وعلى هذا يكون هذا الحديث كالتفسير لقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] . ومعنى يكتزونها أي : لا يؤدّون زكاتها ، كما فسرنا بذلك أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ؛ لأن ما لا يؤدّى زكاته فهو كنز ، ولو كان على رؤوس الجبال ، وما تؤدّى

= المرعى ، قوله : « استنت » أي حُرِثَ وَعَدَّتْ ، قوله : « شرقًا » هو العالي من الأرض ، قوله : « فالحمير » أي فما حكم الحمير ؟ قوله : « الفأدة » أي القليلة النظير المتناولة لكل خير ومعروف .

(١) وذلك لما رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٠) ، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٩) ، وأحمد في مسنده (٣١٣/٢) .

زكاته فليس بكنز ولو كان في باطن الأرض ، فالكنز ما لا تؤدّي زكاته .

﴿يَوْمَ يُخَمَّنُ عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾ ^(١) [التوبة: ٣٥] وهذا عذاب وألم جسدي ، ويعذبون عذاباً قليئاً ، فيقال لهم : ﴿هَذَا مَا كُنَزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٣٥] ، فيحصل لهم العذاب الجسدي ، والعذاب القلبي بالتوبيخ والتأنيب ، فكيف يكون قلبه في تلك الساعة وهو يقال له : هذا ما كنزت لنفسك ؟ سيتقطع قلبه ، ألم جسدي ، وألم قلبي - والعياذ بالله - هذا جزء من لا يؤدي الزكاة من الذهب أو الفضة . وما قام مقام الذهب والفضة بالتقديرة فله حكمه ، وعلى هذا فمن عنده أوراق تساوي هذا المبلغ من الذهب والفضة ، فعليه أن يزكي عنها ، ومعاملة الناس الآن في غالب الدول كلها بالأوراق ، فقة ريال ، فقة خمسة ، فقة عشرة ... هذه الأوراق تقوم مقام الذهب والفضة ؛ لأنها جُعِلَتْ بدلاً عنها في التعامل بين الناس ، فإذا ملك الإنسان أوراقاً تساوي هذا القدر من الفضة ، فعليه زكاته ، يعني تساوي (٥٦) ريالاً عربياً من الفضة فعليه الزكاة ، ومعلوم أن الفضة ترتفع أحياناً وتنخفض أحياناً ؛ فيقدر قيمتها إذا وجبت عليه الزكاة ، فإذا بلغت النصاب أي (٥٦) ريالاً من الفضة فعليه زكاته ، ومقدار الزكاة ربع العشر .

ثم ذكر النبي ﷺ الإبل والبقر والغنم ، وجعل من حق الإبل حلبها يوم وزدها ، وإذا وزدت على الماء فإنها تُحَلَب ، وجرت العادة أنهم يحلبونها ويتصدقون بها على الحاضرين ، هذا من حقها ، لأن الإبل روايا كبيرة ، فيها ألبان ، فإذا وردت الماء دُرَّت ، وإذا درت صار فيها فضل كبير من اللبن ، فإذا جاء الفقراء يوزع عليهم ، هذا من حقها .

وذكر - عليه الصلاة والسلام - الخيل وأنها ثلاثة أنواع : أجر - وستر - ووزر .

أما الحر فإنه قال أنه لم ينزل عليه فيها شيء . إلا هذه الآية الجامعة الفادة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ^(٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٣) . فإن استعملت الحمير في خير فهو خير ، وإن استعملتها في شر فهي شر . والله أعلم .

٢١٧ - باب وجوب صوم رمضان وبيان فضل الصيام وما يتعلق به

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَشْهُارٍ أُخَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٥] .

(١) قوله : ﴿يُخَمَّنُ﴾ أي يوقد .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله وجوب صوم رمضان وبيان فضل الصوم وما يتعلق به بعد الكلام على الزكاة ؛ لأن هذا هو الترتيب الذي جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسألة جبريل النبي عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها .

وصوم رمضان : هو التعبد لله سبحانه وتعالى بترك الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، هذا هو الصيام : أن يتعبد الإنسان لله بترك هذه الأشياء ، لا أن يتركها على العادة أو من أجل البدن ، ولكنه يتعبد لله بذلك ، يمسك عن الطعام والشراب والنكاح ، وكذلك سائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، من هلال رمضان إلى هلال شوال .

وصيام رمضان أحد أركان الإسلام ، هذه منزلته في دين الإسلام ، وهو فرض بإجماع المسلمين ، لدلالة الكتاب والسنة على ذلك .

ثم ذكر المؤلف الآيات التي تدل على هذا فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴾ فوجه الله الخطاب للمؤمنين لأن صيام رمضان من مقتضيات الإيمان ، ولأن صيام رمضان يكمل به الإيمان ، ولأن ترك صيام رمضان ينقص به الإيمان .

واختلف العلماء فيما لو تركه تهاوناً أو كسلاً ، هل يكفر أم لا ؟ . والصحيح : أنه لا يكفر ، وأنه لا يكفر الإنسان بترك شيء من أركان الإسلام سوى الشهادتين والصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ، أي : فرض - وقوله : ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ : أي كما فرض على الذين من قبلكم ﴿ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴾ وإنما ذكر الله تعالى أنه فرض على من قبلنا ولم يذكر مثل ذلك في الصلاة ؛ لأن الصيام فيه مشقة ، فيه تعب ، فيه ترك المألوف ، ولا يخفى أنه في أيام الحر وطول النهار يكون شديداً على النفوس ، فذكر الله أنه فرضه على من قبلنا تسلياً لنا ، لأن الإنسان إذا علم أن هذا الشيء له ولغيره هان عليه . وذكره أيضاً من أجل أن يبين أنه جل وعلا أكمل لنا الفضائل ، كما أكمل لمن سبقنا ما شاء من الفضائل .

وقوله : ﴿ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴾ أي : لأجل أن تنفوا الله ؛ لأن الصيام جنة ، يقيك من المعاصي ، ويقيك من النار ، لأن : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » ^(١) ﴿ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴾ أي من أجل التقوى ، وهذه هي الحكمة من إيجاب الصوم ، ويدل على هذا قوله عليه السلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ^(٢) ، لأن الله لم يرد أن يعذب العباد بترك ما يشتهون ويألفون ، ولكنه أراد أن يدعوا قول الزور والعمل به والجهل .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٨) ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٥) والنسائي في السنن (١٥٦/٤) ، وابن ماجه في الصيام (١٦٤١) .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٠٧) وابن ماجه في الصيام (١٦٨٩) وأحمد في مسنده (٤٥٢/٢) .

ثم قال : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ذكرها على وجه التقرير ليبين أن المسألة ليست شهوْرًا ولا سنوات ولكنها أيام ، وليست طويلة ، أيامًا معدودات .

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ وهذا أيضًا تفسير آخر ، أولاً : الأيام قليلة ، أيام معدودة ، ثانياً : أن من كان يشق عليه الصوم ، أو سافر ؛ فإنه يفطر ، وعليه عدة من أيام آخر .
﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ وهم مقيمون ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ هذا في أول الأمر ، أول ما فرض الله الصوم قال للذين يطيقونه ، عليكم فدية طعام مسكين ، فإن تصدقتم فهو خير لكم ، وأن تصوموا خير لكم ، فخير الله الناس في أول الأمرين أن يصوم الإنسان ، أو يطعم عن كل يوم مسكيناً ، ثم تعين الصيام في الآية التي بعدها .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ سَاءَ لَمَومَةٌ ﴾ أي إن كنتم من ذوي العلم ، الذين يفهمون ، ووجه ذلك : أن الصوم أشق على كثير من الناس من إطعام المسكين ، فلما كان أشق عليم أنه أفضل ؛ لأن الإنسان إذا عمل عبادة شاقة بأمر الله ، كان أجرها أعظم ، ومن ثم كان الأبعد من المسجد أعظم أجراً من الأدنى من المسجد ؛ لأنه أكثر عملاً ، لكن ليس معنى ذلك أن الإنسان يطلب المشقة في العبادات التي يسرها الله ، هذا من التتطُّع في الدين ، لكن إذا كلفك الله عبادة ، وشقت عليك صار هذا أعظم ، أمّا أن تتطَّلب المشقة كما يفعل بعض الجهال في أيام الشتاء مثلاً يذهب فيتوضأ بالماء البارد ، يقول : لأنَّ إسباغ الوضوء على المكاره مما يرفع الله به الدرجات ، ويمحو به الخطايا . نقول : يا أخي ما هذا أراد الرسول ﷺ إنما أراد الرسول ﷺ أن الإنسان إذا توضأ بماء بارد في أيام الشتاء كان أعظم أجراً ، ولكنه لم يقل : اقصد الماء البارد ، فإذا منَّ الله عليك بالماء الساخن تستطيع أن تسبغ الوضوء فيه إسباغاً كاملاً فهذا أفضل .
﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا ﴾ والمرض ثلاثة أقسام :

١ - قسم مَرَضِي لا يُزْجَى برؤوه ، بل هو مستمر ، فهذا لا صيام على المريض ولكن عليه أن يطعم عن كل يوم مسكيناً ، لأنه من جنس الكبير العاجز عن الصوم الذي لا يُزْجَى زوال عجزه .

٢ - القسم الثاني : المريض مرضاً يضره الصوم ، ويخشى عليه أن يهلك به ، كمريض لا يستطيع الاستغناء عن الماء ، مثل بعض أنواع المرض السكري وما أشبه ذلك ، فهذا يحرم عليه الصوم ، لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] .

٣ - والقسم الثالث : مرض يشق معه الصوم ، لكن لا ضرر فيه ، والأفضل أن يفطر ولا يصوم ، ويقضي بعد ذلك ، وأما المرض الذي لا يتأثر به الصيام كمريض العين اليسير ومرض السن ، وما أشبه ذلك ، فإنه لا يجوز فيه الفطر ، لأن الحكمة من الرخصة هي إزالة المشقة ، وهذا لا مشقة عليه إطلاقاً ، فلا يحل له الفطر ، والأصل وجوب الصوم في وقته إلا بدليل يبيِّن واضح يبيح للإنسان أن يفطر ثم يقضي بعد ذلك ^(١) .

(١) راجع المسألة في : المغني (١٤٧/٣) ، الهداية (٣١٩/١ ، ٣٢٠) ، مغني المحتاج (٤٣٧/١) .

وأما السفر : فإنه ينقسم كالمرض أيضًا إلى ثلاثة أقسام : قسم يضره الصوم ويشق عليه مشقة شديدة بسبب سفره ، مثل أن يسافر في أيام الحر ، والأيام الطويلة ، ويعلم أن لو صام لتضرر به وشق عليه مشقة غير محتملة ، فهذا يكون عاصيًا إذا صام ، والدليل لذلك أن النبي ﷺ شكى إليه أن الناس قد شق عليهم الصوم وهم في سفر ، فدعا بماء فشربه ، والناس ينظرون إليه حتى لا يكون في صدورهم حرج إذا أفطروا ، وكان ذلك بعد العصر ، ولكن بعض الصحابة رضي الله عنهم بقوا على صومهم ، فجيء إلى النبي ﷺ ، وقيل له : إن بعض الناس قد صام ، فقال : « أولئك العصاة ، أولئك العصاة » (١) ، فوصفهم بالعصيان ؛ لأنهم لم يقبلوا رخصة الله مع مشقة ذلك عليهم مشقة شديدة .

والقسم الثاني : من يشق عليه مشقة ولكنها محتملة ، فهذا يُكره له الصوم ، وليس من البر أن يصوم ، ودليل ذلك أن النبي ﷺ كان في سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلَّ عليه ، قال : « ما هذا ؟! » قالوا : صائم ، فقال ﷺ : « ليس من البر الصيام في السفر » (٢) .

والقسم الثالث : من لا يتأثر بالسفر إطلاقًا ، يعني : صائم ولا يتأثر ، لأن النهار قصير والجو بارد ، ولا يهجم ، فهذا اختلف فيه العلماء أيهما أفضل . يفطر ، أم يصوم أو يُخَيَّر ، والصحيح أن الأفضل أن يصوم ، لأن ذلك أشد اتباعًا لسنة النبي ﷺ ، ولأنه أيسر على المكلف ، فإن الصيام مع الناس أيسر من القضاء ، ولأنه أسرع في المبادرة في إبراء الذمة ، ولأنه يوافق الزمن الذي يكون فيه الصوم أفضل وهو شهر رمضان ، فمن أجل هذه الأربعة كان الصوم أفضل (٣) .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : (كنا مع النبي ﷺ في رمضان في حر شديد ، حتى إن أحدنا ليضع يده على رأسه أو كفه على رأسه من شدة الحر - وكان الصيام في السفر - ما فينا صائم إلا رسول الله وعبد الله بن رواحة) (٤) . هذا حكم الصوم في السفر ، والسفر عام فيمن يسافر للعمرة ، أو يسافر لغير ذلك ، وفيمن سفره دائم ، وسفره عارض ، وعلى هذا فإن أهل الأمصار يفطرون ولو كان سفرهم مستمرًا ، لأن لهم وطنًا ، يأوون إليه ، فإذا فارق الرجل الوطن فهو مسافر . فإن سأل سائل : متى يصومون ؟ قلنا : يصومون في أيام الشتاء ، أو إذا قدموا إلى بلدهم .

١٢١٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : كُلُّ عَمَلٍ آتَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَّامَ ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصَّيَّامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا تَوَقُّفَ وَلَا يَصْحَبَ ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ : إِنِّي صَائِمٌ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ

(١) أخرجه مسلم في الصيام (٩٠) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٧٦/٤) ، والترمذي في الصوم (٧١٠) وأحمد في مسنده (٣١٩/٣) ، والبخاري في الصوم (١٩٤٦) بلفظ : « أن تصوموا في السفر » وبنفس اللفظ مسلم في الصيام (٩٢) .

(٣) انظر الموضوع في المغني (١٥٠/٣) ، وبداية المجتهد (٢٩٦/١) ، والهداية (٣١٩/١) ، والألم (١٠٢/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٤٠٩) وفيه : خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته في حر شديد .

أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِشْكِ . لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا : إِذَا أَفْطَرَ فَرَحَ بِفِطْرِهِ . وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرَحَ بِصَوْمِهِ « متفق عليه .

وهذا لفظ رواية البخاري ، وفي رواية له : « يترك طعامه ، وشرابه ، وشهوته ، من أجله ، الصائم لي وأنا أجزي به ، والحسنة بعشر أمثالها » .

وفي رواية لمسلم : « كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم ؛ فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجله . للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلاف فيه أطيّب عند الله من ريح المشك » (١) .

الشرح

هذا الحديث ، حديث أبي هريرة نقله المؤلف رحمته الله بعد أن ذكر الآيات ، وذكر فيه فوائد : أن الله ﷻ جعل الصوم له ، وعمل ابن آدم الثاني - أي غير الصوم - لابن آدم . يقول الله تعالى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي » ، والمعنى : أن الصيام يختصه الله ﷻ من بين سائر الأعمال ، لأنه - أي الصيام - أعظم العبادات إطلاقاً ، فإنه سر بين الإنسان وربّه ، لأن الإنسان لا يعلم إذا كان صائماً أو مفطراً ، هو مع الناس ولا يعلم به ، نيّته باطنة ، فلذلك كان أعظم إخلاصاً ، فاختصه الله من بين سائر الأعمال ، قال بعض العلماء : ومعناه : إذا كان الله سبحانه وتعالى يوم القيامة وكان على الإنسان مظالم للعباد ، فإنه يؤخذ للعباد من حسناته إلا الصيام ، فإنه لا يؤخذ منه شيء ؛ لأنه لله ﷻ وليس للإنسان ، وهذا معنى جيد ، أن الصيام يتوفر أجره لصاحبه ولا يؤخذ منه لمظالم الخلق شيئاً .

ومنها : أن عمل ابن آدم يُزاد من حسنة إلى عشرة أمثالها ، إلا الصوم ، فإنه يُعطى أجره بغير حساب ، يعني : أنه يضاعف أضعافاً كثيرة ، قال أهل العلم : ولأن الصوم اشتمل على أنواع الصبر الثلاثة ، ففيه صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على أقدار الله .

أما الصبر على طاعة الله : فلأن الإنسان يحمل نفسه على الصيام مع كراهته له أحياناً ، يكرهه لمشقته ، لا لأن الله فرضه ، لو كره الإنسان الصوم ؛ لأن الله فرضه لحبط عمله ، لكنه كرهه لمشقته ، ولكنه مع ذلك يحمل نفسه عليه ، فيصبر عن الطعام والشراب والنكاح لله ﷻ ، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي : « يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي » .

النوع الثاني من أنواع الصبر : الصبر عن معصية الله ، وهذا حاصل للصائم ؛ فإنه يصبر نفسه عن معصية الله ﷻ ، فيتجنب اللغو والرفث والزور وغير ذلك من محارم الله .

الثالث : الصبر على أقدار الله ، وذلك أن الإنسان يصيبه في أيام الصوم (ولا سيما في الأيام الحارة

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٤) والتوحيد (٧٤٩٢) ومسلم في الصيام (١٦٣) والإمام أحمد في المسند

والطويلة) من الكسل والملل والعطش ما يتألم ويتأذى به ، ولكنه صابر لأن ذلك في مرضاة الله .
فلما اشتمل على أنواع الصبر الثلاث ؛ كان أجره بغير حساب ، قال الله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

ومن الفوائد التي اشتمل عليها هذا الحديث : أن للصائم فرحتين ، الفرحة الأولى عند فطره ، إذا أفطر فَرَحَ بفطره ، فَرَحَ بفطره من وجهين ، الوجه الأول : أنه أدى فريضة من فرائض الله ، وأنعم الله بها عليه ، وكم من إنسان في المقابر يتمنى أن يصوم يوماً واحداً فلا يكون له ! وهذا قد مَنَّ الله عليه بالصوم فصام ، فهذه نعمة ، فكم من إنسان شرع في الصوم ولم يتمه ! فإذا أفطر فَرَحَ ؛ لأنه أدى فريضة من فرائض الله ، ويفرح أيضاً فرحاً آخر ، وهو أن الله أحل له ما يوافق طبيعته من المأكول والمشرب والمناكح ، بعد أن كان ممنوعاً منها ، فهاتان فرحتان في الفطر :

الأولى : أن الله مَنَّ عليه بإتمام هذه الفريضة .

الثانية : أن الله من عليه بما أحل له مَنَّ محبوباته من طعام وشراب ونكاح .

ومن فوائد هذا الحديث : الإشارة إلى الحكمة من فرض الصوم ، حيث قال ﷺ : « فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب » يعني : لا يقول قولاً يأتئم به ولا يصخب فيتكلم بكلام صخب ، بل يكون وقوراً مطمئناً متأنياً ، فإن ساءه أحد أو شاتمه فلا يرفع صوته عليه ، بل يقول : إني صائم ، يقول ذلك ، لئلا يتعالى عليه الذي ساءه ، كأنه يقول : أنا لست عاجزاً عن أن أقابلك بما سببتني ولكني صائم ، يميني صومي من الرد عليك ، وعلى هذا فيقوله جهراً .

كذلك أيضاً إذا قال : (إني صائم) يُردع نفسه عن مقابلة هذا الذي ساءه . كأنه يقول لنفسه : (إني صائم ، فلا تزدني على هذا الذي سب) وهذا أيضاً معنى جليل عظيم ولهذا كان النبي ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يعجبه وخاف أن تتعلق نفسه بذلك ، قال : « لبيك إن العيش عيش الآخرة » ^(١) . فالنفس مجبولة على محبة ما تميل إليه ، فإذا رأى ما يعجبه من الدنيا فليقل : لبيك : يعني إجابة لك يا رب .

« إن العيش عيش الآخرة » أما عيش الدنيا فزائل وفان .

فهذه من فوائد الصوم نقلها المؤلف - رحمه الله تعالى - مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ وفي هذا الحديث نوعان من أنواع الحديث : ألفاظ قدسية من كلام الله ﷻ التي رواها النبي ﷺ عن ربه ، وألفاظ نبوية من عند النبي ﷺ . والله أعلم .

* * *

١٢١٦ - وعنه : أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَنْوَافِ الْجَنَّةِ : يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ ، دُعِيَ مِنْ

بَابِ الْجِهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّيَامِ ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّثَائِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : يَا أَبَي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ ، فَهَلْ يَدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، وَأَزْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » ^(١) متفق عليه .

١٢١٧ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ : الرِّثَائُ ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، يُقَالُ : أَيْنَ الصَّائِمُونَ ؟ فَيَقُومُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ » ^(٢) . متفق عليه .

١٢١٨ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » ^(٣) متفق عليه .

١٢١٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٤) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها النووي كلها تدل على فضل الصيام ، فمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير » زوجين : صنفين ، مثل أن ينفق دراهم ودنانير أو دراهم وأمتعة أو خيلاً وإبلًا وما أشبه ذلك ، قال تعالى ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ [الواقعة : ٧] أي أصنافًا ثلاثة ، ثم ذكر الرسول أبواب الجنة وفي قوله ﷺ : « دُعي من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير » يعني أن الملائكة تدعوه من كل باب فتقول : هذا خير ، هذا خير ، هذا خير ، وهذا يدل على فضل الإنفاق في سبيل الله ، وفيه أيضًا : أنه من كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ؛ لأن هذا الباب خاص بهم ، فالريان يعني الذي يروي ؛ لأن الصائمين يعطشون ولا سيما في أيام الصيف الطويلة الحارة فيجازون بتسمية هذا الباب بما يختص بهم باب الريان ، وقوله : « من كان من أهل الصدقة .. من أهل الجهاد .. من أهل الصيام » يعني : من كان يكثر من هذا الشيء وهذا يعني من صام فقط ولم يكن يصلي فإنه لا يدخل الجنة لأنه كافر . لكن المراد بذلك المسلمين الذين

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٧) ، ومسلم في الزكاة (٨٥) ، والإمام أحمد في المسند (٢٦٨/٢ ، ٣٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٦) ، ومسلم في الصيام (١٦٦) ، وابن ماجه في الصيام (١٦٤٠) ، والبيهقي في السنن (٣٠٥/٤) ، قوله : « أين الصائمون » أي : المكثرون من الصيام .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٠) ، ومسلم في الصوم (١٦٧) ، والنسائي في السنن (١٧٣/٤) والدارمي في السنن (٢٠٣) ، قوله : « سبعين خريفًا » أي باعد النار عنه مسيرة سبعين عامًا .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٧٥) ، قوله : « إيمانًا واحتسابًا » أي : مصداقًا لبواب الله وعطائه قاصدًا بذلك وجه الله تعالى فقط ، قوله : « غفر له ما تقدم من ذنبه » أي من الذنوب والصغائر المتعلقة بحق الله سبحانه .

يكثرون الصلاة ؛ فإنهم يُدْعَوْنَ من باب الصلاة ، والذين يكثرون الصدقة يُدْعَوْنَ من باب الصدقة ... وعلى كل حال من كان من أهل الجنة دخل الجنة من أي باب كان ، وأبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة ، أما أبواب النار : فذكرها الله في القرآن فقال تعالى : ﴿ لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٤٤] أما أبواب الجنة الثمانية فصحت بها السنة عن النبي ﷺ (١) .

ولما حدث النبي ﷺ بهذا الحديث ، قال أبو بكر : « يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما على ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ؟ » ، يعني الذي يدعى من باب واحد لا يشق عليه ، فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها ؟! يعني كل باب عليه ملائكة ينادون عليه ، يا فلان ، قال : « نعم » يعني : ممكن أن يكون الإنسان كثير الصلاة ، كثير الصدقة ، والجهاد ، فيدعى من الأبواب كلها ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم . فأبو بكر ﷺ يدعى من الأبواب الثمانية كلها ؛ لأنه ﷺ سبَّاق إلى الخير ، كل خير له فيه نصيب ، حتى إنه ﷺ عندما حث النبي ﷺ ذات يوم على الصدقة ، ورغب فيها ، فأتى عمر ﷺ ، وكان يحب أن يسبق أبا بكر لا حسداً لأبي بكر ، ولكن حباً في السبق إلى الخير ، فأتى عمر بنصف ماله للصدقة فلما جاء إلى النبي ﷺ إذا أبو بكر قد جاء بجميع ماله ، كل ماله ، فقال له الرسول : « ماذا تركت لأهلك ؟ » قال : تركت لهم الله ورسوله . قال عمر : والله لا أسابقه بعدها أبداً (٢) ، لأن أبا بكر ﷺ أسبق الصحابة على الخير ، وأقواهم إيماناً ، وأشدهم تصديقاً بالله ورسوله .

ثم ذكر أحاديث أخرى كلها تدل على الصيام ، آخرها قوله في حديث أبي هريرة ، « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » إذا صام إيماناً بالله ، واحتساباً بثواب الله فإن الله تعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه .

* * *

١٢٢٠ - وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء رَمَضانُ ؛ فَتُحْتَأَبِثُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ » (٣) متفق عليه .

١٢٢١ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « صُومُوا لِرُؤُوسِهِمْ ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤُوسِهِمْ ، فَإِنْ غُيِبَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ » متفق عليه وهذا لفظ البخاري . وفي رواية مسلم : « فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَصُومُوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا » (٤) .

(١) وذلك لما رواه مسلم في الإيمان (٤٦) ، وأحمد في مسنده (١٤/٤) .
(٢) انظر في ذلك سنن أبي داود في الزكاة (١٦٧٨) ، والترمذي في السنن (٣٦٧٥) ، والحاكم في المستدرک (٤١٤/١) ، والبيهقي في السنن (١٨١/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٩) ، ومسلم في الصوم (١) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥٧/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٠٣/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٩) ، ومسلم في الصيام (١٧) ، والترمذي في الصوم (٦٨٨) ، قوله : « صوموا لرؤيته » أي : لرؤية هلال رمضان ، قوله : « غبي » أي : حال بينكم وبينه غيم .

الشرح

نقل النووي رحمته الله عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل رمضان فُتِّحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النيران ، وصُفِّدت الشياطين » هذه ثلاثة أشياء تكون في رمضان :
تفتح أبواب الجنة : ترغيباً للعاملين لها بكثرة الطاعات من صلاة وصدقة وذكر وقراءة للقرآن وغير ذلك .
وتغلق أبواب النيران : وذلك لقلّة المعاصي فيه من المؤمنين .

وصفدت الشياطين : يعني : المردة منهم ، كما جاء ذلك في رواية أخرى . والمردة يعني : الذين هم أشد الشياطين عداوة وعدواناً على بني آدم . والتصفيد معناه : الغل ، يعني تُغَلُّ أيديهم حتى لا يخلصوا إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره ، وكل هذا الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حق ، أخبر به نصيحاً للأمة ، وتحفيزاً لها على الخير ، وتحذيراً لها من الشر .

وأما حديث أبي هريرة الثاني : فقال : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » يعني : أنه يجب على المسلمين أن يصوموا إذا رأوا الهلال - هلال رمضان - فإن لم يروه فلا صيام عليهم ، ولهذا قال : « فإن غُبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً » يعني : لو تغيب الهلال في غيم أو قطر وما أشبه ذلك فإنه يجب أن يكمل شعبان ثلاثين يوماً ، هذا لفظ البخاري .

أما لفظ رواية مسلم : « فصوموا ثلاثين يوماً » وهذا إذا غيب هلال شوال فبين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أنه متى غيب الهلال ليلة الثلاثين من شعبان ، فإنه يجب أن يكمل شعبان ثلاثين يوماً . وإذا غيب ليلة الثلاثين من رمضان فإنه يكمل ثلاثين يوماً ، والله الموفق .

* * *

٢٨ - باب الجود وفعل المعروف والإكثار من الخير

في شهر رمضان والزيادة من ذلك في العشر الأواخر منه

١٢٢٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ ، وَكَانَ جَبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ ^(١) . متفق عليه .

١٢٢٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ ؛ أَحْيَا اللَّيْلَ ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ ، وَشَدَّ الْمَتَرُزَ ^(٢) . متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٦) ، ومسلم في الفضائل (٥٠) ، والإمام أحمد في المسند (٢٨٨/١ ، ٣٦٣) والبيهقي في السنن (٣٠٥/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ، ومسلم في الاعتكاف (٧) ، وأبو داود في الصوم (١٣٧٦) .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في باب الجود في شهر رمضان : الجود : هو بذل المحبوب من مال أو عمل ، والإنسان يجود بماله فيعطي الفقير ويهدي إلى الغني ، ويواسي المحتاج . ويجود كذلك بعمله فيعين الإنسان في أموره : في سيارته ، في مكانه ، في بيته ، فالجود هو بذل المال ، أو العمل ، وربما يدخل في ذلك أيضًا بذل الجاه ، بأن يشفع لأحد أو يتوسط له في جلب منفعة أو دفع مضرة ، أو ما أشبه ذلك . وكان النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه (أجود الناس) بماله وبدنه وعلمه ودعوته ونصيحته ، وكل ما ينفع الخلق ، وكان أجود ما يكون في رمضان ؛ لأن رمضان شهر الجود ، يجود الله فيه على العباد ، والعباد الموقفون يجودون على إخوانهم والله - تعالى - جواد يحب الجود ^(١) ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينزل عليه جبريل في رمضان كل ليلة يدارسه القرآن من أجل أن يثبت في قلبه ، وأن يحصل الثواب بالمداينة بينه وبين جبريل ، وجبريل عليه السلام ينزل لكن على كيفية لا نعلمها ، لأنه ملك من الملائكة ، والملائكة لا يرون إلا إذا شاء الله تعالى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، أجود بالخير من الريح المرسلة أي : أنه يسارع إلى الخير عليه الصلاة والسلام ، ويجود به ، حتى إنه أسرع من الريح المرسلة ، يعني : التي أرسلها الله تعالى ، فهي سريعة عاصفة ، ومع ذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من هذه الريح في رمضان .

ثم ذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان أحيا الليل - أي أحياه بالذكر ، والقرآن والصلاة ، والعبادة - وأيقظ أهله ، وشد مثزره ، أيقظهم ليصلوا ، وشد المثزر أي : تأهب تأهبًا كاملاً للعمل ، لأن شد المثزر معناه : أن الإنسان يتأهب للعمل ، ويتقوى عليه ، وقيل : معنى شد المثزر : أنه يتجنب النساء ، عليه الصلاة والسلام ، لأنه يتفرغ للعبادة ، وكلاهما صحيح . النبي صلى الله عليه وسلم يتفرغ للعبادة في العشر الأخير من رمضان ، ويحيى الليل كله بطاعة الله ، فهذا من الجود بالنفس ، لكنه جود في حق الله تعالى ، والله هو الذي يُؤمُّ على من يشاء من عباده ، إذا مَنَّ عليك بالعمل فله المنة ، يمن عليك بالعمل أولاً ، ثم يمن عليك بقبوله ثانياً ، وفقنا الله وإياكم لما يحب .

٢١٩ - باب النهي عن تقدم رمضان بصوم بعد نصف شعبان إلا لمن وصله بما قبله

أو وافق عادة له بأن كان عادته صوم الاثنين والخميس فوافقه

١٢٢٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكُمْ رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمَهُ ، فَلْيُصُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ » ^(٢) متفق عليه .

(١) وذلك لما رواه الهندي في كنز العمال (٤٣٥٠٧) والسيوطي في الدر المنثور (١٩٥/١) ، والألباني في الصحيحة (١٦٩/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم بلفظه (١٩١٤) ، ومسلم في الصيام (٢١) ، بنحوه ، والبيهقي في السنن (٢٠٧/٤) ، =

١٢٢٥ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تصوموا قَبْلَ رَمَضَانَ ، صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ ، فَإِنْ خَالَتْ دُونُهُ غَيَاةٌ ، فَأَكْمِلُوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا » ^(١) رواه الترمذي : وقال : حديث حسنٌ صحيح . « الْغَيَاةُ » بالغين المعجمة وبالياء المثناة من تحت المكررة ، وهي : الشَّحَابَةُ .

١٢٢٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا بَقِيَ نِصْفٌ مِنْ شَعْبَانَ فَلَا تَصُومُوا » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسنٌ صحيحٌ .

١٢٢٧ - وعن أبي اليقظان عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ رضي الله عنه ^(٣) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسنٌ صحيحٌ .

* * *

٢٢٠ - باب ما يقال عند رؤية الهلال

١٢٢٨ - عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ : « اللَّهُمَّ أَهْلُهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، هِلَالٌ رُشِدٌ وَخَيْرٌ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسنٌ .

الشرح

ذكر النووي رحمته الله في باب النهي عن تقدم رمضان بصوم بعد منتصف شعبان .

أحاديث منها : حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ نهى أن يتقدم الرجل رمضان بصوم يوم أو يومين ، إلا من له عادة ، مثل : أن يكون من عادته أن يصوم يوم الاثنين ، فصادف يوم الاثنين قبل رمضان بيوم أو يومين ، فلا بأس ، أو يكون من عادته أن يصوم أيام البيض ، ولم يتيسر أن يصوم اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر إلا أن يصوم قبل رمضان بيوم أو يومين ، فلا بأس ؛ فهذا يدل على أن المقصود بالنهي الخوف من أن يحتاط الإنسان لدخول رمضان ، فيقول : أصوم قبله بيوم أو

= وقوله : « كان يصوم صومه » أي : يصوم يوماً اعتاد صومه طوال العام .

(١) أخرجه الترمذي في الصوم (٦٨٨) والنسائي في السنن (١٣٦/٤) . قوله : « فإن حالت » أي : فإن منعت . (٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٣٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصوم بنحوه (٢٣٣٤) والترمذي في الصوم (٦٨٦) . قوله : « الذي يشك فيه » أي : يتيسر عليه أنه من شعبان أم من رمضان ؛ وهو يوم الثلاثاء من شعبان ، قوله : « أبا القاسم » هو النبي ﷺ .

(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه والحديث أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٥١) ، والدارمي في سننه (٤/٢) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٩٢) بنحوه . وقوله ﷺ « أهله علينا بالأمن » أي : من المخاوف الدينية والدنيوية .

يومين احتياطياً ، فإن هذا الاحتياط لا وجه له ، ولهذا قال ﷺ : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ، أي لرؤية الهلال ، فإن حال بينكم وبينه غياية - يعني : غيم أو قطر أو ما أشبه ذلك « فأكملوا العدة ثلاثين يوماً » يعني عدة شعبان .

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا النهي ، هل هو نهى تحريم أو نهى كراهة ؟! والصحيح : أنه نهى تحريم ، لا سيما اليوم الذي يُشكُّ فيه . فإن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : « من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم عليه السلام » .

وعلى هذا فنقول : لا يجوز للإنسان أن يصوم قبل رمضان يوم أو يومين إلا مَنْ له عادة ، ولا يجوز أن يصوم يوم الشك ، وهو يوم الثلاثين من شعبان إذا كان في الليلة غيم أو قطر يمنع من رؤية الهلال مطلقاً ، لأن الرسول ﷺ قال : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » .

وأما النهي عن الصوم بعد منتصف شعبان فإنه وإن قال الترمذي : حسن صحيح ؛ فإنه ضعيف ، قال الإمام أحمد : إنه شاذ ؛ وإنه يخالف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تصوموا قبل رمضان يوم أو يومين » ^(١) . فإن مفهومه أنه يجوز أن يصوم قبل رمضان بثلاثة أيام ، وأربعة أيام ، وعشرة أيام .

وحتى لو صح الحديث فالنهي فيه ليس للتحريم وإنما هو للكراهة ، كما أخذ بذلك بعض أهل العلم رحمهم الله . إلا مَنْ له عادة بصوم ؛ فإنه يصوم ولو بعد نصف شعبان ، وعلى هذا يكون الصيام ثلاثة أقسام :

١ - بعد النصف إلى الثامن والعشرين ، هذا مكروه إلا من اعتاد الصوم ، لكن هذا القول مبني على صحة الحديث ، والإمام أحمد لم يصححه ، وعلى هذا فلا كراهة .

٢ - قبل رمضان يوم أو يومين ، فهذا محرم إلا من له عادة .

٣ - يوم الشك : فهذا محرم مطلقاً ، لا تصم يوم الشك ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه ^(٢) .

ولكن كما قلت : يظهر أن النهي لمن أراد أن يجعله من رمضان ، وأما من أراد التطوع به فإنه يحرم تحريم الذرائع ^(٣) ، يعني : بمعنى أنه يُخشى أن الناس إذا رأوا هذا الرجل قد صام ظنوا أنه صام احتياطاً ، وهذا لا يجوز أن يحتاط ، « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته » . والله الموفق .

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٤) بلفظ : « لا يتقدم أحدكم رمضان بصوم يوم ولا يومين » ، ومسلم في الصيام (١٠٨٢) بلفظ « لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين » ، وأبو داود في السنن (٢٣٣٥) ، والنسائي في السنن (١٤٩/٤) .
(٢) انظر الحديث في أبي داود في الصوم (٢٣٣٤) ، والترمذي في الصوم (٦٨٦) ، والنسائي في السنن (١٥٣/٤) ، وابن ماجه في السنن (١٦٤٥) .

(٣) في مذهب الشافعية أنه لا يصح صومه عن رمضان ويجوز صومه من قضاء أو نذر ، أو كفارة قال ابن الصباغ : هذا خلاف القياس ؛ لأنه إذا لم يكره فيه ماله سبب من التطوع فالفرض أولى ، ويحرم أن يصوم فيه تطوعاً لا سبب له . فإن صامه لم يصح على الأصح ، وإن نذر صومه ففي صحة نذره هذا الوجهان وقال الحنفية : إنه غير مكروه (انظر روضة الطالبين ٣٦٧/٢ ، المجموع ٤٥٣/٦ ، الهداية ٣٠٤/١) .

٢٢١ - باب فضل السحور وتأخيرہ ما لم يخش طلوع الفجر

- ١٢٢٩ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَسَحَّرُوا ؛ فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَهَ » ^(١) . متفقٌ عليه .
- ١٢٣٠ - وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : تَسَحَّرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قُمْنَا إِلَى الصَّلَاةِ ، قِيلَ : كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةً ^(٢) . متفقٌ عليه .
- ١٢٣١ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُؤَدَّتَانِ : بِلَالٌ ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ بِلَالَ يُؤَدِّنُ بَلِيلٌ ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَدِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ » ، قَالَ : وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَنْ يَنْزِلَ هَذَا وَيَوْقَى هَذَا ^(٣) ، متفقٌ عليه .
- ١٢٣٢ - وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « فَضْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ الشَّحْرِ » ^(٤) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فضل السحور يقال : السُّحُورُ والسُّحُورُ ، فالسُّحُورُ : الأكل الذي يتسحر به الإنسان والسُّحُورُ بالضم : الفعل : يعني تَسَحَّرَ الإنسان .

والسُّحُورُ حث عليه النبي ﷺ بقوله وأَيَّدَهُ بفعله ، فقال ﷺ : « تسحروا فإن في السُّحُورِ بركة » فأمر ، وبيِّن ، أمر بأن نتسحر ، وبين أن في السحور بركة ، فمن بركة السحور : امتثال أمر النبي ﷺ ، وامتثال أمر النبي ﷺ كله خير ، كله أجر وثواب ، ومن بركته : أنه معونة على العبادة ؛ فإنه يعين الإنسان على الصيام ، فإذا تسحر كفاه هذا السحور إلى غروب الشمس ، مع أنه في أيام الإفطار يأكل في أول النهار ، وفي وسط النهار ، وفي آخر النهار ، ويشرب كثيرا ، فيُنزِلُ الله البركة في السحور ، حتى يكفيه من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ومن بركته : أنه يحصل به التفرقة بين صيام المسلمين وصيام غير المسلمين ، ولهذا بيَّن النبي ﷺ أن فصل ما بيننا وبين صيام أهل الكتاب أَكْلَةُ الشَّحْرِ ، يعني : السحور ، لأن أهل الكتاب يصومون من نصف الليل فيأكلون قبل منتصف الليل ، لا يأكلون في السحر . أما المسلمون - ولله الحمد - فيأكلون في السحر ، في آخر الليل . والتمييز بين المسلمين والكفار أمر مطلوب في الشرع ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن التشبه بهم ، قال :

- (١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٢٣) ، ومسلم في الصيام (٤٥) ، والترمذي في الصوم (٧٠٨) ، والإمام أحمد في المسند (٣٢/٣) . قوله ﷺ : « بركة » أي أجزا وثوابا .
- (٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٢١) ، ومسلم في الصيام (٤٧) .
- (٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٨ ، ١٩١٩) ، ومسلم في الصيام (٣٧) . ورواية البخاري جاءت عبارة « إن بلالا كان يؤذن بليل » من كلام عائشة رضي الله عنها وبقية الحديث متوافقة مع ما جاء به النووي .
- (٤) أخرجه مسلم في الصيام (٤٦) .

« خالفوا المجوس ، وفروا اللّٰحى ، وحفوا الشوارب » ^(١) يعني : أرخوا اللحى ، لا تقصوها ولا تحلقوها ، وقال ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » ^(٢) . وينبغي أن يؤخر السحور إلى قبيل طلوع الفجر ، ولا يتقدم ، لأن النبي ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور » ^(٣) وقال ﷺ : « إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم » ^(٤) فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر .

وأما قوله في الرواية التي ساقها المؤلف : (ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويصعد هذا) فهذه مُدرّجة في الحديث ، شاذة ، ليست بصحيحة ، لأن أمر النبي ﷺ بالأكل والشرب حتى يؤذن ابن أم مكتوم دليل على أن بينهما فرقاً كبيراً يتسع للأكل والشرب والسحور ، فهذه جملة ضعيفة شاذة ، لا غمّة عليها . وقد بينَّ زيد بن ثابت ؓ حينما ذكر أنه تسحر مع النبي ﷺ ثم قاموا إلى الصلاة ، ولم يكن بينهما إلا قدر خمسين آية ، خمسون آية : من عشر دقائق إلى ربع الساعة ، إذا قرأ الإنسان قراءة مُرتلة أو دون ذلك . وهذا يدل على أن الرسول ﷺ يؤخر السحور تأخيراً بالغاً ، وعلى أنه يقدم صلاة الفجر ولا يتأخر ، ثم إنه ينبغي للإنسان عند تسحره أن يستحضر أنه يتسحر امتثالاً لأمر الله ورسوله ، ويتسحر مخالفة لأهل الكتاب ، وكرهاً لما كانوا عليه ، ويتسحر رجاء البركة في هذا السحور ، ويتسحر استعانة به على طاعة الله ، حتى يكون هذا السحور الذي يأكله خيراً وبركة وطاعة ، والله الموفق .

* * *

٢٢٢ - باب فضل تعجيل الفطر
وما يفطر عليه وما يقوله بعد الإفطار

١٢٣٣ - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَلُوا الْفِطْرَ » ^(٥) متفقٌ عليه .

١٢٣٤ - وَعَنْ أَبِي عَظِيمَةَ قَالَ : دَخَلْتُ أَنَا وَمَشْرُوقٌ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ لَهَا مَشْرُوقٌ : رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَلَاهُمَا لَا يَأْلُو عَنِ الْخَيْرِ : أَحَدُهُمَا يُعَجِّلُ الْمَغْرِبَ وَالْإِفْطَارَ ، وَالْآخَرُ يُؤَخِّرُ الْمَغْرِبَ وَالْإِفْطَارَ ؟ فَقَالَتْ : مَنْ يُعَجِّلُ الْمَغْرِبَ وَالْإِفْطَارَ ؟ قَالَ : عَبْدُ اللَّهِ - يعني ابن مسعود - فَقَالَتْ : هَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ ^(٥) . رواه مسلم . قوله : « لَا يَأْلُو » أي لا يُقَصِّرُ في الخير .

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٤ ، ٥٥) بنحوه .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٣١) ، وأحمد في مسنده (٥٠/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (٤٨) ، والترمذي في الصيام (٦٩٩) ، وأحمد في مسنده (٣٣٧/٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) ، ومسلم في الصيام (٤٨) ، والإمام أحمد في المسند (١٣١/٥ ، ١٣٤) ،

والترمذي في الصيام (٦٩٩) .

(٥) أخرجه مسلم في الصيام (٤٩) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٥٤) ، والإمام أحمد في المسند (٤٨/٦ ، ١٧٣) ، =

١٢٣٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ : أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ أَنْ عَجَّلْتُهُمْ فِطْرًا » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٢٣٦ - وَعَنْ عُمرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا ، وَأَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هَهُنَا ، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ ؛ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ » ^(٢) متفق عليه .

١٢٣٧ - وَعَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه قَالَ : سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ صَائِمٌ ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، قَالَ لِبَعْضِ الْقَوْمِ : « يَا فُلَانُ انْزِلْ فَاجِدْ لَنَا » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَمْسَيْتَ ؟ قَالَ : « انْزِلْ فَاجِدْ لَنَا » قَالَ : إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا ، قَالَ : « انْزِلْ فَاجِدْ لَنَا » قَالَ : فَتَزَلْ فَجِدْ لَهُمْ ، فَشَرِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : « إِذَا رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ هَهُنَا ؛ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ » وَأَشَارَ بِيَدِهِ قِيلَ الْمَشْرِقِ ^(٣) . متفق عليه . قوله : « اجِدْ » بجيم ثم دال ثم حاء مهملتين ، أي : اخلط السويق بالماء .

١٢٣٨ - وَعَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ الضَّبِّيِّ الصَّحَابِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ ؛ فَلْيَفْطِرْ عَلَى تَمَرٍ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؛ فَلْيَفْطِرْ عَلَى مَاءٍ ؛ فَإِنَّهُ طَهُورٌ » ^(٤) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٢٣٩ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْطِرُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رُطَبَاتٍ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٍ ؛ فَتَمِيرَاتٍ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَمِيرَاتٍ ؛ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ ^(٥) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فضل تعجيل الفطر ، وما يفطر به ، وما يقال عند الفطور . هذه ثلاث مسائل .

المسألة الأولى : تعجيل الفطر : لكن بشرط أن يتحقق غروب الشمس ، لقول النبي ﷺ في

= وقوله : « ومسروق » هو : مسروق بن الأجدع بن مالك ، فقيه ، عابد ، روى عنه أصحاب السنن .

(١) أخرجه الترمذي في الصيام (٧٠٠) ، وقوله : « أحب عبادي إلي » أي أرضاهم عندي وأدناهم مني ، قوله : « أعجلهم » أي الذي يسرع بإفطاره عند دخول الوقت .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) ، ومسلم في الصيام (٥١) ، والبيهقي في السنن (٢١٦/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٥) ، ومسلم في الصيام (٥٢) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٥٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٣٥٥) ، والترمذي في الصوم (٦٥٨) ، وابن ماجه في الصيام (١٦٩٩) ، والإمام أحمد في المسند (١٧/٤) . قوله : « فليفطر على تمر » قيل : لأنه يقوي البصر ويدفع الضعف الحاصل فيه بسبب الصوم ، قوله : « فإنه طهور » أي مزيل للخبائث المعنوية والحسية .

(٥) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٣٥٦) ، والترمذي في الصوم (٤٦٩) ، قوله : « قبل أن يصلي » أي المغرب ،

قوله : « حسا حسوات » أي : شرب ثلاث مرات .

حديث عمر بن الخطاب الذي ساقه المؤلف : « إذا أقبل الليل من هاهنا - يعني من المشرق - وأدبر النهار من هاهنا - يعني من المغرب - وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » . فإذا بادر الإنسان بالفطر من حين أن يغرب قرص الشمس ولو كان البياض ظاهرًا ، والشعاع في الأفق ، ما دام قرص الشمس قد غاب ، فأفطر ، وبأدبر ، وهذه هي السنة القولية والفعلية من الرسول ﷺ .

أما الفعلية : فدلليها حديث عائشة رضي الله عنها حين سألتها عطيّة ومسروق عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ، أحدهما يؤخر الفطر ، ويؤخر صلاة المغرب ، والثاني يعجل الفطر ويعجل صلاة المغرب ، أيهما أصوب ؟ فقالت عائشة : « من هذا ؟! » - أي الذي يعجل - قالوا : ابن مسعود رضي الله عنه فقالت : « هكذا كان النبي ﷺ يفعل » . يعني : يعجل الفطر ، ويعجل صلاة المغرب ؛ هذه سنة فعلية ، تدل على أن الأفضل تقديم الإفطار .

أما القولية : فحديث سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » فما دام الناس يبادرون إلى السنة ويتسابقون إلى الخير ؛ فهم بخير ، لا يزالون بخير ، أما إذا تباطأوا ولم يفطروا مبشرين ؛ فإن ذلك هو الشر ، ولهذا كان الراضية المخالفون لسنة الرسول ﷺ ، يؤخرون الفطور ، لا يفطرون إلا إذا اشتبكت النجوم ، فيخزّمون من الأجر والثواب ، ويحرمون من تعجيل إعطاء النفوس حظوظها من الأكل والشرب ، يُعَذِّبون في الدنيا قبل الآخرة ، لأن الإنسان إذا تأخر وهو عطشان أو جائع يتألم أكثر ، فهم يؤلمون أنفسهم بتأخير الفطور ، ويخالفون السنة ، ويفوتهم الأجر .

ثم إن المؤلف رحمه الله ذكر أن الأفضل أن يفطر على رطب ، فإن لم يجد فتمر ، فإن لم يجد فماء ؛ لأن النبي ﷺ كان يفطر على رطيبات قليلة ، لا يُكثِر ، لأنه لا ينبغي الإكثار عند الفطور ، فإن المعدة خالية ، فإذا أكلت فهذا يضرك ، أعطها شيئًا فشيئًا ، قلل عند الفطور ، ولهذا ليس من الطب أن الإنسان إذا أفطر ، يتعشى مباشرة كما يفعل بعض الناس ، بل الطب يقتضي أن تعطي المعدة الشيء القليل ، لأنها خالية ، فكان عليه الصلاة والسلام يفطر على رطيبات ، فإن لم يكن فعلى ثُميرات ، فإن لم يكن حَسًا حسوات أو حسيات من ماء ، هكذا ينبغي أن تفطر على الرطب ، ثم التمر ، ثم الماء .

والرطب الآن - والحمد لله - موجود حتى في غير أيام الصيف ، فالتناس يدخرون الرطب الآن في الثلاجات ، ويبقى مدة ، فالأفضل أن تفطر على الرطب ، فإن لم يكن عندك شيء ؛ فالتمر ، فإن لم يكن عندك تمر فالماء . فإن قال قائل : ليس عندي رطب ولا تمر ، ولكن عندي خبز وماء ، أيهما أفطر عليه ؟ أفطر على الماء ؛ لأن النبي ﷺ أرشد إلى ذلك ، وقال : « إنه طهور » ^(١) يطهر المعدة والكبد ، فلذلك أمرنا عليه الصلاة والسلام أن نفطر على الماء ، وإنما قدم الرطب والتمر ، لأنه أنفع للبدن من الماء ، لأنه حلوى وغذاء ، وقوة ، وقد قال أهل الطب : « إن الخلاوة التي في التمر هي أسرع شيء يتقبله الجسم من أنواع الحلوى ، وإنها تسري إلى العروق فورًا » . وهذا من حكمة الله ﷻ ، فهذا

(١) انظر الحديث في سنن الدارقطني (٢٨/١) والزيلعي في نصب الراية (٩٥/١) .

الذي ينبغي أن تفطر عليه ، رطب ، فإن لم تجد فتمر ، فإن لم تجد فماء ، فإن لم تجد ماءً ، فما تيسر من مأكول أو مشروب ، فإن لم تجد كما لو كنت في البر وليس عندك شيء ، فقال بعض العوام : (امصص إصبعك) . وهذا غلط ، إذا لم تجد فتكفي النية في القلب ، وإذا عثرت على مطعم أو مشروب بعد ذلك ، فافعل ، أما مَصُّ الإصبع فليس له أصل . وتحذلق عامي وقال : « أثقل في ثوبك ثم امصص الريق ! » أي : كأنه يُجْعَل مثل الماء ، وهذا أيضًا غلط ، كل هذا ليس بمشروع ، ولكن إن تيسر لك ما تفطر عليه فهذا هو المطلوب وإلا فانتظر حتى ييسر الله ، وأثِرْ بقلبك .

وفي قول الرسول ﷺ : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » . قال بعض أهل العلم : « فقد أفطر » ، يعني : وإن لم ينو الفطر ، يعني فقد انتهى صيامه ، وأفطر حُكْمًا ، وقال بعضهم : فقد أفطر ، أي : فقد حلَّ له الفطر .
لكن لا شك أنك إذا نويت الفطر - إذا ما لم يكن عندك ما تأكله وتشربه - فهو أحسن وأفضل ، حتى تكون مبادرًا إلى الإفطار بالنية ، لعدم القدرة على الأكل والشرب . والله الموفق .

٢٢٢ - باب أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه عن المخالفات والمشاتمة ونحوها

١٢٤٠ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ ، فَلَا يَزُفْتُ وَلَا يَضْحَبُ ، فَإِنْ سَأَلَهُ أَحَدٌ ، أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ : إِنِّي صَائِمٌ » ^(١) متفق عليه .
١٢٤١ - وعنه قال : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ ؛ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » ^(٢) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه .
والمراد بذلك : أنه يجب على الصائم أن يتجنب كل قول محرم ، وكل فعل محرم ، لأن الله - تعالى - إنما فرض الصيام من أجل التقوى ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] أي : من أجل أن تتقوا الله ﷻ وتجتنبوا محارمه ، ولا يريد الله من عباده أن يضيق عليهم بترك الأكل والشرب والجماع ، ولكن يريد أن يمتثلوا أمره ، ويجتنبوا نواهيه ، حتى يكون الصيام مدرسة يتعودون فيها على ترك المحرمات وعلى

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٤) ، ومسلم في الصيام (١٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٣) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٦٢) ، والترمذي في الصوم (٧٠٧) . وقوله : « قول الزور » أي قول الكذب ، قوله : « فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ليس معناه أنه يؤمر بالأكل والشرب ، وإنما معناه التحذير من قول الزور ، والمعنى : فإن الله غني عن صيامه هذا ولن يقبله .

القيام بالواجبات ، وإذا كان شهر كامل يمر بالإنسان وهو محافظ على دينه ، تارك للمحرم ، قائم بالواجب ؛ فإن ذلك سوف يغير من مجرى حياته .

ولهذا بين الله الحكمة من ذلك بأنها التقوى ، وقال النبي ﷺ : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب » يعني : لا يفعل فعلاً محرماً ولا يقول قولاً محرماً ، « فإن ساءه أحد » يعني : صار يعيبه ويشتمه . « أو قاتله فليقل : إني صائم » حتى يدفع عن نفسه العجز عن المدافعة ، وبين لصاحبه أنه لولا الصيام لقاتلتك بمثل ما فعلت بي ، فيبقى عزيزاً لا ذليلاً ، لكنه ذل لعبودية الله - تعالى - وطاعة الله ، وكذلك قال ﷺ : « من لم يدع قول الزور » يعني : قول المحرم « والعمل به » أي بالمحرم ، « والجهل » كما في لفظ آخر ، يعني : العدوان على الناس ، « فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » : فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب الصيام لأهم شيء وهو ترك المحرمات والقيام بالواجبات ، والله الموفق .

* * *

٢٢٤ - باب في مسائل من الصوم

١٢٤٢ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « إِذَا نَسِيَ أَحَدُكُمْ فَأَكَلَ ، أَوْ شَرِبَ ؛ فَلْيَتِمَّ صَوْمَهُ ؛ فَإِنَّمَا أَطَعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ » ^(١) . متفق عليه .

١٢٤٣ - وَعَنْ لَقِيطِ بْنِ صَبْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ ؟ قَالَ : « أَسْبِغِ الْوُضُوءَ ، وَخَلِّلْ بَيْنَ الْأَصَابِعِ ، وَبَالِغْ فِي الْاسْتِنْشَاقِ ، إِلَّا أَنَّ تَكُونَ صَائِماً » ^(٢) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٢٤٤ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُهُ الْفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ أَهْلِهِ ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ ^(٣) . متفق عليه .

١٢٤٥ - وَعَنْ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتَا : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ غَيْرِ حُلْمٍ ، ثُمَّ

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٣) بلفظه عدا لفظه « أحدكم » ، ومسلم في الصوم (١٧١) بنحوه ، والبيهقي في السنن (٢٢٩/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٣٦٦) ، والترمذي في الصوم (٧٨٨) ، وابن ماجه في الوضوء (٤٤٨) ، والبيهقي في السنن (٥٠/١) . قوله : « أسبغ الوضوء » أي : أتمه بغسل ما زاد على الفرائض من الغرة والتحجيل ، قوله : « تخليل الأصابع » وذلك بالتشبيك بين أصابع اليدين ، وفي الرجلين بخنصر اليد اليسرى ، قوله : « بالغ في الاستنشاق » أي : يايصال الماء إلى الخيشوم وجذبه بالنفس مع إدخال خنصر يده اليسرى وإزالة ما في أنفه من أذى .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٣) ، ومسلم في الصوم (٨٠) ، والبيهقي في السنن (٢١٤/٤) . وقوله : « من غير حلم » أي : يصبح جنباً من جماع ولا يجب من احتلام ؛ لامتناعه منه .

يَصُومُ (١) . متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله مسائل متنوعة متفرقة من الصوم فمنها : إذا أكل الإنسان أو شرب ، وهو صائم ناسيًا ، فهل يفسد صومه ؟! استمع للجواب من قول النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه قال : « من نسي وهو صائم فأكل وشرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » (٢) فإذا أكلت أو شربت ولو شبت ورويت ، وأنت ناسٍ في الصيام ؛ فإن صومك كامل ، ليس فيه نقص ، ولهذا قال : « فليتم صومه » وفي قوله : « فإنما أطعمه الله وسقاه » دليل على أن فعل الناسي لا يُنسب إليه ، وإنما ينسب إلى الله وكذلك النائم لا ينسب فعله إلى نفسه وإنما ينسب إلى الله كما قال الله تعالى في أصحاب الكهف : ﴿ وَنُقِلَتْ لَهُمْ ذَاتُ أَلْيَمِينَ وَذَاتُ الْشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٨] والذي يتقلب هو النائم ، ولكن لما لم يكن له قصد ؛ نسب الله الفعل إليه ، كذلك الناسي لم يتعمد فساد الصوم ، نسي وأكل وشرب ، نقول : صومك صحيح ، وكذلك لو كان جاهلاً ، مثل أن يحتجم وهو لا يدري أن الحجامة تفسد (٣) فصومه صحيح ، ومثل أن يأكل يظن أن الفجر لم يطلع ، ثم تبين أنه طالع ، فصومه صحيح ، ومثل أن يأكل يظن أن الشمس قد غربت ، فأكل ثم تبين أن الشمس لم تغرب ، فصيامه صحيح (٤) .

وقد وقعت هذه المسألة في عهد النبي ﷺ حينما كان الناس صائمين في يوم غيم ، فأفطروا ظناً منهم أن الشمس قد غربت ، ثم طلعت الشمس ، ولم يأمرهم النبي ﷺ بقضاء الصوم (٥) لأنهم لا يدرون ، ولم يتعمدوا ، ولكن متى ذكر الإنسان وجب عليه الترك والإمساك ، حتى لو كانت اللقمة في فمه وجب عليها لفظها ، وكذلك لو كان الماء في فمه ، وجب عليه أن يريقه ، وكذلك لو كان جاهلاً ثم أخبر فإنه يجب عليه أن يُنسيك ، مثلاً لو رأى إنساناً يأكل ويشرب ، يقول : ما هذا وأنت صائم ؟ قال : الشمس غربت . قال : الشمس لم تغرب . فيجب عليه أن يتوقف لأنه زال عنه العذر . فإذا قال قائل : لو رأيت صائماً يأكل ، وأعرف أنه ناسٍ ، فهل علي أن أذكره ؟ قلنا : نعم يجب

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٠) ، ومسلم في الصيام (٨٠) ، والبيهقي في السنن (٢١٥/٤) .

(٢) ذكره بهذا اللفظ : أحمد في مسنده (٤٢٥/٢) ، والدارمي في الصوم (١٣/٢) .

(٣) هذا هو قول إسحاق وابن المنذر ومحمد بن إسحاق بن خزيمة وهو قول عطاء وعبد الرحمن بن مهدي ، وكان الحسن ومسروق وابن سيرين لا يرون للصائم أن يحتجم ، وكان جماعة من الصحابة يحتجمون ليلاً في الصوم ، منهم : ابن عمر وابن عباس وأبو موسى وأنس . ورخص فيها أبو سعيد الخدري وابن مسعود وأم سلمة وعروة وسعيد بن جبير ، وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والشافعي : يجوز للصائم أن يحتجم ولا يفطر ؛ لما روى البخاري عن ابن عباس : أن النبي ﷺ احتجم وهو صائم . ولأنه دم خارج من البدن أشبه الفصد (انظر : المغني مع الشرح الكبير ٣٧/٣ ، الهداية ٣١٠/١) .

(٤) انظر في ذلك المغني (١٢٢/٣) ، أسهل المدارك (٢٤٢٥/١) ، فقه الكتاب والسنة (١٥٦/١) ، (١٥٧) .

(٥) انظر الحديث في البخاري في الصوم (٦٦٦٩) ، ومسلم في الصوم (١١٥٥) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٩٨) .

أن تذكره ؛ لأن أخاك إذا عذر بالنسيان وأنت علمت به ، وجب عليك أن تذكره ، ولهذا قال النبي ﷺ في الصلاة : « إذا نسيت فذكروني » ^(١) فأمر أن يُذكر إذا نسي ، كذلك أيضًا إذا رأيت صائماً يأكل ويشرب ناسياً فذكّره ، كما لو رأيت إنساناً يصلي منحرفاً عن القبلة ، وجب عليك أن تخبره . فاللهم : أنه إذا وقع أخوك في شيء لا يحل له ، فعليك أن تذكره ، لأن النسيان كثير والخطأ كثير . ثم ذكر المؤلف حديث لقيط بن صبرة رضي الله عنه ، حيث قال له النبي ﷺ : « أسبغ الوضوء ، وخلل بين الأصابع ، وبالغ في الاستنشاق ، إلا أن تكون صائماً » .

« أسبغ الوضوء » : يعني توضع وضوءاً سابقاً كاملاً ، والإسباغ : بمعنى الإتمام قال تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنُهُ ﴾ [نعمان : ٢٠] أي أكملها ، والثاني « وخلل بين الأصابع » ولا سيما أصابع الرجلين ، خلل بينهما بالماء ، لأن أصابع الرجلين متلاصقة ، وربما لا يدخل الماء من بينها ، « وبالغ في الاستنشاق » يعني : استنشاق الماء عند الوضوء ، « إلا أن تكون صائماً » فلا تبالغ في الاستنشاق ؛ لأنك إذا بالغت في الاستنشاق ؛ دخل الماء إلى جوفك من طريق الأنف ، فدل ذلك على أن وصول الأكل أو الشرب عن طريق الأنف كوصوله عن طريق الفم ، يُفطر الصائم ، وأما الإبر التي تكون في الوريد أو تكون في اليد ، أو تكون في الظهر ، أو في أي مكان ؛ فإنها لا تُفطر الصائم ، إلا الإبر المغذية التي يُستغنى بها عن الأكل والشرب ، فهذه تفطر الصائم ، ولا يحل له إذا كان صومه فرضاً أن يستعملها إلا عند الحاجة ، عند الضرورة ، فإذا اضطر إلى ذلك أفطر ، واستعمل الإبر ، وقضى يوماً مكانه .

ثم ذكر المؤلف حديثي عائشة وأم سلمة : أن النبي ﷺ كان يصبح جُنباً فيصوم ثم يغتسل . وهذا أيضًا جائز . يعني : يجوز للجنب أن ينوي الصوم ، وإن لم يغتسل إلا بعد طلوع الفجر ، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك ، وفي حديث عائشة وأم سلمة دليل على أن أفعال النبي ﷺ حجة يُحتج بها ، ولا يقال هذا من خصائصه ، لأن الأصل عدم الخصوصية ^(٢) ، فإن فعل النبي ﷺ فعلاً ، فهو حق ، إن كان عبادةً فهو عبادة ، وإن كان عادةً فهو عادة ، وليس بمحرم . والله الموفق .

٢٢٥ - باب بيان فضل صوم المحرم وشعبان والأشهر الحرم

١٢٤٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ : شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ : صَلَاةُ اللَّيْلِ » ^(٣) رواه مسلم .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٥/٢) ، والطبراني في الكبير (١٠٦/١٠) .

(٢) وهذا هو قول عامة أهل العلم ومنهم : علي وابن مسعود وأبو الدرداء وأبو ذر وابن عمر وابن عباس وعائشة وأم سلمة وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري والليث بن سعد وداود الظاهري (انظر المغني مع الشرح الكبير ٧٨/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الصيام (٢٠٤) ، والإمام أحمد في المسند (٣٤٤/٢) ، والنسائي في السنن (٢٠٦/٣) . =

١٢٤٧ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يكن النبي ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان ؛ فإنه كان يصوم شعبان كله . وفي رواية : كان يصوم شعبان إلا قليلاً ^(١) . متفق عليه .

١٢٤٨ - وعن مújينة الباهليّة عن أبيها أو عمها ، أنه أتى رسول الله ﷺ ، ثم انطلق فاتاه بعد سنة ، وقد تغيّرت حاله وهيبته ، فقال : يا رسول الله أما تعرفني ؟ قال : « ومن أنت ؟ » قال : أنا الباهلي الذي جئتكم عام الأول . قال : « فما غيرك ، وقد كنت حسن الهيئة ؟ » قال : ما أكلت طعاماً منذ فارتك إلا لبيل ، فقال رسول الله ﷺ : « عذبت نفسك ! » ثم قال : « صم شهر الصبر ، ويوماً من كل شهر » قال : زدني ، فإن بي قوة ، قال : « صم يومين » قال : زدني ، قال : « صم ثلاثة أيام » قال : زدني ، قال : « صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك » وقال بأصابعه الثلاث فضمها ، ثم أرسلها ^(٢) . رواه أبو داود . و « شهر الصبر » : رمضان .

الشرح

هذا الباب ذكر المؤلف رحمته الله فيه بيان ما يُسن صومه من الأيام والشهور ، فمن ذلك : صوم شعبان ، فقد كان النبي ﷺ يصومه كله ، أو كله إلا قليلاً ، كما روت عنه ذلك عائشة رضي الله عنها ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يكثر من الصيام في شهر شعبان أكثر من غيره ؛ لأن النبي ﷺ كان يصومه . قال أهل العلم : والحكمة من ذلك أنه يكون بين يدي رمضان كالرواتب بين يدي الفريضة . ومن ذلك أيضاً : شهر الله المحرم ، وشهر الله المحرم هو ما بين ذي الحجة وصفر ، قال فيه النبي ﷺ : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم » ويتأكد أن يصوم منه العاشر ، أو العاشر والتاسع ، أو التاسع والعاشر والحاددي عشر .

ومن ذلك أيضاً : أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، كما في حديث الباهلي وقد كان النبي ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، لا ييالي أصامها من أول الشهر أو وسطه أو آخره ^(٣) لكن أيام البيض أفضل ، وهي يوم الثالث عشر والرابع عشر ، والخامس عشر . ومن ذلك أيضاً : أن يصوم يوم عرفة ، لأن النبي ﷺ سُئل عن صومه ، فقال : إنه « يُكفر السنة الماضية والباقية » ^(٤) . يعني يكفر سنتين .

= قوله : « شهر الله المحرم » هو أول شهور السنة الهجرية وأضيف الشهر لله تعالى للتشريف والتفخيم ، قوله : « وأفضل الصلاة » أي النافلة ، قوله : « صلاة الليل » أي التهجد .

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٩) ، والإمام أحمد في المسند (١٦٥/٦) ، والنسائي في السنن (٢٠٠/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٤٢٨) ، وقوله : « صم من الحرم » أي : من الأشهر الحرم وهي أربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، قوله : « وقال بأصابعه » أي : صم منها ما شئت .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الصيام (١٩٤) ، والنسائي في السنن (٢٠٣/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٧) ، وأحمد في مسنده (١٩٧/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٨٣/٤) .

وفي حديث الباهلي الذي صام سنة كاملة حتى تغيرت هيئته ، وضعفت حاله ، وجاء إلى النبي ﷺ ، فقال له : هل تعرفني ، قال : من أنت ، قال : أنا الباهلي الذي أتيتك عام أول ، فأخبره بما كان يصنع ، وأنه لم يترك الصوم منذ فارقه ، فقال النبي ﷺ : (عَذَّبْتُ نَفْسَكَ) . وفي هذا : دليل على أنه ليس من الشرع أن يُكَلَّفَ الإنسان نفسه ما لا يطيق ، وأن يعذب نفسه ، لأن الله يقول : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَا يَبْذُلُكُمْ إِن شَكْرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] والله الموفق .

٢٢٦ - باب فضل الصوم وغيره في العشر الأول من ذي الحجة

١٢٤٩ - عن ابن عباس ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ » يعني : أيام العشر ، قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قَالَ : « وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ » ^(١) رواه البخاري .

٢٢٧ - باب فضل صوم يوم عرفة وعاشوراء وتاسوعاء

١٢٥٠ - عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ؓ قَالَ : سِئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ ، قَالَ : « يَكْفُرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ » ^(٢) رواه مسلم .

١٢٥١ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ ^(٣) . متفق عليه .

١٢٥٢ - وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سِئِلَ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ ، فَقَالَ : « يَكْفُرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ » ^(٤) رواه مسلم .

١٢٥٣ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسَ بَقِيَّةٍ إِلَى قَابِلٍ لِأَصُومَنَّ الثَّانِيَةَ » ^(٥) رواه مسلم .

(١) أخرجه البخاري في الصوم بنحوه (٩٦٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢٢٤/١) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٢٧) . قوله : « خرج بنفسه » أي : خرج لقهر عدوه ولو أدى ذلك إلى قتل نفسه وذهاب ماله في سبيل الله ، قوله : « فلم يرجع من ذلك بشيء » أي : رزقه الله الشهادة فلم يرجع هو ولم يرجع ماله .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٧) ، والإمام أحمد في المسند (٢٩٧/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٨٣/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١٢٨) ، والبخاري في الصوم (٢٠٠٤) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٤٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٧) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٢٥) ، والترمذي في الصوم (٧٦٧) ، وأحمد في مسنده (٢٥/٤) .

(٥) أخرجه مسلم في الصيام (٣٤) ، وأحمد في مسنده (٢٢٥/١) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٣٦) . وقوله : « قَابِلٌ » أي : العام القادم .

٢٢٨ - باب استحباب صوم ستة أيام من شوال

١٢٥٤ - عَنْ أَبِي أَيُّوبَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأبواب الثلاثة التي عقدها النووي في بيان أيام يُسن صيامها ، فمنها - مما يُسن صيامه - : أيام العشر ، عشر ذي الحجة الأول ، فإن النبي ﷺ قال : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام » يعني أيام العشر . وقوله « العمل الصالح » يشمل الصلاة ، والصدقة ، والصيام ، والذكر ، والتكبير ، وقراءة القرآن ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الخلق ، وحسن الجوار ، وغير ذلك ... كل الأعمال الصالحة .

ما من أيام - في السنة - يكون العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر ، « قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ » قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء » .

ففي هذا : دليل على فضيلة العمل الصالح في الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة ، من صيام وغيره ، وفيه دليل أيضًا على أن الجهاد من أفضل الأعمال ، ولهذا قال الصحابة : « ولا الجهاد في سبيل الله ؟ » . وفيه دليل على أن يخرج الإنسان مجاهدًا في سبيل الله بنفسه وماله ، وماله ؛ يعني : سلاحه ومركوبه ، ثم يُقتل ، ويؤخذ سلاحه ومركوبه ، يأخذه العدو ، فهذا فقد نفسه وماله في سبيل الله ؛ فهو من أفضل المجاهدين ، فهذا أفضل من العمل الصالح في أيام العشر ، وإذا وقع هذا العمل في أيام العشر تضاعف فضله .

ومن الأيام التي يُستَنُّ صيامها : يوم عرفة ، واليوم العاشر من شهر المحرم لحديث أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئِلَ عن صوم يوم عرفة . قال : « يكفر السنة الماضية والباقية » الماضية يعني : التي انتهت ، لأن يوم عرفة في آخر شهر من العام ، والباقية . فهو يكفر سنتين .

وسئل عن صوم يوم عاشوراء ، قال : « يكفر السنة الماضية » . فهو أقل أجرًا من صوم يوم عرفة ، ومع ذلك ينبغي أن يصوم مع عاشوراء تاسوعاء ؛ لأن النبي ﷺ قال : (لَأَنْ بَقِيتَ إِلَى قَادِمِ الْأَصْوَمِ التَّاسِعِ) يعني : مع العاشر .

ولأنه أمر أن يُصَامَ يومًا قبله أو يومًا بعده ، مخالفةً لليهود ، لأن يوم عاشوراء - العاشر من المحرم - هو

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٦٤) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٣٣) ، وابن ماجه في الصيام (١٧١٦) . قوله : « كصيام الدهر » أي : كصيام العام كله . قال العلماء : وإنما كان ذلك كصيام الدهر ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها فرمضان بعشرة أشهر والستة أيام بشهرين .

اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فكان اليهود يصومونه شكراً لله على هذه النعمة العظيمة ، أن الله أنجى جنده ، وهزم جند الشيطان . أنجى موسى وقومه ، وأهلك فرعون وقومه ، فهو نعمة عظيمة ، ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسألهم عن ذلك ، فقالوا : هذا يوم نجى الله موسى وقومه ، وأهلك فرعون وقومه فنصومه شكراً لله ، فقال : « نحن أولى بموسى منكم » ^(١) . لماذا ؟ لأن النبي والذين معه أولى الناس بالأنبياء السابقين ، ﴿ إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) [آل عمران : ٦٨] فرسول الله ﷺ أحق بموسى من اليهود ؛ لأن اليهود كفروا به ، وكفروا بعيسى ، وكفروا بمحمد ، فصامه وأمر الناس بصيامه ، إلا أنه أمر أن يخالفوا اليهود الذين لا يصومون إلا يوم العاشر ، كأن نصوم التاسع ، أو الحادي عشر ، مع العاشر ، أو الثلاثة . ولهذا ذكر بعض أهل العلم ، كابن القيم وغيره أن صيام عاشوراء ثلاثة أقسام :

- ١ - أن نصوم عاشوراء والتاسع ، وهذا أفضل الأنواع .
- ٢ - أن نصوم عاشوراء والحادي عشر ، وهذا دون الأول .
- ٣ - أن نصوم عاشوراء وحده ، فكرهه بعض العلماء ؛ لأن النبي ﷺ أمر بمخالفة اليهود ، ورخص فيه بعض العلماء ^(٣) .

وكذلك من الأيام التي يُسنُّ صيامها : ستة أيام من شوال ، كما في حديث أبي أيوب ، أن النبي ﷺ قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر » فشر العلماء ذلك بأن الحسنة بعشر أمثالها ، فيكون رمضان شهراً بعشرة أشهر ، ويكون الستة بستين يوماً ، وهم شهران ، فعلى هذا يُسن للإنسان إذا أتم صيام رمضان أن يصوم ستة من شوال .

وليُعلم أنها لا تصام قبل القضاء ، يعني : لو كان على الإنسان يوم واحد من رمضان ، وصام الست ؛ فإنه لا يحصل على أجر ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « من صام رمضان » ومن عليه يوم واحد من رمضان لم يكن صامه ، بل صام أياماً منه ، من كان عليه يوم فقد صام تسعة وعشرين ، ومن كان عليه يومان فقد صام ثمانية وعشرين ، ما صام الشهر ، والرسول ﷺ يقول : « من صام رمضان » فإذا صمت رمضان وصمت ستة أيام بعده من شوال فكأنما صمت الدهر كله .

وسواء صمتها من ثاني يوم العيد وأتبع بعضها بعضاً ، أو صمتها بعد يومين أو ثلاثة ، أو صمتها متتابعة ، أو صمتها متفرقة ، الأمر في هذا واسع ، لكن لو أنك تساهلت حتى خرج شوال وصمت ؛ فإنها لا تكون بهذا الأجر ، اللهم إلا من كان معذوراً ، مثل أن يكون مريضاً ، أو امرأة نفساء أو مسافراً ، ولم يصم في شوال وقضاها في ذي القعدة ، فلا بأس ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٤٣) ، ومسلم في الصيام (١٢٧) .

(٢) قوله : ﴿ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : ناصرهم ومجازيهم بالحسنى .

(٣) انظر زاد المعاد (٧٦/٢) .

(٤) هذا هو قول ابن عمر وابن عباس فيما روي عنهما : أنهما أصبحا صائمين ثم أفطرا . وقال ابن عمر : لا بأس به ما لم يكن نذراً =

٢٢٩ - باب استحباب صوم الاثنين والخميس

- ١٢٥٥ - عن أبي قتادة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ فَقَالَ : « ذَلِكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ - أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ - فِيهِ » ^(١) رواه مسلم .
- ١٢٥٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « تُغْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ، فَأُجِبَتْ أَنْ يُغْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ » ^(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَرواهُ مُسْلِمٌ بِغَيْرِ ذِكْرِ الصَّوْمِ .
- ١٢٥٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَحَرَّى صَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ^(٣) . رواه الترمذي وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

٢٣٠ - باب استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر

- وَالْأَفْضَلُ صَوْمُهَا فِي الْأَيَّامِ الْبَيْضِ ، وَهِيَ : الْثَالِثُ عَشَرَ ، وَالرَّابِعُ عَشَرَ وَالْخَامِيسَ عَشَرَ وَقِيلَ : الْثَانِي عَشَرَ ، وَالثَّالِثُ عَشَرَ ، وَالرَّابِعُ عَشَرَ ، وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ .
- ١٢٥٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ : صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَرَكَعَتَيْ الضُّحَى ، وَأَنْ أُوتَرَ قَبْلَ أَنْ أَنْتَامَ ^(٤) . متفقٌ عليه .
- ١٢٥٩ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ : أَوْصَانِي خَبِيبِي ﷺ بِثَلَاثٍ لَنْ أَدْعَهُنَّ مَا عِشْتُ : بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَصَلَاةِ الضُّحَى ، وَبِأَنْ لَا أَنْتَامَ حَتَّى أُوتَرَ ^(٥) . رواه مسلم .
- ١٢٦٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ » ^(٦) متفقٌ عليه .

= أو قضاء رمضان ، وقال ابن عباس : إذا صام الرجل تطوعاً ثم شاء أن يقطعه قطعه ، وقال ابن مسعود : متى أصبحت تريد الصوم فأنت على خير النظرين إن شئت صمت وإن شئت أفطرت ، وهو قول أحمد والشافعي وإسحاق والثوري ، وقد روى حنبل عن أبيه أحمد بن حنبل : إذا أجمع على الصيام فأوجه على نفسه فأفطر من غير عذر أعاد ذلك اليوم ، وقال النخعي وأبو حنيفة : يلزم بالشروع فيه ولا يخرج منه إلا بعذر ، فإن خرج قضاءه . وعن مالك : لا قضاء عليه . (انظر المغني مع الشرح الكبير ١١٣/٣) .

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٧) ، والبيهقي في السنن (٢٨٦/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٤٧) ، وابن ماجه في الصوم (١٧٤٠) ، قوله : « تعرض الأعمال » أي : تقوم الملائكة الحفظة أو غيرهم بعرض أعمال العباد على الله .

(٣) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٤٥) ، والنسائي في الصوم (٢٣٦١ ، ٢٣٦٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٨١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٥) .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٧٣/٥) بنحوه .

(٦) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٧٩) ، ومسلم في الصيام (١٩٣) .

١٢٦١ - وعن مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ أَنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . فَقُلْتُ : مِنْ أَيِّ الشُّهُرِ كَانَ يَصُومُ ؟ قَالَتْ : لَمْ يَكُنْ يَبَالِي مِنْ أَيِّ الشُّهُرِ يَصُومُ ^(١) . رواه مسلم .

١٢٦٢ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا صُمْتَ مِنَ الشُّهُرِ ثَلَاثًا ، فَصُمِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ » ^(٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٢٦٣ - وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ مِلْحَانَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنَا بِصِيَامِ أَيَّامِ الْبَيْضِ : ثَلَاثَ عَشْرَةَ ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ ^(٣) . رواه أبو داود .

١٢٦٤ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُفْطِرُ أَيَّامَ الْبَيْضِ فِي حَضَرٍ وَلَا سَفَرٍ ^(٤) . رواه النسائي بإسناد حسن .

الشرح

هذان البابان عقدهما المؤلف النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيان فضل صوم يوم الاثنين والخميس ، وثلاثة أيام من كل شهر .

أما يوم الاثنين : فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِهِ ، فَقَالَ : « ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ ، وَيَوْمُ بُعِثْتُ - أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ - فِيهِ » وكذلك مات فيه - عليه الصلاة والسلام - فيوم الاثنين ولد فيه النبي ﷺ ، لكن في أي شهر ؟ لم يتبين ، هل في شهر ربيع الأول ، أو في غيره ؟ وهل هو في اليوم الثاني عشر منه أو في غيره ، إنما المؤكد أنه ولد في يوم الاثنين . كذلك أيضًا أنزل على الرسول ﷺ فيه ، يعني : أول ما نزل عليه القرآن في يوم الاثنين .

والراوي شك ، هل قال : « أُنْزِلَ » أو « بُعِثَ » ؟ وبينهما فرق ، لأنه أُنْزِلَ عليه القرآن قبل أن يُبعث ، أنزلت عليه سورة (اقرأ باسم ربك الذي خلق ...) وبهذا صار نبيًا وأنزل عليه ، وأما البعث وهو الإرسال : فإنما كان بقوله تعالى : (يا أيها المدثر ...) وهذا بعد الأول . وعلى كُلِّ صار هذا اليوم فيه مناسبات شريفة عظيمة ، ولادة الرسول ﷺ وإنزال الوحي عليه ، أو إرساله إلى الناس . وأما صيام ثلاثة أيام من كل شهر : ففيه أحاديث : منها حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبي الدرداء ، وأبي ذر ، هؤلاء الثلاثة أوصاهم النبي ﷺ بوصية واحدة ، لكن كل واحد في وقت .

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٤) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٥٣) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٠٩) . قوله :

« من أي شهر كان يصوم » أي : هذه الأيام الثلاثة ، قوله : « لا يبالي » أي : كان لا يهتم بتعيين تلك الأيام فكان يصومها بحسب ما يقتضي رأيه ، ولعل الحكمة في ذلك : أنه لم يواظب على أيام بعينها حتى لا يظن تعيينها .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٦١) ، والنسائي في الصيام (٢٤٢٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٤٤٩) ، والنسائي في الصوم (٢٤٢٩) ، وابن ماجه في الصوم (١٧٠٧) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٣٤٥) .

أوصاهم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « صومُ ثلاثة أيام من كل شهر صومُ الدهر كله » يعني : ثلاثة أيام - والحسنة بعشرة أمثالها - تكون ثلاثين يومًا ، فتكون صومُ الدهر كله .

أوصاهم بثلاثة أيام من كل شهر ، ولم يُعَيِّن ، لم يقل : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، وأوصاهم أيضًا بركعتي الضحى .

وركعتا الضحى وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح - أي من نحو ثلث ساعة بعد طلوع الشمس - إلى قبيل الزوال - أي إلى ما قبل الزوال بنحو عشر دقائق ، كل هذا وقت لركعتي الضحى .
وثسن كل يوم ، لأن النبي ﷺ ذكر : « إن كل عضو من أعضاء بني آدم يصبح كل يوم عليه صدقة » (١) . مُقَابِلَةً للأعضاء ، والأعضاء ثلاثمائة وستون عضوًا ، إذا عليك كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة . لكن الصدقات ما هي لازمة بالمال ؛ فكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، حتى إعانة الرجل في دابته صدقة ، حتى جماع الرجل لأهله صدقة . ولكن قال النبي ﷺ : « يغني عن ذلك كله ركعتان يركعهما من الضحى » .
إذا أنت إذا ركعت ركعتين من الضحى أدت الواجب عليك من الصدقات ، وبقي الباقي تطوعًا .
أما الثالث : « وأن أوتر قبل أن أنام » : هذا لمن يخشى أن لا يقوم من آخر الليل ، الذي يخشى ألا يقوم من آخر الليل ، نقول : أوتر قبل أن تنام ، احتط لنفسك ، أما الذي يتأكد أن يقوم من آخر الليل ، فليجعل وتره من آخر الليل . هكذا جاءت السنة عن النبي ﷺ .

قال العلماء : وإنما أوصى هؤلاء بأن يوتروا قبل أن يناموا ، لأن مقتضى حالهم يقتضي ذلك ، فقد كان أبو هريرة ؓ في أول الليل يتحفظ أحاديث رسول الله ، وينام في آخر الليل (٢) .

ثم إن الأيام الثلاثة يجوز أن تصومها في العشر الأولى ، أو في العشر الأوسط ، أو في العشر الأخير ، أو كل عشرة أيام يومًا ، أو كل أسبوع يومًا ، كل هذا جائز ، والأمر واسع ، ولهذا قالت عائشة ؓ : أن النبي ﷺ لا ييالي من أي الشهر صامها ، من أوله ، أو من وسطه ، أو من آخره .
لكن اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، أحسن وأفضل ، لأنها أيام البيض .

أما صوم يوم الخميس فهو أيضًا سنة ، لكنه دون صوم يوم الاثنين ، صوم يوم الاثنين أفضل ، وكلاهما فاضل . وإنما كان صيامهما فاضلاً ، لأنه يُزَوَّى عن النبي ﷺ أن الأعمال تُغْرَضُ فيهما على الله ، وقد قال ﷺ : « فَأَجِبْ أَنْ يَعْرِضَ عَلَيَّ وَأَنَا صَائِمٌ » .

وأفضل الصيام صيام داود ، أن يصوم الإنسان يومًا وَيُفِطِرَ يومًا ، هذا لمن قدر ولم يكن عليه مشقة ، ولم يضع بسببه الأعمال المشروعة الأخرى ، ولم يمنعه عن تعلم العلم ، لأن هناك عبادات

(١) انظر الحديث بلفظه في : مسلم في صلاة المسافرين (٨٤) ، وأبو داود في السنن (١٢٨٩) ، وأحمد في مسنده

(٢) انظر في ذلك : عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣١٠/٤) . (١٦٧/٥) .

أخرى ، إذا كان كثرة الصيام تعجزك عنها فلا تكثر الصيام . . والله الموفق .

٢٣١ - باب فضل من فطر صائما وفضل الصائم الذي يؤكل عنده

ودعاء الآكل للمأكل عنده

١٢٦٥ - عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « مَنْ فَطَرَ صَائِمًا ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ » ^(١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٢٦٦ - وَعَنْ أُمِّ غَمَارَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، دَخَلَ عَلَيْهَا ، فَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ طَعَامًا ، فَقَالَ : « كُلِّي » فَقَالَتْ : إِنِّي صَائِمَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الصَّائِمَ تُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ إِذَا أَكَلَ عِنْدَهُ حَتَّى يَفْرُغُوا » وَرُبَّمَا قَالَ : « حَتَّى يَشْبَعُوا » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٢٦٧ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رضي الله عنه فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ ، فَأَكَلَ ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ » ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

باب فضل من فطر صائما هو آخر ما ذكره النووي رحمته الله في كتابه رياض الصالحين فيما يتعلق بالصيام ، وذلك أن من نعمة الله ﷻ على عباده أن شرع لهم التعاون على البر والتقوى ، ومن ذلك تفتير الصائم ، لأن الصائم مأمور بأن يفطر ، وأن يعجل الفطر ، فإذا أُعِين على هذا فهو من نعمة الله ﷻ ، ولهذا قال النبي ﷺ : « مَنْ فَطَرَ صَائِمًا ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ » .

واختلف العلماء في معنى « مَنْ فَطَرَ صَائِمًا » فقيل : إن المراد من فطره على أدنى ما يُفطر به الصائم ، ولو بتمرة .

وقال بعض العلماء : المراد بتفطيره أن يشبعه ، لأن هذا هو الذي ينفع الصائم طول ليله ، وربما يستغني به عن السحور ؟

ولكن ظاهر الحديث أن الإنسان لو فطر صائما ولو بتمرة واحدة ؛ فإنه له مثل أجره .

(١) أخرجه الترمذي في الصوم (٨٠٧) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٤٦) ، والدارمي في الصوم (١٧٠٢) . قوله : « مثل أجره » أي : أجر الصائم الذي فطره .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٨٥) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٦٥/٦) ، والدارمي في الصوم (١٧٣٨) . قوله : « تصلي عليه الملائكة » أي : تستغفر له .

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٨٥٤) ، قوله : « الأبرار » أي : الأتقياء الصالحون ، وقوله : « صلت عليكم الملائكة » أي : دعت لكم .

ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص على إفطار الصائمين بقدر المستطاع لا سيما مع حاجة الصائمين وفقرهم ، أو حاجتهم ، لكونهم لا يجدون من يقوم بتجهيز الفطور لهم ، وما أشبه ذلك .



١٢٦٨ - عن ابن عمر رضي الله عنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ ^(١) . متفقٌ عليه .

١٢٦٩ - وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَغْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ اغْتَكَفَ أَرْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ ^(٢) . متفقٌ عليه .

١٢٧٠ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَغْتَكِفُ فِي كُلِّ رَمَضَانَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اغْتَكَفَ عَشْرِينَ يَوْمًا ^(٣) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - باب الاعتكاف . والاعتكاف : لزوم المسجد لطاعة الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام ، وهو مشروع في العشر الأواخر من رمضان ، لأن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأخير ، ثم اعتكف العشر الأوسط ، يتحرى ليلة القدر ، ثم قيل له : « إنها في العشر الأخير » ، فصار يعتكف العشر الأخير من رمضان . وبهذا عرفنا أنه لا يُشْرَعُ الاعتكاف في غير رمضان ، وأن ما ذكره بعض العلماء من أنه ينبغي للإنسان إذا قصد المسجد أن ينوي الاعتكاف مدةً مكثه فيه ، قول لا دليل عليه ^(٤) ، فإن النبي ﷺ لم يشربه

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٢٥) ، ومسلم في الاعتكاف (١) ، وأحمد في مسنده (١٣٣/٢) ، (٢٨١) وابن ماجه في الاعتكاف (١٧٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٢٦) ، ومسلم في الاعتكاف (٣) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٦٦) ، والترمذي في الصوم (٧٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٤٤) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥٥/٢) ، والترمذي في الحج (٨٠٣) . قوله : « قبض فيه » أي : توفّي فيه .

(٤) أجمع العلماء على أن الاعتكاف ليس واجباً بل هو سنة مستحبة ، أو قرينة من القرب وناقلة من النوافل . وقد جاءت التعريفات لتوضح أنه ليس للاعتكاف وقت محدد أو يوم محدد وهناك دليل على أن النبي ﷺ اعتكف دون إشارة إلى وقت معين فقد روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الصبح ثم دخل المكان الذي يريد أن يعتكف فيه ، فأراد أن يعتكف العشر الأخير من رمضان فأمر فضرب له خباء . فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال : « ألبس ثردن ؟ » فلم يعتكف في رمضان واعتكف عشر من شوال . (أخرجه ابن ماجه في السنن ١/٥٦٣) (انظر في ذلك : أحكام القرآن للجصاص ١/٣٤٣ ، الأم ٢/١١٥ ، بداية المجتهد ١/٣١٤ ، فقه الكتاب والسنة ١/١٧٦) .

لأتمته ، لا بقوله ، ولا بفعله ، يعني : لم يقل للناس : إذا دخلتم المسجد فانوا الاعتكاف فيه في أي وقت ، ولم يكن يفعل ذلك هو بنفسه ، وإنما كان يعتكف العشر الأواخر تحرياً لليلة القدر ، ولهذا ينبغي للمعتكف ألا يشتغل إلا بالطاعة ، من صلاة وقراءة القرآن وذكر ، حتى تعليم العلم ، قال العلماء : « لا ينبغي للمعتكف أن يشتغل بتعليم العلم ، بل يقبل على العبادات الخاصة ، لأن هذا الزمن مخصوص للعبادات الخاصة » .

ولا يجوز للمعتكف أن يخرج من المسجد إلا لما لا بد منه ، كأن يكون ليس عنده من يأتيه بالطعام والشراب ، فيخرج ليأكل ويشرب ، أو يخرج لقضاء الحاجة ، أو يحتاج إلى الخروج من أجل غسل الجنابة ، وما أشبه ذلك . أو يحتاج للخروج لكونه في مسجد غير جامع فيذهب إلى الجمعة ، المهم : أن المعتكف لا يخرج من المسجد ، إلا لشيء لا بد له منه ، شرعاً ، أو طباعاً ^(١) .

ثم إنه ينبغي للمعتكف إذا جاءه أحد يريد أن يشغله بالكلام اللغو الذي لا فائدة منه أن يقول له : يا أخي ، أنا معتكف ، إما أن تعينني على الطاعة ، وإما أن تباعد عني ، والله تعالى لا يستحي من الحق ، وأما الجلوس اليسير عند المعتكف والتحدث اليسير ؛ فهذا لا بأس به ، لأن النبي ﷺ كان يستقبل نساءه ، وهو معتكف فيتحدث إليهن ، ويتحدثن إليه ^(٢) . والله الموفق .

* * *



قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

١٢٧١ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » ^(٣) متفق عليه .
١٢٧٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله ﷺ : « لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم » ثم قال : « ذروني ما تركتكم ؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء ؛ فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء ؛ فدعوه » ^(٤) رواه مسلم .

(١) هذا هو الذي عليه جمهور العلماء خلافاً لما قاله سعيد بن جبير والنخعي والحسن البصري من جواز شهود الجنابة وعبادة المريض ، أو الصحيح ما قاله الجمهور (انظر فقه الكتاب والسنة ١/١٧٧) .

(٢) راجع الحديث في البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٨) .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٨) ، ومسلم في الإيمان (١٩) ، والإمام أحمد في المسند (١٢٠/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٢٥/١) ، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٤) . قوله : « لو قلت نعم لوجبت » أي : لفرض عليكم الحج كل عام ، قوله : « واختلافهم على أنبيائهم » أي : تقولهم عليهم ما لم يقولوه ، وتحريفهم ما قالوه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : وجوب الحج وفضله . والحج : هو قصد مكة للتعبد لله سبحانه وتعالى بأداء المناسك ، وهو أحد أركان الإسلام بإجماع المسلمين ، ودليل فرضه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴾ . فهذه الآية نزلت في العام التاسع من الهجرة ، وهو العام الذي يسمى عام الوفود ، وبها فرض الحج . أما قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦] . ففيها فرض الإتمام لا فرض الابتداء ، ففرض الابتداء كان في السنة التاسعة في آية سورة آل عمران ، وأما فرض الاستمرار والإتمام ، فكان في آية البقرة ، في سنة ست من الهجرة .

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] . على الناس يعني : على جميعهم ، لكن الكافر لا تأمره بالحج حتى يُسلم ، وأما المسلم فنأمره بأن يحج بهذا الشرط الذي اشترطه الله ﷻ ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ يعني : من استطاع أن يصل إلى مكة ، فمن لم يستطع لفقره ؛ فلا حج عليه ، ومن لم يستطع لعجزه ؛ نظرنا ، فإن كان عجزه لا يُزجى زواله ، وعنده مال ؛ وجب أن يقيم من يحج عنه .

وإن كان يرجى زواله كمرض طارئ ، طرأ عليه في أيام الحج ؛ فإنه ينتظر حتى يعافيه الله ، ثم يحج بنفسه .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « بني الإسلام على خمس ... » وقد سبق الكلام عليه ، فلا حاجة إلى الإعادة ، والشاهد من هذا قوله ﷺ وحج البيت الحرام . والحج لا يجب إلا مرة ، إلا إذا نذر الإنسان أن يحج فليحج ، لكن بدون نذر لا يجب إلا مرة ؛ لأن النبي ﷺ حين سُئل أفي كل عام ؟ قال : « لو قلت : نعم لوجبت . ولما استطعتم » الحج مرة ، فما زاد فهو تطوع ، وهذا من نعمة الله ﷻ ، أنه لم يفرضه إلا مرة واحدة في العمر ، وذلك لأن غالب الناس يشق عليهم الوصول إلى مكة وهذه من الحكمة . تجد الصلوات الخمس مفروضة كل يوم ، الجمعة مفروضة في الأسبوع مرة ، لأن الجمعة يجب أن تكون في مسجد واحد فقط في البلد كله ، وهذا قد يكون فيه مشقة لو قلنا للناس اجتمعوا في مسجد واحد كل يوم خمس مرات ، فيه مشقة ، ولهذا لم تفرض الجمعة إلا في الأسبوع مرة .

الزكاة لم تجب إلا في السنة مرة ، الصيام لم يجب إلا في السنة مرة ، الحج لا يجب إلا في العمر مرة ، وهذا من حكمة الله تعالى ورحمته ، حيث جعل هذه الفرائض مناسبة لأحوال العباد .

وقال النبي ﷺ : « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « ذروني ما تركتكم » يعني : لا تسألوا عن أشياء أنا ساكت عنها ، ما دمت ساكت عن الشيء فاسكتوا عنه ، لأن أعظم الناس مجرمًا من سأل عن مسألة حلال فحرمت من أجل مسألته ، أو عن

مسألة غير واجبة ، فوجبت من أجل مسألته .

لكن بعد موت النبي ﷺ لا بأس أن يسأل الناس العلماء عن أمور دينهم ، لأن الشرع انتهى ، فليس هناك في تحليل ولا تحريم ، ولا إيجاب ، ولا إسقاط . فهذا هو مراد الرسول ﷺ بأن تسأل ولا تقل : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ فَتَسْأَلُوا ﴾ ^(١) [المائدة : ١٠١] اسأل .

ثم بيّن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن ما أهلك الذين من قبلنا كثرة مسألتهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، يعني : أنهم يسألون .. يسألون ، فهلكوا ، وانظر إلى أصحاب البقرة حين قال لهم موسى - عليه الصلاة والسلام - : اذبحوا بقرة ، وخذوا جزءاً منها ، واضربوا به القتل ، وكان القتل من بين قبيلتين أو طائفتين قُتل ، فادعت إحدى الطائفتين على الأخرى أنها قتلتها ، فأنكروا . وهو ميت ، وليس يوجد شهود . فجاءوا إلى موسى - عليه الصلاة والسلام - فأمرهم بأمر الله ، أن يذبحوا بقرة ، لو ذبحوا أي بقرة تلك الساعة لحصل لهم المقصود ، لكن جعلوا يسألون : ما هي ؟ ما لونها ؟ ما هي ؟ حتى شددوا ، فشدد الله عليهم ، فذبحوها وما كادوا يفعلون ^(٢) .

فالحاصل : أن كثرة المسائل والاختلاف على الأنبياء من أسباب الهلاك ، وهذا كله كما قلت : في عهد النبوة ، عهد التشريع .

أما الآن : فاسأل عما تحتاج إلى السؤال عنه ، ولا حرج عليك .

أما أغلوطات المسائل وألغاز المسائل ، والأشياء التي يقصد بها التشدد والتعنت فهذه منهي عن السؤال عنها ، لقول النبي ﷺ : « هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » ^(٣) . والله أعلم .

* * *

١٢٧٣ - وَعَنْهُ قَالَ : سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « حَجٌّ مَبْرُورٌ » ^(٤) متفق عليه . « الْمَبْرُورُ » هُوَ الَّذِي لَا يَرْتَكِبُ صَاحِبُهُ فِيهِ مَعْصِيَةً .

١٢٧٤ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَزِفْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ؛ رَجَعَ

(١) نزلت هذه الآية حينما أكثر المسلمون من السؤال عن أمور يسوؤهم إبدائها لكون التكليف بها شاقاً عليهم كسؤالهم عن الحج أني كل عام ؟ أو لكونها مستورة وفي إظهارها فضيحة للسائل كسؤال بعضهم عن أبيه ؛ فنهوا عن السؤال عن أمثال هذه الأمور .

(٢) انظر الآية ٦٧ - ٧١ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه : مسلم في العلم (٧) ، والبخاري في شرح السنة ٣٩٦/١٢ والمتنطع : المتعمق في الكلام الغالي ، ويكون الذي يتكلم بأقصى حلقه مأخوذ من النطع .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٦) ، ومسلم في الإيمان (١٣٥) ، والبيهقي في السنن (٢٦٢/٥) .

كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ^(١) متفق عليه .

١٢٧٥ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « العُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ » ^(٢) متفق عليه .

١٢٧٦ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ ، أَقَلَّ نَجَاهِدُ ؟ فَقَالَ : « لَكِنْ أَفْضَلُ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ » ^(٣) رواه البخاري .

١٢٧٧ - وَعَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ » ^(٤) رواه مسلم .

١٢٧٨ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : « عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً » - أَوْ « حَجَّةً مَعِي » ^(٥) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كتابه رياض الصالحين ، في باب : وجوب الحج وفضله . وهي تدل على أمور : منها أن الحج المبرور في المرتبة الثالثة بالنسبة لأفضل الأعمال ، فقد سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله ، ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، ثم قال الثالث : حج مبرور . فالحج المبرور هو الذي اجتمعت فيه أمور :

الأمر الأول : أن يكون خالصاً لله بأن لا يحمل الإنسان على الحج إلا ابتغاءً لرضوان الله والتقرب إليه ﷻ ، لا يريد رياءً ولا سمعة ، ولا أن يقول الناس : فلان حج ، وإنما يريد وجه الله .

الثاني : أن يكون الحج على صفة حج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يعني أن يتبع الإنسان فيه الرسول ﷺ ما استطاع .

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١) ، ومسلم في الحج (٤٣٨) بنحوه . وقوله : « فلم يرفث » الرفت : التصريح بذكر الجماع . قال الأزهري : هي كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة ، قوله : « ولم يفسق » الفسوق : المعصية .

(٢) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٧٣) ، ومسلم في الحج (٤٣٧) ، ومالك في الموطأ (٣٤٦) ، والبيهقي في السنن (٣٤٣/٣) . قوله : « كفارة لما بينهما » أي : أنهما مكفرتان لما بينهما من صفات الذنوب المتعلقة بالله تعالى ، قوله : « المبرور » هو الذي لا يخالطه إثم .

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢٠) ، والإمام أحمد في المسند (٧١/٦) ، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠١) ، وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٧٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤٣٦) ، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٤) ، والنسائي في السنن (٣٠٠٣) ، والدارقطني في سننه (٣٠١/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٨٢) ، ومسلم في الحج (٢٢٢) ، والترمذي في الحج (٩٣٩) ، وأبو داود في المناسك (١٩٨٨) . قوله : « تعدل حجة » أي : في الأجر فقط .

الثالث: أن يكون من مال مباح ، ليس حراماً ، بأن لا يكون رباً ، ولا من غش ، ولا من ميسر ، ولا غير ذلك من أنواع المفاصد المحرمة ، بل يكون من مالٍ حلال ، ولهذا قال بعضهم :

إِذَا حَجَجْتَ بِمَالٍ أَضْلُهُ سُحَّتْ فَمَا حَجَجْتَ وَلَكِنْ حَجَّتَ الْعَيْرُ

يعني : الإبل حجت ، أما أنت فما حججت ، لماذا ؟ لأن مالك حراماً .

الرابع : أن يجتنب فيه الرفث والفسوق والجدال ، لقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ رَضَ فِيهِكَ لِحَجِّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . فيجتنب الرفث وهو الجماع ودواغيه ، ويجتنب الفسوق ، سواء كان في القول المحرم ، الغيبة ، النميمة ، والكذب ، أو الفعل : كالنظر إلى النساء ، وما أشبه ذلك ، لا بد أن يكون قد تجنب فيه الرفث والفسوق ، والجدال : المجادلة والمنازعة بين الناس في الحج ، هذه تنقص الحج كثيراً .

اللهم إلا جدالاً يراد به إثبات الحق ، وإبطال الباطل ؛ فهذا واجب ، فلو جاء إنسان مبتدع يجادل ، والإنسان محرم ؛ فإنه لا يتركه بل يجادله ويبين الحق ، لأن الله أمر بذلك : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِلَاغٍ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحل : ١٢٥] لكن الجدال من غير داع يتشاحنون أيهم يتقدم ، أو عند رمي الجمرات ، أو عند المطار ، أو ما أشبه ذلك ، هذا كله مما ينقص الحج ، فلا بد من ترك الجدال ، فالحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة . « ومن حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » أي : رجع من الذنوب نقياً لا ذنوب عليه كيوم ولدته أمه .

وفي حديث عائشة الذي سألت فيه النبي ﷺ ، نرى الجهاد أفضل الأعمال ، قال : لكن أفضل الأعمال حج مبرور ، هذا بالنسبة للنساء ؛ فالنساء جهادهن هو الحج ، أما الرجال فالجهاد في سبيل الله أفضل من الحج ، إلا الفريضة ؛ فإنها أفضل من الجهاد في سبيل الله ، لأن الفريضة ركن من أركان الإسلام .

وفي هذه الأحاديث عموماً دليل على أن الأعمال تتفاضل بحسب العامل ، ففي حديث أبي هريرة ذكر رسول الله ﷺ : أن أفضل الأعمال : الإيمان بالله ، ثم الجهاد في سبيل الله ، ثم الحج ، وفي حديث ابن مسعود أنه سأل النبي ﷺ : أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قال : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قال : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » .

فكلٌ يخاطب بما يليق بحاله ، وكما قال رسول الله ﷺ للرجل الذي قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » (١) . ما قال : أوصيك بتقوى الله ، وبالعمل الصالح ، لأن هذا الرجل يليق بحاله أن يُوصى بترك الغضب ، لأنه غضوب . فالرسول ﷺ يخاطب كل إنسان بما يليق بحاله ، ويُعلم هذا بتتبع الأدلة العامة في الشريعة ، وبيان مراتب الأعمال .

* * *

١٢٧٩ - وَعَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ ، أَذْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا ، لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ ، أَفَأُحُجُّ عَنْهُ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ^(١) متفقٌ عليه .

١٢٨٠ - وعن لَقِيط بن عامر رضي الله عنه أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ ، وَلَا الْعُمْرَةَ ، وَلَا الظُّفْرَ . قَالَ : « حُجَّ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ » ^(٢) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٢٨١ - وَعَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ رضي الله عنه قَالَ : حُجَّ بِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، وَأَنَا ابْنُ سَبْعٍ سِنِينَ ^(٣) . رواه البخاري .

١٢٨٢ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَ رَجُلًا بِالرُّوْحَاءِ ، فَقَالَ : « مَنْ الْقَوْمُ ؟ » قَالُوا : الْمُسْلِمُونَ . قَالُوا : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : « رَسُولُ اللَّهِ » فَرَفَعَتِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ : أَلْهَذَا حَجٌّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، وَلَكِ أَجْرٌ » ^(٤) . رواه مسلم .

١٢٨٣ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَجَّ عَلَى رَحْلٍ ، وَكَانَتْ زَامِلَتُهُ ^(٥) . رواه البخاري .

١٢٨٤ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَتْ عُكَاظُ ، وَمَجَنَّةُ ، وَذُو الْحِجَازِ أَشْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَتَأْتَمُّوْنَ أَنْ يَتَّحِزُّوا فِي الْمَوَاسِمِ ، فَتَزَلَّتْ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٨] فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ ^(٦) . رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمته الله في باب : وجوب الحج وفضله .

والحديث الأول والثاني : فيمن عجز عن الحج ، هل يحج عنه أحد أم لا ؟

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥١٣) ، ومسلم في الحج (٤٠٧) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٥٦) ، والترمذي في الحج (٩٢٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في الحج (٩٣٠) ، وأبو داود في المناسك (١٨١٠) ، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠٦) ، والنسائي في السنن (٢٦٣٧) . قوله : « وَلَا الظُّفْرَ » بفتحين أو سكون الثاني ؛ مصدر ظعن إذا سافر ، وفسر الظنن بالراحلة ؛ أي : لا يقوى على السير ولا على الركوب من كبر السن .

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٨٥٨) ، والترمذي في الحج (٩٢٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤٠٩) ، والترمذي في الحج (١٨٥٨) ، والبيهقي في السنن (١٥٥/٥ ، ١٥٦) . قوله : « بِالرُّوْحَاءِ » موضع من عمل الفُزَع بينها وبين المدينة ثلاثون ميلاً وقيل أربعون .

(٥) أخرجه البخاري في الحج (١٥١٧) ، وأبو داود في المناسك (١٨٨٠) بمعناه . قوله : « زَامِلَتُهُ » البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع . والمراد : أنه لم يكن معه زاملة لحمل طعامه ومتاعه .

(٦) أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٠) . قوله : « عُكَاظُ » أحد أسواق العرب في الجاهلية بالقرب من نواحي « رَكْبَةِ » إلى جهة الطائف ، قوله « ذُو الْحِجَازِ » سوق بعرفة على ناصية كيبك ، وهو جبل خلف عرفات مشرف عليها .

ففي حديث ابن عباس رضي الله عنه : أن امرأة سألت النبي ﷺ فقالت : إن أبي أدركته فريضة الله على عباده في الحج ، شيخاً لا يثبت على الرحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : « نعم » .

فدل ذلك على أن الإنسان إذا عجز عن الحج عجزاً لا يرجي زواله ، كالكبير والمرض الذي لا يرجي شفاؤه ، وما أشبه ذلك ؛ فإنه يحج عنه .

وفي هذا دليل على أن المرأة يجوز أن تحج عن الرجل ، وكذلك الرجل يجوز أن يحج عن المرأة ، والرجل عن الرجل ، والمرأة عن المرأة ، كل ذلك جائز ^(١) ، ولذلك أذن النبي ﷺ للرجل الذي أخبره أن أباه شيخ كبير لا يستطيع الركوب ، ولا الحج ، ولا العمرة ، فقال : « حج عن أبيك واعتمر » .

وفي هذه الأحاديث أيضاً دليل على جواز حج الصبيان ، فها هو السائب بن يزيد رضي الله عنه يقول : حج بي مع النبي ﷺ في حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين .

طفل حج به : فدل ذلك على جواز الحج من الأطفال ، وكذلك حديث ابن عباس : أن امرأة رفعت إلى النبي ﷺ صبياً فقالت : ألهذا حج ؟ قال : نعم ، ولك أجر .

ففي هذين الحديثين دليل على جواز حج الصبيان ، والصبي يفعل ما يفعله الكبير ، وإذا عجز عن شيء فإنه يُفعل عنه إن كان مما تدخله النيابة ، أو يحمل إذا كان مما لا تدخله النيابة ، فمثلاً إذا كان لا يستطيع أن يطوف أو يسعى يُحمله ، إذا كان لا يستطيع أن يرمي يُرمى عنه ، لأن حمله في الجمرات فيه مشقة ولا فائدة من حمله ، لأنه ليس رمياً بيده ، لهذا نقول : في الطواف والسعي يحمل ، وفي الرمي يُرمى عنه ، ثم إن الطائف والساعي ، هل يسعى لنفسه وهو حامل طفله ، ينوي به السعي عن نفسه وعن طفله ، والصواب عن نفسه وعن طفله ؟

نقول : لا ، فيه تفصيل : إن كان الطفل يعقل النية ، وقال له وليه : انو الطواف ، انو السعي ؛ فلا بأس أن يطوف به وهو حامله ، ينوي عن نفسه والصبي عن نفسه ، وإن كان لا يعقل النية ؛ فإنه لا يطوف به ، وينوي نيتين : نية لنفسه ، ونية لمحموله ؛ بل يطوف أولاً عن نفسه ، ثم يحمل صبيه فيطوف به ؛ أو يجعله مع إنسان آخر يطوف به ، وذلك لأنه لا يمكن أن يكون عمل واحد بنيتين ؛ فهذا هو التفريق في مسألة الطواف به .

ثم إن الإنسان إذا حج ؛ فإنه يجب عليه وهو نائب لغيره ، أن يفعل كل ما في وسعه من تكميم الحج : من أركانه ، وواجباته ومكملاته ، لأنه نائب عن غيره ، فلا ينبغي له أن يهمل فيما يقوم به عن الغير ، بخلاف من حج لنفسه ، فمن حج لنفسه وترك المستحب فلا بأس . لكن الحج عن الغير تؤديه بقدر ما تستطيع . والله الموفق .

(١) وذلك الذي عليه جمهور الحنفية والشافعية والحنابلة وأهل الظاهر ، أما المالكية : فلا تجوز عندهم النيابة في الحج ، ووجه ذلك عندهم : أن العبادات لا يتوب فيها أحد عن أحد وهو رأي مرجوح والراجح ما ذهب إليه الجمهور ، وهو جواز النيابة في الحج ، وقد استثنى الحنابلة من ذلك النيابة في حج التطوع فقالوا إنها تجوز في الفرض ولا تجوز في التطوع (انظر : بدائع الصنائع ١٢٥/٢ ، والكافي ٥٢٠/١ ، وبداية المجتهد ٢٧٣/١ ، والمهذب ١٩٩/١) .

كتاب الجهاد

٢٣٤ - باب فضل الجهاد

قال الله تعالى : ﴿ وَذَلَّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُذَلِّلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦] وقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال تعالى : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(١) [التوبة: ٤١] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلِلُونَ وَيُقْلِلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَتًّا فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] وقال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُحْسِنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَتَيْنِ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى بِعْدِ رَحْمَتِي جَعَلَ مِنْ غَلَابِ آلِي ۝ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) [الصافات: ١٠، ١٣] والآيات في الباب كثيرة مشهورة .

وأما الأحاديث في فضل الجهاد فأكثَر من أَنْ تُحْصَرَ ، فَمِنْ ذَلِكَ .

١٢٨٥ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سِئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « حَجٌّ مَبْرُورٌ » ^(١) متفق عليه .

١٢٨٦ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : « الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « بِرُؤَاغِ الدِّينِ » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٢) متفق عليه .

(١) قوله تعالى : ﴿ كَافَّةً ﴾ أي : جميعًا . قوله تعالى : ﴿ أَنْفِرُوا ﴾ أي : اخرجوا . قوله تعالى : ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أي : شبابًا وشيوخًا .

(٢) قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِشِرُوا ﴾ أي : افرحوا . قوله تعالى : ﴿ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ هم الذين لديهم عذر لا يستطيعون القتال من أجله . قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ﴾ أي : المجاهدين والقاعدين بغير عذر . قوله تعالى : ﴿ الْمُحْسِنُ ﴾ أي : الجنة . قوله تعالى : ﴿ وَلُفْرَيْنَ ﴾ أي : ونعمة أخرى . قوله تعالى : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ عاجل .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٦) ، ومسلم في الإيمان (١٣٥) ، والبيهقي في السنن (٢٦٢/٥) . قوله : « أي العمل أفضل » أي : أكثر ثوابًا عند الله .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٦) ، ومسلم في الإيمان (١٣٨) ، والنسائي في السنن (٢٦٢٤) ، والدارمي في الجهاد (٢٣٩٣) . قوله : « على وقتها » أي : في وقتها المحدد .

١٢٨٧ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ » ^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

الشرح

قال المؤلف النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب رياض الصالحين ، كتاب الجهاد : الجهاد مصدر جاهد يجاهد ، ومعناه : بذل الجهد في مكافحة العدو . وينقسم إلى ثلاثة أقسام :
القسم الأول : جهاد النفس .

والثاني : جهاد المنافقين .

والثالث : جهاد الكفار المحاربين .

فأما الأول : فعليه ينبنى الجهاد الثاني والجهاد الثالث .

ومعنى جهاد النفس : حمل النفس على القيام بالواجبات ، وترك المحرمات ، لأن النفس تحتاج إلى معاناة وإلى مجاهدة ، إذ أن لكل إنسان نَفْسَيْنِ نفساً أماراً بالسوء ، ونفساً مطمئنة تأمر بالخير ، فهاتان النفسان دائماً في صراع ، النفس الأمار بالسوء تريد منه أن يفعل السوء فهي أمار ، وأمار صيغة مبالغة ، أو هي بمعنى الكثرة ، أو أن من شأنها وطبيعتها الأمر بالسوء ، يعنى النسبة ، كما تقول : نجار ، وصناع ، وما أشبه ذلك .

فالنفسان دائماً في صراع ، فيجاهد الإنسان بنفسه المطمئنة نفسه الأمار بالسوء .. ! وجرب نفسك ، عندما تهم بفعل الخير ، تجد هناك جاذباً آخر يجذبك إلى الشر ، ويشطك ^(٢) عن الخير ، ويقول : إن فعلت كذا ، صار كذا وكذا ، من الأمور المثبطة عن الخير ، فأنت دائماً في جهاد ، وأعظم ما يجاهد عليه الإنسان نفسه ، الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في العبادات ، في المعاملات ، في طلب العلم ، في كل الأحوال .

قال بعض السلف : ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص ، لأن الإنسان قد يميل قلبه إلى مراعاة الناس ، أو يميل قلبه إلى أن يريد عرضاً من الدنيا بعمل الآخرة أو ما أشبه ذلك . فالإخلاص شديد عظيم يحتاج إلى معاناة عظيمة شديدة . والكلمة الواحدة مع الإخلاص تنجي صاحبها من النار وتدخله الجنة ، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » ^(٣) وقال - عليه الصلاة والسلام - : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » ^(٤) كلمة واحدة مع الإخلاص توصل صاحبها إلى هذه الدرجة العظيمة ، النجاة من

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٥١٨) ، مسلم في الإيمان (١٣٦) ، والنسائي في السنن (١١٣/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٦٢/٥) .
(٢) ثبطه : أي : أعاقه ومنعه .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٩٩) ، وأحمد في مسنده (٣٧٣/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٤٧/٥) ، والحاكم في المستدرک (٣٥١/١) .

النار ودخول الجنة . ولهذا عرف السلف رحمهم الله قدر الإخلاص ، وجاهدوا أنفسهم عليه ، وحرصوا على أن تكون أعمالهم كلها خالصة لله ﷻ . وبالإخلاص لله لا بد أن يتبع الإنسان رسول الله ﷺ ، لأن المخلص في طلب الوصول إلى الله لا بد أن يسلك الطريق الموصل إليه ، ولا طريق يُوصل إلى الله إلا طريق محمد ﷺ ، فهي مستلزمة للمتابعة ، ولهذا يقال : إخلاص لله تعالى في القصد ، وإخلاص للرسول ﷺ في المتابعة .

فالمهم : أن جهاد النفس ينبنى عليه جهاد المنافقين ، وجهاد الكفار المحاربين ، بل كل الأعمال تنبنى على جهاد النفس ، وهنا نذكركم بحديث يُروى عن النبي ﷺ أنه قال حين رجع من تبوك : « رجعنا من الجهاد الأصغر ، إلى الجهاد الأكبر » يعني : جهاد النفس ^(١) وهذا الحديث لا أصل له ، ولا يصح عن النبي ﷺ ، لكنه متداول بين الناس إلا أنه من الأحاديث التي لا أصل لها ، لأنه أحياناً يشتهر على ألسن الناس أحاديث ليس لها إسناد ، وليس لها صحة كقول بعضهم : « حب الوطن من الإيمان » ^(٢) هذا غير صحيح ، بل حب الديار الإسلامية من الإيمان ، أما الوطن فقد يرتحل الإنسان ويهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ، ولا يكون حبها من الإيمان ، بل دار الكفر مبغوضة هي وأهلها ، أما الديار الإسلامية فحبها من الإيمان ، سواء كانت وطنك أم لا .

هذا النوع الأول من الجهاد ، وهو : جهاد النفس ، الذي ينبنى عليه جهاد المنافقين ، وجهاد المحاربين .

الثاني : جهاد المنافقين ، وجهاد المنافقين من أصعب ما يكون أيضاً ؛ لأن المنافق عدو خفي ، بل هو العدو حقيقة ، وانظر إلى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ هُرِّدُوا إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَاتَّبَعُوهُمْ فَاتَّبَعُوا آلِهَتَهُمْ اللَّهَ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ^(٣) [المنافقون : ٤] ، كلمة هم العدو جملة خبرية ، طرفاً إسنادها معرفة فتفيد الحصر ، كأنه قال : لا عدو لك إلا المنافق ، المنافق والعياذ بالله هو بيننا ، يصلي ويتصدق ويصوم ويدعي أنه منا ، لكنه جاسوس علينا ، ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَاوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] ربما يأتي إلى أحد طلبة العلم ، ويلتقي به ويصاحبه ويظهر له المحبة والمودة ، فإذا قال له أصحابه إذا ذهب إليهم : لماذا أنت ملازمه ؟ يقول : أسخر به ، وهذا كما أنه موجود في عهد الرسول ﷺ موجود في عهدنا الآن ، فهذا جهاد المنافق بماذا يكون ، ؟

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٥١١/١٠) ، والقاري في الأسرار المدفوعة (٢٠٦) ، والفتني في تذكرة الموضوعات (١٩١) ، وقال العجلوني : قال ابن حجر في (تسديد القوس) : هو مشهور على الألسنة ، وهو من كلام إبراهيم بن عيله .

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٤١٣/١) ، والألباني في الضعيفة (٣٦) ، قال الصفاني : موضوع ، وقال في المقاصد : لم أقف عليه ، ومعناه صحيح ، ورد القاري قوله : ومعناه صحيح ، بأنه عجب ؛ إذ لا تلازم بين حب الوطن وبين الإيمان .

(٣) قوله تعالى : ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف يصرفون عن الحق والرشد إلى ما هم عليه من الكفر والضلال .

المنافق لا يمكن أن تسل عليه السيف ، لماذا ؟ لأنه يزعم أنه مؤمن ، ولهذا لما أستاذن النبي ﷺ في قتل المنافقين أي أن يقتلهم ، وقال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ^(١) . فهم أصحاب في الظاهر ، مسلمون ، إذا فلا نسل عليهم السيف ، لكن بماذا أجاهده ؟!

جهاده بالعلم والمناظرة ، وتحذيره من أن يبقى على النفاق . ولا تيأس وتقول : هذا منافق ، فلقد تاب أناس في عهد الرسول ﷺ . كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ من هم ؟! المنافقون ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ رَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ لا تَمْدَرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِسْتِكْرَارٍ إِنْ تَقِفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴾ [التوبة : ٦٥ : ٦٦] ومتى يكون العفو ؟! بالإيمان ، بالتوبة من النفاق ، فالله سبحانه وتعالى قد يُن على المنافق فيتوب ، فلا تيأس ، جاهده بالعلم والبيان والنصح ، والإرشاد ، وحذره من العقوبة ، هذا جهاد المنافق .

أما جهاد الكافر المحارب : فهو الذي أراده المؤلف في هذا الباب ، وساق فيه الآيات المتعددة ، والأحاديث الكثيرة .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٣٦] . كافة : يعني عامة ، كل الكفار يجب أن نقاتلهم وأن نجاهدهم إلى أن يقولوا : لا إله إلا الله ، وقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويصوموا رمضان ، ويحجوا البيت ، أو يُسَلِّمُوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن سَلَّمُوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، كفنا عن قتالهم ، لقول الله تبارك وتعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] . فيجب على المسلمين أن يقاتلوا الكفار ، كل كافر من أي بلد كان ، من الروس أو الأمريكان أو الإنجليز أو الفرنسيين أو الفلبينيين وغيرهم ، يجب عليهم أن يقاتلوا كل كافر حتى يُسلم أو يعطي الجزية عن يد .

ولكن إذا قال قائل : كيف يكون ذلك اليوم في هذا العصر ؟! قلنا : إن الواجبات لها شروط ، منها : الاستطاعة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(٢) [الحج : ٧٨] . ومعلوم أن المسلمين اليوم مع الأسف الشديد يقاتل بعضهم بعضاً ، وليس عندهم تفكير في أن يقاتلوا لإعلاء كلمة الله ، هذا ظني فيهم ، والواقع شاهد بذلك بأن المسلمين لا يريدون هذا على

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٠٥) ، ومسلم في البر والصلة (٦٣) ، والترمذي في السنن (٣٣١٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٣/٣) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ اجْتَبَاكُمْ ﴾ : اختاركم للذب عن دينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله . وقوله تعالى : ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي : ضيق لا مخرج منه .

الإطلاق ، ولا سيما الولاة منهم ، ويدلك على هذا ما يُفعل بإخواننا المسلمين في البوسنة والهرسك من ذبح الرجال ، كأنما تذبح الخراف ، وانتهاك الأعراض ، وابتزاز الأموال ، وإذلال الإسلام - وهذا أعظم - لأنه لا يهمني أن يقتل ألف شخص من المسلمين بقدر ما يقال : إن المسلمين أذلوا بإسلامهم .

فالقتال اليوم في فلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان وغيرها كلها لإذلال المسلمين ، والأمة الإسلامية مع الأسف الآن متفرقة ، مشتتة ، لم يبق أحد منها يثار لدين الله ﷻ ، فكيف يمكن أن يقاتلوا الكفار ؟! في الوقت الحاضر لا يمكن من أجل الذل الذي ضربه الله على قلوب ولاة الأمور في البلاد الإسلامية ، وعدم الإعداد للجهاد في سبيل الله .

بل ربما يمد بعضهم يد الذل لعدوه الذي كان بالأمر يقاتله ، يمد له يد الذل والاستسلام ، فكيف نطلب من المسلمين أن يقاتلوا الكفار ، نعم .. الله يقول : قاتلوهم ؛ ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ويقول : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا ﴾ ولكن مع الأسف - إنا لله وإنا إليه راجعون - كل هذا ضاع ، فالإنسان ينصرف قلبه دماً ، وتجرح كبده إذا ما رأى ما يفعل بالمسلمين الذين يشهدون : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والذين هم في أشد الشوق إلى معرفة الدين الإسلامي ، والعمل به كما نسمع من إخواننا الذين يأتون من البلاد المستعمرة من الشيوعيين . يحدثوننا بفرحهم الشديد إذا وجدوا من يعلمهم دين الإسلام ، ويقبلون على ذلك رجالاً ونساء ، ومع هذا نتركهم يُذبحون ، والمسلمون لم يرفعوا لذلك رأساً ، وإن شئت قلت : ولم يروا بذلك بأساً إلا أن يشاء الله . فنحن الآن في ذل ليس بعده ذل ، وسبب ذلك هو أن الله ﷻ ابتلى كثيراً من المسلمين بالإعراض التام عن دينهم ، لا يريدون إلا عرض الدنيا ، والترف ، ولهذا ترى المتحدثين في محبة ولا يبالون بالدين إلا من شاء الله .

أما كلام الرب ﷻ فاسمعوا إليه ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ كما يقاتلونكم : أي الذي سيقاقل سيقاقله هو ، فاثأروا لأنفسكم على الأقل ، بصرف النظر عن هذا الدين أو الإسلام ، ولكن مع الأسف الأمر بالعكس .

بل إنا ربما الآن - مع الأسف - المواطنون منا يشجعون أعداء الإسلام على قتال المسلمين ، انظر إلى العمالة التي ملئت بها الدنيا ، أكثرهم كفار ، مع توافر المسلمين في البلاد الإسلامية الفقيرة التي يفزوها النصارى من كل وجه ، ف نجد المواطن ما همه إلا أن ينتهي من عمله ، ويقول له الشيطان : إن الكافر أحسن في العمل من المسلمين ، المسلم يقول : أذهب أصلي ، أصوم رمضان ، أحج ، أعتمر ، فيسافر . فيزين له الشيطان سوء عمله ، فيترك المسلمين ، ويأتي بهؤلاء الكفرة من أجل حطام الدنيا ، من أين لنا بالتقدم ؟ ومن أين لنا أن نقاتل في سبيل الله والأمر هكذا ؟ .

فالإنسان يقرأ هذه الآيات ويقول : سبحان الله ، هذه لنا أم لغيرنا ؟! ومع ذلك لا تحرك ساكناً .

قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة: ٢١٦] كتب : من الذي كتبه ؟ من الله تعالى ، كتب بمعنى : فرض ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ : فرض عليكم الصيام . ﴿ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ : تكرهونه ، لكنه خير ، ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لو كرهتموه فهو خير ، ما هو الخير ؟! ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١] هذا خير عظيم ، وكما سيأتي إن شاء الله في الآية الثالثة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة: ١١١] ، ثم أنت أيها المسلم إذا قاتلت ومجرت واستشهدت ، أنظن أن عدوك سالم ؟ ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ [النساء: ١٠٤] أي في طلبهم ، ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَكُمْ كَمَا تَأْلُمُونَ ﴾ هذا الجرح الذي مجرحت ، ومجرح عدوك يألم كما تألم ، ولكن ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤] ، فهو لاء كفار ليس لهم إلا النار ، أما أنت فترجوا من الله منازل الشهداء ، وترجون من الله ما لا يرجون ، ولما قام أبو سفيان قبل أن يسلم في يوم أحد قام يقول : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال - يعني أنتم غلبتمونا ، ونحن غلبناكم - ماذا قال المسلمون ؟! قالوا : لا سواء ، قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار ^(١) فرق عظيم ، فالقتال نكرهه ويكرهه العدو ، لكن فرق بين إذا ما قتل الواحد منا أو منهم ، أو جرح الواحد منا أو منهم ، فنسأل الله تعالى أن يقيم علم الجهاد ، جهاد الأنفس وجهاد الأعداء ، وأن يهدي ولاية أمور المسلمين لإقامة دين الله ظاهراً وباطناً وأن يعيدهم من الشرور ، وأن يعيدهم من البطانة السيئة التي تضرهم ولا تنفعهم ، إنه على كل شيء قدير .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] .

ساق المؤلف النووي رحمته الله آيات من الجهاد منها ما سبق ، ومنها ما يلحق إن شاء الله ، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وقد سبق أن القتال واجب على المسلمين أن يقاتلوا أعداء الله ، وأعداءهم من اليهود والنصارى والمشركين والشيوعيين ، وغيرهم ، كل من ليس بمسلم ، فالواجب على المسلمين أن يقاتلوه حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وذلك إما بإسلام هؤلاء ، وإما بأن يذلولوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، نحن لا نكرههم على الإسلام ، لا نقول : لا بد أن تسلموا ، ولكن نقول : لا بد أن يكون الإسلام هو

الظاهر ، فإما أن تسلموا وحياكم الله ، وإما أن تبقوا على دينكم ولكن أعطوا الجزية عن يد وأتم صاغرون ، فإن أَبَوْا ، الإسلام ، وثُم الجزية ، وجب علينا قتالهم ، ولكن يجب قبل قتالهم أن نعد ما استطعنا من قوة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] والقوة نوعان : قوة معنوية ، وقوة مادية حسية « القوة المعنوية » الإيمان ، الإيمان بالله والعمل الصالح ، قبل أن نبدأ بجهاد غيرنا ، قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَحَرٍِّ نُّجِّيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ﴿ تَوَكَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجَاهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف : ١٠ ، ١١] فالإيمان قبل الجهاد ، ثم بعد ذلك الإعداد بـ « القوة المادية » ، ولكن مع الأسف إن المسلمين لما كان بأسهم بينهم من أزمة متطاولة ، نسوا أن يُعِدُّوا هذا أو هذا ، لا إيمان قوي ، ولا مادة ، سبقنا الكفار بالقوة المادية بالأسلحة وغيرها ، وتأخرنا عنهم بهذه القوة كما أننا تأخرنا عن إيماننا الذي يجب علينا تأخرا كبيرا وسار بأسنا بينما ، نسأل الله السلامة والعافية .

فالقتال واجب ولكنه كغيره من الواجبات لا بد من القدرة ، والأمة الإسلامية اليوم عاجزة لاشك عاجزة ، ليس عندها قوة معنوية ، ولا قوة مادية ، إذا يسقط الجواب لعدم القدرة عليه فاتقوا الله ما استطعتم ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ كَزْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي القتال كره لكم ، ولكن الله قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَزْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ .

أول الآية خاص ، بماذا ؟ بالقتال ، وآخر الآية عام ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا ﴾ ، ولم يقل : وعسى أن تكرهوا القتال ، ولكن قال : ﴿ شَيْئًا ﴾ ، أي شيء يكون ، ربما يكره الإنسان شيئا يقع ويكون الخير فيه ، وربما يحب شيئا أن يقع ويكون الشر فيه ، وكم من شيء وقع وكرهته ثم في النهاية تجد أن الخير فيه مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ .

وهذه الآية يشبهها قوله تبارك وتعالى في النساء ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] قال : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا ﴾ ، ولم يقل : وعسى أن تكرهوهن ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .

فهذا آمن في كل شيء قد يُجري الله ﷻ بقضائه وقدره وحكمته شيئا تكرهه ثم في النهاية يكون الخير فيه ، والعكس ربما يُجري الله ﷻ شيئا تظنه خيرا ولكنه شر ، عاقبته شر ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يسأل الله تعالى حُسن العاقبة دائما .

ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، نعم .. الله يعلم ونحن لا نعلم ، لأن علم الله تعالى واسع ، فهو بكل شيء عليم ، عِلْمُ اللَّهِ عِلْمٌ واسع للمستقبل يعلم الغيب ونحن لا نعلم ، يعلم كل شيء ونحن لا نعلم ، بل يعلم ما توسوس به النفوس قبل أن يبدو وقبل أن يظهر ، ونحن لا نعلم ، وسأسألكم عن شيء سهل غير بعيد ، هل تعرفون عن أرواحكم شيئا ؟! الروح التي بها الحياة هل تعرفون عنها شيئا ؟! الجواب : لا . ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] الروح التي بين جنبيك لا تعرفها ولا تدري عنها ، وجملة ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾

قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾ هذه الجملة ، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كأن فيها التوبيخ ، كأنه يقول : وما خفي عليكم من العلم إلا أن تعلموا هذه الروح ، ما أكثر العلوم التي فاتتكم ؟! والحاصل أن الله يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَنْتَظِرُ لَكُمْ أَجْرًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة : ٤١] ﴿ أَنْفِرُوا ﴾ إلى أي شيء ؟! إلى الجهاد ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ يعني : انفروا حال ما يكون النفر خفيفاً عليكم أو ثقيلاً عليكم ، ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إن كنتم من ذوي العلم ، فاعلموا أن ذلك خير لكم .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَوَعْدًا عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ١١١] انظروا لهذه الصفقة ، صفقة بيع ، تامة الشروط والأركان ، والوسائل ، من المشتري ؟ الله ﷻ . والبائع ؟ المؤمنون ، والعوض من المؤمنين : الأنفس والأموال ، والعوض من الله : الجنة ، والثيقة : وعد من الله ، ما هي أوراق تمزق وترمى . بل في التوراة ، والإنجيل ، والقرآن أوثق هذه الوثائق ، وثيقة مكتوبة في التوراة والإنجيل والقرآن ، ليس هناك شيء أوثق منها ، وذكر التوراة والإنجيل والقرآن ؛ لأنها أوثق الكتب المنزلة على الرسل ، القرآن أشرفها ، ثم التوراة ، ثم الإنجيل ، هذه صفقة لا يمكن لها نظير كل الشروط كاملة ، وصفقة كبيرة عظيمة ، النفس والمال هما العوض من الإنسان ، والمُعَوَّض : هو المليك .. هو الله ﷻ ، وهي الجنة ، التي قال عنها الرسول عليه الصلاة والسلام : « لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » ^(١) موضع سوط : يعني حوالي (متر أو نحوه) خير من الدنيا وما فيها ، أي دنيا ؟ دنياك هذه ؟ لا .

قد تكون دنياك دنيا مملوءة بالتنغيص والتنفير ، والعمر قصير ، ولكن خير من الدنيا ، منذ خلقت إلى يوم القيامة ، بما فيها من السرور والنعيم ، موضع السوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها .

أيهما أغلى .. الأنفس والأموال ، أم الجنة ؟! الجنة ، إذا البائع رابح ، لأنه باع النفس والمال الذي لا بد من فوائده بنعيم لا يزول ، ومن الذي عاهد على هذا البيع ؟ الله ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (من) هنا استفهام بمعنى النفي ، يعني لا أحد أصدق وأوفى بعهد من الله ، وصدق الله ﷻ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ عَاهِدًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ يعني : تستبشروا النفوس بذلك ، وليسر بعضكم بعضاً ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠] يستبشروا بهذا البيع ، بيع عظيم ، الذي بايعتم به ، وذلك (هو) الفوز العظيم ،

هذه الجملة فيها ضمير الفصل ، وذلك هو الفوز العظيم ، وضمير الفصل يقول العلماء يستفاد منه ثلاث فوائد :

- ١ - الاختصاص . ٢ - التوفيق . ٣ - التمييز بين الخير والصفة .

يعني معنى ذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله ، وصدق الله ورسوله ، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من هؤلاء ممن باعوا أنفسهم لله ﷻ ، والله الموفق .

قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الْقَرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَتَيْنِ بَيْنَهُ وَمَقَرَّةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٥ ، ٩٦] .

يعني : لا يستوي القاعدون والمجاهدون ، ونفي الاستواء ظاهر ، لأن المجاهد قد بذل نفسه وماله لله ﷻ ، والقاعد خائف إلا من استثنى الله ﷻ في قوله تعالى : ﴿ غَيْرُ أُولَى الْقَرَرِ ﴾ غير الذين يتضررون إذا ذهبوا إلى الجهاد وهم ثلاثة أصناف ذكرهم الله تعالى ، في قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور : ٦١] ، وكذلك الذين لا يجدون ما ينفقون أو كانوا ضعفاء في أبدانهم لقول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرَضِينَ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩١] ، والثالث : من قعدوا للتفقه في الدين ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ كَأَنَّهُ قَالُوا نَعْرِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

فهؤلاء ثلاثة أصناف :

الأول - أولو الضرر ، والضعفاء .

الثاني - والذين لا يجدون مالا .

الثالث - ومن قعدوا ليتفقهوا في الدين .

فهؤلاء معذورون إما لوجود مصلحة في بقائهم أعلى من مصلحة الجهاد ، وهم الذين قعدوا للتفقه في الدين ، وإما لعذر لا يستطيعون معه أن يذهبوا إلى الجهاد .

وقول الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الْقَرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ ، المجاهدون أفضل ، وفي هذه الآية نفي الاستواء بين المؤمنين ، وأن المؤمنين ليسوا سواء ، فمثل ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ^(١) ﴾ [الحديد : ١٠] ونفي الاستواء في القرآن العزيز كثير ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾

(١) قوله تعالى : ﴿ الْحُسْنَى ﴾ أي : الجنة .

[الرعد: ١٦] ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَمْلِحُ أَجَاجٌ ^(١) ﴾ [فاطر: ١٢] والآيات كثيرة ، وأحب أن أنبه هنا على كلمة يطلقها بعض الناس قد يريدون بها خيرا ، وقد يطلقها بعض الناس يريدون بها شرا ، وهي قولهم : إن الدين الإسلامي دين المساواة ، فهذا كذب على الدين الإسلامي ، لأن الدين الإسلامي ليس دين مساواة ، الدين الإسلامي دين عدل ، وهو إعطاء كل شخص ما يستحق ، فإذا استوى شخصان في الحقيقة فحيثما يتساويان فيما يترتب على هذه الحقيقة ، أما مع الاختلاف فلا ، ولا يمكن أن يطلق على الدين الإسلامي أنه دين مساواة أبداً ، بل إنه دين العدل ، لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠] ، هذه الكلمة : الدين الإسلامي دين المساواة قد يطلقها بعض الناس ويريد بها شرا ، فمثلاً يقول : لا فرق بين الذكر والأنثى ، الدين دين مساواة ، الأنثى أعطوها من الحقوق مثل ما تعطون الرجل ، لماذا ؟ لأن الدين الإسلامي دين المساواة ، الاشتراكيون يقولون : الدين (دين مساواة) ، لا يمكن ، هذا غني جداً ، وهذا فقير جداً ، لابد أن نأخذ من مال الغني ونعطي الفقير ، لأن الدين دين المساواة ، فيريدون بهذه الكلمة شرا ، ولما كانت هذه الكلمة قد يراد بها خير ، وقد يراد بها شر ، لم يوصف الدين الإسلامي بها ، بل يوصف بأنه دين العدل ، الذي أمر الله به ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ ما قال بالمساواة ، ولا يمكن أن يتساوى اثنان أحدهما أعمى ، والثاني بصير ، أحدهما عالم ، والثاني جاهل ، أحدهما نافع للخلق ، والثاني شريك ، لا يمكن أن يستووا .

العدل الصحيح : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ لهذا أحبيت التنبيه عليها ، لأن كثيراً من الكتاب العصريين أو غيرهم يطلق هذه الكلمة ولكنه لا يتفطن لمعناها ، ولا يتفطن أن الدين الإسلامي لا يمكن أن يأتي بالمساواة من كل وجه ، مع الاختلاف أبداً ، لو أنه حكم بالمساواة مع وجود الفارق ، لكان ديناً غير مستقيم . فعلى المسلم ألا يسوي بين اثنين بينهما تضاد أبداً ، لكن إذا استووا من كل وجه ، صار العدل أن يعطي كل واحد منهما ما يعطي الآخر .

وعلى كل حال فهذه الكلمة ينبغي لطالب العلم أن يتفطن لها ، وأن يتفطن لغيرها أيضاً من الكلمات التي يطلقها بعض الناس وهو لا يعلم معناها ، ولا يعلم مغزاها ، ومن ذلك أيضاً قول بعضهم : اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه ، هذه كلمة عظيمة لا تجوز ، لا أسألك رد القضاء ؟! وقد قال النبي : « لا يرد القضاء إلا الدعاء » ^(٢) ، الدعاء لا يرد القضاء ، لكن من أثر الدعاء إذا دعوت الله تعالى بكشف ضرر ، فهذا قد كتب في الأزل في اللوح المحفوظ ، أن الله تعالى يرفع هذا الضر عنك بدعائك ، فكله مكتوب ، وأنت إذا قلت : لا أسألك رد القضاء ولكن

(١) قوله تعالى : ﴿ فُرَاتٌ ﴾ أي : شديد العذوبة وقوله تعالى : ﴿ سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴾ أي : سهل انحداره في الخلق لعذوبته . قوله تعالى : ﴿ أَجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة والمرارة . وسمي أجاجاً من الأجاج وهو تلهب النار ؛ لأن شربه يزيد العطش .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٣٩) بلفظه ، وابن ماجه في السنن (٤٠٢٢) ، وأحمد في مسنده (٢٨٠/٥) والبيهقي في شرح السنة (٦/١٣) ثلاثتهم بلفظ : « لا يرد القدر إلا الدعاء » .

أَسْأَلُكَ اللّطَفَ فِيهِ ، كَأَنَّكَ تَقُولُ : مَا يَهْمُنِي ، تَرَفَعُ أَوْ لَا تَرَفَعُ ، لَكِنِ الْإِنْسَانُ يَطْلُبُ رَفْعَ كُلِّ مَا نَزَلَ بِهِ ، فَلَا تَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ الْقَضَاءِ وَلَكِنِ أَسْأَلُكَ اللّطَفَ فِيهِ ، قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ ^(١) ، اللَّهُمَّ اشْفِنِي مِنْ مَرَضِي ، اللَّهُمَّ أَغْنِنِي مِنْ فَقْرِي ، اللَّهُمَّ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ ^(٢) ، اللَّهُمَّ عَلَّمْنِي مَا جَهِلْتُ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، أَمَا « لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ الْقَضَاءِ » . فَاللَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَلَا أَحَدَ يَرُدُّهُ ، لَكِنِ أَنْتَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ ، فَهَذَا الْكَلَامُ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا يَجُوزُ ، بَلْ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا يَقِلُّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ » وَهِيَ أَهْوَنُ مِنْ « اللَّهُمَّ لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ الْقَضَاءِ » ، « لَا يَقِلُّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ » ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ، وَلِيُعْزَمَ الْمَسْأَلَةُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا مَكْرَهَ لَهُ ^(٣) وَفِي لَفْظٍ : « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاضَمُهُ شَيْءٌ » ^(٤) .

وَأَرْجُو مِنْكُمْ حِينَ جَرَى التَّنْبِيهُ عَلَى هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ « الدِّينَ الْإِسْلَامِي دِينَ الْمَسَاوَةِ » وَ « اللَّهُمَّ لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ الْقَضَاءِ وَلَكِنِ أَسْأَلُكَ اللّطَفَ فِيهِ » إِذَا سَمِعْتُمْ أَحَدًا يَقُولُ ذَلِكَ أَنْ تَنْبِهُوهُ ، وَتَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَأَكْثَرُ مَا فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ هُوَ نَفْيُ الْإِسْتِوَاءِ ، لَمْ يَأْتْ ذِكْرُ الْإِسْتِوَاءِ إِلَّا فِي مَوَاطِنَ قَلِيلَةٍ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ صَرَبَ لَكُمْ مَقَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنزَلْنَا فِيهِ سَوَاءً ﴾ [الرَّومُ : ٢٨] فَالْمُرَادُ نَفْيُ الْمَسَاوَةِ ، ﴿ هَلْ لَّكُمْ ﴾ هَذَا الْإِسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنزَلْنَا فِيهِ سَوَاءً ﴾ وَالْجَوَابُ : لَا ، إِذَا فَالْمُرَادُ نَفْيُ الْمَسَاوَةِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنِّي أَنْصَحُ ، وَأُرِيدُ مِنْكُمْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَحَدًا يَقُولُ هَذَا ، فَقُلْ لَهُ : لَا ، لَيْسَ دِينَ الْمَسَاوَةِ ، بَلْ هُوَ الدِّينَ الْعَدْلُ ، فَهُوَ إِعْطَاءُ كُلِّ وَاحِدٍ مَا يَسْتَحِقُّ .

وَالْقَوْلُ الْآخَرُ « لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ الْقَضَاءِ ... » هَذَا كَلَامُ لَفْوٍ ، مِنْ يَرُدُّ الْقَضَاءَ ؟! لَكِنِ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ أَنْ يَرْفَعَ عَنْكَ الْمَرَضَ ، أَوْ يَرْفَعَ عَنْكَ الْجَهْلَ ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْفَقْهَ فِي دِينِنَا ، وَأَلَّا يَجْعَلَنَا إِثْمَةً نَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ ، وَلَا نَدْرِي مَا نَقُولُ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحَرُّرِ شُرَيْكِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلَهِمُ ۖ تَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِالْحُدُودِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۚ وَآخَرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٠ : ١٣]

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحَرُّرِ شُرَيْكِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلَهِمُ ﴾ [الصف : ١٠] صَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ

(١) هذا نص حديث أخرجه أبو داود في السنن (٥٣٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢٥/٢) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٧١) ، والحاكم في المستدرک (٥١٧/١) .

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٦١٥/٢) ، والسيوطي في الدر المنثور حديثاً قريباً من هذا المعنى بلفظ « اللهم أغنني من الفقر واقض عني » .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩) ، وأحمد في مسنده (٣١٨/٢) ، والبغوي في شرح السنة (١٩٢/٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨) ، والبغوي في شرح السنة (١٩٣/٥ ، ١٩٤) .

بهذا النداء الشريف الموجه للمؤمنين ، من أجل إثارة همهم وتنشيطهم على قبول ما يسمعون من كلام الله ﷻ .

﴿ هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ بَحْرٍ تُجِيزُ تُجِيزُ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ القائل هو ربنا ﷻ ، وهذا الاستفهام للتشويق ، يشوقنا جل وعلا بهذه التجارة التي يدلنا عليها ، ويستفاد من قوله ﷻ : ﴿ هَلْ أَذْكَرُ ﴾ أنه ليس لنا طريق إلى هذه التجارة إلا الطريق الذي شرعه الله ﷻ ، هو الدال على ذلك . ﴿ هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ بَحْرٍ تُجِيزُ تُجِيزُ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ وهذه التجارة ليست تجارة الدنيا ، لأن تجارة الدنيا قد تنجي من العذاب الأليم وقد تكون سبباً للعذاب الأليم ، فالرجل الذي عنده مال ولا يزكي ، يكون ماله عذاباً عليه والعياذ بالله ، ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٥ يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُرُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤ ، ٣٥] ، ﴿ وَلَا يَحْصِيَنَّ الَّذِينَ يَبْتَاعُونَ بِمَاءٍ أَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ مَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

تجارة الدنيا قد تنجي من العذاب وقد تُوقع في العذاب ، لكن هذه التجارة التي عرضها الله ﷻ علينا - ونسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم ممن يقبلونها - يقول : ﴿ تُجِيزُ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ، أي : عذاب مؤلم ، لأنه لا عذاب أشد ألماً من عذاب النار ، أعاذني الله وإياكم منها .

ما هذه التجارة ؟ قال : ﴿ تَزَوُّنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤَدُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْتُواكُم وَانْفُسُكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ هذه التجارة : الإيمان بالله ورسوله ، وهذا يتضمن جميع شرائع الإسلام كلها ، لكن نص على الجهاد لأن السورة سورة الجهاد من أولها إلى آخرها كلها جهاد ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ ﴾ [الصد : ٤] ثم ذكر ما يتعلق بذلك ، وهنا يقول ﴿ وَيُؤَدُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْتُواكُم وَانْفُسُكُمْ ﴾ أي : تبذلوا جهدكم في سبيل الله ، يبذل المال وبذل النفس ، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ خير لكم من كل شيء ، ﴿ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : إن كنتم من ذوي العلم ، وفي هذه الآية وأمثالها يحسن الوقوف على قوله ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ولا تصل ، لا تقل : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لأنك لو وصلت لأفهمت معنى باطلاً في الآية ، لكان المعنى : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، وإن كنتم لا تعلمون فليس خيراً لكم » وهذا ليس مراد الله ﷻ ، بل إن المعنى : ذلكم خير لكم ، ثم قال : إن كنتم من ذوي العلم ، كأنه يقول : فاعلموا ذلك إن كنتم أهلاً للعلم .

هذا هو العمل ، فما هو الثواب ؟! ﴿ يَقَرُّ لَكُمْ دُورُكُمْ وَيَدْخَلُونَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكَنُونَ مَنَازِلَ فِي جَنَّاتٍ عِنْدَ ذَلِكَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ : هي ما أعده الله ﷻ لعباده الصالحين ، وبالأخص المجاهدين في سبيل الله ، « إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله ﷻ للمجاهدين في سبيله » ^(١) ولهذا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) ، والبخاري في شرح السنة (٣٤٦/١٠) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥١١/٤) .

جمع جنة في قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي : من تحت قصورها ، وأشجارها ، وهي أنهار ليست كأنهار الدنيا ، أربعة أنهار : ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [محمد : ١٥] يعني : لا يمكن أن يتغير بخلاف ماء الدنيا فإنه إذا بقي يتغير ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ أنهار تجري ، أنهار العسل فيها لم يخرج من النحل ، واللبن لم يخرج من ضرع بهيمة ، والماء لم يخرج من نبع أرض ، وكذلك الخمر لم يخرج من زبيب أو تمر أو شعير أو غير ذلك ، أنهار خلقها الله ﷻ في الجنة تجري هذه الأنهار ، ورد في الحديث : أنها أنهار لا تحتاج إلى شق ، ولا إلى سد ^(١) ، يعني ما يحتاج أن تضع له أخدوداً تمنعه من التسرب يمينا وشمالاً .

قال ابن القيم في النونية :

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أَخْدُودٍ جَرَتْ سُبْحَانَ مَنْسِكِهَا عَنِ الْفَيْضَانِ

جلّ وعلا ، ثم هذا النهر يأتي طوعك ، ذلك أن تطلب أن الماء يذهب يمينا يذهب ، يسارا يذهب ، أما ما يذهب ، يتوقف يتوقف ، كما تشاء .

وقوله : ﴿ وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِمَّنْ أَلَّوْا أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ مساكن طيبة : طيبة في بنائها ، طيبة في غرفها ، طيبة في منظرها ، طيبة في مسكنها ، طيبة من كل ناحية ، والساكن فيها : حور مقصورات في الخيام ، خيام من لؤلؤ ، مرتفعة من أحسن ما تراه بصرا ، قال النبي ﷺ : « جنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما » ^(٢) اللين : لبن البناء ليس من الطوب والتراب ، بل هو من الذهب أو من الفضة ، ولهذا وصفها الله بالطيب .

ثم إن من طيبها أن ساكنها لا يبغي عنها حولا .. مساكن الدنيا مهما حسنت ستري ما هو أحسن من بيتك ، فتقول : ليت هذا لي . لكن في الجنة لا تبغي حولا عن مسكنك ، ولا انتقالا ، كل إنسان يرى أنه هو أنعم أهل الجنة ، لكي لا ينكسر قلبه لو رأى من هو أفضل منه ، ولكن يرى أنه أنعم أهل الجنة ، عكس ذلك أهل النار ، أهل النار يرى أحدهم أنه أشد أهل النار عذابا ، وإن كان هو أهونهم .

فهذه المساكن الطيبة في جنات عدن ، قال العلماء : العدن بمعنى : الإقامة ^(٣) .. ومنه المقيدين في الأرض لطول إقامته بعدنه ومكانه . أي : في جنات إقامة لا يمكن أن تزول أبد الآبدين ... نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها .

﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ : الفوز أن ينال الإنسان ما يريد ، وينجو مما يخاف ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ : الذي لا أعظم منه ، ربح ليس فوقه ربح ، عوض ليس فوقه عوض ، لهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله ، وجاهدوا

(١) انظر الحديث في الدارمي في الرقائق (٢٨٣١) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٧١) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٧٨) ، ومسلم في الإيمان (٢٩٦) ، وابن ماجه في الإيمان (١٨٦) جميعهم بتقديم الفضة على الذهب .

(٣) هذا هو قول ابن عباس وجماعة ، وهو اختيار ابن جرير الطبري (انظر تفسير الطبري ٢٢٩/١٠ ، ٢٣٠) .

في سبيل الله ، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلني وإياكم منهم ولا يحرمنا هذا الفضل بسوء أعمالنا ، وأن يعاملنا بعفوه ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٢٨٨ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « لَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ رَوْحَةٌ ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ^(١) متفقٌ عليه .

١٢٨٩ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « مُؤْمِنٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعْبِ يَغْبُذُ اللَّهَ ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

١٢٩٠ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَمَوْضِعٌ سَوِطٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَالرَّوْحَةُ تَزُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ الْغَدَوَةُ ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » ^(٣) متفقٌ عليه .

الشرح

سبق لنا الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَخْرَجٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ١٠] ، وَرَسُولُهُ وَجُوهُكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] ، وَبِذُنُوبِكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَتِكُمْ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الصف : ١٠-١٢] .

وبقي قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٣] ، ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ﴾ يعني : ولكم أخرى تحبونها . ثم يشهد بقوله : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ : ينصركم الله به على أعدائكم ، ولا شك أن الإنسان إذا انتصر على عدوه فإن ذلك له حب عظيم ، لأن الله تعالى يجعل عذاب عدوه على يده ، كما قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٤ ، ١٥] ، فوائده عظيمة ، إذا عذب الله تعالى عدوك على يدك ، ولهذا قال : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ ، وقد حصل هذا للمؤمنين في صدر هذه الأمة ، فتح الله عليهم فتوحات عظيمة ، وغنموا غنائم كثيرة ، لأنهم قاموا بما يجب عليهم من الإيمان بالله ، والجهاد في سبيل الله ﷻ ، ثم قال : ﴿ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني بشر بهذه الأمور كلها من كان مؤمناً

- (١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٢) ، ومسلم في الإمامة (١٢٠) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥١) وقوله : « غداة » أي : الخروج من أول النهار ، قوله : « راحة » أي : الخروج من آخر النهار .
- (٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٦) ، ومسلم في الإمامة (١٢٢) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٠) .
- (٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢) بلفظه ، ومسلم في الإمامة (١١٣) بنحوه ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٦) وقوله : « رباط يوم في سبيل الله » : هو الإقامة في ثغر من ثغور الإسلام حارساً له من العدو .

بها ، قائماً بما يجب عليه من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله أحاديث في فضل الجهاد والرباط في سبيل الله ، وأن الغدوة والروحة في سبيل الله ، أو غدوة وروحة في الرباط ؛ خير من الدنيا وما فيها ، وهذا فضل عظيم ، خير من الدنيا كلها من أولها إلى آخرها ، وما فيها .

وليس خيراً من دنياك التي أنت تعيشها فقط ، بل من الدنيا وما فيها ، ومن متى الدنيا !؟ من زمن لا يعلمه إلا الله ، وكذلك لا يُدرى متى تنتهي ، كل هذا خير من الدنيا وما فيها .

وقوله رحمته الله : « وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها » ويقال في ذلك ما قيل في الأول : إن الدنيا كلها من أولها إلى آخرها ، موضع السوط في الجنة خير منها . والغدوة والروحة في سبيل الله خير منها ، والرباط في سبيل الله خير منها .

وفي هذه الأحاديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل : أي الرجال خير ؟ فبين أنه الرجل الذي يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه ، ثم أي ؟ قال : ورجل مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره ، يعني أنه قائم بعبادة الله ، كافٍ عن الناس ، ولا يريد أن ينال الناس من شر ، وهذا أحد الأدلة الدالة على أن العزلة خير من الخلطة مع الناس ، ولكن الصحيح في هذه المسألة أن في ذلك تفصيلاً : من كان يخشى على دينه بالاختلاط بالناس فالأفضل له العزلة ، ومن لا يخشى فالأفضل أن يخالط الناس ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » ^(١) .

فمثلاً : إذا فسد الزمان ورأيت أن اختلاطك مع الناس لا يزيدك إلا شراً وبعداً من الله ، فعليك بالوحدة ، اعتزل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنماً يتبع بها شعث الجبال ، ومراتع القطر » ^(٢) . فالمسألة تختلف : العزلة في زمن الفتن والشر والخوف من المعاصي خير من الخلطة ، أما إذا لم يكن الأمر كذلك فاختلط مع الناس ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على أذاهم وعاشرهم ، ربما ينفع الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم ^(٣) ، إذا هداه الله على يديك . والله الموفق .

* * *

١٢٩١ - وَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ فِيهِ جَزَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُ ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَأَمِنَ الْفَتَانُ » ^(٤) رواه مسلم .

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٥١٢/١٠) بلفظه ، والألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٩) ، وأخرجه ابن ماجه في السنن (٤٠٣٢) والبيهقي في السنن (٨٩/١٠) وأحمد في مسنده (٣٦٥/٥) بلفظ « أعظم أجراً » بدلاً من « خير » .
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٠) ، وأبو داود في السنن (٤٢٦٧) ، وابن ماجه في السنن (٣٩٨٠) والنسائي في السنن (١٢٤/٨) .
(٣) وذلك مصداقاً لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وأخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٠٩) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٤) .
(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦٣) ، والنسائي في السنن (٣١٦٧ ، ٣١٦٨) .

١٢٩٢ - وَعَنْ فَصَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ يُنْمِي لَهُ عَمَلَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيُؤْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ » ^(١) رواه أبو داود ، والترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٢٩٣ - وَعَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ » ^(٢) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٢٩٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي ، وَإِيمَانًا بِي ، وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي ؛ فَهُوَ ضَامِنٌ ، عَلَيَّ أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بَمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ ، أَوْ غَنِيمَةٍ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِمٍ ، لَوْهُ لَوْنُ دَمٍ ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكِ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ لَا أَنَّ أَشَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشْقُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوِ دِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَأَقْتُلُ ، ثُمَّ أَغْزُو ، فَأَقْتُلُ ، ثُمَّ أَغْزُو ، فَأَقْتُلُ » ^(٣) رواه مسلم ، وروى البخاريُّ بَعْضَهُ .

« الْكَلِمُ » : الْجَزْءُ .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمته الله في بيان فضل المراقبة في سبيل الله ، يعني أن يربط الإنسان على الحدود ، أو تجاه العدو في سبيل الله ﷻ لإعلاء كلمة الله وحفظ دين الله ، وحفظ المسلمين ، فإن هذا من أفضل الأعمال .

وقد سبق أن النبي ﷺ قال : « رباط في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » ^(٤) . وفي هذه الأحاديث دليل على أن المرباط يجري عليه عمله إلى يوم القيامة ، وأنه يأمن فتنة القبر ، يعني : أن

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٠٠) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢١) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠/٦) والحاكم في مستدركه (١٤٤/٢) . قوله : « ينمي له عمله » أي : يزيد له عمله ، قوله : « ويؤمن من فتنة القبر » استدل غير واحد بهذا على أن المرباط لا يُشَأَل في قبره كالشهيد .

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٧) ، والنسائي في الجهاد (٣١٦٩) ، والدارمي في الجهاد (٢٤٢٤) . (٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٣ ، ١٠٧) بلفظه ، والبخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٣٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٩/٩) . قوله : « تضمن » أي : التزم ، قوله : « أن أدخله الجنة » إذا استشهد ، قوله : « أو غنيمة » هو المال الذي يصيبه المسلمون من الكفار ، قوله : « السرية » هي القطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمئة جندي .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢) ، والترمذي في السنن (١٦٦٤) ، وأحمد في مسنده (٦٢/١) .

الناس إذا ماتوا ودُفِنوا أتاها ملكان يسألان الرجل عن ربه ، ودينه ، ونبيه ^(١) ، إلا من مات مرابطاً في سبيل الله فإنه لا يأتيه الملكان يسألانه .

وقد بين النبي ﷺ الحكمة من ذلك ، فقال : « كفى بيارقة السيوف على رأسه فتنه » ^(٢) ، فالشهيد والمرابط كلاهما لا يأتيه الملكان في قبره فيسألانه ، بل يأمن ذلك ، وهذا فضل عظيم وأجر عظيم .
وأما حديث أبي هريرة الأنجيري : ففيه دليل على فضيلة القتل في سبيل الله ، ولهذا أقسم النبي ﷺ أنه لولا أن يشق على المسلمين ما تخلف عن سرية قط ، ولكنه يتخلف عليه الصلاة والسلام أحياناً ، لأشغال المسلمين وقضاء حوائجهم ، وعدم المشقة عليهم ، وأقسم ﷺ أنه يتمنى ويود أن لو قُتل في سبيل الله ثم أُحيي فقتل ، ثم أُحيي فقتل ، فهذا يدل على فضل القتل في سبيل الله ، ولا شك في هذا ، والقرآن واضح في ذلك ، قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ^(٣) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(٤) * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ وَفَضْلُهُ لَآ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧١] .
وهذه الحياة البرزخية لا نعلم بها وليست كحياتنا ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

حياة ما يُعلم بها ، يعني لو فتحت على قبره لوجدت الإنسان ميتاً ، لكنه عند الله حي يرزق يأكل من الجنة بكرة وعشية ، نسأل الله سبحانه أن يرزقنا وإياكم الشهادة في سبيله ، وأن يعيننا وإياكم على الجهاد في سبيله ، جهاد أنفسنا ، جهاد أعدائنا ، إنه على كل شيء قدير .

١٢٩٥ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَكَلَّمُهُ يَدْمَى : اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ ، وَالرَّيْحُ رِيحُ مِشْكِ » ^(١) متفق عليه .

١٢٩٦ - وَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فَوَاقٍ نَاقَةٍ ؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَمَنْ جَرَحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ نَكَبَ نَكْبَةً ؛ فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرٍ مَا كَانَتْ : لَوْنُهَا الزُّعْفَرَانُ ، وَرِيحُهَا كَالْمِسْكِ » ^(٢) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٢٩٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشُعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ

(١) انظر الحديث في مسلم في (الجنة وصفة نعيمها) (٧٣) ، وأحمد في مسنده (٦٣/٦) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٩٩/٤) ، الهندي في كنز العمال (١٠٦١٠) ، والسيوطي في الدر المنثور (٩٩/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٣٣) ، ومسلم في الإمارة (١٠٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٨٤/٢) .

قوله : « مَكْلُومٌ » أي مجروح .

(٤) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٧) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٤١) ، والنسائي في السنن (٣١٤١) .

قوله : « أَوْ نَكَبَ نَكْبَةً » هي ما يصيب المرء من الحوادث .

مَاءٍ عَذْبَةٍ ، فَأَعْجَبْتُهُ ، فَقَالَ : لَوْ اعْتَرَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ ، وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَشْتَأَذَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « لَا تَفْعَلْ ؛ فَإِنَّ مَقَامَ أَخَذِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » (١) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . « وَالْفُوقُ » مَا يَسِرُّ الْحَلْبَتَيْنِ .

١٢٩٨ - وَعَنْهُ : قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا يَغْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ قَالَ : « لَا تَسْتَطِيعُونَهُ » فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ : « لَا تَسْتَطِيعُونَهُ ! » ثُمَّ قَالَ : « مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَقْتُرُ مِنْ صِيَامٍ ، وَلَا صَلَاةٍ ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » متفقٌ عليه . وهذا لفظ مسلم .

وفي رواية البخاري : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَغْدِلُ الْجِهَادَ ؟ قَالَ : « لَا أَجِدُهُ » ثُمَّ قَالَ : « هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقْتُرَ ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ ؟ » فَقَالَ : وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ؟ (٢)

١٢٩٩ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ : رَجُلٌ تُمْسِكُ بَعْنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً ، أَوْ فَرَعَةً طَارَ عَلَيْهِ ، يَنْتَفِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ ، أَوْ بَطْنٍ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ ؛ يُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ » (٣) رواه مسلم .

١٣٠٠ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا يَسِرُّ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا يَسِرُّ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » (٤) رواه البخاري .

١٣٠١ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ ، فَقَالَ : أَعَدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ : « وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا الْعَبْدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ ، مَا يَسِرُّ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٠) ، وأحمد في المسند (٥٢٤/٢) ، والبيهقي في السنن (١٦٠/٩) ، والحاكم في المستدرک (٦٨/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٥) ، ومسلم في الإمارة (١١٠) ، والنسائي في الجهاد (٣١٢٤) ، ومالك في الجهاد (٩٧٣) . قوله : « القانت » أي : المطيع .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٢٥) . قوله : « من خير معاش الناس » أي : من خير أحوال عيش الناس ، قوله : « تمسك عنان فرسه » أي : متأهب ومنتظر وواقف نفسه على الجهاد ، قوله : « يطير على متنه » أي : يسرع جدًا على ظهره كأنه يطير ، قوله : « هية » الصوت عند حضور العدو ، قوله : « فزعة » النهوض إلى العدو ، قوله : « ينتفي القتل والموت مظانه » أي : يطلبه من مواطنه التي يرحى فيها ؛ لشدة رغبته في الشهادة .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) .

يَنْزِلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » قَالَ : وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

هذه أحاديث متعددة ، كلها في فضل الجهاد في سبيل الله .

فمنها : أن الإنسان إذا قُتِلَ شهيداً ؛ فإنه يأتي يوم القيامة ، وجرحه يدمي ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، يشهده الأولون والآخرون من هذه الأمة وغيرها ، بل ويشهده الملائكة في ذلك اليوم المشهود ، وهذا يوجب له الرفعة في الدنيا والآخرة .

ومنها : أن من قاتل (فواق ناقة) وهو ما بين الحلبتين ؛ فإنه تجب له الجنة ، فإذا شهد الصف - ولو بهذا المقدار - يقاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ؛ فإنها توجب له الجنة .

ومنها : أن الخارج للجهاد في سبيل الله ، له مثل أجر الصائم القائم من حين أن يخرج إلى أن يرجع ، والصائم القائم من حين أن يخرج المجاهد إلى أن يرجع ، هو الذي يساويه في الأجر عند الله ﷻ ، ولكن ذلك لا يستطاع كما قاله النبي ﷺ وقاله الصحابة له ، ومنها أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة في الجنة ، كل درجة بينها وبين الأخرى مثل ما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله .

فهذه الأحاديث وأمثالها ، وهي كثيرة جداً ، تدل على فضل الجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله يكون بالمال ويكون بالنفس ، ولكنه بالنفس أفضل وأعظم أجراً ، لأن كل هذه الأحاديث التي سمعناها ، كلها فيمن جاهد بنفسه ، ومن جاهد بماله فهو على خير ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه من جهز غازياً في سبيل الله ، فقد غزا ^(٢) ، أي كتب له أجر الغازي ، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا ، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المجاهدين في سبيله ، ابتغاء وجه الله ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٣٠٢ - وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي ﷺ وَهُوَ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » فَقَامَ رَجُلٌ رَثَّ الْهَيْئَةَ فَقَالَ : يَا أَبَا مُوسَى أَأَنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ . ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ فَأَلْقَاهُ ، ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ ، فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ ^(٣) . رواه مسلم .

- (١) أخرجه مسلم في الإمامة (١١٦) ، والنسائي في السنن (١٩/٦) ، والحاكم في المستدرک (٩٣/٢) .
 (٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣) ، والنسائي في السنن (٤٦/٦) وأحمد في مسنده (١٩٣/٥) .
 (٣) أخرجه مسلم في الإمامة (١٤٦) ، والإمام أحمد في المسند (٣٩٦/٤) . والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٩) . قوله : « تحت ظلال السيوف » أي : أن الجهاد وحضور معارك القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها ، قوله : « جفن سيفه » هو غمده ، أو ما يوضع فيه السيف .

١٣٠٣ - وَعَنْ أَبِي عَنَسٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبْرِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا اغْبَرَّتْ قَدَمًا غَبْرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَتَّعَهُ النَّارُ » ^(١) رواه البخاري .

١٣٠٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَلْجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَفُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ ، وَلَا يَجْتَمِعُ عَلَى عَبْدٍ عُتَاظٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ » ^(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٣٠٥ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٣٠٦ - وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ جَهَّزَ غَارِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَرَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَارِيًّا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَرَا » ^(٤) متفق عليه .

١٣٠٧ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَفْضَلُ الصَّدَقَاتِ ظِلُّ فُسْطَاطٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَتَمْنِيحَةُ خَادِمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ طَرَوْقَةٌ فَخْلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٥) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٣٠٨ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ فَتًى مِنْ أَشْلَمَ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ الْغَزَا وَلَيْسَ مَعِيَ مَا أَتَجَهَّزُ بِهِ ، قَالَ : « اثْبُتْ فُلَانًا ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرَضَ » فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقَرِّتُكَ السَّلَامَ ويقول : أَعْطِنِي الَّذِي تَجَهَّزْتَ بِهِ . قَالَ : يَا فُلَانَةُ ، أَعْطِيهِ الَّذِي كُنْتُ تَجَهَّزْتُ بِهِ ، وَلَا تَحْبِسِي عَنْهُ شَيْئًا ، فَوَاللَّهِ لَا تَحْبِسِي مِنْهُ شَيْئًا فَيَنَارَكَ لَكَ فِيهِ ^(٦) . رواه مسلم .

١٣٠٩ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَى بَنِي لَحْيَانَ ، فَقَالَ : « لِيَتَّبِعْتُ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدَهُمَا ، وَالْأُخْرَى يَتَّبِعُهُمَا » رواه مسلم .

وفي رواية له : « لِيَخْرُجَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ » ثُمَّ قَالَ لِلْقَاعِدِ : « أَتَيْكُمْ خَلْفَ الْخَارِجِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ بِخَيْرٍ ؛ كَانَ لَهُ مِثْلُ نِصْفِ أَجْرِ الْخَارِجِ » ^(٧) .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١١) ، والبيهقي في السنن (١٦٢/٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٣) ، والنسائي في السنن (٣١٠٧ ، ٣١١٥) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الصحابة (١٦٣٩) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣) ، ومسلم في الإمامة (١٣٥) ، والنسائي في السنن (٢٥٠٩) والدارمي في الجهاد (٢٤١٩) . قوله : « فقد غرا » أي حصل له أجر بسبب الغزو ، وهذا الأجر يحصل بكل جهاد .

(٥) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٧) ، والإمام أحمد في المسند (٢٧٠/٥) . قوله : « تمنحة » أي عطية قوله : « طروقة الفحل » أي : الناقة التي بلغت أن يطرقها الفحل ليلقحها وإن لم يطرقها .

(٦) أخرجه مسلم في الإمامة (١٣٤) .

(٧) أخرجه مسلم في الإمامة (١٣٧ ، ١٣٨) ، والإمام أحمد في المسند (٤٩/٣) ، والبيهقي في السنن (٤٠/٩) .

١٣١٠ - وَعَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتِلُ أَوْ أَسْلِمُ ؟ قَالَ : « أَسْلِمُ ، ثُمَّ قَاتِلْ » فَأَسْلَمَ ، ثُمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَمِلَ قَلِيلًا ، وَأَجَرَ كَثِيرًا » ^(١) . متفقٌ عليه ، وهذا لفظ البخاري .

١٣١١ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَا أَخَذَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا ، فَيَقْتَلَ عَشْرَ مَرَاتٍ ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ » . وفي رواية : « لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

١٣١٢ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « يَغْفِرُ اللَّهُ لِلشَّهِيدِ كُلَّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ » رواه مسلم .

وفي رواية له : « الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ » ^(٣) .

١٣١٣ - وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ ، أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ ، فَقَامَ رَجُلٌ ، فَقَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُخْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُذْبِرٌ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ قُلْتَ ؟ » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُخْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُذْبِرٌ ، إِلَّا الدِّينَ ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ » ^(٤) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث المتعددة ، ذكرها النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الجهاد ، وفيها مسائل :

منها : أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حسن التدبير في أصحابه ، فهذا الرجل الذي جاء إليه يقول : إني أريد الغزو وليس عندي شيء - يعني شيئاً يغزو به - فأحاله على رجل كان قد تجهز ليغزو ولكنه مريض ، ثم إن الرجل ذهب إلى صاحبه فأخذ جهازه ، وقال لامرأته : لا تتركي منه شيء ، فإنك لا تتركي شيئاً فيبارك لنا فيه ، فجهزه .

= قوله : « بني لحيان » هم بطن من بطون هذيل ، قوله : « لينبعت من كل رجلين أحدهما » أي : ليذهب النصف ويبقى النصف .
(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٨) بلفظه ، ومسلم في الإمارة (١٤٤) ، والبيهقي في السنن (١٦٧/٩) . قوله : « مقنع بالحديد » أي مغطى بالسلاح ، وقيل : إن هذا الرجل هو أصيرم بن عبد الأشهل الذي غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسمه وسماه زرة .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٧) ، ومسلم في الإمارة (١٨٧٧) بنحوه .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢٢٠/٢) ، والحاكم في المستدرک (١١٩/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٧) ، وأبو داود في الجهاد (١٧١٢) ، والنسائي في السنن (٣١٥٧ ، ٣١٥٦) ، والدارمي في السنن (٢٤١٢) .

وفيهما أي في هذه الأحاديث دليل على أن من جهز الغازي وأعطاه ما يكفي لغزوه فإنه كالذي يغزو ، وأن من تخلف الغازي في أهله ؛ فله مثل أجره ، ويدل لهذا أيضًا قضية بني لحيان ، حيث إن النبي ﷺ أمرهم أن يخرج منهم واحد ويبقى واحد يخلف الغازي في أهله ويكون له نصف أجره ، لأن النصف الثاني للغازي ، وفي هذه الأحاديث أيضًا من فضائل الجهاد أن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف بمعنى أن من قاتل فإنه يكون قتاله سببًا لدخول الجنة من أبوابها ، فقد ثبت عن النبي ﷺ : إن في الجنة بابًا يقال له باب الجهاد يدخله من يجاهد في سبيل الله ^(١) .

وفي هذه الأحاديث : أن الشهادة تكفر كل شيء من الأعمال إلا الدين : يعني إلا دين الآدمي ، فإن الشهادة لا تكفره ؛ وذلك لأن دين الآدمي لا بد من إيفائه إما في الدنيا ، وإما في الآخرة ، وفي هذا الحديث التحذير من التساهل في الدين وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتساهل في الدين ولا يستدين إلا عند الضرورة وليس عند الحاجة ، إنما عند الضرورة القصوى ، لأن النبي ﷺ لم يأذن للرجل الذي قال : زوجني ، فقال : « أصدق المرأة » قال : ليس عندي إلا إزار ، قال : « إزارك لا ينفعها ، إن أعطيتها إياه بقيت بلا إزار ، وإن أبقيته عليك بقيت بلا مهر ، التمس ولو خاتماً من حديد » فالتمس فلم يجد ، فقال : « زوجتكها بما معك من القرآن » ^(٢) . ولم يقل استقرض من الناس ، مع أنه زواج ، حاجة ملحة ، لكن لم يأذن له الرسول ﷺ بل لم يرشده إلى الاستدانة ، لأن الدين خطير جدًا ، وقد روى عن النبي ﷺ بسند فيه نظر : « أن نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه » ^(٣) .

فالأمر مهم فلا تستهن بالدين ، الدين هم في الليل وذل في النهار ^(٤) . فالإنسان مهما أمكنه يجب أن يتحرز من الدين ، وأن لا يكثر في الإنفاق ؛ لأن كثيرًا من الناس تجده فقيرًا ثم يريد أن ينفق على نفسه وأهله كما ينفق الأغنياء ، فيستلف من هذا ، ويستلف من هذا ، أو يستدين ، أو يراي ، وهذا غلط عظيم ، يعني لو لم يكن لك إلا وجبة واحدة في الليل والنهار ، فلا تستلف ، اصبر ، قل : اللهم اغنني قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِلَهٌ عَزِيزٌ ﴾ ^(٥) [التوبة : ٢٨] أما تهانون بعض الناس - نسأل الله العافية - يستدين من أجل أن يفرش كل البيت فراء حتى الدرج - هذا غلط - أو يستدين من أجل أن يأخذ سيارة ضخمة ، مع أنه يكفيه سيارة مثلاً بعشرين ألف ، يقول : لا بمائة ألف وهو فقير ؛ هذا من سوء التصرف ، ومن ضعف الدين ، ومن قلة

(١) انظر نص الحديث في البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٦) ، ومسلم في الزكاة (٨٥) ، ومالك في الموطأ (الجهاد ٤٩) .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في النكاح (٥٠٨٧) ، ومسلم في النكاح (٧٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٠٧٨) ، وابن ماجه في السنن (٢٤١٣) ، والبيهقي في السنن (٧٦/٦) ، والحاكم في المستدرک (٢٦/٢) .

(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٤٧٩) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٤٩٩/١) وقال : ليس بحديث وإنما هو مثل وعزاه إلى الديلمي في مسند الفردوس عن عائشة .

(٥) قوله تعالى : ﴿ عَيْلَةً ﴾ أي فقراً وفاقة .

اللامبالاة ، لأن الدين لا تكفره حتى الشهادة في سبيل الله ، لا تكفر الدين ، فكيف تستدين !..
إن هذا لا يجوز إلا عند الضرورة ، وأقول عند الضرورة وليس عند الحاجة ؛ يعني حتى لو كنت محتاجاً لعدة كماليات ، لا تتداین ، لا تشتري شيئاً ليس معك ثمنه ، اصبر حتى يرزقك الله ثم اشتري على قدر الحال ، ولهذا من الأمثال العامة الصحيحة (مد رجلك على قدر لحافك) إن أمددتها أكثر تعرضت للبرد والشمس وغير ذلك ؛ ففيه التحذير من الدين وأنه لا ينبغي للإنسان أن يستدين .

وهنا مسألة : بعض الناس يكون عليه دين ثم يتصدق ، ويقول : أحب هذه الصدقة ، وهذا حرام ، كيف تتصدق وأنت مدين ، أد الواجب أولاً ، ثم التطوع ثانياً ؛ (لأن الذي يتصدق ولا يسدد دينه كالذي يبني قصرًا ويهدم مصرًا) أنت الآن مطالب أن توفي دينك ، كيف تتصدق ؟ أوفي ثم تتصدق .

وفي هذه الأحاديث أيضًا : أن الجهاد بدون إسلام لا ينفع صاحبه ، لأن الرجل الذي استأذن من النبي ﷺ وقال : يا رسول الله أجاهد ثم أسلم ، أم أسلم ثم أجاهد ؟ قال : أسلم ثم جاهد . فأسلم ثم جاهد ، وهكذا جميع الأعمال الصالحة يشترط فيها الإسلام ، لا يقبل الله من أحد صدقة ولا حجًا ولا صيامًا ولا أي شيء وهو غير مسلم ، فإذا رأينا - مثلاً - رجلًا لا يصلي ولكنه كثير الصيام ، كثير الصدقات ، بشوش للناس ، أخلاقه طيبة لكنه لا يصلي ، اعلم أن كل عمل يعمل لا ينفعه يوم القيامة ، حتى الصيام يصوم رمضان ولا يصلي ، ما له صيام ، يحج وما يصلي ، ما له حج ، بل يحرم عليه أن يذهب إلى مكة وهو لا يصلي ، لأن الله يقول : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّا الشِّرْكُوتُ يُحَسُّوْنَ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] ، فالإسلام شرط لكل عبادة لا تقبل أي عبادة إلا بالإسلام ولا تصح أي عبادة إلا بالإسلام ، والله الموفق .

١٣١٤ - وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قيلت ؟ قال : « في الجنة » فألقى تمرات كن في يده ، ثم قاتل حتى قُتل ^(١) ، رواه مسلم .

١٣١٥ - وعن أنس رضي الله عنه قال : انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبَقُوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يُقَدَّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ » فذنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ » قال : يقول عُمَيْرُ ابْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « نعم » قال : يخ بخ ! فقال رسول الله ﷺ : « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخ بَخ ؟ » قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا » فَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ، ثُمَّ قَالَ : لَيْنَ أَنَا حَيْثُ حَتَّى أَكُلَ تَمْرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لِحَيَاةٍ طَوِيلَةٌ ! فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٤٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٠٨/٣) ، والنسائي في السنن (٣٣/٦) .

حَتَّى قُتِلَ (١) . رواه مسلم .

« الْقَرْن » بفتح القاف والراء : هو جُفَيْفَةُ النَّشَابِ .

١٣١٦ - وعنه قَالَ : جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ ابْتَغَتْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمْ : الْقُرَاءُ ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَتَذَرِّسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِئُونَ بِالمَاءِ ، فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ ، وَيَخْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ ، وَلِلْفُقَرَاءِ ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَعَرَّضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَلْغُوا الْمَكَانَ ، فَقَالُوا : اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا ، وَآتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ ، فَطَعَنَهُ بِرُمَحٍ حَتَّى أَتَفَّذَهُ ، فَقَالَ حَرَامٌ : فُرْتُ وَرَبِّ الْكَفْبَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا وَأَنْتُمْ قَالُوا : اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا » (٢) . متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم .

١٣١٧ - وعنه قَالَ : غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، غِثْ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ ، لَسَنَ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيْنَ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتِزُّ إِلَيْكَ بِمَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَتَرَأُّ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ : يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْجَنَّةُ وَرَبُّ النَّضْرِ ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ ! قَالَ سَعْدٌ : فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ ! قَالَ أَنَسٌ : فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَتَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمَحٍ ، أَوْ رَمِيَةً بِسَهْمٍ ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَمِثْلُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتَهُ بَيْنَانِيهِ . قَالَ أَنَسٌ : كُنَّا نُرَى - أَوْ نَظُنُّ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ إِلَى آخِرِهَا [الْأَحْزَابُ : ٢٣] (٣) متفق عليه ، وقد سَبَقَ فِي بَابِ الْجَاهِدَةِ .

١٣١٨ - وَعَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي ، فَصَعَدَا بِي الشَّجَرَةَ ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ ، لَمْ أَرْ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا ، قَالَا : أَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ » (٤) رواه البخاري وهو بعض من حديث طويل فيه أنواع العلم سيأتي في باب تحريم الكذب إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٤٥) . وقوله : « أَنَا دُونَهُ » أي : قدامه متقدمًا في ذلك الشيء ؛ لئلا يفوت شيء من المصالح التي تعلمونها ، قوله : « بَخِ بَخِ » كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠١) والحاكم في المستدرک (١١١/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٥) . وقوله : « انكشف المسلمون » أي : انهزموا . قوله : « أُخْتَهُ » هي : الرُّبِيع بنت النضر . قوله : « بَنَانِهِ » أي : أطراف أصابعه ، قوله : « نَحْبِهِ » أي : عمره .
(٤) أخرجه البخاري في السير (٢٨٠٥) .

١٣١٩ - وعن أنس رضي الله عنه أَنَّ أُمَّ الرَّبِيعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ - وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ - أَتَتْ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ - وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ - فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبْرْتُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ ، فَقَالَ : « يَا أُمُّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جَنَّاتٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ ابْنَتِكَ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى » ^(١) .

١٣٢٠ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ : جِيءَ بِأَبِي إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَدْ مَثَلَ بِهِ ، فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَذَهَبَتْ أَكْشِيفُ عَنْ وَجْهِهِ ، فَتَهَانِي قَوْمِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتَيْهَا » ^(٢) متفق عليه .

١٣٢١ - وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ ؛ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في فضل الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله وأن لهم الجنة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [التوبة : ١١١] وذكر المؤلف أحاديث كثيرة تدل على صدق الصحابة رضي الله عنهم ، وصدق إيمانهم ، يخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بما للشهداء فيدعون ما بأيديهم من الطعام ويتركونه ويتقدمون إلى الجهاد في سبيل الله ثم يقتلون فيلقون الله تعالى راضين عنه وهو راض عنهم جلًّا وعلا وهذا لا شك من فضائل الصحابة رضي الله عنهم التي لا يلحقهم بعدهم أحد فيها .

هذا عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه لما قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر : من قاتلهم محتسبًا مقبلًا غير مدبر وجبت له جنة عرضها كعرض السماء والأرض ، قال : يا رسول الله ، جنة عرضها كعرض السماء والأرض ، قال : نعم ، فأخرج تمرات من قرنه الذي يوضع فيه الطعام عادةً ، ويأخذها المجاهد ، ثم جعل يأكل ، ثم استطال الحياة رضي الله عنه وقال : والله لأن بقيت حتى أكل هذه التمرات إنها حياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل وقتل رضي الله عنه ، وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة .

وكذلك أنس بن النضر رضي الله عنه لقي سعد بن معاذ في غزوة أحد ، وأخبره بأنه يجد ريح الجنة دون أحد ، قال ابن القيم : فهذه من الكرامات التي يكرم بها الله من يشاء من عباده أن يجد ريح الجنة وهو في الأرض والجنة في السماء ، لكن من أجل أن الله يثبت يقينه حتى يتيقنها وكأنها أمر محسوس عنده فقاتل حتى قتل ، لأنه رضي الله عنه تأخر عن غزوة بدر ، وسبب ذلك ، أن كثيرًا من الصحابة لم

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٠٨٩) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٤) بمعناه . قوله : « الفردوس الأعلى » الفردوس هو البستان الذي يجمع كل شيء ، وهو أفضل مكان وأوسع في الجنة .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٢٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (١٥٧) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٣) .

يخرجوا في بدر ؛ لأنهم إنما خرجوا من أجل غير أبي سفيان التي جاء بها من الشام يريد بها مكة ، ولم يخرجوا لقتال ، ولكن الله جمع بينهم وبين عدوهم من غير ميعاد ، فتخلف ﷺ ؛ لأنهم لم يؤمروا بالخروج إلى الغزو ، وإنما قال الرسول ﷺ : « من شاء أن يخرج معنا فليخرج » فخرج من خرج وتخلف من تخلف ، لكنه قال ﷺ : حين تخلف عن هذه الغزوة - غزوة بدر - : لأن أشهدني الله مشهداً - يعني غزواً في سبيل الله - ليرين الله مني ما أصنع ، ثم تقدم وجاهد وجالد وقاتل حتى قتل ، ووجدوا به بضعاَ وثمانين ، أو بضعاَ وتسعين ضربة في جسد واحد ، مما يدل على أنه قد غامر وخاض صفوف المشركين ، لم تعرفه إلا أخته بيناته ، وقال ﷺ وهو يجاهد : اللهم إني أعترض إليك مما صنع هؤلاء ؛ يعني أصحابه الذين انكشفوا في غزوة أحد ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ؛ يعني المشركين . فهذه القصص وأمثالها تدل دلالة واضحة على أن الله اختار لنبيه (أفضل الخلق وأنه مصداق قوله ﷺ : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ^(١) نسأل الله أن يبلغنا وإياكم منازل الشهداء ، وأن يجمع بيننا وبينهم في جنات النعيم .

* * *

١٣٢٢ - وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا ؛ أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبه » ^(٢) رواه مسلم .

١٣٢٣ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٣٢٤ - وعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ انْتَضَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » ثم قال : « اللَّهُمَّ مَنْزِلَ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِي السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، أَهْزِمْهُمْ وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ » ^(٤) متفق عليه .

١٣٢٥ - وعن سهل بن سعد ﷺ قال ، قال رسول الله ﷺ : « ثِنْتَانِ لَا تُرْدَانِ - أَوْ قَلَمَا تُرْدَانِ - الدُّعَاءُ عِنْدَ النَّدَاءِ ، وَعِنْدَ الْبَاسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » ^(٥) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١٣٢٦ - وعن أنس ﷺ قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَنَصِيرِي ،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٠٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (١٥٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٨) ، وأحمد في المسند (٢٩٧/٢) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠٢) .

قوله : « من مس القتل » أي من ألم القتل .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٢٤) ، ومسلم في الجهاد (٢٠) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١) .

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٤٠) ، والبيهقي في السنن (٤١٠/١) . قوله : « يلحم بعضهم بعضاً » أي : يقتل بعضهم بعضاً .

- بِكَ أَحُولُ ، وَبِكَ أَصُولُ ، وَبِكَ أَقَاتِلُ » ^(١) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .
- ١٣٢٧ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ » ^(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .
- ١٣٢٨ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « الْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٣) متفق عليه .
- ١٣٢٩ - وَعَنْ غَزْوَةَ الْبَارِقِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « الْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ : الْأَجْرُ ، وَالْمَغْنَمُ » ^(٤) متفق عليه .
- ١٣٣٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيْمَانًا بِاللَّهِ ، وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ ؛ فَإِنَّ شِبَعَهُ ، وَرِيئَهُ ، وَزَوْرَتَهُ ، وَبَوْلَهُ ؛ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٥) رواه البخاري .
- ١٣٣١ - وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فَقَالَ : هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ » ^(٦) رواه مسلم .
- ١٣٣٢ - وَعَنْ أَبِي حَمَادٍ - وَيُقَالُ : أَبُو سَعَادٍ ، وَيُقَالُ : أَبُو أَسَدٍ ، وَيُقَالُ : أَبُو عَامِرٍ ، وَيُقَالُ : أَبُو عَمْرٍو ، وَيُقَالُ : أَبُو الْأَشُودِ ، وَيُقَالُ : أَبُو عَبْسٍ - عَقَبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ عَلَى الْمَيْتَرِ يَقُولُ : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ » ^(٧) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمته الله ، بعضها في بيان فضيلة الشهداء ، وقد سبقت أحاديث كثيرة في هذا الموضوع ، وبعضها في فضل المشاركة في الجهاد بالراحلة والسهم .

- (١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٨٤) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٢) ، وأحمد في مسنده (١٨٤/٣) . قوله : « عضدي » أي : معتمدي . قوله : « بك أحول » أي : أصرف كيد العدو وأحتال لدفع مكرهم . قوله : « بك أصول » أي : أحمل على العدو حتى أغلبه وأستأصله .
- (٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٣٧) ، وأحمد في مسنده (٤١٥/٤) ، والبيهقي في السنن (٢٥٣/٥) . قوله « اللهم إنا نجعلك في نحورهم » أي : نسألك أن تصد صدورهم ، وتدفع شرورهم ، وتكفيننا أمورهم ، وتحول بيننا وبينهم .
- (٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٩) ، ومسلم في الإمامة (٩٦) ، وأحمد في مسنده (١٨٤/٤) بنحوه .
- (٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٢) ، ومسلم في الإمامة (٩٨) .
- (٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٢) ، وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) ، والنسائي في السنن (٢٢٥/٦) . قوله : « وتصديقاً بوعده » أي : بالثواب المترتب على ذلك .
- (٦) أخرجه مسلم في الإمامة (١٣٢) ، والطبراني في الكبير (٢٢٩/١٧) . قوله : « مخطومة » أي : فيها خطام ، وهو قريب من الزمام .
- (٧) أخرجه مسلم في الإمامة (١٦٧) .

فأما الأول : فقد ذكر النبي ﷺ أن الإنسان إذا استشهد في سبيل الله فإن ما يصيبه من القتل يكون كالقرصة ؛ يعني كقرصة النملة ، أو الذرة ، أو ما أشبه ذلك ، لأن الله تعالى يسهل عليه القتل كما أنه يسهل عليه خروج الروح ، لأن الروح تبشر برضوان من الله ﷻ وبالجنة ، فيسهل عليها الخروج ، كما في غيرها من الأموات .

ومنها : أن النبي ﷺ يَبْنِي حينما خطب الناس ، يَبْنِي الحكم في قوله : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا فإن الجنة تحت ظلال السيوف » والشاهد من هذا الحديث قوله : « الجنة تحت ظلال السيوف » .

ومنها : أي من فضائل الجهاد في سبيل الله ﷻ - أن الإنسان الذي يشارك برحلة يكتب له بذلك أجرها ، كما قال النبي ﷺ : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » ، والمراد بالخيول : خيل الجهاد ، لأنه فسر هذا الخير بقوله : « الأجر ، والمغنم » وهذا إنما يكون في خيل الجهاد ، فخيول الجهاد في نواصيها الخير إلى يوم القيامة . ويحتمل أن يكون الحديث عامًا ، أي الخيل كلها سواء كانت ممن يجاهد عليه أم لا ، للعموم .

ومنها أيضًا : أن رجلاً جاء بناقة مخطومة إلى رسول الله ﷺ فقال : هذه يا رسول الله في سبيل الله ، فأخبره النبي ﷺ أن الله أعد له يوم القيامة سبعمئة ناقة كلها مخطومة ، لأن الله تعالى يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

ومنها : أي من الجهاد في سبيل الله - المساعدة في السهام : الرمي ، ولهذا خطب النبي ﷺ ذات يوم ، فقال في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٥٩] « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » والرمي في كل وقت بحسبه ، ففي عهد الرسول ﷺ يكون الرمي بالقوس بالسهم ، وفي وقتنا الآن يكون الرمي بالقبائل والصواريخ وما أشبهه ؛ لأن كل رمي يكون بحسب الوقت الذي يكون فيه الإنسان نسأل الله أن يجعلنا من المجاهدين في سبيله بالمال والنفس ، إنه على كل شيء قدير .

١٣٣٣ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ : « سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ ، وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ ، فَلَا يَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُلْهَوْ بِأَسْهُمِهِ » ^(١) رواه مسلم .

١٣٣٤ - وَعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ عَلَّمَ الرُّمِّيَ ثُمَّ تَرَكَهُ ؛ فَلَيْسَ مِنَّا » ، أَوْ « فَقَدْ عَصَى » ^(٢) رواه مسلم .

١٣٣٥ - وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٦٨) وأحمد في مسنده (١٥٧/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (١٦٩) . قوله : « فليس منا » أي فليس من أهل هدينا .

الجنة . صَانَعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ ، وَالرَّامِي بِهِ ، وَمُنْبِلُهُ . وَارْمُوا وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا . وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلَّمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ ؛ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا » أَوْ قَالَ : « كَفَرَهَا » ^(١) . رواه أبو داود .

١٣٣٦ - وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ يَنْتَضِلُونَ ، فَقَالَ : « ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ ؛ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ زَايِمًا » ^(٢) . رواه البخاري .

١٣٣٧ - وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَهُوَ لَهُ عِدْلُ مُحَرَّرَةٍ » ^(٣) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٣٣٨ - وَعَنْ أَبِي يَحْيَى خُزَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَتَبَ لَهُ سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ » ^(٤) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٣٣٩ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » ^(٥) . متفق عليه .

١٣٤٠ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ يَتَهُ وَيَسِّرَ النَّارَ خَنْدَقًا كَمَا يَسِّرُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » ^(٦) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٣٤١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النَّفَاقِ » ^(٧) . رواه مسلم .

١٣٤٢ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ : « إِنْ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِزْتُمْ مَسِيرًا ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ ، حَبَسَهُمُ الْمَرْضُ » .

وفي رواية : « حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ » . وفي رواية : « إِلَّا سَرَكُوَكُمْ فِي الْأَجْرِ » ^(٨) . رواه البخاري من

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥١٣) ، والترمذي في فضائل الجهاد (٢٠) ، والنسائي في السنن (٣٥٨٠) . قوله : « منبله » أي : مناوله .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٩) ، وأحمد في مسنده (١٤٨/٤) ، والبيهقي في السنن (١٣/١٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٨) ، وأبو داود في العتق (٣٩٦٥) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١٢) . قوله : « عدل محررة » أي : بمثابة تحرير رقبة .

(٤) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٥) ، والنسائي في السنن (٣١٨٦) .

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٠) ، ومسلم في الصيام (١٦٧) واللفظ له .

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٠) ، ومسلم في الصيام (١٦٨) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٤) . قوله : « خندقًا » أي : حفرة واسعة لا يستطيع الإنسان اجتيازها .

(٧) أخرجه مسلم في الإمارة (١٥٨) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٢) ، والإمام أحمد في المسند (٣٧٤/٢) . قوله : « مات على شعبة من النفاق » أي : أن من فعل هذا فقد أشبه المخلفين عن الجهاد .

(٨) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٩) ، ومسلم في الإمارة (١٥٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٨) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٤) . قوله : « حبسهم العذر » أي : منعهم عن الخروج .

رواية أنس ، ورواه مُسلم من رواية جابر واللفظ له .

١٣٤٣ - وعن أبي موسى رضي الله عنه أَنَّهُ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيَذْكَرَ ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيَرَى مَكَانَهُ - وفي رواية : يُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ حِمِيَّةً . وفي رواية : وَيُقَاتِلُ غَضَبًا - فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان أمور في الجهاد في سبيل الله ، منها الرمي ، وقد سبق أن النبي ﷺ قال : « ألا إن القوة الرمي » ، كررها ثلاثاً .

وفي الأحاديث التي ساقها المؤلف في هذا الباب حث على تعلم الرمي ، وعلى أن من ترك الرمي بعد أن مرَّ الله تعالى عليه به ؛ فإنها نعمة كَفَرَهَا ، وفي بعض الأحاديث أن النبي ﷺ تبرأ منه . وفي بعض الأحاديث أيضًا : إنها ستفتح عليكم أرضون وسيكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه ^(٢) .

ففي هذه الأحاديث وأشباهها : حث على تعلم الرمي ، وعلى أن الإنسان ينبغي له ، أن يتعلم كيف يرمي ولو بالأسلحة الخفيفة ؛ لأنه لا يدري ماذا يحدث له ، حتى إن النبي ﷺ أجاز العوض في المسابقة في الرمي ، يعني مثلاً رمى اثنان بالبندقية أو شبهها من السلاح ويجعلون بينهما عوضاً ، من يرم منهم يأخذه ، هذا أيضًا لا بأس به وجائز ، لما في ذلك من الحث على تعلم الرمي ، وفي هذه الأحاديث أن النبي ﷺ قال : « اركبوا وارموا ، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا » ، لأن الرمي يدركه الإنسان الراكب والراجل ، أما الركوب فلا يدركه إلا من ركب ، ولهذا كان الرمي أحب إلى النبي ﷺ من الركوب .

وفي هذه الأحاديث أيضًا : دليل على فضيلة الصيام في الجهاد في سبيل الله ، وأن الإنسان إذا صام يومًا في سبيل الله ؛ باعد الله بين وجهه وبين النار سبعين خريفًا : يعني سبعين سنة ، وفي هذه الأحاديث دليل على وجوب إخلاص النية لله ، فإن النبي ﷺ سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل زورًا ويقاتل غضبًا - يعني عصبية لقومه - فمن في سبيل الله ؟ ، قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

١٣٤٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ غَازِيَةٍ ، أَوْ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٠) ، ومسلم في الإمامة (١٤٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (١٦٨) ، وأحمد في مسنده (١٥٧/٤) .

سَرِيَّة تَغْزُو ، فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ ؛ إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثَلَاثِي أَجُورِهِمْ ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخَفِّقُ وَتُصَابُ ؛ إِلَّا تَمَّ أَجُورُهُمْ » (١) . رواه مسلم .

١٣٤٥ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ سِيَّاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ » (٢) رواه أبو داود بإسنادٍ جيّد .

١٣٤٦ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « قَفْلَةٌ كَغَزْوَةٍ » (٣) . رواه أبو داود بإسنادٍ جيّد . « الْقَفْلَةُ » : الرُّجُوعُ ، والمراد : الرُّجُوعُ مِنَ الْغَزْوِ بَعْدَ فَرَاغِهِ ؛ ومعناه : أَنَّهُ يُنَابِثُ فِي رُجُوعِهِ بَعْدَ فَرَاغِهِ مِنَ الْغَزْوِ .

١٣٤٧ - وَعَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ تَلَقَّاهُ النَّاسُ ، فَتَلَقَّيْتُهُ مَعَ الصُّبْيَانِ عَلَى ثِيَابَةِ الْوَدَاعِ (٤) . رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ بهذا اللفظ ، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ قَالَ : ذَهَبْنَا نَتَلَقَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ الصُّبْيَانِ إِلَى ثِيَابَةِ الْوَدَاعِ .

١٣٤٨ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ لَمْ يَغْزُ ، أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيَا ، أَوْ يَخْلُفْ غَازِيَا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ ، أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٥) .

رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

١٣٤٩ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ » (٦) رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

١٣٥٠ - وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو - وَيُقَالُ : أَبُو حَكِيمٍ - الثُّعْمَانِ بْنِ مِقْرَنٍ رضي الله عنه قَالَ : شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَخَّرَ الْقِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ ، وَتَهْبِ الرِّيحُ ، وَيَنْزِلَ النَّضْرُ (٧) .

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٥٤) ، وأحمد في مسنده (١٦٩/٢) ، والنسائي في السنن (٣١٢٥) . قوله : « غَازِيَةٍ » أي : جماعة يخرجون للجهاد .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٦) ، والبيهقي في السنن (١٦١/٩) ، والحاكم في المستدرک (٧٣/٢) . قوله : « ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ » أي : الذهاب في الأرض بمفارقة المألوفات والمباحات ، وترك الجمعة والجمعات ؛ ولذا فإن النبي ﷺ رد عليه ذلك كما رد على عثمان بن مظعون التبتل .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٧) ، وأحمد في مسنده (١٧٤/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٨/٩) . (٤) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٧٧٩) ، والبخاري في الجهاد (٣٠٨٣) بنحوه ، والترمذي في الجهاد (١٧١٨) . قوله : « تَبُوكَ » هي موضع من بادية الشام قريب من مدين الذين بعث الله إليهم شعيب ، وهي آخر غزوات النبي ﷺ . قوله : « ثِيَابَةِ الْوَدَاعِ » هي موضع على مشارف المدينة .

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٠٣) ، وابن ماجه في الجهاد (٥٧٥٩) ، والبيهقي في السنن (٤٨/٩) . قوله : « قَارِعَةٍ » أي : داهية مهلكة .

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٠٤) ، والنسائي في الجهاد (٣٠٩٦) ، وأحمد في مسنده (١٢٤/٣) .

(٧) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٥٥) ، والإمام أحمد في المسند (٤٤٤/٥) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦١٣) .

رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .
 ١٣٥١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَتَمَتَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ ؛ فَاصْبِرُوا » ^(١) متفق عليه .
 ١٣٥٢ - وعنه وعن جابر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْحَرْبُ خَدْعَةٌ » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث هي بقية أحاديث باب الجهاد وفيها الحث على الغزو ، وأن الإنسان إذا لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ولم يخلف غازيًا في أهله وماله ؛ فإنه تصيبه قارعة قبل يوم القيامة ، وهذه القارعة ربما تفسر بما سبق في الحديث ، من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق . وفيها : أيضًا الحث على جهاد المشركين بالمال والنفس واللسان : بالمال : أي أن يبذل الإنسان ماله لمساعدة به المجاهدين ، أو يشتري به سلاحًا أو غير ذلك . والنفس : بأن يخرج بنفسه يقاتل . واللسان : بأن يهجوهم بالقصائد والأشعار ، لأن هجو المشركين يؤثر فيهم ويكون ذكرى سيئة في حقهم إلى ما شاء الله ، مثلاً إلى الآن ونحن نسمع هجاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهم للمشركين . وفي هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمته الله ، فضيلة الجهاد في سبيل الله وأنه من أفضل الأعمال ، وقد مرت الأحاديث الكثيرة في هذا المعنى ، وأطال المؤلف رحمته الله في نقل الأحاديث في ذلك ، لأن باب الجهاد من أهم أبواب الدين ، حتى إن النبي ﷺ قال : « وَذُرْوَةٌ سَنَامِهِ - أي ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ - الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٣) ، لما فيه من إعلاء كلمة الله ونصر الإسلام والمسلمين ، وغير ذلك من المصالح العظيمة ، والله الموفق .

٢٣٥ - باب بيان جماعة من الشهداء في ثواب الآخرة

يَغْسَلُونَ وَيُصَلَّى عَلَيْهِمْ بِخِلَافِ الْقَتِيلِ فِي حَرْبِ الْكُفَّارِ

١٣٥٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ : الْمَطْفُونُ ، وَالْمَبْطُونُ ، وَالْعَرِيقُ ، وَصَاحِبُ الْهَذَمِ ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٤) متفق عليه .
 ١٣٥٤ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا تَعْدُونَ الشُّهَدَاءَ فَيَكُمُ ؟ » قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٢٦) ، ومسلم في الجهاد والسير (٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٢٩ ، ٣٠٣٠) ، ومسلم في الجهاد والسير (١٧) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٣٤/٥) ، والحاكم في المستدرک (٤١٣/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٩) ، ومسلم في الإمارة (١٦٤) .

مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ . قَالَ : « إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَا لَقِيتُ لَاحِلًا ! » قَالُوا : فَتَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونَ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ » ^(١) رواه مُسْلِمٌ .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله في بيان الشهداء غير المقتولين في سبيل الله ، والمقتول في سبيل الله هو أعلى أنواع الشهداء ، أما الشهداء الآخرون - فهم كما أشار إليهم المؤلف - هم شهداء في الآخرة في أحكام الآخرة ، لا في أحكام الدنيا ، ويتبين ذلك بأن الشهيد المقتول في سبيل الله شهيد في الدنيا والآخرة ؛ فهو شهيد في الدنيا إذا قتل ومات ؛ فإنه لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ، ويدفن ، ولا يأتيه الملكان اللذان يسألانه عن ربه وعن دينه ، وعن نبيه ، فلا يُغسل من أجل أن يبقى أثر الدم عليه ، أثر الدم الذي قتل في سبيل الله من أجله ، فيأتي يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا ، اللون لون الدم والريح ريح المسك ، لذلك قال العلماء : يحرم أن يغسل ، ويحرم أن يغسل دمه ، بل يبقى على ما هو عليه ^(٢) . ولا يكفن وإنما يكفن في ثيابه التي قتل فيها ، حتى يأتي يوم القيامة بهذه الثياب ، ولا يُصلى عليه ، لأن الصلاة شفاعة ، كما قال النبي ﷺ في الصلاة على الميت : « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفّعهم الله فيه » ^(٣) ، والمقتول في سبيل الله لا يحتاج لأن يشفع له أحد ، لأن الشفاعة له كونه يعرض رقبتة لأعداء الله إعلًا لكلمة الله .

ولهذا علل النبي ﷺ عدم فنتته في قبره ، فقال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » ^(٤) ، أي كفى بها اختبار ، وصدق رسول الله ﷺ .

فيكفن في ثيابه ليأتي بها يوم القيامة ولا يُصلى عليه ، ونظير هذا في بعض الوجوه الرجل إذا مات محرّمًا ؛ فإنه يغسل بماء وسدر ، ولا يحنط ، ولا يقرب طيبًا ، ولا يغطي رأسه ، ولا يكفن في ثياب غير ثياب الإحرام ، التي كانت عليه ، لأنه يبعث يوم القيامة مليئًا ، يبعث يقول : لبيك اللهم لبيك . والشهيد يبعث يوم القيامة جرحه يثعب دمًا ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك ، فهذا الشهيد

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٩١٥) ، وأحمد في مسنده (٣١٠/٢) ، والطبراني في الكبير (٨٧/١٨) .
(٢) وذلك الذي عليه الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، وثمة خلاف بينهم في تفصيل ما ينزع من الشهيد من اللباس ، فقالت الحنفية : ينزع عنه الجلد والسلاح والفرو والحشو والخف والمنطقة والقلنسوة ، وقالت الشافعية : يزال ما عليه من حديد وجلود وكل ما ليس من عام لباس الناس ؛ ثم وليه بالخيار إن شاء كفنه بما بقي عليه ، وإن شاء نزعه وكفنه بغيره ، وتركه أفضل . وإذا لم يكن ثوبه ساترًا لجميع بدنه فإنه يتم وجوبًا . وقالت المالكية : يكفن بجميع ثيابه . وقال أهل الظاهر : يدفن بثيابه كلها عدا السلاح . (انظر المغني ٥٣٢/٢ ، المجموع ٢٦٧/٥ ، المدونة ١٦٥/١ ، أسهل المدارك ٣٥٦/١ ، المحلى ١١٥/٥ ، فقه الكتاب والسنة ٢٧٤١/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٩) ، والبيهقي في السنن (٣٨١/٣) ، والبخاري في شرح السنة (٣٨١/٥) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٩٩/٤) ، والهندي في كنز العمال (١٠٦١٠) .

في أحكام الدنيا الشهيد في سبيل الله ، يجنب هذه الأشياء : لا يغسل ، لا يكفن بكفن جديد ، وإنما يكفن في ثيابه - ولا يصلى عليه ، ويدفن .

ولا يأتيه الملك يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، لأن هذا أكبر امتحان واختبار له ودليل على صدقه .

أما في الآخرة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَهُمْ لَا يُحْزِنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ : ١٧١] .

أما بقية الشهداء المذكورين في الحديث فهم شهداء في الآخرة ، لا في الدنيا ، ومع ذلك فإنهم لا يساوون الذين قتلوا في سبيل الله ، ولكنهم شهداء ، ولكل درجات مما عملوا : المطعون ، والمبطون ، والغريق ، ومن قتل في سبيل الله شهيد في الدنيا وصاحب الهدم .

الأول - المطعون : يعني من مات بالطاعون ، والطاعون وباء فتاك مُعِد - نسأل الله العافية - إذا وقع في أرض فإنه يهلك ، ولهذا قال النبي ﷺ في الطاعون : « إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها ، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه » ^(١) ، لأنه كيف تفر من الله ﷻ ، وانظر إلى قوم ألوف ^(٢) خرجوا من ديارهم حذر الموت فقال الله لهم : موتوا ، فماتوا ، هربوا من الموت ، لكن الله تعالى أراد أن يبين لهم أنه لا مفر من الله ﷻ ، قال الله لهم موتوا فماتوا ثم أحياهم ، ليتبين أنه لا مفر من قدر الله ﷻ ، لكن نفعل الأسباب التي أمرنا بها ، أما التي نهينا عنها فلا ، ولهذا قال : « إذا وقع وأنتم في أرض فلا تخرجوا منها فراراً منه » هذا المطعون إذا مات بالطاعون كان شهيداً .

الثاني - المبطون : والمبطون هو الذي أصابه داء البطن ويشبه والله أعلم ، ما يسمونه الآن الغاشية ، تصيب الإنسان في بطنه ثم يموت ، هذه إذا مات بها الإنسان فإنه يكون شهيداً .

الثالث - الغريق : الذي يغرق ، إما في أنهار عظيمة ، أو يقع في النهر أو في البحر أو ما أشبه ذلك ، فإنه يكون من الشهداء في الآخرة ، ولهذا أمر الإنسان أن يتعلم السباحة ^(٣) ، فالإنسان مأمور أن يتعلم السباحة حتى إذا حصل مثل هذه الأشياء أمكنه أن يتوقى منه .

وأما الرابع - من مات بهدم : يعني رجل انهدم عليه البيت ، أو الجدار ، أو ما أشبه ذلك . فإنه يكون شهيداً ؛ لأن هؤلاء كلهم ماتوا بحوادث مميتة بريئة ، وهل يقاس عليهم مثلهم كالذي يموت في حادث أو في صدم أو ما أشبه ذلك ؟ الله أعلم ، قد يقاسون على هذا ، ويقال : لا فرق بين أن ينهدم الجدار ، أو أن تنقلب السيارة ، لأن كل حادث مات به الإنسان ، فيحكم على من مات بهذا الحادث أنه شهيد ،

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٣٠) ، ومسلم في السلام (٩٨) ، وأبو داود في السنن (٣١٠٣) .

(٢) أي عدة آلاف ، وقيل كانوا أربعة آلاف .

(٣) وذكر الأثر : السيوطي في الدر المنثور (١٩٤/٣) ، والهندي في كتر العمال (٤٥٣٤٢) ، والعجلوني في كشف الحفاء (٨٨/٢) وعزاه إلى الديلمي وقال أنه عنده روي عن جابر مرفوعاً « علموا أبناءكم السباحة والرمي ، والمرأة الغزل » .

لكننا لا نجزم به ؛ لأن مسائل - الجزاء عقوبة أو مثوبة - ليس فيها قياس ، فالحاصل أنه هناك شهداء غير المقتولين في سبيل الله ، ومن ذلك أيضًا من مات في سبيل الله ، وإن لم يقتل فهو شهيد ، لكنه شهيد في الآخرة ، كرجل خرج مع المجاهدين ، ومات في الطريق مorte طبيعية ، فهذا أيضًا من الشهداء ، لكنه شهيد في الآخرة ، أما في الدنيا ؛ فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ، ويدفن مع الناس ، كالشهداء الذين ذكرهم الرسول ﷺ وهم من مات بهدم ، أو غرق ، أو طاعون ، أو بطن ، والله الموفق .

١٣٥٥ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » ^(١) متفق عليه .

١٣٥٦ - وعن أبي الأغر سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِيهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » ^(٢) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٣٥٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي ؟ قَالَ : « فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ » قال : أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ : « قَاتِلْهُ » قال : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : « فَأَنْتَ شَهِيدٌ » قال : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ ؟ قَالَ : « هُوَ فِي النَّارِ » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه بقية الأحاديث في بيان الشهداء في ثواب الآخرة ، منها ما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وعن أبيه ، أن النبي ﷺ قال : « من قتل دون ماله فهو شهيد » . يعني إذا أُنكح أحد يريد أخذ مالك فدافعت عنه حتى قُتِلت فأنت شهيد .

وفي الحديث الأخير ، أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال : يا رسول الله ، أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ أَحَدٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي ، قَالَ : « فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ » قال : أَرَأَيْتَ أَنْ قَاتَلَنِي ، قَالَ : « قَاتِلْهُ » قال : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ، قَالَ : « فَأَنْتَ شَهِيدٌ » قال : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ ، قَالَ : « هُوَ فِي النَّارِ » .

فدل ذلك على أن الإنسان يدافع عن ماله إذا جاء أحد يريد أخذ المال ، فإنك تدافع ، فإذا لم يندفع إلا بالقتل فاقتله ، وإن اندفع بدون ذلك فلا تقتله ، يعني لو أمكن أن تكون أنت أقوى منه ، وتشد يديه ورجليه ، وتأسره فلا تقتله ، لأنه لا حاجة لقتله ، وإذا كان لا يمكن فقاتلك فقاتله ، ولو

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٨٠) ، ومسلم في الإيمان (٢٢٦) ، وأبو داود في السنة (٤٧٧١) . قوله : « دون ماله » أي : دافعاً عن ماله .

(٢) أخرجه الترمذي في الدييات (١٤٢١) ، وأبو داود في السنة (٤٧٧٢) ، والبخاري في المظالم والغصب (٢٤٥٢) بنحوه ، وأحمد في مسنده (١٦٣١ ، ١٦٣٦) . (٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٥) .

قتله ، وإن خفت أن يادرك بالقتل فاقتله ، ولا حاجة للمقاتلة ، يعني لو جاء إليك يسعى يشتد ومعه سلاح قد شهره فاقتله ، لأنك إن لم تبادره قتلك ، فإذا قتله فإنه في النار ، وإن قتلك هو فأنت شهيد . وكذلك في حديث سعيد بن زيد : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد » حتى لو أن أحدا أراد أن يفتنك في دينك ، يهتك عرضك أو ما أشبه ذلك ، فقاتله فقتلك فأنت شهيد ، وإن قتله أنت فهو في النار .

ولهذا قال العلماء : إن دفع الصائل ولو أدى إلى قتله جائز ^(١) ؛ لأنه إذا صال عليك فلا حرمة له ، لكن إذا اندفع بما دون القتل فلا تقتله .

نسأل الله تعالى أن يعيذنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

٢٣١ - باب فضل العتق

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا أَفْخَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكَّرْتَهُ ۝ ﴾ [البقرة: ١٧٣] .
١٣٥٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً ، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَصْوٍ مِنْهُ عَصْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ؛ حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ » ^(١) متفق عليه .
١٣٥٩ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله ، والجهاد في سبيل الله » قال : قلت : أي الرقاب أفضل ؟ قال : « أنفسها عند أهلها ، وأكثرها ثمنا » ^(٢) متفق عليه .

٢٣٢ - باب فضل الإحسان إلى المملوك

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ﴾ [النساء: ٣٦] .

- (١) انظر في ذلك : فقه الكتاب والسنة (١٨٧١/٤) والمجموع (٨٩/٩) والمغني (٥٦٦/٨) .
- (٢) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان (٦٧١٥) ، ومسلم في العتق (٢١) ، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٤١) .
- (٣) أخرجه البخاري في العتق (٢٥١٨) ، ومسلم في الإيمان (١٣٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٥٠/٥) والبيهقي في السنن (٢٧٣/١٠) .

(٤) قوله ﷻ : ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ۚ ﴾ هم أولو الأرحام . قوله ﷻ : ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ۚ ﴾ هو الصغير الذي لا أب له . قوله ﷻ : ﴿ وَالْمَسْكِينِ ۚ ﴾ هم المحتاجون . قوله ﷻ : ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ۚ ﴾ هو الجار الذي تربطك به قرابة . قوله ﷻ : ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ۚ ﴾ هو الجار الذي لا تربطك به قرابة . قوله ﷻ : ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ۚ ﴾ هو المرأة ، أو رفيق السفر . قوله ﷻ : « =

١٣٦٠ - وَعَنِ الْمُزَوَّرِ بْنِ شُوَيْدٍ قَالَ : رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ عليه السلام وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ ، وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلَهَا ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فَغَيَّرَهُ بِأَمْرِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ أَنْزَرُوْا فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَخَوَلُوكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخْرَهُ تَحْتَ يَدِهِ ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ ؛ فَأَعِينُوهُمْ » ^(١) متفقٌ عليه .

١٣٦١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ ، فَلْيَبَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ ؛ فَإِنَّهُ وَلِيُّ عِلَاجِهِ » ^(٢) رواه البخاري .

« الْأَكْلَةُ » بضم الهمزة : هي اللُقْمَةُ .

الشرح

العتق هو : تحرير الرقاب : يعني أن يكون هناك إنسان مملوك فيأتي شخص فيعتقه ، ويحرره ابتغاء وجه الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا من أفضل الأعمال ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةُ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكَ رَقَبٌ ۚ أَوْ يُطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْتَبَرٍ ۚ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبٍ ۚ أَوْ وَتَكِنَا ذَا مَقْرَبٍ ۚ ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

الْعَقَبَةُ : يعني رأس صعدتها على مشقة ، والعقبة هي الطريق المرتفع ، ومعلوم أن اقتحام العقبات صعب وشاق ، وكذلك إعتاق الرقاب صعب على النفوس ، لأن فيه إخراج المملوك عن ملكه وهو شاق ، وقوله : ﴿ فَكَ رَقَبٌ ۚ ﴾ يشمل العتق ، ويشمل فك الأسير من العدو ، فإن هذا من فك الرقاب ، ففي الآية دليل على فضيلة العتق ، ثم ذكر المؤلف ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من أعتق عبداً ، أعتق الله بكل عضو منه - أي من العتيق - عضواً منه - أي من المعتق - من النار ، حتى الفرج بالفرج . يعني أنك إذا أعتقت عبداً أعتق الله كل بدنك من النار ، لأنك أعتقت كل بدن هذا العبد من الرق ، فيعتقك الله تعالى من النار ، ثم ذكر فضل الإحسان إلى المملوك ، وصدر هذا بقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَاعْبُدُوا اللَّهَ : يعني أطيعوا الله ، فعبادة الله هي طاعته ، بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، وهذا هو الذي خلق العباد من أجله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۚ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ما خلقنا الله لنأكل ، ونشرب ، ونلبس ، ونسكن ، ونتمتع ، لا ، هذه كلها وسائل ، الغاية هي العبادة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۚ ﴾ فمن لم يعبد الله ، أو عبد مع الله غيره ، أو لم يعبد أحداً فإنه أضاع دينه ودنياه ، لأنه أضاع ما خلق من أجله .

وقوله : ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ ﴾ عام ، و﴿ شَيْئًا ۚ ﴾ يعم كل مُشْرِك ، مُشْرِك به ، لأنه نكرة في

= ﴿ وَآتَى التَّكْوِيلَ ﴾ هو المسافر الذي انقطعت به السبل . قوله ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ هم العبيد .

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٤٥) ، ومسلم في الأيمان (٣٨) . قوله : « خولكم » الحول مثل الخدم والحشم وزناً ومعنى من التخويل بمعنى الإعطاء والتملك .

(٢) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٧) ، وأحمد في مسنده (٤٤٦/١) . قوله : « ولي علاجه » أي : يزاول عمله من تحصيل آلانه ، ووضع القدر على النار ، وغير ذلك .

سياق النهي فيكون عامًا فلا تشرك بعبادة الله أحدًا لا الرسول ، ولا جبريل ، ولا ولي من أولياء الله ، ولا صديقًا ، ولا شهيدًا ، لا تعبد إلا الله وحده لا تشرك به شيئًا ، فمن أشرك بالله شيئًا ، فإن كان شركًا أكبر فقد قال الله في حقه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَشْرِكْ بِإِلَهِهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] مثاله : أن يذهب إلى قبر ثم يسجد له أو يدعو ويقول : يا سيدي أغثني ، يا سيدي ارزقني ولذا ، ارزقني زوجة ، ارزقني مالًا ، فهذا الشرك الأكبر مخرجًا من الملة ، حتى لو صام الإنسان ، وتصدق ، وصلى ، وقرأ القرآن ، وحج البيت ، وهو باقٍ على هذا الشرك ؛ فإنه لا يدخل الجنة ، والجنة عليه حرام ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لأنه أشرك بالله .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ... ﴾ ولم يذكر الله حق النبي ﷺ مع أن حق الرسول أعظم من حق الوالدين ، يجب على الإنسان أن يحب الرسول ﷺ أشد من حبه لنفسه ، ومن حبه لولده ، ومن حبه لوالده (١) . وحق الرسول فوق كل حقوق الخلق ، قال العلماء : لأن حق الرسول من حق الله ، لأن عبادة الله لا يمكن أن تقبل إلا باتباع رسول الله ﷺ فحق الرسول داخل في ضمن حق الله ﷻ فمن لم يجرد العبادة لله إخلاصًا وللرسول اتباعًا فلا عبادة له ، ولهذا لم يذكر حق الرسول ﷺ ، لأنه داخل في حق الله .

وقوله : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ يشمل الأم والأب ، ﴿ إِحْسَانًا ﴾ يعني احسنوا للوالدين إحسانًا ، إحسانًا بالمال ، تعطيهم من مالك إذا كانوا فقراء محتاجين أو غير فقراء ، ولكن تعطيهم كمالًا ، كماليات ، تتودد إليهما ، ومن الإحسان أن تخدمهما ، فإذا أرسلك أبوك إلى شيء ، اذهب . قال : انتظر فلان ، انتظره . قال : ائت لي بالحاجة الفلانية ، تأتي له ، فتخدمهما بالمال وبالبدن وبالجاه أيضًا ، لو كان الابن له جاه عند الناس أو عند الدولة ، وأبوه محتاج إلى جاهه ، فمن الإحسان أن يخدمه بجاهه ، وكذلك الأم ، فالإحسان هنا يشمل كل ما يُعد إحسانًا .

٢٣٨ - باب فضل المملوك الذي يؤدي حق الله وحق مواليه

١٣٦٢ - عَنْ ابْنِ عُثْمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ الْعَبْدُ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللَّهِ ، فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ » (٢) متفق عليه .

١٣٦٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لِلْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الْمُضْلِحِ أَجْرَانِ » وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ لَوْلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْحُجْجُ ، وَبِرُّ أُمِّي ؛ لَأُحْبِبْتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا

(١) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في الإيمان (٧٠) ، والنسائي في السنن (١١٤/٨) ، وأحمد في مسنده (٢٧٥/٣) ، قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

(٢) أخرجه البخاري في الحق (٢٥٤٨) ، ومسلم في الإيمان (٤٣) ، وأبو داود في الأدب (٥١٦٩) ، والبيهقي في السنن (١٢/٨) .

مملوك^(١) . متفق عليه .

١٣٦٤ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لِلْمَمْلُوكِ الَّذِي يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ ، وَيُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الَّذِي عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَالنَّصِيحَةِ ، وَالطَّاعَةِ ، أَجْرَانِ » ^(٢) . رواه البخاري .

١٣٦٥ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ، وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ » ^(٣) . متفق عليه .

الشرح

عقد المؤلف باب فضل العتق لبيان ما جاءت به الأحاديث من أن المملوك إذا قام بحق الله وحق سيده كان له الأجر مرتين ، الأجر الأول : لقيامه بحق الله ، والثاني : لقيامه بحق سيده ، لأن الله عليه حقاً ، كالصلوات والصيام وغيرهما من العبادات التي ليست مبنية على أمر مالي ، وللسيد عليه حق وهو القيام بخدمته ، وما إلى ذلك ، فإذا قام بالحقين صار له أجران .

وكذلك في الحديث الأخير ذكر النبي ﷺ أن ثلاثة لهم الأجر مرتين الأول : « رجل من أهل الكتاب » اليهود والنصارى : يعني كان يهودياً أو نصرانياً ثم « آمن » بالرسول ﷺ ، فهذا له الأجر مرتين ، الأجر الأول : إيمانه برسوله ، والثاني : إيمانه بمحمد ﷺ ، وليعلم أن اليهود والنصارى إذا بلغتهم رسالة محمد ﷺ فلم يؤمنوا به حبطت أعمالهم ، حتى أعمالهم التي يدينون بها في ملتهم ، حابطة غير مقبولة ، لقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] . أما الثاني : فهو العبد المملوك الذي قام بحق سيده وحق الله ﷻ ، أما الثالث : فرجل عنده أمة أدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها ، وتزوجها ، فله الأجر مرتين ، المرة الأولى لإحسانه إليها وهي رقيقة مملوكة ، والأجر الثاني لإحسانه إليها بعد أن أعتقها لم يضيعها ، بل تزوجها وكفها وأحصن فرجها ، والله الموفق .

٢٣٩ - باب فضل العبادة في الهرج وهو الاختلاط والفتن ونحوها

١٣٦٦ - عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ » ^(٤) . رواه مُسْلِمٌ .

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٤٨) ، ومسلم في الأيمان (٤٤) ، وأحمد في مسنده (٣٣٠/٢) ، والبيهقي في السنن (١٢/٩) . قوله : « المصلح » هو الناصح لسيدته ، والقائم بعبادة ربه الواجبة عليه .

(٢) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥١) . قوله : « ويؤدى إلى سيده » أي يعطي إلى سيده .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٩٧) ، ومسلم في الإيمان (٢٤١) .

(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه والحديث أخرجه مسلم في الفتن وأشرط الساعة (١٣٠) ، والترمذي

في الفتن (٢٢٠١) ، وأحمد في مسنده (٢٧/٥) ، قوله : « العبادة في الهرج » أي في الفتنة واختلاط أمور الناس ، =

٢٤٠ - باب فضل السماحة في البيع والشراء والأخذ والعطاء وحسن القضاء والتقاضي وإرجاح المكيال والميزان ، والنهي عن التطفيف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَقَوُّوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [هود: ٨٥] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبِلِّ التَّطْفِيفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١) ﴾ [المطففين: ١ : ٦] .

الشرح

البيع والشراء أمران ضروريان لا تقوم حياة بني آدم إلا بهما غالبًا ؛ وذلك لأن الإنسان قد يحتاج إلى شيء عند غيره ، فكيف يتوصل إليه ، إن استجده وقال : هبه لي ، أذل نفسه . وإن استعاره بقي في قلبي ، وإن أخذه غصبا ظلمه ، فكان من حكمة الله ﷻ أن شرع البيع والشراء ؛ لأنني ممكن أن أحتاج دراهم فأبيع ما عندي ، وأنت محتاج هذا الشيء المعين عندي فتشتره بالدراهم ، فكان البيع أمرا ضروريا لحاجة بني آدم .

ولكن من الناس من يبيع بالعدل ، ومن الناس من يبيع بالظلم ، ومن الناس من يبيع بالإحسان ، فالناس ثلاثة أقسام : قسم يبيع بالعدل ، لا يظلم ولا يُظلم ، كما قال تعالى في الذين يتعاملون بالربا : ﴿ وَإِنْ تَبَشَّرْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] وقسم يبيع بالجور ، والظلم ، كالغشاش ، والكذاب ، وما أشبه ذلك ، وقسم يبيع بالفضل والإحسان ، فيكون سمحا في البيع وفي الشراء ، إن باع لم يطلب حقه وأفيا ، بل ينزل من الثمن ، ويمهل في القضاء ، وإن اشترى لا يهمله أن يزيد عليه الثمن ويأدر بالوفاء فيكون محسنا .

وقد استدلل المؤلف ﷺ على فضل السماحة في البيع والشراء بآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] كلمة ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الخيرات ، من أي جهة ، وهي مؤكدة عمومها بـ « من » ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ يعني أي خير تفعلونه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ يعني لا يخفى عليه ولا يفوته ﷻ ، وسيجازيكم على هذا أفضل مما عملتم ، لأن الله يجازي بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

والمراد بالآية الكريمة : الحث على فعل الخير ، وأن يعلم الفاعل أنه لن يضيع عليه شيء من فعله ؛

= وسبب كثرة فضل العبادة فيه : أن الناس يغفلون عنها ويشغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا الأفراد .

(١) قوله ﷻ : ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل . قوله ﷻ : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا ﴾ أي لا تنقصوا قوله ﷻ : ﴿ وَبِلِّ التَّطْفِيفِينَ ﴾ أي حزن وهلاك ومشقة من العذاب ، وهو واد في جهنم . قوله ﷻ : ﴿ لِلتَّطْفِيفِينَ ﴾ هم الذين ينقصون في الكيل والوزن . قوله ﷻ : ﴿ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أي وزنوا لأنفسهم .

فإن الله به عليم وسيجازيه عليه ﷺ أفضل الجزاء . ومن الخير : الساحة في البيع والشراء ، وقد دعا النبي ﷺ للمتسامحين في البيع والشراء ، فقال : « رحم الله امرأ سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى » ^(١) . فالإنسان كلما كان أسمح في بيعه وشراؤه ، وتأجيريه ، واستجاره ، ورهنه ، وارتهانه وغير ذلك فإنه أفضل ، وقال الله تعالى عن شعيب أنه قال لقومه : ﴿ وَيَقْوِمُوا وُفُؤَهُمُ لِلْكَيَالِ وَالْيَازَنَاتِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ ﴾ [هود : ٨٥] أوفوا المكيال : أي ما تبيعونه كيلاً ، والميزان : ما تبيعونه وزناً ، أوفوه ولا تنقصوا منه شيئاً .

وهذا دليل على أن الوفاء في العقود مما جاء في الشرائع السماوية السابقة واللاحقة ، وقال تعالى : ﴿ رَبِّ لِلْمُطْغَفِينَ ۖ أَلَيْسَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين : ١-٢] ويل : كلمة وعيد ، يتوعد الله ﷻ المطففين الذين هذه صفاتهم إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، يعني إذا كان الحق لهم ، واكتالوا فإنهم يستوفون حقهم كاملاً ، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ يعني إذا كان الحق عليهم وكالوا لهم أو وزنوا لهم ، يخسرون أي يبخسون الكيل والميزان .

فيظلمون من الوجهين ، أو يطلبون العدل فيما يتعاملون به ، ويبخسون فيما يعاملون الناس به ، وهذا هو المطفف ، وهذه الآية وإن كانت قد وردت في المكيال والميزان إلا أن العامل حتى الموظف إذا كان يريد أن يعطى راتبه كاملاً لكنه يتأخر في الحضور ، أو يتقدم في الخروج ؛ فإنه من المطففين الذي توعدهم الله بالويل ؛ لأنه لا فرق بين إنسان يكيل أو يزن للناس وبين إنسان موظف عليه أن يحضر في الساعة الفلانية ولا يخرج إلا في الساعة الفلانية ثم يتأخر في الحضور ، ويتقدم في الخروج ، هذا مطفف ، وهذا المطفف في الوظيفة لو نقص من راتبه ريال واحد من عشرة آلاف ، لقال لماذا تنقص ، هذا مطفف يدخل في هذا الوعيد ﴿ رَبِّ لِلْمُطْغَفِينَ ۖ أَلَيْسَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿ ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿ أَلَا يَنْظُرُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۖ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني هل هؤلاء نسوا يوم الحساب ، نسوا يوم القيامة الذي ما أقرب منه .

فالإنسان في هذه الدنيا ليس معه ضمان أن يعيش ولو لحظة واحدة ، يموت الإنسان وهو يتغذى أو يتعشى ، يموت وهو نائم ، يموت وهو على مكتبه ، يموت وهو ذاهب لحاجته ، أو راجع منها ، ثم يأتي اليوم العظيم ﴿ أَلَا يَنْظُرُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۖ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ استعظمه الله ﷻ ، بين أنه عظيم ، فيدل على عظمته ، وقد وصف الله هذا اليوم في آيات كثيرة كلها تزعج وتروع وتخوف ^(٢) . هؤلاء سوف يتعرضون لعقوبة الله في ذلك اليوم ، هؤلاء المطففون سيتعرضون لعقوبة الله في ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَائِينَ ﴾ يقوم الناس كلهم لرب العالمين من في مشارق الأرض ومغاربها يعثون على صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر ، الداعي يسمعون كلهم ، لأن الأرض مبسوطة غير كروية يغيب بعض الناس فيها عن بعض ، بل هي سطح واحد إذا تكلم أحد في أولهم سمعه آخرهم . وينفذهم البصر يراهم الرائي بخلاف الدنيا

(٢) راجع سور التكويد ، الانشقاق ، الانفطار .

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٦) .

الأرض منعطفة كروية لكن في الآخرة الأرض سطح واحد كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٣ : ٤] تمد كما يمد الجلد ، هذا اليوم العظيم يقوم الناس فيه لله ﷻ للحساب والمعاقبة ، ومقدار هذا اليوم خمسون ألف سنة ، والشمس من فوقهم بقدر ميل ، ولا شجرة يستظلون به ، ولا بناء ، ولا شيء إلا من يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم . فهذا اليوم العظيم سيجد هؤلاء المطففون عقوبتهم في ذلك اليوم ، لا فيه ولد ينفع ولا أب ولا أم ولا زوجة ولا أحد ، ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ نَّهْيٌ يَوْمَئِذٍ تَأْتِيهِ ﴾ [عس : ٣٧] فليحذر هؤلاء المطففون وليتقوا الله ﷻ ويؤدوا الحق كاملاً وإن زادوا فضلة فهو أفضل ، ولهم أن يأخذوا حقهم كاملاً وإن تسامحوا فهو أفضل ، والله الموفق .

* * *

١٣٦٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاةً فَأَغْلَظَ لَهُ ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « دَعُوهُ ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا » ثُمَّ قَالَ : « أَغْطُوهُ سِتًّا مِثْلَ سِتِّي » قالوا : يا رسول الله ، لَا نَجِدُ إِلَّا أَثْنَلًا مِنْ سِتِّي ، قال : « أَغْطُوهُ ؛ فَإِنْ خَيْرَ كُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً » ^(١) متفق عليه .

١٣٦٨ - وَعَنْ جَابِرٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمِعًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى » ^(٢) رواه البخاري .

١٣٦٩ - وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ؓ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلْيُنْفِسْ عَنْ مُغْسِرٍ ، أَوْ يَضْغَ عَنْهُ » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف في باب (فضل السماحة في البيع والشراء) .

أما الأحاديث : فمنها حديث أبي هريرة أن أعرابياً جاء يتقاضى الرسول ﷺ حقه ، يتقاضاه يعني يطلب أن يقضيه النبي ﷺ حقه ، وذلك أن الرسول ﷺ استقرض بكراً - يعني ناقة صغيرة - فجاء صاحبها يطلبها ، يقول : أعطني بكري والأعراب كما نعلم عندهم جفاء ، فأغلظ للرسول ﷺ القول ، فهم به الصحابة ، يعني هموا به أن يضربوه أو يسكتوه أو ما أشبه ذلك ، فقال : « دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالاً » صلوات الله وسلامه عليه ، ما ظنكم لو تكلم مثل هذا الأعرابي على جندي من الجنود ماذا يفعل به ؟! يبطش به ، أو على أمير من الأمراء أو على قاض من القضاة ، أو على وزير من الوزراء ، لو جاء يطلب حقه ولو بسهولة ربما يقتل به ، إلا من شاء الله ، هذا يغلظ القول لمحمد رسول الله ﷺ ويقول : « دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالاً » ، ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان

(١) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣٠٦) ومسلم في المساقاة (١٢٠) ، وأحمد في مسنده (٤١٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٥١/٥) . قوله « سِتًّا مِثْلَ سِتِّي » أي جملاً له سن معين من أسنان الإبل .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٦) . قوله « سمحاً » أي متساهلاً قوله « اقتضى » أي طلب قضاء حقه .

(٣) أخرجه مسلم في المساقاة (٣٢) ، والبيهقي في السنن (٣٥٧/٥) . قوله « فلينفس » أي يمد ويؤخر المطالبة .

عليه حق لشخص ، وكان الشخص جاء يطلبه فلصاحب الحق أن يغلظ له القول ؛ لأنه صاحب حق ، والرسول ﷺ سيوفيه - لا شك لكن قد لا يكون عنده تلك الساعة شيء ، ولذلك أمرهم بقضاء بكرة فقالوا : « إنا لا نجد إلا سنًا خيرًا من سنة » وفي رواية قالوا : « لا نجد إلا ربيعًا خيارًا » (١) والرباعي أحسن بكثير من البكر ، البكر صغير ، والرباعية كبيرة تتحمل الحمل والأثقال وغير ذلك ، فأمرهم النبي ﷺ أن يعطوه إياها ، وقال : « إن خيركم أحسنكم قضاء » ، في صفة القضاء وفي معاملة المستقضي الذي يطلب حقه ، فينبغي للإنسان أن يقتدي برسول الله ﷺ في حسن القضاء ، لكن معاملة المستقضي الذي يطلب حقه أي لا يعامله بالجفاء والسب والشتم ، بل باللين لأن له حقًا ومقالة ، ولا في المقضي يعني يقضي أحسن مما عليه سواء كان أحسن مما عليه كيفية ، أو أكثر مما يطلب . فمثلاً إذا استقرضت من شخص مائة ريال وعند الوفاء أعطيت مائة وعشرة بدون شرط ، فإن هذا لا بأس به . وهو من خير القضاء ، وكذلك لو استقرضت منه صاعًا من الطعام وسطًا ، ليس بالطيب ولا بالردى ، فأعطيت صاعًا طيبًا فهذا أيضًا من حسن القضاء . وخير الناس أحسنهم قضاء وفي حديث جابر أن النبي ﷺ جمع قال : « رحم الله امرئًا سمحًا إذا باع ، سمحًا إذا اشترى ، سمحًا إذا اقتضى » وكذلك سمحًا إذا قضى ، ف قوله - عليه الصلاة والسلام - : « رحم الله امرئًا » أو قال « رجلًا » هذا خير بمعنى الدعاء ، يعني يدعو له بالرحمة إذا كان سمحًا في هذه المواضع الأربعة : سمحًا إذا باع لا يشتد على المشتري ويكون سهلًا يواضعه ويضع عنه . سمحًا إذا قضى ، إذا قضى غيره كان سمحًا يعطيه في وقته ولا يماطل ، كذلك سمحًا إذا اشترى ، وكذلك سمحًا إذا اقتضى ، إذا أخذ حقه ، فهذه الأحوال الأربع ينبغي للإنسان أن يكون سمحًا فيها حتى ينال دعاء رسول الله ﷺ ، ويأتي الكلام - إن شاء الله - على بقية الأحاديث .

* * *

١٣٧٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ : إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْكَ ، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ » (٢) متفق عليه .

١٣٧١ - وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَذَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَلَمْ يُوْجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَكَانَ مُوسِرًا ، وَكَانَ يَأْمُرُ غُلَمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ . قَالَ اللَّهُ ﻋَﻠَﻴْكَ : نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ » (٣) رواه مسلم .

١٣٧٢ - وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ : أَتَى اللَّهَ تَعَالَى بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا ، فَقَالَ لَهُ : مَاذَا

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١١٨) ، ومالك في الموطأ (البيوع ٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٨) ، ومسلم في المساقاة (٣١) ، والنسائي في السنن (٣١٨/٧) ، وأحمد في مسنده (٢٦٣/٢) . قوله : « فتجاوز عنه » أي أنظره وطلابه بالحسنى وعفا عنه .

(٣) أخرجه مسلم في المساقاة (٣٠) ، وأحمد في مسنده (١٢٠/٤) ، والبيهقي في السنن (٣٥٦/٥) . قوله : « ممن كان قبلكم » أي من الأمم السابقة ، قوله : « يخالط الناس » أي يعاملهم بالبيع والمداينة .

عَمِلْتُ فِي الدُّنْيَا ؟ قَالَ : - وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا - قَالَ : يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ ، فَكُنْتُ أَتَابِعُ النَّاسَ ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَّازُ ، فَكُنْتُ أَتَبَسُّ عَلَى الْمُؤَسِّرِ ، وَأَنْظُرُ الْمُعْسِرَ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِثْلِكَ ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي » فَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ وَأَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنهما : هَكَذَا سَمِعْنَاهُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(١) . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة في فضل السماحة في البيع والشراء ، وفيها فضل العفو عن الناس والتجاوز عنهم ، ففي الحديث الأول ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كَانَ رَجُلٌ يَدَايِنُ النَّاسَ » يعني يتعامل معهم بالدين ، والدين ليس هو المعروف عندنا ، يعني أن تشتري سلعة لتبيعها وتنتفع بثمرها ، الدين : كل ما ثبت في الذمة فهو دين ، حتى لو بعث إلى شخص سيارة بثمان غير مؤجل ، ولم يسلمك الثمن فالثمان في ذمته دين . وإن استأجرت بيتًا وتمت المدة ولم تسلمه الأجرة فالأجرة في ذمتك دين . المهم أن المداينة أن يعامل الناس ليس نقدًا ، يعني ليس يدًا بيد بل يبيع إليهم ويشترى منهم ويعفو عن المعسر « فَكَانَ يَقُولُ لِغَلَامِهِ : إِذَا رَأَيْتَ مَعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزَ عَنْكَ » . فكان الغلام يفعل هذا . فلقني الله ﷻ فجازه الله ﷻ بمثل ما يجازي به الناس ، يعني بمثل ما يفعل هذا الرجل في الناس عامله الله ﷻ ، فتجاوز عنه ؛ وذلك لأن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ولأن الجزء من جنس العمل ، ففي هذا الحديث حديث أبي هريرة والحديثين بعده دليل على فضيلة إنظار المعسر والتجاوز عنه وإبرائه .

واعلم أن هذا لا ينقصك شيئًا من المال ؛ لأن النبي ﷺ قال : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ » ^(٢) بل هذا يجعل في مالك البركة والخير والزيادة والنماء .

وأما إنظار المعسر : فإنه واجب ، يجب على الإنسان إذا كان صاحبه معسرًا لا يستطيع الوفاء يجب عليه أن ينظره ولا يحل له أن يكرهه أو يطالبه ، لقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ لَكَ مِيسَرَةٌ ^(٣) ﴾ [البقرة : ٢٨٠] فهناك فرق بين الإبراء وهو إسقاط الدين عن المعسر وبين الإنظار ، الإنظار واجب ، والإبراء سنة ، ولا شك أن الإبراء أفضل ، لأن الإبراء تبرأ به الذمة نهائيًا ، والإنظار تبقى الذمة مشغولة لكن صاحب الحق لا يُطالب به حتى يستطيع المطلوب أن يوفي . وبعض الناس - نسأل الله العافية - تحل لهم الديون على أناس فقراء فيؤذونهم ويضربونهم ويطالبونهم ويدفعون بهم إلى ولادة الأمور ، ويحبسونهم عن أهلهم وأولادهم وأموالهم ، وهذا لاشك أنه منكر والواجب على القضاة إذا علموا أن هذا معسر لا يستطيع الوفاء ، الواجب عليهم أن يقولوا للدائن ليس لك حق في

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (٢٨ ، ٢٩) . قوله : « الجواز » أي التسامح والتساهل في البيع والافتضاء ، قوله : « وأنظر » أي أمهل .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٢٣٥ / ٢) ، والبيهقي في السنن (٢٣٥ / ١٠) .

(٣) قوله : ﴿ فَنَظِرَةٌ لَكَ مِيسَرَةٌ ﴾ أي : فعليكم تأخيرها وإمهالها حتى تيسر له الأمور .

مطالبته ، لأن الله تعالى هو الحكم - هو الحاكم بين العباد - وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ ﴾ لكن يتعلل بعض القضاة في هذه المسألة ، يقولون : إن بعض المدينين يتلاعبون بالناس فيأكلون الأموال ويجحدون الإيثار ، فيعاملونهم بهذا تنكيلاً بهم . نعم إذا ثبت أن هذا المدين يدعى الإعسار وليس بمعسر فإنه لا بأس أن يجبر ويحبس ويضرب حتى يوفي فإن لم يفعل ؛ فإن الحاكم يتولى بيع ما شاء من ماله ويوفي دينه . أما الذي نعلم أنه معسر حقيقة ؛ فإنه لا يجوز لطالبه أن يطالبه ولا أن يقول : أعطني ، يجب أن يعرض عنه بالكلية ﴿ فَتَنْظَرُ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ والله الموفق .

- ١٣٧٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَوْ وَضَعَ لَهُ ، أَظْلَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » ^(١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .
- ١٣٧٤ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَرَى مِنْهُ بَعِيرًا ، فَوَزَنَ لَهُ ، فَأَرْجَحَ . ^(٢) متفق عليه .
- ١٣٧٥ - وَعَنْ أَبِي صَفْوَانَ سُؤِيدِ بْنِ قَيْسٍ رضي الله عنه قَالَ : جَلَيْتُ أَنَا وَمَخْرَمَةُ الْعَيْدِيِّ بَرًّا مِنْ هَجَرَ ، فَجَاءَنَا النَّبِيُّ ﷺ ، فَسَاوَمَنَا بِسَرَاوِيلَ ، وَعِنْدِي وَزَنٌ بِالْأَجْرِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْوَزَانِ : « زِنْ وَأَرْجِحْ » ^(٣) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذه بقية الأحاديث الواردة في فضل السماحة في البيع والشراء والقضاء والاقتضاء وقد سبق أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع ، والأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمته الله وردت فيمن أنظر معسرًا أو وضع عنه ، فإن الله تعالى يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . أنظره يعني أمهله حتى يوسع الله عليه ، وهذا أمر واجب كما سبق الإشارة إليه . فإن وضع عنه فهو أفضل وأكمل ، لأنه إذا وضع عنه أبرأ ذمته ، وأما إذا أنظره فإنما أمهله وبقيت ذمته - أي ذمة المطلوب - مشغولة لم تنفك .

ثم ذكر حديثين أيضًا فيهما ذكر الوزن والإرجاح ، حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ اشترى منه فوزن وأرجح يعني أرجح الوزن لأنهم كانوا فيما سبق يتعاملون بالنقود وزناً لا عدداً وإن كانوا يتعاملون أيضًا بها عدداً ، لكن الكثير وزناً كما جاء في الحديث : « ليس فيما دون خمس أواق صدقة » ^(٤) . فوزن له النبي ﷺ وأرجح يعني زاده أكثر مما يستحق ، وهكذا ينبغي للإنسان عند

(١) أخرجه الترمذي في البيوع (١٣٠٦) ، وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) ، وابن ماجه في الأحكام (٢٤١٧) . قوله : « من أنظر معسرًا » .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٩٧) بمعناه ، ومسلم في المساقاة (١١٥) بنحوه .

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع (٣٣٣٦) ، والترمذي في البيوع (١٣٠٥) ، وابن ماجه في التجارات (٢٢٢٠) . قوله : « هجر » بلدة باليمن .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٥) ، ومسلم في الزكاة (٣ ، ٢) ، وأحمد في مسنده (٦/٣) ، والترمذي في السنن (٦٢٧) .

الوفاء أن يُؤفِّي كاملاً بدون نقص وإذا زاد فهو أفضل . والله الموفق .

كتاب العلم

٢٤١ - باب فضل العلم [تعلماً وتعليماً لله] (١)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٣٨] .

الشرح

ذكر المؤلف النووي في فضل العلم تَعْلَمًا وَتَعْلِيمًا لله ﷻ . والمراد بالعلم الذي وردت به النصوص في فضله ، والثواب عليه ، ورفعة أهله ، وكونهم ورثة الأنبياء ، إنما هو علم الشريعة عقيدة وعملاً ، وليس علم ما يتعلق بالدنيا كالحساب والهندسة ، وما أشبه ذلك ، المراد بالعلم الشرعي الذي جاءت به الشرائع هذا هو العلم الذي يثني على من أدركه وعلى من علمه وتعلمه .

والعلم جهاد ، جهاد في سبيل الله ، وعليه يبنى الجهاد وسائر الإسلام ، لأن من لا يعلم لا يمكن أن يعمل على الوجه المطلوب ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفُوهَا كَأْفَهِ قَوْلًا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] يعني لولا نفر بالجهاد من المؤمنين من كل فرقة منهم طائفة ، وقعدت طائفة أخرى ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ أي الطائفة القاعدون ﴿ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أي رجعوا من الغزو ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ فجعل الله تعالى الفقه في دين الله معادلاً للجهاد في سبيل الله ، بل أولى منه ، لأنه لا يمكن أن يجاهد المجاهد ، ولا أن يصلي المصلي ، ولا أن يزكي المزكي ، ولا أن يصوم الصائم ، ولا أن يحج الحاج ، ولا أن يعتمر المعتمر ، ولا أن يأكل الآكل ، ولا أن يشرب الشارب ، ولا أن ينام النائم ، ولا أن يستيقظ المستيقظ ، إلا بالعلم ، فالعلم هو أصل كل شيء ولذلك قال النبي ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » (٢) .

ولا فرق بين المجاهد الذي يُسوي قلل قوسه (٣) ، وبين طالب العلم الذي يستخرج المسائل العلمية من بطون الكتب ، كل منهم يعمل للجهاد في سبيل الله وبيان شريعة الله لعباد الله . ولهذا أعقب

(١) ما بين المعرفين زيادة من الشارح .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧١) ، ومسلم في الزكاة (٩٨) ، والترمذي في السنن (٢٦٤٥) ، وابن ماجه في السنن (٢٢٠) .

(٣) قلل قوسه : أي رأس السيف « لسان العرب مادة قلل » .

للسائل أحكام المقاصد ، والعلم الشرعي ينقسم إلى قسمين : قسم فرض عين يجب على كل إنسان أن يتعلمه ، وقسم آخر فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن بقية الناس ، وقسم ثالث يتفرع عن الثاني سنة ؛ وهو إذا ما قام بالعلم من يكفي فيكون للباقيين سنة . أما العلم الفرض العين الذي يجب على كل إنسان : فهو أن يتعلم الإنسان ما يحتاج إليه في أمور دينه الواجبة ، كأن يتعلم ما يتعلق بتوحيد الله وبيان ما ينافية ويناقضه من الشرك كله جلّيه وخفيه صغيره وكبيره ؛ لأن هذا مفروض على كل أحد ؛ لأن كل إنسان يجب عليه أن يعرف توحيد الله ويوحّد الله تعالى بما يختص به جل وعلا ، كذلك أيضًا الصلاة ، الصلاة مفروضة على كل أحد لا تسقط عن المسلم أبدًا ما دام عقله ثابتًا ، فلا بد أن يتعلمها ، ويتعلم ما يلزم لها من طهارة وغيرها حتى يعبد الله على بصيرة . الزكاة لا يجب تعلمها على كل أحد ، من عنده مال وجب عليه أن يتعلم ما هو المال الزكوي ؟ وما مقدار النصاب ؟ وما مقدار الواجب ؟ ومن الذي تؤتى إليه الزكاة ؟ وما أشبه ذلك . لكن لا يجب على كل واحد أن يتعلم الزكاة ، فإذا كان فقيرًا فلماذا نوجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة وهو ليس عنده مال ؟ الصوم يجب تعلمه على كل أحد ، يجب أن يتعلم الإنسان ماذا يصوم عنه ؟ وما هي المفطرات ؟ وما هي نوافض الصوم ؟ وما هي منقصاته ؟ وما أشبه ذلك . كل إنسان يصوم يجب عليه أن يتعلم ذلك . الحج لا يجب على كل أحد أن يتعلمه وإنما يجب أن يتعلم من استطاع إليه سبيلاً حتى يحج على بصيرة . ومع الأسف أن كثيرًا من الناس لا يتعلمون ما يجب عليهم من أحكام دينهم فيقعون في المتاعب ، ولا سيما في الحج وما أكثر الذين يسألون عن الحج ، وتجدهم قد وقعوا في خلل كبير ؛ لأنهم لم يتعلموا قبل أن يعملوا ، البيع مثلاً : أحكام البيع لا يجب على كل إنسان أن يتعلم أحكام البيع ، لكن من أراد أن يتجر ويبيع ويشترى لابد أن يتعلم ما هو البيع الممنوع ؟ وما هو البيع المشروع ؟ حتى يكون على بصيرة من أمره . وهلم جراً .

صيغة الاستفهام ليكون متضمنًا للتحدي ، ليكون هذا النفي متضمنًا للتحدي ، يعني هات لي أحد يقول إنه يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، لا أحد يقول بذلك . ولا يمكن أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون أبدًا حتى في أمور الدنيا لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وقال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ هذا أيضًا يدل على فضيلة العلم ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا ﴾ يعني قوموا وارتفعوا ﴿ فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] . فإذا دخل إنسان والمجلس مليء بالجالسين ، وقال : تفسحوا ، فليفسحوا له ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني يوسع لكم الأمور ؛ لأنكم وسعتم على هذا الداخل فيوسع الله عليكم ؛ لأن الجزء من جنس العمل ، فمن عامل أخاه بشيء عامله الله تعالى بمثله ، إن أسرت على معسر يسر الله عليك ، إن فرجت عن مؤمن كربة فرج الله عنك كربة من كرب يوم القيامة ، إن أعنت أحدًا كان الله في عونك « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ^(١) ولهذا قال : ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا ﴾ يعني إذا قيل لكم قوموا فقوموا ، وفي هذا : دليل على أنه لا حرج على الإنسان أن يقول للجماعة الذين عنده انشروا ، اخرجوا بارك الله فيكم ، انتهى شغلكم ، ولا حياء في ذلك . لا حياء في ذلك ولا غضاضة على الإنسان ، حتى الجلوس لا ينبغي لهم أن يكونوا ثقلًا ، لا يقومون إلا إذا قيل قوموا ، ينبغي للإنسان أن يخفف الجلوس عند الناس ؛ ما استطاع ، إلا إذا علم من صاحبه أنه يحب أن تبقى عنده فلا بأس ، وإلا فالأصل ألا تطيل الجلوس عند الناس ؛ لأن الناس قد يكون لهم شغل ، ويستحيون أن يقولوا قم ، لكن من قال قم ، فلا حرج عليهم . حتى إن الله ﷻ ، قال لجلساء نبيه الذين يجلسون عنده بعد أن ينتهوا من الطعام قال لهم ﷻ : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُوْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحراب : ٥٣] يعني معناه إذا انتهيت من الطعام فاخرجوا لا تجلسوا ؛ فإن ذلك يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق فإذا قيل : ﴿ انْشُرُوا فَانْشُرُوا ﴾ ومثل ذلك أيضًا : إذا استأذن عليك أحد في البيت ففتحت له وقلت : ارجع ، ما في جلوس الآن ، فلا حرج عليك ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجعوا فَارجعوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٨] بعض الناس إذا أرجعته من عند الباب يغضب ، والله يقول : ﴿ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أحسن إن ترجعوا يعطيكم الله زكاء ، يزكيكم ﷻ ، قال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ولم يعين ﷻ الدرجات ؛ لأن هذه الدرجات بحسب ما مع الإنسان من الإيمان والعلم ، كلما قوي الإيمان وكلما كثر العلم واتفق الإنسان به ونفع غيره كان أكثر درجات ، فهلّم فأكثر ، قَوِّ إيمانك ، أكثر من طلب العلم ما استطعت ، فإن الله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ رفعت الله وإياكم بذكره وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٧ ، ٣٨) ، وأحمد في مسنده (٢٥٢/٢) .

١٣٧٦ - وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

ساق الإمام النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يتعلق - أو بعض ما يتعلق - من كتاب الله ﷻ في فضل العلم . وسبق الكلام على آيات ثلاث مما ذكره في باب فصل العلم تعلمًا وتعليمًا لله .

أما الآية الرابعة فيه فهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ والحشية : هي الخوف المقرون بالتعظيم ، فهي أخص من الخوف ، فكل خشية خوف ، وليس كل خوف خشية ؛ ولهذا يخاف الإنسان من الأسد ولكنه لا يخشاه ، أما الله ﷻ فإن الإنسان يخاف منه ويخشاه ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوهُ ﴾ [المائدة : ٤٤] ولكن من هم أهل الخشية حقًا ؟ أهل الخشية حقًا هم العلماء ، العلماء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه الذين يعرفون ما لله ﷻ من الحكم والأسرار في مقدوراته ومشروعاته جل وعلا - وأنه سبحانه وتعالى كامل من كل الوجوه ليس في أفعاله نقص ، ولا في أحكامه نقص فلهذا يخشون الله ﷻ ، وفي هذا : دليل على فضيلة العلم وأنه من أسباب خشية الله ، والإنسان إذا وفق للخشية عصم من الذنوب وإن أذنب استغفر وتاب إلى الله ﷻ ؛ لأنه يخشى الله ، يخافه ، يعظمه ، ثم ذكر الأحاديث وصدرها بحديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال : « من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين » والله جل وعلا يريد في خلقه ما يشاء من خير وشر ، لكن إراداته خير وأما مراداته ففيها الخير والشر ، كل قضائه خير وأما مقضياته ففيها الخير والشر ، والناس أوعية منهم من يعلم الله تعالى في قلبه خيرًا فيوفقه ، ومنهم من يعلم الله في قلبه شرًا فيخذله والعياذ بالله ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] لم يزع قلوبهم إلا حين زاغوا هم أولًا وأرادوا الشر لم يوفقوا للخير . أما من علم الله في قلبه خيرًا فإن الله يوفقه ، فإذا علم الله في قلب الإنسان خيرًا أراد به الخير ، وإذا أراد به الخير فقهه في دينه ، وأعطاه من العلم بشريعته ما لم يعط أحدًا من الناس وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يحرص غاية الحرص على الفقه في الدين ؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئًا هبأ أسبابه ، ومن أسباب الفقه : أن تتعلم ، وأن تحرص لتنال هذه المرتبة العظيمة ، أن الله يريد بك الخير ، فاحرص على الفقه في دين الله ، والفقه في الدين ليس هو العلم فقط ، بل العلم والعمل ولهذا حذر السلف من كثرة القراء وقلة الفقهاء ، فقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (كيف بكم إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم) ^(٢) فإذا علم الإنسان بشيء من شريعته الله ولكن لم يعمل بها فليس بفقير ، حتى لو كان يحفظ أكبر كتاب في الفقه عن ظهر قلب ويفهمه لكن لم يعمل به ، فإن هذا لا يسمى فقيهًا ، يسمى قارئًا ، لكن ليس بفقير ، الفقيه هو الذي يعمل بما علم ، فيعلم أولًا ، ثم يعمل ثانيًا ، هذا هو

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧١) ، ومسلم في الزكاة (٩٨) ، وأحمد في مسنده (٣٠٦/١) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٠، ٢٢١) .

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة (٢٢) حديث (١٩٠ ، ١٩١) بنحوه .

الذي فقه في الدين ، وأما من علم ولم يعمل فليس بفقير ، بل يسمى قارئاً ولا يسمى فقيهاً ، ولهذا قال قوم شعيب لشعيب : ﴿ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ [مرد : ٩١] ؛ لأنهم حرموا الخير لعلم الله ما في قلوبهم من الشر . فاحرص على العلم ، واحرص على العمل به ؛ لتكون ممن أراد الله به خيراً ، أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من هؤلاء الذين فقهوا في دين الله وعملوا وعلموا ونفعوا وانتفعوا به .

١٣٧٧ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلَكِيَّتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ، وَيُعْلِمُهَا » ^(١) متفق عليه . والمراد بالحسد : الغبطة ، وَهُوَ أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَهُ .

* * *

الشرح

ذكر الإمام النووي رحمته الله في باب فضل العلم .

حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ » . الحسد يطلق ويراد به الحسد المحرم الذي هو من كبائر الذنوب ، وهو أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره . هذا الحسد أن تكره ما أنعم الله به على غيرك ، تجد إنساناً عنده مال فتكره ، تقول : ليت الله ما رزقه ، عنده علم ، تكره ذلك وتتمنى أن الله لم يرزقه ، وهلم جزءاً ، هذا النوع من الحسد من كبائر الذنوب . وهو من خصال اليهود كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] وقال عنهم : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَغَارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

أما النوع الثاني من الحسد فهو حسد الغبطة : يعني الذي تنبسط به غيرك أن أنعم الله عليه بما لا علم أو ولد أو جاه أو غير ذلك ، الناس يغط بعضهم بعضاً على ما آتاهم الله من النعم ، يقول : ما شاء الله فلان أعطاه الله كذا ، فلان أعطاه الله كذا ، لكن لا غبطة إلا في شيئين ، الغبطة الحقيقية التي يغط عليها الإنسان شيان : الأول : العلم ، والمقصود به العلم النافع وهو المراد بقوله : « رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » هذا العلم ، إذا من الله على إنسان بعلم فصار يقضي به بين الناس سواء كان قاضياً أو غير قاضٍ ، وكذلك يقضي به في نفسه وعلى نفسه ، ويعلم الناس ، فهذا هو الغبطة ، لأن العلم هو أنفع شيء ، أنفع من المال ، أنفع للإنسان من الأعمال الصالحة العلم ، لأنه إذا مات وانتفع الناس بعلمه جرى ذلك عليه إلى يوم القيامة ، كلما انتفع به أي إنسان من الناس فله أجر ، العلم كلما أنفقت منه وعلمته ازداد ، ولهذا من أقوى ما يثبت العلم ، ويثقي حفظه : أن يعلمه الإنسان غيره ؛ لأن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، فإذا علمت غيرك ؛ علمك الله ، وإذا علمت غيرك ؛ ثبت العلم في نفسك ، لكن لا تتقدم للتعليم إلا وأنت أهل له حتى ينفع الله بك ،

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨١٦) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) .

وحتى لا تفشل أمام الناس ، لأن الذي يتقدم للتعليم وليس أهلاً له بين أمرين : إما أن يقول بالباطل وهو لا يشعر ، وإما أن يفشل وإذا شئ عجز عن الإجابة مثلاً . فهذا العلم كُلُّما أنفقت منه ازداد ، أيضًا العلم لا يحتاج إلى تعب ، إلا في تعلمه ، لا يحتاج مثلاً إلى خزائن كالمال ، المال يحتاج إلى خزائن ، وإلى محاسبين ، وإلى حسابات ، وإلى تعب ، لكن العلم لا يحتاج إلى هذا ، خزنته قلبك ، هذه الخزينة ، وهي معك أينما كنت ، فلا تخشى عليه ، لا تخشى أن يسرق ولا أن يحرق ؛ لأنه في قلبك . فالحق أن العلم هو أفضل نعمة أنعم الله بها على الإنسان بعد الإسلام والإيمان ، ولهذا قال : « رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » . أما الثاني : « فهو رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق » ، يعني صار يبدل ماله فيما يرضي الله ﷻ ، لا يبدله في حرام ولا يبدله في لغو وإنما يبدله فيما يرضي الله ، سلطه الله على هلكته يعني على إنفاقه في الحق ، هذا أيضًا ممن يُغبط ، نحن لا نغبط من عنده مال عظيم لكنه بخيل لا ينفع المال لا نغبطه بعد ، بل هذا نتألم له ونقول : هذا المسكين كيف يستطيع الجواب على حساب يوم القيامة على هذا المال ، من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وكيف تصرف فيه ؟ لكن إذا رأينا رجلاً آتاه الله مالا وصار ينفقه فيما يرضي الله ، نقول : ما شاء الله ! هذا يُغبط . لا نغبط إنساناً آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في القصور والديكورات والسيارات الفخمة نحن لا نغبطه على هذا . بل نقول : هذا مسرف ؛ إذا كان تجاوز الحد فيما ينفق . نقول : هذا مسرف ، والله لا يحب المسرفين .

كذلك لا نغبط شخصاً عنده مال فصار ينفق منه جوائز في أشياء لا ينتفع الناس بها لا في دينهم ولا في دنياهم ، فإن بعض الناس يغطي جوائز على ألعاب وأشياء من الأمور التي ليس بها خير لا في الدنيا ولا في الآخرة ، هذا لا نغبطه ؛ لأنه لم يُسلط على هلكة ماله في الحق . إنما الذي يغبط من سلطه الله على هلكة ماله في الحق . أيضًا لا نحسد إنساناً آتاه الله مالا فصار كُلُّما عَنُّ له أن يتزوج تزوج ، وجمع عنده من النساء الحسنات ما لا يجمعه غيره ، هذا لا نغبطه أيضًا . إلا إذا كان سلطه الله على هلكته في الحق ، وأراد بذلك تحصين فرجه وتحصيل السنة ، وكثرة النسل ، هذا مقصود شرعي يغبط عليه الإنسان .

الشاهد في هذا الحديث : في باب فضل العلم هو الجزء الأول منه : من آتاه الله الحكمة ، يعني العلم ، ففُضِيَ بها وعلمها . وهذا خير الرجلين ، يعني خير من صاحب المال الذي سلط على هلكته في الحق . نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح .

١٣٧٨ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَ الْكَلَأُ ، وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبٌ ؛ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَتَقَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى ؛ إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَنَفَقَهُ مَا

بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمِثْلُ مَنْ لَمْ يَزِفْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (١) متفق عليه .

الشرح

في هذا الحديث الذي ساقه النووي رحمته الله رواه أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا مثل بديع عجيب ، فقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم ما بعثه الله به من العلم والهدى بغيث - يعني بمطر - ووجه الشبه أن بالغيث يحيي الأرض وبالوحي يحيي القلوب . ولهذا سُمِّيَ الله سبحانه وتعالى ما بعث به محمدًا صلى الله عليه وسلم سماه روحًا ، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (٢) [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] فالوحي غيث ، لكنه كما مثل الرسول صلى الله عليه وسلم نزل على الأرض فصارت الأرض ثلاثة أقسام : قسم قَبِلَ المطر وشرب وأنبت العشب الكثير والكلأ فانتفع الناس بذلك ؛ لأن الأرض أنبتت ، والقسم الثاني : قيعان لا تنبت لكن أمسكت الماء لم تشربه فسقى الناس منه وارتووا وزرعوا ، القسم الثالث : أرض قيعان بلعت الماء ولم تنبت ، سباح ، سبخة تبلع الماء ، ولكنها لا تنبت ، فهذا مِثْلُ من فقهه في دين الله فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع به رأسه . الصورة الأولى والثانية للمثل فيمن قبل الحق فعلم وتعلم ونفع وانتفع ، لكن الذين قبلوا الحق صاروا قسمين ، قسم آتاه الله تعالى فقهًا فصار يأخذ الفقه والأحكام الشرعية من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يُعَلِّم .

والثاني : راوية ولكنه ليس عنده ذلك الفقه يعني يحكى الحديث ، يرويه يحفظه ، ولكنه ليس عنده فقه ، وهذا كثير أيضًا ، ما أكثر رجال الحديث الذين رواوا الحديث لكنهم ليس عندهم فقه ، ما هم إلا أوعية يأخذ الناس منهم ، ولكن الذي يوزع هذا الماء وينفع الناس به هم الفقهاء . هذان قسمان : قسم حفظ الشريعة ووعاها وفهمها وعلمها واستنبط منها الأحكام الكثيرة هؤلاء مثل الأرض التي قبلت الماء وأنبت الكلأ والعشب الكثير ، قسم آخر نقلة فقط ينقلون ، ينقلون الأحاديث لكنهم لا يحفظونها كثيرًا ، هؤلاء كالأرض التي أمسكت الماء فانتفع الناس به وارتووا منه ؛ لأن الناس يأخذون من هؤلاء الرواة للحديث ، ثم يستنبطون منه الأحكام وينفعون الناس بها .

القسم الثالث : أرض لم تنتفع بالغيث ، قيعان لا تملك الماء ولا تنبت الكلأ هؤلاء ما فيهم خير ، لم ينتفعوا بوحي الله ولم يرفعوا به رأسًا ، والعياذ بالله ، يكذبون بالخبر ويستكبرون عن الأمر ، فهؤلاء هم شر الأقسام . نسأل الله العافية . فأنت انظر في نفسك من أي الأرضين الثلاث أنت ؟ هل أنت من الأرض التي قبلت الماء وأنبت العشب والكلأ ؟ أو من الأرض الثانية ، أو من الأرض الثالثة ؟ والعياذ بالله .

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) ، ومسلم في الفضائل (١٥) . قوله : « أجادب » هي الأرض التي لا تنبت كلأ . وقيل : هي الأرض التي تملك الماء فلا يسرع فيه النضوب ، قوله : « قيعان » هي الأرض الملساء التي لا نبات فيها . (٢) قوله : ﴿ رُوحًا ﴾ أي القرآن . قوله : ﴿ مَا الْكِتَابُ ﴾ أي شرائعه ومعاليه وتفصيله . وقوله : ﴿ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي دين قويم .

وفي الحديث : حسن تعليم الرسول ﷺ حيث يضرب الأمثال بالمعاني المعقولة بأشياء محسوسة ؛ لأن إدراك المحسوس أقرب من إدراك المعقول ، وما أكثر الأمثال في القرآن ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة : ٢٦١] هذا مثل لو جاء الكلام هكذا : من أنفق في سبيل الله حبة فله سبعمائة حبة ، لم يرسخ في الذهن كرسوخ المثل ، فالمثل الذي يستحضره الإنسان يرسخ قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] فَضَرَبُ الأمثال تقريب للعلم وترسيخ له وإعانة على الفهم ، لهذا ينبغي لك إذا حدثت عاميًا ، ولم يفهم أن تضرب له مثلاً ، اضرب له المثل بشيء يعقله ويعرفه حتى يعرف المعاني المعقولة بواسطة الأشياء المحسوسة . والله الموفق .

١٣٧٩ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : « فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » ^(١) متفق عليه .

١٣٨٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ وَلَا تَخْرُجْ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ^(٢) رواه البخاري .

الشرح

ساق الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين أحاديث في بيان فضل العلم ، ومنها حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : « فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » أقسم رضي الله عنه أَنَّ اللَّهَ لو هدى به رجلاً واحداً لكان خيراً له من حُمْرِ النَّعَمِ . (والحمر) بسكون الميم جمع حمراء ، وأما (الحُمُر) بضم الميم فهي جمع حمار ، ولهذا يخطئ بعض الطلبة فيقول : خير لك من حُمْر هذا غلط ، لأن الحُمُر جمع حمار ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَفِيرَةٌ ﴾ [المدثر : ٥٠] أما حُمْر بسكون الميم فهي جمع حمراء وكذلك جمع أحمر ، لكن هنا جمع حمراء ، وهي الناقة الحمراء ، وكانت أعجب المال إلى العرب في ذلك الزمان ، وأحب المال إلى العرب في ذلك الزمن ، فإذا هدى الله بك رجلاً واحداً كان ذلك خيراً لك من حُمْرِ النَّعَمِ . ففي هذا حث على العلم وعلى التعليم وعلى الدعوة إلى الله ﷻ ؛ لأنه لا يمكن أن يدعو الإنسان إلى الله إلا وهو يعلم ، فإذا كان يعلم ما يعلم من شريعة الله ودعا إلى ذلك كان هذا دليلاً على فضل العلم .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢١٠) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) ، وأحمد في مسنده (١٥٩/٢) ، والدارمي في السنن (١٣٦/١) .

ثم ذكر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وعن أبيه أن النبي ﷺ قال : « بلغوا عني ولو آية » بلغوا عني : يعني بلغوا الناس بما أقول وبما أفعل وبجميع سنته - عليه الصلاة والسلام - « بلغوا عني ولو آية » من كتاب الله . ولو هنا للتقليل ، يعني لا يقل الإنسان أنا لا أبلغ إلا إذا كنت عالماً كبيراً ، لا ، إنما يبلغ الإنسان ولو آية بشرط أن يكون قد علمها وأنها من كلام الرسول ﷺ ولهذا قال في آخر الحديث : « ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » من كذب علي الرسول متعمداً يعلم أنه كاذب ، فليتبوأ مقعده من النار ، هنا اللام للأمر لكن المراد بالأمر هنا الخبر ، يعني فقد تبوأ مقعده من النار - والعياذ بالله - أي : فقد استحق أن يكون من ساكني النار ، لأن الكذب على الرسول ليس كالكذب على واحد من الناس ، الكذب على الرسول كذب على الله ﷻ ، ثم هو كذب على الشريعة لأن ما يخبر به الرسول ﷺ من الوحي هو من شريعة الله وكذلك يقال : الكذب على العالم ليس كالكذب على عامة الناس . يعني مثلاً تقول : فلان كذا وكذا ، قال : هذا حرام هذا حلال ، هذا واجب ، هذا سنة - وأنت تكذب - هذا أيضاً أشد من الكذب على عامة الناس ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء يبلغون شريعة الله إرثاً لرسول الله ﷺ ، فإذا كذبت عليهم ، إذ قلت قال العالم فلان : كذا وكذا - وأنت تكذب - فهذا إثم عظيم ، نسأل الله العافية ، بعض الناس - والعياذ بالله - إذا اشتهى شيئاً يكف الناس عنه ، قال : قال العالم فلان : هذا حرام ، هو يكذب ، لكن يعرف أن الناس إذا نسب العلم إلى فلان قبلوه ، فيكذب ، وهذا أشد من الكذب على عامة الناس .

فالحاصل : أن من كذب على الرسول ﷺ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن نقل عمداً حديثاً كذباً يعلم أنه كذب فهو أحد الكذابين ، يعني فليتبوأ مقعده من النار .

وما أكثر ما ينشر من النشرات التي بها الترغيب أو التهيب وهي مكذوبة على الرسول ﷺ لكن بعض المجتهدين الجهال ينشرون هذه النشرات ويوزعونها بكمية كبيرة يقولون : نعط الناس بهذا ، كيف تعظونهم بشيء كذب ؟؟ ولهذا يجب الحذر من هذه المنشورات التي تنشر في المساجد أو تعلق على الأبواب ، أبواب المساجد أو غير ذلك ، يجب الحذر منها ، وربما يكون فيها أشياء مكذوبة فيكون الذي ينشرها قد تبوأ مقعده من النار إذا علم أنها كذب .

وقال في حديث عبد الله بن عمرو : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » ، بنو إسرائيل اليهود والنصارى إذا قالوا قولاً فحدث عنهم ولا حرج عليك ، بشرط أن لا تعلم أنه مخالف للشريعة ، لأن بني إسرائيل عندهم كذب ، يحرفون الكلم عن مواضعه ويكذبون ، فإذا أخبروك بخبر فلا بأس أن تحدث به بشرط أن لا يكون مخالفاً لما جاء في شريعة الرسول ﷺ فإن كان مخالفاً له ؛ فإنه لا يجوز أن يحدث ، إلا إذا حدث به ليبين أنه باطل فلا حرج ، والله أعلم .

١٣٨١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ؛

سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ۖ (١) رواه مسلم .

١٣٨٢ - وَعَنْهُ أَيْضًا ۖ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى ؛ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا » (٢) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل العلم وآثاره الحميدة ، عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة » سلوك الطريق يشمل الطريق الحسي الذي تفرعه الأقدام ، مثل أن يأتي الإنسان من بيته إلى مكان العلم سواء كان مكان العلم مسجدًا أو مدرسة أو كلية أو غير ذلك ، ومن ذلك أيضًا الرحلة في طلب العلم أن يرتحل الإنسان من بلده إلى بلد آخر يلتمس العلم ، فهذا سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا . وقد رحل جابر بن عبد الله الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ في حديث واحد مسيرة شهر كامل على الرواحل على الإبل ، سار من بلده إلى بلد مسيرة شهر من أجل حديث واحد رواه عبد الله بن أنيس عن النبي ﷺ (٣) .

أما الثاني : فهو الطريق المعنوي ، وهو أن يلتمس العلم من أفواه العلماء ومن بطون الكتب ، فالذي يُراجع الكتب للعثور على حكم مسألة شرعية وإن كان جالسًا على كرسيه ؛ فإنه قد سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا . ومن جلس إلى شيخ يتعلم منه ؛ فإنه قد سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ولو كان جالسًا . فسلوك الطريق ينقسم كما سمعتم إلى قسمين : قسم : يراد به الطريق الذي تفرعه الأقدام . والثاني : يراد به الطريق الذي يتوصل به إلى العلم وإن كان جالسًا .

من سلك هذا الطريق سهل الله له به طريقًا إلى الجنة ؛ لأن العلم الشرعي تعرف به حكم ما أنزل الله ، تعرف به شريعة الله ، تعرف به أوامر الله ، تعرف به نواهي الله ، فتستدل به على الطريق الذي يُرضي الله ﷻ ويوصلك إلى الجنة ، وكلما ازدادت حرصًا في سلوك الطرق الموصلة إلى العلم ازدادت طرقًا توصلك إلى الجنة .

وفي هذا الحديث : من التمرغيب في طلب العلم ما لا يخفى على أحد ، فينبغي للإنسان أن يتنزه الفرصة ، ولا سيما الشباب الذي يحفظ سريعًا ، ويمكث في ذهنه ما حفظه ينبغي له أن يبادر الوقت يبادر العلم قبل أن يأتيه ما يشغله عن ذلك .

أما الحديث الثاني : فهو أيضًا عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « من دعا إلى هدى فله أجر من

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٨) ، وأحمد في مسنده (٢٥٢/٢) . قوله : « سلك » أي سار .

(٢) أخرجه مسلم في العلم (١٦) ، والترمذي في العلم (٢٦٤٧) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦) ، وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) .

(٣) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده (٤٩٥/٣) ، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) ، والخطيب البغدادي في الرحلة (٣١) . من طريق عبد الله بن محمد عقيل ، والحاكم في المستدرک (٤٣٧/٢ ، ٤٣٨) ووافقه الذهبي .

تبعه « يعني إلى يوم القيامة ، « من دعا إلى هدى » يعني علم الناس ، فإن الداعي إلى الهدى هو الذي يعلم الناس ويبين لهم الحق ويرشدهم إليه ، فهذا له مثل أجر من فعله ، مثلاً دلت إنساناً على أنه ينبغي له أن يوتر يجعل آخر صلاته في الليل وتراً ، كما أمر النبي ﷺ قال : « اجعلوا آخر صلاتكم في الليل وتراً » (١) وحضضت على الوتر ورغبت فيه فأوتر أحد من الناس بناءً على كلامك وعلى توجيهك ، فلك مثل أجره ، لك ، عِلِمَ بذلك آخر منك أو من الذي علمته أنت فلك مثل أجره ، وإن تسلسلوا إلى يوم القيامة .

وفي هذا : دليل على كثرة أجور النبي ﷺ ؛ لأنه دل الأمة على الهدى فكل من عمل من هذه الأمة بهدي ، فللنبي ﷺ أجره من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، الأجر تام للفاعل والداعي ، وإذا تبين أن النبي ﷺ له أجر ما علمته أمته ، تبين بذلك خطأ من يهدي ثواب العبادة للرسول ﷺ ، يعني مثلاً بعض الناس اجتهد وصار يصلي ركعتين ويقول : اللهم اجعل ثوابها للرسول ، يقرأ قرآنا ويقول : اللهم اجعل ثوابه للرسول ، هذا غلط . وأول ما حدث هذا في القرن الرابع الهجري ، يعني بعد ثلاثمائة سنة من موت الرسول ، يستحسن بعض العلماء أنه يفعل هذا ؟ قال كما أهدي لأبي وأمي صدقة أو صلاة أو ذكر أهديه للرسول ﷺ نقول : هذا خطأ وغلط وسفه في التصور وضلال في الدين ، كيف ؟ نسأله ونقول : هل أنت أعظم حباً للرسول من أبي بكر ؟ فيقول : لا . أعظم من عمر ؟ لا . أعظم من عثمان ؟ لا . أعظم من علي ؟ لا . أعظم من ابن عباس ، ابن مسعود ، الصحابة ؟ لا . هل أحد منهم أهدي للرسول عملاً صالحاً أبداً ، وكذلك التابعون والأئمة الإمام أحمد بن حنبل ، الشافعي ، مالك ، أبو حنيفة ما فعلوا هذا ، ما الذي أطلعك على شيء لم يعلموا به أو لم يعملوا به ، من أنت ؟؟ فهو خطأ في التصور وضلال في الدين ؛ لأن أي عمل تعمله ولو كان ثوابه لك فالرسول ﷺ مثله ، وإن لم تقل شيئاً ، أي عمل لو تصلي ركعتين أجرهما لك وللرسول مثله من غير أن ينقص من أجرك شيئاً . إذا ما الفائدة ، لا يعني إرجاعك القرب للرسول إلا أنك حرمت نفسك من الأجر فقط ، وللرسول ﷺ له مثل أجرك سواء أهديت له أو لم تهد ؛ لأنه يقول ﷺ : « من دعا إلى هدى فله أجر من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء » (٢) فلا حاجة .

إذا نأخذ من هذا الحديث فضيلة العلم ؛ لأن العلم به الدلالة على الهدى والحث على التقوى ، فالعلم أفضل بكثير من المال حتى لو تصدق بأموال عظيمة طائلة فالعلم ونشر العلم أفضل . وأضرب لكم مثلاً الآن ، في عهد أبي هريرة خلفاء ملوك ملكوا الدنيا ، وفي عهد الإمام أحمد أغنياء ملكوا أموالاً عظيمة وتصدقوا وأنفقوا ، في عهد من بعدهم كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم أناس

(١) أخرجه البخاري في الوتر (٩٩٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٥١) ، وأبو داود في السنن (١٤٣٨) ، وأحمد في مسنده (٢٠/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في العلم (١٦) ، وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) ، والبخاري في شرح السنة (٢٣٢/١) ، جميعهم بلفظ « كان له من الأجر مثل أجور من تبعه » .

أغنياء تصدقوا وأنفقوا وأوقفوا ، أين ذهب المال ؟ أين ذهب ما أنفقوه ؟ أين ذهب ما وقفوه ؟ راح ، لا يوجد له أثر الآن ، لكن أحاديث أبي هريرة تنجلي في كل وقت ليلاً ونهاراً ويأتيه أجرها ، الأمة أيضاً علمهم وفقهم منشور بين الأمة يأتيهم أجرهم ، وهكذا شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم وغيرهم من العلماء ماتوا لكن ذكرهم حي باق يعلمون الناس وهم في قبورهم ، ينالهم الأجر وهم في قبورهم ، وهذا يدل على أن العلم أفضل بكثير من المال وأنفع للإنسان ، وسيأتي - إن شاء الله - في حديث أبي هريرة الذي ذكره المؤلف : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . والله الموفق .

١٣٨٣ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ » (١) رواه مسلم .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله فذكر عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وهذا الحديث فيه الحث أعني : حث الإنسان على المبادرة بالأعمال الصالحة ؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه الموت ، فليبادر قبل أن ينقطع العمل بالعمل الصالح الذي يزداد به رفعة عند الله سبحانه وتعالى وثوابًا ، ومن المعلوم أن كل واحد منا لا يعلم متى يموت ، ولا يعلم أين يموت ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤] فإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن العاقل ينتهز الفرص ، فرص العمر في طاعة الله ﷻ قبل أن يأتيه الموت ، ولم يستعجب ولم يتب ، وقولنا : « انقطع عمله » يشمل كل عمل لا يكتب له ولا عليه إذا مات ؛ لأنه انتقل إلى دار الجزاء ، فدار العمل هي دار الدنيا ، أما بعد ذلك فالدور كلها دور جزاء ، إلا من ثلاث : « صدقة جارية » يعني أن يتصدق الإنسان بشيء ويستمر هذا الشيء ، وأحسن ما يكون المساجد ، بناء المساجد صدقة جارية ، لأن أجر الباني مستمر مادام هذا المسجد قائمًا ليلاً ونهارًا ، والمسلمون يكثرون في المساجد في صلاتهم وقراءتهم وتعلمهم العلم وتعليمهم العلم وغير ذلك ، ومن الصدقات الجارية : أن يوقف الإنسان وقفًا من عقار أو بستان أو نحوه على الفقراء والمساكين ، أو على طلبة العلم ، أو على المجاهدين في سبيل الله أو ما أشبه ذلك ، ومن الصدقات الجارية : أن يطبع الإنسان كتبًا نافعة للمسلمين يقرؤون فيها ويتفهمون بها ، سواء كانت من مؤلفين في عصره أو من مؤلفين سابقين ، المهم أن تكون كتبًا نافعة ينتفع بها المسلمون من بعده ، ومن الصدقات الجارية : إصلاح الطرق ؛ فإن

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) . قوله : « انقطع عمله » أي من إثابته على الأعمال ، المتجددة بتجدد العمل المترتبة عليه ، قوله : « إلا من ثلاثة » أي يظل ثوابها دائمًا ، قوله : « صدقة جارية » هي الوقف ، قوله : « أو علم ينتفع به » كالكتب .

الإنسان إذا أصلح الطرق وأزال عنها الأذى واستمر الناس ينتفعون بهذا ؛ فإن ذلك من الصدقات الجارية ، والقاعدة في الصدقة الجارية : كل عمل صالح يستمر للإنسان بعد موته .

أما الثاني : « فعمل ينتفع به » وهذا أعمها وأشملها وأنفعها أن يترك الإنسان وراءه علماً ينتفع المسلمون به ، سواء وُثِرَ من بعده بالتعليم الشفوي أو بالكتابة ، فتأليف الكتب وتعليم الناس وتداول الناس لهذه المعلومات مادام مستمرًا ، فأجر المعلم جارٍ مستمر ، لأن الناس ينتفعون بهذا العلم الذي ورثه .

والثالث : « ولد صالح يدعو له » ولد يشمل ذكر وأنثى - يعني ابن أو بنت ، يشمل ابنك من صلبك ، وابنتك من صلبك ، وأبناء أبنائك ، وأبناء بناتك ، وبنات أبنائك ، وبنات بناتك إلى آخره ، ولد صالح يدعو للإنسان بعد موته ، هذا أيضًا يثاب عليه الإنسان ، وانظر كيف قال الرسول ﷺ : ولد صالح يدعو له ، ولم يقل : ولد صالح يصلي له ، أو يقرأ له القرآن ، أو يتصدق عنه ، أو يصوم عنه ، لا ، ما قال هذا مع أن هذه كلها أعمال صالحة ، بل قال : ولد صالح يدعو له ، وفي هذا دليل على أن الدعاء لأبيه وأمه وجده وجدته أفضل من الصدقة عنهم ، وأفضل من الصلاة لهم ، وأفضل من الصيام لهم ، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يدل أمته إلا على خير ما يعلمه لهم ، ما من نبي بعثه الله إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم ^(١) . فلو علم الرسول ﷺ أن كونك تتصدق عن أهلك وأهلك أفضل من الدعاء ، لقال الصدقة ما قال الدعاء ، فلما عدل عن الصدقات ، والصيام ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، والمقام مقام تحدث عن الأعمال ، ولما عدل عن هذه الأعمال إلى الدعاء ؛ علمنا يقينًا - لا إشكال فيه - أن الدعاء أفضل من ذلك ، فلو سألنا سائل : أيهما أفضل أتصدق لأبي أو ادعو له ؟ قلنا : الدعاء أفضل ؛ لأن رسول الله هكذا أرشدنا ، فقال : « أو ولد صالح يدعو له » والعجيب أن العوام وأشباه العوام يظنون أن الإنسان إذا تصدق عن أبيه أو صام يومًا لأبيه ، أو قرأ حزبًا من القرآن لأبيه ، أو ما أشبه ذلك ، يرون أنه أفضل من الدعاء ، ومصدر هذا هو الجهل ، وإلا فمن تدبر النصوص علم أن الدعاء أفضل ، ولهذا لم يرشد النبي ﷺ في أي حديث بحرف واحد إلى العمل الصالح يجعله الإنسان لوالده ، قال الإمام مالك : إنه حصلت قضايا أعيان يسألها الصحابة ، هل يتصدق عن الأب وهو ميت وعن الأم وهي ميتة ؟ فيقول : نعم ، لا بأس ، لكنه لم يحث الأمة على ذلك ولم يرشدهم إلى هذا ، لكن سُئِلَ في قضايا أعيان ، سعد بن عبادَةَ ﷺ سأل : هل يتصدق بحائضه يعني بيستانه عن أمه بعد موتها ، قال الرسول : نعم ^(٢) . وجاءه رجل قال : يا رسول الله ، إن أُمِّي افلست نفسها ، يعني ماتت بغتة ، أفأتصدق عنها ، قال : « نعم » ^(٣) لكن لما أراد أن يشرع تشريعًا عامًا للأمة قال : أو ولد صالح يدعو له ، نسأل الله أن يغفر لنا ولكم ولوالدينا وللمسلمين جميعًا .

* * *

(١) يدل على ذلك ما رواه أحمد في مسنده (٢٧/٢ ، ١٦١) ، والدرامي في النكاح (٣٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦٦٩) ، وأحمد في مسنده (٧/٦) ، ومالك في الموطأ (٧٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (٩٥) ، ومسلم في الزكاة (٥١) .

١٣٨٤ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا ، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالِمًا ، أَوْ مُتَعَلِّمًا » (١) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .
قوله « وَمَا وَالَاهُ » أي : طاعةُ الله .

١٣٨٥ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ؛ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ » (٢) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٣٨٦ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « لَنْ يَشْبَعَ مُؤْمِنٌ مِنْ خَيْرٍ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةُ » (٣) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٣٨٧ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ؛ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَاكُمْ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَأَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الثُّفُلَةُ فِي جُجْهِهَا وَحَتَّى الْحَوْتَ لِيَصْلُوهَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ » (٤) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٣٨٨ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا ؛ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ؛ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ ؛ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ » (٥) رواه أبو داود والترمذي .

الشرح

ساق المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٢) . قوله : « ملعونة ملعون ما فيها » أي بعيدة عن أن يحتاج الله منها شيئًا ، هذا الحديث لم يقم الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشرحه .

(٢) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٤٩) ، وبنحوه الطبراني في الصغير (١٣٦/١) . قوله « فهو في سبيل الله » أي في طاعته ، هذا الحديث لم يقم الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشرحه .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٨٦) . قوله « لن يشبع مؤمن من خير » أي : من كل مقرب إلى الله تعالى من سائر الطاعات وأشرفها ، قوله « حتى يكون منتهاه » أي : حتى يدخل الجنة ، هذا الحديث لم يقم الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشرحه .

(٤) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٨٥) ، والدارمي في السنن (٧٧/١) ، والطبراني في الكبير (٢٧٨/٨) . قوله « العالم » هو المقتصر على فرائض العبادات ويصرف باقي وقته في العلم ، قوله « العابد » هو الذي يعرف ما يجب عليه تعلمه ويصرف ما زاد عليه في التعب ، قوله « ليصلون » أي يستغفرون ويتضرعون بالدعاء ، هذا الحديث لم يقم الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشرحه .

(٥) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٨٣) ، وأبو داود في العلم (٣٦٤١) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣) . قوله « من سلك » أي : دخل أو مشى ، قوله « لتضع أجنحتها » معناه أنها تتواضع لطالب العلم توقيرًا له ولعلمه ، قوله « يحط » أي : ينصيب .

« من سلك طريقاً يتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » وقد سبق بيان معنى هذه الجملة ، وفيه أيضاً من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في البحر » وهذا يدل على فضل العلم وأن العلماء يستغفر لهم أهل السماء والأرض ، وحتى الحيتان في البحر ، وحتى الدواب في البر ، كل شيء يستغفر له . ولا تستغرب أن تكون هذه الحيوانات تستغفر الله ﷻ للعالم ، لأن الله سبحانه وتعالى قال في القرآن الكريم على لسان موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٥٠] فالبهائم والحشرات تعلم ربها ﷻ وتعرفه ﴿ تَسْجُدُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] كل شيء يسبح بحمد الله حتى إن الحصى سُمع تسبيحه بين يدي النبي وهو حصى ^(١) ؛ لأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه حتى إن الله قال للسماوات والأرض ﴿ أَتَيْنَا طُوعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [نمل : ١١] فخاطبهما فخاطباه ﴿ أَتَيْنَا طُوعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ يعني لما أمرهما به ﴿ قَالَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فكل شيء يمثل أمر الله ﷻ إلا الكفرة من بني آدم والجن ، ولهذا قال الله ﷻ في كتابه العزيز يُبَيِّنُ أَنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَسْجُدُ لِلَّهِ ﷻ ، وكثيراً حق عليه العذاب ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج : ١٨] ما يسجد ، ولهذا الكافر لا يستجيب لله ، لا يسجد لله شرعاً وتعبداً ، لكنه يسجد لله ذلاًّ قهراً ما له مفر عما قضى الله ، كما قال الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طُوعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد : ١٥] والسجود هنا السجود القدري ، فكل أحد خاضع لقدر الله ، ما أحد يستطيع أن يغالب الله ﷻ ، أين المفر ، يقول الشاعر الجاهلي :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

فالسجود الشرعي ، كثير من الناس حق عليهم العذاب فلم يسجدوا ، على أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كلها تسجد لله ﷻ .

لكن الكفرة من بني آدم ومن الجن لا يسجدون لله تعالى إلا السجود الكوني القدري ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طُوعًا وَكَرْهًا ﴾ المهم أن الله تعالى سخر هذه الكائنات تستغفر للعالم ، وأفضل من ذلك أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل .

الملائكة الكرام الذين كرمهم الله ﷻ تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل ، هل ترون فضلاً أعظم من هذا ؟ إن الملائكة - ملائكة الله ﷻ - تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، هذا فضل عظيم .

ثم بين النبي ﷺ في حديث أبي الدرداء أن العلماء ورثة الأنبياء ، لو سألت من الذي يرث الأنبياء ؟ العباد الذين يركعون ويسجدون ليلاً ونهاراً ؟ لا . أقارب الأنبياء ؟ لا ، لا يرث الأنبياء إلا العلماء - اللهم اجعلنا منهم - العلماء هم ورثة الأنبياء ، ورثوا العلم من الأنبياء ، ورثوا العمل كما يعمل الأنبياء ، ورثوا

(١) انظر الحديث في الدارمي في المقدمة (٥) ، وأحمد في مسنده (٤٦٠ / ١) .

الدعوة إلى الله ﷻ ، وورثوا هداية الخلق ودلالتهم على شريعة الله ، فالعلماء هم ورثة الأنبياء ، الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا ، توفي النبي ﷺ عن ابنته فاطمة ، وعن عمه العباس ، وعن أبناء عمه وعن زوجاته ، ولم ترثه ابنته ولا زوجاته ولا عصبته ، لأن الأنبياء لا يورثون درهما ولا دينارا . وهذا من حكمه الله ﷻ أنهم لا يورثون لئلا يقول قائل : إن النبي إنما ادعى النبوة لأجل أن يملك فيورثوا ، فيرثه أقاربه من ذلك ، ففقط هذا ، وقيل : النبي لا يرثه ولده ، وأما قول زكريا ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ مَالِي يَقُوتُ ﴿ [مرم : ٥-٦] فالمراد بذلك إرث العلم والنبوة وليس المال ، فالأنبياء لا يورثون ما ورثوا درهما ولا دينارا إنما ورثوا هذا العلم - صلوات الله عليه - ، هذا أعظم ميراث ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، أي بنصيب وافر كثير ، من أخذ بهذا العلم ، وأسأل الله أن يجعلني وإياكم من آخذه ، هذا هو الإرث الحقيقي النافع ، العلماء ورثة الأنبياء ، والأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا ، وإنما ورثوا العلم .

أليس الإنسان يسعى من شرق الأرض إلى مغربها من أجل أن يحصل على مال خلفه أبوه له وهو متاع دنيا ؟ فلماذا لا نسعى من مشارق الأرض ومغاربها إلى أخذ العلم الذي هو ميراث من ؟ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

جدير بنا أن نسعى بكل ما نستطيع لأخذ العلم الموروث عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولو لم يكن من فضل العلم إلا أن العالم كلما عمل شيئا فهو يشعر مع إخلاصه لله ﷻ يشعر بأن إمامه محمد ﷺ ، لأنه يعبد الله على بصيرة ، عندما يتوضأ يشعر كأن الرسول أمامه ، يتوضأ الآن ، يتبعه تماما ، وكذلك في الصلاة وغيرها من العبادات ، لو لم يأتك من فضل العلم إلا هذا لكان كافيا ، فكيف وهذا الفضل العظيم في حديث أبي الدرداء ؓ فإلهم أن الإنسان الذي يمن الله عليه بالعلم فقد من الله عليه بما هو أعظم من الأموال والبنين والزوجات والقصور والمراكب وكل شيء . اللهم ارزقنا علما نافعا ، وعملا صالحا ، ورزقا طيبا واسعا تغنينا به عن خلقك ، إنك على كل شيء قدير .

١٣٨٩ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْعًا ، فَبَلَغَهُ كَمَا سَمِعَهُ ؛ قَرُبَ مُبْلَغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » ^(١) . رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٣٩٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ سِئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » ^(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

الشرح

ساق النووي رحمه الله في فضل العلم تعلما وتعلما لله أحاديث متعددة ومنها حديث ابن مسعود ؓ

(١) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٥٩) . قوله « نضر الله امرا » أي : حسن خلقه وقدره .
(٢) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢٦٣/٢ ، ٣٠٥) ، والطبراني في الكبير (٤٠١/٨) .

أن النبي ﷺ قال : « نضر الله امرأ سمع منا » يعني مقالاً « فبلغه كما سمعه ؛ فرب مبلغ أوعى من سامع » « نضر الله » يعني حسنه ؛ لأن نضر بالضاد من الحسن ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَبُيُوتُ يُبْنَىٰ بِهَا تُعَظَّمُ ۚ وَبُيُوتُ بَاهٍ ۚ وَأُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَلَا يَحْزَنُونَ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٢-٢٣] يعني حسنة ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ نَاطِرٌ ۖ ﴾ يعني تنظر بالعين إلى الله ﷻ ، جعلنا الله وإياكم منهم ، وكذلك أيضاً قال الله تبارك وتعالى ﴿ فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ ۚ وَثَرُّوا ۚ ﴾ [الإنسان : ١١] أي حسناً وسروراً ، حسناً في الوجوه وسروراً في القلوب ، هنا يقول : نضر الله امرأ سمع منا - يعني مقالاً فأداه كما سمعه ، والمراد بذلك : أن النبي ﷺ دعا للإنسان إذا سمع حديثاً عن رسول الله ﷺ فبلغه كما سمعه ، أن يحسن الله تعالى وجهه يوم القيامة .

« فرب مبلغ أوعى من سامع » لأنه ربما يكون الإنسان يسمع الحديث ويبلغه ويكون المبلغ أوعى من السامع يعني أفقه وأشدَّ عملاً من الإنسان الذي سمعه وأداه ، وهذا كما قال النبي ﷺ « معلوم ، تجد مثلاً من العلماء من هو راوية يروي الحديث يحفظه ويؤديه لكنه لا يعرف معناه فيبلغه إلى شخص آخر من العلماء يعرف المعنى ويفهمه ويستنتج من أحاديث الرسول ﷺ أحكاماً كثيرة فينفع الناس ، وقد سبق أن مثل الأول كمثل الأرض التي أمسكت الماء فزوي الناس وارتووا لكنها لا تثبت ، وأما الأرض الریاض التي أنبتت ؛ هم الفقهاء الذين عرفوا الأحاديث وفقهوها واستنتجوا منها الأحكام الشرعية ، أما حديث أبي هريرة بعد هذا فقد توعده النبي ﷺ من شئ عن علم فكتمه توعده بأن يلجم يوم القيامة بلجام من نار ، أي يوضع على فمه لجام من نار ، نسأل الله العافية ؛ لأنه كتم ما أنزل الله بعد أن شئ عن ، وهذا إذا علمت أن السائل يسأل لاسترشاده فلا يجوز لك أن تمتعه ، أما إذا علمت أنه يسأل امتحاناً وليس قصده أن يسترشد فيعلم ويعمل ، فأنت بالخيار إن شئت فعلمه وإن شئت فلا تعلمه ، لقول الله تعالى ﴿ فَإِنْ جَاءَكَ مِنْ أَقْصَابِهِمْ نَبَأٌ فَخَبِّرْ بِهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِهِمْ ۚ ﴾ [المائدة : ٤٢] ؛ لأن الله علم أن هؤلاء يأتون النبي ﷺ يستحكمونه لا لأجل أن يعملوا بكلامه ولكن لينظروا ما عنده ، فإذا علمت أن هذا الرجل جاء يسألك عن علم امتحاناً فقط ، لا طلباً للحق ، فأنت بالخيار : إن شئت فافعل وأفته وعلمه ، وإن شئت فلا تفته ولا تعلمه ، كذلك إذا علمت أنه يحصل من الفتوى مفسدة كبيرة ، فلا بأس أن ترجئ الإفتاء ، لا تكتم لكن لا بأس أن ترجئ الإفتاء إلى وقت يكون فيه المصلحة ؛ لأنه أحياناً تكون الفتوى لو أفتيت بها سبباً للشر والفساد ، فأنت إذا رأيت أنها سبب للشر والفساد وأجلت الإجابة فلا حرج عليك في ذلك ، والله الموفق .

١٣٩١ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُتَعَنَّى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا ؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) يعني : ربحها . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(١) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٦٤) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٥٢) ، وأحمد في مسنده (٣٣٨/٢) . قوله « إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ؛ لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » ^(١) يعني : ربحها . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

من فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله ، ما ساقه المؤلف رحمته عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من طلب علمًا مما يتبغي به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عرضًا من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » ، يعني ربحها ، العلوم تنقسم إلى قسمين ، قسم : يراد به وجه الله وهو العلوم الشرعية وما يساندها من علوم عربية ، وقسم آخر : علم الدنيا ، كعلم الهندسة والبناء والميكانيكا وما أشبه ذلك ، فأما الثاني - علم الدنيا - فلا بأس أن يطلب الإنسان به عرض الدنيا ، يتعلم الهندسة ليكون مهندسًا يأخذ راتبًا وأجرة ، يتعلم الميكانيكا من أجل أن يكون ميكانيكيًا يعمل ويكدح وينوي الدنيا ، هذا لا حرج عليه أن ينوي في تعلمه الدنيا ، لكن لو نوى نفع المسلمين بما تعلم ؛ لكان ذلك خيرًا له وينال بذلك الدين والدنيا ، يعني لو قال : أنا أريد تعلم الهندسة من أجل أن أكفي المسلمين أن يجلبوا مهندسين كفارًا مثلاً ، لكان هذا طيبًا ، أو يتعلم الميكانيكا من أجل أن يسد حاجة المسلمين فيما إذا احتاجوا ميكانيكيين ، فهذا خير وله أجر على ذلك ، لكن لو لم يرد إلا الدنيا ؛ فله ذلك ولا إثم عليه ، كالذي يبيع ويشترى من أجل زيادة المال ، أما القسم الأول : الذي يتعلم شريعة الله صلى الله عليه وسلم وما يساندها ؛ فهذا علم لا يتبغي به إلا وجه الله ، إذا أراد به الدنيا ؛ فإنه لا يجد ربح الجنة يوم القيامة ، وهذا وعيد شديد والعياذ بالله ، يدل على أن من قصد بتعلم الشرع شيئًا من أمور الدنيا ؛ فإنه قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب ، ولا يبارك له في علمه ، يعني مثلاً ، قال : أريد أن أتعلم من أجل أن أصرف وجوه الناس إليّ ، حتى يحترموني ويعظموني ، أريد أن أتعلم حتى أكون مدرسًا فأخذ راتبًا ، وما أشبه ذلك ، هذا - والعياذ بالله - لا يجد ربح الجنة يوم القيامة ، وقد أشكل على هذا أو قد روع هذا بعض الذين يقرأون في المدارس النظامية كالمعاهد والكليات من أجل أن ينالوا الشهادة ، فيقال : نيل الشهادة ليس للدنيا وحدها ؛ قد يكون للدنيا وحدها وقد يكون للآخرة ، فإذا قال الطالب : أنا أطلب العلم لأنال الشهادة حتى أتمكن من وظائف التدريس وأنفع الناس بذلك ، أو حتى أكون مديرًا في دائرة أوجه من فيها إلى الخير ، فهذا خير ونية طيبة ، ولا فيها إثم ولا حرج .

وذلك أنه مع الأسف في الوقت الحاضر صار المقياس في كفاية الناس هذه الشهادات ، معك شهادة توظف وتولى قيادة على حسب هذه الشهادة ، ممكن يأتي إنسان يحمل شهادة دكتوراه فيولى التدريس في الكليات والجامعات ، وهو من أجهل الناس لو جاء طالب في الثانوية العامة لكان خيرًا منه ، وهذا مشاهد ، يوجد الآن أحيانًا من يحمل شهادة دكتوراه لكنه لا يعرف من العلم شيئًا أبدًا ، إما أنه نجح بغش ، أو نجح نجاحًا سطحيًا لم يرسخ العلم في ذهنه ، لكن يوظف ؛ لأن معه شهادة دكتوراه ، في حين أنه يأتي إنسان طالب علم جيد هو خير للناس وخير لنفسه من هذا الدكتور ألف مرة لكن لا يوفق ، لا يدرس في الكليات ، لماذا ؟ لأنه لا يحمل شهادة دكتوراه . فنظرًا لأن الأحوال تغيرت وانقلبت إلى هذه المآل ، نقول : إذا طلبت العلم من أجل أن تنال الشهادة التي تتمكن بها من تولي التدريس ، لا لأجل الدنيا ، لكن لأجل نفع الخلق ؛ فإن هذا لا بأس به ولا تعد قاصدًا بذلك

الدنيا ولا ينالك هذا الوعيد ، فالحمد لله ، إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، الحمد لله هذا ميزان ، انظر قلبك ماذا نوى ؟ فعلى هذا فالذي يطلب العلم في الجامعة من أجل أن ينال الشهادة نقول : ما الذي تريده ؟ هل أنت تريد أن تنال الشهادة من أجل أن تكون في المرتبة الفلانية وراتبك كذا وكذا ؟ إذا قال : نعم ، أنا فقير ، أنا أريد هذا ، نقول : خبت وخسرت ، ما دمت تريد الدنيا . أما إذا قال : لا ، أنا أريد أن أنفع الخلق ؛ لأن الأمور الآن لا يمكن الوصول إلى نفع الخلق بالتدريس إلا بالشهادات وأنا أريد أن أصل إلى هذا ، أو لا يوظف الإنسان وظيفة كبيرة يكون قائد فيها على جماعة من المسلمين إلا بالشهادة وأنا أريد هذا ، قلنا : الحمد لله ، هذه نية طيبة وليس عليك شيء ، والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . المهم : احذر أخي طالب العلم ، احذر من النيات السيئة ، العلم الشرعي أعز وأرفع وأعلى من أن تريد به عرضاً من الدنيا ، عرض الدنيا ما الذي تنتفع به ؟ آخر أمره أن يكون في محل القاذورات ، تأكل وتشرب ويروح للمرحاض ، وألذ ما يتطلبه الإنسان هو الأكل والشرب في المنافع البدنية ، ومع ذلك نهايته المرحاض ، أيضاً لو بقيت عندك الدنيا فلا بد إما أن تفارقها أو تفارقك ، إما أن تقتقر وتعتمد المال ، وإما أن تموت ويذهب المال لغيرك .

لكن أمور الآخرة تبقى ، فلماذا تجعل العلم الشرعي الذي هو من أجل العبادات وأفضل العبادات تجعله سلماً لتنال به عرضاً من الدنيا ، هذا سفه في العقل وضلال في الدين ، العلم الشرعي اجعله لله ﷻ ولحماية شريعة الله ورفع الجهل عن نفسك وعن إخوانك المسلمين ، وللدلالة على الهدى ، ولتنال ميراث النبي ﷺ ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء ^(١) ، نسأل الله أن يخلص لنا ولكم النية ويصلح العمل ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٣٩٢ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتَزَاعًا يَنْتَزَعُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا ، اتَّخَذَ النَّاسُ زُؤُوسًا جُهَالًا ، فَسَيَلُّوا ، فَأَقْتَتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

ساق المؤلف ﷺ في فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال : « إِنْ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتَزَاعًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ » ففي هذا الحديث : إشارة إلى أن العلم سيقبض ، ولا يبقى في الأرض عالم يرشد الناس إلى دين الله ، فتندهر الأمة وتضل ، بعد ذلك ينتزع

(١) كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٢٣) ، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٣٧/٨) ، والهندي في كنز العمال (٢٨٦٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٠٠) ، ومسلم في العلم (١٣) ، والترمذي في العلم (٢٦٥٢) ، وأحمد في مسنده (١٦٢/٢) ، قوله « لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ » أي لا يرفعه من الدنيا .

منهم القرآن ، ينزع من الصدور ، ومن المصاحف كما قال أهل السنة : إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ، قالوا : معنى وإليه يعود : أي يرجع إلى الله ﷻ في آخر الزمان حين يهجره الناس هجرًا تامًا ، لا يقرؤونه ولا يعملون به ، ونظير ذلك الكعبة المشرفة حماها الله ﷻ لما أراد أبرهة أن يهدمها وقدم إليها بفيل عظيم وجنود كبيرة حماها الله ﷻ منه وأنزل الله في ذلك سورة كاملة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل : ١ : ٥] طيور أرسلها الله ﷻ ، أبابيل يعني جماعات متفرقة كل واحد في منقاره وبين رجله حجارة من سجيل ؛ يعني من طين مشوي صلب ، فكانت هذه الطيور بأمر الله ترسل هذه الحجارة على هؤلاء الجنود حتى إنها تضرب الرجل من رأسه وتخرج من دبره ، نعوذ بالله حتى جعلهم كعصف مأكول يعني كعصف الزرع الذي أكلته البهائم واختلط بعضه ببعض . لكن في آخر الزمان إذا انتهك الناس حرمة هذا البيت وأكثروا فيه من المعاصي وغير ذلك مما يعد امتحانًا لحرمته ؛ سلط الله عليهم رجالًا من الحبشة ابعد الرجلين قصير فينقضها حجرًا حجرًا ، يأتي إليها بجنود ، فينقضها يهدمها حجرًا حجرًا ، إذا نزع الحجر أعطاه أحد الجنود ، ثم التالي الذي بجنبه من مكة إلى البحر ، يتمادون حجارتها حتى تهدم عن آخرها ^(١) ، فأنظر كان في الأول حماها الله ﷻ من أولئك الكفرة ، لأنه يعلم أنه سيبعث فيها رسولًا ينقل الناس من الضلال والظلم والشرك إلى الهدى والعدل والتوحيد .

لكن في آخر الزمان عندما ينتهك الناس هذه الحرمة ترفع من مكانها ، يسلط الله عليها بحكمته من يهدمها ، ولا أحد يقول شيئًا ، ولا أحد يعارض هذا الرجل ، والله ﷻ بحكمته يمكنه من ذلك ، كذلك القرآن الكريم ينتزع من الصدور ومن المصاحف ويرفع إلى الرب ﷻ ؛ لأنه كلامه منه بدأ وإليه يعود . العلم أيضًا لا ينتزع من صدور الرجال لكنه يقبض بموت العلماء ، يموت العلماء الذين هم علماء حقيقة ولا يبقى عالم ، فيتخذ الناس رؤساء ، يعني يتخذ الناس من يتراأسهم ويستفتونه ، لكنهم جهال يفتون بغير علم فيضلون ويضلون - والعياذ بالله - وتبقى الشريعة بين هؤلاء الجهال يحكمون بها بين الناس وهم جهلة لا يعرفون فلا يبقى عالم ، وحينئذ لا يوجد الإسلام الحقيقي الذي يكون مبنيا على الكتاب والسنة ، لأن أهله قد قبضوا . وفي هذا الحديث حث على طلب العلم ؛ لأن الرسول أخبرنا بهذا لأجل أن نتحاشى وتندارك هذا الأمر ونطلب العلم ، وليس المعنى أنه أخبرنا لنستسلم فقط ، لا ، من أجل أن نحصر على طلب العلم حتى لا نصل إلى الحال التي وصفها الرسول ﷺ . والإخبار بالواقع لا يعني إقراره . يعني إذا أخبر الرسول ﷺ عن شيء ليس معناه أنه يقره ويسمح فيه ، كما أخبر - عليه الصلاة والسلام - وأقسم : « لتركبن سنن من كان قبلكم » - يعني لتركبن طرق من كان قبلكم - قالوا : اليهود والنصارى ، قال : « نعم ، اليهود والنصارى » ^(٢) . فأخبر أن هذه الأمة سوف ترتكب ما كان عليه اليهود والنصارى ،

(١) انظر نص الحديث في مسند الإمام أحمد (٣١٠/٢) بلفظ : « يظهر ذو السويتين على الكعبة فيهدمها » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٥) ، والحاكم في المستدرک (٤٥٥/٤) ، والألباني في الصحيحة (١٣٤٨) .

إخبار تحذير لا إخبار تقرير وإباحة ، فيجب أن نعلم الفرق بين ما يخبر به الرسول مقررًا ومثبتًا له ، وما يخبر به محذرًا عنه ، فالرسول ﷺ أخبر بأن العلماء سيموتون ، ويعني ذلك أن نحصر حتى لا يجيء هذا الوقت الذي يموت به العلماء ولا يبقى إلا هؤلاء الرؤساء الجهال الذين يفتون بغير علم ، فيضلون بأنفسهم ويضلون غيرهم ، اللهم إنا نسألك علمًا نافعا ، وعملاً صالحاً ، ورزقاً طيباً واسعاً .

كتاب حمد الله تعالى وشكره

قال المؤلف النووي رحمه الله : حمد الله يعني وصفه بالمحامد والكمالات وتنزيهه عن كل ما ينافي ذلك ويضاده ، فهو سبحانه وتعالى أهل الحمد يُحمد على جميل إحسانه وعلى كمال صفاته جل وعلا مع المحبة والتعظيم ، وقد حمد الله نفسه في ابتداء خلقه فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] . وحمد نفسه حين أنزل على عبده الكتاب فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف: ١] . وحمد نفسه على تنزيهه عن الشريك والند ، فقال : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَكِيلٌ مِنَ الدُّنْيَا وَكَثِيرٌ نَكِيرٌ ﴾ [الإسراء: ١١١] وحمد نفسه جل وعلا عند انتهاء الخلق فقال . سبحانه وتعالى ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفُصِّلَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥] فهو جل وعلا محمود في ابتداء الخلق وانتهاء الخلق واستمرار الخلق ، ومحمود على ما أنزل على عبده من الشرائع ، محمود على كل حال ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أتاه ما يسره ، قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ^(١) وإذا أتاه ما يخالف ذلك ، قال : « الحمد لله على كل حال » ^(٢) وما يقوله بعض الناس اليوم : (الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواء) فهو خطأ غلط ، لأنك إذا قلت : الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواء ، فهو عنوان على إنك كاره لما قدره عليك ، ولكن قل كما قال النبي ﷺ : « الحمد لله على كل حال » ، هذا هو الصواب وهو السنة التي جاءت عن النبي ﷺ وقد حمد الله نفسه وأمر بحمده فقال الله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ [النمل: ٥٩] فأمرنا أن نحمده جل وعلا ، بل جعل حمدنا إياه من أركان الصلاة لا تتم الصلاة إلا به ، فالفاتحة أولها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لو أسقطت هذه الآية من الفاتحة ما صحت صلاتك ، فحمد الله تعالى واجب على كل إنسان ، وكذلك الشكر ، الشكر على إنعامه ، كم أنعم عليك من نعمة !؟ عقل ، سلامة بدن ، مال ، أهل ، أمن ، ... نعم لا تحصى ! ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤] لو لم يكن من نعمته عليك إلا هذا النفس

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٠٣) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٩٩) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٢) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٩/١) .

الذي لو اغتممته لفقدت الحياة ، مع أنه يخرج بدون أن تستبته وبدون أن تتعب له ، وانظر الذين ابتلوا بضيق النفس ، كيف يتكلفون عند إدخال النفس وإخراجه ، وهذا النفس مستمر دائم ، نعمة لا تحصى أبداً ، العقل ، الأولاد ، المال ، الدين ... كل هذه نعم عظيمة ، يستحق جل وعلا أن يُشكر عليها ، والشكر : قال أهل العلم : هو القيام بطاعة المنعم ، هذا هو الشكر أن تقوم بطاعة المنعم ولا سيما جنس هذه النعمة ، فإذا أنعم الله عليك بمال فليكن عليك أثر هذا المال في لباسك ، في بيتك ، في مركوبك ، في صدقاتك ، في نفقاتك ، ليُرى أثر نعمة الله عليك في هذا المال . في العلم ، إذا أنعم الله عليك بعلم فليرى عليك أثر هذا العلم ، من نشره بين الناس ، تعليمه الناس والدعوة إلى الله ﷻ ، وغير ذلك ، فالشكر يكون من جنس النعمة التي أنعم الله بها عليك ، أو بأعم .

إذا فمن عصي الله فإنه لم يقم بشكر نعمة الله ، كافر بنعمة الله - والعياذ بالله - قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّوا الْقِرَارَ ۚ ﴾ (١) [إبراهيم : ٢٨ - ٢٩] فالعاصي لم يقم بشكر نعمة الله ﷻ ، وينقص من شكره بقدر ما أتى من المعصية ، حتى لو قال الإنسان بلسانه : اشكر الله ، الشكر لله وهو يعصي الله ، فإنه لم يصدق فيما قال ، الشكر القيام بطاعة المنعم .

والشكر له فائدتان عظيمتان ، منها : الاعتراف بالله تعالى في حقه وفضله وإحسانه .

ومنها : أنه سبب لمزيد النعمة ، كلما شكرت زادت نعمة الله عليك ، قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] إذا شكر الإنسان زاده الله ، وإذا كفر عرض نفسه لعذاب الله ، وعذاب الله تعالى شديد ، وقال الله تعالى : ﴿ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٧٢] واشكروا الله تعالى على هذه النعمة التي أنعمها عليكم ، وسهل لكم الوصول إليها فوصلت إليكم من غير حول ولا قوة ، هذه الطيبات التي نأكلها لو شاء الله تعالى لم نقدر عليها إما لعسر فيها ، وإما لفقد لهذه النعم ، قال الله تعالى ﴿ أَوْفَيْتُمْ مَا خَدَّوْتُمْ ۖ فَأَنشَأَ رَبُّكُمْ لَكُمْ لَزْرَعُونَ ۚ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاةً فَتَلُوتُمْ أَصْحَابُكُمْ ۚ إِنَّكُمْ لَعَمْرَوْكُمْ ۚ بَلْ تَحْنُ حَمِئُونَ ۚ أَوْفَيْتُمْ أَلَاءَ الْمَاءِ الَّذِي نُشَوُّونَ ۚ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْفَرْنِ ۖ أَفَرَأَيْتُمْ أَفْعَالُ الْغَائِرِ ۚ أَوْفَيْتُمْ أَتَارَ الْوُزُونِ ۚ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا ۖ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۚ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكُرَةً وَفَتْحًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) [الواقعة : ١٣ : ٧٣] .

فالهمم : أن علينا أن نشكر نعمة الله ، ويكون الشكر من جنس النعمة ، فتبذل من العلم والمال بحسب ما أعطاك الله ﷻ ، الصحة ، أنت أعطاك الله صحة ونشاطاً واحتاج إخوانك إلى المساعدة والمعاونة ، فمن شكر النعمة أن تعينهم ، والله الموفق .

(١) قوله ﷻ : ﴿ دَارَ الْآبَارِ ﴾ أي دار الهلاك .

(٢) قوله ﷻ : ﴿ فَتَلُوتُمْ أَصْحَابُكُمْ ﴾ أي ظلمتم تتعجبون . قوله ﷻ : ﴿ إِنَّكُمْ لَعَمْرَوْكُمْ ﴾ أي إنا لمهلكون . قوله ﷻ : ﴿ حَمِئُونَ ﴾ أي ممنوعين الرزق . قوله ﷻ : ﴿ الْفَرْنِ ﴾ السحاب قوله ﷻ : ﴿ أَفْعَالُ الْغَائِرِ ﴾ أي ملخاً زعاقاً لا يطاق لشدة مرارته . قوله ﷻ : ﴿ وَفَتْحًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي ومنفعة للمسافرين .

٢٤٢ - باب فضل الحمد والشكر

قال الله تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ إِذْ كُنْتُمْ رَاكِعِينَ وَاسْكُرُوا لَهُ وَلَا تَكْفُرُوا ۚ ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَرْضَىٰ عَنْكَ لَازِيْدُكَ ۚ ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ ﴾ [الإسراء: ١١] وقال تعالى : ﴿ وَمَا جِئَ دَعْوَتُهُمْ إِلَّا الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

الشرح

سبق الكلام على هذا ، ولكننا لم نتكلم على الآية الأولى ، وهي قوله تبارك وتعالى ﴿ فَادْكُرُوا ﴾ . أما ذكر اللسان مجرداً عن ذكر القلب ؛ فإنه ناقص ، ويدل لهذا قوله ﴿ وَلَا تُلْطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٨] ولم يقل : من أغفلنا لسانه عن ذكرنا ، قال : ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ فالذكر النافع هو ذكر القلب ، وذكر القلب يكون في كل شيء ، يعني معنى ذلك أن الإنسان وهو يمشي وهو قاعد وهو مضجع إذا تفكر في آيات الله ﷻ فهذا من ذكر الله ، ومن ذكر الله أيضاً ما جاء في السنة مثل « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » (١) و « سبحان الله » (٢) وما أشبه ذلك .

ومن ذكر الله أيضاً الصلاة ؛ فإنها من ذكر الله ، قال الله تبارك وتعالى ﴿ أَنْتَ لِمَا أَوْجِبْتَ إِلَيْكَ مِنَ الْكُتُبِ وَأَقْرَبَ الْمَكَلُوفَةِ إِلَى الْكَفَلَةِ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ﴾ [الشكوت: ٤٥] . قال بعض العلماء : المعني : ولنا فيها من ذكر الله أكبر ، فعلى كل حال ينبغي للإنسان عند ذكر الله باللسان أن يكون ذاكرة لله بقلبه حتى يتطابق القلب واللسان وتحصل الفائدة ، لأن مجرد الذكر باللسان ينفع الإنسان ولكنه ناقص ، لكن الذكر بالقلب هو الأصلي .

والهم : اعلم أن الله تعالى يقول : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ إِذْ كُنْتُمْ رَاكِعِينَ ﴾ وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الله قال : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » (٣) ، يعني الإنسان إذا ذكر الله في نفسه وليس حوله أحد ، ذكره الله في نفسه ، وإن ذكر الله وحوله ملأ يعني في جماعة ؛ ذكره الله في ملأ خير منهم ، وهذا يدل على أن الله تعالى التزم بأن من ذكره في نفسه ذكره في نفسه ، ومن ذكره في ملأ ذكره في ملأ خير منهم ، وقال : ﴿ وَاسْكُرُوا لِلَّهِ إِذَا كُنْتُمْ رَاكِعِينَ ۚ ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقد سبق معنى الشكر ومعنى الكفران ، ويأتي - إن شاء الله - بقية الكلام على هذا الباب في الأحاديث القادمة .

(١) أخرجه : البخاري في الرقاق (٦٤٧٣) ، ومسلم في المساجد (١٣٧) ، وأبو داود في السنن (١٥٠٥) ، والترمذي في السنن (٢٢٩) .

(٢) ورد اللفظ في أكثر من موضع في كتب الحديث منها : البخاري في العلم (١١٥) ، ومسلم الحيف (١١٥) ، وأحمد في مسنده (٥٧/٤) وغيرها . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٤/٢) ، ٤٠٥ .

١٣٩٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَتَى لَيْلَةَ أُشْرِي بِه بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا ، فَأَخَذَ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جَبْرِيلُ عليه السلام : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَذَاكَ لِلْفِطْرَةِ ، لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ » ^(١) رواه مسلم .

١٣٩٤ - وَعَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « كُلُّ أَمْرِ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ ؛ فَهُوَ أَقْطَعُ » ^(٢) حديث حسن ، رواه أبو داود وغيره .

١٣٩٥ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ : قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ قَوَادِيهِ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : مَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : حَمْدُكَ وَاسْتَرْجَع ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ابْنُوا لِعَبْدِي نَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَسَمُّوهُ نَيْتَ الْحَمْدِ » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٣٩٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ ؛ فَيُحَمِّدُهُ عَلَيْهَا ، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ ؛ فَيُحَمِّدُهُ عَلَيْهَا » ^(٤) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رحمته الله ليبيان حمد الله وشكره ، ومن المعلوم لنا جميعاً أن كل ما بنا من نعمة فمن الله تعالى ، وأنه إذا مسنا الضر فليس لنا ملجأ إلا إلى الله ، وأن الإنسان إذا أصيب بما يكره أو بما يؤذيه ؛ فإن الله تعالى يكفر بذلك عنه ، ما من أذى أو هم أو غم يصيب المؤمن إلا كفر الله بذلك عنه حتى الشوكة يشاكها ^(٥) ، الشوكة إذا شكتك فإن الله يكفر بها عنك ، إذا فنعم الله عظيمة كثيرة لا تعد ولا تحصى ، لذلك يجب علينا أن نحمد الله تعالى وأن نشكره على نعمه التي أسبغها علينا ، ومن فوائد الحمد : أن الإنسان إذا ابتدأ الشيء بحمد الله فإن الله تعالى يجعل فيه البركة ، إذا ابتدأه بحمد الله جعل الله فيه البركة ، يعني أراد أن يؤلف كتاباً أو يتكلم في كلام ، خطبة أو غير ذلك ، إذا حمد الله جعل الله فيه البركة ، وكل أمر لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع ، يعني منزوع البركة ، لكن قد ينوب عن الحمد غيره كالبسملة مثلاً ، البسملة أيضاً يبارك الله فيها بأشياء كثيرة منها : أن الإنسان إذا ذبح الذبيحة إن قال : بسم الله حلت الذبيحة ، وكانت طيبة ، وإن قال : الحمد لله لم تحل الذبيحة ؛ لأن الذبيحة لا تحل إلا بالبسملة ، وإذا قال عند الذبح : الله

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٧٢) وذكره هنا بمعناه . قوله : « الفطرة » أي الإسلام ، والحاكم في المستدرک (٢٧٨/٣) بلفظه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٨٤٠) بمعناه ، وابن ماجه في النكاح (١٨٩٤) ، والطبراني في الكبير (٧٢/١٩) . قوله : « ذي بال » أي ذو أهمية ، قوله : « أقطع » أي لا بركة فيه .

(٣) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٢١) .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩) ، وأحمد في مسنده (١٠٠/٣) ، والترمذي في الأطعمة (١٨١٦) .

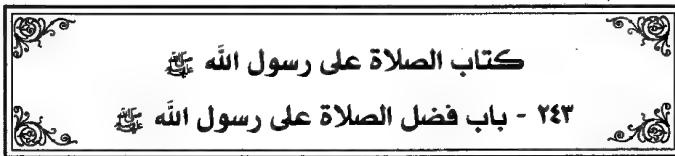
(٥) انظر ما يدل على ذلك في مسلم في البر والصلة (٤٦) ، وأحمد في مسنده (٤٤١/١) .

أكبر ولم يقل : بسم الله لم تحمل الذبيحة . فكل أمر يبدأ فيه بالحمد لله فهو خير وبركة ، لكن قد ينوب عن الحمد ما سواه كالبسملة عند الأكل والشرب والذبح والوضوء وإتيان الرجل أهله ، يقول : « بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا » ^(١) ، وغير ذلك .

ومن فوائد الحمد : أن الله ﷻ يرضى عن العبد إذا أكل الأكلة أن يحمد عليها ، وإذا شرب الشربة أن يحمد عليها ، فما هي الأكلة ؟ هل هي الوجبة ، أو كل ردة يرد بها الإنسان إلى فمه فهي أكلة ؟ الحديث محتمل ، وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كل ما أكل ردة قال : الحمد لله ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، ما هذا ؟ قال : أكل وحمد خير من أكل وسكوت ، وكأن الإمام أحمد رحمه الله رأى أن الأكلة هي الردة ، وعلى هذا يكون حمد الإنسان على طعامه كثيراً ، لكن أكثر العلماء يقولون : إن الأكلة هي الوجبة ، تجلس على الطعام ، وإذا خلصت تقول : الحمد لله ، والحمد كله خير ، فهذه من فوائد الحمد ، أنه إذا حمد الإنسان على أكله وشربه كان ذلك سبباً لرضا الله ﷻ عنه ، نسأل الله أن يحل علينا وعليكم الرضا ، إنه على كل شيء قدير .

سؤال وجوابه : الأكل باليسار والشرب باليسار حرام ، والذي يأكل بشماله ويشرب بشماله مشابه للشيطان مقتد بالشيطان ، بجانب لهدي الرحمن ^(٢) . ولهذا رأى النبي ﷺ رجلاً يأكل بشماله ، قال : « كل يمينك » قال : لا أستطيع ، فقال له : استطعت ^(٣) فشلت يمينه وسار لا يستطيع أن يرفعها إلى فمه . وهذا يدل على أن الإنسان يجب عليه أن يأكل باليمين ويشرب باليمين ، حتى الشرب وأنت تأكل لا تشرب بالشمال اشرب باليمين حتى لو تلوث الكأس أو الماعون لا يهم ، تغسل ، والله الموفق .

* * *



قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَلَكَ جَنَّاتٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الصَّالِحِينَ ﴾

[الأحزاب : ٥٦] .

١٣٩٧ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا » ^(٤) رواه مسلم .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٦١) ، والدارمي في السنن (١٤٥/٢) .

(٢) وذلك مصداقاً لما رواه الترمذي في السنن (١٧٩٩) ، وأحمد في مسنده (٨٠/٢) .

(٣) انظر الحديث في مسلم في الأشربة (١٠٧) ، والدارمي في الأطعمة (٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨٤) ، وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) ، والحاكم في المستدرک (٥٥٠/١) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته في باب فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمر يكون تارة للوجوب وتارة يكون للاستحباب ، فالذي للوجوب : يعني أن الإنسان إذا تركه فهو آثم عاص مستحق للعقوبة .

وأما الذي للاستحباب : أن الإنسان إذا فعله فله أجر ، وإذا تركه فليس عليه إثم ، فيتفق الواجب والمستحب بأن فيهما ثواباً لفعلهما ، لكن ثواب الواجب أعظم وأكثر ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي : إن الله تعالى قال : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه » ^(١) .

ويختلف الواجب عن المستحب : بأن تارك الواجب آثم عاص لله ومستحق للعقوبة ، وتارك المستحب لا يَأْثُم ، لكن فاته خير ، والأمر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أطلقه المؤلف رحمته فاختلف العلماء - رحمهم الله - هل تجب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في العمر مرة أو بأسباب أو لا تجب ، والصحيح أنها تجب بأسباب ، وإلا فالأصل أنها مستحبة . فما معنى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، أي ما معنى قول القائل : اللهم صل على محمد ؟ أكثر الناس يقرأ هذا أو يدعو بهذا الدعاء وهو لا يدري معناه ، وهذا غلط ، كل شيء تقوله تعرف معناه ، كل شيء تدعو به تعرف معناه حتى لا تدعو بإثم ، فقولك اللهم صل على محمد يعني : اللهم اثنِ عليه في الملائكة الأعلى ، ومعنى اثنِ عليه يعني : اذكره بالصفات الحميدة . والملائكة هم الملائكة ، فكأنك إذا قلت : اللهم صل على محمد ، كأنك تقول : يا رب صفه بالصفات الحميدة ، واذكره عند الملائكة حتى تزداد محبتهم له ، ويزداد ثوابهم بذلك ، هذا معنى اللهم صل على محمد . واختلف العلماء - رحمهم الله - هل يصلي على غير النبي أم لا ؟ يعني هل يجوز أن تقول : اللهم صل على فلان أو العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني ، أو اللهم صل على أي أو ما أشبه ذلك . والصحيح أن في ذلك تفصيلاً ، فإن كان ذلك تابعاً للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا بأس ، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله كيف يصلون عليه ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ^(٢) . وإن كان مستقلاً ، فإن كان لسبب فلا بأس ، ومن ذلك إذا أتى الإنسان إليك بصدقة لتوزعها ، فقل : اللهم صل عليه ، واحد أعطاك مائتي ألف ريال يقول : هذه للزكاة وزعها ، فقل : اللهم صل على فلان ، ويسمع هذا منك ، لقول الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] . قال عبد الله بن أبي أوفى ، فأتيت بصدقتي ، أو قال أتاه أبي ، فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » ^(٣) هذا أيضاً لا بأس ، كذلك إذا صليت على إنسان دون أن تجعل ذلك شعاراً له كلما ذكرته صليت عليه فلا بأس ، يعني حتى لو قلنا : اللهم صل على أبي بكر ، أو على عمر ، أو على عثمان ، أو علي ؛ فلا بأس ولكن لا تجعل هذا شعاراً كلما ذكرت هذا صليت عليه ؛ لأنك إذا فعلت ذلك جعلته كأنه نبي .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٦٠٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٧) ، ومسلم في الصلاة (٦٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ، ومسلم في الزكاة (١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٣٥٣/٤) .

ثم صدر المؤلف هذا الباب بالآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فتأمل ما في هذه الآية من خير وأمر وتأکید ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ هذا خبر ، أخبرنا الله بذلك حثًا لنا على الصلاة والسلام عليه ، « الله وملائكته » كل الملائكة في كل السماوات والأرض يصلون على النبي ، والملائكة عالم الغيب من مخلوقات الله ، لا يحصيهم إلا الله ﷻ . البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك كل يوم ثم لا يعودون إليه ^(١) يعني يجيء ملائكة غيرهم . إذن من الذي يحصيهم ؟ لا يحصيهم إلا الله ، وفي الحديث عن النبي ﷺ : « أطت السماء وحُق لها أن تنط » ^(٢) والأطيط : هو صوت الرجل يعني صرير السنابل على البعير ولا يبصر إلا إذا كان عليه حمل ثقيل ، تسمع له صرخة ، ويقول : « وحق لها أن تنط » ، ما من موضع أربعة أصابع إلا وفيه ملك قائم لله أو رাকع أو ساجد . والسماء ليست كالأرض ، السماء أوسع بكثير بكثير من الأرض ، انظر الآن بُعْدَهَا الشاسع ، وهي على الأرض كالكرة فتكون دائرتها واسعة عظيمة ، والسماء الثانية أوسع ، والثالثة أوسع ، والرابعة أوسع ، والخامسة أوسع ، والسادسة أوسع ، والسابعة أوسع . كل سماء في ملائكة ، بين أربعة أصابع فيها ملك قائم لله ، رাকع ساجد ، إذا من الذي يحصي الملائكة ؟ إذا كنا لا نحصي الملائكة فهل يمكن أن نحصي الصلاة على الرسول ، لا ، لأن الملائكة يصلون على النبي فلا تحصى الصلاة على النبي ﷺ ، انظر فضل الله واسع ، أعطى الله هذا الرجل ، رسول الله ﷺ ، أعطاه الله هذه الفضيلة العظيمة التي لا ينالها أحد فيما نعلم ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] هذا خبر أراد الله منا أن نتشجع ، ولهذا قال بعدها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بمقتضى إيمانكم صلوا عليه . وجه الخطاب لنا بصدد الإيمان ؛ لأن الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على امتثال الأمر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ الصلاة والسلام ، ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ أي : ادعوا الله أن يشني عليه في الملأ الأعلى ، ﴿ وَسَلِّمُوا ﴾ عليه أي : ادعوا الله أن يسلمه تسليماً تاماً ، ومما يسلمه ؟ في حياته : يسلمه من الآفات الجسدية والآفات المعنوية ، وبعد موته : من الآفات المعنوية ، بمعنى أن تسلم شريعته من أن يقضي عليها قاض ، أو ينسخها ناسخ ، وكذلك الجسد ؛ لأنه ربما يعتدى عليه بعد موته في قبره ، كما يأتي في قصة مشهورة أن رجلين أرادا أن يستخرجا جسد النبي ﷺ فنزلا المدينة وبدأ يحفران من تحت الأرض حفرة حتى يتوصلا إلى قبر النبي ﷺ فيأخذا جسده الشريف ، فبقيا على ذلك مدة ، فأري أحد الملوك في المنام أن رجلين يحفران ليصلا إلى جسد النبي ﷺ ويأخذه ، فاهتم بذلك اهتماماً عظيماً ، ثم ارتحل إلى المدينة ، ارتحل إلى المدينة ، وصل المدينة ، فمن أين يعلم هذين الرجلين ؟ كيف يتوصل إلى معرفتهما ؟ فقال لأمر المدينة : ادع لي جميع أهل المدينة ؛ لأنه في المنام إما وُصفا له أو رأهما في المنام وعرفهما ، فقال : ادع لي أهل المدينة ، فدعاهم ، فأطعمهم ومشوا ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٣) ، والحاكم في المستدرک (٤٦٨/٢) ، والطبراني في الكبير (٤١٧/١١) (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٥) .

والألباني في الصحيحة (٤٧٧) .

وما رأى الرجلين ، فقال : ادع لي أهل المدينة ، فدعاهم أظن مرتين أو ثلاثاً ، ولم ير الرجلين ، والرؤيا التي رآها حق لا بد أن يكون هذا ، قال : أين أهل المدينة ؟ قالوا : ليس هناك أحد ، إلا رجلين غريبين في المسجد - يعني ليس لهما قيمة - قال : أحضرهما ، فجيء بهما ، فإذا هما اللذان رآهما في المنام ، فعرّفهما ثم أمر بأن يحفر في الأرض حفرة على جوانب الحجرة التي فيها قبر النبي ﷺ قبل أن تكون حجرة بالبناء ، ثم صبها بالنحاس والرصاص والرخام ، حتى يحمي الله جسد هذا النبي الكريم ، فصب الرصاص إلى الأرض ، ولهذا قبر النبي محفوظ حفظاً تاماً . فالهم أن قول المسلم : اللهم صل وسلم على محمد ، يعني سلمه من الآفات الجسدية حيّاً وميتاً ، وسلمه أيضاً ، سلم شريعته من أن يطمسها أحد أو أن يعدو عليها أحد . ثم اعلّموا أيها الإخوان أن أجساد الأنبياء لا يمكن أن تأكلها الأرض ، لا يمكن لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ^(١) ، إذن فأجساد الأنبياء سالمة من الأرض ، الأرض التي تأكل كل جسد إلا من شاء الله لا تأكل أجساد الأنبياء . والحاصل أن في هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى أن نصلي ونسلم عليه تسليماً ، والصلاة عليه واجبة في مواضع ، منها : إذا ذكر اسمه عندك فصل عليه ؛ لأن جبريل أتى إلى النبي ﷺ وقال : « رغم أنف امرء ذكرت عنده فلم يصل عليك » . رغم أنف ، معني رغم : يعني سقط في الرغامة ، الرغامة هي الأرض الترابية « رغم أنف امرء ذكرت عنده فلم يصل عليك » يعني إذا سمعت ذكر الرسول ﷺ فقل : اللهم صل وسلم عليه ، فإن له حقاً عليك . تجب الصلاة على النبي أيضاً عند كثير من العلماء في الصلاة في التشهد الأخير ، فعند كثير من العلماء أنها ركن لا تصح الصلاة إلا به ^(٢) ، وعند بعضهم أنها سنة ^(٣) ، وعند بعضهم أنها واجب ^(٤) . والاحتياط أن لا يدعها الإنسان في صلاته ؛ أي الصلاة على النبي ، ولو أن الإنسان جعل كل دعاء يدعو به مقروناً بالصلاة على النبي ﷺ لكان كما جاء في الحديث يكفي همه ويغفر ذنبه .

ولهذا أكثر يا أخي من الصلاة والسلام على الرسول ليزداد إيمانك ويسهل لك الأمر . ثم اعلم أن الرسول ﷺ بشر لا يملك النفع لك ولا الضر ، فلا تسأله ، لا تقل : يا رسول الله ، افعل كذا ، يا رسول الله ، استغفر لي ، يا رسول الله ، أغثنى ، يا رسول الله ، سهل أمري . هذا حرام ، شرك أكبر ؛ لأنه لا يجوز أن تدعو مع الله أحداً ، الدعاء خاص بمن بالله ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ^(٥) [غافر : ٦٠] فإن قال قائل : أيهما أعظم حقاً الوالدان - يعني الأم والأب - أم الرسول ؟ أقول الرسول أعظم من حق نفسك عليك ^(٦) ، ولهذا يجب على الإنسان أن يفتدي نفسه للرسول ، يجب على كل إنسان أن

- (١) انظر لذلك : ما رواه النسائي في الجمعة (٩٣/٣ ، ٩٤) والدارمي في السنن (٢٠٦) وأحمد في مسنده (٨/٤) .
- (٢) وهذا هو رأي الشافعية والحنابلة في الراجح من مذهبيهم ، إذ قالوا : إن الصلاة على النبي في التشهد الذي يسبق التسليم فرض ، فلو تركها عامداً فسدت صلاته . (انظر المجموع ٤٦٥/٣ ، والمغني ٥٤٢/١) .
- (٣) وهذا مذهب الحنفية والمالكية انظر . (أسهل المدارك ١١٠/١) وتحفة الفقهاء (٢٣٧/١) .
- (٤) وهذا مذهب بعض الحنابلة (انظر المغني ٥٤٢/١) . (٥) قوله : ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين أذلاء .
- (٦) وذلك مصداقاً لما رواه البخاري في الإيمان (١٥) ومسلم في الإيمان (٦٩) .

يكون الرسول أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

فإن قال قائل : أليس الله يذكر حق الوالدين بعد حقه ؟ قلنا : بلى ﴿ وَفَضَّلْنَاكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَابْأُولَآئِينَ إِحْسِنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ولكن حق الرسول متبوع بحق الله ؛ لأن عبادة الله لا تتم إلا بالإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ .

والله ﷻ يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ، والله ﷻ يخلق ما يشاء ويختار ، والله ﷻ أعلم حيث يجعل رسالته ، فجعل خير الرسالات في محمد ﷺ ، وختم به النبوة ، فلا نبي بعده ، فمن ادعى أنه نبي بعد رسول الله ؛ فإنه كافر ، ومن صدقه فإنه كافر أيضاً ، لقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] وقد أمر الله بالصلاة على نبيه والسلام عليه ، فقال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] . فبدأ الله بالإخبار عن نفسه وعن ملائكته أنهم يصلون على النبي ، وهذه الآية كما تعرفون في سورة الأحزاب التي أمر الله تعالى فيها نبيه بتقوى الله ﷻ وأنزل عليه أعظم آية فيما يتعلق بفعل الرسول ﷺ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب : ١] وقال تبارك وتعالى له : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنصَتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] فلما نزلت هذه القوارع العظيمة على رسول الله ﷺ ، جبر الله ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وبقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَنَنصَبَهُنَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِمًّا ﴾ [الأحزاب : ٥٧] فانجبرت هذه القوارع التي نزلت من الله تعالى في حق رسول الله ﷺ . وقوله : ﴿ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ يشمل كل ملك في السماوات والأرض ؛ فإنه يصلي على النبي ﷺ .

ومعنى الصلاة من الله على رسوله : الثناء عليه في الملأ الأعلى ، يعني : أن الله يحمده ويشي عليه ويبين فضله في الملأ الأعلى في الملائكة .

وأما معنى الصلاة عليه من الملائكة والبشر : فهو الدعاء له بأن يصلي الله عليه . ثم أمر لما ذكر أنه وملائكته يصلون عليه ، أمرنا بأن نصلي ونسلم ، وهذا الأمر مطلق لم يبين متى ، لكنه جاء في السنة أنه يصلي عليه الصلاة والسلام في مواضع منها : في التشهد في الصلاة ، فإن الصحابة قالوا : يا رسول الله ، علمنا كيف نصلي ونسلم عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد ، إلى آخره » ومنها : إذا ذكر اسمه فإنك تصلي عليه ، إما وجوباً أو استحباباً ؛ لأن النبي ﷺ قال : « رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل علي » وقال جبريل يخاطب النبي ﷺ : « رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك » ، قل : آمين ، فقال : « آمين » فالصلاة عليه إذا ذكر واجبة عند كثير من العلماء ومستحبة عند أكثر العلماء ، وقوله : « صلوا عليه » أي : اسألوا الله الصلاة عليه ، قولوا : اللهم صل على محمد ، « وسلموا عليه » يعني : اسألوا الله له السلامة من كل آفة ، من كل آفة في حياته ، ومن كل بلاء في حشره عليه الصلاة والسلام ؛ لأن الأنبياء في الحشر ،

كل يدعو : اللهم سلم ، اللهم سلم ، اللهم سلم ^(١) ، وكذلك يتضمن الدعاء بالسلامة لدينه وشرعته أن يسلمها الله تعالى من الأعداء فلا يسطو عليها بتحريف أو تغيير ؛ إلا سلط الله عليه من يبين ذلك . وهذا هو الواقع والله الحمد .

١٣٩٧ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من صلى عليَّ صلاة ، صلى الله عليه بها عشرا » ^(٢) رواه مسلم .

١٣٩٨ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة » ^(٣) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٣٩٩ - وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليَّ » فقالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أومت ؟ - قال : يقول : يليث - قال : « إن الله ﻻ يتركك حرّم على الأرض أجساد الأنبياء » ^(٤) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة في بيان فضل الصلاة على النبي ﷺ وقد تقدم لنا معنى الصلاة عليه ، فالحديث الأول عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « من صلى عليَّ مرة واحدة ؛ صلى الله عليه بها عشرة » . يعني : إذا قلت : اللهم صل على محمد ، صلى الله عليك بها عشر مرات ، فأنتي الله عليك في الملاء الأعلى ، عشر مرات ، وهذا يدل على فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ ، ويدل على علو مرتبة النبي ﷺ عند الله حيث جازى من صلى عليه بعشر أمثال عمله ، يصلي الله عليه عشر مرات .

وأما الحديث الثاني : فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخبر أن أولى الناس به أكثرهم صلاة عليه ، أولى الناس به يوم القيامة وأقربهم منه من صلى عليه ، عليه الصلاة والسلام . وهذا أيضًا يدل على الترغيب في كثرة الصلاة على النبي ﷺ .

أما الحديث الثالث : فهو حديث أوس بن أوس : أن النبي ﷺ أمر أن نكثر من الصلاة عليه يوم الجمعة ، وأخبر بأن صلاتنا معروضة عليه ، تعرض عليه ، فيقال : صلى عليك فلان ابن فلان ، أو

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧) ، ومسلم في الإيمان (٢٩٩) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨٤) ، وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) ، والحاكم في المستدرک (٥٥٠/١) .
(٣) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٨٤) . قوله « أولى الناس بي » أي أحص أمتي بي وأقربهم مني وأحقهم بشفاعتي .
(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٠٤٧) والنسائي في السنن (٩١/٣) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٥) .

تعرض عليه ، يقال : صلى عليك رجل من أمتك ، الله أعلم هل يعين المصلى أم لا ، المهم أنها تعرض على النبي ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، كيف تعرض عليك ، وقد أرمت ، أو أرمت ، أي : بليت ، فقال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام مهما بقوا في الأرض فإن الأرض لا تأكلهم ، أما غير الأنبياء فإنها تأكلهم ، لكن قد يكرم الله تعالى بعض الموتى فلا تأكلهم الأرض وإن بقوا . لكننا لا نتيقن أن أحدا لا تأكله الأرض إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ففي هذه الأحاديث الثلاثة الترغيب في كثرة الصلاة على النبي ﷺ ولا سيما في يوم الجمعة ، ولكن أكثر الصلاة عليه في كل وقت ؛ فإنك إذا صليت مرة واحدة صلى الله بها عليك عشرة . اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

١٤٠٠ - وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٤٠١ - وعنه ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عَيْدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ » ^(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١٤٠٢ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ ؛ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدُّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١٤٠٣ - وعن علي ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عَنْدهُ ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ » ^(٤) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٤٠٤ - وعن فضالة بن عبيد ؓ قال : سَمِعَ رسول الله ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يَمَجِّدِ اللَّهَ تَعَالَى ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ رسول الله ﷺ : « عَجَلَ هَذَا » ثُمَّ دَعَا فَقَالَ لَهُ - أَوْ لغيره - : « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ ، وَالتَّائِبِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدَ بَمَا شَاءَ » ^(٥) . رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(١) هذا الحديث لم يرق الشارح رحمه الله بشرحه والحديث أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٥) والحاكم في المستدرک (٥٤٩/١) وابن حبان في صحيحه (٩٠٨) . قوله « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ » أي لصق أنفه بالتراب وهو الرغام ، كناية عن الذل ، وهذا إخبار أو دعاء .

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك (٢٠٤٢) وأحمد في المسند (٣٦٧/٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩١/٣) . (٣) أخرجه أبو داود في المناسك (٢٠٤١) وأحمد في المسند (٥٢٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٤٥/٥) . قوله « رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي » أي رد علي نطقي .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٦) وأحمد في المسند (١٧٣/١) .

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٨١) والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧) والنسائي في السنن (٤٤/٣) .

الشرح

هذه الأحاديث أيضًا فيها الأمر بالصلاة على النبي ﷺ وفضيلة ذلك ، فمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلوا علي ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » .
 المعنى : لا تجعلوا القبر عيدًا تكرمونه بالجحى إليه كل سنة مرة أو مرتين أو ما أشبه ذلك ، وفيه دليل على تحريم شد الرحل لزيارة قبر النبي ﷺ ، وأن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المدينة لا يقصد أن يسافر من أجل زيارة قبر الرسول ، ولكن يسافر من أجل الصلاة في مسجده ؛ لأن الصلاة في مسجده خير من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام ^(١) . قال : « وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » ، إذا صليت على الرسول ﷺ فإن صلاتك تبلغه حيثما كنت في بر أو بحر أو جو ، قريبًا كنت أو بعيدًا ، وكذلك الحديث الثاني : أنه ما من رجل مسلم يسلم على النبي ﷺ إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه . فإذا سلمت على النبي ﷺ رد الله عليه روحه فرد عليك السلام ، والظاهر أن هذا فيمن كان قريبًا منه كأن يقف على قبره ، ويقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ويحتمل أن يكون عامًا والله على كل شيء قدير .

ثم ذكر المؤلف حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحديث فضالة بن عبيد وفيهما أيضًا الحث على الصلاة على الرسول ﷺ ، ولكن حديث فضالة الظاهر أن المراد بذلك التشهد ، وأن هذا الرجل تشهد ، ولم يُثن على الله ولم يمجده ، ولم يصل على النبي ولكنه دعا مباشرة ، ومعلوم أن التشهد فيه أولًا الثناء على الله في قوله : التحيات لله والصلوات والطيبات ، وفيه أيضًا السلام على النبي ﷺ والصلاة عليه ثم الدعاء . فيحمل - أعني حديث فضالة بن عبيد - على هذا ، على أن المراد بذلك الدعاء في الصلاة ، وأنه يسبق بالتحيات ثم بالسلام والصلاة على النبي ﷺ ثم الدعاء . والله الموفق ^(٢) .

* * *

١٤٠٥ - وعن أبي محمد كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ نُصَلِّيُ عَلَيْكَ ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » ^(٣) متفق عليه .

١٤٠٦ - وعن أبي مشغود البذري رضي الله عنه قال : أتانا رسول الله ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ

(١) ويدل لذلك : ما أخرجه البخاري في فضل الصلاة (١١٩٠) .

(٢) جاء في قول الشارح رحمته الله فقرة بعنوان : سؤال وجوابه ، وأتي بالجواب ولم يأت بالسؤال ، ونصها : « أي نعم هو جائز أن يفرد السلام أو الصلاة ؛ لكن الأفضل أن يجمع بينهما سؤال . الحديث يأبى ؛ لأن خاتمته : عبده ورسوله ، والرسول علم أصحابه أول ما علمهم التشهد : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . وقد رأينا حذفها من المتن حتى لا تسبب لبس عند القارئ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٧) ، ومسلم في الصلاة (٦٦) والترمذي في الصلاة (٤٨٣) .

عِبَادَةَ ﷺ فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعِيدٍ : أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَكَيْفَ نُصَلِّيْ عَلَيْكَ ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تَمْتَنَيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ » (١) رواه مسلم .

١٤٠٧ - وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ الشَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ نُصَلِّيْ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » (٢) متفق عليه .

الشرح

هذه أحاديث ثلاثة في بيان كيفية الصلاة على النبي ﷺ حديث كعب بن عجرة ؓ في كيفية الصلاة ، أنهم سألوا النبي ﷺ : كيف يصلون عليه ؛ لأنه علمهم كيف يسلمون ، والذي علمهم إياه هو قوله : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » أما الصلاة فعلمهم وقال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » وقد سبق أن معنى صلاة الله على العبد هو ثناؤه عليه في الملاء الأعلى . والمراد بآل محمد هنا كل أتباعه على دينه ؛ فإن آل الإنسان قد يراد بهم أتباعه على دينه ، وقد يراد بهم قرابته ، لكن في مقام الدعاء ينبغي أن يراد بهم العموم ؛ لأنه أشمل ، فالمراد بقوله : « وعلى آل محمد » ، يعني : جميع أتباعه ، فإن قال قائل : هل تأتي الآل بمعنى الأتباع ؟ قلنا : نعم ، قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] قال العلماء : معناه أَدْخِلُوا أَتْبَاعَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ وهو أولهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَفِشَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٨] وقوله : « كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » الكاف هنا للتعليل ، وهذا من باب التوسل بأفعال الله السابقة إلى أفعاله اللاحقة ، يعني كما مننت بالصلاة على إبراهيم وآله فامنن بالصلاة على محمد وآله ﷺ ، فهي من باب التعليل وليست من باب التشبيه ، وبهذا يزول الإشكال الذي أورده بعض أهل العلم رحمهم الله ، حيث قالوا : كيف تلحق الصلاة على النبي ﷺ وآله بالصلاة على إبراهيم وآله ، مع أن محمداً أشرف من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ فالجواب : أن الكاف هنا ليست للتشبيه ولكنها للتعليل .

« كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » « حميد » يعني : محمود ، « مجيد » يعني : ممجد ، والمجد هو : العظمة والسلطان والعزة والقدرة وما إلى ذلك . « اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد وعلى إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » كذلك أيضاً التبريك ، تقول : « اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد » أي : أنزل فيهم البركة ، والبركة

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٦٥) وأحمد في مسنده (١١٨/٤ ، ٢٤١) والنسائي في السنن (٤٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٠) ومسلم في الصلاة (٦٩) والنسائي في السنن (٤٩/٣) .

هي الخير الكثير الواسع الثابت . « كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » هذه هي الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله وسلم ، وهذه هي الصفة الفضلى . وإذا اقتصرنا على قولك : اللهم صل على محمد ، كما فعل العلماء في جميع مؤلفاتهم إذا ذكروا الرسول ، لم يقولوا هذه الصلاة المطولة ؛ لأن هذه هي الكاملة وأما أدنى مجزئ فأقول : اللهم صل على محمد .

أما حديث أبي مسعود البصري : وهو زيد ، وأبي حميد الساعدي فهما مقاربان لهذا اللفظ إلا أن في حديث أبي حميد الساعدي ذكر الأزواج والذرية ، وأزواج النبي ﷺ يعني زوجاته ، والذي مات عنهن تسع زوجات ، وكان يقسم لثمانى زوجات ، وأما التاسعة سودة فقد وهبت يومها لعائشة رضيها ، فكان النبي ﷺ يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة ، وبقية الزوجات يقسم لهن النبي ﷺ بالعدل ^(١) ، يقسم بالعدل كما أمر بذلك فالخاص أن هذه الصفات الثلاث التي ذكرها المؤلف ﷺ وساقها في أحاديث ثلاثة متقاربة ولكنها تصف الكمال من صفة الصلاة عليه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

كتاب الأذكار

٢٤٤ - باب فضل الذكر والحث عليه

قال الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ١٥٢] وقال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ تِلْكَ فِي نَفْسِكَ نَضْرِبُهَا خِطْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] وقال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ^(٢) [الأحزاب : ٤٠ ، ٤٢] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

الأذكار جمع ذكر والمراد بذلك ذكر الله ﷻ ، وقد ذكر المؤلف فضل الذكر والحث عليه ، وذكر آيات متعددة ، ولنعلم أن ذكر الله تعالى يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، ويكون بالجوارح ، أما القلب : فهو التفكير ، ذكر الله تعالى بالقلب : أن يتفكر الإنسان في أسماء الله وصفاته وأحكامه وأفعاله وآياته .

(١) انظر في ذلك ما رواه البخاري في النكاح (٥٢١٢) ومسلم في الرضاع (٤٧) وابن ماجه في السنن (١٩٧٢) وأحمد في مسنده (٣٤٩/١) والبيهقي في السنن (٧٤/٧) .

(٢) قوله : ﴿ فِي نَفْسِكَ ﴾ أي سرًا . قوله : ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ أي تذللًا . قوله : ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي ليس همسًا ولا جهرا بل وسطا بينهما . قوله : ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أي أوائل النهار وآخره .

الميزان ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ » ^(١) متفقٌ عليه .
 ١٤٠٩ - وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَأَنْ أَقُولَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » ^(٢) رواه مسلم .
 ١٤١٠ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، اللَّهُ الْمَلِكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ؛ كَانَتْ لَهُ عِدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمِيسِيَ ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ » وقال : « مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » ^(٣) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة عن أبي هريرة ﷺ كلها تدل على فضل الذكر .
 الأول: قال النبي ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » كلمتان [والثاني] وهما أيضًا ثقيلتان في الميزان إذا كان يوم القيامة ووزنت الأعمال ووضعت هاتان الكلمتان في الميزان ثقل بهما .
 والثالث : حبيبتان إلى الرحمن ، وهذا أعظم الثوابين ، أن الله تعالى يحبهما وإذا أحب الله العمل أحب العامل به ، فهاتان الكلمتان من أسباب محبة الله للعبد . ما معنى سبحان الله وبحمده ؟ المعنى : أنك تنزه الله تعالى عن كل عيب ونقص ، وأنه الكامل من كل وجه جل وعلا ، مقرونًا بهذا التسييح بالحمد الدال على كمال إفضاله وإحسانه إلى خلقه جل وعلا وتما حكمة وعلمه ، وغير ذلك من كمالاته « سبحان الله العظيم » يعني : ذي العظمة والجلال فلا شيء أعظم من الله سلطانًا ، ولا أعظم قدرًا ، ولا أعظم حكمة ، ولا أعظم علمًا ؛ فهو عظيم بذاته وعظيم بصفاته جل وعلا ، « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » فيا عبد الله أديم هاتين الكلمتين ، قلهما دائمًا ؛ لأنهما ثقيلتان في الميزان ، وحبيبتان إلى الرحمن ، وهما لا يضران في شيء ؛ خفيفتان على اللسان : « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » فينبغي للإنسان أن يقولهما ويكثر منهما .

ثم ذكر الحديث الثاني : عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » يعني : أحب عليّ من

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٨٢) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣١) والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧) وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦) . قوله « سبحان الله » أي تنزه عما لا يليق به سبحانه وتعالى من الشريك والولد والصاحبة والنقائص مطلقًا .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣٢) والترمذي في الدعوات (٣٥٩٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٨) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٢) .

كل الدنيا . وهي أيضًا كلمات خفيفة : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » الناس الآن يسافرون ويقطعون الفيافي والصحاري والمهاالك والمفاوز من أجل أن يربحوا شيئًا قليلًا من الدنيا قد يتمتعون به وقد يحرمون إياه ، وهذه الأعمال العظيمة يتعاجز الإنسان عنها ؛ لأن الشيطان يكسله ويخذله ويثبطه عنها ، وإلا فهي كما قال الرسول ﷺ : « أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » وإذا فرضنا أن عندك ملك الدنيا كلها ، كل الدنيا عندك ملكها ما طلعت عليه الشمس وغربت ، ثم مت ، ماذا تستفيد ؟ لا تستفيد شيئًا ، لكن « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » هي الباقيات الصالحات ، قال الله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] فينبغي لنا أن نغتني الفرصة بهذه الأعمال الصالحة .

أما الحديث الثالث : فهو « من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » . حصل له هذه الفضائل الخمسة .

[أولاً] : كان كمن أعتق عشر رقاب ، [وثانيًا] : كتبت له مائة حسنة ، [وثالثًا] وحُطَّت عنه مائة خطيئة ، [ورابعًا] وكانت له حرزًا من الشيطان ، [خامسًا] ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا من عمل أكثر مما عمل .

خمس فضائل ، إذا قلت : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » وهذه مائة مرة ، وهذه سهلة ، يمكن وأنت تنتظر صلاة الفجر بعد أن تأتي للمسجد تقولها ، أو بعد طلوع الفجر تقولها تنتفع بها . وهذا أيضًا من الأمور التي ينبغي للإنسان أن يداوم عليها ، وينبغي أن يقولها في أول النهار ؛ لتكون حرزًا له من الشيطان .

أما سبحان الله وبحمده : فمن قالها مائة مرة ؛ حطت عنه خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر ، وهذه سبحان الله وبحمده تقولها في آخر النهار لأجل أن تحط عنك خطايا النهار . فانتهاز الفرصة يا أخي ، انتهاز الفرصة فالعمر يمضي ولا يرجع مما مضى من عمرك ، فلن يرجع إليك وهذه الأعمال أعمال خفيفة مفيدة ثوابها جزيل وعملها قليل . نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

١٤١١ - وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ » ^(١) متفق عليه .

١٤١٢ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ ؟ إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ » ^(٢) رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣٠) واللفظ له ، والبخاري في الدعوات بنحوه (٦٤٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٨٥) .

١٤١٣ - وعن أبي مالك الأشعرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطَّهْرُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » ^(١) رواه مسلم .

١٤١٤ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء أغرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : علّمني كلاماً أقوله . قال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم » قال : فهؤلاء لرّبي ، فما لي ؟ قال : « قل : اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وارزقني » ^(٢) رواه مسلم .

١٤١٥ - وعن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ، وقال : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » قيل للأوزاعي - وهو أخذ رواة الحديث - : كيف الاستغفار ؟ قال : تقول : أستغفر الله ، أستغفر الله ^(٣) . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمته الله وقد سبق لنا شيء من هذه الأحاديث ، فمنها - أي : من الأحاديث التي ساقها - أن « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات » كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل ؛ يعني كان كالذي أعتق أربع رقاب من أشرف الناس نسباً وهم بنو إسماعيل ؛ لأن أشرف الناس نسباً هم العرب ، وهم بنو إسماعيل ، وأما العجم فلمهم آباء آخرون ، ولكن ذرية إسماعيل هم العرب ، فمن قال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » عشر مرات ، كان كمن أعتق أربعة أنفس ، وهذا دليل على فضل هذا الذكر .

وكذلك أيضاً قال النبي ﷺ : « أحب الكلام إلى الله سبحانه الله وبحمده » وقد سبق أن النبي ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

وكذلك حديث ثوبان : لكنه ذكر مقيداً ، أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته قال : « أستغفر الله » يعني : استغفر ثلاثاً ، قال : أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله ، « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » وإنما يستغفر الإنسان إذا فرغ من صلاته من أجل ما يكون فيها

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (١) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٢/٥) والدارمي في السنن (١٦٧/١) . قوله « شطر الإيمان » أي نصف الإيمان .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣٣) وأحمد في مسنده (١٨٠/١) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٥) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٥) والنسائي في السنن (٦٩/٣) . قوله « تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أي : تعاليت يا ذا العظمة والمكرمة .

من خلل ونقص ويقول : « اللهم أنت السلام » يعني : اللهم إني أتوسل إليك بهذا الاسم الكريم من أسمائك أن تسلم لي صلاتي حتى تكون تكفرة للسيئات ورفعة للدرجات . والله الموفق .

* * *

١٤١٦ - وعن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قرع من الصلاة وسلم قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ^(١) متفق عليه .

١٤١٧ - وعن عبد الله بن الزبير (رضي الله تعالى عنهما) أنه كان يقول دبر كل صلاة ، حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن . لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . قال ابن الزبير : وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة مكتوبة ^(٢) . رواه مسلم .

الشرح

هذان الحديثان في بيان الأذكار المقيدة ؛ لأن الأذكار تنقسم إلى قسمين ، مطلقة ومقيدة ، منها ما هو مقيد بالوضوء ، ومنها ما هو مقيد بالصلاة ، فهذان الحديثان مقيدان بالصلاة ، حديث المغيرة بن شعبه ، وحديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه .

أما حديث المغيرة : فقد أخبر ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول إذا سلم من صلاته : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » ومعنى لا إله إلا الله : يعني : لا معبود بحق إلا الله ، فلا معبود في الكائنات يستحق أن يعبد إلا الله ﷻ ، أما الأصنام التي تعبد من دون الله فليست مستحقة للعبادة ، حتى وإن سماها عابدها آلهة ؛ فإنها ليست آلهة ، بل هي كما قال الله تعالى : ﴿ مَا تَقْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف : ٤٠] فالعبود حقاً هو الله ﷻ .

وقوله : « وحده لا شريك له » هذا من باب التأكيد ، تأكيد وحدانيته جل وعلا ، وأنه لا مشارك له في ألوهيته « له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » له الملك المطلق العام الشامل الواسع ، ملك السماوات والأرض وما بينهما ، ملك الآدميين والحيوانات والأشجار والبحار والأنهار والملائكة

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٤) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٧) وأبو داود في الصلاة (١٥٠٦) والنسائي في السنن (٧٠/٣) . قوله « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أي لا ينفع صاحب الجاه والغنى غناه وسلطانه عندك ؛ إنما ينفعه عنايتك وما قدمه من عمل صالح .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٩) وأبو داود في الصلاة (١٥٠٥) بنحوه . قوله « يهلل بهن » أي يرفع صوته بتلك الكلمات .

والشمس والقمر ، كل هذه ملك لله ﷻ ، ما علمنا وما لم نعلم ، له الملك كله يتصرف فيه كما يشاء وعلى ما تقتضيه حكمته جل وعلا .

« وله الحمد » يعني : الكمال المطلق على كل حال ، فهو جل وعلا محمود على كل حال في السراء وفي الضراء ، أما في السراء : فيحمد الإنسان ربه حمد شكر ، وأما في الضراء : فيحمد الإنسان ربه حمد تفويض ، لأن الشيء الذي يضر الإنسان قد لا يتبين له وجه مصلحته فيه ولكن الله تعالى أعلم ، فيحمد الله تعالى على كل حال ، وكان النبي ﷺ إذا أتاه ما يسره قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ^(١) وإذا أتاه ما لا يسره قال : « الحمد لله على كل حال » ^(٢) .

وأما ما يقوله بعض الناس : الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواء ، فهذه كلمة خاطئة لم ترد ومعناها غير صحيح ، وإنما يقال : الحمد لله على كل حال .

« اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » . هذا أيضًا تفويض إلى الله ﷻ بأنه لا مانع لما أعطى ، فما أعطاك الله لا أحد يمنع ، وما منعت لا أحد يعطيك إياه ، ولهذا قال : ولا معطي لما منعت ، فإذا آمنا بهذا فمن نسأل العطاء ، من الله إذا آمنا بأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، إذا لا نسأل العطاء إلا من الله ﷻ ، ونعلم أنه لو أعطانا فلان شيء فالذي قدر ذلك هو الله ، والذي صيره حتى يعطينا هو الله ، وما هو إلا مجرد سبب ، لكن نحن مأمورون بأن نشكر من صنع إلينا معروفًا ، كما قال النبي ﷺ : « من صنع إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه ، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافئتموه » ^(٣) لكن نعلم أن الذي يسر لنا هذا العطاء وصير لنا هذا المعطي هو الله ﷻ .

« اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » الجَدُ يعني : الحظ والغنى ، يعني الإنسان المحظوظ الذي له حظ ، وعنده مال ، وعنده أولاد ، وعنده زوجات ، وعنده كل ما يشتهي من الدنيا ، فإن هذا لا ينفعه من الله . « لا يمنع ذا الجد منك الجد » الجَدُ فاعل ، يعني : أن الجد هو الحظ والغنى ما يمنع من الله ﷻ ؛ لأن الله تعالى له ملك السماوات والأرض وكم من إنسان تراه مسرورًا في أهله وعنده المال والبنون وجميع ما يناله من الدنيا ولا ينفعه شيء من الله ، يصاب بمرض ولا يقدر أن يرفعه عنه إلا الله ﷻ ، يصاب به غم وهم وقلق لا ينفعه إلا الله ﷻ .

وهذا كله في التفويض إلى الله . إذا ينبغي لنا إذا سلم الإنسان واستغفر ثلاثًا ، وقال : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أن يذكر الله تعالى بهذا الذكر .

والترتيب بين الأذكار ليس بواجب ، يعني : لو قدمت بعضها على بعض فلا بأس ، لكن الأفضل أن تبدأ بالاستغفار ثلاثًا ، و « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » ثم تذكر الله تعالى بالأذكار الواردة ، وسيأتي الكلام إن شاء الله عن حديث عبد الله بن الزبير .

(١ ، ٢) سبق تخريجهما .

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٠١/١) .

١٤١٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ؛ يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من أموال ؛ يحجون ، ويعتمرئون ، ويجهدون ، ويتصدقون . فقال : « ألا أعلمكم شيئا تذكرون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « تسبحون ، وتحمدون ، وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين » قال أبو صالح الراوي : عن أبي هريرة ، لما سئل عن كيفية ذكره ، قال : يقول : سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، حتى يكون منهن كلهن ثلاثا وثلاثين . متفق عليه .

وزاد مسلم في روايته : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » ^(١) . « الدثور » جمع دثر - بفتح الدال وإسكان الناء المثناة - وهو المال الكثير .

١٤١٩ - وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ؛ غفرت خطيأته وإن كانت مثل زبد البحر » ^(٢) رواه مسلم .

١٤٢٠ - وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « معقبات لا يخيب قائلهن - أو فاعلهن - دبر كل صلاة مكتوبة : ثلاث وثلاثون تسبيحة ، وثلاث وثلاثون تحميدة ، وأربع وثلاثون تكبيرة » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه من الأحاديث الدالة على فضيلة الذكر المخصوص المقيد بعمل ، وقد سبق لنا أن الأذكار منها مطلق ومقيد ، وهذا منها ، حديث أبي هريرة : أن فقراء المهاجرين جاءوا يشتكون إلى النبي ﷺ يقولون : إن أهل الأموال سبقونا ، إنهم يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من الأموال ، يعني : زيادة يتصدقون بها ويحجون ويعتمرئون ويجهدون ، فدلهم النبي ﷺ على أمر ، قال : « ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه لم يزدكم من لحقكم وتسبقون به من بعدكم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاث وثلاثين » ، يعني تقولون :

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٢) . قوله « بالدرجات العلى » أي المكانة العالية عند الله ، قوله « المقيم » أي الدائم ، قوله « دبر كل صلاة » أي بعد نهاية كل صلاة .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٦) والإمام أحمد في المسند (٤٨٣/٢) بنحوه ، والبيهقي في السنن (١٨٧/٢) . قوله « زبد البحر » هو ما يعلو على وجهه عند هيجانه وتوجهه .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٤) والدارمي في السنن (٤٠٦/٢) والبيهقي في السنن (١٨٧/٢) . قوله « معقبات » أي تسبيحات يعقب بعضها بعضا .

سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ثلاثاً وثلاثين مرة ، فهذه تسع وتسعون ، ثم إنهم فعلوا ذلك ، ولكن سمع الأغنياء بهذا ففعلوا مثله ، فتساووا معهم في هذا الذكر ، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما صنعنا فصنعوا مثله ، وكأنهم يريدون شيء آخر يختصون به ، فقال : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . ففي هذا الحديث من الفوائد : أولاً : حرص الصحابة رضي الله عنهم على التسابق إلى الخير وأن كل واحد منهم يحب أن يسبق غيره . ومن فوائد هذا الحديث : أن هذا الذكر : « سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ثلاث وثلاثين » مشروع خلف الصلوات ، وقد ورد في حديث آخر أنه تكمل المائة بقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » (١) .

وهذه صفة من صفات الذكر بعد الصلاة . ومن صفات الذكر بعد الصلاة أن تقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، خمسين وعشرين فيكون الجميع مائة ، ومن صفاته أيضاً أن تقول : سبحان الله ثلاثاً وثلاثين ، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين ، والله أكبر أربعاً وثلاثين ، فهذه مائة . ومن صفاته أن تقول : سبحان الله عشر مرات ، والحمد لله عشر مرات ، والله أكبر عشر مرات ، تفعل هذا مرة وهذا مرة ؛ لأن الكل ثبت عن النبي ﷺ .

ومن فوائد الحديث : سعة صدر النبي ﷺ على المراجعة والمناقشة ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يريد الحق أينما كان ، والحق معه لكن يطيب قلوب الناس ويبين لهم .

ومنها من فوائد الحديث : أن الله ﷻ إذا مرَّ على أحد بفضل فإنما هو فضله يؤتيه من يشاء ، ولا يجور بهذا الفضل على أحد ، فإذا أغنى هذا وأفقر هذا ؛ فهو فضله يؤتيه من يشاء . وليس هذا بجور ؛ بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء ، وكذلك أيضاً من رزقه الله علماً ولم يرزق الآخر ، فهذا من فضله ، فالفضل بيد الله ﷻ يؤتيه من يشاء .

ومن فوائد هذا الحديث أيضاً : أن الأغنياء من الصحابة كالفقراء حريصون على فعل الخير والتسابق فيه ، ولهذا صنعوا مثل ما صنع الفقراء ، فصاروا يسبحون ويحمدون ويكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين . والله الموفق .

١٤٢١ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتعوذُ دُبُرَ الصَّلَاةِ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَبَنِ وَالْبَخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ » (٢) رواه البخاري .

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٧٠) والنسائي في السنن (٢٦٧/١) والترمذي في الدعوات (٣٥٦٧) . قوله « أعوذ بك » أي أعتصم بك وألتجئ ، قوله « فتنة الدنيا » أي أن أبلى بالغنى أو الفقر الذي يشغله عن الله تعالى ، =

١٤٢٢ - وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيديه وقال : « يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ » فقال : « أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعُنْ فِي ذُبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ ، وَشُكْرِكَ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ » ^(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

هذه من الأذكار التي تقال دبر الصلاة ، فالحديث الأول : عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه الكلمات دبر كل صلاة : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَبَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعَمْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ » . وكذلك حديث معاذ بن جبل : أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة : « اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ » وعلى « شُكْرِكَ » وعلى « حُسْنِ عِبَادَتِكَ » . فكلمة « دبر » القاعدة فيها أنه إذا كان المذكور أذكراً ؛ فإنه يكون بعد السلام ، وإذا كان المذكور دعاء ؛ فإنه يكون قبل السلام ؛ لأن ما قبل السلام وبعد التشهد هو دبر الصلاة ، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : دبر الشيء من الشيء ، كما يقال دبر الحيوان لمؤخره ، وعلى هذا فيكون حديث سعد بن أبي وقاص ، وحديث معاذ بن جبل يكون هذا الدعاء قبل أن تسلم ، إذا انتهيت من التشهد ومن قولك : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، و من عذاب القبر ، و من فِتْنَةِ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ و من فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ، تقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَخْلِ وَالْجَبَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعَمْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ » . هذه خمسة أشياء تستعيز بالله منها : الأول : البخل وهو : الشح بالمال .

الثاني : الجبن وهو : الشح بالنفس . فالبخل : أن يمنع الإنسان ما يجب عليه بذله من ماله من زكاة أو نفقات أو إكرام ضيف أو غير ذلك ، وأما الجبن : فأن يشح الإنسان بنفسه ، لا يقدم في جهاد يخشى أن يقتل ، ولا يتكلم بكلام حق يخشى أن يسجن ، وما أشبه ذلك ، فهذا جبن . وأما « أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعَمْرِ » : « أَرْدَلُ » يعني أرداه وأنقصه ، وذلك على وجهين : الوجه الأول : أن يحدث للإنسان حادث فيختل به عقله فيهذي ، فيرد إلى أَرْدَلِ الْعَمْرِ ويصير كالصبي ، كما يوجد هذا في الحوادث ، يوجد أحد يصاب بحادث فيختل مخه ثم يكون كالصغير ، أو أن يكون ذلك عن كبر ، وهو الوجه الثاني ؛ لأن الإنسان كلما كبر إذا استوى وبلغ أربعين سنة بدأ يأخذ في النقص ولكن الناس يختلفون ، أحد ينقص كثيراً ، وأحد ينقص قليلاً قليلاً . لكنه لا بد أن ينقص إذا بلغ الأربعين فقد استوى وكمل ، والشيء إذا استوى وكمل أخذ في النقص . فمن الناس من يرد إلى أَرْدَلِ الْعَمْرِ في قواه الحسية وقواه العقلية ، فيضعف بدنه ويحتاج إلى من

= قوله « فِتْنَةِ الْقَبْرِ » هي سؤال الملكين .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٢٢) والنسائي في السنن (٥٣/٣) وأحمد في مسنده (٢٢٤/٥) .

يحمله ويوضئه ويوجهه وما أشبه ذلك ، أو العقلية بأن يهذي ولا يدري ما يقول ، فالرد إلى أرذل العمر يشمل هذا وهذا ، ما كان بحادث وما كان بسبب تقادم السن به . ثم إن الإنسان إذا وصل إلى هذه الحال ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منها ، فإن أهله يملونه ، أهله الذين هم أشق الناس به يتعبون منه ويملونه ، وربما يتركونه في مكان تتكفل به الحكومة مثلاً ، وهذا لا شك أن الإنسان لا يرضاه ولا يرضى لنفسه أن يصل إلى هذا الحد ، وتسقط أيضاً عنه الصلاة ويسقط عنه الصوم ، وتسقط عنه الواجبات ؛ لأنه وصل إلى حد يرتفع عنه التكليف .

« وأعوذ بك من فتنه الدنيا » وما أعظم فتنه الدنيا وما أكثر المفتونين في الدنيا لا سيما في عصرنا هذا ، وعصرنا هذا هو عصر الفتنة ، كما قال النبي ﷺ : « واللّٰهُ ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتتافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » ^(١) . وهذا هو الواقع في الوقت الحاضر ، فتحت علينا الدنيا من كل جانب ، من كل شيء من كل وجه ، منازل كقصور الملوك ، ومراكب كمراكب الملوك ، وملابس ومطاعم ومشارب ، فتحت فصار الناس الآن ليس لهم همّ إلا البطون والفروج . فتنوا بالدنيا ، نسأل الله العافية .

فتنة الدنيا عظيمة ، يجب على الإنسان أن ينتبه لها ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغَرِّبُكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يُغَرِّبُكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ ^(٢) ﴾ [نساء : ٢٣] « وأعوذ بك من فتنه القبر ، أو من عذاب القبر » وفتنة القبر أيضاً فتنة عظيمة ، إذا دفن الميت وانصرف عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم منصرفين عنه ، أنه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، إن كان مؤمناً خالصاً أجاب بالصواب ، وقال : ربي الله ، ونبيي محمد ، وديني الإسلام . وإن كان مرابطاً أو منافقاً أعاذنا الله وإياكم من ذلك ، قال : ها ها لا أدري ، ها ها لا أدري ، فيضرب بمرزبة من حديد ، المرزبة من الحديد قالوا مثل المطرقة ، وقد ورد في بعض الأحاديث أنه لو اجتمع عليها أهل متى ما أقلوها ، من عظمتها ^(٣) ، نسأل الله العافية ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء ، يسمعها كل شيء إلا الثقلين يعني الإنس والجن ، وهذه من رحمة الله أن الله تعالى لا يسمعنا عذاب القبر ؛ لأننا إذا سمعنا الناس يعذبون في قبورهم ما طاب لنا عيش ولتكدنا ، إن كان قريباً لنا تنكدنا من وجهين : من قرابته ، ومن هذه الأصوات المزعجة ، وإن كان غير قريب أيضاً انزعجنا منه ، ففتنة القبر فتنة عظيمة ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منها . هذه أشياء كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه ، خمسة أشياء : « اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنه الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، أو من فتنه القبر » .

أما حديث معاذ : فإن النبي ﷺ قال له : إني أحبك وأقسم قال : « واللّٰهُ إني لأحبك » ، وهذه

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥) ومسلم في الزهد (٦) والترمذي في السنن (٢٤٦٢) وأحمد في مسنده (١٣٧/٤) .

(٢) قوله : ﴿ الْفَرُودُ ﴾ هو كل ما يغتر الإنسان ويخدعه من نحو مال وجاه وشهوة وشيطان وهو أحبث الغارين .

(٣) انظر ذلك في أبو داود في السنن (٤٧٥١) وأحمد في مسنده (٢٩٦/٤) .

مرتبة عظيمة لمعاذ بن جبل رضي الله عنه أن نبينا ﷺ أقسم أنه يحبه ، والمحبة لا يدخر لحبيبه إلا ما هو خير له ، وإنما قال هذا له لأجل أن يكون مستعداً لما يلقي إليه ؛ لأنه يلقيه إليه من محبة ، ثم قال له : « لا تدعن أن تقول دبر كل صلاة مكتوبة : اللهم أعني على ذكرك » وعلى « شكرك » وعلى « حسن عبادتك » و « دبر كل صلاة » يعني في آخر الصلاة قبل السلام ، هكذا جاء في بعض الروايات أنه يقولها قبل السلام ، وهو حق ، وكما ذكرنا أن المقيد بالدبر ، أي : دبر الصلاة إن كان دعاء فهو قبل التسليم ، وإن كان ذكرًا فهو بعد التسليم ، ويدل لهذه القاعدة أن رسول الله ﷺ قال في حديث ابن مسعود في التشهد لما ذكره ، قال : ثم ليتخير من الدعاء ما شاء أو ما أحب أو أعجبه إليه ، أما الذكر فقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فَيُنَمَّا وَفَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء ١٠٣] . « أعني على ذكرك » يعني كل قول يقرب إلى الله ، كل شيء يقرب إلى الله ، كل تفكير يقرب إلى الله ؛ فهو من ذكر الله ، « وشكرك » أي : شكر النعم واندفاع النقم ، فكم من نعمة لله علينا ، وكم من نقمة اندفعت عنا ، فنشكر الله على ذلك ، ونسأل الله أن يعيننا عليه وعلى « حسن عبادتك » وحسن العبادة يكون بأمرين : بالإخلاص لله ﷻ ، كل ما قوي الإخلاص كان أحسن ، وبالمتابعة لرسول الله ﷺ ، والله الموفق .

١٤٢٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا تشهّد أحدكم ؛ فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » ^(١) . رواه مسلم .

١٤٢٤ - وعن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهّد والتسليم : « اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أشرت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدّم ، وأنت المؤخّر ، لا إله إلا أنت » ^(٢) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله هذين الحديثين فيما يتعوذ به ويذكر الله به في الصلوات ، ففي الأول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع » وفي لفظ : التشهد الأخير ، يقول : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » هذه أربعة أمور أمر النبي ﷺ أن نستعذ بالله منها إذا فرغنا من التشهد يعني قبل التسليم : « أعوذ بالله من عذاب جهنم » وهي النار ، فتتعوذ بالله من عذابها ، وهذا يشمل

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٠) والإمام أحمد في مسنده (٤٤٧/٢) والبيهقي في السنن (١٥٤/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠) وأحمد في مسنده (٩٤/١ ، ٩٥) والترمذي في الدعوات

(٣٤٢١) والبيهقي في السنن (١٨٥/٢) .

ما عملت من سوء تسأل الله أن يعفو عنك منه ، وما لم تعمل من سوء تسأل الله أن يجنيبك إياه « ومن عذاب القبر » لأن القبر فيه عذاب ، عذاب دائم للكافرين ، وعذاب قد ينقطع للعاصين ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » ^(١) « ومن فتنة الحيا والممات » فتنة الحيا : ما يفتن به الإنسان في حياته وتدور على شيئين ، إما جهل وشبهة وعدم معرفة بالحق ، فيشتبه عليه الحق بالباطل فيقع في الباطل فيهلك . وإما شهوة أي : هوى ، بحيث يعلم الإنسان الحق لكنه لا يريده وإنما يريد الباطل . وأما فتنة الممات : فقيل : إنها فتنة القبر وهي سؤال الملكين للإنسان إذا دفن عن ربه ودينه ونبيه ، وقيل : فتنة الممات هي ما يكون عند موت الإنسان ، وذلك أن أشد ما يكون الشيطان حرصاً على إغواء بني آدم عند موتهم . يأتي الإنسان عند موته ويوسوس له ويشككه ، وربما يأمره بأن يكفر بالله ﷻ . فهذه الفتنة من أعظم الفتن . وأما فتنة المسيح الدجال : فالمسيح الدجال هو من يبعثه الله ﷻ عند قيام الساعة . رجل خبيث كاذب ، مكتوب بين عينيه : كافر يقرؤه المؤمن الكاتب وغير الكاتب ، ويفتن الله تعالى الناس به ؛ لأنه يمكن له في الأرض بعض الشيء ، يبقى في الأرض أربعين يوماً ، اليوم الأول طوله طول السنة الكاملة ، والثاني طول الشهر والثالث طوله أسبوع ، والرابع كسائر الأيام . يدعو الناس إلى أن يكفروا بالله ، وأن يشركوا به ، يقول : أنا ربكم ، ومعه جنة ونار ، لكنها جنة فيما يرى الناس ، ونار فيما يرى الناس ، وإلا فحقيقة جنته أنها نار ، وحقيقة ناره أنها جنة ^(٢) ، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ فيغتر الناس به ويفتن به ما شاء الله أن يفتن ، وفتنته عظيمة ؛ فإن النبي ﷺ قال : « ما في الدنيا فتنة أعظم من خلق آدم إلى قيام الساعة مثل فتنة المسيح الدجال ، وما من نبي إلا وأنذر به قومه » ^(٣) ولهذا خصه من بين فتنة الحيا بأن فتنته عظيمة . نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منها ، وهذه الأربع يذكرها الإنسان قبل أن يسلم ، واختلف العلماء رحمهم الله ، هل هذا واجب أو سنة ، فأكثر العلماء على أنه سنة وأن الإنسان لو تركه لم تبطل صلاته ، وقال بعض أهل العلم : إنه واجب ، إنه يجب على الإنسان أن يستعيذ بالله من هذه الأربع قبل أن يسلم ، وأنه لو ترك ذلك فصلاته باطلة وعليه أن يعيذها . وقد أمر طاووس وهو أحد كبار التابعين ابنه حين لم يقرأ هذه التعويذات الأربع أمره أن يعيد صلاته ^(٤) . فينبغي للإنسان ألا يدعها ، أن يحرص عليها لما فيها من الخير الكثير ، ولئلا يؤدي بصلاته إلى أنها تكون باطلة عند بعض أهل العلم . والله الموفق .

* * *

- (١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦١) والترمذي في السنن (٧٠) والنسائي في السنن (١٠٦/٤) .
- (٢) انظر في ذلك البخاري في الحج (١٥٥٥) ومسلم في الإيمان (٢٧٠) وأحمد في مسنده (١١٥/٣) .
- (٣) انظر نص الحديث كما أورده البخاري في الانبياء (٣) والمغازي (٤٤٢) والفتن (٢٦) ومسلم في الفتن (٩٥ ، ١٠١) .
- (٤) ذهب الفقهاء إلى أن الدعاء بالمأثور جائز في الصلاة واستدلوا بهذا الحديث وغيره أما إذا كان الدعاء بغير المأثور ؛ فإن الخفية وبعض الحنابلة ذهبوا إلى عدم جواز ذلك وأنه مفسد للصلاة ؛ لأنه من كلام الآدميين ، والمشتراط أن يكون بألفاظ تشبه ألفاظ القرآن فمثلاً لو قال : اللهم اغفر لأخي ولزيد ؛ تفسد صلاته ، وذهبت الشافعية والحنابلة في المعتمد =

١٤٢٥ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » ^(١) متفق عليه .

١٤٢٦ - وعنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : «سُبُوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ » ^(٢) رواه مسلم .

١٤٢٧ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « فَأَمَّا الرُّكُوعُ ؛ فَعُظُمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَمَّا السُّجُودُ ؛ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ ، فَقَمِينَ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه أذكار في أحوال معينة ، فمنها ما نقله المؤلف رحمته الله عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَكثُرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » وهذا بعد أن أنزل الله عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّكَ تَوَّابٌ ۝ ﴾ [النصر : ١ : ٣] وهذه السورة هي أجلُّ رسول الله ﷺ فَإِنَّ اللَّهَ نَعَاهُ إِلَى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَقَدْ قَرَّبَ أَجَلَهُ ، كما فهم ذلك ابن عباس رضي الله عنه ، فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه كَانَ صَغِيرَ السِّنِّ ، وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه يَحْضُرُهُ مَعَ مَجَالِسِ الرِّجَالِ وَكِبَارِ الْقَوْمِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لِمَاذَا يَحْضُرُ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَيَتْرِكُ أَبْنَاءَهُ ؟ فَأَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ لَهُمْ رضي الله عنه فَضْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ لَهُمْ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ : مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّكَ تَوَّابٌ ۝ ﴾ مَا مَغْزَى هَذِهِ السُّورَةِ ؟ قَالُوا : مَعْنَاهَا أَنَّهُ إِذَا جَاءَ الْفَتْحُ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، فَقَالَ : مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ؟ قَالَ : أَقُولُ هَذَا أَجَلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ اللَّهُ أُعْطَاهُ عِلَامَةً وَهِيَ الْفَتْحُ وَالنَّصْرُ إِذَا جَاءَتْ فَقَدْ قَرَّبَ أَجَلَهُ . فَقَالَ : مَا فَهِمْتَ مِنْهَا إِلَّا مَا فَهِمْتُ ^(٤) . فَالْحَاصِلُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَسْبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ وَيَسْتَغْفِرَهُ ، وَكَانَ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ ،

= من مذهبهم إلى جواز الدعاء في الصلاة بغير المأثور والمأثور ، وإلى جواز الدعاء في الصلاة كيفما كان ما دام في غير معصية . وعلى هذا فإن ترك الدعاء بهذه الألفاظ أو غيرها لا يفسد الصلاة ، وقد قال الإمام النووي : وظاهر كلام طاووس رضي الله عنه أَنَّهُ أَنَّهُ حَمَلَ الْأَمْرَ عَلَى الْوُجُوبِ ، فَأَوْجَبَ إِعَادَةَ الصَّلَاةِ لِقَوَاتِهِ ، وَجَمُوهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَحَبٌّ . وَلَعَلَّ طَاوُوسًا أَرَادَ تَأْدِيبَ ابْنِهِ وَتَأْكِيدَ هَذَا الدُّعَاءِ عِنْدَهُ ، لَا أَنَّهُ يَعْتَقِدُ وَجُوبَهُ (صحيح مسلم بشرح النووي (٨٩/٥) . وانظر المغني (٥٩٨/١) مغني المحتاج (١٧٦/١) فقه الكتاب والسنة (٥٦٠/١ ، ٥٦١) .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧١٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧) وأحمد في مسنده (٣٩٢/١ ، ٣٩٤) والبيهقي في السنن (١٠٩/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٣) وأحمد في مسنده (٣٥/٦ ، ٩٤) والنسائي في السنن (١٩١/٢) قوله «سبح» أي المبرأ من النقائص والشريك وكل ما لا يليق بالإلهية . قوله «قدوس» هو المطهر من كل ما لا يليق .
(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) . قوله «عظّموا فيه الرب» أي بذكر الثناء عليه والمبالغة في التنزيه والتقديس .
(٤) انظر الحديث بنصه في : البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٠) .

يكثُر أن يقول في ركوعه وهو كذلك في سجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » ومعنى هذا : أنك تتني على الله ﷻ بكمال صفاته وانتفاء صفات النقص عنه وتساله المغفرة .

أما حديثها الثاني : فكان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : « سبح قدوس رب الملائكة والروح » يعني : أنت سبح قدوس ، وهذه مبالغة في التنزيه ، وأنه جل وعلا سبح قدوس رب الملائكة وهم جند الله ﷻ عالم لا نشاهدهم ، وأما الروح فهو جبريل (١) وهو أفضل الملائكة . فينبغي للإنسان أن يكثُر في ركوعه وسجوده من قوله : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » تأسيساً برسول الله ﷺ وأن يقول كذلك في ركوعه وسجوده : « سبح قدوس رب الملائكة والروح » .

أما حديث ابن عباس (رضي الله عنه) : فقال : « أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء » . وهذا طرف من حديث أوله : « ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء ، فَمَنْ أن يستجاب لكم » (٢) أي حري أن يستجاب لكم ، لأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . والركوع لا يجوز لأحد أن يقرأ القرآن وهو راكع ولا يجوز أن يقرأ القرآن وهو ساجد . لكن له أن يدعو بالدعاء الذي يوافق القرآن مثل أن يقول مثلاً : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، لكن أما أن يقرأ القرآن فإنه حرام عليه أن يقرأ وهو راكع أو يقرأ وهو ساجد ، الركوع له التعظيم يعظم ربه ، سبحان ربي العظيم ، سبحان الملك القدوس وما أشبه ذلك . السجود يقول : سبحان ربي الأعلى ، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، ويدعو ، ويكثُر من الدعاء ، فَمَنْ أن يستجاب له أي حري أن يستجاب له . وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه

١٤٢٨ - وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ » (٣) رواه مسلم .

١٤٢٩ - وعنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في سُجُودِهِ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ : دِقَّةً وَجِلَّةً ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ » (٤) رواه مسلم .

الشرح

هذان الحديثان في بيان دعاء وأذكار مخصوصة ذكرها المؤلف (رحمته الله) في باب فضل الدعاء ، فمنها

- (١) ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ .
- (٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) والنسائي في السنن (١٨٩/٢ ، ١٩٠) والبيهقي في السنن (٨٨/٢) .
- (٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) وأبو داود في الصلاة (٧٨٥) .
- (٤) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٦) والبيهقي في السنن (١١٠/٢) . قوله « دِقَّةً وَجِلَّةً » أي صغيره وكبيره . وقال النووي : هي القليل والكثير .

حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ؛ وذلك لأن الإنسان إذا سجد فإنه يضع أشرف ما به من الأعضاء في أماكن وضع الأقدام التي توطأ بالأقدام ، وكذلك أيضًا يضع أعلى ما في جسده حذاء أدنى ما في جسده ؛ يعني أن وجهه أعلى ما في جسده وقدميه أدنى ما في جسده فيضعهما في مستوى واحد تواضعًا لله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام ، ولهذا كان أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، وقد أمر النبي ﷺ فيما سبق بالإكثار من الدعاء في حال السجود فيجتمع في ذلك الهيئة والمقال تواضعًا لله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام ، ولهذا يقول الإنسان في سجوده : سبحان ربي الأعلى إشارة إلى أنه جل وعلا هو العلي الأعلى في ذاته وفي صفاته ، وأن الإنسان هو السافل النازل بالنسبة لجلال الله تعالى وعظمته .

أما الحديث الثاني : فهو فيه أن النبي ﷺ كان يقول في صلاته : « اللهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله ، علانيته وسره ، وأوله وآخره » . وهذا من باب التبسط في الدعاء والتوسع فيه ؛ لأن الدعاء عبادة فكل ما كرره الإنسان ازداد عبادة لله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام ، ثم إنه في تكراره هذا يستحضر الذنوب كلها السر والعلانية ، وكذلك ما أخفاه ، وكذلك دقه وجله ، وهذا هو الحكمة في أن النبي ﷺ فصل بعد الإجمال ، فينبغي للإنسان أن يحرص على الأدعية الواردة عن رسول الله ﷺ ؛ لأنها أجمع الدعاء وأنفع الدعاء . وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير والصلاح .

١٤٣٠ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة ، فتَحَسَّستُ ، فإذا هو رَاكِعٌ - أو سَاجِدٌ - يقول : « سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ ، لا إله إلا أَنْتَ » ، وفي رواية : فَوَقَعَتْ يَدَيَّ عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لا أُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » ^(١) رواه مسلم .

١٤٣١ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « أَيْعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ ؟ » فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ : كَيْفَ يَكْسِبُ أَلْفَ حَسَنَةٍ ؟ قَالَ : « يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ ، فَيُكْتُبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ ، أَوْ يُحِطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ » ^(٢) رواه مسلم .

قال الحميدي : كذا هو في كتاب مسلم : « أَوْ يُحِطُّ » قال البرقاني : ورواه شعبه ، وأبو عوانة ، ويحيى القطان ، عن موسى الذي رواه مسلم من جهته فقالوا : « وَيَحِطُّ » بِغَيْرِ أَلْفٍ .

الشرح

هذان الحديثان في بيان الذكر وفضله ، الحديث الأول عن عائشة رضي الله عنها : أنها افتقدت النبي ﷺ

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٢) وأحمد في مسنده (٩٦/١) وأبو داود في الصلاة (١٤٣٣) . قوله « على بطن قدميه » وهو في المسجد ، أي في السجود للصلاة ، أو في الموضع الذي كان يصلي فيه ، قوله « فتَحَسَّستُ » أي بحثت عنه ، قوله « سَخَطُكَ » أي انتقامك ، قوله « مُعَافَاتِكَ » أي عفوك ، قوله « لا أُخْصِي » أي لا أستطيع أن أحصر أو أعدد ، وقيل : لا أحيط .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٧) والإمام أحمد في المسند (١٨٠/١ ، ١٨٥) .

ذات ليلة ، فخرجت تتحسس عنه ؛ لأنها رَضِيَتْ هي أحب نسائه إليه وهي تحبه أيضًا ، فتحشى أن يكون حصل له شيء ، فذهبت تتحسس فوجدته ﷺ في المسجد وهو ساجد يدعو الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء ، قالت : ووقعت يدي ، يدها على بطون قدميه وهو ساجد ، واستدل العلماء بذلك على أن الساجد ينبغي له أن يضم قدميه بغضهما إلى بعض ولا يفرقهما ؛ لأنه لا يمكن أن تقع اليد الواحدة على قدمين متفرقتين ، وكذلك هو أيضًا في صحيح ابن خزيمة أن النبي ﷺ كان يضم رجليه في السجود ^(١) .

أما الركبتان فهما على طبيعتهما لا يفرقهما ولا يضمهما على طبيعتهما . وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك » والمعنى : أنه ﷺ يستعيز بالله ﷻ بالأعمال الصالحة عن الأعمال السيئة ؛ لأن الأعمال السيئة توجب الغضب والسخط ، والأعمال الصالحة توجب الرضا ، والشيء إنما يداوى بضده ، فالسخط ضده الرضا ، فيستعيز بالرضا من السخط ، « وبمعافاتك من عقوبتك » يعني أستعيز بمعافاتك من الذنوب وآثارها وعقوباتها من عقوبتك على الذنوب ، وهذا يتضمن سؤال المغفرة ، وأعوذ بك منك ، وهذا أشمل وأعم ، أنه يتعوذ بالله من الله ﷻ ، وذلك لأنه لا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه ، لا أحد ينجيك من عذاب الله إلا الله ﷻ ، فتستعيز بالله من الله سبحانه وتعالى ، أي : تستعيز به من عقوبته وغير ذلك مما يقدره ، فدل ذلك على ما ذكرنا من انضمام القدمين في السجود ، ودل هذا على أن النبي ﷺ كان يصلي أحيانًا النافلة في المسجد مع أن الأفضل ^(٢) أن تكون في البيت كما قال رسول الله ﷺ : « أفضل صلاة المرء في بيته ، إلا المكتوبة » ^(٣) لكنه عليه الصلاة والسلام أحيانًا يصلي النافلة في المسجد . وفيه أيضًا دليل على محبة عائشة لرسول الله ﷺ ولا غرابة ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام كانت هي أحب نسائه اللاتي عنده ، ولا يساميهما أحد ، اللهم إلا خديجة رضي الله عنها ، فإن خديجة هي أول نسائه ﷺ ولم يتزوج عليها أحد حتى ماتت ، وكان يذكرها دائمًا أي يذكر خديجة ، لكن عائشة رضي الله عنها هي أحب نسائه الموجودات في عهد عائشة .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان يستعيز بصفات الله ﷻ من ضدها بالرضا من السخط ، وبالمعافاة من العقوبة ، وأنه لا ملجأ له من الله إلا إليه ، فيستعيز بالله منه تبارك وتعالى . والله الموفق . سؤال وجوابه : [نعم ، لا يجوز للإنسان وهو ساجد أن يرفع يديه أو إحدى يديه أو رجليه أو إحدى رجليه ، لأن الواجب السجود على الأعضاء السبعة : الجبهة مع الأنف ، والكفين ، والركبتين ، وأصابع القدمين ^(٤) فإن رَفَعَهُمَا حتى قام من السجود فصلاته باطلة ^(٥) ، أما إن رفع ثم نزل بسرعة

(١) انظر صحيح ابن خزيمة (٣٢٨/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٦/٥) والترمذي في الصلاة (٤٥٠) والبيهقي في شرح السنة (١٣١/٤) .
(٣) وذلك مصداقًا لقوله ﷺ الذي أخرجه البخاري في الأذان (٨١٢) ومسلم في الصلاة (٢٣٠) .
(٤) وهذا هو مذهب الحنابلة والشافعية والمالكية والحنفية (انظر المغني (٥١٦/١) وشرح فتح القدير (٣٠٣/١) ومغني المحتاج (١٦٨/١) وأسهل المدارك (٢٠٠ /١) وفقه الكتاب والسنة (٥٠٤/١) .

فأرجو ألا يكون عليه إعادة للصلاة] .

١٤٣٢ - وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سَلَامٍ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ : فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَقْرَبُ بِالْمَغْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ . وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الصُّحَى » ^(١) رواه مسلم .

١٤٣٣ - وعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَصْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ ، فَقَالَ : « مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا ؟ » قَالَتْ : نَعَمْ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ، لَوْ وَزَنْتَ بِمَا قُلْتَ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، عَدَدَ خَلْقِهِ ، وَرِضَا نَفْسِهِ ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ » رواه مسلم .

وفي رواية له : « سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ » .

وفي رواية الترمذي : « أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولُ فِيهَا ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ » ^(٢) .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث التي فيها بيان فضيلة نوع من أنواع الذكر ، وهو ما روته أم المؤمنين جويرية بنت الحارث عن النبي ﷺ أنه خرج من عندها الفجر ثم رجع إليها ضحى ، وهي تسبح وتهلل فبين لها ﷺ أنه قال بعدها كلمات تزن ما قالت منذ الفجر أو منذ الصبح : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه » ثلاث مرات ، « سبحان الله وبحمده رضا نفسه » ثلاث مرات ، « سبحان الله وبحمده زنة عرشه » ثلاث مرات ، « سبحان الله وبحمده مداد كلماته » ثلاث مرات .

أما « سبحان الله وبحمده عدد خلقه » : فمعناه أنك تسبح الله ﷻ وتحمده عدد مخلوقاته ، ومخلوقات الله ﷻ لا يحصيها إلا الله كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [القدر: ٣١] .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الصلاة (٨٤) وأبو داود في الصلاة (١٢٨٩) والبيهقي في السنن (٤٧/٣) . قوله « سلامي » أي عضو ، قوله « تسبيحة » هو قولك : سبحان الله ، قوله « تحميدة » هو قولك : الحمد لله ، قوله « تهليلة » هو قولك : لا إله إلا الله ، قوله « ويجزئ » أي ينوب عن ذلك . (٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٩) وأحمد في مسنده (٤٣٠/٦) والترمذي في السنن (٣٥٥٥) . قوله « في مسجدها » أي موضع صلاتها ، قوله « مداد كلماته » أي مثل عدد كلماته .

وأما « سبحان الله وبحمده زنة عرشه » وزنة عرشه لا يعلم ثقلها إلا الله سبحانه وتعالى ؛ لأن العرش أكبر المخلوقات التي نعلمها ، فإن النبي ﷺ يروى عنه أنه قال : « إن السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة » (١) إذاً فهو مخلوق عظيم لا يعلم قدره إلا الله ﷻ .

وأما « سبحان الله وبحمده رضا نفسه » فيعني : أنك تسبح الله وتحمده حمداً يرضى به الله ﷻ ، وأي حميد يرضى به الله إلا وهو أفضل الحمد وأكملهُ .

وأما « سبحان الله وبحمده مداد كلماته » والمداد ما يكتب به الشيء وكلمات الله تعالى لا يقارن بها شيء قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحَرٍ مَا نَفَذَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٣٧] (٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُنَّتِ رَقًى لِنَفْسِ الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ نَفْذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] فكللمات الله تعالى لا نهاية لها ، فالهمم أنه ينبغي لنا أن نحافظ على هذا الذكر .

سبحان الله وبحمده عدد خلقه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده رضا نفسه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده زنة عرشه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده مداد كلماته (ثلاث مرات) فيكون الجميع (١٢) مرة .

* * *

١٤٣٤ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُهُ ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ » رواه البخاري .

ورواه مسلم فقال : « مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ ؛ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ » (٣) .

١٤٣٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ » (٤) متفق عليه .

١٤٣٦ - وعنه : قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَبَقَ الْمَفْرُودُونَ » قالوا : وَمَا الْمَفْرُودُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ » (٥) رواه مسلم .

(١) ذكره ابن الجوزي برواية ابن عباس في زاد المسير (٣٠٤/١) وفي إسناده مقال ، وهو عند ابن عساكر في تاريخه (٣٥٦/٦) .
(٢) قوله : ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ أي لو أن أشجار الأرض كلها أقلام والبحر يمد بعد نفاذه سبعة أبحر أخرى وكتبت بتلك الأقلام ما نفيت كلمات الله . (٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٧) ومسلم في صلاة المسافرين (٢١١) .
(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٢) وأحمد في مسنده (٢١٠/٣ ، ٢٧٧) .
قوله « عند ظن عبدي » أي عند يقينه بي في الاعتماد على الاستيثاق بوعدي . قوله : « ذكركني في نفسه » أي سراً .
(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤) وأحمد في مسنده (٣٢٣/٢) والحاكم في المستدرک (٤٩٥/١) قوله « سبق المفردون » أي سبقوا إلى مرضاة المولى والدرجات العلى .

روي : « الْمُفْرَدُونَ » بتشديد الراء وتخفيفها ، وَالْمَشْهُورُ الَّذِي قَالَهُ الْجُمْهُورُ : التَّشْدِيدُ .

الشرح

أما الحديث الأول : فقد قال فيه رسول الله ﷺ : « مثل الذي يذكر الله ، والذي لا يذكر الله كمثل الحي والميت » وذلك لأن الذي يذكر الله تعالى قد أحيا الله قلبه بذكره وشرح له صدره ، فكان كالحَي ، وأما الذي لا يذكر الله فإنه لا يطمئن قلبه ، والعياذ بالله ، ولا ينشرح صدره للإسلام ، فهو كمثل الميت ، وهذا مثل ينبغي للإنسان أن يعتبر به ، وأن يعلم أنه كلما غفل عن ذكر الله ﷻ فإنه يقسو قلبه ، وربما يموت قلبه والعياذ بالله .

وأما الحديثان الأخيران : ففيهما أيضًا دليل على فضيلة الذكر ، وهو أن الإنسان إذا ذكر الله ﷻ في نفسه ذكره الله في نفسه ، وإن ذكره في ملا ذكره الله في ملا خير منهم ، يعني : إذا ذكرت ربك في نفسك - إما أن تنطق بلسانك سرًا ولا يسمعك أحد ، أو تذكر الله في قلبك ؛ فإن الله تعالى يذكرك في نفسه ، وإذا ذكرته في ملا أي : عند جماعة ؛ فإن الله تعالى يذكرك في ملا خير منهم ، أي في ملا من الملائكة يذكرك عندهم ويُعلي ذكرك ويثبتني عليك جل وعلا . ففي هذا دليل على فضيلة الذكر ، وأن الإنسان إذا ذكر الله عند ملا كان هذا أفضل مما إذا ذكره في نفسه ؟ إلا أن يخاف الإنسان على نفسه الرياء ، فإن خاف الرياء فلا يجهر ، ولكن لا يكون في قلبه وسوس بأن يقول : إذا ذكرت الله جهراً فهذا رياء ، فلا أذكر الله . فليَدْعُ هذه الوسوس ويذكر الله تعالى عند الناس وفي نفسه حتى يذكره الله ﷻ كما ذكر ربه .

وأما حديث أبي هريرة الثالث : فهو أن النبي ﷺ قال : « سبق المفردون » قالوا : وما المفردون ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً ، والذاكرات » فهذا دليل على أن الذاكرين الله كثيراً لهم السبق على غيرهم ؛ لأنهم عملوا أكثر من غيرهم ، فكانوا أسبق إلى الخير . والله الموفق .

١٤٣٧ - وعن جابر رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « أَفْضَلُ الذِّكْرِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » (١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٤٣٨ - وعن عبد الله بن بشر رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ ، فَأَحْبِيزْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبُّثُ بِهِ ، قَالَ : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » (٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٨٣) وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٠) .
 (٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٢٣٧٥) وأحمد في مسنده (١٨٨/٤) وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣) والحاكم في المستدرك (٤٩٥/١) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح ، والبيهقي في السنن (٣٧١/٣) .
 قوله « شرائع الإسلام » هي أحكامه من واجب ومندوب ومستحب وغير ذلك ، قوله « أتشبت به » أي أستمسك به ليحصل لي به فضل ما فات منها من غير الفرائض ، قوله : « لا يزال لسانك رطباً » رطوبة اللسان عبارة عن مداومة الذكر .

١٤٣٩ - وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَالَ : شُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٤٤٠ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَيْلَةَ أُسْرِي بِي ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَقْرَى أُمَّتِكَ مِنِّي السَّلَامَ ، وَأَخْيَرُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التَّرَبُّةِ ، عَذْبَةُ الْمَاءِ ، وَأَنْهَا قِيَعَانٌ ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا : شُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ » ^(٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٤٤١ - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَزْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِنْتَاقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ » قالوا : بَلَى ، قَالَ : « ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى » ^(٣) . رواه الترمذي ، قَالَ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : إسناده صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمته الله كلها في مجموعها تدل على فضيلة الذكر كما سبق ، ولكن في بعضها ما فيه ضعف : فمنها أن النبي ﷺ قال له رجل : إن شرائع الإسلام قد كثرت علي ، فقال له النبي ﷺ : « لا يزال لسانك رطبا بذكر الله ﻋَﻠَﻴْكَ » هذا الحديث فيه ضعف ^(١) لكن إن صح فالمعنى : أن هذا الرجل كثرت عليه النوافل ، أما الفرائض : فلا يُغني عنها قول : « لا إله إلا الله » ولا غيره ، الفرائض لا بد منها ، أما النوافل إذا شق على الإنسان بعضها فالذكر قد يسد ما يحصل به الخلل . ومنها أيضا أن الرسول ﷺ قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله » ، ولا شك أن هذه الكلمة كلمة عظيمة فهي التي يدخل بها الإنسان في دين الإسلام ، فهي مفتاح الإسلام كما جاء في الحديث : « أن مفتاح الجنة هو لا إله إلا الله » ^(٥) ، ومنها أيضا فضيلة « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » وأن هذه غراس الجنة ، يعني أن الإنسان إذا قالها يُغرس له في الجنة غرسا في كل كلمة . ومنها : أن ذكر الله ﻋَﻠَﻴْكَ من أفضل الأعمال وأوفاهها وأحبها إلى الله ﻋَﻠَﻴْكَ ، بل هو من أسباب الثبات عند اللقاء كما قال الله تعالى : ﴿ يَتَّخِذُهَا الذِّكْرُ مَأْمُونًا إِذَا لَقِيَتهُ فَكُنْ قَائِمًا وَاتَّكِرُوا إِلَى اللَّهِ

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٦٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٧) وأحمد في مسنده (٣٧٥/١٠) ، قوله : « إن الجنة طيبة التربة » وذلك لأن ترابها المسك والزعفران ولا شيء أطيب منهما . قوله « قيعان » القاع هو المكان الواسع المستوي من الأرض .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٨) وأحمد في مسنده (١٩٥/٥) وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٠) .

(٤) بل قال في تحفة الأحوذ في شرحه لهذا الحديث « قوله هذا حديث حسن غريب . وأخرجه أحمد . وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد . وانظر تخريجه عند ذكر نص الحديث .

(٥) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٢/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/٢) .

كَثِيرًا لَكُمْ تَقِيلُونَ ﴿٤٥﴾ [الأفقال: ٤٥] مثل هذه الأحاديث كلها تدل على فضيلة الذكر وأنه ينبغي للإنسان أن يكثر من ذكر الله ، وقد مر علينا قول النبي ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » والله الموفق .

١٤٤٢ - وعن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهَا نَوَى - أَوْ حَصَى - تُسَبِّحُ بِهِ فَقَالَ : « أَخْبِرْكَ بِمَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ هَذَا - أَوْ أَفْضَلُ ؟ » فَقَالَ : « سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ ، وَاللَّهُ أَكْثَرُ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ مِثْلَ ذَلِكَ » ^(١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٤٤٣ - وعن أبي موسى رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَثْرٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ » فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

هذان الحديثان في بيان فضل الذكر ، وقد سبقت أحاديث كثيرة كلها تدل على فضل الذكر . فحديث سعد بن أبي وقاص في دخول النبي ﷺ على المرأة وبين يديها حصى أو نوى تسبح به ، فقال : « ألا أخبرك بما هو أفضل من ذلك ؟! » فذكر لها تسبيحا سبق نظيره أو قريب منه ، قوله ﷺ : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده زنة عرشه (ثلاث مرات) ، سبحان الله وبحمده رضا نفسه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده مداد كلماته (ثلاث مرات) » هذه (١٢) مرة فيها خير كثير ، وسبق بيان شرح ذلك .

أما حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ » والاستفهام هنا للتشويق ، يعني : يشوقه الرسول ﷺ إلى أن يستمع إلى ما يقول ، قلت : بلى يا رسول الله . قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » لأن هذه الكلمة فيها التبرؤ من الحول والقوة إلا بالله ﷻ ، فالإنسان ليس له حول وليس له قوة ، فلا يتحول من حال إلى حال ، ولا يقوى على ذلك إلا بالله ﷻ ، فهي كلمة استعانة إذا أعياك الشيء ، وعجزت عنه قل : « لا حول ولا قوة إلا بالله » فإن الله تعالى يعينك عليه ، وليست هذه الكلمة كلمة استرجاع كما يفعله كثير من الناس إذا قيل له : حصلت المصيبة الفلانية . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . ولكن كلمة الاسترجاع أن تقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . أما هذه فهي كلمة استعانة ، إذا أردت أن يعينك الله على شيء ، فقل : لا حول

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٦) وأبو داود في الصلاة (١٥٠٠) والحاكم في المستدرک (٥٤٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤) وأحمد في مسنده (٤٦٩/٢) وابن

ماجه في الأدب (٣٨٢٥) . قوله « من كنوز الجنة » أي أن أجرها مدخر لقاتلها والمتصف بها كما يدخر الكنز .

ولا قوة إلا بالله . وكما مر عليكم في سورة الكهف قصة صاحبي الجنتين قال له صاحبه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف: ٢٩] لكان هذا خيرا لك وأبقى لجنتك ، ولكنه دخلها وقال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ^(١) ﴾ [الكهف: ٣٥ : ٣٦] فأعجب بها وأنكر قيام الساعة ، فأرسل الله عليها حسابنا من السماء فأصبحت صعيدا زلقا . فالهمهم أن كلمة « لا حول ولا قوة إلا بالله » كثر من كنوز الجنة ، تقولها أيها الإنسان عندما يُعيبك الشيء ويثقلك وتعجز عنه قل : « لا حول ولا قوة إلا بالله » يسر الله لك الأمر . والله الموفق .

٢٤٥ - باب ذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا ومحدثا
وجنبنا وحائضا إلا القرآن فلا يحل لجنب ولا حائض

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْبَاءِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿ آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .
١٤٤٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ ^(٢) . رواه مسلم .

١٤٤٥ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قَالَ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

قال النووي رحمته الله ذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا : يعني أن الإنسان ينبغي له أن يذكر الله تعالى في كل حال قائما وقاعدا وعلى جنبه . ثم استشهد رحمته الله بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْبَاءِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ رَتَّلَكُمُوهُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعني في ذات السماوات ، وذات الأرض بما فيهما من عجائب مخلوقات الله تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أولي العقول الذين يدركون ما بآيات الله من

(١) قوله : ﴿ تَبِيدَ ﴾ أي : تهلك .

(٢) أخرجه مسلم في الحيف (١٧) وأبو داود في الطهارة (١٨) وأحمد في مسنده (٧٠/٦ ، ١٥٣) وابن ماجه في الطهارة (٣٠٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٨) ومسلم في النكاح (١١٦) وأبو داود في النكاح (٢١٦١) وابن ماجه في النكاح (١٩١٩) . قوله : « أتى أهله » أي عاشر امرأته معاشره الأزواج ، قوله : « جنبنا » أي بعده عنا ، قوله : « لم يضره » أي لم يضره في دينه أو بدنه وليس المراد رفع الوسوسة من أصلها .

الحكيم والأسرار ، فالسمااء واسعة عالية والأرض مسطحة مُذَلَّلَةٌ لِلخَلْق ، فيها من آيات الله تعالى من البحار والأنهار والأشجار والجبال وغير ذلك ، ما يُستدل به على خالقها جل وعلا .

وأما اختلاف الليل والنهار : فاختلاف الليل والنهار في الطول والقصر ، والحر والبرد ، والرخاء والشدّة ، والأمن والخوف ، والبؤس والعافية ، وغير ذلك فيها أيضًا آيات عظيمة ، والإنسان إذا طالع التاريخ ورأى تقلبات الليل والنهار واختلافهما رأى من آيات الله العجيبة ما يزداد به إيمانه ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ هذا هو الشاهد يذكرون الله في كل حال قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم في كل حال .

وكذلك ذكر ﷺ حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يذكر الله على كل الأحيان . أي على كل الأزمان ، في كل زمن يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا ، حتى أن النبي ﷺ ندب الإنسان أن يذكر الله عند جماع أهله ، فقال : « لو أن أحدكم أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا ؛ فإنه إذا قضى بينهما ولد لم يضره الشيطان » ففي هذا دليل على أنه ينبغي لك أن تكثر من ذكر الله في كل حال . إلا أن العلماء قالوا : لا ينبغي أن يذكر الله تعالى في الأماكن المقدرة ، مثل أماكن قضاء الحاجة (المراحض) ونحوها تكريمًا لذكر الله ﷻ عن هذه المواضع ، هكذا ذكر بعض أهل العلم (١) . والله أعلم .

* * *

٢٤٦ - باب ما يقوله عند نومه واستيقاظه

١٤٤٦ - عن حذيفة ، وأبي ذر رضي الله عنهما قالا : كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا » وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » (٢) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله : أن نعمة الله ﷻ علينا أن الله شرع لنا أذكارًا عند النوم والاستيقاظ والأكل والشرب ، ابتداءً وانتهاءً ، بل حتى عند دخول الخلاء وعند اللباس ، كل هذا من أجل أن تكون أوقاتنا معمورة بذكر الله ﷻ ، ولولا أن الله شرع لنا ذلك لكان بدعة ، ولكن الله شرع لنا هذا من أجل أن تزداد نعمته علينا بفعل هذه الطاعات .

فمنها : هذا الحديث الذي ذكره المؤلف عن حذيفة ، وأبي ذر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ كان إذا أوى

(١) قال ابن قدامة : من أراد دخول الخلاء ومعه شيء فيه ذكر الله استحب وضعه خارجًا انظر : المغني مع الشرح الكبير (١٩٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٤) وأحمد في مسنده (٣٥٨/٥) .

إلى فراشه قال : « باسمك اللهم أحيأ وأموت » « إذا أوى » يعني : إذا ذهب إلى فراشه وأراد أن ينام قال : باسمك اللهم أحيأ وأموت ؛ لأن الله ﷻ هو المحيي المميت ، فهو المحيي يحيي من شاء ، وهو المميت يميت من يشاء ، فتقول : باسمك اللهم أحيأ وأموت . أي : أموت على اسمك ، وأحيأ على اسمك ، ومناسبة هذا الذكر عند النوم هو أن النوم موت ، لكنه موت أصغر كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ (١) [الأنعام : ٦٠] وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل قال : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » فتحمد الله الذي أحيأك بعد الموت ، وتذكر أن النشور - يعني الإخراج من القبور - يكون إلى الله ﷻ ، فتذكر ببعثك من موتك الصغرى ببعثك من موتك الكبرى ، وتقول : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » وفي هذا دليل على الحكمة العظيمة في هذا النوم الذي جعله الله راحة للبدن عما سبق وتنشيطاً للبدن فيما يستقبل ، وأنه يذكر أيضاً بالحياة الأخرى ، تذكر بذلك إذا قمت من قبرك بعد موتك حياً إلى الله ﷻ .

وهذا يزيدك إيماناً بالبعث ، والإيمان بالبعث أمر مهم ، لولا أن الإنسان يؤمن بأنه سوف يعث ويُجازى على عمله ما عمل ، ولهذا نجد كثيراً أن الله يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به ﷻ . كما قال تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وآيات كثيرة في هذا . فالهمم أنه ينبغي لك إذا أويت إلى فراشك أن تقول : « باسمك اللهم أحيأ وأموت » وإذا استيقظت تقول : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » والله الموفق .

٢٤٧ - باب فضل خلق الذكر ، والندب إلى ملازمتها ، والنهي عن مفارقتها غير عذر

قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ فَسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ (٢) [الكهف : ٢٨] .

١٤٤٧ - وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ ، تَنَادَوْا : هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ ، فَيُحْفَوْنَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ - : مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيَحْمَدُونَكَ ، وَيُمَجِّدُونَكَ ، فيقول : هل رَأَوْنِي ؟ فيقولون : لا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ ، فيقول : كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟! قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً ، وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجُّدًا ، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا . فيقول : فَمَاذَا يَسْأَلُونَ ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ . قَالَ : يَقُولُ :

(١) قوله : ﴿ مَا جَرَحْتُم ﴾ أي ما كسبتم فيه بجوارحكم من الخير والشر .

(٢) قوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي : مغفرته ورحمته والنظر إليه يوم القيامة .

وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ ! قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا ، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا ، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً . قَالَ : فَعِمُّ يَتَعَوَّدُونَ ؟ قَالَ : يَتَعَوَّدُونَ مِنَ النَّارِ ، قَالَ : فَيَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْهَا . فَيَقُولُ : كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ ! قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا ، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً . قَالَ : فَيَقُولُ : فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، قَالَ : يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ ، إِنَّمَا جَاءَ لِلْحَاجَةِ ، قَالَ : هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ « متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فَضْلًا يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذَّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ ، قَعَدُوا مَعَهُمْ ، وَخَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنَحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعَدُوا إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم - وَهُوَ أَعْلَمُ - : مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادِكَ فِي الْأَرْضِ : يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيُهَلِّلُونَكَ ، وَيَحْمَدُونَكَ ، وَيَسْأَلُونَكَ . قَالَ : وَمَاذَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالُوا : يَسْأَلُونَكَ جِئْتِكَ . قَالَ : وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي ؟ قَالُوا : لَا ، أَيُّ رَبِّ . قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي ؟ قَالُوا : وَيَسْتَجِيرُونَكَ . قَالَ : وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونِي ؟ قَالُوا : مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ . قَالَ : وَهَلْ رَأَوْا نَارِي ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي ؟ قَالُوا : وَيَسْتَغْفِرُونَكَ ، فَيَقُولُ : قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا ، وَأَجْرَتْهُمْ بِمَا اسْتَجَارُوا . قَالَ : فَيَقُولُونَ : رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ ، فَيَقُولُ : وَلَهُ غَفَرْتُ ؛ هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » ^(١) .

الشرح

قال المؤلف رحمته الله تعالى باب : فضل خلق الذكر يعني الاجتماع على ذكر الله صلى الله عليه وسلم . ثم ساق الآية الكريمة ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدْوَةِ وَالْعَتَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه مع هؤلاء القوم الفضلاء الشرفاء الكرماء ، وصبر النفس يعني حبسها : احبس نفسك معهم فإن هؤلاء القوم خيرٌ من تجلس إليهم ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدْوَةِ ﴾ أي : في أول النهار ، وبالعشي في آخر النهار ، ومن ذلك إن شاء الله : الاجتماع على صلاة الفجر وعلى صلاة العصر ؛ لأن الأولى في الصباح والثانية في المساء ، غداة وعشيًا ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي : يريدون وجهه ، هذا دليل على إخلاصهم لله صلى الله عليه وسلم وأنهم لا يريدون من هذا الاجتماع والدعاء أن يُمدَّحوا بذلك أو يقال : ما أعظم عبادتهم ، ما أكثرها ، ما أصبرهم عليها ! لا يريدون هذا كله ، يريدون وجه الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا ﴾ يعني : لا تتجاوز عنهم وتفارقهم وتغض الطرف عنهم من أجل الدنيا . أما من أجل مصلحة

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨) واللفظ له ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٥) والنسائي في السنن (٤٣/٣) .

قوله : « هلموا إلى حاجتكم » أي تعالوا إلى بغيتكم ، قوله : « فيحفرنهم » أي يطوفون ويدورون حولهم ، قوله : « يجدونك » أي يعظمونك ، قوله : « يستجرونك » أي يستغيثون بك ويلجأون إليك ، قوله : « سيارة » أي سياحين في الأرض .

أخرى أعظم مما هم عليه فلا بأس ، لكن من أجل الدنيا لا ، هؤلاء هم القوم ، وهم أهل الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تُطِيعَنَّ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ يعني : لا تطع الغافل الذي غفل قلبه عن ذكر الله ، وكان أمره فرطاً ، واتبع هواه ، وضاعت عليه دنياه ، وضاعت عليه آخراه .

ففي هذه الآية الكريمة فضل الاجتماع على الذكر والدعاء ، وفيها فضل الإخلاص ، وأن الإخلاص هو الذي عليه مدار كل شيء وفيها أن الإنسان لا ينبغي له أن يدع أحوال الآخرة والعبادات إلى أحوال الدنيا .

أما الأحاديث : فذكر المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري ، وصحيح مسلم : أن الله تعالى وكل ملائكة يسيحون في الأرض يطلبون جلتى الذكر . والملائكة : عالم غيبي فاضل ، خلقهم الله ﷻ من النور وجعلهم صمداً لا أجواف لهم ، فلا يأكلون ولا يشربون ، لا يحتاجون إلى هذا ، ليست لهم بطون ولا أمعاء ، وهم عالم غيبي لا يراهم البشر ، ولكن قد يُرى الله تعالى الناس إياهم أحياناً كما جاء جبريل عليه الصلاة والسلام على هيئة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة ، وجلس إلى النبي ﷺ وسأله ^(١) ، فهذا يحدث أحياناً ، ولكن الأصل أن عالم الملائكة عالم غيبي . والملائكة كلهم خير ، ولهذا لا يدخلون الأماكن التي فيها ما يُغضب الله ﷻ ، فلا يدخلون بيتاً فيه صورة ، ولا يصحبون رفقة فيها جرس ولا رفقة معهم كلب ، إلا الكلب المحلل الذي يجوز اقتناؤه ^(٢) ، هؤلاء الملائكة وكلهم الله ﷻ يسيحون في الأرض ، فإذا وجدوا جلتى الذكر جلسوا معهم ، ثم خفوا هؤلاء الجالسين بأجنحتهم إلى السماء ، يعني هؤلاء الملائكة من الأرض إلى السماء ، ثم إن الله تعالى يسألهم ليظهر فضيلة هؤلاء القوم الذين جلسوا يذكرون الله ويسبحونه ويحمدونه ويهللونه ويكبرونه ويدعونه ، وإلا فالله ﷻ أعلم لماذا جلسوا ، لكن ليظهر فضلهم ونبلهم ، يسأل الملائكة : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض ، يسيحون ويهللون ويكبرون ويحمدون ويدعون . فيقول لهم : ماذا يريدون ؟ قالوا : يريدون الجنة (اللهم اجعلنا ممن أرادها وكان من أهلها) قال : هل رأوها ؟ قالوا : لا . قال : فكيف لو رأوها ؟ قالوا : لكانوا أشد لها طلباً ، وأشد فيها رغبة « لأن الله ﷻ يقول : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ^(٣) ثم يسألهم : ماذا يدعون بالنجاة منه ؟ قالوا : « يسألونك النجاة من النار » - هذا معنى الحديث - قال : هل رأوها ؟ قالوا : لا ، ما رأوها . قال : « فكيف لو رأوها ؟ قالوا : لكانوا أشد منها مخافة . فيقول الله ﷻ : أشهدكم أنني قد غفرت لهم جميعاً » وإذا غفر الله للإنسان استحق أن يدخل الجنة وأن ينجو من النار . فيقول ملك من الملائكة : إن فيهم فلاناً ، ما جاء للذكر ، لكن جاء لحاجة فوجد هؤلاء القوم فجلس

(١) انظر الحديث في مسلم في الإيمان (٥) والنسائي في السنن (١٠١/٨) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) انظر ذلك فيما أخرجه البخاري في اللباس (١٩٥٨) ومسلم في اللباس (٨٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٢١/٤) .

مهم . فيقول جل وعلا : فله قد غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

ففي هذا الحديث دليل على فضيلة مجالسة الصالحين ، وأن الجليس الصالح ربما يعم الله سبحانه وتعالى بجليسه رحمته وإن لم يكن مثله ، لأن الله قال : قد غفرت لهذا . مع أنه ما جاء من أجل الذكر والدعاء لكنه جاء لحاجة ، وقال : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » وعلى هذا فيستحب الاجتماع على الذكر وعلى قراءة القرآن وعلى التسييح والتحميد وتهليل وكل يدعو لنفسه ، ويسأل الله لنفسه ، ويذكر لنفسه . ومن الاجتماع كما ذكرت من قبل : أن يجتمع المسلمون على صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ لأنها ذكر : تسييح وتكبير وتهليل وقراءة قرآن ودعاء ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الملائكة الموكلين بيني آدم يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر (١) . وفقنا الله وإياك إلى ما يحبه ويرضاه .

* * *

١٤٤٨ - وعنه وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَفْقُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ ؛ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ » (٢) رواه مسلم .
١٤٤٩ - وعن أبي واقد الحارث بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يَنِمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَأَمَّا أَحَدُهُمَا : فَرَأَى فُرْجَةَ فِي الْحَلْقَةِ ، فَجَلَسَ فِيهَا ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ ؛ فَأَذْبَرَ ذَاهِبًا . فَلَمَّا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ ، فَأَوَى إِلَى اللَّهِ ، فَأَوَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَخْيَا ، فَاسْتَخْيَا اللَّهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَغْرَضَ ، فَأَغْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ » (٣) متفق عليه .

الشرح

هذان الحديثان من الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمته الله في كتابه فالأول أخبر فيه النبي ﷺ أنه ما جلس قوم يذكرون الله تعالى إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، وهذا يدل على فضل الاجتماع على ذكر الله ﷻ ، ولا يلزم من هذا أن يذكروا الله بصوت واحد ، بل الحديث مطلق لكن لم يعهد عن السلف أنهم يذكرون ذكراً جماعياً كما يفعله بعض أهل الطرق من الصوفية وغيرهم ، وفيه أن هؤلاء المجتمعين تنزل عليهم السكينة ، والسكينة هي طمأنينة القلب وخشوعه وإنابته إلى الله ﷻ ، وتغشاهم الرحمة أي : تحيط بهم من كل جانب فيكونون أقرب إلى رحمة الله ﷻ ، « وحفتهم الملائكة » أي : كانوا حولهم يحفون بهم

(١) انظر الحديث في البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥) ومالك في الموطأ (السفر ٨٢) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٩) وأحمد في مسنده (٩٢/٣) . قوله : « حفتهم الملائكة » أي طافت بهم تشریفاً لهم بسبب جلوسهم للذكر ، قوله : « ونزلت عليهم السكينة » هي الحال التي يطمئن بها القلب فيسكن عن الميل إلى الشهوات .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٦٦) ومسلم في السلام (٢٦) والبيهقي في السنن (٢٣٢/٣) . قوله : « أوى إلى الله » أي لجأ إلى الله فقبله الله .

إكراماً لهم ورضاً بما فعلوا » وذكرهم الله فيمن عنده » أي في الملأ الأعلى ، وقد مر علينا أن الله تعالى قال : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وأما الحديث الثاني : ففيه أيضاً أن النبي ﷺ كان جالساً مع أصحابه في المسجد فأقبل ثلاثة نفر ، يعني ثلاثة رجال ، أما أحدهم : فولّى وأعرض ولم يأت إلى الحلقة ، وأما الثاني : فوجد في الحلقة فرجة فجلس ، وأما الثالث : فجلس خلف الحلقة كأنه استحيا أن يزاحم الناس وأن يضيق عليهم ، فلما فرغ النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بنبأ القوم ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله ﷻ ، وهو الذي جلس « فأواه الله ﷻ إليه » لأنه كان صادق النية في الجلوس مع النبي ﷺ فيسر الله له « وأما الثاني : فاستحيا فاستحيا الله منه » لأنه ما زاحم ولا تقدم ، « وأما الثالث : فأعرض فأعرض الله عنه » لم يوفقه لأن يجلس مع هؤلاء القوم البررة الأطهار .

وفي هذا الحديث : إثبات الحياء لله ﷻ ، ولكنه ليس كحياء المخلوقين ، بل هو حياء الكمال يليق بالله ﷻ ، وقد قال النبي ﷺ : « إن الله حيي كريم » ^(١) وقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ آلِ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، والله سبحانه وتعالى يوصف بهذه الصفة لكن ليس مثل المخلوقين ؛ لأن الله ﷻ يقول في القرآن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] فكلمنا مر عليك صفة من صفات الله مشابهة لصفات المخلوقين في اللفظ فاعلم أنهما لا يستويان في المعنى ؛ لأن الله ﷻ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ فإذا مر بك مثلاً أن الله استوى على العرش ، فلا تظن أن استواءه على العرش كاستوائك أنت على ظهر البعير الذي قال فيه ﴿ فَإِنَّا اسْتَوَيْنَا أَنْتَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨] وإذا قال الله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] فلا تظن أن يدي الله جل وعلا مثل يديك ؛ لأن الله ليس كمثله شيء ، فجميع صفاته هو منفرد بها ، وكما أننا نوحده في ذاته ، ونوحده في العبادة ، كذلك نوحده في صفاته . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

١٤٥٠ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج معاوية رضي الله عنه على حلقة في المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله . قال : آله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إنني لم أشتغل بكم ثمّة لكم ، وما كان أحد يمتزلي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني : إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : « ما أجلسكم ؟ » قالوا : جلسنا نذكر الله ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومن به علينا . قال : « آله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ » قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : « أما إنني لم أشتغل بكم ثمّة لكم ، ولكنه أثناني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة » ^(٢) . رواه مسلم .

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٣٨) والحاكم في المستدرک (٤٩٧/٢) والبيهقي في شرح السنة (١٨٦/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤٠) وأحمد في مسنده (٩٢/٤) والنسائي في السنن (٢٤٩/٨) .

الشرح

إن هذا الحديث من الأحاديث التي تدل على فضيلة الاجتماع على ذكر الله ﷻ ، وهو ما رواه أبو سعيد الخدري عن معاوية ؓ أنه خرج على حلقة في المسجد فسألهم على أي شيء اجتمعوا ، فقالوا : نذكر الله . فاستحلفهم ﷺ أنهم ما أرادوا إلا ذلك ، فحلفوا له ، ثم قال لهم : إني لا أستحلفكم نعمة لكم ، ولكني رأيت النبي ﷺ خرج على قوم وذكر مثله . فدل ذلك على فضيلة هذا الاجتماع على ذكر الله ، وأن الله ﷻ يباهي بهم الملائكة ، فيقول مثلاً : انظروا إلى عبادي اجتمعوا على ذكرى . وما أشبه ذلك ، مما فيه المباهاة ، ولكن كما ذكرنا سابقاً ليس هذا الاجتماع أن يجتمعوا على الذكر بصوت واحد ، ولكن يتذكرون نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من نعمة الإسلام وعافية البدن والأمن ، وما أشبه ذلك ؛ فإن ذكر نعمة الله من ذكر الله ﷻ ، فيكون في هذا دليل على فضل جلوس الناس ليتذكروا نعمة الله عليهم ، ولهذا كان بعض السلف إذا مر بأخيه أو جاءه أخوه قال : اجلس بنا نؤمن ساعة . أي اجلس بنا نتذكر نعمة الله علينا حتى يزداد إيماننا ، فدل ذلك على فضيلة هذا الاجتماع ، نسأل الله أن يجمع قلوبنا على ذكره ، وشكره ، وحسن عبادته .

* * *

٢٢٨ - باب الذكر عند الصباح والمساء

قال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] قال أهل اللغة : « الآصال » : جمع أصيل ، وهو ما بين العُصرِ والمغرب . وقال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : ١٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْبُكْرِ ﴾ [غافر : ٥٥] قال أهل اللغة : « العُشي » : ما بين زوال الشمس وغروبها وقال تعالى : ﴿ فِي يَتُوبِ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْفُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [يونس : ١٨] قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِنشِرَاقِ ﴾ [ص : ١٨] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى : باب الذكر في الصباح والمساء ، يعني فضيلته في الصباح والمساء ، يعني أول النهار وآخر النهار وأول الليل ، ويدخل الصباح من طلوع الفجر ، وينتهي بارتفاع الشمس ضحاً ، ويدخل المساء من صلاة العصر وينتهي بصلاة العشاء أو قريباً منها .

فالأذكار التي أريدت بالصباح والمساء هذا وقتها ، والأذكار التي أريدت بالليل تكون بالليل ، مثل : آية الكرسي من قرأها في ليلة فلا بد أن تكون في الليل نفسه . ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيات متعددة في ذلك ، منها قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا

تَكُنْ مِنَ الْفَافِلِينَ ﴿ [الأعراف: ٢٠٥] .

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ يعني : فيما بينك وبين نفسك ﴿تَضَرَّعًا وَخِيفَةً﴾ يعني : تضرعًا إلى الله ﷻ وافئزازًا إليه وإظهارًا للفقير بين يديه ﴿وَخِيفَةً﴾ يعني : خيفة منه أو خيفة ألا تقبل ، لقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠] يعني : يؤتون ما آتوا ومع هذا قلوبهم وجلة ، يخافون ألا يقبل منهم ؛ لأن الله تعالى لا يتقبل إلا من المتقين ، ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني الإسرار ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَافِلِينَ﴾ ثم ذكر أيضًا قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٥٨﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ، ٤٢] . وقوله تعالى : ﴿إِنَّا سَخَرْنَا لِحَالِ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَنِينِ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ٨] . والآيات في هذا كثيرة ، وسوف يأتي إن شاء الله في الأحاديث تفسير ذلك .

* * *

١٤٥١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ ؛ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلِ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، إِلَّا أَخَذَ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ» ^(١) رواه مسلم .

١٤٥٢ - وعنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ما لقيت من عُقْرٍ لَدَعْنَتِي الْبَارِحَةَ ! قال : «أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ» ^(٢) . رواه مسلم .

١٤٥٣ - وعنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أصبح : «اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ» . وإذا أمسى قال : «اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ» ^(٣) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة ذكرها النووي رحمته الله في باب الذكر في الصباح والمساء ، الأول : عن فضل قول الإنسان : «سبحان الله وبحمده مائة مرة» إذا قالها الإنسان مائة مرة حين يصبح ، ومائة مرة حين يمسي ؛ لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا من عمل أكثر مما عمل ، وهذا الذكر «سبحان الله وبحمده»

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء بنحوه (٥٤) وأحمد في مسنده (٣٧٥/٢) . قوله : «بكلمات الله التامات» أي الكلمات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٦٨) والترمذي في كتاب الدعوات (٣٣٩١) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٨) وأحمد في مسنده (٣٥٤/٢) . قوله : «بك أصبحنا وبك أمسينا» أي بقدرتك أصبحنا وبقدرتك أمسينا ، قوله «وإليك النشور» أي إليك المرجع والمآب

معناه : أنك تنزه الله ﷻ عن كل ما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى وتثني عليه ، بل وتصفه بصفات الكمال ، وذلك في قولك : « وبحمده » فينبغي للإنسان إذا أصبح أن يقول : « سبحان الله وبحمده مائة مرة » ، وإذا أمسى أن يقول : « سبحان الله وبحمده مائة مرة » ، وذلك ليحوز هذا الفضل الذي ذكره النبي ﷺ .

ومن ذلك أن الإنسان يقول إذا أصبح وإذا أمسى : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » فهذا لجوء إلى الله سبحانه وتعالى واعتصام به من شر ما خلق ، فإذا قلته ثلاث مرات في الصباح والمساء ؛ فإنه لا يضرك شيء ، ولهذا اشتكى رجل إلى النبي ﷺ ما وجده من لدغة عقرب ، فقال : « أما إنك لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك » (١) .

ومن الأذكار الصباحية والمسائية قول : « اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك النشور » في الصباح ، وفي المساء « اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ، وبك نموت ، وبك نحيا ، وإليك المصير » فينبغي للإنسان أن يحافظ على هذه الأذكار الواردة عن النبي ﷺ ، ليكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، والله الموفق .

كلمات الله التامات : هي كلماته كونية ، فإنه يقول للشيء : كن فيكون ، وبذلك يحميه .

* * *

١٤٥٤ - وعنه أن أبا بكر الصديق ؓ قال : يا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أُمْسَيْتُ ، قال : « قُلْ : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، غَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَ » قال : « قلها إذا أصبحت ، وإذا أُمْسَيْتَ ، وإذا أخذت مضجعتك » (٢) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذا من الأذكار التي تقال في الصباح والمساء والذي علمها النبي ﷺ أبا بكر ؓ ، حين قال : عَلَّمَنِي . فعلمه النبي ﷺ ذكراً ودعاءً يدعو به كلما أصبح وكلما أمسى ، يقول ﷺ قال : « قل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه » . « قل : اللهم فاطر السماوات والأرض » يعني : يا الله يا فاطر السموات والأرض ، وفاطرهما ، يعني : أنه خلقهما ﷻ على غير مثال سبق بل أبدعهما وأوجدهما من العدم على غير مثال سبق « عالم الغيب والشهادة » أي : عالم ما غاب عن الخلق وما شاهده ؛ لأن الله تعالى يعلم الحاضر والمستقبل والماضي « رب كل شيء ومليكه » يعني : يا رب كل شيء ومليكه . والله تعالى هو رب كل شيء وهو ملك كل شيء ، والفرق بين الرب وبين المالك في هذا الحديث : أن الرب : هو الموجد للأشياء الخالق لها ،

(١) أخرج هذه الرواية بهذا اللفظ أبو داود في السنن (٣٨٩٨) ومالك في الموطأ (٩٥١) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٩٢) وأحمد في مسنده (٩/١ ، ١٤) وأبو داود في الأدب (٥٠٨٣) . قوله : « وشر الشيطان وشركه » أي وسوسة الشيطان وتسويله إلى الإشراك بالله تعالى .

والمليك : هو الذي يتصرف فيها كيف يشاء « أشهد أن لا إله إلا الله » أعترف بلساني وقلبي أنه لا معبود حق إلا أنت ، فكل ما عُبد من دون الله فإنه باطل لا حق له في العبودية ، ولا حق في العبودية إلا لله وحده ﷻ . « أعوذ بك من شر نفسي » لأن النفس لها شرور ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُنَبِّئُ نَفْسًا أَنْ تَنْفَسَ إِلَّا أَنْفَاسًا بِإِذْنِ رَبِّكَ إِلَّا مَا رَجَعَ لِرَبِّكِ ﴾ [يسف : ٥٣] فإذا لم يعصمك الله من شرور نفسك فإنها تضرك ، وتأمرك بالسوء ، ولكن الله إذا عصمك من شرها ، وفقك إلى كل خير « ومن شر الشيطان وشركه » وفي لفظ : « وشركه » يعني تسأل الله أن يعينك من شر الشيطان ومن شر شركه ، أي : ما يأمرك به من الشرك ، أو « شركه » والشرك ما يُصَاد به الحوت والطير وما أشبه ذلك ؛ لأن الشيطان له شرك يصطاد به بني آدم ، إما شهوات أو شبهات أو غير ذلك ، « وأن أترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم » هذا تنمة الحديث ، ولعله سقط من هذه النسخة « أن أترف على نفسي سوءًا » أترف « يعني أجر على نفسي سوءًا » أو أجره إلى مسلم « فهذا الذكر أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه .

* * *

١٤٥٥ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُمْسَى قَالَ : « أُمْسِينَا وَأُمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » قَالَ الرَّاوي : أَرَاهُ قَالَ فِيهِمْ : « لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ ، وَسُوءِ الْكَبْرِ ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ فِي النَّارِ ، وَعَذَابِ فِي الْقَبْرِ » وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا : « أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ » (١) رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث من الأذكار الواردة في الصباح والمساء ، وهو ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أمسى يقول : « أُمْسِينَا وَأُمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقد سبق أن أوضحنا معاني هذه الكلمات .

والنبي ﷺ يكثر من ذكر الله ﷻ ، على وجوه متنوعة ، وأما « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَسُوءِ الْكَبْرِ » وفي لفظ : « وَسُوءِ الْكَبْرِ » ، « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ فِي النَّارِ وَعَذَابِ فِي الْقَبْرِ » وإذا أصبح يقول مثل ذلك ، إلا أنه يقول : « أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ » ومن أراد الاستزادة من هذه الأذكار فعليه بكتاب (الأذكار) للمؤلف النووي رحمه الله ، أو (الوابل الصيب من الكلم الطيب) لابن القيم

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٥ ، ٧٦) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٤٤٠ / ١) . قوله : « سوء الكبر » أي الهرم والخرف والرد إلى أرذل العمر ، قوله : « عذاب القبر » هو العذاب في البرزخ بعد الموت .

ﷺ ، أو غير ذلك مما ألفه العلماء في هذا الباب . والله الموفق .

* * *

١٤٥٦ - وعن عبد الله بن حبيب - بضم الحاء المعجمة - ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ : قل هو الله أحد ، والمعوذتين حين تُمسي وحين تُصبح ، ثلاث مرات ؛ تكفيك من كل شيء »^(١) . رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٤٥٧ - وعن عثمان بن عفان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبٍد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة : بسم الله الذي لا يضرُ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، إلا لم يضره شيء »^(٢) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذان الحديثان في بيان أذكار الصباح والمساء ، ذكرهما النووي رحمه الله الأول : حديث عبد الله بن حبيب ﷺ أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ بربِّ الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ بربِّ النَّاس ﴾ في الصباح والمساء ثلاث مرات ، وبين أن هذا يكفيه كل شيء .

أما السورة الأولى : فهي سورة الإخلاص ﴿ قل هو الله أحد ﴾ التي أخلصها الله تعالى لنفسه فلم يذكر فيها شيئاً إلا يتعلق بنفسه جل وعلا ، ما فيها ذكر لأحكام الطهارة أو الصلاة أو البيع أو غير ذلك ، بل كلها مُخلصة لله ﷻ . ثم الذي يقرأها يكمل إخلاصه لله تعالى ، فهي مُخلصة ومُخلصة ، تخلص قارئها من الشرك ، وقد بين النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن^(٣) ، ولكنها لا تجزئ عنه ، تعدله ولا تجزئ عنه والشيء قد يكون عديلاً للشيء ولكن لا تجزئ عنه ، ألم تروا أن الإنسان إذا قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل^(٤) ، ومع ذلك لا يجزئ عن عتق رقبة ، ففرق بين المعادلة في الأجر وبين الإجزاء في الكفارة ، ولهذا لو قرأ الإنسان ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في الصلاة ثلاث مرات ما أجزأت عن الفاتحة ، مع أنه لو قرأها ثلاث مرات كأنما قرأ القرآن كله ؛ لأنها تعدل ثلث القرآن . وأما ﴿ قل أعوذ بربِّ الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ بربِّ النَّاس ﴾ : فهما السورتان اللتان نزلتا على رسول الله ﷺ حين سحره الخبيث لبيد بن الأعصم اليهودي ، فأنزل الله هاتين السورتين ، فرقاه بهما جبريل ،

(١) أخرجه أبو داود في الأدب بنحوه (٥٠٥٦) وأحمد في مسنده (٤٤٢/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٨٨) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٩) والحاكم في المستدرک (٥١٤/١) . قوله : « باسم الله » أي أتخص وأحتمي باسم الله الذي يحتمي باسمه من كل سوء .

(٣) انظر الحديث في مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٩) والترمذي في التفسير (٢٨٩٤) والنسائي في السنن

(١٧٢/٢) وأحمد في مسنده (٢٣/٣) . (٤) سبق تخريجه انظر الحديث رقم (١٤١١) .

فَأَحْلُ اللَّهُ عَنْهُ السَّحَرُ (١)، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا تَعُوذُ مَتَعُوذُ بِمَثَلِهِمَا » (٢) تَسْتَعِذُ ﴿ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فَالْفَلَقُ فَلَقُ الْإِصْبَاحِ ، وَهُوَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى جَلَّ وَعَلَا ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ كُلُّ مَا خَلَقَ ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ يَعْنِي اللَّيْلُ إِذَا دَخَلَ ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ تَكْثُرُ فِيهِ الْهُوَامُ وَالْوَحُوشُ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، فَتَسْتَعِذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ أَيِ : السَّاحِرَاتِ اللَّاتِيَّاتِ يَعْقِدْنَ عَقْدَ السَّحَرِ ، وَيَنْفُثْنَ فِيهَا بِالطَّلَاسِمِ وَالتَّعَوِذَاتِ وَالْإِعْتَصَامِ بِالشَّيَاطِينِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ وَالْعِيَاذَ بِاللَّهِ ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ هُوَ الْعَائِنُ يَصِيبُ بَعِينَهُ ، لِأَنَّ السَّاحِرَ يُؤْثِرُ ، وَالْعَائِنُ يُؤْثِرُ ، فَأَمِرَتْ أَنْ تَسْتَعِذَ ﴿ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ جَلَّ وَعَلَا ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿ وَتَأْمَلْ تَنَاسُبَ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثَةِ ﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿ اللَّيْلُ ، لِأَنَّ الْبَلَاءَ يَكُونُ فِيهِ خَفِيًّا ، وَالسَّحَرُ كَذَلِكَ خَفِيٌّ ، وَالْعَيْنُ كَذَلِكَ خَفِيَّةٌ ، فَتَسْتَعِذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ الَّذِي يَفْلُقُ الْإِصْبَاحَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ وَيَفْلُقَ النَّوَى حَتَّى يَظْهَرَ وَيُورِزَ ، فَهَذِهِ مِنْ مَنَاسِبَةِ الْمَقْسَمِ بِهِ وَالْمَقْسَمِ عَلَيْهِ .

أَمَّا ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ : فَهِيَ السُّورَةُ الْأُخْرَى أَيْضًا الَّتِي بِهَا الْإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ ﷻ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿ فَهُوَ الرَّبُّ الْمَلِكُ ذُو السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ الَّذِي لَا يَمَانَعُهُ شَيْءٌ وَلَا مَبْدَلٌ لِكَلِمَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا ﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿ إِلَهُ النَّاسِ ﴾ أَيِ : مَعْبُودُهُمُ الَّذِي يُعْبَدُ بِحَقِّهِ ، فَلَا مَعْبُودَ حَقًّا إِلَّا اللَّهُ ﷻ ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿ هَذِهِ وَسَاوِسُ الصُّدُورِ الَّتِي يَلْقِيهَا الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْوَسَاوِسِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَقْلُقُ الْإِنْسَانَ ، وَسَبِّحَانَ اللَّهَ الْعَظِيمِ ، الدُّنْيَا اسْمٌ عَلَى مَسْمُوءٍ ، دُنِيَّةٌ لَا تَتِمُّ مِنْ وَجْهِهِ إِلَّا نَقْصٌ مِنْ وَجْهِهِ تَرَفْنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فِي هَذَا الْعَهْدِ لَا يَوْجِدُ نَظِيرَهُ فِيمَا سَبَقَ ، النِّعَمُ مُتَوَافِرَةٌ وَالْأُمُورُ وَالْبَنُونَ وَكُلُّ شَيْءٍ ، وَالتَّرَفُ الْجَسَدِيُّ ظَاهِرٌ ، لَكِنْ كَثُرَتْ فِي النَّاسِ الْآنَ كَثْرَةُ الْوَسَاوِسِ وَالْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ ، وَالْبَلَاءُ ، حَتَّى لَا تَتِمَّ الدُّنْيَا فَيَرْكُنُ الْإِنْسَانُ إِلَيْهَا ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا لَوْ تَمَّتْ مِنْ كُلِّ وَجْهِهِ أَنْتَسَتْ الْأُخْرَى ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تَفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مِنْ قَبْلِكُمْ فَتَهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ » (٣) وَاللَّهُ ﷻ إِذَا فَتَحَ الدُّنْيَا مِنْ جَانِبٍ صَارَ صَفْوَها كَدْرًا مِنْ جَانِبٍ آخَرَ أَوْ مِنْ جَوَانِبٍ أُخْرَى ، وَالشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ يَقُولُ :

فَيَوْمَ عَلَيْنَا وَيَوْمَ لَنَا وَيَوْمَ نُسَاءُ وَيَوْمَ نُسَرُ

فَالْحَاصِلُ : أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ فِيهَا الْإِسْتِعَاذَةُ مِنَ الْوَسَاوِسِ ، وَالْوَسَاوِسُ يَقَعُ فِي الْإِنْسَانِ أحيانًا فِي أَصُولِ الدِّينِ ، وَفِي ذَاتِ الرَّبِّ ، وَفِي الْقُرْآنِ ، وَفِي الرُّسُولِ ، حَتَّى يَوْسُوسُ الْإِنْسَانَ فِي أَشْيَاءٍ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ فُحْمَةً وَلَا يَتَكَلَّمُ بِهَا ، وَسَوَاسُ أَيْضًا فِي الطَّهَارَةِ ، بَعْضُ النَّاسِ يَصَابُ بِالْوَسَاوِسِ ، وَالْعِيَاذَ بِاللَّهِ ، يَدْخُلُ الْحَمَامُ لِلْوَضُوءِ الَّذِي لَا يَسْتَغْفِرُ خَمْسَ دَقَائِقَ يَبْقَى خَمْسَ سَاعَاتٍ ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ ،

(١) رَاجِعْ ذَلِكَ فِي الْبُخَارِيِّ فِي الطَّبِّ (٥٧٦٣) وَمُسْلِمٍ فِي السَّلَامِ (٤٣) وَأَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ (٥٧/٦) .

(٢) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ (٢٥١/٨) وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (٣٤٦/١٧) .

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الزُّهْدِ (٦) وَابْنُ مَاجَةٍ فِي السُّنَنِ (٣٩٩٧) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي السُّنَنِ (٢٤٦٢) .

وفي الصلاة تجده يكرر تكبيرة الإحرام يكرر الكاف عشرين مرة (الله أكبر) وربما يعجز ، حتى إن بعضهم يقول : إني ما أستطيع أن أصلي إطلاقاً . فيؤدي به الوسواس إلى ترك الصلاة ، يقع الوسواس في معاملة الأهل ، حتى إن بعضهم يُخيل إليه أن أهله وضعوا له سحراً في أكله وشربه ، فيأكل من المطاعم ، وحتى إن الرجل ليتكلم لأهله فيقول : يا أم فلان (زوجته) فيقول له الشيطان : طلقها وثنكده عليه الحال ، حتى إن بعضهم إذا فتح المصحف ليقراً كلما قلب ورقة خيل له الشيطان أنه قال لامرأته طالق فترك قراءة القرآن ، فالوسواس عظيمة لكن طردها سهل جداً بيّنه النبي ﷺ الذي أعطاه الله جوامع الكلم وفوائح الكلم ، وخواتم الكلم ، حين سُكي إليه هذا الأمر فقال ﷺ : « إذا وجد أحدكم ذلك فليستعذ بالله وليتته » (١) كلمتان ، يستعذ بالله ، يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ولكن يقولها بصدق وإخلاص ، وأنه ملتجئ إلى الله حقاً ، لا مفر له من الله إلا إليه ، وليتته : أي يُعرض عن هذا ، يعرض إطلاقاً ، إذا استعمل هذا وإن كان سوف يكبس على نفسه وسوف يتعلم وسوف يتعذب ، لكن هذا في أول الأمر ، ثم بعد ذلك يزول بالكلية ؛ لأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى ، قال : « فليستعذ وليتته » ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ من شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿ هذه الجمل الثلاثة ، الآيات الثلاث يمكن أن يقال إنها استوعبت أقسام التوحيد ﴾ ﴿ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ توحيد الربوبية ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ الأسماء والصفات ؛ لأن الملك لا يستحق أن يكون ملكاً إلا بتمام أسمائه وصفاته ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ الألوهية ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ قال العلماء : ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ هو الذي يخنس عند ذكر الله . ولهذا جاء في الحديث : « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » (٢) الغيلان : هي الأوهام والخيالات التي تعرض للإنسان في سفره ، ولا سيما في الأسفار الأولى على الإبل ، أو الإنسان الذي يسافر وحده ، فتتهول له الشياطين تتلون بألوان ، مثل : أسد ، ذئب ، ضبع ، شياطين ، جن « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » يعني قولوا : (الله أكبر) فتتلاشى ، لأن الشيطان يخنس عند ذكر الله ﷻ ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ يعني هذا الوسواس يكون من الجنة ويكون من الناس ، الجنة هي الجن ، والمراد بهم الشياطين توسوس في الصدور والناس أيضاً شياطين بني آدم وما أكثر الشياطين في زماننا وقبل زماننا وإلى يوم القيامة ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : ٣١] الآية ، كذلك لأتباع الأنبياء أعداء من الشياطين يأتون إلى الناس يوسوسون ، هذا كذا وهذا كذا ، ربما يوسوسون على السذج من العوام سواء في مذاهب باطلة وملل كاذبة أو غير ذلك ، المهم عندهم وسواس ، شياطين الإنس احذرهم ، احذر شياطين الإنس الذين يوسوسون لك في أمور يزينونها في نفسك وهي فاسدة . فالحمد لله أن هذه السور الثلاث ينبغي للإنسان أن يقرأها كل صباح وكل مساء لأمر النبي ﷺ بها . والله الموفق .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) ومسلم في الإيمان (٢١٤) كلاهما بلفظ « فإذا بلغه فليستعذ » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٢/٣) ، والألباني في الصحيحة (٣٥١/٢) .

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله في باب أذكار الصباح والمساء . ما نقله عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما من عبد يقول حين يمسي وحين يصبح : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، إلا وقاه الله تعالى شر ذلك اليوم » وهذه الكلمات كلمات يسيرة لكن فائدتها عظيمة « بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » لأن الله سبحانه وتعالى بيده ملكوت السماوات والأرض ، واسمه مبارك إذا ذكر على الشيء ، ولهذا يُسنُّ ذكر الله تعالى بالتسمية على الأكل ، إذا أردت أن تأكل تقول : « بسم الله » إذا أردت أن تشرب تقول : « بسم الله » إذا أردت أن تأتي أهلك تقول : « بسم الله » فالتسمية مشروعة في أماكن كثيرة ، ولكنها على القول الراجح على الأكل والشرب واجبة ، يجب على الإنسان إذا أراد أن يأكل أن يقول : « بسم الله » وإذا أراد أن يشرب أن يقول : « بسم الله » لأمر النبي ﷺ بذلك ^(١) ، ولأن النبي ﷺ ذكر أن من لم يسم الله على أكله شاركه الشيطان في ذلك ^(٢) ، فلا تنسى أن تقول في كل مساء وفي كل صباح : « بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » ثلاث مرات .

وقوله : « وهو السميع العليم » فالسميع من أسماء الله ، والعليم من أسماء الله ، فالسميع من أسماء الله تعالى ولها معنيان :

الأول : السمع الذي هو إدراك كل صوت ، فالله تعالى لا يخفى عليه شيء ، كل صوت فالله يسمعه مهما بُعد ومهما ضُغف لما أنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] وهي امرأة جاءت تشتكي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تقول : إن زوجها ظاهر منها ، يعني قال لها : أنت علي كظهر أمي . وهذا القول يعد في الجاهلية طلاقاً بائناً مثل الطلاق بالثلاثة ، وهو كذب ومنكر ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا بَيْنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ فجاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ فأنزل الله هذه الآية ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تكلمه وإنني لفني الحجرة ، ويخفى على بعض حديثها ، والله تعالى من فوق سبع سموات يسمع كلامهما ^(٣) . فالله تعالى يسمع كلامك وإن خفت (ضعف) ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] فإياك أن تُسمع الله ﷻ كلاماً لا يرضاه منك ، واحرص على أن تُسمع الله ما يرضاه منك .

ومن معاني السميع : أنه سميع الدعاء ، أي مجيب الدعاء ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] أي : مجيبه ، فهو جل وعلا يجيب دعاء المضطر وإن كان كافراً ، ولهذا

(١) انظر ذلك في أبو داود في السنن (٣٧٦٧) وأحمد في مسنده (٢٤٦/٦) والبيهقي في السنن (٢٧٦/٧) .

(٢) انظر ذلك في مسلم في الأشربة (١٠٢) (البغوي في شرح السنة (٢٧٦ ، ٢٧٥/١١) .

(٣) أخرجه النسائي (١٦٨/٦) ، وابن ماجه في السنن (١٨٨) .

يجيب الله ﷻ ، دعاء المضطرين في البحر ، إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فينجيهم ، ويجيب جل وعلا دعوة المظلوم ، قال النبي ﷺ : « وائق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » ^(١) ويجيب سبحانه وتعالى من تعبد له وحمده وأثنى عليه ، كما يقول المصلي : « سمع الله لمن حمده » .

وأما العليم فهو من أسمائه أيضًا ، وعلم الله تعالى علم واسع محيط بكل شيء قال الله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

يعلم ما في الأرحام ، ومفاتيح الغيب خمس مذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] فالله ﷻ عند مفاتيح الغيب ، ما تسقط من ورقة من شجرة إلا يعلمها إذا سقطت ورقة في شجرة في أبعد الفيافي ، ولو كانت الورقة صغيرة فالله يعلمها ، وإذا كان يعلم الساقط فهو جل وعلا يعلم الحادث الذي يخلقه ، فكل شيء فالله به عليم .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أنت الآن مثلاً في بلدك مستقر وليس عندك نية أن تسافر يمينا ولا شمالاً ، فإذا أراد الله أن تموت بأرض جعل لك حاجة ، تملك تلك الحاجة إلى تلك الأرض ، وتموت هناك .

ولقد حدثني الثقة عن قصة غريبة ، يقول : إنهم خرجوا من مكة عندما كان الناس يحجون على الإبل ، خرجوا من مكة بعد الحج ، وفي أثناء الطريق مرضت أمه فجعل يمرضها فارتحل القوم في آخر الليل ، وبقي هو يمرض أمه ويمهد لها الفراش على الراحلة ، ثم ركب الأم وسار يقودها ، فذهب مع أحد الريعان ، ضل الطريق ، ذهب مع أحد الريعان وارتفعت الشمس ، وارتفعت حرارة الجو ، فإذا بخباء صغير عند بادية ، فخرج عليهم (اتجه إليهم) ونزل سلم عليهم وقال لهم : أين طريق نجد ؟ قالوا : طريق نجد بعيد ، أنت الآن ليس حولك طريق ، ولكن انزل استرح ثم ندلك على الطريق . يقول : فأنخت الراحلة وأنزلت والدتي ، وحينما نزلت على الأرض قبض الله روحها ، سبحان الله ، يعني جاءت من بلدها إلى هذه الريعان المجهولة فماتت في المكان الذي قدر الله ﷻ أن تموت فيه ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فعلم الله محيط بكل شيء حتى ما في نفسك ، إذا كنت تفكر في نفسك فالله يعلم ما يدور بنفسك ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ ^(٢) [ق : ١٦] ، فإياك أن تخفي في نفسك ما الله مُبْدِيهِ ، إياك أن تخفي في نفسك ما لا يُرضي الله .

فالهم أن هذا الدعاء مشروع في كل صباح وفي كل مساء : « بسم الله الذي لا يضر مع اسمه

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٩٦/٤) والدارقطني في السنن (١٣٦/٢) وقد أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٨)

ومسلم في الإيمان (٢٩) بلفظ : اتق .

(٢) قوله : ﴿ تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أي ما تحدث به وتخطر بباله .

شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم .

٢٤٩ - باب ما يقوله عند النوم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ [آل عمران : ١٨٩ ، ١٩١] .
١٤٥٨ - وعن حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ : « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَحْيَا وَأَمُوتُ » ^(١) رواه البخاري .

١٤٥٩ - وعن علي رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ وَلِفَاطِمَةَ ، رضي الله عنهما : « إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا - أَوْ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا - فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ » وفي رواية : التَّسْبِيحُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ ، وفي رواية : « التَّكْبِيرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ » ^(٢) متفق عليه .

١٤٦٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ ، فَلْيَتَنَفَّضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَذَرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنِّي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ؛ إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي ، فَارْحَمْنِي ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا ، فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان ما يقوله الإنسان عند نومه ، ومنها : حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفاطمة بنت محمد رضي الله عنهما وصلى الله وسلم على أبيها ، وذلك أن فاطمة اشتكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما تجده من الرحي (أداة لطحن الحب) وطلبت من أبيها خادماً فقال صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أَدْلِكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْخَادِمِ ؟ » ثم أرشدهما إلى هذا ، أنهما إذا أويا إلى فراشهما وأخذتا مضجعهما ، يسبحان ثلاثاً وثلاثين ، ويحمدان ثلاثاً وثلاثين ، ويكبران أربعاً وثلاثين ، قال : « فهذا خير لكما من الخادم » . وعلى هذا فيسن للإنسان إذا أخذ مضجعه لينام أن يسبح ثلاثاً وثلاثين ، ويحمد ثلاثاً وثلاثين ، ويكبر أربعاً وثلاثين ؛ فهذه مائة مرة ، فإن هذا مما يعين الإنسان في قضاء حاجاته ، كما أنه أيضاً إذا نام فإنه ينام على ذكر الله تعالى .

(١) لم يقم الشارح رحمته الله بشرح هذه الآية وكذلك الحديث ، وقد وضعت النسخ المطبوعة هذا الجزء على شرح الحديث رقم (١٤٥٧) ، والحديث أخرجه البخاري في الأدب (٦٤٠٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٥٩) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٣٨٥/٥) . قوله : « إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ » أي استعد للنوم .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٨٠) بنحوه ، وأبو داود في الأدب (٥٠٦٢) . قوله : « مَضَاجِعُكُمْ » أي مكان نومكما .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٦٤) وأحمد في مسنده (٢٩٥/٢) . قوله : « بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ » أي بطرف إزاره .

وكذلك أيضًا حديث أبي هريرة : إذا أراد الإنسان أن ينام أن ينفذ فراشه بدخلة إزاره ثلاث مرات ، ودخلة الإزار طرفه مما يلي الجسد وكأن الحكمة من ذلك - والله أعلم - ألا يتلوث الإزار بما قد يحدث من أذى في الفراش ، وليقل : « باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » وذلك أن الإنسان إذا نام فإن الله تعالى يقبض روحه كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ^(١) ﴾ [الزمر: ٤٢] ولكن قبض الروح في المنام ليس كقبضها في الموت ، إلا أنه نوع من القبض ، ولهذا يفقد الإنسان وعيه ولا يحس بمن حوله ، فلهذا سماه الله تعالى وفاة ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ^(٢) ﴾ [الأنعام: ٦٠] فينبغي للإنسان أن يقول هذا الذكر « باسمك اللهم أحيأ وأموت ، اللهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » والله الموفق .

* * *

١٤٦١ - وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نَفَثَ في يديه ، وقَرَأَ بِالْمُعْذَاتِ وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ . متفق عليه .

وفي رواية لهما : أن النبي ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا قَرَأَ فِيهِمَا : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(٣) . متفق عليه . قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ : « النَّفْثُ » : نَفْثَ لَطِيفٌ بِلَا رِيقٍ .

١٤٦٢ - وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ، وَقُلْ : اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مُنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ ، فَإِنْ مِتُّ ؛ مِتُّ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ » ^(٤) متفق عليه .

١٤٦٣ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا

(١) قوله : ﴿ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ ﴾ أي يقبض الأرواح حين الموت وحين النوم بأن يقطع تعلقها بالأجسام تعلق التصرف ظاهراً وباطناً في الموت وظاهراً فقط في النوم .

(٢) قوله : ﴿ مَا جَرَحْتُم ﴾ أي ما كسبتم فيه بجوارحكم .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٥٩) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧٥) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٥٦) وأبو داود في الأدب (٥٠٤٦) .

قوله : « شقك » أي جانبك ، قوله : « أسلمت نفسي إليك » أي جعلتها متقادة لك تابعة لحكمك ، قوله : « فوضت

أمري إليك » أي رددته إليك ، قوله : « أَلْجَأْتُ ظَهْرِي » أي اعتمدت عليك في أموري كما يعتمد الإنسان بظهره إلى

ما يستند إليه ، قوله : « رغبة ورهبة » أي طمعا في ثوابك وخوفاً من عقابك ، قوله : « الفطرة » أي الإسلام .

وَسَقَانَا ، وَكَفَانَا وَأَوَانَا ، فَكَمْ يُمْنُ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤَيَّي « (١) رواه مسلم .
 ١٤٦٤ - وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَزُفَ ، وَضَعَ يَدَهُ الَّتِي تَحْتَ خَدِّهِ ،
 ثُمَّ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعُثُ عِبَادَكَ » (٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .
 وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ رِوَايَةِ حُفْصَةَ رضي الله عنها وَفِيهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

الشرح

هذه الأحاديث من بقية الأحاديث التي ساقها المؤلف في باب « أذكار النوم » فمنها حديث عائشة :
 أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ جَمَعَ كَفَيْهِ يَعْنِي ضَمَّ بَعْضَهُمَا إِلَى بَعْضٍ وَنَفَثَ فِيهِمَا ، وَالنَّفْثُ هُوَ
 النَّفْخُ مَعَ رِيْقٍ يَسِيرُ ، ثُمَّ يَقْرَأُ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ
 النَّاسِ ﴾ يَمْسَحُ بِهِمَا . أَيُ : بِيَدَيْهِ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِرَأْسِهِ وَمَقْدَمِ جَسَدِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .
 فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ، يَنْفِخُ فِي يَدَيْهِ مَجْمُوعَتَيْنِ وَيَقْرَأُ فِيهِمَا ﴿ قُلْ هُوَ
 اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ « ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » ، يَمْسَحُ رَأْسَهُ
 وَوَجْهَهُ وَصَدْرَهُ وَبَطْنَهُ وَفَخْذَيْهِ وَسَاقِيهِ وَكُلَّ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ جَسَدِهِ .

أما الحديث الثاني : فهو حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سبق شرحه .

وأما الحديث الثالث : فهو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ :
 « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا ، وَكَفَانَا وَأَوَانَا ، فَكَمْ مِنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤَيَّي » يَحْمَدُ اللَّهُ ﷻ
 الَّذِي أَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَسِّرُ لَكَ هَذَا الطَّعَامَ وَهَذَا الشَّرَابَ مَا أَكَلْتَ وَلَا شَرَبْتَ ، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ٦٤ « أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ٦٥ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ
 تَفَكَّهُونَ ٦٦ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ٦٧ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٦٨ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ ٦٩ « أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ
 السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ٧٠ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْلًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ٧١ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٧٠] فَتَحْمَدُ اللَّهُ الَّذِي
 أَطْعَمَكَ وَسَقَاكَ « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَأَوَانَا » كَفَانَا يَعْنِي : يَسِّرُ لَنَا الْأُمُورَ وَكَفَانَا
 الْمُؤُونَةَ ، وَأَوَانَا أَيُ : جَعَلَ لَنَا مَأْوًى نَأْوِي إِلَيْهِ ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مَأْوًى ، أَوْ وَلَا مُؤَيَّي ،
 فَيَنْبَغِي لَكَ إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ أَنْ تَقُولَ هَذَا الذِّكْرَ .

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٤) . قوله « فكم من لا كافي له ولا مؤوي » أي لا راحم له ولا عاطف عليه ، وقيل : لا وطن ولا مسكن يأوي إليه .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٩٥) وأبو داود في الأدب (٥٠٤٥) وأحمد في مسنده (٤٠٠/١) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧٧) .

(٣) قوله : ﴿ حُطَامًا ﴾ أي منكسراً مفتقراً لشدة تيسره . قوله : ﴿ لَمَعْرُومُونَ ﴾ أي لمهلكون بهلاك قومنا . قوله : ﴿ مَحْرُومُونَ ﴾ أي ممنوعون من الرزق بالكلية . قوله : ﴿ الْمَزِين ﴾ أي السحاب . قوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْلًا ﴾ أي ملحقاً لا يطاق لشدة مرارته .

ومن ذلك أيضًا : حديث حذيفة وحفصة رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ كان إذا اضطجع وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن وقال : « اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك » . فكل هذه أذكار واردة عن النبي ﷺ ينبغي على الإنسان أن يحفظها ويقولها كما كان النبي ﷺ يقولها . والله الموفق .

* * *

كتاب الدعوات
٢٥٠ - باب فضل الدعاء

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] . وقال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُنْتَدِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦] وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ الآية [النمل: ٦٢] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في كتاب الدعوات : والدعوات جمع دعوة ، وهي دعوة الإنسان ربه ﷻ ، يقول : يا رب ، يا رب . وما أشبه ذلك ، يسأل الله تعالى أن يعطيه ما يريد ، وأن يكشف عنه ما لا يريد . ثم قال باب الأمر بالدعاء وفضله . ثم ذكر الآيات : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] وهذا قول من الله ﷻ ووعد ، والله تعالى لا يخلف الميعاد ، ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ والمراد بالدعاء هنا دعاء العبادة ودعاء المسألة . أما دعاء العبادة : فهو أن يقوم الإنسان بعبادة الله ؛ لأن القائم بعبادة الله لو سألته : لماذا أقمت الصلاة ؟ لماذا آتيت الزكاة ؟ لماذا صمت ؟ لماذا حججت ؟ لماذا جاهدت ؟ لماذا بررت الوالدين ؟ لماذا وصلت الرحم ؟ لقال : أريد بذلك رضا الله ﷻ ، وهذه عبادة متضمنة للدعاء . أما دعاء المسألة : فهو أن تسأل الله الشيء فتقول : يا رب اغفر لي ، يا رب ارحمني ، يا رب ارزقني . وما أشبه ذلك .. وهذا أيضًا عبادة كما جاء في الحديث « الدعاء هو العبادة » ^(١) وهو عبادة لما فيه من صفة التوجه إلى الله ﷻ والاعتراف بفضله ، فيكون قوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ والاستجابة في دعاء العبادة هي قبولها ، والاستجابة في دعاء المسألة إعطاء الإنسان مسألته ، وهذا وعد من الله تعالى ، لكن لا بد من أمور ، فلا بد لإجابة الدعاء من شروط : الأول : الإخلاص ، أن تخلص لله فتكون داعيًا له حقًا لا تشرك به شيئًا ، لا تعبد رياء ولا سمعة ، ولا من أجل أن يقال : فلان حاج ، فلان سخي ، فلان كثير الصوم .

إذا قلت هذا أخطئ عملك ، فلا بد من الإخلاص في المسألة أيضًا ، ادع الله وأنت تشعر بأنك في

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٢٤٧) وأحمد في مسنده (٢٧١/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٧/٢) .

حاجة إليه وأنه غني عنك وقادر على إعطائك ما تسأل .

الشرط الثاني : أن يكون الدعاء لا عدوان فيه ، فإن كان فيه عدوان ؛ فإن الله لا يقبله ولو من الأب لابنه أو من الأم لابنها ، إذا كان فيه عدوان ، فإن الله لا يقبله لقول الله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُتَعَبِينَ ﴾ ^(١) [الأعراف : ٥٥] فلو دعا الإنسان بإثم بأن سأل ربه شيئاً محرماً فهذا لا يقبل ؛ لأنه معتد ، ولو سأل ما لا يمكن شرعاً ، مثل أن يقول : اللهم اجعلني نبياً . هذا لا يجوز وهو عدوان لا يقبل ، ولو دعا على مظلوم ؛ فإنه لا يقبل ، ولو دعت المرأة على ابنها لأنه يحب زوجته ؛ فإنه لا يقبل ، وكذلك الأب لو دعا على ابنه لأنه صاحب أناسا طيبين ؛ فإنه لا يقبل ، فيشترط أن لا يكون في الدعاء عدوان .

الشرط الثالث : أن يدعو الله تعالى وهو موقن بالإجابة لا دعاء تجربة ، لأن بعض الناس يدعو ليجرب ، ليرى هل يقبل الدعاء أم لا ؟ هذا لا يقبل منه ، ادعُ الله وأنت موقن بأن الله تعالى سوف يجيبك ، فإن دعوت وأنت في شك ؛ فإن الله لا يقبله منك .

الشرط الرابع : اجتناب الحرام ، بأن لا يكون الإنسان آكلًا للحرام ، فمن أكل الحرام من ربا أو فوائد غش أو كذب أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه لا يستجاب له ، والدليل على هذا قول النبي ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ قَتَبْتُمْ ﴾ ثم ذكر « الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء : يا رب يارب . ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّي بالحرام ، فأني يستجاب لذلك » ^(٢) . فاستبعد النبي ﷺ أن يستجاب لهذا مع أنه فعل من أسباب الإجابة ما يكون جديراً بالإجابة ، ولكن لما كان يأكل الحرام صار بعيداً أن يقبل الله منه .

فهذه أربعة شروط للدعاء لا بد منها . والله الموفق .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

الشرح

سبق لنا الكلام على بيان فضيلة الدعاء وشروط الإجابة ، وفي هذه الآية الكريمة يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ الخطاب إلى النبي ﷺ يقول الله له : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ يعني : هل أنا قريب أو لست بقريب ؟ فالجواب ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ وقربه جل وعلا قرب يليق بجلاله وعظمته ، ليس قرب

(١) قوله ﷻ : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ أي تذلاً واستكانة . وقوله ﷻ : ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ أي سراً في أنفسكم .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) ، والبيهقي في السنن (٣/٣٤٦) .

مكان ؛ لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء ، فوق السماوات السبع ، فوق العرش ، ولكنه قرب يليق بجلاله وعظمته ، فهو مع علوه العظيم الذي لا منتهى له إلا بذاته المقدسة ؛ فهو مع ذلك قريب في علوه ، بعيد في دنوه ، جل وعلا ، قال النبي ﷺ ذات يوم لأصحابه : « إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » ^(١) ولكنه فوق سماواته . السماوات السبع والأراضين السبع في كفه جل وعلا كالخردلة في كف أحدنا ، فهو محيط بكل شيء لا إله إلا هو .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ قرباً يليق بجلاله وعظمته وليس قرب مكان ، بمعنى أنه ليس عندنا في الأرض بل هو فوق السماوات جل وعلا ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ هذا الشاهد أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه حقيقةً والتجأ إليه وافقر إليه ، وعلم أنه لا يكشف السوء إلا الله وأنه محتاج إلى ربه ؛ فإنه إذا دعاه في هذا الحال أجابه سبحانه وتعالى ، ولكن لابد من ملاحظة الشروط السابقة . وقال تعالى : ﴿ قَلْبَسْتُمْ فِي الْيَدِ وَيُؤْمِنُوا بِئِي ﴾ ﴿ قَلْبَسْتُمْ فِي الْيَدِ ﴾ أي : لما دعوتهم إليه من عبادته ، ومنها أن يدعوني ؛ لأن الله أمرنا بذلك ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ﴿ وَيُؤْمِنُوا بِئِي ﴾ إيماناً حقيقياً لاشك معه ولا كفر معه ، وحينئذ يكون الله تعالى أسرع إليهم بالإجابة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ لعل هنا للتعليل ، أي : لأجل أن يرشدوا ، فيكونوا في جميع تصرفاتهم على وجه الرشd ، والرشd عكس الشفء ، وهذا أيضاً من الآيات التي تحث الإنسان إلى الدعاء بإيمان وإخلاص .

ثم ذكر المؤلف الآية الرابعة ، قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والنفي ، يعني لا أحد يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله ، فالله ﷻ يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً ، حتى الكافر إذا اضطر ودعا ربه أجابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَظُلُومٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْآلِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ^(٢) ﴾ [نisan : ٣٢] فالمضطر الذي تلجئه الضرورة إلى دعاء الله ولو كان كافراً يجيب الله دعوته ، فما بالك إذا كان مؤمناً ؟! فمن باب أولى ، فلا أحد يجيب المضطر إلا الله ، أما غير الله ﷻ فقد يجيب وقد لا يجيب ، ربما تستغيث بإنسان في ضيق أو حريق فلا يجيبك ، ولا ينقذك ، لكن الله ﷻ إذا اضطررت إليه ودعوته أجابك ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أي : يزيله ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : لا إله مع الله ، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وفي هذا ردٌّ وإبطال لما يدعيه عبادة الأصنام من أنها تجيبهم وتغيثهم ، فإن هذا لا حقيقة له ، أي أحد تدعوه من دون الله لا يجيب حتى الرسول ﷺ لو دعوته وقلت : يا رسول الله أنقذني من الشدة ؛ فإنك مشرك كافر ، والرسول ﷺ متبرئ منك ويقااتلك لو كان حيّاً ؛ لأنه لا أحد يُدعى إلا الله ، كل من يُدعى من دون الله فإنه لا يستجيب ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَٰهٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ وإذا خسر

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/٤) .

(٢) قوله ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ أي غلاهم وغطاهم . قوله ﴿ كَظُلُومٍ ﴾ هي ما أظلم أو جيل أو غيرها .

النَّاسُ كَانُوا لَمْ أَعْنَاءَ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَفِيرِينَ ﴿ [الأحقاف: ٥، ٦] فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على فضيلة الدعاء والدعوة إليه ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتعد عن ربه طرفة عين . والله الموفق .

١٤٦٥ - وَعَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ » ^(١) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

الشرح

عندما ذكر المؤلف رحمته الله الآيات الدالة على فضل الدعاء والأمر به ذكر الأحاديث ، وذلك أن الأدلة هي الكتاب ، والسنة ، وإجماع المسلمين ، والقياس الصحيح ، هذه هي الأدلة الأربعة التي بنى المسلمون عليها أحكام شريعة الله ﷻ (الكتاب ، السنة ، والإجماع ، والقياس الصحيح) وكلها تدور على القرآن الكريم ، هو الأصل ، فلولا أن الله ﷻ جعل طاعة رسول الله ﷺ من طاعته وأمر باتباع رسوله ﷺ ما كانت السنة دليلاً ، ولولا أن الله جعل إجماع هذه الأمة على حق ولا يمكن أن تجتمع على ضلالة ما كان الإجماع دليلاً ، ولولا أن الاعتبار والنظر وإلحاق النظر بالنظر من أدلة الشرع الذي دل عليه القرآن الكريم ، ما كان القياس أيضاً دليلاً ، ولكن كل هذا قد دل عليه القرآن بأنه دليل تثبت به الأحكام الشرعية .

فذكر المؤلف رحمته الله آيات من كتاب الله ﷻ في فضل الدعاء والأمر به ، ثم ذكر الأحاديث ، ومنها حديث الثعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال : « الدعاء هو العبادة » يعني : الدعاء من العبادة ويشهد لهذا قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] لم يقل : يستكبرون عن دعائي . قال : ﴿ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة .

ووجه ذلك من النظر : أن الإنسان إذا دعا ربه فقد اعترف لله ﷻ بالكمال وإجابة الدعاء ، وأنه علي كل شيء قدير ، وأن العطاء أحب إليه من المنع . ثم إنه لم يلجأ إلى غيره ، لم يدع غير الله ، لا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا قريباً ولا بعيداً ، وهذا هو حقيقة العبادة ، وبذلك تعرف أنك إذا دعوت الله أثبتت على هذا الدعاء سواء استجيب لك أم لا ؛ لأنك تعبد لله ﷻ ، فإذا قلت : يا رب اغفر لي ، يا رب ارحمني ، يا رب ارزقني ، يا رب اهدني ، فهذه عبادة تقربك إلى الله ﷻ ويكتب الله لك بها ثواباً عنده يوم القيامة . والله الموفق .

١٤٦٦ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَجِيبُ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ ، وَيَدْعُ مَا سِوَى ذَلِكَ ^(٢) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٧٩) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٤٧) ، وأحمد في مسنده (٢٧١/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٨٢) . قوله : « الجوامع من الدعاء » أي الدعاء الجامع للمهمات والمطالب .

١٤٦٧ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ : « اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

زَادَ مُسْلِمٌ فِي رِوَايَتِهِ قَالَ : وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعَاٍ دَعَا بِهَا فِيهِ ^(١) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في باب فضل الدعاء أحاديث : منها حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك ، يعني أنه إذا دعا يختار من الدعاء أجمعه ، كلمات جامعة عامة ، ويدع التفاصيل ، ولذلك لأن الدعاء العام أبلغ في العموم والشمول من التفاصيل ، فمثلاً إذا أراد أن يدعو الإنسان ربه أن يدخله الجنة قال : اللهم أدخلني الجنة . ولا يحتاج إلى أن يفصل ويقول فيها كذا وكذا ؛ لأنه قد يكون هناك أشياء لا يعلمها ، فيكون هذا التفصيل كالحاصل لها ، فإذا دعا دعاء عامًا كان هذا أشمل وأجمل . وأما تكرر الدعاء فسوف يأتي إن شاء الله أن النبي ﷺ كان يكرر الدعاء ، فإذا دعا ، دعا ثلاثاً . والظاهر أن المؤلف سيذكره . ومن أجمع ما يكون من الدعاء ما ذكره في حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » فإن هذا الدعاء أجمع الدعاء « ربنا آتينا في الدنيا حسنة » يشمل كل حسنات الدنيا ، من زوجة صالحة ، ومركب مريح ، وسكن مطمئن ، وغير ذلك ، « وفي الآخرة حسنة » كذلك يشمل حسنة الآخرة كلها ، من الحساب اليسير ، وإعطاء الكتاب باليمين ، والمرور على الصراط بسهولة ، والشرب من حوض الرسول ﷺ ، ودخول الجنة ، إلى غير ذلك من حسنات الآخرة . فهذا الدعاء من أجمع الأدعية ، بل هو أجمعها ؛ لأنه شامل ، وكان أنس رضي الله عنه يدعو بذلك ، وإذا دعا بشيء آخر دعا بذلك أيضًا ، يعني كأنه ﷺ لا يدعه أبدًا إذا دعا ، وهذا يدل على فضيلة هذا الدعاء ، وأنه ينبغي للإنسان أن يدعوه ، ولهذا كان الرسول ﷺ يختتم به أشواط الطواف ، يقول بين الركن اليماني والحجر الأسود : « ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » في آخر كل شوط . والله أعلم .

١٤٦٨ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى ، وَالتَّقَى ، وَالْعَقَافَ ، وَالْغِنَى » ^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٩) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦) ، وأحمد في مسنده (١٠٧/٣) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٢) ، وأحمد في مسنده (٤١٦/١) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٢) .

الشرح

لما ذكر المؤلف رحمته الله بعض الأحاديث الواردة في الدعاء ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغَنَى » هذه أربع كلمات يسألها النبي صلى الله عليه وسلم ربه « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى » والهدى يعني العلم النافع ، والهدى نوعان : هدى علم ، وهدى عمل . وبعضهم يقول : هدى دلالة ، وهدى توفيق . فإذا سأل الإنسان ربه الهدى فهو يسأل الأمرين ، يعني يسأل الله أن يعلمه وأن يوفقه للعمل ، وهذا داخل في قوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ يعني : دلنا على الخير ووفقنا إلى القيام به ، لأن الناس ينقسمون إلى أربعة أقسام في هذا الباب :

قسم علمه الله ووفقه للعمل وهذا أكمل الأقسام . وقسم حرم العلم والعمل . وقسم أوتي العلم وحرم العمل . وقسم أوتي العمل لكن بدون علم ، فضل كثير .

وخير الأقسام : الذي أوتي العلم والعمل وهذا داخل في دعاء الإنسان « اللَّهُمَّ اهْدِنِي » ، أو ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « التَّقَى » فالتقى بمعنى التقوى ، والتقوى اسم جامع لفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ؛ لأنه مأخوذ من الوقاية ولا يقيق من عذاب الله إلا فعل أوامره واجتناب نواهيه . « والعفاف » يعني العفاف عن الزنا ، ويشمل الزنا بأنواعه : زنا النظر ، زنا اللمس ، زنا الفرج ، زنا الاستماع ، كل أنواع الزنا ، فتسأل الله العفاف عن الزنا كله بأنواعه وأقسامه ، لأن الزنا والعياذ بالله من الفواحش ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ فَاحِشَةٌ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] وهو مفسد للأخلاق ، ومفسد للأنسب ، ومفسد للقلوب ، ومفسد للأديان . وأما « الغنى » فالمراد الغنى عن الخلق بأن يستغني الإنسان بما أعطاه الله عما في أيدي الناس ، سواء أعطاه الله مالا كثيرا أو قليلا ، والقناعة كنز لا يفنى ، وكثير من الناس يعطيه الله تعالى ما يكفيه لكن يكون الشح في قلبه والعياذ بالله ، فتجده دائما في فقر ، وإذا سألت الله الغنى فهو سؤال أن يغنيك الله تعالى عما في أيدي الناس بالقناعة والمال الذي تستغني به عن غيره جل وعلا . فهذه الأدعية الأربعة ينبغي أن يدعى بها كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بها « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغَنَى » . والله الموفق .

١٤٦٩ - وَعَنْ طَارِقِ بْنِ أَشْيَمٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ، صلى الله عليه وسلم الصَّلَاةَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ، وَارْحَمْنِي ، وَاهْدِنِي ، وَعَافِنِي » رواه مسلم .
وفي رواية له عَنْ طَارِقٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَأَتَاهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي ؟ قَالَ : « قُلْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ، وَارْحَمْنِي ، وَعَافِنِي ، وَارْزُقْنِي ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ » (١) .

الشرح

ساق المؤلف حديثاً عن طارق بن أشيم رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أسلم الرجل علمه الصلاة ؛ لأن الصلاة هي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، أركان الإسلام ، خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام ، وأعظم أركانه بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ الصلاة ، فكان النبي ﷺ يعلم الرجل إذا أسلم كيف يصلي ويأمره بهذا الدعاء « اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وعافني ، وارزقني » خمس كلمات يعلمها النبي ﷺ الرجل إذا أسلم .

« اللهم اغفر لي » يعني اغفر لي الذنوب ، والكافر إذا أسلم غفر الله له ذنوبه كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ^(١) ﴾ [الأنفال : ٣٨] ولكن مع ذلك طلب المغفرة حتى بعد الإسلام حتى من كل مسلم ؛ لأن الإنسان لا يخلو من الذنوب ، وقد جاء في الحديث : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » ^(٢) « وارحمني » يعني : أسبغ علي رحمتك ، ففيه طلب المغفرة ، والمغفرة : النجاة من السيئات والآثام والعقوبات ، وفيه طلب الرحمة ، والرحمة : حصول المطلوبات ؛ لأن الإنسان لا يتم له الأمر إلا إذا نجا من المكروب وفاز بالمطلوب .

« واهدني » وقد سبق لنا بيان معني « الهداية » أنها هداية علم وبيان ، وهداية توفيق ورشد . « وعافني وارزقني » عافني أي : من كل مرض ، والأمراض نوعان : مرض قلبي كما قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] ومرض جسمي في الأعضاء ، في البدن . وإذا سألت الله العافية فالمراد من هذا ومن هذا ، ومرض القلب أعظم من مرض البدن ؛ لأن مرض البدن ؛ إذا صبر الإنسان واحتسب الأجر من الله صار رفعة في درجاته وتكفيراً لسيئاته والنهائية فيه الموت ، والموت مآب كل حي ولا بد منه . لكن مرض القلب - والعياذ بالله - فساد الدنيا والآخرة ، إذا مرض القلب بالشك أو الشرك أو النفاق أو كراهة ما أنزل الله أو بغض أولياء الله ، أو ما أشبه ذلك فقد خسر الإنسان دينه وآخرته . ولهذا ينبغي لك إن سألت الله العافية أن تستحضر أنك تسأل الله العافية من مرض القلب والبدن ، مرض القلب الذي مداره على شك أو شرك أو شهوة ، وكذلك اللفظ الآخر الذي ذكره المؤلف ﷺ أن النبي ﷺ سأله رجل عن ما الذي ينفعه وما الذي يحتاجه فأمره أن يدعو بهذا الدعاء « اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وعافني ، وارزقني » فينبغي للإنسان أن يحرص على هذا الدعاء الذي علمه النبي ﷺ أمته والتي يبادر بتعليمها إذا أسلم ، « ارزقني » يعني الرزق الذي يقوم به البدن من الطعام والشراب واللباس والمسكن وغير ذلك ، والرزق الذي يقوم به القلب وهو العلم النافع والعمل الصالح ، وهذا يشمل هذا وهذا فالرزق نوعان : رزق يقوم به البدن ، ورزق يقوم به القلب ، والإنسان إذا قال : « ارزقني » فهو يسأل الله هذا وهذا . والله الموفق .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٩) .

(١) قوله ﷻ : ﴿ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي ما قد مضى .

١٤٧٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بن العاصِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ مُصْرَفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » ^(١) رواه مسلم .

١٤٧١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ ، وَذَرَكِ الشَّقَاءِ ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ » ^(٢) متفقٌ عليه .
وفي رواية : قَالَ سُفْيَانُ : أَشْكُ أَنِّي زِدْتُ وَاحِدَةً مِنْهَا .

الشرح

نقل المؤلف رحمته الله فيما كان يسوقه من أحاديث الدعاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اللَّهُمَّ مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » القلوب بيد الله ﻋﻠﻴﻪ ، كل قلب من قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبله حيث يشاء ^(٣) ، وكيف شاء ﻋﻠﻴﻪ ، ولهذا كان ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائماً أن يشيئه وأن يُصرف قلبه على طاعته ، وإنما خص القلب ؛ لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ، كما صح ذلك عن النبي ﷺ حين قال : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » ^(٤) وقوله : « صرف قلوبنا على طاعتك » قد يتبادر إلى الذهن أن الأولى أن يقال « إلى طاعتك » لكن قوله : « على طاعتك » أبلغ ، يعني قلب القلب على الطاعة فلا يتقلب على معصية الله ؛ لأن القلب إذا تقلب على الطاعة ؛ صار ينتقل من طاعة إلى أخرى ، من صلاة ، إلى ذكر ، إلى صدقة ، إلى صيام ، إلى علم ، إلى غير ذلك من طاعة الله ، فينبغي لنا أن ندعو بهذا الدعاء « اللَّهُمَّ مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

أما الحديث الثاني : حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ ، وَذَرَكِ الشَّقَاءِ ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ » فهذه أربع أشياء أمرنا الرسول ﷺ أن نتعوذ منها : أولاً : « جهد البلاء » أي من البلاء الذي يبلو الجهد ، أي الطاقة ، والبلاء نوعان : بلاء جسمي : كالأمراض ، وبلاء معنوي ذكري ؛ بأن يُتلى الإنسان بمن يتسلط عليه بلسانه فينشر معايه ويخفي محاسنه وما أشبه ذلك ، هذا من البلاء الذي يشق على الإنسان ، وربما يكون مشقة هذا على الإنسان أبلغ من مشقة البلاء الجسمي فيتعوذ الإنسان من جهد البلاء . أما البلاء البدني : فأمره ظاهر ، أمراض في الأعضاء ، أوجاع في البطن ، في الصدر ، في الرأس ، في الرقبة ، في أي مكان ، هذا من البلاء ،

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٧) . قوله : « مصرف القلوب » أي مغيرها من حال إلى حال .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٦١٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣٠٣) . قوله : « جهد البلاء » هي المشقة وكل ما أصاب الإنسان من شدة .

(٣) وذلك مصداقاً لما رواه مسلم في القدر (١٧) ، والترمذي في القدر (٢١٤١) ، وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) ، والبيهقي في شرح السنة (١٦٥/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠/٤) ، ومسلم في المساقاة (١٠٧) بلفظ : « وإن في الجسد » .

وربما يكون أيضًا من البلاء قسم ثالث : وهو ما يتلى الله به العبد من المصائب العظيمة الكبيرة ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ [الحج : ١١] إذا أصابه خير وراحة وطمأنينة اطمأن ، وإن أصابه فتنة دينية أو دنيوية انقلب على وجهه ، تجد إيمانه مثلاً متزعزع ، أدنى شبهة ترد عليه تصرفه عن الحق ، تجده لا يصبر ، أدنى بلاء يصيبه يصرفه عن الحق فيتسخط على قضاء الله وقدره ، وربما تقع في قلبه أشياء لا تليق بالله ﷻ من أجل هذا البلاء .

« ومن درك الشقاء » أي : ومن أن يدرك الشقاء ، والشقاء ضد السعادة ، والسعادة سببها العمل الصالح ، والشقاء سببه العمل السيئ ، فإذا استعذت بالله من درك الشقاء فهذا يتضمن الدعاء بالأداء لعمل عمل الأتقياء .

« ومن سوء القضاء » سوء القضاء يحتمل معنيين : المعنى الأول : أن أقضي قضاء سيئاً ، والمعنى الثاني : أن الله يقضي على الإنسان قضاءً يسوءه ، والقضاء يعني الحكم ، فالإنسان ربما يحكم بالهوى ويتعجل الأمور ولا يتأني ويضطرب ، هذا سوء قضاء ، كذلك القضاء من الله ، قد يقضي الله ﷻ على الإنسان قضاءً يسوءه ويحزنه ، فتستعين بالله ﷻ من سوء القضاء « ومن شماتة الأعداء » والأعداء جمع عدو ، وقد ذكر الفقهاء ضابطاً للعدو فقالوا : من سره ما ساء في شخص أو غمه فرحه فهو عدوه ، كل إنسان يسره ما ساءك أو يغمه فرحه فهو عدو لك . « وشماتة الأعداء » إن الأعداء يفرحون عليك ، يفرحون بما أصابك ، والعدو لاشك أنه يفرح في كل ما أصاب الإنسان من بلاء ، ويحزن في كل ما أصابه من خير ، فأنت تستعيز بالله ﷻ من شماتة الأعداء ، فأمرنا الرسول ﷺ أن نتعوذ بالله من هذه الأمور الأربعة ، فينبغي للإنسان أن يمثل أمر الرسول ﷺ وأن يستعيز بالله منها ؛ لعل الله أن يستجيب له . والله الموفق .

١٤٧٢ - وَعَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ » (١) رواه مسلم .

١٤٧٣ - وَعَنْ عَلِيٍّ ؓ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قُلْ : اللَّهُمَّ اهْدِنِي ، وَسَلِّدْنِي » . وفي رواية : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى ، وَالسَّدَادَ » (٢) رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧١) ، وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) ، والنسائي في السنن (٦٣/٣) . قوله : « عِصْمَةُ أَمْرِي » أي الذي اعتصم به في جميع أموري . قوله « واجعل الحياة زيادة لي في كل خير » أي اجعل طول عمري سبباً في زيادة الخير لي ، قوله : « واجعل الموت راحة لي من كل شر » أي عجل لي بالموت إذا انتشرت الفتن والهمم والابتلاءات .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٥) ، وأبو داود في الخاتم (٤٢٢٥) . قوله : « سددني » أي وفقني واجعلني مصيباً مستقيماً في جميع أموري .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها المؤلف رحمته الله في فضل الدعاء ، منها حديث علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يقول : « اللهم إني أسألك الهدى والسداد » أما الهدى : فقد سبق الكلام على معناه ، وأما السداد : فهو تسديد الإنسان في قوله وفعله وعقيدته ، والتسديد معناه : أن يوفق الإنسان إلى الصواب ، بحيث لا يضل وقد قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أي صوابًا ، فذكر الله تعالى في القول السديد فائدتان : الأولى : صلاح الأعمال . الثانية : مغفرة الذنوب .

فينبغي للإنسان أن يسأل الله هذا الدعاء « اللهم إني أسألك الهدى والسداد » أو يقول « اللهم اهْدني وسدّدني » المعنى واحد .

ومن ذلك أيضًا : حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي » أو « التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » . فبدأ بالدين ، وقال : « أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري » الذي به يعتصم الإنسان من الشر ويعتصم من الأعداء ؛ لأنه كلما صلح الدين اعتصم الإنسان به من كل شر ، وصلاح الدين يكون بالإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن أشرك بالله فدينه غير صالح ، من صلى رياءً ، أو تصدق رياءً ، أو صام رياءً ، أو قرأ القرآن رياءً ، أو ذكر الله رياءً ، أو طلب العلم رياءً ، أو جاهد رياءً ، فكل هذا عمله غير صالح والعباذ بالله ، وهو مردود عليه لقول الله تعالى في الحديث القدسي : « أنا أغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك به معي غيبي تركته وشركه » ^(١) كذلك المبتدع لا عصمة له ، فليس معصوماً من الشر بل الذي وقع فيه هو الشر ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » ^(٢) فالمبتدع وإن ذكر الله ، وإن سبّح ، وإن حمد ، وإن صلى على وجه ليس بمشروع ؛ فعمله مردود عليه ، قد يزين الشيطان للإنسان عبادةً قَلِيلَةً قلبه ويخشع ويكي ، ولكن ذلك لا ينفعه إذا كان بدعة ، بل هو مردود عليه ، ألم تر إلى النصاري يأتون الكنيسة ، ويكون ويخشعون أشد من خشوع بعض المسلمين ، ومع ذلك لا ينفعهم هذا ؛ لأنهم على ضلالة ، كذلك أهل البدع نجد مثلاً من أهل البدع ولاسيما الصوفية ، نجد عندهم أذكار كثيرة يذكرون الله ويكون ويخشعون ، وتلين قلوبهم ، لكن هذا كله لا ينفعهم ؛ لأنه على غير شرع الله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ^(٣) مردود عليه ، وقال : « من عمل عملاً ليس عليه

(١) انظر ابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٩/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) ، وابن ماجه في السنن (٤٢) ، وأحمد (٣١٠/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٠٧/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأفضية (١٧) ، وابن ماجه في المقدمة (١٤) ، وأحمد

في مسنده (٢٧٠/٦) .

أمرنا فهو رد» (١).

«أصلح لي ديني» يعني اجعله صالحاً بأن يكون خالصاً صواباً . وقوله : « هو عصمة أمري » يعني الذي أعتصم به من الشر والفتن وغير ذلك .

« وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي » الدنيا معاش تقيم فيه أو تسكن فيها إلى أن تموت ، ولكنها ليست دار قرار ، وأين الذين استقروا فيها ؟ أين الملوك وأبناء الملوك ؟ أين الأغنياء ؟ أين الأثرياء ؟ أين الفقراء ؟ أين الأسياد ؟ أين المسودون ؟ كلهم ذهبوا فصاروا أحاديث ، وأنت في يوم من الأيام ستكون أحاديث ، قال الشاعر الحكيم .

دُنْيَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْطِئًا حَتَّى يَرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ

هو الآن مُخْطِئٌ ، يقول : صار كذا وصار كذا ، ومات فلان وولد فلان ، ولكنه سوف يكون هو خبيراً من الأخبار ، نحن الآن نتحدث عن مشايخنا ، عن زملائنا ، عن إخواننا ، عن آبائنا ، خبر من الأخبار كأن لم يوجد بالدنيا ، كأنهم أحلام ، وهكذا أنت أيضاً ، فالدنيا معاش فقط وليست دار قرار ، ولكنها إن وفق الإنسان فيها إلى العمل الصالح وجعلها منفعة للآخرة فها حيداً ، وإن كانت الأخرى وصار يعمل للدنيا لا للآخرة خسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله ، ولهذا قال : « التي فيها معاشي » فقط معاش يعيش الإنسان ثم يتركها .

« وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي » الآخرة هي التي إليها المعاد ولا مفر منها ، قال الله تعالى في كتابه ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢﴾ [الواقعة: ٤٩ ، ٥٠] الأولون والآخرون كلهم سوف يجمعهم الله ﷻ في صعيد واحد يوم القيامة وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١﴾ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿٢﴾ [مرد: ١٠٣] لأجل معدود ، ما قال : لأجل ممدود ، بل معدود ، يعدُّ عدداً لكن كله يفنى سريعاً ، حال اليوم هو الذي معاد كل واحد ، كل واحد معاده إلى يوم القيامة والشاعر الحكيم يقول :

كُلُّ ابْنٍ أَتَىٰ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَىٰ آلَةٍ حَذْبَاءَ مَحْمُولٍ

كلنا سنحمل على النعش مهما طالبت بنا الحياة ، أو نحترق فتأكلنا النار ، أو نموت في فلاة من الأرض فتأكلنا السباع ، أو في البحر فتأكلنا الحيتان ، لا ندري ، المهم أن كل إنسان معاده إلى الآخرة ، ولهذا قال : « أصلح لي آخرتي التي إليها معادي » وصلاح الآخرة أن الله تعالى ينجيك من عذاب النار ويدخلك الجنة ، نسأل الله أن يصلح لي ولكم الآخرة .

« واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » الإنسان إذا وفق في هذه الحياة وصار يزداد خيراً كل يوم يكتسب عملاً صالحاً ويحسن ذلك بنفسه ، وتجدد يفرح إذا عمل عملاً صالحاً ويقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ ﷻ ﴾ [الأعراف: ٤٣] كل يوم يزداد ، يصلي ،

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (باب ٢٠) ، ومسلم في الأفضية (١٨) ، وأحمد في مسنده (١٤٦/٦) .

يسبح ، يقرأ ، يأمر بالمعروف ، ينهى عن المنكر ، يلقي أخاه بوجه طلق ، إلى آخره ، خيرات كثيرة ، فكلما ازداد الإنسان في حياته خيراً كانت حياته خيراً ، ولهذا في الحديث : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » ^(١) .

« واجعل الموت راحة لي من كل شر » الموت فقد الحياة ، لكن دعاء النبي ﷺ أن يجعل الله الموت له راحة من كل شر ؛ لأن الإنسان لا يدري ما يصيبه في هذه الدنيا ، قد يبقى في الدنيا طويلاً لكنه ينتكس - والعياذ بالله - يفسد دينه ، قد يبقى في الدنيا وتحدث فتن عظيمة يتعب فيها يقول : ليت أُمي لم تلدني ، يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، يجد فتناً عظيمة ، لكن قد يكون الموت الذي عجله الله له قد يكون راحة له من كل شر ، ولهذا كان الرسول يدعو بهذا الدعاء ، « واجعل الموت راحة لي من كل شر » فعليك يا أخي المسلم بهذا الدعاء « اللهم أصلح لي ... إلخ » .

١٤٧٤ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ » .

وفي رواية : « وَضَلَعَ الدِّينَ وَعَلَبَةَ الرِّجَالِ » ^(٢) رواه مسلم .

١٤٧٥ - وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : عَلَّمَنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي ، قَالَ : « قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » ^(٣) متفق عليه . وفي رواية : « وَفِي بَيْتِي » وَرَوَى : « ظُلْمًا كَثِيرًا » وَرَوَى « كَثِيرًا » بِالثَّاءِ الْمَثَلَةِ وَبِالْبَاءِ الْمُوحِدَةِ ، فَيَبْتِغِي أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا ، فَيَقَالُ : كَثِيرًا كَثِيرًا .

الشرح

هذه من الأحاديث التي ذكرها المؤلف في الأمر بالدعاء وفضله ، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهم والحزن » الحزن لما مضى ، والهم لما يستقبل ، والإنسان إذا كان حزيناً فيما مضى مهتماً لما يستقبل ؛ فإنه يتنكد عيشه ، لكن إذا كان لا يهتم إلا بحاضره ويستعد لمستقبله على الوجه الذي أمر به كان ذلك سبباً في طمأنينته ، فكان الرسول ﷺ يستعيز بالله من الهم والحزن . كثير من الناس تجده يهتم اهتماماً عظيماً للمستقبل ، اهتماماً لا داعي له ، فتستكد عليه حياته ويتعب ، وإذا وصل إلى حد الفعل وجده سهلاً ، وكثير من الناس أيضاً تجده يحزن لما مضى فيتنكد . « وأعوذ بك من العجز والهمم والكسل » العجز والهمم والكسل ، فالعجز عدم القدرة ، والهمم

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٤٦١/١) بلفظه ، وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٤/٤) ، والهندي في كنز العمال (٤٢٦٤٨) كلاهما بلفظ : « خير الناس من طال عمره » .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٥٠) ، والنسائي في السنن (٢٥٧/٨ ، ٢٦٩) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٤٨) ، وأحمد في مسنده (٤/١ ، ٧) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١) .

الشيخوخة ، والكسل عدم الإرادة ، وذلك أن الإنسان إذا لم يفعل فإما لعجزه عن الفعل لمرض أو غيره ، أو كبر ، وإما لعدم عزيمته وإرادته ، فكان الرسول ﷺ يستعيز بالله من العجز والهزم والكسل .

« وأعوذ بك من الجبن والبخل » الجبن : هو الشح بالنفس ، وألا يكون الإنسان شجاعاً فلا يُقدم في محل الإقدام . وأما البخل : فهو الشح بالمال ، لا ييذل المال بل يمسكه حتى في الأمور الواجبة لا يقوم بها .

« وأعوذ بك من ضلع الدين وغلبة الرجال » « ومن غلبة الدين وقهر الرجال » كلاهما صحيح ، فالدين هم والعياذ بالله ، هم بالنهار وسهر بالليل ^(١) ، والإنسان المدين يقلق ويتعب ، ولكن بشرى للإنسان أنه إذا أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، وإذا أخذها يريد إتلافها أتلفه الله .

فإذا أخذت أموال الناس بقرض ، أو ثمن مبيع ، أو أجرة بيت ، أو غير ذلك ، وأنت تريد الأداء ؛ أدّى الله عنك ، إما في الدنيا ؛ عينك حتى تسدد ، وإما في الآخرة ، صح ذلك عن النبي ﷺ . أما المتلاعب بأموال الناس والذي يأخذها ولا يريد أدائها ولكن يريد إتلافها فإن الله يتلفه والعياذ بالله .

وأما حديث أبي بكر رضي الله عنه : فإنه سأل النبي ﷺ دعاء يدعو به في الصلاة ، وأنت الآن أفهم من السائل ومن المسؤول ، السائل أبو بكر والمسؤول النبي ﷺ ، أحب الناس إلى الرسول ﷺ أبو بكر ، والرسول ﷺ أحب الناس إلى أبي بكر ، لا شك فالسؤال من حبيب إلى حبيه ، فلا بد أن يكون الجواب من أفضل الأجوبة .

وقوله « في صلاتي » يحتمل في السجود أو بعد التشهد الأخير ، قال : قل « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » هذا دعاء جامع نافع « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً » فهذا اعتراف من العبد بالظلم ، وهو من وسائل الدعاء ، يعني أن ذكر الإنسان حاله إلى ربه ﷻ ضمن الدعاء فهو وسيلة ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] فتوسل إلى الله بحاله .

« ولا يغفر الذنوب إلا أنت » هذا ثناء على الله ﷻ واعتراف بالعجز ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْفِرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] لو اجتمع الناس كلهم على أن يغفروا لك ذنباً واحداً ما استطاعوا ، وإنما الذي يغفر لك هو الله ﷻ .

وقوله : « اغفر لي مغفرة من عندك » أضافها إلى الله ؛ لأنها تكون أبلغ وأعظم ، فإن عظم العطاء من عظم المعطي « وارحمني » في المستقبل ، وقفني إلى كل خير « إنك أنت الغفور الرحيم » هذا توسل إلى الله ﷻ باسمين مناسبين للدعاء ، لأنه قال : « اغفر لي وارحمني » فالمناسب « إنك أنت الغفور الرحيم » فينبغي للإنسان أن يقول هذا الدعاء في صلاته ، إما في سجوده ، أو بعد التشهد الأخير . والله الموفق .

* * *

١٤٧٦ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي

(١) يدل لذلك ما ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٤٧٩) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٤٩٩/١) .

خَطِيتِي ، وَجَهْلِي ، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي ، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي ، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمَقْدَمُ ، وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١) متفق عليه .

١٤٧٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلْتُ ، وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ » ^(٢) رواه مسلم .

١٤٧٨ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ » ^(٣) رواه مسلم .

١٤٧٩ - وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَتَّسِبِعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا » ^(٤) رواه مسلم .

١٤٨٠ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ أَمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ . فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ ، وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ ، وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمَقْدَمُ ، وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ » .
رَأَدَ بَعْضُ الرُّوَاةِ : « وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » ^(٥) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث المتعددة ذكرها المؤلف في باب فضل الدعاء والأمر به وتشتمل على جمل كثيرة ، منها : أن النبي ﷺ سأل الله تعالى أن يغفر له ما قدم وما أخر ، فقال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي » وهذا يغني عنه كلمة واحدة « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٧٠) ، وأحمد في مسنده (٥٥/٤ ، ٦٣) بنحوه . قوله : « وإسرافي » أي مجاوزتي عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٥) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٥٥) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٦) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٥٠) ، والحاكم في المستدرک (٥٣١/١) . قوله : « وفجأة نقمته » أي الانتقام المباغت . قوله : « سخطك » أي غضبك .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٣) ، والنسائي في السنن (٢٥٨/٨) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٣) . قوله : « زكها » أي طهرها ، قوله « ومن نفس لا تشيع » معناه استعاذة من الحرص والطمع والشره ، وتعلق النفس بالأمال البعيدة .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٠) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٦٧) ، وأحمد في مسنده (٣٠٢/١) ، والبيهقي في السنن (٥/٣) . قوله : « لك أسلمت » أي انقدت ، قوله « وبك أمنت » أي صدقت ، قوله « وعليك توكلت » أي فوضت أمري إليك ، قوله « وإليك أنبت » أي أقبلت بهمتي وطاعتي وأعرضت عما سواك ، قوله « وبك خاصمت » أي بك أحتج وأدافع وأقاتل .

ذنبى كله ؛ لكن التفصيل في مقام الدعاء أمر مطلوب ؛ لأنه يؤدي إلى أن يتذكر الإنسان كل ما عمل ، مما أسر وأعلن وعلم وما لم يعلم ؛ ولأنه كلما تبادى في سؤال الله ﷻ ازداد تعلقاً بالله تعالى ومحبة له وخوفاً منه ورجاءً ، فلذلك كان النبي ﷺ يفصل فيما يسأل ربه ﷻ من مغفرة الذنوب وغير ذلك . وكذلك أيضاً استعاذ الرسول ﷺ من أمور كثيرة ، من شر الذنوب وآفاتهما ، وعذاب القبر ، وغير ذلك مما سمعتم في هذه الأحاديث ، وهذه الأحاديث ينبغي للإنسان أن يكتبها عنده من هذا الكتاب ، ويذكر الله تعالى بها ، ويدعو بها حتى ينتفع ، وأما قراءتها كما هي هنا فهي حسنة ولا بأس بها ، لكن في علمي أو ظني أنكم سوف تسمعونها الآن ثم تذهب عن قلوبكم ، لكن خير من هذا أن تكتبوها من هذا الكتاب ، وتدعو الله تعالى بها . والله الموفق .

* * *

١٤٨١ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ ، وَعَذَابِ النَّارِ ، وَمِنْ شَرِّ الْغَنَى وَالْفَقْرِ» ^(١) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَهَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ .

١٤٨٢ - وَعَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ عَنْ عَمِّهِ ، وَهُوَ قُطَيْبَةُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَنَكِرَاتِ الْأَخْلَاقِ ، وَالْأَعْمَالِ ، وَالْأَهْوَاءِ» ^(٢) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٤٨٣ - وَعَنْ شَكَلِ بْنِ حُمَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلَّمَنِي دُعَاءً . قَالَ : « قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي ، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي ، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي ، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي ، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي » ^(٣) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٤٨٤ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، كَانَ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَرَصِ ، وَالْجُنُونِ ، وَالْجَذَامِ ، وَسَيِّئِ الْأَسْقَامِ» ^(٤) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

١٤٨٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ ؛

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٤٣) ، والتِّرْمِذِيُّ في الدعوات (٣٤٨٩) ، والبخاري في الدعوات بلفظ مقارب (٦٣٧٦) . قوله «أعوذ بك من فتنة النار» أي من فتنة تؤدي إلى النار ، قوله «شر الغنى» هو الغنى الذي يؤدي إلى البطر والبطغيان .

(٢) أخرجه التِّرْمِذِيُّ في الدعوات (٣٥٨٥) . قوله «منكرات الأخلاق» مثل : العجب والكبر والخيلاء والفخر والحسد وغيرها . قوله «والأعمال» أي منكرات الأعمال ، مثل : الزنا وشرب الخمر وسائر المحرمات . قوله «والأهواء» هي مثل : الاعتقادات الفاسدة والمقاصد الباطلة .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٥١) ، والتِّرْمِذِيُّ في الدعوات (٣٤٨٧) وأحمد في مسنده (٤٢٩/٣) والحاكم في المستدرک (٥٣٢/١) . قوله «من شر قلبي» أي من شر الوقوع في الاعتقاد الفاسد ومن شر الحقد والحسد ، قوله «من شر مني» أي من شر الوقوع في الزنا .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٥٤) ، وأحمد في مسنده (١٩٢/٣) . قوله «البرص» هو بياض يحدث في الأعضاء ، قوله «سئى الأسقام» كالسل والاستسقاء والسرطان وكل مرض مزمن أو يتعذر البرء منه أو ينعدم .

فَإِنَّهُ يَسُ الْضُّجِيعُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ ؛ فَإِنَّهَا بِسُتِ الْبَطَانَةُ ^(١) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .
١٤٨٦ - وَعَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّ مَكَاتِبَنَا جَاءَهُ ، فَقَالَ : إِنِّي عَجَزْتُ عَنْ كِتَابَتِي . فَأَعْنِي . قَالَ : أَلَا
أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمْنِيَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلٍ ذِيْنَا أَدَاهُ اللَّهُ عَنْكَ ؟ قُلْ : « اللَّهُمَّ
اكْفِنِي بِحِلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَنْ سِوَاكَ » ^(٢) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

الشرح

هذه جملة أحاديث من الأدعية التي كان النبي ﷺ يدعو بها ، منها : أنه كان ﷺ يعوذ بالله من
منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء (الأمراض) كما في رواية أخرى . قوله : « سيئات
الأعمال والأخلاق » سيئات الأعمال هي المعاصي ، وسيئات الأخلاق هي سوء المعاملة مع الخلق ،
والأهواء : والإنسان له أهواء ، ومن الناس من يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، ومنهم من
يكون هواه تبعاً لنفسه وما تهواه . وأما الأدواء فهي الأمراض ، فهذه أيضاً مما ينبغي للإنسان أن يستعيذ
بالله منها ، فإذا أعاده الله من ذلك حصل على خير كثير .

ومنها : أنه كان ﷺ يستعيذ من البرص والجنون والجذام وسئ الأسقام ، وهذه أيضاً من أمراض
البدن والعقل .

« الجذام » : هو مرض يصيب الإنسان في أطرافه أحياناً - والعياذ بالله - إذا بدأ بالطرف يتآكل يتآكل
حتى يقضي على البدن كله ، ولهذا قال العلماء : إنه لا يجوز أن يخالط الجذماء الناس ، وأنه يجب على ولي
الأمر أن يجعلهم في مكان خاص ، وهو ما يعرف الآن عند الناس بالحجر الصحي ؛ لأن هذا المرض - والعياذ
بالله - « الجذام » من أشد الأمراض عدوى ، يسري سير الهواء - نسأل الله العافية - ولذلك قالوا : يجب
على ولي الأمر أن يجعل الجذماء (المصابون بمرض الجذام) في مكان خاص كي لا يختلطوا بالناس .

« وسئ الأسقام » وهو جمع سقم وهو المرض ، ويشمل كل الأمراض السيئة ومنها ما عرف الآن
بالسرطان ، نسأل الله العافية ؛ فإنه من أسوأ الأسقام . فمثل هذه الأحاديث ينبغي للإنسان أن يحرص
عليها وأن يقتدي به ﷺ فيها .

ومن ذلك : أن النبي ﷺ كان يستعيذ بالله من الجوع ويقول « إنه بس الضجيع » ومن الخيانة « فإنها
بست البطانة » . وانتهى ذلك وكما قلت لكم بالأمس إنه مهما كان من سرد الأحاديث فإنها تبخر ، لكن
ينبغي للإنسان أن يقيدها من هذا الكتاب في صحائف يختص بها ويحفظها شيئاً فشيئاً . والله الموفق .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٤٧) ، والنسائي في السنن (٢٦٣/٨) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٣٥٤)
قوله : « بس الضجيع » أي بس صاحب . قوله « بست البطانة » أي بست الخصلة الباطنة .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٦٤) ، والحاكم في المستدرک (٥٣٨/١) . قوله : « اكفني بحلالك عن
حرامك » أي اجعل الحلال مبعداً لي عن الحرام ، قوله « بفضلك » أي ما تجود به علي من الرزق والمال .

١٤٨٧ - وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَلَّمَ أَبَاهُ حُصَيْنًا كَلِمَتَيْنِ يَدْعُو بِهِمَا : « اللَّهُمَّ الْهِنِّي رُشْدِي ، وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي » ^(١) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٤٨٨ - وَعَنْ أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ تَعَالَى ، قَالَ : « سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ » فَمَكَّنْتُ أَثَامًا ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ تَعَالَى ، قَالَ لِي : « يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ، سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » ^(٢) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٤٨٩ - وَعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ : قُلْتُ لَأُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها : يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، إِذَا كَانَ عِنْدَكَ ؟ قَالَتْ : كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » ^(٣) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٤٩٠ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ عليه السلام : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، وَأَهْلِي ، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ » ^(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٤٩١ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « أَلْطُوا بَيْنَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ^(٥) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ رِوَايَةِ رِبْعَةَ بْنِ عَامِرٍ الصَّحَابِيِّ ، قَالَ الْحَاكِمُ : حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ . « أَلْطُوا » بِكسر اللام وتشديد الظاء المعجمة مَعْنَاهُ : الزَّمُوا هَذِهِ الدَّعْوَةَ وَأَكْثَرُوا مِنْهَا .

١٤٩٢ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ : دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِدُعَاءٍ كَثِيرٍ ، لَمْ نَحْفَظْ مِنْهُ شَيْئًا ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، دَعَوْتَ بِدُعَاءٍ كَثِيرٍ لَمْ نَحْفَظْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَقَالَ : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلُّهُ ؟ تَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلْتُكَ مِنْهُ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ ، وَعَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » ^(٦) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٤٩٣ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٨٣) ، وأحمد في مسنده (٤٤٤/٤) بمعناه . قوله : « وأعزني » أي اعصمني .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥١٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٢٢) ، وأحمد في مسنده (١١٢/٣) ، والحاكم في المستدرک (٢٨٨/٢) . قوله : « يا مقلب القلوب » أي يا مغير القلوب من حال إلى حال .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٩٠) .

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٢٥) ، وأحمد في مسنده (١٧٧/٤) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٩/١) . وانظر في نسبة الحديث إلى النسائي شرح الأحوذی (٤٠٥/٩) ولعل النسائي رواه في السنن الكبرى

(٦) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٢١) . قوله : « وعليك البلاغ » أي الإعانة على ما يبلغ إلى المطلوب .

مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ ^(١) . رواه الحاكم أبو عبد الله ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل الدعاء والتي كان الرسول ﷺ يدعو بها ويأمر بها ، فمنها حديث الحصين : أن النبي ﷺ كان يقول : « اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رَشْدِي ، وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي » وفي رواية : « وفني شر نفسي » . « أَلْهِمْنِي رَشْدِي » يعني اجعلني موفقاً إلى الرشد ، والرشد ضد الغي ، والغني هو المعاصي والشر والفساد ، والإنسان إذا وفق إلى الرشد فإنه موفق ، وهذا هو غاية المؤمنين الذين قال الله عنهم : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] فهذا هو الرشد .

ومن ذلك أيضاً : أن النبي ﷺ سأل العباس عن شيء يدعو الله به ، فقال : قل : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ » ثم جاءه بعد أيام فسأله - أي سأل النبي ﷺ - فقال : قل : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » . والعافية : هي السلامة من كل شر ، وإذا وفقك الله لها ، وعافاك من كل شر : من شر الأبدان ، والقلوب ، والأهواء ، وغيرها ؛ فأنت في خير .

ومن ذلك أيضاً : أن النبي ﷺ كان يكثر من هذا الدعاء « اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ » وسبق لنا أنه كان يدعو بدعاء آخر مقارب لهذا الدعاء وهو « اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » ^(٢) ، فإذا جمعتَ بينهما وقلت : « اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ ، اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ » كان هذا خيراً .

ومن ذلك أيضاً : هذا الدعاء الذي أثر عن داود عليه السلام : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يَحِبُّكَ ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يَقْرِبُنِي إِلَى حُبِّكَ » هذا أيضاً من الأدعية المهمة ، إذا أحببك الله وأحببت مَنْ يَحِبُّكَ ، كنت من أوليائه ، وكذلك إذا أحببت العمل الذي يحبه الله ﷻ فهذا أيضاً من الدعاء الذي ينبغي للإنسان أن يلزمه دائماً . فإن حب الله ﷻ هو الغاية . كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

ومن ذلك أيضاً : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مَوْجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ ، وَأَسْأَلُكَ الْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ » إلى غير ذلك من الأحاديث التي ذكرها المؤلف ، وقد سبق لنا أن قلنا لكم : يُفَضَّلُ أَنْ تَكْتُبُونَهَا مِنَ الْكِتَابِ ، وَتَقْرَؤُونَهَا ؛ لِأَنْ حَفَظَهَا فِي هَذَا الْوَقْتِ قَدْ يَكُونُ صَعْبًا عَلَى الْإِنْسَانِ ، لَكِنْ إِذَا أَخَذَهَا وَحَفَظَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا ، هَانَ عَلَيْهِ .

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٢١) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٨٤) ، والحاكم في المستدرک (٥٢٥/١) . قوله : « موجبات رحمتك » أي الأفعال والخصال التي تؤدي إلى رحمتك وتقضيها ، قوله « وعزائم مغفرتك » أي موجبات الغفران ، قوله « إثم » أي معصية ، قوله « والغنيمة » أي الإكثار ، قوله « بر » أي طاعة . (٢) أخرجه مسلم في القدر (١٧) ، وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) .

٢٥١ - باب فضل الدعاء بظهر الغيب

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠] . . . وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] . وقال تعالى إِنْخِرَازًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١] . ١٤٩٤ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ : وَلَكَ بِمِثْلٍ » ^(١) رواه مسلم .

١٤٩٥ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ : آمِينَ ، وَلَكَ بِمِثْلٍ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فضل الدعاء بظهر الغيب - يعني الدعاء لأخيك - بظهر الغيب - يعني في حال غيبته - وذلك أَنَّ الدعاء بظهر الغيب يدل دلالة واضحة على صدق الإيمان ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ^(٣) فإذا دعوت لأخيك بظهر الغيب بدون وصية منه كان هذا دليلاً على محبتك إياه ، وأنتك تحب له من الخير ما تحب لنفسك . ثم استدلل المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بثلاث آيات من كتاب الله ، ومنها قوله تعالى إلى النبي ﷺ : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] فأمر الله نبيه ﷺ أَنْ يستغفر لذنبه ، وأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات . وما أكثر الأحاديث التي فيها أن النبي ﷺ يستغفر لذنبه ، ونحن نعلم أنه يستغفر للمؤمنين أيضاً ؛ لأنه أمر بذلك ، ومعنى ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يعني : اطلب المغفرة من الله ﷻ أَنْ يغفر ذنبك ، والمغفرة : ستر الذنب والتجاوز عنه ؛ لأن هذا هو الذي يدل عليه الاشتقاق ؛ فإنه مشتق من المغفر : وهو وقاية الرأس بالبيرة المعروفة (الخوذة) توضع على الرأس عند القتال ، فتقيه من السهام وتستره .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ وهؤلاء هم الصنف الثالث من الأصناف الثلاثة ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٨) ، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٥) بنحوه . قوله « ملك موكل » أي مكلف بالإتيان بما يأتي عن ذلك المرء .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٥) ، ومسلم في الإيمان (٧١) ، والترمذي في السنن (٢٥١٥) ، والنسائي في السنن (١١٥/٨) ، وأحمد في مسنده (٢٧٦/٣) .

أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ [الحشر: ٨] فوصفهم الله بالهجرة والنصرة .

الصف الثاني قال الله فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] .

وهؤلاء هم الأنصار ، أنصار المدينة .

والصف الثالث : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذه دعوة لإخوانهم بظهر الغيب .
وأما الآية الثالثة : فقال الله تعالى إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ فقله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا دعاء للمؤمنين بظهر الغيب .

إذن الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب من طرق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ومن سبيل الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ومن ذلك : أننا نحن كلنا ندعو لإخواننا في صلاتنا بظهر الغيب ، كلنا يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وهذا دعاء ، وقد قال النبي ﷺ : « إنكم إذا قلتم ذلك ، فإنكم قد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض » (١) .

إذن إذا قلت : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » فهذا دعاء لإخوانك بظهر الغيب .
ثم ذكر المؤلف حديث أبي الدرداء رضي الله عنه : أن الإنسان إذا دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك : « آمين ، ولك مثله » يعني : لك بمثل ذلك ، فالملك يؤمن على دعائك إذا دعوت لأخيك بظهر الغيب ويقول : « لك مثله » وهذا يدل على فضيلة هذا . لكن هذا فيمن لم يطلب منك أن تدعوه له ، أما من طلب منك أن تدعوه له فدعوت له ، فهذا كأنه شاهد ؛ لأنه يسمع كلامك ؛ لأنه هو الذي طلب منك ، لكن إذا دعوت له بظهر الغيب بدون أن يخبرك ، أو يطلب منك ، فهذا هو الذي فيه الأجر ، وفيه الفضل . والله الموفق .

* * *

٢٥٢ - باب في مسائل من الدعاء

١٤٩٦ - عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ ضَمَّنَ إِلَيْهِ مَغْرُوفًا ، فَقَالَ لِقَائِهِ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي النَّيِّ » (٢) . رواه الترمذي وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .
١٤٩٧ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تَوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ ، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ » (٣) رواه مسلم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣١/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٥) ، والطبراني في الصغير (١٤٨/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٧٤) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٢) .

١٤٩٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

هذه مسائل متشكلة من أنواع الدعاء منها حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « مَنْ صَنَعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، فَقَدْ أْبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ » إذا صنع إليك إنسان معروفًا بمال أو مساعدة ، أو علم ، أو غير ذلك ، فإن النبي ﷺ أمر أن تكافئ صانع المعروف فقال : « من صنع إليكم معروفًا فكافئوه » .

والمكافأة تكون بحسب الحال ، من الناس من تكون مكافأته أن تعطيه مثل ما أعطاك أو أكثر ، ومن الناس من تكون مكافأته أن تدعو له ولا يرضى أن تكافئه بمال ، فإن الإنسان الكبير الذي عنده أموال كثيرة ، وله جاه ، وشرف في قومه ، إذا أهدى إليك شيئًا ، فأعطيته مثل ما أهدى إليك ، رأى في ذلك قصورًا في حقه ، لكن مثل هذا اذع الله له فإن لم تجدوا ما تكافئونه ، فاذع له حتى تروا أنكم قد كافأتموه ومن ذلك أن تقول له : « جزاك الله خيرًا » ، إذا أعطاك شيئًا ، أو فعلك بشيء ، لأنك إذا قلت له « جزاك الله خيرًا » فقد أبلغت في الثناء ^(٢) ، وذلك لأن الله تعالى إذا جزاه خيرًا ؛ كان ذلك سعادة له في الدنيا والآخرة .

وأما الحديث الثاني : وهو حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تدعو على أنفسكم ، ولا على أولادكم ، ولا على أموالكم » فإنه ربما يصادف ساعة إجابة فتجانب ، فهذا يقع كثيرًا عند الغضب ، إذا غضب الإنسان ، ربما يدعو على نفسه وربما يدعو على ولده ، ويقول : قاتلك الله ، جزاك الله وما أشبه ذلك ، حتى إن بعضهم يدعو على ولده باللعنة ، نسأل الله العافية ، وكذلك نجد بعضهم يدعو على أهله ، على زوجته ، على أخته ، ربما دعا على أمه والعياذ بالله مع الغضب ، وكذلك أيضًا يدعو على ماله ، يقول مثلاً على سيارة اختلفوا عليها : اللهم لا تبارك في هذه السيارة ، أو في هذه الدار ، أو هذا الفراش ، وما أشبه ذلك ، كل ذلك نهى النبي ﷺ أن ندعو عليه ؛ لأنه ربما تصادف ساعة إجابة ، فإذا تصادف ساعة إجابة ؛ فإنه يستجاب . لو قلت لولدك : تعال لماذا فعلت كذا ؟ الله لا يوفقك ، الله لا يربحك ، الله لا يصلحك ، فتصادف ساعة إجابة ، كل هذا حرام لا يجوز ؛ لأنه ربما تصادف ساعة إجابة . كذلك المال : المال الذي يتعاكس عليك ، السيارة ، أو الشغل في البيت ، أو غير ذلك لا تدع عليه ، لكن قل : اللهم يسر الأمر ، اللهم سهّل حتى يحصل التسهيل والتيسير .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) وأبو داود في الصلاة (٨٧٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) . قوله : « من ربه » أي من رحمة ربه أثناء سجوده في الصلاة .

(٢) وذلك مصداقًا لما أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٧٧/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥٠/٤) والبغوي في شرح السنة (٨٧/٣) .

وأما حديث أبي هريرة : فيه أن النبي ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء » ، الإنسان إذا كان يدعو الله تعالى ؛ فإنه قريب من الله ، والله تعالى قريب منه ، كما قال جل وعلا : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] « أقرب ما يكون الإنسان من ربه وهو ساجد » وذلك لأن في السجود كمال الخضوع لله ﷻ لأنك تضع أشرف أعضائك وأعلى أعضائك ، تضعها في الأسفل ، في موضع الأقدام تعظيماً للرب ﷻ فيأبى الله تعالى إلا أن يقرب منك في هذا الحال وأنت تقرب من ربك ، فأكثروا من الدعاء وأنتم ساجدون في الفرائض والنوافل ، أكثر من الدعاء في أمور الدنيا وأمور الآخرة ، كله خير ، حتى لو كنت تدعو الله في أمور الدنيا وأنت ساجد فهو خير ؛ لأن الدعاء عبادة ، لو قلت : اللهم كثر مالي ، اللهم هنيئ لي سكناً جميلاً ، اللهم هنيئ لي سيارة مريحة ، وما أشبه ذلك فلا بأس به ، ولو كان في الفريضة : اللهم اغفر لي ولوالدي مثلاً ؛ لأن الدعاء عبادة ، فأني شيء تدعو به الله فإنه عبادة ، أي شيء ، حتى جاء في الحديث : « ليسأل أحدكم ربه حتى شارك نعله » (١) شارك النعل : شيء زهيد ولكن تسأل الله كل شيء ؛ لأن كل شيء تسأله الله فهو عبادة لك . ثم اعلم أنك إذا سألت الله فإنك رابح في كل حال ؛ لأنه إما أن يعطيك ما تسأل ، أو يصرف عنك من السوء ما هو أعظم ، أو يدخر ذلك لك عنده يوم القيامة أجراً ، فمن دعا الله تعالى فإنه لا يخيب ، فأكثر من الدعاء ، أكثر من دعاء الله ، أكثر من الاستغفار إلى الله ، والتوبة إليه ، فإن الرسول ﷺ يقول : « إِنَّهُ لَيَعَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ » (٢) وهو الذي قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، يستغفر الله . ويتوب إليه في اليوم مائة مرة ، ولا تغفل هذا في اليوم وهو يسير ؛ يعني لو قلت : أستغفر الله وأتوب إليه تنتهي من مائة مرة في عشر دقائق أو أقل ، الأمر بسيط ، وبه تحصل على خير والافتداء بالرسول ﷺ ، والله الموفق .

* * *

١٤٩٩ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَغْفُلْ ؛ يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يُسْتَجِبْ لِي » متفق عليه .

وفي رواية لمسلم : « لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ ، أَوْ قَطِيعَةٍ رَجِمَ ، مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ » قيل : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ ؟ قَالَ : « يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ ، وَقَدْ دَعَوْتُ ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِبْ لِي ، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَيَدْعُ الدُّعَاءَ » (٣) .

(١) انظر الحديث بنصه في مجمع الزوائد (١٥٠/١٠) والهندي في كنز العمال (٣١٣٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤١) وأبو داود في السنن (١٥١٥) وأحمد في مسنده (٢١١/٤) والبيهقي في السنن (٥٢/٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٠) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٣) . قوله « فيستحسر » أي فيغيب .

الشرح

إن هذا الحديث في باب آداب الدعاء ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل » ، يعني أن الإنسان حري أن يستجيب الله دعاءه إلا إذا عجل ، ومعنى العجلة فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم بأن الإنسان يقول : دعوت ودعوت فلم أر من يستجيب لي ، فحيث يستحسر ويدع الدعاء ، وهذا من جهل الإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يمنعك ما دعوته به إلا للحكمة ، أو لوجود مانع يمنع من إجابة الدعاء ، ولكن إذا دعوت الله فادع الله تعالى وأنت مُعَلَّب للرجاء على اليأس حتى يحقق الله لك ما تريد ، ثم إن أعطاك الله ما سألت فهذا المطلوب ، وإن لم يعطك ما سألت ؛ فإنه يرفع عنك من البلاء أكثر ، وأنت لا تدري ، أو يدخر ذلك لك عنده يوم القيامة . فلا تيأس ولا تستحسر ، ولكن ادع ما دام الدعاء عبادة ، فلماذا لا تكثر منه ، استجاب الله لك أو لم يستجب ، ولا تستحسر ولا تسيء الظن بالله تعالى فإن الله تعالى حكيم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] . والله الموفق .

* * *

١٥٠٠ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ : قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : أَيُّ الدَّعَائِ أَسْمَعُ ؟ قَالَ : « جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ ، وَدُبُرُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٥٠١ - وَعَنْ عُבَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا ، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ الشَّيْءِ مِثْلَهَا . مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ ، أَوْ قَطِيعَةٍ رَجِمَ » فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : إِذَا نَكُحْتُ ، قَالَ : « اللَّهُ أَكْثَرُ » ^(٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ ، وَزَادَ فِيهِ : « أَوْ يَدْخِرُ لَهُ مِنَ الْآخِرِ مِثْلَهَا » .

١٥٠٢ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ ، وَرَبُّ الْأَرْضِ ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث من بقية الأحاديث التي جمعها النووي رحمته الله في كتابه رياض الصالحين منها الحديث الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلَ : أي الدعاء أسمع ؟ يعني أي الدعاء أقرب إجابة ؟ فقال :

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٩٩) والبيهقي في السنن (٤٥٥/٢) . قوله « جوف الليل » أي وسطه ، قوله « ودبر الصلوات » أي عقب صلاة الفريضة .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٧٣) . قوله « إلا آتاه الله إياها » أي عجلها له ، قوله « الله أكثر » أي أكثر إحساناً ونوالاً مما تطلبون وتسالون ، قوله : « أو يدخر له » أي يحفظها له إلى يوم القيامة .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٨٣) وأحمد في مسنده (٢٢٨/١ ، ٢٥٩) .

«جوف الليل الآخر وأدبار الصلوات المكتوبة» «جوف الليل الآخر» يعني آخر الليل ، وذلك لأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ ^(١) فينبغي للإنسان أن يجتهد بالدعاء في هذا الجزء من الليل ، رجاء الإجابة .

الثانية : أدبار الصلوات المكتوبات ، وأدبار الصلوات يعني أواخرها ، وهذا قد أرشد عنه النبي ﷺ حين ذكر التشهد ، ثم قال بعد ذلك : « ثم ليتخير من الدعاء ما يشاء » ^(٢) وليس المراد بأدبار الصلوات هي ما بعد السلام ؛ لأن ما بعد السلام في الصلوات هو ليس محل دعاء إنما هو محل ذكر ، لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] ولكن المراد بأدبار الصلوات المكتوبة أواخرها .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي أمامة رضي الله عنه : « أنه ما من مسلم يدعو الله تعالى بشيء إلا وأعطاه ما سأل ، أو صرف عنه من السوء مثل ذلك ، أو ادخر له أجره عنده يوم القيامة » وقد سبق لنا بيان هذا ، ويثبت أنه لا يخيب من يسأل الله . بل لا بد أن يحدث له واحد من هذه الأمور الثلاثة إلا أن يدعو بإثم ، أي بشيء محرم ؛ فإنه لا يستجاب له ؛ لأن الدعاء بالإثم ظلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْفَالِغُونَ ﴾ [الأنعام : ٢١] .

وأما الحديث الأخير فهو في دعاء الكرب : أن النبي ﷺ كان يقول : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم » فهذه الكلمات إذا قالها الإنسان عند الكرب كانت سبباً في تفرج كربه . والله الموفق .

* * *

٢٥٢ - باب كرامات الأولياء وفضلهم

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۚ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۚ ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٤] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَخْلَعْنَ ۖ تَخْلَعُ عَلَيْكَ رُطَبًا حَبِيبًا ۚ ﴾ [مريم : ٢٥ ، ٢٦] .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمته الله تعالى باب كرامات الأولياء وفضلهم . والكرامات هنا معناها هي

(١) انظر نص الحديث في البخاري في التهجد (١١٤٥) ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨) وأبو داود في السنن (١٣١٥) وابن ماجه في السنن (١٣٦٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٥٧) والدارمي في الصلاة (٨٤) وأحمد في مسنده (٣٨٢/١ ، ٤١٣) .

كل أمر خارق للعادة ، يُظهره الله سبحانه وتعالى على يد مُتبعي الرسول ﷺ ، هذه الكرامة يعني أمر غير معتاد يُظهره الله على يد متبع الرسول ، إما تكريمًا له ، وإما نصرة للحق . وهي ثابتة - أعني الكرامات - ثابتة بالكتاب والسنة والواقع . ولكن من هم الأولياء ؟ الأولياء : هم من يَتَّبِعُهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١١٠ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ هؤلاء هم الأولياء ، جمعوا بين الإيمان والتقوى ، وليس أولياؤه الذين يدعون أنهم أولياؤه وهم أعداؤه كما يُفْعَلُ في بعض البلاد ، يأتي الرجل يدعي أنه ولي ، وهو عاصٍ فاسق يدعو الناس إلى أن يعبدوه ويطيعوه في كل شيء ، ويدعي أن الله قد أحل له كل شيء ، حتى المحرمات أحلها الله له ؛ لأنه بلغ الغاية . هؤلاء ليسوا أولياء الله ، هؤلاء أعداء الله . وليُّ الله هو المؤمن التقى ، كما في هذه الآية الكريمة التي ساقها المؤلف ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١١١ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ وسوف يذكر المؤلف إن شاء الله الآيات والأحاديث الدالة على ذلك ، والواقع أيضًا .

والفرق بين الآية ، آية النبي ﷺ وكرامة الولي وشعوذة المشعوذ : الفرق بينهم أن آية النبي ﷺ أمر خارق للعادة يُظهره الله تعالى على يد النبي ﷺ تأييدًا له وتصديقًا له . مثل : إحياء عيسى عليه السلام للموتى ، فقد كان عيسى ابن مريم عليه السلام يحيي الموتى ، بل يخرجهم من القبور بعد الدفن كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نُنْفِخُ الْمَوْتَقَ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠] فيقف على القبر ويدعو صاحبه فيخرج من قبره حيًا ، ويُبرئ الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين على صورة الطير ، يعني يصنع شيئًا على صورة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا بإذن الله ، يطير من بين يديه ، كان بالأول طينًا فإذا نفخ فيه طار ، هذا أيضًا من آيات الله . إذن فأيات الأنبياء هي أمور خارقة للعادة ، يُظهرها الله تعالى على أيديهم تأييدًا لهم .

أما كرامات الأولياء : فهي أمور خارقة للعادة ولكنها لا تكون للأنبياء بل تكون لمُتبعي الأنبياء ، مثل ما حدث لمریم بنت عمران : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ ١١٢ فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّي خُتَمَكَ سَرِيًّا ﴿ ١١٣ وَهَزَيْتُ لَكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿ ١١٤ [مریم : ٢٣ - ٢٥] هذه من آيات الله ، كرامة لمریم ، امرأة في المخاض تحت نخلة تهز الجذع ، وهز الجذع ليس سهلاً ، هز رأس النخلة ممكن ، لكن هز الجذع صعب ، تهز الجذع ثم يتساقط الرطب من النخلة جنيًا يعني كأنه مخروط خرطًا ، ما يتفصص إذا نزل في الأرض أو يفسد ، هذه آية من آيات الله ، كذلك ما حدث لها من الحمل والولادة كلها من آيات الله ﷻ كرامة لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَهَا وَأَنبَهَا بِآيَةٍ لِلْعَلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

الأمر الثالث : الذي يظهره الله على يد المشعوذين الذين يستخدمون الجن ، يظهره الله ﷻ على أيديهم : فتنة لهم وفتنة بهم ؛ فإنه يوجد من الناس من يأتي بأشياء خارقة للعادة ولكنه ليس وليًا

(١) قوله : ﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أي ألجأها . قوله : ﴿ الْمَخَاضُ ﴾ أي وجع الولادة . قوله : ﴿ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ أي شيئًا متروكًا . قوله : ﴿ سَرِيًّا ﴾ أي إنسانًا رفيع القدر .

فنقول : كرامة ، ومعلوم أيضاً أنه ليس بنبي ؛ لأنه لا نبي بعد محمد ﷺ ؛ إذن فهو من الشياطين .
 الأمر الرابع : ما يكون خارقاً للعادة يُظهره الله ﷻ على يد الكاذب تكديماً له ، مثل ما يذكر عن
 مسيلمة الكذاب ، فمسيلمة كان رجلاً ادعى النبوة في آخر حياة النبي ﷺ وقال : إنه نبي وتبعه من تبعه
 من الناس ، وفي يوم من الأيام أتاه قوم أهل حرب يشكون إليه أن آبارهم قد غار ماؤها ولم يبق فيه إلا
 القليل ، وطلبوا منه أن يأتي إلى البئر ويمج فيه من ريقه لعله يعود فيه الماء ، فذهب فأعطوه ما توضع به ثم
 مجه في البئر ، وكان في البئر شيء من الماء ، ولما مجه في البئر غار الماء كله ما بقي شيء ، هذا خارق
 للعادة ، ولا شك أنه آية ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعله إهانة لذلك الرجل الكذاب وإظهاراً لكذبه .
 فهذه أربعة أشياء : آية النبي ، وكرامة الولي ، وشعوة المشعوز ، وإهانة الكذاب المفترى ، كلها أمور
 خارقة للعادة ، لكنها تختلف في حسب من أظهرها الله على يديه ، ومن الآيات التي ذكرها المؤلف .
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكِّيَّا الْوَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْزِجُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَقْبُذُونَ إِلَّا
 اللَّهُ فَأَوْرَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَيْكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا ۝ وَزَيَّ السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّهُ
 عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٦ ، ١٧] .

الشرح

تقدم لنا الكلام على كرامات الأولياء وأنها كل أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الولي
 تكريماً له أو نصرةً لدين الله ، وذكرنا أن هناك آيات ، وهناك شعوة ، وهناك إهانات ، أربعة أشياء
 كلها تخرج عن العادة وبينها فيما سبق .

واعلم أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه هذا الولي ؛ لأن هذا الولي الذي اتبع هذا النبي
 إذا أكرم بكرامة فهي شهادة من الله ﷻ على صحة طريقته ، وعلى صحة الشرع الذي اتبعه ، ولهذا
 نقول : كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه .

ثم ذكر المؤلف آيات فيها كرامات منها : ﴿ كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكِّيَّا الْوَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ
 يَمْزِجُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ مريم ابنة عمران نذرتها
 أمها : ﴿ إِذْ قَالَتْ أَمْرًا عِزْرَنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝
 فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنِّي لَأَنذِرُكَ لِأَنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝
 أُعِيدُهَا بِكَ وَوَرِّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكِّيًّا كُلَّمَآ
 دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكِّيَّا الْوَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْزِجُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ
 يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(١) ﴾ [آل عمران : ٣٥ - ٣٧] فزكريا إذا دخل على مريم المحراب - أي مكان صلاتها -

(١) قوله : ﴿ أُعِيدُهَا بِكَ ﴾ أي أمنعها وأجيرها بحفظك . قوله : ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ أي ضمها الله تعالى إلى زكريا وجعله
 كفلاً لها وضامناً لمصالحها . قوله : ﴿ الْوَحْرَابَ ﴾ هو غرفة في بيت المقدس لا يصعد إليها إلا بسلم .

﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ أي وجد عندها طعامًا لم تجر العادة بوجوده ، فيقول : ﴿ أَنَّى لَئِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ، لم تقل جاء به فلان أو فلان ، بل هو من عند الله ﷻ ، والله تعالى على كل شيء قدير . يأتي بهذا الرزق من عنده ، لا من سعي البشر ، بل هو من عند الله ﷻ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُزْزِقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُ حِسَابًا ﴾ وعندئذ دعا زكريا ربه وكان قد بلغه الكبر . ولم يأته أولاد فقال : إن الله على كل شيء قدير ، واستدل بقدرة الله الذي جاء بهذا الرزق إلى مريم بدون سبب بشري ، فاستدل بذلك على كمال قدرة الله ، فدعا ربه أن يرزقه ولدًا فجاءه الولد . وفيه أيضًا كرامات لذلك ، فمرم ﷺ لها كرامات ، منها هذه المسألة ، رزقها يأتي من عند الله لا يشتري من السوق ، ولا يأتي به فلان أو فلان ، من عند الله ، وكذلك ما ذكرته بالأمس ، حين جاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : ﴿ بَلِّغْنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ وسبق الكلام على هذا .

ومن الكرامات أيضًا : ما وقع لأصحاب الكهف ، والكهف هو غار فسيح في الجبل ، وكان هؤلاء القوم رأوا ما عليه أهل بلدتهم من الشرك والكفر ولم يرضوا بذلك ، فاعتزلوا قومهم وهاجروا من بلدتهم ؛ لأنها بلد شرك وكفر فاعتزلوا قومهم ولجأوا إلى غار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا فِيهِ فِتْنَةٌ أَمْسُوا بِرَبِّهِمْ وَذُنُوبُهُمْ هُتًى ﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفَقْدَ قَلْبًا إِذَا شَطَطًا ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُغْنِي عَنْكُمْ وَاللَّهُ فَاقُوا إِلَى الْكَهْفِ ^(١) ﴾ [الكهف : ١٣-١٦] يعني لما اعتزلوهم وشركهم أمروا أن يأووا إلى الكهف ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّجْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴾ ﴿ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ اذهبوا إلى الكهف ، وهذا الكهف كما قلنا هو : غار في الجبل ، هذا الغار وجهه إلى الشمال الشرقي بحيث لا تدخل الشمس عليه لا أول النهار ولا آخره ، يسره الله لهم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ وهؤلاء خرجوا يريدون وجه الله ، فيسر الله لهم ، أووا إلى الكهف وألقى الله عليهم النوم ، قال الله تعالى موضعًا هذا : ﴿ وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ يعني ما تدخل عليهم الشمس دخولًا كاملاً فيصيبهم الحر لكن تقرضه ، شيء بسيط يأتيهم من الشمس لكي لا يتبخر الغار فيفسد ، يدخل عليه من الشمس بقدر الحاجة فقط ، ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي : في مكان متسع كما جاء في الحديث : « كلما أتى فجوة » أي : شيء متسع ، هم في مكان متسع في الغار ، ذلك من آيات الله أن يسر الله لهم هذا المكان ، لما دخلوا في هذا المكان آمنين متوكلين على الله ﷻ مفوضين أمرهم إليه ، ألقى الله عليهم النوم فناموا ، كم ناموا ؟ يوم ... يومين ... ثلاثة ؟ لا ، ناموا ثلاثمائة سنة وتسع سنين وهم نائمون ، (٣٠٩ سنة) لا يستيقظون من حر ، ولا برد ، ولا جوع ، ولا عطش ، هذا من كرامات الله ، هل يبقى الواحد منا ثلاثة أيام نائمًا لا يجوع ، ولا يعطش ، ولا يحتر ، ولا يبرد ؟ لا ، هؤلاء بقوا في كهفهم (٣٠٩ سنة) ﴿ وَلِئِنْوَا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف : ٢٥] ويقول الله ﷻ ﴿ وَقَلَّبْنَاهُمْ ذَاتَ

(١) قوله : ﴿ شَطَطًا ﴾ أي قولًا مجاوزًا للحد .

الْيَمِينِ وَذَاتِ الشِّمَالِ ﴿١٨﴾ اللَّهُ ﷻ هو الذي يقلبهم ، لماذا يقلبهم الله ﷻ ، لأن النائم لا فعل له ، مرفوع عنه القلم ، حتى لو فعل لن يتم فعله ، ﴿وَيُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (١) ﴿[الكهف: ١٨] عند الباب يحرسهم ياذن الله ﷻ ، وإنما قلبهم الله تعالى ؛ لأنهم لو بقوا هذه المدة الطويلة على جنب واحد لفسد الدم ولم يتحرك ، لكن يقلبون ذات اليمين وذات الشمال ، إذا رآهم الإنسان حسبهم أيقاظاً يعني ليس على وجههم وجه النوم ، الذي يراهم يقول هؤلاء أيقاظ وهم نائمون ، وألقى الله عليهم المهابة العظيمة ﴿لَوْ أَطْلَقَتْ عَلَيْهِمْ لَوْلِيَّتٌ مِنْهُمْ فَارَأَا وَلِمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُجُبًا﴾ [الكهف: ١٨] لوليت منهم فراراً بيدنك وملئت منهم رعباً بقلبك ، القلب يفزع والبدن يهرب ، كي لا يكون أحد حولهم فيوقظهم ، لكن الله ﷻ أكرمهم بهذا .

لقد كانوا فتية آمنوا بالله واعتزلوا قومهم ، وخرجوا من بلدهم فهياً الله لهم كهفاً ، يعني غار واسع في الجبل ، فدخلوا فيه فألقى الله عليهم النوم ، فناموا (٣٠٩ سنة) ، وهم نائمون لم يحتاجوا إلى أكل ولا شرب ولا تتأثر أبدانهم ، وكان الله تعالى يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وهذه من كرامات الله لهم ، أن الله تعالى هياً لهم مقراً آمناً ، حتى إن الله يقول : ﴿لَوْ أَطْلَقَتْ عَلَيْهِمْ لَوْلِيَّتٌ مِنْهُمْ فَارَأَا وَلِمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُجُبًا﴾ ما أحد يحوم حولهم ، ومن كرامات الله لهم أنهم بقوا هذه المدة (٣٠٩ سنة) ولم يتغير منهم ظفر ولا شعر ولا غيره ، مع أن العادة أن الشعور تطول ، والأظفار تطول ، لكن هؤلاء لم تطل شعورهم ولا أظفارهم وكأنهم ناموا بالأمس .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وإنما قالوا ذلك لأنهم لم يتغير منهم شيء ، وأما ما ذكر بعض الناس أنهم طالت أظفارهم وشعورهم فهذا خطأ ؛ لأنه لو كان كذلك لعرفوا أنهم بقوا مدة طويلة ولكنهم لم يتغيروا . ومن كرامات الله لهم : أن الله أبقاهم على هذه النومة حتى أبدل الله تعالى ملكهم الظالم بملك صالح ، ولما استيقظوا بعثوا واحداً منهم إلى البلدة ليأتي بطعام لهم ، وكان معهم نقود سابقة من النقود التي مر عليها (٣٠٩ سنة) فلما جاءوا يشترون من البلدة ودفعوا النقود تعجب أهل البلدة ، من أين هذه النقود حتى أطلع الله الناس عليهم ، فهذا من كرامات الله لهم ، ويحسبن أن تجمع هذا الآيات وغيرها وتأمل وتستخرج ما فيها من الكرامات الدالة على قدرة الله ﷻ وعلى أنه تبارك وتعالى أكرم من خلقه إذا تعبد الإنسان له بما يرضى ، أعطاه الله تعالى ما يرضى . والله الموفق .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا أَوْلِيَاؤُنَا اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٤] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى باب كرامات الأولياء وفضلهم ، ثم صدر المؤلف هذا الباب بهذه الآية : ﴿ آيَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۖ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وتقدم الكلام على أول هاتين الآيتين وأن الله تعالى بين أن أولياءهم هم المؤمنون المتقون ﴿ آيَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۖ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وقد أخذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من هذه الآية عبارة قال فيها : « من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً » فيقول الله ﷻ : إن هؤلاء الأولياء ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لما يستقبل من أمرهم ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى من أمرهم ؛ لأنهم أدرکوا معنى الحياة الدنيا فعملوا عملاً صالحاً وآمنوا بالله واتقوه فصاروا من أولياءه ، ثم قال : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ البشرى تعني البشارة في الحياة الدنيا وفي الآخرة .
والبشارة في الحياة الدنيا أنواع :

فمنها : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له ^(١) (أحد يراها له) ، يعني يرى في المنام ما يسره ، أو يرى له أحد من أهل الصلاح ما يسره ، مثل أن يرى أنه يُبشر بالجنة ، أو يُرى أحد من الناس أنه من أهل الجنة ، أو ما أشبه ذلك ، أو يُرى على هيئة صالحة ، المهم أن النبي ﷺ قال في الرؤيا الصالحة يراها أو ترى له : « تلك عاجل بشرى المؤمن » ^(٢) .

ومنها : أن الإنسان يسر في الطاعة ، ويفرح بها وتكون قرّة عينه ، فإن هذا يدل على أنه من أولياء الله . قال النبي ﷺ : « من سرته حسنته ، وسأته سيئته فذلك المؤمن » ^(٣) فإذا رأيت من نفسك أن صدرك ينشرح بالطاعة ، وأنه يضيق بالمعصية فهذه بشرى لك ، أنك من عباد الله المؤمنين ومن أوليائه المتقين ، ولهذا قال النبي ﷺ : « وجُعِلَتْ قُرّة عيني في الصلاة » ^(٤) .

ومن ذلك أيضًا : أن أهل الخير يشنون عليه ويحبونه ويذكرونه بالخير ، فإذا رأيت أن أهل الخير يحبونك ويشنون عليك بالخير ، فهذه بشرى للإنسان أنه يُشنى عليه من أهل الخير ، ولا عبرة ببناء أهل الشر ولا قدحهم ؛ لأنهم لا ميزان لهم ولا تقبل شهادتهم عند الله ، لكن أهل الخير إذا رأيتهم يشنون عليك وأنهم يذكرونك بالخير ويقربون منك ويتجهون إليك ، فاعلم أن هذه بشرى من الله لك .
ومن البشرى في الحياة الدنيا : ما يُبشر به العبد عند فراق الدنيا ، حيث تنزل عليه الملائكة ﴿ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۖ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾

(١) ويدل لذلك ما رواه أحمد في مسنده (١٢٩/٦) ومالك في الموطأ (٩٥٧) والطبراني في الكبير (٢٠٠/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٧/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٦) وأحمد في مسنده (١٥٦/٥) . واليغوي في شرح السنة (٣٢٧/١٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٦٥) والحاكم في المستدرک ووافقه الذهبي (١٤/١) والبيهقي في السنن (٩١/٧) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٦١/٧) وأحمد في مسنده (١٢٨/٣) والحاكم في المستدرک (١٦٠/٢) ووافقه الذهبي .

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٢﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَهِ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ [نصفت: ٣٠-٣٢].
ومن البشارة أيضًا: أن الإنسان يشتر عند موته بشارة أخرى، فيقال لنفسه: اخرجي أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، اخرجي إلى رحمة من الله ورضوان، فتفرح وتسرع^(١).
ومن ذلك أيضًا: البشارة في القبر، فإن الإنسان إذا سُئل عن ربه ودينه ونبيه وأجاب بالحق، ناد مناد من السماء: أن صدق عبدي؛ فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا من الجنة^(٢).
ومنها أيضًا: البشارة بالحشر، تتلقاهم الملائكة ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] و ﴿ وَأَنْبِئُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [نصفت: ٣٠] المهم أن أولياء الله لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم.

﴿ لَا يَدِيلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٤] يعني لا أحد يدل كلمات الله تعالى، أما الكونية: فلا يستطيع أحد أن يبدلها، وأما الشرعية: فقد يحرفها أهل الباطل، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم، حرفوها وبدلوها وغيروها، وأما الكلمات الكونية فلا أحد يبدلها ﴿ لَا يَدِيلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴾ . والله الموفق .

* * *

١٥٠٣ - وعن أبي محمد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عليه السلام أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أَنَاسًا فَقَرَاءَ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ مَرَّةً: « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ؛ فَلْيَذْهَبْ بِثَلَاثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ أَرْبَعَةٍ؛ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ بِسَادِسٍ » أَوْ كَمَا قَالَ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، وَأَنْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعِشْرَةٍ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ، فَجَاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا سَاءَ اللَّهُ. قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَصْيَافِكَ؟ قَالَ: أَوْ مَا عَشِيتُهُمْ؟ قَالَتْ: أَبَوَا حَتَّى تَجِيءَ وَقَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا، فَاحْتَبَأْتُ، فَقَالَ: يَا عُنْتُرُ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ، وَقَالَ: كُلُوا لَا هَنِيئًا، وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُهُ أَبَدًا، قَالَ: وَابِئِ اللَّهِ مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رُبَا مِنْ أَشْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا حَتَّى سَبِعُوا، وَصَارَتْ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَتَنَظَّرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتُ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لَا وَفَرَّةٌ غَنِي لِهِي الْآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مَرَّاتٍ! فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ - يَعْنِي يَمِينُهُ - ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ. وَكَانَ يَتَنَتَّا وَيَسِنُ قَوْمَ عَهْدٍ، فَمَضَى الْأَجَلَ، فَتَفَرَّقْنَا اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنَاسٌ، وَاللَّهِ أَغْلَمَ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ.

وفي رواية: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ لَا يَطْعَمُهُ، فَحَلَفَتِ الْمَرْأَةُ لَا تَطْعَمُهُ، فَحَلَفَ الضَّيْفُ - أَوْ

(١) انظر في ذلك مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٦) والترمذي في السنن (١٠٧٢).

(٢) انظر الحديث في أبي داود في السنة (٢٤) وأحمد في مسنده (٢٨٧/٤).

الْأَضْيَافُ - أَنْ لَا يَطْعَمَهُ - أَوْ يَطْعَمُوهُ - حَتَّى يَطْعَمَهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ! فَدَعَا بِالطَّعَامِ ، فَأَكَلَ وَأَكَلُوا ، فَجَعَلُوا لَا يَزِفَعُونَ لُقْمَةً إِلَّا رَزَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا ، فَقَالَ : يَا أُخْتُ بِنِي قَرَّاسٍ ، مَا هَذَا ؟ فَقَالَتْ : وَفَرَّةٌ عَيْنِي إِنَّهَا الْآنَ لَا تَكْثُرُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ نَأْكُلَ ، فَأَكَلُوا ، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْهَا .

وفي رواية : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ : دُونَكَ أَضْيَافَكَ ؛ فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَفْرُغُ مِنْ قِرَارِهِمْ قَبْلَ أَنْ أَجِيءَ ، فَأَنْطَلِقُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، فَأَتَاهُمْ بِمَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ : اطْعَمُوا ، فَقَالُوا : أَيْنَ رَبِّكَ مَنْزِلُنَا ؟ قَالَ : اطْعَمُوا ، قَالُوا : مَا نَحْنُ بِأَكِلِينَ حَتَّى يَجِيءَ رَبُّ مَنْزِلِنَا ، قَالَ : اقْبَلُوا عَنَّا قِرَارَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ جَاءَ وَلَمْ تَطْعَمُوا ، لَتَلْقَيْتُمْ مِنْهُ ، فَأَبَوْا ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَجِدُ عَلَيَّ ، فَلَمَّا جَاءَ تَنَحَّيْتُ عَنْهُ ، فَقَالَ : مَا صَنَعْتُمْ ؟ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : يَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، فَسَكْتُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، فَسَكْتُ ، فَقَالَ : يَا غُثْرَ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتُ تَسْمَعُ صَوْتِي لَمَا جِئْتُ ! فَخَرَجْتُ ، فَقُلْتُ : سَلْ أَضْيَافَكَ ، فَقَالُوا : صَدَقَ ، أَتَانَا بِهِ . فَقَالَ : إِنَّمَا أَنْتَظِرُ تَمُونِي وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُهُ اللَّيْلَةَ ، فَقَالَ الْآخَرُونَ : وَاللَّهِ لَا نَطْعَمُهُ حَتَّى تَطْعَمَهُ ، فَقَالَ : وَيَلَكُمْ مَا لَكُمْ لَا تَقْبَلُونَ عَنَّا قِرَارَكُمْ ؟ هَاتِ طَعَامَكَ ، فَجَاءَ بِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ ، فَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ . الْأَوَّلَى مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَأَكَلَ وَأَكَلُوا ^(١) . متفقٌ عليه .

قوله : « غُثْرَ » بِغَيْنٍ مَعْجَمَةٌ مَضْمُومَةٌ ، ثُمَّ نُونٌ سَاكِنَةٌ ، ثُمَّ ثَاءٌ مَثَلِيَّةٌ : وَهُوَ الْعَبْيُ الْجَاهِلُ ، وَقَوْلُهُ : « فَجَدَّعَ » أَيٌ : شَتَّمَهُ ، وَالْجَدْعُ : الْقَطْعُ . قَوْلُهُ : « يَجِدُ عَلَيَّ » هُوَ بِكَسْرِ الْجِيمِ ؛ أَيٌ : يَغْضَبُ .

الشرح

هذه القصة في باب كرامات الأولياء التي رواها أنس عما حصل للنبي ﷺ ، وذلك أن قوماً من المهاجرين ، كانوا يأتون إلى المدينة وهم قوم فقراء ليس عليهم إلا ثيابهم وليس عندهم شيء ، وكان في المسجد صُفَّةٌ يأوون إليها ، ثم ييسر الله لهم من يأتي إليهم ويحملهم معه إلى بيته ويطعمهم ، في ذات ليلة قال النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ فَلْيُذْهِبْ بِثَالِثٍ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ أَرْبَعَةً فَلْيُذْهِبْ بِخَامِسٍ » ، وهكذا ، أي أمر أصحابه أن يأخذوا معهم أصحاب الصفة ليطعموهم ، وكان النبي ﷺ أكرم الناس ، ذهب بعشرة ﷺ ، وذهب أبو بكر بأربعة ، وذهب الناس بعضهم بثلاثة ، وبعضهم بأربعة ، حسب حالهم . أبو بكر ﷺ ذهب بأضيافه إلى بيته وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يقوم بضيافتهم ، وانطلق هو إلى النبي ﷺ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ مِلَازِمَةً بِالرَّسُولِ ﷺ يَكُونُ مَعَهُ دَائِمًا ، فَذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَعَشَى عِنْدَهُ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَقَدْ مَضَى شَيْءٌ مِنَ اللَّيْلِ ، فَسَأَلَهُمْ : أَطَعَمْتُمْ أَضْيَافَكُمْ ؟ فَقَالُوا : لَا ، فَظَنَّ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنْ أَضْيَافِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَبُو بَكْرٍ

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٨١) ومسلم في الأشربة (١٧٦) وأحمد في مسنده (١٩٧/١) . قوله « فليذهب بثالث » أي فإن طعامهما يكفي ثلاثة ، قوله : « إلاربا من أسفلها » أي زاد الموضع الذي نأخذ منه ، قوله « فنظر إليها » أي إلى القصة .

ﷺ ، فجعل يسب ويجدع ، يعني معناه أنه اشتد في سبه ، ونادى ابنه عبد الرحمن ، يا عبد الرحمن ، فلم يجبه ، خوفاً منه ؛ لأنه ﷺ كان شديداً على أهله في تأديبهم ، فلم يجبه خوفاً من أن يتكلم عليه ، أو يضربه ، أو ما أشبه ذلك ، حتى أقسم عليه أنه إذا كان يسمعه فليجبه ، فأجابه ، فقال لهم : لماذا أخرتم ضيافة القوم ؟ قالوا : أسأل أضيافك ، فسألهم ، قالوا : نعم ، هم عرضوا علينا الضيافة ، ولكن أيننا حتى تأتي ، فأقسم ﷺ أن لا يأكل ، قال : والله ما آكل ، يعني أنكم تأخرتم من أجلي إذن أنا لا آكل ، وأقسم أن لا يأكل ، فأقسم الأضياف أن لا يأكلوا ، إكراماً له ، فصار عندنا الآن قَسَمَان ، أقسم أبي بكر ﷺ أن لا يأكل ، وأقسم الأضياف أن لا يأكلوا ، فأبهم أولى ؟ أن نبر بقسم أبي بكر ويأكل الأضياف ، أو بقسم الأضياف ولا يأكلون ، الثاني أولى ، فقال ﷺ : إنما ذلك من الشيطان ، يعني كونه يحلف أن لا يأكل ، هذا من الشيطان ، ثم أكل وأكل الأضياف ، لكن الكرامة التي حصلت أن الواحد منهم إذا أخذ لقمة من الإناء ارتفع الإناء ، صار بدل اللقمة أكثر منها في نفس الإناء ، من أين جاء هذا ؟ من الله ﷻ كرامة لأبي بكر ﷺ لأنه أفضل أولياء هذه الأمة على الإطلاق ، لأنه خير هذه الأمة ، ثم انتهوا فبقي في الإناء أكثر مما كان فيه من قبل ، فأخذ أبو بكر وذهب به إلى النبي ﷺ ، ودعا النبي ﷺ إليه أقواماً فأكلوا .

وإنما حمله أبو بكر لِرِيَّةِ النبي ﷺ وكيف كان هذا الأمر من عند الله ﷻ الذي بيديه ملكوت كل شيء ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

الشاهد من هذا الحديث : هذه الكرامة لولي من أولياء الله وهو أبو بكر ﷺ ونحن نشهد أنه ولي من أولياء الله ، وأنه أفضل أولياء الله على الإطلاق ما عدا النبيين والمرسلين ؛ لأنه ﷺ من الصديقين يعني في المرتبة الثانية من صالح الأمم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩] فهو ﷺ أفضل الصديقين منذ خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو من أولياء الله ، وهذه من كرامته ﷺ وفي الحديث فوائد كثيرة .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان إذا غضب بسبب يقتضي الغضب فإنه لا يلام عليه ؛ لأن أبا بكر ﷺ غضب فسبَّ وجدَّع ، وحتى أن ابنه عبد الرحمن اختفى منه ، خوفاً منه ، وجعل ينادي ويقول : (يا غثر) والغثر هو الغبي الجاهل ، فهذا دليل على أن الإنسان إذا غضب لسبب يقتضي الغضب فإنه لا يلام عليه ، ولا يخذل من فضله ولا مرتبته .

وفيه أيضاً : أنه لا بأس أن الإنسان يصف ابنه أو من له ولاية عليه بالغباء والجهل إذا فَعَلَ فعلاً يقتضي أنه غبي جاهل وفيه أن من عادة الناس ، حتى في العهد القديم ، أن الضيف والمضيف يحضل منهم الحلف والأيمان ، مثل : والله تأكل ، والله ما آكل ، والله تدخل ، والله ما أدخل ، ولكنهم يحلفون بالله ، أما ما يفعله كثير من الجهلة اليوم ، يحلفون بالطلاق فهذا خطأ ، فكثير من البادية إذا نزل به ضيف ، وخاف الضيف أن صاحب البيت يذبح له ذبيحة ، قال : علي الطلاق ، وعلي الحرام ، وامراتي كأمي - والعياذ بالله - إن ذبحت لي ذبيحة ، وهذا حرام ، « من كان حالفاً فليحلف بالله أو

ليصمت^(١) فهذا لا يجوز . أما الحلف بالله فهذا قد جرت به العادة قديماً ، وهو من عادات الناس العرب وشيمهم ، ومع هذا الأفضل أنك إذا حلفت على إنسان أن تقرنها بكلمة (إن شاء الله) تقول : والله إن شاء الله ، لأنك إذا قلت : والله إن شاء الله استفدت فائدتين عظيمتين :
الفائدة الأولى : أن الله يسهل لك الأمر .

والفائدة الثانية : أنه إذا لم يتيسر ، لم يكن عليك كفارة ، فاقرن يمينك دائماً ، بقول : إن شاء الله ، حتى تسلم من الحنث ، وحتى يتيسر لك الأمر .

ألم يأتكم نبأ سليمان ؟ قال في يوم من الأيام ، والله لأطوفن اليوم على تسعين امرأة تلد كل منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، يعني يجامع تسعين امرأة كل امرأة تلد غلاماً يقاتل في سبيل الله ، انظر كيف كان الأنبياء يحبون القتال ، تمنى أن يرزقه الله هذا العدد الكبير من الأولاد ليقاتلوا في سبيل الله ، ما قال ليعينوني (ليساعدوني) على التجارة ، على الزراعة ، على الدنيا ، لا ، يقاتلون في سبيل الله ، فقليل له : قل : إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، لأنه جادّ عابد ، لكن وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، جامع تسعين امرأة في تلك الليلة ، وقد أعطاه الله قوة ، فما الذي حصل ؟ ولدت واحدة منهن نصف إنسان أي مشلول ، آية من آيات الله ليريه الله ﷻ أن الأمر بيده ﷻ ، قال نبينا محمد ﷺ : لو قال : « إن شاء الله ، لم يحنث ولقاتلوا في سبيل الله »^(٢) ، يعني لو قال : إن شاء الله لسهل الأمر ، و النبي ﷺ لما جاءه قريش ، قالوا : خبرنا عن قوم كانوا في الزمن الأول خرجوا من بلادهم وكانوا في غار ، أو قالوا : حدثنا عن ذي القرنين ، قال : غداً أحدثكم ، والنبي ﷺ لا يدري ما قصتهم ؛ لأنه لا أدركها ولا هناك تواريخ موثوقة ، فقال : غداً أخبركم ، جاء الغد وما نزل عليه الوحي ؛ لأن رسول الله ﷺ يعلم أن الوحي ينزل عليه بالليل ، ما نزل الوحي ، اليوم الثاني ما نزل الوحي ، الثالث ، الرابع ، الخامس ، بقي خمسة عشر يوماً ، وما نزل عليه الوحي ، وهذا سيكون شديداً على الرسول ﷺ ؛ لأنه وعد قريشاً أعداءه أنه سوف يخبرهم في الغد ، ولم يخبرهم ، فأنزل الله القصة وقيل له : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ ﴾^(٣) [الكهف: ٢٣] فالأمر بيد الله ، لهذا نقول : إذا أردت أن تحلف ، أي على نفسك ، على أولادك ، على ضيفك ، على أي إنسان ، اقرن ذلك بكلمة : إن شاء الله ؛ لتحصل على هاتين الفائدتين ، وهما ، التيسير أن الله ييسر الأمر ويعطيك ما حلفت عليه ، والثانية أنه لو أخلفت الأمور ؛ فإنه لا كفارة عليك . والله الموفق .

ونريد أن نكمل الكلام عن حديث أبي بكر ﷺ مع أضيافه ، وقد ذكرنا أنه ﷺ أقسم أن لا يأكل ، ثم أقسم الأضياف أن لا يأكلوا ، فلما رأهم أقسموا أكل ، ففي هذا دليل على أن الإنسان إذا حلف على شيء ثم رأى غيره خيراً منه ؛ فإنه يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير ، وهذا قد دل عليه حديث صريح عن

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٩) ومسلم في الإيمان (٣) وأحمد في مسنده (٥٢٠/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الكفارات (٦٧٢٠) ومسلم في الإيمان (٢٣) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

(٣) انظر القصة في تفسير الطبري (٢٨٥/١٥) وزاد المسير (١٢٧/٥) .

النبي ﷺ فقال : « إني - والله - إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيتُ الذي هو خير وكفرتُ عن يميني » أو قال : « إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير » ^(١) فإذا حلفت أن لا تكلم فلاناً مثلاً فالأفضل أن تحنث ، وتكفر عن يمينك وتكلمه ، وإذا صار بينك وبينه شيء ، وقلت : والله ما أطرق عليه البيت ، أو لا أزوره ، قلنا له : زُره وكفّر عن يمينك ما في ذلك إثم ، وكذلك إذا حلف الإنسان على ولده إن فعل شيئاً أن لا أكلمك ، ففعل الولد الشيء ، فليكلمه ويكفر عن يمينه ، المهم أنك إذا حلفت على شيء ثم رأيت أن الخير في عدم وفائك باليمين ، فلا تفِ بيمينك وكفر عنه .

ومن فوائد الحديث أيضاً : أن الإنسان إذا حلف على شخص يريد إكرامه ، ثم لم يفعل ؛ فإنه لا كفارة عليه ؛ لأن أبا بكر ﷺ لم يكفر عن يمينه ، يعني لم يُنقل أنه كفّر ، هكذا استدل بعض العلماء بهذا الحديث ، لكنه استدلال ضعيف ؛ لأن حديث أبي بكر هذا ليس فيه أنه كفّر ولا أنه لم يكفر .

فهو إذاً محتمل أن يكون كفّر ولم يُذكر ، أو محتمل أن يكون لم يكفر ، لكن عندنا نصوص بينة واضحة على أن من حنث في يمينه فعليه الكفارة ، سواء كان الحنث من فعله أو من فعل الغير ، وعلى هذا فنقول : إذا حلفت على شخص إكراماً له ولم يفعل فعليك الكفارة ، مثال ذلك : وقفت أنت وشخص عند الباب في دعوة دعاكم إليها صاحب البيت ففتح الباب ، فقال لك : ادخل ، قلت : والله ما أدخل ، والله تدخل أنت ، قال : لا أدخل ، فهنا نقول : إذا دخلت فإنك تكفر عن يمينك وإن كان حلفك من أجل الإكرام لكنك حنثت ، فإذا حنثت في يمينك ؛ فعليك الكفارة سواء كان ذلك إكراماً أو حنثاً أو غير ذلك . فإذا قال قائل : أبو بكر ﷺ هو الذي حلف أولاً وكان على الضيوف أن يبروا يمينه ، ولكنهم حلفوا ، فإذا تحالف اثنان ، أحدهم يقول كذا ، والثاني يقول كذا ، فأيهما أولى ؟ قلنا : الأولى أن يكون الذي حلف الأول هو الذي تُبر يمينه ؛ لأنه أسبق وقد أمر النبي ﷺ بإبرار القسم ^(٢) ، فعلى هذا فيكون الثاني هو الذي حصل منه نوع الخطأ ، فإذا قلت : والله لتفعلن كذا ، فقلت أنت : والله لا أفعله ، فأيهما الذي تسري يمينه ، الأول أم الثاني ؟ الأول ؛ لأنه هو الذي حلف أولاً ، لكن أبا بكر ﷺ من تواضعه ، أكل من أجل إكرام الضيوف .

وفي حديث أبي بكر ﷺ من الفوائد : أن الإنسان ينبغي له أن يكرم الضيف ، بل إكرام الضيف من تمام الإيمان ، لقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » ^(٣) وحق الضيافة الواجب يوم وليلة ، وثلاثة أيام سنة ، وما زاد عن ذلك فهو أمر مباح ^(٤) ، لكن الواجب يوم وليلة ، وقد قيد بعض العلماء هذا فيما إذا كان البلد ليس فيها مطاعم ، أما إذا كان فيها مطاعم فلا

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (٧ ، ١٠) والبيهقي في السنن (٣٢/١٠) .

(٢) انظر ذلك في البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٤) ومسلم في اللباس (٣) وأحمد في مسنده (٢٨٤/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٣٨) ومسلم في الإيمان (٧٤) وأبو داود في السنن (٣٧٤٨) والترمذي في السنن (١٩٦٧) .

(٤) ويدل لذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٥١٠/٢) والبيهقي في السنن (١٩٧/٩) .

يجب عليك ، تقول له : اذهب إلى المطعم ، ولكن تعينه بما تيسر من النقود ، والصحيح في هذه المسألة أن الناس يختلفون ، من الناس أي من الضيوف من يرى أن ذهابه إلى المطعم فيه إهانة ، فهذا لا بد أن تضيفه في بيتك ، ومنهم يكون الأمر عنده سواء ، فهذا لا حرج عليك أن تقول : يا أخي هذه دراهم اذهب إلى المطعم الفلاني ، كذلك أيضًا إذا كانت البلد فيها فنادق ؛ فإنه في هذا الحال لو قيل بأنه لا يجب كما قال بعض أهل العلم ، لكن الفندق يأتي إليه الشريف والوضيع وكل أحد ، لكن لا شك أن الإنسان إذا قصدك وأتى إلى بيتك وقال : أنا ضيفك ، أن الأولى أن تضيفه ، إلا أن يكون في ذلك ضرر أو تفويت مصالح أهم ، فلكل مقام مقال . والله الموفق .

* * *

١٥٠٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ نَاسٌ مُحَدِّثُونَ ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ ؛ فَإِنَّهُ عُمَرُ » ^(١) رواه البخاري ، ورواه مسلم من رواية عائشة ، وفي روايتهما قال ابن وهب : « مُحَدِّثُونَ » أي : مُلْهِمُونَ .

الشرح

سبق لنا ذكر ما يتعلق بقضية أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيما أكرمه الله به من الكرامة ، ثم أتى المؤلف رحمته الله بحديث لأبي هريرة في كرامة لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال النبي ﷺ : « كان فيما كان قبلكم مُحدثون » - يعني : ملهمون للصواب ، يقولون قولاً فيكون موافقاً للحق ، وهذا من كرامة الله للعبد أن الإنسان إذا قال قولاً ، أو أفتى بفتوى ، أو حكم بحكم ؛ تبين له بعد ذلك أنه مطابق للحق ، فعمر رضي الله عنه من أشد الناس توفيقاً للحق ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى فيما سيذكره المؤلف من أمثلة لذلك ، قال النبي ﷺ : « فإن يكن فيكم محدثون فعمر » يعني إن كان فيكم محدثون فعمر ، ويحتمل قوله : « إن يكن فيكم » إنه خطاب لقوم مجتمعين ليس فيهم أبو بكر ، ويحتمل أنه خطاب إلى الأمة كلها ومن بينهم أبو بكر رضي الله عنه ، فإن كان الأول ؛ فلا إشكال ، وإن كان الثاني ؛ فقد يقول قائل : كيف يكون عمر ملهماً وأبو بكر ليس كذلك ؟ فيقال : إن أبا بكر رضي الله عنه يُوفَّق للصواب بدون إلهام ، بمعنى أنه رضي الله عنه من ذات نفسه بتوفيق الله ﷻ يُوفَّق للصواب ويدل على هذا عدة مسائل ؛ يعني يدل على أن أبا بكر أشد توفيقاً للصواب من عمر عدة مسائل :

أولاً : في صلح الحديبية لما اشترطت قریش على النبي ﷺ شروطاً يبدو أنها ثقيلة عظيمة ، عمل عمر رضي الله عنه على إبطالها ، وجاء إلى النبي ﷺ يراجعه في ذلك ويقول : كيف نُعطى الدنية في ديننا ، كيف نشترط على أنفسنا أن من جاءنا منهم مسلماً ، رددناه إليهم ، ومن جاءهم منا لا يردونه هذا ثقيل ، ولكن النبي ﷺ قال له : « إني رسول الله ولست عاصيه وهو ناصري » ، فذهب عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه يريد أن يستجد به في إقناع الرسول ﷺ فكلّم أبا بكر ، فقال له أبو بكر مثل قول

الرسول ﷺ سواء بسواء ، قال : إنه رسول الله وليس بعاصيه وهو ناصره فاستمسك بغد^(١) ، يعني لا يكن عندك شك في أمره ، فهذه واحدة . إذن من الموفق إلى الصواب في هذا ؟ أبو بكر لا شك ؟

ثانياً : في موت الرسول ﷺ ، لما شاع الخبر في المدينة أن النبي ﷺ مات . قام عمر في الناس وقال : إنه لم يمت وإنما صعق وليبعثه الله ، فليقطعن أيدي أقوام وأرجلهم من خلاف ، وأنكر أن يكون قد مات ، وكان أبو بكر قد خرج ذلك اليوم إلى بستان له خارج المدينة فلما رجع وجد النبي ﷺ قد مات حقاً ، فخرج إلى المسجد وصعد المنبر ، وقال كلماته المشهورة التي تكتب بأعلى من ماء الذهب . قال : أما بعد أيها الناس ، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله ؛ فإن الله حي لا يموت ، ثم قرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] قال عمر : فوالله ما إن تلاها أبو بكر حتى عقرت ، فما تحملني رجلاي ، يعني الإنسان إذا خاف واشتد به الشيء ما يقدر أن يقف^(٢) ، هذه الثانية .

ثالثاً : إنه لما توفي الرسول ﷺ ارتد من ارتد من العرب ، كفروا والعياذ بالله ، وكان النبي ﷺ قد جهز جيشاً أميره أسامة بن زيد ، ليقاتل أدنى أهل الشام والجيش كان ظاهر المدينة ولكن لم يسيروا بعد ، ولما ارتد العرب جاء عمر لأبي بكر ، وقال : لا ترسل الجيش ، نحن في حاجة ، فقال له أبو بكر : والله لا أحلُّ راية عقدها رسول الله ﷺ ، وسيرهم أبو بكر^(٣) ، فكان الصواب مع أبو بكر ﷺ لأن الناس لما سمعوا أن أهل المدينة أرسلوا الجيوش إلى أطراف الشام ، قالوا : هؤلاء عندهم قوة ولا يمكن أن نرتد ، فامتنع كثير من الناس عن الردة وبقوا في الإسلام ، المهم أن أبا بكر ﷺ أبلغ من عمر ، ﷺ في إصابة الصواب لا سيما في المواضع الضيقة ، وعلى كل حال كلا الرجلين ﷺ ، كلاهما موفق إلى الصواب ، جمعنا الله وإياكم بهما في الجنة ، وكل ما كان الإنسان أقوى إيماناً بالله وأكثر طاعة لله وفقه الله تعالى إلى الحق بقدر ما معه من الإيمان والعلم والعمل الصالح ، تجده مثلاً يعمل عملاً يظنه صواباً بدون ما يكون معه دليل من الكتاب والسنة ، فإذا راجع أو سأل ، وجد أن عمله مطابق للكتاب والسنة ، وهذه من الكرامات ، فعمرو ﷺ قال فيه الرسول ﷺ إن يكن فيكم محدثون فإنه عمر .

* * *

١٥٥٥ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : شَكَا أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا - يَعْنِي : ابْنَ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَرَأَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَارًا ، فَشَكُّوا^(٤) حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا إِسْحَاقَ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تُصَلِّي ، فَقَالَ : أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّي

(١) انظر القصة في أحمد في مسنده (٣٣٠/٤) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٩) .

(٢) انظر ذلك في البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٦٨) .

(٣) انظر ذلك في تاريخ الطبري (٢٦٧/٣ ، ٢٦٨) .

(٤) أي من سعد ﷺ .

كُنْتُ أَصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لَا أُخْرِمُ عَنْهَا ؛ أَصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ فَأَزْكُدُ فِي الْأَوَّلِينَ ، وَأُخْفُ فِي الْآخِرِينَ ، قَالَ : ذَلِكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ ، وَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا - أَوْ رَجَالًا - إِلَى الْكُوفَةِ يَسْأَلُ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ ، فَلَمْ يَدْعُ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا ، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ، يَقَالُ لَهُ أَسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ ، يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ ، فَقَالَ : أَمَا إِذْ نَشَدْنَا فَإِنْ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسُّوْيَةِ ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ ، قَالَ سَعْدٌ : أَمَا وَاللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلَاثَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا ، قَامَ رَبَاءُ ، وَشَمْعَةٌ ، فَأُطْلَ غُمْرُهُ ، وَأُطْلَ فَقْرُهُ ، وَغَرَضُهُ لِلْفِتَنِ ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ ^(١) : شَيْخٌ كَبِيرٌ مَقْتُونٌ ، أَصَابَتْني دَعْوَةُ سَعْدٍ .

قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُثْمَانَ الرَّائِي عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ : فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدَ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطَّرِيقِ فَيَتَغَيَّرُهُنَّ ^(٢) . متفقٌ عليه .

الشرح

هذه من الكرامات التي نقلها المؤلف رحمه الله في كتابه وهي ما رواه جابر بن سمرة في قصة سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ، وكان سعد معروفًا بإجابة الدعوة (مستجاب الدعاء) يعني أن الله أعطاه كرامة وهو أن الله تعالى يجيب دعوته إذا دعا ، وقد جعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أميرًا على أهل الكوفة ؛ لأن المسلمين لما فتحوا العراق مَصْرُوا الأمصار وجعلوا البصرة والكوفة وهما أشهر ما يكون في العراق ، ثم إن أمير المؤمنين جعل لهم أمراء ، فأمر سعد بن أبي وقاص على الكوفة ، فشكاه أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين عمر ، حتى قالوا إنه لا يحسن أن يصلي ، وهو صحابي جليل شهد له النبي ﷺ بالجنة ، فأرسل إليه عمر ، فحضر وقال له : « إن أهل الكوفة شكوك حتى قالوا : إنك لا تحسن تصلي » فأخبره سعد رضي الله عنه أنه كان يصلي بهم صلاة النبي ﷺ وذكر صلاة العشاء وكأنها - والله أعلم - هي التي وقع تعيينها من هؤلاء الشكاة ، فقال : « إني لأصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ، لا أخرم عنها » يعني لا أدعها ، فكنيت أطول في العشاء بالأولين وأقصر في الآخرين ، فقال له عمر رضي الله عنه : « ذلك الظن بك يا أبا إسحاق » فزكاه عمر ؛ لأن هذا هو الظن به ، إنه يحسن الصلاة ، وإنه يصلي بقومه الذين أمر عليهم صلاة النبي ﷺ ولكن مع ذلك تحرى عمر رضي الله عنه ؛ لأنه يتحمل المسئولية ويعرف قدر المسئولية ، أرسل رجلاً إلى أهل الكوفة يسألونهم عن سعد وعن سيرته ، فكان هؤلاء الرجال ، لا يدخلون مسجدًا ويسألون عن سعد إلا أثنوا عليه معروفاً . حتى أتى هؤلاء الرجال إلى مسجد بني عبس ، فسألوهم ، فقام رجل فقال : أما

(١) أي أسامة بن قتادة ، الذي قال عن سعد ما قال .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٥) ومسلم في الصلاة (١٥٨) نحوه . قوله : « واستعمل » أي ولي عليهم ، قوله : « لا أخرم » أي لا أنقص ، قوله : « فأركد » أي أقوم طويلاً ، قوله : « ويثنون معروفاً » أي يمدحونه بالخير ، قوله : « نشدنا » أي طلبت قولنا ، قوله : « لا يسير بالسرية » أي لا يخرج مع السرية من الجيش ، قوله : « ولا يقسم بالسوية » أي أنه يؤثر بالعطاء من يشاء ويحرم من هو له أهل ، قوله : « ولا يعدل في القضية » أي لا يحكم بالعدل .

ناشدتمونا ، فإن هذا الرجل « لا يعدل في القضية ، ولا يسير في السرية ، ولا يقسم بالسوية » فقولهُ « لا يسير في السرية » يعني لا يخرج في الجهاد ، ولا يقسم بالسوية إذا غنم ، ولا يعدل في القضية إذا حكم بين الناس ، فاتهمه هذه التهم ، فهي تهم ثلاث « فقال : أما إن قلت كذا » (المتحدث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه) « فلأدعون عليك بثلاث دعوات » دعا عليه أن يطيل الله تعالى عمره ، وفقره ، ويُعرضه للفتن ، نسأل الله العافية ، ثلاث دعوات عظيمة ، لكنه رضي الله عنه استثنى ، قال : إن كان عبدك هذا قام رياء وسمعة يعني لا بحق ، فأجاب الله دعاءه ، فكان هذا الرجل طويل العمر ، حتى إن حاجبيه سقطت على عينيه من الكبر ، وكان فقيرًا ، وعرض للفتن ، حتى وهو في هذه الحال وهو كبير إلى هذا الحد كان يتعرض للجواري ، يتعرض لهن في الأسواق ليغمرهن والعباذ بالله ، وكان يقول عن نفسه : شيخ مفتون كبير أصابتنى دعوة سعد ، فهذه من الكرامات التي أكرم الله بها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

وفيه فوائد عديدة : منها : أن من تولى أمرًا في الناس فإنه لا يسلم منهم مهما كانت منزلته ، لا بد أن يناله سوء ، ولهذا قال ابن الوردي في منظومته المشهورة ، التي أولها :

اعْتَزَلْ ذِكْرَ الْأَغْيَانِي وَالْغَزَلْ وَقُلْ الْفَضْلُ وَجَانِبُ مَنْ هَزَلْ
وَدَعْ الذُّكْرَى لِأَيَّامِ الصُّبَا فَلَأَيَّامِ الصَّبَى نَجْمٌ أَقْلْ
قال فيها من جملة ما قال من حكم :

إِنَّ يَصِفَ النَّاسَ أَعْدَاءُ لِمَنْ وَلِي الْأَحْكَامِ هَذَا إِنْ عَدَلْ

ومن الفوائد أيضًا في هذا الحديث : جواز دعاء المظلوم على ظالمه بمثل ما ظلمه ، كما دعا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بهذه الدعوات على من ظلمه .

ومن فوائدها : إن الله تعالى يستجيب دعاء المظلوم ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن وأمره أن يأخذ الزكاة من أموالهم ، قال : « إياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » ^(١) . فالمظلوم يستجيب الله دعاءه حتى ولو كان كافراً فلو كان كافراً وظلم ودعا على من ظلمه أجاب الله دعاءه ؛ لأن الله حكم عدل صلى الله عليه وسلم ، يأخذ بالإنصاف والعدل لمن كان مظلوماً ولو كان كافراً ، فكيف إذا كان مسلماً ؟

ومن فوائد هذا الحديث : أنه يجوز للإنسان أن يستثني في الدعاء ، إذا دعا على شخص يستثني فيقول : اللهم إن كان كذا فافعل به كذا ، اللهم إن كان ظلمي فأنصمني منه أو قابله بكذا وكذا ، تدعو بمثل ما ظلمك ، وقد جاء الاستثناء في الدعاء في القرآن الكريم فقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَنْجَبَتَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا بِحَيْثُ شَهِدْتُمْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَنْجَبَ شَهِدْتُمْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ [النور : ٦ - ٩] .

(١) انظر الحديث في مسلم في الإيمان (١٩) والبيهقي في السنن (٩٦/٤) وابن خزيمة في صحيحه (٢٢٧٥) .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : حرص أمير المؤمنين عمر عليه السلام على الرعية وتحمله المسؤولية والإحساس بها وشعوره بها عليه السلام ، ولهذا اشتهر بعدائه ، وحسن سياسته في الأمور كلها ، الحرية والسلمية ، والدينية والديوية ، فهو في الحقيقة خير الخلفاء بعد أبي بكر ، بل حسنة من حسنات أبي بكر عليه السلام ؛ لأن الذي ولاه على المسلمين هو أبو بكر عليه السلام ، فالحاصل أن هذا الحديث فيه فوائد تقتصر منها على ذلك . (والله الموفق) .

* * *

١٥٠٦ - وَعَنْ غُرُورَةَ بِنِ الزَّيْرِ أَنْ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ عليه السلام خَاصَمْتُهُ أَرْوَى بِنْتُ أَوْسٍ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ ، وَادَّعَتْ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا ، فَقَالَ سَعِيدٌ : أَنَا كُنْتُ أَخَذُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئًا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا ، طُوقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ » . فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ : لَا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا ، فَقَالَ سَعِيدٌ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً ، فَأَعْمِ بَصَرَهَا ، وَأَقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا ، قَالَ : فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا ، وَبَيِّنَتَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ ^(١) . متفق عليه .

وفي رواية لمسلم عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بِغَنَاءَ ، وَأَنَّهُ رَأَاهَا عَمِيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدْرَ تَقُولُ : أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدٍ ، وَأَنَّهَا مَرَّتْ عَلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ الَّتِي خَاصَمْتُهُ فِيهَا ، فَوَقَعْتُ فِيهَا ، فَكَانَتْ قَبْرِهَا ^(٢) .

الشرح

من كرامات الأولياء : أن الله ﷻ يجيب دعوتهم ، حتى يدركوها بأعينهم ، فهذا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عليه السلام أحد العشرة المبشرين بالجنة ، خاصمته امرأة ادعت أنه أخذ شيئًا من أرضها ، فخاصمته عند مروان ، فقال : أنا أخذ من أرضها شيئًا بعد ما سمعت من رسول الله ﷺ ! قالوا : وما سمعت ؟ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « من اقتطع شبرًا من الأرض ظلماً طوقه الله به يوم القيامة من سبع أراضين » أو طوقه يوم القيامة من سبع أراضين يعني فكيف أخذ منها بعد أن سمعت هذا من النبي ﷺ . كل مؤمن يؤمن بالله ورسوله ، إذا سمع مثل هذا الخبر الصادر عن الصادق المصدق عليه السلام ؛ فإنه لا يمكن أن يظلم أحداً من أرضه ، ولا شبرًا ، فالرسول ﷺ يخبر أنك لو أخذت شبرًا من الأرض وقيدته بالشبر من باب المبالغة ، وإلا فإن أخذ أقل من ذلك ولو ستيتمتراً واحداً فإنه يطوق به يوم القيامة من سبع أراضين ، إذا كان يوم القيامة جاءت هذه القطعة التي أخذها مطوقة في عنقه من سبع أراضين ؛ لأن الأراضين سبع طباق ، كما قال الله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَوَاتِرٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] . والإنسان إذا ملك أرضاً ، ملك قعرها إلى أسفل السافلين ، إلى الأرض السابعة ، وإذا ملكها أيضًا

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ومسلم في المساقاة (١٣٩) وأحمد في مسنده (١٨٨/١ ، ١٩٠) . قوله :

« طوقه » أي جعل طوقاً في عنقه يخسف به إلى سبع أراضين ، قوله : « تلتمس الجدر » أي تتحسس الجدر لتتهدي إلى مقصدها .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٣٨) .

ملك هواءها إلى الثريا ، لا أحد يستطيع أن يبنى فوقه جسراً أو أن يحفر تحته خندقاً ؛ لأن الأرض له إلى أسفل السافلين ، وإلى أعلى السماء ، كلها له ، إذا كان يوم القيامة وهذا قد اقتطع شبراً من الأرض بغير حق ؛ فإنه يأتي يوم القيامة مطوقاً به عنقه . نسأل الله العافية .

وعند جميع أهل العلم كل شيء محشور يوم القيامة حتى الوحوش تحشر حتى الإبل حتى البقر كلها تحشر يوم القيامة ، وهذا يشاهد حاملاً هذه الأرض والعياذ بالله من سبع أرضين ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لعن الله من غير منار الأرض » ^(١) غير منارها أي غير مراسيمها فأدخل شيئاً ليس له ، وفي هذا دليل على أن قصف الأرض أو أخذ شيء بغير الحق من كبائر الذنوب لأن عليه هذا الويل العظيم ، اللعن وأنه يحمل به يوم القيامة ، فما بالك بقوم اليوم يأخذون أميالاً بل أميال الأميال ، والعياذ بالله بغير الحق ، يأخذونها يضيّقون بها مراعي المسلمين ، ويحرمون المسلمين من مراعيهم أو من طرقهم أو ما أشبه ذلك ، هؤلاء سوف يطوقون ما أخذوا يوم القيامة والعياذ بالله ؛ لأنهم أخذوها بغير الحق ، المراعي للمسلمين عموماً ، الخطوط الطرقات للمسلمين عموماً ، الأودية أودية الأمطار للمسلمين عموماً ، ولهذا قال العلماء : إن الإنسان لا يملك بالإحياء ما قرب من عامر ، وهو يتعلق بمصلحة هذا العامر ، حتى لو أحيّاها وغرسها يقطع غرسه ويهدم بناؤه إذا كان هذا يتعلق بمصالح البلد ، والبلد ليست ملكاً لفلان أو علان بل هي لعموم المسلمين ، حتى لو فرضنا أن ولي الأمر أقطع هذا الرجل من الأرض التي يحتاجها أهل البلد ؛ فإنه لا يملكها بذلك ؛ لأن ولي الأمر يفعل لمصالح المسلمين ، لا يخص أحداً بمصالح المسلمين دون أحد ، وهذه المسألة خطيرة للغاية ، ولهذا لما ارتفعت قيم الأراضي صار الناس والعياذ بالله يعتدي بعضهم على بعض ، يدعي أن الأرض له وهي ليست له يكون جازاً لشخص ثم يدخل شيئاً من أرضه إلى أرضه ، وهذا على خطر عظيم ، حتى إن العلماء - أقول لكم كلاماً تعجبون منه - قالوا : لو أن الإنسان بنى جداراً ثم زاد في تشييده أي في لياصته (المحارة) دخل على السور سنتيمتر في المحارة ؛ فإنه يكون ظالماً ويكون بذلك معاقباً عند الله يوم القيامة ^(٢) ، إلى هذا الحد . الناس الآن والعياذ بالله يلعون أميالاً أو أمتاراً مع هذا الوعيد الشديد ، سعيد بن زيد رضي الله عنه ، لما حدث مروان بهذا الحديث قال : الآن لا أطلب عليك بيّنة ؛ لأنه عارف أن سعيداً لا يمكن أبداً أن يأخذ من أرض هذه المرأة بدون حق ، أما المرأة فقال سعيد رضي الله عنه : « اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، وأهلكها في أرضها » فماذا كان ، هذه المرأة أعماها الله ﷻ قبل أن تموت ، وبينما هي تمشي في أرضها ذات يوم إذ سقطت في بئر فماتت فكانت البئر قبرها ، في نفس الأرض التي كانت تخصم سعيد بن زيد رضي الله عنه فيها ، وهذا من كرامة الله ﷻ لسعيد بن زيد أن الله أجاب دعوته وشاهدها حياً قبل أن يموت ، وقد سبق لنا أن المظلوم تجاب دعوته ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى ينتصر للمظلوم من الظالم ؛ لأن الله تعالى حكم عدل لا يظلم ولا يمكن أحد من الظلم ، وقد

(١) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٤ ، ٤٥) وأحمد في مسنده (١٠٨ / ١ ، ١١٨) .

(٢) إلا أن يعفو جاره ويسمح .

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُلْغِي أَعْيُنُكَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٢١] فالظالم لا يفلح أبداً ، ولذلك انظر إلى هذه القصة وإلى قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه التي ذكرناها سابقاً وكيف أجاب الله الدعوة وهذه هي عادة الله ﷻ في عباده ، نسأل الله أن يحمينا وإياكم من الظلم ، والله الموفق .

١٥٠٧ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَحَدُ دَعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ : مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يَقْتُلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَإِنِّي لَا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرِ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَإِنِّي عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا . فَأَصْبَحْنَا ، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ ، وَدَفَنْتُ مَعَهُ آخَرَ فِي قَبْرِهِ ، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَهُ مَعَ آخَرَ ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ غَيْرَ أَذْنِهِ ، فَجَعَلْتُهُ فِي قَبْرِ عَلَى حِدَّةٍ ^(١) . رواه البخاري .

الشرح

سبق لنا بيان شيء من كرامات الأولياء التي ذكرها المؤلف وذكر في هذا الحديث ما جرى لعبد الله بن حرام رضي الله عنه والد جابر بن عبد الله ، فإنه أيقظ ابنه جابرًا ليلة من الليالي وقال : ما أُرَانِي إِلَّا أَوَّلَ قَتِيلٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وذلك قبيل غزوه أحد ، ثم أوصاه وقال : إني لن أترك من بعدي أحدًا أعز منك بعد رسول الله ﷺ ، وأوصاه بأن يقضي دينًا كان عليه ، وأوصاه بأخواته ، ثم كانت الغزوة فقاتل رضي الله عنه (عبد الله بن حرام) وقتل ، وكان القتلى في ذلك اليوم سبعين رجلًا ، فكان يشق على المسلمين أن يحفروا لكل رجل قبرًا ، فجعلوا يدفنون الاثنين أو الثلاثة في قبر واحد ، فدفن مع أبي جابر (عبد الله بن حرام) رجل آخر ، ولكن جابرًا رضي الله عنه لم تطب نفسه حتى فرق بين أبيه وبين من دفن معه ، فحفره بعد ستة أشهر من دفنه فوجده كأنه دفن اليوم ، لم يتغير إلا شيئًا في أذنه شيئًا يسيرًا ، ثم أفرده في قبر ، أما جابر رضي الله عنه : فقد رَفَى دين أبيه واستوصى بأخواته خيرًا ، حتى إنه تزوج بعد ذلك امرأة ثيبًا فسأله النبي ﷺ : « هل تزوجت ؟ » قال : نعم قال : « بكرًا أم ثيبًا ؟ » قال : ثيبًا ، قال : « فهلا تزوجت بكرًا تلاعبك وتلاعبها ، وتضاحكك وتضاحكها » فقال : يا رسول الله إن أبي ترك أخوات لي وذكر أنه أخذ الثيب لتقوم عليهن ^(٢) (لتقوم على خدمتهم) . في هذه كرامة لأبي جابر وهو عبد الله بن حرام أنه رضي الله عنه صدق الله رؤياه ، فصار أول قَتِيلٍ في أحد ، دفن ولم تأكل الأرض منه شيئًا إلا يسيرًا ، وقد مضى عليه ستة أشهر وهذا من كراماته ، واعلم أن الإنسان إذا دفن فإن الأرض تأكله لا يبقى إلا عجب الذنب ^(٣) ، وعجب الذنب هذا يكون كالتواة لخلق الناس يوم القيامة تنبت منه الأجساد ، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن الأرض لا تأكلهم ، كما قال النبي

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥١) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في النكاح (٥٠٨٠) .

(٣) انظر ذلك في مسلم في الفتن (١٤١ - ١٤٣) ومالك في الموطأ (الجنائز ٤٩) وأحمد في مسنده (٣١٥/٢) .

« إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » (١) أما غير الأنبياء ؛ فإن الأرض تأكل أجسادهم ، ولكن قد يمنع الله الأرض أن تأكل أحداً كرامة له والله الموفق .

* * *

١٥٠٨ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ الْمُصْبَحَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا ، فَلَمَّا افْتَرَقَا ، صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أَتَى أَهْلَهُ (٢) . رواه البخاري من طريق ، وفي بعضها : أَنَّ الرَّجُلَيْنِ أُسِيدَ بَنُ حُضَيْرٍ ، وَعَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الشرح

هذا حديث ذكره النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كرامات الأولياء وفضلهم ، وهو حديث الرجلين أسيد بن حضير وعباد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة مظلمة وكان في ذات الوقت ليس في الأسواق أنوار بل ولا في البيوت مصابيح فخرجا من عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الليلة ، الليلة المظلمة ، فجعل الله تعالى بين أيديهما مثل المصباحين ، يعني مثل لمبة الكهرباء تضيء لهما الطريق ، وليس هذا من فعلها ولا بسبب منهما ، ولكن الله تعالى خلق نوراً يسعى بين أيديهما حتى تفرقا وتفرق النور مع كل واحدٍ منهم ، حتى بلغا بيوتهما ، وهذا كرامة الله تعالى ، فمن كرامة الله تعالى أنه يضيء للعبد الطريق ، الطريق الحسي وفائدته الحسية ، فإن هذين الرجلين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأرضاهما مشيا في إضاءة ونور بينما الأسواق ليس فيها إضاءة ولا أنوار والليلة مظلمة ، فَيَقِصُّ الله لهما هذا النور ، هناك أيضا نور معنوي يقذفه الله تعالى في قلب المؤمن كرامة له ، تجد بعض العلماء يفتح الله عليه من العلوم العظيمة الواسعة في كل فن ويرزقه الفهم والحفظ والمجادلة ، ومن هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عليه ، فإن هذا الرجل من الله به على الأمة الإسلامية وما زالت الأمة الإسلامية تنتفع بكتبه إلى يومنا هذا وقد توفي سنة (٧٢٨ هـ) يعني منذ مئات السنين ، والأمة تنتفع بكتبه ، وقد أعطاه الله تعالى علما عظيما وفهما ثاقبا ، وقوة في المجادلة ، ولا أحد يستطيع أن يجادله في شيء أبداً ، حتى إنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : أي إنسان يجادلني بالباطل ويستدل بآية أو حديث ؛ فإنني أنا سأجعل الآية والحديث دليلا عليه وليست دليلا له . وهذا من نعمة الله تعالى أن الله تعالى يعطي الإنسان قدرة إلى هذا الحد ، وحتى إنه يتكلم مع المجادلين وينظرهم ثم يقول لهم : انظروا إلى قول فلان من زعمائهم في كتابه الفلاني وأتباع هذا الرجل الذي يجادلون فيه شيخ الإسلام لا يعلمون عن كتبه شيئا وهو يعلم ما في كتبه ، ومناظرته في العقيدة الواسطية مع القاضي المالكي عجيبة ، كان القاضي المالكي يحاول أن يجعل السلطان يبطش به ، لكنه هو يقول هذا لا يمكن ولا يجري على مذهبكم ، وأنتم أيها المالكية قلمت كذا وكذا . ولا يمكن أن يدين للوالي في هذا الذي ذكرت بناء على مذهبكم ، فبهت الرجل ، كيف يعرف من مذهبنا ما لا نعلم . وله أيضا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كل فن يد واسعة ،

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٠٨٥) وأحمد في مسنده (٨ / ٤) والحاكم في المستدرک (٥٦٠ / ٤) والبيهقي

في السنن (٢٤٩ / ٣) . (٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٥) .

فقد كان عالماً في النحو والعربية والصرف والبلاغة . حتى إن تلميذه ابن القيم رحمته الله في بدائع الفوائد بحث بحثاً دقيقاً جداً جداً في الفرق بين «مدح» و «حميد» وكيف تفرق اللغة العربية بين المعاني في الكلمات بتقديم حرف أو تأخيرها ، وأتى يبحث عجيب ، ثم قال : وكان شيخنا رحمته الله إذا تكلم بهذا أتى بالعجب العجيب ، يعني في مسألة اللغة والصرف ، ولكنه كما قال الشاعر :

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ نَجْدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ إِلَيْكَ غَنِّي فَإِنِّي غَنَّاكَ مَشْغُولُ

يعني شيخ الإسلام مشغول بما هو أكبر من مسألة بلاغية أو صرفية ، فهو مشغول بأكبر من هذا ، وفي يوم من الأيام قدم مصر وكان فيها أبو حيان اللغوي المشهور والمفسر من العلماء الكبار في هذا الباب ، وكان أبو حيان يمدح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله ، وله في مدحه قصيدة عصماء ، منها قوله :

قَامَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي نَصْرِ شَرَعَتَنَا مَقَامَ سَيِّدِ تَيْمٍ : إِذْ عَصَتْ مُضَرُ

والمقصود بسيد تيم : هو أبو بكر رحمته الله ، يعني أنه قام في الإسلام في محنة الإسلام والبدع مقام أبي بكر في يوم المحنة ، فلما قدم مصر ، جاء الناس إلى شيخ الإسلام ابن تيمية يستفيدون من علمه ويناقشونه وكان من بينهم أبو حيان ، فناقشه في مسألة نحوية ؛ لأن أبا حيان البحر المحيط في النحو ، ناقشه في مسألة نحوية ، فقال له شيخ الإسلام : هذا غلط ليس هذا من كلام العرب ، فقال له : كيف وسيبويه إمام النحويين ذكر هذا في كتابه ، فقال له شيخ الإسلام : وهل سيبويه نبي نحو يجب علينا أن نتبعه ؟ لقد أخطأ سيبويه في كتابه في أكثر من ثمانين موضعاً لا تعلمه أنت ولا سيبويه ، سيبويه عند النحويين مثل البخاري عند أهل الحديث ، فتعجب أبو حيان ، كيف يقول هذا الكلام ، ثم إنه ذهب عنه فأنشأ فيه قصيدة يذمه والعياذ بالله ، بالأمس يمدحه والآن يذمه . والمهم أنني أقول : إذا كان الله تعالى يعطي بالكرامات نوراً حسياً يستضيء به الإنسان . كما حدث لهذين الصحابين فكذلك يعطي الله نوراً معنوياً يقذفه في قلب العبد المؤمن ، نسأل الله أن يقذف في قلوبنا نوراً وإياكم ، يستطيع الإنسان به أن يتكلم في شريعة الله ، وكأن النصوص بين عينيه ، وهذا من نعمة الله على العبد ، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أوليائه المتقين وعباده الصالحين .

١٥٠٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشْرَةَ رَهْطٍ عَيْنًا سَرِيَّةً ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه فَاَنْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَذَاةِ ، بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هَذِيلَ يُقَالُ لَهُمْ : بَنُو لَحْيَانَ ، فَتَقَرَّبُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامَ ، فَاَقْتَصَّوْا أَتَارَهُمْ ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ ، لَجَّأُوا إِلَى مَوْضِعٍ ، فَأَخَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ ، فَقَالُوا : انْزِلُوا ، فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ وَلَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَنْ لَا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا ، فَقَالَ عَاصِمٌ بْنُ ثَابِتٍ : أَيُّهَا الْقَوْمُ أَنَا أَنَا ، فَلَا أَنْزِلُ عَلَى ذِمَّةِ كَافِرٍ : اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ ، فَرَمَوْهُمْ بِالْثَبَلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، مِنْهُمْ حَبِيبٌ ، وَزَيْدُ بْنُ الدُّثَنِیَّةِ ، وَرَجُلٌ آخَرُ . فَلَمَّا اسْتَمْتَكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قَسِيهِمْ ، فَرَبَطُوهُمْ بِهَا .

قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ : هَذَا أَوَّلُ الْعَذْرِ ، وَاللَّهِ لَا أَضْحِكُكُمْ إِنَّ لِي بِهِوَ لَاءِ أَسْوَةٍ - يُرِيدُ الْقَتْلَى - فَجَرَّوهُ وَعَالَجُوهُ ، فَأَبَى أَنْ يَضْحَكَهُمْ ، فَقَتَلُوهُ ، وَانْطَلَقُوا بِخَبِيبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدُّنَيْتَةِ ، حَتَّى بَاغَوْهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فَابْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ بَيْنَ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَتَافٍ خُبَيْبًا ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ ، فَدَرَجَ بُنْيَ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى آتَاهُ فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ ، فَفَزَعَتْ فَرَعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ . فَقَالَ : أَنْخَشِينَ أَنْ أَقْتُلَهُ ؟ مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ ذَلِكَ ! قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوتِقٌ بِالْحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ ، وَكَانَتْ تَقُولُ : إِنَّهُ لَرَزَقُ رَزَقَةِ اللَّهِ خُبَيْبًا ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحُلِّ ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ : دَعُونِي أَصْلِي رَكَعَتَيْنِ ، فَتَرَكُوهُ ، فَوَرَعَ رَكَعَتَيْنِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَحْسَبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَرَدْتُ . اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ، وَاقْتُلْهُمْ بِدَا ، وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَقَالَ :

فَلَمَسْتُ أَبَالِي حِينَ أَقْتُلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَضْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُنْزَعٍ

وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ الَّذِي سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلَاةَ ، وَأَخْبَرَ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - أَصْحَابُهُ يَوْمَ أُصَيْبُوا خَيْرُهُمْ ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ حِينَ حَدَّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يَوْتُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرِفُ ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عِظَمَائِهِمْ ، فَبَعَثَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدُّبْرِ فَحَمَّتَهُ مِنْ رُسُلِهِمْ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا ^(١) ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

قَوْلُهُ : « الْهَذَاءُ » : مَوْضِعٌ ، « وَالظُّلَّةُ » : السَّحَابُ . « الدُّبُرُ » : النَحْلُ .

وَقَوْلُهُ : « اقْتُلْهُمْ بِدَا » بِكَسْرِ الْبَاءِ وَفَتْحِهَا ، فَمِنْ كَسَرٍ ، قَالَ : هُوَ جَمْعُ بَدْءٍ بِكَسْرِ الْبَاءِ ، وَهِيَ النَّصِيبُ ، وَمَعْنَاهُ : اقْتُلْهُمْ حِصَصًا مُنْقَسِمَةً لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَصِيبٌ ، وَمَنْ فَتَحَ ، قَالَ : مَعْنَاهُ : مُتَّفَرِّقِينَ فِي الْقَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ مِنَ التَّبْيِيدِ .

وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ سَبَقَتْ فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، مِنْهَا حَدِيثُ الْغُلَامِ الَّذِي كَانَ يَأْتِي الرَّاهِبَ وَالسَّاجِرَ ، وَمِنْهَا حَدِيثُ جُرَيْجٍ ، وَحَدِيثُ أَصْحَابِ الْغَارِ الَّذِينَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ الَّذِي سَمِعَ صَوْتًا فِي السَّحَابِ يَقُولُ : أَسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَالذَّلَائِلُ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٨٦) . قوله : « رهط » هم الجماعة ما فوق العشرة إلى الأربعين ، قوله : « وفنروا » أي خرجوا لحربهم ، قوله : « لجأوا إلى موضع » أي تحصنوا بمكان ما ، قوله : « لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع » أي : لولا أن تحسبوا أنني خائف من الموت ، قوله : « شلو » أي جسد ، وقد يطلق على العضو ، قوله : « بمنزع » أي : مقطع .

الشرح

ساق المؤلف رحمته في باب كرامات الأولياء وفضلهم عدة أحاديث ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة عاصم بن ثابت الأنصاري وأصحابه الذين أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم عشرة رهط عينا سرية ، « عينا » يعني مثل الجواسيس للعدو « سرية » يعني أخفاهم عليه الصلاة والسلام ، فلما وصلوا قرب مكة شعر بهم جماعة من هذيل فخرجوا إليهم في نحو مائة رجل رام يعني يجيدون الرمي ، فاتبعوا آثارهم حتى أحاطوا بهم ، ثم طلبوا منهم - أي هؤلاء الهذليون - طلبوا منهم أن ينزلوا بأمان وأعطوهم عهدا أن لا يقتلوهم ، فأما عاصم فقال : « والله لا أنزل على ذمة كافر » أي على عهده ؛ لأن الكافر قد خان الله تعالى ، ومن خان الله خان عباد الله ، ولهذا لما كتب أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كتب إليه أن عنده رجلا نصرانيا جيدا في المحاسبة وطلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأذن له أن يوظف هذا النصراني على بيت المال ؛ لأنه رجل جيد في الحساب ، فكتب إليه عمر : إني لا آمن من خان الله ورسوله ؛ لأن كل كافر فهو خائن ، ولا تولّه على بيت المال ، فكتب إليه مرة ثانية (أبو موسى) قال : هذا الرجل قلما يوجد مثله في الحساب والجودة ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبد الله عمر بن الخطاب مات النصراني ، والسلام . جملة واحدة ، مات النصراني ، يعني قدّره أنه مات ، هل إذا مات تتعطل المحاسبة عندنا في بيت المال فقطع طمع أبي موسى رضي الله عنه . المهم أن عاصم بن ثابت رضي الله عنه أي أن ينزل على عهد الكفار ؛ لأنهم لا يؤمنون ، كل كافر فهو غير أمين ، ثم إنهم رموهم بالنبل أي هؤلاء الهذليون رموا هؤلاء الصحابة العشرة ، فقتلوا عاصمًا وقتلوا ستة آخرين ، وبقي ثلاثة ، بقي هؤلاء الثلاثة وقالوا : ننزل وننظر هل يوفون أم لا ، فأخذهم الهذليون ثم حلوا « أوتار قسيهم » وربطوهم بها ؛ أي ربطوا أيديهم ، فقال الثالث : هذا أول الغدر ، لا يمكن أن أصبحكم ، فحاولوا معه قال : أبداً فقتلوه ، ثم ذهبوا بخبيب وصاحبه إلى مكة فباعوهما ، فاشتري خبيبا رضي الله عنه أناس من أهل مكة وقد كان قتل زعيما لهم في بدر ، ورأوا أن هذه فرصة أن يقتلوه ثم أبقوه عندهم أسيرا مغلول الأيدي ، في يوم من الأيام كان في البيت وكان أسيرا مغلول الأيدي ، فدرج صبي من أهل البيت إلى خبيب رضي الله عنه ، فكأنه رق له ورحمه كعادة الإنسان يرحم الصغار ويرق لهم ، ولهذا إذا رأيت من نفسك أنك ترق للصغار وترحمهم ؛ فهذه علامة رحمة الله لك ؛ لأن الراحمين يرحمهم الله تعالى ^(١) ، ولهذا قال الأقرع بن الحابس لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن والحسين - قال : إن لي عشرة من الولد ما قبلتهم ، قال : « أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟! إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ^(٢) خبيب أخذ الصبي ووضع على فخذه وكان قد استعار من أهل البيت موسى (يعني موس) يستحذ به

(١) ومصدق ذلك ما رواه أبو داود في السنن (٤٩٤١) والترمذي في السنن (١٩٢٤) وأحمد في مسنده (٦٠/٢) والحاكم في المستدرک (١٥٩/٤) .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في الأدب (٥٩٩٨) ومسلم في الفضائل (٦٤) وأحمد في مسنده (٥٦/٦) والبيهقي في السنن (١٠٠/٧) والبخاري في شرح السنة (٣٥/١٣) .

أي يحلق به عانته ، لما ذهب الصبي يدرس (يلعب) وأمه غافلة عنه ، لما تفتطنت له وهو على فخذه خبيب ، وخبيب معه الموس فظنت أن هذه فرصة لخبيب ، ماذا يصنع ، يذبح الولد ، الموسى معه والولد صبي وهو منفرد به ، لكنه ﷺ أمين ، صحابي جليل ، لما أحس أنها ارتاعت (فرغت) ، قال : والله ما كنت لأذبحه ، قالت : « والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب » رأته ذات يوم وفي يده قطف عنب يأكله ، ومكة ما فيها ثمر ، فعلمت أن ذلك من عند الله ﷻ ، الله سبحانه وتعالى ، هيا له هذا العنب وهو أسير لا يملك لنفسه شيئاً لا يستطيع أن يخرج إلى السوق يشتري أو يطعم ، تحت رحمة هؤلاء ، ولكن الله جل وعلا يسر له هذا القطف من العنب ، يأكل عنباً وهو في مكة ، فعلمت أنه من عند الله . وهذا كقصة مريم عليها السلام ﴿ كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَبَدَّ عِنْدَهَا رِيقًا قَالَتْ يَتَرَمَّيَ أَنَّ لِلَّهِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، فهذه من كرامة الله تعالى لخبيب ﷺ ، أكرمه الله ﷻ ، تنزل عليه مائدة من العنب يأكلها وهو أسير في مكة ، وبقي أسيراً ثم أجمع هؤلاء القوم ، الذين قتل والدهم على يد خبيب أجمعوا على أن يقتلوه ، لكنهم لاحترامهم للحرم قالوا : نقتله خارج الحرم ؛ لأن الإنسان إذا قتل أحدًا خارج الحرم ودخل إلى الحرم فإنه لا يجوز أن يقتل في الحرم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] فهذه سنة كانت في الجاهلية وأقرها الإسلام ، على أن الإنسان إذا فعل ما يوجب القتل (يستحق عليه القتل) خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم فإن الحرم يعيده ولا يجوز أن يقتل ^(١) ، ماذا يصنع به ؟ يعني لو قال قائل : لو سلمنا بهذه القاعدة كان كل إنسان مجرم يذهب إلى الحرم ويلوذ به ، قلنا : نحن لا نقتله في الحرم لكن نضيق عليه حتى يخرج ، كيف نضيق عليه ، قال العلماء : لا يؤكل معه ، ولا يشارب ، ولا يبايع ، ولا يشتري منه ، ولا يكلم ، نضيق عليه حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت ، حينئذ ماذا يفعل ؟ يخرج ، وإذا خرج أقمنا عليه ما يجب عليه ، المهم أنهم خرجوا بخبيب خارج الحرم إلى الحل ليقتلوه ، فطلب منهم ، أن يصلي ركعتين ؛ لأن أشرف الأعمال البدنية الصلاة ، ولأنها صلة بين العبد وبين ربه ﷻ ، فأذنوا له أن يصلي ركعتين ، وبعد أن انتهى منها قال : لولا أنني أخاف أن تظنوا أن بي جزعاً لزدت ؛ لأنه ﷺ كان حريصاً على الصلاة ويحب أن يكثر منها عند موته ثم دعا عليهم ﷺ بهذه الدعوات الثلاث : « اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً » فأجاب الله دعوته ، وما دار الحول على واحد منهم ، كلهم قتلوا ، وهذا من كرامته .

ثم أنشد هذا الشعر :

(١) هذا هو الرأي الراجح وهو رأي الحنفية والمالكية وهو قول مجاهد وطاووس ، فقد ذهبوا إلى أن المشرك الحربي إذا لجأ إلى الحرم فإنه لا ينبغي أن يقتل ، إلا أن يكون قد قتل داخل الحرم ، أما الشافعية فقط قالوا بقتال المشركين في أي مكان في الحل والحرم واستدلوا بقوله تعالى ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ وبقوله : ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَكْثَرُ الْكُفْرَ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ووجه ذلك أن الإجماع قد تقرر بأنه لو استولى عدو على مكة ؛ وجب على المسلمين قتاله حتى وإن لم يبدأ القتال (انظر : أحكام القرآن للجصاص (٢٥٩/١) تفسير القرطبي (٣٥١/٣) فقه الكتاب والسنة (١٩٥/١ ، ١٩٦) .

ولست أبا لي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ببارك على أوصال شلوي ممزّع

فصار من الكرامة لهذا الرجل أن الله سبحانه وتعالى كان يرزقه الفاكهة التي لا توجد في مكة ، وأنه كان يأكلها بيده ، ويده موثقة بالحديد ، وأنه أول من سن الصلاة عند القتل ؛ فإنه فعل ذلك وأقره الله ورسوله ، وأنه دعا على هؤلاء القوم ، فأجاب الله دعوته .

أما عاصم بن ثابت الذي قُتل ﷺ ؛ فإنه شعر به قوم من قريش وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم فأرسلوا إليه جماعة يأتون بشيء من أعضائه يعرف به حتى يطمئنوا أنه قتل ، فلما جاء هؤلاء القوم ليأخذوا شيئاً من أعضائه ، أرسل الله سبحانه وتعالى عليه شيئاً مثل الظلة من الذبّ (أي من النحل) نحل عظيم ، يحميه به الله تعالى من هؤلاء القوم ، فمجزوا أن يقربوه ورجعوا خائبين . وهذا أيضاً من كرامة الله ﷻ لعاصم ﷺ ، أن الله ﷻ حمى جسده بعد موته من هؤلاء الأعداء الذين يريدون أن يمشلوا به . والكرامات كثيرة ذكر المؤلف منها ما ذكر في هذا الباب ، وذكر أيضاً أشياء متفرقة في هذا الكتاب . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : من عقيدة أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يُجري الله سبحانه وتعالى على أيديهم من أنواع العلوم والمكاشفات ، والقدرة والتقدير ، وقال : الكرامات موجودة قبل هذه الأمة ، وفي صدر هذه الأمة إلى يوم القيامة . وذكر شيئاً كثيراً منها في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١) .

كتاب الأمور المنهي عنها

٢٥٤ - باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَنْتَبِ بِعَصْمِكُمْ بَعْضُكُمْ بِعَصْمِ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ [المحجرات : ١٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٢) [ق : ١٨] . اعْلَمُ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلِّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيعِ الْكَلَامِ إِلَّا كَلَامًا ظَهَرَتْ فِيهِ الْمَصْلَحَةُ ، وَمَتَى اسْتَوَى الْكَلَامُ وَتَرَكُهُ فِي الْمَصْلَحَةِ ، فَالْسُنَةُ الْإِمْسَاكُ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَنْجُرُ الْكَلَامُ الْمُبَاحَ إِلَى حَرَامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْعَادَةِ ، وَالسَّلَامَةُ لَا يَغْدِلُهَا شَيْءٌ .

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بتصحيح وتعليق الشيخ محمود عبد الوهاب فايد - مطبعة محمد علي صبيح . ط . ٢ . ١٩٥٨ م . ص : ١٢٨ - ١٣٨ .

(٢) قوله ﴿ وَلَا يَنْتَبِ ﴾ أي : يذكر أخاه بما يكره مع أن ما يذكره فيه . قوله ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أي لا تتبع . قوله : ﴿ وَالْفُؤَادَ ﴾ القلب . قوله : ﴿ رَقِيبٌ ﴾ ملك يرقبه قوله : ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي : مهيباً ، معدّ لذلك ، حاضر عنده لا يفارقه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في كتابه باب تحريم الغيبة ووجوب حفظ اللسان ، ثم ذكر عدة آيات في هذا المعنى ، والغيبة بينها النبي صلوات الله عليه حين قال لأصحابه : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قالوا : يا رسول الله أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » ^(١) يعني مع الغيبة ، فالغيبة من كبائر الذنوب التي لا تكفرها الصلاة ، ولا الصدقة ، ولا الصيام ، ولا غيرها من الأعمال الصالحة ، بل تبقى على الموازنة ، قال ابن عبد القوي رحمته الله في نظم الآداب :

وقد قيل صغرى غيبة ونميمة وكلتاها كبرى على نص أحمد

أي أحمد بن حنبل رحمته الله ، يعني أنه قد نص على أن الغيبة والنميمة من كبائر الذنوب . وقول النبي صلوات الله عليه في تعريف الغيبة : « ذكرك أخاك بما يكره » يشمل ما يكره من عيب خلقي ، وعيب خلقي ، وعيب ديني ، كل شيء يكره ؛ فإنك إذا ذكرته به فهي غيبة ، من العيب الخلقي مثلاً لو اغتبته أنه أعرج ، أعور ، أو طويل ، أو قصير ، أو ما أشبه ذلك ، هذه غيبة ، أو خلقي كما لو ذكرته بأنه ليس بعفيف يعني يتبع النساء ينظر إلى النساء ، ينظر إلى المردان وما أشبه ذلك ، أو عيب ديني ، بأن تقول : إنه مبتدع ، أو إنه لا يصلي مع الجماعة ، إنه لا يفعل كذا وكذا ، تعيبه في غيبته ولهذا سميت غيبة ؛ لأنها في غيبة الإنسان ، أما لو كان ذلك في وجهه ؛ فإنه يسمى سباً ولا يسمى غيبة . وقول النبي صلوات الله عليه « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » . يعني بهته مع الغيبة ، فحذف الشق الثاني ؛ لأنه معلوم ، ونظير ذلك في الكلام أن النبي صلوات الله عليه قال ذات يوم : « ودنا أنا قد رأينا إخواننا » قالوا : يا رسول الله أولسنا إخوانك ؟ قال : « لا ، أنتم أصحابي ، وإخواننا هم الذين يأتون من بعدي » ^(٢) يعني فيؤمنون به وهم لا يرونه ، وقوله « أنتم أصحابي » لا يعني بذلك نفي الأخوة ، بل الصحابة إخوانه وأصحابه ، ومن بعده إخوانه وليسوا أصحابه ، هذا أيضاً فقد بهته يعني ولا يمكن أن يكون غيبة بل هو غيبة وبهتان ، واعلم أن الغيبة تزداد قبحاً وإثماً بحسب ما تؤدي إليه ، فغيبة العامة من الناس ليست كغيبة العالم ، أو ليست غيبة الأمير أو المدير أو الوزير أو ما أشبه ذلك ، لأن غيبة ولاية الأمور صغيراً كان الأمر أو كبيراً ، أشد من غيبة من ليس لهم إمرة وليس له أمر ولا ولاية ؛ لأنك إذا اغتبت عامة الناس إنما تسيء إليه شخصياً فقط ، أما إذا اغتبت من له أمر ؛ فقد أسأت إليه ، وإلى ما يتولاه من أمور المسلمين ، مثلاً فرض أنك اغتبت عالماً من العلماء ، هذا لا شك أنه عدوان عليه شخصياً كغيره من المسلمين ، لكنك أيضاً أسأت إساءة كبيرة إلى ما يحمله من الشريعة ، رجل عالم يحمل الشريعة إذا اغتبته سقط من أعين الناس ، وإذا سقط من أعين الناس لن

(١) انظر نص الحديث في مسلم ، في البر والصلة (٧٠) والبيهقي في السنن (٢٤٧/١٠) .

(٢) انظر الحديث بنصه في مسلم في الطهارة (٣٩) ومالك في الموطأ (الطهارة ٢٨) .

يقبلوا قوله ولن يعودوا يرجعون إليه في أمور دينهم ، وصار ما يطلبه من الحق مشكوكًا فيه ؛ لأنك اغتبت ، فهذه جناية عظيمة على الشريعة .

كذلك الأمراء ، إذا اغتبت أميرًا أو ملكًا أو رئيسًا أو ما أشبه ذلك ؛ فإن ذلك ليست غيبة شخصية له فقط ؛ بل هي غيبة له ، وفساد لولاية أمره ؛ لأنك إذا اغتبت الأمير أو الوزير أو الملك معناها أنك تشحن قلوب الرعية على ولائهم ، وإذا شحنت قلوب الرعية على ولاة أمورهم ؛ فإنك في هذه الحال أسأت إلى الرعية إساءة كبيرة ؛ إذ أن هذا سبب لنشر الفوضى بين الناس ، وتمزق الناس وتفرق الناس ، واليوم يكون رميًا بالكلام ، وغدًا يكون رميًا بالسهم ؛ لأن القلوب إذا شحنت وكرهت ولاة أمورهم ؛ فإنها لا يمكن أن تنقاد لأوامرهم ، إذا أمرت بخير رأته شرًا ولهذا قال الشاعر كلمة سابقة ، قال :
وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليله كما أنَّ عينَ السخطِ تُبدي المساويا

فأنت مثلًا إذا اغتبت أحدًا من الكبار الذين لهم ولاية أمر على المسلمين ، قيادة دينية ، أو قيادة تنفيذية وسلطة ، فإنك تسيء إلى المسلمين عمومًا من حيث لا تشعر ، قد يظن بعض الناس أن هذا يشفي من غليله وغليانه ، لكن كيف يصب جامه على أمن مستقر ليقلب هذا الأمن إلى خوف ، وهذا الاستقرار إلى قلق ، أو ليقلب هذه الثقة بالعالم إلى سحب الثقة ، إذا كنت ذا غليان أو إذا كان صدرك مملوءًا غيظًا ؛ فصبه على نفسك قبل أن تصبه على غيرك ، انظر في مساوئك أنت ، هل أنت ناج من المساوئ ؟ هل أنت سالم ؟ أول عيب فيك أنك تسب ولاة الأمور وتغتتاب ولاة الأمور ، قد يقول : أنا أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، نقول : حسنًا ما قصدت ، ولكن البيوت تؤتي من أبوابها ، ليس طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تنشر معايب ولاة أمورك ؛ لأن هذا مما يزيد المنكر ، لا يثق الناس في أداء أحد ، إذا قال العالم : هذا منكر ، قالوا : هذا اجعلوه على جنب ، إذا قال الأمير : هذا منكر ، وأراد أن يمنع منه ، يقولون لا ، أنت ما أصلحت نفسك حتى تصلح غيرك . فيحدث بهذا ضرر كبير على المسلمين ، والعجب أن بعض المفتونين بهذا الأمر ، أي بسب ولاة الأمور من العلماء والأمراء ، العجب أنهم لا يأتون بحسنات هؤلاء الذين يغتابونهم ، حتى يقوموا بالقسط ؛ لأن الله يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَقْدِلُوا ﴾ ^(١) [المائدة : ٨] ، لا يجرمنكم : لا يحملنكم بغضهم على ألا تعدلوا ، والعجب أيضًا أنك لا تكاد تجد في مجالسهم أو في أفواههم يومًا من الدهر إلا قليلًا أنهم يقولون : أيها الناس اتقوا كذا ، اتقوا الغش ، اتقوا الكذب . الغش موجود في البيع والشراء والمعاملات ، والكذب موجود أيضًا ، والغيبة موجودة ، لا تكاد تجد أنهم يصبون جامهم (غضبهم) على إصلاح العامة ويحذرونهم ، ومن المعلوم أن العامة إذا صلحت فالشعب هو العامة ، الشعب يتكون من زيد وعمر وبكر وخالد ، أفراد ، إذا صلحت الأفراد صلح الشعب ، وإذا صلح الشعب فلا بد أن تصلح الأمة

(١) قوله : ﴿ قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ أي ليكن من دأبكم أن تقوموا لله بالحق في كل أموركم قوله : ﴿ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي شاهدين بالعدل .

كلها ، لكن بعض الناس يكون فيه مرض يحب مثل هذا الأمر ، يحب أن يطرح على بساط البحث عالماً من العلماء فيتبع عوراته ولا يذكر خيراته ، ويشيع هذه العورات بين الناس ، أو يأخذ أميراً ، أو وزيراً أو ملكاً ، ويضعه على البساط ثم يُشَرِّحه ويتكلم فيه ، ولا يذكر شيئاً من حسناته ، سبحان الله ، أين العدل ؟ إذا كان الله ﷻ ﴿ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] حتى في معاملة المشركين ، يقول ﷻ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : ٢٨] قالوا كلمتين ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ والثانية : ﴿ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ، حكم الله بينهم ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ فقبل منهم الحق وهو أنهم وجدوا آباءهم عليها ورد الباطل .

إذا كنت تريد أن تتكلم بالعدل تكلم بالعدل ، أما أن تتبع عورات المسلمين ولا سيما ولاية الأمور منهم ؛ فاعلم أن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، وأن من تتبع الله عورته فضحه ولو في بيت أمه ^(١) . المهم أن علينا أن نتجنب الغيبة وأن نكف ألسنتنا وأن نعلم أن كل كلمة تكون غيبة لشخص فإنما تكون نقصاً من حسناتنا وزيادة في حسنات هذا الذي ظلم بسبه كما جاء في الحديث « أتدرون من المفلس فيكم ؟ » قالوا : من لا درهم عنده ولا متاع ، قال : « لا ، المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، فيأتي وقد ظلم هذا ، وشتم هذا ، وأخذ مال هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن بقي من حسناته شيء ، وإلا أخذ من سيئاتهم وطرح عليه ، ثم طرح في النار » ^(٢) . حتى إننا سمعنا عن بعض السلف أنه سمع عن شخص يغتابه فأرسل إليه بهدية ، من الذي أرسل ؟ الذي اغتیب ، أرسل إلى الذي اغتابه بهدية . وقال له : أنت أهديتني حسنات أنتفع بها يوم القيامة ، وأنا أهديك هذه الهدية تنتفع بها في الدنيا ، وآخر أمرها أن تكون خراة أو بولاً .

اللهم يا إخوان نصيحتي لنفسي ولكم أن تتجنبوا الغيبة وأن تتجنبوا الخوض في مساوئ ولاية الأمور من العلماء والأمراء والسلطين وغيرهم ، إذا كنتم تريدون الخير والإصلاح ، فالباب مفتوح ، اتصلوا بأنفسكم ، اتصلوا بقنوات أخرى إذا لم تستطيعوا أن تتصلوا بأنفسكم ، ثم إذا أدبتم الواجب سقط عنكم ما وراء ذلك ، ثم اعلم يا أخي هل غيبتك هذه للعلماء أو الأمراء ، هل تصلح من الأمور شيئاً ؟ أبداً ؛ بل هي إفساد الواقع لا تزيد الأمر إلا شكاً ، ولا ترتفع بها مظلمة ، ولا يصلح بها فاسد ، وإنما الطرق موجودة ثم على الإنسان أن يتكلم بالعدل كما قلت إذا ابتليت بنشر مساوئ الناس فانشر المحاسن حتى تتعادل الكفة أو ترجح إحدى الكفتين على الأخرى ، أما أن تبلى بنشر المعاييب وتكون آخرس في نشر المحاسن ؛ فهذا ليس بعدل . وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير والصلاح .

وقد ذكر المؤلف ﷺ الآيات وهي :

(١) ودليل ذلك ما أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢) ولفظه عنده : « ... يفضحه ولو في جوف رحله » وأبو

داود في الأدب (٤٨٨٠) وأحمد في مسنده (٤٢١/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٩) والترمذي في السنن (٢٤١٨) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ تَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] . وقد سبق لنا أن ذكرنا الغيبة هي أن تذكر أخاك بما يكره في دينه أو خلقه أو خلقته أو غير ذلك ، كل شيء يكرهه أخوك فلا تذكره به في حال غيبته ، وسبق لنا أن الغيبة من الكبائر ، وأنه لا تكفرها الصلاة ولا الصدقة ولا الصيام ولا الحج ، إلا أنها كغيرها من الكبائر يوازن بينها وبين الحسنات ، وسبق لنا أن الغيبة تختلف ، أي يختلف حكمها وقبحها بحسب ما تؤدي إليه من مفسد ، وسبق لنا أن غيبة ولاية الأمور من العلماء والأمراء أشد من غيبة غيرهم لما يترتب على ذلك من المفساد العظيمة . أما ما ساقه المؤلف من الآيات فأولها قوله تعالى ﴿ وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ . وهذه معطوفة على ما ذكر في أول الآية ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَخْتَبَرُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَحْتَسِبُوا وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . فنهى الله عن الغيبة ثم ضرب مثلاً ينفر منه كل أحد ، فقال : ﴿ أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

لو قدم لك أخوك المسلم ميتاً هل تحب أن تأكل لحمه ؟ الجواب : لا . الكل يقول : لا أحب ذلك ، ولا يمكن ، فإذا قال قائل : ما هي مناسبة الغيبة لهذا المثل ، قلنا : لأن الذي تغتابه غائب لا يمكن أن يدافع عن نفسه ، كالميت إذا قطعت لحمه لا يمكن أن يقوم ليدافع عن نفسه ، ولهذا إذا ذكرت أخاك بما يكره في حال وجوده ذلك لا يسمى غيبة بل يسمى سباً وشتماً ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ . فأمر بتقوى الله ﷻ بعد أن نهى عن الغيبة وهذا إشارة إلى أن الذين يغتابون الناس لم يتقوا الله ﷻ . واعلم أنك إذا سلطت على عيب أخيك ونشرته وتبعت عورته فإن الله تعالى يقيد لك من يفضحك ويتبع عورتك حياءً كنت أو ميتاً ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في بيت أمه » ^(١) . إلا أن الغيبة إذا كانت للنصح والبيان فإنه لا بأس بها . كما لو أراد إنسان أن يعامل شخصاً من الناس ، وجاء إليك يستشيرك ؟ يقول : ما تقول ؟ هل أعامل فلاناً ؟ وأنت تعلم أن هذا سعى المعاملة ، ففي هذا الحال يجب عليك أن تبين ما فيه من العيب من باب النصح ، ودليله أن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها خطبها ثلاثة من الصحابة : أسامة بن زيد ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأبو جهم ، فجاءت تستشير النبي ﷺ تقول له خطبني فلان وفلان وفلان ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : « أما أبوجهم فضراب للنساء ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له ، انكحي أسامة » ^(٢) فذكر هذين الرجلين بما يكرهان لكن من باب النصيحة لا من باب نشر العيب والفضيحة ، وفرق بين هذا وهذا ، وكذلك لو جاء إنسان يستشيرك قال : اطلب العلم عند

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٦) بلفظه ، ومسلم في الطلاق (٣٦ ، ٤٧) والترمذي في السنن (١١٣٤) كلاهما بلفظ : « وأما معاوية فلا يضع عصاه من عاتقه » .

فلان ؟ وأنت تعلم أن فلائنا ذو منهج منحرف ، فلا حرج عليك لا تطلب العلم عنده . مثل أن يكون في عقيدته شيء ، أو في فكره شيء ، أو في منهجه شيء ، و تخشى أن يؤثر على هذا الذي جاء يستشيرك يطلب العلم عنده أم لا ، وجب عليك أن تبين له ، تقول : لا تطلب العلم عند هذا ، هذا فيه كذا وكذا من العيوب ؛ حتى لا ينتشر عيبه بين الناس ؛ والأمثلة على هذا كثيرة ، والمهم أنه إذا كان ذكرك أخاك بما يكره من أجل النصيحة فلا بأس . وقد شاع عند الناس كلمة غير صحيحة وهي قولهم : [لا غيبة لفاسق] ^(١) هذا ليس حديثاً وليس قولاً مقبولاً ، بل الفاسق له غيبة مثل غيره ، وقد لا يكون له غيبة ، فإذا ذكرنا فسقه على وجه العيب والسب ؛ فإن ذلك لا يجوز ، وإذا ذكرناه على سبيل النصيحة والتحذير منه فلا بأس بل قد يجب . والمهم أن هذه العبارة ليست حديثاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وليست على أخلاقه أيضاً بل في ذلك تفصيل .

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ يعني : لا تتبع ما ليس لك به علم . وهذا النهي يشتمل على كل شيء ، كل شيء ليس لك به علم فلا تتبعه أعرض عنه ولا تتكلم فيه ؛ لأنك على خطأ ، وهذا إذا كان بالنسبة لما تنسبه إلى الله ورسوله كان محرماً من أشد المحرمات إنشأ ، إذا قلت مثلاً : قال الله تعالى كذا وكذا والله لم يقله ، أو تفسر الآية بما تهواه نفسك لا بما تدل عليه الآية ، فقد قلت على الله ما لا تعلمه ، ولهذا سيأتي الحديث : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ^(٢) ولا يحل لأحد أن يفسر آية من كتاب الله وهو لا يعلم معناها ، وإنما يفسرها بالظن والتخمين ؛ لأن الأمر خطير ؛ لأنك إذا فسر آية إلى معنى من المعاني فقد شهدت على الله أنه أراد كذا وكذا وهذا خطر عظيم ، ولهذا يجب على الإنسان التحرز من التسرع فيما ليس له به علم بالنسبة للأحكام الشرعية ، وكذلك غيرها ولكن هي أشد ، وقد قرن الله تعالى القول عليه بلا علم ، قرنه بالشرك ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا فَعْلَانُ ﴾ [الأعراف : ٣٣] وكذلك إذا قفوت ما ليس لك به علم بالنسبة للآدميين (بني آدم) بأن تنقل عن شخص أنه قال كذا وكذا وهو لم يقله ، حتى لو قيل لك إنه قال كذا وكذا ، فلا تعتمد على هذا حتى تتيقن ، لا سيما إذا كثرت القول بين الناس في الأمور ، فإنه يجب التحرز أكثر ؛ لأن الناس إذا كثرت فيهم القول والقليل والقال فإنهم يبنون من الحبة قبة ، ومن الكلمة كلمات ، ولا يتحرزون في النقل ، ولهذا

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٩/١) بلفظ : « ليس لفاسق غيبة » ولفظه : القاري في الأسرار المرفوعة (٣٨٣) والسيوطي في الدرر المنتثرة (١٧٦) . والحديث كما قال العجلوني في كشف الخفاء (٢٢٣/٢ ، ٢٢٤) نقلاً عن الحاكم ، فيما نقله البيهقي في الشعب : إنه غير صحيح ولا معتمد .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٠) وأحمد في مسنده (٢٣٣/١) . والبغوي في شرح السنة (٢٥٧/١) بلفظ « بغير علم » ولفظه : ذكره البغوي في شرح السنة (٢٥٨/١) .

يسمع لإنسان أنه ينقل عنه أو عن غيره ما ليس بصحيح إطلاقاً ؛ لأن الناس مع القول والقليل والقال يكون لهم هوى ، والعياذ بالله ، فيقولون ما لا يعلمون .

ثم ذكر الآية الثالثة وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ١٠١ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ١٠٢ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٠٣ ﴾ [ق : ١٦-١٨] المؤلف رحمه الله لم يسق إلا هذه الآية الثالثة ، وليته ساق الآيات كلها لكان أحسن ، فالله تعالى يخبر أنه خلق الإنسان ، وهذا أمر معلوم بالضرورة والفطرة ، فالله وحده هو الخالق والخالق يعلم من خلق كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤ ﴾ [الملك : ١٤] فهو جل وعلا يعلم بأحوالنا ونياتنا ومستقبلنا وكل ما يتعلق بنا ، ولهذا قال : ﴿ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ الشيء الذي تحدث به نفسك يعلمه الله قبل أن تتكلم ، ولكن هل يؤاخذك به ، في هذا تفصيل ، إن ركنت إليه وأثبتته في قلبك عقيدة ، فإن الله يؤاخذك به ، وإلا فلا شيء عليك ، لقول النبي ﷺ : « إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم » (١) .

فمثلاً لو أن إنساناً صار يوسوس ويفكر ؛ هل يطلق زوجته أو لا ، ومثل هذا كثير بين الناس ؛ فإنها لا تطلق حتى ولو عزم على أن يطلقها ، فإنها لا تطلق إلا بالقول ، أو بالكتابة الدالة على القول ، أو بالإشارة الدالة على القول ؛ (٢) لأن الله تجاوز عن هذا الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم (٣) . قال : ﴿ وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ١٠١ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ١٠٢ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٠٣ ﴾ [ق : ١٦، ١٧] فإن الله تعالى وكل بالإنسان ملكين يلازمانه ، أحدهما عن اليمين والثاني عن الشمال ، يلازمانه دائماً ويكتبان عليه كل ما نطق به وكل ما فعل ولهذا قال : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٠٣ ﴾ و ﴿ مِنْ ﴾ هنا زائدة للتوكيد ، يعني ما يلفظ قولاً من الأقوال أي قول كان ، إلا لديه رقيب عتيد ؛ ﴿ رَقِيبٌ ﴾ أي مراقب ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي حاضر لا يتركه ، وأنت الآن لو جعلت في جيبك مسجلاً يسجل ما تقول لوجدت العجب العجيب مما يصدر منك أحياناً وأنت لا تفكر فيه ، والرجل قد يتكلم الكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً تهوي به في النار كذا وكذا خريقاً والعياذ بالله (٤) . (الرقيب) معناه المراقب الذي يراقبك (العتيد) الحاضر الذي لا يغيب عنك ويكتب أي قول كان ، ويذكر عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه دخل عليه أحد أصحابه وهو مريض ، يقن من المرض ، فقال له : إن

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) وأخرجه مسلم بنحوه في الإيمان (٢٠١) والبيهقي في السنن (٣٥٦/٧) والطبراني في الصغير (٢٧٠/١) .

(٢) هذا هو ما عليه جمهور العلماء إلا ما روي عن مالك أن الرجل لو نوى طلاق امراته بقلبه فإنها تُعد طالقاً ، لكن المذهب والمعتمد من قول مالك أن ذلك لا يُعد طلاقاً (انظر : أسهل المدارك (١٤٥/٢) بدائع الصنائع (١٠٩/٣) فقه الكتاب والسنة (٤١٣/١) .

(٣) انظر في ذلك ما رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١) والنسائي في السنن (١٥٧/٦) وأحمد في مسنده (٣٩٣/٢) .

(٤) انظر في ذلك ما رواه الترمذي في السنن (٢٣١٤) وأحمد في مسنده (٢٣٦/٢) ومالك في الموطأ (٩٨٥) .

فلأننا من التابعين يقول عن الملك : يكتب حتى أنين المريض ، فأمسك ﷺ عن الأنين خوفاً من أن يكتب عليه ، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يقلل من الكلام ما استطاع ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (١) « فليقل خيراً » أي كلام فيه الخير ، إما لأنه خيراً بذاته ، وإما أنه خير لما يؤدي إليه من الألفة بين الجلساء والمحبة ؛ لأنك إذا حضرت مجلساً مثلاً ولم تتكلم فيه لم يستحب الناس الجلوس معك ، لكن إذا انطلقت في الكلام المباح من أجل أن تتألفهم وتتودد إليهم فهذا خير . تأخذ بقوله ﷺ : « فليقل خيراً أو ليصمت » والمهم أن من جملة الأقوال التي تكتب الغيبة ، فاحذر أن تكتب عليك ؛ لأنك إذا اغتبت أحداً ؛ فإنه يوم القيامة يأخذ من حسناتك التي هي أغلى ما يكون عندك في ذلك الوقت ، فإن بقي من حسناتك شيء ، وإلا أخذ من سيئات الذين اغتبتهم وطرح عليك ثم طرخت في النار ، والله الموفق .

واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه ؛ لأنه قد ينجز الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وذلك كثير في العادة والسلامة لا يعدلها شيء .

١٥١١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (٢) متفق عليه .

وهذا الحديث صريح في أنه ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً ، وهو الذي ظهرت مصلحته ، ومتى شك في ظهور المصلحة ، فلا يتكلم .

١٥١٢ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » (٣) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف النووي ﷺ تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان : واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة الدينية أو الدنيوية وهذا الكلام مأخوذ من قول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » وهو الحديث الذي ساقه المؤلف ﷺ فإذا استوى الأمران ، أن يسكت أو يتكلم ، فالسلامة أفضل ، يعني لا يتكلم . إلا إذا اقتضت الحال أن يتكلم فليتكلم ، مثلاً لو رأى منكراً فهنا لا يسكت ، يجب أن يتكلم وينصح

(١) سيأتي تخريجه قريباً .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٥) ومسلم في الإيمان (٧٤) والترمذي في السنن (١٩٦٧) وابن ماجه في السنن (٣٩٧١) والبيهقي في السنن (٣٦٤/٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١١) ومسلم في الإيمان (٦٦) .

وينهى عن هذا المنكر ، وأما إذا لم تقتض المصلحة أن يتكلم فلا يتكلم ؛ لأن ذلك أسلم له ؛ ثم اعلم أن قول الرسول ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » يدل على أنه يجب على الإنسان أن يسكت إذا لم يكن الكلام خيرا ؛ لأن الرسول ﷺ جعل شرط الإيمان بالله واليوم الآخر أن يقول الخير وإلا فليسكت ؛ لكن الخير نوعان : خير في ذات الكلام ، كقراءة القرآن والتسبيح والتكبير والتهليل وتعليم العلم وما أشبه ذلك هذا خير ، وخير لغير الكلام ، يعني خيرا في الكلام وخيرا لغير الكلام ، بمعنى أن الكلام مباح لكن يجر إلى مصلحة ؛ يجر إلى تأليف القلب وانبساط الإخوان وسرورهم بمجلسك ، هذا أيضا من الخير ؛ لأن الإنسان لو بقي ساكنا من أول المجلس لآخره مله الناس وكرهوه ، وقالوا هذا رجل فظ غليظ ؛ لكن إذا تكلم بما يدخل السرور عليهم ، وإذا كان كلاما مباحا ؛ فإنه من الخير . وأما من تكلم بكلام يضحك الناس وهو كذب فإنه قد ورد فيه الوعيد « ويل لمن حدث و كذب ليضحك به القوم ، ويل له ، ثم ويل له » ^(١) وهذا يفعله بعض الناس و يسمونها (النكت) يتكلم بكلام كذب ولكن من أجل أن يضحك الناس ، هذا غلط ، تكلم بكلام مباح من أجل أن تدخل السرور على قلوبهم ، وأما الكلام الكذب فهو حرام .

ثم ذكر حديث أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل « أي المسلم خير » يعني أي المسلمين خير ، قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » أي لا يعتدي على المسلمين لا بلسانه بغيبة أو نيمة أو سب أو ما أشبه ذلك « ويده » يعني لا يأخذ أموالهم ، ولا يضرب أبشارهم ، بل هو كاف عادل ، لا يأتي الناس إلا ما هو خير ، هذا هو المسلم ، وفي هذا حث على أن يسلم الإنسان من لسانك ويدك ، احفظ لسانك لا تتكلم في عباد الله إلا في الخير ، كذلك احفظ يدك لا تجني على أموالهم ولا على أبشارهم ، بل كن سالما يئسلك منك ، وهذا هو خير المسلمين .

* * *

١٥١٣ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا يَنْ لِحَيِّهِ ، وَمَا يَنْ رِجْلَيْهِ ؛ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ » ^(٢) متفق عليه .

١٥١٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ الْعَبْدُ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَبَيِّنُ فِيهَا نَزْلُهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا يَنْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » ^(٣) متفق عليه .
ومعنى : « يَبَيِّنُ » يَتَفَكَّرُ أَنَّهَا خَيْرٌ أَمْ لَا .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٩٠) والترمذي في السنن (٢٣١٥) وأحمد في مسنده (٧/٥) والدارمي في السنن (٢٩٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٤) ومسلم في الإيمان (٦٤) وأحمد في مسنده (١٩١/٢ ، ٢٠٦) قوله « يضمن » أي يلتزم لي حفظ . قوله : « لحيه » هما العظمان اللذان ينبت عليها الأسنان .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٧) ومسلم في الزهد والرقائق (٤٩) والبيهقي في السنن (١٦٤/٨) والحاكم في المستدرک (٤٥/١) وقال : صحيح ، وواقفه الذهبي . قوله : « يزل بها » أي يسقط بسببها .

١٥١٥ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخِطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

هذه أحاديث ثلاثة في بيان خطر اللسان وأنه من أعظم ما يكون من الأعضاء خطورة ، ففي الحديث الأول : أن النبي ﷺ قال : « مَنْ يَصْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ » الذي بين لحيه هو اللسان والذي بين الرجلين هو الفرج ، سواء للرجل أو المرأة ، يعني من حفظ لسانه وحفظ فرجه ، حفظ لسانه عن القول المحرم ، من الكذب والغيبة والنميمة والغش وغير ذلك ، وحفظ فرجه من الزنا واللواط ووسائل ذلك ؛ فإن النبي ﷺ يضمن له الجنة ، يعني أن جزاءك هو الجنة إذا حفظت لسانك وحفظت فرجك ، فزلة اللسان كزلة الفرج ، خطيرة جداً ، وإنما قرن النبي ﷺ بينهما ؛ لأن في اللسان شهوة الكلام ، كثير من الناس يتنطع ويتلذذ إذا تكلم في أعراض الناس ، ويفتكه والعياذ بالله .

﴿ وَإِذَا أَقْبَلُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ ^(٢) [المطففين : ٣١] فتجده أحب شيء عنده أن يتكلم في أعراض الناس ، ومن الناس من يهوى الكذب ، فتجد أحسن شيء عنده هو الكذب ، والكذب من كبائر الذنوب لا سيما إذا كذب بالكلمة ليضحك القوم فإن الرسول ﷺ قال : « ويل لمن حدث فكذب ليضحك به القوم ، ويل له ثم ويل له » ^(٣) .

وأما الشيء الثاني الذي قرن بينه وبين شهوة الكلام فهو شهوة النساء ، فإن الإنسان مجبول على ذلك ولا سيما إذا كان شاباً ، فإذا حاول حفظ هاتين الشهوتين ، ضمن النبي ﷺ له الجنة ، أي هذا جزاؤه ؛ لأنهم خطيران .

كذلك أيضاً الحديث الثاني : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ فِيهَا يَزُلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » . الكلمة (لا يتبين فيها) يعني لا يتأكد ، ينقل ما سمع و « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » ^(٤) فتجده يتكلم بالكلمة ولا يتبين ولا يثبت ولا يدرس معناها ولا يدرس ماذا توصل إليه ، والعياذ بالله يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب .

ومسافة ما بين المشرق والمغرب بعيدة جداً ، نصف الكرة الأرضية ، ومع ذلك كلمة واحدة زلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وهذا يدل على وجوب التأكد مما تتكلم به ، سواء نقلته إلى غيرك أو نقلته عن غيرك ، تثبت ، اصبر ، لا تستعجل ، ما الذي يُوجب لك أن تستعجل في المقال ، اصبر حتى تثبت ويتبين لك الأمر ، ثم إن رأيت مصلحة في الحديث فتحدث وإذا لم تر مصلحة في

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٨) وأحمد في مسنده (٣٣٤/٢) والبيهقي في السنن (١٦٥/٨) .

(٢) قوله : ﴿ فَكِهِينَ ﴾ أي متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين . (٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه مسلم في المقدمة (٥) والبخاري في شرح السنة (٣٦٢/١٢) .

الحديث فاسكت « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وأما الحديث الثالث : هو « أن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله » ويعني كلمة ترضي الله ، قرآن ، تسبيح ، تكبير ، تهليل ، أمر بالمعروف ، نهى عن المنكر ، تعليم علم ، إصلاح ذات البين ، وما أشبه ذلك ، يتكلم بالكلمة ترضي الله ﷻ ولا يلقي لها بالاً ، يعني أنه لا يظن أنها تبلغ به ما بلغ ، وإلا فهو قد درسها وعرفها وألقى لها البال ، لكن لا يظن أن تبلغ ما بلغت ، يرفع الله له بها درجات في الجنة ، وعلى ذلك رجل يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار ؛ لأنه تكلم بها ولا ظن أن تبلغ ما بلغت ، وهذا يقع كثيراً ، كثير من الناس والعياذ بالله تجده يسأل عن فلان العاصي وما أشبه ذلك ، فيقول : هذا اتركه ، اترك هذا ، وهذا والله ما يعرف سبيله ، هذا والله ما يغفر الله له . هذه كلمة خطيرة . كان رجل عابد يمر برجل عاص ، عابد يعبد الله ، فيقول هذا الرجل العابد : والله لا يغفر لفلان ، انظر ، والعياذ بالله تحجر واسعاً وتألى على الله ، والله لا يغفر لفلان ، لأن الرجل العابد هذا معجب بعمله ، يرى نفسه ، ويدلي بعمله على ربه ، وكأن له المنة على الله سبحانه وتعالى ، فقال : والله لا يغفر الله لفلان ، قال الله ﷻ : « من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان ؟ قد غفرت لفلان وأحبطت عملك » (١) الملك والسلطان لمن ؟ لله ﷻ ، ما هو لك حتى تقول : والله ما يغفر الله لفلان . والملك والسلطان لله لا ينازعه فيه منازع إلا أذله الله . قال : « من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان ؟ قد غفرت لفلان وأحبطت عملك » كلمة واحدة صارت سبباً لحبط عمله ، نسأل الله العافية إذا احذر زلة اللسان ، ومن ذلك أيضاً : أي من زلل اللسان : إذا قال مثلاً شخص : يا فلان إن جارنا لا يصلي لعلك تنصحه إن شاء الله خيراً ، قال له : هذا ما يمكن أن يهتدي أبداً ، هذا طاغ ، هذا فاسق ، أعوذ بالله ، القلوب بيد من ؟ بيد الله ﷻ كما أخبرنا النبي ﷺ حيث يقول : « ما من قلب » من قلوب بني آدم « إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ يقبله كيف يشاء ، إن شاء أزاعه ، وإن شاء هده » (٢) .

وهذا شيء مُسلم به ، حتى الإنسان أحياناً يجد في قلبه أشياء يعرف أنها من الشيطان ، وأنه إن لم يشبهه الله زل ، فالقلوب بيد الله ﷻ ، فكيف تقول : هذا ما يقال له شيء ، هذا لن يهتدي . حرام هذا لا يجوز ، ادع ولا تيأس ، هل سيوجد في هذه الأمة من كان من ألد أعدائها وأشد خصومها ، وكان ثاني اثنين في زعامة الأمة بعد نبينا محمد ﷺ من ؟ عمر بن الخطاب ، كان عمر بن الخطاب ﷺ مناوئاً للدعوة الإسلامية ، وكان يحذر منها ، وكان يفر منها ، وكان ألد أعدائها ، فهده الله ، فصار هو الخليفة الثاني بعد الرسول ﷺ وكذلك خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، ماذا فعلا في أحد ؟ كرا على المسلمين من الخلف على فرسيهما ومعهما فرسان آخرون واختلطوا بالمسلمين وحدثت

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٩) وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) والحاكم في المستدرک (٥٢٥/١) . وقال :

صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي .

الهيئة ، وفي النهاية كانا قائدتين عظيمين من قواد المسلمين ، فلا تيأس يا أخي ، واسأل الله الهداية والثبات ، ولا تزل بلسانك فتهلك ، حمانا الله من معاصيه ، ووفقنا لما يرضيه إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٥١٦ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُرَزِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُثِبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُثِبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ » (١) .

رواه مالك في « الموطأ » والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٥١٧ - وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَغْتَصِمُ بِهِ ، قَالَ : « قُلْ : رَبِّيَ اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَقِم » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَذَا » (٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٥١٨ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ ! وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي » (٣) رواه الترمذي .

١٥١٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا يَسِنُ لِحَيِّهِ ، وَشَرُّ مَا يَسِنُ رِجْلَيْهِ ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ » (٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٥٢٠ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ غَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسْغَلْكَ يَتُّكَ ، وَابْكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ » (٥) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٥٢١ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ ، فَإِنَّ الْأَغْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ ، تَقُولُ : اتَّقِ اللَّهَ فِينَا ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ ؛ فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا ، وَإِنْ اغْوَجَجَتْ اغْوَجَجْنَا » (٦) رواه الترمذي . معنى « تُكْفِّرُ اللِّسَانَ » : أَي تَذِلُّ وَتَخْضَعُ لَهُ .

١٥٢٢ - وَعَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٩٨٥/٢) والترمذي في الزهد (٢٣١٩) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٤٦٩/٣) والحاكم في المستدرک (٤٦/١) . قوله : « أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغْتَ » أي ترتقي في الفضل ما وصلت إليه أو العكس .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١٠) وأحمد في مسنده (٤١٣/٣) وابن ماجه في الدعاء (٣٩٧٢) والدارمي في السنن (٢٩٨/٢) . قوله : « ثُمَّ اسْتَقِم » أي ثم امثل الأوامر واجتنب النواهي .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١١) . قوله : « أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ » أي أبعدهم من رحمة الله وفضله .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤٠٩) والحاكم في المستدرک (٣٥٧/٤) .

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤٠٦) .

(٦) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤٠٦) وأحمد في مسنده (٩٣/٦) .

النَّارَ؟ قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَبِيرُ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتُحُجُّ الْبَيْتَ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْحَطِيقَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» ثُمَّ تَلَا: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَصَاحِبِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]. ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكَلَتْكَ أَمْلُكَ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟» (١). رواه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقد سبق شرحه.

الشرح

هذا من الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمته الله، كلها فيها التحذير من اللسان وشروبه وآفاته، وأن الإنسان ربما يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً ولا يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها عليه سخطه إلى يوم يلقاه، وكلها فيها التحذير من اللسان وآفاته، ولهذا قيل:

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكل بالمنطق

كثيراً من الناس يدعو على نفسه بشر وهو لا يشعر، يدعو على ولده، يدعو على ماله، يدعو على صديقه يدعو على قريبه من حيث لا يشعر فربما يصادف ذلك باباً مفتوحاً فيصبه الدعاء، وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ» أي بما يملك هذا كله، قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بلسانه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ يعني هل تؤاخذ بما نتكلم به. فقال: «ثَكَلَتْكَ أَمْلُكَ يَا مَعَاذُ» وهذه كلمة يقصد بها تعظيم الأمر، «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!» فاحذر يا أخي هذه الحصائد، واحفظ لسانك، ومن حفظ اللسان: أن يحفظ لسانه عن الكذب والغش وقول الزور والتميمة والغيبة وكل قول يبعده من الله تعالى ويوجب عليه العذاب؛ فإنه يجب عليه أن يتنزه منه. نسأل الله أن يحفظ علينا وعليكم ديننا الذي هو عصمة أمرنا إنه على كل شيء قدير.

* * *

١٥٢٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَتَذَرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) وأحمد في مسنده (٢٣١/٥، ٢٣٧). قوله: «الصوم جنة» أي وقاية وستر من النار، قوله: «تطفئ» أي تمحو، قوله: «نَتَجَافَى» أي تتنحى. قوله: ﴿الْمَصَاحِبِ﴾ هي أماكن النوم من أسرة وغيرها. قوله: «جوف الليل» أي وسط الليل، قوله: «وذروة سنامه» أي أعلى مراتبه، قوله: «ثَكَلَتْكَ» أي قعدتكَ، قوله: «يكب» أي يلقبهم في النار.

أَعْلَمَ ، قَالَ : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ ؛ فَقَدْ اغْتَبَيْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ ؛ فَقَدْ بَهَتَهُ » (١) رواه مسلم .

١٥٢٤ - وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ بَنِي فِي حُجَّةِ الْوَدَاعِ : « إِنْ دِمَاءَكُمْ ، وَأَمْوَالَكُمْ ، وَأَعْرَاضَكُمْ ؛ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ » (٢) متفقٌ عليه .

١٥٢٥ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا - قَالَ بَعْضُ الرِّوَاةِ : تَعْنِي قَصِيرَةً - فَقَالَ : « لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مَرَّجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ ! » قَالَتْ : وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ : « مَا أَحْبَبْتُ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَإِنْ لِي كَذَا وَكَذَا » (٣) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

ومعنى : « مَرَّجَتْهُ » خَالَطَتْهُ مُخَالَطَةً يَتَغَيَّرُ بِهَا طَعْمُهُ ، أَوْ رِيحُهُ ؛ لِشِدَّةِ نَتْنِهَا وَتُبْحِجُهَا ، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الزَّوْاجِرِ عَنِ الْغِيْبَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

١٥٢٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَمَّا عَرَجَ بِي مَرَزْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَطْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ يَخْمِشُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ » فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟ قَالَ : « هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ ! » (٤) رواه أبو داود .

١٥٢٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعَرَضُهُ ، وَمَالُهُ » (٥) رواه مسلم .

الشرح

هذه بقية الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمته الله في باب الغيبة والأمر بحفظ اللسان ، واشتملت على أشياء متعددة منها : بيان الغيبة ، وأنها ذكرك أخاك بما يكره ، وقد سبق لنا بيان هذا و أن الغيبة ذكرك أخاك بما يكره في دينه ، أو خلقه ، أو بدنه ، أو أهله ، أو غير ذلك ، إلا إذا كان المقصود النصيحة كما لو

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٠) والبيهقي في السنن (٢٤٦/١٠ ، ٢٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٠٥) ومسلم في القسامة (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٤) . قوله : « يومكم هذا » هو يوم النحر ، قوله : « شهركم هذا » هو شهر ذي الحجة ، قوله : « بلدكم هذا » هي مكة التي حرّمها الله يوم خلق السماوات والأرض .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٧٥) واللفظ له ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٢) . قوله : « حكيت إنساناً » أي قلّدت في شيء يكرهه .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٢٤٧٨) وأحمد في مسنده (٢٢٤/٣) . قوله : « عرج بي » أي صعد بي إلى السماء ليلة المعراج ، قوله : « يخمشون » أي يجرحون ، قوله : « يأكلون لحوم الناس » أي يقتاتون الناس .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) وأحمد في مسنده (٢٢٧/٢) .

استشارك شخص في معاملة إنسان وأنت تعرف من هذا الإنسان أنه ليس أهلاً للمعاملة ، وأنه - مثلاً - كذاب أو ما أشبه ذلك ، وأراد أن تبين له ما فيه من عيب ، فلا بأس فيه ، وبيننا دليل هذا في حديث فاطمة بنت قيس حين استشارت النبي فيمن خطبوها : معاوية بن أبي سفيان ، وأبو جهم ، وأسامة بن زيد ، فقال النبي ﷺ : « أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فضرب للنساء ، أنكحي أسامة » . فهذا من باب النصيحة فلا بأس بها ، وتضمنت هذه الأحاديث إعلان رسول الله ﷺ تحريم الدماء والأموال والأعراض في حجة الوداع في أكبر مجتمع حصل بين النبي ﷺ وبين الصحابة ؛ لأن الذين حجوا معه قريب من مائة ألف ومع ذلك أعلن - عليه الصلاة والسلام - وقال : « إن أموالكم ، ودماءكم ، وأعراضكم ، حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم . قال « اللهم اشهد » . وكذلك أيضًا بينت هذه الأحاديث أن ذكرك أخاك بما يكره ولو بما يتعلق بخلقته كالطويل والقصير وما أشبه ذلك ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت في صفة بنت حبي إحدى أمهات المؤمنين : « حسبك من صفة كذا » تعني أنها قصيرة ، تقول للرسول ﷺ فقال : « لقد قلت كلمة لو مُرّجت بماء البحر لمزجته » يعني لو خلطت بماء البحر على كبره وسعته لمزجته ، أي أثرت فيه وهي كلمة يسيرة جدًا لكنها عظيمة ، حيث إنها في ضررتها ، وحيث إنها قد يحدث من هذه الكلمة أن يكره النبي ﷺ صفة ، فلعلظمها صار لها هذا الأثر العظيم ، كذلك أيضًا العقوبة العظيمة التي رآها النبي ﷺ وقت أشري به ، أنه قد مرّ بأقوام لهم أظفار من النحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقال : « يا جبريل من هؤلاء ؟ » قال : الذين يقعون في أعراض الناس « يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » فالمهم أن الواجب على الإنسان الحذر من إطلاق اللسان وألا يتكلم إلا بخير إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » (١) نسأل الله أن يحميننا وإياكم من سخطه وأن يعيننا وإياكم على شكره وحسن عبادته .

* * *

٢٥٥ - باب تحريم سماع الغيبة وأمر من سمع غيبة محرمة بردها ،

والإنكار على قائلها ، فإن عجز أو لم يقبل منه ، فارق المجلس إن أمكنه

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣] . وقال تعالى : ﴿ إِنْ أَسْمَعَ وَابْصَرَ وَافْتَوَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَتْ الَّذِينَ يُخَوِّشُونَ فِيَّ إِلَيْنَا فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) [الأنعام : ٦٨] .

(١) سبق تخريجه .

(٢) قوله : ﴿ اللَّغْوُ ﴾ هو القبيح من القول . قوله : ﴿ يَخُوضُونَ ﴾ أي يطعنون ويسبون ويستهزئون . قوله ﴿ بَعْدَ الذِّكْرِىَ ﴾ أي بعد أن تذكر .

١٥٢٨ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ رَدَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ ، رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

١٥٢٩ - وَعَنْ عَتَبَانَ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ الْمَشْهُورِ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي بَابِ الرَّجَاءِ قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فَقَالَ : « أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَشُمِ ؟ » فَقَالَ رَجُلٌ : ذَلِكَ مُتَأَفِّقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَلَا رَسُولَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تَقُلْ ذَلِكَ ؛ أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ؟ ! وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ » ^(٢) متفق عليه .

« وَعَتَبَانُ » بكسر العين على المشهور ، وحكي ضمُّها ، وبعدها تاءٌ مثناةٌ مِنْ فوق ، ثُمَّ بَاءٌ موحدةٌ . و « الدُّخَشُمُ » بضم الدال وإسكان الحاء ، وضمُّ الشين المعجمتين .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمته الله تحريم سماع الغيبة ، بعد ما بين مضارها ومفاسدها وآثامها ، أعقب ذلك بهذا الباب وهو تحريم سماع الغيبة ، يعني أن الإنسان إذا سمع شخصاً يغتاب آخر فإنه يحرم عليه أن يستمع إلى ذلك ، بل ينهاه عن هذا ويحاول أن ينقله إلى حديث آخر ، فإن هذا فيه أجر عظيم كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه فإن أصر هذا الذي يغتاب الناس ، إلا أن يبقى على غيبته ؛ وجب عليه أن يقوم عن المكان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] فدل ذلك على أن الإنسان إذا استمع إلى المحرم ؛ فهو مشارك لمن يفعل هذا المحرم ، فالواجب أن يقوم . ثم ذكر آيات متعددة في بيان الإعراض عن اللغو ، واللغو هو كل الكلام الذي لا فائدة فيه ، وعباد الرحمن قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] يعني سالمين منه لا يلحقهم شيء منه لا يستمعون إليه ، ثم ذكر حديث عتبان بن مالك في قضية مالك بن الدخشم وتكلم الرجل في عرضه عند النبي ﷺ وأن النبي ﷺ نهاه عن ذلك وقال : « ألم تر أنه يصلي يريد بذلك وجه الله » وهذا يدل على أن الإنسان إذا لم يكن كذلك ؛ فإنه لا غيبة له ، فالكافر مثلاً ليس محترماً في الغيبة ، لك أن تغتابه ، إلا أن يكون له أقارب مسلمون يتأذون بذلك فلا تغتابه وإلا فلا غيبة له ، أما الفاسق ؛ فقد سبق لنا أنه محترم إلا إذا كانت المصلحة تقتضي بيان فسقه فلا بأس أن يذكر بفسقه ؛ لأن هذا من باب النصيحة . والله الموفق .

١٥٣٠ - وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ فِي قِصَةِ تَوْبَتِهِ وَقَدْ سَبَقَ فِي بَابِ التَّوْبَةِ .

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٣١) ، وأحمد في مسنده (٤٥٠/٦) ، والبيهقي في السنن (١٦٨/٨) . قوله « من رد عن عرض أخيه » أي قام بمنع اغتيابه بالزجر أو الردع قبل الوقوع في الغيبة ، ولما بعده برد ما قاله عليه . (٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٢٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٦٣) ، والنسائي في السنن (٥٧/٣) والبيهقي في السنن (١٢٤/١٠) .

قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بَبُوكَ : « مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟ » فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمْةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ، وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ . فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ؓ : بِئْسَ مَا قُلْتَ ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(١) . متفقٌ عليه .

« عِطْفَاهُ » جَانِبَاهُ ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى إِعْجَابِهِ بِنَفْسِهِ .

الشرح

ذكر النووي رحمه الله في باب تحريم الغيبة فيما نقله عن كعب بن مالك ؓ في قصة توبته وكان كعب من الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بلا عذر وهم ثلاثة نفر : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكعب بن مالك ، تخلفوا عن رسول الله ﷺ بلا عذر ، فلما رجع النبي ﷺ من تبوك جاءه ﷺ المعذرون يعتذرون ويقولون : والله إننا لا نستطيع ويحلفون على ذلك ، فكان النبي ﷺ يقبل اعتذارهم ويترك سرائرهم إلى الله ، أما كعب بن مالك وصاحبه فقد نطقوا بالحق وقالوا : تخلفنا بلا عذر فأمر النبي ﷺ بهجرهم فهجرهم المسلمون حتى إن الرجل منهم لا يسلم ولا يرد عليه أحد السلام حتى كان كعب ؓ يأتي فيسلم على النبي ﷺ يقول : فلا أدري أحرك شفتيه برد السلام أم لا ، وبعد ثمانية وأربعين يوماً أمر النبي ﷺ زوجاتهم أن ينفصلن عنهم ، فذهبت النساء إلى أهلهن ، إلا أن هلالاً ومرارة بن الربيع بقيت زوجتهما عندهما ؛ لأنهما محتاجان إليهما ، أما كعب فذهبت امرأته إلى أهلها وهذه القصة العجيبة العظيمة أنزل الله تعالى فيها آية من كتاب الله ، يتلى ويثاب من تلاه على الحرف الواحد عشر حسنات ، أي فضل يساوي هذا الفضل ، أن يكون تاريخ إنسان في حياته إذا تلاه المسلمون كان لهم بكل حرف عشر حسنات ، فقال الله تعالى على الثلاثة الذين خلفوا : ﴿ حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَىٰ يَوْمِئِذٍ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] في تبوك كان النبي ﷺ جالساً فسأل عن كعب فقال رجل من الناس : « يا رسول الله ، شغله بُرْدَاهُ والنظر في عطفه » ولكن هذا الكلام الذي قاله هذا الرجل لا شك أنه من الغيبة ، وأنه ذكر كعب بما يكره ، إلا أن الله وفق له من دافع عنه ، وقال : إنه لا يعلم عنه إلا خيراً فسكت النبي ﷺ فيستفاد من ذلك : أن الواجب على الإنسان إذا سمع من يفتاب أحداً أن يكف غيبته ، وأن يسعى في إسكاته ، إما بالقوة إذا كان قادراً ، كأن يقول : اسكت ، اتق الله ، خاف الله . وإما بالنصيحة المؤثرة ، فإن لم يفعل ؛ فإنه يقوم ويترك المكان ؛ لأن الإنسان إذا جلس في مجلس يفتاب فيه الجالسون أهل الخير والصلاح ، فإنه يجب عليه أولاً أن يدافع ، فإن لم يستطع ؛ فعليه أن يغادر وإلا كان شريكاً لهم في الإثم . والله الموفق .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨) ، ومسلم في التوبة (٥٣) ، وأحمد في مسنده (٤٥٧/٣) .

٢٥٦ - باب ما يباح من الغيبة

اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه بها وهو ستة أسباب : -
الأول : الظلم ، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما بمن له ولاية ، أو قدرة على إنصافه من ظالمه ، فيقول : ظلمني فلان بكذا .

الثاني : الامتنعانة على تغيير المنكر ، ورد العاصي إلى الصواب ، فيقول لمن يوجبوا قدرته على إزالة المنكر : فلان يعمل كذا ، فازجره عنه ، ونحو ذلك ، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر ، فإن لم يقصد ذلك كان حراما .

الثالث : الاستفتاء : فيقول للمفتي : ظلمني أبي ، أو أخي أو زوجي ، أو فلان بكذا ، فهل له ذلك ؟ وما طريقي في الخلاص منه ، وتحصيل حقي ، ودفع الظلم ، ونحو ذلك ، فهذا جائز للحاجة ، ولكن الأخوط والأفضل أن يقول : ما تقول في رجل أو شخص ، أو زوج ، كان من أمره كذا ؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ، ومع ذلك فالتعيين جائز كما ستركزه في حديث هناد إن شاء الله تعالى .

الرابع : تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم ، وذلك من وجوه :

منها : جرح المجروحين من الزوارة والشهود ، وذلك جائز بإجماع المسلمين ، بل واجب للحاجة .
ومنها : المشاورة في مصاهرة إنسان ، أو مشاركته ، أو إيداعه ، أو معاملته ، أو غير ذلك ، أو محاورته ، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله ، بل يذكر المساويء التي فيه بنية النصيحة .
ومنها : إذا رأى متفقا يتردد إلى مبتدع ، أو فاسق يأخذ عنه العلم ، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك ، فعليه نصيحته ببيان حاله ، بشرط أن يقصد النصيحة ، وهذا مما يغلط فيه ، وقد يخيل المتكلم بذلك الحسد ، ويلبس الشيطان عليه ذلك ، ويخيل إليه أنه نصيحة فليتقطن لذلك .

ومنها : أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها : إما بالآ يكون صالحا لها ، وإما بأن يكون فاسقا ، أو معقلا ، ونحو ذلك ، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليربته ، وتولي من يصلح ، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ، ولا يتعثر به ، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به .

الخامس : أن يكون مجاهرا بفسقه أو بدعته كالجاهر بشرب الخمر ، ومصادرة الناس ، وأخذ المكس ، وجباية الأموال ظلما ، وتولي الأمور الباطلة ، فيجوز ذكره بما يجاهر به ، ويحرم ذكره بغيره ، من العيوب ، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه .

السادس : التعريف ، فإذا كان الإنسان معروفا بلقب كالأعمش ، والأعرج والأصم ، والأعمى ، والأخول ، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك ، ويحرم إطلاقه على جهة التقيص ، ولو أمكن تعريفه بغير

ذلك كَانَ أُولَى .

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مُجمَع عليه .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف النووي رحمته الله تعالى في كتابه (رياض الصالحين) فيما يجوز من الغيبة وذكر لذلك ستة أسباب كما سمعتم ، وكلامه رحمته الله ليس بعده كلام ، لأنه كله كلام جيد وصواب وله أدلة وسيدكرها - إن شاء الله تعالى - في هذا الباب ، يذكر الأدلة وستكلم عليها في حينها إن شاء الله فنسأل الله أن يغفر للنووي رحمته الله وأن يجمعنا وإياكم في جنات النعيم .

١٥٣١ - عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : « ائْذِنُوا لَهُ ، بِمَنْ أَحْبَبْتُمُ الْعَشِيرَةَ » ^(١) متفقٌ عليه . اخْتَجَّ بِهِ الْبُخَارِيُّ فِي جَوَازِ غِيْبَةِ أَهْلِ الْفَسَادِ وَأَهْلِ الرَّيْبِ .

١٥٣٢ - وَعَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « مَا أَظُنُّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَغْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا » ^(٢) . رواه البخاري . قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ أَخَذَ رِوَاةَ هَذَا الْحَدِيثِ : هَذَانِ الرَّجُلَانِ كَانَا مِنَ الْمُتَأَفِّقِينَ .

١٥٣٣ - وَعَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ رضي الله عنها قَالَتْ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَقُلْتُ : إِنَّ أَبَا الْجَهْمِ وَمُعَاوِيَةَ خَطْبَانِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « أَمَّا مُعَاوِيَةُ ، فَضُغْلُوكَ لَا مَالَ لَهُ ، وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ ، فَلَا يَضَعُ الْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ » ^(٣) متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلم : « وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَضَرْبُ اللَّشَاءِ » وهو تفسير لرواية : « لَا يَضَعُ الْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ » وقيل : معناه : كثير الأسفار .

١٥٣٤ - وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رضي الله عنه قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي : لَا تَنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى يَنْفَضُوا وَقَالَ : لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ، فَأَجْتَهَدَ يَمِينَهُ : مَا فَعَلَ ، فَقَالُوا : كَذَبَ زَيْدُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي بِمَا قَالُوا شِدَّةٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَضْدِيقِي : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّقُونَ ﴾ [النافقون : ١] ثم دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، لِيَسْتَعْفِفَ لَهُمْ

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٤) ، ومسلم في البر والصلة (٧٣) ، وأحمد في مسنده (٣٨/٦) . قوله « أَنْ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ » هذا الرجل هو عيينة بن حصن ولم يكن أسلم حينئذ ، وإن كان قد أظهر إسلامه ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين حاله ليعرفه الناس ولا يفتروا به من لم يعرفه ، وقد كان منه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعده ما يدل على ضعف إيمانه ؛ حيث ارتد مع المرتدين وحيء به أسيرًا إلى أبي بكر ، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك الوصف من إعجاز النبوة .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) ، وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) ، ولم نثر عليه في صحيح البخاري .

فَلَوْوَا زُؤُوسَهُمْ (١) . متفق عليه .

الشرح

تقدم أن النووي رحمته الله ذكر باباً في بيان ما يجوز الغيبة وذكر لذلك أحاديث فمنها حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم استأذن عليه رجل ، يعني ليدخل بيته فقال « ائذنوا له ، بش أخو العشيرة » وفي لفظ « بش ابن العشيرة » وكان هذا الرجل من أهل الفساد والغى ، فدل هذا على جواز غيبة من كان من أهل الفساد والغى وذلك من أجل أن يحذر الناس فسادهم حتى لا يغتروا فيه ، فإذا رأيت شخصاً ذا فساد وغى لكنه قد سحر الناس ببيانه وكلامه يأخذ الناس منه ويظنون أنه على خير ؛ فإنه يجب عليك أن تبين أن هذا الرجل لا خير فيه ، وأن تُثني عليه شراً ، لأجل ألا يغتر الناس به ، كم من إنسان طليق اللسان فصيح البيان إذا رأيته يعجبك جسمه وإن يقول تسمع لقوله ، ولكنه لا خير فيه ، فالواجب بيان حاله .

كذلك أيضاً ذكر حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أظن أن فلانا وفلاناً يعرفان من ديننا شيء » وكانا من المنافقين ، فأثنى عليهما شراً وأنها لا يعرفان من الدين شيئاً ؛ لأن المنافق لا يعرف من دين الله شيئاً في قلبه وإن كان يعرف بأذنه ، لكن لا يعرف بقلبه - والعياذ بالله - فهو منافق يظهر أنه مسلم ، ولكنه كافر ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ مَنَ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [البقرة : ٨ : ٩] . وذكر أيضاً حديث فاطمة بنت قيس في المشورة أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته أنه خطبها ثلاثة من الرجال : معاوية بن أبي سفيان ، وأبي الجهم ، وأسامة بن زيد ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « أما معاوية فصعلوك لا مال له » لكنه رضي الله عنه بقي حتى صار خليفة للمسلمين ، لكنه في ذلك الوقت فقير « قال أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فضراب للنساء » وفي رواية « أنه لا يرفع العصا عن عاتقه » وهما بمعنى واحد ، يعني أنه سبى العشرة مع النساء يضربهن ، والمرأة لا يجوز ضربها إلا لسبب بينه الله في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فَتَوَلَّوْاْ مَا لَكُمْ بِهِ عَصَافٌ ۚ وَمَا لَكُمْ اَنْ تُقَاتِلُوْا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَلِئَلَّيْكُمْ يَكُوْنُ اَمْرٌ ۚ كَبِيْرٌ ۚ ﴾ [النساء : ٣٤] أما أن تكون تضرب امرأتك كلما خالفت أية مخالفة فهذا غلط ولا يحل لقوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوْهُنَّ بِالْمَعْرُوْفِ ۚ ﴾ [النساء : ١٩] لكن إذا خفت نشوزها وترفعها عليك وعدم قيامها بواجبك فاستعمل معها هذه الرتب : أولاً عيظها ، خوفاً بالله ، بين لها أن حق الزوج لا يجب تضييعه ، فإن استقامت فهذا المطلوب ، وإلا فالرتبة الثانية اهجرها في المضجع ، لا تنام معها ، أما الكلام فلا تهجرها ، لكن لك رخصة أن تهجرها في الكلام ثلاثة أيام ؛ لأنه لا يحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام (٢) .

الرتبة الثالثة : إذا لم يشفها هذا فاضربوهن ، لكن ضرباً غير مبرح ، يعني ليس شديداً ، بل ضرب يحصل به التأديب فقط .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٠) ، ومسلم في صفات المنافقين (١) .

(٢) وذلك لما رواه البخاري في الأدب (٦٠٧٧) ، والترمذي في السنن (١٩٣٢) ، وأحمد في مسنده (٢٠/٤) .

وفي نص : « أنه لا يضع العصا عن عاتقه » وهما بمعنى واحد ، وقيل إن معنى قوله : « أنه لا يضع العصا عن عاتقه » أنه كثير الأسفار ؛ لأن صاحب السفر في ذلك الوقت ، يسافر بالإبل ويحتاج العصا ، والظاهر أن المعنى واحد ؛ يعني ضراب للنساء ، ولا يضع العصا عن عاتقه بمعنى واحد ؛ لأن الروايات يفسر بعضها بعضاً ، ثم قال : « انكحي أسامة بن زيد » بن الحارثة ، فنكحته فاغتبطت به ورأت فيه خيراً ، ففي هذا : دليل على أن الإنسان إذا جاء يستشيرك في شخص فذكرت عيوبه فلا بأس ؛ لأن هذا من باب النصيحة وليس من باب الفضيحة ، وفرق بين من يغتاب الناس ليظهر مساوئهم ويكشف عوراتهم ، وبين إنسان يتكلم بالنصيحة .

أما الحديث الرابع : فهو حديث زيد بن الأرقم رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر وكان معه المؤمنون والمنافقون فأصاب الناس شدة ؛ فتكلم المنافقون وقالوا ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ [المنافقون : ٧] يعني : لا تعطوهم شيئاً من النفقة حتى يجوعوا ويتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوا ، المؤمنون لا يمكن أن يتركوا النبي صلى الله عليه وسلم لو ماتوا جوعاً وظمأً ما تركوه ، لكن هذا هي حال المنافقين الذين يلمزون النبي صلى الله عليه وسلم في الصدقات إذا أعطوا رضوا وإذا لم يُعطوا فإذا هم يسخطون ، أما المؤمنون فلن يتركوا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ حتى هنا للتعليل وليست للغاية ؛ يعني لأجل أن ينفضوا عنه ، ولكن كذبوا في ذلك وقالوا أيضاً ﴿ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون : ٨] ويعني بالأعز نفسه وقومه ، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع ذلك زيد بن الأرقم رضي الله عنه فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بأن عبد الله بن أبي قال هذا الكلام ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أي إلى عبد الله بن أبي ، فاجتهد يمينه أنه لم يقل هذا ، يعني حلف وأقسم واشتد في القسم أنه ما قال ذلك ؛ لأن المنافقين هذا دأبهم ، يحلفون علي الكذب وهم يعلمون ، فأقسم أنه ما قال ذلك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل علانيتهم ويترك سريرتهم إلى الله ، فلما بلغ ذلك زيد بن الأرقم اشتد عليه الأمر ؛ لأن الرجل حلف وأقسم عند الرسول صلى الله عليه وسلم واجتهد يمينه فاشتد هذا على زيد بن الأرقم ، فقال : كذب زيد بن الأرقم رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني أخبره بالكذب حتى أنزل الله تصديق زيد بن الأرقم في قوله : ﴿ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ ﴾ ﴿ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] وتأمل جواب الله تعالى لقول عبد الله بن أبي ﴿ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ حيث قال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ ولم يقل إن الله هو الأعز ؛ لأنه لو قال هو الأعز ، لصار في ذلك دليل على أن المنافقين لهم العزة ، وهم لا عزة لهم ، بل قال ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في هذه الآية : دليل على أنه لا بأس أن الإنسان ينقل كلام المنافق إلى ولي الأمر حتى يتخذ فيه ما ينبغي اتخاذه ، وكذلك ينقل كلام المفسد إلى ولي الأمر حتى لا يتمادى في إفساده ، وإذا كان الإنسان يخشى من الكلام أن يحصل فيه فساد ؛ وجب عليه أن يبلغه إلى ولي الأمر حتى يقضي على الفساد قبل أن يستفشي ، لا يقال : أخشى أن ولي

الأمر يفعل بي أو يفعل فيه ، لا ، قد يفعل فيه ، هو الذي جنى على نفسه إذا كان يتكلم بكلام يخشى منه الفساد ، فالواجب رفع الكلام إلى ولي الأمر ، لكن لا بد من الثبوت وألا يقع الإنسان في حرج ، في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما أنكر عبد الله بن أبي ما قيل عنه ، نزل الوحي بتصديق زيد بن الأرقم ، لكن في وقتنا لا يوجد وحي يؤيد أو يفند ، فأنت إذا تثبتت وسمعت من بعض الناس كلاماً يؤدي إلى الشر والفساد ؛ وجب عليك أن تبلغ به ولي الأمر حتى لا يستفشي الشر والفساد ، فالمهم أن المؤلف رحمه الله ذكر مسائل وضوابط لما يجوز من الغيبة ، ثم ذكر أدلة ذلك والله الموفق .

١٥٣٥ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني ولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ؟ قال : « خذي ما يكفيك وولذلك بالمعروف » ^(١) متفق عليه .

٢٥٧ - باب تحريم النيمة وهي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد

قال الله تعالى : ﴿ هَكَازِ مَشَامَ بَنِيهِمْ ^(٢) ﴾ [القم : ١١] وقال تعالى : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنِدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

١٥٣٦ - وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدخل الجنة ثَمَامٌ » ^(٣) متفق عليه .
١٥٣٧ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبرين فقال : « إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ! بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ : أَمَا أَحَدُهُمَا ، فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ » ^(٤) . متفق عليه ، وهذا لفظ إحدى روايات البخاري .

قال العلماء : معنى : « وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ » أي : كبير في زعميهما ، وقيل : كبير تزكؤه عليهما .

الشرح

سبق أن المؤلف (النووي) رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) ذكر باباً مفيداً في باب ما يجوز من الغيبة ، وذكر من ذلك ستة مسائل ، ذكر لها أدلة سبق الكلام عليها ، ومن ذلك : التظلم ، يعني إذا تظلم

(١) أخرجه البخاري في النفقات بنحوه (٥٣٥٩) ، ومسلم في الأقضية (٧) ، وأحمد في مسنده (٣٩/٦) ، والنسائي في السنن (٢٤٧/٨) .

(٢) قوله : ﴿ هَكَازِ ﴾ أي مغتاب عتاب . قوله : ﴿ مَشَامَ بَنِيهِمْ ﴾ أي يمشي بين الناس بالنيمة والإفساد .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب بنحوه (٦٠٥٦) ، ومسلم في الإيمان (١٦٨) ، وأحمد في مسنده (٣٩١/٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٨) ، ومسلم في الطهارة (١١١) ، وأبو داود في الطهارة (٢٠) ، والبيهقي في السنن (١٠٤/١) .

إنسان عند ولي الأمر من شخص ظلمه ، فإن ذلك لا بأس به ، لأن حقه لن يتمكن منه إلا بذلك ، والدليل على هذا حديث هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : « يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح » يعني بخيل ، لا يعطيني ما يكفيني وولدي بالمعروف فوصفته بأنه شحيح ، وهذا وصف ذم يكرهه الإنسان لكن لماذا قالت ذلك ؟ تظلمًا من أجل رفع الظلم عنها ، وذلك أن الواجب على الإنسان أن ينفق على زوجته وعلى أولاده بالمعروف ، لا وكس ولا شطط ، لا يقصر ولا يزيد ، كما قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

وأما البخل : بما يزيد ؛ فهذا حرام لا يجوز ، ومن وقع عليه ذلك ؛ فله أن يتظلم إلى شخص يستطيع أن يأخذ الحق له ؛ فهذه هند تظلمت عند الرسول ﷺ ولم يقل لها لا تقولي رجل شحيح ، أقرها على ذلك ؛ لأنها تطلب حقها ، فقال لها النبي « خذي ما يكفيك ويكفي ولدك بالمعروف » فأذن لها أن تأخذ من ماله بغير علمه ما يكفيها ويكفي ولدها ، ولكن بالمعروف ، يعني لا تزيد على ذلك ، فدل هذا على مسائل :

منها : جواز غيبة الإنسان للتظلم منه ، لكن بشرط أن يكون ذلك عند من يمكنه أخذ الحق لصاحبه ، وأما إذا لم يكن كذلك ؛ فلا فائدة من التظلم .

ومنها : أنه يجب على الإنسان أن ينفق على أهله وزوجته وولده بالمعروف ، حتى لو كانت الزوجة غنية ؛ فإنه يجب على الزوج أن ينفق ، ومن ذلك ما إذا كانت الزوجة تدرس ، وقد شرط على الزوج تمكينها من تدريسها ؛ فإنه لا حق له فيما تأخذه من راتب لا نصف ولا أكثر ولا أقل ، الراتب لها ما دام قد شرط عليه عند العقد أنه لا يمنعها من التدريس فرضي بذلك ، فليس له الحق أن يمنعها من التدريس ، وليس له الحق أن يأخذ من مكافأتها أي من راتبها شيئاً ، هو لها ، أما إذا لم تشترط عليه أن يمكنها من التدريس ، ثم لما تزوج قال : لا تدرسي ؛ فهنا لهما أن يصطلحا على ما يشاءان ، يعني مثلاً له أن يقول : أمكنك من التدريس بشرط أن يكون لي نصف الراتب ، أو ثلثاه ، أو ثلاثة أرباعه ، أو رבעه ، وما أشبه ذلك ، على ما يتفقان عليه ، وأما إذا شرطت عليه أن تدرس وقيل ؛ فليس له الحق أن يمنعها ، وليس له الحق أن يأخذ من راتبها شيئاً .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أنه يجوز لمن له النفقة على شخص وامتنع من عليه النفقة من بذل النفقة ، أن يأخذ من ماله بقدر النفقة سواء علم أم لم يعلم ، وسواء أذن أم لم يأذن ، فللمرأة مثلاً أن تأخذ من جيب زوجها ما يكفيها ويكفي أولادها ، وكذلك أيضًا تأخذ من شنتته أو صندوقه ما يكفيها ويكفي أولادها ، سواء علم أم لم يعلم . فإن قال قائل : إذا كان لي حق على إنسان وجحد وأنكر وقدرت على أخذ شيء من ماله ، فهل يجوز أن آخذ مقدار حقي من ماله ؟ يعني مثلاً إنسان عنده لي مائة ريال وجحد ، قال : مالك عندي شيء ، فهل إذا قدرت على شيء من ماله يجوز أن آخذ من ماله مائة ريال ؟ الجواب لا ، لا يجوز ^(١) ، والفرق بين هذا وبين النفقة : أن النفقة لإنقاذ

(١) وفي هذه الحالة أي إذا أخذ ما يوازي ماله الذي تركه فإنه لا قطع عليه ؛ فقد أجمع الفقهاء على أن القطع من =

النفس وسببها ظاهر ، كلنا يعرف أن هذه زوجة فلان وأن الزوجة لها نفقة ، بخلاف الدين ؛ فإنه أمر خفي لا يقال عليه ، وقد قال النبي ﷺ : « أَدُّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ » ^(١) . فهذا هو القول الراجح في هذه المسألة ، ويعبر عنها عند العلماء بمسألة الظفر ، يعني من ظفر بمال من له حق عليه هل يأخذ منه أم لا ؟ والجواب بالتفصيل : أنه إذا كان في مقابل النفقة الواجبة فلا بأس ، وأما إذا كان في مقابل دين واجب ؛ فإنه لا يجوز لعموم قول الرسول ﷺ : « لَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ » . والله الموفق .

١٥٣٨ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا الْعَضَةُ ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ » ^(٢) رواه مسلم .

« الْعَضَةُ » بفتح العين الْمُهْمَلَةِ ، وإِسْكَانِ الضَّادِ الْمُعْجَمَةِ ، وبالهاء على وزن الوجه ، وروى : « الْعِصَّةُ » بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الضَّادِ الْمُعْجَمَةِ عَلَى وَزْنِ الْعِدَّةِ ، وهي : الكَذِبُ وَالْبُهْتَانُ ، وعلى الرواية الأولى : الْعَضَةُ مُصَدَّرٌ ، يقال : عَضَّهُ عَضًّا ، أي : رمأه بالقَضِ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في تحريم النميمة ، فيما نقله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا الْعَضَةُ ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ » . هذا من أساليب التعليم الجيدة ، وهي أن يلقي المعلم السؤال على مخاطبين للتنبيه ، حتى يستثير أفهامهم ويعطوا الكلام انتباهًا « أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا الْعَضَةُ » والنبا والخبر في اللغة العربية معناها واحد ، والعضة ، من القطع والتمزيق ومنه قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْفِتْرَةَ عِزِينَ ﴾ [الحجر : ٩١] يعني قطعًا وأجزاء يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه ، فما هي الأداة المفرقة للأمة الممزقة لهم ، قال : هي النميمة أن ينقل الإنسان كلام الناس بعضهم في بعض من أجل الإفساد بينهم ، وهي من كبائر الذنوب ، وقد كشف للنبي ﷺ عن رجلين يعذبان في قبورهما ، وأخبر أن أحدهما كان يمشي بالنميمة ^(٣) ، وذلك أن بعض الناس - والعياذ بالله - يفتن

= شروطه : أن يكون المال ملكًا لغير السارق ، وأنه لا قطع على من سرق مال نفسه كما لو كان ماله في يد المرتهن أو المستأجر أو المستعير أو المودع أو الوكيل أو العامل .. إلخ . (انظر : الأنوار ٢/٥٠٤ ، ٥٠٥) . والمغني (٢٥٤/٨ ، ٢٥٥) وقفه الكتاب والسنة (٢٠٩١/٤ ، ٢٠٩٢) .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٥٣٤) ، والترمذي في السنن (١٢٦٤) ، وأحمد في مسنده (٤١٤/٣) ، والحاكم في المستدرک (٤٦/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٠٢) ، وأحمد في مسنده (٤٣٧/١) . قوله « القالة بين الناس » هي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكي للبعض عن البعض .

(٣) انظر الحديث في البخاري في الوضوء (٢١٦) ، والنسائي في السنن (١٠٦/٤) ، والترمذي في الطهارة (٧٠) ، وابن ماجه في السنن (٣٤٧) .

فيكون شغوفاً بنقل كلام الناس بعضهم لبعض ، يتزين بها عند الناس ، يأتي لفلان ويقول : فلان قال فيك كذا وكذا ، قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً ، حتى إن كان صادقاً فإنه حرام ، ومن كبائر الذنوب ، وقد نهى الله تعالى أن يطاع مثل هذا الرجل قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّهِينَ ﴾ هَكَذَا مَسَّامَ يَنْبِيرٍ ﴿ [ن : ١٠ ، ١١] وقال بعض أهل العلم : من تمَّ إليك الحديث نمة منك ، يعني من نقل كلام الناس إليك ؛ فإنه ينقل كلامك أنت ، فاحذره ولا تطعه ولا تلتفت إليه ، وفي هذا : دليل على حسن تعليم النبي ﷺ ، حيث يأتي بالأساليب التي يكون فيها انتباه المخاطب ، ولا سيما إذا رأى الإنسان من المخاطب غفلة ، فإنه ينبغي أن يأتي بالأسلوب الذي ينبهه ؛ لأن المقصود من الخطاب هو الفهم والاستيعاب والحفظ ، فيأتي الإنسان بالأساليب المفيدة في ذلك .

إذا قال قائل : إذا كان الشخص ينقل كلام الإنسان في الإنسان نصيحة ، مثل أن يرى شخصاً مغروراً بشخص يفضي إليه أسراره ويلازمه ، والشخص هذا يفضي أسراره صاحبهِ الذي يفضي إليه أسراره ويخدعه ، فهل له أن يتكلم فيه ؟ فالجواب : نعم ، له أن يتكلم فيه ويقول : يا فلان احذر هذا الشخص فإنه ينقل كلامك ويقول : فيك كذا وكذا ؛ لأن هذا من باب النصيحة ليس غرضه أن يفرق بين الناس ولكن غرضه أن يسدي النصيحة إلى صاحبه ، والله تعالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] والله الموفق .

* * *

٢٥٨ - باب النهي عن نقل الحديث وكلام الناس إلى ولاية الأمور

إذا لم تدع إليه حاجة كخوف مفسدة ونحوها

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوُزُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ ﴾ ^(١) [المائدة : ٢] . وفي الباب الأحاديث السابقة في الباب قبله .

١٥٣٩ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُلْغَنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً ، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ » ^(٢) رواه أبو داود ، والترمذي .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - النهي عن نقل الحديث وكلام الناس إلى ولاية الأمور إذا لم تدع الحاجة إلى ذلك ، يعني هذا الباب أراد المؤلف به ﷺ ألا ينقل الناس إلى الولاية كلام الناس وأحوالهم إذا لم تدع الحاجة إلى ذلك ؛ لأن نقل الكلام إلى ولاية الأمور إذا لم يكن هناك مصلحة

(١) قوله : ﴿ الْإِثْمِ ﴾ أي المعاصي . قوله : ﴿ وَالْعُدْوَنِ ﴾ أي الظلم .

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٩٦) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٦٠) ، وأحمد في مسنده (٣٩٦/١) ، والبيهقي في السنن (١٦٦/٨) .

يوجب إما العدوان على الشخص الذي نُقل عنه الكلام ، وإما أن ولاية الأمور يتصورون أشياء لا حقيقة لها وأن الناس يكرهونهم ويسبونهم وما أشبه ذلك ، فلهذا ينبغي ألا يُنقل إلى ولاية الأمور الحديث ، حديث الناس وكلام الناس إلا إذا دعت الحاجة والمصلحة إلى ذلك ، فإذا دعت الحاجة أو المصلحة إلى ذلك ؛ فإنه ينقل كلام الناس إلى ولاية الأمور خوفاً من المفسدة ، فمثلاً إذا كان أحد من الناس يتكلم في ولاية الأمور في المجالس ، ويقول فيهم كذا وفيهم كذا ويسهم ، فإن الأولى ألا ينقل هذا الكلام إلى ولاية الأمور ؛ لئلا تحصل المفسدة التي أشرت إليها ، وهي العدوان على هذا الشخص وتصور ولاية الأمور أن الناس يكرهونهم ، فيكرهون الناس ولا يأتون بالأمر الذي ينبغي أن يأتوا به من مصالح المسلمين ، أما إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، إلى نقل كلام الناس إلى ولاية الأمور لدفع مفسدة أو حصول مصلحة ؛ فإنه لا بد من نقله إليهم ، فإذا رأينا رجلاً يتكلم في ولاية الأمور بما فيهم من المعاصي والفسوق وما أشبه ذلك ، وينشرها بين الناس ؛ فإنه لا بد أن تُعلم ولاية الأمور بهذا ؛ لأن هذا من النصيحة لهذا الشخص لئلا يتماذى في طغيانه وهجومه على ولاية الأمور ، ومن النصيحة لولاية الأمور أيضاً : ألا يحمل الناس في قلوبهم على ولاية الأمور ، وأما ترك المفسد يفسد ويتكلم بما شاء من غير ردع له ولا زجر ، فهذا خلاف النصيحة ، بل فيه المفسدة العظيمة .

فالحاصل : أن النووي رحمته الله ذكر في هذا الباب أنه لا ينبغي أن ينقل إلى ولاية الأمور كلام الناس وحديثهم ما لم تقتض المصلحة ذلك ، فإن اقتضت المصلحة ذلك ؛ لكبح الشر والفساد والطغيان ؛ فإنه يجب أن ينقل إلى ولاية الأمور بعد الثبوت والتحقق من الأمر حتى تردع ولاية الأمور أهل الشر والفساد ، وإلا فلو ترك الناس يتكلمون كما يشاؤون لحصل في هذا مفسدة كبيرة .

ثم استدلل المؤلف لهذا بآية وحديث ، أما الآية فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ومن التعاون على الإثم والعدوان : أن ينقل الإنسان كلام الناس ، أو كلام شخص معين إلى ولاية الأمور بدون مصلحة تقتضي ذلك ، فإن هذا قد يحصل به كما أشرنا عدوان من ولاية الأمور على الشخص بلا سبب شرعي .

وأما الحديث : فهو حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً ، فإنني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » وهذا من حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا أحد ينقل إليه كلام الناس لكي لا يقع في قلبه شيء على هذا المتكلم فيحب أن يخرج إليهم وهو سليم الصدر ، ولهذا كثيراً ما يكون الإنسان محبباً لشخص يقدره ويرى أنه رجل كريم ورجل سليم ، ثم إذا نقل إليه شيء عن هذا الرجل كرهه ونفر منه وصار يبغضه ، لكن كما قلنا أولاً : إذا اقتضت المصلحة أن نتكلم فلا بد أن نتكلم ؛ لكي لا ينتشر الشر والفساد وتحصل الفتن . والله الموفق .

٢٥٩ - باب ذم ذي الوجهين

قال الله تعالى : ﴿ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (١) [النساء : ١٠٨] .

١٥٤٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ : خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا ، وَتَجِدُونَ خِيَارَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَّةٌ ، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِ ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهِ » (٢) متفق عليه .

١٥٤١ - وعن محمد بن زيد أَنَّ نَاسًا قَالُوا لَجَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه : إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سُلَاطِينِنَا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا مِنْ عِنْدِهِمْ . قال : كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٣) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في كتابه باب ذم ذي الوجهين : وذو الوجهين هو الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، كما يفعل المنافقون ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ (٤) [البقرة : ١٤] وهذا يوجد في كثير من الناس والعياذ بالله ، وهو شعبة من النفاق ، تجده يأتي إليك يتملق ويشني عليك وربما يغلو في ذلك الشناء ، ولكنه إذا كان من ورائك عرك وذمك وشمك ، وذكر فيك ما ليس فيك ، فهذا والعياذ بالله كما قال النبي « تجدون شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » (٥) وهذا من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ وصف فاعله بأنه شر الناس ، والواجب على الإنسان أن يكون صريحًا ، لا يقول إلا ما في قلبه ؛ فإن كان خيرًا حمد عليه ، وإن كان سوى ذلك وجه إلى الخير ، أما كونه يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، سواء كان فيما يتعلق بعبادته يظهر أنه عابد مؤمن تقي وهو بالعكس ، أو فيما يتعلق بمعاملته مع الشخص يظهر أنه ناصح له ويشني عليه ويمدحه ، ثم إذا غاب عنه عقره ، فهذا لا يجوز .

ثم ذكر المؤلف رحمته الله الآية الكريمة ﴿ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء : ١٠٨] هذه الآية نزلت في قوم يخفون في أنفسهم

(١) وقوله : ﴿ يَسْتَحْفُونَ ﴾ أي يستترون . قوله : ﴿ يُبَيِّنُونَ ﴾ أي يديرون . قوله : ﴿ الْقَوْلِ ﴾ هو شهادة الزور والقذف .
(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٤٩٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٩٩) ، وأحمد في مسنده (٥٢٥/٢) .
قوله « تجدون الناس معادن » أي ذوي أصول ينسبون إليها ويتفاخرون بها ، قوله « خيارهم » أي أشرفهم ، قوله « إذا فقها » أي إذا علموا الأحكام الشرعية .

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٨) ، والطبراني في الكبير (٣٢١/١٢) بنحوه .

(٤) قوله : ﴿ خَلَوْا ﴾ أي انفروا ، قوله : ﴿ شُيَاطِينِهِمْ ﴾ أي رؤسائهم وقادتهم المشبهين للشياطين في تمردهم وعتوهم .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٨) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٠٣/٣) .

ما لا يدونه ، يحدثون الناس بما ليس في قلوبهم ، فإذا صاروا في الوحدة واجتمعوا في الليل ؛ أظهروا ما في نفوسهم - والعياذ بالله - الذي كانوا أخفوه عن الناس من قبل ، فيقول الله ﷻ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُنْتَبِهُنَّ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ ومثل ذلك أيضًا من يعمل المعصية خفاء ولا يعملها أمام الناس حياة منهم وخجلًا ، وأما الله فلا يستحي منه ولا يخجل والعياذ بالله ، وهذا يدخل في الآية الكريمة . وأما من عمل المعصية وندم وتاب ؛ فإنه لا يجوز له أن يحدث الناس بما فعل ، فإن النبي ﷺ قال : « كل أمتي معافى إلا المجاهرون » ^(١) والمجاهر هو الذي إذا فعل المعصية حدث بها ، فالواجب على الإنسان أن يكون صريحًا ، ظاهره كباطنه ، وهو إذا كان صريحًا إن كان على خير ثبته أهل الخير عليه واستمر ، وإن كان على خلاف ذلك بينوا له ما هو عليه من الشر حتى يرتدع - نسأل الله تعالى - أن يجعل بواطننا خيرًا من ظواهرنا وأن يوفقنا ، وإياكم إلى ما يحب ويرضى إنه على كل شيء قدير .

٢٦٠ - باب تحريم الكذب

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الاسراء : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ تَا لَیْقُظْ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَنِدٌ ﴾ [ق : ١٨]

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم الكذب ، والكذب هو أن يخبر الإنسان بخلاف الواقع ، فيقول : حصل كذا ، وهو كاذب ، أو قال فلان كذا ، وهو كاذب وما أشبه ذلك ، فهو الإخبار بخلاف الواقع . واعلم أن الكذب أنواع :

الأول : الكذب على الله ورسوله ، وهذا أعظم أنواع الكذب ، لقول الله تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] واللام في قوله ﴿ يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ اللام العاقبة وليست لام التعليل ، فهي كقوله تعالى في موسى عليه السلام ﴿ قَالَتْ لَهُمْ مَائِدَاتُ الْوَيْحَانِ إِنَّكُمْ كَذِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٠] وهما ما التقطوه لهذا ولكن الله تعالى جعل العاقبة أن كان لهم عدوًا وحزنًا ، وهكذا من افترى على الله كذبًا ، فإنه بافترائه يضل الناس بغير علم . والافتراء على الله نوعان :

النوع الأول : أن يقول : قال الله كذا ، وهو يكذب ، يكذب على الله ، والله لم يقل شيئًا .
والنوع الثاني : أن يفسر كلام الله بغير ما أراد الله ؛ لأن المقصود من الكلام معناه ، فإذا قال : أراد

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩) ، ومسلم في الزهد (٥٢) ، والطبراني في الصغير .

الله بكذا كذا وكذا ، فهو كاذب على الله ، شاهد على الله بما لا يردده الله ﷻ ، لكن الثاني إذا كان عن اجتهاد وأخطأ في تفسير الآية ؛ فإن الله تعالى يعفو عنه ، لأن الله قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٨٧] وقال : ﴿ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وأما إذا تعمد أن يفسر كلام الله بغير ما أراد الله اتباعاً لهواه ، أو إرضاء لمصالح ، أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه كاذب على الله ﷻ . وهكذا من بعده الكذب على رسول الله ﷺ بأن يقول : قال رسول الله كذا ، ولم يقله ، لكن كذب عليه ، وكذلك أيضاً إذا فسر حديث رسول الله ﷺ بغير معناه فقد كذب على رسول الله ﷺ . وقد قال النبي ﷺ « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ^(١) المعنى أن من كذب على الرسول ﷺ متعمداً قد تبوأ مقعده من النار وسكن في مقعده من النار - والعياذ بالله - فهذان النوعان من الكذب هما أشد أنواع الكذب : الكذب على الله والكذب على رسول الله ﷺ . وأكثر الناس كذباً على رسول الله ﷺ هم الرافضة الشيعة ؛ فإنه لا يوجد في طوائف أهل البدع أحد أكثر منهم كذباً على رسول الله ﷺ كما نص على هذا علماء مصطلح الحديث - رحمهم الله - لما تكلموا على أن الحديث الموضوع ، قالوا : إن أكثر من يكذب على الرسول ﷺ هم الرافضة الشيعة وهذا شيء مشاهد ومعروف لمن تتبع كتبهم .

أما القسم الثاني من الكذب : فهو الكذب على الناس ، والكذب على الناس نوعان أيضاً : كذب يظهر الإنسان فيه أنه من أهل الخير والصلاح والتقوى والإيمان وهو ليس كذلك ، بل هو من أهل الكفر والطغيان - والعياذ بالله - فهذا هو النفاق ، النفاق الأكبر الذين قال الله فيهم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] لكنهم يقولون بألسنتهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ، وشواهد ذلك في القرآن والسنة كثيرة ، إنهم - أعني المنافقين - أهل الكذب يكذبون على الناس في دعوى الإيمان وهم كاذبون ، وانظر إلى قول الله تعالى في سورة المنافقين حيث صدرت هذه السورة ببيان كذبهم حيث قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ [المنافقون : ١] أكدوا هذه الجملة بكم مؤكد ، بثلاثة مؤكدات ، ﴿ نَشْهَدُ ﴾ (إن) (اللام) ثلاثة مؤكدات ، يؤكدون أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله ، فقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] في قولهم ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ هذا أيضاً من أنواع الكذب ، وهو أشد أنواع الكذب على الناس ؛ لأن فاعله - والعياذ بالله - منافق .

والنوع الثالث من الكذب : هو الكذب في الحديث بين الناس الجاري بين الناس ، يقول : قلت لفلان كذا وهو لم يقله ، قال فلان كذا وهو لم يقله ، جاء فلان وهو لم يأت ، وهكذا ، هذا أيضاً محرم ومن علامات النفاق كما قال النبي ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب » ^(٢) ثم ساق المؤلف رحمه الله الأدلة على تحريم الكذب منها قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ ﴾ ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أي لا تتبع ما ليس لك به علم ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٠٧) ، ومسلم في المقدمة (٣ ، ٤) ، وابن ماجه في السنن (٣٠ - ٣٦) ،

(٢) سبق تخريجه .

وأحمد في مسنده (١٣٠/١) .

وَالْفَوَادُ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مَشْغُولًا ﴿١٠٢﴾ وإذا كان هذا نهياً عما لم تحط به علماً ، فما بالك بما أحطت به علماً وأخبرت بخلافه ؟ يكون هذا أشد وأعظم ، وبهذا نعرف أن الإنسان إذا تكلم بكلام ، فإما أن يكون قد أحاط به علماً ، فكلامه هذا مباح في الأصل ما لم يجر إلى مفسدة ، الثاني : أن يقفو ما يعلم أن الأمر بخلافه ؛ فهذا كذب واضح وصريح ، والثالث : أن يقفو ما لم يحط به علماً ولا يعلم أن الأمر بخلافه ؛ فهذا منهي عنه ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فينهى أن يتكلم الإنسان في حالين ، في الحالة الأولى : أن يعلم أن الأمر بخلاف ما يتكلم به . والحالة الثانية : أن يتكلم في أمر لا يعلمه ، هذا كله منهي عنه ، أما إذا تكلم بما يعلم ؛ فهذا أمر لا بأس به .

وذكر الآية الأخرى ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ ﴾ ، ﴿ مِنْ قَوْلٍ ﴾ نكرة في سياق ماذا ؟ في سياق النفي ، ومؤكد عمومها بمن ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ ﴾ أي قول تقوله عندك رقيب عتيد يعني حاضر يراقب يكتب ما تقول ﴿ إِذْ يَتَلَفَّى الثَّالِثِينَ عَنِ الَّتِي هِيَ ﴾ ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ ﴾ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى ﴾ يعني نسمع سرهم ونجواهم ﴿ وَرُسُلَنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ما أعظم الأمر ، كل كلمة تخرج منك تكتب وسوف تلقى ذلك يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْفِئَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أنت حاسب نفسك ، قال بعض السلف : والله لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك .

والحاصل : أن الله يقول : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ ﴾ هذا الرقيب العتيد أي الحاضر يكتب كل شيء ، كل قولك ، سواء كان لك أو عليك ، أو من اللغو الذي ليس لك ولا عليك ، ولما كان الإمام أحمد رحمته الله مريضاً يئن من مرضه ، قيل له : إن فلاناً - وأظنه طاووساً - يقول : إن الملك يكتب حتى أنين المريض ، أنين المريض وهو يئن من شدة المرض يكتب عليه ، أمسك رحمته الله - أعني الإمام أحمد - عن الأنين ، وصار يتصبر ولا يئن خوفاً ، من ماذا ؟ من أن يكتب عليه ، هؤلاء الذين يحفظون ألسنتهم وجوارحهم ويعرفون قدر الأمور ، أمسك حتى عن الأنين ، أما نحن نسأل الله أن يعاملنا وإياكم بالعمو ، فإطلاق اللسان عندنا كثير ، وقد قال الرسول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ^(١) نسأل الله أن يعيننا وإياكم على أنفسنا وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه من القول والعمل .

١٥٤٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا » ^(٢) متفق عليه .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٠٣) ، وأحمد في مسنده (٣٨٤/١) ، والدارمي في السنن (٢٩٩/٢) . قوله « البر » اسم جامع للخير كله ، قوله « الفجور » هو الميل عن الاستقامة والانبعاث في المعاصي .

الشرح

سبق لنا الكلام على الآيتين اللتين ذكرهما المؤلف رحمهما الله ثم ذكر المؤلف الأحاديث ، ومنها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، وعليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » ففي هذا الحديث : حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الكذب فقال : « إياكم والكذب » يعني ابتعدوا عنه واجتنبوه ، وهذا يعم الكذب في كل شيء ، ولا يصح قول من قال : إن الكذب إذا لم يتضمن ضررا على الغير فلا بأس به ، فإن هذا قول باطل ؛ لأن النصوص ليس فيها هذا القول ، النصوص تحرم الكذب مطلقا ، ثم بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الكذب يهدي إلى الفجور ، يعني إذا كذب الرجل في حديثه ، فإنه لا يزال فيه الأمر حتى يصل به إلى الفجور - والعياذ بالله - وهو الخروج عن الطاعة ، والتعبد والعصيان ، والفجور يهدي إلى النار قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ۝ وَمَا أَذْرُكَ مَا سِجِّينَ ۝ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ۝ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ ۝ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ [المطففين : ٧ - ١١] ثم قال : « ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » - والعياذ بالله - أي من الكذابين لأن الكذب - نسأل الله لنا ولكم السلامة منه ومن سائر الآثام - إذا اعتاده الإنسان صار يكذب في كل شيء ، وصدق عليه وصف المبالغة ، فكتب عند الله كذابا ، وأما الصدق فحث عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « عليكم بالصدق » ، إذا تحدثتم فاصدقوا ، « فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة » ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ۝ وَمَا أَذْرُكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢) فإذا صدق الإنسان وعوّد لسانه على الصدق ؛ هداه إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، يعني يوصل إليها ، « ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » ، والصدقية منزلة عالية ، هي التي تلي منزلة النبوة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

واعلم أن الكذب يتضاعف جرمه بحسب ما يؤدي إليه ، فالكذب في المعاملة أشد من الكذب في مجرد الإخبار ، فإذا صار الرجل يكذب في بيعه وشرائه وأخذه وعطائه ؛ صار هذا أشد ؛ لأنه إذا كذب في البيع والشراء ، تمحق بركة بيعه قال النبي صلى الله عليه وسلم : « البيعان بالخيار ، فإن صدقا وبينا ؛ بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما ؛ مُحِقَّتْ بركة بيعهما » (٣) .

وما ترتب على الكذب في البيع والشراء من زيادة في الثمن أو زيادة في المبيع ؛ فإنه سحت - والعياذ

(١) قوله : ﴿ سِجِّينَ ﴾ هو شر موضع في جهنم . قوله : ﴿ مَرْمُومٌ ﴾ أي بيئ الكتاب . قوله : ﴿ يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ هو يوم القيامة .
 (٢) قوله : ﴿ عِلِّيُّونَ ﴾ أي في أعلى الدرجات في الجنة . قوله : ﴿ الْمُرْسَلُونَ ﴾ هم الملائكة .
 (٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٠) ، ومسلم في البيوع (٤٧) ، والترمذي في السنن (١٢٤٥) ، وأبو داود في السنن (٣٤٥٧) ، وأحمد في مسنده (٤٠٣/٣) .

بالله - لأنه مبني على الكذب ، والكذب باطل ، وما بني على الباطل فهو باطل ، وكذلك الكذب في وصف السلعة ، يقول الإنسان مثلاً : هذه السلعة فيها كذا وكذا من الصفات المرغوبة وهو كاذب ، هذا أيضاً من أكل المال بالباطل ، ومن ذلك : ما يفعله بائعو السيارات كما يقولون : يعطي الإنسان سيارته هذا الدلال وهو يدري أن فيها العيب الفلاني ثم يقول عند عرضها للبيع كل عيب فيها ولا يظهر العيب الحقيقي ؛ فهذا حرام لا يجوز ، إذا كان البائع يعلم العيب لكن كتمه ، وقال للمشتري : انظر إلى كل عيب ، هذا حرام إذا كان يعلم أن فيها عيباً ، أما إذا كان لا يعلم لكنه يخشى أن يكون فيها عيب لا يطلع عليه ، فلا بأس أن يترك البراءة من كل عيب مشبوه ، والله الموفق .

١٥٤٣ - وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ : « أُرِيتُ مَنْ كُنَّ فِيهِ ، كَانَ مُتَأَفِّفًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُمْ ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَهَا : إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » ^(١) متفق عليه .
وقد سبق بيانه مع حديث أبي هريرة بنحوه في « باب الوفاء بالعهد » .

الشرح

ذكر النووي - رحمه الله تعالى - في أحاديث منها حديثاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » .

قوله : « أربع من كن فيه » أي من اتصف بهن كان منافقاً خالصاً ؛ لأنه أتى بجميع الأعمال التي يتصف بها المنافقون - والعياذ بالله - والمراد بالنفاق هنا : النفاق العملي الذي يكون عليه أهل النفاق العقدي ، وليس نفاق الاعتقاد ، لأن نفاق الاعتقاد ؛ نفاق كفر - والعياذ بالله - وهو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، أما هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات : فإنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً حقيقياً ، ولكنهم يستعملون هذه الصفات وفيها شيء من النفاق ، أولاً قال : « إذا أؤتمن خان » إذا ائتمنه إنسان على شيء خانه فمثلاً إذا أعطى ودیعة وقيل له خذها احفظها ؛ دراهم أو ساعة أو قلم أو متاع أو غير ذلك ، يكون فيها ، يستعملها لنفسه ، أو يتركها فلا يحفظها في مكانها ، أو يظفر بها من يتسلط عليه ويأخذها ، المهم أنه لا يؤدي الأمانة فيها ، كذلك إذا أؤتمن على حديث سري وقيل له : لا تخبر أحداً ذهب يخبر ، قال لي فلان ، قال لي فلان ، وبعض الناس - والعياذ بالله - يتلى بحب الظهور والشهرة إذا ائتمنه أحد من ولاة الأمور أو من كبراء القوم ووجهائهم ذهب يتحدث قال

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ، ومسلم في الإيمان (١٠٦) ، وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) ، قوله « خالصاً » أي شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال ، قوله « فجر » أي مال عن الحق وقال : الباطل والكذب .

لي الأمير كذا ، قال لي الوزير كذا ، قال لي الشيخ كذا ، يتجمل عند الناس بأنه ممن يحادثه الكبراء والشرفاء ، وهذه من خيانة الأمانة والعياذ بالله .

ومن ذلك أيضًا : الأمانات في الولايات ؛ يكون الإنسان وثيقًا على يتيم على ماله وحضائنه وتربيته فلا يقوم بالواجب ، يهمل ماله ، وربما يستقرضه لنفسه ، ولا يدري هل يستطيع الوفاء فيما بعد أم لا ؟ ولا يقربه بالتي هي أحسن ؛ هذا أيضًا من خيانة الأمانة .

ومن ذلك أيضًا : أن الإنسان لا يقوم بواجب التربية في أهله وأولاده وقد ائتمنه الله عليهم فقال جلا وعلا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحریم: ٦] ولم يجعل الله لك سلطانًا عليهم إلا ليسالك عنهم يوم القيامة حتى تتمنى أنك لم يكن بينك وبينهم صلة ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ الْكَرَّةُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَرَأْسُهُمْ وَارِثُهُمْ وَأَبْيَهُمْ وَصَنُجِبُهُمْ وَيُنْفِخُ لِكُلِّ أُمَّةٍ رِجْلًا يَوْمَ يُنْفِخُ ﴾ [عبس: ٢٤-٢٧] .

ومن خيانة الأمانة : أن يكون الإنسان إمامًا للناس يصلي بهم الجمعة والجماعات فلا يقوم بالواجب ، تجده مرة يتقدم ، ومرة يتأخر ، ومرة يطيل بهم إطالة غير مشروعة ، ومرة لا يطمئن في صلاته ولا يهتم بمن وراءه ، هذا من خيانة الأمانة ، والمهم أن خيانة الأمانة تكون في جميع الأحوال في الأمانات ، وفي المعاملات ، وفي الأخلاق ، وفي كل شيء « إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب » هذا الشخص إذا حدث الناس في الحديث قال فلان ، أو حصل كذا ، أو لم يحصل يكذب ، هذا من علامات النفاق ، ومن الناس من يفتن بهذا الأمر فتجده يكذب على الناس ، يمزح عليهم ليورطهم ، فإذا تورطوا قال : أمزح ، سبحان الله ! تكذب على الناس تمزح عليهم لتورطهم ! ومن الناس من يتلى بالكذب لأجل أن يضحك الحاضرين ، وقد قال النبي ﷺ : « ويل لمن حدث فكذب ليضحك به القوم ويل له ، ثم ويل له » (١) وقد سبق أن أعظم الكذب الكذب على الله ورسوله ﷺ ثم الكذب على العلماء ، فإن العلماء إذا كذب عليهم إنسان في الشرع ، بأن قال : قال فلان : هذا حرام ، أو هذا حلال ، أو هذا واجب ، وهو يكذب عليه صار هذا كاذبًا على الشرع ؛ لأن العلماء هم الذين يمثلون الشرع ، وهم الذين يبينونه للناس ، فإذا كذب الإنسان عليهم قالوا : إن فلانًا العالم قال كذا وقال كذا ، وهو كاذب ؛ فإنه يقرب ممن كذب على رسوله الله ﷺ . والمهم أن من حدث فكذب ؛ فإنه فيه خصلة من خصال النفاق أعاذنا الله ، وإياكم من ذلك .

أما الخصلة الثالثة : « وإذا عاهد غدر » يعني إذا أعطى عهدًا على أي شيء من الأشياء غدر به ونقض العهد ، وهذا يشمل المعاهدة مع الكفار ، والمعاهدة مع المسلم في بعض الأشياء ثم يغدر بذلك ، فالمعاهدة مع الكفار إذا عاهدنا الكفار على ترك الحرب بيننا وبينهم مدة معينة ، كما فعل النبي ﷺ مع قريش حين عاهدتهم في صلح الحديبية على ترك القتال لمدة عشر سنوات ، فإذا عاهدنا هؤلاء

(١) قوله : ﴿ وَصَنُجِبُهُمْ ﴾ أي زوجته ، قوله : ﴿ شَأْنُ يَتِيمٍ ﴾ أي شغل يشغله .

(٢) انظر نص الحديث في أبو داود في السنن (٤٩٩٠) ، وأحمد في مسنده (٥/٥) ، والدارمي في السنن (٢٩٦/٢) ، والحاكم في المستدرک (٤٦/١) .

المشركين فلنا معهم ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن ينقضوا العهد ، فحيث يطل العهد الذي بيننا وبينهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكُونُوا آمِنًا مِنْهُمْ مِنْ بَدَلِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا آمِنَنَّ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ^(١) ﴾ [التوبة : ١٢] كما فعلت قريش في العهد الذي بينها وبين رسول الله ﷺ في الحديبية ؛ فإنها لم تمض ثمانى سنوات إلا ونقضت قريش العهد حيث أعانوا حلفاءهم على حلفاء النبي ﷺ .

الحالة الثانية : أن يستقيموا على العهد ، فحيث يجب علينا أن نستقيم على العهد وأن نبقى حتى تنتهي المدة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] .

الحالة الثالثة : أن نخشى أن ينقضوا العهد ، يعني لم ينقضوه فعلاً ولم يظهر لنا استقامة تامة ، فنخشى أن ينقضوا العهد ، فهنا ننذّر إليهم العهد ، ونقول لهم صراحة : إنه لا عهد بيننا وبينكم ، دليل ذلك قول الله تعالى ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةٌ فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ ^(٢) ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

أما العهود التي بين المسلمين بأن تعاهد شخصاً على أن تفعل كذا أو لا تفعل ، أو على أن تكتم سره ، أو ما أشبه ذلك ؛ فيجب الوفاء به ، يجب وجوباً ، واختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - فيما إذا وعدت شخصاً موعداً فهل يجوز أن تخلفه بلا ضرورة أو لا ؟ مثل أن تقول : سأتيك غداً ، لدعوة ، دعاك على غداء أو عشاء أو ما أشبه ذلك ، فهل يجوز أن تخلف الموعد ، من العلماء من يقول : إنك إذا أخلفت الموعد لا تأثم ، ولكن الصحيح أنك تأثم ، إلا لعذر شرعي ، فإذا وعدت أحاك موعداً يجب أن توفي به لأنك وعدته ، وإخلاف الموعد من علامات ماذا ؟ النفاق ، فهل ترضى أن تكون منافقاً ؟ كل واحد لا يرضى ، فالصواب الذي دلت عليه السنة وجوب الوفاء بالوعد ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، لأن إخلافه من النفاق ، لكن إذا كان لك عذر أو لم تعط موعداً صريحاً بأن قلت لصاحبك : آتيك إن شاء الله تعالى إذا لم يكن لي عذر ، فهنا إذا كان لك عذر فلا بأس ، أنت في حل لأنك لم تعطه موعداً صريحاً ، وكذلك أيضاً إذا أخلفت لعذر ، مثل أن يكون تمام الوعد يحتاج إلى سيارة ، وخرجت وتعطلت السيارة ولم تتمكن من الوصول إليه في مواعده ، فإن هذا عذر - بلا شك - تعذر به .

أما الخصلة الرابعة : فهي « إذا خاصم فجر » نسأل الله العافية ، إذا وقعت خصومة بينه وبين غيره فجر ، والفجور في الخصومة ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن يجحد ما كان عليه .
والثاني : أن يدعي ما ليس له .

مثال الأول : إنسان مطلوب لشخص بألف ريال ، فأقام الطالب دعوى على المطلوب ، وأنكر المطلوب ، قال : ما عندي لك شيء ، والطالب قد وثق منه ولم يُشهد عليه فهنا يقول القاضي

(١) قوله : ﴿ تَكُونُوا آمِنًا ﴾ أي نقضوا .

(٢) قوله : ﴿ فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي بأن تعلمهم ببذك عهدهم قبل أن تحاربهم .

للمطلوب : احلف وتبرأ ذمتك ، فحلف المطلوب أنه ليس له عندي شيء ، فهنا سوف يقضي الحاكم بأن هذا المدعى عليه المطلوب ليس عليه شيء ، هذا فجور في الخصومة .

أما القسم الثاني : فأن يدعي ما ليس له ، بأن يقول عند القاضي : أنا أطالب هذا الرجل بمائة ريال فينكر المطلوب ، فيقول الطالب : عندي بيعة ، ويأتي بيعة سوء يشهدون بأنه له عند فلان (المطلوب) مائة ريال ، فالقاضي سوف يحكم بالبيعة فإذا حكم لهذا المدعي بيعة الزور ، فإن هذا يعتبر من خاصم ففجر - والعياذ بالله - فلهذا يجب التحرز في الخصومات من الكذب أو الالتواء أو المخادعة ؛ لأن كل هذا من الفجور في الخصومة نسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا وقلوبكم من النفاق والشك والشرك والرياء إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٥٤٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ ؛ كَلَّفَ أَنْ يَغْفَدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ ، وَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارْهُونٌ ؛ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الْآنُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً ؛ غُدَّبَ ، وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ » ^(١) رواه البخاري .

« تَحَلَّمَ » أي قال : إنه حَلَمَ في نومه ورأى كذا وكذا ، وهو كاذب . و « الْآنُكَ » بالمد وضَمُّ النون وتخفيف الكاف : وهو الرصاص المذاب .

١٥٤٥ - وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرَى الرَّجُلُ عَيْنِيهِ مَا لَمْ تَرَيَا » ^(٢) . رواه البخاري .

ومعناه : يقول : رأيت فيما لم يره .

١٥٤٦ - وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا ؟ » فَيَقْصُصُ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصُصَ ، وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ عَدَاةٍ : « إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ ، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي : انْطَلِقْ ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا ، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ ، فَيَنْثَلِغُ رَأْسُهُ ، فَيَتَدَهَّدُ الْحَجَرُ هَا هُنَا ، فَيَتَبَعُ الْحَجَرُ قِيَأُ أَخْذُهُ ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى ! » قال : « قُلْتُ لَهُمَا : شُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا هَذَا ؟ قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَاَنْطَلَقْنَا ، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقِّي وَجْهِهِ فَيَشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ ، وَ مِنْخِرَتَهُ إِلَى قَفَاهُ ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ ،

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٢) ، والطبراني في الكبير (٣٠٩/١١) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٣) ، وأحمد في مسنده (١١٩/٢) بنحوه . قوله « الفرى » أي الافتراء .

فَيَفْعَلْ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ، قَالَ : قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا هَذَا ؟ قَالَ : قَالَ لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا ، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ الثَّنَوْرِ « فَأَحْسِبُ أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا فِيهِ لَعَطٌ وَأَصْوَاتٌ ، فَاطْلُقْنَا فِيهِ إِذَا فِيهِ رَجَالٌ وَنِسَاءٌ غُرَاءَ ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ ، إِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضُوا . قُلْتُ : مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ « حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « أَحْمَرُ مِثْلُ الدَّمِ ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبِخُ ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبِخُ مَا يَسْبِخُ ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ ، فَيَغْرُ لَهُ فَاةً ، فَيَلْقُمُهُ حَجَرًا ، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبِخُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، كُلُّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَّ لَهُ فَاةً ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا ، قُلْتُ لَهُمَا : مَا هَذَا ؟ قَالَ لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا ، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرَاةَ ، أَوْ كَأَكْرَهَ مَا أَنْتَ رَأَى رَجُلًا مَرَأَى ، إِذَا هُوَ عِنْدَهُ نَارٌ يَحْسُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا . قُلْتُ لَهُمَا : مَا هَذَا ؟ قَالَ لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا ، فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرِّبْعِ ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرِي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوْلًا فِي السَّمَاءِ ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وَلَدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُ ، قُلْتُ : مَا هَذَا ! وَمَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا ، فَأَتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرِ دَوْحَةً قَطُ أَعْظَمَ مِنْهَا ، وَلَا أَحْسَنَ ! قَالَ لِي : ازِقْ فِيهَا ، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بَلَدِنِ دَهَبٍ وَلَبَنِ فُضَّةٍ ، فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا ، فَقُتِحَ لَنَا ، فَدَخَلْنَاهَا ، فَتَلَقَّانَا رَجَالٌ شَطْرَ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَى ! وَشَطْرَ مِنْهُمْ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَأَى ! قَالَ لَهُمْ : اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ ، وَإِذَا هُوَ نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْحُمْضُ فِي الْبَيَاضِ ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ . ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ الشَّيْءُ عَنْهُمْ ، فَصَاوَرُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ . قَالَ : قَالَ لِي : هَذِهِ جَنَّةُ عَذْنٍ ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ ، فَسَمَا بِصَرِي صُغْدَا ، إِذَا قَصَرَ مِثْلُ الرِّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ . قَالَ لِي : هَذَاكَ مَنْزِلُكَ ؟ قُلْتُ لَهُمَا : بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا ، فَذَرَانِي فَأَدْخُلْهُ . قَالَ : أَمَا الْآنَ فَلَا ، وَأَنْتَ دَاخِلُهُ . قُلْتُ لَهُمَا : فَإِنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا ؟ فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ ؟ قَالَ لِي : أَمَا إِنَّا سَنَخْبِرُكَ : أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَتْلُغُ رَأْسَهُ بِالْحَجَرِ ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشْرَسِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاةٍ . وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاةٍ ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاةٍ ؛ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ . وَأَمَّا الرَّجُلُ وَالنِّسَاءُ الْغُرَاءُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ الثَّنَوْرِ ؛ فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةَ وَالزُّوَانِي ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبِخُ فِي النَّهْرِ ، وَيَلْقُمُ الْحِجَارَةَ ، فَإِنَّهُ أَكَلُ الرِّبَا ؛ وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهَ الْمَرَاةَ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحْسُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا ؛ فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنٌ جَهَنَّمَ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ ؛ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَمَّا الْوِلْدَانِ الَّذِينَ حَوْلَهُ ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ « وَفِي رِوَايَةِ الْبَزْغَانِيِّ : « وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ » فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَوْلَادُ الْمَشْرِكِينَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَأَوْلَادُ الْمَشْرِكِينَ ، وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرَ مِنْهُمْ حَسَنٌ ، وَشَطْرَ مِنْهُمْ قَبِيحٌ ؛ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ : « رَأَيْتُ الدَّلِيلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيْنَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ » ثُمَّ ذَكَرَهُ وَقَالَ :

«فَانْطَلَقْنَا إِلَى نَقَبٍ مِثْلِ الثَّوْرِ ، أَغْلَاهُ صَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ ؛ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا ، فَإِذَا ارْتَفَعَتْ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا ، وَإِذَا خَمَدَتْ ، رَجَعُوا فِيهَا ، وَفِيهَا رَجَالٌ وَنِسَاءٌ عَرَاءٌ » . وَفِيهَا : « حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ » وَلَمْ يَشْكُ « فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسْطِ النَّهْرِ ، وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ ، رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ جَعَلَ يَوْمِي فِي فِيهِ بِحَجَرٍ ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ » . وَفِيهَا : « فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ ، فَأَذْخَلَانِي ذَارًا لَمْ أَرِ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا ، فِيهَا رَجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ » . وَفِيهَا : « الَّذِي رَأَيْتُهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ ، يُحَدِّثُ بِالْكَذِبَةِ فَتَحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ ، فَيُصْنَعُ بِهِ مَا رَأَيْتَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وَفِيهَا : « الَّذِي رَأَيْتُهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ ، فَيُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالْدَّارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارَ غَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ ، وَأَنَا جَبْرِيلُ ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ ، قَالَا : ذَاكَ مَنَزَلُكَ ، قُلْتُ : دَعَانِي أَذْخُلْ مَنَزِلِي ، قَالَا : إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ ، فَلَوْ اسْتَكْمَلْتُهُ ، أَتَيْتَ مَنَزَلَكَ » (١) رواه البخاري .

قوله : « يَنْلَخُ رَأْسُهُ » هو بالثاء المثلثة والغين المعجمة ، أي : يَشْدَخُهُ وَيَشْقُهُ . قوله : « يَنْدَهْدَهُ » أي : يتدحرج . و « الْكَلُوبُ » بفتح الكاف ، وضم اللام المشددة ، وهو معروف . قوله : « فَيُشْرِشِرُ » أي : يَقْطُطُ . قوله : « ضَوْضَا » وهو بضادين معجمتين ، أي : صاحوا . قوله : « فَيَفْعَرُ » هو بالفاء والغين المعجمة ، أي : يفتح . قوله : « الْمَرَاة » هو بفتح الميم ، أي : المنظر . قوله : « يَحْشُشُهَا » هو بفتح الباء وضم الحاء المهملة والشين المعجمة ، أي يوقدها . قوله : « رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ » هو بضم الميم وإسكان العين وفتح التاء وتشديد الميم ، أي : وافية الثبات طويْلته . قوله : « دَوْحَةٌ » وهي بفتح الدال ، وإسكان الواو وبالحاء المهملة : وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ . قوله : « الْحَضُّ » هو بفتح الميم وإسكان الحاء المهملة وبالضاد المعجمة : وَهُوَ اللَّبَنُ . قوله : « فَسَمَا بَصْرِي » أي : ارتفع . « وَصُعْدَا » : بضم الصاد والعين . أي : مُرْتَفِعَا . « وَالزَّيَابَةُ » : بفتح الزاء وبالباء الموحدة مُكررة ، وَهِيَ السَّحَابَةُ .

الشرح

ذكر الحافظ النووي - رحمه الله تعالى - عن تحريم الكذب فيما نقله عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ تَحَلَّمَ بِحِلْمٍ لَمْ يَرَهُ ؛ كَلَفٌ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ » ، يعني من كذب في الرؤيا قال : رأيت في المنام كذا وكذا وهو كاذب ، فإنه يوم القيامة مكلف أن يعقد بين شعيرتين ، والمعلوم أن الإنسان لو حاول مهما حاول أن يعقد بين شعيرتين فإنه لا يستطيع ، ولكنه لا يزال يعذب

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٧) ، وأحمد في مسنده (١٤ / ٨ / ٥) ، والبيهقي في السنن (٢٧٥ / ٥) .
قوله : « ذات غداة » أي صباح يوم ، قوله « مستلق لبقاه » أي نائم على ظهره ، قوله « شقي وجهه » أي جانبي وجهه ، قوله : « فإذا فيه لفظ » أي فيه كلام جلبيه واختلاط بحيث لا يتبين ، قوله : « ارق » أي اصعد .

ويقال : لا بد أن تعقد بينهما ، وهذا وعيد يدل على أن التحلم بحلم لم يره الإنسان من كبار الذنوب ، وهذا يقع من بعض السفهاء ، يتحدث ويقول : رأيت البارحة كذا وكذا ، لأجل أن يضحك الناس ، وهذا حرام عليه ، وأشد من ذلك أن يقول : رأيت النبي ﷺ وقال لي كذا وكذا وما أشبه ذلك ؛ فإنه أشد وأشد ؛ لأنه كذب على رسول الله ﷺ أما من تحلم بحلم رآه ؛ فهذا لا بأس به ، ولكن ينبغي للإنسان أن يعلم أن ما يراه الإنسان في منامه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

قسم : يكون خيراً ويستبشر به الإنسان ويفرح به الإنسان ، فهذا لا يحدث به إلا من يحب ؛ لأن الإنسان له حساد كثيرون فإذا رأى رؤيا حسنة وحدث بها من لا يحب ؛ فإنه ربما يكيد له كيذا ، يحول بينه وبين هذا الخير الذي رآه ، كما فعل إخوة يوسف ﷺ فإن يوسف بن يعقوب عليه السلام وعلى أبيه قال لأبيه : ﴿ يَتَأْتِيَنِي رَأْيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] يعني رأيت هؤلاء أحد عشر كوكبا يعني نجوماً والشمس والقمر كلها تسجد لي فقال له ﴿ يَبْنُؤُكَ لَا نَقْصُصُ رُءُوفًا عَنْ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] فلا تخبر إنساناً ليس من أحبائك وأصدقائك الذين لا يودون لك ما يودون لأنفسهم ، لا تخبرهم بما ترى من رؤيا الخير .

القسم الثاني : رؤيا شر ، هذا القسم الثاني مما يراه الإنسان في المنام ، رؤيا شر تزعج وتخوف ، هذا لا تخبر به أحداً أبداً ، لا صديقك ولا عدوك ، وإذا قمت من منامك فانتقل عن يسارك ثلاثاً وقل : أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت ^(١) ، وإن كنت تريد أن تواصل النوم فقم على الجنب الآخر ، يعني لا على الجنب الذي رأيت فيه ما تكره فإنها لا تضر ، فمن رأى ما يكره يعمل ما يلي : أولاً : إن استيقظ يتفل عن يساره ثلاث مرات ويقول : أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت ، إن أراد أن يواصل النوم ينام على الجنب الثاني ، إذا قام فلا يخبر بها أحداً ؛ لأن ذلك لا يضره ، فإذا فعل هذا ، فإنه لا يضره بإذن الله ، وكان الصحابة يرون الرؤيا تمرضهم وتقلقهم فلما حدثهم النبي ﷺ بهذا الحديث فعلوا ما أرشدهم إليه واستراحوا ، وكثير من الناس مبتلى يبحث عن الشر لنفسه ، يرى الرؤيا يكرهها ، ثم يحاول أن يقصها على الناس ليعبروها له ، وهذا غلط إذا رأيت الرؤيا تكرهها فهذا عندك دواء من أحسن الأدوية بل هو أحسن الأدوية ، علمك إياه رسول الله ﷺ .

القسم الثالث : رؤيا أضغاث أحلام ، ليس لها رأس ولا قدم ، يرى الإنسان أشياء متناقضة ويرى أشياء غريبة ، وهذه لا تحدث بها أحداً ولا تهتم بها ، وقد حدث رجل رسول الله ﷺ حديثاً قال : يا رسول الله رأيت في المنام أن رجلاً قد قطع رأسي ، فذهب الرأس شارداً ، فذهبت وراءه لاحقاً له . فقال له النبي ﷺ : « لا تحدث الناس بما يَلْعَبُ الشَّيْطَانُ بِكَ فِي مَنَامِكَ » ^(٢) . وهذا من الشيطان يقطع رأسك ويشرد بها وأنت تلاحقه ، هذا ما له أصل ، فمثل هذه الأشياء لا تهتم بها ولا تحدث بها أحداً ، أما من رأى الرسول ﷺ فإذا رأى الرسول ﷺ على الوصف المعروف الذي وُصف في السيرة

(١) ومصدق ذلك ما رواه مسلم في الرؤيا (٣) ، وأحمد في منسده (٣٠٩/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الرؤيا (١٥٠) .

النبوية ، ورآه على هيئة حسنة ؛ فهذا يدل على خير لهذا الرائي وأنه قد تأسى به أسوة حسنة ، وإن رآه على خلاف ذلك ؛ فليحاسب نفسه ، فإذا رآه مثلاً أنه يحدث الرسول ولكن الرسول مُعرض عنه ، أو الرسول قد انصرف وتركه ، ورآه على هيئة غير حسنة ، يعني مثلاً من ثيابه أو ردائه أو إزاره أو ما شابه ذلك ؛ فليحاسب نفسه ، فإنه مقصر في اتباع الرسول ﷺ .

أما المسألة الثانية : « من تسمع قومًا وهم له كارهون صُبَّ في أذنيه الآتك يوم القيامة » يعني الذي يتسمع إلى أناس وهم يكرهون أن يسمع ؛ فإنه يصب في أذنيه الآتك يوم القيامة .

قال العلماء : (الآتك) هو الرصاص المذاب والعياذ بالله ، والرصاص المذاب بنار جهنم أعظم من نار الدنيا بتسعة وستين مرة ^(١) ، وسواء كانوا يكرهون أن يسمع لغرض صحيح أو لغرض غرض ؛ لأن بعض الناس يكره أن يسمعه غيره ، ولو كان الكلام ما فيه خطأ ولا فيه سب ، ولكن لا يريد أن أحدًا يسمعه ، وهذا يقع فيه بعض الناس ، تجده مثلاً إذا رأى اثنين يتكلمون يأخذ المصحف ويجلس قريبًا منهم ، ثم يبدأ يطالع المصحف كأنه يقرأ ، وهو يستمع إليهم وهم يكرهون ذلك ، هذا الرجل يُصَبَّ في أذنيه الآتك يوم القيامة ، فيعذب هذا العذاب والعياذ بالله .

أما الثالثة : فهي « من صور صورة فإنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » .

واعلم أن الصورة تنقسم إلى قسمين : صور مجسمة ، بأن يصنع الإنسان تمثالاً على صورة إنسان أو حيوان ، فهذا محرم ، سواء أَرَادَهُ لغرض محرم ، أو لغرض مباح ، مجرد هذا التصوير محرم ، بل هو من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ لعن المصورين ^(٢) وبين أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله ^(٣) .

والقسم الثاني : المُلَوَّن ، يعني من ليس له جسم ؛ بل هو بالتلوين ، فهذا قد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من أجاز وقال : لا بأس به إلا إذا قصد به غرضًا محرمًا مثل : أن يقصد به التعظيم - تعظيم المصور - ؛ فإنه يخشى إذا طال بالناس زمن أن يعبدوه ، كما جرى لقوم نوح فيما يذكر أنهم صوروا صورة لرجال صالحين ثم عبدوها لما طال الزمن .

وقال بعض العلماء : إنه لا بأس به إذا كان ملونًا ، واستدلوا بحديث زيد بن خالد وفيه « إلا رقمًا في ثوب » ^(٤) قالوا : هذا يدل على أن هذا مستثنى فيدل على أن المحرم ما له روح فقط ، ولكن الراجح الذي عليه جمهور العلماء أنه لا فرق بين المجسم وبين الملون الذي يكون بالرقم كله محرم ؛

(١) وذلك مصداقًا لما رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) ، والترمذي في السنن (٢٥٨٩) ، وأحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ولكنهم ذكروا أنها أكثر بسبعين مرة وليس تسعة وستين .

(٢) انظر ذلك في الأذكار للنووي (٢١٤) ، والقرطبي في تفسيره (٢٣٨/١٤) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٠) ، وأحمد في مسنده (٣٦/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٢٦) ، ومسلم في اللباس (٨٥) ، والدارمي في الاستئذان (٣٣) ، ومالك في الموطأ (الاستئذان ٧) .

لأن الذي يرقم باليد صورة يحاول أن يكون مبدعًا مشابهاً لخلق الله ﷻ فيدخل في العموم ، وأما الصور التي تلتقط التقاطاً بالآلة المعروفة ، آلة التصوير الفوتوغرافية ، فهذه من المعلوم أنها لم تكن معروفة في عهد الرسول ﷺ والمعروف في عهده إنما هو التصوير باليد الذي يضاهي به الإنسان خلق الله ﷻ ، أما هذه الآلة فغير معروفة ، وليس الإنسان يصورها بيده ويخططها ، يخطط الوجه مثلاً ، والعينين ، والأنف ، والشفيتين ، وما أشبه ذلك ، لكنه هو يلقي ضوءاً معيناً تقدمت به معرفة الناس فتنتطبع هذه الصورة في ورقة ، وهو لم يحدث شيئاً في الصورة ، لم يصورها إطلاقاً ، وإنما التقطت هذه الصورة بواسطة الضوء ، فهذا لا شك أنه فيما نرى أنه لم يصور ، غاية ما هنالك أن الصورة طبعت بالورقة ، فكان الذي بالورقة هو خلق الله ﷻ ، يعني هذه الصورة هي الصورة التي خلقها الله ، والدليل على ذلك : أن الإنسان لو كتب كتاباً بيده ثم صورته بالآلة ، آلة التصوير ، فإنها إذا طلعت الصورة لا يقال إن هذا هو كتابة الذي حرك الآلة وصور (الشخص القائم بالتصوير) بل يقال : هذا كتابة الأول الذي خطه بيده ، فهذا مثله ، ولكن يبقى النظر لماذا صور الإنسان هذه الصور الفوتوغرافية ؟ إذا كان لغرض محرم فهو حرام من باب تحريم الوسائل ، كما لو اشترى الإنسان سلاح في فتنة ، أو بيضاً لقمار ، أو ما أشبه ذلك ، يعني أن هذا مباح ولكن لغرض محرم ؛ فلا يجوز من باب تحريم الوسائل . أما إذا كان الغرض مباحاً كتصوير لاستخراج رخصة السيارة ، أو البطاقة الشخصية وما أشبه ذلك ؛ فهذا لا بأس به ، هذا هو الذي نراه في هذه المسألة ، والناس ابتلوا بها الآن بلوى عظيمة وصارت منتشرة في كل شيء ، ولكن يجب على الإنسان أن يعرف ويحقق ويميز بين ما حرمه الله ورسوله ، وبين ما لم يأت تحريمه ، فلا تضيق على عباد الله ولا توقعهم في محارم الله . هذا إذا كان المصور له روح لقوله (كلف أن ينفخ فيها الروح) أما إذا كان المصور لا روح له ، كتصوير الأشجار والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار ، فهذا لا بأس به ، لأنه ليس فيه روح ، وقال بعض العلماء : ما كان نامياً كالشجر والزرع فإنه لا يجوز تصويره ، لأنه جاء في الحديث : « فليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » وهذا نام فيشبه ما كان له روح ، لكن هذا خلاف قول جمهور العلماء ، والصحيح أنه لا بأس به ، أما ما يصنعه الإنسان فلا شك أنه يجوز تصويره ، كالقصور والسيارات وما أشبهها فصارت الآن الأقسام متعددة :

ما يصنعه الإنسان بيده ؛ فهذا لا بأس من تصويره ، مثل السيارات والقصور والأبواب وما أشبه ذلك . وما هو من خلق الله ﷻ وليس بنام لا ينمو ، كالشمس والقمر والنجوم والجبال والأقمار ؛ فهذا أيضاً لا بأس به ، وهذا محل اتفاق .

وما كان من خلق الله وليس له روح ولكنه ينمو كالشجر والزرع وما أشبهه ؛ فجمهور العلماء على أنه لا بأس به ، وذبح بعض العلماء ومنهم مجاهد بن جبر - تابعي مشهور - إلى أنه حرام ، والصحيح أنه لا بأس به .

وأما ما فيه روح : فهذا لا يجوز أن يصور ؛ لأن النبي ﷺ لعن المصورين .

وأما مسألة التقاط الصور ؛ فهذا لا نرى أنه داخل في التصوير إطلاقاً ؛ لأن الملتقط لم يحصل منه فعل يكون به التصوير ، ولكن يبقى النظر خلف النية هل يلتقط هذه الصور لشيء محرم أو لا ؟ هذا هو محل التفصيل ، والله الموفق .

* * *

٢٦١ - باب بيان ما يجوز من الكذب

اعلم أن الكذب ، وإن كان أضله محرماً ، فيجوز في بعض الأحوال بشرط قد أوضحناها في كتاب : « الأذكار » ومختصر ذلك أن الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه ، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب .

ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً ، وإن كان واجباً ، كان الكذب واجباً ، فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله ، أو أخذ ماله ، وأخفى ماله ، وسئل إنسان عنه ، وجب الكذب بإخفائه ، وكذا لو كان عنده ديدة ، وأراد ظالم أخذها ، وجب الكذب بإخفائها ، والأخوط في هذا كله أن تورّي ، ومعنى التورية : أن يقصد بعبارة مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه ، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ ، وبالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب ، فليس يحرم في هذا الحال .

واستدل العلماء بجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ، فيمنى خيراً أو يقول خيراً » متفق عليه . زاد مسلم في رواية : قالت : أم كلثوم : ولم أسمعهُ يُرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث : تغني : الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها .

الشرح

سبق لنا أن الكذب محرم وأن منه ما هو كبيرة من كبائر الذنوب كالكذب على الله ورسوله ، وقد ذكر المؤلف في هذا الباب أن الكذب يجوز أحياناً إذا كانت المصلحة كبيرة عظيمة ، وأنه قد يجب الكذب إذا كان فيه دفع مضرة وظلم ، مثال ذلك لدفع المضرة والظلم : أن يكون شخص ظالم يريد أن يقتل شخص معصوماً ، فيختفي هذا الشخص المعصوم عن الظالم ، وأنت تعلم مكانه ، فسألك هذا الظالم الذي يريد قتله بغير حق أين فلان ؟ هل فلان في هذا ؟ فتقول : لا ، ليس فلان في هذا ، وأنت تدري أنه فيه ، فهذا لا بأس به بل هو واجب لإنقاذ المعصوم من الهلكة ، فإن إنقاذ المعصوم من الهلكة واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ولكن الأفضل أن تورّي ؛ يعني تنوي معنى صحيحاً ليس فيه كذب وإن كان ظاهر اللفظ أنه

كذب فتقول مثلاً إذا قال هذا الظالم : فلان في هذا ؟ تقول : ليس في هذا ، وتشير إلى شيء معين ليس فيه ، كما يذكر أن الإمام أحمد رحمته الله جاءه رجل يسأل عن أحد التلاميذ : أين فلان ؟ فقال الإمام أحمد : ليس فلان ها هنا ، وما يصنع فلان ها هنا . ويلمس يده ، يعني ليس في يدي وما يصنع في يدي ، هذه تورية ، فإذا قيل مثلاً : إذا جاءك هذا الظالم الذي يريد أن يقتل هذا الشخص بغير حق ، وقال : هل فلان ها هنا ، تقول : لا ، وتلمس يدك بيدك الأخرى ؛ يعني ليس في يدي ، أو إنسان ألح بشيء وأنت لا تريد أن تعطيه ؛ لأنه يفسد المال ، فتقول : والله ما بيدي شيء ، ويدك ليس فيها شيء ، ليس فيها دراهم ولا غير ، تقول : ليس في يدي شيء وأنت صادق ، وهو يفهم أنه ليس عندك شيء ، أو يكون عندك ودعة لشخص فيأتي إنسان ظالم ويقول : أين ودعة فلان ؟ يعني إنسان حط عندك أمانة - مثلاً دراهم - قال لك : احفظها لي ، فجاء شخص ظالم يريد أن يأخذ هذه الدراهم ، جاء إليك قال : أين الودعة التي أعطاه لك فلان ؟ أعطني إياها ، فقلت : والله ما عندي له ودعة ، تأول ، فتنوي بقولك : والله ما عندي له ودعة ، يعني والله إن الذي عندي له ودعة ، تجعل (ما) بمعنى (الذي) وأنت صادق الذي لفلان عندك ودعة ، لكن يفهم المخاطب أن (ما) نافية وأنه ليس له عندك ودعة ، فالحاصل أنه إذا كان هناك ظلم وأراد الإنسان أن يدفعه وكذب ؛ فهذا لا بأس به ، ولكن الأولى والأحسن أن يوري ؛ يعني ينوي معنى صحيحاً ليس فيه كذب ، والمخاطب يظن أنه كذب ، وكذلك أيضاً إذا كانت المصلحة كبيرة كالكذب في الحرب ؛ لا بأس به لأنه فيه مصلحة كبيرة ، مثل أن تأتي عيون العدو يعني جواسيسه يسألون يقولون مثلاً : هل الجيش كبير ؟ وهل معه عدة ؟ وهل هو قوي ؟ تقول : نعم ، الجيش كبير ، وعظيم وقوي ومعه عدة ، ولو كنت تعرف أن هذا لا بأس به ؛ لأن فيه مصلحة كبيرة وهي إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ، وكذلك الإصلاح بين الناس ، يأتيك شخص قد ذكر له أن شخصاً آخر يغتابه ويسبه ، فيأتي إليك ويقول : سمعت أن فلاناً قال في كذا وكذا ؟ فتقول : أبداً ما قال فيك شيئاً ، هذا لا بأس به ؛ لأن فيه إصلاحاً بين الناس .

كذلك من المصلحة حديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها فيما يوجب الألفة والمودة ، مثل أن يقول لها : أنت عندي غالية ، وأنت أحب إلي من سائر النساء ، وما أشبه ذلك وإن كان كاذباً ، لكن من أجل إلقاء المودة ، والمصلحة تقتضي هذا ، فالهم أن الكذب يجب إذا كان لإنقاذ معصوم من هلكة ، أو حماية مال معصومة من تلف ، ويباح إذا كان فيه مصلحة عظيمة ومع ذلك فمن الأولى أن يوري ، أي يجعل الكلام تورية حتى يسلم من الكذب . والله الموفق .

٢٦٢ - باب الحث على التثبت فيما يقوله ويحكيه

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

١٥٤٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ » ^(١) رواه مسلم .

١٥٤٨ - وَعَنْ سَمُرَةَ رضي الله عنها قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ ؛ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ » ^(٢) رواه مسلم .

١٥٤٩ - وَعَنْ أَسْمَاءَ رضي الله عنها أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي ضَرَّةً ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِيسُ ثَوْبِي زُورٌ » ^(٣) متفقٌ عليه . « الْمُتَشَبِّعُ » : هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ الشَّبْعَ وَلَيْسَ بِشَبْعَانَ ، وَمَعْنَاهَا هُنَا : أَنَّهُ يُظْهِرُ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ فَضِيلَةٌ وَلَيْسَتْ حَاصِلَةً . « وَلَا يَسُ ثَوْبِي زُورٌ » أَي : ذِي زُور ، وَهُوَ الَّذِي يُزَوِّرُ عَلَى النَّاسِ ، بِأَنْ يَتَزَيَّرِي بِزِيٍّ أَهْلِ الزُّهْدِ أَوْ الْعِلْمِ أَوْ الثَّرْوَةِ ، لِيُعْتَرَّ بِهِ النَّاسُ وَلَيْسَ هُوَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ . وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

لما ذكر المؤلف رحمه الله تحريم الكذب : والكذب أن يخبر الإنسان بما لم يكن على وجهه الصحيح . أعقبه بهذا الباب ، وهو أن الإنسان يتثبت فيما ينقل ويتكلم به لا سيما في زمن الأهواء وكثرة القيل والقال والتحدث بما كان أو لم يكن ، ثم استدلل لذلك بالأيات والأحاديث قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ؛ ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ يعني لا تتبع ما ليس لك به علم ولا تتكلم إلا بما تعلم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » ^(٤) وقال تعالى : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ يعني إلا عنده ﴿ رَقِيبٌ ﴾ أي مراقب يراقب ما تقول ، ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر فلا يغيب عنه ، وهذا تحذير من أن يتكلم الإنسان بشيء لا يعلم عنه ؛ لأنه بذلك أثم ، ثم ذكر في ذلك أحاديث منها : « كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ » يعني أن الإنسان إذا صار يحدث بكل ما سمع من غير تثبت وتأن ؛ فإنه يكون عُرضة للكذب ، وهذا هو الواقع ولهذا يجيء إليك بعض الناس يقولون : صار كذا وكذا ، ثم إذا بحثت وجدت أنه لم يكن ، أو يأتي إليك

(١) أخرجه مسلم في المقدمة (٥) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٢) ، والحاكم في المستدرک (١١٢/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٦٢) ، والطبراني في الكبير (١٤٤/٨) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢١٩) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٢٧) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٧) ،

وأحمد في مسنده (١٦٧/٦) . قوله « ضَرَّة » أي أن لزوجها زوجة أخرى .

(٤) سبق تخريجه .

أنه كاذب ، فإن هذا - والعياذ بالله - شهادة زور ، ومثل : أن يشهد لفلان أنه فقير يستحق الزكاة وهو يعلم أنه غني ، ومثل : ما يفعله بعض الناس عند الحكومة يشهد بأن فلاناً له عائلة عدد أفرادها كذا وكذا وهو يعلم أنه كاذب ، والأمثلة على هذا كثيرة ، ويظن هذا المسكين الذي شهد بشهادة الزور يظن أنه نافع لأخيه وأنه بار به ؛ والواقع أنه ظالم لنفسه وظالم لأخيه ، أما كونه ظالماً لنفسه : فظاهر لأنه أثم وأتى كبيرة من كبائر الذنوب . وأما كونه ظالماً لأخيه : فلأنه أعطاه ما لا يستحقه وجعله يأخذ المال بالباطل ، وقد قال النبي ﷺ « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . قالوا : يا رسول الله ، هذا المظلوم كيف ننصر الظالم ؟ قال : « تمنعه من الظلم فذلك نصره » ^(١) فهؤلاء الذين يشهدون بالزور - والعياذ بالله - يظنون أنهم ينفعون إخوانهم وهم يضررون أنفسهم وإخوانهم .

ثم استشهد المؤلف بآيات بعضها سبق قريباً وبعضها لم يسبق فقال : قول الله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا أَلْيَسَ مِنَ الْآثَرَيْنِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] وأول ما يدخل في قول الزور شهادة الزور ، وقد جعل الله تعالى ذلك مع الرجس من الأوثان أي مع الشرك فدل هذا على عظم شهادة الزور ، وقال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ أَلُورَ ﴾ [الفرقان : ٧٢] يمدحهم ، وإذا كان هؤلاء مدحوا بعدم شهود الزور فأولى أن يمدحوا إذا لم يقولوا الزور ، وإذا كان عدم شهود الزور مدحاً ، دل ذلك على أن شهادة الزور أو القول بالزور قدح وضرر .

ثم ذكر حديث أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » (ألا) أداة عرض استفتح بها النبي ﷺ كلامه للتنبية ، تنبيه المخاطب إلى أمر ذي شأن ، ولهذا قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « الشرك بالله » وهذا أعظم الظلم وأكبر الكبائر وأشد الذنوب عقوبة ؛ لأن من يشرك بالله فإن الله قد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . والثاني « عقوق الوالدين » يعني قطع برهما ، والوالدان : هم الأب والأم ، والواجب على الإنسان أن يبرهما وأن يخدمهما بقدر ما يستطيع ، وأن يطيعهما إلا من ضرر أو معصية لله ﷻ ؛ فإنه لا يطيعهما . « قال : وكان متكئاً فجلس » تعظيماً لما سيقول قال : « ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » وإنما عظم النبي ﷺ أمرها لكثرة الوقوع فيها وعدم اهتمام الناس بها ، فأرى الناس أن أمرها عظيم ، كان يحدث عن الشرك وعقوق الوالدين وهو متكئ ، ثم جلس اهتماماً بالأمر « ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليتنا سكت » وهذا دليل : على عظم شهادة الزور وقول الزور ، وعلى الإنسان أن يتوب إلى الله ﷻ من هذا ؛ لأنه يتضمن - كما قلت - ظلم نفسه وظلم من شهد له . والله الموفق .

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٣) ، والترمذي في السنن (٢٢٨٢) ، وأحمد في مسنده (٩٩/٣) ، والبيهقي في السنن (٩٤/٦) .

٢٦٤ - باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابة

١٥٥١ - عَنْ أَبِي زَيْدٍ ثَابِتِ بْنِ الصُّحَاكِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه - وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرُّضَوَانِ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ خَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمَلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا ؛ فَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ ؛ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُهُ ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في كتابه تحريم لعن معين من آدمي أو دابة . واللعن معناه : الطرد والإبعاد عن رحمة الله . فإذا قلت : اللهم العن فلاناً ، فإنك تعني أن الله يبعده ويطرده عن رحمته والعياذ بالله . ولهذا كان لعن المعين من كبائر الذنوب ؛ يعني لا يجوز أن تلعن إنساناً بعينه ، فتقول : اللهم العن فلاناً ، أو تقول : لعنة الله عليك ، أو ما أشبه ذلك ، حتى لو كان كافراً وهو حي ، فإنه لا يجوز أن تلعنه ؛ لأن النبي ﷺ لما صار يقول : « اللهم العن فلاناً ، اللهم العن فلاناً » يعينهم ، قال الله له : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ^(٢) [آل عمران : ١٢٨] ومن الناس من تأخذ الغيرة فيلعن الرجل المعين إذا كان كافراً وهذا لا يجوز ؛ لأنك لا تدري لعل الله أن يهديه ، وكم من إنسان كان من أشد الناس عداوة للمسلمين والإسلام هداه الله وصار من خيار عباد الله المؤمنين ! ونضرب لهذا مثلاً : عمر بن الخطاب الرجل الثاني بعد أبي بكر في هذه الأمة ، كان من ألد أعداء الإسلام ففتح الله عليه فأسلم . خالد بن الوليد كان يقاتل المسلمين في أحد وهو من جملة من كر عليهم وداهمهم ، عكرمة ابن أبي جهل ، وغيرهم من كبار الصحابة الذين كانوا من أول ألد أعداء المسلمين فهداهم الله ﷻ . ولهذا قال : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أما إذا مات الإنسان على الكفر وعلمنا أنه مات كافراً ، فلا بأس أن تلعنه ؛ لأنه ميتوس من هدايته - والعياذ بالله - لأنه مات على الكفر . ولكن ما الذي نستفيد من اللعن ؟! ربما يدخل هذا - أعني لعنه - في قول النبي ﷺ : « لا تسبوا الأموات فإنهم أفضلوا إلى ما قدموا » ^(٣) ونحن نقول لهذا الرجل الذي يلعن الكافر أو الذي مات على الكفر ، نقول : إن لعنك إياه لا فائدة منه في الواقع ؛ لأنه قد استحق الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، فليس هو من أهل رحمة الله أبداً ، بل هو من أصحاب النار هم فيها خالدون .

وكذلك أيضاً البهائم ، لا يجوز أن تلعن البهيمة : البعير ، الحمار ، البقرة ، الشاة ، لا يجوز لك أن تلعنه ، وسأيتي - إن شاء الله - في الأحاديث ما يبين حكم ذلك . ثم ذكر المؤلف حديث أبي زيد ثابت رضي الله عنه أن النبي

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٣) ، ومسلم في الإيمان (١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٣٣/٤) . قوله « فهو كما قال » أي أنه يصير يهودياً أو نصرانياً .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في الاعتصام (٣٤٦) ، وأحمد في مسنده (٢٥٥/٢) ، والنسائي في السنن (٢٠٣/٢) ، والبيهقي في السنن (١٩٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٦) ، والنسائي في السنن (٥٣/٤) ، والحاكم في المستدرک (٣٨٥/١) ، والبيهقي في السنن (٧٥/٤) .

ﷺ قال : « من حلف على يمين بجملة غير الإسلام وهو فيها كاذب متعمداً فهو كما قال » مثال ذلك : إذا قال الإنسان : هو يهودي أو نصراني ، إن كان كذا وكذا . وكان الأمر على خلاف ما يقول ؛ فإنه كما قال ، يعني أنه يهودي أو نصراني - نسأل الله العافية - مثال هذا ، أخبرنا رجل جاء إلينا وقال : إنه قدم فلان أمس ، قلنا : ما هو صحيح ، قال هو يهودي إن كان ما قدم . فتبين أنه لم يقدم ، والرجل قال : هو يهودي متعمداً ، فبين الرسول ﷺ أنه كما قال عن نفسه ؛ أي أنه يصير يهودياً أو نصرانياً ، وهذا يدل على أن الحلف بجملة غير الإسلام كاذباً متعمداً من كبائر الذنوب ، فإن كان غير كاذب بأن كان صادقاً ؛ فإنه لا يلحقه هذا الوعيد ، لكننا نقول له : إذا كنت حالفاً فاحلف بالله ، كما قال الرسول ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليسكت » ^(١) وكذلك إن كان قال ذلك غير متعمد بأن يظن أن الأمر كذلك ، وتبين أن الأمر على خلاف ما اعتقد فإنه لا يدخل في هذا الوعيد ، ويستفاد من هذا الحديث : أن الإنسان إذا حلف بالله على شيء معتقداً أنه كما حلف ، ثم تبين أنه على خلاف اعتقاده ؛ فإنه لا إثم عليه ولا كفارة عليه . مثال ذلك : لو قال : متأكد أن فلان سيقدم غداً ، يقول : إني متأكد والله ليقدم غداً ، قال ذلك بناء على ظنه ثم لم يقدم ؛ فلا كفارة عليه ؛ لأنه حلف على ظنه غير متعمد ، ولذلك أقر النبي ﷺ الرجل الذي قال : والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر منه ^(٢) . يعني ما بين لابتي المدينة أهل بيت أفقر منه ، مع أن هذا الرجل لم يأت على كل البيوت يفتش فيها ، لكن حلف على غالب ظنه ، فأقره النبي ﷺ على ذلك . وسيأتي - إن شاء الله - بقية الكلام على الحديث .

والثاني : أن من قتل نفسه بشيء عذب به في جهنم ، يعني إذا قتل الإنسان نفسه بشيء ؛ فإنه يعذب به في جهنم . رجل أكل سمّاً ليموت فمات ؛ فإنه يحثي هذا السم في نار جهنم خالداً مخلداً فيها - والعياذ بالله - صعد إلى السقف فأسقط نفسه حتى هلك ؛ فإنه يعذب بمثل ذلك في جهنم . قتل نفسه بسكين ؛ فإنه يعذب بها في جهنم . قتل نفسه بعصاة ؛ فإنه يعذب بها في جهنم ، قتل نفسه بقنابل ؛ فإنه يعذب بها في جهنم . ومن ذلك فعل بعض الناس الذين يتتحررون ، يلبس الإنسان قنابل يحزمها على بطنه ثم يذهب إلى فتحة من العدو ويطلقها ؛ فيكون هو أول من يموت ، هذا يعتبر قاتلاً لنفسه ويعذب بما قتل به نفسه في جهنم - والعياذ بالله - وهؤلاء يطلقون على أنفسهم الفدائيين ، ولكنهم قتلوا أنفسهم فيعذبون في نار جهنم بما قتلوا به أنفسهم وليسوا بشهداء ؛ ^(٣) لأنهم فعلوا فعلاً محرماً ، والشهيد هو الذي يتقرب إلى الله تعالى بفعل ما أمره الله به لا بفعل ما نهاه عنه ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] ويقول ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٩) ، ومسلم في الإيمان (٣) ، وأحمد في (٥٢٠/٢) ، والدارمي في السنن (١٨٥/٢) ، والبيهقي (٢٨/١٠) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في الصوم (١٩٣٦) ، ومسلم في الصيام (٨١) ، وأحمد في مسنده (٢٠٨/٢) .
(٣) هذا هو رأي فضيلة الشيخ وقد أصدرت المجامع الفقهية في كثير من بلدان العالم الإسلامي وكذلك دار الإفتاء المصرية أن من فعل ذلك إذا كان موقناً أنه سيكبد عدوه خسائر كبيرة فإنه يعد شهيداً أما إذا كان غير متأكد من نتيجة عمله ؛ فإنه يجب عليه عدم المجازفة بحياته لأن حياة الفرد المسلم أعلى من شخص أو شخصين أو ثلاثة من أعداء الإسلام . (الناشر) .

إِلَى الْهَلَكَةِ وَأَخْصِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥] لكننا نقول : هؤلاء الذين نسمع عنهم يفعلون ذلك نرجو ألا يعذبون ؛ لأنهم جاهلون متأولون ، لكنهم ليس لهم أجر وليسوا بشهداء ؛ لأنهم فعلوا ما لم يأذن به الله بل ما نهى الله عنه ، فإن قال قائل : أليس الصحابة يغامرون فيدخلون صف الأعداء من الروم وغير الروم ؟ قلنا : بلى لكن هل هذا قتل لأنفسهم ؟ ليس بقتل ، صحيح أنهم على خطر لكن فيه احتمال النجاة ، ولهذا يدخلون صفوف الروم فيقتلون من شاء الله ثم يرجعون إلى الجيش ، وكذلك ما فعله البراء بن مالك رضي الله عنه في وقعة اليمامة فإنهم لما وصلوا إلى حائط مسيلمة الكذاب ، وجدوا الباب مغلقاً ولم يتمكنوا من دخوله وكان البراء بن مالك رضي الله عنه أخو أنس بن مالك ، كان شجاعاً ، فطلب من الجيش أن يلقوه من وراء الجدار ليفتح لهم الباب ، فألقوه من وراء الجدار من أجل أن يفتح لهم الباب حتى يدخلوا على مسيلمة الكذاب ، وفعلوا فتح لهم الباب ونجا ^(١) ، فلا يمكن أن نستدل بمثل هذه الوقائع على جواز الانتحار الذي يفعله هؤلاء ؟ ولكن نقول : نرجو من الله تعالى أن لا يأخذهم بما صنعوا ؛ لأنهم صنعوا ذلك عن جهل وحسن نية ، فمن قتل نفسه بشيء ؛ فإنه يعذب به في نار جهنم ، واعلم أنه قد ورد فيمن قتل نفسه بشيء أنه يعذب به في جهنم خالدًا مخلدًا أبداً ، فذكر التأيد ، فهل يعني ذلك أنه كافر لأنه لا يستحق الخلود المؤبد إلا الكفار ؟ الجواب : لا ليس بكافر ، بل يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدعى له بالمغفرة . كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي قتل نفسه بمشاقص ، فقدم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، لكنه لم يصل عليه ، وقال : « صلوا عليه » ^(٢) فصلوا عليه بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أنه ليس بكافر ، وحيث لا يستحق الخلود المؤبد ، فما ذكر في الحديث من ذكر التأيد ، إن كانت اللفظة محفوظة عن النبي صلى الله عليه وسلم فالمراد شدة التهديد والتنفير من هذا العمل ، وإلا فليس بكافر .

الجملة الثالثة : أن لعن المؤمن كقتله ، يعني إذا قلت للمؤمن : لعنك الله فكأنما قتلت ؛ لأن اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، ومن طُرد وأبعد عن رحمة الله صار كالمقتول الذي عُدِمَ الحياة الدنيا ، فإن ذلك المطرود المبعد عن رحمة الله حُرِمَ حياة الآخرة . والقتل يحرم به المقتول من الحياة الدنيا .

واعلم أن لعن المؤمن من كبائر الذنوب ، وأنه لا يحل ، وأن من لعن مؤمناً ؛ فإن اللعنة تذهب إلى الملعون إن كان أهلاً لها فقد استحقها ، وإن لم يكن أهلاً لها رجعت إلى قائلها - والعياذ بالله - فصار هو الملعون ، المطرود عن رحمة الله . والله الموفق .

سؤال وجوابه : الإضراب عن الطعام حتى يموت هذا من قتل النفس .

وقد سبق الكلام على أول حديث أبي زيد ثابت بن الضحاك رضي الله عنه وبقي فيه جملة تركناها ، وهي قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا نذر على ابن آدم فيما لا يملك » يعني الإنسان ليس عليه نذر فيما لا يملك ، فلو نذر قال : لله علي نذر أن أتصدق بمال فلان - فهذا لغو ولا يتعقد النذر ؛ لأن مال فلان ليس ملكاً له ،

(١) انظر القصة في تاريخ الطبري (٣ / ٣٠٥) .

(٢) انظر الحديث في الترمذي في السنن (١٠٧٠) ، وأحمد في مسنده (٤٣١ / ٤) ، والبيهقي في السنن (٦ / ٧٢ ، ٧٣) .

وليعلم أن النذر مكروه ، نهى عنه النبي ﷺ نهى عن النذر . وقال : « إنه لا يأتي بخير ولا يرد قضاء وإنما يستخرج به من البخيل » ^(١) . وكثير من الناس يكون عنده مريض أو يضيع له مال فينذر إن شفى الله مريضه أن يصوم أو يحج أو يتصدق أو يعتمر أو يفعل شيئاً من الطاعات ، ثم إذا قدر الله الشفاء ذهب يسأل العلماء يريد أن يتخلص مما نذر ، وربما يكسل ويترك ما نذر ، وهذا خطر ، خطر عظيم ، إذا نذرت لله تعالى شيئاً على شيء يحققه الله لك ، ثم تحقق فلم توف فإن هذا خطر عظيم يؤكداه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٢) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا ﴿ - فلم يتصدقوا - ﴾ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ - فلم يكونوا من الصالحين - ﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿ [التوبة : ٧٥ ، ٧٧]

يعني ألقى الله في قلوبهم النفاق إلى الموت - والعياذ بالله - وهذا وعيد شديد ولذلك نهى النبي ﷺ عن النذر ؛ لأن الإنسان يوجب على نفسه ما هو في غنى عنه ، وما هو في سعة منه ، وإذا أردت أن يشفى الله مريضك أو أن يرد مالك ، فاسأل الله : اللهم اشف مريضتي ، اللهم رد علي مالي . ليس هناك طريق - يعني لم تنسد الطرق - إلا بالنذر ، وعلى كل حال قال أهل العلم - رحمهم الله - : إن النذر أقسام .

النذر الأول : نذر الطاعة أن ينذر الإنسان أن يصلي أو يصوم ، أو يتصدق ، أو يحج ، أو يعتمر ؛ فهذا يجب الوفاء به لقول النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » ^(٣) وسواء كان معلق على شرط أو غير معلق .

الثاني : نذر المعصية فهذا لا يجوز الوفاء به ، مثل : أن ينذر الإنسان أن لا يكلم فلاناً وفلاناً من المؤمنين الذين لا يهجرون لكن صارت بينه وبينه عداوة يعني سوء تفاهم ، قال : لله علي نذر ما أكلم فلاناً ، أو لله علي نذر أن لا أزور أخي ، أو قريبي أو ما أشبه ذلك ، هذه معصية حرام ، ولا يجوز الوفاء بهذا النذر ، لقول النبي ﷺ : « من نذر أن يعصي الله فلا يعصه » ولكن ماذا يكون ، يجب عليه أن يكفر كفارة اليمين .

الثالث : ما يسمى عند العلماء بنذر اللجاج والغضب : وهو الذي يقصد به الإنسان المنع أو الحث أو التصديق أو التكذيب ، مثل أن يقول : لله علي نذر أن لا أفعل كذا وكذا يحملها على ذلك أنه يريد الامتناع ما أراد النذر لكن أراد معنى النذر ، فهذا يخير بين فعله إن كان فعلاً ، أو تركه إن كان تركاً ، وبين كفارة اليمين ، مثاله : أن يقول : لله علي نذر لا ألبس هذا الثوب ، نقول : أنت الآن بالخيار إن شئت تلبسه وكفر كفارة اليمين ، وإن شئت لا تلبسه ولا كفارة عليك .

القسم الرابع : النذر المطلق : يعني ليس في شيء محدد ^(٤) ، قال الإنسان : لله علي نذر فقط فهذا عليه كفارة يمين ، لقول النبي ﷺ : « كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين » ^(٥) .

(١) انظر ذلك في أحمد في مسنده (٦١/٢ ، ٨٦) ، والبيهقي في السنن (٧٧/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٠) ، وأبو داود في السنن (٣٢٨٩) ، والنسائي في السنن (١٧/٧) ، وأحمد في مسنده (٤١/٦) .

(٣) انظر في ذلك الوسيط (٢١٠/٧) ، روضة الطالبين (١٧/١١) ، المغني (٧١/٨) ، الهداية (٦٩٨/٢) .

(٤) انظر الحديث بنصه في أبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٢٢) ، وابن ماجه في السنن (٢١٢٨) .

والحاصل : أنه لا ينبغي للإنسان أن ينذر ، الخير يأتي بدون نذر ، والقضاء لا يرد بالنذر ، كما قال النبي ﷺ : « أنه لا يأتي بخير ولا يرد قضاء » ^(١) وكم من أناس الآن يسألون يقول مثلاً بعضهم : نذرت إن شفى الله مريضى لأصوم شهرين متتابعين . نقول من حثك على هذا إن شفى الله مريضه لزمه أن يصوم شهرين متتابعين . بعض الناس يقول : نذرت إن شفى الله مريضى أن أذبح سبعا من الإبل - أعوذ بالله - إن شفى الله مريضه لزمه أن يذبح سبعا من الإبل ويتصدق بها ولا يأكل منها شيئا . نذر إن رد الله غائبه فإنه يذبح شاة ما الداعي ؟ لكن لو ردَّ الله غائبه وجب عليه أن يذبح شاة ويتصدق بها ولا يأكل منها شيئا . فاترك النذر لكن إذا نذرت طاعة وجب عليك أن تفي بما نذرت ، والله الموفق .

* * *

١٥٥٢ - وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « لا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَانًا » ^(٢) رواه مسلم .

١٥٥٣ - وعن أبي الدرداء ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ ، وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٣) رواه مسلم .

١٥٥٤ - وعن سُمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَلْعَنُوا بَلْعَةً اللَّهِ ، وَلَا يَعْصِيهِ ، وَلَا بِالنَّارِ » ^(٤) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٥٥٥ - وعن ابن مسعود ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ ، وَلَا اللَّعَّانِ ، وَلَا الْفَاحِشِ ، وَلَا الْبِذِّيِّ » ^(٥) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٥٥٦ - وعن أبي الدرداء ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا ، صَعِدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتُعَلَّقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا ، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَتُعَلَّقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا ، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاعًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعَنَ ، فَإِنْ كَانَ أَهْلًا لِيَذْلِكَ ، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا » ^(٦) رواه أبو داود .

١٥٥٧ - وعن عمران بن الحصين ؓ قال : سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَشْفَارِهِ ، وَامْرَأَةً مِنْ

(١) انظر الحديث في مسلم في النذور (٦/٢) ، والنسائي في السنن (١٦/٧) ، وأحمد في مسنده (٦١/٢) ، والبيهقي في السنن (٧٧/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨٤) ، والبيهقي في السنن (١٩٣/١٠) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨٥) ، وأبو داود في البر والصلة (٤٩٠٧) .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٦) ، وأحمد في مسنده (١٥/٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٧٦) .

قوله « لا تلعنوا لعنة الله » أي لا يلعن بعضكم بعضا بقول : لعنة الله عليك ، مثلاً ، قوله « ولا بغضبه » وذلك بأن يقال : غضب الله عليك ، قوله « ولا بالنار » وذلك بأن يقال : أدخلك الله النار .

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٧) ، والحاكم في المستدرک (١٢/١) ، والبيهقي في السنن (١٩٣/١٠) . قوله « الطعان » أي الوقاع في أعراض الناس بالذم والغيبة .

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٥) ، قوله « مساعاً » أي طريقاً أو مدخلاً .

الأنصارِ على ناقةٍ ، فَصَجِرَتْ ، فَلَعَنَتْهَا ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا ؛ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ » قَالَ عِمْرَانُ : فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْزُضُ لَهَا أَحَدٌ ^(١) . رواه مسلم .
 ١٥٥٨ - وعن أبي بَرْزَةَ نُضْلَةُ بْنُ عُبَيْدٍ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ ، إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَضَاقَقَ بِهِمُ الْجَبَلُ ، فَقَالَتْ : حَلْ ، اللَّهُمَّ الْعَنْهَا . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ » ^(٢) . رواه مسلم .

قوله : « حَلْ » بفتح الحاء المهملة ، وإسكان اللام ، وهي كَلِمَةٌ لِرَجْعِ الْإِبِلِ .
 وأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ قَدْ يُسْتَشْكَلُ مَعْنَاهُ ، وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ ، بَلِ الْمُرَادُ النَّهْيُ أَنْ تُصَاحِبَهُمْ تِلْكَ النَّاقَةُ ، وَلَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ يَبِيعَهَا وَذَبْحِهَا وَرُكُوبِهَا فِي غَيْرِ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، بَلِ كُلُّ ذَلِكَ وَمَا سِوَاهُ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ جَائِزٌ لَا مَنَعَ مِنْهُ ، إِلَّا مِنْ مُصَاحَبَتِهِ ﷺ بِهَا ؛ لِأَنَّ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلُّهَا كَانَتْ جَائِزَةً فَمُنِعَ بَقِضُ مِنْهَا ، فَبَقِيَ الْبَاقِي عَلَى مَا كَانَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

هذه أحاديث ساقها النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْهَا حَدِيثُ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَا تَلْعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا بِغَضَبِهِ ، وَلَا بِالنَّارِ » . يعني لا يلعن بعضكم بعضًا بلعنة الله ، فيقول لصاحبه : لعنك الله ، ولا بغضبه ، فيقول : غضب الله عليك ، ولا بالنار ، فيقول : أدخلك الله النار ، كل هذا حذر منه النبي ﷺ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُقَالُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ .

وكذلك أيضًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ ، وَلَا بِاللَّعَانِ ، وَلَا بِالْفَاحِشِ ، وَلَا بِالْبَذِي » وهذا يدل على أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَقْصُ فِي الْإِيمَانِ ، وَأَنَّهَا تَسْلُبُ عَنِ الْمُؤْمِنِ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَكَمَالِ الْإِيمَانِ ، فَلَا يَكُونُ طَعَانًا يَطْعَنُ النَّاسَ بِأَسْمَائِهِمْ أَوْ بِأَعْرَاضِهِمْ أَوْ بِشَكْلِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ أَوْ بِأَمَالِهِمْ . وَلَا بِاللَّعَانِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ هُمْ إِلَّا اللَّعْنَةُ . كُلُّ كَلِمَةٍ لَعْنَتِكَ اللَّهُ ، كُلُّ كَذَا لَعْنَتِكَ اللَّهُ ، لِمَاذَا تَقُولُ كَذَا ؟ أَوْ يَقُولُ لِأَوْلَادِهِ : لَعْنَتُكُمْ اللَّهُ هَاتُوا هَذَا ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، فَاَلْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِاللَّعَانِ ، وَلَا بِالْفَاحِشِ الَّذِي يَفْحَشُ فِي كَلَامِهِ بِصَرَخٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَلَا بِالْبَذِي الَّذِي يَعْتَدِي عَلَى غَيْرِهِ ، فَاَلْمُؤْمِنُ مُؤْمِنٌ مُسَالِمٌ لَيْسَ عِنْدَهُ فَحْشٌ فِي قَوْلِهِ وَلَا فِي فِعْلِهِ وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ .

وكذلك حديث اللعنة : أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَعَنَ شَخْصًا أَوْ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ ، صَعَدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ فَتَغْلِقُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ الْأُولَى ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتَغْلِقُ أَبْوَابَ الْأَرْضِ دُونَهَا ، ثُمَّ تَذْهَبُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الَّذِي لَعَنَ ، فَإِنْ كَانَ أَهْلًا لَهَا فَقَدْ اسْتَحَقَّهَا ، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَاتِلِهَا . وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى مَنْ لَعَنَ مِنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْعَنْ فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَتَجَوَّلُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْيَمِينِ وَالشِّمَالِ ،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨٠) ، وأحمد في مسنده (٣٤١/٤) ، والطبراني في الكبير (٩٠/١٨) .
 (٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٧) والحاكم في المستدرک (١٢/١) والبيهقي في السنن (١٩٣/١٠)
 قوله « الطعان » أي الوقاع في أعراض الناس بالذم والغيبة .

ثم ترجع في النهاية إلى قائلها إذا لم يكن الملعون أهلاً لها .

ثم ذكر حديث عمران بن حصين : أن امرأة كانت على بعير لها فضجرت منها وتعبت وسأمت ولعنتها ، قالت : لعنك الله ، فسمع ذلك النبي ﷺ ، فأمر أن يأخذ ما عليها من الرحل والمتاع وتُعرى - يعني البعير - ثم تصرف ، قال : فلقد رأيتهما في الناس لا يتعرض لها أحد ؛ لأن النبي ﷺ أمر أن تصرف ، وهذا من باب التعزير : تعزير هذه المرأة أن تلعن دابة لا تستحق اللعن ، ولهذا قال : لا تصحبنا دابة ملعونة ؛ لأن هذه المرأة لعنتها ، والملعون لا ينبغي أن يُستعمل ، فلذلك نهى النبي ﷺ عنها وتركها ، فيكون هذا تعزيراً للمرأة التي لعنت هذه الدابة وهي لا تستحق - والله الموفق .

* * *

٢٦٥ - باب جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [مرد : ٨] وقال تعالى : ﴿ فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١) [الأعراف : ٤٤] .

وَبَيَّنْتُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ » (٢) وَأَنَّهُ قَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا » (٣) وَأَنَّهُ لَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ (٤) ، وَأَنَّهُ قَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ » (٥) أَيْ : خَدُودَهَا ، وَأَنَّهُ قَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ » (٦) وَأَنَّهُ قَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ » (٧) « وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ » (٨) وَأَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحِدًا ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (٩) وَأَنَّهُ قَالَ : « اللَّهُمَّ الْعَن رِغْلًا ، وَذَكَوَانًا ، وَغُصْبَةً ، عَصَا اللَّهِ وَرَسُولَهُ » (١٠) وَهَذِهِ ثَلَاثُ قَبَائِلَ مِنَ الْعَرَبِ وَأَنَّهُ قَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » (١١) وَأَنَّهُ « لَعَنَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، وَالتَّشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ » (١٢) . وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فِي الصَّحِيحِ ، بَعْضُهَا فِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمَ ، وَبَعْضُهَا فِي أَحَدِهِمَا ، وَأَمَّا قَصْدُ الْإِخْتِصَارِ بِالإِشَارَةِ إِلَيْهَا ، وَسَأَذْكُرُ مُعْظَمَهَا فِي أَبْوَابِهَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) قوله : ﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ ﴾ أي الخروج من رحمة الله . (٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٣/١) ، والطبراني في الكبير (١٨٤/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٨/٤) . (٥) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٣ ، ٤٥) .

(٦) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٩٩) .

(٧) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٤) ، وأحمد في مسنده (١٠٨/١) ، والبيهقي في السنن (٩٩/٦) .

(٨) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٣) ، وأحمد في مسنده (١٠٨/١) ، والحاكم في المستدرک (١٥٣/٤) .

(٩) أخرجه مسلم في الحج (٤٦٣) ، وأحمد في مسنده (٥٢٦/٢) .

(١٠) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦/٢) . (١١) أخرجه البخاري في المغازي (١٣٩٠) .

(١٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٨٦) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته تحريم ذكر المعين وأنه لا يجوز أن تلعن شخصاً معيناً ولو كان كافراً مادام حيّاً ؛ لأنك لا تدري ، فلعن الله أن يهديه عليه فيعود إلى الإسلام إن كان مرتدّاً أو يسلم إن كان كافراً أصليّاً . ثم ذكر بعد ذلك رحمته بآيات في جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين ؛ لأن هناك فرقاً بين المعين وبين العام فيجوز أن تلعن أصحاب المعاصي على سبيل العموم إذا كان ذلك لا يخص شخصاً بعينه ، ثم استدل بآيات وأحاديث منها قول الله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وقوله : ﴿ قَدْ أَفْضَلْنَا مَوْدِنًا بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وعلى هذا فيجوز أن تقول : اللهم العن الظالمين على سبيل العموم ، ما هو شخص واحد معين ، فيشمل كل ظالم ، وكذلك ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن الواصلة والمستوصلة وهذا في النساء ، الواصلة التي تصل الشعر بشعر آخر حتى يُرى شعرها وكأنه طويل ، أو كأنه ثخين يعني منتشر . والمستوصلة التي تطلب من يصل هذا ، فهاتان امرأتان ملعونتان على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم الواصلة والمستوصلة ، لكن لو رأيت امرأة معينة تصل امرأة أخرى وامرأة معينة تطلب من يصل شعر رأسها فلا يجوز أن تلعن هذه المعينة لا يجوز ، مثل أننا نشهد لكل من قتل شهيداً أنه في الجنة كذا عموماً لكن لو قتل الإنسان في المعركة في جهاد في سبيل الله لا نقول هذا الرجل شهيد بعلم ، أو نشهد أنه في الجنة ؛ لأن الشهادة في الجنة لها شأن آخر ، وكذلك لعن المعين له شأن آخر وضرب المؤلف رحمته أمثلة لذلك ، منها : لعن الله من غير منار الأرض - يعني حدودها - وذلك في الجيران إذا كان الإنسان - مثلاً - له جار في الأرض فغير مراسم الحدود أدخل شيئاً من أرض جاره إلى أرضه ، فهذا ملعون على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وهو مع كونه ملعوناً - والعياذ بالله - سوف يكلف يوم القيامة بأن يحمل ما أدخل من أرض جاره يحمله على عنقه من سبع أراضين ، قال صلى الله عليه وسلم : « من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه يوم القيامة من سبع أراضين » ^(١) . نسأل الله العافية ونعوذ بالله من الخزي والعار ، يأتي يوم القيامة بين العالم يحمل ما أدخله من أراضيه غيره من سبع أراضين .

وكذلك أيضاً لعن النبي صلى الله عليه وسلم من لعن والديه ، إذا قال إنسان لوالده ، أو لأمه ، أو لأبيه : لعنك الله ، أو عليك لعنة الله ؛ فإنه مستحق للعنة الله ؛ لأن الوالدين حقهما البر والإحسان ولين القول فإذا لعنهما - والعياذ بالله - استحق اللعنة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لعن الله من لعن والديه » فيجوز أن تقول : اللهم العن من لعن والديه ، وكذلك المصورون ، فيمكن أن تقول : اللهم العن كل مصور ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم : لعن المصورين ، وهكذا الأحاديث التي ذكرها المؤلف . فيفرق بين العام والخاص ، العام لا يخص أحداً بعينه ، والخاص هو أن يخص أحداً بعينه ، فتخصيص أحد بعينه باللعن هذا حرام ولا يجوز ، أما على سبيل العموم فلا بأس . وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله الواصلة والمستوصلة » وأنه قال : « لعن الله آكل الربا » ، وأنه لعن المصورين .

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٣٧) ، وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٩٨/٦) .

هذه الأحاديث التي عقدها المؤلف رحمته الله لبيان جواز لعن أهل المعاصي غير المعينين ، وقد سبق في الباب الذي قبله أنه لا يجوز لعن المعين ولو كان كافراً ، أما غير المعين بأن يلعن الإنسان من اتصف بهذه الصفة ، فهذا لا بأس به ؛ فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن الواصلة والمستوصلة ، الواصلة : هي التي تصل الشعر ، والمستوصلة : هي التي تطلب من يصله ، يعني بأن المرأة يكون شعر رأسها قصيراً وشعرها قليلاً ، فتضيف إلى رأسها شيئاً من الشعر لأجل أن يكون طويلاً وكثيفاً عندما يراه الناس ، فلعن النبي صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك وبعض الأحاديث حتى ولو كان شعرها قليلاً جداً ؛ فإنه لا يجوز لها ذلك ، ومن هذا ما يسمى بالباروكة فإن بعض علمائنا المحققين قالوا : إن لبس الباروكة من الوصل ، وأن التي تلبس الباروكة ولو للتجمل ملعونة - والعياذ بالله - وهل يلحق بذلك ما يسمى بالعدسات الملونة التي تلبسها بعض النساء ربما يقال : إنه يلحق بذلك ؛ لأن المرأة تضع شيئاً يجمل عينها ، يجعل عينها كأنها عين إنسانة أخرى ، إما حمراء أو خضراء ، حتى سمعت بعضهم يقولون : إنهم يجعلون عدسات لونها أخضر وبعضها أزرق وما أشبه ذلك . فالاحتياط أن يقال : إنها تلحق بذلك لأنه لا فرق بينها وبين الشعر ، فإن قال قائل : هذه مثل الكحل لا تثبت . قلنا : وكذلك وصل الشعر لا يثبت . ولهذا أخشى أن تكون هذه العدسات الملونة من جنس الوصل . ثم إنه ثبت من الناحية الطبية أنها مضرة بالعين ، وإن كان ضررها لا يرى على المدى القصير لكن يرى على المدى الطويل .

قال : وثبت أنه « لعن أكل الربا » يعني وموكله . لعن الرسول صلى الله عليه وسلم في الربا خمسة : آكله وهو الذي يأخذ الربا ، وموكله وهو الذي يعطي الربا ، وشاهديه وهما اللذان يشهدان به ، وكاتبه الذي يكتب بين المرابين . كل هؤلاء ملعونين على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن لا يجوز إذا رأيت شخصاً يبيع بالربا لا يجوز أن تقول : لعنك الله . بل تقول على سبيل العموم : لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه . لأن هناك فرق بين التعيين وبين التعميم . فالتعميم لا بأس به ، لكن التخصيص لا يجوز .

وكذلك ثبت عنه أنه لعن المصورين ، لكن ليس كل مصور ؛ بل المراد من صور ما به روح إذا صور الإنسان ما فيه روح كالآدمي وقرود وأسد وذئب وحشرات وما أشبه ذلك ^(١) . إذا صورها ؛ فإنه حرام عليه لا يجوز ، بل هو ملعون على لسان النبي صلى الله عليه وسلم فلك أن تقول : اللهم العن المصورين . لكن لا تقل : العن فلاناً ولو كان يصور ؛ لأنه مخصوص ، فالتعيين لا يجوز . ثم إن الصور التي تحرم هي الصورة التي مثل التمثال يعني يصنع إنساناً من العجين أو من الجبس أو من الجص أو غيرها من المواد ، يصنع شيئاً على صورة إنسان أو حيوان ، فهذا حرام ، وأما الأشجار وشبهها ؛ فإنه لا بأس به على القول الراجح الذي عليه جمهور العلماء . وأما ما يصنعه الإنسان فلا بأس به قطعاً ، مثل : أن يصور سيارة أو قطار أو ما أشبه ذلك . واختلف العلماء - رحمهم الله - في التصوير الرقم يعني التصوير باللون على ورقة أو على خرقة أو ما أشبه ذلك ، من العلماء من قال : لا بأس به ، واحتجوا بحديث

(١) ذكر جمهور من الصحابة والتابعين أن اتخاذ صورة الحيوان في موضع الامتحان والزيارة ليس حراماً وذلك كالصورة في بساط يذاس ومخدة ووسادة وغيرها (فقه الكتاب والسنة ٣١٧/٥) .

زيد بن خالد الجهني ، وهو أن الرسول ﷺ قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة إلا رقماً في ثوب » ^(١) . فقالوا : إلا رقماً في ثوب ، هذه الصورة التي ترسم باليد على ورقة أو على ثوب ، وما أشبه ذلك ، لكن الصحيح أنه لا يجوز حتى الرقم في الثوب أو في الورقة ، لا يجوز أن تصور صورة بيدك . وأما الصورة بالآلة الفوتوغرافية الفورية ، فهذه ليست من التصوير في شيء ، ولا تدخل في قول الرسول ﷺ : « كل مصور في النار » ^(٢) ؛ لأنك لم تصور في الواقع ، فأنت لم تخط الوجه ولا العين ولا الأنف ولا الفم ، إنما سلطت ضوءاً معيناً إذا قابله جسم انطبع في الورق دون أن ترسم العين والأنف والشفاه وما أشبه هذا ، فليس هذا بتصوير وليس هذا بتخصيص للمصور بالآلة . ويدل على ذلك دلالة واضحة يتبين بها الأمر أنك لو كتبت رسالة إلى إنسان بقلمك بيدك ثم أدخلتها في الآلة المصورة وخرجت الصورة ، هل هي صورة الذي حرك الآلة أو هي صورة الكتاب الذي كتبه الأول ؟ . الجواب الثاني بلا شك ، ولهذا يمكن أن نحرك هذه الآلة آلة التصوير ويمكن أن يحركها رجل أعمى فليس هذا من فعله ، إنما يقال هذا الذي صور صورة فوتوغرافية إن كانت لمقصد حرام صارت حراماً من باب تحريم الوسائل ، وإن كانت لمقصد جائز فهي جائزة .

ولا يقال إن المصور في النار ، ولذلك يجب أن يفرق الشخص بين التصوير وبين استعمال التصوير ، كما فرق بين ذلك أهل العلم ، ففي عبارة زاد المستقنع ، كتاب الفقه المعروف ، قال : يحرم التصوير واستعماله . ففرق بين التصوير واستعماله . فنحن نقول : هذه الصورة الفوتوغرافية لا تدخل في لفظ حديث التصوير ، لكن إذا صورها الإنسان ليستخدمها على وجه محرم صارت حراماً من باب تحريم الوسائل . هؤلاء ثلاثة لعنهم الرسول ﷺ . الأول : الواسلة والمستوصلة ، والثاني : آكل الربا وموكله وشاهده وكتابه ، والثالث : المصورون .

وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : « لعن الله من غيّر منار الأرض » أي : حُدودها ، وأنه قال : « لعن الله السارق يسرق البيضة » وأنه قال : « لعن الله من لعن والديه » .

فإن النبي ﷺ : لعن من غير منار الأرض - يعني حدودها - مثل أن يكون الإنسان له جار فيأتي الإنسان فيدخل من أرض جاره على أرضه فيوسع أرضه ويضيّق أرض جاره ، فهذا ملعون لعنه النبي ﷺ ، وقد ثبت عنه ﷺ : « أن من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً ؛ طوقه الله به يوم القيامة من سبع أراضين » وإذا كان هذا فيمن غير حدود الأرض يعني المراسيم . فكيف بمن أخذ الأرض كلها واجتاحها - والعياذ بالله - فهو أولى باللعن والطرْد عن رحمة الله ، كما يوجد أناس يعتدون على أراضي غيرهم ، يأخذونها بالباطل ويدعون أنها لهم ، وربما يأتون بشهود زور يشهدون لهم ، فيحكم لهم بذلك فيدخلون في اللعن ويوم القيامة يأتون بها مطوقين بها في أعناقهم - نسأل الله العافية - أمام عباد الله .

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٧) ، ومسلم في اللباس (٨٥) ، ومالك في الموطأ (الاستئذان ١٨) .
(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٩٩) ، وأحمد في مسنده (٣٠٨/١) .

ومن ذلك : « أن النبي ﷺ لعن السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » والسارق هو الذي يأخذ المال بخفية من حرز مثله . مثل أن يأتي بالليل أو في غفلة الناس فيفتح الأبواب ويسرق ، هذا السارق إذا سرق نصاباً وهو ربع دينار أو ما يساويه من الدراهم أو المتاع فإنها تقطع يده اليمنى من مفصل الكف ^(١) .

لقول الله تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] ولا فرق بين أن يكون السارق شريفاً أو وضيعاً أو ذكراً أو أنثى ؛ لأن النبي ﷺ أمر بقطع يد المرأة المخزومية التي كانت تستعير المتاع فتجحد ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها . فأهم قريناً ذلك وطلبوا من يشفع لها إلى الرسول ﷺ فطلبوا من أسامة بن زيد أن يشفع برفع العقوبة عنها فاختطب النبي ﷺ وقال : « إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ^(٢) فأقسم - عليه الصلاة والسلام - أنه لو سرقت ابنته فاطمة أشرف النساء نسباً لقطع يدها ، ولكن هذا الحديث الذي أشار إليه النووي رحمه الله في رياض الصالحين يقول : يسرق البيضة ، والبيضة لا تبلغ نصاب السرقة ؛ لأن نصاب السرقة ربع دينار ، فكيف قال : « يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » قال بعض العلماء : إن المراد بالبيضة هنا بيضة الرأس الذي يجعلها الإنسان عند القتال على رأسه تقيه السهام ، وهي ثمينة تساوي ربع دينار أو أكثر ، والمراد بالحبل : حبل السفن الذي تربط به في المرسى حتى لا تأخذها الأمواج وهو أيضاً ذو قيمة ^(٣) .

وقال بعض العلماء : المراد بالبيضة بيضة الدجاجة ، لأن النبي ﷺ أطلقها ، والبيضة عند الإطلاق لا يفهم منها إلا بيضة الدجاجة . والحبل هو الحبل الذي يربط به الخطب ، وما أشبه ذلك . ولكن الرسول ﷺ قال : تقطع يده لأنه إذا اعتاد سرقة الصغير تجرأ على سرقة الغالي والثمن ، فقطعت يده . وهذا أقرب إلى الصواب : أن السارق - والعياذ بالله - إذا سرق الشيء اليسير تجرأ فسرق الشيء الكبير فتقطع يده ^(٤) .

الثالث : قال : إن النبي ﷺ لعن من لعن والديه ، سواء كانت الأم أو الأب . يقول لأبيه أو لأمه : لعنة الله عليك ، ولكن الصحابة قالوا : يا رسول الله أيلعن الرجل والديه ؟! ، هذا أمر لا يمكن ، قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » ^(٥) . يعني يتنازع اثنان ، فيقول

(١) ولا تجوز الزيادة عن مفصل الكف وأما زيادة ففيها حكومة وأرشد (انظر المجموع ٩٦/٢٠ ، ٣) شرح فتح القدير (٣٩٣/٥ ، ٣٩٥) فقه الكتاب والسنة (٢١٣٠/٤ ، ٢١٣٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (١٣٠) ، وأحمد في مسنده (٤٨٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٣٢/٨) . (٣) وهذا هو قول الأعمش (انظر نيل الأوطار (٢٣١/٧) ، والمغني (٢٤٢/٨) .

(٤) هذا هو قول الحسن ، وداود الظاهري ، والخوارج ، فقد ذهبوا إلى وجوب القطع بإطلاق ، سواء كان المسروق قليلاً أو كثيراً (انظر المحلى ٣٥١/١١) . (٥) انظر الحديث في أحمد في مسنده (٢١٧/١) .

أحدهما للآخر : لعن الله والديه ، فيقول الثاني : بل أنت لعن الله والديك ، فلما كان هو السبب في أن يلعن الآخر والديه ، أعطى حكم من لعن والديه مباشرة ، فهذان الشخصان لعنهما الرسول ﷺ ولكن هل يمكن أن تأتي لشخص معين غير حدود الأرض تقول لعنك الله ؟ الجواب : لا ، لا يجوز أن تلعه وهو معين ، أو سمعت إنساناً يلعن والديه تقول : لعنك الله ؛ لا يصح ، هذا حرام ، لكن تقول له : اتق الله ، فإن الرسول ﷺ لعن من غير منار الأرض ، وتقول للثاني السارق : اتق الله ، فإن الرسول ﷺ لعن السارق يسرق البيضة ويسرق الحبل ، وتقول للثالث : اتق الله ، لا تلعن والديك ، ولا تكن سبباً في لعنهما ؛ فإن النبي ﷺ لعن من لعن والديه . أما أن تنص عليه فتقول : لعنك الله ، أو أنت ملعون ؛ فهذا حرام ولا يجوز ؛ لأنه فرق بين العام وبين الخاص ، والله الموفق .

« وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ » وأنه قال : « مَنْ أَخَذَتْ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحَدِّثًا ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وأنه قال : « اللَّهُمَّ الْعَن رِغْلًا ، وَذَكَوَانًا وَغُصْبَةً ، عَصَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » وَهَذِهِ ثَلَاثُ قِبَائِلَ مِنَ الْعَرَبِ

الشرح

هؤلاء ثلاثة أنواع ممن يجوز لعنهم على سبيل العموم ، وقد سبق أنه لا يجوز لعن المعين ولو كان كافراً ؛ لأنه لا يجوز أن تقول : اللهم العن فلاناً ، وإن كان كافراً ، لكن على العموم وردت أحاديث في أصناف متعددة سبق منها ما سبق ، ويلحق منها ما يلحق إن شاء الله . ومن ذلك قول النبي ﷺ : « لعن الله من ذبح لغير الله » وذلك أن الذبح لغير الله شرك ؛ لأنه عبادة والعبادة إذا صرفها الإنسان لغير الله كان مشركاً . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَرُكَّيْتُ وَنَحَايْتُ وَمَمَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ^(١) [الأنعام : ١٦٢] وقال تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] فأمر بالصلاة وأمر بالنحر وأن ذلك لله ﷻ ، فكما أن من صلى لغير الله فهو مشرك ، فمن ذبح لغير الله فهو مشرك ، وهذا إذا وقع الذبح عبادة وتقرباً وتعظيماً أما إذا وقع الذبح لغير الله على سبيل الإكرام ، كإكرام الضيف ؛ مثلاً ، لو نزل بك ضيف فذبحت له ذبيحة من أجل أن تقدمها له ليأكلها فلا بأس ، بل هذا مما يؤمر به ، لقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » ^(٢) . وإذا كان من إكرام الضيف أن تذبح له ذبيحة إكراماً لقدمه ، فهذا مما يؤمر به ، وتارة يذبح لغير الله يعني لقصد الأكل ، إنسان يريد أن يأكل لحمًا فذبح ذبيحة يريد بها الأكل ، هذا أيضاً ليس بشرك ، هذا أمر عادي ، يأكل الإنسان طعاماً ، لكن الشرك إذا ذبحه تعبدًا وتقرباً وتعظيماً . مثل ما يفعل بعض الناس للملوكهم أو رؤسائهم أو علمائهم ، إذا أقبل ذبحوا الذبيحة بوجهه إكرامًا وتعظيمًا . هذا شرك أكبر مخرج من الملة

(١) قوله : ﴿ وَرُكَّيْتُ ﴾ أي عبادتي كلها ، وقيل : المراد به ذبائح الحج والعمرة . وهو اختيار ابن جرير الطبري .

(٢) سبق تخريجه .

وهذا مع كونه شركاً حرم الله على فاعله الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار^(١) ، وهو أيضاً ملعون فاعله ، كما قال النبي ﷺ : « لعن الله من ذبح لغير الله » .

ومن ذلك أيضاً : ما ذكره بقوله : « من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » من أحدث فيها - أي في المدينة - « حدثاً أو آوى محدثاً » والحدث هنا يراد به شيطان : الأول : البدعة ، فمن ابتدع فيها بدعة فقد أحدث فيها ، لقول النبي ﷺ : « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »^(٢) . « فمن أحدث فيها حدثاً » أي ابتدع في دين الله ما لم يشرعه الله في المدينة ، « فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » يعني استحق أن يلعنه كل لاعن ، والعياذ بالله ؛ لأن المدينة مدينة السنة ، مدينة النبوة ، فكيف يحدث فيها حدث مضاد لسنة الرسول ﷺ .

والنوع الثاني من الحدث : الفتنة : أن يحدث فيها فتنة بين المسلمين سواء أدت إلى إراقة الدماء أو إلى ما دون ذلك من العداوة والبغضاء والتشتت . فإن من أحدث هذا الحدث فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . أما من أحدث معصية ، عصى الله فيها في المدينة ؛ فإنه لا ينطبق عليه هذا الوعيد ، بل يقال : إن السيئة في المدينة أعظم من السيئة فيما دونها ، ولكن صاحبها لا يستحق اللعن ، الذي يستحق اللعن هو الذي أحدث فيها واحداً من أمرين : إما بدعة ، وإما فتنة . هذا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

الثالث : « اللهم العن رعلاً وذكوان ، وعصية عصوا الله ورسوله » هؤلاء قبائل من العرب حصل منهم عدوان على أصحاب النبي ﷺ فدعى عليهم الرسول ﷺ باللعة ؛ اللهم العنهم ، ولم يلعن شخصاً معيناً ، بل لعن القبيلة كلها ، والمراد من حدث منهم هذا الحدث وهو الاعتداء على أصحاب رسول الله ﷺ ولا أظن أن من لم يفعل ذلك تلحقه هذه اللعة ، لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] والله الموفق .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله بقية الأصناف التي يجوز الدعاء عليهم على سبيل العموم ، ومنها قوله ﷺ : « لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، اليهود هم أتباع موسى ، والنصاري هم أتباع عيسى ، لكن بعد أن بعث النبي ﷺ وعرفوه ولم يؤمنوا به كان حكمهم سواء في أنهم مغضوب عليهم ؛ لأنهم تركوا الحق مع علمهم به - والعياذ بالله - وبين النبي ﷺ سبب لعنه إياهم في قوله : « اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يعني أنهم يبنون المساجد على قبور أنبيائهم ويصلون فيها ، فهذا من فعله فهو ملعون على لسان النبي ﷺ ، إن كان من اليهود ، أو من النصاري ، أو ممن يدعى أنه مسلم ؛ فإنه ملعون على لسان رسول الله ﷺ . وإذا بُني المسجد على القبر صلى الإنسان فيه لله ﷻ لا لصاحب القبر ؛ فإن صلاته باطلة محرمة ، يجب عليه إعادتها ، وهذا المسجد الذي بُني يجب هدمه ، ولا تجوز الصلاة فيه ، أما لو كان المسجد

(١) انظر ذلك بدائع الصنائع (٤٨/٥) ، والمجموع (٤٠٨/٩) ، وبلغة السالك على شرح الدردير (٣١٤/١) ، المجموع (٤٠٩/٨) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٤٦) ، وأحمد في مسنده (٣٧١/٣) ، والبيهقي في السنن (٢١٤/٣) .

قائماً ثم دفن به أحد من الصالحين ، أو من الأمراء أو من الوزراء أو من الرؤساء ؛ فإنه يجب أن ينشئ القبر. وأن يدفن في المكان الذي تدفن فيه الناس ، ولا يجوز إبقاؤه ؛ لأن المساجد لم تكن ليقيم فيها إنما بنيت للصلاة وذكر الله وقراءة القرآن . وإذا شككنا هل بنى المسجد أولاً ودفن فيه الميت أم دفن الميت ثم بنى عليه المسجد ؟ فالاحتياط ألا أصلى فيه لله ، وأن يتعد عنه لئلا يعرض صلاته للخطر . فإن قال قائل : ما الجواب عن هذا الحديث في قصة قبر النبي ﷺ فإنه الآن في المسجد ، فالجواب أن يقال : إن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد وإنما دفن في بيته ولم يبن عليه المسجد بل كان يمثل قائمه الأول ولكنهم احتاجوا لزيادته فزادوه من هذا الجانب أي من الجانب الذي يراتده مستقبل القبلة ، وكأنهم والله أعلم في ذلك الوقت لم يتيسر لهم مكان سوى هذا فوسعوا من قبله فبقى القبر في مقصورة في البيت منفصل عن المسجد بينه وبينه جدار ، ثم بعد أن شاء الله ﷻ أن يسلط رجلين يريدان أن يستخرجا بدن رسول الله ﷺ ليحرقاه أو يجعلاه في متحف أو ما لا ندري ، وذلك أن أحد الخلفاء جاءه آت في الليل وقال له : أدرك رسول الله ﷺ من الرجلين الأصغرين ، يعني في عيونهما صُغرة ، فجاءه مرة ومرتين وثلاثة ففزع الخليفة ثم ارتحل من بلده إلى المدينة فزعاً مسرعاً ، فلما وصل المدينة أمر أن تصنع وليمة عظيمة « طعام » وقال لواليه على المدينة : ادع لي جميع أهل المدينة فدعاهم وهذا الخليفة ينظر في الحاضرين فلم يجد الوصف الذي ذكر له في المنام ثم أمر أن يدعوا مرة ثانية وثالثة ولم ير الرجلين ، فقال لواليه على المدينة : لماذا لم تدعوا أهل المدينة ؟ قال : كلهم دعوتهم ، لم يبق إلا رجلان غريبان في المسجد منذ جاءا وهما معتكفان في المسجد ، فقال : أحضرهما ، فجيء بهما وإذا هما على الوصف الذي قيل له في المنام ، فأمر أن يبحث عن حالهما ، فإذا هما في الليل يتقبان خندقاً من أسفل الأرض وإذا هما قريبان من القبر ، فأمر بقتلهما ، ثم أمر أن يحفر إلى القبر على جوانبه إلى أن وصل إلى الجبل ثم صبه بالرصاص وبنى عليه ثلاثة جدران ، فأصبح القبر منفرداً تماماً عن المسجد ليس في المسجد ولم يبن عليه المسجد ، فهذا هو الجواب عما يشكك به أهل الشرك وأهل القبور من قبر النبي ﷺ .

أما الصنف الأخير فقال المؤلف رحمه الله : « ولعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال » والتشبه يكون بالأقوال والأفعال والهيئات واللباس ، فتجد الرجل يتشبه بالمرأة في صوته ، يحكى صوت المرأة ويتكلم وكأنه امرأة ، هذا ملعون على لسان النبي ﷺ وكذلك من يتشبه بالمرأة في لباسها فيلبس الثياب الذي لا يلبسه إلا النساء ، ومن ذلك أن يضع الباروكة على رأسه كأنه امرأة ، ومن ذلك أيضاً : أن يلبس اللباس الخاص بالنساء في الساعات ؛ لأن النساء لهن ساعات خاصة وللرجال ساعات خاصة فيلبس الرجل ساعة المرأة . وأما الهيئة : فأن يضع المكياب ويتورك إذا قام يمشي كأنه امرأة ، هذا أيضاً ملعون على لسان النبي ﷺ فاللهم أن تشبه الرجل بالمرأة من كبائر الذنوب ، وتشبه المرأة بالرجل كذلك من كبائر الذنوب بأن تشبه به في القول أي في الكلام ، تتكلم كما يتكلم الرجال في ضخامة الصوت ونبراته أو تجعل رأسها كرأس الرجل تقصه حتى يرتفع عن الكتفين ، أو كذلك تلبس من

الثياب والساعات لباس الرجل ، فكل هذا من كبائر الذنوب ، والمرأة إذا فعلت ذلك ؛ فإنها ملعونة على لسان النبي ﷺ . ولكن هل إذا رأينا رجلاً معيناً متشبهاً بامرأة هل نقول : لعنك الله ؟ لا ، ما نقول : لعنك الله ، نعظه ، ونقول : إن النبي ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء . وكذلك المرأة ؛ لأن لعن المعين لا يجوز حتى لو كان كافراً فكيف إذا كان فاسقاً ، فإنه لا يجوز لعنه . لكن نقول : من تشبه من الرجال بالنساء فهو ملعون ، ومن تشبه من النساء بالرجال فهي ملعونة ، هكذا على سبيل العموم والله الموفق .

٢٦٦ - باب تحريم سب المسلم بغير حق

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحراب : ٥٨] .

١٥٥٩ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سببُ المسلم فسوقٌ ، وقَّالُهُ كُفْرٌ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم سباب المسلم بغير حق ، وسبه يعني عيبه ، ووصفه بما يكره لكن في حضوره ، أما إذا كان في غيبته فهو غيبة . ثم ذكر المؤلف رحمه الله قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ مبتدأ ، ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا ﴾ خبره - والمعنى : وأن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا يؤمن والمؤمنة للذين أوديا ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا ﴾ أي كذباً ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي عقوبة - والعياذ بالله - وهذا يشمل كل أذية سواء كان في القول أو في الفعل وكلما كان الإنسان أحق بالإكرام كانت أذيته أعظم وأكبر إثماً ، فأذية القريب ليست كأذية البعيد ، وأذية الجار ليست كأذية غير الجار ، وأذية من له حق عليك ليست كأذية من لا حق له عليك . المهم أن الأذية يتفاوت أثمها وجرمها بحسب المؤذى . والعجب أن كثيراً من المسلمين اليوم يؤذون جيرانهم بالمضايقات والاطلاع على عوراتهم وغير ذلك ، وهذا من أعظم ما يكون من الإثم ، قال النبي ﷺ : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن » ثلاث مرات قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : « الذي لا يأمن جاره بوائقه » يعني ظلمه وغشمه . وقوله تعالى « بغير ما اكتسبوا » يفهم منها أنه إذا أودى المؤمن بما اكتسب فليس في ذلك بأس ، يعني لو أذيت إنساناً رداً على فعل له ، آذاك فأذيته ، فلا بأس . أو أذى إنساناً لإقامة حد لله ﷻ ، أو أذى لأداء حق عليه أي أن يقوم به ، فلا بأس ، بل قد أمر الله تعالى بالذين يأتيان الفاحشة فقال : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَكَاذُوهُمَا ﴾

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٤٤) ، ومسلم في الإيمان (١١٦) ، وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٩) . قوله « سباب » أي الشتم والتكلم في عرض الإنسان ما يعنيه . قوله « فسوق » أي خروج عن الشرع والطاعة .

فَأَمْرٌ بِإِيْدَائِهِمَا ﴿ قَاتِ تَابًا وَأَصْلَحًا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ [النساء: ١٦] وهذا قبل أن يشرع قتل الفاعل والمفعول به في اللواط ، كان اللوطي في الأول لا يجلد ولا يقتل ، لكن يؤذى حتى يتوب ، ثم أمر الله تعالى بقتل الفاعل والمفعول به على لسان نبيه ﷺ ^(١) وأجمع الصحابة على ذلك ^(٢) .

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن مسعود ؓ : أن النبي ﷺ قال : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » . وهذا يدل على أن الفسق أهون من الكفر ؛ لأنه جعل السب فسوقًا ، وجعل القتل كفرًا ، أي أن المقاتلة جعلها كفرًا ، فعلى هذا إذا سب المسلم أخاه صار هذا الساب فاسقًا لا تقبل شهادته ولا يجعل له ولاية فلا يزوج ابنته ؛ لأنه صار فاسقًا ، ولا يصح أن يكون إمامًا للمسلمين ، ولا يصح أن يكون مؤذنًا . هكذا قال كثير من العلماء - رحمهم الله - وفي بعض هذه المسائل خلاف . لكن المهم أن من سب أخاه فإنه يفسق ، أما من قاتله فإنه يكفر . إن استحل المقاتلة بغير حق فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وإن لم يستحلها ولكنه قاتل لهوى في نفسه ؛ فإنه يكون كافرًا ، لكنه كفر لا يخرج من الملة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الْأُتَىٰ تَبَىٰ حَتَّىٰ تَفِئَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] فجعل الله الطائفتين المقتلتين إخوة للطائفة المصلحة ، وهذا يدل على أنهما لا يخرجان من الإيمان لكنه كفر دون كفر . والله موفق .

١٥٦٠ - وعن أبي ذر ؓ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفِسْقِ أَوْ الْكُفْرِ ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ » ^(٣) رواه البخاري .

١٥٦١ - وعن أبي هريرة ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْمُتَسَابِحَانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا حَتَّى يَقْتَدِيَ الْمَظْلُومُ » ^(٤) رواه مسلم .

(١) وذلك لما رواه أبو داود في الحدود (٤٤٦٢) ، والترمذي في الحدود (١٤٥٦) ، وابن ماجه في السنن (٢٥٦١) وأحمد في مسنده (٣٠٠/١) .

(٢) ذهب جمهور العلماء إلى أنه إذا أتى الرجل الرجل فحدهما الرجم سواء كانا بكرين أو ثيبين ، وهذا هو قول : علي وابن عباس وجابر بن زيد ، والزهري وقنادة والأوزاعي وغيرهم ، وبه قالت المالكية والحنابلة والشافعية في أحد قوليهما وبه قال أبو يوسف ومحمد والشيعة الإمامية ، وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن حد اللواط مثل حد الزنا في المرأة ؛ فيجلد البكر ويرجم المحسن ، وهو قول الشافعية في المشهور من مذهبهم ، وبه قال أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، واستدلوا بأن اللواط زنا بديل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً ﴾ واللواط فاحشة ؛ فكان الزنا كالفاحشة بين الرجل والمرأة ، وأنه قضاء للشهوة في محل مشتهى ، والراجح هو الرأي الأول (انظر المجموع ٢٧/٢٠ ، بدائع الصنائع ٣٤/٧ ، شرح فتح القدير ٢٦٢/٥ ، المغني ١٨٨/٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٤٥) ، وأحمد في مسنده (١٨١/٥) . قوله « لا يرمي رجل رجلاً بالفسق » أي لا يقول له : يا فاسق ، قوله « إلا ارتدت » أي إلا عاد القول على القاتل إذا لم يكن في القول عليه .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٨) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٥١٧/٢) . قوله « حتى يعتدي المظلوم » أي يتجاوز المظلوم حد الانتصار .

الشرح

قال النووي - رحمه الله تعالى - في سباب المسلم بغير حق : حديثاً عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من دعى أخاه بكفر أو فسق ، عاد عليه مالم يكن صاحبه كذلك » . يعني إذا قلت لإنسان : أنت فاسق ، أو يا فاسق صرت أنت الفاسق ، إلا إذا كان هو كذلك ، وهكذا من كفر أحداً وقال : أنت كافر ، أو يا كافر وليس كذلك ؛ صار القائل هو الكافر ، وفي هذا : دليل على أن هذا من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ توعد هذا القائل أن يكون هو الذي يتصف بهذه الصفة . وعلى هذا فلا يحل للإنسان أن يقول لأخيه المؤمن : يا فاسق ، أو يقول : فلان فاسق . إلا إذا كان كذلك ، وأراد أن يحذر منه ، فلا بأس . وكذلك لا يقول له : يا كافر ، أو يقول : فلان كافر ، فإنه لا يحل له ذلك مالم يكن هكذا . وفيه التحذير من تكفير المسلمين بغير دليل شرعي خلافاً لما يتجاسر به بعض الناس ، والعياذ بالله ، يكفر على أدنى شيء يقول : هذا كافر ، وهذا فسق ، وما أشبه ذلك . وأما الحديث الثاني في درس اليوم : فهو عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : المتسaban ما قالاً فعلى البادي منهما . « المتسaban » مبتدأ ، « ما » مبتدأ ثاني ، فعلى البادي خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول . والمعنى أن المتسaban إذا تسابا وتسابما بكلام سيء فإن الإثم على البادي منهما ، ما قالاً فعلى البادي منهما ، مالم يعتد المظلوم فإن اعتدى صار عليه الإثم ، وفي هذا : دليل على أنه يجوز للإنسان أن يسب صاحبه بمثل ما سبه به ولا يتعدى . ولهذا لما قال النبي ﷺ : « لعن الله من لعن والديه » قالوا : يا رسول الله ، كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » ، فدل هذا على أن الإنسان إذا كان سبباً للشر فإنه يناله من شره . ما قال فعلى البادي منه مالم يعتد المظلوم فإن اعتدى فعليه ، وإن أخذ بحقه بدون زيادة فليس عليه شيء . والله الموفق .

١٥٦٢ - وعنه قال : أتى النبي ﷺ برجل قد شرب قال : « اضربوه » قال أبو هريرة : فمنا الضارب بيده ، والضارب بتغليله ، والضارب بثوبه ، فلما انصرف ، قال بعض القوم : أخراك الله ، قال : « لا تقولوا هذا ، لا نعينوا عليه الشيطان » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

هذه بقية الأحاديث في باب تحريم سب المسلم بغير حق ، وقد سبق حديثان حديث ابن مسعود وحديث أبي هريرة رضي الله عنه : في هذا الموضوع . أما الحديث الثالث فهو عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى برجل قد شرب - يعني قد شرب الخمر - وذلك بعد أن نزل تحريمها ، والخمر : كل ما أسكر فهو خمر ، سواء كان من العنب أو من التمر أو من الشعير أو من البر أو من غير ذلك ، فكل ما أسكر فهو

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨١) ، وأحمد في مسنده (٣٠٠/٢) ، وأبو داود في الحدود (٤٤٧٧) .

خمر . وقد قال النبي ﷺ « كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام » ^(١) والإسكار هو تغطية العقل على وجه اللذة والطرب ، ليس مجرد تغطية العقل ، ولهذا البنج ليس مسكراً وإن كان يغطي العقل ، والبنج لا يدري ماذا حصل له . لكن الخمر - نسأل الله العافية - يجد الإنسان من السكر لذة وطرباً ونشوى حتى يتصور أنه ملك من الملوك وأنه فوق الثريا . وما أشبه ذلك . كما قيل في هذا : ونشربها فتركنا ملوكاً .

وكما قال حمزة بن عبد المطلب رحمه الله لابن أخيه النبي ﷺ حين رآه النبي ﷺ سكران فتكلم معه ، فقال له حمزة وهو سكران : هل أنتم إلا عبيد أبي ^(٢) . وهذه كلمة بشعة لكنه سكران ، والسكران لا يؤاخذ بما يقول ، وهذا قيل أن ينزل تحريم الخمر ، وكان الخمر على أربع مراحل ، المرحلة الأولى : إباحة ، أن الله أباحه للعباد إباحة طيبة ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَنْعَابِ لَتَنَخَّذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل: ٦٧] يعني : تشربونه فتسكرون ، وتنجرون به فتحصلون رزقاً .

المرحلة الثانية : عرض الله تعالى بتحريمه ، وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] ولم ينه عنهما .

المرحلة الثالثة : قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] ، فهى عن قربان الصلاة في حال السكر وهذا يقتضى أنه يباح شرب الخمر في غير أوقات الصلاة .

المرحلة الرابعة : التحريم (البائن) قال تعالى في سورة المائدة ، وهى من آخر ما نزل ، قال تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا لُفْتُرَ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [النساء: ٩٠] فاجتنبه الناس . لكن لما كانت النفوس تدعو إليها ، إلى الخمر وشربها ، جعل لها رادع يردع الناس عن شربها ، وهو العقوبة .

ولم يقدر لها النبي ﷺ شيئاً ، فعقوبة الشارب ليست حدّاً ، لكنها تعزير ولهذا جيء برجل شرب ، فقال النبي ﷺ : « اضربوه » . ولا قال : أربعين ، ولا ثمانين ولا مائة ، ولا عشرة . فقاموا يضربونه ، منهم الضارب بثوبه ، ومنهم الضارب بيده ، ومنهم الضارب بنعله ، لكن ضربه نحو أربعين جلدة ، فلما انصرفوا ، وانصرف الرجل ، قال رجل من القوم : أخزاه الله . يعني : أذله ، وفضحه ، فقال النبي ﷺ : لا تقل هكذا ، لا تدع عليه بالخزي ، رجل شرب مسكراً ، وجلد ، وتظهر بالجلد ، لا تعينوا عليه الشيطان ، فنهاهم النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أن يسبوه ، مع أنه شارب خمر .

إذا ما موقفنا من شارب الخمر ، موقفنا أن ندعو له بالهداية ، قل : اللهم اهده ، اللهم أصلحه ،

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (٧٣ ، ٧٤) ، وأبو داود في السنن (٣٦٧٩) ، والنسائي في السنن (٢٩٧/٨) ، وأحمد في مسنده (١٦/٢) .

(٢) نص الحديث في البخاري في المساقاة (٢٣٧٥) ، ومسلم في الأشربة (١) ، وأحمد في مسنده (١٤٢/١) .

اللهم ابعد عن هذا وما أشبه ذلك . أما أن تدعو عليه ؛ فإنك تعين عليه الشيطان .

وفي هذا دليل على أن الخمر محرم ، وأن عليه عقوبة ، لكن في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتشرت الفتوحات ، ودخل في دين الإسلام أناس جدد ، وكثر شرب الخمر في عهده ، وكان رضي الله عنه رجلاً حازماً ، فأراد أن يعاقب شارب الخمر بعقوبة تكون أشد وأردع ، إلا أنه رضي الله عنه لورعه وتحززه جمع الصحابة ؛ أي جمع ذوي الرأي ، وليس المراد كل الصحابة ، لأن السوق وعامة الناس لا يصلحون لمثل هذه الأمور ، ولا لأمور السياسة ، وليس لعامة الناس أن يلوكون أئستهم بسياسة ولاية الأمور ، السياسة لها أناس ، والضَّحون والقُدور لها أناس آخرون ، ولو أن السياسة صارت تلاك بين ألسن عامة الناس لفسدت الدنيا ؛ لأن العامي ليس عنده علم ، وليس عنده عقل ، وليس عنده تفكير ، وعقله وفكره لا يتجاوز قَدَمَهُ ، ويدل لهذا قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ [النساء : ٨٣] ونشروه ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] دل هذا : على أن العامة ليسوا كأولي الأمر ، وأولي الرأي والمشورة ، فليس الكلام في السياسة في المجالات العامة ، ومن أراد أن تكون العامة مشاركة لولاية الأمور في سياستها وفي رأيها وفكرها ، قد ضل ضللاً بعيداً ، وخرج عن هدي الصحابة وهدي الخلفاء الراشدين ، وهدي سلف الأمة .

فالمهم : أن عمر بن الخطاب لحزمه ، جمع ذوي الرأي من الصحابة ، وقال لهم ما معناه : « كثر شرب الخمر » ، وإذا قلَّ الوزع الديني ، يجب أن يقوى الرادع السلطاني يعني إذا ضعف الأمر من الناحيتين : الوزع الديني ، والرادع السلطاني ؛ فسدت الأمة . فاستشارهم ماذا يصنع ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، أخف الحدود ثمانين جلدة ، ارفع العقوبة إلى ثمانين جلدة . ويشير رضي الله عنه - أعني عبد الرحمن - إلى حد القذف ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَمُونُ الْمَحْصَنَاتِ ثُمَّ لَزَّ يَأْوُنَ الْبَارِعَةِ شَهْلَةً فَلْيُذَوِّهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور : ٤] هذا أخف الحدود ، فرجع عمر رضي الله عنه عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين ، وهذا كالنص الصريح على أن عقوبة شارب الخمر ليست حدّاً ، بل هي صريح لأنه قال : أخف الحدود ثمانين ، ووافق الصحابة على هذا ، ولم يقل عمر رضي الله عنه : أنه ليس كذلك فرفعه عمر ، وجعل ذلك ثمانين جلدة من أجل أن يرتدع الناس ، وقد جاء في السنة أن شارب الخمر إذا شرب فجلد ، ثم شرب فجلد ، ثم شرب فجلد ، ثم شرب فجلد ، فإنه يجب قتله ، هكذا جاء في السنة ^(١) ، وأخذ بظااهره الظاهرية ، وقالوا : شارب الخمر إذا جلد ؛ فإنه يقتل في الرابعة ؛ لأنه أصبح عنصراً فاسداً لم ينفع به الإصلاح والتقويم ^(٢) . وقال جمهور العلماء : لا يقتل ، بل يكرر عليه الجلد ، كلما شرب جلد ، وتوسط شيخ الإسلام رحمته الله ، فقال : إذا كثر شرب الخمر في الناس ، ولم ينته الناس بدون القتل فإنه يقتل في الرابعة ، وهذا قول وسط روعي فيه الجمع بين المصلحتين ،

(١) انظر في ذلك : البخاري في الحدود (٦٧٧٩) ، وأبو داود في الحدود (٤٤٨٩) ، والدارقطني في السنن

(١٥٨/٣) ، والبيهقي في السنن (٣٢٠/٨) ، والوسيط في المذهب (٥٠٩/٦) .

(٢) المحلى (٣٧٠/٨) .

مصلحة ما يدل عليه بعض النصوص الصريحة ؛ لأن عمر لم يرفع العقوبة إلى القتل ، مع أنه يقول إن الناس كثر شربهم ، وبين هذا الحديث الذي اختلفت الناس في صحته ، وفي بقاء حكمه ، هل هو منسوخ أو غير منسوخ ؟ وهل هو صحيح أو غير صحيح ؟ فعلى كل حال فما اختاره شيخ الإسلام فهو عين الصواب ^(١) .

أنه إذا كثر شرب الناس والخمر ، ولم ينته الناس دون قتل فإنه يقتل الشارب في الرابعة ، وليت ولاية الأمور يعملون هذا العمل ، ولو عملوا هذا العمل لحصل خير كثير ، واندرأ شر كثير ، وقل شرب الناس للخمر الذي بدأ ينتشر - والعياذ بالله - وفي بعض البلاد الإسلامية انتشر كانتشار الشراب المباح ، كعصير الليمون وعصير البرتقال وما أشبه ذلك ، وهذا - لا شك - أنه مظهر غير مظهر المسلمين ، وأنه استباحة له في الواقع ، كونه يصبح منشوراً بين الناس يفتح الإنسان الثلاجة ويشرب الخمر - والعياذ بالله - هكذا كأنه استباحه ، وهذا ينطبق عليه قول النبي ﷺ : « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر ، والحري ، والخمر ، والمعازف » ^(٢) فإن الناس الآن تقاسموا هذه الأشياء الأربعة منهم من انتشر في : شعوبهم الزنا واللواط - والعياذ بالله - وصار عندهم مباحاً ، يذكر لنا أنه في بعض البلاد إذا نزلت الطائرة ، وإذا في المطار فتيات وقتيان يقولون للنازل ماذا تريد ؟ جميلة ، غير جميلة ، شابة ، غير شابة ؟ .

الحر : يعني الزنا ، أو اللواط ، وفي بعض البلاد الخمر منتشرة ، يباع في الأسواق ويشرب ليلاً ونهاراً وكأنه شراب حلال . وفي بعض البلاد ، ولاسيما في المترفين من رعيّتهم ، نجد الرجل كالمرأة يلبس الحرير ، واللين من الثياب ، وربما يلبس حلي الذهب : قلادة ، خاتم ، أو ما أشبه ذلك .

والمعازف : الآن حدث ولا حرج ، المعازف منتشرة في غالب بلاد الإسلام إن لم أقل في كل بلاد الإسلام ، فقد انتشرت - والعياذ بالله - المعازف بجميع أنواعها ، فنسأل الله السلامة والهداية ، وأن يصلح ولاية الأمور ورعاياهم إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٥٦٣ - وعنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزُّنَى يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف الإمام النووي رحمه الله تحريم سباب المسلم بغير حق . أحاديث وقبلها آية ، ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال » .

المملوك هو العبد يملكه الإنسان ، والمملوك كالسلة يباع ويشترى ويوهب ، ويرهن ويوقف إلا أن

(١) فتاوى ابن تيمية (٢١٧/٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٩٠) ، وأبو داود في السنن (٤٠٣٩) ، والبيهقي في السنن (٢٢١/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في المحارين (٦٨٥٨) ، ومسلم في الإيمان (٣٧) ، وأحمد في مسنده ٤٣١/٣ بنحوه .

أحكام الله ﷻ هو والحر على حد سواء في غير الأمور المالية .

والسيد مالك للرقيق لعينه - يعني رقبته - ولنافعه ، فإذا قذف عبده بأن قال للعبد : يا زاني ، أو بالوطي ، أو ما أشبه ذلك من كلمات القذف فإنه لن يحد في الدنيا لأنه سيد ، والعبد مملوك ، لكن يقام عليه في دار عذابها أشد - والعياذ بالله - وهي الدار الآخرة يقام عليه الحد يوم القيامة وعلى هذا فيكون قذف المملوك من كبائر الذنوب ؛ لأنه رتب عليه عقوبة في الآخرة وكل شيء رتب عليه عقوبة في الآخرة فإنه يكون من كبائر الذنوب ، كما قال أهل العلم - رحمهم الله - في حد الكبيرة وأما لو زنى المملوك حقيقة وقذفه سيده بذلك فإنه لا حد عليه لقول النبي ﷺ «إلا أن يكون كذلك» (يعني كما قال) ولكن متى يكون كما قال ؟ يكون بأن يشهد عليه أربعة . أربعة رجال عدول بأنه زنى ويصرحون بذكر حقيقة الوطء أو يقر هو بنفسه على نفسه بحيث يرفع الحد عن السيد ، واعلم أن الرقيق إذا زنى فإن عليه نصف حد الحر كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحْشَةٍ ﴾ يعني أن الإمام ﴿ فَتَجِدْنَ نَصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [النساء : ٢٥] والذي يتنصف من عذاب المحصنات هو الجلد فيكون على الرقيق إذا زنى خمسون جلدة فقط . قال العلماء ويسقط عنه التغريب ؛ لأن الزاني الحر إذا زنى وهو غير محصن ؛ فإنه يجلد مائة جلدة ويطرد عن البلد عامًا كاملاً ^(١) أما الرقيق فإنه يجلد خمسين جلدة ولا يغرب ؛ لأن التغريب إضرار بسيده ، فيكون من باب تحميل الإنسان ما لم يحتمله ^(٢) ، وللسيد أن يقيم على عبده الحد إذا زنى ؛ لقول النبي ﷺ : «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها» ^(٣) فأمر السيد أن يجلدها ، أما الحر فإنه لا يتولى جلده إلا الإمام أو نائبه حتى لو كان ابنك وزنى وهو بالغ عاقل ، فإنه لا يتولى إقامة الحد عليه إلا الإمام أو نائبه ، وكذلك لو زنى أخوك بعد بلوغه وهو عاقل فإنه لا يقيمه إلا الإمام أو نائبه ، أما السيد فيقيم عليه عبده خاصة في الجلد وأما لو سرق العبد فالسرقة فيها قطع اليد ، ولا يتولى قطع اليد إلا الإمام أو نائبه ؛ ولهذا قال العلماء : أن السيد لا يقيم الحد على عبده إلا إذا كان الحد جلدًا ^(٤) ، والله أعلم .

* * *

(١) هذا هو قول الجمهور . وقد رُوِيَ ذلك عن الخلفاء الراشدين . وبه قال ابن مسعود وعطاء وطاووس والثوري وابن أبي ليلى وإسحاق وهو قول الشافعي والحنابلة وأهل الظاهر . أما الحنفية فإنهم قد ذهبوا إلى عدم التغريب ذكرًا كان أو أنثى ، وقال المالكية يغرب الرجل ولا تغرب المرأة (انظر المجموع ٤٥/٢٠ ، المغني ١٦٩/٨ ، وأسهل المدارك ١٦٥/٣ ، بداية المجتهد ٣٩٨/٢ ، بدائع الصنائع ٣٩/٧) .

(٢) انظر ذلك في المغني (١٦٢/٨) ، والمجموع (٨/٢٠) ، وبداية المجتهد (٣٩٨/٢) ، وأحكام القرآن للشافعي (٣٠٨/١) ، وشرح فتح القدير (٢٤٠/٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في الحدود (١٤٤٠) ، والدارقطني في السنن (١٦٠/٣) ، والطبراني في الكبير (٢٧٥/٥) وأخرجه البخاري في التتق (٢٥٥٥) ، ومسلم في الحدود (٣١) كلاهما بلفظ «إذا زنت الأمة فاجلدوها» .

(٤) انظر مغني المحتاج (١٥٤/٤ ، ١٥٥) ، المجموع (٤٢/٢٠) ، شرح فتح القدير (٢٤٥/٥) .

٢٦٧ - باب تحريم سب الأموات بغير حق ومصلحة شرعية

وَهُوَ التَّحْذِيرُ مِنَ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ فِي بَذْعِهِ ، وَفَسْقِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَفِيهِ الْآيَةُ وَالْأَحَادِيثُ السَّابِقَةُ فِي الْبَابِ قَبْلَهُ .

١٥٦٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله حديث عن تحريم سب الأموات بغير حق أو مصلحة شرعية . والأموات يعني بهم الأموات من المسلمين ، أما الكافر فلا حرمة له إلا إذا كان في سببه إيذاء للأحياء من أقاربه ، فلا يسب ، وأما إذا لم يكن هناك ضرر ؛ فإنه لا حرمة له وهذا هو معنى قوله : قول المؤلف رحمته الله : (بغير حق) لأننا لنا الحق أن نسب الأموات الكافرين الذين آذوا المسلمين وقتلوهم ويحاولون أن يفسدوا عليهم دينهم أو مصلحة شرعية ، مثل أن يكون هذا الميت صاحب بدعة ينشرها بين الناس ، فهنا من المصلحة أن نسبه ونحذر منه ومن طريقته لئلا يغتر الناس به .

ثم استدل على ذلك بحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « لَا تَسِبُّوا الْأَمْوَاتَ » والأصل في النهي التحريم ، فلا نسب للأموات ، ثم علل وقال : « فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » . وسببكم إياهم لا يغني شيئاً ؛ لأنهم أفضوا إلى ما قدموا حين انتقلوا إلى دار الجزاء من دار العمل ، فكل من مات فإنه أفضى إلى ما قدم والتحق بدار الجزاء وقامت قيامته ، أفضى وانقطع عمله ، ولم يبق له حظ من العمل إطلاقاً إلا ما دلت السنة عليه مثل قول النبي ﷺ : « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَ ؛ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، أَوْ عِلْمٌ يَنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ » ^(٢) وفي هذا : دليل على أنه ينبغي على الإنسان أن يحفظ لسانه عما لا فائدة منه ، فإن هذا طريق أهل التقى ، فإن عباد الرحمن إذا مروا باللغو مروا كراماً . وأما الزور فلا يشهدونه ولا يتكلمون إلا بالحق ، والله الموفق .

(١) أخرجه البخاري في الجنايز (١٣٩٣) ، والنسائي في السنن ٥٣/٤ ، والبيهقي في السنن (٧٥/٤) ، والحاكم في المستدرک (٣٨٥/١) . قوله : « فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » أي وصلوا إلى دار الحساب ليحاسبوا على أعمالهم إن كانت خيراً أو شراً ؛ فلا فائدة في سبهم .

(٢) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، وأبو داود في السنن (٢٨٨٠) ، والترمذي في السنن (١٣٧٦) ، والنسائي في السنن ٢٥١/٦ .

٢٦٨ - باب النهي عن الإيذاء

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحراب : ٥٨] .

١٥٦٥ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » ^(١) متفق عليه .

١٥٦٦ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُخْرِجَ عَنِ النَّارِ ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » ^(٢) رواه مسلم .
وَهُوَ بَعْضُ حَدِيثٍ طَوِيلٍ سَبَقَ فِي بَابِ طَاعَةِ وَلَايَةِ الْأُمُورِ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله حديثين عن تحريم الإيذاء بغير حق . والإيذاء يشمل الإيذاء بالقول ، والإيذاء بالفعل ، والإيذاء بالترك .

أما الإيذاء بالقول : فَأَنْ يُسْمِعَ أَخَاهُ كَلَامًا يَتَأَذَى بِهِ وَإِنْ لَمْ يَضُرَّهُ ؛ فَإِنْ ضُرَّه كَانَ أَشَدَّ إِثْمًا .
والإيذاء بالفعل : أَنْ يَضَاقِقَهُ فِي مَكَانِهِ ، فِي جُلُوسِهِ ، فِي طَرِيقِهِ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

والإيذاء بالترك : أَنْ يَتْرَكَ شَيْئًا يَخْتَارُ مِنْهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَيَتَأَذَى بِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَا بَدَّ ، كُلُّ هَذَا مُحْرَمٌ عَلَيْهِ هَذَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ ﴿ احْتَمَلُوا ﴾ يعني تحملوا على أنفسهم البهتان وهو الكذب ، والإثم المبين وهو العقوبة العظيمة ، نسأل الله العافية .

وفي قول الله تعالى : ﴿ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ دليل على أن لو أُوذِيَ الْإِنْسَانُ بِاِكْتِسَابِهِ أَيْ عَلَى عَمَلٍ حَقٍّ أَنْ يُؤْذَى عَلَيْهِ ؛ فَأَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَكْادُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ [النساء : ١٦] وكان هذا في أول الأمر أن اللوطية - والعياذ بالله - يؤذي صاحبه حتى يتوب ، ثم بعد ذلك ثبت أن النبي ﷺ قال : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ^(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله : أجمع الصحابة على أن فاحشة اللواط

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٠) ، ومسلم في الإيمان (٦٤) ، وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) ، والنسائي في السنن (١٠٥/٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (٤٦) ، وأحمد في مسنده (١٩٢/٢) ، والبيهقي في السنن (١٦٩/٨) قوله « يَرْجُحُ » أي يبعد . قوله « وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » هذا من جوامع كلمة ﷺ وبديع حكمه ، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها ، وذلك بأن يلزم الإنسان نفسه بأن لا يفعل مع الناس إلا ما يجب أن يفعلوه معه .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٥٦) ، وأبو داود في السنن (٤٤٦٢) ، وابن ماجه في السنن (٢٥٦١) ، وأحمد في مسنده (٣٠٠/١) .

يقتل فيها الفاعل والمفعول به ، ولكنهم اختلفوا كيف يقتل ؟ فبعضهم قال : يرمي بعضهم قال : يلقى من أعلى شاطئ في البلد ثم يلقى بالحجارة وبعضهم قال : يحرق بالنار نسأل الله العافية (١) . فالمهم أن الإيذاء بحق لا بأس به ومن ذلك أن يكون الرجل يكره الحق ويكره الخير فتفعل الحق فيتأذى به ، فهنا تأذى بحق ؛ لأن بعض الناس - والعياذ بالله - يتأذى إذا رأى رجلاً متمسك بالسنة ، ثم ذكر حديثين أحدهما أن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » المسلم من سلم المسلمون من لسانه : فلا يلعنهم ، ولا يسبهم ، ولا يشتمهم ، ولا يغتابهم ، ولا يئثم فيهم ، كل آفات اللسان المتعلقة بالخلق قد كفها ، فسلم الناس منه ، وسلم المسلمون من يده أيضاً ، لا يعتدي عليهم بضرب ولا سرقة ولا إفساد مال ولا غير ذلك ؛ هذا هو المسلم وهذا ليس المراد بذلك إنه ليس هناك مسلم سواه ، ولكن المعنى أن هذا من الإسلام ، وإلا فإن المسلم من استسلم لله تعالى ظاهراً وباطناً ، لكن أحياناً يأتي مثل هذا التعبير من أجل الحث على هذا العمل وإن كان يوجد سواه . « والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . ومعلوم أن المهاجر من خرج من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ليقيم دينه ، لكن تأتي الهجرة بمعنى آخر وهي أن يهجر الإنسان ما نهى الله عنه فلا يقول قولاً محرماً ، ولا يفعل فعلاً محرماً ، ولا يترك واجباً ، بل يقوم بالواجب ويدع المحرم ، هذا المهاجر ؛ لأنه هجر ما نهى الله عنه .

أما الحديث الثاني : فهو قول النبي ﷺ : « من أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ؛ فلتأته منيته ، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » فقوله : « من أحب » هذا الاستفهام للتشويق ، وإلا فكل واحد يحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ؛ لأن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، فمن أحب ذلك فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر . وبناء على هذا ينبغي للإنسان أن يكون دائماً على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر وتذكره ؛ لأنه لا يدري متى يأتيه الموت . فليكن دائماً نصب عينيه : الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ فالإنسان إذا آمن بالله ﷻ وبمقتضى أسمائه وصفاته ، وآمن باليوم الآخر وما فيه من الصواب والعقاب ، فلا بد أن يستقيم على دين الله ، وهذا حق الله ، أعني قوله : « وهو يؤمن بالله واليوم الآخر » أما حق الآدمي : فقال : « وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » فلا يؤذيهم ؛ لأنه لا يحب أن يؤذوه ، ولا يعتدي عليهم ؛ لأنه لا يحب أن يعتدوا عليه ، ولا يشتمهم ؛ لأنه لا يحب أن يشتموه ، وهلم جرا : لا يغشهم في البيع والشراء وغير ذلك ، ولا يكذب عليهم ؛ لأنه لا يحب أن يفعل به ذلك . وهذه قاعدة لو أن الناس مشوا عليها في التعامل فيما بينهم لنالوا خيراً كثيراً . ويشبه هذا قول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » (٢) والله الموفق .

* * *

(١) انظر نص ما قاله ابن تيمية في الفتاوى (١٨٢/٣٤) .

(٢) سبق تخريجه .

٢٦٩ - باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابير

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] وقال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

الشرح

ذكر النووي - رحمه الله تعالى - آيات عن النهي عن التباغض والتقاطع والتدابير .
التباغض بالقلوب ، والتقاطع بالأفعال والأقوال أيضًا ، والتدابير بالأفعال أيضًا ، أما التباغض بالقلوب : أن يبغض الإنسان أخاه المسلم ، وهذا - أعني بغض المؤمن - حرام ، لأي شيء تبغضه ؟ قد تكون تبغضه ؛ لأنه يعصي الله ﷻ فنقول : وإذا عصى الله لا تبغضه بغضًا مطلقًا ، الذي تبغضه بغضًا مطلقًا على كل حال هو الكافر ؛ لأنه ما فيه خير . أما المؤمن وإن عصى وإن أصر على معصية ؛ يجب أن تحبه على ما معه من الإيمان ، وأن تكرهه على ما معه من الفسق والعصيان ، فإن قال إنسان كيف يجتمع البغض والحب ؟ قلنا : يجتمعان ؛ لأن كل واحد منهم منصب على وجه لم يتفقا في محل واحد ؛ أحبه لإيمانه ، واکرهه لفسوقه ، نظير ذلك المريض يعطى دواء مرًا رائحته كريهة ، فيحب هذا الدواء من وجه ويكرهه من وجه ، يحبه لما فيه من الشفاء ، ويكرهه لطعمه أو رائحته أو ما أشبه ذلك . وكذلك المؤمن أخوك أنت وإياه في أصل واحد وهو الإيمان ، لماذا تبغضه بغضًا مطلقًا ؟ ابغضه على ما معه من المعصية ، لا بأس ، وأحبه على ما معه من الإيمان . وهذا يؤدي - أعني إذا أحببته لما معه من الإيمان ، وكرهته لما معه من الفسق - إلى أن تتصحه ؛ لأنك تثق أنه أخوك فتجبه وتؤدي له ما تؤدي لنفسك ، فتتصحه على ما تكرهه فيه من المعصية . ومن ذلك : السلام عليه ، سلم عليه ، ولو كان عنده معصية ، إلا إذا علمت أنك إذا تركت السلام عليه اهتدى وصلحت أموره ، فهنا يكون الهجر دواء نافعا .

وأما التقاطع ؛ وهو تقاطع الصلة بينك وبين أخيك ، أخوك المؤمن له حق عليك أن تصله ، ولا يحل لك أن تقطعه ، لأنه أخوك حتى وإن كان عاصيًا ، ولذلك تجدد الإنسان يكرم جاره ولو كان جاره عاصيًا ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » ^(١) أكرمه ولو كان عاصيًا ولكن انصحه ، وكذلك بعض الناس يقاطع أقاربه ؛ لأنهم قطعوه ، أو لأنهم على معصية ، وهذا خطأ ؛ صل أقاربك ولو كانوا عصاة ، صلهم ولو كانوا يقاطعونك ، كما جاء رجل للرسول ﷺ قال : يا رسول الله إن لي رحمًا أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيثون إلي ، وأحلم عليهم وقال كلمة أخرى ، فقال النبي ﷺ : « إن كان الأمر كما قلت ؛ فكأنما تسفهم المل » ^(٢) . يعني كأنما تدخل في

قلوبهم الرماد أو التراب الحار ، يعني فاستمر على صلتهم ولو كانوا يقطعونك ، ولو كانوا يسيئون إليك ، ولو كانوا يعتدون عليك ، صلهم لأن من لا يصل إلا إذا وصل فليس بواصل بل هو مكافئ .

والتدابير : أيضًا لا يحل بين المؤمنين ، لكن هل هو التدابير في القلوب ، أو التدابير في الأبدان ، أو هذا وهذا ؟ إنه هذا وهذا ، لا تدابروا في القلوب حتى لو وجدت من أخيك أنه أدير عنك بقلبه ، فاقرب منه وأقبل عليه ﴿ أَدْفَعْ بِأَلْيَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [نصك : ٣٤] لو طبقنا هذه التوجيهات الإلهية والنبوية ؛ لحصل لنا خير كثير ، لكن الشيطان يلعب بنا ، يقول : كيف تصله وهو يقطعك ؟ ، كيف تقبل عليه وهو يدبر عنك ؟ اتركه هذا ما فيه خير . هذا من وحي الشيطان . أما الله ﷻ والنبي ﷺ فإن نصوص الكتاب والسنة كلها تحرم التدابير ، كذلك التدابير بالأبدان بعض الناس لا يهमे أن يصغر وجهه للناس ، وإن يُعْرَضَ ربما يكون من كبريائه يتكلم معك ووجهه لجانب آخر ، نسأل الله العافية ، هذا لا يحل ، بعض الناس أيضًا كالبهائم تجدهم جلوس في مكان واحد كل واحد يدير للثاني دبره وظهره ، هذا ليس أدبًا ، لا أدبًا شرعيًا ولا أدبًا عربيًا ولا خلقًا ، تجلسوا معًا كل واحد يداير الثاني ، إن الله وصف أهل الجنة بأنهم على سرر متقابلين التقابل صفة حميدة طيبة ، والتدابير صفة ذميمة خبيثة لكن بعض الناس همج ليس عندهم تربية إسلامية وتجدهم في المجالس متدابرين ، هذا خطأ .

ومما يشبه هذا الفعل ما يفعله بعض الناس إذا سلم من الصلاة وهو في الصف تقدم جعل الناس وراء استقبلهم بدبره وفي ظني أنه يتخيل في تلك اللحظة أنه ذو عظمة وأن الناس وراءه ؛ لأنني ما أظن أحدًا يتقدم هذا التقدم إلا ويشعر ، وإن كان من غير قصد بالعظمة ، ولقد رأيتهموني أنهى عنه ، إذا وجدت إنسانًا تقدم أقول له : ارجع لأن هذا يشبه التدابير . فإذا قال : ضاق علي المكان ولا أستطيع أن أبقي مفترشًا . قلنا : يا أخخي ، الأمر واسع - والحمد لله - قم تقدم وكن على الجدار وافعل ما شئت أو تأخر أما أن تتقدم على الناس وتكون بين أيديهم والناس ورائك هذا لا ينبغي .

هذه ثلاث أشياء : الأول : التباغض ، والثاني : التقاطع ، والثالث : التدابير ، كل هذا منهي عنه . سؤال وجوابه : إن قال إنسان : السلام عليك ، قل : عليك السلام ، وإن قال : أهلاً ومرحباً فلا تكفي . ومن قال في الرد : أهلاً ومرحباً فهو آثم لم يقم بالواجب ، وإذا رأيت أحدًا يقول هكذا فانصحه قل له : رُدِّ السلام .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وهذه الآية في سياق ذكر الطائفتين تقتتلان فتصلح بينهما طائفة أخرى ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ وسياق الآيات يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ يعني لو اقتتل طائفتان من المسلمين قبيلتان اقتتلا فيما بينهما ، فأصلحوا بينهما ، والخطاب لمن له الأمر من المؤمنين الذين لم يقاتلوا ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ وأبت أن تصلح ﴿ فَقَاتِلُوا أَلَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِئَةَ لَهَا أَمْرٌ أَلَّهُ ﴾ يعني كونوا مع الطائفة العادلة التي ليست باغية ، قاتلوا الباغية ﴿ حَتَّى تَفِئَةَ لَهَا أَمْرٌ أَلَّهُ ﴾ أي حتى ترجع إليه ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴿١﴾ أي فيما جرى بينهم من إتلاف أنفس ، أو أموال أو غير ذلك ، ﴿٢﴾ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٣﴾ فيقال مثلاً : كم قتلتم من نفس ؟ لطائفة منهما ، وللأخرى كذلك ، ثم يعادل بينهما ويصلح بينهما ، كم أتلفتم من مال ؟ ويمضي فيعادل بينهما ويصلح بينهما ، ثم قال ﷺ : ﴿٤﴾ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٥﴾ أي الذين يعدلون فيما ولاهم الله عليه ﴿٦﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿٧﴾ المؤمنون كلهم إخوة حتى الطائفتان المقتلتان هم أخوة للذين أصلحو بينهما ، وفي هذه الآية رد صريح لقول الخوارج الذين يقولون : إن الإنسان إذا فعل الكبيرة صار كافراً ؛ فإنه من أكبر الكبائر أن يقتل المسلمون بينهم ، ومع ذلك قال الله فيهم - المقتلين - وفي التي أصلحت بينهما : ﴿٨﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿٩﴾ فإذا كان الله تعالى أوجب الإصلاح بين المتقاتلين فكذلك أيضاً بين المتعادين عداءً دون قتل ، يجب على الإنسان إذا علم أن بين اثنين عداوة وبغضاء وشحناء وتباعد أن يحاول الإصلاح بينهما ، وفي هذه الحال يجوز أن يكذب للمصلحة ، فيقول مثلاً لأحد منهم : إن فلاناً لم يفعل شيئاً بضرك وما أشبه ذلك ، ويتأول شيئاً آخر غير الذي أظهره لهذا الرجل حتى يتم الصلح بينهما ، والصلح خير .

أما الآية الثانية : فهي قول الله تعالى : ﴿١٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقُرْءٍ يُضَيِّعُكُمْ وَيُضَيِّعُكُمْ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ يعني أنكم لو ارتددتم عن دينكم فإن ذلك لا يضر الله شيئاً ، يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه لقيامهم بعبادته واتباع الرسول ﷺ لأن من أقوى أسباب محبة الله للعبد أن يتبع الرسول كما قال الله تعالى : ﴿١٢﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿١٣﴾ [آل عمران : ٣١] فأنت إذا أحببت أن الله يحبك فاتبع الرسول ، الطريق بين واضح يقول الله ﷻ ﴿١٤﴾ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقُرْءٍ يُضَيِّعُكُمْ وَيُضَيِّعُكُمْ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾ وهذا هو وصف المؤمن حقاً أنه بالنسبة لإخوانه المسلمين ذليل متواضع متهاون ومتسامح ، أما على الكافرين فهم أعزة على الكافرين يعني أنهم أقوياء أمام الكافر لا يلينون له ولا يدهونونه ولا يوادونه كل هذا بالنسبة للكافر حرام على المؤمن لا يجوز للمؤمن أن يواد الكافر ولا يجوز له أن يذل له ؛ لأن الله تعالى جعل له ديناً يعلو على الأديان كلها بل يجب علينا أن نبغض الكفار وأن نعتبرهم أعداء لنا وأن نعلم أنهم لن يفعلوا بنا شيئاً هو في مصلحتنا إلا لينالوا ما هو أشد مما نتوقع من الإضرار بنا ؛ لأنهم أعداء ، والعدو ماذا يريد أن يفعل بك ؟ يريد أن يفعل بك كل سوء وأن تظاهر بأنه صديق أو بأنه ولي لك فهو كاذب ، إنما يفعل لمصلحته ؛ لأنه لا أحد أصدق من الله ﷻ وهو يعلم ما في الصدور ، يقول الله ﷻ : ﴿١٦﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿١٧﴾ [المتحة : ١] ويقول جلا وعلا : ﴿١٨﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿١٩﴾ [المائدة : ٥١] ويقول ﷻ : ﴿٢٠﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ حَتَّىٰ تَفْجَحَ بِغِلَّتِهِمْ ﴿٢١﴾ [البقرة : ١٢٠] محال أن يرضوا عن المسلمين إلا إذا تهودوا أو تنصروا ، ولهذا هم الآن يحاولون بكل ما يستطيعون أن يصدوا الناس عن دينهم تارة بالأخلاق السافلة ، وتارة بالمجلات ، وتارة بالدعاية الخبيثة ، وتارة بالصراحة ، يدعون إلى الكفر كما قال ﷻ : ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْتُمُونَ إِلَىٰ

النَّكَارَ وَيَوْمَ أَفْجَسَ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤٢﴾ وَاتَّبَعْتَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَفْسِكَ وَيَوْمَ الْفِتْنَةِ هُمْ مِنَ الْمَغْبُوثِينَ ﴿٤٣﴾ [القصص: ٤١، ٤٢] فيقول ﷺ في وصف هؤلاء: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا هو الشاهد ﴿أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

وقال تعالى : في الآية الثالثة : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ هذا وصف الرسول ﷺ ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ يعني أصحابه ، وصفهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ لا يلينوا لهم ، ولا يداهنونهم ، ولا يوالونهم ، ولا يوادونهم ، لكن فيما بينهم ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ يرحم بعضهم بعضًا ، ويلين بعضهم لبعض ، وهذا هو حال المؤمنين ، ضد ذلك نقص في الإيمان من لا يرحم إخوانه المؤمنين فإن ذلك نقصًا في إيمانه ، وربما يُحرم الرحمة ؛ لأن من لا يرحم لا يرحم - والعياذ بالله - وأيضًا مثل ذلك التباغض . احرص على أن تزيل كل سبب يكون سببًا للبغضاء بينكم أتم المسلمون ، بعض الناس يبغض أخاه من أجل شيء من الدنيا ، إما لأجل مال ، أو من أجل أنه لا يقابله ببشاشة ، أو ما أشبه ذلك ، هذا خطأ فحاول أن تزيل البغضاء بينك وبين إخوانك بقدر المستطاع ، وحاول أن تتبعد عن كل شيء يثير العداوة والبغضاء ؛ لأنكم إخوة . نسأل الله تعالى أن يوفقنا ولياكم لما فيه الخير والإصلاح .

* * *

١٥٦٧ - وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا تَقَاطَعُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » ^(١) متفق عليه .

الشرح

بعد أن ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على تحريم التباغض والتقاطع والتدابير ذكر أحاديث منها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا تَقَاطَعُوا » هذه أربعة أشياء نهى عنها النبي ﷺ .

الأول : التباغض : نهى عنه الرسول ﷺ حتى لو وقع في قلبك ، بُغِضَ لإنسان فحاول أن ترفع هذا عن قلبك وانظر إلى محاسنه حتى تمحو سيئاته ، وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا حيث قال : « لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً » ^(٢) يعني لا يبغض المؤمن المؤمنة - يعني زوجته ، أو أخته ، أو أمه ، ولكن يراد الزوجة هنا - لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر وهذا من الموازنة بين الحسنات والسيئات بعض الناس ينظر إلى السيئات - والعياذ بالله - فيحكم بها وينسى الحسنات وبعض الناس ينظر للحسنات وينسى السيئات ، والعدل أن يقارن الإنسان بين هذا وهذا ، وأن يميل إلى الصفح والعفو والتجاوز فإن الله تعالى يحب العافين عن الناس فإذا وجدت في قلبك بغضاء

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٥) ، ومسلم في البر والصلة (٢٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٥/١) ، والبيهقي في السنن (٢٣٢/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (٦١) ، وأحمد في مسنده (٣٢٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٩٥/٧) .

لشخص فحاول أن تزيل هذه البغضاء وذكر نفسك بمحاسنه ربما يكون بينك وبينه سوء عشرة أو سوء معاملة لكنه رجل فاضل طيب محسن إلى الناس يحب الخير ، يذل فيه ، تذكر هذه المحاسن حتى تكون المعاملة السيئة التي يعاملك بها مضمحلة منغرة في جانب الحسنات . كذلك أيضًا لا تناجشوا ، المناجشة : الزيادة في الثمن بغير إرادة الشراء مثلًا رأيت سلعة يُنادى عليها في السوق ، ثمنها مثلًا مائة ريال ، وهو يريد شراءها فناجشت عليه وقلت : بمائة وعشرة وأنت لا تريدها ولكن تريد أن يزيد الثمن على المشتري هذا حرام عدوان . أما لو كنت رأيت السلعة رخيصة بمائة وزدت مائة وعشرة وأنت من الأول ما عندك نية لشرائها لكن استرخصتها فزدت حتى بلغت الثمن الذي لا ترى فيه مصلحة لك ثم تركتها ، هذا لا بأس به لكن إذا كان قصدك العدوان على المشتري وأن تنكد عليه وتزيد عليه الثمن فهذا هو النجش ، وكذلك لو زدت السلعة من أجل نفع البائع وهو لا يعرف المشتري وليس بينه وبينه شيء لكن يريد أن يتنفع البائع فزاد في الثمن وهو لا يريد الشراء وإنما يريد نفع البائع ، فمثلًا قيمة السلعة بمائة فقال بمائة ، وعشرة لا إضرارًا بالمشتري لأنه لا يعرفه وليس بينه وبينه شيء لكن من أجل نفع البائع هذا أيضًا حرام لا يجوز وهو من المناجشة التي نهى عنها النبي ﷺ ، وكذلك أيضًا إذا أراد الأمرين يعني أراد أن ينفع البائع ويضر المشتري فهذا أيضًا حرام وهو من النجش الذي حرمه الرسول ﷺ ، « ولا تدابروا » : سبق الكلام عليه ، « ولا تقاطعوا » : يعني لا يقطع أخ أخاه ، بل يواصله بحسب العرف وبحسب السبب الداعي للصلة لأن القريب متصله لقربه الجار لجيرته الصاحب لصحبته وهكذا لا تقاطع أخاك صله فإن الله تعالى يحب الواصلين الذين يصلون أرحامهم « ولا يحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث » الهجر من التقاطع ؛ يعني يلقاه لا يسلم عليه حرام حرام ، إلا أن الشارع النبي ﷺ رخص لك ثلاثة أيام ؛ لأن الإنسان ربما يكون في نفسه شيء لا يعفو على واحد يهجره له رخصة ثلاثة أيام بعد الأيام الثلاثة لا يجوز أن يلقاه فلا يسلم عليه إلا إذا كان على معصية إذا هجرناه تركها فنهجره للمصلحة ، هذا كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا وتخلفوا عن غزوة تبوك وإلا فالأصل أن الهجر حرام ، وأما قول بعض العلماء وهو إطلاقهم أن المجاهر بالمعصية يهجر فهذا فيه نظر فصار عندنا الهجر إلى ثلاث جائز ، فوق الثلاث فهو حرام إلا للمصلحة والله الموفق .

* * *

١٥٦٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا ، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحَاءٌ » فيقال : أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا ! أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا » رواه مسلم .
وفي رواية له : « تُفَرِّضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمِيسٍ وَاِثْنَيْنِ » ^(١) وَذَكَرَ نَحْوَهُ .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٥) ، والإمام مالك في الموطأ (٩٠٨) ، قوله : « شحناء » أي عداوة وبغضاء .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمته الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تفتح أبواب الجنة في كل يوم اثنين وخميس فيغفر لكل مسلم إلا رجلين بينهما شحنة فيقال : أنظروا هؤلاء حتى يصطلحا وكذلك عرض الأعمال على الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين والخميس فيغفر لكل مسلم إلا رجلين بينهما شحنة فيقال : أنظروا هؤلاء حتى يصطلحا فدل ذلك على أنه يجب على الإنسان أن يبادر بإزالة الشحنة والعداوة والبغضاء بينه وبين إخوانه حتى وإن رأى في نفسه غضاضة وثقلاً في طلب إزالة الشحنة فليصبر وليحتسب ؛ لأن العاقبة في ذلك حميدة ، والإنسان إذا رأى ما في العمل من الخير والأجر والثواب سهل عليه وكذلك إذا رأى الوعيد على تركه سهل عليه ، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يذهب إلى الشخص ، ويقول : يجب أن نصلح بعض ونزيل ما بيننا من العداوة والبغضاء فيماكانه أن يوسط رجلاً ثقة يرضاه الطرفان ويذهب إليه ويقول : إني أجد بينك وبين فلان كذا وكذا فلو اصطلحتم وأزلتم ما بينكم من العداوة والبغضاء ، فيكون هذا حسناً جيداً والله الموفق .

* * *

٢٧٠ - باب تحريم الحسد

وهو تمتي زوال النعمة عن صاحبها : سواء كانت نعمة دين أو دنيا ، قال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] . وفيه حديث أنس السابق في الباب قبله . ١٥٦٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » ، أو قَالَ : « الْعُشْبُ » ^(١) رواه أبو داود .

الشرح

ذكر النووي - رحمه الله تعالى - تحريم الحسد . والحسد هو أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره من علم ، أو مال ، أو أهل ، أو جاه ، أو غير ذلك . والحسد من كبائر الذنوب ومن سمات اليهود - والعياذ بالله - كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي على ما أعطاهم من فضله ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من الحسد وبين أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب . أو قال الخطب ^(٢) . ثم إن الحسد فيه اعتراض على قضاء الله وقدره ؛ لأن الحاسد لم يرض بقضاء الله وقدره ؛ يعني لم

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٣) قوله « يأكل الحسنات » أي يذهبها ويمحوها .

(٢) انظر الحديث بنصه في ابن ماجه في السنن (٤٢١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٧/٣) .

يرض أن الله أعطى هذا الرجل مالا أو أعطاه أهلا ، أو أعطاه علما ، ففيه اعتراض على قضاء الله وقدره ، ثم إن الحسد جمة في القلب والعياذ بالله كلما أنعم الله على عبده نعمة احترق هذا القلب والعياذ بالله حيث أنعم الله تعالى على عباده فتجده دائما في نكد وقلق ، والحسد ربما يحصل منه بغى وعدوان على غيره ممن آتاه الله من فضله ، ربما يشوه سمعته عند الناس ويقول فيه كذا وكذا وهو كاذب أو صادق لكن يريد أن يحسد هذا الرجل على النعمة ، فرما يحصل منه هذا العدوان على أخيه المسلم ، ثم إن الحسد لا يرد نعمة الله على عبده مهما حسدت ومهما بغيت فإنك لن تمنع قدر الله على عباده ، قال النبي ﷺ لعبد الله ابن عباس ؓ : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » ^(١) وإلا فلن يضروك ، فالواجب على الإنسان إذا رأى من نفسه حسدا لأحد أن يتقي الله وأن يوبخ نفسه ويقول لها كيف تحسدين الناس على ما آتاهم الله من فضله ، كيف تكرهين نعمة الله على عباده ، يقول أرأيتي لو كانت هذه النعمة عندك ، أتجبن أن أحدا يحسدك عليها؟ ويوبخها ، يوبخ النفس ، وكذلك يقول لها ، أنت لو حسدت وكرهت ما أعطى الله من فضله فإن ذلك لن يضر المحسود ، بل هو ضرر على الحاسد ، وأشبه ذلك مما يوبخ به نفسه ، حتى يدع ما به من الحسد ، وحين إذن يطمئن ويستريح ولا يتنكد ، ولا يتكدر « اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئ الأخلاق ، فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت » .

* * *

٢٧١ - باب النهي عن التجسس والتسمع لكلام من يكره استماعه

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات: ١٢] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨] .

١٥٧٠ - وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَنَاقَشُوا ، وَلَا تَتَأَسَّسُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَايَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ . الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، وَلَا يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى هُنَا ، التَّقْوَى هُنَا » ويُسَبِّحُ إِلَى صَدْرِهِ « بِحَسْبِ امْرَأٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعِزُّهُ ، وَمَالُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » .

وفي رواية : « لَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٦) ، والحاكم في المستدرک (٥٤١/٣) ، والطبراني في الكبير (١٢٣/١١) ، وأحمد في مسنده (٢٩٣/١) .

وفي رواية : « لَا تَقَاطَعُوا · وَلَا تَدَابِرُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .
وفي رواية : « لَا تَهَاجِرُوا ، وَلَا يَبِغْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » ^(١) .
راوه مسلم بكل هذه الروايات ، وروى البخاري أكثرها .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله تحريم التجسس . والتجسس هو : أن يتبع الإنسان أخاه ليطلع على عوراته سواء كان ذلك عن طريق مباشر ، بأن يذهب هو بنفسه يتجسس لعله يجد عسرة أو عورة ، أو كان عن طريق الآلات المستخدمة في حفظ الصوت ، أو كان عن طريق الهاتف ، فكل شيء يوصل الإنسان إلى عورات أخيه ومساليبه ؛ فإن ذلك من التجسس ، وهو محرم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتُّهُ وَلَا تَحَسَّبُوا ﴾ فهو سبحانه وتعالى عن التجسس ، ولما كان التجسس إيداءً لأخيك المسلم ، أردف المؤلف رحمته الله ما استشهد به من هذه الآية بقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كَتَبْنَا لَهُمْ أَن يَكُونُوا مَيْمَنًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] لأن التجسس أذية ، يتأذى به المتجسس عليه ، ويؤدي إلى البغضاء والعداوة ، ويؤدي إلى تكليف الإنسان نفسه ما لم يلزمه ؛ فإنك تجد المتجسس والعياذ بالله ، مرة هنا ، ومرة هنا ، ومرة هنا ، ومرة ينظر إلى هذا ومرة ينظر إلى هذا ، فقد أتعب نفسه في أذية عباد الله ، نسأل الله العافية ، ومن ذلك أيضًا : أن يتجسس على البيوت ، يعني من التجسس : أن يتجسس على البيوت يقف عند الباب ويستمع لما يقال في المجلس ، ثم يني عليه الظن الكاذب ، والتهم التي ليس لها أصل ، ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة ، في رواياته وأكثرها قد مر علينا ، لكن من أهم ما ذكر « إياكم والظن فإن الظن ؛ أكذب الحديث » وهذا مطابق لقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ [الحجرات : ١٢] لكن في هذه الآية قال الله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ ولم يقل الظن كله ؛ لأن الظن المبني على القرائن لا بأس به ، فهو من طبيعة الإنسان ؛ أنه إذا وجد قرائن قوية توجب الظن الحسن أو غير الحسن ؛ فإنه لا بد أن يخضع لهذه القرائن ، ولا بأس بذلك ، لكن الظن المجرد هو الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « إنه أكذب الحديث » ؛ لأن الإنسان إذا ظن صارت نفسه تحدته ، تقول له : فعل فلان كذا ، وهو يفعل كذا ، وهو يريد كذا وما أشبه ذلك ، وهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه « إنه أكذب الحديث » ، وفيه أيضًا مما لم يمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كونوا عباد الله إخوانا كما أمركم » يعني أنه يجب على الإنسان أن يكون أخًا لأخيه ، بالمعنى المطابق للأخوة ، لا يكن عدوًا له ، فإن بعض الناس إذا صار بينه وبين أخيه معاملة وساء الظن بينهما في هذه المعاملة اتخذ عدوًا ، وهذا لا يجوز ، الواجب أن الإنسان يكون أخًا لأخيه ، في المحبة ، والألفة ، وعدم التعرض له بالسوء ، والدفاع عن عرضه ، وغير ذلك من مقتضيات الأخوة « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يحقره ، ولا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٨) ، وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) .

يكذبه» وهذا أيضًا قد مر علينا سابقًا وقال : « التقوى هاهنا يشير إلى صدره » يعني في القلب ، وإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « إذا صلحت صلح الجسد كله » ^(١) يعني القلب ، بعض الناس تنهاهم مثلًا عن شيء من الأشياء ، أعف اللحية ، حرام عليك أنك تحلقها ، فيقول لك : التقوى هاهنا ، أين التقوى ؟ لو اتقى ما هاهنا لاتقى ما هاهنا - يعني لو اتقى القلب اتقت الجوارح - بعض الناس تنصحه في طول الثوب ، تجد ثوبه إلى أسفل من كعبه ، تنصحه في ذلك ، فيقول لك : التقوى هاهنا أين التقوى ؟ لو كان عندك تقوى في قلبك ، لاتقيت الله تعالى في قولك وفعلك ؛ لأنه إذا صلحت صلح الجسد كله ، لكن بعض الناس - والعياذ بالله - يجادل بالباطل كالكافرن ، جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، ومع ذلك لا يخفى جدالهم بالباطل على من عنده بصيرة ، فإنه يعرف أن هذا جدل ليس له أصل بل هو باطل ، وهذا الحديث الذي ذكره المؤلف بألفاظه ، ينبغي للإنسان أن يتخذه مسارًا له ومنهجًا يسير عليه ويبنى عليه حياته ؛ فإنه جامع لكثير من مسائل الأخلاق التي إذا تجنبها الإنسان حصل على خير كثير . والله الموفق .

١٥٧١ - وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَفْسَدْتَهُمْ ، أَوْ كَذَبْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ » ^(٢) حديث صحيح . رواه أبو داود بإسناد صحيح .
١٥٧٢ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى بِرَجُلٍ فَقِيلَ لَهُ : هَذَا فَلَانٌ تَقَطَّرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا ، فَقَالَ : إِنَّا قَدْ نُهَيْتَا عَنِ التَّجَسُّسِ ، وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرُ لَنَا شَيْءٌ ، نَأْخُذُ بِهِ ^(٣) . حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .
رواه أبو داود بإسناد على شرط البخاري ومسلم .

٢٧٢ - باب النهي عن سوء الظن بالمسلمين من غير ضرورة

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .
١٥٧٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا كُنتُمُ وَالظَّنَّ ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » ^(٤) متفق عليه .

- (١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٩) ، ومسلم في المساقاة (١٠٣) ، والبيهقي في السنن (٢٦٤/٥) .
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٨٨) ، والطبراني في الكبير (٣٧٩/١٩) ، قوله : « إنك إن اتبعت عورات المسلمين » أي إذا تجسست على المسلمين وكشفت ما يخفونه .
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٩٠) ، قوله : « نأخذ به » أي نعامله بمقتضاه من حد وتعزير .
(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٤٠٦٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣) ، وأحمد في مسنده ٤٣٢/٢ . « والظن » أي احذروا الظن السيئ . والظن هو ما يهجس في النفس .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث التي يتبين فيها أن الإنسان لا يتجسس على إخوانه المسلمين ، ولا يتتبع عوراتهم بل ما ظهر منها فإنه يعامل من أظهرها بما يليق به ، وما لم يظهر فلا يجوز التجسس ولا التحسس ، كما في حديث معاوية رضي الله عنه ، أن الإنسان إذا تتبع عورات المسلمين أهلكتهم أو كاد أن يهلكهم ، لأن كثيراً من الأمور تجري بين الإنسان وبين ربه ، لا يعلمها إلا هو ، فإذا لم يعلم بها أحد وبقي عليه ستر الله ﷻ ، وتاب إلى ربه وأتاب حسنت حاله ، ولم يطلع على عورته أحد ، ولكن إذا كان الإنسان والعياذ بالله يتتبع عورات الناس ، ماذا قال فلان وماذا فعل ، وإذا ذكر له عورة مسلم ، ذهب يتجسس ، إما أن يصرح ، وإما أن يلمح فيقول مثلاً ، قالوا : إن فلاناً قال كذا وكذا أو فعل كذا وكذا فينشر ما عنده عند الخلق والعياذ بالله ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه ، تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في بيت أمه » نسأل الله العافية جزاءً وفاً ، مثل من تتبع عورات المسلمين ليفضحهم ، يتتبع الله ﷻ عورته حتى يفضحه « نسأل الله العافية » ولا يغنيه جدران ولا ستور ، وكذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه أتى برجل تقطر لحيته خمراً ، لكنه شربه مختفياً ، ولكن هؤلاء القوم تجسسوا عليه حتى أخرجوا على هذه الحالة ، فبين ﷺ أن من أبدى لنا عورته أو عيبه أخذناه به ، ومن استتر بستر الله فلا نؤاخذه ، وهذا أيضاً يدل على أنه لا يجوز التجسس ، وكذلك حديث أبي هريرة في الباب الذي يليه وقد سبق الكلام عليه أن النبي ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وكذلك الآية التي قبله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ تكلمنا عليها فيما سبق . والله الموفق .

* * *

٢٧٣ - باب تحريم احتقار المسلمين

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَصَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نَسْأَلُ عَنْهُمْ وَلَا يَكُنْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللَّاتِقِبِ يَسْ أَلَا تَأْتُمُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] . وقال تعالى : ﴿ وَبَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً ﴾ ^(١) [الهمزة : ١] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله تحريم احتقار المسلم ، احتقار المسلم هو ازدراؤه والسخرية به ، والاستهزاء به ، والخط من قدره ، وما أشبه ذلك ، وهذا محرم لما فيه من العدوان على أخيك المسلم الذي يجب أن

(١) قوله : ﴿ تَلْمِزُوا ﴾ أي لا يعيب بعضكم بعضاً . واللمز : الطعن بالنسب . قوله : ﴿ تَنَابَرُوا ﴾ أي يدعو بعضكم بعضاً باللقب السوء . قوله : ﴿ الْفُسُوقُ ﴾ أي السخرية واللمز والتنازع . قوله : ﴿ وَبَلِّ ﴾ واد في جهنم . قوله : ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ هو المغتاب قوله : ﴿ لُّمَزَةً ﴾ هو الذي يعيب الناس ويطن فيهم .

تَحَرَّمَهُ وَأَنْ تَكُنْ لَهُ كُلُّ تَقْدِيرٍ ، لِأَنَّهُ أَخْوَكُ وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ^(١) ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُخَرِّقُونَ مِن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ فَوَجَّهَ اللَّهُ الْخُطَابَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَتَوَجَّيْهِ الْخُطَابَ لِلْمُؤْمِنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يَتْلَى عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْإِيمَانِ وَأَنْ فَقْدَهُ وَمَخَالَفَتَهُ نَقْصٌ فِي الْإِيمَانِ ، كَمَا أَنَّ تَصْدِيرَ الْحُكْمِ بِالنِّدَاءِ يَدُلُّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِهِ ، لِأَنَّ النِّدَاءَ يَعْنِي تَنْبِيْهَ الْخَاطِبِ لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ ، يَقُولُ : ﴿ لَا يُخَرِّقُونَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ وَهُمْ الرِّجَالُ ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾ وَهُنَّ النِّسَاءُ الْآيَاتُ ، وَالسَّخَرِيَّةُ قَدْ تَكُونُ فِي هَيْئَتِهِ ، يَسْخَرُ مِنْ هَيْئَةِ هَذَا الرَّجُلِ ، وَقَدْ يَكُونُ كَذَلِكَ فِي خَلْقَتِهِ ، يَسْخَرُ مِنْ خَلْقَتِهِ قَصْرًا أَوْ طَوْلًا ، أَوْ ضَخَامَةً أَوْ نَحَافَةً أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَيَكُونُ كَذَلِكَ سَخَرِيَّةً بِكَلَامِهِ وَتَقْلِيدَ كَلَامِهِ ، اسْتِهْزَاءً وَسَخَرِيَّةً ، كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ السُّفَهَاءِ ، يَقْلِدُ بَعْضُ الْقُرَاءِ أَوْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ، يَقْلِدُ أَصْوَاتَهُمْ سَخَرِيَّةً وَاسْتِهْزَاءً - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَيَكُونُ كَذَلِكَ فِي الْمَعَامَلَةِ يَسْخَرُ بِهِ فِي مَعَامَلَتِهِ النَّاسَ وَكَذَلِكَ بِالْمَشْيَةِ ، الْمَهْمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ سَخَرِيَّةٌ فِي أَخِيكَ ؛ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ لَا يُخَرِّقُونَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾ وَبَيْنَ اللَّهِ ﷻ أَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ . رُبَّمَا يَكُونُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ عِبَادِ اللَّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ هَذَا فِي الْقَوْمِ ﴿ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ هَذَا فِي النِّسَاءِ ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أَيُّ لَا تَعْيِيْبُهَا ، وَقَوْلُ ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَنْ يَعْيِبَ نَفْسَهُ ، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَخَوَةً ، صَارَ أَخْوَكُ كَنَفْسِكَ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ يَعْنِي لَا تَلْمِزُوا إِخْوَانَكُمْ ، لَكِنَّهُ عَبَّرَ بِالنَّفْسِ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ أَخْوَكَ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِكَ ، فَكَمَا أَنَّكَ تَكْرَهُ أَنْ تَلْمِزَ نَفْسَكَ ، تَكْرَهُ أَنْ تَلْمِزَ أَخَاكَ ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ يَنْبِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِاللَّقَبِ ، سَخَرِيَّةٌ بِهِ ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلًا يَعْزِي إِلَى قَبِيلَةٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ اللَّقَبِ الْمَكْرُوهِ ، فَيَنْسِبُهُ إِلَيْهَا ، أَوْ قَبِيلَةٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ اللَّقَبِ الْمُضْحَكِ فَيَنْسِبُهُ إِلَيْهَا ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ نَبَذًا بِالْأَلْقَابِ ، ﴿ يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ أَلْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيْمَانِ ﴾ يَعْنِي إِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ كُنْتُمْ مِنَ الْفَاسِقِينَ ، وَ ﴿ يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ أَلْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيْمَانِ ﴾ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمَزَ أَخَاهُ أَوْ سَخَرُ مِنْهُ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ بِذَلِكَ فَاسِقًا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّخَرِيَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ لِمَزَهُمْ وَأَنْ مَنَابِزَتَهُمْ بِالْأَلْقَابِ كُلُّهَا مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَنْتَبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ يَعْنِي مَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا وَلَمْ يَتَبَّ إِلَى اللَّهِ ﷻ فَإِنَّهُ ظَالِمٌ .

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ آيَةً أُخْرَى وَهِيَ : ﴿ وَبَلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾ وَبَلَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ وَعِيدٌ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ ، وَكُلُّهَا تَفِيدُ الْوَعِيدَ وَالتَّهْدِيدَ عَلَى مَنْ فَعَلَ هَذَا ، ﴿ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾ أَيُّ يَعْيِبُ غَيْرَهُ ، تَارَةً بِالْهَمْزِ وَتَارَةً بِاللِّمَزِ ، فَاللِّمَزُ بِاللِّسَانِ ، وَالْهَمْزُ بِالْجَوَارِحِ ، فَالْهَمْزَةُ اللَّمَزَةُ مَتَوَعَدٌ بِهَذَا ، بِالْوَيْلِ وَالْعِيَاذِ بِاللَّهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ أَحَادِيثَ يَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

١٥٧٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَحْسِبُ امْرِئٌ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ

(١) انظر الحديث في البخاري في اللقطة (٢٤٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٣٢) ، وابن ماجه في السنن (٢١١٩) ، وأحمد في مسنده (٤٩١/٣) ، وأبو داود في السنن (٣٣٥٦) .

المُسْلِمِ» (١).

رواه مسلم ، وقد سبق قريباً بطوله .

١٥٧٥ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَتَعْلُهُ حَسَنَةً ، فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاسِ » (٢) رواه مسلم .

وَمَعْنَى « بَطَرُ الْحَقِّ » : دَفَعُهُ ، « وَغَمْطُهُمْ » : اخْتِفَازُهُمْ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا فِي بَابِ الْكِبَرِ .

١٥٧٦ - وعن مجند بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ رَجُلٌ : وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ ، فَقَالَ اللَّهُ ﻋَظِيمٌ : مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ إِنْ يَدْعُوكَ فَاغْفِرْ لَهُ ، وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ » (٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان تحريم احتقار المسلم ، وقد سبق الكلام على الآيتين اللتين ساقهما المؤلف رحمهما الله أما هذه الأحاديث فمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » بحسب هنا بمعنى كافي ، يعني يكفي المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، وهذا تعظيم لاحترام المسلم ، وأنه شر عظيم ، لو لم يأت الإنسان من الشر إلا هذا ، لكان كافياً ، فلا تحقرن أخاك المسلم ، لا في خلقته ، ولا في ثيابه ، ولا في كلامه ، ولا في خلقه ، ولا غير ذلك ، أخوك المسلم حقه عليك عظيم ، فعليك أن تحترمه وأن توقره ، وأما احتقاره فإنه محرم ، ولا يحل لك أن تحتقره ، وكذلك حديث ابن مسعود وحديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه كلاهما يدل على تحريم احتقار المسلم ، وأنه لا يحل ، حتى إن النبي ﷺ لما حدث بحديث ابن مسعود ، أنه « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » قالوا : يا رسول الله : « إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً » ظن الصحابة رضي الله عنهم أن الإنسان إذا تلبس لباساً حسناً وانتعل نعلًا حسناً ، أن هذا من التعظيم والتعالي والتكبر ، فبين لهم النبي ﷺ أن ليس الأمر كذلك قال : « إن الله جميل يحب الجمال » جميل بذاته جل وعلا وبأفعاله وبصفاته ، وكذلك يحب الجمال ؛ يعني يحب التجميل ، وكلما كان الإنسان متجملًا ، كان ذلك أحب إلى الله إذا كان هذا التجميل مما يسعه ، يعني ليس فقيرًا يذهب يتكلف الثياب الجميلة أو النعل الجميلة ، لكنه قد أنعم الله عليه وتجميل ، فإن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٧) ، والبيهقي ٩٢/٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٨) ، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧) ، والطبراني في الكبير ١٧٧/٢ قوله : « يتألى » أي يحلف . قوله :

« أحبطت عملك » أي أبطلت ثواب عملك .

وكذلك حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه : أن النبي ﷺ أخبر أن رجلاً قال : « والله لا يغفر الله لفلان » ، وكان هذا الرجل عابداً معجباً بعمله محققاً لأخيه الذي رآه مفرطاً ، فأقسم أن الله لا يغفر له ، فقال الله ﻋﻠﻴﻚ : « من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان » يعني من ذا الذي يحلف علي أن لا أغفر لفلان ، والفضل بيد الله يأتيه من يشاء ، « إني قد غفرت له وأحببت عملك » أعوذ بالله ، تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته ، أهلكته ؛ لأنه قال ذلك معجباً بنفسه ، محققاً لأخيه فأقسم أن الله لا يغفر له ، فغفر الله لهذا الرجل ، لأن معاصيه دون الشرك ، أو لأن الله تعالى من عليه فتاب ، وأما الآخر فأحبط عمله ؛ لأنه أعجب بعمله - والعياذ بالله - وتألى على ربه ، وأقسم عليه أن لا يغفر لفلان ، والله تعالى كامل السلطان ، لا يتألى عليه أحد ، ولكن إذا حسن ظن المرء بره ، وتألى على الله في أمر ليس فيه عدوان على الغير ، فإن النبي ﷺ قال : « رُبُّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » ^(١) والله الموفق .

٢٧٤ - باب النهي عن إظهار الشماتة بالمسلم

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(٢) [النور : ١٩] .
١٥٧٧ - وعن عائشة بن الأَمْشَقِ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَتَلَيَّكَ » ^(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
وفي الباب حديث أبي هريرة السابق في باب التَّجَسُّسِ : « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ » الحديث .

٢٧٥ - باب تحريم الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بِهِنَّ وَإِنَّمَا بُغْيَتُنَّ ﴾ ^(٤) [الأحزاب : ٥٨] .
١٥٧٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ : الطُّعْنُ فِي النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ » ^(٥) رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٠) .

(٢) قوله : ﴿ تَشِيعَ ﴾ أي تنتشر . قوله : ﴿ الْفَاحِشَةُ ﴾ أي المنكرات .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٦) قوله : « الشَّمَاتَةُ » هي الفرح .

(٤) قوله : ﴿ بِهِنَّ ﴾ أي بهنَّ ، هو أفحش الكذب .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١) وأحمد في مسنده ٣٧٧/٢ بنحوه . قوله : « النِّيَاحَةُ » هي رفع الصوت بالبكاء .

٢٧٦ - باب النهي عن الغش والخداع

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُوَدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَغْفِرَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فَكَيْفَ احْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَسَبُوا بِهَتْنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

١٥٧٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا ، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » رواه مسلم .

وفي رواية له : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَتَأَلَّتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا ، فَقَالَ : « مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ ؟ » قَالَ : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ !؟ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » ^(١) .

١٥٨٠ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَنَاجَشُوا » ^(٢) متفق عليه .

١٥٨١ - وَعَنْ ابْنِ عُثْمَرَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ التَّجَشُّسِ ^(٣) . متفق عليه .

١٥٨٢ - وَعَنْهُ قَالَ : ذَكَرَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يُخَدِّعُ فِي الْبَيْعِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ بَايَعْتَ ، فَقُلْ : لَا خِلَافَةَ » ^(٤) متفق عليه .

« الخِلَافَةُ » بخاءٍ معجمةٍ مكسورة ، وباءٍ موحدة : وهي الخديعة .

١٥٨٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ خَبَبَ زَوْجَةً امْرِيٍّ ، أَوْ تَمْلُوكَهُ ، فَلَيْسَ مِنَّا » ^(٥) رواه أبو داود .

« خَبَبَ » بخاءٍ معجمة ، ثم باءٍ موحدة مكررة ، أي : أفسدَهُ وَخَدَعَهُ .

الشرح

ذكر المؤلف بايين الأول في الشماتة ، والثاني في الطعن في النسب .

أما الشماتة فهي : التعبير بالذنب أو بالعمل أو حادثة تقع على الإنسان أو ما أشبه ذلك ، فيشيعها الإنسان ويبينها ويظهرها ، وهذا محرم ؛ لأنه ينافي قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فَإِنَّ الْأَخ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤) ، وأحمد في مسنده (٣/٢) ، وابن ماجه في الحدود (٢٥٧٥) ، قوله « صُبْرَةِ طَعَامٍ » أي كومة مجموعة من الطعام . وسُمِّيت صبرة : لإفراغ بعضها على بعض . قوله : « أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ » أي المطر .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (١١) ، وأحمد في مسنده (٢٧٤/٢) ، والنسائي في السنن (٧١/٦) . قوله « لَا تَنَاجَشُوا » أي لا يزد أحدكم في ثمن السلعة ، وهو لا يريد شراءها لكي يوقع غيره في الشراء .

(٣) أخرجه مسلم في البيوع بلفظه (١٣) ، والبخاري في الأب (٦٠٦٤) بنحوه .

(٤) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٧) ، ومسلم في البيوع (٤٨) ، وأحمد في مسنده (٧٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٧٣/٥) .

(٥) أخرجه أبو داود في الطلاق (٢١٧٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) بنحوه ، والبيهقي في السنن (١٣/٨) بنحوه .

لا يجب أن تظهر الشماتة في أخيه ، وكذلك ينافي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحراب : ٥٨] .

ثم ذكر المؤلف حديث : « لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيُوحِشَهُ اللَّهُ وَيَتَيْلِكَ » يعني أن الإنسان إذا عيّر أخاه في شيء ربما يرحم الله هذا المعير ويشفي من هذا الشيء ويحول عنه ، ثم يتلّى به هذا الذي عيّره ، وهذا يقع كثيراً ، ولهذا جاء في حديث آخر ، في صحته نظر لكنه موافق لهذا الحديث : « من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمل » ^(١) فإياك وتعيير المسلمين والشماتة فيهم فربما يرتفع عنهم ما عيرتهم به ويحلّ فيك .

أما الثاني : أي - الباب الثاني - هو الطعن في النسب : فمعناه التعيير بالنسب أو أن ينفي نسبه ، فمثلاً يقول في التعيير : أنت من القبيلة الفلانية التي لا تدفع العدو ولا تحمي الفقير . ويذكر فيها معائب ، أو مثلاً يقول : أنت تدعي أنك من آل فلان ولست منهم ، أنت ما فيك خير ، هؤلاء القبيلة ولو كنت منهم لكان فيك خير ، أو ما أشبه ذلك .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » يعني خصلتان يفعلهما الناس وهما من خصال الكفر ، الطعن في النسب ، والثانية : النياحة على الميت ، النياحة على الميت أن ييكي عليه النساء أو الرجال أيضاً ، لكن النساء أكثر ، على شبه ما تنوح الحمامة ، يعني : يأتين بالبكاء برنة معروفة ، هذا حرام وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم النائحة والمستمعة ^(٢) . ومن النياحة ما يفعله بعض الناس اليوم ، يجتمعون في بيت الميت ويؤتى إليهم بالطعام أو يصنعون لهم الطعام ويجتمعون عليه ، فإن هذا محرم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن النائحة والمستمعة ، وهؤلاء نواح ، لحديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : « كنا نرى الاجتماع في بيت الميت وصنع الطعام من النياحة » ^(٣) ، وهو صحابي جليل معروف ، فالصحابة يرون أن هذا من النياحة ، ولهذا ينهى أهل الميت إذا مات الميت أن يفتحوا أبوابهم للعزاء ؛ لأن ذلك منكر وبدعة ، فالصحابة ما كانوا يفعلون ذلك ، ثم هو فيه نوع من الاعتراض على قضاء الله وقدره ، والواجب على الإنسان الرضا والتسليم ، وأن يقي بابه مغلقاً ، ومن أراد أن يعزّيه يجده في السوق أو في المسجد ، بالنسبة للرجال . وأما النساء فلا حاجة إلى فتح الباب لهن واجتماعهن ، فالمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن النياحة من الكفر « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » ولا يغرنك يعني الناس ، فإن الله يقول : ﴿ وَلَنْ تُلَاقِيَهُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّكَاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] فالمدار ما هو على عمل الناس وأن هذه عادة ، المدار على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٠٥) ، والمنذري في الترغيب (٣١٠/٣) ، والبغوي في شرح السنة (٣١٠/١٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣١٢٨) ، وأحمد في مسنده ٦٥/٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الجنايز (١٦١٢) ، وأحمد في مسنده ٢٠٤/٢ .

وعمل الصحابة رضي الله عنهم ، ما منهم أحد فتح بابه للمعزين أبدًا ، وما اجتمعوا على الأكل بل كانوا يعدون هذا من النياحة ويتعدون عنه أشد البعد ؛ لأن النياحة كما سمعتم كفر ، يعني من خصال الكفر .
والثاني : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لعن النائحة والمستمعة . والله الموفق .

* * *

٢٧٧ - باب تحريم الغدر

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَّخِذُهَا الذِّبْتُ أَمَانًا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

الشرح

ذكر النووي رحمته الله تحريم الغدر . والغدر هو خيانة الإنسان في موضع الاستئمان ، بمعنى أن يأتمنك أحد في شيء ثم تغدر به ، سواء أعطيته عهدًا أم لم تعطه ، وذلك لأن الذي ائتمنك اعتمد عليك ووثق بك ، فإذا خنته فقد غدرت به .

ثم استدلل المؤلف على تحريم الغدر بوجوب الوفاء ؛ لأن الشيء يعرف بضده ، ووجوب الوفاء ساق له المؤلف رحمته الله آيتين ، الآية الأولى قوله تعالى : ﴿ يَتَّخِذُهَا الذِّبْتُ أَمَانًا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ يعني ائتموا بها وافية شاملة على حساب العقد الذي اتفقت مع صاحبك عليه ، وهذا يشمل كل العقود ، يشمل عقود البيع ، فإذا بعث شيئًا على أخيك فالواجب عليك أن تفي بالعقد ، إن كان بينكما شرط فأوفه ، سواء كان عدميًا أم وجوديًا ، فمثلًا إذا بعث على أخيك بيتًا واشترطت عليه أن تسكنه لمدة سنة ، فالواجب على المشتري أن يملكك من هذا وألا يتعرض لك ؛ لأنه شرط عليك أن يسكنه سنة ، وهذا مقتضى العقد ، إذا بعث على أخيك شيئًا واشترطت عليه أن يصبر بالعيب الذي فيه ، يعني قلت : فيه عيب فاصبر به فيجب عليك أن توفي بذلك وأن لا ترده ، وإذا رددته فلا حق لك ، لكن يجب عليك من الأصل ألا ترده .

وها هنا مسألة يتخذها بعض الناس - والعياذ بالله - وهي حرام : بيع الشيء ويعرف أن فيه عيبًا ، ثم يقول للمشتري ، ترى ما بعث عليك إلا ما أملك واصبر بجميع العيوب ، وهذا ما يعرف عندهم في حارات السيارات حارات تحت المكرفون ، تجد السمسار الذي هو الدلال ، تجده ينادي بأعلى صوته ويقول : ترى ما بعث عليك إلا الإطارات ، ما بعث عليك إلا الكيوت ، ما بعث عليك إلا كذا وكذا ، وهو يعلم أن فيها العيب الفلاني لكن لا يذكره خداعًا - والعياذ بالله - لأنه لو ذكره لنقصت القيمة ، فإذا لم يذكره صار المشتري مترددًا ، يحتمل فيها عيب ، يحتمل ما فيها عيب ، فيدفع ثمنًا أكثر مما لو علم بالعيب المعين وهذا الذي باع على هذا الشرط ، ولو التزم المشتري بذلك ، إذا كان بها عيب حقيقة ؛ فإنه لا يبرأ منه يوم القيامة ، سوف يطالب به ولا ينفع هذا الشرط ، الواجب ، إذا علمت في السلعة عيبًا أن تبين أن فيها العيب الفلاني ، نعم لو فرض أن إنسانًا اشترى

سيارة وبقيت عنده يوماً أو يومين ، ولم يعلم بها عيب ، ولم يشترط عليه عيب ، ثم أراد أن يشلم منها قال : بعت عليك هذا الذي أمامك ، معيب أو سليم ، ما علي منها ، فهذا لا بأس به .
والمهم : أن من علم العيب في السلعة يجب أن يبينه ، ومن لم يعلم فله أن يشترط على المشتري أنه لا رد له ، ولا يعود عليه بشيء ، ولا بأس به .

ومن الوفاء بالعقود ما يحصل بين الزوجين عند العقد ، تشترط المرأة شروطاً أو يشترط الزوج شروطاً ، فيجب على من يشترط عليه أن يوفي بالشرط ، مثل أن تشترط عليه ألا تسكن مع أهله ، فيجب عليه أن يوفي ؛ لأن بعض النساء لا ترغب في أن تسكن مع أهل الزوج لكونها سمعت عنهم أنهم نكد ، وأنهم أهل تشويش وأهل نغمة ، فتقول : شرطت ألا أسكن مع أهلك فيجب عليه أن يوفي بذلك ، لأن الله قال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ أو شرطت عليه ألا يخرجها من بيتها ، مثلاً هي ربة أولاد من زوج سابق ، وتزوجها رجل جديد فقالت شرط ألا تخرجني من بيتي ، فيجب عليه أن يوفي بهذا الشرط وألا ينكد عليها ، لا يقول أنا ما أخرجتها من بيتها ، ولكن ينكد عليها حتى تمل وتتعب ، هذا حرام ، لأن الله قال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ اشترطت عليه مهراً معيناً ، قالت : شرط أن تعطيني مهري مثلاً عشرة آلاف ، يجب عليه أن يوفي ، ولا يماطل ؛ لأنه مشروط عليه ، ولكن لو اشترطت هي أو هو شرطاً فاسداً ، فإنه لا يقبل ، مثل لو اشترطت عليه ، قالت : شرط أن تطلق زوجتك الأولى ، فهذا الشرط لا يقبل ، ولا يوفي به وذلك ، لأن النبي ﷺ قال : « لا تسأل المرأة طلاق أختها لتدفع ما في إناثها » ^(١) أو قال : « ما في صحتها » ^(٢) هذا الشرط محرم ، لأنه عدوان على الغير فيكون باطلاً ، ولا يجب الوفاء به ، بل هو لا يجب الالتزام به أصلاً ؛ لأنه شرط فاسد ، أما لو اشترطت ألا يتزوج عليها وقبل فشرط صحيح ؛ لأنه ما فيه عدوان على أحد ، فيه منع الزوج من أمر يجوز له باختياره وهذا لا بأس به ، لأن الزوج هو الذي أسقط حقه وهو ليس فيه عدوان على أحد ، فإذا اشترطت ألا يتزوج عليها فتزوج فلها أن تفسخ النكاح ، رضي أم أبى ، لأنه خالف الشرط .

فالهمم : أن الله أمر بالوفاء بالعقود في كل شيء ، يجب أن تفي بالعقد في كل شيء وألا تخون ولا تغدر ولا تكتم عيباً ولا تدلس ، ويأتي الكلام - إن شاء الله - على الآية الثانية . والله أعلم .

* * *

١٥٨٤ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ ، كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا : إِذَا أُوْتِمِنَ

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠١) ، وأبو داود في السنن (٢١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٢٧٤/٢) جميعهم بلفظ « لتكفي » بدلاً من لتدفع .

(٢) الترمذي في السنن (١١٩٠) ، والطبراني في الكبير (٤١٩/١٢) .

- خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » ^(١) متفق عليه .
- ١٥٨٥ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَابْنِ عُمَرَ ، وَأَنَسٍ رضي الله عنه قَالُوا : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ » ^(٢) متفق عليه .
- ١٥٨٦ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : « لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِئْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَكْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرٍ عَامَّةٍ » ^(٣) رواه مسلم .
- ١٥٨٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا ، فَاسْتَوْفَى مِنْهُ ، وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ » ^(٤) رواه البخاري .

الشرح

ذكر تحريم الغدر ، وقد تقدم معناه ، والكلام على الآية الأولى مما صدر به المؤلف الباب وهي قوله تعالى : ﴿ يَتَّخِذُ الذِّبَءَ مَآثِمًا آثِمُوا بِالْمَعْثُودِ ﴾ أما الآية الثانية فهي قول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ أمر الله أن يوفي بالعهد ، يعني إذا عاهدت أحداً . وقلت : عليك عهد الله ألا أفعل كذا . أو ألا أخبر بما أخبرني به أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه يجب عليك أن تفي بالعهد ؛ لأن العهد سوف تسأل عنه يوم القيامة ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ أي : مسئولاً عنه يوم القيامة ، ثم ذكر أحاديث سبق لنا الكلام عليها ، وأعظمها أنه ينصب لكل غادر يوم القيامة لواء ، واللواء ما يكون في الحرب مثل العلم « يرفع لكل غادر لواء تحت اسمه » والعياذ بالله ، أي تحت مقعده ، ويرتفع هذا اللواء بقدر غدرته إن كانت كبيرة صار كبيراً ، وإن كانت صغيرة صار صغيراً ، ويقال : هذه غدره فلان ابن فلان . والعياذ بالله ، وفي هذا الحديث دليل على أن الغدر من كبائر الذنوب ؛ لأن فيه هذا الوعيد الشديد ، وفيه أيضاً أن الناس يُدْعَوْنَ يوم القيامة بأبائهم لا بأمهاتهم ، وأن ما ذكر من أن الإنسان يوم القيامة يدعى باسم أمه فيقال : يا فلان ابن فلانة ، فليست الحقيقة ، بل إن الإنسان يدعى باسم أبيه كما يدعى به في الدنيا .

وفي الحديث الأخير أيضاً التنبيه على مسألة يفعلها كثير من الناس اليوم ، وهي أنهم يستأجرون

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ، ومسلم في الإيمان (١٠٦) ، وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) . قوله : « كان منافقاً خالصاً » أي شديد الشبه بالمنافقين . قوله : « وإذا خاصم فجر » أي إذا خاصم مال عن الحق . وقال : الباطل والكذب .

(٢) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٦٦) ، ومسلم في الجهاد والسير (٩) ، وأحمد في مسنده (٤١٧/١) ، والبيهقي في السنن (١٦٠/٨) قوله : « غادر » هو الذي يواعد على أمر ، ولا يفي به . قوله : « لكل غادر علامة يشتهر بها بين الناس يوم القيامة .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٥) ، وأحمد في مسنده (٣٥/٣) . قوله : « عند استه » أي خلف ظهره ، وذلك لأن لواء العزة يكون أمام الوجه ، فناسب أن يكون لواء المذلة خلف الظهر زيادة في الفضيحة ؛ لأن الأعين غالباً تمتد إلى الألوكة ، فيكون ذلك سبباً لامتدادها إلى التي بدت له ذلك اليوم ، فيزداد بها فضيحة .

(٤) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٧) ، وابن ماجه في الرهون (٢٤٤٢) . قوله : « أعطى بي » أي حلف بالله أن يؤدي ما عليه .

الأجراء ولا يعطون لهم أجراً ، هذا الذي يفعل يستأجر الأجير ولا يعطيه أجره يكون الله ﷻ خصمه يوم القيامة ، كما قال تعالى في الحديث القدسي : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر ، يعني : عاهد بي ثم غدر ، والثاني : « رجل باع حرّاً فأكل ثمنه » حتى لو كان ابنه أو أخاه الأصغر ثم باعه وأكل ثمنه فخصمه الله يوم القيامة ، والثالث : « هذا الرجل الذي استأجر أجيراً فاستوفى منه وقام الأجير بالعمل كاملاً ثم لم يعطه أجرته » ومن ذلك ما يفعله بعض الناس اليوم في العمال الذي يأتون بهم من الخارج ، تجده يستأجره بأجرة معينة مثلاً ستمائة ريال في الشهر ، ثم إذا جاء به إلى هنا ' لعل به وأذاه ولم يؤد له حقه ، وربما يقول له تريد أن تبقى هنا بأربعمائة ريال وإلا سافرت ، هذا والعياذ بالله يكون الله خصمه يوم القيامة ، ويأخذ من حسناته ويعطيها هذا العامل ؛ لأن قوله إما أن تعمل بأربعمائة وإلا سافرت ، هذا استأجره بستمائة ولم يعطه أجره ، فيدخل في هذا الوعيد الشديد ، وهؤلاء الذي يأتون بالعمال ولا يعطونهم أجورهم ، أو يأتون بهم وليس عندهم شغل ، ولكن يتركونهم في الأسواق ، ويقول : اذهب وما حصلت فلي نصفه ، أو مثلاً يقول : اذهب وعليك في الشهر ثلاثمائة ريال أو أربعمائة ريال ، كل هذا حرام والعياذ بالله ، ولا يحل لهم ، وما أكلوه فإنه سحت ، وكل جسد نبت من السحت فالتار أولى به ^(١) ، وهؤلاء الذين يأكلون أموال هؤلاء العمال المساكين ، هؤلاء لا تقبل لهم دعوة والعياذ بالله ، يدعون الله فلا يستجيب لهم ؛ لأن النبي ﷺ ذكر « الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب . ومطعمه حرام وملبسه حرام ، وغذي من حرام ، فأني يستجاب له » ^(٢) وما يأكل هؤلاء من أجور هؤلاء العمال ؛ فإنهم يأكلونه سحتاً نسأل الله العافية . فعلى الإنسان أن يتقي الله ، أنا أعلم أنكم سوف تبلغون هذا إلى هؤلاء الظلمة والعياذ بالله ، الذين عاقبهم الله عقوبة عاجلة - والعياذ بالله - ما هي العقوبة العاجلة ؟ استمرار هذا العمل والاستمرار فيه والإصرار عليه ، فإن الإصرار على الذنب عقوبة والعياذ بالله إذا لم يمن الله على الإنسان بالتوبة من الذنب ، فاعلم أن استمراره في هذا الذنب عقوبة من الله له ، لأنه لا يرداد بهذا الذنب من الله إلا بعداً ولا تزداد سيئاته إلا كثرة ، ولا يزيد إيمانه إلا نقصاً . فنسأل الله لنا ولهم الهداية والتوفيق .

* * *

٢٧٨ - باب النهي عن المن بالعطية ونحوها

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَبْتَغُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [البقرة: ٢٦٤] . وقال تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ﴾ ^(٣) [البقرة: ٢٦٢] .

(١) وذلك مصداقاً لما رواه الطبراني في الكبير (١٣٦/١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) ، والدارمي في الرقاق (٩) ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

(٣) قوله : ﴿ بِالْمَنِّ ﴾ هو تعداد النعمة على المنعم عليه .

١٥٨٨ - وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » قَالَ : فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . قَالَ أَبُو ذَرٍّ : خَاثِبُوا وَخَسِرُوا ، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الْمُسْبِلُ ، وَالْمَنَانُ ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْخِلْفِ الْكَاذِبِ » ^(١) رواه مسلم .
وفي رواية له : « المسبيل إزاره » يعني : المسبيل إزاره وثوبه أسفل من الكعبيين للخيلاء .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : تحريم المن بالعتاء والصدقة ونحوها ، وذلك أن الإنسان إذا أعطى أحداً من الناس عطاء ، إن كان صدقة ؛ فقد أعطاه الله ﷻ وإن كان إحساناً ؛ فالإحسان مطلوب ، فإذا كان كذلك ؛ فإنه لا يجوز للإنسان أن يمن بالعتية ، فيقول : أنا أعطيتك كذا ، أنا أعطيتك كذا ، سواء قاله في مواجهته أو في غير مواجهته ، مثل أن يقول بين الناس : أعطيت فلاناً كذا ، وأعطيت فلاناً كذا ، ليمُنْ بذلك عليه ، ثم استدل المؤلف لذلك بقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلَوا صَدَقَتِكُمْ بِالنِّعَ وَالْأَذَى ﴾ فدل هذا على أن الإنسان إذا من فإن الصدقة تبطل ولا ثواب له فيها وهو من كبائر الذنوب ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

ثم ذكر حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : الْمُسْبِلُ ، وَالْمَنَانُ ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْخِلْفِ الْكَاذِبِ » .

« المسبيل » : يعني الذي يجر إزاره أو قميصه أو مشلحه خيلاء وتبختراً ، فهذا له هذا العقاب الشديد ، لا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم .

« والمنان » : المنان بما أعطى إذا أعطى أحداً شيئاً صار يمن به .

« والمنفق سلعته بالخلف الكاذب » : يعني الذي يحلف على السلعة حلفاً كاذباً لأجل أن تزيد قيمتها ، هذا أيضاً من الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . والله الموفق .

٢٧٩ - باب النهي عن الافتخار والبغي

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَرْكَبُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَىٰ مِنْ نَفَقَةٍ ﴾ [التجم : ٣٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٤٢] .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧) ، والبخاري في الأحكام (٧٢١٢) ، وأحمد في المسند (٤٨٠/٢) . قوله « ولا ينظر إليهم » أي أنه يعرض عنهم . قوله : « ولا يزكيهم » أي لا يطهرهم من دنس ذنوبهم . قوله : « ولهم عذاب أليم » أي مؤلم ، وهو العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم وجمعه .

١٥٨٩ - وَعَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَقْفِرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » ^(١) رواه مسلم .

قال أهل اللغة : « البغي » : التَّعَدِّي وَالِاسْتِطَالَةُ .

الشرح

ذكر النووي رحمته الله النهي عن الافتخار والبغي .

الافتخار : أن يتمدح الإنسان في نفسه ويفتخر بما أعطاه الله تعالى من نعمة ، سواء نعمة الولد أو المال أو العلم أو الجاه أو قوة البدن ، أو ما أشبه ذلك ، المهم أن يتمدح الإنسان بما أنعم الله عليه فخراً وعلواً على الناس ، وأما التحدث بنعمة الله على وجه إظهار نعمة الله على العبد ، مع التواضع فإن هذا لا بأس به ، لقول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١١] ولقول النبي ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ^(٢) .

فقال : « ولا فخر » يعني لا أفتخر بذلك وأزهو بنفسي .

وأما البغي : فهو العدوان على الغير ، وهو أن يعتدي الإنسان على غيره ؛ إما على ماله ، أو على بدنه ، أو على أهله ، أو على مقامه وما أشبه ذلك ، فالعدوان أنواعه كثيرة ، لكن يضمها كلها أنه انتهاك لحرمه أخيه المسلم ، وهذا أيضاً محرم . ثم استدلل المؤلف بقول الله ﷻ : ﴿ فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ فنهى الله ﷻ عباده أن يزكروا أنفسهم ، يعني أن يمدحوها افتخاراً على الخلق ، فيقول مثلاً لصاحبه : أنا أعلم منك ، أنا أكثر منك طاعة ، أنا أكثر منك مالاً . وما أشبه ذلك ، فهذا - نسأل الله العافية - تزكية للنفس ونوع من الافتخار ولا يعارضه قول الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩] وذلك أن التزكية المنهي عنها هي أن الإنسان يفتخر ويعلو ويزهو بما أعطاه الله تعالى من خير ومن عبادة ومن علم .

وأما : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ فالمراد من سلك بها طريق الزكاة واجتنب طريق الردى ، ولهذا قال : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ وهذه الآيات المتشابهات في القرآن يتخذ منها أهل الباطل حجة في التلبس على الناس ، يقول : انظر إلى القرآن تارة يقول : ﴿ فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وتارة يمدح من زكى نفسه ، ولكن هؤلاء كما وصفهم الله تعالى هم الذي في قلوبهم زيغ - والعياذ بالله - كما قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران : ٧] وإلا فالقرآن لا يمكن أبداً أن يكون فيه شيء متناقض ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] أما القرآن فلا اختلاف فيه ، وقد أورد نافع بن الأزرق الخارجي المشهور عن ابن عباس رضي الله عنه كثيراً من الآيات المتشابهات التي ظاهرها

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٣) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢١٤) ، والطبراني في الكبير (٣٦٥/١٧) . قوله « أوحى إلي أن تواضعوا » أمرني وإياكم بالتواضع والمبالغة فيه . قوله : « لا يبغى أحد » أي لا يستطيل أحد بعلمه أو جاهه أو ماله .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٣) ، والترمذي في السنن (٣١٤٨) ، وأحمد في مسنده (٢٨١/١) .

التعارض ، وأجاب عنها ﷺ في آيات متعددة ذكرها السيوطي في « الإتيان في علوم القرآن » .

ثم استدل على تحريم البغي بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الشورى : ٤٢] السبيل : التبعة واللوم والمذمة على هؤلاء الذين يظلمون الناس في أموالهم ، أو في أعراضهم ، أو في أنفسهم ، أو في أهلهم ، هؤلاء هم الذين عليهم السبيل والتبعة ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ يعني يعتدون بغير الحق ، وإنما وصف الله البغي بغير حق ، لأنه حقيقة ليس بحق ، كل البغي فهو بغير الحق ، فالقيد هنا ليس للاعتراض بل هو لبيان الواقع ، وهو أن كل شيء من البغي فإنه بغير الحق ، وهذا يرد في القرآن كثيرا ، أن تجدد قيما بين الواقع وليس قيما يخرج ما سواه ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] فهنا ليس هناك رب لم يخلقنا ورب خلقنا ، بل هو لبيان الواقع أن الرب هو الذي خلقنا وهو الذي رزقنا ، فالحاصل أن الله تعالى بين أن السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، ثم ذكر حديث عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال : « إن الله أوحى إلي أن لا يبغى أحد على أحد » هذا الشاهد من الحديث ، وهذا يدل على أن البغي أمر عظيم ، فيه عناية من الله ﷻ بين لعباده أنه لا يبغى أحد على أحد ، وأن الإنسان يتواضع لله ﷻ ، ويتواضع في الحق . والله الموفق .

١٥٩٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ : هَلَكَ النَّاسُ ؛ فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ » (١) رواه مسلم .

الرواية المشهورة : « أَهْلُكُهُمْ » برفع الكاف ، وزوي ينصبها . وهذا التثني لمن قال ذلك عجبا بنفسه ، وتضاعفا للناس ، وازتفاعا عليهم ، فهذا هو الحرام . وأما من قاله لما يرى في الناس من نقص في أمر دينهم ، وقاله تحزنا عليهم ، وعلى الدين ، فلا بأس به . هكذا فسرهُ العلماء وفصلوه ، ومن قاله من الأئمة الأعلام : مالك بن أنس ، والخطابي ، والحميدي وآخرون ، وقد أوضحته في كتاب « الأذكار » .

٢٨٠ - باب تحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام
إلا لبدعة في المهجور أو تظاهر بفسق أو نحو ذلك

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (٢) [المائدة : ٢] .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٩) ، وأحمد في مسنده (٣٤٢/٢) .

(٢) قوله : ﴿ الْإِثْمِ ﴾ أي الذنب . قوله : ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أي الظلم .

١٥٩١ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقْطَعُوا ، وَلَا تَدَابِرُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » ^(١) متفق عليه .

١٥٩٢ - وَعَنْ أَبِي أُتُوبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ : يَلْتَقِيَانِ ، فَيَعْرِضُ هَذَا ، وَيَعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » ^(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

١٥٩٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تُغْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ ، فَيَغْفِرُ اللَّهُ لِكُلِّ امْرِئٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا ، إِلَّا امْرَأًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ ، فَيَقُولُ : ائْتِزُّكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يُصْطَلِحَا » ^(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٥٩٤ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ آيَسَ أَنْ يَغْبِطَهُ الْمُضِلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ فِي التَّخْرِيشِ بَيْنَهُمْ » ^(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .
« التَّخْرِيشُ » الْإِفْسَادُ وَتَغْيِيرُ قُلُوبِهِمْ وَتَقَاطُعُهُمْ .

١٥٩٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، فَمَاتَ ؛ دَخَلَ النَّارَ » ^(٥) .
رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ .

١٥٩٦ - وَعَنْ أَبِي خِرَاشٍ حَدَّثَنَا أَبُو حَذْرَدِ بْنِ أَبِي حَذْرَدِ الْأَسْلَمِيِّ - وَيُقَالُ : الشُّلَيْمِيُّ - الصَّحَابِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفَلِكِ دِمِهِ » ^(٦) .
رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١٥٩٧- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوْقَ ثَلَاثٍ ، فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلَاثٌ ، فَلْيَنْقُضْهُ ، فَلْيَسْلَمْ عَلَيْهِ ، فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فَقَدْ اشْتَرَكَا فِي الْأَجْرِ ، وَإِنْ

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٥) ، ومسلم في البر والصلة (٢٣) ، وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٧) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥) ، وأحمد في مسنده (١٧٦/١) ، وأبو داود في الأدب (٤٩١١) . قوله : « يهجر أخاه » أي يقطعه ، قوله : « يعرض هذا » أي يميل بوجهه عن صاحبه .

(٣) أخرجه مسلم في البروالصلة (٣٥) ، والترمذي في الصلاة (٧٤٧) ، وأحمد في مسنده (٢٦٨/٢) . بنحوه . قوله : « شحناء » أى عداوة وبغضاء .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٧) ، وأحمد في مسنده (٣١٣/٣) . قوله : « أيس » أي يس . قوله : « جزيرة العرب » هم ما بين عدن أبين حتى الشام طولاً . ومن: جدة وما والاها من شاطئ البحر إلى ريف العراق .

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩١٤) ، وأحمد في مسنده (٤١٦/٥ ، ٤٢١) . بنحوه قوله : « يهجر أخاه ، أى : يلقاه فلا يسلم عليه ، ولا يكلمه .

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩١٥) ، وأحمد في مسنده (٣٢٠/٤) ، والحاكم في المستدرک (١٦٣/٤) .
 قوله : « فهو كسفك دمه » أى أن إثمه مساو لإثم من سفك دم مسلم عدوانًا وظلمًا .

لَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ ؛ فَقَدْ بَاءَ بِالْإِثْمِ ، وَخَرَجَ الْمُسْلِمُ مِنَ الْهَجْرَةِ ^(١) رواه أبو داود بإسناد حسن ، قال أبو داود : إِذَا كَانَتِ الْهَجْرَةُ لِلَّهِ تَعَالَى ، فَلَيْسَ مِنْ هَذَا فِي شَيْءٍ .

الشرح

هذه الأحاديث كلها مرت علينا فيما سبق وشرحناها ، فلا نعود إليها ، ولكن نتكلم على نقاط مهمة ، منها : حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلُكُم » هذا القول يكون على وجهين :

الوجه الأول : أن يقول هلك الناس ، يعني وقعوا في المعاصي وفسقوا ، يريد بذلك أن يزكي نفسه ، وأن يقدح في غيره ، فهذا هو أهلك الناس ، لأنه يحبط عمله وهو لا يشعر ، كما في قصة الرجل الذي كان يمر برجل فاسق يعصي الله ، وكان ينصحه ، ولكنه بقي على ما هو عليه من الفسوق ، فقال الرجل : والله لا يغفر الله لفلان . قال هذا إعجاباً بنفسه وتألياً على الله ﷻ ، فقال الله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَهُ » لأنه قال ذلك افتخاراً وإعجاباً بنفسه واحتقاراً لهذا الرجل واستبعاداً لرحمة الله ﷻ ، ومن الذي يستبعد رحمة الله إلا جاهل بالله ﷻ قال : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦] فهذا الذي يقول : هلك الناس ، ضاع الناس ، فسق الناس . وما أشبه ذلك ، يريد بهذا أن يزكي نفسه وأن يقدح في غيره ، فهو أهلك الناس ، يعني أشدهم هلاكاً والعياذ بالله .

أما الأحاديث التي ذكرها المؤلف في باب تحريم الهجر ، فقد سبق لنا الكلام عليها مفصلاً وبيننا أنه لا يجوز للمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام ، لكن فيما دون الثلاثة له أن يهجره ، لأن الإنسان ربما يكون بينه وبين أخيه شيء من وقفة الخواطر والشرف عليه ، فيهجره ، هذا رخص له النبي ﷺ ثلاثة أيام فقط ، وبعد ذلك لا بد أن يسلم لكن إذا كان الهجر لمصلحة دينية ، مثل : أن يكون سبباً لاستقامة المهجور ، وتركه المعاصي ؛ فإنه لا بأس به ، بل قد يكون واجباً ، وقد أمر الرسول ﷺ بهجر كعب بن مالك رضي الله عنه وصاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، الذين تخلفوا في غزوة تبوك ، ولما رجع النبي ﷺ من الغزوة جاء المنافقون يعتذرون للرسول (ويحلفون أنهم معذورون) فقال الله تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُتْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَهُمْ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٩٥ ، ٩٦] حتى لو رضيت عنهم ما ينفع ، أما هؤلاء الثلاثة فمن الله عليهم بالصدق ، وصرحوا للرسول ﷺ أنهم تخلفوا بلا عذر ، وكان أشبههم كعب بن مالك رضي الله عنه ، شاب جلد وكان عنده في تلك الغزوة راحلتان يعني غني يستطيع أن يخرج في هذه الغزوة ،

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩١٢) ، والبيهقي في السنن (٦٣/١٠) . قوله : « فقد اشتركا في الأجر » أي أن هذا أخذ ثواب البدء بالسلام . والثاني أخذ ثواب رد السلام .

لكن سولت له نفسه التمهّل : أخرج غداً أخرج غداً . حتى راح الوقت ، ولما رجع النبي ﷺ جاءه كعب بن مالك . وقال : يا رسول الله ، لقد أوتيت جدلاً . أستطيع أن أجادل وأخطب ، ولو جلست عند رجل غيرك عرفت أن أتكلم لكن والله لا أقول شيئاً ترضى به عني اليوم يفرضني الله به غداً ، انظر الإيمان إيمان عجيب ، فقال الرسول ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، اذهب فسيقضي الله فيك وفي صاحبك » ثم أمر الناس أن يهجروهم ، ما يكلموهم ، حتى أقاربهم ، قال : لا تكلموهم ، حتى أحسن الناس خلقاً وأشدّهم تحملاً محمد ﷺ . يقول كعب بن مالك : أتني فأسلم عليه ولم أدر أحرّك شفّتيه برد السلام أم لا . مع أنه أحسن الناس خلقاً - عليه الصلاة والسلام - وكان إذا كنت أصلي نظر إليّ بعينه فإذا نظرت إليه أعرض ، وبقوا على هذا الهجران خمسين ليلة ، كان كعب بن مالك ﷺ يمر بحائط لأبي قتادة وهو ابن عمه وأحب الناس إليه فيسلم على ابن عمه ولا يرد عليه السلام ، ابن عمه وأحب الناس إليه ولكن لا يرد عليه السلام ، طاعة لمن ؟ لله ورسوله ﷺ مَن يُطِيع أَرْسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴿ [النساء : ٨٠] ما يرد عليه السلام ؟ فيكي كعب بن مالك ، وقال : أنشدك الله هل تعلم أنني أبغض الله ورسوله . فسكت ، فناشده فسكت ، وفي النهاية قال : الله أعلم . انظر ما جاب ، قال : الله أعلم ، فرجع ، ثم ابثلي كعب ببليّة عظيمة أرسل إليه ملك غسان ورقة ، قال : إنه بلغنا أن صاحبك فلاك وإنك لست بدار مذلة ولا هوان ، فالحق بنا نؤايبك ، يعني تعال إلينا نوايبك نجعلك مثلنا ملك ، فقلت : هذا من البلاء ، يقول كعب ﷺ : فأخذ الورقة ، وذهب بها إلى التنور وسجر بها النار ، أحرّقها خوفاً من أن تسول له نفسه في يوم من الأيام أن يتقاد لهذا الملك ويذهب ، وهذا من باب دفع المفسدة وسدّ الذرائع ، ولما تمّ لهم أربعون ليلة ، أربعون ليلة لا يكلمهم الناس وقد هجروهم ، أرسل النبي ﷺ إليهم أن اعتزلوا نساءكم ، فجاء الرسول إلى كعب قال : إن رسول الله ﷺ يأمر أن تعتزل امرأتك . قال : أطلقها أم ماذا ؟ يعني أعتزلها فقط وهي في عصمتي أو أطلقها . لو قال طلقها لطلقها وليس عنده بشيء ، قال : هكذا قال الرسول ﷺ ، فقال للمرأة : الحقّي بأهلك . ذهبت إلى أهلها وبقي عشر ليالٍ على هذه الحال التي وصفها الله في كتابه العزيز ﴿ حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَثَمُهُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : ١١٨] فرج الله عنهم ، آتاهم الفرج وتاب الله عليهم ، فأنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ توبتهم في الليل ، فلما أصبح النبي ﷺ ، وصلى الصبح أخبر الصحابة بما أنزل الله ﷻ ، فلما أخبرهم وكان كعب بن مالك ﷺ لضيق الأرض عليه صار لا يستطيع أن يواجه الناس ، يصلي في بيته ، فبينما هو في الليلة التي نزلت فيها التوبة ، يصلي على سطح بيت من بيوتهم ، سمع صارخاً أوفى على سلع - سلع جبل في المدينة معروف - يقول : يا كعب بن مالك أبشر بتوبة الله عليك . هذه والله هي للبشرى العظيمة - نسأل الله أن يتوب علينا - أبشر بتوبة الله عليك ، فاستعار ثوبين من أصحابه وجاء إلى النبي ﷺ ، وإذا بفارس قد ركب فرسه ليشر كعب بن مالك ، ولكن الصوت صار أسرع منه . فلما دخل المسجد وأقبل على النبي ﷺ وإذا وجه الرسول ﷺ الذي كان بالأمس لا يرد عليه السلام ردّاً يسمعه

وإذا هو يتהלل مسروراً - صلوات الله وسلامه عليه - أن الله تاب عليه ، فقال له الرسول ﷺ : « يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » وأخبره بتوبة الله عليه ، فقال : يا رسول الله أمن عندك أم من عند الله ، قال : « بل من عند الله » فشكر الله على ذلك ، فانظر ماذا حصل من هذا الضيق العظيم الذي بقوا فيه على صدقهم وإيمانهم ، أنزل الله فيهم كتابا يتلى إلى يوم القيامة ^(١) ، قصتهم تتلى إلى يوم القيامة يقرأها المسلمون في خلواتهم ، وفي تهجدهم وفي صلواتهم ، ويتقربون إلى الله تعالى بتلاوة قصتهم ، ولهم بكل حرف منها عشر حسنات إذا قرؤوها ، من يحصل له هذه الفائدة ، لكن هذه فائدة اللجوء إلى الله ﷻ ، فإنه ﷻ لا يخيب من رجاءه ، وفائدة الصدق ، فالهم أن هجر كعب بن مالك وصاحبيه كان فيه فائدة عظيمة ، وهي أنهم لجأوا إلى الله وصدقوا الله وصدقوا مع رسول الله ﷺ وثبتوا على إيمانهم ، فكان في هجرهم فائدة كبيرة ، فإذا كان في هجر من فعل معصية لترك واجب أو فعل محرم فائدة يهجر حتى تتحقق الفائدة ، وأما من كان هجره لا يفيد شيئاً بل لا يزيد الأمر إلا شدة وإلا بعداً عن أهل الخير فلا يهجر ؛ لأن الشرع جاء بالمصالح وليس بالمفاسد ، فإذا علمنا أننا لو هجرنا هذا العاصي لم يزد إلا شراً وكراهة لنا وكراهة ما معنا من الخير ، فإننا لا نهجره ، نسلم عليه ونرد عليه السلام ؛ لأنه وإن عصى الله ، المؤمن لا يهجر فوق ثلاث ، هذا هو الحكم فيما يتعلق بالهجر ، وفي النهاية يسوئني أن بعض المسلمين اليوم يمر بعضهم ببعض لا يسلم أحدهم على الآخر ، يتلاقيان يضرب كتف أحدهم كتف الآخر لا يسلم عليه وكأنما مر بجيفة أو يهودي أو نصراني ، مع أنه أخوه ، ومع هذا إذا سلم ، ماذا يستفيد ، عشر حسنات نقداً ، إيمان ، ربوخ إيمان ، محبة ، ألفة ، دخول الجنة . قال النبي ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » ^(٢) فين أن إفشاء السلام من أسباب المحبة والمحبة من الإيمان والإيمان سبب في دخول الجنة . فيؤسفنا جداً أن نرى مسلمين يلتقي بعضهم ببعض ولا يسلم ، بل ربما كانا أئوين زميلين في الدارسة ، سواء في دراسة المسجد أو في دراسة الكلية أو المعهد أو المدارس الأخرى ، لا يسلم بعضهم على بعض ، إذا ما فائدة العلم ، ما فائدة طلب العلم ؟ إذا لم يترّب طالب العلم بالتربية الحسنة التي دل عليها الكتاب والسنة وكان عليها رسول الله ﷺ فما الفائدة من التعليم ؟ فهو والجاهل سواء ، إن لم يكن الجاهل خيراً منه ، ولهذا أحثكم على إفشاء السلام لفوائده العظيمة ، وهو لا يضر ؛ لأنه عمل اللسان ، واللسان لو يعمل من الصباح إلى الغروب ما كل ولا مل فتسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق والعصمة والتوبة إنه على كل شيء قدير .

سؤال وجوابه : رد السلام يكون بقولك : عليكم السلام ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ ﴾ [النساء : ٨٦] فبدأ بالأحسن ثم ذكر الكفاية . ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ۗ ﴾ أما أهلاً وسهلاً ما فيها دعاء ، لكن السلام عليكم دعاء ، فرد عليه بقولك : عليكم السلام .

(١) انظر القصة بنصها في البخاري في المغازي (٤٤١٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٨) ، وابن ماجه في السنن (٣٦٩٢) وأحمد في مسنده (٤٧٧/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٣٢/١٠) .

٢٨١ - باب النهي عن تناجي اثنين دون الثالث بغير إذنه إلا لحاجة وهو أن

يتحدثا سرا بحيث لا يسمعهما ، وفي معناه ما إذا تحدثا بلسان لا يفهمه

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ [المجادلة : ١٠] .

١٥٩٨ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً ، فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ورواه أبو داود وزَادَ : قَالَ أَبُو صَالِحٍ : قُلْتُ لَابْنِ عُمَرَ : فَأَرْبَعَةٌ ؟ قَالَ : لَا يَضُرُّكَ .

ورواه مالك في الموطأ : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ : كُنْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بْنِ عُقْبَةَ النَّبِيِّ فِي الشُّوْقِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُتَاجَبَهُ ، وَلَيْسَ مَعَ ابْنِ عُمَرَ أَحَدٌ غَيْرِي ، فَدَعَا ابْنَ عُمَرَ رَجُلًا آخَرَ حَتَّى كُنَّا أَرْبَعَةً فَقَالَ لِي وَلِلرَّجُلِ الثَّالِثِ الَّذِي دَعَا : اسْتَأْخِرَا شَيْئًا ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ » ^(١) .

١٥٩٩ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً ، فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الْآخِرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُخْرِئُهُ » ^(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

الشرح

من الآداب التي حثَّ عليها الإسلام ورغب فيها ما أشار إليه النووي - رحمه الله تعالى - في النهي عن تناجي اثنين دون الثالث ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ يعني التناجي من الشيطان ، وبين الله ﷻ ماذا يريد الشيطان بهذه النجوى ، قال : ﴿ لِيُخْرِتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا يَذِّنُ اللَّهُ ﴾ وكانوا إذا مر بهم المسلمون يأخذ بعضهم إلى بعض في التناجي ، يعني في الكلام السر ، يتناجون فيما بينهم ، لأجل أن يحزن المؤمنون ويقولون أن هؤلاء أرادوا بنا شراً أو ما أشبه ذلك ، وذلك أن أعداء المؤمنين من المنافقين والكافرين يحرضون دائماً على ما يحزنهم ويمسؤهم ؛ لأن هذا هو ما يريده الشيطان من أعداء الله ، أي : يريد أن يحزن المؤمنين على كل حال ، به وبأوليائه قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا يَذِّنُ اللَّهُ ﴾ فمن توكل على الله واعتمد عليه فإنه لا يضره أحد ، كما قال النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « وَاَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوا بَشِيئَةً لَمْ يَنْفَعُوا إِلَّا بَشِيئَةً قَدْ كَتَبَهَا اللَّهُ لَكَ » ^(٣) فهم يتناجون فيما بينهم لإحزان المؤمنين .

(١) أخرجه البخاري في الاستبذان (٦٢٨٨) ، ومسلم في السلام (٣٦) ، والبيهقي في السنن (٢٣٢٢/٣) ، ومالك في الموطأ (١٥١/٣) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستبذان (٦٢٩٠) ، ومسلم في السلام (٣٧) ، وأحمد في مسنده (١٨/٢) ، والدارمي في السنن (٢٨٢/٢) . قوله : « حتى يختلطوا » أي حتى يختلط الثلاثة بالناس عندها يستطيع أن يتناجي صاحبه .

(٣) سبق تخريجه .

ثم ذكر حديثي ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في هذا المعنى ، وأن الرسول ﷺ نهى أن يتناجى اثنان دون الثالث ، يعني إذا كانوا ثلاثة فإنه لا يحل لاثنتين أن يتناجيا دون الثالث ؛ لأن الثالث يحزن ، ويقول لماذا لم يكلموني ؟ هذا إذا أحسن بهما الظن ، وربما يسيء بهما الظن ، ولكن إذا أحسن بهما الظن قال : لماذا ؟ أنا ليس لي قيمة ، يتناجيان دوني ، فذلك نهى النبي ﷺ عن هذا ، ولا شك أن هذا من الآداب .

فإن قال قائل : إذا كانت بيني وبين صاحبي مسألة لا أحب أن يطلع عليها أحد ، مسألة خاصة ، قلنا : افعل كما فعل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ادع واحدا لتكونوا كم ، أربعة ، فيتناجى اثنان ، واثنان يتكلمان فيما بينهما ، كما كان ابن عمر يفعل رضي الله عنهما ، وكما دل عليه الحديث « حتى تختلطوا بالناس » في حديث ابن مسعود ، فإذا اختلطوا بالناس زالت المشكلة ، ومن ذلك - من التناجى بين اثنين دون الثالث - إذا كانوا ثلاثة واثنين يجيدان لغة أجنبية والثالث لا يجيدها ، فجعلا يتحدثان بلغتهما ، والثالث يسمع ولا يفهم ما يقولان ، هذا نفس الشيء ، لأن ذلك يحزنه ، لماذا تركاني وصارا يتحدثان وحدهما ؟ أو ربما يسيء الظن بهما ، مثل أن يتكلم واحد مع آخر باللغة الإنجليزية ، والثالث لا يعرفها ، فهذا كالتناجيين ، إذ أن رفع الصوت لا يفيدهم شيئا ، فينهى عن ذلك ، فإذا قال قائل : إذا كان له حاجة في أخيه ، قلنا : يفعل كما فعل ابن عمر ، وإذا لم يمكن ولم يقابلهم أحد ، فإنهما يستأذنان منه ، يقولان له أتأذن لنا أن نتكلم ، فإذا أذن لهم في ذلك فالحق لهم ، وحيث لا يحزن ولا يهتم بالأمر . والله الموفق .

* * *

٢٨٢ - باب النهي عن تعذيب العبد والدابة

والمرأة والولد بغير سبب شرعي أو زائد على قدر الأدب

قال الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْقُرْبَىٰ وَالْكَافِرِينَ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالْعَمَلِ وَالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ ﴾ ^(١) [النساء : ٣٦] .

١٦٠٠ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « غُذِبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَمَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا ، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ » ^(٢) متفق عليه .

« خَشَاشُ الْأَرْضِ » بفتح الحاء المعجمة ، وبالشين المعجمة المكررة : وهي هوائها وخشراتها .

(١) قوله : ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ هم أولو الأرحام . قوله : ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ هم الصغار الذين مات أبوهم .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٢) ، ومسلم في السلام (١٥١) ، وأحمد في مسنده (٤٢٤/٢) ، والبيهقي في السنن (٢١٤/٥) .

١٦٠١ - وَعَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ بِفَتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَزُمُونَهُ ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : مَنْ فَعَلَ هَذَا ؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا ^(١) . متفق عليه .

« الْغَرَضُ » : بفتح الغين المعجمة والراء ، وهو الهدف ، والشيء الذي يُزْمَى إليه .
١٦٠٢ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُضَبَّرَ الْبَهَائِمُ ^(٢) . متفق عليه . وَمَعْنَاهُ : تُحْبَسُ لِلْقَتْلِ .

١٦٠٣ - وَعَنْ أَبِي عَلِيٍّ سَوِيدٍ بْنِ مُقَرَّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ بَنِي مُقَرَّنٍ مَالَتَا خَادِمًا إِلَّا وَاحِدَةً لَطَمَهَا أَصْغَرْنَا ، فَأَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُغْفِقَهَا ^(٣) .
رواه مسلم . وفي رواية : « سَابِعَ إِخْوَةَ لِي » .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في النهي عن تعذيب الحيوان والولد والوالد ومن لك ولاية عليه ؛ فإنه يحرم عليك أن تعذبه بضرب أو غيره إلا لسبب شرعي . ثم استشهد بقول الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] هؤلاء كلهم أصحاب الحقوق ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وهم أعظم البشر حقاً عليك ، الأم والأب ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ ﴾ القريب يعني الأقارب من قبل الأم أو من قبل الأب ، واليتامى : الصغار الذي مات آباؤهم ﴿ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ المساكين هم الفقراء ، والجار ذي القربى : الجار القريب ، والجار الجنب : الجار البعيد ، والصاحب بالجنب ، قيل : هي الزوجة وقيل : هو الصاحب في السفر ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المسافر الذي انقطع به السفر ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ هذا الشاهد ، أي : ما ملكت أيمانكم من الأرقاء والبهائم ؛ فإن الإنسان مأمور بالإحسان إليهم إن كان من بني آدم (أرقاء) يطعمهم مما يطعم ويكسوهم مما يكتسي وينزلهم المنازل اللاتقة بهم ولا يكلفهم ما لا يطيقون .

ثم ذكر حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا « أَنْ امْرَأَةً دَخَلَتْ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا » ، الهرة هي القططة ، حبستها ولم تجعل عندها ماء ولم تجعل عندها طعاماً حتى ماتت فدخلت النار بسبب هذه الهرة ،

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥١٥) ، وأحمد في مسنده (٢٩٧/٣) . قوله « نبلهم » أي سهامهم . قوله « فيه الروح » كحيوان أو طير .

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥١٣) ، ومسلم في الصيد والذبائح (٥٨) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٣) والنسائي في السنن (٢٣٨/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢) قوله « من بني مقرن » هم سبعة إخوة كلهم صحابة لم يشاركهم أحد في مجموع ذلك وهم : النعمان ، ومقل ، وعقيل ، وسويد ، وسنان ، وعبد الرحمن ، وعبد الله .

وعُذِّبَتْ بها ، والعياذ بالله ، مع أنها هرة لا تساوي شيئاً ، لكنها أساءت إليها هذه الإساءة حبستها حتى ماتت جوعاً . وفهم من هذا الحديث أنها لو جعلت عندها طعاماً وشراباً يكفي فإن ذلك لا بأس به . ومن هذا الطيور التي تحبس في الأقفاص ، إذا وضع عندها الطعام والشراب ولم يقصر عليها وحفظها من الحر والبرد فلا بأس ، وأما إذا قصر وماتت بسبب تقصيره ؛ فإنه يعذب بها ، والعياذ بالله ، كما عذبت هذه المرأة في الهرة التي حبستها ، فدل ذلك على أنه يجب على الإنسان أن يحرص على ما ملكت يمينه من البهائم ، والآدميون أولى وأحرى ؛ لأنهم أحق بالإكرام .

أما الحديث الثاني : أن ابن عمر رضي الله عنه مر بفتيان بقرش وقد جعلوا طائراً يرمون عليه ، أيهم أشد إصابة ، فلما رأوا عبد الله بن عمر رضي الله عنه تفرقوا هرباً منه ، ثم قال : « ما هذا ؟ » ، فأخبروه ، فقال : لعن الله من فعل هذا ، لعن الله من فعل هذا ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً . وهذا لأنه يتألم ؛ إذ أن هذا يضربه على جناحه ، وهذا يضربه على صدره ، وهذا يضربه على ظهره ، وهذا على رأسه ، فيتأذى ، فلهذا لعن النبي صلى الله عليه وسلم من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً . أما بعد ما مات فقد مات لا يحس بشيء .

وكذلك الحديث الذي بعده : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يقتل الحيوان صبراً ، ومعناه : أن يحبس ثم يقتل ، فإن هذا لا يجوز ، وذلك لأنه إذا حُبس كان مقدوراً على ذبحه وتركته فلا يحل أن يُرمى ، ورميه إيلاًماً له من وجه وإضاعة لماليتيه من وجه آخر . والله الموفق .

١٦٠٤ - وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَذَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسُّوْطِ ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي : « اَعْلَمُ أَبَا مَسْعُودٍ » فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْعَصَبِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَإِذَا هُوَ يَقُولُ : « اَعْلَمُ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ » فَقُلْتُ : لَا أَضْرِبُ تَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا .

وفي رواية : فَسَقَطَ السُّوْطُ مِنْ يَدَيَّ مِنْ هَيْبَتِهِ .

وفي رواية : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ خَرَّ لُجُجِهِ اللَّهُ تَعَالَى ، فَقَالَ : « أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ ، لَلْفَحْتِكَ النَّارُ » ، أَوْ « لَمَسْتِكَ النَّارُ » ^(١) رواه مسلم بهذه الروايات .

١٦٠٥ - وَعَنْ ابْنِ عُثْمَرَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ ، أَوْ لَطَمَهُ ؛ فَإِنْ كَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ » ^(٢) رواه مسلم .

١٦٠٦ - وَعَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه أَنَّهُ مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أَنَاسٍ مِنَ الْأَنْبَاطِ ، وَقَدْ أُقِيمُوا فِي

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤) ، وأبو داود في الأدب (٥١٥٩) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٨) ، والبيهقي في السنن (١٠/٨) . قوله : « للفتحك » أي أحرقتك .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠) ، وأحمد في مسنده (٤٥/٢) .

الشَّمْسِ ، وَصُبَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الزَّيْتُ ! فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قِيلَ : يُعَذِّبُونَ فِي الْحَزَّاجِ - وفي رواية : حُبِسُوا فِي الْجَزْيَةِ - فَقَالَ هِشَامٌ : أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا » فَدَخَلَ عَلَى الْأَمِيرِ ، فَحَدَّثَهُ ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَخُلُوا ^(١) . رواه مسلم .

« الْأَنْبَاطُ » الْفَلَاحُونَ مِنَ الْعَجَمِ .

١٦٠٧ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا مَوْسُومَ الْوَجْهِ ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ لَا أَسْمُهُ إِلَّا أَقْصَى شَيْءٍ مِنَ الْوَجْهِ » وَأَمَرَ بِحِمَارِهِ ، فَكُوِيَ فِي بَجَاعَرَتَيْهِ ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كُوِيَ الْجَاعِرَتَيْنِ ^(٢) . رواه مسلم .

« الْجَاعِرَتَانِ » : نَاحِيَتَا الْوَرِكَينِ حَوْلَ الدُّبُرِ .

١٦٠٨ - وَعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَّمَهُ » ^(٣) . رواه مسلم .

وفي رواية لمسلم أيضًا : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ ، وَعَنِ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ ^(٤) .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي النُّهْيِ عَنْ تَعَذِيبِ الْحَيَوَانِ وَالرَّقِيقِ وَالْوَلَدِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ يُوَدِّعُهُمُ الْإِنْسَانُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالتَّأْدِيبِ هُوَ الْإِصْلَاحُ وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِالتَّأْدِيبِ الْإِيلَامُ وَالْإِيجَاعُ ، وَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَضْرِبَ الْوَلَدَ مَا دَامَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَأَدَّبَ بِدُونِ الضَّرْبِ ، فَإِذَا لَمْ يَتَأَدَّبِ الْأَدَبُ إِلَّا بِالضَّرْبِ فَلَهُ أَنْ يَضْرِبَ ، وَإِذَا ضَرَبَ فَإِنَّهُ يَضْرِبُ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ ، وَاذْكُرُوا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي النِّسَاءِ : ﴿ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ تَتَهُنَّ أَفْعُورُهُنَّ فَعُطُورُهُنَّ وَأَنْفَجُرُهُنَّ فِي الْمَصَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ [النساء: ٣٤] فجعل الضرب في المرتبة الثالثة ، والمقصود من الضرب هو التأديب لا أن يصل إلى حد الإيلام والإيجاع .

وذكر المؤلف أحاديث ، منها حديث أبي مسعود البديري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ غُلَامًا لَهُ ، فَسَمِعَ صَوْتًا مِنَ الْخَلْفِ يَقُولُ : « أَبَا مَسْعُودَ » وَلَمْ يَفْقَهُ مَا يَقُولُ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ ، فَإِذَا الَّذِي يَتَكَلَّمُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا أَبَا مَسْعُودَ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْ قَدْرَتِكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ » يَعْنِي تَذَكُّرَ قُدْرَةِ اللَّهِ ﷻ ، فَإِنَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْ قَدْرَتِكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ ، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ اللَّهُ ﷻ فِي الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ﴿ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤] فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَذَكَرَهُ بِهَذِهِ الْمَوْعِظَةِ الْعَظِيمَةِ ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْهِ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ ،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١١٨) ، وأحمد في مسنده (٤٠٤ / ٣) ، وأبو داود في الخراج والقيء (٣٠٤٥) . قوله : « فخلوا » أي أطلق سراحهم .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٨) . قوله « موسوم » أي به أثر كوي بالنار في وجهه .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٧) . (٤) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٦) .

فسقطت العصا من يده هيبة لرسول الله ﷺ ثم أعتقه ، أعتق العبد ، وهذا من حُسن فهمه ﷺ ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الْسَّيِّئَاتِ ﴾ [مرد: ١١٤] فبدلاً من أنه أساء إلى هذا العبد أحسن إليه بالعتق ، لهذا أرشد النبي إلى هذا بأن من ضرب عبده أو لطمه ، فإن كفارة ذلك أن يعتقه ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات .

ثم ذكر حديث هشام بن حكيم بن حزام ﷺ ، في قصة المحبوسين في الخراج ، والمحبوسين في الخراج هم الأنباط ، وسموا أنباطاً : لأنهم يستنبطون الماء أي يستخرجونه ، وهم فلاحيح (فلاحين) في الشام عليهم خراج ، وكأنهم لم يؤدوه ، فعاقبهم الأمير هذه العقوبة العظيمة ، جعلهم في الشمس في الحر الشديد وصب على رؤوسهم الزيت ؛ لأن الزيت تشتت حرارته مع الشمس ، وهذا عذاب عظيم مؤلم موجه ، فدخل هشام ﷺ إلى الأمير فأخبره ، ففك الأمير أسرهم وأطلقهم ، وفي هذا دليل على حسن سيرة السلف ﷺ في مناصحة الحكام وأنهم يتقدمون إلى الحاكم وينصحونه ، فإن اهتدى ، فهذا المطلوب ، وإن لم يهتد برأت ذمة الناصح ، وصارت المسؤولية على الحاكم ، لكن الحكام الذين يخافون الله ﷻ إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا ، اتعظ هذا الحاكم وأمر بإطلاقهم ؛ فدل هذا على أن التعذيب الذي يصل إلى هذا الحد أنه لا يجوز .

وكذلك أيضًا من الأحاديث التي ذكرها المؤلف : الوسم في الوجه ، وسم الحيوانات في الوجه حرام من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ لعن من فعل هذا ، والوسم هو عبارة عن كيّ يكوي الحيوان ليكون علامة ، ولهذا هو مشتق من السمة ، وهي العلامة ، يتخذ أهل المواشي علامة لهم ، كل قبيلة لها وسم معين ، إما شرطتان ، أو شرطة مربعة ، أو دائرة ، أو هلال ، المهم أن كل قبيلة لها وسم معين ، والوسم هذا يحفظ الماشية إذا وجدت ضالة - يعني ضائعة - عرف الناس أنها لهذه القبيلة فذكروها لهم ، وكذلك أيضًا هي قرينة في مسألة الدعوى ، لو أن إنسانًا وجد بهيمة عليها وسم في يد إنسان وادعى أنها له ؛ فإن هذه قرينة تدل على صدق دعواه ترجح بها دعوى المدعي ، وهي من الأمور الثابتة بالسنة ، فإن النبي ﷺ كان يسم إبل الصدقة وكذلك الخلفاء من بعدهم ، لكن الوسم لا يجوز أن يكون في الوجه ؛ لأن الوجه لا يضرب ، ولا يوسم ، ولا يقطع ، هو جمال البهيمة ، أين يكون الوسم ؟ يكون في الرقبة ، يكون في العضد ، يكون في الفخذ ، يكون في أي موضع من الجسم إلا الوجه ، وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا رأى شيئًا مما يلعن فاعله فقال : « اللهم العن من فعل هذا » فلا إثم عليه ، لو وجدنا بهيمة موسومة في الوجه وقتلنا : (اللهم العن من وسمها) فلا بأس ، لكن ما نقول فلان ابن فلان ، نقول (اللهم العن من وسمها) كما قال النبي ﷺ ، ومثل ذلك إذا رأينا قذرًا في الشارع يعني غائطًا وجدناه في الشارع ، لنا أن نقول : لعن الله من تغوط هاهنا ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « اتقوا الملاعن الثلاثة : البراز في المواني ، وقارعة الطريق ، والظل » ^(١) وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى وجعلنا هداة مهتدين من عباده الصالحين المصلحين .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٦) ، وأحمد في مسنده (٢٩٩/١) ، والحاكم في المستدرک (١٦٧/١) .

٢٨٢ - باب تحريم التعذيب بالنار في كل حيوان حتى النملة ونحوها

١٦٠٩ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْثٍ فَقَالَ : « إِنْ وَجَدْتُمْ فَلَانًا وَفَلَانًا - لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَاهُمَا - « فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ : « إِنِّي كُنْتُ أَمُرْتُكُمْ أَنْ تَحْرِقُوا فَلَانًا وَفَلَانًا ، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا » ^(١) رواه البخاري .

١٦١٠ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَأَنْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ ، فَزَأَيْنَا حُمْرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا ، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ فَجَعَلَتْ تَعْرِشُ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « مَنْ فَجَعَ هَذِهِ يَوْلِدَهَا ؟ زُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا » وَرَأَى قَرْيَةً تَمَلُّ قَدْ حَرَّقَتَاهَا ، فَقَالَ : « مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ ؟ قُلْنَا : نَحْنُ . قَالَ : « إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ » ^(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .
قوله : « قَرْيَةً تَمَلُّ » مَغْنَاءُ : مَوْضِعُ الثَّمَلِ مَعَ الثَّمَلِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - تحريم التعذيب بالنار ، يعني أنه لا يحل لإنسان أن يعذب أحدًا بالإحراق ؛ لأنه يمكن التعذيب بدونه ، ويمكن إقامة الحدود بدون ذلك ، فيكون الإحراق زيادة تعذيب لا حاجة لها .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية وقال : « إِذَا وَجَدْتُمْ فَلَانًا وَفَلَانًا لِرَجُلَيْنِ سَمَاهُمَا « فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ » فاعتمد الصحابة ذلك امتثالاً لأمر النبي ﷺ ، فلما أرادوا الخروج ، قال : « كُنْتُ قُلْتُ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلَّا اللَّهُ ﻻَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا » فنسخ النبي ﷺ أمره الأول بأمره الثاني ، أمره الأول : أَنْ يُحْرَقَا ، وأمره الثاني : أَنْ يُقْتَلَا ، فدل ذلك على أن الإنسان إذا استحق القتل فإنه لا يُحْرَقُ بالنار وإنما يُقْتَلُ قِتْلًا عَادِيًّا حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ .

وكذلك الحديث الذي رواه أبو داود أن النبي ﷺ مضى لحاجته فوجد الصحابة حمرة ، نوع من الطيور ، معها ولداها ، فأخذوا ولديهما ، فجعلت تعرش ، يعني تحوم حولهم ، كما هو العادة أن الطائر إذا أخذ أولاده جعل يعرض ويحوم ويصيح لفقد أولاده ؛ لأن الله ﻻَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ جعل في قلوب البهائم رحمة لأولادها ، حتى إن البهيمة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ^(٣) ، وهذا من حكمة الله ﻻَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فأمر النبي ﷺ أَنْ يُطْلَقَ وَلَدِيهَا لَهَا ، فَأَطْلَقُوا وَلَدِيهَا ، ثُمَّ مَرَّ بِقَرْيَةٍ تَمَلُّ قَدْ أَحْرَقَتْ فَقَالَ : « مَنْ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٦) ، وأحمد في المسند (٣٠٧/٢) ، والبيهقي في السنن (٧١/٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٧٥) ، والطبراني في الكبير (٢١٨/١٠) .

(٣) وذلك مصداقاً لما رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٠) ، ومسلم في التوبة (١٧) ، والدارمي في الرقاق (٦٩) .

أحرق هذا ، « قالوا : نحن يا رسول الله . قرية النمل يعني مجتمع النمل ، جحورها ، أحرقوها بالنار ، فقال النبي ﷺ : « إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » فنهى عن ذلك ، وعلى هذا إذا كان عندك نمل فإنك لا تحرقها بالنار وإنما تضع شيئاً يطردها مثل الجاز إذا صفيته على الجحر فإنها تنفر بإذن الله ولا ترجع ، وإذا لم يمكن اتقاء شرها إلا ببيد يقتلها نهائياً ، أعني النمل ، فلا بأس ؛ لأن هذا دفع لأذاها ، وإلا فالنمل مما نهى النبي ﷺ عن قتله ، لكن إذا أذاك ولم يندفع إلا بالقتل فلا بأس بقتله .

* * *

٢٨٤ - باب تحريم مطل الغني بحق طلبه صاحبه

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] . وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ إِلَىٰ أَوْثِقَيْنِ أَمَانَتَهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

١٦١١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ مَلِيٍّ فَلْيُتْبِعْ » ^(١) متفق عليه .

معنى « أُتْبِعَ » : أُحِيلَ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - تحريم مطل الغنى ، يعني في الحق الذي يجب عليه لغيره ، والمطل هو التأخير ، وهو ظلم ، فإذا كان لك حق على إنسان حال وطلبته منه ولكنه صار يماطل ؛ فإن ذلك ظلم وحرام وعدوان ، ومن ذلك ما يفعله الكفلاء لمكفوليهم ؛ فإنهم - والعياذ بالله - يماطلونهم ويؤذونهم ولا يؤتوهم تجد هذا الفقير المسكين الذي ترك أهله وبلده لينال لقمة العيش ، يبقى أربعة أشهر ، خمسة أشهر وأكثر ، والكفيل يماطل به - والعياذ بالله - ويهدده بأنه إن تكلم سفره ، ألا يعلم هؤلاء أن الله فوقهم ، وأن الله أعلى منهم ، وأنه ربما يسلط عليهم قبل أن يموتوا من يسومهم سوء العذاب ، نسأل الله العافية ، لأن هؤلاء مساكين ، وقد قال النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر ، يعني عاهد بالله ثم غدر والعياذ بالله » ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » ^(٢) فهؤلاء خصماء الله يوم القيامة ، نعوذ بالله من حالهم ، ومكرهم ، ظلم ، وكل ساعة بل كل لحظة تمر عليهم لا يوفون هذا حقه لا يزدادون من الله إلا بعداً ، ولا يزدادون إلا ظلماً ، والعياذ بالله ، والظلم ظلمات يوم القيامة .

ثم استدلل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ ومن الأمانات ثمن المبيع ، إذا باع

(١) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٧) ، ومسلم في المساقاة (٣٣) ، وأحمد في مسنده (٧١/٢) ، وابن ماجه في الصدقات (٢٤٠٤) . قوله : « مطل » أي تأخير ما استحق أداؤه بغير غدر . قوله : « مليء » أي غني .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٤٢) ، والترغيب والترهيب (٢٣/٣) .

عليك إنسان شيئاً وبقي ثمنه في ذمتك فهو يشبه الأمانة ، يجب أن تؤديها ولا يحل لك أن تماطل بها .
 واستدل أيضاً بحديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مطل الغني ظلم ، وإذا أحيل أحدكم على مليء فليتب » فجمع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بين حسن القضاء وحسن الاقتضاء ، أما حسن القضاء فقال : « مطل الغني ظلم » وهذا يتضمن الأمر بالمبادرة إلى إيتاء الحق وألا يتأخر ، فإن فعل فهو ظالم ، وما أكثر الذين يؤتى إليهم يطلب منهم الثمن أو الأجرة ويقول غداً ، بعد غد ، والدرهم عنده في الدرج ، ولكن يلعب به الشيطان ، وكأنه إذا بقيت عنده تزيد ، وكأنها تنقص يعني ينقص صاحب الحق منها ، وعجباً لهؤلاء الذين سفهوا في عقولهم وضلوا في دينهم ، هل يظنون أنهم إذا ماطلوا يسقط عنهم الحق أو ينقص ؟ أبداً الحق باقٍ سواء أعطاه اليوم أو بعد عشرة أيام أو بعد عشر سنين ، لكن الشيطان يلعب بهم . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مطل الغني » يدل على أن مطل الفقير ليس بظلم ، إذا كان الإنسان ليس عنده شيء وماطل فهذا ليس بظالم ، بل الظالم الذي يطلبه ، ولهذا إذا كان صاحبك فقيراً وجب عليك أن تنظره وألا تطلبه وألا تطالبه به لقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ كُنْتَ ذُو غُرْبَةٍ مَّقْضَرًّا لِّإِيَّائِي مَيَّسَرَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] فأوجب الله الانتظار إلى الميسرة ، وكثير من الناس يكون له الحق عند الفقير ويعلم أنه فقير ويطلبه ويشدد عليه ويرفع بشكواه إلى ولاية الأمور ويحبس على دينه وهو ليس بقادر ، هذا أيضاً حرام وعدوان ، ويجب على القاضي إذا علم أن هذا فقير وطالبه من له الحق يجب عليه أن ينهر صاحب الحق وأن يوبخه وأن يصرفه ؛ لأنه ظالم ، فإن الله أمره بالانتظار ﴿ وَلَئِنْ كُنْتَ ذُو غُرْبَةٍ مَّقْضَرًّا لِّإِيَّائِي مَيَّسَرَةٌ ﴾ ولا يحل له أبداً أن يقول له أعطني حقي ، وهو يدري أنه فقير ، ولا يتعرض له .
 وقوله : « من أحيل على مليء فليتب » يعني إذا كان إنسان له حق على زيد وقال له زيد : أنا أطلب عمراً مقدار حقي ، يعني ، مثلاً زيد مطلوب ١٠٠ ريال وهو يطلب عمراً ١٠٠ ريال فقال : أنا أحيلك على عمرو في ١٠٠ ريال ، فليس للطالب أن يقول لا أقبل ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « من أحيل على مليء فليتب » ^(١) إلا إذا كان المحول عليه فقيراً أو ماطلاً أو قريباً للشخص لا يستطيع أن يرافعه عند الحاكم .
 المهم : إذا وجد مانع فلا بأس أن يرفض الحوالة ، وأما إذا لم يكن مانع فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقبل الحوالة ، قال : « فليتب » .

واختلف العلماء : هل هذا على سبيل الوجوب أو أن هذا على سبيل الاستحباب ؟
 فذهب الحنابلة - رحمهم الله - إلى أن هذا على سبيل الوجوب ، وأنه يجب على الطالب أن يتحول إن حوّل على إنسان مليء ، وقال أكثر العلماء : إنه على سبيل الاستحباب ، لأن الإنسان لا يلزمه أن يتحول ^(٢) . قد يقول صاحب الأول أهون وأيسر وأما الثاني فأهابه وأخاف منه وما أشبه ذلك ، لكن لا شك أن الأفضل أن يتحول إلا لمانع شرعي . والله الموفق .

(١) ذكره - بهذا اللفظ - البخاري في الكبير (٢٣٩/١) ، والزريعي في نصب الراية (٥٩/٤) .

(٢) راجع ذلك بتفصيله في المغني (٥٧٧/٤) ، وبدائع الصنائع (١٦/٦ ، ١٧) ، ومغني المحتاج (١٩٤/٢) ، وفيه الكتاب والسنة (١٧٨٥/٣ - ١٧٩٣) .

٢٨٥ - باب كراهة عودة الإنسان في هبة لم يسلمها

إلى الموهوب له وفي هبة وهبها لولده وسلمها أو لم يسلمها

وكراهة شرائه شيئاً تصدق به من الذي تصدق عليه أو أخرجه

عن زكاة أو كفارة ونحوها ولا بأس بشرائه من شخص آخر قد انتقل إليه

١٦١٢ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الَّذِي يَعُودُ فِي هَبْتِهِ كَالْكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْبِهِ » متفقٌ عليه .

وفي رواية : « مَثَلُ الَّذِي يَرْجِعُ فِي صَدَقَتِهِ ، كَمَثَلِ الْكَلْبِ يَقِيءُ ، ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْبِهِ فَيَأْكُلُهُ » .
وفي رواية : « الْعَائِدُ فِي هَبْتِهِ كَالْعَائِدِ فِي قَيْبِهِ » ^(١) .

١٦١٣ - وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ : حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَضَاعَهُ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِيَهُ ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَبِيعُهُ بِرُخْصٍ ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « لَا تَشْتَرِهِ ، وَلَا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ وَإِنْ أَعْطَاكَ بِدْرَهُمْ ؛ فَإِنَّ الْعَائِدَ فِي صَدَقَتِهِ كَالْعَائِدِ فِي قَيْبِهِ » متفقٌ عليه .
قوله : « حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » مَعْنَاهُ : تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَى بَعْضِ الْمُجَاهِدِينَ ^(٢) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله ما يدل على تحريم الرجوع في الهبة ، يعني أنك إذا أعطيت إنساناً شيئاً مجاناً تبرعاً من عندك ؛ فإنه لا يحل لك أن ترجع فيه ، سواء كان قليلاً أم كثيراً ، لأن النبي ﷺ شبه العائد في هبته بالكلب ، الكلب يقيء ما في بطنه ثم يعود فيأكله ، وهذا تشبيه قبيح ، شبه النبي ﷺ العائد في هبته بهذا تقييخاً له وتنفيراً منه ، ولا فرق بين أن يكون الذي وهبته من أقاربك أو من الأبعد عندك ، فلو وهبت لأخيك شيئاً ، ساعة أو قلماً أو سيارة أو بيتاً ، فإنه لا يحل لك أن ترجع فيه ، إلا أن ترضى لنفسك أن تكون كلباً ، ولا أحد يرضى لنفسه أن يكون كلباً ، وكذلك الابن لو وهب لأبيه شيئاً ؛ فإنه لا يرجع فيه ، كرجل غني له أب فقير ، فوهبه بيتاً ، فإنه لا يجوز له أن يرجع في الهبة ولو كان أباه ، أما العكس ، لو أن الرجل وهب ابنه شيئاً ، فلا بأس أن يرجع فيه ، لقول النبي ﷺ « لَا يَحِلُّ لَوَاهِبٍ أَنْ يَرْجِعَ فِيهَا وَهَبَ ، إِلَّا الْوَالِدُ فِيمَا يَعْطِي وَلَدَهُ » ^(٣) لأن الوالد له الحق أن يأخذ من مال ولده الذي لم يهبه له ما لم يضره .

ثم ذكر أيضاً حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أَنَّهُ حَمَلَ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَعْنِي أَعْطَى رَجُلًا

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٢١) ، ومسلم في الهبات (١٦٢٢) ، والنسائي في السنن (٢٦٦/٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٢٣) ، ومسلم في الهبات (١٦٢٠) ، وأحمد في مسنده (٢٥/١) . قوله « فأضاعه الذي كان عنده » أي قصر في القيام بعلفه ومؤنته . قوله : « حملت » أي تصدقت ووهبت لمن يقاتل .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٧٩/٦) ، والبيهقي في شرح السنة (٣٠٠/٨) .

فرسًا يقاتل عليه ، فأضاعه الرجل وأهمله ، فظن عمر عليه السلام أنه يبيعه برخص ، وأنه ليس قادرًا على تحمل مؤونته ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فقال : « لا تشتريه ولو أعطاكه بدرهم » لأنك أخرجه لله ، ولا يمكن للإنسان أن يشتري صدقته ؛ لأن ما أخرجه الإنسان لله لا يعود فيه ، ولهذا قال : « العائد في صدقته كالكلب يقىء ثم يعود في قيئه » فتركه عمر عليه السلام .

هذا إذا قبض الموهوب له الهبة ، أما قبل قبضها : فهذا لا يحرم عليه أن يعود ، لكن يوفي بوعده ، كما لو قال شخص لآخر : سوف أعطيك ساعةً مثلاً . ولكنه لم يسلمها له ، فله أن يرجع لكن ينبغي أن يفي بوعده ، لأن الذي لا يفي بما وعد فيه خصلة من خصال النفاق ، ولا يجوز للإنسان أن يتحلى بخصال المنافقين . والله الموفق .

٢٨٦ - باب تأكيد تحريم مال اليتيم

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] . وقال تعالى : ﴿ وَسَيَلَوْنَكَ عَنِ الَّتِي نَقَلْ إِسْلَاحَ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلْيَخَوِّنِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

١٦١٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « اجْتَنِبُوا شَبَعَ الْمُرَبَّاتِ » قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسُّخْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ » ^(١) متفق عليه .

« المُرَبَّاتُ » المهلكات .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في تحريم أموال اليتامى . اليتامى هم الذين مات آباؤهم قبل البلوغ ، سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا ، وهؤلاء ، أعني اليتامى ، محل الرفق والعناية والرحمة والشفقة ؛ لأنهم كسرت قلوبهم بموت آبائهم وليس لهم عائل إلا الله عز وجل ، فكانوا محل الرفق والعناية ، ولهذا أوصى الله بهم في كتابه وحث على الرحمة بهم في آيات كثيرة ، ولا يحل للإنسان أن يأكل أموال اليتامى ظلماً ، لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

(١) قوله : ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ أي يتلفون ويستولون عليها . وقوله : ﴿ وَسَيَلَوْنَكَ سَعِيرًا ﴾ أي سيدخلون نار جهنم . قوله : ﴿ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ أي تخلطوا طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (٨٩) وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤) والبيهقي في السنن (٢٨٤/٦) . قوله : « وأكل مال اليتيم » أي التسلط عليه وتلافه . قوله : « والتولي يوم الزحف » أي الهروب من ساحة المعركة أثناء القتال . قوله : « المحصنات » أي العفيفات . قوله : « الغافلات » أي الغافلات عن الفواحش وما قذفن به .

وَسَبَقُواكَ صَوِيرًا ﴿ [النساء: ١٠] ويوجد بعض الناس - والعياذ بالله - يموت أخوه ويكون له أولاد صغار، فيتولى ماله ويتاجر به لنفسه - والعياذ بالله - ويتصرف فيه بغير حق وبغير مصلحة للأيتام، وهؤلاء يستحقون هذا الوعيد أنهم يأكلون في بطونهم نارًا، نسأل الله العافية.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] يعني لا تتعاملوا في أموال اليتامي إلا بالتي هي أحسن، فإذا كان أمامك مشروعان تريد أن تشغل مال اليتيم في واحد منهما فانظر أيهما أقرب إلى المصلحة والربح والسلامة فافعل، ولا يحل لك أن تفعل ما هو أسوأ لحظ نفسك، أو لحظ قريب، أو ما أشبه ذلك، بل انظر للذي هو أحسن، فإن أشكل عليك، هل فيه مصلحة لليتيم أم لا؟ فلا تتصرف، لا تتصرف، أمسك الدراهم، لأن الله قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ فإذا أشكل عليك فلا تفعل، ولا يحل لك أن تقرض أحدًا من مال اليتامي، يعني جاء إنسان يقول: سلفني مثلاً ١٠٠٠٠ ريال أو ١٠٠٠٠٠ ريال وعندك مالاً لليتيم، لا يحل لك أن تقرضه، لأنه قد يعجز عن الوفاء ولا مصلحة لليتيم في قرضه، وإذا كان لا يجوز أن تقرضه غيرك فمن باب أولى أن لا تستقرضه أنت لنفسك، وبعض أولياء اليتامي - والعياذ بالله - يتجرأون، يستقرض مال اليتيم لنفسه ويتصرف فيه لنفسه والكسب له والربح له، ومال اليتيم لا يستفيد، والله يقول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فإذا رأيت أن هذا المشروع أحسن وساهمت فيه، وقدر الله أن يخسر هذا المشروع فليس عليك شيء، لأنك مجتهد، والمجتهد لو أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر، لكن تتعمد أن تترك ما هو أحسن لما دونه، هذا حرام عليك.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُمُ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وهذه الآية وردت جواباً عن سؤال أوردته الصحابة على الرسول ﷺ قالوا: يا رسول الله نحن عندنا أموال اليتامي، والبيت واحد والطعام واحد، كيف نعمل، إن جعلنا طعام هؤلاء في إناء خاص تبعدنا، وربما يفسد عليهم، ماذا نعمل؟ فقال الله ﷻ: ﴿ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُمُ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ يعني افعلوا ما هو الأصلح وخاطبوا، اجعلوا القدر واحد والإناء واحد، وما دمتم تريدون الإصلاح، فالله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعتكم وشق عليكم لكنه سبحانه وتعالى رحيم بالمؤمنين.

ثم ذكر حديث أبي هريرة ؓ: أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» السبع الموبقات المهلكات التي تهلك الدين والعياذ بالله، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله» وهذا أعظم الموبقات، أن تشرك بالله ﷻ وهو خلقك وأنعم عليك في بطن أمك، وبعد وضعك، وفي حال صباك، أنعم الله عليك بنعم كثيرة فتشرك به والعياذ بالله! هذا أظلم الظلم، أظلم الظلم أن تجعل لله نداً وهو خالقك، وهذا أعظم الموبقات، الإشراك بالله.

والإشراك بالله أنواع كثيرة منها:

- أن يعظم الإنسان المخلوق كما يعظم الخالق، وهذا موجود عند بعض الخدم، الأحرار وغير

الأحرار ، تجده يعظم رئيسه ، يعظمه ملكه ، يعظم وزيره أكثر من تعظيم الله - والعباد بالله - هذا شركٌ عظيم ، تعظم مخلوقاً مثلك أعظم من تعظيم الله ! ويدل لهذا أن أميره أو وزيره أو ملكه ، أو سيده إذا قال افعل كذا وقت الصلاة ترك الصلاة وفعل ، حتى لو خرج وقتها لا يبالي ، معناه أنه جعل تعظيم المخلوق أعظم من تعظيم الخالق .

ومن ذلك أيضاً : المحبة ، أن يحب أحداً من المخلوقين كمحبة الله أو أعظم ، تجده يداري هذا الإنسان ويطلب محبته أكثر من محبة الله ، وهذا يوجد - والعباد بالله - في المفتونين بالعشق ، الذين فتنوا بالعشق سواء كان عشق نساء أو غيرهم ، تجد قلبه مملوءاً بمحبة غير الله أكثر من محبة الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (١) [البقرة : ١٦٥] . ومن ذلك : وهو أمر خفي ، من ذلك الرياء ، فإنه من الشرك بالله ، يقوم الإنسان يصلي ويزين صلاته لأن فلاناً يراه ، ينظر إليه ، يصوم ليقال : إنه رجل عابد يصوم ، يتصدق ليقال إنه رجل كريم يتصدق هذا رياء ، وقد قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » .

ومن ذلك أيضاً : من الشرك ، وهو خفي أيضاً : أن تأخذ الدنيا لبب الإنسان وعقله تجده عقله ، وفكره وبدنه ونومه ويقظته كلها في الدنيا ، ماذا كسب اليوم وماذا خسر ؟ ولذلك تجده يتحيل على الدنيا بالحلال والحرام ، والكذب والخديعة لولاء الأمور ، ولا يبالي ؛ لأن الدنيا استعبده - والعباد بالله - والدليل على هذا الشرك قول النبي ﷺ : « تعس عبد الدينار » هل تظنون أن هذا يسجد للدينار ، لا ، لكن الدينار ملك قلبه « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة » يعني : الثياب « تعس عبد الخميصة » يعني الفرش ، ما همه إلا تجميل ثيابه تجميل فراشه أكبر عنده من الصلاة وغيرها من عبادة الله « تعس إن أعطى رضي وإن لم يَغْطُ سَخَطُ » (٢) إن أنعم الله عليه قال : هذا الربُّ الكريم العظيم الجليل الذي يستحق كل شيء وإن لم يَغْطُ سَخَطُ ، والعباد بالله ﴿ يَبْعُدُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ يقول الرسول ﷺ : « إن أعطى رضي وإن لم يَغْطُ سَخَطُ تعس وانتكس ، خسر ، انتكس ، انتكست عليه الأمور وأفسد الله عليه أمره » وإذا شيك فلا انتكش يعني : معناه أن الله يعسر عليه الأمور حتى الشوكة لا يقدر يطلعها من بدنه « إذا شيك » أي : أصابته الشوكة « فلا انتكش » ثم قال في مقابل هذا « طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله » طوبى : يعني الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة لهذا العبد « لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعت رأسه مغبرة قدماء » انظر الأول : عبد خميصة وخميصة ، أما

(١) قوله ﴿ أَندَادًا ﴾ أمثلاً ونظراء ، والمراد بها الأصنام والأوثان التي اتخذوها آلهة . وقيل : الرؤساء الذين يطيعونهم طاعة الأرباب .

(٢) الحديث أخرجه بلفظ ابن ماجه في السنن (٤١٣٥) ، والبيهقي في السنن (١٥٩/٩) ، والهيثم في مجمع الزوائد (٣٤٨/١٠) ، وأخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦) بلفظ « تعس عبد الدينار والدرهم والقטיפه » .

الثاني : ما يبالي بنفسه ، أهم شيء عنده هو عبادة الله ورضا الله « أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الساقية كان في الساقية » ^(١) ، يعني معناه أنه لا يبالي أية منزلة ينزلها ، إذا كانت فيها مصلحة الجهاد فإنه يكون فيها ، هذا هو الذي ربح الدنيا والآخرة .

فالحاصل : أن من الناس من يشرك بالله وهو لا يعلم ، وأنت يا أخي إذا رأيت الدنيا قد ملأت قلبك وأنه ليس لك هم إلا هي ، تنام عليها وتستيقظ عليها ، فاعلم أن في قلبك شركاً لأن الرسول ﷺ قال : « تعس عبد الدينار » ويدل لهذا أنه يحرص على الحصول على المال سواء بالحلال أو بالحرام . والذي يعبد الله حقاً لا يمكن أن يأخذ المال بالحرام إطلاقاً ؛ لأن الحرام فيه سخط الله والحلال فيه رضا الله ﷻ ، والإنسان الذي يعبد الله حقاً يقول لا يمكن أن آخذ المال إلا بطريقه ولا أصرفه إلا بطريقه . فالحاصل : أن الرسول ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا : وما هن ، قال : « الشرك بالله » ^(٢) .

قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » فأبهمها « اجتنبوا السبع الموبقات » ولم يبينها لأول مرة لأجل أن يتشوف الناس إليها حتى ترد على أذهانهم وهم مستعدون لها ، ولهذا قالوا : ما هن يا رسول الله ؟ قال : « الإشراك بالله » وسبق لنا أن الإشراك بالله أنواع .

الثاني : السحر ، والسحر عبارة عن عقْد ورقي يعني قراءات مطلسمه في صور الشياطين وعفاريت الجن ، ينفث بها الساحر فيؤذي المسحور بمرض أو موت أو صرف أو عطف صرف : يعني يصرفه عن ما يريد ، عطف : يعني يعطفه على ما لا يريد ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرَّقُونَ بِهِ بَيْنَ آلَمَرِ وَآلَمَرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهو من كبائر الذنوب ، والساحر يجب أن يقتل حداً ، سواء تاب أو لم يتب ، وذلك لعظم مضرته على الناس وشدة جرأته - والعياذ بالله - ولهذا جاء في الحديث « حد الساحر ضربُه بالسيف » وفي رواية « ضربة بالسيف » ^(٣) ثم إن السحر منه ما يكون كفراً ، وهو أن يستعين بالشياطين والجن وهذا كفر ، لقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا عَلَى الْبَشَرِ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا يَكْفُرُ بِهِ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ شَرِكٌ ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهذا نص صريح بأن السحر كفر إذا كان متعلقاً من الشياطين ؛ لأن الشياطين لا يمكن أن تخدم الإنسان إلا بشيء يكون شركاً ، وقد سحر النبي ﷺ ، سحره يهودي خبيث ، يقال له لبيد بن الأعصم ، وضع له سحرًا في بئر في مُشيط ومُشَاطة وجُفْ طَلْعَة ذَكَر - يعني النخلة الفحل - لجمرته جف يسمى الكافور أو الكفرة ، هذا الخبيث ، وضع السحر للرسول (في مشط ، المشط الذي يمشط به عادة ، مُشَاطة يعني : ما سقط من الشعر عند المشط ، فوضعه في هذا البئر ، لكن لم يؤثر على النبي

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٨٧) والبيهقي في السنن (١٥٩/٩) .

(٢) بعد هذا الجزء قام الشارح رحمه الله بذكر باب تغليظ تحريم الربا ولم يستكمل بقية شرح الحديث إلا بعد شرح الآيات ثم عاد وذكر الحديث مرة أخرى ، وقد قمنا بمتابعة الشرح إتماماً للفائدة وترتيباً لموضوعات الكتاب .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٦٠) ، والحاكم في المستدرک (٣٦٠/٤) .

ﷺ في أمر يتعلق بالرسالة أبداً ، لكن صار يخيل إليه أنه أتى أهله أو أنه فعل الشيء ولم يفعله ، حتى أنزل الله ﷻ سورتي ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١] و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس: ١] فرقاه بهما جبريل ، فشفي بإذن الله ، ثم استخرج السحر من هذه البئر وفله وأبطله ^(١) . وهذا دليل على خبث اليهود وأنهم من أشد الناس عداوة ، بل قال الله تعالى : ﴿ تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ فبدأ باليهود قبل المشركين ، فهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، ولهذا سحروا النبي ﷺ ولكن الله ، ولله الحمد ، أبطل سحرهم .

فصار السحر ينقسم إلى قسمين : سحر كفر وهو الاستعانة بالأرواح الشيطانية ، وغير كفر وهو أن يكون بالعقد والأدوية والأخشاب وما أشبه ذلك ، أما حكم الساحر فإنه يجب أن يقتل بكل حال إن كان كافراً فلردته ، وإن كان سحره دون الكفر فلاذيته ^(٢) ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ .. ﴾ [المائدة: ٣٣] الإشرak بالله والسحر .

والثالثة : « وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق » والنفس التي حرم الله قتلها أربع نفوس : المسلم ، الذمي ، المعاهد ، المستأمن ، هذه أربع نفوس محترمة لا يجوز قتلها ، المسلم فظاهر .
وأما الذمي : فهو الذي يكون بيننا وفي بلدنا من أهل الكتاب أو غيرهم ، يدفع الجزية لنا ونحميه مما يؤذيه ، ونحترمه وإن كان على غير الإسلام .

وأما المعاهد : فهو الذي بيننا وبينهم عهد وإن كانوا في بلادنا كما جرى بين النبي ﷺ وبين قريش في صلح الحديبية ، فإذا كان من المعاهدين حرم عليك أن تقتله ، وهو نفس معصومة .
وأما المستأمن : فهو الذي يدخل لبلادنا بأمان ، نعطيه أماناً ، إما لكونه تاجراً يجلب تجارته ويشترى ، أو لأنه يريد أن يبحث عن الإسلام ، ويعرف الإسلام ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتِّخَفْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦] .

أما الحربي : الذي بيننا وبينه حرب ، وليس بيننا وبينه عهد ولا ذمة ولا أمان فهذا يحل قتله ، لأنه ليس بيننا وبينه عهد ، بل هو محارب لنا ، لو تمكن منا لقتل من يقتل من المسلمين ، فهذا لا عهد له ولا ذمة .
قوله : « التي حرم الله إلا بالحق » يعني أن النفوس المحترمة ، قد يكون من الحق أن تقتل وهي محترمة ، مسلم أو ذمي أو معاهد أو مستأمن ، تقتل مثل قول الرسول ﷺ : « لا يحل دم امرئ

(١) انظر الحديث والقصة في البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٨) ، ومسلم في السلام (٤٣) ، وأحمد في مسنده (٥٧/٦) .

(٢) هذا هو قول الحنفية والمالكية والحنابلة وهو مروي عن عمر وعثمان وابن عمرو حفصة وأبي موسى ، وعن جماعة من التابعين . أما الشافعية فقالوا : إما يقتل الساحر إذا كان يعمل سحره ما يبلغ الكفر ، فإذا عمل عملاً دون الكفر فلا قتل عليه ، وقالوا : يطلب منه أن يصف سحره فإن بين ما يوجب الكفر كان كافراً فيقتل (انظر . أحكام القرآن لابن العربي ٣١/١ ، بداية المجتهد ٢/٢٤٠ ، المذهب ١٧٧/٢ ، المغني ١٥١/٨ ، فقه الكتاب والسنة ٣٠/١ - ٣٣) .

مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة * (١) فإذا زنى الإنسان وهو ثيب ، قد تزوج بنكاح صحيح وجامع زوجته ، ثم زنى بعد ذلك ؛ فإنه يرجم بالحجارة يوقف ويجمع الناس عليه ويأخذون حجارة دون البالغة لا تكون كبيرة تقضي عليه بسرعة ولا صغيرة تشق عليه ، ثم يرمونه ، ويتقون المقاتل يرمونه على الظهر ، على البطن ، على الكتف ، على الفخذ حتى يموت ، كما فعل النبي ﷺ بالغامدية وما عز بن مالك وغيرهما .

الثاني النفس بالنفس : إذا قتل الإنسان شخصاً عمداً وتمت شروط القصاص فإنه يقتل ولو كان مسلماً النفس بالنفس .

والثالث التارك لدينه المفارق للجماعة : قيل : إن هذا هو المرتد ، يعني بعد أن كان مسلماً ترك الدين ، والعياذ بالله ، فارق جماعة المسلمين ، فهذا يقتل .

الرابع أكل الربا : ثم قال ﷺ : « وأكل الربا » يعني أنه من الموبقات السبع ، والربا فسوف يأتي الكلام على تعريفه في الباب الذي يليه ، والأشياء التي يجري فيها الربا ، وأن الربا من أكبر الكبائر التي دون الشرك .

والخامس : « وأكل مال اليتيم » من السبع الموبقات ، واليتيم هو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ ، فيتولى عليه الإنسان ويأكل ماله ، ينفقه على أهله ، أو يتجه به لنفسه ، أو ما أشبه ذلك ، هذا أيضاً من السبع الموبقات ، نسأل الله العافية ، ولا فرق بين أن يكون اليتيم ذكراً أو أنثى .

والسادس : « والتولي يوم الزحف » التولي عن صف القتال يوم الزحف ، يعني : يوم يزحف المسلمون على الكفار فيأتي إنسان ويتولى ، فإن هذا من كبائر الذنوب ، من السبع الموبقات ؛ لأنه يتضمن مفسدتين : المفسدة الأولى كسر قلوب المسلمين . والمفسدة الثانية : تقوية الكفار على المسلمين ، إذا انهزم بعضهم لا شك أنهم سوف يزدادون قوة على المسلمين ، يكون لهم بسبب ذلك نشاط ، لكن الله ﷻ استثنى في القرآن فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَوْلٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ بِخَصْمٍ مِنْ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ١٦] فمن تولى لهذين الأمرين ، متحيزاً إلى فئة ، يعني : بأن يقال إن الفئة الفلانية قد حصرها العدو ، وخطر عليها أن يكتسحها العدو ، فانصرف لإيقادهم فهذا لا بأس به ، لأنه انتقل إلى ما هو أنفع .

والثاني : المتحرف لقتال وهو المذكور أولاً في الآية ﴿ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَوْلٍ ﴾ يعني مثلاً انصرف لإصلاح سلاحه أو ارتداء دروعه أو ما أشبه ذلك من مصلحة القتال ، فهذا لا بأس به .

والسابع : « قذف المحصنات المؤمنات الغافلات » يعني أن يقذف المرأة العفيفة المؤمنة ، فهذا من كبائر الذنوب ، بأن يقول لامرأة : إنها زانية إنها قحبة وما أشبه ذلك ، هذا من كبائر الذنوب ،

(١) أخرجه مسلم في القسامة (٢٥) وأبو داود في السنن (٤٣٥٣) والترمذي في السنن (١٤٠٢) والنسائي في السنن (٩٢/٧) .

والقاتل يجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل شهادته ويكون من الفاسقين لا من أهل العدل ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْعَى شَهَدَةٍ فَاجْزَوْهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: ٣١] هذه أول عقوبة ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ [النور: ٣١] هذه العقوبة الثانية ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٣١] إلا الذين تأتوا من بعد ذلك ﴿ [النور: ٣١] فإنه يرتفع عنهم الفسق ويكونون من أهل العدالة ، وقوله : « قذف المحصنات المؤمنات الغافلات » مثلها أيضًا قذف الغافل المحصن المؤمن ، يعني الرجل إذا قذف فإنه يجلد القاذف ثمانين جلدة ، كالذي يقذف المرأة ، هذه هي السبع الموبقات . أعاذنا الله وإياكم منها وأجارنا وإياكم من الفتن إنه على كل شيء قدير .

* * *

٢٨٧ - باب تغليظ تحريم الربا

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الْعَبَدَقَاتِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ ^(١) [البقرة: ٢٧٥] .
وَأَمَّا الْأَخَادِيثُ فَكَثِيرَةٌ فِي الصَّحِيحِ مَشْهُورَةٌ ، مِنْهَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ السَّابِقُ فِي الْبَابِ قَبْلَهُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في تغليظ تحريم الربا .

الربا هو : الزيادة أو التأخير ؛ لأنه إما زيادة في شيء على شيء وإما تأخير قبض ، وقد بين الله ﷻ في كتابه حكم الربا وذكر فيه من الوعيد ، وكذلك النبي ﷺ ذكر حكم الربا وما فيه من الوعيد ، وبين النبي ﷺ أين يكون الربا وكيف يكون ؟ فذكر أن الربا يكون في ستة أصناف : الذهب ، والفضة ، والبر ، والشعير ، والتمر ، والملح ، هذه ستة أشياء هي التي فيها الربا .

إذا بعث شيئاً بجنسه فلا بد من أمرين : التساوي ، والتقابض قبل التفرق ، بعث ذهباً بذهب ، لا بد أن يكون سواء في الميزان وأن يكون القبض ؛ من الجانبين قبل التفرق ، بعث فضة بفضة ؛ لا بد أن يكون سواء في الميزان ، وأن يكون القبض قبل التفرق من الجانبين ، بعث برّاً ببر ؛ لا بد أن يكون سواء في المكيال ، وأن يكون القبض قبل التفرق من الجانبين ، بعث شعيراً بشعير ؛ لا بد أن يكون سواء

(١) قوله ﷻ : ﴿ الرِّبَا ﴾ هو إعطاء قدر من المال أو الحب أو غيرهما لشخص ما ثم أخذ هذا الشيء بقدر أكبر منه .
قوله ﷻ : ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ أي من قبورهم يوم القيامة . قوله ﷻ : ﴿ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ ﴾ هو المصروع . قوله ﷻ : ﴿ الْمَسِّ ﴾ أي الجنون قوله ﷻ : ﴿ مَا سَلَفَ ﴾ أي ما مضى خلا إثم عليه فيه . قوله ﷻ : ﴿ يَمْحُ ﴾ أي يذهب بركته ويمحوها . قوله ﷻ : ﴿ وَيُزِيلُ ﴾ أي يزيد . قوله ﷻ : ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ أي فاجر . قوله ﷻ : ﴿ وَذَرُوا ﴾ أي اتركوا .

بالمكيال ، وأن يكون القبض قبل التفرق من الجانبين ، بعث تمرًا بتمر لا بد أن يكون سواءً في المكيال ، وأن يكون القبض قبل التفرق من الجانبين ، بعث ملحًا بملح ؛ لا بد أن يكون سواءً في المكيال ، وأن يكون القبض قبل التفرق .

هذا إذا بعث الشيء بجنسه من هذه الأصناف الستة ، وإن بعته بغير جنسه ؛ فلا بد من التقابض قبل التفرق من الجانبين ، ولا يشترط التساوي ، فإذا بعث صاعًا من البُرِّ بصاعين من الشعير ؛ فلا بأس ، لكن لا بد من القبض قبل التفرق ، وإذا بعث صاعًا من التمر بصاعين من الشعير ؛ فلا بأس ، لكن بشرط التقابض قبل التفرق ، وإذا بعث ذهبًا بفضة فلا بأس بالزيادة أو النقص ، لكن لا بد من القبض قبل التفرق . هذه هي الأصناف الستة التي نص الرسول ﷺ على جريان الربا فيها ، وكذلك ما كان بمعناها ؛ فإنه يكون له حكمها ؛ لأن هذه الشريعة الإسلامية لا تفرق بين شيئين متماثلين ، كما أنها لا تساوي بين شيئين مختلفين ، أما حكم الربا فإنه من السبع الموبقات ، من كبائر الذنوب ، والعياذ بالله ، ومن تعاطى الربا ففيه شبه من اليهود ، أحبب عباد الله ؛ لأن اليهود هم الذين يأكلون السحت ، ويأكلون الربا ، فمن تعامل بالربا من هذه الأمة ؛ فإن فيه شبهًا من اليهود ، نسأل الله العافية .

أما الوعيد عليه فقال الله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ هذا حكمه ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ الشيطان يسلط على بني آدم ، نسأل الله السلامة ، إلا أن يَمِّنَ الله عليه بالأذكار الشرعية التي تقيه من الشياطين ، مثل قراءة آية الكرسي في كل ليلة ، وغيرها مما هو معروف ، فالشيطان يسلط على بني آدم ويصرعه ، ويبقى الإنسان يبطش بيديه ويتحرك بيديه ورجليه ويتخط ، هؤلاء أكلة الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، مجانين .

واختلف العلماء - رحمهم الله - هل المعنى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا على هذا الوصف ؟! يعني يقومون من القبور كأنهم مجانين ، كأن يضربهم الشيطان بالمس ، أو المعنى : لا يقومون للربا ؛ لأنهم يأكلون الربا وكأنهم مجانين ، من شدة طمعهم وجشعهم وشحهم ، لا يُيالون ، فيكون هذا وصفًا لهم في الدنيا ؟

والصحيح أن الآية إذا كانت تحتل المعنيين فإنها تُحْمَلُ عليهما جميعًا ، يعني أنهم في الدنيا يتخبطون ويتصرفون تصرف الذي يتخبطه الشيطان من المس ، وفي الآخرة كذلك يقومون من قبورهم على هذا الوصف ، نسأل الله العافية .

ثم قال ﷻ مبيِّنًا أن هؤلاء قاسوا قياسًا فاسدًا فقالوا : ﴿ إِنَّمَا أَلْبَسُوا مِثْلَ الرِّبَا ﴾ لا فرق ، كما أنك تبيع للرجل مثلاً شاة بمائة ريال تبيع عليه درهم بدرهمين ، أي فرق ؟ فيقولون : ﴿ إِنَّمَا أَلْبَسُوا مِثْلَ الرِّبَا ﴾ وقياسهم هذا كقياس الشيطان حين أمره الله أن يسجد لآدم ، فقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] فقابل النص بالقياس الفاسد . هؤلاء أيضًا قاسوا قياسًا فاسدًا ، فبين الله ﷻ أنه لا

قياس مع الحكم الشرعي ، قال : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ ولم يحل الله البيع ويحرم الربا إلا للفرق العظيم بينهما ، وأنهما ليسا سواء ، لكن من طمس الله على قلبه رأى الباطل حقاً والحق باطلاً - والعياذ بالله - كما قال ﷺ فيمن طمس الله على قلبه ﴿ إِذَا تَنَلَّيْتُمْ عَلَيْكُمْ إِنْشَاءً قَالَ اسْتَطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [القمم : ١٥] القرآن الكريم أساطير الأولين ! أعظم كلام ، وأبين كلام ، وأفصح كلام ، يقولون أساطير الأولين ! لماذا ؟! ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَوْا عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] إذا انطمس القلب - والعياذ بالله - رأى الباطل حقاً ورأى الحق باطلاً ، هؤلاء يقولون : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ فقال الله : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ .

ثم عرض الله ﷻ التوبة على هؤلاء الأكالين للربا ، كعادته جل وعلا يعرض التوبة على المذنبين لعلمهم يتوبون إليه ، لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، حتى قال الرسول ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم بإحاطته » ^(١) كان رجل في البر معه راحلته عليها طعامه وشرابه فضاعت منه ، ضاع الطعام والشراب وهو في فلاة من الأرض ، ليس عنده أحد ، طلبها ولم يجدها ، فاضطجع تحت شجرة ، ميت ، ينتظر أن يقبض الله روحه ، فبينما هو كذلك إذا بخطام الناقة متعلق بالشجرة ، وهو بين الحياة والموت ، فأخذ بالخطام وقال : « اللهم أنت عبيدي وأنا ربك » يريد أن يقول : « أنت ربي وأنا عبدك » لكنه أخطأ من شدة الفرح ، قال النبي ﷺ : لله أشد فرحاً بتوبة الإنسان من هذا الرجل بإحاطته ، مع أن هذا الفرح لا يمكن أن يدركه الإنسان الآن ، نحن لا نصف شدة هذا الفرح ، رجل مقبل على الموت ، فقد ماله وطعامه وشرابه وناقته ، فإذا بها عنده ، لا يمكن أن يتصور إنسان شدة هذا الفرح ، فالله ﷻ أشد فرحاً بتوبة العبد من هذا بناقته ، انظر ماذا قال هنا ، يقول جل وعلا : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَكَفَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] الحمد لله ، يعني الأكال للربا إذا جاءه موعظة من ربه فانتهى ، فله ما سلف ، يغفر له كل ما سلف ، ولا يؤاخذ عليه وأمره إلى الله ، ولكن إذا جاءت الموعظة وله ربا في ذم الناس ؛ وجب عليه أن يسقطه ، يجب أن يسقطه ؛ لأن الله قال : ﴿ فَلَهُ مَا سَكَفَ ﴾ أما ما بقي فليس له ، ولهذا أعلن الرسول ﷺ في حجة الوداع أعلن إعلاناً إلى يوم القيامة قال : « ربا الجاهلية موضوع » يعني الربا الذي كانوا يترابون به في الجاهلية موضوع مهدر ، يوجد أقارب للرسول يرابون في الجاهلية ، يجب عليهم إسقاط الربا أو لا يجب ؟ يجب ولهذا قال : « أول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب » ^(٢) ما صلته بالعباس بن عبد المطلب ؟ العباس عمه ، أول ربا أضع ، ربا العباس ، هكذا الحكم ، هكذا السلطان ، أول ما يبدأ السلطان يبدأ بأقاربه ، خلاف عادة الناس اليوم ، أقارب السلطان عندهم حماية ، دبلوماسية يفعلون ما يشاءون ، لكن في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول : أول ربا أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب ؛ فإنه موضوع كله ، تأكيد ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نهى الناس عن شيء ، جمع أهله وأقاربه وقال : نهيت الناس عن كذا

(١) الحديث أخرجه مسلم في التوبة (٣) ، وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) ، والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

(٢) قوله ﷺ : ﴿ فَلَهُ مَا سَكَفَ ﴾ أي ما قد مضى .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) ، وابن ماجه في السنن (٣٠٧٤) ، والبيهقي في السنن (٨/٥) .

وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، والله لا يبلغني عن أحد منكم أنه فعله لأضاعف^(١) عليه العقوبة . يعاقبه مرة أم مرتين ؟ مرتين ، لأن هؤلاء الأقارب يخالفون متسترين أو لائذين بقربهم من الحاكم ، فيكون هذا القرب من الحاكم يوجب أن تضاعف عليكم العقوبة ، والله أكبر . وبذلك ملكوا مشارق الأرض ومغاربها ودانت لهم الأمم ، فالأثم لا يفعلون هكذا ، القريب من السلطان ليس عليه شيء ، لكن الأمة الإسلامية والخلافة الإسلامية أول من يقام عليه تنفيذ هذه الأحكام ، في من ؟ في أقارب الحاكم ، حتى لا يقال : الرجل حكم لأجل أن يقي أقراره عقوبة الظالمين .

فالحاصل : أن الله ﷻ بمنه وكرمه ورحمته ولطفه يعرض التوبة على المذنبين ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [البرج : ١٠] هذه القصة في من ؟ في أصحاب الأعداء ، الذين حفرُوا حفراً في الأرض وأضرَمُوا فيها النيران ومن كان مؤمناً ألقوه في النار ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البرج : ٧ ، ٨] يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ يعرض عليهم التوبة وهم يحرقون أوليائهم ، لكنه ﷻ يحب التوابين ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البرج : ١٠] . نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم .

يقول ﷻ : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ ﴾ بعد أن تبين له الحكم ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هذه عقوبتهم في الآخرة ، أما العقوبة في الدنيا ﴿ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] يتلفه ، لكن التلف نوعان :

تلف حسي : كأن يسلط على ماله آفة تغنيه ، إما أن يمرض ويحتاج إلى دواء ومعالجات ، أو يمرض أهله ، أو يسرق ، أو يحترق ، هذه عقوبة الدنيا ﴿ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ عقوبة حسية . أو محق معنوي ، المال عنده يكتسب أكياساً لكنه كالفقير لا ينتفع به ، هل يقال : إن هذا عنده مال ، أبداً ، هذا أسوأ حالاً من الفقير ؛ لأن ماله عنده بالأكياس يدخره لورثته ، أما هو فلم ينتفع به ، وهذا نسيمه مخفياً حسياً أم معنوياً ؟ محققاً معنوياً ﴿ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الموعظة التي تحيي قلوبنا وتصلح أحوالنا . انتهى .

وقال ﴿ وَيَرْبِّي الْمَكْدَكَةَ ﴾ يرببها : أي ينميها ويريدها ، فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من تصدق بعدل تمرة من طيب - ولا يقبل إلا الطيب - فإن الله تعالى يأخذها يمينه ويرببها كما يربي أحدكم فلوه » يعني فرسه الصغير « حتى تكون مثل الجبل » ^(٢) وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ جَبَّةٍ أَنْثَبَتْ سَمَكًا فِي كُلِّ سُبُلَةٍ فِائَةٌ جَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فالصدقات إحسان وعبادة لله ، إذا تصدق الإنسان بشيء من ماله ؛ فإن الله تعالى يضاعف له هذه الصدقة في ثوابها وأجرها وينزل البركة فيما بقي من ماله كما صح عن النبي ﷺ قال : « ما نقصت

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٠٧/١) ، وأخبار عمر للطبراني (ص ٢٩١) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠) ، وأحمد في مسنده (٣٣١/٢٥) ، والبيهقي في السنن (١٩٠/٤) .

صدقة من مال» (١) وإنما ذكر الله الصدقات بجانب الربا لأن الربا ظلم ، ظلم وأخذ للمال بالباطل ، والصدقات إحسان وخير ، فقارن هذا بهذا لأجل أن يتبين للإنسان الفرق بين المحسنين وبين الظالمين أكلة الربا . ثم قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٧] حثاً على الإيمان والعمل الصالح ، ثم قال ﷺ : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ اتقوا الله ، فأمر بتقوى الله ثم قال : ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ يعني اتركوه لا تأخذونه ، فخص بعد أن عمم ؛ لأن تقوى الله تتم اجتناب كل محرم وفعل كل واجب ، ولما قال : ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ صار تخصيصاً بعد تعميم ﴿ فَإِن لَّمْ تَقْعَلُوا ﴾ يعني : وتدعوا ما بقي من الربا ﴿ فَأَذْنُوا يَحْرِبَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وفي قراءة ﴿ فَأَذْنُوا يَحْرِبَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) والمعنى : أعلنوا الحرب على الله ورسوله ، نسأل الله العافية . ﴿ وَإِن تَبَيَّنْتُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ إن تبين عن أكل الربا فلكم رؤوس أموالكم ، أنت أعطيت مائة بمائة وعشرين ، إذا صدقت في التوبة لا تأخذ إلا مائة فقط ، لأن الله يقول : ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ وقد ابتلي بعض الناس بالقياس الفاسد مع النص فقال : إذا أودعت مالك في بنوك أجنبية ، في أمريكا ، في إنجلترا ، في فرنسا ، في أي بلد ، فإنك تأخذ الربا تأخذ الربا وتتصدق به . سبحان الله! يُلطخ الإنسان يده بالدم والنجاسة ثم يذهب ويغسلها ، لماذا لا يتجنب النجاسة من الأول؟! هذا قياس فاسد مقابل للنص ، وفاسد في الاعتبار أيضاً ، إذا أعطوك قفل : لا ، شرعنا يحرم علينا الربا ، يقول بعض الناس إذا لم تأخذ منهم فإنهم يصرفونها في الكنائس وحرب المسلمين ، نقول من قال هذا ؟ ممكن أن صاحب البنك يأخذ لنفسه ، يأخذ لقرابته ، يأخذ لمصالحه ، من يقول إنها تصرف في الكنائس ، ثم على فرض أنها صرفت في الكنائس ، هل دخلت في ملكك حتى يقال إنك أعنتهم ؟ لم تدخل في ملكك أصلاً ، ولهذا لا يعطونك ربح مالك ، ربما يدخلون مالك في مالهم ويخسر ، وإنما يعطونك رباً واضحاً محدداً من الأصل ، فليس هو ربح مالك حتى تقول أعطيتهم شيئاً من مالي ليستعينوا به على الحرام ، أبداً ، ثم على فرض أنه ربح مالك أو أن مالك ربح أكثر وأبيت أن تأخذه لأنه رباً وصرفوه في الكنائس وفي حرب المسلمين ، هل أنت أمرتهم بهذا ، أبداً ، اتق الله ، لك رأس مالك لا تظلم ولا تظلم ، أما أن تأخذه وتقول أتصدق به ، ما مثل هذا الإنسان إلا مثل من أخذ الغائط بيده وعصره ثم قال أين الماء لأطهر يدي ، هذا غير صحيح . ثم يقول : من الذي يضمن أنه إذا جاءك مليون أو مليونان رباً أنك ستصدق بها ربما يغلبك الشح ، فتقول والله مليونان أتصدق لا أتصدق ، أنتظر ، ثم تمضي بك الأيام وتموت وتدعها لغيرك ، ثم إذا فعلت ذلك صرت قدوة للناس يقولون فلان أخشى ، دخل ماله في البنك وأخذ الربا ، إذا ما فيه بأس ، ستكون قدوة ، ثم إننا إذا استمرنا هذا الشيء وأخذنا الربا معناه أننا لن نحاول أن نوجد بنكاً إسلامياً ، لأن إنشاء البنك الإسلامي

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) ، والترمذي في السنن (٢٠٢٩) .

(٢) قرأ حمزة ﴿ فَأَذْنُوا ﴾ بالمد وكسر الذال والباءون بالقصر وفتح الذال .

ما هو سهل ، صعب وفيه موانع ، وأناس يحولون بين المسلمين وبينه ، فإذا استمرّ الناس هذا ، سهل عليهم قوله : نأخذ الربا حتى يتواجد بنك إسلامي ، لكن لو قلنا لهم هذا حرام عليكم ، حينئذ يضطر المسلمون إلى أن ينشعوا بنوكاً إسلامية تكفيهم هذه البنوك الربوية .

والحاصل : أن من قال خذ الربا وتصدق به ، فقد قابل النص بالقياس ، والله ﷻ وضع ﴿ فَكُفُّوا رُءُوسَ أَمْرَلِكُمْ لَا تُظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] وإذا كان عقد الربا الذي حصل في الجاهلية في عهد الرسول ﷺ وضعه الرسول مع أنه قبل الشريعة وأهل الجاهلية يتعارفون على أنه مباح ، ومع ذلك وضعه النبي ﷺ ، قال : « ربا الجاهلية موضوع » فكيف لمسلم يعرف أن الربا حرام ويقول لك : آخذه وأنصدق به ؟

فالحاصل من هذا - مع الأسف - اشتبهت مع بعض العلماء الذين يشار إليهم بالأصابع ، وظنوا أنه لا بأس به أن تأخذ هذا وتتصدق به ، ولو أمعنوا النظر وفكروا لعرفوا أنهم مخطئون ، ما حجتنا عند الله يوم القيامة ﴿ وَإِنْ تُبْتَرَفْ فَكُفُّوا رُءُوسَ أَمْرَلِكُمْ لَا تُظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ما قال : إلا أن تتعاملوا مع الكفار ﴿ وَإِنْ تُبْتَرَفْ فَكُفُّوا رُءُوسَ أَمْرَلِكُمْ لَا تُظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ولم يقل : إلا إذا تعاملتم مع الكفار فخذوا الربا ، فالحقيقة أننا نأسف أن يوجد بعض من يشار إليهم يفتون بمثل هذا مع أنهم لو أمعنوا النظر ودققوا لوجدوا أنهم على خطأ ؛ أنا إذا قال لي ربي لك رأس مالك لا تظلم ولا تظلم ، أقول : سمعاً لك يا ربي وطاعة ، آخذ رأس مالي والباقي ما علي منه ، دعهم يجعلونه فيما يريدون ، ثم هل هؤلاء ما بقي عليهم أن يعمروا الكنائس إلا بربح يأخذونه مني ، الكنائس معمورة وحرب المسلمين شعواء بدراهمك وبغير دراهمك ، هل المسألة متوقفة على دراهمك ، يأخذونها ويصرفونها في الكنائس أو في حرب المسلمين ؟ هذا إذا قدرنا أنهم صرفوها في ذلك ، لكن هذا وهم وتخيل يلبس بها الشيطان ، يقول إن تركتم هذا صرفوه في الكنائس وفي إرهاب المسلمين ، من قال هذا ؟! فعلى كل حال نحن بيننا وبين الناس كتاب الله ﷻ ﴿ وَإِنْ تُبْتَرَفْ فَكُفُّوا رُءُوسَ أَمْرَلِكُمْ لَا تُظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ وإذا اتبعنا الشرع جعل الله لنا من كل همّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، أما إذا ذهبنا نقيس بعقولنا ونقول كالذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ أو كالشيطان الذي قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] هذا غلط ، غلط عظيم فالمهم أن هذا يا إخواني شيء واضح ما يحتاج إلى اجتهاد ﴿ وَإِنْ تُبْتَرَفْ فَكُفُّوا رُءُوسَ أَمْرَلِكُمْ لَا تُظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ إذا كان معسراً وحلّ وقت الدين وليس عنده شيء ألا أضيف عليه شيئاً بدلاً إنظاره « أصبر عليه لمدة » يقول : ما أخالفك ، ما عندك شيء الآن ؟ لكن هذه الألف نجعلها ألف ومائة إلى سنة ، يقول : لا ، أبصر الآية التي بعدها ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ لَكَ مِيسَرَةً ﴾ ما فيه ؟ حل الأجل على هذا الفقير وليس عنده ما يوفي به . يجب عليك إنظاره ﴿ فَنَظِرَةٌ لَكَ مِيسَرَةً ﴾ من الذي قال ﴿ فَنَظِرَةٌ لَكَ مِيسَرَةً ﴾ ؟ الله ﷻ ، هو الذي أعطاك المال ومنّ به عليك وأباح لك التصرف فيه ، وقال لك إذا كان المطالب فقيراً ، فعليك أن تنظره ، تقول له : ما أنظرك هيا إلى الحبس ، وإلا إضافة

الربا !!؟ أين الإيمان ؟ أين العبادة ؟ العبد حقاً هو الذي يقول لله سمعاً وطاعة ، أما الذي يعبد الدرهم والدينار وليس عنده همٌ إلا الدرهم والدينار ، ولا يبالي من أي مصدر حصل ، فهذا عبد الدرهم والدينار ، وقد دعا عليه الرسول ﷺ بالتعاسة والهلاك والانتكاس ﴿ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَقْلِبُوهَا وَلَا تَطْلُبُوهَا ﴾ [١] وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ لَكُمْ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴿ ثُمَّ تَأْتِي الْمَرْبِيَّةُ الْعَالِيَا الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنْتِظَارِ ، وَهِيَ ﴾ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿ إِنْ كَانَ مَعْسَرًا وَعَرَفْتَ أَنَّهُ مَعْسَرٌ تَصَدَّقْ عَلَيْهِ ، قُلْتُ : يَا فُلَانُ أَنْتَ مَعْسَرٌ وَقَدْ أَبْرَأْتُكَ مِنْ دِينِكَ ، هَذَا خَيْرٌ لَكَ فَافْعَلْ ، خَرَجْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ وَمَعَكَ أَلْفُ كَيْسٍ ذَهَبٍ ، وَأَلْفُ ثَوْبٍ ، وَأَلْفُ فِضَّةٍ ، وَأَلْفُ هَلٍ صَحَّحَ ؟ هَذَا صَحِيحٌ ؟ لَا ، خَرَجْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ مَا مَعَكَ شَيْءٌ ، عَرِيَانٌ مَا عَلَيْكَ شَيْءٌ . مِنَ الَّذِي أَعَدَّكَ وَأَمَدَّكَ وَأَعْطَاكَ الْمَالَ ؟ اللَّهُ ﷻ ، قَالَ لَكَ أَفْعَلْ كَذَا ، قُلْتُ : سَمِعًا وَطَاعَةً ﴾ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ ثُمَّ خَتَمَ الْآيَاتِ بِقَوْلِهِ : ﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ [البقرة : ٢٧٩] اتَّقُوا هَذَا الْيَوْمَ ، الْيَوْمَ الْعَظِيمَ الَّذِي تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، خُفَاةٌ غَرَاةٌ غُرْلًا ﴿ يَوْمَ يُعْرَى الْوَرْدُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ وَصَنَابِيهِمْ وَيَدِيهِمْ ﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفِيدُ ﴿ [عس : ٣٤ ، ٣٧] اتَّقُوا هَذَا الْيَوْمَ ، وَتَقَوَى هَذَا الْيَوْمَ وَتَقَوَى شَرَّهُ وَبَلَائَهُ تَكُونُ بَطَاعَةُ اللَّهِ ﷻ نَسْأَلَ اللَّهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِالتَّقْوَى وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

* * *

١٦١٥ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا ، وَمُؤْكِلَهُ » (١) رواه مسلم .
زاد الترمذي وغيره : « وَشَاهِدِيهِ ، وَكَاتِبِيهِ » .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - التغليظ في تحريم الربا ، فيما نقله عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنْ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ » .

آكل الربا يعني : الذي يأكله ، سواء استعمله في أكل أو لباس أو مركوب أو فراش أو مسكن أو غير ذلك ، المهم أنه أخذ الربا ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوهَا عَنْهُ ﴾ [النساء : ٦١] فأكل الربا ملعون على لسان الرسول ﷺ .

والثاني : مؤكله : يعني الذي يعطي الربا ، مع أن معطي الربا مظلوم ؛ لأن أخذ الربا ظالم ، والمأخوذ منه الربا مظلوم ، ومع ذلك كان ملعوناً على لسان النبي ﷺ ؛ لأنه أعانه على الإثم والعدوان ، وقد قال النبي ﷺ : « انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْمَظْلُومُ ،

(١) أخرجه مسلم في المسافة (١٥٩٧) ، والترمذي في البيوع (١٢٠٦) ، والنسائي في السنن (١٤٧/٨) ، والبيهقي في السنن (٢٨٥/٥) .

كيف تنصر الظالم ؟ قال : « تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » ^(١) . فإذا احتاج الإنسان إلى دراهم وذهب إلى البنك وأخذ منه عشرة آلاف بأحد عشر ألفاً ؛ صار صاحب البنك ملعوناً والآخذ ملعوناً على لسان أشرف الخلق محمد ﷺ ؛ وما أقرب الإجابة فيمن لعنه الرسول ﷺ ، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، ويكون هذا الملعون مشاركاً لإبليس في العقوبة ؛ لأن الله تعالى قال لإبليس : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ [الحجر : ٣٥] كذلك أكل الربا عليه اللعنة ، وموكله عليه اللعنة ، مطرود مبعد عن رحمة الله ، ثم هذا الذي يأكله ، يأكله سحناً . وكل جسد نبت من السحت فالنار أولى به ^(٢) ، ثم إن هذا الربا الذي يدخل عليك ينزع الله به البركة من مالك ، وربما يوالي عليه النكبات حتى يتلف . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِيْ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٩] وأما الذي أعطى الربا ؛ فإن وجه اللعنة في حقه أنه أعان على ذلك ، فإذا قال قائل : هل للإنسان من توبة إذا كان يتعاطى الربا ثم من الله عليه واهتدى ؟ نقول : نعم له توبة ، ومن الذي يحول بينه وبين توبة الله ، ولكن لا بد من صدق التوبة وإخلاصها ، والندم على الذنب ، والعزم على ألا يعود ، ثم إن كان صاحب الربا الذي أخذ منه قد استفاد ؛ فإن الربا يؤخذ من المرابي ويتصدق به أو يوضع في بيت المال ، وإن كان لم يستفد ؛ فإنه يعطي المطلوب ؛ لأنه إذا استفاد لا يمكن أن نجتمع له بين الحق من الربا وبين انتفاعه ، نقول : أنت حظك الانتفاع ، ولكن إذا كان لم ينتفع ؛ فإنه يعطي ما أخذ من الربا ، وذكر الترمذي وغيره في رواية أخرى : أن النبي ﷺ لعن شاهدي الربا وكاتبه ^(٣) مع أن الشاهدين والكاتب ليس لهما منفعة لكن أعانوا على تثبيت الربا ، الشاهدان والكاتب يثبت بهما الربا ؛ لأن الشاهدين يثبتان الحق والكاتب يوثقه ، ولهذا يكون هؤلاء الثلاثة : الشاهدان والكاتب قد أعانوا على الإثم والعدوان ، فإلهم من ذلك نصيب ، فهؤلاء الخمسة كلهم ملعونون على لسان محمد ﷺ : « أكل الربا ، وموكله ، والشاهدين ، والكاتب » خمسة . وفي هذا الحديث دليل على أن المعين على الإثم مشارك للفاعل ، وهو كذلك ، وهذا قد دل عليه القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِيْ حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام : ٦٨] ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ [الأنعام : ٦٨] وجلست ناسياً ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى ﴾ [الأنعام : ٦٨] يعني بعد أن تفتن ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٦٨] وقال ﷺ : ﴿ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] فالمشارك لفاعل الإثم ولو بالجلوس يكون له مثل ما على صاحب الإثم ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] وفي هذا دليل على التحذير من الربا ووجوب البعد عنه ، والمسلمون ما

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٣) ، والترمذي في السنن (٢٨٨٢) ، وأحمد في مسنده (٢٠١/٣) ، والبيهقي في السنن (٩٤/٦) .

(٢) وذلك لما رواه الطبراني في الكبير (١٣٦/١٩) ، والدارمي في الرقاق (٦٠) .

(٣) انظر الترمذي في البيوع (١٢٠٦) ، ومسلم في المساقاة (١٠٥) ، والنسائي في السنن (١٤٧/٨) ، وأحمد في مسنده (٨٣/١) .

ضرهم الذي ضرهم إلا هذا الربا ، تجدد الفقير المسكين يهون عليه أن يستدين بالربا ؛ لأنه لا يكلفه إلا زيادة الكمية ، والله أعلم بنيتة ، قد يكون ليس بنيتة أن يوفي عند حلول الأجل ، لكن يستسهل هذا ويستدين ، فتراكم عليه الديون بدون ضرورة ، حتى إن بعض المساكين السفهاء ضعفى الإيمان يستدينون من أجل فرش درج العمارة ، هل هناك ضرورة ؟ لا ضرورة ولا حاجة أيضًا ، عاش الناس أزمنة طويلة لا يفرشون الدرج ولم يضرهم ذلك شيئًا ، يستدين من أجل أن يصنع ذلك ؟ هل هناك ضرورة ؟ لا ضرورة ، لكن الشيطان يغريه ولم يعلم هذا المسكين أن الذي له الدين لا يرحمه ، إذا حل الأجل سوف يطالبه بالوفاء ، أو بالحبس ، أو بمضاعفة الربا عليه ، كما هو الواقع عند كثير من الذين لا يمثلون قول الله : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ لَكَ مِيسَرَةٌ ﴾ وغفل هذا المسكين عن كون نفسه - إذا مات - معلقة بدينه حتى يدفع عنه ، وغفل هذا المسكين عن كون النبي ﷺ إذا قدمت إليه الجنازة وخطى خطوات يصلي عليها ، فسأل « هل عليه دين ؟ » قالوا : نعم ، قال : « عليه وفاء » قالوا : لا . قال : « صلوا على صاحبكم » ^(١) وترك الصلاة عليه ، مما يدل على عظم الدين ، وغفل هذا المسكين عن كون القتل في سبيل الله إذا قتل الإنسان في سبيل الله ، فالشهادة تكفر كل شيء ، إلا الدين لا تكفره ^(٢) ، ومع هذا .. يقع في ذلك كثير من سفهائنا ، يستهين بالدين يكون عنده سيارة تساوي عشرين ألفًا ، وقد مشت حاله ، كفته ، يقول : لا ، ما يكفي ، أنا أشتري سيارة بثمانين ألف ، وتقول : ما معك شيء ، يقول آخذها بالتقسيط ، أو أتحميل على الربا كما يفعل بعض الناس ، يأتي المعرض يقول : بكم السيارة الفلانية ، يقول له بكذا وكذا ، ويذهب إلى التاجر ويقول له اشتريها وبيعها علي - أعوذ بالله - حيل على رب العالمين ، مكر ، خداع ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ يعني هذا التاجر ما قصد السيارة ، قصد الزيادة ، ولهذا لو قيل للتاجر بعها عليه برأس مالك الذي اشتريتها به ، فما الفائدة ؟ ما أبيعها إلا بالربا ، بالزيادة ، يقول بعض الناس الذين يزين لهم الشيطان ، يقول : احتج على الذي يقول هذا ما يجوز ؟ فنقول هذا كذب على الله ، رجل جاء محتاج سيارة هذا بعيد جدًا ، ثم إن المسموع عن هؤلاء أنه إذا هون كتب اسمه في القائمة السوداء ، ما عاد يعامل مرة أخرى ، هذا كالإجبار على أن يبقى ، تحيل على رب العالمين ، هذا ما يصلح ، والله لو سألنا هذا التاجر الذي أخذ السيارة من المعرض ثم باعها لهذا : ماذا تقصد ؟ أتقصد الإحسان لهذا الرجل ؟ قال : أبدًا ، ولا بيني وبينه معرفة ، أقصد المائة مائة وعشرة ، هذا ما أقصده ، هذا هو الواقع ، كيف نتحایل على رب العالمين ! لو جاء هذا الرجل إلى البنك ، قال : أعطني مائة ألف وعشرة وأشتري السيارة أهون من هذا الدين ؛ لأن الخداع أشد من الصريح ، الخداع ارتكب الإثم مع زيادته ماذا .. ؟ الخداع . والصريح ارتكب الإثم وهو يعترف أنه إثم ، ويحاول أن يتوب عنه ؛ لأن نفسه لا ترضى عن

(١) انظر الحديث بنصه في أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) ، والبيهقي في السنن (٧٣/٦) ، والطبراني في الكبير (٣٥/٧) .

(٢) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في الإمارة (١٢٠) ، ومالك في الموطأ (الجهاد ٣١) ، والدايمي في الجهاد (٢٠) ، وأحمد في مسنده (٣٨١/٢) .

هذا الشيء ، لكن المشكلة أنَّ المخادع يرى : أن هذا حلال ويستمرئ هذا الفعل ، ويقول : ما فيه شيء . اسأل نفسك ، لا تسأل أحداً ، الرسول قال : « الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس ، والبر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، وإن أفنك الناس وأنتوك » ^(١) لا تسأل أحداً ، هل أنت اشتريت السيارة شراءً حقيقياً تطلب به الربح ؟ كلا أبداً ، لولا أن هذا جاء ما اشتريتها . إذا فالسيارة شراؤها مقصود أو غير مقصود ؟ غير مقصود المقصود بيده الدراهم ، لكن بدل ما يقول هذا بخمسين ألفاً ، بستين ألفاً مقسطة ، يقول اذهب عاينها ، وأنا أذهب إلى المعرض أشتريها بخمسين ألفاً وأبيعها عليك بستين ألفاً ، كل إنسان مجرد من الهوى يعرف أن هذا حرام ولا إشكال فيه ، وإن سألت الناس وأنتوك ، الذي يسألك يوم القيامة هو رب العالمين ، هو الذي يعلم ما في قلبك ، وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله يقول : لو احتجت سلعة من عند إنسان ، سيارة عند إنسان ، وأنت لا تجد دراهم وذهبت إلى الذي عنده السيارة تشتريها منه ، وهي تساوي الآن (نقدي) خمسين ، وقلت له : بعها لي بستين إلى سنة ، ثم أخذتها وبعتها ، يقول شيخ الإسلام : هذا حرام ، ولا تحل ، وحيلة ، وهي من العينة التي حذر منها الرسول ﷺ وقال : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالحرث ، وتركتم الجهاد ؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه من قلوبكم حتى ترجعوا إلى دينكم » ^(٢) وهذه الصلة فيها واضحة ، أما مسألة التوافر ؛ فالسلعة موجودة عند البائع لهذا ولغيره ، إن جاءه من اشتراه بنقد باعها بخمسين ، وإن جاءه من يشتريها مؤجلة بستين باعها لكن الإنسان ما له غرض في السلعة نهائياً ، ليس له إلا الربا ، ثم يستمرئ هذا الأمر ويقول هذا حلال ، فكر ، يوم القيامة ستلاقي ربك وحدك ، ما معلن أحد لا مفتي ولا غير مفتي ، والله تعالى هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

والحاصل : أن الربا يجب الحذر منه ، ولهذا تَبَيَّنَّا على ما قلت ؛ لما سهل الأمر عند الفقراء ، لما سهل عندهم هذا ، صار ما أسهل أن يقول للتاجر : يا فلان أنا أبغي السيارة الفلانية ، قال : اذهب واشتريها من المعرض وأنا أسدد القيمة للمعرض وأبيعها لك بالزيادة ، سهل الدين على الناس ولكن لو لم يجدوا من يسهل الأمر عليهم امتنعوا بعض الشيء وسلمت ذممهم واستراحوا . نسأل الله لنا ولكم التوفيق والهداية .

* * *

٢٨٨ - باب تحريم الرياء

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] . وقال تعالى : ﴿ لَا تَبْلُغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً النَّاسِ ﴾

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٥) ، والبيهقي في السنن (١٩٢/١٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٤٦٢) ، والبيهقي في السنن (٣١٦/٥) .

[البقرة: ٢٦٤] . وقال تعالى : ﴿ يَرْكَبُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] .

الشرح

الرياء : مصدر رآى يقال : رآى يرأى رياءً وثرأةً ، كجاهد يجاهد جهادًا ومجاهدة . والمراد بالرياء هنا : أن يتعبد الإنسان لربه ﷻ ، ولكن يحسن العبادة من أجل أن يراه الناس ، فيقولون : ما أعبد ، ما أحسن عبادته ، وما أشبه ذلك ، فهو يريد من الناس أن يمدحوه في عبادته ، لا يريد أن يتقرب إليهم بالعبادة ؛ لأنه لو فعل هذا لكان شركًا أكبر ، لكنه يريد أن يمدحوه في عبادة الله ، فيقولون : فلان عابد ، فلان كثير الصوم ، فلان كثير الصدقة ، وما أشبه ذلك ، فهو لا يخلص لله في عمله ، لكن يريد أن يمدحه الناس على ذلك ؛ فهو يرأى الناس ، والرياء يسيئُهُ من الشرك الأصغر ، وكثيره من الشرك الأكبر . ثم استدلل المؤلف ﷺ على تحريمه بآيات منها قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَقَّاهُ ﴾ ^(١) يعني ما أمر الناس إلا بهذا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، يصلون إخلاصًا لله ، ويتصدقون إخلاصًا لله ، ويصومون إخلاصًا لله ، ويحجون إخلاصًا لله ، ويساعدون الناس إخلاصًا له ، إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة ، تكون مخلصين لله في ذلك ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يأتون بها مستقيمة على الوجه الأكمل . ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ يعطونها مستحقها ، ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أي دين الملة القيمة . والمخلص لله ﷻ لا يكون في قلبه رياء ؛ لأنه إنما يريد بعبادته وجه الله وثواب الله والدار الآخرة . وقال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ يعني إذا أعطيت الفقير صدقة فلا تمن عليه وتبقى كل ساعة تقول : أنا أعطيتك ، أنا فعلت ، لأن هذا يبطل الأجر ﴿ وَالْأَذَى ﴾ : تؤذي ، تؤذي الفقير بأن تتسلط عليه وترى أنك فوقه ، وما أشبه ذلك ، هذا أيضًا يبطل الأجر ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقًا لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الشاهد هذا ، الشاهد من الآية هذه الجملة ، كالذي ينفق ماله رياء الناس ليمدحوه ويقولوا ما أكثر صدقته وما أشبه ذلك ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَرْكَبُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذا من أوصاف المنافقين ، إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى لا يقومون بنشاط ومحبة ولهف لها ؛ بل يقومون كسالى . وأيضًا لا يصلون إلا مراعاة للناس ، والعياذ بالله ، ولهذا أثقل الصلوات عليهم صلاة العشاء والفجر ؛ لأنه في ذلك الوقت ما في نور ، ولا يعرف الحاضر من غير الحاضر ، فكانت أثقل الصلوات عليهم صلاة العشاء وصلاة الفجر ، فهؤلاء المنافقون يراعون الناس ، يعني لا يأتون الصلاة إلا رياء ، ولا ينفقون إلا رياء ، ولا يخرجون في الجهاد إلا رياء ، فعلى هذا فإن من رأى من المسلمين فقد شابه المنافقين والعياذ بالله . وقال تعالى : ﴿ قَوْلِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ﴾ ^(٢) [الماعون: ٤ ، ٥ ، ٦] أي يراعون في أعمالهم ، يريدون أن يراهم الناس فيمدحوهم على عبادتهم ، فالرياء ذنب من الشرك ، وقد يكون شركًا أكبر وهو من صفات النفاق ، أعاذنا الله وإياكم من النفاق ، والله الموفق .

(١) قوله ﷻ : ﴿ حَقَّاهُ ﴾ أي مائلين عن كل دين يخالف دين الإسلام .

(٢) قوله ﷻ : ﴿ قَوْلِيلٌ ﴾ أي هلاك وعذاب لمن جمع هذه الخلال الثلاث .

١٦١٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ » ^(١) رواه مسلم .

١٦١٧ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعَمَتُهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعَمَتُهُ فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَتُهُ ، فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُتْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَتَفَقْتُ فِيهَا لَكَ . قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيقَالَ : هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ » ^(٢) . رواه مسلم .

« جَرِيءٌ » بفتح الجيم وكسر الراء وبالمَد ، أي : شجاع حاذق .

الشرح

بعد أن ذكر المؤلف رحمته الله الآيات التي تدل على تحريم الشرك ومنه الرياء ، ذكر الأحاديث فمنها : حديث أبي هريرة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » . هذا الحديث يسمى عند العلماء حديث قدسي ، وهو الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه فيقول : قال الله تعالى كذا ؛ لأن الأحاديث التي تروى عن الرسول ﷺ إما أن ينسبها الرسول ﷺ إلى الله ، فتسمى أحاديث قدسية ، وإما ألا ينسبها إلى الله فتسمى أحاديث نبوية . هذا الحديث القدسي يقول الله تعالى فيه : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك » ، « الشركاء » : كل محتاج إلى الآخر ، وكل محتاج إلى شركته ونصيبه وحصته لا يتنازل أحد للآخر عن نصيبه فمثلاً : دار بين اثنين كل منهما محتاج للآخر ، لو حصل في الدار خلل أو احتاجت إلى تعمیر ؟ صار الشريك لا بد أن يقول لشريكه الثاني أعطني ، أعطني نصيبي حتى نعلم البيت ، وصار كل إنسان متمسكاً بنصيبه من هذا البيت . أما الله تعالى فهو الغني عن كل شيء ، غني عن العالمين ، إذا عمل الإنسان عملاً لله ولغير الله تركه الله ، لو صلى الإنسان لله وللناس ؛ لم يقبل الله صلاته ، لا يقال : إنه يقبل نصفها ويترك نصفها ، أو يقبلها قبولاً نصفياً ، لا ، لا يقبلها أبداً ، لو تصدق الإنسان بصدقة يرائي بها الناس فإنها لا تقبل منه ، لأن الله تعالى أغنى الشركاء عن

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (١٩٠٥) ، والحاكم في المستدرک (١٠٧/١) .

الشرك ، إذا عمل الإنسان عملاً أشرك فيه مع الله غيره ، فإن الله لا يقبله منه . وفي هذا دليل على أن الرياء إذا شارك العبادة ؛ فإنها لا تُقبل ، فلو أن الإنسان صلى أول ما صلى وهو يراني الناس لأجل أن يقولوا : فلان ما شاء الله يتطوع يصلي ويكثر الصلاة . فإنه لا حظ له في صلاته ولا يقبلها الله ﷻ ، حتى لو أطال ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وصار لا يتحرك ، وصارت عينه في موضع سجوده فهي غير مقبولة ، لماذا ؟ لأنه أشرك مع الله غيره يصلي لله والناس ، الله غني عن عبادته ﷻ ، لا تقبل صلاته . كذلك رجل تصدق صار يمشي على الفقراء ويعطيهم لكنه يراني الناس من أجل أن يقولوا : فلان والله ما شاء الله ، رجل جواد كريم يتصدق ، فهذا أيضًا لا يُقبل منه . وإن أنفد ماله كله ؛ لأن الله يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه » ، وعلى هذا فقس ، لكن إن طرأ الرياء على الإنسان ؛ يعني رجل مخلص شرع في الصلاة ثم صار في قلبه شيء من الرياء ، فهذا إن دافعه فلا يضره ؛ لأن الشيطان يأتي للإنسان في عبادته التي هو مخلص فيها من أجل أن يفسدها عليه بالرياء ، هذا لا يضر ولا ينبغي أن يكون ذليلاً أمام ما يلقيه الشيطان من الرياء ، بل يجب أن يصمد وأن يستمر في عبادته ، لا يقول : والله أنا صار معي رياء أخاف أن تبطل ، لا بل يستمر ، والشيطان إذا دحرت اندحر ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤] الذي يخنس ويولي مدبراً إذا رأى العزيمة ، فأنت اعزم ولا يهملك ، هذا لا يضر ، أما إذا طرأ عليه الرياء بعد أن بدأ الصلاة مخلصاً لله ، ثم طرأ عليه الرياء واستمر ، استمر على الرياء ، والعياذ بالله ؛ فإنها تبطل الصلاة كلها من أولها إلى آخرها ، لأنها - أي الصلاة - إذا بطل آخرها بطل أولها . فالحذر الحذر من الرياء ، والحذر الحذر من ترك العبادة خوفاً من الرياء ، لأن بعض الناس أيضًا يأتيه الشيطان يقول له : لا تقم تصلي ، لا تقرأ ، صار هذا رياء . لا يكن عليك السكينة والوقار ، هذا رياء ، من أجل ماذا ؟ من أجل أن يصده عن هذا العمل الصالح ، فعلياً ألا ندع للشيطان مجالاً ، يفعل يقدم يصلي يكون علينا السكينة والوقار ولا يضرنا هذا ، وهو إذا كافح الشيطان ولم يبال به ، ففي النهاية يخنس ، يخنس الشيطان ويتراجع ويتقهقر ، فالإنسان في الحقيقة محاط بأمرين : أمر قبل الإقدام على العبادة يثبطه الشيطان يقول : لا تعمل هذا رياء ترى الناس يمدحونك .

وأمر ثانٍ : بعد أن يشرع في العبادة يأتيه الشيطان أيضًا فعليه أن يدحض الشيطان وأن يستعيز بالله منه وأن يمضي في سبيله وألا يفتر ، فإن قال قائل : إذا فرغ الإنسان من العبادة وسمع الناس يثنون عليه وفرح بهذا ، هل يضره ؟ فالجواب : لا يضره ؛ لأن العبادة وقعت سليمة ، وكون الناس يثنون عليه هذا من عاجل بشرى المؤمن ، أن يكون محل الثناء من الناس ، لكن هذا بعد أن ينتهي من العبادة نهائياً ، سمع الناس يثنون عليه يقول : الحمد لله الذي جعلني محل الثناء بالخير . كذلك أيضًا لو أن الإنسان فعل العبادة ولما انتهى منها سر بها ، فهل نقول : هذا السرور إعجاب يطل العمل ؟ لا يضره ؛ لأن الإعجاب أن الإنسان إذا فرغ من العبادة أعجب بنفسه وأبلى على الله بها ، ومن على الله بها ، هذا هو الذي يبطل عمله والعياذ بالله ، لكن هذا الإنسان ما خطر على باله هذا ، ولكن حمد

اللَّهُ وفرح أن الله وفقه إلى الخير ، هذا لا يضره ، ولهذا جاء في الحديث : « من سرته حسنته وسأته سيئته ؛ فذلك المؤمن » ^(١) . جعلنا الله وإياكم منهم .

أما حديث أبي هريرة الثاني : في ذكر أول من يُقضى يوم القيامة وهم ثلاثة أصناف : متعلم ، ومقاتل ، ومتصدق .

أما المتعلم : فهو من تعلم العلم وعلم القرآن وعلم ، ثم إن الله ﷻ أتى به إليه ﷻ يوم القيامة ، فعرفه الله نعمته فعرفها ، وأقر واعترف ، فسأله ماذا صنعت ؟ يعني في شكر هذه النعمة ، فقال : تعلمت العلم ، وقرأت القرآن فيك ، فقال الله له : كذبت ، ولكن تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ ، ليس لله ، بل لأجل الرياء ، ثم أمر به فسحب على وجهه في النار ، وهذا دليل على أنه يجب على طالب العلم في طلب العلم أن يخلص نيته لله ﷻ ، وألا ييالي إن قال الناس أنه عالم أو شيخ أو أستاذ أو مجتهد أو ما أشبه ذلك . لا يهمه هذا الأمر ، لا يهمه إلا رضا الله ﷻ وحب الشريعة وتعليمها ، ورفع الجهل عن نفسه ، ورفع الجهل عن عباد الله ؛ حتى يكتب من الشهداء الذين مرتبتهم بعد مرتبة الصديقين . ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] وأما من تعلم لغير ذلك ، ليقال : إنه عالم ، وإنه مجتهد ، وإنه علامة ، وما أشبه لك من الألقاب ، فهذا عمله حابط والعياذ بالله ، وهو أول من يقضى عليه ويسحب على وجهه في النار ويكذب يوم القيامة ويوبخ .

أما الثاني : فهو رجل مقاتل ، قاتل في سبيل الله وقُتل ، فلما كان يوم القيامة أتى به إلى الرب ﷻ فعرفه نعمه فعرفها ؛ يعني النعم أنه ﷻ مده وأعده ورزقه وقواه حتى وصل إلى هذه المرتبة إلى أن قاتل ، ثم سئل ماذا صنعت فيها ؟ قال : يا رب قاتلت فيك ، فيقال : كذبت ، قاتلت من أجل أن يقال فلان شجاع جريء ، وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه في النار والعياذ بالله ، وهكذا أيضًا المقاتل في سبيل الله ، المقاتلون في سبيل الله لهم نوايا متعددة من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، كما قال النبي ﷺ ^(٢) « ومن قاتل وطنية ؛ ففي سبيل الطاغوت ، ومن قاتل حمية على قومية ؛ فهو في سبيل الطاغوت ، ومن قاتل لينال دنيا ، فهو في سبيل الطاغوت » لأن الله يقول ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُعْمِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُعْمِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ [النساء : ٧٦] لكن لو قاتل الإنسان قومية أو وطنية ، لا من أجل القومية ولا الوطنية ، ولكن من أجل حماية وطنه المسلم أن يعتدي عليه الكفار ؛ فهذا في سبيل الله ؛ لأن حماية بلاد المسلمين ثمرتها أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكذلك حماية المسلمين ثمرتها أن تكون كلمة الله هي العليا . ولكن لو أن الإنسان قاتل ليقتل فقط في هذا القتال ، هل يكون في سبيل الله ؟ الجواب : لا ، وهذا نية كثير من الشباب ،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٦٥) ، وأحمد في مسنده (٨١/١) ، والحاكم في المستدرک (١٤/١) ، (١١٤) .

(٢) انظر ذلك في مسلم في الإمامة (١٤٩) ، والترمذي في السنن (١٦٤٦) ، والنسائي في السنن (٢٣/٦) ، وابن ماجه في السنن (٢٧٨٣) .

يذهبون لأجل أن يُقْتَلُوا ويقولوا نحن نُقْتَلُ شهداء ، فيقال : لا ، أنتم اذهبوا لتقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا ولو بقيتم ، لا تذهبوا لأجل أن تقتلوا ، لكن لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا وحينئذ إن قتلتم في هذا السبيل فأنتم في سبيل الله .

أما الثالث : فرجل أنعم الله عليه بالمال وصار يتصدق ويعطي وينفق ، فإذا كان يوم القيامة أتى به إلى الله وعرفه نعمة فعرفها ، ثم سأله ماذا صنعت فيها ؟ فيقول : تصدقت وفعلت وفعلت ، فيقال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : فلان جواد يعني : كريماً ، وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه في النار . هذا أيضاً من الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة . وفي هذا دليل على أنه يجب على الإنسان أن يخلص النية لله في جميع ما يبذله من مال أو بدن أو علم أو غيره ، وأنه لو فعل شيئاً مما يبتغي به وجه الله تعالى وصرفه إلى غير ذلك ؛ فإنه آثم به . والله الموفق .

١٦١٨ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا قَالُوا لَهُ : إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سُلَاطِينِنَا فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلَافِ مَا تَنَكَّلُمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ ؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه : كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١) . رواه البخاري .

الشرح

نقل المؤلف رحمته الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه : أن أناساً جاءوا إليه وقالوا : إننا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم قولاً ، ولكن إذا خرجنا من عندهم قلنا بخلافه . فقال : « كنا نعد ذلك غافاً على عهد النبي ﷺ » . وذلك لأنهم حدثوا فكذبوا وخانوا ما ائتمنوا ، فالواجب على من دخل على السلاطين من الأمراء والوزراء والرؤساء والملوك ، الواجب عليه أن يتكلم بالأمر على حقيقته ، يبين لهم الواقع ، سواء كان الناس على استقامة ، أو على اعوجاج ، أو على حق ، أو على باطل ، ولا يجوز للإنسان أي إنسان أن يدخل على الأمير أو على الملك أو ما أشبه ذلك ثم يقول : الناس بخير ، الناس أحوالهم مستقيمة ، الناس ملأوا المساجد ، الناس عبدوا الله ، الناس اقتصادياتهم جيدة ، الناس أمنهم جيد ، وما أشبه ذلك ، وهو كاذب ، هذا حرام خداع لولاة الأمور وخداع للأمة جمعاء ؛ لأن ولي الأمر ليس شمساً تدخل في كل مكان ، بل الشمس لا تدخل كل مكان ، الحجر المغلقة ما تدخلها الشمس ، وولاة الأمور علمهم محدود ، سمعهم محدود ، بصرهم محدود ، إدراكهم محدود ، عقولهم محدودة ، كغيرهم من البشر لا يمكن أن يعلموا بأحوال الناس كلها ، فإذا جاء مثل هذا الغاش الغادر الخائن ، وقال لهم : إن الأمور كلها خير ورخاء وأمن وعبادة ، وما أشبه ذلك ، غرهم فظنوا أن الأمور هكذا ولم يتحركوا بإصلاح ما فسد ؛ لأنهم يقال لهم : إن كل شيء على ما يرام ، الواجب الصراحة ولا يمكن مداواة الجرح إلا بشقه بعد أن تشقه ويخرج الدم يخرج الخبث ، حينئذ

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٨) ، والطبراني في الكبير (٣٣١/١٢) بنحوه .

تداويه ، أما أن تلمه على شعث ؛ فهذا لا يجوز ، لأن هذا غش وابن عمر يقول : هذا من النفاق وصدق فهو من النفاق ، حدث فكذب وخانا وما ائتمنوا ، فالواجب البيان ، أما النفاق والمداينة فهذه لا تجوز ، لذلك الواجب على كل إنسان أتى إلى شخص مسؤول ولو عن عشرة طلاب ، دعنا من المسؤولين عن أمة كاملة ، الواجب أن يخبره بالواقع ، لا يقول : والله الطلاب كلهم بخير ، كلهم حريصون ، كلهم كلمتهم واحدة ، كلهم على أدب طيب ، لا ، الواجب أن يبلغ بالحقيقة وينص على كل واحد بعينه إذا اقتضى الحال هذا ، وذكر العيب لإزالة العيب سلامة ونصح ، وليس من الغيبة في شيء . فهذا رسول الله ﷺ جاءته امرأة - فاطمة بنت قيس - قالت : يا رسول الله خطبني ثلاثة : أسامة بن زيد ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأبو جهم ، فقال لها النبي ﷺ « أما معاوية فصعلوك لا مال له يعني من أين ينفق عليك ، ما عنده مال ، وأما أبو جهم فضراب للنساء » - هذا مدح أم ذم ؟ ذم ، « انكحي أسامة بن زيد » ^(١) ، لكن كيف يغتابهما الرسول ؟ ، اغتابهما لأي شيء ؟ نصح وإرشاد . فإذا جئت - مثلاً - إلى أي إنسان تحته أناس وهو ولي عليهم ، تقول : هذا فلان كذا وكذا وأنت صادق بارٌّ ليس بينك وبينه عداوة أو مشاحنة ، فأنت على خير ومأجور وناصح ، ولا يمكن أن تستقيم الأمور إلا أن الإنسان يُعطي عنها صورة واضحة ، أما الكتمان فهذا لا يجوز وكذلك أيضًا في المدرسة مدير المدرسة أو عميد الكلية يجب إذا رأيت طالبًا منحرفًا في أخلاقه أو سلوكه أو غيبة لولاة الأمور يجب أن تنصحه أولاً وإلا يجب أن ترفع أمره حتى يُصلح حاله ؛ لأن مثل هذا جرثومة فاسدة يفسد الطلاب كلهم أو من قدر عليه منهم ، ولا تقره وهو في هذه الحال الذي ليس له هم إلا الإفساد دينًا أو سلوكًا ومنهجًا ؛ لأن هذا هو النصح . كذلك أيضًا عندما نأتي أمير بلدة ، نرى في البلدة منكرات ، نرى فيها غشًا ، نرى فيها تقصيرًا من المسؤولين الآخرين ؛ لا يجوز أن نعطي الأمير صورة على أن كل شيء تام ، يجب أن نبين ونوضح . صحيح أنه إذا أمكن أن تُصلح الأمور قبل أن تُرفع إلى الأمير فهذا حسن وطيب ، ولكن إذا علمنا أن المسألة ما هي صالحة ، وأنها لو ذهبنا إلى المسئول الذي تحت الأمير قال : إن شاء الله تعالى : أبشروا ، كل شيء يتييسر ولكنه يماطل فلا بد من إبلاغ من فوقه حتى يقوم باللازم . فالحاصل من هذا الحديث أنه لا بد من النصح ، وبيان الأمور على ما هي عليه ، وأما أن تلقى الإنسان بوجه وإذا أدبرت عنه أدبرت ، فهذا حرام ومن النفاق ، ومن ذلك أيضًا مسألة أخص من هذا ، يجيء إلى الإنسان شخصٌ يقول : ما شاء الله عليك ، أنت رجل طيب حبيب وكريم ، يشني عليك بلسان مملأ الخوف وقلبه حاقد ، لكن يريد أن يأخذ ما عندك يعني : بعض الناس خيئًا يأخذ ما عنده والرجل سليم القلب يمكن أن يصغي إلى هذا الشخص إذا رأى أنه ناصح ، ثم إذا أدير والعياذ بالله فإنه يكيل له الصاع مقلوبًا فيتكلم في عرضه ويسبه ويقول : هذا مقصر ، هذا لا دين له . فعلى المسلم أن يتقي الله ربه ، وأن يتجنب المداينة والكذب والغش وأن يكون صريحًا حتى يصلح الله على يديه . والله الموفق .

١٦١٩ - وعن جندب بن عبد الله بن سفيان رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « مَنْ سَمِعَ ؛ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي ؛ يُرَائِي اللَّهُ بِهِ » ^(١) متفق عليه .

ورواه مسلم أيضًا من رواية ابن عباس رضي الله عنه

« سَمِعَ » بتشديد الميم ، وَمَعْنَاهُ : أَظْهَرَ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ رِاءَ « سَمِعَ اللَّهُ بِهِ » أي فَصَحَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَعْنَى : « مَنْ رَأَى » أي : مَنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِيَعْظُمَ عَنْدهُمْ « رَأَى اللَّهُ بِهِ » أي : أَظْهَرَ سِرِّيَّتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ .

١٦٢٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُتَنَفَّى بِهِ وَجْهُهُ اللَّهُ ﻋَظَّمَ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا ؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » يَغْنِي رِيحَهَا ^(٢) . رواه أبو داود بإسناد صحيح . والأحاديث في الباب كثيرة مشهورة .

الشرح

نقل المؤلف رحمته الله ما بقي من أحاديث الرياء التي سبقت ، ومنها عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ » . يعني من قال قولاً يتعبد به لله ورفع صوته بذلك حتى يسمعه الناس ويقولون : فلان كثير الذكر ، كثير القراءة وما أشبه ذلك ، فإن هذا قد سَمِعَ عباد الله يرأى بذلك - نسأل الله العافية - « سَمِعَ اللَّهُ بِهِ » أي : فضحه وكشف أمره ، وبين عيبه للناس ، وتبين لهم أنه مرأى ، والحديث لم يقيد هل هو في الدنيا أو في الآخرة ؟ فيمكن أن يسمع الله به في الدنيا فيكشف عيبه عند الناس ، ويمكن أن يكون ذلك في الآخرة وهو أشد والعياذ بالله وأخرى ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [نصت : ١٦] وكذلك من رأى رأى الله به يعني من عمل عملاً ليراه الناس ويمدحوه عليه ، فإن الله تعالى يرأى به وبين عيبه للناس ويفضحه - والعياذ بالله - حتى يتبين أنه يرأى . وفي هذا الحديث التحذير العظيم من الرياء وأن المرأى مهما كان ومهما اختفى لابد أن يتبين والعياذ بالله ، لأن الله تعالى تكفل بهذا « مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ » .

أما حديث أبي هريرة : فهو فيمن طلب علماً مما يتغنى به وجه الله وذلك هو العلم الشرعي علم الكتاب والسنة ، إذا طلب الإنسان علماً من علم الكتاب والسنة لا يريد إلا أن ينال به عرض من الدنيا لم يجد عرف الجنة يعني ريحها ، وإن ريحها سيوجد من مسيرة كذا وكذا ، فمثلاً لو أن إنسان تعلم علم العقائد ، لأجل أن يقال : فلان جيد في العقيدة ، أو لأجل أن يوظف أو ما أشبه ذلك ، أو

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٩) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٦) ، وأحمد في مسنده (٤٥/٥) والطبراني في الكبير (١٧٩/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٦٤) ، وأحمد في مسنده (٣٣٨/٢) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٥٢) . قوله « مما يتغنى به وجه الله » أي : مما يراد به التقرب إلى الله تعالى مثل العلوم الشرعية . قوله « عرضاً » أي : متاع الدنيا وحطامها .

علم الفقه ، أو علم التفسير ، أو علم الحديث ، ليرائي به الناس ؛ فإنه لا يجد ربح الجنة والعياذ بالله يعني يحرم دخولها . وأما العلوم التي ليست مما يتغنى بها وجه الله كعلوم الدنيا : كعلم الحساب والهندسة والبناء ، لو تعلمه الإنسان يريد عرضاً من الدنيا فلا شيء عليه ، لأن هذا العلم دنيوي يراد للدنيا ، والحديث الذي فيه الوعيد مقيد بالعلم الذي يتغنى به وجه الله ، فإن قال قائل : كثير من الطلبة الآن يدرسون في الكليات يريدون الشهادة ، الشهادة العليا ، فيقال : إنما الأعمال بالنيات ، إذا كان يريد بالشهادات العليا أن ينال الوظيفة والمرتبة ، فهذا أراد به عرضاً من الدنيا ، إذا أراد بذلك أن يتبوأ مكاناً لينفع الناس ليكون مدرساً ، ليكون مديراً ، ليكون موجهاً ، فهذا خير ولا بأس به ، لأن الناس أصبحوا الآن لا يقدرّون الإنسان بعلمه وإنما يقدرّونه بشهادته ، فإذا قال قائل - مثلاً - : لو أبقيت بدون شهادة مهما بلغت من العلم لن يجعلوني معلماً لكنني أتعلم وأخذ شهادة ، لأجل أن أكون معلماً أنفع المسلمين ، فهذه نية طيبة وليس فيها شيء . والله الموفق .

* * *

٢٨٩ - باب ما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء

١٦٢١ - عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمته الله في باب (ما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء) يعني : ما يظنه الإنسان أنه رياء ولكن ليس برياء ، ثم ذكر حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس على ذلك ، فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . أن الناس يشنون عليه . وصورة المسألة التي في الحديث أن الرجل يعمل عملاً صالحاً لله لا يبالي - أعلم به الناس أم لم يعلموا ؟ أراه أم لم يروه ؟ أسمعوه أم لم يسمعوه ؟ لكنه لله يعمل خالصاً ، ثم إن الناس يحسدونه على ذلك يقولون : فلان كثير الخير ، فلان كثير الطاعة ، فلان كثير الإحسان إلى الخلق ، وما أشبه ذلك ، فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » ، وهو الثناء عليه ، لأن الناس إذا أثنوا على الإنسان خيراً ؛ فهم شهداء الله في أرضه . ولهذا لما مرت جنازة من عند النبي ﷺ وأصحابه أثنوا عليها خيراً ، قال : « وجبت » ، ثم مرت أخرى فاثنوا عليها شراً ، قال : « وجبت » ، فقالوا : يا رسول الله ، ما وجبت ؟ قال : « أما الأول فوجبت له الجنة ، وأما الثاني فوجبت له النار » ^(٢) ، أنتم شهداء الله في الأرض . فهذا معنى قوله : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . والفرق بين هذه وبين الرياء أن المرائي لا يعمل العمل ، إلا لأجل

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٦) ، وأحمد في مسنده (١٥٦/٥) .

(٢) انظر الحديث بنصه في : أبو داود في السنن (٣٢٣٣) ، والنسائي في السنن (١٧١/٢) ، والبيهقي في السنن (٧٥/٤) .

الناس ليراه الناس فيكون في نيته شرك ، شرك مع الله غيره ، وأما هذا فنيته خالصة لله ﷻ ولم يطرأ على باله أن يمدحه الناس أو يذموه ، لكن الناس يعلمون ، كما قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلمي

يعني : أي شيء خلق ^(١) عند الإنسان يقوم به وإن ظن أن الناس لا يعلمون ، فإنهم لابد أن يعلموه ، فإذا علموا بطاعته ومدحوه وأثنوا عليه ؛ فهذا ليس برياء . هذا عاجل بُشِّرَ المؤمن ، حيث إن الناس أثنوا عليه خيراً ، ومن أثنى الناس عليه خيراً ؛ فحري بأن يكون من أهل الجنة . أما المرائي والعياذ بالله ؛ فإنه إن صلى يريد من الناس أن يعلموا بذلك ، إن تكلم بخير أراد من الناس أن يسمعه ليمدحوه على هذا . والفرق بين هذا وبين ما ذكر في حديث أبي هريرة اليوم فرق عظيم . نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الرياء وأن يعيذنا من سوء الفتن إنه على كل شيء قدير .

* * *

٢٩٠ - باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية والأمرد الحسن لغير حاجة شرعية

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ إِنْ أَلْسَنَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] . وقال تعالى : ﴿ إِنْ رَبِّكَ لِبَالِغُ الْمَرَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] .

الشرح

ذكر النووي ﷺ في كتابه «رياض الصالحين» باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية ، والأمرد الحسن لغير حاجة ، والمرأة الأجنبية هي التي ليس بينك وبينها محرمة ، سواء أكانت قرية أم بعيدة ، والأمرد هو الشاب الذي لم تنبت لحيته ولم يكن على شاربته شعر ثخين ، يعني أن شاربته أخضر ولحيته لم تنبت والحسن ضد القبيح . ؛ النظر إلى المرأة الأجنبية محرم ، كما قال المؤلف ﷺ ، وذلك لأن الله أمر بغض البصر ، فقال ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠] فأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وهذا يدل على أن عدم غض البصر سبب لعدم حفظ الفرج ، وأن الإنسان إذا أطلق بصره تعلق قلبه بالنساء ، ثم لا يزال به النظر حتى يدنو من المرأة ويكلمها ويخاطبها ، ثم يعدها ، ثم تحصل الفاحشة - والعياذ بالله - ولهذا يقال : إن النظر بريد الزنا ، يعني أنه يدعو إلى الزنا ، فأمر الله بغض البصر ، وقال ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] خائنة الأعين مسارتها النظر ، يعني أن تنظر على وجه الخفاء الذي لا يدركه الناس لكن الله يعلمه ، فهو يعلم خائنة الأعين ويعلم جل وعلا ما تخفي الصدور من النيات الحسنة والنيات السيئة ، بل هو يعلم ما

توسوس به النفس وما يستقبل للمرء ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] فالإنسان مسؤول عن السمع ، ماذا سمع بأذنيه ؟ هل سمع قولاً محرماً أو استمع إلى امرأة أجنبية يتلذذ بصوتها ؟ وكذلك البصر ، وكذلك الفؤاد . فالواجب على الإنسان حفظ نفسه . أما المرأة التي ليست أجنبية والتي يحرم عليك نكاحها ؛ فالنظر إليها لا بأس به ، النظر إلى وجهها ، وإلى رأسها ، وإلى كفيها وذراعيها وساقها وقدميها ، كل هذا لا بأس به ، إلا أن يخاف الإنسان الفتنة على نفسه ، فإن خاف الفتنة على نفسه ؛ فإنه لا ينظر ، ولا إلى محارمه ، فلو قدر أن للإنسان أختاً من الرضاغة . جميلة فهي محرم له ، أخته من الرضاغة كأخته من النسب ، لكن إذا خاف على نفسه الفتنة من النظر إليها وجب عليه غض بصره ، ووجب عليها أن تحتجب عنه أيضاً ، لأن أصل وجوب الحجاب : الخوف من الفتنة ، فإذا وجدت الفتنة ؛ فإنه لا بد من ستر الوجه ولو عن المحارم ، وأما إذا لم تكن فتنة وكان الإنسان سليم القلب عفيفاً ؛ فهذا يحرم عليه أن ينظر إلى غير محارمه - مثلاً - لا ينظر إلى بنت عمه ولا بنت خاله ، وكذلك لا ينظر إلى أخت زوجته ، ولا ينظر إلى زوجة أخيه ، وهلم جرا ، المهم : أن المحارم يجوز النظر إليهن ما لم يخش الفتنة ، أما غير المحارم فيحرم النظر إليهن مطلقاً . والله الموفق .

* * *

١٦٢٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيئُهُ مِنَ الزَّنا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ : الْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النَّظَرُ ، وَالْأُذُنَانِ زَنَاهُمَا السَّمْعُ ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُمَا الْكَلَامُ ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْشُ ، وَالرَّجُلُ زَنَاهَا الْخَطَا ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ » (١) . متفق عليه . وهذا لفظ مسلم ، ورواية البخاري مختصرة .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله بعد ذكر الآيات حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا وهو مدرك ذلك لا محالة » ، يعني أن الإنسان مدرك للزنا لا محالة إلا من عصمه الله ، ثم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أمثلة لذلك ؛ فالعين زناها النظر ؛ يعني أن الرجل إذا نظر إلى امرأة ولو لغير شهوة وهي ليست من محارمه ؛ فهذا نوع من الزنا ، وهو زنا العين ، والأذن زناها الاستماع ، يستمع الإنسان إلى كلام المرأة ويتلذذ به ، هذا زنا الأذن ، وكذلك اليد زناها البطش ؛ يعني العمل باليد من اللمس وما أشبه ذلك ، والرجل زناها الخطا ؛ يعني أن الإنسان يمشي إلى محل الفواحش مثلاً ، أو يسمع إلى صوت امرأة فيمشي إليه ، أو يرى امرأة فيمشي إليها ، هذا نوع من الزنا ، لكنه زنا الرجل ، القلب يهوى ويميل إلى هذا الأمر - أي التعلق بالنساء - هذا زنا القلب ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ، يعني أنه إذا زنى بالفرج والعياذ بالله فقد صدق زنا هذه الأعضاء ، وإن لم يزني بفرجه بل سلم

(١) أخرجه البخاري ومسلم (٦٢٤٣) الاستئذان في القدر (٢١) وأحمد مسنده (٣١٧/٢) ، قوله « والقلب يهوى ويتمنى » أي : يهوى ويتمنى وقوع ما تحبه النفس من الشهوة .

وحفظ نفسه ؛ فإن هذا يكون تكذيباً لزنا هذه الأعضاء . فدل ذلك على الحذر من التعلق بالنساء ، لا بأصواتهم ، ولا بالرؤية إليهن ، ولا بمسهن ، ولا بالسعي إليهن ولا بغواية القلب لهن ، كل ذلك من أنواع الزنا والعياذ بالله ، فليحذر الإنسان العاقل العفيف من أن يكون في هذه الأعضاء شيء يتعلق بالنساء . والواجب على الإنسان إذا أحس من نفسه بهذا أن يتعد ، لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، والنظر سهم مسموم من سهام إبليس الملعون ، قد ينظر المرء إلى امرأة ولا تتعلق نفسه بها أول مرة لكن في الثانية في الثالثة حتى يكون قلبه معلق بها والعياذ بالله ، ويصبح هيمان لا يذكر إلا هذه المرأة ، إن قام ذكرها ، وإن قعد ذكرها ، وإن نام ذكرها ، وإن استيقظ ذكرها ، فيحصل بهذا الشر والفتنة ، نسأل الله العافية ، والله الموفق .

* * *

١٦٢٣ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرَقَاتِ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدَّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « فَإِذَا أُتِيتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » ^(١) متفق عليه .

١٦٢٤ - وَعَنْ أَبِي طَلْحَةَ زَيْدِ بْنِ سَهْلٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا قُعُودًا بِالْأَفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ : مَا لَكُمْ وَمَجَالِسِ الصُّعْدَاتِ ؟ اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعْدَاتِ » فَقُلْنَا : إِنَّمَا قَعَدْنَا لغير ما بَأْسَ ، قَعَدْنَا نَتَذَكَّرُ ، وَنَتَحَدَّثُ . قَالَ : « إِمَّا لَا فَأَدُّوا حَقَّهَا : غَضُّ الْبَصَرِ ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَحُسْنُ الْكَلَامِ » ^(٢) رواه مسلم .

« الصُّعْدَاتُ » بضم الصاد والعين ، أي : الطَّرَقَاتُ .

الشرح

لما ذكر المؤلف رحمته الله تعالى الآيات الدالة على وجوب غض البصر ذكر أحاديث ، منها حديث أبي سعيد الخدري وحديث زيد بن سهل ، أما الأول : فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرَقَاتِ » وهذا تحذير ، يعني احذروا الجلوس على الطرقات ، فقالوا : يا رسول الله مجالسنا ما لنا منها بد ، وكانوا يجلسون على أفنية البيوت كما يفعل كثير من الناس اليوم ، يجلس في فناء بيته ويجتمع إليه جيرانه يتحدثون فيما جرى بينهم وفي مصالحهم ، في دين أو دنيا ، قال : فإن أيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقه ، يعني إن أيتم إلا أن تجلسوا وكان لابد من الجلوس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حقه يا رسول الله ، فذكر حقه عليه الصلاة والسلام :

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٩) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٤) ، وأحمد في مسنده (٣٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في السلام (٢) ، وأحمد في مسنده (٣٠/٤) . قوله : « الْأَفْنِيَّة » هي الأماكن المتسعة التي تتوسط الدور . قوله « مَجَالِسِ الصُّعْدَاتِ » : هي التي يخرج منها أصحاب الدور ليقضوا حوائجهم . قوله « فَأَدُّوا » أي فأعطوا .

الأول : « غض البصر » يعني : أن تغضوا أبصاركم عن المارة ، ولا تحدقوا فيهم ، ولا تنظروا إليهم ، لأن بعض الناس يجلس على الطرقات وكلما مر إنسان صار يراقبه من حين أن يقبل إلى أن يدبر ، وهذا خلاف ما أمر به النبي ﷺ ، فيغض البصر ، ولا سيما إذا مرت المرأة ؛ فإن الواجب غض البصر من وجهين : من حيث أنها امرأة ، ومن حيث إن التركيز على المار يوجب أن يخجل ويتأذى بذلك .

الثاني : « كف الأذى » ألا تؤذوا أحداً من المارة لا بقول ولا بفعل ، لا بقول تسمعون به إياه يتأذى به ولا بفعل بأن تضيقوا الطريق فتمدوا أرجلكم مثلاً ، أو تضجعوا في الطريق أو ما أشبه ذلك .

والثالث : « رد السلام » يعني : إذا سلم أحد تردون عليه السلام ، على الوجه الواجب ، إذا قال : السلام عليكم تقول : عليكم السلام ، ولا يكفي أن تقول : أهلاً وسهلاً أو مرحباً ، أو ما أشبه ذلك ، بل لابد من الرد الواجب ، ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] .

الرابع : « الأمر بالمعروف » إذا رأيتم أحداً قد قصر في أمر مطلوب منه تأمرونه به ، والمعروف : كل ما أمر به الشرع ، وكل ما عرفه الناس وأقروا به مما لا يكون حراماً فإنه معروف ، فمثلاً لو جلستم في الطريق ورأيتم امرأة كاشفة الوجه ، فهنا إنها عن هذا المنكر ، رأيتم إنساناً مفرطاً تقام الصلاة وهو لا يصلي وأنتم قد صليتم وهو لم يصل ؛ تأمرونه أن يصلي مع الجماعة مثلاً ، وهلم جواً ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، فهذه خمسة حقوق على من جلسوا في الطرقات . وكذلك الحديث الذي بعده يدل على ما دلَّ عليه هذا ، والمقصود والشاهد من هذا قوله « عض البصر » . والله الموفق .

١٦٢٥ - وَعَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفَجَاءَةِ فَقَالَ : « اضْرِفْ بَصْرَكَ » (١) رواه مسلم .

١٦٢٦ - وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ مِمْوْنَةُ ، فَأَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ - وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَمَرْنَا بِالْحِجَابِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اِخْتَجِبَا مِنْهُ » فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا ، وَلَا يَعْرِفُنَا ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَفَعَمِيَا وَإِنْ أَتَيْتُمَا ؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِي ؟ ! » (٢) رواه أبو داود والترمذي وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٦٢٧ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى غُورَةِ الرَّجُلِ ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى غُورَةِ الْمَرْأَةِ ، وَلَا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، وَلَا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ » (٣) .

(١) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٤٥) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٣٦١/٤) ، وأبو داود في النكاح (٢١٤٨) والطبراني في الكبير (٣٨٤/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١١٢) ، والترمذي في الأدب (٢٧٧٨) ، وأحمد في مسنده (١٩٦/٦) . قوله « اِخْتَجِبَا مِنْهُ » أي : استترا ولا تنظرا إليه .

الثوب الواحد^(١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله في باب (تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية والأمرد الحسن بغير حاجة شرعية) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة ؟ قال : اصرف بصرك . نظر الفجأة : هو الذي يفاجئ الإنسان مثل أن تمر به امرأة مفاجأة وتكون قد كشفت وجهها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اصرف بصرك » يعني : أدرك يميناً أو شمالاً حتى لا تنظر ، فيستفاد من هذا الحديث : تحريم نظر الرجل إلى المرأة ، لكن إذا حصل هذا فجأة ؛ فإنه يعفى عنه ، لأنه بغير اختيار من الإنسان ، وما كان بغير اختيار من الإنسان فإن الله قد عفى عنه .

وأما الحديث الثاني حديث أم سلمة ، أنها كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة ، فدخل عبد الله بن أم مكتوم وكان رجل أعمى وكان ذلك بعد نزول الحجاب ، فأمرهما أن تحتجبا منه ، يعني قال لأم سلمة وميمونة « تحتجبا منه » يعني من ابن أم مكتوم وهو أعمى ، فقالتا : « يا رسول الله إنه رجل أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا » ، فقال : « أفعميا وان أنتما تحتجبا منه » ، فأمرهما أن تحتجبا عن الرجل ولو كان أعمى ، لكن هذا الحديث ضعيف ، لأن الأحاديث الصحيحة كلها ترده ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة بنت قيس : « اعتدي في بيت ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده »^(٢) ، وهذا الحديث في الصحيحين ، وأما هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمته الله ، فقد قال الإمام أحمد : إن رفعه خطأ ، يعني لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا فلا يحرم على المرأة أن تنظر إلى الرجل ولو كان أجنبياً ، بشرط ألا يكون نظرها بشهوة أو لتمتع ؛ يعني : نظر عادي ، ولذلك نجد الرجال يمشون في الأسواق كاشفين وجوههم والنساء ينظرون إلى الوجوه ، وكذلك النساء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يحضرن إلى المسجد ولا يحتجب الرجال عنهن ، ولو كان الرجل لا يحل للمرأة أن تراه ؛ لوجب عليه أن يحتجب كما تحتجب المرأة عن الرجل . فالصحيح أن المرأة لها أن تنظر من الرجل لكن بغير شهوة ولا استمتاع أو تلهذ ، وأما الرجل فيحرم عليه أن يرى المرأة كما مر علينا الآن ، وكما مر علينا فيما سبق ، وأما الحديث الأخير فحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ، ولا الرجل إلى عورة الرجل ، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد » فقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » هذا نهى للناظرة أن تنظر إلى عورة المنظورة ، يعني لو انكشفت عورة المرأة المنظورة بريح أو بقضاء حاجة أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه لا يحل للأخرى أن تنظر إلى عورتها وهي ما بين السرة والركبة ، وكذلك الرجل لو انكشفت عورته بريح ، أو لغير هذا من الأسباب ؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الرجل ، وهذا الحديث تشبث به بعض النساء ، فقلن : إن المرأة لا

(١) أخرجه مسلم في الحيض (٧٤) ، وأبو داود في الحمام (٤٠١٨) ، والحاكم في المستدرک (١٥٨/١) . قوله : « لا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد » أي : لا يضيّعان متجردين تحت ثوب واحد ، وذلك خشية الوقوع في الفاحشة .

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) ، وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) ، والبيهقي في السنن (١٧٧/٧) .

يلزمها أن تستر من بدنهما إلا ما بين السرة والركبة ، وهذا فهم خاطئ ، لأن النبي ﷺ لم يرخص للمرأة أن تقتصر على ثوب يستر ما بين السرة والركبة ، وإنما نهى المرأة الأخرى أن تنظر إلى عورة المرأة ، والفرق بين الأمرين ظاهر فالمرأة اللابسة يجب أن يكون لباسها ساتراً ، وكان نساء الصحابة ﷺ ، يسترن ما بين كعب القدم إلى كف اليد ، كل هذا مستور ، لكن لو قدر أن امرأة انكشفت عورتها لحاجة ، أو انكشفت من ريح أو غير هذا ؛ فإن المرأة لا تنظر إلى ما بين السرة والركبة بالنسبة للأخرى ، وكذلك يقال للرجل لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل وهي ما بين السرة والركبة ، وهذا بالنسبة للرجل يجوز له أن يكشف الصدر والكتف لأخيه ، بدليل أنه يجوز للإنسان الرجل أن يقتصر على الإزار كما في حديث الرجل الذي طلب من النبي ﷺ أن يزوجه الواهة ، وهي امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ قالت : يا رسول الله وهبت نفسي لك ، فصعد فيها النظر وصوبه ولم تطب نفسه بها ، فسكت ، فجلست المرأة ، ثم قال رجل من القوم : زوجنيها يا رسول الله . قال : « ما معك من الصداق ، قال : معي إزاري ، قال سهل راوي الحديث : ليس له رداء ، ما عليه إلا إزار فقط ، فقال له الرسول ﷺ : إن أعطيتها إزارك بقيت بلا إزار وإن أبقيته لك لم يكن لها مهر ، اطلب ، ابحث ، التمس ولو خاتماً من حديد ، فذهب يلتبس فلم يجد ولو خاتماً من حديد ، فإنه فقير ، فقال : هل معك شيء من القرآن ؟ قال : نعم سورة كذا وكذا ، قال : زوجتكها بما معك من القرآن ^(١) ، يعني علمها الذي معك من القرآن وهذا هو مهرها . فالشاهد من هذا أن الرجل لا بأس أن يقتصر على لبس الإزار ، أما المرأة فلا يمكن أن تقتصر على لبس الإزار ، وليس هذا من عادة نساء الصحابة ﷺ والله الموفق .

- سؤال وجوابه :

الخدمة التي في البيوت كغيرها يجب أن تستر وجهها وهي أشد خطراً ، لأنها لو كشفت وجهها وكانت شابة أو جميلة افتتن بها صاحب البيت وأولاده ، إذا كان له أولاد .

٢٩١ - باب تحريم الخلوة بالأجنبية

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَّماً فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ^(٢) [الأحزاب : ٥٣] .
١٦٢٨ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ غَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَفَرَأَيْتَ الْحَمَوُ ؟ قَالَ : « الْحَمَوُ الْمَوْتُ » ^(٣) متفق عليه .

(١) انظر القصة بلفظها في البخاري النكاح (٥١٢١) ، وأبو داود في السنن (٢١١١) ، والترمذي في السنن (١١١٤) ، والدارمي في السنن (١٤٢/٢) . (٢) قوله تعالى : ﴿ مَتَّماً ﴾ أي حاجة : قوله تعالى : ﴿ حِجَابٍ ﴾ أي ساتر . (٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢) ، ومسلم في السلام (٢٠) ، وأحمد في مسنده (١٤٩/٤) ، والبيهقي في السنن (٩٠/٧) . قوله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » أي : الاختلاء بالنساء الأجنبية .

« الْحَمُوُّ » قَرِيبُ الزَّوْجِ كَأَخِيهِ ، وَابْنُ أَخِيهِ ، وَابْنُ عَمِّهِ .

١٦٢٩ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَخْلُونُ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ » ^(١) متفقٌ عليه .

١٦٣٠ - وَعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ ، مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ ؛ إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ حَتَّى يَرْضَى » ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « مَا ظَنُّكُمْ ؟ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، والمرأة الأجنبية : هي التي ليس بينك وبينها محرم ، مثل بنت العم ، بنت العممة ، بنت الخالة ، وما أشبه ذلك ، أو من لم يكن من أقاربك ، فالمراد بالأجنبية هنا من ليست لك بمحرم ، والخلوة بها حرام ، وما خلى رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان ^(٣) ، فما ظنكم بمن ثالثهما الشيطان ، إنا ظننا بذلك أنهما سيكونا عرضة للفتنة والعياذ بالله ، ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ يعني : لا تدخلوا عليهن ، أسألوهن من وراء حجاب حتى لا تحصل الخلوة ، ثم ذكر حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء » يعني : أحذروا أن تدخلوا على النساء ، وهذا تحذير بالغ ، قالوا : يا رسول الله أرأيت الحمى ، قال : « الحمى الموت » الحمى يعني : أقارب الزوج من : أخيه ، عمه ، خاله ، ... هذا هو الحمى ، أما أبو الزوج وابن الزوج فهم من المحارم ، لكن حواشيه كأخيه وعمه وخاله فهؤلاء ليسوا من المحارم قال : « الحمى الموت » . وهذه كلمة من أبلغ ما يكون من التحذير ، يعني كما أن الإنسان يفر من الموت ؛ فيجب أن يفر من دخول أقاربه على زوجته وأهله بلا محرم ، وهذا يدل على التحذير الشديد . ودخول أقارب الزوج على بيت الزوج أخطر من دخول الأجانب ، لأن هؤلاء يدخلون باعتبارهم أقارب فلا يستكرهم أحد ، وإذا وقفوا عند الباب يستأذنون لم ينكر عليهم أحد ، لذلك كان حراماً على الإنسان أن يمكن أخاه من الخلوة بزوجه ، وبعض الناس يتهاون في هذا الأمر ، تجد عنده زوجة وله أخ بالغ ، فيذهب الرجل إلى العمل ويترك زوجته وأخاه في البيت وحدهما ، وهذا حرام لا يجوز ؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ^(٤) ، ولكن كيف الخلاص إذا كان البيت واحداً ؟! يجب أن يجعل باباً

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٣) ، ومسلم في الحج (٤٢٤) ، وأحمد في مسنده (١٨/١٥) قوله ﷺ : « ذى محرم » : هو من يحرم عليه زواج المرأة مثل : الأخ والأب والعم والخال وابن الأخ وابن الأخت والأخ من الرضاع .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٩) ، وأحمد في مسنده (٣٥٢/٥) ، وأبو داود في الجهاد (٢٤٩٦) . قوله « يخلف رجلاً من المجاهدين » أي : يقوم بحوائج أهل المجاهد .

(٣) انظر الحديث الدال على ذلك في الترمذي في الرضاع (١١٧١) ، وأحمد في مسنده (١٨/١) .

(٤) وذلك مصداقاً لما رواه مسلم في الدم (٢٤) ، وأحمد في مسنده (١٥٦/٣) ، والدارمي في السنن (٣٢٠/٢) .

بين محل الرجال ومحل النساء مغلقاً مفتاحه معه يأخذه معه ثم يقول لأخيه : هذا محللك ، ويقول لأهله : هذا محللك . ولا يجوز أن تبقى الأبواب مفتوحة ، لأنه قد يدخل عليها فيأزله الشيطان فيغتصبها ، وربما يغرها حتى توافق وتكون كأنها زوجة له يدخل عليها ويخرج ولا ييالي ، نسأل الله العافية .

ومن الخلوة : الخلوة بالسائق يعني الإنسان عنده سائق وله امرأة أو بنت ؛ لا يحل له أن يجعل السائق مع المرأة أو البنت وحدها إلا مع ذي محرم ، لأن الخلوة في السيارة أقوى من الخلوة في البيت ، إذ أن الخلوة في السيارة يستطيع أن يتفاهم معها ، ثم يذهب إلى أي مكان ويفعل بها الفاحشة ، من الذي يمنعه ؟ لهذا .. حرام على الإنسان أن يمكن أهله من زوجة أو أخت أو بنت من أن تركب وحدها مع السائق ولو بقدر خمس خطوات أبداً ، لا يجوز . فإن قال قائل : لو كانت امرأة تدرس وأبوها مريض أو مشغول لا يتمكن وهي لا بد أن تدرس ؟ قلنا : لا ، من يقول لا بد أن تدرس ، الدراسة التي تستلزم الوقوع في المحرم حرام ، يجب أن تبقى في بيتها والدراسة - الحمد لله - لها الشباب الذكور فيهم خير ، والمرأة إذا كان معها مبادئ تستطيع أن تراجع وتنتسب ، أما أن تذهب مع السائق وحدها فهذا حرام . ويخشى أن يكون الذي يمكن أهله من ذلك ، يخشى أن ينطبق عليه شيء من وصف الذئب ؛ وهو الذي يقر أهله على الفاحشة . لكن هذا لم يقر أهله على الفاحشة إنما يخشى أن يكون ذلك وسيلة . والله الموفق .

* * *

٢٩٢ - باب تحريم تشبه الرجال بالنساء

وتشبه النساء بالرجال في لباس وحركة وغير ذلك

١٦٣١ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُخْتَلِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْمُتَرَجِّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ .
وفي رواية : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ ^(١) .
رواه البخاري .

١٦٣٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ ^(٢) . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١٦٣٣ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَّاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ ، زُؤُوهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا » ^(٣) رواه مسلم .
معنى « كَاسِيَاتٌ » أي : مِنْ نَعْمَةِ اللَّهِ . « عَارِيَّاتٌ » مِنْ شُكْرهَا . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : تَشْتَرِي بَعْضَ بَدَنِهَا ،

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٨٥) ، وأحمد في مسنده (٢٥٥/١) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٣٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٨) ، وأحمد في مسنده (٣٢٥/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٢٥) ، وأحمد في مسنده (٤٤٠/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٣٤/٢) .

وَتَكْشِفُ بَعْضُهُ إِظْهَارًا لِحَمَالِهَا وَنَحْوَهُ . وَقِيلَ : تَلْبَسُ ثَوْبًا رَقِيقًا يَصِفُ لَوْنَ بَدْنِهَا . وَمَعْنَى « مَائِلَاتٌ » : قِيلَ : عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا يَلْزُمُهُنَّ حِفْظُهُ « مَائِلَاتٌ » : أَيُ : يُعَلِّمْنَ غَيْرَهُنَّ فِعْلَهُنَّ الْمَذْمُومَ ، وَقِيلَ : مَائِلَاتٌ يَمْشِينَ مُتَّبِعَاتٍ ، مَائِلَاتٌ لِأَكْثَانِهِنَّ ، وَقِيلَ : مَائِلَاتٌ يَمْتَشِطْنَ الْمِشْطَةَ الْمِلَاءُ : وَهِيَ مِشْطَةُ الْبَقَايَا . وَ « مَائِلَاتٌ » : يَمْتَشِطْنَ غَيْرَهُنَّ تِلْكَ الْمِشْطَةَ . « رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ » : أَيُ : يُكَبِّرُونَهَا وَيُعْظَمْنَهَا بِلَفٍّ عِمَامَةٍ أَوْ عِصَابَةٍ أَوْ نَحْوِهِ .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمته الله تحريم تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وذلك أن الله ﷻ خلق الذكور والإناث وجعل لكل منهما مَرِيَّةً ، الرجال يختلفون عن النساء في الخلقة والخلق والقوة والدين وغير ذلك ، والنساء كذلك يختلفن عن الرجال . فمن حاول أن يجعل الرجال مثل النساء أو أن يجعل النساء مثل الرجال ؛ فقد حاد الله في قدره وشرعه ، لأن الله ﷻ له حكمة فيما خلق وشرع ، ولهذا جاءت النصوص بالوعيد الشديد باللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله لتشبه الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل ، فمن تشبه بالنساء فهو ملعون على لسان النبي ﷺ ، ومن تشبهت بالرجال فهي ملعونة على لسان النبي ﷺ ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ لعن المختلن من الرجال » ، وفي لفظ « المتشبهين من الرجال بالنساء » وهؤلاء هم المختلون في هذا الحديث ، « ولعن المترجلات من النساء » يعني المتشبهات بالرجال . واللعن : هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، فإذا تشبه الرجل بالمرأة في لباسه ولا سيما إذا كان مُحَرَّمًا ؛ كالحرير والذهب ، أو تشبه المرأة في كلامها وصار يغير لسانه في الكلام حتى كأنما تتكلم امرأة ، أو تشبه المرأة في مشيتها أو في غير ذلك مما يختص بالمرأة ؛ فإنه ملعون على لسان أشرف الخلق ، ونحن نلعن من لعنه رسول الله ﷺ ، فالتشبه من الرجال بالنساء ملعون ، كذلك المرأة إذا تشبهت بالرجال فهي ملعونة ، لو صارت تتكلم كما يتكلم الرجل ، أو جعلت لها عمامة كما يلبس الرجل أو جعلت ثيابها كثياب الرجل ومن ذلك البنطلون ؛ فإن لباس البنطلون خاص بالرجال ، النساء عليهن أن يلبسن الثياب الساترة ، والبنطلون كما نعلم جميعًا يكشف المرأة تبيين أفخاذها وسوقها - يعني سيقانها - وما أشبه ذلك ، فلهذا نقول : لا يحل للمرأة أن تلبس البنطلون حتى عند زوجها ، لأنه ليست العلة العورة ، العلة التشبه ، فإذا تشبهت المرأة بالرجال ؛ فهي ملعونة على لسان محمد ﷺ ، ولهذا أردف المؤلف رحمته الله حديث ابن عباس بحديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس » قال العلماء : وهؤلاء هم الشرط الذين يضربون الناس بغير حق « معهم سياط كأذناب البقر » يعني : سوط طويل وله ريشة يضربون بها الناس بغير حق ، أما بحق فإنه يضرب المعتدي ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدًا وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [النور: ٢٣] لا ترأفوا بهما اجلدوهما تمامًا . لكن من ضرب الناس بغير حق فهو من أصناف أهل النار ، والعياذ بالله .

الثاني : « نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة » لا يدخن

الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » . هؤلاء أيضًا النساء « كاسيات عاريات » ، قيل : كاسيات بثيابهن كسوة حسية ، عاريات من التقوى ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَيَأْسُ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] وعلى هذا فيشمل هذا الحديث كل امرأة فاسقة فاجرة وإن كان عليها ثياب فضفاضة ، لأن المراد بالكسوة الكسوة الظاهرة كسوة الثياب ، عاريات من التقوى ، لأن العاري من التقوى لا شك أنه عارٍ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَأْسُ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] . وقيل : « كاسيات عاريات » أي عليهن كسوة حسية لكن لا تستر ، إما لضيقها ، وإما لخففتها تكون رقيقة ما تستر ، وإما لقصرها ، كل هذا يقال للمرأة التي تلبس ذلك إنها كاسية عارية . مميلة مائلة ، مميلة : يعني تميل المشطة كما فسرهم بعضهم بأنها المشطة المائلة التي تجعل المشطة على جانب فإن هذا من الميل ، لأنها مميلات المشطة ، ولا سيما أن هذا الميل الذي جاءنا إنما وردنا من النساء الكفار . وهذا والعياذ بالله ابتلى به بعض النساء ، فصارت تفرق ما بين الشعر من جانب واحد ، فتكون هذه مميلة ؛ أي قد أمالت مشطتها . وقيل : « مميلات » أي فائنات غيرهن لما يخرجن به من التبرج والطيب وما أشبه ذلك ، فهن مميلات لغيرهن ولعل اللفظ يشمل المعنيان ، لأن القاعدة أن النص إذا كان يحتمل معنيين ولا مرجح لأحدهما ؛ فإنه يحمل عليهما جميعًا . وهنا لا مرجح ولا منافاة لاجتماع المعنيين فيكون شاملًا لهذا وهذا ، وأما قوله : « مائلات » فمعناه منحرفات عن الحق وعما يجب عليهن من الحياء والحشمة ، تجدها في السوق تمشي مشية الرجل بقوة وجلد حتى إن بعض الرجال لا يستطيع أن يمشي هذه المشية ، لكنها هي تمشي كأنها جندي من شدة مشيتها وضربها بالأرض وعدم مبالاتها ، كذلك أيضًا تضحك إلى زميلتها معها ، تضحك وترفع الصوت على وجه يثير الفتنة ، وكذلك تقف على صاحب الدكان تماكثه في البيع والشراء وتضحك معه وربما تمد يدها إليه ، لأجل يضع عليها ساعة اليد وما أشبه ذلك من المفاسد والبلاء ، وهؤلاء مائلات ، لا شك أنهن مائلات عن الحق . نسأل الله العافية . « رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة » ، البخت : نوع من الإبل لها سنام طويل ينضجع ميمًا أو شمالًا ، هذه ترفع شعرها حتى يكون مائلًا ميمًا أو يسارًا كأسنمة البخت المائلة . وقال بعض العلماء : بل هذه المرأة تضع على رأسها عمامة كعمامة الرجل حتى يرتفع الخمار ويكون كأنه سنام إبل من البخت ، وعلى كل حال فهذه تحمل رأسها بتجميل يفتن ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها - نعوذ بالله - يعني : لا يدخلن الجنة ولا يقربنها ، « وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » ، من مسيرة سبعين عامًا أو أكثر . ومع ذلك لا تقرب هذه المرأة الجنة والعياذ بالله ، لأنها خرجت عن الصراط ؛ فهي كاسية عارية مميلة مائلة ، على رأسها ما يدعو إلى الفتنة والزينة ، وفي هذا دليل على تحريم هذا النوع من اللباس ، لأنه توعد عليه بالحرمان من الجنة ، وهذا يدل على أنه من الكبائر . وكذلك المتشبهات من النساء بالرجال ، تشبهن من كبائر الذنوب ، وكذلك المتشبهون من الرجال بالنساء تشبههم من كبائر الذنوب . وهنا مسألة تشكل على بعض النساء وعلى بعض الناس أيضًا ، يفعل الإنسان ما فيه التشبه ، ويقول : أنا ما نويت ، أنا لم أنو التشبه ، فيقال : إن الشبه صورة غالبية متى وجدت حذر التشبه سواء

بنية أو بغير نية . فمتى ظهر أن هذا تشبه ويشبه الكافرات ويشبه الفاجرات والعاريات ، أو يشبه الرجل من المرأة ، أو المرأة من الرجل ، متى ظهر التشبه ؛ فهو حرام ، سواء كان بقصد أو بغير قصد ، لكن إذا كان بقصد فهو أشد ، وإن كان بغير قصد قلنا : يجب عليك أن تغير ما تشبهت به حتى تبتعد عن التشبه .
وأما الحديث الأخير حديث أبي هريرة رواه أبو داود بإسناد حسن : « أن الرسول ﷺ نهى أن تلبس المرأة لبسة الرجل ، والرجل لبسة المرأة » هذا يؤيد ما قلنا فيما سبق أن التشبه يكون باللباس والمشية والهيئة وغير ذلك . نسأل الله لكم ولنا السلامة وأن يحفظ ذكورنا وإناثنا مما فيه الفتنة والغلط .
- سؤال وجوابه :

الميلون من الرجال ربما يكونون أحبث ؛ يعني يوجد بعض الشبان ولا سيما إذا كان جميلاً يميل لباسه ويتغنج حتى كأنه يدعو الناس إلى نفسه . والعياذ بالله .

٢٩٣ - باب النهي عن التشبه بالشیطان والكفار

١٦٣٤ - عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَأْكُلُوا بِالشَّمَالِ ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ » (١) رواه مسلم .
١٦٣٥ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَأْكُلَنَّ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ ، وَلَا يَشْرَبَنَّ بِهَا ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا » (٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف (تحريم التشبه بالشیطان والكفار) :

والشیطان هو رأس الكفر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] . والكفار من بني آدم هم أعداء الله وأولياء الشيطان ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائِهِمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .
والتشبه بالشیطان أو الكفار : أن يعمل الإنسان أعمالهم ، أو يلبس لباسهم الخاص بهم ، أو يتزين بزيهم الخاص ، سواء قصد التشبه أو لم يقصده ، فإذا قيل : هذا لباس الكفار ؛ حرم على المسلم أن يلبسه ، إذا قيل : هذا الزي زي الكفار ؛ حرم على المسلم أن يتشبه بهم .

الشیطان كذلك ، لا يتشبه به في أعماله ، لكن الشيطان من عالم الغيب ، لا نعلم من أعماله إلا ما

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٤) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣٤/٣) ، وابن ماجه في الأطعمه (٣٢٦٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٦) ، وأحمد في مسنده (١٢٨/٢) .

حدثنا عنه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ففي حديث ابن عمر ؓ ، أن النبي ﷺ قال : « لا يأكلن أحدكم بشماله ، ولا يشربن بشماله ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » الشمال : اليد اليسرى ، فهى النبي ﷺ عن الأكل بها ، والشرب بها وعلل ذلك بأن هذا عمل الشيطان ، الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ، وقد نهينا عن اتباعه ، كما قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [النور : ٢١] . وهذا الحديث يدل على تحريم الأكل بالشمال ، وتحريم الشرب بالشمال ، وأن من أكل أو شرب بشماله ؛ فإنه مشابهة للشيطان الذي هو عدونا وعدو الله ﷻ .

وإنك لتعجب من قوم الآن بعد أن امتزجوا بالكفار وشاهدوهم يقلدون زعيمهم الشيطان في الأكل بالشمال والشرب بالشمال ، تعجب من هؤلاء القوم أن يأكلوا بشمالهم ويشربوا بشمالهم ، ويدعون هدى النبي ﷺ فيكونون متشبهين بالشيطان والكفار غير متأسين برسول الله ﷺ ، مخالفين لهديه وسنته ، ومن الناس من يأكل باليمين ويشرب باليمين ، ولكن إذا قُدم له الشرب وهو يأكل شرب بالشمال ، وقال : أخاف أن يتلطح الإناء ! سبحان الله ! وإن تلطح الإناء يتلطح بنجاسة أو بطعام !؟ بطعام ! والطعام حلال ، وما على الإنسان إلا أن يغسل الكأس بعد الشرب ، ونحن الآن في الوقت الحاضر نشرب الكأس الباغ ويؤمى ، لكن الشيطان يزين للإنسان سوء عمله ، فيراه حسناً وقد قال الله تعالى منكراً على هؤلاء : ﴿ أَفَمَنْ ذُنِبَ لَهُمْ سُوءَ عَلَيْهِمْ فَمَنْ هُوَ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ٨] . نسأل الله العافية .

فيحرم على الإنسان بأي حال من الأحوال أن يأكل أو يشرب بشماله إلا لضرورة ، إذا كانت اليد اليمنى شلاء أو مكسورة ، أو ليس لها أصابع ، أو ما أشبه ذلك من الضرورة ، فهذه ضرورة ، وما جعل الله علينا في الدين من حرج ، ورأى النبي ﷺ رجلاً يأكل بشماله فنهاه ، وقال : لا أستطيع أن أكل - يعني باليمين - فقال له النبي ﷺ : « لا استطعت » . فما رفع يده اليمنى إلى فمه بعد ذلك ^(١) . شئت ، لأنه كاذب عندما قال : لا أستطيع ، لكن دعاء الرسول ﷺ عليه يدل على أن هذا - أعني الأكل بالشمال - حرام . وإن كان هذا الرجل قد منعه الكبير ، لكن دعاء الرسول ﷺ عليه يدل على تحريم فعله ، وهو كذلك .

ومن هذا أيضًا - أي من مشابهة الشيطان - : الأخذ بالشمال والإعطاء بالشمال ، ومع الأسف أن كثيراً من الناس ومن طلبة العلم ، ومن أهل الخير والعبادة يأخذ بشماله ويعطي بشماله ، فمثلاً يعطي شيئاً بالشمال ... سبحان الله ! الذي يأخذ بالشمال ويعطي بالشمال مشابهة للشيطان ، وهو خلاف المروءة ، وخلاف الأدب ، إذا أردت أن تعطي أحداً أعطه باليمين ، وإذا أردت أن تأخذ منه شيئاً فخذ باليمين ، اللهم إلا إذا كانت اليمين مشغولة ، مثل أن تكون تحمل فيها شيئاً ثقيلاً ، لا يمكن أن تنقله إلى اليد اليسرى ، فلكل حال مقام ، لكن بدون سبب لا تعطي بالشمال ، ولا تأخذ بالشمال ، إن كنت تريد هدى النبي ﷺ نسأل الله لنا ولكم التوفيق والهداية .

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٧) ، وأحمد في مسنده (٤٦/٤) ، والدارمي في السنن (٩٧/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٧٧/٧) .

١٦٣٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبِغُونَ ، فَخَالِفُوهُمْ » ^(١) متفقٌ عليه .

المُرَاد : خِصَابُ شَعْرِ اللَّحْيَةِ وَالرَّأْسِ الْأَبْيَضِ بِصُفْرَةٍ أَوْ حُمْرَةٍ ، وَأَمَّا السَّوَادُ ، فَمَنْهِي عَنْهُ كَمَا سَنَذْكُرُ فِي الْبَابِ بَعْدَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

* * *

٢٩٤ - باب نهى الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد

١٦٣٧ - عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : أَتَيْتُ أَبَايَ قُحَافَةَ وَالِدَ أَبِي بَكْرِ الصَّدِّيقِ رضي الله عنه يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ وَرَأْسُهُ وَلَحِيَّتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « غَيِّرُوا هَذَا ، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في تحريم التشبه بالشيطان والكفار : حديثًا عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » . يعني : اصبغوا ، وهذا يعني به صبغ البياض الشيب ، بدليل الحديث الذي في الباب الذي بعده ، أنه « أتيت أبي قحافة والد أبي بكر رضي الله عنه ، ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا » ، الثغامة : نوع من النبات أبيض ، يسمى العرسج ، فقال النبي ﷺ : « غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد » ففي هذا دليل على أن الأفضل أن الإنسان يغير الشيب بصبغه ، لكن بغير الأسود ، إما بالأصفر كالحناء ، أو بالأصفر الممزوج بالكتم ، والكتم أسود ، فإذا مزج الأصفر بالأسود ظهر لون بُني ، فيصبغ الإنسان بالبنّي أو بالأصفر ، كما أمر بذلك النبي ﷺ ، ولولا المشقة والمؤونة على بعض الناس لكان يفعل ذلك ، لكن في مراعاة ومراقبة ، ويخرج أسفل الشعر أبيض وأعله مصبوغًا .

وفي قوله : « جنبوه السواد » دليل على أنه يمنع اللون الأسود ؛ لأن السواد يعني أنه يعيد الإنسان شابًا ، فكان ذلك مضاد لفطرة الله ﷻ وسنته في خلقه ، وأما بقية الأصباغ فلا بأس بها ، إلا السواد ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه ، وإلا إذا كان صبغة مختصة بنساء الكفار ؛ فإنه لا يجوز لنساء المؤمنين أن يصبغوا بها ، لأنهن إن فعلوا ذلك تشبهوا بالكفار وهو منهي عنه . والله الموفق .

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٩٩) ، ومسلم في اللباس والزينة (٨٠) ، وأحمد في مسنده (٢٤٠/٢) ، والنسائي في السنن (١٨٥/٨) .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٧٩) ، وأحمد في مسنده (٤٩٩/٢) ، وأبو داود في الترجل (٤٢٠٤) . قوله « الثغامة » هو نبت أبيض الزهر والشعر ، شُبَّةٌ بياض الشيب به .

٢٩٥ - باب النهي عن القزع : وهو حلق بعض الرأس دون بعض

واباحه حلقه كله للرجل دون المرأة

١٦٣٨ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْقَزَعِ ^(١) . متفق عليه .

١٦٣٩ - وَعَنْهُ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَبِيًّا قَدْ حَلَقَ بَعْضَ شَعْرِ رَأْسِهِ وَتَرَكَ بَعْضَهُ ، فَتَهَاوَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ : « اَحْلِقُوهُ كُلَّهُ ، أَوْ اَتْرُكُوهُ كُلَّهُ » ^(٢) .

رواه أبو داود بإسناد صحيح على شَرَطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ .

١٦٤٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَهْمَلَ آلَ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ : « لَا تَبْكُوا عَلَيَّ أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ » . ثُمَّ قَالَ : « اذْغُوا لِي بَنِيَّ أَخِي » فَجِيءَ بَنَاتَا أَفْرُخَ فَقَالَ : « اذْغُوا لِي الْحَلَّاقَ » فَأَمَرَهُ ، فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا ^(٣) . رواه أبو داود بإسناد صحيح على شَرَطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ .

١٦٤١ - وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَحْلُقَ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا ^(٤) . رواه النَّسَائِيُّ .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيان حكم القَزَع ، ثم ذكر فيه أحاديث ، منها حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال : « نهى رسول الله ﷺ عن القزع » ، والقزع أن يحلق بعض الرأس ويترك بعضه ، سواء كان من جانب واحد أو من كل الجوانب ، أو من فوق ، ومن يمين ، ومن شمال ، ومن وراء ، ومن أمام ، المهم أنه إذا حلق بعض الرأس وترك بعضه فهذا قزع ، وقد نهى عنه النبي ﷺ . ومنه قول أنس : « وما نرى في السماء من سحاب ولا قرعة » ^(٥) أي قطعة من السحاب . وذكر حديث ابن عمر الآخر أن صبيًّا أتى به إلى النبي ﷺ وقد حلق بعض رأسه وترك بعضه ، فقال : « احلقوه له ، أو اتركوه كله » . ثم ذكر حديث أولاد جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، حين قتل شهيدًا ، فأمهلهم النبي ﷺ ثلاثة أيام ، ثم أتاهم وقال : « لا تبكوا على أخي بعد اليوم » . وإنما أمهلهم ثلاثًا من أجل أن تطيب نفوسهم ، ويذهب ما في نفوسهم من الحزن والأسى ، ثم بعد الثلاث نهاهم أن يبكوا جعفرًا ، وأتي بأولاده

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٢١) ، ومسلم في اللباس والزينة (١١٣) ، وأبو داود في الترجل (٤١٩٣) والنسائي في السنن (١٣٠/٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في الترجل (٤١٩٥) ، والنسائي في السنن (١٣٠/٨) ، وأحمد في مسنده (٨٨/٢) بنحوه .

(٣) أخرجه أبو داود في الترجل (٤١٩٢) ، وأحمد في مسنده (٢٠٤/١) ، والنسائي في السنن (١٨٢/٨) . قوله « أَفْرُخَ » هو ولد الطائر ، شبه به الصغير ، وقد حلق النبي ﷺ رؤوسهم ؛ لأن أهمهم شغلت بالمصيبة عن ترجيل شعورهم وغسل رؤوسهم فخاف عليهم الوسخ والقمل .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (١٣٠/٨) ، والترمذي في الحج (٩١٤) .

(٥) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٢٣) ، وأحمد في مسنده (٢٧١/٣) .

صغار ، فأمر بحلق رؤوسهم ، فَحَلَقَتْ رؤوسهم ، وذلك من أجل ألا تتوسخ ؛ لأن الصبيان كما هو معروف تتوسخ أبدانهم وشعورهم ، فمن أجل ذلك حلق رؤوسهم ، وهذا إذا كانوا ذكوراً ، أما الإناث ؛ فإن النبي ﷺ : نهى أن تحلق المرأة رأسها ^(١) ، ولهذا إذا ولد المولود ؛ فإنه يحلق رأسه يوم السابع مع العقيقة ، إذا كان ذكراً ^(٢) ، أما الأنثى فلا يحلق رأسها ^(٣) .

وفي هذه الأحاديث دليل على أن اتخاذ الشعر ليس بسنة . ومعنى اتخاذ الشعر : أن الإنسان يقي شعر رأسه حتى يكثر ، وَيُكَوِّنُ ضفيرة أو لمة ، فهو عادة من العادات ولو كان سنة لقال النبي ﷺ : اتركوه لا تحلقوه - في الصبي - ولما حلق رؤوس أولاد جعفر بن أبي طالب عليه السلام ولكنه - أي اتخاذ الشعر - عادة ، إذا اعتاده الناس فاتخذوه ، وإن لم يعتده الناس فلا تتخذوه ، وأما من ذهب إلى أنه سنة من أهل العلم ؛ فإن هذا اجتهد منهم ، والصحيح أنه ليس بسنة ، وأنت لا تأمر الناس باتخاذ الشعر ، بل نقول : إن اعتاده الناس وصار الناس يتخذون الشعر ، فاتخذوه لئلا تشذ على العادة ، وإن كانوا لا يتخذونه كما هو معروف الآن في أهلنا ، فلا تتخذوه .

ولهذا كان مشايخنا الكبار ، كالشيخ عبد الرحمن بن سعدي ، والشيخ محمد بن إبراهيم ، والشيخ عبد العزيز بن باز ، وغيرهم من العلماء لا يتخذون الشعر لأنه ليس بسنة ولكنه عادة . والله الموفق - شعر البنات لا يحلق لا صغاراً ، ولا كباراً ، إلا لحاجة ، مثل إن كانت الرأس فيها جروح يجب التداوي منها ، فلا بأس ؛ لأن النبي ﷺ لما احتاج إلى الحجامة وهو مُحَرَّم حلقه ، واحتجم وهو مُحَرَّم ^(٤) . مع أن حلق رأس المحرم حرام ، لكن عند الحاجة هذا شيء آخر .

٢٩٦ - باب تحريم وصل الشعر والوشم والوشر وهو تحديد الأسنان

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِيْهِ إِلَّآ إِنَّا إِنَّا نَكُونُ إِلَّا سَائِلُونَ مَرِيدًا ۖ لَعْنَةُ اللَّهِ ۖ وَقَالَ لَا تَتَّخِذْ مِنْ دُونِكِ نَصِيْبًا مَّقْرُوصًا ۖ وَلَا تُلْزِمْنَهُمْ وَلَا تُنَبِّئَهُمْ وَلَا تَمْنُنْ لَهُمْ فَلْيَبْئُتْكُمْ ءَاثَاتُ الْآتَمِرِ وَلَا تَمْنُنْ لَهُمْ فَلْيَبْئُتْكُمْ خَلْقَ اللَّهِ ۖ ﴾ ^(١) [النساء : ١١٧ - ١١٩] .

(١) وذلك رواه الترمذي في السنن (٩١٤) ، والنسائي في السنن (١٣٠/٨) .
(٢) وذلك لما رواه أبو داود في الأوصاحي (٣٨٣٨) ، والترمذي في السنن (١٥٢٢) ، والنسائي في السنن (١٦٦/٧) وابن ماجه في السنن (٣١٦٥) ، وأحمد في مسنده (٧/٥) .
(٣) هذا هو رأي بعض المالكية (انظر : سبل السلام ٩٩/٤ ، فقه الكتاب والسنة ٣١١٤/٥ ، والوسيط ١٠٣/٧) .
(٤) انظر الحديث في أبو داود في السنن (١٨٣٥) .

(٥) قوله ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِيْهِ إِلَّآ إِنَّا إِنَّا نَكُونُ إِلَّا سَائِلُونَ مَرِيدًا ۖ لَعْنَةُ اللَّهِ ۖ ﴾ أي خارجاً عن طاعة الله . قوله ﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ ۖ ﴾ أي أخرجه من رحمته . قوله ﴿ نَصِيْبًا مَّقْرُوصًا ۖ ﴾ أي معيئاً معلوماً . قوله ﴿ وَلَا تُلْزِمْنَهُمْ ۖ ﴾ أي أغويهم حتى يضلوا . قوله ﴿ فَلْيَبْئُتْكُمْ ءَاثَاتُ الْآتَمِرِ ۖ ﴾ أي يشقونها ويحرمون ركوبها . قوله ﴿ فَلْيَبْئُتْكُمْ خَلْقَ اللَّهِ ۖ ﴾ بعمل الوشم وغيره من الأشياء التي تغير الخلقة . وقيل : يغيرن دين الله .

١٦٤٢ - وَعَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ ابْتَنَيْتُ أَصَابَتْهَا الْحَصْبَةُ ، فَتَمَرَّقَ شَعْرُهَا ، وَإِنِّي زَوَّجْتُهَا ، أَفَأَصِلُ فِيهِ ؟ فَقَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمَوْصُولَةَ » ^(١) متفقٌ عليه . وفي رواية : « الْوَاصِلَةُ ، وَالْمُسْتَوْصِلَةُ » .

قَوْلُهَا : « فَتَمَرَّقَ » هُوَ بِالرَّاءِ ، وَمَعْنَاهُ : انْتَثَرَ وَسَقَطَ . « وَالْوَاصِلَةُ » : الَّتِي تَصِلُ شَعْرَهَا ، أَوْ شَعْرَ غَيْرِهَا بِشَعْرِ آخَرَ . « وَالْمَوْصُولَةُ » : الَّتِي يُوصَلُ شَعْرُهَا . « وَالْمُسْتَوْصِلَةُ » : الَّتِي تَسْأَلُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَهَا . وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : نَحْوُهُ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

١٦٤٣ - وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَامَ حَجَّ ، عَلَى الْمَيْبَرِ وَتَنَاولَ قُصَّةً مِنْ شَعْرِ كَانَتْ فِي يَدِ حَرْسِيٍّ فَقَالَ : يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَيْنَ عُلَمَاؤُكُمْ ؟! سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْهَى عَنْ مِثْلِ هَذِهِ . وَيَقُولُ : « إِنَّمَا هَلَكْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ هَذِهِ نِسَاؤُهُمْ » ^(٢) متفقٌ عليه .

١٦٤٤ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ ^(٣) . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

١٦٤٥ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ ، وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ ، وَالتَّامِصَاتِ ، وَالتَّمْتِصَاتِ ، وَالتَّمْلُجَاتِ لِلْحُسْنِ ، الْمُعْتِرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ ! فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : وَمَا لِي لَا أَلْعُنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ءَانَكُمُ الرَّسُولُ فَحُذُّوهُ وَمَا يَنْهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْهُ ﴾ [الحشر: ٧] ^(٤) متفقٌ عليه .

« التَّمْلُجَةُ » هِيَ الَّتِي تَبْرُؤُ مِنْ أَشْنَانِهَا لِيَتَبَاعَدَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ قَلِيلًا ، وَتَحْسُنُهَا وَهِيَ الْوَشْرُ ، « وَالتَّامِصَةُ » : هِيَ الَّتِي تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِ حَاجِبِ غَيْرِهَا ، وَتُرَقِّقُهُ لِيَصِيرَ حَسَنًا ، « وَالتَّمْتِصَةُ » : الَّتِي تَأْمُرُ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا ذَلِكَ .

* * *

(١) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٢) ، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٢) بنحوه . قوله (الحصبة) هي مرض معد يخرج بثورًا في الجلد ، ويسبب حمى وبعث في الصوت غالبًا .
(٢) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٢) ، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٧) ، والبيهقي في السنن (٢٩٠/٤) والطبراني في الكبير (٣٢٦/١٩) . قوله (قصة من شعر) هي شعر مقدم الرأس المقبل على الجبهة ، قوله (حرسى) هو كالشرطي ، وهو غلام الأمير .

(٣) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٧) ، ومسلم في اللباس والزينة (١١٧ ، ١١٩) ، وأبو داود في الترجل (٤١٦٨) والنسائي في السنن (١٤٥/٨) . قوله (الواشمة) هي التي تصنع الوشم . وهي أن تغرز إبرة أو مسلة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم ، ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل فيخضر ، وقد يفعل ذلك على هيئة نقوش ورسومات .

(٤) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣١) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٢٠) ، والإمام أحمد في المسند (٤٣٤/١) والبيهقي في السنن (٣١٢/٧) .

٢٩٧ - باب النَّهْيِ عَنْ نَتْفِ الشَّيْبِ مِنَ اللِّحْيَةِ وَالرَّاسِ وَغَيْرِهِمَا

وَعَنْ نَتْفِ الْأَمْرَدِ شَعْرَ لِحْيَتِهِ عِنْدَ أَوَّلِ طَلْوَعِهِ

١٦٤٦ - عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ عليه السلام ، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « لَا تَتَيْفُوا الشَّيْبَ ؛ فَإِنَّهُ نُورُ الْمُسْلِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ بِأَسَانِيدَ حَسَنَةٍ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٦٤٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ زِدٌّ » ^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

* * *

٢٩٨ - باب كراهة الاستنجاء باليمين ومس الفرج باليمين من غير عذر

١٦٤٨ - عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ ، فَلَا يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ ، وَلَا يَسْتَنْجِ بِيَمِينِهِ ، وَلَا يَنْتَفِسْ فِي الْإِنَاءِ » ^(٣) .
مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - كراهة الاستنجاء باليمين . والاستنجاء تطهير القبل أو الدبر ، من الحدث ، من البول أو الغائط ويكون بالاستجمار ، ويكون بالماء ، يعني يكون بالحجارة ، أو ما يتوب عنها من الخرق والخشب والتراب وغير ذلك . أو بالماء . ولكن الاستجمار بالحجارة له شروط ، ذكرها العلماء رحمهم الله . وأما الماء : فشرطه أن يزول أثر النجاسة ، وأثر النجاسة معلوم ، فإذا زال الأثر وعاد المحل كما كان ، فهذا هو الطهارة ^(٤) .

(١) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمته الله بشرحه والحديث أخرجه أبو داود في الترجل (٤٢٠٢) ، والترمذي في الأدب (٢٨٢١) ، والبيهقي في السنن (٣١٧/٧) .

(٢) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الأقضية (١٧) ، والإمام أحمد في المسند (١٤٦/٦) . قوله (فهو رد) أي فهو مردود عليه ، ومعناه : فهو باطل غير معتد به . وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه صريح في رد كل البدع .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٤) ، ومسلم في الطهارة (٦٣) بنحوه ، والنسائي في السنن (٢٥/١) وأحمد في مسنده (٣٠٠/٥) بنحوه .

(٤) راجع ذلك في الهداية (٤٤/١ ، ٤٥) ، المجموع (١٨١/١ - ١٨٢) ، شرح فتح القدير (٨٣/١) ، روضة الطالبين (١٣/١٣ - ٢٦) .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ ، قال : « لا يستنج أحدكم يمينه » - يعني لا يمسك الذكر باليمين فيغسله - لأن اليد اليمنى مُكرمة ، ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : اليمنى هي المقدمة إلا في مواضع الأذى . فاليسرى تقدم للأذى ، واليمينى لما سواه . وعلى هذا فيستنجي باليسار ، ويصب الماء باليمين ، لأن النبي ﷺ نهى عن الاستنجاء باليمين ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - « ولا يتمسح من الخلاء بيمينه » ، يعني كذلك بالأحجار ، إذا أراد أن يتمسح محل الغائط ؛ فإنه لا يمسك الحجر بيمينه ، وإنما يمسكه باليسرى .

ولا يتنفس في الإناء ، يعني إذا شرب فالسنة أن يتنفس ثلاث مرات ، يشرب أولاً ثم يقطع ، ثم يشرب ثانياً ثم يقطع ، ثم يشرب ثالثاً ، هكذا هي السنة وهو أنفع للبدن وأنفع للمعدة ، لأن العطش التهاب في المعدة وحرارة ، فإذا جاءها الماء دفعة واحدة ، أثر عليها ، وإذا كان يمضيه مضاً ويتنفس ثلاثاً ؛ فهو أهناً وأبرأ وأمرأ ، كما قال النبي ﷺ ^(١) ، لكن إذا تنفس لا يتنفس في الإناء ، يزيل فمه عن الإناء ثم يتنفس ، لأن التنفس بالإناء فيه ضرر على الشارب ؛ لأن النفس يكون صاعداً ، والماء يكون نازلاً فيلتقيان فيحصل الشرق ، وفيه أيضاً أذى لمن بعده ؛ لأنه قد يخرج مع نفسه أمراض ، التي يسمونها (ميكروبات) فتكون في الماء فتؤثر على من شرب من بعده ؛ فلذلك نهى النبي ﷺ عن أن يتنفس الإنسان في الإناء . والله الموفق .

* * *

٢٩٩ - باب كراهة المشي في نعل واحدة أو خف واحد

لغير عذر وكراهة لبس النعل والخف قائماً لغير عذر

١٦٤٩ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَمْشِي أَحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ ، لِيَتَغْلَبَهُمَا جَمِيعًا ، أَوْ لِيُخْلِفَهُمَا جَمِيعًا » .

وفي رواية : « أَوْ لِيُخْفِيَهُمَا جَمِيعًا » ^(٢) متفق عليه .

١٦٥٠ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا انْقَطَعَ شَيْئٌ مِنْ نَعْلٍ أَحَدِكُمْ ، فَلَا يَمْشِي

فِي الْأُخْرَى حَتَّى يُضْلِحَهَا » ^(٣) . رواه مسلم .

(١) انظر ذلك في مسلم في الصيد (١٧) ، وأحمد مسنده (٣١١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٥٥) ، ومسلم في اللباس والزينة (٦٨) ، وأبو داود في اللباس (٤١٣٦) ، والترمذي في اللباس (١٧٧٤) قوله « لينعلهما » أي ليلبسهما في وقت واحد . قوله « ليخفهما » أي ليخلعهما .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٩٨) ، والنسائي في السنن (١١٨/٨) ، وأحمد في المسند (٢١٤/٢) والطبراني في الكبير (٣٣٧/٧) . قوله « شئ أحدهم » : هو أحد سيور النعال ، وهو الذي يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام .

١٦٥١ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى أَنْ يَنْتَعِلَ الرَّجُلُ قَائِمًا ^(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

الشرح

هذه أحاديث في النعل وكرهه أن ينتعل الإنسان برجل واحدة ، أو يلبس خفًا برجل واحدة ، بل إما أن يُحْفِيَهُمَا جميعًا ، يعني لا يلبس في الرجلين شيئًا ، وإما أن ينعلهما جميعًا .

وليعلم أن لبس النعال من السنة ، والاحتفاء من السنة أيضًا ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن كثرة الإرفاه ، وأمر بالاحتفاء أحيانًا ^(٢) ، فالسنة أن الإنسان يلبس النعال لا بأس ، لكن ينبغي أحيانًا أن يمشي حافيًا بين الناس ليظهر هذه السنة التي كان بعض الناس ينتقدها ، إذا رأى شخصًا يمشي حافيًا قال : ما هذا ؟ هذا من الجهال . وهذا غلط ، لأن النبي ﷺ كان ينهى عن كثرة الإرفاه ويأمر بالاحتفاء أحيانًا . فإذا لبست النعل ، فعند اللبس ، ألبس الرجل اليمنى ، وعند الخلع أبدأ باليسرى ، وكذلك أيضًا إذا انتعلت وأردت دخول المسجد بنعليك فتفقداهما عند الدخول ، إن كان فيهما أذى ، أو قدر فامسحهما بالأرض حتى يزول ، ثم صلَّ بهما ، فإن هذا من السنة . قال النبي ﷺ : « خالفوا اليهود ، صلوا في نعالكم » ^(٣) لأن اليهود لا يصلون في النعل . فالسنة إذا أن يصلي بنعليه كما أن كثيرًا من الناس يصلي في خفيه ، فلا فرق بين الخف والنعل ، لكن الناس تستنكر لأنه سنة أميت . هذا إذا كانت المساجد مفروشة بما كانت تفرش به المساجد فيما سلف . كانت المساجد فيما سلف تفرش بالحجارة بالحصباء ، أو الرمل ، أو نحو ذلك . ولا يحصل أذى بالنعل ، أما الآن وقد فرشت بهذه الفرش ؛ فإن الناس لو دخلوا للوثا المسجد تلويثًا ظاهرًا يبتأ ؛ لأن أكثر الناس لا يبالي لو كان في نعليه أذى أو قدر ؛ ولهذا رأى العلماء الآن أن الإنسان لا يدخل بنعليه في المسجد ؛ نظرًا لأنها مفروشة بفُرش تلوث لو دخل الإنسان بنعليه ، وإذا أراد الإنسان أن يطبق السنة ؛ فليصل في بيته بنعليه ، التهجد ، أو الرتبة أو ما أشبه ذلك ، ويحصل بذلك امتثال أمر النبي ﷺ في قوله : « إن اليهود لا يصلون في نعالهم » . ثم إن الأحاديث : حديث أبي هريرة نهى أن ينتعل الرجل نعل واحد ، يعني إما أن يلبس النعلين جميعًا ، وإما أن يخلعهما جميعًا ، أما أن يلبس واحدة ويدع الأخرى ، فهذا قد نهى عنه . ووجه ذلك والله أعلم : أن هذا الدين الإسلامي جاء بالعدل حتى في اللباس ، لا تتعل إحدى الرجلين وترك الأخرى ؛ لأن هذا فيه جور على الرجل الثانية التي لم تتعل ، فلذلك نهى النبي ﷺ عن المشي في نعل ، قال العلماء : (ولو لإصلاح الأخرى) . ولهذا جاء في حديث أبي هريرة الثاني : (إذا انقطع شسع نعل أحدكم فلا يلبسها حتى يصلح الأخرى ، ثم يلبسهما جميعًا) .

أما حديث جابر الذي رواه أبو داود « أن النبي ﷺ نهى أن ينتعل الرجل قائمًا » . فهذا في نعل يحتاج إلى معالجة في إدخاله في الرجل ، لأن الإنسان لو انتعل قائمًا والنعل يحتاج إلى معالجة ؛ فربما

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١٣٥) ، وابن ماجه في اللباس (٣٦١٨) قوله « قائمًا » قيل : هو مخصوص بما إذا لحقته مشقة في لبسه قائمًا كالخف والنعال المحتاجة إلى شد شراكها .

(٢) وذلك لما رواه أبو داود في الترجل (٤١٦٠) ، وأحمد في مسنده (٢٢/٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٥٢) ، والحاكم في المستدرک (٢٦٠/١) ، والبيهقي في السنن (٤٣٢/٢) .

يسقط إذا رفع رجله ليصلح النعل . أما النعال المعروفة الآن ؛ فلا بأس أن يتنعل الإنسان وهو قائم ولا يدخل ذلك في النهي ؛ لأن نعالنا الموجودة يسهل خلعها ولبسها . والله الموفق .

* * *

٣٠٠ - باب النهي عن ترك النار في البيت

عند النوم ونحوه سواء كانت في سراج أو غيره

١٦٥٢ - عَنْ ابْنِ عُثْمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا تَتْرَكُوا النَّارَ فِي بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ » ^(١) متفقٌ عليه .

١٦٥٣ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : اخْتَرَقَ نَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا حَدَّثَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَأْنِهِمْ قَالَ : « إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ ، فَإِذَا نِمْتُمْ ، فَأَطْفِئُوهَا » ^(٢) متفقٌ عليه .

١٦٥٤ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « غَطُّوا الْإِنَاءَ ، وَأَوْكُوا السَّقَاءَ ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ ، وَأَطْفِئُوا السَّرَاجَ ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحِلُّ سِقَاءً ، وَلَا يَفْتَحُ بَابًا ، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ يَغْرُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا ، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ ، فَلْيَفْعَلْ ؛ فَإِنَّ الْفُوسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ نَيْتَهُمْ » ^(٣) رواه مسلم .

« الْفُوسِقَةُ » : الْفَأْرَةُ ، وَ « تُضْرِمُ » : تُحْرِقُ .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ في كتابه النهي عن إبقاء النار ونحوها في البيت عند النوم ونحوه ، وذلك أن النار كما وصفها النبي ﷺ في هذه الأحاديث عدو للإنسان ، فإذا أبقاها الإنسان ونام ، فرمما تأتي الفويسقة - يعني الفأرة - فتخسها ثم تشتعل كما هو الشأن فيما سبق ، كانت السرج من النار توقد في الزمان الأول ، بالودك ، والسويت وشبهه ، ثم صارت توقد بالجاز وكلها مواد سائلة ، فإذا جاءت الفأرة وعثت بها ؛ انصب الذي في السراج على الأرض ، ثم اشتعلت النار ، وحصل الحريق ، ولهذا أمر النبي ﷺ بإطفاء النار عند النوم ؛ لئلا يحصل هذا الحريق ، ولكن في الوقت الحاضر ، ليس يوقد كما كان فيما سبق ، فالיום الكهرباء سالب وموجب ، يحصل بها إيقاد اللمة مثلاً ، فلو نام

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٣) ، ومسلم في الأشربة (٢٠١٥) ، وأحمد في مسنده (٧/٢ ، ٨) وابن ماجه في الأدب (٣٧٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٤) ، ومسلم في الأشربة (٢٠١٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٦) ، ومسلم في الأشربة (٢٠١٢) ، وأحمد في مسنده (٣٥٥/٣) ، وابن ماجه في الأشربة (٣٤١٠) قوله « أَوْكُوا السَّقَاءَ » أي شدوا رؤوسها بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شيء ، والوكاء هو الحيط الذي تشد به الصرة والكيس وغيرهما ، وقوله « يعرض على إنائه عودًا » أي يضعه عليه بالعرض .

الإنسان ، وفي بيته لمبة موقدة فلا بأس ؛ لأن العلة التي من أجلها نهى النبي ﷺ عن إبقاء النار غير موجودة في الكهرباء في الوقت الحاضر . نعم فيه أشياء تشبه ذلك كالدفايات ؛ هذه لا شك أنها على خطر ، ولا سيما إذا قربها الإنسان من فراشه ، فإنه ينقلب أو ربما يمس هذه النار . فلهذا ينهى أن تبقى هذه الدفايات موقدة إلا في مكان آمن ، بعيداً عن الفراش ، لئلا يحصل الحريق .

وكذلك ينبغي للإنسان إذا نام أن يجافي الباب ، بمعنى يغلقه ، وكذلك ينبغي إذا أراد أن ينام أن يغطي الإناء ولو بوضع عود عليه ؛ لأن في ذلك حماية له من الشيطان . والله الموفق .

٣٠١ - باب النهي عن التكلف ، وهو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ^(١) [ص : ٨٦] .

١٦٥٥ - وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : نَهَيْتَا عَنْ التَّكْلِيفِ ^(٢) . رواه البخاري .

١٦٥٦ - وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ ، فَلْيَقُلْ : اللَّهُ أَغْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ تَقُولَ لِمَا لَا تَعْلَمُ : اللَّهُ أَغْلَمُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ^(٣) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - (النهي عن التكلف) .

التكلف معناه : تكلف الشيء ومحاولة معرفته ، وإظهار الإنسان بمظهر العالم ، وهو ليس كذلك ، ثم ذكر المؤلف قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : لا أسألكم على ما جئت به من الوحي أجراً تعطونني إياه ، وإنما أدلكم على الخير وأدعوكم إلى الله ﷻ ، وهكذا الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كلهم يقولون لأصحابهم ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي : من الشاقين عليكم ، أو القائلين بلا علم ، بل إنه - عليه الصلاة والسلام - كان يقول ، ويؤيده الله على قوله بإقراره عليه ، ثم حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : « نهينا عن التكلف » ، والناهي هو الرسول ﷺ ، فإذا قال الصحابي : نهينا ، فإن هذا له حكم الرفع يعني كأنه قال : نهانا رسول الله ﷺ ، فعليه يكون هذا الناهي هو الرسول ﷺ « نهينا عن التكلف » أن يتكلف الإنسان ما لا علم له به ويحاول أن يظهر بمظهر العالم العارف ، وليس كذلك .

ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن الإنسان إذا سُئِلَ عما لا يعلم فلا يتكلم ، ويأتي بجواب لا يدري أهو صحيح أم لا ؟ ولكن لا يقول إلا ما علم به ، فإذا سُئِلَ عن شيء لا يعلمه ،

(١) قوله تعالى : ﴿ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي : من المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا أهله .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٢٩٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٩) .

فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول الإنسان لما لا يعلم : الله أعلم . ووصف هذا ﷺ بالعلم ، لأن الذي يقول لا أعلم وهو لا يعلم هو العالم حقيقة ، هو الذي علم قدر نفسه ، وعلم منزلته ، وأنه جاهل ، فيقول لما لا يعرف : الله أعلم .

ثم إن الإنسان إذا قال لما لا يعلم : الله أعلم ، ولم يُفْتِ به ، يثق الناس به ، ويعلمون أن ما أفتى به فهو عن علم ، وما لم يعلمه يمسك عنه .

وأيضاً إذا قال الإنسان لما لا يعلم : الله أعلم ؛ عوّذ نفسه الرضوخ للحق وعدم التصدر للفتوى ، وهذا خلافاً لبعض الناس اليوم ، تجده يرى أن الفتوى ربح بضاعة ، فيفتي بعلم وبغير علم ، ويفتي بنصف علم ، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه (الفتوى الحموية) : كانوا يقولون : (ما أفسد الدنيا والدين إلا أربعة : نصف متكلم ، نصف فقيه ، نصف لغوي ، نصف طبيب) .

أما المتكلم : فإنه أفسد الأديان والعقائد ، لأن أهل الكلام الذين ينالون من الكلام شيئاً ولم يصلوا إلى غايته اغتروا به . وأما أهل الكلام الذين وصلوا إلى غايته فقد عزموا حقيقته ورجعوا إلى الحق . ونصف فقيه : يفسد البلدان ؛ لأنه يقضي بغير الحق ، فيفسد البلدان ، فيعطي حق هذا لهذا ، وهذا لهذا .

ونصف نحوي : لأنه يفسد اللسان ؛ لأنه يظن أنه أدرك قواعد اللغة العربية فيلحن فيفسد اللسان . ونصف طبيب : يفسد الأبدان ، لأنه لا يعرف ، فرجماً يصف دواءً يكون داءً ، وربما لا يصف الدواء فيهلك المريض .

فالحاصل : أنه لا يجوز للإنسان أن يفتي إلا إذا جازت له الفتوى .
ثم استدل ابن مسعود بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ والله الموفق .

٣٠٢ - باب تحريم النياحة على الميت ولطم الخد وشق الجيب
ونتف الشعر وحلقه والدعاء بالويل والثبور

١٦٥٧ - عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الْمَيْتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ » .
وفي رواية : « مَا نِيحَ عَلَيْهِ » ^(١) متفق عليه .

١٦٥٨ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ » ^(٢) متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في الجائز (١٢٩٢) ، ومسلم في الجائز (١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٦/١) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري في الجائز (١٢٩٢) ، ومسلم في الإيمان (١٦٥) ، وأحمد في مسنده (٣٨٦/١) ، والبيهقي في =

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه «رياض الصالحين» (باب تحريم النياحة على الميت) النياحة : هي البكاء على الميت برنة ، ينوح فيها كما تنوح الحمام ، والبكاء على الميت نوعان : نوع اقتضته الطبيعة ؛ فهذا لا بأس به ولا يلام عليه العبد ، ومنه ما حصل للنبي ﷺ حين رفع إليه صبي ونفسه تقعقع كأنه في شن ^(١) فبكى - عليه الصلاة والسلام - رحمة بهذا الصبي الذي يدافعه الموت . فقال له الأقرع بن حابس : ما هذا ؟ قال : «إنها رحمة ، وإنما يرحم الله من عبده الرحماء» ^(٢) ، فبكاء النبي ﷺ على هذا الصبي ليس من أجل الحزن لكن رق له ورحمة ، حيث إنه ينازع الموت ، وقال : «إنما يرحم الله من عباده الرحماء» ، جعلنا الله وإياكم منهم .

ومن ذلك أيضًا - البكاء الذي تقتضيه الطبيعة - : حزنًا على فراق المحبوب ، كما حصل للنبي حين مات ابنه إبراهيم عليه السلام من مارية القبطية التي أهداها إليه ملك القبط - جاءت منه بولد ، وترعرع الصبي ، وبلغ نحو ستة عشر شهرًا ، يعني سنة وأربعة أشهر ، ثم توفاه الله ﷻ ، وسماه بإبراهيم الذي هو خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - : ﴿وَلَلَّهَ آيَكُمُ إِزْهِيًا﴾ [الحج : ٧٨] سماه إبراهيم ولما بلغ ستة عشر شهرًا تقريبًا توفاه الله ﷻ ، فزُفِعَ إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : «العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون» ^(٣) هكذا قال النبي ﷺ ، فتوفي الطفل ، وأخبر النبي ﷺ أنه له مرضعًا في الجنة ترضعه ، هذا النوع من البكاء لا يضر ؛ لأنه شيء تقتضيه الطبيعة والجلبة ، ولا يدل على سخط الإنسان على ما قضاه الله وقدره .

أما النوع الثاني : فهو البكاء الذي ينوح فيه الإنسان نياحًا ، هذا البكاء يعذب به الميت في قبره والعياذ بالله ، يعني أنت تنوح ، وميتك يعذب في قبره بما يناح عليه ، مادمت تنوح ، فالمت يعذب ، فتكون أنت المتسبب لعذابه في قبره والعياذ بالله ، ولهذا يخطئ بعض الناس - نسأل الله العافية - إذا مات له قريب ينوح ، يكي ... هذا مادام يفعل هكذا ، يعذب الميت في قبره ، بسبب بكائه عليه كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من حديث عمر بن الخطاب عليه السلام ، فالواجب على الإنسان أن يتصبر ويحتسب الأجر عند الله ، ويعلم أن عظم الثواب من عظم المصاب ، وأنه كلما عظمت المصيبة كثر الثواب .

أما حديث ابن مسعود عليه السلام فقال النبي ﷺ : «ليس منا من شق الجيوب ، وضرب الخدود ، ودعا بدعوى الجاهلية» . وهذا شيء يفعله الناس في الجاهلية ، إذا أصابهم مصيبة شق جيبيه ، أو جعل يلطم خده ، ينتف شعره أو يدعو بدعاء الجاهلية : يا ويلاه ، يا ثوراه ، يا انقطاع ظهراه ، وما أشبه

= السنن (٦٣/٤) . قوله : «الجيوب» هي ما يدخل منه الرأس عند لبس الملابس ، قوله «ودعا بدعوى الجاهلية» هي النياحة والدعاء بالويل وشبهه وهو ما كان يحدث قبل الإسلام .

(١) الشن : هي قوذة خلقت صغيرة .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٢٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٣) ، ومسلم في الفضائل (٦٢) ، والبيهقي في شرح السنة (٤٢٩/٥) بلفظ : «تدمع العين ويحزن القلب» .

ذلك ، فتمراً النبي ﷺ من هؤلاء ؛ لأن المؤمن مؤمن القلب بالله ، مؤمن بقضاء الله ، يعلم أنه لا يمكن أن تتغير الحال عما كان ، وأن هذا أمر قضي وانتهى ، كتب قبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، جفت الأقلام وطويت الصحف ، لا يمكن أن تتغير الحال عما كان مهما كان ، إذا ما الفائدة من الجزع ؟ ما الفائدة من السخط ؟ ما هو إلا أمر أو وحي من الشيطان ليحرمك الأجر من جهة ، وليعذب به الميت من جهة أخرى .

فعلبك يا أخي أن تتقي الله ﷻ وأن تصبر ، وتحتسب ، وأن تقول كما أثنى الله على من يقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ من هم ؟ ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] وقال النبي ﷺ : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : اللهم آجرني في مصيبتى واخلفني خيراً منها ؛ إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها » ^(١) ، هكذا يجب على الإنسان أن يصبر ويحتسب الأجر ، ويعلم أن الحزن والبكاء لا يغني شيئاً ، انتهى كل شيء .

لو أن أحداً سافر ، وأصيب بحادث هل يقول : لو أني ما سافرت ما كان هذا حصل ! لا يمكن ، كما قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٨] لا فرار من الموت ، إذا عليك أن تصبر وتحتسب ، وأن تقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرني في مصيبتى واخلفني خيراً منها » . يؤجرك الله في مصيبتك ويخلف عليك خيراً منها .

وهذه قصة أم سلمة مات عنها زوجها أبو سلمة ، وهو من أحب الناس إليها فحزنت لفراقه ، وكانت قد سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الإنسان إذا أصيب بمصيبة فقال : اللهم آجرني في مصيبتى واخلفني خيراً منها ، آجره الله في مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » فقالت هذا ، قالت : (اللهم آجرني في مصيبتى واخلفني خيراً منها) وتقول في نفسها : من خير من أبي سلمة ، أبو سلمة زوجها يحبها وتحبه من يكون خيراً من أبي سلمة ؟ هي ما شككت في الخبر ، هي توقن أنه صدق ، لكن تقول : من يكون هذا ؟ فما إن انتهت عدتها حتى خطبها النبي ﷺ فكان خيراً من أبي سلمة ^(٢) ، فأخلف الله لها خيراً من مصيبتها ، وصار النبي ﷺ هو الذي يربي أولادها ، أولادها صاروا تحت الرسول ﷺ .

وهذا أيضاً نتيجة لقصة أخرى ، دخل النبي ﷺ على أبي سلمة ﷺ وقد شخص بصره ، خرجت روحه - فأغمض عينيه ، ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر » ، روحك إذا خرجت من جسدك البصر يشاهدها بإذن الله ، يشاهدها خارجة يتبعها - فلما سمع أهل البيت ذلك ، عرفوا أن أبا سلمة قد مات ، فضج ناس منهم ، فقال النبي ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » ، ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، وأفسح له في قبره ، ونور له

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٤) ، ابن ماجه في السنن (١٥٩٨) ، وأحمد في مسنده (٢٦١/٦) .

(٢) انظر ذلك في مسلم في الجنائز (٣ ، ٥) .

فيه ، واخلفه في عقبه في الغابرين » ^(١) دعوات خمس تزن الدنيا وما عليها : « اللهم اغفر لأبي سلمة - وارفع درجته في المهديين - وافسح له في قبره - ونور له فيه - واخلفه في عقبه » .

إحدى هذه الدعوات عرفناها ، والباقي - إن شاء الله - مجاب . الذي عرفناه ، أن النبي ﷺ خلف أبا سلمة في عقبه ، فكان زوج امرأته ، وكان مربى أولاده ، يعني عاشوا في حجر الرسول ﷺ .
والمهم أن على المرء أن يصبر عند المصائب مهما كانت ويسترجع ويقول : اللهم أجرني في مصيبي واخلفني خيراً منها . ولا بأس أن يبكي البكاء الطبيعي الذي ليس فيه تَوَخُّع ، فإن هذا حصل من خير البشر محمد ﷺ . والله الموفق .

١٦٥٩ - وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ : وَجَعَ أَبُو مُوسَى ، فَغَسَّيَ عَلَيْهِ ، وَرَأَسُهُ فِي حَجَرٍ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ ، فَأَقْبَلَتْ تَصِيحُ بِرَنَةٍ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ ، قَالَ : أَنَا بَرِيءٌ مِمَّنْ بَرِئَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ ، وَالْحَالِقَةِ ، وَالشَّاقَةِ ^(٢) . متفق عليه .
« الصَّالِقَةُ » : التي تَرْفَعُ صَوْتَهَا بِالنَّيَاحَةِ وَالنَّدْبِ « وَالْحَالِقَةُ » : التي تَحْلِقُ رَأْسَهَا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ .
« الثَّالِقَةُ » : التي تَشُقُّ ثَوْبَهَا .

١٦٦٠ - وَعَنِ الْمِغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ نِيحَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَعْذُوبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٣) متفق عليه .

١٦٦١ - وَعَنْ أُمِّ عَطِيَّةٍ نُسَيْبَةَ - بِضَمِّ الثَّوْنِ وَفَتْحِهَا - رضي الله عنها قَالَتْ : أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الْبَيْعَةِ أَنْ لَا نَتَوَخَّعَ ^(٤) . متفق عليه .

١٦٦٢ - وَعَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ : أَغْمِيَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه فَجَعَلَتْ أُخْتُهُ تَبْكِي ، وَتَقُولُ : وَاجْبِلَاهُ ، وَكَذَّاهُ ، وَكَذَّاهُ ، وَكَذَّاهُ . فَقَالَ حِينَ أَفَاقَ : مَا قُلْتِ شَيْئًا إِلَّا قِيلَ لِي : أَنْتَ كَذَلِكِ !؟ ^(٥) رواه البخاري .

١٦٦٣ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ : اسْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه شَكْوَى ، فَأَنَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، وَجَدَهُ فِي عَشِيَةِ فَقَالَ : « أَقْضَى ؟ » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ بُكَاءَ

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٧) ومعني «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» : أنه إذا خرج الروح من الجسد يتبعه البصر ناظرًا أين يذهب . وقوله «واخلفه في عقبه في الغابرين» أي : كن خليفة له في ذريته . وقوله «في الغابرين» أي : الباقين .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٦) ، ومسلم في الإيمان (١٦٧) ، قوله «برنة» أي : بصيحة مرتفعة .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩١) ، ومسلم في الجنائز (٢٨) ، والبيهقي في السنن (٧٢/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٦) ، ومسلم في الجنائز (٣٢) .

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٧) ، قوله «أخته» هي عمرة بنت رواحة .

النَّبِيُّ ﷺ بَكَوْا ، قَالَ : « أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا » وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ « أَوْ يَزَحُمُ » ^(١) متفقٌ عليه .

١٦٦٤ - وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا ؛ تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا سِرْبَاتٌ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » ^(٢) رواه مسلم .

١٦٦٥ - وَعَنْ أَبِي سَيْدٍ بْنِ أَبِي سَيْدٍ التَّائِبِيِّ عَنْ امْرَأَةٍ مِنَ الْمُبَايَعَاتِ قَالَتْ : كَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَعْرُوفِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَقْصِيَهُ فِيهِ : أَنْ لَا نَحْمِشَ وَجْهَهَا ، وَلَا نَدْعُو وَيْلًا ، وَلَا نَشُقَّ جَبِينًا ، وَأَنْ لَا نَتَشَرَّ شَعْرًا ^(٣) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ .

١٦٦٦ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ ، فَيَقُومُ بِأَكْبِهِمْ ، فَيَقُولُ : وَاجْبِلَاهُ ، وَاسَيِّدَاهُ ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ؛ إِلَّا وَكَّلَ بِهِ مَلَكَانِ يَلْهَزَانِيهِ : أَهَكَذَا كُنْتُ ؟ » ^(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . « اللَّهْزُ » الدَّفْعُ بِجُمْعِ الْيَدِ فِي الصَّدْرِ .

١٦٦٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ : الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ » ^(٥) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها النووي رحمه الله تدل على تحريم النياحة والندب على الميت .

أما النياحة : فهي البكاء برنة ، حتى يكون كتحريك الحمام ، وأما الندب : فهو أن يذكر محاسن الميت ويتأوه منها ، ويتوجع ، وقد ذكر أحاديث منها حديث أبي موسى ﷺ : أنه غشي ورأسه في حجر بعض أهله ، فجعلت هذه المرأة التي هو بحجرها تبكي برنة ؛ يعني بنياحة ، فلما أفاق ﷺ قال : أنا بريء مما برئ منه النبي ﷺ « إن النبي ﷺ برئ من الصالقة ، والحالقة ، والشاقة » ، الصالقة : من الصلقة وهو رفع الصوت ، يعني بأن تصرخ وتعلي صوتها عند المصيبة ، فهذه برئ منها النبي ﷺ ، ونحن نشهد الله أننا بريئون من كل ما يتبرأ منه الرسول ﷺ ، ومن كل عمل تبرأ منه .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٤) ، ومسلم في الجنائز (١٢) قوله « شكوى » أي مرض . قوله « غشية » أي إغماء . قوله : « أفضى » أي : أمات ؟ .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) ، وأحمد في مسنده (٣٤٤/٥) ، قوله « ودرع من حرب » أي : أنه يسلط على أعضائها الحرب والحكة بحيث يغطي بدنهما تغطية الدرع وهو القميص . قوله « سربال » أي : قميص أو درع . قوله « قطران » هو ما يتحلل من بعض الأشجار ويطلو به الإبل ، ومن شأنه أن يسرع إشعال النار ، وهو أسود منتن .

(٣) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٣١) ، وأحمد في مسنده (٨٤/٥) ، قوله « نخمش وجهها » أي : نضربه بأظفارنا حتى نخرج ظاهر البشرة . قوله « ولاندعو ويلاً » مثل أن نقول : ياويله .

(٤) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٠٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في الإيمان (١٢١) ، وأحمد في مسنده (٤٩٦/٢) . قوله « الطعن في النسب » هو : التشكيك في نسب الأبناء لأبائهم .

أما الخالقة : فهي أنه جرت عادة النساء في الجاهلية أن المرأة إذا أصيبت بميت تحلق شعر رأسها ، كأنها غاضبة ، والرأس يتخذ زينة عند النساء ، وطوله وكثافته مرغوبة عند النساء ، لكن في وقتنا الحاضر ، لما انفتح الناس على نساء الكافرين أو من تشبه بهم ، صارت المرأة تحاول أن تقصر شعر رأسها حتى يكون كرأس الرجل والعياذ بالله .

أما الشاقة : فهي التي تشق جيها عند المصيبة ، وكذلك أيضًا التي تنفش شعرها عند المصيبة ، كل فعل يدل على التضجر ، فإنه داخل في هذه البراءة التي تبرأ منها النبي ﷺ .

وفي هذه الأحاديث أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها ؛ فإنها تقام يوم القيامة من قبرها ، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب السربال : يعني الثوب ، والدرع : ما كان لاصقًا بالبدن ، والمعنى أن جلدها أجرب والعياذ بالله ، والجرب معروف ، هو عبارة عن حكة يبرز منها الجلد ، وإذا كان جلدها من جرب وعليها سربال من قطران صار هذا أشد اشتعالًا في النار والعياذ بالله ، لكن إذا تاب قبل موتها ، تاب الله عليها ؛ لأن من تاب من أي ذنب قبل أن يموت تاب الله عليه .

ومن جملة الأحاديث هذه : أن النبي ﷺ بكى لما رأى سعد بن عبادَةَ ﷺ قد غشي عليه ، فبكى من معه من الصحابة ، ثم قال ﷺ : « ألا تسمعون ؟ ألا تسمعون ؟ » الاستفهام هنا بمعنى الأمر ، أي اسمعوا - اسمعوا ، « إن الله لا يعذب ببيكاء العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم » . يعني : أن الله لا يعذب بالبيكاء ، وبالحزن لكن يعذب بالقول والصوت أو يرحم ، فمثلًا إذا أصيب الإنسان بمصيبة ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون مؤمنًا بها قلبه ، مؤمنًا بأن لله ملكًا وتقديرًا وتديرًا ، وأنا راجعون إليه في أمورنا كلها وسنلاقيه يوم القيامة إذا آمن بهذا ، وقال ما في حديث أم سلمة رضي الله عنها « اللهم آجرني في مصيبي واخلفني خيرًا منها » ، فهذه يؤجر عليها الإنسان ، أما إذا جعل يقول : وا جبلاه ، وا ويلاه ، وا ثبراه ، وما أشبه ذلك ؛ فإن هذا يعذب به والعياذ بالله .

ومعنى واجبلاه : أن هذا الميت مثل الجبل ، ملجأ لي وقد فقدته ، فهو عبارة عن ندب مع مدح . فالحاصل وخلاصة هذه الأحاديث : أن البكاء الذي يأتي بمجرد الطبيعة لا بأس به ، وأما النوح والندب ولطم الخد ، وشق الثوب ، وتنف الشعر ، أو حلقه أو نفسه ؛ فكل هذا حرام ؟ وهو مما برئ منه النبي ﷺ . والله الموفق .

٣٠٣ - باب النهي عن إتيان الكهّان والمنجمين

والعراف وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعر ونحو ذلك

١٦٦٨ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ الْكُهَّانِ ، فَقَالَ : « لَيْسُوا بِشَيْءٍ » فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَا أَحْيَانًا بِشَيْءٍ ، فَيَكُونُ حَقًّا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطِفُهَا الْجِنِّي ، فَيَقْرُوهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ » متفق عليه .
 وفي رواية للبخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ فُقِضِي فِي السَّمَاءِ ، فَيَسْتَرْقُ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ ، فَيَسْمَعُهُ ، فَيُوجِّهِهُ إِلَى الْكُهَّانِ ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » (١) .
 قوله : « فَيَقْرُوهَا » هو بفتح الياء ، وضم القاف والراء : أي : يُلقِيهَا . « وَالْعَنَانُ » بفتح العين .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه رياض الصالحين : باب تحريم إتيان الكهان والمنجمين ونحوهم .
 الكهان : جمع كاهن ، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل ، فيقول مثلاً : كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، أو يقول للإنسان : ستكون سعيداً في اليوم الفلاني .. أو سيصيبك حادث في اليوم الفلاني أو ما أشبه ذلك - هؤلاء هم الكهان .
 أما المنجمون : فهم الذين يمتهنون علم النجوم ، يعني يتخذونه مهنة ، ولكن علم النجوم ينقسم إلى قسمين : جائز ، ومحرم .

- نتكلم عن الكهان : الكهان هم أناس من بني آدم لهم أولياء من الجن ، والجن أعطاهم الله قدرة عظيمة على الأشياء ، سرعة وقوة ، فهم يصعدون إلى السماء ، ولكل واحد منهم مقعد معين ، يسترقون السمع ، أي ما يسمعون من الملائكة ، فيقضي الله تبارك وتعالى الأمر في السماء ، ثم يخطفون منه شيئاً فينزلون إلى أوليائهم من البشر من بني آدم ، وهم الكهان ، ثم يضيف هذا الكاهن إلى هذا الذي سمعه من السماء كما قال النبي ﷺ وهو الصادق : « مِائَةَ كَذِبَةٍ » ، يعني يزيدون على ما سمعوا ، فيصادف أن هذه الكلمة المسموعة من السماء تقع كما سمعها الجني .

وقد ذكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سئل عن الكهان فقال : « ليسوا بشيء » ؛ لأن الكهان كثروا على عهد النبي ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي ، وصارت الجن كما ذكر الله عنهم ﴿ كَمَا نَقَعْدُ مِنْهَا ﴾ - يعني من السماء - ﴿ مَقْعَدٌ لِلَّسَمْعِ ﴾ فلما بُعث النبي ﷺ ، صار الجني إذا قعد بمقعه يستمع جاءه شهاب من نار فأحرقه - ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآذَنَ يَحْدِلْ - فَيَهَاكَ رَصْدًا ﴾ [الجن : ٩] . فسئل النبي ﷺ عن الكهان فقال : « ليسوا بشيء » ، يعني : لا تعبؤوا بهم ، ولا تأخذوا بكلامهم ، ولا يهتمكم أمرهم ، قالوا : يا رسول الله ، إنهم يقولون القول فيكون حقاً ، فأخبر النبي ﷺ أن هذا الحق الذي يقع مزوج بمائة كذبة ، وأن سببه أن الجني الذي له ولي من البشر يخطف الخبر من السماء ويوحيه إلى وليه من الإنس فيتحدث ثم يقع ما كان حقاً ، وما كان باطلاً يُنسى عند الناس وكأنه لم يكن ، هؤلاء الكهان يجب علينا أن نكذبهم ، وألا نصدقهم ، ومن أتاهم وسألهم وصدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ . يعني كفر : بالقرآن .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٠) ، ومسلم في السلام (١٢٢) ، وأحمد في مسنده (٨٧/٦) ، والبيهقي في السنن (١٣٨/٨) .

وجه كفره أن الله تعالى قال : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] فإذا ادعى هؤلاء علم الغيب ، وصدقهم الإنسان صار مضمون تصديقه إياهم تكذيب قول الله : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . أما المنجمون : فهم الذين يتعاطون علم النجوم ، وعلم النجوم قسمان : قسم لا بأس به ، وهو ما يسمى بعلم التنسيير ، يعني : علم سير النجوم ، يستدل به على الفصول وعلى طول النهار ، وقصر النهار ، حاجة لا بأس بها ولا حرج بها ؛ لأن الناس يهتدون به لمصالحهم . ومن ذلك علم جهات النجوم ، مثل : القطب الشمالي معروف جهة الشمال ، الجدي معروف قرب القطب من ناحية الشمال ، يستدل به على القبلة ، وعلى الجهات . قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ الْجِبَالُ - ﴾ [النحل : ١٦] يهتدون في ظلمات البر والبحر ، إذا لم يكن سحاب يغطي النجوم اهتدوا بها . ففي القصيم إذا أردت أن تستقبل القبلة اجعل القطب خلف أذنك اليمنى ، إذا جعلته خلف أذنك اليمنى فقد استقبلت القبلة . وفي كل منطقة وجهة يستدل بها ، فصار علم التنسيير ما يتعلمه الإنسان للزمان والمكان ، للزمان مثل الفصول ، وقت الشتاء ، وقت الصيف ، المكان : الجهات .

القسم الثاني : علم التأثير مقابل علم التنسيير - علم التأثير : أن يتخذ من علم النجوم سبباً يدعى به أن ما حصل في الأرض فإنه من سبب النجم ، كالذين يقولون في الجاهلية : مطرنا بنوء كذا وكذا ، هذا هو المحرم ، ولا يجوز اعتماده ؛ لأنه لا علاقة لما يحدث في الأرض بما يحدث للسماء ، السماء مستقلة ، فما حصل من أثر في السماء فإنه لا يؤثر على الأرض . فالنجوم لا دخل لها في الحوادث . بعض الناس - والعياذ بالله - يقول : هذا الولد ولد في النوء الفلاني فسيكون سعيداً ، هذا الولد ولد في النوء الفلاني فسيكون شقيماً ، من قال هذا ؟! ويسمونه (الطالع) أي طالع هذا الولد . هذا هو المحرم الذي من صدق المنجم فيه فهو كمن صدق الكاهن . والله الموفق .

* * *

١٦٦٩ - وَعَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ أَبِي عُبَيْدٍ ، عَنْ بَقِيعِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، فَصَدَّقَهُ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » ^(١) رواه مسلم .
١٦٧٠ - وَعَنْ قَبِيصَةَ بِنِ الْمُخَارِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الْعِيَاةُ ، وَالطَّيْرَةُ ، وَالطَّرِيقُ ، مِنَ الْجَبْتِ » ^(٢) .

رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ ، وَقَالَ : الطَّرِيقُ ، هُوَ الرَّجُزُ ، أَيْ : زَجَرُ الطَّيْرِ ، وَهُوَ أَنْ يَتَيَمَّنَ أَوْ يَتَشَاءَمَ بِطَيْرَانِهِ ، فَإِنْ طَارَ إِلَى جَهَةِ الْيَمِينِ ، تَيَمَّنَ ، وَإِنْ طَارَ إِلَى جَهَةِ الشَّأَمِ تَشَاءَمَ . قَالَ أَبُو دَاوُدَ :

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٢٥) ، والحاكم في المستدرک (٨/١) ، والبيهقي في السنن (١٣٥/٨) .
(٢) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩٠٧) ، وأحمد في مسنده (٤٧٧/٣) ، والبيهقي في السنن (١٣٩/٨) ، والطبراني في الكبير (٣٦٩/١٨) . قوله « العيافة » : هي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها . قوله « والطيرة » : هي : التشاؤم بالشئ . قوله « الجبت » هو كل ما عُبد من دون الله .

« وَالْعِيَّافَةُ » : الخطُّ .

قال الجوهري في « الصحاح » : الجَيْثُ كَلِمَةٌ تَقَعُ عَلَى الصَّنَمِ وَالْكَاهِنِ وَالشَّاحِرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

١٦٧١ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ ؛ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ الشَّعْرِ زَادَ مَا زَادَ » ^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

١٦٧٢ - وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي حَدِيثٌ عَهْدٌ بِجَاهِلِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِسْلَامِ ، وَإِنَّ مِنَّا رَجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَانَ ؟ قَالَ : « فَلَا تَأْتِيهِمْ » قُلْتُ : وَمِنَّا رَجَالٌ يَطْلِيُونُ ؟ قَالَ : ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ ، فَلَا يَصُدُّوهُمْ ، قُلْتُ : وَمِنَّا رَجَالٌ يَخْطُونَ ؟ قَالَ : « كَانَ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخْطُ ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ ، فَذَلِكَ » ^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف والآثار فيها دليل على ما سبق : أنه يحرم أن يأتي الإنسان الكهان فيصدقهم ، كمن أتى عرافاً فسأله لم تقبل له صلاة أربعين يوماً . مجرد ما يسأل العراف ، ومنه الكهان ، لا تقبل له صلاة أربعين يوماً ؛ فإن صدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ .

أما إذا أتى الكاهن ليبين كذبه وزيفه ؛ فهذا لا بأس به ، بل قد يكون أمراً محموداً ، كما فعل النبي ﷺ مع ابن صياد ، رجل كاهن أو ساحر ، كلمه النبي ﷺ فقال له : « ماذا خبأت لك ؟ » - يعني ما الذي أضمرت في نفسي ؟ قال : الدخ . وعجز أن يكمل الكلمة ، لأن الرسول ﷺ أضمر في نفسه الدخان . ولكنه عجز أن يدركها قال : الدخ . قال له النبي ﷺ : « اخسأ فلن تعدوا قدرك » ^(٣) .

وأما ما يتعلق بذلك .. أي بالتنجيم والكهانة ، فمنه التطير ؛ استعمال الطيور ، وكانوا في الجاهلية يستعملون الطيور ، يطيرونه من الأرض إن اتجه للأمام مضى في سفره ، وإن طار ثم رجع رجع من سفره ، وإن طار فذهب يميناً تيمن في سفره وقال : هذا سفر طيب وخير ، وإن ذهب يساراً ، مضى في سفره لكن يعتقد أن السفر شاقاً . لماذا ؟ لأن الطير ذهب إلى الشمال والشمال غير مرغوبة - هذه عاداتهم والعباد بالله ، الطيور لا تغني شيئاً ، هذا كله أبطله النبي ﷺ لثلاث يتعلق الإنسان بأحد سوى الله ، وأمر الإنسان إذا همَّ بأمر ، ولم يتبين له أن يستخير ، يصلي ركعتين من غير الفريضة ، ويقول الدعاء المعروف للاستخارة : « اللهم إني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه - خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري - أو قال :

(١) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩٠٥) ، وأحمد في مسنده (٣١١/١) ، والبيهقي في السنن (١٣٨/٨) . قوله « اقتبس علماً » أي استفاده . قوله « شعبة » أي : قطعة .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٧) ، قوله « بجاهلية » قال العلماء : الجاهلية ما قبل ورود الشرع ، سماها جاهلية ؛ لكثرة جهالاتهم وفحشهم . قوله « يخطون » أي : يضربون الرمل لادعاء معرفة الغيب .

(٣) انظر في ذلك مسلم في الفتن (٨٥ ، ٨٦) ، وأحمد في مسنده (٣٨٠/١) .

«عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي ، وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ثم ارضني به » (١) .
حيث إذا قدر الله له شيئاً بعد هذه الاستخارة فهو خير له ، يمضي ويتوكل على الله ، وإن صرف الله همته عنه ، فهذا يعني بأنه ليس بخير له .
وأما الاستقسام بالأزلام ، والطير ، وما أشبه ذلك ، فكله لا خير فيه .

* * *

١٦٧٣ - وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ « نَهَى عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ ، وَخُلُوتِ الْكَاهِنِ » (٢) متفق عليه .

هذا الحديث آخر حديث في هذا الباب ، وهو « أن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن » .

أما الكلب : فمعروف واقتناؤه حرام ، لا يجوز للإنسان أن يقتني الكلب ، ويجعله عنده في بيته ، سواء بيت الطين ، أو المسلح ، أو الشعر ، إلا في ثلاث حالات :

١ - كلب الحرث - يعني الزرع .

٢ - وكلب الماشية - يعني إنسان عنده غنم أو إبل أو بقرة - يتخذ الكلب ليحرسها .

٣ - وكلب الصيد - يصيد عليه الإنسان ؛ لأن الكلب إذا تعلم وصار شيئاً ؛ فإنه حلال ، فلو كان عند الإنسان كلب معلم ، وأرسله على أرنب مثلاً ، ثم صاده وقلها فهي حلال . لأن الله تبارك وتعالى قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْخَوَارِجِ مُمْكِنِينَ تَعْلُمُونَنَ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقْنُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [المائدة : ٤] .

فهذه الثلاثة : كلب الحرث ، والماشية ، والصيد ، يجوز للإنسان أن يقتنيها ، وما عدا ذلك فاقتنائه حرام (٣) ، والكلب أخبث الحيوانات في النجاسة ، لأن نجاسته مغلظة ، إذا شرب من الإناء يجب أن يغسل الإناء سبع مرات ، واحدة منها بالتراب (٤) ، والأفضل أن يكون التراب مع الأولى ،

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٨٢) ، وأبو داود في السنن (١٥٤٣) ، والترمذي في السنن (٤٨٠) ، وابن ماجه في السنن (١٣٨٣) .

(٣) وقد اشترط الفقهاء في هذا شروطاً فقالوا : إذا لم يكن الكلب أسود وقد علمه مسلم فيرسل إذا أرسل ، وينزجر إذا انزجر ، ويجب إذا دُعي ، ولا يأكل من صيده الذي صاده . فإذا انخرم واحد من هاتيك الشروط فقد اختلفت كلمة العلماء إذ ذاك (انظر في ذلك المغني ٤٤٧/٨ ، وبداية المجتهد ٣٩١/١ ، والمجموع ٩٥/٩ ، والمحلى ٤٧٧/٧ ، وفقه الكتاب والسنة ١٨٩٦/٣ - ١٩٠٠) .

(٤) ودليل ذلك ما أخرجه مسلم في الطهارة (٩٣) ، وأبو داود في الطهارة (٧٣) ، والنسائي في سننه (٥٤/١) ، والدارمي في السنن (١٨٨/١) .

فهو الأحسن والأولى فإذا كان عند الإنسان كلب ، ولو كان كلب صيد ، أو ماشية ، أو زرع ؛ فإنه يحرم عليه بيعه ، وثمانه عليه حرام .

وإذا انتهى منه يعطيه أحدًا يحتاج له ، ولا يحل له أن يبيعه ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب .
الثاني : حلوان الكاهن : الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل فيقول : سيحصل كذا ، سيكون كذا ، سواء كان عائمًا أو خاصًا ، كأن يقول لشخص معين : سيصيبك كذا وكذا في يوم كذا وكذا - والكهان كانوا في الجاهلية يأتي إليهم الناس ، فيأخذون منهم أجرًا كثيرًا ، فنهى النبي ﷺ عن حلوان الكاهن ؛ لأن الكهانة حرام ، وما كان حرامًا ، فالتعويض عليه حرام .

الثالث : مهر البغي : يعني أجرة الزانية - والعياذ بالله - تكون امرأة تزني ، فيأتي إليها الأنجاس من بني آدم فيستأجرونها لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل ، ويعطونها عن ذلك عوضًا ، هذا أيضًا نهى عنه الرسول ﷺ ؛ لأن هذا العوض يكون في مقابلة حرام ، وإذا حرم الله شيئًا ، حرم ثمنه ، وحرم أجرته ، فإذا قال قائل : لو أن الكاهن قد تاب إلى الله وقد كسب مالا من الناس ، هل يرده عليهم ؟ نقول : لا ، لا يرده عليهم ؛ لأنهم قد أخذوا عوضًا ، فلا يجمع لهم بين العوض والمعوض ، ولكن يتصدق به ، تخلصًا منه ، أو يجعله في بيت المال ، إن كان هناك بيت مال .

وكذلك يقال فيمن باع كلبًا سواء كان كلب صيد أو حرث أو ماشية وأخذ ثمنه ثم هداه الله وتاب ، نقول : لا ترد هذا الثمن إلى الذي أخذ الكلب ، فتجمع له بين العوض والمعوض ، ولكن تصدق به تخلصًا منه . أو اجعله في بيت المال . وكذلك يقال في مهر البغي ، إذا تاب إلى الله ورجعت هل ترد ما أخذت من الزاني عليه أم لا ؟ لا ترد عليه ، بل تجعله في بيت المال ، أو تصدق به أو تنفقه في أي سبيل من سبل الخير .

* * *

٣٠٤ - باب النهي عن التطير

فيه الأحاديث السابقة في الباب قبله .

١٦٧٤ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا عَذْوَى ، وَلَا طَيْرَةٌ ، وَيُعْجِبُنِي الْقَالُ » قَالُوا : وَمَا الْقَالُ ؟ قَالَ : « كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ » ^(١) متفقٌ عليه .

١٦٧٥ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا عَذْوَى ، وَلَا طَيْرَةٌ ، وَإِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ ؛ فَفِي الدَّارِ ، وَالْمَرْأَةِ ، وَالْفَرَسِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

١٦٧٦ - وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ ^(٣) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٦) ، ومسلم في السلام (١١٢) ، وأحمد في مسنده (١٥٤/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٣) ، ومسلم في السلام (١١٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩٢٠) ، وأحمد في مسنده (٣٤٧/٥) ، والبيهقي في السنن (١٤٠/٨) .

١٦٧٧ - وَعَنْ غُرُورَةَ بِنْتِ غَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « أَحْسَنُهَا الْقَالَ ، وَلَا تَزُدْ مُسْلِمًا ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ ، فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا يَذْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » ^(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - التطير : والتطير هو التشاؤم بمرئي أو مسموع ، أو زمان أو مكان . هذا هو التطير : أن يتشاءم الإنسان في الشيء ، وإنما سُمِّيَ تطيرًا ، لأن العرب في الجاهلية يتشاءمون بالطيور فغلب الاسم على كل التشاؤم . فمن العرب من يتشاءم بالطيور ، إذا زجر الطير أو أثاره حتى طار . إن طار يسارًا تشاءم ، وإن رجع إليه ألغى ما يريد الإقدام عليه ، وإن طار أمامه عزم على تنفيذ ما أراد . وإن طار على يمينه قال : هذا عمل ميمون مبارك ، فصاروا يتشاءمون بالطيور . كذلك أيضًا الطيور في الجو ربما يتشاءمون بها ، الغراب يتشاءم به ، والبومة يتشاءمون بها ، وبعض الطيور .

ومن العرب من يتشاءم بالزمان ، لقد شاع عندهم أن المرأة إذا تزوجت في شوال لم توفق ولا يحبها زوجها ، وهذا باطل ؛ فإن النبي ﷺ عقد على أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في شوال ، ودخل بها في شوال ، فكانت تقول : أيكم أحظى عنده مني ^(٢) ؛ لأنهم يزعمون أن المرأة إذا تزوجت في هذا الشهر لم توفق في زواجها وهذا أيضًا ما له تفسير . ومنهم من يتشاءم بالسفر في يوم الأربعاء يقولون : إذا سافر الإنسان في يوم الأربعاء لابد من حدوث حادث أو خسارة أو بلاء ، وهذا أيضًا لا صحة له ، الأربعاء والخميس والثلاثاء وغير ذلك كلها واحد .

ومنهم من يتشاءم بشهر صفر ، صفر الذي بعد محرم ويقولون : لو عمل فيه الإنسان أي عمل : زواج أو ولد له فيه أو سافر فيه ؛ فإنه لا يوفق وهذا أيضًا باطل ، ولا أثر للشهر في تفاؤل ولا في تشاؤم . ولهذا قال بعض الناس : يقابل البدعة ببدعة ، يسمى صفر : صفر الخير ، وهذا أيضًا لا يجوز ، فصفر مثل محرم مثل ربيع الأول ، ومثل أي من الشهور ، لا فيه تشاؤم ولا تفاؤل ، ولا يجوز أن نداوي البدعة ببدعة ، وهذا كما يفعل بعض الناس في يوم عاشوراء ، يوم عاشوراء تتخذة الرافضة يوم حزن ويلطمون الحدود ، ويشقون الجيوب ، ويتنفون الشعور ، وربما يجرحون أنفسهم بالخناجر وغيرها وعندهم أن الذي يموت في هذه الليلة يموت شهيدًا والعياذ بالله ، وبعض الناس تقول في هذا اليوم الذي اتخذه الرافضة حزنًا : نحن نتخذة سرورًا نطعم الطعام ونكسوا الأولاد وندخل الفرح في الصدور . هذا أيضًا غلط هذا من البدع ، والبدعة لا ترد بالبدعة ، لا يقتلها إلا السنة ، استمسك بالسنة تمت البدع . ثم ذكر أحاديث في هذا ومنها أن النبي ﷺ نهى عن التطير وقد ثبت عنه أنه قال : « لا عدوى

(١) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩١٩) ، والبيهقي في السنن (١٣٩/٨) ، قوله « ولا ترد مسلمًا ، أي أن شأن المسلم ألا يرجع عما غرم عليه من أجلها ؛ لعلمه أن لا أثر لغير الله تعالى أصلاً .

(٢) انظر الحديث بنصه في مسلم في النكاح (٧٣) ، والدارمي في النكاح (٢٨) ، وأحمد في مسنده (٥٤/٦) .

ولا طيرة ويعجبني الفأل . قالوا : وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الطيبة » ^(١) ؛ فإن الكلمة الطيبة تدخل السرور على النفس وتشرح الصدر .

ومن ذلك : أن النبي ﷺ كان في غزوة الحديبية كانت قريش تراسله ، فأرسلوا إليه في النهاية سهيل بن عمرو ، فلما أقبل ، قال النبي ﷺ : « هذا سهيل بن عمرو وما أراه إلا قد سهل أمره » ، أو كلمة نحوها ^(٢) . فتفاعل بالاسم ، فالتفاؤل خير ، لأنه يشرح الصدر ، ويفرح القلب ، وينشط اللسان ، ويعزم على الخير ، أما التشاؤم فإنه بخلاف ذلك ، ولكن إذا أصابك شيء من تشاؤم فأعرض عنه ، أعرض عن هذا الحزن ، وقل : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك ^(٣) . يعني إن الأمر كله بيدك ولا إله غيرك .

وأما قول الرسول ﷺ : « إن كان الشؤم في شيء ، فإنه في ثلاث : في الدار والمرأة والفرس » . فالمعنى أن هذه الثلاثة هي أكثر ما يكون مرافقة للإنسان . المرأة زوجها ، والدار بيته ، والفرس مركوبه ، وهذه الأشياء الثلاثة أحياناً يكون فيها شؤم ، أحياناً تدخل المرأة على الإنسان يتزوجها ولا يجد إلا النكد والتعب منها ومن مشاكلها ، أيضاً ينزل الدار فيكون فيها شؤم يضيق صدره ولا يتسع ويمل منها . أيضاً الفرس ، والفرس الآن ليس مركوبنا ولكن مركوبنا السيارات ، بعض السيارات يكون فيها شؤم ، تكثر حوادثها وخرابها ، ويسأم الإنسان منها ، فإذا أصيب الإنسان بمثل هذا فليستعد بالله من الشيطان الرجيم ويقول : « اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » ^(٤) فيزيل الله ما في نفسه من الشؤم . والله الموفق .

* * *

٣٠٥ - باب تحريم تصوير الحيوان في بساط أو حجر أو ثوب أو درهم
أو مخدة أو دينار أو وسادة وغير ذلك وتحريم اتخاذ الصورة
في حائط وستر وعمامة وثوب ونحوها والأمر باتلاف الصور

١٦٧٨ - عَنْ ابْنِ عُمرَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ يُعَذِّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُقَالُ لَهُمْ : أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ » ^(٥) متفق عليه .

١٦٧٩ - وَعَنْ عَائِشَةَ ؓ قَالَتْ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرَتْ سَهْوَةً لِي بِقَرَامٍ فِيهِ تَمَائِيلٌ ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَلَوْنَ وَجْهَهُ ، وَقَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٧٦) ، ومسلم في السلام (١١١٢) ، وأحمد في مسنده (١٥٤/٢) ، وأبو داود في السنن (٣٩١٦) .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في الشروط (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣٣٠/٤٥) .

(٣ ، ٤) انظر في ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٠/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥١) ، ومسلم في اللباس والزينة (٩٧) ، والبيهقي في السنن (٢٦٨/٧) .

قوله « أحيا ما خلقتكم » أي : أحيا ما صورتم .

الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ « قَالَتْ : فَقَطَعْنَاهُ ، فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ ^(١) . متفقٌ عليه .
« الْقِرَامِ » بكسر القاف ، هُوَ السُّتْرُ . « وَالشَّهْوَةُ » يَفْتَحِ السَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَهِيَ : الصُّفَّةُ تَكُونُ بَيْنَ
يَدَيِ الْبَيْتِ ، وَقِيلَ : هِيَ الطَّاقُ النَّافِذُ فِي الْحَائِطِ .

١٦٨٠ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ ،
يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صُورُهَا نَفْسٌ ، فَيُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ » قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَإِنْ كُنْتَ لَا بَدَّ فَاعْلَا ،
فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا رُوحَ فِيهِ ^(٢) . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب ما جاء في المصورين .

يعنى من الوعيد الشديد . وذكر رحمه الله تعالى أحاديث ابن عمر وعائشة وابن عباس رضي الله عنهم .
والتصوير ينقسم إلى قسمين : قسم متفق على تحريمه ، وهو أن يصور ما فيه روح على وجه تمثال
من خشب أو حجر أو طين أو جبس أو ما أشبه ذلك ، فهذا إذا صوره على صورة حيوان أو إنسان أو
أسد أو أرنب أو قرد أو غير ذلك ؛ فهذا حرام بالاتفاق ، وفاعله ملعون على لسان النبي ﷺ ويعذب
يوم القيامة فيقال له : أحى ما خلقت .

وفي حديث ابن عباس قال : كل مصور في النار ، فإن كنت لا بد فاعلاً ، فاصنع الشجر وما لا
روح فيه .

والقسم الثاني : تصوير ما لا روح فيه مثل : الأشجار والشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال ،
وما أشبهها هذه جائزة . لكن ما كان ينمو كالنبات ؛ فمن العلماء من لم يجزه كمجاهد رضي الله عنه من
التابعين المشهورين ، قال : كل ما ينمو فإنه لا يجوز أن يصور ولو كان لا روح له ، لأنه في الحديث
الصحيح أن الله قال : « فليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيبة ، أو ليخلقوا ذرة » ولكن الذي عليه
جمهور العلماء أن الذي لا روح فيه لا بأس أن يصوره سواء كان مما ينمو كالأشجار أو مما لا ينمو
كالشمس والبحار والقمر والأنهار وما أشبهها .

القسم الثالث : تصوير ما فيه روح لكن بالتلوين والرسم ؛ فهذا قد اختلف فيه العلماء ، فمنهم من
يقول : إنه جائز ؛ لما رواه البخاري من حديث زيد بن خالد - أظن - قال : « إِنْ رَقَمْنَا فِي ثَوْبٍ » ^(٣)
فاستثنى الرقم ؛ لأن الرقم لا يماثل ما خلق الله ﷻ إذ أن ما خلق الله ﷻ جسم ملموس ، وأما هذا ؛ فهو

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٤) ، ومسلم في اللباس والزينة (٩٢) ، قوله « يضاهون بخلق الله » أي :
يماثلون ما صوروه بخلق الله .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٥) ، وأحمد في مسنده (٣٠٨/١) ، ومسلم في اللباس والزينة (٩٩) . قوله
« فاصنع » أي : فصور .

(٣) سبق تخريجه .

مجرد رقم وتلوين فيجوز ولو باليد ، ولكن جمهور العلماء على أنه لا يجوز ، وهو الصحيح أنه لا يجوز التصوير لا بالتمثال ولا بالرقم ما دام المصور من الأشياء التي بها الروح ^(١) ، ولم يحدث في عهد النبي ﷺ ما حدث في زماننا هذا من الصور الفوتوغرافية - وهل تدخل في النهي أولا تدخل ؟ وإذا تأملت النص وجدت أنها لا تدخل ؛ لأن الذي يصور صورة فوتوغرافية لا يصور في الواقع . غاية ما هنالك أنه يلقي هذا الضوء الشديد على جسم أمامه فيلتقط صورته في لحظة ، والمصور لا بد أن يعاني من التصوير ويخطط العين ، الرأس ، الأنف والأذن وما أشبه ذلك ، فلا بد أن يكون منه عمل ، أما هذه الصور فإنها في لحظة تلتقطها وكأنها تنقل التي صورها الله لتجعلها في هذا الكارت . وهذا القول هو الراجح .

وعلماء العصر مختلفون في هذا : هل يدخل هذا في اللعن و النهي أم لا ؟ والصحيح أنه لا ؛ لأنه لا علاج من المرء فيه وليس بمصور ، ولو أنه أراد أن يصور لبقى في هذه الصورة مدة ربع ساعة أو أكثر ، لكن هذا يتم في لحظة . ونظيره تمامًا أن الإنسان لو كتب رسالة إلى أخيه ثم جاء هذا المكتوب إليه وأدخلها في آلة التصوير وخرجت صورة الرسالة ، فهل هذا الذي صورها هل هو رسم الكلمات والحروف ؟ لا ، وإنما الصورة لما فيها من الضوء العظيم حسب صناعتها طبعت هذا ، ولا أحد من الناس يقول : إن هذه الحروف التي انطبعت في هذه الورقة ، ولهذا يصور الإنسان هذا في الظلمة ، ويصوره الأعمى أيضًا ، الأعمى لو علمته صَوَّرَ الكتاب ، فمن تأملَ النص ، وتأملَ الحكمة من ذلك عرف أن المراد ، من أراد أن يضاهي خلق الله ويبدع في تصويره وتخطيطه وكأنه خالق . هذا الذي يشمل النهي واللعن . أما هذا فهو التقاط صورة فقط .

ولكن يبقى النظر في : ما هو الغرض الذي من أجله صورت هذه الصورة ؟! يعني إذا فهمنا أنها مباحة وأنها لا تكون تصويرًا يبقى أن ننظر فيها كما ننظر في أي مباح من المباحات ، لأي غرض صنعت ؟ أو لأي غرض صورت ؟ لأن المباح يختلف حكمه بحسب ما قصد به ، ولهذا لو أراد الإنسان أن يسافر في رمضان من أجل أن يفطر قلنا : حرام عليه مع أن السفر في الأصل مباح حلال . ولو أراد الإنسان أن يشتري بندقية ليقول بها مسلمًا أو يعتدي على مال مسلم . قلنا : هذا البيع حرام . مع أن البيع في الأصل مباح . فينظر إلى هذا التصوير ماذا قصد به ، قد يقصد الإنسان بهذا التصوير قصدًا سيئًا ، يصور امرأة ليتمتع بالنظر إليها وهي ليست زوجته . كل ما مضى زمن أخرجها من محفظته أو ممن يسمونه الألبوم وجعل ينظر إليها ليتلذذ بذلك ، وهذا حرام لا إشكال فيه . يصور أمرًا جميلًا من أجل أن يتمتع بالرؤية إليه زمنا بعد زمن هذا أيضًا حرام . يصور عظماء من الأمراء أو السلاطين أو العلماء من أجل أن يعظمهم ، ويعلقهم عنده في البيت تعظيمًا لهم في البيت ؛ هذا أيضًا حرام . يصور عُبَادًا قانتين لله من أجل أن يجعلهم في بيته تبركًا بهم ؛ هذا أيضًا حرام ولا يجوز . يصور للذكرى هذا أيضًا حرام ولا يجوز ، لأنه إضاعة للوقت وأي فائدة لك أن تذكر هذا المصور حينًا بعد حين . وأشد من ذلك أن بعض الناس يموت له الميت ، وللميت صورة فيقيها عنده وهذا لا يجوز ، إذا مات الميت فاحرق صورته لأجل أن لا تذهب

(١) وهذا ما قال به الزهري والنووي (انظر فقه الكتاب والسنة ٣٠١٦/٥ - ٣٠١٩) .

تذكر هذا الميت كل ما أردت أن تذكره فيتجدد الحزن وربما تعتقد فيه اعتقادًا باطلاً ، فبمجرد أن يموت تحرق لا فائدة منها ، اللهم إلا أن يكون الإنسان يخشى أن يحتاج إليها في إثبات معاشات تقاعد عند الدولة أو ما أشبه ذلك ، فهذا يكون معذورًا أما إذا لم يكن هناك سبب فواجب إحراقها .

وأما إذا قصد في التصوير الفوتوغرافي إذا قصد به إثبات الشخصية أو إثبات وقائع من الواقع لغرض صحيح فهذا لا بأس به ، وكذلك لو أراد إنسان شهد مشهدها يجب أن الناس يطلعون عليه استعطافًا واستدرازا لأموالهم كالنظر مثلاً إلى قوم جياع عراة مجروحين من الأعداء وما أشبه ذلك ليعرضهم على الناس ليستعطفهم عليهم هذا أيضًا غرض صحيح لا بأس منه .

وخلاصة القول : أن التصوير باليد ولو كان بالتلوين والتخطيط حرام على القول الراجح .

وأما التصوير بالآلة الفوتوغرافية : فليس بتصوير أصلاً ، ونحن يجب علينا أن نتأمل أولاً بدلالة النص ، ثم في الحكم الذي يقتضيه النص ، وإذا تأملنا وجدنا أن هذا ليس بتصوير ، ولا يدخل في النهي ، ولا في اللعن ، ولكن يبقى مباحاً ثم يُنظر في الغرض الذي من أجله يصور إن كان غرضاً مباحاً فالتصوير مباح ، وإن كان غرضاً محرماً فهو محرم . والله الموفق .

* * *

١٦٨١ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا ، كُفِّ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ » ^(١) متفقٌ عليه .

١٦٨٢ - وَعَنِ ابْنِ مَشْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ » ^(٢) متفقٌ عليه .

١٦٨٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ! فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً » ^(٣) متفقٌ عليه .

١٦٨٤ - وَعَنْ أَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ » ^(٤) متفقٌ عليه .

١٦٨٥ - وَعَنِ ابْنِ عُثْمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : وَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَبْرِيلُ أَنْ يَأْتِيَهُ ، فَرَأَتْ عَلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٦٣) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٠٠) ، والطبراني في الكبير (٢٠٤/١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٠) ، ومسلم في اللباس والزينة (٩٨) ، وأحمد في مسنده (٣٧٥/١) ، والبيهقي في السنن (٢٦٧/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٣) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٠١) ، وأحمد في مسنده (٣٩١/٢) . قوله « لِيَخْلُقُوا ذَرَّةً » أي : غملة .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٠٢) ، ومسلم في اللباس والزينة (٨٣) ، والنسائي في السنن (١٨٥/٧) ، وأحمد في مسنده (٢٨/٧) .

على رسول الله ﷺ ، فخرَجَ فَلَقِيَهُ جَبْرِيلُ فَشَكَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ ^(١) . رواه البخاري . « زَات » : أبطًا ، وهو بالباء المثلثة .

١٦٨٦ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : وَاعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَبْرِيلُ الطَّلِيلَةَ فِي سَاعَةٍ أَنْ يَأْتِيَهُ ، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ ! قَالَتْ : وَكَانَ يَبْدِيهِ عَصَا ، فَطَرَحَهَا مِنْ يَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ : « مَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَغَدَهُ وَلَا رُسُلَهُ » ثُمَّ التَفَّتْ ، فَإِذَا جَزْؤُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ فَقَالَ : « مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ ؟ » فَقُلْتُ : وَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ بِهِ ، فَأَمَرَنِي بِه فَأُخْرِجَ ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ الطَّلِيلَةَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَعَدْتَنِي ، فَجَلَسْتُ لَكَ وَلَمْ تَأْتِنِي » فَقَالَ : مَتَعْنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ ، إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ ^(٢) رواه مسلم .

١٦٨٧ - وَعَنْ أَبِي الْهَيْجَاجِ حَيَّانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ : قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَلَا أُنَبِّئُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ أَنْ لَا تَدْعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ ^(٣) ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف تدل على أن التصوير من كبائر الذنوب ؛ لأن فيها وعيدًا شديدًا باللجنة « لعن الله المصورين » : وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، وبأنه يكلف يوم القيامة - أي يلزم - بأن ينفخ الروح فيما صور وليس بنافخ ، ومعلوم أنه إذا كان ليس بنافخ وهو مستحيل ، فإنه يستحيل أن يرفع عنه العذاب إلا أن يشاء الله .

ومنها : أن المصورين من أظلم الظالمين ، يقول الله تعالى : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي » يعني لا أحد أظلم منه « فليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا شعيرة » يعني إن كانوا صادقين يريدون أن يضاهاوا خلق الله فليخلقوا حبة من طعام ، ولتكن من البر ، لو اجتمع أهل الأرض كلهم بل وأهل السماء على أن يخلقوا حبة من حنطة ؛ فإنهم لا يستطيعون ، حتى لو صنعوا من العجين شيئًا على صورة الحبة تمامًا ؛ فإنهم لا يستطيعون أن تكون حبة ، لو أنهم بذروها في الأرض ما نبتت ، لأنها ليست حبة فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يخلق الحبة أو الشعيرة أو الذرة وهو ما يضرب به المثل في القيلة ، فما فوقها من باب أعظم وأولى .

وهذا دليل على أن هذا التصوير محرم ، أما اتخاذ الصور وإدخالها البيوت فهو أيضًا محرم ؛ لأن

- (١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٦٠) ، وأحمد في مسنده (١٤٨/١) بنحوه ، قوله « اشتد عليه » أي : اهتم لتأخره .
- (٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٨١) ، قوله « فطرحها » أي ألقاها . قوله « جرو » هو ولد الكلب أو السباع . وقيل : الجرو : الصغير من كل شيء .
- (٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٣) ، والحاكم في المستدرک (٣٦٩/١) ، قوله « إلا طمسها » أي أزلت معالمها . قوله « ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » أي : ولا قبراً مرتفعاً عن الأرض إلا سويته بالأرض .

الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة ولا كلب ، والملائكة - عليهم الصلاة والسلام - لا يدخلون البيت الذي فيه صورة ولا كلب . وما ظنك ببيت لا تدخله الملائكة ، إنه بيت سوء . فإذا كان في البيت صورة أو به كلب فإن الملائكة لا تدخله .

لكن أستاذي من الصور ما دعت الضرورة إليه مثل الصورة في الدرهم في الدينار ، مثل ما يوجد الآن في دراهمنا ، يوجد بها صور الملوك وهذا يخاطب به من وضع هذه الصورة .

أما عامة الناس فلا يخاطبون ، ماذا يصنعون ؟ يلقون دراهمهم ونفقاتهم ؟ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ . ولكن الملائكة لا تمتنع من دخول البيت الذي به الدراهم ولو كان فيه صورة . وكان في الأول النقود فيها صورة أعظم من الصورة الموجودة الآن ؛ لأن الصورة الموجودة الآن ما هي إلا تلوين ، وقد عرفتم فيما سبق أن العلماء مختلفون في صورة التلوين هل هي تدخل في الوعيد أم لا ؟ لكن فيما سبق الصورة تمثال بمعنى أنها ملموسة . الريال الفرنسي فيه صورة ملك من ملوك أوربا ، فيه أيضًا صورة طيور ، الجنيه الإفريقي فيه أيضًا صورة رئيس من رؤساء بريطانيا ، فيه أيضًا صورة فرس ركه خيال ، تلمس باليد فهي كالمجسمة لكن العلماء - رحمهم الله - لم ينهوا عن ذلك ، لأن هذا أمر ضروري لا يستطيع الناس أن يتخلصوا منه ؛ لأنهم لا يمكن أن يلحقوا بدراهمهم في الأرض فهذا ضرورة ومن ذلك أيضًا البطاقة وحاوية النقود كل هذا مما دعت الضرورة إليه ، أو الحاجة الملحة ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وما جعل الله علينا في الدين من حرج . هذه أيضًا لا تمتنع دخول الملائكة .

الثالث : ما لا يحترم ، أي ما يمتنهن ويداس بالأرجل كالصور التي تكون في الفرش أو الخدة ، فهذه أيضًا لا تمتنع دخول الملائكة ؛ لأنها مباحة عند أكثر أهل العلم . ولكن التنزه عنها أولى وأحسن ؛ لأنها فيها خلاف ، بعض الأئمة يقول : إنها داخلة في التحريم ولو امتنعت . وبعضهم يقول : لا ، وهم الأكثر ، فمثلاً لو كان عند الإنسان بطانية فيها صورة أسد وجعلها تحته يفرشها فلا شيء عليه ، أما إذا تخطاها فلا ؛ لأنه إذا تخطاها ما يوجد فيها امتهان .

الرابع : الصور التي للصبيان ، الصور التي للصبيان يلعبون بها أيضًا مما يُرخص فيه ، ولا تمتنع الملائكة من دخول البيت الذي فيه هذه الصور ؛ لأن عائشة رضي الله عنها كان لها صورة تلعب بها في بيت الرسول ﷺ ^(١) ، ولم ينه عن ذلك ، لكن ينبغي أن لا تستعمل الصور البلاستيكية ، لأن الصور البلاستيكية صورة تامة فيها حتى رمش العين حتى إنهم يضعون خرزة تكون عينًا لها تتقلب ، بعضها يخطو خطوات ، بعضها يصوت . هذه يخشى أن تكون داخلة في النهي وأن الملائكة لا تدخل البيت الذي هي فيه . أما الصور الأخيرة التي بدؤوا يستعملونها والحمد لله ، فهي صورة كأنها ظل ليس لها وجه ، وليس لها عين ، وليس لها أنف وليس لها فم ، غاية الأمر أنها لها يدان ورجلان ورأس ممدود وليس فيها صورة ، هذه إن شاء الله ليس فيها شيء ولا تمتنع الملائكة من دخول البيت التي هي فيه .

(١) ما روي أن ما كانت تلعب به السيدة عائشة هي عرائس لعب وليس صورًا ، ودليل ذلك ما رواه البخاري في الأدب (٦١٣٠) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٣١) .

وتستغني بها الطفلة عن غيرها .

والواجب على من شاهد صورة محرمة أن يطمسها ، لقول علي عليه السلام لأبي التياح الأسدي ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن لا تضع صورة إلا طمسها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته » القبر المشرف يعنى القبر المتميز عن القبور سواء كان بارتفاعه أو ارتفاع النصاب التي عليه ، يعنى الأحجار التي عليه . ولهذا يجب الحذر مما يفعله بعض الناس الآن ، يصبون ، صبة ، وربما كتبوا عليها آيات من القرآن أو ما أشبه ذلك . هذه لا يجوز إقرارها ، لأنها من القبور المشرفة ومن رآها جزاه الله خيرًا فليحفر لها وينزلها ويجعل الكتابة في الأسفل حتى تندفن بالتراب ، لأن القبور المشرفة هذه ربما يُغالى بها في المستقبل ، بل تكون القبور كلها على وتيرة واحدة ليس فيها شيء يدل على التعظيم ؛ لأن البلاء كل البلاء ، بلاء الشرك من تعظيم القبور - نسأل الله أن يحميننا وإياكم إنه على كل شيء قدير .

أما الجرائد التي فيها الصور : إن كنت اشتريتها من أجل الصور فهي حرام ، أما من أجل الكلام الذي فيها فلا بأس .

٣٠٦ - باب تحريم اتخاذ الكلب إلا لصيد أو ماشية أو زرع

١٦٨٨ - عَنِ ابْنِ عُمرَ رضي الله عنه : قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ ؛ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قَيْرَاطَانِ » ^(١) متفقٌ عليه .

وفي رواية : « قَيْرَاطٌ » .

١٦٨٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَمْسَكَ كَلْبًا ، فَإِنَّهُ يَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عَمَلِهِ قَيْرَاطٌ إِلَّا كَلْبَ حَزْبٍ أَوْ مَاشِيَةٍ » متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلم : « مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ صَيْدٍ ، وَلَا مَاشِيَةٍ ، وَلَا أَرْضٍ ؛ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ قَيْرَاطَانِ كُلَّ يَوْمٍ » ^(٢) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله تحريم اتخاذ الكلب إلا لحرث أو صيد أو ماشية .

والكلب معلوم ، وهو ذو ألوان متعددة ، لكن يختص الأسود منه بأنه شيطان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٨٠) ، ومسلم في المساقاة (٥١) ، وأحمد في مسنده (٨/٢) والدارمي في السنن (٩٠/٢) . قوله « اقتنى » أي : اتخذ لنفسه وليس التجارة فيه .

(٢) أخرجه البخاري في الحرث والمزارعة (٢٣٢٢) ، ومسلم في المساقاة (٥٧) ، والنسائي في السنن (١٨٩/٧) والبيهقي في السنن (٢٥١/١) . قوله « أمسك كلبًا » أي : اقتناه .

حين سئل : ما بال الكلب الأحمر من الأبيض من الأسود ؟ قال : « الكلب الأسود شيطان » ^(١) ، والكلب الأسود إذا مرَّ بين يدي المصلي قطع صلاته ووجب عليه أن يستأنفها من جديد ، وكذلك إذا مرَّ بين المصلي وسترته ؛ فإنه يقطع الصلاة ويستأنفها من جديد .

والكلب الأسود لا يحل صيده عند أكثر العلماء حتى لو كان معلماً وأرسله صاحبه وسمى عليه فإنه لا يحل صيده ، لأنه شيطان ^(٢) . وإذا كان الكفار من بني آدم لا يحل صيدهم ما عدا اليهود والنصارى ، فكذلك هذا الشيطان الكلب لا يصح صيده ، وأما غيره من الكلاب ذوات الألوان المتعددة ؛ فإنها لا تبطل الصلاة ، ويباح صيدها بالشروط المعروفة عند العلماء .

وأما اتخاذ الكلب وكون الإنسان يقتنيه ؛ فإن هذا حرام بل هو من كبائر الذنوب والعياذ بالله ؛ لأن الذي يقتني الكلب إلا ما أُسْتُثْنِيَّ ينقص من أجره كل يوم قيراطان ، وقد قال النبي ﷺ : « من اتبع الجنابة حتى تدفن فله قيراطان » قيل : وما القيراطان ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين أصغرهما مثل أحد » ^(٣) . فالذي يتخذ الكلب بدون ما أُسْتُثْنِيَّ ينقص كل يوم من أجره مثل جبلي أحد ، قيراط ، بل قيراطان ، وهذا يدل على أن اتخاذ الكلاب من كبائر الذنوب ، إلا ما استثنى : الصيد والحرق والماشية ؛ فالصيد : هو الكلب المعلم الذي يصيد به الإنسان ؛ فهذا يحل صيده إذا كان معلماً بحيث يسترسل إذا أُزِيلَ ، ويقف إذا رُجِرَ ، وإذا أمسك لم يأكل ، وأن يسمي الله عند إرساله . فهذا صيده حلال ، والإنسان يقتنيه لحاجة ومصلحة .

كذلك الحرق : يتخذ الإنسان كلباً يحمي زرعه لئلا تأكله الماشية فتفسده .

والثالث : الماشية : يتخذ الإنسان كلباً لماشيته سواء كان من الإبل أو الغنم أو البقر ، لأنه يحميها من الذئاب ويحميها من اللصوص ؛ لأنه إذا رأى من يستنكره نبه فأنبه صاحبه . وكذلك لو فرض أن الإنسان يحتاج إلى حفظ مال كإنسان في مكان ناءٍ وليس حوله رجال أمن فيتخذ الكلب ، فهذا لا بأس به ؛ لأن هذا حماية مال كالحرق ، وما عدا ذلك فإنه حرام .

ومن حكمة الله ﷻ : أن الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات يقال : إن الكفار من اليهود والنصارى والشيوعيين في الشرق والغرب كل واحد له كلب - والعياذ بالله - يتخذة معه ، وإذا اشترى اللحم أعطاه اللحم الجيد وأكل هو اللحم الرديء ، وكل يوم ينظفه بالصابون والمنظفات الأخرى مع أنه

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٦٥) ، والترمذي في الصلاة (٣٣٨) ، وابن ماجه في السنن (٩٥٢) ، وأحمد في مسنده (١٤٩/٥) .

(٢) وهو مذهب أحمد وأهل الظاهر ، وذهب أكثر العلماء إلى إباحة الصيد بالكلب الأسود ، وهو قول الحنفية والشافعية والمالكية ؛ فقد قال كل هؤلاء بجواز الاصطياد بجميع الجوارح المعلمة من السباع والطيور كالكلب الأسود وغيره ، واحتجوا بعموم قوله تعالى ﴿ وَنَا عَلَّمْنَاهُ مَنَ الْكُتُبِ كُلِّهَا ﴾ والجوارح تطلق على السباع والطيور (انظر : المجموع ٩٥/٩ ، بداية المجتهد ٣٩١/١ ، المغني ٤٤٧/٨ ، المحلى ٤٧٧/٧) .

(٣) انظر الحديث بنصه في البخاري في الجنائز (١٣٢٣) ، وأبو داود في السنن (٣١٦٨) ، والنسائي في السنن (٥٥/٤) ، وأحمد في مسنده (٣ ، ٢/٢) .

لو نظفه بماء البحار كلها وصابون العالم كله ما طَهَّرَ ، لأنه نجاسته عينية ، والنجاسة العينية لا تطهر إلا بتلفها وزوالها بالكلية . لكن هذه من حكمة الله ، حكمة الله ﷻ أن يألف هؤلاء الخيلاء ما كان خبيثًا . كما أنهم يألفون أيضًا وحي الشيطان ، لأن كفرهم هذا من وحي الشيطان ومن أمر الشيطان فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر ، ويأمر بالكفر والضلال ، فهم عبيد للشيطان وعبيد للأهواء ، وهم أيضًا خبيثاء يألفون الخبائث . نسأل الله لنا ولهم الهداية .

المهم : أن اتخاذ الكلب بلا سبب شرعي كبيرة من كبائر الذنوب ثم إن نجاسة الكلب أخبث النجاسات ، أخبث نجاسة في الحيوان نجاسة الكلب ، لأنه إذا ولغ في الإناء لا يطهر الإناء إلا إذا غُسل سبع مرات إحداها بالتراب ، غيره من النجاسات إذا زالت عين النجاسة طهر المحل ؟ أما هو لا بد من غسلها سبع مرات إحداها بالتراب ، والله الموفق .

* * *

٣٠٧ - باب كراهة تعليق الجرس في البعير وغيره من الدواب
وكراهية استصحاب الكلب والجرس في السفر

١٦٩٠ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَصْحَبُ الْمَلَأَةَ رُقَّةً فِيهَا كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ » ^(١) رواه مسلم .

١٦٩١ - وَعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْجَرَسُ مَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - كراهية تعليق الجرس على الدواب وشبهها وكراهة استصحاب الكلب والجرس في السفر .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والجرس معلوم وهو هذا الذي يُعلق على الدواب ويكون له رنة معينة تجلب النشوى ^(٣) والطرب والتمتع بصوته ، فهذا نهى عنه النبي ﷺ نهى عنه بالتحذير منه حيث أخبر أن الملائكة لا تصحب رقة فيها جرس ؛ لأنه مع مشى الدواب ، وهملجتها ^(٤) يكون له شيء من العزف والموسيقى ، ومن المعلوم أن المعازف حرام .

(١) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٣) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٥٥) ، والدارمي في السنن (٢٨٨/٢) . قوله « رقة » أي : جماعة في سفر .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٤) ، وأحمد في مسنده (٣٧٢/٢) ، والحاكم في المستدرک (٤٤٥/١) . قوله « مزاید الشیطان » أي : صوته .

(٣) النشوة : هي ارتياح الشخص وفرح وسرور يتملكه (لسان العرب ٤٤٣٤/٦) .

(٤) الهملجة : هي حسن سير الدابة في سرعة . (لسان العرب ٤٧٠٢/٦) .

وأما استصحاب الكلب : فقد سبق أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، إلا الكلاب المستثناة كلب الحرث ، والماشية ، والصيد ؛ فهذه لا بأس به .

وأما ما يكون في المنبهات من الساعات وشبهها : فلا يدخل في النهي ؛ لأنه لا يعلق على البهائم وإنما هو مؤقت بوقت معين للتنبيه .

وكذلك ما يكون عند الأبواب يُستأذن به ؛ فإن بعض الأبواب يكون عندها جرس للاستئذان هذا أيضاً لا بأس به ، ولا يدخل في النهي ، لأنه ليس معلقاً على بهيمة وشبهها ، ولا يدخل به الطرب الذي يكون مما نهى عنه الرسول ﷺ .

ويوجد في بعض التليفونات عند الانتظار إذا اتصلت عليه ولم يكن حاضراً قال : انتظر ثم تسمع موسيقى ، هذا هو الحرام ، لأن الموسيقى من آلات العزف وهي محرمة ، لكن إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتصل بمن يريد إلا بهذا فالإثم على من وضعه إلا أنه ينبغي لمن سمعه أن ينصح صاحب التليفون ويقول : افصل هذا الجرس ، واجعله يقول : انتظر ويسكت ، حتى يكلمك المطلوب .

وأما ما يجعل في الانتظار في الهاتف من قراءة القرآن أحياناً إذا اتصلت سمعت آيات من القرآن ثم يقول : انتظر ثم تسمع آيات من القرآن . فهذا فيه ابتدال لكلام الله ﷻ حيث يجعل كأداة يعلم بها الانتظار - القرآن نزل لما هو أشرف من هذا وأعظم نزل لإصلاح القلوب والأعمال ما نزل ليُجعل وسيلة للانتظار في الهاتف وغيره ، ثم إنه قد يتصل عليك إنسان لا يعظم القرآن ولا يهتم به ويتقل عليه أن يسمع شيئاً من كتاب الله ، ثم قد يأذن عليك نصراني أو كافر أو يهودي فيسمع هذا القرآن فيظنه أغنية ، لأنه لا يعرفه قد لا يكون عربياً أيضاً ، فلا شك أن هذا ابتدال للقرآن ، وأن من وضع القرآن من أجل الانتظار يُنصح ويقال له : اتق الله ، كلام الله أشرف من أن يجعل أداة للانتظار ، أما إذا جعل في هذا الانتظار حكمة ماثورة أو حديثاً مأثوراً عن النبي ﷺ هذا لا بأس به . مثل أن يجعل : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » « من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » « اتبع الحسنة السيئة تمحوها » « خالط الناس بخلق حسن » وما أشبه ذلك من الأشياء النافعة أو مثلاً من الحكم : إذا لم يكن إلا الأستهانة مركب فما حيلة المضطر إلا ركوبها .

المهم : الحكيم واسعة كثيرة ، أما أن يجعل كلام رب العالمين الذي نزل لإصلاح القلوب والأعمال والأفراد والشعوب يُجعل آلة للانتظار على التليفون ؟! سبحان الله ! القرآن أشرف من أن يكون كذلك ، والله الهادي إلى الصراط المستقيم .

٣٠٨ - باب كراهة ركوب الجلالة وهي البعير أو الناقة التي تأكل

العذرة فإن أكلت علفًا طاهرًا فطاب لحمها زالت الكراهة

١٦٩٢ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْجَلَّالَةِ فِي الْإِبِلِ أَنْ يُرَكَبَ عَلَيْهَا ^(١) .
رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله النهي عن ركوب الجلالة .

والجلالة : هي التي تأكل الجَلَّة أي العذرة ، يعنى تأكل نجاسة الآدمي وروث الحمير ، وما أشبه ذلك . والعادة أنها إذا كانت تأكل هذا أن يتلوث شيء من بدنها أو قدمها أو ما أشبه ذلك ، فلهذا نهى النبي ﷺ عن ركوبها ، وكذلك أكل لحمها يُنْهَى عنه ، لو كانت دجاجة مخلاة تأكل العذرة والنجاسات وتتغذى بها ؛ فإنها تكون جلالة ، ويكره أكل لحمها ، إما كراهة تنزيه ، أو كراهة تحريم ^(٢) .
وأما إذا كانت تأكل الطيب والقيح وأكثر علفها الطيب ؛ فإنها ليست جلالة بل هي مباحة ولا بأس ، ومن هذا ما يفعله بعض أرباب الدواجن يعطونها من الدم المسفوح ، لكنه ليس أكثر غذائها ؛ بل أكثر غذائها الطيب إلا إنهم يعطونها هذا من أجل تقويتها أو تنميتها فلا تحرم بهذا ولا تكره ، لأنه إذا كان الأكثر هو الطيب فالحكم للأكثر . هذه هي الجلالة ، فالنهي فيها عن الركوب للتنزيه .
وأما عن الأكل ؛ فهو إما كراهة تنزيه ، وإما كراهة تحريم ، على خلاف بين العلماء في ذلك ، ولكن بشرط أن يكون أكثر علفها الشيء النجس ، أما إذا كان أقل من الطيب فلا بأس بها . والله الموفق .

٣٠٩ - باب النهي عن البصاق في المسجد والأمر بإزالته منه إذا

وجد فيه والأمر بتنزيه المسجد عن الأقدار

١٦٩٣ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْبَصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ ، وَكَفَّارَتُهَا

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٥٨) ، والحاكم في المستدرک (٢٣٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٣٣/٩) .
(٢) وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة ؛ فقد ذهبوا إلى كراهة لحم الجلالة ؛ لأنه يتولد من النجاسة فيكون نجسًا ، كما أن الجلالة إذا كان الغالب من أكلها النجاسات فإنه يتغير لحمها ويتن فيكره أكله حتى لا يتأذى الناس أما المالكية فقد ذهبوا إلى إباحة كل ما تعمل فيه الذكاة من نعم وطير بجميع أنواعه ، واستدلوا بما أخرجه البيهقي في سننه (٣٣٣/٩) عن زهدم قال : رأيت أبا موسى يأكل الدجاج ، فدعاني ، فقلت : إني رأيته يأكل نثًا ، قال : ادنه فكل ؛ فقد رأيت النبي ﷺ يأكله » (انظر : المغني ٥٩٣/٨ ، وبدائع الصنائع ٣٩/٥ ، والمهذب ٥٠/١ ، وفقه الكتاب والسنة ١٨٥٥/٣ ، بلغة السالك ٣٢٢/١) .

دَفَنَهَا ^(١) . متفق عليه .

والمُرَادُ بِدَفْنِهَا إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ ثَرَابًا أَوْ رَمَلًا وَنَحْوَهُ ، فَيُؤَارِيهَا تَحْتَ ثَرَابِهِ . قَالَ أَبُو الْحَاسَنِ الرَّوْيَانِيُّ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي كِتَابِهِ « الْبَحْر » وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِدَفْنِهَا إِخْرَاجُهَا مِنَ الْمَسْجِدِ ، أَمَا إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ مُبْلَطًا أَوْ مَجْصَصًا ، فَدَلَّكَهَا عَلَيْهِ بِمَدَاسِيهِ أَوْ بغيرِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَفْنٍ ، بَلْ زِيَادَةٌ فِي الْخَطِيئَةِ وَتَكْثِيرٌ لِلْقَدْرِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَعَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَنْ يَمْسَحَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَوْبِهِ أَوْ يَدَيْهِ أَوْ غَيْرِهِ أَوْ يَغْسِلَهُ .

١٦٩٤ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي جِدَارِ الْقِبْلَةِ مُحَاطًا ، أَوْ بُرَاقًا ، أَوْ نُخَامَةً ، فَحَكَّهُ ^(٢) . متفق عليه .

١٦٩٥ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنَ الْبُتُولِ وَلَا الْقَدْرِ ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ » أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٣) . رواه مسلم .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ (رِيَاضُ الصَّالِحِينَ) لِيُبَيِّنَ بِهِ وَجُوبَ تَنْزِيهِ الْمَسَاجِدِ عَنِ الْأَذَى وَالْقَدْرِ وَالنُّخَامَةِ وَالْبِصَاقِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ أَنَسٍ ، وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

أَمَّا حَدِيثُ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْبِصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ » - يَعْنِي إِثْمًا - « وَكُفَارَتُهَا دَفْنُهَا » يَعْنِي : إِذَا وَقَعَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ يَدْفِنُهَا ، فَقِي قَوْلُهُ ﷺ « الْبِصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ » دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ الْبِصَاقِ فِي الْمَسْجِدِ ، أَنْ يَبْصُقَ الْإِنْسَانُ نَخَامَةً ، أَوْ أَنْ يَتَنَخَّعَ فِي الْمَسْجِدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَهُوَ خَطِيئَةٌ بِسَبَبَيْنِ ، السَّبَبُ الثَّانِي : أَنَّهُ إِذْءَاءٌ لِلْمُصَلِّينَ ؛ قَدْ يَسْجُدُ الْمُصَلِّي عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ ، وَقَدْ يَتَقَرَّزُ إِذَا رَأَاهُ وَتَشْمِئُزُ نَفْسُهُ لَذَلِكَ فَيَتَأَذَى بِهَذَا .

وَالسَّبَبُ الْأَوَّلُ : أَنَّ فِيهِ إِهَانَةً لِبُيُوتِ اللَّهِ ﷻ الَّذِي أَمَرَ تَعَالَى أَنْ تَرْفَعَ وَيَذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْصُقَ فِي الْمَسْجِدِ ، لَكِنْ لَوْ فَضَرَ أَنَّهُ فَعَلَ فَكُفَارَتُهَا دَفْنُهَا إِنْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ وَكُفَارَتُهَا حَكُّهَا إِنْ كَانَتْ عَلَى الْجِدَارِ وَنَحْوِهِ ، لِحَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نَخَامَةً أَوْ بِصَاقًا أَوْ بُرَاقًا فِي قُبَّةِ الْمَسْجِدِ فَحَكَّهُ » ، فَصَارَتْ كُفَارَةٌ ذَلِكَ إِنْ كَانَتْ عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَقِي دَفْنُهُ ، إِنْ كَانَتْ عَلَى الْجِدَارِ فَقِي حَكُّهُ حَتَّى تَزُولَ .

أَمَّا مَسَاجِدُنَا الْآنَ فَكَمَا تَرُونَ مَفْرُوشَةً كُفَارَةٌ ذَلِكَ أَنْ يَمْسَحَهَا بِمَنْدِيلٍ حَتَّى تَزُولَ ، لَكِنَّا نَقُولُ أَصْلًا : لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَتَنَخَّمَ فِي الْمَسْجِدِ ، لَكِنْ إِنْ وَقَعَ فِهْذِهِ كُفَارَتُهُ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّلَاةِ (٤١٥) ، وَمُسْلِمٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ (٥٥) ، وَأَحْمَدُ فِي فِي مَسْنَدِهِ (١٧٣/٣) قَوْلُهُ « الْبِصَاقُ » قَالَ النَّوَوِيُّ : الْخِطَابُ مِنَ الْأَنْفِ ، وَالْبِصَاقُ وَالْبِزَاقُ مِنَ الْفَمِ ، وَالنُّخَامَةُ مِنَ الرَّأْسِ .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّلَاةِ (٤٠٧) ، وَمُسْلِمٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ (٥٢) .

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الطَّهَارَةِ (١٠٠) ، وَأَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ (٩١/٣) ، وَابَيْهَقِيُّ فِي السَّنَنِ (٤١٣/٢) .

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ : « رأى البصاق فحكه » - فدل ذلك على أن الإنسان إن رأى أذى أو قذراً في المسجد فإنه يزيله .

أما حديث أنس الثاني فهو في قصة الأعرابي الذي جاء إلى المسجد فبال في جهة منه ، جاهلاً ، لأن الأعراب لا يعرفون - غالبهم - فزجره الناس ، فنهاهم النبي ﷺ عن زجره فلما قضى بوله قال ﷺ للصحابه : أريقوا على بوله سجلاً من ماء ، ثم دعى الأعرابي وقال : « إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى والقذر ؛ إنما هي للصلاة والقرآن والذكر » فبين الرسول ﷺ أن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى والقذر .

فعلى المؤمن أن يحترم بيوت الله فلا يليق فيها الأذى ولا القذر ، ولا يرفع الصوت فيها وإنما يكون متأدباً ، لأن المساجد بيوت الله ، ومأوى الملائكة . والله الموفق .

* * *

٣١٠ - باب كراهة الخصومة في المسجد ورفع الصوت فيه

ونشد الضالة والبيع والشراء والإجارة ونحوها من المعاملات

١٦٩٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يُنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيُخْلُ : لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا » ^(١) . رواه مسلم .

١٦٩٧ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَتَّاعُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقُولُوا : لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يُنْشُدُ ضَالَّةً فَقُولُوا : لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ » ^(٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٦٩٨ - وَعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا نَشَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ : مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَخْمَرِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا وَجَدْتُ ، إِنَّمَا بُنِيَ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيََتْ لَهُ » ^(٣) . رواه مسلم .

١٦٩٩ - وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الشُّرَاءِ وَالْبَيْعِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَأَنْ تُنْشَدَ فِيهِ ضَالَّةٌ ، أَوْ يُنْشَدَ فِيهِ شِعْرٌ ^(٤) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

١٧٠٠ - وَعَنْ الشَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ الصُّحَابِيِّ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَخَصَبْتَنِي رَجُلٌ ، فَتَنَظَّرْتُ

(١) أخرجه مسلم في المساجد ، ومواضع الصلاة (٧٩) ، وأحمد في مسنده (٣٤٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٤٤٧/٢) . قوله « ينشد ضالة » هي : طلب الشيء الضائع من كل ما يقتنى من الحيوان وغيره .

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع (١٣٢١) ، والحاكم في المستدرک (٥٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٢٦/١) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٨٠) ، وأحمد في مسنده (٣٦١/٥) ، والبيهقي في السنن (٤٧٧/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٠٧٩) ، والترمذي في الصلاة (٣٢٢) بنحوه .

فَإِذَا عُمِّرَ بَنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : اذْهَبْ فَأَتِنِنِي بِهِذَيْنِ ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا ، فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُمَا ؟ فَقَالَا : مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ ، فَقَالَ : لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ ، لَأَوْجَعْتُكُمَا ؛ تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! ^(١) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله كراهة رفع الأصوات في المساجد وإنشاد الضالة والبيع والشراء ونحو ذلك . فالمساجد أضافها الله تعالى إلى نفسه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ [البقرة: ١١٤] وأضافها النبي ﷺ إلى ربه في قوله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » ^(٢) وبَيَّنَّ الله ﷻ أن هذه المساجد بيوت يذكر فيها اسم الله ﷻ ، أذن الله أن ترفع وأنها محل التسبيح ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُوسِ وَالْأَصْوَالِ ﴾ ﴿ يَحَالُ لَا تُلْهِمُهُمْ يَحَزَّةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقْلَاقُ الصَّلَاةِ وَإِذَاءُ الزَّكَاةِ ﴾ . [النور: ٣٦] . والمساجد بما أن الله أضافها إلى نفسه وأضافها النبي ﷺ إلى ربه ، وأذن الله أن ترفع ، لها حرمة ، ولها أحكام واحترام وتعظيم .

ومن ذلك : أنه لا يحل للجُنب أن يمكث فيه إلا بوضوء ، لأن الجنب قال فيه النبي ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب » ^(٣) مادام على جنبته ، فالملائكة لا تدخل بيته ، وكذلك في المسجد إذا كان جنباً وبقي فيه يؤذي الملائكة ، لأنه يمنعهم من دخولهم ، أو يتأذون إذا دخلوا . ولهذا نقول : من عليه جنباة فلا يدخل المسجد إلا أن يتوضأ واستثنينا الوضوء ، لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ينامون في المسجد فتصيب أحدهم ، الجنباة فيقوم ويتوضأ ويرجع فينام ، وهذا في عهد النبي ﷺ وقد أقرهم الرسول ﷺ على ذلك .

ومنها - أي من أحكام المساجد - أن الإنسان إذا دخل المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين ، لا يجلس حتى يصلي ركعتين في أي وقت دخل في الصباح في المساء في الليل في النهار عند طلوع الشمس عند غروبها في أي وقت ، لأن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين » ^(٤) حتى إنه كان ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة ، فدخل رجل فجلس فقطع النبي ﷺ خطبته وقال له : « هل صليت ؟ قال : لا . قال : « قم فصل ركعتين وتجاوز فيهما » ^(٥) يعنى أسرع من أجل أن يستمع إلى الخطبة .

وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث أن تحية المسجد بالركعتين واجبة ، لأن الرسول ﷺ أمر

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠) ، ومسلم في الصلاة (١٣٦) ، وأبو داود في الصلاة (٥٦٥) ، وأحمد في مسنده (١٦/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨٣/١) ، وأبو داود في السنن (٢٢٧) ، والنسائي (١٤١/١) ، والبيهقي في السنن (٢٠١/١) .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٠) ، وأحمد في مسنده (٣١١/٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/٣) ، والطبراني في الكبير (١٩٤/٧) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٤٥٣) .

هذا الرجل أن يصلي ركعتين^(١)، ويشغل بهما عن سماع الخطبة، وسماع الخطبة واجب، ولا يُشتغل عن واجب إلا بما هو أوجب منه.

فلهذا ذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان إذا دخل المسجد وهو على وضوء فجلس ولم يصل فهو آثم. ونحن نقول: هو عاصٍ للرسول ﷺ لا شك أنه إذا دخل وجلس وهو على وضوء؛ فإنه عاصٍ للرسول ﷺ لقوله: «لا يجلس حتى يصلي ركعتين».

ومن أحكام المساجد: أنه لا يجوز بها البيع والشراء سواء كان قليلاً أو كثيراً، لا تبغ شيئاً بقرش واحد، فإن ذلك حرام عليك، والبيع فاسد لا ينتقل فيه الثمن للبائع، ولا المبيع للمشتري، ويجب أن يرد كل واحد منهما للآخر ما أخذ منه سواء قل أو كثر حتى لو قال: يا فلان عندك الحاجة الفلانية، قال: نعم، قال: أرسل لي منها كذا وكذا. إن قال له: عندك أرز. قال: نعم، قال: أرسل لنا منه كيتاً. وهو في المسجد فهذا حرام، لأن هذا بيع وشراء.

فالبيع والشراء في المسجد بأي حال من الأحوال لا يجوز لو كانت معه عشرة ريالات وقال لآخر: معي عشرة أعطني بها ورقة ذات خمس، يعني ورقتين؛ فهذا لا يجوز.

لكن بعض العلماء قال: يجوز إذا كان هناك حاجة مثل أن يقف عليك فقير يشحذ وليس معك إلا عشرة ريالات، فقلت: هذه عشرة أعطني تسعة، لكي تتصدق عليه بريال، بعض العلماء رخص في هذا، لأن هذا صدقة لا يتوصل إليها إلا بهذا العمل ولا قصد كل منهما البيع والشراء. فالبيع والشراء في المسجد حرام هذا بالنسبة للبائع والمشتري.

لكن بالنسبة للذي يسمع إنساناً يبيع ويشترى ماذا عليه؟ قال النبي ﷺ قولوا له: «لا أربح الله تجارتك». ادعوا عليه بأن الله يخسره ولا يربحه، بأن الله لا يربح تجارته. ولكن الرسول ﷺ قال فيه: «إن المساجد لم تُبنَ لهذا». يحتمل أن هذه الكلمة يضيفها القائل إلى قوله، ويحتمل أنها تعليل للحكم من النبي ﷺ، وأنها لا تقال، لكن إذا كان في قولك إياها تطيب لقلبه فهنا قولها حسن يعني تقول: لا أربح الله تجارتك فإن المساجد لم تبن لهذا يعني للبيع والشراء، ما بنيت للبيع والشراء، بنيت للصلاة والذكر وقراءة القرآن وطلب العلم وما أشبه هذا، فإذا كان في قولك: إن المساجد لم تبن لهذا تطيب لقلبه فقلها حتى لا يغضب عليك. أنا إذا دعوت عليك، فقد دعوت عليك لأمر من الرسول ﷺ وأمر الرسول ﷺ مطاع كأمر الله ﷻ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فأقول: لا أربح الله تجارتك؛ لأن المساجد لم تبن لهذا، حتى يطيب قلبه.

(١) وهذا هو قول الشافعية وأهل الظاهر، أما الحنفية والحنابلة فقالوا: إذا خرج الإمام يوم الجمعة لأجل الخطبة ترك الناس الصلاة حتى يفرغ من خطبته أما إذا دخل الجامع والإمام في الخطبة ينبغي أن يصلي ركعتين خفيفتين تحية المسجد، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ والصلاة نفوت الاستماع والإنصات فلا يجوز ترك الفرض لإقامة السنة وقد أوجب على ذلك بأن الخطبة ليست قرآناً انظر: المجموع ٥٥٠/٤، بدائع الصنائع ١/٢٦٣، وشرح فتح القدير ٦٧/٢، وفتح الكتاب والسنة ٢٩٠٩/٥ - ٢٩١١).

كذلك أيضًا إنشاد الضالة . يجيئ رجل ويقول : ضاع مني كذا .. فهذا حرام لا يجوز ، حتى وإن غلب على أمرك أنه سرق في المسجد لا تقل هذا ؟ . كيف أتوصل إلى هذا ؟ اجلس عند باب المسجد خارج المسجد وقل : جزاكم الله خيرًا ضاع مني كذا .

ولهذا قال النبي ﷺ : « إذا سمعتم من ينشد ضالة في المسجد ، فقولوا : لا ردها الله عليك » . ندعو عليه بأن الله لا يردها عليه ولا يعثر عليها ، لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تبني لهذا ، ولما سمع النبي ﷺ رجلاً يقول : من دعى إلى الجمل الفلاني ؟ قال النبي ﷺ : « لا وجدت » لا وجدت بمعنى : لا رده الله عليك ، فدعى عليه الرسول ﷺ أن لا يجد جملة ، لماذا ؟ لأن المساجد لم تبني لهذا ، فإن أراد الإنسان أن ينشد ضالة لصاحبها ؛ يعني ليس ضائعًا منه بل شيئًا وجده في المسجد ، وجد المفاتيح ، قال : من يريد هذه المفاتيح ، فهل هذا نشد ضالة يعني طلبها أو نشد عن صاحبها ؟ بالطبع الثاني ؛ نشد عن صاحبها ، هذا أجازه بعض العلماء وقال : لا بأس به ، لأن هذا إحسان . وبعض العلماء كرهه وقال : حتى هذه الحال تكره ، ولكن إذا كان يريد أن يتم إحسانه ؛ يجلس عند باب المسجد ويقول : من ضاع له المفتاح ، من ضاع له نقود ، من ضاع له كذا وكذا ، فالمهم أن المساجد يا إخواني يجب أن تحترم .

ولما سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رجلين يرفعان أصواتهما في مسجد النبي ﷺ بالمدينة دعاهما وقال : « من أين أنتما ؟ » كأنه استغرب ما رآه ، إنهما غريان ، قالا : من أهل الطائف . قال : « لو كنتما من أهل هذا البلد لأوجعتكما » - يعني أوجعتكما ضربًا ، يعني ضربتكما حتى يُوجعكما الضرب ، ترفعان أصواتكما في مسجد النبي ﷺ ، وهذا إنكار من عمر ، لكن هل قوله : في مسجد النبي - يعني احترام المسجد نفسه أو جميع المساجد - ؟ الظاهر أن جميع المساجد مثل المسجد النبوي ، لأن هذا الاحترام للمسجد من حيث إنه مسجد .

وأما إنشاد الأشعار في المسجد ، الذي وردت الأحاديث النهي عنه ، والمراد بذلك الأشعار اللغو أو التي لا خير فيها ، أما الأشعار التي بها الخير فإنها جائزة ، كان حسان بن ثابت ؓ ينشد الشعر في مسجد النبي ﷺ والنبي ﷺ يسمع ، ولما سمعه ذات يوم عمر بن الخطاب كأنه أنكر عليه . قال : قد كنت أنشد في هذا المسجد وفيه من هو خير منك ^(١) . يعني بذلك رسول الله ﷺ .

فالأشعار إن كان فيها خير ومصلحة فلا بأس بها ، كالأشعار التي تشجع على الطاعة وعلى الجهاد في سبيل الله ، إذا كان هناك جهاد وما أشبه ذلك فهذه تنشد ، وأما أشعار لا خير فيها فلا تنشد في المسجد . والله أعلى وأعلم .

تنبيه : إذا احتلم الإنسان وهو نائم في المسجد كفاه الوضوء لكن يغتسل إذا أراد أن يصلي .

* * *

٣١١ - باب نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو غيره مما له رائحة كريهة عن دخول المسجد قبل زوال رائحته إلا لضرورة

١٧٠١ - عَنِ ابْنِ عُثْمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي الثُّومَ - فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا » ^(١) متفق عليه .

وفي رواية لمسلم : « مَسْجِدَنَا » .

١٧٠٢ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، فَلَا يَقْرَبُنَا ، وَلَا يُصَلِّيَنَّ مَعَنَا » ^(٢) متفق عليه .

١٧٠٣ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا ؛ فَلْيَعْتَزِلْنَا » ، أَوْ « فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا » متفق عليه .

وفي رواية لمسلم : « مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ ، وَالثُّومَ ، وَالْكَرْثَ ، فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَى بِمَا يَأْذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ » ^(٣) .

١٧٠٤ - وَعَنْ عُثْمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ مَا أَرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ : الْبَصَلُ ، وَالثُّومُ . لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنْ الرَّجُلِ فِي الْمَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ ، فَأَخْرَجَ إِلَى الْبَقِيعِ ، فَمَنْ أَكَلَهُمَا ، فَلْيَمِيتْهُمَا طَبْعًا ^(٤) . رواه مسلم .

الشرح

هذا الباب الذي ذكره المؤلف هو من الأحكام التي تتعلق بالمساجد وهو نهى من أكل بصلا أو ثوما أو كراثا أو نحوه فلا يقرب المسجد ولا يدخل المسجد حتى يذهب ريحه .

ثم ذكر أحاديث منها : حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال : إنكم تأكلون من هاتين الشجرتين البصل والثوم ، وما أراهما أو ما أراهما إلا خبيثتين في الرائحة .

وأخبر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا دخل أحد وقد أكل منهما أمر به فأخرج إلى البقيع ، والبقيع قريب من المسجد كما هو معروف ، قريب من المسجد النبوي ؛ ولكن يعبده إلى البقيع تعزيرا له ، وإلا فيكفي أن يخرج من باب المسجد ، لكن من أجل التعزير كان يخرج به إلى هذا المكان الذي هو بعيد

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٥٣) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٥٦) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٧١) ، وأحمد مسنده (٢٦/٥) . قوله « فليعتزلنا » أي : فليبتعد عن مجلسنا حتى تذهب رائحته عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٥٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٧٣ ، ٧٤) ، وأبو داود في الأطعمة

(٣٨٢٢) . (٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٧٨) .

نوعًا ما . ولكن عمر رضي الله عنه قال : من أكلهما - يعني من أراد أن يأكلهما - فليمتهما طبعًا - يعني فليطبخهما - فإنه إذا طبخهما راحت الرائحة وحصلت الفائدة .

ويستفاد من هذا الحديث أن البصل والثوم ليسا حرامًا ، يجوز للإنسان أن يأكلهما ، لكن إذا أكلهما فلا يدخل المسجد ، ولا يصلي مع جماعة ، ولا يحضر درس علم ؛ لأن الملائكة تتأذى منه برائحته الخبيثة .

وكذلك قال العلماء: من كان به رائحة أسنان ، أو بخر في الفم ، أو رائحة كريهة ، أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه لا يقرب المسجد حتى يزول هذه الرائحة ، لأن العلة قائمة وهي تأذي الملائكة بالروائح الكريهة . فإن قال قائل: لو أن الإنسان استعمل شيئًا تذهب به الرائحة ، فهل يجوز أن يدخل ؟ نقول : نعم يجوز إذا أكل ما يذهب الرائحة إذهابًا كاملاً ، ولا صار يخرج من المعدة رائحة ، فلا بأس ، لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا ، فإن قال إنسان : هل يجوز للإنسان أن يأكلهما فلا يحضر المسجد ؟ قلنا : حرام لا يجوز للإنسان أن يتوصل إلى إسقاط الفرض بأي سبب كان ، لكن لو أكلهما لأنه يشتهيها ، فإننا نقول : الأكل مباح ، ولكن لا تقرب المسجد حتى تزول رائحتهما . والله الموفق .

* * *

٣١٢ - باب كراهة الاحتباء يوم الجمعة والإمام يخطب
لأنه يجلب النوم فيفوت استماع الخطبة ويخاف انتقاض الوضوء

١٧٠٥ - عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنْ الْحَيْوَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ (١) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

* * *

٣١٣ - باب نهى من دخل عليه عشر ذي الحجة
وأراد أن يضحي عن أخذ شيء من شعره أو أظفاره حتى يضحي

١٧٠٦ - عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ لَهُ ذَنْبٌ يَذْبَحُهُ ، فَإِذَا أَهْلُ هِلَالِ ذِي الْحِجَّةِ ، فَلَا يَأْخُذْنَ مِنْ شَعْرِهِ ، وَلَا مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا حَتَّى يُضْحِيَ » (٢) رواه مسلم .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١١١٠) ، وأحمد في مسنده (٤٣٩/٣) . قوله « الحبة » هي أن يضم الإنسان رجله إني بطنه بثوب - بجمعها فيه مع ظهره . وقد يكون الاحتباء باليد عوض الثوب .

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٢) ، وأبو داود في الضحايا (٢٧٩١) . قوله « ذبح يذبحه » أي حيوان يريد ذبحه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - النهي عن الحيوة يوم الجمعة والإمام يخطب . والحيوة أن يضم الإنسان فخذه إلى بطنه ، وساقه إلى فخذه ويربط نفسه بسير أو عمامة أو نحوها ، وقد نهى النبي ﷺ عنها والإمام يخطب يوم الجمعة ، لسببين ، الأول : أنه ربما تكون هذه الحيوة سبباً لجلب النوم إليه فينام عن سماع الخطبة . والثاني : أنه ربما لو تحرك لبدت عورته ، لأن غالب لباس الناس فيما سبق الأزر والأردية ، ولو تحرك أو انقلب لبدت عورته ، وأما إذا أمن ذلك ؛ فإنه لا بأس بها ؛ لأن النهي إذا كان لعلة معقولة فزالت اللة فإنه يزول النهي .

أما الباب الذي بعده : فهو نهى من أراد أن يضحي أن يأخذ من شعره أو ظفره شيئاً حتى يضحي ، وذلك فيه هذا الحديث : عن أم سلمة رضي الله عنها ، وفيه أن النبي ﷺ قال : « إذا هل هلال ذي الحجة ولأحدكم ذبح ، فلا يأخذ من شعره ولا من ظفره شيئاً » - يعني حتى يضحي - فإذا دخل العشر من ذي الحجة ، وأنت تريد أن تضحي أضحية عن نفسك أو عن غيرك من مالك ، فلا تأخذ منها شيئاً من شعرك ، لا من الإبط ، ولا من العانة ، ولا من الشارب ، ولا من الرأس حتى تضحي ، وكذلك لا تأخذ شيئاً من الظفر ، ظفر القدم أو ظفر اليد حتى تضحي ﷺ .

وزاد غير مسلم : « ولا من بشرته » - يعني من جلده - لا يأخذ شيئاً حتى يضحي . وذلك احترام للأضحية ، ولأجل أن ينال غير المُحَرِّمين ما ناله المُحَرِّمون ، من احترام الشعور ، لأن الإنسان إذا حج أو اعتمر فإنه لا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدى محله ، فأراد الله ﷻ أن يجعل لعباده الذين لم يحجوا ويعتَمروا نصيباً من شعائر النسك . والله أعلم .

* * *

٣١٤ - باب النهي عن الحلف بمخلوق كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء

والحياة والروح والراس ونعمة السلطان وتزبة فلان والأمانة ، وهي من أشدها نهياً

١٧٠٧ - عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا ؛ فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ ، أَوْ لِيَضْمُتْ » متفقٌ عليه .

وفي رواية في الصحيح « فَمَنْ كَانَ حَالِفًا ؛ فَلَا يَحْلِفْ إِلَّا بِاللَّهِ ، أَوْ لِيَسْكُتْ » (١) .

١٧٠٨ - وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي ، وَلَا

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٤٦) ، ومسلم في الإيمان (١) ، وأحمد في مسنده (١٨/١) والنسائي في السنن (٤/٧) . قوله « ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » قال العلماء : الحكمة في النهي عن الحلف بغير الله تعالى : أن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به ، وحقيقة العظيمة مختصة بالله تعالى ، فلا يضاهي بها غيره .

يَأْتِيَكُمْ» (١) . رواه مسلم .

« الطَّوَاعِي » : جَمْعُ طَاغِيَةٍ ، وَهِيَ الْأَضْنَامُ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : « هَذِهِ طَاغِيَةُ دَوْس » : أَي : صَنَمُهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ . وَرُويَ فِي غَيْرِ مُسْلِمٍ : « بِالطَّوَاعِيَتِ » جَمْعُ طَاغُوتٍ ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ وَالضَّنَمُ .

١٧٠٩ - وَعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ ؛ فَلَيْسَ مِنَّا » (٢) . حَدِيثٌ صَحِيحٌ ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

١٧١٠ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ ، فَقَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَابًا ؛ فَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا ؛ فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا » (٣) . رواه أبو داود .

١٧١١ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : لَا وَالْكَعْبَةِ : قَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللَّهِ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » (٤) . رواه الترمذي وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وَقَسَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَوْلَهُ : « كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » عَلَى التَّغْلِيظِ ، كَمَا رُويَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الرِّبَاءُ شِرْكٌ » .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله تعالى النهي عن الحلف .

الحلف : معناه تأكيد الشيء بذكر مُعْظَم ، والإنسان لا يحلف بشيء إلا لأنه عظيم ، في نفسه فكأنه يقول : بقدر عظمة هذا المحلوف به إنني صادق . ولهذا كان الحلف بالله ﷻ ، احلف بالله ، أو بصفة من صفاته ، أو بأي اسم من أسمائه . قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] وقال الله تعالى : ﴿ أَيُّ مَّا نَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] فإذا حلفت بالرحمن أو بالرحيم أو بالسميع أو أي اسم من أسماء الله فهذا جائز .

وحروف القسم ثلاثة : الواو والباء والتاء - الواو مثل والله لأفعلن كذا . والباء مثل بالله لأفعلن كذا . والتاء تالله لأفعلن كذا . قال الله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ [الإنعام : ١٠٩] ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُم ﴾ [التوبة : ٦٢] وقال تعالى : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِيَ ﴾ [الصافات : ٥٦] وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء : ٦٥] فهذه حروف القسم .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٦) ، والنسائي في السنن بنحوه (٧/٧) ، وابن ماجه في الكفارات (٢٠٩٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الإيمان والنذور (٣٢٥٣) ، والبيهقي في السنن (٣٠/٥) .

(٣) أخرجه أبو داود في الإيمان والنذور (٣٢٥٨) ، وأحمد في مسنده (٣٥٥/٥) بنحوه .

(٤) أخرجه الترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٥) ، وأحمد في مسنده (١٢٥/٢) ، والحاكم في المستدرک (١٨/١) ، والبيهقي في السنن (٢٩/١٠) .

والقسم بغير الله كفر أو شرك ، ثم قد يكون كفراً أكبر وقد يكون كفراً أصغر .
وكذلك قد يكون شركاً أكبر وقد يكون شركاً أصغر ، فإذا اعتقد الحالف في شيء أن هذا الشيء له من العظمة مثل ما لله ؛ فإن هذا شرك أكبر .

وإن اعتقد أن له عظمة دون عظمة الله ؛ فهو شرك أصغر ، لأنه وسيلة للأكبر .

وكانوا في الجاهلية قد اعتادوا أن يحلفوا بأبائهم ، فنهى النبي ﷺ عنه وقال : « لا تحلفوا بأبائكم »
يعنى ولا ياخوانكم ، ولا بأجدادكم ، ولا برؤسائكم ، لكن خص الآباء بالذكر ؛ لأن هذا هو المعتاد عندهم . من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليسكت . يعنى إما ليحلف بالله أو لا يحلف . أمّا أن يحلف بغير الله فلا .

ومن ذلك الحلف بالنبي محمد ﷺ أشرف البشر وسيد البشر . لو قلت : والنبي محمد ، كنت مشركاً أو كافراً ، الحلف بجبريل ، لو قلت : وجبريل وميكائيل وإسرافيل ومالك خازن النار ، أو غير هؤلاء ، فهذا شرك ، لو قلت : والشمس والقمر والليل والنهار ، تحلف بها ، فهذا شرك . إما أكبر وإما أصغر على حسب ما قسمنا .

وتحلف أيضاً بصفة من صفات الله مثل وعزة الله لأفعلن ، وحكمة الله لأفعلن وكذا لا بأس به . أما الحلف بغير الله ، فهو كما قلت كفر أو شرك إما أكبر وإما أصغر .

ثم ذكر المؤلف الحديث أن من قال : هو بريء من دين الإسلام إن كان كذا ، وأن الإنسان لا يحل له أن يقول هذا ، وأنه إن قال هذا ؛ فإن كان كاذباً فهو كما قال ، يعنى أنه بريء من الإسلام - والعياذ بالله - وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً ؛ يعنى لا بد أن يأتى أو يكفر ، ومثله قول القائل : هو يهودي إن حصل كذا وكذا ، هو نصراني إن حصل كذا كذا . هذا يقال له : إن ذلك محرم عليك ؛ لأنك إن كنت كاذباً فأنت كما قلت يهودي أو نصراني ، وإن كنت صادقاً فلن ترجع إلى الإسلام سالماً .

مثال ذلك : قال رجل : إن فلاناً قديم اليوم ، وصل اليوم وكان مسافراً ، فقال له صاحبه : لا ما وصل . قال الأول : هو يهودي إن كان لم يقدم ، فإن كان كاذباً وأنه لم يقدم - يعنى كاذباً - فإنه يكون يهودياً ؛ لأنه قال : هو يهودي إن كان لم يقدم ، وهو كاذب ؛ فيكون بذلك يهودياً ، وإن كان صادقاً ، أنه قدم ، فإنه لن يرجع إلى الإسلام سالماً ، كما قال الرسول ﷺ .

المهم أنك إذا أردت أن تحلف فاحلف بالله ، بأي اسم من أسماء الله ، أو بأي صفة من صفات الله .

قد يقول قائل : أليس الله تعالى أقسم بالمخلوقات ، قال : ﴿ وَالشَّمْسُ وَحُجَّتْهَا ﴾ [الشمس : ١] وقال : ﴿ وَأَلِيلٌ إِذَا يَتَقَنَّ ﴾ [الليل : ١] وقال : ﴿ وَأَلِيلٌ إِذَا يَتَقَنَّ ﴾ [الشمس : ٤] ، نقول : إن الله تعالى له أن يحلف بما شاء من خلقه ، فهو إذا حلف بشيء كان ذلك دليلاً على عظمة الله ، لأن عظم المخلوق يدل على

عظم الخالق ، والله تعالى لا يحلف بشيء إلا بشيء عظيم ، وعظم المخلوق من عظم الخالق ، ولله أن يحلف بما شاء من خلقه ، ولا أحد يحجر على الله ، يفعل ما يريد ﷻ . فإن قال قائل : نسمع بعض الناس تقول : أقسم بآيات الله ، هل هذا حلف بغير الله ؟ وهل هذا كفر أو شرك ؟ نقول : ماذا يريد بآيات الله ؟ إن أراد بآيات الله الشمس والقمر والليل والنهار ، فهذا حلف بغير الله فيكون مشركاً أو كافراً ، لأن الله يقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [نصت : ٣٧] فإذا قال : أنا أريد بآيات الله التي حلفت بها هذه الأشياء . قلنا : هذا حلف بغير الله ، فيكون مشركاً أو كافراً . وإن قال : أريد بآيات الله القرآن ، لأن القرآن آيات الله ﷻ ، فهذا ليس بمشرك ، لماذا ؟ لأن القرآن الكريم كلام الله ، وكلام الله تعالى من صفاته ، فإذا قال : أقسم بآيات الله ، أقصد بذلك القرآن ، قلنا : هذا قسم صحيح وليس فيه شيء . وفي ظني أن العوام إذا قال : أقسم بآيات الله ، في ظني أنهم يريدون القرآن ، فإذا كانوا يريدون القرآن ؛ فليس حراماً ، ولكن إن كانوا يريدون الآيات التي هي الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار ، وما أشبه ذلك ، هذا شرك أو كفر ، والله الموفق .

* * *

٣١٥ - باب تغليظ اليمين الكاذبة عمداً

١٧١٢ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ » قَالَ : ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِصْدَاقِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﻋَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْعُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران : ٧٧] إلى آخر الآية ^(١) : متفق عليه .

١٧١٣ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْحَارِثِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَمِينَهُ ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « وَإِنْ كَانَ قَضِيئًا مِنْ أَرَاكِ » ^(٢) رواه مسلم .

١٧١٤ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الْكَبَائِرُ : الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ » رواه البخاري .

وفي رواية : أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْكَبَائِرُ ؟ قَالَ : « الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ » قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « الْيَمِينُ الْغَمُوسُ » قُلْتُ : وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ ؟ قَالَ : « الَّذِي يَقْطَعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ » يَغْنِي يَمِينٌ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٧٦) بنحوه ، ومسلم في الإيمان (٢٢٢) ، والبيهقي في السنن (٢٥٤/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٨) ، وأحمد في مسنده (٢٦٠/٥) ، والنسائي في السنن (٢٤٦/٨) . قوله « اقتطع حق امرئ مسلم يمينه » أي من أخذ حق امرئ يمين كاذبة هو فيها فاجر .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٧٥) ، وأحمد في مسنده (٢٠١/٢) ، والنسائي في السنن (٨٨/٧) ، =

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - تغليظ اليمين الكاذبة التي يُقْتَطَعُ بها مال امرئ مسلم .
وذلك أن الإنسان يجب عليه إذا حلف بالله أن يكون صادقاً ، سواءً حلف على أمر يتعلق به ، أو على أمر يتعلق بغيره ، فإن حلف على يمين وهو فيها كاذب ، فإن كان يقتطع بها مال امرئ مسلم ولو يسيراً ، فإنه يلقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان . مثال هذا : إنسان ادعى عليه شخص قال : أنا أعطيتك ألف ريال ، قال : لا ليس لك عندي شيء ، والمدعي ليس عنده بيعة ، فقال القاضي للمنكر : احلف أنه ليس له عندك شيء ، فحلف فقال : والله ما له عندي شيء ، القاضي سيحكم بأنه لا حق له عليه ؛ لأن البيعة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . فهذا الرجل الذي حلف وهو كاذب يلقي الله وهو عليه غضبان - والعياذ بالله - ويحرم الله عليه الجنة ويدخله النار ، نسأل الله العافية ، حتى قالوا : يا رسول الله ، وإن كان شيئاً يسيراً ، قال : « وإن كان قضيباً من أراك » . قضيب : ما يملأ اليد من علف أو أعواد أو ما أشبه ذلك ؛ يعني حتى ولو كان كذلك ، أو إن القضيب هو العود الواحد من الأراك يعني من المساويك ، حتى لو أن الإنسان حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم ولو עודاً من أراك ؛ فإنه يحصل على هذا الوعيد الشديد ، والعياذ بالله .

وأما ما يتعلق بنفسه مثل أن يقال له : إنك فعلت كذا ، فقال : والله ما فعلت ، وهو كاذب ، فهذا إذا كان كاذباً ؛ فإنه لا يستحق هذا الوعيد ، لكنه - والعياذ بالله - آثم ، جمع بين الكذب وبين الحلف بالله ﷻ كاذباً ، فتضاعف عليه العقوبة . فعلى المسلم أن يكون محترماً لله ﷻ معظمًا له لا يكسر اليمين ، وإذا حلف فليكن صادقاً حتى يكون باراً بيمينه ، نسأل الله لنا ولكم التوفيق .

* * *

٣١٦ - باب نذب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها

أن يفعل ذلك المحلوف عليه ثم يكفر عن يمينه

١٧١٥ - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ؛ فَأَتَيْتَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفَرْتَ عَنْ يَمِينِكَ » ^(١) .
١٧١٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ؛ فَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ ، وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ » ^(٢) . رواه مسلم .

= والدارمي في السنن (١٩١/٢) . قوله « اليمين الغموس » هي التي تغمس صاحبها في الإثم ؛ لأنه حلف كاذباً على علم منه وقصد .

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٢) ، ومسلم في الأيمان (١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان (١١) ، وأحمد في مسنده (٢١٢ ، ١١١/٢) ، والبيهقي في السنن (٥٢ ، ٥١/١٠) .

- ١٧١٧ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أُحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ ، ثُمَّ أَرَى خَيْرًا مِنْهَا ؛ إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي ، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ » ^(١) متفق عليه .
- ١٧١٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَأَنْ يَلْجَأَ أَحَدُكُمْ فِي يَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ أَثَمٌ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتُهُ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ » ^(٢) متفق عليه .
- قوله : « يَلْجَأُ » يَفْتَحُ اللَّامَ ، وَتَشْدِيدُ الْجِيمِ : أَيِ يَتَمَادَى فِيهَا ، وَلَا يُكْفَرُ ، قَوْلُهُ : « أَثَمٌ » هُوَ بِالنَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ ، أَيِ : أَكْثَرُ إِثْمًا .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف رحمه الله في من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير .

وذلك أن الإنسان إذا حلف على شيء فالأفضل ألا يحنث في يمينه ، وأن يبقى على ما حلف عليه ، لكن إذا حلف على ترك واجب ؛ وجب عليه أن يحنث ويكفر ، مثل : أن يقول والله لا أصلي اليوم في جماعة ، هذا حرام عليه ، صلاة الجماعة واجبة ، وهذا ربما يقع ، ربما يقول مثلاً أبوه له : يا ولد ، روح صلي ، يقول : والله اليوم ما أصلي مع جماعة عناداً لكم ، هكذا يقول بعض السفهاء . فإذا حلف قلنا : هذا لا يجوز ، لا بد وأن تصلي مع جماعة وتكفر عن يمينك ، وإذا حلف فقال : والله لا أكلم ابن عمي ، لسوء تفاهم بينهما مثلاً ، هذا أيضاً حرام ؛ لأنه قطيعة رحم وهجر لأخيه ، فيقال : كلمه وكفر عن يمينك . وإذا قال عندما أمره أبوه مثلاً أن يصلي نافلة الظهر ، قال : والله ما أصليها عناداً لك ، نقول : هذا الأفضل أن يصلي ويكفر عن يمينه ، ولكن ليس بواجب ؛ لأن نافلة الظهر ما هي واجبة ؛ فالحاصل أن الإنسان إذا حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير . وهو بالخيار إن شاء فعل ثم كفر أو إن شاء كفر ثم فعل .

وذكر المؤلف أحاديث منها ، حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فكفر عن يمينك ، واثت الذي هو خير » . هذا قول النبي ﷺ ، أما فعله فقال : إن شاء الله إني لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني ، وأتيت الذي هو خير » . فثبت بذلك - أي بالسنة القولية والفعلية - أن الإنسان إذا حلف على شيء ورأى غيره خيراً منه ؛ فإنه يكفر عن يمينه ، ويأتي الذي هو خير . أما إذا لم يكن كذلك ، فالأفضل أن يبقى على يمينه وألا يحنث ، لقول الله تعالى : ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] والله الموفق .

- (١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٣) ، ومسلم في الأيمان بنحوه (١٠) ، والبيهقي في السنن (٥٢/١٠) .
- (٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٤) ، ومسلم في الإيمان (٢٦) ، والبيهقي في السنن (٣٢/١٠) . قوله « لأن يلعج أحدكم في يمينه في أهله » أي لأن يصر أحدكم على المحلوف عليه بسبب يمينه في أهله - أي في قطعته - كالحلف على أن لا يكلمهم ولا يصلهم ، ثم لا ينقضها على أن يكفر بعده ، أكثر إثماً .

٢١٧ - باب العفو عن لغو اليمين وأنه لا كفارة فيه ، وهو ما يجري على اللسان

بغير قصد اليمين كقوله على العادة : لا والله ، وبلى والله ، ونحو ذلك

قال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ (١) [المائدة : ٨٩] .

١٧١٩ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ : لَا وَاللَّهِ ، وَبَلَى وَاللَّهِ (٢) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في باب العفو عن لغو اليمين .

ولغو اليمين : هي اليمين التي يقولها الإنسان على لسانه ولا يقصدها بقلبه ، وقد عفا الله تعالى عن ذلك ، لأنه يحصل كثيراً أن يقول الإنسان : لا والله ما أنا ذاهب ، لا والله ما أنا فاعل ، وما أشبه ذلك ، فلما كثر هذا في ألسن الناس عفا الله عنه ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ فسرته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : بأنه قول الرجل : لا والله ، وبلى والله في عرض الحديث ، ولا قصد اليمين ، هذا لا يؤاخذ به (٣) ، لا يَأْتُمُّ به ولا يحنت فيه ، ولا تجب فيه الكفارة . أما إذا عقد المسلم اليمين عقداً جازماً ، قال : والله لا أفعل كذا ، والله لأفعلن كذا ، ولم يفعل ، لزمته الكفارة وهي : عتق رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، بدأ الله تعالى بالإطعام ، لأنه أهون الثلاثة ، قال : ﴿ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فإن لم يجد فإنه يصوم ثلاثة أيام متتابعة لا يفطر بينها ، وهذا من سعة رحمة الله تعالى ، أن هذه الأيمان التي تتكرر على الألسن ، ولا يقصدها الخالف ليس فيها إثم وليس فيها كفارة ، لأن ذلك يقع كثيراً (٤) .

ولكن مع ذلك يقول الله تَعَالَى : ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ يعني لا تكثروا من الأيمان ، ولا تركوا الكفارة إذا حنتم فيها ، بل احفظوها ؛ لأن اليمين أمرها عظيم ، ولهذا سمي الله تعالى مخالفتها حنتاً ، بل سماها النبي ﷺ حنتاً ؛ لأنه لولا رحمة الله لكان الإنسان إذا حلف لزمه أن يوفي ، ولكن

(١) قوله ﴿ بِالْفُحْوَ ﴾ أي بالحنث والخلف . قوله ﴿ عَقَّدْتُمْ ﴾ أي قصدتم . قوله ﴿ رَقَبَةٍ ﴾ أي تحرير عبد من الرق . قوله ﴿ وَاحْفَظُوا ﴾ أي صونوها ولا تبدلوهما لكل أمر . (٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٣) .

(٣) وهذا هو ما ذهب إليه الشافعية والحنابلة وهو قول عكرمة والشعبي ، أما الحنفية والمالكية فقالوا : إن يمين اللغو هي اليمين الكاذبة خطأ أو غلطاً سواء في الماضي أو في الحال ، وذلك أن يخبر الخالف عن الماضي أو عن الحال ظناً منه أن ما أخبر به هو كما أخبر وهو في الحقيقة بخلافه (انظر بداية المجتهد ٣٤٨/١ ، بدائع الصنائع ٣/٣ ، والموطأ ص ٢٦٦) .

(٤) راجع ذلك في بداية المجتهد (٣٤٨/١ - ٣٤٩) ، بدائع الصنائع (٣/٣ - ٥) ، شرح فتح القدير (٦٣/٥ - ٦٥) .

من نعمة الله أنه يسر للإنسان أن يخالف ما حلف عليه إذا لم يكن إثمًا والله الموفق .
والإطعام : كيلو للنفر الواحد من الأرز يكفي بزيادة .

* * *

٣٨ - باب كراهة الحلف في البيع وإن كان صادقًا

١٧٢٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الْحَيْفُ مَنْفَقَةٌ لِلْسَّلْعَةِ ، مَحْقَةٌ لِلْكَسْبِ » ^(١) متفق عليه .

١٧٢١ - عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَيْفِ فِي الْبَيْعِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْفَقُ ثُمَّ يَمْحَقُ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كراهة الحلف في البيع وإن كان صادقًا .

يعني معنى هذا أن الإنسان يُكره له أن يحلف عند البيع والشراء ولو كان صادقًا ، فمثلاً يُكره أن يقول : والله لقد اشتريتها بمائة ولو كان صادقًا ، فإن كان كاذبًا ؛ صار ظلمًا على ظلم والعياذ بالله ، لو قال : والله لقد اشتريتها بمائة ولم يشترها إلا بثمانين ؛ صار أشد ، لأنه يكون بذلك كاذبًا حائثًا في البيع ، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك ، وأخبر كما في حديث أبي هريرة : أنه منفقة للسلعة ممحقة للكسب ، يعني أنها وإن زادت السلعة بالحلف فإن الله ينزع بركتها ويمحق كسبها ؛ لأن هذا الكسب مبني على معصية الرسول ﷺ ، ومعصية الرسول معصية لله ، وكثير من الناس يقع في هذا الأمر ، تجده مثلاً يقول للزبون : والله إنه طيب ، والله إني اشتريته بكذا وكذا ، سواء كان صادقًا أو كاذبًا ، فهو منهى عنه ، بع واشتر بلا يمين ، إذا أردت أن يبارك الله لك في كسبك . وكذلك حديث أبي قتادة فيه التحذير عن الحلف في البيع : « إياكم والحلف في البيع ، فإنه ينفق ، ويمحق » والحديثان معناه واحد ، كلاهما يدل على أن الإنسان يُنهى عن الحلف في البيع ، وظاهر الحديث أنه لا فرق بين أن يكثر الحلف أو لا ، لكن لما كان الإنسان البائع والمشتري دائماً يحلف دائماً يبيع ويشترى ، حملة بعض العلماء على الكثرة ، كثرة الحلف عند البيع والشراء ، فالإنسان إذا أراد الله له الرزق أتاه بدون يمين . نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الرزق الحلال .

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٨٧) ، ومسلم في المساقاة (١٣١) ، وأبو داود في البيوع (٣٣٣٥) ، والنسائي في السنن (٢٤٦/٧) قوله « منفقة للسلعة » أي سبب لرواج السلعة في ظن الخالف . قوله « ممحقة للربح » أي سبب لمحوق البركة وذهابها ، إما بتلف يلحقه في ماله ، أو بإنفاقه في غير ما يعود إليه في العاجل ، أو ثوابه في الآجل .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٣٢) ، وأحمد في مسنده (٢٩٧/٥) ، والنسائي في السنن (٢٩٧/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٦٥/٥) . قوله « ينفق » أي يكون سبباً لنفاق المبيع وأخذه بالزيادة لأجل الحلف . قوله « ثم يمحق » أي ثم يذهب ويتلف .

٣١٩ - باب كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله غير الجنة

وكراهة منع من سال بالله تعالى وتشفع به

١٧٢٢ - عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يُسْأَلُ بِاللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ » ^(١) رواه أبو داود .
 ١٧٢٣ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ ؛ فَأَعِيدُوهُ ؛ وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ ؛ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ دَعَاكُمْ ؛ فَأَجِيبُوهُ ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَغْرُوفًا ؛ فَكَافُّوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تَكْفُّوهُ ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَّعْتُمُوهُ » ^(٢) حَدِيثٌ صَحِيحٌ رواه أبو داود ، والنسائي بأسانيد الصحيحين .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله غير الجنة .
 وجه الله تعالى وصفه الله تعالى بأنه ذو الجلال والإكرام ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] كل من على البسيطة ؛ فإنه فانٍ زائل لكن يبقى وجه الله ﷻ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ ولهذا قال بعض العلماء : ينبغي أن يصل قول ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ بما قبله حتى يتبين كمال الله ﷻ ، وأنه يستحيل عليه الفناء ، بل هو الباقي الذي لا يزول . فوجه الله تعالى عظيم ، وأعظم ما يسأله المرء الجنة ، قال الله تعالى ﴿ فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْحِجْكَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم . هذا الفوز الأعظم الذي لا يدانيه أي فوز . فلما كانت الجنة أعظم مسؤول يعني مسؤول به ، يعني أعظم ما يسأله الإنسان هو الجنة ، صار لا يسأل بوجه الله إلا الجنة . فلا تسأل بوجه الله شيئاً من أمور الدنيا ، لا تقل : اللهم إني أسألك بوجهك أن تعطيني بيتاً أسكنه ، أو سيارة أركبها ، أو ما أشبه ذلك ؛ لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به شيء من الدنيا ، الدنيا كلها دنيعة ، كلها فانية ، كلها لا خير فيها إلا ما يقرب إلى الله ﷻ ، وإلا فهي خسارة ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ﴿ ١ ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ خَسِرٌ ﴾ [العصر : ١ ، ٢] العصر يعني الدهر وهو الدنيا ، أقسم بالعصر أن كل إنسان في خسر ، لا يستفيد من عصره إلا من جمع هذه الصفات الأربع ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ واحد ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ اثنين ﴿ وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ ﴾ يعني أوصى بعضهم بعضاً بالحق ، والرابع ﴿ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ٣] أي بالصبر على الحق والدعوة إليه ، والصبر على أقدار الله وغير ذلك . فالمهم لا تسأل بوجه الله إلا الجنة ، وكذلك ما يقرب إلى

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧١) .

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائي باختلاف يسير (٨/٥) ، وأحمد في مسنده (٩٩/٢) ، والبيهقي في السنن (١٩٩/٤) ، والحاكم في المستدرک (٦٤/٢) . قوله « من استعاذ » أي سأل العوذ والعصمة من شيء متوسلاً إليكم بالله . قوله « فكافوه » أي أحسنوا إليه بمثل ما فعل أو بأحسن منه .

الجنة ، فلك أن تسأل بوجه الله النجاة من النار ، اللهم إني أسألك بوجهك أن تنجني من النار ؛ لأنه إذا نجا الإنسان من النار لا بد أن يدخل الجنة . فليس هناك ثلاثة دور ، إنما هما داران فقط ، دار الكفار وهي النار ، أعادنا الله وإياكم منها ، ودار المؤمنين المتقين وهي الجنة ، فإذا قلت : أسألك بوجهك أن تجيرني من النار ، فلا بأس ؛ لأن الله متى أجارك من النار أدخلك الجنة . وهذا الحديث إسناده ضعيف ^(١) ولكن معناه صحيح ، لا ينبغي أن تسأل بوجه الله العظيم إلا بشيء عظيم .

أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « من استعاذ بالله ، فأعذوه » يعني معناه : إذا قال أحد لك : أعوذ بالله منك ، فأعذه ، واتركه ، كما فعلت امرأة تزوجها الرسول ﷺ فلما دنا منها قالت : أعوذ بالله منك ، جاهلة ، فقال النبي ﷺ : « لقد عدت بمعاذ ، الحقني بأهلك » ^(٢) وتركها لأنها استعاذت بالله منه . فإذا استعاذ أحد بالله منك فأعذه ، إلا إذا استعاذ عن حق واجب ، فإن الله لا يعيده ، لو أنه كان مطلوباً لك ، فسألته حقك ، قلت : أعطني حقي ، فقال : أعوذ بالله منك ، فهنا لا تعذه ؛ لأن الله تعالى لا يعيد عاصياً . لكن إذا كان الأمر ليس محرماً ، فاستعاذ بالله منك ، فأعذه ، تعظيماً لله ﷻ .

« ومن سأل بالله فأعطه » لو سألك سائل فقال : أسألك بالله أن تعطيني كذا وكذا ، أعطه ، إلا إذا سألك شيئاً محرماً ، فلا تعطه ، مثلاً أن يسألك يقول لك : أسألك بالله أن تخبرني ماذا تصنع مع أهلك ؟ مثلاً ، هذا لا يجوز أن تخبره ، بل وجهه وانصحه وقل : هذا تدخل فيما لا يعينك ، وقد قال النبي ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ^(٣) وكذلك لو سأل محرماً ولو سألك بالله لا تعطه ، لو قال : أسألك بالله أن تعطيني كذا وكذا ليشتري به دخاناً ، فلا تعطه ؛ لأنه سألك ليستعين به على شيء محرم ، فالمهم أن من سألك بالله فأعطه مالم يكن على شيء محرم . وكذلك مالم يكن عليك ضرر ، فإن كان عليك ضرر فلا تعطه ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لا ضرر ولا ضرار » ^(٤) .

« ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه » يعني إذا صنع إليك أحد معروفاً إما بمعونة في شيء ، أو باستخدامك إياه في شيء من الأشياء ، أو غير ذلك ، فكافئه ، أعطه ما تظن أنه يكافئ معروفه . فإن لم تجد ما تكافئه أو كان ممن لا يحسن مكافأته كالملك والوزير والرئيس وما أشبه ذلك ؛ فادعوا له ، حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه .

(١) من أسباب ضعفه ورود سليمان بن قرم في إسناده ، وقد تكلم فيه غير واحد . (انظر عون المعبود ٥/ ٨٨ ، ٨٩) وانظر في الترجمة له : تهذيب التهذيب (٢١٣/٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٣٧) ، وأحمد في مسنده (٤٩٨/٣) ، والطبراني في الكبير (٢٦٢/١٩) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في حسن الخلق (٣) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) ، وأحمد في مسنده (٢٠/١) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (١٨/٨) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٣٤٠) ، وأحمد في مسنده (٣١٣/١) ، والحاكم في المستدرک (٥٨/٢) ، والبيهقي في السنن (٦٩/٦) .

« ومن دعاكم فأجيبوه » من دعاك إلى بيته إلى وليمة قليلة أو كثيرة فأجبه ، لكن هذا مشروط بما إذا لم يكن عليك ضرر ، فإن كان عليك ضرر فلا تجبه ، أو كان هذا الرجل ممن يهجر ، فلا تجبه أيضًا أو كان هذا الرجل في ماله حرام ، ورأيت أنه من المصلحة ألا تجيبه ، لعله يقلع عن الحرام ، فلا تجبه . أما في وليمة العرس فقد قال النبي ﷺ : « من لم يُجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله » ^(١) ، إذا دعاك الزوج لوليمة العرس فأجبه ما لم يكن عليك ضرر أو يكن هناك منكر ، فإن كان عليك ضرر فلا يلزمك إجابته ، وإن كان هناك منكر فإن كنت تستطيع أن تغيره ، فأجب وغير ، وإلا فلا تجب . والله الموفق .

* * *

٣٢٠ - باب تحريم قول شاهنشاه للسلطان وغيره

لأن معناه ملك الملوك ، ولا يوصف بذلك غير الله سبحانه وتعالى

١٧٢٤ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكُ الْأَمْلاكِ » ^(٢) متفق عليه .
قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : « مَلِكُ الْأَمْلاكِ » مِثْلُ شَاهِنْشَاهٍ .

* * *

٣٢١ - باب النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسيد ونحوه

١٧٢٥ - عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقُولُوا لِلْمُتَأَفِّقِ سَيِّدٌ ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا ، فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ ﷻ » ^(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

* * *

٣٣٢ - باب كراهة سب الحمى

١٧٢٦ - عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ - أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ - فَقَالَ : « مَا لِكَ يَا أُمُّ السَّائِبِ - أَوْ يَا أُمِّ الْمُسَيَّبِ - تُزْفِرِينَ ؟ » قَالَتْ : الْحُمَى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا ، فَقَالَ : « لَا

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١١٠) ، وأحمد في مسنده (٦١/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٦٢/٧) .
(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٥) ، ومسلم في الآداب (٢٠) ، والحاكم في المستدرک (٢٧٤/٤) . قوله « أخنع » أي أفجر قوله « تسمى » أي سمي نفسه .
(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه ، والحديث أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٧٧) ، والإمام أحمد في المسند (٤٣٦/٥) . قوله « أسخطتم ربكم » أي أغضبتموه ؛ لأنه يكون تعظيماً له ، وهو ممن لا يستحق التعظيم .

تَسْبِي الْحُمَى ؛ فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ ، كَمَا يُذْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » ^(١) رواه مسلم .
« تُزْفَرَيْنِ » أي : تَتَحَرَّكِينَ حَرَكَةً سَرِيعَةً ، وَمَعْنَاهُ : تَزْعُدُ ، وَهُوَ بَضْمُ النَّاءِ وَبِالزَّايِ الْمَكْرُورَةِ ،
وَالْفَاءِ الْمَكْرُورَةِ ، وَرُؤْيٍ أَيْضًا بِالرَّاءِ الْمَكْرُورَةِ وَالْقَافَيْنِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - كراهة سب الحمى .

والحمى : هي السخونة ، وهي نوع من الأمراض ، وهي أنواع متعددة ، ولكنها تكون بقدر الله ﷻ ، فهو الذي يقدرها وقوعًا ، ويرفعها سبحانه وتعالى ، وكل شيء من أفعال الله لا يجوز للإنسان أن يسبه ؛ لأن سبه سب لخالقه جل وعلا ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » ^(٢) .

وهنا حديث جابر رضي الله عنه : أن النبي ﷺ دخل على أم المسيب أو أم السائب وهي تزفر من الحمى ، يعني أن نَفَسَهَا قد ثار من الحمى ، فقال : « مالك تزفرين ؟ » قالت : الحمى ، لا بارك الله فيها . فنهى النبي ﷺ عن سبها . وعلى المرء إذا أُصِيب أن يصبر ويحتسب الأجر على الله ﷻ ، وأخبر أنها تذهب بالخطايا كما يذهب الكبر بخبث الحديد ، فإن الحديد إذا صُهر على النار ذهب خبثه وبقي صافيًا ، كذلك الحمى تفعل في الإنسان كذلك ، ولها أدوية علاجية ، منها : الماء البارد ؛ فإن النبي ﷺ أخبر أن الحمى من فيح جهنم ، وأمرنا أن نطفئها بالماء البارد ^(٣) ؛ ولهذا أقر الأطباء في الوقت الحاضر بأن من أفضل علاج الحمى البرودة ، حتى إنهم يجعلون الإنسان إذا أصابته الحمى حول المكيفات الباردة التي لا تضره ، أو يجعلون خرقة مبلولة بالماء يغطونه بها ، يغطون المريض ؛ لأن الحمى يأذن الله حرارة كما هو معروف ، وهذا الماء يبردها ويطردها وهو شيء أخبر به الرسول ﷺ وما أخبر به الرسول ﷺ فهو حق . المهم أن الإنسان يصبر ويحتسب على كل الأمراض ، لا يسبها .

٣٢٣ - باب النهي عن سب الريح وبيان ما يقال عند هبوبها

١٧٢٧ - عَنْ أَبِي الْمُنْذِرِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُسَبُّوا الرِّيحَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ ، فَقُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا ، وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ ،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٥٣) ، والبيهقي في السنن (٣٧٧/٣) . قوله « الكبر » هو زق الحداد الذي ينفع به قوله « خبث » أي درن .

(٢) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب (٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٥/٢) بنحوه .

(٣) انظر ذلك في البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٣) ، ومسلم في السلام (٧٨ ، ٧٩) ، وابن ماجه في السنن (٣٤٧١) ، وأحمد في مسنده (٢١/٢) .

وَتَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَشَرِّ مَا فِيهَا ، وَشَرِّ مَا أَمْرَتْ بِهِ » ^(١) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٧٢٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا ، وَسَلُّوا اللَّهَ خَيْرَهَا ، وَاسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا » ^(٢) رواه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ .

قوله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » هو بفتح الراء : أَي : رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ .

١٧٢٩ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا ، وَخَيْرَ مَا فِيهَا ، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا ، وَشَرِّ مَا فِيهَا ، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ » ^(٣) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - النهي عن سب الرياح . وسبق فيما مضى النهي عن سب الحمى . والرياح : من آيات الله صلى الله عليه وسلم ، من آيات الله تعالى في تصرفها وفي إرسالها وفي كلفتها ، إذ لا يقدر أحد على أن يصرف هذه الرياح إلا خالقها صلى الله عليه وسلم ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ ﴾ [يونس: ٦] وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الروم: ٤٦] والآيات في هذه كثيرة .

هذه الرياح التي خلقها الله صلى الله عليه وسلم وصرفها تنقسم إلى قسمين ، قسم : ريح عادية لا تخيف لا يُسب لها ذكر معين ، وريح أخرى عاصفة ، هذه تخيف ، لأن عاذًا عذبهم الله تعالى بالريح العقيم ، والعياذ بالله . فإذا عصفت الرياح ؛ فإنه لا يجوز لك أن تسبها ، لأن الرياح إنما أرسلها الله صلى الله عليه وسلم ، فسبك إياها سب لله تبارك وتعالى ، ولكن قل : كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هذه الرياح ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به » وبهذا الدعاء يحصل لك خيرها ويحول عنك شرها . « أسألك خير هذه الرياح » ، لأن هذه الرياح قد تكون عاصفة شديدة تفلح الأبواب وتجتث الأشجار وتهدم الديار ، « وخير ما فيها » ، ما فيها أي ما تحمله من أمور

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢٢٥٢) ، وأحمد في مسنده (١٢٣/٥) . قوله « فإذا رأيتم ما تكرهون » أي إذا رأيتم من عصفها وشدها . قوله « وخير ما فيها » أي المرتب عليها من جمع السحاب الذي يخرج منه المطر أو الخير الذي فيها من تسيير السفن بها ونحو ذلك . قوله « وشر هذه الرياح » هي العواصف أو الرياح المهلكة .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٧) ، وأحمد في مسنده (٢٦٨/٢) ، والحاكم في المستدرک (٢٨٥/٤) ، والبيهقي في السنن (٣٦١/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الاستسقاء (١٣) ، والبيهقي في السنن (٣٦٠/٣) . قوله « عصفت » أي اشتدت .

قد تكون نافعة وقد تكون ضارة .

« وخير ما أرسلت به » لأنها تارة تُرسل بالخير ، وتارة ترسل بالشر ، فتسأل الله خير ما أرسلت به .
« وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به » . فإذا استعاذ الإنسان من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به ، وسأل الله خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ؛ كفاه الله شرها .
واعلم أنه لا يجوز للإنسان أن يتعلق بالريح في حصول المطر والغيث والصحو وما أشبه ذلك ؛ لأن هذا من جنس الاستقاء بالأنواء الذي نهى عنه النبي ﷺ كثير من الناس يعلق رجاءه بالريح الجنوبي يقول : إذا هبت الجنوب حصل الغيث وتجد قلبه متعلقاً بها ، وهذا لا يجوز ، لأنها قد تهب ريح الجنوب كثيراً ولا يأتي أمطار ولا غيوم ، وقد يكون بالعكس تأتي الأمطار والغيوم من الريح الشمالي ، فالأمر كله بيد الله ﷻ ، فعليك أن تعلق قلبك بربك تبارك وتعالى وألا تسب ما خلقه من الرياح . واسأل الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به واستعذ بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به . والله الموفق .

٣٢٤ - باب كراهة سب الديك

١٧٣٠ - عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ ؛ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ » ^(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

٣٢٥ - باب النهي عن قول الإنسان : مطرنا بنوء كذا

١٧٣١ - عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْيَةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : « هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : قَالَ : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي ، وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطَرَّنَا يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِي ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطَرَّنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا ؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » ^(٢) متفق عليه .
وَالسَّمَاءُ هُنَا : الْمَطَرُ .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٠١) ، وأحمد في مسنده (١٩٣/٥) بنحوه .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٦) ، ومسلم في الإيمان (١٢٥) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٤) ، والبيهقي في السنن (١٨٥/٢) . قوله « الحديية » بئر قريب من مكة . وقيل : شجرة حدباء قرب مكة . قوله « إثر السماء » أي بعد سقوط المطر . قوله « كانت من الليل » أي في بعض أجزائه . قوله « بنوء » أي بسقوط نجم وطلوع نظيره .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ النهي عن سب الديك .

والديك : هو الذكر من الدجاج وله صوت يؤذن فيوقظ النائم ، وبعضها يؤذن على الأوقات عند أوقات الصلوات ، وقد أمر النبي ﷺ من سمع صوت الديك أن يسأل الله من فضله ، إذا سمعت صوت الديك فقل : أسأل الله من فضله ؛ فإنها رأت ملكاً (١) ، وبعض الديكة يكون أذانه على دخول الوقت أو قرب دخول الوقت ، فيوقظ الناس للصلاة ، فنهى النبي ﷺ عن سبه لهذه المزية التي تميز بها ، كما نُهي عن قتل النملة (٢) ؛ لأنها كانت دلت أخواتها على النجاة من سليمان - عليه الصلاة والسلام - وهذا من تمام عدل الله ﷻ أن بعض الحيوانات التي يكون فيها مصلحة للعباد يكون لها مزية وفضل على غيرها ، سب الديك قد يقع من بعض الناس ، يفرع من صوته وهو نائم فيسبه ويشتمه ، وهذا منهي عنه لأن النبي ﷺ قال : « لا تسبوا الديك » .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يتخذ ما يوقظه للصلاة ، وذلك مثل الساعات المنبهة ، فإن الإنسان ينبغي له أن يقتني من هذه الساعات حتى تنبهه للصلاة في الوقت الذي يدرك فيه الصلاة . وكثير من الناس يتهاون في هذا الأمر ، ينام معتمداً على أنه سيقوم في الوقت الذي يريده ولكن يغلبه النوم ، فإذا علمت من نفسك هذا فاجعل لنفسك منبهاً ينبهك للصلاة ؛ لأن ما لا يتم المأمور إلا به فهو مأمور به وأنت مثاب على هذا .

وأما الباب الثاني : وهو تحريم قول الإنسان مطرنا بنوء كذا وكذا : وهو أيضاً عن زيد بن خالد الجهني ؓ : أنهم كانوا مع النبي ﷺ في الحديبية ، والحديبية غزوة مشهورة ومعروفة ، وذلك أن النبي ﷺ خرج إلى مكة معتمراً ومعه الإبل - الهدى - فلما وصل إلى الحديبية وهي أرض بين الحل والحرم ، منعه قريش أن يدخل مكة ، وجرى بينهم وبين النبي ﷺ ما هو معروف من المصالحة ، لكن في إحدى الليالي ، صلى بهم النبي ﷺ صلاة الصبح على إثر مطر ، فلما انصرف من صلاته أقبل عليهم ، وقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم وإنما ألقى عليهم هذا السؤال من أجل أن ينتبهوا ؛ لأن إلقاء الأسئلة يوجب الانتباه ، قالوا : « الله ورسوله أعلم » . وهكذا كل إنسان يجب عليه إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : الله ورسوله أعلم ؛ في الأمور الشرعية ، أما الأمور الكونية القدرية ، فهذا لا يقول : ورسوله أعلم ؛ لأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، كما مثلاً لو قال قائل : أتظن المطر ينزل غداً ، تقول : الله أعلم ، ولا تقل : الله ورسوله أعلم ؛ لأن الرسول ﷺ لا يعلم مثل هذه الأمور ، لكن لو قال لك : هل هذا حرام أم حلال ؟ تقول : الله ورسوله أعلم ؛ لأن النبي ﷺ عنده علم الشريعة . المهم أنهم قالوا : الله ورسوله أعلم وهذا من الأدب ، قال : قال ﷻ :

(١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٣) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٨٢) ، وأبو داود في

السنن (٥١٠٢) ، والترمذي في السنن (٣٤٥٩) ، وأحمد في مسنده (٣٠٦/٢) .

(٢) انظر في ذلك الحديث الذي أخرجه البيهقي في السنن (٩١/٩) .

« أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي » ، يعني في تلك الليلة قال الله ﷻ فيما أوحاه إلى نبيه : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي » فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب . والباء هنا للسببية . يعني معناه أنك إذا أضفت المطر إلى النوء ، فقلت : هذا النجم نجم بركة وخير ، يأتي بالمطر ، فهذا حرام عليك ، كفر بالله ﷻ ، وإضافة للشيء إلى سببه مع نسيان المسبب وهو الله ﷻ . وأما إذا قلت : مطرنا بفضل الله ورحمته في هذا النوء ، فلا بأس ؛ لأن هذا اعتراف منك بأن المطر بفضل الله ولكنه صار في هذا بالنوء ، كثير من العامة عندنا يقولون : مطرنا بالفصل كذا وكذا ... ، وليسوا يقصدون بهذا السببية وإنما يقصدون الظرفية ، أي أن المطر صار في هذا الوقت وهذا لا بأس به . وأما إذا جعل الباء للسببية ؛ فهذا هو الذي كفر بالله وآمن بالكواكب ، ثم إن اعتقد أن الكوكب هو الذي يأتي بالمطر ، فهذا كفر أكبر مخرج عن الملة ، وإن اعتقد أن الكوكب سبب وأن الخالق هو الله ﷻ ، فهذا كفر بنعمة الله وليس كفرًا مخرجًا عن الملة . وفي هذا الحديث ، نعرف أنه ينبغي للإنسان إذا جاء المطر أن يقول : مطرنا بفضل الله ورحمته . والله الموفق .

* * *

٣٢٦ - باب تحريم قوله لمسلم : يا كافر

١٧٣٢ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ : يَا كَافِرُ ؛ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدَهُمَا ، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ : وَلَا رَجَعَتْ عَلَيْهِ » ^(١) متفقٌ عليه .

١٧٣٣ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ ، أَوْ قَالَ : عَدُوَّ اللَّهِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ » ^(٢) متفقٌ عليه . « حَارَ » : رَجَعَ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - قول مسلم لمسلم : يا كافر .

المسلم والكافر حكمهما إلى الله ﷻ ، فالذي يحكم بالكفر هو الله ، والذي يحكم بالإسلام هو الله ، كما أن الذي يحلل ويحرم هو الله ﷻ ، فليس لنا أن نحلل ما حرم الله ، ولا أن نحرم ما أحل الله ، ولا أن نكفر من ليس بكافر في حكم الله ، ولا أن نقول هذا مسلم وليس مسلمًا عند الله . ومسألة التكفير مسألة خطيرة جدًا ، فُتِحَ بها أبواب شر كبيرة على الأمة الإسلامية . فإن من أول من انتحل هذه النحلة الخبيثة وهي تكفير المسلمين هم الخوارج ، الخوارج الذين أخبر النبي ﷺ أنهم

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٠٤) ، ومسلم في الإيمان (١١١) ، والطبراني في الكبير (١٩٤/١٨) ، وقوله ﷺ : باء : أي رجع والمعنى : وعاد عليه الوصف الذي وصف به غيره ، دون حق .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان بلفظه (١١٢) ، والبخاري في الأدب بنحوه (٦٠٤٥) ، وأحمد في مسنده (١٦٦/٥) .

« يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، وَأَنْهُمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَتَجَاوَزُ حَنَاجِرَهُمْ ، وَأَنْهُمْ يَصِلُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ » ^(١) حَتَّى أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُ أَحَدُهُمْ صَلَاتَهُ عِنْدَ صَلَاةِ هَؤُلَاءِ ، لَكِنَّهُمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - كَفَرُوا الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَحْلَوْا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَنَسَاءَهُمْ - نَسَأَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ - وَمَا زَالَ هَذَا الْحُكْمُ مَوْجُودًا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، فَإِنَّ هُنَاكَ شُعْبَةً ضَالَّةً مُبْتَدِعَةً خَبِيثَةً تَكْفُرُ مِنْ لَمْ يَكْفِرْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِأَهْوَائِهِمْ ، هَذَا كَافِرٌ ، هَذَا مُبْتَدِعٌ ، هَذَا فَاسِقٌ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَمَاذَا حَصَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ مِنَ الْإِسْلَامِ ؟ حَصَلَ مِنْهُمْ أَنْهُمْ اجْتَمَعُوا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَهُوَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ الرَّابِعُ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، اجْتَمَعُوا مَعَهُ عَلَى حَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ وَدِمَاءٌ كَثِيرَةٌ ، ثُمَّ اصْطَلَحَ عَلِيُّ ﷺ مَعَ أَهْلِ الشَّامِ وَتَصَالَحُوا حَقًّا لِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ . فَقَالَتْ الْخَوَارِجُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : أَنْتَ كَافِرٌ لِمَاذَا تَصَالَحْتَ بِهِمْ ، كَفَرْتَ كَمَا كَفَرُوا ، فَخَرَجُوا عَلَيْهِ وَقَاتَلُوهُ ، لَكِنْ صَارَتِ الْعَاقِبَةُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَهُ ، قَتَلَهُمْ قَتْلَ عَادٍ وَارِمٍ ، وَقَضَى عَلَيْهِمْ جَمِيعًا ، لَكِنْ مَا زَالَ فِيهِمْ [بَقِيَّةٌ] ، مَا زَالَ هَذَا الْمَذْهَبُ الْخَبِيثُ مَوْجُودًا فِي الْمُسْلِمِينَ ، يَبِيحُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ احْتِرَامِهَا ، وَأَمْوَالَهُمْ مَعَ احْتِرَامِهَا ، وَنَسَائِهِمْ مَعَ احْتِرَامِ الْأَعْرَاضِ ، فَيَقُولُونَ مِثْلًا : مَنْ زَنَى فَهُوَ كَافِرٌ ، وَمَنْ سَرَقَ فَهُوَ كَافِرٌ ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَهُوَ كَافِرٌ ، كُلُّ ذَنْبٍ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كُفْرٌ ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ، يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ . فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الْمُسْلِمِينَ لَا شَكَّ أَنْهُمْ هُمُ الْكَافَرُونَ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَالَ لِأَخِيهِ : يَا كَافِرٌ فَإِنَّهُ يَبُوءُ بِهَا أَحَدَهُمَا ، لَا بَدَّ ، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ : كَافِرٌ ، فَهُوَ كَافِرٌ ، وَإِلَّا كَانَ الْكَافِرُ هُوَ الْقَاتِلُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يَنْزِعَ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ عَنْ تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، لَا يَتَكَلَّمُ فَيَقُولُ : هَذَا كَافِرٌ ، وَلَا يَعْتَقِدُ فِي قَلْبِهِ أَنَّ هَذَا كَافِرٌ ، لِجَرْدِ الْهَوَى . وَإِطْلَاقُ الْحُكْمِ بِالتَّكْفِيرِ لَيْسَ لَزِيمٌ وَلَا لَعَمْرُو ، بَلْ هُوَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ . مَنْ كَفَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهُوَ كَافِرٌ ، وَإِنْ قُلْنَا إِنَّهُ مُسْلِمٌ ، وَمَنْ لَمْ يَكْفِرْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهُوَ مُسْلِمٌ ، وَإِنْ قَالَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ كَافِرٌ . لِذَلِكَ نَقُولُ لِمَنْ قَالَ لِمُسْلِمٍ يَا كَافِرٌ ، أَوْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ . إِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ كَمَا قَالَ فَهُوَ كَافِرٌ وَعَدُوُّ اللَّهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَالْقَاتِلُ هُوَ الْكَافِرُ الْعَدُوُّ لِلَّهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ إِذَا لَمْ يَكُنْ الَّذِي قِيلَ فِيهِ أَهْلًا لَهَا ، وَلِهَذَا جَزَمَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ فِي تَحْرِيمِ هَذَا ، أَيْ فِي تَحْرِيمِ الْقَوْلِ لِلْمُسْلِمِ : يَا كَافِرٌ أَوْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، نَسَأَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَحْمِيَ قُلُوبَنَا وَيَكْفِنَا عَنِ الْكَلَامِ فِيمَا يَغْضِبُهُ وَيُضِرُّنَا ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

* * *

٣٢٧ - باب النهي عن الفحش وبذاء اللسان

١٧٣٤ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ ، وَلَا اللَّعَّانِ ، وَلَا الْفَاحِشِ ، وَلَا الْبِذِّيِّ » ^(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

(١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦٢) ، وأحمد في مسنده (٥٢/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٧) ، والحاكم في المستدرک (١٢/١) ، والبيهقي في السنن (١٩٣/١٠) .

١٧٣٥ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ ، وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ » ^(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٣٢٨ - باب كراهة التعكير في الكلام والتشديق فيه وتكلف الفصاحة

واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم

١٧٣٦ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » . قَالَهَا ثَلَاثًا ^(٢) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ . « الْمُتَنَطِّعُونَ » : الْمُبَالِغُونَ فِي الْأُمُورِ .

١٧٣٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ يُعْغِضُ الْبَلِيعَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا يَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ » ^(٣) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٧٣٨ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنْ أَبْغَضْتُكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدْتُكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الثَّرَاوُونَ ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، وَالْمُتَفَيِّهُونَ » ^(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وقد سبق شرحه في باب حُسن الخلق .

الشرح

هذه الأحاديث كلها تتعلق بما ينطق به الإنسان ، وذلك أنه ينبغي بل يجب على الإنسان ألا يتكلم إلا بخير ، لقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ^(٥) . والخير قد يكون خيراً لذاته وقد يكون خيراً لغيره ، فمن الخير لذاته أن يتكلم الإنسان بالقرآن ، بالذكر ، بالأمر بالمعروف ، بالنهي عن المنكر ، وما أشبه ذلك . وأما الخير لغيره : بأن يتكلم الإنسان بما ليس في ذاته خيراً لكنه يريد أن يسطر إخوانه ويزيل عنهم الوحشة ويؤلف قلوبهم ، هذا من الخير حتى الكلام العام إذا كان قَصْدُ الإنسان في ذلك ما ذكرنا كان هذا من الخير . ضد ذلك من كان بذىء اللسان والعياذ بالله ، (الطُّعْآنُ اللَّعَانُ) ، طعناً : يعني يطعن في الأنساب ويعيب الناس (ولعناً) يكثر لعنهم وسبهم ، نسأل

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٤) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٥) ، وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) بنحوه . قوله « الفحش » هو مجاوزة الحد المعروف شرعاً وعرفاً . قوله « شانه » أي أساء إليه وعابه .

(٢) أخرجه مسلم في العلم (٧) ، والطبراني في الكبير (٢١٦/١٠) .

(٣) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمته الله بشرحه ، وقد أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٠٥) ، وأحمد في مسنده (١٦٥/٢) ، والترمذي في الأدب (٢٨٥٣) . قوله « يغض » أي يكره . قوله « البليغ » أي المبالغ في فصاحة الكلام وبلاغته . قوله « يتخلل بلسانه » أي يدير لسانه حول أسنانه مبالغة في إظهار فصاحته .

(٤) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمته الله بشرحه ، وقد أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٩) ، وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) . (٥) سبق تخريجه .

اللَّهُ العافية ، فقد نفى النبي ﷺ الإيمان عن مثل هذا ، فقال : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا باللعان ، ولا بالفاحش ، ولا بالبدئي » . فالمؤمن رفيق هين لين ، كلامه سهل ، ومن ذلك أيضًا من آفات اللسان : التقرع في الكلام والتشدد حتى يتكلم الإنسان بكل شيء بليغ ، وحتى يتكلم عند العامة في غرائب اللغة العربية ، إما رياءً ليقول الناس : ما أعلمه باللغة العربية أو لغير ذلك . فالإنسان ينبغي أن يكون كلامه ككلام الناس ، الكلام الذي يفهم حتى وإن كان بالعامية ما دام يخاطب العوام . أما إذا كان يخاطب طلبة علم وفي مجلس التعلم ؛ فهنا ينبغي أن يكون كلامه بما يُقدر عليه من اللغة العربية .

وفي الباب الثاني : الذي ذكره المؤلف أن النبي ﷺ قال : « هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » المتنطع هو المتقرع في الكلام الذي يتنطع بكلامه أو بقوله أو بفعله أو برأيه أو بغير ذلك مما يعده الناس خروجًا عن المألوف . وكل هذا من الآداب الحسنة التي جاء بها الإسلام ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

٣٢٩ - باب كراهة قوله : خبثت نفسي

١٧٣٩ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبِثْتُ نَفْسِي ، وَلَكِنْ يَتَّقِلْ : لَقِيسَتْ نَفْسِي » ^(١) متفقٌ عليه .
قَالَ الْعُلَمَاءُ : مَعْنَى « خَبِثْتُ » : عَثْتُ ، وَهُوَ مَعْنَى « لَقِيسْتُ » وَلَكِنْ كَرِهَ لَفْظَ الْحَبِثِ .

* * *

٣٣٠ - باب كراهية تسمية العنب كَرْمًا

١٧٤٠ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ ؛ فَإِنَّ الْكَرْمَ الْمُسْلِمَ » متفقٌ عليه . وهذا لفظُ مسلم .
وفي رواية : « فَإِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ » وفي رواية للبخاري ومسلم : « يَقُولُونَ الْكَرْمَ ، إِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ » ^(٢) .

١٧٤١ - وَعَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا تَقُولُوا : الْكَرْمَ ، وَلَكِنْ قُولُوا : الْعِنَبَ ، وَالْحَبْلَةَ » ^(٣) رواه مسلم .
« الْحَبْلَةُ » بفتح الحاءِ والباءِ ، ويقال أيضًا بإسكان الباءِ .

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٧٩) ، ومسلم في الألفاظ من الأدب (١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٠٩ ، ٥١/٦) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٨٣) ، ومسلم في الألفاظ من الأدب (٨) ، وأحمد في مسنده (٢٥٩/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب (١١) ، والدارمي في السنن (١١٨/٢) بنحوه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله كراهة قول الرجل خبثت نفسي .

خبثت نفسي يعني لقيت ، ومعنى لقيت غثيت ، أحياناً يصيب الإنسان كلمة يسميها الناس كلمة ، فتضيق عليه الدنيا بدون أن يعرف السبب لذلك ، فيقول خبثت نفسي ، وخبثت يعني صارت خبيثة ، وهذه كلمة مكروهة ، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل : خبثت نفسي ، ولكن يقول : لقيت ، ولقيت بمعنى خبثت ، ولكنها في اللفظ تخالفها ، فهي أهون منها وأيسر . وفي هذا الحديث : دليل على اجتناب الألفاظ المكروهة وإبدالها بألفاظ غير مكروهة وإن كان المعنى واحداً ، لأن اللفظ قد يكون سبباً للمعنى ، قد يقول : خبثت نفسي بمعنى غثيت ، والخبث الغثيان ، ويأتي في باله أنه من الخبث الذي هو ضد الطيب ، والنفوس الخبيثة هي نفوس الكفرة والعياذ بالله ، لقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] ولقوله تعالى : ﴿ الْقَيْنِثُ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُ لِلْخَيْثِ ﴾ [النور : ٢٦] ؛ ولأن النبي ﷺ كان إذا أراد دخول الخلاء ليبول ، أو يتغوط يقول : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » ^(١) . يعني الشياطين والشر .

فالهمم : أن الإنسان يكره له أن يطلق ألفاظاً مكروهة على معاني صحيحة بل يبدلها بألفاظ محبوبة للنفوس .

وأما الباب الثاني : فهو النهي عن تسمية العنب كزماً ، والكرم كما قال النبي ﷺ هو المؤمن أو قلب المؤمن ، لأنه مأخوذ من الكرم .. والكرم هو وصف محبوب يوصف به المؤمن ولا سيما إذا كان جواداً باذلاً للخير بجاهه أو بماله أو علمه فإنه أحق بهذا الوصف من العنب .
وإنما يقال الحبلّة أو يقال العنب ، وأما أن تسميه كرمًا فهذا لا . وهذا - والله أعلم - له سبب ؛ وهو أن هذا العنب قد يُتخذ شراباً خبيثاً محرماً ؛ لأن العنب ربما يتخذ منه الخمر نسأل الله العافية ، يعصر ويخمر فيكون خمرًا خبيثاً ، لهذا نهى النبي ﷺ أن يسمى العنب كرمًا ، وما يوجد في بعض الكتب المؤلفة في الزراعة ونحوها ، يقال : شجر الكرم أو الكروم أو نحو ذلك داخل في هذا النهي ، فلا ينبغي أن يسمى العنب أو أشجار العنب بالكرم أو بالكروم ، بل يقال : الأعناب والعنب والحبلّة وما أشبه ذلك . والله الموفق .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤٢) بلفظ : « اللهم إني أعوذ بك .. » ، وابن ماجه في الطهارة (١٩٨) ، وأحمد في مسنده (١٠١/٣) ، والبيهقي في السنن (٩٦/١) .

٣٣١ - باب النهي عن وصف محاسن المرأة لرجل
إلا أن يحتاج إلى ذلك لغرض شرعي كنكاحها ونحوه

١٧٤٢ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُبَاشِرِ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ ، فَتَصِفَهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » ^(١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله النهي عن وصف محاسن المرأة لرجل إلا لأمر شرعي كنكاحها .

يعني أنه لا يجوز للإنسان أن يصف امرأة لرجل فيقول صفتها كذا في الطول والحسن والبياض وما أشبه ذلك ، إلا إذا كان هناك موجب شرعي ، مثل أن يكون هذا الرجل يريد أن يتزوجها ، فيصفها له أخوها مثلاً من أجل أن يقدم أو يترك ؛ لأن هذا لا بأس به ، كما أنه يجوز للخطاب إذا خطب امرأة أن ينظر إليها من أجل أن يكون هذا ادعى لقبوله أو رفضه ، ولهذا نهى النبي ﷺ المرأة أن تصف المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها ، وهذا كما أنه محرم ، فهو من جهة الزوجة ضرر عليها ، وذلك لأنه إذا وصفت المرأة لزوجها فربما يرغب فيها ويتزوجها عليها ، ويقع بينهما مشاكل كما هي العادة . ولا يعني هذا أن الإنسان يدع التعدد ، تعدد الزوجات خوفاً من ذلك ؛ لأن التعدد مشروع إذا قدر الإنسان على ذلك في بدنه وماله وعدله ؛ فإنه يشرع له أن يكثر الزوجات ليكثر النسل وتكثر الأمة الإسلامية ، لكن إذا كان يخشى ألا يعدل ، فقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء : ٣] .

والحاصل : أنه لا يجوز للإنسان أن يصف المرأة لرجل أجنبي منها إلا إذا كان هناك موجب شرعي ، ومن ذلك ما يفعله بعض السفهاء بحيث يفتخر عند أصحابه وزملائه يقول : امرأتي جميلة ، يعني يفتخر بجمال زوجته ، امرأتي جميلة ووجهها كذا وعينها كذا وفمها كذا وما أشبه ذلك ، فإن هذا من المحرم ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه . والله الموفق .

٣٣٢ - باب كراهة قول الإنسان : اللهم اغفر لي إن شئت

بل يجزم بالطلب

١٧٤٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ . اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ، لِيُغْزِمَ الْمَسْأَلَةَ ؛ فَإِنَّهُ لَا مُكْرَةَ لَهُ » . متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٤٠) والترمذي في الأدب (٢٧٩٢) وأحمد في مسنده (٣٨٧/١) وأبو داود في النكاح (٢١٥٠) . قوله : « لا تباشر المرأة المرأة » أي لا تمس المرأة بشرة المرأة ببشرتها فتعرف نعومة بدنها وما فيه من المحاسن الخفية .

وفي رواية لمسلم : « وَلَكِنْ لِيَعْرِمَ ، وَلِيُعْظِمَ الرَّغْبَةَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ » (١) .
١٧٤٤ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ ، فَلْيُعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ ، وَلَا يَقُولَنَّ : اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي ؛ فَإِنَّهُ لَا مُشْتَكِرَةَ لَهُ » (٢) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - كراهة قول الإنسان اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت . ومن المعلوم أن الإنسان لا ملجأ له إلا الله ﷻ في طلب الخير ودفع الشر ، وإذا كان الله تعالى هو المقصود وهو الذي يريده العباد ويلجؤون إليه ويعتمدون عليه ؛ فإنه لا ينبغي للإنسان أن يقول : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، بل هذا حرام ؛ لأن قول القائل : إن شئت ؛ كأنه يقول : إن شئت اغفر لي وإلا ما يهمني ، كأنه يقول : أنا في غنى عنك ، كما تقول لصحابك : إن شئت فزرني ؛ يعني وإن شئت فلا تزرني فأنا لست في حاجة إليك ، ولهذا كان قول القائل : اللهم اغفر لي إن شئت ، حرماً ، فقول المؤلف : كراهة قول الإنسان : اللهم اغفر لي إن شئت ؛ يعني كراهة التحريم ، وكذلك لا يقول : اللهم ارحمني إن شئت ، بل يعزم ؛ لأنه يسأل جواداً كريماً غنياً حميداً ﷻ ، ولأنه مفتقر إلى الله فليكن عازماً في الدعاء ، يقول : اللهم اغفر لي ، اللهم ارحمني ، بدون (إن شئت) وكذلك لا يقول : اغفر لي إن شاء الله ، أو يقول الإنسان : غفر الله لك إن شاء الله ، هداك الله إن شاء الله ، كل هذا لا يقال ، وإنما يجزم الإنسان ويعزم .

ويبين النبي ﷺ ذلك لأن فيه محظورين ، الأول : قال : « وليعزم المسألة ؛ فإن الله لا Mukره له » يعني الله ﷻ إن غفر لك فمشيئته ، أو رحمك فمشيئته ، لا أحد يكرهه على ذلك ، فهو يفعل ما يشاء ويختار ﷻ ، لا Mukره له حتى تقول إن شئت . كذلك أيضاً يقول الإنسان : إن شئت كأنه يتعاطم الشيء ، فيقول : إن شئت فأت به وإن شئت فلا تأت ، والله تعالى لا يتعاطم شيء أعطاه ، مهما عظم الشيء ؛ فإن الله تعالى غني كريم يعطي الكثير ﷻ ويترك القليل .

والحاصل : أنه لا يحل لك أن تقول : الله اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، اللهم أدخلني الجنة إن شئت ، اللهم ارزقني أولاداً إن شئت ، اللهم ارزقني زوجة صالحة إن شئت ، كل هذا لا يجوز ، اعزم المسألة ولا تقل فيها المشيئة .

ومن ذلك أيضاً : ما يقوله بعض الناس ، وأظنهم من الصوفية : اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكنني أسألك اللطف فيه . فإن هذا حرام ، كيف لا تسأل الله رد القضاء ، وهل يرد القضاء إلا الدعاء ، كما جاء

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٩) وأبو داود في الصلاة (١٤٨٣) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٤) قوله « فإنه لا Mukره له » أي لا يقدر أحد أن يكرهه على نعل أراد تركه ، بل يفعل ما يشاء .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٧) وأحمد في مسنده (١٠١/١) . قوله « فليعزم المسألة » أي فليطالب بها بشدة عن غير ضعف في الطلب ولا تعليق على المشيئة .

في الحديث : « لا يرد القضاء إلا الدعاء » ^(١) . وكأنك إذا قلت : اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه ، كأنك تقول : يا ربي عذبي ولكن ارفق بي ، يا رب أهلك أحبائي ولكن ارفق ، وما أشبه ذلك ، كل هذه الأدعية يجب على الإنسان أن يتوخى فيها ما جاء في الكتاب والسنة وما كان بمعنى ذلك .

نقول بناء على حسن نعمة هذا الدعاء وسجعه فهذا لا يجوز ، فصار عندنا الآن مسألتان ؛ الأولى : لا يَقُلْ : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، اللهم ارزقني إن شئت ، اللهم اهدني إن شئت ، قل الدعاء ولا تقل إن شئت . والثانية : لا تَقُلْ : اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه ، ولكن قل : اللهم ارفق بي ، اللهم اكفني الشر ، وما أشبه ذلك .

وأما قول الرسول ﷺ لمن وجده مريضاً : « لا بأس ، طهور إن شاء الله » ^(٢) فهذا من باب الرجاء وهو خبر ؛ يعني أرجو أن يكون هذا طهوراً . وأيضاً لم يكن بلفظ المحاطبة ، ما قال : إن شئت ، قال : إن شاء الله ، واللفظ بغير المحاطبة أهون وقعا من اللفظ الذي يأتي بالمحاطبة ، والله أعلم .

* * *

٣٣٣ - باب كراهة قول : ما شاء الله وشاء فلان

١٧٤٥ - عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ » ^(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله كراهة قول الإنسان : ما شاء الله وشاء فلان ، والكراهة هنا يراد بها التحريم ، يعني أنك إذا قُلْتَ : ما شاء الله وشاء فلان ، أو ما شاء الله وشئت ، أو ما أشبه ذلك ، وذلك أن الواو تقتضي التسوية ، إذا قلت : ما شاء الله وشاء فلان ، كأنك جعلت فلاناً مساوياً لله ﷻ في المشيئة ، والله تعالى وحده له المشيئة التامة ، يفعل ما يشاء الله . ولكن أرشد النبي ﷺ لما نهى عن ذلك ، أرشد إلى قول مباح ، فقال : « ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » ؛ لأن (ثم) تقتضي الترتيب بمهلة ، يعني أن مشيئة الله فوق مشيئة فلان ، وكذلك قول : ما شاء الله وشئت ، فإن رجلاً قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت قال : « أجعلتني لله نداً ؟ ! » ، يُنكر عليه ، « بل قل : ما شاء الله »

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٣٩) بلفظه ، وابن ماجه في المقدمة (٩) وأحمد في مسنده (٢٧٧/٥) والحاكم في المستدرک (٤٩٣/١) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٧٠) والبيهقي في السنن (٣٨٣/٣) والطبراني في الكبير (٣٤٢/١١) والبيهقي في شرح السنة (٢٢٣/٥) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٨٠) وأحمد في مسنده (٣٨٤/٥) والحاكم في المستدرک (٤٦٢/٣) والبيهقي في السنن (٢١٦/٣) .

وحده ١) . فيها هنا مراتب :

المرتبة الأولى : أن يقول : ما شاء الله وحده ، وهذه كلمة فيها تفويض الأمر إلى الله ، واتفق عليها المسلمون ، كل المسلمين يقولون : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ٢) . المرتبة الثانية : يقول : ما شاء الله ثم شاء فلان ، فهذه جائزة ، أجازها النبي ﷺ وأرشد إليها . المرتبة الثالثة : أن يقول : ما شاء الله وشاء فلان ، فهذه محرمة ولا تجوز ، وذلك أن الإنسان جعل المخلوق مساوياً للخالق ﷻ في المشيئة . المرتبة الرابعة : أن يقول : ما شاء الله فشاء فلان بالفاء ، فهذه محل نظر ؛ لأن الترتيب فيها وارد ، بمعنى أنك إذا قلت فشاء ، فالفاء تدل على الترتيب ، لكنها ليست كـ (ثم) ؛ لأن (ثم) تدل على الترتيب بمهلة ، وهذه تدل على الترتيب بتعقيب ، ولهذا فهي محل نظر ، ولهذا لم يرشد إليها النبي ﷺ . وفي هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا ذكر للناس شيئاً لا يجوز ، فليبين لهم ما هو جائز ، لأنه قال : لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان . وهكذا ينبغي لمعلم الناس إذا ذكر لهم الأبواب الممنوعة ؛ فليفتح لهم الأبواب الجائزة ، حتى يخرج الناس من هذا إلى هذا ، بعض الناس يذكر الأشياء الممنوعة ، يقول : هذا حرام ، هذا حرام ، ولا يبين لهم الأشياء الجائزة ، وهذا سد للأبواب أمامهم دون فتح للأبواب ، وانظر إلى النبي ﷺ لوط عليه الصلاة والسلام ، قال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ يَنِ الْغَلَمِينَ ﴾ بعده ﴿ وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦] نهاهم عن الممنوع وأرشدهم إلى الجائز . وهكذا النبي ﷺ قال : ﴿ لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان ﴾ . بل انظر إلى قول الله ﷻ : ﴿ يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ، آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾ ٣) [البقرة : ١٠٤] فنهاهم عن كلمة راعنا وأرشدهم إلى الكلمة الجائزة ﴿ وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾ ولما جيء إلى النبي ﷺ بتمر ، تمر طيب ، فقال : ﴿ أَكُلْ تَمْرَ خَيْرٍ هَكَذَا ؟ ﴾ قالوا : لا ، لكننا نشترى الصاع من هذا بالصاعين ، والصاعين بثلاثة . قال : ﴿ لا ، بع التمر الرديء بالدرهم ، ثم اشتر بالدراهم تمرًا طيبًا ﴾ ٤) .

٣٣٤ - باب كراهة الحديث بعد العشاء الآخرة

والمراءى به الحديث الذي يكون مباحاً في غير هذا الوقت ، وفعله وتركُه سواء ، فأما الحديث المُحَرَّمُ أو المكروه في غير هذا الوقت ، فهو في هذا الوقت أشدُّ تحريمًا وكراهة . وأما الحديث في الخير كَمُذَاكِرَةِ الْعِلْمِ وحكايات الصالحين ، ومكارم الأخلاق ، والحديث مع الضيف ، ومع طالب

(١) انظر الحديث بنصه في أحمد في مسنده (٢٦٤/١) ، والبيهقي في السنن (٢١٧/٣) .

(٢) ذكره ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٠ ، ٤٤) ، والسيوطي في الدر المنثور (٢٥/٦) .

(٣) قوله تعالى : ﴿ رَاعِنَا ﴾ من المراجعة ، وهي المبالغة في الرعاية ، وهي حفظ الغير وتدير أموره ، وتدارك مصالحه .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٠) ومسلم في المساقاة (٩٤) والنسائي في السنن (٢٧١/٧) والبيهقي في السنن (٢٨٥/٥) .

حاجة ، ونحو ذلك ، فلا كراهة فيه ، بل هو مُستَحَبٌّ ، وكذا الحديث لِغُذْرِ وعَارِضٍ لا كراهة فيه ، وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ .

١٧٤٦ - عَنْ أَبِي بَرْزَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ ، وَالْحَدِيثُ بِغَدِّهَا ^(١) . متفق عليه .

١٧٤٧ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ ، قَالَ : « أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ ؟ فَإِنَّ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ لَا يَبْقَى مِنْهُ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ أَخَذَ » ^(٢) متفق عليه .

١٧٤٨ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه : أَنَّهُمْ انْتَبَظُوا النَّبِيَّ ﷺ ، فَجَاءَهُمْ قَرِيبًا مِنْ شَطْرِ اللَّيْلِ فَصَلَّى بِهِمْ - يَغْنِي الْعِشَاءَ - قَالَ : ثُمَّ خَطَبَنَا فَقَالَ : « أَلَا إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَلُّوا ثُمَّ رَقَدُوا ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَرَالُوا فِي صَلَاةٍ مَا انْتَبَظْتُمْ الصَّلَاةَ » ^(٣) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله كراهة الحديث بعد صلاة العشاء الآخرة ، ثم ذكر رحمته الله أن الحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، قسم مكروه محرم ، وقسم مندوب إليه ، وقسم مباح ، أما المكروه والمحرم : فإنه يزداد كراهة وتحريمًا إذا كان بعد صلاة العشاء ، وأما المباح : فهو الذي كان النبي ﷺ يكرهه بعد العشاء ، وأما المندوب : فإنه مندوب ولا يضر ولو كان بعد صلاة العشاء . فأما الأول : فيمثل الحديث في الغيبة والنميمة وقول الزور والاستماع إلى اللغو والغناء ومشاهدة ما لا يحل مشاهدته ، فهذا حرام في كل وقت وحين ، ويزداد إثماً إذا كان بعد العشاء الآخرة ؛ لأنه في وقت يكره فيه الكلام المباح ، فكيف بالمحرم والمكروه ؟ والقسم الثاني : الكلام اللغو الذي ليس حراماً ولا مكروهاً ولا مندوباً وهو أكثر كلام الناس ، فهذا كان النبي ﷺ يكرهه بعد صلاة العشاء ، وذلك لأنه إذا تحدث الإنسان بعد صلاة العشاء يطول به المجلس ثم يتأخر نومه فيكسل عن قيام الليل وعن صلاة الفجر ، وما أدى إلى تهاون في الأمر المشروع فإنه يكون مكروهاً . وأما المندوب : فهو التشاغل بالعلم مطالعة أو حفظاً أو مذاكرة . والحديث مع الضيف ليؤنسه ويكرمه بحديثه ، والحديث مع الأهل لتأليف قلوبهم ، وما أشبه ذلك ، وكذلك الحديث العارض الذي ليس دائماً ، كل هذا لا يضره ، بل إنه مستحب إذا كان المقصود به حصول خير .

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٦٨) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٣٧) بنحوه . وأحمد في مسنده (٤٢١/٤) ، والترمذي في الصلاة (١٦٨) .

(٢) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمته الله بشرحه ، وقد أخرجه البخاري في العلم (١١٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢١٧) ، والحاكم في المستدرک (٣٧/٢) . قوله : « أَرَأَيْتُمْ » أي أخبروني .

(٣) هذا الحديث لم يقيم الشارح رحمته الله بشرحه ، وقد أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٦٠٠) ، والبيهقي في السنن (٦٥/٣) . قوله : « شَطْرَ اللَّيْلِ » أي منتصف الليل . قوله « ما انتظرت الصلاة أي مدة انتظاركم للصلاة » .

ثم ذكر المؤلف أحاديث منها : حديث أبي هريرة رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها » وذلك لأن النوم قبل العشاء يؤدي إلى الكسل إذا قام ليصلي وربما استغرق به النوم حتى أخر الصلاة عن وقتها ، فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره النوم قبل صلاة العشاء من أجل أن يكون الإنسان نشيطاً . وأما التعاس ؛ فهذا ليس باختيار الإنسان ولا يضره .

والشاهد من هذا الحديث قوله : « والحديث بعدها » ، فإن الحديث بعد العشاء كرهه النبي صلى الله عليه وسلم . وأما إذا كان في خير فإنه لا بأس به ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه بعد صلاة العشاء وينصحبهم ، ويبين لهم عليه الصلاة والسلام ، فهذا لا بأس به . والله الموفق .

* * *

٣٣٥ - باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها
إذا دعاها ولم يكن لها عذر شرعي

١٧٤٩ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ ، فَبَاتَ غَضَبَانِ عَلَيْهِمَا ؛ لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » متفقٌ عليه . وفي رواية : حَتَّى « تَرْجِعَ » ^(١) .

* * *

٣٣٦ - باب تحريم صوم المرأة وزوجها حاضر إلا بإذنه

١٧٥٠ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

الشرح

هذان البابان ذكرهما النووي رحمته الله في بيان ما يجب على [الزوجة تجاه زوجها] ^(٣) ، والله أعز أوصى : بالجار ذي القربى والجار الجنب و (الصاحب بالجنب) ، والصاحب بالجنب قيل : إنه الزوج ، وقيل : الصاحب بالجنب يعني في السفر .

فذكر الحديث الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ أَنْ تَجِيءَ ؛ لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » - أو قال : « حَتَّى تَرْجِعَ » . وذلك أن الواجب عليها إذا دعاها الرجل

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٧) ومسلم في النكاح (١٢٢) والبيهقي في السنن (٢٩٢/٧) وأبو داود في النكاح (٢١٤١) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٩٥) ومسلم في الزكاة (٨٤) بنحوه . قوله : « وزوجها مشاهد » أي مقيم في البلد .

(٣) ذكر المؤلف رحمته الله عبارة تعتقد أنها تحتاج إلى ما يوضحها حيث قال : « هذان البابان ذكرهما النووي رحمته الله في بيان ما يجب على المسلم لأخيه والله سبحانه ... » وقد رأينا أن نضع هذه العبارة حتى تؤدي الغرض وتوضحه .

إلى حاجته أن تجيبه إلا إذا كان هناك عذر شرعي ؛ كما لو كانت مريضة لا تستطيع معاشرته إياها ، أو كان عليها عذر يمنعها من الحضور إلى فراشه ، فهذا لا بأس ، وإلا فإنه يجب عليها أن تحضر وأن تجيبه ، وإذا كان هذا في حق الزوج على الزوجة ، فكذلك ينبغي للزوج إذا رأى من أهله أنهم يريدون التمتع ؛ فإنه ينبغي أن يجيبهم ليعاشرها كما تعاشره ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ١٩] .

وأما الثاني : فإنه لا يجوز للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه ، المسألة الأولى الصيام ، والصيام نوعان : نوع واجب ؛ وهذا تصومه بغير إذن زوجها ، ونوع تطوع ؛ فلا تصوم إذا كان شاهداً إلا بإذنه ، أما إذا كان غائبا ؛ فهي حرة ، لكن إذا كان شاهداً فلا تصوم ، لأنه ربما يدعوها إلى حاجته وهي صائمة فيقع في حرج ، وتقع هي كذلك في حرج .
أما إذا كان في صوم الواجب ، كما لو كان عليها أيام من رمضان ولم يبق على رمضان الثاني إلا بمقدار ما عليها ؛ فهنا يجب عليها أن تصوم ، سواء أذن أم لم يأذن .

فمثلاً : إذا كانت المرأة عليها من رمضان عشرة أيام ، ولم يبق على رمضان الثاني إلا عشرة أيام ؛ فهنا تصوم سواء أذن أم لم يأذن ، بل لو منعها من الصوم فلها أن تصوم ؛ لأن هذا واجب ، أما إذا كان عليها عشرة أيام من رمضان وقد بقي على رمضان الثاني شهر أو شهران أو أكثر ، فله أن يمنعه من الصوم ، ولا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه ، وذلك أن الوقت واسع ، وإذا كان واسعاً فلا ينبغي لها أن تضيق على زوجها . وإذا أذن لها وسامحها ووافق ، فإن كان الصوم واجباً حُرِّمَ عليه أن يفسده بالجماع ؛ لأنه أذن فيه ، وقد شرعت في صوم الواجب فيلزمها إتمامه . وإن كان تطوعاً ؛ فله أن يجامعها فيه ولو فسد الصوم ؛ لأن التطوع لا يلزم إتمامه .

لكن لو قالت : أنت أذنت لي وهذا وعد منك بأنك لا تفسد صومي ، وجب عليه الوفاء وحرم عليه أن يفسد صومها . لقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُلًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .
وأما قوله : « ولا تأذن في بيته إلا بإذنه » يعني لا تُدخل أحداً إلى البيت إلا بإذنه ، فإن منعها أن تدخل أحداً معيناً ، قال : فلان لا يدخل عليّ ، حرم عليها أن تدخله بيته ، لأن البيت له ، وأما إذا كان رجلاً واسع الصدر لا يهمه أن يدخل إلى أهله أحد ، فلا يلزمها أن تستأذنه لكل واحد . والله الموفق .

* * *

٣٣٧ - باب تحريم رفع المأموم رأسه من الركوع أو السجود قبل الإمام

١٧٥١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ ! أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ ؟ » ^(١) متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٩١) ومسلم في الصلاة بنحوه (١١٤) ، وأحمد في مسنده (٤٦٩/٢ ، ٥٠٤) .

الشرح

هذه أفعال يَنْبَغُ النَّبِيُّ ﷺ حكمها فيما ساقه المؤلف من الأحاديث في كتابه رياض الصالحين ، فالأول : تحريم رفع المأموم رأسه قبل إمامه في الركوع والسجود ، وذلك أن المأموم مأمور بأن يتابع الإمام ، فلا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه ، ولا يوافق ، ولكن يتابعه ، فأما سَبْقُهُ ، أي : التقدم عليه ، فإن كان في تكبيرة الإحرام ، لم تنعقد الصلاة ، يعني لو كبر للصلاة قبل أن يكبر إمامه ، ولو كان ناسيًا أو ساهيًا ؛ فإن صلاته لا تنعقد ، وعليه أن يعيدها . وإن كان في الركوع أو السجود ، يعني سبق الإمام في الركوع والسجود ، وهو متعمد يعلم أن ذلك حرام ، فصلاته باطلة ، تبطل صلاته ؛ لأنه فعل فعلًا محرّمًا في الصلاة ، فبطلت صلاته .. كما لو تكلم .

وأما الموافقة : فإن يشرع مع الإمام إذا شرع في الشيء . مثلاً : يركع مع ركوع الإمام ، يسجد مع سجوده ، يقوم مع قيامه ، فهذا إن كان في تكبيرة الإحرام لم تنعقد صلاته ، وإن كان في غيرها ؛ فهو منهي عنه ، قال بعضهم : مكروه ، وقال بعضهم : حرام ^(١) . وأما المسابقة بأن يأتي بالشيء قبل الإمام ، فسبق أن قلنا : أنه في تكبيرة الإحرام لا تنعقد الصلاة ، أما في الركوع والسجود ؛ فقد حذر منه النبي ﷺ في الرفع منهما ، فقال : « أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار ، أو يجعل صورته صورة حمار » ، وهذا وعيد ؟! يخشى أن الإنسان إذا رفع رأسه من الركوع قبل إمامه ، أو من السجود قبل إمامه ، أن يجعل الله صورته صورة حمار ، والعياذ بالله ، أو يحول رأسه إلى رأس حمار .

ولما اختار النبي ﷺ الحمار دون سائر البهائم ؛ لأن الحمار أبلد ما يكون من البهائم ، فأبلد البهائم ، الحمار ، ولهذا مثّل به اليهود ، الذين حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثم لم يحملوها فقال : ﴿ كَمَثَلِ الْإِصْحَارِ يَحْمِلُ أَشْقَارًا ﴾ [الحجّة : ٥] وهذا يدل على تحريم سبق الإمام في الرفع من الركوع والرفع من السجود ، وكذلك سبق إلى الركوع والسجود حرام على المأموم ، وأما التأخر عن الإمام كما يفعله بعض الناس ، إذا سجد وقام الإمام من السجود ، تجده يبقى ساجدًا ، يزعم أنه يدعو الله ، وأنه في خير ودعاء ، نقول : نعم أنت في خير ودعاء لو كنت وحدك ، أما وأنت مع الإمام ؛ فإن تأخرت عن الإمام مخالف لهدى النبي ﷺ ، لقوله ﷺ : « فإذا ركع فاركعوا » ^(٢) والفاء تدل على الترتيب والتعقيب ، فالمشروع للإنسان أن يبادر وألا يتأخر .

* * *

٣٣٨ - باب كراهة وضع اليد على الخصرة في الصلاة

١٧٥٢ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : نُهِيَ عَنِ الْخَصْرِ فِي الصَّلَاةِ ^(٣) . متفقٌ عليه .

(١) انظر ذلك في الهداية (١٨٤/١) الوسيط (٢٣٦/٢) . (٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١٢١٩) بلفظه ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٤٦) بنحوه . قوله : « الخصر في الصلاة » هو أن يصلي المرء وهو يضع يده على خصرته .

٣٣٩ - باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام ونفسه تتوق

إليه أو مع مدافعة الأخبثين : وهما البول والغائط

١٧٥٣ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ » ^(١) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف كراهة أن يصلي الرجل ويذه على خاصرته .

والخاصرة : ما بين الحقو وأسفل الأضلاع ، وذلك أن الإنسان مأمور إذا كان في صلاته أن يضع يده اليمنى على ذراعه اليسرى ، أو على الرسغ - أي ما بين الكف والذراع - ويرفعهما على صدره ، هذه هي السنة . يفعل ذلك في القيام قبل الركوع وبعد الركوع ، وأما وضعها على الخاصرة ؛ فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك . بعض الناس يجعل اليدين على القلب ، وهذا غلط ، الشرع ليس له مدخل في العقل ، الشرع يتلقى من النبي ﷺ ، ولم يرد عن النبي ﷺ أنه كان يضم يده اليمنى على اليسرى ثم يجعلها على الخاصرة ، بل هذا داخل في النهي ، وهذا النهي للكرامة ، كما قال المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ثم ذكر المؤلف في هذا الباب الذي بعده كراهة الصلاة بحضرة الطعام ..

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ » ، يعني إذا قدم الطعام للإنسان وهو يشتهي ؛ فإنه لا يصلي حتى يقضي حاجته منه ، حتى ولو سمع الناس يصلون في المسجد ، فله أن يبقى ويأكل حتى يشبع ، فقد كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يسمع قراءة الإمام يصلي وهو يتعشى ولا يقوم حتى يفرغ ، وذلك لأن الإنسان إذا دخل في الصلاة وهو مشغول القلب ؛ فإنه لا يطمئن في صلاته ، ولا يخشع فيها ، يكون قلبه عند طعامه ، والإنسان ينبغي له أن يصلي وقد فرغ من كل شيء ، ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ وَلَكَ رَبُّكَ فَارْجِعْ ﴿ ^(٢) [الشرح : ٧، ٨] ولكنه لا ينبغي أن يجعل ذلك عادة له ، بحيث لا يقدم عشاءه أو غداءه إلا عند إقامة الصلاة .

ثانياً : لا يصلي وهو يدافعه الأخبثان ، البول والغائط ، فإن هذا أيضاً يذهب الخشوع ؛ لأنه لا يدري الإنسان أيدافع البول والغائط الذي حاصره ، أم يقبل على صلاته ، ولأن حبس البول أو الغائط يضر البدن ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل للبول والغائط أمكنة متى امتلأت فلا بد من إخراجها ، فكون الإنسان يحبس ذلك ضرر عليه ، فإذا قال قائل : لو ذهبت أقضي الحاجة ، فاتتني الصلاة مع الجماعة ، قلنا : لا بأس اذهب ، وأقض حاجتك ولو فاتتك الصلاة ، ولو قال : إذا ضاق الوقت وهو (حسran) فبي بول أو غائط ، هل يقضي حاجته ثم يصلي ولو فات الوقت ، أو يصلي في الوقت ولو كان مشغول

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧) ، والبيهقي في السنن (٧٣/٣) .

(٢) قوله : ﴿ فَانصَبْ ﴾ أي فاتبع العبادة بعبادة أخرى . قوله : ﴿ فَرَغْتَ ﴾ أي اجعل رغبتك وضراعتك ومسألتك إلى ربك .

القلب . ففي هذه خلاف بين العلماء ، ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى أنه يقضي حاجته ولو خرج الوقت ، لأن هذا ضرورة وفيه ضرر على بدنه لو حبسه . وقال أكثر العلماء : لا يخرج الوقت من أجل ذلك ، بل يصلي ويخفف ولعله لا يتضرر بذلك ^(١) .

* * *

٣٤٠ - باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة

١٧٥٤ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ » فَأَشْتَدُّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ : « لَيَنْتَهَنَّ عَنْ ذَلِكَ ، أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ » ^(٢) رواه البخاري .

الشرح

روى أنس عن النبي ﷺ أنه نهى أن يرفع الرجل بصره إلى السماء ، فقال : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة » - يعني ما شأنهم ؟ لماذا يرفعون أبصارهم إلى السماء ؟ - « لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم » وهذا وعيد يدل على أنه يحرم على الإنسان أن يرفع بصره إلى السماء وهو يصلي .

وقد رأيت بعض الناس إذا رفع من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، رفع بصره ووجهه ، وهذا حرام عليه ، حتى إن بعض العلماء رحمهم الله قال : إن فعل بطلت صلاته ، لأنه ارتكب منهياً عنه ، نهياً خاصاً في الصلاة ، والقاعدة الشرعية : أن من ارتكب شيئاً منهياً عنه في العبادة بخصوصه ؛ فإن عبادته تبطل ، ثم إن هؤلاء عللوا بعلّة ثانية ، وقالوا : (إن هذا سوء أدب مع الله ، والمطلوب من المراء وهو يصلي أن يخشع ويطأ رأسه) ، وقالوا أيضاً في التعليل : (إن الإنسان مأمور بأن يستقبل القبلة بجميع بدنه ، فإذا رفع بصره إلى السماء صار وجهه إلى السماء لا إلى القبلة ، فتبطل صلاته) ، فالمسألة على خطر ، ولهذا اشتد قول النبي ﷺ في ذلك ، حتى قال : « لينتهن أو لتخطفن أبصارهم » ، فإذا قال قائل : إذا أين أضع رأسي ؟! قلنا : ضع بصرك حيث مكان سجودك ، إلا في حال رفع السبابة في التشهد فانظر إلى السبابة ؛ لأن النبي ﷺ حين رفعها لا يتجاوز بصره إشارته ، واستثنى بعض العلماء رحمهم الله من ذلك النظر إلى الإمام ليقندي به لا سيما إذا كان الإنسان لا يسمع ، ولا يمكن اقتداؤه بإمامه إلا بالنظر ؛ فإنه ينظر إليه ؛ لأن الصحابة كانوا يفعلون ذلك ، وقد

(١) فتاوى ابن تيمية (٥٩/٢٢ ، ٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٠) ، وأبو داود في الصلاة (٩١٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٤٤) وأحمد في مسنده (١٠٩/٣) . قوله : « أو ليخطفن » أي ليسلبن الله أبصارهم بسرعة ، أي أن أحد الأمنين واقع لا محالة إما الانتهاء منهم ، أو خطف أبصارهم من الله تعالى عقوبة على فعلهم .

صعد النبي ﷺ المنبر ، وجعل يصلي عليه ، وقال : « إنما صنعت ذلك لتأتوا بي وتعلموا صلاتي » ^(١) ولا يمكن أن يحصل تعلم الصلاة إلا وهم ينظرون إليه ، ولهذا كانوا يحكون اضطراب لحيته في الصلاة السرية ، مما يدل على أنهم كانوا ينظرون إلى إمامهم ، واستثنى بعض العلماء إذا كان الإنسان في المسجد الحرام والكعبة أمامه ؛ فإنه يجعل بصره إلى الكعبة ، ولكن هذا الاستثناء ضعيف . الصحيح أنه لا ينظر إلى الكعبة حال الصلاة ؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ ، ولأنه يوجب التشويش حيث ينظر إلى الناس يطوفون ويذهبون ويجيئون ، ثم إن قول بعضهم : إن النظر إلى الكعبة عبادة ^(٢) خطأ ، ليس بصحيح ، لم يرد عن النبي ﷺ فيما نعلم حديث صحيح ولا ضعيف أن النظر إلى الكعبة عبادة .

* * *

٣٤١ - باب كراهة الالتفات في الصلاة لغير عذر

١٧٥٥ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ : « هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ » ^(٣) رواه البخاري .

١٧٥٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِيَّاكَ وَالْإِلْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ ، فَإِنَّ الْإِلْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ هَلَكَةٌ ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ ؛ فَفِي التَّطَوُّعِ لَا فِي الْفَرِيضَةِ » ^(٤) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - كراهة الالتفات في الصلاة مع غير حاجة . فالإنسان إذا قام يصلي فإنه بين يدي الله ﷻ ، فلا ينبغي له أن يلتفت لا بقلبه ، ولا بوجهه إلى غير الله ﷻ .

أما الالتفات في القلب : فهو أن الإنسان يفكر في غير ما يتعلق بالصلاة ، مثل الهواجس التي تعتري كثيراً من المصلين ، فإن هذا التفتت في القلب وهو أشد إخلالاً للصلاة من الالتفات بالبدن ؛ لأنه ينقص من الصلاة حتى إن الإنسان ينصرف من صلاته ما كتب له إلا عشرها أو أقل ، حسب حضور قلبه . وأما الالتفات بالوجه : فهو أن يلتفت الإنسان بلي عنقه ، يلوي عنقه يميناً أو شمالاً ، وذلك لأن

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩١٧) ومسلم في المساجد (٤٥) وأحمد في مسنده (٣٣٩/٥) .
(٢) ذكره الهندي في (كنز العمال) (٣٤٦٤٧) ، وابن الجوزي في (العلل المتناهية) (٣٤٤/٢) ، والعلوني في (كشف الخفاء) (٤٣٦/٢) ، وذكر أنه قول لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .
(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥١) ، والترمذي في الصلاة (٥٩٠) ، والحاكم في المستدرک (٢٣٧/١) .
(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٥٨٩) .

الإنسان مأمور في صلاته أن يكون وجهه تلقاء القبلة ، لا يميل يمينًا ولا شمالًا ^(١) . فإن فعل ، فقد سألت عائشة النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . والاختلاس : أخذ الشيء بخفية يعني أن الشيطان يتسلط على الإنسان في صلاته فيؤدي إلى أن يثقل يمينًا أو شمالًا لأجل أن ينقص أجره ، فإن الله سبحانه وتعالى مقبل على العبد بوجهه ، فإذا أعرض الإنسان عن ربه ؛ فإنه يوشك أن يُعرض الله عنه ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة ، كما في حديث أنس بن مالك ، قال : « فإن الالتفات في الصلاة هلكة » ، ولكن إذا كان هناك حاجة ، فلا بأس ، كما لو سمعت صوت حيوان يريد أن يعدو عليك ، والثفت فلا بأس ، أو إنسانًا في حاجة مهمة والثفت فلا بأس ، بشرط أن يكون الالتفات بالرأس فقط .

وأما الالتفات بالبدن ؛ فإنه يطل الصلاة ؛ لأنه انحراف عن القبلة ، ومن شروط الصلاة استقبال القبلة ، يوجد بعض الناس لا يلتفت بلي العنق ، ولكن يلتفت بالبصر ، تجده يجعل بصره يحوم يمينًا وشمالًا إن قام أحد نظر إليه ، وإن تحرك نظر إليه ، وهذا لا شك ينقص أجر الصلاة ، فعلى الإنسان أن يكون بصره تلقاء وجهه ، وأن ينظر إلى محل سجود ولا ينظر يمينًا ولا شمالًا ، والله الموفق .

* * *

٣٤٢ - باب النهي عن الصلاة إلى القبور

١٧٥٧ - عَنْ أَبِي مَرْزَدٍ كَثَّارِ بْنِ الْحَصِينِ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ ، وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا » ^(٢) رواه مسلم .

* * *

٣٤٣ - باب تحريم المرور بين يدي المصلي

١٧٥٨ - عَنْ أَبِي الْجُهَيْمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الصَّمَّةِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ يَدِي الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ ؛ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَوْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ يَسْرَ يَدَيْهِ » قَالَ الرَّاوي : لَا أَذْرِي قَالَ أَوْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ أَوْبَعِينَ شَهْرًا ، أَوْ أَوْبَعِينَ سَنَةً ^(٣) . متفق عليه .

(١) راجع ذلك في بدائع الصنائع (١١٨/١) ، المغني (٤٣٨/١) ، المجموع (٩٢/٣) .

(٢) هذا الحديث لم يقد الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الجناز (٩٨) والإمام أحمد في المسند (١٣٥/٤) والنسائي في السنن (٦٧/٢) .

(٣) هذا الحديث لم يقد الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الصلاة (٥١٠) ومسلم في الصلاة (٢٦١) وأبو داود في الصلاة (٧٠١) والإمام أحمد في الصلاة (١٦٩/٤) .

٣٤٤ - باب كراهة شروع المأموم في نافلة بعد شروع المؤذن
في إقامة الصلاة سواء كانت النافلة سنة تلك الصلاة أو غيرها

١٧٥٩ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ؛ فَلَا صَلَاةَ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ » ^(١) رواه مسلم .

٣٤٥ - باب كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة من بين الليالي

١٧٦٠ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « لَا تَخْصُوا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي ، وَلَا تَخْصُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ الْأَيَّامِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ » ^(٢) رواه مسلم .
١٧٦١ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « لَا يَصُومُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَّا يَوْمًا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ » ^(٣) متفق عليه .

١٧٦٢ - وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ : سَأَلْتُ جَابِرًا رضي الله عنه : أَنْهَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ^(٤) . متفق عليه .

١٧٦٣ - وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهِيَ صَائِمَةٌ ، فَقَالَ : « أَصُمْتِ أَمْسِ ؟ » قَالَتْ : لَا ، قَالَ : « تُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَدًا ؟ » قَالَتْ : لَا ، قَالَ : « فَأُفْطِرِي » ^(٥) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله كراهة شروع المأموم في نافلة بعد أن تُقام الفريضة .

يعني أنه إذا أُقيمت الصلاة ؛ فإنه لا يشرع المأموم في نافلة ، سواء كانت هذه النافلة تحية مسجد أو تطوعًا مطلقًا ، أو راتبة تلك الصلاة ، مثل : أن تحضر لصلاة الفجر وتقام الصلاة ، فلا يجوز أن

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٦٣) وأحمد في مسنده (٤٥٥/٢) والترمذي في الصلاة (٤٢١) . قوله « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ » أي أُقيمت الجماعة المفروضة . قوله « إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ » أي الصلاة الحاضرة وقت الإمامة .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٤٨) والحاكم في المستدرک (٣١١/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٨٥) ومسلم في الصيام بنحوه (١٤٧) وأبو داود في الصيام (٢٤٢٠) والترمذي في الصوم (٧٤٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٨٤) ومسلم في الصيام (١٤٦) قوله « نهى عن صوم يوم الجمعة » أي منفردًا .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٨٦) وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) وأبو داود في الصوم (٢٤٢٢) .

تصلي سنة الفجر ؛ لأنه أقيمت الصلاة ، ودليل ذلك : حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » فقلوه : « لا صلاة » عام ، يشمل أي صلاة كانت ، حتى لو كان على الإنسان فريضة فائتة ، نسيها ولم يذكرها إلا حين أقيمت الصلاة ؛ فإنه لا يصليها ، ولكن يدخل مع الإمام بنية تلك الفريضة التي فاتته ولا ينفرد عن الناس ، فمثلاً إذا أقيمت صلاة العصر ، ودخلت المسجد وأنت لم تصل الظهر ، فلا تصل الظهر ؛ لأنه أقيمت صلاة العصر ، لكن ادخل معهم بنية الظهر ، ثم إذا فرغت من صلاتك فصل العصر . ولكن إذا أقيمت وأنت قد شرعت في النافلة ، فهل تكملها أو تخرج منها . في هذا للعلماء قولان : القول الأول : أنه إذا أقيمت الصلاة وأنت قد شرعت في النافلة فاقطعها ولا تكملها مطلقاً .

والقول الثاني :كملها ولو فاتتك ركعة ، أو ركعتان ، أو كل الصلاة إلا مقدار تكبيرة الإحرام قبل السلام . والصحيح أن نقول : إذا أقيمت الصلاة وأنت في نافلة ، فإن كنت في الركعة الأولى فاقطعها ، وإن كنت في الركعة الثانية فأتّمها خفيفة ، وهذا هو الصحيح الذي يمكن أن تجتمع عليه الأدلة . أما صوم يوم الجمعة : فقد عقد المؤلف له باباً ، وهو كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام ، وليلتها بقيام . يوم الجمعة هو عيد الأسبوع ، ويتكرر في كل سبعة أيام يوماً وهو الثامن ، ولما كان عيداً نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صومه ، لكنه ليس نهى تحريم ؛ لأنه يتكرر كل عام أكثر من خمسين مرة .

وأما النهي عن صوم العيدين ، عيد الأضحى والفطر : فهو نهى تحريم ؛ لأنه لا يتكرر في السنة إلا مرة واحدة ، عيد الفطر مرة ، وعيد الأضحى مرة ، أما الجمعة : فيتكرر ، ولهذا كان النهي عنه أخص ، كان نهى كراهة ، وتزول الكراهة إذا ضمنت إليه يوماً قبله ، أو يوماً بعده ، ولهذا جاءت أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخصوا يوم الجمعة بصيام ، ولا ليلتها بقيام » لكن إذا لم يكن تخصيصاً بأن كان الإنسان يقوم كل ليلة ، فلا بأس أن يقوم ليلة الجمعة ، أو كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، فصادف يوم الجمعة يوم صومه ، فلا بأس أن يصومه .

وكذلك لو صادف يوم الجمعة يوم عرفة ، أو يوم عاشوراء ، فلا بأس أن يصومه ؛ لأن هذا الصيام ليس تخصيصاً ليوم الجمعة ، ولكنه تخصيص لليوم الذي صادف يوم الجمعة . فإذا كان يوم الجمعة يوم عرفة ، فصمه ولا تبالي ، وإن لم تكن صائماً قبله ، وإذا صادف يوم عاشوراء فصم ولا تبالي ^(١) .

لكن يوم عاشوراء ينبغي أن نخالف اليهود فيه ، فنصوم يوماً قبله ، أو يوماً بعده . ولهذا قال في الحديث الآخر : « إلا أن يصوم يوماً قبله ، أو يوماً بعده » ^(٢) وإلا أن يكون في صوم يصومه الإنسان .

(١) انظر ذلك في المغني (٤١١/٣) ، والمهذب (٢٢٦/١) ، والمجموع (٤٠١/٦ ، ٤٠٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/١) .

وفي حديث جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أم المؤمنين أن النبي ﷺ قال لها وهي صائمة في يوم الجمعة : « أتريدين أن تصومي غداً ؟ » قالت : لا . قال : « أصمت أمس ؟ » قالت : لا . قال : « فأفطري » فيه دليل على أن يوم الجمعة إذا صمت يوماً قبله ، أو يوماً بعده فلا بأس . وفي قوله : « أتصومين غداً ؟ » دليل على جواز صوم يوم السبت في النفل ، وأنه لا بأس به ولا كراهة إذا ضمت إليه الجمعة . وقد ورد عن النبي ﷺ حديث أنه قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم ، ولو أن يأخذ أحدكم لحاء عنب فيمضغه » ^(١) أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، لكن هذا الحديث اختلف العلماء فيه ، فمنهم من قال : إنه ضعيف ، لا يعمل به ، وقال ذلك شيخنا المحدث عبد العزيز بن باز . قال : حديث النهي عن صوم يوم السبت ضعيف ، شاذ لا يعمل به . ومنهم من قال : إنه منسوخ . ومنهم من قال : إن النهي إنما هو عن إفراذه فقط ، وأما إذا صام يوم الجمعة ، أو يوم الأحد فلا كراهة . وإلى هذا ذهب الإمام أحمد رحمته الله .

وعلى كل حال لو صامه فإنه لا إثم عليه ، ولكن الأفضل ألا يصومه إلا مضمومًا إليه يوم الجمعة ، أو يوم الأحد . وحديث جويرية في صحيح البخاري ، وحديث محمد بن عباد في صحيح مسلم . وكلاهما يدل على أن صوم يوم السبت ليس محرماً ، وأنه يجوز إذا صام يوم الجمعة . وبهذا نعرف أنه لا ينبغي للإنسان ألا يكون إمعة ، يقلد غيره ، كلما ذكر غيره شيئاً قلده دون نظر في الأدلة ، وجمع بينهما ؛ لأن بعض العلماء ينظر إلى ظاهر الإسناد فيحكم بصحة الحديث دون النظر إلى متنه ، والنظر إلى المتن أمر مهم ؛ لأن خطأ الواحد من الناقلين أهون من الخطأ المخالف لقواعد الشريعة ، والمخالف للأحاديث الصحيحة الصريحة الواضحة التي هي أقوى سنداً وأشدّ متناً . لهذا ينبغي لطالب العلم ، ولا سيما طالب الحديث ، المعني به ، أن يتفطن له ، وألا يحكم بصحة الحديث بمجرد ظاهر الإسناد ، بل لا بد من أن ينظر في المتن هل يخالف القواعد المعلومة من الشريعة ، هل يخالف الأحاديث التي رواها الثقات الأثبات في الحديث فليحكم بشذوذه ، فخطأ واحد في النقل أهون من خطأ الأئمة الأثبات ، أو خطأ القواعد الشرعية المرعية في الشريعة .

على كل حال صوم يوم السبت تطوعاً ليس حراماً ، لكن ينبغي ألا يصومه إلا أن يصوم معه يوماً قبله ، أو يوماً بعده . والله الموفق .

(١) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٤٢١) والترمذي في الصوم (٧٤٢) وابن ماجه في الصيام (١٧٢٦) وأحمد في مسنده (٣٨٦/٦) . وقد قال : أبو عيسى : هذا حديث حسن ، ومعنى كراهته في هذا أن يخص الرجل يوم السبت بصيام ؛ لأن اليهود تعظم يوم السبت وقوله : « لحاء » أي قشرها .

٣٤٦ - باب تحريم الوصال في الصوم

وهو أن يصوم يومين أو أكثر ، ولا يأكل ولا يشرب بينهما

- ١٧٦٤ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ الْوِصَالِ ^(١) . متفقٌ عليه .
- ١٧٦٥ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْوِصَالِ . قَالُوا : إِنَّكَ تُوَاصِلُ ؟ قَالَ : « إِنِّي لَسْتُ بِمِثْلِكُمْ ، إِنِّي أَطْعَمُ وَأُسْقِي » ^(٢) متفقٌ عليه ، وهذا لفظ البخاري .

٣٤٧ - باب تحريم الجلوس على قبر

- ١٧٦٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ ، فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ ، فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرِ » ^(٣) رواه مسلم .

٣٤٨ - باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه

- ١٧٦٧ - عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجَصِّصَ الْقَبْرُ ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ ^(٤) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحريم الوصال في الصوم .

ومعنى الوصال : أن يقرن الإنسان بين يومين في الصيام ، فلا يفطر بينهما ، والله سبحانه وتعالى قد حدد الصيام في قوله : ﴿ فَأَلْقِنْ بَشِيرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ .. ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

- (١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٥) ، ومسلم في الصيام (٥٨) ، وأحمد في مسنده (١١٢/٢ ، ٢١٦) . قوله : « نهى عن الوصال » قال الإمام النووي : اتفق أصحابنا على النهي عن الوصال ، وهو صوم يومين فصاعداً من غير أكل وشرب بينهما .
- (٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٢) ، ومسلم في الصيام (٥٥) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٦٠) . قوله : « أطعم وأسقى » أي يجعل الله تعالى في قوة الطاعم والشارب .
- (٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٦) ، وأحمد في مسنده (٣١١/٢) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢٢٨) ، والبيهقي في السنن (٧٩/٤) . قوله : « فتخلص » أي فتصل .
- (٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٤) قوله : « أن يجصص » أي أن يبنى بالحص . قوله « وأن يثنى عليه » أي يبنى عليه قبة أو نحوها .

قال : ﴿ تَرَأَوْا كَيْسِيَّ إِلَى آتِلٍ .. ﴾ فحذ الله ابتداء الصيام وانتهاءه ، وقال النبي ﷺ : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » ^(١) هذا هو المشروع ، أن الإنسان يبادر بالفطور ولا يتأخر ، ولا يحل له أن يواصل بين يومين ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ، وقال : « أيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر » ^(٢) ، فأذن ﷺ بالموصلة إلى السحر ، يعني وليتسحر في آخر الليل ، وبهذا تبين أن للصائم ثلاث حالات : الأولى : أن يبادر بالإفطار بعد غروب الشمس ، وهذه هي السنة والأفضل والأكمل . الثانية : أن يتأخر إلى السحر ، وهذا جائز لكنه خلاف الأولى .

الثالثة : ألا يفطر بين يومين ، بل يواصل وهذه حرام على ما ذهب إليه المؤلف رحمه الله ، وهذا هو الأقرب ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الوصال ، فواصلوا ﷺ ظناً منهم أنه إنما نهى عنه من أجل الفرق بهم والشفقة عليهم ، وقالوا : نحن نتحمل ؟ فواصلوا ، فتركهم ، وواصلوا ، حتى هل الشهر - شهر شوال - فقال : « لو تأخر الهلال لزدتكم » ^(٣) كالمنكر لهم ، وهذا يدل على التحريم ، وذهب بعض العلماء إلى كراهة الوصال دون التحريم ؛ لأن العلة هي الفرق بالإنسان ، والإنسان أمير نفسه ، لكن الأقرب أن الوصال في نهى النبي ﷺ عنه ، ولأن النبي ﷺ واصل بهم يوماً ، ويوماً ويوماً حتى روي الهلال ، وقال : « لو تأخر لزدتكم » . وما يفعله بعض السلف كما يروى عن عبد الله بن الزبير ؓ ، أنه كان يواصل خمسة عشر يوماً لا يفطر بينهما ، فهذا اجتهد منه ، وتأويل ، ولكن الصواب ما دلت عليه السنة . ثم ذكر المؤلف رحمه الله باب تحريم الجلوس على القبر ؛ لأن القبر فيه إنسان مسلم محترم ، وجلوسك عليه إهانة له ، ولهذا قال النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه ، فتخلص إلى جسده ؛ خير له من أن يجلس على القبر » وهذا يدل على التحريم ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يجلس على قبر المسلم ، وإذا أراد أن يجلس فليجلس من وراء القبر ، يجعل القبر خلف ظهره أو عن يمينه أو عن شماله ، وأما إن يجلس عليه فهذا حرام .

ومثل ذلك الغلو في القبور ، ولهذا نهى ﷺ أن يُجصص القبر ، وأن يبنى عليه ، وأن يكتب عليه ؛ لأن تجصيصه يعني تفخيمه ، وتعظيمه يؤدي إلى الشرك به ، وكذلك البناء عليه ، فالتجصيص حرام ، والبناء أشد حرمة ، والكتابة عليه فيها تفصيل :

الكتابة التي لا يراد بها إلا إثبات الاسم للدلالة على القبر : فهذه لا بأس بها .

وأما الكتابة التي تشبه ما كانوا يفعلونه في الجاهلية ، يكتب اسم الشخص ، والثناء عليه ، وأنه فعل كذا وكذا وغيره من المدح : فهذا حرام .

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) ومسلم في الصيام (٤٨) والترمذي في الصوم (٦٩٩) وابن ماجه في الصيام (١٦٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٣) والدارمي في الصوم (١٤) وأحمد في مسنده (٨/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٥) بنحوه ، ومسلم في الصيام (٥٧) بلفظه ، وأحمد في مسنده (٥١٦/٢) والبيهقي في السنن (٢٨٢/٤) .

ومن هذا ما يفعله بعض الجهال : أنه يكتب على الحجر الموضوع على القبر سورة الفاتحة مثلاً . .
أو غيرها من الآيات ، فكل هذا حرام . وعلى من رآه في المقبرة أن يزيل هذا الحجر ؛ لأن هذا من
المنكر الذي يجب تغييره . والله الموفق .

٣٤٩ - باب تغليظ تحريم إباق العبد من سيده

١٧٦٨ - عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُمَيَّا عَبْدُ أَبِي قُبَيْسٍ ؛ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ
الذِّمَّةُ » ^(١) رواه مسلم .

١٧٦٩ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ » رواه مسلم . وفي رواية :
« فَقَدْ كَفَرَ » ^(٢) .

٣٥٠ - باب تحريم الشفاعة في الحدود

قال الله تعالى : ﴿ الْزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(٣) [النور : ٢٠] .

١٧٧٠ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ قُرَيْشًا أَهْمُهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمُخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا : مَنْ يُكَلِّمُ
فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ » ثُمَّ قَامَ فَاحْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّمَا أَهْلَكَ
الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنْهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِنَّمَا
اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » متفق عليه .

وفي رواية : فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ ! » قَالَ أُسَامَةُ :
اسْتَعْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ ، فَقَطِيعَتْ يَدَهَا ^(٤) .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٣) وأحمد في مسنده (٣٦٢/٤) والبيهقي في السنن (٢٠٤/٨) . قوله « أبى » أي : هرب من سيرة دون أن يعتقه . قوله : « برئت منه الذمة » أي أنه لا حرمة له ولا ضمان .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٤) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٦) .

(٣) قوله ﷺ : « رَأْفَةٌ » أي رحمة . قوله ﷺ : « يَنْبَغِي لِلَّهِ » أي حد الله .

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (٨) وأبو داود في الحدود (٤٣٧٣) والدارمي في السنن (١٧٣/٢) . قوله : « يجترئ » أي لا يتجاسر على الكلام من ذلك أحد لمهايته ، قوله : « حب رسول الله » أي : حبيبه . قوله : « قتلون » أي فتغير غيظاً .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته تغليظ تحريم إباق العبد .

العبد : يعني المملوك ، وإباقه : هربه من سيده ، وذلك أن العبد مملوك للسيد في ذاته ومنافعه ، فإذا هرب ، فقد فوت على سيده ذلك ، وقد ورد الوعيد في هذا بأنه يكون كافراً ، وأن الذمة بريئة منه ، وأنه لا تقبل صلاته ، فهذه ثلاث عقوبات ، والعياذ بالله .

الأولى : أنه برئت منه الذمة ، كما في حديث جرير رضي الله عنه .

الثانية : أنه كافر ، ولكنه ليس كافراً مخرجاً عن الملة .

الثالثة : أنه لا تقبل صلاته ، فالعبد إذا أبى وهرب من سيده ، ثم صلى ، فلا صلاة له ، واختلف العلماء رحمهم الله : هل صلاته غير مقبولة ... لا الفريضة ولا النافلة ؟ أو أنها النافلة فقط ؟ . فمن العلماء من قال : صلاة الفريضة مقبولة ؛ لأن زمنها مستثنى شرعاً ، ولا يتمتع أن يعاقب بذلك ، ويكون المراد بنفي القبول بالنسبة للنوافل نفي الصحة ، وبالنسبة للفرائض نفي الإثابة ، وهذا جمع حسن . أما الباب الثاني : فهو تحريم الشفاعة في الحد ؛ أي في العقوبة المقدرة شرعاً ، واعلم أن العقوبات على الذنوب تنقسم إلى قسمين :

عقوبات أخروية هذه أمرها إلى الله ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] فكل ذنب سوى الشرك فإنه قابل أن يغفره الله سبحانه بفضله ورحمته .

وأما العقوبة الدنيوية فهي أقسام كثيرة : منها : أقسام معينة محددة في الشريعة ، فهذه لا يجوز تعديها ، فمثلاً : السارق تقطع يده ، ولا يجوز أن تقطع رجله مع يده ، ولا أن تقلع عينه ، ولا أن تقطع أذنه ، لا يجوز أن يتعدى فيها ما حده الله ورسوله ، وهو قطع اليد .

كذلك أيضاً الزنا : إذا كان الزاني لم يتزوج من قبل فحده مائة جلدة ، وتغريب عام ، أي خروجه وطرده من البلد إلى بلد آخر لمدة سنة ، هذا أيضاً لا تجوز الزيادة فيه ، ولا النقص منه ؛ لأنه حد من الحدود . ومثل المحاربين لله ورسوله ، الساعين في الأرض فساداً ، هؤلاء جزاؤهم أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض .

هناك عقوبات أخرى غير مقدرة ، هذه يُرجع إلى رأي الحاكم يعني القاضي الشرعي أو من له تنظيم وتنفيذ العقوبات ، هذه أمرها واسع ، تارة تكون العقوبة بالمال يغرم الإنسان مالاً ، وتارة تكون العقوبة بالعزل عن منصبه ، وتارة تكون بالحبس ، وتارة تكون بالتشهير بأن يعلن اسمه ومخالفته بين الناس ، وتارة تكون بالتقويم من المجلس ، حسب ما تقتضيه المصلحة والتأديب .

فأما العقوبات المحددة : فإنه إذا بلغت السلطان ، فلا يجوز لأحد أن يشفع فيها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا بلغت الحدود السلطان فلن الله الشافع والمشفع له » ^(١) . لن : طرد وإبعاد عن رحمة الله .

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الحدود ٢٠٩) بلفظ : « إذا بلغت به السلطان » .

وقال : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فقد ضاد الله في أمره » (١) والعياذ بالله . وإن لم تصل إلى الحاكم : فهنا قد يجوز الشفاعة والتوسط ، مثل : لو أن أحدا رأى شخصا يزني ، وشاهده ، وعنده أربع شهود على ذلك ، ورأى أن من المصلحة أن يستتاب هذا الرجل فإذا تاب ستر عليه ، فلا بأس ، أما بعد أن تبلغ السلطان فلا يجوز .

ثم ذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها في باب تحريم الشفاعة في الحدود . في قصة المرأة المخزومية . والحدود : هي العقوبات التي قدرها الله ورسوله على فاعل المعصية ، فمنها حد الزنا ، ومنها حد القذف ، وحد السرقة ، وحد الحرابة ، وأما القتل بالردة فليس من الحدود ؛ لأن المرتد إذا تاب ، ولو بعد أن رفع إلى السلطان ؛ فإنه يسقط عنه القتل . لكن هذه الحدود لا بد منها ، ولا تسقط إلا إذا تاب الإنسان قبل أن يقدر عليه . لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ ... ﴾ [المائدة : ٣٣] . وذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها : أن امرأة من بني مخزوم سرت ، وقد ثبتت السرقة بأنها تستعير المتاع وتجمده . يعني تأتي إلى الناس وتقول : أعرني القدر ، أعرني الدلو ... فيعيرونها ، ثم تجمد العارية وتقول : ما أعرتوني .

فجعل النبي ﷺ جحد العارية في منزلة السرقة ؛ لأن السارق يدخل البيوت في خفية ، وهذه سرقت أموال الناس في خفية ، أخذتها منهم على أنها عارية ، وأنها إحسان من أهلها - أي من أهل الأموال ، ثم تجمد .

أمر النبي ﷺ أن تقطع يدها ، وكانت من بني مخزوم ، من أشرف قبائل قريش « فأهمهم ذلك » أي لحقهم الهم في هذا ، كيف تقطع يد المخزومية ؟! فطلبوا من يشفع إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : « من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد » ولم يذكروا أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ، ولا من هو أعلى قدرا من أسامة بن زيد ، فإما أن يكونوا قد حاولوا ذلك ، ولم يفلحوا ، وإما أن يكونوا من الأصل علموا أنهم لن يشفعوا في حد من حدود الله .

المهم : أنهم طلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه ، وأسامة هو أسامة بن زيد بن حارثة ، وزيد بن حارثة كان عبدا مملوكا وهبته خديجة إلى النبي ﷺ فأعتقه ، وكان يحبه ، ويحب ابنه أسامة ، تكلم أسامة مع النبي في شأن المرأة لعله يرفع عنها القطع . فتلون وجه رسول الله ﷺ تغير لونه ، وقال له منكرا عليه : « أتشفع في حد من حدود الله ؟! » ، يعني ما كان ينبغي أن تشفع في حد من حدود الله . « ثم قام فاخطب » أي خطب خطبة بليغة ؛ لأن اخطب أبلغ من خطب . لزيادة الهمزة والتاء ، وقد قال علماء اللغة العربية : إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . يعني زيادة الحروف في الكلمة تدل على زيادة معناها . المهم : أن قوله : « اخطب » ، يعني خطب خطبة بليغة ، ثم قال : « إنما هلك من

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٥٩٧) وأحمد في مسنده (٨٢/٢) والحاكم في المستدرک (٢٧/٢) والبيهقي في السنن (٨٢/٦) .

كان قبلكم « - يعني من الأمم - أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . أهلكهم : يعني بذنوبهم بالعذاب والعقوبات . إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، فصارت إقامتهم لحدود الله على حسب أهوائهم .

وفي هذا دليل على أن من سبقنا كانوا يسرقون ، وأن السرقة كبيرة فيه بين الغني والفقير والشريف والضعيف . ثم أقسم عليه الصلاة والسلام وهو البار الصادق بدون قسم أقسم قال : « وإيم الله » - أي : أحلف بالله - « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . اللهم صل وسلم عليه ، هكذا العدالة ، وهكذا تنفيذ حكم الله ، لا اتباع الهوى . أقسم بأن فاطمة بنت محمد ، وهي أشرف من الخزومية حسباً ونسباً ؛ لأنها صلى الله عليه وسلم سيدة نساء أهل الجنة ^(١) . أقسم أنها لو سرقت لقطع يدها . وفي قوله : « لقطعت يدها » قولان . القول الأول : أن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه يباشر القطع وهذا أبليغ . الثاني : أنه يأمر من يقطع يدها .

ومهما كان فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يدرأ الحد عن أحد لشرفه ومكانته أبداً ، الحد حق الله ﷻ . « وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تقطع يد المرأة الخزومية فقطعت ، وهي امرأة من أشراف قريش ، ومع ذلك لم يسقط عنها الحد ، وهكذا يجب على ولادة الأمور أن يكون الناس سواء في إقامة الحدود ، وألا يحابوا أحداً لقربه ، أو لغناه ، أو لشرفه في قبيلته ، أو غير ذلك ، الحد لله ﷻ ، تجب إقامته لله ﷻ .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [النور: ٢] . ومن الرأفة الشفاعة لهما ، لا تشفع لأحد في حد ، أقمه ، ولا تفرق به ، ولا ترحمه ، لا تقل : هذا شريف ، هذا ضعيف ، هذا أبو أولاد ، أبداً لا يهملك ، يعني لو زنى إنسان وهو محصن ، وثبت عليه الحد وله أولاد صغار ، وزوجات سوف يكن أرامل بعده ، والأولاد أيتاماً بعده ، لا تبالي بهذا ، أقم الحد عليه ، ارجمه حتى يموت ، ولا تقل : هذا له أولاد صغار وزوجات ، لا يهملك هذا . أقم الحد على كل من أتى بمعضية توجب الحد .

ولما كانت الأمة الإسلامية على هذه العدالة ، وعدم المبالاة ، وأنها لا تأخذها في الله لومة لائم كان لها العزة والقوة والنصر المبين ، ولما تخلت الأمة الإسلامية عن إقامة حدود الله ، وصارت المحسوبيات والوساطات تعمل عملها في إسقاط حدود الله ﷻ تدهورت الأمة إلى الحد الذي ترونه الآن ، فنسأل الله تعالى أن يُعيد للأمة الإسلامية مجدها وتمسكها بدينها ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

(١) وذلك مصداقاً لما أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (باب مناقب قرابة النبي صلى الله عليه وسلم) ، وأحمد في

٣٥١ - باب النهي عن التغوط في طريق الناس وظلمهم وموارد الماء ونحوها

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٥٨].
 ١٧٧١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا اللَّاعِنِينَ» قَالُوا: وَمَا اللَّاعِنَانِ؟
 قَالَ: «الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ» ^(١) رواه مسلم.

٣٥٢ - باب النهي عن البول ونحوه في الماء الراكد

١٧٧٢ - عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى أَنْ يُتَالَ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ ^(٢). رواه مسلم.

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله تحريم التغوط في طريق الناس أو ظلمهم أو نحو ذلك.

التغوط يعني: إخراج البراز من الدبر، ومثله التبول، فلا يجوز للإنسان أن يتبول أو يتغوط في طريق الناس، أو في ظلمهم، يعني المكان الذي يستظلون به، وكذلك مُشمِشهم في الشتاء، وكذلك مجالسهم، فإن هذا من أذية المؤمنين. وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالقول أو بالفعل، فالأذية بالقول مثل: التعبير، والتوبيخ، والسب، وما أشبهه، وبالفعل مثل: أن يتبول في طريقه، أو يتغوط، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني إلا إذا كان السبب في ذلك هم الذين أذوا يعني أنهم تعرضوا لما حل بهم فهذا جنايتهم بأيديهم.

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اتَّقُوا اللَّاعِنِينَ»، قالوا: وما اللاعنان؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلمهم».

اللاعن: اسم فاعل من اللعن، وسمى النبي ﷺ ذلك لاعناً؛ لأنه سبب في اللعن، فالذي يتخلى في طريق الناس، أو يتخلى في ظلمهم ملعون والعياذ بالله.

وأيضاً من رأى بولاً أو غائطاً في طريق الناس أو ظلمهم، فله أن يقول: اللهم العن من فعل هذا؛ لأنه هو الذي عرض نفسه لذلك، وكذلك أيضاً لا يجوز البول في الماء الراكد ونحوه، لأن النبي

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٦٨)، وأحمد في مسنده (٣٧٢/٢)، والحاكم في المستدرک (١٨٦/١)، والبيهقي في السنن (٩٧/١). قوله: «اللاعنين» هما الأمرين الجالين للعن الحاملين الناس عليه، والداعيين إليه.
 قوله: «الذي يتخلى في طريق الناس» أي الذي يتغوط في موضع يمر الناس به.
 (٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٩٤)، وأحمد في مسنده (٢٨٨/٢) قوله: «الراكد» أي الذي لا يتحرك كماء البرك.

ﷺ نهى عن ذلك كما في حديث جابر الذي رواه مسلم ، فلا يجوز للإنسان أن يول في الماء الراكد مثل الغدير ، أو شبهه ، أما الماء الجاري ، فالجاري يمشي ، ولا يتأثر إلا إذا كان جارياً نحو ساقية وتحت أناس يتطهرون في هذا الماء ، أو يشربون منه ، فهذا لا يجوز ؛ لأنه يؤدي من تحته ، والله الموفق .

٣٥٢ - باب كراهة تفضيل الوالد بعض أولاده على بعض في الهبة

١٧٧٣ - عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلَامًا كَانَ لِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَكُلْ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذَا ؟ » فَقَالَ : لَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَأَرْجِعْهُ » .

وفي رواية : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ » فَرَجَعَ أَبِي . فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ .

وفي رواية : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا بَشِيرُ أَلَمْ وَلَدَ سِوَى هَذَا ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « أَكُلْتَهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : « فَلَا تُشْهِدَنِي إِذَا ؛ فَإِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ » .

وفي رواية : « لَا تُشْهِدَنِي عَلَى جَوْرٍ » .

وفي رواية : « أَشْهَدُ عَلَى هَذَا غَيْرِي » ثُمَّ قَالَ : « أَيَسْرُوكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً ؟ » قَالَ : بَلَى ، قَالَ : « فَلَا إِذَا » ^(١) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - تحريم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطية .

الأولاد : يشمل الذكور والإناث ، والمراد بالعطية التبرع المحض ، ليس النفقة ، النفقة يعطي كل إنسان ما يحتاج قليلاً كان أو كثيراً ، فإذا قدر أن أحدهم يطلب العلم ، ويحتاج إلى كتب ، والآخر ليس كذلك ، فأعطى الأول ما يحتاج إليه من الكتب فلا بأس ، وكذلك لو كان أحدهم يحتاج إلى ثياب ، والآخر لا يحتاج ، فيعطي من يحتاج إلى الثياب ، وكذلك لو مرض فاحتاج إلى دراهم وإلى دواء فأعطاه فلا بأس ، وكذلك لو بلغ أحدهم سن الزواج فزوجه ؛ فإنه يزوجه ولا بأس ، المهم ما لِدَفْع الحاجة فالتسوية فيه أن يعطي كل إنسان ما يحتاجه .

أما إذا كان تبرعاً محضاً ، فلا بد من العدل بينهم .

(١) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها (٢٥٨٦) ، ومسلم في الهبات (٩٠ ، ١٠) ، وأحمد في مسنده (٢٧١/٤) ، والترمذي في الأحكام (١٣٦٧) . قوله « تخلت » أي أعطيت ورهبت . قوله « فرد تلك الصدقة » أي أعاد إلى ماله ما كان قد وهبه لابنه . قوله « جور » أي ظلم .

واختلف العلماء هل العدل أن يعطي الذكر والأنثى سواء ، فإذا أعطى الذكر مائة أعطى الأنثى مائة ، أم أن العدل أن يعطيهم كما أعطاهم الله ﷻ في الميراث ؛ يعني للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإذا أعطى الذكر مائة أعطى الأنثى خمسين . وهذا القول هو الراجح ، لأنه لا قسمة أعدل من قسمة الله ﷻ ، فإذا أعطى كل واحد ما يحتاجه ، ثم تبرع تبرعاً محضاً فنقول : إذا أعطيت الأنثى درهماً ، فأعطت الذكر درهمين هذا هو العدل ، فإن فعل - يعني فضل بعض الأولاد على بعض - فإنه يجب عليه أن يرد ما فضله به ، فإذا أعطى أحدهم مائة ، ولم يعط الآخرين ، وجب عليه أن يرد المائة ، أي يستردها ، أو يعطي الآخرين مثلما أعطى الأول ، أو يستحلهم بشرط أن يحللوهم عن رضا وقناعة ، لا عن حياء وخجل .

فصار طريق العدل فيمن فضل بعض أولاده عن بعض طرق ثلاثة .

فالعدل له طرق ثلاثة : الأول : أن يرد ما فضله به .

الثاني : أن يعطي الآخرين مثله . ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء : ١١] .

الثالث : أن يستحلهم بشرط أن يحللوهم عن قناعة ورضا لا عن خجل وحياء .

ثم ذكر المؤلف حديث النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ أعطاه نحلة ، غلاماً ، وفي رواية : « حائطاً » بستاناً ، ولعله أعطاه البستان والغلام من أجل أن يعمل في البستان ، فقالت أمه : عمرة بنت رواحة رضي الله عنها - وهي فقيهة - لا أرضى أن تعطي ابني هذا دون إخوانه حتى تشهد النبي ﷺ ، فذهب إلى النبي يشهده على ذلك ، فقال النبي له : ألك بنون ؟ قال : نعم ، قال : أعطيتهم مثل ما أعطيت النعمان ، قال : لا . قال : رد - يعني رد ما أعطيت - ثم قال : « أشهد على هذا غيري » ، وهذا تبرؤ منه ، وليس إباحة له على أن يشهد على ذلك ، بل هو تبرؤ منه ولهذا قال : « أشهد على هذا غيري ؛ فإنني لا أشهد على جور » ثم قال : أتريد أن يكونوا إليك في البر سواء ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : إذا سو بينهم ، لأنك إذا فضلت أحدهم على الآخر صار في نفس المفضل عليه شيء . وصار لا يبر والده ، ثم قال : اتقوا الله ، واعدلوا بين أولادكم . فأمر عليه الصلاة والسلام أن يعدل بين الأولاد في العطية ، حتى لو تعطي أحدهم عشرة ريالات ، فأعط الآخر مثله ، لا تقل هذا شيء زهيد ، ما يساوي شيئاً . لا ، أعطهم كما أعطيت الثاني ، حتى كان السلف الصالح ﷺ إذا قبلوا أحد الأولاد ، قبل الثاني من شدة العدل بينهم ، وكذلك أيضاً في النظر إليهم ، لا تنظر إلى هذا نظرة غضب ، وإلى هذا نظرة رضا . لا أعدل بينهم حتى في المواجهة وطلاقة الوجه ، إلا أن يفعل أحدهم ما يغضب ، فهذا له شأن . أما بدون سبب ، اجعلهم سواء ولا تفضل أحداً على أحد .

وهنا مسألة وهي : أن بعض الناس يزوج أولاده الكبار ، وله أولاد صغار فيوصي لهم بعد موته بمقدار المهر ، وهذا حرام ولا يحل ، لأن هؤلاء إنما أعطيتهم لحاجتهم حاجة لا يماثلهم إخوانهم الآخرون الصغار ، فلا يحل لك أن توصي لهم بشيء ، وإذا أوصيت فالوصية باطلة ترد في التركة ، ويرثونها على قدر ميراثهم .

كذلك أيضًا بعض الناس يكون ولده يشتغل معه ، في تجارته ، في فلاحته ، فيعطيه أكثر من إخوانه ، وهذا أيضًا لا يجوز ، لأن الولد إن كان قد تبرع بعمله مع أبيه ، فهذا بر ، وثوابه في الآخرة أعظم من ثوابه في الدنيا ، وإن كان لا يريد ذلك ، يريد أن يشتغل بأجرة ، فليفرض له أجرة ، مثلاً لك كل شهر كذا وكذا ، كما يعطي الأجنبي ، أو يقول : لك سهم من الربح ، وأما أن يخصه من بين أولاده مع أن الولد قد تبرع بعمله ، وجعل ذلك من البر ، فلا يجوز له ذلك .

وإن أعطى أحدهم لكونه طالب علم يحفظ القرآن ، فإن قال للآخرين : من طلب منكم العلم أعطيته مثل أخيه ، أو من حفظ القرآن أعطيته مثل أخيه ، فطلب بعضهم وترك بعض ، فهؤلاء هم الذين تركوا الأمر بأنفسهم ، فلا حق لهم ، وأما إذا كان خص هذا دون أن يفتح الباب لإخوانه ، فهذا لا يجوز ^(١) .

وقول الرسول ﷺ « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » أن غير الأولاد من الأقارب لا يجب العدل بينهم ، فلك أن تعطي بعض إخوانك أكثر من الآخرين ، أو تعطيهم وتحرم الآخرين ؛ لأن النص إنما ورد في الأولاد فقط ، وأما قول بعض العلماء - رحمهم الله - : (إنه يجب عليه العدل بين جميع الورثة بقدر ميراثهم) فهذا قول لا دليل عليه ، العدل إنما يجب بين الأولاد فقط ^(٢) ، والله الموافق .

* * *

٣٥٤ - باب تحريم إحداد المرأة على ميت فوق ثلاثة

أيام إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام

١٧٧٤ - عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ أَبُوهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَدَعَتْ بِطَبِيبٍ فِيهِ صُفْرَةٌ خَلُوقٍ أَوْ غَيْرِهِ ، فَدَهَنْتْ مِنْهُ بَجَارِيَةٍ ، ثُمَّ مَسَّتْ بِعَارِضِيهَا . ثُمَّ قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا لِي بِالطَّبِيبِ مِنْ حَاجَةٍ ، غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمَيِّتِ : « لَا يَجِلُّ لَامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحْدِثَ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » قَالَتْ زَيْنَبُ : ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ تُوُفِّيَ أَخُوهَا ، فَدَعَتْ بِطَبِيبٍ ، فَمَسَّتْ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَتْ : أَمَا وَاللَّهِ مَا لِي بِالطَّبِيبِ مِنْ حَاجَةٍ ، غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمَيِّتِ : « لَا يَجِلُّ لَامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحْدِثَ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ

(١) ذهب الشافعية وهو قول المتأخرين من مشايخ الحنفية إلى أن التفضيل للعلم والورع معتبر ولا يكره ؛ إذ قالوا : لا بأس أن يعطي المتأدين والمتفقهين دون الفسقة الفجرة . أما المتقدمون من مشايخ الحنفية فقالوا بكرهه التفضيل مطلقاً . سواء كان المحروم فقيهاً تقياً أو جاهلاً فاسقاً (انظر : مغني المحتاج ٤٠١/٢ ، وبدائع الصنائع ١٢٧/٦ ، وفقه الكتاب والسنة ١٦١/٣) .
(٢) وهذا هو ما عليه جمهور الفقهاء من المالكية والأحناف والشافعية والحنابلة والظاهرية (انظر في ذلك : بداية المجتهد ٢٩٩/٢ ، وبدائع الصنائع ١٢٧/٦ ، ومغني المحتاج ٤٠١/٢ ، وأسهل المدارك ٩٤/٣ ، ٩٥ ، والمحلى ١٤٢/٩) .

ثلاث ، إلا على زوج أزبعة أشهر وعشراً ^(١) . متفق عليه .

الشرح

ذكر - رحمه الله تعالى - تحريم إحداث المرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوجها أربعة أشهر وعشراً . والإحداث معناه : ترك الزينة ، والطيب ونحوه ، مما يعد بهجة وسروراً وترفهاً وهو حرام ، وكانوا في الجاهلية إذا مات الإنسان وهو حبيب إليهم امتنعوا عن الطيب والتجمل وما أشبه ذلك إلى مدة حسب ما يقدرونها بأنفسهم ، فبين النبي ﷺ في هذا الحديث الذي رواه عنه زوجته أم حبيبة ، وزينب بنت جحش رضي الله عنها أنه لا يجوز الإحداث على ميت فوق ثلاث إلا على زوج ؛ فرخص النبي ﷺ في هذا ، في الإحداث لمدة ثلاثة أيام ، ولا يجوز أكثر من ذلك .

مثاله : رجل مات ابنه فحزن عليه ، فالواجب الصبر ، والاحتساب ، وأن تجري الأمور على ما هي عليه ، يخرج إلى دكانه إذا كان صاحب دكان ، وإلى فلاحته إذا كان صاحب فلاحه وإلى مكتبه إذا كان موظفاً ، وإلى مدرسته إذا كان معلماً أو طالباً ، المهم ألا تتأثر أعماله بشيء ، هذا هو المشروع ، وهذا هو السنة وهذا هو الأوفق ، وهذا هو الأرق بالشخص ، ألا يحد على أحد ، حتى على ابنه وأبيه ، وأمه وأخيه ، لا يحد عليهم ، الأمر لله عز وجل ، لله الملك وله الحمد ، فهو المالك ، وهو المحمود على كل حال . فلا حاجة إلى أن تحذ ، اصبر واحتسب ، لا تقل : لا تحزن ، كل إنسان له قلب حي سيعزن ، لكن نقول : اصبر واحتسب وكأن شيئاً لم يكن ، لا تخرب شيئاً من أمور دنياك ، هذا هو الأفضل والأوفق والأرق والأحسن .

لكن لما كانت النفوس قد لا تطيق هذا لا سيما مع عظم المصائب ، رخص النبي ﷺ في الإحداث لمدة ثلاثة أيام فقط . يعني لا بأس مثلاً أن الإنسان إذا مات له صديق أو قريب وحزن حزناً شديداً لا يستطيع أن يقابل الناس ، لا بأس أن يبقى في بيته لمدة ثلاثة أيام ، فأقل ، ولكن لا بد من صلاة الجماعة . هذا لا بأس به .

وكذلك بالنسبة للنساء لو مات ابنها أو أبوها أو أخوها أو أحد ممن تأثرت بهم تأثراً بالغاً ، فلا حرج عليها أن تحذ لمدة ثلاثة أيام فأقل : أما ما زاد فلا يجوز .

« لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ، أن تحذ فوق ثلاث إلا على زوج » . فالزوج له حق عظيم ، حتى قال النبي ﷺ : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » ^(٢) لكن السجود لا يكون إلا لرب العالمين الخالق عز وجل .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٠) ، ومسلم في الطلاق بنحوه (٦٢) ، وأحمد في مسنده (٣٧/٦) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٩٩) . قوله : « أم حبيبة » هي أم المؤمنين : رملة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية زوج النبي ﷺ ، قوله « بعارضيه » أي بكتفها .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٥٢) ، والحاكم في المستدرک (١٧٢/٤) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٦/٣) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٣١٠/٤) ، والبقوي في شرح السنة (١٥٨/٩) .

المهم أن الزوجة تحد أربعة أشهر وعشرًا ، هذا إذا كانت غير حامل ، أما الحامل فتحد إلى وضع الحمل فقط ، زاد أو نقص .

فعلى هذا إذا مات زوج ، فالمرأة تحد أربعة أشهر وعشرة أيام ، لقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة : ٢٣٤] حتى لو كان ما دخل عليها ، لو عقد عليها وهي في المدينة وهو في مكة ، ومات فإنها تحد عليه وإن لم يدخل عليها ، ما دام العقد صحيحًا . وإذا كانت حاملاً فإلى وضع الحمل . حتى لو وضعت قبل أن يُغسل الزوج ، انتهت العدة ، وانتهى الإحداد ، يعني مثلاً امرأة توفي زوجها وهي في الطلق ، فلما خرجت روحه ، خرج الحمل ، يعني ما بين خروج روح زوجها ، وخروج حملها إلا دقائق معلومة ، فالآن انتهت العدة ، وانتهى الإحداد ، فلها أن تتزوج ، يمكن شرعاً أن تتزوج قبل أن يدفن هذا الزوج ؛ لأنها وضعت الحمل ، ﴿ وَأُولَئِكَ الْأَتْحَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ٤] . فهذه انتهت عدتها ، والإحداد (١) .

ولكن ما هو الإحداد ؟ الإحداد أن تجتنب المرأة الأشياء التالية :

أولاً : ، لباس الزينة ، لا تلبس ثوباً يعد ثوب زينة ، أما الثياب العادية فلها أن تلبسها ، بأي لون كان ، أصفر ، أحمر ، أخضر .. أي شيء ، إنما الذي يعد زينة بحيث يقال : إن هذه المرأة تزينت وتجملت ؛ فإنه لا يحل لها أن تلبسه وهي محددة على الزوج .

الثاني : الطيب بجميع أنواعه : دهناً ، أو بخوراً ، أو شمًا ، أو غير ذلك ، لا تنطيب إطلاقاً ، إلا إذا طهرت من الحيض ؛ فإنها تأخذ شيئاً يسيراً من الطيب تنطيب به أي تطيب محل الخبث حتى لا يكون لها رائحة .

الثالث : الحلي بجميع أنواعه ، لا تلبس الحلي لا في القدمين ، ولا في الكفين ، ولا في الرقبة ، ولا في الأذنين ، ولا على الصدر ، أي نوع من أنواع الحلي ما تلبسه ، حتى لو كانت تلبس سناً من ذهب ؛ فإنها تخلعه إذا لم يكن عليها مضرة ، فإن كان عليها مضرة ، فلتحرص على أن تخفيه بأن تقلل الضحك ، حتى لا تظهر السن ويتبين للناس .

الرابع : ألا تخرج من البيت أبداً إلا لضرورة أو حاجة ، لضرورة في الليل ، أو حاجة بالنهار ، وأما بدون حاجة ولا ضرورة ؛ فلا يجوز أن تخرج من بيتها الذي مات زوجها وهي فيه ، فهي يجب عليها أن تبقى في البيت فلا تخرج (٢) .

إذا قالت أريد أن أخرج إلى جيراني أستأنس عندهم في النهار وأول الليل ، وأرجع إلى بيتي .

(١) انظر في ذلك شرح فتح القدير (٢٤٨/١) ، أحكام القرآن لابن العربي (٢٠٨/١) ، تفسير ابن كثير (٢٨٤/١) .

(٢) وهذا هو الذي عليه جمهور الفقهاء وذهب إليه جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وهو قول الأوزاعي وإسحاق وأبي عبيد (انظر : شرح فتح القدير ٢٤٤٨/١ ، أحكام القرآن للجصاص ٤١٤/١ ، والمجموع ١٧١/١٨ ، بداية المجتهد ٩٥/٢ ، فقه الكتاب والسنة ٤٦٨/١ - ٤٧٠) .

نقول : لا ، جيرانك يأتون إليك أما أنت لا تذهبي ، تبقي في البيت الذي مات زوجك وأنت فيه ، فإذا قدرنا أنها سافرت مع زوجها إلى بلد للعلاج ، ومات زوجها بالبلد الذي هو غير بلدها ، نقول : ارجعي إلى بلدك ، لأن هذا ليس مسكنك في الأصل .

الخامس : التجميل والتكحل بالكحل وما أشبه ذلك ، حتى لو فرضنا أن عينها فيها مرض ، فلا تتكحل ، إلا بصبر أو شبهه - مما لا لون له - تفعله بالليل وتمسحه بالنهار ، هذا إن احتاجت وإلا فلا^(١) . ولهذا جاءت امرأة إلى النبي وقالت : يا رسول الله ، إن ابنتي مات زوجها ، وقد اشتكت عينها - يعني توجعها - أفنكحلها قال : « لا »^(٢) مع أنها توجعها عينها ، فقال : « لا » . حتى قال ابن حزم رحمته الله : لو فقدت عينها فإنها لا تكحلها بأي حال من الأحوال ؛ لأن النبي سئل عن هذه المريضة في عينها فأبى أن يرخص لهم في الكحل^(٣) . وكذلك التحمير والتجميل وما أشبه ذلك . أما الصابون الذي ليس فيه طيب فلا بأس ، وكذلك تنظيف الرأس وكذلك تنظيف الجلد .

وما اشتهر عند العوام أن المرأة تغتسل من الجمعة إلى الجمعة يعني المحادة ، فهذا لا أصل له . كذلك أيضًا ما اشتهر عندهم أنها في الليل لا تخرج إلى الحوش بل تكون تحت السقف ؛ فهذا لا صحة له ، تخرج إلى ما شاءت .

كذلك ما اشتهر في العامة المحضة ، يقولون : إن القمر رجل ، له عيون ، وأنف ، وفم ، فلا تخرج المرأة للقمر ؛ لأن القمر رجل يطلع عليها ، هذا غلط وليس بصحيح . تخرج في الليالي القمرية ، وفي كل شيء ، لكن لا تخرج من البيت .

كذلك أيضًا ما اشتهر عند العوام أنها لا تكلم أحدًا إلا من محارمها ، وهذا غلط أيضًا ، تكلم من شاءت لا بأس ، ولا حرج ، يعني هي في الكلام كغيرها من النساء ، لا يحرم عليها الكلام ، لكنها كما قال الله ﷻ : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾^(٤) [الأحزاب : ٣٢] والله الموفق .

(١) وهذا هو قول الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، وهو قول عطاء والنخعي ، حيث قالوا : إن الاكتحال من أجل التداوي مباح ، وذلك لضرورة التطيب من مرض يصيب العين ، وخالفهم في ذلك أهل الظاهر ؛ إذ قالوا : على المعتدة من الوفاة أن تجنب الكحل كله لضرورة أو لغير ضرورة ولو ذهبت عنها لا ليلاً أو نهاراً (انظر : الموطأ ص : ٢٠٠ ، المغني ٥١٩/٧ ، المهذب ١٤٤٩/٢ ، أسهل المدارك ١٨٨/٢ ، المحلى ٢٧٦/١٠ ، فقه الكتاب والسنة ٤٧٢/١ ، ٤٧٣) .

(٢) أخرجه النسائي في الطلاق ١٨٩/٦ ، ومالك في الموطأ (الطلاق ١٠٣) .

(٣) المحلى ٢٧٦/١٠ .

(٤) قوله ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ أي لا ترقصن الكلام إذا خاطبتن الرجال .

٢٥٥ - باب تحريم بيع الحاضر للبادي وتلقي الركبان

والبيع على بيع أخيه والخطبة على خطبته إلا أن ياذن أو يرد

١٧٧٥ - عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِيَادٍ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَيِّهِ وَأُمُّهُ ^(١) . متفق عليه .

١٧٧٦ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَتَلَقَّوْا السَّلْعَ حَتَّى يُهْبِطَ بِهَا إِلَى الْأَسْوَاقِ » ^(٢) . متفق عليه .

١٧٧٧ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَتَلَقَّوْا الرُّكْبَانَ ، وَلَا يَبِيعَ حَاضِرٌ لِيَادٍ » فَقَالَ لَهُ طَاوُوسٌ : مَا قَوْلُهُ : لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِيَادٍ ؟ قَالَ : لَا يَكُونُ لَهُ سِمَسَارًا ^(٣) . متفق عليه .

١٧٧٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِيَادٍ ، وَلَا تَنَاجَشُوا ، وَلَا يَبِيعَ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ ، وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ ، وَلَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِنِكَاحٍ مَا فِي إِثْنِهَا . وفي رواية قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ التَّلْقِي ، وَأَنْ يَتَعَاقَ الْمُهَاجِرُ لِلْأَعْرَابِيِّ ، وَأَنْ تَشْتَرِطَ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا ، وَأَنْ يَسْتَأْمَ الرَّجُلُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ ، وَنَهَى عَنِ النَّجَشِ وَالتَّضَرُّعِ ^(٤) . متفق عليه .

١٧٧٩ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ » ^(٥) . متفق عليه . وهذا لفظُ مسلم .

١٧٨٠ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ غَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ ، فَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَتَعَاقَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ ، وَلَا يَخْطُبَ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَذَرَ » ^(٦) . رواه مسلم .

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٥٩) ، ومسلم في البيوع (٢١) ، وأحمد في مسنده (١٥٣/٢ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٦٥) ، ومسلم في البيوع (١٤) قوله : « السلع » هي المتاع وما يتجر فيه .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٦٣) ، ومسلم في البيوع (١٩) ، وأحمد في مسنده (٥٠١/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٤٨/٥) .

(٤) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في البيوع بنحوه (٢١٦٢) ، ومسلم في النكاح (٥١) ، والنسائي في السنن (٢٥٥/٧) . قوله : « ولا تناجشوا » التجش هو الزيادة في ثمن السلعة من غير رغبة في شرائها لخداع المشتري وترغيبه فيها ، قوله : « لنكاح ما في إثنائها » المعنى : لا تسأل المرأة - ولو أجنبية - طلاق زوجة لينكحها أو يصير لها من نفقته ومعروفه ومعاشرته ما كان للمطلقة ، قوله « وأن يستام الرجل على سَوْمِ أَخِيهِ » هو أن يتجاذب المتبايعان السلعة حتى إذا تقاربا على العقد ، يجيء رجل آخر يريد أن يشتري تلك السلعة فيخرجها من يد المشتري الأول بزيادة على ما استقر عليه من المتساومين ، ورضيا به قبل الانقضاء .

(٥) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في النكاح بلفظه (٤٩) ، والبخاري في البيوع بنحوه (٢١٦٥) ، وأبو داود في البيوع (٣٤٣٦) ، والإمام أحمد في المسند (٣٦٠/٢) .

(٦) هذا الحديث لم يرقم الشارح رحمته الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في النكاح (٥٦) ، والبيهقي في السنن (٣٤٦/٥) .

الشرح

هذه أمور ثلاثة عقد لها المؤلف - رحمه الله تعالى - بابا في كتابه ومنها : أن يبيع حاضر لباد ، ومنها : تلقي الركبان ، ومنها : البيع على بيع أخيه .

أما بيع الحاضر للبادي : فهو أن يأتي إنسان قادم من البادية بغنمه أو إبله أو سمته أو لبنه أو أقطه لبيعه في السوق ، فيأتي الإنسان إليه وهو من أهل البلد ويقول : يا فلان أنا أبيع لك ، هذا لا يجوز ^(١) ؛ لأن النبي قال : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » ^(٢) دع البدوي يبيع ، ربما يريد أن يبيع برخص ، لأنه يريد أن يرجع إلى أهله ، وأيضا إذا باع البدوي فالعادة أن الحضري ينقده الثمن ولا يؤخره ؛ لأنه يعرف أنه صاحب بادية يريد أن يرجع ، فيكون بذلك فائدة للبائع وهو البدوي ، ينقل له الثمن ، وفائدة للمشتري وهو أن الغالب أن البدوي يبيع برخص ؛ لأنه عجل ، لا ينتظر الزيادة ، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يبيع حاضر لباد .

واستدل العلماء - رحمهم الله تعالى - بالعلة ، على أنه إذا جاء البادي إلى الحاضر ، وقال : يا فلان بع هذه السلعة لي ، فإنه لا بأس بذلك ؛ لأن البادي الآن يعلم أنه إذا باعه الحضري فهو غالبا أكثر ثمتا ولا يهمه أن يبقى يوما أو يومين ، من أجل أن يأخذ الثمن ^(٣) .

ولكن ظاهر الحديث العموم ، وأن الحاضر لا يبيع للبادي ، وأنه إذا جاء إليه قال : يا فلان خذ سلعتي بعها ، يقول : لا ، بعها أنت .

كذلك أيضا استنبط العلماء - رحمهم الله - من هذه العلة ، « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » أنه إذا كان السعر واحدا سواء باع الحاضر أو البادي فإنه لا بأس أن يبيع الحاضر للبادي ؛ لأن السعر لن يتغير ، ومثال ذلك : أن تكون الدولة قد قررت سعرا معيناً لهذا النوع لا يزيد ولا ينقص ، فهذا لا فرق بين أن يبيعه الحاضر أو البادي ، ليس للحاضر مكسب وفائدة في ذلك ، فقالوا : إذا كان السعر معلوماً ؛ فإنه لا بأس أن يبيع الحاضر للبادي ، واستنبط بعض العلماء من العلة أنه لا بد أن تكون السلعة هذه للناس بها حاجة ، يعني مما تتعلق به حوائج الناس ، وأما الشيء الذي لا يحتاجه الناس إلا نادرا فلا بأس ، لكن هذا الاستنباط ضعيف ، والصواب أنه لا فرق بين السلعة التي يحتاجها الناس ،

(١) اشترطت الحنفية لتحريم هذا البيع أن يكون الناس في قحط وضيق لما في ذلك من إضرار بهم ، أما إذا لم يكونوا في قحط وضيق فلا بأس بهذا البيع ، وهو أن يتولى السمسار بيع السلعة للبادي ، وإلى ذلك ذهب الشافعية ، أما الحنابلة ، والظاهر من قول المالكية فإنهم ذهبوا إلى بطلان هذا البيع ، ووجه قولهم بالبطلان أن هذا البيع منهى عنه ، والنهي يقتضي فساد المنهي عنه (انظر في ذلك : مغني المحتاج ٣٦/٢ ، البناية ٤٦٥/٦ - ٤٦٦ ، المغني ٢٣٨/٤ ، بداية المجتهد ١٤٥/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البيوع (٢٠) ، والترمذي في البيوع (١٢٢٣) ، وابن ماجه في السنن (٢١٧٦) ، وأحمد في مسنده ٣٨٦/٣ .

(٣) وهذا قول المالكية والشافعية والحنابلة في أحد قوليهما ؛ حيث قالوا : يجوز الشراء من الحاضر للبادي ، ووجه هذا القول : أن النهي لا يتناول الشراء بلفظه ولا هو في معناه . أما الحنفية والحنابلة في قولهم الثاني وهو رواية عن مالك ؛ فإنهم قالوا بعد جواز الشراء للبادي ، وحجتهم في ذلك ما روي عن أنس : « لا تبيعن شيئا ولا تتباعن له شيئا » (انظر في ذلك : بداية المجتهد ١٤٥/٢ ، مغني المحتاج ٣٦/٢ ، المغني ٢٣٩/٤ ، البناية ٤٦٥/٦ ، فقه الكتاب والسنة ١١٢٧/٢ ، ١١٢٨) .

والسلعة التي لا يحتاجونها إلا نادراً .

الأمر الثاني : تلقي الركبان : وذلك لأنهم كانوا فيما سبق يعرفون أن البادية تأتي بالسلع ، مثلاً في أول النهار يوم الجمعة ، فتجد بعض الناس يخرج من البلد إلى قريب منه ، ثم يتلقى الركبان ، ويشتري منهم قبل أن يصلوا إلى السوق ، فيقطع الرزق على أهل البلد الذين ينتظرون الركبان ، وكذلك يغبن المتلقين ، بأن يغبن الركبان ، فيحصل بتلقي الركبان مضرتان :

الأولى : على أهل البلد ، الذين ينتظرون قدوم الركبان من أجل أن يشتروا منهم برخص .

الثانية : الضرر على الركبان ؛ لأن هذا الذي تلقاهم سيغبنهم ، ويشتري منهم بأقل من السوق ، ولم يصلوا إلى السوق حتى يعرفوا السعر ، ولهذا قال النبي ﷺ : « فمن تلقى فاشترى منه ، فأتى السوق فهو بالخيار » ^(١) يعني إذا تلقى الإنسان الركبان خارج البلدان واشترى منهم ، ثم دخل البلد ووجد أنه مغبون ؛ فله أن يرد البيع ؛ لأنه قد غر وغبن .

المسألة الثالثة : بيع المسلم على بيع أخيه ، وهو أيضاً حرام ، وخطبته على خطبته حرام ، يبعه على يبعه أن يقول : من اشتري سلعة بعشرة أنا أبيع مثلها بثمانية . حرام ؛ لأن المشتري سوف يحاول أن يفسخ العقد من أجل أن يأخذ السلعة برخص ، وكذلك الخطبة على خطبة أخيه ، فمثلاً لو سمعت أن فلاناً خطب من أناس ابنتهم فذهبت وخطبت ابنتهم هذه ، فهذا حرام ، إلا إذا أذن الخاطب ، بمعنى أنك ذهبت إلى الخاطب وقلت : يا فلان ، سمعت أنك خطبت فلانة ، وأنا لي بها حاجة أتأذن لي ، . إذا قال : نعم لا بأس ، الحق له .

أو يُرد ؛ أي يرده أهل البنت ، عرفت أن فلان خطب من هؤلاء الجماعة وردوه ، فلا بأس أن تخطب ، لأنهم ردوه ، ليس له علاقة بالمرأة الآن .

فأما إذا سمعت أن فلان خطب من جماعة ولكنك لم تتأكد هل ردوه أم لا ؛ فإنه لا يحل لك أن تخطب ؛ لأنه قد يكونون على وشك أن يقبلوا ، فإذا خطبت منهم رفضوا ، فيكون في ذلك حرمان لهذا الخاطب من حقه في الخطوبة . والله الموفق .

٢٥٦ - باب النهي عن إضاعة المال في غير وجوهه التي اذن الشرع فيها

١٧٨١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا : فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَقْبُدُوهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَتَخَصَّمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ » ^(٢) رواه مسلم ، وتقدم شرحه .

(١) انظر الحديث في مسلم في البيوع (١١ ، ١٩) ، وأحمد في مسنده (٣٦٨/١ ، ٤٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الأفضية (١٠) ، وأحمد في مسنده ٣٦٧/٢ ، والبيهقي في السنن ١٦٣/٨ ، ومالك في الموطأ (٩٩٠) .

١٧٨٢ - وَعَنْ وَرَادٍ كَاتِبِ الْغُبَرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ : أَمْلَى عَلَيَّ الْمَغِيرَةَ فِي كِتَابٍ إِلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ « كَانَ يَنْتَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ ، وَكَانَ يَنْتَهَى عَنْ عُقُوقِ الْأَمْهَاتِ ، وَوَادِ الْبَنَاتِ ، وَمَنْعِ وَهَاتِ » ^(١) متفق عليه وسبق شرحه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - النهي عن إضاعة المال في غير ما أذن الله فيه .

فالمال جعله الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيَامًا لِلنَّاسِ تقوم به مصالح دينهم ودنياهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء: ٥] ولهذا حرم الاعتداء عليه ، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ دَمَاءُكُمْ ، وَأَمْوَالُكُمْ ، وَأَعْرَاضُكُمْ ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ » ^(٢) وأرتب سبحانه وتعالى تقسيم المال في مواضع كثيرة بنفسه جل وعلا ، قال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٤١] وقال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينِ وَالْمَحْمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ [التوبة: ٦٠] وقال تعالى : ﴿ يُؤْمِرُكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي رِثَ مِنْكُمْ حِظٌ الْاُنْثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١] وغيرها من آيات الموارث كل هذا يدل على عناية الشرع بالمال وأنه أمر مهم ، ولهذا كان كثير من الدول الآن إنما تقوى باقتصادها وغماء مالها وغناها .

فالمال أمر مهم فلا يجوز للإنسان أن يضيعه في غير فائدة ، وإضاعته في غير فائدة أنواع متعددة ، منها : الإسراف في بذله ، فإن الإسراف محرم حتى في المأكل والمشرب والملابس والمراكب والمنازل ، متى تجاوز الإنسان الحد فإنه آثم ، لقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١] فمجاوزة الحد إسراف ، وهي محرمة وعرضة لأن يكره الله تعالى فاعلها ، وإذا قلنا : إن الإسراف مجاوزة الحد ، تبين لنا أن إنفاق المال يختلف ، فالغني مثلاً قد يؤسس بيته ، أو يشتري سيارة ، أو يلبس الثياب التي لا تعد في حقه إسرافاً ؛ لأنه لم يتجاوز بها حد الغنى ، لكن لو أن فقيراً فعل مثل فعله ، قلنا : إن هذا إسراف وإنه حرام . ولهذا يغلط كثير من الناس الآن من الفقراء ومتوسطي الحال أن يلحقوا أنفسهم بالأغنياء ، هذا غلط وخطأ .

والإنسان كما قال العوام : يمد رجله على قدر لحافه ، إذا كان اللحاف واسعاً ، مد رجله على قدره ، وإذا كان ضيقاً فكف رجله . أما أن تكون فقيراً وتريد أن تساوي الأغنياء في مأكلك ومشربك وملبسك ومنكحك ومركوبك ومسكنك ؛ فهذا من السفه وهو حرام أيضاً ، لا يحل للإنسان .

وقد غلط بعض الناس أكثر من هذا ، فذهب يستدين ويرفق نفسه بدين من أجل أن يؤسس بيته كما أسس جاره الغني بيته ، وهذا غلط أيضاً ، هذا مما حرم الله .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣) ، ومسلم في الأقضية (١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٦٧) ، ومسلم في القسامة (٢٩ ، ٣٠) ، وأحمد في مسنده (٤٠/٥) .

الإسراف هو مجاوزة الحد ؛ لأن الله لا يحب المرففين ، وقد امتدح الله عباده الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قوامًا (١) .

ومن الإسراف تعدد الملابس بدون حاجة ، كثير من النساء الآن كلما ظهر شكل من أشكال اللباس ذهبت تشتريه حتى تملأ بيتها من الثياب بدون حاجة ، لكن ظهر شيء يختلف عن الأول بشيء بسيط نقول : خلاص لا ألبسه وألبس الثوب الجديد ، ثم بعض النساء تلعب بعقول بعض الرجال ، فتجد المرأة هي التي توجه الرجل وتقول : اشتر كذا ، اشتر كذا ، فصارت القوامه الآن للنساء على الرجال ، إلا من شاء الله .

والرجل يجب أن يكون رجلًا يمنع زوجته من الإسراف سواء من مالها أو من ماله .

ومما لا يحوز بذل المال فيه : أن يبذله في محرم ، كهؤلاء الذين يشتررون الدخان بالمال ؛ فإن هذا حرام عليه ، وهو مما نهى الله عنه ؛ لأنه إضاعة للمال واضحة ، يبذل الإنسان ماله في شيء يحرقه ؛ لأن الدخان لا يشرب إلا إذا أحرق ، فكأنما الرجل أحرق الدراهم وأتلفها في أمر يضره أيضًا ، لئنه يسلم من ضرره ، ولهذا اتفق الأطباء الآن على أنه ضار ، وأنه يجب على الإنسان أن يتجنبه ، حتى الدول الكافرة الآن الراقية الفاهمة ، تجدهم يمنعون الدخان ، ولا يمكن أن يشرب الدخان .

أما في المجالس العامة فممنوع قطعًا ، وأما في المجالس الخاصة فممنوع أيضًا ، إلا إذا استأذنوا أهل المجلس فأذنوا وإلا فيمنع ؛ لأنه ضار للشارب وللحاضر ، حتى إنهم يمنعون من شرب الدخان فوق الأجواء ، كما حدثني قواد الطائرات أنهم إذا دخلوا حدود بعض البلاد الكافرة امتنعوا من التدخين ، كل من في الطائرة لا يدخن ، لا من أجل الدين ، لكن لأنه مضر ، واحترامًا لأجوائهم ، فيا أسفا أن يكون هذا من الكفار ، وأما من المسلمين اليوم فلا تجد الرجل يبالي بالناس يخرج السيجارة ويشربها ولا يبالي بأحد . وهذا حرام عليه ، أولاً لنفسه ، حرام عليه ، والثاني لأذية المسلمين ، الناس يتأذون بهذا وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِفْكًَا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨] فهو يؤذيهم ، والدخان الذي يكون بينهم يدخل أيضًا إلى أجوافهم ويتضررون به .

هذا أيضًا من الحرام ، يحرم على الإنسان أن يشتري شيئًا يشربه من الدخان وهو بذلك آثم ومُصر على معصية ، وتسقط عدالته بذلك ، وترتفع ولايته عن من له ولاية عليه ، حتى إن كثيرًا من العلماء يقول : إنه لا يزوج ابنته إذا كان يشرب الدخان ، ابنته لا يزوجها ، لماذا ؟ لأنه خرج عن العدالة إلى الفسق ، والفاسق لا ولاية له ، فالمسألة خطيرة .

من إضاعة المال أيضًا : أن يصرفه الإنسان في شيء لا فائدة منه في ألعاب وما أشبه ذلك ، ومن هذا الألعاب النارية .

« قيل وقال » معناه : أن يشتغل الإنسان بالكلام بنقله قال فلان وقيل كذا وقيل كذا كما يوجد

في كثير من المسرفين الآن الذين يعمرّون مجالسهم بقولهم ماذا قيل اليوم ؟ وقال فلان وماذا تقول في فلان ؟ وما أشبه ذلك من الكلام الذي يضيع به الوقت . كما نهى عن إضاعة المال الذي جعله الله قيامًا للناس ، نهى عن إضاعة الوقت أيضًا ، فإضاعة الوقت في قيل وقال وكثرة السؤال ، هذا لا شك أشد ضررًا على الإنسان من إضاعة المال ، إضاعة المال ربما يُخلف ، لكن إضاعة الوقت لا يمكن أن يخلف ، الوقت يذهب ولا يرجع ، لهذا يجب على الإنسان أن يتجنب الخوض في القيل والقال وما تقول في فلان وما أشبه ذلك .

كذلك كثرة السؤال ، وكثرة السؤال يحتمل أن يراد به سؤال الخلق ، يعني لا تسأل الناس ، والسؤال إن كان سؤال مال ؛ فإنه حرام ، بل لا يزال الإنسان يسأل ويسأل حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مذقة لحم ^(١) والعياذ بالله .

ويحتمل أن يراد به كثرة السؤال عن أحوال الناس بدون حاجة وبدون فائدة ، ماذا تقول في فلان ؟ هل هو غني ، فقير ، متعلم أم جاهل ؟ وما أشبه ذلك .

ويحتمل أن يراد به كثرة السؤال عن العلم الذي لا يحتاج إليه الإنسان ولا سيما في عهد النبوة ؛ لأنه يخشى أن يسأل الإنسان عن شيء لم يحرم فيحرم من أجل مسأله أو عن شيء لم يجب ، فيوجب من أجل مسأله ، ولكن الأخير هذا يقيد بما إذا لم يحتاج الإنسان إلى السؤال ، فإن كان يحتاج إلى ذلك ، كطالب العلم الذي يسأل ويستفهم ؛ فإنه لا بأس أن يسأل ويستفهم ويزيل اللبس عن نفسه .

وكان - عليه الصلاة والسلام - ينهى عن عقوق الأمهات ، يعني عن قطع الأمهات عن حقوقهن ، والأم لها حق عظيم على الولد من ذكر أو أنثى حتى إنها أحق من الأب ، سئل النبي ﷺ : أي الناس أحق بصحبتي ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « ثم أبوك » ^(٢) ، فالأم لها حق كبير عظيم ؛ لأنها حملت ولدها كرها ^(٣) ووضعت كرها ، وأرضعته كرها ، وأتعب ليلها ونهارها ، فلها حق عظيم .

وكذلك عقوق الآباء : وهو أيضًا من كبائر الذنوب لكن النبي ﷺ ذكر عقوق الأمهات لأنه أشد ، وكان ينهى عن عقوق الأمهات وعن وأد البنات ، وأد البنات هو : أن من عادة الجاهلية الحمقاء أن الإنسان إذا ولد له بنت دفنها والعياذ بالله ، دفنها وهي حية : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهُ ٥٩ ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩] يعني : يختفي عن الناس من سوء ما بشر به ﴿ أَيْتَسَكَّمُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ٦٠ ﴾ [النحل : ٥٩] أي : يقيها مع الإهانة وعدم المبالاة بها ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ٦١ ﴾ أي : يدفنه وهو حي ، حتى إن بعضهم ، والعياذ بالله كان يحفر

(١) مذقة لحم أي قطعة لحم (لسان العرب ٤١٦٣/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١) ، ومسلم في البر والصلة (٢ ، ١) ، والترمذي في السنن (١٨٩٧) ، وابن

ماجه في السنن (٣٦٥٨) ، وأحمد في مسنده (٥/٣) .

(٣) راجع ذلك في سورة الأحقاف الآية (١٥) .

حفرة لابنته فطار شيء من الغبار على لحيته وهو يريد أن يدفنها فنفضت لحيته عن التراب ودفنها والعياذ بالله ، إلى هذا الحد ، يعني قلوب أغلظ من الحجارة ، حتى البهائم لا تفعل بأولادها هكذا ، وهؤلاء والعياذ بالله يفعلون هذا . يحفر لها ليدفنها وهي تنظف لحيته من التراب ثم يدفنها والعياذ بالله ، وكان بعضهم يحفر لابنته ، فإذا أحست به قامت تتوسل به يا أبت ، يا أبت ، فيمسكها ويطرحها حتى يدفنها ، نعوذ بالله .

مع ما في كفالة البنات من الأجر العظيم « ما من إنسان يكفل ثلاث بنات يحسن إليهن إلا كن حجاباً له من النار » قالوا : وابنتين يا رسول الله ؟ قال : « وابنتين » ، قالوا : وواحدة ؟ قال : « وواحدة » ^(١) . وكان الإمام أحمد رحمته الله إذا قيل له : ولد لك بنت ، قال : ولدت الإناث للأنبياء . ولدت الإناث للأنبياء ، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يولد لهم بنات ، فهذا أشرف الأنبياء محمد صلوات الله عليه له أربع بنات وله ثلاث أولاد ، أربع بنات وثلاث أولاد ، والذين بلغوا منهم الحلم هم البنات ، وأما الأولاد البنين فماتوا صغارا ، أكبرهم إبراهيم توفي وله ستة عشر شهرا ، سنة وأربع أشهر ، رضيع وكان له مرضع في الجنة ، لإبراهيم ابن النبي صلوات الله عليه ^(٢) .

وأما البنات الأربع : ثلاث منهن متن في حياته - عليه الصلاة والسلام - وهن : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، والرابعة : فاطمة ماتت بعده بأشهر .

فالحاصل : أن البنات إذا من الله على الإنسان بهن وكفلهن وأحسن إليهن ؛ كن له حجاباً من النار . « ومنع وهات » أي : وينهى عن منع وهات ، وهذا كناية عن الشح والبخل « منع » يعني يمنع ولا يعطي ولا يجود بالمال ولا بالنفس ، « وهات » يترك ، فهو والعياذ بالله بخيل شحيح لا يشفع ولا ينفع ، والله الموفق .

٢٥٧ - باب النهي عن الإشارة إلى مسلم بسلاح ونحوه

سواء كان جادا أو مازحا ، والنهي عن تعاطي السيف مسلولا

١٧٨٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه قَالَ : « لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَذِرِي لَعْلَ الشَّيْطَانِ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ ، فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » متفق عليه .
وفي رواية لمسلم قال : قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ رضي الله عنه : « مَنْ أَسَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ »

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٣/٣) ، والطبراني في الكبير (٥٦/١٨) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٧/٨) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٧/٣) .

(٢) ودليل ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٤) ، والحاكم في المستدرک (٣٨/٤) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٢/٩) .

حَتَّى يَنْزِعَ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَيِّهِ وَأُمُّهُ (١) .

قَوْلُهُ ﷺ : « يَنْزِعَ » ضَبَّطَ بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ مَعَ كَسْرِ الرَّاي ، وبِالْعَيْنِ الْمُعْجَمَةِ مَعَ فَتْحِهَا وَمَعْنَاهُمَا مُتَقَارِبٌ ، وَمَعْنَاهُ بِالْمُهْمَلَةِ يَرْمِي ، وبِالْمُعْجَمَةِ أَيْضًا يَزِيْمِي وَيُفْسِدُ ، وَأَصْلُ النَّزْعِ : الطُّغْنُ وَالْفَسَادُ .

١٧٨٤ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولًا » (٢) .
رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - النهي عن الإشارة بحديدة أو نحوها يعني : على الأخ سواء جادًا أو هازلًا ، والنهي عن تعاطي السيف مسلولًا هاتان مسألتان :

المسألة الأولى : أن يشير إلى أحد بسلاح أو حديدة أو حجر أو ما أشبه ذلك كأنه يريد أن يرميه به ، فقد نهى النبي ﷺ عن ذلك ؛ لأنه ربما يشير بها هكذا كأنه يريد أن يرميه بالحجر أو بالحديدة أو نحوها ، فينزِع الشيطان في يده وتنطلق من يده ، فيقع في حفرة من النار ، والعياذ بالله . وكذلك أيضًا ما يفعله بعض السفهاء ، يأتي بالسيارة مسرعًا نحو شخص واقف أو جالس أو مضطجع ، يلعب عليه ثم يحركها بسرعة إذا قرب منه حتى لا يدهسه ، هذا أيضًا ينهى عنه ، كالإشارة بالحديدة ؛ لأنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فلا يتحكم في السيارة ، وحينئذ يقع في حفرة من النار ، ومن ذلك : أن يشري الكلب به ، يكون الإنسان عنده كلب ويأتي إنسان آخر إليه زائرًا أو نحو ذلك ، فيشري الكلب به يعني يغيره به ؛ فإنه ربما ينطلق الكلب ويأكل هذا الرجل ، أو يجرحه ولا يتمكن من فضه بعد ذلك .
فالمهم : أن جميع أسباب الهلاك يُنهي الإنسان أن يفعلها سواء أكان جادًا أم هازلًا ، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة .

أما تعاطي السيف مسلولًا : فمثله أيضًا ينهى عنه ؛ لأنه ربما إذا مد يده لأخذ السيف وهو مسلول ربما تضطرب يد الإنسان فتقطع يد الآخر .

وكذلك السكين ونحوها ، لا تتعاطها وهي موجهة إلى صاحبك ، إذا أردت أن تعطيهِ السكين ؛ فأمسك بالسكين من عندك ، واجعل المقبض نحو صاحبك لئلا تقع في المحذور ، يعني ريشة السكين إذا أردت أن تعطيها لصاحبك فاجعلها مما يليك ، واجعل المقبض مما يلي صاحبك حتى لا تقع زلة يد فتجرح يده .

ومن ذلك أيضًا : إذا كان معك عصا وأنت تمشي بين الناس فلا تحمله عرضًا ؛ لأنك إذا حملته

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٧٢) ، ومسلم في البر والصلة (١٢٥) ، والحاكم في المستدرک (١٥٨/٢) بنحوه . قوله « ينزع في يده » أي يرمي في يده ويحقق ضررته ورميته .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٨٨) ، والتِّرْمِذِيُّ في الفتن (٢١٦٤) ، وأحمد في مسنده (٣٠٠/٣) ، والحاكم في المستدرک (٢٩٠/٤) قوله : « مسلولًا » أي مخرجًا عن غمده .

عرضاً ربما يتعثر به من وراءك أو من أمامك ، ولكن أمسكه نصباً واقفاً ، تمسكه واقفاً حتى لا تؤدي من وراءك ومن أمامك .

كل هذا من باب الآداب الحميدة التي ينبغي للإنسان أن يسلكها في حياته حتى لا يقع في أمر يؤدي الناس أو يضرهم . والله الموفق .

٢٥٨ - باب كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان

إلا لعذر حتى يصلي المكتوبة

١٧٨٥ - عَنْ أَبِي الشَّعْثَاءِ قَالَ : كُنَّا قُعُودًا مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فِي الْمَسْجِدِ ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ يَمْشِي ، فَأَتْبَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ بَصَرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : أَمَا هَذَا فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ رضي الله عنه (١) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان حتى يؤدي الصلاة المكتوبة . وذلك أن المؤذن إذا أذن فإنه يقول للناس : حي على الصلاة ، يعني اقبلوا إليها ، والخروج من المسجد بعد ذلك معصية ؛ فإنه يقال : أقبل ، ولكنه يدبر .

ثم ذكر حديث أبي الشعثاء ، أنهم كانوا قعوداً مع أبي هريرة رضي الله عنه ، فقام رجل يمشي ، فأتبعه أبو هريرة بصره حتى إذا خرج من المسجد . قال : « أما هذا فقد عصى أبا القاسم رضي الله عنه » وإنما أتبعه بصره لينظر هل هو يمشي ليكون في جهة أخرى من المسجد أم ماذا يريد ؟ فلما خرج تبين له أنه أراد الخروج من المسجد ، قال : « أما هذا فقد عصى أبا القاسم » يعني بذلك : رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا قال الصحابي : لقد عصى أبا القاسم فهو في حكم المرفوع ؛ يعني كأنه يقول فقد نهى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستدل العلماء بهذا الحديث على أنه يحرم الخروج من المسجد بعد الأذان لمن تلزمه الصلاة إلا لعذر ، فمن العذر : أن يكون حاقناً يعني يحتاج إلى بول ، أو حاقناً يحتاج إلى غائط ، أو معه ريح محتبسة يحتاج إلى أن ينقض الوضوء ، أو أصابه مرض يحتاج إلى أن يخرج معه ، أو كان إماماً لمسجد آخر ، أو مؤذناً في مسجد آخر .

وأما إذا خرج من هذا المسجد ليصلي في مسجد آخر ؛ فهذا فيه توقف . قد يقول قائل : فالحديث عام ، وقد يقول قائل : إن الحديث فيمن خرج لثلا يصلي مع جماعة ، وأما من خرج من مسجد ليصلي في آخر ، فهذا لم يفر من صلاة الجماعة ، ولكنه أراد أن يصلي في مسجد آخر ، وعلى كل

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥٨) قوله : « فأتبعه » أي ظل ناظراً إليه .

لا ينبغي أن يخرج حتى وإن كان يريد أن يصلي في مسجد آخر إلا بسبب شرعي ، مثل : أن يكون في المسجد الثاني جنازة يريد أن يصلي عليها ، أو يكون المسجد الثاني أحسن قراءة من المسجد الذي هو فيه ، أو ما أشبه ذلك من الأسباب الشرعية . فهنا نقول لا بأس أن يخرج . والله الموفق .

٢٥٩ - باب كراهة رد الريحان لغير عذر

١٧٨٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ غُرِضَ عَلَيْهِ رِيحَانٌ ، فَلَا يَرُدُّهُ ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْحَمَلِ ، طَيِّبُ الرِّيحِ » ^(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .
١٧٨٧ - وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَرُدُّ الطَّيِّبَ ^(٢) . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى كراهة رد الريحان .

والريحان : نوع من الطيب ، وهو كما وصفه النبي ﷺ : « خفيف الحمل ، طيب الريح » وقد أرشد النبي ﷺ إلى عدم رده ، وبين المؤلف رحمه الله فيما ساقه من حديث البخاري « أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب » والطيب لا شك أنه يفتح النفس ، ويشرح الصدر ، ويوسع القلب ، ويسر المجلس ، ولهذا كان النبي ﷺ يعجبه الطيب حتى قال : « حبيب إلي من دنياكم : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ^(٣) فينبغي للإنسان أن يستعمل الطيب دائماً ؛ لأنه علامة على طيب الأصل ؛ فإن الطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً .

وإذا أهدى إليك الطيب فلا ترده ؛ لأن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب ولا سيما إذا كان كما وصف النبي ﷺ في الريحان إذا كان خفيف الحمل طيب الريح ؛ لأنه لا يضرك شيء . لكن لو خفت أن هذا الذي أهدى إليك الطيب سيتكلم في المجالس ، أو أن يمن عليك في المستقبل ويقول : أنا أهديت إليك كذا وهذا جزائي ، ويريد منك أن تستخدمك بما أهدى إليك ؛ فهنا لا تقبل الهدية ، لأن هذا يبتل أجره وثوابه بالمن والأذى ، أما إذا كان لا يضرك منه شيء ؛ فإن الأفضل أن لا ترده . والله الموفق .

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب (٢٠) قوله ﷺ : « خفيف الحمل » أي أنه سهل الحمل لا يحتاج إلى مشقة .
(٢) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها (٢٥٨٢) وأحمد في مسنده (١٣٣/٣) والترمذي في الأدب (٢٧٨٩) .
(٣) سبق تخريجه .

٣٦٠ - باب كراهة المدح في الوجه لمن خيف عليه

مفسدة من إعجاب ونحوه ، وجوازه لمن أمن ذلك في حقه

١٧٨٨ - عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي الْمِدْحَةِ ، فَقَالَ : « أَهْلَكْتُمْ ، أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهَرَ الرَّجُلِ » ^(١) متفق عليه .
« وَالإِطْرَاءُ » الْمُبَالَغَةُ فِي الْمَدْحِ .

١٧٨٩ - وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا ذَكَرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ خَيْرًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « وَيْحَكَ ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ » يَقُولُهُ مِرَازًا « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ ، فَلْيَقُلْ : أَحْسِبْ كَذَا وَكَذَا ، إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ وَحَسْبِيهِ اللَّهُ ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا » ^(٢) متفق عليه .
١٧٩٠ - وَعَنْ هَتَّامِ بْنِ الْحَارِثِ ، عَنْ الْمِقْدَادِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ رضي الله عنه ، فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ ، فَجَنَّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ » ^(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .
فهذه الأحاديث في التَّهْيِي ، وَجَاءَ فِي الْإِبَاحَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ أَنْ يُقَالَ : إِنْ كَانَ الْمَمْدُوحُ عِنْدَهُ كَمَالُ إِيْمَانٍ وَيَقِينٍ ، وَرِيَاضَةِ نَفْسٍ ، وَمَعْرِفَةٍ تَامَّةٍ بِحَيْثُ لَا يَفْتِنُ وَلَا يَغْتَرُّ بِذَلِكَ ، وَلَا تَلْعَبُ بِهِ نَفْسُهُ ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَا مَكْرُوهٍ ، وَإِنْ خِيفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ ، كُرِهَ مَدْحُهُ فِي وَجْهِهِ كَرَاهَةً شَدِيدَةً ، وَعَلَى هَذَا التَّفْصِيلِ تُنَزَّلُ الْأَحَادِيثُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي ذَلِكَ . وَيَمَّا جَاءَ فِي الْإِبَاحَةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه : « أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » ^(٤) أَي : مِنْ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ لِدُخُولِهَا ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : « لَسْتُ مِنْهُمْ » ^(٥) ، أَي : لَسْتُ مِنَ الَّذِينَ يُسَبَّلُونَ أَرْزَهُمْ خِيَلَاءَ ، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم لِعُمَرَ رضي الله عنه : « مَا رَأَى الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ » ^(٦) وَالْأَحَادِيثُ فِي الْإِبَاحَةِ كَثِيرَةٌ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ جُمْلَةً مِنْ أَطْرَافِهَا فِي كِتَابِ : « الْأَذْكَارِ » .

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٣) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٦٧) . قوله « ويطريه في المدحة » هو مجاوزة الحد في المديح .

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٦٥) ، وأحمد في مسنده (٤١/٥) قوله : « قطعت عنق صاحبك » أي أهلكته . قوله « أحسبه » أي أظنه . قوله « وحسبني الله » أي أن محاسبه الله ، فلا يكذب بالثناء بما يعم ، أو يظن خلافه فيقع في الكذب .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٥/٦) قوله « عمد » أي قصد . قوله « يحثو » أي يلقي . (٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٢) ، وأحمد في مسنده (٣٥٩/٦) .

(٥) أخرجه مسلم في اللباس (٤٤) ، والنسائي في السنن (٢٠٩/٨) ، وأحمد في مسنده (٣٣/٢) .

(٦) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٨٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٢) ، وأحمد في مسنده (١٧١/١) ، (١٨٢) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله بيان مدح الإنسان ، هل ينبغي للإنسان أن يمدح أخاه بما هو فيه أم لا ؟ وهذا له أحوال :
الحال الأول : أن يكون في مدحه خير وتشجيع له على الأوصاف الحميدة والأخلاق الفاضلة ،
فهذا لا بأس به ؛ لأنه تشجيع لصاحبه ، فإذا رأيت من رجل الكرم والشجاعة وبذل النفس والإحسان
إلى الغير ، فذكرته بما هو فيه أمامه من أجل أن تشجعه وتثبته حتى يستمر على ما هو عليه ، فهذا
حسن ، وهو داخل في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] .

والثاني : أن تمدحه لتبين فضله بين الناس ، وينتشر ، ويحترمه الناس ، كما فعل النبي ﷺ مع أبي بكر
وعمر رضي الله عنهما ، أما أبي بكر : فإن النبي ﷺ كان يتحدث ذات يوم قال : « من أصبح منكم صائماً ؟ » فقال
أبو بكر : أنا ، فقال : « من تبع منكم جنازة ؟ » قال أبو بكر : أنا ، فقال : « من عاد اليوم مريضاً ؟ » فقال
أبو بكر : أنا ، وذكر أشياء ، فقال النبي ﷺ : « ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة » ^(١) .

وكذلك : لما حدث أنه من جر ثوبه خيلاء لن ينظر الله إليه ، قال أبو بكر : يا رسول الله إن أحد
شقي إزارني يسترخي عليّ إلا أن أتعاheadه ، فقال : « إنك لست ممن يصنع ذلك خيلاء » .

وقال لعمر : « إن الشيطان ما سلكك فجأ إلا سلك فجأ غير فجك » يعني إذا سلكت طريقاً فإن
الشيطان يهرب منه ويذهب إلى طريق آخر ، كل هذا لبيان فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . هذا لا بأس به .

الثالث : أن يمدح غيره ويغلو في إطرائه ويصفه بما لا يستحق ، فهذا محرم وهو كذب وخداع ،
مثل : أن يذكر رجلاً أميراً أو وزيراً أو ما أشبه ذلك ويطريه ويصفه بما ليس فيه من الصفات الحميدة ؛
فهذا حرام عليك ، وهو أيضاً ضرر على المدوح .

الرابع : أن يمدحه بما هو فيه ، لكن يخشى أن الإنسان المدوح يغتر بنفسه ويزهو بنفسه ويرفع
على غيره ، فهذا أيضاً محرم لا يجوز .

وذكر المؤلف أحداث في ذلك : أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ آخر فأنثى عليه فقال : « ويحك !
قطعت عنق صاحبك » يعني كأنك ذبحته بسبب مدحك إياه ؛ لأن ذلك يوجب أن هذا المدوح يرفع
ويتعالى ، وقد أمر النبي ﷺ أن يحثي التراب في وجوه المداحين ، يعني إن كان هذا الإنسان معروف
ما جلس مجلساً أمام أحد له جاه وشرف إلا امتدحه ، هذا مدح ، والمدح غير المدح ، المدح هو : الذي
يُسمع منه مرة بعد أخرى ، لكن المدح كلما جلس عند إنسان كبير أو أمير أو قاض أو عالم أو ما أشبه
ذلك قام يمدحه ، هذا حقه أن يحثي في وجهه التراب ؛ لأن رجلاً امتدح عثمان رضي الله عنه مقام المقداد وأخذ
الحصباء ونفضها في وجه المداح ، فسأله عثمان لما فعل ذلك ، قال : إن النبي ﷺ قال : « إذا رأيتم
المداحين فاحثوا في وجوههم التراب » . وعلى كل حال فالذي ينبغي للإنسان ألا يتكلم إلا بخير ، لأن
النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ^(٢) . والله الموفق .

٣٦١ - باب كراهة الخروج من بلد وقع فيها البلاء

فرازا منه وكراهة القوم

قال الله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَلْقَوْا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

١٧٩١ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرِغَ لَقِيَهُ أَمْرَاءُ الْأَجْنَادِ - أَبُو عُيَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ - فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَقَالَ لِي عُمَرُ : ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، فَدَعَوْتُهُمْ ، فَاسْتَشَارْتُهُمْ ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ ، فَاخْتَلَفُوا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : خَرَجْتَ لِأَمْرٍ ، وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَلَا نَرَى أَنْ تُقَدِّمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ . فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ ، فَدَعَوْتُهُمْ ، فَاسْتَشَارْتُهُمْ ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ ، فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشِيخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ ، فَدَعَوْتُهُمْ ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلَانِ ، فَقَالُوا : نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ ، وَلَا تُقَدِّمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ ، فَتَادَى عُمَرُ رضي الله عنه فِي النَّاسِ : إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرِ ، فَأُصْبِحُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه : أَفَرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : لَوْ غَيْرَكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُيَيْدَةَ ! - وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلَافَهُ - نَعَمْ نَفَرٌ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ ، فَهَبَطْتَ وَادِيًا لَهُ عُذْوَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ ، وَالْأُخْرَى جَذْبَةٌ ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَذْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ؟ قَالَ : فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه وَكَانَ مُتَعَبِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ ، فَلَا تُقَدِّمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا ، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى عُمَرَ رضي الله عنه وَانْصَرَفَ ^(١) . متفق عليه .

« وَالْعُدْوَةُ » : جَانِبُ الْوَادِي .

١٧٩٢ - وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاغُوتَ بِأَرْضٍ ، فَلَا تَدْخُلُوهَا ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا ، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا » ^(٢) . متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٢٩) ومسلم في السلام (٩٨) . قوله : « بسرغ » هي قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز ، قوله : « أهل الأجناد » هم سكان مدن الشام الخمس وهي : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين ، قوله : « الوباء » هو الطاعون ، قوله : « مشيخة قريش » هم المهاجرين الأولين الذين صلوا إلى القبلتين ، قوله : « مهاجرة الفتح » هم الذين أسلموا قبل الفتح ، فحصل لهم فضل الهجرة والفتح ، قوله : « إني مصبح » أي : مسافر عائد إلى وطني ، قوله : « على ظهر » أي على ظهر راحلة .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٢٨) ومسلم في السلام (١٠٠) وأبو داود في الجنايز (٣١٠٣) وأحمد في مسنده (٢٠٦/٥) .

الشرح

هذا الباب باب عظيم عقده المؤلف - رحمه الله تعالى - وهو كراهة أن يقدم الإنسان على أرض نزل فيها البلاء ، وأن يخرج منها بعد نزول البلاء فراراً منه ، يعني إذا سمعت بوباء نازل في أرض فلا تقدم عليها ، وإذا وقع وأنت فيها فلا تخرج منها فراراً منه ، ثم استدل المؤلف رحمته الله بقول الله : ﴿ أَتَيْنَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ إشارة إلى قوله : « لا تخرجوا منها » والله يقول : ﴿ أَتَيْنَا تَكُونُوا ﴾ وفي أي مكان وفي أي زمان ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ يعني محصنة مطوية مليفة بالشيد يعني : بالجص محكمة متقنة فإن الموت سوف يأتيكم ﴿ أَتَيْنَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ وفي آية أخرى أعظم من هذا وأبلغ ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ [الجمعة : ٨] تفر منه وهو لا يلحقك بل يلاقيك ويقابلك ، فلا فرار من الموت ، فكيف تخرج من أرض نزل فيها البوباء فراراً من الموت ؟ إنك لو فعلت فليس لك فرار من قدر الله تعالى . وقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] هؤلاء ألوف كثيرة مؤلفة نزل البوباء بأرض فخرجوا خوفاً من الموت ، فأراهم الله تعالى الآية وأنه بكل شيء محيط وأنه مدرك ما أراد لا محالة ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ﴾ قال ذلك قولاً كونه قديراً ، فماتوا ، لأن الله إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، ماتوا وهم ألوف ، ثم أحياهم الله والله على كل شيء قدير ، لكن أراهم الله تعالى أنه لا فرار من قدر الله تعالى لا فرار ، ثم استدل المؤلف على كون الإنسان لا يقدم على أرض فيها البوباء بقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ أي : لا تفعلوا الشيء الذي يكون فيه هلاككم .

ثم استدل أيضاً بالأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم وذكر قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين خرج من المدينة إلى الشام فذكر له الطاعون ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها » فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القدوم إلى أرض فيها الطاعون ، والطاعون وباء فتاك والعياذ بالله . قال بعض أهل العلم : إنه نوع خاص من البوباء ، وإنه عبارة عن جروح وتقرحات في البدن تصيب الإنسان وتجري جريان السيل حتى تقضي عليه ، وقيل : إن الطاعون وخز في البطن يصيب الإنسان فيموت ، وقيل : إن الطاعون اسم لكل وباء عام ينتشر بسرعة ، كالكوليرا وغيرها . وهذا أقرب ، فإن هذا إن لم يكن داخلياً في اللفظ ؛ فهو داخل في المعنى ، كل وباء عام ينتشر بسرعة ؛ فإنه لا يجوز للإنسان أن يقدم على البلد الذي حل فيها هذا البوباء ، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا منها ، لأنكم تخرجون منها فراراً من قدر الله ، لو فررتم فإنكم مدركون لا محالة ، ولهذا قال : لا تخرجوا منها فراراً منه .

أما خروج الإنسان منها لا فراراً منه ولكن لأنه أتى إلى هذا البلد لحاجة ثم انقضت حاجته وأراد أن يرجع إلى بلده ؛ فلا بأس .

وفي هذا الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان مع عمر حين خرج إلى الشام وذلك - والله أعلم - لفتح بيت المقدس ، فلما كان في أثناء الطريق أتاه أمراء الأجناد يخبرونه أنه وقع في الشام

طاعون ، والطاعون والعياذ بالله وباء فتاك سريع الانتشار ، فتوقف عمر وأمر عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن يدعو له المهاجرين ، فدعاهم وشاورهم ، فاختلفوا ، فمنهم من قال : لا ترجع عما أتيت إليه ، ومنهم من قال : ارجع ، ثم قال : ارتفعوا عني ، ثم أمر عبد الله بن عباس أن يجمع الأنصار ، فجمعهم واختلفوا كاختلاف المهاجرين ، ثم قال : ارتفعوا عني ، ثم أمره أن يدعو مشيخة مهاجرة الفتح يعني كبار المهاجرين ، فدعاهم فلم يختلف عليه اثنان ، وقالوا : ارجع . فنأدى في الناس : إني مصبح على ظهر - يعني راجع - فقال أبو عبيدة بن الجراح الذي سماه النبي ﷺ أمين هذه الأمة ، قال : يا أمير المؤمنين ، « أفرازا من قدر الله ؟ » يعني ترجع بالناس تفر من قدر الله ، قال : « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة » وكان يكره مخالفته ، يعني : لو أن غيرك قد قالها لكان أهون ، أما أنت فكيف تقول هذا ، ثم ضرب له مثلاً مقنعاً ، قال : « رأيت لو كان لك إبل فهبطت بها وادياً له عدوتان » يعني شعبتين إحداهما مخضبة والثانية مجدبة ، فإن رعيتهما في المخضبة رعيتهما بقدر الله ، وإن رعيتهما في المجدبة رعيتهما بقدر الله ، ومعلوم أنك سوف تختار المخضبة على المجدبة ، وبينما هم كذلك إذ جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان قد تغيب في حاجة له ، فقال : « إن عندي من ذلك علماً » يعني عن النبي ﷺ ثم تلا عليهم الحديث « إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه » . فوافق هذا حكم النبي ﷺ فحمد الله عمر على موافقته الصواب .

ففي هذا الحديث فوائد ، منها : أن الخليفة يتولى الغزو بنفسه إذا دعت الحاجة إلى ذلك . ومنها : حسن سياسة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فإنه على ما عنده من الدين والعلم والعقل وإصابة الصواب لم يفتر في هذا الأمر إلا بعد المشاورة والمراجعة . ومنها : أنه ينبغي أن يبدأ بالأفضل ؛ فالأفضل في المشاورة الأفضل في علمه وفي رأيه وفي لطفه ، يبدأ بالأفضل فالأفضل ، فإذا أشير عليه انتهى الموضوع ، ما حاجة لأن يأتي بالآخرين ، وإلا أتى بالآخرين الذين هم دونهم .

ومنها : أن المشاورة من سمات المؤمنين ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] فينبغي لمن ولاه الله أمراً ، وتردد في شيء من الأشياء ولم يتبين له الصواب أن يشاور غيره من ذوي العقل والدين والتجربة ، وكذلك إذا كان الأمر عامّاً يعم الناس كلهم ؛ فإنه ينبغي أن يشاور حتى يصدر عن رأي الجميع .

ومنها : أنه يجوز للواحد من الرعية أن يراجع الإمام لكن بحضرته ؛ لأن أبا عبيدة راجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكن بحضرته ، وبشرط أن يكون المراجع ممن له علم ودين وعقل ، ليس ممن عنده غيرة عاصفة وعاطفة هوجاء ، فإن هذا لا يتكلم ، إنما يتكلم العقلاء ، هم الذين يتكلمون مع ولاة الأمور ، ولكن لا يتكلمون من وراء ولي الأمر ، بل يتكلمون من بين يديه حتى يحصل النقاش والإقناع . ومنها : ضرب الأمثال ؛ فإن ضرب الأمثال يقرب المعاني للإنسان ، وذلك أن عمر رضي الله عنه ضرب

مثلاً لأبي عبيدة : إنسان هبط وادياً ومعه إبل وله شعبتان إحداهما مخصصة فيها الأشجار وفيها الحشيش وفيها كل شيء ينفع الإبل ، والثانية مجدبة يضاء ، فمن المعلوم أن الإنسان لن يختار المجدبة ، سوف يختار المخصصة ، فاختياره للمخصصة بِقَدَرِ اللَّهِ ﷻ ، وعدوله عن المجدبة بِقَدَرِ اللَّهِ ﷻ . ومنها : الرد على القدرية المعتزلة الذين يقولون : إن الإنسان مستقل بعمله لا علاقة لله به والعياذ بالله ، ولهذا سُمُّوا مجوس هذه الأمة ؛ لأنهم يشبهون المجوس ولكن الإنسان يفعل الفعل بقدر الله ﷻ .

ومنها : أنه قد يخفى العلم الشرعي على كبراء الناس ، ويعلمه من دونهم ، فإنه لاشك أن عمر بن الخطاب ؓ أعلم بكثير من عبد الرحمن بن عوف ، وكذلك كثير ممن معه عندهم من العلم ما ليس عند عبد الرحمن بن عوف ، لكن قد يكون عند الصغير من العلم ما ليس عند الكبير ، كما حصل هذا .

ومنها : حكمة النبي ﷺ في أن الإنسان لا يُقدم على ما فيه الهلكة والضرر ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] وقال : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ فلا يجوز للإنسان أن يخاطر في أمر يخشى منه الهلاك ، وإن كان كل شيء بقدر لكن الأسباب لها أثرها .

ومنها : أنه إذا وقع الوباء في الأرض فإنه لا يجوز للإنسان أن يخرج منها فراقاً منه ، وأما إذا خرج الحاجة فلا بأس .

ومنها : أنه لا بأس أن يستعمل الإنسان من الأدوية والحبوب والإبر ما يمنع الوباء ، لأن ذلك من الوقاية قبل نزول البلاء ، ولا بأس بها ، كما أن الإنسان إذا نزل به وباء وعالجه فلا حرج عليه ، فكذلك إذا أخذ وقاية منه فلا حرج عليه ، ولا يعد ذلك من نقص التوكل ، بل هذا من التوكل ؛ لأن فعل الأسباب الوقائية من الهلاك والعذاب أمر مطلوب ، والذي يتوكل أو يدعي أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ليس بمتوكل في الحقيقة ، بل إنه طاعن في حكمة الله ﷻ ؛ لأن حكمة الله تأتي أن يكون الشيء إلا بالسبب الذي قدره الله تعالى له . والله الموفق .

* * *

٣٦٢ - باب التغليظ في تحريم السحر

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ السَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ (١) الآية

[البقرة : ١٠٢] .

١٧٩٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « الشُّرُوكُ بِاللَّهِ ، وَالسَّحَرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ

(١) قوله ﷻ : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ ﴾ أي وما سحر ، وعبر عن السحر بالكفر ؛ للتغليظ .

مَالِ النَّيِّمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ ، وَقَذَفَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى باب تغليظ تحريم السحر ، والسحر هو : عبارة عن عُقد وقرارات ونفثات يتوصل بها الساحر إلى الإضرار بالمسحور ، فمنه ما يقتل ، ومنه ما يمرض ، ومنه ما يذهب العقل ، ومنه ما يوجب العقد ، يعني تعلق الإنسان بغيره تعلقاً شديداً ، ومنه ما يوجب الصرف ، يعني انصرافه عن غيره انصرافاً كاملاً ، فهو أنواع والعياذ بالله ، لكن كله محرم ، وقد تبرأ النبي ﷺ من سَحَرٍ وَسَحَرٍ لَهُ . ومنه ما يوصل إلى الكفر ، فإذا كان الساحر يتوصل إلى سحره بالأرواح الشيطانية يتقرب إليها ويتعبد لها حتى تطيعه فهذا كفر لاشك فيه ، وأما إذا لم يكن كذلك ؛ فإنه أذية ومحرم ومن كبائر الذنوب ويجب على ولي الأمر أن يقتل الساحر قتلاً بدون توبة ، بمعنى أن يقتله قتلاً وإن تاب ؛ لأنه إن تاب فأمره إلى الله ﷻ ، وإن لم فأمره إلى الله لكننا نقتله درءاً لمضرته ومفسدته ^(٢) .

وأما إذا لم يتب : فهو من أهل النار إذا كان سحره مكفراً ؛ لأن السحر والعياذ بالله من أعظم الفساد في الأرض ومن أعظم الشرور ؛ لأنه يأتي الإنسان من غير أن يحترز منه ، ولكن هناك شيء يحملك منه بإذن الله ﷻ وهي قراءة الأوراد الشرعية ، مثل : آية الكرسي ، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَكِي ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، وما أشبه ذلك مما جاء في الآيات والأحاديث عن النبي ﷺ فإن هذا أكبر واقٍ يقي الإنسان من السحر .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ أول الآية قوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنُ ﴾ أي : ما تتبعه على ملك الشياطين وهو أن الشياطين علمت الناس السحر ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ سليمان عليه الصلاة والسلام ما كفر ولم يخلف سحراً وإنما خلف علم النبوة ؛ فإنه كان أحد الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ وفي هذا دليل على أن السحر تعلمه من الشياطين كُفْرٌ ، ولهذا قلنا قبل قليل : إذا استعان الإنسان على سحره بالشياطين كان كافراً . ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ ﴾ وهذان ملكان بعثهما الله ﷻ إلى أرض بابل لكثرة السحرة فيها يعلمون الناس السحر ولكنهما ينصحان الناس ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ بِهِ أَحَدٌ حَقٌّ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ أرسلهما الله ﷻ يعلمان الناس السحر ، وهنا قد يسأل الإنسان : كيف

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤) والبيهقي في السنن (٢٨٤/٦) . قوله : « الموبقات » أي المهلكات . قوله ﷺ : « المحصنات » أي الغفائف . قوله ﷺ : « والتولي »

يوم الزحف » أي الفرار عن القتال يوم المعركة . قوله ﷺ : « الغافلات » أي البعيدات عما نسب إليهن من الفواحش . (٢) هذا هو رأي عامة الفقهاء عدا الشافعية الذين قالوا : إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل بسحره ما يبلغ الكفر ، فإذا عمل عملاً دون الكفر فلا قتل عليه . وقالوا : يطلب منه أن يصف سحره فإن بين ما يوجب الكفر قتل وإلا فلا . (انظر المذهب ١٧٧/٢ ، أحكام القرآن للجصاص ٥٥/١ بداية المجتهد ٤٢٠/٢ ، المغني ١٥٠/٨ ، ١٥١) .

يرسل الله تعالى ملكين والملائكة كرام مكرمون عند الله ﷻ ، كيف يرسلهم يعلمون الناس السحر ؟ !
فيقال : هذا فتنة من الله ﷻ ، ولهذا إذا علما الناس قالوا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، ينصحون
الناس ، لكن الله ﷻ ابتلى الناس بهذا ، فجعلوا يتعلمون من الملكين ، يتعلمون منهما ما يسمى بالعقد
والصرف وهو من أشد أنواع السحر : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ يأتي
الساحر إلى رجل قد حسنت الحال بينه وبين أهله وقد طابت لهما الحياة فيفرق بين الرجل وزوجته
والعياذ بالله ، تأخذ تصيح إذا قرب إليها وتبكي وتنفر منه ، وإذا أبعد عنها بكى على فراقه والعياذ
بالله ، فيضرها من الناحيتين : من ناحية الاجتماع ، ومن ناحية الافتراق . وكذلك الزوج تجده في
شوق عظيم لأهله ، فإذا أتى إلى أهله ضاق بهم ذرعاً وضاق صدره وتمنى أن يموت والعياذ بالله .

هذا من السحر العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ سبحان
الله العظيم ، من ييده ملكوت السماوات والأرض ؟ الله ﷻ ، هؤلاء السحرة والشياطين مهما
اجتمعوا على أمر يريدون أن يضروك به والله تعالى لا يضرك ؛ فإنهم لن يضروك ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ
بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ تأمل هذا التركيب ، فإن الجملة هنا اسمية ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ
أَحَدٍ ﴾ والاسمية تفيد الثبوت والاستغراق ، ثم إن النفي مؤكد بالباء ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يعني : لا يمكن أبداً أن يضروا أحداً بسحرهم إلا بإذن الله ، إذا أذن الله بذلك قدراً ،
فالله على كل شيء قدير ، وإذا شاء ﷻ منع ، منع كل شر ، لأنه هو الذي ييده ملكوت السموات
والأرض وهو خالق الأسباب ومانع الأسباب وهو على كل شيء قدير .

﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ أي هؤلاء الناس الذي أرسل إليهم الملكان
﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ يعني : ما فيه الضرر المحض الذي لا نفع فيه إطلاقاً ، ولهذا
قال : ﴿ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ هو ضرر محض في الدين والدنيا والعاقبة الوخيمة ، وكذلك
الظلم الذي يحصل على المسحور فإنه سوف يقضي له بحقه يوم القيامة لن يهمله الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ
عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ أكد الله هذه الجملة بـ (القسم واللام وقد) ، أي :
لقد علم هؤلاء الذين يتعلمون السحر أن الذي يتعلمه ما له في الآخرة من خلاق ، علموا من أين ؟
من قول الملكين ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ قد علموا وظهر لهم الأمر ولكنهم والعياذ بالله اختاروا
ذلك ولهذا قال : ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ والشراء إنما يكون عن رغبة وطمع في المبيع ، ولهذا سمي الله
تعالى تعلمه اشتراء ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ أي : ما له نصيب في الآخرة ، وليس أحد من
الناس ليس له نصيب في الآخرة على الإطلاق إلا الكافر ، المؤمن له نصيب في الآخرة ، إما أن يدخل
الجنة بلا حساب ، وإما أن يعذب على قدر ذنبه ثم يكون ماله الجنة .

لكن الكافر ليس له في الآخرة من خلاق أي : من نصيب . ﴿ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ .
﴿ شَرَوْا ﴾ هنا بمعنى باعوا ، يعني أن الله ذم هذا الذي اختاروه وباعوا أنفسهم من أجله ﴿ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴾ يعني لو كانوا من ذوي العلم لعلموا أن هذا شر محض .

والخلاصة : أن السحر من كبائر الذنوب وقد يؤدي إلى الكفر ، وأن عقوبة الساحر أن يقتل ، سواء كفر بسحره أم لم يكفر ، لقول النبي ﷺ : « حد الساحر ضربه بالسيف » وفي لفظ : « ضربة بالسيف » . نسأل الله تعالى أن يقي المسلمين شرهم ، وأن يرد كيدهم في نحورهم ، وأن يعيننا وإياكم على تعلم الأوراد الشرعية التي يحمي بها المرء من أعدائه من الشياطين ، والإنس . والله الموفق . وبعد أن تقدم الكلام على أول هذا الحديث ونذكر قوله ﷺ : « وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق » . فنقول : إن النفوس المحرمة أربعة : أربعة أنواع : المسلم ، والذمي ، والمعاهد ، والمستأمن . وأنه لا يجوز قتل واحد منهم إلا بالحق .

وقد تكلمنا عن العهد بين المسلمين وبين الكفار وبيننا أنه جائز إذا دعت الحاجة إليه أو المصلحة ، وأن العلماء اختلفوا - رحمهم الله - هل يجوز العهد أكثر من عشر سنوات أو لا ؟ وهل يجوز العهد المطلق أو لا ؟ وذكرنا أنه أي العهد ثلاثة أقسام :

عهد مؤبد ، وهذا لا يجوز . وعهد مطلق ، وهذا جائز على القول الراجح . وعهد مؤقت ، وهذا جائز . ثم اختلف القائلون به ، هل يجوز أن يزيد على عشر سنوات ، أو لا ؟ والصحيح أنه جائز ؛ لأنه للحاجة . ثم قال ﷺ : « وأكل الربا » أكل الربا أيضًا من الموبقات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وقد ورد من الوعيد على أكل الربا ما لم يرد مثله على أي ذنب سوى الشرك ^(١) . فهو عظيم والعياذ بالله حتى إن الله قال في كتابه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَغْلُمُونَ وَلَا تَغْلُمُونَ ﴿ [البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩] فبين الله ﷻ أنه إذا لم يترك الإنسان الربا فإنه معلن للحرب على الله ورسوله ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وأنه إذا تاب فإنه يحرم عليه أن يأخذ أكثر من ماله ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَغْلُمُونَ وَلَا تَغْلُمُونَ ﴾ وقد استحسن بعض الناس بقولهم استحسانًا مخالف لشرع الله ﷻ ، فقالوا : إن الإنسان إذا أودع ؛ بل إذا جعل أمواله عند أهل الربا ؛ فإنه يجوز أن يأخذ الربا ثم يتصدق به تخلصًا منه ، وهذا القول مخالف للقرآن الكريم ، لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَغْلُمُونَ وَلَا تَغْلُمُونَ ﴾ يقولون في وجه استحسانهم : إننا لو تركناه للبنوك لكانوا يستعينون به على بناء الكنائس وإعانة الكفار على قتال المسلمين وما أشبه ذلك من الأقوال التي يصادمون بها النص .

ونقول لهم : أولاً : إن هذا الربح ليس داخلاً في ملكه حتى نقول : إنه تبرع للبنك به فهو من الأصل لم يدخل في ملكه ، ماله الذي أودعه عند البنك ربما يشتري به الحاجات أو يدخل في مشروعات ويخسر . فهذه الزيادة فليست نماء ملكه بل هي زيادة محضة يسلمها البنك لمن أعطى هذا المال . وثانياً : من يقول إنهم يستعينون بها يجعلونها في الكنائس والأسلحة ضد المسلمين ، من قال هذا ؟ .

وثالثاً : فهل إذا أخذناها منهم سوف يسكون عن قتال المسلمين وعن إضلالهم عن دينهم .

رابعاً : إذا قلنا بذلك ثم قلنا : خذها وتصديق بها ، فمعنى ذلك : أننا قلنا له تلتطخ بالنجاسة ثم حاول أن تغسل يدك منها ، إذا ما الفائدة أن تأخذها ثم تصديق بها ؟ لا فائدة ، أتركها من الأصل تسلم منها . ثم إننا إذا قلنا بذلك فأخذها الإنسان ، فهل يضمن لنفسه أن يقوي نفسه على التصديق بها ولا سيما إذا كانت كثيرة ؟ قد يأخذها بهذه النية ثم تغلبه نفسه فلا يتصدق بها ويأكلها ، سواء حصل هذا في أول مرة ، أو في ثاني مرة ، أو في ثالث مرة . وأيضاً إذا قلنا : خذها وتصديق بها ، فأخذها أمام الناس ، فمن الذي يعلم الناس أنه تصديق بها . الناس لا يدرون ، وربما اتخذوا من فعله هذا قدوة ، وفعلوا مثل فعله وأكلوا الربا . وأيضاً فإننا إذا قلنا بذلك استمرينا الدخول في الربا وسهل علينا وصرنا نأخذها ، لكن إذا قلنا بالمنع سلمنا من الربا من وجه ، واضطررنا إلى أن نجد سبيلاً إلى معاملات شرعية لا تخالف الدين ، بإنشاء البنوك الإسلامية التي ليست فيها ربا .

والمهم : أن أول شيء نرد به على هذا القول المستحسن وليس بحسن ، هو أنه مصادم للنص ﴿ وَإِنْ تَبَيَّنَ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] ولا استحسان للعقول مع وجود النص ، وكل شيء تستحسنه بعقلك وهو مخالف للنص فهو ليس بحسن ، بل هو سيئ ، وعاقبته سيئة ، ولا تنظر إلى الشيء المستعجل انظر إلى العاقبة .

والعاقبة في كل ما خالف الشرع ، لا شك أنها عاقبة سيئة ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وهذا يدل على أنه من ليس بمتقٍ فليس له عاقبة محمودة ولا حسنة . ولا يفرنك التحسين المبني على الوهم ، عليك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا تتجاوزهما إن شئت البركة والخير وأن ينمو جسدك على طاعة الله ﷻ .

المهم أن أكل الربا من الموبقات ، والربا يكون في أصناف ستة بينها النبي ﷺ في قوله : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » (١) . وغالب الربا الآن بين الناس غالبه النوعين الأولين : الذهب والفضة ؛ لأن الأطعمة التبادل فيها قليل ، والربا فيها أيضاً قليل ، لكن الأكثر في الأموال .

والعلماء رحمهم الله لما ظهرت هذه الأوراق النقدية التي هي بدل عن الذهب والفضة . اختلفوا فيها اختلافاً عظيماً حتى بلغ الخلاف إلى أكثر من ستة أقوال ، كل يقول برأي ، وأقرب الأقوال فيها : أنه يجوز فيها ربا الفضل ، ولا يجوز ربا النسيئة ، بمعنى أنه يجوز فيها ربا الفضل دون ربا النسيئة إذا اختلفت الأجناس .

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (٨١ ، ٨٢) بلفظه ، والبخاري في البيوع (٢١٣٤) ، وابن ماجه في السنن (٢٢٥٣) والترمذي في السنن (١٢٤٠) وأحمد في مسنده (٥٨/٣) .

فعلى ذلك : فيجوز أن أعطيك عشر ريات بالورق وأخذ منك تسعة ريات بالحديد . وما أشبه ذلك ؛ لأن الصفة مختلفة ، وقد جاء في الحديث : إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم ^(١) . والقيمة وإن كانت متفقة حسب النظام وتقرير الحكومة ، لكن الكلام على الحقيقة الذاتية ، نجد أن الحديد يختلف عن القرطاس ، حتى في القيمة يختلف ، يعني لو فرضنا أن قطعة من حديد وورقة من الشارع ، أردت أن تساوي بينهما ؛ لم يكن بينهما سواء ، بل بينهما فرق ؛ فالجنس مختلف ، والقيمة مختلفة ، ولولا أن الحكومة جعلت هذه بمنزلة هذه في القيمة ، فما صارت مساوية لها في القيمة ، وعلى هذا تكون داخلة تحت قول الرسول ﷺ : « فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » ^(٢) .

ثم إن الربا أصناف كثيرة بعضها أقبح من بعض ، أعظمه وأشدّه هو أن يأكل الربا أضعافاً مضاعفة ، بحيث إذا حل الدين على الفقير وليس عنده مال ، يقول له : أنذك لمدة سنة وأزيدك ، أزيد الدين عليك ، مثل أن يحل دينه وهو عشر آلاف وليس عنده شيء ، فيقول : أنذك إلى سنة ونجعله إحدى عشر ألفاً . هذا حرام ولا يجوز ، سواء جعل ذلك صريحاً أو بحيلة ، بأن قال : اشتر مني السلعة بإحدى عشر ألفاً ، وبعها عليّ بعشرة آلاف ، حتى يكون في ذمته إحدى عشر ألفاً ، يتحيل على محارم الله ، والعياذ بالله . والحيلة على محارم الله أقبح من إتيان المحرم صريحاً ، ولهذا تجد الذين يتحيلون على الربا ، ينطبق عليهم قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَرْبَاً لَا يُقِيمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِينَ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فإن هذه الآية فيها للعلماء قولان :

الأول : أنهم يقومون لأكل الربا وأخذه كالمجانين ؛ يعني في تصرفهم في الدنيا ، يتصرف تصرف المجنون الطائش يريد هذا المكسب الحرام ، نجد هؤلاء الذين يتحيلون على الربا يتصرفون تصرف المجانين بكل لهف ، وبكل شغف ، وبكل وسيلة ، وفي كل يوم لهم حيلة .

والقول الثاني في الآية : أنهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كالذي يقوم مصروعاً من الجن ^(٣) - نسأل الله العافية - أمام العالم وشاهد ومشهود .

فعلى كل حال الربا محرم سواء كان صريحاً ، أو كان عن طريق المكر والخداع ، وما كان عن طريق المكر والخداع فهو أشد إثمًا وأقرب إلى قسوة القلب ، والعياذ بالله ، ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الطغف: ١٤] لهذا تجدهم يفعلون هذه الحيل ويرون أنها حلال ، وأنه لا بأس بها ، ولا يكادون يقلعون عنها . لكن من فعل المحرم على وجهه الصريح خجل من الله وعرف أنه في معصية ، وربما ييسر الله له الأمر ويمن عليه بالتوبة .

(١) راجع هذه الآراء والاختلافات في فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوي (٢٧٠/١ - ٢٧٥) النظم النقدية والمصرفية للدكتور عبد العزيز مرعي (ط . ١٩٥٨ ص : ٦٥ ، ٦٧) .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (٨١) وأحمد في مسنده (١٩/٥) .

(٣) وهذا هو قول ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبيرة وقتادة والضحاك وغيرهم (انظر : تفسير الطبري ١٤٠/٣ ، ١٤١) .

« وأكل مال اليتيم » أيضًا من الموبقات ، واليتيم هو الذي مات أبوه قبل بلوغه ، واليتيم مسكين ، بمعنى أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فيأتي من يُسلط على ماله ويأكله ، هذا أيضًا من الموبقات .
« والتولي يوم الزحف » يعني القتال مع الكفار ، إذا تقابل المسلمون والكفار فإن المتولي يكون قد فعل موبقًا من موبقات الذنوب ، والعياذ بالله ، إلا فيما ذكر الله ﷻ : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ﴾ [الأنفال : ١٦] .

« وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » يعني أن يرمي الإنسان المرأة الغافلة المؤمنة بالزنا ، فيقول : إنها زنت ، هذا أيضًا من موبقات الذنوب . ومثلها أيضًا الرجل المحصن قذفه من كبائر الذنوب . والله الموفق .

٣٦٣ - باب النهي عن المسافرة بالمصحف
إلى بلاد الكفار إذا خيف وقوعه بأيدي العدو

١٧٩٤ - عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ . (١)
متفق عليه .

٣٦٤ - باب تحريم استعمال إناء الذهب وإناء الفضة
في الأكل والشرب والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

١٧٩٥ - عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الَّذِي يَشْرَبُ فِي آتِيَةِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » (٢) متفق عليه .

وفي رواية لمسلم : « إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آتِيَةِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ » .

١٧٩٦ - وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا عَنْ الْحَرِيرِ ، وَالذَّبْيَانِ ، وَالشَّرْبِ فِي آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَقَالَ : « هُنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَهِيَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ » متفق عليه .

وفي رواية في الصحيحين عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٠) ، ومسلم في الإمامة (٩٢) ، وأحمد في مسنده (٦٣ ، ٧/٢) ، وابن ماجه (٢٨٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣٤) ، ومسلم في اللباس (١) ، والبيهقي في السنن (٢٧/٣) . قوله : « يجرجر في بطنه النار » أي يلقي النار في بطنه . يقال : جرجر الماء في حلقه ؛ إذا جرجعه جرجًا متتابعًا يسمع له صوت .

الدِّيَاج ، وَلَا تَشْرَبُوا فِي آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا » (١) .

١٧٩٧ - وَعَنْ أَنَسِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : كُنْتُ مَعَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عِنْدَ نَقِيرٍ مِنَ الْمَجُوسِ ، فَجِئْتُ بِقَالُودٍ عَلَى إِنَاءٍ مِنْ فِضَّةٍ ، فَلَمْ يَأْكُلْهُ ، فَقِيلَ لَهُ : حَوَّلْهُ ، فَحَوَّلَهُ عَلَى إِنَاءٍ مِنْ خَلْتِجٍ ، وَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَهُ (٢) . رواه البيهقي بإسناد حسن .

الشرح

هذان البابان ذكرهما المؤلف رحمته الله الأول : في تحريم السفر بالمصحف إلى بلاد العدو ؛ يعني أنه لا يجوز للإنسان أن يسافر بالمصحف إلى بلاد الكفار ، وذلك أنه يخشى أن يقع في أيديهم فيستعينوا به ويُذلوه ، والقرآن أشرف وأعظم من أن يكون في يدي العدو ، ولهذا ذكر عبد الله بن عمر رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض العدو ، وهذا كما قال المؤلف رحمته الله إذا خيف عليه ، أما إذا لم يخف عليه كما في وقتنا الحاضر ؛ فلا بأس ، فيجوز للإنسان إذا سافر في تجارة أو دراسة في بلد الكفار أن يأخذ معه المصحف ، ولا حرج عليه ، ولكن يجب أن يعلم أن السفر إلى بلاد العدو للإقامة في دراسة أو شبهها أي مدة طويلة لا يجوز إلا بشروط ثلاثة :

الشرط الأول : أن يكون عند الإنسان علم يدفع به الشبهات ، وذلك لأن الكفار أعداء يريدون أن يصدوا الناس عن دين الله ، فإذا قدم إليهم الشاب الساذج الذي ليس عنده علم أوردوا عليه من الشبهات والشكوك ما يخرجهم عن دينه من حيث لا يشعرون ، فمن ليس عنده علم يدفع به الشبهات ، فهو لا يحل له أن يذهب إلى بلاد الكفار ، مهما كان الأمر ، اللهم إلا للضرورة القصوى كالعلاج يكون معه من يصاحبه ويقيه من شر الناس .

الشرط الثاني : أن يكون عنده دين يحميه من الشبهات ؛ وذلك لأن بلاد الكفر ، بلاد كفر ليس فيها مانع لا من وازع ديني ولا من وازع سلطاني ، الناس أحرار كما يقولون ، وهم أحرار في الهوى لكنهم عبيد للهوى في الواقع . فإذا لم يكن عنده دين يحميه عن الشهوات ؛ فإنه يهلك ؛ لأنه سيجد النساء الكاسيات العاريات ، ويجد الخمر ، ويجد الشرور ، فإذا لم يكن عنده دين سقط في الهاوية .

والشرط الثالث : أن يكون هناك ضرورة بأن يسافر لعلم لا يوجد في بلده ، ويحتاج الناس إليه ، فهذا لا بأس به ، فإذا تمت الشروط الثلاثة ؛ جاز للإنسان أن يسافر إلى أرض العدو ، وإلا فإنه لا يحل له . هذا إذا كان سيقم مدة ، أما رجل سيذهب لتجارة ويشترى ويرجع ، فهذا أهون .

أما الباب الثاني : فهو الأكل والشرب في آتية الذهب والفضة ، الذهب والفضة كلاهما معدن مما خلقه الله

(١) أخرجه : البخاري في الأشربة (٥٦٣٣) ومسلم في اللباس والزينة (٥) والبيهقي في السنن (٢٨/١) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٥) . قوله رحمته الله : « الدياج » هو نوع من أنواع الحرير الفاخر . قوله رحمته الله : « صحافها » هي وعاء الطعام الذي يشبع خمسة أفراد . قوله رحمته الله : « لا تلبسوا الحرير ولا الدياج » هذا الأمر مقصور على الذكور دون الإناث . (٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٨/١) . قوله « فالودج » هو نوع من الحلوى يصنع من النشا واللبن والسكر .

عَلَيْكَ فِي الْأَرْضِ وَخَلَقَهُ لَنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] فلنا أن نتنفع بالذهب والفضة على ما أردنا إلا ما جاء الشرع بتحريمه ، ونهى ﷺ عن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة ، وأخبر أنها للكفار في الدنيا ولنا في الآخرة ، وأخبر أن الذي يأكل ويشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم ، والعياذ بالله ، والجرجرة : هي صوت الماء إذا جرى في الحلق ، فهذا الرجل ، والعياذ بالله ، يُسقي من نار جهنم - نسأل الله العافية - حتى يجرجر الصوت في بطنه كما جرجر في الدنيا . وهذا يدل على أن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة من كبائر الذنوب ، وأنه لا يحل للمؤمن أن يفعل ذلك .

أما استعمال الذهب والفضة في غير ذلك ؛ فهذا موضع خلاف بين العلماء ، جمهور العلماء يقول : لا يجوز أن يستعمل الذهب والفضة في غير الأكل والشرب كما أنه لا يجوز في الأكل والشرب ، فلا يجوز أن تجعلهما مستودعًا للدواء ، أو مستودعًا للدرهم أو للدنانير ، أو ما أشبه ذلك ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الأكل والشرب فيهما وما سوى ذلك فهو مثله .

ومن العلماء من أباح ذلك ، وقال : إننا نقتصر على ما جاءنا به النص ، والباقي ليس حرامًا ؛ لأن الأصل الحل ، ولهذا كانت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي ممن روى حديث النهي عن الأكل والشرب في آنية الفضة ، كانت عندها جُلجل من فضة مثل وعاء البيسي وشبهه ، جلجل من فضة جعلت فيه شعرات من شعرات النبي ﷺ يستشفى الناس بها ، إذا مرض الإنسان أتوا إليها وجعلت في هذا الجلجل ماء وراجته في الشعر وشربه المريض فيشفى بإذن الله ، فهي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تستعمل الفضة في غير الأكل والشرب . وهذا أقرب إلى الصواب ، أن استعمال الذهب والفضة في غير الأكل والشرب جائز ، لكن الورع تركه احتياطًا لموافقة جمهور العلماء . والله الموفق .

* * *

٣٦٥ - باب تحريم لبس الرجل ثوبًا مزعفرًا

١٧٩٨ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَزَعَفَرَ الرَّجُلُ ^(١) . متفق عليه .
١٧٩٩ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَأَى النَّبِيُّ ﷺ عَلِيَّ بْنَ ثَوْبَانَ مَعْصُفَرَيْنِ فَقَالَ : « أُمْلِكْ أَمْرَتُكَ بِهَذَا ؟ » قُلْتُ : أَغْسِلُهُمَا ؟ قَالَ : « بَلْ أَخْرِقُهُمَا » .
وفي رواية فقال : « إِنَّ هَذَا مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ فَلَا تَلْبَسْهَا » ^(٢) رواه مسلم .

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٤٦) ، ومسلم في اللباس والزينة (٧٧) ، والنسائي في السنن (١٤٢/٥) ، وأحمد في مسنده (١٠١/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٢٧) ، وأحمد في مسنده (٢٠٧/٢) ، والحاكم في المستدرک (١٩٠/٤) . قوله : « أملك أمرتك بهذا » معناه : أن هذا من لباس الناس وزيتهم وأخلاقهم .

٣٦٦ - باب النهي عن صمت يوم إلى الليل

١٨٠٠ - عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ : حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « لَا يُتَمَّ بَعْدَ اخْتِلَامٍ ، وَلَا صُمَاتٌ يَوْمٌ إِلَى اللَّيْلِ » ^(١) رواه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ .

قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ : كَانَ مِنْ تُسْلِكِ الْجَاهِلِيَّةِ الصُّمَاتُ ، فَتُهَوَى فِي الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ ، وَأُمِرُوا بِالذِّكْرِ وَالْحَدِيثِ بِالْخَيْرِ .

١٨٠١ - وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ : دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ عليه السلام عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا : زَيْنَبُ ، فَرَأَاهَا لَا تَتَكَلَّمُ . فَقَالَ : مَا لَهَا لَا تَتَكَلَّمُ ؟ فَقَالُوا : حَجَّتْ مُضْمِنَةً . فَقَالَ لَهَا : تَكَلَّمِي ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ ، هَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ ! فَتَكَلَّمْتُ ^(٢) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله في كتابه باين : الباب الأول : نهى الرجل أن يلبس الثوب المزعر : يعني الذي صبغ بالعصر ، وهو نوع من الثياب يشبه الزعفران ، وذكر فيه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى عليه ثوبين معصفرين أو ثوبًا معصفرًا فقال : « أملك أمرتك بهذا ؟ » يعني ينكر عليه ، فدل ذلك على أنه يكره أو يحرم على الرجل أن يلبس مثل هذه الثياب الصفراء التي تميل إلى الحمرة قليلًا ، وكذلك الثوب الأحمر نهى النبي ﷺ عن لبسه ^(٣) ، وأخبر أن هذا من لباس الكفار ، وإذا كان الأمر كذلك فإننا قد نهينا أن نتشبه بهم ، لقول النبي ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » ^(٤) .

وأما الباب الثاني : فهو الصمت إلى الليل ، وكانوا في الجاهلية يدينون لله ﷻ بالصمت إلى الليل ، يعني : أن الإنسان يقوم من نومه في الليل ويسكت ولا يتكلم حتى تغيب الشمس ، فنهى المسلمون عن ذلك ، لأن هذا يؤدي إلى ترك التسبيح والتهليل والتحميد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقراءة القرآن وغير ذلك ، وأيضًا هو من فعل الجاهلية ، فلذلك نهى عنه . فلا يجوز للإنسان أن يصمت ولا يتكلم إلى الليل ، وإذا قدر أن أحدًا نذر هذا ؛ فإنه لا يفي بنذره ، فليحل النذر ويكفر كفارة يمين ، وإذا تكلم الإنسان فلا يتكلم إلا بخير ، لقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » ^(٥) . والله الموفق .

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٣) والبيهقي في السنن (٥٧/٧) . قوله : « لا يتم بعد اختلام » أي أن الإنسان إذا بلغ سن الرشد لم يعد يتيمًا . قوله : « ولا صمات » أي لا سكوت عند الكلام .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٣٤) قوله : « مصمتة » أي ساكنة لا تتكلم .

(٣) انظر في ذلك ما أخرجه النسائي في السنن (١٦٥/٨) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٣١) وأحمد في مسنده (٥٠/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٧١/١٠) .

(٥) سبق تخريجه .

٣٧ - باب تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه وتوليه إلى غير مواليه

١٨٠٢ - عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ ؛ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ » ^(١) متفق عليه .

١٨٠٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « لَا تَزْعَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ ؛ فَهُوَ كُفْرٌ » ^(٢) متفق عليه .

١٨٠٤ - وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ شَرِيكٍ قَالَ : رَأَيْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه عَلَى الْمُبْتَرِ يَخْطُبُ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : لَا وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ نَقْرُؤُهُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، فَتَشْرَهَا ، فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ ، وَأَشْيَاءٌ مِنَ الْحَرَاحَاتِ ، وَفِيهَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا يَسَّرَ غَيْرَ إِلَى ثَوْرٍ ، فَمَنْ أَخَذَتْ فِيهَا حَدَثًا ، أَوْ آوَى مُحَدِّثًا ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَذْلًا ، ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ ، يَسْعَى بِهَا أَذْنَاهُمْ ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَذْلًا ، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ ، أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَذْلًا » ^(٣) . متفق عليه .

« ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ » أَي : عَهْدُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ . « وَأَخْفَرَهُ » : نَقَضَ عَهْدَهُ « الصَّرْفُ » : الثَّوْبَةُ ، وَقِيلَ : الْحِيلَةُ . « وَالْعَذْلُ » : الْفِدَاءُ .

١٨٠٥ - وَعَنْ أَبِي دَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ ، وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ ؛ فَلَيْسَ مِنَّا ، وَلَيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ الثَّارِ ، وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ ، أَوْ قَالَ : عَدُوُّ اللَّهِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ » ^(٤) متفق عليه ، وهذا لَفْظُ رَوَايَةِ مُشْلِمٍ .

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١١٥) وأحمد في مسنده (١٧٤/١) وابن ماجه في الحدود (٢٦١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٨٦) ومسلم في الإيمان (١١٣) وأحمد في مسنده (٥٢٦/٢) بنحوه . قوله « لَا تَزْعَبُوا » أي لَا تَبْرُوا .

(٣) أخرجه مسلم في العتق (٢٠) والبخاري في الفرائض (٦٧٥٥) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٨١/١) . قوله « أَسْنَانُ الْإِبِلِ » أي في تلك الصحيفة بيان أسنان الإبل التي تعطى دية ، قوله « ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ » أي أمان المسلمين للكافرين واحد ، فإذا آمنه أحد المسلمين حرم على غيره التعرض له ما دام في أمان المسلمين ، قوله « يسعى بها أذناهم » أي يتولاها ويولي أمرها أدنى المسلمين مرتبة ، قوله « أخفر مسلماً » أي من نقض أمان مسلم فتعرض لكافر آمنه ذلك المسلم .

(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٨) ومسلم في الإيمان (١١٢) والإمام أحمد في المسند (١٦٦/٥) . قوله « ليس من رجل ادعى لغير أبيه » فيه تأويلان : أحدهما : أنه في حق المستحل . والثاني : كفر النعمة والإحسان وحق الله تعالى وحق أبيه . وليس المراد الكفر الذي يخرج عن ملة الإسلام . والتعبير بالرجل جرى مجرى الغالب ، وإلا فالمرأة كذلك .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه ، أو توليه غير مواليه .

فذكر رحمته شيئين كلاهما لحمه يلتحم الناس بعضهم ببعضهم به ، ويدنو بعضهم من بعض .

الأول : النسب ، والثاني : الولاء ، وقد قال النبي ﷺ : « الولاء لحمه كلحمه النسب » ^(١) .

أما النسب : فإن الإنسان يجب عليه أن ينتسب إلى أهله : أبيه ، جده ، جد أبيه .. وما أشبه ذلك ، ولا يحل له أن ينتسب إلى غير أبيه وهو يعلم أنه ليس بأبيه ، فمثلاً : إذا كان أبوه من قبيلة ما ، ورأى أنها فيها نقص عن غيرها ، فانتسب إلى قبيلة ثانية أعلى حسباً ، لأجل أن يزيل عن نفسه عيب قبيلته ، فإن هذا - والعياذ بالله - ملعون ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً .

وأما إذا انتسب الإنسان إلى جده ، وأبي جده ، وهو مشهور ومعروف دون أن ينتفي من أبيه فلا بأس بهذا ، فقد قال النبي ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب ، أنا النبي لا كذب » ^(٢) مع أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فعبد المطلب جده ، ولكنه ﷺ قال ذلك في غزوة حنين ، لأن عبد المطلب أشهر من أبيه عبد الله ، وهو عند قريش في المكانة العليا ، لكنه من المعلوم أنه محمد بن عبد الله ، فلم ينتف من أبيه ، وكذلك أيضاً الناس ينتسبون إلى اسم القبيلة : فيقول مثلاً : أحمد ابن تيمية وما أشبه ذلك ، لكن المهم الذي عليه الوعيد هو الذي ينتسب إلى غير أبيه ، لأنه غير راض بحسبه ونسبه فيريد أن يرفع نفسه وخسيسته بالانتماء إلى غير أبيه فهذا هو الذي عليه اللعنة والعياذ بالله .

يوجد - والعياذ بالله - من يفعل ذلك للدنيا ، ينتسبون إلى أعمامهم دون آبائهم ، للدنيا ، هذا حرام عليه ، والواجب على من كان كذلك أن يعدل من انتماؤه وتبعيته ، ومن اتق الله جعل له من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب . والله الموفق .

أما حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه أعلن وهو على المنبر أنه ليس عندهم شيء خصهم به الرسول ﷺ إلا كتاب الله ، وهذا عام لكل أحد ، والمراد بكتاب الله : ما يقرأه المسلمون اليوم من أولهم إلى آخرهم صغاراً وكباراً ، لم يزد فيه أحد ، ولم ينقص منه أحد ، وفي هذا رد على الرافضة الشيعة الذين يدعون أن القرآن الكريم قد حُذف منه ثلثه ، وحذفت منه سورة الولاية وما أشبه ذلك ، فخرجوا عن إجماع المسلمين ﷺ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِيهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء : ١١٥] وفي إقسام أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو الخليفة الرابع وهو البار الصادق بدون قسم - أن النبي ﷺ لم يخصهم بشيء ، دليل على كذب الرافضة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤١/٤) والبيهقي في السنن (٢٤٠/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٠) ومسلم في الجهاد (٧٨) والترمذي في السنن (١٦٨٨) وأبو داود

في السنن (٤٨٧) وأحمد في مسنده (٢٦٤/١) .

الشيعية الذين يقولون : إن النبي ﷺ عهد بالخلافة إلى علي بن طالب ، وأن أبا بكر وعمر ظالمون معتدون كافرون منافقون هكذا - والعياذ بالله - يصفون خير هذه الأمة بهذه الأوصاف ، نسأل الله العافية ، ونسأل الله أن يجازيهم بما يستحقون به من عدله إنه على كل شيء قدير . فعلي بن أبي طالب إن كانوا صادقين في محبته وولايته وأنهم يتولونه وأنهم شيعته ؛ فليصدقوه بهذا اليمين الذي أقسم به على النبر - وهو يخطب الناس - معلناً أن النبي ﷺ ما خصهم بشيء أبداً إلا كتاب الله الذي يقرأه المسلمون صغارا وكبارا إلى يومنا هذا - والحمد لله - « وما في هذه الصحيفة » ثم نشرها ، وقرأ فيها شيئا من أسنان الإبل في الزكاة والثياب والجراحات ، التي لم تبين في هذا الحديث ، وإنما بينت في أحاديث أخرى ، وذكر فيها : « أن المدينة حرام ما بين غير إلى ثور » فالمدينة لها حرم كحرم مكة ، لكنه دون حرم مكة في الفضيلة ؛ لأن حرم مكة لا يمكن لمؤمن يتم إيمانه إلا أن يقصده حاجا ومعتبرا بخلاف حرم المدينة ، ثم إن المحرمات في المدينة أخف من المحرمات في مكة ، ولهذا يجب في حرم مكة في قتل الصيد الجزاء ، ولا يجب هذا في حرم المدينة ، وليس هذا موضوع ذكر الفروق بين الحرمين فهي حوالي ستة أو سبعة فروق معروفة ، وما بين غير إلى ثور معروف أيضا ، فإن هذا الحرم مساحته أربعة فراسخ في أربعة فراسخ ، هذا الحرم يقول النبي ﷺ : « من أحدث فيه حدثا أو أوى محدثا ؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ^(١) ، أحدث حدثا في أي شيء : في العقيدة ، في المنهج ، في السلوك مخالفاً للمسلمين ؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وكذلك من أوى محدثا - يعني أدخله المدينة - وهو يعلم أنه صاحب حدث فأواه ونصره وأدخله في منزله وتستر عليه وما أشبه ذلك ، هذا يكون أيضا مشاركا له في الإثم ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

الجملة الثانية : (أن ذمة المسلمين واحدة) : يعني عهدهم واحد ، إذا عاهد أحد من المسلمين ممن لهم ولايات العهد ثم خفر ذمة أحد ؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فمثلا : إذا دخل كافر إلى البلد في أمان وعهد ممن لهم ولاية العهد أو غيرهم ممن له الأمان ثم خفره أحد ؛ استحق اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين ، لو أن كافرا دخل بأمان وآواه رجل مؤمن وقال له : ادخل أنت في جوارى . ثم جاء إنسان وقتل هذا الكافر - رغم أمانه من المسلم - فعلى القاتل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - نسأل الله العافية - كيف إذا دخل بأمان من ولي الأمر ، على أنه مؤتمن وفي جوار وأمان الدولة ، ثم يأتي إنسان فيقتله ، هذا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وفي هذا دليل على حماية الدين الإسلامي لمن دخل بأمانه وجواره ، وأن الدين الإسلامي لا يعرف الغدر والاعتيال والجرائم ، إنه دين صريح .

وبهذا نعرف غلط من يغدرون بالذم ويخونون ويقتلون أناسا لهم عهد وأمان ، وأن هؤلاء مستحقون لما أعلنه أمير المؤمنين علي عليه السلام « عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » - والعياذ بالله - نعم ، الحربي الذي يدخل بدون أمان لم يعطه أحد من المسلمين الأمان ، ويدخل مستخفيا ليكون

(١) أخرجه مسلم في العتق (٢٠) وأحمد في مسنده (٥٦٢/٢) وأبو داود في الحج (٢٠٣٤) والترمذي في الحج (٢١٢٧) .

جاسوساً للعدو ، أو مفسداً في الأرض ، هذا يُقْتَلُ . أما إنسان دخل بأمان من الدولة أو أمان من أي طرف من المسلمين ؛ فهذا لا يُقْتَلُ ، فهو نفس محترمة معصومة ، من غدر بها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وبهذا نعرف خطأ ما نسمعه في بعض البلاد من الاعتداء على الآمنين الذين لهم عهد من الدولة تجدهم آمنين بذلك ، ثم يأتي إنسان باسم الإسلام فيغتالهم ! . لا ، فالإسلام لا يعرف الغدر يقول الله ﷻ : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل: ٩١] ويقول ﷻ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ تَلْعَنُوكَ أَيْمَنُكَ دَخَلًا يَبِينُكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أَرَبٍ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ [النحل: ٩٢] ، العهد شيء عظيم والغدر به فظيع - والعياذ بالله - ليس من الإسلام في شيء ، لكن بعض الجهال يظنون أن يخفوا غيرتهم بما لا يطابق الكتاب والسنة وهذا خطأ ، المؤمن مقيد بما جاء به الشرع وليس الإيمان بالهوى ، ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون: ٧١] . والله أعلم .

* * *

٣٦٨ - باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله ﷻ أو رسوله ﷺ عنه

قال الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] . وقال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج: ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ^(١) [هود: ١٠٢] .
١٨٠٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » ^(٢) متفق عليه .

الشرح

ذكر النووي - رحمه الله تعالى - باب التحذير من الوقوع فيما نهى الله ورسوله محمد ﷺ عنه . يعني أن الإنسان يجب أن يكون حذراً من الوقوع في المحرمات ولا يتهاون ، ولا يغلبه الأمن من مكر الله ﷻ . فإن بعض الناس يغره الشيطان : يقول : افعل المعصية واستغفر الله ، افعل المعصية ورحمة الله تعالى سبقت غضبه ، افعل المعصية فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] إلى غير ذلك من الأمانى الكاذبة التي يغري بها الشيطان بني

(١) قوله ﷻ : ﴿ نَفْسَهُ ﴾ أي عقابه . قوله ﷻ : ﴿ بَطْشٌ ﴾ أي أخذه بالعنف لأعدائه . قوله ﷻ : ﴿ أَخَذَ الْقُرْآنَ ﴾ أي : أهلك أهلها . قوله ﷻ : ﴿ أَلِيمٌ ﴾ أي مروع .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٢٣) ومسلم في التوبة (٣٦) وأحمد في مسنده (٣٨٧/٢) .

آدم : ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُعَذِّبُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] ، فالواجب الحذر مما نهى الله ورسوله عنه ، ثم استدلل المؤلف رحمته بآيات من كتاب الله منها : قول الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ : أي عن أمر رسول الله صلوات ومعنى يخالفون عنه : يخرجون عنه ولا يبالون به ويرتكبونه ليحذروا ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فتنه في قلوبهم - والعياذ بالله - يلقي في قلوبهم من الشك فيما يجب اليقين فيه ، أو الشهوة فيما يحرم تناوله ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمته : أتدري ما الفتنه ؟ الشرك ، لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيف فيهلك - والعياذ بالله - فاحذر الفتنه ، احذر المخالفة عن أمر الله ورسوله . ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : يعني عذاب مؤلم إما في الدنيا وإما في الآخرة . قال الله تعالى : - ﴿ وَنَعَذِّبُكُمْ اللَّهُ نَفْسًا ﴾ : يعني : احذروا الله تعالى فإنه شديد العقاب كما قال تعالى : ﴿ نَبَتْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩] وقال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٨] فبدأ بالعقاب وثنى بالمغفرة ، لئلا يغلب الأمن من مكر الله ، والإنسان إذا أمن من مكر الله أصابه البلاء والعذاب ، ولهذا قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ ﴾ ﴿ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُجًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾ ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧-٩٩] الآمن من مكر الله هو المغالي وأنه يعمل ما يشاء من المعاصي ولا يخافه لكنه في الحقيقة خاسر ؛ لأن ماله العذاب والنكال نسأل الله العافية - وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ فسرهما النبي صلوات بقوله : إن الله ليملي للظالم - يعني يمهله ويدعه يظلم نفسه - حتى إذا أخذه لم يفلته وتلا قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ^(١) . فالحذر الحذر من التهاون بمعصية الله تعالى حتى إن من أهل العلم من قال : إن الرجل إذا فعل المعصية متهاوناً بها ولو كانت صغيرة صارت كبيرة والعياذ بالله لما قام في قلبه من التهاون بها نسأل الله أن يأمننا وإياكم من أسباب عقابه وغضبه .

٣٦٩ - باب ما يقوله ويفعله من ارتكب منهياً عنه

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [فصلت : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الَّذِينَ أَتَقَوَّا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠٢] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦) ، والترمذي في السنن (٣١١٠) ، وابن ماجه في السنن (٤٠١٨) .

وَجَعَلْتُ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِّدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) [النور: ٣١] .
 ١٨٠٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « مَنْ خَلَفَ فَقَالَ فِي خَلِيفِهِ : بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى ؛ فَلْيَقُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ : تَعَالَ أَقَامُوكَ ؛ فَلْيَتَصَدَّقْ » (٢) . متفق عليه .

الشرح

سبق لنا الكلام على أنه لا يجوز للإنسان أن يغتر في إمهال الله تعالى له ، وأن يرتكب المعاصي بناءً على أن الله لن يعاجله بالعقوبة ، وأن هذا من باب الأمن من مكر الله صلى الله عليه وسلم وذكرنا أن الله تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وتلا قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ . وكثير من الناس يتهاون في هذا الأمر ، يعصى الله فينتهي عن ذلك ، ويترك الواجب فيؤمر بفعله ، ويقول : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وأنا لست مشركاً بالله فيقال له : إن الذي قال ذلك هو الذي قال : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وقال : ﴿ نِعَمَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ ولا يجوز لك أن تغتر بإمهال الله لك ، ربما يمهل الله العبد على معاصيه ويستدرجه من حيث لا يعلم ، حتى إذا أخذه أخذه عزيز مقتدر والعياذ بالله فإياك أن تتهاون راقب الله صلى الله عليه وسلم ، واعلم أنه لكل داء دواء ، فإذا مَسَّكَ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرَ وَاتْعَظَ وَأَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ وَتَبَّ إِلَى اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وكن كمن قال الله فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَصُورُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . والتوبة لا بد فيها من شروط خمسة :
 الأول : الإخلاص لله صلى الله عليه وسلم ، ألا يحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد من الخلق ، ولا أن ينال بذلك جاهاً أو رئاسة ؛ بل يخلص النية لله صلى الله عليه وسلم خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه .

الثاني : الندم على ما فعل من الذنب ، بحيث لا يتساوى عنده الذنب وعدمه ، بل يندم على ما حصل منه ، يتحسر في نفسه ، ويقول : ليتني لم أفعل هذا ، لكنه يخضع لقضاء الله وقدره ويتوب إلى الله صلى الله عليه وسلم .

الثالث : الإقلاع عن الذنب ، بترك المعصية إن كان الذنب معصية ، أو فعل الواجب إن كان الذنب بترك الواجب يمكن تداركه ، فيما أن يصير على الذنب ويرجوا التوبة فهذا خطأ ، وهو من الأمانى الكاذبة ، بعض الناس يقول : أستغفر الله ، وأتوب إليه من الغيبة ، وهو يفتاب الناس ، يقول :

(١) قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَزَعَنَّكَ ﴾ أي يفسدك . قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ أي تحصن . قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ طَلِيفٌ ﴾ أي : لمة أو وسوسة . قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يُصَيِّرُوا ﴾ أي يتمسكوا .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٥٠) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده . قوله « اللات » اسم صنم كان لثنيف بالطائف . قوله « العزى » اسم صنم كان لفظفان .

أستغفر الله من الربا ، وهو يأكل الربا - يقول : أستغفر الله وأتوب إليه من حقوق الناس ، وهو يأكل حقوق الناس ، يماطل في الحق الذي عليه مع قدرته على وفائه ، وغير ذلك من الأمور التي يكذب بها الإنسان على نفسه في أنه تائب وهو لم يتب .

وإذا كان الذنب حقاً لآدمي ؛ فلا بد أن يوصله إليه : أخذ مالا من شخص ، سرق منه مالا وجاء يسأل يقول : إنه تائب ، نقول : رد المال إلى صاحبه ، أما بدون أن ترده فالتوبة لم تتم ، كذلك إذا كانت توبته من أكل لحم الناس يغتاب شخصاً يسبه في المجالس ، وقال : إنه تائب إلى الله نقول له : اذهب واطلب منه أن يحللك حتى تنفك التوبة ، وإنما قيدنا هذا بما إذا كان قد علم أنك قد اغتبتة ، وإلا فلا حاجة أن تخبره ، أثن عليه بالخير في المجالس التي كنت تشبه فيها ثم استغفر الله له .

الرابع : العزم على ألا يعود ، يعني : لا يتوب إلى الله وهو عازم على أن يعود متى سححت الفرصة ، فإن هذه ليست توبة ، بل يجب أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب .

الخامس : أن تكون التوبة في وقت القبول ، وذلك بأن يتوب قبل أن يحضره الموت ، أو قبل أن تطلع الشمس من مغربها ، فإن لم يتب إلا إذا حضره الموت ؛ فإن التوبة لا تتم .

ومن هذا نعرف أن التوبة واجبة على الفور بدون تأخير ؛ لأن الإنسان لا يدري متى يفاجأ بالموت ؛ فيجب عليه أن يكون مستعداً - نسأل الله تعالى أن يتوب علينا وعليكم وأن يتوفانا على الإيمان . وقد ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - ما يقوله ويفعله من فعل محرماً .

وذلك أن الإنسان ليس معصوماً من الذنب ، فلا بد لكل إنسان من ذنوب كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » ^(١) وقال ﷺ : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ثم جاء يقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » ^(٢) فلا بد للإنسان من ذنب ، ولكن ماذا يصنع ؟ يجب عليه إذا أذنب ذنباً أن يرجع إلى الله ويتوب إليه ويندم ويستغفر حتى يتمحي عنه ذلك الذنب . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ يعني إذا نزغك الشيطان وألقى في قلبك الزيف والعصية فاستعذ بالله ، فإذا هممت بمعصية سواء كان فيما يتعلق بحق الله أو بحق المخلوق فقل : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فإذا قلت ذلك بإخلاص ؛ فإن الله يعينك ويعينك من الشيطان الرجيم ويعصمك منه .

وقال الله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ : أي وقع في قلوبهم زيف وعملوا عملاً سيئاً تذكروا ، اعتبروا ، ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ فيعرفون أنهم في غيٍّ وحينئذ يستغفرون الله تعالى كما قال في الآية الأخرى التي ساقها المؤلف ﷺ في أوصاف المتقين :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٩) ، وأحمد في مسنده (١٩٨/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (١١) ، وأحمد في مسنده (٢٨٩/١) ، والهيثم في مجمع الزوائد (٢١٥/١٠) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٩٩/٤) .

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ .

﴿إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ يعني سيئة عظيمة ، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ : بما دون ذلك ذكروا الله بقلوبهم وألستهم ، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ : سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ، ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ : يعني لا أحد يغفر الذنوب إلا الله لو اجتمع أهل الأرض كلهم وأهل السماوات كلهم على أن يرفعوا عنك ذنبا واحدا ما استطاعوا أبدا ، كل الخلق لو أرادوا أن يمحو عنك ذنبا واحدا ما استطاعوا ، لا يغفر الذنوب إلا الله ، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ : يعني لم يستمروا في معصيتهم وذنوبهم وهم يعلمون أنهم على ذنب ، أما لو أنهم فعلوا ذنبا وأصرروا عليه وهم لا يعلمون أنه ذنب فإن الله تعالى لا يؤاخذهم ، لقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا نَاسِيَةً أَوْ غَافِلِينَ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .
﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَّتَّعِفَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَفِيهِمْ أَجْرٌ الْعَمِلِينَ﴾ : يعني هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات هذا جزاؤهم عند الله .

وقال الله تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ توبوا إلى الله ، هذه ذكرها الله تعالى بعد الأمر بغض البصر وعدم إبداء الزينة من النساء ، قال بعد ذلك : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ والتوبة إلى الله تعالى هي الرجوع إليه ﷻ من معصيته إلى طاعته ، ومن الإشراف به إلى توحيده ، ومن البدعة إلى اتباع الرسول ﷺ ، أن يرجع الإنسان إلى ربه فيندم على ما فعل ، ويعزم على ألا يعود ، ويستغفر الله ﷻ . وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ : أي لأجل أن تفلحوا ، والفلاح هو الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرغوب ، والتوبة واجبة من كل ذنب ، لا تتهاون في الذنوب ، لا تقل : هذا سهل يغفره الله ؛ لأنه ربما تراكم الذنوب على القلب والعياذ بالله فيصبح مظلما وينسد عليه باب الخير ، كما قال الله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤] تب إلى الله من كل ذنب .

وفي الحديث الذي ساقه المؤلف عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : « من حلف باللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله » . اللات : صنم يعبد الجاهليون في الجاهلية وكذلك العزى ، كما قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةِ أَتَىٰهُنَّ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] كانوا يحلفون بهما كما يحلفون بالله فيقولون : واللات ، أو واللات والعزى ، فإذا قال الإنسان ذلك ؛ فإنه شرك يداوى بالإخلاص ، ولهذا قال : « فليقل : لا إله إلا الله » ليداوي الشيء بضده .

« ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك ؛ فليصدق » هذا أيضا من دواء الشيء بضده ، المقامرة : الرهان على أي شيء ، فمن قال هذا فقد قال قولا حراما ؛ فعليه أن يتوب ، ومن توبته أن يتصدق . وكذلك أيضا يقال : من فرط في واجب ، فإن دواءه أن يتوب إلى الله ويكثر من عمل الصالحات حتى يكون دواء لذلك . نسأل الله تعالى أن يتوب علينا وعليكم ويوفقنا لما يحبه ويرضاه .

كتاب المنثورات والملح

٣٧٠ - باب المنثورات والملح

١٨٠٨ - عَنِ الثَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ عَدَاةٍ ، فَحَقَّقَ فِيهِ ، وَرَفَعَ ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ . فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ ، عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا ، فَقَالَ : « مَا شَأْنُكُمْ ؟ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ الْعَدَاةَ ، فَحَقَّقْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَقَالَ : « غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفَنِي عَلَيْكُمْ ؛ إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ ، فَأَنَا حَاجِبُكُمْ دُونَكُمْ ؛ وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ ، فَاْمُرُوا حَاجِبَ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ . إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ ، كَأَنِّي أَشْبُهُهُ بِعَبْدِ الْعَزَّى بْنِ قَطَنِ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاحِ شُورَةِ الْكَهْفِ : إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، فَعَاتَ بَيْمَنَا وَعَاتَ شِمَالًا ، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَانْبِئُوا » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ ؟ قَالَ : « أَرَبْعُونَ يَوْمًا : يَوْمَ كَسَنَةِ ، وَيَوْمَ كَشْهَرٍ ، وَيَوْمَ كُجْمَعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَسَنَةِ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ ؟ قَالَ : « لَا ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ ؟ قَالَ : « كَالْعَيْثِ اسْتَدْبَرْتُهُ الرِّيحُ ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ ، فَيَدْعُوهُمْ ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فْتُمْطِرُ ، وَالْأَرْضَ فْتَنْثِيثُ ، فَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دُرَى ، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا ، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ ، فَيُرْدُونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ ، فَيُضْبِحُونَ مُنْجِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُوتُ بِالْخَرَبَةِ فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكَ ، فَتَنْبِغُهُ كُنُوزُهَا كَيْفَاسِيبِ النَّخْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِكًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ ، فَيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْنِ رَمِيَّةَ الْعَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ ، فَيَقْبِلُ ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِي دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ ، وَاضِعًا كَفَّهُ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرٌ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّوْلُو ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي إِلَى حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِنَابٍ لَدَى فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ﷺ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وَجُوهِهِمْ ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عِيسَى ﷺ إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ ، فَحَزَزَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ . وَيَبْعَثُ اللَّهُ بِأَجُوجَ وَمَاجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِئَةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةٌ مَاءٌ ، وَيُخَصِّرُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ وَأَصْحَابَهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُضْبِحُونَ فَوْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ إِلَى الْأَرْضِ ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شَيْءٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَتَنَتُّهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ

وَأَصْحَابُهُ ﷺ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى طَيْرًا كَأَعْتَاقِ الْبُخْبِ ، فَتَحْمِلُهُمْ ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ ﷻ مَطَرًا لَا يُكِنُّ مِنْهُ نَيْثٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَثْرَكَهَا كَالرَّلَقَةِ ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ : أَنْتِ ثَمَرَتِي ، وَزُودِي بَرَكَتِي ، فَيَوْمِئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا ، وَيُبَارِكُ فِي الرُّسُلِ حَتَّى إِنْ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْغَنَامَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخْذَ مِنَ النَّاسِ ، فَيَنْبَغِي هُنَّ كَذَلِكَ ؛ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رِيحًا طَيِّبَةً ، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاتِهِمْ ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ ؛ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارِجَ الْحُمْرِ ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ ^(١) رواه مسلم .

قوله : « خَلَّةٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ » : أي : طَرِيقًا بَيْنَهُمَا . وَقَوْلُهُ : « عَاثٌ » بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَالثَاءِ الْمُثَلَّثَةِ ، وَالْعَيْثُ : أَشَدُّ الْفَسَادِ . « وَالذَّرَى » : بَضْمُ الذَّالِ الْمُعْجَمَةِ وَهِيَ أَعَالِي الْأَسْنِمَةِ . وَهُوَ جَمْعُ ذِرْوَةٍ بَضْمُ الذَّالِ وَكَسْرُهَا « وَالْيَغَاسِبُ » ذُكُورُ النَّحْلِ . « وَجَزَلَتَيْنِ » أي : قِطْعَتَيْنِ ، « وَالْعَرَضُ » : الْهَدَفُ الَّذِي يُرْمَى إِلَيْهِ بِالنَّشَابِ ، أي : يَزِمِيهِ رَمِيَّةٌ كَرَمِي النَّشَابِ إِلَى الْهَدَفِ . « وَالْمَهْرُودَةُ » بِالذَّالِ الْمُهْمَلَةِ وَالْمُعْجَمَةِ ، وَهِيَ : الثُّوبُ الْمَصْبُوغُ . قَوْلُهُ : « لَا يَدَانِ » أي : لَا طَاقَةَ . « وَالنَّعْفُ » : دُودٌ . « وَفَوْسَى » : جَمْعُ فَرِيسٍ ، وَهُوَ الْقَيْلُ ؛ وَ « الرَّلَقَةُ » : بَفَتْحِ الرَّايِ وَاللَّامِ وَالْقَافِ ، وَرُوي « الرَّلَقَةُ » بَضْمُ الرَّايِ وَإِسْكَانِ اللَّامِ وَالْفَاءِ ، وَهِيَ الْمِرْأَةُ . « وَالْعِصَابَةُ » : الْجَمَاعَةُ . « وَالرُّسُلُ » بِكَسْرِ الرَّاءِ : اللَّبَنُ « وَاللَّفْحَةُ » : اللَّبُونُ ، « وَالْفِئَامُ » بِكَسْرِ الْفَاءِ وَبَعْدَهَا هَمْزَةٌ مَمْدُودَةٌ : الْجَمَاعَةُ . « وَالْفَخْذُ » مِنَ النَّاسِ : دُونَ الْقَبِيلَةِ .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ كتاب المنشورات والملح .

والمنشورات : يعني أنها من أبواب متفرقة ، ليست من باب واحد

والملح : جمع مُلْحَةٍ وهي ما يُسْتَمَلَحُ ويُستعذب . ثم ذكر الباب الأول : باب الدجال وأشرار الساعة . الدجال : مبالغة من الدجل وهو الكذب ، والدجال : يعني كثير الكذب ، الذي لا يتصف

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) وأحمد في مسنده (٣٢٩/٣) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٧٥) . قوله « فحفض فيه ورفع » أي حقر من شأنه وعظم ، قوله « قطط » أي شديد جعودة الشعر ، قوله « تروح عليهم سارحتهم » أي ترجع مواشيتهم التي تذهب أول النهار في آخر النهار ، قوله « فيصبحون ممحلين » أي أصابهم الجذب من قلة المطر ويس الأرض من الكلال ، قوله « مهرودين » أي ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران ، قوله « جمان اللؤلؤ » أي حبات اللؤلؤ . والمراد أن الماء ينحدر منه على هيئة اللؤلؤ في صفائه ، قوله « باب لد » قرية قرية من بيت المقدس ، قوله « فحرز عبادي إلى الطور » أي صمّمهم واجعله لهم حرزا ، قوله « من كل حدب ينسلون » أي من كل موضع مرتفع يمشون مسرعين ، قوله « زهمهم » أي دسمهم ، قوله « البخت » هي جمال طوال الأعناق ، قوله « بقحفها » أي ما بقي من قشرها ، قوله « يتهارجون فيها تهارج الحمير » أي يجامع الرجال النساء علانية بحضرة الناس كما يفعل الحمير .

إلا بالكذب ، وأما أشرط الساعة : فهي علامات قربها كما قال الله تعالى : ﴿ قَهْلَ يُنْظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: ١٨] يعني : علاماتها القريبة ، ثم ذكر حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه الطويل وفيه : « أن النبي ﷺ ذكر الدجال ذات غداة » يعني ذات صبح في يوم من الأيام « فخفض فيه ورفع » يعني أنه تكلم بكلام طويل ، حتى ظنوا أنه في طائفة النخل : يعني ظنوا أنه ذكر في المدينة وأنه قد جاء ، ولكن الأمر لم يكن كذلك . ثم إن النبي ﷺ عرف ذلك فيهم فسألهم فقالوا : إنك ذكرت الدجال الغداة وخفضت فيه ورفعت فظننا أنه في النخل . فقال : « غير الدجال أخوفني عليكم » يعني أخاف عليكم شيئا أشد من الدجال ، ومن ذلك الرياء ، حيث ثبت عنه ﷺ أنه قال : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فُسَيْلٌ عنه فقال : الرياء » ^(١) أن الإنسان يُرائي في عبادته : يصلي لأجل الناس ، يتصدق لأجل الناس ، يحسن الخلق لأجل الناس .. فهذا رياء والعياذ بالله والمرء حابط عمله ، والرياء من صفات المنافقين كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ [النساء: ١٤٢] واعلم أيها المرائي أن الله سيفضحك عن قرب ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من رأى راءى رأى الله به » ^(٢) يعني أظهر مُراءاته وعبوبه عند الناس ، ومن سَمِعَ سَمِعَ الله به . ثم قال ﷺ : « إن يظهر وأنا فيكم فأنأ حجيجه دونكم » : يعني لو خرج الدجال وأنا موجود فأنأ أكفيكم إياه ، وإن يخرج يعني ولست فيكم فامرء حجيح نفسه يعني كل إنسان يحتاج عن نفسه ، « والله خيلفتي على كل مؤمن » فاستخلف ربه ﷻ أن يكون مؤيدا للمؤمنين واقيا لهم من فتن الدجال الذي ليس بين خلق آدم وقيام الساعة فتنة أشد منها نسأل الله أن يقينا وإياكم فتنه . والله الموفق .

وقد روى المؤلف رحمه الله تعالى عند سياق حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في ذكر الدجال : « إنه شاب قَطَطٌ عينه طافية » : شاب من بني آدم ، قَطَطٌ : يعني مجتمع الخلق ، عينه طافية : يعني أنه لا يبصر بها كأنه عنبه طافية كما قال النبي ﷺ ، فهو أعور خبيث ، لكن الله ﷻ يرسله فتنة للناس فيأتي إليهم يدعوهم ويدعي أنه رب ، وقد مكن الله له ، فكان يأتي القوم يدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبث ، يشاهدون ذلك بأعينهم ، يقول : أيتها السماء : أمطري ، فتمطر ، أيتها الأرض أنبتي ، فتنبث ، لكن ليس بقدرته وقوته بل بإرادة الله ﷻ لكن الله مكن له ابتلاء وامتحاناً ، « فيصبحون تروح عليهم سارحتهم » يعني الغنم والإبل أكثر ما يكون ذروعا وأوفر ما تكون ذرى وأمدتها خواصر ، تمتلئ بطونها ، وتمتلئ دروعها ، ويكون عليها الشحم ، ويأتي القوم فيدعوهم فلا يستجيبوا له ، فينصرف ، فيصبحون محملين ليس لهم من أموالهم شيء ، الأرض ييسب ، والسماء لا تمطر والمال يمور ، ولكن هؤلاء هم الذين لهم الأجر والثواب ، وعاقبتهم حميدة ، أما الأولون الذين آمنوا به وأمطرت لهم السماء وأنبتت لهم الأرض ؛ فهم خاسرون وإن ظنوا أنهم رابحون ، ويأتي إلى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٨/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٠١/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٤٧) .

الخربة ، أرض خربة ما بها بناء وما بها أناس ، فيقول : أيتها الأرض أخرجي كنوزك ، فتخرج كنوزها وما بها من معادن : ذهباً ، وفضة وغير ذلك « فتتبعه كي عاسيب النحل » ثم إنه يبقى في الأرض أربعين يوماً : اليوم الأول طوله طول سنة (٣٦٠) يوماً ، والثاني مقداره شهر (٣٠) يوماً ، والثالث مقداره أسبوع ، وباقي الأيام وهي سبعة وثلاثون يوماً كالأيام المعتادة ، ولكن الله ﷻ نبه الصحابة ، قالوا : يا رسول الله هذا اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاة واحدة ؟ « قال لهم : لا ، اقدروا له قدره » يعني صلوا صلاة كاملة في يوم واحد ، وهذا ما يؤخذ به يقال : لإنسان وجب عليه صلاة سنة كاملة في يوم واحد ، وأيضاً يقال : وجبت زكاة ماله في يوم واحد ، وأيضاً يقال : يصوم رمضان بعض يوم يعني جزءاً من اثني عشر جزءاً من هذا اليوم ، نقول : هذا يوم الدجال وسبحان الله الحكيم الذي أكمل لنا الدين قبل موت سيد المرسلين ﷺ ، أنطق الله الصحابة أن يسألوا عن هذا اليوم : هل تكفي فيه صلاة واحدة أم لا ، يوجد الآن في الأرض من يومهم ستة أشهر ، وليلهم ستة أشهر ، عند المدار القطبي ستة أشهر والشمس عليهم ، وستة أخرى والشمس لا يرونها . فكيف يصلي هؤلاء ... يصلون صلاة يوم وليل فقط أو يقدرون لها قدرها ؟ نقول : يقدرون لها قدرها كيوم الدجال تماماً ، اليوم الثاني من أيام الدجال كشهر كيف تكون فيه الصلاة ؟ .. يصلون صلاة شهر ، واليوم الثالث يصلون صلاة أسبوع ، واليوم الرابع وما بقي كالعادي ، ثم سألوهم الصحابة عن سيره في الأرض هل هو كالسير المعتاد كسير الإبل أو الأرجل ؟ قال : يسير كالغيث إذا سيرته الريح والله أعلم ، كيف هذا الذي أخبر به النبي ﷺ أنه يكون كالغيث - أي المطر - سنة وشهر وأربعة وأربعون يوماً ثم ينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقتله .

ثم ساق المؤلف رحمه الله في باب المنشورات والملح وأشرطة الساعة وغيرها حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه الذي حدث به عن النبي ﷺ عن شيء من أشرطة الساعة ومنها الدجال ، وسبق أن الدجال هو ذو الدجل والكذب والتمويه والتغدير وأنه كافر ، وأنه خارج بين الشام والعراق - يعني يخرج من طريق بين الشام والعراق - من قبل إيران ، ويتبعه من يهود أصفهان سبعون ألفاً ، وكأنهم - والله أعلم - يجتمعون هناك ليتبعوا الدجال ؛ لأن اليهود أهل دجل وكذب وغدر وخيانة .

ثم ذكر من فتنته : أنه يأتيه شاب ممتلئ شباباً ، من المسلمين فيقول له : أشهد أنك الدجال الذي أخبرنا عنه النبي ﷺ ، فيقطعه نصفين بالسيف ، واحدة بعيدة عن الأخرى ، ثم يدعو بعد أن قطعه - يا فلان فيجتمع النصفين ببعضهم البعض ، ويقوم ويقبل على الدجال يتהלل وجهه وكأنه لم يفعل شيئاً ، ثم يقول له : والله أشهد أنك أنت المسيح الدجال ، والله ما ازددت فيك إلا بصيرة ، فيقتله للمرة الثانية ويقطعه نصفين ثم يدعو فيأتي وجهه يتهلل ، ثم يأتي الثالثة فيعجز أن يقتله ، هكذا من فتنه الدجال والإنسان إذا رأى هذا يغتر بلا شك ، ثم إن الله تعالى ينزل عيسى ابن مريم رسول الله ﷺ ينزل يدها على أجنحة ملكين ؛ لأن الملائكة أولو أجنحة ، ينزلان من السماء ، لأن عيسى الآن حي في السماء ، ينزل عند قيام الساعة ليقتل الدجال ، وكأنه - والله أعلم - قد اغتسل بماء طيب ، إذا طأطأ رأسه قطر ماء ، وإذا رفعه تحدر منه مثل الجمان ، ويحتمل أن هذا ماء ، ويحتمل

أنه عرق ، والله أعلم . ثم إنه يطلبه أي يطلب الدجال الخبيث الماكر الأعور فلا يحل لكافر يجد نفس عيسى إلا مات - سبحانه الله - ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، وهذا أيضًا من آيات الله ، يعني أنفاسنا نحن لا تعدو إلا شبرًا أو نحوه ، لكن نفس عيسى ينتهي حيث ينتهي طرفه ، ومعنى ذلك : أنه يقتل أناسًا كثيرين من الكفار ، لأن هذا النفس يطير في الهواء ، ولا يحل لكافر يجد نفسه إلا مات ، ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق هكذا وصفه النبي ﷺ ، وهي لا بد أن توجد عند نزوله ، فيبلغ الدجال فيطلبه فيدركه عند باب لد وهي الآن مثل الطين استعمرها اليهود عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة استعمروها ، يدرك عيسى عليه السلام المسيح الدجال فيقتله هناك ، وبهذا انتهى المسيح الدجال ، وبقي المسيح رسول الله عيسى عليه السلام والله الموفق .

ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله ﷻ من فتنة الدجال ، فيمسح على وجوههم ويشرهم بمنزلهم في الجنة ، فبينما هم كذلك - يعني على حالهم - إذا أوحى الله ﷻ إلى عيسى أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم ، وهؤلاء العباد ليسوا عباد دين بل عباد قدر . ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣] هؤلاء العباد هم يأجوج ومأجوج من كل حذب ينسلون - أي من كل مكان مرتفع ينسلون - لأن الشعاب والأودية لا تسعهم فتجدهم يصعدون الجبال لينزلوا إلى الأرض من كثرتهم ، هؤلاء من بني آدم ليسوا جنًا ولا جنسًا ثالثًا بل هم من بني آدم ، ودليل ذلك : أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا آدم . فيقول لبيك وسعديك ، فيقول الله له : « أخرج من ذريتك بعثًا إلى النار » - أو قال بعث النار - قال : « يارب وما بعث النار ؟ » قال : « من كل ألف تسعمائة وتسعا وتسعين من بني آدم » كل هؤلاء في النار إلا واحدًا في الألف من بني آدم من أهل الجنة - ففكر ذلك على الصحابة وعظم عليهم ، وقالوا : يا رسول الله أينما ذلك الواحد ؟ قال لهم ﷺ : أبشروا ؟ فإنكم في أمتين ما كانا في شيء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، منكم واحد ومنهم ألفا ، فاستبشر الصحابة لذلك ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » ففكر الصحابة فرحًا بنعمة الله ﷻ ثم قال : « أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة » فكبروا وفرحوا ، ثم قال : « أرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة ^(١) » وهذه الثالثة عندي فيها شك ، لكن قد ورد عن النبي ﷺ أن أهل الجنة مائة وعشرون صنفًا منهم ثمانون من هذه الأمة . المهم : أن يأجوج ومأجوج من بني آدم ، شكلهم شكل بني آدم لا يختلفون عنهم . أما ما ورد في بعض الآثار : أن منهم القصير المفرط من القصر ، والطويل المفرط في الطول ، وأن بعضهم يفتش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى كل هذا لا صحة له ، هم من بني آدم ومثلهم ، لكنهم أم عظيمة كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَبْتَئِلُونَ ﴾ أي من كل مرتفع ؛ لأن الأرض السهلة لا تسعهم من كثرتهم ، ﴿ يَبْتَئِلُونَ ﴾ أي يسرعون كأنهم مسلطون على بني آدم ، فيقول ﷻ لعيسى : إني قد بعثت عبادًا لا يدان لأحد بقتالهم - يعني ما لأحد على قتالهم من قوة « فحرز عبادي إلى الطور » يعني احتزوا فيه - والطور جبل معروف ، فيصعد عيسى عليه السلام ومن معه إليه

حتى إنهم يلحقهم من الجوع وشدة المؤنة ما يكون رأس الثور أحب إلى أحدهم من كذا وكذا والدنانير ، وحينئذ يرغب عيسى وقومه إلى الله ﷻ يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم هذه الأمم التي حاصرتهم في هذا الجبل ، فيرسل الله تعالى النغف ، وهو عبارة عن دودة في أعناقهم فيصبحون فرسى - جمع فريسة يعنى موتى - كنفس واحدة كل هذه الأمم التي لا يحصيها إلا الله تموت في ليلة واحدة ؛ لأن الأمر بيد الله ﷻ هذا النغف من حين ما يدخل في أعناقهم يموتون على الفور ، ثم ينزل عيسى ابن مريم وقومه إلى الأرض وإذا الأرض مملوءة من هذه الجثث نتنا ورائحة خبيثة ، فيرغب عيسى وقومه إلى الله ﷻ أن ينقذهم من هذا ، فيرسل الله تعالى طيورًا كأعناق البخت - يعني مثل أعناق الإبل - طيورًا كبيرة قوية تأخذ الواحد منهم وتلقيه في البحر ، ومعنى هذا أنها طيور عظيمة لا يعلمها إلا الله ﷻ كل هذا بقدرة الله ﷻ ؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون ، لكن كما تعلمون لا بد أن يبقى في الأرض شيء من القدر والأذى والرائحة بعد هذه الجثث فيرسل الله تعالى مطراً عظيماً يغسل الأرض لا يُكْرُ منه مدر ولا وبر ، كل الأرض تمتلئ ماء حتى تكون كالزلفة تنظف تنظيماً تاماً بإذن الله ﷻ ، ويأمر الله الأرض أن تخرج بركاتها وثمراتها ، فيكون فيها الثمرات العظيمة ؟ والخير والبركة حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي فقاماً من الناس ، ومن البقر تكفي القبيلة من الناس ، ومن الغنم تكفي الفخذ من الناس ، وهي واحدة لكن الله ينزل فيها البركة فتكفي أماً .. وتكثر الخيرات والبركات ، وكل هذا يدل على عظمة وقدرة الله ﷻ ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ ﴾ [الشرح : ٦ ، ٧] بدلاً من حصرتهم في الطور لا يجدون شيئاً ، إذا بالأرض تنبت وتكثر فيها البركة والثمار .. وغير ذلك ، كل هذا بأمر الله ﷻ . والله الموفق .

* * *

١٨٠٩ - وَعَنْ رَبِيعِ بْنِ جَرَّاحٍ قَالَ : انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ إِلَى حَدِيقَةِ بْنِ الِئْمَانِ فَقَالَ لَهُ أَبُو مَسْعُودٍ : حَدَّثَنِي مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الدَّجَالِ قَالَ : « إِنَّ الدَّجَالَ يَخْرُجُ ، وَإِنَّ مَعَهُ مَاءٌ وَنَارًا ، فَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءً فَتَنًا تُحْرَقُ ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا ، فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَاهُ نَارًا ؛ فَإِنَّهُ مَاءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ » فَقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ : وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ ^(١) . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

١٨١٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ؑ فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ ﷻ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيْمَانٍ إِلَّا قَبِضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ ، لَدَخَلْتُهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ ، فَيَبْقَى شَرَارُ النَّاسِ فِي

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٣٠) ، ومسلم في الفتن وأشرط الساعة (١٠٥ ، ١٠٦) .

حَقَّةُ الطَّيْرِ ، وَأَحْلَامُ السَّبَاعِ لَا يَغْرُقُونَ مَغْرُوقًا ، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارَ رِزْقِهِمْ ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ ، ثُمَّ يُنْفَعُ فِي الصُّورِ ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا ، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ فَيُصْعَقُ وَيُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ : يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُ أَوْ الظَّلُّ ، فَتَنْبُثُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَعُ فِيهِ أُخْرَى ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ ﴿ وَفَقَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ ثُمَّ يُقَالُ : أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ ، فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴿ ^(١) رواه مسلم .

« اللَّيْثُ » صَفْحَةُ الْعُنُقِ ، وَمَعْنَاهُ : يَصْغُ صَفْحَةً عَنْقِهِ وَيَرْفَعُ صَفْحَتَهُ الْأُخْرَى .

١٨١١ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيِّطُوهُ الدَّجَالُ ، إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ؛ وَلَيْسَ نَقَبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِينَ تَحْرُسُهُمَا ، فَيَنْزِلُ بِالسَّبْحَةِ ، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ ، يُخْرِجُ اللَّهُ مِنْهَا كُلَّ كَافِرٍ وَمُتَافِقٍ » ^(٢) رواه مسلم .

١٥١٢ - وَعَنْهُ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَتَّبِعُ الدَّجَالُ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّلِيلَةُ » ^(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٨١٣ - وَعَنْ أُمِّ شَرِيكٍ رضي الله عنها أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « لَيَنْفَرَنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَالِ فِي الْجَبَالِ » ^(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٨١٤ - وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَالِ » ^(٥) رواه مسلم .

١٨١٥ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يَخْرِجُ الدَّجَالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنْ

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١١٦) والإمام أحمد في المسند (١٦٦/٢) والحاكم في المستدرک (٥٥/٤) قوله « في كبد جبل » أي في وسطه وداخله ، قوله « في خفه الطير وأحلام السباع » أي أنهم يكونون في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطيور . وفي العدوان وظلم بعضهم بعضًا في أخلاق السباع العادية ، قوله « يلو ط حوض إبله » أي يطينه ويصلحه ، قوله « يكشف عن ساق » أي يكشف عن هول عظيم .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٢٣) والبخاري في فضائل المدينة (١٨٨١) بنحوه . قوله « نقب » أي خرق . قوله « السبخة » هي الأرض الرملة التي لا تثبت للملوحاتها ، وهذه الصفة خارج المدينة من غير الحرة ، قوله « ترفف » أي تهتز .

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٢٤) قوله « عليهم الطلياسة » هو ثوب يلبس على الكتف يحيط بالبدن ينسج للبس ، خال من التفصيل والخيطة .

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٢٥) وأحمد في مسنده (٤٦٢/٢) . قوله « لينفرن الناس » يقصد بهم المؤمنين .

(٥) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٢٦) وأحمد في مسنده (١٩/٤) والحاكم في المستدرک (٥٢٨/٤) .

المؤمنين فَيَتْلَقَاهُ الْمَسَالِخُ : مَسَالِخُ الدَّجَالِ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : إِلَى أَيْنَ تَعِيدُ ؟ فَيَقُولُ : أَعِيدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : أَوْ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا ؟ فيقول : مَا بِرَبِّنَا خَفَاءُ ! فيقولُونَ : اقْتُلُوهُ ، فيقول بعضهم لبعض : أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ ، فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَالِ ، فَإِذَا رَأَاهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذَا الدَّجَالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؛ فَإَمْرُ الدَّجَالِ بِهِ فَيُسَبِّحُ : فيقول : خُذُوهُ وَشُجُوهُ ، فَيُوسِعُ ظَهْرَهُ وَيَبْطِئُهُ ضَرْبًا ، فيقول : أَوْ مَا تُؤْمِنُ بي ؟ فيقول : أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ ! فَيُؤَمِّرُ بِهِ ، فَيُؤَمِّرُ بِالْمُنْشَارِ مِنْ مَفْرَقِهِ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ يَمْسِي الدَّجَالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : قُمْ ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتُؤْمِنُ بي ؟ فيقول : مَا أَزِدُّكَ فَيْكَ إِلَّا بَصِيرَةً . ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، فَيَأْخُذُهُ الدَّجَالُ لِيَذْبَحَهُ ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ مَا بَيْنَ رَقَبَتَيْهِ إِلَى تَرْقُوتِهِ نُحَاسًا ، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ ، فَيَحْسَبُ النَّاسُ أَنَّهَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ ، وَلَمَّا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ « فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (١) رواه مسلم . وروى البخاريُّ بَعْضَهُ بِمَعْنَاهُ . « الْمَسَالِخُ » : هُمُ الْخَفَاءُ وَالطَّلَايِخُ .

١٨١٦ - وَعَنِ الْمُعْبِرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَا سَأَلَ أَحَدٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الدَّجَالِ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ ؛ وَإِنَّهُ قَالَ لِي : « مَا يَضُرُّكَ ؟ » قُلْتُ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ مَعَهُ جَبَلٌ خُبْرٌ ، وَنَهْرٌ مَاءٌ ! قَالَ : « هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ » (٢) متفقٌ عليه .

١٨١٧ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُنْذِرَ أُمَّتُهُ الْأَعْوَرُ الْكَذَّابُ ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرٌ ، وَإِنَّ رَبُّكُمْ ﷻ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر » (٣) متفقٌ عليه .

١٨١٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عَنِ الدَّجَالِ مَا حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ ! إِنَّهُ أَعْوَرٌ ، وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ بِمِثَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا الْجَنَّةُ هِيَ النَّارُ » (٤) متفقٌ عليه .

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١١١٣) قوله « فيسبح » أي يمد على بطنه . قوله « شجوه » أي اجرحوه في رأسه ، قوله « مفرقة » أي وسط رأسه . قوله « ترقوته » هي العظم الذي بين ثغر النحر والعاقل .

(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٢٢) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١١٥) والإمام أحمد في المسند (٢٥٢/٤) . قوله « هو أهون على الله من ذلك » أي هو أهون على الله من أن يجعل ما خلقه الله تعالى على يده مضللًا للمؤمنين ومشككًا لقلوبهم ؛ بل إنما جعله ؛ ليزداد الذين آمنوا إيمانًا ، وتثبت الحجة على الكافرين والمنافقين ونحوهم .

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٣١) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٠١) والإمام أحمد في المسند (١٧٣/٣) والترمذي في الفتن (٢٢٤٥) .

قوله « مكتوب بين عينيه ك ف ر » الصحيح الذي عليه العلماء أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه ، وهذه الكتابة يظهرها الله تعالى لكل مسلم كاتب أو غير كاتب ، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته .

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٨) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٠٩) .

١٨١٩ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ الدَّجَالَ يَمِينَ ظَهْرَانِي النَّاسَ فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرُ ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنَةُ طَافِيَةٍ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الكثيرة التي ساقها المؤلف رحمه الله تعالى في بيان الدجال هي جديدة بأن تساق وتذكر ، لأن النبي ﷺ يقول : « ما بين خلق آدم وقيام الساعة أمر أكبر من الدجال » ^(٢) ولذلك ما من نبي من الأنبياء إلا أنذر قومه مع أنه لا يأتي إلا في آخر الزمان ، والله ﻻ يعلم أن محمداً خاتم الأنبياء ومع ذلك أنذر به الأنبياء السابقون ، والحكمة من هذا التنويه بفتنته وبيانها وأنها عظيمة وإن كان لن يأتي إلا في آخر الدنيا ففتنته عظيمة ، وبين النبي ﷺ أن الدجال يدخل كل بلد يدعو الناس والعياذ بالله لعبادته ، إلا مكة والمدينة فإنه لا يدخلهما ؛ لأن عليهما الملائكة على كل باب منهما يذودون عنهما ، وأخبر النبي ﷺ أنه يتبعه من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيلاسة وهو نوع رفيع من الثياب . المعنى : أنه يتبعه من أصفهان ، وهي معروفة من مدن إيران يتبعه منها سبعون ألفاً ، وأخبر النبي ﷺ أنه أعور وأن الرب ﻻ ليس بأعور ؛ لأن العور نقص والله ﻻ ينقصه عن كل نقص ، واستدل أهل السنة والجماعة من هذا الحديث على أن ربنا جل وعلا له عينان لكنهما لا تشبهان أعين المخلوقين ، لقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

وذكر أيضاً في هذه الأحاديث : أن رجلاً شاباً مسلماً يخرج إذا سمع به ليين للناس كذبه فيتلقاه حرس الدجال المتسلحون ويقولون : أين تريد ، يقول : أريد الرجل الذي خرج ، فيأخذونه ويقولون : أتؤمن بربنا ؟ فيقول : لا ، إنه الدجال ، فيريدون أن يقتلوه ، ولكن بعضهم يقول لبعض : أليس قال ربنا لا تقتلوا أحداً دوني ؟ فيتركونه ، ثم يأتون به إلى الدجال فيشهد هذا الرجل المسلم أنه هو الدجال الذي أخبر به النبي ﷺ فيغضب عليه ، ويأمر بالمنشار فينشر من رأسه إلى ما بين رجليه طولاً كما جاء في الحديث السابق ويمشي بينهما ، ثم يدعوهم فيخرج ويقوم يتהלل وهو يقول : « والله ما ازددت فيك إلا بصيرة » يفعل هذا مرتين أو ثلاثة ، ثم يريد أن يقتله ويعجز ، يجعل الله تعالى هذا الرجل حديداً لا يستطيع أن يقتله ، وهذا إما يكون حديداً حقاً والله على كل شيء قدير ، وإما أن يكون صلباً لا تنفذ فيه السيوف ، هذه كلها صفات الدجال .

ومنها أيضاً : أن الرسول ﷺ ذكر أن معه نارا وجنة ، ولكن ناره جنة وجنته نار ، ولما سأل أبو هريرة رضي الله عنه إنهم يقولون : إن معه جبل من خبز ، قال : إنه أهون على الله من ذلك ؛ يعني حتى لو كان معه هذا الشيء ؛ فإنه أهون على الله ، أو أن المعنى أنه لا يكون معه هذا لكنه موه .

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٢٧) ومسلم في الفتن وأشرط الساعة (١٠٠) والإمام أحمد في المسند (٣٧/٢) .
قوله « طائفة » أي بارزة مرتفعة .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١٢٦ ، ١٢٧) وأحمد في مسنده (١٩/٤) .

وعلى كل حال فإننا نؤمن أنه يكون في آخر الزمان رجل يخرج يسمى الدجال من أوصافه ما ذكر في هذا الباب وغيره . ونستعيز بالله منه في كل صلاة ، أمرنا النبي ﷺ بعد التشهد الأخير من كل صلاة ، أن نستعيز منه ، ومن فتنة الحيا والمات ، ومن عذاب القبر ، ومن عذاب النار ^(١) .

* * *

١٨٢٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يُقاتلَ المسلمون اليهود ، حتى يَخْتَبِئَ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مُسلمُ هذا يهودي خلفي تعال فاقْتُلْهُ ، إلا العَرَقَد ؛ فإنه من شجر اليهود » ^(٢) متفق عليه .

١٨٢١ - وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يَمُرَّ الرجلُ بالقبر ، فيتمرغ عليه ، ويقول : ياليتني مكانَ صاحب هذا القبر ، وليس به الدين ، ما به إلا البلاء » ^(٣) . متفق عليه .

١٨٢٢ - وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يحسِرَ الفُراتُ عن جبل من ذهبٍ يُقتلُ عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، فيقول كلُّ رجلٍ منهم : لعلِّي أن أكون أنا أنجو » .

وفي رواية : « يُوشِكُ أن يحسِرَ الفُراتُ عن كنزٍ من ذهبٍ ، فمن حَصَرَهُ فلا يأخذ منه شيئاً » ^(٤) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمته الله فيما ذكره من أشرار الساعة ما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أنه لا تقوم الساعة حتى يقتل المسلمون واليهود » . المسلمون بعد بعثة الرسول ﷺ هم أتباع الرسول محمد ﷺ ، وأما قبل ذلك : فالمسلم من اتبع الشريعة القائمة ، فقوم موسى - بعهد موسى - مسلمون ، والنصارى - في عهد عيسى - مسلمون ، ومن آمن من قوم نوح مسلمون ... وهكذا كل من كان مؤمناً برسول قائمة رسالته فهو مسلم ، لكن بعد بعثة الرسول محمد ﷺ ليس مسلماً إلا من آمن به ﷺ ، وإلا فلا يخفاكم أن الحواريين قالوا : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ [الصف : ١٤] ، وأن ملكة سبأ ، قالت : ﴿ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النحل : ٤٤] وغير ذلك مما هو معروف .

- (١) انظر الحديث في البخاري في الدعوات (٦٣٧٧) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٢٩) والنسائي في السنن (٢٦٦/٨) وأبو داود في الصلاة (٨٧٤) وأحمد في مسنده (٣٠٥/١) .
- (٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦) ومسلم في الفتن وأشرار الساعة (٨٢) وأحمد في مسنده (٤١٧/٢) .
- (٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشرار الساعة (٥٤) بلفظه ، والبخاري في الفتن (٧١١٥) بنحوه . قوله « وليس به الدين ، ما به إلا البلاء » أي أن الحامل له على التمني ليس الدين ، بل هو البلاء وكثرة الحن والفتن وسائر البلايا .
- (٤) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١٩) ومسلم في الفتن وأشرار الساعة (٢٩) قوله « يحسر » أي ينكشف ؛ للذهاب مائه .

اليهود هم اتباع موسى سموا بذلك نسبة إلى جدهم يهوذا ، فهم ينتسبون إليه ، لكن مع التعريب صاروا (يهود) بالدال ، وهي أمة ملعونة غدارة ، خيانة ، مكارة ، واصفة لربها باليب والنقص ، قالوا - أي اليهود - : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٤] وقالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وقالوا : (إن الله تعب حين خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت) . إلى غير ذلك مما وصفوا الله تعالى به بالنقص والعيوب ، أما الرسل فحدث ولا حرج : كفروا بالرسل ، وقتلوهم بغير حق ، وقتلوا المسيح عيسى ابن مريم بزعمهم ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ فهم أحيث أمة من الأمم ، وهم قوم خونة غدارة لا يوفون بعهد ولا ذمة ولا يؤتمنون على شيء ، قبل يوم القيامة يقاتلون المسلمين ، وتأمل كلمة (المسلمين) يقتل المسلمون واليهود فينصر المسلمون عليهم نصراً عزيزاً ، حتى إن اليهودي يختبئ بالحجر وبالشجر فيقول الشجر والحجر - فينطق بأمر الله الذي أنطق كل شيء - فيقولوا : « يا مسلم هذا يهودي تحتي فاقتله » أحجار تنطق وأشجار ؟! لماذا ؟ لأن القتال بين المسلمين وبين اليهود ، أما بين العرب واليهود فهذا - والله أعلم - من ينتصر ؛ لأن الذي يقاتل اليهود من أجل العروبة فقد قاتل حمية وعصبية ليس لله عِزٌّ ولا يمكن أن ينتصر ما دام قتاله من أجل العروبة لا من أجل الدين والإسلام إلا أن يشاء الله ، لكن إذا قاتلناهم - أي اليهود - من أجل الإسلام ونحن على الإسلام حقيقة ؛ فإننا غالبون بإذن الله . حتى الأحجار والأشجار تتكلم لصالحنا ضد اليهود ، أما ما دامت المسألة عصبية وعروية وما أشبه ذلك فلا ضمان للنصر أبداً ، ولهذا لا يمكن أن يقوم للعرب قائمة على هذا الأساس ؛ أي أساس العروبة ، والدليل على هذا الواقع ، فقد طحنوا وخبزوا عليها ولم تستفد شيئاً ، بل بالعكس صارت النكبات العظيمة من اليهود على العرب شيئاً عظيماً . احتلوا ديارهم وحاصروهم وآذوهم ، لكن لو كان القتال من أجل الإسلام وباسم المسلمين ما قامت لليهود قائمة ، لكن من جهل العرب صاروا يقاتلون اليهود من أجل العروبة . ولذلك لم يُنصروا عليهم حتى الآن ، الانتصار على اليهود حقيقة في الإسلام لا غيب ، ولن تقوم الساعة حتى يحصل ما أخبر به الصادق المصدوق رسول الله ﷺ ؛ يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون ويتنصرون عليهم ، وينادي الحجر والشجر الذي ليس من عادته أن ينطق : « يا مسلم هذا يهودي فاقتله » .

كذلك أيضاً من أشرط الساعة والذي لا بد أن يكون : أن الفرات وهو النهر المعروف في شرقي أقصى الجزيرة يحسر عن ذهب - جبل من ذهب أو كنز من ذهب - تحسر بمعنى أن الذهب يخرج جبلاً والذهب معروف :

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبٌ

فالذهب يسلب العقول ، سوف يحسر هذا الماء - النهر الجاري - عن جبل من ذهب ، سبحان الله ! كل إنسان يقاتل غيره لأجل أن يحصل على البترول وصاروا يسمونه الذهب الأسود ، فالله أعلم بما أراد رسول الله ، لكننا إلى الآن لا نعرف الذهب إلا أنه ذلك المعدن الأصفر المعروف فنبقى على ما هو عليه ، ووراءنا أجيال ، فالدنيا لم تنته بعد حتى نوقف الحديث على الواقع الذي نحن فيه ، بل نتنظر ما أخبر به

الصادق المصدق ولا بد أن يقع ويقتل الناس عليه وهذا من أشرار الساعة لكنه لم يأت بعد . والله الموفق .

* * *

١٨٢٣ - وعنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يَثْرُكُونَ الْمَدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ ، لَا يَغْشَاهَا إِلَّا الْعَوَافِي - يُرِيدُ : عَوَافِي السَّبَاعِ وَالطَّيْرِ - وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةِ يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بَعْمَهُمَا فَيَجِدَانِهَا وَحُوشًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثِيْبَةَ الْوَدَاعِ خَرَا عَلَى وَجْهِهِمَا » (١) متفق عليه .

١٨٢٤ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « يَكُونُ خَلِيفَةُ مِنْ خُلَفَائِكُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَحْتُو الْمَالَ وَلَا يَعُدُّهُ » (٢) رواه مسلم .

١٨٢٥ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ ، وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَنْبَغُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يُلْذَنُ بِهِ مِنْ قَلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ » (٣) رواه مسلم .

١٨٢٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا ، فَوَجَدَ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَزْءَ فِيهَا ذَهَبٌ ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ : خُذْ ذَهَبَكَ ، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ ، وَلَمْ أَشْتَرِ الذَّهَبَ ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الْأَرْضُ : إِنَّمَا بَعْتُكَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا ، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ ، فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ : أَلَكُمَا وَلَدٌ ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا : لِي غُلَامٌ ، وَقَالَ الْآخَرُ : لِي جَارِيَةٌ ، قَالَ : أَنْتُمَا الْغُلَامُ الْجَارِيَّةَ وَأَنْفَقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا » (٤) متفق عليه .

١٨٢٧ - وعنه ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا ، جَاءَ الذُّبُّ فَذَهَبَ بَابْنِ إِحْدَاهُمَا ، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا : إِنَّمَا ذَهَبَ بَابْنِكَ ، وَقَالَتِ الْآخَرَى : إِنَّمَا ذَهَبَ بَابْنِكَ ، فَتَحَاكَمَا إِلَى دَاوُدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى ، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَخْبَرَتَاهُ . فَقَالَ : اثْنُونِي بِالسَّكِينِ أَشَقُّهُ بَيْنَهُمَا . فَقَالَتِ الصُّغْرَى : لَا تَفْعَلْ ، رَحِمَكَ اللَّهُ ، هُوَ ابْنُهَا . فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى » (٥) متفق عليه .

(١) أخرجه البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٤) ومسلم في الحج (٤٩٩) قوله « ينعانان » أي يصيحان . قوله « وحوشًا » أي خلأ ليس به أحد إلا الوحوش . قوله « خَرَا عَلَى وَجْهِهِمَا » أي سقطا ميتين .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشرار الساعة (٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٤) ومسلم في الزكاة (٥٩) قوله « يلذن به » أي يتمين إليه ؛ ليقوم بحوائجهم ويذب عنهم كقبيلة بقي من رجالها واحد فقط وبقيت نساؤها . فيلذن بذلك الرجل ليذب عنهم ويقوم بحوائجهم ، ولا يطمع فيهن أحد بسبه .

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٢) ومسلم في الأقضية (٢١) وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) . قوله « عَقَارًا » العقار هو الأرض وما يتصل بها . قوله « جرة » هو إزاء من خرف له بطن كبير وفم واسع . قوله « وقال الذي له الأرض » أي باعتبار ما مضى قبل عقد البيع .

(٥) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٩) ومسلم في الأقضية (٢٠) قوله « فذهب بآبن أحدهما » أي أكل ابن أحدهما .

الشرح

في هذا الباب الذي عقده النووي رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين) في المنشورات والملح تقدم ما تقدم من ذكر الدجال وأجوج وأجوج وذكر أحاديث في هذا المجلس تدل على أن المدينة النبوية زادها الله تشريقاً وتعظيماً أنه يخرج عنها أهلها ولا يبقى فيها إلا الهوام - أي السباع - والطيور ليس فيها أحد لكن هذا لم يأت بعد ولكن ما أخبر به الصادق المصدوق عليه السلام فسوف يقع ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله في أمور الغيب لا ينطق عن الهوى يوحى إليه بها .

وفيها : كثرة المال حيث أخبر عليه السلام أنه يقوم في آخر الزمان خليفة يحثو المال ولا يعده ؛ يعني أنه ينفق إنفاقاً بلا عدد لكثرة الأموال ، وفيها أيضاً : حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهذا ليس من أشراط الساعة لكن من الملح : أن رجلاً اشترى من رجل أرضاً فوجد فيها جرة من ذهب فذهب المشتري إلى البائع وقال : خذ هذا فإنني اشتريت أرضاً ولم أشر الذهب ، فقال البائع : أنا بعت الأرض وما فيها ، هذا يدل على ورعهما ، فكل واحد ورع يقول : ليس لي الحق في هذا المال . فتحاكما إلى رجل فقال لأحدهما : ألك بنت ؟ قال : نعم ، وقال للثاني : ألك ابن ؟ قال : نعم ، فقال : زوجا الابن للبنت واجعلا هذا الذهب للمهر والنفقة ، ففعلا . ففي هذا دليل على أنه يوجد من الناس من هو ورع إلى هذا الحد .

أما حكم هذه المسألة فقال العلماء رحمهم الله : إن الإنسان إذا باع أرضاً على شخص ووجد المشتري فيها شيئاً مدفوناً فيها من ذهب أو غيره ؛ فإنه لا يملكه بملك الأرض ولكنه للبائع ، وإذا كان البائع اشتراها من آخر فهي للأول ؛ لأن هذا المدفون ليس من الأرض بخلاف المعادن : لو اشترى أرضاً ووجد فيها معدناً من ذهب أو فضة أو حديد أو غيره ؛ فإنه يتبع الأرض ^(١) . هذا من الملح .

ومنها أيضاً حديث أبي هريرة : في قصة امرأتين خرجتا بابنتين لهما فأكل الذئب ابن واحدة منهما وبقي ابن الأخرى فقالت كل واحدة منهما : إنه لي . فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى اجتهداً منه ، لأن الكبرى ربما تكون قد توقفت عن الإنجاب ، أما الصغرى شابة وربما تنجب غيره في المستقبل ، ثم خرجتا منه إلى سليمان ابنه فأخبرته بالخبر فدعا بالسكين وقال : أشقه بينكما نصفين ، أما الكبرى فرحبت ، وأما الصغرى فأبت وقالت هو ابنها - أدركتها الشفقة لأنه ابنها حقيقة ، ولكن الكبرى لا يهمها ؛ لأنه ليس ولدها - لكن الصغرى أدركتها الرحمة فقالت : هو بئيهما يا نبي الله فقضى به للصغرى ... بأي يئنه ؟! القرينة ؛ لأن كونها ترحم هذا الولد تقول : هو للكبرى ويقي حثاً وإن كان سيكون عند غيرها ، لكن بقاؤه حثاً - ولو كان عند غيرها - أهون من شقه نصفين ، فقضى به للصغرى .

أخذ العلماء من هذا الحديث : العمل بالقرائن ، وأنه يجوز للقاضي أن يحكم بالقرائن إذا كانت قوية ، ومن ذلك : ما حصل بين امرأة العزيز ، ويوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام ، فمن المعلوم أن يوسف حبس في السجن وكان عليه السلام جميلاً جداً حتى إنه أعطى نصف الحسن ، فامرأة العزيز ، وهي

(١) راجع ذلك في مغني المحتاج (٣٦٣/٢) وفقه الكتاب والسنة (٢٢٧٢/٤) .

امرأة ملكة لها حسب ولها منزلة عجزت أن تملك نفسها حتى مكرت به وكادت له ، وأدخلته في البيت ، وغلقت الأبواب ودعته إلى نفسها - والعياذ بالله - ولكنه عصمه الله ﷻ فلحقته وأمسكت بثوبه وانشق الثوب من الخلف ، ووجدا سيدها لدى الباب : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٥] هذا حصل قبل السجن ، ﴿ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ قَسِيٍّ ﴾ [يوسف : ٢٦] وهذا قبل أن يسجن ليس عنده بينة ، والمرأة قد لحقته وهو يريد الخروج ، ومن يصدق ، سوف يكون المصدق في هذه الحال امرأة العزيز ؛ لأنها ذات حسب وزوجة الملك ، فلا يمكن أن تذلل نفسها للخادم ، ولكن ﴿ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ قَسِيٍّ ﴾ فحكم حاكم من أهل البيت قال : انظروا إلى قميصه - ثوبه - إن كان قد من قبل فصدمت وهو من الكاذبين ، وإن كان قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ؛ لأنه إذا كان من قبل يعني أنه الطالب المارود وأرادت التخلص منه فمزقت ثوبه ، وإن كان من دبر فهو قد هرب منها ولحقته ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُمْ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُم مِّنْ كَذِبِكُمْ إِنَّكُمْ كَذِبُكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] وصار الصادق يوسف وليس معه بينة تشهد ولكن هناك قرينة ، وهذا لا شك أنه قاعدة جلية للقاضي ، ولمن جعل حكما بين الناس .. والله الموفق .

* * *

١٨٢٨ - وَعَنْ مِرْدَاسِ الْأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَلَاوُلُ ، وَتَبْقَىٰ حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ ، لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً » (١) رواه البخاري .

١٨٢٩ - وَعَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزُّرْقِيِّ ﷺ قَالَ : جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : مَا تَعْدُونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ ؟ قَالَ : « مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ » أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا . قَالَ : « وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ » (٢) رواه البخاري .

١٨٣٠ - وَعَنْ ابْنِ عُثْمَرَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ، ثُمَّ يُعْثَوُا عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ » (٣) متفق عليه .

الشرح

هذه أيضًا من الأحاديث التي ذكرها النووي .

منها أن النبي ﷺ أخبر أنه يذهب الصالحون الأول فالأول ، ثم يبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٥٦) والبيهقي في السنن (١٢٢/١٠) . قوله « يذهب الصالحون » أي تقبض أرواحهم . قوله « حثالة » هي الرديء من كل شيء . وقيل : ما يبقى من الشعير عند الغريلة . ومن التمر بعد الأكل . قوله « لا يبالىهم الله بالة » أي لا يرفع لهم قدرًا ، ولا يقيم لهم وزنًا .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٩٢) وابن ماجه في المقدمة (١٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٠٨) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٣) وأحمد في مسنده (١١٠/٢) . قوله « ثم يعثوا على أعمالهم » أي بعث المؤمنين مع أهل الجنة ، وبعث الكافر مع أهل النار .

لا ييالي الله بهم بالأ يعني لا ييالي بهم ولا يرحمهم ولا ينزل عليهم الرحمة ، فالصالحون يذهبون الأول فالأول ، وهذا الحديث يشبه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حين جاء الناس إليه يشكونه ما وجدوا من الحجاج بن يوسف الثقفي فأخبرهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » ^(١) فهذا الحديث يشبه الحديث الذي أشرنا إليه ، ولذلك تجد الناس يترددون كل عام عن العام الذي قبله ، يذهب الصالحون الأول فالأول ، فيما سبق تجد الناس يتجهدون في الليل ، يصومون في النهار ، يتصدقون من أقواتهم ، يؤثرون على أنفسهم ، في اليوم تجد الناس تغيروا من سنة إلى أخرى إلى أردأ من قبل ، سهّز في الليل على غير طاعة الله ، ونوم في النهار أو لهو أو بيع وشراء يشتمل على الغش والكذب والخيانة - والعياذ بالله - فالناس إلى أردأ ، لكن مع ذلك في الناس خير لا شك - يوجد أناس - ولله الحمد - على دين الله مستقيمين على ما يبدو ، لكن العبرة بالعموم والشمول ، ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الثالث الذي رواه البخاري : أن إذا أنزل بهم العذاب شمل الجميع كما قال تعالى ﴿ وَأَنقَضُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٢٥] لكنهم يعثون يوم القيامة على نياتهم كل على ماهو عليه ، ولذلك يجب الحذر من أن يكون الإنسان من الخثالة التي كخثالة الشعير أو النمر ، وأن يحرص على أن يستقيم على أمر الله حتى لو كان الناس قد هلكوا فإنهم - إن أصيبوا بالعذاب - فإنه يبعث كل إنسان على نيته .

كذلك أيضًا من الملح : أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ » قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها . قال : وكذلك الملائكة الذين قاتلوا في بدر .

بدر : اسم مكان بين مكة والمدينة معروف ، كان فيه وقعة بين المسلمين والمشركين سببها أن أبا سفيان صخر بن حرب كان رئيسًا في أهل مكة وكان قدم من الشام بميرة - غير فيها طعام لأهل مكة - فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم أنه قادم إلى مكة أخبر أصحابه بذلك وكان أهل مكة قد أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم واستباحوها ، فكان للمؤمنين أن يستباحوا أموال الكفار جزاءً وفاً ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليخرجوا إلى هذه العير فقط ، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ؛ يعني مابين العشرة إلى العشرين ؛ يعني مائة وعشرون أو ثلاثمائة وعشر ليس معهم سلاح ، ما معهم إلا سبعون بعيرًا يتعاقبونهم ، وفرسان فقط ، لأنهم لم يخرجوا لقتال وإنما خرجوا للعرير يأخذونها ويرجعون ، وكان أبو سفيان رجلاً محنكاً ذكياً أرسل إلى أهل مكة وقال لهم : أنقذوا عيركم ، محمد وأصحابه سيخرجون إلينا ليأخذوها ، ثم سلك طريق البحر بعيداً عن المدينة ، وقریش لما سمعت بهذا أخذتها حمية الجاهلية فاستنفروا ، ونفروا جميعاً بكبرائهم وعظمائهم لحكمة أرادها الله ﷻ فلما خرجوا ظاهر مكة جاءهم الخبر أن أبا سفيان سليم ونجا ؛ لأنه سلك طريق البحر بعيداً عن المدينة ، ولم يدركه الرسول وأصحابه ، فتشاوروا فيما بينهم : قالوا ما دامت العير نجت فترجع إلى مكة وما لنا والحروب ؟ فقال كبارهم كأي جهل وغيره : والله ما نرجع إلى مكة أبداً حتى نصل إلى

بدر - وهي نقطة المفرق بين مكة والمدينة والشام - نحر الجذور ونشرب الخمر - نعوذ بالله - وتعزف علينا القيان فرحاً وطرباً ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً - أعوذ بالله - خرجوا كما قال الله ﷻ : ﴿ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقَةً أَلْنَأَسِ ﴾ [الأنفال: ٤٧] فصمموا على أن يقابلوا الرسول ﷺ ويلتقوا في بدر .

كان النبي ﷺ وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وقريش تسعمائة رجلاً لكن قريش مستعدة للحرب بعنادها وقوتها ، والرسول ﷺ ما استعد ، ولكن الله ﷻ جمع بينهما على غير ميعاد لينفذ ما حكم وأراد ﷻ فالتقوا . وفي هذا يقول الله ﷻ : ﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكُمْ ﴾ فقد رآهم الرسول ﷺ في المنام قليلاً ليتشجع على لقاءهم ﴿ وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيرًا لَفَاشَنَّا وَلَكِنْ رَعَيْنَا فِي الْآخِرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنَ لِنَا إِلَهُ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذَ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا يَقِلُّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٤٣ ، ٤٤] سبحان الله ! هم يرون الصحابة قليلين ، والصحابة يرونهم قليلين حتى يتحفز كل واحد لمقابلة الآخر ، فالتقوا وحدثت معركة ، وقتل من أهل مكة سبعون وأسر سبعون . وقتل من المسلمين سبعون رجلاً ^(١) ، سبحان الله ﴿ وَتِلْكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

المهم : أنه حدثت الواقعة وقاتلوا قتالاً شديداً وقتل صناديد قريش ومنهم السبعة أو الثمانية الذين ألقوا سلا الجزور على رسول الله ﷺ وهو ساجد تحت الكعبة في هذه القصة المشهورة والتي دعا فيها الرسول عليهم قائلًا : « اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقریش ، اللهم عليك بفلان وفلان » وعددهم قتلوا في بدر ^(٢) ، ثم إن الرسول ﷺ أمر بهؤلاء الصناديد الكبراء وألقوا في قلب - بئر - منتنة خبيثة ، وبقي الرسول ﷺ منصوراً مظفراً في ذلك المكان ثلاثة أيام ، وكان من عادته إذا قاتل قوماً وانتصر عليهم أن يبقى في العرسة ثلاثة أيام .. إلى آخر ما هو مشهور عن تلك القصة ^(٣) .

المهم : أن الذين قاتلوا في بدر وهم ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً هم من أفضل المسلمين ، أندرون ماذا قال لهم ربهم ﷻ ؟ قال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ^(٤) كل ذنب يفعله واحد من أهل بدر - مهما كان عظمه - فهو مغفور له ، لكنهم لن يكفروا ، وحصل هذا تطبيقاً : فإن أحدهم لما أراد النبي ﷺ أن يذهب إلى قريش في غزوة الفتح ، أرسل حاطب وهو ممن حضروا معه بدرًا امرأة معها كتاب إلى قريش قال لهم : إن الرسول ﷺ سيفزركم فانتبهوا . فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فأرسل رجلين أحدهما على بن أبي طالب إلى هذه المرأة وأدركوها في روضة (خاخ) وأمسكوا بها

(١) الذي أجمع عليه المؤرخون أن شهداء المسلمين في بدر كانوا أربعة عشر رجلاً : ستة من المهاجرين ، وثمانية الأنصار (السيرة النبوية لابن كثير ٢/٤٦٣ ، تاريخ الطبري ٣/٤٩ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٦٤ ، ٣٦٥) .
(٢) انظر الحديث في البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٤) ومسلم في الجهاد (١٠٨) وأحمد في مسنده ١/٤١٧ .
(٣) راجع القصة في السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٤٥ - ٣٧٠) تاريخ الطبري (٣١/٤٠ - ٥٠) السيرة النبوية لابن كثير (٢/٤٥٥ - ٤٦٥) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٨٠) والبيهقي في السنن (٩/١٤٦) .

وقالوا لها : إلى أين ؟ قالت : إلى مكة ، وماذا معك ؟ قالت : لا شيء . قالوا لها : إما أن تعطينا ما معك وإلا كشفنا عنك ، فأخرجته لهم وإذا هو كتاب من حاطب بن بلتعة رضي الله عنه وهو ممن شهد بدرًا فجاءوا به للرسول ﷺ وعرضوه عليه ، فدعاه قائلاً : ماهذا يا حاطب ؟ كيف تخون ؟ كيف ترسل إلى قريش بأخبارنا ، وهذا يسمى عند الناس جاسوسًا ، اعتذر بعذر ، قال عمر أو غيره من الصحابة : يا رسول الله أنا أضرب عنقه ؛ فإنه قد خان الله ورسوله . قال ﷺ : « أما علمت أن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فوقعت هذه الفعلة القبيحة الشنيعة ، وقعت موقع مغفرة ، لماذا ؟ لأن الرجل من أهل بدر ، فهم رضي الله عنهم وجمعنا وإياكم معهم ، في جنات النعيم ، فالذي منع الرسول أن يقتل هذا الرجل أنه شهد بدرًا ، وعلى هذا إذا وجدنا جاسوسًا من المسلمين يخبر الكفار بأخبارنا وجب قتله حتى لو قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وجب قتله بدون استثناء ، لأن الرسول ﷺ لم يمنعه من قتل حاطب إلا كونه من أهل بدر وهي مزية لن تحصل إلى يوم القيامة ، وقد استدلل العلماء رحمهم الله بهذا الحديث على أن الجاسوس يقتل سواء أكان مسلمًا أو كافرًا على كل حال ، لأنه يفضي بأخبارنا إلى أعدائنا . والله الموفق .

* * *

١٨٣١ - وعن جابر رضي الله عنه قال : كَانَ جِذْعٌ يَقُومُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ - يَغْنِي فِي الْخُطْبَةِ - فَلَمَّا وُضِعَ الْمِئْبَرُ ، سَمِعْنَا لِلْجِذْعِ مِثْلَ صَوْتِ الْعِشَارِ حَتَّى نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَسَكَنَ .
وفي رواية : فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِئْبَرِ ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عَنْهَا حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَنْشَقَّ .

وفي رواية : فَصَاحَتِ صَيَاحُ الصَّبِيِّ ، فَتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، فَجَعَلَتْ تَكُنُّ أَيْنَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكُّ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ ، قَالَ : « بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذُّكْرِ » ^(١) رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث المنشورة التي ذكرها المؤلف رحمته الله في آخر كتابه منها : حديث جابر وفيه : آية من آيات الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ ، وآية لرسول ﷺ واعلم أن الله تعالى لم يبعث نبيًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر ؛ لأنه لو أرسل رسولًا بدون آية تدل على أنه رسول الله ما صدقه أحد ولكان للناس عذر في رد قوله ، ولكن الله تعالى بحكمته ورحمته ما أرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر ، الآيات يعني العلامات التي تدل على صدقه ، وآيات النبي ﷺ كثيرة ، ومن أراد الاستزادة

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٨٣ ، ٣٥٨٤ ، ٣٥٨٥) قوله : « جذع » هو ساق النخلة . قوله : « العشار » الناقة التي انتهت في حملها إلى عشرة أشهر . قوله « كادت أن تنشق » أي قاربت على الانكسار . قوله : « تكن أين » أي تبكي بكاء . قوله : « استقرت » أي سكنت وكفت عن البكاء .

منها فعليه بكتابين : أحدهما : (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) فقد ذكر ﷺ شيخ الإسلام في هذا الكتاب في آخره من آيات النبي ﷺ الكونية والشرعية ما لم يحصل لغيره رحمه الله رحمة واسعة . والثاني : (البداية والنهاية) لابن كثير ﷺ .

فآيات الرسول ﷺ كثيرة منها ما ذكره جابر : كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع نخلة ، فلما صنعت له امرأة من الأنصار منبراً يخطب عليه ، فإذا بالجذع يحن حنان العشار وأحياناً يكي بكاء الصبي لفقد النبي ﷺ الله أكبر ! جماد .. جزع .. يكي لفقد الرسول ﷺ والآن قم عظمة فقدت لا يكي لها أحد ، أعاننا الله وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته ، نزل النبي ﷺ وجعل يسكته كما تسكت الأم صبيّاً وهو جماد ، فسكت الجزع فكان في هذا آيتان :

١ - صياح الجزع لما فقد النبي ﷺ .

٢ - سكوت الجزع لما نزل النبي ﷺ يسكته . ونظيرها آية وقعت لموسى ﷺ فقد آذاه بنو إسرائيل أذية عظيمة كما قال الله ﷻ : ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِنْهُمَا قَالُوا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] من جملة ما قالوا فيه : إنه آدر - يعني كبير الخصيتين - وهو عيب وكان ﷺ يستتر إذا اغتسل ، وكانوا هم يغتسلون عرا ، فقالوا : إن موسى لا يستتر إلا لما فيه من عيب ، فأراد الله ﷻ أن يريهم أنه لا عيب فيه بغير اختيار موسى . نزل يغتسل مرة ووضع ثوبه على حجر فلما كان يغتسل هرب الحجر ، ذهب يسعى يشتد فلحقه موسى يقول : « ثوبي حجر ، ثوبي حجر » يعني أعطني ثوبي يا حجر - والحجر سائر حتى وصل إلى ملأ من بني إسرائيل فشاهدوا موسى بلا عيب - والحمد لله - ثم وقف الحجر فجعل موسى يضربه ^(١) ؛ لأنه فَعَلَ فَعَلَ ما يفعله العاقل فاستحق أن يؤدبه بالضرب ، مثل ذلك ما تفعله الأمهات بأولادها الصغار إذا عثر الطفل أو ضربه شيء ، جعلت تضرب ما عثر لأجل أن تسكت الصبي وتطيب خاطره ، المهم أن الرسول ﷺ نزل فسكَّت الجزع فسكت وهذه من آيات الله ﷻ ، والله أعلم .

* * *

١٨٣٢ - وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُسَيْنِيِّ جَرُثُومَ بْنِ نَاشِرٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَخَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْخَحُوا عَنْهَا » ^(٢) حديث حسن ، رواه الدارقطني وغيره .

١٨٣٣ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه قَالَ : غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الْجَرَادَ ^(٣) . وفي رواية : نَأْكُلُ مَعَهُ الْجَرَادَ ، متفق عليه .

(١) انظر القصة في البخاري في الأنبياء (٣٤٠٤) أحمد في مسنده (٣٩٢/٢) وتفسير الطبري (٦٣/٢٢) .
(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٨٤/٤) والحاكم في المستدرک (١١٥/٤) والبيهقي في السنن (١٣/١٠) .
قوله : « وسكت عن أشياء » أي لم يحكم فيها بوجوب أو حل أو حرمة . قوله « فلا تبخحوا عنها » أي لا تسألوا عنها .
(٣) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٩٥) ومسلم في الصيد والذبائح (٥٢) والنسائي في السنن (٢١٠/٧) .

١٨٣٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث من أحاديث المُلح المنشورة التي ذكرها النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فعن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودًا فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم فلا تبحثوا عنها » هذه ثلاث جمل بينها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين حكمها .

أولًا : فرض الله فرائض ، وأعظم فرائض الله على عباده التوحيد : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ؛ ففي شهادة أن لا إله إلا الله : توحيد الله بالعبادة وألا يعبد أحد سواه ، وفي شهادة أن محمدًا رسول الله : توحيد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمتابعة بحيث لا يتابع أحد سواه .

هذه أفرض الفرائض : ثم الصلوات والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الرحم وحسن الجوار والصدق والنصيحة أشياء كثيرة فرضها الله تعالى على عباده ، منها فرائض عينية على كل واحد ، ومنها فرائض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن الباقي ، فالصلوات الخمس فرض عين لا بد على كل مسلم أن يقوم بها ، والصلاة على الجنابة فرض كفاية إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقي .

« وحد حدودًا فلا تعتدوها » في الفرائض قال : لا تضيعوها ، ولكن احرصوا عليها ، وقوموا بها على الوجه المطلوب . « وحد حدودًا فلا تعتدوها » يعني جعل للأشياء حدًا معينًا ، فالصلوات الخمسة مثلًا لها حد وهي أوقاتها : الظهر من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد فيء الزوال ، العصر من هذا الوقت إلى غروب الشمس ، والمغرب من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر ، العشاء من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل ، الفجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، هذه حدود ، الصوم له حد من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، الحج له حد أشهر معلومات في أماكن معينة ... إلخ « حد حدودًا فلا تعتدوها » يعني لا تتجاوزها قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [الطلاق : ٢] ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

« وسكت عن أشياء رحمة لكم فلا تبحثوا عنها » سكت عن أشياء : لم يوجبها علينا ولم يحرمها ، ولو شاء لأوجب علينا ما شاء وحرم ما شاء ، لكنه سكت عن أشياء لولا رحمته لألزمنا بها ، وأضرب لكم مثلًا بالصلوات الخمس : فأول ما فرضها الله على العباد خمسين صلاة في اليوم واللييلة ، ثم إن الله تعالى عفا وصارت خمسين في العمل ، خمسين في الثواب ، وأشياء كثيرة عفا الله عنها ولو شاء لألزمنا بها . وفي قوله :

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٣٣) ومسلم في الزهد والرقائق (٦٣) وأحمد في مسنده (١١٥/٢) . قوله « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » أي : أن المؤمن لا يخدع مرتين ولا يفتن لذلك . وسبب هذا الحديث : أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسر أبا عزة الشاعر يوم بدر ، فعاهد النبي أن لا يحرض عليه ولا يهجو ، فأطلقه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلحق بقومه ، ثم رجع إلى التحريض والهجاء ، حتى أسر يوم أحد ، فطلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمن عليه بالعفو ، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال .

«وسكت عن أشياء» دليل على ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن الله يتكلم بصوت مسموع ؛ لأن السكوت ضد الكلام ، وهو جل وعلا يتكلم بما شاء متى شاء وكيف شاء ، لا نعلم كيف يتكلم ، ولا متى ، ولا بماذا يتكلم ، لكن نؤمن بأنه إذا أراد شيئاً قال له : كن . فيكون ، ولهذا لا تحصى كلمات الله ﷻ قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] يعني لو كانت جميع أشجار الأرض أقلاماً يكتب بها ﴿ وَالْبَحْرُ بَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ٢٧] وقال ﷻ : ﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ لَّفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفْدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا مِثْقَلِهِ مَدًّا ﴾ (١) [الكهف : ١٠٩] .

ثم ذكر حديث عبد الله بن أوفى ؓ قال : « غرونا مع النبي ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد معه » الجراد معروف وهو من الحلال ، يأكله الإنسان حياً وميتاً ، قال النبي ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان : الميتتان : الحوت والجراد » (٢) ولهذا لا يحتاج إلى تزكية وهو صيد ، فإن كان في مكة حرم على الإنسان أن يصيده وأن يطيره من مكانه ، ويجب على من رأى من يصيده بالحرم أن يزجره ويمنعه ؛ لأنه صيد محرم لا يجوز صيده في مكة ولا أن تطيره وغيرها من الطيور .

وفي هذا دليل على أن الصحابة ؓ هم يستدلون بإقرار الرسول ﷺ ؛ يعني إن فعلوا شيئاً وأقرهم عليه فهو حلال ، وهو كذلك ؛ لأن الرسول ﷺ يستطيع منعهم ولكن ما دام سكت دل ذلك على الجواز . أما حديث أبي هريرة فقال النبي ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » اللدغ هو لدغ الحية ، والمؤمن كيس فطن محترز لا يلدغ من جحر مرتين ؛ بمعنى أنه إذا حدث له شيء من أي عمل يكون ، فإنه لا يعود إليه ، لأنه يحاذر وإذا لدغ من جحر تركه وعرف أنه لا فائدة منه . فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، لأنه حاذر فطن كيس ، فدل ذلك على أن الإنسان ينبغي له أن يكون فطناً ، وألا يعود لشيء أصابه منه ضرر بل يكون مؤمناً ؛ لأن هذا من كمال الإيمان . والله الموفق .

* * *

١٨٣٥ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ عَلَى فَضْلٍ مَاءٍ بِالْفَلَاقَةِ يَمْنَعُهُ مِنَ ابْنِ السَّبِيلِ ، وَرَجُلٌ بَاتَعَ رَجُلًا سِلْعَةً بَعْدَ الْقَصْرِ ، فَخَلَفَ بِاللَّهِ لِأَخْذِهَا بِكَذَا وَكَذَا ، فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، وَرَجُلٌ بَاتَعَ إِمَامًا لَا يُيَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا ، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ » (٣) متفق عليه .

(١) قوله ﷺ : ﴿ مِثْقَالَ رَيْبٍ ﴾ أي حبراً يكتب به .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٣١٨) وأحمد في مسنده (٩٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٥٤/١) والبخاري في شرح السنة (٢٤٤/١١) .

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٢) ومسلم في الإيمان (١٨٣) والنسائي في السنن (٨١/٥) وأحمد في مسنده (٤٨٠/٢) . قوله « لا يكلمهم الله » أي لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية ، قوله « ولا يزكيهم » أي لا يطهرهم من الذنوب ، ولا يثني عليهم ، قوله « رجل على فضل ماء في الفلاة » أي رجل عنده ماء فاضل عن حاجته في الأرض التي لا ماء فيها ، قوله « ابن السبيل » هو المسافر ، قوله « لا ييأيه إلا لدنيا » أي : إذا أعطي منها استمر على طاعته ، وإن لم يعط خرج على الطاعة .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه كلها عن أبي هريرة رضي الله عنه ومنها : « أن ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » : (ثلاثة) : يعني ثلاثة أصناف ليس المقصود ثلاثة رجال ، وإنما قد يكونون أمّا عظيمة اتصفوا بهذه الأوصاف :

أولهم : رجل على فضل ماء في فلاة يمنعه ابن السبيل ؛ يعني إنسان عنده ماء من مزرعة أو بئر أو غير ذلك ، في أرض فلاة خالية من السكان يمر الناس من عنده ليشربوا فيمنعهم والعياذ بالله ، هذا لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم . وما بالك بحال رجل هذا حاله لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم يوم القيامة .

والثاني : رجل باع سلعة بعد العصر ، فحلف للمشتري أنه أعطى كذا وكذا وهو كاذب ، فاشتراها المشتري بناء على ما قاله البائع أنه صدق والأمر ليس كذلك ، فهذا أيضًا لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم العصر ؛ لأن أفضل أوقات النهار ما بعد صلاة العصر وإلا فلو حلف الإنسان على سلعة في غير هذا الوقت أيضًا ؛ فإنه لا يكلمه الله ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم . ففي حديث أبي ذر الذي رواه مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » قالها ثلاثًا ، فقال أبو ذر : من هم يا رسول الله خابوا وخسروا ؟ قال : « المسبل » : يعني الذي يسبل ثوبه ينزله على الكعب حتى يجره على الأرض .

والثاني : « المنان » ، الذي يمن على الناس ، إذا أعطاهم مالا أو علمهم أو أحسن إليهم بشيء ، جعل يمن عليهم والعياذ بالله .

والثالث : « المنفق سلعته بالحلف الكاذب » ^(١) يعني الذي يحلف وهو كاذب ليزيد ثمن السلعة ؛ فدل ذلك على أن ذكر وقت العصر في حديث أبي هريرة إنما هو لشدة العذاب والوعيد . وإلا فكل من حلف على سلعة وهو كاذب من أجل أن يزيد ثمنها فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم .

والثالث في حديث أبي هريرة : رجل باع إمامًا لا يبايعه إلا للدنيا ، إن أعطاه له بالبيعة ، وإن لم يعطه لم يف بالبيعة ، هذا أيضًا من الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، وذلك أن بيعة الإمام واجبة ، يجب على كل مسلم أن يكون له إمام ، سواء كان إمامًا عامًا كما كان في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الخلفاء ، أو إمامًا في منطقته كما هو الحال الآن . ومنذ أزمان بعيدة من زمن الأئمة الأربعة ومن بعدهم ، والمسلمون متفرقون ، كل جهة لها إمام ، وكل إمام مسموع له ومطاع بإجماع المسلمين ، لم يقل أحد من المسلمين : أنه لا تجب الطاعة إلا إذا كان الخليفة واحدًا لجميع بلاد الإسلام ، ولا يمكن أن يقول أحد بذلك ؛ لأنه لو قيل بهذا ما

بقى للمسلمين الآن إمام ولا أمير ، ولما الناس كلهم ميتة جاهلية ؛ لأن الإنسان إذا مات وليس له إمام ؛ فإنه يموت ميتة جاهلية يحشر مع أهل الجهل - والعياذ بالله - الذين كانوا قبل الرسالات ، فالإمام في مكان وفي كل منطقة بحسبها .

فهذا الرجل بايع الإمام لكنه بايعه للدنيا لا للدين ولا لطاعة رب العالمين إن أعطاه من المال وفي ، وإن منعه لم يف ، فيكون هذا الرجل - والعياذ بالله - متبعًا لهواه غير متبع لهداه ولا طاعة لمولاه ؛ بل هو بنى بيعته على الهوى .

قد يقول قائل مثلاً : نحن لم نبايع الإمام فليس كل واحد بايعه ؟

فيقال : هذه شبهة شيطانية باطلة ؛ هل الصحابة رضي الله عنهم حين بايعوا أبا بكر هل كل واحد منهم بايع ، حتى العجوز في بيتها ، والياق في سوقه ؟! أبداً المبايع لأهل الحل والعقد ، ومتى بايعوا ثبتت الولاية على كل أهل هذه البلاد شاء أم أبى ، ولا أظن أحداً من المسلمين بل ولا من العقلاء يقول : إنه لا بد أن يبايع كل إنسان ولو في حجر بيته ، ولو عجوزاً أو شيخاً كبيراً أو صبيّاً صغيراً ! ما قال أحد بهذا ، حتى الذين يدعون الديمقراطية في البلاد الغربية وغيرها لا يفعلون هذا - وهم كاذبون - حتى انتخاباتهم كلها مبنية على التزوير والكذب ولا يباليون أبداً إلا بأهوائهم فقط . الدين الإسلامي متى اتفق أهل الحل والعقد على مبايعة الإمام فهو الإمام شاء الناس أم أبوا ، فالأمر كله لأهل الحل والعقد ، ولو جعل الأمر لعامة الناس حتى للصغار والكبار والعجائز والشيوخ وحتى من ليس له رأي ويحتاج أن يؤلي عليه ما بقي للناس إمام ؛ لأنهم لا بد أن يختلفوا .

المهم هذه ثلاثة أشياء : إذا صارت في الإنسان ؛ فإن الله لا يكلمه يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكّيه ، وله عذاب أليم .

وفي هذا الحديث دليل على ثبوت كلام الله ﷻ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة : أن الله يتكلم كما شاء وبما شاء ومتى شاء لا أحد يعجزه ولا يمتنع عليه شيء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ اللَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٤] .

فقوله : « لا يكلمهم الله » دليل على أنه يكلم غيرهم وهو كذلك ، وفيه أن الله ينظر نظرين : الأول العام : فإنه لا يخفى على نظره شيء - جل وعلا - يرى كل شيء . والثاني الخاص : وهو نظر الرحمة ، وهو المعني في الحديث ، فإن الله لا ينظر إليهم نظر رحمة .

وفيه أيضاً دليل على أن الله هو المزكي للعباد كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النور : ٢١] فالزكي للأمر وللأشخاص وللأعمال هو رب العالمين ﷻ ، فأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن زكاه ربه إنه على كل شيء قدير .

١٨٣٦ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ » قَالُوا : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ : أَيْتُ ، قَالُوا : أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَيْتُ . قَالُوا : أَرْبَعُونَ شَهْرًا ؟ قَالَ : أَيْتُ . « وَيَتَلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ ، ثُمَّ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَيَنْبُثُونَ كَمَا يَنْبُثُ الْبَقْلُ » ^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

١٨٣٧ - وَعَنْهُ قَالَ : يَنْمُو النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ ، جَاءَهُ أَغْرَابِيٌّ فَقَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَمَضَى رَسُولُ ﷺ ، يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : سَمِعَ مَا قَالَ ، فَكَّرَ مَا قَالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ : « أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ ؟ » قَالَ : هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » قَالَ : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : « إِذَا وَسَدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » ^(٢) رواه البخاري .

١٨٣٨ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يُصَلُّونَ لَكُمْ ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ ، وَإِنْ أخطأوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ » ^(٣) رواه البخاري .

١٨٣٩ - وَعَنْهُ ﷺ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قَالَ : خَيْرِ النَّاسِ لِلنَّاسِ يَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَغْتَابِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ ^(٤) .

١٨٤٠ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « عَجَبَ اللَّهُ ﷻ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ » ^(٥) رواهما البخاري .

معناه : يُؤَسَّرُونَ وَيُقَيَّدُونَ ، ثُمَّ يُسَلَّمُونَ ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .

الشرح

هذه أحاديث أربعة عن أبي هريرة ؓ أنه سمع النبي ﷺ يقول : « بين النفختين أربعون » : يعني النفخ في الصور ، والصور مؤكل به ملك من الملائكة يسمى (إسرافيل) هذا الصور ينفخ فيه أول مرة

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٤) ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٤١) . قوله : « أيت » أي لا أستطيع أن أجزم إن كان المراد أربعين يومًا أو شهرًا أو سنة ، بل الذي أجزم به أنها أربعون ، قوله : « عجب ذنبه » هو العظم الرقيق الذي في أسفل الصلب والذي يقال له : رأس العصعص ، وهو أول ما يخلق من الإنسان ، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ، قوله : « البقل » هو كل نبات اخضرت به الأرض .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٥٩) ، وأحمد في مسنده (١٠٤/٣) ، والبيهقي في السنن (١١٨/١٠) . قوله : « مضى » أي استمر . قوله : « وسد » أي جعل .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٩٤) ، والبيهقي في السنن (٣٩٧/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٥٧) .

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٠) ، وأحمد في مسنده (٤٥٧/٢) بنحوه . قوله « عجب الله » أي رضي عليهم وأكرمهم .

فيفزع الناس لهوله وشدته ثم يصعقون كلهم - أي يموتون - كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَقَرَّبَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَىٰ ذَخِيرَةٍ ﴾ ^(١) [النمل : ٨٧] وقال تعالى : ﴿ وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصُوقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] فالنفخة الأولى يكون بها الفزع والصعق يعني الموت والفناء ، والنفخة الثانية يكون فيها القيام ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ قيام من قبورهم ينظرون ماذا حدث ، وذلك أن الله تعالى يرسل عليهم قبل ذلك مطراً غليظاً كمني الرجال ، ثم ينبتون في قبورهم كما ينبت حمى السيل - يعني حبة تنبت في الأرض ثم تخرج - وهم كذلك ينبتون ، ثم ينفخ في الصور النفخة الثانية فيخرج من هذا الصور كل نفوس العالم بإذن الله ، وتذهب كل نفس إلى جسدها الذي كانت تعمره في الدنيا لا تخطئه .. سبحانه الله !. بينهما أربعون ، قيل لأبي هريرة : أربعون يوماً ؟ قال : آيت - يعني لا يدري - قالوا : أربعون سنة ؟ قال : آيت . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : آيت . قال النبي ﷺ : بينهما أربعون . فنقول كما قال الرسول ﷺ ، والله أعلم .

المهم : أن هذا هو نفخ الصور ، ثم يقوم الناس إلى يوم الحساب لرب العالمين فيحاسبهم : كل يحاسب بذنبه . وحسابه ﷻ دائر ما بين الفضل والعدل لا ظلم فيه ، لأن المحاسبة إما ظلم أو عدل أو فضل ، وحسابه ﷻ دائر ما بين الفضل والعدل قال الله ﷻ ﴿ قَالِيمٌ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس : ٥٤] .

أما الحديث الثاني : حديث الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ قال : متى الساعة ؟ وكان النبي ﷺ يتحدث إلى أصحابه ، فمضى في حديثه لم يحب أن يقطعه ﷺ وكأنه - والله أعلم - حديث متواصل . فقال قوم : سمع ما قال فكرهه . والإنسان إذا كره سؤال السائل فلا حرج عليه ألا يجيبه ، حتى ولو سمعه ؛ لأنه قد يكون السائل ليس عنده حكمة فيسأل سؤالاً غير مناسب ، فللمُجيب أن يدعه ولا يجيب . وقال آخرون : لعله لم يسمعه . فلما قضى النبي ﷺ حديثه قال : « أين السائل ؟ » قال : أنا يا رسول الله . قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » يعني إذا فسد الناس وكانت الأمور تسند إلى غير أهلها ، الفتوى تسند للجاهل ، والإمرة تسند للسفيه ، والإدارة تسند لمن لا علم عنده بالإدارة ... وهكذا .

والخلاصة : أنه إذا فسد الناس فانتظر الساعة ، لأن الساعة تقوم على شرار الخلق ^(٢) ، ففي هذا التحذير من تضييع الأمانة ، وأنه يجب أن يولي المناصب الأهل فالأهل ؛ لأن هذا مقتضى الأمانة . أما الحديث الثالث : فهو أن النبي ﷺ أخبر أن هناك أئمة - يعني أمراء - يصلون لكم فإن أحسنوا فلكم ولهم ، وإن أساءوا فلكم وعليهم . وهذا وإن كان في الأمراء يشمل أيضاً أئمة المساجد .

(١) قوله : ﴿ فَتَقَرَّبَ ﴾ أي خاف خوفاً يستتبع الموت . قوله : ﴿ ذَخِيرَةٍ ﴾ أي أذلاء صاغرين .

(٢) وذلك مصداقاً لما أخرجه مسلم في الفتن (١٣١) ، وابن ماجه في السنن (٤٠٣٩) ، وأحمد في مسنده (٤٣٥/١) ، والحاكم في المستدرک (٤٥٦/٤) .

(يصلون لكم) فإن أحسنوا في الصلاة وأتوا بها على ما ينبغي ؛ فذلك لكم ولهم ، وإن أسأؤا ؛ فلكم وعليهم - يعني ليس عليكم أنتم من إساءتهم من شيء ، وفي هذا إشارة إلى أنه يجب الصبر على ولاة الأمر - وإن أسأؤا في الصلاة ، وإن لم يصلوها على وقتها - فإن الواجب ألا نشذ عنهم ، وأن نؤخر الصلاة كما يؤخرون ، وحينئذ يكون تأخيرنا للصلاة عن أول وقتها يكون تأخيرًا بعذر ، لأجل موافقة الجماعة وعدم الشذوذ ، ويكون بالنسبة لنا كأننا صلينا في أول الوقت .

وفي هذا إشارة على أن الشذوذ عن الناس وعن ولاة الأمور والبعد عنهم وإثارة الناس عليهم ونشر مساوئهم ؛ كل هذا مجانب للدين الإسلامي ، فالدين يأمر بالخير والعدل وينهي عن الشر والفساد ، حتى إن الله قال : ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٨] إذا ذكرت سيئة فاذكر الحسنة أما أن تسعد بذكر السيئات وتجمد الحسنات ، فهذا جور وظلم والله ﷻ لا يحب الظلم ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَٰٓى ءَلَا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى ﴾ [المائدة : ٨] أي : لا يحملكم بغض قوم على عدم العدل ، بل اعدلوا هو أقرب للتقوى . فهؤلاء الذين يصلون ويؤخرون الصلاة عن وقتها نصلي معهم ويكون لنا الأجر وإن كان التأخير فيه وزر فعلى المؤخرين ...

أما الحديث الرابع : لأبي هريرة : « عجب الله لقوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » وفسره المؤلف رحمه الله بأنهم قوم من الكفار يؤسرون ثم يسلمون فيكون هذا الأسر سببًا في إسلامهم ودخولهم الجنة ... والله الموفق .

* * *

١٨٤١ - وعنه عن النبي ﷺ قَالَ : « أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا ، وَأَبْعَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَشْوَأُهَا » (١) رَوَاهُ مُسْلِم .

١٨٤٢ - وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ : قَالَ : لَا تَكُونَنَّ إِنْ اسْتَطَعْتَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الشُّوقَ ، وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا ؛ فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ ، وَبِهَا يَنْصَبُ رَايَتُهُ . رَوَاهُ مُسْلِمُ هَكَذَا . وَرَوَاهُ الْبَيْهَقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُكُنْ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الشُّوقَ ، وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا ، فِيهَا بَاضَ الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ » (٢) .

١٨٤٣ - وَعَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ، قَالَ : « وَلَكَ » قَالَ عَاصِمٌ : فَقُلْتُ لَهُ : أَسْتَغْفِرُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٨) ، والبيهقي في السنن (٦٥/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٠) ، والطبراني في الكبير (٣٠٩/٦) . قوله « فإنها معركة الشيطان » أي إنها لكثرة ما يقع فيها من أنواع الباطل والغش والخداع والأيمان الكاذبة والعقود الفاسدة والبيع على بيع الأخ وبخس المكيال والميزان ؛ لذا شبهت السوق بموضع قتال الشيطان ؛ لأنه هو الذي يسول للإنسان كل هذه الأمور ، قوله « وبها ينصب رايته » أي أنه يثبت هناك ويجمع أعوانه إليه للتحريض بين الناس على هذه المفاصد ، قوله « باض الشيطان وفرخ » الكلام مجاز عن كون السوق محلًا للمعاصي من الغش والخداع وغيرها .

وَلَكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] ^(١) ، رواه مسلم .
 ١٨٤٤ - وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنْ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ
 النبوة الأولى : إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » ^(٢) رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث المشهورة التي ذكرها النووي رحمته الله ومنها حديث أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : « أحب البقاع إلى الله مساجدها ، وأبغض البقاع إلى الله أسواقها » أو قال « البلاد » .
 فالمساجد مساجد الله ﷻ ، ولهذا أضافها الله إلى نفسه فقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [البقرة: ١١٤] وقال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ١ يَحَالُ لَا فُلْهِيهِمْ بَعْدُ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٦ ، ٣٧] فالمساجد أحب البقاع إلى الله ؛ لأنها محل ذكره وعبادته وقراءة شرعه وغير ذلك من مصالح الدنيا والدين ، ولهذا كان بذل المال فيها من أفضل أنواع البذل ، والبذل فيها من الصدقة الجارية ، وهي أفضل من أن يجعل الإنسان ماله في أضحية أو عشاء أو ما أشبه ذلك ، فإذا جعل ماله في بناء المساجد وعمارتها كان ذلك أفضل ؛ لأن المساجد صدقة جارية باقية عامة كل المسلمين ينتفع بها المصلون والدارسون والمتعلمون والمعلمون والذين آواهم البرد أو الحر إلى المساجد ... إلى غير ذلك .

أما الأسواق : فإنها مأوى الشياطين ؛ فيها باض الشيطان وفرخ - والعياذ بالله - ونصب رايته وخيمته ؛ لأن أسواق البيع والشراء الغالب فيها - إلا ما شاء الله - الكذب والغش والخيانة والحلف وما أشبه ذلك ، فلهذا كانت أبغض البلاد إلى الله ﷻ ، وفي هذا الحديث إثبات الحب والبغض لله ﷻ أي أن الله يحب ويبغض ، ومن أصول أهل السنة والجماعة أننا نؤمن بذلك ونقول : إن الله تعالى يحب ويبغض ، وهو ﷻ موصوف بصفات الكمال ، وأنه لا يحب إلا ما فيه الخير والصلاح ، ولا يبغض إلا الشر والخبائث ، وينبغي أيضًا كما جاء في حديث سلمان ألا يكون أول من يدخلها ولا آخر من يخرج منها ، لأنها أبغض البلاد إلى الله ويحصل فيها اختلاط بين الرجال والنساء والنظرات المحرمة ، والكلام المحرم وما أشبه ذلك .

أما حديث عبد الله بن سرجس رضي الله عنه : فهو أنه سأل النبي ﷺ أن يستغفر له ، فأجابه النبي ﷺ ، قال : استغفر لي يا رسول الله . فأجابه . وفي هذا دليل على أن النبي ﷺ ليس كغيره - أي يسأل منه الدعاء - أن إنسانًا يقول له : يا رسول الله ، استغفر لي وهذا في حياته ، أما بعد موته فلا يجوز ، فمن

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٨١٢) قوله « نعم ولك » أي وأستغفر لك أيضًا ، وذلك لأنه أمر بذلك كما تنص الآية .
 (٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٢٠) ، وأحمد في مسنده (١٢١/٤) ، والبيهقي في السنن (١٩٢/١٠) والطبراني في الكبير (٢٣٠/١٧) . قوله « مما أدرك » أي مما وصل إليهم عنه وطفروا به . قوله « النبوة الأولى » أي النبوة المتقدمة على نبوة نبينا محمد ﷺ . قوله « إذا لم تستح » أي إذ نزع منك الحياء فافعل ما شئت .

سأل الرسول أن يستغفر له بعد وفاته فهو مشرك كافر ، أما في حياته فلا بأس ، وقد أمر الله نبيه أن يستغفر لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات فقال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [غافر : ٥٥] والمغفرة هي أن الله تعالى يستر العبد ولا يُطلع الناس على ذنبه ويعفو عنه ويتجاوز عنه ؛ لأنها مأخوذة من الستر والوقاية وهو المغفرة .

١٨٤٥ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ » ^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

١٨٤٦ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ » ^(٢) رواه مسلم .

١٨٤٧ - وَعَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ : « كَانَ خُلُقُ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ » ^(٣) رواه مسلم في جملة حديث طويل .

١٨٤٨ - وَعَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ ، كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَكْرَاهِيَةِ الْمَوْتِ ؟ فَكُنَّا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ! قَالَ : « لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ . وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » ^(٤) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث المنشورة التي ذكرها النووي رحمته الله ومنها : حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » وذلك أن الله تعالى يفصل يوم القيامة بين العباد ويحكم بينهم ، أما فيما بينهم وبين الله ، فحكمه دائر بين العدل والفضل : إما أن يجازي بالعدل ، وإما بالفضل ، وأما فيما بين الناس بعضهم مع بعض : فيجازي بالعدل ، فكل إنسان منهم يعطى حقه بدون نقص ولا زيادة ، فأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله الصلاة ، فإن كان أحسنها فقد أفلح وأنجح ، وإن كان قد ضيعها فهو لما سواها أضيع ^(٥) ؛ لأن

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٤) ، ومسلم في القسامة (٢٨) ، والنسائي في السنن (٨٤/٧) ، وأحمد في مسنده (٤٨٨/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٠) ، وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) ، والبيهقي في السنن (٣/٩) . قوله « مارج » أي لهب مختلط بسواد النار .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩) ، وأحمد في مسنده (١٦٣/٦) ، والبيهقي في السنن (٤٩٩/١) .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٥) ، والبخاري في الرقاق (٦٥٠٧) ، وأحمد في مسنده (٣١٣/٢) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٤) قوله « كره الله لقاءه » أي أبغده عن رحمته وكرامته .

(٥) وذلك مصداقاً لما رواه النسائي في السنن (٢٣٤/١) ، وابن ماجه في الصلاة (١٤٢٦) ، وأحمد في مسنده (٦٥/٤) .

من ضيع الصلاة فلا أمر له بالمعروف ولا ناهي له عن المنكر كما قال تعالى : ﴿ أَتَىٰ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الْفُكْلُ رَأْسًا أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُكْلُ نَذِيرًا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [النكبات : ٤٥] أما فيما بين العباد فأول ما يقضي بينهم في الدماء - القتل - ثم الأموال والأعراض .

والقتل تارة يكون بحق وتارة يكون بغير حق ، والمقصود بذلك القتل بغير حق ، فهذا هو أول ما يقضى فيه الناس يوم القيامة .

وفي هذا الحديث إثبات القضاء يوم القيامة وأنه حق ، وأنه لا بد أن يعطي كل مظلوم مظلومه ، لكن ها هنا مسألة وهي : يأتي إنسان إلى شخص يكون قد ظلمه بغية أو قذف أو ما أشبه ذلك ثم يطلب منه السماح بعد أن تاب إلى الله وندم فيقول لصاحب الحق : اسمح لي أنا مذنب وأنا الآن أستغفر الله وأتوب إليه ، فاسمح لي ويعتذر ، ولكن صاحب الحق لا يقبل ! فهنا نقول : إذا علم الله من العبد صحة التوبة ؛ فإن الله تعالى يتحمل عنه حق هذا الآدمي الذي أبى أن يسامحه ، ومثل ذلك أيضًا المال ، لو أن إنسانًا كان بينك وبينه مشاجرة وجحدت ماله ، وكان في ذمتك له مال ، لكنك جحدته ثم بعد ذلك تبى إلى الله وأقررت به ، وذهبت إليه وقلت : يا فلان أنا جحدتك حقتك في الأول ، والآن أنا تائب إلى الله ونادم خذ مالك . ولكنه قال : بيني وبينك يوم القيامة : فهنا نقول : إذا علم الله من نيتك أنك صادق في التوبة ؛ فإن الله يتحمل عنك الإثم - يعني يُرضي صاحبك - لكن تصدق بهذا المال عنه حتى تبرأ ذمتك منه .

فمثلًا إذا كان حقه مائة ريال ، ثم جئت إليه بعد أن ندمت واستغفرت وقلت له خذ هذه الدراهم - مائة ريال - قال : لا ، أريدها من عملك الصالح يوم القيامة وأبى ، فحينئذ نقول : إذا علم الله من نيتك أنك صادق ؛ فإنك لا تأثم ، ويزول عنك الإثم ، لكن هذه المائة تصدق بها عن صاحبك تخلصًا منها .

أما الحديث الثاني : فحديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ أخبر عن بدء الخلق ، فذكر ﷺ أن الملائكة خلُقوا من النور ، ولذلك كانوا كلهم خيرًا ، لا يعصون الله ، ولا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فالملائكة خلُقوا من نور ، أما الشياطين - الجن - فقال : إنهم خلُقوا من نار . وفي هذا دليل على أن الجن هم ذرية الشيطان الأكبر الذي أبى أن يسجد لآدم وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] فالجن كلهم مخلوقون من النار ، ولهذا كثير منهم الطيش والعبث والعدوان على كل من يستطيعون العدوان عليه ، لكن اقرأ آية الكرسي في ليلك فلا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك الشيطان حتى تصبح .

« وخلق آدم مما ذكر لكم » : يعني خلق من طين ، من تراب ، من صلصال كالخفار ؛ لأن التراب صار طينًا ثم صار فخارًا ، فخلق منه آدم - عليه الصلاة والسلام - ولهذا قال الله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ .

وحديثها الثاني رضي الله عنها : قالت : « كان خلق النبي ﷺ القرآن » يعني أنه يتخلق بأخلاق القرآن ،

ما أمر به القرآن قام به ، وما نهى عنه القرآن اجتنبه ، سواء كان ذلك في عبادات الله أو في معاملة عباد الله ، فخلق النبي ﷺ القرآن ، وفي هذا إشارة من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها إذا أردنا أن نتخلق بأخلاق الرسول ﷺ فعلينا أن نتخلق بالقرآن ؛ لأن هذا هو أخلاق النبي ﷺ .

حديثها الثالث رضي الله عنها : أن النبي ﷺ قال : « من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره لقاء الله » فقالت عائشة رضي الله عنها أكرهية الموت يا رسول الله ، فكلنا يكره الموت ؟ قال : « ليس كذلك » فأخبر النبي ﷺ أن الإنسان إذا أحب لقاء الله أحب لقاء الله ، وذلك أن المؤمن يؤمن بما أعد الله للمؤمنين في الجنة من الثواب الجزيل والعطاء العقيم الواسع ، فيحب ذلك وترخص عليه الدنيا ولا يهتم بها ؛ لأنه سوف ينتقل إلى خير منها فحينئذ يحب لقاء الله ولا سيما عند الموت إذا بُشِّر بالرضوان والرحمة ؛ فإنه يحب لقاء الله ﷻ ويتشوق إليه فيحب لقاء الله .

أما الكافر والعياذ بالله : فإنه إذا بُشِّر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، فكره لقاء الله ، ولهذا جاء في حديث المحتضر : إن نفس الكافر إذا بُشِّرَت بالغضب والسخط تفرقت في جسده وأبث أن تخرج ^(١) ، ولهذا تنزع النفس - روح الكافر - من جسده كما ينزع الشعر من السفود المبلول ، بمعنى : أنه يُكره على أن تخرج روحه ، وذلك لأنه يشتر - والعياذ بالله - بالشر ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي ضَمَرَاتِ النَّارِ وَأَلْمَلَتْكَ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٣] فهم شحيحون بأنفسهم - والعياذ بالله - لا يريدون أن تخرج ولكن الملائكة تقول ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فإذا بُشِّرَت تفرقت في الجسد فينتزعها الملائكة كما ينتزع السفود ^(٢) من الصوف المبلول - والعياذ بالله - حتى تخرج .

المهم : أن المؤمن يحب لقاء الله ، لأنه يحب الله ﷻ ، يحب ثوابه ، يحب جنته ، يحب النعيم ، فهو يحب لقاء الله ولا سيما عند الموت فيحب لقاء الله - اللهم اجعلنا ممن يحب لقاءك يا رب العالمين وأحسن لنا الختام إنك على كل شيء قدير .

* * *

١٨٤٩ - وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُجَيْجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَكِفًا ، فَأَتَيْتُهُ أَرْوُرُهُ لَيْلًا ، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ لِأَتَقَلِّبَ ، فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ أَسْرَعَا ، فَقَالَ ﷺ : « عَلَى رِسْلِكُمَا ؛ إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُجَيْجٍ » فَقَالَا : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَقَالَ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا - أَوْ قَالَ : شَيْئًا - » ^(٣) متفق عليه .

(١) انظر الحديث بنصه في الترمذي في السنن (٩٨٠) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٦/٢) .

(٢) السفود : هو عود من حديد ينظم فيه اللحم ليشوى (انظر المعجم الأساسي ص ٢٦٢ مادة سفد) .

(٣) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥) ، ومسلم في السلام (٢٢) ، وأحمد في مسنده (٣٣٧/٦) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٧٠) .

١٨٥٠ - وَعَنْ أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ : شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ تُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءُ ، فَلَمَّا تَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ ، وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْفُفُهَا إِزَادَةً أَنْ لَا تُسْرِعَ ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّ عَبَّاسٍ نَادِ أَصْحَابِ السُّمْرَةِ » قَالَ الْعَبَّاسُ - وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا - : فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي : أَيْنَ أَصْحَابِ السُّمْرَةِ ؟ فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا ، فَقَالُوا : يَا لَيْلِكَ يَا لَيْلِكَ ، فَافْتَتَلُوا هُمُ وَالْكَفَّارُ ، وَالِدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، فَتَطَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ فَقَالَ : « هَذَا حِينَ حَمِي الْوُطَيْسُ » ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصِيَّاتٍ ، فَزَمَى بِهِنَّ وَجُوهَ الْكُفَّارِ ، ثُمَّ قَالَ : « انْهَزْمُوا وَزَبَّ مُحَمَّدٌ » فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ ؛ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصِيَّاتِهِ ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا ، وَأَمَرُهُمْ مُدْبِرًا ^(١) . رواه مسلم .

« الْوُطَيْسُ » التَّنَوَّرَ . وَمَعْنَاهُ : اسْتَدَّتِ الْحَرْبُ . وَقَوْلُهُ : « حَدَّهُمْ » هُوَ بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ ، أَي : بِأَسْهُمِهِمْ .

الشرح

هذان الحديثان ذكرهما المؤلف رحمته الله الأول حديث صفية بنت حُجَيٍّ رضي الله عنها أم المؤمنين : كان النبي ﷺ معتكفًا في المسجد في رمضان ، ولا اعتكاف إلا في رمضان ^(٢) ؛ لأن النبي ﷺ لم يعتكف في غير رمضان إلا سنة واحدة فاتته العشر في رمضان فقضاها في شوال ، وما عدا ذلك فلم يشرع لأمته ﷺ أن يعتكفوا في غير رمضان ، وإنما كان الاعتكاف من أجل تحري ليلة القدر ، فقد كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأول من رمضان رجاء ليلة القدر ، ثم الأوسط ، ثم قيل له : إنها في العشر الأواخر فواظب على الاعتكاف في العشر الأواخر .

وأما حديث عمر : أنه سأل النبي ﷺ أنه نذر - أي عمر - أن يعتكف ليلة أو ليلتين في المسجد

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٧٦) ، والحاكم في المستدرک (٣٢٨ / ٣) . قوله « حنين » هي واد بين مكة والطائف وراء عرفات ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً ، وقعت به غزوة شهيرة انتصر فيها المسلمون على هوازن وثقيف ، قوله « يركض بغلته » أي يضربها برجله الشريفة لتسرع ، قوله « أصحاب السمرة » هي الشجرة التي يابعوا تحتها النبي ﷺ بيعة الرضوان . والمعنى : نادِ أصحاب بيعة الرضوان ، قوله « رجلاً صيًّا » أي رجلاً قوي الصوت . ويذكر عن العباس رضي الله عنه أنه كان يقف على جبل سلع وينادي غلمانته في آخر الليل ، وهم في الغابة ، فيُشيعهم ، وكان بين سلع والغابة حوالي ١٥ كم ، قوله « عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر » أي أن عودتهم لمكانهم مثل عودة أمهات البقر لأولادها حينئذ على أولادها ، قوله « والكفار » أي مع الكفار ، قوله « والدعوة في الأنصار » يعني الاستغاثة والمناذرة إليهم ، قوله « كليلًا » أي ضعيفًا .

(٢) سبق الحديث عن هذا الرأي عند ذكر باب الاعتكاف ، فليرجع إليه .

الحرام فقال : أوف بنذكرك . فهذا لا يدل على أن الاعتكاف مشروع وإنما يدل على وفاء النذر بالاعتكاف ، وأنه ليس بمعصية لو أوفى بنذره فيه ، لكن السنة أن الاعتكاف يكون في رمضان فقط ، وفي العشر الأواخر منه فقط ، اعتكف ﷺ في العشر الأواخر .

والاعتكاف هو : لزوم المسجد في طاعة الله ، ليتفرغ الإنسان للعبادة ، وليس لغير ذلك جاءته صفة - وهو معتكف - لتحدث إليه - وهي امرأته - ولا بأس للإنسان أن يتحدث إليه أهله وهو معتكف ، فذلك من الألفة والمحبة والمودة ، ثم قامت إلى بيتها ، وكان النبي ﷺ خير الناس بأهله كما قال ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » ^(١) فقام معها يشيعها إلى بيته ، فإذا برجلين من الأنصار يمران ، فلما رأيا رسول الله ﷺ خجلا واستحييا ، فأسرعا في مشيهما ، فقال النبي ﷺ : « على رسلكما » - يعني : لا تُسرعا - إنها صفة بنت حبي ، لعلا يظن أنها امرأة جاءت لرسول الله ﷺ في الليل محل السكن وإيواء البيوت ، فقالا : سبحان الله ! تعجبا أن يقول الرسول هذا الكلام ، فقال النبي ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » فيصلى إلى قلبه وإلى عروقه كما أن الدم يسير في جميع البدن ، كذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، ومجرى هذا اسم مكان : أي في مكان جريان الدم « وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا أو قال : شيئًا » . ففي هذا الحديث دليل على فوائد :

- ١ - حسن خلق النبي ﷺ في معاملته أهله .
- ٢ - جواز زيارة المرأة زوجها في الاعتكاف ، وأن ذلك لا يطل الاعتكاف حتى لو فرض أنه تلذذ بالنظر إليها وما أشبه ذلك ؛ فإنه لا يضر ؛ لأن الله إنما نهى عن مباشرة النساء في الاعتكاف .
- ٣ - أنه ينبغي للإنسان أن يشيع أهله إذا انقلبوا من عنده إذا كان ذلك ليلاً أو في وقت يخاف فيه عليهم .
- ٤ - أنه ينبغي للإنسان أن يزيل أسباب الوسوس من القلوب ، فمثلاً : إذا خشى أن أحداً يظن به شرًا ؛ فإنه يجب عليه أن يزيل ذلك عنه ويخبره بالواقع حتى لا يحدث في قلبه شيء .
- ٥ - أنه إذا حدث للإنسان ما يتعجب منه فليقل : سبحان الله ، كما قال ذلك الأنصار يان وأقرهما النبي ﷺ .

٦ - شفقة النبي ﷺ على أمته ، ودرء الشر عنهم .

أما الحديث الثاني : عن العباس ؓ فهو في قصة حنين . وحنين : هي اسم مكان غزا به النبي ﷺ « ثقيفاً » وكان الصحابة ؓ قد فتحوا مكة في رمضان في السنة الثامنة من الهجرة ، ومعهم عشرة آلاف من خارج مكة وألفان من أهل مكة ، فالجميع اثنا عشر ألفاً ، فجعل بعضهم يقول لبعض : لن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٩٥) ، وابن ماجه في السنن (١٩٧٧) ، والدارمي في السنن (١٥٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٤٦٨/٧) .

نغلب اليوم من قلة . أعجبوا بكثرتهم ، ولكن الله تعالى - أراهم أن النصر من عند الله ، وأن الكثرة والقوة لا تحولان بين قضاء الله وقدره . قابلوا ثقيفاً وكانت ثقيف « ثلاثة آلاف وخمسمائة نفر » ، والمسلمون اثنا عشر ألفاً ومعهم الرسول ﷺ ، فكمنت لهم ثقيف في وادي حنين ، ومعلوم أنه إذا كمنوا لهم ثم تقدم بعضهم وتأخر آخرون سوف تحدث الهزيمة ، انهزم الصحابة ﷺ ، ولم يبق مع الرسول ﷺ من اثني عشر ألفاً إلا نحو مائة رجل ، كما قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّذِيرَتَ ﴾ [التوبة : ٢٥] ولكن محمداً ﷺ الذي أعطاه الله تعالى الشجاعة العظيمة ، والإقدام في موضع الإقدام جعل يركض بغلته نحو العدو وهو يقول ﷺ : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » - يقللمهم عليه الصلاة والسلام - وأمر العباس ﷺ - وكان رجلاً جهورئ الصوت - أمره أن ينادي الصحابة ليرجعوا ، فجعل ينادي : يا أصحاب السُّمرة ... يا أصحاب السُّمرة ، : يا أصحاب السُّمرة أقبلوا .. هلموا .

والسُّمرة : هي الشجرة التي بايع الصحابة عليها رسول الله ﷺ في الحديبية على ألا يفروا - وهم فروا الآن - فقال : يا أصحاب السُّمرة يذكركم بهذه المبايعه ، وهذه السمرة شجرة بايع النبي ﷺ تحتها الصحابة على ألا يفروا أبداً ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] فأخبر الله تعالى أنه ﷺ ، وأخبر النبي ﷺ : « أنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » بشرى عظيمة أنهم لا يدخلون النار لا قليلاً ولا كثيراً .

المهم أن العباس دعاهم بهذا - يا أصحاب السمرة - قالوا : لبيك .. لبيك ، وأقبلوا كأنهم البقر على أولادها الصغار يعني مسرعين جداً ، فقاتلوا العدو ، وأخذ النبي ﷺ حصيات رمى بها وجوه القوم ، وقال : انهزموا ورب محمد ، وصار الأمر كذلك ، انهزمت ثقيف ، وغنم منها النبي ﷺ غنائم كثيرة كثيرة جداً ما بين إبل وغنم وأحوال .

فالخاصل : أن هذا الحديث من آيات الله ﷻ حيث نصر الله المؤمنين بعد أن أراهم قوته وأن الأمر أمره - جل وعلا - ليس بالكثرة ولا بالقوة ولا بالعزيمة ولكن النصر من عند الله ﷻ قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْثُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّذِيرَتَ ﴾ ﷻ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﷻ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﷻ [التوبة : ٢٥ - ٢٧] .

وفي هذا الحديث من الفوائد :

١ - قوة شجاعة النبي ﷺ ، حيث تقدم إلى العدو بقوله وفعله ، أما فعله ؛ فإنه جعل يركض بغلته - التي هو راكب عليها - نحو العدو ، وأما قوله : بإعلانه بصوته الرخيم « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » .

٢ - ومنها : أنه يجب على الإنسان ألا يُعجب بقوته ولا بكثرتة ولا بعلمه ولا بماله ولا بذكائه

ولا بعقله . والغالب أن الإنسان إذا أعجب ؛ فإنه يُهزم بإذن الله : إن أعجب بكثرة هُرم ، وإن أعجب بعلمه ضلّ ، وإن أعجب بعقله تاة ، لا تُعجب بنفسك ولا بأي قوة من قواتك بل استعن بالله ﷻ وفوض الأمر إليه حتى يتم لك ماتريد .

٣ - ومنها : جواز ركوب البغلة ، والبغل متولد من بين الحمار والفرس ، ينزو الحمار على الأنثى من الخيل فتلد البغل وهو نجس وحرام لكنه طاهر في ظاهره كالهرة طاهرة ولكن بولها وعذرتها نجسة ، وكذلك البغل فعرقه طاهر ، ومسه حال ركوبه طاهر ؛ لأن النبي ﷺ ركب وهو يعرق وقد يكون المطر ولم يرد أن النبي ﷺ كان يحترز منه ، فدل ذلك على أنه طاهر وهو القول الراجح .

٤ - ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن ينادي الناس بما يشجعهم ، لأن العباس لم يقل : يا أيها المؤمنون ، يا أيها الصحابة بل قال : « يا أصحاب السَّمة » ؛ لأن هذا يشجعهم ويذكرهم بالبيعة التي بايعوا عليها رسول الله ﷺ .

٥ - ومنها : أن الله تعالى قد ينصر الفئة القليلة - ولو على باطل - على الفئة الكثيرة ولو على حق . الفئة القليلة هنا من ؟ الكفار - ثلاثة آلاف وخمسمائة - الفئة الكثيرة : الصحابة ﷺ ومعهم رسول الله ﷺ .

لكن يستفاد من هذا فائدة أيضًا : أن العاقبة للمتقين حتى لو هزم المسلمون بكثرتهم ، فإن العاقبة لهم ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] والله موفق .

* * *

١٨٥١ - وعن أبي هريرة ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغِذْيُ الْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟! » (١) رواه مسلم .

١٨٥٢ - وَعَنْهُ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » (٢) رواه مسلم . « العائِلُ » : الفقير .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) قوله إن الله طيب أي منزه على كل نقص . قوله « أشعث أغبر » أي متفرق شعر الرأس مغبر الوجه . قوله « فأنى » أي فكيف .

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان (١٧٢) ، وأحمد في مسنده (٢٥٣/٢) والنسائي في السنن (٢٤٧/٧) ، والدارمي في السنن (٢٦٧/٢) . قوله « لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يركبهم ولا ينظر إليهم » أي يعرض عنهم ، ولا يطهرهم من دنس الذنوب . قوله « ولهم عذاب أليم » أي مؤلف ، وهو العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم ألمه . قوله « وعائِلٌ مستكبر » أي فقير مستكبر .

١٨٥٣ - وَعَنْهُ عليه السلام قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَيَحَانُ وَجِيحَانُ وَالْفُرَاتُ وَالثَّيْلُ ، كُلُّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ » ^(١) رواه مسلم .

١٨٥٤ - وَعَنْهُ قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَدِي فَقَالَ : « خَلَقَ اللَّهُ الثُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا الْحَيَاتِلَ يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوزَةَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ الثُّورَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ » ^(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في آخر كتابه من الأحاديث المنثورة ما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزيكهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم » كان من عادة النبي ﷺ وحسن بلاغته وبيانه أنه يذكر أحياناً الأشياء مفصلة محددة حتى يسهل حفظها وفهمها أحياناً يقول : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة » وأحياناً يقول : « اثنتان من أمتي ... » وأحياناً يقول : « سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله » وأشباه ذلك كثيرة ، لأن الشيء إذا فُضِّل وُحِدَّ في العدد صار أضبط للإنسان وأقرب إلى الفهم ولا ينسى .

« ثلاثة » : يعني ثلاثة أصناف ، وليس المراد ثلاثة أفراد بل ثلاثة أصناف من الناس : « لا يكلمهم الله يوم القيامة » تكليم رضا ، وإلا فإنه ﷻ يتكلم تكليم غضب حتى يكلم أهل النار لما قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٧] قال لهم : ﴿ أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] ، لكن المراد كلام الرحمة والرضا ، فهؤلاء الثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : أي نظر رحمة وإشفاق وإكرام وعزة بل يذلهم ﷻ وَلَا يُزَكِّيهِمْ : أي لا يجعل لهم زكاء بل هم في شقاء دائم - والعياذ بالله - .

الأول : « شيخ زان » يعني كبير السن زانٍ هذا - والعياذ بالله - زناه أشد من زنا الشاب ، لأن دواعي الشهوة فيه قليلة على عكس الشاب فدواعي الشهوة فيه قوية قد تغلبه على ما في قلبه من كراهة الزنا وبغضه ، لكن الشيخ ميت الشهوة فإذا زنا الشيخ - والعياذ بالله - وهو الكبير ؛ دل ذلك على فساد طويته ، وأنه يحب الزنا ؛ لأنه زنا لا لقوة شهوة عنده .

الثاني : « ملك كذاب » الملك هو حاكم له السلطة إذا قال فعل ، ولهذا قال ابن المواردي في لاميته المشهورة :

جانب السلطان واحذر بطشه لا تخاصم من إذا قال فعل

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٦) ، وأحمد في مسنده (٢٨٩/٢) قوله « سيحان وجيحان » نهران ببلاد فارس .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧) ، وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) - والحاكم في المستدرک (٤٥٠/٢) ، والبيهقي في السنن (٣/٩) .

السلطان يقول وينفذ ويفعل ولا حاجة له إلى الكذب ، وإنما عامة الرعية ربما يحتاج الواحد منهم إلى الكذب لينقذ نفسه ، لكن السلطان الملك ليس له حاجة إلى الكذب ، فإذا كذب فهو من الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم - والعياذ بالله - .

الثالث : « عائل مستكبر » عائل يعني : فقير ، سبحان الله ! فقير ويستكبر على الناس : الغنى ربما يستكبر لغناه كما قال ﷺ : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَبَطُخٌ ۖ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ۖ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] لكن الفقير ليس له سبب يستكبر به على الناس ، فإذا استكبر دل ذلك على خبثه وخبث طَوْرِيَّتِهِ ، وأنه رجل طُبِعَ على الكبرياء - والعياذ بالله - .

أما الحديث الثاني : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فقال : « سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة » هذه أربعة أنهار في الدنيا وصفها النبي ﷺ بأنها من أنهار الجنة ، فقال بعض أهل العلم : إنها من أنهار الجنة حقيقة ، لكنها لما نزلت إلى الدنيا غلب عليها طابع أنهار الدنيا ، وصارت من أنهار الدنيا ؛ لأن أنهار الآخرة أربعة - أنهار الجنة أربعة - ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [محمد : ١٥] وهذه الأنهار الأربعة في الجنة لا نعلم كيفيتها ولا طعمها ؛ لأن النبي ﷺ قال عن الجنة عن ربه ﷻ في الحديث القدسي : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (١) لكن سيحون وجيحون والنيل والفرات معلومة وهي تأسن - تتغير - مع طول المدة ، فللعلماء فيها تأويلان :

١ - أنها من أنهار الجنة حقيقة لكن لما نزلت إلى الأرض صار لها حكم أنهار الدنيا .

٢ - أنها ليست من أنهار الجنة حقيقة لكنها أطيب الأنهار وأفضلها فذكر النبي ﷺ هذا الوصف لها من باب رفع شأنها والثناء عليها - والله أعلم بما أراد رسوله ﷺ .

أما الحديث الثالث : « خلق الله التربة يوم السبت ... » إلى آخر الحديث .

فهذا الحديث رواه الإمام مسلم رحمه الله وقد أنكره العلماء عليه ؛ فهو حديث ليس بصحيح ولا يصح عن النبي ﷺ لأنه يخالف القرآن الكريم ، وكل ما خالف القرآن الكريم فهو باطل (٢) ؛ لأن الذين رواوا نقله بشر يخطئون ويصيبون والقرآن ليس فيه خطأ ، كله صواب منقول بالتواتر ، فما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٢) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٢١/٤) .

(٢) ذكر الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث في كتاب مشكاة المصابيح (١٥٩٨/٣) حديث رقم (٥٧٣٤) ما نصه : ولا مطعن في إسناده البتة ، وليس هو بمخالف للقرآن بوجه من الوجوه ، خلافاً لما توهمه بعضهم ؛ فإن الحديث يفصل كيفية الخلق على الأرض وحدها ، وأن ذلك كان في سبعة أيام ، ونص القرآن على أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام ، والأرض في يومين - لا يعارض ذلك ؛ لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة في الحديث ، وأنه - أعني الحديث - يتحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على الأرض حتى صارت صالحة للسكنى ، ويؤيده أن القرآن يذكر أن بعض الأيام عند الله كألف سنة ، وبعضها مقداره خمسون ألف سنة . فما المانع أن تكون الأيام الستة من هذا القبيل ، والأيام السبعة من أيامنا هذه ، كما هو صريح الحديث ، وحيث فلا تعارض بينه وبين القرآن اهـ . كلام الشيخ الألباني .

خالفه من أي حديث كان فإنه يحكم بأنه غير صحيح وإن رواه من رواه ؛ لأن الرواة هؤلاء لا يتلقون عن رسول الله ﷺ مباشرة لكن بواسطة الإسناد : حدثنا فلان عن فلان إلى رسول الله ﷺ وهؤلاء قد يخطئون . لكن القرآن ليس فيه خطأ .

فهذا الحديث مما أنكره أهل العلم - رحمهم الله - على الإمام مسلم ولا غرابة في ذلك ، لأن الإنسان بشر « مسلم وغير مسلم » كلهم بشر يخطئون ويصيبون ، فعلى هذا لا حاجة أن نتكلم عليه ، مادام ضعيفاً فقد كُفيناها - والله الموفق .

١٨٥٥ - وَعَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه قَالَ : « لَقَدْ انْقَطَعَتْ فِي يَدَيَّ يَوْمَ مُؤْتَةِ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ ، فَمَا بَقِيَ فِي يَدَيَّ إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ » ^(١) ، رواه البخاري .

١٨٥٦ - وَعَنْ عَفْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ ، فَاجْتَنَدَ ، ثُمَّ أَصَابَ ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِنْ حَكَمَ وَاجْتَنَدَ ، فَأَخْطَأَ ؛ فَلَهُ أَجْرٌ » ^(٢) متفق عليه .

١٨٥٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْحُمَى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ؛ فَأَتَرِدُوهَا بِالْمَاءِ » ^(٣) متفق عليه .

١٨٥٨ - وَعَنْهَا رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمٌ ، صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ » ^(٤) متفق عليه . وَالْمُخْتَارُ جَوَازُ الصَّوْمِ عَمَّنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمٌ لِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَالْمُرَادُ بِالْوَلِيِّ : الْقَرِيبُ وَارِثًا كَانَ أَوْ غَيْرَ وَارِثٍ .

الشرح

هذه من الأحاديث التي ذكرها النووي رحمته الله في آخر كتابه فمنها حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه انقطع في يده تسعة أسياف في غزوة مؤتة ولم يبق معه إلا صفيحة يمانية .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٥) قوله « مؤتة » هي موضع بالقرب من الشام حدثت فيها معركة بين المسلمين والروم استشهد فيها جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن ثابت . وتولى خالد بن الوليد قيادة الجيش بعد استشهادهم وعاد بجيش المسلمين سالمًا . قوله « صفيحة يمانية » أي سيف على تلك الصفة ، وذلك من شدة القتال . (٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ، ومسلم في الأفضية (١٥) ، وأحمد في مسنده (٢٠٤/٤٥) ، وأبو داود في الأفضية (٣٥٧٤) قوله « إذا حكم الحاكم فاجتهد » هذا الكلام ينطبق على الحاكم العالم للحكم ، أما من ليس بأهل للحكم ؛ فلا يحل له الحكم ، فإن حكم فلا أجر له ؛ بل هو آثم ولا ينفذ حكمه . سواء وافق الحق أم لا ؛ لأن إصابته ليست صادرة عن أصل شرعي .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٣) ، ومسلم في السلام (٧٩) ، وأحمد في مسنده (٢٩١/١) ، والحاكم في المستدرک (٤٠٣/٤) . قوله « فيح جهنم » انتشار لهبها وقوته .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٢) ، ومسلم في الصيام (١٥٣) ، والبيهقي في السنن (٢٥٥/٤) ، وأحمد في مسنده (٦٩/٦) بنحوه . قوله « وليه » أي ابنه أو من يليه في تركته .

خالد بن الوليد رضي الله عنه من أشجع الناس ، ولكن هو كان في غزوة أحد في جيش قريش المشركين وهو ممن كثرُوا على الصحابة رضي الله عنهم من خلف جبل أحد وقاتلوا الصحابة وقاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم هو وعكرمة ابن أبي جهل ، ثم مَنَّ الله عليهما بالإسلام ، فكانا من قواد المسلمين .

وفي قصتهما دليل على كمال قدرة الله تعالى وأنه بيده أزمّة الأمور ، وأنه يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، فكم من ضال هده الله ! وكم من مهتد أضله الله ! - والعياذ بالله - وانظر إلى حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » ^(١) ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها يعني الرجل يعمل حتى لا يبقى على أجله إلا ذراع - أي مدة قرية - ثم يموت فيسبق عليه الكتاب .

وأما الحديث الثاني : حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر » .

المراد بالحاكم هنا القاضي ، والظاهر أن المفتي مثله ، يعني : أن الإنسان إذا اجتهد في طلب الحق ، وتبين له شيء من الحق ثم أفتى به - أو حكم به - فهو على خير : إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد . ولا يضيع الله تبارك وتعالى أجر من أحسن عملا ، فدل ذلك على أن الإنسان إذا اجتهد وتحرى الحق وبذل وسعه في ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يُثيبه على هذا : إن أصاب فله أجران : الأجر الأول على إصابة الحق والثاني على اجتهداده ، وإن أخطأ فله أجر واحد وهو الاجتهاد وبذل الوسع والطاقة في طلب الحق .

وأما الحديث الثالث : حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » يعني إذا مات الإنسان وعليه صيام فإنه يصوم عنه وليه ، سواء كان نذراً أو واجباً في أصل الشرع . فإذا قُدِّرَ أن رجلاً أفطر في رمضان ، لأنه مسافر ، ثم تهاون بعد رمضان ولم يقض ، لأنه يجوز أن يؤخر القضاء إلى شعبان ولكنه مات قبل القضاء ؛ فإن وليه - أي وارثه - يصوم عنه من أم أو أب أو ابن أو بنت ، أو زوجة .

وهذا ليس على سبيل الوجوب بل الاستحباب ، فإن لم يصم وليه أطعم عنه عن كل يوم مسكيناً . وكذلك لو كان عليه كفارة ومات قبل أن يؤديها مع تمكنه منها فإنه يصوم عنه وليه ، وكذلك لو نذر أن يصوم ثلاثة أيام ومات قبل أن يصوم ؛ فإنه يصوم عنه وليه ، فإن لم يفعل ؛ فإنه يُطعم عن كل يوم مسكيناً .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها وهو الحديث الرابع : فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر « أن الحمى من فيح جهنم ؛ فأبردوها بالماء » . الحمى : هي المرض الذي يصيب الإنسان بالحرارة في جسمه ، هذه من فيح جهنم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . أما كيف وصل فيح جهنم إلى بدن الإنسان ؟ فهذا أمره إلى الله ولا

(١) انظر الحديث بنصه فيما أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٠٧) ، ومسلم في الإيمان (١٧٩) ، وأحمد في مسنده (٣٣٥/٥) .

نعرفه ، ما ندري ، لكن نقول كما قال النبي ﷺ : « إن الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » يعني صبوا على المريض ماء يبرده ، وهذا من أسباب الشفاء لمن أصيب بالحمى ، وقد شهد الطب الحديث بذلك ، فكان من جملة علاجات الحمى أنهم يأمرؤن - أي الأطباء - المريض أن يتحمم بالماء وكلما كان أبرد على وجه لا مضرة فيه فهو أحسن وبذلك تزول الحمى بإذن الله . والله الموفق .

* * *

١٨٥٩ - وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الطُّفَيْلِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَدَّثَتْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَاللَّهِ لَتَنْتَهَيْنِ عَائِشَةُ ، أَوْ لَأُخْجَرَنَّ عَلَيْهَا ، قَالَتْ : أَهْوَا قَالَ هَذَا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَتْ : هُوَ لِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ لَا أَكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا ، فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا حِينَ طَالَتِ الْهَجْرَةُ . فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ لَا أَشْفَعُ فِيهِ أَبَدًا ، وَلَا أَتَحَنُّ إِلَى نَذْرِي ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ كَلَّمَ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنُ عَبْدِ يَعْتُوْرَ وَقَالَ لَهُمَا : أَنْشُدْكُمَْا اللَّهُ لَمَّا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَإِنَّهَا لَا يَجِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي ، فَأَقْبَلَ بِهِ الْمِسْوَرُ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ حَتَّى اسْتَأْذَنَّا عَلَى عَائِشَةَ ، فَقَالَا : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، أَنْدَخُلُ ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ : ادْخُلُوا . قَالُوا : كُلُّنَا ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ادْخُلُوا كُلُّكُمْ ، وَلَا تَعْلَمَنَّ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ ، فَلَمَّا دَخَلُوا ، دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجَابَ ، فَأَعْتَقَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَطَفِقَ يَنَاشِدُهَا وَيَبْكِي ، وَطَفِقَ الْمِسْوَرُ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يَنَاشِدَانِهَا إِلَّا كَلِمَتَهُ وَقَبِلَتْ مِنْهُ ، وَيَقُولَانِ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتَ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَلَا يَجِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّخْرِيجِ ، طَفِقَتْ تَذْكُرُهُمَا وَتَبْكِي ، وَتَقُولُ : إِنِّي نَذَرْتُ وَالتَّذْرُ شَدِيدٌ ، فَلَمْ يَزَالَا بِهَا حَتَّى كَلِمَتِ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَأَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً ، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا (١) . رواه البخاري .

١٨٦٠ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى قَتْلَى أُحُدٍ ، فَصَلَّى عَلَيْهِمْ بَعْدَ ثَمَانِ سِنِينَ كَالْمُودِعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ، ثُمَّ طَلَعَ إِلَى الْمُنْبَرِ ، فَقَالَ : إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضَ ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا ، أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا « قَالَ : فَكَانَتْ آخِرَ نَظَرِهِ نَظَرُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . متفقٌ عليه .

وفي رواية : « وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا ، وَتَفْتَلِتُوا فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » قَالَ عُقْبَةُ : فَكَانَ آخِرَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُنْبَرِ .

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٣) . قوله « لتنتهين عائشة » أي عن هذا الكرم والسماحة التي تفعلها ؛ قوله « طالت الهجرة » أي هجرانها له وعدم كلامها معه ، قوله « ولا أتحنن » أي ولا أرجع ، قوله « وطفق يناسدها » أي أخذ يسألها الرضا عنه .

وفي رواية قَالَ : « إِنِّي فَرَطْتُ لَكُمْ ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى خَوْضِي الْآنَ ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ؛ وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَافَسُوا فِيهَا » (١) .

وَالْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ عَلَى قَتْلِي أَحَدٌ : الدُّعَاءُ لَهُمْ ، لَا الصَّلَاةُ الْمَعْرُوفَةُ .

الشرح

هذان حديثان عظيمان فيهما فوائد ذكرها المؤلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الأحاديث المنشورة .

الحديث الأول : حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَفْضَلُ زَوْجَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَكَانَتْ مَنْ كَانَتْ فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْرِ وَهُوَ ابْنُ أُخْتِهَا أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ سَمِعَ عَنْهَا أَنَّهَا تَبَرَّعَتْ وَأَعْطَتْ عَطَايَا كَثِيرَةً فَاسْتَكْثَرَ ذَلِكَ مِنْهَا وَقَالَ : لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَحْجَرْنَ عَلَيْهَا ، وَهَذِهِ كَلِمَةٌ شَدِيدَةٌ بِالنِّسْبَةِ لَأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ لِأَنَّهَا خَالَتُهُ ، وَعِنْدَهَا مِنَ الرَّأْيِ وَالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِيهَا ذَلِكَ الْقَوْلُ ، وَالْحَجَرُ عَلَيْهَا يَعْنِي مَنَعَهَا مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهَا أَوْ التَّبَرُّعِ الْكَبِيرِ مِنْ مَالِهَا ، فَسَمِعَتْ بِذَلِكَ ، وَأَحْبَرَتْ بِهِ ، أَخْبَرَهَا بِذَلِكَ الْوَاشُونَ الَّذِينَ يَشُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَيُفْسِدُونَ بَيْنَهُمْ بِالنِّمِيمَةِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَالنِّمِيمَةُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ ، وَقَدْ حَذَرُ اللَّهُ مِنَ النَّمَامِ وَإِنْ حَلَفَ - فَقَالَ : ﴿ وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمِّينٍ ﴾ هَكَذَا مَشَّامٌ يَنْبِيزُ ﴿ (٢) [القلم : ١٠ ، ١١] وَمَرُّ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ عَلَى قَبْرَيْنِ مِنْ قُبُورِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : « إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ » - يَعْنِي لَا يُعَذَّبَانِ فِي أَمْرِ شَاقٍّ وَأَمْرٍ صَعْبٍ بَلْ يَسْهَلُ بِالنِّسْبَةِ لِلْقِيَامِ بِهِ لَا بِالنِّسْبَةِ لِعَظَمَةِ عِنْدَ اللَّهِ - « أَمَا أَحَدُهُمَا : فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِعُهُ مِنَ الْبَوْلِ » يَعْنِي لَا يَسْتَنْجِي اسْتِنْجَاءً تَامًّا وَإِذَا أَصَابَ الْبَوْلُ ثَوْبَهُ أَوْ بَدَنَهُ لَا يِيَالِي بِهِ . « وَأَمَّا الْآخَرُ : فَكَانَ يَمِشِي بِالنِّمِيمَةِ » (٣) يَأْتِي لِلنَّاسِ فَيُخْبِرُ بِمَا قَالَ الْبَعْضُ فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَهُمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَالنِّمِيمَةُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ يُعَذَّبُ عَلَيْهَا النَّمَامُ فِي قَبْرِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ - نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ - .

المهم أن هذه الكلمة وصلت إلى عائشة ، فنذرت رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَلَّا تَكَلِّمَهُ أَبَدًا ، وَذَلِكَ لَشِدَّةِ مَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الْإِنْفَعَالِ عَلَى ابْنِ أُخْتِهَا ، وَهَجْرَتِهِ .

ومن المعلوم أن هجر أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لابن أُخْتِهَا سَيَكُونُ شَدِيدًا عَلَيْهِ ، فَحَاوَلَ أَنْ يَسْتَرْضِيَهَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْجَنَائِزِ (١٣٤٤) ، وَمُسْلِمٌ فِي الْفَضَائِلِ (٣٠) ، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي السَّنَنِ (١٤/٤) ، وَالنَّسَائِيُّ فِي السَّنَنِ (٦٢/٤) . قَوْلُهُ « فَرَطُ » أَيُ سَابِقٌ لَكُمْ إِلَى الْآخِرَةِ مَهْيًا لِمَصَالِحِهَا الْآخِرِيَّةِ بِالشَّفَاعَةِ لِلْعَصَاةِ وَالشَّهَادَةِ لِلْمُطِيعِينَ . قَوْلُهُ « تَتَافَسُوا » أَيُ تَتَافَسُوا فِي طَلِبِهَا . قَوْلُهُ « أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أَيُ أَنَّهُ أُعْطِيَ مَا فِي الْوُجُودِ مِنَ الْخَيْرِ .

(٢) قَوْلُهُ ﴿ حَلَّافٍ مِّمِّينٍ ﴾ أَيُ كَثِيرِ الْحَلْفِ . قَوْلُهُ ﴿ مِّمِّينٍ ﴾ أَيُ حَقِيرٍ . قَوْلُهُ ﴿ هَكَذَا مَشَّامٌ يَنْبِيزُ ﴾ أَيُ عِيَابٌ أَوْ مُغْتَابٌ لِلنَّاسِ . قَوْلُهُ ﴿ مَشَّامٌ يَنْبِيزُ ﴾ أَيُ نَقَالَ لِلْحَدِيثِ لِلْإِنْسَانِ بَيْنَ النَّاسِ .

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْجَنَائِزِ (١٣٦١) ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الطَّهَارَةِ (٧٠) ، وَالنَّسَائِيُّ فِي السَّنَنِ (١٠٦/٤) ، وَابْنُ مَاجَةَ فِي السَّنَنِ (٣٤٧) .

ولكنها صممت ؛ لأنها ترى أن النذر شديد ، فاستشفع إليها برجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وقَعَلَا حيلة بأَم المؤمنين لكنها حيلة حسنة ؛ لأنها أدت إلى مطلوب حسن وهو الإصلاح بين الناس ، والكذب في الإصلاح بين الناس باللسان جائز فكيف بالأفعال ؟ ، استأذنا على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فسَلِمَا عليها وهذه هي السنة عند الاستئذان أنك إذا قرعت الباب على شخص تقول السلام عليكم . ثم استأذناها في الدخول فقالا : ندخل ؟ قالت : نعم ، قالوا : كلنا ، قالت : كلكم ، ولم تعلم أن عبد الله بن الزبير معهما لكنها لم تقل : هل معكم عبد الله بن الزبير فلم تستفصل ، وأتت بقول عام : ادخلوا كلكم ، فدخلوا ، فلما دخلوا عليها وإذا عليها الحجاب : حجاب أمهات المؤمنين وهو عبارة عن ستر تستر به - أمهات المؤمنين - لا يراهن الناس وهو غير الحجاب الذي يكون لعامة النساء ؛ لأن الحجاب الذي لعامة النساء هو تغطية الوجه والبدن ، ولكن هذا حجاب يكون حاجبا وحائلا بين أمهات المؤمنين والناس ، فلما دخلا البيت دخل عبد الله بن الزبير الحجاب ؛ لأنه ابن أختها ، فهي من محارمه فأكب عليها يقبلها ويكي ويناشدها الله ﷻ ويحذرها من القطيعة ويبين لها أن هذا لا يجوز لكنها قالت : النذر شديد ، ثم إن الرجلين أقنعاهما بالعدول عما صممت عليه من الهجر وذكرها بحديث النبي ﷺ : « إنه لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث » حتى اقتنعت وبكت وكلمت عبد الله بن الزبير ، ولكن هذا الأمر أهمها شديدا ، فكانت كلما ذكرته بكت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، لأنه شديد . وهذا قاعدة في كل إنسان يخاف الله ، كل من كان بالله أعرف كان منه أخوف . كلما ذكرت هذا النذر وأنها انتهكت بكت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومع هذا أعتقت أربعين عبدا من أجل هذا النذر ليعتق الله تعالى رقبتهما من النار ، وفي هذا دليل على شدة إيمان أمهات المؤمنين وحرصهن على العتق من النار والبراءة من عذاب الكفار ، ففي هذا الحديث دليل على فوائد :

١ - أن الإنسان لا يحل له أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام ، ولا سيما إذا كان قريبا ، وأنه يجب عليه أن يحنث ويكفر ، لقول النبي ﷺ : « من حلف على يمين فرأى خيرا منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير » ^(١) والله ﷻ غفور رحيم بالنسبة لليمين إذا كفرت عن يمينك ، وأتيت الذي هو خير كما أمر النبي ﷺ .

٢ - فضيلة الإصلاح بين الناس ، ومعلوم أن الإصلاح بين الناس من أفضل الأعمال قال الله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] .

٣ - جواز الحيل إذا لم تصل إلى شيء مُحَرَّم ؛ لأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تحيل عليها الرجلان في الدخول عليها ومعهما عبد الله بن الزبير .

٤ - رقة قلوب الصحابة وسرعة بكائهم ﷺ من خشية الله ﷻ ، وهذا دليل على لين القلب

وخشيته لله ، وكلما كان قلب الإنسان أقسى كان من البكاء أبعد - والعياذ بالله - ولذلك نرى الناس لما كانوا أقرب للأخرة من اليوم نجد فيهم الخشوع والبكاء وقيام الليل واللجوء إلى الله والصدقة وفعل الخير ، لكن لما قست القلوب صارت المواعظ تمر عليها مرور الماء على الصفا لا تنتفع به إطلاقاً نسأل الله لنا ولكم العافية .

أما الحديث الثاني : ذكره المؤلف رحمته الله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد فصلى على الشهداء هناك - أي دعا لهم - وليس المراد الصلاة المعروفة كما قال المؤلف رحمته الله لأن صلاة الجنائز المعروفة إنما تكون قبل الدفن لا بعده إلا من فاتته الصلاة عليه قبل الدفن يصلى عليه بعده لكن هذه الصلاة الدعاء ^(١) كما في قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] يعنى ادع لهم ، ثم صعد المنبر صلى الله عليه وسلم وخطب الناس كالمودع ، وأخبر أنه يرى حوضه مائة أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، وأطيب من المسك رائحة ، وأنيته كنجوم السماء في الكثرة والنور - هذا الحوض يرده الناس وهم عطاش - من طول المقام يوم القيامة ، ويشرب منه المؤمنون - جعلنا الله وإياكم ممن يشربون منه بمئة وكرمه - ويؤذاه عنه الكافرون ، فمن شرب من شريعته في الدنيا واهتدى بسنته واتباع آثاره ؛ فليستشروا أنه سيشرب من حوضه يوم القيامة ، ومن لم يكن كذلك لحرم إياه - والعياذ بالله - .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه ينظر إلى حوضه الآن » كشف له عنه في الدنيا كما كشف عنه حين رأى الجنة والنار في صلاة الكسوف ، وهذه أمور غيبية لا نعرف كيف كذلك ولكن الله ورسوله أعلم .

المهم : علينا أن نؤمن ونصدق ، فهذا الحوض يرده الناس يوم القيامة ويشربون منه إلا من طغى واستكبر - والعياذ بالله - وأخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا يخشى على أمته الشرك ؛ لأن البلاد - ولله الحمد - فتحت وصار أهلها إلى التوحيد ولم يقع في قلب النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقع الشرك بعد ذلك ، لكن لا يفهم من هذا - أي من كونه لا يخفى الشرك على أمته - ألا يقع ، فإن الشرك وقع الآن فهو موجود الآن : من المسلمين من يقول : إنه مسلم وهو يطوف بالقبور ، ويسأل المقبورين ويذبح لهم وينذر لهم فهو موجود ، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل : إنكم لن تشركوا حتى نقول : إن ما وقع ليس بشرك ؛ لأن الرسول نفى أن يكون الشرك ، وهو لا ينطق عن الهوى لكن قال : « إني لا أخاف » وهذا بناء على وقوع

(١) يمكن الإشارة هنا إلى أن في الصلاة على الشهيد قولين :

الأول : عدم الصلاة عليه وذهب إلى هذا الرأي أكثر العلماء وهو قول الشافعية والمالكية والحنابلة ، وبه قال عطاء وإسحاق والنخعي وأبو ثور وابن المنذر . والثاني : وجوب الصلاة عليه وأنه كغيره من الموتى واستدلوا على ذلك بهذا الحديث الذي بين أيدينا . وما أخرجه البيهقي في السنن (١٤ / ٤) عن عقبة بن عامر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلى أحد فصلى على أهل أحد صلته على الميت ثم انصرف إلى المنبر ، فقال « إني فرطكم ... » الحديث . وظاهر الحديث يدل على أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليهم صلاة الجنائز وإنه لم يكن دعاءً فقط .

الدعوة في عهده ﷺ وبين التوحيد وتمسك الناس به ، لكن لا يلزم من هذا أن يستمر ذلك إلى يوم القيامة ، ويدل لهذا أنه صح عن الرسول ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يعبد فثام من أمته الأوثان » (١) . أي جماعات كبيرة ، ولكن الرسول ﷺ في تلك الساعة لا يخشى على أمته الشرك لكن خشي شيئاً آخر ، الناس أسرع إليه ؛ وهو أن تفتح الدنيا على الأمة فيتنافسوها ويتقاتلوا عليها فتهلكهم كما أهلكت من قبلهم ، وهذا هو الذي وقع الآن ، فقد فتحت الدنيا وجاءتنا من كل جانب وصار فيها ما لا يخطر على البال مما سبق ، ولو أن أحداً تحدث به لم يُصدّق لكن وقع فصار الناس الآن يتنافسون فيها ويتقاتلون عليها ، فأهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم .

والذين لم يقاتلوا عليها صارت قلوبهم للدنيا - والعياذ بالله - الدنيا هُمهم في المنام واليقظة ، والقعود والقيام ، والليل والنهار ، حتى أصبح المثل المشهور واقعاً على كثير من الناس وهو (الحلال ما حلّ باليد من حرام أو حلال) وحتى صدق فيهم قول الرسول ﷺ : « يأتي على الناس زمان لا يبالي الرجل أخذ المال من حلال أو حرام » (٢) - والعياذ بالله - أصبح الناس الآن يتقاتلون على الدنيا - على الدنيا - !! والعجب أن الإنسان يسعى وراء الدنيا التي خلقت له فيكون كأنه هو الذي خلقت لها - والعياذ بالله - يخدمها خدمة عظيمة يُرهق فيها بدنه وعقله وفكره وراحته والأنس بأهله ثم ماذا ، قد يفقدها في لحظة !! يخرج من بيته ولا يرجع إليه ، ينام على فراشه ولا يستيقظ ، وهذا مشاهد ، والعجب أن هذه الآيات نشاهدها ، نشاهد من عقد على امرأة ولم يدخل عليها ... مات !! مع شدة شوقه إليها وتُبعد أمله ولكن حال دونه المنون (٣) ، نجد أناساً معهم بطاقات دعوة زواجهم ثم يموتون وهي في سياراتهم . إذن فما فائدة الدنيا وهي إلى هذا الحد في الغرور ؟! لذلك أخبر النبي ﷺ وهو الرحيم بالْمُؤْمِنِينَ الرُّعُوفَ بهم الشفيق عليهم : إنما يخشى علينا أن تفتح الدنيا فتنافس فيها وهذا هو الواقع . فاحذر - يا أخي - لا تغرنك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور ، أنت إن وسّع الله عليك الرزق وشكرته فهو خير لك ، وإن ضيّق عليك وشكرت فهو خير لك ، أما أن تجعل الدنيا أكبر همك ومبلغ علمك ؛ فهذا خسارة في الدنيا والآخرة - أعاذنا الله وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن - .

* * *

١٨٦١ - وَعَنْ أَبِي زَيْدٍ عَمْرِو بْنِ أَخْطَبِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهُرُ ، فَتَزَلَّ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرْنَا مَا كَانَ ، وَمَا هُوَ كَائِنْ ، فَأَعْلَمْنَا أَحْقَظُنَا (٤) . رواه مسلم .

(١) ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/٥) وابن حجر في فتح الباري (٧٦/١٣) والحميدي في مسنده (٧٤٣) .
(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥٩) والنسائي في السنن (٢٣٤/٧) .

(٣) المنون : هو الموت .

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشرط الساعة (٢٥) قوله « فخطبنا حتى حضرت الظهر » أي استمر يخطب حتى موعد صلاة الظهر .

١٨٦٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ ؛ فَلْيُطِعهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ ؛ فَلَا يُعْصِهِ » (١) رواه البخاري .

١٨٦٣ - وَعَنْ أُمِّ سُرَيْكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا بِقَتْلِ الْأَوْزَاعِ ، وَقَالَ : « كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ » (٢) متفق عليه .

١٨٦٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَتَلَ وَرَعَةً فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ ؛ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً ، وَمَنْ قَتَلَهَا فِي الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ ؛ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً دُونَ الْأُولَى ، وَإِنْ قَتَلَهَا فِي الضَّرْبَةِ الثَّلَاثَةِ ؛ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً » .

وفي رواية : « مَنْ قَتَلَ وَرَعًا فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ ؛ كُتِبَ لَهُ مِائَةٌ حَسَنَةٍ ، وَفِي الثَّانِيَةِ دُونَ ذَلِكَ ، وَفِي الثَّلَاثَةِ دُونَ ذَلِكَ » (٣) . رواه مسلم .

قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ : « الْوَرَعُ » : الْعِظَامُ مِنْ سَامٍ أَمْرَصَ .

١٨٦٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَالَ رَجُلٌ : لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصَدِّقُ عَلَى سَارِقٍ ! فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ! لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ ! فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ ! لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيِّ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصَدِّقُ عَلَى غَنِيِّ ! فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ ، وَعَلَى زَانِيَةٍ ، وَعَلَى غَنِيِّ ! فَأَتَيْتُ فَقِيلَ لَهُ : أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ : فَلَعَلَّهُ أَنْ يَشْتَعِفَّ عَنْ سَرْقَتِهِ ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ : فَلَعَلَّهَا تَشْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا ، وَأَمَّا الْغَنِيُّ : فَلَعَلَّهُ أَنْ يَغْتَبِرَ ، فَيَنْفِقَ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ » (٤) . رواه البخاري بلفظه ، ومُسْلِمٌ بِمَعْنَاهُ .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث التي ذكرها المؤلف من الأحاديث المنشورة التي لا تختص بباب دون باب ، فمنها هذا الحديث الدال على أن النبي ﷺ أحطب الناس وأن الله تعالى أعطاه قوة لم يعطها أحداً غيره ؛ فقد صلى الفجر ﷺ ذات يوم وصعد المنبر وخطب الناس حتى أذن الظهر ثم نزل فصلى

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٦) ، وأحمد في مسنده (٣٦/٦) ، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٩) ، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٩) ، ومسلم في السلام (١٤٢) قوله « الأوزاع » حشرات سامة مؤذية .

(٣) أخرجه مسلم في السلام (١٤٦ ، ١٤٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢١) ، ومسلم في الزكاة (٧٨) ، والبيهقي في السنن (٢٦٧/٢) . قوله « يستعفف عن سرقة » أي تغنيه هذه الصدقة عن السرقة قوله « يعتبر » أي يأخذ العظة والعبرة فيفعل مثلما فعل ذلك المتصدق .

الظهر ، ثم عاد فصعد المنبر وخطب حتى أذن العصر ، فنزل وصلى العصر ، ثم صعد المنبر فخطب حتى غابت الشمس يعني يومًا كاملاً من صلاة الفجر إلى غروب الشمس وهو ﷺ يخطب ، ولم يُذكر أنه خرج إلى البيت ليتغدى أو نحو ذلك ، وإما أن يكون صائماً ، وإما أن يكون قد انشغل بما هو أهم ، وكذلك أيضًا لم يُذكر أنه صلى رتبة الظهر فيكون هنا اشتغل عن الرتبة بما هو أهم ؛ لأن موعدة الناس وتعليم الناس أهم من الرتبة ، فإن دار الأمر بين أداء الرتبة والتعليم فالتعليم أفضل . قال : « وأخبرنا بما كان وما يكون » يعني مما أطلعه الله عليه وليس يعلم الغيب إلا من أطلعه الله عليه فقط ، فأعلمه الله ﷻ في ذلك اليوم شيئاً من علوم الغيب الماضية ومن الغيوب المستقبلية وأخبر بها ﷺ .

« فأعلمنا أحفظنا » يعني منا من علم وحفظ وبقي ذلك في ذهنه ومنا من لم يحفظ ، ففي هذا دليل على قوة النبي ﷺ ونشاطه وحرصه على إبلاغ الرسالة حتى قام يومًا كاملاً . وأما الحديث الثاني : فهو حديث عائشة أن النبي ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » .

النذر : هو أن يلزم الإنسان نفسه شيئاً لله ﷻ مثل أن يقول : لله عليّ نذر أن أقوم ، أن أصوم ، أن أصلي ، أن أقرأ القرآن ، أن أتصدق ... إلخ . والنذر إما حرام وإما مكروه ، فبعض العلماء يرى أن النذر حرام ، وأنه لا يحل للإنسان أن ينذر ؛ لأنه يكلف نفسه ما هو في غنى عنه وكم من إنسان نذر ولم يوف ؛ وكم من إنسان نذر وتعب في الوفاء ! وكم من إنسان نذر وذهب إلى أبواب العلماء يستفتيهم لعله يجد رخصة ! المهم : أن النبي ﷺ نهى عن النذر ، واختلف علماء المسلمين في هذا النهي : فممنهم من قال : إنه للتحريم ، ومنهم من قال : إنه للكرهية ، ولكن إذا نذر أن يطيع الله وجب عليه أن يطيع الله وجوباً ؛ فإذا قال : لله عليّ نذر أن أصوم كل يوم اثنين من كل أسبوع ؛ وجب عليه ذلك ، ولا يحل له أن يخلف إلا لعذر كمرض ونحوه ، وإذا نذر أن يصلي كل يوم ركعتي الضحى ؛ وجب عليه أن يصلي ركعتين ... إلخ .

مع أنه كان في حلٍّ من ذلك إن شاء صام ، وإن شاء لم يصم ، وإن شاء صلى وإن شاء لم يصل ... إلخ ، في غير فرائض الله فهو في حلٍّ وسعة فيذهب فيضيّق على نفسه ، والعجب أن بعض الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية - إذا كان مريضاً قال : لله عليّ نذر إن عافاني الله لأفعلن كذا وكذا . سبحانه الله ! الله لا يعافيك إلا إذا أعطيت الشرط !! ولهذا أشار النبي ﷺ لذلك فقال : « إن النذر لا يردُّ قضاء » ^(١) إذا أراد الله أمراً - سواء نذرت أو لم تنذري - سيتم ، وقال : إنه لا يأتي بخير ^(٢) وصدق

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٢) بلفظ : « إن النذر لا يغني من القدر شيئاً » ومثله الترمذي في السنن (١٥٣٨) .

(٢) ويدل على ذلك نهيه عن النذر وذلك فيما رواه البخاري في الأيمان (٦٦٩٢ ، ٦٦٩٤) ، ومسلم في النذر (٦٤٤) ، وأحمد في مسنده (٦١/٢) .

ﷺ النذر ما فيه خير ، واعلم أنك إذا نذرت ، على شرط فلم توفِ إذا حصل الشرط فإنك مُهدد بأمر عظيم ، مُهدد بنفاق يجعله الله في قلبك حتى تموت قال الله ﷻ ﴿ وَنَهَمُ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَبِثَ آتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [التوبة : ٧٥] عاهدوا الله إن أعطانا مالا لنتصدقن منه ونقوم بطاعة الله ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٧٦] وتم لهم مطلوبهم ﴿ بَخِلُوا يَدَيْهِ وَتَوَلَّوْا ﴾ [التوبة : ٧٦] ما وقوا بما عاهدوا الله عليه ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ نفاق دائم لا يوقفون إلى التوبة منه ولا تنسلخ قلوبهم منه بل يقي في قلوبهم إلى أن يموتوا - والعياذ بالله - على النفاق ، فالهم - يا أخي المسلم - احذر النذر ، وحذر إخوانك المسلمين وقل للمريض : إن أراد الله لك شفاء شفاك بدون نذر ، وقل للتلميذ : إن أراد الله أن تتجح نجحت بدون نذر ، وقل لمن ضاع منه شيء : إن أراد الله آتاك به من غير نذر ، واضدق الله في نفسك إذا حصل ذلك الشيء فحينئذ اشكر الله ، تصدق بما شئت ، ضم ، صل ، أما أن تنذر وكأن الله ﷻ لا يأتي إلا إذا شرط له شرط - نسأل الله العافية ، ولهذا فالقول بالتحريم قول قوي ، وإليه مال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١) .

أما « من نذر أن يعصي الله فلا يعصه » لو نذر أن يشرب الخمر مثلاً حُرِّمَ عليه شربها ، ولا يحل له أن يشرب الخمر بالنذر لا يقول : أنا نذرت وأوفي بنذري : نقول : لا وفاء لنذر في معصية الله . لو نذر أن يعتدي على شخص ؛ لا يحل أن يعتدي عليه ولو نذر ، لو نذر أن يغتاب شخصاً ؛ فلا يحل له أن يغتابه ، ولو نذر أن يقاطع قريبه ؛ لم يحل له أن يقاطع قريبه ، لو نذر أن يعق والدیه ؛ لم يحل له أن يعق والدیه ، لأن ذلك معصية ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعص ، ولكن ماذا يفعل ؟ قال أهل العلم : إنه لا يعصي الله ويكفر كفارة يمين : يطعم عشرة مساكين أو يكسوهم ، أو يعتق رقبة ، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام متتابعة لحديث ورد في ذلك عن النبي ﷺ .

أما الحديث الثالث في درسنا : فهو قتل الوزغ : والوزغ سام أبرص هذا الذي يأتي في البيوت يبيض ويفرّخ ويؤذي الناس ، أمر النبي ﷺ بقتله ، وكان عند عائشة رضي الله عنها رمح بها تتبع الأوزاغ وتقتلها (٢) ، وأخبر النبي ﷺ أن من قتله في أول مرة فله كذا وكذا من الأجر ، وفي الثانية أقل ، وفي الثالثة أقل ... كل ذلك تحريضاً للمسلمين على المبادرة لقتله ، وأن يكون قتله بقوة ليموت في أول مرة ، وسماه النبي ﷺ فاسقاً ، وأخبر أنه كان ينفخ النار على إبراهيم - والعياذ بالله - حين ألقاه أعداؤه في النار جعل هذا الحبيث الوزغ ينفخ النار على إبراهيم من أجل أن يشتد لهيبها ، مما يدل على عداوته التامة لأهل التوحيد والإخلاص ولذلك ينبغي للإنسان أن يتبع الأوزاغ في بيته ، في السوق ، في المسجد ويقتلها - والله الموفق .

أما حديث أبي هريرة الثاني في درسنا : فهو في قصة الرجل الذي خرج ليتصدق ، ومعلوم أن الصدقة على الفقراء والمساكين ، ف وقعت صدقته في يد سارق ، فأصبح الناس يتحدثون : تُصدّق الليلة

(١) انظر فتاوى ابن تيمية (٢٥٧/٣٥ ، ٢٨٥) .

(٢) انظر في ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٨٣/٦ ، ١٠٩) .

على سارق ، والسارق ينبغي أن يعاقب لا أن يُعطى ويُنتهى ماله فقال هذا الرجل المتصدق : « الحمد لله » حمد الله ، لأن الله - تعالى - محمود على كل حال ، وكان من هدي النبي ﷺ أنه إذا أصابه ما يسره قال : « الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات » ^(١) ، وإذا أصابه خلاف ذلك قال : « الحمد لله على كل حال » ^(٢) هذا هدي النبي ﷺ . وأما ما يقوله بعض الناس : (الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه) فهذه عبارة لا ينبغي أن تقال ، لأن كلمة (على مكروه) تنبئ عن كراهتك لهذا الشيء وأن هذا فيه نوع من الجزع ، ولكن قل كما قال النبي ﷺ : « الحمد لله على كل حال » والإنسان لا شك في أنه في هذه الدنيا يوماً يأتيه ما يسره ، ويوماً يأتيه ما لا يسره ، فإن الدنيا ليست باقية على حال وليست صافية من كل وجه بل صفوها مشوب بالكدر - نسأل الله أن يكتب لنا ولكم بها نصيباً للآخرة - لكن إذا أتاك ما يسرك فقل : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ، وما يسوءك فقل : « الحمد لله على كل حال » ، ثم إنه خرج هذا الرجل فقال : « لأتصدقن الليلة فوقع صدقته في يد زانية » امرأة بغية تمكّن الناس من الزنا بها ، فأصبح الناس يتحدثون : « تصدق الليلة على زانية » وهذا شيء لا يقبله العقل ولا الفطرة فقال : « الحمد لله » ، ثم قال : « لأتصدقن الليلة » وكأنه رأى أن صدقته الأولى والثانية لم تقبل ، فتصدق « فوقع صدقته في يد غني » والغني ليس من أهل الصدقة ؛ بل من أهل الهدية والهبة وما أشبه ذلك ، فأصبح الناس يتحدثون : « تصدق الليلة على غني » فقال : الحمد لله ، على سارق وزانية وغني « وقد كان يريد أن تقع صدقته في يد فقير متعفف نزيه ، لكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا ، فقل له : « إن صدقتك قد قبلت » ؛ لأنه مخلص ، قد نوى خيراً لكنه لم يتيسر له ، وقد قال النبي ﷺ في هذا الشأن : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ... فأخطأ فله أجر » ^(٣) هذا مجتهد ولم يتيسر له ما يريد فقل له : أما صدقتك فقد قبلت . وأما السارق فلعله أن يستعف عن السرقة ، ربما يقول : هذا مال يكفيني ، وأما البغي فلعلها أن تستعف عن الزنا ، لأنها ربما كانت تزني - والعياذ بالله - ابتغاء المال وقد حصل لها ما يكفها عن الزنا . وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما آتاه الله .

هكذا النية الطيبة يحصل بها الثمرات الطيبة ، وكل هذا الذي ذكر متوقع وربما يكون .

يستعف السارق عن السرقة ، والبغي عن الزنا والغني يعتبر .

ففي هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا نوى الخير وسعى فيه وأخطأ ؛ فإنه يكتب له ، ولا يضره ، ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - إذا أعطى زكاته من يظنه من أهل الزكاة فتبين أنه ليس من أهلها ؛

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٠٣) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٩٩) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٠٣) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٢) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٩/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الأفضية (١٥) ، وأبو داود في السنن (٣٥٧٤) ، والنسائي في السنن (٢٢٤/٨) ، وأحمد في مسنده (٢٠٤/٤) .

فإنها تجزئه ، مثلاً رأيت رجلاً عليه ثياب رثة تحسبه فقيراً فأعطيته الزكاة ، ثم تحدث الناس أنه غني عنده أموال كثيرة ، فهل تجزئك الزكاة ؟ الجواب : نعم ، تجزئه الزكاة ، لأنه قيل لهذا الرجل : أما صدقتك فقد قبلت ، وكذلك إذا أعطيتها غيره ممن ظنته مستحقاً ولم يكن كذلك فإنها تجزئك . والله الموفق .

* * *

١٨٦٦ - وَعَنْهُ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي دَعْوَةٍ ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الدَّرَاعُ ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ ، فَتَهَسَّ مِنْهَا تَهَسَةً وَقَالَ : أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، هَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاطِرُ ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ، وَتَذْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ النَّاسُ : أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَّغَكُمْ ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَبُوكُمْ آدَمُ ، وَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ ، فَسَجَدُوا لَكَ ، وَأَشْكَنَكَ الْجَنَّةَ ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ؟ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، وَمَا بَلَّغْنَا ؟ فَقَالَ : إِنَّ رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ ، فَعَصَيْتُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، أَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَّغْنَا ؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، أَذْهَبُوا إِلَى مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَصَلِّ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحُ مِنْهُ ، وَكَلَّمْتُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ عِيسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، أَذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ .

وفي رواية : « فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَأَنْطَلِقُ ، فَاتِي تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِيدِهِ ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ،

ثُمَّ يُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَى ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي ، فَأَقُولُ : أُمْنِي يَا رَبِّ ، أُمْنِي يَا رَبِّ ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمْنِكَ مَنْ لِحِسَابِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ « ثُمَّ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا يَتَنَّى الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِعِ الْجَنَّةِ كَمَا يَتَنَّى مَكَّةَ وَهَجَرَ ، أَوْ كَمَا يَتَنَّى مَكَّةَ وَبُصْرَى « (١) متفق عليه .

الشرح

هذا الحديث الطويل الذي ساقه المؤلف رحمته الله في آخر كتابه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في دعوة فقدمت إليه الذراع ، فنهس منها نهسة وكانت تعجبه ، (الذراع) : يعني ذراع الشاه - وكانت تعجب النبي ﷺ ؛ لأن لحمها أطيب ما في الجسم من لحم ، لين وسريع الهضم ومفيد ، وكانت تعجب النبي ﷺ فنهس منها نهسة ثم حدثهم بهذا الحديث العجيب الطويل فقال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » ولا شك أنه ﷺ سيد ولد آدم وأشرف بني الإنسان عند الله - تبارك وتعالى - « أتدرون م ذاك ؟ » ، قالوا : لا يا رسول الله ، فساق لهم بيان شرفه وفضله ﷺ على جميع بني آدم ، ذكر أن الناس يحشرون يوم القيامة في صعيد واحد أولهم وآخرهم كما قال ﷺ : ﴿ قُلْ لِيَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ [مَجْمُوعُونَ لَكَ يَوْمَ تَمْلُومُ] [البقرة : ٤٩ ، ٥٠] . يجمعون في صعيد واحد والأرض يومئذ ممدودة ليست كهيئتها اليوم كروية لا ترى - إذا مددت بصرك - لا ترى إلا ما يواجهك من ظهرها فقط ، أما يوم القيامة فإن الأرض تُمدد مدَّ الجلد وليس فيها جبال ولا أودية ولا أنهار ولا بحار ، تُمدد مدًا واحدًا والعالم فيها ، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر - يعني لو تكلم الإنسان يسمعهم آخر واحد - والبصر ينفذهم ، يراهم ، لأنه ليس بها تكور حتى يغيب بعض عن بعض ولكن كلهم في صعيد واحد ، في ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق على قدر ميل ، ويلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فتضيق بهم الأرض ، ويطلبون الشفاعة لعل أحدًا يشفع فيهم عند الله - جل وعلا - ينقذهم من هذا الموقف العظيم على الأقل ، يلهمهم الله ﷻ أن يأتوا إلى آدم أبي البشر فيأتون إليه ويبينون فضله ، لعله يشفع لهم عند الله ﷻ يقولون له : أنت آدم أبو البشر - كل البشر من بني آدم : الذكور والإناث إلى يوم القيامة - (خلقك الله بيده) كما قال تعالى منكراً على إبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِدَنًى ﴾ [ص : ٧٥] خلقه الله بيده ، وخلق بقية البشر بكلمة (كن فيكون) أما آدم فخلقه جل وعلا بيده ، يقولون : « خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته » قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [البقرة : ٣٤] (وعلمك أسماء كل شيء) قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] « ونفخ فيك من روحه » : قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمَّ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٧) وأحمد في مسنده (٤٣٥/٢) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤) قوله « نهس » أي أخذ بأطراف أسنانه . قوله في صعيد واحد « في أرض متسعة مستوية . قوله : « وينفذهم بصره » أي يحيط بهم . ولا يخفى عليهم منه شيء لاستواء الأرض . قوله « مصاريع الجنة » أي جوانب أبواب الجنة .

سَجِدِينَ ﴿٧٢﴾ كل هذا يعلمه الخلق ولا سيما أمة محمد الذين أعطاهم الله تعالى من العلوم ما لم يعط أحدا من الأمم ، فيعتذر ويقول : « إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله ولن يغضب مثله قط » ثم يذكر خطيئته : أن الله سبحانه وتعالى نهاه أن يأكل من شجرة فأكل قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] شجرة في الجنة لا ندري ما هذه الشجرة ولا نوعها ولا كبرها ولا صغرها ، شجرة أبهمها الله ، فعلينا أن نؤمن بها مبهمة ، نهى آدم أن يأكل منها ، ويثبت له أنه إذا أكل منها هو وزوجه فإنهما يكونان من الظالمين ، ولكن عدوهما الشيطان دلأهما بغرور ووسوس لهما وقاسمهما : إني لكما لمن الناصحين ، فغرها ونسي آدم ما عهده إلى الله ﷻ ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه : ١٢١] نسي وأكل من الشجرة فعوقب بأن أخرج من الجنة إلى الأرض لحكمة يريد بها الله ﷻ فيذكر معصيته ويقول : « نفسي نفسي » يعني : عسى أن أنقذ نفسي ، ويؤكد ذلك ويكرره ثلاث مرات : « اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح » ، ونوح هو الأب الثاني للبشرية ، لأن الله أغرق جميع أهل الأرض الذين كذبوا نوحا ﴿ وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [مرد : ٤٠] وكان نوح هو الأب الثاني للبشر ، اذهبوا إلى نوح فيأتون إلى نوح ؛ لأنهم في شدة وضيق ، فيأتونه ويذكرون نعم الله عليه وأنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، وأن الله سمأه عبدا شكورا ، ولكنه يقول كما قال آدم في غضب الله ﷻ : « إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قط ولن يغضب مثله » ثم ذكر دعوته التي دعا بها على قومه : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] وفي رواية أنه يذكر دعوته التي دعا به لابنه ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنَى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ يَتُوحُّ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْتَسِنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [مرد : ٤٥ ، ٤٦] يذكر ذنبه ، والشافع لا يشفع إلا إذا كان ليس بينه وبين المشفوع عنده ما يوجب الوحشة ، والمعصية بين العبد وربّه ، توجب الوحشة بينهما وخجله منه ، فيذكر معصيته ويقول : نفسي نفسي نفسي ، ويحيلهم إلى إبراهيم عليه السلام فيأتي الناس إليه ويقولون : « أنت خليل الله في الأرض » ويذكرون من صفاته ، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند ربه فيعتذر ، ويقول : إنه كذب ثلاث كذبات ، ويقول : نفسي نفسي نفسي .

والكذبات هي : قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصفات : ٨٩] وهو ليس بسقيم ، لكنه قال متحديا لقومه الذين يعبدون الكواكب .

والثانية : قوله للملك الكافر : (هذه أختي) يعني زوجته ليسلم من شره وهي ليست كذلك .
والثالثة : قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدٌ مِمَّنْ هَذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] أي الأصنام ، لأن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى أصنامهم وكسرها ، فلما رجعوا وجدوها مكسرة قالوا : ﴿ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا ﴾ [الأنبياء : ٥٩] فقالوا : (فعله فتى يقال له إبراهيم) وجرى بينهم وبين إبراهيم ما جرى ، وقال لهم : ﴿ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدٌ مِمَّنْ هَذَا فَتَنَّاوُهمْ إِنَّ كَاثِرَاتٍ يَتَوَقَّرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وهو ما فعل ، وإنما الذي فعله هو إبراهيم عليه السلام لكن ذكر ذلك على سبيل التحدي لهؤلاء الذين يعبدون الأوثان . هذه كذبات في ظاهر الأمر لكنها في الحقيقة ومناسبة تأويله عليه السلام لم تكن كذبات ، لكنه لشدة ورعه وحيائه من الله - تبارك

وتعالى - اعتذر لهذا الإثم ، ويقول : « نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى » ويزكرون من صفاته وأن الله تعالى كلمه تكليماً واصطفاه على أهل الأرض برسالاته وكلامه فيذكر ذنباً ويعتذر ، يذكر أنه قتل نفساً قبل أن يؤذن له في قتلها ، وهو القبطي الذي كان في خصام مع رجل من بني إسرائيل ، وموسى من بني إسرائيل عليه السلام والقبطي من أهل فرعون ﴿ فَاسْتَعْنَى الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ [القصص : ١٥] دون أن يؤمر بقتله ، فرأى عليه السلام أن هذا يحول مما يحول بينه وبين الشفاعة للخلق حيث قتل نفساً لم يؤمر بقتلها ، وقال : « نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى » ويزكرون منه مئة الله عليه ، أنه نفخ فيه من روحه وأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، لأنه عيسى خُلِقَ بلا أب ، فلا يذكر ذنباً ، ولكنه يحيلهم إلى محمد عليه السلام وهذا شرف عظيم لرسول الله عليه السلام حيث كان أربعة من الأنبياء يعتذرون بذكر ما فعلوه ، وواحد لا يعتذر بشيء ، ولكن يرى أن محمداً عليه السلام أولى منه ، فيأتون إلى رسول الله عليه السلام فيقبل ذلك ، ويجلس تحت العرش ويفتح الله عليه من المحامد والثناء على الله ما لم يفتح على أحد غيره ثم يقال له : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل ثغرة ، واشفع تَشْفَعُ » فيشفع عليه السلام يقول : يا رب أمتي أمتي . فيقبل الله شفاعته ويُقال له : أدخل أمتك من الباب الأيمن من الجنة ، وهم شركاء مع الناس في بقية الأبواب ، وهذه فيها دلالة ظاهرة على أن النبي عليه السلام أشرف الرسل ، والرسل هم أفضل الخلق كما قال عليه السلام : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضُّبُورِ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] هؤلاء هم الأصناف الأربعة الذين هم أفضل الخلق ، والنبي عليه السلام أفضلهم . والله الموفق .

* * *

١٨٦٧ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَابْنَيْهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تَرْضَعُهُ حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دُوْحَةٍ فَوْقَ زَمْرَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ ، وَسَقَاءَ فِيهِ مَاءً ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمَ مُنْطَلِقًا ، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ : يَا إِبْرَاهِيمَ أَتَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أُنْيَسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لَا يُلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، قَالَتْ لَهُ : اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ : إِذَا لَا يُضَيِّعُنَا ، ثُمَّ رَجَعْتُ ، فَأَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّيْبَةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَيْتِكَ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي رَرْعٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ وَجَعَلْتُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَرْضَعُ إِسْمَاعِيلَ ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا نَفَذَ مَا فِي السَّقَاءِ ، عَطِشَتْ ، وَعَطِشَ ابْنُهَا ، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بِتَلَوَى - أَوْ قَالَ : يَتَلَبَّطُ - فَأَنْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا ، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا ؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا . فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي ، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا ، فَتَنْظَرَتْ هَلْ

فَقَطَعُمْ وَتَشْرَبْ؟ قَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ، وَشَرَابُنَا الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بَرَكَتُهُ دَعَاةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ، فَاغْرِثِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَثَرِيهِ يَبْكُثُ عَنِّيَتَهُ بِأَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَنَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَتَيْتُ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُبْكُثَ عَنِّيَتَهُ بِأَيْكِ. قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَنِّيَةُ أَمْرُنِي أَنْ أُمْسِكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَتَرَى نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْرَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ، قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعِ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ؟ قَالَ: وَتُعِينَنِي، قَالَ: وَأَعِيْنُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَتِيَّ نَيْتًا هَهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةٍ مُزْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَتْنِي حَتَّى إِذَا اِزْتَفَعَ الْبِنَاءَ، جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَتْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يَتَاوَلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

وفي رواية: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمَّ إِسْمَاعِيلَ، مَعَهُمْ شَتَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّتَّةِ، فَيَدْرُ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءَ، نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى اللَّهِ، قَالَتْ: رَضِيْتُ بِاللَّهِ، فَارْجَعْتُ، وَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّتَّةِ، وَيَدْرُ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ، فَتَنْظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسُ أَحَدًا، قَالَ: فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا، فَتَنْظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحْسِ أَحَدًا، فَلَمْ تُحْسِ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتْ الْوَادِي، سَعَتْ، وَأَتَتْ الْمَرْوَةَ، وَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَتَنْظَرْتُ مَا فَعَلَ الصَّبِيُّ، فَذَهَبَتْ وَنَظَرَتْ، فَإِذَا هُوَ عَلَى خَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا. فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ، فَتَنْظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسُ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا، فَتَنْظَرَتْ وَنَظَرَتْ، فَلَمْ تُحْسِ أَحَدًا حَتَّى أَتَتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ، فَتَنْظَرْتُ مَا فَعَلَ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتِ، فَقَالَتْ: أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ بِعَقْبِهِ هَكَذَا، وَغَمَرَ بِعَقْبِهِ عَلَى الْأَرْضِ، فَأَتْبَقَ الْمَاءُ فَذَهَبَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفُفُ - وَذَكَرَ الْحَدِيثُ بِطَوِيلِهِ (١).

رواه البخاري بهذه الروايات كلها .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤) والإمام أحمد في المسند (٣٦٠/١) بنحوه . قوله « جرابًا » أي وعاء يكون للماء واللبن ، قوله « الثنية » هي موضع الحجون ، قوله « يتلبط » أي يتمرغ ويضرب الأرض ، قوله « طرف درعها » أي طرف قميصها أو ثوبها ، قوله « صه » أي اسكتي ، قوله « بحث بعقبه » أي ضرب بجناحه ، قوله « يفور » أي ينبع ينبعا شديداً ، قوله « لا تخافوا الضيعة » أي لا تخافوا الهلاك ، قوله « رفقة من جرحم » أي جماعة من جرحم ، قوله « طائرا عائقا » هو الذي يحلق فوق الماء ، قوله « شب » أي بلغ سن الشباب ، قوله « يطالع تركته » أي يزور أهله وعائلته ، قوله « يبتغي لنا » أي يطلب الرزق ويسعى عليه ، قوله « أنس » أي أحس ، قوله « شنة » هي وعاء الماء المصنوع من الجلد .

« الدَّوْحَةُ » : الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ . قَوْلُهُ : « قَفَى » أَي : وَلَّى « وَالْجَرِيُّ » : الرِّشُول « وَأَلْفَى » معناه : وَجَدَ . قَوْلُهُ : « يَنْشُغُ » أَي : يَشْهُقُ .

١٨٦٨ - وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الْكَمَاءُ مِنَ الْمُنِّ ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ » ^(١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن سعيد بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الكماء من المنِّ ، وماؤها شفاء للعين » : الكماء : هي التي تعرف عند الناس بالفجع تنبت من كثرة الأمطار ولا سيما الأمطار الموسمية . وهي معروفة ، لذينة الطعم ، تنبت على الأرض وإذا كبرت يأخذها الناس بدون كلفة وبدون مشقة ، ولهذا قال النبي ﷺ إنها من المنِّ - أي مما منَّ الله به على عباده يسير وسهولة - (وماؤها شفاء للعين) يعني أن الماء الذي يُستخرج منها إذا مرضت العين بسبب الرطوبة فإن هذه تشفيه بإذن الله ﷻ لأن ماءها ناشف - وإن كان سائلاً - يُنشف العين ويزيل عنها الرطوبات ، ولهذا قال : (ماؤها شفاء للعين) يعني ليس من كل مرض بل من الأمراض التي أسبابها الرطوبة ؛ فإنها تُشفي بإذن الله ﷻ ولكن كيف يستخرج ماؤها ، قيل : إنها تُصهر على النار ثم تعصر ، لأنها إذا صهرت على النار لانت ثم تعصر ، وقيل : إنها تُقطع قطعاً صغيرة ثم تُعصر عصرًا شديدًا فيخرج منها الماء ولكنه قليل . والله الموفق .

٣٧١ - باب الاستغفار

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِلَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ إِنْ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٦] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر : ٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ ثَمَرَاتٍ لَمْ يَكُن لَهَا سَمِيَّةٌ وَلَا حَتِيفٌ فِيهَا خُلَّةٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْكَرُونَ وَلَا فِيهَا كَسَابٌ ﴾ [آل عمران : ١٥-١٧] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوًاءً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) [آل عمران : ١٣٥]

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٠٨) ومسلم في الأشربة (١٥٧) والإمام أحمد في المسند (١٨٧/١) والطبراني في الكبير (٦٣/١٢) . قوله « الكماء » هو نبات يوجد في الربيع تحت الأرض وهو أصل مستدير كالقلقاس لا ساق له ولا عرق ، لونه يميل إلى الغبرة ، يقال له : شحم الأرض ، قوله : « من المنِّ » أي من المن الذي أنزل على بني إسرائيل ليأكلوه دون تعب أو عناء ، قوله « وماؤها شفاء للعين » وذلك بعصر مائها والاحتكاك به .
(٢) قوله ﷻ : ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ أي سله المغفرة لذنوب المذنبين . قوله ﷻ : ﴿ وَالْأَسْكَارِ ﴾ هو الوقت ما بين آخر الليل وطلوع الفجر . قوله ﷻ : ﴿ يُصِرُّوا ﴾ أي يستمروا متمسكين .

والآيات في الباب كثيرة مغلومة .

الشرح

ختم المؤلف رحمته كتابه بالاستغفار والتوبة ، لأن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ في آخر حياته فقال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾ [سورة النصر] فالمؤلف رحمته ختم هذا الكتاب العظيم النافع الذي ينتفع به المسلمون في أقطار الدنيا كلها ، العامة وطلبة العلم .

وهذا الكتاب - رياض الصالحين - من أبرك ما رأيت من الكتب في انتفاع الناس به مما يدل على حسن نية مؤلفه رحمة الله عليه .

الاستغفار : هو طلب المغفرة ، وما من إنسان إلا وهو خطاء كما قال النبي ﷺ : « كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » ^(١) والخطأ الذي يصدر من بني آدم : إما تقصير في واجب ، أو فعل محرم ، ولا يخلو الإنسان من ذلك ، ولكن داوء الذنوب الاستغفار - والحمد لله - وفي الأثر : « أن الشيطان يقول : أهلك بني آدم - يعني بالخطايا والذنوب - وأهلكوني - ب (لا إله إلا الله) والاستغفار » . فالاستغفار سبب للمغفرة ، ولذا أمر الله - تعالى - به في آيات كثيرة من القرآن ساق منها المؤلف جملة صالحة منها : - قول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد : ١٩] فأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يعلم بأنه لا معبود حقًا إلا الله ، وأمره أن يستغفر قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ هذا وهو النبي ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أمر أن يستغفر لذنبه ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وكذلك أثنى الله تعالى على المستغفرين في آيات كثيرة ومنها : ﴿ وَالسَّائِفُونَ بِالْأَنْحَارِ ﴾ وهم الذين يستغفرون الله في آخر الليل ، قال العلماء : وذلك أنهم يتعبدون ويعبدون الله ويرون أنهم مقصرون فيسألون الله المغفرة ، هذا مع أنهم مجتهدون قائمون الليل ومع ذلك يستغفرون خوفًا من التقصير ، فينبغي للإنسان أن يكثر من استغفار الله ﷻ .

* * *

١٨٦٩ - وَعَنْ الْأَعَزِّ الْمُرْنِيِّ رحمته أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي ، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » ^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٨٧٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » ^(٣) رواه البخاري .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٩) وأحمد في مسنده (١٩٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤١) في مسنده (٢١١/٤) والبيهقي في السنن (٥٢/٧) والطبراني في الكبير (٢٨٠/١) . قوله « ليغان على قلبي » أي الفتور قليلًا عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه . فإذا فرغ منه لأمر ما عُذَّ ذلك ذنبًا . فاستغفر فيه . وقيل : هو السكينة التي تغشى عليه والاستغفار لإظهار العبودية لله والشكر لما أولاه .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٧) وأحمد في مسنده (٣٤١/٢) .

١٨٧١ - وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ اللَّهُ تَعَالَى بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَيَغْفِرُ لَهُمْ » ^(١) رواه مسلم .

١٨٧٢ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَثُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ^(٢) .
رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث صحيح .

١٨٧٣ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لَزِمَ الْاسْتِغْفَارَ ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ^(٣) رواه أبو داود .

١٨٧٤ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَالَ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ؛ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الرَّحْفِ » ^(٤) رواه أبو داود والترمذي والحاكم . وَقَالَ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ .

الشرح

سبقت الآيات التي ذكرها المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي فيها الحث على الاستغفار ، والثناء على أهله ، ثم ذكر المؤلف أحاديث متعددة في ذلك .

منها : قوله عن النبي محمد ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال ﷺ فيما رواه عنه الأغر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي » - يعني يحدث له شيء : من الكتمان والغم وما أشبه ذلك « وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » يقول : أستغفر الله (في اليوم مائة مرة) هذا وهو النبي ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! فكيف بنا !! ولكن قلوبنا قاسية ميتة لا يُغَانِ عليها بكثرة الذنوب ولا يهتم الواحد منا بما فعل ، ولذلك تجد الإنسانَ غير مبالي بمثل هذا ، وقليل الاستغفار . والذي ينبغي للإنسان أن يكون له أسوة حسنة في رسول الله ﷺ يكثر من الاستغفار كما قال ابن عمر : (إننا نعد للنبي ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة أو أكثر : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي) . وكذلك أخبر ﷺ أن من نعمة الله على العباد أنه إذا ابتلاههم بالذنوب فاستغفروا الله غفر لهم وأنه : « لَوْلَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ تَعَالَى بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَيَغْفِرُ لَهُمْ » وهذا حثٌّ على أن يستغفر الإنسان ربه ويكثر من الاستغفار ، لأنه ينال

(١) أخرجه مسلم في التوبة (١١) وأحمد في مسنده (٣٠٩/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥١٦) والترمذي في الدعوات (٣٤٣٣) والبيهقي في السنن (٥٨/٢) . قوله « وَتُبْ عَلَيَّ » أي ارجع علي بالرحمة ، أو وقفني للتوبة .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥١٨) والبيهقي في السنن (٣٥١/٣) والطبراني في الكبير (٣٤٢/١٠) . قوله « لَزِمَ » أي دام . قوله « مَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » أي من حيث لا يخطر بباله .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥١٧) والحاكم في المستدرک (٥١١/١) بنحوه . قوله « فر من الزحف » أي هرب من ميدان المعركة .

بذلك درجة المستغفرين الله ﷻ وكذلك أخبر فيما رواه أبو داود : أن « من لزم الاستغفار ؛ جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

« من لزم الاستغفار » : يعني داوم عليه ، وأكثر منه ، فإنه يُفَرِّج عنه الكرب ، وتوسّع له الضيق ، ويوسع له في رزقه ، ورزقه من حيث لا يحتسب .

والأحاديث في فضل الاستغفار والثناء على أهله والحث عليه كثيرة ، فعليك - يا أخي - بكثرة الاستغفار ، أكثر من قول : اللهم اغفر لي ، اللهم ارحمني ، أستغفر الله وأتوب إليه ، وما أشبه ذلك ، لعلك تصادف ساعة إجابة من الله ﷻ فيغفر لك فيها ... والله الموفق .

* * *

١٨٧٥ - وَعَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مِائَتًا بِهَا ، قَمَاتِ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمَيِّسَ ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا قَمَاتِ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » ^(١) رواه البخاري .

« أَبُوءُ » بياء مضمومة ثم واو وهمزة ممدودة ، وَمَغْنَاءُ : أَقْرَبُ وَأَعْتَرَفُ .

١٨٧٦ - وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ ، اسْتَغْفَرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » قِيلَ لِلْأَوْزَاعِيِّ - وَهُوَ أَحَدُ زُؤَانِيهِ - : كَيْفَ الْإِسْتِغْفَارُ ؟ قَالَ : يَقُولُ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ^(٢) . رواه مسلم .

١٨٧٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ مَوْتِهِ : « سُبْحَانَ اللَّهِ وَيَحْمَدُهُ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » ^(٣) متفق عليه .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي - رحمه الله تعالى - في باب (الاستغفار) منها حديث شداد بن أوس أن النبي ﷺ قال : سيد الاستغفار ويعني أشرف الاستغفار وأفضله أن تقول : « اللهم أنت ربي ، لا إله إلا

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦) وأحمد في مسنده (١٢٢/٤) والحاكم في المستدرک (٤٥٨/٢) والطبراني في الكبير (٣٥١/٧) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٥) وأحمد في مسنده (٣٥/٦) والطبراني في الكبير (٣٦٢/٨) . قوله « انصرف من صلاته » أي انتهى من صلاته بالتسليم . وقوله « أنت السلام ومنك السلام » أي أنت المالك المسلم العباد من الممالك والسلامة لا ترجى إلا منك . قوله « تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أي تعاليت يا ذا العظمة والمكرمة .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة بلفظه (٢١٨) والبخاري في تفسير القرآن بنحوه (٤٩٦٧) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٥) والنسائي في السنن (٦٩/٣) .

أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » من قالها حين يصبح موقفاً بها ثم مات من يومه قبل أن يمسي دخل الجنة . ومن قالها حين يمسي موقفاً بها ثم مات قبل أن يصبح دخل الجنة . يقول : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي ... وأنا عبدك » فتقرّ الله ﷻ بلسانك وبقلبك أن الله هو ربك المالك لك ، المدير لأمرك ، المعني بحالك ، وأنت عبده كوناً وشرعاً : عبده كوناً يفعل بك ما يشاء ، إن شاء أمرضك ، وإن شاء أصحك ، وإن شاء أغناك ، وإن شاء أفقرك ، وإن شاء أضلك ، وإن شاء هداك ، حسبما تقتضيه حكمته ﷻ وكذلك أنت عبده شرعاً تتعبد له بما أمر ، تقوم بأوامره وتنتهي عن نواهيه ، تقر بذلك : (اللهم أنت ربي ... خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت) ، تقر بأن الله خلقك ، هو الذي أوجدك من العدم ، وأنتك على عهده ووعدته ما استطعت « على عهده » لأن كل إنسان قد عاهد الله أن يعمل بما علم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] فمتى أعطاك الله علماً فإنه قد عهد إليك أن تعمل به ، « وعلى وعدك » أي تطبيق وعدك ، ما وعدت أهل الخير من الخير وما وعدت أهل الشر من الشر ، ولكن أنا على وعدك أي في الخير ، لأنك في هذه الكلمات تتوصل إلى الله ﷻ .

« أعوذ بك من شر ما صنعت » : يعني أنت تعوذ بالله من شر ما صنعت ، لأن الإنسان يصنع خيراً فيثاب ، ويصنع شراً فيعاقب ، ويصنع الشر فيكون سبباً لضلاله كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة: ٤٩] فأنت تتعوذ بالله من شر ما صنعت ، ثم : « أبوء لك بنعمتك عليّ » : يعني أعترف بنعمتك العظيمة الكبيرة التي لا أحصيها « وأبوء بذنبي » : أعترف به « فاغفر لي » هذا الذنب إنك أنت الغفور الرحيم فاحرص على حفظ هذا الدعاء وحافظ عليه صباحاً ومساءً ، إن مت من يومك ؛ فأنت من أهل الجنة ، وإن مت من ليلتك فأنت من أهل الجنة ، ثم ذكر أحاديث أخرى منها حديث ثوبان ؓ أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » .

« إذا انصرف » يعني إذا سلم .

فأول ما تبدأ بعد أن تسلم من الفريضة تقول : أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله (ثلاث مرات) كيف تقول : أستغفر الله وأنت صليت أديت طاعة ١٩ ؛ لأن طاعتك هذه لا تخلو من نقص وخلل فتستغفر الله - تعالى - مما حصل فيها من خلل ، ونظير ذلك أن المجتهدين المتجهدين في الليل إذا فرغوا من تهجدهم استغفروا كما قال - تعالى - : ﴿ وَالْمُسْتَظْفِرُونَ بِالْأَسْتِغْفَارِ ﴾ وتقول : (اللهم أنت السلام ، ومنك السلام) . « أنت السلام » يعني السالم من كل نقص وعيب ، « ومنك السلام » يعني منك السلامة لولا الله ﷻ ما سلمنا ولا عملنا ولا قمنا ولا قاتلنا ، « تباركت يا ذا الجلال والإكرام » وليس فيها (وتعاليت) ولكن في أحاديث أخرى فيها - يا ذا الجلال والإكرام : أي عظمت خيراتك وبركاتك ونعمك على عبادك : فينبغي للإنسان أن يستغفر بعد الصلاة - الفريضة -

ثلاث مرات ويقول : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمَنْكَ السَّلَامُ ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

١٨٧٨ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنِ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي ؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي ؛ غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » ^(١) رواه الترمذي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

« عَنَانَ السَّمَاءِ » يَفْتَحُ الْعَيْنَ : قِيلَ : هُوَ السَّحَابُ ، وَقِيلَ : هُوَ مَا عَنِ لَكَ مِنْهَا ، أَيْ ظَهَرَ ، وَ « قُرَابِ الْأَرْضِ » بِضَمِّ الْقَافِ ، وَزَوِي يَكْشِرُهَا ، وَالضَّمُّ أَشْهَرُ ، وَهُوَ مَا يُقَارِبُ مَلَأَهَا .

١٨٧٩ - وَعَنْ ابْنِ عُثْمَرَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ ، وَأَكْثِرْنَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » قَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ : مَا لَنَا أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ ؟ قَالَ : « تُكْثِرُونَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرُونَ الْعَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُمْ » قَالَتْ : مَا نَقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ ؟ قَالَ : « شَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ بِشَهَادَةِ رَجُلٍ ، وَتَمَكُّتُ الْأَيَّامِ لَا تُصَلِّيَ » ^(٢) رواه مسلم .

٣٧٢ - باب بيان ما أعد الله للمؤمنين في الجنة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ؕ أُولَئِكَ ۖ وَأُولَئِكَ ۖ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٢﴾ لَا يَسْهَمُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجر : ٤٥ - ٤٨] .
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ بَنِيَادٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٣﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف : ٦٨ - ٧٣] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ؕ أَمِينٌ ﴿٥﴾ لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى ۖ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿٦﴾ فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الدخان : ٥١ - ٥٧] .

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٠) ، وأحمد في مسنده (١٧٢/٥) ، والدارمي في السنن (٣٢٢/٢) .
قوله ﴿١﴾ : « وَلَا أَبَالِي » أي لَا أَكْثَرْتُ بِذُنُوبِكَ وَلَا أَسْتَكْثِرُهَا وَإِنْ كَثُرَتْ . قوله ﴿٢﴾ : « وَلَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ » أي حَتَّى لَوْ مَلَأَتْ ذُنُوبُكَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣٦٣/١) وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٣) قوله ﴿٣﴾ : « تَكْفُرُونَ الْعَشِيرَ » أي تَحْجِدُونَ نِعْمَةَ الزَّوْجِ . قوله ﴿٤﴾ : « لُبٍّ » أي عَقْلٍ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ عَلَى الْأَرْكَانِ يَنْظُرُونَ ﴿ تَرَوْهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ يُسْتَعَوْنَ مِنْ رَحْمَتِهِ مَخْشَوْهُمْ ﴿ خِصْمُهُمْ مِنْكَ ﴾ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿ وَمَرَابِطُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿^(١) [المطففين : ٢٢ - ٢٨] . والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

نقل النووي رحمه الله أحاديث كثيرة حول الاستغفار والحث عليه :

منها : أن الله ﷻ قال : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك » : يعني مهما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك ؛ لأن الله ﷻ عند ظن عبده به كما ثبت ذلك عنه - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي الذي رواه النبي ﷺ عن ربه أن الله تعالى قال : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه »^(٢) .

وفيه أيضًا أن الله ﷻ قال : (يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم استغفرتني لغفرت لك)^(٣) فهذا يدل على أن الإنسان مهما عمل من الذنوب إذا استغفر الله تعالى ورجع إليه فإن الله تعالى يغفر له ، وكذلك أمر النبي ﷺ النساء أن يكثرن من الصدقة والاستغفار حيث رآهن أكثر أهل النار ، فدل هذا على أن الاستغفار من موانع دخول النار ، فعليك - يا أخي - بكثرة الاستغفار ، أكثر من قول : أستغفر الله ، اللهم اغفر لي وارحمني ... وما أشبه ذلك ، وهو كلام يسير لا يضرك ولا يشق عليك .

ثم ختم المؤلف رحمه الله كتابه (رياض الصالحين) ببيان ما أعدّه الله للمؤمنين من النعيم المقيم - جعلني الله وإياكم منهم - وهذا نرجو أن يكون تفاؤلاً حسناً وأن الله يختم لنا ولكم بعمل أهل الجنة ، وأن يكون قد غفر لمؤلف الكتاب وختم له بعمل أهل الجنة .

ذكر الله تعالى - في كتابه العظيم آيات كثيرة فيها بيان ما أعد الله لأهل الجنة ، ومن أجمع الآيات قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ ﴿ نَزَلًا مِنْ عَقْوَرٍ رَاجِعٍ ﴾ كل ما يشتهي الإنسان من نعيم فإنه في الجنة ، كل ما يطلب فإنه في الجنة ، بل أكثر من ذلك قال الله تعالى : ﴿ لَمْ يَأْشَأَوْنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ وقال - جل ذكره - : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ

(١) قوله ﷻ : ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ أي بساتين . قوله ﷻ : ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أي أنهار . قوله ﷻ : ﴿ عِلًى ﴾ أي حقد . قوله ﷻ : ﴿ صَبٍّ ﴾ أي تعب . قوله ﷻ : ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تسرون . قوله ﷻ : ﴿ بِمِصْبَاحٍ ﴾ أي أباريق . قوله ﷻ : ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ هو الكوز لا يد له . قوله ﷻ : ﴿ مَقَارٍ ﴾ أي موضع إقامة . قوله ﷻ : ﴿ سُدُنٍ ﴾ ما رق من الحرير . قوله ﷻ : ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ من الحرير . قوله ﷻ : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ ﴾ أي قرناهم . قوله ﷻ : ﴿ بِحُورٍ ﴾ نقيات . قوله ﷻ : ﴿ عَيْنٍ ﴾ أي عظمة العين . قوله ﷻ : ﴿ وَوَقَّعْنَاهُمْ ﴾ أي نجاهم . قوله ﷻ : ﴿ فَضَلَّ ﴾ أي نعمة . قوله ﷻ : ﴿ الْفَوْزَ ﴾ أي الظفر والثواب . قوله ﷻ : ﴿ الْأَرْكَانِ ﴾ أي السرر . قوله ﷻ : ﴿ نَضْرَةَ ﴾ أي بهجة . قوله ﷻ : ﴿ رَحْمَتِهِ مَخْشَوْهُمْ ﴾ خمر خالص مخومة أوانيه كعادة الملوك . قوله ﷻ : ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ﴾ أي فليرتقب . قوله ﷻ : ﴿ تَسْنِيمٍ ﴾ هي عين في الجنة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٥/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٩٣/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر (٢٢) بنحوه ، وأحمد في مسنده (١٤٧/٥ ، ١٤٨) .

قَسَّ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ يعني أنه لا يمكن للإنسان أن يحيط علماً بحقيقة ما أعد الله لأهل الجنة فيها ؛ لأنه فوق ما يتصور الإنسان ، ما يوجد من نعيم الدنيا فإنه نموذج نموذج لا ينسب لشيء من نعيم الآخرة لكن الله تعالى أرى عباده شيئاً من النعيم وشيئاً من العذاب في الدنيا حتى يعتبروا به فقط وإلا فين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة فرق لا يمكن إدراكه .

والجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لأولياته المتقين ، وقد بدأ المؤلف بقول الله - تبارك وتعالى - ﴿لِاتِّمَّتِ السَّمَوَاتُ وَتُكُونُ فِي جَنَّتٍ ذَرْوًا ۖ وَيَوْمَئِذٍ ۙ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ؕ أَمِينٌ ۖ﴾ : يعني يقال لهم : ادخلوها بسلام آمين من كل شيء ؛ من كل آفة من كل مرض من الهرم من الموت من كل شيء . ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ۖ﴾ : يعني أنهم إذا دخلوا الجنة نزع الله تعالى - ما في صدورهم من غل ؛ وذلك أنهم يُوقفون قبل دخول الجنة على قنطرة بين الجنة والنار فيُقتَص ل بعضهم من بعض حتى إذا هُذبوا ونُقوا وبقيت قلوبهم صافية ليس فيها غل دخلوا الجنة بعد أن ينزع الله ما في قلوبهم من غل .

وقوله : ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ السُّرُر : جمع سرير وهو معروف ما يجلس عليه . وقوله ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ : يعني أنهم على جانب من الأدب العظيم في جلوسهم لا يستدبر بعضهم بعضاً ولكنهم متقابلون . قال بعض العلماء : لأنهم يجلس بعضهم إلى بعض على حلقة واسعة . والحلقة لا يتدابر فيها الجالسون كل واحد مقابل للآخر ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر : ٤٨] يعني لا يمسه تعب وإعياء ، ولا يخرجون منها بل هم ساكنوها أبد الأبدن الآية الثانية .

﴿يَتَجَاوَزُ لَا حَوَافٍ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ [الزخرف : ٦٨ - ٧٣] : ينادي الله ﷻ عباده المؤمنين يوم القيامة إذا دخلوا الجنة يقول : ﴿لَا حَوَافٍ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ الخوف مما يستقبل والحزن من الماضي ، ذلك لأنهم نالوا كمال النعيم ، فلا يخافون من مستقبل ولا يحزنون على ماض ؛ لأنه كمل لهم النعيم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ آمنوا بقلوبهم وكانوا مسلمين بجوارحهم منقادين لأمر الله ﷻ لا يعصون الله لا بفعل محرم ولا بترك واجب ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ : يعني تنعمون ، وأزواجكم هم الحور العين ، وزوجاتهم في الدنيا أيضاً لقول الله - تبارك وتعالى - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فهم وأزواجهم يُحبرون - أي في مكان حبر ؛ أي أنهم منعمون مترفون وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّى النَّفْسُ وَلَكَذَ الْأَعْيُنُ﴾ ولم يبين الله تعالى - من يطوف عليهم في هذه الآية لكن يَشْهَى في آيات أخرى فقال : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة : ١٧ - ١٩] .

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي في مكان إقامة آمين كما سبق آمين من كل شيء ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ هذا لباسهم وهو أعلى أنواع الحرير .

وقال تعالى - : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿عَلِ الْأَرْذَالِكِ يَطْرُونَ﴾ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ

رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِرَاجُهُ مِنَ التَّيْمِيمِ ﴿٢٧﴾ حَيْثَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُعْرِضُونَ ﴿٢٨﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٨] . الأبرار هم الذين فعلوا الخيرات وتركوا المحرمات مأخوذة من البر وهو القيام بطاعة الله ﴿لَئِنْ أَلْبَزْنَا لَهُ تَيْمِيمًا﴾ يعني أنهم في نعيم في القلب وفي نعيم في البدن فهم في أسر ما يكون - جعلنا الله وإياكم منهم - ﴿عَلَى الْأَرْثِ يُنْظَرُونَ﴾ الأرائك : جمع أريكة وهي المقاعد ^(١) المغطاة المزخرفة المزينة وينظرون ما أعد الله لهم من النعيم في هذه الجنات ويشمل ذلك النظر إلى وجه الله ﷻ ﴿تَرَوْنَهُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي أنك إذا رأيتهم عرفت أنهم منعمون ؛ لأن وجوههم نضرة حسنة جميلة . ﴿يَسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي يشربون من خير الشراب ، مختوم : يعني له خاتمة وهي : رائحة طيبة مسك ، وفي هذا الثواب والأجر والنعيم فليتسابق المتسابقون والله الموفق .

* * *

١٨٨٠ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا ، وَيَشْرَبُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلَا يَتَخَفَّفُونَ ، وَلَا يَمُوتُونَ ، وَلَكِنْ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءٌ كَرَشِحِ الْمِسْكِ ، يُلْهَمُونَ التَّشْيِيعَ وَالتَّكْبِيرَ ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ » ^(١) . رواه مسلم .

١٨٨١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَغْدِثُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَاقْرَأُوا إِنَّ شَيْئًا : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ » [السجدة: ١٧] ^(٢) متفق عليه .

١٨٨٢ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَوَّلُ زُمرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْبَسُهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوَكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لَا يَمُوتُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلَا يَتَقَلَّبُونَ ، وَلَا يَتَخَفَّفُونَ . أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكَ ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ - عُودُ الطَّيْبِ - أَرْوَاجُهُمُ الْحَوْرُ الْعَيْنِ ، عَلَى خَلْقِي رَجُلٍ وَاحِدٍ ، عَلَى صُورَةِ آدَمَ سَيِّئُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ » متفق عليه .

وفي رواية للبخاري ومُسْلِمٍ : آتَيْتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبَ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكَ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مِخْ شَوْقُهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ ، وَلَا تَبَاغُضَ : قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » ^(٤) .

(١) في الأصل « سقف » .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٩) « يتمخضون » أي لا يخرج شيء من أنوفهم . قوله « جشاء » هو تنفس المعدة من الامتلاء . قوله « كرشح المسك » أي أن عرقهم على أبدانهم رشحا طيبا مثل المسك .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢) وأحمد في مسنده (٤٣٨/٢) . قوله « ولا خطر » أي ولا مر .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٥) وأحمد في مسنده (٢٥٣/٢) والحاكم في المستدرک (٢٢٨/٣) . قوله « زمرة » أي جماعة . قوله « ومجامرهم الألوة » أي وعطرهم في بيوتهم العود الذي يتبخر به . قوله « يرى مخ شوقهما من وراء اللحم » أي يرى ما في العظم . قوله « ولا تباغض » أي ولا كره ولا مشاحنة .

قوله : « عَلَى خَلْقِي رَجُلٍ وَاحِدٍ » رواه بعضهم بِفَتْحِ الْخَاءِ وَإِسْكَانِ اللَّامِ ، وَبَعْضُهُمْ يَضْمُهُمَا ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ .

١٨٨٣ - وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « سَأَلَ مُوسَى عليه السلام رَبَّهُ : مَا أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَثَرَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، فَيَقَالُ لَهُ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّكَ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَتَارِلَهُمْ ، وَأَخَذُوا أَخْدَانَهُمْ ؟ فَيَقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكٍ مِثْلِكَ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فَيَقُولُ فِي الْخَامِيسَةِ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ ، وَلَكَ مَا اسْتَهْتَتْ نَفْسُكَ ، وَلَذْتَ عَيْنُكَ . فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، قَالَ : رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَثَرَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ ؛ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ » ^(١) رواه مسلم .

١٨٨٤ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا ، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ ؛ رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْنًا : فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَأْتِيهَا ، فَيَحْجِلُ إِلَيْهَا أَنَّهُمَا مَلَأَى ، فَيَرْجِعُ . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَأْتِيهَا ، فَيَحْجِلُ إِلَيْهَا أَنَّهُمَا مَلَأَى ، فَيَرْجِعُ . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى ! فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ . فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - فَيَقُولُ : أَتَسْخَرُ بِي - أَوْ تَضْحَكُ بِي - وَأَنْتَ الْمَلِكُ » قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، فَكَانَ يَقُولُ : « ذَلِكَ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَثَرَةً » ^(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

الشرح

هذه أحاديث كثيرة ذكرها المؤلف رحمته الله في بيان نعيم أهل الجنة فمنها : أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، وهذه أول زمرة ، وهي أفضل الزمر ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن أول أهل الجنة دخولاً هم هذه الأمة ، ثم الذين يلونهم على ألمع كوكب دري في السماء - يعني مثل أضواء نجم في السماء - ثم الذين يلونهم على حسب مراتبهم ، وفيه أيضاً أن أهل الجنة يأكلون ويشربون لكنهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخضون ولا يبولون ^(٣) ؛ لأن جميع فضلاتهم ليست كفضلات أهل الدنيا ، إنما فضلاتهم تخرج رشحاً - يعني كالعرق - أطيب من ريح المسك وجشاء

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣١٢) قوله « ما أدنى » أي ما أقل . قوله « وأخذوا أخدأتهم » أي ما أخذوه من كرامات مولاهم ﷺ وحصلوه .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧١) ومسلم في الإيمان (٣٠٨) وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٩) والبيهقي في السنن (١٩٠/١٠) . قوله « حبوا » أي مشيا على اليدين والرجلين .

(٣) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧) ومسلم في الإيمان (٣١٦) والدارمي في الرقاق (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢٣٠/٢ ، ٢٣٢) .

أطيب من رائحة المسك ؛ لأنهم في نعيم مقيم . ثم ذكر أيضًا أدنى أهل الجنة منزلة وأعلامهم وكلها تدل على فضل هذا النعيم - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهله - أما أهل النار - والعياذ بالله - فهم أسفل من ذلك ، وحق لعين ترجوا الجنة ألا تنام ، وحق لعين تخشى النار ألا تنام ؛ لأن متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ، ولكن حكمة من الله ﷻ وابتلاء وامتحان أن الناس في هذه الدنيا كأن لم يكن إلا الدنيا عند كثير من الناس ، كأنما خلقوا لها مع أن الدنيا هي التي خلقت لهم ، إن الإنسان إنما خلق للآخرة ، فهي الدار الباقية التي لا تنفنى ، فإما في جحيم وسعير - والعياذ بالله - وإما في نعيم مقيم - نسأل الله لنا ولكم أن نكون من الصالحين الذين أعد الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

* * *

١٨٨٥ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلًا . لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ^(١) . متفق عليه . « المِيلُ » : سِتَّةُ آلَافِ ذِرَاعٍ .

١٨٨٦ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّابِئُ الْجَوَادَ الْمُضْمَرَّ الشَّرِيعَ مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا » متفق عليه .
وَرَوَاهُ فِي « الصَّحِيحَيْنِ » أَيْضًا مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : « يَسِيرُ الرَّابِئُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا » ^(٢) .

١٨٨٧ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَائِرَ فِي الْأَقْ مِنْ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ ؛ لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَتَلَعَّهَا غَيْرُهُمْ ؟ قَالَ : « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » ^(٣) متفق عليه .

١٨٨٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَقَابُ قَوْسٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ بِمَا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ » ^(٤) متفق عليه .

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٣) ، والبخاري في بدء الخلق بنحوه (٣٢٤٣) . قوله « مجوفة » أي مثقوبة يظهر ما بداخلها .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٣) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨) وأحمد في مسنده (٥٦/١) . قوله « الجواد المضمر » أي الجواد القوي الكثير اللحم .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١١) ، والطبراني في الكبير (١٧٣/٦) ، (٢٢٨) . قوله « الغابر » أي الزاهب الماشي الذي تدلّي الغروب وبعد عن العيون .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٣) ، وأحمد في مسنده (٤٨٢/٢) . قوله « قاب قوس » هو قدم ما بين المقبض والسية من القوس .

١٨٨٩ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ سَوْقًا يَأْتُونَهَا كُلُّ جُمُعَةٍ ؛ فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ ، فَتَخْتَفُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا ، فَيَزْجِفُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ ، وَقَدْ اَزْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُهُمْ : وَاللَّهِ لَقَدْ اَزْدَدْتُمْ حُسْنًا وَجَمَالًا ! فَيَقُولُونَ : وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ اَزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا ! » ^(١) رواه مسلم .

١٨٩٠ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْعُرْفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ » ^(٢) متفقٌ عليه .

١٨٩١ - وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : شَهِدْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ حَتَّى انْتَهَى ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ : « فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ^(٣) . رواه البخاري .

١٨٩٢ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ : إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَا ، فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا ، فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبَّهُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَتَعَمَّوا ، فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا » ^(٤) رواه مُسْلِمٌ .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان تفصيل ما لأهل الجنة من النعيم فيها . فمنها : أن النبي ﷺ ذكر أن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، وأن له فيها أهلياً لا يرى بعضهم بعضاً ؟ وذلك - والله أعلم - لسعتها وحسن غرفها وسترها ومنها أن النبي ﷺ أخبر أن أهل الجنة يُنادي فيهم منادٍ : « إن لكم أن تحيا فلا تموتوا أبداً ... » وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وذكر الحديث . أي أنهم في نعيم دائم لا يخافون الموت ولا السقم ولا انقطاع ما هم فيه من النعيم كما قال تعالى - : ﴿ وَفَلَكُمْهُوَ كَثِيرٌ ۖ لَا مَقْطُوعٌ وَلَا مَمْنُوعٌ ﴾ [الواقعة : ٣٢ ، ٣٣] وأن لهم سوقاً كل يوم جمعة يعني في مقدار ذلك ، وإلا فالجنة ليس فيها صلاة ولا جمعة ولا غيرها ، وأنها تهب ريح الشمال فتزيدهم حسناً وجمالاً . والمراد ريح تشبه ريح الشمال في برودتها ولذاتها ، وكل هذا المذكور في هذه الأحاديث توجب للإنسان الرغبة في العمل الصالح الذي يتوصل به إلى هذه الدار -

- (١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٣) ، وأحمد في مسنده (١٥٦/١) . قوله « ريح الشمال » خص ريح الجنة بالشمال ؛ لأنها ريح العطر عند العرب ، وكانت تهب من جهة الشام وبها يأتي سحاب المطر ، وكان العرب يرجونها .
- (٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٠) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٦) ، وأحمد في مسنده (٣٤٠/٥) .
- (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥) وأحمد في مسنده (٣٣٤/٥) . والحاكم في المستدرک (٤١٣/٢) . قوله « لا تسقموا » أي لا تمرضوا .
- (٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) ، وأحمد في مسنده (٣٣٣/٤) .

جعلنا الله وإياكم من أهلها - وأحسن ما فيها وأنعم ما فيها أنهم ينظرون إلى الله ﷻ نظراً حقيقياً كما قال الله تعالى : ﴿ وَجُودُ يَوْمِهِ تَأْتِرُهُ ۖ إِلَّا رَيْبًا نَاطِرًا ۖ ﴾ [القيامة : ٣٢ ، ٣٣] وقال تعالى : ﴿ عَلَى الْأَرْبَابِ ينظرون ﴾ [المطففين : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى وِزَادَةٌ ۖ ﴾ [يونس : ٢٦] والزيادة هي النظر إلى وجه الله - تبارك وتعالى - أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلني وإياكم من أهلها .

* * *

١٨٩٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ أَدْنَى مَقْعَدٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَنْ يَقُولَ لَهُ : تَمَنَّ ، فَيَتَمَنَّى وَيَتَمَنَّى ، يَقُولُ لَهُ : هَلْ تَمَنَيْتَ ؟ يَقُولُ : نَعَمْ ، يَقُولُ لَهُ : فَإِنْ لَكَ مَا تَمَنَيْتَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » (١) رواه مسلم .

١٨٩٤ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ اللَّهُ ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ! فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ : وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أَجَلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » (٢) متفق عليه .

١٨٩٥ - وَعَنْ جَبْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؓ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرْنَا إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَقَالَ : « إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبُّكُمْ عَيْنًا كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ » (٣) متفق عليه .

١٨٩٦ - وَعَنْ صُهَيْبٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ » (٤) رواه مسلم .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْأَوَّلَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۖ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ۖ وَحِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ لِمَسْدُودٍ إِلَهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[يونس : ٩ ، ١٠] .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَتَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠١) ، وأحمد في مسنده (٣١٥/٢) . قوله « أدنى مقعد » أي أقل مكانة لأهل الجنة .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٩) ، وأحمد في مسنده (٨٨/٣) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢) قوله « أحل عليكم » أي أنزل بكم . قوله « رضواني » أي نعمتي وفضلي .

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١١) ، وأحمد في مسنده (٣٦٠/٤) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٤) قوله « لا تضامون » أي تستون كلكم في رؤيته .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٧) ، والحاكم في المستدرک (٨٢/١) .

بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ .

قَالَ مُؤَلَّفُهُ يَحْيَى التَّوَوِّيَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ : « فَرَعْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ رَابِعَ عَشَرَ رَمَضَانَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَسِمَاتَةٍ » .

الشرح

ذكر المؤلف في سياق الأحاديث الواردة في نعيم أهل الجنة الذي ختم به الكتاب ﷺ ، ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا فالاً طيباً فيدخله وإيانا جنة النعيم . ذكر حديثين في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة في الجنة ، وذكر أن الله تعالى يحلّ عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعد ذلك أبداً ، ورؤية المؤمنين لربهم في الجنة ثابتة بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة وأئمة الأمة ، ولم ينكرها إلا من أعمى الله قلبه - والعياذ بالله - ولهذا كانت هذه الأحاديث من الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ يقول الله ﷻ : ﴿ وَنُورُهُ يُنِيرُ نَازِعَةً ۖ إِلَىٰ رَيْحَانٍ نَّازِعَةً ۖ ﴾ [القيامة: ٣٢، ٣٣] ويقول ﷻ : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ [يونس: ٢٦] وقد فسر - أعلم الخلق بكتاب الله ، محمد - رسول الله الزيادة أنها النظر إلى وجه الله ، وقال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ عَلَى الْأَرْبَابِكُمْ يَنْظُرُونَ ۖ ﴾ [المطففين: ٢٥] أي ينظرون ما أعد الله لهم من النعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله ، وقال تعالى - ﴿ لَمْ يَأْمُرْهُمْ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۖ ﴾ [ق: ٢٥] والمزيد هو الزيادة التي قال الله تعالى فيها : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ والتي فسرها النبي ﷺ بالنظر إلى وجه الله تعالى وقال تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْغَلِيبُ الْحَقِيرُ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فقلوه ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ يدل على أن الأبصار تراه ولكنها لا تدركه ؟ لأنه - جل وعلا - أعظم من أن تدركه الأبصار . فهذه خمس آيات في كتاب الله كلها تدل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، ولا ينكر هذا إلا ظالم ، فنسأل الله تعالى - أن يهديه إلى الحق أو أن يحرمه لذة النظر إلى وجهه ؛ لأنه لا ينكر هذا إلا معاند ، إذ إن الآيات واضحة أما الأحاديث فإنها متواترة كما قال الناظم :

مما تواتر حديث من كذب ومن بنى لله بيتاً واحتسب
ورؤية وشفاعة والحوض ومسح خفين وهذه بعض

رؤية : يعني رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة . ومن ذلك أن النبي ﷺ قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته » وقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحوً ليس دونها سحاب » والأحاديث كثيرة جداً من أحب أن يطلع عليها فليرجع إلى كتاب (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) لابن القيم ﷺ نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم إنه على كل شيء قدير . والله الموفق .

المصادر والمراجع

القرآن والتفسير :

- القرآن الكريم .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري (ت : ٢١٠ هـ) ط . المكتبة التجارية ١٩٩٥ م .
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (ت ٦٧١ هـ) ط . دار الفكر ١٩٨٧ م .
- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ط . دار الفكر العربي . بدون تاريخ .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي (ت ٩١١ هـ) ط . دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .
- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٤ هـ) ط . دار الفكر ١٤١٤ هـ .
- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٤ م .

كتب الحديث :

- الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ط . دار الفكر ١٩٩٤ م .
- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ط . دار إحياء التراث ١٩٥٤ م .
- سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ط . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تاريخ .
- الجامع الصحيح للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه (ت ٢٧٠ هـ) ط . دار الفكر العربي ١٩٥٤ م .
- سنن النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب . ط . مكتبة المطبوعات الإسلامية . حلب ١٩٨٦ م .
- المسند للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- المستدرک علی الصحیحین لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) . دار الكتاب العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- السنن الكبرى للمحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ط . دار الفكر . بدون تاريخ .
- سنن الدارقطني للإمام علي بن عمر الدارقطني ط . دار المحاسن للطباعة . مصر ١٩٦٦ م .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لشيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ط . دار المعرفة . بدون تاريخ .
- شرح النووي على صحيح مسلم للإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ) ط . دار إحياء التراث . بدون تاريخ .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للبدر العيني (ت ٨٥٥ هـ) .
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الصديقي (ت ١٠٥٧ هـ) ط . دار الفكر . بدون تاريخ .
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (ت ١٣٥٣ هـ) ط . دار الاتحاد العربي

للطباعة . القاهرة . بدون تاريخ .

- عون المعبود شرح سنن أبي داود ط . المكتبة السلفية . المدينة المنورة ١٩٦٨ م .

كتب اللغة :

- غريب الحديث لأبي القاسم بن سلام (ت ٢٢٥ هـ) ط . حيدر آباد . بدون تاريخ .
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) ط . الخيرية . بدون تاريخ .
- لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت ٧١١ هـ) ط . دار المعارف . بدون تاريخ .
- المصباح المنير للفيومي (ت ٧٧٠ هـ) المطبعة الأميرية . مصر . ط ثلاثة ١٩١٢ م .
- مختار الصحاح للرازي (ت ٦٦٦ هـ) ط . دار البصائر ١٩٨٥ م .
- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية ط . ثلاثة ١٩٨٥ م .

كتب الفقه :

- الأم للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، ط . دار الفكر .
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد للإمام أبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد . ط . دار الفكر .
- بدائع الصنائع للكاساني . ط . دار الفكر .
- الأنوار لأعمال الأبرار للأرديلي ومعه حاشية الكمثري ، وحاشية الحاج إبراهيم .
- حاشيتا القليوبي وعميرة على شرح المحلى على المنهاج
- روضة الطالبين للنووي . ط . المكتب الإسلامي .
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية مؤسسة الرسالة .
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية .
- الكافي في فقه الإمام أحمد لأبي محمد بن قدامة المقدسي المكتب الإسلامي .
- المغني مع الشرح الكبير لابن قدامة المقدسي . ط . دار الفكر .
- المهذب لأبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦) ط المنيرية .
- المحلى لابن حزم . ط . دار الفكر .
- فقه الكتاب والسنة د. أمير عبد العزيز - ط . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة .
- الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني تحقيق . محمد تامر . ط دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع .
- الوسيط في المذهب للغزالي تحقيق د. أحمد محمود ، ومحمد تامر ، ط . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع .

كتب التاريخ والسير :

- تاريخ الطبري . لابن جرير الطبري . ط . دار الفكر .
- السيرة النبوية لابن هشام . إحياء التراث العربي .
- السيرة النبوية لابن كثير . ط . دار المعرفة .
- البداية والنهاية لابن كثير . ط . مكتبة المعارف .

الفهارس

١ - فهرس الآيات القرآنية

٢ - فهرس الأحاديث

٣ - فهرس الموضوعات

١ - فهرس الآيات القرآنية

| الآية | رقم الآية | رقم الصفحة | الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|--|------------|------------|--|-----------|------------|
| سورة الفاتحة | | | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ | ٢٦٧ | ٦٧٩ |
| الْحَسَنَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ | | ١٢٥٠ | إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ .. | ٢٧١ | ٨٣٩ |
| سورة البقرة | | | وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ يَوْمَ عَاشُرِ | ٢٧٣ | ٨٢٠ |
| وَلَيْسَ فَارِهِبُونَ | ٤٠ | ٧٤٨ | لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي .. | ٢٧٣ | ٨١٢ |
| وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ | ٤٣ | ١٣٧٩ | الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ .. | (٢٧٥-٢٧٨) | ١٧١٢ |
| اتَّقُوا النَّاسَ وَلِئَلَّيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ .. | ٤٤ | ٥١٣ | فَإِنْ أَرِنَ بِكُمْ صَاحِبًا فَلْيَاذِ الْوَثِقِينَ .. | ٢٨٣ | ١٦٩٣ |
| وَمَا كَفَرَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ .. | ١٠٢ | ١٨٣٤ | وَلَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. | ٢٨٤ | ٤٤١ |
| وَوَعَىٰ بِهَا إِذْ رُفِعَتْ يَدُهُ وَيَغُوبُ بَنِي .. | (١٣٢، ١٣٣) | ١٠٣٠ | وَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ .. | ٢٨٥ | ٤٤١ |
| فُولُوا بِمَا كَرِهَ اللَّهُ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا | ١٣٦ | ١٣٢٤ | لَا يَكْذِبُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَاعْتَمَهَا .. | ٢٨٦ | ٤٤١ |
| فَأَسْمِعُوا الْحَبِيرَ | ١٤٨ | ٢٨٣ | سورة آل عمران | | |
| فَأَذْكُرُوا أَنِ كَرِهَ اللَّهُ لِي وَلَا تَكْفُرُوا | ١٥٢ | ١٥٠٤، ١٤٩٣ | إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ .. | ٥ | ١٥٢ |
| أَسْمِعُوا بِالصَّخْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ | ١٥٣ | ٦٧ | رَبِّنَ الْفَارِسِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْوَسْطَى .. | ١٤ | ٧٨٧ |
| وَلَتَبْلُغَنَّهُمْ يَتَىٰ وَمِنْ الْغَوَفِ وَالْجُوعِ .. | ١٥٥ | ٦٧ | لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي .. | (١٥-١٧) | ١٩٠٤ |
| يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. | (١٨٣-١٨٥) | ٥١٣ | وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسًا .. | ٢٨ | ٧٤٨ |
| يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ .. | ١٨٥ | ١٣٨٩ | قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا .. | ٢٩ | ٩ |
| وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. | ١٨٦ | ١٥٤٥ | وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسًا .. | ٣٠ | ١٨٤٧ |
| وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ | ١٩٥ | ١٨٣١ | قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .. | ٣١ | ٤٥٥، ٤٠٥ |
| وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَلَسَ اللَّهُ | ١٩٧ | ٣٥٤ | كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ .. | ٣٧ | ١٥٧٠ |
| وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ | ٢١٥ | ٣٥٤ | فَنَادَاهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُسَبِّحُ .. | ٣٩ | ١٠١٨ |
| كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ .. | ٢١٦ | ١٤٢٥ | إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمُرُّ بِإِنَّ اللَّهَ .. | ٤٥ | ١٠١٨ |
| وَيَسْأَلُكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ .. | ٢٢٠ | ١٦٩٦ | بِمَا نَا وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ | ٥٢ | ١٣٢٤ |
| وَعَلَى الْوُلْدِ لَهُ زَهْرُهُمْ وَتَوَسَّوْنَهُ بِالْمَعْرُوفِ | ٢٢٣ | ٦٧٥ | فَعَالُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .. | ٦٤ | ١٣٢٤ |
| حَنِيطُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى | ٢٣٨ | ١٣٠٥ | لَنْ تَنَالُوا اللَّهَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ .. | ٩٢ | ٦٧٩ |
| اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ | ٢٥٥ | ١٢٥٧ | وَلَقَدْ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ .. | ٩٧ | ١٤١٨ |
| الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. | ٢٦٢ | ١٦٧٨ | وَلَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ بِدَعْوَانِي إِلَى الْخَيْرِ | ١٠٤ | ٤٨٢ |
| يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ .. | ٢٦٤ | ١٦٧٨ | يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ | ١٠٦ | ٧٧٧ |
| | | ١٧١٢ | | | |

| | | | | | |
|----------------|----------|---|-----------------|-----|--|
| ٦٠٧ | ٨٥ | مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ مِثْلُهَا | ٤٨٢ | ١١٠ | كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ |
| ١١٣٧ | ٨٦ | وَلِذَا حُيِّبُوا يَتَجَنَّوْا لِحُيْبَتِهِمْ وَأَحْسَنُ مِنْهَا .. | ٢٨٣ | ١٣٣ | وَسَارِعُوا إِلَى مَقَرِّكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .. |
| ١٤٢٥ | (٩٦، ٩٥) | لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولَى .. | ٩٠٤ | ١٣٤ | وَالْحَكِيمِينَ الْأَمِينِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ |
| ١٩٠٤ | ١٠٦ | وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا | ٩٣٤، ٩٢٩، ٩١٣ | | |
| ١٦١٧ | ١٠٨ | يَسْتَغْفِرُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَغْفِرُونَ مِنَ اللَّهِ .. | ١٩٠٤ | ١٣٥ | وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا .. |
| ١٩٠٤ | ١١٠ | وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ .. | ١٨٤٨ (١٣٦، ١٣٥) | | |
| ٦١٠ | ١١٤ | لَا حَرَّ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ .. | ٢٥٥ | ١٥٩ | فَلَمَّا عَزَمَتْ فَتْرُكُ عَلَى اللَّهِ |
| ١٧٣٤ (١١٩-١١٧) | | إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا لِنُفْسِنَا .. | ٩٩٥ | ١٥٩ | وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَخَذُوا مِنْ ظَهْرِكَ |
| ٦١٠ | ١٢٨ | وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ | ١٠٣٨ | ١٥٩ | وَعَاوَزَهُمْ فِي الْأَكْثَرِ |
| ٦٥٤ | ١٢٩ | وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَسْأَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ السَّلَامَ .. | ٢٥٥ (١٧٤، ١٧٣) | | |
| ١٧١٢ | ١٤٢ | يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا | ٨٤٢ | ١٨٥ | كُلِّ نَفْسٍ فَالِقَةُ الْوَرْدِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ .. |
| | | سورة المائدة | | | إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٩١، ١٩٠) |
| ١٦٧٥ | ١ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ | ١٥٤٢، ١٥٢٦ | | |
| ٤٦٦، ٤٥٥ | ٢ | وَتَصَادُوا عَلَى الْوَعْدِ وَالْقَوَى | ٦٧ | ٢٠٠ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا |
| ١٦١٥، ٨٨٢ | | | | | سورة النساء |
| ١٢٦٨، ٥٥ | ٦ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ .. | ٤٥٢ | ١ | يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ .. |
| ٥٥٧ | ٣٢ | مَنْ فَكَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَكَا .. | ٦٩٠ | ١ | وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ |
| ٧٣٨ | ٥٤ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ رَدَّدَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَيْنِهِ .. | ١٦٩٦ | ١٠ | إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى .. |
| | | | ٦٠٧ | ١٩ | وَعَاوِرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ |
| ١٦٦٠، ٨٨٢ | ٥٤ | أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ | ٦٦٧ | ٣٤ | الزَّيْلَ تَوَفَّوْتُ عَلَى الزَّيْلِ بِمَا فَكَلَ اللَّهُ |
| ٤٨٢ (٧٩، ٧٨) | | لِيُوتَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ .. | ٦٨٧ | ٣٦ | وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا .. |
| ١٧٧٧ | ٨٩ | لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْشِ وَالْفَوْاحِشِ .. | ١٤٦٠، ٦٩٠ | | |
| ٥١٢ | ١٠٥ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ | ١٦٨٧ | ٣٦ | وَالَّذِينَ إِحْسَنًا وَبَذَى الْفَرْقِ وَالْيَتَامَى .. |
| ٧٦٧ | ١١٨ | إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَوَاقِدَهُمْ عِبَادَةً وَإِنْ تَقَرَّرَ لَهُمْ .. | ٧٨٠ | ٤١ | فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ .. |
| | | سورة الأنعام | ١٦٦٥ | ٥٤ | أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ |
| ٤٤٥ | ٣٨ | مَا قَرَّلْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ | ٥١٦ | ٥٨ | إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَيْهِمْ |
| ٦٤٢ | ٥٢ | وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ دِينَهُم بِالْفَنَاءِ .. | ١٦٩٣ | | |
| ١٦٠٥ | ٦٨ | وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَائِنَا .. | ٩٥٤ | ٥٩ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّيعُوا اللَّهَ وَاطِّيعُوا الرَّسُولَ .. |
| ١٦٩٦ | ١٥٢ | وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ مِنْ أَحْسَنِ | ٤٤٥، ٤٠٥ | ٥٩ | فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ |
| ٤٤٥ | ١٥٣ | وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ .. | ٤٤١، ٤٠٥ | ٦٥ | فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ .. |
| | | سورة الأعراف | ١٨٣١ | ٧٨ | أَتَيْنَا تَكْوِينًا يُدْرِكُكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ .. |
| ١٠٨٤ | ٢٦ | يَبْقَى بَلَدٌ قَدْ أَتَيْنَا عَنْكَ لَيْسَ بِوَيْسٍ سَوِيَّةٍ .. | ٤٠٥ | ٨٠ | مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ |

سورة يونس

| | | |
|--------|---------|--|
| ١٩١٦ | (١٠، ٩) | إِنَّ إِلَهَكَ لَدَيْكَ مَا مَاتُوا وَعَحِلُوا جَزَاءُكَ .. |
| ١٤٩٣ | ١٠ | وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَوْتِ إِذْ يُخْرَجُونَ مِنْ أَفْئِدِهِمْ أُنْزُكًا .. |
| ٧٨٧، ٧ | ٢٤ | إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ السَّكْبَةِ .. |
| ٤٤٥ | ٣٢ | فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .. |
| ١٥٦٨ | (٦٤-٦٢) | أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰ لَكَ عِلْمًا أَنَّ خُلِقَ الْإِنْسَانُ فَاسْأَلْهُ .. |

سورة هود

| | | |
|--------------|-----|---|
| ٤٣ | ٣ | وَأَن يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ يَقُولُوا رَبَّنَا .. |
| ٨١٢ | ٦ | وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا .. |
| ١٦٤٢ | ١٨ | أَلَا لَسَنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .. |
| ١٠١٨ | ٦٩ | وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ .. |
| ١٠١٨ | ٧١ | وَأَمَّا رَبُّهُمُ فَهُوَ يَخْفَى .. |
| ١٠١٣ | ٧٨ | وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ لِآلِهِ .. |
| ١٤٦٤ | ٨٥ | وَيَقُولُوا نَحْنُ الْبَائِسُونَ وَالْمُذْنِبُونَ .. |
| ٥١٣ | ٨٨ | وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِنَّمَا أَنُفِثُكُمْ عَنْهُ .. |
| ٥٣٤ | ١٠٢ | وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ .. |
| ٧٤٨(١٠٦-١٠٢) | ١١٢ | وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ .. |
| ٢٧١ | ١١٢ | فَأَسْتَوِمُ كَمَا أَمَرْتُ .. |
| ٧٧٢ | ١١٤ | وَأَنذِرِ السَّامِرَةَ لَكُنَّ أَهْلًا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ .. |

سورة يوسف

| | | |
|-----|----|--|
| ٧٧٧ | ٨٧ | إِنَّمَا لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رِجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .. |
|-----|----|--|

سورة الرعد

| | | |
|-----|----|---|
| ٩٩٣ | ١١ | إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ مَا يُعَذِّبُ مَا يَقُولُ حَتَّىٰ يَتُوبَ .. |
| ٦٩٠ | ٢١ | وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ .. |
| ٧٠٣ | ٢٥ | وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ .. |

سورة إبراهيم

| | | |
|------|----|--|
| ١٤٩٣ | ٧ | لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. |
| ٢٥٥ | ١١ | وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ .. |
| ٧٦٧ | ٣٦ | رَبِّ إِنَّمَا أَسْأَلُكَ كِبَارًا مِنَ الثَّمَرَاتِ .. |
| ١٩٠١ | ٣٧ | رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُيُوتًا .. |
| ١٥٦٣ | ٤١ | رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. |

| | | |
|----------|----------|--|
| ١٦٤٢ | ٤٤ | فَأَذِّنْ صَرْفًا لَهُمْ أَنْ لَسَنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .. |
| ٨٨٣ | (٤٩، ٤٨) | وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَوْتِ إِذْ يُخْرَجُونَ مِنْ أَفْئِدِهِمْ أُنْزُكًا .. |
| ١٥٤٥ | ٥٥ | أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .. |
| ٤٧٢ | ٦٢ | وَأَنصَحْ لَكُمْ .. |
| ٤٧٢ | ٦٨ | وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ .. |
| ٧٧٧ | ٩٩ | فَلَا يَأْتِيَنَّ مَكْرَهُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .. |
| ١٨٤٨ | ١٠٢ | إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ .. |
| ٧٥٩ | ١٥٦ | وَوَحِّمَنِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ .. |
| ٤٨٨ | ١٦٥ | أَفَحَسِبَ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأَعْصَىٰ .. |
| ٧٧٧ | ١٦٧ | إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ الْعِقَابِ .. |
| ٤٨٢ | ١٩٩ | خُذِ الْقَوْلَ مِنْ رَبِّكَ بِالْقُرْآنِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْبَاهِلِينَ .. |
| ٩٢٩، ٩١٣ | | |
| ١٥٠٤ | ٢٠٥ | وَأَذِّنْ رَبَّكَ فِي قَوْمِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .. |
| ١٥٣٣ | | |

سورة الأنفال

| | | |
|----------|----|---|
| ٦١٠ | ١ | فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ .. |
| ٢٥٦، ٢٥٥ | ٢ | إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ .. |
| ٢٤٤ | ٢٩ | إِنْ تَنَافَعُوا فِي شَأْنٍ لَكُمْ فُرْقَانًا .. |
| ١٩٠٤ | ٣٣ | وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِيبَهُمْ وَأَتَىٰ نِيحُهُمْ .. |

سورة التوبة

| | | |
|-------------|----------|---|
| ١٣٠٥، ٧٤٢ | ٥ | إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ .. |
| ١٢٩٥ | ١٨ | إِنَّمَا يَغْفِرُ اللَّهُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .. |
| ١٠١٨ | ٢١ | يُخْرِجُهُمْ مِنْهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ .. |
| ١٤٢٥ | ٣٦ | وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَاتَلْتُمْ .. |
| ١٤٢٥ | ٤١ | أَفِضُوا خِصَامًا وَفِي الْأَرْضِ وَجْهًا .. |
| ٤٨٢ | ٧١ | وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ .. |
| ٣٣٤ | ٧٩ | الَّذِينَ يُلَازِمُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. |
| ٦٣ | (٩٦، ٩٥) | مَسْخُوفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَفْلَحْتُمْ .. |
| ٧٣ | ١٠٣ | خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ .. |
| ١٤٢٥ | ١١١ | إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ .. |
| ٦٣(١١٩-١١٧) | | لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ .. |
| ١٢٢ | ١١٩ | يُنَاقِبُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا .. |

سورة الحجر

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ .. (٤٥-٤٨) ١٩٠٩

فَأَصْحَى أَصْحَى الْجَبِيلِ ٨٥ ٩٢٩

وَأَخْفَضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٨ ٥٥٧

٩٩٥ ، ٦٣٥

فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ ٩٤ ٤٨٨

وَأَعْبَدَ رَبَّكَ حَتَّىٰ بِأَيْدِكَ الْيَقِينُ ٩٩ ٤٠١

سورة النحل

فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً .. ٦١ ٨٤٤

وَجَعَلَ لَكُم مَّرَاجِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ .. ٨١ ١٠٨٦

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ .. ٩٠ ٩٤٩ ، ٩٤٢

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ٩١ ٩٨٨

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا .. ٩٢ ٤٠١

أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالنُّعْظَةِ .. ١٢٥ ١٠٠٠ ، ٤٥٥

سورة الإسراء

مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْمَلَاجَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا .. ١٨ ٨٠٢ ، ١١

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. (٢٤، ٢٣) ٦٩٠

٧٠٣

وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَثْوًى ٣٤ ٩٨٨ ، ٩٨٤

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ٣٦ ١٥٩١

١٦١٨ ، ١٦٣٣ ، ١٦٣٤

وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا ٣٧ ٨٩٤

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ .. ٧٩ ١٣٥١

وَيَحْشُرُونَ لِلْآذِقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ١٠٩ ٧٨٠

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ١١١ ١٤٩٣

سورة الكهف

وَإِذْ أَصْرَلْتَهُنَّ وَبِمَا يَشْكُرُونَ .. (١٦، ١٧) ١٥٧٠

وَأَصِيرَ قَسَاكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ .. ٢٨ ٦٣٥ ، ٦١٧

١٥٢٨ ، ٧٢٣

وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَهَلْ يَلْتَوِين .. ٢٩ ٤٨٨

وَأَضْرَبَ لَكُم مَّثَلًا الْخَيْلَ الَّتِي كَانَتْ تُرْكَبُ .. (٤٦، ٤٥) ٧٨٧

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ .. (٦٠-٦٦) ٧٢٣

سورة مريم

وَهَرَجَ إِلَيْكَ يَمْنَعُ النَّحْلَ تَنْقُطَ عَلَيْكَ .. (٢٥، ٢٦) ١٥٦٨

خَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ .. (٥٩، ٦٠) ٨٠٢

وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا .. ٦٤ ٧٢٥

وَلَنْ نَّسْأَلَكَ إِلَّا وَرِدَهَا ٧١ ١٢١٢

سورة طه

طه . مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ١ ٣٨٤

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ .. ٤٨ ٧٥٩

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١١٤ ١٤٧٠

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ .. ١٣٠ ١٥٣٣

وَأَمْرَ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَطِيعِ عَلَيْهَا ١٣٢ ٦٨٢

سورة الأنبياء

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ٧٣ ٤٥٠

سورة الحج

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ انْقِبَاءً رَّيِّكُم .. (١، ٢) ٧٤٨

وَمَنْ يَعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ .. ٣٠ ٥٥٧

وَلَجَسَبُوا قَوْلَ الزُّورِ ٣٠ ١٦٣٤ ، ٩٣٦

وَمَنْ يَعْظَمْ شَعْبَهُ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ .. ٣٢ ٥٥٧ ،

١٠٠٩ ، ٧١٢

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاجُهَا وَلَكِنْ .. ٣٧ ٩

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ٧١ ٥٢٨

وَاتَّقُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٧٧ ٦٠٥

سورة المؤمنون

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ ١٦٠٥

يَتْلُوا الرُّسُلَ كُلًّا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَعْمَلُوا .. ٥١ ١٨٨٤

حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ .. (٩٩-١١٥) ٨٤٦

سورة النور

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاصْلُوا عَنْ رَجْعِ نِيَّتَيْهَا .. ٢ ١٨٠٨

وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ ٨٦٦

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ .. ١٩ ١٦٧٢ ، ٥٩٧

وَلْيَعْلَمُوا وَلِيَصْغُرُوا الْأَفْحَرُونَ أَنْ يَقُولُوا اللَّهُ لَكُمُ ٢٢ ٩٢٩

يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا .. ٢٧ ١١٣٧ ،

| | | | | | |
|---------------|----------|---|-----------------|----------|---|
| ١٢٨٥ | ٤٥ | إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَجَنَّوْنَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَالْمُنْكَرِ | ١١٥٧ | | |
| ١٥٠٤ | ٤٥ | وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ | ١٧٢٠ | ٣٠ | قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ |
| ٧٨٧ | ٦٤ | وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. | ١٨٤٩ | ٣١ | وَتُورُونَ إِلَى اللَّهِ حَيْثُ أَتَتْ الْمُنُفِرَاتُ .. |
| ٣٠٥ | ٦٩ | وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. | ١٥٣٣ | | |
| | | سورة الروم | ١٥٣٣ | (٣٧، ٣٦) | فِي يَوْمٍ أَوَدَّ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ .. |
| ١١٣٢ | ٢٣ | وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ | ٤٤١ | ٥١ | إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا .. |
| | | سورة لقمان | ١١٥٧ | ٥٩ | وَلَمَّا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ عَلَّيْتُمْ .. |
| ٦٩٠ | ١٤ | وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَلَّةً أَمَرُ .. | ١١٣٧ | ٦١ | فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ .. |
| ٨٩٤ | ١٨ | وَلَا تُصَغِرْ غَضَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَنسِفْ فِي الْأَرْضِ .. | ١١٥٠ | | |
| ٨٤٣ | ٣٤ | وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا .. | ١٨٤٧، ٤٠٥ | ٦٣ | فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. |
| | | سورة السجدة | | | سورة الفرقان |
| ١٣٥١ | ١٦ | نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ | ٢٥٥ | ٥٨ | وَتَوَكَّلْ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ |
| ١٩١٣ | (١٧، ١٦) | نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ بِهِمْ .. | ١٠٠٧ | ٦٣ | وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْأَرْضِ .. |
| ١٩١١ | ١٧ | فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ .. | | ٦٧ | وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا .. |
| | | سورة الأحزاب | ١٦٣٤ | ٧٢ | وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ |
| ٤٠٥ | ٢١ | لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. | ٤٥٠ | ٧٤ | وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَنْزِلِنَا .. |
| ٢٥٥ | ٢٢ | وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا .. | | | سورة الشعراء |
| ١٤٤٨ | ٢٣ | مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا .. | ١٢٣٤ (١٩٣، ١٩٢) | | وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ |
| ٧١٢ | ٣٣ | إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ .. | ٦٩٩ | ٢١٤ | وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ |
| ٤٠٥ | ٣٤ | وَأَذْكُرَنَّ مَا بُشِّلَ فِي بُيُوتِكُمْ .. | ٩٤٢، ٨٨٢ | ٢١٥ | وَلَقَدْ خَفَضْنَا لَكَ إِني أَعْلَمُ بِنِ الْيَوْمِ |
| ٢٢ | ٣٥ | إِنَّ السَّالِفِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. | ١٥٢ (٢١٩، ٢١٨) | | الَّذِي يَرَبُّكَ جِئْنِ نَقُومُ وَقُلِّبَكَ فِي السَّجْدِ |
| ١٢٢ | ٣٥ | وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ | | | سورة النمل |
| ١٥٠٤ (٤٢، ٤١) | | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا .. | ١٥٤٥ | ٦٢ | أَمِنْ حَيْثُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَا وَيَكْثِفُ السَّوْءَ |
| ١٧٢٥ | ٥٣ | وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَتَى تَسْأَلُونَهُ مِنْ رَبِّهِ .. | | | سورة القصص |
| ١٤٩٥ | ٥٦ | إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ | ١٦٠٥ | ٥٥ | وَلَمَّا سَمِعُوا النَّغْرَ أَنْعَضُوا عَنْهُ |
| ٤٤٧١ | ٥٨ | وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. | ٨٩٤ | ٧٦ | إِنَّ قَتْلَهُ كَانَ مِنْ قَوْلِهِ مَوْثِقًا .. |
| ١٦٥٨، ١٦٥٠ | | | ٨٠٢ (٨٠، ٧٩) | | فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ |
| ١٦٧٢، ١٦٦٦ | | | ٨٩٤ | ٨١ | خَسَفْنَا بِهٖ وَيَدَاوِي الْأَرْضِ |
| ٢٤٤ | ٧٠ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا .. | ٩٦٦، ٨٩٤ | ٨٣ | بِكَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَا لِلَّهِ لَا يُرِيدُونَ .. |
| ٥١٧ | ٧٢ | إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ | ٤٥٥ | ٨٧ | وَأَدْعَى إِلَيْنِ رِبِّكَ |
| | | سورة سبا | | | سورة العنكبوت |
| ٧٥٩ | ١٧ | وَهَلْ يُجِزِي إِلَّا الْكَفَرُ | ٦٩٠ | ٨ | وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا |

٩٣٤، ٩٢٩، ٩١٤

وَأَنَّكَ تَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢ ٤٠٥

سورة الزخرف

وَجَلَّ لَكَ مِنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ .. (١٢-١٤) ١٢٢٢

الْأَجْلَاءِ يُؤْمِلُ بِمُسْمَحِهِمْ بَعْضٌ عَذُو .. ٦٧ ٩٧٠

يَكُونُوا لَا حَقَّ عَلَيْكَ الْيَوْمَ .. (٦٨-٧٣) ١٩٠٩

سورة الدخان

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَتٍ ٣ ١٣٧٠

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ .. (٥١-٥٧) ١٩٠٩

سورة الجاثية

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ١٥ ٣٥٤

سورة الأحقاف

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا .. (١٣، ١٤) ٢٧١

سورة محمد

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ٧ ٩٣٦

أَلَمْ تَتُوبَا فِي الْأَرْضِ قَبْلُورَا ١٠ ٢٧٥

وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ وَالْمُتُوبِينَ وَالْمُقِيمِينَ ١٩ ١٠٦٣،

١٩٠٤

فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْثُ أَهَلْتُم ٢١ ١٢٢

فَقُلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ .. (٢٢، ٢٣) ٧٠٣

وَلَسَوْفَ لَكُمْ حَقٌّ فَاتَهُ الْمُجَاهِدُونَ ٣١ ٦٧، ٧٢

سورة الفتح

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ ٢٩ ٧٣١، ١٦٦٠

سورة الحجرات

وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ٩ ٩٤٩

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ١٠ ٤٧٢،

١٦٧٢، ١٦٦٠، ٦١٠

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ .. ١١ ١٦٦٩

وَلَا يَحْزَنُوا ١٢ ١٦٦٦

وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرُ .. ١٢ ١٥٩١

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ١٣ ٨٨٢

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ٣٩ ٦٧٥

إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِهِ جَدِيدٌ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ .. ٤٦ ٢٧٥

سورة فاطر

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُم ٥ ٧٨٧

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُسْلِمُونَ ٢٨ ١٤٧٠

أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا تَدْكُرُ فِيهِ مِنْ ذَكَرٍ .. ٣٧ ٣٤٨

وَحَاكُمُ الَّذِينَ ٣٧ ٣٤٩

سورة الصافات

فَبَشِّرْهُ بِأَنَّكَ بِحَسْبِ ١٠١ ١٠١٨

سورة ص

إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالِ مَعَهُ بِسَمْنٍ وَالْإِنْفَارِ ١٨ ١٥٣٣

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ ثَمَرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ٨٦ ١٧٤٠

سورة الزمر

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٩ ٧١٥

إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠ ٦٧

فَيُتَبَّرُ عِبَادُ الَّذِينَ يَسْتَعْمُونَ الْقَوْلَ .. (١٧، ١٨) ١٠١٨

قُلْ يَكُونُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ٥٣ ٧٥٩، ٥٩

سورة غافر

مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيَرٍ وَلَا شَفِيعٍ يُلَاقُ ١٨ ٥٢٨

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ١٩ ١٥٢

وَالْوَيْلُ لِمَنْ أَمْرٌ إِلَى اللَّهِ إِلَهَ إِلَهٍ بَصِيرٌ .. (٤٤، ٤٥) ٧٧٥

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ٥٥ ١٥٣٣

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ٦٠ ١٥٤٥

سورة فصلت

وَابْتَهِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠ ٢١٦

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا .. (٣٠، ٣١) ١٠١٨

وَلَا تَسْتَوِ الْمُسْلِمَةُ وَلَا الْمُسْلِمَةُ أَدْعَى .. (٣٤، ٣٥) ٩١٣

وَلَمَّا بَرَزْنَاكَ مِنَ السِّبْكَانِ نَزَعْنَا مِنْهُ بِاللَّهِ ٣٦ ١٨٤٨

سورة الشورى

وَأَرْسَلْنَا شُرَكَائِهِمْ ٣٨ ١٠٣٨

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ .. ٤٢ ١٦٧٩

وَلَكِنْ سَبَرْ وَعَفِّرْ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣ ٦٧

| | | | | |
|------------|---------|---|--------------------|---|
| ٨٣١ | ٩ | وَيُفَرِّقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ | سورة ق | |
| ١٢٠٨ | ١٠ | وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا .. | ١٨ | مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رِجْبٌ عَيْنٌ |
| ١٥٦٣ | | | ١٦٣٤ ، ١٦٣٣ ، ١٦١٨ | |
| ٤٥٢ | ١٨ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ .. | سورة الذاريات | |
| | | سورة الصف | | |
| ٥١٣ | (٣، ٢) | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ .. | ١٧ | كَانُوا قَلِيلًا مِمَّنْ آتَيْنَا مَا يَشْعُرُونَ |
| ١٤٢٥ | (١٠-١٣) | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَخْرَجٍ .. | ١٠١٣ (٢٤-٢٧) | هَلْ أُنَبِّئُكَ حَيْثُ حَبِيبُ إِزْمِيلَ الْكُرَيْمِ .. |
| | | سورة الجمعة | ١١٣٧ | |
| ١٣٤٠ ، ٨١٨ | ١٠ | فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ .. | ٨٧٩ | فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِّمٌ ذُو نُجُيٍّ |
| ١٥٠٤ | ١٠ | وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ | ٧ | وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .. |
| | | سورة المنافقون | سورة الطور | |
| ١٦٠٩ | ١ | إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ | ٧٤٨ (٢٨-٢٥) | وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَافُونَ .. |
| ٨٤٦ | (٩-١١) | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلَهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ .. | سورة النجم | |
| | | سورة التغابن | | |
| ٨٢٨ | ١٦ | فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ | ٤٠٥ (٤، ٣) | وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْمَوْتِ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْدِي يُوحَى .. |
| ٨٣٠ | ١٦ | وَمَنْ يُوَفَّ شِعْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ | ٨٨٢ | فَلَا تَرْكَبُوا أُنُفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى |
| | | سورة الطلاق | ٧٨٠ (٦٠، ٥٩) | أَوَلَمْ هَذَا الْوَيْدِ تَجِبُونَ وَتَضْمَكُونَ وَلَا .. |
| ٢٤٥ | (٣، ٢) | وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ .. | سورة الرحمن | |
| ٦٧٥ | ٧ | لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ | ٧٤٨ | وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ |
| | | سورة التحريم | سورة الواقعة | |
| ٦٨٢ | ٦ | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ .. | ١٠٤٢ (٩، ٨) | فَأَمَّا حَبِيبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبَ الْيَمِينِ .. |
| | | سورة الملك | سورة الحديد | |
| ١٢٥٣ | ١ | تَبَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ | ١٥٢ | وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ |
| | | سورة القلم | ٨٥٠ ، ٤٠٠ | أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ |
| ٩٠٤ | ٤ | وَأَنَّكَ لَمَلَكٌ خَلْقٍ عَظِيمٍ | ٩٩٣ | وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ .. |
| ١٦١٢ | ١١ | هَآؤُنِ مَّا سَلَّمَ بِنَبِيٍّ | ٧٨٧ | أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْغَايَةُ الدُّنْيَا لَيْسَ لَهُمْ وَرِثَةٌ .. |
| | | سورة الحاقة | ٩٩٣ ، ٤٠٠ | وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ .. |
| ١٠٤٢ | ١٩ | فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيَتْ كَيْدُهُ بِسَبِيحِهِ .. | سورة المجادلة | |
| | | سورة المزمل | | |
| ٣٠٥ | ٨ | وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ وَبَقِّلْ إِلَيْهِ تَبْيِيلًا | ١٦٨٦ | إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ النَّبِيِّينَ |
| ٣٠٥ | ٢٠ | وَمَا تَقْدِيرُكُمْ إِلَّا نُفُوسُكُمْ تَزِيدُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ .. | ١٤٧٠ ، ٥٥ | يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ .. |
| | | | سورة الحشر | |
| | | | | وَمَا مَلَائِكَةُ الرَّسُولِ فَخْذُهُ وَمَا نَبْهَكُمْ عَنْهُ |
| | | | | وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِ .. |

سورة القيامة

لَا تُخْزِيهِمْ يَوْمَئِذٍ لِسَانُكَ ١٢٣٤ (١٦-١٨)

سورة الإنسان

وَيُطْعَمُونَ السَّعْمَ عَلَى حَيْثُ يَشْكُونَ وَيَبْئُتُ ٨ ٨٣١

سورة عبس

يَوْمَ يَرَى الْكَافِرُ مِنْ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ ٧٤٨ (٣٤-٣٧)

سورة الانفطار

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَجْمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ٧٧٧ (١٣-١٤)

سورة التكويم

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٢٣٤ (١٩-٢١)

سورة المطففين

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْمَلُوا ١٤٦٤ (١-٦)

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَجْمٍ ١٩١٠ (٢٢-٢٨)

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ٨٣٧ ٢٦

سورة البروج

إِنَّ بَلَدَكُمْ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ ١٨٤٧، ٧٤٨ ١٢

سورة الغاشية

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرَةِ كَيْفَ خُلِقَتْ ٢٧٥ (١٧-٢٠)

سورة الضحى

وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الضَّحَرَ بِالْوَادِ ٤٥٣ ٩

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ٨٦٦، ٢٥٢ ١٤

سورة البلد

فَلَا أَقْنَمَ الْقَبْءَ ١٤٦٠ (١١-١٣)

سورة الشمس

إِذْ أَنْبَأْتَ أَشْقَاهَا ٦٥٦ ١٢

سورة الليل

فَالْمَاءُ مَنْ أَصْلَى وَالْفَقْرُ وَصَدَّقَ بِالْمُسْقَى ٨٣٩ (٥-٧)

وَالْمَاءُ مَنْ يَحِلُّ وَأَسْتَفْنَ ٨٢٨ (٨-١١)

وَسَيَجْنِيهَا الْأَنْفَى ٨٣٩ (١٧-٢١)

سورة الضحى

فَالْمَاءُ الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَالْمَاءُ السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ٧٤١، ٦٣٥ (٩، ١٠)

سورة القدر

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ١٣٧٠ ١

سورة البينة

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ١٧١١ ١

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ١٣٧٩، ٩ ٥

سورة الزلزلة

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٣٥٤ ٧

سورة القارعة

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٧٧٧ (٦-٩)

سورة التكاثر

أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكَاثِرُ حَتَّى دُنِيَ الْمُقَابِرَ ٧٨٧ (١-٥)

ثُمَّ لَئِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ٨٠٢ ٨

سورة العصر

وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٤٦٦ (١-٣)

سورة الهمة

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُزِمَتْ ١٦٦٩ ١

سورة الماعون

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْبَيْتِ ٦٣٥ (١-٣)

سورة الكافرون

قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١٣٢٤ ١

سورة النصر

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ٣٥١ ١

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ ١٩٠٤ ٣

سورة الإخلاص

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١٢٥١ ١

سورة الفلق

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١٥٤٣ ١

سورة الناس

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١٥٤٣ ١

٢ - فهرس الأحاديث

| الحديث | رقم الحديث | الحديث | رقم الحديث |
|---|------------|---|-------------|
| أثت فلائناً فإنه قد كان تجهز | ١٣٠٨ / ١٦٧ | اتقوا الله في هذه البهائم | ٩٦٦ |
| أخى النبي ﷺ بين سلمان ... إن لربك عليك حقاً | ١٤٩ | اتقوا الله وصلوا خمسكم | ٧٣ |
| أئذن له وبشره بالجنة | ٧٠٩ | اتقوا الملاعن الثلاثة | ش ١٦٠٦ |
| أئذنوا له ببس أخو العشيرة | ١٥٣١ | اتقوا النار ولو بشق تمرة | ٦٩٣/٥٤٦/١٣٩ |
| أأعلمته | ٣٨٥ | اتقوا النساء فإنما كان فتنة بني إسرائيل | ش ٨٧ |
| أيون تائبون | ٩٨٧ | اتقي الله واصبري | ٣١ |
| آية المنافق ثلاث | ٦٨٩/١٩٩ | أتموا الصف المقدم | ١٠٩٣ |
| أبا هر .. الحق أهل الصفة | ٥٠٢ | أتى الله بعد من عباده آتاه الله مالا | ١٣٧٢ |
| ابدأ بنفسك ثم بمن تعول | ش ٥٦٤ | أتى علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب | ٦٨٨ |
| ابدأ بنفسك فتصدق عليها | ش ٥٣٠ | أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز | ٤٥٠ |
| ابدأن بيمينها | ٧٢٣ | أتيت النبي ﷺ يوم الفتح وهو يغتسل | ٨٦٤ |
| أبشر بنورين أوتيتهما | ١٠٢٢ | أثبت أحد | ش ٧٠٩ |
| أبشرى برحمة | ش ٩٤١ | أثقل الصلاة على المنافقين | ش ٢٣٢ |
| أبك جنون | ش ٦٨٤ | اثنان في الناس هما بهما كفر | ١٦٦٧/١٥٧٨ |
| ابغوني الضعفاء | ٢٧٢ | اجتمعن يوم كذا وكذا | ٩٥٤ |
| أبو بكر .. أي الرجل أحب إليك | ش ٦٧٨ | اجتنبوا السبع الموبقات | ١٧٩٣/١٦١٤ |
| أبو بكر في الجنة | ش ٩٥٠ | أجرك على قدر نصبك | ٩٩٤ |
| أبوك منهم | ش ٩٥٠ | اجعلوا آخر صلاتكم وتراً | ١١٣٤ |
| أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟ | ٧٦١/٥٦٩ | اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم | ١١٢٩ |
| أتانا النبي ﷺ فأخرجنا له ماء | ٧٧٥ | أجل إني أوعك كما يوعك رجلان | ٩١٥/٩١٤/٣٨ |
| أتلدرون ما أخبرها ؟ | ٤٠٨ | أجلس فقد أذيت | ش ١٠٨٣ |
| أتلدرون ما الغيبة ؟ | ١٥٢٣ | أحب الأسماء إلى الله عبد الرحمن | ش ٤٤ |
| أتلدرون ما المفلس ؟ | ٢١٨ | أحب البلاد إلى الله مساجدها | ١٨٤١ |
| أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ | ٤٣١ | أحب الصلاة إلى الله صلاة داود | ١١٧٧ |
| أترون هذه المرأة طارحة ولدها ؟ | ٤١٨ | احتجبا منه | ١٦٢٦ |
| أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين | ١٦٨ | احتجت الجنة والنار | ٦١٥/٢٥٤ |
| أسمع النداء | ش ٧١٣ | أحسن إليها فإذا وضعت | ٩١٣/٢٢ |
| أتشفع في حد من حدود الله ؟ | ١٧٧٠ | أحسنها القأل | ١٦٧٧ |
| أتق الله حيثما كنت | ٦١ | أحفوا الشوارب | ١٢٠٥ |
| أتق دعوة المظلوم | ش ٩٨١ | أحلت لنا ميتتان ودمان | ش ١٨٣٤ |
| أتقاهم | ٦٩ | الحمد لله الذي أحيانا | ٨١٧ |
| أتقعد قعدة المغضوب عليهم | ٨٢٤ | أخبرك بما هو أيسر عليك | ١٤٤٢ |
| اتقوا الظلم | ٥٦٣/٢٠٣ | أخبرني عن الساعة . ما المسؤول عنها | ب ٦٥ |
| اتقوا اللاعنين | ١٧٧١ | أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح | ١٦٦١ |
| | | أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان | ٨٧٢ |
| | | أخرجو المشركين من جزيرة العرب | ش ٨٩ |

| | | | |
|------------|--------------------------------------|--------------|---|
| ١٢٢٦ | إذا بقي نصف من شعبان | ش ١٨٩ | أخرجوا اليهود والنصارى |
| ٢٤٦ | إذا بلغت الحدود السلطان | ش ٤٤ | أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب |
| ٨٨٤ | إذا تئأب أحدكم فليمسك يده | ش ٧٠٢ | أحسأ فلن تعدو قدرك |
| ٥٧٨ | إذا تشهد أحدكم التشهد الأخير | ش ١٨٠٨ | أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر |
| ١٤٢٣ | إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله | ش ٩٨٨ | أدخلت المسجد وصليت |
| ١٤٥٦ | إذا تقولت ألقيلان | ش ١٥٣٧/٢٣٤ | أد الأمانة إلى من ائتمنك |
| ٩٦ | إذا تقرب العبد شبرا | ش ٢٨١ | ادعها .. أين الله ؟ |
| ١٠٢٨ / ١٢٩ | إذا توضع العبد المسلم | ش ١٢٠٨ | ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله |
| ١١٥١ | إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل | ش ١٦٤٠ | ادعوا لي بني أخي |
| ١٢٢٠ | إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة | ش ١٧٦٩ | إذا أبق العبد لا تقبل صلاته |
| ١٠٣٣ | إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم | ش ١٢٨ | إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل |
| ٩٢٠ | إذا حضرتم المريض أو الميت . فقولوا : | ش ١٣٦١ | إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه |
| ١٨٥٦ | إذا حكم الحاكم فاجتهد | ش ٨١٥/٨٠ | إذا أتيت مضجعك فتوضأ |
| ٩٦٠ | إذا خرج ثلاثة في سفر | ش ٦٠ | إذا أتيتم إلى الصلاة فامشوا |
| ١١٤٤ | إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس | ش ٣٨٣ | إذا أحب الرجل أخاه فليخبره |
| ٧٣٠ | إذا دخل الرجل بيته فذكر الله | ش ٣٨٧ | إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل |
| ١٨٩٦/١٨٩٢ | إذا دخل أهل الجنة الجنة | ش ٧١٣ | إذا أذنت بالأول |
| ١٧٤٩/٢٨١ | إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه | ش ٦٧٩ | إذا أراد الله بالأمير خيرا |
| ٢٨٤ | إذا دعا الرجل زوجته لحاجته | ش ٤٣ | إذا أراد الله بعبد خيرا |
| ٧٣٨ | إذا دعي أحدكم فليجب | ش ٤٣٩ | إذا أراد الله تعالى رحمة أمة |
| ٩٤٧ | إذا دفتنوني فأقيموا حولي | ش ١٥٢١ | إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء |
| ٨٤١ | إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها | ش ٩٨٥ | إذا أطل أحدكم الغيبة |
| ٨٤٣ | إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها | ش ١٢٣٨ / ٣٣٢ | إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر |
| ١٠٦٠ | إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد | ش ١٢٣٧ | إذا أقبل الليل من ها هنا |
| ١٧٩٠ | إذا رأيتم المداحين فاحشوا في وجوههم | ش ٨٣٩ | إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن |
| ١٦٩٧ | إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد | ش ٧٠٤ | إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون |
| ٦٠ | إذا رأيتموه فصوموا | ش ١٧٥٩ | إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة |
| ١٥٦٣ | إذا زنت أمة أحدكم | ش ٧٤٨ | إذا أكل أحدكم طعاما فلا يمسح |
| ٢٤٢ | إذا زنت المرأة فتنين زناها | ش ٧٢٩ | إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله |
| ٩٦٢ | إذا سافرت في الخصب | ش ٩ | إذا التقى المسلمان بسيفيهما |
| ٦٠ | إذا سجد أحدكم فلا يترك | ش ٦٠ | إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه |
| ٦٠٨ | إذا سقطت لقمة أحدكم | ش ٢٧٤ | إذا انبعث أشقاها |
| ٨٤٤ | إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب | ش ٧٢٤ | إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى |
| ٨٦٧ | إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : | ش ٨٦٩ | إذا انتهى أحدكم إلى المجلس |
| ١٧٩٢ | إذا سمعتم بالطاعون بأرض | ش ١٨٣٠ | إذا أنزل الله تعالى بقرم عذابا |
| ١٧٩١ | إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا | ش ١٦٥٠ | إذا انقطع شمع نعل أحدكم |
| ١٠٣٧ | إذا سمعتم المؤذن فقولوا | ش ١٤٦٠ | إذا أوى أحدكم إلى فراشه |
| ١٠٣٨ | إذا سمعتم النداء فقولوا | ش ١٤٥٩ | إذا أويتما إلى فراشكما |
| ١١٢٦ | إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها | ش ١١٨٤ | إذا أيقظ الرجل أهله |
| ١١١٢ | إذا صلى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع | ش ١٦٤٨ | إذا بال أحدكم فلا يأخذن |

- إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها ش ١٠٩٨ اذهب فتوضأ ٧٩٧
- إذا صلى أحدكم للناس فليخفف ٢٢٨ اذهب فمن لقيت وراء هذا الحائط ٤٢٤
- إذا صليت الجمعة فلا تصلها بفلاة ١١٣١ أراني في المنام أتسوك ٣٥٣
- إذا صليتما في رحالكما ش ٦٠ أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة ٨٩
- إذا صليتم على الميت فأخلصوا ٩٣٧ أرأيتكم ليتكم هذه ؟ ١٧٤٧
- إذا صمت من الشهر ثلاثاً ١٢٦٢ أرأيتم لو أن نهراً يباب أحدكم ١٠٤٢
- إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ٣٠٤ أربع من كن فيه كان منافقاً ١٥٨٤/١٥٤٣/٦٩٠
- إذا عطس أحدكم فحمد الله ٨٨٠ أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز ٥٥١/١٣٨
- إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله ٨٧٩ أرجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ ٩٢٤
- إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر ١٧٣٢ أرجع فصل فإنك لم تصل ٨٥٩
- إذا قال الرجل : هلك الناس ١٥٩٠ أرجع قفل : السلام عليكم ٨٧٣
- إذا قال العبد : الحمد لله ش ٦٥٢ أرجعوا إلى أهلبيكم فأقيموا ٧١٣
- إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم ١١٨٦ أرجعوا إلى أهلبيكم وأقيموا فيهم ش ٩٨٤
- إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح ١١٧٩ أردني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه ٩٦٧
- إذا قام أحدكم من مجلس ٨٢٦ أرسلك أبو طلحة ٥٢١
- إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ش ٢٢ اربقوا محمدًا في أهل بيته ٣٤٧
- إذا قضى أحدكم صلاته ١١٣٠ ارموا بني إسماعيل ١٣٣٦
- إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ش ٦٠ أزرة المسلم إلى نصف الساق ٧٩٩
- إذا كان يوم صوم أحدكم ١٢٤٠ ازهد في الدنيا يحبك الله ٤٧٢
- إذا كان يوم القيامة رفع الله ٤٣٢ أسبغ الوضوء ١٢٤٣
- إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان ١٥٩٨ استغفروا لأخبيكم ٩٤٦
- إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان ١٥٩٩ استنصت الناس ٦٩٨
- إذا لبستم وإذا توضأتم فابدؤوا ٧٢٦ أستودع الله دينك وأمانتك ٧١٥
- إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم ٨٦٠ أستودع الله دينكم وأمانتكم ٧١٦
- إذا مات الإنسان انقطع عمله ٩٤٩ استوصوا بالنساء خيراً ٢٧٣
- إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ش ٦٠ استوتوا ولا تختلفوا ١٠٨٦/٣٤٩
- إذا مات ولد العبد قال الله تعالى ١٣٩٥/٩٢٢ أسرعوا بالجنابة فإن تك صالحة ٩٤١
- إذا مرض العبد أو سافر ١٣٣ أسعد الناس بشفاعتي ١٢٨٧
- إذا نابكم شيء فليستح ش ٧٠ أسلم ثم قاتل ١٣١٠
- إذا نسي أحدكم فأكل ١٢٤٢ أسلم ... الحمد لله الذي أنقذه ٩٠٠
- إذا نسيت فذكروني ش ١٢٤٥ اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا ٦٦٩
- إذا نكس أحدكم في الصلاة ١١٨٥ اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم ٦٦٦
- إذا نكس أحدكم وهو يصلي ١٤٧ اشتري رجل من رجل عقاراً ١٨٢
- إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان ١٠٣٦ اشرب . اشرب ش ٧٤٥
- إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ٧١٨ اشفعوا توجروا ٢٤٦
- إذا وجد أحدكم ذلك ش ١٤٥٦ اصبروا حتى تلقوني على الحوض ش ٦٦٧
- إذا وضعت الجنابة واحتملها الناس ٩٤٢/٤٤٤ اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان ٩٢
- إذا وقعت لقمة أحدكم ٧٥١/١٦٤ اصرف بصرك ١٦٢٥
- أذنب عبد ذنباً ٤٢١ أصليت ش ١٧٣/١٢٠
- اذهب بنا إلى هذا النبي ٨٨٩ أصليت بأصحابك وأنت جنب ش ١١١

| | |
|--|---|
| أصمت أمس ؟ ١٧٦٣ | أقرب ما يكون العبد من ربه ١٤٩٨/١٤٢٨ |
| اضربوه ٢٤٣ | أقضي ؟ ... ألا تسمعون ١٦٦٣ |
| أطت السماء ١٣٩٧ | أقيموا صفوفكم وتراصوا ١٠٨٨ |
| أطلعت في الجنة فرأيت ٤٨٨ | أقيموا الصفوف وحاذوا ١٠٩١ |
| أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم ٤٥٧ | أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ١٢٦١ |
| اعبدوا الله وحده ٣٢٧/٥٦ | أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ٨٨٥ |
| اعتدي في بيت ابن أم مكتوم ١٦٢٦ | أكثرت عليكم في السواك ١١٩٩ |
| أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ٧٠٩ | أكثروا ذكر هادم اللذات ٥٧٩ |
| أعذر الله إلى امرئ ١١٢ | أكل تمر خير هكذا ١٧٤٥ |
| أعطوني ردائي ٥٥٥ | أكل ولدك نحلته ١٧٧٣ |
| أعطوه سنًا مثل سنه ١٣٦٧ | أكلت مع النبي ﷺ فكان يتبع الدباء ٢٩٩ |
| أعطيت خمسا لم يعطهم أحد ٥٨ | أكمل المؤمنين إيمانا ٦٢٨/٢٧٨ |
| أعفو اللحي واحلقوا ١٥٩ | البسوا البياض فإنها أطهر ٧٨٠ |
| اعلم أبا مسعود أن الله أقدر ١٦٠٤ | البسوا من ثيابكم البياض ٧٧٩ |
| اعملوا ما شئتم ١٨٣٠ | أظلو بياذا الجلال والإكرام ١٤٩١ |
| أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ٦٠ | ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة ١٠١٤ |
| أعوذ بالله من عذاب القبر ٩٣ | اللهم آتنا في الدنيا حسنة ١٤٦٧ |
| أعوذ بالله من الخبث والخبائث ١٧٤١ | اللهم أجرنى في مصيبتى ٥٤٨ |
| أغمي على عبد الله بن رواحة ١٦٦٢ | اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا ٥٠١ |
| أفتان أنت يا معاذ ٦٣٧ | اللهم أسلمت نفسي إليك ٨١٤ |
| أفرى القرى أن يري الرجل عينيه ١٥٤٥ | اللهم اشف سعدًا ٩٠٢ |
| أفضل الجهاد كلمة عدل ١٩٤ | اللهم أصلح لي ديني ١٤٧٢ |
| أفضل دينار ينفقه رجل ٢٩٠ | اللهم أعني على غمرات الموت ٩١٢ |
| أفضل صلاة المرء ١٠٩٧ | اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد ٩٤٥ |
| أفضل الذكر لا إله إلا الله ١٤٣٧ | اللهم اغفر لحينا وميتنا ٩٣٦ |
| أفضل الصدقات ظل فسطاط ١٣٠٧ | اللهم اغفر لقومي ٦٤٦/٣٦ |
| أفضل الصلاة صلاة أخي داود ٦٠ | اللهم اغفر له وارحمه ٩٣٥ |
| أفضل الصيام بعد رمضان ١٢٤٦/١١٦٧ | اللهم اغفر لي خطيئتي ١٤٧٦ |
| أفطر عندكم الصائمون ١٢٦٧ | اللهم اغفر لي ذنبي كله ١٤٢٩ |
| افعلوا ... أشهد أن لا إله إلا الله ٤١٦ | اللهم اغفر لي ما قدمت ١٤٢٤ |
| أفلا أخبرك بملك ذلك ٢١١ | اللهم اغفر لي وارحمني ٩١١ |
| أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به ٥٧٣ | اللهم اقسم لنا من خشيتك ٨٣٤ |
| أفلا أكون عبدًا شكورًا ١١٦٠/٩٨ | اللهم اكفني بحلالك ١٤٨٦ |
| أفلا كنتم أذنتموني ٢٥٦ | اللهم ألهمني رشدي ١٤٨٧ |
| أفخلته ؟ .. فكيف تصنع بلا إله إلا الله ٣٩٤ | اللهم أمتي أمتي ٤٢٥ |
| اقرأ قل هو الله أحد ١٤٥٦ | اللهم أنت ربها ٩٣٨ |
| اقرأ علي القرآن ١٠٠٨/٤٤٦ | اللهم إن فلان ابن فلان في ذمتك ٩٣٩ |
| اقرأ ورتل ٩٩٦ | اللهم إن هذا قسمي ٢٣٥ |
| اقرأوا الزهراوين ١٠٢ | اللهم إنا نجعلك في نحورهم ١٣٢٧/٩٨٢ |
| اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة ٩٩١ | اللهم أنت السلام ١٨٧٦/١٤١٥ |

- اللهم أنت عضدي ١٣٢٦ أما أبو جهم فضراب ش ١٥١٠
 اللهم إنك عفو تحب العفو ١١٩٥ أما إنه لو سمي لكفاكم ٧٣٣
 اللهم إني أخرج حق الضعيفين ٢٧٠ أما بعد ، أيها الناس إنما أنا بشر ٧١٢/٣٤٦
 اللهم إني أسألك حبك ١٤٩٠ أما بعد فإنه لم يخف ش ٢٢٩
 اللهم إني أسألك خيرها ١٧٢٩ أما بعد ، فإني أستعمل الرجل ٢٠٩
 اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ١٤٩٣ أما بعد ؛ فإن الدنيا قد آذنت بصرم ٤٩٨
 اللهم إني أسألك الهدى ١٤٦٨/٧١ أما بعد ، فوالله إني لأعطي الرجل ٥٢٦
 اللهم إني أعوذ بك من البرص ١٤٨٤ أما ترضى أن تكون مني ش ٩١٠/١٧٧
 اللهم إني أعوذ بك من الجبن ١٤٢١ أما الركوع فعظموا فيه الرب ش ٦٠
 اللهم إني أعوذ بك من الجوع ١٤٨٥ أما علمت أن الله اطلع على أهل بدر ش ٩٨
 اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ١٤٧٨ أما لو قلت حين أمسيت ١٤٥٢
 اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ١٤٨٣ أما معاوية فصعلوك ١٥٣٣
 اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ١٤٧٧ أما هذا فقد عصى أبا القاسم ١٧٨٥
 اللهم إني أعوذ بك من العجز ١٤٧٩/١٤٧٤ أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه ١٧٥١
 اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ١٤٨١ أمرت أن أقاتل الناس ... ١٢١٠/١٢٠٩/١٠٧٦/٣٩٠
 اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق ١٤٨٢ أمرنا رسول الله ﷺ أن نسمح خفافنا ش ٦٠
 اللهم إني ظلمت نفسي ١٤٧٥ أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ٨٤٧/٢٣٩
 اللهم إني لا أسألك ش ١٢٨٧ أمرنا رسول الله ﷺ بعبادة المريض ٨٩٤
 اللهم اهدني وسددي ١٤٧٣ أمسك عليك لسانك ١٥٢٠
 اللهم أهله علينا بالأمن ١٢٢٧ أمسيتا وأمسى الملك لله ١٤٥٥
 اللهم بارك لأمتي في بكورها ٩٥٧ أمعلك ماء ٧٨٨
 اللهم بارك لهما ٤٤ أمك = من أحق الناس بحسن صحابتي ٣١٦
 اللهم بك أصبحنا ١٤٥٣ أمك امرتك بهذا ؟ ١٧٩٩
 اللهم بك وضعت جنيني ش ٨١٥ أن تؤمن بالله وملائكته ش ٦٨٣
 اللهم حوالينا ولا علينا ش ٧١٥ أن تشهد أن لا إله إلا الله ش ٢١١
 اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ش ٦٠ أنا ابن عبد المطلب ش ١٨٠٢
 اللهم رب الناس أذهب الباس ٩٠٢ أنا أغنى الشركاء عن الشرك ش ١٢
 اللهم الرفيق الأعلى ش ٢٨ أنا بريء مما برئ منه رسول الله ﷺ ١٦٥٩
 اللهم سلم ش ١٦٥ أنا زعيم بيت في ربض الجنة ٦٣٠
 اللهم صل على آل أبي أوفى ش ٣٤٣ أنا سيد ولد آدم ش ١٥٨٩
 اللهم صل عليهم ش ١٢٠٥ أنا سيد الناس يوم القيامة ١٨٦٦
 اللهم قني عذابك ١٤٦٤ أنا نبي ٤٣٨
 اللهم لك أسلمت ١٤٨٠/٧٥ أنا وكافل اليتيم في الجنة ٢٦٢
 اللهم لك الحمد أنت كسوتيه ٨١٣ أنت الذي تقول ذلك ١٥٠
 اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ٤٦٠ أنت مع من أحببت ٣٦٩
 اللهم مصرف القلوب ١٤٧٠ أنت منهم ش ٩٥٠
 اللهم مقلب القلوب ش ٣٩٦ أنتم الذين قلتم كذا وكذا ١٤٣
 اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا ٦٥٥ أنزلت هذه الآية ﴿ لَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ ﴾ ١٧١٩
 اللهم منزل الكتاب ٥٣ أنزلوا الناس منازلهم ٣٥٦
 إلى أقربهما منك بابا ٣١٠ انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ٢٣٧

- انطلق بنا إلى أم أيمن ٤٥٢/٣٦٠
 انطلق ثلاثة نفر من كان قبلكم ١٢
 انظروا إلى من هو أسفل منكم ٤٦٧
 انظروا ماذا تقول ٤٨٤
 أنهى النبي ﷺ عن الوصال ؟ ١٧٦٤
 إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي ٣٣٠
 إن أبا سفيان رجل شحيح ١٥٣٥
 إن أبر البر أن يصل الرجل ود أبيه ٣٤١
 إن إبراهيم يعتز عن الشفاعة ش ٢٤٩
 إن ابني ارتحلني ش ٢٢٥
 إن ابني هذا سيد ش ٨٩٣/٢٢٣
 إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف ١٣٠٢
 إن أحب أسمائكم إلى الله ش ٤٤
 إن أحدكم إذا قام في صلاته ٦٥٢
 إن أحدكم يجمع خلقه ٣٩٦
 إن أختع اسم عند الله ١٧٢٤
 إن إخوانكم قد قتلوا ١٣١٦
 إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة ١٨٩٣
 إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ١٦٨٢
 إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ٥٨٧
 إن أعظم الناس أجراً في الصلاة ١٠٥٧
 إن أقواماً خلفنا بالمدينة ٤
 إن الله حرم على النار من قال ش ٦٠
 إن الله قال : أنا ش ١
 إن أمتي افلكت نفسها ٩٨٤
 إن أمتي يدعون يوم القيامة غرّاً ١٠٢٤
 إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف ١٨٩٠/١٨٨٧
 إن أهون أهل النار عذاباً ٣٩٨
 إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل ١٩٦
 إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة ١٠٨١
 إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ١٦١٧
 إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام ٨٥٨
 إن بالمدينة لرجالاً ١٣٤٢/٤
 إن بلالاً يؤذن بليل ١٢٣١
 إن بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة ١٠٧٨
 أن تجعل لله نداً وهو خلقك ش ٢٠٣
 أن تصدق وأنت صحيح ٩٠
 أن تطعمها إذا طعمت ٢٧٧
 إن تفرقكم في هذه الشعاب ٩٦٥
 إن ثلاثة من بني إسرائيل ٦٥
 إن جبريل أتاني فأخبرني ش ٦٠
 إن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه ش ١٠٢١
 إن حياء أدخلك الجنة ١٠١٣
 إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام ١٥٢٤
 إن الدين يسر ١٤٥
 إن رجالاً يتخوضون في مال الله ٢٢١
 أن رجلاً زار أخاه ٣٧٩/٣٦١
 إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ش ٢٥٢
 أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا ١٥٠٨
 في ليلة مظلمة ٧٢٧
 أن رسول الله ﷺ أتى منى ٧٠٨
 أن رسول الله ﷺ حج على رجل ١٢٨٣
 أن رسول الله ﷺ دخل يوم فتح مكة ٧٨٤
 أن رسول الله ﷺ رأى في جدار القبلة مخاطباً ١٦٩٤
 أن رسول الله ﷺ صام يوم عاشوراء ١٢٥١
 أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث ١٤٦١
 في يديه ١١١٧
 أن رسول الله ﷺ كان يصلي أربعاً ٨٣٠
 أن رسول الله ﷺ لمن من جلس وسط الحلقة ١٧٧٢
 أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال في الماء ١٦٥١
 أن رسول الله ﷺ نهى أن يتعل الرجل قائماً ٨١٢
 أن رسول الله ﷺ نهى عن جلود السباع ش ٦٠
 إن السموات السبع والأرضين سبع ١٣٤٥
 إن سياحة أمتي الجهاد ٣٥
 إن شئت صبرت ولك الجنة ٦٥٧/١٩٢
 إن شر الرعاء الحطمة ٧٠٠
 إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته ٤٣
 إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ١٢١٧
 إن في الجنة باباً يقال له الريان ١٨٨٩
 إن في الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة ١٨٨٦
 إن في الجنة لشجرة يسير الراكب ١٣٠٠
 إن في الجنة مائة درجة ١١٧٨
 إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد ٦٣٢
 إن فيك خصلتين يحبهما الله ش ٤٤
 إن قلوب بني آدم كلها بين ٢٢٩
 إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل ٧٧٦
 إن كان عندك ماء بات هذه الليلة ٦٠٥
 إن كانت الأمة من إماء المدينة ٤٨١
 إن لكل أمة فتنه

- إن لله تسعة وتسعون اسماً ش ٦٨٣
 إن لله تعالى مائة رحمة ٤٢٠
 إن لله تعالى ملائكة يطوفون ١٤٤٨
 إن للمؤمن في الجنة لحيمة ١٨٨٥
 إن لله ما أخذ وله ما أعطى ٢٩
 إن الله قال : من ذكرني ش ١٣٩٢
 إن مثل ما بعثني الله به من الهدى ١٦٢
 إن مفتاح الجنة لا إله إلا الله ش ١٤٤١
 إن مما أخاف عليكم من بعدي ٤٥٨
 إن مما أدرك الناس من كلام النبوة ١٨٤٤
 إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشبهة ٣٥٤
 إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً ١٧٣٨/٦٣
 إن من أشر الناس عند الله منزلة ٦٨٥
 إن من أعظم القرى أن يدعي الرجل ٨٤٤
 إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ١٣٩٩/١١٥٨
 إن من عباد الله من لو أقسم ش ٢٥٣
 إن من عبادي من لو أغنيته ش ٩٣
 إن منكم منفرين ش ٦٣٧
 إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى ش ٦٣٦
 إنا قد نهينا عن التجسس ١٥٧٢
 إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم ٦٢٣
 إنا نأشأ كانوا يؤخذون بالوحي ٣٩٥
 إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأل ٦٨٠
 إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ١٦٨٥
 أنا أغني الشركاء عن الشرك ش ١٤٧٣
 أن النبي ﷺ اشتري منه بعيراً ١٣٧٤
 أن النبي ﷺ خرج في غزوة تبوك يوم الخميس ٩٥٦
 أن النبي ﷺ قرأ في ركعتي الفجر :
 ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ١١٠٨
 أن النبي ﷺ كان إذا أذن المؤذن للصبح ١١٠٥
 أن النبي ﷺ كان إذا لم يصل أربعاً ١١١٨
 أن النبي ﷺ كان لا يتطير ١٦٧٦
 أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر ١١١٤/١١٠٠
 أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب ١٧٨٧
 أن النبي ﷺ كان لا يصلي بعد الجمعة حتى ١١٢٧
 أن النبي ﷺ كان يصلي ركعتين خفيفتين ١١٠٤
 أن النبي ﷺ كان يصلي صلاته بالليل ١١٣٦
 أن النبي ﷺ كان يصلي قبل العصر ١١٢١
 أن النبي ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر ١١٠٧
 أن النبي ﷺ مر على مجلس فيه أخلاط ٨٦٨
 أن النبي ﷺ نهى أن يتنفس في الإناء ٧٦٦/٧٥٩
 أن النبي ﷺ نهى عن الحبوة ١٧٠٥
 أن النبي ﷺ نهى عن النجش ١٥٨١
 أن النبي ﷺ نهى عن الوصال ١٧٦٤
 أن النبي ﷺ نهانا عن الحرير ١٧٩٦
 إن هذا اتباعنا فإن شئت أن تأذن له ٧٣٩
 إن هذا اختلط علي سيفي ٧٨
 إن هذا رؤيا حق ش ١٠٣٣
 إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس ش ٣٤٧
 إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء ٧٠١
 إن هذه ضجعة يبغضها الله ٨١٨
 إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول ١٦٩٥
 إن هذه النار عدو لكم ١٦٥٣/١٦١
 إن هذين حرام على ذكور أمتي ٨٠٧
 إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما ١٦٠٩
 إن الأشعريين أرملوا في الغزو ٥٦٨
 إن الحلال بين ٥٨٨
 إن الدجال يخرج وإن معه ماء ونار ١٨٠٩
 إن الدنيا حلوة خضرة ٥٤٩/٧٠
 إن الذي تدعون أقرب ش ١٤٦٤
 إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن ١٠٠٠
 إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون ١٦٧٨
 إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ٦٣٥
 إن الروح إذا قبض تبعه البصر ٩١٩
 إن الزمان قد استدار ٢١٣
 إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون ١٥٩٤
 إن الشيطان يأكل بشماله ب ٩٩
 إن الشيطان يحضر أحدكم ٧٥٣/٧٥٢
 إن الشيطان يجري من ابن آدم ش ١٦٣٠
 إن الشيطان يستحل الطعام ٧٣٢
 إن الصائم تصلي عليه الملائكة ١٢٦٦
 إن الصدق يهدي إلى البر ١٥٤٢
 إن العالم ليستغفر له ش ١٣٨٨
 إن العبد إذا لعن شيئاً ١٥٥٦
 إن العبد إذا نصح لسيد ١٣٦٢
 إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ١٥١٤
 إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ١٥١٦/١٥١٥
 إن في الجنة مائة درجة ش ١٢٨٧
 إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها ٤٢٨
 إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت ش ١٦٨/٦٠

| | | | |
|-----------|--------------------------------------|---------|--|
| ٥٩٧ | إن الله يحب العبد التقي | ش ٦٧٨ | إن الله اتخذني خليلًا |
| ٨٧٨ | إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب | ش ٥٩٤ | إن الله إذا حرم شيء حرم ثمنه |
| ١٣٣٥ | إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر | ب ٧١ | إن الله أذهب عنكم غيبة |
| ٩٩٦ | إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا | ش ١٥١٠ | إن الله تجاوز عن أمتي |
| ١٦٠٦ | إن الله يعذب الذين يعذبون الناس | ش ١٥٨٩ | إن الله - تعالى - أوحى إلي أن تواضعوا |
| ش ١٨٤ | إن الله يعطي على الرفق | ٣١٥ | إن الله تعالى خلق الخلق |
| ١٧٠٧ | إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم | ش ١٥٠٧ | إن الله حرم على الأرض أن تأكل |
| ش ٦٢ | إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر | ٣٤٠ | إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات |
| ٥٣٣ | إن المسألة كد يكدها الرجل | ٣٨٦/٩٥ | إن الله تعالى قال : من عادى |
| ش ٧٠٤ | إن المصلي يناجي ربه | ١٦ | إن الله تعالى يسقط يده بالليل |
| ٦٦٠ | إن المفسطين عند الله على منابر | ١٧٨١ | إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا |
| ١٩ | إن الملائكة لتضع أجنحتها | ١٨٣٢ | إن الله تعالى فرض فرائض |
| ش ١٤٣ | إن الميت لا أرضًا قطع | ١٨٠٦/٦٤ | إن الله تعالى يغار |
| ش ١٨٦٢ | إن النذر لا يرد قضاء | ٣٧٧ | إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون |
| ش ٢٣٨ | إن اليهود إذا سلموا عليكم | ٧٤٥ | إن الله جعلني عبدًا كريمًا |
| ١٦٣٦ | إن اليهود والنصارى لا يصيغون | ش ٧٩٨ | إن الله جميل يحب الجمال |
| ش ٢٩٨ | إننا آل محمد لا نحل لنا الصدقة | ش ١٤٤٩ | إن الله حيي كريم |
| ش ٢٨ | إننا معشر الأنبياء لا نورث | ٦٣٤/٦٣٣ | إن الله رفيق يحب الرفق |
| ١٣٦٠ | إنك امرؤ فيك جاهلية | ٤٥١ | إن الله ﷻ أمرني أن أقرأ عليكم |
| ١٥٧١ | إنك إن اتبعت عورات المسلمين | ١١٥ | إن الله ﷻ تابع الوحي |
| ١٠٧٧/٢٠٨ | إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب | ش ١٣٩٧ | إن الله ﷻ قال ما تقرب إلي |
| ش ٢٤٩ | إنكم إذا قاتم ذلك | ٣٤ | إن الله ﷻ قال : إذا ابتليت عبدي |
| ش ١١١ | إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم | ١٨ | إن الله ﷻ يقبل توبة العبد |
| ٦٧٧ | إنكم ستحرضون على الإمارة | ١٨٩٤ | إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة |
| ١٨٩٥/١٠٥١ | إنكم سترون ربكم | | إن الله ﷻ يقول : يا ابن آدم مرضت |
| ٣٢٨ | إنكم ستفتحون أرضًا = ستفتحون مصر | ٨٩٦ | فلم تعدني |
| ٥٢ | إنكم ستلقون عبدي أثره | ش ٧٥ | إن الله قد اتخذني وليًا |
| ٦٣ | إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق | ٢٦٩ | إن الله قد أوجب لها بها الجنة |
| ٧٥٠ | إنكم لا تدرؤن في أي طعامكم البركة | ٦٤٠ | إن الله كتب الإحسان على كل شيء |
| ١٦٤ | إنكم لا تدرؤن في أيها البركة | ١١ | إن الله كتب الحسنات والسيئات |
| ش ١٦٩ | إنما الأعمال بالنيات | ٤٣٦/١٤٠ | إن الله ليرضى عن العبد |
| ش ٣٩٢ | إنما أقضي بنحو ما أسمع | ١٨١٩ | إن الله ليس بأعور |
| ش ٢٨ | إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون | ٢٠٧ | إن الله ليعلي للظالم |
| ٢١٩ | إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي | ١١٣٢ | إن الله وتر يحب الوتر |
| ٦٥١ | إنما أهلك من قبلكم | ١٠٩٤ | إن الله وملائكته يصلون على النبي |
| ٨٧١ | إنما جعل الاستئذان من أجل البصر | ١٣٩٢ | إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا |
| ش ٦٠ | إنما جعل الإمام ليؤتم به | ٧ | إن الله لا ينظر إلى أجسامكم |
| ش ١٥٩ | إنما الطاعة في المعروف | ٤٣٧ | إن الله يسقط يده بالليل |
| ش ١٧٥٤ | إنما صنعت ذلك لتأتوا بي | ١٧٣٧ | إن الله يفيض البليغ من الرجال |
| ش ٧١٣ | إنما فعلت هذا لتأتوا بي | ٨٠٣ | إن الله يحب أن يرى أثر نعمته |

- إنما مثل المجلس الصالح والمجلس السوء ٣٦٣
 إنما مثل صاحب القرآن كمثّل الإبل ١٠٠٢
 إنما هلك بنو إسرائيل ١٦٤٣
 إنما يلبس الحرير من لا خلاق له ٨٠٥
 إنما يلبسه من لا خلاق له ش ٨١٠
 إنما الأعمال بالنيات ١
 إنه خلق كل إنسان من بني آدم ١٢٢
 إنه طهور ش ١٢٣٥
 إنه قد بلغني أنكم تريدون ١٣٦
 إنه لم يبق من دنيّاكم إلا مثل ش ١٧٠
 إنه لم يكن من نبي قبلي إلا كان حقاً عليه ٦٦٨
 إنه لمن أهل الجنة ش ٣٩٦
 إنه لا يقتل الصيد ١٦٦
 إنه ليغان على قلبي ١٨٦٩
 إنه يستعمل عليكم أمراء ١٨٨
 إنها تعدل ثلث القرآن ١٠١٢
 إنها ستكون بعدي أثره ٦٧٠/٥١
 إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ش ٨٨
 إنه ليأتي الرجل السمين العظيم ٢٥٥
 إنه يجيء معه بمثال الجنة ش ٥٧٨
 إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش ٥٥٤
 إنهما سيدا شباب أهل الجنة ش ٨٩٣
 إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ١٥٣٧
 إنهن خمس في العقل ش ١٠٧٤
 إني أراك تحب الغنم ١٠٣٥
 إني أرى ما لا ترون ٤٠٦
 إني بين أيديكم فرط ١٨٦٠
 إني خشيت أن تفرض عليكم ش ١٥٩
 إني رأيت رسول الله ﷺ فعل كما رأيتموني ٧٦٨
 إني سألت ربي وشفعت لأمتي ١١٥٩
 إني قد رأيت الأنصار تصنع ٣٤٥
 إني كنت ركعت ركعتي الفجر ١١٠٣
 إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً ١٨٨٤
 إني لأعلم أنك حجر ما تنفع ١٦٧
 إني لأعلم كلمة لو قالها ٤٦
 إني لأقوم إلى الصلاة ٢٣١
 إني لأول العرب رمى بسهم ٥٠٠
 إني لست مثلكم ١٧٦٥
 إني والله إن شاء الله لا أحلف على عيين ١٧١٦
 إني لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت ٩٤٤
 أهرقها ٧٦٥
 أهل الجنة ثلاثة ٦٦٢
 أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل ١٧٨٨
 أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة ؟ ٢٢٦
 أو تروا قبل أن تصبحوا ١١٣٢
 أو صاني حبيبي ثلاث ١٢٥٩
 أو صاني خليلي ثلاث ١٢٥٨
 أو صاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيام ١١٣٩
 أو صيك يا معاذ : لا تدعن في دبر كل صلاة ١٤٢٢
 أو صيك بتقوى الله ش ٧١٢
 أو صيكم بتقوى الله ١٥٧
 أو فعلت ؟ ... أما إنك لو أعطيتها ٣٢٤
 أول زمرة يدخلون الجنة ١٨٨٢
 أول ما يقضى بين الناس ١٨٤٥
 أولم ولو بشاة ش ٢٦٦
 أولئك العصاة ش ١٢١٤
 أولى الناس بي يوم القيامة ١٣٩٨
 أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ١٢٠
 ألا أبئذك على ما بعثني عليه رسول الله ؟ ١٦٨٧
 ألا أعلمك أعظم سورة ١٠٠٩
 ألا تبايعون رسول الله ٥٢٩
 ألا تسمعون ؟ ٩٢٥/٥١٧
 ألا تصفون كما تصف الملائكة ١٠٨٢
 ألا تصليان ؟ ١١٦١
 ألا أخبركم بأهل الجنة ٢٥٢
 ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ١٨١٨
 ألا أخبركم بأهل النار ؟ ٦١٤
 ألا أخبركم بمن يحرم على النار ٦٤٢
 ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ١٤٤٩
 ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ١٤٤٣
 ألا أدلك على ما يجمع ذلك ١٤٩٢
 ألا أدلك على ما يمحو الله به الخطايا ١٠٣٠/١٣١
 ألا أريك برقية رسول الله ٩٠٣
 ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ١٤١٨
 ألا أن في الجسد مضغة ش ١٤٧١
 ألا إن الدنيا ملعونة ٤٧٨
 ألا إن الناس قد صلوا ١٧٤٨
 ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ١٥٥٠/٣٣٦
 ألا أنبئكم بخير أعمالكم ١٤٤١
 ألا أنبئكم ما العضة ١٥٣٨

- ألا واستوصوا بالنساء خيراً ٢٧٦ الإيمان بالله والجهد في سبيله ش ١٢٢٧
ألا كلكم مناج ربه ش ٧٠٤ الإيمان بضع وسبعون شعبة ٦٨٣/١٢٥
ألا وإن في الجسد مضغة ش ٢٣٤ الأيمن فالأيمن ٧٦٠
إلا رقماً في ثوب ش ١٥٤٤ الأيمنون . الأيمنون ش ٧٦١
أي الأعمال أفضل ؟ الإيمان بالله ١٣٥٩/١٨٨١/١١٧ الذي يشرب في آنية الفضة ١٧٩٥/٧٧٨
أي عباس ناد أصحاب السمرة ١٨٥٠ الذي يعود في هبته كالكلب ١٦١٢
أي الجهاد أفضل ؟ كلمة حق ١٩٥ الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به ٩٩٤
إياك والاتفات في الصلاة ١٧٥٦
إياكم والجلوس في الطرقات ؟ ١٦٢٣/١٩٠
إياكم والحسد ١٥٦٩
إياكم والدخول على النساء ١٦٢٨
إياكم والظن ١٥٧٣/١٥٧٠
إياكم وكثرة الخلف ١٧٢١
أسرك أن يسورك الله سوارين من نار ش ٢٣٩
أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن ١٠١٠
أعجز أحدكم أن يكسب في كل يوم ١٤٣٠
إياكم أراد أن يواصل ش ١٧٦٤
أياكم الذي صنع هذا ش ٦٠
أياكم مال وارثه أحب إليه من ماله ٥٤٥
أياكم يحب أن يكون هذا له ٤٦٤
أيا امرأة أصابت بخوراً ش ٢٣١
أيا امرأة ماتت وزوجها ٢٨٦
أيا عبد أبق فقد برئت منه الذمة ١٧٦٨
إيمان بالله = أي العمل أفضل ١٢٧٥/١٢٧٣
أين أنا ؟ أين أنا ؟ ش ٩١٠
أين السائل عن الساعة ؟ ١٨٣٧
أين المتألي على الله ؟ ٢٥٠
أين مالك بن الدخشم ؟ ١٥٢٩
أينقص إذا جف ؟ ش ٢١٨
أيتها الناس أفسحوا السلام ١١٦٦
أيتها الناس إن الله طيب ١٨٥١
أيتها الناس إن منكم منفري ش ٧٠٠
أيتها الناس عليكم بالسكينة ٧٠٥
أيتها الناس مالكم حين نابكم ٢٥١
أيتها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ١٣٢٤
الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام ش ١٠١٨
الإسلام أن تشهد ٦٠
الإسبال في الإزار والقميص ٧٩٥
الاستئذان ثلاث ٧٨٠
الإشراك بالله = ما الكبائر ؟ ١٧١٤
- بأي شيء كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل بيته ١٢٠٠
ببس الطعام طعام الوليمة ٢٦٦
بادروا بالأعمال سبعا ٥٧٨/٩٣
بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ٨٧
بادروا الصبح بالوتر ١١٣٧
بارك الله في ليلتكما ٤٤
باسم الله توكلت على الله : اللهم إني أعوذ
بك أن أزل أو أزل ٨٢
باسمك اللهم أموت وأحيا ١٤٥٨/١٤٤٦
بايعت رسول الله - النبي - ﷺ على
إقام الصلاة ١٢١٣/١٨٢
بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ١٨٦
بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه ١٥٧٤
بخ ! ذلك مال رابع ٢٩٧
بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ش ٩٩١
بسم الله تربة أرضنا ٩٠١
بسم الله .. الحمد لله . سبحان الذي سخر لنا هذا ٩٧٤
بسم الله ولجنا ش ٧٣٠
بسم الله اللهم جنبنا ش ١٣٩٦
بشروا المشائين في الظلم إلى المساجد ١٠٥٨
بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط ١٥٠٩
بعث أنا والساعة كهاتين ١٧٠
بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة ٣٢٠
بعينه بوقية ش ٦
بل أنا وأرأسه ٩١٦
بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ١٠٥٦
بلغوا عني ولو آية ش ١٨١
بني الإسلام على خمس ١٢٧١/١٢٠٦/١٠٧٥
بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة ش ٥٦
بين كل أذنين صلاة ١٠٩٩
بين التفختين أربعون ١٨٣٦
بيننا أيوب يغتسل عرياناً ٥٧٠

حرف التاء

- بينما رجل يمشي في حلة ٦١٩
 بينما رجل يمشي في الطريق ١٢٦
 بينما رجل يمشي في فلاة ٥٦٢
 البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي ١٤٠٣
 البر حسن الخلق ٦٢٤/٥٩٠
 البركة تنزل وسط الطعام ٧٤٤
 البراق في المسجد خطيئة ش ١١٩
 البصاق في المسجد خطيئة ١٦٩٣
 البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٥٩

حرف القاء

- تبلغ الحلية من المؤمن ١٠٢٥
 تجدون الناس معادن ١٥٤٠
 تجدون شر الناس ذا الوجهين ش ١٥٤١
 تحروا ليلة القدر ١١٩٢/١١٩١
 تداووا ولا تتداووا بحرام ش ٢٣١
 تداووا ولا تتداووا بمحرم ش ٩٠١
 تدني الشمس يوم القيامة من الخلق ٤٠٢
 تسحرنا مع رسول الله ﷺ ١٢٣٠
 تسحروا فإن في السحور بركة ١٢٢٩
 تسمع حي على الصلاة ؟ ١٠٦٧
 تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك ش ٢٠٩
 تصدقن يا معشر النساء ٣٢٩
 تضمن الله لمن خرج في سبيله ١٢٩٤
 تطعم الطعام ٨٤٥/٥٥٠
 تعاهدوا هذا القرآن ١٠٠٢
 تعبد الله كأنك تراه ٣٣١
 تعبد الله لا تشرك به شيئا ١٢١٢/١٢١١
 تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس ١٢٥٦
 تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس ١٥٩٣
 تعس عبد الدينار ٤٦٨
 تعوذوا بالله من جهد البلاء ١٤٧١
 تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ١٥٦٨
 تقدموا فاتموا بي ١٠٨٥
 تقوى الله وحسن الخلق ٦٢٧
 تلك عاجل بشرى المؤمن ١٦٢١
 تلك السكينة تنزلت للقرآن ٩٩٨
 تنكح المرأة لأربع ٣٦٤
 توضحوا من لحوم الإبل ش ٢٧٤
 توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة ش ٥٠٤ ، ش ٢٧٩
 توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ٤٧٤

حرف الجيم

- جئت أنا وأبو بكر وعمر ش ٤١٧
 جئت تسأل عن البر ؟ ٥٩١
 جاء إبراهيم بأم إسماعيل وابنها =
 رحم الله أم إسماعيل ١٨٦٧
 جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم ١٣٤٩
 جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ش ٦٠/١٩
 جعل الله الرحمة مائة جزء ٤٢٠
 جعلت تربتها لنا طهورا ش ٩٠١
 جعلت قرعة عيني في الصلاة ش ١١٦٠
 جوف الليل الآخر = أي الدعاء أسمع ١٥٠٠
 الجرس من الشيطان ١٦٩١
 جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ٢٣٢
 جنتان من ذهب أنيتهما ش ١٢٨٧
 الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ٤٤٥/١٠٥
 الجهاد في سبيل الله ١٣٠١

حرف الحاء

- حب إلي من دنياكم ش ٦٢٢
 حج بي مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع ١٢٨١
 حج عن أبيك واعتمر ١٢٨٠
 حجاباه النور لو كشفه لأحرقت ش ٤٤٧
 حجبت النار بالشهوات ١٠١
 حرم لباس الحرير والذهب ٨٠٨
 حرمة نساء المجاهدين على القاعدین ١٦٣٠
 حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ٧٦
 حضرت الصلاة فقام من كان قريب الدار ٧٧٤
 حق على الله أن لا يرتفع شيء ٦١١
 حق المسلم على المسلم خمس / ست ٨٩٥/٢٣٨

| | | | |
|------------------|---|------------------|--|
| ٩٩٣ | خيركم من تعلم القرآن | ١٨٥٧ | الحمي من فيح جهنم |
| ١٨٠ | الخازن المسلم الأمين | ١٣٧١ | حوسب رجل ممن كان قبلكم |
| ٣٣٥ | الحالة بمنزلة الأم | ١٣٥٢ | الحرب خدعة |
| ١٣٢٩ | الخيل معقود في نواصيها الخير | ١٧٢٠ | الحلف منققة للسلمة |
| حرف الدال | | ١٤٦٣ | الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا |
| ٧٦٤ | دخل علي رسول الله ﷺ فشرب من في السقاء | ٧٣٥ | الحمد لله الذي أطعمني هذا |
| ١٢٠١ | دخلت على النبي ﷺ وطرف السواك على لسانه | ١٣٩٢ | الحمد لله بنعمته تتم الصالحات |
| ٦٤٠ | دخلت النار امرأة في هرة حبستها | ١٣٩٢ | الحمد لله على كل حال |
| ٥٩٣/٥٥ | دع ما يريك إلى ما لا يريك | ١٣٩٣ | الحمد لله الذي هدانا لهذا للفرطة |
| ١٧٧٥ | دعوا الناس يرزق الله بعضهم | ٧٣٤ | الحمد لله كثيرا طيبا |
| ١٤٩٥ | دعوة المرء لأخيه المسلم بظهر الغيب | ١٢٥ | الحياء من الإيمان |
| ١٥٦ | دعوني ما ترككم | ٦٨٢ | الحياء لا يأتي إلا بخير / الحياء خير كله |
| ٦٣٦ | دعوه وأريقوا على بوله سجلا من ماء | حرف الخاء | |
| ٦٨١ | دعه فإن الحياء من الإيمان | ١٢٣٢ | خالفوا المجوس وفروا للحي |
| ١٩ | دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين | ١٦٤٩ | خالفوا اليهود صلوا في نعالكم |
| ٢٨٩ | دينار أنفقته في سبيل الله | ٥٣٨ | خذ ، إذا جاءك من هذا المال شيء |
| ١٤٦٥ | الدعاء هو العبادة | ١٥٥٧ | خذوا ما عليها ودعوها |
| ١٠٤١ | الدعاء لا يرد بين الأذان | ١٠٠٩ | خذوها واضربوا لي معكم بسهم |
| ٤٧٠ | الدنيا سجن المؤمن | ٧٣ | خذوها واشترطي لهم الولاء |
| ٢٨٠ | الدنيا متاع وخير متاعها | ٧٨٧ | خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط |
| ٤٦٥ | الدنيا ملعونة | ٤٩٣ | خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع |
| ١٨١ | الدين النصيحة | ١٥٣٤ | خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر |
| حرف الذال | | ٥٢٥ | خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة |
| ١١٦٤ | ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه | ١٨٥٤ | خلق الله التربة يوم السبت |
| ١٦٨ | ذاك صريح الإيمان | ١٨٤٦ | خلقت الملائكة من نور |
| ٨٨ | ذكرت شيئا من تير عندنا | ١٢٠٧ | خمس صلوات في اليوم = أفلح إن صدق |
| ١٠٤٢ | ذكرك أخاك بما يكره | ٦٦١ | خير أئمتكم الذين تحبونهم |
| ٤ | ذلك فضل الله يؤتيه | ٤٤ | خير الأسماء ما حمد وعبد |
| ١٢٥٥ | ذلك يوم ولت فيه | ٣١١ | خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه |
| ١١٤٢ | ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح | ٩٦١ | خير الصحابة أربعة |
| ٧٠٩ | ذهبت أنا وأبو بكر وعمر | ١٠٨٤ | خير صفوف الرجال أولها |
| ١٧٩٣ | الذهب بالذهب والفضة بالفضة | ٨٣١ | خير المجالس أوسعها |
| ٦٠ | الذي يتكلم يوم الجمعة والإمام يخطب | ١٨٣٩ | خير الناس للناس |
| حرف الراء | | ١٠٨ | خير الناس من طال عمره |
| ٨٢٠ | رأى رسول الله ﷺ مستلقيا في المسجد | ٥٩٤ | خير هذه الأمة بعد نبيها |
| ٨٤٦ | رأى النبي ﷺ جبريل | ١١٤٧ | خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة |
| ٨٠٧ | رأيت رسول الله ﷺ أخذ حريزا فجعله في يمينه | ١١٤٧ | خير يوم طلعت عليه الشمس يوم عرفة |
| ٨٢٢ | رأيت رسول الله ﷺ بفناء الكعبة | ٦٢٧ | خيركم خيركم لأهله |
| ٧٤٧ | رأيت رسول الله ﷺ جالسا مقعيا | ١٤٧٣ | خيركم من طال عمره وحسن عمله |
| ٧٨٣ | رأيت رسول الله ﷺ وعليه ثوبان أخضران | ٥٠٩ | خيركم قرني ثم الذين يلونهم |

- ٧٧٣ ساقى القوم آخرهم شراباً
 ١٥٥٩/٦٠ ش سباب المسلم فسوق
 ٩٧٢ سبحانه الذي سخر لنا هذا
 ٧٩٨ سبحانه الله ! لا بأس أن يؤجر ويحمد
 ١٤٢٥ سبحانهك اللهم ربنا وبحمدك
 سبحانهك اللهم وبحمدك - سبحانه الله
 ١٨٧٧/١١٤ وبحمده
 ١٤٣٠ سبحانهك وبحمدك لا إله إلا أنت
 ٦٥٩/٤٤٩/٣٧٦ سبعة يظلهم الله في ظله
 ١٤٣٦ سبق المفردون
 ١٤٢٦ سبحو قدوس
 ١٣٣٣ ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله
 ٧٦٧ سقى النبي ﷺ من زمزم فشرب
 ١٠٦ سلني
 ١٤٨٨ سلوا الله العافية
 ٣٨٨ سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟
 ٧٢٨ سم الله وكل يمينك
 ١٠٠٦ سمعت النبي ﷺ قرأ في العشاء بالثين والريتون
 ١٠٨٧ سوا صفوفكم فإن تسوية الصف
 ١٨٥٣ سبحانه وجيحان والفرات
 ١٨٧٥ سيد الاستغفار أن يقول العبد
 ١٠٢٤ ش سيماء أمتي ليست لغيركم
 ٢٦٥ الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد
 ٩٨٤ السفر قطعة من العذاب
 ٥٨٣ السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين
 ١٠٢٩/٥٨٢ السلام عليكم دار قوم مؤمنين
 ٨٥٠ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
 ٥٨٤ السلام عليكم يا أهل القبور
 ١٢٠٢ السواك مطهرة للقم
 حرف الشين
 ٢٦٦ شر الطعام طعام الوليمة
 ١٣٥٠ شهدت رسول الله ﷺ إذا لم يقاتل من أول النهار
 ٦٠ ش الشر ليس إليك
 ١٣٥٣ الشهداء خمسة
 حرف الصاد
 ٦٤٩ ش صبحكم ومساكم
 ١١٤٥ صل ركعتين
 ١٥٦/١٤٥ ش صل قائماً
 ١٨٦١ صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد
 ١٠٦٣ صلى الناس ورددوا ولم تزالوا في صلاة
 ٧٤٩ رأيت رسول الله ﷺ يأكل بثلاثة أصابع
 ٧٧٠ رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائماً
 ١٣١٨ رأيت الليلة رجلاً
 ٦ ش رأيت مع أمتي سبعين ألفاً يدخلون الجنة
 ٧٨٢ رأيت النبي ﷺ بمكة وهو بالأبطح
 ٨٢٣ رأيت النبي ﷺ وهو قاعد القرفصاء
 ٢٥٧ رُبُّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب
 ١٨٧٢ رب اغفر لي وتب علي
 ١٠٩٥ رب فني عذابك يوم تبعث عبادك
 رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا / خير
 ١٢٩٣/١٢٩٠ من ألف يوم
 ١٢٩١ رباط يوم وليلة في سبيل الله
 ٦ ش ربنا الله الذي في السماء
 ١٣٦٦ ش رحم الله امرأ سمحاً إذا باع
 ١١٢٠ رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعاً
 ١٣٦٨ رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع
 ١١٨٣ رحم الله رجلاً قام من الليل
 رخص رسول الله ﷺ للزبير وعبد الرحمن بن
 ٨١٠ عوف في لبس الحرير
 ١٠٩٢ رصوا صفوفكم وقاربوا بينها
 ٣١٧ رغم أنف ثم رغم أنف
 ١٤٠٠ رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي
 ١٠٠ ش رفع القلم عن ثلاثة
 ١١٠٢ ركعتا الفجر خير من الدنيا
 ١١٠٩ رمت النبي ﷺ شهراً وكان يقرأ في الركعتين
 ٢٢٤ ش الراحمون يرحمهم الرحمن
 ٩٥٩ الراكب شيطان
 ٦٩٨ ش الرجل راع في أهله
 ٣٦٧ الرجل على دين خليله
 ١٤٦٤ ش الرجل يطيل السفر ، أشعث
 ٣٢٣ الرحم معلقة بالعرش
 ٨٤٢ الرؤيا الصالحة من الله
 ١٧٢٨ الريح من روح الله
 حرف الزاي
 ١٣٧٥ زن وأرجح
 ١٣١٣ ش زوجتكها بما معك
 ٧١٧ زدك الله التقوى
 حرف السين
 ٤١٧ سأفعل ... أين تحب أن أصلي من بيتك ؟
 ١٨٨٣ سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الأرض ؟

| | | | |
|----------|-------------------------------------|---------------|-----------------------------------|
| ١٨٤٩ | على رسلكما إنها صفة | ١١٤٣/١١٨ | ش صلاة الأوابين حين ترمض الفصال |
| ١٤١ | على كل مسلم صدقة | ١٠٦٤ | صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ |
| ٦٦٣ | على المرء المسلم السمع والطاعة | | صلاة الرجل في جماعة تزيد - تضعف - |
| ٦٧١ | ش على المسلم السمع والطاعة في عسره | ١٠٦٥/١٠ | على صلاته |
| ٣٠٢ | علموا الصبي الصلاة لسبع | ١١٦٨ | صلاة الليل مثنى مثنى |
| ٩٧٨ | عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف | ١١٢٨ | صلوا أيها الناس في بيوتكم |
| ١٠٧ | عليك بكثرة السجود | ١١٢٢ | صلوا قبل المغرب |
| ١١٦١ | ش عليك ليل طويل | ١١١٣/١٠٩٨ | صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين |
| ٦٦٧ | عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك | ١١٧٥/١١٧٤/١٠٢ | صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة |
| ٦٩٤ | عليكم بالدلجة | ١٠٣ | صليت مع النبي ﷺ فأطال القيام |
| ١٠٣٣/١٥٩ | ش عليكم بستی | ١٢٦٠ | صوم ثلاثة أيام من كل شهر |
| ١٢٧٥ | العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما | ١٢٢١ | صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته |
| ١٢٧٨ | عمرة في رمضان تعدل حجة | ١٦٣٣ | صفغان من أهل النار لم أرهما |
| ١٣٠٥ | عينان لا تمسهما النار | ٦٠ | ش الصدقة تطفئ الخطيئة |
| ١٦١٢ | العائد في هبته كالكلب | ٦٠ | ش الصعيد الطيب وضوء المسلم |
| ١٣٦٦ | العبادة في الهرج كهجرة إلي | ١٢٨٦/١٠٧٤/٣١٢ | الصلاة على وقتها = أي العمل أفضل |
| ١٠٧٩ | العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة | ١١٤٩/١٠٥٤/١٣٠ | الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة |
| ١٦٧٠ | العيافة والطيرة | ٦٢٣ | ش صيد البر حلال لكم |
| ١٦٥٧ | ش العين تدمع والقلب يحزن | | |

حرف الغين

غزا نبي من الأنبياء : فقال لقومه : لا يتبعني رجل

| | |
|------|--------------------------------|
| ٥٨ | ملك بضع امرأة |
| ١٨٣٣ | غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات |
| ١٢٨ | ش غسل الجمعة واجب على كل محتلم |
| ١١٥٢ | غسل يوم الجمعة واجب |
| ١٨٠٨ | غير الدجال أخوفني عليكم |
| ١٦٣٧ | غيروا هذا واجتنبوا السواد |
| ١٦٥٤ | غطوا الإناء وأوكوا السقاء |

حرف الفاء

| | |
|------|--|
| ١٤٢٧ | فأما الركوع فعظموها فيه الرب |
| ٨٣٤ | ش فإن أجابوا لذلك |
| ٨٩٠ | فدنونا من النبي ﷺ فقبلنا يده |
| ١٢٣٢ | فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب |
| ١٣٨٧ | فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم |
| ٧٤٣ | فلعلكم تفرقون |
| ١٧٨٠ | ش فمن تلقى فاشترى منه |
| ٤٢ | فمن يعدل إذا لم يعدل رسول الله |
| ٨ | فوالله لأن يهدي الله بك |
| ٣٢١ | فهل لك من والديك شيء |
| ١٦٧٢ | فلا تأتهم |

حرف الضاد

ضع يدك على الذي تألم من جسدك

حرف الطاء

| | |
|--------------|-----------------------------|
| ٧٥٥ | طعام الاثنين يكفي الثلاثة |
| ٧٥٦/٥٦٥ | طعام الواحد يكفي الاثنين |
| ٧٧٢ | ش طعام طعم |
| ٣٣٣ | طلقتها |
| ٥١٣ | طوبى لمن هدى إلى الإسلام |
| ١١٧٦ | طول القنوت = أي الصلاة أفضل |
| ١٠٣١/١٤١١/٢٥ | الطهور شطر الإيمان |

حرف العين

| | |
|------|---|
| ٤٣ | ب عائشة .. من أحب الناس إليك |
| ٢٧ | عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير |
| ١٨٤٠ | عجب الله ﷻ من قوم يدخلون الجنة |
| ١٤٠٤ | عجل هذا |
| ١٦٠٠ | عذبت امرأة في هرة |
| ١١٩ | عرضت علي أعمال أمتي |
| ٧٤ | عرضت علي الأم ، فأريت النبي ومعه الرهيط |
| ٦١٨ | العز إزاري |
| ٨٥١ | عشر .. عشرون .. ثلاثون |
| ١٢٠٤ | عشر من الفطرة |
| ٧٦٥ | ش علمكم نبيكم كل شيء |

حرف الكاف

- كافل اليتيم له ولغيره ٢٦٣
 كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء ٧٨٥
 كان ابن مسعود يذكرنا كل خميس ٦٩٩
 كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ التميمي ٧٨٩
 كان إذا دعا دعا ثلاثاً ش ٢٣٨
 كان إذا غسل يديه أشرع ب ١٨٥
 كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال .. ١٠٨٠
 كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً ٨٥٣/٦٩٦
 كان إذا سلم سلم ثلاثاً ش ٧١١
 كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم ٥١٥
 كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ ١٨٣١
 كان خلق نبي الله ﷺ القرآن ١٨٤٧
 كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده ٥٤١
 كان رجل يداين الناس ١٣٧٠
 كان الرجل إذا أسلم غلقه النبي ﷺ الصلاة ١٤٦٩
 كان رسول الله ﷺ أجود الناس ١٢٢٢
 كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ٦٢١
 كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر ٩٩
 كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر
 من رمضان ١٢٢٣/١١٩٣
 كان رسول الله ﷺ إذا سافر يتعوذ من وعشاء السفر ٩٧٣
 كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده على فيه .. ٨٨٢
 كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة ١٥٥
 كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل ١١٨١
 كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل ١١٨٠
 كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه ١١٩٧
 كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر فعرس بليل ٩٦٣
 كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء ٦٨٤
 كان رسول الله ﷺ مربوعاً ٧٨١
 كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله ليلاً ٩٨٦
 كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام أيام البيض .. ١٢٦٤
 كان رسول الله ﷺ بيت الليالي المتتابعة طاروا ٥١٤
 كان رسول الله ﷺ يتحرى صوم الاثنين ١٢٥٧
 كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير ٩٧١
 كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الحان ١٠١٥
 كان رسول الله ﷺ يجتهد في رمضان
 ما لا يجتهد في غيره ١١٩٤
 كان رسول الله ﷺ يدركه الفجر وهو جنب ١٢٤٤
 كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه ١٤٤٤

حرف القاف

- فلا تعطه مالك ١٣٥٧
 في الجنة = أين أنا يا رسول الله إن قلت ؟ ١٣١٤
 فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم ١١٥٦
 فيها ما لا عين رأت ١٨٩١
 الفطرة خمس ١٢٠٣
 قاربوا وسددوا ٨٦
 قال رجل : لأتصدقن بصدقة ١٨٦٥
 قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ١٥٧٦
 قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ١٨٨١
 قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ١٦١٦
 قال الله تعالى : أنفق يا ابن آدم ٥٤٩
 قال الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين ٣٨٢
 قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي .. ١٦٨٣
 قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك مادموتني ١٨٧٨/٤٤٢
 قال الله ﷺ : أحب عبادي إلى الله ١٢٣٥
 قال الله ﷺ : أنا عند ظن عبدي بي ٤٤٠
 قال الله ﷺ : العز إزاري ٦١٨
 قال الله ﷺ : قسمت الصلاة ب ٢١٢
 قال الله ﷺ : كل عمل ابن آدم له ١٢١٥
 قال الله ﷺ : المتحابون في جلالي ٣٨١
 قبض رسول الله ﷺ في هذين ٤٩٩
 قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ٤٥٤
 قد أفلح من أسلم ٥٢٣/٥١٢
 قد جاءكم أهل اليمن ٨٨٦
 قد جمع الله لك ذلك كله ١٠٥٥/١٣٧
 قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له ٤١
 قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون ش ٢٠٠
 قد كتب الله لك ذلك ش ١٠٥٦
 قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي ٨٩١
 القرآن حجه لك أو عليك ش ٩٩٢
 قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ش ٦٠
 قفلة كفزوة ١٤٤٦
 قل : أمنت بالله ثم استقم ٨٥
 قل : ربي الله ثم استقم ١٥٨٧
 قل اللهم اغفر لي ش ١٤٦٧
 قل : اللهم فاطر السماوات والأرض ١٤٥٤
 قل : لا إله إلا الله ١٤١٤
 قمت علي باب الجنة ٤٨٩/٢٥٨
 قولوا : اللهم صل على محمد ١٠٤٧/١٤٠٦/١٤٠٥

- ٧٢٥ كان يجعل يمينه لطعامه
- ٣٥٢ كان يجمع بين الرجلين من قلى أحد
- ٧٢٠ كان يخرج من طريق الشجرة
- ٨١٥ ش كان يضطجع على شقة الأيمن
- ٦٣٧ ش كان يكره الطيرة ويحب الفأل
- ٦٠٦ كان يكون في مهنة أهله
- ١٨٥ ب كان يمسح بأذنيه
- ١٨٦٣ كان ينفخ على إبراهيم
- ١٨٢٧ كانت امرأتان معهما ابناهما
- ٦٥٦ كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء
- ١٢٨٤ كانت عكاظ ومجنة وذو الحجاز أسواقاً
- ٨٦٣ كانت فينا امرأة تأخذ من أصول السلق
- ٧٢٢ كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى الطهورة
- ٣٣٧ الكبائر : الإشراف بالله
- ٣٥١ كبر ، كبر
- ٢٣٤ ش الكبر بطر الحق
- ١٦٢٢ كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا
- ٥٢٠ كثير طيب . قل لها : لا تنزع البرمة
- ٢٩٨ كخ كخ
- ٢٩٧ ش كسب الحجام خبيث
- ١٥٥١ ش كفارة النذر إذا لم يسم
- ٢٩٤ كفى بالمرء إثماً
- ١٥٤٧ كفى بالمرء كذباً أن يحدث
- ١٢٩٤ ش كفى بيارقة السيف
- ٧٨٦ كف رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض
- ١٤٦٩ ش كل ابن آدم خطاء
- ٢٤١ كل أمتي معافى إلا المجاهرين
- ١٥٨ كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى
- ١٨١/١٧١ ش كل بدعة ضلالة
- ٧٤١/٦١٣ كل يمينك
- ٢٤٨/١٢٢ كل سلامي من الناس عليه صدقة
- ٢١٠ ش ب كل شرط ليس في كتاب الله
- ٦٠ ش كل صلاة لا يقرأ بأمر
- ٢٦٥ ش ب كل محدثة بدعة
- ١٥٢٧ كل المسلم على المسلم حرام
- ١٣٤ كل معروف صدقة
- ١٦٨٠ كل مصور في النار
- ١٢٠٣ ش كل مولود يولد على الفطرة
- ١٢٩٢ كل ميت يختم على عمله إلا الرباط
- ٢١٦ كلا إنني رأيته في النار
- ١٤٦٦ كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء
- ١٢٤٥ كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً
- ١١٤١ كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً
- ١١٠٦ كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل مثنى
- ١٢٧٠ كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة
- ٧٢١ كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن
- ١٢٣٥ كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلي
- كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى تظن أنه لا يصوم
- ١١٧٠ كان رسول الله ﷺ يفعله
- ٨٦٢ كان رسول الله ﷺ يفعل هكذا
- ٩٤٠ كان زكريا غميراً
- ٥٤٢ كان عذاباً يعثبه الله تعالى على من يشاء
- ٣٣ كان فراش رسول الله ﷺ من آدم
- ٥٠٧ كان فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف
- ٥٩٥ كان في مهنة أهله
- ٦٢٨ ش كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف
- ١٦٦٥ كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين
- ٢٠ كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصللاً
- ٦٩٧ كان كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ
- ٧٩٠ كان كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرصغ
- ٥١٩ كان الصحابة يتركون بعرق النبي
- ٧٦٤ ش كان النبي ﷺ إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع
- ١١١٠ كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر تربع
- ٨٢١ كان النبي ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق
- ٧١٩ كان النبي ﷺ في حجة الوداع راكباً على ناقته
- ٩٦٢ ش كان النبي ﷺ وجوشه إذا علوا الثنايا كبروا
- ٩٧٦ كان النبي ﷺ يحلب الشاة
- ٩٢٨ ش كان النبي ﷺ لا يزيد في رمضان
- ١١١٠ ش كان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام
- ١١٣١ ش كان النبي ﷺ يزور قباء
- ٣٧٤ كان النبي ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء
- ١١١١ كان النبي ﷺ يصلي في بيتي قبل الظهر أربعاً
- ١١١٥ كان النبي ﷺ يصلي قبل العصر أربعاً
- ١١١٩ كان النبي ﷺ يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة
- ٨١٦ كان النبي ﷺ يفعله
- ٦٠٤ كان لأبي بكر الصديق غلام يخرج له الخراج
- ٥٩٤ كان ملك فيمن قبلكم
- ٣٠ كان يتبع الدباء من الصحفة
- ٧٢٨ ش كان يتنفس في الشراب ثلاثاً
- ٧٥٧ كان يتنفس في الشراب ثلاثاً

- الكلب الأسود شيطان ش ١٠٢٠
كلكم راع وكلكم مسؤول ٢٨٣/٣٠٠/٦٥٣
كلمتان خفيفتان على اللسان ١٤٠٨
الكمة من المن ١٨٦٨
كن في الدنيا كأنك غريب ٥٧٤/٤٧١
كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا ٨٢٧
كنا إذا صعدنا كبرنا ٩٧٥
كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسمع حتى نحل الرحال ٩٦٨
كنا بآبنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة
يقول : فيما استطعت ٦٦٤
كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذن لصلاة المغرب ١١٢٥
كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ٢٦٠
كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشي ٧٦٩
كنا نرفع للنبي ﷺ نصيبه من اللبن ٨٥٤
كنا نصلي على عهد رسول الله ﷺ ركعتين ١١٢٤
كنا نعد لرسول الله ﷺ سواكه وطهوره ١١٩٨
كنا نعد هذا نقافاً على عهد رسول الله ﷺ ١٥٤١/١٦١٨
كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات ١٤٨
كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجواني ٦٤٥
كنت في المسجد فحصبني رجل ١٧٠٠
كنت مع أنس بن مالك عند نفر من المجوس ١٧٩٧
كنت نهيتكم عن زيارة القبور ٥٨١
كيف أنعم وصاحب القرن ٤٠٩
كيف وقد قيل ؟ ٥٩٢
الكيس من دان نفسه ٦٦
- حرف اللام**
- لئن عشت لأخرجن اليهود والنصارى ش ١٨٩
لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ٣١٨/٦٤٨
لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله ٩٤
لأعطين الراية غداً رجلاً ١٧٥
لأن أقول سبحان الله والحمد لله ١٤٠٩
لأن يأخذ أحدكم أحبله ٥٣٩
لأن يجلس أحدكم على جمرة ١٧٦٦
لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره ٥٤٠
لأن يلج أحدكم في يمينه في أهله آثم له ١٧١٨
لأن يهدي الله بك رجلاً ش ٨٩٩
ليكن إن العيش عيش ش ١٢١٥
لتركن سنن من كان قبلكم ش ٥٨٨
لترخفنها كما زخرفها اليهود ش ٢٥٦
لتسون صفوفكم - عباد الله لتسون ١٠٨٩/١٦٠
- لتؤذن الحقوق إلى أهلها ٢٠٤
لجميع أمتي = إلي هذا يا رسول الله ؟ ٤٣٤
لجميع أمتي كلهم ١٠٤٤
لهلك ترزق به ٨٤
لئن الله زائرات القبور ش ٩٣١
لئن الله الذي رسمه ١٦٠٨
لئن الله الراشي والمرتشي ش ١٨٦
لئن الله زوارات القبور ش ٣١
لئن الله من لئن والديه ش ١٢٠
لئن الله الواشمات والمستوشمات ١٦٤٥
لئن الله الواصلة ١٦٤٤/١٦٤٢
لئن رسول الله ﷺ أكل الربا ١٦١٥
لئن رسول الله ﷺ الرجل يليس ليسة المرأة ١٦٣٢
لئن رسول الله ﷺ الخنثين / لئن رسول الله ﷺ المشبهين ١٦٣١
لئن من غير منار الأرض ش ٢٠٦
لئن النبي ﷺ النائحة ش ١٥
لغدوة في سبيل الله أو روحة ١٢٨٨
لقاب قوس أحدكم في الجنة خير ١٨٨٨
لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ١٨٥٥
لقد أوتيت زمزماً من مزامير داود ١٠٠٥
لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يطير ش ٧٦٥
لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة ١٢٧
لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يتلوه ٤٧٣
لقد رأيت كبار أصحاب رسول الله ﷺ
يتدرون السواري ١١٢٣
لقد رأيت نبيكم وما يجد من الدقل ٤٩٥
لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن ١٦٠٣
لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ٥٠٦/٤٦٩
لقد رأيتني وإني لأخو فيما بين منبر رسول الله ﷺ ٥٠٣
لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير ١٥٢٢
لقد عذت بمعاذ ش ١٧٢٢
لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر ١٥٢٥
لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ١٥٠٤
لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت ٦٤٣
لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاماً فكنت
أحفظ عنه ٣٥٨
لقد هممت أن أمر بالصلاة ش ١٠٥٧
لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ٩١٨
لقيت إبراهيم ﷺ ليلة أسري بي ١٤٤٠
لقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة ٦٨٦

- لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة ١٣٣١
 لك ما نويت يا يزيد ٥
 لكل غادر لواء عند امته ١٥٨٦
 لكن أفضل الجهاد حج مبرور ١٢٧٦
 لكي تمتشط الشعثة ش ٩٨٨
 للعبد المملوك المصلح أجران ١٣٦٣
 للمملوك الذي يحسن عبادة ربه ١٣٦٤
 لله أشد فرحاً بتوبة عبده ١٥
 لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم ١٥
 لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها ٢١
 لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات ٤٩٤
 لم يبق من النبوة إلا المبشرات ٨٣٨
 لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث ش ٥٤
 لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد
 تعاهداً منه ١١٠١
 لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ٢٥٩
 لم يكن النبي ﷺ يصوم من شهر ١٢٤٧
 لما حضرت أحد دعاني أبي من الليل ١٥٠٧
 لما خلق الله تعالى آدم ٨٤٦
 لما خلق الله الخلق ٤١٩
 لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ١٥٢٦
 لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك تلقاه الناس ١٣٤٧
 لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ١١٠
 لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقامت ٢٠٢
 لموضع سوط أحدكم في الجنة خير ش ٣٤
 لن يزال المؤمن في فسحة ٢٢٠
 لن يغالب عسر يسرين ش ب ٧٥
 لن يبلغ النار أحد صلى ١٠٤٨
 لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد ش ١٧٧٤
 لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله ١٤٤٥
 لو أن لابن آدم وادياً من ذهب ٢٣
 لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ٧٩
 لو أن الناس يعلمون من الوحدة ٩٥٨
 لو تأخر الهلال لزدتكم ٢٢٩
 لو تعلمون ما أعلم لضحككم قليلاً ٤٤٧/٤٠١
 لو دعيت إلى كراع أو ذراع ٦١٠
 لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك ١٠٠٦
 لو راجعته ٢٤٧
 لو رحم الله أحد رحم أم الصبي ش ب ٢١٢
 لو قد جاء مال البحرين أعطيتك ٦٩١
 لو كان لي مثل أحد ذهباً ؛ لسرني ٤٦٦
 لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ٤٧٧
 لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد ٢٨٥
 لو كنت متخذاً من أمي خليلاً ش ٦٧٨
 لو لم تذبوا لذهب الله بكم ش ٨٦
 لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ٤٤٣
 لو يعلم المار بين يدي المصلي ١٧٥٨
 لو يعلم الناس ما في النداء ١٠٨٣/١٠٣٣
 لولا أشق على أمي لأمرتهم بالسواك ١١٩٦
 لولا أن أشق على أمي ش ٢٢٩
 لولا أن قومك حديثو عهد بكفر ش ٦
 لولا أن لا تدافئوا لدعوت الله ش ٦٠
 لولا أنكم تذبون ٤٢٣
 لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة ٥٨٩
 لولا ما في البيوت من النساء ش ١٠٦٦
 ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة ١٨٢٥
 ليلغ الشاهد منكم الغائب ش ٦٣٦
 ليس الشديد بالصرعة ٦٤٧/٤٥
 ليس صلاة على المنافقين أثقل منها ١٠٧٣
 ليس الغنى عن كثرة المال ٥٢٢
 ليس على أيك كرب بعد اليوم ٢٨
 ليس على المسلم في عبده ولا فرسه ١٤٥
 ليس فيما دون خمسة أواق صدقه ش ١٣٧٥
 ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال ٤٨٢
 ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ٢٤٩
 ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ١٧٣٤/١٥٥٥
 ليس المسكين الذي تردده التمرة / ليس
 المسكين الذي يطوف ٥٣٧/٢٦٤
 ليس من بلد إلا وسيطره الدجال إلا مكة ١٨١١
 ليس من رجل ادعى لغير أبيه ١٨٠٥
 ليس من شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين ٤٥٥
 ليس من البر الصيام في السفر ش ١٢١٤
 ليس منا من ضرب الخدود ١٦٥٨
 ليس منا من لم يرحم صغيرنا ٣٥٥
 ليس الواصل بالمكافئ ٣٢٢
 ليسأل أحدكم ربه حاجته ش ١٠٠
 ليسوا بشيء ١٦٦٨
 ليكونن من أمي أقوام ش ١٥٦٢
 لينني منكم أولو الأحلام والنهي ٣٥٠
 لينبث من كل رجلين أحدهما ١٣٠٩/١٧٨

- ليتنهين أقوام عن ودعهم الجمعات ١١٥٠
 لينفرن الناس من الدجال ١٨١٣
- حرف الميم**
- ما أجلسكم ؟ ١٤٥٠
 ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ١٣١١
 ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ ٤٩٧
 ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت ١٠٠٤
 ما أسفل الكعابين ففي النار ش ١٩١
 ما أسفل من الكعابين من الإزار ففي النار ٧٩٣
 ما أصبح لآل محمد صاع ٥٠٥
 ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان عن ديننا شيئاً ١٥٣٢
 ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله ١٣٠٣
 ما أكرم شاب شيئاً ٣٥٩
 ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ٥٤٣
 ما أنزل الله داء إلا أنزل ش ٩٠١
 ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء ١٧٥٤
 ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته ٢٠٥
 ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا ٦٧٨
 ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ٦٠٩/٦٠٠
 ما بقي منها ٥٥٨
 ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة ١٨١٤
 ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً .. ٤٧٥
 ما تركت بعدي فتنة أضرب ش ٨٧
 ما تركت بعدي فتنة هي أضرب على الرجال ٢٨٨
 ما تعدون أهل بدر فيكم ١٨٢٩
 ما تعدون الشهداء فيكم ١٣٥٤
 ما تعوذ متعوذ بمثلها ش ١٤٥٧
 ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى ش ٦٠
 ما تقولون في قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ١١٣
 ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ش ٥٢٧
 ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه .. ٨٣٦
 ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه ٥٧٥
 ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ش ٦
 ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا ٦٤١
 ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ٤٦٣
 ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم ٤٨٥
 ماذا تركت لأهلك ؟ ش ١٢٢٠
 ماذا خبأت لك ؟ ش ١٦٧١
- ما رأى رسول الله ﷺ النقي من حين ابتعثه الله ٤٩٦
 ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً ش ٧٠٣
 حتى ترى منه لهواته ش ٦٣٦
 ما رأيت ناقصات عقل ودين ش ٨٦٢
 ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ٣٠٣
 ما زال جبريل يوصيني بالجار ١٣٢٠
 ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها ١٤٣٣
 ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ٥٤٧
 ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا ٥٥٣
 ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ش ١٥١٠
 ما سمعت عمر ؓ يقول لشيء قط : ٧١٠
 إني لأظنه كذا إلا ٤٩١
 ما شأنك ؟ ... يا أبا هريرة اذهب بتعلي ١١٤
 ما شيع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين ٦٤٤
 ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن أنزلت ... ٨١
 ما ظنك يا أبا بكر باتنين الله ثالثهما ٧٣٦
 ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً ١٥٠١
 ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا ٣٤٤
 ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ١٥٣٠
 ما فعل كعب بن مالك ١٤٢٤
 ما في الدنيا فتنة أعظم ش ١٨٤
 ما كان الرفق في شيء إلا زانه ١٧٣٥
 ما كان الفحش في شيء إلا شانه ٢٣٩
 ما لك ولها ؟ معها سقاؤها ١٧٢٦
 مالك يا أم السائب ؟ ٧١١
 مالك يا عمرو ؟ .. أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ١٦٢٤
 ما كان قبله ١٨٠١
 ما كان الرفق في شيء إلا زانه ٤٨٦
 ما كان الفحش في شيء إلا شانه ٦٢٢
 ما لك ولا تتكلم ؟ ١٦٢٩
 ما لي وللدنيا ؟ ٥١٦
 ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ش ٧٤٥
 ما معك من الصداق ش ٦٤
 ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ١٤٠٢
 ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ١٠٤٦
 ما من أحد أغير من الله ش ١٨٦
 ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي ١٦٧١
 ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة ١٦٧١
 ما من أمير يلي أمر ١٦٧١

- ما من أنس ولا جن ش ١٠٣٤
 ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله .. ١٢٤٩
 ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ١٠٧٠
 ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون .. ٩٣٣
 ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن ٦٢٦
 ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منهما ١٢١٤
 ما من عبد تصبیه مصيبة فيقول ٩٢١
 ما من عبد يسترعيه الله ش ١٨٦
 ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل
 ليلة : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء ١٤٥٧
 ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب ١٤٩٤
 ما من عبد مسلم يصلي لله ثنتي عشرة ركعة ١٠٩٧
 ما من عبد يسترعيه الله رعية ٦٥٤
 ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله .. ١٣٣٩/١٢١٨
 ما من غازية أو سرية تخفق ١٣٤٤
 ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله
 تعالى فيه ٨٣٥
 ما من مسلم تصيبة مصيبة ش ١٦٥٧
 ما من مسلم يعود مسلماً ٨٩٩
 ما من مسلم يغرس غرساً ١٣٥
 ما من مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحنث ٩٥٢
 ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا ٨٨٧
 ما من مكلم يكلم في سبيل الله ١٢٩٥
 ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين ٩٣٢
 ما من ميت يموت إلا يندم ش ٤٠
 ما من ميت يموت فيقوم بأكيهم ١٦٦٦
 ما من نبي إلا وقد حذر أمته الأعرور الكذاب ١٨١٧
 ما من نبي بعثه الله في أمة مثلي ١٨٥
 ما من رجل يموت فيقوم على جنازته ٤٣٠
 ما من صاحب ذهب ولا ش ٦٠
 ما من مكلم يكلم في سبيل ش ٣
 ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار ١٢٧٧
 ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ٥٤٨/٢٩٥
 ما منع قوم زكاة أموالهم ش ٦٠
 ما منعك أن تصلي معنا ش ٦٠
 ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ٤٠٥/١٣٩
 ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ٩٤٥
 ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ١٠٣٢
 ما نقص علمي وعلمك من علم الله ش ١١٦٥
 ما نقصت صدقة من مال ٦٠٣/٥٥٦
 ما هذا الجبل ؟ ١٤٦
 ما هذا ؟ ما أرى الأمر إلا أعجل ٤٨٠
 ما هذا ؟ نذر ش ١٠٣٠
 ما هذا يا صاحب الطعام ؟ ١٥٨٠
 ما يجد الشهيد من مس القتل ١٣٢٣
 ما يخلف الله وعده ولا رسله ١٦٨٦
 ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة ٤٩
 ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا ٤٦٥
 ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ٣٧
 ما يضرك ١٨١٦
 ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ٢٦
 ما يمنعك أن تزورنا ٣٦٥
 ما السماوات السبع والأرضون ش ٩٧٩
 ماء زمزم لما شرب له ش ٧٧٢
 المتساiban ما قالاً فعلى البايد منها ١٥٦١
 المتشيع بما لم يعط كلابس ثوبي زور ١٥٤٩
 مثل البخيل والمنفق كمثّل رجلين عليهما جتان ... ٥٦٠
 مثل المجلس الصالح والمجلس السوء ش ٦٧٩
 مثل الصلوات الخمس كمثّل نهر ١٠٤٣/٤٢٩
 مثل القائم في حدود الله ١٨٧
 مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره ١٤٣٤
 مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ١٣٧٨
 مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ٥٩٥
 مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ٢٢٤
 مثلي ومثلكم كمثّل رجل أوقد ناراً ١٦٣
 المدينة حرام ما بين عير إلى ثور ١٨٠٤
 المرء على دين خليله ش ١٨١
 المرء مع من أحب ٣٧٠/٣٦٨/١٩
 مر رجل بغصن شجرة ١٢٧
 مرحباً بابنتي ٦٨٧
 مروا أباً بكر فليصل بالناس ٤٥٣
 مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ش ٧١٣
 مروه فليتكلم ١٥٢
 المسلم أخو المسلم لا يظلمه ٢٤٤/٢٣٣
 المسلم أخو المسلم لا يخونه ٢٣٤
 المسلم من سلم المسلمون من لسانه ١٥٦٥/٢١١
 المسلمون شركاء في ثلاث ش ٥٨٨
 مطل الغني ظلم ١٦١١
 معقيات لا يخيب قائلهم ١٤٢٠
 من ابتلي من هذه البنات بشيء ٢٦٨

- من أتى عرفاً فسأله ١٦٦٩
 من أتى كاهناً فصدقه ش ٧٢٠
 من أتبع جنازة حتى تدفن ش ١٦٨٨
 من أتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً ٩٣٠
 من أحب أن ييسر له في رزقه ش ٦٠
 من أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة ١٥٦٦
 من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ١٨٤٨
 من احتسب فرساً في سبيل الله ١٣٣٠
 من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ١٦٩
 من أحدث فيه حدثاً أو أوى ش ١٨٠٣
 من أخذ شبراً من الأرض ظلماً ١٥٠٦
 من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك ش ٧٠٥
 من ادعى إلى غير أبيه ١٨٠٢
 من استعاذ بالله فأعيذوه ١٧٢٣
 من استعملناه على عمل فكنمنا مخبطاً ٢١٥
 من أصابته فاقة فأنزلها بالناس ٥٣٤
 من أصبح منكم آمناً في سربه ٥١١
 من أصبح منكم صائماً ش ١٧٨٨
 من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه ١٣٥٨
 من أطاعني فقد أطاع الله ٦٧١
 من اغتسل يوم الجمعة ثم راح ش ١٢٣
 من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ١١٥٥
 من اقتبس علماً من النجوم ١٦٧١
 من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه ١٧١٣/٢١٤
 من اقتنى كلباً إلا كلب صيد ١٦٨٨
 من أكرم الناس ؟ ٦٩
 من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا ١٧٠٣
 من أكل من هذه الشجرة فلا يقربن ١٧٠١
 من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا ١٧٠٢
 من أمسك كلباً فإنه ينقص كل يوم ١٦٨٩
 من أنظر معسراً ١٣٧٢
 من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف ١٣٣٨
 من أنفق زوجين في سبيل الله نودي ١٢١٦
 من أهان السلطان أهان الله ٦٧٣
 من بدل دينه فاقتلوه ش ٦٠
 من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها ١٧
 من تحمل يحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ١٥٤٤
 من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله ١٠٥٢
 من ترك اللباس تواضعاً ٨٠٢
 من تشبه بقوم فهو منهم ٤٤
 من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ٥٦١
 من تعلق شيقاً وكل إليه ش ٥٦٢
 من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ١٦٢٠/١٣٩١
 من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً ٥٣٥
 من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ش ١١٤٨
 من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة ١١٤٨/١٢٨
 من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه ١٠٢٦
 من توضأ فاسبغ الوضوء ش ١٣٦
 من توضأ هكذا ١٠٢٧
 من توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت ١١٥٣
 من جر ثوبه خيلاً لم ينظر الله إليه ٨٠١/٧٩١
 من جهز غازياً في سبيل الله ١٧٧
 من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ١٣٠٦
 من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر ١١١٦
 من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ش ٢٤٦
 من حج فلم يرفث ١٢٧٤
 من حدث عني بحديث يرى أنه كذب ١٥٤٨
 من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ٦٧
 من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ١٠٢١
 من حلف بالأمانة فليس منا ١٧٠٩
 من حلف بغير الله فقد كفر ١٧١١
 من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه ١٧١٢
 من حلف على يمين بئمة غير الإسلام ١٥٥١
 من حلف على يمين ثم رأى أتقى لله منها ٧٢
 من حلف على يمين صبر ش ٥٤
 من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً ١٧١٦
 من حلف على يمين فقال : إن شاء الله ش ٢٣٩
 من حلف فقال : أنا بريء من الإسلام ١٧١٠
 من حلف فقال في حلفه : باللات ١٨٠٧
 من حمل علينا السلاح فليس منا ١٥٧٩
 من خاف أدلج ٤١٠
 من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر ١١٣٨
 من خيب زوجة امرئ مسلم أو مملوكه ١٥٨٣
 من خلع يداً من طاعة ٦٦٥
 من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه ٦٠١
 من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه ١٢٩٩
 من دعا إلى هدى كان له من الأجر ش ١٣٨٢
 من دعا رجلاً بالكفر ١٧٣٣
 من دل على خير فله مثل أجر فاعله ش ١٧٥
 من ذا ؟ أنا ؟ أنا ؟ ٨٧٧

- من ذا الذي يتألى علي ش ٢٥٢
 من ذكرني في ملا ش ١٠٢٢
 من رأى رأى الله به ش ١٨٠٨
 من رأي في المنام فسيراني في اليقظة ٨٤٠
 من رأى منكم منكراً فليغيره ١٨٤
 من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار ١٥٢٨
 من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً ١٣٠١
 من زنى زنى أهله ش ٢٥٩
 من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام ١٣٩٠
 من سأل الله تعالى الشهادة بصدق ١٣٢١/٥٧
 من سأل الناس تكثراً ٥٣٢
 من سبى الله في دير كل صلاة ١٤١٩
 من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم ش ٣٥
 من سرته حسنة وسأته سيئة ش ١٥٠٢
 من سره أن يلقي الله تعالى غدا مسلماً ١٠٦٩
 من سره أن ينجي الله من كرب يوم القيامة ١٣٦٩
 من سقى مسلماً على ظمأ ش ١٢٦
 من سلك طريقاً يلتمس به علماً ١٣٨٨
 من سلم المسلمون من لسانه ويده ١٥١٢
 من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد ش ٢٣٩
 من سئع سئع الله به ١٦٩٦/١٦١٩
 من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه ش ٢٤١
 من شهد أن لا إله إلا الله ٣١٢
 من شهد الجنائز حتى يصلى عليها ٩٢٩
 من صام رمضان إيماناً واحتساباً ١٢١٩
 من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال ١٢٥٤
 من صام يوماً في سبيل الله ١٣٤٠
 من صلى البردين دخل الجنة ١٠٤٧/١٣٢
 من صلى الصبح فهو في ذمة الله ١٠٤٩/٣٨٩
 من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله ٢٣٢
 من صلى - شهد - العشاء في جماعة ١٠٧١
 من صلى علي صلاة ١٣٩٧
 من صلى عليه ثلاثة صفوف ٩٣٤
 من صنع إليه معروفًا فقال لفاعله : جزاك الله خيراً ١٤٩٦
 من صنع إليكم معروفًا فكافوه ش ١٠٦
 من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة ١٦٨١
 من ضرب غلاماً له حدًا لم يأت ١٦٠٥
 من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ١٣٢٢
 من ظلم قيد شبر ٢٠٦
- من عاد مريضاً أو زار أخاً له ٣٦٢
 من عاد مريضاً لم يحضره أجله فقال ٩٠٦
 من عادى لي ولياً ش ٨٩٦
 من عال جاريتين حتى تبلغا ٢٦٧
 من عرض عليه ريحان فلا يرد ١٧٨٦
 من علم الرمي ثم تركه فليس منا ١٣٣٤
 من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ش ٨٧
 من عمل عملاً ليس عليه أمرنا ١٦٤٧
 من غير أخاه بذنب ش ١٥٧٩
 من غدا إلى المسجد أو راح ١٠٥٣/١٢٣
 من غسل ميتاً فكنم عليه ٩٢٨
 من غشنا فليس منا ش ١٣٠
 من غش فليس مني ش ٦٣
 من فجع هذه بولدها ١٦١٠
 من فطر صائماً كان له مثل أجره ١٢٦٥
 من فعل هذا ١٦٠١
 من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ١٣٤٣/٨
 من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة ١٢٩٦
 من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي ١٨٧٤
 من قال : باسم الله توكلت على الله ٨٣
 من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ١٠٣٩
 من قال حين يسمع النداء : أشهد أن لا إله إلا الله ١٠٤٠
 من قال حين يصبح وحين يمسي : سبحان الله ١٤٥١
 من قال : سبحان الله وبحمده ١٤٣٩
 من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده ش ٩٩٣
 من قال : لا إله إلا الله ٣٩١
 من قال : لا إله إلا الله وحده ١٤١١/١٤١٠
 من قال : لا إله إلا الله والله أكبر ٩٠٩
 من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ش ٣
 من قام رمضان إيماناً واحتساباً ١١٨٨/١١٨٧
 من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ١١٨٩
 من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد ١٥٦٣
 من قتل دون ماله فهو شهيد ١٣٥٦/١٣٥٥
 من قتل وزعة في أول ضربة ١٨٦٤
 من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ١٠١٧
 من القرآن سورة ثلاثون آية ١٠١٦
 من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ٩٩٩
 من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه ٨٣٧/٨١٩
 من القوم ؟ لهذا حج ؟ قال : نعم ١٢٨٢/١٧٩

- من كان آخر كلامه من الدنيا ش ٦٠
 من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله ١٤٢٦
 من كان حالفًا فليحلف بالله ش ٢٣٩/٧٢
 من كان معه فضل ظهر فليعد ٩٦٩/٥٦٦
 من كان عنده طعام اثنین فليذهب بثالث ١٥٠٣
 من كان في حاجة أخيه ش ٩٢٦
 من كان له ذبح يذبحه ١٧٠٦
 من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ٣٠٩
 من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا ١٥١١
 من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ٣١٤
 ٧٠٧/٧٠٦
 من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ٣٠٨
 من كانت عنده مظلمة لأخيه ٢١٠
 من الكيثر شتم الرجل والديه ٣٣٨
 من كره من أميره شيئًا فليصبر ٦٧٢
 من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفعه ٤٧
 من كل الليل قد أوتر رسول الله ١١٣٣
 من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه ٨٠٦
 من لم يتغن بالقرآن فليس منا ١٠٠٧
 من لم يجب الدعوة فقد عصى ش ١٧٢٣/٧٣٨
 من لم يدع قول الزور والعمل به ١٢٤١
 من لم يغز أو يجهز غازيًا ١٣٤٨
 من مات وعليه صوم ١٨٥٨
 من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ١٣٤١
 من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ٤١٤
 من مر في شيء من مساجدنا ٢٢٣
 من مرض أو سافر كتب له ش ١٠٦٨
 من نام عن حربه ١٥٣
 من نام عن حربه أو عن شيء منه ١١٨٢
 من نام عن صلاة أو نسيها ش ١٥٣
 من نذر أن يطيع الله فليطعه ١٨٦٢
 من نزل منزلاً ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات ٩٨٢
 من نفس عن مؤمن كربة ٢٤٥
 من نيح عليه فإنه يعذب ١٦٦٠
 من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه ١٥٩٦
 من هذا ؟ .. أبو ذر ٨٧٥
 من هذه ؟ .. أم هانئ ٨٧٦
 من وقاه الله شر ما بين لحية ١٥١٩
 من ولاه الله شيئًا من أمور المسلمين ٦٥٨
 من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ٢٢٧
- من لا يرحم لا يرحم ٨٩٣/٢٢٥
 من يأخذ مني هذا ٩١
 من يحرّم الرفق يحرّم الخير كله ٦٣٨
 من يدعوني فأستجيب له ب ٣٢
 من يرد الله به خيرًا يصب منه ٣٩
 من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ١٣٧٦
 من يضمن لي ما بين لحييه ١٥١٣
 من يضيف هذا الليلة ؟ ٥٦٤
 من يعيش منكم فسيري اختلافًا كثيرًا ش ٩٢
 من يمنعك مني ٧٨
 منهم من تأخذه النار إلى عقبيه ٣٩٩
 مؤمن مجاهد بنفسه = أي الناس أفضل ٥٩٨
 المسلمون على شروطهم ش ٥٩
 المؤمنون أطول الناس أعناقًا ١٠٣٤
 المؤمن أخو المؤمن فلا يحل لمؤمن أن يتنازع ١٧٨٠
 المؤمن القوي خير وأحب إلى الله ١٠٠
 المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر ش ٢٥٩
 المؤمن للمؤمن كالبنيان ٢٢٢
 ملأ الله بيوتهم وقبورهم نازًا ش ١٣٣
 الملائكة تصلي على أحدكم ١٠٦٢
 الميت يعذب في قبره بما نيح عليه ١٦٥٧
- حرف النون**
- نحن أولى بموسى منكم ش ١٢٥٤
 نضر الله امرأ سمع منا شيئًا ١٣٨٩
 نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ش ٢٢٥
 نعم إذا هي رأت ش ٦٨٤
 نعم = إن فريضة الله على عباده الحج ١٢٧٩
 نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر ١٣١٣/٢١٧
 نعم ... أنتوضاً من لحوم الأبل ش ٢٧٤
 نعم إن شئت ش ٧٥٤
 نعم الأدم الخلل ٧٣٧
 نعم .. بسم الله أريقك ٩٠٨
 نعم = جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ بريدة ... ٥٦٧
 نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل ١١٦٢
 نعم ، صلي أملك ٣٢٥
 نعم ، الصلاة عليهما ٣٤٣
 نعم ، لك أجر ما أنفقت ٢٩١
 نعم النساء نساء الأنصار ش ٦٨٤
 نعم اليهود والنصارى ش ١٣٩٢
 نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ٩٧

- نعوذ بالله من شرور أنفسنا ش ١٠١٢
 نفس المؤمن معلقة بدينه ٩٤٣
 نهى أن يشرب الرجل قائماً ٧٧١
 نهى رسول الله ﷺ أن تخلق المرأة رأسها ١٦٤١
 نهى رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم ١٦٠٢
 نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد ١٧٧٨/١٧٧٥
 نهى رسول الله ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً ١٧٨٤
 نهى رسول الله ﷺ أن يتزعر الرجل ١٧٩٨
 نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر ١٧٦٧
 نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى ١٧٩٤
 نهى رسول الله ﷺ أن يشرب من في السقاء ٧٦٣
 نهى رسول الله ﷺ عن اختناث الأسقية ٧٦٢
 نهى رسول الله ﷺ عن الجلالة في الإبل ١٦٩٢
 نهى رسول الله ﷺ عن حلوان الكاهن ش ٥٩٤
 نهى رسول الله ﷺ عن القرع ١٦٣٨
 نهى عن إضاعة المال ش ٥٤٤
 نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي ١٦٧٣
 نهى عن الحصر في الصلاة ١٧٥٢
 نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل اللهم اغفر لي إن شئت ٩٠٧
 نهى النبي ﷺ عن قتل الحيات ش ١٠٢٠
 نهانا رسول الله ﷺ أن نشرب في آنية الذهب ٨٠٩
 نهينا عن اتباع الجنائز ٩٣١
 نهينا عن التكلف ١٦٥٥
 النائحة إذا لم تتب قبل موتها ١٦٦٤
 الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ٣٧١
- حرف الهاء**
 هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتبس وجه الله ٤٧٦
 هذا الإنسان وهذا أجله ٥٧٧/٥٧٦
 هذا جبريل يقرأ عليك السلام ٨٥٢
 هذا حمد الله وأنت لم تحمده ٨٨١
 هذا سهيل بن عمرو ش ١٦٧٦
 هذا صريح الإيمان ش ٧١٠
 هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ٩٢٦
 هكذا كان رسول الله ﷺ يفعل ١٢٣٤
 هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ ١٧٣١
 هل تدرون ما هذا ؟ ٤٠٤
 هل تسمع النداء بالصلاة ؟ ١٠٦٦
 هل تصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ ٢٧١
 هل حضرت الصلاة معنا ؟ ٤٣٥
 هل رأى أحد منكم من رؤيا ؟ ١٥٤٦
- هل عليه دين ؟ ش ٨٨
 هلك المنتظمون ١٧٣٦
 هم منهم ش ٣٩٦
 هو اختلاس يختلسه الشيطان ١٧٥٥
 هو رزق أخرجه الله لكم ٥١٨
 هو في النار ٢١٢
 هلا كان قبل أن تأتيني ش ٢٤٧
 هي لك أو لأخيك أو للذئب ش ٢٣٩
 هي لهم في الدنيا وهي لكم في الآخرة ٧٧٧
 هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة ١١٥٧
 هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ٥٥٧/٥٠
- حرف الواو**
 وائق دعوة المظلوم ش ٥٣١
 وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً ١٧١٥
 وإذا سألت فاسأل الله ش ٥٦
 وأعلم أن النصر مع الصبر ش ب ٩٥
 وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ١٣٣٢
 وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة ش ٦٨٤
 وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ش ٢٠٥
 وإنك لن تنفق نفقة ٢٩٢
 وإنما يرحم الله من عباده ش ٦١٤
 وأول ربا أضع ش ٢٧٦
 وإيم الله لو أن فاطمة ش ٢٧٦
 وجبت ٩٥١
 وسطوا الإمام وسدوا الخلل ١٠٩٦
 وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ٧٠٢/٤٥٦
 والكلمة الطيبة صدقة ٦٩٤
 والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ٥٦٤
 والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن ١٠١١/١٠١٠
 والذي نفسي بيده لقد هممت أن أمر بحطب ١٠٦٨
 والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ١٩٣
 والذي نفسي بيده لو تدومون ١٥١
 والذي نفسي بيده لو لم تدنوا ١٨٧١/١٤٢٢
 والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته ٢٨١
 والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ٣٧٨
 والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا ١٨٢١
 والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه ١٨٧٠/١٣
 والله في عون العبد ش ١٣٧٥
 والله لتنتهين عائشة ١٨٥٩
 والله لا أسمه إلا أقصى شيء من الوجه ١٦٠٧

| | | | |
|---------|--|----------|--|
| ١٥٦٧ | لا تباغضوا ولا تحاسدوا | ش ٨٤٥ | والله لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا |
| ٨٦٦ | لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام | ٣٠٥ | والله لا يؤمن |
| ١٦٥٢ | لا تتركوا النار في بيوتكم | ش ٢ | والله ما خلأت القصواء |
| ١٧٧٧ | لا تلتقوا الركبان | ش ١١١ | والله ما الفقر أخشي عليكم |
| ١٧٧٦ | لا تلتقوا السلع حتى يهبط | ٤٩٢ | والله يا ابن أخي إن كنا ننظر إلى الهلال |
| ٤٧٩ | لا تتخذوا الضيعة | ش ٦٠ | وقت العشاء إلى نصف الليل |
| ١٣٥١ | لا تمنوا لقاء العدو | ١٨٤٣ | ولك = يا رسول الله غفر الله لك |
| ١٠١٨ | لا تجعلوا بيوتكم مقابر | ١٠٧٢ | ولو يعلمون ما في العتمة والصبح |
| ١٤٠١ | لا تجعلوا قبوري عيدًا | ١٠٢٣ | وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله |
| ٢٣٥ | لا تحاسدوا ولا تناجشوا | ب ٧١ | ومن أتاني يمشي أتته هرولة |
| ٨٤١ | لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك | ١٢٤٨ | ومن أنت ؟ |
| ٦٩٥/١٢١ | لا تحقرن من المعروف شيئًا | ش ٦٥٤ | ومن كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما |
| ١٧٠٨ | لا تحلفوا بالطواغي | ش ٧٩٦ | ومن كان في حاجة أخيه |
| ١٧٦٠ | لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام | ١٧٨٩ | ويحك قطعت عنق صاحبك |
| ١٠٩٠ | لا تختلفوا فتختلف قلوبكم | ش ١٩١ | ويل للأعقاب من النار |
| ١٦٨٤ | لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة | ش ٥٤ | ويل لمن حدث فكذب |
| ٨٤٨ | لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا | ٣٣٤ | الوالد أوسط أبواب الجنة |
| | لا تدخلوا على هؤلاء المذنبين إلا أن تكونوا | ش ٢٥٩ | الولد للفراس |
| ٩٥٥ | باكين / لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا | ش ١٨٠٢ | الولاء لحمه كالحمه النسب |
| ش ٦٠٧ | لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا | | حرف اللام ألف |
| ١٤٩٧ | لا تدعوا على أنفسكم | ش ١٧٧٤ | لا = إن ابنتي مات زوجها وقد اشتكت |
| ١٨٠٣ | لا ترغبوا عن آبائكم | ٨٨٨ | لا = الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه |
| ٨١١ | لا تركبوا الخبز ولا النمار | ٧٤٦ | لا أكل متكًا |
| ٥٣٠ | لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله | ش ١٦٣٤ | لا استطعت |
| ٤٠٧ | لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره | ش ١٠٧٠ | لا اعتكاف إلا في ثلاثة مساجد |
| ش ١٨١ | لا تسأل الإمارة | ش ٢٠٥ | لا اقدروا له قدره |
| ش ١٥٨٣ | لا تسأل المرأة طلاق أختها | ١٥٠٢ | لا إله إلا الله العظيم الحليم |
| ١٥٦٤ | لا تسبوا الأموات | ش ٩١٢ | لا إله إلا الله إن للموت لغمرات |
| ١٧٣٠ | لا تسبوا الديك | ١٧٨٢/٩٧٧ | لا إله إلا الله وحده لا شريك له |
| ش ١٧٢٦ | لا تسبوا الدهر | | لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... اللهم |
| ١٧٢٧ | لا تسبوا الريح | ١٤١٦ | لا مانع لما أعطيت |
| ١٢٩٨ | لا تستطيعونه = ما يعدل الجهاد | | لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... لا حول |
| ١٧٤٠ | لا تسبوا العنب الكرم | ١٤١٧ | ولا قوة إلا بالله |
| ١٦١٣ | لا تشتره ولا تعد في صدقتك | ١٨٩ | لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب |
| ش ١٤٤ | لا تشددوا فيشد الله عليكم | ش ٩١٦ | لا ، إني استأني |
| ش ٢٣٩ | لا تشربوا في آنية الذهب | ش ١٠٧٤ | لا إلا أن تطوع |
| ٧٥٨ | لا تشربوا واحدًا كشر البعير | ش ٢٠٨ | لا إلا فهما يؤتيه الله تعالى |
| ٣٦٦ | لا تصاحب إلا مؤمنًا | ٩٠٧ | لا بأس ، طهور إن شاء الله |
| ١٥٥٨ | لا تصاحبنا ناقة ملعونة | ١٦٣٤ | لا تأكلوا بالشمال |
| ١٦٩٠ | لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب | ١٧٤٢ | لا تبأشر المرأة المرأة |

- لا تصلوا إلى القبور ١٧٥٧
لا تصوموا قبل رمضان ١٢٢٥
لا تصوموا يوم السبت ١٧٦٣ ش
لا تضربوا إماء الله ٢٧٩
لا تظهر الشمامسة لأخيكم ١٥٧٧
لا تغضب ٦٣٩/٤٨
لا تفعل ؛ فإن مقام أحدكم في سبيل الله ١٢٩٧
لا تفعل لكن بع التمر بالدرهم ٤٠ ش
لا تقارنوا فإن النبي ﷺ نهى عن الإقران ٧٤٢
لا تقاطعوا ولا تدابروا ١٥٩١
لا تقتله فإن قتله فإنه بمنزلك ٣٩٢
لا تقل عليك السلام ٨٥٦/٧٩٦
لا تقولوا الكرم ١٧٤١
لا تقولوا للمنافق سيد ١٧٢٥
لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ١٧٤٥
لا تقولوا هذا ، لا تعينوا عليه الشيطان ١٥٦٣
لا تقوم الساعة حتى يعبد قدام الناس ١٨٦٠ ش
لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ١٨٢٠
لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ١٥١٨
لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ١٨٤٢
لا تلبسوا الحرير ٨٠٤
لا تلحفوا في المسألة ٥٢٨
لا تلعبه فإنه يحب الله ورسوله ٣٩٢ ش
لا تلعنوا بلعنة الله ١٥٥٤
لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ٢٧٩ ش
لا تنتفوا الشيب ١٦٤٦
لا تنسنا يا أخي من دعائك ٧١٤/٣٧٢
لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ٦٣٦ ش
لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ٣ ش
لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا ٢٨٧
لا توكي فيوكي عليك ٥٥٩
لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن ٩٩٧
لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا ١٣٧٧/٥٧١/٥٤٤
لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ٦٠ ش
لا صلاة بحضرة طعام ١٧٥٣
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ١٠٠٩/٦٠ ش
لا عدوى ولا طيرة ١٦٧٥
لا ، قد كنا زمن النبي ﷺ لا نجد مثل ذلك ٧٥٤
لا كرب على أبيك بعد اليوم ٢٨ ش
لا هجرة بعد الفتح ٣
- لا وجدت ، إنما بنيت المساجد لما بنيت له ١٦٩٨
لا يأكل أحدكم بشماله ٦١٣ ش
لا يأكلن أحدكم بشماله ١٦٣٥
لا يبع بعضكم على بيع بعض ١٧٧٩
لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ٥٩٦
لا يلقي أحد من أصحابي ١٥٣٩
لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل ١٢٨٧ ش
لا يتقدم أحدكم رمضان بصوم يوم ١٢٢٤
لا يتم بعد احتلام ١٨٠٠
لا يتمن أحدكم الموت ٥٨٥
لا يتمن أحدكم الموت ٥٨٦/٤٠
لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ٣٩١ ش
لا يجزي ولد والدًا ٣١٣
لا يحجمه إلا مؤمن ٣٨٠
لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا ١٧٥٠/٢٨٢
لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد
على ميت ١٧٧٤
لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر
مسيرة يوم وليلة ٩٨٩
لا يحج بعد العام مشرك ٢٠٥ ش
لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين ٨٢٩
لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ١٥٩٥/١٥٩٢
لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ١٥٩٧
لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم ١٦٢٩
لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ٩٩٠
لا يدخل الجنة قاطع ٣٣٩
لا يدخل الجنة قتات ٢٧٦ ش
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ٦١٢
لا يدخل الجنة نمام ١٥٣٦
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ١٥٧٥
لا يرث المسلم الكافر ١٠٨٠ ش
لا يرد القضاء إلا الدعاء ١٧٤٤ ش
لا يرمي رجل رجلاً بالفسق ١٥٦٠
لا يزال أحدكم في صلاة ١٠٦١
لا يزال الرجل يذهب بنفسه ٦٢٠
لا يزال الرجل يكذب ٦٣ ش
لا يزال قوم يتأخرون ١٤١ ش
لا يزال لسانك رطباً بذكر الله ١٤٣٨
لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر ١٢٣٣
لا يسأل بوجه الله إلا الجنة ١٧٢٢

- لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته ٦٨
 لا يستر عبد عبداً في الدنيا ٢٤٠
 لا يسم الرجل على سوم أخيه ش ٢٣٥
 لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح ١٧٨٣
 لا يشترين أحد منكم قائماً ٧٧٢
 لا يصومون أحدكم يوم الجمعة ١٧٦١
 لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ١١٥٤/٨٢٨
 لا يغتسل رجل يوم الجمعة ٨٢٨
 لا يغرس مسلم غرساً ١٣٥
 لا يفرك مؤمن مؤمنة ٢٧٥
 لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يتوضأ ش ٦٠
 لا يقدم أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه ١٣١٥
 لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى ١٤٤٨
 لا يقولن أحدكم : خيث نفسي ١٧٣٩
 لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ١٧٤٣
 لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ٨٢٥
 لا يكون اللعانون شفعاء ١٥٥٣
 لا يلج النار رجل بكى من خشية الله ١٣٠٤
 لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ١٨٣٤
 لا يمس القرآن إلا طاهر ش ١٨١
 لا يمش أحدكم في نعل واحدة ١٦٤٩
 لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة ٣٠٧
 لا يموت لأحد من المسلمين ثلاث من الولد ٩٥٣
 لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ٤٤١
 لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً ١٥٥٢
 لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ١٦٢٧
 لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره ٧٩٢/٦١٦
 لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ٢٣٦/١٨٣
 لا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه ش ١٠٣٤
- حرف الباء**
 يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لاتحسن تصلي ١٥٠٥
 يا أبا بطن إنما نغدو من أجل السلام ٨٥٠
 يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ ٢٦١
 يا أبا ذر إذا طبخت مرقة ٣٠٤
 يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً ٦٧٥
 يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ٩١٠
 يا أبا المنذر أتتدري أي آية من كتاب الله معك ١٠١٩
 يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ١٠٢٠
 يا ابن آدم إنك إن تبدل الفضل ٥٥٢/٥١٠
 يا ابن عوف إنها رحمة ٩٢٧
- يا أبا الأنصار كيف أخي سعد بن عباد ؟ ٥٠٨
 يا أرض ربي وربك الله ٩٨٣
 يا أم حارثة إنها جنان ١٣١٩
 يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم ١٧١
 يا أيها الناس اذكروا الله ٥٨٠
 يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ٩٧٩
 يا أيها الناس أفشوا السلام ٨٤٩
 يا أيها الناس إن منكم منفرين ٦٤٩
 يا أيها الناس إنكم لتقرأون هذه الآية ١٩٧
 يا أيها الناس إنكم محشورون ١٦٥
 يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ١٤
 يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج ١٢٧٢
 يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ١٦٥٦
 يا أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو ٥٣
 يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته ١١٤٦
 يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم ٨٦١
 يا بني عبد شمس ، يا بني كعب بن لؤي ٣٢٩
 يأتي على الناس زمان لا يبالي الرجل ش ١٨٦٠
 يأتي عليكم أويس بن عامر ٣٧٢
 يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه ٦٠٧
 يا حكيم ، إن هذا المال خضر حلو ٥٢٤
 يا رسول الله غبت عن أول قتال ١٣١٧/١٠٩
 يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله ١٦٧٩/٦٥٠
 يا عائشة إن عيني لا تنامان ١١٧١
 يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري ش ١٠١٩
 يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ١١١
 يا عبد الرحمن بن سمره لا تسأل الإمارة ٦٧٤
 يا عبد الله ارفع إزارك ٨٠٠
 يا عبد الله لا تكن مثل فلان ١١٦٣/٩٦٢/١٥٤
 يا عم قل لا إله إلا الله ش ٩١٧
 يا عمر أما شعرت أن الرجل ش ٧١٢
 يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ٦٢
 يا غلام سم الله تعالى وكل يمينك ٧٤٠/٢٩٩
 يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ش ٢٨
 يا فلان إذا أويت إلى فراشك ٨٠
 يا قبيصة إن المسألة لا تحل ٥٣٦
 يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ١٨٨٠
 يا معاذ .. ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله ٤١٥
 يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده ٤٢٦
 يا معاذ والله إني أحبك ١٤٢٢

| | | | |
|--|---------------|--|-------------|
| يا معاذ والله إنني لأحبك | ٣٨٤ | يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم | ٤٠٣ |
| يا معشر من آمن بلسانه | ش ١٨١ | يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم | ١١٦٥ |
| يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم | ٩٧٠ | يعد أحدكم إلى جمرة من نار | ١٩١ |
| يا معشر النساء تصدقن | ١٨٧٩ | يغزو جيش الكعبة | ٢ |
| يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك | ١٤٨٩ | يغفر الله للشهيد كل ذنب | ١٣١٢ |
| يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة | ٣٠٦/١٢٤ | يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق | ١٠٠١ |
| يعث كل عبد على ما مات عليه | ١١٦ | يقول ابن آدم : مالي مالي | ٤٨٣ |
| يتبع الدجال من يهود أصبهان | ١٨١٢ | يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي | ١٤٣٥ |
| يتبع الميت ثلاثة | ٤٦١/١٠٤ | يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن | ٩٢٣، ٣١ |
| يتروكون المدينة على خير ما كانت | ١٨٢٣ | يقول الله ﷻ : من جاء بالحسنة | ٤١٣ |
| يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل | ١٠٥٠ | يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم | ٤٠٠ |
| يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب | ش ٥٩٢ | يكفر السنة الماضية | ١٢٥٢/١٢٥٠ |
| يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة | ٤١١ | يكفيك الثلث | ش ب ٢١٢ |
| يجمع الله تبارك وتعالى الناس | ٢٠١ | يكون خليفة من خلفائك في آخر الزمان | ١٨٢٤ |
| يخرج الدجال في أمتي | ١٨١٠ | ينام الرجل النومة | ٢٠٠ |
| يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل | ١٨١٥ | ينزل ربنا إلى السماء الدنيا | ش ١٤٤ |
| يدخل الجنة أقوام أفقدتهم مثل أفدة الطير | ٧٧ | ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة | ش ١٩ |
| يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء | ٤٨٧ | يهديكم الله ويصلح بالكم | ٨٨٣ |
| يدني المؤمن يوم القيامة من ربه | ٤٣٣ | يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار | ٤٦٢ |
| يذهب الصالحون الأول فالأول | ١٨٢٨ | يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام | ٣٩٧ |
| يرحم الله موسى قد أودى | ٤٢ | يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار | ١٩٨ |
| يستجاب لأحدكم ما لم يعجل | ١٤٩٩ | يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله | ٩٩٢ |
| يسروا ولا تعسروا | ٦٣٧ | يوشك أن يحسر الفرات | ١٨٢٢ |
| يسلم الراكب على الماشي | ٨٥٧ | يوشك أن يكون خير مال الرجل | ش ٢٥٩ |
| يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة | ١٤٣٢/١١٤٠/١١٨ | يوشك أن يكون خير مال الناس غنم | ٥٩٩ |
| يصلون لكم فإن أصابوا فلكم | ١٨٣٨ | يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله | ٣٤٨ |
| يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين | ٢٤ | اليدين العليا خير من اليد السفلى | ٥٣١/٥٢٧/٢٩٦ |
| يظهر ذو السويقتين | ش ١٣٩٢ | | |

٣ - فهرس المجلد الثاني

| الموضوع | الصفحة | الموضوع | الصفحة |
|-------------------------------------|--------|--|--------|
| كتاب الأدب | | باب ما يقوله من حضر الطعام وهو صائم | |
| باب الحياء وفضله | ٩٧٩ | إذا لم يفطر | ١٠٥٧ |
| باب حفظ السر | ٩٨٤ | باب ما يقوله من دعي إلى طعام فنبهه | |
| باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد | ٩٨٨ | غيره | ١٠٥٩ |
| باب المحافظة على ما اعتاده من الخير | ٩٩٣ | باب الأكل مما يليه | ١٠٦٠ |
| باب استحباب طيب الكلام وطلاقة | | باب النهي عن القران بين تمرتين ونحوهما | |
| الوجه عند اللقاء | ٩٩٥ | إذا أكل جماعة إلا بإذن رفيقه | ١٠٦٣ |
| باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه | | باب ما يقوله ويفعله من يأكل ولا يشبع | ١٠٦٣ |
| للمخاطب | ٩٩٧ | باب الأمر بالأكل من جانب القصعة | ١٠٦٤ |
| باب إصغاء المجلس لحديث جليسه | ٩٩٨ | باب كراهية الأكل متكئاً | ١٠٦٦ |
| باب الوعظ والاقتصاد فيه | ١٠٠٠ | باب استحباب الأكل بثلاث أصابع | ١٠٦٨ |
| باب الوقار والسكينة | ١٠٠٧ | باب تكثير الأيدي على الطعام | ١٠٧١ |
| باب التذب إلى إتيان الصلاة والعلم | | باب أدب الشراب واستحباب التنفس | |
| ونحوهما بالسكينة والوقار | ١٠٠٩ | ثلاثاً خارج الإناء | ١٠٧١ |
| باب إكرام الضيف | ١٠١٣ | باب كراهة الشرب من فم القرية | ١٠٧٤ |
| باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير | ١٠١٨ | باب كراهة النفخ في الشراب | ١٠٧٥ |
| باب وداع الصاحب ووصيته عند فراقه | | باب بيان جواز الشرب قائماً | ١٠٧٧ |
| لسفر وغيره والدعاء له | ١٠٣٠ | باب استحباب كون ساقى القوم آخرهم | |
| باب الاستخارة والمشاورة | ١٠٣٨ | شرباً | ١٠٨٠ |
| باب استحباب الذهاب إلى العيد من | | باب جواز الشرب من جميع الأواني | |
| طريق والرجوع من غيره | ١٠٤٠ | الطاهرة غير الذهب والفضة | ١٠٨١ |
| باب استحباب تقديم اليمين في كل ما | | | |
| هو من باب التكريم | ١٠٤٢ | كتاب اللباس | |
| باب التسمية في أوله والحمد في آخره | ١٠٥٠ | باب استحباب الثوب الأبيض | ١٠٨٤ |
| باب لا يعيب الطعام واستحباب مدحه | ١٠٥٦ | باب استحباب القميص | ١٠٩٣ |
| | | باب صفة طول القميص والكم والإزار | ١٠٩٣ |

| | |
|---|--|
| باب استحباب ترك الترفع في اللباس تواضعاً ١١٠٨ | باب استحباب المصافحة عند اللقاء ١١٠٨ |
| باب استحباب التوسط في اللباس ١١٠٩ | وبشاشة الوجه ١١٦٣ |
| باب تحريم لباس الحرير على الرجال ١١١٠ | كتاب عيادة المريض وتشجيع الميت |
| باب جواز لبس الحرير لمن به حكة ١١١٢ | باب عيادة المريض ١١٦٩ |
| باب النهي عن افتراش جلود النمر ١١١٣ | باب ما يدعى به للمريض ١١٧٥ |
| باب ما يقول إذا لبس ثوباً جديداً ١١١٣ | باب استحباب سؤال أهل المريض ١١٨٠ |
| باب استحباب الابتداء باليمين في اللباس ١١١٣ | عن حاله ١١٨٠ |
| كتاب آداب النوم | باب ما يقوله من أيس من حياته ١١٨١ |
| باب آداب النوم والاضطجاع والقعود ١١١٥ | باب استحباب وصية أهل المريض ١١٨٣ |
| والجلوس والجليس والرؤيا ١١١٥ | باب جواز قول المريض : أنا وجع ١١٨٤ |
| باب جواز الاستلقاء على القفا ١١٢١ | باب تلقين المحتضر « لا إله إلا الله » ١١٨٦ |
| باب في آداب المجلس والجليس ١١٢٣ | باب ما يقوله بعد تغميض الميت ١١٨٨ |
| باب الرؤيا وما يتعلق بها ١١٣٢ | باب ما يقال عند الميت ١١٩٠ |
| كتاب السلام | باب جواز البكاء على الميت بغير ندب ١١٩٢ |
| باب فضل السلام والأمر بإفشائه ١١٣٧ | ولا نياحة ١١٩٢ |
| باب كيفية السلام ١١٤٤ | باب الكف عما يرى في الميت من مكروه ١١٩٤ |
| باب آداب السلام ١١٤٨ | باب الصلاة على الميت وتشجيعه ١١٩٥ |
| باب استحباب إعادة السلام على من تكرر لقاءه على قرب ١١٤٩ | وحضور دفنه ١١٩٥ |
| باب استحباب السلام إذا دخل بيته ١١٥٠ | باب استحباب تكثير المصلين على الجنازة ١١٩٧ |
| باب السلام على الصبيان ١١٥١ | باب ما يقرأ في صلاة الجنازة ١١٩٨ |
| باب سلام الرجل على زوجته والمرأة من محارمه ١١٥١ | باب الإسراع بالجنازة ١٢٠١ |
| باب تحريم ابتدائها الكافر بالسلام ١١٥٣ | باب تعجيل قضاء الدين عن الميت ١٢٠٣ |
| باب استحباب السلام إذا قام من المجلس ١١٥٦ | باب الموعظة عند القبر ١٢٠٥ |
| باب الاستئذان وآدابه ١١٥٧ | باب الدعاء للميت بعد دفنه ١٢٠٧ |
| باب بيان أن السنة إذا قيل للمستأذن ١١٥٩ | باب الصدقة على الميت والدعاء له ١٢٠٨ |
| من أنت فيقول : فلان ويسمي نفسه ١١٥٩ | باب ثناء الناس على الميت ١٢١٠ |
| باب استحباب تسميت العاطس إذا قال ١١٦٠ | باب فضل من مات له أولاد صغار ١٢١٢ |
| الحمد لله | باب البكاء والخوف عند المرور ١٢١٣ |
| | بقبور الظالمين |

كتاب آداب السفر

- ١٢٩٦ باب فضل انتظار الصلاة
- ١٢٩٧ باب فضل صلاة الجماعة
- باب الحث على حضور الجماعة في الصباح
- ١٣٠٣ والعشاء
- ١٣٠٥ باب الأمر بالمحافظة على الصلوات المكتوبات
- باب فضل الصف الأول والأمر بإتمام
- ١٣١٤ الصفوف الأول
- ١٣٢٠ باب فضل السنن الراتبة مع الفرائض
- ١٣٢٢ باب تأكيد ركعتي سنة الصبح
- ١٣٢٣ باب تخفيف ركعتي الفجر وبيان ما يقرأ فيهما
- باب استحباب الاضطجاع بعد ركعتي
- ١٣٢٤ الفجر على جنبه الأيمن
- ١٣٢٦ باب سنة الظهر
- ١٣٢٧ باب سنة العصر
- ١٣٢٧ باب سنة المغرب قبلها وبعدها
- ١٣٢٨ باب سنة العشاء قبلها وبعدها
- ١٣٢٩ باب سنة الجمعة
- باب استحباب جعل النوافل في البيت
- ١٣٣٠ سواء الراتبة وغيرها
- ١٣٣٢ باب الحث على صلاة الوتر
- باب فضل صلاة الضحى وبيان أقلها
- ١٣٣٦ وأكثرها وأوسطها
- باب تجوز صلاة الضحى من ارتفاع
- ١٣٣٨ الشمس إلى زوالها
- ١٣٣٨ باب الحث على صلاة تحية المسجد بركعتين
- ١٣٣٩ باب استحباب ركعتين بعد الوضوء
- باب فضل يوم الجمعة ووجوبها
- ١٣٤٠ والاغتسال لها والطيب
- ١٣٤٩ باب استحباب سجود الشكر
- ١٢١٤ باب استحباب الخروج يوم الخميس
- ١٢١٥ باب استحباب طلب الرقعة
- ١٢١٧ باب آداب السير والنزول والمبيت
- ١٢٢٠ باب إعانة الرفيق
- ١٢٢٢ باب ما يقول إذا ركب دابته للسفر
- ١٢٢٥ باب تكبير المسافر إذا صعد الثنايا
- ١٢٢٧ باب استحباب الدعاء في السفر
- ١٢٢٧ باب ما يدعو إذا خاف ناسًا أو غيرهم
- ١٢٢٨ باب ما يقول إذا نزل منزلاً
- باب استحباب تعجيل المسافر الرجوع
- ١٢٢٩ إلى أهله
- باب استحباب القدوم على أهله نهارًا
- وكرهته ليلاً
- ١٢٣٠ باب إذا رجع وإذا رأى بلدته
- ١٢٣١ باب استحباب ابتداء القادم بالمسجد
- ١٢٣٢ باب تحريم سفر المرأة وحدها
- كتاب الفضائل
- ١٢٣٤ باب فضل قراءة القرآن
- ١٢٤٥ باب الأمر بتعهد القرآن
- باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن
- ١٢٤٦ وطلب قراءته
- ١٢٥٠ باب الحث على سور وآيات مخصوصة
- ١٢٦٥ باب استحباب الاجتماع على القراءة
- ١٢٦٨ باب فضل الوضوء
- ١٢٧٧ باب فضل الأذان
- ١٢٨٥ باب فضل الصلوات
- ١٢٨٩ باب فضل صلاة الصبح والعصر
- ١٢٩٣ باب فضل المشي إلى المساجد

| | | |
|--|------|---|
| باب فضل قيام الليل | ١٣٥١ | كتاب الحج |
| باب استحباب قيام رمضان | ١٣٦٩ | باب وجوب الحج وفضله |
| باب فضل قيام ليلة القدر | ١٣٧٠ | كتاب الجهاد |
| باب فضل السواك وخصال الفطرة | ١٣٧٢ | باب فضل الجهاد |
| باب تأكيد وجوب الزكاة | ١٣٧٨ | باب بيان جماعة من الشهداء في ثواب الآخرة |
| باب وجوب صوم رمضان | ١٣٨٩ | باب فضل العتق |
| باب الجود وفعل المعروف والإكثار من الخير في شهر رمضان | ١٣٩٧ | باب فضل الإحسان إلى المملوك |
| باب النهي عن تقديم رمضان بصوم بعد نصف شعبان | ١٣٩٨ | باب فضل المملوك الذي يؤدي حق الله وحق مآليه |
| باب ما يقال عند رؤية الهلال | ١٣٩٩ | باب فضل العبادة في الهرج |
| باب فضل السحور وتأخيرها | ١٤٠١ | باب فضل السباحة في البيع والشراء |
| باب فضل تعجيل الفطر وما يفطر عليه وما يقوله بعد إفطاره | ١٤٠٢ | باب فضل العلم |
| باب أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه | ١٤٠٥ | باب فضل العلم |
| باب في مسائل من الصوم | ١٤٠٦ | باب فضل العلم |
| باب بيان فضل صوم الحرم وشعبان والأشهر الحرم | ١٤٠٨ | باب فضل العلم |
| باب فضل الصوم وغيره في العشر الأول من ذي الحجة | ١٤١٠ | باب فضل العلم |
| باب فضل صوم يوم عرفة وعاشوراء وتاسوعاء | ١٤١٠ | باب فضل العلم |
| باب استحباب صوم ستة أيام من شوال | ١٤١١ | باب فضل العلم |
| باب استحباب صوم الاثنين والخميس | ١٤١٣ | باب فضل العلم |
| باب استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر | ١٤١٣ | باب فضل العلم |
| باب فضل من فطر صائماً ، وفضل الصائم الذي يؤكل عنده | ١٤١٦ | باب فضل العلم |
| باب فضل الاعتكاف | ١٤١٧ | باب فضل العلم |
| | | باب فضل الدعاء |
| | | باب فضل الدعاء بظهر الغيب |

- باب في مسائل من الدعاء ١٥٦٤
- باب كرامات الأولياء وفضلهم ١٥٦٨
- كتاب الأمور المنهي عنها**
- باب تحريم الغيب والأمر بحفظ اللسان ١٥٩١
- باب تحريم سماع الغيبة ١٦٠٥
- باب بيان ما يباح من الغيبة ١٦٠٨
- باب تحريم النميمة ١٦١٢
- باب النهي عن نقل الحديث وكلام الناس إلى ولاية الأمور إذا لم تدع إليه حاجة ١٦١٥
- باب ذم ذي الوجهين ١٦١٧
- باب تحريم الكذب ١٦١٨
- باب بيان ما يجوز من الكذب ١٦٣١
- باب الحث على الثبوت فيما يقوله ويحكيه ١٦٣٣
- باب بيان غلط تحريم شهادة الزور ١٦٣٤
- باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابة ١٦٣٦
- باب جواز لعن بعض أصحاب المعاصي غير المعينين ١٦٤٢
- باب تحريم سب المسلم بغير حق ١٦٥٠
- باب تحريم سب الأموات بغير حق ١٦٥٧
- باب النهي عن الإيذاء ١٦٥٨
- باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابير ١٦٦٠
- باب تحريم الحسد ١٦٦٥
- باب النهي عن التجسس والتسمع لكلام من يكره استماعه ١٦٦٦
- باب النهي عن سوء الظن بالمسلمين ١٦٦٨
- باب تحريم احتقار المسلمين ١٦٦٩
- باب النهي عن إظهار الشماتة بالمسلم ١٦٧٢
- باب تحريم الطعن في الأنساب ١٦٧٢
- باب النهي عن الغش والخداع ١٦٧٣
- باب تحريم الغدر ١٦٧٥
- باب النهي عن المُنْ بالعطية ونحوها ١٦٧٨
- باب النهي عن الافتخار والبغي ١٦٧٩
- باب تحريم الهجران بين المسلمين ١٦٨١
- باب النهي عن تناجي اثنين دون الثالث بغير إذنه ١٦٨٦
- باب النهي عن تعذيب العبد والدابة والمرأة ١٦٨٧
- باب تحريم التعذيب بالنار ١٦٩٢
- باب تحريم مطل الغني ١٦٩٣
- باب كراهة عود الإنسان في هبة ١٦٩٥
- باب تأكيد تحريم مال اليتيم ١٦٩٦
- باب تغليظ تحريم الربا ١٧٠٢
- باب تحريم الرياء ١٧١١
- باب ما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء ١٧١٩
- باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية ١٧٢٠
- باب تحريم الخلوة بالأجنبية ١٧٢٥
- باب تحريم تشبه الرجال بالنساء ١٧٢٧
- باب النهي عن التشبه بالشيطان والكفار ١٧٣٠
- باب النهي عن الخضاب بالسواد ١٧٣٢
- باب النهي عن القزع ١٧٣٣
- باب تحريم وصل الشعر والوشم والوشر ١٧٣٤
- باب النهي عن نفث الشيب ١٧٣٦
- باب كراهة الاستنجاء باليمين ١٧٣٦
- باب كراهة المشي في نعل واحدة ١٧٣٧
- باب النهي عن ترك النار في البيت ١٧٣٩
- باب النهي عن التكلف ١٧٤٠
- باب تحريم النياحة على الميت ١٧٤١
- باب النهي عن إتيان الكهان ١٧٤٦
- باب النهي عن التطير ١٧٥١

| | |
|--|--|
| باب تحريم تصوير الحيوان ١٧٥٣ | باب كراهة التعكير في الكلام ١٧٨٨ |
| باب تحريم اتخاذ الكلب إلا لصيد ١٧٥٩ | باب كراهة قوله : خبثت نفسي ١٧٨٩ |
| باب كراهة تعليق الجرس ١٧٦١ | باب كراهة تسمية العنب كرمًا ١٧٨٩ |
| باب كراهة ركوب الجلالة ١٧٦٣ | باب النهي عن وصف محاسن المرأة لرجل ١٧٩١ |
| باب النهي عن البصاق في المسجد ١٧٦٣ | باب كراهة قول الإنسان في الدعاء : |
| باب كراهة الخصومة في المسجد ١٧٦٥ | اللهم اغفر لي إن شئت ١٧٩١ |
| باب نهى من أكل ثومًا أو بصلاً عن دخول المسجد ١٧٦٩ | باب كراهة قول : ما شاء الله وشاء فلان ١٧٩٣ |
| باب كراهة الاحتباء يوم الجمعة ١٧٧٠ | باب كراهة الحديث بعد العشاء ١٧٩٤ |
| باب نهى من دخل عليه عشر ذي الحجة وأراد أن يضحي عن أخذ شيء من شعره ١٧٧٠ | باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها إذا دعاها ١٧٩٦ |
| باب النهي عن الحلف بمخلوق ١٧٧١ | باب تحريم صوم المرأة تطوعًا وزوجها حاضر إلا بإذنه ١٧٩٦ |
| باب تغليظ اليمين الكاذبة عمدًا ١٧٧٤ | باب تحريم رفع المأموم رأسه من الركوع أو السجود قبل الإمام ١٧٩٧ |
| باب نذب من حلف على يمين فرأى خيرًا منها أن يفعل ثم يكفر ١٧٧٥ | باب كراهة وضع اليد على الخاصرة في الصلاة ١٧٩٨ |
| باب العفو عن لغو اليمين ١٧٧٧ | باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام ونفسه تنوق إليه وغير ذلك ١٧٩٩ |
| باب كراهة الحلف في البيع وإن كان صادقًا ١٧٧٨ | باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة ١٨٠٠ |
| باب كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله ﷻ غير الجنة ١٧٧٩ | باب كراهة الالتفات في الصلاة لغير عذر ١٨٠١ |
| باب تحريم قول شاهنشاه للسلطان ١٧٨١ | باب النهي عن الصلاة إلى القبور ١٨٠٢ |
| باب النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسيد ونحوه ١٧٨١ | باب تحريم المرور بين يدي المصلي ١٨٠٢ |
| باب كراهة سب الحمى ١٧٨١ | باب كراهة شروع المأموم في نافلة بعد شروع المؤذن في إقامة الصلاة ١٨٠٣ |
| باب النهي عن سب الريح ١٧٨٢ | باب كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة ١٨٠٣ |
| باب كراهة سب الديك ١٧٨٤ | باب تحريم الوصال في الصوم ١٨٠٦ |
| باب النهي عن قول الإنسان مطرنا بنوء كذا ١٧٨٤ | باب تحريم الجلوس على قبر ١٨٠٦ |
| باب النهي عن قول الإنسان مطرنا بنوء كذا ١٧٨٤ | باب النهي عن تجصيص القبر ١٨٠٦ |
| باب تحريم قوله لمسلم : يا كافر ١٧٨٦ | |
| باب النهي عن الفحش وبذاء اللسان ١٧٨٧ | |

| | | | |
|------|--|------|---|
| ١٨٣٤ | باب التغليظ في تحريم السحر | ١٨٠٨ | باب تغليظ تحريم إباق العبد من سيده |
| | باب النهي عن المسافرة بالمصحف إلى | ١٨٠٨ | باب تحريم الشفاعة في الحدود |
| ١٨٤٠ | بلاد الكفار | | باب النهي عن التفوط في طريق الناس |
| ١٨٤٠ | باب تحريم استعمال إناء الذهب وإناء الفضة | ١٨١٢ | وغير ذلك |
| ١٨٤٢ | باب تحريم لبس الرجل ثوبًا مزعفرًا | ١٨١٢ | باب النهي عن البول ونحوه في الماء الراكد |
| ١٨٤٣ | باب النهي عن صمت يوم إلى الليل | | باب كراهة تفضيل الوالد بعض أولاده |
| | باب تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه | ١٨١٣ | على بعض في الهبة |
| ١٨٤٤ | وتولييه غير مواليه | | باب تحريم إحداث المرأة على ميت فوق |
| | باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله ورسوله | ١٨١٥ | ثلاثة أيام |
| ١٨٤٧ | عنه | ١٨١٩ | باب تحريم بيع الحاضر للبادي |
| | باب ما يقوله ويفعله من ارتكب منهيًا | | باب النهي عن إضاعة المال في |
| ١٨٤٨ | عنه | ١٨٢١ | غير وجوه الشرعية |
| | كتاب المنثورات والملح | ١٨٢٥ | باب النهي عن الإشارة إلى مسلم بسلاح ونحوه |
| ١٨٢٥ | باب المنثورات والملح | | باب كراهة الخروج من المسجد |
| ١٩٠٤ | باب الاستغفار | ١٨٢٧ | بعد الأذان |
| | باب بيان ما أعده الله تعالى للمؤمنين | ١٨٢٨ | باب كراهة رد الريحان لغير عذر |
| ١٩٠٩ | في الجنة | | باب كراهة المدح في الوجه لمن خيف |
| ١٩١٩ | المصادر والمراجع | ١٨٢٩ | عليه مفسدة |
| ١٩٢٣ | فهرس الآيات القرآنية | | باب كراهة الخروج من بلد وقع فيها |
| ١٩٣١ | فهرس الأحاديث | ١٨٣١ | الوباء فراها منه |
| ١٩٥٩ | فهرس الموضوعات | | |

رقم الإيداع

2002/8091

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-342-065-5